Lundi - 10 - 5 - 1937

5 me Année, No. 201

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

العـــدد ٢٠١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٩ صفر سنة ١٣٥٦ — ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

بعد مؤتمر الامتيازات

الآن يبدأ الاستقلال !

كان يوم السبت أول أمس آخر أيام المؤتمر ، فغابت فى أقصى الحلوق الألسنةُ التى كانت تجادل وتقاتل للمنفعة ، وانبسطت من القلوب ألسنة معسولة كانت تجامل وتدامل للعاطفة . وجدوى المدنية على الإنسان، أنها خلقت له لسانا مع اللسان ، إذا جرح هذا ، لعق دم جرحه ذاك . وجملة القول فى المؤتمر أنه ألغى الامتيازات إلا ذيلا سينسحب فى ردهات المحاكم المختلطة اثنى عشر عاماً ثم ينقطع . ومصر التى كابدت رهق هذا النظام المهين فى الأعمال والأموال والأنفس، تدرك أن هذا الاتفاق المدنى مع الدول الممتازة ، أبلغ شانا وأبعد مدى من ذلك الاتفاق العسكرى مع الدولة المحتلة ؛ فان الاحتلال الانجليزى كان محصوراً فى ثكنتين وقلعة ، يطل من نوافذها الضيقة إطلال المتقحم الغاصب . فلا يرى إلا النظر الشزر ، ولا يسمع غير الهتاف العدو ؛ وكان وجوده الباطل تحدياً لرجولة الشعب فتيقظت فيه عواطف الوطنية والقومية والحرية ، فدافع بمواهبه حتى نضجت فيه الكفاية ، وضحى بدمائه حتى نبغت فيه البطولة. وأما الاحتلال الدولى فقد كان معتمداً على اتفاقات موروثة

ومساومات مكتوبة وامتيازات مكتسبة، فتدخل فى كل عمل، وتغلغل فى كل مكان. وأخذ على الأهلين سبل العيش وموارد الرزق فتعطلت فى نفوسهم الملكات المنشئة، وسكنت فى رءوسهم النوازى الحافزة، ورضوا من بلادهم بالنصيب الأخس ضراعة وذلة؛ وكان نظام الامتيازات الذى استتبع هذا التفاوت فى نظام الحياة، إيحاء مُلحاً بأننا دون الأجنبى فى القوة والقدرة والخلق، فخضعنا خضوع التابع، وقنعنا قنوع المحروم. وتأخرنا فى ميدان الاقتصاد بقدر ما تقدمنا فى ميدان السياسة. فاذا أنقذ الوفد بهذا الاتفاق كرامتنا من الذل، وسيادتنا من العجز، وثروتنا من الغبن، واستقلالنا من النقص، كنا أحرياء بأن نفخر بسمائنا التى لا تعبس، وبأرضنا التى لا تيبس. وبنيلنا الذى لا يُخلف

الآن يبدأ الاستقلال؛ لأن الاستقلال الصحيح أن تقول صادقاً فى وطنك: أنا السيد؛ وفى محكمتك: أنا القاضى؛ وفى أرضك: أنا المستغل؛ وفى مالك: أنا المتصرف. على أن (بَدَأَ) ليس معناها (تم)؛ وتسجيل الاستقلال عمل من أعمال الحكومة، ولكن تثبيته عبء من أعباء الشعب؛ وإذا كان المدافع عن جهته السياسية جنود الدولة، فان المدافع عن جهاته الأخرى شباب الأمة. هذه ميادينا الحيوية تعج بالجيوش الغريبة، ليس لنا من بينها جندى ولا قائد، وليس لنا من ورائها فخر ولا مغنم إنما يتنافسون ونحن الخصوم ويتقاتلون ونحن القتلى. فمن الذى يحتل هذه الميادين المغصوبة، ويغزو هذه الجيوش الغاصبة؟ وهذه طبقاتنا العاملة تفتك بنشاطها الفطرى جرائيم الجهل والفقر والمرض؛ فمن الذى ينبه عقولها بالعلم، ويشد أيديها بالمال، ويمسح على أبدانها بالعافية؟ الشباب هم الجواب عن هذين السؤالين وعن غيرهما من كل ما يخطر بالبال من مسائل الاستقلال ومشاكل البلد

ستقرأ فى (رسالة الشباب) من هذا العدد كلمة لشاب كريم يقترح فيها على إخوانه التجنيد المدنى لزحف اجتماعى عام يهاجم عوامل الضعف فى العلم والأدب والسياسة والاقتصاد والأخلاق والنظم، وجعل لهذه الغزوات الأدبية خمسة أعوام تحشد فيها الجنود وتنصب القادة وتوضع الخطط وتوزع الفرق وتعين الميادين ويتم النصر. وليس أجدى ولا أجدر فى الحال التى نحن فيها من هذه الفكرة. فقد وقفنا طويلا نقنع المكابرين أننا أمة لها وجود مستقل، ودولة لها سلطان سيد، فجر علينا هذا الوقوف أن تخلفنا عن الأشباه تخلفا لا يسوغه مجد الماضى ولا طموح الحاضر. فسبيلنا إلى اللحاق أن نتهالك فى السير لا نتراخى ولا نتريث، نبصر هدانا على رأى الشيوخ، ونحمل ضعفنا على قوة الشباب. ونستمد حوافزنا من الذكرى، ونرسل مطامعنا مع الأمل.

هذا الاقتراح طبيعى تقتضيه الحال بعد أن فرغنا من الانجليز بمعاهدة الزعفران، ومن الدول باتفاق مونترو، فلم يبق ما يشغل الرءوس والأيدى إلا أمورنا الداخلية، ومشاكلنا الاجتماعية. فكيف السبيل إلى تحقيق هذا المقترح؟ أنكتفى بجهاد الطلاب من الشباب فى أوقات الفراغ وأيام العطلة، يزورون المدن ويرودون القرى فيثقفون العامل ويعلمون الفلاح وينفثون من روحهم الوثابة حياة فى النفوس، وصحة فى الجسوم، ويقظة فى المدارك؟ أم نؤلف فرقا دائمة من الشباب المتخرج يكون فيها المعلم والطبيب والمهندس والزراعى والواعظ، فيسيرون بعتادهم وخيامهم (روادا) يغشون القرية بعد القرية. يدرسون أحوالها، ويكشفون أدواءها، ويعالجون كل شيء بما يساعد على صلاحه، أو يعين على نجاحه؟ أم نعبئ جيشاً سلمياً نظامياً من المتعلمين المتعطلين نُعدهم إعداداً خاصا للدعاية والارشاد والدفاع، ونمدهم بالكفاف من المال، ونجعل بعضهم مع الزراع، وبعضهم مع العمال، وبعضهم مع الطلبة، يروضون جسومهم على الدفاع المنظم، ونفوسهم على الخلق الصالح، وأيديهم على الانتاج الصحيح؟ ثم ماذا تكون صلة هذه الفرق بالحكومة والأمة؟ لمن القيادة؟ على من النفقة؟ أللحكومة؟ أعلى الأمة؟ أم لها وعليهما معا؟

ذلك اقتراح جدير بأن يقلَّب فيه الرأى ويُحكم له التدبير؛ وقد عرضه صاحبه هناك وعرضناه نحن هنا لنستعين على تمحيصه بأقطاب الرأى، وعلى تنفيذه بأرباب العزيمة.

احمد حسن الزيات

الذى نعمــــله

للأستاذ عباس محمود العقاد

جاءتنى من الأديب صاحب الامضاء رسالة يقول فى ختامها :

« . . . قد رأيت بما لى من حق طالب العلم على أستاذه أن أطلب إلى سيدى الأستاذ أن يتبع هـذا المقال بنفحة أخرى تبين لنا ما نعمله لنبلغ من أمرنا ما نريد ، وأرجو ألا يعتبر منى هـذا اقتراحا أو ما فى معناه ، وإنما هو محض استزادة من خير علمك العميق النظيف . . . . . »

احمد حنفى نصار القوصى

***

وهذا سؤال حقيق بأن يسأل ، وكنت أود أن يسأل ، فهو حقيق بأن يجاب

وجوابى للأديب أن حاجتنا الكبرى إنما هى أن نعلم كيف نريد لا أن نعلم كيف نعمل . فاذا أردنا عملنا ؛ وكل مريد عامل وعارف بوسيلته إلى إنجاز مراده

مضى زمن والناس يتحدثون عن الارادة والعمل كأنهما قدرتان مفصولتان ، وعن العاطفة والفكر كأنهما شيئان لا يتلاقيان ، وعن الخيال وفهم الواقع كأنهما ملكتان نقيضتان ، إلى آخر ما يفرقون ويقابلون بين ملكات الطبائع وخصائص الأذهان . وهذا خطأ فى تصوير الحقائق يتبعه لا محالة خطأ فى تصوير العلاج والاصلاح

ليست الارادة والعمل ولا غيرهما من الملكات والطبائع خطين متلاحقين يبدأ أحدهما عند نهاية الآخر ، أو جسمين متحيز ين لا يجتمعان فى مكان واحد ، وإنما هما مظهران من قوة النفس يصدران عن معين لا يتجزأ ولا ينفصل بالحدود والمعالم . فاذا امتلأت النفس بالقدرة على الارادة فقد امتلأت بالقدرة على العمل فى وقت واحد وفى صورة واحدة ؛ ولن يفشل الفاشل فى عمله ـ وقد تهيأت للعمل أسبابه ـ إلا لأنه ناقص الارادة

أورأيت إلى الناس وهم يطلبون السيادة ولا يبلغها منهم إلا قليل ؟ ما بال قوم منهم يبلغونها وأقوام ينكلون عنها خاسئين ؟

إنما يبلغها من بلغ لأنه أرادها ولم يرد غيرها . فهو سيد وإن تراخى الزمن دون الاقرار له بالسيادة ؛ وهو سيد لأنه لن يكون عبداً وإن أخطأته الذرائع إلى حين

أما الذى يبغى أن يسود ولا يأبى أن يكون عبدا فأين هو من إرادة السيادة ؟

وأما الذى يبغى أن يسود ولا يختلف عنده مقام السيد الرفيع ومقام العبد الذليل فأين هو من إرادة السيادة ؟

وأما الذى يبغى أن يسود ويحسب أن الناس يسودونه قبل أن يسود عليهم فأين هو من إرادة السيادة ؟

قل إنه يتمنى أن يسود ، أوقل إنه يحلم بأن يسود ، أو قل إنه لا يكره أن يسود ؛ فأما أنه يريد فمعاذ الارادة أن تجتمع ونقيضها فى عزيمة واحدة ؛ ومعاذ الارادة أن تجتمع ولا يتبعها عمل ولا يتبع العمل نجاح .

لماذا لا نعمل ؟ لأننا لا نريد ؛ ولماذا لا نريد ؟ لأن زادنا من الحس والوعى والخيال قليل

ومع هذا نحن لا نُزهى بشىء كما نزهى بفرط الحس وفرط الوعى وفرط الخيال . . فهل رأيت إلى بعد ما بين الحقيقة والدعوى ، وبعد ما بين وصف الداء ووصف العلاج ؟ !

املأ النفس بالحس والوعى والخيال تملأها بالحركة والارادة غير منفصلين . وانظر إلى الطفل الدارج لماذا لا يهدأ ؟ ألانه قرأ الفصول والمباحث فى فضل الحركة والنشاط ؟ ألأن أحداً أمره أو أحداً أغراه ؟ كلا ! ولكنه يتحرك وينشط لأنه شبعان من الحس شبعان من ارادة العمل الذى يهواه . ولو سبب غير ذلك دعاه إلى الحركة والنشاط لما استجاب . إذا أحسسنا لم نصبر على الركود ، وإذا نفضنا الركود فماذا أمامنا غير الحركة والعمل ؟ وماذا أمامنا غير الظفر والفلاح ؟

لننس كل النسيان وأشد النسيان أننا ـ معاشر الشرقيين

قوم مصابون بفرط الحس والوعى والخيال . فاننا لأبرأ الناس من هذا المصاب إن كان مصاباً . وإننا لأحوج الناس إلى هذا الشفاء ، وهو شفاء

وآية ذلك أن نسأل كم عدد المعبرين عن الحس والخيال فى الشرق كله ؟ وكم عدد هؤلاء فى أمة واحدة من أمم الدنيا المريدة العاملة ؟

كم فى أمة واحدة من أمم الدنيا المريدة العاملة السيدة الأيدة من مصورين ومثالين ؟ وكم فيها من موسيقيين ومنشدين ؟ وكم فيها من ممثلين ومخرجين وكتاب روايات وشعراء وأدباء ؟ وكم فيها من متاحف وتماثيل ؟ وكم فيها من باعة أزهار وأساتذة تجميل ؟ وكم فيها من مغامرين مقاديم يبيعون الواقع بالخيال ، ويستغنون عن الممكن الميسور بما يلوح للعاجزين كأنه محال؟

كم من هؤلاء فى أمة واحدة وكم منهم فى الشرق كله هذا الزمان وأخشى أن أقول فى جميع الأزمان ؟

إن لم تكن الحقيقة أن الشرق مسكين غاية المسكنة مدقع غاية الادقاع فى ازواد الحس والخيال ، فالأسطورة الكبرى ولا ريب هى أنه مسرف فى حسه وخياله ، مفرط فى شطحاته وآماله .

فما بالنا نحار كيف نعمل ، وأولى بنا أن نحار كيف نحس ونتخيل ؟ وما بالنا ننشد أسباباً للحركة والعمل غير أن نملأ نفوسنا بالاحساس كأنما هذا وحده غير كاف ؟ وكأنما نحتاج بعد الاحساس إلى مزيد ؟

إن الانسان ليثور من السخط والغضب حين ينظر إلى فقرائنا العجزة المعدمين وهم يتيهون من الغنى الموهوم ، ويتغطرسون بالثراء المعدوم . واسمعهم يتغنون بالحب مثلا والحب فيض فى الشعور واتساع فى آفاق الوجدان ؛ واسمعهم يتغنون به وهو صنوف صنوف لا تنحصر فى معنى واحد ولا فى نمط فريد : حب الناشئين غير حب الكهول ، وحب التفاهم والتعاطف غير حب المتع والشهوات ، وحب المرأة المطواع اللعوب غير حب المرأة العصية الشموس ، وحب المنكوب اللاجىء إلى حرم العاطفة غير حب السعيد الناعم بما فى يديه ، وحب الواثق غير حب المرتاب ، وحب الوسيمة القسيمة غير حب الرشيقة الظريفة ، وحبك الأول غير حبك بعد تجربة ومراس ، وصنوف غير ذلك تتعدد بعداد الرجال والنساء وعداد الأحيان والأعمار والمناسبات .

اسمعهم يتغنون بهذه العاطفة الشاملة الداوية العميقة الرحيبة التى لا عداد لها بالألوان وان عدت باللفظ فى كلمة واحدة ، وقل لى ماذا تسمع غير نغمة واحدة معروضة فى شتى أساليب ؟ ماذا تسمع غير أن حبيبة هاجرة أبدا وحبيبا سيموت أبدا وفوق ذلك قطرات هنا من دموع وشهقات هناك من أنين ؟

ودع هذا واسمع المنشد أو المنشدة لا يكادان يفرغان من نغمة مبدوءة حتى يتبعهما ضجيج وزعيق وقرع وخبط وتصفيق كله نشوز واختلاط ومنافاة أبعد المنافاة لسماع الألحان والأنغام . وقل لى : هل تصدق أن هؤلاء السامعين يستمعون إلى موسيقى ويصغون إلى فن وينعمون بتعبير جميل وتنسيق لا يطيق الاختلال ؟

فأما الموسيقى والنشوز والخبط والزعيق فمحال أن يجتمع هواها فى أذن واحدة فى لحظة واحدة ؛ وأما الذى يجتمع مع النشوز والخبط والزعيق فهو تخبط الجسد المحموم بحمى البهيمية لا تمييز فيه ولا ذوق ولا خيال

علم الله ما أصغيت إلى جمع من هؤلاء الناعقين الناهقين ولا توسمت ما يزهون به من « حساسة » وظرافة الا تلمست فى يدى موضع السوط ألهب به تلك « الحساسة » وأطير به تلك « الظرافة » وأثبت لهم بالسوط وحده - ولا اثبات بغيره لأمثال هؤلاء - أنهم بلداء بلداء بلداء ، وانهم يغثون النفوس من فرط كونهم بلداء غارقين فى بلادة لا تفيق

* * *

لا يا أساة الشرق الحزين والمشفقين عليه !

داووه من نقص الاحساس لا من فرط الاحساس ؛ وداووه من ضنانة الخيال لا من سرف الخيال

وعلموه أن يحس تعلموه أن يريد ؛ ومتى تعلم أن يريد فلا حاجة به وراء ذلك إلى تعليم

ولقد يسأل السائل من جديد: ومن لنا أن تثبت فيه الحس المأمول؟ وجواب ذلك سهل فى التعبير، ولا أزعم أنه سهل فى الانجاز والتحقيق

جواب ذلك ان الحس لا يخلق خلقاً ولكنه يتعهد بالحث والايقاظ إن أصابه جمود ورانت عليه ثقلة الكسل والجثوم وليس أنجع فى الحث والايقاظ من تصحيح الأجسام وتصحيح الأذواق: تصحيح الأجسام بالرياضة الصالحة القوية، وتصحيح الأذواق بالفنون الجميلة الرفيعة؛ ومن صح جسده وحسن ذوقه فلن يفوته الشعور بما حوله؛ ومن شعر بما حوله فماذا يبقى له إلا أن ينشط ويعمل، وإلا أن يريد وينجز ما يريد؟

عباس محمود العقاد

جلسة عائلية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

« عمى..! »

فلم أجب، ولم ألتفت، فكأن النداء كان لغيرى، ومضيت فى كلامى مع صاحبتى، وكان الهواء طول النهار راكداً، والحر شديداً، ثم بدأ الجو يطيب، والجلسة تحسن، فى هذه الصحراء النائية التى لم يكن يخطر لى أن يهجم على أحد فيها من أهلى.

« عمى... »

فأبيت أن أشعر أن النداء لى؛ فقالت صاحبتى: « ألا تسمع؟ » ولم يكن ثم شك فى أني أنا العم المقصود، فقلت: « سامع، وفاهم... »

« عمى. أنت هنا؟ من الصبح أناديك »

فوقفت — فما بقى من هذا بد — والتفت إلى الصغيرة التى بح صوتها وقلت: « هل سمعتك تنادين عمك؟ »

قالت: « طبعاً.. لى نصف ساعة وأنا أفعل ذلك »

قلت: « هل تريدين منى أن أبحث لك عنه؟.. أناديه معك؟ انصوتى مع الأسف خافت. خفيض جدا... لا يذهب إلى أكثر من متر. يصلح للهمس فقط. فى الأذن »

فضحكت الصغيرة وقالت: « ماذا تقول ياعمى؟ لماذا تتكلم هكذا؟ »

قلت: « عمك؟ أنا؟ أنا عمك؟ ».

قالت: « بالطبع.. ألا أعرف عمى؟ » وضحكت.

قلت: « واثقة؟ ».

قالت وهى لا تزال تضحك وقد راقها كلامى: « جدا ».

قلت: « ولا شك عندك؟ »

قالت: « أبدا ».

قلت: « ولا رغبة فى الشك؟ »

قالت: « كلا ».

قلت: « يعنى أن لى أخاً أنت بنته فانا عمك؟ »

قالت: « آه ».

قلت: « بهذه السهولة؟ بلا تردد أو مناقشة أو بحث؟. وا أسفاه! ألحق أن روح البحث العلمى ينقص الجيل الجديد »

قالت: « ماذا تعنى؟ »

قلت: « يابنت أخى — أظن أنه لا شك عندك فى هذا — إن الذى أعنيه هو أن المسألة تحتاج إلى تمحيص قليل، وأن التسليم بهذه السهولة ليس من أخلاق العلماء. تفضلى واجلسى فان الجلوس أعون على البحث السديد ».

فجلست وطلبت لها شيئاً من عصير البرتقال. فهو خير ما يشرب فى هذا المكان وفى مثل ذلك الجو وعرفتها بصاحبتى ثم قلت لها:

« نعود الآن إلى عمك »

فقالت: « ماله؟ »

قلت: « لا شىء به. كان الله فى عونه. هل تعرفين ابن الرومى؟ »

فابتسمت صاحبتى وقالت الصغيرة « ابن ال؟ ابن إيه؟ »

قلت: « مسكين ابن الرومى! ألم تسمعى به قط؟ »

قالت: « لا.. أبداً.. أين هذا؟ »

قلت: « مات من زمان ».

قالت: « وكيف أعرفه وقد مات من زمان؟ »

قلت : « صدقت . الذى يموت لا يعرفه أحد . يكون ذنبه على جنبه . خازوق ! »

قالت : « ما هو ؟ »

قلت : « ان يموت . . أ . . أ . . إن ابن الرومى مات »

وقالت صاحبتى : « دع الموت والموتى بالله . حسبك الأحياء فاركبهم بما شئت من هزلك »

وقالت الصغيرة : « من هو ابن الرومى ياعمى ؟ . إني أراك تعطف عليه »

قلت : « صحيح . . مسكين ، . ابن الرومى هذا ياستى كان رجلا له لحية . . كان ينبغى أن يظل وجهه أمرد ، أملس ناعما فقد كان جميلا فى صباه ، ولكنه كان مع الأسف رجلا ، والرجال مصابون باللحى . . آه لو كانت اللحى تنبت للنساء ! ولكن الله أعفاكن من هـذا البلاء . . ومن حسن حظ ابن الرومى ـ أو من سوء حظه ، لا أدرى ـ أن الناس فى زمانه كانوا لا يحلقون لحاهم كل يوم كما نفعل نحن تقليداً لكن يابنات حواء . . غريب ! ينفر الرجال من مظاهر الرجولة ويدأبون على محوها كل يوم ! . . . ولا نرى المرأة تحاول أن تكون لها لحية كالرجل ! . . لاتخافا فلست أنوى أن ألقى محاضرة عليكما . ولكنه يخطر لى الآن أن من غير المقبول من الرجل أن يتجمل ويحاكى المرأة ويحاول منافستها فى مزيتها فهل هذا ياترى تخنث منه ؟ أم هو من الرغبة فى أن يتسلح للنضال بكل سلاح ؟ . . ماعلينا ! . . فلنرجع إلى ابن الرومى : كان هذا ياستى ذا لحية خفيفة قليلة الشعرات ، ولكنها لحية على كل حال ؛ وكان يأسف لأن « السيفتى ريزور » — آلة الحلاقة الحديثة — لم تكن قد اخترعت فى زمانه . . »

فقالت الصغيرة محتجة : « ياعمى ماهذا الكلام ؟ . . كيف يمكن أن يأسف على شىء لم يكن يعرف أنه سيكون ؟ »

قلت : « والله ذكية ياملعونة ! . . نهايته . . الحق معك . . فهل الأصح أن أقول إنه لم يكن يأسف على عدم اختراع السيفتى ريزور ؟ . . سيان ؟ . . هيه ؟ . وكان ياستى يخاف من البرد جداً ، فكان إذا دخل الحمام ـ أعنى إذا أراد أن يستحم ـ يوقد فيه النار ليضمن لنفسه الدفء حين يكون فيه ويملأ الطشت بالماء الساخن ، ويعد الليف والصابون النابلسى الجيد ـ أم ترى هذا لم يكن معروفاً ؟ . . لا بأس ـ ويطلق البخور ثم يدخل متوكلا على الله ، متوسلا إليه تعالى أن يحرسه فى الحمام ، وأن يخرجه منه بخير وسلام . . »

فقالت الصغيرة : « أكان يخاف إلى هذا الحد ؟ . . لماذا ؟ مم كان يخاف ؟ »

قلت : « أوه ، لا أدرى ! . يظهر أن كلباً كلباً ـ مسعوراً ـ عضه فى طفولته ولم يشف قط ، أو لم يشف تماماً . . كووه بالنار أو لا أدرى ماذا فعلوا به . . ولكنه لم يشف »

فقاطعتنى سائلة : « صحيح ياعمى ؟ . . مسكين ! »

قلت : « لا أدرى . . هذا تخمين . . وإلا فلماذا كان يخاف من الماء كل هذا الخوف حتى ليقول :

وأيسرُ إشفاقى من الماء أننى أمرُّ به فى الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب
فكيف بأمنيه على نفس راكب ؟

فقالت صاحبتى : « ياشيخ حرام عليك ! . . اتق الله ! . . لا تصدقيه »

فتلفتت الصغيرة منها إلىَّ ، ثم قالت بعد تردد : « هل كان شاعراً ؟ »

قلت : « لا . . لم يكن شاعراً . . وإنما كان يغنى فى الحمام فيخرج الكلام موزوناً وهو لا يدرى . . ولكن الناس لا يتركون أحداً مرتاحاً . . ويظهر أن بعضهم كان يسترق السمع وراء باب الحمام ، ويقيد كل مايسمعه من ابن الرومى وهو يغنى نفسه ويتسلى فى الحمام . ثم جمع كل ماسمعه ، ودفعه إلى الناس وقال هذا شعر ابن الرومى . ، الناس ملاعين . . أشقياء . . لايدعون أحداً مرتاحاً . . الرجل كان يسلى نفسه فى الحمام فمالهم هم ؟ . . إيه ! . . هكذا الناس يحشرون أنفسهم فيما لا يعنيهم . . فضول ورزالة . . نهايته . . وكان مما يغنى به وهو ينظر فى المرآة إلى لحيته ، ويمشط شعراتها القليلة ويفتل أطرافها لتكون كالقلم الرصاص المبرى هذا البيت :

أصبحت شيخا له سَمْتٌ وأبهة
يدعونى الغيد عما ـ تارة ـ وأبا

كان يتحسر على شبابه، ويأسف لأنه صار ذا لحية .. ويظهر أن الغيد الحسان من أمثالكن يغلطن فتارة يقلن له ياعمى، وطوراً يقلن له يا أبى .. غريب ألا يعرفن أهو أب لهن أم عم؟ .. ولكنك أنت لا تغلطين .. أنا عمك فقط .. متأكدة أنى لست أباك أحياناً؟»

فقالت صاحبتى: «أعوذ بالله منك!»

وقالت الصغيرة: «متأكدة جداً .. عمى بالطبع. كيف يمكن أن تكون أبى؟»

قلت: «معقول ألا تغلطى .. لسببين: الأول أنى لا أرسل لحيتى كما كان ابن الرومى مضطراً أن يفعل لأن الله خلق السيفتى ريزور فى زمانى والحمد له، أعنى لله، بالطبع، لا للموسى؛ والثانى أن أباك المحترم مقبل علينا يتهادى فى مشيته .. أحسبه يفخر بأن له بنتاً مثلك .. له الحق!»

وجاء الأخ الفاضل وقت بواجب التعريف الذى لا مهرب منه، واتضح لى — بعد أن تجشمت عناء القيام بهذا الواجب انه كان يسعنى أن أريح نفسى، فقد سبق لأخي أن عرف صاحبتى فى بيتنا.

وجلسوا. وجلست وأنا أتنهد وأنظر إلى صاحبتى وأقول:

«معذرة. ليس هذا ذنبى. وأنت ذكية، وتستطيعين أن تدركى بسهولة أنه لا مهرب من الأهل. لقد جئنا إلى آخر الدنيا من ناحية الشرق، ولو أنصف الزمان لذهب أخى الفاضل إلى آخر الدنيا من ناحية الغرب مثلا، أو الجنوب أو الشمال؛ ثلاث جهات كان يمكنه أن يذهب اليها، ولكن جاذبية الدم تصرفه عن الجهات الثلاث وتدفعه إلى هذه الجهة فيدركنا ويملأ علينا الدنيا، ويشعرنا بأنها فى الحقيقة أصغر مما كنا نظنها. ويؤنسنا طبعاً. أظن أن فى وسعنا أن نغتفر له هذا من أجل بنته، من أجل عينيها اللتين وقعتا على بسرعة البرق، نصفح عن أبيها ونرحب به. تعال يا جرسون والأمر لله. وحسبى الله»

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى تبويب الكتب

للدكتور محمد عوض محمد

لقد تجرى فى حياتنا الأدبية الهادئة حادثات ونوادر طريفة تستحق أن تُسجَّل وتُثْبَت؛ ومن ذلك هذه الرسالة التى كتبها صديقنا الأديب إسماعيل بن زيد إلى صديقه الفاضل الأستاذ طه حسين، مُستَفتِياً ومداعباً

وصاحبنا إسماعيل يزعم أنه قد تكدّست لديه المؤلفات القيمة، ولكنه لا يعرف كيف يقسم كتبه إلى أبواب وفصول، ولذلك لم يستطع نشر شيء من مؤلفاته إلى اليوم. وهو يزعم فى هذا أن عناء التأليف والتصنيف ليس بشيء يذكر إلى جانب عناء التبويب والتفصيل.

فلم يكد يطالع فى كتاب للأستاذ حسن إبراهيم حسن قطعةً يصف فيها الأستاذ طه حسين بأنه «لا يشق له غُبار فى تبويب الكتب» حتى تناول قلمه الرشيق، وأرسل اليه هذا الكتاب، الذى عثرنا عليه بمحض الصدفة، والذى نثبته هاهنا بنصه وفصه:

استفتاء

إلى العميد العظيم طه بن حسين!

نَعِمَ صباحُكَ أيها العميد!

وبعد فانى أريد أن أستفتِيَكَ فى أمر شهد لك فيه صديقنا حسن إبراهيم حسن بالتقدم والبراعة، حيث قال فى غير موضع من رسائله الممتعة إنك لا يشق لك غبار فى تبويب الكتب

ولدىّ أيها العميد العزيز رسائل عديدة فى موضوعات جليلة، حرت فى أمرى وفى أمرها: كيف أجعل لها أبواباً ونوافذ وشبابيك ... وهى رسائل - وحقك - ذات خطر عظيم وشأن جليل؛ أريد أن أتقدم بها إلى بعض معاهد العلم لكى أحصل بها على ألقاب فخمة، وأسماء ضخمة ..

وما خيرُ حياة، يعيش صاحبها من غير ألقاب ولا أسماء؟ ولقد حدثنى من أثق بشهادته أن الألقاب أعظم شيء فى الحياة، وأنه أفضل لابن آدم أن يكون له لقب، من أن يكون له أدب.

وأن يكون له اسم ، من أن يكون له جسم . والألقاب مثلها كمثل الأثواب تستر الهنات ، وتكسب الفخامة والجلال .

ألا ترى أن الكرُنب وهو نبت قليل الخطر ، حقير الجوهر ، قد سما على سائر النبات ، وشمخ بأنفه ، ومال بأعطافه ؛ وليس له من فضيلة يُدِلّ بها سوى أنه يتألف من ثياب بعضها فوق بعض . فاذا نزعت عنه ثيابه لم تجده شيئاً .

ومثل هذا يقال فى الخس والجرجير ، وهما الغذاء الأساسى لكبار الكتاب والشعراء . . . (١)

صدقنى ، أيها العميد ! إن الثياب والألقاب هى كل شىء فى الحياة .

* * *

والآن لا بد لك - إن كنت ترعى للمودة حرمة ، وتستجيب لداعى الإخاء والصداقة - أن تُفتينى كيف أرتب الأبواب لهذه الأسفار التى أريد أن أتقدم بها إلى رجال العلم ، إن كنت حقاً لا يشق لك غبار فى تبويب الرسائل والأسفار .

فأما الرسالة الأولى فهى « فى صيد الضفادع : كيف يكون ومتى يكون » ، فقد حِرت كيف أبوّب هذه الرسالة . هل يكون الباب الأول منها فى الضفادع أم فى الصيد . . وقد تراءى لى أن أتحدث عن هذه الكائنات العزيزة ؟ هل هى من حيوان البر أم من حيوان الماء ؟ وهل نقيقها خارج من الحنجرة واللعوم أم من الحلق والخياشيم ؟ وهل هى أسرع حينٌ تسبح فى الماء ، أو حين تثب على أديم الغبراء ؟ وهل غذاؤها الطحلب الحامض أم الحلو ؟ والعشب اليابس أم الطرى ؟ وهل أرجلها أطيب فى المأكل أم أيديها ؟ وهل يُمَهَّدُ لصيدها بأناشيد وأغانٍ غربيّة على طريقة شوبرت ، أم بأناشيد شرقية مثل نغماتِ معبد فى الثقيل الأول على مدار البنصر ؟ وهل تستطيع ضفدعة أن تسبح فى الماء إذا استلقت على ظهرها من شدة الضحك مثلا ؟ فان كانت عاجزة عن السباحة وهى فى هذه الحال . جاز لنا أن نفكر جدياً فى صيدها وهى تضحك حين نتلو عليها رسالة للجاحظ ، أو قطعة لموليير .

كذلك يجب أن تفهمنى فى أى بابٍ أضع ما كان بين الضفادع ومسيلمة الكذاب ، وهل انخدعت بأكاذيبه كما ينخدع الناس بأحاديث الكذابين فى كل مكان وزمن . ومتى كانت الضفادع ممن يؤخذ بالأكاذيب ؟ فهل يجوز استخدام هذه الحيلة فى صيدهن والاستيلاء عليهن ؛ أم تلك خدعة لا تليق بالصياد الشريف والباحث العفيف ؟

فهلم يا مُبَوِّبَ الكتب ! ضع أبوابا ونوافذ ودهاليز لهذه الرسالة ولا تبطىء على فانى مستعجل .

* * *

أما الرسالة الثانية فموضوعها « تعليم الجراد مبادىء الفلسفة » ، فقد أنبأنا عالم فاضل أن هذه خير وسيلة لتحويل الجراد عن حياة النهب والسلب ، إلى حياة الشرف والاستقامة . . وتحولُ عقبات كثيرة دون تثقيف الجراد بهذه الثقافة الفلسفية المنشودة ، ذلك أن الجراد لا يستقر لحظة فى مكان ، فلا تكاد تتحدث اليه عن أفلاطون وتأخذ فى شرح القواعد التى تقوم عليها جمهوريته ، حتى تستهويه سنبلةُ قمح أو كوز من الذرة ، فيتركك فى فلسفتك العلوية وينطلق إلى عالمه السفلى . ولقد تظن أنه سيقف على كوز الذرة زمناً طويلا يمكّنك من أن تشرح له كتاب الأخلاق لأرسطو ، لكنك لا تكاد تفرغ من الفقرة الاولى من الفصل الاول حتى يكون المجرم قد سئم الكوز الأول ، ووثب يلتمس كوزا سواه .

غير أن العالِم الجرادى الألمانى ميلر قام بعدة تجارب تدل على أن فى الجراد ميلا إلى فلسفة ما كيافلى ونيتشه ، ولا بد من أن نفرد باباً خاصاً لتحقيق هذا الأمر .

وهنالك عقبة أخرى تجعل من الصعب إدخال الفلسفة فى رأس الجراد ، ذلك أنى قد كشفت فى ساعة من ساعات الالهام أن الجراد لا يفهم بعقله ، بل بفمه وبطنه . فهل الفلسفة من المواد التى يمكن استيعابها عن طريق البطن والمعدة ؟ هذا أيضا باب مهم أرجو أن تفتينى فى أى جزء من الكتاب أجعله ، وأى الأقسام تليق به ويليق بها ، ولا بد كذلك من بحث عميق فى عادة النهب والسلب عند الجراد : هل ترجع إلى البيئة ، أو ترجع إلى الوراثة والغريزة ؟ فان كانت أصيلة فى فى النفس ، مغروسة فى الطبع ، فبأى الوسائل نحتال إلى إدخال الفلسفة فى نفوس طبعت على الانتهاب والاختطاف ؟

هلم أيها العميد وشمر عن ساعد التبويب ، ولا تدعنى فى حيرتى طويلا !

* * *

(١) يشير هنا الى كتاب السدود والقيود للاستاذ العقاد

أما الرسالة الثالثة فهي : « فى استخراج أشعة الشمس من قشر الخيار » . وهذا موضوع قد أشار اليه الأستاذ (سويفت) ولكنه قصر فى متابعته واستقصائه . وفى نظرى قد آن لهذا الموضوع أن يقتل بحثا وتمحيصا ، حتى لو استنفدنا فى سبيل ذلك كل ما فى الأرض من خيارٍ وقِثاء .

إن أشعة الشمس ضرورية للانسان والحيوان على السواء ؛ فقد حدثنا من نثق بعلمه أن القليل منها اذا أخذ فى فنجال على الريق كل صباح يشفى من الأمراض ، ويحدث فى البليد ذكاء وفى الغبيّ فهما ؛ وناهيك بما فى هذا من فائدة فى زمان ضعفت فيه الأحلام ، وصغرت فيه الأفهام . ولئن اعترض معترض بأن هذا الموضوع لا يهمنا لأن بلادنا غنية بأشعتها ، فليس فى هذا وجاهة ؛ لأن الباحث لا يختص ببحثه أرضا ولا بلداً ؛ وفى العالم أقطار كثيرة قد حرمت هذه النعمة ، ولابد من تزويدها بأشعة مستخرجة من قشر الخيار ، ومع هذا فان هنالك شكا كبيراً فى أن الأشعة التى تتأثر بها وتتعرض لها هاهنا ، هي من ذلك النوع الخيارى الممتاز ، وإلا لما انتشرت البلادة فى وادى النيل السعيد كل هذا الانتشار . فلقد بات من الثابت المعلوم أن للخيار مقدرة فذة يمتاز بها على سائر الكائنات فى استخلاص الأشعة النقية — فوق البنفسجية وتحتها — وتثبيتها فى ثنايا قشوره

هذا بحث طويل عريض عميق أرجو أن تسلط عليه غبارك الذى لا يشق ، من أجل تبويبه وتفصيله وترتيبه .

***

بقى البحث الرابع الذى أرجو أن يكون شهياً مُمتعا ، وهو « فى أثر الموسيقى فى طول الأنف وعرضه وارتفاعه » فقد تعلم غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر أن الأنف أشرف الأعضاء وأمثلها ، وأن العرب كانت لا تجد مدحا أسمى ولا شرفا أعلى من أن يكون الرجل أشمّ العِرنين . ولم تنحط الزَّنج عن سائر الشعوب والأجيال ، ولم يستعبدهم الناس استعبادا إلا لما فى أنفهم من الفطَس . والذين زعموا أن فطس الأنف عند الزنج راجع إلى بيئتهم لم يأتوا بشيء ؛ والصحيح عندنا أن هذا راجع إلى موسيقاهم وغنائهم المنحرف كما وصفه ابن خلدون . ودليلنا فى هذا محسوس وملموس ، ذلك أن الشعوب المتمدنة من أهل أوربا وأمريكا ، منذ اتخذوا موسيقى الزنج للهوهم ورقصهم قد استعرضت أنوفهم ، واستولى عليها الفطس ، كأنما القوم يجلسون على أنوفهم إذا جلسوا لا على مقاعدهم . وقد قام بعض الباحثين المحققين بقياس سعة الأنف وارتفاعه . فبدا له انخفاض محسوس فى الأنوف اليوم ، بالنسبة لما كانت عليه فى أواخر القرن الماضى وخرج من هذا البحث إلى نظريته المعروفة بأن العالم سائر كله إلى الفطَس . وأن الكبرياء والشمم محكوم عليهما بالفناء . وهو يزعم فى هذا كله أنه راجع إلى كثرة البُقع فى وجه الشمس ؛ وهو فى تعليله هذا جدُّ واهم ، والصواب ما ذكرناه من أن هذه الظاهرة مرتبطة ارتباطا وثيقا بانتشار موسيقى الزنج والاقبال الشديد عليها .

كذلك أخطأ نهج الصواب ولم يوفق فى بحثه ذلك العالم الذى أرجع هذه الظاهرة إلى انتشار عادة الحكّ على المناخير التى كانت سائدة أيام الحرب الكبرى وما بعدها ، فقد ثبت انتشار هذه العادة فى أزمنة أخرى مثل عصر نابليون ، فلم يكن لها فى المناخير تأثير يذكر .

والراجح ما ذكرناه من اتصال هذا بالموسيقى . والله سبحانه وتعالى أعلم .

والبحث فى هذا الموضوع متشعب الفروع والغصون ، متعدد المخارج والمداخل ، وأريد منك أن تبوِّبه تبويباً يلمّ شعثه ، ويجمع بين شوارده ونوافره : ويجب أن يكون تبويباً مَرِناً نستطيع أن ندخل فيه أية دراسة أنفية جديدة قد تبدو لنا فى أثناء التأليف والتصنيف

***

هذا بعض ما لدينا من الرسائل التى نرغب منك أن تساعدنا فى تبويبها . فهلم أيها العميد ، واجلس فى كرسيك المعهود ، ممسكا فى يمينك سُبحتك التى تستعين بها على التسبيح ، وربما كانت لك فيها مآرب أخرى — وممسكا فى يسارك سيجارة تبعث الوحى وتفتح أبواب التبويب .

فان فعلت أسديت إلى البحث العلمى يدا يعمل بها ورجلا يمشى عليها . هداك الله إلى محجة الصواب ، وإليه المرجع والمآب

اخوك المخلص : اسماعيل بن زيد

طبق الأصل

محمد عوض محمد

في التاريخ السياسي

الدبلوماسية الأوربية

في طورها الجديد

بقلم باحث دبلوماسي كبير

اجتازت الدبلوماسية الأوربية منذ نهاية الحرب الكبرى ثلاث مراحل: الأولى مرحلة التصفية وهي التي شغلت فيها الأمم الظافرة والمهزومة معاً بتصفية التركة الفادحة التي خلفتها الحرب، واحتملت الدول المهزومة معظم تبعاتها وأعبائها. والثانية يمكن تسميتها بمرحلة عصبة الأمم ولوكارنو، وهي المرحلة التي اشتد فيها ساعد العصبة بمؤازرة الدول الظافرة وانضمام ألمانيا المهزومة إليها لأول مرة بعد أن قامت بتأدية معظم الاعباء والمغارم التي فرضت في معاهدة الصلح؛ وفي أثنائها أيضاً تقدمت فكرة السلامة المشتركة تقدماً عظيماً، فعقد ميثاق لوكارنو لتأمين سلامة حدود الرين بين ألمانيا وفرنسا وبلجيكا، وعقد مؤتمر نزع السلاح واستمر حيناً يباشر أعماله، وعقد ميثاق تحريم الحرب الذي اقترحته امريكا على دول العالم، وقد استمرت هذه المرحلة حتى سنة ١٩٣٢. والمرحلة الثالثة، مرحلة السياسة القومية العنيفة، وعود الدبلوماسية الاوربية إلى أساليبها القديمة من عقد المحالفات والمواثيق العسكرية الظاهرة والخفية، وتكوين الجبهات الخصيمة، والتسابق في التسليح، وهذه هي المرحلة التي تجتازها أوربا اليوم.

ولا شك أن هذه المرحلة هي أخطر وأدق مرحلة انتهت اليها الدبلوماسية الاوربية مذ عقدت معاهدة الصلح (معاهدة فرساي) ولا شك أيضاً أنها تسير بأوربا إلى موطن الفصل وتنقسم أوربا اليوم إلى معسكرين واضحين هما معسكر الدول الفاشستية التي تتخذ شعارها القومية المتطرفة والعسكرية المتوثبة والتسليح الشامل، وقوام هذه الكتلة ايطاليا الفاشستية والمانيا النازية. ومعسكر الدول الديمقراطية إذا صح التعبير، وشعارها السلام المسلح، والاستعداد لدفع الاعتداء الذي قد يقع عليها من الدول الفاشستية، وقوام هذه الكتلة انكلترا وفرنسا توازرهما روسيا السوفيتية.

وهذا التطور الحاسم في سير الدبلوماسية الاوربية، وتحولها من ميدان التعاون السلمي الذي عملت فيه من قبل إلى ميدان التنابذ والخصومة المسلحة يرجع قبل كل شيء إلى عنف الفاشستية الايطالية والالمانية وإلى شهواتها وأطماعها المغرقة وإلى اعتدادها بالقوة المادية الغاشمة؛ بيد أن الفاشستية تلقي التبعة في ذلك على الدول الديمقراطية وعلى ما أبدته من الأثرة في استخلاص المغانم الاستعمارية والاقتصادية لنفسها دون ايطاليا والمانيا، ودفعهما بهذا التصرف إلى خطة العنف واليأس التي تلجآن اليها

وتستقبل الدبلوماسية الاوربية عهدها الجديد بسلسلة من الاحداث والظواهر الجديدة؛ أولها وأهمها انهيار ميثاق لوكارنو نهائياً، بعد أن نقضته المانيا من جانبها في العام الماضي؛ وانحلال التحالف الصغير في شرق أوربا بعقد الميثاق الايطالي اليوجوسلافي؛ وتوثق العلائق بين السياستين الفرنسية والبريطانية؛ وفتور العلائق بين تركيا وروسيا السوفيتية، وتقدمها في الوقت نفسه بين تركيا وايطاليا وتقوية الجبهة الايطالية الألمانية واشتداد ضغطها في وسط أوربا وفي شرقها

وقد كان عقد الميثاق الفرنسي الروسي في أوائل العام الماضي أول نذير بانهيار الأوضاع القائمة، ففي ٧ مارس سنة ١٩٣٦، أعلنت ألمانيا نقضها لآخر الشروط العسكرية التي فرضت عليها في معاهدة الصلح وهي الخاصة بتجريد منطقة الرين من التسليحات والتحصينات، وأعلنت في نفس الوقت نقضها لميثاق لوكارنو، بحجة أن الميثاق الفرنسي الروسي قد عقد بقصد تهديدها وتطويقها وأن عقده مخالف لما كفلته نصوص ميثاق لوكارنو من سلامة الحدود الألمانية الفرنسية على الرين؛ وكان تصرف ألمانيا ضربة قاضية لهذا الميثاق الذي علقت عليه أوربا والعالم كله يوم عقده أعظم الآمال، ولم تلبث بلجيكا وهي إحدى الدول الموقعة عليه، والتي تستمد

سلامة حدودها من نصوصه ، أن رأت أيضاً أن تتحرر من تبعاته ، فأعلنت سياسة الاستقلال والحياد الجديدة التي انتهت أخيراً بصدور تصريح بريطاني فرنسي يحررها من تبعاتها المترتبة عليها في ميثاق لوكارنو ، مع استبقاء تعهد فرنسا وبريطانيا من جانبهما بالدفاع عن البلجيك في حالة الاعتداء عليها ؛ وهكذا انهارت دعائم هـذا الميثاق الذي كان دعامته السلام في غرب أوربا ، وحلت مكانه حالة جديدة لم يتضح مداها بعد؛ على أن هنالك حقيقه لاريب فيها، هو أن، انهيار ميثاق لوكارنو ، وما اقترن به من مضاعفة التسليح الألماني ، وتقدم التفاهم بين ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية كان عاملا في إذكاء استعدادات فرنسا وبريطانيا العسكرية ، وفي توثق العلائق بينهما

وكان للمسألة الحبشية أثرها القوى في التقرب بين إيطاليا وألمانيا ، وتوجيه الأوضاع الجديدة للدبلوماسية الأوربية ، فقد رأت ايطاليا بعد الذي لقيته أثناء اعتدائها على الحبشة من خصومة بريطانيا ، أن تنسلخ نهائياً عن كتلة الدول الغربية ، وأن تتقرب إلى ألمانيا النازية التي تؤمن بمثل مبادئها العسكرية العنيفة ، والتي أيدتها وآزرتها خلال الأزمة الحبشية لأنها تجيش بمثل مطامعها الاستعمارية . وقد أثمر هذا التقرب بين الدولتين الفاشستيتين ثمرته في أوربا الوسطى وأوربا الشرقية ؛ وتبدو نتائج هذا التطور واضحة في موقف إيطاليا نحو النمسا ومسألة انضمامها إلى ألمانيا (الآنشلوس) ، فقبل التقرب الألماني الايطالي ، كانت ايطاليا تعارض هـذا الانضمام بكل قوتها ، وتعلن أنها مستعدة لتأييد الاستقلال النمسوي بالقوة المادية إذا اقتضى الأمر ، وما زلنا نذكر موقفها في سنة ١٩٣٤ حينما وقعت الثورة النازية في النمسا ، فقد حشدت بعض قواتها على الحدود النمسوية استعداداً لمقاومة أي حركة تقوم بها ألمانيا في سبيل الاستيلاء على النمسا . أما اليوم فان السياسة الايطالية حسبما تبين من مباحثات الدكتور شوشنج المستشار النمسوي والسنيور موسوليني ، لا تريد أن تذهب في سبيل تأييد النمسا إلى هـذا الحد ، خصوصاً وأنها ترى مسألة الضم إلى ألمانيا بعيدة الحدوث في الوقت الحاضر ؛ وتحاول السياسة الايطالية فوق ذلك أن تباعد بين النمسا وتشيكوسلوفاكيا التي تربطها بروسيا علائق وثيقة . ومن جهة أخرى فان التحالف الصغير المكون من تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوجوسلافيا قد تصدعت أسسه من جراء التقرب بين يوجوسلافيا وإيطاليا وارتباطهما بميثاق صداقة وتفاهم ؛ وهذا الميثاق الجديد فضلا عن كونه يلطف حـدة التنافس بين الدولتين ، يمهد لنفوذ ايطاليا في البلقان ؛ وهنا تصطدم جهود السياسة الفاشستية والسياسة النازية ، ذلك أن ألمانيا تريد أيضاً أن تمكن لنفوذها في البلقان ، وان تستأنف زحفه القديم نحو الشرق ؛ ولكن إيطاليا استطاعت أن تسبقها في هـذا الميدان على مايلوح ، وذلك بعقد الميثاق اليوجوسلافي ، والتقرب إلى تركيا الكمالية تقرباً ربما أسفر في القريب العاجل عن عقد ميثاق بين الدولتين ؛ كذلك تتودد إيطاليا إلى اليونان وتعمل على توثيق العلائق معها

وهكذا تنشط السياسة الفاشستية للعمل السريع الحاسم في حوض الدانوب وفي شرق أوربا ؛ وتعمل السياسة النازية من جانبها . في نفس الميدان ، في الحدود التي خصصت لنفوذها فيما يسمونه « محور برلين رومه » ، وتعمل بالاخص في المجر ورومانيا ، هذا عدا محاولاتها في النمسا ؛ وترمى ايطاليا بهذه الجهود الدبلوماسية المتواصلة الى تأمين مكانتها وسلامها في شرق البحر الأبيض المتوسط لكي تتفرغ الى العمل في هذا البحر ، ضد بريطانيا العظمى وضد ما تدعيه لنفسها فيه من السيادة البحرية ، ولتحقق ما تزعمه لنفسها من الاطماع الاستعمارية ؛ وترمى ألمانيا النازية بالعمل في شرق أوربا وفي البلقان الى تكوين جبهة موحدة ضد روسيا السوفيتية بيد أنه يشك كثيراً فيما اذا كانت ألمانيا تفيد من هذه الجهود ضد المارد الروسي العظيم

ويجب أخيرا ألا ننسى المشكلة الأسبانية الشائكة ، وما كان لها من أثر في هذا التطور الجديد في سير الدبلوماسية الأوربية؛ وسيكون لنتائج الحرب الأهلية الأسبانية متى استقرت نهائياً أثرها العميق أيضا في توجيه الأوضاع السياسية الجديدة في غرب أوربا

وقد أدركت الدولتان الغربيتان الكبيرتان، أعنى بريطانيا العظمى وفرنسا، ما تقتضيه هذه العوامل والظروف الجديدة من تغيير عميق فى سياستيهما، وخصوصاً أزاء ما تبديه الدولتان الفاشستيتان أعنى ايطاليا وألمانيا من نشاط متواصل فى الاستعدادات العسكرية؛ فاما فرنسا فقد اقتنعت بأن المواثيق والعهود الدولية لم تبق لها قيمة يعتمد عليها وان المانيا النازية بعد أن حطمت كل ما تبقى من عهودها فى معاهدة الصلح وفى لوكارنو، وأخذت تستأنف قواها العسكرية القديمة، لا يمكن ردها وكبح جماح عدوانها وأطماعها الا بمضاعفة الاهبات العسكرية، وهذا ماتفعله اليوم هى وحليفتها روسيا السوفيتية التى تحذر من عدوان ألمانيا مثل ما تحذر فرنسا؛ واما بريطانيا العظمى، فقد اقتنعت بعد مأساة الحبشة بانهيار فكرة السلامة المشتركة وعبث الاعتماد عليها فى رد الاعتداء المدبر، وأدركت ما يهدد سلامة الامبراطورية البريطانية من جراء ظهور الفاشستية الايطالية بمظهر الظافر المتحفز؛ فاخذت تستدرك بسرعة مدهشة مافاتها من الاهبات العسكرية، ووضعت برنامجا هائلا للتسليح يكفل لها تفوقها القديم فى البحر والهواء ويمكنها من أن تعود فتملى كلمتها وارادتها على أولئك الذين يتحرشون بها ويحاولون تحديها ومنافستها، وتزداد العلائق توثقا بين الدولتين الغربيتين الكبيرتين، يجمع بينهما الخطر المشترك، والمصالح المشتركة، وروابط الديموقراطية

وهكذا تعود أوربا الى ما كانت عليه قبل الحرب: معسكران خصيمان يعمل كل منهما لاحراز التفوق فى الاهبات العسكرية، ويسيطر كل منهما بنفوذه على عدد من الدول الصغيرة؛ وهذان هما معسكر الفاشستية، تقوده المانيا وايطاليا، ومعسكر الديموقراطية تقوده بريطانيا وفرنسا؛ وهكذا تعود الدبلوماسية الاورية الى وسائلها القديمة من عقد المحالفات العسكرية والمعاهدات السرية والاعتماد على القوة الغاشمة

(٥٥٥)

في الأدب المقارن

الخيـــــــال

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

الخيال، أو القدرة على انتزاع شتى الصور الذهنية من الواقع واستحضارها والتصرف فيها، من المواهب التى يمتاز بها الانسان على سائر الأحياء، ويمتاز بها النابغة على سائر الناس. رقى العلم رهين برقيه، واتساع الأدب متصل باتساعه، وهو بين الجماعات الأولى مصدر تلك الأساطير والأوهام التى تسود بينهم، كما أنه مصدر ماتغص به اللغات من مجازات وتشبيهات، بها تتسع جوانب اللغة وجوانب التفكير معا أيما اتساع، ولولا الخيال لالتزم الفكر الانسانى الواقع المتحجر أى التزام

والخيال قوام جانب عظيم من الأدب، إن لم يكن قوام الجانب الأرقى فيه، إن لم يكن قوام الأدب جميعاً: فبالمجازات والتشبيهات يتأتى للأديب أن يصور شعوره ويبرز تفكيره، إذ يمثل لنضرة الخد بنضرة الورد، ولطلعة البطل بهيبة الأسد، ولجيشان المعركة بتدافع الآذى، وهلم جرا. وبالخيال يستطيع الاديب أن يسبك موضوعه ويجمع أطرافه، وينبذ ما لا حاجة به إليه من تفصيلات قد تشوه ماهو بسبيله، ويضفى ثوبا من الجمال والانسجام على ما ينشىء. والخيال أظهر ملكات الشاعر وأول مميزات الشعر التى تفرق بينه وبين النثر

وارتقاء الخيال واتساعه وكثرة آثاره أهم ظواهر دخول الأدب فى طوره الفنى: فانه إذا خرجت الأمة من بداوتها وعزلتها وبسطت سيادتها واتصلت بجيرانها القريبين والبعيدين، وتحضرت وتثقفت، اتسعت أذهان أبنائها وترامى خيالهم وتصوروا من الحقائق والمعانى والممكنات مالم يكونوا يتصورون، وغزر المعين الذى يستمدون منه التشبيهات والاستعارات، وينتزعون منه الحكم والأمثال، ويتوفر الفراغ ويتسع للجهود الأدبى المتصل، فتظهر القصة والدرامة والقصيدة الطويلة، ويحلق الأدباء فى أجواز الخيال وآماد الماضى والمستقبل، مبتعدين عن دواعى الحاضر الحازبة ومجالاته الضيقة، ولا يبلغ الأدب أوج رقيه

حتى يرتقى الخيال فيه هذا الارتقاء وحتى يشغل أكثر جوانبه

وللخيال فى الأدب الانجليزى مكان رفيع وأثر بعيد شامل يتمثل فى موضوعات الأدب وأشكاله وطرائق تناول الأدباء لما هم بسبيله : فالأديب الانجليزى غزير العاطفة ، إذا جاشت أطلق لها العنان واسترسل مع خياله ، وأثار به منظر طبيعى أو غناء طائر أو ذكرى طارئة أو أثر من آثار الغابرين أو أسطورة من أساطيرهم شتى الأحلام والأطياف ، وتناهت به عاطفته إلى حدود الأمانى وآفاق الماضى والمستقبل ، وهذا الاسترسال مع الخيال إذا أثارته فكرة رئيسية هو مرجع وحدة القصيدة فى الانجليزية

وهناك عدا هذا الخيال المنبث فى كل مناحى الأدب أشكال خاصة من الأدب قوامها الخيال ، ينهض بكيانها ويوثق وشائجها . وهذه هى الملاحم الطوال فى الشعر والقصص الممثلة أو المقروءة شعراً أو نثراً ، فى هذه لايلتزم الأديب الواقع المجرد بل يفترق عنه افتراقاً جسيما ، ويؤلف من شتى أفكاره وتجاريبه وأمانيه وصور الحياة التى مرت به ، عالماً يجيش بالحياة والحركة ويموج بالعواطف والنوازع ويفيض بالجمال والامتاع ؛ بهذه الضروب القائمة على أساس من التخيل المحض يحفل الأدب الانجليزى

فقد عالج الملاحم والمطولات من القصائد ملتون وسبنسر وهاردى ووردزورث وكثيرون غيرهم . وأشعار الملاحم تعج بالمردة والجبابرة والآلهة ، وتحفل بخوارق الأعمال وجسائم البطولة ، وهى على رغم هذا لاتخرج عن عالمنا الانسانى ولا تغفل النفس الانسانية ، بل تظل نوازع تلك النفس ومشاغلها هى الهدف الوحيد الذى يرمى إليه ناظموها : إذ فيها يتخذ أولئك الأرباب والجبابرة طبائع الناس وميول الأفراد ، وإن فاقوا البشر قوة وعظما ؛ ومن هنا يتأنى للشاعر أن يبسط آراءه فى ميدان متسع وإلى مدى فسيح ، فيستعرض مشاغل عصره ويبث خوالج نفسه ، فالخيال هنا لايعدو الحقيقة وإنما يوضحها أحسن توضيح ، فضلا عما يمتع النفس به من قصص متسق وجمال وجلال

وفى الأدب الانجليزى مالا يعد من قصص فى الشعر والنثر ممثلة ومقروءة ، وقوام القصة بطبيعتها الخيال ، وإن تراوح نصيبها منه ، فهناك القصص التى ترمى إلى أغوار الماضى وتدور حول عظماء التاريخ والأساطير ، من طموح يبيع نفسه للشيطان كى يعينه الشيطان على إدراك مطامحه ، إلى دائن يتقاضى دينه من لحم غريمه ودمه ، كما فى روايات مارلو وشكسبير . وهناك القصص الواقعية التى تلتزم الحقيقة إلى حد بعيد ، وتصور المجتمع الحاضر تصويرا دقيقا لايدع شاردة ولا واردة ، كقصص هاردى ، ودرامات جالزوردذى ، ولكل من الضربين متعته

ولشغف الانجليز بسبحات الخيال ، وميلهم إلى إطلاق الفكر فى أجوازه ، لجأوا فى شعرهم ونثرهم إلى تصوير حوادث التاريخ وغرائب الأساطير ، فاستقى شعراؤهم وكتابهم عذب القصص ومِمْنه من تاريخ انجلترا وتواريخ اليونان والرومان وبنى اسرائيل وغيرهم ، واتخذوا من خرافات الأمم مجالا لفنهم ، فعرض سبنسر وتنيسون وكولردج وغيرهم تلك الخرافات عرضا شعريا رائقا مرصعا بجميل الوصف وبدائع المناظر الطبيعية ، وشائق مواقف الحب والبطولة .

ومن ثم امتلأ الأدب الانجليزى بأسماء الشخصيات الخيالية التى اخترعها الأدباء من مخيلاتهم ولم يكن لها قبلهم وجود أو كان لها وجود مبهم فى عالم الخرافة فأخرجوها بعبقرياتهم إلى عالم النور والوضوح ، وألبسوها ثوبا من الجمال والجاذبية ، وأصبح بعض هؤلاء الأشخاص الخياليين الذين امتلأت بذكرهم وأخبارهم الملاحم والقصص والشعر والنثر ، أعلاما على طبائع فى الانسان معروفة ، ورموزا على حقائق فى النفس البشرية مشهودة ، فشكسبير مثلا لم يكن يدع خلقا إنسانياً نبيلا أو وضيعا إلا صوره فى رواياته وخلق مالا يعد من الشخصيات الحية ، مثل هملت وروميو وجولييت وياجو وشيلوخ ، وغيرهم ممن صار لهم وجود قائم فى عالم الأدب كوجود أعلام الماضى فى عالم التاريخ

لم يجر الأدب العربى إلى هذا المدى من الخيال ، فلم تكن فيه ملاحم ولم تكن المطولات من هم شعرائه ، ولم يرتق فيه القصص ولم يحتو على شخصيات متخيلة من خلق الأدباء ، وظل الحاضر القريب والواقع المحقق ديدن أدبائه ، فالأديب العربى كان شديد الايجاز فى مقاله وتعبيره عما يحس ، يعبر عن أفكاره أشتاتا كلما عن له حافز إلى الكتابة ، لايدخر أفكاره ولا يربط منها حاضرا بماض ، بل يرسلها الشاعر على السجية أبياتا محكمة النسج موجزة البيان ، ويرسلها الكاتب روايات قصيرة متتابعة منسوبة كل رواية منها إلى صاحبها أو راويها أو شهودها ؛ فأحسن أشعار المتنبى حكم موجزة متتابعة مستقل كل منها ببيت لاتكاد تجمعها علاقة ؛ وقوام كتب كثيرة كمؤلفات الجاحظ والثعالبى وابن عبد ربه روايات وشواهد متتابعة ، لايكاد يكون للأديب فضل غير جمعها وتبويبها

كان الشعر الجاهلى محدود الخيال قريب المأخذ لمكان أربابه من البداوة وبعدهم عن الثقافة ، فلما تحضر العرب وتثقفوا واختلطوا بالأمم واطلعوا على أحوال الأقطار البعيدة ، اتسع من

جراء ذلك خيالهم وبان أثره فى شعرهم ونثرهم ، فالمحدثون من الشعراء لاشك أبعد خيالا وأكثر تفننا فى التشبيهات من الجاهليين. وظهر ضرب من القصص الخيالى يتجلى فى مقامات بديع الزمان ، ورسالة الغفران ، فى هذه وتلك مواقف وحوادث كلها من اختراع الخيال ؛ ثم هناك الروايات والأخبار العديدة التى كان يخترعها الرواة والكتاب ، يطلبون الاغراب والتطرف والرواج ، أو يؤيدون الحجج والمذاهب .

بيد أن هاتيك جميعا آثار ضئيلة الشأن ، وهى إذا قيست بمافى الانجليزية من سبحات الخيال ، لم تكن إلا شبيهة بطيران الدجاجة الخفيف مقيساً بتحليق البازى الكاسر ؛ ورسالة الغفران على جمال فكرتها ومشابهتها لما فى آداب الأمم الكبيرة فى جريان حوادثها فى عالم الخلد ، وامتلائها بممتع المواقف والمحاورات ، مكتظة بمسائل النحو والأدب النظرية العقيمة ، التى كان كثير من الأدباء ينفقون أعمارهم فى غياهبها غافلين عما هو أهم منها من حقائق الحياة وجمالها ، ولم يكن الخيال ولا الجمال ولا القصص غرض المعرى الصحيح حين أملاها ، وإنما كانت تلك المسائل اللغوية هى مقصده الأول ؛ ومقامات البديع على جمالها واهتداء البديع إلى اختراع شخصية أبى الفتح فيها ، مكتظة كذلك بالألاعيب اللفظية والبراعات اللغوية ؛ فالمقامات ورسالة الغفران جميلتان على أن تكونا خطوتين إلى مابعدهما ، ومرحلتين فى طريق نمو القصص الصحيح وازدهار الخيال الراقى ؛ بيد أن ذلك النمو لم يطرد وذلك الرقى وقف فى أول الطريق . وإن من العجائب حقاً أن يكون أعظم أثر خيال فى الأدب العربى من صنع شاعر كفيف محجوب عن آفاق الحياة ومباهجها

فكبح عنان الخيال كان دأب أدباء العربية حتى بعد دخول الأدب عصره الفنى ، فالفكرة التى تخطر للأديب الانجليزى فيحوك حولها قصة تموج بشتى الصور المنتزعة من الحياة ، أو ينظم حولها قصيدة طويلة تجمع أشتات الأفكار والمعانى ، يكتفى الأديب العربى بصوغها فى بيت شعر محكم يذهب مثلا ويروع بإيجازه وشموله ، لا بتقصيه واستيعابه ، فكل بيت من أبيات المتنبى السائرة يحوى نظرة نافذة إلى حقائق الحياة ، هى بنفسها محور صالح أن تدور حوله قصة أو درامة ، بينما الأديب العربى قد أودعها أوجز لفظ وأعمه

وقد نظم شلى قصيدة فى قرابة مائة بيت ، حين استرعى تفكيره هبوب ريح الشتاء الباردة فى إيطاليا ، فصور عصفها بالأوراق الجافة ، ودفعها البذور إلى حيث تنام فى التربة حتى ينبهها الربيع بدفئه وطيب أوانه ، وشبه ثوران عاصفتها على الأفق بالشعور المتهدلة عن رأس ماياد احدى العرائس الخرافية ، ووصف اقشعرار النبات المائى فى قاع المحيط لدى إحساسه مرور تلك الرياح ، ثم طلب إلى الريح أن ترفعه كما ترفع تلك الأوراق وتدفعه كما تدفع تلك البذور ، وتنفخ فيه من قوتها ، وتتخذه نايا لها ، عله يستطيع أن يطير بأجنحتها ، ويبذر بين الخلق بذور أفكاره الاصلاحية التى كان أميناً لها طول حياته . ولشكسبير مقطوعة عن ريح الشتاء أيضاً فى رواية « كما تشاء » ، يسترسل فيها فى التأمل على ذلك النحو ؛ اما الشاعر العربى فاذا استرعى انتباهه هبوب الريح فيودع خاطره أوجز لفظ ، واصفا تهييج الريح لذكرياته أو محملا إياها سلامه إلى أحبائه ، كما قال بشار :

هوى صاحبى ريح الشمال وإنما أحب لقلبى أن تهب جنوب
وما ذاك إلا أنها حين تنتهى تناهى وفيها من عبيدة طيب

والغريب أنه برغم غنى الأدب الانجليزى بآثار الخيال وندرة تلك الآثار فى الأدب العربى ، نرى كلمات الخيال وخيال الشعراء والمخيلة وغيرها كثيرة التداول فى العربية نادرة الورود فى النقد الانجليزى ؛ وإنما كان نقاد العربية يطلقون اسم الخيال على أبعد الأقوال عن مجال الخيال الصحيح ، يطلقونه على مادرج عليه الشعراء المداحون من اختراع مواقف الغرام فى استهلال قصائدهم ، وتلفيق صفات الجود والبأس لممدوحيهم ، ومن ثم اشتهر البحترى بالخيال ، لا لأنه دبج القصص المحكم أو نظم المطولات الرائعات بل لأنه كان من أمضى الشعراء فى بابى المديح والغزل الاستهلالى ، ومن أكثرهم ذكراً للأطياف والوداع واللقاء ، وليس تحت مثل هذا الخيال طائل ، إذ قوامه التكلف والمحال والا يغال فى البعد عن حقائق الحياة والشعور ، بينما اخص خصائص الخيال الفنى الصحيح صدق البيان للشعور الصحيح فى أعمق أعماقه وأرحب آفاقه

فاذا قال بشار إن الجود من كف ممدوحه يعدى ، وقال أبو تمام إن ممدوحه لايستطيع قبض أنامله لأنه تعود بسطها بالعطاء ، وقال المتنبى إن أسنان صواحبه برد خشى أن يذيبه من حر انفاسه فكان هو الذائب من حر أشواقه ، وإذا شبه ابن المعتز الهلال بمنجل يحصد نجوم الليل حصداً ، أو شبه ابن خفاجة النهر وعشب ضفافه بهدب يحف بمقلة زرقاء ، فقد باعدوا جميعاً وأغربوا وخالفوا حقائق المنطق والشعور ، وجاءوا بما هو أشبه بعبث الصبيان وهذر المخمورين ، وكان قولهم أبعد الأشياء عن الخيال ، فالخيال ليس هو تجاهل حقائق الحياة وتحديها والتفنن فى مناقضتها ، وإنما هو قدرة الفكر على استيعابها والاشتمال على قريبها وبعيدها ، والتصرف فيها

والتفنن فى عرضها ، ولا غرو إذ كانت تلك نظرة نقاد العربية إلى الخيال أن قالوا إن أعذب الشعر أكذبه ، والحق أن أعذب الشعر أصدقه ، وأجود الخيال أكثره اشتمالا على الحقيقة

وغزارة آثار الخيال فى الأدب الإنجليزى ترجع لا شك إلى اختلاف مناظر الطبيعة فى انجلترا وتعددها وتقلب أحوال الجو ، ثم هى ترجع إلى اتساع أذهان الانجليز باقتباسهم حضارة أوربا ومساهمتهم فيها ، وإلى الكشوف الجغرافية العظيمة التى عاصرت نهوض الأدب الانجليزى ، وهى ترجع أيضاً إلى اطلاع الانجليز على الأدب اليونانى الحافل بروائع الحوادث والأساطير ، المملوء بأشعار الملاحم والدرامات ، فقد كان لشعراء الانجليزية وكتابها من ذلك معين لا يفنى ، وكان الاطلاع على التراث الكلاسى بمثابة كشف جغرافى آخر واطلاع على عالم ثان غير هذا العالم المعهود ، بما أطلق الأذهان إلى غايات الخيال ، وكان للأدب العامى فى ذلك أثره أيضاً

وترجع ضآلة حظ الأدب العربى من الخيال الصحيح السامى ، وكثرة ما به من آثار التخيل الزائف ، إلى نزعة الجمود التى كانت تسوده وتقره دائماً على محاكاة الأقدمين واحتذاء الأدب الجاهلى ، وهذا بطبيعته المتبدية وبيئته الصحراوية التى ترعرع فيها ، أدب أولى قليل الحظ من الخيال كثير الالتزام للواقع الحاضر ؛ هذا إلى اشتغال الأدباء بمدح ذوى السلطان واجتهادهم فى تخيل كل منقبة وإضافتها اليهم ؛ أضف إلى ذلك أن الأدب العربى لم ينتفع كما انتفع الأدب الانجليزى بأدب الاغريق ، فحجبت عنه تلك العوالم الزاخرة بالحقائق والخيالات . وقد اطلع العرب على فلسفة الاغريق فحاكى غير واحد من فلاسفتهم جمهورية أفلاطون بتخيل المدينة الفاضلة ، ولو اطلعوا كذلك على أدبهم لاستفادوا منه فائدته المحتومة

ظل الأدب العربى مكبوح الخيال ملتزماً للواقع مؤثراً للايجاز متشبثاً بالرواية التاريخية المسندة ، وترك الخيال الواسع للعامة يسبحون فى عوالمه التى تستهوى النفس الانسانية ، فجالوا فى نواحى القصص يودعونه أفكارهم على ما بها من قصور ، وآمالهم على ما بها من سذاجة وما يشوبها من شهوات الحس ، وثقافتهم على ما يخالجها من جهل واضطراب ، وجاء الأدب العربى الفصيح فى أزهر عصوره مشتملا على ضروب من التخيل الفج لا يستسيغها لب ، ولا يقرها فن ، مشتملا بجانب ذلك على وجدانيات صادقة وحكم وأمثال رائعة موجزة ، هى خير ما فى الأدب العربى من لباب الفكر والشعور ، فالأدب العربى يبلغ قمة مجده بما فيه من آثار الحكمة ، لا بما يحويه من صور الخيال

فخرى أبو السعود

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٤ —

الديانة المصرية — التوفيق بين الديانة والفلسفة

ان ذيوع عقيدة تأليه الملك أو حلول روح القدس فى جسده الذى حدثناك عنه فى الكلمة السابقة قد خلق أمام العقل المصرى مشكلة معقدة عويصة يمكن أن تعتبر اللبنة الأولى من بناء الفلسفة المصرية ، وأن تعد محاولة حلها أقدم المحاولات الفلسفية التى عرفها تاريخ العقل البشرى . لأن عهدها يصعد فى سلم الماضى أكثر من ستة آلاف سنة ، وأين من هذه الفلسفات الأخرى التى لا يتجاوز أقدمها بضعة عشر قرنا قبل المسيح ؟ تلك المشكلة التى نشأت عند المصريين من تأليه الملك هى : « إننا نشاهد أن الملك يموت كما تموت عامة الناس فكيف يموت الإله الذى أولى صفاته الخلود ؟! » .

لم تكد هذه المشكلة تأخذ مكانها فى الحياة الفكرية المصرية حتى وجد المتفلسفون الأولون لها حلا وهو أن فرعون لا يموت كما يموت الناس ، وإنما حين يعجز جسمه المادى عن النشاط العملى يخرج منه السر الإلهى أو الروح القدس . ليحل فى جسم ابنه الشاب الممتلئ قوة ونشاطا . وإذاً فروح « هوروس » هى التى تحكم فى كل هذه الأجساد المختلفة المسماة بالفراعنة والتى أطلق على كل جسد منها اسم خاص فى الظاهر فحسب ، ولكن هذا الجواب لا يشفى غليل المتفلسفين الباحثين عن خفايا الكون وأسرار الوجود ، لأنهم لا يكادون يتلقون هذا الجواب حتى يصطدموا بالتقاليد الدينية التى تصرح بأن فرعون وهو فى قبره يعين ابنه على الحكم وينصحه فى المواقف الحرجة . ومن هذا تنشأ مشكلة فلسفية أخرى وهى « كيف تقولون إن روح (هوروس) تغادر جسم فرعون المائت بعد عجزه عن النشاط إلى جسم ابنه الشاب النشيط ثم

تعودون فتقولون : إن فرعون بعد رحيله إلى العالم الآخر يظل متصلا بابنه يعاونه وينصحه ؟ فالتصريح الأول يفيد أنه ليس هناك إلا شخصية روحية واحدة تغادر الجسم الضعيف العاجز إلى الجسم القوى النشيط . والتصريح الثانى يفهم منه أن فرعون بعد موته تبقى له شخصية روحية مستقلة تنصح الملك الجديد وتعاونه . ولا ريب أن هذا تناقض ظاهر يدعو العقول الفلسفية إلى البحث والتنقيب ، وهذا هو الذى كان بالفعل . إذ بدأت الروح الفلسفية تسرى بين البيئات المصرية المفكرة منذ ذلك العهد المتغلغل فى غيابات الماضى فاهتدت إلى حل خيل اليها أنه مقبول من الوجهة العقلية ، وهو أن « هوروس » له عدة شخصيات إحداها الشخصية الدنيا التى تتقمص جسد فرعون ؛ وثانيتها الشخصية العليا الحاكمة فى عالم الآخرة ؛ وثالثتها الشخصية الوسطى وهى التى تقوم بنصيحة الشخصية الدنيا فى جسدها الجديد . وبهذا تنحل المشكلة ويزول التناقض .

لم يكن المصريون كغيرهم من الأمم القديمة يعتقدون أن الجسم الفرعونى بعد مغادرة الروح إياه يصبح جيفة كأجسام بقية البشر والحيوانات ، وإنما كانوا يرون أن حلول روح القدس فيها تكسبها شرفا خالداو بركة أبدية . ولهذا فبقدر ما يبقى جسم الملك محفوظاً فى قبره تنتشر السعادة ويعم الخير فى مصر ، وهذا هو الإدراك الأول الذى كان يعاصر مبدأ المملكة القديمة ، أما بعد هذا العهد بقليل فقد انتقل تقديس الروح من دائرة الملوك الضيقة إلى جميع الأرواح البشرية وأخذ المفكرون يترقون فى الروحية حتى بلغوا فيها الأوج الذى سنشير إليه فيما بعد .

وقد كانت الروح تعنى بأن يترك فى الجسم فرجة ، لتستطيع العودة اليه منها متى شاءت الرجوع من عالم « أوزوريس » إلى عالم الدنيا ، ولكن هذه العودة لم تكن محبوبة عند الروح إلا إبان صلاحية الجسم لها ، فإذا يبست « المومياء » وتقلص جلدها وانكمشت أعصابها وفقدت هذه الصلاحية تأخرت الروح عن المجىء إلى الجسم ، وهذه خسارة كبرى كانت أحد الدوافع التى حملت المصريين على الدقة فى صنع التماثيل بعد التحنيط .

وكان عالم « أوزيريس » فى أول عهد المصريين بهذه العقيدة عالما قاسيا محفوفا بالأشواك والمخاطر حتى على فرعون نفسه ، إذ كانت روحه لا تمر إلى مملكة « أوزيريس » إلا بعد أن تجتاز عدة عقبات ومصاعب تنشأ من أسئلة دقيقة ومحاسبات عسيرة يوجهها الحارس المكلف بمحاسبة المارة ، وكانت هذه المملكة فى عقيدة المصريين تحت الأرض وكان يجب أن يمر إليها الفراعنة ، ومن فى حكمهم ، ليستمتعوا بعد اجتياز عقباتها بالنعيم المقيم فى عالم الخلود .

ولما رأى الكهنة أن فرعون يقاسى قبل الوصول إلى امبراطورية « أوزيريس » أهوالا صعابا أشاروا بأن تتلى عند دفن المومياء الملكية التعاويذ التى تلتها « إيزيس » على جسم زوجها أوزيريس فأعادته إلى الحياة ، أو أن تكتب هذه التعاويذ وتوضع مع المومياء فى مقرها الأخير ، ليعود فرعون فى سهولة إلى الحياة ليجتاز العقبات إلى مملكة الآخرة

ولما ارتقت الديانة المصرية تطورت هذه الشعيرة فانتقل فرعون من مملكة « أوزيريس » إلى مملكة « رع » كبير الآلهة وترك الأولى لأفراد الشعب الذين يجب أن يجتازوا الصراط جميعاً إلى المملكة وأن يمر بهم ما كان فى العهد القديم خاصاً بفرعون أما فرعون فقد أصبح فى العقيدة الجديدة قميناً بأن يذهب إلى المملكة الساطعة كما كانوا يسمونها . وكان يستعين على الصعود إليها فى السماء تارة بجناحى « هوروس » وأخرى بجناحى « توت » وثالثة بسلم يحضره إليه الآلهة ، وهو سلم طويل يتصل أوله بمملكة « أوزيريس » تحت الأرض وتلامس قمة مملكة « رع » فى السماء فاذا وصل إلى هذا المقر الالهى ظل فيه زمناً يحمل أسم « هوروس » ويستمتع بامتيازاته ، ثم ارتقى بعد ذلك إلى منزلة « رع » نفسه وامتزج به واتحد فيه اتحاداً كلياً . ومنذ أن ظهرت فى الديانة المصرية هذه الصلة بين « رع » وفرعون حصل فيها تطور وانقلاب عظيمان إذ أصبح « رع » هو الذى يطوف بالملكة ليلا ثم يتغشاها قبل حملها بالملك المقبل . وهكذا اصبح « رع » هو الأب المباشر لفراعنة الدنيا وهو الكل الأعظم الذى يتلاشون فيه فى الآخرة

هل نشأ التطور الدينى الجديد من الفلسفة أو الفلسفة هى التى نشأت من هذا التطور ؟

اختلف الباحثون من العلماء فى هذه النقطة فى الاجابة على هذا السؤال اختلافاً شديداً، فأجاب الفريق الأول وهم الأكثرية العظمى من الباحثين بأن الأصل هو التطور الدينى وأن الفلسفة ناشئة عن هذا التطور ووليدة احتكاك الأفكار حوله كما حدث فى مسألة تعدد شخصيات روح «هوروس» التى أسلفنا لك الحديث عنها. وأجاب الفريق الثانى إجابة مباينة لرأى الفريق الأول تمام المباينة فقرروا أن التفكير الحر هو الذى سبق إلى إنشاء نظريات فلسفية لم يجد الدين بدأً من أن يتجه نحوها ويصبغها بلونه. وإليك بيان هذين المذهبين:

المذهب الأول

لما سرت عقيدة امتزاج الآلهة التى ترجع بالتعدد إلى أصل واحد وقالت بالثالوث المكون من: «أوزيريس» و«إيزيس» و«هوروس» الثلاثة الراجعين إلى واحد، ثم تطورت من التثليث الموحد إلى التتسيع الموحد كذلك، فقالت بتسعة آلهة يرجعون فى النهاية إلى إله واحد، حدث اضطراب فى الأفكار، وتناقضت العقيدة مع العقل وكاد يحدث بينهما تناقض خطير لولا أن أخذ المفكرون يفلسفون ويسلكون الممكن والمستحيل من السبل ليوفقوا بين العقل والعقيدة ولكنهم أخضعوا العقيدة للعقل، بل وللعقل الواقعى أو الطبيعى حيث قرروا أن الماء هو «الكاؤوس» المبهم أو العنصر الأول المشتمل على جميع ما فى الكون من عناصر، وأنه كان ولا شىء معه لا آلهة ولا أناسى، وأول من ظهر من الماء هو «رع» الذى لم يلبث أن تمركز وكون الشمس، ذلك الكوكب العظيم الذى من فعله ظهر إلهان عظيمان هما: «سو» أى الهواء و«تيفنيه» أى الفراغ. ومن اجتماع هذين الإلهين تولد إلهان آخران هما: «جيب» أى الأرض و«نوت» أى السماء، ومن اجتماع هذين الإلهين أيضاً نشأ أربعة آلهة كل اثنين منها على طرفى نقيض من الآخرين. فأما الزوج الأول فهو «أوزيريس» أى النيل، و«إيزيس» أى الأرض المخصبة؛ وأما الزوج الثانى فهو «سيت» أى الصحراء، و«نيفتيس» أى الأرض القاحلة، وهذه هى الآلهة التسعة الراجعة إلى واحد والتى كان المصريون يطلقون عليها: «L. Enneade» أى المتسع أو التاسوع المقدس. ولم يكن هذا التاسوع هو كل ما عند المصريين من آلهة وإنما كان هيئة رياسة عليا لجمهور كبير من صغار الآلهة وأنصافها

المذهب الثانى

ذهب جماعة من العلماء نخص منهم بالذكر الأستاذ «ألكسندر موريه» المستمصر الكبير إلى أن التاسوع لم يكن هو الأصل كما فهم العلماء الآخرون، وإنما اكتشف العقل المصرى القوى المتمدين تسع قوى من قوى الطبيعة هى الشمس والهواء والفراغ والأرض والسماء والنيل والخصوبة والجدب والصحراء ثم أسندوا إلى هذه القوى كل أفاعيل الكون، ولما رأوا أن هذا التفكير الفلسفى ليس فى متناول أذهان العامة لم يسعهم إلا أن يؤلهوا هذه القوى، وأن يطلقوا عليها أسماء مقدسة لتفهمها الجماهير هى نفسها حين رأت هذا التقدير العظيم من جانب العلماء لتلك القوى أولته تأويلا دينياً يتفق مع عاطفتها الفطرية التى لا تقدس إلا المعبودات؛ وفى كلتا الحالتين يكون العقل المصرى العلمى هو الذى أوجد التاسوع، لا التاسوع هو الذى أوجد التفكير فى قوى الطبيعة كما يذهب الفريق الأول.

(يتبع) **محمد غلاب**

مدخل الفردوس المفقود

لملتون

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

يا ربة الشعر أنشدينا :
كيف كان من الانسان أول العصيان ؟
ما تلكم الشجرة الحرام وما جناها ؟
فقطفها الفاني أورَدَ الأرضَ الفناء ،
وأضعنا به عدَناً ، وعانينا ما نلاقي من عناء .
وهكذا نظل حتى يبعثنا نبي عظيم ، فيسترد لنا دار النعيم .
غردي ! يا من أوحيت إلى موسى ،
في جنح الذُّرى من « حوريب » أو « طور سينين » ،
فألهمت ذيّاك الراعي ، الذي علّم القبيل المصطفى
كيف استقام في الأزل العماءُ ، فجاءت منه الأرض والسماء .
فان استطبت سماوة « الصهيون » .
حيث غدير « سلوى » تدفق واثباً حيال بيت الله ،
فاياكِ ثمت أستعين على نشيدي العصيب
الذي اعتَزَمَ ألا يلوى في تحوامه
حتى يحلق صاعداً فوق سامق « أونيا » ،
ينشد غاية لم يحاولها قبلُ نثرٌ ولا قصيد .
أنت على الخصوص ياذا « الروحُ » ، اليك أنحو !
يا من يؤثر على جلاميد المعابد طهر القلب والتقوى ،
فأتني العلم إنك أنت العليم .
قد شهدتَ الوجود منذ فاتحة الوجود ،
وجلستَ في وداعة الورقاء ، باسطاً جناحيك العاتيين ،
تأمّلُ « المهوى » الرحيب ، حتى أثقلته فكراً وشعراً .
فاجلُ ياذا الروح قاتمي . وارفع وطيء دعائمي ،
علَّيَّ بهذا المقال الجليل أبلغ شأواً ،
فأكون « للحكمة السرمدية » ترجماناً

ولرحمة الله بالانسان برهاناً .
ألا حدثينا ـ فليست تخفى الجنة عنك شيئاً ، كلا ، ولا مهوى
الجحيم السحيق ـ حدثينا
عن أبوينا الأولَيْن : ماذا دعاهما ، إذ هما يرفلان في
ذاك النعيم ،
وإذ هما عند الله أقرب المقربين ، ماذا دعاهما
أن يهجرا « البارى » فيهويا ؟ وان يعصيا مشيئة الله
لمحظور واحد ، لولاه لسيطرا على العالمين ؟
من ذا أغواهما بدئاً بذاك العقوق الذميم ؟
إنه « الأرقم » الرجيم ثارت غيلته
حقداً ووتراً ، فمكر بأم البشر
حين ألقاه الغرور من الفردوس طريداً ،
وفي أعقابه عصبة الملائكة الثائرين .
فتطاول أن يفضُل في السلطان سائر الاخدان
وطمع بعونهم أن يضارع « العلى العظيم » ،
أن عصاه : ثم دعاه الأمل الطامع في العرش والملكوت
أن يثير في الجنة حرباً وقودها الغرور والفجور
فخاب الرجاء ؛ إذ طوح به الله ذو الجبروت
فهوى من علياء السماء يتقد لهيباً ،
يروع القلب منه ما احترق وما انحطم ؛
وتردى في هاوية ما لها من قرار ، بها يأوي
مغلولا بصم السلاسل يصطلي النار جزاء
بما حدثته النفس أن يناجز « القوى القدير » ،
وفي قرار مهواه تسع فضاوات
مما يذرع به الأناسي خطو الليل والنهار
تردى الأثيم هزيلا بصحبة شيعته
يتقلب في حمأة الجحيم ، لعيناً خالداً في لعنته ؛
ثم قضى نحسه أن ينال من غضب الله المزيد
فأخذت تضنيه لوعة النعيم المفقود ، وتشقيه لذعة العذاب
الموجود . وطفق يجيل البصر الذي يقدح الشرر
والذي شهد ماشهد من أليم الكرب والكدر

وفى نظراته الغرور العنيد والمقت الشديد
فسرعان مارأى — ماوسع الملائكة النظر —
رأى ما حوله موحشاً قفراً يبابا
ورآه فى جب مخيف التهبت جوانبه التهاباً
كأنه أتون سحيق مستعر. ناره لاتبعث النور،
فإن هو إلا ظلام منظور، كأنما أضىء ليضىء
مشاهد الغم ومطارح الهم وأشباح الأسى
حيث الدعة والسلام لايجدان مقراً
وحيث لايشرق الأمل الذى يشرق على العالمين أجمعين،
فهو ماينفك يصلى عذاباً مقيما وطوفاناً من حميم
تغذو لظاه شواظ أبدا تذكو ولا تخبو
فذلك مستقر أولئك العصاة كما أراده عدل الإله
حيث أعِدّ لهم سجن محلولك داج
مُقامهم فيه ينأى عن الله وعن نور السماء
ثلاثة أمثال ماينأى قلب الأرض عن قطبها الأقصى
فيا بعد مأواهم عن الذى كان منه مهواهم!
وهنا لك سرعان ماشهد الأثيم رفاق هُوِيه
يحتويهم الطوفان وتغمرهم الأعاصير ونار السعير؛
ورأى إلى جواره يتلوى من يتلوه سلطاناً وعصياناً
ومن عرفته أرض القدس بعدئذ باسم «أبليس»
فاتجه إليه كبير أعداء الله:
من سُمّى فى السماء منذ ذلك الحين «شيطانا»،
والتى عبارة جريئة دوت فى ذلك السكون الرهيب، فقال:
«أفأنت هو؟ — إذن ياويلتاه! الشدما زللت وما تبدلت! —
ألا إن كنتَ مَنْ فى دار النور والنعيم
كان متشحاً بهالة من سنىّ الضياء
أخمدت بسناها الألوف من مشرق الوجوه —
لئن كنتَ من وشجنى به يوما
تبادل العهد، واجتماع الرأى والكلمة، واتحاد الأمل،
وآصرتنا غمرات هذا المطلب الجليل،

فهاهى ذى أواصر الشقاء توشج اليوم بيننا، فتوحدُ هلكنا.
أفرأيت إلى أى هاوية أوينا، ومن أى الذرى هوينا؟
ألا إن الله فى غضبته، ساق الدليل على رجحان قوته؛
فَمن قبلئذ كان يدرى كم تبطش تانك الذراعان العتيّتان؟
ولكنى على ذاك لست بنادم، وإن صبّ علينا «الظافر» القادر
ما استطاع فى سورته من صنوف العذاب
فعزمى المصمم لن يحول. وإن حال منى رونق الإهاب؛
ولن أبدل ما أثاره حق الهضيم فى نفسى من أبى الكبرياء
التى سموت بها فنازلت «أقوى الأقوياء»،
واستعْدَيتُ معى فى النزال عرمرما
من «الأرواح» شاكى السلاح
الذين استبسلوا فكانوا على حكم الله مارقين،
وآثرونى من دونه. ثم قارعوه جبروتا بجبروت
حتى زلزلوا قوائم عرشه
فى حرب كانت فى حومة السماء سجالا
وماذا أن فاتنا النصر فى حومة الوغى؟
فإنا بذلك لم نفقد كل شىء —
وهل يكون هزيما، من له هذا العزم الحديد
والثأر السديد والمقت الذى لا يزول؟
ومن له هذا الجنان الذى لا يلين ولا يحول؟
ذاك نصر لن يسلبنيه الله بسورته أو صولته
فما كان أخسها ضعة،
لو أنى جثوت له مسترحما وركعت ضارعا،
أو أنى خشعت لصولته،
وهو الذى ارتاع لهذى الذراع منذ هنيهة
حتى ارتاب فى دولته!
أما وقد شاء القضاء لسطوة الآلهة ألا تدول،
ولهذه الجحيم ألا تزول،
وبعد أن عجمتنا خطوب هذا الحدث الجسيم،
فازددنا به رشادا وما فُلّ لنا سلاح
وما يزال يحدونا زاهر الرجاء،
فلنُشِرْها على عدونا الألدّ – بالقتل أو الختل – حرباعوانا،

إنه أصاب النصر فانتشى جذلا
أن رآه طليق الحكم ، فطغى فى السماء »

هكذا قال « الملكُ » الكافر ، برغم ما يشقيه من العذاب
مختالا يصول ، وإن يكن خطيم النفس باليأس العميق ،
فلم يلبث رفيقه الجرىء أن أجاب : —

« مولاى ! وأنت زعيم العديد من العتاة متوجين
قدتَ إلى الوغى تحت لوائك « السيروفيم » مدججين
وتهددت رب السماء الدائم بالخطر
فأقمت الدليل على رفيع جلاله
سواء أكان بالحق أم بالحظ أم بالقدر .
ياويح نفسى أن ترى جليا هذا الخطب الرهيب
الذى طوَّحنا فأشجانا وهزمنا فأردانا
وأضاع منا الجنة ، وهوينا به إلى هذا الحضيض
يهدنا ، ونحن المعشر القوى ، هلاك مبيد
ما بادت الأرباب وكائنات السماء :
فلا يزال الروح والعقل منا عن الهلك فى حرز حريز
وسرعان ماسترد العنفوان المفقود ، وأما المجد فلن يعود
وسالف النعيم قد استأصله الشقاء الموجود .
ولكن لم لا يكون الله وهو لنا « قاهر »
(فقد آمنت أنه على كل شىء قادر ،
إذ ما كان يستطيع أن يدك قوانا سوى مطلق قدرته)
لم لا يكون الله قد أبقى على نفوسنا وقوانا ،
فلم ينتقصها ليشتد أذانا ونضطلع بمر العذاب
لكى يُرضى فينا غيظه الناقم
أو ليامرنا بما شاء من فادح الأعمال ، فنستطيع الأداء ؟
فقد أمسينا له بحق النصر عبيدا أرقاء ،
إن شاء اصطلينا النار فى قلب الجحيم
وإن شاء سَخَّرنا فى اللج البهيم
فإن أحسسنا بالقوة موفورة ، فاين فى ذلك الغَنَاء ؟
وهل أجدى علينا خلود البقاء إلا دوام الشقاء ؟ »

زكى نجيب محمود

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشة

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

أحقاد

أفتقيمون للحق دليلا من اقتحام أحد الناس للهب فى سبيل تعاليمه ؟ وهل لمثل هذا التعليم ماللعقيدة التى تتولد متقدة من لهبها نفسه . إذا ما تلاقى رأس بارد بقلب مضطرم نشأت من التقائهما تلك العاصفة التى يدعوها الناس مخلصا . ولكم وجد على الأرض من رجل أعرق منشأ وأرفع مقاماً ممن يدعوهم الشعب مخلصين ، وما كان هؤلاء المخلصون إلا عاصفات كاسحات تهب متوالية على الأرض

إذا ما كنتم تنشدون سبل الحرية ، أيها الأخوة ، فعليكم أن تنقذوا أنفسكم حتى ممن يفوقون هؤلاء المخلصين عظمة ومجداً . فإن الانسان الكامل لم يظهر على الأرض بعد . لقد حدقت باعظم رجل وبأحقر رجل عن كثب وهما عاريان فظهرا لعيانى متشابهين ، بل رأيت أعظمها أشد توغلا فى المعائب البشرية من الآخرين .

هكذا تكلم زارا . . .

الفضلاء

لا ينبه الشعور الغافل إلا الأرعاد والأبراق ، وما تكلم الجمال إلا بنبرات هامسة لا تنفد إلا إلى أشد الأرواح انتباهاً

أسمعتنى عصمتى اليوم ضحكة تعالت فيها قهقهة الجمال السامية . فجمالى يسخر بكم ، أيها الفضلاء ، إذ سمعته يقول : — إنهم يطلبون لفضائلهم ثمناً .

إنكم تتقاضون ثمن فضيلتكم وتطالبون بالجزاء ، أيها الفضلاء ، طامحين إلى امتلاك أماكن فى السماء ، بدلا من أماكن فى الأرض ، وإلى الظفر بالأبدية بدلا من الدهر الزائل .

إنكم لتحقدون على لأنى أعلم الناس أن ليس هنالك

لاحسيب ولا مثيب ، والحق أنى أمتنع عن القول بالثواب بل أذهب إلى أبعد من هذا فأقول أن ليس للفضيلة ماتجزى به نفسها جميل الجزاء .

إن ما يؤلمني هو أن العقاب والثواب قد دسا دسا فى غاية كل أمر ، بل حشرا حشراً فى أعماق نفوسكم ، أيها الفضلاء . ولكن لكلمتى أن تشق أعماق هذه النفوس ذاهبة فيها كقرن الوعل وكالسكة تشق الأرض لتحرثها . فلتتكشف نفوسكم عن خفاياها أمام النور ، لأن الحقيقة لن تنفصل عن الضلال فيكم حتى تنطرحوا عراة تحت شعاع الشمس . ذلك لأن حقيقة ذاتكم إنما هي أطهر من أن تسمح بتدنسكم بكلمات الانتقام والعقاب والمكافأة والمقابلة بالمثل .

إنكم تحبون فضيلتكم كما تحب الأم طفلها ، وهل سمعتم أن أما طلبت مكافأة على عطف الأمومة فيها ؟

هل فضيلتكم إلا ذاتكم نفسها وهى أعز ما لكم ؛ وما أمنيتكم إلا أمنية الحلقة التى لاتلتوى وتستدير إلا ليصبح أخرها أولا لها .

إن كل عمل ينشأ عن فضيلتكم إنما هو بمثابة نور كوكب يعروه الانطفاء ، فما يزال نوره يخترق مجراه فى الأفلاك ، وليس من حد ينتهى سيره إليه . وهكذا لن تزال أشعة فضيلتكم سائرة فى سبيلها حتى بعد انتهاء عملها وتواريه فى عالم النسيان ، لأن إشعاع الفضيلة مستمر لا يعروه زوال .

لتكن فضيلتكم تعبيراً عن ذاتكم وما تلك غريبة عن هذه فلا تحسبوا أنها جلد ورداء .

هذه هى حقيقة روحكم الكامنة ، أيها العقلاء . ولكن من الناس من يخيل له أن الفضيلة عبارة عن تشنج تحت السياط الجالدة ، ولطالما سمعتم صياح هؤلاء الواهمين .

ومن الناس من يرى الفضيلة فى الكسل والرزيلة ، وما ينتبه عدلهم إلا عند ما يتثاءب حقدهم وحسدهم ؛ عندئذ يفركون أجفانهم وقد أثقلها النعاس .

من الناس من تشدهم شياطينهم إلى أسفل فكلما تدهوروا على الدركات زادت أحداقهم توهجاً وتزايد شوقهم إلى ربهم . إن صوت هؤلاء المتدهورين يبلغ آذانكم .

أيها الفضلاء وهم يصيحون : ـ إن كل ما هو خارج عن كيانى إنما هو الله وإنما هو الفضيلة .

وهنالك آخرون يتقدمون مثقلين مقرقعين كأنهم عجلات تحمل صخوراً إلى الوادى ، وهؤلاء الناس لا ينون يتكلمون عن الفضيلة ، وما الفضيلة فى عرفهم إلا عبارة عن كابح عجلاتهم .

وهنالك قوم أشبه بالساعات يربط زنبركها فتسمعك تكتكتها وهم يريدون أن تدعى حركتهم الآلية فضيلة . إننى ألهو بمشاهدة مثل هذه الساعات لأننى ما صادفتها مرة إلا ربطت زنبركها بتهكمى وأكرهتها على تحريك رقاصها .

وهنالك المغترون بذرة من العدل ترتفع فيهم على جبل من الدعوى فتراهم يجدفون على كل شىء إلى أن يغرقوا العالم بظلمهم ؛ وما تخرج كلمة الفضيلة من أفواه هؤلاء الناس إلا وتحسب أنهم يتجشأونها ، واذا قال أحدهم : ـ لقد عدلت ، فكأنه يقول : ـ انتقمت .

هؤلاء من يريدون أن يفقأوا أعين أعدائهم بفضيلتهم وما يطلبون من الاعتلاء إلا إسقاط سائر الناس .

وهنالك أيضاً من يدب اليهم الفساد كأنهم ماء آسن فى المستنقعات ، يختفون بين المناصب منادين بالفضيلة كأنها جمود فى المستنقعات . فهولاء الناس يعلنون أنهم لا ينهشون أحداً ويتحاشون الالتقاء بالناهشين ، فاذا عرض عليهم أى رأى أخذوا به تفادياً لكل أخذ ورد .

وهنالك عشاق الحركات المعتقدون بأن الفضيلة نوع من الايمان فتراهم فى كل حين جاثين على ركبهم وقد قبضت إحدى راحتيهما على الأخرى تمجيداً للفضيلة وما يدرك قلبهم منها شيئاً .

وهنالك من يرون الفضيلة فى القول بلزوم الفضيلة وهم لا يعتقدون إلا بلزوم ردع الشر بالقوة .

وبعض من امتنع عليهم إدراك ما فى الانسان من صفات عليا لا يذكرون الفضيلة إلا عند ما يحدقون بما فيه من دنايا وهكذا لا تنشأ فضيلة هؤلاء القوم إلا من عيوب عيونهم .

من الناس من يطلب المعرفة وتقويم ما التوى فيه فيدعو هذه النزعة فضيلة ؛ ومنهم من يطلب قلب كيانه رأساً على عقب فيدعو هذه الرغبة فضيلة أيضاً ، وهكذا ترى الجميع يعتقدون بوجود الفضيلة فى ناحية من نواحى كيانهم وتراهم يتجهون إلى معرفة ما فيهم من خير وشر . غير أن زارا قد جاء

شاعر الاسلام محمد عاكف

للدكتور عبد الوهاب عزام

تتمة

عرف قراء الرسالة الموضوعات التى عالجها الشاعر الكبير فى ديوانه « الصفحات » كما عرفوا من قبل مثلا من شعره . واليوم أقدم لهم مثالا من شعره الاجتماعى الذى يصور فيه الواقعات الصغيرة والحادثات الجارية التى لا يأبه لها الناس كثيرا ، وهى قطعة من الجزء الأول من الصفحات .

وينبغى أن يذكر القارىء ما ينال الشعر حين يترجم منثورا فيفقد كثيرا من روعته ، ولا سيما نظم عاكف الذى يذهب مثلا فى انسجامه وقدرته على تذليل كل موضوع أبى وكل معنى شامس .

كان أنصاره وخصومه مجمعين على أنه أوتى فى النظم قدرة تأبى على المحاكاة . وكان دعاة الأوزان التركية وأعداء العروض العربى يقولون لا يهزم هذا العروض حتى يقتل محمد عاكف فهو حجة دامغة تفحم كل معارض . وما ظنك برجل يصف مصارعة فينطق الشعر بحركات المصارعين وأقوالهم فى بيان سلس ونظام لاشية فيه من التكلف

السفط

قبل خمسة عشر يوما غدوت على عادتى من دارى مبكراً ومحلتنا فى أطراف استانبول فليس يستطيع السير فى أزقتها إلا من يحسن السباحة ، ما تزال تعترض سبيله بحيرة مائجة بعد أخرى . فاذا أظلم الليل فليس إلا الصبر على اللأواء ، واحتمال ما يرمى به القضاء . لا بد من قنديل فى إحدى اليدين واسقنديل فى الأخرى . هذه سبيل النجاة لا سبيل سواها

وكانت فى يدى هراوة أتحسس بها الطريق إن أصابت جزيرة وقفت ، وإن لقيت بحراً وثبت .

ويأوى دليلى الأمين إلى أطناف الدور العتيقة المتداعية ويلوذ بجدرانها فيصدم شيئاً ضخما . نظرت فاذا سفط كبير قديم . قلت سفط حمال . لمن هذا ليت شعرى ؟ ويقبل غلام فى الثالثة عشرة عامداً إلى السفط بعصا غليظة ، فما زال يرفع عصاه جاهداً ويهوى بها حرداً حتى تدحرج السفط خائراً منهوكا

— « قدمات أبى تحتك وأنت لا تزال فى وسط الزقاق جاثماً متعجرفاً » ! ! وبرزت من دار أمامنا امرأة تصف :

— ويلك يابنىّ ! هلمّ إلىّ ، كفّ . إياك أن تحطمه . مالك وللسفط يابنى ؟ إنه أخرس لا فم له ولا لسان . لقد ارتفق به أبوك سنين ثمانيا ، وكان يقول إنه سفط مبارك ، قلما بقيت تحته بغير حمل . وقد ذهب أبوك فهو اليوم كاليتيم . وستعول به أمك وأخاك . أطفل أنت ؟ ألا تعرف ما عليك ؟

قلت : — استمع يابنى إلى أمك

فصاح الصبى متجهماً : —

« ياذا اللحية ألا عمل لك ؟ اذهب من هنا إلى جهنم . اذهب إلى جميع هؤلاء المخادعين وإلى جميع هؤلاء المجانين ليقول لهم إنهم لا يعرفون عن الفضيلة شيئاً وان ليس فى وسعهم أن يعرفوها .

ما أتى زارا إلا ليشعركم بأنكم تعبتم من تكرار الأقوال القديمة التى علمكم إياها المخادعون والمجانين ، فينفركم من كلمات المكافأة والمقابلة بالمثل والعقاب والانتقام فى العدل ولتقلعوا عن القول بصلاح الأعمال عند تجردها عن الغايات

لتكن ذاتكم متجلية فى عملكم كما تتجلى الأم فى طفلها وليكن هذا التعبير ما تعرفون الفضيلة به .

والحق ، أننى انتزعت منكم كثيراً من أقوالكم وسلبتكم أعز ما تتلهون بمضغه عن الفضيلة ، ولذلك أراكم تزورون كالأطفال . وقد كنتم مثلهم تتسلون بألعابكم على الشاطىء فطغت موجة انتزعتها من بين أيديكم وحملتها إلى العباب ، فها أنتم تعولون الآن كهؤلاء الأطفال ، غير أن الأمواج ستكر راجعة حاملة اليهم ألعاباً جديدة ناثرة بين أيديهم الأصداف المخططة ، وأنتم أيضاً أيها الصحاب ستسلون مثلهم حين تأتيكم التعزية ناثرة بين أيديكم الأصداف المخططة .

هكذا تكلم زارا . . .

ما وقوفك هنا هاذيا فى هذه الغداة ؟ ان قلبى يشتعل . قد ذهب أب لى كالجبل

— ماذا تبغى الآن من رجل فى مقام أبيك ؟ اسمع يابنى . .

— دعيه ياسيدتى إنه طفل ، أنا لا أبالى ما يقول .

— ما اسمك يابنى ؟

— حسن

— اصغ ياحسن . إنك ستضير نفسك بهذه الحدة . لقد احترق قلبى يابنى حين عرف مصيبتك ، ولكن أباك قد أوصى إليك وذهب . فانظر كيف جاهد هذه السنين الطوال ورباك بعرق جبينه ! وكذلك عليك ألا تترك أخاك يتيما . عليك أن تربيه .

— بالسفط ؟ أكذلك ؟

— نعم نعم . ماهذا الكلام يابنى ؟ أعار أن تعمل ؟ ثم أن تحمل الأعباء ؟ إنما العار الاستجداء ، إنما العار أن تسأل الناس ولك يد ورجل

— ما أصدق ما قال عمك ياولدى . قبل يابنى يد عمك .

— أنسيت سريعاً ماقالته امرأة جارنا ؟ ألم تقل : « ياحسن خالى ضابط فى إحدى المدارس . ولو كلمناه مرة لأخذك إلى المدرسة . انتظر ساكله » .

فلا تعلمينى أنت واجعلينى فى هذه السن حمّالا ! !

* * *

عرفت أن الحديث طويل وأنه سيزداد طولا وكانت مشاغلى كثيرة ذلك اليوم فتركتهما .

ليت شعرى ماخطب حسن المسكين اليوم ؟

لى بنية عرمة لاتستقر فى الدار . خرجت بها إلى الفاتح ، بعد العصر بقليل . فبينا ندخل من باب الفحامين راق البنية منظر الجمل ، تعجب من هذا البدن المعوج ، وذلك العنق المفرط فى الطول . وهذه الأرجل ، وهذا الذيل المعلق من خلفه ـ هذا الذيل أليس هذا كله عجيبا ؟

التفت ورائى فاذا على خطوات منا شيخ ربعة ، وضاء الوجه مشرق السيما . قد لف على وسطه شالا ، وعلى رأسه يابانية . وبجانبه صبى ينوء تحت سفط كبير . أقبلا يمشيان الهوينى . فواعجبا ! هذا هو الصبى الذى رأيته ذلك الصباح . .

أى مرأى ! مرأى يذيب القلب ويذهب باللب : رجلان هزيلتان عاريتان إلى الركبتين ، وبدن يرعد تحت ثوب رقيق يكاد يتجمد من البرد . وقدم حافية ، ورأس حاسر . لم تكن نفسا هذه اللهثات ولكن أنينا مديدا ، ولم تكن نظرا هذه اللمحات ولكن بكاء شديدا . ياله بؤسا حافيا حاسرا . وإنه لحسرة ذلك الجبين المجعد فى الثالثة عشرة .

* * *

ويخرج من المدرسة الرشدية أفواج من الطلبة قد انتظموا صفوفا . وساروا قليلا ثم وقفوا . ما أقسى هذا المنظر على قلب حسن التعيس ! أجل غلمان تفيض منهم نغمات النعمة والشباب يطير كل منهم إلى عشه السعيد . وسيفرغون للعب عما قليل . هؤلاء سعداء ، وأما حسن فسيحمل أبدا على كتف الفاقة هذا السفط المشئوم الذى ورثه عن أبيه ـ السفط الذى أراد أن يحطمه حين بصر به فى طريقه .

ليس هذا حِملا ولكنه عقاب القدر لهذا البرئ

واحسرتاه ، ما ذنبه ، ماذنب هذا المعاقب الذى لا يدرى ما ذنبه ؟

عبد الوهاب عزام

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٥٠ — الطبيب أبو المنذر نعمان

قال ابن فارس : سمعت أبا الحسن السروجي يقول : كان عندنا طبيب يسمى نعمان ويكنى أبا المنذر فقال فيه صديق لى :

أقول لنعمان وقد ساق طبُّه
نفوساً نفيسات إلى باطن الأرض
« أبا منذر ، أفنيتَ فاستبق بعضاً
حنانيك بعض الشر أهون من بعض ! »

٥١ — قبل أن تكدره الخلائق بأنفاسها

قال الأصمعي : كانت امرأة من العرب تأتى بصبية لها كل يوم قبل الصبح ، فتقف بهم على تل عال وتقول : أىْ بنيّ ، خذوا صفو هذا النسيم قبل أن تكدره الخلائق بأنفاسها

٥٢ — لو رقد المخمور فيه لصحا

قال الثعالبي فى (اليتيمة) :

قرأت فى بعض الكتب عن ابن حمدون قال : كان الفتح ابن خاقان يأنس بى ، ويطلعنى على الخاص من سره ، فقال لى مرة : أشعرتَ يا أباعبد الله ، إنى انصرفت البارحة من مجلس أمير المؤمنين فلما دخلت منزلى استقبلتنى فلانة (يعنى جارية له) فلم أتمالك أن قبلتها ، فوجدت فيما بين شفتيها هواء لو رقد المخموم فيه لصحا

فكان هذا مما يستحسن ويستظرف من كلام الفتح . وكأنّ الوأواء قد سمع ذلك فنظمه فى قوله :

سقى الله ليلا طاب إذ زار طيفه
فأفنيته حتى الصباح عناقا
بطيب نسيم منه يُستجلب الكرى
ولو رقد المخمور فيه أفاقا

٥٣ — الجندى العربى المجهول

فى (عيون الأخبار) :

حاصر مسلمة بن عبد الملك حصنا فندب الناسَ إلى نَقْب (١) منه فما دخله أحد . فجاء رجل من عَرَض الجيش (٢) فدخله ففتحه الله عليهم ، فنادى مسلمة أين صاحب النقب ؟ فما جاءه أحد . فنادى انى قد أمرت الآذن بادخاله ساعة يأتى فعزمت عليه إلا جاء . فجاء رجل فقال استأذن لى على الأمير فقال له أنت صاحب النقب ؟

قال أنا أخبركم عنه

فأتى مسلمة فأخبره فأذن له ، فقال له . إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً :

(١) ألا تسودوا اسمه فى صحيفة إلى الخليفة
(٢) ولا تأمروا له بشىء
(٣) ولا تسألوه ممن هو

قال : فذاك له

قال أنا هو

فكان مسلمة لا يصلى بعدها صلاة إلا قال : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب

٥٤ — لا تظنوا أننى أسلو

أبو الوليد بن الجنان محمد بن الشرف من شعراء الملك الناصر صاحب (مصر) والشام :

أنا من سكر هواهم ثمل — لا أبالى هجروا أم وصلوا
فبشعرى وحديثى فيهم — زمزم الحادى وسار المثل
إن عشاق الحمى تعرفنى — والحمى يعرفنى والطلل
رحلوا عن ربع عينى فلذا — ادمعى عن مقلتى ترتحل
مالها قد فارقت أوطانها — وهى ليست لحماهم تصل ؟
لا تظنوا أننى أسلو فما — مذهبى عن حبكم ينتقل

٥٥ — الأب والابن والروح القدس

كان أبو نواس يوما جالسا وفى يده كأس خمر ، وعن

(١) النقب : الثقب جمعه نقاب وأنقاب
(٢) من عرض الجيش : من وسطه أو طرفه

يمينه عنقود، وعن يساره زبيب . فقيل له ما هذا ؟

فقال : الأب والابن والروح القدس

٥٦ — ويرحم القبح فيهواه

قال جعفر بن قدامة : كنا عنـد ابن المعتز يوما ومعنا النميرى ، وعنده جارية لبعض بنات المغنين تغنيه وكانت محسنة إلا أنها كانت فى غاية من القبح ، فجعل عبدالله (أى ابن المعتز) يجمشها (١) ، ويتعلق بها . فلما قامت قال له النميرى : أيها الأمير، سألتك بالله أتعشق هذه التى ما رأيت قط أقبح منها ؟

فقال عبد الله وهو يضحك :

قلبى وثاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئا فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغى ويرحم القبح فيهواه

٥٧ — يا كذاب !

قال رجل لامرأة : قد أخذت بمجامع قلبى فلست أستحسن سواك

فقالت : إن لى أختا هى أحسن منى وها هى خلفى . فالتفت الرجل فقالت : يا كذاب ! تدعى هوانا ، وفيك فضل لسوانا

٥٨ — هذه أنفاس ريا جلقا

قال ابن الكتبى فى (فوات الوفيات) :

قال بعضهم : مررت يوما ببعض شوارع القاهرة وقد ظهرت جمال حمولها تفاح فتحى من الشام ، فعبقت روائح تلك الحمول . فأ كثرت التلفت لها ، وكان أمامى امرأة سائرة ففطنت لما دخلنى من الإعجاب بتلك الرائحة فأومأت إلى وقالت : هذه أنفاس ريا جلّقا (٢)

٥٩ — يا نسيما هب مسكا عبقا

قال السلمى الدمشقى المعروف بالبديع (وقد اشتهرت هذه الأبيات ، وغنى بها المغنون) :

يا نسيما هب مسكا عبقا هـــذه أنفاس ريا جلقا
كف عنى (والهوى) مازادنى برد أنفاسك ألا حُرَقا

(١) الجش والتجميش : المغازلة والملاعبة .

(٢) جلق (بكسر اللام وفتحها والتشديد) اسم دمشق قال حسان :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول

وفى (قاموس) المجد : جلق دمشق او غوطها

ليت شعرى نقضت أحبابنا (يا حبيب النفس) ذاك الموثقا؟
يا رياح الشوق ، سوقى نحوهم عارضاً من سحب عينى غدقا (١)
وانثرى عقـد دموع طالما كان منظوما بأيام اللقا

٦٠ — لأجل هذا البيت الواحد

وفد أبو الفضل بن شرف بن برجة على المعتصم (صاحب المرية) يشكو عاملا ناقشه فى قرية يحرث فيها وأنشده الرائية التى مطلعها :

قامت تجر ذيول العصب والحبر
ضعيفة الخصر والميثاق والنظر (٢)

إلى أن بلغ إلى قوله :

لم يبق للجور فى أيامهم أثر
غير الذى فى عيون الغيد من حور

فقال له : كم بيتا فى القرية التى تحرث فيها ؟

قال فيها نحو خمسين بيتا

قال : أنا أسوغك جميعها لأجل هذا البيت الواحد ، ثم وقع له بها ، وعزل عنها نظر كل وال

(١) الغدق : الماء الكثير

(٢) (العصب) : برد يصبغ غزله ثم ينسج . ولا يثنى ولا يجمع وإنما يثنى ويجمع ما يضاف اليه يقال بردا عصب وبرود عصب . وربما اكتفوا بأن يقولوا عليه العصب (المصباح ، اللسان)



رسالة الشعر



وحى الربيع !

للسيد حلمى اللحام

فتنة الغوطة :

ماجت الغوطة الأنيسة بالحسن وفاضت شذاً، وسالت غناء
غمغمات بين العشاش، وهمس في زوايا الغصون يندى ولاء
ليت شعرى ماذا تمتم هذى الطير، فوق الربا، صباح مساء!
أترى أرسل النسيم نداء الحب في سرها، فحنت وفاء؟
أم سرى العطر فاغماً فانتشت منه وناحت، رياضة الغناء!
أم حباها الربيع أحلى معانيه، فراحت تعيدها أصداء؟!
وعلى أفيح المروج عذارى يترشفن الأظلال والأنداء
ويصورن في الضمائر أطيافاً هوى تترع الوجود رواء
ويغنين هائمات نشاوى فيميد الروض الأغن اشتهاء!
ويدغدغن ذكريات أخى الحب، فيهوى فؤاده إعياء...

دنيا الشاعر :

شاعر مرهف الشعور، حنون اللحن، يهوى الخيال والأوهاما
عينه ترمق السماء فهل فارقها حلمها، فهامت هياما؟
أم سبى عالم الأشعة جفنيها، فحامت ترنو فيه مقاما!
قلبه جذوة من الحق والنور تشع الهدى، وتجلو الظلاما
إن غفا المجد أشعل الثورة الحمراء، كالشمس، أو يذيب القتاما
أو تدجى الفضا فتانك عيناه تكادان ترشفان الغماما
روحه مزهر ينام على الأفق كزهر لم ينفض الأكماما
كلما مست النسائم منه وتراً راح يرسل الأنغاما
أيها الشاعر الطروب املأ الدنيا حبوراً وبهجة وابتساما
واسكب اللحن في النفوس كما يسرب فيها صوت الحبيب مداما!

عالم الحبيب :

ياحبيبى أطل من كوة الغيب وأشرق على الوجود صباحا
واسر في مقلتى حلماً ضحوكاً واهم في مهجتى ندى وسماحا
واذو في خاطرى نشيداً مرناً وابق في خافقى سناً لماحا
وأثر غافى الصبابات، وانكأ ذكريات الصبا، وأدم الجراحا
لا يسيل الغناء من مهجة الشاعر إلا إذا استحر نواحا
والأمانى لا تجنح إلا بشجون الغرام: عزت جناحا
واسقنى من دم ابنة الكرم، واسكب في دمى من صدى غنائك راحا
وأرق من شعاع عينيك في روحى ضياء، ونشوة، ومراحا
زرقة يسبغ الصفاء عليها من غلالاته الرقاق وشاحا
أنا منها في زورق يمخر اليم، وبدر السماء في الأفق لاحا

ضحكة الربيع :

ياحبيبى تعال نغنم صبا العمر، ونكرع كؤوسه والدنانا
ونغن الشباب أعذب ألحان التصابى، ونطرب الأكوانا
ماترى ضحكة الربيع على السهل، وزهو الجواء، والألوانا
نبضت بالحياة خضر التعاشيب. ورف الندى عليها جمانا
ألق يبهر العيون سناه ورؤى حلوة تفيض حنانا!
أى كف سمحاء نضرت الأفق، ووشت وجه الثرى العريانا
أى سر في الزهر يبعث الحب ويحيى المنى ويذكى الجنانا

هو فى مرشف المحب كثغر الحـــب ، يرمى فؤاده نشوانا
وهو فى ناظريه صورة طيف   علق الطرف لحظة ثم بانا
ليتنا بلبلان يغمرنا الصفــو ، ويوحى الهوى لنا الألحانا

غناء الحب :

أيها الحب أنت فيض من الخلـــد يحيل الأسى الممض رغابا
أنت ومض الهدى على مهمه العيـــش ، يضئ الشعاب والأسرابا
أنت لحن الحياة إن رقرق الشد   و عليها زهت وطابت رحابا !
غن هذى العِشاش تندَ صبابا   ت ، وتنسج من الضحى جلبابا
وتردد فيها الحمائم والطيـــر أغانى الهوى رخاماً عذابا
غن هذى الحقول تخضل أفيا   ء ، وتهتز دوحة وجنابا
غن هذى الأزهار تطرح الأكمـــام عنها ، وتنشر الأطيابا
غن هذى القلوب حتى تحس الشـــعر ، والحسن والمنى والشبابا
كل نفس لم ترتشف من حميًا   ك تخال الحياة سمًّا مذابا
كل قلب لم تجر فيه ينابيعـــك يبق ، على الزمان ، يبابا

حلمى اللحام

أخرس ...!

للأستاذ عمر أبو ريشه

رفع الرأس للسماء وصلى   بدموع ترجرجت فى هدبه
بين شدقيه مضغة عقلتها   يوم ميلاده أنامل ربه !!
جردت عن لسانه لذة النط   ق وبثت إعجازه فى قلبه
فإذا حبه يصول عليه   وإذا بؤسه يعبث بحبه !

ooo

أخذت ثورة الكآبة تطغى   بين حالى فؤاده ولسانه
ليس يسطيع أن يبث خليلا   ما تقول الدموع فى أجفانه !
حمل العبء وحده كغريب   ضل عن أهله وعن جيرانه
تتهاوى أشلاء آماله الغر   تباعاً على خطا أحزانه
كيف يطوى سفر النعيم كئيباً   والشباب الشباب فى ريعانه ؟!

ooo

صفعت قبضة الذهول حجاه   فانثنى فى الحياة حيران تائه
أشعث الشعر لوح السهد خدَّ   يه وهز الشقاء من كبريائه
تلمح الفقر هادئاً فى زوايا   مقلتيه وثائراً فى ردائه !
يسحب الساق متعباً كعليل   هجر الدار قبل يوم شفائه
كلما جاشت اللواعج فيه   أطرق الرأس غارقاً فى شقائه !

ooo

وقف العاشق الكئيب حزيناً   يرقب الغادة الطهور إزارا
فترامت إليه من بعد لأى   فهفا لوعة وضج اصطبارا
فجثا باسطاً يديه إليها   شاكياً بالدموع حباً مثارا
فرمته .. بدرهم .. وتوارت   وسنا ثغرها يشع افترارا
رفع الرأس للسماء وأرغى
ثم أبدى ، مالست أدرى ، وسارا !

عمر أبو ريشه

القبرة

للأستاذ إبراهيم العريض

تحوم فى أفق السماء أصيلا   كنجم تراءى للعيون ضئيلا
فيتخذ الصوت الذى تستجده   مع الريح فى رحب الفضاء سبيلا
يدق على الأسماع خافت جرسه   فإن أعلنته الريح جاوز ميلا
وتدركه شيئاً فشيئاً غشاوة   من الحزن حتى يستحيل عويلا

ooo

أقبرة ! هل أنت فى الجو قطعة   من الحس سالت باللحون مسيلا
تغالين فى الألحان حتى إذا انتشت   بها روحك الولهى خفت قليلا
كما تخفت الأوتار بعد رنينها   ويبق صداها فى النفوس طويلا
فقد برأ الله الطبيعة - وهى لا   تحس به - حتى بعثت رسولا
فأحسنت فى الترتيل حتى كأنما   بآيك ظل الروض صار ظليلا
ولقنتنا سر الجمال ولم نكن   لندركه لولاك الوجود جميلا
فما زهرة فى الروض تفتح جفنها   على الدمع إلا وهى تنشد سولا
فتغرينها فى شجوها بابتسامة   ببثك معنى للخلود جليلا

(البحرين)   ابراهيم العريض



الزحف الاجتماعى

لم نكد نفتح هـذه الفرجة لآراء الشباب نرى منها اتجاه موجاته ومنزع خلجاته حتى انثالت علينا رسائله الفتية تعرض مسائله، وتبحث مشاكله، وتصور هواه. وسننشر منها ما يستحق النشر، وتناقش ما يستوجب المناقشة، عسى أن يكون من وراء ذلك الطريقُ الذى يستقيم عليه الجهاد ونوفى منه على الغاية

كتب (شاب) مكتمل الشباب ناضج الفكر يقول:

قرأت مع الاعجاب كلمتكم البليغة فى مجلة الرسالة المحبوبة تعلنون فيها أنه يهمكم على الأخص أن تعرفوا رأى الشباب وتطلعوا على انفعالاته واتجاهاته وتبدون فيـه رأيكم، فى أن واجب الشباب أن يستمر على صياله فى ميدان الكفاح السياسى.

ولسنا معشر الشباب نوافق على رأيكم فى أن الجيل الماضى قد أنهكه النضال فى المعركة الكبرى، ونعتقد أن قولكم هذا ناشىء من تواضع طبيعى، اذ أنكم من ذلك الجيل الماضى فلستم تريدون أن تستأثروا بالمفاخر كلها فتنازلتم عن المجد طواعية واختيارا. فإنا نرى أن ذلك الجيل الماضى قد أخذ على عاتقه أمانة قومية ثقيلة الحمل، ولا يزال قادرا على المضى فى سبيله رافعا علم البلاد موفقا إن شاء الله. ولا نزال نرى رجال هذا الجيل أمثلة نحتذيها ونسير فى آثارها إذ لابد للمعركة من قواد وجنود، فاذا كانوا هم القواد ونحن الجنود فليس ذلك بمنقص من مقدار جهادهم، لان جهاد القواد لا يقل فى عظمته ومجده عن جهاد عامة الجند. وإننا ندخر لمستقبلنا أن نكون فى آخر عهدنا بالجهاد قوادا عندما يجىء الوقت الذى يكون علينا القيام بالقيادة - وإنه ليقر أعيننا أن نتصور أننا نكون عند ذلك جديرين بالثقة والتقدير. ينظر الينا شبان عهدنا فيجدوننا لا نزال اخوانا مجاهدين متضامنين معهم فى القيام بالواجب

نرى أن الشباب يستطيع أن يؤدى واجبه الوطنى فى ناحية لا يستطيع أن يجول فيها رجال الجيل الماضى، فاننا أقدر على الاتصال بجمهور الشعب وأخف حركة وأقوى على احتمال المجهود الجسمانى الذى تطلبه الحركة المستمرة، ولهذا نرى أن من واجبنا هـذا الاتصال بالجمهور لكى نعمل على نشر المبادىء السياسية السامية والعمل على تنوير الشعب وتثقيفه وتنظيم ما يحتاج إلى التنظيم من حياته العامة.

ويستطيع شبان البلاد ولا سيما طلبة المدارس والكليات أن ينتشروا فى الريف والمدن فى أثناء العطلة الصيفية ويقوموا على إنفاذ برنامج وطنى شامل، وأقترح لهذا أن تقوم دعوة واسعة على تكوين جمعية منظمة من هيئات الطلبة والشبان لتنظيم البرنامج الذى يقوم الشبان على انفاذه؛ وأعتقد أن شباب البلاد إذا تضافر فى مدى خمسة أعوام يسميها (أعوام الزحف العام الاجتماعى) على أن يغزو أطراف الريف والمدن بدعاية تهذيبية واقتصادية قوية أمكن أن تخرج البلاد بعد تلك الأعوام الخمسة بفائدة عظمى تساعد أكبر المساعدة على جعل استقلالنا حقيقيا بكل معنى الكلمة، ونكون عند ذلك قد قمنا بحمل الواجب مع الكتلة الوطنية المخلصة.

فارسل اليكم هذه الدعوة لعلها تصادف قبولا عند إخوانى الشبان وأسأل الله أن يوفقنا جميعا إلى خدمة بلادنا التى نرجو أن تتضامن على خدمتها كل الصفوف وكل الأجيال

(شاب)

اعتراض الشاب الفاضل وجيه واقتراحه أوجه؛ ورأيه يستحق النظر المتقصى والبحث المفصل. وسنعود إليه فى العدد المقبل فنناقش الوسائل إلى تنفيذه

السياسة فتوة هذا العصر

وكتب إلينا الأديب صاحب الإمضاء يقول:

... يظهر مما كتبتموه فى العدد الماضى أنكم ترون دخول الشبان فى الميدان السياسى، وفى هذا على ما أظن توجيه لجهوده فى طريق غير مأمون ولا موصل. إذا كان واجبنا الأعظم فى الحياة أن نقدم للمجتمع خير ما نستطيعه من إنتاج فلماذا لا نصرف هذا النشاط المتدفق إلى ميادين العلم والأدب والفن والاقتصاد فيؤتى أكله وينتج ثمره، وندع السياسة لأهل الرأى من شيوخ الأمة الذين مارسوها واضطلعوا بها وعرفوا مداخلها ومخارجها؟ — إن السياسة خطمت كثيراً من المواهب الصالحة، وجرف تيارها كثيراً من العناصر النافعة، فهلا ترون أن يكون شباننا كشبان إنجلترا لا يسمعون بالسياسة إلا بعد أن يقطعوا أكثر مراحل الحياة وتمرسوا بكل عمل من أعمال الأمة؟ إن الموضوع فى نظرى يحتاج إلى إثارة المناقشة ومعاودة البحث فلعلى أكون المخطىء، ولعلى أكون المصيب...

العباسية — محمد زهدى ناصر

* * *

ربما كان رأى الكاتب الفاضل يستقيم إذا كانت مصر كإنجلترا فى شدة بنيانها وثبات دعائمها وقوة مجتمعها ونضوج أحزابها واطراد سياستها، ولكننا نعيش فى شعب ناشىء لا يزال يصارع أطماع القوة من الخارج، وعوامل الضعف من الداخل؛ وما دامت القلوب خانعة والنفوس قانعة والطرق وعرة والاحداث راصدة، فإن العمل السياسى أو التوجيه القومى يبقى أول الواجبات وأنبل الأعمال على الشباب. أن الشاب هو أجلد على انتجاع الطريق المخوف، واكتشاف الموضع المجهول، ومواجهة العدو الكامن، وإيقاظ الشعور الخامد؛ ولا يهمه أن يحترق وهو يضىء، ويغتال وهو يهدى. ويسقط وهو يدافع. ولا ريب أن الشيوخ أنضج رأياً وأنفذ بصيرة وأوسع ثقافة ولكن الشباب هم الأيدى التى تنفذ، والروح التى تنشط، والأجنحة التى تطير، على أن السياسة التى نريدها للشبان أوسع وأشمل مما يتصوره الكاتب الفاضل؛ فالسياسة دعوة وتدبير وقيادة، وقوى البلد المادية والأدبية معطلة من طول الإغفاء والترك؛ والاحساس الشاب هو وحده الذى يستطيع أن يحرك فى طبقات الشعب هذا الجمود المزمن بالدعوة الصارخة، والارشاد الصالح، والقدوة الحسنة. ان السياسة هى فتوة العصر الحديث فى الأمم الحديثة: وإن الأمم الأوربية التى أضعفها انحلال الخلق. أوفتكت بها أدواء الحرب، لا يجدد الآن ما رث منها ولا يحيى ما مات فيها إلا الشباب

قد يكون صحيحاً أن الشباب لو انصرف إلى الاختصاص فى العلم لجاء بأعظم المخترعات ودون خير المؤلفات؛ ولو كتب فى الأدب لخلد اسمه بين أعلامه؛ ولو مارس الفن لتألق نجمه فى سمائه، ولكن أى علم يفيد أكثر من هذا الذى تنير به للشعوب المغلوبة طريقها إلى الحرية والمجد؟ وأية قصة تكتبها أروع من هذه التى تكون أنت أحد أبطالها؟ وأية قصيدة تنظمها أبلغ من أن تكون مثال التضحية؟ وأية صورة ترسمها أجمل من هذه الجموع البائسة تعمل على نقلها من حال البؤس إلى حال النعيم؟ وأى طب أنفع من طب الجموع؟ وأى تدوين للتاريخ أتم من أن تصنع التاريخ! قل معى: حيا الله السياسة وأدامها فتنة للشباب!



قصـة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

مراقب مصلحة الكيمياء

كان حظ ارليش من التوقر والرزانة حظ الفقير المعدم ، وذلك من حيث سلوكه ومن حيث آراؤه سواء سواء . أما من حيث سلوكه فكان يرسم صوراً من نظرياته فى أى مكان اتفق على كم قميصه وعلى نعل حذائه ؛ وكان يرسمها على صدر قميصه فتصرخ زوجته ، أو على صدر قميص صاحبه إذا خان الحظ هذا الصاحب فلم يستطع أن يفلت قبل أن تقع الواقعة . انعدم فيه الحس بالذى يليق والذى لا يليق فكان كولد صغير أولع بالأذى . أما من حيث آراؤه فكان يقضى الأربع والعشرين ساعة التى يحتويها اليوم يتخيل الأسباب الغريبة المستحيلة ليفسر كيف يتحصن الانسان من الأدواء ، أو كيف نقيس الحصانة ، أو كيف تنقلب الصبغة إلى رصاصة مسحورة ؛ وخلف وراءه صوراً من هذى الخيالات تجدها فى كل بقعة وناحية

وبالرغم من هذا كان أدق الناس فى التجارب التى يجربها وكان أول من رفع عقير بالتسخط على صيّاد المكروب لتخبطهم فى طرائق للبحث مهوشة ولتوقعهم كشف الحقائق العاصية بمجرد سكب شىء من هذا على شىء من ذاك . وفى طلب الدقة قتل إرليش فى معمل كوخ فى تجربته خمسين فأراً حيثما كان يكتفى من قبله بقتل فأر واحد ، وذلك لاستخلاص قوانين بسيطة سهلة تتعبر بالأرقام فى سهولة خال أنها تفسر لغز الحصانة وسر الموت والحياة . وهذه الدقة التى لم تنفعه فى حل هذه الطلاسم أعانته أخيراً على اصطناع رصاصته المنشودة

— ٣ —

هكذا كان إرليش مرحا فرحا متواضعا لا يفتأ يجد النكتة عن نفسه ، ويولد الفكاهة من سخافته فينطلق بها لسانه غير باسم ولا هازل . وبهذا كسب الأصدقاء كسبا هينا . وكان ما كرا ، فقصد إلى أن يكون بعض هؤلاء الأصدقاء من ذوى الجاه والنفوذ . ولم يلبث أن صار في عام ١٨٩٦ مديرا لمعمل استقل به وحده ؛ وكان اسمه المعهد البروسى الملكى لامتحان الأمصال ومكانه فى استجلتس Steglitz بالقرب من برلين ؛ واحتوى على حجرتين صغيرتين كانت إحداهما مخبزا وكانت الأخرى اصطبلا . قال إرليش : « إننا نخيب لأننا لا نتوخى الدقة فى أعمالنا » ، يشير بذلك إلى خيبة بستور الصغرى فى ألفحته ، وخيبة بارنج الكبرى فى أمصاله . وألح يقول : لا بد من وجود قوانين رياضية تجرى على سنتها هذه الأمصال وهذه السموم وأضدادها » . وظل هذا الرجل يضطرب مع خياله غاديا رائحا فى هاتين الحجرتين المظلمتين مدخنا مفسرا مجادلا معاتبا مدققا فى القياس ما أمكنته الدقة ، بين قطرات من أحسية مسمومة وأنابيب مدرجة مقدرة من أمصال شافية

نعم لا بد من قوانين ! ويقوم على تجربة يؤديها . ويخرج من التجربة على نتيجة باهرة ، فيقول : « أتعلمون لم كانت هذه النتيجة هكذا ؟ » وإذا به يخطط صورة غريبة للسم تخبر عن مظهره كيف يكون ، وإذا به يخطط صورة أخرى لخلية الجسم تنبىء عن مظهرها الكيماوى كيف يجب

أن يكون . ويستمر يعمل ، وتستمر ألوف الخنازير الغينية تسير إلى موتها صفاً صفاً ويجد أن ما يختلف مع نظريته البسيطة من النتائج أكثر مما يأتلف بها ، فلا تروعه هذه الاستثناءات لقاعدته ، ويَدِرّ عليه خياله الخِصب فيخترع قواعد أخرى تتولى أمر هذه الاستثناءات . ويخطط فى سبيل الشرح صوراً أغرب وأعجب . إلى أن وصل إلى نظريتـه الشهيرة عن الحصانة المعروفة بنظرية السلسلة الجانبية [1] Side chain Theory فصارت أحجية مُغلقة لا تكاد تفسر شيئاً ولا تَقدر على التنبؤ بشيء . وظل إلى آخر أنفاسه يعتقد بصدق هـذه النظرية السخيفة . ودقها النقّادون دقا من كل جانب وفى كل بقعة من بقاع الأرض ، وظل متشبثا بها . وإذا أعوزته التجربة فى الرد على منتقديه وإفحامهم بالحجة لجأ إلى المكابرة والمماحكة ، وكان يدفع عن نظريته فى المؤتمرات الطبية فينهزم فيها فيخرج منها يسب خصومه علانية وهو فى طريقه إلى البيت ، وفى الترام يرفع عقيرته بالسباب وهو فرح منبسط ، فيغضب الكمسارى فيعيـد السباب تكرارا يتحداه به أن ينزله من الترام إذا هو استطاع

ولما جاءت سنة ١٨٩٩ كان إرليش بلغ عامه الخامس والأربعين . فلو أنه مات عندئذ لأدخله التاريخ فى زمرة الخائبين . فكل المجهود الذى بذله فى البحث عن قوانين تجرى عليها الأمصال لم يجنه إلا بصور من نتاج الخيال لم تقنع أحداً ، وهى على كل حال لم تفد شيئا فى سبيل تقوية أمصال ضعيفٍ أثرها فى العلاج . خاب ارليش فما الذى هو صانعه بعد هذا ؟ وفكر وخطط . ثم اتصل ببعض من عرف من رجال ذوى جاه وسلطان ، فمالقهم وداهنهم وسلب ما أراد من عقولهم ، وإذا بك تجد خادمه الأمين الثمين ، السيد المحترم قدريت ، قضّاء الحاجات من كل ماهب ودبّ ، إذا بك تجده قائما فى معمل سيده فى استجليتس يحل أجهزته للرحيل عن برلين ومدارسها الطبية وجلبتها العلمية إلى مدينة فرنكفورت على نهر المين . وتسألنى ما الذى جذبه إلى هذه المدينة ؟ إن الذى جذبه إليها أن بقربها تلك المصانع الشهيرة التى يخرج فيها أعلام الكيمياء تلك الأصباغ الجميلة الشتيتة العديدة عدا لا يناله الحصر ، الجميلة جمالا لا يؤديه الوصف ، فكأنها باقات الزهر ازدهاراً وابتساما . وجذبه إليها أن بها أغنياء من اليهود عُرِف عنهم حب المجتمع وسهولة بذل الذهب فى خيره . والذهب والذكاء والحظ والصبر أمور أربعة يراها إرليش لازمة لنجاحه فيما قصد إليه . وإذن جاء إرليش إلى فرنكفورت ، أو على حد قول السيد المعظم المحترم النافع قدريت : « جئنا إلى فرنكفورت » : ويعلم الله ما عانى قدريت فى نقل تلك الأصباغ والمجلات الكيماوية المتناثرة بما فيها من هوامش كتبها إرليش وما بصفحاتها من طيات كان يطويها عليها ليرجع بها إليها

أظنك أيها القارىء تخرج من قراءة قصة المكروب هذه على أن صيادة الميكروب القويمة لا يصلح لها إلا نوع واحد من البُحّاث ، باحثٌ يعتمد على نفسـه وحدها كل الاعتماد ، باحث لا يلقى بالا إلى ما يجده غيره من البُحّاث ، رجل يقرأ الطبيعة ويعاف الكتب . إذن فاعلم ان إرليش لم يكن هذا الرجل ، فانه قل أن نظر فى الطبيعة إلا أن تكون

---

(١) نظرية السلسلة الجانبية نظرية ابتدعها إرليس لتفسير الحصانة والشفاء . وقد اقتبسها من الكيمياء العضوية لا سيما من المركبات البنزينية حيث يتركب المركب من نواة بنزينية ثابتة تتصل بها مجموعات جانبية من العناصر تسمي بالسلاسل الجانبية هي مناشط التفاعل الكيميائى وهى المراكز الأمامية التى ينال بها المركب غيره من المركبات فيتفاعل معها . قال إرليش إن خلايا الجسم تتركب من الوجهة الكيميائية من نواة هى أصل الخلية تخرج منها سلاسل جانبية عديدة كأذيال الصوت . فاذا دخل مكروب إلى الجسم لوثه بسمه . وهذا السم مركب كيميائي فاذا جاء إلى الخلية من خلايا الجسم جذبته سلاسلها الجانبية فاتحد بها اتحادا يميت الخلية ويفقدها وظائفها الطبيعية . وهذا هو المرض فالموت . ولكن الجسم بطبيعته يدافع للحياة . وطريقته فى ذلك على زعم إرليش أن خلية الجسم إذا اتحد السم بسلاسلها حاولت أن تنزع عن نفسها السم بالسلاسل التى ارتبط بها . ثم هى تخلق من نواتها سلاسل جديدة . ولكن بحكم قانون معروف إذا فقد الجسم عشر وحدات من شيء قامت حيويته تستعيض عنها بأضعاف ما فقدت ، وإذن تستعيض الخلية بأضعاف ما فقدت من السلاسل الجانبية وتطلق الزائد منها فى الدم فيلتقط السم الشائع فيه فيتحد به ويذهب بشره فيكون الشفاء . والانتيتكسين الذى يعرفه الطب ، أى أضداد السم التى يخلقها الجسم لحماية نفسه ، هي هذه السلاسل الجانبية الزائدة نتيجة رد الفعل لافتقاد الخلايا سلاسلها الأولى (المترجم)

ضفدعته المختارة التى حفظها فى جنينته فأعانته باختلاف مناشطها على التنبؤ بالجو ما سيكون — وهذه الضفدعة تولى أمرها السيد قدريت . فكان أول واجباته أن يأتيها بكثير من الذباب . . . . . لا ، لم يكن إرليش يقرأ الطبيعة بل يقرأ الكتب ومن هذه جاء بكل أفكاره

عاش بين الكتب العلمية ، واشترك فى كل مجلة كيماوية تخرج فى لغة يقرؤها ، وفى مجلات أخرى تخرج فى عدة لغات لم يكن يقرأها . وتبعثرت الكتب فى معمله وانتشرت ، فكان يجيئه الزائرون فيقول لهم : « تفضلوا فاجلسوا » ، فاذا نظروا حولهم لم يجدوا موضعا يجلسون فيه . وكانت المجلات تطل من جيوب معطفه ـ هذا إذا تذكر ولبس معطفا . وتدخل الخادمة بالقهوة اليه فى الصباح فتتعثر فى أكوام من الكتب لا تفتأ تكبر يوما عن يوم . فهذه الكتب والسجائر الكبيرة الغالية استعانت جميعا على إفقاره . وتراكمت الكتب أكواما على أريكة مكتبته فعششت الفئران فيها . وكنت تجده إما قائما فى تلوين باطن حيواناته بأصباغه وتلوين ظاهر نفسه بها ، وإما قاعداً ينظر فى هذه الكتب . وكل ذى بال تجده فى هذه الكتب تجده فى رأس إرليش ينضج ويختمر ويستحيل إلى تلك الآراء الغريبة البعيدة ، ثم تظل مخزونة هناك حتى تستخرجها الحاجة . هكذا كان إرليش يأتى بآرائه . وإنك لن تستطيع أن تتهمه بسرقتها من آراء غيره ، فانها بين دخولها رأسه وخروجها منه تنطبخ انطباخا يفقدها كل معالمها الأولى

وجاء عام ١٩٠١ فبدأ العام الأول من أعوامه الثمانية التى قضاها يبحث عن رصاصته المسحورة . فى هذا العام قرأ أبحاث ألفنس لفران Alphonse laveran وهو إن ذكرت الرجل الذى كان اكتشف مكروب الملاريا . وكان لفران أخذ فى هذه الأيام الأخيرة يشغل همه بالأحياء الحيوانية الصغيرة المسماة بالتريبنسومات Trypansomes[1]

(١) هي أحياء حيوانية من البروتوزوات . ومعنى اللفظة باليونانية الجسم اللولبي . وهي أنواع تتطفل فى الدم ومنها ما يصيب الانسان ويسبب له أمراضا مختلفة منها مرض النوم (المترجم)

وكانت تدخل إلى الخيول فتعيث فى مؤخرها وتصيبها بالداء المعروف بمرض الورك Mal de Caderas . وكان لفران حقن هذه الشياطين المزعنفة فى الفئران فوجدها تقتل من المائة مائة . وجاء ببعض هذه الفئران وهى تعانى المرض فحقنها بالزرنيخ تحت جلدها فوجد الزرنيخ قد أفادها بعض الشىء وقتل كثيراً من التريبنسومات التى تعيث بالفساد فيها ولكنه مع ذلك لم ينج منها فأراً واحداً . وإلى هذا الحد وقف لفران

وما عتم إرليش أن قرأ هذا حتى صاح : « هذه فرصة عظمى . هذا مكروب أنسب ما يكون للبحث ، فهو كبير يرى فى سهولة ، وهو يربى سهلا فى الفئران ، وهو يقتلها دائماً فلا يخيب مرة واحدة . فأى مكروب خير من هذا فى البحث عن الرصاصة المسحورة التى تقتله ! فمن لى بصبغة تقدر على شفاء فأر واحد لا أكثر شفاء شاملا كاملا ! »

(يتبع) **أحمد زكى**



من القصص العربي

ثقيل ما أظرفه

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

قال الفتى لصاحبه وهو يقص عليه تاريخه ويروى له من حوادثه: لقد نشأت ياصاحبي في البصرة، وقد كان والدي من أمجاد البادية، وأجواد العرب، قضت عليه شؤون الدنيا بالنزوح إلى ذلك المصر، يوم أن شب على جدرانه النعيم، وأشرقت في محلاته(١) أنوار الحضارة، فنسلت إليه صنوف الناس من كل حدب، وفيهم طالب الكسب بالتجارة، والراغب في العلم بالتعلم، والطامع في الصلة بالشعر، والحريص على متاع الحضارة بالبذل، ولست أدرى لأى أمر من هذه الأمور نزح والدي عن موطنه، ولكني أدرى أنه ما كان في حاجة إلى مال، ولا هو من أهل الرغبة في العلم، فلعله كان لايطمع إلا في نعيم الحضارة الوارف، يروى به جسمه ويمتع به نفسه. على أني سمعت بأنه كان مطلوباً بدم في إحدى القبائل فربما كانت هجرته فراراً من العدو وخوفاً من الانتقام وليس تحقيق هذا مما يعنيني، وإنما أريد أن أقول لك: إن والدي لم يعرف للحضارة أساليبها، فعاش في حياته الجديدة على أوضاع الحياة القديمة، فالامتهان في نظره مهانة، والعمل في تقديره ذلة، والمال في يده شيء حقير تافه يبذره باسم الجود، ويسرف فيه بلفظ الانفاق، ففي كل عشية له مجلس عامر بالغناء والشراب، وفي كل ضحوة سامر حافل بالإخوان والأصحاب، وبين هذه وتلك موائد ممدودة، وولائم قائمة، كأن أيام عندنا عرس دائم، فكان أن درجت في أعطاف هذا البذخ، ومررت على هذه الحياة اللاهية المسرفة حتى كنت فتى يافعا ولم تعرف الأيام مني غير اللهو المسرف، والتبذل المفرط، والبطالة المستهترة. ليس في تفكيري أن أعمل، بل ليس من همي إلا أن أشبع الجسد من لذائذ الحضارة ومتاعها الموفور.

ومضت السنون بعضها في أعقاب بعض، ونحن على هذه الحال من السرف والبطالة، وكان لابد للمعين أن ينضب، فقل المال الكثير، وتضاءلت الثروة الضخمة، ولم يلبث والدي أن مات بعمره، وإذا كان لي أن أنسى فلن أنسى ما حييت يوم أن عدت من قبره أتكسر على نفسي كما يعود القائد المخذول من ساحة الحرب، أحصى المال المتروك فلا أقع على شيء، وأتلمس الأصحاب فلا أقف لهم على ظل، وأنظر إلى نفسي فأجدني كالآلة المعطلة لا أصلح لشأن من شؤون الحياة، حتى ليرهقني سد الرمق في مجتمع صاخب عجاج يتدافع أهله بالمناكب في طلب الرزق، ويقتتلون على الفوز باللقمة الحقيرة، وأن من الصعب على نفسي أطلب العيش من مروءات الناس، وأن أقيم الأود من فضلهم ومعروفهم، لأن ذل السؤال صعب على نفس يجرى في عنصرها إباء البادية، وتكنفها كرم النشأة، وقد قيل: إن من طبع الكريم أن يخفى عدمته ويكتم شدته:

يحنى الضلوع على مثل اللظى حرقا
والوجه غمر بماء البشر ملآن

ويعلم الله لقد كتمت ما استطعت، وصبرت حتى أرهقني الصبر وكنت كل يوم أؤمل في غد فلا يكون الغد إلا أشد. آه ياصاحبي لشد ما ضمني الدهر ضما لارحمة فيه ولا شفقة! ولشد ما عركتني الأيام عرك الرحى بثفالها كابةولون! ولا أكتمك أني فكرت في الخلاص من ذلك بالموت، ولكني خفت أن يقول الناس في شأني: جبان فر من معركة الحياة، ومارق تمرد على حكم القدر؛ وعملت على أن أصل نفسي بموطن العشيرة في البادية، ولكني تذكرت الدم الذي كان مطلوبا به والدي فخشيت الهلاك من تلك الناحية، لأن البدوى حريص على ثأره مهما طال به الزمن، حتى ليطلبه في الأجيال المتعاقبة

فلما اضطرب بي الفكر، وتبلبل مني الخاطر، سألت صاحباً

(١) جمع محلة وقد كان العرب يقسمون مدنهم إلى محلات وأخطاط كما تقسم مدننا إلى أحياء

من أهل الرأى لعله يشير بما ينفع ، فقال لى : لو ذهبت فتسببت . فقلت : مالى صناعة ، ولا عندى بضاعة ! فقال : على كل حال : انك امرؤ فيك ظرف ، ولك لطف ، وانك لوانحدرت إلى بغداد لاتعدم لك فى مجالسها السامرة ، وأنديتها الساهرة . فرأيتها نصيحة نافعة من الرجل ، وقلت لعل الاخذ بها يجدى ، فانى أحفظ عن والدى شيئاً من طرائف الأعراب وقصص البادية . ولقد أكسبتنى الحياة السالفة دراية باداء الحديث ، اختار له موضعه ، وأخرجه مخرجه ، وأعرف كيف أصل به إلى نفس السامع . وأستطيع أن أجرى النادرة الطيبة فاهز القلوب وأحرك المشاعر . على أنى قدرت فى ذلك السفر منأى يستر نى عن اخوان أكتم عنهم حالى ، ويخجلنى أن يرونى أتدنى فى طلب الرزق ، فعزمت على تحقيق الفكرة ، ولم يبخل على الرجل بزاد السفر ، وسرعان ما كنت فى الركب السائر والقافلة الراحلة .

هبطت بغداد يا أخى أجهل ما أكون بمسالكها ومحلاتها ، فأخذت فى السير على هدى السابلة ، وإرشاد المارة ، حتى انتهيت إلى دارة الخلافة ، ونزلت بدار الضيافة ، وكأن نحس الطالع قد سبقنى إلى ذلك البلد الأمين ، إذ علمت أن الخليفة المأمون قد حرم الغناء وشدد فيه ، وأمسك على الناس أبواب اللهو والاستهتار ، فانفضت الملاعب والمشاهد ، وأعتمت الأندية والسوامر ، وصار ليل المدينة ليلا محلولكا مملولا ، لا يرن به طاس ولا يحن فيه مزهر ، فايقنت بنحس السفرة وحبوط المسعى ، وتمثلت لى الدنيا فى مثل كفة الحابل ، وهانت على النفس العزيزة ، إذ لم أجد أمامى طريقا للعيش غير التساقط على بيوت أهل الفضل والخير ، أتدسس إلى موائدهم ، واتقحم على ولائمهم ، وأنف فى طريقهم ، وأجرى فى ركبهم ، فلم تمض أيام حتى كنت قد وقفت على جميع اعيان المدينة ووجوه القوم ، وعرفت مراتبهم فى الجود والخير ، وتبينت اساليبهم فى الحياة ونظام العيش ، وعرفونى هم كذلك متطفلا بغيضاً وفضوليا ثقيلا ! .

فانى لفى يوم خرجت فيه إلى الجسر (١) ، على أجد أميراً أتبعه ، أو كبيراً أمتاح من فضله ، فلم أذهب غير بعيد حتى رأيت إسحاق الموصلى يتحدث إلى على بن هشام بكلام يخفيه ، فأرهفت أذنى أتسمع فسمعته يقول : لقد زارتنى اليوم فلانة يا على ، وهى كاتعلم من أحسن الناس غناء ، وأطيبهم محضراً ، فبحياتى إلا كنت اليوم عندى ، فنجلو السمع ونمتع القلب ، وننتهزها فترة من فترات العمر التى حرمناها ، ونعيدها ذكرى من ذكريات الأيام الماضية ، فوعده بالحضور ومضى كل لسبيله . فقلت فى نفسى : يا لها من فرصه سانحة لابد أن أحتال فى اغتنامها ! وأخذت أفكر وأقدر ، وأسعفتنى الفكرة بالحيلة النافذة ، فملت إلى من أعارنى الزى النبيل والمركب الفاره ، ومضيت إلى منزل على بن هشام فقلت لحاجبه : عرف الأمير أن رسول صاحبه اسحاق الموصلى بالباب ، فدخل الحاجب وخرج مسرعا يحمل الاذن بالدخول ، فدخلت على على فرحب بى أجمل ترحيب ، فقلت له : صاحبك إسحاق يقول لك إنك تعلم ما اتفقنا عليه فلم تأخرت عنى ؟ فقال : الساعة وحياتك نزلت من الركوب ، والساعة أغير ثيابى وأوافيه ، فامهله قليلا وإنى على أثرك .

فاستويت على دابتى ، ووافيت منزل اسحاق ، فقلت للحاجب عرف الأمير أنى رسول على بن هشام ، فدخل الحاجب وخرج مسرعاً يقول : ادخل ياسيدى جعلت فداك ، فدخلت فسلمت ، فنهض إلى إسحاق فى بشاشة ، فقلت : أخوك على يقرئك السلام ، ويقول لك الساعة نزلت من الركوب ، وقد غيرت ثيابى وتأهبت للسير تحقيقا لوعدك فانرى ؟ فقال : قل له ياسيدى قتلتنا جوعاً ، ونحن من انتظارك على أحر من الجمر ، فبحياتى إلا ما أسرعت

فعدت إلى منزل على ، وقلت للحاجب عرف الأمير أن صاحبه أمرنى أن لا أبرح أو يجىء ، فقد طال عليه الانتظار ، وأضر به الجوع . فاسرع على بغير ثيابه ، وركب دابته ، وسار وسرت من خلفه ، حتى نزل بباب إسحاق فنزلت معه ، وبعد السلام أخذنا مكاننا على المائدة . وإسحاق لايشك أنى أخص الناس بعلى ، وعلى لايشك أنى أخص الناس باسحاق ، فبالغ كل فى إكرامى وإيثارى باللقمة الشهية ، والهبرة الوثيرة . ولما قضينا حق الخوان أو حق البطن انصرفنا إلى الشراب ، وخرجت إلينا جارية كأن بشاراً كان ينظر إليها من وراء الغيب إذ يقول .

تلق بتسبيحة من حسن ماخلقت وتستفز حشا الرائى بأرعاد
كأنما صورت من ماء لؤلؤة فكل جارحة وجه بمرصاد

ولم تلبث أن حملت عودها وغنت صوتاً فعلت فيه ما أحل الله وحرم ، ودارت الأقداح ، فشعشعت القلوب ، وايقظت العواطف وأفعمت النفس بالصفو والأنس ، وبقينا فى هذا حتى هم النهار بالنصرم ، وألح على البول فنهضت إلى الخلاء ، فسمعت علياً يقول لإسحاق : ألاما أخف روح هذا الفتى ياسيدى وما أطيب نوادره ! فمن أى وقت كان لك ؟ فقال اسحاق : أوليس هو بصاحبك ؟ !

(١) هو جسر بغداد المشهور وقد كان للشعراء مسرح الهوى وله فى الشعر ذكر كثير

قال: لا وحياتك ولا أعرف أنى رأيته قبل اليوم، وأنه جاءنى برسالتك يستعجلنى للحضور وقص قصته فى ذلك، وقص اسحاق مثلها، وداخله من الغيظ ما لم يملك معه نفسه، فقال: أنها لكبيرة يا صدبق على النفس، طفيلى يستجرىء علىّ فيستبيح النظر إلى حرمى والدخول إلى دارى! أبلغنا من الهوان إلى هذا الحد، وبلغت الصفاقة بهذا وأمثاله إلى هذا القدر؟ والله لا بد أن أنتقم. وسأعرف كيف أصون بيتى من كل رذل ثقيل. ياغلمان! السياط والمقارع. أعدوا عدتكم، واحشدوا جمعكم. وقامت فى الدار جلبة ارتجت لها الجدران، وارتاعت لهولها الجيران، وكل هذا وأنا فى الخلاء أفكر وأقدر؛ وكانت عزيمة صارمة، إذ خرجت على القوم فى ثبات واطمئنان، كأنى لا أعبأ بأمرهم، ولا أحفل بشأنهم، وأقبلت على اسحاق فقلت: وماذا بقى من جهدك بعد ذلك؟ ألا ويل لك يا رجل ثم ويل! لقد كان أولى بك أن تعرفنى قبل هذا كله، فكنت هونت على نفسك هذا كله؟! قال: ومن تكون؟ قلت أنا - كما تقول - الثقيل البغيض المتطفل الذى اجترأ على بيتك واستباح النظر إلى حرمك. لا: بل أنا الذى أعددت له السياط والمقارع، وانتدبت لضربه الجلادين، وأقسمت بكل محرجة ألا تتركه إلا لحما من غير دم، وعظما من غير لحم، ولو علمت الواقع لعلمت أنى أنا القادر الذى عفوت، والقوى الذى سامحت، وانى لا أستطيع أن آخذك بجرمك فأدفعك إلى الهلاك أنت وصاحبك دفعا. فشده الرجل بما سمع، فقال: ولكن بربك ألا أخبرنى من أنت؟ قلت. أنا صاحب خبر أمير المؤمنين وعينه والأمين على سره، ووالله لولا تحرمى بطعامك، وممالحتى بحديثك، وأنى أعرفك أنت وصاحبك على الاخلاص للخليفة والطاعة له، لتركتكما فى عمى من أمرى حتى كنت تعرف عاقبة حالك، وإقدامك على ما فيه هلاكك. فنهض إلى الرجلان يسكتانى فى استعطف، ويعتذران فى انكسار. وقال إسحاق: فدينك يا سيدى! إنا لم نعرف حالك، ولم نتبين أمرك، فلنا العذر، ونسألك الصفح، ونضرع إليك فى كتمان ما كان، وأنت بنا المحسن المجمل. فوعدتهما بالخير، وقلت: لايخون العهد إلا لئيم وحاشاى. وجاء وقت الانصراف فخلع على إسحاق ثيابا فاخرة، وأمر لى بمركب نبيل، ودفع إلى بصرة فيها ثلاثمائة دينار، ونهض فى وداعى حتى مضيت.

فلما كان من الغد دخل على بن هشام على المامون فقال: كيف خبرك يا على فى أمس؟ قالها على حسب مايجرى فى السؤال وقد كانت عادته، ولم يفطن لها على فتغير لونه، واتخذلت به رجلاه، إذ لم يشك فى أن الحديث قد رفع إليه، فأكب على البساط يقبله ويقول: يا أمير المؤمنين العفو! يا أمير المؤمنين! الصفح الجميل! يا أمير المؤمنين الأمان! فوالله لن تعود، قال: لك الأمان ولكن بماذا جئت يا على؟ فأخبره الخبر، فضحك المامون حتى كاد أن يغشى عليه، وقال: إنه «لنبيل ولكن ما أظرفه»، وأرسل فى طلب إسحاق فلما حضر قال: هيه يا إسحاق؟ كيف كان خبرك أمس؟ فأخبره بخبر على بن هشام، والمامون يضحك ويصفق من العجب، ثم قال بحياتى ما فى الدنيا أملح من هذا، فاطلب الرجل وجئنى به. واجتهد إسحاق فى ذلك حتى وجدنى، فكنت على ماترى ياصاحبي فى المقدمين من ندماء المامون، والأخيار من أصفيائه، ولا تنس أن هذه قد حملت المأمون على أن يرد على الناس حريتهم، فأباح لهم الغناء، وتركهم يأخذون بأسباب الأنس والسرور

محمد فهمى عبد اللطيف



الجمعية الطبية ومشكلة تحديد النسل

عقدت الجمعية الطبية المصرية عدة اجتماعات لبحث مشكلة تحديد النسل . كان آخرها اجتماع يوم الثلاثاء الماضي (٤ مايو) ، وقد اهتمت الجمعية الطبية باثارة هذا الموضوع وبحثه مذ ظهر رأى شرعى لفضيلة مفتى الديار المصرية خلاصته أن تحديد النسل بالوسائل المشروعة جائز فى بعض الأحوال والظروف القاهرة ؛ ورأت الجمعية الطبية أن تأخذ البحث بيدها وأن تنيره لا من الوجهة الطبية فقط بل من جميع نواحيه الأخرى الاجتماعية والاقتصادية ؛ ولهذا الغرض عقدت أربع جلسات كبيرة ، ألقى فيها عدد كبير من الأطباء والمفكرين والاقتصاديين والاجتماعيين آراءهم ؛ وكان اتجاه هذه المباحث يرمى إلى وجه العموم إلى تبرير تحديد النسل نزولا على الضرورات الصحية أو الاقتصادية أو الاجتماعية التى لا مفر من الخضوع لمقتضياتها . وقد ظهر من الاحصاء الأخير أن سكان مصر فى زيادة مضطردة مؤكدة وأنه إذا لم توفق البلاد إلى تنمية مواردها الزراعية والانتاجية بسرعة توسيعاً يتفق مع نمو السكان ، فان مصر ستواجه فى المستقبل القريب مشكلة اقتصادية واجتماعية خطيرة ؛ ومن جهة أخرى فان مقتضيات الحياة العائلية توجب أحياناً أن يقف انتاج النسل عند حدود معينة ، وإلا كان مستقبل العائلة مهدداً بالأزمات الاجتماعية هذا ؛ إلى مقتضيات العوامل الصحية ، وظروف الحياة الجديدة التى تجعل من المرأة أكثر من آلة للانتاج البشرى . هذه خلاصة الآراء والنظريات التى عرضت وشرحت فى الجلسات المذكورة ؛ وستعنى الجمعية الطبية بجمع كل ما قيل وكتب عن هذا الموضوع الخطير ونشره فى كتاب خاص وهى عناية تشكر عليها

جائزة مختار

كانت لجنة جائزة المرحوم مختار مثال مصر الكبير قد جعلت موضوع جائزتها هذا العام « الفلاحة » فتقدم إلى المباراة أكثر من عشرين مثالا من الفنانين الشبان ، وقدموا تماثيلهم إلى اللجنة ، وكلها تعبر عن الفلاحة المصرية بأشكال ومواقف مختلفة . وقد اجتمعت اللجنة أخيراً فى قاعة جمعية المهندسين الملكية برآسة معالى محرم باشا وزير الأشغال وحضور السيدة هدى هانم شعراوى رئيسة اللجنة الفخرية والعاملة الحقيقية لتأسيسها ؛ واستعرضت اللجنة التماثيل المقدمة وانتهت إلى منح الجائزة الأولى وقدرها ١٥ جنيهاً إلى المثال فتحى محمد على ، والجائزة الثانية وقدرها ١٠ جنيهات إلى المثال أحمد محمد صدقى افندى ، ومنحت ثلاث جوائز صغيرة أخرى إلى ثلاثة من المتقدمين . وفى بقاء هذه اللجنة وقيامها بمهمتها النبيلة إلى اليوم وهى العمل على إحياء ذكرى مثال مصر الكبير مختار وتشجيع الفن الذى نبغ فيه ، وتعهد الغرسّ الذى غرسه ما يبعث على الغبطة ، ويحمل على الثناء والتقدير لعواطف الوفاء التى أحاطت اللجنة بها ذكرى المثال الراحل

ذكرى تيودور بلهارس

سبق أن أشرنا إلى ما اعتزمته الجمعية الطبية المصرية من تكريم ذكرى العلامة الألمانى تيودور بلهارس ، مكتشف ميكروب البلهارسيا لمناسبة مرور خمسة وسبعين عاما على وفاته ؛ وذلك فى التاسع من الشهر الجارى . ونذكر الآن بهذه المناسبة كلمة عن حياة هذا العلامة الراحل ؛ فقد ولد فى سنة ١٨٢٥ فى سجمارنجن (بألمانيا) ودرس الطب فى فريبورج وتبنجن - وعين فى سنة ١٨٤٩ أستاذاً بجامعة

فريبورج . وفى العام التالى قدم بلهارس إلى مصر برفقة أستاذه الدكتور جريزنجر الذى انتدب طبيبا لوالى مصر ، وعهد إليه بوضع نظام طبى لمصر . وفى سنة ١٨٥٢ استقال جريزنجر من منصبه وخلفه بلهارس كرئيس للقسم الطبى بالداخلية . وفى سنة ١٨٥٥ انتدب أستاذاً بمدرسة الطب ، وبعدئذ بعام تولى كرسى التشريح بالمدرسة . وفى أثناء ذلك عكف بلهارس على درس جراثيم الأمراض المتوطنة ، ووفق فى سنة ١٨٥٦ الى اكتشاف مكروب المرض الذريع الذى يفتك بملايين المصريين وسمى « البلهارسيا » وبعد ذلك بثلاثة أعوام نشر بلهارس رسالة عن مسألة الأوبئة بمصر . وكان بلهارس أثناء ذلك يعانى من جراء الطقس وشدة الحرارة . وفى أوائل مايو سنة ١٨٦٢ أصابته نزلة معوية قوية ، فتوفى فى التاسع من هذا الشهر ودفن بمصر القديمة بمقبرة الآباء الفرنسيسكان ، وفى سنة ١٩٣٠ عثر الدكتور كايمر على قبره بعد أن اختفى زمنا ، وتعاون مع بعض زملائه ولاسيما الدكتور مكس ما يرهوف على نقل رفاته وإيداعها كنيسة المقبرة

المبرد أيضاً (١)

منقول الأستاذ (المرصفى) هو رواية ياقوت فى كتابه (ارشاد الأريب) وقد أشرت إلى ذلك . وأضيف إلى تحقيق ابن خلكان ، وحكاية (برد الخيار) - وقد رواها كثيرون منهم القيروانى فى كتابه (جمع الجواهر فى الملح والنوادر) - هاتين الروايتين :

قال ابن عبد ربه فى كتابه (العقد (٢))

سوء الاختيار أغلب على طبائع الناس من حسن الاختيار؛ ألا ترى أن محمد بن يزيد النحوى — على علمه باللغة ومعرفته باللسان — وضع كتابا سماه بـ (الروضة) وقصد فيه إلى أخبار الشعراء المحدثين ، فلم يختر لكل شاعر إلا أبرد ماوجد له (٣) ، فما أحسبه لحقه هذا الاسم (المبرد) إلا لبرده ، وقد تخير لأبى العتاهية أشعارا تقتل من بردها ،

وفى (تاريخ بغداد) لابن الخطيب :

قال أبو الفضل بن طومار : كنت عند محمد بن نصر بن بسام فدخل عليه حاجبه فأعطاه رقعة وثلاثة دفاتر كباراً ، فقرأ الرقعة فاذا المبرد قد أهدى إليه كتاب (الروضة) وكان ابنه علىّ حاضراً فرمى بالجزء الأول إليه ، وقال له : انظر يابنى ، هذه أهداها إلينا أبو العباس المبرد ، فاخذ ينظر فيه ، وكان بين يديه دواة ، فأخذها علىّ ووقع على ظهر الجزء شيئاً وتركه وقام . فلما انصرف ، قال أبو جعفر (محمد بن نصر) أرونى أى شىء قد وقع هذا المشئوم ! فاذا هو :

لو برا الله المبرِّدْ من جحيم يتوقَّدْ
كان فى (الروضة) حقاً من جميع الناس أبردْ

وعصر ابن عبد ربه وعصر ابن الخطيب هما أقرب إلى زمن المبرد من وقت ياقوت . وذلك اللقب المشهور هو الذى جلب فى قولى ابن عبد ربه وعلىّ تلك الدعابة .

وأن هذا الامام العظيم لخليق بأن يشغلنى ويشغل حضرة الأديب (محمد فهمي عبد اللطيف) . وصاحبُ (الكامل والاقتضاب (١)) وغيرهما جدير بأن يذكر - فى كل وقت - بخير أو شر . . . (أحد القراء)

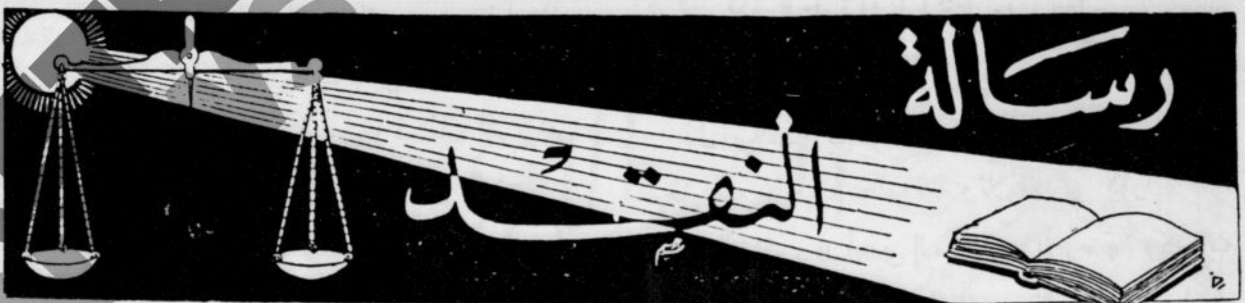
وفاة الأب لامنس

توفى أخيراً المستشرق البلجيكى الأب هنرى لامنس ، وكان هذا الحبر العلامة من خيرة المستشرقين الذين انقطعوا لدراسة العصر الأموى ، وله فيه عدة مؤلفات قيمة . كان مولده فى البلجيك سنة ١٨٦٢ ، وقد نزح منذ حداثته إلى لبنان واعتنق الرهبنة وانتظم فى سلك الآباء اليسوعيين ودرس العربية وعلومها دراسة مستفيضة

ولعلنا نوفق فى عدد تال إلى الافاضة فى تاريخ حياته ووصف مؤلفاته

(١) راجع الجزء السابق . الصفحة ٧٥٧ .
(٢) اسمه (العقد) فقط والعقد الفريد للملك السعيد . وعقد ابن عبد ربه تذوب أمامه العقود .
(٣) فى (كامله) نثر باهر وطائفة من شعر جيد .

(١) قال الزمخشرى فى الاقتضاب : يا له من كتاب بعد (الكتاب)



اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضى بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمى

— ٤ —

نحب أن نبدأ هذه الكلمة بالاشارة إلى غلطة هامة من أغلاط الفصل الثالث وهى قول الأستاذ صروف إن اسماعيل كان « يستقبل ولديه وأحدهما الآن رئيس المجلس الخاص والآخر وزير المالية والحربية والأشغال العمومية ، وبذلك جعل لاسماعيل ولدين وهو غير صحيح، وجعل واحداً منهما رئيس المجلس المخصوص، وجعل الثانى وزيراً للمالية والحربية والأشغال العمومية مجتمعة ، فهل تأكد الأستاذ صروف حين كتب ذلك أن وزارات المالية والحربية والأشغال كانت كلها مجتمعة لوزير واحد من أبناء اسماعيل ؟ اذا كان البحث قد دله على ذلك فاراد أن يصحح قول المؤلف فلماذا لم يشر إلى ذلك صراحة واذا لم يكن فلماذا غير قول المؤلف

Receives his sons, who are now respectively President of the Privy Council and Ministers of Finance, War and Public Words.

ولو كانت وزارات المالية والحربية والأشغال العمومية اجتمعت كلها لوزير واحد من أبناء اسماعيل لما قال المؤلف Ministers بصيغة الجمع ولعله ظن أن لفظ respectively لا يستعمل إلا للاشارة إلى اثنين ونحن نقول إنه يستعمل للاشارة للجمع كما يستعمل للاشارة إلى المثنى .

ننتقل بعد ذلك للفصل الرابع فنقول ان حظه من الحذف والتغيير كحظ الفصول الثلاثة السابقة . ولقد أحصينا فيه أكثر من خمسين غلطة مختلفة الأنواع نكتفى بذكر أمثلة منها :

(١) قال المؤلف يصف موقف وزارة الخارجية البريطانية من مشروع قناة السويس :

Inspired by this motive, but perfectly loyal to Ismail as the move fitted in with their common tactics of the movement, Downiog Street brought pressure to bear on the Sublime Porte.

لم يترجم الاستاذ صروف هذه العبارة كلها إلا بقوله : « وعليه شرعت وزارة الخارجية البريطانية فى تحريض الباب العالى واستفزاز همته » ، وأين هذا من قول المؤلف ، وكذلك أخذت دوننج استريت تضغط على الباب العالى مدفوعة إلى ذلك بهذا الباعث الذى ذكرناه وان كانت فى الوقت نفسه قد بقيت مخلصة كل الاخلاص لاسماعيل لأن العمل الذى قامت به يتفق مع خططهما المشتركة

(٢) وقال المؤلف عن فرديناند دلسبس :

His love for France does him credit. He also had a second fatherland.

ولكن الاستاذ صروف أغفل الجملتين وأولاهما على الأقل ذات معنى جديد لم يشر إليه من قبل وهو ان حبه فرنسا مما يشرفه ويعلى من قدره .

(٣) وقال المؤلف يصف الوزير المصرى نوبار باشا :

The Egyptain Minister was not a man who could be brushed aside with impunity, he launched a counter offensive.

فقال الاستاذ صروف مترجما هذه العبارة « على أن نوبار باشا لم يكن ممن يسهل إهانتهم وعدم الاعتداد بهم » ، وبذلك أضاف من عنده لفظ الاهانة وهو عمل لا يليق وحذف فى نظير اضافتها الجملة الثانية كأن المترجم يجوز له اذا أضاف من عنده عبارة أن يحذف فى نظير ذلك عبارة أخرى . ومعنى العبارة الانجليزية : « أن الوزير المصرى لم يكن ممن يسهل إغفالهم (أو الاستهانة بأمرهم اذا شاء) من غير أن يقابلوا هذا العمل بمثله فلم يسعه إلا أن يهاجم خصومه كما هاجموه » .

(٤) وقال المؤلف :

Living up to the principle outlined in this question Sir Henry Bulwer . . .

فترجم الاستاذ صروف هذا كله بقوله ، وعليه ،

(٥) وقال المؤلف يصف مالقيه اسماعيل من الصعاب فى موقفه بين فرنسا وانجلترا :

The Viceroy had to steer between the Scylla of France fighting for a concession which was far too friendly to de Lesseps to be equitable to Egypt...

فترجم الاستاذ صروف ذلك بقوله ، وكان سمو الخديو ... مضطرا إلى السير بحكمة بين رغبات فرنسا التى كانت تدافع عن امتياز دلسبس ، نحن لا نحتم على الأستاذ أن يترجم إلى قراء العربية Scylla ، charybdis ولا نحتم عليه أن يشير اليهما إشارة بسيطة فى هامش الكتاب ، ولو فعل لجمل بذلك ترجمته لان القصص اليونانى القديم أصبح قصصاً عالميا ولا مانع من أن يشار اليه فى الكتب العربية ، ولكننا كنا ننتظر منه أن يترجم العبارة الأخيرة التى وصف بها المؤلف الامتياز . ولو قال ،وكان على الوالى أن يتبين طريقه بين ثلاث قوى شديدة الخطر أولها فرنسا التى كانت تناضل عن امتياز أسس على الصداقة القوية بين سعيد ودلسبس فكان لذلك مجحفا بحق مصر ... الخ

But this 15 per cent share in the profits of the waterway meant hard cash to Ismail.

لم ير الأستاذ صروف فى هذه العبارة ما يستحق الترجمة وإلا فلماذا أغفلها ؟

(٧) وقال المؤلف مشيرا إلى بيع حصة مصر فى أرباح القناة

It was M. de Blignière and Major Baring not the sovereign who had been deposed who were at the helm when this priceless possession was disposed of and a condition created by which to quote Lord Milner Egypt has no onger any share whatever in the vast profits of that undertaking.

قيل فى ترجمة هذه العبارة من أولها إلى آخرها ، وكان المسيو بلنيير والماجور بارنج هما الموكول اليهما تصريف الامور فى مصر عندما بيعت حصة مصر ، فهل هذا هو كل ما قاله المؤلف ، أو أن الباقى لايستحق أن يترجم ؟

(٨) ومن العبارات التى اقتضت أو لخصت بعض معانيها كل الفقرة الواردة فى ص ٦١ من كتاب الاستاذ صروف وفى ص ٥٩ من الأصل الانجليزى . وقد تركت من هذا التلخيص عدة معان . ولما كان ايراد الأصل والترجمة يشغل نحو صحيفة من صحف الرسالة فانا نكتفى بالاشارة إليها ليرجع اليها القارىء إن شاء

(٩) ثم نرجو أن ينظر القارىء معنا إلى العبارة الانجليزية الآتية والى ترجمة الأستاذ صروف ليرى الفرق بين المعنيين قال المؤلف

Had his attention been directed to it, he would not have broadcast the accusation that, when Ismail had abdicated, Egypt had longer any share of the vast profits of the Suez Canal - He would, it may be assumed, have devoted his literary talents and his powers of concentration to attempt to demonstrate that...

وقال الأستاذ صروف فى ترجمتها ، ولو أدركها يومئذ ما اتهم اسماعيل بأنه لم يترك لمصر عند تنزله عن العرش أية حصة من من أرباح ترعة السويس . والشيء الوحيد الذى كان يحق لملنر أن يفعله هو ان يقف بيانه وعارضته على أن ... ، أن الجملة الآخيرة فى هذه العبارة وهى قول الأستاذ صروف ، والشيء الوحيد الذى كان يحق لملنر أن يفعله ، بعيدة كل البعد عن الأصل الانجليزى الذى معناه ، ونظن أنه لو وجه نظره إلى ذلك لوقف بيانه وعارضته على إثبات أن . . . ، ويظهر أن الأستاذ صروف قد فاته أن هذه الجملة هى جواب ثان للشرط الوارد فى أول الجملة الاولى وهى ولو نبه اللورد ملنر إلى ذلك أو ولو أدركها كما يقول المترجم . فليس هناك إذن شيء يحق لملنر أن يفعله .

(١٠) وهذه الغلطة نفسها أى عدم انتباه الأستاذ صروف إلى وجود جواب شرط ثالث جعله يقطع الجملة الآتية من سابقاتها ويغير معناها تغييراً كليا قال ، على أن الهفوة التى ارتكبتها تلك اللجنة فى مارس سنة ١٨٨٠ كانت عظيمة جدا إلى حد أنها لم تجد مناصاً من إلقاء اللوم على الخديو المعزول ، مع أن معنى هذه العبارة الحقيقى : ، ولو وجه نظره إلى ذلك لحاول من غير شك محاولة جدية أن يلقى اللوم على الأمير المنفى لان الغلطة التى ارتكبت فى مارس سنه ١٨٨٠ كانت غلطة شنيعة ، ولذلك قلنا فى مقالنا الاول إن إدراك العلاقة القائمة بين الجمل الانجليزية شرط أساسى للترجمة الصحيحة .

(١١) والى القارىء مثال صغير من عدم التدقيق . قال المؤلف على لسان اسماعيل

These holdings cannot bring me any revenue.

فأضاف الأستاذ لفظ والأرجح فى ترجمته لهذه العبارة مع أن المؤلف يقول ، إن هذه الأسهم لن تدر على أى ربح ، بصيغة التأكيد . إن لفظا واحداً يزيد أو ينقص يكفى فى بعض الأحيان لتغيير المعنى .

(١٢) قال المؤلف ينتقد عمل المراقبة الثنائية

A group of French capitalists should not have been handed, upon a gold platter the « winners ticket » bequeathed to Egypt by Ismail.

فلم ير الأستاذ فى هذا المعنى شيئاً يصح أن يترجم

(١٣) قال الأستاذ فى ص ٦٥ من الترجمة « وعند ما أرغم ذلك العاهل على التنزل عن عرشه فى سنة ١٨٧٩ كان الماجور بارنج هو المراقب البريطانى العام وصاحب السلطة المطلقة فى لجنة المراقبه الثنائية . »

وكلمة كان فى هذه الجملة كلمة مشئومة أفسدت المعنى لأن نارنج لم يكن مراقبا عاما وقت خلع إسماعيل والمؤلف يقول :

And when that . . . Oriental had to submit to an enforced abdication in 1879 it was Major Baring who became the British Controller Geneneral etc.

ولقد كان عدم الدقة فى ترجمة كلمه became هو السبب فى هذا الخطأ التاريخى .

(١٤) قال المؤلف تعليقا على التهم التى وجهها ملنر إلى اسماعيل باشا

This indictment brushes aside finance and presents a moral issue.

فترجم الأستاذ صروف ذلك بقوله :

فهذا القول يدل على أن للمسألة وجهة أدبية . والمعنى الحقيق لهذه العبارة هو « أن هذا الاتهام يطرح الأمور المالية جانباً ويضع أمامنا مسألة أخلاقية »

(١٥) يشير المؤلف فى ص ٦٥ من الأصل الانجليزى إلى إلى ما استخلصه اسماعيل من شركة القناة وما أنفق من مال للدفاع عن الفلاح ويقول أنه لو وجد ناقد لكتات لورد ملنر لتجلت للناس حقيقة هذا العمل المجيد .

ولو وجد هـذا الناقد أيضا للفت نظر الناس إلى أن استرداد ستين الف هكتار من أرض مصر الزراعية من براثن شركة القناة لم يكن من الأعمال المزرية . . . الخ » ، ولكن الأستاذ صروف قد فاتته هنا أيضاً ارتباط الجمل بعضها ببعض وإن الجملة السابقة هى أيضاً جواب شرط ثان للجملة التى قبلها فى آخر الفقرة السابقة

فقال فى ترجمتها « وكان يجدر باللورد ملنر أن يذكر حسنة أخرى من حسنات إسماعيل وهى استنقاذه ستين الف هكتار من الأراضى الزراعية من بين مخالب الشركة وهى محمدة لا يجوز إغفالها » والفرق شاسع بين ما قاله المؤلف وما قاله الاستاذ صروف لأن المؤلف يقول :

The same spokesman would also have called attentim to the fact that the redemption was no mean accomplishment.

نقول مرة أخرى أن إدراك العلاقة بين الجمل شرط أساسى للترجمة الصحيحة.

(١٥) 16, ooo, ooo francs were charged up against Ismail, but 10, ooo, ooo represealed the work already done.

هذه المسألة الحسابية لم يعن الاستاذ بترجمتها

(١٦) وإلى القارىء مثل من الاضطراب فى العبارة يحار بسببه القارىء فى فهم المعنى . قال الأستاذ صروف «

« فاذا نظرنا إلى ذلك الامتياز باعتبار الأراضى الخصبة الآهلة بالسكان التى نشأت على ضفافها وباعتبار أنها تقوم بحاجات المدن ومقتضيات الرى كانت قيمتها أعظم مما قدرت به يومئذ بحيث إذا أردنا أن نحكم على إسماعيل من وجهة علاقته بشركة السويس حكماً منصفاً لم يكن لنا بد من تقدير هذه القيمة . على أن محاسبتنا لاسماعيل فى هذا المقام هى من الوجه الأدبى ، وعليه فيكاد يكون من المتعذر تقدير الخدمة التى أسداها ذلك العاهل إلى بلاده .

أيدرى القارىء حقيقة ما يريد أن يقوله المؤلف . انه يريد أن يقول : « وهذا الامتياز وهو حق الشركة فى أن تورد الماء إلى مجتمع غنى كبير العدد مطرد النماء ليستخدمه فى حاجات المدن وفى شؤون الرى ، هذا الامتياز يساوى الآن أضعاف المبلغ الذى قوم به . ولو كنا نريد أن نضع أمام القارىء الحساب الختامى لعلاقة اسماعيل المالية بقناة السويس لوجب علينا أن نضع بدل هذا القدر المجهول رقما حقيقياً معلوما . لكن بحثنا الآن مقصور على تلك الآثار التى لا تدركها الحواس والتى تسمى بالعوامل الأخلاقية ، فاذا نظرنا الى المسألة من هذه الوجهة كان من المستحيل أن نغلو فى تقدير فضل إسماعيل فى الاحتفاظ بهذا المرفق العام الخطير خالصاً لمصر » .

ونكتفى بهذا عن ذكر العبارة الانجليزية لأنها طويلة تشغل كثيرا من فراغ هذه الصفحات القليلة التى تسمح لنا بها هذه المجلة . ونحن نؤكد للقراء أن هذه الترجمة الأخيرة تكاد تكون ترجمة حرفية للأصل الانجليزى .

(١٦) قال المؤلف عن النزاع القائم فى الولايات المتحدة بين مصلحة الأمة والمصالح المكتسبة لشركات الاحتكار

The fight is one of the general welfare against vested rights.

فترجم الاستاذ صروف ذلك بقوله « فالكفاح ضدها هو كفاح فى سبيل الخير العام » والمؤلف يقول : أن « الكفاح القائم هناك كفاح بين الصالح العام والحقوق المكتسبة »

نكتفى اليوم بهذا القدر لنبدأ بذكر أغلاط الفصل الخامس فى العدد القادم إن شاء الله

« الغنيمى »

5 me Année, No. 202

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 17 - 5 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

*

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٠٢ « القاهرة في يوم الاثنين ٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ — ١٧ مايو سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

مصطفى صادق الرافعي



١٨٨٢ — ١٩٣٧

شديد على الرسالة أن تنعى الرافعي إلى ديار الحنيفة وأقطار العروبة بدل أن تزف إليها كعادتها درة من غوص فكره وآية من وحي قلمه! وعزيز على هذا القلم أن يتقطر سواده على الرافعي وهو نوره في مداده وسنده في جهاده وصديقه في شدته! وعظيم على العالم الأدبي أن يرزأ في الرافعي وهو الطريقة المثلى لغاية الناشىء، والمثل الأسمى لطموح الأديب، والحجة العليا على قصور القاصر!

يالله!! أفي لحظة عابرة من صباح يوم الاثنين الماضي يلفظ الرافعي نفسه في طوايا الغيب كومضة البرق لفها الليل، وقطرة الندى شربتها الشمس، وورقة الشجر أطاحها الخريف؛ ثم لا يبقى من هذا القلب الجياش، وهذا الشعور المرهف،

وذلك الذهن الولود ، إلا كما يبقى من النور فى العين ، ومن السرور فى الحس ، ومن الحلم فى الذاكرة !!

كان الرافعى يكره موت العافية فمات به : أرسل إلى قبل موته الفاجىء بساعات كتابه الأخير يشكو فيه بعض الوهن فى أعصابه ، وأثر الركود فى قريحته ؛ ويقترح على نظاماً جديداً للعمل يجد فيه الراحة حتى يخرج إلى المعاش فيقصر جهده على الأدب ؛ ثم يسرد فى إيجاز عزائمه ونواياه ، ويعد المستقبل البعيد بالانتاج الخصب والثمر المختلف؛ ويقول: « إن بنيتى الوثيقة وقلبى القوى سيتغلبان على هذا الضعف الطارىء فأصمد إلى حملة التطهير التى أريدها ... »

كتب الرافعي إلى هذا الكتاب فى صباح الأحد ، وتولى القدر عنى الجواب فى صباح الاثنين : قضى الصديق العامل الآمل الليلة الفاصلة بين ذينك اليومين على خير ما يقضيها الرخى الآمن على صحته وغبطته : صلى العشاء فى عيادة ولده الدكتور محمد ؛ ثم أقبل على بعض أصحابه هناك فجلا عنهم صدأ الفتور بحديثه الفكه ومزحه المهذب ؛ ثم خرج فقضى واجب العزاء لبعض الجيرة ؛ ثم ذهب وحده إلى متنزه المدينة فاستراض فيه طويلا بالمشى والتامل ؛ ثم رجع بعد موهن من الليل إلى داره فأكل بعض الأكل ثم أوى إلى مضجعه

وفى الساعة الخامسة استيقظ فصلى الفجر وهو يجد فى جوفه حزة كانت تعتاده من حموضة الطعام . فلما فرغ دخل على ولده الطبيب فسقاه دواء ، ثم عاد فنام . وهب من نومه فى منتصف الساعة السابعة ، وخرج يريد الحمام فسقط واحسرتاه من دونه سقطة همد فيها جسده فلا صوت ولا حركة ! وذهب الرافعى ذو اللسان الجبار والذكر الدوار والأثر المنتشر ، ذهاب الحباب كأنه لم يملأ مسامع الدهر ، ولم يشغل مدارك الناس زهاء أربعين سنة !

كان آباء الرافعى شيوخ الحنفية فى مصر ، تولوا قضاءها وإفتاءها وإقراءها حقبة طويلة من الدهر ؛ فدرج هذا الناشىء الصالح فى حجور أربعين قاضيا من قضاة الشريعة كانوا من أهل بيته ، وقد نوه بهم اللورد كرومر فى بعض تقاريره . وكان أبوه الشيخ عبد الرازق الرافعى قد جرى على أعراق هذه الأسرة الكريمة من ورع القلب وصحة الدين وسلامة الضمير ؛ ثم تميز فى قضائه بمرارة الحق وصلابة الرأى وثبات العقيدة ، فجاء مصطفى فى كل ذلك صورة أسرته وسر أبيه

لم يذهب الرافعى إلى الأزهر ، فقد كان فى أزهر من قدمه ؛ وإنما نشأ فى مغداى ومراحى بين طلخا والمنصورة أفنديا يتلقى معارفه الأولى بمدرسة الفرير ، ويتخرج فى علوم اللسان والشريعة على أبيه ، حتى حذق العربية وفقه الدين وثقف الأدب وأصبح فارساً فى الحلبتين ولما يعد العشرين . فلما بلغ ربيع العمر ختم الله على سمعه بالصمم الشديد ، فكان منذ شبابه الأول بنجوة من لغو الناس ولغط المجتمع ، فسلم عقله من السخف ، وبرىء ذوقه من التبذل ؛ وعاش فى عالم الخيال ودنيا الكتب ، فاتسع أفق تفكيره ، وارتفع مقياس فنه. وظلت طبيعته البشرية على الكهولة نقية حرة كطبيعة الفتى الشابل ، فيها الغضب الحاد ، والرضى الهش ، والدلال المتعظم ، والهوى الجموح ، والفتوة الأبية . فهو يخلص فى الحب ويصدق فى البغض ، فلا يداور ولا يدارى ، ولا يحقد ولا يحسد

عملت فى الرافعى عوامل الوراثة والبيئة والدراسة والعاهة ؛ واتفق له من كل أولئك ما لم يتفق لغيره ، فكان أفقه العلماء فى دينه ، وأعلم الأدباء بلغته ، وواحد الآحاد فى فنه . والدين واللغة والأدب هي عناصر شخصيته وروافد عقليته وطوابع وجوده . لذلك كان يقظ الرأى شاهد الحس لما يعلق بثلاثتها من أباطيل وشبه . وعبقريات المصطفى إنما كانت تنزل على قلبه المرسل حين تمتد الأفيكة إلى كتاب الله أو إلى لغة العرب أو إلى أدب الرافعي

الرافعى أمة وحده ، لها وجودها المستقل وعالمها المنفرد ومزاجها الخاص . وأكثر الذين كرهوه هم الذين جهلوه : كرهه الأدباء لأنه أصحر لهم بالخصومة فانفرجت الحال بينهم وبينه . وكرهه المتأدبون لأنه رفع مقياس الأدب فوسمهم بالعجز عنه . وأنكره العامة لأن الأمر بينهم وبينه كالأمر بين العمى والنور ! إنما يحب الرافعى ويبكيه من عرف وحي الله فى قرآنه ، وفهم إعجاز الفن فى بيانه ، وادرك سر العقيدة فى إيمانه .

ذلك بعض الرافعى الانسان ؛ أما الرافعى الفنان فموعدك به خمود الحزن وانكسار المصيبة .

احمد حسن الزيات

كتاب الارشاد

إلى فلسفة الجراد

للدكتور طه حسين بك
عميد كلية الآداب

صديق العزيز المجهول اسماعيل بن زيد حفظه الله وأكثر من أمثاله .

تحية طيبة تلقاك حيث كنت ، فانى لا أعرف أين تكون ، كما أنى لا أعرف من تكون .

أما بعد فقد قرأت كتابك فى (الرسالة) منذ أيام ، ولست أدرى أين ظفر به صديقنا الدكتور عوض ، فانى لم أتلقه قبل نشره ، ولو قد وصل إلى لما أبطأت فى الرد عليك برغم كثرة العمل واشتغال النفس بأشياء يراها الناس خطيرة بعيدة الأثر فى حياة الأفراد والجماعات ، وأراها أنا كما تراها أنت أهون شأناً وأقل خطراً من صيد الضفادع ، وتثقيف الجراد ، واستخراج أشعة الشمس من قشر الخيار . وأكبر الظن أنك رجل رؤوف بالأصدقاء شفيق على الاخلاء خطر لك أن تستفتيني فيما عرض لك من الأمر فسطرت كتابك وهممت بارساله إلى ، ثم عرفت أنى مجهود مكدود فرحمتني ورفقت بى وأجلت إرسال كتابك إلى حتى ينقضى العام وأفرغ لمثل هذه الموضوعات الجليلة القيمة . ولكن كتابك وقع إلى صديقنا عوض على أى نحو من هذه الأنحاء التى تقع بها الكتب إلى الناس أو يقع بها الناس على الكتب . وعوض رجل فيه مهارة العفاريت ولباقة الشياطين اكتسبهما فى أكبر الظن من ترجمته لقصة فاوست ومن طول عشرته لشيطان الشاعر الألمانى العظيم . فلم يكد يقع الكتاب إليه ، أو لم يكد هو يقع على الكتاب ، حتى أسرع به إلى الرسالة يكيد بنشره لك ولى جميعاً .

يكيد لك لأنه يحسب أن الناس سيضحكون حين يظهرون على هذه الموضوعات الغريبة التى تفكر فيها وتنفق فى درسها وقتك وجهدك ، ويكيد لى حين يطلب إلى باسمك على ملأ من قراء الرسالة أن أبوب لك الكتب التى تريد أن تذيعها فى هذه الموضوعات .

وليس عوض شيطانا ولا عفريتا ولا مترجماً لفوست ولا معاشرا طويل العشرة لمفستوفيليس انقضى يومه وليله دون أن يجد ويكد ليغيظ إنسانا من الناس ويعبث بصديق من الأصدقاء ، وأحسبه إن أعياه الظفر بمن يغيظه أو يعبث به لا يتردد فى أن يغيظ نفسه أو يعبث بها ، وله فى الحطيئة قدوة سيئة وأسوة قبيحة . ولا بد من أن يوجد فى الأرض من يدعو الناس إلى الشر ويدفعهم إلى البغى كما يوجد فى الأرض من يدعو الناس إلى الخير ويهديهم إلى البر والرشاد.

وقد هممت أيها الصديق العزيز المجهول أن أعرض عن هذه الرسالة التى لم أتلقها أو أن أؤجل الرد عليها كما أجلت أنت إرسالها ولكنى – ولا أكذبك – لم أكد أتم قراءتها حتى استرحت إليها ونعمت بها لأنها صادفت هوى فى نفسى ولاءمت بعض ما كان يضطرب فى رأسى من الخواطر والآراء . فلم أجد بدا من أن أرد عليك فى (الرسالة) لأنى لا أعرف عنوانك ، ولأنى قرأت كتابك فى الرسالة وتلقيته من طريقها ، ولأنى لا آمن هذا العفريت الذى نسميه عوضاً ونكل إليه تعليم الجغرافيا فى كليتين من كليات الجامعة أن ينالها بقليل أو كثير من التبديل والتغيير ، وأنت تعلم أن من العسير جدا أن أجيبك فى فصل واحد إلى تبويب هذه الكتب الأربعة التى ألفتها غير مبوبة ، فذلك يحتاج إلى وقت وفراغ لا أملكهما فى هذه الأيام أيضاً ؛ وذلك يحتاج بعد هذا إلى مكان من الرسالة قد لا تستطيع أن تخصصه لنا دون أن تظلم واحداً أو اثنين من كتابها الأدباء . ولست أذكر الرفق بالقارئ ولا الترفيه عليه ، فالقارىء آخر من أفكر فيه ؛ وليس يعنينى أن يغضب أو يرضى ، وليس يهمنى أن يقرأ أو يعرض عن القراءة ، فانى لا اكتب له وإنما اكتب لك . وأنا لا أكتب له لأن هذا الموضوع أعمق وأدق من أن يكتب للقراء ؛ إنما يكتب للقراء فى فلسفة أفلاطون وأرسطاطاليس ونيتشة وأمثالهم من أصحاب العقول الجبارة ؛ فأما فلسفة الجراد فانها ألطف وأخفى وأرق من أن تبلغها عقول المثقفين أو تنفذ اليها بصائر المستنيرين ؛ لهذا أفكر فيك أنت ولا أفكر فى القراء ؛ ولو فكرت فيهم لما كتبت شيئا ، لأنى لا أحب أن ألقاهم بما يكرهون . لا سبيل إذن إلى أن أتحدث اليك فى هذه الموضوعات الاربعة التى ألفت فيها كتبا غير مبوبة ، وإنما أتحدث اليك فى موضوع واحد منها أختاره ليكون نموذجا لغيره من الموضوعات التى ألفت فيها والتى يمكن أن تؤلف فيها ؛ فان أبيت إلا أن أبوب لك هذه الكتب الاربعة فقد نستطيع أن نصنع ذلك فى مجالس خاصة نلتقى فيها بين حين وحين لهذا العمل الجليل ، نلتقى فيها لنتحدث على مهل وفى حرية دون ان يشاركنا فى الحديث هؤلاء القراء الذين لا نامنهم أن يذهبوا فينا المذاهب وأن يطلقوا فينا الألسنة وأن يظنوا بنا الظنون .

وقد اخترت تعلم الجراد أصول الفلسفة موضوعا لهذا الحديث .

وأول ما ألاحظه أيها الصديق العزيز المجهول أنك أهملت عنوان الكتاب الذى ألفته إهمالا شديدا ، وأكبر الظن أن إهمالك للفنون هو الذى حال بينك وبين تبويب الكتاب على ما تحب .

ولست أدرى أصحيح ما قال القدماء من أن الكتاب يعرف

(البقية على صفحة ٨٣٩)

ظاهرة وتعليلها

للأستاذ أحمد أمين

أعرفه غزير العلم واسع المعرفة ، ولكنه يأبى أن يجالس أمثاله من العلماء ، ولا يلذه إلا أن يجالس لفيفاً من صغار الناس فى مهنتهم وعقليتهم ؛ وليس الشراب هو الذى يجمعهم ويؤلف بينهم كما هو الشأن فى كثير من الأحيان .

وأعرفها فتاة على جانب من الجمال ، ولكنها لا تؤمن بجمالها ، لأن أهلها أدخلوا فى روعها من صغرها أن الجمال فى البياض والحمرة والشعر الأصفر ، وهى سمراء شديدة السمرة وليس فى وجهها حمرة ولا فى شعرها صفرة ، فهى فى اعتقادها ليس لديها من الجمال شىء ، وأراها تصاحب فتاتين ليس فيهما من الجمال شىء ، وتأبى أن تصاحب جميلة ، وخاصة اذا كان جمالها فى لونها الأبيض المشرب بحمرة .

وأعرفه فناناً كبيراً ، ولكنه يأبى أن يجالس الفنانين الكبار أمثاله ويفضل أن يجلس الى مبتدئى الفن يعلمهم ويصلح من أخطائهم ، وهم من جانبهم يتملقونه ، ويفيضون عليه من ألقاب الثناء ما يملؤه غبطة وسروراً .

وأعرف عشرات من هذه الأمثلة أشاهدها كل يوم ، وأسمع بها كل حين وأقرأها فى وصف كثير من الرجال والنساء ، فما سرها ؟

سرها عندى أن من طبيعة الانسان أنه يكره « الضعة » ويكره كل ما يشعره بالضعة ، ويحب العظمة ويحب كل ما يشعره بالعظمة .

من أجل هذا تراه — فى العادة — يكره أن يجالس من هو خير منه فى علمه وفنه وأدبه ، لأن ذلك كله يشعره بصغر نفسه ؛ وهو أقل كراهية لمجالسة من هو مثله ، لأنه لا يحط من شأن نفسه ؛ وهو أشد حبا لمجالسة من دونه لأن ذلك يجعله أكثر شعوراً بعظمة نفسه

ويمكن تطبيق ذلك على كثير من الأحداث اليومية والمشاهدات المألوفة . ألست ترى أن « حلبة الكميت » أو جمعية الشراب تكره كل الكراهية أن يكون بينهم وقت شرابهم من لا يشرب ، ويستثقلونه مهما ظرف ، ويستسمجونه مهما لطف ، لأنه يذكرهم بالفضيلة حين ارتكابهم الرذيلة ، ويشعرهم بأنهم الوضعاء وهو الرفيع ، وأنه العين الناقدة وأنه الرقيب عليهم ، وأنه العاد لسقطاتهم ، وأنه المحتفظ بقوة إرادته عن ضعف إرادتهم ؟ كل هذا يشعرهم بالضعة فيكرهونه ، ويبدءون بالالحاح عليه أن يشرب لا حباً فيه ولكن حباً لأنفسهم ، وإبعاداً لشعورهم بضعتهم ، ولا يزالون يستحلفونه حتى إذا نجحوا أمنوا الشعور بالضعة ، وإذا فشلوا مقتوه ومقتوا جلوسه بينهم ، لأنه نغص عليهم بهجتهم — ومن أجل هذا أيضاً أحبوا أن يسمعوا أدب الخمر ، وأحبوا أن يسمعوا من يفلسف لهم الحياة وأنها ليست إلا متعة الساعة وشهوة الوقت . فان تجاوز المحدث ذلك إلى أنه لا يعبأ بحرام ولا حلال ، وأن يقول كما قال أبو نواس :

فان قالوا حرام قل حرام ... فان لذاذة العيش الحرام

فذلك عندهم أظرف وأفكه لأنه اجتث الشعور بالضعة من جذوره .

***

هذا هو سبب العداء دائما بين الفضيلة والرذيلة أو بين الفاضل والرذل ، وهذا هو السبب فى أن الرذل يكره الفاضل أكثر مما يكره الفاضل الرذل . لأن الرذل هو الذى يشعر بالضعة من رؤية الفاضل .

وهو السبب فى أن الفقير يكره الغنى أكثر من كره الغنى للفقير . لأن الفقير هو الذى يشعر بالضعة إذا قاس نفسه بالغنى وكثيراً ما يكون سبباً فى فساد الحياة الزوجية ، أن تكون فى أحد الزوجين صفات راقية ليست فى الآخر ، فيشعر هذا الآخر بالضعة عند قياس نفسه بنفس قرينه فتسوء الحياة ويجهل السبب .

***

بل أرى أن فى هذا القانون تفسيراً لكثير من الرجال والنساء الذين يحبون العزلة وينفرون من الناس .

فتفسير هذا أنهم يشعرون بنقص فيهم من ناحية من النواحي الخلقية أو العلمية أو الاجتماعية

كأن يشعروا أنهم لا يحسنون حديث المجالس، أو أن في جسمهم عاهة من العاهات، أو أنهم إذا جودلوا أفحموا، أو إذا نيل منهم لم يستطيعوا أن يأخذوا بحقهم. فتراهم يفضلون العزلة ويتغنون بمدحها، ويصبون جام غضبهم وسخطهم على الناس ويطنبون في ذم الأخلاق وسوء المجتمعات. والسير وراء ذلك كله، وهو نقص في محب العزلة جعله يشعر بضعة نفسه في المجتمعات؛ وهو يكره الضعة ويكره كل ما يسببها، وهو لا يحب أن يلوم نفسه وهي السبب، لأن في هذا ضعة أيضاً، فيلوم الناس ويلوم المجتمعات، ويكون مثله مثل من عجز من أن ينتقم من عدوه، فانتقم من صديقه

* * *

أتدري السبب في أن الشباب لا يودون كثيرا أن يجالسوا آباءهم ولا إخوتهم ولا أقرباءهم ويفضلون - غالبا - أن يجالسوا الغرباء؟

هو أيضا - هذا القانون، فان آباءهم وإخوتهم وأقرباءهم يعلمون نشأتهم وكل شيء فيهم، وكل شيء حولهم، وفي ذلك عيوب عرفوها، وزلات وقعت تحت أعين الآباء ومن إليهم، فالشباب يشعر بهذا التاريخ كله إذا جلس إليهم، وهذا يشعره بالضعة. فهو يفضل عليهم صداقة الغرباء، لأنهم يجهلون تاريخه، ويجهلون زلاته فهو عندهم لا يشعر بنقص، ولا يشعر بضعة، فكان إليهم أميل، وبهم آنس؛ والمثل العربي يقول «برِّق لمن لا يعرفك»، ومعناه تبجح وهدد من لا يعرفك، لأن من عرفك لا يعبأ بك

لقد كان لي أستاذ في سن الخمسين وكان جلساؤه أقلهم في سن الستين، فسألته في ذلك فقال: إني اخترتهم لأني أشعر وأنا معهم أني شاب

* * *

بل هذا هو السر في أن الرذيلة في كثير من الأحيان توثق الصداقة بين أصحابها، فالمقامر أقرب إلى صداقة المقامر، ومدمن الخمر إلى مدمنها، والغزل إلى الغزل، واللص إلى اللص، وقل أن ترى ذلك في الفضيلة، فالصدق قل أن يؤلف بين اثنين لصدقهما، ولا العدل إلى العدل، ولا الصريح إلى الصريح

والسبب في هذا أن ذوي الرذيلة يشعرون بالضعة من رذيلتهم فيهربون إلى الأراذل مثلهم حتى يتجردوا من هذا الشعور؛ أما الشعور بالعدل أو الصدق فليس فيه هذا الألم فلا يحتاج صاحبه إلى البحث عن مهرب - وهو السبب في احتياج أصحاب الرذيلة إلى مخبأ، فحجرة المقامرة مستورة، ومجلس الشراب في مخبأ، والغزلون يتسترون، ومحال الحشيش والكوكايين في حرز الخ. وليس السبب في ذلك فقط أن رجال الأمن يطاردونهم. بل أكاد أوقن أن هذه الأمور لو أبيحت من رجال الأمن لتستروا أيضا لأنهم يريدون أن يهربوا بأنفسهم من الشعور بالضعة أمام من لم ينغمسوا في الرذيلة انغماسهم

* * *

ألست ترى معي أن الرجل الملتزم للأخلاق المتشدد فيها أقل الناس أصدقاء وأشد الناس وحشة، وكلما اشتد في تزمته اشتد الناس في كراهيته، وأن الرجل كلما سما عقله بعد عن الناس وبعدوا عنه، وأنهم قد يجلونه ولكن لا يحبونه، لأن سموه إعلان لضعفهم، وعلوه رمز لضعتهم؟

ولعل كثيرا من صفحات التاريخ المملوءة باضطهاد العظماء، وقتل النبغاء، واغتيال الأبطال، تستر وراءها هذا السر الكامن الخطير، وهو أن الاضطهاد والقتل والاغتيال كان سببه الخفي شعور المدبرين بضعتهم أمام هؤلاء العظماء فتخلصوا من الشعور بالضعة بالقضاء على من كانوا سببه - فلما انمحوا من الوجود كان لا بأس عند من قتلوهم أن يمجدوهم، وأن تمجدهم القرون بعدهم، لأن الحقيقة الواقعة أشد إشعارا بالضعة من الذكرى الماضية

* * *

وبعد فلا يستطيع الناس أن يتغلبوا على هذه الرذيلة وأن يجلس عالمهم إلى من هو أعلم منه، وفنانهم إلى من هو أفن منه، وفاضلهم إلى من هو أفضل منه، يستفيد منه ويأخذ عنه في غير حقد ولا ضغن إلا بكثير من مجاهدة النفس وهيهات ثم هيهات

أحمد أمين

لعب الطاولة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

ليس لي شغف بالألعاب ، فان حياتي كلها لعب ؛ فما حاجتي إلى لعبة معينة على الخصوص . ولكن لي إخواناً ألقاهم في حيث ألفوا أن يكونوا — أي في القهوات — وليس من العدل أن أكرههم على أن يلقوني في حيث أحب أنا وأوثر . ولأن ينتقل واحد الى جمع أيسر من أن ينتقل جمع إلى واحد . ولست أعرف عملا لرواد القهوات إلا أن ينظروا الى المارة وهم مقبلون ومدبرون فاذا اتفق أن كانت الصفوف الأمامية مزدحمة ولا محل لطالب الجلوس إلا فى الداخل ، فماذا يمكن أن يكون عمله إلا قراءة الصحف — اذا كان وحده — أو تدخين « الشيشة » — أو كما تسمى أيضا « الأرجيلة » و « النرجيلة » — ولعب الطاولة أو الشطرنج أو « الدومينو »

فأما الشطرنج فيحتاج الى عقل يكده اللاعب ، وهو لم يجيء إلى القهوة ليتعب بل ليتسلى . وأما « الدومينو » فآفتها الحساب ، فلم يبق إلا الطاولة يفتحها الصديقان ويقبلان عليها ليخرجا بها من الصمت الثقيل ، وليختصرا الوقت الذى يريانه أطول من أن يحتمل وإن كانت شكواهما — كغيرهما — أن العمر فى هذه الدنيا قصير ، أو ليتقيا الحديث فى أمر نافع أو جدى .

ولم أجد إلى الآن لاعباً للطاولة أستريح إلى منازلته ، وأفيد متعة من ملاعبته ، فهذا واحد لا يحلو له أن يروى لك قصة حياته إلا وهو يلعب ! وتكون قد حمست وكبر أملك فى الفوز ، فتضطر أن تضطجع وتصغى ، أى أن تدع حماستك تفتر ودمك يبرد . وليته مع ذلك يقص حكايته ويفرغ منها فان البلاء أنه يقطع الحديث ويقول لك : « دورى يا سيدى . شيش بيش .. خذ » ويلقى إليك حجراً « مضروبا » أو يضعه لك فى كفك تأكيداً لاغتباطه بسوء حظك . فتتمنى لو وسعك أن تقذف بالحجر . . فلا أنت سمعت القصة ، ولا أنت مضيت فى اللعب بالروح التى كانت مستولية عليك . وليس هذا لعباً وإنما هو . . هو . . لا أدرى ماذا أسميه ، أو كيف أصفه ، فقل أنت فيه ما تشاء !

وثان لا يلاعبك إلا برهان ، وهذا ضرب من القمار لا أطيقه ، وقد حاول كثيرون من إخوانى أن يعلمونى لعب الورق فأخفقوا — أو أخفقت أنا على الأصح — وماذا عندى مما يمكن أن أقامر به غير حياتى ؟ وأقول لصاحبى « هنا قمار فالعب بغير رهان » فيقول : « قمار ؟ استغفر الله . هذه تسلية . زيادة تصلح بها روح اللعب » ، فيصبح أحمى وأمتع فأصر وأقول « كلا . اذا أردت اللعب فليكن بغير رهان » فلا ينهزم ويقول « قرش واحد ! » فأقول : « ولا مليم » فيهز رأسه آسفاً ويقبل

ونشرع فى اللعب ويتفق أن يؤاتيه الحظ فيضيق على الخناق ويعظم أمله فى النصر فيميل على الطاولة ويقول « ما رأيك ؟ . هذا الدور لى أم لك ؟ » فأدير عينى فى مواضع الحجارة فلا أرى داعياً لليأس فأقول « إنى أرجو أن يكون الدور لى » فيقول « حسن .. تراهن ؟ » فأقول محتجاً « رجعنا ؟ . لا يا سيدى » فيقول « إذا كنت واثقاً من الفوز ، فماذا يمنعك أن تراهن ؟ » فأقول « لست واثقاً » . ثم إن الأمر عندى مرجعه إلى كراهتى للقمار ، لا للخوف من الخسارة » فيتنهد آسفاً على الفرصة التى أضعتها عليه ببلادتى وجمودى

وثالث لا يترك الأمر للحظ كما هو الواجب فى لعبة كهذه بل « يقرص » كما يقولون — أى يسوى « الزهر » واحداً فوق الآخر ثم يلقيهما برفق وتؤدة لتجيء الأعداد أو الأرقام التى يطلبها ، وهذا شيء لا يليق لأن مؤداه أن ملاعبك قد وثق من الفوز بالغة ما بلغت قدرتك ومهارتك وبراعتك فى اللعب . ولا أدرى أية متعة يستفيدها المرء من « القرص » ، إلا إذا كانت المتعة هى التنغيص عليك

وأعوذ بالله من لاعب لا يزال يحوجك إلى النهوض عن كرسيك لتبحث عن « الزهر » الذى قذف به لا تدرى أين وتمضى دقائق فى البحث والتحديق — وأنت منحن — تحت الكراسى وبين أرجل الناس الذين لا تعرفهم . وكثيراً ما يتفق أن يكون « الزهر » الضائع فى طية البنطلون . وليس بالنادر

ألا تجده لا أنت ولا صاحبك فتصفق ليجيئك عامل القهوة « بزهر » جديد . وقد يكون العامل سمجاً أو قليل العقل فيروح يبحث أولا ، وتنقضى دقائق أخرى وأنت تتبعه بعينك . ثم يجىء « الزهر » الجديد فيتناوله صاحبك - لأن هذا دوره - ويقلبه فى كفيه ويقول « لا . هذا كبير . » أو لا . هذا صغير « فيضيق صدرك وتقول » يا أخى العب . كله زهر » وتستأنفان اللعب فتزهق روحك لأن صاحبك ممن يأبون إلا أن يقدروا كل احتمال ، ويحسبوا كل حساب ، ويحتاطوا لكل أمر ، كأنما صار مصير العالم رهناً بهذه اللعبة ، فينفد صبرك وتقول له « يا أخى العب » فيقول « حلمك يا سيدى . . بقى إن سحبنا هذا « القشاط » ؟ . من يدرى ؟ . ربما ضربنا وعطلنا . طيب . . وإذا خرجنا فماذا يكون ؟ . والله هذا أحسن . . أقول لك . . ننتظر ولا نخرج . . نسد عليه هنا . . لا والله . . الخروج أحسن . . لكن يمكن يساعده الحظ فماذا يكون العمل ؟ . » وهكذا إلى غير نهاية

وشر من هذا الذى يعقب على كل لعبة منك بالاستحسان أو الاستهجان ولا ينفك يقول لك « كان أولى أن تصنع كيت وكيت » فتقول « ومالك أنت ؟ . أنا المسئول عن لعبى وأنا الذى يخسر لا أنت » فيقول « لا يا سيدى ، المسألة هى أن اللعب مع غير الحاذق لا لذة فيه »

وقد لا يكتفى بالتعليق والتعقيب بل يحاول أن يلعب لك لعبك ، ويردك عما تريد ، أو ماتهم به ، من تنقيل الحجارة على الوجه الذى يبدو لك ، وينقلها هو لك على هواه وأولى بمثل هذا أن يلاعب نفسه ، ولكن لذته هى أن يفرض عليك إرادته ، مدعياً أن هذا هو ما يقضى به الفن ، وأن الغيرة على الفن لا تسمح له بالتساهل ، ويتركك تخلط وتغلط وتخالف الأصول .

وآه لو وقعت مع واحد من المبتدئين لا يزال يعد - ويشير أيضاً - بأصبعه فى كل لعبة . . وآه وآه وآه - ثلاث آهات طويلة يمتد بها النفس إلى الليلة التالية - من المغالط الذى يدعى أن الرقم خمسة وأربعة ، على حين رأيته بعينيك ثلاثة وستة . ويزعم أنه جاء بالحجر من هنا وهو قد جاء به من آخر الدنيا ، وتراه « أكل » أربعة ، فتنظر إليه عاتباً فيبتسم ، ولا يتلعثم ، ويرفع بين أصبعيه حجراً ويقول لك « والله ما أكلت إلا واحداً فقط » فلا تستطيع أن تقول له إنه كاذب ويعييك أن تدرك الباعث على هذه السرقة فى لعبة يراد بها التسلية وتزجية الوقت ليس إلا .

وأحياناً يحلو لصاحبك أن يمازحك ... ولكن أى مزاح فيتلف لك أعصابك ويطير عقلك ... لأنه يزيغ بصرك بكثرة عبثه « الظريف » . ويا ويلك ممن يغضبه أن يرى نفسه مشفياً على الهزيمة فيعيث بيديه فى الحجارة ويفسد نظامها وترتيبها ، ويغلق الطاولة فى وجهك ، ثم يوليك ظهره أو جنبه ، ويضع رجلا على رجل - أعنى ساقا على ساق - وهو لا يبرطم بما لا يسرك أن تسمع ، وقد ينهض ويتركك بلا كلام أو سلام

ومن بلاء الطاولة أنها تجمع عليك الناس ، ويندر أن يكونوا ممن تعرف ، فتراهم قد التفوا بكما - والبعض جالس والبعض واقف سينظرون ولا يسكتون ليهون احتمالهم ، بل يستجيدون لعبك أو يستضعفونه ، بصوت مسموع ، وقد يراهنون عليكما كأنما أنتما جوادان فى ميدان السباق ... ...

فتسمع أحدهم يقول « أنا أحط على هذا (ويشير اليك فما يعرف اسمك) ريالا ... تجى يا ألفريد ؟ »

فتسمع الفريد يقول « يكفى نصف ريال ... »

فيلتفت الأول إلى غيره ويقول « تجى يا جاك ؟ »

فيمط جاك بوزه ويقول : « لا ما يستاهل »

فتعلم أنك لا تساوى مليما فى رأى جاك ، وأنك من الجياد التى لا تستحق المخاطرة عليها بمال ولو قل .

ومن المستحيل أن يستطيع أحد أن يصف لعب الطاولة ، وكيف كسب دوراً أو خسره « ولكن بعضهم يتكلف ذلك ويحاوله ويقول لك كلاما لا يمكن أن تفهم منه شيئا ، أو تعرف له مدلولا . وأمثال هذا ليس من سوى الالحاح فى المقاطعة ، واللجاجة فى اسكاتهم بما أقول أنا . يبدأ الواحد منهم وصفه الذى لا يصف شيئا فأشعر — سلفا — ان رأسى تحطم فأقول « اسمع . . حدث أمس شىء غريب »

فيقول « وبعد ذلك ضربته وهربت وسددت عليه ... »

فأقاطعه وأقول « كنت راكبا الترام رقم ٧٠ (وليس ثم ترام بهذا الرقم ولكن هذا لا يهم لأن المراد هو أن أتكلم بأى كلام والسلام) فجاءت فتاة صغيرة لا شك أنها من تلميذات المدارس فقد كانت تحمل حقيبة .. »

وأسكت لآخذ نفس ، فيغتنم الفرصة ويقول « ثم ياسيدى بدأت الأكل .. أكلت .. أكلت .. » فأعود الى المقاطعة وأقول « وكان الترام مزدحما فوقفت لها لتجلس فى مكانى .. الأدب واجب ، أليس كذلك »

فيقول « وظللت آكل حتى .. »

فأسرع فأقول « فشكرتنى برقة . الحقيقة انها فتاة مؤدبة . هنا حدث شىء عجيب فقد وقف الترام فى محطة اختيارية من غير أن يطلب ذلك أحد من الركاب ولا من الواقفين على الرصيف »

ويشعر هو أن لا فائدة فى محاولة التغلب على فيضطجع وينظر الى شزرا ويخرج سيجارة ويشعلها ويروح يدخن غير ملتفت الى ، أو عابىء بى ، ولكنى لا أدعه يهملنى مخافة أن يستأنف الوصف الذى قطعته عليه ، فأقول « سامع ؟ . حدث شىء أغرب . سار الترام بسرعة ومررنا بمحطات كثيرة لم نقف عليها لا بل وقعنا فيها كلها وأخيراً وصلنا إلى الموسكى .. أعنى المغربلين .. بعد ربع ساعة من قيامنا .. أليس هذا جميلا ؟ . ما قولك ؟ . ألا تقول شيئا ؟ »

فيقول « شىء بديع جداً »

فأقول « أشكرك .. ليلتك سعيدة »

فيقول وهو معبس « سعيدة »

وأنهض منصرفا وقد نجوت من الوصف .

كلا . لن ألاعب أحداً الطاولة . وإذا شاء إخوانى أن ألقاهم فليكن ذلك فى مكان لا طاولة فيه

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى التاريخ السياسى

مصر والامتيازات الأجنبية

كيف ألغيت الامتيازات فى مونترو

بعد أربعة قرون على قيامها

لباحث دبلوماسى كبير

انتهت المفاوضات التى تجرى بين الحكومة المصرية وبين الدول منذ الثانى عشر من شهر ابريل فى مونترو - فى مسألة إلغاء الامتيازات الأجنبية بعقد اتفاق جديد بين مصر والدول حققت فيه مصر أمنيتها الكبرى، وهى إلغاء الامتيازات الأجنبية .

والامتيازات الأجنبية التى وفقت مصر إلى إلغائها فى مونترو هى من تراث الدولة العثمانية الذاهبة ، وترجع إلى أوائل القرن السادس عشر ، حينما بدأ السلطان سليمان بعقد معاهدة مع فرانسو الأول ملك فرنسا ، منحت فيها للرعايا الفرنسيين الذين يقيمون فى أراضى الدولة حقوقاً ومزايا خاصة ؛ واستطاعت معظم الدول الأوربية بعد ذلك أن تحصل تباعا من سلاطين تركيا على منح مماثلة لرعاياها ؛ ولم يأت القرن الثامن عشر حتى كانت هذه الامتيازات التى اتخذ منحها فى البداية صورة التفضل والمنحة الاختيارية قد غدت بالنسبة للأجانب حقوقاً مكتسبة تغل سلطة الباب العالى نحو الأجانب فى كثير من الشؤون المالية والقضائية

ولما كانت مصر بحكم خضوعها للدولة العثمانية فى تلك العصور تخضع لنظام الامتيازات الأجنبية الذى [illegible] فى جميع الأراضى التابعة للدولة ، فقد بقى هذا النظام سارياً فيها حتى بعد أن حصلت على استقلالها فى عصر محمد على ، ولم تستطع أن تتحرر منه بعد أن رسخت جذوره على كر العصور وغدا معقلا لرعايا الدول الممتازة يحتمون به ، ويتمتعون فى ظله بكثير من الحقوق وضروب الاعفاء القضائية والمالية

وكانت الدول تعمل تباعا على توسيع هذه الحقوق والامتيازات حتى غدت فى النهاية عبئاً ثقيلا على كاهل مصر

يحد من سيادتها فى كثير من النواحى ، ويعرقل حريتها وتقدمها ، ويحدث الخلل والاضطراب فى شئونها القضائية والمالية والادارية . وتفاقمت هذه الحالة فى عهد الخديو اسماعيل ففكر وزيره نوبار باشا فى مفاوضة الدول فى إنشاء نظام خاص ومحاكم خاصة للأجانب ، وانتهت هذه المفاوضات إلى إنشاء المحاكم المختلطة فى سنة ١٨٧٥ ، لتختص بالفصل فى قضايا الأجانب المختلفى الجنسية والأجانب والمصريين ، وجعل أغلبية قضاتها من الأجانب ، ووضعت لها لوائح وقوانين جديدة مستمدة من القانون الفرنسى ؛ والدول ذوات الامتيازات التى عقدت مع مصر هذا الاتفاق هى : بريطانيا العظمى ؛ الولايات المتحدة (أمريكا) ، فرنسا ، ألمانيا ، النمسا والمجر ، إيطاليا ، الروسيا ، السويد والنرويج ، اسبانيا ، البلجيك اليونان ، هولنده ، الدانماركة ، البرتغال .

وهذه خلاصة القواعد الأساسية لاختصاصات المحاكم المختلطة.

أولا ـ تختص بالفصل فى المنازعات المدنية والتجارية بين المصريين والأجانب ، سواء فى المسائل العقارية أو المنقولة

ثانياً ـ تختص بالفصل فى المنازعات المدنية والتجارية بين الأجانب المختلفى الجنسية ؛ وكذلك بين الأجانب المتحدى الجنسية فى المسائل العينية العقارية فقط .

ثالثاً ـ إذا وجد رهن عقارى لأجنبى على عين ثابتة تختص المحاكم المختلطة بالفصل فى صحة الرهن وكل ما يتعلق به ويترتب عليه .

رابعاً ـ تختص بالفصل فى التعويضات التى يطلبها الأجانب من الحكومة المصرية عن الضرر الناشىء عن أعمال الادارة إذا مست هذه التصرفات حقوقا مكتسبة أو مقررة .

خامساً ـ أما فى المواد الجنائية فلا تختص المحاكم المختلطة إلا بالفصل فى بعض الجنح والمخالفات البسيطة ، وبالأخص الجرائم التى تقع على قضاة المحاكم المختلطة وموظفيها

وإلى جانب المحاكم المختلطة بقيت المحاكم القنصلية مختصة بالفصل فى المواد الجنائية المتعلقة بالأجانب ، وفى المنازعات المدنية والتجارية المنقولة بين الأجانب المتحدى الجنسية وفى قضايا الأحوال الشخصية . كل قنصلية بالنسبة للرعايا التابعين لها .

وهذا كله إلى جانب ضروب الاعفاء والحصانة التشريعية والمالية والبوليسية التى يتمتع بها الأجانب ، فليس فى وسع الحكومة المصرية أن تصدر تشريعاً يسرى عليهم إلا بموافقة دولهم ، وفيما بعد بموافقة الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة ؛ وليس لها أن تفرض عليهم أية ضريبة إلا بموافقة دولهم ، وليس للبوليس أن يهاجم منازلهم أو محالهم فى المسائل الجنائية أو يفتشها إلا فى حالة التلبس أو بموافقة القنصل ، وليس له أن يقرر إبعاد أجنبى غير مرغوب فيه إلا بموافقة القنصلية التابع لها .

وقد كان الأمل معقوداً بأن يكون إنشاء المحاكم المختلطة خطوة موفقة فى سبيل الاصلاح ، وفى سبيل تخفيف الأغلال التى تحد من السيادة المصرية ، ولكن ظهر بمضى الزمن أن المحاكم المختلطة جاءت بالعكس عبئا باهظاً على السيادة المصرية وأنها ذهبت فى أحكامها ، وفى تفسيراتها القضائية وفى مزاعم اختصاصها إلى حدود غير معقولة حتى غدت أشبه بدولة داخل الدولة ، وغدت حصناً للنفوذ الأجنبى ، وسياجا منيعا لحماية المصالح الأجنبية ؛ وابتدعت المحاكم المختلطة نظرية الصالح المختلط ، فادعت الاختصاص فى كل قضية وكل نزاع فيه صالح أو شبه صالح لأجنبى ، وتوسعت فى تفسير كلمة أجنبى بحيث شملت كل الأجانب التابعين للدول الممتازة وغير الممتازة والرعايا المحميين وغيرهم ، وأضحت رقيبا على السلطة التشريعية فيما تصدره من قوانين يراد سريانها على الأجانب مهما كان نوعها وغرضها .

وشعرت الحكومة المصرية وشعرت مصر كلها بفداحة هذه الأغلال المرهقة التى تفيد سيادتها وسلطانها من جراء هذا النظام الشاذ الذى فرضته عليها الامتيازات الأجنبية ، والذى غدا بما يسبغه على الأجانب من الحقوق والمنح الاستثنائية ، وصمة فى جبين الأمة تؤذى شعورها وكرامتها ؛ هذا فضلا عن كونه قد غدا بما يسبغه على سفلة الأجانب وأفاقيهم من ضروب الحماية غير المشروعة ، وما يمكن لهم من ضروب العيث والفساد والاجرام الدنيئة ـ خطرا على الأمن والنظام والصحة والأخلاق العامة . لذلك لم تنس البلاد ، منذ اضطرمت حركتها الوطنية الكبرى أن تعتبر قيام

الامتيازات الأجنبية كارثة قومية لا تزول إلا بزوال هذه الامتيازات .

— ٢ —

ولما وفقت مصر بعد طول الكفاح إلى التفاهم مع بريطانيا العظمى واستطاعت أن تفوز منها بوثيقة استقلالها بعقد المعاهدة المصرية الانجليزية في أغسطس الماضي ، كانت مسألة الامتيازات الأجنبية ضمن المسائل الجوهرية التي تناولتها . ووضعت قواعد خاصة لحلها .

فقد نص في المعاهدة المصرية الانكليزية في المادة الثانية عشرة على ما يأتي :

« يعترف صاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن المسئولية عن أرواح الأجانب وأموالهم في مصر هي من خصائص الحكومة المصرية دون سواها ، وهي التي تتولى تنفيذ واجباتها في هذا الصدد » .

ونصت المادة الثالثة عشرة على ما يأتي :

« يعترف صاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن نظام الامتيازات القائم بمصر الآن لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة .

ويرغب صاحب الجلالة ملك مصر في إلغاء هذا النظام دون إبطاء .

وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الشأن في ملحق هذه المعاهدة » .

وخلاصة الملحق المشار اليه ، هو أن مصر ترمى إلى اتخاذ التدابير التي تمكنها من الغاء نظام الامتيازات وما يترتب عليه من القيود التشريعية والمالية بالنسبة للأجانب في أقرب وقت وإقامة نظام انتقال لمدة معقولة لا تطول بلا مبرر تبقى فيها المحاكم المختلطة وتباشر الاختصاص المخول الآن للمحاكم القنصلية في المواد الجنائية والمدنية فضلا عن اختصاصها الحالي ثم تلغى نهائياً بانتهاء فترة الانتقال ، ولتحقيق هذه الغاية تتصل الحكومة المصرية بالدول ذوات الامتيازات للاتفاق على ما تقدم . أما فيما يتعلق ببريطانيا العظمى ، فانها بصفتها من الدول العظمى ، وبصفتها حليفة لمصر لا تعارض مطلقاً في التدابير المشار اليها . وتعد فوق ذلك بأن تعاون مصر على تحقيق غايتها وذلك باستعمال نفوذها لدى الدول الممتازة ، فاذا تعذر وصول مصر إلى غايتها بطريق التفاهم مع الدول ، فانها تحتفظ بحقوقها كاملة إزاء نظام الامتيازات والمحاكم المختلطة ، أو بعبارة أخرى تصبح حرة في إلغائها من تلقاء نفسها .

وينص الملحق المذكور فوق ذلك على بعض المبادىء العامة التي اتفق على اتخاذها أساساً لوضع الاتفاق المذكور ، ومنها أن أي تشريع مصري يطبق على الأجانب يجب ألا يتنافى مع مبادىء التشريع الحديث ويجب ألا يتضمن تمييزاً مجحفاً بالأجانب ، وأن تبقى مسائل الأحوال الشخصية الخاصة برعايا الدول الممتازة من اختصاص المحاكم القنصلية لمن ترغب ذلك من الدول ، وأن يعاد النظر في القوانين الحالية وأن يصدر قانون جديد لتحقيق الجنايات .

وقد بادرت الحكومة المصرية منذ أبرمت المعاهدة المصرية الانكليزية في ديسمبر الماضي ، إلى اتخاذ الخطوات السريعة لتنفيذ هذا البرنامج . ففي السادس عشر من يناير سنة ١٩٣٧ وجهت الحكومة المصرية إلى الدول ذوات الامتيازات مذكرة أولى تدعوها فيها إلى المثول في المؤتمر الذي اعتزمت عقده للبحث في مسألة إلغاء الامتيازات الأجنبية في مدينة مونترو بسويسرا في ١٢ ابريل . وفي الثالث من فبراير وجهت اليها مذكرة أخرى تفصل فيها المبادىء التي ترى مصر من جانبها أن تتخذها أساساً للاتفاق المنشود ، وخلاصتها أن يحال اختصاص المحاكم القنصلية سواء الجنائية أو في منازعات الأجانب المتحدى الجنسية الى المحاكم المختلطة ، وأن لا يشمل اختصاص هذه المحاكم سوى الأجانب الذين هم فعلا رعايا الدول ذوات الامتيازات ، وأن يلغى التوسع الصوري الواقع في تفسير كلمة أجنبي وفي مسألة الصالح المختلط ، وأن يكون للمحاكم الأهلية أن تنظر في قضايا الأجانب الذين يرغبون في اختصاصها ، وأن تمتنع المحاكم المختلطة عن النظر في القضايا الخاصة بسيادة الحكومة وألا تفسر أو تفصل في صحة أي قانون أو أمر إداري ، وألا يكون هناك تمييز بين القضاة الوطنيين والأجانب في مسألة تنظيم الدوائر ورياستها ، وأن تحرر الاحكام باللغة العربية مع إحدى اللغات الأجنبية المقررة . . . الخ

وقد قبلت الدول الممتازة دعوة الحكومة وأبلغتها في

الوقت المناسب أسماء مندوبيها فى المؤتمر ؛ وهذه الدول هى بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، والولايات المتحدة (أمريكا) وإيطاليا ، والسويد ، والنرويج ، وأسبانيا ، والبلجيك ، واليونان ، وهولنده ، والدانماركة ، والبرتغال . أما ألمانيا فقد فقدت امتيازاتها بمقتضى معاهدة فرساى فى سنة ١٩١٩ ، وتعاقدت فيما بعد بمعاهدة صداقة مع مصر منحت فيها بعض الامتيازات المؤقتة لحين إلغاء الامتيازات ، وكذلك فقدت امبراطورية النمسا والمجر (وهى الآن مكونة من النمسا ، والمجر ، وتشيكوسلوفاكيا) امتيازاتها بمقتضى معاهدة سان جرمان (معاهدة الصلح أيضا) ، ولكن النمسا عقدت مع مصر معاهدة صداقة منحت فيها امتيازات مماثلة لامتيازات ألمانيا ؛ وكذلك فقدت روسيا السوفيتية امتيازاتها نهائيا ، ولم تعترف الحكومة المصرية بها إلى اليوم

وعقد مؤتمر مونترو فى موعده المحدد أى فى الثانى عشر من إبريل سنة ١٩٣٧ ؛ وكان وفد مصر مؤلفا من مصطفى النحاس باشا رئيس الوزارة ، والدكتور احمد ماهر رئيس مجلس النواب ، وواصف غالى باشا وزير الخارجية ، وعبد الحميد بدوى باشا رئيس أقلام قضايا الحكومة ؛ واستمر المؤتمر منعقدا حتى اليوم الثامن من مايو حيث تم توقيع الاتفاق الذى انتهت إليه مصر والدول ؛ وكانت فرنسا أشد الدول صلابة وتمسكا ؛ وقد دافعت مصر عن وجهة نظرها ما استطاعت ، وتمكست بالأخص بالنقط الأساسية التى تتعلق بالسيادة المصرية ؛ بيد أنها اضطرت إلى التساهل فى بعض التفاصيل والضمانات الخاصة بفترة الانتقال ؛ وجاز المؤتمر كثيرا من الأزمات الدقيقة التى أثارتها فرنسا بتشددها وفداحة مطالبها . وهذه خلاصة للمبادىء الهامة التى تم الاتفاق عليها :

أولا — وافقت الدول على إلغاء الامتيازات الأجنبية وكل ما يترتب عليها من الحقوق والمزايا الخاصة إلغاء تاما شاملا

ثانيا — ألغيت جميع القيود التى كانت قائمة فى سبيل التشريع المصرى بما ذلك التشريع المالى على الأجانب ، وأصبح من حق مصر أن تطبق على الأجانب جميع القوانين التى تطبقها على الوطنيين ، وألغى حق الاشراف الذى كانت تزاوله المحاكم المختلطة فى تطبيق هذه القوانين وفى الحكم بصحتها

ثالثا — رضيت مصر بتنظيم فترة للإنتقال حددت مدتها باثنى عشرة عاما ، يحتفظ خلالها بالمحاكم المختلطة ، ويضاف إلى اختصاصها اختصاص المحاكم القنصلية فى المواد الجنائية والمدنية ؛ وكذلك فى مواد الأحوال الشخصية بالنسبة للدول التى ترغب فى نقل الأحوال الشخصية إليها

رابعا — يقتصر اختصاص المحاكم المختلطة أثناء هذه المدة على رعايا الدول ذوات الامتيازات ، وكذلك رعايا الدول الآتية : ألمانيا ، النمسا . تشيكوسلوفاكيا ، المجر ، يوجوسلافيا ، سويسرا ، بولونيا ، رومانيا ؛ ويتناول اختصاصها الرعايا المحميين أيضا فى المواد الجنائية . أما فى المواد المدنية فهؤلاء الرعايا أن يختاروا بين المحاكم الأهلية والمختلطة . وفى الأحوال الشخصية بالنسبة الرعايا الذين ينتمون إلى طوائف دينية معينة يبقى الاختصاص الطائفى . ولا امتيازات لرعايا سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن

خامسا — يحظر على جميع المصريين أن يلجأوا إلى حماية أية دولة أجنبية

سادسا — فى نهاية فترة الانتقال تلغى المحاكم المختلطة وذلك فى ١٢ اكتوبر سنة ١٩٤٩ ، كما تلغى المحاكم القنصلية ويخضع جميع الأجانب المقيمين بالقطر المصرى للقضاء المصرى فى جميع الأحوال المدنية والجنائية والشخصية

هذه هى المبادىء الجوهرية التى انتهى إليها اتفاق مونترو بين مصر والدول لحل مشكلة الامتيازات الاجنبية

ويعتبر اتفاق مونترو بالنسبة لمصر حادثا عظيما فى تاريخها لا يقل فى أهميته عن المعاهدة المصرية الانكليزية ذاتها ؛ وقد تحطم صرح الامتيازات الأجنبية بعد أن لبث زهاء أربعة قرون كابوسا مرهقا ، يحد من سلطان مصر وسيادتها حدا أليما ، ويجعل الأجانب سادة فى أرضها ، يتمتعون بحقوق ومنح لا يتمتع بها أبناء البلاد أنفسهم . نعم أن مصر اضطرت نزولا على مقتضيات الظروف الدولية أن تقبل فترة انتقال يبقى فيها هذا النظام اثنى عشرة عاما أخرى تستعد المصالح الأجنبية فيها لاستقبال العهد الجديد ؛ ولكن نظام الانتقال يعتبر بصورته التى بسطناها نظاما مخففا معقولا بالنسبة للامتيازات القديمة ، ولا يحد من السياسة المصرية حدا خطيرا ، هذا فضلا عن أن اثنى عشرة عاما ليست شيئا مذكورا فى حياة الأمم

(...)

من الأدب التحليلي

أنــا . . .

للاستاذ على الطنطاوى

— ١ —

... ... قال لى أهلى : لقد جئت إلى هذه الدنيا عارياً بلا أسنان ، لا تحسن النطق ، ولا تعرف شيئاً ... فضحكت ولم أصدق . فأعادوا ذلك على ، وألقوه كأنه قضية مسلمة وأمر واضح لا يحتمل الشك ، وعجبوا منى حين أكذبه وأرده ... ولكنى بقيت على رأيى الأول ، لم أستطع مطلقاً أن أصدق ما يقولون ، لأنى أعرف بنفسى منهم ، ولأنى أذكر ماضى كله : أذكر انى فتحت عينى ذات يوم فجأة ونظرت ... فوجدت نفسى ، ورأيت أن لى أسناناً وعلى ثياباً ، وبى قدرة على المشى والنطق ، ورأيتنى شخصاً مستقلا عن أبى وأمى وسائر أهلى ، أحب أشياء لا يحبها أحد منهم ، وأكره أشياء لا يكرهونها ، ولا يميزنى منهم إلا أنى كالطبعة المختصرة من الكتاب ، فيها كل الأبواب والفصول بيد أنها موجزة و ... بالقطع الصغير ، ...

أفيعقل أن أكون موجوداً قبل ذلك اليوم ، وأنا لا أعرف نفسى ؟

مستحيل !

واستقر فى ذهنى من يومئذ ، أ ولدت وأنا فى الرابعة من عمرى ! !

— ٢ —

وصرت أرى هذا الطفل دائماً ، أبصر صورته فى المرآة وأسمع صوته باذنى ، وأصغى إلى حديث أمى عنه بشغف وسرور ، فكنت أشعر بميل غريب اليه ، حتى أنى لأعترف الآن بانه كان أحب إلى من أمى ، التى لم أكن أعدل بها أحداً ولا أقبل كنوز الأرض بدلا من امتصاص ثديها والنوم على صدرها ...

ذلك الطفل الباسم ، ذو العينين السوداوين ، والشعر ... يا للأسف ! انى لا أستطيع أن أتخيل شعره ، لقد محيت صورته من ذاكرتى ، لقد اختفى من الدنيا منذ ربع قرن ، لقد ذهب الى حيث لا أدرى ؟ فهل كنت أنا ذلك الطفل ؟ هل تجيء يده الصغيرة الغضة فى يدى الخشنة التى أخط بها هذا المقال ؟ فأين ذهب إذن ؟ ومن أين جئت أنا ؟ ... اننى لست ذلك الطفل ولست غيره ... فكيف يعقل هذا ؟

هذا يحيرنى دائما ، ولا أعرف له حلا ، بل ان مجرد التفكير فيه يدفعنى الى الجنون ...

— ٣ —

ونظرت يوما من الأيام ـ فاذا فى مكان ذلك الطفل اللاهى اللاعب ـ العابث بكل شيء ، الذى يحطم كل ما يصل اليه ، ويقبض على الجمرة المشتعلة بيده كما يقبض على البرتقالة الحمراء ، ويعبث بلحية القاضى إذا هو بلغها ، كما يعبث بشعر الهرة ... إذ أنى مكانه تلميذ يقرأ مكرهاً ، ويكتب مضطراً ويحمل هم المدرسة التى يذهب اليها كل يوم كالذى يساق إلى الموت ، لا يعرف لوجوده فيها معنى ، ولا يدرى فيم يدع عطف أمه ، والأنس باخوته ، ولم يترك بيته وما فيه من الدفء فى الشتاء ، والظل فى الصيف ، ليذهب إلى هذه الدار التى يحشد فيها الأطفال الأبرياء المساكين ، لتحشى أدمغتهم بمسائل لا يدركون معناها ، وشروح لا يعرفون مغزاها ، وتنال من أبشارهم وظهورهم عصا المعلم الغليظة ، وتقذى عيونهم برؤية طلعته البغيضة ، لا المعلم يبسم لهم ، ويدعوهم إلى حبه ، ولا أهلوهم يستمعون شكواهم وينصفونهم ... لقد كان فى هذه المدرسة كالمحكوم عليه بالسجن ظلماً ...

يا لهذا التلميذ البائس الذى لم يكد يفتح عينيه على الدنيا حتى أبصر الشقاء والألم . لقد مات كداً ، ومضى مسرعاً فى طريق الفناء ... مسكين ... إنه لم يكن إلا أنا ، أنا الذى ولدت ومت مائة مرة ، حتى صرت الآن ... (أنا)

— ٤ —

وكان يوم آخر ، فاذا (الفلم) ينكشف هذه المرة عن منظر جديد : اختفى التلميذ الجميل ، ذو السراويل القصيرة ، والقميص الأحمر ، والحقيبة الزرقاء الصغيرة ، وذهب بجسمه ونفسه وميوله وأفكاره ، وظهر الشاب الحليق الوجه ، ذو (الربطة) الطويلة ، والحقيبة السوداء الواسعة ... ظهر فى الثانوية طالباً متحمساً ، كأنما ركبت أعصابه من الديناميت . وصنع فمه على مثال فوهات الرشاشات ، فلا يكاد يقع فى المدرسة حادث ، أو تقوم فى البلد ضجة ، إلا انفجر الديناميت وانطلق الرشاش ، وقام فى الطلاب خطيبا ثائراً مثيراً ، فحطموا الباب وخرجوا ... كان ينتقم بهياجه وثورته لذلك التلميذ الهادىء الحيى المظلوم ... ولكن الامتحان لم يلبث أن كشر له عن أنيابه وجاء ينتقم منه ...

هذه هى البكالوريا . فتهيأ لها . إن مستقبلك معلق عليها ... ولم يكن قد فكر فى المستقبل . أو حسب له حساباً فلما سمع به وقف وتردد وكبح من جماح نفسه ... يجب أن يضمن المستقبل . ليصل إلى آماله . آماله الكبار التى كانت تملأ نفسه ولا يشك فى بلوغها ... وكان قد بدأ ينشر فى جرائد البلد فهو يجب أن يكون كاتباً كبيراً منتجاً يخدم بقلمه وطنه . ويدافع به عن الحق والفضيلة . ويقاتل به خصومها وأعداءها ويساهم فى تحرير وطنه . ويكون له فى (الاصلاح الشعبى) أثر يذكر . فليسع إذن لنيل الشهادة ، فانها تبلغه كل أمل . وتوصله إلى أبعد غاية . إن الدنيا كلها ترتقب نجاحه فى (البكالوريا) . فاذا نجح فتحت له الأرض كنوزها . وحمله الناس على أعناقهم إلى سدة المجد . وقاموا بين يديه قيام الخدم بين أيدى الملوك ...

تلك كانت أحلام الصبا ... فيا رحمة الله على عهد الصبا !

— ٥ —

حرم الشاب على نفسه كل متعة من متع الدنيا ، فلا نزهة ولا راحة ، ولا حظ له فى النوم العميق ، ولا الطعام الهنىء ولا شغل إلا شغل المدرسة ، حبس نفسه بين كتبه ودفاتره يقرأ آناء الليل وأطراف النهار ، ينتقل من هذيان الأدباء إلى طلسمات الرياضيين والعلماء ، وحساب الجيب والماس ، إلى شعوذات الطبيعيين وأصحاب الكيمياء ، ودرس الملح والحامض والضياء والكهرباء ، إلى خرافات الفلكيين وجغرافية السماء ، يدس هذا الهراء كله فى دماغه ، ليصبه يوم الامتحان فى ورقة الفحص ، ثم يلقيه فى مكانه ، ويخرج من المدرسة فارغ الرأس كما دخلها أول مرة ...

كان يخشى أن يثأر منه المدرسون الذين جرعهم الصاب وسقاهم الحنظل باعتراضاته ومناقشاته وثوراته فيسقطوه فى الامتحان . فجد كل الجد . ولم يدع فى كتب المدرسة حاشية إلا حشاها فى رأسه ، ولا تعليقة إلا علقها فى ذاكرته ، ثم دخل الامتحان بعقل من سطوح وأجسام ، وخطوط وأرقام ، وخرافات وأوهام ، فنجح أعظم نجاح ...

وهل ينجح فى الامتحان إلا من حفظ ولم يفهم ؟ وهل تدل هذه الامتحانات إلا على قوة الذاكرة ، وشدة الحفظ وإتقان المنهج المقرر ؟

ooo

نجح ، فوثب فرحا ، وتهيأ لخوض معركة الحياة ، فقالوا له : مهلا ! قال : ماذا ؟ قالوا : لابد من شهادة عالية . إن المستقبل لا يضمن إلا بشهادة عالية !

قال : ويحكم ! وهل يبنى المستقبل على (الورق) ؟

وانطلق يلعن هذا المستقبل . الذى حرمه عبث الطفولة ومتعة الشباب ، ونغص عليه حياته ، ولم يتركه يستريح إلى حاضره يوما واحداً ، كان أبداً يدفعه إلى الأمام ، فيعدو كالفرس المحموم ، فيتعب من العدو ، ولا يصل إلى منزل !

— ٦ —

راح الشاب يدرس الحقوق لينال الشهادة ، ويضمن المستقبل ، ويشتغل بالأدب ، ليستجيب للرغبة ، ويحظى بالمتعة ويعمل فى الجريدة ، ليضمن العيش ، ويعول الأسرة ... واستمر على ذلك حتى نال (الليسانس) فربح بقربه من الأدب البعد عن الناس ، والجهل بالحياة ، وكسب بميله الأدبى وطبعه المستوحش ، وجهله بالحياة ، خصومة الناس ، ومضادة الكبراء وعداوة المال ...

— ٧ —

نزل الشاب الى ميدان الحياة ، برأس مترع بالعلوم والمبادىء السامية ، ويد مثقلة بالشهادة الابتدائية والثانوية والعالية ، وجيب خاوٍ خالٍ .

فلم تكن إلا جولة واحدة ، حتى ولى منهزما !

* * *

ذلك لأن سلاحه ، من (طراز قديم) لم يعد يصلح اليوم فى معركة الحياة !

ولقد خدعته المدرسة ، وكذبت عليه ، وصورت له الحياة على غير حقيقتها :

قالت له المدرسة : العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، فرأى أن المال فى الحياة خير من العلم ، العلم لا ينال إلا بالمال ، فلو أن شابا كان أذكى الناس ، وأنبه الناس ، وكان مفلساً لا يملك أجور المدرسة ، وأثمان الكتب والثياب ، لما قبل فى جامعة ولا حصل علما – والعلم لا يثمر إلا بالمال ، فلو أن أعلم أهل الأرض ، كان مفلسا ، يفكر فى خبزه من أين يأتى به ، وبيته كيف يستأجره ، لما بقى له عقل يفكر ، وذكاء ينتج ، ورأى أن أصحاب الأموال الجاهلين ، تبيحهم الحياة أجمل ما تملك من متع ولذائذ ومجد وجاه ، والعلماء الفقراء محرومون من كل شىء .

نعم إن المدرسة كانت تكذب عليه !

وقالت له المدرسة : « الأخلاق أساس النجاح » وضرب له المعلم مثلا سيئاً طلابا لا أخلاق لهم ولا عفاف . وضرب له مثلا عالياً طلاباً كانوا نموذج الطهر والاستقامة والشرف ، فرأى أن الأولين قد بلغوا أعلى المراتب وأسمى المناصب والآخرين تحت تحت ... على العتبة ...

فعلم أن المدرسة كانت تكذب عليه !

وقالت له المدرسة : إن الحق فوق القوة . القوة للحق وليس الحق للقوة ، فآمن بذلك وصدقه ، وتسلح بسلاح الحق ، فما راعه إلا اللص يضع مسدسه فى صدغه يطلب ماله وثيابه ، فألقى عليه محاضرة فى الحق ، جمع فيها كل ما تعلمه من أساتيذه ، وأضاف اليه ما انشق عنه ذهنه فرد عليها اللص بقهقهة مروعة ... وذهب بأمواله وثيابه ورجع هو عارياً . لم يبق له إلا فكرة سخيفة لا تسمن ولا تغنى من جوع ولا تنجى من برد ...

ورفع شكواه إلى القاضى ، فلم ير عند القاضى حقا يقهر القوة ، ولكن وجد عنده قوة تصنع الحق ، وجد قوة الجنود ، فأين يبقى الحق اذا ثار اللصوص على الجند أو فتكوا بهم ؟

هذه هى سنة الحياة ، وليس على الحياة ذنب ، فهى سافرة لم تستتر ولم تخدع أحدا عن نفسها ، ولكن الذنب على الأدباء والمدرسين الذين وضعوا عيونهم فى أوراقهم ، وحبسوا أنفسهم فى مكاتبهم ، وأرادوا أن يدرسوا الحياة فلم يفهموا منها شيئاً ...

— ٨ —

وجلس الشاب (الليسانسيه فى الحقوق) يدون آراءه تلك فى كتاب ، فلما انتهى منه حمله إلى الناشر ، وكله زهو وإعجاب بنفسه ... فقلبه الناشر العامى وصفحه ، فلما رأى اسم صاحبنا عليه لوى شفتيه ، وقوّس حاجبيه ، وقال له :

ـ إن الناس لا يقرءون الآن ما تكتب ، ومتى صرت (فى المستقبل) كاتباً مشهوراً ننشر لك آثارك

فخرج متعثراً بأذيال الخيبة ... يلعن المستقبل لعناً

* * *

ما هو هذا المستقبل ؟ وهل اقتربت منه شبراً واحداً وأنا أركض وراءه منذ سبعة وعشرين عاما ؟ فمتى أصل اليه؟ وأين هو ؟ أهو فى العام الآتى ، أهو فيما بعد خمس سنين ؟ وهل يبقى مستقبلا إذا أنا بلغته أم يصبح حاضرا ، ويكون على أن أبلغ مستقبلا آخر ؟ .. أيكون مستقبلى القبر ؟ لقد طوفت فى الآفاق ، وشرقت وغربت ، وأنجدت وأعرقت ... فما رجعت إلا بالخيبة والتعب والافلاس . فأين أجد الهدوء والراحة من هموم العيش ، حتى أنصرف إلى ما خلقت له من الدرس والمطالعة والكتابة والتأليف ؟

* * *

وذهب الشاب (الليسانسيه فى الحقوق) يفتش عن الخبز فلم يجده عند ناشر الكتاب ، ولا فى إدارة الجريدة ، ولا فى

مكتب المحامى ولم يجده إلا فى مدرسة القرية . فصار (معلم صبيان) فيها ، يقرئهم الف باء ، ثم ارتقت به الحال قليلا ، فصار يدرس سير الأدباء ، واشعار الشعراء ... يكد ويتعب، فى الليل والنهار يحمل آلام الغربة ، وعناء العمل . ثم لا ينتج أثراً أدبياً ، ولا يفيد علماً ، ولا يحفظ فى جيبه درهماً واحداً ... إنه يشتغل من أجل المستقبل .....

— ٩ —

أين ذلك الطفل الذى كان يكره المدرسة . ويبغض المعلم القاسى - من هذا المعلم الفظ ، الذى يرهق الأطفال ويهز عصاه فى وجوههم ، ويقرع بها جنوبهم . . . من يستطيع ان يتصور ان هذا هو ذلك ؟ وأى شبه بينهما ؟ انهما يختلفان فى الجسم والشكل والطبائع والميول . فلن يكونا شخصاً واحداً !

أين ذلك الطالب المتحمس الذى كان يقود الطلاب الى المظاهرات ، ويخطب فى المساجد والمجامع والاسواق ؟ من هذا المدرس الخامل الذى يلقى دروس الأدب على هؤلاء الطلاب، ويبدو فيهم كشيخ هِم فى الثمانين ؟ هل هما شخص واحد ؟

ان ذلك الطالب لو رأى هذا المدرس لأبغضه وكرهه ولما تردد فى البطش به !

وأين ذلك الشاب الذى تفيض نفسه بالآمال الكبار ؟ من هذا اليائس القانط الذى لم يعد يأمل فى شىء ، لأنه جرب فلم يصل الى شىء ؟

— ١٠ —

وبعد . فلم أفكر فى هذا ؟ إننى لا أدرى من أنا . ولا أعرف كيف وجدت ، ولا أعلم ماهى صلتى بذلك الطفل الذى نسيت حتى صورة وجهه ، وذلك التلميذ الذى لم أعد أعرفه إلا بالتخيل ، وذلك الطالب الذى أحبه وأنشوق اليه ، وذلك المعلم الذى أرثى له وأشفق عليه ؟

هل أنا كل هؤلاء ؟ وماذا بعد ؟

يالله ! إنى أحس كأنى جُننت حقاً ؟ !

(بغداد) **على الطنطاوى**

تحيـــة للرافعى

للأستاذ منصور فهمى بك

مات مصطفى صادق الرافعى ، وما لقيته إلا مرات قليلة قد لا تتجاوز أصابع اليد عدا ، ولم ترتبط بينى وبينه عقدة الصداقة الخاصة التى طالما يكون من شانها أن تؤلف بين قلوب الناس على الأنس والمودة فى الحياة ، وطالما يكون من شأنها فى الممات أن تزوى الأسى فى القلوب .

على أنه إذا كان قد قل لقائى بالرافعى فى الحياة ؛ ولم تربطنى به علاقة وثيقة من حقها أن تدفع القلم فى سبيل الرثاء فان فى حق الوفاء لما قدم الرافعى من خير متسعاً يفسح لقلمى ولغيره من الأقلام الوفية أن تذكر ذلك الراحل العظيم .

وعظمة الرافعى التى أنوه بها الآن على عجل إنما مرجعها اتصاله الوثيق بتراثنا الأدبى القديم دون غيره فنهل من شرابه العذب ، وتغذى من خلاصاته القوية الصالحة ، فاذا بها تتمثل فى أسلوبه ، وتتغلغل فى أدبه وتهذيبه ، وتتمازج فى تفكيره وتعبيره ، وتندمج فى تقديره وتدبيره ، فاستطاع أن يشق للأدب القديم التليد ، سبيله فى الأدب الحديث العتيد .

فاى إنسان يرى فى التراث الماضى نبل هذا التراث ولا يألم حين يفتقد حارساً يقظاً لهذا التراث وداعياً له عليما ، ومعرفاً به حكيما ؟ وأى وريث لثقافة العرب لا يجزع حين يموت أديب عربى كبير كان يعرض فى أدبه للخلف ، جميل ما جادت به نفوس السلف ؟ وأى أسف لا يستولى على النفوس بموت الرافعى النابغة الأديب حين يمر على الخاطر أن الناس قد فتنوا بالحاضر ، فنسوا وعقوا محامد الغابر ؟

وإذا كان من حق الآثار الصالحة أن تبعث من قبورها ، أفلا يحق على الناس أن يأسفوا على من كان يعمل على نشرها من مراقدها ؟

وا أسفاً على الرافعى ، ثم وا أسفاً على الرافعى !

فالى الأدباء إذن وإلى الشعراء ، وإلى آل الرافعى جميل العزاء ، وعليهم جميعاً للرافعى الأديب الكبير بعد ذلك حق الوفاء .

منصور فهمى

في الأدب المقارن

التـــــاريخ

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

التاريخ قصة الانسانية وحكاية ماضيها، يصف حياة الانسان من قديم عهوده، وتقلب أحواله على مرور العصور، وكفاحه في سبيل التقدم والسعادة، ويعرض أعمال الأمم وعظائم الأفراد وتعاون الشعوب حينا وتعاديها أحيانا، ويشرح سريان الحضارة والثقافة من صقع إلى صقع، ومن جيل إلى جيل، ومن أمة إلى أخرى، وما أضافته إليهما عبقرية كل شعب، من مستحدثات العلوم والفنون والصناعات؛ فالتاريخ سجل ملىء بالعظات والدروس، حافل بالممتعات والطرائف، يمتع اللب سياقه القصصي، وينبه الخيال بعده الزمني، ويملأ النفس أحيانا بالفخار الوطني، ويثقف الانسان في حاضره ويبصره بما بين يديه، حين يعرض عليه أنباء الماضي ووقائعه

ولا يستمد التاريخ مما دونه المؤرخون في طروسهم فقط، بل يستمد بجانب ذلك من آثار الفنون المتخلفة عن الأمم، من عمارة ونحت وتصوير وأدب، ففي كل هاتيك صور من عقلياتها ومذاهبها ومجتمعاتها ومنازعها؛ فتاريخ الحضارة المصرية القديمة لا يستمد إلا أقله مما دونه المصريون أنفسهم أو من جاء بعد عهدهم من مؤرخي الأمم التالية، أما أكثر ما يعرف عن حياتهم الاجتماعية وتقاليدهم ودياناتهم وعلومهم، فمستقى من مخلفاتهم في عالم البناء والنحت والنقش والصناعة، وقل مثل ذلك في تاريخ اليونان والرومان، وغيرهم من الأمم التي أنشأت الحضارات وكان لها في العلم والفن شأن يذكر

فتاريخ الأمة وفنونها متصلان أوثق اتصال، فالعوامل النفسية التي تسيطر على المجتمع والحكومة وتؤدي إلى الأحداث والتطورات السياسية والاقتصادية، هي هي العوامل النفسية التي تسيطر على فنون الأمة، فيميل أبناؤها إلى فنون دون أخرى، وينحون بفنونهم انحاء خاصة دون غيرها؛ فقدماء المصريين الذين كانوا يخضعون للملكية مطلقة دينية الصبغة ويؤلهون ملوكهم، نبغوا في عالم العمارة في بناء المعابد والمقابر دون القصور، ونحتوا التماثيل للملوك والآلهة، لا للأبطال والزعماء والخطباء والرياضيين كما فعل الاغريق، ولم يرتق فيهم الأدب الذي يترجم عن مشاعر الفرد، ويعبر عن خوالج المجتمع

والأدب أشد الفنون اتصالا بتاريخ الأمة وارتباطا بتطورات المجتمع، إذ كان صدى ناطقاً دقيقاً لما يحس به الفرد والمجتمع، بل الأدب مصاحب في بدئه للتاريخ في ظهوره، يتمازجان لدى الجماعات البدائية في محاولتها تفسير ظواهر الكون والتغني بمفاخر أسلافها، ويشاب كل ذلك بالخرافات، ويظل الأدب والتاريخ مختلطين على ذلك النحو مادامت الأمة في عهد بداوتها، فاذا ماتحضرت ودونت الكتب بدأت العلوم تتفرق وتتميز ويستقل كل منها بنفسه، فظهر المؤرخون واستقلوا بأمرهم عن الأدباء، بيد أن الصلات بين الأدب والتاريخ تظل محكمة، إذ كان كل منهما مرآة للمجتمع تعكس صورته من زاوية مختلفة

فالأديب لا غنى له عن درس تاريخ الماضين والتبصر في تاريخ عصره، كي يتثقف عقله ويحصف فكره لأحوال البشر، والمؤرخ لا غنى له عن النظر في كتب الأدباء ليفهم روح العصر الذي يؤرخ له ومثله العليا، ولا غنى له إذا أراد أن يجيء تاريخه كاملا عن أن يفرد جانباً منه لدرس الحياة الأدبية لذلك العصر، والمؤرخ للأدب لا مندحة له عن درس التاريخ السياسي للعصور الأدبية، والبيئات السياسية والاجتماعية التي عاش فيها الأدباء الذين يترجم لهم؛ وقد كان من عظماء اليونان والرومان أمثال ديموستين وتيوسيديد وقيصر وشيشرون من جمعوا بين البلاغة الأدبية والتأليف التاريخي، أو بين حرفة الأدب وحرفة السياسة وصنعة الحرب

إذا مابلغت الأمة طور الحضارة والاستقرار والثقافة، ودخل الأدب في طوره الفني، تميز التاريخ وقام علما مستقلا بنفسه كما تقدم والتفت إليه الأدباء فوجدوا به مجالا لفنهم رحيباً ومرتعاً لابتكارهم خصيباً، فهم لا يكتفون باستيعاب حقائقه واجتناء فوائده، بل يتخذون من مشاهده وأحداثه ورجاله مادة وغذاء لأقلامهم، ومسارح لخيالهم ومنادح لبيان آرائهم في الانسان والحياة، وشواهد لتدعيم حججهم في المذاهب والمشاكل، فيتخذ منه الشعراء موضوعات لقصيدهم، والقصصيون هياكل لقصصهم، ويجدون في عوالمه البعيدة وحوادثه القريبة وعظائه النابهين، مهربا للنفوس من عقال الحاضر القريب، وأحداثه العادية

كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب لأنه - هو والقصص - كانا يحويان أخبار العرب، ويحفظان مشهور حوادثهم وأيامهم،

ويحكيان أخبار رحلاتهم واستقرارهم ، ويشيران إلى ماوراء ذلك من عوامل اقتصادية واجتماعية وعصبية ، فلم يكن العرب إذ ذاك يعرفون من التاريخ إلا حفظ الأنساب ، فلما تحضروا واستقروا فى المدن تضاءل شأن النسابة وظهر التاريخ المدون ، ظهر أولا لغرض عملى شأن كل العلوم والفنون ، لحفظ أخبار الفتوح وسيرة النبى الكريم وصحابته وتفسير بعض آيات الذكر الحكيم ، وارتقى التاريخ شيئاً فشيئاً وصارت له أغراض غير هذه وتناول موضوعات أخرى أرحب وأعم

بيد أن التاريخ لدى العرب — كالأدب — ترعرع فى ظل الملكية المطلقة ، فجاء كلاهما مشتملا على نفس النقائص : احتفى كلاهما بأمر الملوك وأغفل جانب الشعوب ، واهتم بالأحداث السياسية والحروب وتجاهل التطورات الاجتماعية والاقتصادية ، واتسم كلاهما بالمحافظة والتقليد والنقل فى غير نقد ، لأن وطأة الملكية كانت تضطر كلا منهما إلى الاطراق والاغضاء والتغافل عن مواطن الضعف ودواعى الاصلاح ، وكما كان الشعراء يقرضون الشعر ليتقدموا به إلى الأمراء متزلفين ، فيملأونه بالمدح المغالى فيه ، كان بعض المؤرخين يصنفون أسفارهم ليرفعوها إلى بعض الخلائف والسلاطين بغية الثواب والحظوة ، فيملأونها بمدحه ومدح أسرته وتعداد مآثره ومفاخر دولته ، ويؤيدون دعواه وينحون على عداه ، ويتغاضون عما عدا ذلك

وقد ظل الاتصال قائما بين الأدب والتاريخ بعد تدوين الكتب واستقلال علم التاريخ بنفسه ، فظلت كتب الأدب تحوى كثيراً من أخبار الجاهلية والاسلام ، بل كانت تلك السير والأخبار والشذرات والنوادر من أهم مواد كتب الأدب العربى ، ووردت فى أشعار الشعراء شتى الاشارات إلى أحداث الماضى ورجاله ، كما أن المؤرخين وكتاب التراجم والمعاجم كثيراً ما كانوا يلجأون إلى الشعر مستشهدين لما هم بصدده من تحقيق حادثة ، أو تصويب رواية ؛ وكان بعضهم يعيرون الشعراء اهتمامهم فيترجمون حياتهم ترجمة موجزة ، وكان بعض الشعراء ينظم فى أحداث جيله ، كما فعل ابن الرومى فى ثورة الزنج وفى مقتل بعض العلويين الخارجين . وكان كتاب الأمراء يتناولون مسائل السياسة فى رسائلهم ، فيندرج أشعار أولئك وكتابات هؤلاء فى تراث التاريخ اندماجها فى كنوز الأدب

بيد أن الأدب العربى الذى أغفل كثيرا من موضوعات القول التى يتهافت عليها الأدب إذا ما بلغ طوره الفنى ، أهمل التاريخ إهمالا كبيرا ، فلم يتخذ من حوادثه وحيا للنظم ، ولا من أعاجيبه مدارا للقصص ، ولا من أبطاله أمثلة للتمجيد ، فليس من بين أدباء العربية الكبار من استهزه حادث تاريخى قرأه ، أو أثر تاريخى وقف به ، إلى نظم قصيدة أو إنشاء رسالة يستجلى فيها عبر التاريخ ويمجد قوة الانسان ، أو يندب ضعف حيلته إزاء جبروت المقادير . وليس من كتاب العربية ذوى الأساليب الجزلة من شمر عن ساعد الجد والبحث والاطلاع حتى كتب تاريخاً رفيعاً لبعض العصور أو الرجال ، تاريخاً يعد تحفة فى عالم الأدب كما قد يعد مرجعاً فى عالم التاريخ ، وإنما كان بعض الشعراء يتنصلون من الشؤون الاجتماعية والسياسية ، ويتبرؤون من الاشتغال بمسائل التاريخ ، كما قال ابن المعتز :

قليل هموم القلب إلا للذة ينعم نفسا آذنت بالتنقل
ولست تراه سائلا عن خليفة ولا قائلا : من يعزلون ؟ ومن يلى ؟
ولا صائحا كالعير فى يوم لذة يناظر فى تفضيل عثمان أو على

أما فى الانجليزية حيث كان الأدباء والمؤرخون كغيرهم من أفراد الشعب يشاركون فى الحياة الاجتماعية والسياسية بآرائهم ومذاهبهم ، بل بأعمالهم ومساعيهم ، فقد جاء كل من الأدب والتاريخ أكثر حرية وأقرب إلى جانب الشعب ، وأكثر طروقا لمواضيع المجتمع ومشاكل بنيه ، وجاء الاتصال بين الأدب والتاريخ شديد التوثق ، وجاء الأدب الانجليزى أحفل بآثار المجتمع الذى قيل فيه من الأدب العربى ، ومن ثم تدرس النصوص الأدبية الكثيرة فى أثناء دراسة التاريخ فى الجامعات ، فتدرس آثار ملتون مثلا عند دراسة عهد المطهرين فى انجلترا

ووجد أدباء الانجليزية فى التاريخ مجالا واسعاً لفنهم وابتداعهم ، فجال فيه شكسبير ومعاصروه جولات عديدة ، واتخذوا مشاهد رواياتهم فى بلاد اليونان أو إيطاليا أو دانيمركة أو انجلترة القديمة ، واشتق ملتون ودريدن موضوعات كثيرة من قصيدهم من تاريخ اليهود وأبناء ملوكهم وأنبيائهم ، فلما ظهر النثر الفنى بجوار الشعر لم يغفل التاريخ ولم يكن أقل لموضوعاته طرقا من الشعر ، بل كان أحرى أن يشتمل على حقائقه ودقائقه ويعالج مسالكه ودروبه . بما يمتاز به على الشعر من رحب جوانبه ودقة تعبيره ، فعالج جيبون وهيوم وآدم سميث وكارليل وغيرهم التاريخ والاجتماع وفلسفتيهما فى أسلوب أدبى شائق ، وجمع بعض الأدباء أمثال ماكولى وأرنولد بين الكتابة فى الأدب والتأليف فى التاريخ فكان الأدب والتاريخ لديهم كلا واحدا يجولون فى نواحيه

بلا تفريق ، وبقيت كتاباتهم يدرسها طلاب الأدب كما يدرسها باحثو التاريخ

بل بلغ غرام بعض الأدباء بالماضي ، وشغفهم بتقاليده وأزيائه وحبهم لأفذاذه وعظائه حداً بعيداً ، وقد كان سكوت من ذلك الضرب الذي يحيا في الماضي وبجلائله ولآلائه وبطولته ، ولا يكاد يلتفت إلى الحاضر أو يعنى بالمستقبل ، وفي ذلك العالم السالف كتب سكوت أحسن قصصه . وممن كتب في الروايات والقصص التاريخية أيضا تنيسون وبرونتج ودرنكور تروشو ، وقد نرى موضوعاً تاريخياً حديثا كالثورة الفرنسية ، وقد تناوله المؤلفون الانجليز من شتى النواحي ، فحلل لحوادث الثورة وشخصياتها ككارليل ، ومندد بمبادئها كبرك ، ومرحب بتلك المبادىء مترنم بها كوردزورث ، ومتخذ من قصة وليد تلك الثورة نابليون موضوعا لملحمة طويلة كهاردى ، وهكذا تحيا حوادث التاريخ في أذهان مطالعي الأدب مضورة من شتى النواحي

ولا شك أن هذا التاريخ الأدبي ، إذا سميناه كذلك ، أجدر بالقراءة وأحق باهتمام المثقف من التاريخ المجرد ، إذ في آثار الأدباء تحيا حقائق التاريخ وتدب فيها روح انسانية جديدة وتمتلىء بالإمتاع ، ويعود التاريخ والأدب وكلاهما مظهر لحياة الانسان المطردة التطور والتغير ، وتفكيره الدائب الحركة والتقلب ، وفي هذا التاريخ الأدبي يرتبط الحاضر بالماضي ، والقريب من الأمم بالبعيد ، وتتقاصر مسافات الزمان والمكان ، ولا يبقى إلا الانسانية الشاملة ، وهذه الانسانية هي مجال كل فن صميم

هذا التاريخ الأدبي لم يعرف في العربية ، فكان هناك المؤرخون وكان هناك الأدباء ، ولكن كلا منهما كان مستقلا عن الآخر استقلالا كبيراً ، ولم يكن الادباء يعدون التاريخ مجالا من مجالات أدبهم ، أو مطمحا من مطامح فنهم ، يبتكرون في مجاله وينشئون ، وما ذاك إلا لانشغالهم بالقريب الحاضر من شؤون العيش ، عن البعيد المترامي من أمور الحياة وآفاق الفكر ، لأن الأدب ظل أكثره بلاطياً يمدح الأمير ويحرر رسائله ، وكان الفوز بتلك الحظوة مطمح الأديب ووسيلته الكبرى إلى الظهور فاذا ما بلغ ذلك المكان لازم ذلك الضرب الوحيد من القول ، ولم يصرف أدبه إلى التأمل في شؤون الماضي والمستقبل ، وهكذا أغفل الأدب العربي التاريخ فيما أغفل من موضوعات هي صميم الفن ، لوثيق صلتها بالانسانية

فخري ابو السعود

ضوء جديد على الدين الدرزي

الحياة والمعيشة الدرزية

للأستاذ محمد خالد ظاظا

يقول الأستاذ (عنان) إن كافة الرواة أجمعوا على أن الحاكم ذهب (ضحية المؤامرة والجريمة المدبرة) مع أن أنصار الحاكم ومؤيدي مذهبه يدعون أن الحاكم ارتفع إلى السماء امتحاناً للمؤمنين ولم يقتل أبداً ؛ وعن قريب سيعود من البلاد الصينية ومعه الجيوش الجرارة فيفتح هذه البلاد جميعها ويعيد الحالة إلى ما كانت عليه ؛ وسوف لا يبقى إلا الديانة الدرزية الحقة . لأنه بحكم الواقع تلغى جميع الأديان عند قدومه . وهؤلاء المؤمنون نزحوا من البلاد المصرية وقطنوا البلاد الشامية في الجبال الشرقية منها ، وأسسوا مدناً وقرى اشتهر منها السويداء ومجدل شمس وبعقلين . وقد كانت لهم هذه الجبال معاقل تصد عنهم غارة الأمم الفاتحة حتى أصبح يخشى بأسهم وشدتهم . ولم يختلطوا مع الأقوام السورية ، بل تجنبوهم حتى أنهم لبثوا ليومنا هذا محافظين على تقاليدهم وعاداتهم برغم تطور الزمان وانقلاب السلطان ، وبقيت هذه الديانة سراً مدفوناً إلى حين نشوب الثورة السورية في عام سنة ١٩٢٦ فأذاعت من أسرارهم وديانتهم ما خفي طيلة هذه الأعوام الماضية . فالدروز ثاروا ودافعوا عن بلادهم وساهموا بقسط وافر من الوطنية ، واضطروا بحكم الشدة أن يتركوا بلادهم تفعل بها نيران القنابل والمدافع فعلها ، فلعبت الأيدي بكتبهم المقدسة وتراثهم المدفون وانتقلت هذه الكتب إلى أيدي الكثيرين .

وقد أكد لي أحد رجال الدروز العقل أن كتابهم المقدس الذي يسيرون بموجبه ويتبعون أثره هو خلاصة عدة كتب مقدسة ، أو بالأحرى خلاصة جميع الكتب الدينية ويزاد عليه بعض الحكم والنصائح . ويندر وجود هذا الكتاب عند كل درزي لأنه ينسخ ويخبأ عند رئيس الدين الأكبر

ولا يقرأ به إلا فى الخلوة - أى الجامع . وكيفية قراءته أن الشيخ يجلس فى صدر المكان ويلتف حوله السامعون بشكل حلقة مكتفى الأيدى ، مطأطئى الرءوس والأبصار ، خاشعي البصائر ، يسمعون مايقوله ، ويفعلون مايأمرهم به . ولا يدخل فى هـذه الخلوة إلا من استكملت به درجة الرجوله التامة ، وبلغ مبلغ الرجال العقل ، وهم بحسب ديانتهم ينقسمون إلى درجات ثلاث :

الدرجة الأولى : الجهال وهؤلاء لا دين لهم ولا يعلمون شيئاً من أمور الديانة الدرزية ، وهم على الأغلب دون الثلاثين

الدرجة الثانية : العقل ولا يصل الرجل منهم إلى هـذه المرتبة إلا بعد أن يبرهن أمام القوم أنه أخلد للسكينة وترفع عن الأفعال الدنيئة . وعليه قبل أن يصبح عاقلا أن يحلق رأسه بالموسى ويترك لحيته تسترسل فى نموها نحو الصدر وكلما طالت كان أجره عظيما ، وثوابه جزيلا . وعليه أن يتعمم بالعمة البيضاء الكبيرة .

الدرجة الثالثة : الأجاويد ، وهـذه الطبقة هم الأكثر تقشفاً والأعظم أجراً ، وهم رؤساء الديانة الدرزية ومشايخ المؤمنين الموحدين وبيدهم الأمر والنهى ، فإذا ما وجدوا أمراً ساءهم من أحد العقل طردوه من الخلوة وأخذوا الدين منه . وبذلك يصبح المطرود لا دين له ، فلا يحق لهم الجلوس معه ولا السلام عليه ولا الأكل والشرب قربه ، يفر منه كل من يراه ، حتى أن عائلته تنفر منه وتكرهه ؛ وإذا مات فى هـذه الأثناء يموت مسلماً وتنتقل روحـه إلى كلب أو نصرانى أو يهودى أو أى حيوان آخر . وأما إذا مات درزياً ومعه الدين فينال الحسنات وتنتقل روحه إلى درزى آخر أو تذهب إلى بلاد الصين ، وهناك تعيش قرب الحاكم بأمره والأخوان الصالحين . ويعتقد الدروز بالتقمص ويقولون إن الروح تنتقل من رجل إلى آخر كما أسلفنا .

والمرأة الدرزية حكمها فى الدين حكم الرجل ، ولها ثلاث درجات بخلاف مذهب النصيرية الذين لا يعطون للمرأة ديناً مطلقاً ، والدين عندهم من خصائص الرجال دون النساء .

والدروز لا صلاة ولا صوم مفروض عليهم . ولا يعرفون شيئاً من أنواع الطرب لأنها معدودة عندهم من المنكرات المحرمة فى الدين . وأقسامهم المغلظة هى : بالنبى شعيب واليعفورى ، والحدود الستة ، والحكمة المقدسة .

وللنبى شعيب احترام عظيم فى نفوسهم ولا يعتقدون إلا بنبوته دون كافة الأنبياء . وأما اليعفورى فهو أحد أوليائهم الصالحين ذوى الكرامات له مقام يقع بين قرية مسعدة وقرية مجدل شمس فى القسم الجنوبى من سورية . ويقصده الدروز من أماكن بعيدة للتبرك به والدعاء له . ولعل أغرب ما فى مذهبهم أنهم لا يتزوجون من المسلمين ولا يزوجون بناتهم منهم بحجة أنه يسمح للمسلم أن يتزوج بنصرانية أو يهودية ، أو يحق لمن يدخل فى الدين الاسلامى أن يتزوج مسلمة مهما كان شأنها ، ولا يقبلون أحداً أن يدخل فى دينهم مهما كان شأنه ، ولا يسمحون لأحد منهم أن يترك دينه ويدخل فى دين آخر وإن فعل ذلك عرض نفسه للقتل المحتم . وإذا خطفت فتاة منهم يتحرون عنها حتى يجدوها فيقتلون الخاطف والمخطوفة خوف إفشاء السر - هـذا إذا علموا مكانهما .

والدروز ذو أجسام كبيرة وقامات طويلة ووجوه دموية يغلب عليهم الشجاعة ، يسترون رؤوسهم بالعمائم الكبيرة البيضاء ويحتذون الزربول ويلبسون السروال والصدرية والعباءة ذات الأكمام القصـيرة ، ديانتهم عندهم إلى التقشف فى كل شىء فى الحياة رغبة فى نوال الآخرة والجنة المعهودة .

وتحرم عليهم تعاطى المسكرات والملذات وشرب الدخان ومن فعل ذلك منهم يطرد كما أوضحنا سابقاً . وأما النساء فيتلثمن بالشاشة البيضاء ولا يظهرن من وجوههن إلا عيونهن ويرتدين الثياب الطويلة حتى الارجل ، والشرف هو الواجب الأول عندهن - وهن على العموم يتمسكن بأهداب الفضيلة وترك الرزيلة ...

محمد خالد ظاظا

الى الأستاذ المازنى

من الأستاذ محمود تيمور

سيدى الأستاذ الأجل :

أشرتَ إلىّ فى حديثك الطريف المنشور بالعدد ٢٠٠ من الرسالة الغراء ، إشارة تنطوى على دعابة من دعاباتك اللطيفة التى تعودنا أن نسمعها منك . فقد ذكرت أنك كنت مدعوا إلى مأدبة عشاء ، واتفق أن أجلسوك بجانب سيدة (وقور) ظنتك إياى . فانطلقت تمتدحك . وتمدح مؤلفاتك ، وتخبرك مسرورة أن أولادها يقرؤون كتبك (أى كتبى ولا مؤاخذة) وأنهم جد معجبين بك .

أشكرك ياسيدى الأستاذ على نشرك هذا الخبر . وسواء أكان من مبتكرات خيالك أم هو حقيقة واقعة لا شأن للخيال فيها ، فإنى أرى فيه دعاية طيبة لى ولمؤلفاتى ، خصوصا وإنى أعد فى هذه الآونة مجموعة جديدة . ولعلك قد علمت بخبر هذه المجموعة فتطوعت ، من تلقاء نفسك ، حبا فى مساعدة زملائك الصغار (الصغار فى المنزلة ، وليس فى السن طبعا) والأخذ بيدهم فى معترك هذه الحياة الأدبية العابسة . أشكرك على طيبة قلبك ؛ فأنت حقا زميل نافع لزملائه . وإنى أخشى أن يفطن الأستاذ الزيات إلى هذه الطريقة المخادعة التى لجأنا إليها ـ أنت وأنا ـ فاستغللنا بضع أعمدة من رسالته فى الإعلان عن أنفسنا ومؤلفاتنا ، فتكون العاقبة غير حميدة !

لا أدرى ، أى شيطان أجلسك بجوار هذه السيدة الوقور ، فصرفتك بحديثها الثقيل عن مغازلة ـ بريئة أو غير بريئة ـ لجارتك الأخرى ، تلك الغادة الهيفاء التى صوتها كالتغريد (على حد تعبيرك) . لو علِمتْ هذه السيدة الوقور أى خسارة لحقت بأدبنا العربى ، بصرفها إياك عن غادتك الهيفاء ، لتركتك على الفور طليقا تنعم بحريتك مع فتاتك ، تستمتع بتغريدها العذب ، ولفاز أدبنا بقصة رائعة من قلمك ، تصف لنا فيها مغامرة جديدة من مغامراتك الغرامية ، تلك المغامرات التى سيكون لزوجك (الخيالية) أثر كبير فيها ؛ فنسمعك تقول لها : ياامرأة ، ما شأنك أنت وهذه الغادة الهيفاء التى صوتها كتغريد الطيور .... ؟ فلا تكاد تتم جملتك حتى تشعر بيد قد استولت على أذنك ، وأخذت تعركها عرك أستاذية عريقاً ... !

ولكن ما لنا ولهذا ؟ إنى أراهن أن هذه السيدة الوقور لم تقرأ سطراً واحداً من مؤلفاتى وإلا لـمَا تركتها بين يدى صبيانها (فتيان وفتيات) يقرءونها بلا تحرج . هذه المؤلفات ياسيدى الأستاذ لا تخلو ـ كما تعلم أو لعلك لا تعلم ـ من قطع نعتها البعض بأنها من الأدب المكشوف . وإنى شخصيا لا أميز بين هذه القطع وبين غيرها ؛ فالأدب ليس له عندى غير اسم واحد هو الأدب بمعناه الواسع ؛ وليس له إلا هدف واحد : هو الفن ، أو على الأصح هذا ما نزعمه ـ والله أعلم !

فهل لك ياسيدى المحترم أن تبادر إلى هذه السيدة ، وتعلن لها تلك النتيجة المحزنة ، ثم تدعوها باسم الفضيلة والأخلاق أن تسلك هذه المؤلفات الموبوءة لتطهر البيت منها ؟ ولك أن تقترح استبدالها بغيرها مما يعني بالتربية والتهذيب ، وزرع الفضيلة فى النشء الصغير . وكنت أود أن تحل كتبك محل كتبى ، ولكنى أشك فى صلاحيتها لهذه الأسرة المحترمة : إذ أن مغامراتك الغرامية المنقطعة النظير ، وهذا الشجار العائلى القائم على الدوام بينك وبين أهل بيتك (فى عالم الخيال طبعا) ، خطر لا يقل فى نظرى عن الأدب المكشوف . إذن ، عليك أن توجه نفسك شطر مكتبة الأطفال . وليس أمامك إلا صديقنا الأستاذ كامل الكيلانى ، فهو خير من يزودك بما تشتهى وتحب .

إن ذكر الأدب المكشوف والمغامرات الغرامية والشجار العائلى ، سيدعو الفتيان والفتيات ، من الأدباء وغير الأدباء ، إلى أن يلتفتوا بنوع خاص لهذا النوع الجديد من الأدب ، فيهرعوا إلى المكاتب متزاحمين ... ومن ثم ينهال علينا وافر الربح ...

وبعد هذا ، ألا ترى أننا ما زلنا نستغل طيبة الأستاذ الزيات فى سبيل الدعاية لأنفسنا ؟ إذن فلنختصر ولنقفل الباب

والشكر الوافر والتحية القلبية من المعجب بأدبك

محمود تيمور

الرافعي

للأستاذ محمود محمد شاكر

رحمةُ الله عليكَ ! رحمةُ الله عليكَ !
رحمة الله لقلبٍ حزينٍ ، وكبدٍ مصدوعة !

***

لمْ أفقدكَ أيها الحبيبُ ولكنّي فقدْتُ قلبي .
كنتَ لي أملاً أستمسكُ به كلما تقطّعتْ آمالي في الحياة .
كنتَ راحةَ قلبي كلما اضطربَ القلبُ في العناء .
كنتَ اليَنْبوعَ الرّويّ كلما ظَمِئ القلبُ وأحرقه الصّدَى .
كنت فجراً يتبلّج نورُهُ في قلبي وتتنفس نسماته ،
فوَجدتُ قلبي ... إذ وجدتُ عَلاقتي بكَ .
لمْ أفقدكَ أيها الحبيبُ ولكني فقدتُ قلبي

***

جزعي عليك يمسك لساني أن يقول ، ويرسل دمعي ليتكلم .
والأحزانُ تجدُ الدمعَ الذي تذوب فيه لتهونَ وتضاءَل ،
ولكنّ أحزاني عليك تجد الدمع الذي تروَى منه لتنمو وتنتشر .
ليس في قلبي مكان لم يرفَّ عليه حبي لك وهواي فيك ،
فليس في القلبِ مكان لم يحرقه حزني فيك وجزَعي عليك .
هذه دموعي تُترجم عن أحزانِ قلبي ،
ولكنها دموع لا تُحسِنُ تتكلَّم

***

عشتُ بنفسٍ مجْدِبةٍ قد انصرفَ عنها الخصب ،
ثم رحمَ الله نفسي بزهرتين ترفّان نضرة ورواء .
كنتُ أجدُ في أنفاسهما ثروةَ الروضة الممرعة فلا أحسُّ فقر الجدب !
أما إحداهما فقد قطفتها حقيقةُ الحياة ،
وأما الأخرى فانتزعتها حقيقةُ الموت ،
وبقيت نفسي مجدبة تستشعرُ ذلّ الفقر

***

تحت الثرى ... عليك رحمة الله التي وسعتْ كلَّ شيء ،
وفوق الثرى ... عليَّ أحزان قلبي التي ضاقت بكل شيء ؛
تحت الثرى تَتَجَدَّدُ عليكَ أفراحُ الجنة ؛
وفوق الثرى تتقادمُ عليَّ أحزان الأرض !
تحت الثرى تتراءى لرُوحك كلُّ حقائق الخلود
وفوق الثرى تتحقّقُ في قلبي كلُّ معاني الموت .
لم أفقدكَ أيها الحبيب ولكنّي فقدت قلبي

***

حضَرَ أجلك ، فحضرتني همومي وآلامي .
فبين ضلوعي مأتم قد اجتمعت فيه أحزاني للبكاء ؛
وفي روحي جنازة قد تهيَّأت لِتَسير ؛
وعواطفي تشيِّعُ الميت الحبيب مُطرقة صامتة ؛
والجنازة كلها في دمي - في طريقها إلى القبر
وفي القلب ... في القلب تُحفَر القبُور العزيزة التي لا تُنْسَى

***

في القلب يجد الحبيب روحَ الحياة وقد فرغ من الحياة ؛
وتجد الروح أحبابها وقد نأى جُثمانها .
في قلبي تجد الملائكة مكاناً طهّرته الأحزان من رجس اللذات .
وتجِدُ أجنحتها الروح الذي تهفهف عليه وتحفّ به .
هنا ... في القلب ، تتنزّل رحمة الله على أحبابي وأحزاني .
في القلب تعيش الأرواح الحبيبة الخالدة التي لا تفْنَى ،
وفي القلب تُحفَرُ القبور العزيزة التي لا تُنْسَى

***

لم تُبقِ لي بعدَكَ أيها الحبيب إلا الشوقَ إلى لقائك .
فقدتُك وحدي إذ فقدك الناس جميعاً
سَمَا بكَ فرحك بالله ، وقعدت بي أحزاني عليكَ .
لقد وجدتَ الأنسَ في جوارِ ربِّكَ ، فوجدتُ الوحشة في جوار الناس
لم أفقدك أيها الحبيب ولكني فقدتُ قلبي
لم تُبقِ لي بعدَك إلا الشوق إلى لقائك
رحمة الله عليك ، رحمة الله عليك !

محمود محمد شاكر

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
استاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٥ —

الديانة المصرية — التوفيق بين الديانة والفلسفة

أشرنا فى الكلمة السابقة إلى الخلاف الذى وقع بين المستمصرين حول التطور الدينى المصرى وهل هو وليد الفلسفة أو الفلسفة هى وليدته. ولما كنا قد تناولنا بهذه المناسبة الكلام على « رع » وتاسوعه ، فقد وجب علينا إتماما للموضوع ان نشير إلى إلهة أخرى لا تقل عن السابقين أهمية ، وهى « مآت » ابنة « رع » العظيمة

ليست هذه الإلهة من التاسوع ، لأنها روحه كله ، وبدونها لا يحيا أى واحد من الآلهة ، لأنها هى : « الحقيقة والعقل والعدالة » . وهل يمكن أن يحيا أى إله بدون الحقيقة والعقل والعدالة ؟ وتمتاز هذه الإلهة بأنها تجىء إلى الأرض يحملها فرعون ويتولى تطبيق صفاتها وإبرازها إلى حيز الوجود بطريقة عملية ويظل حارسها الأمين إلى أن يموت فتعود إلى السماء وتبقى فيها ريثما يصعد الملك الجديد على العرش فيوكل إليه أمر حملها وحراستها كسابقه . ولهذا كان كل فرعون يعنى بأن يكتب على آثاره أنه لم يدخر وسعا فى حماية الحقيقة والعدالة وفى إعلاء شأن العقل ، لكى يثبت بهذا أنه قام بواجبه فى حمل « مآت » إلى الأرض ورعايتها خير قيام . وهاك ترجمة شىء مما يخاطب به فرعون « رع » كبير الآلهة فيقول : « هأنذا أتيت نحوك ، وذراعاى مجتمعتان لحمل مآت التى أنت موجود ، لأنها موجودة ؛ وهى موجودة ، لأنك موجود ؛ والتاسوع يناديك أنك أنت الإله العظيم الذى انتصرت منذ ملايين السنين . وأن مآت هى وحيدتك »

ولا شك فى أن لمرادفة مآت ابنة رع للحقيقة والعقل والعدالة أهمية فلسفية وأخلاقية عظيمة ، إذ منذا الذى لا يبحث عن الحقيقة ولا يحترم العقل ولا يطبق العدالة مع علمه بأن هذه الأشياء الثلاثة هى مرادفة لابنة رع ، وهى روح التاسوع المقدس كله . وإذن ، فقد كانت هذه الأسطورة عاملا قويا فى تحفيز الهمم على البحث عن الحقيقة وعلى احترام العقل وعلى إجلال فضيلة العدالة كما سنذكر ذلك فيما بعد . وهل الفلسفة النظرية الإغريقية شىء آخر غير البحث عن الحقيقة؟ وهل الفلسفة العملية شىء غير تطبيق الفضائل التى أهمها - بعد الحكمة الناجمة عن احترام العقل المشروط فى الفلسفة المصرية - هى فضيلة العدالة التى استقامت بها كفتا ميزان السماء والأرض ؟

تعقل العامة

كان كل ما أسلفناه لك من تطورات دينية ومن محاولات قوية فى التوفيق بين الدين والعقل هو تعقلات الخاصة والمستنيرين . أما العامة فكان لهم تعقل يخالف هذا مخالفة طفيفة حينا وشديدة حينا آخر ، فهم لما وجدوا « أتوم » الممتزج عند الخاصة برع لا زوجة له ولم يستطيعوا أن يعقلوا أثره الذى سماه الخاصة « فعل الشمس » ونسبوا اليه نشوء الفراغ والهواء زعموا أنه ولد طفلين بطريقة لا ترضى عنها الأخلاق ، وهما الهواء والفراغ ، فتزوج ذكرهما أنثاهما فولدت له السماء والأرض ، وهذان الأخيران أيضا قد تزاوجا بدورهما ، ولكنهما التصقا بعضهما التصاقا محكما يحول بينهما وبين تحقق وجود الكائنات ؛ فلما رأى الهواء ذلك اجتهد فى تفريقهما فسعى حتى مر من بينهما ففصلهما ورفع السماء إلى أعلى فوق ذراعيه ، فغضب الزوجان من هذه الفرقة غضبا شديداً وما زالا يجتهدان فى إزالتها حتى الآن .

وما الجبال الشامخة التى تحاول الوصل بين الأرض والسماء إلا من نتائج هذا المجهود الذى يحاوله الزوجان . غير أن هذه الفرقة التى آلمت الزوجين إيلاما شديداً كانت سعيدة ، لأنها سمحت للكائنات الحية بالوجود فوق الأرض كما سمحت للشمس بان تظهر من السماء ، ولكن سكان « هيليو بوليس » الذين كانوا على وفاق فى هذه الأسطورة يبدأون بعد هذه النقطة يختلفون ، فيذهب بعضهم إلى أن « نوت » الذى هو عند الفريق الأول أحد الزوجين المنفرقين إنما هو البقرة العظمى الخالدة التى تنسل كل يوم عجلا هو شمس ذلك اليوم ؛ أما زوجها فهو رع نفسه ، ولذلك أصبح رع فى نظر هذا

الفريق متزوجا وترك حياة العزوبة القاحلة . وهناك فريق ثالث تفرع من الفريق الثانى وذهب إلى أن هذه البقرة الخالدة هى « نون » التى هي أصل العناصر جميعها والتى منها نشأ رع نفسه غير أنه ينبغى أن نلاحظ أن البقرة الخالدة التى هى عند بعض العامة زوجة رع وعند البعض الآخر منهم أمه ليست إحدى هذا البقر الذى يدب على الأرض ، وإنما هو تصوير لكائن عظيم كثير الخصوبة والانتاج لا أكثر ولا أقل .

وهذا الفريق الأخير الذى يرى أن البقرة الخالدة هى أم رع يعتقد أنها واقفة فى الجو ، وأن رع يتنزه فى فلك من الذهب يسبح فوق ظهرها كل يوم من الشرق إلى الغرب على مرأى من الناس جميعاً . ولما أدركته الشيخوخة ، وكانت أعضاؤه من ذهب ، وعظامه من فضة ، فقد طمع البشر فى أن يستولوا عليه وأخذوا ينظرون اليه بعين الشراهة ، فشاكته منهم هذه الجرأة الوقحة وصمم على عقابهم ، ولكنه أبى أن يستبد بإصدار هذا العقاب فدعا مجلس الآلهة للانعقاد وعرض عليه هـذه القضية ، فأشارت عليه أمه بأن يبعث فيهم الإلهة « هاتور » تريق دماءهم وتقطع أعناقهم جزاء وفاقا لوقاحتهم وطمعهم فى الآلهة ؛ وقد كان ، فنزلت الإلهة هاتور مقتلة مدمرة حتى ملأت سطح الأرض دماء ، وكانت ستظل على هذه الحال حتى تبيد جميع العنصر البشرى لولا أن أخذت الإله الشفقة على الانسان من جديد ، فصمم على العفو عنه ، ولكنه لم يستطع اقناع « هاتور » الجبارة بالعدول عن خطتها التى كلفها بها مجلس الآلهة فأحضر لها عصيراً أحمر من بعض الفاكهة وأنبأها بأنه من دماء البشرية التى تحقد عليها فشربته مسرورة ولم تعد تميز شيئاً ، وبهذا وقف القتل والتدمير

وبعد أن كف رع حركة القتل عن بنى الانسان أحس بتقزز من استمراره فى الحكم مع هذه الشيخوخة فاعتزل السلطة آسفاً محزوناً على الشباب وقوته . وقد انتهزت « ايزيس » هذه الفرصة الذهبية فاتجهت إلى رع وأنبأته بأنها تستطيع أن تعيد اليه الشباب على شرط أن يكشف لها عن اسمه الأعظم الذى لا يعرفه إلا هو . وما زالت به تغريه حتى حصلت على بغيتها التى كانت تعلم أنها تنيلها كل فرصة ، للتصرف فى الكون ثم مرت هذه السلطة بالتتابع إلى الآلهة « سو » ، « ف » « جيب » ، « ف » أوزيريس » ، « ف » « هوروس » ، « ف » فرعون ؛ وبهذا استطاع الشعب أن يؤول عقيدة الخاصة فى ألوهية فرعون ، ولعل القارىء لا تخفى عليه فطنة أولئك العامة الذين حينما رأوا الخاصة يؤلهون فرعون ، ابتدعوا لذلك مبررات لبقة تسير فى طريق منسق من رع إلى فرعون

نظرية الفكر المصرية أو أصل المثل الأفلاطونية

كان المصريون يعتقدون أن الاسم هو كل شىء فى الكائن وأنه لا كائن بدون اسم ، أو أن الاسم هو الفارق الأوحد بين العدم والوجود . لهذا تقول الآية المصرية القديمة : « إن جميع الآلهة قد خرجوا من فم رع ، وأن رع هو الذى خلق كل عناصر الطبيعة » . ومعنى هذا أن « رع » هو الذى سمى الآلهة والعناصر ، وكان أول من نطق بأسمائها جميعاً . ومن حيث إنه كان إذ ذاك وحده . فيكفى لإيجاد الإله أو العنصر أن ينطق باسمه فيما بينه وبين نفسه أو أن يفكر فيه لأن نطق الاسم باللسان ليس إلا تعبيراً عن المسمى الموجود أو الفكرة التى يحتويها القلب والتى هى جوهر الأشياء جميعاً وبدونها لا يفوز موجود بالكينونة . وقد ذهب كهنة « هيليوبوليس » أو مدينة الشمس إلى أن الفكرة لا تمنح الكائن الوجود فحسب . بل إنها هى التى تحفظ عليه وجوده الدائم ، فإذا قدر على أى كائن ما أن يزول اسمه من فكرة الإله ، فإنه يهوى فى الحال إلى العدم المطلق . ولا أحسب أن من العسير على الباحث المتقصى أن يستكشف عناصر « المثل الأفلاطونية » واضحة جلية فى هذه الفلسفة المصرية التى سبقت أفلاطون بأكثر من ثلاثة آلاف سنة ، لأن أفلاطون يعتبر جميع هذه الكائنات المادية التى تدب على الأرض خيالات لا حقائق . ولا يعترف بوجود حقيقى إلا لعالم « الفكر » المجرد عن علائق المادة وغواشى الطبيعة . أما هذا الوجود المشاهد بالمدركات الدنيا ، وهى الحواس ، فهو لا يزيد على أنه ظلال لعالم الحقيقة الذى لا تدركه إلا قوه البصيرة التى تخلص صاحبها من الشهوات الحيوانية ؛ وأما هذه الظلال المشاهدة ، فوجودها لا يحقق حقيقة الكائن لأنه وجود مؤقت فوق أنه خيالى . وإذاً ، فلست أظننى فى حاجة إلى إيضاح الرابط المتين الموحود بين نظرية أفلاطون

هذه وبين قول المصريين : « إن الفكرة لا تحقق للكائن وجوده فحسب ، بل هى وحدها التى تضمن له دوام هذا الوجود » أو قولهم : « إن جميع الموجودات قد خرجت من فم (رع) وإنه يكفى لايجاد الكائن أن يجرى اسمه على لسان (رع) بعد أن مر مسماه بقلبه ، لأن اللسان ليس إلا معبراً عن الجنان » ؟

أليس فى تعبيرهم بان الفكرة وحدها كافية لتحقيق الوجود وخلوده تصريح واضح بان كل ما عدا الفكرة فى الكائن لا يؤبه له ؟ ثم أليس فى قولهم : إن الموجودات كلها خرجت من فم (رع) إيذان بأن المادة المحسة لا يستحق منها بالوجود إلا فكرتها التى خطرت لرع وان المحس منها لا قيمة له ؟

لا ريب أن فى هذا الاكتشاف الذى أسجله اليوم على صفحات هذه المجلة رداً جديداً على أرسطو و « سانت هاير » ومقلديهما وأذنابهم القائلين باستقلال الفلسفة اليونانية وعدم تأثرها بالفلسفات الشرقية ، كما أن فيه رداً بليغاً على ذلك الفريق الذى يحط من شأن العقلية الشرقية ، لأن مذهب « المثل » - وهو أسمى ما أنتجته العقلية الغربية - هو مشيد على أساس هذه النظرية المصرية ما فى ذلك لبس ولا ارتياب .

وكما أن الفكرة هى التى تمنح الوجود للحوادث وتحفظه عليها ، هى تحفظ الوجود الكامل كذلك على « رع » نفسه . ولهذا السبب اهتم بأن يخلق العالم ، لكى يظل اسمه حياً منبثاً فى جميع عناصر الطبيعة ، مذكوراً على ألسنة أفراد المخلوقات حتى يضمن لنفسه وجوداً كاملا من كل الوجوه ، لأن تعقله هو لذاته لا يكفى فى تحقيق الوجود الكامل إلا إذا خلا الكون من جميع ما سواه ؛ أما وفى الوجود كائنات أخرى ، فلا يتحقق له الوجود الأكمل إلا بتغلغل فكرته فى كل قلب وجريان اسمه على كل لسان .

ومن هذا التغلغل نتج دور تفكيرى عجيب ، وهو أن الإله ضرورى للانسان بحيث لا يمكن وجوده إلا به ، وأن الانسان ضرورى للإله بحيث لا يمكن استمرار وجوده الكامل إلا بتغلغل الإنسان إياه وتفكيره فيه ونطقه باسمه . ولا ريب أن هذه الدائرة قد أعلت من شأن الكهنة ، لأنهم هم أكثر الناس ذكراً لأسماء المعبودات ، وبالتالى هم أكثر الناس تأثيراً فى احتفاظ الآلهة بوجودهم الكامل .

محمد غلاب

(يتبع)

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الوغد

ما الحياة إلا ينبوع مسرة ، ولكن أيان شرب الوغد فهنا لك جدول مسموم . أحب كل ما هو نقى ، ولكننى لا أحتمل رؤية الأشداق تتثاءب معلنة ظمأ الأرجاس ، وقد جاؤا يسبرون أعماق البئر بأنظارهم فانعكست فى قرارتها ابتسامتهم الشنعاء توجه سخريتها إلى .

لقد دنسوا المياه المقدسة بأرجاسهم ، وما تورعوا فدعوا أحلامهم القذرة سروراً فدسوا سمومهم حتى فى البيان .

إن اللهب يتعالى مشمئزاً عند ما يعرضون قلوبهم المائعة عليه ، والروح نفسها تغلى وتتصاعد بخاراً عند ما يقترب الأوغاد من النار ، والأثمار نفسها يفسد طعمها وتتراخى عند ما يلمسونها بأيديهم ، وإذا ما حدجوا بانظارهم الأشجار المثمرة فانها لتجف على أعراقها .

لكَمْ من مُعْرِض عن الحياة لم ينفره منها سوى الوغد الزنيم ، فعافها إذ لم يشأ أن يقاسم هذا الوغد ما عليها من ماء ولهب وأثمار .

لكَمْ من شارد لجأ إلى الصحراء متحملا السعار عائشاً بين الوحوش كيلا يجلس إلى بئر يدور بها حداة العيس بما عليهم من أقذار .

ولكَمْ جاء الأرض من مكتسح أشبه بالبَرَد المتساقط من السحاب ولا أمنية له سوى ضرب قدمه فى أشداق الأوغاد ليسد حناجرهم .

ما صعب علىّ الاعتقاد باحتياج الحياة إلى العداء والقتل والاستشهاد كما صعب علىّ التسليم بضرورة وجود الوغد الزنيم فيها .

أمن ضرورة الحياة هذه الينابيع المسممة والنيران المشبوبة

تفوح بالروائح الكريهة وهذه الأحلام الرجسة وهذه الديدان ترتعى فى خبز الحياة ؟

ليس العداء ما قرض حياتى بل الكراهة والاشمئزاز . ولكم استثقلت الفكر نفسه عند ما رأيت شيئاً من الفكر فى رأس الوغد الزنيم .

لقد وليت ظهرى للحاكمين عند ما أدركت معنى الحكم فى هذه الأزمان وتأكدت أنه إنجاز بالقوة ومساومة الاوغاد عليها .

استولى اليأس علىّ فاجتزت مراحل الماضى والمستقبل وأنا أسد أنفى إذ انتشرت على منهما روائح البيان السخيف

لقد عشت طويلا كالكسيح أصابه الصمم والعمى والخرس كيلا أعايش أوغاد السلطة وزعانف الأقلام والمسرات

ارتفع فكرى درجة فدرجة وهو يعانى من حذره ما يعانى ولا عزاء له إلا بالغبطة ؛ وهكذا مرت حياة الأعمى وهو يتوكأ على عصاه .

ماحدث لى ياترى ؟ وما الذى أنقذنى من اشمئزازى وأعاد النور إلى عينى ؟ وكيف تمكنت من ارتقاء المرتفعات حيث الينبوع الذى لا يحيط به الأوغاد ؟ .

أهى الكراهة نفسها انمتنبت جناحى وأوجدت لى القوة للاهتداء إلى مفجر الينابيع ؟ والحق أنى ارتقيت الذروة ، ولو لم أبلغها لما وجدت ينبوع الغبطة والسرور .

لقد وجدته ، أيها الأخوة . فرأيته يتدفق على الذروة غبطة وحبوراً . فاهتديت إلى المكان الذى يتاح فيه للانسان أن يروى ظمأه دون أن يعكر عليه الأوغاد الأدنياء

إنك لتسيل بشدة ، أيها الينبوع المتفجر بالغبطة فتفرغ الكأس التى تملأها دهاقا ،

علىّ أن أتمرن على الاقتراب منك بتؤدة ، أيها الينبوع فإن قلبى يندفع بعنف إلى مسيلك . لقد استولى اليأس مع الحبور على هذا القلب الذى تمر عليه بحرها أيام صيفه فهو يتشوق إلى مياهك تنزل عليه برداً وسلاما .

لقد انقضت أحزان ترددى في الربيع وأذاب الصيف ثلوج نقمتى ، فأصبحت وكل جوارحى تتوق إلى الاصطياف . إن خير الراحة ما تنتجع فى أعالى الجبال قرب الينابيع الباردة . إلى أيها الأصحاب لنحول هذه الراحة إلى غبطة وحبور فهذه ذروتنا ، وهنا موطننا حيث نعتصم بالصخور فلا يبلغها الأرجاس ولا يصل اليها عطشهم المدنس .

أرسلوا أنظاركم الطاهرة على ينبوع مسرتى ، أيها الأصحاب ، فإنها لن تعكره بل تبقى على نفائسه فيبتسم لكم .

هنا تتعالى دوحة المستقبل . فلنبن لنا عشاً بين أغصانها فتجىء الينا العقبان حاملة لنا الغذاء ، نحن المنفردين .

ذلك غذاء لا يستطيع الأرجاس مقاسمتنا إياه فهو النار تحرق أشداقهم . وما نعد هنا مساكن للمدنسين ، فان سعادتنا تلفح أجسادهم وأرواحهم . ونحن نريد أن نحيا فوقهم فنهب كالرياح فى مسارح العقبان ومطالع الشموس .

إننى سأعصف كالريح الصرصر على الأرجاس فاخمد أنفاسهم بانفاسى ، ذلك هو المقدور . فما زارا إلا ريح عاصفة ترهق الاعماق ، وهو ينصح أعداءه وكل متفيء نافث بألا يبصقوا فى وجه الرياح .

هكذا تكلم زارا . .



السياسة والروح العام

جاءنا من الاستاذ محمد فريد أبوحديد هذا الكتاب تعليقا على كتاب الاديب محمد زهدي ناصر وتوضيحا لتعقيبنا عليه ننشره شاكرين للأستاذ مساهمته الحرة فى دعوة الرسالة

اطلعت فى مجلتكم الغراء على مقال للأديب محمد زهدى ناصر ذهب فيه إلى أن دعوة الشباب إلى الاشتغال بالسياسة فيه مضيعة لجهودهم وفيه إقحام لهم فى ميادين لا يستطيعون اقتحامها ولا يحمل بهم التلوث بما فيها من الأدران وهم لا يزالون فى سن البراءة والاخلاص ، وأنه أجدى بهم أن ينصرفوا إلى العلم والدرس حتى يستطيعوا أن يستفيدوا بوقتهم أكبر استفادة .

والحق أن الأديب على حق فى رأيى إذا كان المقصود هو اشتغال الشباب بالسياسة العملية ، فان تلك السياسة أشد تعقداً وأوعر مرتقى من أن نجازف بشبابنا فندخله فى ميدانها . ولقد كان رد الرسالة على حضرته رداً صائباً ، ولكنى أخشى أن يكون المحرر الأديب الذى كتب ذلك الرد لم يوضح التفريق بين السياسة والروح العام إذ قال : « على أن السياسة التى نريدها للشبان أوسع وأشمل مما يتصوره الكاتب الفاضل ؛ فالسياسة دعوة وتدبير وقيادة ؛ وقوى البلد المادية والأدبية معطلة من طول الاغفاء والترك ؛ والاحساس الشاب هو وحده الذى يستطيع أن يحرك فى طبقات الشعب هذا الجمود المزمن بالدعوة الصادقة والارشاد الصالح والقدوة الحسنة » فالأستاذ المحرر يريد أن يفرق بين أن يعمل الشباب فى ميدان السياسة العملى وأن ينغمر فى تيار الاختلاف الحزبى ، وبين أن يكون الشباب عاملا حياً تتوثب فيه الحماسة إلى ما فيه خير المجموع وتتقد فيه الروح العامة التى تتجه إلى إعلاء الوطن ورقى أهله من كل الوجوه . فهذا الروح العام الذى يتجه نحو المثل الأعلى جدير بأن يملأ قلوب الشباب ، وليس فيه ما يشغل عن الدرس والعلم ، بل إن قلب الشاب الذى يخلو من الاهتمام بأمور وطنه العام ولا يثور إلى الرغبة فى خير مواطنيه ورفعة شأنهم لهو قلب فاتر قليل الخير .

إن أعز ذكريات الشباب التى نحملها هى تلك الرغبة المتوقدة فى خدمة الوطن ، وهى تلك الأمانى التى كنا نسعى جهدنا إلى تحقيقها ، إذ كانت الأمانى لا تزال طليقة ، وإذ كان القلب لا يزال قوى النبضات . . . .

محمد فريد أبوحديد

جمعية الانبعاث القومى

وجاءنا من الأديب صاحب الامضاء ما يأتى :

حيا الله « الرسالة » فى عهدها الجديد : عهد توجيه شباب مصر إلى واجبه الأسمى نحو مصر .

وبارك الله فى أستاذنا الكبير صاحبها ، وجعله نبراساً ساطعاً للعاملين المخلصين من أبناء مصر ، فى سبيل مجدها ونهضتها .

وبعد : فلى كلمة متواضعة . من حق أو من واجبى ـ كشاب ـ أن أدلى بها فى موضوع الاقتراح الناضج الذى نشر فى العدد السابق من الرسالة . تحت عنوان « الزحف الاجتماعى » . أرجو ـ مخلصاً ـ أن يكون لها أثرها المفيد عند تنفيذه .

اقتراح لا إخالنى أجانب الصدق إذ أقول إنه اقتراح شباب مصر جميعاً . قام بواجب التبليغ عنهم أحدهم وأدى رسالته أميناً مشكوراً .

أرى، لضمان نجاح هذا المشروع القومى الجليل. وتمشيا مع ظروفنا الحاضرة. أن تتوفر لتنفيذه على الوجه الأكمل الشروط الآتية وهى:

أولا: — تضامن شيوخ الأمة مع شبابها.

ثانياً: — أن تكون قيادة المشروع للأمة وحدها. وتؤلف لهذا الغرض جمعية، أسميها، جمعية الانبعاث القومى، . من عناصر قوية بارزة تمثل كلا من الجامعة الأزهرية والجامعة المصرية، والصحافة المصرية. والمؤسسات المصرية وعلى رأسها بنك مصر

ثالثا: — على الحكومة، فقط، تعبيد الطريق للعاملين دون التدخل، فضلا عن الرقابة، إلا فى حدود القانون.

رابعا: — أن يكون عنصر الرواد من الجنسين، ويشترط فيهم الكفاية والأهلية، ويعطى تشجيعا للمتعطلين منهم مكافآت مالية ثابتة.

خامسا: — إدماج الجمعيات الخيرية والعلمية والثقافية الموجودة حالا تحت لواء جمعية الانبعاث القومى توحيداً للجهود والأغراض

سادسا: — أن تقوم بالنفقة الأمة وحدها فى شخص الأغنياء من جميع الطبقات ومتوسطى المعيشة من أفراد الأمة، عن طريق الإعانات الدورية، والاشتراكات الشهرية

سابعا: — الاحتفاظ بقومية المشروع من المبدأ إلى المنتهى

سيد عويس

عبرة الشباب من حفلة التتويج

شهد الأسبوع الماضى فى لندن مهرجانا قلما يجود الدهر بمثله. ذهلت فيه انجلترا عن مشاغلها ومشاكلها، فى خارجها وفى داخلها، ثم راحت تخرج تاريخها الرائع الساطع من كنوز ماضيها الجليل الأثيل لتجعل منه الدرة الكبرى لتاجها الماسى الذى تضعه من جديد، على مفرق ملكها الجديد.

سمع الناس وصف المهرجان فى الراديو، ورأى الناس مناظر المهرجان فى السينما، فتمثلت لهم عظمة هذه الامة العريقة على أروع ما يتصوره الخيال ويدركه الحس: تقاليد الماضى العتيقة فى جدة الحاضر الطريفة؛ وقرع النواقيس بجانب قصف المدافع؛ ومظاهر الارستقراطية النبيلة فى وسط الديمقراطية الاصلية؛ ومَـلك أثقلوه بالماس والذهب، وقلدوه السيوف والصوالج، وألبسوه الحلل والمعاطف، وضمخوه بالزيت المبارك، وأجلسوه على كرسى متأكل فوق حجر منسوب إلى يعقوب. وأركبوه مركبة بالية نابية طافت به شوارع لندن؛ ثم رئيس الاساقفة فى طقوسه الغريبة، وكبار النبلاء فى أرديتهم العجيبة! وهذه القوى الثلاث: قوى المُـلك والدين والنبل هى التى كانت تحكم الدنيا الغربية أيام كان الزمان غير الزمان، والانسان غير الانسان. فأصبحت اليوم من عبر التاريخ التى تعرضها انجلترا على أعين الامم الحاشدة فى لندن وهى تقول لهم: انظروا ماذا كانت الامة الانجليزية حتى ظفرت بالحرية والديمقراطية والدستور! هل منعنا احتفاظنا بالتقاليد من أن نكون أمة التجديد، واحترامنا للدين من أن نكون أمة المدنية، وإخلاصنا للملك من أن نكون أمة البرلمان؟

فى هذا الذى تسمعه وتراه من أمس الأنجليز ويومهم جواب مفحم لأولئك الغلاة الذين يريدوننا على أن نتجرد من الماضى العظيم، ونتخلى عن التراث الكريم، ونخرج إلى العالم كما تخرج اللقطاء إلى الوجود. لا تليد يغذى الطريف. ولا نسب يرفع الحسب.

إن شخصية الفرد هى مجموعة مزاياه الخاصة فى التفكير والخلق والتصرف، وشخصية الأمة هى مجموعة تقاليدها الصالحة من العادات والاعتقادات والنظم. والشخصية هى حافزة الفرد على النهوض، ودافعة الأمة إلى الاستقلال؛ فإذا عبث بها عابث من النزق أو الضعف انمحى طابع الفرد فشاع، وفنيت قومية الشعب فخضع.

وإذا قال لنا الانجليز أقوى دول الغرب، واليابان أقوى دول الشرق، إن الحاضر الثابت لا يقوم إلا على الماضى الراسخ، وإن الحوافز الشخصية لا يقويها إلا السنن القومية، كان شبابنا أحرياء بأن يقولوا لأولئك الناعقين: لا تحجلوا حجل الغراب، ولا تنصبوا مضختكم على السراب!



قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

مدير مصلحة الكيمياء

— ٤ —

وفى عام ١٩٠٢ انبرى إرليش يطلب غايته ، فأخرج كل ما لديه من الأصباغ وسواها صفاً صفاً فلمعت وبرقت واختلط لألاؤها . وتقاصر متقرفصاً أمام قطراتها فتراءت زجاجاتها على رفوفها كالفسيفساء الرائعة فى اختلاط ألوانها . فصاح لما جرت عينه عليها : « ألا ما أجل وأجمل ! » . ثم اقتنى لنفسه طائفة كبيرة من أصح الفئران . واقتنى لنفسه معها دكتوراً يابانياً مخلصاً غاية الاخلاص فى عمله ، صبوراً غاية الصبر فيه ؛ وكان اسمه شيجا Shiga ، وكان عمله ملاحظة هذه الفئران وقص قطع من أطراف ذيولها ليأتى منها بنقطة من الدم يبحث فيها عن التريبنسومات ، أو قص قطع أخرى من نفس الذيول ليأتى منها بنقطة دم يحقنها فى دم الفأر السليم التالى وهلم جرا - واختصاراً كان واجبه أن يقوم بكل الأعمال الثقيلة الطويلة التى لا ينهض بها إلا الجهد اليابانى وصبره . وجاءت التريبنسومات اللعينة إليه أولا من معمل بستور بباريس فى خنزير غينى حق عليه الفناء . ومن هذا الخنزير أخذها وحقنها فى أول فأر ، ومن ثم بدأ الطراد

وجربوا فى هذه الفئران نحواً من خمسمائة صبغة ! تجارب اعتباط وخبطات عشواء لا تمت بسبب إلى الأسلوب العلمى ، ولكن هكذا كان إرليش فى بحثه . كان كأنه البحار الأول يبحث بين أخشاب الشجر عن أوفقها لصناعة مجاذيفه . كان كالحداد الأول ينكش معادن الأرض يتحرى أنسبها لسبك سيوفه. كانت فى اختصار طريقة بدائية هى أقدم طرق الإنسان للوصول إلى المعرفة ، طريقة المحاولة الطويلة والعرق الكثير فى سبيلها . وتقسماها بينهما ، فقام إرليش بالمحاولة الطويلة ، وقام شيجا بالعرق الكثير . وتلونت أجسام الفئران ألواناً كثيرة ، فمن الأحمر ومن الأصفر ومن الأزرق ، ولكن التريبنسومات اللعينة تكاثرت وازدحمت ورقصت فى دمائها ثم قتلت الفئران جميعاً مائة فى المائة

وزاد إرليش فى سجائره الأجنبية الغالية تدخيناً ، حتى فى الليل كان يقوم ليدخن منها . وزاد شربه المياه المعدنية . وقذف بالكتب إلى رأس قدريت المسكين ، وعلم الله ما كان مثله ليلام على جهله السبب فى أن هذه الاصباغ لا تقتل هذه المكروبات . ونطق إرليش باللاتينية جملا رنانة ، وابتدع أغرب النظريات يشرح بها ما ينتظر من هذه الأصباغ أن تفعله ، وابتدع منها أعداداً لم يسبقه باحث إلى إبتداع مثلها من نظريات كلها خاطئة . ولكن فى عام ١٩٠٣ جاءت إحدى هذه النظريات الخاطئة تأخذ بيده فتهديه سواء السبيل

فذات يوم كان إرليش يمتحن ما تصنع أصباغ فصيلة البنزو بربورين benzo-purpurin فى الفئران ، وهى أصباغ معقدة التركيب جملة ، فوجد أن الفئران لا تحفل بها وتموت فى تواصل مستمر لا انقطاع فيه . فتقطب جبين إرليش وقد كان مقطباً خلقة من هموم عشرين عاماً لم يجد فيها النجاح إلى أعماله سبيلا . فقال لشيجا : —

« إن هذه الصبغة لا تنتشر إنتشاراً مرضياً فى جسم هذا الفأر ، فلو أننا ياعزيزى شيجا غيرنا تركيب هذه الصبغة قليلا ؛ لو أننا

مثلا أضفنا إلى جزيئها المجموعة الكبريتيه sulpho-group [1] فلعلها عندئذ تذوب فى دم هذا الفأر وتنتشر بذلك فيه . وتقطب جبين إرليش . ولم تكن يد إرليش بيد الكيميائى الصناع ، ولكن رأسه كان مستودعا عظيما ودائرة معارف واسعة لعلم الكيمياء . وكره الأجهزة المركبة بمقدار ما أحب النظريات المعقدة . ذلك أنه لم يكن يدرى ماذا يصنع بالأجهزة . وإذا هو تناول الكيمياء بيده فانما يتناولها للهو تناول اللاعب فى الماء يخوض فى الشاطئ الضحل ويخشى التعمق فالغرق . يبدأ ألف بدء بألف تجربة فى أنابيب اختباره . فيلق من هذه المادة على هذه ، ومن هذه على تلك ، وينظر ما أثر هذا فى تغيير لون الصبغة ؛ ثم هو يخرج متدفعا من معمله ليرى أول شخص يلقاه جمال ما وجد ، ملوحا بالأنبوبة فى وجهه صارخا فيه : « أنظر أى جمال ! أنظر أى بدع ! » . أما التركيب الكيماوى الدقيق وخلق المواد الكيماوية بعضها من بعض فعمل لم يكن له إلا أساتذة الكيمياء وأبطالها .

وصاح إرليش : « لابد من تغيير تركيب هذه الصبغة قليلا ، وإذن تنفع حيث لم تنفع من قبل ! » وكان كما تعلم رجلا مفراحا بمراحا ، وكان من أظرف الرجال وأحبهم إلى الناس ، فلم يلبث أن عاد من مصنع الأصباغ القريب وفى يده تلك الصبغة المذكورة وقد ألصقوا بجزيئها المجموعة الكبريتية المطلوبة فتغير تركيبها « التغير القليل » المطلوب

وضرب شيجا بمحقنه تحت جلد فأرين يطلق فيها تريبنسومات داء الورك . ومضى يوم ؛ ثم أعقبه يومان ، فأخذت عيون الفأرين تلتحم جفونها بهلام الموت ، وقفّ شعرهما وتعامد هلعا من الفناء المنذر ، ولم يبق إلا يوم واحد حتى ينتهى أمرهما جميعا ... ولكن صبرا ! فتحت جلد أحدهما ضرب شيجا محقنه يطلق فى جسمه تلك الصبغة الجديدة الحمراء التى تغير تركيبها « قليلا » . وشهد إرليش ما صنع شيجا ، وأخذ يتمتم ويدمدم ويقيس الأرض بخطى ذاهبة آيبة ، ويضرب بيديه ورجليه . وما هى إلا دقائق حتى أخذت أذنا هذا الفأر تحمران ، وانفتحت عيناه بعد انغلاق ، وأخذ بياضهما يستحيل إلى لون الورد فيزيد فى احمراره على حمرة إنسانيهما . هذا يوم إرليش الأسعد . هذا اليوم الذى خبأته له الأقدار طويلا وخبأت فيه مجده . فتلك التريبنسومات ذابت بدم الفأر ذوبانا فى وجه هذه الصبغة كما يذوب ثلج الأرض إذا طلعت عليه شمس إبريل الدافئة . تساقطت كل هذه المكروبات واحدة بعد واحدة حتى أخيرة الوحدات ، أسقطتها تلك الصبغة المسمومة ، تلك الرصاصة المسحورة التى طلبها طويلا حتى وجدها أخيرا . والفأر ، ماذا كان منه ؟ انفتحت عيناه بعد إنغلاقها وأخذ يحوس بمنخره فى سقاطة الخشب بقاع قفصه حتى جاء يتشمم جثة زميله الذى لم يعالج بالصبغة وقد ارتمت هامدة باردة يُرثى لها .

هذا أول فأر على ظهر هذه الأرض نجا من شِرة هذا المكروب . أنجاه إرليش بفضل المثابرة والحظ ، وبفضل الله ، وبفضل صبغة أسموها « أحمر التريبان Trypan red » ، وأما اسمها الكيماوى فيطول كثيرا . وما أنجاه حتى زاد جرأة على جرأته ، وزادت أحلام هذا اليهودى الألمانى توثبا . قال يحلم : « ها قد وجدت صبغة تشفى فأرا ، فلأجدنّ أخرى تشفى ألف ألف رجل »

ولم يتحقق رجاؤه بالسرعة التى تمنى ، واستمر شيجا يضرب أحمر التريبان فى أجسام الفيران فى جلد شنيع ، فشفيت بعضها ، وساء حال بعضها . وقد يظهر على أحدها أنه برىء فيلعب ويمرح فى قفصه ، ثم يمضى عليه ستون يوماً فيطلع عليه الصباح بسوء المزاج ، فيأتى شيجا فيقص قطعة من ذيله ثم يدعو إرليش ليريه المكروب الحى الفظيع وقد كثر فى دم الفأر حتى تلبد . ما أفظع هذه التريبنسومات ، وما أخدعها وما أصلب عودها ! إن كل المكروبات الفظيعة عودها صليب ؛ وإنك لواجد هذا المكروب أصلب المكروبات عوداً . وكيف لا وهذا هو قد اجتمع عليه ألمانى وياباني فقذفاه بتلك الصبغة الزاهية فلعقها واستمرأها . وقد يتراجع عنها فى حذر وتبصر وينتحى لنفسه منجى عن السوء فى بعض نواحى الفأر ، ولكنه يتربص الفرص ليخرج ويتكاثر مرة أخرى .

---

(١) هى مجموعة معروفة للكيماويين تتركب من الكبريت والأكسجين وتنقل فى المركبات كوحدة قائمة بذاتها (المترجم)

فارليش لم يكد يستمتع بنجاحه الأول القليل حتى توالت عليه ألف خيبة وخيبة .

فالتريبنسوم الذى وجد داود بروس David Bruce أنه سبب مرض الناجانا (١) Nagana ، وكذلك التريبنسوم الذى يسبب مرض النوم sleeping sickness ، كلاهما برقا لأحمر التريبان وهزءا منه وضحكا عليه وأبيا كل الاباء أن يقرباه ، كذلك وجد إرليش أن الصبغة التى نجحت نجاحاً باهراً فى الفيران ، أخفقت كل الاخفاق لما جربت فى الفيران البيضاء والخنازير الغينية والكلاب . لله الله ما كان أكثر جلده على مشقة مثل هذا العمل الطويل المسئم الذى لم يكن لينهض به إلا رجل ملحاح مثله رأى بشائر النجاح فى شفاء فأر واحد فتشبث بأن النجاح سوف يأتى كله ولو امتد به الزمن واشتد عليه العمل ،

إنك لو عرفت كم قتل إرليش من الحيوانات فى تجاربه لقلت : « يا خسارتها » ، وأنا مثلك كنت شديد الايمان بالعلم معتزاً به وبسرعة إنتاجه اعتزازاً بلغ حد الغرور والغباء ، فكنت مثلك أقولك : « يا خسارتها » . ولكن لا . أو إن شئت فقل إنها خسارة كبرى ، ولكن اعلم إلى جانب هذا أن الطبيعة ذاتها كثيراً ما تجود بأبرع أنتجتها ولكن بعد أن تبذل وتسرف فى البذل فى سبيلها عن سعة عظمى . ومع هذا فلا بد أن تذكر أن إرليش تعلم من هذه الخسارة درساً قيما : هات صبغة لا نفع فيها إلا ازدهاؤها وجمالها ، وغير تركيبها الكيماوى قليلا ، تستحل إلى دواء ذى شفاء . فهذا الدرس نفع إرليش وملأه بالثقة وهو الواثق المعتز بنفسه دئماً أبدا

وزاد معمله على الزمن اتساعاً ، وزاد نصيبه من محبة الناس واحترامهم . واعتقد أهل المدينة فيه العلم وفهم كل خفية من خفاياه وحل كل طلسم من طلاسم الطبيعة . وعلموا فيه النسيان فأحبوه لهذا النسيان . وتحدثوا فيما تحدثوا أن السيد الأستاذ الدكتور إرليش كان يعلم من نفسه النسيان ، فتحين أحيان الأفراح فى بيته فيضرب لها الموعد للاحتفال بها ، فيخشى أن ينسى المواعيد فيكتب لنفسه بنفسه خطابات فى البريد يذكر نفسه بها . قالوا : « ما أسماه إنساناً ! » . وقال الحوذيون الذين اعتادوا حمله كل يوم إلى معمله : « ما أعمقه مفكراً ! » . وقال لاعب الأرغون فى الشارع ، وكان إرليش يتحفه بالحلوان الطيب كل أسبوع ليضرب له بموسيقى الرقص فى البستان بجوار معمله . قال : « لا بد أن هذا الرجل عبقرى ! » . وكان إرليش يكره الارستقراطية فى الموسيقى والآداب والفنون ، ويرى أن موسيقى الرقص تدر عليه أحسن أفكار . وقال أهل المدينة الأخيار : « ما أكثر ديمقراطيته فى الحياة إذا هى قورنت بأرستقراطيته فى العلم » ، وسموا شارعاً باسمه فى فرنكفورت . ولم يبلغ سن الكبر حتى قالوا فيه ما قالت أساطير الأولين

ثم عبده أثرياء القوم . وفى عام ١٩٠٦ نزل عليه السعد من السماء ، فوهبته امرأة تدعى فرنسكا إسباير ، Franziska Speyer ، وكانت أرملة لصاحب مصرف ثرى مبلغاً عظيما من المال ليبنى معملا يسميه « جورج إسباير » ، وليشترى حاجته من الأدوات الزجاجية والفئران ، وحاجته من حذاق الكيمائيين الذين يستطيعون بتلويحة يد أن يخلقوا كل صبغة حبيبة اليه ، وأن يركبوا كل العقاقير الكيمائية التى يركبها هو تخطيطاً على الورق . ولولا هذه الهبة من هذه السيدة ما استطاع إرليش أن يصنع رصاصاته المسحورة أبداً ، فلصنعها احتاج إلى مجهود هذا المعمل الكبير ، هذا المصنع الملىء بالبحاث . وفى هذا البيت ترأس إرليش على بحاث كيمائيين وسادة مكروبيين فكان كرئيس شركة تخرج فى اليوم آلاف السيارات ، ولكنه فى الواقع كان رئيساً عتيق الطريقة ، فلم يجر على أسلوب رؤساء الشركات الحديثين من دق الأجراس وإصدار الأوامر من كرسيه في حجرة الرياسة . بل كان دائم الحركة جوالا يدخل فى هذا المعمل ، ثم فى هذا ، ثم هذا ، فى كل وقت من أوقات النهار ، ينظر ما يصنع أعوانه بل أرقاؤه وعبيده لكثرة ما يهيل عليهم من الأعمال . يدخل إلى هذا فيوبخه ، ويدخل إلى هذا فيلاطفه ويربت على ظهره ، ثم آخر يحكى له عن أخطاء صارخة أتاها هو نفسه من قبل

« يتبع » أحمد زكى

(١) داء يصيب المواشي



ليوناردو دافينشى

الرجل الكامل

LEONARDO DAVINCI

للدكتور أحمد موسى

– ١ –

من أزهى عصور الفن فى أوروبا عصر الرفعة الايطالية الذى اتجه فيه الفن منذ بدء القرن السادس عشر اتجاهاً مثلياً سواء فى النحت أو التصوير .

وكان الميل كله منصبا على التعبير عن المثل الأعلى فى النحت ، وكان العطش نحو الكمال الفنى بالغاً أشده ، الأمر الذى ترتب عليه اتجاه الفنانين إلى الجمع بين الجمال السامى وبين المشاهد الحية :

فعمل الفنانون العارفون على دراسة الفن الاغريقى والتبحر فيه والغوص إلى أعماقه ، مستلهمين منه الوحى ، ساعين وراء درره الفذة ، التى لولاها لما أمكن وصول الفن فى عصر الأحياء إلى ما وصل اليه ، مما يحار المشاهد فى تعليل المقدرة الهائلة التى ذهبت به إلى هذه الناحية العالية ، التى كانت ولا تزال رمزاً يتجه اليه الفنانون والعاشقون بكليتهم وبوجدانهم .

وعلى ذلك لا مناص من اعتبار عصر الرفعة عصر إحياء للفن الكلاسيكى فى جوهره ، واقتباس منه فى مظهره ، ورجوع اليه فى أساسه ، واستلهام منه فى خياله .

ويرى المشاهد لما تركه أساطين الفن فى القرن السادس عشر بايطاليا ، أن الغاية كانت الوصول إلى أسمى وأكمل تكوين كلى ، وأرفع وأجمل مجموع إنشائى ، كما يلاحظ أن التصوير الزيتى أصبح تصويراً تاريخيا أكثر منه اجتماعيا أو منظرياً .

ولم يفز بدرجة الوصول فى القرن السادس عشر إلا ثلاثة هم : ليوناردو ، وميكيلانجلو ، ورفائيل .

واذا كنا قد تخيرنا اليوم ليوناردو دافينشى ، فان ذلك راجع الى أنه المؤسس لهذا الاتجاه العظيم . فكان بذلك النابغة الفذ ، الذى لم يماثله فى نبوغه أحد من معاصريه ، فقد جمع إلى القدرة الفنية ، الاحاطة بالهندسة والرياضة والعلوم الطبيعية والميكانيكا التطبيقية والموسيقى والشعر ، كما كان مهندساً معمارياً قديراً ومثالا ومصوراً .



١ — المادونا فى المغارة ، متحف اللوفر

وعرف عنه أنه كان جميل الخلق جميل الطلعة نبيل الأصل ، فلا غرابة إذا أطلق عليه المؤرخون « الرجل الكامل . كتب فى كثير من الابحاث ، وله فيها آثار جليلة ، من أهمها لتاريخ الفن كتاباه البديعان « قواعد علم التصوير » ، و « الصناعة والجمال » .

ولكن جوهر حياته ، وأعظم ما أنتج ووصل إلى الذروة فيه كان التصوير الذى اتخذه مهنة له عاش من أجلها لتأدية رسالته فيه .

أما مميزاته الفنية فكانت المعرفة والمقدرة والخلق إلى أبعد حدود معانيها كلها. أما المعرفة فقد وصل فيها إلى حدود الدهشة فاحاط بالطبيعة إحاطة غريبة، لاسيما إلمامه بطبيعة الانسان من الناحية التشريحية والفسيوجنومية، أعنى ما يفهم من إشارات الأيدى وأوضاعها. وما تعبر عنه كل إشارة وما يقصد بكل وضع لها، ودرس حياة الحيوان وحياة النبات، وأخيراً المناظر الطبيعية الشاملة لكليهما. فضلا عن محبته العظيمة للحيوانات، ورغبته البالغة فى مراقبتها ودراستها.

كان له الفضل فى تأسيس منهج جديد فى التصوير جعله نابضا بالحياة، كما خلق فيه الظل والنور الممزوجين كالدخان، فخلا كلاهما من خطوط التحديد، وأصبح النور مندمجاً فى الظل متداخلا فيه لا يستطيع الناظر اليه أن يحدد موضع الفصل بينهما.

ووصل بتسجيله للواقع إلى أبدع ما يمكن الوصول اليه وهو المثل الأعلى فى الجمال، وكان التكوين الكلاسيكى مذهبه، كما كان الانسجام روح هذا المذهب.

وتوفر معنى الاستاذية فى الانشاء الموضوعى لكل لوحاته، لعمق بحثه، ورقة تأثره، وبعده عن العنف التكوينى إلا فى بعض لوحاته التى أصدرها فى المرحلة الأخيرة من حياته، فخلق بريشته شعراً منثوراً، يذهب بالمشاهد الى استمتاع العاشق بالقرب عن معشوقه، كما لا يحرم المعشوق من كل معانى المديح والاطراء، فتراه يظهر أجسام النساء جميلة صحيحة منسجمة التكوين بعيدة عن التكلف أو التعمد.

ولد ليوناردو سنة ١٤٥٢ فى فيلا فينشى فى حدود مقاطعة فيرنزا (فلورنسا)، جاء صغيرا مع أبيه بيرو دافينشى إلى فلورنسا العاصمة، وتربى تربية علبة إلى أن التحق بالعمل عند اندريا فيروتشيو، واستمر لديه حتى سافر إلى روما فى مارس سنة ١٤٨٠، وأقام فيها إلى يوليو سنة ١٤٨١ ثم عاد إلى فلورنسا.

على أن لوحات ليوناردو الأولى ليست معروفة كلها، وقد أحاط بها شيء من الغموض لا يمكننا من تناولها جميعها بالفحص الوصف. ولكن هذا لا يمنع من أن نذكر أهم لوحتين له فى مرحلته الفنية الأولى، وكلتاهما تمثل (التبشير)، توجد الأولى باللوفر ومؤرخة سنة ١٤٧٠، والثانية بالجاليرى أو فى فيتزى بفلورنسا مؤرخة سنة ١٤٧٢، وفيها ترى العذراء جالسة إلى مدخل بيتها وعلى يسار اللوحة ركع ملاك يبشرها بالمسيح، وفى مؤخر المنظر مجموعة أشجار ذات لون طبيعى جميل.

وله أيضاً جزء من لوحة معلمه فيروتشيو (تعميد المسيح)، قام ليوناردو بتصوير الملاك عليها، وهى محفوظة بأكاديمى فلورنسا وصورة العذراء مع الطفل (متحف ميونيخ) ١٤٧٨، وقيامة المسيح مع القديس ليوناردو والقديسة لوتشيا (جاليرى برلين) وصلاة الملوك الثلاثة للمسيح، وهى صورة لهيكل كنيسة عملت لوضع الفكرة والتصميم باللون الأسمر (جاليرى الفاتيكان). ولعل آخر صورتين للمرحلة الأولى فى خلقه الفنى هما الصورتان المتشابهتان اسما وموضوعا (المادونا فى المغارة)، الأولى من



٢ — العشاء الأخير، بميلانو — سانتاه ماديا دي لاجواتسيا



الفن المصرى فى حاجة الى الرعاية

ارتفع صوت الفنانين المصريين بالشكوى من موقف الحكومة معهم وضنها عليهم بالتشجيع والرعاية . بينما هى لا تضن بتشجيعها ورعايتها على الفنانين الأجانب الذين يهبطون مصر ويجدون فيها سبيل العيش خصبا موفورا فى ظل هذه الرعاية . وفى مصر الآن طائفة لا بأس بها من الشباب الذين برعوا فى الفنون الجميلة وتلقوها فى أحسن المعاهد الأوربية ، وقد ظهرت هذه البراعة ماثلة فى كثير من المعارض التى عرضت فيها صور وتماثيل من صنع الشباب المصرى ؛ ولكن الحكومة المصرية أو بالحرى وزارة المعارف لم تحفل كثيرا بمجهود أولئك الفنانين الشبان ، وقلما عنيت بشهود معارضهم ، بينما لا تتوانى عن شهود معارض الفنانين الأجانب سواء بحضور الوزير ذاته أو بعض أكابر الموظفين ، أو شراء بعض اللوحات والقطع المعروضة . ومنذ أعوام قلائل أنشأ الفنانون المصريون لهم رابطة لتعنى بشؤونهم ، فلم تولها الجهات الرسمية أية رعاية . ولم تتكرم عليها بأية معاونة . وهذه سياسة تحمل على التساؤل . ونحن لا نأخذ على وزارة المعارف أنها تشجع الفن والفنانين من أى الجنسيات ؛ ولكن الذى يحز فى نفس كل مصرى أن يبق هذا التشجيع كأنه وقف على الفنانين الأجانب ؛ وأن يترك الفنانون المصريون بلا رعاية رسمية تذكى هممهم وتحقق أمانيهم . وقد آن الوقت الذى يحسن أن تعدل فيه وزارة المعارف خطتها ، وأن تشمل الفنانين المصريين بسابغ رعايتها

مؤتمر القلم الدولى وبرنامجه :

يعقد المؤتمر الدولى الخامس عشر لاتحاد نوادى القلم فى باريس فى يوم الأحد ٢٠ يونيه ، ويستمر انعقاده إلى الرابع والعشرين وتقام حفلة الافتتاح فى معهد التعاون العقلى ، ويشمل البرنامج عدة حفلات واستقبالات ومآدب

ناسيونال جاليرى بلندن والثانية ش ١ - باللوفر . والناظر إلى هذه اللوحة تأخذه لأول وهلة روعة القوة الانسانية ، وإحاطة ليوناردو بالمظاهر الطبيعية والتأثر بها ؛ فالمغارة الجبلية مجسمة صادقة المحاكاة ، وأوراق الشجر حية دقيقة التفاصيل ، هذا إلى جانب تصويره لطبقات الأرض على شاطىء الغدير، فجعلها تحاكى النظرية الجيولوجية محاكاة علمية .

انظر إلى ركعة العذراء ، وإلى الطهارة المتجلية فى ملامح وجهها ، ثم تأمل قوة الاخراج الرائعة لملابسها ، وشاهد الظل والنور الذى تخلل انكسار هذه الملابس ، ولاحظ الطريقة الفذة التى أخرج بها اليد اليسرى للعذراء وهى تشير للملاك ، ثم تأمل الى جانب هذا ، الحنان الفائق الذى يتمثل فى الكيفية التى أمسكت العذراء بها الطفل الجالس إلى يمينها .

وقف الملاك راكعا خلف المسيح الطفل يشير بيمناه إلى طفل آخر يصلى أمامه ، والمتأمل لوجه الملاك لا يستطيع إلا أن يرى فيه سحرا يبعث فى النفس كل معانى التقديس للملائكة ، ولعلك اذا قارنت بين نظرة العذراء إلى أسفل ، ونظرة الملاك إلى المشاهد ترى أنك لا تعرف أيهما أروع ، فأنت تحار فى هذه القوة الخارقة التى وهبها ليوناردو والتى لم تكن لغيره من معاصريه .

انظر إلى اللوحة نظرة محيطة ، واجتهد أن تتذوق ما فيها من تفاصيل ، وارجع بفكرك إلى علم النبات ، تر أن الفنان قد أعطانا فكرة رائعة عن جمال الاشجار من كبيرة وصغيرة ، تأمل أوراق الشجر تر أنها كلها مع صدقها فى محاكاة الطبيعة مختلفة التكوين والشكل ، وهذا دليل على التفوق والاحاطة .

(له بقية)

احمد موسى

منها حفلة استقبال يقيمها رئيس الجمهورية للمندوبين ، وحفلة ساهرة تقام فى الكوميدى فرانسيز ، وزيارات لمعالم باريس وفرساى ، وحضور اللوار ، ومعرض باريس الدولى . ويشمل برنامج العمل فضلا عن بحث الاقتراحات المختلفة مناقشة عدة مسائل أدبية هامة منها :

(١) هل يوجد أسلوب معاصر للأدب العالمى ؟

(٢) كيف يمكن التوصل إلى جعل الثقافة عالمية بغير طريق الترجمة ؟

(٣) وكيف يمكن تنظيم التبادل فى مسألة العقد الأدبى بين مختلف الأمم وإنشاء نقد أدبى دولى ؟

(٤) الوسائل التى يمكن بحثها للتعبير المشترك فى أدب الجيل الحاضر والمستقبل .

(٥) مستقبل الشعر فى العالم الحديث .

وسينزل المندوبون ضيوفاً على لجنة تنظيم المؤتمر أيام المؤتمر الرسمية . وقد سبق أن أشرنا إلى أن نادى القلم المصرى سيشترك فى هذا المؤتمر على يد وفد من أعضائه برياسة الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب ، وقد ينتهز ممثلو مصر هذه الفرصة فيقدمون الدعوة إلى لجنة تنظيم المؤتمر بعقد أحد المؤتمرات القريبة المقبلة لنوادى القلم بمدينة القاهرة ؛ على أن ذلك لا يمكن أن يكون قبل سنة ١٩٤٠ .

استعمار المناطق القطبية

لفتت روسيا السوفياتية فى الأعوام الأخيرة أنظار العالم بالجهود الجبارة التى تقوم بها فى سبيل إصلاح المناطق القطبية واستثمارها وتعميرها . والمناطق القطبية كما هو معروف بسائط شاسعة لا نهائية من الجليد ، وتكاد تكون قفراً من البشر . وروسيا تسيطر على مساحات عظيمة من هذه المناطق سواء فى سيبيريا أو فى الجزر الشمالية القطبية مثل نوفازمبلا وستبزبرجن . وقد صدر أخيراً كتاب عجيب عن الجهود التى تبذلها روسيا لتعمير هذه الوهاد الثلجية الهائلة ، وفيه بحوث هامة عن « المعهد القطبى » الذى أقامته الحكومة الروسية فى لننجراد وزودته بجمع عظيم من العلماء فى مختلف الفروع التى تعاون على تحقيق هذه المهمة الاستعمارية العظيمة مثل الجيولوجيا والمترولوجيا والكيميا وعلوم المحيط والبيولوجيا والتحليلات وغيرها . وعدد هؤلاء الاخصائيين ثلاثمائة وخمسون ، وهم يبذلون جهوداً تدعو إلى الاعجاب فى الكشف عن أسرار هذه الأنحاء القطبية . وعنوان الكتاب المذكور هو : « أربعون الفاً ضد المحيط المتجمد » ، ومؤلفه كاتب خبير بشئون روسيا هو ه . سمولكا . وقد استعرض المؤلف جهود روسيا فى سبيل اكتشاف المناطق القطبية وتعميرها ، وذكر أن هذه المهمة تكاد تكون اليوم وقفاً على روسيا ؛ وروسيا تقوم فيها بأعظم قسط من الجهود الانسانية وربما كانت جهودها فى ذلك أعظم ما قدمته فى العصر الأخير للعالم وللانسانية . ويصف الكاتب أعاجيب « المعهد القطبى » ، وجهود علمائه وما وفقوا اليه من الاكتشافات العلمية والعمرانية ، كل ذلك فى فصول قوية شائقة بما تحويه من مختلف المعلومات الغريبة عن الحياة فى تلك الأصقاع المتجمدة

جوائز أدبية أمريكية

من أنباء نيويورك أن جائزة الأدب الكبرى المعروفة بجائزة « بولتزر » وقدرها ألف دولار (مائتا جنيه) ، وهى المخصصة لأحسن رواية ، تصدر فى العام ، قد منحت بواسطة جامعة كولومبيا التى تتولى أمرها ، إلى الكاتبة الأمريكية مس مرجريت متشل من أجل روايتها « ذهبت مع الريح » Gone with the wind التى بيع منها فى أقل من عام نحو مليون ونصف نسخة

ومنحت نفس الجائزة عن أحسن قطعة مسرحية تصدر فى العام إلى الكاتبين المسرحيين جورج كاوفمان وموسى هارت من أجل مسرحيتهما « لن تستطيع أخذها معك » ، وهى تمثل الآن على جميع المسارح الأمريكية الكبرى

ومنحت جائزة « بولتزر » أيضا عن الصحافة لمستر جونومن محرر جريدة « شمس بلتيمور » لأنه نشر أبدع مقال إفتتاحى فى سنة ١٩٣٦

بحث عن البغاء

صدر أخيراً فى فرنسا كتاب اجتماعى خطير عنوانه «بحث عن البغاء» Enquête sur la prostitution بقلم الكاتب الكبير جان جوسى فرابا، وهو عبارة عن صور قوية مؤثرة بما شهد الكاتب وبحث بنفسه سواء فى اماكن البغاء العلنية، أو فى الشارع، أو فى المنازل السرية الرفيعة، أو فى أوكار البؤس المروعة. وقد قضى الكاتب فى بحثه أعواما يجوس فيها أعماق باريس، ويحقق حالها الاجتماعية الخطيرة، وهو يتوجه فيه بالدعوة الحارة الى الحكومة والبرلمان والأمة الفرنسية أن يعملوا جميعا لانقاذ الانسانية من هذا الوباء الاجتماعى الجارف وقد أثار الكتاب منذ ظهوره كثيراً من الاهتمام.

موقع طروادة

لبثت الياذة هوميروس حتى العصر الحديث تعتبر قطعة من الخيال المحض، ولبثت مدينه طروادة التى اتخذت مسرحا لحوادث الالياذة مدينة خيالية؛ ولكن مباحث العلامة الأثرى شليمان فى منطقة «حصارلك» فى غرب الأناضول كشفت عن موقع مدينة مسورة، عليها آثار الغنى والفخامة، ودلائل تدل على أنها أحرقت؛ فقيل عندئذ إن هذه ليست سوى مدينة طروادة، وأن هوميروس حينما تحدث عن حصار طروادة حديثه الرائع لم يكن يروى سوى واقعة تاريخية؛ وحاول كثير من العلماء أن يطبقوا أوصاف الالياذة على المدينة المكتشفه؛ بيد أن الحفر المتواصل فى هذه المنطقة كشف عن سبع مدائن قديمة. فأيها فى الواقع طروادة؟ ولاحظ بعض العلماء من جهة أخرى أن هذه المدن المتواضعة لا تتناسب مع الأوصاف الرائعة التى يسبغها الشاعر على «طروادة». وقد ظهر أخيراً كتاب بالفرنسية عنوانه «الجدل حول طروادة» Controverses autour de Troeiu بقلم العلامة الفرنسى شارل فلاى، يستعرض فيه مختلف الفروض والنظريات التى تنطبق على طروادة وظروفها. ذلك أن المعروف أن طروادة قد خربت وأبيدت، فكيف يرجو المنقبون أن يقفوا على أطلالها كاملة؟ ومن جهة أخرى فليس من المحقق أن هوميروس كتب عن علم دقيق بالجغرافيا والمواقع، وقد يكون للخيال شأن كبير فى الأوصاف التى يقدمها إلينا عن المدينة الشهيرة. ويحاول المؤلف أن يناقش هذه الآراء كلها، وأن يستخلص أوضح النتائج التى تؤيدها الأسانيد التاريخية والجغرافية والأثرية عن موقع طروادة، وعن مصايرها منذ التاريخ القديم

الخطابات الغفل

ذاع فى العهد الأخير فى فرنسا توجيه الخطابات القاذفة الغفل من التوقيع، وضبطت لهذه الخطابات عدة وقائع رنانة؛ وكتب الكتاب والعلماء بهذه المناسبة يبحثون عن أعراض هذه العلة وأسبابها؛ ويقول الدكتور لوكار فى مقال نشرته جريدة الجورنال الباريسية إن كتابة الخطابات الغفل ترجع إلى بواعث ثلاثة هى المصلحة والانتقام والحسد، فهذه البواعث الثلاثة هى التى تحمل الشخص العاقل على عدم توقيع ما يكتبه. بيد أن هناك أشخاصا تنتابهم أزمات عقلية وعصبية معينة فيكتبون مئات الخطابات الغفل، وهنا تبدأ أعراض المرض ذلك لأن شهوة الخطابات الغفل مرض حقيق؛ وربما كانت أهم أسبابه راجعة إلى عوامل جنسية، ومن النادر أن تجد الخطابات الغفل مكتوبة باتزان أو لغة محتشمة، فهى فى الغالب مصوغة فى لهجة فاحشة. ولكنها تدل أيضا على جهل كاتبيها بهذه الصيغ القاذفة لأنهم فى الواقع ينتمون إلى بيئة رفيعة.

وكثير من العذارى اللائى تقدمن فى السن. أو أرهقهن الضغط الاجتماعى يجدن متنفسا فى كتابة الخطابات الغفل؛ وقلما تصدر هذه الخطابات من شخص - رجل أو امرأة - يتمتع بحياة جنسية منتظمة

ومن خواص كاتب الخطاب الغفل ألا يعترف أبدا. وكثير من النساء يضبطن وهن متلبسات بالكتابة ومع ذلك ينكرن عملهن. والخلاصة أن شهوة الخطابات الغفل مرض؛ والمصاب بها يمكن أن يعتبر شخصا غير عادى إذا لم يكن مجنونا فى الواقع



اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضي بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمي

— ٥ —

نستطيع أن نفهم أن المترجم قد يخطىء فى عبارة صعبة غامضة المعنى ، ولكن الذى لا نستطيع أن نفهمه أن يعمد المترجم إلى عبارة سهلة واضحة المعنى فيستبدل بمعناها معنى آخر من عنده بعيد كل البعد عن المعنى المراد

(١) أنظر إلى قول المؤلف عن موقف اسماعيل من السخرة

Ismail's attitude towards the corvée was not a fleeting fancy.

فهل فى هذه العبارة غموض يجيز للأستاذ صروف أن يترجمها بقوله : « إن موقف اسماعيل بازاء السخرة لم يكن يقصد منه التظاهر » ، من أين جاء الأستاذ بالتظاهر . إن المعنى الذى لا يخفى على إنسان هو لم يقف اسماعيل موقفه من السخرة لفكرة عارضة زائلة ،

(٢) ومن هذا النوع أيضاً العبارة الآتية التى تبين الأثر الذى انطبع فى ذهن اسماعيل حين رأى صمويل بيكر لأول مرة

Ismail became impressed with his vigorous personality.

والتى ترجمها الأستاذ صروف بهذه العبارة الغامضة « وقع عنده موقعاً حسناً » ، فأين ذلك من قول المؤلف أن اسماعيل قد أعجب بشخصيته القوية أو أثرت فيه شخصيته القوية

(٣) ولا يختلف عن ذلك ما ترجم به الأستاذ صروف وصف المؤلف لحملة بيكر الذى يقول فيه

The official nature and character of which made it an undertaking of considerable importance

فقد ترجمه الأستاذ صروف بقوله « انها كانت عملا ذا شأن خطير » . أما سبب هذا الخطر وهو طبيعتها وصفتها الرسمية فلم يعن المترجم ببيانه كما بينه المؤلف

(٤) ومن العبارات التى أغفلها المترجم قول المؤلف فى موقف اسماعيل من السير صمويل بيكر

His good faith cannot be successfully attacked, for his agent's field of operation was several thousond miles south of Cairo. In the territory over which he was appointed, the Englishman was lord and master.

وكل هذه معان لها قيمتها لم يذكرها المؤلف عبثاً ، وليس فيها شيء من الصعوبة ، ولكن الأستاذ حذفها كلها

(٥) وترجم الأستاذ عبارة Legitimate commerce بقوله التجارة المنظمة مع أن معناها التجارة المشروعة ؛ والفرق بين المعنيين كبير لأن النخاسة قد تكون تجارة منظمة . أما التجارة المشروعة أو المباحة فلا يمكن أن تشمل تجارة الرقيق

(٧) ثم لينظر القارىء معنا إلى هذه العبارة التى يصف بها المؤلف عمل المراجعين الذين جاءوا لفحص حسابات اسماعيل

Auditors, as a rule, are as cold as fishes. The human equation means nothing to them. They have but one mandate. It is a mission of heartless scrutiny. Tangible assets and liabilities, real or potential, are the only things that interest them.

ولينظر بعد ذلك إلى ترجمة الأستاذ صروف التى يقول فيها « إن فاحصى الحسابات (المراجعون) لا يهمهم عادة إلا فحص ما يقدم اليهم من سجلات ودفاتر ومن مستندات الديون التى هى للغير أو على الغير »

ونحن إذا تجاوزنا عن أسلوب هذه العبارة نرى أنها لم تؤد إلا جزءاً يسيراً من معانى العبارة الانجليزية . قد يكون فى هذه العبارة الانجليزية شيء من الصعوبة ولكن هذه الصعوبة هى محك القدرة على الترجمة وإلى الاستاذ ترجمة لهذه القطعة جامعة لكل ما فيها من المعانى :

« إن المحاسبين فى العادة لاقلب لهم، وليس لهم شان باحساس الناس وعواطفهم، ولا يضعون نصب أعينهم إلا غرضا واحدا هو البحث والتدقيق، لاتاخذهم فيه هوادة. وكل مايعنون به هو ما للشخص وما عليه سواء أكان ذلك حقيقة حاضرة أم تقديرا مستقبلا »

(٧) هل يصدق القارىء أن الأستاذ صروف قد ترجم

Before he left for the Sudan on his first mission

بقوله « قبل مغادرته السودان فى مهمته الأولى » وهل يمكن أن لايعرف الاستاذ صروف أن Left for معناها « سافر إلى » لا غادر؟ وأين كانت مهمة غردون الاولى التى سافر اليها من السودان؟

إنا لانكاد نصدق أن الاستاذ صروف قد ترجم هذه العبارة أو اطلع عليها وعلى الأصل بعد الترجمة

قال المؤلف فى الأموال التى أنفقها إسماعيل فى حرب الرقيق

Even if such considerations as these may perhaps tend to warrant the blotting out from the « moral principle » balance sheet of the money spent by Ismail etc.

فقلب الاستاذ صروف معنى هذه العبارة إذ قال: « ومع أن الاعتبارات المار ذكرها قد تسوغ انفاق اسماعيل للمال الخ » مع أن الترجمة الصحيحة هى: وحتى لوكانت هذه الاعتبارات كلها تبرر اغفال الأموال التى أنفقها اسماعيل وتجيز محوها من سجل أعماله الأدبية الخ، وما أكبر الفرق بين المعنيين!

(٨) وقال المؤلف فى تقديره الأموال التى أنفقها اسماعيل فى محاربة النخاسة

In order to estimate what this X may possibly amount to, it is well to recall etc.

فلم ير الاستاذ صروف أن يترجم هذه العبارة باكثر من قوله « ولا يعزب عن البال » والاستاذ مولع بمثل هذه العبارة المبهمة فقد تكررت هى ولفظ « وعليه » أكثر من مرة بدل جمل طويلة ذات معان كثيرة فى الأصل الانجليزى

(١٠) ويقول القاضى كريبتس إن قناصل أوربا وأمريكا كانوا يحمون تجارة الرقيق، وان السفن التى كانت تحمل العبيد كانت ترفع الراية الامريكية ثم يقول بعد ذلك:

Thus secured from interference by the Consuls of Europe and America etc.

فقال الاستاذ صروف فى ترجمتها إنهم كانوا بمأمن من تعرض قناصل أوربا وأمريكا، مع أن المعنى الحقيقى أن « قناصل أوربا وأمريكا كانوا يحمون هؤلاء التجار من أن يتعرض لهم أحد.

ذكر المؤلف ذلك فى الفقرة السابقة لهذه العبارة المنقولة من كتاب السير صمويل.

(٩) هل سمع القارىء أن كلمة:

Uususpecting villags

معناها « القرية المقصودة » هذا ما ترجمها به الاستاذ صروف بدل القرية الآمنة أو الغافلة عما يراد بها.

(١٠) وقال المؤلف عن العقد الذى كان بين بيكر واسماعيل باشا

It appears that he drafted the contract which defines his relations with the Viceroy.

أليس المعنى الذى يفهمه كل إنسان من هذه العبارة هو: ويلوح أن (السير صمويل بيكر) هو الذى كتب صورة العقد الذى يحدد علاقته بالوالى. لكن الاستاذ لم يفهمها كذلك بدليل أنه قال فى ترجمتها « ويظهر أنه كان بينه وبين الخديو عقد لتنظيم علاقته به » وهذا مالم يقله المؤلف، فان وجود العقد لاشك فيه كما قال ذلك بصريح العبارة بعد سطر واحد من هذا الكلام ولكن الذى لم يتاكد منه هو أن كاتب هذا العقد هو السير صمويل بيكر.

(١١) وقال المؤلف يصف صعوبة نقل المؤن والذخائر والسفن من مصر إلى السودان

It had to be delivered at so great a distance and transported by sea-going steamers, river boats and camel back.

فترجم الأستاذ صروف ذلك بقوله « كان يجب نقلها مسافات شاسعة جدا » وأين بقية المعانى؟ أين طرق نقلها ــ البواخر البحرية والقوارب النهرية وظهور الابل؟

نكتفى بهذه الأغلاط من الفصل الخامس لننتقل إلى الفصل السادس لنبدأه بهذه الغلطة التى لايصح أن يقع فيها مترجم.

(١) قال المؤلف عن الرجال الذين صحبوا بيكر فى رحلته

It had for its heroes the two Bakers uncle and nephew, Abdel Kader, the Muslim, Mansur the Copt and every man of that élite corps etc.

أيدرى القارىء ماذا قال الأستاذ صروف؟ قال: « أبطالها السير صمويل بيكر نفسه وابن أخيه وأتباعه عبد القادر ومسلم ومنصور ورجل قبطى وطائفة من الاتباع والانصار ». إننا كلما أمعنا فى قراءة الكتاب زادت شكوكنا فى أن الاستاذ صروف قد ترجمه بنفسه أو اطلع على الترجمة، وإلا فهل كان يخفى عليه أن معنى العبارة هو: « أبطالها السير صمويل بيكر وابن أخيه وعبد القادر المسلم ومنصور القبطى وكل رجل من هذه الطائفة المصطفاة »: قد يظن الاستاذ صروف أن الشولات تجيز له أن

يفهمها كما فهمها ولكن ذلك ظن غير صحيح فعبد القادر هو المسلم ومنصور هو القبطى مهما وضع بينهما من شولات

(١) وقال المؤلف فى هذا المعنى نفسه :

Its brigands become saints.

فقال المترجم « لصوصها الذين تحولوا إلى الشهامة، وهى عبارة لا معنى لها ولا ندرى لم لم يترجها الأستاذ كما هى ليفهمها الناس فيقول « لصوصها الذين عدوا (أو أصبحوا) فيما بعد قديسين »

(٢) وقال المؤلف يصف حفلة رفع العلم المصرى على البلاد التى فتحها بيكر

The troops formed three sides of a square.

فقال الاستاذ صروف « ووقف الجنود بشكل ثلاث أضلاع من أضلاع مربع مستطيل » ولا ندرى ما هو هذا المربع المستطيل ولا من أين جاء الاستاذ صروف بلفظ مستطيل التى أفسدت المعنى

(٣) وقال اسماعيل فى عهده إلى السير صمويل بيكر وهو ذاهب لمحاربة الرق

You will in a short time get the natives to replace an illegitimate interest by a legitimate one.

فقال الأستاذ صروف فى ترجمة الجملة المنقولة عن وثيقة رسمية عظيمة القيمة : « فتجذب إليك القبائل » فاين هذا من معناها الحقيق وهو « أنك لاتلبث أن ترى الاهلين يستبدلون بعملهم المحرم عملا مشروعا »

(٤) وقال المؤلف عن غردون واسماعيل

Two English gentlemen who would not give their friendship and confidence to a bad man.

ومعنى ذلك أنهما « من أشراف الانجليز الذين يضنون بصداقتهما وثقتهما على أشرار الناس » ولكن الاستاذ صروف يترجم ذلك بقوله « وما كانا ليفرطا فى صداقته »

(٤) هل معنى Great profits « بعض الأرباح » أو معناها أرباحاً عظيمة

(٥) وقال المؤلف فى معرض كلامه عن الضباط الأمريكيين الذين استخدمهم اسماعيل

Blue book material cannot be found to bear out these statements.

وهى عبارة معناها « لا توجد كتاب زرقاء تؤيد هذه الأقوال ولكن المترجم لسبب ما ترك هذه العبارة من غير ترجمة

(٦) وقال اسماعيل فى خطابه إلى رئيس الضباط الأمريكيين

I count upon your discretion, devotion and zeal.

معناها أنى أعتمد على حكمتك وإخلاصك وغيرتك ، ولكن الأستاذ ظن أن discretion مشتقة من لفظ secret فترجم العبارة كلها بقوله : « إنى أعتمد على حبكم وإخلاصكم ومراعاتكم لشروط الكتمان » فغير بذلك المعنى وأفسد الأسلوب

(٧) وقال المؤاف يعلق على تعيين الجنرال استون رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش المصرى

This designation meant more than the...

وهى عبارة طويلة ترجمتها بالضبط « وكان لهذا التعيين معنى أبعد من مجرد ! إختيار مت ، ولورنج ، وسبلى لجيش الوالى كان يحوى كثيرا من الضباط الأجانب . لقد كان اختيار هذا الضابط الأمريكى لذلك المنصب ثم اختيار عدد كبير من بنى وطنه معه ذا معنى خاص . كان إيذانا بانقضاء عهد السيادة الفرنسية على مصر ولم يكن معناه أن إنجليزيا سكسونيا قد خلف غاليا (فرنسيا) أو أن الصقلى والتيوتونى قد ضعف أمرهما معا . لم يكن معناه ذلك بل كان معناه أن عهدا جديدا قد طلع على مصر وأن إسماعيل قد حرر بلاده من القيود الأجنبية وإعتزم أن لا يكون لأحد سلطان عليه : نعم إنه استعان بالأمريكيين ولكن أحدا لا يجهل أن الولايات المتحدة لم يكن لها مطامع إستعمارية فى مصر أو فى إفريقية

ثم انظر بعد ذلك إلى ترجمة الأستاذ « وكان لهذا التعيين مغزى أبعد من تعيين سائر الضباط الأجانب فى جيش الخديو إذ كان نذيرا بانتهاء السيادة الفرنسية وبدء عهد جديد تتمتع فيه مصر باستقلالها ويصبح فيه الخديو سيد نفسه . ومما أعان على تحقيق ذلك ما يعرفه الخاص والعام من أن الولايات المتحدة كانت منزهة عن كل غرض إستعمارى أو غاية أمبريالستية فى مصر وأفريقية . »

لو أن الاستاذ كان يلخص الكتاب لجاز له أن يقول هذا القول على ما فيه من تغيير واختلاف عن قول المؤلف ؛ أما الترجمة فلا يجوز فيها هذا . وقد حذفنا أصل هذه الفقرة الانجليزى لانه يشغل عمودا كاملا من الرسالة فليرجع إليه القارىء إن شاء وتوكد له أنه يطابق ترجمتنا مطابقة تامة

(٨) هل يصدق القارىء أن الاستاذ صروف يقول « وفى وسعنا ان نخمن على تلك الأعمال » ترجمة لقول المؤلف

But the total of this outlay can be surmised.

الذى معناه « أننا نستطيع أن نتصور مجموع هذه المبالغ بوجه التقريب الخ »

ولنكتف بهذا القدر اليوم وموعدنا العدد القادم ان شاء الله

الغنيمى

(بقية المنشور على صفحة ٨٠٣)

بعنوانه، ولكنى أعتقد أن عنوان الكتاب يبوبه وينظمه، ويلائم بين أجزائه ويشيع فيه هذه الموسيقى التى تحببه إلى النفوس وتغرى به عقول القراء. وأول ما يجب من العناية بالعنوان فيما أرى أن نذهب به مذهب القدماء الصالحين، فلا نرسله إرسالاً ولكن نقيده بالسجع، لأن ارسال الأشياء فى غير قيد يمكنها من أن تهيم على وجهها وتنطلق فى غير وجه، وتكون كالجراد هذا الذى لا يستقر على سنبلة أو كوز الا ريثما ينتقل إلى سنبلة أو كوز. فاذا أردت يا صديقى أن تضع كتاباً فلا تفكر فى موضوعه ولا فى أجزائه ولا فى أبوابه وفصوله ولا فى غاياته وأغراضه، فهذا كله يأتى وحده دون أن تدعوه أو تلح فى دعائه بالعناية أو التفكير، إنما الشىء الذى يجب أن تقف عليه جهدك، وتنفق فيه وقتك، وتستنفد فيه قوتك، هو العنوان، والعنوان المقيد المسجوع. ويشهد بذلك تراثنا الأدبى العظيم الذى إن أحصيته وجدت أكثره قد قيد بهذه العنوانات المسجوعة؛ ويشهد بذلك صديقنا الزيات فقد كانت لنا معه جولات قيمة خصبة أيام الشباب فى هذا الفن الذى لا يحسنه إلا الأقلون؛ ويشهد بذلك صديقنا محمود حسن زناتى الذى كان أستاذنا فى هذا الفن العجيب. لذلك لم أكد أختار هذا الموضوع للحديث حتى فكرت قبل كل شىء فى عنوان الكتاب الذى ألفته ولم تنبئنى منه إلا بطرف يسير قصير. وقد سميت هذا الكتاب كتاب الارشاد إلى فلسفة الجراد. وأخص ما يمتاز به العنوان البارع أن يراه القارىء فيظنه واضحا جليا، فاذا رآه الاخصائى تبين فيه ألوانا من الغموض وفنونا من الغرابة تحتاج إلى الشرح والتفسير، وإلى الحاشية والتقرير. ولا شك فى أن المثقفين من قراء الرسالة سيرون هذا العنوان سهلا سائغا وقريبا دانياً.

ولكن أصحاب البيان والراسخين فى علم التاويل سيلاحظون أن كلمة الفلسفة هنا قد استعملت فى غير معناها الحقيقى المعروف؛ فليس للجراد فلسفة؛ والدليل على ذلك أنك تريد أن تعلمه الفلسفة، وإذن فقد يقال إن فى هذه الكلمة مجازا مرسلا لأن المؤلف أراد فلسفة الجراد باعتبار ماسيكون، لأن الجراد إذا قرأ كتابك إن شاء الله تهذب وتادب وصارت له فلسفة. ولكن ليس هذا هو الذى اراده المؤلف، فقد يكون أراد شيئاً آخر، وهو أن للجراد الآن فلسفة جرادية يراد أن يعدل عنها إلى الفلسفة الانسانية. وقد يكون المؤلف أراد بالفلسفة المصدر أى جعل الجراد فيلسوفا يقال فلسفت الشىء جعلته فلسفيا، وفلسفت الانسان جعلته من اصحاب الفلسفة، وفلسفت الجراد جعلته مفلسفا. ولا تبحث عن هذه الكلمة فى المعاجم العربية القديمة، فقد لا تظفر فى هذه المعاجم بشىء، ولكن ابحث عن هذه الكلمة عند الفلاسفة فى كلية الآداب فهم الذين يلائمون بين القديم والجديد، وهم الذين يرجع اليهم فى مثل هذه المشكلات.

أرأيت أن كلمة واحدة من هذا العنوان قد أثارت كل هذه الأبحاث التى أومأت إليها إيماء، فكيف بكلماته الأخرى إذا لوحظت مفرقة وإذا لوحظت مجموعة. والشىء الذى ليس فيه شك هو أن هذا العنوان سيضمن لك شيئين: الأول أنه اعلان سيعجب القراء ويروقهم، بل سيبهرهم ويروعهم، وسيدعوهم إلى شراء الكتاب والترويج له عند الأصحاب والأصدقاء. ولعله يروق فى وزارة المعارف وأنت أعلم بما وراء ذلك من المنافع التى لا تحصى. والشىء الثانى أن هذا العنوان سيرسم لك برنامج الكتاب ويمكنك من تبويبه فى غير مشقة ولا عسر. ولا تكلف نفسك تروية ولا تفكيراً، ولكن خذ كلمات هذا العنوان واجعل منها عنوانات لأبحاثك فسترى أن كتابك قد بوب باذن الله. فليكن موضوع الباب الأول إذن هو البحث عن كلمة الكتاب مم اشتقت، ومن اين أخذت، وما معانيها المختلفة التى دلت عليها فى العصور المختلفة والبيئات المتباينة. ولا تخف أن يقال لك إن هذا استطراد وإطالة وتزيد فى القول، فلولا الاستطراد والاطالة والتزيد فى القول لذهب أكثر العلم أو أكثر الأدب على الأقل. ولك فى الجاحظ أسوة حسنة فهو قد أطال فى ذكر الكتاب حين أراد أن يؤلف فى الحيوان.

وقد ألف أرسطاليس من قبله فى هذا الموضوع فآثر الايجاز واجتنب الاستطراد وكانت النتيجة ان الناس جميعا يقراون كتاب الجاحظ وليس منهم من ينظر فى كتاب ارسطاليس، لان كتاب أرسطاليس علم وقد غير علم الحيوان، وكتاب الجاحظ أدب وقلما يتغير الأدب، ولا سيما حين يمتاز بالاطالة والاستطراد. ونحن فى كلية الآداب لا نبدأ دروس الأدب حتى نعلم الشبان علما كثيراً عن لفظ الأدب ومعانيه، فسر سيرتنا ولا بأس عليك. وإذا فرغت من هذه الأبحاث القيمة التى لا تتصل ولا يجب أن تتصل بالموضوع، فخذ بعد ذلك فى بحث يكون صلة بينها وبين الموضوع وهو إضافة الكتاب إلى الارشاد والصلة بينه وبين الجراد. وكيف تختلف الكتب باختلاف أصناف الناس، وكيف تختلف الكتب باختلاف أنواع الحيوان، لا من جهة موضوعها وأسلوبها فحسب، بل من جهة أحجامها وقطعها أيضا ومن جهة مادتها التى تطبع وتذاع فيها، ومن جهة الخط والحروف التى تستخدم فى هذا الطبع؛ فانواع الطبع تختلف باختلاف القراء فى القدرة والذوق، وكذلك الأحجام، وكذلك مادة الورق والغلاف؛ ويجب أن يطرد هذا بالقياس إلى الحيوان وبالقياس إلى الجراد خاصة، وواضح جدا أن هذا سيذهب بك فى ألوان من البحث الطريف الذى لم تسبق إليه؛ فاذا فسرت آراءك ببعض الصور فثق بانك ستحدث فى عالم التاليف حدثا عظيما، وثق بانك ستفتح للجنة الترجمة والتاليف والنشر

أبوابا لن تتردد فى ولوجها ولكنها لن تعرف كيف تخرج منها.

ثم دع هذا الباب إلى الباب الثانى واجعل عنوانه الارشاد واسلك فى هذا الباب مسلكك فى الباب الأول ، فخضع لفظ الارشاد ومعانيه لكل هذه التجارب التى اخضعت لها لفظ الكتاب ومعانيه ، ثم ابحث عن ارشاد الجراد كيف يكون فاعقد فصلا تصور فيه مذهب الذين يرون أن الجراد يفهم بالعقل وبين كيف يكون إرشاده على هذا النحو ، واعقد فصلا آخر تصور فيه رأى المحدثين الذين يرون أن الجراد يفهم بالفم والبطن وبين فيه كيف يكون ارشاد الجراد من طريق الأفواه والبطون . والناس كما تعلم يختلفون فى هذا الموضوع ، ومنهم من يرى أن تكتب أصول الفلسفة على أوراق الأشجار والنجوم والزرع التى يحبها الجراد ويميل إلى أكلها ويقولون إن الجراد إذا أكل هذه الأوراق المفلسفة فهم العلم ووعى الحكمة وأصبح فيلسوفا باذن الله .

ثم اجعل الكلمة الثالثة عنوانا للباب الثالث وهى إلى . ولابد من أن تبحث عن السبب فى ان الارشاد يتعدى بالى ولا يتعدى بغيرها من حروف الجر ؟ ولم لا يقال كتاب الارشاد لفلسفة أو بفلسفة أو فى فلسفة أو من فلسفة أو عن فلسفة أو على فلسفة الجراد . وواضح أن كل حرف من هذه الأحرف سيحتاج إلى فصل مطول جدا وستجد فى كتاب المغنى لابن هشام ما يعينك على تحرير هذه الفصول . ولا تخف من هذه الاطالة فانها هى التى ستنفعك وتروج كتابك عند أصدقائنا الأزهريين . ثم إذا اردت ان يروج كتابك عند الجامعيين وفى كلية الادب خاصة فحسن عنايتك بالباب الرابع وهو باب الفلسفة وهو اللب الأول للكتاب ، لأن الأبواب التى سبقت كانت قشوراً ولكنها كانت قشورا لابد منها ، فكل لب محتاج إلى قشر وإلا لما كان لبا . فابحث الآن عن الفلسفة وعن أصل لفظها واحذر أن تقول إنه يونانى فقد يكون هذا مطابقاً للحق ، ولكن الحق فى هذه الايام لايغنى عن البدع شيئا . والبدع فى هذه الايام ان تخرج الأشياء عن أصولها وتوضع فى غير مواضعها وترد إلى غير مصادرها . والظاهر أن كلمة الفلسفة ترجع إلى أصل سامى عربى ، وما أشك فى أنك ستجد فى شعر قضاعة بيتا يثبت لك وللناس جميعا ان العرب قد عرفوا الفلسفة واستعملوا لفظها قبل ان يولد سقراط . ولابد أن تعرض معانى الفلسفة ومذاهب الفلاسفة فى العصور المختلفة وتبحث عن أيها أدنى إلى الجراد ، إلى عقله إن كنت من أنصار العقل ، وإلى بطنه إن كنت من أنصار البطون . فاذا فرغت من هذا البحث الهائل المخيف وصلت إلى الباب الاخير الذى هو نتيجة النتائج وجوهر الجواهر وأصل الاصول وفصل الفصول وخلاصة الكتاب ولب الألباب وهو باب الجراد الذى وجه اليه الارشاد .

وهذا الباب معقد بطبعه فلابد من أن تبحث عن لفظ الجراد من أين جاء وإلى أين انتهى ، ولا بد من أن تبحث عن منزلة الجراد بين أنواع الحيوان ، ولابد من أن تبحث عن محاسنه وعيوبه ، ثم لابد من أن تبحث عن عقله وما يكونه من الملكات وعن بطنه وما يمتاز به من الخصال فى الاستيعاب والهضم وتصريف العلم والفلسفة إلى أجزاء الجسم وأطرافه والوصول آخر الامر إلى أن يسير الجراد سيرة فلسفية صالحة . فاذا وصلت إلى هذا الموضع من كتابك وخيل إليك أنك قد انتهيت به إلى غايته وأفدت العلم فائدة محققة تمكنك من نيل الدكتوراه من كلية الاداب فعد إلى منهج ديكارت وألغ هذا الذى كتبته كله إلغاء ، وافترض أنك لم تكتب شيئا ولم تعلم شيئا واستانف البحث من جديد فسترى أنك قد أضعت وقتك فى غير نفع ، وأنفقت جهدك فى غير طائل ، واستهلكت راحتك وورقك وحبرك واقلامك فى غير غناء ، لا ن الجراد ليس فى حاجة إلى أن يتعلم الفلسفة الانسانية الان ، فقد تعلمها منذ عهد بعيد ؛ فهو إن كان ناهبا سالبا ومغيراً محاربا فقد أخذ ذلك عن الانسان . وهل زاد الانسان على أنه حيوان قوام حياته السلب والنهب والحرب ؟ وهو إن كان خفيفا سريعا متنقلا لا يستقر على حال من القلق فقد أخذ ذلك عن الانسان . وما أظن أنك تستطيع أن تلقى جرادة تجهل قول الشاعر القديم : « تنقل فلذات الهوى فى التنقل »

وهو إن كان مفتنا فى الخفة والتنقل فقد اخذ هذا الافتنان عن الانسان ، لانه يراقب الحضارة وتطورها ، ويراقب المبادىء وتلونها ، ويراقب اضطراب الناس فى آرائهم وأهوائهم ومذاهبهم ومبادىهم ، ويراقب الضمائر التى تباع ، والعقول التى تمتهن ، والحريات التى تزدرى ، والأصول التى تتخذ تجارة ووسيلة إلى الربح وتحقيق المنافع الدنيئة . وقد هم الجراد أن يقلد الانسان فى هذا فادركته بقية من عقله أو من بطنه الذى تستقر فيه الفلسفة وامتنعت به عن أن ينحط إلى هذه القرارة الحقيرة الموبوءة التى انحط اليها الانسان الحديث ، فظل حيث هو يغير كريما لياكل من ثمرات الأرض مايستطيع أن يصل إليه ، ويعود كريما ان استطاع العودة أو يموت كريما بما يسلط عليه الانسان من ألوان الباس وضروب الفناء . وأنت حين تصل إلى هذه النتيجة بين اثنتين : فان كنت من أنصار الفساد وعشاق الانحطاط الذين يرون أن الانسان قد وصل فى هذا العصر إلى أرقى أطوار الحضارة فاستانف العمل لتبحث عن طريق تهدى بها الجراد إلى تقليد الانسان فى الانحدار إلى هذه القرارة ، وإن كنت من المحافظين الذين يكرهون التطور الحديث ويمقتون نتائجه فادع الانسان إلى أن يتعلم فلسفة الجراد وضع فى هذا كتابا اسمه : (التبيان عن تجرد الانسان) والتجرد هنا مشتق بالطبع من الجراد . وتقبل ايها الصديق العزيز المجهول أخلص تحياتى

طه حسين

5 me Année, No. 203

بدل الاشتراك عن سنة

مصـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 24 - 5 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٠٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ — ٢٤ مايو سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الرافـــعى

للدكتور عبد الوهاب عزام

(قال قائل : « مات سنائي ! »
ان موت مثل هذا العظيم ليس خطبا أمما . لم يكن تبنة ذهبت بها الريح ، ولا كان ماء جمد في الزمهرير ، ولا كان مشطا كسرته شعرة ، ولا كان حبة سحقتها الارض . انما كان كنزا من الذهب فى هذا التراب لايزن العالمين بمثقال ذرة
لقد رمى القالب الترابى الى التراب ، وحمل الروح والعقل الى السموات) (١)

ذكرت هذه الأبيات : أبيات جلال الدين الرومى حينما قرأت نعى الرافعى ، واعجباً ! أنضبت هذه النفس الفياضة ؟ أذبل هذا الخلق النضير ؟ أخمدت هذه الجذوة ؟ أطفئ هذا المصباح ؟ أ كلت هذه العزيمة الماضية ؟ أفترت هذه الهمة الدائبة ؟ أأظلم هذا القلب الذى يملأ الدنيا ضياء ؟ أوقف هذا الفكر السيار ؟ أوقع هذا الخيال الطيار ؟ أسكن هذا القلم المصور الذى يصبغ العالم كما يشاء ، يضحكه ويبكيه ، ويسخطه ويرضيه ، والذى اذا شاء صور أحزانه مواسم ، ورد أعياده مآتم ؟

(١) ترجمة أبيات لجلال الدين الرومي . وسنائي شاعر صوفي كبير .

أمات الرافعى فى وقدة جنانه ، وشعلة بيانه . وعزة قلبه وسلطانه ؟ أطوى القلب الذى وسع الدنيا وماوسعته ، وحقرها وأكبرته ؟

كلا كلا ! إن مولد الحر فى الدنيا قليل ؛ وإن موت الحر مستحيل . إن مولد الحر تتمخض عنه الأجيال بعد عناء ، ويمهد له الزمان بعد جهاد ، ليولد على الأرض تاريخ أو فصل من تاريخ ، فاذا انقضى عمله وجاء أجله فهو تاريخ لا يمحى ، وذكرى لا تموت !

ان الحر ليولد على هذه الأرض كما يولد النجم فى أطباق السماء فلا يزال وضاء هادياً ، أو كما يولد النهر فى سفح الجبل فلا يفتأ جارياً ساقياً ، أو كما تولد الحقيقة فى أفكار البشر ثم لا تموت .

ان الحر الكريم فطرة صافية تستمد الله ، فلا يحول عنها نوره ؛ ولا يتحول عنها وحيه ، وهى فى خلق الله سنة لا تتبدل فلا تستعبد الحر الأهواء ، ولا تذله المطامع ؛ وهو يأبى على الحدود ، وينفر من القيود ، ويكبر على الزمان والمكان . إن خلق الناس زمانهم خلق هو زمانه ، وان حد الناس مكانهم حد هو مكانه ؛ فاذا ساق الناس التقليد أو قادهم ، واذا خيل اليهم الباطل حقا والحق باطلا ؛ وقف هو هازئاً أبياً يستوحى ربه ، ويستفتى قلبه ؛ واذا جرف التيار الخاصة والدهماء ، فاضطربوا فى موج الحادثات كالغثاء ، ترمى بهم كل شط ، وتنفر من كل أرض ، ثبت الحر كالطود الأشم فى البحر الخضم :

يظل كالطود يجرى حوله نهر … من الخطوب له بالناس طغيان
فانت مآرب أهل الذل قمته … فما يذلله نيـل وحرمان

ان الرجل الحر صفحة فى التاريخ جديدة . وخطوة فى سير البشرية متقدمة ، على حين لا يظفر التاريخ بجديد فى آلاف المواليد ، ولا يخطو خطوة إلى الأمام فى كثير من الأعوام . وهل التاريخ كما قالوا إلا إعادة وتكرار ؟

٭٭٭

ولقد أوتى الرافعى من الحرية الالهية نصيباً ، ومن النور الالهى قلباً ، ومن الفيض الالهى ينبوعاً ، فلبث دهره نسيج وحده ، وظل حياته ينير للسالكين ، ويسقى للظامئين . ولقد أوتى من العزة الاسلامية ما تخر له الجبال ، ومن الهمة القرآنية ما تنشق له الأهوال . ولقد أوتى من الايمان ما أصغر الدهر فى سطواته ، ومن نور الايمان ما شق على الزمان ظلماته

كان الرافعى نوراً وسلاماً ، ومحبة ووئاماً ، فاذا سيم الدنية فى دينه أو فى أمته ؛ وإذا تجهم الباطل لحقه ، أو تطلعت المذلة إلى خلقه ، ألفيت النور ناراً تلظى ، والسلم حرباً تهيج ، والحب بغضاً ثائراً ، والرحمة شدة حاطمة

لبثت سنين طوالا أقرأ للرافعى ولا أراه ، وأحبه ولا ألقاه ، وأتحدث عنه معجباً ثم أقول لمحدثى : هذا وجه ماسعدت برؤياه ، حتى لقيته العام فى لجنة التأليف والترجمة والنشر وكأنا صديقان قديمان . ثم أتاحت الفرص لقاءه مرتين أو ثلاثاً كانت آخرتها فى دار (الرسالة) بعد أن كتبت مقالى عن كتابه وحى القلم . ثم افترقنا وما علمت أنه آخر العهد ، وفرقة الدهر !

٭٭٭

وإنى لأعترف للقارىء فى غير تزيد ولا تصنع أنى أجد فى نفسى وقلبى تهيباً للكتابة عن الرافعى ؛ وأرى جوانب تتسع ثم تتسع حتى يضيق المجال . ولقد حاولت أن أنظم فكنت كلما أخذت القلم تذكرت هذه الأبيات من منظومتى « اللمعات » فقلت انها تمثله . انها تمثل الرجل الحر حيث كان

حبذا الصوت فمن هذا البشير؟ … ومن الهاتف بالقلب الكسير؟
ومن البارق فى هذى الغيوم ؟ … ومن المسعد فى هذى الهموم ؟
ومن الهابط فى نور السما … هادياً فى الأرض جيلا مظلماً ؟
ومن السائق شطر الحرم … وإلى الأصنام سير الأمم ؟
ومن القارىء فى بيت الصنم … سورة الاخلاص فى هذا النغم؟
ومن الحر الذى قد حطما … من قيود الأسر هذا الأدهما ؟
ومن الآبى على كل القيود ؟ … ومن القاطع أغلال العبيد ؟
ومن الباعث فى ميت الأمم ؟ … ثورة العزة من هذى الهمم؟
لاح كالغرة فى هذا السواد … بص كالجمرة فى هذا الرماد ؟

إنه ليصدق من يجيب كل سؤال فى هذه الأبيات بهذا الاسم الكبير : « مصطفى صادق الرافعى » .

عبد الوهاب عزام

بل ضرورية جدا

للأستاذ عباس محمود العقاد

تعودنا أن نسمع أن الفنون الجميلة من الكماليات التى يأتى دورها بعد العلم والصناعة فى الأهمية ، وفى مقالكم المشار إليه تقولون إن علينا أن نبدأ بالفنون الجميلة والرياضة لنتعلم الارادة والعمل ، فهل لكم أن تنيروا الطريق لنا بالتوفيق بين القولين . . . ،

الاسكندرية صالح شحاته

* * *

الحق ياصاحبى أننا فى عصر نحتاج فيه إلى غربلة وافية لجميع الالفاظ التى لهجنا بها زمناً فى مطلع نهضتنا الحديثة ، ومنها ألفاظ الضروريات والكماليات وتقديم الأهم على المهم والمفاضلة بين العلوم والفنون ، وسائر هذه المحفوظات التى خلت من المدلول لكثرة تكرارها واكتفاء الآذان بسماعها دون التفكير فيها .

فمن الواجب ، أولا ، أن نفرق بين الفرد والأمة فيما هو من الشؤون الضرورية وما هو من الشؤون الكمالية .

فالفرد لا يشترط فيه أن يستوفى جميع المزايا الانسانية والملكات الحية ، وليس من اللازم ولا من المستطاع أن يكون قوياً وذكياً وجميلا وعالما وشاعراً وصانعاً وغنياً وسائساً زعيما ومفكراً مقتدى به وإماما متبعاً فى مطالب الحياة كافة .

ولكن إذا اجتمع عشرون مليون فرد فى قطر واحد فمن الضرورى — وليس من الكمالى — أن تتوافر بينهم جميع المزايا الانسانية والملكات الحية التى تتفرق فى الأفراد ، وإلا كان النقص دليلا على مسخ ذريع فى التركيب وعجز شائع فى عناصر الطباع . ويستوى هنا أن يكون الناقص لعباً أو جداً ، وفناً أو علما ، وخلقا أو رأياً ، فانما المهم أن الملايين العشرين يتسعون لكل مزية عرفت فى بنى الإنسان ، وإلا كانوا ناقصين فى الضروريات للأمة وإن كانت معدودة بالقياس إلى الفرد من الكماليات والنوافل

* * *

ومن الواجب ، ثانيا ، أن نقلع عن تقويم المطالب القومية بمقدار الحاجة إليها والاستغناء عنها ، فان ذلك تقويم غير صالح وغير صحيح .

فنحن نستطيع أن نعيش بغير ملكة النظر وبغير ملكة السمع أو الكلام سبعين سنة دون أن نهلك من جراء ذلك .

ولكننا لا نستطيع أن نعيش بغير الرغيف وما إليه سبعين سنة ولا سبعين شهراً ولا سبعين يوما إلا هلكنا هلاكا لاريب فيه ؛ ولم يقل أحد من أجل ذلك إن الرغيف أغلى من البصر ، وإن ملكات الحس لا تستحق المبالاة كما يستحقها الطعام والشراب .

وندع تقويم الفكر إلى تقويم السوق ، فانا واجدون أن الرغيف أرخص من الكتاب ، وأن التمثال أغلى من الكساء ، وأن الحلية أقوم من الآنية الضرورية ، وأن قيمة الشىء لا تتعلق بمقدار الحاجة اليه والاستغناء عنه ، بل بمقدار ما نكون عليه إذا حصلناه . فنحن اذا حصلنا الرغيف فأقصى ما نبلغه فى تحصيله أن نتساوى وسائر الأحياء فى إشباع الجسد وصيانة الوظائف الحيوانية . ونحن اذا حصلنا الفنون الجميلة فانحن بأحياء وحسب ، ولا بأناسى وحسب ، ولا بأفراد وحسب ؛ بل نحن أناسى ممتازون نعيش فى أمة ممتازة ، نحس ما حولها ونحسن التعبير عن احساسها .

ان الضروريات توكلنا بالأدنى فالأدنى من مراتب الحياة ، أما الذى يرفعنا إلى الأوج من طبقات الانسان فهو ما نسميه النوافل والكماليات ، أو هو ما نستغنى عنه ونعيش !

ولكن كيف نعيش ؟

هذا هو موضع السؤال الصحيح . فان كنا لا نبغى إلا أن نعيش كما تعيش الأحياء كافة فحسبنا الضروريات المزعومة إلى حين : حسبنا الخبز حتى يجيئنا من ينزع منا الخبز أيضا ونحن لا نقدر على دفاعه ، ولا نطيق غير الخضوع له والصبر على بلائه .

وإن كنا نبغى أن نعيش ، أكمل ، العيش فلا غنى إذن عن الكماليات لبلوغ الكمال ، ولا معدى إذن عن اعتبار الكماليات من ألزم الضروريات .

* * *

ومن الواجب ، ثالثا ، أن نذكر ماهو ، العلم ، الذى

يفوقنا به الغربيون قبل أن نعقد المقارنة بين العلوم والفنون .

فالغربيون لا يفوقوننا بالعلم « المصنوع » علم الطيارات والسيارات والسفن والدبابات والمناسج والمنسوجات .

كلا ! لا يفوقنا الغربيون بهذا ، فان الشرقي ليحذق صناعة الطيارة اذا رآها كما يحذقها الغربي الماهر في عمله ، ولعله يبذه ويسبقه في الوقت والبراعة .

إنما يفوقنا الغربيون بالعلم الملحوظ لا بالعلم المصنوع : يفوقوننا بعلم الملاحظة والابتكار والاختراع ؛ يفوقوننا بالعلم الذي يحتاج إلى عين لا تفوتها الرؤية ، وبديهة لا يفوتها الادراك ، وخيال لا يفوته تركيب الصغائر وضم الأجزاء إلى الأجزاء حتى يتألف منها المصنوع الجديد

وما هذا الذي يفوقوننا به غير ملكة الحس والتخيل التي يترجمها المصور تمثالا والموسيقي لحناً والشاعر قصيداً والمخترع صناعة حديثة ؟ ما هو غير أن نحس ما حولنا ونقرن بين إحساس وإحساس حتى نستخرج منها جميعاً صورة كاملة في عالم العلم أو في عالم الفن أو في عالم التجارة ؟

فليست المقارنة بين العلم والفن مقارنة بين طيارة تنفع في التجارة والحرب وتمثال لا ينفع لغير الزينة ، بل هي مقارنة بين ملكة مستنبط لا تتم بغيره الحياة ، وملكة مستنبط لا تتم بغيره الحياة !

وإذا فقدنا الفنون الجميلة فليس كل ما نفقده إذن هو تمثال الرخام الذي لا يصلح لغير الزينة ، بل نحن فاقدون جزءاً من حياتنا وجزءاً من العلاقة بيننا وبين الدنيا ، وعائشون عيشة الممسوخ الأبتر المحجوب عن جوانب دنياه

إن الرجل البصير يرى الحجر كما يرى الجوهرة ، ولكنه إذا عجز عن رؤية الحجر وهو أمامه فليس الحجر وحده بالمفقود في نظره ، بل المفقود كل شيء يتراءى لعينيه

***

لقد حيينا في خدمة غيرنا عصوراً طوالا حتى أوشكنا إذا قيل لنا : « اشعروا بالحياة » أن نطلب أجراً على حياتنا

فالرجل الذي يسأل : ما فائدة الفنون الجميلة ؟ هو كالرجل الذي يسأل : ما فائدة العين ؟ وما فائدة الأذن ؟ وما فائدة الشعور ؟ وما فائدة الحياة ؟

وإن الانسان لينظر إلى الروضة ولا يبسط يديه بعدها إلى أحد يعطيه أجراً على ما رآه ، فلماذا يحس الجمال وهو يسأل عن فائدة الاحساس ؟ ولماذا يعبر عن الجمال وهو يسأل عن فائدة التعبير ؟ ولماذا يقتني التمثال وهو يسأل لماذا أقتنيه ؟ ولماذا يسمع الغناء وهو يسأل لماذا أصغي اليه ؟

إنه ينبغي أن يصنع ذلك لأنه يحس ، وإنه يحس لأنه يحيا فمن مَن يا ترى يريد أجراً على الحياة ! إن كان عبداً فمن سيده فليطلب أجره لو كان سيد يعنى بتهذيب عبيده ؛ وإن كان هو سيداً فهو مالك حياته وكفى أنه يحيا تعليلا لكل عمل وترغيباً في كل مطلب وتقويماً لكل عزيز نفيس

***

ولقد يخطىء بعض الفلاسفة المصلحين في تقويم الفنون فيستكثرون ما أنفقت عليها الدول والملوك والسروات من مال وفير وجهد عنيف . كذلك أخطأ تولستوي في كتابه عن الفن الجميل وهو نفسه قد أنفق عمراً مديداً في خدمة الفن الجميل

على أن خطأهم قريب المأخذ سهل المراجعة من ناحية الحساب ، إذ ليس القياس في هذا الصدد أن تنظر إلى مدينة مثل « هليوود » كم تنفق من الملايين على الروايات والممثلين ! وإنما القياس أن تنظر إلى مدن العالم كم عدادها بالقياس إلى « هليوود » وحدها أو كل مدينة جرت على مجراها

وليس القياس أن تنظر إلى الموسر كم يبذل من الألوف في تمثال واحد ، وإنما القياس أن تنظر اليه وإلى كل فرد كم ينفق على خبزه وكسائه وسكنه وراحته ، وكم ينفق على الفنون الجميلة التي يهواها من تماثيل وأغان وأشعار ؟ ومتى نظرنا هذه النظرة علمنا أن الكماليات لا تجور على الضروريات ، وأن قياس النفقات على ما يسمى بالكماليات والنفقات على ما يسمى بالضروريات أقل من قياس الآحاد إلى المئات

إلا أننا نعود فنقول إن الفنون الجميلة ضروريات في الأمم وإن عدت نوافل في آحاد الناس ، وإنها ضروريات لمن ينشد « العيش الأكمل » ولا يقنع بكل عيش ، وإنها ضروريات لمن يسأل : كيف نسود ؟ وإن كانت هباء عند من يسأل : كيف نعيش ؛ وأحرى به أن يسأل : كيف نموت ؟ فعيش هذا وموته سواء

عباس محمود العقاد

فائدة هندسـية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كيف تقيس المسافة بين نقطتين ؟ أما أنا وأنت - أو أنت وأنا، كما يقضى الأدب الحديث أن أقول - فان الواحد منا يقف ثم يروح يخطو بين النقطتين كالجندى الحديث العهد بالتدريب العسكرى، ويقول وهو يفعل ذلك: «واحد.. اثنين.. ثلاثة.. إلخ» ثم يضرب عدد الخطوات فى طول كل خطوة فيكون الناتج هو المسافة التى يراد قياسها. أو يفعل شيئا آخر: يجىء بحبل ويمده بين النقطتين ثم يعقد عقدة فى كل ناحية، ثم يجىء بمقياس كالمتر ويقيس به مابين العقدتين، فاذا لم يكن ثم متر، فان المسافة بين أنامل يمناك - حين تمد ذراعك - والكتف اليسرى طولها متر.

ولكن لى صاحبا يعرف طريقة أخرى فى قياس المسافات المستقيمة أبرع مما نعرف، وقد حدثنى بها ووصفها لى. ونحن نتغدى منذ أيام قال:

«لا علم كالهندسة... أعنى أنها علم مضبوط لا موضع للخطأ فيه»

وأنا - كما يعرف القارىء - لا علم لى بالهندسة ولا بسواها مما هو منها بسبيل، ولست أدرى إلى هذه الساعة كيف أمكن أن أجتاز الامتحانات المدرسية التى كانت تعقد لنا فى المدارس، أو فى السرادقات، وقد كان مما نمتحن فيه الهندسة - بأنواعها، فانها كثيرة - والجبر والحساب وحساب المثلثات إلى آخر هذا الذى نسيت حتى أسماءه. وأحسب أن الذين كانوا يراجعون أوراق الاجابات كانوا يقولون إن هذا المازنى سيكون أديباً كبيراً، والأدب لا يتطلب العلم بالرياضة، ومن الخير للأدب أن ندعه يخرج بشهادته وأن لا نعطله بالرسوب. فإلا يكن هذا هكذا، فليقل لى من يدرى كيف أمكن أن أجتاز هذه الامتحانات فى علوم الرياضة والكيمياء أيضا والطبيعة كذلك؟ فانى أذكر - الآن - أنى كنت أملأ أوراق الاجابة عن أسئلة الرياضة وما إليها من المعارف المستحيلة بالرسوم والتصاوير: رسوم فتيات وطيور وبقر وجمال، وكنت أفرد الصفحة الأخيرة من ورقة الاجابة لأساتذتى فى علوم الرياضة، فأرسم بضعة خطوط هنا، وأكتب تحتها «المستر فلان، معلم الحساب»، وخطوطا أخرى تحتها وأكتب إلى جانبها «المستر علان، مدرس الجبر» وهكذا ومن يدرى؟ لعل رسمى لأساتذتى كان يرضيهم ويعجبهم، فيدعون جواب المسائل ويمنحوننى الدرجات على الرسم الجيد من الذاكرة!

وقلت لصاحبى: «ياسلام!. صحيح؟»

فقال «بالطبع... اسمع... كيف تقيس المسافة بين شاطئ النيل؟»

قلت: «أوه.. المسألة لا تحتاج إلى هندسة أو غيرها.. أمشى على كوبرى قصر النيل وأعد خطاى ثم أضرب العدد فى طول الخطوة.. مسألة بسيطة جدا»

فقال: «لا لا لا لا. افرض أنك تريد أن تقيس المسافة بين الشاطئين حيث لا كوبرى ولا شبهه»

قلت: «آه.. هذه مسألة أخرى.. أقول لك.. أركب زورقا ومعى حبل أثبته على شاطىء وأدليه فى الماء ونحن نمرق حتى نبلغ الشاطىء الآخر. ثم نقيس الحبل»

قال: «يا أخى ألا تعرف أن الزورق لا يستطيع أن يمضى من شاطىء إلى شاطىء فى خط مستقيم؟»

قلت: «صحيح.. والله فاتنى!. طيب! وما العمل؟ أما أنا فلا أرى طريقة أخرى فيحسن بالنيل أن يقنع بأن يبقى بغير قياس لعرضه.. يكفى طوله»

قال: «لا تمزح...»

قلت مقاطعا: «والله إنى أتكلم جاداً.. ثم إنى لا أدرى لماذا أتعب نفسى وأكلفها أن تقيس النيل؟»

قال: «اسمع.. أنا أعرفك الطريقة.. ألم تتعلم فى المدرسة أن ضلعى المثلث المتساوى الضلعين أكبر من الضلع الثالث أى القاعدة؟»

قلت: «جايز»

قال : « جائز ؟ ماذا تعنى ؟ هذه حقائق »

قلت : « جائز : الحقيقة أنى تعلمت أشياء كثيرة فى المدارس ولكنى لا أذكر الآن شيئاً منها فأنا مضطر أن أصدقك ... ولكنى أخشى أن يكون غرضك أن تضحك منى . ولهذا أوثر الحذر وأقول لك جائز .. على كل حال تفضل »

قال : « حسن .. اسمع .. هذه حقيقة لاشك فيها .. ضلعا المثلث المتساوى الضلعين أكبر من القاعدة .. فكيف ينفعنا هذا فى قياس عرض النيل ؟ .. أنا أقول لك .. تأخذ ثلاثة أوتاد ، وثلاثة حبال ، وتذهب إلى أحد الشاطئين وتثبت فيه — على الأرض — وتدين .. تدقهما دقاً قوياً ليثبتا ولا يتزعزعا .. وتذهب إلى الشاطىء الآخر ، وتدق هناك الوتد الثالث .. هذا الوتد الثالث هو رأس المثلث .. وما بين الوتدين الآخرين على الشاطىء الآخر هو القاعدة .. فاهم ؟ ثم تصل الأوتاد بالحبال .. مسألة سهلة جداً .. ثم تقيس وتحسب فتجىء النتيجة مطابقة للحقيقة »

قلت : « غريب ! .. ولكن اسمع .. ما العمل في المراكب والزوارق التى تمخر ؟ هل تؤخرها حتى تفرغ من الحساب أليست هذه مشكلة عسيرة الحل ؟ . أم لها ياترى حل هندسى أيضاً ؟ »

قال : « يا أخى لاتمزح .. لقد فعلت ذلك مرات كثيرة »

قلت : « صادق .. صادق .. والله إن هذا لذكاء ! . لو كان الذى اهتدى إلى الحقائق الهندسية يعرف أنك ستستغلها على هذا النحو العلمى المفيد .. ؟ »

قال : « لقد ورثت هذه الدقة عن أبى .. ولكنى لم أبلغ مبلغه مع الأسف .. مع التدرب آمل أن أكون مثله .. إن حسابى الآن — طبقاً لهذه الحقيقة الهندسية لا يجىء مخالفا للواقع إلا بمقدار خمسين أو على الأكثر سبعين متراً فقط .. شىء تافه كما ترى ! »

قلت : « ولكن هل من الضرورى أن يكون المثلث متساوى الضلعين أو لا أدرى ماذا تسميه ؟ »

قال : « لا .. أبداً .. ليس هذا ضرورياً .. »

ثم شردت نظرته وعلا وجهه السهوم ، فتركته لخواطره ولم يلبث أن رد عينه إلى وقال :

أبى لا يكاد يخطىء .. صياد ماهر جداً .. وأغرب مافى الأمر أنه يستطيع أن يقول لك إنه أخطأ الهدف بمقدار متر أونصف متر أو سنتى .. خرجنا مرة إلى الصيد فأدهشنى بدقته وإحكامه .. أطلق البندقية على بطة ثم نظر إلىّ وقال: يافريد ! الطلق مرّ من تحتها على مسافة ثلاثة سنتيات .. ثم رمى أخرى وقال يافريد : الطلق مر من فوقها على مسافة ملليمترين ؛ ورمى ثالثة وقال آه يافريد ! هذه طلقة لا مثيل لها .. شعرة فقط بينها وبين البطة ! . وهكذا يا أخى .. فهل سمعت بمثل هذه البراعة العجيبة ؟ .. مقدار شعرة فقط ، لا أكثر ولا أقل ؟ تصور الشعرة ماذا يبلغ من سمكها ؟ . ومع ذلك عرف ! استطاع أن يقدر المسافة بين الطلق والبطة على هذا البعد العظيم ما قولك ؟ .. أليس آية ؟ »

قلت : « والله شىء مدهش حقيقة .. ومن أين جاءته هذه البراعة ؟ »

قال : « العلم نور يا أخى .. ومافائدة العلم إذا كان الانسان لا يطبقه ولا ينتفع به فى حياته ؟ »

قلت : « صدقت .. ولكن هل أبوك يعرف المسافات بين الطلقات وبين الطيور التى لا يصيدها بالهندسة ـ أعنى بواسطة المثلث المتساوى الضلعين أو غير المتساوى الضلعين ؟ »

قال : « وهل هذا كل مافى الهندسة ؟ يظهر أنك نسيت دروسك »

قلت : « كل النسيان .. نسيتها قبل أن أحفظها »

قال : « صحيح .. هذا يحدث كثيرا »

قلت : « إنه يحدث دائماً »

قال : « لا . أنا لم أنس دروسى قبل حفظها .. ولا بعد الحفظ »

قلت : « أنت أعجوبة .. وهل فى الناس اثنان مثلك ؟ »

فصار وجهه كالجمرة من شدة الحياء والخجل من سماع المدح ، وكأنما أراد أن يصرفنى عن نفسه

فقال : « ولكن أبى ليست له مثل هذه الدقة حين تكون الحيوانات أليفة والطيور داجنة »

قلت : « وكيف كان ذلك ؟ »

قال : « إن نظره بعيد جداً يبصر كل شيء - أي شيء - على مسافة ميل ، ولكن إذا كان الشيء قريباً منه ، صعبت عليه الرؤية الدقيقة . . وأذكر أنه قام بيني وبينه خلاف على المسافة بين رجلي الدجاجة »

فصحت به : « إيه ؟ »

فقال : « لا تصح هكذا . . إننا في مطعم . . فهل تريد أن يلتف حولنا الناس ؟ »

قلت : « معذرة . . لقد نسيت أن ههنا ناساً . . الحق أن كلامك استبد بعقلي . تفضل »

قال : « أشكرك . . نعم اختلفنا على المسافة بين رجلي للدجاجة . . هو يقول إنها خمسة سنتيات وأنا أقول إنها أقل بكثير . . وأخيراً اتفقنا على قياسها بالضبط والدقة ، فقال أبي هات الدجاجة ، فجئته بها . . تناولتها من رجليها فقال كيف تريد أن تقيس وقد ضممت رجليها . فتناولتها من عنقها ، فصارت تلعب وتحاول أن تفلت وتضرب برجليها فاستحال قياس ما بينهما ، ثم سكنت ولكن رجليها بقيتا مضمومتين فاتفقنا على تركها على الأرض ، وحاولنا أن نغريها بالسكون بقليل من الحب رميناه لها لتلقطه ، ولكنها يا أخي لا تسكن أبداً . . حركة دائمة »

قلت : « لماذا لم تنتظرا حتى تنام وحينئذ يتيسر القياس كما تشاءان ؟ »

قال : « والله فكرة »

قلت : « هل تعني أن تقول إنك لم تعرف إلى الآن أيكما المصيب وأيكما المخطيء ؟ »

قال : « بالطبع أبي هو المخطيء . . ألم أقل لك إن نظره بعيد ؟ »

قلت : « آه صحيح . . »

قال : « طبعاً »

قلت : « طبعاً »

وكانت هذه نهاية الحديث في يومنا ذاك ، فعدت إلى البيت وقيدته لئلا أنساه

ابراهيم عبد القادر المازني

في الأدب المقارن

بيئـات الأدباء

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

أثر البيئة في الانسان ومجتمعه وعلومه وفنونه من النواميس التي اهتم العلم الحديث بكشفها وتتبع مظاهرها والرجوع إليها في شتى الدراسات . وأثر البيئة في أدب كل أمة على إطلاقه واضح مشاهد ؛ بيد أن لكل أديب بيئة خاصة داخل البيئة العامة التي تحيط به وبغيره من أدباء أمته ، ولهذه البيئة الخاصة أثر بعيد في تكييف عبقريته وتوجيه ميوله وصبغ نظرته إلى الحياة وتكوين فهمه للأدب ، ولهذه البيئة في أكثر الأحايين فضل توجيه عبقريته إلى الأدب دون غيره من الفنون والحرف الانسانية

فالوراثة لها أثر في فن الأديب ، لاشتراكها في تكوين مزاجه وميوله ، وذلك الأثر الوراثي ملحوظ في أدب شلي وبيرون من شعراء الانجليز ، بل في حياتهما إذ عاش كل منهما ساخطاً قلق المقام مضطرباً بين البلدان مساجلا المجتمع حرباً لاتهدأ ، وقد كان كلاهما منحدراً من أسرة أرستقراطية عرفت صفات الجماح والتمرد في غير واحد من أسلافها . وللوراثة أثرها الواضح في أدب ابن الرومي الذي جاء لانتمائه إلى الروم مخالفاً أدب غيره من فحول العربية ، في النظرة إلى الحياة والطبيعة ؛ وفي استقصاء المعاني وتوليدها

ولتكوين جسم الأديب ، بين الصحة والمرض والكمال والنقص والوسامة والدمامة أثره كذلك في أدبه ، فالأديب السليم الجسم يكون صافي المزاج معتدل النظرة إلى الحياة ، والآخر المعتل الصحة المنهوك بالأوصاب ، كالمعري وابن الرومي في العربية ، وبوب وسويفت وجراي في الانجليزية ، يكون ضيق العطن أوقاتم النظرة إلى الحياة أو كثير النقمة على معاصريه شديد الشغب معهم . وقد قيل قديماً إن للأدب ضريبة على محترفه يتقاضاه إياها من ذات جسمه أو ذات نفسه ، فلا تكاد ترى أديبا إلا محروبا أو شقيا أو معسراً ، ولعل فقدان الأديب لبعض

ما يتمتع به سواه من بهجة الحياة من دواعى إرهاف حسه وصرفه إلى التأمل وعطفه إلى الأدب ، ولعل المعرى لولا عماه وانحباسه عن متعات الدنيا على ذلك الوجه ، لما حفل بالتفكير فى الأرض والسماء وأصل الخلق ومصير الانسان وهلم جرا

وللتربية والنشأة المنزلية أثرهما فى تكوين الأديب ، فكثيراً ماتتجه عبقرية الناشىء إلى الأدب لأن أباه أو كافله مشتغل بالأدب ، وقد كان ذلك شائعاً بين العرب ، إذ كان الآباء يقومون بتأديب أبنائهم ، فنشأ كثير من الأدباء كالصاحب وابن العميد وابن المعتز وابن زيدون فى بيوت فضل وأدب . وقال ياقوت فى ترجمة المعرى : « وكان فى آبائه وأعمامه ، ومن تقدمه من أهله وتأخر عنه من ولد أبيه ونسله ، فضل ، وقضاة وشعراء ، أنا ذاكر منهم من حضرنى لتعلم نسبه فى العلم » . ولحظ البيئة المنزلية من الرقى أو الحطة أثره كذلك فى أخلاق الناشىء ومنازعه ، ومن ثم يتسم أدب الشريف الرضى فى العربية وتنيسون فى الانجليزية بنزعة التسامى والتدين ، لانتمائهما إلى أرومة شريفة دينية ، بينما تبدو لوثة العامية والتبذل فى أشعار بشار وأبى نواس

ولنصيب الأديب من الغنى أو الفقر أثر بعيد فى حياته وعقليته وأدبه ، فلا بد للأديب من حظ من المال يستطيع معه أن يتفرغ إلى فنه أو يتفنن فى ابتكاره ، أما إذا كان لا يكسب رزقه إلا بجهد جهيد فهيهات أن يوفى الأدب حقه . والأديب المعسر المخفق كابن الرومى لاينفك شاكيا فى شعره متحرقا ؛ ولا يشكو هذه الشكوى أديب نشأ فى بيت نعمة كابن المعتز أو نجح فى إدراك الغنى كالبحترى ، فشعر هذين أكثر امتلاء بوصف اللذات وأوقات الصفاء . وقد وجد ابن الرومى على البحترى وهجاه حسداً وغيظا ، فرد عليه البحترى رداً هادئاً وأتحفه بهدية ، فعل المطمئن إلى نفسه الراضى فى بحبوحته ، ولم يطلب الطغرائى شططاً حين قال

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلى قبلى

ولنوع الثقافة التى يتلقاها الناشىء ، والأدب الذى يقرأ ، والأستاذ الذى يأخذ عنه ، والأديب الذى يقدمه ويشغف بآثاره ، والأدب الأجنبى الذى يدرسه ، لكل ذلك أثره فى توجيه أدبه وفلسفته فى الحياة . فآراء المتزندقة التى فشت فى صدر العصر العباسى ظاهرة الأثر فى شعر بشار وحماد وأبى نواس ، والآراء الفلسفية التى ذاعت بعد ذلك ظاهرة فى أشعار الطائى والمعرى والمتنبي ؛ ولم يتأثر أدباء العربية بأدب أجنبى تأثراً ذا بال ، أما أدباء الانجليزية فضلا عن اغترافهم جميعاً من مناهل الأدب اليونانى ، كان منهم من تأثر بالأدب الايطالى كسبنسر ، وبالألمانى كشلى وسكوت وكارليل ، وبالفرنسى كثير من كتاب القرن الثامن عشر وشعراء القرن السابع عشر ؛ وكما أثر مذهب أبى تمام الشعرى فى تلميذه البحترى وفى المتنبي وغيرهما ، كان للمتون أثر بعيد فى كثير من شعراء الانجليز منهم وردزورث وتنيسون

ولجيل الأديب ، بسياسته وأدبه وأخلاقه وأزيائه وفنونه ، أعظم أثر فى أدبه : فبعض الأدباء ينحاز إلى حزب سياسى ويخصص جانباً من كتاباته للدفاع عنه ، كما كان الكميت ودعبل وعمارة اليمنى شيعيين ينتصرون لآل البيت ؛ وكما كان بشار عقيلياً بالولاء ينتصر لمضر ويفخر بغضبتها التى تهتك حجاب الشمس ؛ وكما كان ابن الرومى علويا بالولاء أيضا . وكان أدباء الانجليزية أكثر اتصالا بشؤون المجتمع والسياسة وتأثراً بها ، فعرضوا لشاكل عصورهم فى أشعارهم وقصصهم ، وحين ملأ دكنز قصصه بوصف أحوال الطبقات العاملة ، إنما كان متأثراً بأحوال عصره الصناعى ، وإذا امتلأ شعر المتنبي بذكر القنا والصوارم والفتكة البكر وتضريب أعناق الملوك ، فانما كان ذلك صدى عصر التناحر والقلاقل الذى عاش فيه

وتؤثر حرفة الأديب كذلك فى أدبه ، موضوعه ولغته وتشبيهاته : فالأديب الجندى كعنترة وأبى فراس لايكاد يخوض فى غير حديث النجدة والعزة والبأس وإطاحة الرؤوس عن الأجسام ؛ والأدباء الوزراء الذين عرفوا فى الدول الاسلامية تتعلق خير كتاباتهم بالسياسة والولاية والعزل وهلم جرا ؛ والشاعر المداح كالبحترى لاينفك عن ذكر أحوال الملك ومظاهر أبهته ؛ وتوماس هاردى الذى كان مهندساً معمارياً مشغوفا بفن العمارة لايزال يبدىء ويعيد فى وصف العمائر والصروح فى شعره وقصصه ، ويستخدم فى ذلك من المصطلحات العلمية مالا يكاد يفقهه إلا خبير مثله بتلك الشؤون ؛ أما الأديب المنقطع إلى الأدب فلا يكاد يخوض فى غير شؤون الأدب وسير الأدباء . وقد أورد الجاحظ هذه الحقائق مورد الفكاهة فى رسالة صناعات القواد ، إذ جعل الطبيب والخياط والخباز والمؤدب وصاحب الحمام وغيرهم ، يتحدثون فى الأدب وينظمون الشعر فيستخدم كل منهم مصطلحات حرفته فى استعاراته وتشبيهاته

وللاقليم الذى يختاره الأديب مستقرا ومقاما ، والأقاليم التى يرحل إليها فى أدوار حياته ، أثر عظيم فى موضوعاته وأسلوبه : إذ هو يشتق أسباب القول مما يحيط به فى حله وترحاله ، ولا ريب

أن الأديب الكثير الرحلة يكون أوسع أفقا وأغزر مادة وأعمق فكرة من الأديب القاعد، إذ كان من يعيش يرى ومن يسير يرى أكثر كما يقول المثل العامى. وقد كان وردزورث يقطن مقاطعة البحيرات فى انجلترا وكان كثير التجوال بين الجبال والروابى، لجاء لفظه مجردا عاريا عرى الصخور وتجردها، وكثرت فيه ألفاظ الوحشة والوحدة وهلم جرا. ونشأ كبلنج فى الهند فامتلأ شعره وقصصه بوصف غياضها وأدغالها، وحفل بالتعصب الجنسى المتطرف؛ وتركت رحلات المتنبى بعض الآثار فى أشعاره، من وصف الطبيعة كوصف بحيرة طبرية وشعب بوان، إلى وصف الأحوال السياسية فى مثل قوله:

بكل أرض وطئتها أمم ... ترعى بعبد كأنها غنم

فإلى البيئة التى ينشأ فيها الأديب وتضطرب فى محيطها حياته، مرد ما يمتاز به أدبه من اتجاه خاص وطرق موضوعات دون غيرها، وتناول لها على نحو خاص، وما يتصف به من سمو أوضعة، وورع أو استهتار، وفكاهة أو انقباض، وتفاؤل أو تشاؤم، وعمق أو سطحية، يختلف حظه من كل ذلك عن حظوظ أبناء أمته بل أبناء جيله بل أصحابه وخلفائه؛ وبسبب عوامل البيئة تلك يختلف عنترة وعمر بن أبى ربيعة والشريف الرضى والمتنبى فى العربية فى الموضوع والنزعة واللفظ والاسلوب، كما يختلف وردزورث وبيرون وسكوت وشلى فى الانجليزية، حتى يستغث الثانى شعر الأول أى استغثاث، ويجمل الثانى رأيه فى الأخير فى قوله: ذلك الملحد شلى! وما ذاك إلا لاختلاف ما يحمل رأس كل منهم من آثار الوراثة والثقافة والعقيدة والتربية والنشأة، على تعاصرهم وتشاركهم فى وجوه أخرى، وعلى كونهم يعدون اليوم أبناء مدرسة واحدة.

على أن اختلاف بيئات الأدباء أشد ظهورا فى الانجليزية منه فى العربية، لأن أدباء الانجليزية أكثر اضطرابا فى المجتمع وإدخالا له فى أدبهم وأكثر ارتحالا فى البلدان وذهابا فى آفاق الفكر وإعرابا عن أفكارهم الصميمة وآثار تجاربهم، ولأن المجتمع الانجليزى تغير وتجدد على توالى العصور من عهد اليزابث إلى الوقت الحاضر مالم يتغيره المجتمع الاسلامى، والثقافة الانجليزية تطورت بتقدم العلوم مالم تتطوره الثقافة العربية، فالمحافظة كانت اغلب على المجتمع والفكر العربيين، وهى أيضا كانت سمة الأدب العربى وديدن أدباء العربية، ومن ثم تشابهوا كثيرا فى الموضوعات والأساليب على تباعد المواطن والعصور.

فأدباء العربية بعد قيام الدولة الاسلامية ودخول الادب طوره الفنى الراقى، كانوا يأخذون أنفسهم بضروب من القول يطلبون بها البراعة الفنية أو الشهرة أو الحظوة والنجاح، كالتمدح بجليل الصفات والتفاخر بتالد المجد ومدح الأمراء، وجروا فى ذلك على سنن مألوفة واغترفوا من مناهل مطروقة، حتى تشابه أولهم وأخيرهم وبعيدهم وقريبهم. فاذا قرأت مئات القصائد التى نظمها مروان بن أبى حفصة وبشار وأبو تمام والبحترى وغيرهم فى مدح الخلفاء، كى ترى أثر البيئة الخاصة للشاعر فى كل ذلك فلن تظفر بطائل، لأنهم إنما نظموها لأغراض مادية وعلى أنماط مأثورة، لادخل للنفس ولا لتراثها الفكرى فيها. وإذا قرأت قول أبى نواس:

ومستعبد إخوانه بثرائه ... لبست له كبراً أبر على الكبر
لقد زادنى تيها على الناس أننى ... أرانى أغناهم وإن كنت ذا فقر
فوالله لايبدى لسانى حاجة ... إلى أحد حتى أغيب فى القبر
فلا يطمعن فى ذاك منى سوقة ... ولا ملك الدنيا المحجب فى القصر

كدت تحسب قائل هذا الشعر شريفا حسيباً عفيفا، يزهد فى غرور الدنيا ويقنع بالقليل استمساكا بالأنفة والكبرياء، ولم تعز هذا الفخر المغرق إلى ذلك المداح السآل الذى أنفق العمر فى اجتداء عطايا الحكام ليبذرها فى انتهاب اللذات الجسدية، وماذاك إلا أن أبا نواس اقتفى فى نظم هذا الشعر الطنان أثر أشراف الجاهلية الذين كانوا يتمدحون بالأنفة، وأراد أن يظهر أنه لا يقصر عن شأوهم فى ذلك الباب من أبواب القول. والأدب العربى حافل بهذا الضرب من الإنشاء التقليدى الذى لا أثر فيه يذكر للشخصية المستقلة والبيئة الخاصة

هذا، ونشأة كثير من أدباء العربية مجهولة، وبيئتهم الأولى غامضة، وأكثرهم لا يظهرون فى ضوء تاريخ الأدب إلا حين يصلون إلى ذرا الأمير، وقد كان ذلك الوصول غاية أكثرهم؛ ومن ثم نرى فى تاريخ الأدب العربى بيئتين كبيرتين تتلو إحداهما الاخرى وتشملان أكثر أعلام الأدب العربى: الأولى بيئة القتال التى كانت بيئة الجاهلية، وكان الجلاد فيها هم الأشراف، والتمدح بالبلاء فى الوغى هم الشعراء، وكان الأشراف فى كثير من الأحوال هم الشعراء وهم الخطباء الفحول، يشفعون بلاءهم فى الهيجاء ببلاغتهم فى القصيد والارتجال؛ والبيئة الثانية بيئة البلاط التى اضطرب فى محيطها أكثر الشعراء والكتاب بعد الاسلام وقيام الدولة، وتأثروا بها ونظموا فيها ونثروا

فبيئات أدباء العربية المادية والذهنية كانت كثيرة التشابه من

وجوه ، والبيئات الأولى التي شب فيها كثير منهم مبهمة غامضة ، وقد كان نقاد العربية قليلى العناية بأمر البيئة وأثرها فى تكوين الأديب ، إنما كانوا يعرضون لبعض التواريخ الجافة المتعلقة بمولد الأديب ووفاته ورحلته إلى بعض العواصم واتصاله ببعض الحكام ، ويستحسنون بعض ما أنشأ أو يستهجنونه ، ويفضلونه أو يفضلون عليه ما قال أديب غيره فى نفس الباب ؛ ولهم فى ذلك بعض العذر ، إذ كانت للقول كما تقدم أوضاع وأنماط معروفة ، يأخذ الأديب بها نفسه ما استطاع ، ويحاكى الاقدمين فيها ماأمكنته براعته . أمابيئته الخاصة وتراثه الذهنى والنفسى ، فيذره جانبا وقلما يدخله فى أدبه

ولا يرد ذكر البيئة وأثرها فى كتب النقد العربى إلا عرضا ، كالذى ورد من أن ابن الرومى سئل لم لا يشبه كتشبيهات ابن المعتز ، فقال لسائله : أنشدنى شيئا من قوله الذى استعجزتنى عن مثله ، فانشده بعض أشعار ابن المعتز التى يشبه فيها النجوم والزهور بالفضة والعنبر ومداهن الغالية وهلم جرا ، فصاح ابن الرومى : واغوثاه ! لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ! ذاك إنما يصف ماعون بيته ، وأنا أى شىء أصف ؟ ووضع الجاحظ رسالته سالفة الذكر على لسان أرباب المهن ، فأجرى القول فيها مجرى الدعابة والمغالاة ، وكان أولى لو عرض للأمر من ناحيته الجدية . واستعرض بديع الزمان فى بعض مقاماته عدداً من فحول الشعراء المتقدمين ، فقال إن أحدهم أشعر الناس إذا غضب ، والآخر أشعرهم إذا رهب ، والثالث إذا شرب وهلم جرا ، فلم ير إلا أن هذه جبلتهم التى فطروا عليها ، ولم يتخيل لبيئة كل منهم فى ذلك أثراً

أما فى الأدب الانجليزى ، ولا سيما فى العصر الحديث ، فدرس أثر البيئة وعواملها من وراثة وتربية وثقافة وعقيدة ، أساس كل دراسة أدبية وكل نقد وترجمة ، والوسيلة الأولى لفهم الأديب وقدر آثاره حق قدرها ، وما ذاك إلا نتيجة ارتقاء العلوم والاجتماعيات فى العصور الحديثة ، واستفادة الادب الانجليزى بمجهودات أدباء الأمم الأخرى ، كادباء الايطالية الذين ارتقوا بعلم تاريخ الادب ، وأدباء الفرنسية الذين هذبوا أصول النقد ، وقد درس الأدب الانجليزى وترجم أدباؤه على ضوء هذه القواعد والأصول ، فبلغ من الوضوح والترتيب مالم يبلغه تاريخ الادب العربى بعد

فخرى ابو السعود

بمناسبة ذكرى المولد

للأستاذ على الطنطاوى

احتفل العالم الاسلامى كله أول أمس – بذكرى مولد سيد العالم وخاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الاحتفال يعد فرصة سانحة من فرص الدعوة إلى الاسلام ، والسعى فى سبيل الاصلاح ، تفيدنا فائدة كبيرة إذا نحن عرفنا طريق الاستفادة منها ولم نجعلها قاصرة على إقامة السرادقات الفخمة ، وإيقاد آلاف من المصابيح الكهربائية ، وإطلاق البارود فى الجو ، والاجتماع على ترتيل قصة المولد والتطريب فيها ، وتلاوة الأغانى والأناشيد ، وأكل الحلويات والأنقال ، والتسلى واللهو والطرب ، وإضاعة الأموال بلا حساب

وطريق الاستفادة منها ، أن يبحث الخاصة من رجال وأولياء الأمر ، فى مجالسهم واحتفالاتهم أدواء المسلمين اليوم ، ويصوروها ويفتشوا عن أدويتها ، وأن يضعوا خططاً جديدة للدعوة ، ومناهج للعمل المثمر ، وأن تشرح السيرة النبوية للعامة فى مجامعهم واحتفالاتهم ، وينبهوا إلى مواطن العبرة فيها . لأن ذلك هو المراد من الاحتفال بالمولد ، لاسرد الأخبار الموضوعة . والعجائب والخرافات ، واللهو والطرب ، وأن تبين لهم مزايا الاسلام وفوائده ، وأصوله ومبادئه ، لأن الكثيرين من المسلمين لا يعرفون من الاسلام إلا اسمه ، ولا يفرقون بين طبيعة الاسلام وطبائع الأديان الأخرى ، ولا يعلمون أن الأديان كلها أديان فقط ، بمعنى أنها جاءت بعقائد وعبادات وأخلاق ، أما الاسلام فهو دين ، وهو تشريع ، وهو سياسة ، وهو أدب . وانظر فى أى مسألة من مسائل الفكر الكبرى ، أو أى أمر من أمور الحياة ، تر للإسلام رأيا فيه وحكما ، فالتشريع الاسلامى أغزر أو من أغزر وأصفى المنابع التشريعية فى العالم . والاسلام قد أقر الحرية الفكرية ، ووضع أصول البحث العلمي ، بما أمر به

من دراسة الكون ، والنظر فى ملكوت السموات والأرض ، والاسلام قد وضع أسس السياسة العامة ، والشرع الدولى ، والاسلام وحده هو الذى يحل المشكلة الاجتماعية والاقتصادية الكبرى ، وينقذ الانسانية من استبداد المتمولين ، وجحود الفرديين ، ومن خيالات الاشتراكيين ، وبلاء الشيوعيين ، بما جاء به من قواعد حكيمة عادلة للزكاة والمساواة ونظام الحكم . وللاسلام بعد ذلك كله حكمه فى كل عمل من أعمال الانسان ، فلا يخلو عمل على الاطلاق من أن يكون له حكم فى الدين وللدين دخل فيه ، فيكون مباحاً أو مندوبا أو واجبا أو مكروها أو حراما ، ولا يستطيع المسلم أن ينسى الاسلام لحظة أو يمشى بدونه خطوة .

ثم إن هذه الأحكام كلها مساوقة للعقل — موافقة له — سائرة مع العلم . والاسلام يقدر العقل حق قدره ، ويجعله الموجب الأول ، ويربط المسئولية والتكليف به ، ويخاطبه دائما ويعتمد عليه ولا يخالفه أبداً . ولم يستطع أحد إلى اليوم ولن يستطيع فى الغد أن يجد قضية شرعية قطعية ، تناقض قضية عقلية قطعية ، فلا يثبت الشرع محالا فى العقل (١) ولا يحيل ثابتا ، ولا يخالف أصلا من الأصول الثابتة فى العلم . وأعنى بالأصول الثابتة الحقائق والقوانين العلمية ، لا الفروض والنظريات (٢) وأيسر نظرة يلقيها العاقل البصير على كتب الدين ، وأقل إلمامة بعلومه ، تثبت هذا الذى ذكرنا .

***

فإذا كان هذا هو الاسلام ، وهذه منزلته من العلم والمدنية فلماذا ينصرف عنه أكثر الشباب ؟ إنهم منصرفون عنه لأنهم لا يعرفونه . ومن أين يعرفون وهم لا يدرسون منه فى المدارس إلا شيئا تافهاً لا يحل حلالا ولا يحرم حراما ، ثم إنهم لا يجعلونه ولا يحلونه إلا دون الدروس كلها . وسبب ذلك أن الطلاب إنما يقرءون ويجدون ابتغاء النجاح فى الامتحان والدين لا يدخل فى امتحان رسمى أبداً . لا فى الشام ولا مصر ولا العراق . وهذه مناهج الكفاءة وما دونها ، والبكالوريا وما فوقها ، فيها كل علم إلا علوم الدين . وليس الغرض من حذفها والمانع من اثباتها وجود طلاب غير مسلمين فى هذه الامتحانات ، فإن ذلك يمكن تلافيه ، بأن يمتحن كل طالب فى دينه ، وتدعى كل أمة إلى كتابها ، ولكن ذلك شىء تعمده الأجانب يوم كانت سياسة البلاد وإدارتها ومناهجها فى أيديهم وكان أمضى سلاح حاربونا به فى ديننا وأبنائنا ، فكيف نبقى عليه وقد انتقلت سياسة البلاد ومناهجها إلى أيد وطنية يريد أصحابها الخير لبلادهم والصلاح ؟

ثم إن هؤلاء الطلاب إذا خرجوا من المدرسة ، وبقى فريق منهم على شىء من التدين وأحبوا أن يطالعوا علوم الاسلام ، لم يجدوا كتابا سهلا جامعاً بين دفتيه خلاصة ما يجب على الشاب المسلم أن يعرف من أصول الدين وفروعه ، وإنما يجدون كتبا فى علم الكلام مشحونة بالمجادلات الجوفاء . والرد على ملل قد بادت ونحل قد نسيت منذ مئات السنين ، وعرض شبهها وضلالاتها ؛ وكتبا فى الأصول معقدة غامضة ، لا يفهم الشاب شيئا منها ، وكتبا فى الفقه مملوءة بالمناقشات اللفظية ، والفروض البعيدة والاحتمالات الغريبة ، لا تكاد تخلو من اختصار مخل أو تطويل ممل ، وكتبا فى التفسير مطولة ومختصرة فيها كل شىء من نحو وصرف ولغة وبلاغة وتاريخ وفلسفة وإسرائيليات ولكن ليس فيها تفسير واحد يرضى الشاب وينفعه ويجد فيه المراد من الآية ويعينه على التدبر الذى أمر الله به ، وكتبا فى الحديث مرتبة على غير حاجة العصر مبوبة بحسب أبواب الفقه أو أسماء الرواة ، ينصدع رأس الشاب ويفنى صبره قبل أن يصل إلى حديث واحد يفتش عنه ويطلبه ، ورسائل فى علم المصطلح غامضة فيها تعقيد ، وقل مثل ذلك فى سائر العلوم ... وهذه الكتب مؤلفة على طريقة لا تخلو من غرابة وشذوذ ، فالكتاب الواحد متن وشرح للمتن ، ومختصر للشرح ، وشرح للمختصر ، وحاشية على شرح المتن ، وتقرير على حاشية الشرح ... ولست أفهم لماذا ارتقت أساليب الكتابة فى كافة العلوم وأخذت شكلا جديداً ، ولماذا يؤلف اليوم الكتاب فى الأدب على غير ما كان يؤلف عليه قبل خمسين سنة ولا تزال هذه الكتب على ما كانت عليه منذ مئات السنين لم تصل إليها موجة الحياة ؟ ولماذا نجد علماء كل فرع مؤلفين

(١) كاستحالة كون الثلاثة واحداً (٢) كنظرية لابلاس فى أصل الأرض ودارون فى أصل الانسان

مجددين ولا نكاد نجد فى علماء الدين إلا مقلدين مرددين ؟

فماذا يصنع الشاب الذى لم يدرس الاسلام فى مدرسة ولم يفهم كتبه ؟ أيسأل المشايخ ؟ إنه إن فعل لم يجد أكثرهم إلا مجلدات تمشى ، ليس فى ثيابهم وتحت عمائمهم إلا أوراق الكتاب ، فهم يسردون عليك ما حفظوا كأنهم يتناولونه من مستودعات أدمغتهم باليد ؛ ومن كان منهم ذا فكر جوال، وعقل باحث كان فى كثير من الأحيان ضعيفاً فى مادته العلمية ، فهو يخالف الأولين والآخرين ، ويتنكب سبيل الدين . وقليل منهم من جمع إلى العلم ، سرعة الفهم ، وفهم روح العصر ، وحسن مخاطبة الناس . ثم أكثر هؤلاء المشايخ بعيدون عن الأدب ليس لهم فى صناعة البيان يد ، قلّ أن ترى فيهم من يعد كاتبا مجيداً ، أو لسناً مفوهاً . على أننا بعد هذا كله نخشى أن ينقرض هؤلاء المشايخ ولا نجد لهم خلفاً ؛ وعلى أنى لا أحملهم الذنب وحدهم ، فالذنب على المسلمين كلهم وليس فى الاسلام (رجال دين) مسئولون عنه ، وقائمون به ، ووكلاء عليه ، ولكن رجال الدين عندنا هم كافة أهله وأتباعه ، لا فرق فى ذلك بين شيخ الاسلام ، وآخر مسلم فى أفريقيا الوسطى ، أو القطب الشمالى . ولو أن أكبر شيخ فى حلقته ، أو خطيب على منبره ، أخطأ فى حكم ، أو حرف آية ، لرد عليه من يحفظ الآية ، ويعرف الحكم ولو كان طفلا صغيراً ، أو امرأة ... وما هذه المرأة بأقل من تلك العجوز ، ولا هذا الخطيب بأجل من عمر ؟

***

ثم إن الشبان المسلمين كلهم يذكرون الإعجاز ويعتقدون به ، ولكن من منهم يعرف أوجه الإعجاز على حقيقتها . وإذا أراد أن يفهمها ففى أى كتاب يجدها ؟ بل من منهم يفهم القرآن فهما صحيحاً يتجاوز التفسير العادى ؟ بل كم من الناس يعرفون تفسيره العادى ، وكم منهم يسمعه ليعتبر ويتدبر ؟ ألا يسمع أكثر المسلمين القرآن ليطربوا بنغماته وأصوات تلاوته ؟

وكلنا يعتقد بأن الاسلام صالح لكل زمان ومكان ، ولكن أى دولة بل أى جمعية إسلامية حاولت أن تستخلص من كتب الفقه ونظريات الفقهاء قانونا مدنياً ينطبق على عصرنا الحاضر ؛ ويكون تتمة العمل الكبير الذى بدئ بوضع (مجلة الأحكام الشرعية) وفى الفقه متسع لهذا العمل ، وفى إنجازه إنقاذ البلاد الاسلامية من الحكم بغير ما أنزل الله ، والتعرض لما ورد فى ذلك من الوعيد الشديد ، فضلا عما فيه من المس بالكرامة الوطنية ، والسيادة القومية ؟

ومن حاول أن يؤلف فى بيان رأى الاسلام فى الاشتراكية وموقفه منها ، وحكمه فى الديمقراطية وأساليب الحكم المعروفة ؟

أليس اغتنام فرصة ذكرى المولد الشريف للبحث فى هذا وشبهه جزءاً من هذه الحفلات التى لا معنى لها ، والمظاهر التى لا طائل تحتها ؟

***

وإنى لأرجو من الله — لما أرى من انصراف مصر علمائها وأدبائها وشبابها المثقف إلى الاسلام وإقبالها عليه — أن يكون يوم ذكرى المولد من هذا العام ، فاتحة عهد جديد فى تاريخ الاسلام ، كما كان يوم المولد الشريف ، فاتحة عهد جديد فى تاريخ العالم .

(بغداد) **على الطنطاوى**

خاتمة المأساة الأندلسية :

الصراع الاخير

بين الموريسكيين واسبانيا

للاستاذ محمد عبد الله عنان

— ١ —

حدث أثناء المفاوضات التى جرت فى مونترو بين مصر والدول لالغاء الامتيازات الأجنبية أن تقدم الوفد الاسبانى بطلب يختص باليهود « السفرديم » المقيمين بمصر ، هو أن يعاملوا كالرعايا الاسبانيين وأن يمنحوا مزية التقاضى أمام المحاكم المختلطة أثناء فترة الانتقال ، وشرح أحد أعضاء الوفد بواعث هذا الطلب لممثلى الصحف ، فقال : إن هؤلاء اليهود « السفرديم » هم من ذرية اليهود الاسبانيين الذين طاردتهم مجالس التحقيق « محاكم التفتيش » فى القرن السادس عشر وشردتهم عن وطنهم فى مختلف البلاد ، وأن اسبانيا الجمهورية التى تحررت من نزعات التحامل والتعصب تريد أن تقدم ترضية لسلالة هذه الطائفة التى نكبت فى عصور الظلم والتعصب والطغيان .

وهذه الملاحظة تثير الشجن . ذلك أن اسبانيا النصرانية تعترف بعد أربعة قرون بزلتها التاريخية الكبرى ، وتلعن مع التاريخ ذكرى ديوان التحقيق . بيد أن هذا الاعتراف ليس إلا لمحة بسيطة من الحقيقة المروعة ؛ ذلك ان اسبانيا النصرانية ما كادت تظفر بتحقيق سياستها الوطنية القديمة فى سحق اسبانيا المسلمة والاستيلاء على تراثها كله والظفر بغرناطة آخر معاقلها ، حتى وضعت برنامجها الشائن لمحو تراث الأندلس ، وسحق الاسلام وكل ذكرياته وآثاره ، وإبادة هذه البقية الباقية من سلالة المسلمين والعرب الذين لبثوا سادة فى الجزيرة زهاء ثمانية قرون ؛ وكان اليهود الذين عاشوا وازدهروا فى ظل الدولة الاسلامية ، كالمسلمين ضحايا هذه السياسة البربرية ؛ وكانت محاكم التحقيق تنشط لمطاردة الضحايا ، وكانت محارقها تسطع فى مختلف القواعد الأندلسية القديمة حتى قبل سقوط غرناطة ؛ وكان سقوط غرناطة فى فاتحة سنة ١٤٩٢ م نذير المأساة المروعة التى لم تستطع اسبانيا النصرانية فى حمى الظفر وغلوائه أن تقدر عواقبها المخربة ؛ وكان المسلمون المغلوبون قد أخذوا على الظافرين قبل التسليم كل ما يستطيع أن يأخذه الضعيف على القوى من العهود النظرية ، لتأمين النفس والمال والعرض ، والدين والتراث القومى ؛ ولكن هذه العهود التى لا سند لها إلا إرادة الظافر ، لم تكن شيئاً مذكورا فى نظر اسبانيا النصرانية ؛ فلم تمض سوى أعوام قلائل ، حتى كشفت اسبانيا النصرانية عن سياستها ونياتها الحقيقية فسحقت العهود المقطوعة وأرغمت المسلمين على التنصر ، ولم تدخر وسيلة من الوسائل البربرية ، من سجن وحرق وتشريد وتعذيب إلا استعملتها لتحقيق هذه الغاية ، وسطعت محارق ديوان التحقيق فى غرناطة كما سطعت من قبل فى غيرها من قواعد الأندلس لتلتهم المخالفين والمارقين ، وغدا أبناء قريش ومضر نصارى يشهدون القداس فى الكنائس ويتحدثون القشتالية ، واختفت آثار الاسلام والعربية بسرعة ، واستحال الشعب الأندلسى إلى مجتمع جديد هو مجتمع الموريسكيين أو العرب المتنصرين

ولقد كان استشهاد الموريسكيين من أروع مآسى التاريخ ، وكان هذا الشعب المهيض الذى أدخل قسرا فى حظيرة النصرانية ، والذى أنكرته مع ذلك إسبانيا سيدته الجديدة وأنكرته الكنيسة التى عملت على تنصيره ، يحاول أن يروض نفسه على حياته الجديدة ، وأن يتقبل مصيره المنكود بإباء وجلد ؛ ولكن إسبانيا النصرانية كانت ترى فى هذه البقية الباقية من الشعب الأندلسى المجيد عدوها القديم الخالد ، وتتصور أن هذا المجتمع المهيض الأعزل ، الذى أحكمت أغلالها فى عنقه مصدر خطر دائم على سلامها وطمأنينتها ، وتشتد فى مطاردته وإرهاقه بمختلف الفروض والقوانين والمغارم ، وتمعن فى انتهاك عواطفه وحرماته وفى تعذيبه وتشريده ، وتنكر عليه أبسط الحقوق الانسانية ؛ وكانت محاكم التحقيق تحمل هذه الرسالة الدموية المخربة ، وتعمل على تنفيذها بوحشية لم يسمع بها ؛ واستطالت هذه الوندالية منذ

سقوط غرناطة أكثر من قرن . بيد أن الموريسكيين يحملهم اليأس العميق ، وغريزة الدفاع عن النفس ولمحة باقية من عزم النضال القديم ، لم يخلدوا إلى هذا الاستشهاد المؤسى ، دون تذمر ، ودون انتقاض ، فقد ثاروا غير مرة على الطغاة والجلادين ، وحاولوا امقاومة هذه السياسة الوندالية والخروج على فروضها ؛ ولكن يد الطغيان القوية مزقتهم وسحقتهم بلا رأفة ، وتركتهم أشلاء دامية

وكانت أعظم ثورة قام بها الموريسكيون فى وجه اسبانيا النصرانية سنه ١٥٦٩ م . أعنى بعد سقوط غرناطة بثمانية وسبعين عاماً ؛ وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ وغاضت منهم كل مظاهر الاسلام ؛ ولكن قبساً دفيناً من دين الآباء والأجداد كان لا يزال يجثم فى قرارة هذه النفوس الأبية الكليمة ؛ ولم تنجح اسبانيا النصرانية بسياستها البربرية فى اكتساب شىء من ولائها المغصوب ، وكان الموريسكيون يحتشدون فى جماعات كبيرة وصغيرة فى بسائط غرناطة وفى منطقة البشرات الجبلية تتوسطها الحاميات والكنائس ، لتسهر الأولى على حركاتهم ، وتسهر الثانية على إيمانهم وضمائرهم ، وكانوا يشتغلون بالأخص بالزراعة والتجارة ، ولهم صلات تجارية وثيقة بثغور المغرب

وكانت بقية من التقاليد والمظاهر القومية لازالت تربط هذا الشعب الذى زادته المحنة والخطوب اتحادا وتعلقاً بتراثه القومى والروحى ؛ وكانت الكنيسة تحيط هذا الشعب العاق الذى لم تنجح تعاليمها فى النفاذ إلى أعماق نفسه بكثير من البغضاء والحقد ؛ فلما تولى فيليب الثانى الملك ألفت فرصتها فى اذكاء عوامل الاضطهاد والتعصب . وكان هذا الملك المتعصب حبرا فى أعماق نفسه ، يخضع لوحى الأحبار والكنيسة ، ففى سنة ١٥٦٣ ظهرت بوادر السياسة الجديدة إذ صدر قانون جديد يحرم حمل السلاح على الموريسكيين إلا بترخيص من الحاكم العام ؛ فأثار صدوره سخط الموريكسيين ؛ بيد أنه كان مقدمة لقانون بربرى جديد أعلن فى غرناطة فى يناير سنة ١٥٦٧ وهو الشهر الذى سقطت فيه غرناطة ، واتخذته اسبانيا عيداً قومياً تحتفل به كل عام وكان القانون الجديد يرمى إلى القضاء على آخر المظاهر والتقاليد التى تربط الموريسكيين بماضيهم وتراثهم القومى ، فحرم عليهم أن يتكلموا العربية أو يتعاملوا بها ، وأن لا يستعملوا سوى القشتالية فى التخاطب والتعامل وذلك فى ظرف ثلاثة أشهر من صدور القانون ، وألا يتخذوا أسماء عربية ، أو يرتدوا الثياب العربية ، وحظر التحجب على النساء وألزمن بارتداء الثياب الأوربية المكشوفة وذلك فى ظرف عام ، وأن تبق بيوتهم مفتوحة أثناء حفلات الزواج وغيرها ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا ما يقع بداخلها من المظاهر والمراسيم المحرمة ، وألا ينشدوا الأغانى العربية أو يزاولوا الرقص العربى ، وفرضت للمخالفين عقوبات فادحة تختلف من السجن إلى النفى والاعدام

أعلن هذا القانون فى غرناطة فى ميدان باب البنود أعظم ميادينها القديمة فى يناير سنة ١٥٦٧ ؛ ونستطيع أن نتصور وقعه لدى الموريسكيين فقد فاضت قلوبهم سخطاً وأسى ويأساً ، وحاولوا أن يسعوا بالضراعة والحسنى لالغائه أو على الأقل لتخفيف وطأته ، فاجتمع أعيانهم وقرروا التظلم للعرش ، وحمل رسالتهم إلى فيليب الثانى وإلى وزيره الطاغية اسبنوسا ، سيد إسبانى نبيل من أعيان غرناطة يدعى الدون خوان هنريكس ، وقد كان يعطف على هذا الشعب المنكود ويرى خطر السياسة التى اتبعت لابادته ؛ ولكن وساطة ذهبت عبثا وحملت سياسه العنف والتعصب كل شىء فى طريقها ، ونفذت الأحكام الجديدة فى المواعيد التى حددت لها ، وأحيط تنفيذها بمنتهى الصرامة والشدة .

عندئذ بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته ، فتهامسوا على المقاومة والثورة والذود عن أنفسهم أزاء هذا العسف المضنى أو الموت قبل أن تنطفىء فى قلوبهم وضمائرهم آخر جذوة من الكرامة والعزة وقبل أن تقطع آخر صلاتهم بالماضى المجيد والتراث العزيز .

— ٢ —

وهنا يبدأ الصراع الأخير بين الموريسكيين واسبانيا النصرانية ؛ ومن الأسف أننا لم نتلق عن هذا المرحلة المؤسية من تاريخ اسبانيا المسلمة شيئا من الروايات العربية ، وكل

ما انتهى إلينا منها عن المأساة أثر صغير يسمى «أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر» كتبه فيما يظهر مسلم أو موريسكى من أشراف غرناطة وذلك سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤٢ م) أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة . وفيه يصف حوادث سقوطها وما تلا ذلك من ارغام المسلمين على التنصر ، ومن مطاردتهم وإرهاقهم وتعذيبهم ، ويجمل لنا مأساة التنصر فى هذه الكلمات المؤثرة .

«ثم بعد ذلك دعاهم (أى ملك قشتالة) الى التنصر وأكرههم عليه وذلك فى سنة اربع وتسعمائة ، فدخلوا فى دينهم كرها ، وصارت الاندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، إلا من يقولها فى قلبه وفى خفية من الناس ، وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الآذان ، وفى مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن . فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين لم يقدروا على الهجرة واللحوق باخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل ناراً ، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا ، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التى هى أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب وعذب بأشد العذاب ، فيا لها من فجيعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها »(١)

بيد أن هذه الرواية العربية الوحيدة تقف فى تتبع حوادث المأساة عند هذا الحد ؛ وإذن فليس لدينا لتتبع حوادث هذا الصراع الأخير بين الموريسكيين وبين اسبانيا النصرانية سوى المصادر القشتالية ؛ وإذا كانت هذه المصادر النصرانية ، تتأثر فى كثير من المواطن بالعوامل الدينية والقومية ، فانها مع ذلك تعرض هذه الحوادث المؤسية فى أسلوب مؤثر ، ولا تضن فى بعض المواطن والمواقف بعطفها وأحياناً باعجابها على ذلك الشعب الباسل الذى لبث يناضل حتى الرمق الأخير عن كرامته وعن تراثه الروحى والقومى .

(للبحث بقية)
(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

(١) أخبار العصر (طبعة المستشرق مبلر) ص ٥٤ ، ٥٥

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٥ —

الديانة المصرية — قداسة الحيوان عند الخاصة

بقى علينا قبل أن نغادر فصل الألوهية عند قدماء المصريين أن نبين حقيقة علمية ظلت مستورة وقتا طويلا يكتنفها الغموض ويحوطها الإبهام من كل جانب ، وظل العلماء والباحثون يتخبطون فى حل مشكلتها مدى بعيدا . تلك المشكلة هى عبادة المصريين للحيوانات التى طالما كانت موضع الحيرة من المستمصرين الذين يدينون بمدنية مصر الفائقة ورقى عقليتها الممتاز الذى لا يتفق مع عبادة الحيوانات تحت لواء منطق مستقيم

وها نحن أولاء نبين رأى الخاصة المتفلسفين فى عبادة الحيوان بعد أن أبنا فى الكلمات السابقة منشأ عقائد العامة الذين كانوا يعبدون تلك الحيوانات دون أن ينشغلوا بأسباب هذه العبادة . وقد ذكرنا لك فروض العلماء التى تمحلوها فى هذا الشأن ؛ أما الخواص من المصريين فمبررات عبادتهم للحيوان تتلخص فيما يلى :

كان المصريون يعتقدون أن الروح تعود بعد الموت فتقطن فى المومياء المحنطة وفى التمثال الحجرى على ما سنبين ذلك فى بابه ، ثم تدرجوا إلى أن للإنسان عدة شخصيات بعضها مادى وبعضها روحى ، وأن كل شخصية من هذه الشخصيات يمكن أن تستقل بنفسها فى مأوى خاص وإذا كان هذا شأن الانسان فأحر بالإله - وهو الأعظم روحانية - أن يكون له عدة شخصيات تحل كل واحدة منها فى مأوى ، ثم فكروا فهداهم تفكيرهم إلى أن مأوى شخصيات الإله لا يصح أن تكون ميتة كالمومياء ولا حجراً بارداً كالتمثال ، وإنما يجب أن تكون مستحوذة على الحياة الواقعية وأن تكون غير إنسان . فأخذوا يحلون الإله تارة فى ثور وأخرى فى تمساح ،

وثالثة فى قط، ورابعة فى طائر، ثم يتبعون هذا الحلول بتقديس ذلك القط أو ذاك الثور أو هذا الطائر، ويقدمون إلى هذه الحيوانات أنواع العبادة والاجلال، لا على أنها معبودات لهم، ولكن على أنها ظروف قد حلت فيها شخصيات الآله الأعظم التى لا تتناهى.

وكانت هذه العبادة فى أول الأمر مقصورة على فرد واحد من أفراد كل نوع من الحيوانات ينحصر فيه الاختيار من بين جميع أفراد نوعه لميزة لا توجد فى غيره، ثم تطورت هذه العقيدة فأخذت تشمل أفراد كل نوع عبد منه فرد واحد فى الماضى. وقد شاهد «هيرودوت» فى مصر هذه الحالة فنبأنا بأن حريقاً شب فى مصر فوجه السكان جميعهم عنايتهم إلى نجاة القطط قبل أن يفكروا فى إطفاء النار. وهو ينبئنا كذلك بأن موت بعض الحيوانات كالقطط والكلاب كان يعقبه فى مصر حداد شامل وألم عميق(١). وليست رواية هيرودوت بأغرب مما يحدثنا به الأدب عن الحيوانات، إذ ينبئنا أن المصريين كانوا يعتقدون أنها مشتملة على كثير من أسرار الكون الخفية، فهى مثلا تعلم الغيب وتحيط بما فى المستقبل الغامض على الانسان، ولكنها تحتفظ بهذه الأسرار ولا تبوح بشىء منها إلا للمقربين الذين اصطفاهم الاله أو سيصطفيهم عماقريب. وهاهى ذى الأساطير المصرية تحدثنا فى قصة «الأخوين» أن «بيتيو» أحد الشقيقين اللذين وشت بينهما زوجة أكبرهما كان عند مواشيه، وهو لا يدرى تربص شقيقه به، فهتفت به إحدى البقرات قائلة: هاهو ذا أخوك يريد قتلك بسكينة فانج بنفسك من أمامه (٢)

ولم يكن الحيوان وحده هو موضع هذا الحلول الالهى ومقر تلك الأسرار الكونية، وإنما كان النبات كذلك. ولهذا فكثيراً ما يصادفك فى التاريخ المصرى: حقائقه وأساطيره، آثار أو قصص تتحدث عن الأشجار المقدسة الحائزة لغوامض الأسرار. فمن ذلك ما ينبئنا به كتاب «الأدب المصرى القديم» من أنه بينما كان فرعون جالساً ذات مرة مع زوجته التى كان يحبها حباً جما تحت إحدى الشجرات المقدسة فى سرور وسعادة، وإذا بالشجرة تنحنى على الملك وتسر فى أذنه أن زوجته خائنة؛ إلى غير ذلك مما لو تعقبناه لطال بنا البحث

ارتقت بعد ذلك هذه العقيدة وسارت إلى الفلسفة بخطوات واسعة فقررت أن الإله حال فى كل كائن حى، بل فى كل جزئية من جزئيات الطبيعة، وأنه ذو مظاهر مختلفة. فهو مرة روح فى جسم حى، ومرة روح مجردة، وثالثة قوة من قوى الطبيعة فى الجو أو على الارض أو فى أعماق البحار؛ وهذا الحلول الدينى أولا، والفلسفى ثانياً، هو سر عبادتهم للحيوان والنبات.

النفس عند قدماء المصريين

يرى بعض العلماء أن المصريين فى أول عصورهم الفكرية لم يكونوا يعنون بالروح، أو بعبارة أدق لم يكن عندهم عن الروح فكرة واضحة. ويعللون هذا بأن المصريين كانوا يعتقدون فى تلك العهود السحيقة أن الجسم نفس حى يستمتع فى القبر بكل مميزات الحياة. ولكن هذا الرأى عندى غير صحيح، إذ أن المعروف عند قدماء المصريين أنهم كانوا منذ أقدم عصورهم يدينون بوجود كائن أجنبى عن الجسم، وأنه أثناء وجود الجسم فى القبر يختلف إليه من حين إلى آخر، وأنهم لهذا كانوا يتركون فى بناء القبر ثغرة بسيطة تمر منها الروح جيئة وذهاباً، وأنه لكى تظل الروح حية يجب أن يبقى مأواها وهو الجسم سليما من الخدوش والجروح، ولا يضمن سلامة الجسم إلا التحنيط، فابتدعوه مدفوعين إلى ذلك باحتياجهم اليه، (والحيلة بنت الحاجة كما يقولون)؛ ثم أخذ المحنطون الفنيون يتنافسون فى هذه الصناعة، ويبرهن كل واحد منهم على أنه أقدر من صاحبه على حفظ الجسم سليما زمناً طويلا. غير أنهم اقتنعوا بعد ذلك بأن الجسم مهما كان تحنيطه متقناً سيلحقه البلى على كل حال. وهنا تتعرض الروح للخطر، فلا مناص إذاً من أن يصنعوا لها مأوى آخر تقيم فيه إذا ما بلى الجسم؛ فاخترعوا فن النحت. ولما كانت الأسطورة الدينية تشترط أن يكون هذا التمثال المحنط شبيهاً بالجسم الأصلى فى كل تقاطيعه وملامحه دفعتهم هذه الوسوسة إلى الاجادة والإتقان فى النحت بهيئة تعجز أكابر فنانى العصور الحديثة.

عدد المصريون بعد ذلك التماثيل للشخص الواحد حتى جاوزت فى بعض الأحيان مائة تمثال للدفين الواحد. وكان لهذا التعديد سببان: الأول الوسوسة الدينية التى كانت تقض مضاجعهم وتنذرهم بالأخطار المرعبة التى تتعرض لها الروح إذا أخطأ المثال فى شىء ولو يسيرا من تقاطيع الجسم أو

(١) راجع هيرودوت الكتاب الثانى فصل ٦٦ و ٦٧.

(٢) راجع كتاب «قصص مصر الشعبية» ترجمة الأستاذ «ماسبيرو» طبعة ثالثة

ملامح الوجه ، فكان الاكثار من التماثيل يقيهم شر هـذا الخوف المتسيطر . أما السبب الثانى فهو أن تكون الروح فى عالم الآخرة غنية سعيدة بالتنقل من تمثال إلى تمثال . ولكن منشأ هذا التعديد قدنسى بمرور الزمن ثم تطرقت اليه التأويلات المختلفة التى تلحق عادة كل عقيدة نسى أصلها . وكان أحد هذه التأويلات الكثيرة أن هذه التماثيل لم تصنع عبثاً ، وإنما صنع كل تمثال منها لروح خاصة ، لأن كل شخص يشتمل على عدة أرواح تسمى إحداها : « L, âme » أى الروح ، والثانية : « L, esprit » أى النفس أو العقل . والثالثة « Le double » (دوبل) وهى صورة صيغت من مادة أدق من مادة الجسم ، ولكنها على هيئة الجسم تماما . والرابعة « Le Ka » (الكا) وهى الجوهر الخالد الموجود فى الانسان وفى كل إله ، وهو سر الحياة وسر السمو .

وتمتاز « الكا » عند المصريين عن بقية شخصيات النفس بأنها تظل فى عالم السماء مادام الانسان فى الحياة ، فاذا مات اتصلت به اتصالا وثيقاً يجعله غير قابل للزوال . أما الروح فانها تظل مترددة على الجسم فى قبره كما أسلفنا . حتى اذا مافاز الميت برضى « توت » انكشفت أمامه كل أسرار الحياة وأصبح لافرق بينه وبين الأحياء إلا أنهم يسيرون على الأرض وهو نائم فى قبره . ومن أسباب هذا الرضى أن يتعبد الشخص فى حالة حياته بتلاوة كتاب توت وأن يوصى بوضعه معه فى قبره إذا أمكن ذلك . وفى هذا المعنى تقول الأسطورة المصرية « إن كتاب توت الذى كتبه الإله بيده ، والذى لا يحتوى إلا على عزيمتين اثنتين والذى اشتمل على جميع كلمات الخلق والتكوين المقيدة للآلهة أنفسهم ، إذا حصلت عليه ثم تلوت القسم الأول منه سحرت السماء والأرض وعالم الليل والجبال والبحار وفهمت لغة الطير واستطعت أن ترى الأسماك فى أغوار الأنهار ، لأن قوة خفية تصعد بها على وجه الماء ؛ واذا تلوت القسم الثانى من هذا الكتاب فانك بعد أن تصير فى القبر تعود إلى شكلك الذى كنت عليه فى حال الحياة وترى الشمس حينما تشرق والقمر حينما يظهر (١) » .

وكان المصريون يعتقدون أن الروح وهى فى عالم الآخرة تظل مفتقرة إلى ما يقدمه إليها الأحياء من طعام وشراب فى الضحايا والقرابين ، وانها إذا تركت بدون هذه الضحايا يؤلمها هذا الاهمال كما يؤلم الأحياء . ولا ريب أن هذه العقيدة تدل للوهلة الأولى على مادية المصريين . وقد استند بعض الباحثين إلى هذه الأسطورة ومثيلاتها من ترك المصريين ثغرة للروح تمر منها . ومن قولهم بافتقار الروح إلى مأوى مادى تقيم فيه كالمومياء والتمثال ، فجزموا من كل هذا بأنه اذا كان للمصريين فلسفة فانها مادية ساذجة ؛ وهو قول بعيد عن الصحة بعد العدم عن الوجود ، لأن للنفس عند المصريين عدة شخصيات ، فاذا كانت إحدى هذه الشخصيات مادية تأكل وتشرب بعد الموت من الضحايا والقرابين وتحتاج إلى ماوى تقيم فيه وثغرة تنفذ منها ، فلا ينزل ذلك بفلسفتهم إلى المادية ، لأن قولهم بوجود الشخصية الأخرى التي هى جوهر الأسرار الإلهية يصعد بهذه الفلسفة إلى أسمى أوج الروحانية . على أنى لا أدرى كيف يجرؤ هذا البعض من العلماء على أن يرموا فلسفة المصريين بالمادية الساذجة من أجل قولهم بافتقار الروح إلى الأكل والشرب والمأوى ثم هم يسوغون لأنفسهم أن يشيدوا بفلسفه « تاليس » و « أنا كسماندر » و « أنا كسيمين » و « ديوجين » وهم لم تخطر لهم الروح ببال ؛ أو بفلسفة « ديموقريت » و « إبيقور » اللذين — وإن قالا بالثنائية — لا يميزان الروح عن المادة إلا بنفس الميزة التى ميز بها المصريون من قبل « الدوبل » عن الجسم ، وهى كما نص « ديموقريت » و « إبيقور » : « إن النفس من ذرات أدق وأكثر شفافية من ذرات الجسم ، وهذا هو كل ما بينهما من فرق ، أضف إلى هذا أن « أفلاطون » نفسه — وهو ثانى أجلا. فلاسفة اليونان الروحانيين — يرى أن النفس مكونة من ثلاث قوى : إحداها جوهرية خالدة ، والاثنتان الأخريان ماديتان قابلتان للفناء . فهل عيب التفكير المصرى هو أنه سبق غيره إلى النظريات الراقية بأكثر من عشرين قرنا ؟!

مما هو جدير بالذكر عند قدماء المصريين أن الروح كانت عندهم تتصل بعالم الأحياء فتذكره بعظات الماضى وتنبئه بأسرار المستقبل وتنصحه بعمل شيء وتحذره من عمل آخر إلى غير ذلك مما تفيض به الأساطير

(يتبع)

محمد غلاب

(١) راجع : « القصص المصرية » للاستاذ « ماسبرو » صفحة (١٠٨)

ذكرى المولد النبي

من مشاهد عكاظ المؤثرة (١)

للأستاذ سعيد الأفغاني

استيقظت مكة ذات صباح ، بعد عام الفيل بأربعين ، على جرس حلو ساحر ، يرسله محمد الأمين داعيا قومه إلى الله وحده ، وأن ينبذوا ما هم فيه من عبادة أصنام ووأد بنات وقتل أولاد ، وأن يقبلوا على ما يشيع فيهم المحبة والسعادة ويوطد لهم المجد والعزة فى العالمين .

استمع مشركو مكة إلى هذا الرجل الذى كان حبيبا إلى قلوبهم ، عظيم المنزلة فى صدورهم ، مضرب المثل بينهم فى علو الخلق وطهارة السيرة وصفاء السريرة ، فنظر بعض إلى بعض مكبرين ما أتى به ابن عبد المطلب سيد فتيان هاشم ورجل مكة المنتظر .

ونزت فى تلك الرءوس حمية جاهلية استعصى قيادها على البيان الساحر والعقل الوافر والحرص المخلص ، فعظم عليها أن تترك ما ألفت ، وتألبت قوى أهل مكة جيوشاً متضافرة تكيد لهذا الداعى إلى الخير ولأولئك القانتين المخبتين من الضعفاء والنساء والصبيان ، الذين ملكت عليهم الدعوة الجديدة شعورهم وتغلغل صوت الإله فى أعماق نفوسهم فصفاها وأخلصها ، ليكون منها الهدف الأول الذى يصمد فى سبيل العقيدة الحق للأذى والتشريد والتجويع والتعذيب بصبر عجيب وإيمان صليب واغتباط متزايد ، كأنما يجدون فى هذه الآلام نعيما ولذائذ . فكانت مصابرتهم وثباتهم خير ما ضمن نجاح الدعوة وتقاطر الناس عليها فيما بعد .

إلا أن الأذية عظمت ، وأبى المشركون إلا إصراراً واستكباراً وصداً عن سبيل الله من آمن به ، وكادت تتسرب شوائب من يأس إلى بعض تلك النفوس العظيمة ، لولا بارقة أمل لاحت لهم فى قصد قبائل العرب بالمواسم فى عكاظ ومجنة وذى المجاز .

***

وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه بثلاث سنين فى عكاظ ، يدعو الناس إلى الخير والهدى والسعادة . وقد لزمه منذ قيامه بالدعوة حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله ، وآلمه ألا يراهم مسارعين إلى ما به صلاحهم ، فعزم ليقصدن المواسم وليأتين فيها القبائل ، كل قبيلة بمنزلها ، وكل جماعة فى حيهم ، يعرض عليهم هذا الدين الجديد . ولقد حرص الحرص كله على أن يهتدوا ، وكان أسفه يشتد كلما أخ قومه بالصد .

قام فى عكاظ يقول :

« يا أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا »

ويتبعه رجل له غديرتان كأن وجهه الذهب وهو يقول :

« يا أيها الناس ، إن هذا ابن أخى وهو كذاب فاحذروه . »

فعرف الناس أن هذا (الصاد عن سبيل الله) هو عمه أبو لهب ابن عبد المطلب ، يكذبه كلما قال كلمة الحق .

عاود والرسول الدعوة مراراً فلم يجب ولم ييأس ، ورجا أن يجد فيهم الحامى والمجير على الأقل إذ لم يجد المجيب ، فكان يقول للحى فى موسم عكاظ :

« لا أكره منكم أحداً على شىء : من رضى الذى أدعوه إليه قبله ، ومن كرهه لم أكرهه ؛ إنما أريد أن تحوزونى مما يراد بى من القتل ، فتحوزونى حتى أبلغ رسالات ربى ويقضى الله لى ولمن صحبنى بما شاء (١) . »

كان الناس يعجبون من أمره وأمر عمه ، وهم بين راض وغاضب ، ومتعجب يرى بعينه ثم يمضى كأن الأمر لا يهمه . منهم من لا ينكر ما يسمع ، ومنهم من يرد أقبح الرد ، ومنهم من يقول : قومه أعلم به .

كان هذا دأبه أبداً ، يوافى به القبائل سنة بعد سنة ، حتى إن منهم من قال له : « أيها الرجل ، أما آن لك أن تيأس ؟! » من طول ما يعرض نفسه عليهم .

***

انتهى رسول الله فى تطوافه على القبائل فى عكاظ ، إلى بنى محارب ابن خصفة ، فوجد فيهم شيخاً ابن عشرين ومائة سنة ، فكلمه ودعاه إلى الاسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه ؛ فقال الشيخ : « أيها الرجل قومك أعلم بنبئك . والله لا يؤوب بك رجل إلى أهله إلا آب بشر ما يؤوب به أهل الموسم . فأغنِ عنا نفسك . » وإن أبا لهب لقائم يسمع كلام المحاربى .

ثم وقف أبو لهب على المحاربى فقال .

ولو كان أهل الموسم كلهم مثلك لترك هذا الدين الذى هو عليه ، إنه صابئ كذاب . »

(١) من كتابنا (أسواق العرب) الذى تصدره فى هذه الأيام : المكتبة الهاشمية بدمشق ، بتصرف قليل

(١) دلائل النبوة ص ١٥٢

قال المحاربي : « أنت والله أعرف به ، هو ابن أخيك ولحمتك » .

ثم قال : « لعل به يا أبا عتبة لمماً ، فإن معنا رجلا من الحي يهتدي لعلاجه » . فلم يرجع أبو لهب بشيء . (١)

روى عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه قالوا :

أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بسوق عكاظ فقال :

– ممن القوم ؟

قلنا : – من بني عامر بن صعصعة .

– من أي بني عامر ؟

– بنو كعب بن ربيعة .

– كيف المنعة فيكم ؟

– لا يرام ما قبلنا ولا يصطلي بنارنا .

فقال : إني رسول الله ، فإن أتيتكم تمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولم أكره أحداً منكم على شيء ؟

قالوا : – ومن أي قريش أنت ؟

– من بني عبد المطلب .

– فأين أنت من بني عبد مناف ؟

هم أول من كذبني وطردني

قالوا : – ولكنا لا نطردك ولا نؤمن بك ، ونمنعك حتى تبلغ رسالة ربك ،

فنزل إليهم والقوم يتسوقون ، إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيري فقال :

– من هذا الذي أراه عندكم أنكره ؟

قالوا : – هذا محمد بن عبد الله القرشي .

– مالكم وله ؟

– زعم لنا أنه رسول الله ، يطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه .

– فماذا رددتم عليه ؟

– قلنا في الرحب والسعة ، نخرجك إلى بلادنا ونمنعك مما نمنع به أنفسنا .

قال بجرة : – ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشر من شيء ترجعون به . بدأتم لتنابذكم الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة . قومه أعلم به ، لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به . تعمدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه وكذبوه فتؤوونه وتنصرونه ؟ فبئس الرأي رأيتم .

ثم أقبل على رسول الله فقال : « قم الحق بقومك ، فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك » .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ناقته فركبها ، فغمز الخبيث بجرة شاكلتها فقمصت برسول الله فألقته . وعند بني عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن قرط ، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة ، جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت : « يا آل عامر ولا عامر لي ! أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم ؟ » .

فقام ثلاثة نفر من بني عمها إلى بجرة ، وثلاثة أعانوه ، فأخذ كل رجل منهم رجلا فجلد به الأرض ثم جلس على صدره ، ثم علقوا وجوههم لطما ، فقال رسول الله :

« اللهم بارك على هؤلاء ، والعن هؤلاء » .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه سألهم عمن كان في الموسم فقالوا :

« جاءنا فتى من قريش ثم حدث أنه أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به معنا إلى بلادنا » .

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال :

« يا بني عامر : هل لها من تلاف ؟ هل لذناباها من تطلب ؟ فوالذي نفس فلان بيده ، ما تقولها إسماعيلي قط . ألا إنها الحق ؛ فأين كان رأيكم ؟ (١) » .

* * *

هذه الأسواق الثلاث : عكاظ ومجنة وذو المجاز ، التي كانت تقوم في أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة من كل حدب وصوب ، شهدت إلى جانب مناظر البيع والشراء والمفاخرة والانشاد . مشهداً من أفظع مشاهد الجفاء والتنكر والأذى لصاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم . وابتلعت تلك الأصوات بضجيجها وما كانت تعج به من حوادث ، صوت الدعوة الإسلامية فيما ابتلعت من دعوات ، وغاب صوت صاحبها في ذلك الصخب والزحام ؛ فلقد مكث الرسول بمكة مستخفياً ثلاث سنين ، ثم أعلن في الرابعة ودعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي فيهن المواسم كل عام ، « يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذي المجاز يدعوهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ، فلا يجد أحداً ينصره أو يجيبه ، حتى إنه ليسال عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة فيردون

(١) المصدر نفسه ص ١٠١

(١) دلائل النبوة ص ١٠٠

عليه أقبح الرد ، ويؤذونه ويقولون له : قومك أعلم بك (١) ،

كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج موزع السمع بين داع إلى ثأر وناشد ضالة ، ومنشد قصيدة ، وخطيب ، وعارض بضاعة ، وحامل مال لفك أسير ، وقاصد شريف لاجارة أو حمالة ، وداع إلى عصبية ، وآمر بمنكر . . . ، فيجد شيئاً معروفا قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا . لكنه بعد عام الفيل بثلاث وأربعين سنة يجد أمراً لم يالفه قط ، ولا سمع بمثله : رجلا كهلا وضيئاً عليه سمات الوقار والرحمة والخير ، يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة : هذه بنو عامر بن صعصعة ، وهذه محارب ، وتلك فزارة ، والرابعة غسان ، وهناك مرة وحنيفة ، وسليم ، وعبس ، وهنا بنو نصر وكندة ، وكعب ، وعذرة ، وهؤلاء بنو الحارث بن كعب وأولئك الحضارمة . . . الخ

يؤم منازل كل قبيلة ، ويقصد إلى شريفها يدعوه بالرفق إلى الله وفعل الخير فيتجهم له هذا ويعبس ذاك ، ويجبهه ذلك ، ويحقره آخر .. فيلقى من الصد ألواناً يضيق بعضها صدر الحليم ، فلا يؤيسه مالقى ، ولا يكفه ما أوذى ، فيمضى متئداً حزيناً إلى قبيلة أخرى وشريف آخر : يعرض عليهم نفسه ويقول :

« هل من رجل يحملنى إلى قومه ، فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى . فلا يجد مجيباً ، حتى تدارك الله نبيه بوفد الأنصار .

* * *

هذا ما حفظته لنا كتب السيرة من مشاهد مؤثرة ، فرأينا أن تلك الأسواق لم تخل من دعوة إلى خير ، فقد تردد فى أجوائها الصوت الضعيف الخافت ، يطلب حماية وإجابة . ولئن صدف عنه الناس وازوروا فى أسواق الجاهلية ، إنه ملأ فيما بعد ما بين المشرق والمغرب ، وطبق الخافقين بآثاره التى بثها فى العالمين رحمة وعدلا وعلماً ، وإنسانية وسعادة ومثلا عليا .

وما زال يستجيب لهذا الصوت كل يوم أفواج من أمم الحضارة والعرفان ، فى آسيا وأوروبا وأمريكا . صدعنه قديماً أجلاف البادين ، وهرع إليه اليوم زمر المتحضرين ، من كل عالم ومخترع ومصلح وأديب وسياسى ومفكر . . ممن يستضىء بعلمهم وفكرهم الملايين من الخلق .

فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة ، ولنحفظ هذا الدرس ؛ فان الحق مهما بدا ضعيفا وبدا خصيمه الباطل قويا صائلا ، لابد أنه ظافر فى النهاية عليه . فليس فى الدنيا شىء يصمد للحق ، لا الجيوش ولا الأساطيل ، ولا النار ولا الحديد ، لا شىء له العقبى إلا الحق . وأهون بعد ذلك بالمعاهدات والمراسيم وصكوك الانتدابات وسائر القصاصات من أوراق الزور . كل أولئك يضمحل ويذوب متى سلط عليه الإخلاص والثبات وصلابة العقيدة والايمان . وما نرى فى أيامنا هذه من استضعاف الباطل المعتز بالصولة ، لأناس وقفوا يدعون النضال فى سبيل الحق ، واستخذاء هؤلاء له ، وطواعيتهم فى يديه ، ناشىء من فقدان الاخلاص والعقيدة فيما يضمرون . ولعل كثيراً منهم يظهر دفاعا عن حق ، ويبطن سعياً إلى منصب أو استدراراً لمال . وما أسرع ما ينزع الزمان الأثواب المزورة عن هذا الفريق فيظهر للناس ما يخفون .

ولنعلم بعد أن اليأس لا ينبغى أن يجد سبيلا إلى قلب المؤمن ، وأنه : « لا ييأس من روح الله إلى القوم الكافرون » .

« دمشق » **سعيد الأفغانى**

(١) شرح المواهب ١ : ٣٠٩

عبرة وفاء

الرافــعى

للأستاذ كامل محمود حبيب

أليس الحق أن العيش فان   وأن الحى غايته المات
(شوقى)

فقدتك - يارافعى - ففقدت صديقاً، والأصدقاء قليل؛ وأخاً كبيراً طيب القلب، والقلوب هواء؛ وأباً شفيقاً فيه الرحمة والحنان؛ وأستاذاً غمرنى نور علمه ونور أدبه

كنتَ وكنا ... ففتحت على عينيك مغاليق نفسى، فأحسست كأنى ألمس روحك تتدفق فى روحى، فهفوت نحوك أجد فى حديثك اللذة والمتعة. وأجد فى نصيحتك الهداية والنور ... فلما فقدتك فقدت قلبى، وأذهلتنى الصدمة فخرجت عن صبرى إلى حزنى؛ وكدتُ أشق عليك الجيب، وألطم الخد. ولكنَّ الايمان يارافعى ... ولكن الايمان ...

وانطويتُ على نفسى ألتمس فى عبرات حرَّى أسكبها، أشيعك بها إلى الدار الأخرى ... ألتمس فيها بعض ما يخفف عنى بَرْح الشوق، وألم الفجيعة؛ فما وجدتُ فيها سلوة ولا وجدتُ عزاءً، فاستحوز على الأسى والشجن، ونسيتُ ما كنتَ تقوله حين تزعزعنى الأيام: «الايمانَ، يا بنىَّ، الايمان ...»

وخرجتُ إلى الناس فرأوا فى أثر الحزن والضنى فى سواد لبستُه، وفى تجهم وعبوس اكتسى بهما وجهى، وفى عبرة تترقرق فى محجرىَّ أجهد أن أكفكفها لأخفى ضعفى، وفى جفونى قرح من أثر البكاء والسهر؛ فما استطاع واحد أن يقول شيئاً، غير أن نظراتهم كان فيها الرثاء والشفقة ... ثم انطووا عنى جميعاً، وخلفونى وحيداً، أحس ألم الوخزة فى قلبى ... قلبى وحده

ومرَّ رجل يبسم وعلى وجهه سمات الفرح فهاجت فى نفسى الذكرى فبكيت، ونظر هو إلى حزنى ثم استغرق فى الضحك، لا يرعوى ولا يرحم؛ فقلت لنفسى «ويل للشجىَّ من الخلى!»

وجاء صديق يريد أن يرفه عنى، ويطمع فى أن ينزعنى من آلامى، بعبارات فاترة ثقيلة لا معنى فيها ولا روح؛ ولكنها أثارت شجونى، فانتفض قلبى، وارفضَّ جبينى عرقاً، وانهمرت عبراتى؛ فانطلق وهو يرثى لحال صاحبه ... صاحبه المسكين الذى لا يسمع ولا يعى ... وماذا يعزينى عنك يا رافعى وأنت ... فى دمى وفى روحى؟

وجلستُ إلى كتاب من كتبك أنشق عبير روحك الطاهرة، وأتنسم من ألفاظك روح قلبك الخالص؛ فارتدت الذكرى تبعثك فى خيالى، فتوقظ فى نفسى الألم والحسرة لأننى استشعرت فقدك فى قلبى

إن فى النفس عواطف لا يرقى اليها القول، وفى الفؤاد نوازع لا يستطيع أن يكشف عنها المنطق، أحس بها جياشة ثائرة فانطوى على أحزان تأكل قلبى وتضطرم فى جوانحى ... ثم لا أجد عاصما سوى الدمع ...

° ° °

وجاء النعى يقول: إنك بت تحت الثرى، وإن تاريخك على الأرض قد تم، فوجمتُ. وجاء الظلام يترع أيامى فى وقت رفَّ علىَّ فيه الأمل الحلو حين خيل إلىَّ أنى أنتظر لقياك، ولكن ... فجعت مرتين: فيك وفى أملى ...

وطال بعدك ليلى حين لج بى الأسى، ونأت عنى مسراتى حين لازمتنى أشجانى، وغدوتُ إنساناً غيرى فيه اللوعة والأسف.

لقد عرفتك فبعثت فى روحى الحياة والنور، ونفثتَ فى قلبى الايمان والسمو؛ والآن ... الآن رانت على حياتى ظلمات وظلمات فما أستطيع أن أهتدى، والبحر يزخر حوالى فلا أرى الشاطىء الأمين، فأين يدك تجذبنى إليه، وأين قلبك ينير لى الطريق ...؟

تركتنى وأتراحى، وفى القلب شوق، وفيه شكاية، فمنى تغسل دموعى هذه الأشجان لأبدو للناس رجلا فيه الصبر والسلوان.

° ° °

لفتك يد المنون فى كفن لتنشر فى الأفئدة اللوعة والأسى

بعـــد الموت

ماذا أريد أن يقال عنى

بقلم المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى

سأله محرر الدنيا منذ شهرين هذا السؤال فكتب اليه هذا المقال :

ما هى الكلمات التى تقال عن الحي بعد موته إلا ترجمة أعماله فى كلمات ؟ فمن عرف حقيقة الحياة عرف أنه فيها ليهيىء لنفسه ما يحسن أن يأخذه ، ويعد للناس ما يحسن أن يتركه ، فان الأعمال أشياء حقيقية لها صورها الموجودة وإن كانت لا ترى .

وبعد الموت يقول الناس أقوال ضمائرهم لا أقوال ألسنتهم ، إذ تنقطع مادة العداوة بذهاب من كان عدوا ، وتخلص معانى الصداقة بفقد الصديق ، ويرتفع الحسد بموت المحسود ، وتبطل المجاملة باختفاء من يجاملونه ، وتبقى الأعمال تنبه إلى قيمة عاملها ، ويفرغ المكان فيدل على قدر من كان فيه ، وينتزع من الزمن ليل الميت ونهاره فيذهب اسمه عن شخصه ويبقى على أعماله .

ومن هنا كان الموت أصدق وأتم ما يعرف الناس بالناس ، وكانت الكلمة بعده عن الميت خالصة مصفاة لا يشوبها كذب الدنيا على إنسانها ، ولا كذب الانسان على دنياه ، وهى الكلمة التى لا تقال إلا فى النهاية ، ومن أجل ذلك تجىء وفيها نهاية ما تضمر النفس للنفس .

وماذا يقولون اليوم عن هذا الضعيف ؟ وماذا تكتب الصحف ؟

هذه كلمات من أقوالهم : حجة العرب . مؤيد الدين ، حارس لغة القرآن ، صدر البيان العربى ، الأديب الأمام ، معجزة الأدب ، إلى آخر ما يطرد فى هذا النسق ، وينطوى فى هذه الجملة . فسيقال هذا كله ولكن باللهفة لا بالاعجاب ، وللتاريخ لا للتقريظ ، ولمنفعة الأدب لا لمنفعة الأديب . ثم لا يكون كلاماً كالذى يقال على الأرض يتغير ويتبدل ، بل كلاماً ختم عليه بالخاتم الأبدى ، وكأنما مات قائلوه كما مات الذى قيل فيه .

أما أنا فماذا ترى روحى وهى فى الغمام وقد أصبح الشىء عندها لا يسمى شيئاً ؟ إنها سترى هذه الأقوال كلها فارغة من المعنى اللغوى الذى تدل عليه لا تفهم منها شيئاً إلا معنى واحداً هو حركة نفس القائل ، وخفقة ضميره . فشعور القلب التأثر هو وحده اللغة المفهومة بين الحى والميت

سترى روحى أن هؤلاء الناس جميعاً كالأشجار المنبعثة من التراب عالية فوقه وثابتة فيه ، وستبحث منهم لا عن الجذوع والأغصان والأوراق والظاهر والباطن ، بل عن شىء واحد هو هذه الثمرة السماوية المسماة القلب . وكل كلمة دعاء وكلمة ترحم وكلمة خير . ذلك هو ما تذوقه الروح من حلاوة هذه الثمرة

مصطفى صادق الرافعى

وأودعتك رمساً لتوقظ فى النفوس الهموم والشجن .
وأطفأت السراج المنير لينقلب ناراً تتسعر بين الضلوع .
ونزعتك من بيننا لتشعرنا الوحدة والفراغ .
فلنا الله ... لنا الله بعدك يارافعى .

* * *

آذنى هذا الأمر فانشق له قلبى .
وتفطر فؤادى حين لفحنى أواره .
وفقدت الآسى وقد فزع عنى الصديق والخليل
فظللت وحدى أذرف الدمع السخين .
فواحرّ كبدى ... واحر كبدى مما أقاسى بعدك يا رافعى !

كامل محمود حبيب

من كلام الرافعى

قيل له رحمه الله : هل تكره الموت ؟ فقال لا بل أكره ذنوبى ، أما الموت فهو اكتشاف العالم الأكبر ، نسأل الله حسن الخاتمة . وقيل له ما هى وصيتك إذا حضرتك الوفاة ؟ فقال : هى تكرار المبدأ الذى وضعته لأولادى :

النجاح لا ينفعنا بل ينفعنا الامتياز فى النجاح

مات الرافــعى

بقلم السيد محمد زيادة

إذن فقد مات مصطفى ، وانطفأ السراج الوهاج …

وهدأت الروح النبيلة الرفافة التى ماخلقت لتهدأ …

وفرغ الوجدان الفضفاض من هموم الانسانيـة وآلام الناس … وسكن القلب الصخاب المتكلم ، المحلق فى أجواء السمو، الخافق خفقات الهوى العفيف …

وغربت النفس الأبية الملهمة الجائشة فيها خواطرُ الغيب وأسرار الكيان …

ونام العقل الجبار الحر النافذ شعاعه إلى كل سماء يستطلع الحقائق ، المرسل سناه على كل أرض يُطالع الناس …

وانطفأ السراج … انطفأ السراج الوهاج …

• • •

إذن فقد مات مصطفى وخلا من الحياة مكانه ليظل خالياً لا يجد الكفؤ الذى يملؤه …

وجنحت الشخصية الحبيبة المرموقة إلى العزلة … عزلة الأبد

وعدمت الموهبة المخلوقة للكفاح والاصلاح …

وانهدّت القوة الفعالة المبدَعة المبدِعة …

وانحصر الميدان الآهل بعرائس الخيال الفاتنة بين جدران قبر ضيق …

وتهيأ الأدب العريق الفتى ليزول أو زال …

وانطفأ السراج … انطفأ السراج الوهاج …

• • •

إذن فقد مات مصطفى ، ورحلت البارقة الهفافة من أفق الدنيا إلى آفاق الآخرة …

وشال الطائر الغريد عن الحمى يرف بجناحيه رفيف الوداع ، وخفقت القلوب ، وتباكت العيون ، وذابت قطع من النفوس ، وسرى فى جو الأدب برق ورعد هز كيانه … ثم أعقبه غبار ودخان لاح فيه سواد المصيبة …

ووجمت الحياة من روعة ما جدّ فيها …

وشاع فى العالم العربى أن الرافعى قد مات …

وانطفأ السراج … انطفأ السراج الوهاج …

• • •

مصطفى … أأناديك يا أبى أم يا أخى أم ياصديقى ؟ !. إنك والله كنت الثلاثة … كنت الوالد فى حنوك علىّ ، واهتمامك بى … وكنت الأخ فى استبشارك بلقياى وانتصارك لى … وكنت الصديق فى إخلاصك النادر ، ووفائك المُعْجب ، وحبك النقى وعطفك الكريم

فأين بعدك الصديق ؟ .. وأين مثلك الصديق ؟ !.

وكيف بعدك الحياة وأنت كنت العون فى الملمة ، والفرج فى الضيق ، والسرّاء فى الضراء ؟ !

لقد فقدت بفقدك ركن حياتى الثابت المدعم ؛ وشيعت فى تشييعك مسرة النفس ، وراحة الفؤاد ، وأمان العيش ؛ وقبرت معك أملا من آمالى كان أنضرها …

• • •

مصطفى … لقد ذهبت فلم توص ولم تودعً … فهل من كلمة أو همسة تسر بها إلى هابطة من روحك فى السماء إلى روحى على الأرض ؟ …

هل من إشراقة عطف يطل بها وجهك الصبوح من علياتك على صديقك الشاعر فى فقدك بفقد نفسه ، الحامل لك فى أعماقه شوق الولهان وحسرة السجين ، الواجد من بعدك كل هم وعناء ؟

هل من بسمة ود تسطع على شفتيك فتنير وحشة النفس فى ظلام الوحدة بعد أن حرمتك وحرمت كل حبيب ؟ …

السيد محمد زيادة

تاريخ وفاة الرافعى بالتركية

ام دنيا بى وفا دنيا قدر فضل اهلنه ،

تولدى داهى ادب ، صور : نه يدى رسمى موقعى ؟

آلدم ابواب جناندن مصرع تاريخنى :

قدريكى	بيلسين	ملكلر	آسمانده	رافعى !
٣٤٤	١٦٢	٣٢٠	١٦١	٣٦١

١٣٤٨ المجموع

٨ مضافة إلى المجموع مقتبسة من عدد أبواب الجنة الثمانية

١٣٥٦ المشار إليها فى المصراع الثالث

ترجمة البيتين :

ان أم الدنيا (١) كالدنيا فى عدم وفائها لذوى الفضل والأدب ، فقد مات أكبر الكتاب وهو من صغار الموظفين فى الحكومة ! فاستعرت مصراعا لتاريخ وفاته من أبواب الجنة الثمانية وقلت : ليقدر الملائكة قدرك فى السموات أيها الأستاذ الرافعى . ابراهيم صبرى

نجل شيخ الاسلام السابق للدولة العثمانية

(١) (أم الدنيا) من الأسماء التى يكنى بها فى الأدب التركى عن مصر .

أقوال العظماء فى الرافعى

... إن الناظم لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنه ، ولاريب أن من أدرك هذه المنزلة فى مثل هذه السن سيكون من الأفراد المجلين فى هذا العصر ، ومن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر

ابراهيم اليازجى

أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق به الباطل ، وأن يقيمك فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل

محمد عبده

«سيأتى يوم إذا ذكر فيه الرافعى قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة فى أجمل قالب من البيان

مصطفى كامل
فى جريدة اللواء

بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من النور الحكيم

سعد زغلول

ثق أنى أسافر مطمئناً وأنت بقيتى فى مصر

عبد المحسن الكاظمى
وهو مسافر الى الأندلس

أراك وأنت نبت اليوم تمشى بشعرك فوق هام الأولينا
وأوتيت النبوة فى المعانى وما جاوزت حد الأربعينا

حافظ ابراهيم

« لو كان هذا الكتاب فى بيت حرام إخراجه للناس منه لكان جديراً بأن يحج إليه ، ولو عكف على غير كتاب الله فى نواشىء الأسحار لكان جديراً بأن يعكف عليه »

شكيب ارسلان
فى كتاب تاريخ آداب العرب

لقد جعلت لنا شكسبير كما للانجليز شكسبير ، وجوته كما للألمان جوته ، وهوجو كما للفرنسيين هوجو

أحمد زكى باشا
فى كتاب المساكين

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

العناكب :

هذا هو العنكب ، فاذا كنت ترغب فى مشاهدته فالمس نسيجه ليتحرك ويسرع بالظهور ، أهلا بك أيها العنكب ، إننى أرى على ظهرك شعاراً أسود مثلث الزوايا ، وما يخفى عنى أيضا ما تضمر من النقمة فى سريرتك .

ان للسعاتك بقعاً فاحمة على الجلود . ولهاسمها المضلل فى النفوس، أيها العنكب ، فانا أخاطبكم بالرموز ، أيها العناكب المضللون المبشرون بالمساواة. فما أنتم فى نظرى إلا مستودع لعواطف الانتقام سأكشف عن مكامنكم وأنا أواجهكم بقهقهة تسقط عليكم من الذرى التى أتسنمها . وهأنذا أمزق نسيجكم حتى اذا تملككم الغضب خرجتم من مغاور أكاذيبكم وتدفقت نقمتكم بكلمة العدل التى تتفوهون بها .

لقد وجب على أن أنقذ الانسان من عاطفة الانتقام ، وهذا الواجب هو المعبر المؤدى الى أشرف الآمال ينتصب فوقه قوس قزح بعد هبوب العواصف الكاسحات . ولكن إرادة العناكب لاتتجه إلى هذه الغاية ، فهم يتناجون فيما بينهم قائلين : لا عدل إلا فى عواصف انتقامنا تهب على العالم لتلقى العار على كل من ليس منا .

وهم يقولون أيضا : ما من فضيلة إلا فى طلب المساواة ، فلنرفع عقيرتنا ضد كل سلطان .

آى كهان المساواة ! لقد تسلط عليكم جنون عجزكم ، فهتفتم بهذه المساواة وقد كمنت شهوة عتوكم واستبدادكم وراء ما تعلنون من الفضائل .

إننى أرى فيكم الغرور المتمرمر والحسد المقيم ، ولعل الحسد الذى رعى قلوب أسلافكم يتعالى منكم الآن لهباً يندلع بجنون الانتقام، وما الأبناء إلا مظهر ما أضمر الآباء . ولكم أفشى الابن سر أبيه !

إن لهؤلاء الناس مظهر المتحمسين ، وما تلهب حماسهم المحبة بل الانتقام . وإذا ، وإذاً ما بدت لك منهم رصانة ومرونة ، فما مصدرهما فيهم العقل بل الحسد . وهو الدافع

لهم إلى التفكير . ودليل حسدهم هو أنهم يندفعون دائماً إلى أبعد من مراميهم فيطرحهم العياء على وساد الثلوج .

وما تسمع لهؤلاء الناس أنيناً يخلو من نبرات الانتقام، فكل ما يصدر عنهم من مديح ينطوى على أذية . فهم يرون منتهى السعادة فى إقامة أنفسهم قضاة على العالمين . فاصغوا إلى نصيحتى ، أيها الأصدقاء : احذروا من تغلبت عليهم غريزة إنزال العقاب . لأنهم متحدرون من أفسد الأنواع وعلى وجوههم سيماء الجلادين .

إحذروا من لا ينقطعون عن ذكر عدالتهم فان نفوسهم خالية من كل صفة حميدة، وإذا ماهم ادعوا الصلاح والانصاف فلا تنسوا أنهم لم يتخذوا بين الفرنسيين مقامهم إلا لما يشعرون به من عجز

إننى أربأ بنفسى ، أيها الصحاب ، أن تنزلوها بين هؤلاء الناس فلا تميزون بينى وبينهم . فهنالك من يذيعون تعاليمى عن الحياة وهم فى الوقت نفسه ينادون بالمساواة وينتمون إلى العنا كب المسمومة ، هم يدافعون عن الحياة ولكنهم يعرضون عنها قابعين فى مغاورهم ليتمكنوا من اجتراح الشرور والايقاع بمن يقبضون على زمام السلطة فى هـذا الزمان ، وقد تعودوا إنذارهم بالسقوط ، ولو أن السلطة كانت فى يد العنا كب ، لكانت تعاليمهم تتخذ شكلا آخر ، لأنهم عرفوا فيما مضى ، أكثر مما عرف غيرهم ، كيف يوقدون المحارق ويرهقون مخالفيهم اضطهاداً وتعذيباً .

لا أريد أن أحسب من هؤلاء المنادين بالمساواة لأن العدالة علمتنى : (أن لا مساواة بين الناس) وإنه من الواجب ألا يتساووا ؛ وليس لى أن أقول بغير هذا المبدأ وإلا فان محبتى للانسان تصبح ادعاء ومينا ...

على الناس أن يسيروا على آلاف الطرق وآلاف المعابر مسارعين نحو آتى الزمان فتنشأ بينهم الحروب وتتسع شقة التفاوت بينهم على مر السنين ، ذلك ما ألهمنى إياه حبى العميم .

يجب أن يقيم الناس فى أعماق سرائرهم مثلا علياً وأشباحاً يجاهدون فى سبيلها فيسير الصالح والطالح والغنى والفقير والرفيع والوضيع إلى التصادم بجميع ما فى الأرض من نظم فتضطرم الحروب سلاحاً لسلاح ورمزاً لرمز لأن على الحياة أن تتفوق أبداً على ذاتها

إن الحياة تتجه إلى الارتقاء بدعائمها ودرجاتها ، فهى تتطلع إلى الآفاق البعيدة ما وراء الجمال المقتعد عرش غبطته . لتبلغ مستقرها فى أعالى الذرى

وبما أن الحياة بحاجة إلى ارتقاء المرتفعات ، فهى لا غنى لها عن الدرجات والدركات ليعارض المنخفضون المرتفعين ، إنها لفى حاجة إلى التفوق على ذاتها وهى متجهة إلى الارتقاء

أنظروا ، أيها الصحاب ، هاهى مغارة العنا كب وقد لاحت فيها خرائب هيكل قديم فأرسلوا عليه نظرات المستلهمين

والحق أن من جمع أفكاره قديما ليرفعها صرحا من الصخر ينطح السحاب كان كأحكم الحكماء عارفا بأسرار الحياة

إن الجمال نفسه ليقوم على التفاوت والمجالدة فى القوة والتفوق ، وهذا مايعلمنا إياه هذا الحكيم بأشد الرموز إشرافا

هنا تتدافع القباب والنوافذ فى عراك جلل فتهاجم الظلمة النور ويهاجم النور الظلمة كأنهما إلهان ينازل أحدهما الآخر

اقتدوا بهذا الرمز ، أنتم أيضا فى مجال الجمال والثقة بالنفس .

لنكن نحن أيضا أعداء فيما بيننا أيها الصحاب

وليحشد كل منا قواه ليحارب الآخرين

ويلاه ، لقد أصبت أنا أيضاً بلسعة العنكبة عدوتى القديمة فقد توصلت بثقتها بنفسها وبجمالها الالهى إلى نوال بنانى بلسعتها ، وهاهى تقول الآن : لابد من إنزال العقاب . لابد من أن يأخذ العدل مجراه . فانك تغنيت بعظمة السرائر ، فلن يذهب إنشادك جزافا

أجل لقد انتفعت ، ويلاه إنها ستوجه نفسى إلى عاطفة الانتقام .

تقدموا أيها الصحاب وقيدونى بهذا العمود كيلا أتحول عن مبدئى ، فخير لى أن أصبح تمثالا جامداً من أن أهب كعاصفة منتقمة

لن يكون زارا عاصفة وأعصارا ، فما هو إلا رقاص ولكنه ليس رقاص عناكب ... (١)

(١) ما تخبط زارا بمثل تخبطه في هذا الفصل ، فهو القائل بسحق الضعفاء وتطهير الارض من الدخلاء أو الذين يدعوهم بهذا الاسم ولكنه الآن لايريد أن يكون عاصفة وأعصارا . فهو يكتفى بأن يكون رقاصا لا نتيجة لحركته عند ما يقتحم مبدأ نصرة الضعفاء والمطالبة بحق الشعوب ، غير أنه لا يصل إلى آخر فصله حتى ينقض بعبارة واحدة كل ما أراد اثباته .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٦١ — عجيبة . . .

فى (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكى: عجيبة هى مغنية كانت بمصر على عهد السلطان الملك الكامل بن أيوب، ويذكر أن الكامل كان مع تصميمه (١) بالنسبة إلى أبناء جنسه تحضر اليه ليلا، وتغنيه بالجنك (٢) على الدف فى مجلس بحضرة ابن شيخ الشيوخ وغيره، وأولع الكامل بها جداً، ثم اتفقت قضية شهد فيها الكامل عنـد ابن عين الدولة، (٣) وهو فى دست مملكته. فقال ابن عين الدولة: السلطان يأمر ولا يشهد. فأعاد عليه السلطان الشهادة، فأعاد القاضى القول. فلما زاد الأمر وفهم السلطان انه لا يقبل شهادته، قال: أنا أشهد، تقبلنى أم لا ؟

فقال القاضى: لا، ما أقبلك. وكيف أقبلك وعجيبة تطلع اليك بجنكها كل ليـلة، وتنزل ثانى يوم بكرة، وهى تمايل سكراً على أيدى الجوارى، وينزل ابن الشيخ من عندك أنحس مما نزلت !

فقال له السلطان: يا كنواخ! (وهى كلمة شتم بالفارسية)

فقال القاضى: ما فى الشرع يا كنواخ. اشهدوا على أنى قد عزلت نفسى ونهض.

فجاء ابن الشيخ وقال: المصلحة للملك إعادته لئلا يقال لأى شيء عزل القاضى نفسه؟ وتطير الأخبار إلى بغـداد، ويشيع أمر عجيبة. فقال له قم اليه، فنهض إلى القاضى وترضاه، وعاد إلى القضاء

(١) يريد حزمه. صمم على الامر مضى على رأيه فيه

(٢) يطلق على الدف الذى يضرب به، ويقال للذى يضربه: جنكى

(٣) القاضى شرف الدين بن عين الدولة: محمد بن عبد الله. ولى سنة (٦١٧) قضاء القضاة بالقاهرة والوجه البحرى، ومصر والوجه القبلى

٦٢ — الكبر، النفط

كتب عبد الصمد بن المعذل إلى صديق له ولى النفاطات (١) فأظهر تيها:

لعمرى لقـد أظهرت تيهاً كأنما
توليت للفضل بن مروان عكبرا (٢)

دع الكبر واستبق التواضع إنه
قبيح بوالى النفط أن يتغيرا (٣)

من أجل عيون النفط أحدثت نخوة (٤)
فكيف به لو كان مسكا وعنبرا

٦٣ — كيف ترى هذا الفقه

فى (تلبيس ابليس) لابن الجوزى:

قال عبد الرحيم بن جعفر السيرافى الفقيه: حضرت بشيراز عند قاضيها أبى سعيد بشر بن حسن الداودى وقد ارتفع إليه صوفى وصوفية (وأمر الصوفية هناك مفرط جداً حتى يقال إن عددهم ألوف) فاستعدت الصوفية على زوجها إلى القاضى. فلما حضر قالت له: أيها القاضى إن هذا زوجى ويريد أن يطلقنى وليس له ذلك، فإن رأيت أن تمنعه. فأخذ القاضى يتعجب، وحنق على مذاهب الصوفية ثم قال لها: وكيف ليس له ذلك؟ قالت: لأنه تزوج بى ومعناه قائم بى، والآن هو يذكر أن معناه قد انقضى منى، وأنا معناى قائم فيه ما انقضى فيجب عليه أن يصبر حتى ينقضى معناى منه كما انقضى معناه منى

فقال لى القاضى: كيف ترى هذا الفقه؟! ثم أصلح بينهما وخرجا من غير طلاق

٦٤ — أما بشرع محمد من أين لك ؟

قال هبة الله بن الفضل فى يحيى بن المظفر المعروف بابن المرخم:

(١) النفاطة (بفتح الفاء وتشديدها وفتحها فقط): الموضع الذى يستخرج منه النفط وفى الاساس: واستعمل فلان على النفاطات وهى معادن النفط

(٢) عكبرا (بضم العين وسكون الكاف وفتح الباء) بلدة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ. النسبة إليها عكبرى، وعكبراوى

(٣) النفط: (بفتح النون وتشديدها وبكسرها والكسر أفصح) حلابة جبل فى قعر بئر، توقد به النار (اللسان)

(٤) النخوة: العظمة. (قلت) لو بعث (ابن المعذل) فى عصرنا هـذا وشهد قدر النفط والنفطيين لاجتزأ باستصغار الكبر وتهجين المستكبرين، والكبر وصاحبه مذمومان فى كل حالة فى كل زمان. وأما النفط فهو ذو الكلمة العليا فى هذا الوقت، فى سياسة الدنيا، واليوم يوم النفط يا عبد الصمد . . .

يا ابن المرخم ، صرت فينا قاضيا
خرف الزمان تراه أم جن الفلك ؟
إن كنت تحكم بالنجوم فربما
أما بشرع محمد من أين لك ؟ !

٦٥ — أفلا يزول هذا التوهم ؟

فى (إرشاد الأديب) لياقوت الحموى :

سال بعض الأكابر من بنى طاهر ابا العباس ثعلبا ان يكتب له مصحفا على مذهب اهل التحقيق فكتب : (والضحى) بالياء . ومذهب الكوفيين أنه إذا كانت كلمة من هذا النحو ، اولها ضمة او كسرة كتبت بالياء ـ وإن كانت من ذوات الواو . والبصريون يكتبون بالألف . فنظر المبرد فى ذلك المصحف فقال : ينبغى ان يكتب (والضحى) بالألف لأنه من ذوات الواو . فجمع ابن طاهر بينهما . فقال المبرد لثعلب : لم كتبت والضحى بالياء ؟

قال : لضمة اوله

قال : ولم إذا ضم اوله ـ وهو من ذوات الواو ـ تكتبه بالياء ؟

قال : لأن الضمة تشبه الواو ، وما اوله واو يكون آخره ياء ، فتوهموا أنه اوله واو

فقال المبرد : افلا يزول هذا التوهم إلى يوم القيامة ؟ !

٦٦ — سرة الدنيا ، العروة الوثقى

فى (البدر الطالع) للشوكانى :

خرج بيبرس العثمانى الجاشنكير الملك المظفر للحج بعد سنة (٧٠١) وصحبه كثير من الأمراء ، فحج بالناس فصنع من المعروف شيئاً كثيراً . ومن محاسنه أنه قلع المسمار الذى كان فى وسط الكعبة وكان العوام يسمونه (سرة الدنيا) وينبطح الواحد منهم على وجهه ، ويضع سرته مكشوفة عليه . ويعتقد أن من فعل ذلك عتق [١] من النار وكان بدعة سيئة ، وكذلك أزال الحلقة التى يسمونها (العروة الوثق) .

(١) عتق لازم ويتعدى بالهمزة . والعبد عاتق وعتيق ومعتق ولا يجوز معتوق وهى عتيق وعتيقة .

٦٧ — وكيف لا تطرب عوديه

القيراطى :

تنفس الصبح فجاءت لنا من نحوه الأنفاس مسكيه
وأطربت فى العود قمرية وكيف لا تطرب عوديه ؟

٦٨ — الطبع والتمرين

فى (الخصائص) لابن جنى :

قرأ السجستانى : قرأ علىّ اعرابى بالحرم : (طيبى لهم وحسن مآب) فقلت له : طوبى ، فقال : طيبى ، فقلت : طوبى فقال : طيبى . فلما طال على قلت : طوطو ، فقال طى طى

أفلا ترى إلى هذا الأعرابى وأنت تعتقده جافياً كزا ، لا دمثاً ولا طيعا كيف نبا طبعه عن ثقل الواو إلى الياء ، فلم يؤثر فيه التلقين ، ولا ثنى طبعه عن التماس الخفة هز ولا تمرين

٦٩ — والقوم أغصان

حضر الشاعر ابن القيسرانى مرة فى سماع ، وكان المغنى حسن الغناء ، فلما طربت الجماعة وتواجدوا [١] قال :

والله لو انصف العشاق انفسهم فدوك منها بما عزوا وما هانوا
ما انت حين تغنى فى مجالسهم إلا نسيم الصبا والقوم اغصان

٧٠ — الخبز والبقل

فى (فتوح البلدان) للبلاذرى :

قال كثير بن شهاب يوماً : يا غلام ، أطعمنا .

فقال : ما عندى إلا خبز وبقل

فقال : وهل اقتتلت فارس والروم إلا على الخبز والبقل؟؟

(١) فى (تعريفات) الجرجانى : التواجد استدعاء الوجد تكلفا بضرب اختيار وليس لصاحبه كمال الوجد . وفى الاساس : وله بها وجد وهو المحبة . وتواجد فلان أرى من نفسه الوجد

ميلاد الرسول

للأستاذ محمد الأسمر

فجرٌ أطلّ على الوجود فأطلعا
شمسين: شمسَ سناً، وشمس هدًى معا

ظلّتْ مطالع كل شمس لا ترى ... من بعدِه شيئاً كمكةَ مطلعا
قبس من الرحمن لاح فلم يدَعْ ... لألاؤه فوق البسيطة موضعا
ما كان ميلادُ الرسول المصطفى ... إلا الربيعَ نضارة وتضوعا
يوم أغر كفاكَ منه أنه ... يوم كأن الدهر فيه تجمعا
ويكادُ غابرُ كل يومٍ قبله ... يثني إليه جيده مُتطلعا
فلو استطاع لكرّ من أحقابه ... وثباً على هام السنين ليرجعا
كادُ مُقبلُ كل يوم بعده ... ينسل من خلف الزمان ليسرعا
فلو استطاع لجاء قبل أوانه ... وانساب يخترق السنين وأتلعا
تتنافس الأيام في الشرف الذي ... ملأ الوجود فلم يغادرْ أصبعا
خير أفاض الله منه على الورى ... أنّى جرى ترك الجناب المرعا
وسناً جلاه لتعمُرَ الدنيا به ... من بعد ما كانت خراباً بلقعا
وافى وليلُ الجاهليّة مُطبق ... فانجاب عن جنباتها وتقشعا
وكذا الهداية إن قذفتَ بها على ... ركن الغواية والضلال تصدعا
نادى إلى الحسنى فلما أعرضوا ... واستكبروا اشرَع الرماح فأسمعا
والحق أعزلَ لا يروعُ فإن بدا ... مستلئماً لاقى الطغاة فروّعا
والحقُّ أخفى ما يكون مجرداً ... وتراه أوضحَ ما يكونُ مُدرَّعا
والحقُّ ليس بمعتد لكنّه ... إن دافعته يدُ الضلال تدفعا
مثل الرياح جرَت رُخاءً ثم لم ... تلبثْ فهبّتْ بعد ذلك زعزعا
بعض الأنام إذا رأى نور الهدى ... عرَف الطريق ولم يضلّ المهيعا
ومن البريّة معشرٌ لا ينتهي ... عن غيّه حتى يخاف ويفزعا

* * *

إن الرسولَ محمداً صبحٌ بدا ... من راح يعثرُ في سناهُ فلا لعا
وافى بها بيضاءَ عدل كلها ... لا تلفينَّ بها الضعيفَ مُضيّعا
الناسُ كلهمُ سواسية بها ... لا (قيصرا) تلقى بها أو (تُبّعا)
دخلت على الجبروت وهو مُقطّب
صَلَفاً فأبصر وجهها فتفزعا

وأبى له حبّ البقاء وطبعُه ... إلا الصِيال فصاولت فتضعضعا
(الفرسُ) و (الرومانُ) لم يعصمهما
مُلكُ الممالك كلها أن يُصرَعا
من لم تزعزعه العواصف قبلها ... بعثت له بنسيمها فتزعزعا
ثلت عروش الظالمين ومُلكهم
وبنت لعرش العدل مُلكا أوسعا
وجرى العباد على السجيّة سُجدا ... لله، لا لمُسخّريهم، رُكعا
وتراهمُ حول النبيّ فلا ترى ... مُتملقاً أو خائفاً متخشعاً
دينُ المساواةِ الصحيحة دِينه ... يرعاهمُ في الله أشفق من رعى
جاءت له الدنيا فأعرض زاهداً ... يبغي من الأخرى المكان الأرفعا
ما جرّ أثواب الحرير ولا مشى ... بالتاج من فوق الجبين مُرصّعا
من ألبس الدنيا السعادة حُلة
فَضفاضة، لبس القميص مُرقعا
وهو الذي لو شاء نالت كفه ... كلّ الذي فوق البسيطة أجمعا
لم يبغها مُلكا عضوضاً بل دعى
لله لا لسواه أفضل من دعى

* * *

يا مصطفى أدعوكَ دعوةَ شاعر ... وافى إليك بشعره متشفعا
هب لي من النفحات ما أشفي به ... نفساً معذبة وقلباً موجعاً
فلعلّ صدراً أن تزول همومه ... وعليلَ قوم أن يصح وينفعا
ولعل ذابلة الرجاء ينالها ... بلل من الغيث العميم فتينعا
صلى عليك الله جل جلاله ... دنيا وأخرى شافعاً ومشفّعا

محمد الأسمر

هدية الشاعر للشاعر

أهدى الأستاذ عبد الله حبيب إلى صديقه الأستاذ أحمد رامى زهرة ومعها هذان البيتان:

قطفتها فى صبحيَ الباكر ... هدية الشاعر للشاعر
فانعم بها إذ أنت أولى بها ... من كل من مر على خاطرى

فتقبلها شاعر الشباب وأجابه بهذين البيتين:

يا مهدياً من زهرك العاطر ... آنست روحي بالجنى الباكر
ذكرتني والصبح فى مهده ... وأنت مرسوم على خاطرى



شبابنا والسياسة

تدعو الرسالة الشباب دعوة حرة جريئة إلى العمل السياسى ، وقد يعجم على بعض الناس غرض الرسالة من دعوتها ، ويَنبَهِم عليهم وجه الحق والمصلحة فيها .

وإنما تريد الرسالة ونريد معها شباباً مطبوعاً على الوطنية قد سرت فى دمه مسرى الدم الحار فى عروقه ، وتشبعت بها روحه واستَبْطَنَتها نفسه ، فصارت جزءا منها لا وطنية مصطنعة زائفة تلبس وتخلع كالرداء .

نريد شباباً غزلا كلفاً صباً لا بالحور الحسان والخرد الغيد ، ولكن بحب مصر . نريد منهم وطنية تفيضها الغريزة لا تكلف فيها ولا تعمّل ، تنتقل بقانون الوراثة من الأجداد إلى الأحفاد كما تنتقل مميزات الشعوب الراقية من السلف إلى الخلف : أى نريدها خلقاً لا حرفة .

نريدها وطنية طاهرة نقية كنفوس الشباب لم تلوثها جراثيم المنفعة ولا أرجاس الأهواء والشهوات ، تسمو سمو المثل العليا لا تسف بالتطبيق المحرف الخاطىء .

نريدها وطنية عامة شاملة تسع الدولة والمواطنين وتسوى بينهم ، لا وطنية ضيقة العطن محدودة المدلول محصورة بالأحزاب والأشخاص . يجب أن ينبلج الصبح على أعين نفر من النفعيين يحرمون على الشباب الاشتغال بالسياسة كأن السياسة حرفة لا تحترف إلا بترخيص . يجب أن تحشد جميع قوى الأمة لمصلحة الأمة فيعمل الكل فى حقل الوطن لينتج للوطن .

إن الحياة صراع وغلاب ولا سيما فى عصر الكهرباء والكيمياء واللاسلكى ، فليس من سداد الرأى ولا من بعد النظر أن تحيا الأمة عالة على زعمائها ؛ وليس معنى هذا ألا يكون للشعب زعماء ، ولكننا ندعو كل فرد أن يكون بنفسه دائرة كهربائية تامة ، فاذا ما وصل بينها واجتمع شتيتها ووجهتها زعامتها الرشيدة كانت قوة لا تغلب

إن نظرة فاحصة إلى ألمانيا وإيطاليا وتركيا تؤيد ما نقول ، فانك لا تسمع اسم إحداها إلا وتصورتها كتلة واحدة من القوة مندفعة نحو غايتها كأنها قنبلة انطلقت من فوهة مدفع ، وإن دخانها وجلجلة صوتها وصخب قصفها لكاف فى شق طريقها وتعبيد مسراها بله كتلتها وجرمها

نريد شباباً يفهم ما يريد ، ويعمل ما يفهم ، ويحمى ما يعمل ، ويحب ما يحمى ، ويضحى بدمه وروحه فى سبيل ما يحب

نريد هذا الشباب الذى يحول التاريخ إلى الوجهة التى يجب أن تكون وجهة العز والكرامة ، الشباب الذى يعمل تاريخ جيله بقصد وتعمد ، لا الشباب الذى يقف من تاريخ جيله على الحياد ويدع الظروف والمؤثرات تكتب هذا التاريخ

نريد جيلا صلباً متعصباً سليما من المرونة والرخاوة يقف كالشلال ، لا جيلا خفيفاً كالخشبة الطافية على سطح الماء يقذف بها أنى شاء وكيف شاء . نريد أن نكتب كما كتبنا أسطع السطور فى سجل تاريخ الانسانية الخالد !

عبد العزيز بيومى غفارى

بالقايات

واجب الكتاب والمفكرين

... ... رئيس تحرير الرسالة

أشكر للرسالة الغراء اهتمامها بتوجيه الشباب إلى الغاية المثلى فى عهدنا الحديث ، وأؤيد بقلبى ويدى أخى الشاب الذى اقترح (زحف الشباب الاجتماعى) ولكنى أشعر بأن الشباب حين يبدأ العمل سيعمل من غير خطط ولا رسوم ولا تقارير ولا أدلة . فقد كان من الواجب على الكتاب والمفكرين وهم الأطباء الاجتماعيون أن يشرحوا أدواء الأمة شرحاً دقيقاً فى كل ناحية من نواحى الحياة ، ثم يصفوا العلاج ويجعلوا التمريض والتنفيذ على عواتق الشباب . فاننا إذا استثنينا الفصول التى تكتبها الآنسة الأدبية (ابنة الشاطىء) فى أحوال القرية وبؤس القرويين لانكاد نجد كاتباً واحدا درس حالة من أحوال الأمة . ليقم الطبيب والمهندس والزراعى والأديب بدرس هذه الأحوال كل فى دائرة اختصاصه حتى يعمل العامل عن خبرة ، ويتقدم الدليل عن هداية ، وبذلك تقوم الجهود على أساس قوى ومنهاج واضح ونظام صحيح ...

مصطفى كامل

المحامى

(المحرر) ملاحظة الأستاذ الكاتب سديدة ، فان نهضتنا الأدبية قد بدأت بإحياء آثار السلف فعرفنا عن القديم أكثر مما نعرف عن الحديث ؛ ثم انصرفت إلى النقل عن الغرب فعلمنا عن أوربا أكثر مما نعلم عن مصر ؛ وظلت قوانا مجهولة لم تكشف وعللنا مدفونة لم تعرف . واقتصر كتابنا على معالجة بعض المسائل السهلة من طريق القصة أو الصورة ووقف زعماؤنا عند المقالات الصحفية التى تنطوى مع اليوم والخطب السياسية التى تذهب مع الساعة . إنا نريد كما قال الكاتب الفاضل كتباً تعالج المسائل العامة عن اختصاص ودرس ، وترسم المناهج الاصلاحية عن دراية وخبرة وتبرز ما دق عن الشعور من آفات المجتمع فى جلاء وصدق . فهل تتجه أفكار الكتاب ، إلى ما اتجهت إليه رغائب الشباب ؟

اهتمام الشباب بالشؤون العامة

... محرر صحيفة الشباب

كان لما كتبتموه فى هذه الصحيفة عن ضرورة اهتمام الشباب بالشؤون العامة أثره البليغ فى نفسى . فقد حملنى ذلك على أن أفكر فى غفلة الشعب عن الأمور العامة وحصره كل أفكاره وأعماله فى دائرة عمله اليومى ، فوجدت أن واحداً فى الألف هو الذى يتتبع مجارى الأمور ، ويعنى بشؤون مواطنيه وسياسة وطنه ، وربما تجد قرى بأسرها لاتقرأ جريدة ولا تتصل بالعالم . وكل ما يهم الفلاح هو زراعة أرضه وأسعار محاصيله . ومن الصعب أن يتكون فى الأمة رأى عام محترم إذا بقى حال الأفراد على هذه الحال فدخول الشباب المثقف فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية بالدعوة والارشاد يفتح عيون العامة على الحياة الصحيحة فتتسع أفكارهم، وتبعد آمالهم ، وينشأ فيهم الطموح إلى الأحسن . والنزوع إلى الأكمل ، والشعور بأن الوطن وطنهم والحكومة حكومتهم ، فاذا قدموا أبناءهم إلى العسكرية قدموهم مغتبطين لأنهم يدافعون عن أنفسهم ؛ وإذا أدوا الضرائب أدوها راضين لأنهم ينفقون على مصلحتهم . وقد لمست أثر دعوتكم فى نفسى فأصبحت أقرأ صحيفتى اليومية بروح جديدة واهتمام قوى كنت آخذ الصحيفة فأمر على عناوينها مرا لأتخير ما يستفز اهتمامى من أمور قد لا تتعدى مسألة اليوم وأخبار الملاهى والسينما ، وهأنذا اليوم أحرص على تتبع الشؤون الداخلية كرجل ذى علاقة وثيقة بها . فأصبحت أقرأ أخبار المصالح المختلفة وكأنها تهمنى مباشرة ، وأمسيت أتتبع مناقشات البرلمان . ولا أكتمك أنى حين قدمت الميزانية إلى المجلس كنت وأنا أقرأ مقدمة وزير المالية أتخيل نفسى زعيم المعارضة فأقرأها وأناقشها ، فلما قرأت رد المعارضين تصورت نفسى وزير المالية فرحت أحاول الرد عليها وتبرير موقفى . وهكذا حالى مع كل ما يجد فى البلد من أحوال وأخبار هذه آثار دعوتكم فى نفسى ولعل أثرها يكون فى اخوانى الشباب أبلغ مدى وأعمق أثرا ... ...

(الجيزة) **مختار يونس**



قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى بك

مدير مصلحة الكيمياء

وكان يضحك كلما جاء النبأ بأن بعض أعوانه يقول عنه إنه مخبول ، كان فى كل حجرة من هذا البيت وفى كل مكان ، ولكنك دائماً مستطيع معرفة مكانه وحصره فى الناحية التى هو فيها وذلك من صوته الذى لايفتأ يتردد ينادى فى الردهات : « يا قدريت ... يا قدريت ! أين سجائرى ... هات مائى المعدنى ... ! »

— ٥ —

وخاب أمر الاصباغ خيبة كبرى ، وجرى الحديث تمتمة بين الكيمائيين أن إرليش رجل غبي لا يفهم ، ولكن يجب أن تذكر دائماً أن إرليش كان يقرأ الكتب ، فذات يوم كان جالساً فى مكتبه على كرسى خلا مصادفة من الكتب التى تراكمت عليه وعلى غيره ، وكان يقرأ فى المجلات الكيماوية كبعض قدماء الحكماء يبحثون عن حجر الفلاسفة ، فاذا به يقع على عقار من أخبث العقاقير . وكان اسمه أتكسيل Atoxyl ومعناه غير السام ، وكان هذا العقار شفى الفئران من مرض النوم ، أو كاد ؛ وكان قتل فيرانا ليس بها مرض النوم ؛ وكان قد جُرب فى بعض أهل السواد فى أفريقا عسى أن يشفيهم من مرض النوم فلم يشفهم . بل أصاب عدداً وفيراً منهم بالعمى فتم عماهم قبل أن يدركهم الموت من دائهم . فهذا عقار مروع لو أن مركبه كان حياً لاختزى منها واستبرأ . وكان تركيبه من حلقة بنزين ، وهي مكونة من ست ذرات من الكربون قامت فى حلقة كالخاتم كأنما يطارد بعضها بعضاً فى دائرة كالكلب يدور حول نفسه يريد أن يعض ذيله ؛ ويتركب عدا ذلك من اربع ذرات من الادروجين ، وشيء من النشادر ، وبعض أكسيد الزرنيخ ، وهذا الأخير يعلم الناس أنه سم زعاف .

قال إرليش : « علينا أن نغير من تركيب هذا العقار قليلا » قال هذا وهو يعلم أن الكيمائيين الذين ابتدعوه قالوا إنه تركب بحيث أن أى تغيير يلحقه يفسده ؛ ولكن إرليش لم يستمع لما قالوا ، وظل يقضى بعد ظهر كل يوم فى معمله وحده يبذل فى العمل كل نشاطه . وكان معملا ليس كمثله معمل فى الدنيا فلم يكن به معوجات ولا كؤوس ولاقنينات ولا ترمومترات ولاأفران ، حتى ولا ميزان واحد . كان فى فقره كمنضدة صيدلانى بقرية يمزج عليها ما يطلب إليه من بسائط الأدوية عند فراغه من مكتب البريد الذى يتولى إدارته أيضا (١) . فان كان بينهما فرق فهو فى أن معمل إرليش كانت فى وسطه منضدة كبيرة جداً ترصصت عليها صفوف وصفوف من قنينات ، قنينات عليها أوراق باسمها ، وقنينات ليس عليها اسم لها ، ثم قنينات عليها أسماء لا تقرأ من سوء ما كتبت أو مما سال على ظواهرها من بواطن القنينات من أصباغ قرمزية طمست أسماءها . ولكن إرليش وعى كل تلك الأسماء برغم هذا . ومن وسط أحراج الزجاجات هذه خرج رأس مصباح بنسن (٢) واحد يبعث فوق أرؤسها باهيه الأزرق . فأى كيميائى لا يضحك من هذا المعمل ؟

---

(١) فى بعض القرى الاوروبية يقوم القائم باعمال البريد باعمال أخرى كالصيدلة أو البقالة ونحوها وذلك فى نفس مكتب البريد وهو أشبه بدكان (المترجم)

(٢) مصباح بنسن هو مصباح غاز استصباح يتخذ فى المعامل للتسخين

وفى هذا المعمل لعب إرليش بعقاره أتكسيل. وكم صاح وهو يعبث به: «هذا جميل»! «هذا بديع»، «هذا فوق التصديق»، وهو أثناء ذلك يملى على الآنسة مَرْكَرْت Marquardt، ويأطول ماصبرت، أو يصرخ إلى السيد قدريت فى طلب هذا أو ذاك. وشاءت الأقدار أن تمنحه ذكاء كيماويا شاذاً تمنحه البحاثَ أحيانا ممن ليس فى مقدورهم بالطبع أو بالتطبع أن يكونوا كيماويين، فاذا به يجد أن هذا العَقار قابل للتغيير، لاقليلا بل كثيراً، وأنه يمكن تشكيله أشكالا عدة لم يُسمع بها من قبل، دون أدنى مساس بما بين الزرنيخ وحلقة البنزين

«أنا أستطيع أن أغير الأتكسيل». وخرج يهلع بلا قبعة ولا معطف إلى معمل برتهايم Bertheim، معمل كيميائيه الأول أو رئيس أرقائه، وصاح فيه: إن الأتكسيل يمكن تغييره؛ ولعلنا نستطيع تغييره إلى مائة مركب، أو إلى ألف مركب من مركبات الزرنيخ. وهاك كيف يكون هذا «ياعزيزى برتهايم». وأخذ يشرح ألف طريقة لإحداث هذا التغيير. فماذا صنع برتهايم؟ بالطبع انصاع، وكيف يستطيع أن يقف جامداً أمام «ياعزيزى برتهايم»؟

وجاءت سنتان اشتغل فيهما كل من فى المعمل من المانيين ويابانيين، ومن بعض اليهود، وكل من فيه وما فيه من رجال وفئران، غير ناسين الآنسة مَرْكَرْت Marquardt ولا الآنسة ليوبلد Leupold، وغير ناسين السيد قدريت بجلال قدره. اشتغلوا جميعاً وكدحوا كدحاً، وأجهدوا أنفسهم إجهاداً، فى مثابرة ومصابرة، حتى صار المعمل كبعض مصاهر الجن يعمل فيها كل عفريت مريد. وفيه جرّبوا هذه المادة، ثم هذه، حتى بلغ ما امتحنوه من مركبات الزرنيخ ٦٠٦ مركب وقعوا جميعاً تحت تأثير عفريتهم الأكبر، فلم يفرغ أحدهم ليفكرَ فى بطلان ما يصنعون، وفى استحالة ما يطلبون، وهو قلب الزرنيخ من سم معروف مُحبَّب لدى كل مجرم قاتل، إلى دواء وشفاء لم يجزم أحد بجواز وجوده، لداء لم يحلم إرليش أبدا بجواز شفائه. نعم وقع هؤلاء الأرقاء جميعاً تحت تأثير ارليش فكدحوا على نمط لا يجرى عليه الرجال فى كدحهم إلا إذا حفزهم اليه رجل متعصب عصى مثله، رجلٌ خدد العزم جبهته ورقق حب الخير من عينيه

وغيروا الأتكسيل! واشتقوا من تركيبه مركبات زرنيخ عجيبة شفت الفئران فعلا. ويكادون يصيحون صيحة الفرح والنصر، ولكن الحظ يدير لهم ظهره فيجدون أن المكروب الفظيع، مكروب داء الورك، يذهب حقاً من الفئران، ولكن الزرنيخ يحيل دماءها الثخينة إلى سائل رقيق، أو هو يصيبها بالصفراء فتقتلها ... ... ومن أدوية الزرنيخ هذه ما جعل الفئران ترقص رقصاً، فهل تصدق هذا يا صاحبي! نعم جعلتها ترقص رقصاً، ولم ترقص دقيقة ثم تسكن، بل تدور ثم تدور، وتنط ثم تنط طول حياتها. عذاب مرير لها بعد شفائها من دائها ما كان يخطر على بال الشيطان لو أراده. ضاع الأمل فى الدواء الكامل، وأى أمل لايضيع بعد الذى كان. إلا أمل إرليش. كتب يقول: إنه ليسرنا أن نجد أن الضرر الوحيد الذى أصاب الفئران من الدواء أنه قلبها فصارت فئراناً راقصة. والذين يزورون معملى سيدهشون لكثرة ما يجدون فيه من الفئران الراقصة ... فأى رجل ملىء بالأمل والحياة!

واصطنعوا مركبات لا حصر لها؛ وكان جهادهم فى كل هذا جهاد المستيئس المستبسل حين لا أمل ولا رجاء. وطلع لهم فيما طلع أحجية غريبة: وجد إرليش أن جرعة الزرنيخ الكبيرة يعطاها الحيوان دفعة واحدة تكون خطرة على حياته فجزأها إلى أجزاء صغيرة وأعطاها إياه ورجا الخير من بعد ذلك، ولكن النحس تبعه بالخيبة، فالتريبنسومات اعتادت بالتدرج على الزرنيخ فتمنعت عليه ورفضت أن تقتل به. والنتيجة أن الفئران مشت إلى فنائها أفواجاً أفواجا

فهذا ما كان مآل المركبات الكيماوية الزرنيخية الخمسمائة والخمسة والتسعين الأولى، تتابعت جميعا يحدوها الرجاء. وانتهت جميعا إلى نهاية واحدة متكررة فاشلة تسقط لها القلوب فى الصدور، ولكن بول ارليش ثبت على ابتسامته، وظل ينعش نفسه بأقاصيص يخترعها عن دواء جديد مؤمَّل منشود. وعلِمَ الله وأكدت الطبيعة ماكانت إلا أقاصيص أكاذيب لاتحتمل نقداً ولا تجيزها طبائع الأمور. وأخذ

يرسم الرسوم لبرتهايم ورجاله ، رسوما خيالية لمركبات زرنيخية علوا فى قرارة أنفسهم وهم الخبراء أنها لن تكون . وظل يرسم لهم ثم يرسم . وهم يعلمون من الكيمياء فوق ماعلم حتى ملأ بمخطوطاته أوراقاً لاعدّ لها . ورسم لهم فى المطاعم على جداول المأكولات ، وفى الخمارات على جداول المشروبات . وهال رجاله فقدانه الحسّ بما بين الممكن والمستحيل ، ولكنهم عدّتهم حماسته التى لاتحدّ ، وجموحه الذى لا يُردّ ، وعناد البغال الذى لاتنفع معه مجادلة أو مسايسة . قالوا : « ماأجمل تحمسه وتحرقه ! » ، وتحرقوا مثله . وانتهى إرليش بأن استنفد كل ماعنده من جهد ، وأحرق شمعته من طرفيها ، حتى بلغ أمله المنشود ، وطلع عليه يومه الأسطع المأمول ، وذلك فى عام ١٩٠٩

— ٦ —

أشعل شمعته من طرفيها ، وفعل مافعله طارق حين حرق سفائنه ، لأنه كان قد فات الخمسين ربيعاً ولم يبق من عمره غير القليل القصير . وبذلك عثر على المركب الشهير برقم ٦٠٦ . واعلم أنه ماكان بمستطيع إيجاده لولا معونة خبيره العالم برتهايم . وهو مركب استخدم فى تركيبه كل حذق الكيمياء ، وركب فى جو مخطر لكثرة ما يملؤه من أبخرة الأثير ، وهى أبخرة تنذر فى كل وقت بالتفرقع والحريق . وهو عدا هذا مركب حساس سريع التلف يحيله القليل الذى يمسه من الهواء من دواء معتدل التأثير إلى سم بالغ المفعول قتال

هذا هو المركب الشهير رقم ٦٠٦ ، وهو يستمتع باسم طويل : فانى أكسى ثانى أمينو أرسينو بنزول ثانى هيدروكلوريد . وكان غلوّه فى الفتك بالتريبنسومات كغلوه فى الطول ، فحقنة واحدة منه تكسح دم الفأر كسحاً من كل ما به من تريبنسومات داء الورك فلا تترك واحدة منها تحكى للخلف أخبار السلف . وهو عدا ذلك كان مأموناً جداً برغم أنه مُثقل بالزرنيخ ، ذلك السم المختار المحبب إلى كل قاتل أثيم . وهو لم يُعْمِ الفئران ، ولم يَحُلْ دمهم فيرق ، ولم يُرقصهم رقصة العذاب المذكورة ، واختصاراً كان عقاراً مأمون الضرر محقق النفع

قال قدريت بذكر هذه الأيام بعد فواتها بزمن طويل : « تلك كانت الأيام . وماكان بالشاب عندها ، فقد كان سبق الكبر إليه فصلب من عوده ، وذهب بالمرونة من عضلاته ، ولكنه ظل يدب وراء « الأستاذ » يُغنى به ويسد من طلباته . قال قدريت « تلك كانت أيامنا أيام كشفنا عن رقم ٦٠٦ ، وأىْ والله تلك كانت الأيام ! وأىّ أيام أصابتها ما أصابت هذه من الحمى ، وأى أيام حظيت من الجنون والعمل الخابط الراقع الجموح بمثل ما حظيت به هذه ؛ اللهم إلا الأيام بستور Pasteur . وصار رقم ٦٠٦ يشفى من مرض الورك فتطيب منه الفئران وأعجاز الخيول ، ولكن ماذا بعد هذا ؟ وهنا يدخل الحظ فى تسيير الأمور ، فيذكر إرليش نظرية قديمة خاطئة كان قرأها لرجل ألمانى عالم فى الحيوان اسمه شَوْدِين Schaudinn . قرأ إرليش فى عام ١٩٠٦ أن شودين اكتشف مكروباً لولبياً رفيعاً باهتاً أشبه شىء ببريمة الفلين ، ولكن دون يدها ؛ وكان اكتشافاً باهراً هذا الذى اكتشفه شودين . وَوَدِدْتُ لو اتسع المقام لأحدثكم عن هذا الرجل وعن تعصبه وعن شربه الخمر وإسرافه حتى تتراءى لعينه غرائب الأطياف والخيالات . وسمى هذا المكروب إسبيروشيتا باليدا Spirocheta pallida ، وأثبت أنه سبب الداء الرذيل المعروف بالزهرى

لم يفت إرليش ، وهو القارىء كل شىء ، أن يقرأ هذا الاكتشاف ، ولكن رسخ فى ذاكرته أكثر من كل شىء أن شودين قال : « ان هذا المكروب الباهت يدخل فى نطاق المملكة الحيوانية ، فهو ليس من مملكة النبات كالبكتريا . والحق أنه قريب الصلة بالتريبنسومات ، وقد ينقلب إليها أحيانا

بالطبع هذا لم يكن غير حدس وتخمين رمى به خيال شودين رمياً ، ولكنه فعل بعقل إرليش الأفاعيل . قال إرليش : « إذا كانت الاسبيروشيتات بنات عمات التريبنسومات إذن فمركب رقم ٦٠٦ لابد قاتل الأخيرة كما قتل الأولى » . ولم يُعن إرليش أقل عناية ، أو يعكر صفو مزاجه أقل تعكير ، تلك الحقيقة الواقعة وهى أن أحداً من الناس لم يثبت قط أن هذه المكروبات بنات عمات . وما مثله من يعنى بمثل ذلك ... ومن هذا مشى قدما إلى يوم مجده الأكبر

(يتبع)

أحمد زكى



ليوناردو دافنشي

الرجل الكامل

للدكتور أحمد موسى

— ٢ —

أما المرحلة الثانية من حياته فقد بدأت عند ما استدعاه الدوق لودوفيتشو سفورزا للتوجه سنة ١٤٨٣ إلى ميلانو . وهناك استمتع بأجمل أيام حياته ، لأن الدوق نظر اليه نظرة الرجل المؤثر الذى يقدر الفن ويجله ، نظرة الرجل الذى يعلم بأنه لامعنى للحياة بدون الفن ، فاذا كان الدوق غنياً ومقدراً للفن ، فهذا معناه أن ليوناردو قد وفق الى الوجود الشخصية التى تعمل على تشجيعه ومعرفة قدره ، فعمل بكل قواه على إظهار مواهبه ، فكان معماريا ومهندسا وعالما ومشجعا للأكاديمية كما كان نحاتاً ومصورا .

وله فى هذه المرحلة لوحات رائعة منها صورة الدوق وصورة لعائلته ، ولوحات لبعض رؤوس غاية فى القوة والجمال .

وأهم أعماله فى هذه المرحلة ، بل وفى حياته كلها صورته المعروفة « العشاء الأخير » والمحفوظة بدير القديسة ماريا فى ميلانو . صورها فى سنتين ، وهى للأسف فى حالة غير مرضية الآن ، ولكن لحسن الحظ أن منها جملة لوحات مقلدة متقنة ومعاصرة لها . وهذه اللوحة تمثل المسيح ، وقد توسط تلامذته الاثنى عشر مجتمعين حول مائدة بعضهم جالس والبعض الآخر واقف ، وأمامهم الخبز والاطباق وأكواب الشراب . قال المسيح لتلامذته : « إن أحدكم سيسلمنى ! » فما كان من تلاميذه إلا أن اتجه بعضهم إليه وبعضهم إلى بعض متسائلين مستفسرين ، متألمين خائفين ، تمثل الوجد على وجه كل منهم ، فبعضهم أشار بأصبعه ، والبعض أشار بيديه .

أنظر إلى ش - ٢ - وتأمل القوة الانشائية والاخراج العظيم ترى الوجوه الثلاثة عشرة مختلفة الوضع والتفاصيل والتكوين الكلى ، والحركة البادية والمعنى الذى يعبر عنه كل منهم فى منتهى الرقة والحسن .



العشاء الاخير ، بميلانو - سانتاه ماريا دى لاجراتسيا

أما التوازن البادى على مجموعهما الشكلى والوضعى فهو عظيم وأما اختلاف التكوين الجسمانى لكل منهم، واختلاف الطريقة التى يجلس أو يشير بها،فهى رائعة ، لأن هذا الاختلاف لم يذهب بك إلا إلى منتهى حسن الانسجام وكمال الاندماج .



موناليزا ـ متحف اللوفر

أنظر إلى الأيدى ، وتأمل الأكف التى استطاع بها ليوناردو اخراج ست وعشرين يداً ، لانرى منها واحدة تشبه الأخرى ، أليس هذا منتهى ما يطمح اليه فنان ؟ لم يترك ليوناردو الحوائط دون تحلية ، ولم يفته أن يصور لك منظراً ظهرت بعض أجزائه من خلال الباب والشبابيك فى مؤخر للصورة . فكأن هذه القطعة لم تخلد مجد ليوناردو فحسب ؛ بل هى لوحة من اللوحات الخالدة الفذة فى تاريخ الفن كله .

وبدات المرحلة الثالثة من مراحل حياته عند ما غادر ميلانو سنة ١٤٩٩ متنقلا حتى وصل البندقية (١٥٠٣ - ١٥٠٦) ثم فلورنسوا (١٥٠٦ - ١٥١٦) ثم غادرها إلى فرنسا لخدمة الملك فرانس الأول سنة ١٥١٦ وعاش فى قصر كلو حتى وفاته فى ٢ مايو سنة ١٥١٩ بعد بلوغه السابعة والستين .

وقد أنتج فى هذه المرحلة لوحات كثيرة أيضا ، منها لوحة القديسة أنا ، والقديسة مريا ، وعيسى ويوحنا بأكاديمية لندن ،

وكلها بروؤس هائلة رائعة ، امتزج فيها الظل بالنور امتزاجا لا يستطيعه إلا ليوناردو . وبعض هذه الصور كان على الكرتون الذى خصصه لتصميم رسم لعمل الفسيفساء فى بيت البلدية بفلورنسا منها قطعة أسماها مذبحة انجيارى . وقد فقدت هذه الكارتونات ما عدا القطعة الوسطى منها التى مثلت المقاتلة على العلم ، وهذه القطعة ش - ٣ - قد نقلها الفنان روبنز (راجع الرسالة بتاريخ ٣ يناير سنة ١٩٣٧) عن الأصل وهى محفوظة باللوفر .

والناظر اليها يرى العنف والشدة يتمثلان فى كل جزء من أجزائها ، ولعلنا نستطيع أن نعرف أثر الفن الاغريقى فى ليوناردو وعند ما تتذكر تلك الصور التى شملها مقالنا عن منحوتات معبد بارتنون (اكروبوليس أثينا) .

وله لوحة هى أجمل ما صوره دون منازع ، ألا وهى « مونا ليزا » محفوظة باللوفر ، ولا يمكن مهما حاولنا الوصف أن نقدر جمال هذه القطعة ش - ٤ - دون مشاهدتها فى الأصل بألوانها الطبيعية الخلابة التى تمثل الجمال الايطالى فى أسمى مظهر له انظر إلى ابتسامتها الساحرة الخالدة التى تجذب إليها المشاهد الراغب فى الجمال النبيل .



صورة خطية لسيدة ـ جالبرى أوفيزى

وله غير ذلك لوحات فذة الى جانب لوحاته الخطية بالقلم الرصاص وهى ايضا من أروع مايمكن تصويره اطلاقا ، منهاجزء محفوظ باللوفر وفينيسيا وميلانو .

احمد موسى



معهد للدراسات الاسلامية بالجامعة المصرية

قرر مجلس إدارة الجامعة المصرية أن ينشئ معهداً جديداً للدراسات الاسلامية يلحق بكلية الآداب: وقد نص في مشروع تنظيم هذا المعهد الجديد أن الغرض من انشائه «تمكين الأساتذة والطلاب من العناية المنظمة بالعلوم الاسلامية من طريق الدرس والبحث ونشر النصوص القديمة. ومن طريق التأليف والترجمة أيضاً، وتبيين مدى ما كان من صلة بين الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية»: وأما العلوم التي ستدرس في هذا المعهد فهي القرآن الكريم وما يتصل به من العلوم، والحديث وما يتصل به، والفقه وأصوله، والتاريخ الاسلامي وعلومه، واللغة العربية وعلومها وصلتها بالدين الاسلامي، واللغات الشرقية الاسلامية وآدابها من حيث صلتها بالدين الاسلامي. وسيعتبر المعهد من المعاهد العالية ولا يلتحق به إلا من يحمل ليسانس الآداب، أو ما يعادلها. ومدة الدراسة فيه سنتان، وسيجري على قاعدة التخصص، فيتخصص الطالب في إحدى المواد المذكورة ويتقدم إلى نيل الدبلوم برسالة في مادته.

وهذه خطوة موفقة في الواقع. فقد كانت الدراسات الاسلامية في الجامعة إلى اليوم مشتتة مبعثرة، ولم تكن برامج كلية الآداب المقتضبة لتسمح بالتوسع في هذه الدراسات إلى الغاية المقصودة؛ وكان مما يبعث على الأسف أن نجد في كثير من الجامعات الأوربية الكبرى معاهد خاصة بالدراسات الاسلامية ولا نجد لها في جامعتنا المصرية نظيراً. نعم إن العلوم التي ستدرس في المعهد الجديد يدرس معظمها في الجامع الأزهر، ولكن الدراسة الأزهرية لهذه العلوم لا تجري على القواعد العلمية الحديثة ولم تحقق حتى اليوم آمال أنصار الثقافة الاسلامية في ميدان التخصص المستنير والتحقيق العلمي الصحيح.

الأستاذ ليفي بروفنسال

وفد على القاهرة منذ أيام العلامة المستشرق الأستاذ ليفي بروفنسال عميد معهد الدراسات الاسلامية برباط المغرب ليقوم ببعض بحوث في مخطوطات بدار الكتب المصرية. والأستاذ بروفنسال من أكبر الاخصائيين في عصرنا في تاريخ الاندلس والمغرب أو كما يسميه تاريخ الغرب الاسلامي. وهو منذ ثلاثين عاماً يحقق وينقب في هذا الميدان؛ وله فيه عدة مؤلفات نفيسة منها بالفرنسية «تاريخ اسبانيا المسلمة في القرن العاشر» و«النقوش العربية في اسبانيا». وقد أصدر طبعة جديدة بالفرنسية لتاريخ العلامة دوزي «تاريخ دولة المسلمين في اسبانيا لغاية الفتح الرابطي»، مقروناً بهوامش ومذكرات نفيسة. وأصدر فهرساً جديداً بالفرنسية للمخطوطات العربية في الأسكوريال. ونشر عدة مؤلفات عربية قيمة في تاريخ الأندلس والمغرب منها الجزءان الثالث والرابع من كتاب البيان المغرب لابن العذري المراكشي، وقطعة من تاريخ ابن حيان، وكتاب لابن البيدق عن ابن تومرت. هذا عدا بحوث عديدة في هذا الباب في المجلة الأسيوية، وفي دائرة المعارف الاسلامية. وقد وفق الأستاذ بروفنسال أيضاً إلى العثور في مكتبات المغرب على عدة مخطوطات نفيسة عن تاريخ المغرب والأندلس منها كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام. ولديه الآن منه نسخة كاملة؛ ومنها الجزء الرابع الذي يحتفظ منه بنسخة وحيدة. ويعني الأستاذ الآن بالعمل لاخراج هذا الأثر النفيس، وقد أعد بالفعل أصول الجزء الأول منه، وربما قرر طبعه بمدينة القاهرة ويعاونه في هذه المهمة الجليلة عدة من الزملاء الأعلام

لجنة تأبين الرافعى

لبى دعوة الأستاذ الكبير محمود بك بسيونى رئيس مجلس الشيوخ بصفته رئيساً للرابطة العربية ، لفيف كبير من أئمة الأدب والبيان وأعلام الفكر والقلم للنظر فى تأليف اللجنة التى تؤدى واجب الرثاء والذكرى لفقيد العروبة والأدب السيد مصطفى صادق الرافعى . ولما اكتمل عقد الاجتماع طلب سعادة الرئيس وقف الجلسة دقيقتين حداداً على الفقيد الكريم وبعد ذلك شرع فى تكوين اللجنة فتم تأليفها على النحو الآتى :

سعادة الأستاذ الكبير محمود بسيونى رئيساً ، والأستاذ كامل زيتون سكرتيراً ، وحضرات أصحاب العزة والسيادة الدكتور محمد حسين هيكل بك والدكتور منصور فهمى بك وخليل ثابت بك وأنطون الجميل بك وميرزا مهدى رفيع مشكى بك والاستاذ احمد الاسكندرى وعبد الحميد سعيد بك والاستاذ محمد توفيق دياب ومصطفى عبد الرازق بك وعلى الجارم بك ومحمد أحمد جاد المولى بك وخليل مطران بك والأستاذ محمد مسعود والدكتور محجوب ثابت والأستاذ أحمد فريد رفاعى بك والأستاذ أحمد أمين والأستاذ أحمد حسن الزيات والسيد محمد الخضر حسين والدكتور زكى مبارك والدكتور أحمد نشأت وصالح جودت بك والأستاذ محمد عبد اللطيف دراز والأستاذ سامى السراج والأستاذ خير الدين الزركلى والاستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى والاستاذ عبد الله عفيفى والسيد عبد المقصود خضر والاستاذ محمد الهراوى والاستاذ محمد الأسمر والاستاذ أحمد الزين والاستاذ حسين شفيق المصرى والاستاذ حافظ محمود والاستاذ رمزى نظيم أعضاء

ثم قررت اللجنة ما يلى :

١ — أن يكون موعد الحفلة فى اكتوبر المقبل مراعاة لفصل الأجازات الصيفية حتى يتمكن عارفو فضل الفقيد ومحبو آثاره من الاشتراك فى هذا الواجب المقدس

٢ — مخاطبة حضرة صاحب المعالى وزير المعارف العمومية فى شأن التصريح باقامة الحفلة بدار الأوبرا الملكية

٣ — توجيه الدعوة إلى حضرات الأدباء والشعراء بمصر والأقطار العربية الكريمة للاشتراك فى تأبين الفقيد وإرسال ما تجود به قرائحهم باسم سكرتير اللجنة الأستاذ كامل زيتون بعنوان الرابطة العربية بحدائق القبة شارع الملك رقم ١١٢

٤ — تكوين لجان من بين حضرات الأعضاء للشعر والنثر والتنظيم والنشر وتفويض كل لجنة فى أن تضم اليها من ترى فى اشتراكهم تحقيقاً لأغراضهم

٥ — تمثيل الأقطار العربية فى لجنة التأبين بقدر المستطاع حتى يقوم جميع الناطقين بالضاد بما يجب عليهم نحو الفقيد الكريم

٦ — تحديد الموضوعات النثرية التى سيتناولها الأدباء لبحثها والكتابة فيها وهى :

(١) تاريخ حياة الفقيد ومؤلفاته
(٢) مكانة الفقيد فى الشعر
(٣) المعركة بين القديم والحديث
(٤) أدب الرافعى الدينى
(٥) الجوانب الوجدانية فى أدب الرافعى
(٦) القصص التاريخى فى أدب الرافعى
(٧) أسلوب الرافعى فى الكتابة والنقد

ثم ارفض الاجتماع على أن تكون الجلسة المقبلة فى الاسبوع الأول من شهر يونيو المقبل

سكرتير اللجنة : كامل زيتون

تأبين الرافعى فى حمص :

لقد عزم فريق من أدباء الشباب الحمصى على أن يقيم حفلة تأبينية كبرى لفقيد البيان العربى المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وستكون الدعوة للاشتراك فى هذه الحفلة عامة تضم نخبة ممتازة من أدباء سوريا وشعرائها نخص بالذكر منهم الأساتذة : معروف الأرناءوط ، عمر أبو ريشه ، سامى الكيالى ، رفيق فاخورى ، أنور العطار ، محمد روحى فيصل ، عبد القادر جنيدى ، محيى الدين الدرويش ، رضا صافى ، برهان الأتاسى ، نذير الحسامى ، فؤاد الخورى ، بدر الدين الحامد ، أحمد نورس ، عبد الرحمن أبو قوس

سكرتير اللجنة : عبد القادر جنيدى

الطب المصري القديم

في سنة ١٨٧٣ نشر العلامة الأثري الألماني جورج ابرس وثيقة مصرية من البردي وفق إلى العثور عليها . فكان لها وقع عميق في جميع الدوائر العلمية إذ ظهر أنها تحتوي على خلاصة كبيرة من طب المصريين القدماء ؛ وهذه الوثيقة التي هي أكبر وثيقة من نوعها ترجع إلى سنة ١٥٥٠ ق . م . ومن ذلك الحين عثر المنقبون على عدد آخر من الوثائق الفرعونية الطبية ، منها وثيقة كاهون التي ترجع إلى سنة ١٨٠٠ ق . م ووثيقة ادوين سميث التي ترجع إلى سنة ١٦٠٠ وهي خاصة بالجراحة الفرعونية ، ومجموعة برلين الطبية وغيرها . وقد ظهر أخيراً كتاب عن وثائق الطب الفرعونية ولاسيما وثيقة ابرس عنوانه « بردى ابرس The Papyrus Ebers بقلم ثلاثة علماء دنماركيين هم : ايبل ولفين ومونكسجارد

وفي هذا الكتاب شرح واف لوثيقة ابرس وبسط لمحتوياتها الطبية وهي فيما يبدو أثمن مجموعة من نوعها . والظاهر أنها بمثابة شرح عام لقواعد الطب الفرعونية ؛ ومعالجة الأمراض المختلفة ، وبها عدة أقسام ، فمنها مثلا قسم يتعلق بعلاج الأمراض الباطنية ، وآخر بفن الجراحة ، وقسم للعقاقير الشافية ؛ والظاهر أيضاً أن ما فيها من المعلومات يرجع إلى عصر متأخر عن الذي كتبت فيه . ويقول الدكتور ايبل إن كثيراً من المعلومات تدلل على مبلغ ما وصل إليه الفراعنة في فن الطب والعلاج من البراعة والمقدرة ؛ ثم إن كثيراً من العقاقير والعلاجات التي وصفت الأمراض خاصة تدلل على تقدم فن الكيمياء والصيدلة لديهم وعلى وقوفهم على أسرار كثير من الجواهر والعناصر العلاجية المفيدة

تنظيم أوراق البردي المصرية

قرأنا في البريد الألماني الأخير نبأ لم يرد في الصحف المصرية ، وهو أن الحكومة المصرية قد استدعت العلامة الأثري الألماني الدكتور هوجو أبشر مدير قسم المحفوظات الكتابية بمتحف برلين إلى مصر ليقوم بتنظيم أوراق البردي المصرية بالمتحف المصري وقراءة رموزها واتخاذ التحوطات الكيماوية لحفظها . والدكتور أبشر أعظم حجة في قراءة أوراق البردي الفرعونية ، وله فوق ذلك مقدرة فنية خاصة في فصلها واستخراجها من رزمها الملصقة ، ومن بين لفائف المومياءات . ذلك أن أوراق البردي توجد أحياناً ملتصقا بعضها ببعض بحيث يتعذر فصلها . ولما كانت تكتب غالباً من الجانبين ، فانه يجب بذل جهود فنية دقيقة لفصلها دون أن تمزق . وهذا هو فن الدكتور أبشر فهو يتولى فصلها وجمع قطعها ثم قراءتها . وقد اشتهر الدكتور ابشر بالأخص بتنظيم مجموعة البردي الخاصة بالفيلسوف ماني ، والتي وجدت بالفيوم منذ أعوام وتسربت إلى خارج مصر . واستطاع تصنيفها واستخراج صحائفها سليمة ، ومنها كتب بأسرها من كتب ماني . والمنظور أن يقضي الدكتور ابشر بمصر ثلاثة أشهر ليقوم بمهمته العلمية والأثرية الدقيقة ؛ لأن مصر تحتفظ بثروة طائلة من هذه الأوراق الأثرية النفيسة

ذكرى الموسيقى فاجنر

تحتفل مدينة لايبزج في العام القادم بذكرى الموسيقي الشهير ريخارد فاجنر لمناسبة مرور مائة وخمسة وعشرين عاماً على مولده ومرور خمسة وخمسين عاماً على وفاته ؛ وبهذه المناسبة ستمثل في مسرح لايبزج جميع أوبراته الشهيرة ، وستقوم بتنفيذها فرقة تحرص على تقاليد الموسيقي الكبير وسيحتفل في نفس الوقت بازاحة الستار عن أثر عظيم لفاجنر



اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضى بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمى

— ٦ —

عرضنا على القارىء فى المقالات الخمس السابقة أمثلة من الأغلاط التى يجدها القارىء فى ترجمة الأستاذ صروف ، ولقد وصلنا فى نقدنا إلى الفصل السادس من الكتاب ونظن أن الأمثلة التى ذكرناها تكفى لأن تعطى القارىء فكرة صحيحة عن هذه الترجمة ؛ وقد كانت معظم الأغلاط التى ذكرناها إما عبارات محذوفة رغم أهميتها ، وأما عبارات أضافها المؤلف من عنده غيرت المعنى ، وإما جملا ترجمت ترجمة خاطئة أفسدته . وقد ذكرنا مثلا أو مثلين من العبارات الغامضة التى لا يستطيع القارىء أن يفهم لها معنى . وسنلقى نظرة عاجلة على الفصول الباقية من الكتاب ونمر بها مراً سريعاً وسنضرب صفحاً عن العبارات المحذوفة أو المضافة ونكتفى بذكر أمثلة قليلة من العبارات التى ترجمت على غير حقيقتها فغيرت المعنى تغييراً كبيراً ، وذلك لكى نصل إلى الفصول الأخيرة من الكتاب فننقل للقراء نوعا جديداً من الأغلاط هو تحريف الأسماء وتغييرها . وليس أضر على الكتب التاريخية والجغرافية من تحريف الأسماء لأن ذلك يفقدها قيمتها

فمن العبارات التى ترجمت على غير حقيقتها .

Gordon's aide de camp

وقد ترجمها المؤلف بقوله « رئيس أركان حرب الجنرال غردون » وليس معنى aide - de - camp أركان حرب ولا رئيس أركان حرب بل معناها « ياور » وقد ظننا أول الأمر أن القاموس لم يذكر هذا اللفظ - وإن كان هذا لا يجيز للأستاذ صروف أن يخطىء فيه - ولكننا وجدناه مشروحاً شرحاً وافياً لا لبس فيه ولا غموض فقد فسر هذا اللفظ هكذا .

An offirer who carries the onders of a general on the field and brings him Intelligence

(١) الضابط الذى ينقل أوامر القائد فى ميدان القتال ويأتيه بالأخبار . فهل هذا عمل رئيس أركان حرب الجيش . إن الاستاذ صروف نفسه قد ترجم Chief of staff فى ص ١١٣ من الكتاب برئيس أركان حرب ولا ندرى لماذا لم يتنبه بعد ذلك إلى اصلاح خطئه السابق .

(٢) ثم أنظر إلى هذه العبارة الغامضة التى لا يستطيع الانسان أن يفهم لها معنى « أما الشأن المعزو إلى عمل الكولونيل ماسون فراجع إلى كونه اكتشف نهراً يخرج من بحيرة ألبرت » . إن وضوح المعنى هو أول ما يجب أن يحرص عليه المترجم

(٣) وهاك مثلا آخر من الغموض الذى يحير القارىء ، ذلك هو قول الأستاذ صروف فى وصف ابراهام بك « رقيب » اسماعيل باشا فى الآستانة « ولكنه مع سيطرته على سياسة الباب العالى وعدم إخفائه نوره تحت مكيال تمكن من أن يجتنب الشهرة الصحفية » فهل لأحد القراء أن يدلنا على معنى « وعدم إخفائه نوره تحت مكيال » ؟ أو على معنى « تمكن من أن يجتنب الشهرة الصحفية » ؟

إن الذى يعجب له كثيرا أن الأستاذ صروف فى بعض الأحيان يترجم عبارات المؤلف كلمة كلمة وإن لم يؤد ذلك إلى معنى ، وفى البعض الآخر يغفل عبارات المؤلف ويأتى هو بعبارات من عنده مع أنه لو لم يتصرف فيها وترجمها ترجمة حرفية لجاء بالمعنى المراد .

(٤) ولا يختلف عن هذا قول الاستاذ صروف « وعرض على المقترح التالى حبرا على ورق » والمعنى الوحيد الذى أفهمه أنا ويفهمه القارىء من لفظ حبر على ورق هو « أنه شىء لا قيمة له

أولا يراد له بقاء ، ولكن المؤلف يريد أن يقول إن صاحب الاقتراح عرضه « كتابة » :

He submitted to me in writing.

(٥) ثم انظر معى أيها القارىء كيف ترجم الأستاذ صروف العبارة الآتية : —

As soon as the consideration fon its transfer wos forth coming.

فقال « ولما كان النظر فى هذا التبادل متوقعاً فى المستقبل » وهو كلام ليس له معنى : والمؤلف يريد أن يقول « ولما أوشك المال أن ينتقل من يد إلى يد »

(٦) وانظر أيضاً إلى العبارة التالية من قول المؤلف

And i take it therefore that a certain solid advantage attached, at any rate in his opinion, to the distinction betwèen his being officilaly dsicribed as a k'hedive instead of as a vicerey.

وإلى ترجمة الأستاذ صروف وهى :

وعندى أنه كان يعلق امتيازا – فى رأيه على الأقل – على التميز بين تلقيبه بلقب خديو بدلا من وال .

ومعنى هذه العبارة هو « ولهذا أعتقد أنه هو على الأقل كان يرى أن ثمة فائدة حقيقية فى تغيير لقبه الرسمى من وال إلى خديو »

(٧) وهاك مثلا آخر لا يقل عن الأمثلة السابقة فى تغيير المعنى قال المؤلف نقلا عن رسالة إلى سمو الخديو

Your Highness will afford the Sutn pleasure if your Highness will give L 7 500 plus 1,100 for the Imperial suite and ship's company.

فقال الأستاذ صروف « إن سموكم تتيحون لجلالته فرصة للاغتباط إذا تبرعتم بمبلغ ٧٥٠٠ جنيه مضافا إليه ١١٠٠ للحجرات الملكية فى السفينة » فجعل الأستاذ عبارتى Imperial suite – Ships Com-oany شيئاً واحداً ثم ترجمها ترجمة خاطئة بقوله الحجرات الملكية فى السفينة ، والمعنى الحقيقى هو « الحاشية السلطانية ورجال السفينة أو بحارة السفينة ، ويريد بهما الحاشية التى صحبت السلطان إلى مصر وبحارة السفينة التى أقلته اليها فى هذه الزيارة

(٨) وقال المؤلف أنه كان يفهم أن ... Beys ana journaistsits cost less than birds and dogs. فقال الأستاذ صروف فى الترجمة

« ما ينفق على بعض الباشوات والبكاوات كان أقل مما ينفق على الطيور والكلاب »

لا ندرى لماذا استبدل الباشوات بالصحفين مع أن أولئك الصحفيين الذين يشير اليهم المؤلف كانوا كلهم من الأجانب وليس منهم باشا واحد .

(٩) وهذه عبارة أخرى أخطأ المترجم فى فهمها فقلب معناها : أرسل ابراهام إلى الخديو يبلغه أنه قابل الصدر الأعظم وحادثه فى شأن المبلغ الذى طلبه هذا وهو ١٥٠٫٠٠٠ جنيه وشرح له وجهة نظر سمو الخديو ثم يقول :

He entirely approves of it, thanks your highness for having proposed it, and accepts it.

والمعنى الذى يفهمه كل إنسان من هذه العبارة هو أن الصدر الأعظم يوافق على اقتراح سمو الخديو ويشكر له اقتراحه ويقبله ولكن الاستاذ صروف يقول فى ترجمة هذه العبارة :

« وهو يوافق عليها كل الموافقة ، ويعرب لكم عن شكره لسموكم لأنكم اقترحتموها وقبلتموها » وبذلك جعل سمو الخديو هو صاحب الاقتراح وهو الذى يقبله وهو كلام غير معقول ويخالف النص الانجليزى كل المخالفة ، فالخديو هو الذى اقترح والصدر الأعظم هو الذى قبل الاقتراح .

(١٠) ومن العبارات التى لا يستطيع إنسان أن يفهم معناها قول الأستاذ صروف عن ديون اسماعيل « إن هذه الأرقام تدل على أن أصحاب البنوك ابتزوا من اسماعيل مبلغ ٢٣٫٢٤٧٫٨٠٠ جنيه على قروض مجموعها ٤١٫٩٥٧٫٠٠٠ وأما هذا المبلغ بخصم كبير ولا سيما لأن جميع هذه القروض ما عدا قرض سنة ١٨٦٥ كانت بفائدة ٧ فى المائة .

ولا ندرى ما ذا يريد الأستاذ بقوله وأما هذا المبلغ بخصم كبير الخ وبهذه المناسبة نقول إن الأستاذ صروف استبدل برقم ٦٥٫٢٠٤٫٠٠٠ جنيه الذى ذكره المؤلف رقماً جاء به هو ، وذلك الرقم هو ٤١٫٩٥٧٫٠٠٠ لسبب لا نعرفه

(١١) هل يصدق أحد أن نفقات حملات إفريقية الوسطى كانت أكثر نسبياً من نفقات الحرب العظمى الماضية ؟

ذلك ما يقوله لنا الأستاذ صروف فى ص ١١٥ من ترجمته مع أن كل ما يقوله المؤلف هو

The Armies thus equipped cost relatively large sums.

إن عدم الدقة فى الترجمة يفسد كل شىء على المترجم

(يتبع) الغنيمى

5 me Année, No. 204

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 31 - 5 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العــدد ٢٠٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ — ٣١ مايو سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العــدد

٨٠٥٦

من أيامنا المشهودة

مصر فى جمعية الأمم

دخلت مصر يوم الأربعاء الماضى عضوا فى جماعة الأمم فكانت تحية دخولها نشيداً من أناشيد النصر هتفت به خمسون دولة من دول التمدن ، تمجيداً لأول أرض رأت الحضارة ، وأقدم أمة عرفت المدنية ، وأعرق دولة قدست المعرفة ؛ وكان يوم دخولها عيداً من أعياد الحرية خفقت له القلوب الرزينة ابتهاجاً بظفر الحق بالعدالة ، وضمان الاستقلال بالقانون ، وتوكيد السيادة بتحقيق المساواة ؛ وكان حادث دخولها الفصل الختامى من ملحمة الجهاد المقدس فى سبيل الحرية المقدسة ، فصفقت له أكف الساسة فى العالم ، وارتفعت له ألوية السلام فى جنيف ، وخطب ثمانية وعشرون خطيباً فى مجلس العصبة فقالوا فى مصر بعض ما قال التاريخ المتحجر الماثل على جبهة الدهر ، فما احتك فى الصدور شبهة من صرف الحديث ولا زور المجاملة . قال السنيور كيفيدو الامريكى : « ان الدولة التى تطرق بابنا اليوم تمثل العالم بقدمه وجدته . ولكن هذه المظاهر على تنافرها تتسق فيها فتؤلف شيئا واحدا كاملا له قيمة تكاد تكون رمزية بالنسبة الينا جميعا . فمصر تدخل

بيننا مكللة الجبين بمجد لا نظير له ، لأنها البلاد التي نبت فيها كثير من المدنيات ، وحفظت على أرضها كثيراً من الشواهد الرائعة على عبقرية بلغ من اتساع مداها أن رفدت كل فن وأمدت كل حضارة . ان مصر صاحبة هذا الميراث العريق في القدم الحافل بالروائع ، تتقدم الينا اليوم في مظهر دولة في ريق الشباب ونضرة العمر وطدت مكانتها على التدريج في المجتمع الدولي ، وحصلت على استقلالها بفضل جدارتها الخاصة ونضجها الكامل » ثم قال السيد رشدي آراس وزير خارجية تركيا : « ان هذه البلاد ذات الخطر العظيم بين أمم البحر الابيض المتوسط . . . قد استطاعت في زمن يسير أن تقطع المراحل المتتابعة في تطورها السلمي المجيد . وإني لأذكر حادثاً تاريخياً يتعلق بروابط مصر القديمة بأحد شعوب آسيا الصغرى ، فقد ثبت من الأدلة الاركيولوجية أن أقدم صك دولي ، أو أقدم معاهدة سياسية ، هي التي عقدت بين المصريين والحيثيين » وقال المستر إيدن وزير انجلترا : « إننا هنا خمسون دولة ليس بينها من لم يكن مديناً إلى حد ما لحضارة مصر السامية . فقبل أن تخرج بعض الأمم التي تمثلها من مجاهلها الأولى بزمن طويل ، كانت مصر قد منحت الجنس البشري هبات من العلوم والآداب فوق كنوز الفنون التي لا تبارى ولا تزال إلى اليوم مصدراً للأعجاب والعجب » ، وقال المسيو بوليتيس وزير اليونان : « إذا كانت أثينا أم المدنية الحديثة في أوربا ، فان مصر جدتها على التحقيق ، فقد أثبتت الكشوف الاثرية أن مصر أفاضت على العالم من علمها وفنونها وآدابها وفلسفتها ، وأنها كانت مدرسة للاغريق أنفسهم ، حتى أن الأدب الأغريقي الخالد قد اقتبس من الأدب المصري كما دلت على ذلك المقارنة » .

وكلام البقية من الخطباء الوزراء مضروب على هذا الايقاع ، مطرود على هذا النسق ، فلم تشهد القاعة الدولية حفلاً كهذا الحفل ، ولا قولاً كهذا القول .

* * *

كان مجد مصر ونبل مصر وعبقرية مصر أمثالاً مضروبة على لسان التاريخ ، وتماثيل منصوبة على وجه الأرض ، تعقد عليها الكتب ، وتطوى اليها المراحل ، ولكنها في أيام جهادنا الدامي العنيف كانت شهادة لا تدل وأثراً لا يذكر ، فكنا نحن المتمردين على ضراعة الذل واستكانة الرق ندعى : (آراب) و(أنديجين) ثم لا يرفعنا نسب عمرو ، ولا تغنينا قرابة (مينا) . فلما انتهى أمر الدولة المحتلة بالمعاهدة ، وأمر الدول الممتازة بالاتفاق ، لم تبق إلا كلمة الحق ؛ ولا يضر كلمة الحق أن تقال في الآخر ، فان من الحق أيضاً أن عظمة الأجداد وآثار الأمجاد تظل سطوراً في الصحف ، أو صخوراً على الثرى ، حتى تتاح لها من الأبناء ألسنة فتذكرها وأيد فتنشرها وأعمال فتحييها

لا ريب أن ماضي مصر المجيد كان له أثر ظاهر في هذه المظاهرة الدولية ، ولكن براعة المفاوضين وكفاية الممثلين كانتا شاهد هذا التاريخ وباعث هذا المجد . فاذا فخرت مصر بآبائها الذين أشاد بفضلهم أقوى أمم الدهر ، كانت حرية أن تفخر كذلك بأبنائها الذين جروا في عنان مع أسبق أمم الارض

* * *

قال وزير خارجية فرنسا في خطبته : « إن مصر ستفد إلى جنيف بتجارب الشرق ، ولكنها حين تحمل الغرب على الاستفادة من حكمة الشرق . ستحمل هي نفسها على تجديد حضارتها بحضارة الغرب »

وهذا كلام لا يحتاج حقه إلى شاهد ؛ ولو طبق على معناه ومغزاه لكان خليقاً أن يفتح للعصبة باب عهد جديد . فقد دأب الغرب لقوته على أن يعطي ، ودأب الشرق لضعفه على أن يأخذ . وليس ما عند القوي خيراً كله ، ولا ما عند الضعيف شراً كله ؛ وأولى المؤسسات الغربية بالأخذ عن الشرق هي عصبة الامم ، فان مبدأها السلام وغايتها السلام ؛ وليس لدين الشرق وحكمة الشرق إلا هذه الرسالة .

فلعل مندوبي مصر والعراق وإيران وأفغانستان والهند وتركيا أيضاً ، يحملون عن مطلع الشمس إلى مغربها هذه الامانة ، فيسطعون في جو الجمعية سطوع النور ، ويرفون في جوانبها رفيف الروح ، فيكون من أصواتهم الندية للعالم الشارد المجهود سلام ووئام ورحمة

امتيازات من نوع آخر

للأستاذ احمد أمين

هل لاحظت أنك إذا استعرضت مقاهى مصر وفنادقها رأيت أن أعظمها بناء، وأحسنها نظاماً، وأغناها رواداً، وأجملها موقعاً، وأشدها إتقاناً للخدمة، وأكثرها تفنناً فى إدخال الراحة والسرور على زوارها، وأمهرها فى استدرار مال الجمهور عن رضى واختيار، إنما هى لسادتنا الأجانب؟ وأن أحقرها مكاناً - وأفقرها سكاناً، وشرها موقعاً، وأسوأها خدمة، وأرخصها سعراً، وأكثرها تفنناً فى إقلاق راحة زوارها، لايغشاها إلا من هزل جيبه، أو فسد ذوقه، أو اضطرته حاجة ملحة، أو ضحى براحته ولذته وسعادته لفكرته الوطنية ونزعته القومية، إنما هى لإخواننا المصريين؟

ثم هل لاحظت ان المقاهى والفنادق الارستقراطية وما يشبهها ومايقرب منها، صاحبها أجنبى، ومديرها أجنبى، والمشرف على ماليتها أجنبى، والذى يقدم اليك الخدمات الرفيعة أجنبى، ومن يقبض ثمن ما قدم ويأخذ منك «البقشيش» أجنبى؛ ثم من يمسح الأرض مصرى، ومن يتولى أحقر الأعمال مصرى، ومن يمسح لك حذاءك فى المقهى أو الفندق مصرى، ومن يجمع أعقاب السجاير مصرى؛ وأن الأجنبى له الخيار فى الأعمال، فما استنظفه عمله بنفسه، وما استقذره كلف به مصرياً؛ ثم أنت لا تجد العكس أبداً فى المقاهى المصرية والفنادق المصرية. فلا تجد رئيساً مصرياً ومرءوساً أجنبياً، ولا تجد الأعمال الرفيعة لمصرى، والأعمال الوطنية لأجنبى؛ وإذا كان لكل قاعدة استثناء كما يقولون فقد ظفرنا فى هذه الحال بقاعدة لا استثناء فيها

***

وهل تتبعت الصناعات فى مصر فرأيت أن كل صناعة رأسها أجنبى وقدماها مصريتان؟ فخير ميكانيكى فى مصر أجنبى والجنالة مصريون. وقل مثل ذلك فى أعمال الكهرباء والنجارة والحدادة والخياطة، وما شئت من صناعة، حتى لقد زاحمونا فى مصنوعاتنا الوطنية، ونشأت فرقة من الأجانب تجيد عمل «الطعمية» و«الفول المدمس»، وبزت فيهما المصريين، وأصبحت الطبقة المصرية الأرستقراطية تشتهيهما من يد الأجنبى أيضاً وتفضل ما يصنعه على منتجات «أبى ظريفة» «والحلوجى»، ومن إليهما؟

فالصناعات فى مصر - على العموم - تتخذ شكل هرم، قاعدته التى تلامس الأرض للمصريين، وقمته التى تناطح السحاب للأجانب.

***

وهل بلغك أن فى بورسعيد - المدينة المصرية - حيين يسمى أحدهما «حى الفرنج» ويسمى الآخر «حى العرب»؟ فأما البناء الجيل، والنظافة والأناقة والعناية بالوسائل الصحية ومظهر الغنى والنعمة، ومظهر المدنية والحضارة، فلحى الفرنج؛ وأما مظهر الفوضى والإهمال والبؤس والفقر وسوء الحالة الصحية ومأوى الفقراء ومسكن التواضع والرضا بما قسم الله فلحى العرب؟

أو هل سمعت أيضاً أن «مصر الجديدة» - وهى ضاحية من ضواحى القاهرة - يسكنها كثير من الأجانب فينعمون بشوارعها الفسيحة، وبيوتها الضخمة الأنيقة؛ ثم فى ركن متواضع من أركانها ناحية تسميها الشركة «عزبة المسلمين» فيها كل ما لا يخطر على البال من تكدس السكان فى حجرة واحدة ومن إهمال ومن أمراض ومن فقر وبؤس، يفر منها من يسكنون بجوارها هرباً بأنفسهم وبصحتهم، وهرباً بعيونهم عن مناظر القبح، وبآذانهم عن ألفاظ الهجر، وبأنوفهم عن كريه الريح؟

أوليس مما يثير عجبك، ويبعث دهشك، أن كلمة «الأحياء الوطنية» فى مصر تحمل من المعانى كل أنواع السوء والفوضى والاهمال وكان يجب أن تحمل كل معانى العناية والنظافة والنظام؟

***

ثم هل رأيت الأجنبى فى وسط الفلاحين فى العزبة، هو وحده النظيف فى ملبسه ومسكنه ومأكله. وهو الذى له عقل يدبر ماله ويعرف كيف يستغله، وهم المغفلون الذين لا يعرفون

كيف يحسبون دخلهم وخرجهم ، ولا يعرفون حساب أموالهم ولا يعرفون كيف يديرون شؤون حياتهم ، فخضع هذا وهؤلاء لقانون الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح ؟

***

ثم هل علمت أن امتيازات أخرى بجانب هذه الامتيازات المادية ، هي امتيازات عقلية أو نفسية ؟

فان غلبة الأجنبي في الصراع بينه وبين المصري في مرافق الحياة المادية أوجدت حالة نفسية شرا من الحالة المادية ، مظهرها قلة وثوق المصري بنفسه وقوة وثوقه بالأجنبي . فاذا تعسرت حالة مرضية اتجه أهل المريض إلى الطبيب الأجنبي ، وإذا أراد رب مال أن ينجح في إدارته قصد إلى مدير أجنبي ، وإذا تعقدت مسألة حكومية أو أهلية اختير لها خبير أجنبي ، وإذا اختلف الباحثون في مسألة علمية كان الحكم الفصل قول المؤلف الأجنبي ، وهكذا في كل شأن من شؤون حياتنا ؟

واستتبع هذا تقويمنا للأجنبي قيمة غالية ، ودخل في التقويم أجنبيته أكثر مما دخل في التقويم فنه أو علمه

ألم يبلغك الحادث الطريف الذي حدث بالأمس من مدرس ثانوي للغة الفرنسية يتقاضى أمثاله في وزارة المعارف فوق الثلاثين جنيها ، فكان من سوء حظ هذا المدرس أن تجنس بالجنسية المصرية قبل أن يبت في مرتبه ، فلما طبقت عليه القوانين المصرية والحوائج المصرية ، كانت نتيجة ذلك أنه لم يمنح إلا اثنى عشر جنيهاً ؟ أو لم يبلغك المصري الذي اخترع بالأمس نوعاً من طوب البناء فعرضه على الجهات المصرية فخاب أمله ، ثم عرضه في انجلترا فأقرت قيمة اختراعه ، ثم تأسست شركة انجليزية برأس مال انجليزي لاستغلال هذا المخترع المصري ؟

والأمثلة على ذلك كثيرة تحدث كل يوم ، فيكاد يكون مغروساً في أعماق نفوسنا أن القبعة لا توضع على رأس سخيف ، وأن الطربوش لا يمكن أن يلف راس نابغ

***

إن كان في مصر دائن ومدين ، فالدائن الأجنبي والمدين المصري .

وإن كان في مصر غنى وفقر ، فالغنى للأجنبي والفقر للمصري .

وإن كان في مصر ذكاء وغباوة ، فالذكاء للأجنبي والغباء للمصري .

وإن كان في مصر نعيم وبؤس ، فالنعيم للأجنبي والبؤس للمصري .

***

هذه الامتيازات في المادة والعقل والنفس شر مما اصطلحنا على تسميته بالامتيازات الأجنبية

ومن الأسف أنها لا تحل بمؤتمر كمؤتمر مونترو ، ولا باشتراك الدول ومفاوضتها ، ولا بمعاهدة ، ولا بقانون

إن حلها أصعب من ذلك كله

إنها تحتاج إلى عقول جبارة ، وإرادات من نار ، وحمية لا حد لها ، ووطنية قوية وثابة

إنها تحتاج إلى مؤتمرات لا من جنس مؤتمر مونترو ، إلى مؤتمر يتكون من فطاحل في التربية يعرفون كيف فشا فينا مرض العبودية حتى حبب إلينا العمل الدنيء وبغض إلينا العمل الرفيع ، فرضينا من المقهى والفندق بمسح البلاط ولم أعقاب السجاير . ورضينا دائماً بفتات الموائد ، ولم نستطع أن نكون العمل الرفيع ونجلس في صدر المائدة ؟ ويعرفون كيف يقضون على أخلاق العبيد من ذل ومكر وخنوع واحتيال ودسائس ، ويحلون محلها أخلاق السادة من عظمة ، وصراحة ، وحب للعمل ، وطلب للمجد ، وعشق للصدارة ؟ ويعرفون طبيعة المصري ، وتاريخه ، وبيئته ، وأنواع الأسلحة العلمية والعقلية والخلقية التي يحتاج إليها ليستطيع الكفاح في الحياة والسير مع الأجنبي على قدم المساواة

فهذا خير ألف مرة من لجان تؤلف وتؤلف لزيادة حصة في الحساب ونقص حصة في الجغرافيا

ونحتاج لمؤتمر من القادة تكون مهمته العظمى إبادة روح المذلة الفاشية ، وبذر روح الغيرة النادرة ، وتعهدها بالتقاليد الجديدة التي ترعاها وتضمن نموها

نحتاج إلى مؤتمرات عديدة من هذا القبيل تغير وجه الحياة المصرية ، وتخلق قلب المصري خلقا جديداً ، فلا يخاف مرءوس رئيساً ، ولا يخاف مصري أجنبياً ، ولا يخاف محكوم حاكما

الخادمة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

وقفت نعيمة أمام المرآة تنظر فيها ، وتتأمل نفسها بادية فى صقالها ، وفى يدها منفضة من الريش الناعم ، ثم صوبت عينها إلى أدوات الزينة المرصوصة . . لقد صارت الآن خادمة وصار عملها أن ترتب هذه الغرف الوثيرة الأثاث . . فلشد ما انتقلت بها الأحوال !! منذ سنتين اثنتين ، لا أكثر ، كانت تنام على مثل هذا السرير . . وكان لها خدم ، وحولها حشم . . وكانت قلما تقوم قبل الضحى . . كانت تفتح عينيها ، وتتمطى ، وتتثاءب ، وتنظر إلى الساعة الدقيقة على معصمها فتعلم أن الشمس قد ارتفعت ، وأنه آن لها أن تنهض . وتمد يدها إلى الزر ، وتضغط فتجىء الخادمة ـ بهية ـ وتسألها « نعم ياستى ؟ » فتقول لها أعدى الحمام ، فتفعل وتجيئها قبل ذلك بالشاى وتنحى الستاير ... وتهم بهية بالخروج فتناديها وهى تتقلب على السرير من الكسل ، « والنبى يا بهية دوسى لى على كتنى ... كان هذا منذ سنتين . . كأنه حلم ! . . زالت النعمة كلها وأفلس أبوها « إفلاساً بتدليس » . . وانتحر ... وتركها تملك قوت يومها . . استطاعت أن تحيا ، على نحو ما ، بضعة شهور ، ثم لم يبق بد من ابتغاء الوسيلة إلى القوت . . وهذا أول بيت غريب دخلته لتعمل فيه

وانتقلت نعيمة إلى السرير ، وتناولت الوسائد الصغيرة المبعثرة عليه ، لتصلحها وترتبها ، فأوحى إليها منظر السرير الواطىء اللين الشعور بالحاجة إلى التمطى . . أن تستلقى عليه وتمد رجليها و تفتح ذراعيها وتتثاءب وتقول « آ . . الخ » . . . ولم لا ؟ . . إن هذا الجناح من البيت ليس فيه أحد . . وقد خرج سيدها منذ ساعة ، وهى الموكلة بهذه الناحية . . وليس هناك من تخشى أن يفاجئها سوى « حسن » . . ما أثقله !! هو رئيس الخدم . يدخل فى رحمته من يشاء ويخرج منها من يشاء . . لم يكن فى بيتها هى أيام النعمة رئيس للخدم . كانوا جميعاً خداماً ، وكانت هى الرئيسة دون سواها . . أمها ميتة ، وأبوها يدع لها هذه الأمور . . ولكن جميل بك يؤثر نظاماً غير هذا . . ولا سيما بعد أن فسد ما بينه وبين زوجته فخرجت من البيت

وجلست على السرير ، وهى تحدث نفسها بأنها لاشك تستطيع أن تسمع وقع قدمى حسن ، إذا خطر له أن يجىء إلى هذه الناحية . فانه ضخم غليظ ثقيل . . ومشيه دبدبة . ومالت على السرير ، وأراحت جسمها البض على فراشه اللين ، وحدثت نفسها ، وهى تحس أن جسمها يسترخى ، أنها خليقة أن تحمد الله على التوفيق إلى العمل ، فى بيت كهذا ، بعد الذى نزل بها ، وإنها إذا كانت لاتنام على هذا السرير فان من بواعث سرورها أن يكون أمره موكولا إليها ، وأن يكون فى وسعها أن تروح وتجىء فى هذا البيت الحسن ، وأن تكون فى خدمة

نحتاج إلى مؤتمرات تبيد الخوف إلا الخوف من الذل والعار ، وتبيد السيطرة إلا احتراماً لخلق أو قانون

***

ما أصعب هذه المؤتمرات وما أشقها وما أحوجنا إليها ! أنها تتكون من رجال من أمة واحدة ، ولكنها أصعب من مؤتمر مثلت فيه كل الدول ، لأنها مؤتمرات لا تلغى قانوناً موضوعاً ، ولكنها تلغى أخلاقاً موروثة ، و تقاليد سمرها الزمان ، وتحطم أوتاداً سهر عليها الحاكم الظالم المستبد حتى صلبت الأرض عليها

***

لست أومن بنظرية العمال العاطلين حتى يصعب على الأجنبى والمصرى الحصول على العيش الرغد على السواء . فأما إن سهل تحصيل العيش على الأجنبى وصعب على المصرى فليست النظرية ـ إذن ـ نظرية عمال عاطلين ، ولكنها نظرية فقر فى الأخلاق ، وجهل بفن الحياة

***

فهل لنا وقد نجحنا فى مؤتمر الامتيازات الأجنبية أن نوجه هممنا لمعالجة أختها الامتيازات التى هى من نوع آخر علنا ننجح أيضاً ؟

أحمد أمين

هذا السيد الكريم الوديع المهذب . . الحمد لله على كل حال ، .

ولو أن سيدها رآها ، وهى راقدة على سريره ، وأخذت عينه هذا المنظر الفاتن ، لكان الأرجح أن يقف مفتوح الفم من دهشة الاعجاب ولسحره ؛ وسمره فى مكانه ، هذا الخط المتموج الذى بدأ من فخذها الأملس ، ويرتقى ويستدير مع ردفها ، ثم ينحدر فى لين مع خصرها ، ثم يعود فيرتفع حتى يبلغ الحلمة الحلوة الناشزة من ثديها الراسخ . . وكان شعرها الذهبى مرسلا ، كأنه أمواج من النار على الوسادة . وأسندت نعيمة خدها الأسيل على الحرير الناعم ، وتنهدت . وخطر لها أن حظها على كل حال خير بما كان يمكن أن يكون . . كل شىء هنا حسن ، الاحسن ، ... فانه دميم غليظ ، وثقيل الدم بارده ، وفظ شرس ... ونظرته أعوذ بالله منها ! ... إنها لتتعلق بصدرها ، فتحس أنها نفذت إلى ماتحت ثيابها ، فكأنها واقفة أمامه عارية لا كاسية ! ... وما أكثر ما يلمس كتفها ، وهو يحدثها ، أو يدعوها إلى الوقوف ، . . فتسرى الرعدة فى بدنها . . وأصابعه ؟ . . ياحفيظ ! . . قصيرة ، غليظة ، مبططة !

وأغفت نعيمة ، وهى تفكر فى هذا وما اليه من مظاهر حياتها الجديدة ، ثم انتفضت قائمة وفى يقينها أن بعضهم ينظر إليها . ولكنها لم تر فى الغرفة أحدا ، فلا شك أنها كانت تحلم أو لعل هذا ضميرها يزجرها عن الاجتراء والتسحب بهذه الطريقة

ووقفت نعيمة وأجالت عينها فيما حولها ، فلمحت زجاجة عطر صغيرة ، فقد كانت فيما مضى تتخذ مثلها ، بل كان هذا هو العطر المفضل عندها . واضطربت يدها ، وهى تتناول الزجاجة . وترفع عنها الغطاء . . وأدنتها من أنفها الجميل ، لتشم ، وتنعم بالارج المفتر . . وإذا كان لا تسعها الآن أن تتعطر ، فلا أقل من متعة الأنف . . وما البأس . . وأحست وهى تنشق العطر الخفيف بالحنين إلى الأيام السالفة . . وتفلتت الزجاجة من بين أصابعها فارتفعت كفها الرخصة ، بسرعة ، الى فمها ، لتكتم صرخة جزع حين رأت الزجاجة تهوى على السجادة ، وقد حمتها السجادة ان تتكسر ولكن مافيها أريق كله ، وملأ الغرفة بارجه ، فصار المكان كأنه بستان زهر . وصوبت عينها إلى السجادة فرأت العطر قد رسم دائرة كبيرة داكنة على النقوش الفارسية الجميلة ، فانحنت والتقطت الزجاجة الفارغة ، وردتها إلى مكانها . وسمعت فى هذه اللحظة صوتا فريعت ودارت على عقبها ، فاذا حسن أمامها يتنرها النظر كأنما يريد أن يأكلها بعينيه ، وكان قد دخل كالقطة ، وساعده لين السجادة السميكة على إخفات صوت قدميه الغليظتين

وكان حسن ينهج كأنما كان يجرى . وكانت أنفاسه تروح وتجىء بسرعة ، وعيناه كالجمرتين ، ونعيمة ترى هيئته ، وترعد كأنها فى ثلاجة ، وقد أيقنت أنها فقدت عملها . . وهل يبقيها حسن وقد رأى ما صنعت ؟ ؟ . . ربما . . فما صنعت شيئا فى الحقيقة سوى أن زجاجة عطر سقطت من بين أصابعها ؛ ولكن الرجل فيه جفوة وغطرسة ، وهو قاس . وقد أطغاه أن سيده ترك له أمر الخدم . . فهل يطاردها . . أم تراه سيترفق بها ويعفو عنها ؟ . .

ولم تمض فى تفكيرها ، فقد مد حسن يديه اليها ، بغتة ، وتناول كتفيها ـ أو على الأصح ثوبها على كتفيها ـ وهزها وقال لها « سيكون هذا آخر لعبك هنا »

فتوسلت اليه ، وأقبلت عليه تستعطفه ، وتقول له إنها محتاجة إلى البقاء ، وأين تذهب إذا طردها ؟ . .

فقال بجفوة « تريقين زجاجة ثمنها ثمانون قرشاً وتظنين أن فى وسعك أن تبقى ؟ »

فأيقنت نعيمة أن هذا آخر عهدها بالبيت الجميل ، والسيد الوديع الظريف ، وصار صدرها يعلو ويهبط .

ولم تفت حسن حركة صدرها المغرية ، فدنا منها وقال : « ثم إنى رأيتك راقدة فوق هذا السرير أيضاً »

فكادت نعيمة تسقط على الأرض ، وأحست أن رجليها تخذلانها . . ستفقد الآن عملها على التحقيق ! ! ومن ذا الذى يستخدم مثلها وهى حديثة عهد بالخدمة ؟ . وكانت يدا حسن لا تزالان على كتفيها فشد بهما على جسمها ، حتى لقد أحست نعيمة أن أصابعه انغرزت فى لحمها ، وشعرت بأنفاسه الحارة على وجهها وسمعته يقول « إذا أردت البقاء فليس هناك إلا طريقة واحدة »

وكانت نعيمة تعرف أن له أن يخرج الخدم ، فقالت وهى ذاهلة « كيف ؟ ما ذا تعنى ؟ »

وكانت تعلم ما ذا يعنى ، وتقرأه فى عينيه ، ولكنها كانت تؤثر الطرد والجوع على هذا . . كلا . . أبداً

فقال « إنك تعرفين ما أعنى . . لقد رقدت على هذا السرير مرة . . ارقدى عليه مرة أخرى »

ففزعت وإن كانت تعلم مراده ، وصاحت به « أبداً . . مستحيل »

ولكن حسن حملها كالدجاجة بين ذراعيه ، وألقاها على السرير ، وركع أمامها ، وأهوى بشفتيه الغليظتين على غلالتى شفتيها الرقيقتين ، وكانت يداه قاسيتين ، وكانتا تجرحان جسمها الغض . وهى تحاول أن تتفلت منه ، وهو يشد عليها ؛ وهمت بأن تصرخ فوضع كفه على فمها ، وأخرسها ، ثم تناول ثوبها عند صدرها وجذبه فتمزق وتعرى صدرها فأكب عليها كالمجنون ، فلم تعد تطيق الصبر ، وفضلت أن تخسر عملها ، وأن تتضور وتتسول فى الطريق ، وأطلقتها صيحة مجلجلة خليقة أن تجمع عليهما كل من فى البيت فانتفض حسن قائماً وصاح بها بدوره ، إنك مطرودة .أخرجى »

وشرع يخرج من الغرفة بسرعة قبل أن يجىء أحد على صوتها ، وإذا بسيده فى الباب .

وقال جميل بك « ما هذا » ؟

فقال حسن : « سيدى . . لقد رأيت نعيمة ترقد على هذا السرير ؛ ولم يكفها هذا ، بل أراقت زجاجة العطر . . »

ولكن جميل بك لم يكن يسمع شيئاً مما يقول حسن ، وإنما كان ينظر إلى نعيمة ، وهى واقفة فى هذا الثوب الذى صار هلاهيل ، وكانت تجمعه بيديها على صدرها لتستره . ولكنها لم تستطع أن تستر منه إلا قليلا . . والتفت جميل بك من نعيمة المطرقة المتقدة الوجه من الحياء إلى هـذا الخادم النذل وصاح به : « أخرج فانك أنت المطرود . . »

فخرج وظهره مقوس

ثم التفت جميل بك إلى نعيمة وقال « إنى آسف لما حصل . لم أكن أتصور أن هذا الرجل الذى ائتمنته وحش . . . فلننسه . . »

فأدارت نعيمة وجهها إلى حيث أريقت الزجاجة وقالت لقد سقطت منى . . أريقت كلها ولم يبق فيها ولا قطرة »

فقال جميل بك ببساطة : « لا بأس . . لا بأس . . إذا كنت تستحقين عقاباً ، فقد لقيت فوق ما تستحق أية مجرمة صغيرة مثلك »

فابتسمت نعيمة ، وكانت لا تزال تحاول عبثاً أن تضم طرفى الثوب الممزق الذى أصارته يدا حسن كالعباءة لولا ضيقه . ومشى جميل بك إليها وقال لها وهو يلبس الثوب « لم يعد هذا يصلح » وأشار إلى خزانة الثياب وقال « اخلعيه وخذى شيئاً من هنا بدلا منه » ولم يتركها تفعل ما أمرها به ، بل نزعه عنها فصارت أمامه فى ثيابها التحتية ، وهى كافية للستر ، ولكنها تظهر من الصدر والكتفين أكثر مما يكشف فى العادة . على أن جميل بك لم يكن ينظر إلى ما بدا له من جسمها ، بل إلى نفاسة الحرير الذى تلبسه تحت هذا الثوب الممزق ، فقد هز رأسه كالمتعجب ، ومضى إلى الخزانة فجاء منها بثوب من أثواب زوجته ألقاه إليها ومشى إلى النافذة . ولم يخف على نعيمة معنى النظرة فقد كانت صريحة فارتدت الثوب وقالت « هذه الثياب التحتية بقية من زمن النعمة وقد اشتريتها بنفسى »

فدار وقال « إيه ؟ »

فقالت ببساطة وابتسام « لقد كنت أستطيع أن أشترى ما أريد . . قبل الكارثة »

فذهب إلى السرير وقعد عليه وقال وهو مقطب : « ما اسمك؟ اسمك كله »

فذكرته له فقال « اسمى ... هل كان أبوك تاجراً فى الحمزاوى ... ؟ »

قالت « نعم »

قال « وماذا صنع الله به حتى احتجت إلى هذا ؟ »

قالت « مات ... انتحر ... »

فقال « امممم ! ... إنى آسف ... لم أكن أعرف هذا ... لو كنت أعرفه لما تكلمت بهذه اللهجة عنه »

فابتسمت ولم تستطع أن تقول شيئا . فقال وجذبها إليه

وأجلسها بجانبه على السرير : « اسمعى ... أن مثلك لا يجوز أن تعمل كخادمة »

فقالت باخلاص « إنى مسرورة ... وجودى هنا خير مما كنت أنتظر ... والآن اسمح لى أن أذهب وأغير الثوب وأرد هذا »

وأشارت إلى الثوب الذى كساها فقال « خله لك ... وغيره أيضا ... كل مافى الخزانة خذيه »

فقالت « سيدى ... لم أعتد أن آخذ شيئا من أحد »

قال وهو ينهض « أوه ... هذه مسألة يسهل أن نسويها فيما بعد ... »

وكانت هى قد نهضت أيضا فوقفا متقابلين . وقد يكون الأرج المتضوع فى الغرفة أو غيره هو الذى أدار رأسيهما فقد مال عليها فلم تبعد، ولثم فمها . وكانت القبلة فى أول الأمر خفيفة — لمساً لا أكثر — ولكن الأيدى ارتفعت إلى الأكتاف فكان عناق طويل

وقال جميل بك « نعيمة ... إنك ساحرة ... كان دائما يخطر لى انك لست من الخدم ... ويخيل إلى أنك ستبقين هنا ... سيدة ... »

وكان قلب نعيمة يخفق بشدة فنأت عنه قليلا وهى تفكر فى معنى ما سمعت ثم قالت « ولكن الست ؟

قال « لا تقولى الست كأنك مازلت خادمة »

قالت وهى تضحك « زوجتك إذن ؟ »

قال « آه ... نسيت أن أخبرك أننا اتفقنا — أبوها وأنا — على فض الأشكال بالحسنى ... لا محاكم ولا شىء ... طلقتها اليوم وانتهى الأمر »

قالت : « الست آسفا ؟ »

قال « كلا ... كان هذا أحسن حل ... حياتنا مستحيلة ... لا وفاق »

ولأول مرة منذ سنتين شعرت نعيمة أن لها بيتا ، ونظرت إلى السرير — سريرها الآن ، أو هو سيصبح سريرها بعد العقد ... ثم ردت عينيها إلى جميل بك فالتقت الشفاه مرة أخرى فى قبلة معسولة

ابراهيم عبد القادر المازنى

خاتمة المأساة الأندلسية

الصراع الأخير

بين الموريسكيين واسبانيا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

(٢)

سرى إلى الموريسكيين يأس بالغ يذكيه السخط العميق فمولوا على الثورة مؤثرين الموت على ذلك الاستشهاد المعنوى الهائل . ونبتت فكرة الثورة أولا فى غرناطة حيث يقيم أعيان الموريسكيين ، وحيث كانت جمهرة كبيرة تحشد فى ضاحية « البيازين » ؛ وكان زعيم الفكرة ومثير ضرامها موريسكى يدعى فرج بن فرج ؛ وكان ابن فرج صباغاً بمهنته ، ؛ ولكنه حسبما تصفه الرواية القشتالية كان رجلا جريئاً وافر العزم والحماسة ، يضطرب بغضاً للنصارى ، ويتوق إلى الانتقام الذريع منهم ؛ ولا غرو فقد كان ينتسب إلى بنى سراج وهم من أشراف غرناطة وفرسانها الأنجاد أيام الدولة الاسلامية . وكان ابن فرج كثير التردد على أنحاء البشرات ، وثيق الصلة بمواطنيه ؛ فاتفق الزعماء على أن يتولى حشد قوة كبيرة منهم تزحف سراً إلى غرناطة وتجوز إليها من ضاحية البيازين ، ثم تفاجىء حامية الحمراء وتسحقها وتستولى على المدينة ، وحددوا للتنفيذ « يوم الخميس المقدس » من شهر ابريل سنة ١٥٦٨ إذ يشغل النصارى عندئذ باحتفالاتهم وصلواتهم ؛ ولكن أنباء هذا المشروع الخطير تسربت إلى السلطات منذ البداية فاتخذت التحوطات لدرئه ، وعززت حامية غرناطة ، وحاميات الثغور ، واضطر الموريسكيون أزاء هذه الأهبة أن يرجئوا مشروعهم إلى فرصة أخرى

واستمر الموريسكيون على عزمهم واهبتهم ، ووجهوا بعض الكتب خفية إلى أمراء الثغور فى المغرب يطلبون إليهم الغوث والعون ؛ فوقع كتاب منها فى يد حاكم غرناطة ؛ وتقول

الرواية القشتالية أنه كان موجها من أحد زعماء البيازين إلى مسلمى الثغور المغربية يستحلفهم فيه الغوث بحق روابط الدين الدم ويقول: « لقد غمرتنا الهموم ، وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة . إن مصائبنا لأعظم من أن تحتمل ، ولقد كتبنا إليكم فى ليال تفيض بالعذاب والدمع ، وفى قلوبنا قبس من الأمل . إذا كانت ثمة بقية من الأمل فى أعماق الروح المعذب » . ولكن الحكومات المغربية كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية ، فلم يلب داعى الغوث سوى جماعة من المتطوعين الذين نفذوا سراً إلى إخوانهم فى البشرات ، ومنهم كثيرون من البحارة المجاهدين الذين كانوا حربا عوانا على الثغور والسفن الأسبانية فى ذلك العصر

وفى شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨ ، وقع حادث كان نذير الانفجار ؛ إذ اعتدى الموريسكيون على بعض المأمورين والقضاة الأسبانيين فى طريقهم إلى غرناطة ووثبت جماعة منهم فى نفس الوقت بشرذمة من الجند كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق وفتكت بهم جميعا . وفى الحال سار ابن فرج على رأس مائتين من أتباعه ونفذ إلى المدينة ليلا ، وحاول تحريض مواطنيه فى البيازين على نصرته ولكنهم أبوا أن يشتركوا فى مثل هذه المغامرة الجنونية وقد كان موقفهم حرجاً فى الواقع لأنهم يعيشون إلى جانب النصارى على مقربة من الحامية وهم أعيان الطائفة ولهم فى غرناطة مصالح عظيمة يخشون عليها من انتقام الأسبان ؛ بيد أنهم كانوا من وراء الثورة يؤيدونها برعايتهم ونصحهم ومالهم فارتد ابن فرج على أعقابه واجتاز شعب جبل شلير (سييرا نفادا) ، إلى الهضاب الجنوبية فيما بين بلش (فيليز) والمرية ، فلم تمض بضعة أيام حتى عم ضرام الثورة جميع الدساكر والقرى الموريسكية فى أنحاء البشرات . وهرعت الجموع المسلحة إلى ابن فرج ووثب الموريسكيون بالنصارى القاطنين فيما بينهم ففتكوا بهم ومزقوهم شر ممزق

— ٣ —

اندلع لهيب الثورة فى أنحاء الأندلس ودوت بصيحة الحرب القديمة وأعلن الموريسكيون استقلالهم واستعدوا لخوض معركة الحياة والموت ، وبدأ الزعماء باختيار أمير يلتفون حوله ، ويكون رمز ملكهم القديم فوقع اختيارهم على فتى من أهل البيازين يدعى الدون فرناندو دى فالور ؛ وكان هذا الاسم النصرانى القشتالى يحجب نسبة عربية اسلامية رفيعة ذلك أن فرناندو دى فالور كان ينتمى فى الواقع إلى بنى أمية وكان سليل الملوك والخلفاء الذى سطعت فى ظلهم الدولة الاسلامية فى الأندلس زهاء ثلاثة قرون ، وكان فتى فى العشرين تنوه الدواية القشتالية المعاصرة بوسامة محياه ، ونبل طلعته ؛ وكان الأمير الجديد يعرف خطر المهمة التى انتدب لها ، ولكنه كان يضطرم حماسة وجرأة وإقداما ، ففى الحال غادر غرناطة سرا إلى الجبال ولجأ إلى شيعته آل فالور فى قرية بزنار ، فهرعت اليه الوفود والجموع من كل ناحية ، واحتفل الموريسكيون بتتويجه فى احتفال بسيط مؤثر ، فرشت فيه على الأرض أعلام اسلامية ذات أهلة فصلى عليها الأمير متجها صوب مكة ، وقبل أحد أتباعه الأرض رمزا بالخضوع والطاعة ، وأقسم الأمير أن يموت فى سبيل دينه وأمته ، وتسمى باسم ملوكى عربى هو محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة . واختار محمد عمه الملقب « بالزغوير » قائدا عاما لجيشه . وقد كان صاحب الفضل الأكبر فى اختياره للرياسة ، وبعث ابن فرج على رأس بعض قواته إلى هضاب البشرات ليجمع ما استطاع من أموال الكنائس ، واتخذ مقامه فى أعماق الجبال فى مواقع منيعة ، وبعث رسله فى جميع الأنحاء يدعون الموريسكيين إلى خلع طاعة النصارى والعود إلى دينهم القديم

ووقعت نقمة الموريسكيين بادىء ذى بدء على النصارى المقيمين بين ظهرانيهم فى أنحاء البشرات ولا سيما القسس وعمال الحكومة ؛ وكان هؤلاء يقيمون فى محلات متفرقة سادة قساة يعاملون الموريسكيين بمنتهى الصرامة والزراية ، وكان القسس بالأخص أس بلائهم ومصائبهم ؛ ومن ثم فقد كانوا ضحايا الفورة الاولى . وانقض ابن فرج ورجاله على النصارى فى تلك الأنحاء فمزقوهم تمزيقا . وقتلوا القسس وعمال

الحكومة، ومثلوا بهم أشنع تمثيل، وكانت حسبما تقول الروايات، القشتاليه «مذبحة عامة لم ينج منها حتى النساء والأطفال والشيوخ»؛ وذاعت أنباء المذبحة الهائلة فى غرناطة فوجم لها الموريسيكيون والنصارى معا، وكل يخشى عواقبها الوخيمة، وكان الموريسكيون يخشون أن يبطش النصارى بهم انتقاما لمواطنيهم، وكان النصارى يخشون أن يزحف جيش الموريسكيين على غرناطة فتسقط المدينة فى يدهم وعندئذ يحل بهم النكال الرائع. بيد أن الرواية القشتالية تنصف هنا محمد بن امية فتقول أنه لم يحرض على هذه المذابح ولم يوافق عليها، بل لقد ثار لها وعزل نائبه ابن فرج عن القيادة، فنزل عنها راضياً واندمج فى صفوف المجاهدين. وهنا يختفى ذكره ولا يبدو على مسرح الحوادث بعد

— ٤ —

وكانت غرناطة فى أثناء ذلك ترتجف سخطاً وروعاً؛ وكان حاكمها المركيز منديخار يتخذ الأهبة لقمع الثورة منذ الساعة الأولى، بيد أنه لم يكن يقدر مدى الانفجار الحقيق، فغصت غرناطة بالجند، ووضع الموريسكيون أهل البيازين تحت الرقابة رغم احتجاجهم وتوكيدهم بأنهم لا علاقة لهم بالثائرين من مواطنيهم؛ وخرج منديخار من غرناطة بقواته فى ٢ يناير سنة ١٥٦٩ تاركا حكم المدينة لابنه الكونت تنديلا، وعبر جبل شلير (سييرا نفادا) وسار تواً إلى أعماق البشرات حيث يحتشد جيش الثوار؛ وكان محمد ابن أمية متحصناً بقواته فى آكام بوكيرا الوعرة، وكان الموريسكيون رغم نقص مواردهم وسلاحهم قد حذقوا حرب الجبال ومفاجآتها. فما كاد الاسبان يقتربون منهم حتى انقضوا عليهم، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة. ارتد الموريسكون على أثرها إلى سهول باترنا، وتخلف كثيرون منهم ولا سيما النساء، ففتك الأسبان بهم فتكا ذريعا، وحاول منديخار أن يتفاهم مع الثائرين على العفو وأن يخلدوا إلى السكينة، وبعث اليهم بعض المسالمين من مواطنيهم، وكان محمد بن أمية يميل إلى الصلح والتفاهم، ولكن المتطرفين من أنصاره ولا سيما المتطوعين المغاربة رفضوا الصلح، فاستؤنفت المعارك، ورجحت كفة الاسبان

وهزم الموريسكيون مرة أخرى، وفر محمد بن أمية وأسرت أمه وزوجه وأخواته؛ وأصيب الاسبان بهزيمة شديدة فى آكام «جواخاريس»، ولكن الموريسكيين آثروا الارتداد؛ وقتل الاسبان من تخلف منهم أشنع قتل. وكان ممن تخلف زعيم باسل يدعى «الزمار» أسره الاسبان مع إبنته الصغيرة وأرسلوه إلى غرناطة حيث عذب عذاباً وحشياً إذ نزع لحمه من عظامه حياً، ثم مزقت أشلاؤه؛ وهكذا كانت أساليب الاسبان ومحاكم التحقيق أزاء العرب المنتصرين

واختفى محمد بن أمية مدى حين فى منزل قريبه «ابن عبو» وكان من انجاد الزعماء أيضاً. وطارده الاسبان دون أن يظفروا به. على انهذه الهزائم الأولى لم تفل عزم الموريسكيين فقد احتشدوا فى شرق البشرات فى جموع عظيمة وأخذوا يهددون المريه. فسار اليهم المركيز «لوس فيليس» على رأس جيش آخر، ووقعت بين الفريقين عدة معارك شديدة قتل فيها كثير من الفريقين، ومزق الموريسكيون. وفتك الاسبان كعادتهم بالأسرى وقتلوا النساء والأطفال قتلا ذريعاً

وقعت فى نفس الوقت فى غرناطة مذبحة مروعة أخرى فقد كان فى سجنها العام نحو مائة وخمسين من أعيان الموريسكيين اعتقلوا رهينة وكفالة بالطاعة فأذاع الأسبان أن الموريسكيين سيهاجمون غرناطة لانقاذ السجناء بمؤازرة مواطنيهم فى البيازين؛ وعلى ذلك صدر الأمر باعدام السجناء فانقض عليهم الجند وذبحوهم فى مناظر مروعة من السفك الأثيم

وكان لهذا الحادث الأخير أثره فى اذكاء نار الثورة، وكان نذيراً جديدا للموريسكيين بأن الموت فى ساحة الحرب خير مصير يلقون. فسرى إليهم لهب الثورة بأشد من قبل وطافت بهم صيحة الانتقام فانقضوا على الحاميات الأسبانية المبعثرة فى أنحاء البشرات ومزقوها تمزيقاً وهزموا قوة اسبانية تصدرت لقتالهم واحتشدت جموعهم مرة أخرى تملأ الهضاب والسهل؛ وعاد محمود بن أمية ثانية إلى تبوأ عرشه الخطر، والتف حوله الموريسكيون أضعاف ماكانوا. وبعث أخاه عبد الله إلى القسطنطينية يطلب العون من سلطانها، ولكن سلاطين قسطنطينية لم يلبوا ضراعة الموريسكيين برغم

في الأدب المقارن

المعنى والأسلوب

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخرى أبو السعود

المعنى الصادق الرفيع والأسلوب المحكم الجميل هما قوام كل أدب خليق بهذا الاسم، لايغنى أحدهما إذا غاب الثانى؛ فلا بد من شعور عميق، أو تفكير ثاقب جدير بعناء الإنشاء والقراءة، ولا بد بجانب ذلك من عبارة منسجمة جميلة تعرض المعنى على أحسن وجه وأحبه إلى النفوس؛ وكبار الأدباء فى شتى الامم يجمعون دائما بين الفكر الواسع المتصرف فى شؤون الحياة، وبين المقدرة اللغوية التى تذلل لهم أعنة البيان، ويتصرفون بها فى الألفاظ والتراكيب، ويكون لكثير منهم فضل ترحيب جوانب اللغة وإكساب تعبيراتها جدة ومرونة، وإعطاء بعض ألفاظها منزلة سامية لورودها مورداً حسنا فى بعض آثارهم، وشأن الأديب الكبير فى ذلك شأن غيره من رجال الفنون، فالمصور مثلا لايبلغ الذروة فى فنه حتى يجمع إلى خصب مشاعره بصراً بتأليف الألوان والأصباغ، وكل فنان لابد له من الجمع بين رقة الشعور وبين البصر بالآلات التى يكون بها أداء ذلك الشعور

والفكر واللغة، أو المعنى واللفظ، شديدا التوثق والتوشج، فلا ندحة للأديب عن التأثر بروح اللغة التى يكتب فيها وتراثها على مدى الأجيال، ولا سبيل له إلى الإنشاء والنظم فيها حتى يختلط بروحها، وتمتزج أفكاره بالمفردات والأساليب التى تهيئها له اللغة؛ والأديب الصناع يختار من المفردات تلك التى تنهض بأفكاره ومشاعره فى أوجز لفظ وأحكمه وأوضحه بيانا، بما تمتاز به تلك المفردات من أجواء من المعانى رحيبة تجمعت حولها على مرور الأجيال وتوالى الاستعمال، حتى غدت يثيرها مجرد ذكر تلك المفردات على نحو خاص، وذلك ما يجعل آثار بعض الأدباء المفتنين والشعراء المجودين متعذرة الترجمة إلى غير لغتها، لتعذر نقل هذه الأجواء المعنوية برمتها من لسان إلى لسان، بل يتعذر أحيانا التفريق بين المعانى والأساليب التى هى مفرغة فيها، لتمازجها تمازج الروح والجسد

ويبلغ الأدب كماله حيث يسود القصد والاعتدال بين اللفظ والمعنى، فاذا استبد المعنى بالأهمية كلها وتحيف اللفظ خرج الأثر المنشأ من حظيرة الأدب إلى حيز العلم؛ وإذا تحيف اللفظ المعنى وصار غاية فى ذاته هبطت قيمة الأثر الأدبى، وأصبح أشبه بالزخرف والصناعة منه بالفن السامى. ويغلب الاحتفاء بالزخرف اللفظى فى عهد طفولة الأدب، إذ يكون الشعر مجرد أهازيج وقواف موسيقية تافهة المعانى، وفى عهود انحطاط الأدب حين ينصرف الأدباء عن لباب الحياة إلى القشور؛ وبالزخرف اللفظى والبراعة اللغوية والأسجاع والإيقاع الموسيقى يكلف الأديب الناشىء أول عهده بالأدب، وكلما نضجت نفسه وحصف ذهنه بتجربة الحياة واستيعاب المعارف تحول اهتمامه إلى المعانى والحقائق والتزم اللفظ فى آثاره منزلته الصحيحة، وهى كونه وسيلة للمعنى لاغاية فى ذاته

وقد عرف أقطاب الأدب الانجليزى بواسع بصرهم بأسرار لغتهم، وإليهم يرجع فضل توطئة جوانبها وتعبيد مسالكها، ولكل منهم فى هذا الباب أثر: فشكسبير قد استخدم فى رواياته أكبر عدد من مفردات اللغة استخدمه أديب، وصرف تلك المفردات على شتى الوجوه؛ وسبنسر اعنى اللغة بما أدخل فيها من

تكرارها منذ سقوط غرناطة ولم يلبها غير إخوانهم المجاهدين فى افريقية، فقد استطاعت جموع جريئة مخاطرة منهم أن تجوز الشواطىء الأسبانية ومنهم فرقة من الترك المرتزقة وان تهرع الى نصرة المنكوبين

وهكذا عاد النضال الى اشده، وخشى الأسبان من احتشاد الموريسكيين فى البيازين ضاحية غرناطة، فصدر قرار بتشريدهم فى بعض الأنحاء الشمالية، وكانت ماساة جديدة مزقت فيها هذه الاسر التعسة وفرق فيها بين الاباء والأبناء، والازواج والزوجات فى مناظر مؤثرة تذيب القلب، وسار المركيز لوس فيليس فى نفس الوقت إلى مقاتلة الموريسكيين فى سهول المنصورة على مقربة من أراضى مرسية، ونشبت بينه وبينهم عدة وقائع غير حاسمة، ولم يستطع متابعة القتال لنقص فى الأهبة والمؤن وكان بينه وبين زميله منديخار خصومة ومنافسة كانتا سبباً فى اضطراب الخطط المشتركة، واتهم منديخار بالعطف على الموريسكيين فاستدعي إلى مدريد، وأقيل من القيادة، واتخذت مدريد خطوتها الجديدة الحاسمة فى هذا الصراع الذى لا رحمة فيه ولا هوادة

(للبحث بقية)
(والنقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

ألفاظ جديدة لم تعرفها قبله ؛ وملتون أصبح اسمه علماً على ضرب من النظم عذب الموسيقى فخم الرنين ؛ وبوب بلغ الغاية من إحكام الصناعة وجزالة الأسلوب ؛ ووردزورث كان دائم التجارب فى الأساليب يحاول أن يشق للشعر أسلوباً جديداً ؛ وتنيسون تفنن فى استخدام الالفاظ وتحوير التراكيب يؤلف بها روائع الصور الشعرية ، ولا تزال مخطوطات بعض أولئك الأدباء موضع دراسة النقاد والأدباء ، يتفقهون بها فى أسرار اللغة ويزدادون بصراً بخصائص الألفاظ والتراكيب ، ويرون كيف يحل لفظ محل لفظ فتشرق به ديباجة البيت من الشعر ويسفر به وجه المعنى جميلا بعد خفاء والتياث

على أن أولئك الأدباء برغم احتفائهم بالأسلوب ذلك الاحتفاء لم يغلبوه على المعنى ولم يجعلوه غاية فى ذاته ، ولم يصبح الأدب فى أيديهم براعة فى اللفظ وتأنقا فى النسج ، بل ظل اللفظ لديهم دائما خادماً للمعنى ، وظل غرضهم الأول من الانشاء الافصاح عن الفكر والشعور . ولم يسرف الأدباء فى الاحتفاء باللفظ إلا فى عهد انحطاط الشعر فى بعض القرن الثامن عشر ، فى حقبة لم تنجب شاعرا كبيرا ، ولم يحظ بالشهرة فى حياته والذكر بعد موته من أدباء الانجليزية إلا من أهلته لذلك نظرة فى الحياة صادقة عميقة ، ولم تكن كل بضاعته أسلوباً مزخرفا ، منمقا ، بل عرف من كبار الشعراء من لم يكن يولى أسلوبه كبير احتفاء ، ومع ذلك رفعه فكره الجوال فى آفاق الحياة ، ونفسيته الجياشة بأشتات الأحاسيس إلى قمة المجد ، فبيرون كان كما قال عن نفسه لا يعاود النظر فى بيت شعر خطه ، ووردزورث نظم كثيراً من بدائع شعره فى أبسط لفظ يستعمل فى النثر والتحدث ، وهاردى لم يكن شعره إلا نثراً جيد النظم عاريا مجرداً من تلك الألفاظ الشعرية ذات الأجواء المعنوية ، ومن ثم لا يسمو به النقاد إلى طبقة الفحول كشكسبير وملتون ، بل ينزلونه الطبقة الثانية بين الشعراء ، وهذا الأسلوب العارى المجرد يزداد شيوعا فى العصر الحديث

أما فى العربية فكان الأمر على نقيض ذلك : فلم يكد يكون بين كبار أدبائها بعد دخول الأدب طوره الفنى من أهمل الأسلوب واحتفى بالمعنى وحده ، وإن كان أكثرهم ليقدم الأسلوب على المعنى ويحتفى للفظ ورنينه أى احتفاء . وإن تضاءل المعنى وتفه ، فاذا كان النثر العربى يبلغ ذروته من الكمال على أيدى ابن المقفع والجاحظ ، والشعر العربى يجرى إلى غايته فى آثار المتنبى وابن الرومى والمعرى ، حيث يجتمع صدق النظرة وجمال الأسلوب ، فان غيرهم من مشهورى أدباء العربية إنما نبه ذكرهم لبلاغتهم اللفظية ، لا لفلسفة فى الحياة معدودة ، ولا لرسالة فى الأدب عتيدة . ومن أولئك البحترى ومن نحا نحوه من الشعراء والمداحين ، والصاحب ابن عباد ومن سلك دربه من المنشئين المسجعين ؛ فالناظر فى الأبيات الآتية من نظم أشهر شعراء العربية ، يرى أن حظها من المعنى ضئيل ونصيبها من جزالة الأسلوب ورنين اللفظ وعذوبة الموسيقى كبير ، قال أبو نواس فى مدح بعض الوزراء :

عباس عباس إذا احتدم الوغى   والفضل فضل والربيع ربيع

وقال البحترى فى النسيب :

لما مشين بذى الأراك تشابهت   أعطاف قضبان به وقدود
ومتى يساعدنا الوصال ودهرنا   يومان يوم نوى ويوم صدود

وقال أبو تمام فى رثاء طفلين :

مازالت الأيام تخبر جاهلا   أن سوف تفجع مسهلا أو عاقلا
بدران شاء الله أن لا يطلعا   إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا
إن الفجيعة بالرياض نواضرا   لأجل منها بالرياض ذوابلا

نصيب هذه الأبيات جميعها من الفكرة البعيدة أو النظرة المستقلة أو الشعور الصميم ضئيل . وماذا فى قول أبى نواس إن العباس عباس والفضل فضل والربيع ربيع ، إلا أنه ظرف وأحسن نظم تلك الأسماء مزدوجة فى سلك البيت ؟ وأى الناس لا يعبس إذا احتدم الوغى ؟ ولو قال : عباس بسام لكان وصفه بالشجاعة التى لا تحفل بالموت المحدق . ثم ماذا من جديد فى جمع البحترى بين الغصون والقدود وشكواه النوى والصدود ، أو فى تشبيه أبى تمام للطفلين بالبدرين الآفلين مرة وبالروضين المصوحين أخرى ؟ إنما فضيلة هذا الشعر كله حسن اختيار اللفظ النقى وجمال الموسيقى ولطافة التقسيم والمقابلة ، اما المعنى فلا عمق فيه ولا ابتكار

فالاحتفاء باللفظ ولو على حساب المعنى قد تزايد فى العربية تدريجا مع دخول الأدب طوره الفنى ، طور التدوين والتجويد ، وتزايد الولع بالتسجيع والمطابقة وغيرها من المحسنات اللفظية . وكاد الولع بالسجع عند الصاحب بن عباد فيما روى يبلغ حد الجنون ، حتى قيل إنه عزل قاضياً بناحية يقال لها (قم) لأنه أراد أن يتم سجعة فقال : أيها القاضى بقم ، قد عزلناك فقم . وتكلف فى بعض أسفاره كما حدث عنه ابن العميد أن يذهب إلى قرية غامرة ذات ماء ملح يقال لها النوبهار لا لشىء إلا ليكتب إليه : كتابى هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار ، وما زال اللفظ يستبد باحتفال الأدباء ويطغى على المعنى ، حتى ارتد الأدب فى عصور التدهور زخرفا لفظيا صرفا ، ولم يبق من المعنى إلا هذيان كهذيان المخالطين

فلا نبالغ إذا قلنا إن المعنى كان فى أزهر عصور الأدب العربى يحتل المكان الثانى بعد اللفظ ، وهذا واضح فى أقوال النقاد . قال الآمدى فى موازنته بين الطائيين : « وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتى وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الألفاظ فى مواضعها . . . . . فان اتفق مع هذا معنى لطيف أو حكمة غريبة أو أدب حسن فذلك زائد فى بهاء الكلام ، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه » . وقال الحليلى فى سياق حديث له أورده ياقوت فى ترجمة الصاحب بن عباد : « الشاعر يطلب لفظا حرا ومعنى بديعا ونظما حلوا وكلمة رشيقة ومثلا سهلا ووزنا مقبولا » ، فكل الاهتمام هنا موجه إلى لطافة النسج والتجويد لا إلى عمق الفكرة والشعور

كان الشعراء فى الجاهلية وصدر الاسلام يرسلون القول على سجيته فى نسج محكم يرمون به إلى بيان أفكارهم وشعورهم على أقصد سبيل وأقربه ، فلما كان عهد التحضر والتثقف أحاطت بالأدب عوامل أدت إلى تقديم اللفظ على المعنى ، منها فساد اللغة بمخالطة الأعاجم فاشتد الحرص على طلب اللغة الصحيحة وإتقان أساليب العرب الأقحاح وتقليد فحول المتقدمين . وزاد هذا الحرص شدة اشتغال الأعاجم أنفسهم بالأدب وجدهم فى تحصيل لغة العرب ولسان الكتاب المنزل ، وسبقهم فى العلوم والتأليف ، وتفاصحهم بمحاكاة أدب الجاهلية وصدر الاسلام ، وتظاهرهم بالقدرة على التصرف فى الألفاظ والتراكيب ، فكان همهم صحة التعبير وبلاغته قبل صدق المعنى وعمقه

ومما زاد الأدباء انصرافا إلى اللفظ وتجويده واختيار الأسلوب والافتنان فى صياغته وتحويره ، إنتشار المدح والتكسب بالأدب ، فإنه لما كانت الفضائل الانسانية ، ولا سيما تلك التى كانت مشهورة مطلوبة فى المجتمع الاسلامى ، محدودة معروفة ، كان مجال القول فيها محدودا ومجال الابتكار ضيقا ، فطلب الشعراء المداحون السعة فى جانب اللفظ ، يتأنقون فى تزويقه وترصيعه ، ويعتاضون عن الابتكار فى المعانى بالأوزان الرشيقة والقوافى الرخيمة والتشبيهات اللبقة ، والتقسيم والمقابلة والسجع والتجنيس . وبهذه المحسنات البديعية ـ ما راق منها وماسمج ـ تحفل مدائح أبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنى وابن الرومى ، إذا جردت من زيناتها اللفظية لم يبق من نسيبها الاستهلالى ومدحها المغرق شىء ذو بال ؛ من ذلك قول أبى تمام فى مدح بعض القواد ، ولا داعى لذكر إسم ذلك القائد أو صفته ، فما كان لكل ذلك أى دخل فى نظم مثل ذلك القصيد :

وجرد من آرائه حين أضرمت … به الحرب حداً مثل حد المناصل
وسارت به بين القنابل والقنا … عزائم كانت كالقنا والقنابل
وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى … بعقبان طير فى الدماء نواهل

فكل هذه المعانى الدائرة حول شجاعة القائد وآرائه التى تفوق الجيوش ، وعزائمه التى تفل السيوف ، والعقبان التى تتبع أعلامه لتنهل من دماء أعدائه ، كل هذه المعانى مطروقة من قبل أبى تمام ، مذكورة بعده فى ميمية المتنبى المشهورة وغيره من مدائحه لسيف الدولة ، ولا غرو فقد غدت أكثر معانى الأدب فى أبواب المدح والهجاء والفخر والوصف والحكمة وغيرها ، تراثا متداولا بين الشعراء من جيل إلى جيل ، إذا تفنن الشاعر صاغ بعضه صياغة جديدة أو ولد منه بعض التوليد ، فاذا اتفق له أن صاغ معنى قديما صياغة جديدة يفوق صياغة صاحبه الأول صفق له النقاد وقالوا سرقة مغفورة ولص ظريف هو أولى بالمعنى من صاحبه لأنه أجود لفظا ، كما قيل فى بيت البحترى فى مدح المتوكل :

فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما … فى وسعه لمشى إليك المنبر

أخذه وتصرف فيه من قول أبى تمام :

تكاد مغانيه تهش عراصها … فتركب من شوق إلى كل راكب

كان الشعراء إذا صرفوا القول إلى المديح أتوا بالمعانى الجوفاء المزيلة ، واحتفوا باللفظ يدارون بزخارفه ركاكة المعنى ، وكان أكابر شعراء العربية فى طور الأدب الفنى مداحين ، فامتلأ الأدب العربى بذلك الضرب السقيم المعانى الطنان الألفاظ ؛ وإنما كان الشعراء يبتكرون المعانى الجيدة يلبسونها من اللفظ أجمل لبوس حين ينظمون فى غير المديح من الوجوه التى يدفع إلى النظم فيها شعور صحيح وفكر ثاقب ، فكانت من ذلك حكم المتنبى وأوصاف ابن الرومى ونظرات المعرى ، كما ظهرت فى الأدب العربى تلك الظاهرة الفريدة ، وهى أن أشعار كثير من المقلين وممن يعدون فى الطبقة الثانية من الشعراء كالصولى والامام الشافعى ، تروع النفس بصدقها وحصافتها أكثر مما تروعها أشعار المكثرين المشهورين ، لأن أولئك المقلين كانوا لا ينظمون الشعر إلا تلبية لحافز نفسى ، وهؤلاء المكثرين كانوا ينظمون ابتغاء النوال

ومن عوامل احتفاء أدباء العربية باللفظ أيضاً ، أن الأدب العربى فى ظل الدولة الاسلامية كان أكبره أدبا بلاطيا

وأرستقراطيا ، مكفوفا عن شؤون المجتمع ، منزويا عن أكثر مواضيع القول ومجالات الفن ومسارح الأدب ، من وصف الطبيعة والتأليف التاريخي الفني ووصف آثار الاقدمين في عالم الحضارة والفنون ، وسبحات الخيال في عوالم الحقيقة والخرافة ، وتصوير آثار الرحلات والمغامرات ، فلما حرم الأدب طرق هذه المواضيع الجمة الخصبة الحافلة بمناجح التفكير والشعور والقول ، لم يبق لديه كبير مجال للابتكار في المعاني ، فتوفر على الافتنان في الألفاظ يدور بها في مجالاته المحدودة الموروثة عن المتقدمين .

وزاد مجال القول ضيقا حرمان الأدب العربي من الاطلاع على الأدب اليوناني ؛ فلو كان على اتصال مستمر بذلك الأدب ، لتمهدت أمامه مناجح للقول من جهة ، ولا نصرف اهتمامه من جهة أخرى إلى المعاني دون الألفاظ ، لأن المعاني دون الألفاظ هي التي تتشارك فيها آداب الأمم المختلفة ، أما أدباء العربية الذين لم يطلعوا على أدب أجنبي راق ، فكان اعتدادهم بتفوق اللغة العربية على اللغات شديداً ، وكانت ألفاظها وتعبيراتها تقوم في مخيلتهم مقام الحقائق المتحجرة ، وكان التجويد في استخدام تلك الألفاظ والتعبيرات في الأبواب المطروقة من قديم غاية الأديب ، فظل بيت زهير بن أبي سلمى الذي قاله في عهد البداوة ، يصدق على شعراء العربية في أوج عهد الحضارة والثقافة :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معاداً من قولنا مكروراً

ثم لاشك في أن حياة الترف وزخارف العيش التي انغمس فيها العرب بعد الفتوح ، وأبهة البلاط التي كان الأدباء يحومون حولها ويتزاحمون في مواكبها ، كانت من أسباب شيوع الزخرف في الأدب الذي هو مرآة للحياة المحيطة به ، فإذا كان الأدب الفارسي قد كان في ذلك العهد من الضآلة بحيث لم يؤثر كثيراً في أدب العرب ، فقد أثر الفرس في الأدب العربي بمظاهر الترف والبذخ المادية التي نقلها عنهم العباسيون وتركت آثارها في الأدب ، وهذا الترف الأدبي كالترف المادي دليل الرخاوة والضعف ، والسير إلى الانحلال .

وقد ساعدت طبيعة اللغة العربية ذلك الميل الذي غلب على أدبائها ، الميل إلى التأنق في اللفظ ، وتثقيله بالمحسنات التي ينوء المعنى تحتها ويتضاءل ، وذلك لما للغة العربية من بلاغة أصيلة وموسيقى فخمة ، وما لألفاظها وتراكيبها في النفوس من روعة وبهاء ، وما لأوزان الشعر العربي وقوافيه من رصانة وجلال ، وما للغة من ثروة طائلة وغنى بطرق الاشتقاق وامتلاء بالمترادفات ، واتساع لصنوف التشبيهات والمجازات ، بحيث يستطيع المتمكن من كل هذا أن يجمع حوله المستجيدين ويستولي على الألباب ، دون أن يبتدع في المعنى أو يتعمق في الشعور . كما تصرفك عذوبة اللحن الموسيقي عن تفاهة المعنى المتغنى به ؛ وقد استغل كتاب العربية كابن العميد والصاحب والبديع والحريري ثروة اللغة هذه أبعد استغلال ، وجاءت رسائلهم ومقاماتهم معارض مانحة بتلك الكنوز العظيمة

ففي الأدبين العربي والانجليزي آثار بالغة حد الفن من الصدق والعمق والجمال ، تجمع بين حرارة الشعور وجودة الأسلوب ؛ غير أن الأدب العربي لإحاطة تلك الظروف والعوامل به ، أحفل من الأدب الانجليزي بالآثار التي يغلب فيها اللفظ على المعنى ، وتظهر الصنعة على الطبع ، وتبدو فيه دلائل الاحتفاء بالأسلوب واضحة ، حتى في مخلفات أكبر أدبائه وأعظمهم حظا من النبوغ والشاعرية . ويعد بين أقطابه أفراد لم تؤثر عنهم فلسفة في الحياة خاصة أو شخصية مستقلة ، ولم يرفع ذكرهم إلا اقتدارهم على تصريف الكلام ، ويمتلىء الأدب بآثار أولئك الأدباء التي تعجب بحلاوة أسلوبها وإن لم تعجب بعمق فكرتها ، فلسنا نسرف إذا قلنا في الجملة إن الأدب العربي كان أدب أسلوب ، والأدب الانجليزي أدب معنى

فخري أبو السعود

الحياة على الكواكب

للأستاذ قدرى محافظ طوقان

لقد خطا علم الفلك خطوات فسيحة أنارت الانسان وأثارت دهشته وأذهلته وأصبح بفضل مااخترعه من الآلات الدقيقة ومن جمعه بين مبادىء العلوم الطبيعية والكيماوية واستعانته بالرياضيات ومعادلاتها من معقدة وغير معقدة، أقول بفضل هذا كله استطاع العلماء أن يحلوا بعض المشكلات وأن يتفهموا بعض أسرار الكون.

من كان يتصور أن الانسان يستطيع أن يعرف شيئاً عن تركيب الشمس والاجرام السماوية، حتى الفيلسوف (كنت) وهو العالم ذو النظر الواسع والبصيرة النافذة لم يخطر على باله أن الانسان سيصل إلى ماوصل اليه فى علم الأفلاك فقال: «سيبقى الانسان جاهلا حقيقة تركيب الشموس ومعرفة عناصرها». أما الآن فبفضل المختبرات والمراصد وما تحويه من آلات ومعدات عرف الانسان بعض الشيء عن النجوم والكواكب والعناصر التى تتألف منها ووقف على خصائصها وقاس حرارتها.

لقد ثبت للعلماء من دراساتهم للأجرام السماوية أنه مامن عنصر موجود فى تركيب هذه الاجرام إلا وفى الأرض ما يقابله، وأن الذرة بكهاربها وبروتوناتها وحركات هذه حول بعضها وحول الكهارب تشبه النظام الشمسى والنظم الشمسية الأخرى، أى أن الكون الأعظم يتألف من أكوان أخرى متشابهة فى التركيب والبناء، وأن هناك تناسقاً ووحدة مادية كونية، فالنجوم والجزر الكونية، والشهب والنيازك والمذنبات وغيرها – كل هذه تتركب من العناصر الكيمياوية التى نعرفها وأن هناك قوانين تسودها ونواميس تسيطر عليها وعلى حركاتها، وأنه ما من شيء إلا يسير فى دائرة من الأنظمة لا يتعداها ولا يشذ عنها؛ ولكن على الرغم من هذا كله ومن وقوف الانسان على بعض الحقائق عن الكون لا يزال هناك أبواب مغلقة يحتاج فتحها إلى تعمق وجهود متواصلة. ومن الغريب أن الانسان كلما تقدم فى البحث انفتحت أمامه أبواب جديدة من المعرفة وزاد اعتقاداً بضآلته وإيماناً بأنه لا يزال على عتبة اليقظة العقلية.

وهناك أسئلة لم يستطع أحد الاجابة عليها؛ ويظهر أن أمام هذه الأسئلة صعوبات وعقبات لا يزال العلماء يجاهدون للتغلب عليها واقتحامها بما يكتشفونه من قوانين ونواميس، وبما يخترعونه من آلات وأدوات. وقد يكون السؤال الآتى من أكثر الأسئلة التى شغلت الناس وعلماء الفلك على السواء. هل يوجد فى الاجرام السماوية أو فى بعضها حياة كحياتنا؟ أم هل فى الكون عوالم مسكونة غير الأرض؟ وعلى الرغم من معرفة الانسان كثيراً عن خصائص الكواكب والنجوم فانه لم يستطع أن يصل فى مسألة (سكنى الكواكب) إلى نتيجة قاطعة. ويعود السبب فى ذلك إلى عوامل عديدة أهمها: عدم تمكن الانسان من اختراع آلات يستطيع أن يعرف بوساطتها وجود حياة على الاجرام السماوية. فقد يكون فى بعض الاجرام حياة، وقد لا يكون؛ وقد تكون الحياة عليها من نوع لا نعرف كنهه أو ندرك حقيقته. وبحثنا الآن يدور حول الحياة على الكواكب التابعة للنظام الشمسى؛ ونعنى بالحياة الحياة التى تماثل الحياة على سطح الارض ولا شأن لنا بغيرها إن كان فى الوجود أحياء أو حياة من طراز آخر. فالأرض كما لا يخفى هي بنت الشمس وهى أحد أفراد الأسرة الشمسية تدور حول أمها (الشمس) كما يدور أيضاً بقية شقيقاتها (السيارات).

وهذه السيارات، بما فيها الارض، انفصلت عن الشمس ثم كونت كل واحدة منها فلكا تدور عليه. وقد مرت ملايين السنين قبل أن أصبحت الارض فى حالة صالحة لظهور الحياة عليها. ولا بد أن التطورات التى مرت عليها الارض مرت (وتمر) على سيارات أخرى، وقد أدت (وتؤدى) إلى نفس النتيجة على غيرها من الاجرام، ولكن باستطاعة العلم من دراسة بعض السيارات أن يجزم بأن التطورات عليها لم تصل إلى درجة يصلح معها ظهور حياة أو أحياء.

فاذا أخذنا عطارد وهو أقرب السيارات إلى الشمس نجد أنه لا يحيط به جو وكذلك للسيار بلوتو (وهو أبعد السيارات المعروفة عن الشمس) لا يحيط به جو. وهذان السياران صغيرا الجرم إلى درجة أن جاذبيتهما لا تستطيع أن تحتفظ بالذرات الهوائية التى تفلت وتخرج إلى حيث الجاذبية أقوى.

وينتج عن هذا عدم وجود أجواء على الاجرام الصغيرة .

أما المشترى وزحل فحول كل منهما غلاف جوى يمتد إلى آلاف الأميال ؛ ويحدث هذا الغلاف ضغطاً عظيماً إلى درجة أن الغازات لا تستطيع تحت تأثيره أن تبقى فى حالة غازية بل لا بد لها من أن تتميع .

ويرجع السبب فى وجود هذا الغلاف الجوى حول هذين الكوكبين وحول أورانوس ونبتون أيضاً إلى كبر أجرامهما . فكلما كان جرم الكوكب كبيراً استطاع (بفضل قوة جاذبيته) أن يحتفظ بالغازات حوله ومنعها من الانفلات .

وعلى ذكر أورانوس ونبتون نقول إن البرودة عليهما أشد من البرودة على زحل والمشترى ، ويحتوى غلافهما الخارجى على غاز المستنقعات أكثر مما يحتوى على غاز النشادر . ويعلل العلماء ذلك بأن النشادر لا يبقى فى حالة غازية فى برودة كالبرودة الموجودة على أورانوس ونبتون .

يتبين مما مر انه لا يمكن أن تكون بيئة هذه الكواكب الستة صالحة لظهور الحياة عليها ، إذ كيف يمكن أن تكون صالحة وبعضها خال من الهواء والبعض الآخر محاط بالأجواء التى تمتد إلى آلاف الأميال محدثة من الضغط ما يستحيل معه وجود أحياء أو حياة . بقى علينا أن نبحث عن الزهرة والمريخ وهما الكوكبان اللذان نجد فيهما بيئة أصلح من غيرهما لظهور الحياة أو لسكنى الأحياء على سطحهما . فالزهرة يحيط بها جو ملىء بالغيوم حتى يصعب رؤية سطحها من ورائه ؛ ولم يستطع العلماء أن يتأكدوا من وجود أوكسجين أو بخار ماء ؛ ولكن ثبت لديهم وجود ثانى أوكسيد الكربون بكميات كبيرة تفوق الكميات الموجودة فى جو الأرض . وثبت للفلكيين من دراسة هذا الكوكب انه أصلح من غيره من حيث امكان ظهور حياة عليه ، فليس هناك من العوامل الطبيعية والجوية ما يجعل معها الحياة عليه مستحيلة .

وأما المريخ فقد شغل الناس وشغل علماء الفلك أكثر من أى جرم سماوى آخر ؛ واختلفت الاقوال فيه وفى خصائصه ومميزاته ، وكثر التحدث عن هذه الاقوال ، وراحت الصحف والمجلات تكتب عنه كأنه مسكون ، وراحت تصف سكانه وأحوال معيشتهم فقال بعضهم ان سكانه احتفروا ترعاً لرى مزروعاتهم ، ترعاً هى فى الاتقان غاية وفى البناء آية يعجز أهل الارض عن محاكاتها وعن الاتيان بمثلها ولو اجتمعوا لذلك

والمريخ أكبر من القمر وأصغر من الأرض ، تشرق عليه الشمس كما تشرق على الارض وتعطيه نوراً وحرارة . ويقول السر روبرت بول : « ان صغر كوكب المريخ يزيد صلاحيته لاقامة الاحياء التى لها حركات مستقلة ؛ فثقل الاجسام على سطح المريخ أقل من ثقلها على الارض ، حتى إذا أبدت الطير ان مثلا لم تجد فيه من الصعوبة ما تجده فوق سطح الارض » وهو الذى يقول أيضاً « والمريخ من حيث جرمه ليس فيه ما يمنع كونه داراً للأحياء ... » وعلل البعض الظواهر التى تحدث فى فصل الشتاء بأن بقعاً بيضاء تتكون على كل من قطبيه ثم تضيق هذه البقع بالتدريج حينما يقرب فصل الصيف . وقال آخرون ان فى المريخ ماء ، وان هذا الماء يتجمد ويصير ثلجاً عند القطبين . وهناك من العلماء من ينفى هذه الاقوال ويقول إنها من وحى الخيال .

وليس فى المريخ بحور واسعة كبحور الأرض ، فسطحه بر لا بحر فيه ، يتعاقب عليه الليل والنهار كما يتعاقبان على الأرض ؛ ويومه أطول بقليل من يوم الأرض ، وله غلاف من الهواء يحيط به ، ولكنه لطيف جداً بالنسبة إلى هواء الأرض ، وهو يتركب من الاوكسجين وبخار الماء . ولا شك أن كمية الأوكسيجين الموجودة فى جو المريخ أقل بكثير من الكمية الموجودة فى جو الأرض . وقد يتبادر إلى ذهن القارىء أنه ما دام الأمر كذلك (أى قلة الأوكسيجين) فلا مجال لظهور الحياة عليه ، ولكنا نقابل ما تبادر إلى الذهن بالقول أن الأحياء الأرضية وجدت الاكسيجين فاستخلصته بالانتخاب الطبيعى لأنه أصلح من غيره لتوليد القوة باتحاده مع الكربون ، أى أن الأحياء تهىء نفسها للأحوال التى توجد فيها ، وعلى هذا فلسنا فى وضع نستطيع معه الجزم بان كمية معينة من الاوكسيجين ، أو أن الاوكسيجين ضرورى للحياة لا غنى لها عنه ، فقد تكيف هذه الاحياء نفسها إلى الوضع الذى توجد فيه ، وتستخدمه لما فيه نفعها واستمرار حياتها

ويقول الأستاذ (لول) وهو الذى درس المريخ أكثر من غيره وإليه ترجع أكثر معلوماتنا عنه ـ يقول إن سكان المريخ أرقى من سكان الأرض ، ويستدل على ذلك بهندسة الاقنية العجيبة (الموجودة على المريخ) ، ويجد فى صنعها المثير للاعجاب ما يؤيد رأيه وأقواله

وعلى فرض وجود أحياء على سطح المريخ فصغر جرمه وما ينتج عن ذلك من ضعف للجاذبية - كل هذا يقضى بأن تكون تلك الأحياء كبيرة الحجم بالنسبة إلى الأحياء الموجودة على سطح الأرض، كما أن كبر جرم الكوكب يقضي بوجود أحياء (ان كان ثمة حياة) صغيرة الجرم . . .

وعلى العموم فالزهرة والمريخ أصلح الكواكب لسكنى الأحياء عليهما ، وليس هناك من العوامل ما يمنع وجود حياة لحياتنا على سطحهما ؛ وحالة الزهرة الآن هى الحالة التى كانت عليها الأرض قبل ملايين السنين، كما أن حالة الأرض بعد ملايين السنين ستكون مشابهة لحالة المريخ الآن؛ إذ يقل الاوكسيجين وتقل الحرارة التى تأتيها من الشمس. وقد يكون هذا هو السبب فى تعليل تفوق سكان المريخ (إن كان فى المريخ حياة) على سكان الارض؛ وقد يكون أيضاً هو السبب الذى دفع البعض إلى تعليل تقدم سكان المريخ فى الحضارة ووسائل الرفاهية والمهارة فى البناء والانشاء.

والآن ... وقد أنهينا الكلام عن الكواكب التابعة للنظام الشمسى نقول إن فى الكون نجوما وشموسا لا عد لها. وهذه كواكبها وما يتبعها من مذنبات وشهب ونيازك. ولقد دلت المراصد على وجود ٧٥ مليوناً من العوالم التى تشبه عالمنا، وآلاف الملايين من النجوم. وكلما تقدم الانسان دقة فى آلات الرصد تجلى له اتساع الكون بصورة أوضح وأجلى. وثبت له أن ما كشفه من الكون إن هو إلا جزء ضئيل جداً مما لم يستطع اكتشافه بعد. فكون هذه حالته وهذا اتساعه لمن الطبيعى أن يكون فيه من الكواكب ما اجتاز (ويجتاز) الأدوار التى مرت (وتمر) على الأرض. ومن المحتمل جداً أن تكون بيئة بعض هذه الكواكب صالحة لسكنى أحياء أو ظهور حياة عليها

وأخيراً إذا سئلت عن رأيى فى مسألة الحياة على الكواكب لا كتفيت بالجواب الآتى :

ليس الغريب أن تكون بعض الأجرام السماوية مسكونة وعامرة بالأحياء، بل الغريب ألا تكون كذلك

قدرى حافظ طوقان

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

– ٧ –

الديانة المصرية — الحياة الآخرة

اعتقد المصريون منذ أقدم عصورهم بخلود الروح وبأن هناك حياة آخرة يجازى فيها المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته. والمنطق الذى استندوا إليه فى هذه العقيدة، هو أن هذه الحياة الدنيا مزيج من الخيرات والشرور، وأن المشاهد أن هذه الفترة القصيرة التى يعيشها الانسان على الأرض، ليست جديرة بتحقيق مكافآت الأخيار، ولا عقوبات الأشرار. وإذن فالمنطق يقفنا أمام أمرين لا ثالث لهما، وهما: إما أن تكون هناك حياة أخرى يوفى فيها الأخيار والأشرار جزاء أعمالهم فى دقة وعدالة، وإما أن ينتهى كل شيء بمجرد انتهاء هذه الحياة. وفى هذه الحالة الأخيرة لا يتحقق تقدير الفضيلة والرذيلة، ولا يمتاز الخير عن الشر بأية ميزة. وبذلك تنتفى عن الإله صفة العدالة، ومتى انتفت عنه هذه الصفة لحقه النقص، ومتى لحقه النقص فقد انهارت ألوهيته من أساسها، وإذن فالحياة الأخرى من لوازم الألوهية نفسها

أما طريق معرفة الخيِّر من الشرير فهى أن يؤتى بأعمال كل منهما الدنيوية المقيدة فى سجل أمين لم يدع منها كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، ثم يجلس المسئول أمام محكمة «أوزيريس» الذى نكتفى أن نسوق إليك فى وصفها نص ما كتبه الأستاذ «بريستيد»: «وتتكون محكمة أوزيريس فى عقيدة القوم من اثنين وأربعين قاضياً يجلسون أمام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسما من أقسام مصر، فإذا دخل المتوفى أمام المحكمة وأنكر أمام كل قاض إثماً من آثامه، يوزن قلبه فى ميزان مقابل ريشة العدالة، للتأكد من صدق قوله. أما الآثام التى يتبرأ منها الميت أمام محكمة أوزيريس فهى بعينها الآثام المستهجنة فى عهدنا هذا. وهاك بياناً موجزاً لتلك الآثام: السرقة، والقتل، والاختلاس (وبالأخص السلب)، والكذب، والخداع، وشهادة الزور، والرياء، والتنابذ بالألقاب والتجسس، وعدم الاعتدال فى الأمور الجنسية، وامتهان كرامة المعبودات أو الأموات كالكفر بهم، وسرقة أمتعة الموتى. ومن هذه القائمة يستدل على عظم الرادع النفسى عند المصريين وتشدد استنكاراً للمنكرات. وعليه فالمصريون هم أول قوم اعتقدوا ترتب الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية. ويرجع هذا الاعتقاد فى الحقيقة إلى المملكة القديمة. والغريب أن هذه العقيدة انحصرت فى المصريين أكثر من ألف سنة فى حين أن البابليين والاسرائيليين اعتقدوا أن انتقال الموتى عموماً إلى سقر المعرفة باسم «شول»، واعتقد المصريون أن الأموات الذين تحكم عليهم محكمة أوزريس بالاجرام يعرضون للجوع والعطش ويحجزون فى أماكن مظلمة لا يبصرون فيها ضوء الشمس. وفى المحكمة طريق أخرى للقصاص، منها حيوان بشع له رأس تمساح ومقدم أسد ومؤخر دب البحر يفترس المجرمين الآثمين. وأخذت آراء القوم فى عهد المملكة الوسطى تحوم حول تطهير النفس من المعاصى والمظاهر التماساً للبراءة بعد الوفاة وتجنباً للعقاب الأليم. فأصبحت ترى الكثير من نقوش شواهد القبور شديدة الشبه بما ألمعنا إليه فى عهد المملكة القديمة، وهى تتلخص فى أن الميت يطعم الجوعان ويروى الظمآن ويكسو العريان وينقل فى سفينته من ليس له سفينة. وجاء على بعض الشواهد أن المتوفى كان أبا اليتيم وزوج الأرملة وملجأ الذى لا ملجأ له مما أشرنا إليه حين تكلمنا على كرم وسخاء حكام الأقسام والشخص الذى تبرئه الحكمة أوزيريس تلقبه بالرجل الطاهر العادل أو صادق القول أو المنتصر» (١)

فإذا فرغ «توت» — وهو الذى تصوره لنا الآثار حاملا الميزان فى يده — من مهمته أمر بهذا المسئول فيساق إلى ذلك الصراط المخوف الذى مد فوق الجحيم والذى إذا اجتازه

---

(١) راجع صفحتى ١١٢ و١١٣ من كتاب تاريخ مصر من أقدم عصورها للأستاذ بريستد.

الشخص نجا وارتقى إلى جوار الآلهة والفراعنة الأبرار ، وإذا هوى من فوقه سقط فى واد سحيق ممتلىء بالأفاعى والحيات التى تتولى تعذيبه بقسوة حتى ينال قسطه من الجزاء

ومن الغريب أن المصريين مع إيمانهم بهذه العدالة الصارمة فى الحساب ووزن الأعمال كانوا يعتقدون أن تلاوة الرقى والتعاويذ وكتابتها على تابوت الميت أو على حوائط قبره تستطيع أن تنفعه أمام محكمة أوزيريس فتزيد فى نعيمه وتخفف من عذابه ، وهذا هو معنى قول المحدثين : « الرحمة فوق العدل » . وقد كتبت هذه التعاويذ فى كتاب « الموتى » وكتاب توت الذى ألمعنا إليه آنفا .

عقائد وطقوس دينية

اعتقد المصريون - كما أسلفنا - بالبعث والحشر والحساب على الأعمال والميزان والصراط والنعيم والجحيم ، وآمنوا كذلك بأن هذا النعيم درجات ، أدناها المتع المادية ، وأعلاها الذهاب إلى جوار الآلهة أو الصعود بوساطة السلم الإلهى من مملكة الموتى إلى مملكة « رع » حيث يقيم الصالحون والمقربون مقاماً أبدياً لا مرض فيه ولا تعب ولا موت ولا فناء . واعتقدوا أن فى الجحيم كذلك درجات بعضها خفيف وبعضها قاس ، وأن بها ثعابين وحيات وتنينات تتولى تعذيب الآثمين بقدر ما يرسم لها إله الجحيم .

هذا كله فى الآخرة ، أما فى الدنيا فمن طقوسهم الدينية أنه إذا مات الميت يجب أن يغسل بالماء النقى وأن يكفن ويدفن بعد أن يلقنه الكاهن ما كانوا يسمونه بالرقى المنجية التى تحميه فى القبر من الأرواح الشريرة وتكفل له فى الآخرة رحمة الآلهة ، وأن تكتب تعاويذ « توت » على تابوته وجدران قبره إن كان من ذوى الحيثيات كأن يكون ملكا أو أميراً أو كاهناً أو وزيراً أو موظفاً كبيراً أو أديباً أو طبيباً مثلا ، أما إن كان من أبناء الطبقات الدنيا ، فان هذه التعاويذ تكتب على كفنه أو فى ورقة بردية تدفن معه .

ومن هذه الطقوس أيضاً تضحية الحيوانات على قبر المائت ووضع بعض لحومها مع الخبز والماء والفاكهة والنبيذ فى داخل القبر ، وأن يتولى تقديم هذه الضحايا أحد الكهنة ، ليتقبلها أوزيريس فيضمن أهل الميت بهذا القبول لمتوفاهم الرحمة والغفران (١)

رأى بعض الباحثين الغربيين أن هذه العقائد الفرعونية من : بعث وحشر ووزن وثواب وعقاب ونعيم ، بعضه مادى وبعضه معنوى ، وعذاب يتفاوت بتفاوت درجات الآثام والشرور ، وأن تلك الطقوس الوثنية من : غسل الميت وتكفينه وتلقينه ودفنه ونحر الضحايا بمناسبة موته ، كل هذا يوجد بحذافيره فى بعض الديانات التى تدعى لنفسها السماوية فرموا هذه الديانات الأخيرة باستقائها عقائدها وطقوسها من تلك الديانة الوثنية لا من عند الله كما تدعى

ولست أدرى كيف يستسيغ أولئك الباحثون هذا المنطق العجيب مع اعترافهم بالجهل التام للأصول الأولية فى الديانة المصرية ؛ وما المانع من أن يكون مصدر هذه الأصول المجهولة لديهم هو : السماء ، وأن يكون التوثن والتعدد عارضين لها بعد التأليه والتوحيد ؟ وفى هذه الحالة يكون من الطبيعى أن تتفق مع الديانات السماوية فى جميع العقائد والطقوس التى لم ينلها التحريف ؛ ثم ما المانع كذلك من أن تكون تلك الطقوس مستحدثة فى الديانة المصرية لا يصعد مبدؤها على سلم التاريخ إلا إلى العهود التى اختلط فيها المصريون بالساميين واقتبسوا منهم بعض طقوسهم الدينية ؟ هذه كلها احتمالات جائزة الوقوع ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن اتفاق ديانة وثنية مع أخرى سماوية لا يقوم برهانا على أخذ الثانية من الأولى ، ولا يصح الاستناد إليه فى الحيلولة بينها وبين سماويتها

الأخلاق

آمن المصريون - كما قدمنا - منذ عهود تقصر عن إدراكها مجهودات التاريخ بأن لهذه الأكوان منشئا أو منشئين خلقوها ونظموها وهم يتولون تصريف شؤونها بحكمة واقتدار وعدالة وإنصاف . ولأمر ما ، اقتنع المصريون منذ أقدم عصورهم بأن هؤلاء الآلهة المتصرفين فى الأكوان اختاروا فى مبدأ الدنيا عرش مصر واتخذوه مقراً لهم يصدرون من فوقه أحكامهم وأوامرهم النافذة التى لا يجرؤ أى فرد من أفراد

(١) راجع رسالتنا « الآثار الحية لمصر الغابرة » صفحات ٢٣٨ إلى ٢٤٤ « وكتاب القصص المصرية » صفحة ١٠

الوجود على التمرد عليها أو عدم الانصياع لها ؛ ثم عن لهؤلاء الآلهة أن يغادروا عرش مصر الى عرش السماء فقعلوا ، ولكن بعد أن استخلفوا على هذا العرش العزيز أبناءهم وأحفادهم الفراعنة العظماء وزودوهم بكل ما يحتاجون إليه فى حكمهم للبلاد وسياستهم للدولة وقيادتهم لجميع أنحاء النظم الإجتماعية والأخلاقية التى لا تسير بالبلاد إلا الى التقدم والعمران ، وأن أولئك الآلهة سيلحظون الحاكمين والمحكومين بعنايتهم ويكلؤونهم بعين رعايتهم ماداموا يقومون بواجباتهم نحو أولئك الآلهة المحسنين . وكان هذا القيام بالواجب يتلخص فى الشعائر الدينية وفى الإتصاف بالفضائل الأخلاقية ، وأولها الولاء للعرش والعدالة والصدق والأمانة والرحمة والإحسان وأشباهها

ولا ريب أن هذه الأسطورة — على بطلانها — كانت أقوى العوامل وأهم الأسباب فى رقى مصر العمرانى ، وتماسكها الإجتماعى وجلالها السياسى ، وسموها الأخلاقى ، واطراد تقدمها فى العلم والأدب والفنون الجميلة والصناعات النافعة .

ومن الطبيعى أن الأمة التى تعتقد أن نجاحها فى الدنيا وفوزها فى الآخرة مترتبان على الفضائل لا تألو جهداً فى أن تكون أمة فاضلة خيِّرة ، وهذا هو الذى حدث بالفعل ، فقد انتشرت الفضائل فى وادى النيل انتشاراً قويا وعظم الخاصة والعامة معتنقيها وكافأهم الملوك على حسن سلوكهم بجلائل النعم وأعاظم المنح كما ضرب على الرذائل والشرور بأيد من حديد ، وأصبح أفراد هذه الأمة جميعهم يفخرون بالفضائل ويتبرأون من الرذائل لافرق فى ذلك بين فرعون على جلاله وبين الفلاح الصغير أو العامل الحقير . وإليك شيئا من نصوص تصوير هذا العصر الغابر ، ومقدار تمسكه بالفضائل وأثر ذلك التمسك فى حياته : « واعتقد القوم أن الوصول إلى حقول الخيرات الأخروية يكون بالإهتمام بالشعائر الدينية والاعتناء بها ، وبتوالى الأيام اعتقد الناس أن النعيم الأخروى يكافأ به من يحافظ على طهارة الذمة والشرف والأعمال الصالحة فى الدنيا . من ذلك ماورد فى مقبرة أحد أمراء الأسرة الخامسة مترجماً : « لقد شيدت مقبرتى بغاية العدل والحق فلا شىء فيها يستحقه غيرى ، وأنا لم أوذ أى شخص » . وماورد أيضاً من النقوش على جدر مقبرة لأحد أبناء تلك العصور مترجماً :

« أنا لم أعاقب قط فى حياتى أمام رجال الحكومة ولم أسرق شيئاً من غيرى ؛ بل فعلت كل مايرضى غيرى » . ولم تقتصر نقوش مقابر تلك العصور على إنكار السيئات ، بل شملت أيضا فعل الخيرات كما ورد على جدار مقبرة وجيه فى الأسرة الخامسة مترجماً : « كنت أقدم الخبز لفقراء إقليمى ، وأكسو عرانه ، ولم أوذ أحداً طمعاً فى أملاكه حتى اشتكانى إلى معبود بلده ، ولم أسمح لضعيف أن يخشى بأس قوى فيتظلم من ذلك للإله » .[1]

ومما ورد فى موضع آخر تعزيزاً لما قدمناه مايلى : « ومنه يتضح أن القوم وقتئذ أخذوا يعتقدون بوجود محاكمة فى الآخرة أمام (أوزيريس) وأن هذه العقيدة أحدثت تأثيراً أدبيا عظيما فى نفوس المصريين ، فإنهم وإن كانوا حقيقة منذ قديم الزمن ذوى ضمائر ونفوس رادعة إلا أنهم كانوا فى احتياج إلى زجر قوى كالوارد فى عقيدة أوزريس . لذلك نشاهد بين نقوش دهاليز أهرام أمراء الأسرتين : الخامسة والسادسة " تحذير كل من يستولى على مقابرهم بأنه سيحاكم على أفعاله أمام المعبود الكبير ، كما ورد فى مقبرة أخرى مايشير إلى تجنب الكذب كلية رغبة فى رضاء المعبود وقت الحساب . كل هذه الحقائق وجدت مدونة بين أقدم نصوص الموتى المعروفة الآن بمصر[2]

ومما لا شك فيه أن اتصاف المصريين بالفضائل والخيرات يرجع إلى أوائل عهدهم بالتعقل والتفكير . ونحن بهذه المناسبة لا نوافق الأستاذ « بريستيد » على قوله : إن الواجب الدينى كان فى أول أمره مقصوراً على الشعائر ثم تحول بعد ذلك إلى تناول الفضائل . فهذا القول غير صحيح ألبتة ، لأن المصريين لم يعرفوا الحياة يوماً واحداً بدون اعتناق الفضائل والأخلاق وإيمانهم بأنها أوامر الآلهة كانوا ينشرونها بين الناس إبان اتخاذهم عرش مصر مقراً . أى قبل صعودهم إلى السماء فى الأزمان السحيقة . ولو كان قول بريستيد صحيحاً للزم أن يكون الآلهة قد شغلوا زمناً عن الأمر بالفضائل ولم يهتموا إلا بشعائرهم الدينية ، وهذا منقص لشئونهم ، حاط بعظمتهم عما لم يشعر به المصريون يوماً واحداً

(يتبع) **محمد غلاب**

(١) أنظر صفحة ٤٣ من كتاب « تاريخ مصر من أقدم عصورها » « هانرى بريستيد » . (٢) راجع صفحتى ٤٣ و ٤٤ من الكتاب المذكور

دالت دولة الشعر

للأديب هلال أحمد شتا

تصاحب هذه الحقيقة المرة رأسي منذ زمن بعيد ، ويقوم بيني وبين نفسي من أجلها جدال عنيف ؛ فلا أنا قادر على أن أفلتها لتجد لها مكاناً عند غيري ، ولا على أن أدعها تقض مضجعي وتلهب رأسي . . وليس شك في أنني تركتها تؤرقني طوال هذا الزمن ، فلم أفض بها إلى مثل هذه السطور ، خوفاً على نفسي وإشفاقاً وفرقاً . . فكلما تمثل في خيالي وصح في ذهني أن مئات من الناس يبقون على هذه الصناعة — صناعة الشعر — ويخلصون لها ، ويؤمنون بها ، ترددت في الكتابة ، ثم أحجمت . .

على أنني — وقد آمنت بهذه الحقيقة منذ كان شوقي قائماً بيننا يملأ الدنيا صدحا وتغريداً ، ومنذ كان غيره من فحول الشعر لا يزالون في الميدان صوالين جوالين — أحسبني اليوم قادرا على أن أبوح بما آمنت به ، بعد أن خلت عرائن الأسود إلا من الأشبال ، وبعد أن تقدم بنا العصر بضع خطوات كفيلة بأن تقضي على دولة الشعر أي قضاء . .

ذلك أن الشعر لم يصبح مما يسيغه ذوق عصرنا هذا ، ولا أصبح قادراً على أن ينهض على قدميه أو يواصل سيره في سبيل البقاء . وسأحاول على هذه الصفحات أن أبسط ذلك بعض البسط ، مترفقاً في محاولتي عازفاً عن المبالغة . وفي يقيني أنني سأخرج من هذه الكلمة الهادئة ، وإلى جانبي غير قليل من القراء الكرام . . فأما الشعراء والمؤمنون بهم ، فلست أخشى اليوم نقمتهم أو أشفق مما عساهم يفعلون .

° ° °

ولقد يدرك القارىء أني لا أحاول أن أنتقص من قدر الشعر القديم أو أكفر برسالته ، فأنا عن مثل ذلك عزوف عفيف . . ولكن الذي أقول : هو أن رسالة الجمال والفن في ذلك الشعر القديم ليست خالدة ولا باقية على الأيام ؛ وبحسب الشعراء الأقدمين أنهم قاموا على تأدية هذه الرسالة في عصورهم وأزمانهم ، وأنهم صوروا بشعرهم صوراً بهرت نفوس ذويهم وأقوامهم ومعاصريهم ؛ بل إن تقدير الزمن قد امتد بآثارهم عصوراً أخرى غير تلك العصور . . ولكن نتاجهم هذا لم يعد راويا لظمأنا نحن إلى الجمال ، مصوراً في صور تهز نفوس أبناء هذا العصر الحديث الناظرين إلى الحياة بغير منظار السادة الأولين . . وكل ما بقي لنا من آثار ذلك السلف الكريم لا يعدو أن يكون ثروة لفظية ولغوية تقوم منا اللسان وتبسط أمامنا سبل الحديث المستقيم ، ولا يعدو أن يكون موضوعا لدراسات أدبية ، أو اجتماعية ، أو نفسية ، يفيد منها التاريخ ، ويفيد منها رواد الأدب والباحثون في حياة الجماعات الأولى . . كيف كانت ، وكيف سارت بها السنون نحو الرقي والكمال ، أو نحو التدهور والقعود

وهذه اللغة العربية التي جمعت على هيكلها شعوبا وقبائل في شبه الجزيرة ، كانت في حاجة الى الشعر وهي ما زالت طفلة تحبو ، شأنها في ذلك شأن كل اللغات اليافعة القريبة المولد ؛ فالشعر يكاد أن يكون هو المظهر الأوحد للأدب أو الفن في البيئات الأمية التي تتقطع فيها أسباب الكتابة والتدوين . وكل جماعة من الجماعات الأمية محتاجة أشد الحاجة الى وسيلة تسجل بها خواطرها المشتركة ، وتعبر عن مشاعرها ، وتتحدث بمفاخرها ؛ ولا بد من أن تكون هذه الوسيلة قادرة على اذاعة رسالتها بين الأفراد ، وحثهم على أن يتلقنوها ؛ ولا يستطيع كل ذلك الا الشعر ، فان اتزانه ، وتقفيته ، وموسيقاه ، تسوقه الى ذاكرة سامعيه من أيسر طريق وأقصد سبيل

ولا شك في أن علم الناس بالقراءة والكتابة — بعد ذلك — يحمل عن كاهل الشعر بعض هذه الاعباء ، ويحد كذلك من سلطانه شيئا ، ويسلبه بعض نفوذه العريض ، ولكنه يوجهه توجيها ساميا نحو الفن الرفيع ، وتلمس ألوان الجمال ، التي تختفي في ثنايا الوجود ، وتتوارى وراء أغشية الجمود

على أن الشعر لا يمكن أن يكون متفردا بهذا التوجيه الجديد الذي دفعته اليه معرفة الناس القراءة والكتابة ، لأن هذه المعرفة خلقت النثر الواسع الأجواء ، الذي يلعب بسائر فنون القول ، والذي أصبح بعد قليل أقدر عليها من الشعر وأقوى ساعدا . ولست بحاجة الى أن أثبت قدرة النثر على التعبير ، وتفوقه على الشعر في هذا السبيل . فذلك أمر بديهي ؛

ولن يجد الكاتب الذى يسجل خواطره ، أو يترجم أحاسيسه ، أو يعبر عما يختلج فى ذهنه من المعانى - أفسح من النثر مجالا ، ولا أوسع ميدانا لقلمه الجوال . ولن يتقيد فيما يكتب بوزن يتحتم عليه أن يرعاه ، ولا بقافية تأخذ بخناق قلمه أخذا

وأخشى أن يتحدث المفتونون بالشعر - فى هذا المجال - عن روحانية الشعر ، وسمو أجوائه ، وروعة أخيلته ، وفتنة موسيقاه ، وما الى ذلك مما يجيدون فيه الحديث ؛ وألا يدركوا أن روحانية المعنى . وسمو الجو ، وروعة الخيال ، ليست قاصرة على الشعر ولا هى وقف عليه ؛ فما أجمل ما يكتب الناثرون أصحاب النفوس الشاعرة ، وما أروع ما ينتجون . . وفى جنبات سطورهم المنثورة تسفر الفتنة الخالدة التى تلعب بالمشاعر لعباً . . ولن يسىء إلى هذه الفتنة الرائعة أنها محاطة بجلال الصمت ، وأنها عارية عن موسيقى الشعر التى لم تعد إليها بحاجة ، فلقد كانت هذه الموسيقى تهز النفوس يوم كانت النفوس لا تزال على فطرتها طفلة رخوة ؛ ولكنها اليوم لم تهز نفوساً تنصت كل يوم لموسيقى الأوتار .

لقد دار الزمن دورة قصيرة المدى ، فاذا الشعر يصبح قاصراً عن أداء رسالة الفن والجمال ، التى وجهه إليها علم الناس بالقراءة والكتابة ؛ وليس عمر الشعر العربى الصحيح الذى أدى رسالته هذه فأحسن الأداء سوى لمحة خاطفة من عمر الزمان ، فلقد وقف بعد ذلك حينا فأطال الوقوف ، ولم يخط إلى الأمام خطوة واحدة ، بل إنه سار إلى الوراء خطوات وخطوات ، ليصبح ترديداً معوجاً لما قال الأقدمون

ولقد ذهب الباحثون يتلمسون أسباب وقفته ، ويخلقون المعاذير ، وراحوا يوغلون فى مسالك من القول متشعبة لا تنتهى إلى مصير ؛ يضرب الأكثرون منهم على وتر واحد هو وتر الخطوب السياسية التى هدت كاهل العرب والعربية والتى طوحت بآثارهم إلى مهاوى الفناء . . ومهما يكن فى ذلك من الصدق أو سلامة المنطق ، فانه لا ينهض سبباً لوقفة الشعر العربى فى أيامنا هذه التى شملتنا فيها موجة من الرقى فى مناحى التفكير جميعاً ، إلا ناحية الشعر . . والتى بلغ نثرنا فيها مكاناً فوق مكان الأولين

وفى يقينى أن وقفة الشعر هذه ، وتخاذله ، وسيره نحو الفناء ، لا سبب له سوى أنه قد أدركته الكهولة ، فلم يبق ثمة أمل فى شفائه من أهوال السنين التى تستشرى اليوم فى عظامه وخلاياه ، والتى سوف تحيله أثراً وذكرى . فليست عقولنا كهلة ولا مريضة ، وإنما الشعر هو المريض المهيض ؛ وما أجدبت منا القرائح ولا زايلتنا خصوبة الخيال ، وإنما الشعر هو الذى يضيق عما خلقت قرائحنا المصقولة بمعول التفكير الحديث . من آفاق واسعة ممدودة الأطراف . وها هم الأوربيون - وهم من تتحدث معجزات العصر بعبقريتهم ونبوغهم فى شتى جوانب التفكير ، وسائر ضروب الفن الجميل - قد أدركوا منذ زمن بعيد قصور الشعر وضيق ذات نفسه ، وتوجه شعراؤهم إلى ألوان من القصة والمسرحية وغيرهما . وها هو شعرهم آخذ سمته نحو الهزيمة القاتلة والفناء الذريع .

ويلوح أن شعراءنا المحدثين قد آمنوا بهزيمة الشعر فيما بينهم وبين أنفسهم - ولو من حيث لا يشعرون - ويلوح كذلك أن جهود شوقى الأخيرة فى سبيل المسرحية الشعرية كانت مظهرا من مظاهر هذا الايمان . وإننا لنلمس أن النثر فى نتاج العقاد عشرة أضعاف الشعر أو يزيد ، وأن القصة وحدها والمقالة القصيرة هما قبلة جهود المازنى جميعا - وقد كان شاعرا -

وأحمد الله على أن شعراءنا الشبان ، أمثال : ناجى ، والخفيف ، وفتحى موسى ، والطرابلسى ، وغيرهم ، قد وجهوا عنايتهم إلى القصة وما اليها من فنون الكتابة والبحث ، قبل أن يبعثر الشعر أيامهم الغر ، وهى أعز علينا من أن تلقى فى الهواء . .

ولا حاجة بعد هذا إلى القول بأن دولة الشعر قد دالت ، فذلك ما انتهيت اليه ، وما أظن القراء الامنتهين إليه أيضا . .

وإذا كان الشعر قد استطاع أن يحافظ على بقائه طوال هذه السنين ، وأن يعارك الزمن فتيا وكهلا ، فلن يستطيع البقاء فى عصر الطباعة والصحافة ، ولن يستطيع البقاء فى عصر القصة - وقد سلبته ما تبقى له من بعض الفتنة والجمال .

ولكننى لن أنسى أن أقول إن نوعا واحدا من الشعر لا يزال قادرا على البقاء ، هو شعر الغناء ، ليكمل جانبا من فن الموسيقى ، كما يكمل أدب المسرحية فن التمثيل .

ويستطيع الشعراء بعد ذلك أن ينظموا لأنفسهم ما يشاءون ، وأن يقرأوا لأنفسهم كذلك ما يشاءون . . فأما المجد الادبى ، وأما رسالة الجمال والفن ، فليبحثوا عنهما من طريق غير هذه الطريق . .

هلال أحمد شتا
بمجلس الشيوخ

مات كاتب البعث!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

ما أدركت روحى موته لأول منعاه لأنه يملؤها ويدفعها على محور من قلبه، ولا يزال شفق شمسه على آفاقها يسحب ذيوله فى بطء، ولذلك استطعت أن أتلقى منعاه تلقى الخبير بالموت العالم بأنه شيء عادى يجب ألا تضج منه الأحياء بالشكوى والتفجع.

ثم أفقت دفعة واحدة منزعجا على ضجة روحى وهى تنزى من الألم وتلوى تحت هول الفجيعة... فجيعة قلبى فى صاحب حديثه، الكاتب الأصم الذى كان يسمع من هناك... مما وراء الأبعاد والحدود.، ثم يحدث

وفجيعة نفسى التى كانت تغتسل كل أسبوع بمداده الأسود المنير... وفجيعة قلبى العاجز فى صاحب القلم المعجز الذى كان فى يده كعصا سحرية يلعب بها تارة فيخايل «بالسحاب الأحمر» و«حديث القمر» ويكتب بها على «أوراق الورد»، ويضرب بها على قسوة القلوب فتنبجس للمساكين، ويسوق بها «تحت راية القرآن» نحو هدف الشرق الإسلامى أجيالا جديدة هى مدينة له لاريب بجزء كبير من الروح الذى يملؤها بفتنة المجد وسحر العزة ومرارة الجد، وبعث تاريخ الأبوة، والايمان بالشرق والعروبة والاسلام إيمانا يحمل عليه الفن الساحر والروح الغامر الذى يستولى على القارئ ويتركه فى غمرة لايفيق منها إلا وقد انتقل إليه سر الكاتب، وسحر المكتوب.

وابتدأت جراح روحى تتسع وتستدمى وتنغل حتى توجعت واضطربت وراب أصدقائى من أمرى شيء غريب، وصاح الألم ينادى القلم ليسعفه بالبلسم فيشيع الراحل العظيم ويسعى فى جنازته الروحية على صفحات (الرسالة).

ولكن العاطفة إذا ثارت وفارت وهاج هيجها شلت جميع قوى العقل. وهأنذا أجلس ساعتين لأكتب الكلمة التى أخفف بها عن نفسى فلا أستطيع! مع أنى ممتلئ بميراث الرجل وشخصيته وأدبه وحبه وأخباره.

واشهد أن جميع ما فى نفسى من الحزن يختفى حين أريد أن أدفعه عنى فى أجساد وصور من كلمات، وأن ما أريد أن أقوله يروغ منى وتزيغ حواسى دون مكمنه فلا أراه ولا أدركه... والأمر بعد للصمت وإن أتلف، وللدمع وإن أسعف.

وقدرت أن مناحة ستقام بمصر على كاتب البعث فانتظرت حتى بكوا وكتبوا، فقرأت بعض الكلمات، وشربت بعض العبرات.. ورأيت مكان قلمه خاليا فى (الرسالة) فراعنى وحدثنى أن أعلام الأدب الاسلامى التى كانت تخفق على نصاب من قلمه قد طويت إلى يوم النشور... وأن البيان الهدار الرجاف الجارف قد غاض... وأن القلب الذى كنا نسمع لغته بين السطور قد تقطعت أوتاره... وأن الحركة الدائبة المجاهدة الناصبة لغاية الشرق الاسلامى والاعتزاز به والدفاع عن محاسنه وجلوة آثاره والصمود بها أمام الزلزلة التى أصابت الشرقيين غداة صحوا على قصف القوة الغربية وفتنة مباهجها صمودا ترك كثيرا من الشبان متماسكين مؤمنين بانفسهم وبلادهم وميراثهم على رغم ما أتى به الغرب من تخانيث المدنية وزيغ الحواس بها.. هذه الحركة قد ركدت إلى الأبد فى وادى السكون...

ثم قرأت قصة موته بقلم صديقه وأستاذنا صاحب الرسالة فعجبت لذلك القلب الكبير الذى يأبى أن يموت إلا على نية عمل عظيم للحياة! يريد أن يطهر... إنها وصيته إلى تلاميذ مدرسته فلينفذوها فانها رغبة التاريخ حدث بها على لسان حى ميت

وهكذا تنتهى حياة المجاهد لا يموت فى فراشه إلا على نية الجهاد، لأن أشواق روحه وأوطارها دائما فى حياة الميدان..

وهكذا تسلم حياة الطهارة إلى تلك الخاتمة السعيدة بالنية العظيمة كما تسلم حياة الاثم وخيانة الميراث الانسانى والأمجاد القومية إلى أن يموت أحدهم وهو فى ضجة من شهوات النفس. ولكن هل يستويان مثلا؟ لا والذى جعل الحياة واجبا حملناه غير مخيرين ولا بسناه على كره منا! وجعل الأرض ميدانا للكفاح، لا وليمة للتشهى! وجعل من التاريخ كيرا لا يبقى ينفى الخبث!

***

قصة حياة الرافعى العظيم هى قصة الكفاح بين أولئك الذين أرادوا أن يجمعوا للشرق بين الحسنيين من الطريف النافع والتالد الخالد الثابت الذى لايمكن أن يتغير بتغير العصور، فإغفاله ضلال فى الحاضر وعقوق للماضى وتضييع للمستقبل وإفناء للشخصية؛ وبين أولئك الذين أرادوا على حد تعبيره أن يترجموا أمم الشرق إلى أمم غربية برغم الدم والاستعداد وطبيعة المكان ووحى التاريخ.

وقد بدأ رحمه الله أن يأخذ مكانه فى صفوف الفريق الأول منذ عهد الإمام محمد عبده، ولذلك دعا له بهذه الدعوة التى تعتبر نبوءة صادقة من الامام قال له: «أقامك الله فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل»

وما زال الرافعى حجة من حجج الشرق والإسلام فى عصر فقير من الأقلام المجاهدة الذائدة؛ وقد أتى عليه زمن أوشك فيه أن يكون وحده آخذاً جهة فى الميدان وجميع الكتاب فى جهة مضادة، وكان هذا فى الزمن الذى أعقب الثورة المصرية سنة ١٩١٩ والذى طغت فيه على مصر موجة هدامة تطرقت حتى إلى أقدس مقدساتنا وهو القرآن الكريم، ولم تنحسر هذه الموجة إلا بعد سنة ١٩٣٠ حيث تعرف الناس بفضل الجمعيات الدينية إلى أمجاد دينهم وتاريخهم. وقد أمد الرافعى هذه الجمعيات ببيانه المترجم عن النزعات العربية الاسلامية فى زمن كانوا أحوج مايكونون فيه إلى مثله. ولم ينته عصر المقاومة بين الفريقين إلا وقد ظهرت فى الميدان أقلام تبنى وتترجم وتكشف عن المدخرات فى ميراثنا وكان لها من قلم الرافعى لواء وروح وموسيق .... ثم أعقب ذلك هذه الموجة الدينية العربية التى تغمر روح الشباب المصرى وتدفعه إلى الثورة فى سبيل تعميم التعليم الدينى حتى فى كليتى الطب والهندسة! أليس هذا نصراً عزيزاً للرافعى وأمثاله ممن سلخوا ثلاثين عاما وهم فى شبه وحدة فى الميدان؟ أليست مقالته القريبة «قنبلة بالبارود لا بالماء المقطر» نشيد النصر وأهازيج الظفر بخصوم عتاة؟

فليت شعرى ماذا كان يريد بعد ذلك من حركة التطهير؟

٭٭٭

إن الرافعى ليتسامى إلى حيث لا يبلغه أحد حين يضع نشيداً دينياً أو وطنياً. ويخيل إلى أنه حين كان ينظم أناشيده يستجمع حاسته السادسة التى تعوض بها من حاسة السمع، ويجلس على جناحى الزمن: التاريخ والغيب، ثم يضرب على أوتار القلوب بألحانه التى كان يسمعها من ذكريات الأصوات والأنغام، ومعانيه التى كانت لا تتنزل إلا له وحده

واقرأ إن شئت برهانا على ما نقول النشيد الذى وضعه لجمعيات الشبان المسلمين، أو نشيد سعد زغلول، أو نشيد الوطن، أو النشيد الوطنى الذى وضعه أخيراً، لترى هل يستطيع غيره أن يصل إلى ما وصل إليه هو من بيان واجبات الشاب ونجواه لمجده ودينه ووطنه

٭٭٭

إن الرافعى لم يكن كاتبا يكتب للفن وحده، ولكنه كان صاحب رسالة وأهداف سار إليها منذ أن شب عن الطوق فى دولة القلم

وإن شعوره برسالته تلك استولى عليه فى كل ما كتب حتى فيما كتبه يعاجز به أدعياء التجديد الذين كانوا يخوضون منه فى ساحل ضحضاح ويضرب هو فى عبابه وأعماقه ويخرج بالدرر اليتيمات، فهو لم ينس غايته فيما كتبه من أحاديث الحب والمراقص والسوامر

ولم تخدعه عن غايته فتنة الشهرة وتملق الجماهير بادعاء الالحاد وزعم التجديد فيدلى بالكلمة الكافرة والرأى الآثم، بل فرض نفسه وفكره فرضا. وكان ينعى على الأدب الصحفى الذى يسير فيه «صعاليك الصحافة» وراء الجماهير حتى أسلمهم الحال إلى أن يكونوا مقودين لا قادة كما يجب أن يكون وكما تملى عليهم مهمتهم

٭٭٭

لقد حظى الرافعى بشرف المبالغة من مؤيديه ومعارضيه، شأن كل عظيم رأته الأرض؛ غير أن حظه من شهادات المقدرين لأدبه فى حياته من أوفر حظوظ الأدباء. فقد ظفر بنبوءة الأستاذ الامام وتقدير الزعيم الأكبر سعد زغلول لبيانه الذى «كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم»، وتلقيب أمير البيان الأمير شكيب أرسلان له بحجة العرب ونابغة الأدب. وقول المغفور له أحمد زكى باشا «لقد جعلت لنا شكسبير كما للانجليز شكسبير وهوجو كما للفرنسيين هوجو، وجوته كما للألمان جوته»، وإجماع الناس على أنه أوحدى فى فنه اللفظى وتوليد معانيه مما وراء حدود الكتاب والمنشئين، مما سما بنثره إلى درجة تعلو الشعر فى موسيقاه وترجيعه. وأذكر أنه محرر مجلة الهلال كتب عنه كلمة: بمناسبة ظهور الطبعة الثانية من كتابه «المساكين» قال فيها ما معناه «إن من يقرأ للرافعى يؤمن بأن البلاغة حاسة سادسة»

وقد سمعت منذ ثلاثة أشهر من أحد كبار من أثق بعقلهم ونقدهم وممن كانوا يسخطون على طريقة بيان الرافعى قبل أن تحلوه (الرسالة) يقول: «إن الرافعى يصل فى بعض الأحيان إلى مرتبة الاعجاز...

وأذكر أيضا أنى قرأت فى مجلة الزهراء التى كان يصدرها الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب منذ عشر سنوات أو تزيد أن أحد المعجبين به من أدباء المهجر كتب إليه يقول إن لولا «الجملة القرآنية» لكان أبلغ من كتب بالعربية فى جميع عصورها..

والذين لا يقدرون أدب الرافعى هم الذين يقرءون للتسلية وتزجية الفراغ لا للدرس ولا «لتمثيل» المعانى؛ لذلك كان يؤودهم ويجهدهم أن يتابعوا سمو عقله وأن يكثروا مما على موائده الدسمة.

أما الذين كانوا يقرءونه للمتاع بمعانيه الخارقة فكانوا لا يكتفون بقراءته مرة أو اثنتين أو أكثر إذا أحوج الامر، وهم الكاسبون لانهم قرأوا «قراءة عريضة» لا «قراءة مستطيلة» ليس وراءها غناء

وأذكر أنى قرأت خطرة من «خطرات نفس» للدكتور منصور فهمى بك التى كان ينشرها فى الاهرام منذ ١٣ سنة يقرظ «رسائل الاحزان» للرافعى قال فيها ما معناه: «إنك كالموسيقى الألمانى فجنر الذى كانت ألحانه لا يفهمها البشر، حتى قال الناس إنه

ومضة خالصة من النجف على الرافعي

فقيد البيان الرفيع

للأستاذ حسين مروة

إننا – علم الله – لنشعر بالتياع حزاز فى قرارة النفس ان لم تؤآتنا الفرصة للجهر برأينا فى أدب المغفور له الأستاذ مصطفى صادق الرافعى إلا فى هذه الساعة الرهيبة إذ تفجؤنا أنباء وادى النيل بنعى الرجل راحلا إلى دار الله الباقية ، ملقياً عن نفسه هذا العبء الذى كانت تضطلع به فى سبيل الله ، وفى سبيل الفصحى الكريمة لغة القرآن الكريم ، وفى سبيل البيان الرفيع اللهجة ، العلى النغمة ، النبيل المعنى والقصد والأداء . وإننا لنشعر بالألم يشيع فى أحناء الصدر أن رزئت دولة الأدب والبيان العربى هذه الرزيئة بفقد علم خفاق من أعلامها لم يطل به عهد الجهاد فى سبيلها ، ونكسته يد القدر قبل أن يؤدى رسالته العالية ، وإن هى إلا الرسالة التى تنتظرها الروح العربية الناشطة من عقال الخنوع والاستعباد ، والنهضة الاسلامية الطالعة اليوم من كل فج وواد ؛ بل هى الرسالة التى تتحرق الانسانية كلها شوقاً إلى سلسلها العذب وخمرتها العلوية الخالدة ؛ فلقد كان الرافعى الراحل كياناً أدبياً شامخ السمك رفعته يد العناية فى هذا الجيل ليبث فيه عبق الفصاحة العربية التى أسنت فى آنية الزمن حتى كادت تستحيل على أسلات الأقلام الناشئة المتأدبة فى هـذا العصر ريحاً غريبة ماتكاد تتبين فيها نفحة العروبة أو عذوبة الضاد ، أوشمائل الأجداد . ولقد كان الرافعى الراحل كذلك كلمة إسلامية جامعة تتلخص بالدعوة الصارمة الصارخة الصادقة إلى فضائل الإسلام فى زمن كادت تتقلص فيه عن هـذه الأرض الواسعة ظلال الفضيلة وخلائق الخير ومثل الانسانية العليا . ولقد كان - إلى هذا - فكراً تتدفق فى مطارحه أشعة الحقائق الاسلامية ، وقلباً يطفح بفيوض الايمان بعبقرية هذا الدين الحنيف ، فكان من أجل هـذا وذاك أنطق ناطق فى التعبير عن « الاشراق الإلاهى » الذى يطفو على وجه هذه الشريعة السمحة الغراء فى كل قضية من قضاياها التشريعية أو الروحية العبادية الخالصة ؛ وكان من أجل هذين أيضاً أبرع بارع فى تفسير « النبوة » على ما يريد الله منها فى بعث الرسل إلى الخلق وبث النبوات فى الكون ؛ وكان أقوم لسان فى حكاية « فلسفة الاسلام » على وجهها الذى ينبغى أن ندين الله به .

هذا هو الرافعى فى أدبه من الوجهة الروحية كما فهمته فى جملة ما قرأت له من كتب ومقالات ؛ ولا سيما هذه المقالات التى كان يكتبها « للرسالة » فى المناسبات الاسلامية التى جرت (الرسالة) على الاعتداد بها ، وعقد الفصول حولها ، وتخصيص بعض الأعداد لها ؛ ولكن المصيبة فى أمر الرجل أن الجيل الناشئ يتجافى عن أدبه ، وينقبض عنه انقباضه

يطرب للملائكة . ورجاه ان ينزل من مستواه قليلا حتى يفهمه الجمهور . وهو نقد لبق يعترف للرافعى بالسمو وإن كان يأخذ عليه غلوه فيه فى بعض الأحيان . . ولكن للرافعى عذره من قوة جناحيه وقد كانا يحملانه إلى جوه الذى فيه سر عبقرياته . .

ويخيل إلى أنه كان يكتب كما يتنفس . . كما عبر واصف بلاغة جعفر بن يحيى البرمكى ، وأنه لم يكن يقصد إلى الإغراب وإنما هو عفو الخاطر . على أن تلاحق السعى من قلمه فى « الرسالة » قد خدمه أجل خدمة ، وبه استطاع أن يخترع ذلك اللون الجديد من أدب البعث فيما يشبه القصة

حاولت أن أرثيه بكلمات شفافة طائرة تليق بروحه وبيانه فإنه لا يليق به أن يرثى بهذا الكلام الجسمانى . . . وحاولت أن أصنع ريشا يرفعنى إلى السماء التى كان يأخذ من كواكبها نور قلبه ، فأعددت جو الذكرى وأحرقت البخور واستجمعت أطرافى للوثبة ، ولكن كثافة النفس وخفوت الطبع قعدا بى فاجتزأت بوصف عجزى . .

ساقرأه فى لباس التاريخ وروح الذكرى بعد أن مات وصار كلمة

وساضع أذنى على قبره دائما لأسمع نداء قلبه بهذه « العقدة الروحية » التى دعا إليها فى مقالاته « فى وحى الروح » . .

وساجعل من شعلة روحه شمعتى . . .

ومن وحى قلمه غاسولا لحوبتى :

ومن أناشيده موسيقى همتى . .

جعل الله ميراثه للخلود ، وجهاده للنصر ، وروحه الى الجنة .

« نزيل بغداد » عبد المنعم خلاف

الهازل اللاهى السادر فى هزله ولهوه ، إذا ما جئته بالأمر الجد ولوحت له بشأن من الحق . ولعل كثيراً من المؤمنين بعظمة الرافعى من هذه الناحية ما كانوا يستطيعون الجهر بإيمانهم هذا خشية أن يرميهم جمهرة من الناس لها شأنها فى هذا الجيل بهذه الرمية التى اتخذت سبيلا إلى غل الأفكار عن البوح بما تفكر فيه ، هذه هى ما يسمونها « الرجعية » كما اتخذ غير هذه الكلمة سبيلا إلى ذلك عند جمهرة أخرى من الناس لهـا شأنها كذلك ، تلك هى ما يسميها الجامدون « هرطقة » أو « كفراً » ، أو « عصرية » ... ؛ والويل لنا من هاتين الفئتين ...

أما رأيى فى أدب الرافعى الذى فصل الموت بين عالمنا هذا وبينه فى عالم الآخرة — أما رأيى فى أدب الرجل من الوجهة الفنية ، فهو رأى كونته لنفسى منذ بدأت « الرسالة » تنشر له أدبه ، وقد كان قبل ذلك يشرف على الناس من كوة ضيقة ؛ وكان يتلهى فى الأدب تلهياً ، وكان يعبث فيه عبثاً ؛ وكانت الفصاحة اللفظية كل همه فيما ينشىء من مقالات أو كتب أدبية ، وكانت الصناعة الظاهرة والزينة والبهرج كل ما يطمح إليه . وقد كنت أرغب عنه يومئذ كما يرغب عنه اليوم كثير من ناشئة المتأدبين وقرآء الأدب ؛ وقد انقطعت عن قراءته من أجل ذلك زمناً ؛ ثم قامت فى مصر مجلة « الرسالة » وأقبلنا عليها فى كل دار من ديار العروبة ، وكانت لى رغبة حينئذ فى أن أجدد عهدى بالرافعى ، وقد جاءت هذه المجلة الجديدة به إلى حظيرتها فأقبلت عليه بعد موقف قصير ترددت فيه بين عقل مستطلع ونفس تطلب اللذة السهلة الميسورة ؛ وما طال عهدى معه فى هذا الدور حتى أصلحت رأيى فيه ، وكونت لى هذا الرأى فى أدبه من الوجهة الفنية ... هذا الرأى الذى قلت فى مستهل الحديث أننى أشعر بالتياع حزاز فى قرارة النفس أن لم أجهر به إلا فى هذه الفرصة الأليمة إذ رحل الرجل إلى دار الخلود الحق

ورأيى هذا فى أدب الرافعى هو أن الفصاحة العربية الخالصة وإن كانت أولى مطامحه حين يجلس إلى كتابة المقالة ، ولكنه يأبى الإباء كله أن يضع جملته الفصيحة المشرقة قبل أن ينحت لها المعنى الدقيق العالى . وأشهد أنه ينحت هذا المعنى من قلب الحياة أحياناً ، وقد يستأسره بلباقة من أرحب أجواء الخيال الشعرى الصافى ؛ فاذا امتلك عنانه وصار قيد قريحته الخصبة كساه هذه الأجنحة الطاووسية الأخاذة ، ونفحه بريح طيبة من نفس العروبة الشذى الأفيح . وإذا كان فى بعض ما يقرأ له الناس ما يسمونه تعقيداً فليس هو - فى رأيى - بتعقيد ؛ ولكن هذا الجهاد الفكرى الذى يلقى نفسه فى غمراته كى يقتلع المعنى من قلب الحياة ، أو يستأسر الصورة الجميلة من جو الخيال الشعرى ، ثم هذا الترفع الذى يطلبه فى « الكسوة » اللفظية ، وهذه النفحة العذبة التى يقصدها فى مهابها من الأدب العربى القديم ؛ كل هذه مجتمعة تعمل فى إنتاجه هذا العمل الذى يخيل للقارىء البعيد عن روحه أنه تعقيد . ولو كان الصبر والجلد مما يسره الله لنا فى طبيعتنا واستعملنا هذا الصبر والجلد فى مرافقة الرافعى قليلا لأنست به أذواقنا الفنية وأرواحنا ، ولأفدنا من فصاحته العالية الشىء الثمين الغالى ؛ ولكن مصيبة الرجل فى هذا الجيل كما قلت لك هى مصيبة الجاد بالهازل ، مصيبة من يطلب الحق بمن لا يطلب إلا موارد اللهو الميسور الرخيص . ومن الحق أن نقول - آخر الأمر - إن ضآلة ما يحمل الرجل من ثقافة أبناء الجيل الحاضر هى الأخرى من جملة العوامل على ضيعته فيهم ، وذهابه عن دنياهم قبل أن يفيدوا من رسالته ما هم فى أشد الحاجة اليه . ولعل هذا الجهد العظيم الذى يجهده حين يكتب فيخيل لقرائه أنه يقصد إلى التعقيد - لعل هذا يرجع إلى قله بضاعته من الثقافة الحديثة . ولعل من آثار هذا الأمر ما نرى من عنايته فى إخراج الجمل قوية دون أن يعنى ، أو دون أن يستطيع العناية ، بوحدة المقالة وجعل الموضوع وحدة كاملة متماسكة .

وبعد فان الرافعى الراحل هو - فى عقيدتى - بنيان أدبى شامخ ينهار قبل أن يصل إلى أهدافه السامية . رحمه الله رحمة واسعة ، وعوض الأدب العربى خير العوض عن هذه الخسارة الجسيمة .

« النجف » حسين مروه



رسالة الشباب فى الحاضر

مهداة إلى الشباب المصرى المتوثب

للأستاذ خليل هنداوى

يسرنا جداً أن تعلن « الرسالة » فى جملة رسالاتها رسالة الشباب ، وتقوم بها فى جيل عرف قيمة الشباب وعظمة مقامه فى حياة أصبحت دعائمها ترتكز عليه ، وهو الجيل الذى قضى على ثرثرة الشيوخ وترددهم ، وأثبت لهم أن الأمة فى استطاعة شبابها أن يمشوا بها إلى المورد العذب ، والغاية المثلى ؛ وفى تنظيم فئات الشباب فى كل أمة واعتماد الدولة على هذه الفئات المنظمة آية بل آيات لمن كفر بمعجزة الشباب .

وقد كانت رسالة الشباب – قبل انجاز المعاهدات سواء فى مصر وسورية والعراق – رسالة تيقظ وتدمير ، وخلق للفوضى ؛ لأن الفوضى وحدها – فى عصر الجمود – تحرك الذرات الواقفة ، وتخلق الوعى والشعور فى الأنفس الهامدة .

ويظهر أن رسالة الشباب بدأت – فى هذه الأصقاع واحدة ، ويظهر أنها سائرة إلى هدفها على طريق واحد ... بدأت برسالة التهديم ، والتهديم وسيلة لا غاية ، وذريعة إلى بناء جديد ، ولا يقوم هذا البناء إلا على كواهل من خربوا وهدموا القديم وحاربوا الذل والقيد ! وإن مما يستوقف المفكر أن يفكر فى رسالة البناء ؛ والبناء صفة أدق من التهديم ، لأنها تحتاج إلى دقة ونظام واستقامة فى العمل . والهندسة قبل البناء ، توفر كثيراً من العناء ! فما هى رسالة البناء ؟ وما هى حدود هذه لرسالة التى يجب أن يقوم بها الشباب ؟

أصبحت لا أخاف على شبابنا بعد أن عرفوا التطرف ؛ وكيف يبلغ القمة من لم يتطرف ! وأصبحت لا أخشى خوراً ينفذ إلى نفوسهم ، أو سكوناً يطغى على حركتهم ، بل إننى أصبحت أخشى أن تصرفهم لذة التهديم عن لذة البناء ، لأن لذة الشباب وهواه فى الطفرة والتطرف ... ولكن لا أريد أن يقوم هذا البناء إلا على سواعد الشباب مهما شابته الأهواء ومهما داخله فساد ... لأننى أريد أن يلم الشباب بالبناء وأن يلموا بأمر عظيم ماتلقى عليهم تبعاته ، وبهذا نعيد لشبابنا حاسة العمل التى عطلتها التقاليد وأثرة الشيوخ . ويقينى أن الشباب لايهدأ نضاله ولا يصرفه عن عمله كلل أو فشل ! وكيف نريد ان نحرم الشباب لذة العمل فى هذا الانقلاب وهم كانوا يده المتصرفة وقلبه الذى ينزف دماً !

لعل الشباب يزعمون أنهم قد انتهى عملهم بعد أن انتهى الفوز لهم ؛ ولعل الشباب يقولون : لنسترح الآن فقد تم جهادنا ؛ ولعل الشباب يظنون أن العهد الذى جاهدوا فيه فى سبيل الحرية قد انقضى . على أن عملهم الحقيقى قد (بدأ الآن) لأنهم هم الذين خلقوا العهد الجديد وهم الذين ينبغى أن يكونوا دعائمه .

بلى ! ياشبابنا ، ومصابيحنا فى طريقنا ! لم ينته عملكم وإنما عملكم ابتدأ الآن ، لأن العبودية السياسية التى تحررتم منها لايزال خلفها عبوديات مختلفة ليست بأقل خطراً منها . ومن ذا يعمل على التحرر من هذه العبوديات إلا الذين لايعرفون الوهن فى العزم ولا التردد فى الأقدام ، وهم الشباب !

أنقذتم أنفسنا من العبودية السياسية فأنقذونا من العبودية الروحية التى أورثت أرواحنا الذل وأورثتنا مع الذل الضعف والجبن حتى أصبحنا إذا طلبنا حقنا طلبناه سائلين .

أنقذوا نفوسنا من العبودية العقلية التى غادرت تفكيرنا رياء ، وتظاهرنا بالتقاليد رياء . وهل كان الرياء إلا ثوباً من أثواب العجز ؟ وهل كانت العبودية العقلية إلا اثراً من العبودية السياسية ؟

أنقذوا نفوسنا من عبودية الألقاب الفارغة ، والتقاليد البالية ، التى نشهد بها على حقارة أنفسنا بأنفسنا . وكونوا امثال

العزة والكرامة التى لا تكرم إلا الكرامة .

هنالك عبوديات كثيرة تقف فى طريقكم، وعقبات كثيرة تريد وقف سيركم المبارك، ومن لها إلا الشباب ؟ إلا الذين يسعون إلى الحرية لتقتلهم الحرية ، وبقتلها إياهم يعتزون وينتصرون. ومن لها إلا الشباب الذين يرى فيهم الجامدون خطراً على المجتمع لأنهم متطرفون متهورون يجمح بهم طموحهم كثيراً. فأى شىء يخاف هؤلاء الجامدون من خطر يريد أن يقلب مجتمعاً تراكم الفساد فيه على الفساد ؟ أى شىء يخاف هؤلاء البالون من تهور على طريق الحرية وحدها ! وأى شىء يخاف هؤلاء الجبناء من طموح يريد أن يصعد ويصعد !

هاقد جاء عهدكم أيها الشباب ! العهد الذى يعطيكم الحرية ويفتح لكم آفاق الأمل فيما تحلمون ! وهذا العهد ليس بالخفيف عهده، ومتى كان عهد التحرر خفيفاً ؟

هذا عهد تريد فيه أمة أن تخلق

هذا عهد تريد فيه أمجاد قديمة أن تزحف

هذا عهد تريد فيه كبرياء شعب أن تتيقظ !

هذا عهد تريد فيه حضارة ساهمت فى الحضارة الانسانية أن تسطع منارتها وأن تتم رسالتها !

ومن لهذا العهد إلا الشباب الذين لا يقولون « القناعة كنز لا يفنى »، لأنهم لا يعرفون القناعة . . . إلا الشباب الذين لا يقولون مايقول ذوو النفوس الحقيرة : « كلب جوال خير من أسد رابض »، لأنهم يعلمون أن روح الأسد لا تتوب عنها أرواح الكلاب مجتمعة . والربوة التى يحميها أسد رابض لا يقدر على حمايتها الف كلب جوال . . وهو بعد ذلك أسد لا يربض، لأن الأسد لا يعرف الربوض

... إلا الشباب الذين يقولون ما قال أبو حمزة الخارجى عند ما عيره أهل مكة بأصحابه : « تعيرونى بأصحابى ! تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً ! »

هذا العهد ينادى إليه الأرواح الجبارة لترافقه ولا ينادى جثثاً خالية من الاحساس يحملها على ظهره . لأنه يريد رفاقاً يحسون ويلتهبون، قد ادرعوا الارادة وساروا يقتحمون كل شىء كالسيل الجارف، يثبون فوق القمم وثباً ولا يزحفون زحفاً، فى نفوسهم عقيدة تفيض حماسة وقوة، يفرضونها فرضاً على الزمان ولا يجد الزمان إلى اخفاقها سبيلا . هؤلاء الرفاق يستطيعون أن يمشوا معه لا تثنيهم عقبة ولا يحول بينهم وبين بغيتهم حائل . ومن هم هؤلاء الرفاق الأشداء إلا الشباب ؟ روح الأمة ولون وردها الأحمر المشتعل، وعزيمتها التى لا تكل .

تحررتم أيها الشباب من العبودية السياسية، فلتتحرروا من كل عبودية . وليكن هدفكم التحرر فى كل شىء . وكره العبودية فى كل شىء .

شباب قنع لا خير فيهم وبورك فى الشباب الطامحينا

« دير الزور » **خليل هنداوى**

سيدى الأستاذ رئيس تحرير مجلة الرسالة الغراء

أقرأ باهتمام فصلكم الذى عقدتموه للشباب تدعونه فيه إلى الاهتمام بالأمور العامة . ويسرنى أن أوجه إليكم هذه الكلمة لغرضين : الغرض الأول أن أبين أن شبابنا يستطيع أن يؤدى للبلاد خدمة جليلة بأن ينتشر فى أثناء العطلة الصيفية وهى على وشك الحلول فيذهب كل شاب إلى قريته أو منزله فى المدينة ويضع نصب عينيه أن يترك الدائرة التى هو فيها فى آخر الصيف خيراً مما وجدها فى أوله . ويمكنه ان يعمل فى أحد المقاصد الآتية :

(١) تعليم أهل الجهة القراءة والكتابة والأخلاق ومبادىء التربية الوطنية فى قسم ليلى يفكر هو وجماعة من إخوانه على إنشائه ويختارون له محلا يتبرع به أحدهم ممن يستطيع ذلك

(٢) توجيه أهل جهته إلى العناية بالرياضة البدنية والاشتراك معهم فى ذلك السبيل اشتراكا فعليا

(٣) التعاون مع إخوانه على عمل محلة كمحلة الرواد تكون مركزاً لثقافة الصبيان الفقراء وهدايتهم وإدخال الفرح عليهم

(٤) إرشاد أهل جهته إرشاداً صحيا فى محاضرات يقوم بالقائها من يستطيع المحاضرة من الشبان .

الغرض الثانى أن أقترح عقد اجتماع تشرف مجلة الرسالة على الدعوة إليه قبل بدء فصل الأجازات الصيفية لتنظيم حركة الزحف الاجتماعى . وتفضلوا بقبول عظيم شكرى وتقديرى لجهودكم النبيل (مصرى)

(الرسالة) جاءتنا رسائل الشباب فى هذا الباب تترى، وكلها آراء سديدة ومقترحات قيمة سننشرها أو نلخصها تباعا فى الاعداد القادمة .



قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى بك

مدير مصلحة الكيمياء

وزادت أوامر إرليش وكبر مقدارها، وتزايدت السجائر الحامية التى عكف على تدخينها يوماً فيوماً. وما لبث أن دخلت طوائف كبيرة من الأرانب الذكور بيت جورج اسباير (١) كأنها ألوية الجيش تتابعا وكثرة، ودخل فى زمرتها إلى هذا البيت رجل صغير قصير يابانى صياد مكروب لا يألو فى بحثه جهداً. وكان اسمه هاتا. وكان قديراً وكان دقيقاً. وكان له جَلَد واسع وصبر على التجريب طويل، فهو يحتمل التجربة الواحدة يعيدها عشر مرات ولا يكلّ. وكان خفيف الحركة جمّ النشاط متزنه، فهو يقوم بعشر تجارب فى آن واحد. فوافق هوى إرليش، وهو كما تعلم دقيق يحب كل دقيق

فبدأ هاتا يجرب مركّب رقم ٦٠٦، لا على مكروب الزهرى نفسه. بل على مكروب من نوعه ولكن أقل منه امتقاعاً فى اللون وشرة فى الأثر، ذلك اسبيروشيتة الدجاج وكانت تقتل الدجاج قتلا. فماذا كانت نتيجة هذه التجارب العديدة الطويلة؟ صاح إرليش: «باهرة!... خارقة!... لاتكاد تصدق!». فهذه الدجاجات الكبيرة والأفراخ الصغيرة امتلأت دماؤها بهذا المكروب امتلاء، فما هى إلا أن حُقنت برقم ٦٠٦ وأصبح عليها الصباح حتى كانت تسير مرفوعةَ الرأس تقوّق وتتخطر ناعمة بالصحة والحياة. فهذه نتيجة لاشك مجيدة. ولكن ما الذى كان من أمر نسيبه المكروب الآخر مكروب الداء الانسانى النميم؟

***

فى اليوم الحادى والثلاثين من أغسطس عام ١٩٠٩ وقف إرليش وهاتا أمام قفص به أرنب ذكر جميل سليم من أية وجهة نظرته، إلا صفنه (١)، فقد كان شوهه قرحتان فظيعتان كلتاهما أكبر من ربع الريال سببهما دبيب هذا المكروب اللعين الذى يأتى الانسان جزاء الخطيئة الكبرى (٢).

وكان هاتا وضع هذا المكروب تحت جلد هذا الأرنب من شهر مضى. ووضع هاتا قطرة صغيرة من ماء هاتين القرحتين الكريهتين تحت مكرسكوب صنع خصيصاً لرؤية أمثال هذه المكروبات الخبيثة الرفيعة الشاحبة. وضعها ونظر فرأى فى ظلام المجال لهذا المكرسكوب الخاص، رأى تلك المكروبات ألوفا تتلألأ فى شعاع نور قوى سلط من الجانب عمدا عليها. وتراءت له كأنها ألوف من خرامات الحدادين ومثاقيب النجارين تطير فى المجال رائحة غادية. منظر جميل يستوقفك الساعات، ولكنه مروع، فأى المكروبات يجر على البشر من البلاء والويلات ما تجر هذه؟!

ومال هاتا عن المكرسكوب يمنة لينال إرليش من هذا المنظر نظرة. فلما رآه نظر إلى هاتا، ثم نظر إلى الأرنب ثم قال: «دونك فاحقنه»، وجرت الحقنة فى وريد أذن الأرنب، ودخل المركب ٦٠٦ فى محلوله الأصفر إلى دم

---

(١) معمل ارليش وقد تقدم

(١) كيس الخصية

(٢) الزنا

الأرنب يلق مكروب الزهرى ويقاتله لأول مرة فى تاريخ هذه الدنيا .

وفى الغد لم يبق فى صفن الأرنب من لوالب هذا المكروب لولبة واحدة . والقرحتان ؟ سبق اليهما الجفاف وأخذت جلبة (١) تتكون عليهما . ولم يكد يمضى على هذا شهران حتى لم يبق من الجُلبة غير جليبة صغيرة . شفاء هو السحر أو كشفاء المسيح بن مريم . واستطاع إرليش أن يكتب بعد ذلك بقليل :

« ويتضح من هذه التجارب أن هذا المكروب يفنى عن آخره توا إذا حقن الحيوان حقنة كبيرة كافية » .

وإذن جاء يومه الكبير المنظور ؛ فهذه رصاصته المسحورة ، فما أسرع قتلها للمكروب ! وهى مع هذا سليمة مأمونة على الحيوان . وإن شككت فى سلامتها فانظر إلى هذا العدد العديد من الأرانب البارئة ، فهل نالها مثقال ذرة من سوء لما ضرب هاتا محقنه فى آذانها بجرعة هذا الداء ، برغم أنها جرعة كبيرة كانت ثلاثة أضعاف الجرعة اللازمة الكافية لمحو الداء محواً محققاً سريعاً ؟ لقد نال إرليش بهذا الكشف فوق بغيته ، وأطلق من هذا المحقن على الداء رصاصة أروع من رصاصته . وضحك بُحاث ألمانيا بالأمس من أحلامه ، فجاء دوره اليوم فى الضحك فضحك وسُخر فيه . صاح إرليش : « إنها رصاصة مأمونة . إنها سم للداء ، وللحى فيها البرء والشفاء » .

وتستطيعُ أن تتصور أى الأطياف كانت تُطوف بخيال هذا الرجل المستوثق بنفسه استيثاقاً لا يقصر منه حد . وصاح فى وجه كل أحد : « إنها مأمونة ! إنها سليمة ! » ولكن فى ليلته ولياليه جلس فى مكتبه وقد تعبأ جوه بدخان السجائر حتى ضاقت به الأنفاس ؛ جلس بين أكوام الكتب ورُكام المجلات وقد ارتمت ظلالها حوله متراكبة غريبة ؛ جلس وحده وبين يديه تلك الكراسات الزرقاء الخضراء البرتقالية الصفراء التى كان ينقش عليها كل ليلة فى انهام كل مايخطر بباله مما سيصدره إلى رجاله وعباده من الأوامر فى الصباح

(١) القشرة التى تعلو الجرح عند البرء

الطالع . ففى هذه الحجرة خلا إرليش لنفسه فسألها فى خفوت : « أحقاً أنها سليمة مأمونة ؟ » .

إن الزرنيخ سم محبب إلى السمامين ... ؟ ! قال إرليش محتجاً « : ولكننا تناولنا طبيعته بالعجب العُجاب فغيرناها ! » وهذا الذى شفا الفئران والأرانب قد يقتل الرجال .. ؟ !

قال إرليش مجيباً : « إن النقلة من الأرانب والفئران نُـقلة خطيرة ، ولكنها خطوة لا بد منها » .

وطوى الليل رداءه الأسود ، وانبلج الصباح وبعث شعاعه الأبيض إلى المعمل ينشر فيه مع النور الأمل والثقة والأقدام . ودخله إرليش فنظر فوجد الأرانب التى برئت ، ولقى عونه برتهامهم ، هذا الرجل الساحر الذى لوى الزرنيخ الفاتك سم لواه ستاً وستمائة مرة حتى عاد حربه سلاما . وتشمم إرليش فسطعت فى أنفه رائحات مائة مخلطات طيبات لمائة من حيوانات تجريبية ، ورائحات ألف مخلطات طيبات لألف من مواد كيماوية ، وتلفت إرليش يمنة ويسرة فوجد كل هذا الجمع من أعوانه رجالاً ونساء يؤمن به ويثق فيه . إذن فما التشكك وما التردد ؟ وهيا أيها الأعوان إلى هذه الخطوة الأخيرة نخطوها ولو خطيرة فقد والله خاب من أحجم

كان إرليش فى قرارة نفسه مقامرا ، ومَنْ من كبار صادة المكروب لم يكن مقامرا ؟ !

وقبل أن يزول تقرح صَفَن الأرنب بتمامه ، وقبل أن تسقط عنه أخيرة جلبانه (١) ، كتب ارليش إلى صديقه الدكتور كنراد ألت Konrad alt يقول : « فهل لك أن تتكرم فتجرب هذا المركب الجديد رقم ٦٠٦ فى مرضى الزهرى من بنى الانسان ؟ » .

فأجابه الدكتور ألت : « بالطبع نعم » . وأى ألمانى لا يجيب بهذا وهم قوم غلب صعاب ؟

وجاءت سنة ١٩١٠ فكانت سنة إرليش الكبرى . فى يوم من أيام هذه السنة انعقد المؤتمر العلمي فى مدينة كونجزبرج Konigsberg

(١) الجلبة القشرة التى تعلو الجرح عند البرء . وقد مرت

فلما دخله إرليش دوى المكان بالتصفيق الشديد وزاد وحمِي حتى خِيل أن الناس أصابتهم الحمى ، وطال حتى خِيل أن إرليش لن يقوم فيُلقى فى القوم مقالته . وقام أخيراً فحكى لهم كيف تمهدت السبيل بعد لأى إلى وجدان الرصاصة المسحورة ، ووصف لهم داء الزهرى اللعين ، وقص لهم قصة الرجال الذين انتهى بهم المآل إلى تشوه فظيع ثم موت قبيح ، أو انتهى بهم الحال إلى ماهو شر من هذا – إلى مستشفى المجاذيب . لم ينفعهم الزئبق ، الزئبق الذى أطعِموه والزئبق الذى دُلكوا به، والزئبق الذى حُقِنوه حتى كادت أسنانهم أن تسقط من لثاهم . حكى لهم حكاية هؤلاء المناحيس وقد انقطع الرجاء منهم ، ثم ماهى إلا أن دخلت فيهم إبرة الِحقَن واندفع فيهم محلول رقم ٦٠٦ وانتشر فى دمهم حتى نهض المريض وانتصب الراقد . وزادوا فى الوزن ثلاثين رطلا وتطهروا من نجسهم فلن يتحاشاهم الأصدقاء ... ...

وقص عليهم قصة رجل جاءه الشفاء كالمعجزة جاء بها بعض الأنبياء : قصة رجل منكود قرض المكروب بلعومه قرضاً وأكل منه أكلا حتى لم يعد مدخلا صالحاً للطعام فأطعموه بأنبوبة أطعمة سائلة كى تجرى فيها . ومرت به أشهر على هذه الحال . ثم ما هى إلا حقنة واحدة من مركب رقم ٦٠٦ حقنها فى الساعة الثانية بعد الظهر حتى استطاع فى العشاء أن يأكل ويزدرد سَنْدَتشاية [1] من « السجق » . ولم تكن الحال قاصرة على الرجال ، فمن النساء المساكين زوجات بريئات أصابهن الداء من أزواج ولغوا فى الخطيئة . فن هؤلاء امرأة ألحت عليها الآلام ، وبلغت منها العظام ، ولازمتها سنين لم تنم لياليها بعض النوم إلا بالمرفين . فهذه عولجت بحقنة واحدة من هذا الدواء فنامت فى ليلة ذلك اليوم نوماً هادئاً عميقاً من غير مرفين . معجزة والله وأى معجزة ! أى عقار وأى عشب وأى وصفة وصفها العجائز والكنائس وأطباء الدهور منذ الأزل بلغت من الشفاء ما بلغه هذا الدواء ! وأى مصل وأى لقاح مما ابتدعه المحدثون من صادة المكروب يبلغ ما بلغه هذا المركب فى قتل الجراثيم ، أو يقارب فى الفتك بها بعض ما فعلته هذه الرصاصة المسحورة الساحرة من القضاء عليها قضاء كأنه تنزل من السماء ؟

وهتف الناس لإرليش هتافا لم يهتفوه لأحد . وهتفوا له هتافاً لم يستحقه استحقاقه أحد . دع عنك ما أثاره فى الناس من قبل من آمال كواذب ، وتناس ما تلاذلك من متاعب ومصاعب ، واذكر الساعة أنه بكشفه هذا مشى بجماعة البحاث فى طريق جديد لفتح مجيد .

تقول علوم الجوامد : لكل فعل رد فعل يساويه ويذهب فى ضد اتجاهه . وما يصدق فى عالم الجوامد يصدق فى عالم الأحياء ، وهو يصدق فى حياة الرجال من أمثال إرليش . فما كاد يشيع فى الناس ما جرى ، حتى تجاوبت أرجاء المعمورة تصرخ فى طلب هذا الدواء : فى طلب المركب رقم ٦٠٦ . فهكذا أسماه إرليش اسماً ضخما يملأ السمع ويبهر الحساب فلنغفر له طلب الضخامة وحب الفخامة . فقام برتهايم ومساعدوه العشرة فى بيت إسباير يصنعون مئات الألوف من جرعات هذه المادة البديعة ، ولم يقعدهم أنهم كانوا متعبين منهوكين من طول ما كدوا وجهدوا . وقاموا فى هذا البيت الصغير بصناعة مقادير لا ينهض بها إلا المصنع الكبير . وصنعوها فى جو مخطر ملىء بالأثير . وصنعوها فى خشية من زلة قليلة تحدث فى التركيب فتقضى على العدد الكثير الوفير من الرجال والنساء . فالسلفرسان Salvarsan [1] سيف له حدان : حد لقتل الجراثيم ، وحد لقتل الانسان . وإرليش ، فما الذى كان من أمره ؟ أصبح جلدة على عظمة ، وزاده داء السكر سوءاً . ولم ينقطع عن شرب سجائره الكبيرة وليته لم يفعل . فهذا ما كان من أمره : بالأمس أحرق شمعته من طرفيها ، واليوم هو حارقها من وسطها أيضاً

(يتبع) **أحمد زكى**

---

(1) Sanduitch

(١) اسم هذا الدواء أى مركب ٦٠٦



ميكلانجلو

العبقرية الملهمة

MICHELANGLO

للدكتور أحمد موسى

عرفنا من المقال السابق كيف بدأ القرن السادس عشر بشخصية الرجل الكامل ليناردو دافينشى ، وكيف كانت الرغبة أكيدة فى إحياء علوم الاغريق وفنونهم ، وعلمنا مدى أثرهما على ليوناردو

واليوم نعالج عبقرية ملهمة ، وشخصية فذة . اعتبرت ولا تزال معتبرة من أبرز شخصيات الفن إطلاقاً ، ألا وهى شخصية ميكيلانجلو ، النحات القدير ، بل قائد النحت الحديث ، والمعمارى العظيم ، والمصور الهائل

وكم كنت أود أن أدرس مختلف نواحيه الفنية . لولا أن هذا قد يذهب بنا إلى تفاصيل قد لا تؤدى إلى ما نرمى إليه من تزويد القارىء بمعرفة شىء مبسط عن الفن وعن تاريخه ، بقصد السمو بذوقه ، وفتح ناحية من الاستمتاع النظرى أمامه ، لاتقل روعة عن نواحى الاستمتاع النفسانى الأخرى ؛ بل قد تزيد أهمية ، نظراً لقلة ثقافتنا الفنية بوجه عام

هذا يرغمنى على أن أحاول الجمع بين غايتين مختلفتين : الأولى الاقتضاب حتى لا يمل القارىء ، والثانية الايضاح الصادق حتى يعلم أهم ما تجب معرفته عن شخصية من أبرز شخصيات الفن اطلاقاً

ولعل أهم ما تجب معرفته مبدئياً هى مميزاته الفنية ، والطابع الذى طبع به إنتاجه . أما مميزاته فقد يمكن فهمها عند ما يشاهد ما تركه من تراث مجيد ، فعندئذ نرى أنه كان سامى الخيال باحثاً وراء المثل العليا فى خلقه ؛ وأما طابعه فهو يتلخص فى أنه استطاع أن يخلق لنفسه عالماً فنياً خاصاً ، جال فيه ثم ارتفع حتى أصبح مضرب الأمثال فى الجمع بين سمو الخيال وجمال الاقتباس ، وبين القوة والعنف ، هذا إلى جانب روعة الانشاء التى كانت له دون غيره

وموضع الدهشة والحيرة فى خلق هذا الفنان العبقرى أنك عند ما تشاهد إنتاجه لا تستطيع أن تتصور أنه مستمد من الواقع الملموس أو مشابه له ؛ بل ترى دون شك أن هذا الانتاج يعبر عن المثل الأعلى فى الجمال ، ولكنه مع هذا ملىء بكل مظاهر الحياة لا ينقصه شىء منها إلا النبض

كانت الغاية عن ميكلانجلو أن يظهر الجسم البشرى إظهاراً جميلا سامياً ، مليئاً بالقوة ، نابضاً بالحياة ، وهو فى هذا المجال أول وأعظم فنان أنجبه الدهر فى المدرسة الحديثة دون منازع

وقد وصل فى المعرفة بأصول علم التشريح إلى درجة لامثيل لها مطلقاً ، وهذه المعرفة تتضح عند ما نشاهد ما غلب على انتاجه من مظاهر الحركة بمختلف أوضاعها

وإذا قارنا خلقه بتراث الاغريق الخالد ؛ وجدنا الفارق يتلخص فى عنف ميكلانجلو فى الاخراج ، لأنه تخير المواقف التى تكاد تكون مستحيلة ، كما فضل مواقف الضغط والاضطرار راغبا من وراء ذلك فى إظهار جمال التكوين الجسمانى الانسانى طامحاً وراء البناء الهرقلى (نسبة إلى هرقلس) ، فكان

بما ملك من القوة ، فذاً فى الإخراج ، عظيما فى الوضع ، إماماً لكل فنان طامح ، ملك الجمال بمعناه الفلسفى ، وبعد كل البعد عن الجمال المثير ، فكان نقيا فى إختيار موضوعاته لا يهتم فيها إلا بالعظائم .

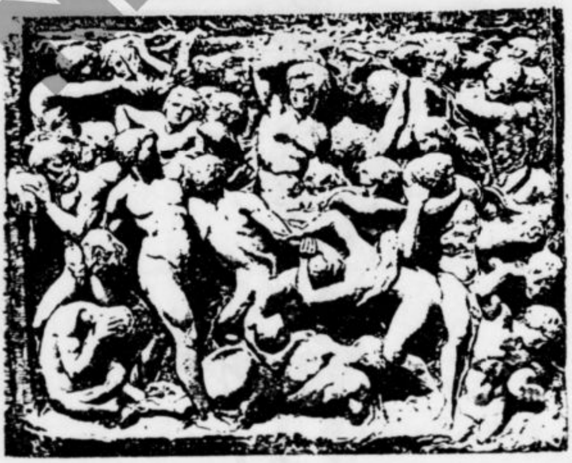
كان بشخصه يقوم بنحت تماثيله الرخامية من أبسط شىء فيها إلى أكبر وأهم جانب منها ، سائراً فى ذلك تبعا لرسومه الخطية التى كان يرسمها لتكون بمثابة المنهج الدراسى قبل البدء فى النحت .

ولد ميكيلانجلو يوم ٦ مارس سنة ١٤٧٥ فى كابريزه ، وتلقى أول دروسه فى التصوير منذ سنة ١٤٨٨ عند المصور المعروف دومينيكو جيرلانداجو الذى كان بارزاً فى فلورنسا فى ذلك الحين .



المادونا جالسة الى جوار السلم

ولكنه بجانب درسه للتصوير ، عرج كثيراً على دراسة النحت الأغريقى . ووجد فيه الغاية . وكانت التماثيل الموجودة بحديقة مديتشى فى سان ماركو خير مدرسة له . ولم تنقض مدة طويلة حتى لاحظ لورنسو دى مديتشى استعداد ميكيلانجلو للنحت ؛ فأخذه ليتتلمذ فى بيته على النحات برتالدو، الذى كان تلميذاً لدوناتيللو المعتبر من أحسن نحاتى عصره



مذبحة كنتاور

وأول منحوتاته قطعة (نصف بارزة) أسماها « المادونا جالسة إلى جوار السلم » ش - ١ - ، وبالنظر إليها نرى الكيفية التى تمكن بها ، وهو حديث عهد بالنحت ، من صبغ ما نحته بشىء كثير من الحياة ، يتضح من تأملنا نبل وجه العذراء ، وكثرة الثنايا التى تخللت ملابسها ، إلى جانب القوة التى بدت فى نحت الأيدى . كذلك من الطريقة التى جلست بها العذراء على ذلك المقعد الرخامى الواطىء ، والمنهج الذى سار عليه فى إخراج الملابس ، ثم جلسة الطفل فى حجر أمه ، والأطفال الصغار الذين يلهون على السلم

وقطعته الثانية نصف بارزة أسماها « مذبحة كنتاور » ، وهى تمثيل لقصة أغريقية خرافية ، أبطالها مخلوقات نصفها الأعلى كانسان والأسفل كحصان ، ش - ٢ - وهى من أهم الأدلة على اتجاه الفنان إلى الأغريق وتأثره بهم .

أنظر إلى القطعة نظرة شاملة ، وتأمل كيف استطاع إظهار كل من الأجسام فى حالة حركة مملوءة بالحياة ، تناسبت كل التناسب مع موضوع القطعة من الناحية الإنشائية ، فترى العضلات بارزة ، مع اختلاف التكوين الكلى وملامح الوجه لكل منهم ، فضلا عما تعبر عنه بعض هذه الأجسام

والوجوه من المقاومة والعنف ، على حين يعبر البعض الآخر عن الاستسلام أو الخوف . أما التفاصيل التشريحية فهى فى غاية الكمال ، فالثنايا والعضلات والانحناءات كلها على غاية الدقة



يوحنا الصبي

تأمل الرجل العجوز الواقف إلى أقصى اليسار وهو يحمل حجراً بيديه ، يريد الإلقاء به على أحد المغضوب عليهم ، ثم قارن بين مظهره الكلى وشكله التكوينى ، وبين وجوه الواقفين إلى أقصى اليمين ، فانك تلاحظ اختلاف التعبير فى ملامح الوجوه ، لأن حالة الدفاع وما ترسمه على ملامح الوجه تخالف حالة الاعتداء

تأمل الأذرع والأيدى وكيفية انثنائها وامتدادها وانقباضها ، وسر بنظرك خلال أجزاء هذه القطعة الفذة التى شملت أكثر من عشرين رأساً ، لا ترى منها واحدة شابهت الأخرى ، وفكر قليلا واذكر أن ميكيلانجلو بدأ المرحلة الأولى من حياته الفنية بهذه القطعة

فر هاربا إلى بولونا عند ما علم أن الحزب المعارض لبيت المديتشى قد انتصر عليه . وفى بولونا نحت تمثالا من الرخام لملاك ، بقصد التحلية لمقبرة دومونيكوس ، وكذلك تمثال يوحنا الصبي حاملا لقرص شمع العسل ش - ٣ - بمتحف برلين ، وإذا نظرنا إلى هذا التمثال فاننا نرى عليه مسحة البراءة ، إلى جانب جمال التكوين العام وسماحة الوجه . أنظر إلى العنق والذراعين والساقين والقدمين ، ثم قارن بين التكوين الكلى لهذا التمثال وبين ما سبق أن شاهدته بالقطعة الفائتة واجتهد أن تتعرف بعض الفوارق .

(له بقية) **أحمد موسى**



الاضطراب فى نظم التعليم

لا تزال برامجنا التعليمية بعيدة عن الاستقرار ، فهى منذ أكثر من عشرة أعوام فى اضطراب دائم ؛ وفى كل عام توضع مناهج وخطط جديدة ، ثم لا يكاد يبدأ فى تنفيذها حتى تطرأ عليها تغييرات جديدة ؛ وهذا الاضطراب لا يشمل المناهج التفصيلية فقط ، ولكنه يشمل أيضا مدد الدراسة وأنواع التعليم وغاياته واتجاهاته ، وقد أصاب هذا التردد سير التعليم فى الأعوام الأخيرة بأضرار ظاهرة ، ولوحظ أن مستوى التعليم فى هـذه الفترة قد ضعف ، وأن مستوى الثقافة بين الشباب فى انحلال ، هذا فضلا عن قصورهم الظاهر فى مجاراة الحياة العملية . والآن تعيد وزارة المعارف نفس العملية التى تكررها فى كل عام ، وتضع للتعليم مناهج ونظما جديدة متينة ، فإلى متى يستمر هذا التردد الخطير؟ لقد عالجت وزارة المعارف والجامعة المصرية فى الأعوام الأخيرة هذا المشكل غير مرة ، واستقدمت الحكومة المصرية خبيرين شهيرين فى مسائل التربيـة هما الأستاذان مان وكلاباريد ، ووضعا تقريرهما المعروف ، فلم يعاون على حل المسألة . وفى كل عام تعرض آراء واقتراحات جديدة . ومن الأسف أن وزارة المعارف لم تضع لهـا حتى اليوم سياسة عامة مستقرة للتعليم والتربية ، وفى كل تغيير وزارى جديد نراها تتجه وجهة جديدة ، وفى هذا على مستقبل التعليم ما فيـه من الخطر ؛ ذلك أن التعليم يجب أن يتخذ وجهة قوية ثابته ، وأن توضع الأسس المستقرة لسياسته العامة ، وأن تترك التفاصيل وحدها عرضة للتغيير والتبديل . ومصر اليوم فى مفترق الطرق بالنسبة لمستقبل التعليم والثقافة فعلى وزارة المعارف أن تعجل بوضع الخطط المستقرة الثابتة لتعليم الشباب وإعداده فى العصر الجديد

من آثار التشكيك

ظهر أخيراً كتاب دينى عنوانه « المصاحف » قام على نشره المستشرق المعروف الدكتور إرثر جفرى الأستاذ بالمعهد الشرقى بالجامعة الامريكية . وكتاب المصاحف هذا هو الكتاب الذى ألفه عبد الله بن داود السجستانى ، وهو من آثار التشكيك التى أنكرها العالم الاسلامى منذ صدورها ؛ وهو يقوم فى الواقع على فكرة التشكيك فى القرآن الكريم على ما جمعه الخليفة عثمان ، وفى أنه وقع بالكتاب الكريم كثير من الحذف والزيادة فى مواطن كثيرة ينوه بها مؤلفه ويورد عليها أمثلة عديدة . بيد أن علماء القرآن والمتكلمين المسلمين لم يحفلوا بهذه المزاعم ، فبقى كتاب المصاحف مطموراً فى أقبية بعض المكاتب العامة والخاصة حتى فكر المعهد الشرقى بجامعة « منشن » (ميونيخ) أن يقوم بنشره ؛ ونشره الأستاذ جفرى عن نسخة فى المكتبة الظاهرية بدمشق ، ومهد له بمقدمة طويلة بها كثير من المغامز التى تؤيد غايته من نشر الكتاب . والمعروف أن المعهد الشرقى فى جامعة منشن يهتم منذ أعوام بدراسة القرآن ولهجات القراءات المختلفة ، وأنه أوفد إلى مصر بعض أعضائه ليدرس هذا الموضوع فى مواطنه المختلفة ، ولكن يلوح لنا أن هذه العناية تنحرف عن غايتها العلمية بنشر مثل هذا الأثر الذى أنكره العالم الاسلامى

معرض باريس

افتتح معرض باريس للصناعات والفنون فى الموعد الذى حدد لافتتاحه وهو ٢٤ مايو الجارى . بيد أن معظم

الأقسام مازالت فى طور الانشاء. ولم يكتمل بناؤها وإعدادها. وقد اشتركت فى المعرض اثنتان وأربعون دولة منها مصر، وأنفقت مصر فى سبيل هذا الاشتراك عشرين ألف جنيه.

ومعرض باريس هو بلا ريب أعظم وأحدث المعارض الصناعية والفنية؛ وهو بذاته مدينة عظيمة أقيمت على ضفاف السين فى ساحة التروكاديرو، وخطت فيها شوارع كبيرة، وأقيمت طائفة كبيرة من البنايات الضخمة والمسارح والملاهى المتعددة من شرقية وغربية. ويقدر الخبراء أن زوار المعرض فى مدة الافتتاح وهي تمتد إلى نوفمبر القادم قد يبلغون عشرين مليوناً؛ ولكن الظاهر أن هذا التفاؤل مبالغ فيه فالحكومة الفرنسية لم تقدم لزوار المعرض أية تسهيلات خاصة، ولم تقرر أى تخفيض فى أجور السفر لا فى البر ولا فى البحر سوى ما تمنحه مصلحة السياحة كل عام من تخفيض ٥٠ ./. على خطوط السكك الحديدية. وهى مسألة لا جديد فيها. وقد ارتفعت تكاليف المعيشة فى باريس إلى حدود مروعة، وزادت الأثمان زيادة تفوق كل مايستطيع الزائر أن يفيده من تخفيض سعر الفرنك. وسياسة فرنسا إزاء المعرض تخالف السياسة الدولية المتبعة فى مثل هذه الظروف لأن الحكومات المختلفة اعتادت أن تمنح أثناء إقامة هذه المعارض تسهيلات عظيمة للزوار خصوصاً فى أجور السفر فى البر والبحر

هذا وسيفتتح القسم المصرى بمعرض باريس فى ١٦ يونيه. وسيتولى افتتاحه جلالة الملك فاروق الذى سيكون فى باريس فى هذه الفترة

بعثة علمية كبيرة الى القطب

طارت فى الأسبوع الماضى من موسكو بعثة علمية روسية إلى القطب الشمالى تتألف من ٤٢ عالماً برياسة العلامة الأستاذ أوتوشميت؛ وقد وصلت إلى القطب بالفعل وطارت فوقه ونزلت سالمة على جبل من الثلج يقع على بعد عشرين كيلو مترا من القطب؛ وسيقضى أربعة أعضاء من البعثة برياسة العلامة شميت عاماً فى هذا الجبل الثلجى يقومون بالمباحث العلمية اللازمة حتى يبدأ ذوبان الثلج. وقد نظمت المواصلات اللاسلكية بين طيارة البعثة ومركز اللاسلكى فى جزيرة رودلف التى اتخذت مركزاً لقيام البعثة وتموينها، وهى تبعد بالطيارة عن القطب نحو سبع ساعات. وستقيم البعثة لها منزلا من المطاط وتقوم الطيارات بامدادها بالمؤن والملابس، وذلك بواسطة إلقائها من الجو بالمظلات. وستعنى البعثة خلال إقامتها ببحث عوامل المغنطة فى القطب وحركة الثلوج وأعماق المياه فى تلك الأنحاء، والبحث عن تيارات الهواء الدافىء على مقربة من القطب. والأستاذ شميت رئيس البعثة علامة مشهور فى المسائل القطبية، وقد كان فى الأعوام الأخيرة خير معوان على ارتيادها وكشف مجاهلها. والمظنون أن المعلومات التى تجمعها البعثة قد تفيد فائدة عظيمة فى تسهيل إنشاء المواصلات الجوية بين روسيا وأمريكا عن طريق القطب الشمالى؛ بيد أن غاية موسكو الجوهرية من تجهيز هذه البعثات هو على ما يظهر تمهيد الوسائل اللازمة لاستعمار الأنحاء القطبية بصورة عملية، والعمل على استثمار ثروتها الدفينة بتذليل العقبات الجوية والاقليمية؛ وقد بذل العلماء الروس فى العهد الأخير فى هذا السبيل جهودا تدعو إلى الاعجاب

المبرد أخيراً

أحب أن أقول (لأحد القراء) الكرام: أن المسألة ليست مسألة روايات، ولكن الأمر فى التمييز بينها، والوقوف على مرماها فى إفادة المطلوب، وهذا الضبط الذى ذكره ابن خلكان إنما جاء على ماهو شائع فى ألسنة الناس، وهذه الرواية المذكورة عن برد الخيار مقصود بها إلى النكتة والفكاهة؛ وما ذكره ابن عبدربه قائم على الحدس والحسبان لأنه يقول: فما أحسبه ... الخ، ورواية ابن الخطيب فى تاريخ بغداد إنما جاءت فى مقام الزراية على الرجل.

ولقد قلت للأديب الفاضل من قبل إن المبرد بالفتح

خطأ شائع فى ألسنة الناس حتى فى الألسنة المثقفة ، وأصل اللقب فى وضعه كان بالكسر ثم فتحه الكوفيون ؛ قد يكون استهزاء بالرجل أو قد يكون لأنه كتب كتاب الروضة بارداً كما روى ابن عبد ربه وابن الخطيب ؛ وعلى كل حال فليس من المروءة أن نمسك على الرجل هذا النبز ، وليس من الصواب أن نتصرف عن الخير إلى الشر . ولقد كان يكفيني ويكفى الأديب الفاضل قول الرجل نفسه : برد الله من بردنى ، فان الرجل أدرى بحقيقة لقبه من أى كاتب آخر .

هذا ولا يحتج علينا الأستاذ بقرب عصر ابن عبد ربه وابن الخطيب لأن ما رواه ياقوت هو عن المازنى ، والمازنى معاصر للمبرد وألصق به ، كما أن ياقوت هو سيد الكتاب وعمدتهم فى تحقيق الأعلام ، وليس ثمة من يجاريه فى هذه الحلبة ، والله نسأل أن يوفقنا للصواب ، وأرجو أن يكون فى هذه ما يقنع الأستاذ

محمد فهمى عبد اللطيف

ديوان حافظ ابراهيم

أخرجت وزارة المعارف العمومية الجزء الأول من ديوان حافظ فى ٣١٨ صفحة من القطع المتوسط مشتملا على المدائح والتهانى والاهاجى والاخوانيات والوصف والخمريات والغزل والاجتماعيات . وقد ضبطه وصححه وشرحه ورتبه الاساتذة احمد امين ، واحمد الزين ، وابراهيم الابيارى . وصدره الاستاذ احمد امين بمقدمة جليلة ممتعة فى ٤٣ صفحة تناول فيها حياة حافظ وشعره بالتحليل البصير والنقد الكاشف والحكم الموفق . وإخراج الديوان على هذا الوضع المحكم ، والطبع الجميل ، والتصحيح البالغ ، يدلا ينساها الادب الحديث للاساتذة الاجلاء ولوزارة المعارف . والديوان مطبوع فى دار الكتب المصرية وهو يباع فيها

وفاة شاعر مجرى كبير

فى الانباء الأخيرة أن شاعر المجر الكبير يوليوس يوهاش Julius Juhasz قد توفى فى نحو الرابعة والخمسين من عمره ؛ وكان مولده فى مدينة شيجيد سنة ١٨٨٣ ، وتلقى تربيته فى جامعة بودابست ، وظهر منذ الحداثة بحسن نظمه ، بيد أنه مال فى أول أمره إلى النظم القوى العنيف ثم تدرج بعد ذلك إلى النظم الرقيق الهادئ ، وظهرت أول مجموعاته الشعرية فى سنة ١٩٠٧ ثم تلاها مجموعة أخرى اسمها « قصائد جديدة » فى سنة ١٩١٤ ، وظهرت له بعد ذلك دواوين أخرى منها : « هذا دمى » و « لا تنسنى » و « وصيتى » وغيرها

وقد فقدت المجر منذ أشهر قلائل شاعراً كبيراً آخر هو ديزو كشتولدنى الذى توفى فى نوفمبر الماضى وبذلك فقدت المجر أعظم شاعرين من شعرائها المعاصرين الذين جمعوا بين العهدين القديم ، وهو عهد الامبراطورية ، والحديث وهو عهد ما بعد الحرب



اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضي بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

للأستاذ الغنيمى

تتمـة

(١٢) وقال المؤلف يصف القلق الذى كان سائدا فى مصر فى آخر أيام اسماعيل باشا

There is a certain amount of fermentation in the country. If this fermentation were natural, it would not be an unhealthy sgmptom.

فقال الأستاذ صروف فى ترجمتها « فى هذه الديار نوع من الاختمار الفكرى . ولو كان هذا الاختمار طبيعيا لأوجد فى النفس قلقا » ونحن أولا لانستحسن ترجمة كلمة Iermentation فى هذا الموضع باختمار لأن فيها غموضاً كثيراً وكان الأفضل أن تترجم بكلمة « قلق » وثانيا وهو الأهم أن الجزء الأخير من الجملة هو عكس المعنى الذى أراده المؤلف وهو ولو كان هذا القلق طبيعيا (غير مفتعل) لعددناه من دلائل الخير . فاين هذا من قول المؤلف « لأوجد فى النفس قلقا » .

(١٣) ومن أمثلة عدم الدقة فى اختيار الألفاظ المناسبة قول المترجم عن رفض ضباط الجيش فى عهد الوزارة الأوربية « هذا التدبير كان فظا » فهل يوصف التدبير بالفظاظة ؟

وقوله أيضاً عن الضباط المفصولين «جمع ألفا وخمسمائة ضابط فى حالة الغليان » وتلك أيضاً عبارة ثقيلة على السمع

وقوله عن الناظرين الأوربيين فى وزارة نوبار باشا « وأهانا الشعب برفضهما التزيى بالوشاح الوطني » يريد أنهما أساءا إلى الشعب أو جرحا عواطفه بعدم لبس الشعار القومى (الطربوش)

وقوله عن اسماعيل باشا « يمكن الاعتراف بأن اسماعيل كان كبش التضحية على هيكل الأنظمة الاقتصادية » وهى عبارة لايقبلها ذوق . مثلها فى ذلك مثل قوله الآخر

(١٥) « وقفز اسماعيل من المقلاة إلى النار » وقوله «فاسماعيل كان واقفاً وظهره إلى الجدار » يريد أن إسماعيل سدت فى وجوهه السبل أو أظلم يومه أو نحو ذلك

(١٤) ومن أمثلة العبارات التى يحار القارى فى فهم معناها لغموضها أو ضعف أسلوبها قوله عن وزارة نوبار باشا « ونظاره يحكمون تحت سيطرة الإلغاء من ولسن وبلنيير »

وقوله عن مقتل اسماعيل صديق باشا « فالذين يجهلون مصر كذبوا الخبر بجملته والذين يعرفونها صدقوه ورأوا فيه خاتمة غير لجائية ولا فاجعة لما بد مهزلة وانتهى إلى مأساه » وإذا فرضنا أن بد الواردة فى آخر الجلة غلطة مطبعية صوابها بدأ فان الجملة بعد هذا التصحيح تظل غامضة

(١٥) ومن الجمل التى تغير معناها لخطأ فى ترجمة إحدى كلماتها قول الأستاذ صروف عن تقرير لجنه التصفية « وقد وضع نصفه الاول لورد كرومر » مع أن المؤلف يقول « وقد وضع صورته الاولى أو مسودته لورد كررمر »

The first draft was prepared by Lord Cromer

وقوله « ولقد حان الوقت حقا لحل مجلس النواب القديم » يريد مجلس النظار

(١٥) ومن أمثلة الأسلوب الضعيف قول الأستاذ صروف فى وصف سفر الخديو اسماعيل باشا على ظهر المحروسة « فكل مفكر راقب المحروسة تبحر من مرفأ الاسكندرية بعد ظهر ذلك اليوم فى الصيف تنهد بطبيعة الحال أمام مشهد بارز فى أفق العالم للفرص الذهبية تسنح وتلمع ثم تضيع »

فهل هذا وصف يمثل لخيال القارى صورة ذلك المشهد الرهيب ؟

(١٦) ومن الأشياء التى لا نستطيع أن نفهم لها سببا حرص

الأستاذ صروف حرصا شديدا على أن يترجم كلمة Ministry دائما أو فى معظم الأحيان بكلمة مجلس نظر حتى ولو أدى ذلك إلى غموض المعنى وضعف الأسلوب فيقول مثلا :

فقد مجلس النظار ثقة البلاد بدل أن يقول فقدت الوزارة ثقة البلاد ويقول ، فقرر مجلس نوبار (يريد قررت وزارة نوبار) دفع جانب من المتأخرات ويقول فتألف مجلس نظار مصرى (يريد وزارة مصرية) ويقول وعندما ألف نوبار مجلس نظاره ويقول انتدب نوبار لتاليف مجلس النظار ، وكتب الخديو إلى نوبار يفوض إليه تأليف مجلس نظار وهكذا

وربما كان السبب أن الاستاذ صروف يظن أن كلمة وزارة لم تكن تستعمل فى ذلك الوقت والحقيقة أنها كانت مستعملة وقد استعملها الاستاذ صروف فى بعض المواضع

يخيل إلينا أن الذى ترجم الجزء الأخير من الكتاب ليس هو الذى ترجم الجزء الأول منه

(١٧) قال المؤلف فى معرض تبرير الرشا التى كان سمو الخديو يدفعها إلى رجال السراى

If the world does not approve of encouraging itching palms

وهى عبارة معناها « إذا كان العالم لايرضى عن تشجيع الرشوة » ولكن الأستاذ صروف ترجمها بهذه العبارة الغامضة التى لا يفهم لها معنى وهى « إذا كان العالم لايرضى عن تشجيع ما يثير »

(١٨) ولينظر القارىء ايضا إلى العبارة الآتية التى يذكر فيها المؤلف ما أنفقه سمو الخديو على التعليم

True it is that much of this amonnt is absorbed by the board and clothing of pauper pupils

ومعنى board الواردة فى هذه العبارة هو إطعام التلاميذ الفقراء وهو معنى عادى لهذه الكلمة ذكر فى القاموس صراحة بلفظ food ومعنى العبارة إذن هو « نعم إن كثيرا من هذا المال ينفق على طعام التلاميذ الفقراء ولباسهم » ولكن الأستاذ صروف غفل عن ذلك فترجمها بالمجلس ، وأفسد معنى العبارة إذ قال « نعم إن جانبا كبيرا من هذه المبالغ استنفده المجلس » ولا ندرى أى مجلس يريد . ولماذا لا يرجع الأستاذ للقاموس ليعرف معنى العبارات التى يشك فيها ؟

ننتقل بعد هذا إلى أسماء الأعلام الواردة فى الكتاب فنقول إن الأستاذ حرفها بل بدلها تبديلا لم نر له نظيرا فى كتاب من كتب التاريخ

إن أكثر ما يؤلم المصححين والمراجعين فى دار الكتب المصرية عند ما ينشرون كتابا من الكتب العربية القديمة المخطوطة هو ما يجدونه فى أسماء الأعلام من تحريف ؛ وإذا علمت أن معظم هذا التحريف الذى يلاقونه إنما ينشا من اختلاف فى وضع نقطة على حرف بدل حرف أو حذفها أو نحو ذلك وأنه مع هذا يسبب لموظفى هذه الدار عناء ليس بعده عناء لأنهم يريدون أن يخرجوا للجمهور كتبا صحيحة مضبوطة ، إذا علمت ذلك أيقنت أنه من حق القراء على الكتاب والمترجمين أن يتحروا الحقيقة فيما يكتبون وأن يتأكدوا من صحة الأسماء التى يكتبونها لهم . ان الأشخاص فى التاريخ هم المحور الذى تدور حوله الحوادث وهم بمنزلة أحجار البناء فيه ، فاذا كانت أسماؤهم خاطئة وبعيدة كل البعد عن الصواب فسد البناء كله . والاستاذ صروف لسبب مالم يتحر صحة الأسماء فأخطأ فى كثير منها خطأ لا يصح أن يقع فيه

(١) فعالى باشا الصدر الأعظم فى عهد الخديو اسماعيل وقبل اسماعيل الذى ظل يتناوب هو وفؤاد باشا منصبى الصدارة ووزارة الخارجية قد سماه الأستاذ « على باشا » لأنه ترجم الحروف الانجليزية دون بحث عن الحقيقة

(٢) وسرور باشا الذى تولى وزارة الخارجية فى وزارة محمود نديم باشا الاولى بعد وفاة عالى باشا ثم تولاها مرة أخرى بعد ست سنين من ذلك التاريخ قد سماه الاستاذ « سيور » . وليس خطأ المؤلف فى هذا بما يبرر خطأ المترجم لأن واجب المترجم أن يحقق ويراجع لا ان ينقل ألفاظاً وحروفاً

(٣) وهناك غلطة ثالثة من هذا النوع : من الأشخاص الذين كانوا ياخذون المال من اسماعيل باشا شخص يدعى « رشدى باشا الصغير الاقيانى » وهو من اقليم يدعى أقيان أو أكيان قريب من أرضروم كتبه المؤلف Rushdi Pasha of Akkian فكتبه الاستاذ رشدى باشا المكنى بأقيان ، وليست أقيان كنية لرشدى باشا ولا لقبا له بل هى اسم الاقليم الذى ينتسب إليه . فاذا قلنا Al Ghoneimy of Assiut فليس معنى هذا الغنيمى المكنى بأسيوط بل الغنيمى الأسيوطى وهكذا

(٤) ولا يقل عن هذا استبدال الأستاذ صروف « موافى » أفندي باسم سعاوى افندى الذى ذكره المترجم وكتبه هكذا Suavi وهو أحد الفارين من وجه الاضطهاد التركى واسمه الكامل على سعاوى افندى وقد كرر الأستاذ هذا الاسم المحرف مراراً دون أن يفكر فى البحث عن حقيقته

(٥) ومثله أيضا الشخص الذى يسميه الأستاذ صروف كربجى باشا مرة أو مرتين وكبريجى باشا مرة أخرى وليس هو كريبجى ولا كبريجى باشا بل هو القبرصى باشا أو القبرصلى باشا إذا شئت أن تذكره بصيغة النسب التركية . وقد أخطأ المؤلف فى الاسم فاستبدل بحرف l حرف h ولكنه عاد بعد ذلك فى ص ١٨٥ من الأصل الانجليزى فصحح الخطأ

ولا يختلف عن هذا أيضاً الشخص الذى يسميه الأستاذ صروف «تاجى كاتب أمين بك» وهو اسم لا وجود له ولا الشخص الآخر الذى يسميه سعيد بك ولا خليج مماز ولا سمعان بك الخ

وبعد فأظننا بهذا قد أعطينا القراء فكرة عن ترجمة الأستاذ صروف لكتاب إسماعيل المفترى عليه ، ولم يبق إلا أن نقول إن أسلوب الكتاب كله وبخاصة أسلوب فصوله الأخيرة معقد مفكك ملتوى العبارات تحس وأنت تقرأه أنك تقرأ عبارات مترجمة لا رابطة تجمعها . ويستطيع القارىء أن يلمس ذلك بيده فى هذه الفصول

ولا ندرى لماذا أغفل الأستاذ صروف دليل الكتاب أو فهرس الأعلام الذى عنى به المؤلف فذكر الاسم والصفحات التى ورد فيها . أغفله الأستاذ ووضع بدله دليلا ناقصا من عنده لم يذكر فيه الصفحات ، مع أن الدليل جزء لا غنى عنه فى كل الكتب الحديثة لأنه يسهل على القارىء البحث والمراجعة

ونحب قبل أن نختم هذا النقد أن نعتذر إلى القراء وإلى الأستاذ صروف عن عبارة ذكرناها فى المقال السادس على أنها غامضة المعنى تلك هى جملة « يخفى ضوءه تحت مكيال » وهى فى الحقيقة غامضة إلا لمن درس الكتاب المقدس دراسة وافية وكان على الأستاذ أن يشير إلى مصدرها

ثم نورد هذه الفقرة من خاتمة الكتاب التى كتبها الأستاذ صروف من عنده وهى :

« ولقد توخينا فى الترجمة أن تجمع بين سلامة الأسلوب العربى والدقة فى متابعة الأصل الانجليزى . ولما كانت القواعد التى وضعها مجمع اللغة العربية الملكى لتعريب أسماء الأعلام الاجنبية لم تظهر بعد فقد عربتها كما تعرب عادة فى مصر . وإذا وجد القارىء اسم غوردون بالغين على الأكثر وبالجيم على الأقل ، أو لفظ الخديو بغير الياء على الأكثر وبالياء على الأقل ، ولفظ الأمريكى بتقديم الياء على الكاف على الأكثر وبتقديم الياء على الراء على الأقل ، فما ذلك إلا من هنات الطبع . . . الخ

هذا كل ما يعتذر عنه الأستاذ . أما تحريف الأسماء وحذف الجمل وقلب المعنى وغموض العبارة وعدم سلامة الاسلوب فلا اعتذار عنه ، بل ليقبله القراء وانوفهم راغمة

إن فى استطاعتنا أن نملأ بأغلاط الكتاب صفحات بل أعدادا من مجلة الرسالة لأن ماتتبعناه من فصوله هو الستة الفصول الأولى وبعض أغلاط من فصوله التالية . لكننا آثرنا أن نترك الباقى لمن هو أقل منا عملا أو أوسع منا وقتا . على أننا قد نعود إلى الكتاب مرة أخرى إذا أمكنتنا الظروف

الغنيمى

5 me Année, No. 205

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 7 - 6 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٠٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ — ٧ يونية سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

صفحة

الطربوش والقبعة

بمناسبة فوزنا الجديد

كان للطربوش امتياز على العمامة أيام كان الأمر للترك والأرناءود، لأنه كان يومئذ تاج السلطان، وشعار الحكم، ولباس الجيش، ورمز البطش، وعلامة الخطر؛ فكان يكفى أن يكون فى الحى أو فى الناحية (جندى) (١) واحد لتخشع النفوس وتخضع الرءوس ويمحى القانون وتنتفى الحكومة، فلا يمر أحد وهو واقف، ولا يشتجر اثنان وهو موجود، ولا يعرف الناس من ورائه بيته شرطة فى قسم، ولا قضاة فى محكمة

وكان للقبعة امتياز على الطربوش أيام كان الشأن لاحتلال الانجليز وامتياز الدول؛ لأنها كانت حينئذ شارة الغلبة وبراءة الاجرام وصك الغصب وجواز المرور واشارة الثراء وأمارة التفوق؛ فكان يكفى أن نرى (الخواجة) لنرى الغانم الذى لا يغرم، والمتصرف الذى لا يحاسب، والضارب الذى لا تقدر أن تغل يديه، والسفيه الذى لا تستطيع أن ترد عليه، والمدير الذى يملك المصارف والمصانع والمتاجر والشركات والبارات والمقاهى والملاهى والفنادق، ومن ورائه (المحكمة المخصوصة)، والمحاكم القنصلية، والمحاكم المختلطة، والتبجح

(١) اسم كان يطلق يومئذ على لابسى الطربوش

الأشر والدعوى العريضة والبأو السليط. فكان الطربوش عنوانا على ذلك الانسان الذى أفسدت فيه العبودية والجهالة مزايا الانسانية فجعلتاه حيا تعافه الحياة، ووطنيا ينكره الوطن، ووريثا يأنف منه التراث، وخلفا يعرض عنه التاريخ؛ وكانت القبعة سمة على ذلك الأجنبي المتقحم بقوته على الضعف، وبقدرته على العجز، وبصحوته على الغفلة؛ فالتمايز فى واقع الأمر كان بين ناس وناس، لا بين لباس ولباس. فانك إذا وضعت الطربوش على جبهة الأسد كان مفخرة، واذا وضعته على رأس القرد انقلب مسخرة؛ وهل تصنع القبعة فى الرأس الذليل إلا أن تجعل منه زنجيا فى أمريكا، وحبشيا فى أفريقا، وصعلوكا فى كل قارة؟

***

أما نحن اليوم فخلق جديد فى دنيا جديدة: تنبهت فينا ملكات الجنس فثرنا على الخسف، وتمردنا على الأذى، وزاحمنا الناس بالمناكب العريضة على مكاننا الخالى منذ قرون فى صدارة الأمم، فانفتح الطريق البشرى من خلفنا على المجد الاول، ومن أمامنا على النصر الأخير، وأصبح فى وضع الطربوش على جباهنا مواح من سمو الشمس وشموخ الهرم، وفى حمرته معان من أشعة الشروق، ودماء التضحية، وأوراد الربيع. وأضواء اللهب. فالتبرم به اليوم لا يجد له فيما أظن مساغاً من العقل مادام الرأس الذى يحمله قد ارتفع وامتلأ واتزن.

لا أريد أن أدخل بين الطربوش والقبعة، ولا أن أدعو إلى ذاك أو إلى تلك؛ وإنما أريد أن أقول إن ضعفنا هو الذى ظلم الطربوش كما ظلم اللغة والعلَم؛ فاذا سوغ المنطق أن نترك الطربوش لأنه لا يطاول القبعة، سوغ كذلك أن نهجر العربية لأنها لا تنتشر فى كل أرض، وأن نخرج على العلَم لأنه لا يخفق فى كل سماء. ولن تجد أهون على الناس من رجل يأنس فى نفسه الضعة فيحتال على العظمة بارتداء ثوب العظيم

ماذا يضرك الطربوش إذا كان لك طوائر تئز فى السحاب، وبواخر تمخر فى العباب، ومدافع ترعد فى البر، وغازات تسطع فى الجو، ومجلس ظاهر فى العصبة، وقول نافذ فى السياسة، ورأى مسموع فى العلم، ومذهب متبوع فى الأدب، ووطن يدبره حكمك، ويستثمره علمك، ويستقل بخيره وميره بنوه؟

وماذا تنفعك القبعة إذا قنعت من استقلالك بالاقرار به، ومن وطنك بالقرار فيه؛ ورضيت أن تعيش حملة على قوة الحليفة، وصنيعة على رحمة الدول؛ واكتفيت بمظاهر التمدن من اللباس والرياش والترف واللهو؛ وظللت على الغرائز الجافية والحس البليد، تكذب لتمزح، وتغش لتربح، وتناقش فيفرط عليك صوتك ولسانك ويدك، وتحضر مجلس السماع فتجعله من التأوه والأنين والصخب والعربدة ماخوراً فى مستشفى؛ وتسير فى الطريق مرحاً أو ذاهلا فتصدم المار فيلتفت إليك التفاتة العاتب ترضيه ابتسامة عاذرة، فتهجم أنت عليه بالنظرة الشزراء والكلمة الفاحشة: وتصعد الترام فتخطو بنعليك على أقدام الراكبين حتى تبلغ محلك فتحط فيه كاشر الوجه غير ملتفت، أو ضاحك السن غير مكترث؛ وتمر بك الآنسة الخفرة أو السيدة الحاصن فتخزحسها بالنظر الفاجر، وتؤذى سمعها بالمنطق الخطل، ولا ينبهك ضميرك الأغلف إلى أن للأسرة حرمة وللمجتمع كرامة؟

طهر رأسك ياسيدى من درن هذه الخلال ثم ضع عليه طاقية أو لبدة أو أى غطاء شئت، ترتفع منزلتك فى كل عين، وتقر هيبتك فى كل صدر؛ فان قيمة ذلك فى الرأس الذى يحمله، والشعب الذى يمثله، لا فى أصله ولا فى شكله ولا فى لونه؛ والثوب كما يقول الفرنسيون لا يصنع الراهب

أى شرف أرفع للرأس، وأى فخر أملأ للفم، من أن تذهب اليوم بشرقيتك ومصريتك وطربوشك فتقول للذين غمطوك بالأمس: أرأيتم إلى الجوهر الحر والمعدن الكريم، كيف طمرته القرون، وصهرته الأحداث، وتناهبته الاطماع، ثم خرج من عرك العبودية ومعركة الحرية، باهر اللون، متميز الشكل، كامل الخصائص، حر الوجود، لا هو ماسة فى خاتم ولا درة فى تاج!!

احمد حسن الزيات

ندرة البطولة

للأستاذ عباس محمود العقاد

العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين يروى ما يتحدث به فريق من المتشائمين حين ينعون على العصر الحديث ندرة البطولة وقلة النبوغ ، ويسأل معهم : « هل تجد فى الشعر أمثال بشار وأبى نواس وابن الرومى وابن المعتز وأبى العلاء ؟ وهل تجد فى النثر أمثال ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون وعمرو بن مسعدة ! وهل تجد فى الغناء أمثال اسحق الموصلى وابراهيم بن المهدى ؟ » وقس على ذلك بطولة الحرب والسياسة والزعامة وسائر البطولات

ثم يعقب الأستاذ على ذلك قائلا : « يظهر لى مع الأسف أن الظاهرة صحيحة ، وأن الجيل الحاضر فى الأمم المختلفة لا يلد كثيراً من النوابغ ولا ينتج كثيراً من الأبطال . وأن طابع هذه العصور هو طابع المألوف والمعتاد ، لا طابع النابغة والبطل »

ثم يستعرض الأسباب ويختمها بقوله : « ما أحق هذا الموضوع بالدرس وتناول الكتاب له من وجوهه المختلفة »

والموضوع كما قال الأستاذ النابه حقيق بالدرس والتناول من وجوه مختلفة ، وليس له أوان يفوت بفواته . فاذا شغلتنا موضوعات أخرى عن تناوله فى الأيام الماضية فليس ما يمنع اليوم أن نبدى الرأى فيه

ورأينا أننا نخالف الأستاذ مخالفة النقيض للنقيض ؛ ونعتقد أن العصر الحديث أغنى بالبطولة والنبوغ من كل عصر سلف بغير استثناء ولا تحفظ ولا تغليب للظن والاحتمال . وأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور خطأ المتشائمين فيما وصلوا إليه من نتيجة ، لأنه ليس أسهل ولا أقرب من ظهور الخطأ فيما اعتمدوه من قياس

إن الوجه فى المقارنة بين جيل وجيل أن نحصر الزمن وأن نحصر المزايا ، وأن نحصر العناصر التى تقوم عليها شهرة الأدباء أو الأجيال

وهذا الذى ينساه المفاضلون بين عصرنا الحديث والعصور الغابرة كل النسيان

فمن أمثلة ذلك سؤالهم : « هل تجد فى الشعر أمثال بشار وأبى نواس وابن الرومى وابن المعتز وأبى العلاء ؟ »

فالذين يسألون هذا السؤال يحسبون الماضى كله عصراً واحداً يقابله واحد من الحاضر هو العصر الذى نعيش فيه

وينسون أن الزمن الذى نشأ فيه بشار والمعرى يمتد من أواسط القرن الثانى للهجرة إلى أواسط القرن الخامس ، أى نحو ثلاثمائة سنة !

وينسون أن المكان الذى نشأوا فيه يمتد من العراق إلى الشام ، ومن الحضر إلى البادية

وينسون أن العصر الحاضر الذى نعيش فيه لا يمتد إلى أكثر من أربعين أو خمسين سنة وهو الزمن الذى يبدأ بفتوة الشاعر وينتهى بوفاته

وإنما الوجه أن يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصر الحديث ثم يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصور القديمة ، ثم يعقدوا المقارنة بين هاتين الفترتين ، فانهم ليدركون إذن حقيقة التفاوت بين عصرنا الحاضر وبين كل عصر من تلكم العصور

***

كذلك ينسى النعاة على المحدثين أن يسألوا أنفسهم : ماهى المزية التى كان بها النابغ القديم « انبغ » من قرينه الحديث ؟

فلا يسألون مثلا : ماهو كتاب الجاحظ الذى يستعجزون أبناء عصرنا عن الاتيان بنظيره ؟ فان لم يكن كتاب فما هو الموضوع ؟ وان لم يكن موضوع فما هو المقال أو الجملة أو العبارة !

ولو كلفوا أنفسهم سؤالا كهذا لمالت معهم كفة الميزان وعلموا ان الجاحظ ومن هم أكبر من الجاحظ يحتاجون الى أن يتتلمذوا على أناس من المتخلفين ، وقلما يعتزون بمزية واحدة لا يعد لها نظير من مزايا المتأخرين

وأعجب من ذلك حديثهم عن الموصلى وابراهيم بن المهدى ومن جرى مجراهما من المطربين فى العصور الاولى . فاذا سمعوا من هذا أو ذاك ؟ ومن أين لهم أن الموصلى يبلغ شأو سلامة حجازى أو السيد درويش أو أم كلثوم فضلا عن السبق الذى لا يجارى والبون الذى لا يدرك ؟

أما أنا فأغلب الظن عندى أن الأمر معكوس ، وان ألحان الموصلى لا تعدو أن تكون مزيجا من تنغيم البدو وصبغة

الحضارة المستعارة والآلات الناقصة ، وكل ما يأتى على هذا النمط معروف الأصول معروف النطاق ، وإن لم يكن معروفا بحروف النوطة وأصوات السماع

كذلك ينسى المتشائمون أن يتقصوا عناصر الشهرة فى العصور القديمة قبل أن يعقدوا المقارنة بينها وبين نظائرها فى العصور الحديثة

فدع أنهم ينسون أن يرجعوا الى وقائع قائد مثل يوليوس قيصر أو الاسكندر المقدونى أو جنكيز خان قبل أن يرجعوهم فى فنون الحرب على فوش وهندنبرج ومصطفى كمال ولوانهم رجعوا الى تلك الوقائع لما اكبروا من شأن الانتصار فيها كل ذلك الاكبار

ودع أنهم ينسون ان كل حرب لا بد فيها من ظافر ومن مهزوم ، وان الظفر وحده ليس بشىء ان لم ننظر معه الى عوامله ودواعيه وتتبين انها صالحة للتكرار فى كل وقعة وكل حين

ودع انهم ينسون أحكام المصادفات والعوارض وانها تندر فى الزمن الحديث وتكثر فى الزمن القديم

دع هذا جميعه فقد يكون فى نسيانه بعض اعذار لمن ينسونه، ولكن كيف تراهم يجارون الأقدمين فى مبالغاتهم عن هؤلاء العظماء وهى قائمة على دعاوى وأكاذيب نحن على يقين من بطلانها كل البطلان ؟ ألم يكن هؤلاء العظماء أربابا وأنصاف أرباب وقديسين وأشباه قديسين فى رأى الأقدمين ؟ فكيف نقابل بينهم وبين خلفائهم فى عصرنا قبل أن نسقط فى الميزان تلك المبالغات وتلك الدعاوى والأكاذيب ؟ ان هذا الخليق أن يضيف الى فضل المتأخرين لا أن يغض منه ويحيف عليه ، لانهم وهم آدميون ليس إلا يوضعون فى الميزان أمام أرباب وأنصاف أرباب !

ooo

ليس فى تاريخ بنى الانسان منذ بدايته الى يومنا هذا عصر يعرض لنا من عجائب الحوادث والامم والأفراد مثال ما يعرضه لنا العصر الذى نحن فيه

ليس فى تاريخ بنى الانسان عصر برز فيه من البطولة والمغامرة والدهاء والقدرة والصبر على النصر والهزيمة مثل ما برز أمامنا فى الحرب العظمى

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر تولى فيه عروش القياصرة والخواقين والاكاسرة وقبض فيه على أعنة السلطان رجال من أبناء الشعب ، كمصطفى كمال ورضا بهلوى وستالين وموسلينى وهتلر وكابللرو وكاردبناس . فماذا عندنا من الأدلة على أن العصاميين فى الزمن القديم كانوا أعجب وأدنى الى البطولة فى صنيعهم من هؤلاء ؟

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر واحد عرض لنا من نخوة الحب وفروسية العاطفة مثل ما عرضه لنا العصر الحاضر فى غرام ملك الانجليز السابق وصديقته السيدة سمبسون . فماذا عندنا من الادلة على أن غرام هيلانة فى طروادة المزعومة كان أعجب وأدنى الى البطولة من هذا الغرام ؟

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر واحد عرض لنا من أطوار الشعوب ما عرضته لنا الثورة الأسبانية والثورة الروسية من قبلها وعرضته معها الثورات فى مصر والهند والصين . فاذا عندنا من الأدلة على أن عصر الثورة الفرنسية أو عصور ثورات اليونان والرومان كان لها نصيب من العجب وجلائل الخطوب أوفى من هذا النصيب الذى شهدناه ؟

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر أنجب فى كل أمة نموذجا يمثلها كما أنجب عصرنا سعد زغلول وغاندى وسون ياتسن وشيان كاى شيكر وفيصلا وابن سعود

وليس فى تاريخ بنى الانسان عصر فيه ما فى عصرنا من الحقائق التى تشبه الخيال ، والعبر التى تشبه نوادر الأمثال ، والشواهد التى تتعدد على كل ملاحظة من ملاحظات النفس الانسانية والبواعث القومية والطوارق السياسية . فعندنا وعلى مسمع ومشهد منا مصداق كل رأى حام فى ذهن فيلسوف ، وتطبيق كل مذهب دعا إليه داعية قديم أو حديث فى عالم النظريات

وليس فى تاريخ بنى الانسان مخاطرات أهول ولا أنبل من مخاطرات ركاب الطيارات والمظلات والغواصات المتفجرة والسفن المدمرة التى يقع فيها الخطر كل يوم ويقع فيها الاقدام كل يوم ، ولا مبالاة بالموت ولا بالخطر كأنهما رياضة من من اللهو أو لعبة من ألعاب الرهان

فان كنا لا نسمى ما نبصره ونسمعه عجائب وروائع ولا نحسبها معارض للبطولة والنبوغ فقد غيرنا الأسماء وقد بدلنا اللغة ،

وقد أصبحنا مطبوعين على النظر إلى البعيد دون النظر إلى القريب

نعم إننا ننظر حولنا إلى عظيم فى الشعر من طراز شكسبير فلا نرى له نداً بين الشعراء المعاصرين. ولكن النوابغ من طراز شكسبير تتساوى فيهم جميع العصور ولا يستأثر بهم القرن الذى نبغوا فيه، وهكذا كان أبناء القرن السادس عشر خلقاء أن يبحثوا فى زمانهم عمن يضارعون نوابغ القرن العشرين فى العلم والاختراع والموسيقى والفن كافة فلا يجدوا بينهم أنداداً لهم يضارعونهم كثرة وقيمة؛ وإن العصر الحديث مع هذا ليفهم قصائد شكسبير خيراً مما فهمها معاصروه، ويقدره خيراً مما قدروه، ويمثل رواياته أكثر وأجمل وأبرع وأكفل بالاقبال والاعجاب مما كانوا يمثلونها فى حياته

أذكر أننى رأيت منذ سنوات فى إحدى الصحف الانجليزية صوراً لبعض العظماء الغابرين فى أزياء العصر الحديث، شفعتها الصحيفة بهذا السؤال: هل تعرفهم؟

وحق للصحيفة أن تسأل سؤالها الآن. لأن الصور التى رأيناها لأولئك العظماء قد سلبتهم كثيراً من الهيبة وبددت ماحولهم من هالات الفوارق والمسافات التى يوحيها اختلاف المظاهر والأزياء.

وإن حاجتنا اليوم لشديدة إلى متحف يستعرض لنا عظماء الأمس فى أزياء اليوم، وعظماء اليوم فى أزياء الأمس، لنعرف مقدار مانضيفه إلى الغابرين من هيبة الفوارق والمسافات ومقدار مانسلبه المعاصرين من جراء الألفة والمقاربة

فان تعذر علينا أن نرسم ذلك المتحف عياناً فلنرسمه بالظن والتقدير. ولنرجع إذن إلى مقاييسنا وموازيننا نلمس مواضع الزيادة والنقصان فيها، ونصلح جوانب الغلو والبخس فى كفاتها، ونغنم تصحيح الميزان فى الحكم على الرجال والأزمان، لأن هذا التصحيح غنيمة أنفس وأجدى من تفضيل نابغ على نابغ أو ترجيح جانب على جانب. إذ لاضرر ولا قصور فى اختلاف التفضيل والترجيح متى صحت النظرة واستقام القياس.

تلك هى الحقيقة فيما يقال عن ندرة البطولة والنبوغ بيننا كما أراها

أما تواتر القول بندرتها بين جماعة من الناقدين منهم أناس فضلاء محبون للانصاف فله أسباب قد نعود إلى تفصيلها ومناقشتها

عباس محمود العقاد

الزمن

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

حدث مرة أنى سافرت فجأة إلى أوربا من غير أن يعرف أحد من أهلى وأصحابى — عزمت على ذلك وأمضيت العزم فكانت هذه الرحلة التى لم تكن لى فى حساب قبل يومين اثنين. وأسباب ذلك كثيرة يطول شرحها. وركبنا الباخرة فما كان يمكن أن أذهب إلى أوربا سابحاً، ومضى يوم وثان وإذا بفتاة ممن عرفناهن على ظهر السفينة مقبلة على تقول:

«هل ضبطت الساعة؟»

ونظرت إلى ساعتها الصغيرة على معصمها ثم رفعتها إلى أذنها فقلت: «دعى هذا لى فإنى حاد السمع مرهفه.. هاتى يدك واسمعينى»

قالت: «يظهر أنك لا تسمع إلا ما تريد.. لقد سألتك الآن هل أصلحت ساعتك؟»

فقلت وأنا أتعجب: «أصلحتها؟.. ومن الذى قال إن ساعتى خربت؟. إنى أؤكد لك أنها من أحسن الساعات.. كانت لرجل ممن يكثر المال فى أيديهم يوماً فيذهبون يشترون كل ما يخطر لهم على البال، ويصبحون فى اليوم الثانى وقد صفرت أكفهم فيرهنون ما اشتروا أمس أو يبيعونه.. صاحب هذه الساعة شاء أن يرهنها، ثم لم يؤد ما اقترض عليها، فاضطر الصائغ اليهودى أن يبيعها.. ولا أحتاج أن أقول إنك ترين الرجل الفاضل الذى اشتراها منه»

فألقت إلى ابتسامة عذبة أدارت رأسى دورة جديدة — وأقول الحق إنها هى التى كانت سبب سفرى إلى أوربا فجأة —

وقالت: «لا شك أنها ساعة معرقة فى الفخار.. ولكنها تحتاج الآن إلى إصلاح»

فقلت ببساطة: «أبداً..»

فقالت: «أسرع.. رد العقربين»

فدهشت وقلت: «أردهما؟.. لماذا؟..»

قالت : « نعم ... ردهما ... أخرهما ساعة ... لو كنا فى الشتاء لوجب أن تؤخرهما ساعتين »

قلت : « اسمعى ... لو أمرتنى أن أرتد طفلا ، وكان هذا فى وسعى ، لفعلت بلا تردد ، وبلا شرط سوى أن ترتدى معى طفلة لنلعب معاً ... ونكبر معا ... ونعوض على العموم مافاتنا — مافاتنى أنا على الأصح — ليس عليك إلا أن تأمرى فإذا الذى تشائين كائن — ولكن من المجانين الذين يحبون أن يعلموا لماذا يصنعون ما يصنعون »

قالت : « لا أدرى سوى أن كل الناس هنا ردوا عقارب الساعات وأرجعوها ساعة ... حساب الوقت بعد هذا الخط يتقدم ساعة »

قلت : « تعنين يتأخر »

قالت : « كلا ... بل يتقدم »

قلت : « لن نحل هذا الاشكال قط فيحسن أن نتركه ... ولننتقل إلى سواه فهل تعنين أننا كنا سائرين إلى الوراء ؟ . كنا نرتد فى الزمن ؟ »

قالت : « لا أدرى ... هكذا يقولون ... فأصلح الساعة وتعال إلى فوق فان الجو جميل »

قلت : « أفهمينى أولا كيف كنا نرجع القهقرى فى الزمن »

فلم تستطع أن تفهمنى — ولها العذر ، وكيف بالله تستطيع أن تفهم أنك تمشى إلى الوراء وأنت تمشى إلى الأمام ؟ — وأصررت أنا على ترك ساعتى كما هى ، وقلت لها : « إنك ولا مؤاخذة مثل مدرس الجغرافيا الانجليزى فى المدرسة الخديوية »

قالت : « ماله ؟ »

قلت : « كان يقول لنا ، لنفرض أنكم فى استراليا - ولا أدرى لماذا اختار استراليا ولكن هكذا كان يقول - وأنى أنا - يعنى نفسه - فى لندن ... فماذا يحدث ؟ ... فلا نعرف ما ذا يمكن أن يحدث ، فيقول ... اسمعوا فى يوم من الأيام ، وليكن الجمعة ، فأعترض وأقول : إن يوم الجمعة فيه ساعة منحوسة ، فيقول : حسن ، إذن ليكن اليوم يوم الأحد وليكن الوقت الصباح ... ولنفرض أيضاً أن المخاطبات التليفونية ممكنة بين استراليا ولندن فيدق لى أحدكم التليفون ويقول صباح الخير ... مفهوم ؟ ... فنقول جداً : فيسألنا ما ذا ينبغى أن أقول أنا فى رد التحية التى وجهها إلى من باستراليا ؟ فنقول له تقول صباح الخير ، أو عموا صباحاً يا أولادكما تقول لنا هنا ، فيقول كلا ! ... فى هذا تخطئون لأننا فى لندن نكون فى ذلك الوقت فى مساء السبت بينما تكونون أنتم فى استراليا فى صباح الأحد ، فأنا أرد على تحيته بقولى له « عم مساء » فتقولون لى مستغربين كيف هذا ؟ ... إننا ما زلنا فى الصباح ، فأقول إن الوقت الآن فى لندن الثامنة مساء ، وقد تناولت عشائى منذ لحظة قصيرة ؛ فتقولون كلا ، بل الساعة الآن الخامسة صباحا . ونحن لم نفطر فألتفت إلى الذين معى وأقول اسمعوا ... إن لفيفاً من تلاميذى فى استراليا استيقظوا - بصيغة الماضى من فضلكم - صباح غد فيسألنى اخوانى كيف يمكن أن تعرف ما عسى أن يفعلوا غداً صباحاً ؟ فأقول إنى أعرف ماعسى أن يفعلوا غدا صباحا لأنهم أنبأونى أنهم فعلوه فيقول إخوانى لى إنك مجنون - أو كلاماً آخر كهذا - لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا أن يكونوا هم فى الساعة الثامنة مساء من يوم السبت على حين يكون غيرهم فى نفس الوقت فى الساعة الخامسة صباحاً من يوم الأحد ، فنهز نحن التلاميذ رؤوسنا الصغيرة ونقول ، ولا نحن نفهم هذا ، فيقول المدرس اسمعوا ... لنفرض أن لى طيارة سريعة تقطع المسافة بين القاهرة واستراليا فى أربع ساعات أو خمس ... اركبها من القاهرة يوم السبت وأفطر فى استراليا صباح الأحد وأرجع إلى القاهرة مساء السبت - أرجع اليها قبل الوقت الذى غادرتها فيه - فما قولكم ؟ ... أليس هذا واضحاً ؟ ... فنضع أصابعنا فى الشق ، ونريح أنفسنا من العناء الباطل ، ونقول إن الأمر واضح جداً .

وأزيد أنا على هذا أن من الواضح من كلامك أن فى وسعك أن تقوم من القاهرة يوم السبت وتكون فى استراليا - أو حيث شئت غيرها - يوم الاثنين ، لا الأحد فقط ، ثم

ترجع إلى القاهرة يوم الجمعة ، الذى هو قبل السبت الذى سافرت فيه ... معلوم !.. الأمر واضح جداً !.. فيحسب المدرس أنى أسخر منه ، ويعاقبنى بالحبس ساعة ، آخر النهار.. هذا ياستى ما كان مدرسنا يعلمنا.. لقد ضاع علينا والله ما أنفقناه فى التعلم .. والآن بعد أن استرحنا من المدارس والمدرسين المخرفين نركب هذه الباخرة الجميلة ونحن نعتقد أن الدنيا بخير ، وأن العقول لم تطر من الرؤوس وإذا بهم يقولون لنا ردوا عقارب الساعات لأنا رجعنا ساعة ؟؟ والذى يدهشنى هو أن تصدقيهم

فتقول فتاتى: « ولكن هذا صحيح »

فأصيح بها - برغمى - : « كيف تقولين هذا الكلام ؟.. هل تريدين منى أن أقول إن الساعة الرابعة حين تكون الخامسة ؟. إنك تكلفيننى شططاً »

فتقول: « لقد كسبنا ساعة »

فأقول : « أرجوك !. أرجوك !.. »

فتقول : « صحيح والله »

فأقول: « يابنت الحلال كيف يمكن أن نكون قد كسبنا هذه الساعة وهى قد ولت ؟. ثم إنى لم أكن معك فيها. لأنى كنت نائماً فالخسارة مضاعفة »

فتضحك وتقول : « كسبناها لأنا استرجعناها »

فأقول : « إيه ؟ استرجعنا الساعة التى ولت ؟. مدهش ! »

فتقول : « ألا تصدق ؟ »

فأقول : « يا حبيبتى ، يا روحى ، يا عقلى .. أرجوك !. ألف راء جيم واو الخ الخ.. »

فتضحك فأقول : اسمعى إنى لا أحب أن يبقى هذا الخلاف بيننا ، وأنا من أجل عينيك النجلاوين أفعل ماتريدين - لا عن اقتناع ، بل ارضاء لك - وأنا مستعد أن أقول إننا رجعنا إلى العام الماضى.. والله فكرة ! تعالى نرجع طفلين ونلعب .. »

فتذهب تعدو ضاحكة وأعدو وراءها حتى أدركها.

ابراهيم عبد القادر المازنى

خاتمة المأساة الأندلسية

الصراع الأخير

بين الموريسكيين واسبانيا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

بينما كانت هـذه الحوادث والمعارك الدموية تضطرم فى هضاب الأندلس وسهولها وتحمل إليها أعلام الخراب والموت ، إذ وقع فى المعسكر الموريسكى حادث خطير هو مصرع محمد بن أمية ؛ وكان مصرعه نتيجة المؤامرة والخيانة ؛ وكانت عوامل الخلاف والحسد تحيط هذا العرش بسياج من الأهواء الخطرة ، وكان محمد بن أمية يثير بين مواطنيه بظرفه وفروسته ورقيق شمائله كثيرا من العطف ، ولكنه كان يثير بصرامته وبطشه الحقد فى نفوس نفر من ضباطه ؛ وتقص علينا الرواية القشتالية سيرة مقتله ، فتقول إنه كان ثمة ضابط من هؤلاء يدعى ديجو الجوازيل له عشيقة حسناء تسمى « زهره » ، فانتزعها محمد منه قسرا ، فحقد عليه ، وسعى لإهلاكه بمعاونة خليلته ، فزور على لسانه خطابا إلى القائد العام « ابن عبو » يحرضه على التخلص من المرتزقة الترك ، وكانت ثمة منهم فرقة فى المعسكر الموريسكى ، فعلم الترك بأمر الخطاب ، واقتحموا المعسكر إلى مقر محمد بن أمية . وقتلوه بالرغم من احتجاجه وتوكيد براءته ؛ واستقبل الجند الحادث بالسكون ؛ وفى الحال اختار الزعماء ملكا جديدا هو « ابن عبو » فتسمى بمولاى عبد الله محمد ، وأعلن ملكا على الأندلس بنفس الاحتفال المؤثر الذى وصفناه . وكان مولاى عبدالله أكثر فطنة وروية وتدبرا ، فحمل الجميع على احترامه ؛ واشتغل مدى حين بتنظيم الجيش واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب ، واستطاع أن يجمع حوله جيشا مدربا قوامه زهاء عشرة آلاف بين مجاهد ومرتزق ومغامر

وفى أواخر اكتوبر سنة ١٥٦٩ سار مولاى عبد الله

بجيشه صوب « أورجبه » وهي مفتاح غرناطة واستولى عليها بعد حصار قصير ، فذاعت شهرته ، وهرع الموريسكيون في شرق البشرات إلى إعلان طاعته ، وامتدت سلطته جنوباً حتى بسائط رندة ومالقة ؛ وكثرت غارات الموريسكيين على فحص غرناطة (لافيجا) ، وقد كان قبل سقوطها ميدان المعارك الفاصلة بين المسلمين والنصارى . وكان فيليب الثاني حينما رأى استفحال الثورة الموريسكية وعجز القادة المحليين عن قمعها ؛ قد عين أخاه الدون جون (خوان) قائداً عاماً لولاية غرناطة ؛ ولما رأى الدون جون اشتداد ساعد الموريسكيين ، اعتزم أن يسير لمحاربتهم بنفسه ، فخرج في أواخر ديسمبر على رأس جيشه ، وسار صوب « وادي آش » ، وحاصر بلدة « جاليرا » وهي من أمنع مواقع الموريسكيين ، وكان يدافع عنها زهاء ثلاثة آلاف موريسكي منهم فرقة تركية ، فهاجمها الاسبان عدة مرات ، وصوبوا عليها نار المدافع بشدة ، فسقطت في أيديهم بعد مواقع هائلة أبدى فيها الموريسكيون والنساء الموريسكيات أعظم ضروب البسالة ، وقتل فيها عدة من أكابر الاسبان وضباطهم ، ودخلها الاسبان دخول الضواري المفترسة وقتلوا كل من فيها ، ولم يفروا النساء والأطفال ، وكانت مذبحة رائعة ، (فبراير سنة ١٥٧٠) وتوغل الدون جون بعد ذلك في شعب الجبال حتى سيدون الواقعة على مقربة من بسطة ، وكانت هنالك قوة أخرى من الموريسكيين بقيادة زعيم يدعى « الحبقي » تبلغ بضعة آلاف ، ففاجأت الاسبان في سيدون ومزقت بعض سراياهم ، وأوقعت الرعب والخلل في صفوفهم ، وقتل منهم عدة كبيرة ، ولم يستطع الدون جون أن يعيد النظام إلا بصعوبة ، فجمع شتات جيشه ، وطارد الموريسكيين ، واستمر في سيره حتى وصل إلى اندرش في مايو سنة ١٥٧٠

وهنا رأت الحكومة الاسبانية أن تجنح إلى شيء من اللين خشية من عواقب هذا النضال الرائع ، فبعث الدون جون رسله إلى الزعيم الحبقي يفاتحه في أمر الصلح ، وصدر أمر ملكي بالوعد بالعفو التام عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم في ظرف عشرين يوماً من إعلانه ، ولهم أن يقدموا ظلاماتهم فتبحث بعناية ، وكل من رفض الخضوع ماعدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة ، قضى عليه بالموت ؛ فلم يصغ إلى النداء أحد . ذلك أن الموريسكيين أيقنوا نهائياً بأن أسبانيا النصرانية لا عهد لها ولا ذمام وإنها غير أهل للوفاء ، فعاد الدون جون إلى استئناف القتال والمطاردة وانقض الاسبان على الموريسكيين محاربين ومسالمين يمعنون فيهم قتلا وأسراً ؛ وسارت قوة بقيادة دوق سيزا إلى شمال البشرات واشتبكت مع قوات مولاي عبد الله في عدة معارك غير حاسمة وسارت مفاوضات الصلح في نفس الوقت عن طريق الحبقي ؛ وكان مولاي عبد الله قد رأى تجهم الموقف ورأى أتباعه ومواطنيه يسقطون من حوله تباعاً ، والقوة الغاشمة تجتاح في طريقها كل شيء ، فمال إلى الصلح والمسالمة ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من براثن القوة القاهرة ؛ واتفق المفاوضون على أن يتقدم الحبقي إلى الدون جون باعلان خضوعه وطلب العفو لمواطنيه ، فيصدر العفو العام عن الموريسكيين ، وتكفل الحكومة الاسبانية حمايتها لهم أينما ارتأت إقامتهم ، وفي ذات مساء سار الحبقي في سرية من فرسانه إلى معسكر الدون في اندرش وقدم له الخضوع وحصل على العفو المنشود

ولكن هذا الصلح لم يرض الموريسكيين ، ولم يرض بالأخص مولاي عبد الله وباقي الزعماء ، ذلك لأنهم لمحوا فيه نية إسبانيا النصرانية في نفيهم ونزعهم عن أوطانهم ؛ ففيم كانت الثورة إذاً ، وفيم كان النضال ؟ لقد ثار الموريسكيون لأن اسبانيا أرادت أن تنزعهم لغتهم وتقاليدهم ، فكيف بها إذ تعتزم أن تنزعهم ذلك الوطن العزيز الذي نشأوا في ظلاله الفيحاء ، والذي يضم تاريخهم وكل مجدهم وذكرياتهم ؟ أنكر الموريسكيون ذلك الصلح المجحف ، وارتاب مولاي عبد الله في موقف الحبقي إذ رآه يروج لهذا الصلح بكل قواه ، ويدعو إلى الخضوع والطاعة للعدو ، فاستقدمه إلى معسكره بالحيلة ؛ وهنالك أعدم سراً

ووقف الدون جوان على ذلك بعد أسابيع من الانتظار والتريث ، وبعث رسوله إلى مولاي عبد الله ، فأعلن اليه أنه يترك الموريسكيين أحراراً في تصرفهم ، بيد أنه يأبى الخضوع

مابقى فيه رمق ينبض، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه على أن يحصل على ملك اسبانيا بأسره؛ والظاهر أن مولاى عبد الله كانت قد وصلته يومئذ أمداد من المغرب شدت أزره وقوت أمله؛ وعادت الثورة إلى اضطرامها حول رندة، وأرسل مولاى عبد الله أخاه الغالب، ليقود الثوار فى تلك الأنحاء؛ وثارت الحكومة الاسبانية لهذا التحدى، واعتزمت سحق الثوار بما ملكت؛ فسار الدون جوان فى قواته إلى وادى آش، وسار جيش آخر من غرناطة بقيادة دوق ركيصانص إلى شمال البشرات، وسار جيش ثالث إلى بسائط رندة، واجتاح الاسبان فى طريقهم كل شىء وامعنت فى التقتيل والتخريب، وعبثاً حاولت السرايا الموريسكية أن تقف فى وجه هذا السيل فمزقت تباعا، وهدم الاسبان الضياع والقرى والمعاقل، وأتلفت الاحراش والحقول حتى لا يبق للثائرين مثوى أو مصدر للقوت، وأخذت دعائم الثورة تنهار بسرعة وفر كثير من الموريسكيين إلى إخوانهم فى أفريقية، ولم يبق أمام الاسبان سوى مولاى عبد الله وجيشه الصغير؛ بيد أن مولاى عبد الله لبث معتصما بأعماق الجبال يحاذر الظهور أمام هذا السيل الجارف

وفى ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠ أصدر فيليب الثانى قراراً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد، ومصادرة أملاكهم العقارية وترك أملاكهم المنقولة يتصرفون فيها؛ ونفذ القرار الجديد بمنتهى الصرامة والتحوط، وجمع الموريسكيون فى الكنائس أكداساً، يحيط بهم الجند فى كل مكان، ونزعوا من أوطانهم وربوعهم العزيزة، وشتتوا داخل الأقاليم الاسبانية، وانهار بذلك المجتمع الموريسكى فى مملكة غرناطة

ولم يبق إلا أن يسحق مولاى عبد الله وجيشه الصغير، وكان هذا الأمير المنكود يرى قواده وموارده تذوب بسرعة وقد انهار كل أمل فى النصر أو السلم الشريف؛ بيد أنه لبث مختفياً فى أغوار الجبال مع شرذمة من جنده المخلصين، وفى مارس سنة ١٥٧١ كشف بعض الأسرى سر مخبئه للأسبان فأوفدوا رسلهم إلى معسكره فى بعض المغائر وهناك استطاعوا إغراء ضابط مغربى من خاصته يدعى «الزنيش» أغدقوا له المنح والوعود إذا استطاع أن يسلمهم مولاى عبد الله حيا أو ميتاً وزودوه بالعفو الشامل؛ فدبر الضابط الخائن خطة لاغتيال سيده؛ وفى ذات يوم فاجأه مع شرذمة من أصحابه فقاوم مولاى عبد الله ما استطاع ولكنه سقط أخيراً مثخناً بجراحه فحمل الخونة جثته إلى غرناطة؛ وهناك رتب الاسبان موكباً أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل كأنما هى إنسان حى، ثم حملت إلى النطع وأجرى فيها حكم الاعدام، فقطع رأسها ثم جرت فى شوارع غرناطة مبالغة فى التمثيل والنكال، وبعد ذلك أحرقت فى الميدان الكبير

— ٥ —

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسحقت وخبت آخر جذوة من العزم والنضال فى صدور هذا المجتمع الآبى المجاهد وقضت المشانق والمحارق والمحن المروعة على كل نزعة إلى الخروج والنضال، وهبت ريح من الرهبة والاستكانة المطلقة على ذلك المجتمع المهيض المعذب، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت، ولا تقوم لهم قائمة، فى ظل العبودية الشاملة والارهاق المطبق حقبة أخرى

على أن اسبانيا النصرانية لم تطمئن مع ذلك إلى وجود هذا الشعب المستكين الأعزل الذى ما زال رغم ضعفه وذلته يملأ جنباتها بفنونه ونشاطه المنتج: وكانت الكنيسة ما زالت تنفث إلى الدولة تحريضها البغيض على مجتمع لم تطمئن إلى صحة إيمانه، وكانت الدولة ذاتها تلتمس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع ومطاردته، فهى تخشى من أن يعود إلى الثورة، وهى تخشى من صلاته المستمرة مع مسلمى إفريقية، وكان التنصر المطبق قد عم الموريسكيين وغدا أبناء قريش ومضر بحكم القوة والتطور نصارى وقشتاليين، يشهدون القداس، ويتكلمون القشتالية؛ غير أنهم لبثوا مع ذلك فى معزل تلفظهم إسبانيا النصرانية وتحيطهم بريبها وبغضها؛ وكانت ثمة منهم جموع كبيرة فى بلنسية ومرسية؛ فى عهد فيليب الثالث اتخذت إسبانيا النصرانية خطوتها الحاسمة، وأصدرت قرارها الشهير فى صحف الاضطهاد، بنفى الموريسكيين أو العرب المتنصرين من إسبانيا، وإخراجهم

نهائياً من جميع الأراضي الاسبانية (سنة ١٦٠٩ م - ١٠١٧ هـ) وحشدت السفن لنقل من كان منهم في الثغور إلى أفريقية، ونزح سكان الشمال منهم إلى فرنسا حيث استقروا في لانجدوك وجويان، وبذلك انتهى الفصل الأخير، من مأساة الموريسكيين وطويت صفحة شعب من أمجد عصور التاريخ وحضارة من أعرق حضاراته

ولكن فلك التاريخ يسير بلا هوادة؛ فقد كانت مأساة الموريسكيين ضربة لاسبانيا النصرانية ذاتها، وكانت بدء عصور التدهور والانحلال التي ما زالت تتخبط أسبانيا في ظلماتها

وهل يكون من عدالة الله في أرضه وبين شعوبه ان تجتاح أسبانيا النصرانية اليوم موجة مدمرة من الحديد والنار تحصد أبناءها وحضارتها حصدا؟ وهل تكون الحرب الأهلية الاسبانية نقمة الموريسكيين تلحق أسبانيا بعد اربعمائة عام؟

(تم البحث) محمد عبد الله عنان
(النقل محفوظ)

في الأدب المقارن

أثر الأخـــلاق

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

التخلق من صفات الانسان الذي يحيا في الجماعة، تضطره الحياة الاجتماعية إلى تعديل كثير من طباعه الفطرية التي يجبل عليها، وكبح ما يتنافى منها مع مصلحة المجتمع، والأخذ بما فيه تلك المصلحة، فالأخلاق الحسنة أو الفضائل هي الصفات التي بها يكون صلاح الفرد والمجتمع، ومن أجل هذا الصلاح يحمد الصدق والشجاعة والعفة، ويذم الكذب والجبن والفجور؛ وهذه الأخلاق الحسنة التي هي مزيج من طباع الانسان المركبة فيه، ومقتضيات المجتمع التي يفرضها عليه، تكاد تتفق بين جميع الامم في شتى الأصقاع والعصور، فما من أمة لا يحمد فيها الكرم والإيثار والقناعة وتذم الرذائل المضادة لهذه الفضائل، معايير الأخلاق هذه يكاد يتحد فيها الجميع، إنما تختلف الامم والأفراد في مدى مراعاتها حقاً واتباعها عملا، باختلاف الجبلات والأوساط الجغرافية والاجتماعية.

وللأخلاق أثرها المحقق في آداب الأمة وأدب الفرد. تنعكس الأخلاق في مرآة الادب كما تنعكس العقليات، ويكون ظهور آثارها في الأدب أحيانا بدهياً تلقائياً غير مقصود، كما يكون أحياناً مقصوداً معنياً، إذ يلجأ الأديب إلى تصوير أخلاقه الذاتية وأخلاق غيره من أفراد مجتمعه، وتختلف صبغة أدب الأمة الأخلاقية من جيل إلى جيل، حسب ما يتوالى على المجتمع من عوامل الفضيلة والرذيلة، ومتانة العقيدة الدينية أو انحلالها، وارتفاع المثل العليا التي يتوخاها المجتمع أو انحطاطها، أثر كل ذلك واضح في آداب الأمة المكتوبة وفي أقاصيصها الشعبية وأناشيدها المتداولة.

وفي الأخلاق الفاضلة كما تقدم صلاح المجتمع، بيد أن تحبيذ الفضيلة وذم الرذيلة ليسا وظيفة الأدب الأولى، إنما وظيفته تصوير الجمال ووصف الشعور وبيان الحقائق على ما هي عليه غير مموهة، والعبقرية الفنية والفضيلة ليستا دائماً توأمين، بل ربما كان الكثير من رجال الفن أميل إلى الإفراط والتفريط في حياتهم، وأبعد عن القصد والاعتدال من عامة الناس، وقد ترقى الفنون وتزدهر في عصور الادبار الخلقي، كما كانت الحال في إيطاليا في عهد النهضة الأوربية؛ على أن الأدب وإن لم تكن غايته نشر الفضيلة، ولا وظيفته ترقية الأخلاق، إن هو إلا مظهر من مظاهر رقي الانسان وتحضره، وناحية من نواحي حياته الاجتماعية يجب عليه أن يخضع لما يخضع له سائر مناحي تلك الحياة من مقاييس خلقية فيها صلاح المجموع

فإذا لم يكن واجب الأدب الوعظ والارشاد إلى الخلق القويم فواجبه الذي لا شك فيه ألا يصادم الخلق القويم ولا يتحدى تقاليد المجتمع الصالحة، وواجبه أن يتجه ما استطاع وجهة الخير ويتنكب مواضيع الفساد ودواعي التبذل، وكل أثر أدبي مهما بلغت براعته وصدقه ودل على عبقرية صاحبه، إذا خالطه الفجور والاخاش واتسم بالاستهتار وتوخى الهنات والسوءات، لابد أن يمجه الذوق السليم وينفر منه الطبع الكريم، لما فيه من منافاة للأخلاق السامية التي يأخذ نفسه بها كل متحضر متهذب مثقف ويدرج عليها حتى تتأصل فيه وتصير له طباعاً ثانية

كانت للعرب في الجاهلية أمثلة عليا من الأخلاق الفاضلة التي تمليها حياة البادية، كالشجاعة والذود عن الذمار والدفاع عن الحريم والجود والقناعة وإجارة المستجير، وحول التمدح بتلك الأخلاق

يدور جانب عظيم من الشعر الجاهلي ، يعزو الشاعر تلك الفضائل إلى نفسه تارة كما فعل عنترة في معلقته ، وإلى قومه عامة كما فعل عمرو بن كلثوم ولبيد والسموأل ، وإلى ممدوحه كما كان يفعل زهير والأعشى ، ولبعض أشراف الجاهلية كالأفوه الأودى وحاتم الطائي وذى الأصبع العدواني ،وآثار في ذلك رائعة ببلاغتها وقوة أسرها وسمو منزعها ، ويرسلها بعضهم قصيدا رصينا ، وبعضهم يرسلها نصائح للمخاطب ، ويصوغها بعضهم وصايا إلى أبنائهم ، وبعضهم يجعلها حوارا بينه وبين زوجه على تلك الطريقة العربية الجميلة ؛ وطلب العرب حسن الأحدوثة وطيب الأثر ، ولم يدخروا في ذلك قولا أو فعلا ، قال حاتم الطائي :

وتذكر أخلاق الفتى وعظامه مغيبة في اللحد بال رميمها

وبديهي أن التمسك بكل هاتيك المثل العليا الخلقية لم يكن ديدن جميع العرب ولا التغنى بها دأب جميع الشعراء ، بل كانت أسباب الشر والفجور موفورة ، ودواعى المجون والخلاعة عديدة ، تتجلى في سيرة امرىء القيس الذى لم يكن يكاد يفيق غراما أو خمارا ، وحياة طرفه التي صورها في معلقته ، حيث وصف ثلاث حاجاته في الحياة ، فمن سبقه العاذلات بشربة كميت ، وتقصير يوم الدجن ببهكنة تحت الخباء المعمد ، وكره إذا نادى المضاف محنبا ، وكان ذيوع المفاسد قبيل ظهور الاسلام سبب ظهور كثير من الحكماء الذين أخذوا أنفسهم بالزهد ودعوا إليه ، كما أخذ كثير من أشراف العرب أنفسهم بمجانبة الخمر والقمار ونحوهما ، ومن أولئك عامر بن الظرب الذي يقول وقد حرم في جماعة من السادة الخمر على أنفسهم

أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى يفرق ترب القبر أوصالى
مورثة القوم أضغانا بلا إحن مزرية بالفتى ذى النجدة الحالى

وظل أكثر المثل العليا الأخلاقية في الاسلام كما كان في الجاهلية ، بعد أن هذب الاسلام من حواشيها وكفكف من غلوائها ، فتمدح شعراء الاسلام بالفضائل كالكرم والوفاء وحسن الجوار وكتمان السر والحلم عن السفيه والتصون عن الفحشاء والترفع عن المماراة والمجازاة بالحسنة عن السيئة ، كما فعل مسكين الدارمي وأوس بن معن ، والمقنع الكندي والشريف الرضى ، وتفاخروا بالبلاء في الحروب والاباء على الضيم والتعالى على الجهال وطلب السيادة والمعالى ، كما فعل أبو فراس والمتنبى ، ومدح الشعراء ممدوحيهم بهذا وذاك ، ورموا مهجويهم بأضداد تلك الفضائل ، وتهكموا في مداعباتهم بالبخلاء والجبناء والمنهزمين والأدعياء والمتطفلين . ومن محاسن أشعار امتداح الخلق الكريم قول سالم بن وابصة الذى يتمثل فيه الروح الاسلامى :

أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسطاً أذى ولا مانعاً خيراً ولا قائلا هجرا
إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذرا

وقول الشريف الرضى :

يصول على الجاهلون وأعتلى ويعجم في القائلون وأعرب
لسانى حصاة يقرع الجهل بالحجى إذا نال منى العاضه المتأوب
ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها ولا أنطق العوراء والقلب مغضب

وكأن احتواء الشعر على تلك الآداب النفسية من أسباب ضن العرب الشديد به ، وتسميتهم إياه ديوانهم ، وأخذهم أبناءهم بحفظه . وكانت دراسة آثار أبطال العرب وأشرافهم تلك تقوم في التربية العربية مقام دراسة أشعار هوميروس في التربية اليونانية القديمة ، كل منهما تقدم للناشىء نماذج من الفضيلة وأمثلة من الشخصيات العظيمة يحاكيها ويتشبه بها ، وهذا الباب من أكرم أبواب الشعر العربي وأجمعه لخير ميزات الأدب العربي ، من البلاغة والصراحة والايجاز ونفاذ النظرة

على أنه بجانب هذه النزعة الخلقية السامية المتخلفة عن أشراف الجاهلية ، والتى رفعتها فضائل الاسلام درجات من الرقة والسمو ظهرت رويداً رويداً نزعة مضادة لها كانت ذات أثر في الأدب واضح وضوح نزعة التسامى تلك أو هو أوضح ، وتلك هى نزعة الاستهتار والمجون والاباحة التى كانت نتيجة محتومة لاتساع الفتوح واختلاط العرب بأشتات الأجناس واستفحال الترف واتساع الثروة وتفاقم دواعى الشهوات ، ثم انحطاط مكانة المرأة من جراء ذلك واختفائها من المجتمع . حتى ذاعت فيه الآداب الخشنة والألفاظ الفاحشة ، بدل أن يتهذب مع الحضارة ، ويتخلص من جفوة البداوة الجاهلية

وانعكس أثر كل هذا الفساد في الأدب العربي ، فجاءت كتب الأدب محملة بالحكايات المخزية والعبارات النابية والاشارات المندية ، وشبب الشعراء بالذكور ، وتمدحوا بالتسلل إلى الخدور ، وتفاخروا بالاسراف في الشراب والعكوف على سماع الألحان ، وجاهر بعضهم بالزندقة وتهكموا بعقائد المجتمع الدينية ، ووقع بعضهم في خصومهم بأقذع الهجاء وتهجموا على أعراضهم واتهموا حلائلهم . وفي أشعار جرير والفرزدق وبشار وأبى نواس والمتنبى وابن الرومى من ذلك الشىء الكثير

أوغل الشعراء في تلك الأبواب إيغالا لايكاد يصدقه العقل ، ومن العجيب أن الطريقة التقليدية التي يجرى عليها تاريخ الأدب العربي لاتزال تعد من فحول العربية شعراء لم يكد يؤثر عنهم

مقال فى سوى تلك الأغراض الحيوانية . ومن البديهى أنه مهما تفنن الناظم فى وصف الخمر وتصوير الشهوات ، فلن يرفعه ذلك إلى مصاف الشعراء العظام . ودواوين ابن أبى ربيعة وبشار وحماد وأبى نواس وأمثالهم إن هى إلا استهتار وتمدح بالمخازى ومجاهرة بالفسوق محكمة الديباجة بارعة النظم ؛ فاذا كان هؤلاء من فحول الأدب العربى فما أقصره عن بلوغ المثل الأعلى للأدب الراق . ومن أيسر مجون أبى نواس قوله :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى : هى الخمر
ولا تسقنى سراً إذا أمكن الجهر

فهو لا يقنع أن يفرط فى الشراب ماشاء ، بل يأبى إلا الامعان فى الفجور وإلا أن يتم لذته بالجهر بالعربدة

ولئن حمدت الحرية الفكرية التى كان يتمتع بها الفلاسفة والعلماء فى كثير من الدول الاسلامية ، فما كذلك هذه الحرية التى استباحها المجان من الأدباء ، الأولى حرية تساعد تقدم الفكر ورقى العلم ، والثانية تؤدى إلى انحطاط الخلق وتضرب فى دعائم المجتمع . الأولى حرية فكرية نافعة ، والثانية إباحية خلقية ضارة ، والأدب يرسم للمجتمع ـ وإن لم يقصد ـ مثلا عليا يتوخاها ، فاذا تمادى فى تصوير دنىء النوازع فانه يهبط بالنفوس إلى مستوى منحط لا تريد عنه ارتفاعا . وليس شك فى أن أشعار أبى نواس وأمثاله كانت من أكبر أسباب انحطاط المجتمع الاسلامى ، وقد كانت حياة الصعلكة التى كان يحياها ، وأشعار العربدة التى نظمها ، نموذجا للأدباء فى عصور الإدبار ، فكان الأدب والصعلكة وإدمان الشراب ووصف الخمر فى نظرهم توائم لا بد أن تجتمع

ففى الأدب العربى آثار من الخلق الكريم وتمدح بالفضيلة ، بجانبها آثار من الأخلاق المنحطة ومجاهرة بالاستهتار ؛ وفى الانجليزية طرف من هذه وطرف من تلك أيضاً : فقد تأثر بعض شعراء الانجليزية بالمثل العليا الأخلاقية التى سنتها المسيحية ، بجانب تلك التى أثرت عن الوثنية ، وظهر أثر ذلك فى أشعار سبنسر الذى جعل كل فارس فى ملحمته « الملكة الحسناء » عنوانا على فضيلة من الفضائل المسيحية . وبدا ذلك أيضاً فى أدب عهد المطهرين ، فى كتاب « رحلة الحاج » لبنيان تتشخص الفضائل والرذائل على ذلك النحو ، ثم كان تنيسون وكبلنج يمزجان النزعة المسيحية بالنعرة الوطنية ؛ وظهرت فى الأدب الانجليزى بجانب ذلك نزعة الاستهتار والمجون فى بعض الفترات ، كما حدث فى بعض القرن السابع عشر من جراء التأثر بالبلاط الفرنسى المترف ، وفى أواخر القرن التاسع عشر من جراء التأثر بالأدب الفرنسى أيضا ، إذ نزع بعض القصصيين الانجليز كأوسكار وإيلد إلى ذلك الضرب التحليلى من القصص الذى يسرف فى تصوير اللذات ، واستكناه دنىء العواطف وخسيس النزعات

على أن كلا الأمرين ـ أعنى التمدح بكريم الأخلاق والمجاهرة بالاستهتار والتبذل ـ كانا ضئيلى الأثر قصيرى العمر قليلى الأتباع فى تاريخ المجتمع والأدب الانجليزيين ، فالتشدق بالمحامد والمكارم ليس يعجب الذوق الانجليزى الذى يؤثر الصمت ويفضل العمل على القول ، ومن ثم لم تنفق أخلاقيات تنيسون وأضرابه بين صفوة المثقفين ، بل كانت من أسباب خمول ذلك الشاعر بعد وفاته؛ والتمادى فى التحدث بالشهوات بعيد كذلك عن طبع الانجليزى والاجتراء على قواعد الفضيلة ومراسيم الحشمة وتقاليد المجتمع لا يحظى منه بغير الانكار والاعراض ، ومن ثم ثار بالمتهورين من الشعراء والكتاب أمثال بيرون وشلى وأوسكار وإيلد ، فالجأ الأولين إلى حياة المنفى وزج الثالث فى غيابة السجن ، ولم تشفع لهم لديه مواهبهم الممتازة ولا صيتهم خارج انجلترا ، بل قد يغلو المجتمع الانجليزى فى الغيرة على تقاليده إلى حد يسميه بعض الناس نفاقاً اجتماعياً ، فيغضب على أدباء كرام سليمى الطوية ، كما غضب على هاردى ولورانس من القصصيين المحدثين

فالطبع الانجليزى يأبى أن يكون الأدب مطية للتفلسف الخلقى والفخر الطنان ، كما يأبى أن يكون الأدب معرضا للتبذل والتوقح ، وإنما رسالة الأدب الانجليزى التى ورثها عن الأدب الاغريقى هى الجمال والشعور الصادق ، يحوط ذلك جو من الوقار والتسامى كان يعوز حتى الأدب الاغريقى ذاته أحيانا ؛ وإنما احتفظ الانجليز بصفات الرجولة والرزانة تلك لأنهم ـ فضلا عن طبيعتهم الهادئة التى هى وليدة جوهم البارد ـ لم ينساقوا فى تيار من الترف الموبق بانتشار فتوحهم وترامى أملاكهم ، كما فعل غيرهم من الأمم التى شادت الإمبراطوريات فى عصور التاريخ ، لأن تشييد الامبراطورية البريطانية جاء تدريجياً هادئاً كالنمو الطبيعى ، وبنجاة الانجليز من مفاسد الترف والثروة المفاجئة سلمت لهم أخلاقهم القويمة .

أضف إلى ذلك تمتعهم بالحكم الديمقراطى ، أى بحكمهم أنفسهم وخضوع الشعب لمشيئة الشعب وحدها ، مما جعل للرأى العام الكلمة العليا فى المحافظة على الأخلاق والذب عن تقاليد المجتمع إذا تحداه متحد وقع عليه الغرم المادى والأدبى وطاشت دعوته قبل أن يتأثر بها سواه ؛ على حين كان الرأى العام فى الأمم الاسلامية ضعيفاً مستخذيا أمام جبروت الملكية المطلقة ، فكان

أفاضل القوم ينقمون على حركات الاستهتار فى المجتمع وآثار المجون فى الأدب، ولكنهم كانوا مغلولى الأيدى لا يستطيعون عن عقيدتهم دفاعا، وألف بعضهم حينا جمعيات للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والضرب على أيدى العابثين فأصابهم من بطش السلطان وتعقبه ما لم يصب أولئك العابثين.

وكانت الملكية فى الدول الاسلامية أحيانا تشجع التهاجى بالمقذعات بين الشعراء شغلا لهم وللجمهور عن شؤون السياسة وظل بشار يتحدى عقائد الناس ويسخر من فضائلهم وينال من أعراضهم وهو آمن معافى، حتى تطاول على عرض الخليفة ذاته فكان فى ذلك تلفه. ولما لم يكن للناس من قوة الرأى العام حارس ومدافع، عمد من استطاع منهم بحول أو مكيدة إلى الانتقام بنفسه ممن تعرض له بالفحش، فلقى كل من المتنبى وابن الرومى حتفه على يد مهجوه. هكذا استفحل المنكر فى المجتمع والاباحة فى الأدب من أثر ذيوع الترف وتحكم الملكية المطلقة، رغم أن المجمع كان مجتمعا إسلامياً والدولة كان أساسها دينيا، وكان الأجدر أن أدبا يزدهر فى ظل الدين الاسلامى الحنيف، يكون أعف الآداب لفظاً وأشرفها قصداً.

وقد تقدم القول أن سريان ذلك الفساد فى كيان المجتمع الاسلامى عقب الفتوح أدى إلى انحطاط المرأة واختفائها من المجتمع، وكان ذلك من دواعى انتشار هجر القول فى الأدب فان وجود المرأة فى المجتمع عامل تجمل وتوقر وتعفف فى المسلك والمقال، وهو عامل سعد به الأدب الانجليزى فكان من أسباب تساميه الخلقى، وظلت النظرة إلى المرأة فى الانجليزية سامية عفيفة، وظلت صحبتها منبع وحى وداعية تكرم لدى الأدباء، وقد قال ستيل عن صاحبة له فاضلة إن محادثتها هى ثقافة قائمة بذاتها

فالأديب الانجليزى لا يتمدح بالمحامد ولا يجاهر بالمباذل، لأن طبعه لا يستسيغ هذا ولا ذاك، ومجتمعه لا يقبلهما منه، ثم هو لا يهجو غيره ولا يفحش فى الهجاء. وإنما يصور أخلاق أفراد المجتمع بما فيها من فضائل ومعايب، ويتهكم بالمتشدقين بالفضائل والمتظاهرين بالعلم أو بالثروة أو بالعظمة، أى بالمسرفين فى كل شيء المجاوزين حد القصد والاعتدال، والتوسط الذى هو خير الأمور، فالاعتدال شعار الانجليزى فى مسلكه وفى أدبه، والتطرف يثير سخره واحتقاره، وهذا الميل منه واضح فى مواضيع الأدب الفكاهية، وضوحه فى أغراضه الجدية

فخرى أبو السعود

ذكريات . . .

للأستاذ على الطنطاوى

هما موقفان لا أزال أذكرهما، أو تغمض عينى كف الغاسل:
أما الأول فعلى ضفاف بردى، فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٣٦

وأما الثانى فعلى شاطىء دجلة فى الخامس من مايو ١٩٣٧

°°°

كان بردى يخطو على مهل، متهللا منطلق الوجه، يرد على الشمس الوليدة أول تحياتها، وهى تغمره برشاش من عطر أشعتها الحمراء ... وكنت فى السيارة الفخمة، أنظر إلى جموع المودعين من الصحب والرفاق، الذين خرجوا من بيوتهم فى هذا الصباح، ليودعونى قبل نزوحى إلى العراق فأقلب النظر فى وجوههم، شاكراً لهم فضلهم، حزيناً لفراقهم، ثم أتأمل بردى صديق الصبا وسمير الوحدة ونجى النفس، فأبصر فى خلاله ظلال الحور والصفصاف تميس دلًا وتيهاً، وأرى ظلال المآذن البعيدة السامقة تضطرب فى الماء فأبصر فيها ذكرياتى حية تطالعنى وتحدثنى، وتعيد على مسمعى قصة حياتى، وتتلو علىّ تاريخى فأحس بلوعة الفراق، وأشعر فى تلك الساعة بأنى أحب دمشق ... دمشق مثوى ذكرياتى، ودنياى من الدنيا، وغاية أملى فى حياتى ... ثم يطوى المرج هذه الصور كلها، ولا يدع حيال عينى إلا صور إخوتى، فأتأملها بعين دامعة وقلب واجف خائف من الفراق، ثم تجتمع كلها فى وجه واحد، هو أحبّ الوجوه إلىّ وأدناها إلى قلبى ... وألمح فى الماء مشهداً طال عليه العهد ونأى به الزمان. فأراه ينفض عنه غبار السنين العشر، ويعود حياً جديداً ...

... رأيتنى فى محطة الحجاز، آية الفن الحديث فى دمشق، والمحطة مائجة بأهلها كما يموج البحر بمياهه، فمن مسافر عجل، ومن مودع باك، ومن بائع يصيح ... ومن آت وذاهب، وطالع ونازل ... وكنت منزوياً فى ركن من أركان القطا

المسافر إلى حيفا ، وإلى جانبي أختى الصغيرة ... أنظر إلى بعيد ، فأرى هناك ، فى أخريات الناس امرأة تمسك بيديها طفلين ، ملفعة بملاءة لا تبدى منها شيئا ، ولكن وراء هذا القناع الأسود عينين تفيضان بالدمع عالقتين بمكاننا من القطار . وخلال تلك الضلوع قلبا يخفق شوقا ، ويسيل دمعا ، ووراء هذه الوقفة الساكنة الهادئة ناراً تضطرم فى الجو ، وزلزالا شديدا يدك نفسها دكا ...

وصفر القطار الذى يحملنا إلى مصر ، فازداد قلبنا خفقانا واضطراباً ، ثم قذف إلى الجو بدخانه كأنما هو حي قد أخذ بموقف الوداع ، فزفر زفرة الحزن الدفين ، والألم الحبيس ثم هدر وسار وراحت المحطة تبتعد عنها وعنى عالقة بيد تلك المرأة التى تلوح لى بمنديل أبيض ، حتى غاب عنى كل شيء ...

هنالك تلفت فرأيتنى وحيداً ، ورأيت القطار يجدلينأى بى عن أهلى وبلدى ، فهممت بالقاء نفسى من نافذة القطار - لولا أن تعلقت بى أختى التى كانت على صغرها أكبر منى ، وعلى أنوثتها أقوى وأجلد ...

أردت أن ألقى بنفسى لأنى لم أكن أتخيل أن فى استطاعتى الحياة يوماً واحداً بعيداً عن أمى التى كان تعلقها بنا . وتعلقنا بها لا يشبه ما نرى من الأمهات والأبناء ، وكان ... آه ماذا تفيد (كان) ، وقد كان ما كان ؟ ...

تلك هى أمى ، التى مر على (غيابها) عنى سنوات طوال ، ولكنى أحس كأن الحادثة كانت أمس - فتحز فى نفسى ولا أطيق أن أكتب عنها حرفا

تلك هى أمى التى كانت لى أما وأباً ، بعد أبى رحمهما الله ، وكانت حبيبة وكانت أستاذة ، وكانت دنياى وكانت آخرتى ... وكانت أمى !

تلك هى أمى التى فوجئت كما تفاجأ الشجرة الغضة الفينانة فى ربيعها الزاهر ، حين تعصف بها العاصفة فتدعها جذعا مقطوعا جافا ...

تلك هى أمى التى ما نسيتها — علم الله — أبداً ، ولم أذكرها أبدا ، كأنها تملأ نفسى ولكنى لا أجرى ذكرها على لسانى . أراها فى أحلامى حية فأشعر كأنى عدت حيا ، وأهم بعناقها وأفتح عينى فأجد على وجهى حرّ لطمة الدهر الساخر ، ولكنى أحمل اللطمة . وأغضى على القذى ، ولا أخبر إخوتى بشيء ، لئلا أذكرهم ما هم ناسون ، أو أجدد لهم بالمصيبة عهداً . فأهمل ذكرى أمى ويهملونه ... ولعل كل واحد منهم يحس مثلما أحس ويكتم مثلما أكتم !

ذكرت ذلك ساعة الوداع ، لأنى كنت متألما ، وليس لآلامى كلها إلا معنى واحد هو أنى أذكر وفاة أمى ، ذلك هو الألم عندى لا ألم سواه

فلما صحوت نظرت فى وجوه المودعين فلمحت وجه أمى مرة ثانية ، ولكنى لمحته حياً ماثلا فى وجوه إخوتى الأحباء . فودعته بدمعة من العين ، وابتسامة على الفم ، وإشارة بالكف ، ثم سارت بنا السيارة تطوى الأرض وتستقبل الصحراء ...

ذلك هو الموقف الأول !

• • •

أما الموقف الثانى فقد كان على شاطىء دجلة فى الهزيع الأول من الليل ؛ وكانت محطة بغداد الغربية زاخرة بعشرات من خير شباب بغداد وزهرة فتيانها تركوا دروسهم وامتحانهم القريب وخرجوا من دورهم فى هذا الليل ليودعوا صديقاً أحبهم وأحبوه ، وأخلصوا له الحب وأخلص لهم ... ذلك الصديق هو أنا ، وأولئك هم تلاميذى بل إخوتى ، جاءوا يودعوننى لا قياماً بواجب رسمى ، ولا رغبة فى ثواب ولا رهبة من عقاب ، ولكن وفاء وحباً . والحب أجمل ما فى الوجود ؛ والوفاء أقدس ما فيه بعد الايمان ... وكنت مستنداً إلى نافذة القطار الذى سيحملنى إلى البصرة ، أصغى إلى خطبهم وأشعارهم التى صبوا فيها عواطفهم ، وكتبوها بمداد قلوبهم ، أتأمل فلا أرى (والله) إلا بردى ودمشق وإخوتى

وغبت عنى فى شبه ذهول ، فما انتبهت إلا وأنا وحيد فى القطار ، أضم إلى قلبى هذه الهدية التى قدمها الى تلاميذى . وأطللت من النافذة فلم أجد إلا الظلام ...

• • •

لما دخلت عليهم الصف أول مرة كنت مشتاقاً إلى بلدى

كارهاً لغربتى متألماً ملتاعاً ، فلم أر فى الصف إلا عيوناً جامدة وقلوباً معرضة وأفواهاً مغلقة ، وكانوا عندى من العدم لأنه لم يكن لهم فى ذاكرتى وجود. ولكن لم ألبث أن وضعت بين أيديهم قلبى فأحببتهم كما يحب الأخ أخاه ، (أحبهم فى مجموعهم لا أحب واحداً منهم ...) وأخلص لهم ، وأحرص على رضاهم وأحس الفرح يغمر نفسى إذا قدمت لواحد منهم خيراً . أو درأت عنه شراً ويتصدع فؤادى إن وجدت أحدهم متألماً ، فلا أنى أخفف ألمه . وأدفع عنه حزنه ؛ وكنت أعيش بهم ولهم ومعهم

ووضعت بين أيديهم رأسى أطلعهم على كل ما اختزنته فيه هذه السنين الطوال . أستغل أضعف المناسبات لأطلعهم على جمال الأدب العربى ، وعظمة التراث الاسلامى ، وقيمة التفكير الحديث ، واتجاه النقد الجديد ، وأعلمهم الاستقلال الفكرى ، وأحفزهم إلى المناقشة ، ولا أستعمل فى إقناعهم سلطة المدرس لأن ذلك ضعف ، ولكن أستعمل قوة الحق ولسن الجدل النظار . وأعترف لهم بالحق إذا ظهر على لسانهم ؛ وأقر بأنى لا أدرى ما لا أكون أدريه ... وأبعث فى ملكاتهم المهملة ، وأشجعهم على الانتاج والنشر ...

وكان زملاؤنا من المدرسين يحذروننى عواقب هذه الطريقة لأن الطلاب (فى رأيهم) لا يقدرون قيمة الحرية واللطف ، ويحسبونها عجزاً وضعفاً ويتخذونها سبيلا إلى الشغب ولكنى وجدتهم يقدرون قيمتها ، ويحترمون المدرس العادل العالم اللطيف ، أكثر مما يحترمون المدرس الجبار العنيف ، ووجدت هذه الطريقة قد أجدت جدى كبيراً ، فأقبل الطلاب على الأدب وقد كانوا عنه منصرفين ، وصار أحب الدروس إليهم وقد كانوا يكرهونه ، ونشأ فيهم كتاب وشعراء ونقاد يؤمل منهم بعث الحياة الأدبية فى العراق فى بضع سنين ...

وضعت بين أيديهم رأسى وقلبى ، فلما أثمرا الثمرة ولما تحركت هذه العيون بالاخلاص ، وأقبلت هذه القلوب بالحب وتفتحت هذه الأفواه عن أجمل أحاديث العلم والأدب والود ... ولما محيت تلك الفروق كلها . وزال التكلف بين المدرس والطلاب، ولم يبق إلا إخوة يعيش الواحد منهم للجميع ، ويعمل الجميع للواحد ... جاء الأمر بنقلى إلى البصرة ...

ooo

وها أنذا الآن فى البصرة فى هذه الغرفة الصغيرة أذكر مجالسنا على شاطىء دجلة فيخفق قلبى خفقانا شديداً ، وأتمثل أمامى صورة أخى الشاعر وهو ينشدنا أعذب أشعاره التى تشبه فى رقتها نسيم الماء الرخى اللين ، وفى انسيابها دجلة التى خلع عليها الغروب ثوبا منسوجاً من خيوط النور فيه مائة لون ... واذكر (ليلة المطر) ... ليلة جلسنا فى هذه الحديقة التى تنبسط وراء المطار المدنى فى بغداد ، وأمامنا الفضاء الذى يمتد إلى ... إلى دمشق ، لا يحجبه شىء ؛ وكان مصباح المطار الأحمر القوى يريق ضوءه على الحديقة ومن فيها فيجعلها كأنها بقعة من عالم مسحور ، لا يشبهه شىء ، ولكنه جميل أخاذ يملأ النفس نشوة وسكرا ؛ وكانت الطبيعة تبدو أمامنا كأنها لوحة خطتها ريشة أبرع المصورين ؛ فهذه الحمرة العجيبة ، وزرقة السماء الصافية ، وسواد الليل عند الأفق ، والنساء بثيابهن الملونة المبرقشة ، والنادبون بقمصهم البيض ، يمشون على الحشائش . لا يسمع لهم صوت ، يتكلمون همساً ...

وكان النسيم رخياً ناعشاً ، تميل منه الأزهار فتفوح من أثوابها رائحة العطر ، فتطفو على هذا النسيم والأضواء البعيدة ـ كأنها تائهة فى الظلام فهى ترتجف من الخوف ، وقد جمعت الطبيعة فى تلك الليلة سحرها كله : صفاء السماء ، وسكون الليل : والربيع الذى زخرف هذه الحديقة ورصعها بالورد والزهر ، ووضع فيها خلاصة فنه ونتاج عبقريته

وكان كل شىء عاشقاً قد سكر بخمرة الجمال ، وراح يحلم . فالصحراء الواسعة قد سكرت وتغلغلت فى الظلام منفردة تحلم بالظل والماء ، والسهول المجاورة راحت تحلم بربيع دائم ، وعاد الأمس حياً حالما بالخلود ، وأطل الغد نشوان يحلم بليلة مثل هذه الليلة ...

وكنت أحلم ... فما راعنى وهبط بى من سماء أحلامى إلا ضحكة عذبة رقيقة كأنها رنين الذهب ، لم أسمعها بأذنى ولكنى رأيتها بعينى تتدحرج طافية على وجه النسيم الأحمر حتى غاصت

فى الظلام الساكن ، وعاد الصمت ... وكانت ضحكة عاشقين قد نسيا الوجود وما فيه ، وغابا فى حلم حى يقظان !

فهاج ذلك صديق الشاعر فانحنى علىّ ، وألقى فى أذنى إحدى أغانيه (الجديدة)

« زرعت روض شفتى بالقبل فأزهر وأينع ، ولكن لم يقطفه أحد فذوى وجف

« وأعددت سرير الحب فى قلبي وضمخته بالعطر ، ولكن لم يهجع عليه أحد فعلاه الغبار

« كأن الناس لما خلقوا قسموا أنصافاً ، ثم نثروا فى الحياة ، فمن وجد نصفه صار إنسانا ، ومن وجد غيره كان مسخاً ، ومن لم يجد بقى نصف إنسان

« فأين أنت يا نصفى الآخر ؟

« لقد ضاع النصف الذى فيه قلبي ، فمن هى التى يخفق قلبي فى صدرها

« من هى التى تنظر بعينى ، وتسمع بأذنى ؟

« من هي التى لم أرها أبداً ، ولا أرى غيرها أبداً ؟ »

* * *

شعرت بأن أغانى الشاعر قد سمت بى إلى عالم كله خير وجمال ، وشعرت بنشوة عجيبة وعلمت أن ما أنا فيه غاية السعادة ونهاية السمو ، وإذا أنا أسمع نغمة موسيقية فاتنة عادت تسمو بى ، حتى رأيت ما كنت فيه أرضاً وهذى سماء ، فذكرت كلمة فاجنر : « تبدأ الموسيقى حيث ينتهى الشعر » (١)

واختلط علينا الجمال ، فصار باقة واحدة ، قد اجتمع فيها همس الحب وألحان الموسيقى بعبق الزهر ، وأريج العطر ؛ بخيوط الأشعة ، وروعة الألوان ، فصرنا نسمع ما يرى ، ونشم ما يسمع ، وصارت الحواس كلها حاسة واحدة ... هى حاسة الجمال !

* * *

وهأنذا أذكر مئات من الذكريات ، وأتمثل طلابى كلهم أمامى حتى إنى لأمد يدى أصافحهم فلا تقبض يدى إلا الهواء فارتد مذعوراً وأجلس يائساً ... لقد غدا هؤلاء الفتيان جزءاً منى لأنهم عاشوا فى نفسى ذكريات ... كما عشت فى نفوسهم ذكرى ، فنحن مجتمعون ولو نأت بنا الديار ...

وهأنذا آلف هذا البلد الذى كرهته واجتويته ، وأصبر على شظف العيش فيه من أجل هؤلاء الطلاب الذين أحبونى هم أيضاً ... أحببتهم ، وتعلقوا بى ، فلا يأتون المدرسة إلا لسماع درسى ، فإن لم يكن لى درس أقاموا فى بيوتهم يجدون ويستعدون للامتحان ، ولا يدخرون وسعاً فى إسداء يد إلىّ أو دفع الألم عنى ... ويحرصون على راحتى أكثر من حرصهم على نجاحهم فى امتحانهم ، ويفضلون كلمة منى على كلمة تقولها القانون ...

أصبر من أجل هؤلاء الذين أغرس الآن حبهم فى قلبي لأنتزعه منه غداً وأدعه جريحاً ... أفهذه حياة المعلم ؟ ماذا يبقى من قلب فى كل مدرسة منه قطعة ؟

هنيئاً لمعلم ليس له قلب ... ...

وياويل المعلم إذا كان إنساناً ... ...

« البصرة » **على الطنطاوى**

(١) وسيرى قراء الرسالة ان شاء الله فى مقال آخر ان الشعور الفنى يبدأ حيث تنهى الموسيقى .

الاسلام والديمقراطية

للأستاذ عبد المجيد نافع

أحببت أن أتكلم عن الاسلام والديمقراطية لأنى رأيت بعض الصحف الأجنبية كلما تعرضت للنظم فى مصر قالت : ليست الديمقراطية مادة للتصدير ! وهى تقصد أنها لا تصلح لنا ولا نصلح لها . وما علمت أن قوما يدينون بالاسلام حرام أن تضيع الديمقراطية بينهم

وإذا ناديت أن الاسلام دين الديمقراطية فانى استوحى التنزيل الحكيم ، وأستلهم الحديث الشريف ، وأستهدى المأثور من أقوال أعلام الاسلام ، وأحكم فى ضوء الأعمال الخالدة فى تاريخ الانسانية ، ليتم لى القول أن دين محمد قد كتب للحرية أجل الصفحات وأروعها ، وقرر من مبادىء الاخاء أسماها ، ومن قواعد المساواة أعلاها . فكان دين الديمقراطية من الوجهتين النظرية والعملية ، وكانت خير ديمقراطية أخرجت للناس

إذا اعتبرنا ميلاد الديمقراطية الغربية إعلان حقوق الانسان فى الانقلاب الفرنسى الكبير عام ١٧٨٩ فان الاسلام قد سجل مبادئها قبل مولدها فى أوربا بأكثر من ألف ومائتى عام . وإذ كان الفضل للمتقدم ، فالفضل للاسلام فى تحرير الانسانية من ربقة الاستعباد ، وخلاصها من أغلال الأوهام

جاء الاسلام فوضع قواعد الديمقراطية فى غير جلبة ولا ضوضاء ، ودون أن يحدث هزة عنيفة فى كيان الأمة العربية ، بل دون أن يريق قطرة واحدة من الدماء . على حين أن الروح الديمقراطى لم يستطع أن يتنفس فى جو أوروبا ، وبذور المساواة لم تنبت فى البيئة الغربية ، إلا بعد قرون ثلاثة حافلة بالثورات ، وصراع دموى بين طبقة الأشراف وطبقات الشعب ، صبغ أرض أوربا بالدماء

وسترون أن الاسلام جاء بالاخاء الصحيح ، والمساواة الحق فى حين أن الديمقراطية العصرية ، باعتراف أنصارها وخصومها على السواء ، لم تبرأ من شوائب النظم البالية العتيقة

الديمقراطية ، فى اصطلاح العلوم السياسية ، هى النظام الذى يحكم الشعب فيه نفسه بنفسه ، إما مباشرة أو بواسطة ممثلين يختارهم عنه

على أنى أسارع إلى القول بأن مدلول عبارة الديمقراطية قد اتسع اليوم نطاقه بحيث أصبح يشمل النظم الاجتماعية والاقتصادية فوق اشتماله على النظام السياسى . ولو شئنا أن نستغنى بالاجمال عن التفصيل ، لقلنا فى كلمة : إن الديمقراطية هى النظام أو مجموعة النظم التى تحقق مبادىء الحرية والمساواة بين الناس بقدر ما يمكن أن يكون الانسان حراً ، وبالقسط من المساواة الذى لا يصطدم مع النواميس الطبيعية

ورأيت الناس مشغوفين كلفين بالديمقراطيـة حتى لأجدهم يسرفون فى استعمالها فيقولون الأدب الديمقراطى ، والفن الديمقراطى ؛ بل أراهم لا يقتصدون فى التبرع بها حتى يخرجوا بها عن معناها الأصلى ، فالرجل المتواضع فى عرفهم رجل ديمقراطى ، وإن كان للديمقراطيه من ألد الخصام

عرف أرسطو الديمقراطية بأنها نظام الحكم الذى تنتقل السلطة فيه إلى أيدى طائفة من المواطنين الأحرار المتساوين عند طبقة الارستقراطية

يخلص لنا من هذا التعريف أن الحرية والمساواة هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما صرح الديمقراطية .

إن من يمعن النظر فى أقوال أرسطو يجد أن حكيم اليونان كان متبرما بالنظام الديمقراطى فى عصره ، لا لأنه كان يتنكر لمبادىء الحرية ، أو يخاصم تعاليم المساواة ، أو يضيق صـدراً بتوسيع دائرة اشتراك الشعب فى إدارة شؤون الدولة ، بل لأن النظام الديمقراطى فى عهده قد ساء حتى تردت اليونان فى هاوية الفساد والفوضى

كلما اتسع أفق المعارف الانسانية ، شعر الناس بالكرامة وأحس العقل البشرى بالعزة ، فتطلعوا إلى تحقيق المثل العليا ، وطمحوا إلى توسيع قاعدة اشتراكهم فى إدارة دفة الشؤون العامة ، والهيمنة والإشراف على أمور الدولة ، لذلك كان النضال حاداً عنيفا بين الشعوب الطامحة إلى الحرية ، والطغاة المستبدين الذين يصدونهم عن سبيلها ، والتطاحن شديداً بين طبقة الأشراف التى تنعم بالامتيازات ، وطبقات الشعب التى تتطلع إلى تحقيق مبادىء المساواة . وإذن فمن الحق أن يقال : إن تاريخ الديمقراطية هو تاريخ الحضارة الانسانية

وما أنصف كارل ماركس الحقيقة والتاريخ حين صاح بأن البطون هى مصدر الانقلابات فى كل أدوار التاريخ ، وأن الناس

حين هبوا يسفكون دماءهم ، ويزهقون أرواحهم ، فانما كانت هبتهم للخبز لا للحرية ، وفورتهم فى سبيل أغراض مادية لا لتحقيق المثل العليا والسعى وراء الكمال الانسانى

وما أنصف من قبله بعض قادة الفكر فى روما حين قالوا بان الشعب الرومانى يجتزىء بالخبز والملاهى عن الحرية السياسية والاشتراك فى تسيير أداة الحكم

وإذا كان قد أتيح لفريق من الرومان أن يقولوا ساخرين متهكمين : لدى الشعب أصوات انتخابية وليس لديه خبز ؛ فقد كان ذلك من جراء فساد النظم ، وانحطاط أداة الحكم ، لا من جراء مسخ الطبيعة البشرية

تميز تاريخ روما القديمة بسلسلة من المناضلات متصلة الحلقات بين جماعة الأشراف وطبقات الشعب لتحقيق مبادىء المساواة

على أن تربة روما لم تكن صالحة لنمو بذور الديمقراطية ، وكلما اتسع ملك الرومانيين وبسطوا سلطانهم فى الأرض طلقوا مبادىء الديمقراطية واعتنقوا روح الاستعمار ، وأقاموا بناء إمبراطوريتهم على الغلبة والقهر ، وأصبحت الأمم المغلوبة على أمرها اسلابا تقتنى وضياعا تستغل

كان المسلمون إذا فتحوا أمة تركوا لأهلها حرية العقيدة وحرية العبادة وخلوا بينهم وبين أملاكهم ، وضمنوا لهم أمنهم وأرواحهم وسووا بينهم فى المعاملة وهتفوا فيهم بذلك المبدأ القويم : لهم مالنا وعليهم ما علينا

وكذلك كان الاسلام كلما دخل أمة حمل معه بذور الاخاء والمساواة .

أود أن أضع تحت الأنظار صورتين متباينتين لأمة اليونان القديمة ، وأمة العرب قبل بزوغ فجر الاسلام ، لتروا بأعينكم وتلمسوا بأيديكم ، إلى أى حد وفق دين الهدى والحق إلى صبغ جزيرة العرب بالصبغة الديمقراطية وطبع أهلها بطابع المساواة

كانت اليونان القديمة بطبيعة تكوينها ومزاج أهلها مهداً صالحا للديمقراطية ، فقد كانوا يقيمون بالمدن ولا مشاحة فى أن المدن هى مواطن الديمقراطية . وكانت ميول اليونانيين متجانسة ، ومشاعرهم منسجمة ، ومصالحهم متحدة ، غير متنافرة تجمعهم ذكريات تاريخية مشتركة ، وتؤلف بين قلوبهم مثل عليا واحدة

على النقيض من ذلك تماما تجد سكان الجزيرة : فقد كان العرب يسكنون مضارب الخيام ، وانقسموا إلى شيع وقبائل . وكانت أهواؤهم متفرقة ، ومصالحهم متنافرة . بل كانت المنازعات بينهم سلاسل متصلة الحلقات ، والحروب متواصلة الضروب

ومن ينكر اعتزاز العرب بالعصبية ؟!

ومن ينسى تطاولهم بالاحساب والأنساب ؟!

ومن ذا الذى لم يملأ سمعيه باخبار مفاخرتهم ومكاثرتهم ومنافرتهم ؟!

فأنت ترى من هذه الصورة أن جزيرة العرب لم تكن المهاد الصالح لنوشجرة الديمقراطية ، والعرب لم يكونوا القوم المستعدين لإساغة تعاليم الديمقراطية وهضمها

وجاء الاسلام فنشر راية الديمقراطية ، وبث مبادىء الاخاء والمساواة ، لا لأن الجو كان مهيئا لها ، ولا لأن العقول كانت مستعدة لهضمها ، ولا لأن الاسلام شاء أن يتمشى مع العرب فى رغباتهم ، ومنازع نفوسهم ليضم الأولياء ، ويكسب الأنصار ، ولكن الاسلام جاء فالقى بذور الديمقراطية ، لأنه دين الفطرة ، لأنه دين الانسانية الطامحة إلى الكمال ، لانه الدين الذى أخذ نفسه ببث أحكم المبادىء ، وغرس أقوم الأحكام .

أجل ، لقد حمل الاسلام راية الاخاء وأهاب باتباعه : إنما المؤمنون إخوة . والمؤمنون بعضهم أولياء بعض : وعبيدكم الذين هم ملك يمينكم إخوانكم فى الدين .

نعم ، لقد رفع الاسلام لواء المساواة ، وأذن فى أنصاره : لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، والناس سواسية كأسنان المشط .

ولم يقف الاسلام عند حد تلقين أتباعه مبادىء الاخاء والمساواة نظريا ، بل راضهم عليها عمليا ، فشرع لهم الإحكام القائمة على الاخاء والمساواة ، وأراهم القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ، فطبعت قلوبهم على الاخاء ، وأشربت نفوسهم حب المساواة ، حتى صاح أعرابى فى وجه عمر صيحته التاريخية الخالدة ، ولم يتعثر ، ولم يتلجلج : لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا .

انطفأت شعلة الديمقراطية فى عصور الظلمات فى أوربا ، وخبا نور الحرية ، واندثرت معالم المساواة ، وانشطر المجتمع الأوربى إلى ثلاث طبقات : فريق الاشراف ، وجماعة الاكليروس ، وطبقة الشعب . وكان التاريخ الغربى صفحة دامية من النضال بين الشعوب المهضومة الحقوق والطغاة المستبدين الذين يتنكرون لتلك الحقوق فينكرونها . واتصل التطاحن بين الطبقات ؛ فأما الأشراف فكانوا يحرصون على امتيازاتهم ، وأما رجال الدين فكانوا يضنون بأنفسهم أن يهبطوا إلى مستوى الشعب ، وأما

الشعب الطامع الطامع فى رد اعتبار الكرامة البشرية ، ووضع حد لامتهان العقل الانسانى ؛ فلم يضن بأية تضحية يبذلها فى سبيل الحرية والمساواة ، فبذل دماء المجاهدين بسخاء.

كانت الحرية السياسية منعدمة ، والحرية الشخصية كلمة جوفاء ، والحرية الدينية خيالا متلاشياً ، والمساواة عبارة ذاهبة فى الهواء. وكان الملوك المستبدون يستمدون عناصر طغيانهم مما أسموه « الحق الالهى » . وكان الأشراف يلتمسون أسباب تميزهم من اختلاف المولد ، ورجال الدين يتوسلون إلى التمتع بالامتيازات بما تأولوه من نصوص الدين ، وصبرت الشعوب وصابرت حتى عقد النصر بلوائها على تلك القوى مجتمعة .

وشاورهم فى الأمر : وأمرهم شورى بينهم : وكذلك وضع الاسلام قاعدة الحكم النيابى .

وما كان على الاسلام أن يضع غير الأصول والكليات والقواعد العامة ؛ فاما الصور والأشكال التى يتحقق بها معنى الحكم النيابى فن الطبيعى أن يترك اختيارها للقائمين بالتنفيذ .

ولا تحسبوا أن الحكم النيابى لا يوجد إلا حيث يوجد مجلس نواب ومجلس شيوخ . فى مدن اليونان القديمة كان الشعب يحكم نفسه بنفسه مباشرة بغير واسطة نواب أو ممثلين . وكذلك الشأن اليوم فى بعض المقاطعات السويسرية حيث يحصل استفتاء الشعب فى جميع الشئون التى تمس حياته العامة . ولقد يوجد التمثيل النيابى وعلى الرغم من وجوده تنعدم سلطة الأمة وتصبح خيالا متلاشياً . ثم ألا ترى أنصار الحكم النيابى وخصومه على السواء فى أوربا يشكون من اضطهاد الأغلبيات للأقليات وتراهم يحاولون أن يطبوا لهذا الداء بواسطة التمثيل النسبى ؟

الشورى إذن هى قوام الحكم النيابى وهى دعامته وروحه دون اعتبار بالصور والأشكال .

فى الصدر الأول من الاسلام كان يطبق مبدأ الشورى تطبيقاً دقيقاً .

أيقن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأنه لم تعد للمسلمين مندوحة عن حرب الفرس ، وأنه إذا دانت لهم تلك البلاد خفقت راية الاسلام فى ربوع الشعوب .

لم يشأ ابن الخطاب أن يستبد بالأمر أو يستأثر بالرأى وهو من تعلم بعد نظر وصواب فكر وقوة حزم وعزم ، بل أراد أن ينزل على رأى المسلمين فيمن يصلح لتولى القيادة ؛ وأراد أن لا يضيق دائرة الاستشارة أو يقصرها على فريق دون فريق ، فاستشار العامة والخاصة معاً . فأما العامة فأشاروا عليه أن يكون بنفسه على رأس الجيش إذ كان الناس أشد تعلقاً به ، وأكثر طاعة له . وأما الخاصة فأشاروا عليه بان يسلم القيادة لغيره وأن يبقى هو بالمدينة ضناً بحياته وحرصا على بقائه يدير دفة الشئون . ثم ارتأوا أن يكون سعد بن أبى وقاص على رأس الجيش ، فنزل عمر على إرادتهم وولاه القيادة .

وضع الاسلام دعائم الحكم النيابى وطبق أبو بكر وعمر مبدأ الشورى تطبيقاً دقيقاً .

لكن وا أسفاه ما لبثت دولة بنى مروان أن احتك خلفاؤها بالفرس والروم فرأوا مبلغ تسلط الحكومة على الرعية ، وإذعان المحكومين لسلطان الحاكمين ، فجنحوا للاستبداد ، وضربوا بمبدأ الشورى عرض الافق ، ذلك بان النفس البشرية نزاعة إلى الاستبداد بفطرتها ، وللبيئة فى طبع النفوس بطابعها أثر أى أثر .

ولو أن بنى مروان لم ينزعوا إلى الاستبداد لما وجدت دعاية بنى العباس ضدهم سميعا ولا مجيبا

كان النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فأمر باصلاح شاة ، فقال رجل : يارسول الله على ذبحها ، وقال آخر: على سلخها ، وقال ثالث : على طبخها . فقال صلى الله عليه وسلم : وعلى جمع الحطب . فقالوا : يارسول الله نحن نكفيك ذلك ، فقال قد علمت ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، فان الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه ؛ وقام لجمع الحطب

ولا أريد أن أشوه جلال هذا المثل الرائع بمحاولة التعليق عليه

ولما استقرت الخلافة إلى أبى بكر ، وذلك سنة إحدى عشرة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى

ومما يروى عن زهده ورضاه بالكفا فمن العيش إن زوجته اشتهت حلواً . فقال : ليس لنا مانشترى به . فقالت : أنا استفضل من نفقتنا فى عدة أيام ما نشترى به . قال : افعلى ، ففعلت ذلك ، فاجتمع لها فى أيام كثيرة شىء قليل ، فلما عرفته ذلك ليشترى به حلوا أخذه فرده إلى بيت المال . قال : هذا يفضل عن قوتنا ، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له

ولما ولى الخلافة رأى أن يستمر على استغلال ملكه والارتزاق من وراء عمل يده ولا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئا وأصبح يوما وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق فلقيه عمر فقال : أين تريد ؟ قال : إلى السوق . قال : أتصنع ماذا وقد وليت

امر المسلمين ؟ قال: فمن أين أطعم عيالى ؟ فقال: انطلق يفرض لك أبو عبيدة ، فانطلقا إلى أبى عبيدة فقال: افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا بأوكسهم كسوة الشتاء والصيف ، إذا أخلقت شيئا رددته وأخذت غيره ، ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه فى الرأس والبطن

وأخرج ابن سعد عن ميمون قال : لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين فقال : زيدونى فان لى عيالا وقد شغلتمونى عن التجارة ، فزادوه خمسمائة

وخطب عمر بن الخطاب يوما فقال : أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه . فقام رجل فقال : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه

أراد أحد ملوك الروم أن يتعرف شخصية عمر العظيمة ويتبين العوامل التى جعلت حفنة من العرب تدوخ الممالك وتبسط سلطانها على الامبراطوريات الضخمة العظيمة ، فبعث برسول فتلمس الرسول طريقه إلى عمر ، وإذ سأل الناس عنه أشاروا إلى رجل نائم إلى جانب جدار وهو يتوسد عصاه . فقال : عدلت فأمنت فنمت يا عمر .

ولما سير العرب جيوشهم على مصر وعلى رأسها عمرو بن العاص أرسل ملك مصر من يستطلع طلع تلك الحملة . فما راعه إلا أن يرى عمرا القائد للجيش يتبسط فى تناول الطعام مع جنوده على الأرض . فلما ارتد الرسول فأعطى الملك تلك الصورة الرائعة قال : إن قوما ذلك شأنهم ، وتلك حال كبارهم مع صغارهم ، محال أن تجد الهزيمة إلى صفوفهم سبيلا .

يجترىء خصوم الاسلام على الدعوى بأن مجد الاسلام قام على السيف . وتلك دعوى باطلة تضافر العدل والحق على هدمها من أساسها .

وكيف يجوز فى عقل عاقل أن حفنة من الرجال تقوى على هدم امبراطوريتى الرومان والفرس إذا لم تكن عدتها إلا السيف؟ أين قوة العرب المادية من قوة الفرس والرومان ؟ وأين مواردهم من مواردهم ؟

وكيف استطاع المسلمون أن يفتحوا فى ثمانين سنة ما فتحه الرومان فى ثمانمائة ؟ فامتد رواق الملك العربى من الأندلس إلى حدود الهند ، وخفقت راية الاسلام فوق تلك الربوع جميعاً ؟

عندى أن المبادىء الحقة العادلة هى التى مهدت للمسلمين السبيل إلى بسط ملكهم فى الأرض .

ثلاثة قرون كاملة حفلت بالثورات الدموية فى سبيل تقرير قواعد الديموقراطية العصرية فى أوربا . شهدت انجلترا انقلابين فى سنة ١٦٤٢ و ١٦٨٨ . وفى عام ١٧٦٦ وقعت حرب استقلال أميركا لخلع نير الاستعباد البريطانى . واضطرمت نيران الثورة فى فرنسا فى عام ١٧٨٩ . وكأن شجرة الحرية كانت لا تزال فى حاجة لدماء لترويها ، والديمقراطية لضحايا وشهداء لتغذيها ، فأججت نيران الثورة فى ١٨٣٠ و ١٨٤٨ . وتواصلت الثورات فى أوربا بين ١٩٠٦ و ١٩٢٠

فأنتم ترون أن النصر لم يعقد بلواء الديمقراطية إلا فى القرن التاسع عشر

وفى أواسط القرن الثامن عشر فى فرنسا لم تكن حرية سياسية ولا مساواة اجتماعية . حتى هب فولتير وروسو يبشران بمبادىء الحرية والمساواة . وتشبع لافايت بتعاليم الديمقراطية ، فلما عاد ورفاقه إلى فرنسا حلوا إليها بنورها الصالحة

وجعل روسو براعة الاستهلال فى كتابه « العقد الاجتماعى » ولد الانسان حرا على أنا نراه فى كل مكان يرسف فى القيود

وأعلنت الثورة الفرنسية حقوق الانسان فى عام ١٧٨٩ وجرت المادة الأولى من إعلان الحقوق : يولد الناس أحرارا ويبقون أحرارا ومتساوين

رأيتم أن الحرية والمساواة هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما صرح الديمقراطية .

ولقد جاء الاسلام فأعلن حقوق الانسان قبل الثورة الفرنسية بأكثر من ١٢٠٠ سنة

أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم . قال: عذت معاذا : قال : سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربنى بالسوط ويقول أنا ابن الأكرمين . فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه عليه فقدم : فقال عمر : أين المصرى؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين . ثم قال للمصرى : ضعه على صلعة عمرو ، قال : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو : مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ قال : يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى . يعنى المصرى .

«يتبع»

عبد المجيد نافع
المحامى

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

---

٧١ — فما يبلغ السيف المهند درهما

في (نقد الشعر) لقدامة :

قد أومأ السمط بن مروان بن أبي حفصة في مدحه شرحبيل بن معن بن زائدة إيماء موجزا ظريفاً أتى على كثير من المدح باختصار وإشارة بديعة فقال :

رأيت ابن معن أفتن الناس جوده
فكلف قول الشعر من كان مفحما
وأرخص بالعدل السلاح بارضنا
فما يبلغ السيف المهند درهما

٧٢ — نقنع منه ببعضه

في (غرر أخبار الفرس وسيدهم) للثعالبي :

رُفع إلى ابرويز إن بعض العمال استُدعى إلى الباب فتثاقل عن الإجابة فوقع : إن ثقل عليه المصير إلينا بكله . فانَّا نقنع منه ببعضه ، ونخفف عنه المؤونة فليحمل رأسه إلى الباب دون جسده

ومن معنى هذا التوقيع أخذ المنصور قوله في توقيعه إلى قائد ركب محظوراً : يا هذا إن كان رأسك قد أثقلك خففناه عنك

٧٣ — لم تبق رتبة لمستحق

في (تاريخ الوزراء) لهلال بن المحسن :

بلغني أن بعض خواص (المقتدر بالله) سأل علي بن عيسى الوزير زيادة احد العمال المتقدمين ، في خطابه . وكان يخاطبه بـ (اعزك الله) فامتنع عليه امتناعا شديدا وعاوده حتى وعده وكتب الى الرجل بـ (اعزك الله) ممدود مابين العين والزاى فقال : ألم يعدني الوزير بالزيادة ؟ قال : قد فعلت . قال : في أي شيء ؟ قال : كنت اجمع بين العين والزاى وقد مددت بينهما مدة ، وهي الزيادة

فكان القوم على هذه الصورة من المناقشة ليبين الترتيب فيها . فأما عصرنا هذا فقد اختلفت الرسوم فيه ، وقلت المراعاة لما كانت موكولة به . لاجرم أن الرتب قد نزلت لما تساوت ولم يبق لها طلاوة يشار إليها حتى لقد بلغني عن مولانا الخليفة القائم بأمر الله ، أنه قال لم تبق رتبة لمستحق .

٧٤ — اذا تقاربت الآداب

كتب البحتري إلى صديقه ابن خرداذبة الأديب المشهور :

إن كنت من فارس في بيت سؤددها
وكنت من محتدي بالبيت والنسب
فلم يضرنا تنائي المنصبين وقد رحنا نسيبين في علم وفي أدب
إذا تقاربت الآداب والتأمت
دنت مسافة بين العجم والعرب (١)

٧٥ — ما عندكم في المرية غير الدجاج

في (نفح الطيب) : كان المعتصم (٢) ابن صمادح قد أحسن إلى النحلي البطليوسي ثم أن النحلي سار إلى إشبيلية فمدح المعتضد ابن عباد بشعر قال فيه :

أباد ابن عباد البربرا (٣) وأفنى ابن معن دجاج القرى

ونسي ما قاله حتى حل بالمرية فأحضره ابن صمادح لمنادمته ، وأحضر العشاء موائد ليس فيها غير دجاج ، فقال إنما أردنا أن نكذبك في قولك :

وأفنى ابن معن دجاج القرى

---

(١) بين فارقت الظرفية وفي (الكتاب) الكريم : لقد تقطع بينكم (بضم النون) ومودة بينكم (بكسر النون)

(٢) ابو يحيي محمد بن معن بن صمادح ملك اقام سوق المعارف على ساقها ، وأبدع في انتظام مجالسها وانسافها ، لم تخل أيامه من مناظرة ، ولا عمرت الا بمذاكرة أو محاضرة (قلايد العقيان)

(٣) متملق بهري. وبهذى . والبربر اخوتنا وأبطالنا . وقد عبدة بن قيس العقيلي القائل :

ألا أيها الساعي لفرقة بيننا توقف ، هناك اقه سبل الاطايب
فاقسم انا والبرابر اخوة تناولنا جد كريم المناسب
فنحن وهم ركن منيع واخوة على رغم اعداءنا لئام النقائب

فطار سكر النحلي ، وجعل يعتذر فقال له : خفض عليك إنما ينفق مثلك بمثل هذا ، وإنما العتب على من سمعه فاحتمل منك في حق من هو في نصابه ثم أحسن إليه

وخاف النحلي فقر من المرية ثم ندم فكتب إلى المعتصم :

رضا ابن صمادح فارقته فلم يرضني بعده العالم
وكانت مريته جنة فجئت بما جاءه آدم !

فما زال يتفقده بالاحسان على بعد دياره

٧٦ — تمثال شبديز وابرويز

شاعر :

(شبديز) منحوت صخر بعد بهجته
للناظرين فلا جرى ولا خبب (١)
عليه (برويز) مثل البدر منتصباً للناظرين فلا يجدى ولا يهب
وربما فاض للعافين من يده
سحائب ، ودقها المرجان والذهب
فلا تزال مدى الأيام صورته تحن شوقاً إليها العرب والعجم

أبو عمران الكردى :

وهم نقروا (شبديز) في الصخر عبرة
وراكبه (برويز) كالبدر طالع
عليه بهاء الملك والوفد عكف
يخال به فجر من الأفق ساطع
تلاحظه (شيرين) واللحظ فاتن
وتعطو بكف حسنتها الاشاجع (٢)

(١) مسعد بن المهلهل : صورة شبديز علي فرسخ من مدينة قرميسين وهو رجل على فرس من حجر ، عليه درع لا يخرم كأنه من الحديد يبين زرده والمسامير المسمرة في الزرد ، من نظر اليه يظن انه متحرك ، وهذه الصورة صورة ابرويز على فرسه شبديز . قال احمد بن محمد الهمذانى : سمعت بعض فقهاء المنزلة يقول : لو ان رجلا خرج من فرغانة القصوى وآخر من السوس الا بعد قاصدين النظر الى صورة شبديز ماعنفا على ذلك

(٢) الاشاجع : رءوس الاصابع ، عروق ظاهر الكف (شيرين) تمثالها قريب من شبديز . قال العالم الاديب النابغة الدكتور عبد الوهاب عزام في كتابه (كتاب الشاهنامه) : كانت شيرين في خدمة احد أشراف الفرس ، وكان خسرو برويز في صباه ينتاب دار هذا الشريف فأحب شيرين واعطاها خاتما ، فلما علم رب الدار امر أحد خدامه ان يغرقها ولكنها نجت ولجأت الى دير ، ولما تولى برويز أرسلت اليه الخاتم فذكرها واخذها الى قصره . (راجع الشاهنامه ، الثانى ، الصفحة ١٢٦ فهناك التفصيل)

يدوم على كر الجديدين شخصه
ويلفى قويم الجسم واللون ناصع (١)

٧٧ — ثم أتوب

في (أمالى) القالى :

دخل أعرابى على بعض الأمراء وهو يشرب فجعل يحدثه وينشده ثم سقاه ، فلما شربها قال : هى (والله) أيها الأمير (أى هى الخمر) فقال : كلا ، انها زبيب وعسل ، فلما طرب قال له : قل فيها فقال :

أتانا بها صفراء يزعم أنها زبيب فصدقناه وهو كذوب
وما هى إلا ليلة غاب نجمها أواقع فيها الذنب ثم أتوب

٧٨ — . . . مافاته من الدنيا

في (روضة المحبين) لابن قيم الجوزية :

عن عبد الله بن شوذب : دخلت امرأة جميلة على الحسن البصرى فقالت : يا أبا سعيد ينبغى للرجال أن يتزوجوا على النساء ؟

قال : نعم

قالت وعلى مثلى ؟ ثم سفرت (٢) عن وجه لم ير مثله حسناً وقالت : يا أبا سعيد لا تفتو الرجال بهذا ثم ولت

فقال الحسن : ما على رجل كانت هذه في زاوية بيته ما فاته من الدنيا !

٧٩ — مهرها اسلام

في طبقات ابن سعد :

جاء أبو طلحة يخطب أم سليم بن ملحان ، فقالت : إنه لا ينبغى لى أن أتزوج مشركا ، أما تعلم يا أبا طلحة . إن آلهتكم التى تعبدون ينحتها عبد آل فلان النجار ، وإنكم لو أشعلتم فيها ناراً لاحترقت فانصرف عنها وقد وقع في قلبه من ذلك موقعاً ، وجعل لا يجيئها يوماً إلا قالت له ذلك . فأتى يوماً فقال : الذى عرضت على قد قبلت

فما كان لها مهر إلا إسلام أبى طلحة

(١) اجتاز بعض الملوك هناك وشرب واعجبه الموضع فاستدعى خلوقا وزعفرانا لخلق وجه شبديز وشيرين والملك فقال بعض الشعراء أبياتا اولها :

كاد شبديز ان يحمحم لما خلق الوجه منه بالزعفران

(٢) في المصباح : سفرت المرأة سفورا كشفت وجهها فهى سافر بغيرها

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٨ —

الديانة المصرية

العلم والأدب والفن والقانون

رأى رجال الدين أن الشعب لا يتبع التقاليد الدينية إلا إذا امتزجت تعاليمها بنفوس أبنائه امتزاجاً قويا ، وهذا لا يتيسر إلا إذا بشر بالدين رجال مثقفون فصحاء يملكون أعنة البلاغة ويستولون على أزمة البيان . وإذاً ، فهم مضطرون قبل كل شيء إلى أن يفسحوا في مدارسهم للأدب أمكنة واسعة وأن ينزلوه بين معارفهم منزلة عالية وقد فعلوا ، فكان من نتائج هذه العناية الفائقة بالأدب أن ظهر كتاب « افتاح حتب » وزير الملك « إيزيس » الذي هو أقدم كتاب في الدنيا والذي يرى فيه القارىء من الحكم والنصائح والأمر باحترام المرأة وإعزازها والتحذير من إغضاب الملوك والرؤساء والحث على طلب العلم واعتباره أهم ضروريات الحياة وألزم واجبات الأشخاص من كل الطبقات إلى غير ذلك من وصف حلاوة الشباب ولذة القوة ومرارة الشيخوخة وانكسار النفس في أيامها وانطفاء مصباح الآمال والأحلام إلى آخره إلى آخره ، مما يجعل من غير الممكن أن يكون كتاب هذا شأنه من منتجات عقول شابة في الأدب ، ناشئة في الكتابة والتأليف .

ومن الطبيعي أن الأمة التي يصل فيها الدين والأدب إلى هذه المرتبة الرفيعة تسمو فيها الحالة الاجتماعية سموا عظيما يتبعه تقدم في جميع نواحي الحياة ، لأن الأمة تنبغ في المخترعات وتبرع في الفنون بمقدار حاجتها إليها ، وهذه الحاجة تتعدد تبعا لتقدم المدنية التي هي أولى مظاهر السمو الاجتماعي .

وإذن ، فالدين يتطلب سمو الأدب ، والأدب عامل أساسي في الرقي الاجتماعي ، والمدنية أولى مظاهر هذا الرقي ، والحاجة إلى الاختراع والفن طليعة نتائج تلك المدنية . وهذه هي الدرجات التي صعدت عليها الدولة المصرية القديمة حتى وصلت إلى قمة سلم الحياة العالية فارتقت فيها الفنون الجميلة على اختلاف ألوانها حتى وصلت إلى درجة حيرت كبار الفنيين في العصر الحديث .

لم تكن معارف المصريين إبان الدولة القديمة ناشئة ولا في أول عهدها بالحياة كما يزعم الجاهلون ، ويدل على ذلك أنه في أواخر القرن الماضي اكتشف عالم من كبار المستمصرين الفرنسيين خلف الهرم الغربي جثة موظف كبير من موظفي الامبراطورية الأولى كتب على تابوته العبارة التالية : « هذه جثة الحارس الأكبر لدار الكتب الملكية » .

وقد علق الأستاذ « ماسبيرو » على هذه العبارة في كتابه « تاريخ الشرق القديم » طبعة أولى بأن هذه المكتبة التي كان هذا الموظف الكبير مديرها أو حارسها كانت تحوي بين جدرانها كثيراً من الكتب في الأدب والفلسفة والأخلاق والتاريخ والاجتماع والقانون والسياسة والطب والحساب والهندسة والفلك والسحر والتنجيم

ويؤكد الأستاذ « ماسبيرو » أن هذه المواد التي كانت موجودة في أدمغة العلماء ومسطرة في أوراق البردي لم تكن أثناء الدولة القديمة في عهد الحداثة والتكوين ، بل كانت قد نضجت نضوجاً تاماً وأصبحت في دور الانتاج العملي المفيد ، إذ أن من المستحيل أن تبنى الأهرام في عصر بادىء في الهندسة لم يتعمق أهله — أو العلماء منهم على الأقل — في غامض النظريات ومعقد الرسوم ؛ وكذلك من المستبعد عقلا أن نتصور أن المحاكم التي لا تحكم على المجرم إلا بعد سماع المرافعات الشفوية الطويلة ، وقراءة المذكرات التحريرية المقدمة من المتهم يكون قضاتها ومستشاروها حديثي عهد بالقوانين المدنية والجنائية

وإنني أنتهز فرصة هذه المناسبة فأذكر لك مثلا من أمثلة استقلال هذا القضاء وعدالة الملوك في تلك العصور الغابرة التي نتصور أنها كانت مفعمة بالظلم والاستبداد :

حاولت زوجة « باتوو » الخائنة قتل زوجها عدة مرات

قبل أن يجلس على عرش مصر ، فلما تولى المملكة لم يشأ أن يقتلها دون تبرير هذا القتل بحكم المحكمة ، ولم يكن شيء أسهل عليه من أن ينتقم بالقتل من زوجة مجرمة أثيمة ، ولكنه أعلنها بالحضور أمام المحكمة التي تألفت من أكابر رجال القضاء في الدولة ، ووقف جلالته خصما نزيهاً لهذه الخائنة ، وتلا مذكرة الاتهام على مسامع القضاة ثم ترك لهم الكلمة ، فطلبوا إليها أن تدافع عن نفسها ، ولكنها حنت رأسها مشيرة إلى الإفلاس من البراهين وإلى التسليم بالاجرام ، فأصدر القضاة حكمهم عليها بالاعدام

فانت ترى هذه الصورة العادلة التي صور بها مؤلف القصة فرعونه العظيم . وقد تكون هذه القصة خيالية ، ولكن الذي لا شك فيه هو أن الكتاب في كل عصر يستمدون مؤلفاتهم مما يقع حولهم من الحوادث ولو في شيء من المبالغة والمغالاة فنحن نستطيع أن نؤكد أنه كان في تلك العصور الغابرة قضاة يستندون في أحكامهم إلى قوانين مدنية وجنائية ، وأنهم كانوا يسمعون ويقرأون دفاع المتهمين وشهادة الشهود ، بل يبالغ الأستاذ « نوباري » المستمصر الألماني فيؤكد لنا أن القضاء في تلك العصور كان لا يقل عنه في عصرنا الحاضر بحال

واذا غادرنا القضاء وعنايته بالقوانين وتوجيه العدالة والإنصاف واهتمامه بأنواع الدفاع وضروب المرافعات ثم اتجهنا إلى الطب ألفيناه قد بلغ حد النضوج ووصل إلى درجة توشك أن تلحق بالكمال . ويبرهن على ذلك ثقة الأطباء بأنفسهم وتحققهم من معارفهم إلى درجة المجازفة بحياتهم في سبيل توطيد تلك المعارف ، فقد كان الطبيب إذا اخترع نوعا جديداً من الدواء لم يكن قد سبقه إليه طبيب آخر يرفع اختراعه إلى هيئة الاختصاص حتى إذا نظرت فيه استدعته أمامها وتلت عليه نص الشرط الذي نلخصه فيما يلي : — « للطبيب أن يعالج مريضه بهذا الدواء الذي اخترعه ، فاذا شفى وثبت بالكشف الطبي أنه شفى بسبب هذا الدواء ، منح مكافأة مادية قدرها كذا وكذا . وأخرى معنوية ، وهي تدوين اسمه واسم دوائه في الدواوين الرسمية والكتب العلمية المقررة ، وإذا مات المريض مسموماً بدوائه حكم على الطبيب بالاعدام » .

فاذا قبل الطبيب هذا الشرط وأخذ منه توقيع بالقبول أمام شهود عدول صرح له بالابتداء في تجربة الدواء .

وفي رأينا أن هذا النظام المصري القديم أدق وأحرص على سلامة الجمهور من نظام القرن العشرين الذي لا يتحرز فيه الأطباء من العبث بأرواح المرضى الذين أصبحوا لهم عبيداً يأتمرون بأوامرهم التي لا يلاحظ فيها قانون ولا تترتب عليها أية مسئولية رادعة ، بل لا يترتب عليها سؤال بسيط من قبل القضاء . وضحايا الأطباء والصيادلة الذين لا يعنون العناية الكافية بتركيب الدواء لا تندرج تحت حصر ، ومهما يكن من الأمر فهل تتصور أن أطباء ناشئين في الطب أو مبتدئين في الحكمة لم يقتنعوا بعد بتجاربهم العلمية يقدمون على تعريض حياتهم للخطر ؟

أحسبك بعد أن صورت لك هذه المنزلة العالية التي ارتقى إليها الطب المصري في العصور القديمة توافقني على أن الآراء القائلة بأن الطب المصري كان نوعاً من الرقى والتعاويذ السحرية أو مشوبا بها كما صرح الأستاذ أمين الخولي في مذكراته صفحة ٤٤ هي ضرب من الخرافات التي ليس لها من الأدلة العلمية مستند ولا دليل

وإذا ألقينا نظرة متأملة على الرسم مثلا وجدناه لا يقل روعة وجلالا عن بقية الفنون والعلوم الأخرى التي أسلفنا لك أنها كادت تصل إلى مرتبة الكمال .

وأخص ما يمتاز به الرسم المصري هو ما يشاهده عليه الرائي من الحياة لأنك حين تنظر إلى ما يرسمونه من صور لا تشك في أنها حية تستمتع بالحركة والاحساس وذلك لإتقان رسمها وإجادة الفن فيها .

ولقد بلغ هذا التصوير درجة جعله يعم المعابد والمقابر ثم يتخطاها الى المنازل والمنتديات ، والحدائق والمتنزهات والمحاكم والدواوين وينقش على الحوائط والأسوار والسقوف والأراضي وفي غرفة النوم وحجر الاستقبال وقاعات المائدة وفي كل مكان . وإليك ما قاله الأستاذ « بريستيد » في هذا الشأن :

« وبلغت الفنون الجميلة درجة قريبة من الطبيعة . بعيدة عن الأوهام لم تبلغها أية بلدة أخرى في تلك العصور القديمة إلى أن يقول : « بل كان المصري مغرماً بمظاهر الطبيعة الأصلية فقط كما يراها داخل منزله وخارجه ، ولذلك نقش زهر (اللوطس) على أيدي ملاعقه وشرب النبيذ في أقداح زرقاوية اللون على شكل برعوم اللوطس ، وصنع أرجل سريره بهيئة أرجل الثيران القوية العضلات ولبسها بالعاج ، ورسم سقف منزله بهيئة سماء تبدو منها النجوم ورفعها على عمد

شبيهة بالنخيل الباسقة الأغصان أو بسيقان اللوطس المنتهية أعاليها ببراعيم ذلك النبات ، وكثيرا ما زين المصرى سقوف حجراته برسوم الحمام والفراش الطائرة بين الأشجار . وكان يحلى أرض منزله باللون الأخضر على شكل مستنقعات يسبح بين أعشابها السمك ونشاهد بها أحياناً ثيراناً وحشية طاردة للعصافير المحلقة فوق الأعشاب المائلة ، ويرى الناظر أن هذه الطيور تسعى فى الوقت نفسه لخلاص صغارها من ابن عرس الذى يريد افتراسها .

أما الأدوات المنزلية المستعملة يومياً فى منازل الأغنياء فجميلة متناسبة الأجزاء تشاهد على أبسطها صنعا مناظر الطبيعة وجمالها المرئيات فى خلال القطر المصرى [1] .

وليس هذا هو كل شىء فى رقى الصناعات العملية فى مصر بل إن هناك خوارق ومعجزات ظهرت على أيدى أولئك الصناع المهرة البارعين ، فالتاريخ يحدثنا بأن الصائغين قد بلغوا فى صناعة الحلى دقة لم يسع فنيى مصر الحديث إلا أن يعترفوا أمامهم بعجزهم الكامل عن مجاراتها ، وهو ينبئنا كذلك بأن صناع الكؤوس والأكواب قد وصلوا فى صناعتهم إلى حد أن يبتدعوا أكواباً من الصوان تشف عما فى داخلها فيرى فى وضوح كما يرى ما هو فى داخل الزجاج سواء بسواء ، وأن النساجين توصلوا إلى صنع غلائل من الكتان شفافة لا تحجب ماوراءها ولاريب أن هذا هو فى الصناعة أعلى مراتب الاعجاز .

ويحدثنا الأستاذ « بريستيد » فى صفحة ٦٦ من كتابه « أن مهندسى العمارة والبنائين عرفوا شيئا كثيراً من علم رفع الأثقال (الميكانيكا) كما يستدل من قبو مقبرة ببيت الخلاف يرجع تاريخها إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد وغير ذلك مما يبرهن على ان العلوم العقلية والعملية كانت قد وصلت فى مصر إلى أبعد مدى تستسيغه تلك العصور .

هذا ، ولما كانت الفلسفة الهندية هى أهم الفلسفات الشرقية جميعها بعد فلسفة مصر من ناحية وأقدمها إلا الفلسفة المصرية من ناحية أخرى فقد آثرنا أن نثنى بها بعد أن بدأنا بفلسفة وادى النيل التى هى مبدأ الجميع فى رأى أدق العلماء والباحثين .

(يتبع) محمد غلاب

(١) راجع صفحة ٦٧ من كتاب الأستاذ بريستيد

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

مشاهير الحكماء

جميعكم أيها الحكماء المتمتعون بالشهرة ، قد خدمتم الشعب ومايؤمن به من خرافات ، ولوأنكم خدمتم الحقيقة لما كرمكم أحد ، ومن أجل هذا احتمل الشعب شكوككم فى بيانكم المنمق لأنها كانت السبيل الملتوى الذى يقودكم إليه . وهكذا يوجد السيد لنفسه عبيداً يلهو بضلالهم الصاخب . وما الانسان الذى يكرهه الشعب كره الكلاب للذئب إلا صاحب الفكر الحر عدو القيود الذى لا يتعبد ولا يلذ له إلا ارتياد الغاب

إن ما حسبه الشعب فى كل زمان روحاً للعدل إنما هو العدو الكامن المترصد لروح الحرية يستنبح عليها أشد كلابه افتراساً وقد قيل فى كل زمان (لا حقيقة إلا فى الشعب فويل لمن يطلبها خارجاً عنه)

لقد أردتم أن تؤيدوا الشعب فى ما يبدى من خشوع وإجلال ، فدعوتم هذه المذلة (إرادة الحق) فيا لكم من حكماء غير أنكم كنتم تقولون فى أنفسكم لقد نشأنا من الشعب وصوت الشعب هو صوت الله فكنتم كالحمار الصبور المراوغ تعرضون وساطتكم على الشعب ، ولكم من ذى سلطان أراد ان توافق عجلته ذوق الشعب فقطر لجرها حمارا صغيرا ، حكيما مشهورا ...

فيامشاهير الحكماء ، إننى أطلب منكم أن تخلعوا عنكم ما تتلبسون به من جلود الأسود وجلود الوحوش الكاسرة المخططة وفراء المستكشفين للمجاهل والفاتحين . إذ لا يسعنى أن أؤمن بالحقائق التى تنادون بها مالم تقلعوا عن بذل التبجيل والتعظيم ، فما رجل الحق إلا الضارب فى القفار ولا إله له لأنه

حطم بين جنبيه قلب التبجيل والتعظيم وإذا هو تلفت ورمال الصحراء تحرق قدميه إلى الواحات حيث يتدفق الماء الزلال، ويمتد وارف الظلال، وترتاح الحياة ملقية عصا الترحال، فلا يقتاده الظمأ إلى الاتجاه نحوها طلباً للاغتباط بين المغتبطين لأنه يعلم أن لكل واحدة أصنامها، وما يريد الأسد إلا الانفراد محرراً من عبودية الأرباب ومن سعادة المستبدين، بعيداً عن الآلهة والمتعبدين وعن الخوف ومنزليه فى القلوب، ذلك ما يصبو رجل الحق إليه. وما عاش رجال الحق إلا فى القفار يسودونها بانطلاق تفكيرهم فى مجالها الوسيع. وهل فى المدن إلا مشاهير الحكماء يتناولون خير الغذاء كذوات الضرع تغذى لتحلب. ويجرون عجلة الشعب وقد كُدنوا بها كالحمير

وما أنا بالناقم عليهم ولكن ليعلموا أنهم خدم مشدودون إلى عجلة وما يرفع من ذلهم توهج الذهب على العجلة التى يجرونها

ولطالما أخلص هؤلاء الناس فى خدمتهم فاستحقوا الثناء لأن الحكمة تقضى بأن يفتش الخادم عن سيد يستفيد من خدماته

لقد وجب أن يتسامى عقل سيدك وتعلو فضيلته لأنك بهما تعلو أنت

والحق أنكم قد علوتم بارتقاء عقل الشعب وفضيلته، أيها الحكماء الخادمون للشعب كما اعتلى هو بكم. وما أعلن هذا لتمجيدكم. فانكم قد بقيتم أنتم شعباً حتى فى فضائلكم، وما تزالون شعباً لا بصيرة له، ولا يدرك للعقل معنى

إنما العقل حياة تمزق الحياة تمزيقاً، وما تزداد الحياة معرفة إلا بما تتحمل من آلام، فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

لا يسعد العقل إلا إذا مسح بالدموع وتوج بالتضحية فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

إن عماء الضرير وتلمسه لطريقه إنما هو شهادة لقوة الشمس، التى حدق بها فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

على طالب المعرفة أن يتعلم البناء باستخدامه الجبال حجارة لاقامة صرحه، وما يصعب على العقل أن ينقل الجبال، فهل كنتم لهذه الحقيقة عارفين؟

إنكم لا تلمحون من العقل إلا ما يقذف به من شرر، فلا تعرفون، أى سندان هو هذا العقل، ولا تعرفون أيضاً قساوة المطرقة التى تتهاوى عليه

والحق أنكم تجهلون كبر العقل ويصعب عليكم احتمال تواضعه لو أراد تواضع العقل أن يعلن حقيقته

إنكم ما تمكنتم فى أى زمان من إرسال عقلكم إلى مهاوى الثلوج، فما بكم الحرارة الكافية لاقتحامها، ولذلك لا تدركون لذة من تنعشه لفحات هذه المهاوى، غير أنى أراكم بالرغم من هذا تقدمون على مداعبة التفكير، وقد جعلتم الحكمة ملجأ ومستشفى للمتشاعرين ...

لستم عقباناً أيها الحكماء المشتهرون، فأنتم إذاً لا تدركون ما يلذ العقل من لذة فى ارتيائه، فلا يحق لغير المجنح أن يخترق الهواء فوق الوهاد

ما أنتم إلا فاترون أيها الحكماء، وفى كل معرفة عميقة يهب تيار من الصقيع لأن ينابيع العقل الخفية باردة كالثلج ولا تلذ ببردها غير الأيدى الملتهبة بحرارة جهادها

إننى أراكم أمامى أيها الحكماء المشتهرون ملفعين بقساوتكم جامدين على غروركم فما للريح أن تدفعكم ولا للارادة أن تهيب بكم إلى الاقدام

أما رأيتم على مضطربات الأمواج شراعا خفاقا يندفع وقد عصفت فى ثنياته هوجاء الرياح. إن حكمتى تجتاز العمر خافقة كهذا الشراع وقد ملأتها عواصف التفكير، تلك هى حكمتى الشاردة النفور. فهل لكم أن تجاورونى فى اندفاعى أنتم يامن تخدمون الشعب، أنتم مشاهير الحكماء.

هكذا تكلم زارا ...

نشيد الليل

لقد أرخى الليل سدوله فتعالى خرير المياه المتدفقة، ولنفسى أيضاً ينبوعها المتفجر

لقد أرخى الليل سدوله فتعالت الأناشيد من أفواه جميع

المغرمين، وما روحى إلا نشيد من هذه الأناشيد. إن فى داخلى قوة ثائرة تريد إطلاق صوتها وهى شوق إلى الحب بيانه بيان المغرمين. أنا نور وليتنى كنت ظلاماً، وما قضى على بالعزلة والانفراد إلا لأنى تلفعت بالأنوار. ولو أننى كنت ظلاما. لكان لى أن أتعلق بأسداء النور فأنقع من درها غلتى، لكان لى أن أرسل بركتى إليك أيتها النجوم المتألقة كصغيرات الحباحب فى السماء إذ أتمتع بما تذرين على من شعاع. غير أننى أحيا بأنوارى فأتشرب اللهب المندلع من ذاتى وقد حرمت لذة الآخذين، وقد خطر لى مراراً أن فى السرقة من اللذة ماليس فى الأخذ.

إن يدى لا تقف عن البذل وذلك هو فقرى فأنا أنظر أبدا إلى العيون يملأها الانتظار وإلى الليالى تلهبها الأشواق، وذلك هو الحسد الذى يقض مضجعى

يالشقاء الواهبين ... يالظلمة شمسى ويا لشوقى إلى الاشتياق ويا لشدة المجاعة فى شبعى

إنهم يأخذون ما أهبهم ولكننى أبق بعيداً عن أرواحهم فان بين الباذل والآخذ هوة عميقة، ولعل أقرب الأغوار قعراً أصعبها ردماً

إن نوعاً من الجوع ينشأ فى أحشائى فيحفزنى إلى إيلام من أرسل إليهم أنوارى، فأتوق إلى سلب من أغدق عليهم هباتى وهكذا اتعطش إلى إيقاع الأذية فأرد يدى بعد أن أكون مددتها وأتردد تردد الشلال فى تدفقه نحو مراميه

إن مثل هذا الانتقام يراود عظمتى، ومثل هذا المكر ينشأ من عزلتى

لقد فقدت السعادة فى العطاء لوفرة ما أعطيت وقد زهقت فضيلتى من نفسها ومن جودها، إن من يستمر على بذل الهبات مهدد بفقد الحياء. ولا بد أن تتصلب راحته ويتصلب قلبه.

لم تعد مآقى تذرف الدموع على خجل المسترحمين وها إن يدى قست حتى امتنع عليها أن تشعر بارتعاش الأيدى اذا امتلأت.

أين هى دموع عينى وأين رقة قلبى. فيا لوحدة جميع الواهبين ويا لصمت كل متلفع بالسناء.

إن شموساً لا عداد لها تدور فى قفار الأجواء مخاطبة بأشعاعها لبدات الظلام وأنا وحدى محروم من حديث هذه الشموس وبيانها.

ويلاه! أية علاقة يمكن أن تربط الأنوار بالاجرام المنيرة من نفسها؟ فان الأنوار تمر عليها وهى تحدجها بلفتات الجفاء وتمضى ذاهبة فى سبيلها، وهكذا تسير جميع الشموس فى أجوائها نافرة من كل جرم منير باردة لا تحس اخواتها بحرارتها.

ان الشموس تندفع كالعاصفات فى أبراجها متبعة ما اختطته إرادتها الجبارة وفى ذلك كتمان حرارتها وبرودتها.

هل غيرك أيتها الأجرام الملفعة بظلام الليل من يخلق حرارة من اللمعان؟ أنت وحدك ترضعين أفاويق القوة من انداء النور.

ويلاه ان الصقيع يدور بى ويدى تحترق من لفحات الجليد، فأنا مشتعل بسعار لا يطفىء أواره غير عطشكم، لقد سادت الظلمة فلماذا قضى على أن أكون نوراً منفرداً متعطشا إلى الظلام؟

لقد سادت الظلمة فتدفقت كالجداول اشواقى وهى تريد أن تهتف بما تضمر.

لقد أرخى الليل سدوله، فتعالى خرير المياه المتدفقة، ولنفسى أيضا ينبوعها المتفجر.

لقد أرخى الليل سدوله فتعالت الأناشيد من أفواه جميع المغرمين، وما روحى إلا نشيد من هذه الأناشيد.

هكذا تكلم زارا...

ساعة فى هياكل الشعراء

طاغــور

شعره ، تأمله وتساؤله ، مناجاته ، الشرق والغرب

للأستاذ يوسف البعينى

كأنى بالقارىء وقد أثاره حب الاستطلاع فجاء يطالبنى بشوق واهتمام قائلا : أراك قد اخترت ــ طاغور ــ موضوعا لبحثك وحديثك دون سواه من الشعراء اللامعين على كثرتهم وتعدد نواحي الاستقراء فى شؤونهم وشجونهم . وأنا حتى أجيبك إلى طلبك وأبين لك الغاية من اختياره لحديثى هذا ، أريدك أن تعلم أن طاغور هو شاعر عبقرى متصون ذو خيال رقيق تسربل بالرشاقة والفخامة والتوت عنه عواتير العقم والخشونة . وهذه مزية سامية لم يتصف بها شاعر من شعراء هذا العصر

على أن إذاعة البحث فى شاعرية طاغور تتطلب أمرا هاما وهو أن نلق نظرة بعيدة على شخصيته لنعلم ما إذا كان مثالا صادقا للعصر الذى يعيش فيه ، وما إذا كان مرآة صافية لأخلاق البيئة التى ترعرع فيها . أم هو شاعر محلى محصور الثقافة والاحساس لاينقل لقرائه سوى أصداء أوهامه ، ولا يرسم شعره إلا المواضيع التافهة والصور الباهتة فحسب

أما أنا فأرى أنه يمثل عصره تمام التمثيل لأنه يعيش فى عهد التجديد ونهوضه وبعثه ، وفى عهد يقظة الروح بالشرق الأقصى وإذاً فاحلامه التى تلمع فى شعره هى أحلام الجيل الذى يعاصره ، ذاك الجيل الذى روعته الثورات والحروب ، وأبهظته مخاوف الآلام والموت

شعره

قرأت لطاغور كثيراً من شعره ، وكنت قبل أن أقرأ ذلك الشعر أعتقد أن الشاعر الحقيقى هو من يحسن حبك القوافى وسبك الألفاظ وتحكيم الأوزان . ولكن بعد أن قرأته وتذوقت أقواله وتصوراته أصبحت أعلم أن الشاعر هو ذلك الفن المتقد الاحساس الذى يحرق نفسه بخورا فوق محاريب البشرية لينير تلك الأرواح العامهة فى دياجى آلامها وبلاياها

وتأكدت أن الشاعر هو من يرهف أذنيه لاستماع خشخشة العبودية تجرها الأقدام الدامية فى سيرها إلى أعماق السجون ، ونحو أعواد المشانق !

هو من تحزنه الزهرة الذابلة ، وإنه يشاهد فى ذبولها صفحة حياته البالية . . .

هو من يخيفه قصف الرعود لأنه يعيد إلى ذهنه ذكرى الحروب والثورات . . .

بلى ... فى شعر طاغور شاهدت كيف يحرق الألم نفس الشاعر ، وسمعت زفرات قلب متفطر ينسحق فى قبضة الأسى والحنين ، ويتبعثر بين غمائم التذكار والكآبة !

وطاغور شاعر متفنن ذو رقة لذيذة وخيال طافح بالعذوبة ، وأنت إذا قرأت قطعة من شعره فكأنك تقرأ روحاً تذوب فى مرجل آلامها وحسراتها ، أو تشرب كأسا من الدموع المريرة

إذا حدثك عن حب مستتر فى لهوف الماضى ، فأنت ترى ذلك الحب بعينيك . وإذا رسم لك ما ينهش قلبه من أسى وحنين فتكاد تسمع ذلك بأذنيك فتحترق شفقة عليه !

يداعب ميولك ومشاربك فتحس به قد دخل عليك واحتل ذاتيتك ، فتتعشقه راكضاً وراء الفراشة فى الحقل ، أو صاعداً إلى النجوم على سلم منسوج من ضوء القمر

وهو خيالى . . . ولكن يا له من خيالى رائع يحاول أن يملأ كاسك من عصير روحه الساحرة . لكنه يعترف لك بأن هذا الذى يرشحه فى مراشف سطوره وتعابيره ليس سوى أنداء هابية سكبتها الطبيعة فى روعه الخافق ليفرغها فى محاجر الانسانية التى تريد التملص من قيودها وأغلالها

فمن هـذا يستدل القارىء على بعد غور شاعريته ، وصفاء مصدره ، وصدق عقيدته ، ورحابة آفاق تاملاته وأحلامه !

تامله وتساؤله

لم يعرف الأدب العالمى فى أوائل هذا الجيل شاعراً كثير التأمل والتساؤل إلا ـ بيرلوتى ـ الأديب الفرنسى المشهور ، هذا الشاعر الحساس أخرج للناس طائفة من القصائد والقصص هى غاية فى الاستغراق والتحالم بينها كتاب (موت أنس الوجود) الذى رسم فيه ليالى مصر المقمرة البيضاء رسماً يغمر القلوب بموجة من السحر والجمال ، وينبه فى سراديبها المظلمة أشباح الشجن والحنين ، ويعلم الناس أن بييرلوتى لم يفعل ذلك إلا ونفسه مستبشرة بنور الفن ، ثملة بلذة المذهب الوجدانى وفتونه . ولكن طاغور ، أى حافز ، بل أى داع دفع به إلى اجتناء تلك الزهرة اليانعة وهو رجل يعيش فى معترك بعيد من الفن والنضج والألمعية . إذا لم يكن ذلك دليلا واضحاً على أن الروح العظيمة ، الروح المستنيرة بنور الالهة ، لايقعدها المحيط الصاخب عن تغريدها ، ولا تؤثر بها عوامل الحياة

ولكى يقف القارىء على صحة ما أقول، أورد له مثالا من تأمله وتساؤله. قال فى قصيدة جزلة مؤثرة تحت عنوان (المنشأ) أنالته مع غيرها جائزة (نوبل) فى عام ١٩١٤:

* * *

«سأل الطفل أمه ذات مرة: أين كنت يا أماه، وفى أى مكان كنت تحتفظين بى؟

فارتعشت عواطف الأم حنواً وضمت طفلها إلى صدرها وأجابت:

كنت ياحبيبى مستتراً فى أعماق فؤادى، بل كنت ماثلا بين ألاعيب طفولتى.. فعند ما كنت أنهض فى الصباح لأجبل مثال الله العجيب من الطين لم أكن أجبل سواك

كنت يابنى فى هيكل بيتنا المقدس سرا أعبده فأعبدك فيه. وهكذا نشأت فى حياتى وحياة أمى من قبلى. فبآمالى ورغائبى كنت أغذيك، وبحرارة الروح الكامنة فى كنت أهيئك للحياة!

وبينما كنت لا أزال عذراء، كانت روحى تفتح كأنم زهرتك المزمعة لتلفك بعبير الشوق والحنين. يوم ذاك كنت يابنى نوراً ضئيلا يلمع فى أحشائى كسنا الشمس عند ما تنحسر عنه سجوف الظلام.

فياحبيب السماء ووليد الصباح المشرق فى وهاد قلبى: إنى كلما تأملتك يغمرنى فيض من العاطفة فأحس أنك لى وحدى، وأننا متحدان دائما بالشعور والعاطفة

ولكن ليت شعرى، أى القوى هى تلك التى جعلتنى أحتفظ بك أيها الكنز الثمين؟

وفيما هو مصغ إليها، دب الموت فى فؤاد الطفل فقال متمتما:

— ها قد دنا الموت يا أماه ليذهب بى حيث يذهب الموتى أجمعون.. ولكن عند ما يأتى المساء وتمدين يدك لكى تطبعى على شفتى قبلة ناعمة يمازجها العطف والحنان سيهتف بك هاتف من الظلام مغمغما بانك لاتجدينى ههنا!

ولكن ثقى يا أماه بأنى سأتحول نسيما يقبل ثغرك كل حين، أو نورا يضىء مأواك فى الليالى الداجية المفعمة بعويل العواصف وأنين الرياح

وفى الليل، فى ذكرياتك المحرقة عند ماتناجين طفلك الحبيب، سأقول لك نامى يا أماه ولا تذكرينى. فانى عند ما يمسى البدر هلالا أسيل مع الشعاع لأنام فى حضنك الأمين!

وسأغدو حلماً يدخل من فتحات عينيك لأنزع من قلبك حزنه القاتل الساحق. ولكن إذا أفقت مذعورة ترين حولك فراشة بيضاء تؤنسك بطنين أجنحتها الصغيرة

ومتى أقبل عيد (جايا) وترنحت عذارى الهيكل مخففات بأنغامهن العذبة وحشة حياتك، سأهريق نفسى فى تلك الأنغام حتى إذا لامست قلبك محت عنه كل الأحزان

وإذا جاءتك خالتى حاملة إلى هدية جميلة وسألتك أين طفلك يا أختاه فانى أذوب شوقاً إليه... فأجيبى أختك يا أماه بأنى توسدت عينيك، وامتهدت روحك التى لا يستطيع أن يلحدها الموت»

* * *

أجل... إن فى هذه القطعة الفاتنة التى يسأل فيها ـ رابندرانات طاغور ـ أمه الطبيعة عن كيفية مجيئه إلى هذا العالم

نعم إن فيها عصارة من جيد الشعر لا تأتى بمثلها إلا نفس انحدرت إلى قلب الحياة حيث التقطت كل ما فيها من ألم وبؤس، وفرح وسعادة، وابتسامات ودموع... ولعمرى إن نفسا تنتهى بك إلى هذا الحد العميق لهى نفس جبارة تجابه الدهر بشعاعها الوضاح، فتملأ الأيام هيبة وجمالا، والليالى سحراً ونوراً!!

مناجاته

وطاغور شاعر عالمى قبل كل شىء. فان آراءه أصوات مرتلة تلعب بالقلوب والمشاعر، وتحمل الاحساس على أجنحة من الخيال، فترود به معالم الخلود وتغذيه بمواد الجمال الأزلى، وتطبعه بطابع الجمال الالهى

ومما يمتاز به طاغور هو أنه شاعر متصوف كثير التأمل، عميق المناجاة. وإن الانسان ليحار عند ما يقرأ قطعة له فيرى المعانى موشحة بغلاف رقيق من الفلسفة الوجدانية. وقد جنح تصوفه أخيراً إلى حد أصبح يحب فيه أن يرى الله فى كل مكان تحتضنه عيناه، فهو يود أن يشاهده فى الوردة الخضراء، وفى طلعة الفجر، وفى مغرب الشمس، وفى سكون الليل، وفى سر الموت والحياة

نجوى

«ألا شرفنى يا إلهى، وجرد حياتى من تلك المساوىء المعيبة التى تسود دائماً ابن الطينة. ضعها تحت رعايتك، وأخبئها بين ظلال الموت والنور، أو فى مكمن الليل بين نجومك. ثم أطلقها فى الصباح بين الزهور لتشدو كالبلابل بتسابيحك وترانيمك!!

منبع

إيه أيها القدر العاتى! لقد حجبها النبع عنى فما اكتأبت. ولكن أبت إرادتك إلا أن تبق ساقية حبها سارية فى أودية قلبى لا ينضب لها معين، ولا ينقطع لها خرير

ولكن الزمن قاس جداً، فهو لا يحنو على النفوس المعذبة. وإنه ليهزأ من ألم القلوب كلما لج بها تذكار الماضى الدفين

آه!! إنى أذكر . . . ولكن الحياة كلها نسيان . إنها سريعة الخطى نحو الموت . . . إنها تختنق ولكنها تترك للخيال مرارة الذكرى وتباريح الشوق والحنين

* * *

وفى اعتقادى أن هذه المقاطع هى من أروع المناجاة . وأنت إذا قرأت باقى مناجاته ترى رجلا حائراً مرتعشاً قد شمله ظلام ليل الأسى . فهو يبكى ، وهو يرجو (القدر) أن يرحمه فى دجى الليل البهيم بخلود ذكرياته الماضية . ويا لها من ذكريات رقيقة عارية من أثواب الادعاء والكبرياء ، حافلة بمعانى اللوعة والحزن هى ذكريات الشاعر الحنون

والحقيقة أنك لا تكاد تقرأ هذه المناجاة حتى تجرى الدموع من عينك ويغمرك سكون رهيب طافح بالجبن والكآبة ، وحتى يأخذك شىء من اليأس والسخط على الحياة والاستمساك بها!!

الشرق والغرب فى نظر طاغور

ولطاغور رسالة قيمة يبشر فيها بانتشار السلام والمحبة بين الناس على اختلاف مشاربهم ومنازعهم وميولهم. وهذا لعمرى عمل جليل يدل على عظمة هذا الشاعر الجبار . فهو رجل عالمى جامع ، وبخلاف « كتابنا وشعرائنا» الذين يكتبون للدين والأحزاب والجنسية أو لفئة جاملة متعصبة من الناس . . . ومن المضحك أن هؤلاء الأدباء المزيفين الذين يقلقون الشرق العربى بكتاباتهم وأشعارهم ينعون على البشرية عدم اكتراثها بهم . . .

لقد قرأت كثيرا من مؤلفاته . ففى كتابه « سيد هانا » يتغنى بالمحبة ويدعو الناس إلى اعتناقها . ولطالما نادى بتوثيق عرى الحب ليعيش العالم فى سعادة وهناء . ومن قوله :

« إذا كانت الأمهات يلدن والقبور تبتلع ، فلماذا الحروب والثورات التى تدمى فؤاد الانسانية وتقلق روعها ؟ ولماذا لا يعيش الانسان تلك المدة القصيرة فى حب وسلام ؟ »

فمن هذه الجملة الوجيزة يستخلص القارىء صورة صحيحة لنفسية طاغور

وأما الشرق والغرب فهما فى نظره اخوان توأمان يجب عليهما التقيد بقانون العدل والمساواة . وانه ليس حقاً أن يظل الشرق عبداً للغرب كما هى الحال اليوم ، فيسومه جميع أنواع الذل والعبودية

فى عام ١٩٢٠ طاف طاغور فى أنحاء العالم ، ثم عرج أخيراً على « نيويورك » المدينة المتململة أجنحة الروح ، والهازئة أبراجها الحديدية الصماء بأحلام الشرق وعوائده القديمة . . . فألقى هناك محاضرة قيمة عن مدنية الشرق وطابعها الفلسفى جاء فيها ما يأتى :

« الغرب يكون للشرق عوامل الحياة الراحلة ، والشرق يعطى الغرب تعاليم الروح الخالدة . فيالله انظر أيها الغرب وتأمل . ألا يستطيع الشرق المستعبد أن يقدم لك غير أرضه ورقاب أبنائه ؟

فالى متى ينظر الغرب إلى الشرق نظرة السخرية والاحتقار ، ومتى يستيقظ الغرب من نشوته العمياء ؟

لا تصدق يا غرب عنا كل ما تسمعه من دعاة الاستعمار ، فان هؤلاء يصورون لك الشرق صورة متناقضة ينهش حقائقها التعاظل الممقوت . بل تعال أنت أيها الغرب الحر المتسامى ، غرب أجناد الحق وابناء الخلود ، وادرس حياة الشرق الجميل . . . تعال بروح الحرية التى بنيت عليها حضارتك الأولى ، فترى حينئذ كما نرى نحن أن الشرق الضعيف أهل للحرية ، وأن فى أعماق أخلاقه ومبادئه وميوله حكمة خالدة أسمى من الحياة المادية »

وكأنى هنا - بطاغور - وقد رأى بعينيه جشع الغرب وتكالبه على امتلاك قطعة من الأرض ، وشاهد انتحار الفضيلة فيه ، واستيلاء الحياة المادية على عقول أبنائه ، وتقلص الشعور من النفوس ، وتلاشى حرارة الشعر ، وتمشى الأطماع والأكاذيب فى سننه وقوانينه فهو يقول « ان فى أعماق روح الشرق وميوله جمالا أسمى من الحياة المادية التى يعيشها الغرب » وان ذاك الذى تضمه روح الشرق ومبادئه ليس سوى الوداعة المستحكمة من قلوب أبنائه ، والطهارة الناشرة أجنحتها فوق قصوره وأكواخه ، والنجوم التى تنير حقوله ووهاده . . . فتبدو الحياة فى ذلك الشرق الشعرى الخلاب كأنها حلم من الأحلام الرائعة . وفى الحقيقة أن طبيعة الشرق لهى عرس من أعراس الحياة . فعلى الشواطىء تمرح عذارى الحب والجمال ، وفى الكهوف تمرح تخيلات الدهور والأجيال

* * *

إن فى روح هذا الشاعر الهندى المتصوف الذى نشأ فى ظلال الشرائع الشرقية القديمة مالئاً قلبه من عصير « النرفانا » وكتب أجداده الخالدة خيالا يقظا سوف يصغى الدهر إلى همسه المسكر مستهلا فى فراره بين أكوام الموتى وساحات الحروب . . . ولكن إنسانية اليوم لن تصغى إلى حفيف أجنحة أطيافه ، ولن تلمح ما فى حكمته من نور ، ولن تجرع ما فى كآبته الصاحية من كوثر حى ، لأنها إنسانية ثملة بأبخرة الدماء ، وعبق البارود ، وهزيم المدافع ، وقلقلة القيود ستبقى ثملة . . . وسوف لا تستفيق من نزواتها وخيلائها حتى تقتلها النزوات وتقهرها الخيلاء . فتصر عندئذ نجمة الحق لامعة فى أفقها المعلى حيث تلتقى الأزلية والأبدية ، وحيث يتعانق فجر الحياة ومساؤها ،

«البرازيل» يوسف البعينى



قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي بك
مدير مصلحة الكيمياء

ظل يغدو ويروح بين عماله في هذا البيت فلا يستقر به مكان، وظل يشرف فيهم على تركيب مركبات جديدة رجاء أن تكون أكثر إبداعا من المركب الذي كان، ودار في كل حجرة وساز إلى كل ركن فلم يستطع أحد حتى قدريت أن يتتبع أثره. وأملى كاتبته الآنسة مرثا مركرت Martha Marquardt مئات من الكتب اتسعت لكثير من حماسته وحرارته، وقرأ آلافا من الكتب جاءته من كل ركن من اركان الأرض، واحتفظ بتقرير دقيق عن كل حالة بل عن كل جرعة من الجرعات الخمس والستين ألفاً من السلفرسان التي حقنها الحاقنون في بقاع الدنيا في عام ١٩١٠. وكان احتفاظه بها على مثال هذا النظام الغريب الذي تاصل في هذا الرجل: كتبها جميعاً على صحيفة ورق كبيرة دبسها في باطن باب القمطر الذي كان في مكتبه، وغطت الصحيفة باطن هذا الباب من أعلاه إلى أسفله فكان كلما طلب شيئاً في أسفل الصحيفة تقاصر وتقرفص، وكلما طلب شيئاً في أعلاها تطاول على أصابع رجليه وتمدد، وكان في كلتا الحالتين يركز بصره تركيزاً، ويعمله إعمالا ليقرأ سطورها وهي خطوط دقيقة مهملة معماة.

وتزايدت التقارير فجاءت بأنباء عن حوادث للشفاء غريبة بديعة حبيبة تلذ قراءتها، ولكنها تضمنت كذلك أنباء مسيئة متجهمة تتحدث عن فواق وقيء ثم تصلب في الأرجل وتشنج في الجسم يعقبه الموت. وجاءت الأنباء الفينة بعد الفينة بموت مرضى كان يجب ألا يموتوا، وجاء موتهم عقب حقنهم بالدواء.

ألا ما أشد ما اشتغل إرليش ليفسر هذه الأحداث! ألا ما أشد ما قسا على نفسه ونحل من جسمه ليتجنب هذه الأرزاء، فما كان إرليش بالرجل الجامد الذي لا تهزه مصائب الخلق ولا تؤلمه آلام الناس، فأجرى التجارب العديدة، وكتب الكتب الكثيرة يستفسر عن تلك الرزايا كيف وقعت، وعن المحاقن كيف ضربت، وكان يجلس في الأمساء يلعب الورق وحده . فيغلبه الفكر في تلك الحوادث، فيأخذ يكتب على هوامش الورقات ما يعن له من تفسيرات، أوهو يكتبها على ظاهر مجلات قصصية تحكي عن فظائع وجرائم بوليسية كان يفزع دائما الى قراءتها ظناً منه أن فيها دون سواها راحة البال المكدود ورياضة النفس المريضة، ولكنه ما استروح قط ولا استراض، وكيف يفعل وهذه البلايا تتفق أثره فتذهب بالذي كسبه من مجد عظيم.

وزادت أسارير جبينه تغضناً، وازدادت تعمقاً، واسود ما تحت عينيه الزرقاوين، وبقيت فيهما بقية ما فتئت ترقص من تلك الفكاهة الهادئة المستحية.

فهذا المركب رقم ٦٠٦ نجى آلافا من الموت، ونجى آلافا من الجنون، وخلص آلافاً آخرين مما هو شر من الموت: من قطيعة المجتمع إياهم لما ضرب المكروب في أجسامهم ضرباً، وأكل منها أكلا، حتى صارت مناظرهم في العين قذى وفي الأنفس تهوعاً. ولكنه بعد تنجيته المرضى بهذه الآلاف اخذ يقتل منهم بالعشرات، وأخذ إرليش ينهك جسمه الناحل أو ما تبقى له من جسم، حتى أصبح خيالا، وذلك ليفسر أحجية عز على الحكماء تفسيرها. ولقد مضى الآن على آخر سيجارة دخنها إرليش عشر سنوات، والاحجية ما زالت أحجية. فترى من هذا أن النجاح العظيم الذي كسبه إرليش كان أكبر حجة على بطلان نظرياته. قال: « ان المركب رقم ٦٠٦ يتحد

اتحاداً كيميائياً بالمكروب فيقتله ، وهو لا يتحمع الجسم فهو لا يناله بسوء . هذه نظرية من نظرياته فأين هى مما جرى ؟

إن المركب رقم ٦٠٦ مركب ذو كيمياء معروفة ، ولكن تفاعله مع الجسم تفاعل خاف مجهول ، وأخفى منه كيمياء هذا الجسم الإنسانى العجيب ، هذه المكنة الحية الغريبة ، هذا الطلّسم الذى لا نفهم إلى اليوم منه وآسفاه كثيراً . ولقد أخطأ إرليش ونال عاقبة خطاه ، لأنه لم يدرك إلا بعد فوات الأوان أن رصاصته المسحورة يطلقها آلاف المرات فتصيب غايتها من المكروب آلاف المرات ، ولكنها قد تطيش أحيانا فتصيب غير غايتها فتقتل العدو والصديق . على أنه لا تثريب اليوم عليه ولا ملامة ، فإن يكن أردى العشرات فقد رد الصحة والسلامة على الألوف . وصادة المكروب العظام ماذا كانوا سوى سادة مقامرين ، إذن فلنذكر إرليش بالحمد ، ولنذكره بشجاعته وجرأته ومخاطرته ، ولنذكره بما دفع من البؤس عن ألوف كثيرين

ولنذكر بأنه أثار سبيلا جديدة سيسلكها صادة المكروب لا محالة من بعده يبحثون فيها مثله عن رصاص جديد يطلقونه على مكروب جديد

وليس هذا بالأمل البعيد أو الأمنية الخائبة . فقد بدت فعلا تباشير ما نرجوه من بعد إرليش . فإن قوماً بحاثا من غير ذوى النباهة وذائعى الصيت قاموا فى مصانع الأصباغ بمدينة إلبرفلد Elberfeld [1] يترسمون خُطى الأستاذ الأكبر، وبعضهم من أعوانه الأقدمين ، فكدوا وكدحوا كما كانوا فى خدمته يكدون ويكدحون ، حتى وقعوا على عقار جديد غريب أبدعوه إبداعا . وقد احتفظوا بسر تركيبه ، وأسموه « باير رقم ٢٠٥ » Bayer 205 . وهو مسحوق عادى المظهر لا يهولك منه شىء ، ولكنه يشفى من مرض النوم الذى ينتهى دائما بالموت فى بلاد روديسيا Rhodesia وبلاد نياسا بأفريقيا Niassland . وإن كنت لا تزال تذكر فهو الداء الذى كافحه الرجل الجلد دافيد بروس DavidBruce آخر كفاح فى حياته ، وارتد عنه مغلوباً . فهذا العقار يفعل فى خلايا الجسم وسوائله أفعالا لو سمعتها لحسبتها خرفا أو خيالا . ولكن أحسن ما فى الحسن منها أنه يقتل المكروب قتلا ، وأنه يقتله قتلا دقيقا جميلا كاملا شاملا لو سمع به إرليش لتحركت أشلاؤه فى قبره سروراً واغتباطا . فإن كان فى المكروب ما لا يقتله ، فهو على الأقل يَحُدّ من نشاطه ويقلم من أظفاره فيجعله أنيساً مأمونا . على أن حكاية هذا العقار لم تختتم بعد فلندع للأيام ختامها

وإنى لواثق وثوقى بطلوع الغد بأن المستقبل كفيل بخلق صادة للمكروب غير من ذكرنا يطلعون على الناس برصاصات غير ما وصفنا ، ستكون أكثر سلاماً على الانسان وأشد حربا على المكروب وأفتك بكل جرثوم خبيث شديد المراس حكينا حكايته فى هذه القصة فلنذكر إرليش بانه فاتح هذا الباب وأول سالك لهذه الطريق

وقبل أن أختم هذه القصة أجد فى صدرى سرا لا بد من فضحه قبل الختام : ذلك أنى أحب صادة المكروب هؤلاء ، من لوفن هوك إلى إرليش ، ليس على الأخص للكشوفات التى كشفوا ، ولا للنعم الجليلة التى بها على البشرية أنعموا ، ولكنى أحبهم على الأكثر لأنهم رجال أى رجال ، أحبهم لرجولة جميلة فيهم سأظل أذكرها لكل فحل منهم ما استطاعت ذاكرتى وعيا

ولهذه الرجولة الجميلة أحببت إرليش . كان إرليش رجلا مِغراما مَراحا يحمل أوسمته معه فى صندوق أخلاطا أملاطا لا يدرى فى أى المحافل والمآدب بأيها يزدان . وكان رجلا قليل التؤدة فزاعا يخطر له الخاطر فيفزع لجاءة إليه وينسى ما هو فيه . جاءه رجل من إخوانه بحاث المكروب ليخرج به العشية على شراب ، وكان إرليش فى بيته فى حجرة نومه يلبس ويتهيأ للخروج ، فما علم بمقدمه حتى خرج فى قميصه يحييه

وكان رجلا صموتا معتكفا . قال له بعض عباده يشير إلى المركب رقم ٦٠٦ : « إنه عمل رائع من خلق عقل جبار . إنه كشف من كشوفات العلم الرائعة » . فقال له إرليش معيداً : عمل رائع من خلق عقل جبار ، وكشف رائع من كشوفات العلم !؟ لا يا زميلى العزيز ، بل هى فلتة واحدة من فلتات الحظ جاءتنى بعد سنوات لم أعرف فيها إلا إلى الخيبة سبيلا »

احمد زكى

(١) سنأتى فى ختام القصة على ختام لها بقلم المترجم يحكى ما جرى بعدها إلى الآن

(استدراك) ذكرنا فى مقال ٢٤ مايو ان فى بعض القرى الأوروبية يقوم القائم بأعمال البريد بأعمال أخرى كالصيدلة أو البقالة ونحوها . وقد نمي إلينا أن بعض اخواننا من الصيادلة استاء من الجمع بين الصيدلة والبقالة فى هذا العطف البغيض . وما قصدنا بالطبع تحقيرا للصيدلة وإنما تقريرا للواقع . فالصيدلى هناك فى أطراف البلاد قد يقوم بأعمال البريد وبيع الشكولاتة والحلوى وبكل عمل يستطيعه ما دام يملأ به وقته ويؤدى به الى مكسب شريف . فالاعتبارات التى أساءت الى احساس اخواننا وقلقهم لا وجود لها هناك . وقديما رعى الأنبياء الخراف وباعوا البقول وغير البقول فى الأسواق

أحمد زكى



ميكيلانجـــلو

العبقرية الملهمة

MICHELANGELO

للدكتور أحمد موسى

— ٢ —

وعاد من بولونا إلى فلورنسا فى صيف سنة ١٤٩٥ بعد أن نحت فيها بعض القطع التى نذكر أهمها « الملاك الراكع » و « القديس بطرونيوس » . أما فى فلورنسا فقد عمل تمثال « يوحنا الصبى » ، وهو التمثال الذى أتمه سنة ١٤٩٥ كما سبق القول وهو محفوظ ببرلين

وله أيضاً تمثال مشكوك فى صحة انتسابه إليه يسمى « أودونيس الميت » لا يزال محفوظاً بمتحف ناسيونال فى فلورنسا

وسافر فى يونيو سنة ١٤٩٦ إلى روما لأول مرة ، وأقام فيها إلى يونيو سنة ١٥٠١ ، وهناك أنتج أبرز عمل فى مرحلة حياته الأولى بناء على طلب أحد الفرنسيين سنة ١٤٩٩ لعمل مجموعة منظرية تمثل المادونا حاملة جثة المسيح على فخذيها (Pietà) ، وهى موجودة بكنيسة بطرس بروما . والناظر إليها يرى إشعاع المثل الأعلى ممثلا خير تمثيل فى كل أجزائها ، فضلا عن رجوعها إلى الفن الاغريق من الناحية المجموعية ، إلى جانب حداثتها فى قوة الاخراج ، وحسن التكوين ، والألم والجزع الذى ارتسم على وجه المادونا بالغ حد الاعجاز لغيره

وله أيضاً قطعة أسماها باخوس « إله الخمر » (ش ١) عملها تنفيذاً لطلب السنيور جالى أحد مشاهير التجار فى عصره ، وبالنظر إليها يتضح الابداع فى التكوين الجسمانى الرقيق ، كما تظهر لنا الكيفية التى أخرج بها الوجه والشعر المحاط بعناقيد العنب ظهوراً جلياً وبهذا يتم الانسجام المعنوى للتمثال . أنظر إلى اليد اليمنى وكيف حملت وعاء الخمر ، وتامل إلى أى حد بلغت رقة إله الخمر فى طريقة حمله هذا الوعاء ، ثم شاهد الولد الصغير الجالس إلى يمين باخوس حاملا عناقيد أخرى غطاها بلباسه فى شىء كثير من الحرص أشبه بمن يطوق حاجة عزيزة عليه . وقد كون ميكيلانجلو الساق على هيئة ساق الخيل إكمالا للتعبير عن قصته الاغريقية



ش ١ — إله الخمر

وله غير ذلك تمثال كيوبيدو (أو أبولو) محفوظ بمتحف لنسنجتون بلندن

ومن يونيو سنة ١٥٠١ إلى مارس سنة ١٥٠٥ أقام فى فلورنسا واتصل فيها بليوناردو دافينشى ، بالرغم من اختلاف مشارب كل منهما ؛ إلا أنه تأثر به إلى حد بعيد . وله فى هذه الفترة تمثال « داود » (ش ٢) وهو منحوت من قطعة واحدة من الرخام ومحفوظ بأكاديمية فلورنسا

ولعلك تلمس الفارق الشديد بين تمثال باخوس وبين هذا التمثال من الناحية المجموعية والتكوينية والتفصيلية ، وبذلك تستطيع أن تقرر أن هذا العبقري الملهم قد أدى رسالته بأقصى ما يمكن الوصول إليه من النجاح .



ش ٢ ـ تمثال داود

وتمثاله «صبي الراعي» لا يقل عن هذين التمثالين روعة ، وهو لصبي طويل حسن التكوين إلى أبعد حد ، ارتسمت على وجهه مسحة الصلابة والأنفة الريفية . وغير ذلك خمسة تماثيل صغيرة عملها لتحلية هيكل كنيسة سينا Siena ، والمادونا مع يسوع الطفل بكنيسة ليفراون في بروجه ، وهي ويسوع بالحجم الطبيعي تقريباً ، وقد جعل ملامح المادونا على غاية البهاء والتناسب

هذا وله منحوتات نصف بارزة مستديرة الشكل للمادونا مع الطفل القارىء ويوحنا ، وهي محفوظة بفلورنسا وبأكاديمية لندن

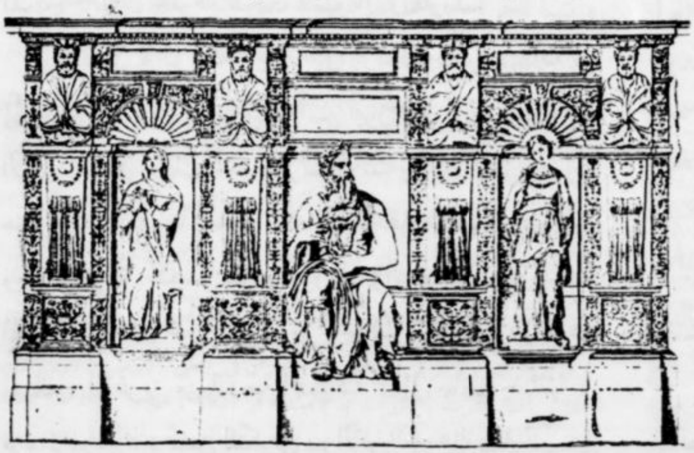
إلى هنا تكون مرحلة إنتاجه في شبابه قد انتهت .

ويستقبل مرحلة الرجولة من سنة ١٥٠٥ عند ما استدعاه البابا يوليوس الثاني إلى روما ليشرف على تشييد ضريحه . وقد صادفته عقبات جمة حالت دون تنفيذ هذا المشروع الفني ، وقاسى الأمرين . أهمل التصميم الذي وضعه لهذا الضريح بعد المجهود الهائل الذي استنفده . ولم ينفذ إلا بعد انقضاء أربعين سنة بعد كثير من التعديلات والبتر . وأول خطوة لهذه المأساة بدأت عند ما أهمل البابا نفسه تصميم ميكلانجلو مدة سنة كاملة ، ولم يطق العبقري هذا التسويف فرحل إلى فلورنسا ، لأنه لم يكن قد حضر إلى روما إلا بناء على استدعاء البابا .

وشاءت المصادفة أنه كان يوماً في بولونا ، وإذا به يواجه البابا ويصالحه ، فطلب إليه ترميم تمثاله البرنزي في هذه المدينة ؛ وهو تمثال قيم كان قد أصيب بالعطب من جراء التخريب الذي قام به البولونيون فيها . وبعد انتهائه من العمل عاد إلى روما في ربيع ١٥٠٨ ، وهناك كلفه البابا تعديل مصورات السقف ذي الستة عشر حقلا بالفاتيكان ، وفيه انهمك عاملا أربع سنوات من ١٥٠٨ إلى ١٥١٢ .

وبعد موت يوليوس بدأ ميكلانجلو في تنفيذ مشروع الضريح من سنة ١٥١٣ إلى ١٥١٦ ، وما قارب الانتهاء حتى فاجأه لبو العاشر خليفة يوليوس بوقف العمل .

وانقضت الأيام وتعاقبت الشهور ، فاستأنف ميكلانجلو العمل في الضريح الشامل لبناء أرضي مربع الشكل ينتهي أحد أضلاعه إلى حائط مجاور ؛ كله من الرخام وله ستة نوافذ مستعارة كل منها أشبه بقبلة أقام فيها تمثالا لاحدى آلهات النصر (ش ٣) وجعل السقف محمولا على رؤوس الأسرى كما هو واضح بالنظر إلى الصورة . هذا عدا التماثيل الحاملة للتابوت ، والمحيطة به ، منها



ش ٣ ـ النبي موسى

ستة جالسة وأربعة واقفة ، وعدا تمثال البابا نفسه راكعاً أعلى التابوت .

وللبناء الأرضى لهذا الضريح تمثالان لعبدين (محفوظان باللوفر) وفيهما تمثل ألم العبودية تمثيلا رائعا، كما أن له تماثيل أخرى لمساجين وهي أيضا عظيمة.

ولا بد لنا من ذكر تمثاله «النبي موسى»، وهو الجالس في الوسط (ش ٣) وهو تمثال معروف في العالم كله بعظمة إخراجه وقوة إنشائه، ولذلك يعتبر دون حاجة إلى تدليل أعظم تمثال مفرد في مدرسة النحت الحديث. أنظر إليه تره جالساً وقد ارتسم على وجهه ألم التفكير في مصير بني إسرائيل، وظهرت بوادر الغيظ على وجه النبي، مما دفع به إلى وضع يده اليسرى على بطنه، وأسند اليمنى على كتابه، مداعبا شعر لحيته الطويل بأصابعه، ألا ترى أن ميكيلا نجلو بهذا التحوقد وفق إلى إخراج آية من آيات الفن الخالدة؟ وهل تظن أنه مهما أوتى فنان من سعة الخيال وقوة الإخراج، يستطيع أن يعبر لك عن نبي طائفة من الناس دون وطن معين، بأحسن مما أخرجه ميكيلانجلو؟ أمل الكيفية التي أخرج بها التمثال العظيم الذي يعد في نظر الدارس معجزة فنية لا يستطيع إنسان أن يأتي بمثلها! ثم انظر إلى اللحية وإلى طول الشعر والبعثرة التي اصابته من مداعبته له بأصابع يمينه كما قلت.

هذا كله لا ينسينا التنويه بعظمة الإخراج الكلي للضريح، الشامل لنقوش على غاية الدقة والانسجام المعاصر

ترك روما إلى فلورنسا في صيف سنة ١٥١٧ للشروع في عمل الواجهة البنائية «لسان لورنسو» التي قرر أن يكون لها ثمانية أعمدة واثنا عشر تمثالا كلها من الرخام، وستة تماثيل نحاسية، وتسعة عشر منظراً نصف بارز، وصادفته صعاب لا تقل عن سابقتها، إلا أن نظرته إليها لم تكن بالحدة الأولى.

ظل مقيما في فلورنسا، وهناك أتم في سنة ١٥٢١ إخراج التمثال الرخامي للمسيح، والذي كان قد وضع منهج العمل فيه سنة ١٥١٤ ولعل هذا التمثال أعظم قطعة تمثل فيها النبل والترفع في الاخراج

وله أيضاً في هذه الفترة تمثال مشهور لأبولو، تركه دون إكمال وهو لا يزال محفوظاً بفلورنسا.

أما ثاني إنتاج رائع في حياته، فهو وضعه لتصميم بناء مقابر المديتشي وتنفيذه لما جاء فيها من فن الاعجاز، وهو ما سنتناوله بالدرس في المقال القادم؟

احمد موسى



مجلس التنظيم وعيد القاهرة الألفي

يظهر أن الدعوة التي وجهت منذ حين على صفحات الرسالة إلى السلطات المختصة للعمل على إحياء عيد القاهرة الألفي بما يليق بهذه المناسبة التاريخية من الاهتمام والتكريم قد لقيت صدى ضعيفاً في بعض الدوائر ، فقد نشرت الصحف أخيراً أن مجلس تنظيم القاهرة قد رأى لمناسبة حلول العيد الألفي للقاهرة المعزية أن يطلق اسم القائد جوهر الصقلي منشىء العاصمة الفاطمية (القاهرة) على قسم من شارع السكة الجديدة ، وأن يطلق اسم الخليفة المعز لدين الله الذي أمر قائده جوهر بانشاء المدينة ، وإليه تنسب « القاهرة المعزية » على شارع المغربلين . ومجلس التنظيم يرى بذلك أن يكرم ذكرى الرجلين العظيمين اللذين يرجع إليهما قيام هذه العاصمة الألفية الجليلة . بيد أننا نلاحظ أن اختيار هذين الشارعين لاطلاق الاسمين عليهما ليس اختياراً موفقاً ، بل هو ينم عن التقتير والضن ؛ إذ بينما نرى أسماء تاريخية أقل أهمية ورنيناً وأقل جدارة واستحقاقاً تطلق على شوارع عظيمة من شوارع العاصمة ، نرى مجلس التنظيم يكتفي بهذين الشارعين تكريماً لمنشئي القاهرة . وإذا كان مجلس التنظيم يريد بهذا الاختيار أن يحافظ على المناسبات التاريخية ، فيحسن به أن يختار شارع الأزهر الجديد ليطلق عليه اسم القائد جوهر ، فجوهر هو أيضاً مؤسس الجامع الأزهر ، وفي وسعه أن يطلق اسم المعز على شارع الموسكي ثم امتداده من السكة الجديدة حتى الدراسة ، أو على الشارع الممتد من باب الفتوح حتى السكة الجديدة ، ثم امتداده حتى باب زويلة . فهذان الشارعان هما في الواقع قطر المدينة الفاطمية القديمة . أما اذا لم يكن للخطط التاريخية دخل في هذا التكريم ، واذا كان التكريم مقصودا لذاته فليطلق اسمي جوهر والمعز اذن على شارعين من أعظم شوارع القاهرة ، لا على شارعين من أحقر شوارعها

النيل في مصر لاميل لودفيج

ظهر أخيراً الجزء الثاني من كتاب النيل لاميل لودفيج وعنوانه « النيل في مصر » The Nile in Egypt ؛ أما الجزء الأول وعنوانه « النيل من المنبع الى مصر » فقد صدر منذ بضعة أشهر حسبما ذكرنا في هذا المكان من الرسالة ، وهو يتناول وصف النهر العظيم من منابعه حتى حدود مصر الجنوبية ، ووصف الحيوانات والجماعات التي تسكن هذه المناطق . أما الجزء الثاني فقد خصص للقسم الممتد داخل مصر ، وفيه وصف ضاف لهذا القسم ولمصر التي عاشت من مائه منذ القرون الغابرة حتى الوقت الحاضر . ومن رأى الكاتب ان النيل كانت له دائماً في هذا القسم العامر من مجراه مؤثراته العميقة على الشعوب التي سكنت واديه ، وكان لهذه الشعوب بلا ريب نفوذها وارادتها في تكييف مجرى النهر والانتفاع بمائه . ويتناول لودفيج وصف هذه المرحلة التي يبلغ طولها ستمائة ميل ، كما يتناول وصف مصر منذ الفراعنة ، وعصر المسيح والقديسين ، ثم مصر الاسلامية ، ومصر أيام عصر الانحلال التركي ؛ ثم يصف مغامرة نابوليون القصيرة ، وحفر قناة السويس وتدخل انكلترا ، ثم يتناول حركة مصر القومية في أسلوب حماسي مشبع بالعطف . ويتبع لودفيج في الكتابة والوصف أسلوبا جديدا لم يسبق لمن طرق نفس الموضوع أن اتبعه ، فالنيل ليس في نظره وحدة جغرافية فقط توصف من الناحية الطبيعية ، بل هو كائن حي له خواصه الانسانية

كما أن له خواصه الجغرافية والطبيعية ، ولهذا يعامله لودفيج كأنه شخصية تترجم كما يترجم الرجل العبقرى . وفى مواقف كثيرة ترى لودفيج شاعرا يتبع الوصف الخيالى ؛ واذا كان يبدو محققا فى بعض الحقائق والوقائع التاريخية ، فهو يبدو أحياناً سطحياً يكتب كما يكتب السائح الطارىء . ومن جهة أخرى فقد وجه النقد المر إلى الأسلوب الذى أخرج به الكتاب بالانجليزية (لأنه كتب أصلا بالألمانية) وقيل إن فيه كثيراً من النقص والتشويه

كتاب خطير عن روسيا السوفيتية

ظهر أخيراً كتاب خطير فى روسيا السوفيتية بقلم زعيم كبير من زعمائها القدماء هو ليون تروتسكى أحد مؤسسى روسيا البلشفية ؛ ويقدم الينا تروتسكى كتابه الجديد بعنوان « خيانة الثورة . ما هو الاتحاد السوفيتى وأين يسير » « Revolution Betraged etc » . ونحن نعرف أن تروتسكى لبث من سادة روسيا وزعمائها حتى سنة ١٩٢٧ ، وعندئذ بدأ الخلاف بينه وبين ستالين وعصبته ، وانتهى الأمر بتغلب ستالين ونفى تروتسكى وتمزيق عصبته . ومن ذلك الحين يعيش تروتسكى فى منفاه متتبعا أحوال روسيا وتطوراتها . ولكن تروتسكى يخلف وراءه عددا كبيرا من الزعماء القدماء الذين يناصرونه ويخاصمون النظام الجديد ، ولهؤلاء أنصار كثيرون فى روسيا . وينعى تروتسكى على ستالين سيد روسيا الحالى أنه خان قضية العمال ، وبدد تراث لينين ، واتبع سياسة رأسمالية ، وأنه أقام نظام ارهاب شامل . ويقول تروتسكى فى كتابه المذكور : « ان الثورة قد غدر بها القائمون بالأمر ، ولكن لم تسحق نهائياً » . هذا هو ملخص نظريته وهو يشرح بعد ذلك مساوىء النظام القائم ، ويدلل على أن ستالين يسير بوحى الدول الرأسمالية ، ويرغم روسيا على الخضوع لها ؛ ويشهر بسياسة الإرهاب القائمة ، وذيوع الجاسوسية الشنيعة ، وتدبير المؤامرات ضد الأبرياء من الزعماء المخالفين . ولا ريب أن تروتسكى هو اليوم أعظم حجة فى شؤون روسيا السوفيتية . ويقال إن لديه مستندات هامة تلقى الضياء على أعمال العصبة التى تسيطر اليوم على مصاير روسيا ؛ وسوف يثير كتابه اهتماماً جديداً بأحوال روسيا وشؤونها

ومما يؤثر عن تروتسكى انه فضلا عن الدور العظيم الذى لعبه فى قيام الثورة البلشفية وسحق حكومة القياصرة ، يعتبر من أعظم كتاب روسيا المعاصرين ؛ وهو يكتب بعدة لغات بمقدرة مدهشة .

حديث جديد عن المسرح المصرى :

قرأنا فى بعض الصحف الفرنسية الواردة فى البريد الأخير حديثا جديداً لمسيو أميل فابر عن المسرح المصرى . ويذكر القارىء أن مسيو فابر ، وهو من أكبر الفنانين الفرنسيين ، وكان مدير المسرح الكوميدى فرانسيز ، قد انتدبته الحكومة المصرية فى الشتاء الماضى لدراسة المسرح المصرى ، واقتراح مايجب اتخاذه لانهاضه وإصلاحه ، وأنه قام بهذه المهمة ، ولا يزال تقريره بين يدى ولاة الأمر فى وزارة المعارف . ويقول مسيو فابر فى حديثه الجديد إن المسرح المصرى يرجع إلى نحو أربعين سنة ، ولكنه يعيش منزوياً على هامش الحوادث ؛ بيدأن المسرح العربى جدير بأن ينهض وأن يتسع نطاق عمله ، فاللغة العربية هى لغة مصر وشمال افريقية ، فضلا عن البلاد العربية ، بل هى ذائعة فى أمريكا الجنوبية حيث يوجد ثمانون ألف سورى فى المهجر .

والمسرح المصرى ينقصه التأليف المسرحى وتعوزه الأبهاء والزخارف . وهنالك ممثلون للكوميديا ، ولا توجد لها ممثلات ، حتى أن أدوار النساء يقوم بها الرجال . ومن الأسف أن المسرح المصرى لا يملك الآن غير دار الأوبرا ؛ وهذه الدار تحتلها فى معظم الفصل فرق أجنبية مختلفة ؛ وفى وسع الحكومة أن تشترى مسرح الأزبكية ، فهو يصلح لتمثيل القطع الكوميدية . والمسرح المصرى فقير فى المناظر حتى أنه يصعب فيه تمثيل القطع المنوعة . أما عن التأليف المسرحى فلا يوجد بمصر ، وكل ماهنالك قطع مترجمة عن الانكليزية والفرنسية والألمانية . وليست هنالك قطع أصيلة مكتوبة بالعربية . وأخيراً توجد مشكلة اللغة ، فالحكومة ولجنة الفرقة القومية تريدان استعمال اللغة العربية الفصحى ، وهذه لا يفهمها كثير من رواد المسرح .

راء « المبرد » مرة أخرى للأستاذ ابراهيم مصطفى

لقي اسم المبرد من عناية الرسالة وعناية الأدباء الباحثين حظاً حسناً . وكان مثار الخلاف انى قلت « المبرَّد » بالفتح فى محاضرة ألقيتها بالجمعية الجغرافية فنقدنى أديب وتصدى له أديب وامتلأ الحوار بالحجة وبقيت أقرأ مستفيداً شاكرا . وحق على من بعد ، أن أذكر ما من أجله فتحت هذه الراء

لقد تلقيت هذا الاسم بالكسر عن الشيخين اللغويين الشنقيطى والمرصفى . وسمعنا من الشنقيطى شعراً أو نظما فى ذم من فتحها ليس يخلو ذكره من تفكه وهو :

والكسر فى راء المبرد واجب وبغير هذا ينطق الجهلاء

وكان رحمه الله يلقى القول يفخمه ويمط البيت عند آخره . أما شيخنا المرصفى فلم يكن متشدداً فى الكسر تشدد الشنقيطى ، ولكن كان يفضله ومن هنا غلب على لسان الأدباء كسر الراء وتلقيناه ولقيناه كذلك . ثم تبين لنا أن الصواب هو الفتح لما رأينا أن هذا الاسم إنما وضع نبزا للعيب لا لقباً للمدح . وكان من عادة ذاك الزمن أن يكون تكريم العلماء بالكنية ؛ ويكثر أن تغلب عليهم ألقاب تحمل نبزا وعيباً ؛ وقد يبدو ذلك غريباً ولكنه أمر واقع . فأبو العباس محمد بن يزيد « المبرد » شيخ النحاة بالبصرة ، وأبو العباس احمد بن يحيى « ثعلب » شيخ النحاة بالكوفة فى زمنه يعاصره وينافسه ؛ وثعلب والمبرد نبزان ، وكذلك أمام الأدباء فى ذات العصر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

والجاحظ نبز بلا ريب . ومن ألقاب العلماء فى ذاك الزمن قطرب وعجرد والجعد والبغل والحامض والأخفش والأعمش والأعور والأعمى والأثرم والأشعث والفراء والزجاج والرؤاس (بائع الرؤوس) ولكل كنية لايدعى إلا بها ولا يحب أن يتسمى بغيرها .

ولو كان فى هذه الأسماء مثار للخلاف واحتملت أبنازهم الفتح والكسر كالجحظ والمخفش والمعور لرأيت من يدعى لها ويقربها من المدح بوجه ما « كالمبرد » ، وينسى أصل النبز وعادة العصر ولولا سعة صدر الجاحظ لقال أيضاً جحظ الله من جحظنى . و قال الأخفش خفش الله من خفشنى كما قال المبرد برد : الله من بردنى ـ على أن السعى لتجميل ألقاب العلماء عاطفة جميلة ، ولكنها تباعد التاريخ وتخفى الحق ؛ فقد رأيت لم خالفنا ما روينا عن الشيخين . ولعمرى لو أنهما شهدا وهدى إليهما ما قدم فى الرسالة من النصوص لما رأيا إلا الفتح ، ولشكرا للأديب العالم الذى تسمى « أحد القراء » فطوى اسمه ونشر علمه . فما كان لهؤلاء العلماء من التشدد فى الحق إلا ريثما تنكشف لهم الحجة فى غيرها بأيديهم ؛ فهم أتباع الحق أبداً . ولقد ذكرت بهذا قصة للمرحوم الشيخ الشنقيطى كان يقرأ عليه الأستاذ الخضرى شعراً فيه كلمة « الخزامى » بالراء المهملة ، فقال الشنقيطى هى الخزامى بالزاء أصلحها ، فحدثنا الشيخ الخضرى أن نفسه تطلعت أن ينظر القاموس ليرى الكلمة وكان قريباً منه فنظره وإذا فى القاموس الخزامى والخرامى بالزاى وبالراء وكل منهما نبت بالصحراء ، فقرأ على الشيخ ما وجد . قال الشيخ : أعدها بالراء واستغفر الله . قال الخضرى : كنت أظن أن القاموس أدنى علم الشيخ من اللغة . فضحك الشنقيطى وقال : « ذون هذا وينفق الحمار » فتلك منزلة العلماء من الحق إذا تبين وما التوفيق إلا بالله

ابراهيم مصطفى



بل ضرورية جدا

للسيدة كرم حسن فهمى

« الى استاذى الجليل عباس محمود العقاد »

عادت خضرة وقد أنهكها التعب من جمع القطن تحت أشعة الشمس المحرقة فى الحقل

عادت خضرة إلى الدار ذات الحيطان السود والسقف المتداعى وجلست بجانب أخيها حسن على الحصير البالية وسألته :

... ألم تجد عملا فى القاهرة ؟

... لم أجد

ألم تذهب إلى عمك ؟

... لا فائدة

تذكرت خضرة زيارات عمها الغنى للقرية وكيف كان يستقبله القرويون وما استدانه والدها الفقير مبالغة فى اكرامه

بل تذكرت كيف كان حديث عمها لايدور إلاعن نفسه وأملاكه ومركزه الرفيع فى الجيش وعن قصره وما يحويه من تحف وصور وتماثيل

وتذكرت خضرة أن عمها عرض على والدها قبل وفاته أن يستصحبها معه إلى القاهرة ورفض والدها إذ ذاك

فاليوم وقد مات أبوها وماتت زوج عمها المخيفة التى ورث عنها كل هذه الثروة فلِمَ لا تذهب ؟

***

... ألا تأخذنى معك ياحسن إلى قصر عمى

... إنك لم تذهبى إلى القاهرة قط

... أرجو ياحسن ! ربما كان لى من التأثير على عمى ما ليس لك فيهم بشأنك

***

سافرا إلى القاهرة وأدهشت حركة المدينة الكبيرة الفتاة وبلعت أخيرا قصر عمها وتساءلت عن محتوياته فى دهشة والعم يشرح :

... هذا البساط النادر ثمنه مائة جنيه . فخلعت الفتاة خفيها ووضعتهما تحت إبطها خشية تلويثه

العم : وهذه السجادة الفارسية الأثرية ثمنهاثلاثمائة جنيه .

فتحسستها الفتاةوقالت: لكنها قديمة ياعمى،فقهقه صاحب القصر وأجابها : لهذا كانت ثمينة ، فانها أثرية منذ ألف سنة

... انظرى هذا التمثال النصفى البديع ! صنعه أكبر مثال فرنسى معاصر

... وهذه صورة زوجتى بريشة الرسام سوسانت كلفتنا مائة جنيه

قالت الفتاة : هل هى أثرية أيضا أى منذ ألف سنة ؟

فقهقه العم مرة أخرى لسذاجتها

***

وفى المساء نامت الفتاة تحلم بالقصر البديع الذى يقطنه عمها وحيداً لايشاركه فيه إلا خادمه العجوز وإلاهذه التحف والتماثيل . ونام أخوها حسن وهو يدبر أمرا

فى مساء اليوم التالى عاد حسن إلى القصر بعد أن جال فى شوارع العاصمة وقال لعمه :

عثرت اليوم ياعمى على صورة فنية بديعة للرسام الشهيرج . س

قال العم : ياشوقى لصورة من ريشته !

حسن : رفض الايطالى العنيد أن يبيعها

العم : أغره بالمال ، هذه ألف جنيه ؛ وإذا طلب أكثر فأنا مستعد

***

وعاد حسن فى صباح اليوم الثالث يحمل إطارا كبيراً أسدل عليه ستار من الحرير الأزرق حجبَ الصورة ، ووضع الاطار بصورته الغامضة في صدر قاعة الاستقبال الكبرى بقصر عمه

وفى المساء حضر صاحب القصر ومعه رهط من الغواة والفنانين والمعجبين بالفنون

ووقف حسن بجانب الاطار ورفع عن الصورة الستار وتكلم :

أيها السادة . ترون الآن صورة ، فانتين البائسة ، صورها هوجو بقلمه كلاماً ، وعربها حافظ بلاغة ، ورسمها ج . س الرسام الايطالى الشهير صورة ناطقة

كم أتقن الفنان تصويرها وتصوير البؤس فيها ! ألا تعد آية من آيات الفن ؟ كم تقدرون ثمناً لها ؟

العم : ألف جنيه

بعضهم : وأ كثر

واستطرد حسن يقول : يجب أن نقدر الفن فالفن ضرورى للحياة ، بل ضرورى جداً ،

فمن الواجب أن نقلع عن تقويم مطالبنا بمقدار الحاجة إليها ، فان ذلك التقويم غير صحيح ، فنحن نستطيع أن نفقأ أعيننا بأصابعنا أو نقطع ألسنتنا ونعيش بغير ملكة النظر والكلام سبعين سنة ولا نستطيع أن نعيش بغير الخير ...

وندع تقويم الفكر إلى تقويم السوق ، فالحلية أقوم من الآنية الضرورية ، ولأن نشيد قصرا بديعاً ينحت فيه عشرة مثالين فينتجون تماثيل للزينة خير ألف مرة من بناء مصنع أو سفينة يعمل فيهما الآلاف فينتجون ...

، والتمثال أغلى من الكساء ، وكأس الويسكى أغلى من طن الماء ، والطباق أغلى من الهواء .

، وأقصى ما نبلغه فى تحصيل الخبز أن نتساوى وسائر الأحياء ، ونحن إذا حصلنا الفنون الجميلة فما نحن بأناسى فحسب بل أناسى ممتازون نعيش فى أمة ممتازة ، نعيش فى أكواخ من اللبن والطين

، فان كنا نبغى أن نعيش كما تعيش الأحياء فحسبنا الضروريات المزعومة ، حتى تأتى الكماليات فتلاشيها ، وحتى يأتى غيرنا ، فينزع هذه وتلك .

، ومن الواجب ثالثا أن نذكر ما هو العلم الذى يفوقنا به الغربيون ، فليس هو التجارب العويصة فى مصانع السيارات ، ولا الاختبارات والمخاطرات الشاقة فى عالم الطيارات والسفن والدبابات ، كلا ، لا يفوقنا الغربيون بهذا فان الشرقى ليحذق صناعة الطيارة ... اذا ... (فتأملوا من فضلكم اذا) .

أيها السادة ! فى علم حسابنا أن القصيدة الغرامية تساوى طيارة ، وفى نحونا أن التمثال يعنى سفينة أو سيارة ، وقال أمين الريحانى : يامن يبيعنى فلسفة بطيارات فلم يعبأ به أحد .

، ولقد يخطىء بعض المصلحين فى تقويم الفنون فيستكثرون ما أنفقت عليها الدول والملوك والسروات ، وأخطأ اللورد بافرلوك لما قال ، إن المقتصدين أسياد العالم ، وروكفلر مجنون إذ رفض رسم صورته نظير ثلثمائة جنيه بريشة أكبر رسام أمريكى .

أيها السادة ! قدرتم ألف جنيه لصورة ، فانتين البائسة ، فكم تقدرون لها الآن اذا عرفتم أنها بائسة حقيقية من اللحم والدم ؟ (تتحرك الصورة وتخرج من الأطار لأنها امرأة حقيقية)

كم تقدرون لها الآن ؟

أصوات — لاشىء

أيها الساده ... هكذا نقوم الحقيقة ، وهكذا نقوم الخيال ، وهكذا نبيع نصف عقولنا ونخسر نصف أعمارنا وننفق نصف أموالنا لنظهر بمظهر الامتياز واللباقة والتهذيب

أيها السادة ... تلك أمم بلغت شأوها ونالت الضروريات ثم التفتت إلى الكماليات ، ونحن أمة لاتزال فى أشد الحاجة الى الضروريات ، والضروريات القصوى أولا

كرم حسن فهمى

حرم ناظر محطة م . ا

***

5 me Année, No. 206

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 14 - 6 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٠٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ — ١٤ يونية سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

أدب السندوتش

لعلك تقول لنفسك سائلا أو هازلا ما علاقة الأدب بالسندوتش ؟ ولو كنت أريد الأدب الذى تعارفه أولو الجد من الناس لأعيا نفسك وأعيانى أن ندلك على هذه العلاقة. ولكننى أريد الأدب الذى تتأدبه ناشئة اليوم ؛ والسندوتش أو الشطيرتان بينهما الكامخ كما يريدون أن نقول ، لقيمات تشتريها وأنت واقف فى المطعم ، وتأكلها وأنت ماش فى الطريق ، وتهضمها وأنت قاعد فى المكتب ، فلا تجد لها بين ذهول العجلة وتفكير العمل هناءة فى ذوقك ولا امراءة فى جوفك. وهذا الضرب من الطعام القائم على القطف والخطف جنى على الأسرة فحرمها لذة المؤاكلة ومتعة المنادمة وأنس العشرة ؛ وجنى على المائدة فسلبها فنها الطاهى وذوقها المنظم وجلستها البهيجة ؛ وجنى على الصحة فأضعف الشهوة وأفسد الهضم ونقص العافية. والثقافة الأدبية اليوم لا تختلف فى سرعتها وتفاهتها وفسادها عن هذا النوع الجديد من الأكل ، فهى نتفات من الكتب ، ولقفات من الصحف ، وخطفات من الأحاديث ، ومطالعات فى القهوة أو فى الترام أو فى السرير يلقط الكلم فيها النظرُ الخاطف ، كما يلقط الحب الطائر الفزع ، ثم تتاح مختضر معتسَر كجنين الحامل أسقطته قبل التمام ،

وصراخ مزعج فى أذنى هذا السَّقط ليبتهل وهو مضغة من اللحم المسيخ لا تشعر ولا تنبض ، وأصبح مآل غرفة المكتب فى البيت كمآل غرفة الطعام وقاعة الجلوس فيه ، بغى عليها سندوتش الصحيفة كما بغى على هاتين سندوتش البار والقهوة

يقول أنصار السندوتش فى الحياة : ان المائدة لا تتفق مع الزمن الدافق والعمل المتصل والتطور المستمر والحركة السريعة ؛ فان فى طول الجلوس اليها ، وقواعد الأكل عليها ، وتعدد الألوان فيها ، واحتفال الأسر لها ، إضاعة للمال والوقت ، وقتلا للنشاط والحركة ، وجلباً للسقام والمرض .

ويقول أنصار السندوتش فى الأدب : ان قواعد اللغة قيود لا توافق حرية العصر ، وأساليب البلاغة عوائق لا تجارى قراءة السرعة ، وبدائع الفن شواغل لا تساعد وفرة الانتاج . والحق الصريح أن آكلى السندوتش أعجلتهم محاقر العمل ومشاغل الرزق عن النعيم الآمن ، والجَمام الخصب ، والبيت المطمئن ، فجعلوا صعلكة المطاعم نظاماً وفلسفة ؛ وأن قارئى السندوتش صرفتهم وعوثة الطريق وتكاليف الغاية عن اكتساب الملكة ، وتحصيل الأداة ، وتوفير المعرفة ، فقنعوا بهذا الفتات المتخلف ثم تجشأوا من غير شبع ، وتشدقوا من غير علم ، وطلبوا محو القيود والحدود والمقاييس ليصبح الأدب كوناً عاماً والفن حمى مباحاً ، فيسموا راوى الأقاويل قصصياً ، ووزان التفاعيل شاعراً ، ونهاش الأعراض ناقدا ، وسلاب القرائح نابغة ؛ ولكن الطبيعة التى تحفظ سر الكمال ، وتحمى ندرة النبوغ ، وتبغى بقاء الأصلح ، تأبى إلا أن يظل قراء السندوتش وآكلو السندوتش فقراء ذوى عمل ، أو أغنياء ذوى لهو ، لا تهيئهم الحياة المضطربة إلى زعامة فى أمر ولا إلى نبوغ فى فكرة

٭٭٭

أثار هذا الموضوع فى ذهنى طائفة من الرسائل النقدية تلقيتها من أقطار العربية تستنكر بعض ما تظهر المطابع المصرية من لغو الكهول وعبث الشباب ، وتشدد النكير على بعض الاحاديث الأدبية التى تبثها الاذاعة اللاسلكية ، وبعجب فاضل من بغداد وأديب من حلب كيف تمتهن مصر كرامتها فترفع صوتها الأدنى فى العالم من فم شاعر له ديوان مطبوع وذكر مرفوع ثم لا يدرى شيئاً فى قواعد اللغة ولا ضوابط العروض ، فكان يقرأ النثر ولا يقيم لسانه ، وينشد الشعر ولا يضبط ميزانه ، حتى قالوا والعهدة عليهم إنه أنشد قصيدة ابن سعيد المغربى ، وهى من بحر السريع على روى الكاف الساكنة ، ففتح الكاف وجعل صدور الأبيات من بحر وأعجازها من بحر آخر !

الواقع الأليم أن الذين درسوا لغتهم وفقهوها من الأدباء النابهين نفر قليل . فاذا استثنيت هؤلاء الستة أو السبعة وهم من الكهول الراحلين ، وجدت طبقة الأدباء كطبقات الصناع والزراع والتجار يأخذون الأمور بالتقليد والمحاكاة لا بالدرس والمعاناة ؛ وكما تجد فى هؤلاء من ينشىء المتجر ثم يكله إلى أجنبى ينظمه ويرتبه ، تجد فى أولئك من يؤلف الكتاب ثم يدفعه إلى نحوى يعربه ويهذبه . ولا نجد فى تاريخ العربية قبل هذا العصر ، ولا فى تاريخ اللغات فى جميع العصور ، من يحسب نفسه أديباً فى لغة وهو لا يعرف منها إلا ما يعرفه العامى الألِفُ . والغرور المتبجح والادعاء السفيه لا يستطيعان أن يحملا الناس على أن يقرأوا السخف ، ولا الزمن على أن يبقى على الضعيف .

إن رسالة الأدباء كرسالة الانبياء فيها عبقرية وجلالة وسمو . فاذا لم يكن الكاتب أو الشاعر خليقا أن يسيطر على العقول والميول بمكانه فى العلم وسلطانه فى الأدب ورجحانه فى الرأى كان أشبه بمن يدعى النبوة فى مكة ، أو بمن يمارس الشعوذة فى لندن !

إن المدارس المصرية تعلم اللغة على منهاج غير واضح ، والجامعة المصرية تبنى الأدب على أساس غير صالح ، والجامعة الأزهرية لا تزال تنفض البلى عن كتب ملثاثة التعبير من مخلفات العجمة ، إن صلحت لشىء فلن تصلح لتعليم البلاغة . فليت شعرى اذا خلت أمكنة هؤلاء النفر الذين نبغوا بالاستعداد والاجتهاد كيف تكون حال الأدب الرفيع فى مصر ؟ أيذهبون وبُطئان ما يُعوضون على رأى الأستاذ احمد أمين ، أم يذهبون وسرعان ما يُخلَفون على رأى الأستاذ العقاد ؟

احمد حسن الزيات

ندرة البطــولة

للأستاذ أحمد أمين

كتب الكاتب القدير الأستاذ عباس محمود العقاد مقالا رد فيه على مقالتى فى « ندرة البطولة » ؛ وأنا سعيد حقاً بهذا الرد الممتع ، فقد أبان فيه جانباً من جوانب الموضوع ، وأوضحه أيما إيضاح ، ودعمه بالحجج والبراهين القوية

وحبذا لو اتخذ هـذا المقال مثلا للناقدين ، فيناقشون مايعرض من الأفكار فى هدوء وجد وتفكير عميق وأسلوب مهذب ، ولا يكون لهم غرض إلا الوصول إلى الحق وتجليته

ثم نعود بعد إلى موضوعنا ، فيخيل إلى أن ليس بينى وبين الأستاذ العقاد خلاف إلا فى مسألة واحدة متى حددت ظهر وجه الصواب وانكشف جانب الحق

تلك هى تحديد ما نريد بالنابغة أو البطل ، وما نريد بالمقارنة بين العصر الماضى والعصر الحاضر .

مقياس النابغة فى نظرى أن يفوق أهل زمانه ويسبقهم فى فنه أو علمه أو أدبه حتى لا يدركوه إلا بعد أزمان ؛ وعلى مقدار هذا السبق يكون النبوغ . فسيبويه نابغة فى النحو لأنه رأى من قواعده ما عجز أهل زمانه عن النظر إليه ، وفاقهم فى ذلك بمراحل ؛ وإسحق الموصلى نابغة لأنه ابتدع من الفن مالم يعرفه فنانو عصره ، وكان فى ذلك هو السباق وهم المقلدون . وقل مثل ذلك فى الجاحظ وابن الرومى وشكسبير وجوته . فأما إن هو عرف ما يعرفه أهل زمانه ، أو أتى من الفن بما يأتيه أهل زمانه ، فلسنا نسميه نابغة وإنما نسميه عالما أو فناناً

هذه مسألة ، والمسألة الأخرى أننا إذا أردنا أن نقارن عصراً بعصر فى كثرة النبوغ وندرته ، فلا نقارن معلومات عصر بمعلومات عصر ، ولا فن عصر بفن عصر ، إنما نقارن مسافة البعد بين النابغين فى عصر وبين عامة المتعلمين فيـه ؛ ونفعل مثل ذلك فى العصر الذى نريد أن نقارنه به . فاذا أردنا المقارنة بين العصر العباسى الأول - مثلا - وبين عصرنا الحاضر فى الأدب ، وازنا بين ابن المقفع والجاحظ وبشار وأبى نواس ، وبين الكتاب العاديين والشعراء العاديين فى ذلك العصر ، وقسنا مسافة البعد بينهم ؛ ثم فعلنا مثل ذلك فى عصرنا الحاضر ، فان كانت مسافة البعد بين البارزين والعاديين فى العصر العباسى أطول منها بين البارزين والعاديين فى عصرنا حكمنا بأن البارزين فى العصر العباسى أنبغ

هذا فى رأيى أعدل فى الحكم ، وأقرب إلى الصواب ؛ وإلا لم يعد أى نابغة من نوابغ العصر الماضى نابغة ؛ فتلميذ المدارس الثانوية اليوم يعرف من قواعد النحو مالم يكن يعرفه سيبويه ، ويعرف من الطبيعة مالم يكن يعرفه «نيوتن» ؛ وتلميذ الهندسة اليوم يعرف من نظريات الهندسة ما لم يكن يعرفه إقليدس ، ويعرف من الهندسة التحليلية ما لم يكن يعرفه ديكارت ؛ وقد يكون من كتابنا اليوم من يجيد الكتابة خيرا من ابن المقفع والجاحظ ، ولكن قيمة سيبويه ونيوتن وإقليدس وديكارت وابن المقفع والجاحظ ليست فى مقارنتهم بأمثالهم فى عصرنا ، ولكن بمجموعة المتعلمين فى عصرهم ، ثم بموازنة ذلك فى عصرنا على هذا النمط وهذا المنهج . فنقطة المقارنة هى مسافة البعد ، لا مجموعة المعارف ولا المقدرة الفنية أو السياسية أو الحربية . هذه هى نظريتى ، فأنا أدعى أن العصر الحاضر تندر فيه البطولة ويقل فيه النبوغ بهذا المعنى

فلا يسألنى الأستاذ بعد ذلك « ما كتاب الجاحظ الذى يعجز أبناء عصرنا عن الاتيان بمثله ؟ »

ولا يقل : « إن الموصلى وابراهيم بن المهدى لا يبلغان شأو سلامة حجازى والسيد درويش وأم كلثوم »

ولا يذكر أن فوش وهندنبرج ومصطفى كمال أتوا من الوقائع ما يفوق ما أتى به يوليوس قيصر واسكندر المقدونى وجنكيز خان ... الخ

فكل الذى ذكره الأستاذ حق ، ولكنه لا ينقض ما ادعيت . قد كان ينقضه لو أننى ادعيت أن النبوغ هو إتيان الآخر بخير مما أتى به الأول ؛ ولو ادعيت ذلك لكانت دعوى ظاهرة البطلان ، ولكان ابنى فى المدارس الثانوية خيراً من رياضيى القرون الوسطى ، فهو يعرف مالم يعرفوا ، وأنبغ من كل علماء البلاغة فى العصر العباسى الأول لأنه يعرف من مصطلحات

البلاغة مالم يعرفوا ؛ وهكذا فى كل علم وكل فن

أخشى أن أكون فى مقالى السابق لم أوضح القصد ، ولم أجلُ الغرض ؛ أما الآن فأظن أن الأستاذ يوافقنى بعد هذا التحديد على نظريتى ؛ فعندنا كتاب قديرون يفوقون الجاحظ فى كتابتهم وفى تأليفهم ، ولكنهم مع ذلك لم ينبغوا نبوغ الجاحظ ، فقد كان بصيراً بين عميان ، وصاحيا بين سكارى ، وفى القمة ومن حوله فى القاع ؛ ولكن كتابنا إن فاق منهم عدد قليل فحولهم كثير مقاربون ؛ وإن نبغ فى عصرنا قانونى فليس هو فى السماء ومن عداه فى الأرض كما كان الشأن فى القرون الماضية ، ولكنك ترى قانونيين مثله أو قريبين منه ومسافة البعد ليست واسعة

والعالم الآن متخم بالعلماء المتبحرين ، والساسة الماهرين ، والفنانين المبدعين ، والحربيين القادرين ، والصناع الحاذقين ، ولكن من العسير جداً أن تعد منهم نوابغ لأن كل طائفة منهم تكاد تكون كأسنان المشط فى الاستواء ، وإن فاق واحد منها فتفوق قليل

ظهر نابليون فاستعبد الناس ، وأجرى الدماء أنهارا ، وقلب الممالك رأسا على عقب ، ودوخ الدنيا ، فكان نابغة حقاً فى ناحية ؛ وبيننا الآن فى عصرنا من هم أعلم منه بفنون الحرب ومن هم أقوى منه إرادة ، وأبعد نظرا ، ولكن من الصعب أن نسميهم نوابغ ، لأن الناس ليسوا مغفلين كما كانوا أيام نابليون ، ولانه وحده كان هو القاهر المريد ومن حوله كانوا هم المنفذين المأمورين ، فظهر ولم يظهروا ، ونبغ ولم ينبغ بجانبه إلا قليل

لقد أتى عصرنا بالعجائب — كما يقول الاستاذ — « وأتى بالحقائق التى تشبه الخيال ، وبالعبر التى تشبه نوادر الأمثال » ولكن كل ذلك — مع الأسف — لا يسمى نبوغا بالمعنى الذى نقصده ، لأنها قد كثرت حتى صارت مألوفة معتادة . هل اذا كثر الصناع الماهرون فى بلدة سميتهم كلهم نوابغ ؟ أم هل اذا كثر القانونيون البارعون فى فرنسا سميتهم كلهم نوابغ ؟ أو هل إذا كثر الفلاسفة المتعمقون فى ألمانيا كانوا كلهم نوابغ ؟ كلا ليس هذا هو مصطلحنا فى الحياة ، فالبلدة التى يكثر فيها الجمال يكون الجمال فيها عاديا مألوفا ، والحقل الذى تطول أكثر أشجاره وتنمو نمواً جيدا لا يمكننا أن نسبغ صفة التفوق عليها جميعاً وهكذا

فكثرة العلماء والفنانين فى عصرنا الحاضر حجة لى لا على ، وهى السبب فى أننا لا نعدهم نابغين ولا أبطالا . ولو كان واحد منهم فى الزمن القديم ، وكان وحده هو البارز وهو السائد لكان وحده هو النابغ . فلو كانت المسألة مسألة تقدم عصرنا وتفوقه على الأعصر الماضية فى سياسة جميع العلوم والفنون لوافقتك على ذلك كل الموافقة ، ولكن المسألة هى مسألة النبوغ فى العصر . فلو قارنت مزرعة بمزرعة وكانت كل أشجار إحدى المزرعتين ضعيفة وكل أشجار الأخرى قوية نامية لقلت بلا تحرج وبالبداهة إن المزرعة الثانية خير من الأولى ، وإنها تفوقها بمراحل ؛ ولكن لو سئلت هل فى المزرعة الثانية شجرة متفوقة على أقرانها لقلت بالبداهة أيضا « لا » بملء فى .

فعصرنا كذلك غنى بكل مرافق الحياة ، غنى بالرجال فى كل علم وفن ، ولكن هذا الغنى سلبه النبوغ أيضاً ، فكان عجيباً أن نرى الغنى علة الفقر ، والتخمة سبب الجوع .

لقد انقسم كل مجتمع إلى طوائف ، وكان من نتائج المدنية الحديثة زيادة التخصص ، فكما تخصص الصناع فى جزء خاص من الصناعة تخصص علماء كل علم لفرع منه ، فصار من المضحك أن يكون الرجل قانونيا فى كل فروع القانون ، أو طبيباً فى كل فروع الطب ، أو أديباً فى كل فنون الأدب ؛ ونشأ عن هذا التخصص توفر العدد الكثير على كل فرع من فروع العلم والفن وإتقانهم له ؛ فحيثما تلفت وجدت العدد الذى لا يحصى فى الأمم المتمدنة فى كل نوع وكل فرع وكل صناعة . ونتج من ذلك أن ما كان يسمى نبوغاً فى العصور الماضية أصبح اليوم شيئاً عادياً مألوفاً ، فعز النبوغ وندرت البطولة - ولم نعد نرى أمثال الجاحظ الذى يؤلف فى الأدب والاجتماع والجغرافيا والتاريخ والمذاهب الدينية والطب والنفس والحيوان والاقتصاد ؛ وصار الاقتصار على مادة واحدة بل فرع من مادة بل جزء من فرع هو المنهج العلمى الصحيح ، وهذا أغنى العلم وسهل للعدد الوفير أن يصل إلى شأو بعيد وفى الوقت نفسه كان سبباً لقلة النبوغ . فالنبوغ يكثر حيث يعز الشبيه

هذا من ناحية العلماء أنفسهم وكثرتهم . وهناك ناحية أخرى وهى ناحية الناس الذين يحكمون بالنبوغ ، فلا بد للنبوغ من نابغ وحاكم بالنبوغ . كما لا بد للجميل من ناظر ومنظور . فهؤلاء الناس أصبحوا - على العموم - مثقفين ثقافة عامة خيراً مما كانوا عليه فى العصور الماضية . اتسعت معارفهم ودقت أنظارهم ، وكان لهم أيضا شبه تخصص ، فمنهم من يميل الى الأدب ، ومنهم من يميل إلى العلم ، ومنهم من يميل إلى الفن . وأصبح الفرق بينهم وبين العلماء المتخصصين أقل بكثير من الفرق الذى كان بين العامة والعلماء فى العصور الماضية ؛ وكذلك شأنهم فى السياسة ، بل شأنهم فى السياسة خير من شأنهم فى العلم ، كل يعرف حقوقه وواجباته السياسية ، ويستطيع أن يزن قادته وزناً صحيحاً إلى حد ما .

كل هذا أنتج نتيجتين بعيدتى الأثر ، أولاهما أنهم أصبحوا يتطلبون من النابغة ما يشبه المستحيل حتى يعد فى نظرهم نابغة ، وقد كان ذلك فيما مضى سهلا يسيرا ، فمن عاش فى الظلماء يبهره نور القنديل ، ومن عاش فى ضوء الكهرباء لا يبهره ضوء الشمس ؛ والثانية أن الناس أصبحوا متسائلين مدققين باحثين لا يستطيع السياسى القدير أن يتلاعب بهم وأن يجعلهم آلة صماء كما كانوا من قبل . من أجل هذا لا نرى كبار الساسة اليوم يستطيعون أن يخضعوا الناس لأمرهم كما فعل نابليون ويوليوس قيصر وجنكيز خان وأمثالهم ، وعدم الخضوع وكثرة البحث والسؤال والتدقيق يقلل من مجد الساسة ، ولا يرفعهم الى درجة الآلهة وأنصاف الآلهة كما كان الشأن فى سالف الزمان ؛ ومثل هذا يقال فى كل علم وكل فن

فعصرنا الحاضر « طابعه طابع المألوف والمعتاد لا طابع النابغة والبطل » وإن كان مألوفنا ومعتادنا أرقى من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية

إن كان هذا — يا أخى — هو الذى أردتُ فأظن أنه لا يرد على بمزايا العصر الحاضر ، وعلم العصر الحاضر ، وفن العصر الحاضر ؛ وإذا كان النبوغ فى السبق وكانت المقارنة بين عصرين بقياس مسافتى البعد ، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرتَ وذكرتُ ، وسلامى عليك ورحمة الله

أحمد أمين

آلعلم للعلم ، أم العلم للوطن

بوسيلة دراسة التاريخ ؟

للأستاذ أبى خلدون ساطع الحصرى

— ١ —

رغب إلى بعض الشباب أن أدلى برأيى فى موضوع « هل العلم للعلم أم العلم للوطن — بوسيلة دراسة التاريخ » وهو الذى استفتت المفكرين فيه الرابطة العربية ، فكتبت هذا المقال متوخياً فيه بيان الرأى على وجه عام ، غير متصد لمناقشة رأى خاص . وقد رأيت نشره بالرسالة الصديقة ليتسع مدى المناقشة فى هذه المسألة بتنوع المجال

أبو خلدون

أنا لا أعترض على من يقول إن « العلم للعلم » ؛ وأسلم بأن « الابحاث العلمية » يجب أن تكون غايتها « معرفة الحقيقة » ، معرفة مجردة عن كل الاعتبارات النفعية .

غير أنى أقول فى الوقت نفسه إن العلم شىء والتعليم شىء آخر ، فما يصح فى « العلم » قد لا يصح فى « التعليم » .

فعندما نقول « العلم للعلم » ، لا يتحتم علينا - منطقياً - ان نقول فى الوقت نفسه « التعليم للتعليم » . وعندما نسلم بأن « العلم لذاته لا لشىء غيره » ، لا يلزمنا التسليم فى الوقت نفسه بان « التعليم أيضا لذاته ، لا لشىء غيره » .

فان مبدأ « العلم للعلم » لا يمنعنا من القول بان « التعليم ليس من الأمور المقصودة بالذات ، بل هو من الوسائل التى تستخدم للوصول الى بعض الغايات . »

ان هذه الغايات لا تكون « مادية ونفعية » فى كل الأحيان ، بل تكون « معنوية وتربيوية » فى معظم الأحوال : فقد يقصد من التعليم « إعطاء بعض المعلومات المفيدة للحياة » فى بعض الأحوال ؛ غير أنه يقصد منه - فى كثير من الأحيان - « الحصول على بعض الفوائد المعنوية والتأثيرات التربيوية » ، كالتعويد على البحث والملاحظة ، والترغيب فى الدرس والمطالعة ، أو تنمية الميول الفنية واستثارة العواطف النفسية ... وأما التعليم الذى يتجرد عن مثل هذه الاهداف والغايات ، فانه يكون مخالفا لأسس التربية الصحيحة مخالفة كلية .

ويمكننا أن نقول : « ان قيمة التعليم تقاس بقيمة الغايات التى تقصد به من جهة ، وبجودة الطرق التى تتبع فى خلاله من جهة أخرى ، ولا نغالى اذا قلنا : ان « الغايات » فى هذا الشأن تكون أهم من « الطرق » بوجه عام ؛ لأن « الطريقة تتبع الغاية وتخضع لمقتضياتها » بطبيعة الحال .

هذا ، ومما تجب ملاحظته فى هذا الباب أن تعليم أى علم من العلوم لا يمكن أن يشمل ويستوعب جميع الحقائق المكتشفة والمقررة فى ذلك العلم ، حتى فى الدراسات العالية . فكل تعليم يضطر - بطبيعة الحال - الى انتخاب بعض الحقائق والاهتمام بها أكثر من غيرها . فنستطيع ان نقول لذلك : ان التعليم يتضمن شيئا من الانتخاب ؛ فجودة التعليم تتوقف على حسن الانتخاب ؛ ولا جدال فى أن حسن الانتخاب لا يتيسر الا بموازنة الفوائد التى يمكن الحصول عليها من تعليم كل بحث من الابحاث ، من جميع الوجوه العلمية والتربيوية . ولاشك فى أن هذه « الموازنة » توسع مجال عمل « الغايات فى التعليم » توسيعا كبيرا .

وأما نوع التربية الذى يستهدف والتأثير الذى يتوخى من تعليم كل علم من العلوم ، فيختلف باختلاف العلوم من جهة ، وباختلاف درجات التعليم من جهة أخرى . فالفوائد العملية والاهداف التربيوية التى تستهدف فى تعليم الرياضيات مثلا تختلف عما يتوخى من تعليم الطبيعيات والاجتماعيات . كما أن الغايات التى تقصد فى تعليم هذه العلوم فى المدارس الابتدائية ، تختلف عما يقصد منها فى تعليمها فى المدارس الثانوية والعالية .

ونستطيع أن نقول بوجه عام : ان دور الغايات التربيوية فى التعليم يتضاءل كلما ارتفعت درجة التعليم ؛ ومع هذا فأن التعليم العالى نفسه لا يتجرد عن الغايات التربيوية تماما ، فان هذا التعليم أيضا لا يكتفى بسرد الحقائق وحدها ، بل يستهدف فى الوقت نفسه تعويد الطلاب على « التعلم من تلقاء أنفسهم » ، بمراجعة المصادر وجمع الوثائق وملاحظة الوقائع واستقراء الحوادث . . . حسب ماتقتضيه طرائق البحث العلمى والدرس الذاتى . .

وأما التعليم العالى الذى لايقوم بهذه المهمة خير قيام ، فانه يكون مقصرا فى واجباته الأساسية ، مهما توسع فى سرد الحقائق وتوغل فى شرح الابحاث : .

فلا نغالى اذا قلنا : ان التعليم لا يصبح مقصودا بالذات ، الا فى الدراسات العالية الاختصاصية وحدها .

— ٢ —

ان ما قررناه آنفا فى شان « العلم والتعليم » ينطبق على أمر « التاريخ وتعليم التاريخ » بطبيعة الحال .

فى شأن التاريخ أيضاً نستطيع أن نقول : إن الابحاث العلمية التى تتوخى معرفة الحقائق التاريخية شىء ، والشؤون التعليمية التى تتوخى نشر تلك الحقائق شىء آخر . ومهما بالغنا فى القول بأن « التاريخ » يجب أن يكون الغرض منه معرفة الحقائق معرفة مجردة عن كل غاية ، لا نستطيع أن نقول ذلك فى « تعليم التاريخ » ، بحال . بل لا بد لنا من التسليم بان هذا التعليم يجب أن يوجه نحو غايات تربيوية واضحة . . على أى حال .

ويجب أن نلاحظ زيادة على ذلك ، أن الغايات التربيوية التى يرمى إليها من « تعليم التاريخ » كبيرة وخطيرة جدا ، لأن المعلومات التاريخية تمتاز عن سائر المعلومات بالتأثيرات العميقة التى تحدثها فى الشعور القومى والحس الوطنى ، وبالأدوار العامة التى تلعبها فى تكوين القومية الوطنية .

فان شعور الأفراد نحو أمتهم ووطنهم لا يتأثر بمعرفتهم أو عدم معرفتهم للحقائق الطبيعية مثلا ؛ غير أن شعورهم هذا يتأثر تأثراً شديدا من علمهم أو عدم علمهم بالوقائع التاريخية التى تعاقبت على الوطن والأمة فى سالف الأزمان .

ويمكننا أن نقول : ان الشعور القومى يستند على « الذكريات التاريخية » أكثر من كل شىء آخر . ونستطيع أن نؤكد أن « الأفكار والمعلومات المتعلقة بالتاريخ » تلعب دورا هاما فى حياة الامم ، وتؤثر تأثيراً كبيرا فى سير حوادثها .

ولهذا السبب نجد أن الامم المتمدينة بأجمعها تهتم بالتاريخ اهتماماً عظيما . فهى لا تكتفى بالتذكير بالماضى بواسطة الدروس والمؤلفات بل تبذل أنواع الجهود لاقامة التماثيل والانصاب ، بقصد « تجسيد وتخليد الذكريات » ؛ كما تنتهز جميع الفرص لاقامة الاحتفالات ، لاحياء ذكر بعض الوقائع التاريخية ، بقصد استثارة انتباه الشعب وإيقاد نار الذكريات القومية فى قلوب الناس .

كما نشاهد أن الدول المستعمرة ، عند ما تستولى على أمة من الامم ، تحاول أن تدعم استيلاءها العسكرى باستيلاء معنوى ، وتعتبر السيطرة على « المعلومات التاريخية » من أهم وسائل هذا الاستيلاء . ولذلك ، حالما تنتهى من الاعمال التى تمحو بها الحكومة المحلية وقواها المختلفة ، تأخذ فى تصويب سهامها نحو

« التاريخ القومى » ، وتبذل كل ما لديها من الوسائل لاخفات صوت ذلك التاريخ ، وتستعمل كل ما لديها من الحيل لابعاد ذاكرة الأمة عن تاريخها الخاص .

كما نجد أن الشعور القومى عند الأمم المحكومة يأخذ فى الخمود والتضاؤل عند ما يسحب النسيان ذيله على « التاريخ القومى » ولا سيما عند ما تنصرف الأمة عن تاريخها الخاص إلى « التاريخ » الذى تلفقه وتعرضه عليها السلطة الحاكمة . . حسبما تقتضيه سياسة السيطرة والاستعمار .

وأما عودة الشعور القومى إلى مثل هذه الأمم المحكومة فلا تتم إلا بعودة الذكريات التاريخية ؛ ولا نغالى إذا قلنا : إن حركات الاستيقاظ والانبعاث ومجاهدات الاستقلال والاتحاد . . لا تبدأ إلا بتذكير الماضى واستلهام التاريخ ، هذه حقيقة ناصعة تتجلى من بين صفحات التاريخ بوضوح تام .

فان « حب الاستقلال » يتغذى بذكريات الاستقلال المفقود ؛ والتوقان الى السؤدد والمجد يبدأ بالتحسر على السيادة الماضية والمجد السالف ؛ والايمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من الاعتقاد بماضيها الباهر ، والنزوع الى الاتحاد يزداد شدة وحماسة بتجدد ذكريات الوحدة المضاعة . . . هذه كلها حقائق ثابتة ، تشهد بها جميع التواريخ ، من تاريخ استقلال اليونان الى تاريخ اتحاد الألمان ، ومن تاريخ ثورة الصرب الى تاريخ وثبة الأتراك . .

ولذلك كله نجد ان جميع علماء التربية يتفقون فى القول بان دروس التاريخ من أهم وسائط التربية الوطنية والقومية .

فهل يجوز - وهذه هى الحال - للمعلمين والمؤلفين أن يتعاموا عن ملاحظة تأثير المعلومات التاريخية فى هذا المضمار ، وألا يستفيدوا من تأثيرها هذا فى تقوية الروح القومى وتوجيه الشعور الوطنى نحو الأهداف التى يتطلبها مجد الأمة ونهوضها ؟

— ٣ —

يظن البعض أن استخدام دروس التاريخ كواسطة للتربية الوطنية والقومية وتكييف كتب التاريخ لمقتضيات هذه التربية ، هما من الخطط والنزعات الخاصة بالأمم التى تدار بالديكتاتوريات الوطنية ؛ والواقع أنه لا فرق بين هذه الأمم وغيرها فى ذلك . ونحن لا نعلم بوجود أمة بين الأمم الراقية تجردت عن هذه النزعة فاهملت الاستفادة من دروس التاريخ فى هذا المضمار .

وإذا تجلت آثار هذه النزعة الآن عند فريق من الأمم بوضوح أكبر فما ذلك إلا لأن هؤلاء غيروا نظام حكمهم حديثاً فاضطروا لذلك إلى القيام بتكييف تاريخهم لمقتضيات هذا النظام الجديد بصورة فجائية وعلى رؤوس الأشهاد ، فى حين أن غيرهم أقدموا على مثل هذا العمل قبلهم ، فأوجدوا لأنفسهم تاريخاً مكيفاً بمقتضيات الوطنية ، منذ مدة غير يسيرة من الزمن . . . فيمكننا أن نقول : إن الفرق بين الفريق الأول والفريق الثانى ينحصر فى تاريخ عملهم بهذه النزعة ، لا فى انقيادهم اليها أو انصرافهم عنها .

ومن الغريب أننا نجد بين مفكرى الفريق الثانى من الأمم من ينتقد بشدة الخطط التى يتبعها الفريق الأول فى هذا الباب . غير أننا نشبه انتقادهم هذا بعمل بعض الأمم المستعمرة التى تستهجن فكرة الاستعمار عند ما تشاهد آثارها عند غيرها ، مع أنها كانت ولا تزال من آباء الاستعمار وأبطاله ، ومع أنها تنعم بخيرات مستعمرات كثيرة ولا تتوانى فى التوسل بجميع وسائل العنف والشدة لإدامة سيطرتها عليها .

فيجب علينا ألا تنخدع بمثل هذه الدعايات والانتقادات السياسية وأن نعلم علم اليقين أن تكييف دروس التاريخ بمقتضيات القومية والوطنية من الخطط التى تعمل بها جميع الأمم من غير استثناء ، ومن الخطط التى تتحتم على جميع الأمم المستضعفة بوجه خاص . . .

هذا ويجب أن نلاحظ فى الوقت نفسه أن « التكييف » الذى نشير اليه لا يستلزم « الاختلاق » . لان « الانتخاب والإبراز » وحدهما يكفلان « التكييف » ويكفيان « للتوجيه » بوجه عام

وذلك لأن الوقائع التاريخية تؤلف سلسلة طويلة لا مجال لتحديدها ، بل شبكة معقدة لا حد لتعقيدها ، فعدم ذكر الوقائع بأجمعها - قصداً أو اضطراراً - واختيار بعضها أو تفصيله أو اختصاره - كل ذلك مما يغير منظر الوقائع وتأثيرها النفسى تغييراً كبيراً ، كما تتغير الألوان حسب مشيئة المصورين ، تبعاً لتغيير أنواع الأصباغ التى تمزج بعضها ببعض من جهة ، ولتغير نسب هذا المزج من جهة أخرى .

ولذلك نستطيع أن نقول : إن عملية الاختيار والإبراز ، إذا كانت من الامور المهمة فى جميع فروع التعليم ، فهى فى منتهى الاهمية فى تعليم التاريخ .

لنذكر مثالا بسيطاً لتوضيح تأثير عملية الانتخاب والإبراز فى مثل هذه الامور لنفرض أننا نود أن نبحث عن علاقة فرنسا

بوحدة إيطاليا : فاذا استعرضنا الحوادث التى تعاقبت فى إيطاليا منذ حروب نابليون إلى حرَب السبعين ، ولاحظنا علاقة هذه الحوادث بسياسة فرنسا وأعمالها ، وجدنا أن هذه السياسة كانت مساعدة لوحدة إيطاليا فى بعض الاحوال والادوار . ومعرقلة لها فى أحوال وأدوار أخرى ، فاذا ذكرنا النوع الاول من الوقائع دون أن نبحث عن النوع الثانى منها ، أو إذا سردنا النوع الثانى من الوقائع دون أن نتطرق إلى النوع الاول منها . سنوصل قراءنا وطلابنا إلى أحكام متخالفة ومتعاكسة فى هذا الباب . وهذا الاختلاف سيظهر حتى عند عدم إهمال ذكر نوع من نوعى هذه الوقائع اهمالا تاما ، بل نتوسع فى شرح أحد النوعين ونكتفى باشارة مختصرة فى النوع الآخر .

وهذا ما يحدث فعلا فى تدوين وتدريس هذه الوقائع التاريخية فى مدارس كل واحدة من هاتين الدولتين . فان الفرنسيين يوجهون الأنظار إلى الوقائع التى كانت من نوع المساعدة للوحدة الايطالية ، ويبرزون هذه الوقائع أكثر من غيرها . . فى حين أن الايطاليين — بعكس ذلك — يوجهون الأنظار إلى الوقائع التى كانت من النوع الثانى ، ويتوسعون فيها أكثر من غيرها ولهذا السبب تجد أن رأى الايطاليين فى هذه القضية يختلف عن رأى الفرنسيين اختلافا بينا فى معظم الأحوال

وقد لاحظ الكثيرون من رجال الفكر والسياسة ، التأثير الشديد الذى يتأتى من دروس التاريخ فى إدامة الضغائن وإثارة الحروب بين الأمم ، فاخذوا يفكرون فيما يجب عمله فى هذا الباب ؛ وهذا ما حمل عصبة الامم على الاهتمام بالأمر اهتماماً خاصاً ، وتكوين فرع مختص بشئون تعليم التاريخ بين جوانب معهد التعاون الفكرى الأممى . . كما حمل عددا كبيرا من المربين والمؤرخين على عقد مؤتمرات أممية عديدة للمداولة فى القضايا المتعلقة بدروس التاريخ . . .

وإذا تتبعنا مناهج هذه المؤتمرات ونشراتها ، ولاحظنا أعمالها ومقرراتها ، نجد أنها لم تعارض قط فى « استخدام التاريخ كواسطة للتربية الوطنية » وكل ماطلبته من المعلمين والمؤلفين فى هذا الباب ، انحصر فى التماس السعى إلى تخليص دروس التاريخ وكتب التاريخ من الأبحاث والاتجاهات التى تثير الضغائن وتحول دون التفاهم والتقارب بين الأمم

إنها دعت المعلمين والمؤلفين إلى توجيه جهودهم وأعمالهم إلى هذا الاتجاه على الدوام ، دون أن تطلب إليهم أن يجردوا دروسهم وكتبهم من النزعات القومية والوطنية . أو يتركوا الاستفادة من التاريخ فى التربية القومية والوطنية

وعلى كل حال نحن نستطيع أن نؤكد أن « تعليم التاريخ » يستهدف التربية الوطنية والقومية قبل كل شىء ، عند جميع الأمم بدون استثناء

— ٤ —

بعد هذه التفصيلات يجدر بنا أن نعود إلى أنفسنا ونتساءل عما يترتب علينا عمله فى دروس التاريخ ، نحن الناطقين بالضاد .

نحن نعتقد بأن حاجتنا إلى الاستفادة من التاريخ فى التربية الوطنية والقومية ، تفوق حاجة جميع الأمم على الاطلاق . لأن حالة العالم العربى الآن تزيد فى احتياجه إلى الاستفادة من دروس التاريخ وكتب التاريخ فى هذا المضمار زيادة هائلة .

هذا ويجب ألا ننسى من جهة أخرى أن موضوع تأليف وتدريس التاريخ — فى العالم العربى — ظل بعيداً عن مقتضيات البحث العلمى والتربية الوطنية فى وقت واحد

وذلك لأن المؤلفات التاريخية العربية تستند إلى نوعين من المصادر : غربية وشرقية ؛ والمصادر الغربية لم تتخلص تماماً من تأثير « النظرات الأوربية » التى نشأت على معاداة الشرق واستضعاف العرب حتى الآن . . . وأما المصادر الشرقية فقد ظلت بعيدة عن التطورات العلمية والنزعات التربوية فى وقت واحد . . .

فيجب علينا فى مرحلة النهضة التى وصلنا إليها أن نعيد النظر فى أبحاث التاريخ بروح علمى وشعور قومى ؛ وأن نوجد لأنفسنا — على هذا الأساس — مؤلفات تاريخية تجمع بين مقتضيات البحث العلمى ومطالب التربية الوطنية فى وقت واحد . .

« بغداد » أبو خلدون

فى الحب وتهيؤ النفس له

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أشرت فى فصل إلى الوقت الذى تكون فيه النفس أحسن تهيؤا للحب وقلت إنه وقت الفتور الخفيف ، لا النشاط ولا التعب الشديد . وقد رأيت أن كثيرين استغربوا هذا ؛ فيحسن أن أبين ما أعنى وأن أجلوه إذا استطعت . وخير وسيلة لذلك أن نضيق دائرة الاحتمالات وأن نسأل أنفسنا فى أية ساعة يا ترى من ساعات الليل أو النهار يكون المرء أقوى استعداد نفس للحب ؟ . أيكون ذلك فى الصباح حين ينهض المرء من النوم مستريحا مجدد النفس موفور النشاط ؟ أى على الريق ؟ . لا أظن ! وأحسب أنه لو خطرت أمام المرء فى هذه اللحظة أبرع الفتيات جمالا ، وأرشقهن قداً ، وأسحرهن لحظاً ، وأحلاهن ابتسامة ، لما كان لجمالها من الوقع إلا أيسره . نعم يطرف المرء ويفرك عينيه ليستوثق من أنه ليس فى حلم ولا يسعه بعد أن يوقن أن عينيه لم تخدعه إلا أن يعجب بالقد الرشيق والرونق البارع . وقد ينطق فيقول « ما شاء الله . سبحان ربى الخالق » ولكن الأمر يقف عند حد الاعجاب . أوقل إن السهم لا يستطيع أن ينفذ من اللحاف . وليس أحلى من أن يستطيع المرء أن يستأنف النوم بعد أن يستيقظ فى البكور ، فان للنوم فى هذه اللحظة إغراء لا أعرفه يكون له فى ساعة أخرى ؛ والرجل الذى يسعه أن يقاوم إغراء النوم فى البكرة المطلولة لا أظن شيئا آخر يعجزه . والجسم فى هذه الساعة يكون مستريحا إلى تفتير الراحة فيكون المرء مستيقظا ولكن ينقصه النشاط الكافى والتنبه التام ومن هنا لا يحدث الحسن أثره لأنه لا يلاقى وعيا كاملا .

أم ترى يكون الحب أسرع الى النفس وأنفذ إلى القلب حين يخرج المرء فى الصباح ؟ لا أظن أيضاً ! فان القوى تكون مجددة والنفس منتعشة . ومعنى هذا أن نشاط الانسان جم وأن قدرته على المقاومة تامة ؛ ففى وسع الانسان أن يعجب فى هذه الساعة ما شاء من غير أن يقع فى الشرك أو يصاب فى مقتل . والحب مرض

ومن الحقائق التى لا مكابرة فيها أنه كلما كان الجسم أصح كانت مقاومته للمرض أوفى وأكبر ؛ وما من ساعة يكون فيها الجسم أوفر نشاطا ، وأعظم استجماما ، كساعة الصباح ، بعد راحة النوم العميق الكافى ومن كان يعرف أن أحدا أصيب بالحب فى الفجر أو الصبح فليتفضل على بنبأ ذلك فان العلم به ينقصنى ؛ وقد قرأت كل ما وسعنى أن أقرأ من شعراء العرب والانجليز وغيرهم واطلعت على ما وقع لى من التراجم والأخبار ومن قصص العشاق الصحيحة والكاذبة المختلفة فلم أر أن أحداً أحب على الريق ، فاذا كان هناك من اهتدى إلى غير ذلك فانه يكون أحسن توفيقا وأنا مستعد لتصديقه وتصحيح رأيى

ولا أكاد أتصور أن يحب المرء وهو جائع ولا بعد أن تكتظ معدته بالطعام ؛ فاما قبل أن يأكل فلأن إلحاح المعدة يشغله ويستغرق عنايته ولا يترك له بالا الى أمر آخر . وأما بعد الأكل فان الامتلاء يصرف جهد الجسم إلى المعدة ؛ أو اذا شئت فقل إنه يعدل المزاج فيشعر المرء أن كل شىء فى الدنيا على ما يرام . وأنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، فلا تكون له رغبة ولا فيه استعداد لتغيير هـذه الحالة وإبدالها بغيرها مما لعله مزعج أو ناف لهذا الشعور السار الذى تسكن اليه النفس . وقد جربت ـ وأظن أن غيرى جرب أيضاً ـ أن أسباب الخلاف والنزاع وخصوصا بين الرجل وزوجته تقة جدا ، وكثيرا ما تزول جملة ، بعد الأكل لسببين : الأول أن الجسم يشغل بما حشى به وما صار أولى بجهده ؛ والثانى أن الشعور بلذة الامتلاء ـ وهو شعور راجع الى الحرص على الحياة ـ وما يفيده ذلك من الرضى والاغتباط لا يدعان محلا للعود إلى خلاف سخيف خليق أن يفسد هذا الشعور الجميل

وأنا لا عالم ولا فيلسوف ولا شىء على الاطلاق مما يجرى هذا المجرى ، وانما أتكلم بما أعرف وأتحدث عما جربت ؛ والذى عرفته وجربته هو أن المرء فى الصباح يحس حصانة ومناعة ـ من الأمراض ومن الجمال ـ وقلما يعنى بأن يتبع النظرة النظرة فى هـذا الوقت ؛ ولو أن اليوم كله صباح لكان على

الحب السلام ، ولكن اليوم ليس كله صباحا مع الأسف . والمثل يقول اذا أردت أن تطاع فمر بما يستطاع . وما من أحد يستطيع أن يكون فى الظهر كما يكون فى الصباح ، ولا فى التاسعة صباحا كما يكون فى التاسعة مساء . فى الصبح يكون قويا قادراً على العمل كفؤا لمقاومة المغريات لأنه مستجم مستريح ، فاذا جاء الظهر يكون قد تعب وشعر بالفتور وبالحاجة الى الراحة والطعام ـ أو الطعام والراحة ـ ويكون العمل قد هد منه وسرق من قوته وسلبه بعض ما ادخره للكفاح والنضال . ولكن الحاجة إلى الطعام تكون أقوى ما يحس وألح ما يدرك ، فيصرفه ذلك عن كل ماعداه ولا يبقى له هم إلا أن يجلس إلى مائدة حافلة بما يسكت هذه العصافير المزقزقة ويعفيه من ثقل الشعور بما يتلوى فى جوفه . فاذا رأى جمالا فبعيد جدا أن يحبه مهما بلغ من ظما النفس الى الحب ؛ وقد يشعر بالسرور وينشرح صدره ولكنه لا يتمهل فى عدوه إلى البيت أو إلى حيث يكون الطعام الذى يطلبه ما لا سلطان له عليه ، وأحسب أن كل ما تؤدى اليه رؤية الجمال فى هذه الساعة هو أن السرور يزيد القدرة على التهام الطعام .

ويأكل المرء وينام ويستيقظ ويقوم متثاقلا ، وقد أصاب حظا من الراحة ـ لا كل ما يحتاج اليه ـ ويستحم أو يكتفى بغسل رأسه ووجهه ولكن الثقلة لا تزايله ، لأنه لم يستوف نصيبه العادل من الراحة ، ولم يعوض كل ما انفقه فى يومه ، فهو لا يزال متعبا ولكنه تعب خفيف لا يشق على النفس ولا يبهظ الجسم احتماله . وهذا هو الوقت الخطر على ذى القلب الحساس . ويستوى أن يكون الوقت العصر أو نصف الليل فإن المهم أن يكون الجسم متعبا بعض التعب وأن يكون تعبه بحيث لا يثقل عليه ولا يمنعه أن يخرج ويجالس الناس ويشهد السينما ويسهر مع الساهرين ويلتمس المتع التى يلتمسها الناس فى العادة بعد أن يفرغوا من أعمالهم ويتخلوا لأنفسهم . والتعب الخفيف هو الخطر . وهذا لا وقت له على وجه التعيين فقد يكون العصر وقته عندى فى يوم والصباح وقته فى يوم آخر . والتعب الخفيف هو فرصة الأمراض والحب لأن المرء لا يفطن اليه ولا يباليه ولا يتحرز من عواقبه ولا يحاول أن يقاوم ما يهجم عليه فى فترته ، فكأن المرء يؤخذ على غرة ، وأهبته للكفاح والمقاومة غير تامة .

ولو عنى الانسان بأن يدرس نفسه ويتدبر حالاتها لوجد أنه لا يمكن مثلا أن يفضى بسر له يحرص عليه وهو مستجم مستريح الجسم ، وانما يبث نجواه ويقول بسره وشجوه حين يكون متعبا قليلا ـ كائنا ما كان سبب التعب ، فقد يكون ذلك من جراء العمل أو يكون بفعل الخمر أو يكون بعد المشى مسافة طويلة أو بعد جلسة يمتد زمنها ، أو على أثر برد خفيف إلى آخر ذلك ـ وصاحب الجسم المستوفى نصيبه من الراحة لا يخطر له مثلا أن يخوض بحثا فى نظام الكون ، ويروح يجزم بما يدور فى نفسه من الأوهام التى يحسبها حقائق لا تدفع ، لان صحة الجسم تساعد على إدراك القصور الانسانى . وإنما يفعل ذلك الذى به تعب خفيف لا يحسه ، ولا يعرف له وطأة . والتعب الخفيف يهيج شهوات الجسم كما يتيح لجراثيم الأمراض فرصة العيث ، فيلقى المرء نفسه غير قادر كما ينبغى على المقاومة ، ويحس أنه أصبح طوع الجواذب ؛ فاذا عرضت عليه كأسا لم يطل تمنعه ، وقد تحدثه نفسه بأن ذلك ربما كان أجلب للنشاط وينسى رد الفعل الذى يعقب هذا النشاط المجلوب . وإذا خايله الجمال تحركت نفسه كما لا يمكن أن تتحرك وهو موفور القوة أو شديد التعب . واذا استطرد الحديث إلى ما وراء الطبيعة جازف بالآراء وقطع وجزم بلا تردد أو تلعثم . وليس ذلك من الثقة بالنفس ولا من طول التدبر والنظر وانما هو من الفتور الحاصل الذى يغرى بالكسل واتقاء عناء البحث الذى يزيد به التعب . والمرء فى هذه الحالة لا يكسل وهو شاعر بكسله ولا يتقى العناء وهو عارف بأنه يتقيه ، وانما يفعل ذلك بغريزته التى تدفعه من حيث يشعر ولا يشعر إلى وقاية نفسه والمحافظة عليها .

ومتى جاوز التعب ـ أعنى الشعور به ـ الحد الذى يسهل احتماله ويهون الصبر عليه فقد استحال الحب . فالمتضور جوعا ، والذى يرعد من البرد ، والذى به مغص أو غيره من المزعجات والمنغصات ، والذى يكاد يسقط من فرط الاعياء ، والذى يغالبه النوم ويثنى رأسه النعاس الخ الخ لا يمكن أن يجد الحب سبيلا الى قلبه قبل أن يزول ذلك عنه ، واذا اتفق أنه كان عاشقاً فانه لا شك ينسى حبه وعشقه حتى يشفى

أو يستريح أو يشبع ، ومن كان لا يصدق فليجرب وليختبر نفسه . وفى وسع كل إنسان أن يجعل باله إلى حالات نفسه فى الصحة والمرض وفى الجوع والشبع وأن ينظر هل يكون له عقل يفكر فى حبيب وهو جائع أو بردان أو متألم أو متهافت من النصب .

والمرأة تدرك هذه الحقائق بغريزتها الذكية ، فهى دليل على صحة ما أقول . واسألوا أنفسكم متى ترون المرأة تعنى بزينتها وعرض محاسنها على الرجل فلن تجدوها تفعل ذلك فى الوقت الذى تحس فيه أن الرجل مستجم مستريح أى قادر على مقاومة فتنتها ، وإنما نراها تفعل ذلك وتلجأ إلى معونة الثياب المنسجمة على الجسم المبرزة للمفاتن ، وإلى المساحيق التى تؤكد الإشراق والنضرة فى وقت التعب الخفيف لا فى وقت النشاط التام ولا وقت التقوض والانهداد . وأحسب أن من المفهوم أن كلامى هو على المرأة حين تتصدى للرجل بحكم طبيعتها لا عامدة ولا حين تخرج لعملها إذا كانت تعمل أو لقضاء حاجة لها فما تستطيع إلا أن تتزين إلى حد ما تبرز للناس لأن طبيعتها تغريها بأن تحشد قوتها كلها وسلاحها أجمعه على سبيل الاستعداد للمنازلة ، ولو كانت فرصتها بعيدة فان الأمر بين الرجل والمرأة أمر حرب — هى تقاتله وتحاول أن تغلبه بالجمال وهو سلاحها وهو يقاومها ويحاول أن يغلبها بقوته وجلده الخ ، وقد يكون من غريب أمر هذه الحرب أن النصر فيها موزع وأن الذى يبدو فيها ظافراً كثيراً ما يكون هو المهزوم ، وأن الذى يتظاهر بالتسليم وإلقاء السلاح عسى أن يكون هو الغالب المنصور بل الفريقان المقتتلان لا نصر لهما ولا هزيمة ، وإنما النصر للحياة التى تسخرهما لغاياتها وتتخذ منهما أداة . ولكن هذا استطراد فلنعد إلى سؤالنا ، ولنتوسع فيه قليلا . فهل يظن أحد أن من المصادفات البحتة أن المرأة لا تتزين فى الأغلب إلا فى العصر أو المساء أو الليل ؟ . إن ثياب المرأة للزينة ، قبل أن تكون للمنفعة — وكذلك ثياب الرجل إلى حد كبير — ولكن الزينة مقدمة على المنفعة عند المرأة ، لأن المرأة هى الشرك الذى تنصبه الحياة للرجل والزينة تؤكد الجمال وتبرزه . وهل يستطيع أحد أن يزعم أن هذه الثياب التى تلبسها المرأة لها أدنى نفع فى وقاية أو ستر؟ ولكنها لا تعني بالزينة فى الأوقات التى تقول لها غريزتها إنها تكون زيادة لا داعى لها ولا تأثير ، مثل الصباح الباكر أو قبل الظهر حين يكون الناس جياعا ، فاذا مال ميزان النهار الذى هو وقت العمل الطبيعى وأحدث العمل اليومى أثره الذى لا بد منه وأنتج السعى للرزق أو غيره ذلك الفتور الخفيف وأنشأ الرغبة فى اللهو والتسرية عن النفس والتماس ما ينسى الانسان تعب النهار ومشقات العمل ومتاعب الحياة — اذا جاء هذا الوقت رأيت المرأة معنية بزينتها وثيابها ، ومن هنا كانت ثياب السهرة وتوخي المرأة فيها أن تجعلها ثياب جلوة ، تجلو محاسنها كلها وتعرض مفاتنها وتحيلها أوقع فى النفس ، ولو كان الأمر الى العقل وحده وإلى الفائدة المطلوبة من الثياب لما كان الليل أحق بهذه الثياب من النهار ، ولكن الغرض ليس الفائدة بل الفتنة ، والفتنة تكون أسهل ومطلبها أيسر بعد تعب النهار وبعد حلول الفتور الخفيف الخفى الذى يساعد على التغلب على الفريسة .

ولنسأل سؤالا آخر : لماذا يحلو الغزل والمناجاة فى الليل الساجى وفى ضوء القمر اللين ولا يحلوان تحت الشمس المحرقة وفى الظهر الأحمر ؟ . وأجمل الجواب اتقاء للاطالة فأقول : إن الليل هو وقت الفتور ، وإن سهوم القمر وسكونه يزيدان هذا الفتور ، وإن اجتماع الفتور الطبيعى بالليل بعد الكدح بالنهار واللين المفتر الذى يحسه الانسان من ضوء القمر يجعل مقاومة الإغراء أضعف ، لما يحدثه ذلك من استرخاء الأعصاب وكسلها ؛ وشىء آخر أحسبه حقيقة وإن كنت لا أعرف له علة وذلك أن للقمر أثراً محسوساً فى حالة الأعصاب . ومن هنا يعتقد العامة أن طول النظر إلى وجه القمر يحدث الخبل ويورث الجنون ؛ ولا أعرف علة لذلك ولست أدرى أن العلم اهتدى إلى تعليل له ، ولكن الذى أعرفه أن للقمر أثراً معترفا به فى المد والجزر ، فما دام أن له هذا الأثر فاذا يمنع أن يكون أثره أبلغ وأوسع نطاقا وأمس بحياة الجسم الانسانى وحالاته ؟ إن الماء الذى يؤثر فيه القمر ليس شيئا أجنبيا منا وإنما هو بعض ما نحيا به ، بل هو أصل لا مكابرة فيه . ثم إن أثره فى المرأة معروف ، حتى أن الدورة عندها تحسب بالشهر القمرى . والذى أعرفه أيضا أن الناس من أقدم العصور قرنوا ضوء القمر بالجنون ولا تزال فى اللغات المختلفة ألفاظ يفهم منها اقتران معنى الجنون

بضوء القمر . بل إن اللفظ الدال على الجنون فى لغات كثيرة مشتق من اسم القمر . وعسى من يسأل : ولكن ماعلاقة هذا بالحب ؟ ، والجواب أنى لفت النظر إلى أن الغزل والمناجاة يكونان فى الأغلب والأعم فى الليل ويطيبان فى ضوء القمر . وقد قلت إن تجربة الناس من أقدم العصور هدتهم إلى أن للقمر أثراً سيئا فى عقل الانسان واتزانه ؛ وقد بقى فى لغاتهم أثر هذا الاعتقاد . وقد يكون أو لا يكون هذا صحيحاً ولكنه خلاصة تجارب الخلق ومشاهداتهم فى عصور طويلة لا يعرف لها أول ، وبعيد جداً أن يكون كله وهما . ومهما يكن من ذلك فالمحقق أن ساعات الليل ساعات ضعف بالقياس إلى نشاط النهار بعد راحة النوم الكافى . فالتأثر بالجمال يكون فيها أقوى والمقاومة تكون أضعف

وقد قلت إن الحب شرك تنصبه الطبيعة للانسان لابقاء الدنيا عامرة بنسله – لا أدرى لماذا – ولكن هذا هو المشاهد على كل حال . فى هذا يحسن أن أقول كلمة وجيزة : سئلت امرأة عجوز عن آرائها فى بعض وجوه الحياة فقالت : إن سخافة الرجال تظهر فى ثلاثة أمور : الأول أنهم يتكلفون عناء شديداً ليتسلقوا الشجر ويقطفوا الثمر ؛ ولو صبروا وأراحوا أنفسهم وجلسوا ينعمون بالظل تحت أفنان الشجرة لألقت إليهم بثمرها فى أوانه . والثانى أنهم يذهبون إلى الحرب ليقتل بعضهم بعضاً ؛ ولو انتظروا لجاءهم الموت جميعاً والثالث أنهم يجرون وراء المرأة ؛ ولو كفوا عن ذلك لجرت وراءهم المرأة . فهذه عجوز حكيمة . وأحسب أن حكمة الصبر هذه يرجع الفضل فيها إلى السن العالية وما تجره من العجز . ولكن الواقع على كل حال أن المرأة هى التى تطارد الرجل وليس الرجل هو الذى يطارد المرأة . وقد كنت فى أول عهدى بالأدب أستنكر قول ابن الرومى :

أصبحت الدنيا تروق من نظر
بمنظر فيه جلاء للبصر
أثنت على الله بآلاء المطر
فالأرض فى روض كأفواف الحبر
نيرة النوار زهراء الزهر
تبرجت بعد حياء وخفر
تبرج الأنثى تصدت للذكر

والشطر الأخير هو المقصود . وكنت أستثقل قوله إن المرأة تتبرج لتتصدى للرجل ولكن المرء يزداد فهمه للحياة على الأيام . وإنه ليضحكنى الآن أن الرجل يتوهم أنه هو الصائد الجرىء المقدام الذى يوقع منظره الخشن الرعب فى قلب المرأة المسكينة الضعيفة ! وإنما يضحكنى أن هذا الوهم وما يفضى اليه من الغرور هما اللذان يوقعانه فى شرك المرأة . فهو ينسى لغروره أنه لا يفكر فى الحب إلا بعد أن تلقحه المرأة بجرثومته ، أى بعد أن يصاب به ، على حين كانت المرأة تعد عدتها لهذا اليوم وتتدرب على إجادة هذا الفن وتدرس كل أساليب الأغراء مذ كانت طفلة فى المهد . وهذه مبالغة ولكنى أريد أن أقول إن الطبيعة جعلتها أداة لإغراء الرجل وأعدتها بفطرتها لاجتذابه واستدراجه وإيقاعه فى الفخ . وهى فى هذا لا تحتاج إلى معلم . وحسبها غريزتها هادياً ومرشداً . وهى تتقن فن الاستدراج اتقاناً عظيما وتعرف فى أية لحظة ينبغى أن تزيد المسافة بينها وبين الرجل الذى تدعه يتوهم أنه هو الذى يبدأ بمطاردتها ، وتعرف متى تنباطأ وتقصر الخطو ، لتزيد أمله فى إدراكها ، فيقوى عزمه ويشتد عدوه وراءها والمرأة أعرف بالمرأة ، أو هى أولى بذلك من الرجل وأخلق بأن تكون أقدر عليه ، وقد وجدت فى كتاب لكاتبة اسمها « الينور جلين » - واسم الكتاب « العاطفة التى تدعى الحب » هذه النصيحة التى يجدر بكل رجل أن يتدبرها قالت :

« قاعدة عامة - أول ماينبغى أن تتذكريه هو الا تظهرى رغبة شديدة أو إقبالا عظيما أولهفة ، فان الغرض هو الاستيلاء على الرجل . والرجل مهما بلغ من وداعته وضعفه يجب أن يتوهم أنه هو الذى يقوم بالمطاردة . ولا بد للفتاة التى تخرج للقنص والصيد من أن تدرس أساليب الصيد ووسائله وأن تستعين على التوفيق بمعرفة طباع القنيصة . ومامن رجل يعتقد أن فى وسعه أن يصيد غزالا بأن يجرى وراءه ويصيح به . والأساليب التى يستخدمها لصيد الفهود والنمور غير التى يلجأ اليها حين تكون غايته الأرانب ، ومتى استطعت أن تثيرى اهتمامه بك فليس عليك بعد ذلك إلا أن تغذى نفسه ببواعث الرغبة فاذا هو بين يديك ، واعلمى أن الرجل يجد لذة فى

المطاردة، ولكن حماسته تفتر متى ألقى الطريدة فى حقيبته. وإذا وجد أن الصيد سهل جداً فقلما يعنى بأن يمد يده ليتناوله وقد يدعه على الأرض حيث وقع. أما إذا كان الطراد شاقاً عنيفاً مثيراً وكانت الطريدة شديدة الحذر طويلة الصبر على جهد الطراد فان الرجل خليق بأن يزهى بالفوز بها وأن يروح يعرض الصيد على العيون مفاخراً مباهياً، ا هـ.

ولا شك أن الواجب الذى وكلته الطبيعة إلى المرأة شاق، فليس من السهل أن تلعب دور الهارب وهى فى الوقت نفسه مصممة على الوقوع فى يد المطارد. فقد تطول المسافة بينها وبينه جداً فييأس وينكفئ راجعاً ويعدل عن المطاردة. فاذا تركته يدنو منها جداً ويدركها بسرعة وسهولة وبلا جهد يستحق الذكر فقد ينفض يده من الأمر لأنه يراه أسهل عليه من أن يحس أنه يفيد منه متعة ويروح يلتمس صيداً غيره يستحق العناء. فالأمر يتطلب حذقاً فى التقدير وبراعة وسرعة فى التقرير من جانب المرأة. ومن هنا يحدث كثير من المضحكات التى يعجب لها الرجل ولا يرى له قدرة على فهمها. وكثيراً ما يفوته الجانب المضحك لأنه يشغل بالفهم على طريقه هو، فيصرفه ذلك عن الفكاهة. من ذلك مثلا أن واحدة اشترطت لقبول الزواج أن يكون للرجل ألف جنيه مدخرة لأن القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود، فراح المسكين يقتصد ويدخر - أو يحاول ذلك على الأصح - وطال الأمر وتعاقبت الشهور وهو يجد ولا يتكلم ولا يظهر أيضاً وكيف يظهر لها قبل أن يجمع المبلغ المطلوب. فلقيته اتفاقاً وسألته عما صنع، فقال: « لم استطع أن أقتصد إلى اليوم أكثر من جنيهين » فابتسمت له بعد أن أطالت النظر اليه وقالت « أظن أن هذا قريب جداً من الغاية ».

وكما أن الرجل يجد لذة فى المطاردة، كذلك المرأة تجد لذة فى أن تطارَد حتى ولو كانت نيتها معقودة على النجاة لا على الوقوع؛ وهذا معقول، لأنه يسر المرأة أن تعرف أنها جميلة وأن الرجل يريدها وإن كانت هى لا تريده. وأحسب أن المتعة المستفادة من الطراد هى كل ما فى الحب من لذاذة؛ ومتى انتهى الأمر ووقعت الفريسة، فتر النشاط والحماسة، وسكنت النفس وهدأت الأعصاب. ومن هنا يخطئ الذين يتوهمون أن للحب عمراً أكثر من عمر المطاردة، ومن هنا أيضاً يخيب أمل الذين يتزوجون وهم يحسبون أن الحب يدوم. وما أكثر من يسألون عن الوفاء والحفاظ ما فعل الله بهما. ولو فكروا لما انتظروا وفاء ولا حفاظاً ولا خاب لهم أمل ولا ندبوا حظوظهم فى الدنيا، فان الحب — ككل شىء فى هذه الحياة — لا عمر له ولا بقاء؛ وهو يبقى مابقيت لذته؛ ولذته تنتهى بانتهاء المطاردة. كل شىء فى هذه الدنيا إلى حين، فلماذا يكون الحب وحده هو الباقى الدائم؟

والمرأة تدرك هذه الحقيقة بغريزتها أيضاً؛ ولذلك نراها تحاول أن تستبقى روح المطاردة بعد انتهائها بما نسميه الدلال وهو فن يراد به أن يشعر الرجل أن به حاجة إلى السعى والجهد فيؤدى ذلك إلى شحذ الرغبة ونفى الفتور وتجدد الطلب، فالحق أن الطبيعة حكيمة وإن كانت حكمتها لا تبدو لنا فى أكثر الأحيان

ابراهيم عبد القادر المازنى

بمناسبة تتويج جلالة الفاروق

رسوم البيعة والتتويج

فى عهد الدولة الفاطمية

للاستاذ محمد عبد الله عنان

يبلغ صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ملك مصر رشده الدستورى فى الثامن والعشرين من شهر يولية القادم . وقد أثيرت بهذه المناسبة مسالة الرسوم والاجراءات التى يحسن اتباعها لاعلان هذا الحادث السعيد ، وافتتاح العهد الجديد بما يليق به من الروعة الملوكية والدستورية .

ومن المقرر أن الدول الملوكية العريقة تتبع فى مثل هذه المناسبة رسومها وتقاليدها الملوكية الخاصة ؛ وقد رأينا كيف أحيطت حفلات التتويج البريطانى بكثير من الرسوم الملوكية القديمة التى يرجع بعضها إلى عدة قرون ؛ ولكن يلاحظ هنا أن الملوكية الانكليزية لبثت منذ قيامها حتى يومنا متصلة الحلقات، يحتفظ العرش بمعظم رسومها وتقاليدها عصرا بعد عصر . أما الملوكية المصرية فقد انقطع سيرها وعفت رسومها منذ الفتح العثمانى زهاء أربعة قرون حتى أعلن المغفور له الملك فؤاد الأول ملكا على مصر فى سنة ١٩٢٢

ومع ذلك فان للملوكية المصرية الاسلامية رسوما وتقاليد عريقة انتهت إلينا منها صور وذكريات باهرة . وقد عرفت مصر الاسلامية هذه الرسوم الملوكية الخاصة منذ استحالت من ولاية خلافية إلى وحدة سياسية مستقلة فى ظل الدولتين الطولونية والاخشيدية اللتين كانتا بالرغم من ولائهما الإسمى للخلافة العباسية تتمتعان ببعض الرسوم والتقاليد الملوكية الخاصة ، مثل صدور البيعة للأمير ، وتحليه بألقاب الامارة وأحيانا بالألقاب الملوكية مثل اتخاذ محمد بن طغج لقب الأخشيد (أى أمير الأمراء) ، أو تمتعه ببعض الامتيازات الملوكية السياسية ، كما فعل الاخشيد حينما اتصل بقيصر قسطنطينية مباشرة فى المكاتبات الدبلوماسية المتعلقة بمصر وغير ذلك ؛ وثانيا حينما غدت مصر خلافة أو دولة مستقلة كاملة السيادة فى ظل الدول الاسلامية المتعاقبة

وقد عرفت الملوكية المصرية رسومها وتقاليدها الراسخة فى ظل الدولة الفاطمية : وكانت هذه الدولة القوية تجنح إلى البهاء والفخامة فى جميع رسومها وتقاليدها . وكانت تولية الخليفة الفاطمى تحاط بطائفة من الرسوم والمواكب الباذخة ؛ ولما قدم المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، بعد أن افتتحها قائده جوهر الصقلى قبل ذلك بأربعة أعوام (سنة ٣٥٨ هـ) لم ترتب إجراءات خاصة لاعلانه خليفة أوملكا على مصر ، لأن المصريين ارتضوه على يد زعمائهم وأعيانهم خليفة وملكا عليهم عند الفتح حينما قدموا خضوعهم لنائبه وممثله جوهر ، وقطع جوهر الدعوة العباسية ، وبدأت الدعوة للخليفة الفاطمى ؛ بيد أنه حينما وصل المعز إلى الاسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢ هـ ، استقبله أعيان مصر وعلى رأسهم قاضيها الأكبر وجددوا له مراسيم الخضوع والبيعة ، وقصد المعز بعد ذلك إلى القاهرة ونزل بالقصر ، وبدأ عهده فى الحكم والولاية فى اليوم الخامس عشر من رمضان ، إذ جلس بالقصر على عرشه الذهبى الذى أعده له جوهر فى الأيوان الجديد ، وأذن بدخول الأشراف ثم الأولياء وسائر وجوه الناس ، وكان القائد جوهر قائما بين يديه يقدمهم إليه فوجا بعد فوج فيأخذون له البيعة والعهد ، وعلى هذا النحو نظمت مراسيم التتويج لأول خليفة فاطمى بمصر

ومنذ عهد العزيز بالله ولد المعز لدين الله تتخذ رسوم التتويج الفاطمية صورها الباذخة ، وكانت هذه الرسوم تجرى أولا فى القصر الفاطمى فى الأيوان الكبير ثم بعد ذلك فى قاعة الذهب التى أنشأها العزيز بالله ، وجددها المستنصر بالله فيما بعد ، وكان بها عرش الخلافة ، وبها يجلس الخليفة أيام المواسم العامة ، ويجلس للركوب يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وبها كان يقام سماط العيدين ، وسماط رمضان للأمراء ، وكانت تعرف أحيانا بقصر الذهب . وكانت مبايعة

الخليفة الجديد تجرى فى حفل عام يرتبه مدبر الدولة أو كبير الوزراء أيا كان لقبه، وصاحب الباب أو حاجب الحجاب وهو أكبر رجال القصر، والإسفهسلار أو القائد العام للجيش، وذلك بالاتفاق مع قاضى القضاة، وهو فى العرف السياسى أعظم رجال الدولة مقاما ونفوذا

وكان ينادى بالخليفة الجديد عقب وفاة سلفه مباشرة؛ ولا فرق فى ذلك أن يكون الخليفة الجديد صبياً أو بالغ الرشد؛ ويقع هذا الاجراء الأول بالقصر أوحيث كانت وفاة الخليفة الذاهب، ويتولاه أعظم رجال القصر نفوذاً أوقاضى القضاة ثم يعقبه اجراء البيعة العامة بالأيوان الكبير وهو أيضا من منشآت العزيز بالله، وجرت فيه بيعة الحاكم بأمر الله فابنه الظاهر لاعزازدين الله، فابنه المستنصر بالله، فابنه المستعلى بالله، فابنه الآمر بأحكام الله. ثم نقل الخليفة الآمر بأحكام الله سرير الملك (العرش الخلافى) من الأيوان الكبير إلى قاعة الذهب، لحلت مكان الأيوان من ذلك الحين فى إجراء الرسوم الخلافية العظيمة؛ وكان الاحتفال بالبيعة عاما يشهده رجال الدولة وأكابر الجند والأعيان وأفراد الشعب، ويبدأ باخذ البيعة للخليفة الجديد قاضى القضاة وأعضاء الأسرة الفاطمية وأكابر رجال الدولة والقصر، ويسلمون عليه بسلام الخلافة وصيغته «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته» ثم يقبلون له الأرض؛ واذا وافق جلوسه يوم عيد، خرج الخليفة فى موكبه إلى الصلاة، كما حدث عند تولية الظاهر لاعزازدين الله حيث وافق جلوسه يوم النحر (عيد الأضحى) فأخذت له البيعة، ثم خرج إلى صلاة العيد، وعلى رأسه المظلة وحوله العساكر، وصلى بالناس، ثم عاد إلى القصر، فكتب بخلافته إلى سائر الأنحاء.

وكان للعرش الفاطمى عدة من الذخائر والآلات الملوكية كانت آية فى الفخامة والبهاء والبذخ، من ذلك سرير الملك، أو العرش الذى يجلس عليه الخليفة يوم توليه الملك، ثم بعد ذلك أيام المواكب والاستقبالات الرسمية. ويقول مؤرخ معاصر فى وصفه: «إن وزن ما استعمل من الذهب الابريز الخالص فى سرير الملك الكبير مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال، ووزن ما حلى به الستر الذى أنشأه سيد الوزراء أبو محمد اليازورى من الذهب أيضاً ثلاثون ألف مثقال، وأنه رصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه. وذكر أن فى الشمسية الكبيرة ثلاثين ألف مثقال ذهباً، وعشرين ألف درهم مخرقة، وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه، وأن فى الشمسية التى لم تتم من الذهب سبعة عشر ألف مثقال، وإلى جانب العرش يوجد تاج الخليفة أو التاج الشريف، وهو تاج يضعه الخليفة على رأسه فى الموكب والأيام العظام، وبه جوهرة عظيمة تعرف باليتيمة زنتها سبعة دراهم، وحولها جواهر أخرى دونها؛ وقضيب الملك، وهو عود طوله شبر ونصف ملبس بالذهب مرصع بالدر والجواهر يحمله الخليفة بيده فى المواكب العظام؛ والسيف الخاص، يحمل مع الخليفة فى المواكب العظام أيضا؛ وله أمير من أعظم الأمراء يحمله عند ركوب الخليفة؛ ومنها المظلة التى تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه، وهى قبة فاخرة ملبسة فى أنابيب الذهب، وحاملها من أعظم الأمراء؛ والرمح والدواة، والدرقة، والحافر، وهى قطعة من ياقوت أحمر فى شكل الهلال تحمل فى وجه فرس الخليفة عند ركوبه فى المواكب العظيمة؛ ومنها الأعلام والبنود والسلاح الخاص الذى يحمله الركابية أو الحرس الملكى.

وقد انتهى الينا وصف بعض المناظر الواقعية التى أحاطت بتولية أحد الخلفاء الفاطميين، وهو الحاكم بأمر الله ولد العزيز بالله، نقلها الينا مؤرخ معاصر هو عز الملك المسبحى وزير الحاكم وصديقه ونحن نعرف أن الحاكم بأمر الله تولى الملك حدثاً عقب وفاة والده العزيز فى مدينة بلبيس فى ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦هـ. يقول المسبحى: «قال لى الحاكم، وقد جرى ذكر والده العزيز بامختار، استدعانى والدى قبل موته، وعليه الخرق والضماد، فاستدنانى اليه وقبلنى وضمنى اليه وقال: وأغمى عليك يا حبيب قلبى ودمعت عيناه. ثم قال امض ياسيدى والعب، فأنا فى عافية

قال ، فضيت ، والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه ، قال فبادر إلى برجوان ، وأنا فى أعلى جميزة كانت فى الدار ، فقال : انزل ، ويحكم الله فينا وفيك ، قال فنزلت ، فوضع العمامة بالجوهر على رأسى وقبل لى الأرض ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . قال ، وأخرجنى حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة ، فقبل جميعهم لى الأرض وسلموا على بالخلافة ، وقع هذا المنظر بمدينة بلبيس فى ٢٨ رمضان ، وفى اليوم التالى سار الحاكم إلى عاصمة ملكه فى موكب رهيب فخم وأمامه جثة أبيه ، وبين يديه البنود والرايات ؛ وقد ارتدى دراعة مصمت ، وعمامة يكللها الجوهر ، وتقلد السيف وبيده رمح فدخل القاهرة عند مغيب الشمس ؛ وفى الحال أخذ فى تجهيز أبيه ، ودفن عشاء بالقصر . وفى صباح اليوم التالى ، بكر سائر رجال الدولة إلى القصر ، وقد نصب للخليفة الصبى فى الايوان الكبير ، سرير من الذهب عليه مرتبة مذهبة ، وخرج من القصر إلى الايوان راكباً وعلى رأسه معممة الجوهر والناس وقوف فى صحن الايوان ، فقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على عرشه . وسلم عليه الجميع بالامامة ونودى فى القاهرة والبلدان أن الأمن موطد والنظام مستتب فلا مؤنة ولا كلفة ، ولا خوف على النفس أو المال

هذه لمحة من الرسوم والتقاليد التى كانت تجرى عليها الدولة الفاطمية فى تولية خلفائها ، وهى رسوم ملوكية عريقة يطبعها لون من البذخ الساحر . وقد كانت الدولة الفاطمية ، وهى أولى الدول الاسلامية المستقلة بمصر ، دولة البذخ والبهاء . وكانت رسومها وتقاليدها فيما بعد مستقى خصبا للدولة الاسلامية التى تعاقبت من بعدها فى عرش مصر (١)

محمد عبد الله عنان

---

(١) رجعنا فى هذا البحث الى خطط المقريزى و وصبح الاعشى للقلقشندى وحسن المحاضرة للسيوطى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وابن خلكان . الخ

دمـــوع الحب

للأستاذ يوسف البعينى

لِتَتَذوق رحيق الفن ، وتتسلل إلى سراديبه الرهيبة وتعانق غوانيه المعطرة .. يجب أن تقرأ - بول فاليرى - فقصيدة واحدة من هذا الشاعر العبقرى المجدد حياة فنية منفردة لها ألوانها وخطوطها وأصباغها . جملة صغيرة من ريشة بول فاليرى تعطيك معنى ألذ من تغريدة البلبل ، وأطرب من أنغام الرباب . وأعذب من الأحلام . . أما الحياة التى تلمسها فى سطوره وصوره فتبكى وتفرح ، تشكو وتبتسم . تغرد للصباح الضاحك ، وتكتئب للمساء الحزين ؛ حياة ككل حياة ، لكنها تختلف برموزها وأسرارها . وهذه الرموز والأسرار هى عبقرية الشاعر العظيم والفنان الملهم ؛ هى كائنه الحى الأعلى ؛ هى روحه التى غاصت فى البحر فالتقطت دره ، وتغلغلت فى الليل فاتشحت بازاره . وفى القلوب فاجتنت ميولها وعواطفها وشهواتها .

لقد قرأت أكثر مؤلفاته فتبينت فيها الفن المجنح الذى يفتح عينيك على صور موشاة بجميع ألوان الحياة وأدهنتها الرائعة . وما إن تحدق قليلا بسطر من سطوره حتى تتولاك رحاب الشاعرية ؛ هى غيبوبة بعيدة القرار يشملك بها الشاعر الفنان فيريك بهجة الربيع واخضراره ، ويسمعك عويل الخريف وشكواه . وإن شاعراً يغمرك بكل ماتشتاقه الروح ويحلم به القلب ليعرف من الحياة غير أسمائها ، ويقرأ من الكلمات أكثر من حروفها ، ويبصر فى مشاهد الأعراس والمآتم غير ما يبصره الناس !

•••

ومن أروع ما طالعته أخيراً لهذا الشاعر الساحر رسالة دعاها - دموع الحب - قرأتها بروح نَهِمة تريد أن تتفهم معانى الحياة وتتكشف أسرار الجمال فاذا هى قطعة فنية

خالبة يشوقك ما فيها من تقديس لدموع الحب ، الحب الذى يتفجر من صدر المرأة فيبقى خافقاً فى روع الماضى والحاضر والمستقبل . وليت شعرى هل فى العالم حديث أعذب من حديث رقيق تدبجه ريشة الفنان المتعبد للمثل الأعلى فى ساعات وحيه وإلهامه ؟ إن الكلمة التى تتحدر فى قلبك وقد تشربت بدموع الحب وتسربلت بضبابه لهى الكلمة الحية ، بل هى الكلمة الخالدة التى تتباغم بها أشباح الأيام والليالى

لكننى وقفت مبهوتاً أمام مقطع صغير عنوانه ـ انتحار ودموع ـ لا لشىء إلا لأنه مقطع تنبو عنه الحياة ، وإن يكن يستظرفه الفن ؛ وينبذه الحب الروحانى الملظى بجمر التضحية والمدمّى بالألم والاستشهاد ، وإن تكن ترتضيه الشهوة الوحشية المتنطسة . . وإنى لمورد خلاصته فيما يلى لتعلم أن الشاعر مهما مُنح من فن وإبداع . وأوتى من تصور وإدراك ، يظل جاهلا أسرار المرأة ، رازحاً من حبها ودموعها على كلال

أما المرأة التى جاء الشاعر يقدس دموعها فى ذلك المقطع الصغير فهى ـ كليوباطرة ـ ملكة مصر وربة النيل . ولكن أصادقة تلك الدموع التى ذرفتها المرأة الحسناء على موت حبها ؟ هذا ما أريد معرفته . . فلتقرأ الآن خلاصة القصيدة :

قبل أن تودع كليوباطرة حياتها الزاخرة بذكريات الحب أحبت أن تهيء لعشاق جمالها مأدبة كبرى مثقلة بكرمها الملكى ، ففعلت : وبعد انتهاء المأدبة أحضرت لها وصيفتها الأمينة «إيراس» سلة مملوءة بالتين ، فكافأتها وشكرتها كثيراً ثم أخرجت من طيات ثوبها الفاخر خطاباً قصيراً لتسلمه الوصيفة إلى « أوكتافيوس » قيصر رومه فى ذلك العهد

وبعد هذا بحين انسحبت كليوباطره إلى مخدعها الشيق المزين بزهر الجلنار وجلست وحيدة ، وفى وحدتها الموحشة شرعت تحلم إلى أن اخضلت أجفانها بالدموع

بكت لأنها تذكرت أيامها الماضية ... تلك الأيام المخمرة بالحب !

إلا أنها لم تلبث أن مسحت دموعها ونظرت إلى وريقات التين نظرة عميقة مفعمة بالتأمل وطافحة بالحزن والألم . ذلك لأن عينى الحية الماكرتين كانتا تلمعان فى وسطها لمعاناً موجساً مخيفاً كنور الحباحب على قبر مهجور

وفيما هى تتناول الحية السامة بأناملها قالت تباغمها بكلام رقيق كنوم السحر : أيتها المخلوقة الفاتنة ، المرذولة من جميع الناس ، إنى أعبدك ... ولهذا ترينني لا أخشى لذعتك ! نعم لا أخشاها ... لكونها تريحنى من هذا العالم ، وتجمعنى بمن أحب ... ثم وخزتها وخزة موجعة فتململت الحية ولسعتها فى صدرها !

عند هذا نهضت كليوباطرة وتمددت على سريرها هامسة : هأنذى أوافيك يا أنطونيوس ! يامن غذيت أزاهير أحلامى بالحب !

انتحرت ـ كليوباطرة ـ فاضطرب النيل وارتعشت أوراق النخيل فى مملكة ممفيس ... لقد ارتجف كل كائن حى خلا قلباً واحداً لم يرتجف ، هو قلب ـ أوكتافيوس ـ سيد رومة فى ذلك الزمن . لكنه على الرغم من كل ذلك فض الخطاب الصغير وتمتم قائلا :

إنها تريد أن تدفن مع حبيبها أنطونيوس . نعم ، تريد أن تعانقه دائماً بعد الممات . فليكن لها ما تبتغى ... هو الحب فلتبلل ضريحها دموعه المقدسة ،

* * *

هذا ملخص القصيدة . ففيه تلمس تخليد الشاعر لحب ـ كليوباطرة ـ ذلك الحب الذى شغل فريقاً من العبقريين فى التاريخ ، ولكن على الرغم من الجمال الشعرى والاشراق الفنى فى القصيدة أود أن أعرف أصادقة تلك الدموع أم كاذبة ، أشريفة أم أثيمة ؟

لم يبق بين الذين عنوا بتاريخ كليوباطرة من لم يمجد دموعها فى حبها ، ويطرى موقفها المؤثر فى ساعات انتحارها . أما أنا فأهزأ بتلك الدموع التى حملتها على الانتحار لأنها دموع لا يقرها الحب الروحى السامى الخاضع للتضحية

لقد بكت كليوباطرة وهي تنتحر ، ولكنها لم تبك على

حب مقدس، بل على نزوة حمراء تصرمت وتبددت ... والحب الذى يسوده نزوان اللحم والعظام خادع كالتراب المذهب

إن أشرف أنواع الحب هو ما تندت به العاطفة واختمرت به الروح، فدموعه تبقى منهلة فى المحاجر كندى الفجر. أما الحب الذى تولده الأعصاب فدموعه مستقطرة من الوحل لا من أجفان السماء

ولا يعتقدن القارىء أن كليوباطرة احتكرت وحدها هذا النوع الفريد من الحب الحيوانى الغليظ، فهنالك امرأة تبزها هى (جان ديفال) التى أضرمت بضراوتها المستنكرة عبقرية ـ بودلير ـ شاعر فرنسا فى الجيل الماضى. فقد كونت فيه عنصرين متناصرين أبداً ... عنصر يستلينه جسدها الغامر بالشهوة، وعنصر يحترق حنقاً منها فيجوب رحاب الروح شاكياً من تلك النار المشبوبة، الناغلة بأحط انواع الحب. ومن يراجع كتابه المشهور ـ ازاهير الشر ـ وهو من اروع الكتب الشعرية فى دولة البيان يقرأ تلك المقاطع التى تصور انتحاره النفسى البطىء، وهى عندى من ابلغ ما أخرجه الشعراء فى العالم

فانظر كيف يصفها الشاعر:

« عندما أجلس قربها فى ليالى الخريف الدافئة مستنشقاً شذا صدرها الحار ... تحملنى الأحلام إلى بلاد سعيدة رافلة فى حلل وضاءة من نور الشمس فأرى فيها نساء تسبيك أجسامهن الفاترة المتكاسلة لما يعذبها من شهوة مخدرة، وبرح أليم!

وعندما تنتقل متمايلة فى غلائلها الهفافة، المنبهة للحواس ... إخالها ترقص كتلك الأفاعى الخبيثة التى يرقصها الحواة فى الشرق على أنغام الشبابة الحزينة!

وعندما تتمدد عند أقدامى مستضرعة إلى بأرق كلمات الصبابة لكى أطفىء جذوة لحمها المحرقة ... أحسبنى أرى موجة من أمواج البحر العرارة تتراخى واهية على الشاطىء بعد أن أفرغت الزبد من فمها!

ـ هى بعينيها المتقدتين كأشرار المعادن

ـ وهى بلحمها الوضاء المغرى كجمرة الأتون الحمراء

ـ إن فيها بريقاً وناراً ..

ـ وإن فيها لهيباً وكبريتاً!

ـ هى امرأة سحرية ... تمثل لك بجمودها المخزى أبا الهول الصامت، وبشهوتها اللافحة حية هائلة مخيفة!»

ثم انظر كيف يصفها هنا:

« أحبك وأمقتك معاً أيتها الفاجرة الطاعنة قلبى بخنجر سام، الناغلة فى جسمى كما تنغل الحشرات فى جيفة منتنة!

المارده فى روحى كالشياطين!

أيتها الضارية المتخذة شرفى سريراً لفحشائها، أيتها الساقطة المكبلة إرادتى بالأصفاد. انى اكرهك ... فلعينة أنت!

لقد استغثت بالسماء ان تقبضنى اليها. واستنجدت بالموت تخلصاً من موبقاتك ... فلا السماء سمعت دعائى، ولا الموت استجاب طلبى، وكيف تفعل السماء والموت وأنا أنزف دمى على مضجعك الفاسد، وأنحر جسدى فى طريق استهتارك المتقنعة؟ »

* * *

إن دموعَ الحب رائعة ومؤثرة عند ما تجيشها العاطفة المسحوقة. ويحركها الاحساس الذبيح. أما اذا أجراها الغرام العابث فهى أفظع من المقصلة، وأقسى من العبودية

مسكين اذاً ـ بول فاليرى ـ لقد أخطأ وهو يصور دمعة من دموع الحب. فلو انه رسم لنا دموع الذين يموتون من اليأس، ويأسهم من خيانة المرأة لكان أبدع وأجاد

إن الحياة، الحياة المتغلغلة فى القلوب والأرواح والسابحة على أمواج الماضى والحاضر والمستقبل، إن هذه الحياة لتهزها نبرة الشاعر العبقرى وتفتنها ألوانه وخطوطه وأصباغه التى يطلى بها قصائده. أما الدموع الكاذبة الأثيمة التى يسعى إلى تقديسها بذلك البيان المورق الأنيق لتنفر منها ولا تقرها أبداً!

« البرازيل » يوسف البعيني

في الأدب المقارن

أثر المرأة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

للمرأة أثرها الخطير في المجتمع ، ولمنزلتها من الارتفاع أو الانحطاط أوثق الصلات بتقدم المجتمع أو تأخره ، واطراد رقيه أو ابتداء تدهوره ، ولنظرة الرجل إليها ومعاملته إياها أبلغ الدلالة على سمو الأخلاق أو تدليها ، فالمرأة هي الأليف الذي يسكن إليه رجل اليوم ، والمربي الأول الذي ينشيء رجل الغد ؛ فاذا كان ذلك يأوي منها إلى صحبة ممتعة للنفس مغذية للشعور ، وكان هذا ينشأ في حجر راعية نيرة حازمة ، فقد توفرت للمجتمع أكبر أسباب السعادة والنجاح ، أما حيث تحتقر المرأة وتذاد عن نور العلم ازدراء لها واستهانة بوظيفتها ، ويساء فهم علاقتها بالرجل حتى لا تحسب تلك العلاقة سوى شهوة تافهة ، فذاك مجتمع دوام انحطاطه محتوم ، واطراد تدهوره بدهي ، إذ لا نجاح لمجتمع تغمط فيه مكانة المرأة ، وتغفل وظيفة الأم ، وتجهل نعمة التعاون الزوجي

ولما كان للمرأة هذا الأثر العميق في المجتمع ورقيه وآدابه العامة ، كان لها في أدب اللغة أثر بعيد ومكان ظاهر ؛ فالى منزلتها من الرفعة أو الضعة ترجع الصبغة التي ترين على الأدب من وقار وعفاف أو استهتار وفجور ، وعلى التغني بجمالها والترنم بحبها يتوفر باب من أهم أبواب الأدب وهو النسيب ، وارتفاع شأنها في المجتمع مقرون دائماً بازدهار الأدب ، لأن المجتمع الذي يجل المرأة ويتغنى بمحاسنها مجتمع صادق الشعور ، عالي النفوس ، وبعكس ذلك المجتمع الذي يزدري المرأة ويسخر منها وترين فيه الشهوة لا ينتج علماً ولا أدباً ، وارتفاع شأن المرأة في المجتمع مقرون كذلك بمساهمتها في الأدب منشئة وناظمة وناقدة ، والأدب لكل هذه الأسباب مرآة صادقة واضحة لمنزلة المرأة في المجتمع ، ومنزلة المجتمع من الرقي ، وحظه من الأخلاق

كان للمرأة العربية على العموم في الجاهلية وصدر الاسلام لاسيما نساء السادة والأشراف ، منزلة عالية : كانت تشارك الرجل أعمال السلم وتعاونه في إبان الحرب ، واشتهرت نساء كثيرات في تاريخ تلك العهود ، واحترفن الأعمال كالطب والتدريس ، وشاركن في السياسة فتركن أثرهن في سير الحوادث ، وزاد الاسلام منزلة المرأة ارتفاعاً وحررها من كثير من أسباب الشقاء التي كانت تقاسيها نساء الطبقات السفلى ، ومما له دلالته على مكانة المرأة إذ ذاك أن كبار الرجال كانوا يغمزون بالانتساب إلى أمهاتهم وعصبياتهن ، وكانوا يلقبون في مواقف التبجيل والمدح بابن هند وابن عائشة وابن ذات الطاقين

هذه المكانة المحترمة التي تمتعت بها المرأة في المجتمع في ذلك العصر ، تركت آثارها واضحة في أدبه : فقد كان أدب ذلك العصر مزدهراً قوياً صادق العاطفة نبيل الغرض في جملته ، وكان للمرأة فيه ذكر مردد ، تستهل بذكرها القصائد ، وتنظم في الترنم بحبها الأشعار . ويسجل الشاعر حواره مع زوجه في شتى الشئون في القصيدة يبدأها بقوله : « وقائلة . . . فقلت لها . . . » ؛ وبلغ النسيب في هذا العصر أعلى درجاته من الرقي وعمق الشعور وعفة المقال . وما أجمل نسيب عنترة بعبلة ، ومناجاة جميل لبثينة ، وهتاف قطري بن الفجاءة بزوجه أم حكيم ؛ وساهمت المرأة في الأدب ، فأثر عن كثير من الأعرابيات غرر من سحر البيان ، وعرفت نساء من خيرة المسلمات بالرواية والنقد ، وظهر في هذا العصر أكبر شاعرتين في تاريخ الأدب العربي : الخنساء وليلى الأخيلية اللتان ضارعتا الفحول رصانة قصيد وجودة معان ؛ وكان بجانبهما العدد العديد من الشاعرات المجيدات اللائي كان بعضهن يساجلن محبيهن شعراً ؛ وتفاخر الشعراء بالعفة وحسن المعاشرة والجوار ورعاية مكانة المرأة ، قال مسكين الدارمي :

ما ضر جاري إذ أجاوره ألا يكون لبيته ستر
أعمى إذا ما جارتي خرجت حتى يواري جارتي الخدر

هنالك بلغ المجتمع الاسلامي أوج رقيه ، ثم داخلته عوامل الفساد بتضخم الملك الفجائي وانتشار الثروة والجواري والغلمان وذيوع الترف والانصراف إلى الشهوات ، ومخالطة الشعوب المختلفة واقتباس الضار من تقاليدها . ووهنت أخلاق العرب القويمة التي رفعوا بها لواء سيادتهم ، فضعفت روابط الأسرة بذيوع التسري ، وانحطت نظرة الرجل إلى المرأة بانتشار صناعات القيان والمغنيات والراقصات ، وفشت الريبة وشدد الحجاب على المرأة وعزلت عن المجتمع فحرمت العلم والنور والحياة ، وحرم المجتمع تأثيرها المرقق للشعور والمتسامي بالآداب ، وازداد المجتمع انحطاطاً وشاع فيه هجر القول ، وخلا تاريخ ذلك العهد من اسم امرأة واحدة ذات أثر في حياة الأمة

فهذا الطور الثانى من تاريخ المرأة العربية مضاد للطور الأول سارت فيه مكانتها إلى انحطاط مستمر ، وبدا أثر ذلك الانحطاط فى أدب ذلك العصر : اتسم بالاخاش والاقذاع ، وضعف وحل التقليد فيه محل الابتكار ، والزخرف اللفظى محل الشعور العميق وأصبح النسيب فيه إما بذيئاً شهوانياً كأشعار بشار . وإما تقليدياً وهمياً أجوف كاستهلالات البحترى ، وشبب بعض المجان بالذكور ، وتفنن بعض الكتاب كابن دريد فى أحاديثه وصاحب كتاب المحاسن والأضداد ، والأصبهانى فى أغانيه فى إيراد القصص الشهوانية والنوادر التى تبدو فيها المرأة متاعا ينتهب ، أو مخلوقاً نزقا خائنا متقلبا ؛ ولم تنبغ فى الأدب امرأة يعتد بآثارها ، وإذا كانت القيان قد ألهمن الشعر كثيراً من الشعراء ، وكانت منتدياتهن مجمعاً للأدباء ، فما أنتج ذلك كله إلا أدبا شهوانيا فاترا هزيلا ، وبعد أن كان الشاعر فى الطور السابق يتمدح بتبجيل المرأة ، ويتقرب إليها بالمكارم ، لتحمد يوماً عند عز شمائله ، كما قال كثير أصبح النيل منها والاغراء بها والتهكم بطباعها من هم بعض الشعراء ، قال بشار :

عسر النساء إلى مياسرة والصعب يسهل بعد ما جمحا

وقال غيره :

وإن حلفت لا يخلف النأى عهدها فليس لمخضوب البنان يمين

وهكذا حرم الأدب العربى إلهام المرأة السامى الجليل ، وما أقل ما بقى من مناحج القول لأدب حرم ذلك الالهام ! وجاء شعر فحول العربية فى أوج ازدهار الأدب خلواً من تاريخهم الغرامى الصحيح ؛ فهل كان لأبى تمام والبحترى والمتنبى غرام صادق عميق ، صهرت فى تنوره نفوسهم ، وتكشفت لهم الحياة من خلاله عن عوالم جديدة من الاحساس والتفكير . إن أثر ذلك معدوم فى شعرهم ، وليس فى شعرهم إلا النسيب التقليدى الاستهلالى المملوء بذكر هند ودعد ، والكثبان والأغصان ، والأطياف والمدامع ؛ لا يثير فى نفوسهم هذه العواطف العجيبة إلا الطمع فى عطايا الممدوحين ، أما النسيب المستقل بكل القصيدة المقصود لذاته فليس هناك . وبلغ من موت العلاقة السامية بين الرجل والمرأة أن المتنبى نفسه كان لا يكاد ينظم فى النسيب الاستهلالى أبياتا تحمله عليها تقاليد الصنعة حتى يبرم ويتملل ، فيزيح النسيب جانبا صائحا بصاحبته المتخيلة : صلينا نصلك فى هذه الدنيا ، فان مقامنا فيها قليل ، فان لم تصلى فاذهبى ودعينى أستطرد إلى ما هو أهم من أمرك من امتداح هذا الكريم ذى العطايا الجزيلة ، أو ربما انقلب على محبوبته وجنسها هاجيا ، فقال إن القوافى جميعا ضياء فى بواطنه ظلام .

ولم يقتصر التهجم على المرأة على ذوى المجون وعبيد الشهوات بل اتخذ سبيله إلى كتابات المفكرين ، وتقنع بمظهر العلم فى آثار المعرى الذى صب فى لزومياته جام غضبه على المرأة ، ورماها بالغدر وشبهها بالأفعى ، وعاد إلى تشديد الحجاب عليها ونهى عن تعليمها حتى تقويم السطور ، ولا ريب أن مزاج المعرى السوداوى وحياته المقفرة من حنان المرأة ، ونقمته على الحياة جميعا ، كل ذلك كان ذا أثر فى نظرته القاسية إلى المرأة ، واعتباره إياها رمزا للحياة فى جهلها وتقلبها وغدرها ، بيد أن ظروفه الشخصية التعسة هذه إنما هيأته ليكون معبرا عن أفكار عصره الذى كان يعج بالفساد والاضطراب والانحطاط الخلقى ، فلا ريب أنه كان يجد آذانا صاغية ، وأنه مسؤول عن بعض ما حاق بالمرأة بعد ذلك من قهر وإهمال .

فتاريخ المرأة العربية طوران : الأول طور رقى مصاحب لسمو الأخلاق ورقى المجتمع ونهوض الدولة وازدهار العمران ، والثانى طور انحطاط معاصر لقعود الهمم وتدهور المجتمع وإدبار السلطان وركود الأدب ؛ أما تاريخ المرأة الانجليزية فهو طور رقى مستمر مطرد من عهد شكسبير إلى الوقت الحاضر ، ازدادت فيه المرأة حظا من التعليم والاحترام والمساهمة فى الأعمال ، ولم تعترض ذلك الرقى المطرد إلا فترة رجعة فى عهد الملكية العائدة من فرنسا فى القرن السابع عشر ، وما لبثت تلك الفترة الماجنة أن تلاشت إذ صمد لها الخلق الانجليزى المتين ، وشمر لاماطة آثارها كبار الهمم من الأدباء المثقفين . وتابعت المرأة سبيل رقيها المقرون برقى الأخلاق وسيادة الآداب العامة وتقدم المجتمع .

كانت منزلة المرأة فى عهد اليزابث على درجة من الرقى محسوسة وكان بنات السراة ينلن من التهذيب مثل حظ البنين ، واشتهرت منهن بسعة العلم كثيرات مثل ليدى جين جراى وليدى بيكون والدة الفيلسوف فرنسيس بيكون ، وليس أدل على ارتفاع مكانة النساء فى ذلك العهد من قبول الشعب اليزابث ، وهى بعد فى حداثتها ملكة عليه دون تردد ، وإيلائه إياها من الولاء ما لم يوله غيرها من الملوك ، وإظهارها هى حنكة سياسية بذت بها ملوك أوربا وساستها ، ووضعت بها أساس مجد انجلترا ، وازن ذلك بما كان من ارتياع الناس فى عهد انحطاط المرأة العربية سالف الذكر ، حين وليت شجرة الدر عرش مصر ، حتى بعث الخليفة العباسى يوبخ أمراء مصر ويتوعدهم بالويل والثبور . إن لم ينضحوا ذلك

العار الذى يبقى فى الأجيال، على حين لم يحرك أسلافه ساكنا يوم ولى نفس العرش عبد خصى، كان يبرى بظفره القلم .

وأثر المرأة الانجليزية فى الأدب تبعا لرقى منزلتها الاجتماعية جليل، يزداد وضوحا وشمولا على تقدم العصور : فهى تبدو فى قصص تشوسر تشارك الرجال أعمالهم، وفى درامات شكسبير مثالا للقدرة الفائقة أحيانا، وموضعاً للحب والتقديس تارة، ورمزاً للطهارة والوفاء طورا، وفى أشعار شكسبير ومعاصريه ومن جاءوا بعده من كبار شعراء الانجليزية نسيب حار العاطفة سامى النظرة، وفى القصص والشعر دراسات لشتى الشخصيات النسوية، وفيهما تمجيد للجمال وتبجيل للمرأة، يتوسل إليهما بسرد خرافات الاغريق وبطلاتهم وإلاهاتهم، وأساطير القرون الوسطى، سردا شعريا خياليا؛ وضربت المرأة فى انشاء الأدب بسهم وافر فكان من النساء شواعر وقصصيات بارين فحول الرجال

ويبدو أثر المرأة الانجليزية فى المجتمع والأدب الانجليزيين على أوضحه فى القصة : فقد كان للمرأة الفضل الأول فى ظهور هذا الضرب من الأدب، فعلى أيدى اديسون وستيل اللذين اهتما بتثقيف المرأة وتنقية المجتمع ظهرت بذور القصة، ولما أخذت القصة شكلها الاجتماعى الحديث فى القرن الثامن عشر، كان للمرأة دور رئيسى فى حوادثها، ولولا اختلاط المرأة الانجليزية فى المجتمع ومساهمتها فى الحياة لما نمت القصة، ولا وقفت على قدميها، وقد جاء نموها وذيوعها مصاحبا لنهضة المرأة وازدياد حظها من التثقف . ولما بلغ ذلك الرقى الاجتماعى غاية بعيدة فى القرن التاسع عشر، بانتشار الديمقراطية وذيوع التعليم العام، نبغت جمهرة من كبريات القصصيات بارين كبار قصصي العصر الحديث، وفى مقدمتهن جين أوستن وشارلوت برونتى ومزجاسكل

والقصة ضرب من الأدب يلائم طبع المرأة اكثر مما يلائمه نظم الشعر الذى هو أشبه بالرجل، لأنه يحتاج إلى قوة وفخامة وشمول نظرة لاتتسق كثيرا للمرأة، التى إنما صفاتها الدماثة والدعة، أما القصة التى تدرس الحياة الاجتماعية وتصف الحركات والسكنات، وتحصى التفاصيل وتتبع الحوادث وتسرد ما قيل وما فعل، فتجد فيها المرأة خير مجال للتعبير عن خلجاتها ومشاهداتها، وملاحظاتها الدقيقة للأشخاص والأشياء؛ زد على ذلك ان المرأة تستطيع فى القصة ان تعبر على لسان غيرها عن نزعات الحب وأطواره، تعبيرا لا يستساغ منها إذا هى أطنبت فيه شعرا

فالقصة أدب المرأة : ظهورها رهن برقى منزلة المرأة فى المجتمع، فاذا ظهرت فحول المرأة يدور حديثها، وبين النساء تلقى الرواج والاقبال، وفيها تجد المرأة خير مجال لمواهبها الادبية، ومن ثم أنتجت المرأة الانجليزية فى فن القصة خير إنتاجها الأدبى، أما المرأة العربية فأخرجت أحسن آثارها فى الشعر فى طورها الأول، فلما تطور المجتمع العربى وجاء أوان ظهور القصة الاجتماعية، كانت عوامل الفساد سالفة الذكر قد اجتاحت مكانة المرأة وضربت بحجاب كثيف بينها وبين المجتمع والأدب، فأفقنت القصة فى بدء نموها، واستحال تطورها ورقيها، وجاءت مقامات البديع التى هى الخطوة الأولى فى الأدب العربى فى سبيل القصة الاجتماعية، خلوا من شخصية نسائية واحدة جديرة بالذكر، ولم يعرض الحريرى إلا عجوزا يسحبها أبو زيد فى استجدائه، او لكاعا ينابزها وتنافسه فى بذائه

ولنجاة المجتمع الانجليزى من مثل تيار الترف الجارف الذي غمر المجتمع العربى، عقب الفتوح، ظل ذلك المجتمع رفيع الآداب قويم الأخلاق، وظل الأدب عفيف المقال، وظل النسيب شريف اللفظ والغرض، وخلا النسيب الانجليزى مما تدرن به النسيب العربى فى عصره المتأخر، من تحدث بالشهوات ووصف لأجزاء الجسم وهجاء للجنس اللطيف وتغزل بالذكور؛ فاذا حمل على المرأة خصم عنيد كملتون الذى وصمها بالنزق والختل وجعلها دون الرجل منزلة، وجعل شخصية « دليلة » فى قصته الشعرية « سمسون الجبار » نموذجا لها، أو سلك مسلك الاستهتار والتبذل كبيرون الذى كان يقرن الانقياد للشهوات باحتقار المرأة، لم يجد من حوله إلا صدى ضعيفاً لايلبث أن يتلاشى مع صوته، ويتابع المجتمع سبيل تقاليده التى درج عليها، تقاليد الاعتدال والتعفف واحترام المرأة

فأثر المرأة فى الأدبين العربى والانجليزى جلى خطير، بيد أنه أجلى وأجل خطرا فى الأدب الانجليزى، وهو فى الأدب العربى دليل ارتقاء تبعه انحطاط، وفى الانجليزية برهان ارتقاء مطرد، فى المجتمع والأخلاق والأدب، ومكانة المرأة الانجليزية العالية فى مجتمعها مرد ما يمتاز به الأدب الانجليزى عامة والنسيب خاصة، من عفة ووقار؛ وهبوط مكانة المرأة العربية فى عصور التدهور مرجع الفحش الذى ذاع فى النسيب والهجاء وغيرهما من أبواب الأدب العربى فى عصوره المتأخرة، وبرغم تساوى المرأة العربية والمرأة الانجليزية فى تقصيرهما دون الرجل فى حلبات الأدب، وضآلة أثرهما فيه إذا قيس بآثار الرجل فى شتى الأغراض، فإن المرأة الانجليزية تفوق العربية فى كثرة إنتاجها الأدبى، كما فاقتها فى كثرة ما أنشأ الرجل حولها من أدب، وما استلهمها من وحى، للسبب عينه : وهو أن المرأة الانجليزية كانت أكثر مساهمة فى المجتمع وأرفع منزلة فيه

فخرى أبو السعود

الاسلام والديمقراطية

للاستاذ عبد المجيد نافع

بقية ما نشر فى العدد الماضى

رأى عمر مرة يهودياً ممسكا برسول الله يطالبه بدين له ، فعظم ذلك عليه وأخذ بخناق اليهودى وقال : دعنى أقتله يارسول الله . فقال : دعه يا عمر إن لصاحب الحق مقالا

وخطب أبو بكر فقال : القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له الحق إن شاء الله تعالى

واختلف عمر مع اعرابى فاحتكما إلى أبى بكر فقال : قف بجانب خصمك وقص يا ابن الخطاب قصتك . فقام عمر وعلى وجهه أثر الامتعاض . فقال له أبو بكر : أيسوؤك أن تقف بجانب خصمك ؟ قال : لا . ولكن ساءنى أن كنيتنى وفى الكنية تعظيم

ولما أسلم جبلة بن الأيهم ملك غسان وفد على عمر بن الخطاب بابهة الملك وحشمه فتلقاه عمر بالترحيب ، وبينما هو يطوف يوماً وطىء على إزاره اعرابى فضربه على وجهه ، فشكاه الاعرابى إلى أمير المؤمنين ، فاستدعى عمر جبلة وقال له : إما أن ترضيه وإما أن يضربك كما ضربته . فكبر ذلك على جبلة وقال : ألا تفرقون بين الملك والسوقة ؟ قال : لا . قد جمع بينكما الاسلام . فاستمهله إلى الغد ثم أخذ قومه وفر بهم ليلا ، ولحق بالامبراطور هرقل بالقسطنطينية

وعزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد من قيادة الجيش وقال له : ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بالناس

على أن نفس خالد كانت متشبعة بمبادىء المساواة ، فارتضى أن يهبط من القيادة إلى مصاف الجندية ، وأن يكون فى الجهاد جندياً بسيطاً

وإن شئت أن ترى آية من آيات المساواة فى الاسلام فأنعم النظر فى كتاب عمر إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء حيث يقول : آس بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك

وكذلك كان يبغى عمر العدالة ومظاهر العدالة

وجمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسية ودمشق فقال : إنى كنت امرأ تاجراً وقد شغلتمونى بأمركم هذا فماذا ترون أن يحل من هذا المال ؟ فأكثر القوم وعلى رضى الله عنه ساكت. فقال : ياعلى ما تقول ؟ قال : مايصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الأمر غيره . فقال : القول ما قال على بن أبى طالب

وما كان المسلمون يأنفون من العمل الحر الشريف ، فقد كان أبو طالب يبيع العطر وربما باع البر . وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه بزازا . وكان عثمان بزازا . وكان طلحة بزازا . وكان عبد الرحمن بن عوف بزازا . وكان سعد بن أبى وقاص يبرى النبل . وكان العوام أبو الزبير خياطا . وكان الزبير جزارا ، وكان عمرو بن العاص جزارا

يفاخرنا الغربيون بعظمائهم الذين خرجوا من صفوف العمال وأولئك بناة مجد الاسلام قد خرجوا من جميع البيئات . ونبتوا فى كل الطبقات

وما سقت لك تلك الأمثال عبثا ، وإنما أردت أن أدلك على أن المساواة فى معناها الصحيح ، وفى كافة مظاهرها ومختلف صورها لم تتحقق يوما كما تحققت فى الصدر الأول من الاسلام

مساواة أمام القانون ، فقد شرع للناس كافة لا فرق بين عظيم وحقير ، وغنى وفقير ، وقوى وضعيف

مساواة أمام القضاء ، ولقد أطلعتك على جانب منها فى أروع مظاهره وأسمى معانيه

مساواة فى الوظائف العامة ، فقد رأيت كيف ينشأ الرجل منهم فى البيئة الصغيرة ثم يصل إلى أسمى مناصب الدولة

مساواة فى الضرائب ، فما كانوا يرهقون أحداً أو يظلمون فتيلا

وعلى الجملة فقد كانت مساواة فى الحقوق والواجبات

حقق الاسلام مبدأ المساواة السياسية والمساواة المدنية على أنه لم يشأ أن يمنى أتباعه بالمساواة الاقتصادية أو بعبارة أوضح بالمساواة فى الأرزاق ، ذلك بأنه دين الفطرة

وكيف السبيل إلى المساواة الاقتصادية ، وفى الناس العملاق والقزم والقوى والضعيف وجبار العقل والأبله المعتوه

إن نواميس الطبيعة تأبى المساواة الاقتصادية ، ولئن جاز أن تكون فى هذا الميدان مساواة فأولى بها أن تكون مساواة فى البؤس والشقاء

رأى الاسلام أن المساواة الطبيعية مستحيلة . فقال تعالى فى

محكم كتابه : وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات

وشاء الاسلام أن يلطف من قسوة قوانين الطبيعة فشرع الزكاة . وعندى لو أن نظام الزكاة طبق على وجهه الصحيح لوجدنا السبيل إلى حل المسألة الاجتماعية التى عجز إلى اليوم عن حلها فطاحل علماء الاجتماع فى أوربا . تلك المسألة التى كانت مثار النضال بين الطبقات ، ومبعث المذاهب المتطرفة والنظريات الهدامة

وإذن فليس من الاسراف فى القول أن يقال ان الاسلام هو الحصن الذى يرد غزوة المذاهب الهدامة التى تهز كيان المجتمع الأوربى أعنف الهزات ، وتهدد الحضارة الأوربية بالتلاشى والفناء

لم تعرف أوربا المساواة فى القرون الوسطى فقد انقسمت الشعوب إلى طبقات ممتازة وطبقات محرومة من الامتيازات ، وكان للاشراف قوانينهم الخاصة ومحاكمهم الخاصة وعقوباتهم الخاصة وضرائبهم الخاصة ، وكانت المدارس الحربية يحرم دخولها على طبقات الشعب ، وكانت المناصب الكبرى فى الدولة وقفاً على طبقات الأشراف

وهل تحققت المساواة بمعناها الصحيح فى أوربا اليوم ؟ لا تزال هناك مراحل كثيرة لا يزال على أوربا اجتيازها قبل ترسيخ قواعد المساواة

أو ليس النظام فى فرنسا مزيجاً من النظم الديمقراطية والأوضاع الملكية والأشكال الأرستقراطية ؟

وانجلترا التى يقولون عنها إنها مهد النظام الدستورى ومعقل الديمقراطية أوليس فيها إلى اليوم لوردات ومجلس لأولئك اللوردات؟

أثار كاتب فرنسى الشكوك حول تحقق مبدأ الحرية السياسية فى فرنسا فاسترعى النظر إلى أن رأى الأمة الفرنسية لا يؤخذ فى أمس الشؤون بحياتها وأشدها تعلقا بمصيرها كحالة الحرب مثلا

واستلفت ذلك الكاتب الأنظار أيضاً إلى أن القضاة فى فرنسا يؤخذون من بيئات خاصة والمحلفين من طبقات عليها مسحة الارستقراطية ، واختلاف العقوبة حين يرتكب الفعل الواحد غنى أو فقير

والحكم مع إيقاف التنفيذ ؟ أفلا يكاد يستأثر به الغنى دون الفقير مع أن الغنى قد يكون اختلس مبالغ طائلة أو بدد أموالا كثيرة ؟

أفلا يسخر المداره المقاويل من كبار المحامين بلاغتهم فى انتزاع الأغنياء دون الفقراء من براثن العدالة ؟

وهل يتاح للفقير ما يتاح للغنى أن يبقى بملابسه فلا يرتدى ملابس السجن ، ويأكل من بيته فلا يأكل من طعام السجون حين يكون سجيناً تحت التحقيق مقابل جعل بسيط تتقاضاه منه إدارة السجن ؟

وأين المساواة إذا كنتم أيها الغربيون تسلحون الأغنياء بأسلحة العلم العالى وتجردون منه الفقراء الذين لا يكادون يجدون السبيل إلى ثمن الخبز فضلا عن أجر التعليم ؟

ليس عجيباً إذن أن يهاجم الديمقراطية خصومها تارة باسم العلم وطوراً باسم الواقع

وليس بدعاً أن يصيح صائح : المجتمع الأوربى يسعى للمساواة ولا يجد السبيل اليها ، شأنه فى ذلك شأن الانسانية التى تجد فى طلب السعادة والحقيقة فلا تظفر بهما كما أعيا طلابهما فوست جيته

التسامح الدينى فى الاسلام يقابله الاضطهاد الدينى فى أوربا فى عصور الظلمات

وإذا ذكرنا اضطهاد الفكر والعقيدة ذكرنا محاكم التفتيش

وفى الحق لم تشهد الانسانية قضاء أشد نزوعا إلى الظلم وأكثر جنوحاً إلى القسوة من قضاء محكمة التفتيش

نهضت تلك المحاكم لتصد عن الكنيسة تيار الالحاد المتدفق ، فلئن كانت دينية فى نشأتها فان التعصب قد سخر العدالة فى سبيل تحقيق لباناته وغاياته

وفوق ذلك فقد وقفت تناهض كل حركة فكرية وعلمية ، ولعل من أبرز ضحاياها غاليليو الرياضى الفلكى الشهير . أحدث ذلك العالم ثورة فى العلوم الفلكية ولبث ردحا من الزمن يواصل العمل فى بث نظرياته فى دوران الأرض . فاصدرت البابوية ، وفاقا لآراء أحبار محكمة التفتيش قراراً بنقض تلك النظريات وتحريمها ، واعتبارها تحدياً للنصوص المقدسة . ونصح البابا لغاليليو بالكف عن نشر دعاويه . فلم يأبه الرجل لقرار التحريم ، ولم يحفل بذلك النصح ، ومضى فى خدمة العلم والحقيقة . وفى عام ١٦٣٢ نشر كتابه « محادثات عن الاصول العالمية » فأحدث صدوره رجة عظيمة واستقبلته دوائر العلم والفكر فى أوربا استقبالا حماسيا منقطع النظير . وهنا ثارت ثائرة الكنيسة وحرمت بيع الكتاب فى الحال . ودعى غاليليو المثول أمام محكمة التفتيش فى روما ، فاعتذر بشيخوخته وضعفه وكان قد نيف على السبعين . فاستشاط البابا غضباً وعد تخلفه عصيانا . فأجاب الدعوة واعتقل فى قصر محكمة التفتيش فى ابريل من عام ١٦٣٣ . حقق معه وعذب ولم ترحم محكمة التفتيش شيخوخته وضعفه . وكانوا كلما أمعنوا فى تعذيبه ، ولجوا فى التنكيل به ، أمعن هو فى التشبث بالحق ، والاصرار على الحقيقة . فاذا زادوه نكالا صاح فى وجوههم : ومع ذلك فان الأرض تدور !

وإنه ليهولك أن تعلم أن عدد المحكوم عليهم من محاكم التفتيش المختلفة بلغ فى الفترة ما بين ١٤٨١ – ١٤٩٨ ، ١٢٥٢٩٤ منهم ٨٨٠٠ أعدموا باحراقهم و٦٥٠٠ أحرقت رموزهم و٩٠ الفا طبقت عليهم عقوبات مختلفة بالسجن والغرامة والتوبة

وفى الفترة ما بين ١٤٩٩–١٥٠٦ بلغ عدد المحكوم عليهم ٣٤٩٩٢ منهم ١٦٦٤ أحرقوا و٨٣٢ أحرقت رموزهم والباقون وقعت عليهم أحكام مختلفة

ومن ١٥٠٦ إلى ١٥١٨ بلغ عدد الضحايا ١٦٧ر٥٠ من هؤلاء ٢٥٣٦ ماتوا حرقا و ١٦٣٨ احرقت رموزهم والباقون طبقت عليهم عقوبات أخرى

والآن ندع التقدير للمؤرخ الشهير « لورنتى » وهو أكبر حجة وأعظم ثقه فى الموضوع

٣١ر٩١٢	أحرقوا
١٧ر٦٥٩	أحرقت رموزهم
٢٧١ر٤٥٠	طبقت عليهم عقوبات شديدة
٣٤١ر٠٢١	المجموع

والآن فاسمع هذا الوصف الذى تقشعر لهوله الأبدان وصاحب الوصف هو فيكتور هوجو ألقاه فى الاحتفال بتأبين فولتير :

فى ١٣ اكتوبر من عام ١٧٦١ وجد شاب مشنوقا . ثارت الخواطر واضطربت الأفكار . وهاج هائج رجال الدين بينا أخذ رجال القضاء فى التحقيق . ومشى الناس بعضهم إلى بعض يتساءلون : انتحار أم قتل ؟ وكان الاتهام منصبا على رأس الوالد . وقال الذين أثاروا الشكوك حوله إنه من المجنوت وقد حال بين ابنه وبين اعتناق المذهب الكاثوليكى . وكانت البداهة تمج هذا الاتهام وتحمى الوالد من ارتكاب هذا الجرم الفظيع . وإلا فأى عقل يسوغ أن يسفك الأب دم الابن ويشنق الشيخ الشاب

وما لبث الناس أن شهدوا فى يوم ٩ مارس سنة ١٧٦٢ مشهداً هائلا رهيبا . رأوا رجلا جلل الشيب فوديه يساق إلى أحد الميادين العامة . ذلكم هو جان كالا ، وما راعهم إلا أن يروا الشيخ المتهدم الفانى عارى الجسم مطروحا على عجلة موثق الاكتاف متدلى الرأس . ووقف إلى جانب المشنقة ثلاثة رجال فأما الأول فطبيب ليعنى به . وأما الثانى فقس يحمل الصليب . وأما الثالث فالجلاد وبيده قضيب من حديد .

وعرت الضحية نوبة ذهول واضطراب ، وتمشى الرعب فى أضالعه ، فما كان يرنو إلى القس بل كان يرمق الجلاد بنظراته المضطربة الحائرة ، وما يلبث الجلاد حتى يهوى بالقضيب الحديد فيهشم لمسكين ذراعا . أنين يمزق نياط القلوب بعقبه فقد الرشد . فيتقدم الطبيب فيعيده إلى الصواب بشم بعض الأملاح . فينبرى الجلاد لضربة جديدة . صرخات دامية ثم غيبة عن الصواب . يعيدونه للحياة والجلاد يعاود الضرب . وإذا كان كل عضو لا بد أن يكسر فى موضعين فلا مفر له من تلقى ضربتين . وإذن فقد تلقى المسكين ثمانى ضربات . وفى عقب الضربة الثامنة يقدم القس له الصليب ليقبله . على أن « كالا » يشيح عنه بوجهه . لو كانت الرحمة تجد سبيلا إلى تلك القلوب المتحجرة لقلنا إن كان فى نفوسهم بقية منها فقد أجهز الجلاد على « كالا » بضربة قاضية من رأس القضيب الغليظة ، حطمت صدره تحطيما . وبذلك وضع حد لعذاب كالا وآلامه . إذ فاضت روحه فى الحال

دام التعذيب ساعتين كاملتين ، وما إن مات كالا حتى تبين فى جلاء ووضوح أن الشاب مات منتحراً . على أن جريمة قد ارتكبت ومن هم مرتكبوها ؟ هم جماعة القضاة الذين قضوا على كالا بغير الحق .

وفى عام ١٧٦٥ بعد ليلة عاصفة وجدوا على افريز أحد الجسور صليباً خشبيا عتيقا ملقى على الأرض . ومضت ثلاثة قرون والصليب معلق فى رأس السور . فمن الذى طرح الصليب أرضا ؟ من ذا الذى اجترأ على ارتكاب ذلك الاثم ؟ لا يعلم أحد . أيكون أحد المارة هو الذى عبث به ؟ أم تكون الريح هى التى عصفت به ؟ ويرى الناس مطران « أميان » يرغى ويزبد ، ويبرق ويرعد ، ويتوعد ويتهدد بالنار كل من يعلم الحق ثم يكتمه . وهنا تتلاقى هوجاء التعصب مع هوجاء الجهالة . ولا تلبث العدالة أن تكتشف أو تتوهم أن تكتشف أن ضابطين مرا بالجسر وأنهما كانا ثملين وينشدان نشيداً حربيا ؛ فأما أحدهما فيلوذ بأذيال الفرار ، وأما ثانيهما « لابار » فيؤخذ بتلابيبه ، فيسأل ، فيعتصم بالانكار ويقسم جهد أيمانه إنه لم يمر بالجسر . فيبدو لهم أن يسألوه عن شركائه . ولكن شركاءه فى ماذا ؟ أفى أنه اجتاز الجسر ؟ أم فى أنه أنشد وصاحبه نشيداً عسكريا ؟ ثم يعذبونه لينتزعوا منه اعترافا فيحطمون إحدى ركبتيه . والمكلف بأخذ الاعتراف منه يهوله صوت قرقعة العظام حتى يغيب عن صوابه من عظم الهول . ثم يسوقون لابار إلى أحد الميادين العامة ، وقد أذكوا فى بعض جوانبها نيرانا مضطرمة . يتلون عليه الحكم . فيكسرون احدى يديه . ثم يستلون لسانه بكماشة من حديد . ثم يرحمونه بأن يفصلوا رأسه عن جسده . ثم يلقون جثته طعاما للنيران ، وكذلك مات لابار فى ربيع العمر إذ لم يكن جاوز التاسعة عشرة وراح ضحية بريئة للتعصب الأعمى .

لم يقض الاسلام بالقاء أحد طعمة للنار لمجرد الزيغ فى عقيدته ولم يضطهد حرية الفكر والاعتقاد ، ولم ينكل بغير معتنقيه ولم يطارد العلماء والفلاسفة بل اتسع صدره للعلم والفلسفة .

وهنا لا نرى مندوحة عن أن نبدد وهما ، فنسارع إلى القول بأن حروب الخوارج لم تكن لها صبغة دينية على الإطلاق ، بل كانت حروبا سياسية بحتة .

نعم ، لم يكن مثار تلك الحروب الخلاف في العقائد ، وإنما أشعلتها الآراء السياسية فى طريقة الحكم ، وما اقتتل الخوارج مع الخلفاء لينصروا عقيدة . ولكن سعيا وراء قلب نظام الحكم وتغيير شكله وما اضطرمت نيران الحرب بين الأمويين والهاشميين لشىء غير الخلافة ، وبذلك كانت حروبا سياسية لا دينية

وكان المسلمون إذا هموا بفتح أمة خيروا أهلها بين الاسلام أو الجزية . أو الحرب . وذلك هو أقصى ما يبلغ اليه التسامح . فاذا أدخل الاسلام بلدا تحت ظلاله خلى بين المحكومين وبين حريتهم الدينية ، وما يكلفهم إلا بجزية يؤدونها صيانة لأنفسهم ومحافظة على أمنهم فى ديارهم وذودا عن عقائدهم ومعابدهم

لهم ما لنا وعليهـم ما علينا

من آذى ذميـاً فليس منا

إن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم

ذلك هو شعار الاسلام فى معاملة الذميين

روى البلاذرى فى فتوح البلدان انه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع ، وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ونهض اليهود وقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد . فأغلقوا الأبواب وحرسوها

من ذلك ترون أن الجزية كانت تؤخذ مقابل الدفاع

يقولون إنا فى عصر عملى يكره الاحلام والحالمين

بل نحن فى عصر مادى فترت فيه حرارة الناس فى التعلق بالمثل العليا وانعدم إيمانهم بالمبادىء السامية أو كاد وأصبح من يتشبث فيهم بتلك المبادىء يسمى خيالياً يعيش فى السحاب

وترى خصوم الديمقراطية يهاجمونها بعنف وشدة ، فهذا يهاجمها باسم العلم وذاك يهاجمها باسم الواقع وغيرهما يتكلم عن أزمة الديمقراطية ، ورابع يخوض فى حديث إفلاسها

يقولون إن النواميس الطبيعية لا تعرف المساواة ، وان الارستقراطية هى دعامة الحضارة والرق ، وإن من الناس من يجب أن يعمل بيده ومنهم من يجب أن يتوافر على الأعمال العقلية ، وان حكماء اليونان كان لهم بعض العذر حين ذهبوا إلى تبرير الرق بضرورة أن يتفرغ الحكماء لادارة شؤون الدولة

ولا شك أن الديمقراطية تعانى اليوم أزمة شديدة بدليل أن الدكتاتورية قد غلبتها على أمرها فى بعض الأمم

على أن البقاء للاصلح من المبادىء والفوز معقود بلواء الديمقراطية فى النهاية إن شاء الله

فالذين بنوا الحضارة هم من الطبقات الشعبية لا من طبقات الأشراف .

والمشاهد الملموس فى أوربا أن طبقات الأشراف تفنى سراعاً والمذاهب المتطرفة التى تغزو موجتها أوربا اليوم لا يلبث أن يتجلى زيفها حين يتبين للناس أنها تبنى لهم قصورا من الورق أو قصوراً فى أسبانيا

والاسلام الذى وقف طوال العصور فى وجه العواصف الهوج كالجبل الأشم هو الاسلام الذى يقف اليوم معقلا حصينا يرد عن العالم الاسلامى عادية خصوم الديمقراطية وعدوان دعاة المذاهب الهدامة

فاذا دعونا اليوم للتشبث بمبادئه والتعلق بتعاليمه فانما ندعو إلى الاحتفاظ بمعقل الديمقراطية ، إنما ندعو إلى الذود عن دين الحرية والأخاء والمساواة .

عبد المجيد نافع

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٩ —

الفلسفة الهندية

تمتاز بلاد الهند بخصوبة أوديتها ، وتعدد نباتاتها وكثافة غاباتها وتعقد مسالكها ، وكثرة منعرجاتها ومصاعدها ومهابطها ، وتباين أجوائها ومناخاتها ، ووفرة التناقض الطبيعي في أرضها وسمائها ، فبينما ترى فيها جبالا شاهقة تتجاوز السحاب سموا ، وهضبات متفرقة تفصل بعضها عن بعض هوى سحيقة وحفر طبيعية عميقة ، وتلالا تتخللها من جهة كثبان ضخمة وتعترضها من الجهة المقابلة صخور عظيمة النتوء صعبة الاجتياز ، إذ بك ترى إلى جانب هذا أودية مبسوطة ومروجاً باسمة تتباهى بما تزدان به من ألوان الزهور وأفانين الثمار والبقول . وكذلك جوها لا تكاد تحس بدفئه وحرارته حتى يفاجئك برده ورطوبته ، بل إن الانسان — كما أنبأني أحد الذين أقاموا في هذه البلاد — قد يشكو من شدة الحرارة التي يحس بها في جنبه الأسفل الذي يلي الفراش بينما يألم أشد الألم من الرطوبة التي تصب على جنبه الأعلى . ولا ريب أن هذه طبيعة غريبة قد يدهش لها المصري الذي اعتاد أن يشاهد زيادة النيل ونقصانه ، واشتداد البرودة وتوسطها ، وارتفاع الحرارة وهبوطها ، وحرارة الشمس ووداعتها ، وحلول الفصول وارتحالها ، كل ذلك في أوقات منظمة محددة لا تختلف إلا لشذوذ نادر يعلله العلماء حينا ويعجزون عن تعليله حينا آخر .

كان لهذا التعدد في المناظر والمظاهر الطبيعية أثر بارز في عقلية الهنود على رغم ما يوجهه بعضُ العلماء إلى نظرية تأثير المناظر في العقليات من طعون واعتراضات يحطون بها من شأنها ويحاولون إثبات الأثر كله للعنصر ومواهبه الفطرية ومهما يكن من الأمر فقد استطاع التاريخ أن يتغلغل بالمدنية الهندية في أغوار الماضي مدى ثلاثين قرنا قبل المسيح إذ يحدثنا أن تلك الأودية المخصبة كانت في ذلك العهد مأهولة بقوم من الجنس السامي لهم مدنيتهم ودياناتهم وتفكيرهم ، وأن هؤلاء القوم قد ساهموا في بناء صرح المدنية العالمية بنصيب وافر ، وكان لهم في تاريخ الفكر البشري مجهود جبار ظل مجهولا أو غامضا على الأقل حتى قام العلماء الأثريون والمستشرقون بمكتشفاتهم العلمية فأماطوا اللثام عن هذه الحقائق الناصعة وساعدوا البحث الحديث على رد الأشياء إلى أصولها ، وأبانوا أن الديانات الهندية المتأخرة والفلسفات العويصة التي ظهرت في تلك الأصقاع إنما تتصل بالعناصر السامية القديمة أضعاف اتصالها بالمنتجات الآرية التي غمرت الهند بعد الفتح الأجنبي

يحدثنا بعض المؤرخين أن الهند كانت قبل هذا الفتح الآرى قبائل متفرقة او شعوبا صغيرة . لكل شعب حاكمه وقوانينه وعقائده وعاداته ، وأن الوحدة السياسية والعمرانية إنما وجدت فيها على أيدي أولئك الفاتحين « الآريين » الذين يزعم الأستاذ « ماسون » أنهم كانوا في أزمنة لا تعيها ذاكرة التاريخ يقطنون وادي « الدانوب » المخصب في تلك العهود الغابرة ، ثم عبروا البوسفور إلى آسيا لضرورة العيش الذي ألجأهم إليه قحل وقع في وطنهم قبل هذه الهجرة التي لم تكن مألوفة لديهم على عكس الشعوب الأسيوية الرحالة . وما زالوا يتابعون سيرهم انتجاعا للغيث فعبروا الفرات وواصلوا الزحف حتى « البنجاب » وأخذوا يغيرون على تلك البلاد الخصبة الوادعة حتى بسطوا سلطانهم عليها وأسسوا بها وحدات قوية يصح أن تسمى دولا ، وكان ذلك حوالي القرن الخامس عشر قبل المسيح . ومنذ ذلك العهد بدأت الهند في مرحلة جديدة في الدين والفلسفة والعلم والسياسة ، وهذه المرحلة هي التي تشغل الآن أذهان الباحثين المشتغلين بدراسة الفلسفة الهندية

أما الأغصان الأخرى التي بقيت في الدانوب من تلك الدوحة الآرية فقد انتشرت في أوروبا يحمل كل غصن منها اسما خاصاً به مثل « السيلت » و « الجرمان » و « السلاف » و « اللاتين » و « الهيلين » وقد خالف أصحاب هذه الفكرة الرأي القديم القائل بأن أصل العنصر الآرى كان يقيم في بلاد الهند ثم ارتحلت منه بطون إلى أوروبا فكانت منشأ هذه الأجناس السابقة الذكر . ولا ريب أن لكل منهما أدلة خاصة غير أن النار لم تكن هي الإله الأوحد عند هؤلاء القوم

تؤيد مذهبه ، لأن مجرد اتفاق هذه الأجناس الأوروبية مع آريى الهند فى اللغة «السنسكريتية» وفى بعض العقائد والنظريات لا يؤيد الرأى الأول ولا ينصر الثانى ؛ غير أن أصحاب الرأى الحديث يزعمون أن مكتشفات حديثة يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح تؤيدهم فيما ذهبوا إليه من أن الهجرة كانت من أوروبا إلى آسيا . وسواء أصح الرأى الأول أم الثانى فان الاستكشافات الحديثة التى قام بها العلماء منذ أن بدأها الأستاذ «بانيرجى» الهندى . وثنى على أثره فيها «سيرجوهن» ، تسمح لنا بأن نؤكد أن مدنية الهند الغابرة تمتد جذورها فى الماضى أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح ، ولكن هذه المدنية التى كانت قد ازدهرت فى وادى «البنجاب» قبل احتلال «الآريين» لتلك الأصقاع بأكثر من خمسة عشر قرنا قد اندثرت قبل هذا الاحتلال بزمن لا يعرف التاريخ تحديده بالضبط .

ويؤكد فريق من الباحثين أن تلك المدنية القديمة كانت راقية رقياً يسمح لها بأن تصعد إلى ما هو أدنى من صفوف المدنية الفرعونية بقليل ، ويجعل «الآريين» الفاتحين إلى جانب الوطنيين برابرة متوحشين . وأنت ترى أن هذا الرأى يخالف ما نقلناه لك آنفاً من أن السكان الأصليين كانوا شعوباً منتثرة أقل مدنية من الفاتحين ، وأن «الآريين» هم أول من حققوا لبلاد الهند الوحدة السياسية والاجتماعية .

ومهما يكن من شىء فقد احتل أولئك «الآريون» تلك الأصقاع المتمدينة وطغوا على مدنيتها وديانتها طغياناً محاهما من صحائف أذهان الخاصة وإن كان لم يستطع أن يمحوهما من صحائف الوجود ، بل ولا من أذهان العامة والجماهير .

هذا ، وللعلماء الباحثين موطد الأمل فى أن يصلوا على مر الزمن إلى حل رموز الآثار الهندية القديمة التى أنشأها الوطنيون قبل الاحتلال الأجنبى ، فاذا وصلوا إلى هذه البغية استطاعوا أن يتبينوا المدنية الهندية القديمة والديانة المحلية وما امتزج بهما وطغى عليهما من مدنية الفاتحين وديانتهم . أما الآن فأكثر ما يقال فى هذا الصدد لا يعدو دائرة الفرض والتخمين .

على أن أهم ما يلفت النظر فى الاكتشافات الحديثة للآثار الهندية القديمة هو أنه قد عثر على بعض تماثيل يرجع تاريخها إلى عهد المدنية الأولى ، ولكنها تشبه كل الشبه تمثال الإله «سيفا» الذى هو من آلهة عهد الاحتلال «الآرى» ، وكذلك عثر المكتشفون على رموز يرجع تاريخها إلى القرن الثلاثين قبل المسيح ، وهى لا تزال حية فى الديانة الحديثة حياة قوية .

ويستنتج الباحثون من هذا أن الإله «سيفا» ليس إلا إلها محلياً قديماً لونه الفاتحون بلون جديد ثم أقروه فى الديانة المحدثة ، كما أن تلك الرموز الحية فى الديانة «الهندوآرية» هى بعينها الرموز الوطنية القديمة . وينجم عن هذا أن تكون الديانة الهندية المستحدثة بعد «البراهمانية الأرثوذوكسية» مزيجا من الديانة المحلية المندثرة والديانة «الهندوآرية» ولكنه كان مزيجاً مجهولا لدى الهنود أنفسهم ولدى جميع العلماء والمؤرخين حتى ظهرت استكشافات «بانيرجى» الأخيرة

وتدل دراسة الديانة الهندية بوجه عام على أن الهند هى بعد مصر البقعة الثانية التى يصح أن يطلق عليها اسم أرض الآلهة والتى لا يفوقها فى كثرة آلهتها وتعقد مشاكلها الدينية وصعوبة تحديد اختصاص الآلهة وسعة الخيال وخصوبته فى تصوير المعبودات إلا بلاد الفراعنة

الديانة المحلية

لم يصل الاكتشاف الحديث بعد إلى الدرجة التى يصح معها للباحث الدقيق ـ كما أسلفنا ـ أن يصدر حكما جازماً على الديانة المحلية التى سبقت عهد الاحتلال «الآرى» إذ قد رأيت تناقض العلماء وتضارب آرائهم فى هذا الموضوع حيث يقرر فريق منهم أن الوطنيين الأولين كانوا أرقى عقلية وأعظم مدنية من الفاتحين . ويذهب فريق آخر إلى العكس فيقرر أنهم كانوا بطونا منتثرة وقبائل متفرقة لا تربطهم مدنية اجتماعية ولا تجمعهم وحدة سياسية ، ولكن الذى لا ريب فيه هو أن أولئك القوم كان لهم ديانة مهما تبلغ من السذاجة فان لها قيمة تاريخية لا يصح للمشتغلين بتاريخ العقلية الانسانية أن يهملوها . وتتلخص هذه الديانة فى أن النار كانت هى المعبودة المقدسة التى تقدم اليها الضحايا والقرابين من لحوم مشوية وخمور معتقة وألبان وخبز وأعشاب صالحة للأكل أو للتخمير إلى غير ذلك ، وأن كهنة النار الذين كانوا يتولون إيقادها كان لهم بين أفراد الشعب مكانة رفيعة وإجلال مفروض . وقد كان هؤلاء الكهنة سدنة للنار وسحرة وأساتذة فنيين يعلمون الشعب طقوس الدين وأركان العبادة .

الرافعي في الحجاز

مصطفى الرافعي

للأستاذ محمد حسين زيدان

ليست هذه الكلمة رثاء أرثي به الفقيد ولكنها حادثة وقعت لنا بسببه فأحب إخواني نشرها ليعلم الناس مكان الفقيد من نفس شباب الإسلام والعرب في كل قطر ومصر

كنا أربعة نسمر حول مائدة فانتحى اثنان منا جانباً يتذاكران اللغة الانكليزية وجلس آخر يقرأ – يقرأ ضحى الإسلام – أما أنا فكنت أكتب موضوعاً لجريدة (المدينة) وجاء صديق يحمل (الرسالة) ولم نكن قرأنا هذا العدد الذي يحمل، إذ تأخر وصوله فقلت: الرسالة؟ الرسالة! هاتها. فتصفحت الافتتاحية وخطوتها إلى كلمة الأستاذ أحمد أمين. فالأستاذ المازني، ثم إني قرأت للرافعي «أمراء للبيع» فلما وصلت إلى منتصف المقال ألقيت الرسالة وقلت لأصدقائي «هلموا إلي – هيا بنا نؤمن ساعة – أقرأ لكم الرافعي» فقالوا: اقرأ. اقرأ. فأخذت أقرأ وهم سامعون ساهمون. يسمعون البيان بيان الرافعي. ويعجبون بالبطولة. بطولة الشيخ بن عبد السلام. ويهزءون بالقوة الغاشمة والامارة الكاذبة والجهل الفاضح. وما انتهينا من المقال حتى ملأ الاعجاب أفئدتنا. وهذا حالنا كلما قرأنا لأبي السامي ومن تصاريف القدر وأعاجيبه أنه لم تمض لحظة حتى وافانا البريد فطالع أحدنا (أم القرى) وفيها الخبر الفاجع المحزن خبر وفاة الفقيد. فنزل علينا كالصاعقة ولقد كدنا لا نصدق، قبل لحظة كان الرجل حياً يسمعنا بيانه وإيمانه ويطالعنا بعجيب من البطولة والصراحة والصرامة في الحق وتأييد الحق. والآن هو ميت نسمعه أنين الحزين وبكاء المتألم، وطفق أحدنا يبكي ويقول: لكم العزاء في الرافعي فقد حرمنا نحن الناشئة أديباً كبيراً نتعلم منه البيان والأدب العالي والنبل والفضيلة. حرمنا هذا في زمن اتجه أدباؤه إلى ارضاء الساسة والعامة، والعامة هم عصا الساسة يسوقون بها هؤلاء الأدباء، وإن كان هؤلاء الساسة لا يتحركون إلا بما يرضى العامة لأنهم يستمدون سلطتهم على مقدرات الأمة وشؤونها من هذه العصا العوجاء «الرأي العام» وما هو الرأي العام «يرحم الله قاسم أمين» – قلت: حسبك فقد آلمتنا وأبكيتنا قال: أكتب حادثنا وحديثنا في جريدة (المدينة) ليعرف هذا وإني أعرفك لا تستطيع أن تكتب رائياً فالرثاء شعر ولست بشاعر، وإنما أنا أبكي الفقيد بدموعي وفؤادي المحترق. قلت: أعرفك بكاء وإني لعاجز. ولكن اسمع وما أردت أن أكون دونه – اسمع لقد انهدمت الدعامة الرابعة من دعائم (الرسالة) بموت الرافعي. وإنا لنرجو أن تعود، فهي اليوم تقوم على ثلاث دعائم، قال: لم أفهم فأفصح، قلت: ياهذا ألا ترى أن دعائم الرسالة أربع:

العاطفة والشعر. فالعقل والعلم. فالتجربة والتهذيب، فالايمان والفضيلة: رجل العاطفة والشعر الزيات يكتب بعاطفته من قلبه وحنينه وأنينه ليلهب عواطف الأمة ويوقظ شعورها ويوقد حماسها فتتجه نحو المثل الأعلى. يفعل هذا

وإنما كان هناك آلهة كثيرون، بعضهم يتمثل في الشمس وما تسكبه على الكون من نعمة الاضاءة والدفء والانعاش، والبعض الآخر يتمثل في تنين هائل أو وحش مخيف. وكان عدد أولئك الآلهة يصل أحياناً إلى ثلاثين أو ثلاثة وثلاثين إلهاً متساوين حيناً، ولهم رئيس أعلى حيناً آخر، ولكن هذا الرئيس لم يكن هو خالق الأكوان، لا لأن هؤلاء القوم كانوا دهريين أو طبيعيين، بل لأن سذاجتهم كانت قد بلغت حداً حال بينهم وبين الرجوع بعقولهم إلى بدء الخلق، فاقتصروا على التفكير فيما هو بين أيديهم فحسب ولم يتعدوه إلا إلى ماض قريب فرضوا فيه وجود عالم أحط منهم مرتبة وأقل مدنية. وبناء على هذا كان عمل الإله أو الآلهة عندهم مقصوراً على التصرف في الموجود ولا يتناول الايجاد بأي حال.

وكانوا يعتقدون أن هناك عالماً آخر وراء هذا العالم يدعى «عالم الأموات» وأن ملك هذا العالم هو أول ملك من أجدادهم وهو: «ياما» بن «فيفاسفان» كما كانوا يعتقدون أن الخيرين الذين يموتون وهم حائزون رضى الآلهة لا تكاد أرواحهم تغادر أجسامهم حتى يمنحهم أولئك الآلهة معرفة الغيب والقدرة على التصرف في الكون وعلى تدبير الأقدار خيرها وشرها.

(يتبع) **محمد غلاب**

لأن فيه طبيعة الشاعر الملهم المتألم المتأمل .

ورجل العقل والعلم أحمد أمين يكتب بعقله وعلمه ليثير عقل الأمة وليزيد فى علمها من علمها وتراثها فتسير فى طريق العقل النير والعلم الممحص ، يفعل هذا لأن فيه طبيعة القاضى النزيه والعالم المخلص ... ورجل التربية والتجربة المازنى يكتب من تجاريبه ودراسته للنفس والأمة ليهذب من أخلاق الشباب ، فيسير على ضوء التجربة من حوادث الماضى . يفعل هذا لأن فيه طبيعة الأستاذ المربى

ورجل الايمان والفضيلة الرافعي يكتب بايمانه وعقيدته ليدافع عن ايمان الأمة ويثبت ايمان الأمة وعقيدتها . فتسير بنور الايمان ثابتة العقيدة طاهرة المبادىء جريئة فى الحق صريحة فى نبذ الباطل ، يفعل هذا لأن فيه طبيعة المسجد وشيوخ المسجد ، ولان فيه أثراً من وراثة الأسرة الجيدة والبيت الرفيع من الفاروق رضى الله عنه الى عبد الغنى وعبد القادر وأمين وعبد الرحمن ومصطفى صادق . أسمعت ووعيت ؟ قال : سمعت وزد . قلت : وان هذا الارتباط بين كتاب الرسالة بدون تعمل وتعمد من أعاجيب نهضة الأمة ويقظة الأمة ورغبة الأمة وتوفيق الرسالة ، فهى قد لفظت وتركت غير هؤلاء الذين شذوا عن هذه المبادىء وضمت من سار على نهجها وخطتها . تركت غير هؤلاء عن غير قصد ولا عمد ، وان زعموا انهم تركوها حاسبين انها محتاجة اليهم مع انها فى غنى عنهم ، فليسوا هم أصحاب رسالة وان أيدوها بموقفهم السلبي ومناقضتهم ، فان جلاء الحق لا يظهر إلا بمزاحمة الباطل ، أسمعت ووعيت ؟ قال : هذا صحيح فزدنى . قلت : ماذا أزيدك ؟ وأخذتنى عبرة وطفقت أنشد بيت الرافعى الذى يرثى به أحمد تيمور باشا ، وما أحقه ان يرثى به .

تأتى المصائب كالتقليد فى نسق أما مصيبتنا هذى فتخترع

وبعد فهذه حادثة واقعة وحديث جرى مازدت فى ذلك شيئا . ويرحم الله أبا السامى فقد ناضل عن الأدب وجدد فى البيان . انه خلاق المعانى وملك الألفاظ يتلاعب بها كيف شاء . ناضل عن الأدب حتى كاد يستقر ، ودافع عن الدين والقرآن والنبى صلى الله عليه وسلم دفاعا يجزيه الله عليه أحسن الجزاء انه ولى الرحمة والغفران .

عن جريدة (المدينة المنورة) **محمد حسين زيدان**

أدب الرافعى أدب ممتاز

للسيد كمال الحريرى

للمرحوم فقيد الأدب مصطفى صادق الرافعى فى وصف الجمال وصوره والتعبير عن آثاره فى النفس والروح طريقة ممتازة هو فيها طراز وحده بين أدباء العربية فى جميع عصورها . فانت من وصفه الجمال الإنسانى أمام لوحات بيانية سحرية . تكاد الحياة والعاطفة والروح تنطق مجتمعة من خلالها . وهو فى الوصف الروحى العاطفى للجمال الإنسانى المادى ، صاحب مدرسة سدت فى فراغ الأدب ثغرة ما أغنت استعاراته وتشابيهه عن سدها شيئاً . ولا غرو فإن روح التعبير عن الجمال التى تسللت إلى أنامل فيدياس الإغريقى فأنشأت له من الصخر الأصم هياكل وتماثيل بشرية فى عاطفتها وحيويتها وروحها ، قد هبطت بعد أجيال على قلم الرافعى ، فأوحت إليه تحفه الأربع[1] فى فلسفة الجمال والحب . وأنا فى هذا الحوار الذى دار بينى وبين صديقى الرسام إنما أعرض لوناً جديداً حيوياً من اصباغ وصف الجمال البشرى ، للأستاذ الرافعى وحده فضل استكشافه وفرضه على الأدب ، ولوددت أن الأدباء غمسوا فيه ريشاتهم حين رسمهم لوحات الجمال الإنسانى . ولا بأس أن أحتكم فى تذوق هذا اللون أو النفور منه إلى أدباء الرسالة ليقولوا فيه كلمتهم

لى صديق فنان فى الرسم ، ريشته لسانه ، وترجمانه ألوانه ، أسمعته جملة لى فى وصف أبى نواس وهى : لقد كان أبو نواس فى حدائق الكرخ فراشة شاعرة ترتع بين أغصان القدود وأوراد الخدود . ثم وقفت عند هذه الجملة منتظراً أن تروقه هذه الاستعارة . ولكنه ما زاد على أن قال : صعب على يا صديقى أن أتصور كيف يتجرد صاحبك أبو نواس من

(١) نعنى بها كتب رسائل الاحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد وحديث القمر

هيكله البشرى ليتجسد فى جسم فراشة شاعرة ترتع بين أغصان القدود ووردات الخدود. وهل القدود مما تنبت الايكة والخدود مما تتفتح عنه خميلة الورد؟

قلت دهشاً: أين يذهب بك ياصاح؟ ان هى إلا استعارة بديعة يلجأ اليها الأدباء حين يشبهون اعتدال القد بالغصن وحمرة الخد بالورد. قال: ان أصحابك يسيئون الى الخدود الموردة والقدود المتأودة حين يشبهون الأولى بالورد والأخرى بالغصن. الغصن جميل والورد فتان ولكن جمالها مادى لا يقاس الى جمال خد العذراء حين يتورد وقوام الحسناء حين يتأود.

وأمامى الآن — وهنا أشار الى لوحته — منظر فتاة حسناء تقطف من خميلة ورودا زاهية حمراء. فأيهما أجمل وأنضر وأحلى وأملح؟ هذه الورود فى يديها أم هذه الحمرة فى خديها؟. ان حمرة خديها الملتهبين بدماء النضارة والصبا حرام أن تشبه بحمرة الورد. فليس فى الورد خدود تلتهب التهاباً، ولا وجنات ترف نضارة وشباباً. وكيف يستوى خد الورد البارد الجامد الذى لا يحرك احساساً ولا يثير عاطفة، وخد الفتاة المضرم من نار الصبى، المتوهج من حرارة العاطفة، المشبوب من خمرة الروح، المطلول من ندى الشهوة. يثير فى كل قلب ألواناً من المشاعر الراقدة، وضروباً من الأحاسيس الهامدة؟

وعيون النرجس على ما بها من جمال وتناسق بليدة جامدة فليس فيها هدب طويل يثير، ولا جفن كحيل يغرى. وأين من مقل النرجس «مغناطيس» العيون «وكهربائها» وسحرها واغراؤها؟

الجمال بسره الكامن وجوهره الرمزى انما هو فن الروح والعاطفة، فكيف تعبر عنه وردة محارة أو غصن أملود أو طاقة نرجس أو سبيكة ذهب أو فضة مجلوة أو ما شئت من هذه التشابيه النفسية المادية التى خلقت لامتاع النظر اللهيف وإرضاء الحاسة الرغيبة؟ أما تمثيل الجمال وتصوير الحلاوة ففن تلعب فيه الروح أهم دور وأخطره، وليست كل هذه التشابيه من فن الروح فى مراح ولا مغدى. قلت: ولكن الجاحظ يقول فى صفة جارية حسناء «وكأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمينة أو كأنها خرطت من ياقوتة، ثم ينقطع به نفس الوصف فلا يجعل للروح وفنها بالا ولا ذكراً. قال صديقى ولكن ما عجز عنه الجاحظ من الوصف الروحى للجمال المادى أدركه نابغة كتاب هذا الجيل الرافعى. وهمك به من أديب يستعلن بالأدب العربى على آداب الأمم الراقية ويقول (أنا أدب لغة القرآن).

ولقد لبثت زمناً أبتغى من الأدب العربى صوراً بيانية لوصف الجمال الانسانى تكون فى دقة تعبيرها كلوحات الزيت أو صور الفوتوغراف، فلا أظفر منه إلا بهذه الاستعارات (الزهرية) أو التشابية الجوهرية حتى قرأت للمرحوم كتبه الثلاثة فى فلسفة الحب والجمال فألقيت عصاى وآمنت بمعجزات الرافعى.

قال الاستاذ رحمه الله فى كتابه حديث القمر:

يا رحمة لهذا الجمال! وجه وضىء الطلعة كأنه السعادة المقبلة يصل إليه دم الشباب من القلب فيتحول فيه إلى جمال وفتنة، وكأن معانى الحسن التى تحير فى خديه حقيقة إلهية تطل على النفوس من وراء الشفق. فيه عينان تنظران والله بروح تكاد تنطق ولا يفهم عنها إلا كأنها ناطقة. وتفيضان دلالا وتفتراً فكأنما تلقيان على الروح فترة تحلم فيها من أحلام السماء وتستيقظ. وخدان تحير فيهما الجمال فوقف يتلفت عن يمين وشمال، وتراهما أسيلين بارزين، فيالله! هل هما ثديان صغيران من الورد يرضعان طفل الحب؟ قال: صديقى فكم بين هذا الوصف الساحر الدقيق العاطفى وبين وصف صاحبك الجاحظ المادى السطحى «وكأنها طاقة نرجس وكأنها ياسمينة»؟. إن هذه التشابيه على ما بها من جمال المادة والعطر واللون مادية لا ترسم حور العيون وسحر الجفون ولا تصور تواثب النهود والحياة الكامنة فى الخدود. أتدرى لماذا؟ لأن لغة العواطف يا صاحبى غير لغة الورود، وتمايل الأغصان لا يشبه تأدد القدود

«حلب» كمال الحريرى

أى أسـبانيا !

للأديب حسين شوقى

أى اسبانيا ! إنى لأذرف دمعة صادقة على نكبتك لأنك وطنى الثانى ! ألم أقض طفولتى فى ربوعك أثناء الحرب العالمية حينما نفى إليك والدى ؟

أى اسبانيا ! أصحيح أن الموت والدمار نزلا بمدنك التى كانت رؤيتها بهجة للنفس ومتعة للنظر ؟

أى اسبانيا ! أصحيح أن المرء يستنشق رائحة البارود البغيضة من حقول بلنسية حيث كانت تعبق رائحة البرتقال ؟

أصحيح أن يدالدمار قد امتدت إلى غرف الحمراء حيث مرحت الأميرات العربيات فى شباب الدهر ، بين أحضان الترف والنعيم ؟

أصحيح أن كنائسك الفخمة قد أحرقت أو تهدمت ، وكانت مقصد النبيلات الاسبانيات — أيام فتوح شارل الخامس وفليب الثانى — للتضرع والصلاة ، كى ترد إليهن أزواجهن من الحرب سالمين مظفرين ؟ . .

أى اسبانيا ! أصحيح أن قومك الذين كانوا بالأمس مضرب الأمثال فى اللطف والدعة وإكرام الضيف والترحيب بالغريب جن جنونهم بغتة ، كأنهم أصيبوا بداء الصرع ، فأخذوا يقتلون يمنة ويسرة ؟

أصحيح أن قلوبهم غاظت إلى حد أنهم يقطعون أيدى الحسان الناعمة كى يسلبوها حليها ، تلك الأيدى التى ماخلقت إلا للتدليل والتقبيل ؟

أصحيح أنهم سئموا مصارعة الثيران فاستبدلوا بها الأنفس البشرية ؟

أى اسبانيا ! أين كانت كامنة هذه القسوة ؟

بل من أين هبطت عليك ؟

إن بعض الكتاب الغربيين ينسبها إلى الدم العربى الذى يجرى فى عروق الاسبان اليوم ، ولكن الله يشهد أن هـذا الدم برىء ، لأنه دم أموى نبيل ! إن أسلافنا العرب الذين استوطنوا الأندلس كانوا أبطالا ولم يكونوا أنذالا ، انهم لم يقتلوا العجزة والأطفال والنساء !

بل إن العرب فقدوا ثمار فتوحهم العظيمة بما كانوا يبدون من الحلم المتناهى إزاء الشعوب المغلوبة ! ألم يتركوا لها حرية العقائد والعادات ، مكتفين بأخذ الجزية ؟

إذن ما مصدر هذه القسوة ؟

إن « أنامونو » الفيلسوف الأسبانى الشهير الذى توفى أخيراً ينسبها إلى دم النور (بفتح الواو) المنتشرين بكثرة فى ربوع أسبانيا ، وبخاصة فى الجنوب ، لأن هؤلاء القوم لهم ـ على حد زعمه ـ غرائز بعيدة عن المجتمع ، بل وحشية . ومما يؤيد قوله هذا ما حدث فى برشلونة من أعمال القتل والحرق والسلب فقد قام بمعظمها عمال من الجنوب لم يستوطنوا برشلونة إلا فى السنوات الأخيرة . . .

أى اسبانيا ! أصحيح أن حسانك قدمللن أقنعة ر.وسهن الجميلة من « الدانتلا » والمعروف « بالمانتليا » ففضلن عليها خوذة الجند الحديدية ؟

أصحيح أنهن حطمن بأيديهن تماثيل العذراء التى طالما توسلن إليها كى ترقق لهن قلب العاشق النافر ؟

أصحيح أنهن أصبحن يقتلن بالحديد والنار بعد ما قتلن زمنا بسهام اللواحظ وحد الجفون ؟

أصحيح أنهن سئمن أناشيد الحب فأخذن يحرضن خطابهن الرشيقين ذوى العيون العربية البراقة على الذهاب إلى ساحات الموت ؟

أى اسبانيا ! أصحيح أن قومك يهدمون مآثر ماضيهم المجيد بزعم التقدم والرقى ؟

رب ! كيف تمحى قرون متتابعة من العز والفخار ؟ هل من المدنية أن تدفن المتاحف وتنسف الآثار ؟

ألا ينظرون إلى حسرة أبناء العالم الجديد لافتقارهم إلى الآثار وهم قدوة المدنية والتقدم ؟

ألا يرون كيف ينقل هؤلاء القوم الكنائس والقصور الأثرية من أوروبا ، حجراً حجراً ، لاعادة تركيبها فى بلادهم ، رغم ما يكلفهم عملهم هذا من جهد ومال ؟

أى سرفانتس (١) ! هلا تركت ضجعتك الهنيئة الأبدية لحظة لتشاهد مقدار عبث قومك ؟

أى سرفانتس ! إن صاحبك « دون كيخوت » لأقل جنونا من هؤلاء القوم جميعا إذ جنونه برىء لا يتعدى مهاجمة الخراف والطواحين ، أما هؤلاء فلا يهدأ لهم بال إلا بقتل الأطفال والنساء والاخوان من بنى جلدتهم !

« كرمة ابن هانىء »

حسين شوقى

---

(١) مؤلف قصة « دون كيخوت » الخالدة



رسالة الشعر



هياكل بعلبك (١)

للأستاذ أمجد الطرابلسي

وأجلُّ من حللِ الغنيِّ ووشيه خِرَقٌ على الأبطالِ أو أسمالُ

أطلالُ ! ما البنيانُ يا أطلالُ ؟ فَنِيَتْ على ضُحَاتِكِ الأجيالُ !
هَزِئَتْ رمامُكِ بالزمانِ وصرفهِ ما تفعلُ النكباتُ والأهوالُ ؟
يفنى الزمان جديدُهُ وجميلُهُ وعلى حطامِكِ بَسْمَةٌ وجمالُ
إنَّ الخلود يَفِرُّ من سطواتهِ عادى الردى وتباعَدَ الآجالُ
لا يَقْحَمُ النِّكسُ المُرَوَّعُ غابةً تختال في جنباتها الأشبالُ

***

يا غادةَ الماضي البعيد تبختري ! إنَّ العصورَ هوادجٌ وحِجالُ
تيهي على الدنيا فإنكِ أختها والسِّحرُ بينكما الزمانَ سِجالُ
وتخايلي مِلْءَ العيون ، مليكةً تعنو لها الأملاكُ والأقيالُ
فلصَوْلجانكِ يا مليكةُ صفعةٌ يخزى بها المتكبر المختالُ
هاتي حديثكِ بعلبكُ أو اصمتي ! إنَّ الزمان محدِّثٌ قوّالُ
تتكلم الآبادُ فيكِ مبينةً وتخبرُ الأعصارُ والأجيالُ
هذي الرسومُ وهي الزمانُ وما وهتْ وقضى البُناةُ الظالمون ودالوا
ما زال بدهمها الزلازل بعدهم حتى ارتضى بالخيبةِ الزلزالُ
ماذا يضيركِ أنْ وهتْ وتمايلتْ عُمُدٌ ودالتْ دولةٌ ورجالُ
إن الخلود على جبينكِ مشرقٌ ونصيبُكِ التقديسُ والإجلالُ
وأجلُّ من حُلَلِ الغنيِّ وَوَشْيِهِ خِرَقٌ على الأبطال أو أسمالُ !

***

يا بعلبكُّ ! وقفتُ فيكِ كأنني وصَحابتي بينَ الطلولِ رِمالُ
نرنو إلى الرئبالِ وهو من الصفا فيكادُ يُفزِعنا بكِ الرئبالُ
ونحدِّثُ الأطلالَ وهي طريحةٌ فتكادُ تنطق مثلنا الأطلالُ
تتسلَّقُ العَمَدَ المنيفةَ مثلما تتسلَّق الصَّخرَ الأشمَّ نِمالُ
فنُطِلُّ منها فوق سِفرٍ زاخرٍ أسطارُه الأعصارُ لا الأقوالُ
نتلو صحائفَهُ ومِلْءُ بُرودنا عُجْبُ العجيبِ، وفيمَ لا نختالُ ؟
أقدامنا فوقَ الزمان قريرةٌ ولنا الهياكلُ والبعولُ نِعالُ
نختالُ في ذُرُواتِها فتَسُبُّنا عُصُرٌ تكنّفها الظلامُ طِوالُ
يا أيُّها العاتون ! بعض عُتُوِّكم إن الزمانَ مخادعٌ ختّالُ !
أرأيتم لَعِبَ الصروفِ وهدمَها ما يرفعُ الإرهاقُ والإذلالُ ؟
هذي النعالُ تدوس وهي فخورةٌ ماشادتِ الأصفادُ والأغلالُ !
تلكَ الأوابدُ كم أُهِلَّ لها دمٌ وسقى ثراها مَدْمَعٌ هطّالُ
كم ذلّتِ الأملاكُ في أعتابها وجثَتْ على أقدامها الأبطالُ
واليومَ نمرحُ نحنُ في هاماتِها يا للمشيب تُهينُهُ الأطفالُ !
يا للفنونِ الخالداتِ تدوسُها وتُذِلُّها المجّانُ والجُهّالُ !

***

عفواً هياكلَ بعلبكَّ ! فإنما هذا الزمانُ وصَرْفُهُ أحوالُ
صبراً على عبثِ الزمان ! فربما رقصت على جُثَثِ الأسودِ سِخالُ
كنّا نجوسُكِ ساخرين وربما أقعى لكِ الجبّارُ والصوّالُ

(١) من أروع وأضخم الآثار الرومانية . بنيت في القرن الميلادي الثاني . وهو ثلاثة هياكل عظيمة للآلهة الثلاثة (جوبيتر) و (باخوس) و (فينوس) .

كم ذلّتِ الأدغالُ بعدَ ليوثِها ... ولقد تُهابُ لأسدِها الأدغال

***

جوبتير! أين جبابرٌ لك شيدوا ... ما لا يزولُ على الزمان وزالوا؟

بذلت لهيكلك الرفيع نفوسهم ... ودماؤهم، وأُهينتِ الأموال

أرضيتَ أن تُبنى القصورُ من الأذى ... لك أو يخضّبَ بالدم التمثالُ

عبدوك فاستعبدتهم، وتمزّقت ... في ظلّك العبدانُ والعمّالُ

تلك العبوديّاتُ من آثارها ... هذى الصّروحُ كأنها الأجبالُ

نحتتْ بأصفادِ العبيد صخورُها ... وعلى العُناةِ أقيمتِ الأثقال

لا كنتِ يا آثار! إنكِ طعنةٌ ... في كلّ قلبِ شاعرٍ ونصالُ

***

عبدوا بكِ الشمسَ المنيرةَ في الضحى ... والشمسُ خيرٌ كلُّها وجمالُ

خشعتْ لها منذُ القديم معاشرٌ ... شغفتْهمُ الأنوارُ والأظلالُ

فلئن يعبكِ الناسُ أو يستهزئوا ... فاليومَ معبودُ الأنامِ المالُ

كم تُحرقُ الأبناءُ قرباناً له ... وتذبّحُ الأعمامُ والأخوالُ

أغلى من الخُلُق المكرّم درهمٌ ... وأجلُّ من أعلى العلى مثقالُ

***

(باخوس) ياربّ الكئوسِ! وكم عنا ... لمجونكَ المُتزمّتُ المفضالُ

هذي الكروم تكادُ وهْي نحيتةٌ ... يُصْبى العقولَ رحيقُها السلسالُ

ياليتَ شعرِيَ آلهوكَ فهلْ رأوا ... كيفَ استبدّتْ خمرُكِ الجِريالُ

شادوا لكَ الصّرْحَ الأشمّ تجِلّةً ... وجثا لكَ النسّاكُ والضلّالُ

وبنوا لِفينوس جِواركَ معبداً ... يختالُ فيهِ الحُسْنُ والإدلالُ

صُوَرُ الهوى المعسولِ ملءُ رحابه ... والجوُّ حبٌّ كلُّه ووِصالُ

يا أمّةَ الرُّومانِ! مازالَ الورى ... ينبيه كوبٌ مترعٌ ودلالُ

في كلّ قلبٍ للمحاسنِ معبدٌ ... تأوى الجراحُ إليهِ والآمالُ

لكنّما ذهبتْ مُلوكُكِ في الهوى ... سِيَراً تُدارُ كؤوسُها وتُجالُ

(أنطونيو) ملءُ الخمائلِ حبّهُ ... و(سِيزار) كم ضُرِبتْ به الأمثالُ

مَلِكان صاغَهما الغرامُ قصائداً ... تَشدو بها الأسحارُ والآصالُ

***

بنتَ الخلودِ أما سئمتِ جراحَهُ؟ ... إنّ الخلودَ سآمةٌ وملالُ!

إني لأسمعُ من صفاكِ صُراخَهُ ... وكأنّهُ التّنعابُ والإعوالُ

ماذا عرفتِ من الحياةِ، وإنما ... سرُّ الحياةِ تعاقبٌ وزوالُ؟!

ويلٌ لمفجوعٍ يرى أحبابَهُ ... يترحّلون وماله ترحالُ!!

تنتابُهُ من بعدهمْ أطيافُهمْ ... والذكرياتُ عواصفٌ ونبالُ

أوَ تذكرينَ (أباعبيدة) غازياً ... من حولِهِ الفرسانُ والنبّالُ؟

تتبخترُ الجُرْدُ الضوامرُ تحتهمْ ... نَشوى يُصعِّرُ جيدَها الإدلالُ

تزهو على الأرضِ الفخورِ بحمْلها ... عزّتْ وعزّتْ فوقها الأحمالُ!

ركبٌ تحفُّ به الملائكُ هُتّفاً ... وتحوطُهُ بقلوبِها الأجيالُ

أرأيتِ أشرفَ فاتحاً، سارَ الهدى ... في ركبِهِ واليمنُ والإقبالُ؟

أعلمتِ...؟ مالي والسؤال فربما ... نكأ الجراحَ الداملاتِ سؤالُ!!

أمجد الطرابلسي

الى عصفورة

للأستاذ خليل هنداوي

حلّق، حلق! لك الجو مهد ... والسموات، والمعالي كالشهاب

رجعي ما أردت شدوك حتى ... يسكر الكون بالغناء المذاب

أنا لا أستطيع يوماً صعوداً ... وجناحي مهشم الأسباب

أنا طير يدرى السماء ويدرى ... ما يوارى السحاب خلف السحاب

كلما هم لم يطعه جناح ... أوهنت عزمه رياح الرغاب

كمحب سار الركاب بمن يهـوى. ولكن هواه عند الركاب

أنا كالزهر أملأ الجو عطراً ... وجذوري تعلقت بالتراب.



هلموا يا شباب!

كأن كلمة الشباب مقصورة الدلالة على الطلاب . وكأن الذين هم فى ربيع العمر من الموظفين والمحامين والأطباء والملاك لا يعنيهم الأمر إذا وجهت دعوة إلى الشباب . فقد دعت الرسالة الشباب إلى أن يديروا بينهم الرأى فيما يهىء الأمة إلى العهد الجديد من توفير سلامة الجسم وتقريب وسائل الثقافة وترقية أساليب الانتاج وتكوين رأى عام صحيح صريح يتشاور فى بناء الهيكل القومى على أساس الخلق والدين والعلم والتعاون ، ويتجاوب فى كل حادث بالصوت المتحد الذى ينبه الغافل ويحذر المغتر ويكون سياجا للأمة من جمحات الأهواء وطغيان النفوس . تحرك لهذه الدعوة الطيبة كرام الطلاب ثم شغلهم الاستعداد للامتحانات عن توسيع المناقشة فيها ودراسة الوسائل اليها ، وانتظرنا من غيرهم أن يلجوا هـذا الميدان الاصلاحى ، أو يعملوا على تزويد الداخلين فيه ، فلم نسمع صوتاً ولم نشعر بحركة ؛ كأن أصحاب الوظائف وأرباب الأعمال يظنون أن واجبهم ينتهى عند عتبة الديوان ، وأملهم يقف على باب المكتب ؛ أما العمل التعاونى القومى فأمره بين شيوخ الحكومة وشباب الجامعة .

أنا أحد الذين حددت آمالهم وأعمالهم الوظيفة ، ولكنى أشعر أن الانسان المثقف والوطنى الصادق لا يسمح لنفسه أن يمثل فى يقظة أمته فتور النعسان أو جمود الكسلان فيكتفى بقراءة الصحف فى القهوة ومناقشة الأخبار فى الطريق . المسألة مسألة تجنيد عام لمحاربة عوامل الضعف التى فشت فينا من تغير الزمان وفساد الحكم ، فيجب أن يؤدى كل منا واجبه الوطنى فى الميدان الذى يستطيعه . والموظفون وهم ألصق الناس بالجمهور يستطيعون أن يؤدوا واجبهم على الوجه الأكمل فيرشدون الجاهل ، ويعاونون المتعلم ، ويضربون للناس الأمثال فى إخلاص العمل وتقدير المسئولية وسلامة الضمير ومراعاة المصلحة . والذين يتصلون منهم بالفلاحين من أطباء ومهندسين ومعلمين يتسع أمامهم مجال الاصلاح فيكونون رسل سلام ودعاة خير وناشرى ثقافة ، فالى إخوانى الشباب من الموظفين أوجه هذه الكلمة وأرجو أن يكون لها صدى فى نقاباتنا وأنديتنا ومكاتبنا ، يبلغ كل أذن ويهز كل قلب فنجيب دعوة الداعين ونعمل مع العاملين .

على اسماعيل
بالمالية

حول توجيه الشباب

إن أول واجب أشعر به هو تقديم وافر الشكر لصاحب الرسالة ومحرر رسالة الشباب فيها ، وكل من ساهم ويساهم فى تأدية هاته الرسالة السامية التى اضطلعت بأعبائها الثقال هذه المجلة المحبوبة الى جانب رسالة الأدب والعلم والفن التى قامت بتأديتها خير قيام . ونحن شديدو الايمان بأن نصيبها من التوفيق فى تأدية رسالة الشباب لن يكون أقل منه فى غيرها إن شاء الله

ولقد استرعى انتباهى — بصفة خاصة — هاته الكلمة التى ختم بها محرر رسالة الشباب صفحته فى عدد سابق وكان عنوانها : « عبرة الشباب من حفلة التتويج » . وإنى وان كنت من كارهى الحديث المعاد أشعر بدافع قوى يحملنى على أن أعيد مغزاها على إخوانى الشباب لا ليمتعوا أنفسهم بسلاسة أسلوبها أو جمال شاعريتها أو غير ذلك من ضروب الاستمتاع . بل ليجعلوها منهاجهم فى كل عمل من أعمال الحياة

ذلك المغزى أو العبرة ، كما أرادها المحرر — والتى أريدها نبراسا للشباب هى : أن الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس لم يمنعها احتفاظها بالتقاليد من أن تكون أمة التجديد ، واحترامها للدين من أن تكون أمة المدنية ، وإخلاصها للملك من أن تكون أمة البرلمان والديموقراطية والدستور

فأى عبرة هذه ؟ بل أى عبر يمكن لشبابنا المثقف أن

يتلقنها من حفلة تتويج ملك الإنجليز ؟ وأى توجيه هذا الذى ينادى به أستاذنا عميد كلية الآداب لشباب مصر بعد ما سمع بأخبار حفلة التتويج، وفهم منها ما فهم من محافظه الإنجليز على تقاليدهم واحترامهم لدينهم الذى هو مصدر الروحانية عندهم كما أن ديننا يجب أن يكون مصدر روحانيتنا ؟

وحتى هذا المقال الأخير الذى قرأته لعميدنا الكبير فى إحدى مجلاتنا تحت عنوان : « توجيه الشباب أيضا » كنت أحس فى مطالعته بارتياح عميق بل باغتباط لا شائبة فيه . ولكنى لم أكد أتصفح هذا المقال وأكرر ذلك — عادتى فى كل ما يكتبه كبار أدبائنا — حتى وجدت لسانى يتطاول — على الرغم منى — باتهام عميد الأدب بعدم توفيقه المرة فى معالجة شئون الشباب . فليسمح لى سيدى الدكتور بهذه اللهجة الجافة التى لم أجد خيراً منها لمناقشة رسالته . فهى الصراحة لا تعرف المجاملة والحق لا يقوم على المداهنة .

ينادى عميد الأدب بأن يتجرد شباب مصر من روحانية الشرق التى هى لباب دينه ، ليتجه بفكره صوب مادية الغرب ليغترف من تعاليمها الخير كل الخير على ما يقول ، فأى خير هذا الذى وجدته ياسيدى فى مادية الغرب التى تحبها ، وتؤمن بها وتنتظر منها الخير الكثير وقد فقدته فى روحانية الشرق ؟

أهذه المبادىء والمذاهب الخاطئة التى ينادى بها زعماء الغرب والتى تسير بأوربا نحو الهلاك السريع والتى بنيت على حب المادة والعمل للمادة وحدها؟ أم هذه النزعات والميول المتطرفة التى قلبت رسالة الانسانية السامية إلى رسالة بهيمية وضيعة والتى سوف يجنى الغرب ثمارها المرة الشائكة إن عاجلا وإن آجلا ؟ أم هذا وذاك من مساخر الغرب ومساوىء ماديته ؟

إن أحداً لا ينكر سير الغرب بخطى واسعة نحو الرقى والحضارة المزعومة فى هذا العصر . ولكنى كبير الشك فى أن هذه الحضارة - التى سخرت للمادة وقامت على دعائم خالصة من المادية - تعمر أو تطول . وليست هذه الأحداث والمهازل - التى يعج بها المجتمع الغربى ، ويستصرخ المصلحين لانقاذه منها - إلا إحدى نتائج هذا الاتجاه المادى الصرف

أما الحضارة الحق التى يؤمل من ورائها الخير ، وينتظر لها البقاء ، ويجب علينا أن ننير سبيل شبابنا اليها فهى تلك التى تأخذ ضرورتها من المادة إلى جانب حاجتها من الروح . وما تذوق الحياة جسد من غير روح . وهذه سنة الله فى خلقه أنطق بها رسوله الأمين حيث قال : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »

وعندى أن هذا الحديث الشريف هو جماع دستور الفرد الذى ينشد الكمال من المجتمع الذى يرجو الصلاح . وتلك الامبراطورية الاسلامية - التى بلغت حدود الهند والسند شرقا والاطلنطيق غرباً - قامت على أسس من الروحانية الشرقية التى ينكرها الدكتور ولا يرى فيها أى خير ...

كامل بركات

من رسالة

... أما إن الشباب سيظل زيت النهضة المضىء المحترق فهذا مما لا شك فيه

سلخنا من العمر ثمانية عشر عاماً هى ربيعه فى نهضة شريفة سامية طامحة جامحة جريئة رزينة - نقنع بالحجة ونغرى بالعاطفة ونلهم الشعور ونحرك القلوب - فعزيز علينا ثم عزيز أن نسلم علم الجهاد وقد دافعنا عنه بالمهج والأرواح ، فالى الأمام نسير فى كل فن وعلم بتجاريب السنين الماضية ، أما الميدان السياسى فلن يضيق عن الجهود الوثابة التى اكتسبت من المحن خبرة ومن الشدائد عظة ، وقد كان لنا فضل السبق فى الاصلاح وها هو ذا بنك مصر لا يزال شاهداً بما كان للشباب من قوة أثر فى تعميره . بل إن طربوش القرش هو غرس يد الشباب

فمن يوم أن قام الشباب قومته إلى الآن لا نجد أثراً عمرانياً أو أدبياً أو سياسياً إلا لمست فيه يد الشباب حادة قوية

وما زال كل فى طريقه شجاعاً فى غير عنف ، فخوراً فى غير زهو ، جريئاً يقول الحق ولا يهاب فيه الموت . وتلك كلها صفات اكتسبت من تعاليم سعد ، وتغلغل أثر النهضة فى نفوس تعطشت إلى الحرية فنالتها من يوم أن طلبتها



تقدير صحيفة ألمانية لأمة سامية

استقبلت مصر حين دخولها فى عصبة الأمم فى أواخر مايو الماضى بتحية اجماعية مؤثرة من اثنتين وأربعين دولة بينهما اثنتان من الدول العظمى؛ وكان التقدير الذى لقيته مصر يقوم بالأخص على التنويه بمكانتها التاريخية ، وعلى الدور العظيم الذى أدته فى تكوين الحضارة اليونانية القديمة؛ ومن ثم فى تكوين الحضارة الغربية بوجه عام؛ ولم تكن هذه المظاهرة الاجماعية المؤثرة حديثاً أفلاطونياً فقط، ولكنها كانت إشارة بحقيقة تاريخية يستحيل على أوربا الحديثة تجاهلها ، وفى الأسبوع الماضى نشرت جريدة « الأسبوع » الألمانية Die Woche عدة صفحات خاصة بمصر وحضارتها القديمة ، ثم استأنفت فى عددها الصادر هذا الأسبوع فكتبت عدة صفحات أخرى واستطردت فيها إلى الاشادة بما لمصر من فضل على المدنية وما يرجى لها من مستقبل باهر ، وهذه أول مرة فى عهد ألمانيا النازية تقوم الصحف الألمانية بمثل هذه الاشادة بمقام أمة شرقية « سامية » ، ولقد كان علماء الآثار الألمان فى مقدمة علماء الغرب الذين عاونوا على اكتشاف الحضارة الفرعونية وعلى إظهار الدور العظيم الذى قام به الفراعنة فى تكوين حضارة العالم ، فلم تكن هذه الحقيقة بخافية يوما على العلم الألمانى . ولكن حدث بعد ذلك أن اجتاحت الدعوة الهتلرية العلم الألمانى كما اجتاحت كل شىء فى حياة هذه الأمة العظيمة ، وذاعت نظريات هتلر عن الشعوب الشرقية والشعوب السامية بوجه خاص

فهذه الشعوب فى نظر زعيم ألمانيا الجديدة ، شعوب منحطة ، هدامة للحضارة ، غير أهل لانشائها . ومصر أمة سامية شرقية ، فهى طبقاً لإنجيل ألمانيا الجديد أمة منحطة هدامة للحضارة ، لا تستحق أن ترتفع إلى مصاف الأمم « الآرية » وهى الشعوب التى يحق لها أن تستعبد الشعوب السامية وأن تخضعها لثقافتها . ولقد اعتبرت مصر فى ألمانيا بعد ذلك بصفة رسمية دولة غير آرية لا يصح لأبنائها أن يختلطوا بالعنصر الآرى ، وكان لذلك فيما نذكر ضجة فى العام الماضى . فهل نعتبر إقدام صحيفة ألمانية كبيرة على التنويه بحضارة أمة « سامية » كمصر دليلا على تطور هذه النظرية النازية المجحفة؟ إن الصحافة الألمانية تخضع فى كل ما تكتب لرقابة حكومية صارمة؛ فاذا كان يسمح لها الآن أن تنوه بمركز أمة « غير آرية » فى إنشاء الحضارة العالمية ، فانه يسمح لنا أن نعتقد أن التفكير الألمانى قد أخذ يتحرر من بعض النظريات المفرقة التى أذاعها كتاب « كفاحى » ، وهى نظريات ليس لها فى الغالب سند من التاريخ الحق أو التدليل الصائب

كتاب عن تاليران

عرف تاليران الوزير الفرنسى الشهير بأنه نموذج للسياسى الداهية الذى لا يعرف فى سبيل تحقيق سياسته مبدأ ولا ذماماً ، وأضحى اسمه علما على السياسة القادرة المتقلبة ، بيد أن للتاريخ دورته وتطوراته؛ فاذا كان التاريخ قد رأى فى تاليران من قبل

حرية بعنا لأجلها نفوساً عزيزة علينا ، ودستوراً قاومنا فى سبيله كل من حدثته نفسه أن يكون عليه ظهيراً . وسنعرف باذن الله كيف نحيطه بسياج من الأخلاق متين ، غير منتظرين الوحى من الغرب؛ فالديموقراطية الشرقية مستمدة من وحى الله ومن تعاليم الأنبياء ، فالمشورة كانت من صفات النبى صلى الله عليه وسلم؛ وما كان مستبداً حتى فى إبان الحروب التى تتخذها الأمم الغربية كلها ذريعة لاعلان الأحكام العرفية . وان كان بعض مشرعى الغرب يحذرون شعوبهم من اندفاع جارف يؤدى بهم إلى الفاشستية أو الشيوعية ، فانا لا نزال بحمد الله بعيدين عن كل ذلك ، فان التأنى البصير خير من الاندفاع الأعمى ، وان دستوراً راسخاً متين البنيان لذو أثر عظيم فى تشييد صرح النهضة . فليطمئن الشيوخ ، فلن يجدوا إلا شباباً مجرباً وثاباً دمه الحار بمثابة وقود لعقله المتزن

م . س سليمان

سياسياً غادراً متقلباً ، فقد يرى فيه اليوم رأياً آخر . وهذا الرأى الجديد عن شخصية تاليران وعن سياسته يقدمه إلينا وزير انكليزى هو مستر دوف كوبر فى بحث تاريخى جليل صدر أخيراً بعنوان «تاليران» Talleyrand والواقع أن حياة تاليران العجيبة تستحق الدرس ؛ فقد خرج من الكنيسة إلى السياسة ، وخدم لويس الخامس عشر ، فلويس السادس عشر ، فالمؤتمر الوطنى والثورة الفرنسية ، فنابليون بونابرت فى جميع أطوار حكمه ، ثم لويس الثامن عشر ، وشارل العاشر ، وأخيرا لويس فيليب ؛ وهكذا وضع تاليران مواهبه تحت تصرف أنظمة وحكومات مختلفة ؛ ولم يحجم فى أى ظرف عن أن يتخلى عن حكومة أفل نجمها لتأييد حكومة جديدة ، ولم ير بأساً من أن يخون عرشاً على وشك السقوط لخدمة عرش تألق نجمه ؛ فهذا التقلب الغادر هو الذى يأخذه المؤرخون الفرنسيون على تاليران ، ويرون فيه سفالة أخلاقية لا تغتفر ؛ ولكن الوزير الانكليزى يرى فى كتابه الجديد رأياً آخر ؛ فهو يرى أن تاليران كان مثل السياسى العملى البارع ؛ وهو يقدم لنا عنه هذه الصورة القوية : «إن للفرنسيين ذاكرة بعيدة ؛ والسياسة فى نظرهم هى استمرار التاريخ ، والكتاب الفرنسيون ينتمون إلى مختلف الأحزاب والنحل : فهم ملكيون أو جمهوريون أو بونابارتيون . أما تاليران فلم يخلص لناحية خاصة من هذه . ولهذا لم يحدقط مدافعاته فى فرنسا . ومع ذلك فليس للفرنسيين أن ينحوا عليه باللوم ؛ ذلك لأن كل تقلباته كانت تبذل فى سبيل فرنسا كلها ، وهو يصرح بحق أنه لم يتآمر قط إلا حينما يندمج معظم مواطنيه فى سلك المؤامرة . وقد هلل كباقى الفرنسيين لمثل الثورة الفرنسية واعتقد فى ضرورتها . ولكنه كباقى فرنسا سخط على حكم الارهاب وخدم الحكومة المؤقتة وناصر نابوليون كرسول النظام والسلم . بيد أنه كباقى فرنسا كان يبغض الظلم . فلما سئم من الحروب عاد يسعى إلى إعادة البوربون . ولما رأى استحالة العمل مع شارل العاشر ، اتجه نحو لويس فيليب ، وقد كانت مثله التى لم يحد عنها قط الملكية الدستورية ، وتأييد النظام والحرية فى فرنسا . والسلام فى أوربا ، والتحالف مع انكلترا » .

وقد انتهى الوزير الانكليزى إلى هذا الرأى بعد البحث واستقراء الوثائق التاريخية الهامة ؛ وهو يستعرض كل أعمال تاليران وتقلباته ويشرحها على ضوء الحوادث والأشخاص ؛ وهو يجنح إلى العطف فى معظم تعليقاته ؛ ومن رأيه أن تاليران كان من أعظم الساسة الذين عرفهم العالم ، وأن تقلباته المزعومة لم تكن إلا نوعاً من السياسة العملية التى يقدرها الانكليز قدرها ، وأنه كان يتمتع بصفات باهرة جعلت منه أقدر سياسى فى عصره .

ونحن إذا قلبنا صحف تاريخنا وجدنا لدينا قرين تاليران ؛ ذلك هو السياسى الفيلسوف ابن خلدون ؛ فهو أشبه الناس بتاليران فى خدمة الحكومات المختلفة ، وفى الأخذ بقواعد السياسة العملية ، وفى تقلباته مع الظافرين .

من نفائس أوراق البردى

تحتفظ مكتبة فينا الوطنية بمجموعة من أوراق البردى المصرية القديمة ، ومنها خمس أوراق ظهر من فحصها ودراستها أنها جزء من التوراة ، وأن هذه التوراة المخطوطة هى أقدم توراة وجدت حتى الآن . وقصة هذه التحفة الأثرية هى كقصة جميع التحف التى تتسرب من مصر إلى الخارج بانتظام ؛ وهى أنه فى سنة ١٩٣٠ اشترى بعضهم لحساب مكتبة (فينا) عدة من أوراق البردى من أحد تجار العاديات بالقاهرة ؛ ولما أظهر البحث أنها قسم من التوراة سئل التاجر المذكور عما إذا كان يمتلك أوراقاً أخرى من هذا النوع فذكر أنه باع مجموعة أخرى منها إلى أحد اليهود المشهورين وهو مستر شستربيتى . ولم يمض على ذلك قليل حتى أذاعت الدوائر الأثرية فى لندن أنها قد حصلت على أقدم نسخة خطية فى العالم كله من العهد الجديد (الانجيل) ، وبه نص كامل لانجيل متى ، وأن هذه النسخة ترجع إلى منتصف القرن الثالث الميلادى . وتحتفظ فينا فى الوقت نفسه بأقدم قطعة من أوراق البردى اليونانية ، وبهذه الوثيقة نص كامل لقصة « فرار ارتميسيا » الشهيرة كذلك تحتفظ بأقدم ورقة من أوراق البردى اللاتينية ، وهى وثيقة عسكرية ترجع إلى أيام الامبراطور أوغسطوس أعنى إلى القرن الأول من الميلاد غير أنه لاريب أن أوراق البردى المصرية القديمة من أثمن ما تحتفظ به العواصم الأوروبية المختلفة ، ومع أن مصر لا زالت تحتفظ منها بمجموعة ضخمة فإن أثمن ما فيها قد تسرب اليوم إلى الدوائر الأثرية الأجنبية فى مختلف أنحاء العالم

المكاتب العامة فى فرنسا

قررت الحكومة الفرنسية تحقيقاً لأغراض سياستها الثقافية أن تعمل على تعميم المكاتب الشعبية بطرق وأساليب مغرية للقراءة والتثقيف . وقد رؤى أن تنظم هذه المكاتب فى المدن المكتظة بطريقة خاصة . إذ تنشأ فى مواقع مزهرة منيرة ، وأن تعمل لها واجهات زجاجية تحلى بالصور والأزهار والتحف ، ثم تعرض فيها أحدث الكتب كما تفعل المكاتب التجارية ؛ والمقصود بذلك التوصل إلى إغراء المارة من عمال وعاملات وطلبة أنهكهم العمل أو الطواف بدخول المكتبة وتمضية لحظات فى القراءة أو تصفح الكتب والمجلات المصورة ، وسيعنى بأن تعرض فى هذه المكاتب جميع الصحف والمجلات من كل لون ونزعة سياسية ، كما تعرض

الكتب العلمية والروايات وغيرها ليكون هناك مجال للجميع كل حسب ذوقه ونزعته، كذلك ستنشأ في هذه المكتبات أجنحة خاصة للأطفال وتزود بطائفة من كتب الأحداث المصورة؛ بل واللعب والصور المختلفة.

المؤتمر الدولي لكتاب اللغة الفرنسية من الأجانب

افتتح يوم الثلاثاء الماضي في باريس المؤتمر الدولي لكتاب اللغة الفرنسية من الأجانب فالقى الأستاذ جورج قطاوى الادب المصرى خطبة جاء فيها:

في مقدمة الكتاب المصريين باللغة الفرنسية واصف غالى باشا وزير الخارجية المصرية وقد شرفنا بحضور اجتماعنا هذا. وجميع المصريين يقدرون عمله السياسى حق قدره، فالاستقلال الذى أحرزته مصر ومكنها من دخول جامعة الأمم من عهد قريب مرجع الفضل فيه إلى الجهود الوطنية والتضحيات وهمة الذين جاهدوا إلى جانب سعد زغلول باشا وفي جملتهم واصف غالى لنيل الأمة المصرية مطالبها المشروعة. فالخطب التى ألقاها واصف غالى والنشرات التى أصدرها فى أثناء الثورة المصرية تكاد تكون صدى لصوت دانتون أحد أعلام الثورة الفرنسية الكبرى. ومع اشتغال واصف غالى بالشئون السياسية لم يهمل حرفة الأدب والبحوث التاريخية وقرض الشعر، فان آثاره القلمية معدودة من محاسن النثر وعيون الشعر، وقد بين فيها أن الغرب والنصرانية اقتبسا كثيراً من الحضارة الاسلامية. وأحيا ذكر شياطين الشعر العربى القديم والقصة العربية، ولم يسبقه فى معالجة هذا الموضوع إلا المغفور له ثروت باشا أحد رؤساء الوزارة المصرية السابقين

وما من أديب فى مصر كلطفى السيد وطه حسين وأحمد ضيف ومنصور فهمى لم ينشر نبذا باللغة الفرنسية على هامش مؤلفاته العربية النفيسة. ولو شئنا الاسهاب فى هذا الموضوع لتمادى الكلام إلى مدى بعيد. وحسبنا أن نذكر أسماءهم. وأظن أن اسمى عدس وجوزيبو قنثى مستحقان أن يكونا فى رأس جدول اسماء الذين نكرمهم، فان كتابهما (جحا الساذج) قد بلغ بهما إلى أوج البلاغة، فقال عنه أوكتاف ميربو إنه لا يقل قيمة عن الكتب التى نسجت بردتها يراع ستندهال وفلوبير وتلستوى

وقال إنه لم يدرك حقيقة الشرق إلا حينما قرأ كتاب «جحا الساذج»

وكتب أحمد ضيف بالاشتراك مع فرنسوا بون جان قصة «منصور» وغيرها فوصف الاول محاسن الريف المصرى ومعيشة النوتية فى النيل ومرفأ الاسكندرية، واشترك معه بون جان فى وصف جامعة الأزهر

وفى جملة الذين عالجوا محاسن مصر القديمة التركية أحمد راسم فان نثره الشعرى يحكى بسلاسته وابتكاره ما نراه فى شعر فرنسيس جام، وفى كتابة أحمد راسم تكثر النكتة والتعابير الشعرية والأمثال العلمية. وقد عالج تحليل قصائد الشعراء المصريين باللغة الفرنسية، وسيتسنى لكم الاطلاع على تراجم هؤلاء الشعراء فى الديوان الذى يعده فى القاهرة المسيو روبرت بلوم الأديب الفرنسى الذى اختار مصر وطنا له

ومن المؤلفين الذين لا يذهل راسم عن الاشادة بهم أمامكم شاعر أريد أن أسبقه إلى التنويه به وهو محمد ذو الفقار فانه من أرق شعراء مصر وأحسنهم ديباجة، ولكنه ينفر من الظهور والتبجح، وهو علاوة على تفوقه فى الشعر يعد من المصورين البارعين. ويحب فى غالب الاحيان أن يستر عواطفه الحقيقية بنكتة لطيفة أو بتهكم لاذع. وقد قال عنه أحد النقاد:

«إن الكلمات العادية فى اللغة الفرنسية تتخذ إذا عالجها بقلمه طلاوة جديدة»

وأول من رفع الستار عن قصائد ذو الفقار وأعلنها للجمهور هو الكاتب المصرى جورج دومانى بك، ولم يكن قبل ذلك قد اطلع عليها إلا الاخلصاؤه. أما جورج دومانى الذى استهوته السياسة والأعمال وشغلته عن عالم الأدب، فهو والحق يقال من أدق النقادين نظراً وألذعهم قلما. فالمواهب التى يسخرها لتخليد ذكرى بعض زملائه وإظهار عبقرية البعض الآخر، تدل على أن نزوعه إلى النقد لم يضعف فيه قوة الشاعرية

ومن عهد قريب صارت مصر تضيف إلى عداد شعرائها الذين ينظمون باللغة الفرنسية شاعرة جديدة هى السيدة قوت القلوب كريمة المغفور له عبد الرحيم الدمرداش باشا، فقد أصدرت رواية مطولة بعنوان «الحريم» أجادت فى إنشائها كل الأجادة ونظم لها الكتاب الفرنسيون عقود الثناء عليها

وإذا كانت الصداقة، الحقيقية وليدة اندغام بعض المتضادات والتقرب عن طريق المصاهرة فقد وجدت فرنسا ومصر لتتفاهما فعند طرفى حوض البحر الأبيض المتوسط لا تتخدش شواطئنا المتطرفة بخطوط منحرفة. وكأن شعبينا قد أعدا من الوجهتين الجغرافية والتاريخية لأن يكونا فى ملتقى الطرق حيث تتواجه وتندغم الحضارات المتضادة. فباريس فى الغرب تقوم بين العالم الجرمانى والعالم اللاتينى بمهمة تماثل المهمة التى تقوم بها الاسكندرية بين أسيا والعالم الافريقى. ونجد فى فرنسا كما نجد فى مصر الفلاح المتعلق بالأرض وحراثتها، فاليسر لم يجرده من الميل إلى العمل ولا التعلق بأهداب الحرية ولا السعى وراء الاقتصاد المحمود. وكان «بوسويه» يقول عن مصر الفرعونية: إن الأحوال الجوية المتساوية فيها دائماً تولى عقول أهلها متانة وثباتاً.



غريب القرآن

لمحمد بن عزيز السجستانى المتوفى سنة ٤٥٠ ﻫ
طبع المطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر

أنجزت المطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر طبع هذا الكتاب النفيس من تراثنا الأدبى بعد ما عهدت إلى الأستاذ الشيخ مصطفى عنانى بك المفتش الأول بالمعاهد الدينية ، تصحيحه وترقيمه ، وضبط المهم من ألفاظه وتعليق حواشيه ومراجعته على أصوله ؛ وقد اعتنى به ناشره عناية فائقة تناسب قيمة هذا الكتاب الجليل

ونحن نحب أن نعرف هذا الكتاب إلى جمهور المتأدبين من قراء الرسالة لينتفعوا به ويستفيدوا منه ؛ فهذا كتاب وضعه واضعه ليعين قارىء القرآن وسامعه على أن يفهم ما يشاء من آياته على وجه السرعة ، غير مستعين بما كتب المفسرون لأنه ينشد الفهم العاجل أو لأنه لا يتسع صدره لفضول الكلام الذى يملأ كتب التفسير فى إسهاب عجيب . ونحن الآن نسمع القرآن يتلى فى (الراديو) أو يقرأ فى المساجد والمآتم والبيوت ، فنستمع إلى هذا الجرس الجميل فى كتاب الله ونتابعه بأذن واعية وفكر يقظ وقلب مشوق ؛ ثم يضايقنا أحياناً أن يقف الفكر عند آية أو كلمة من آية لا نستطيع أن نفهمها لطول العهد بما قرأنا من كتب التفسير ، أو لبعدها عن محيطنا اللغوى ؛ فى مثل هذه الحالة يعيننا كتاب (غريب القرآن) فيفسر لنا الكلمة الغريبة عنا فى بساطة ووضوح تعيننا على فهم الآية كلها وتصل بين ما نسمع من آى الذكر الحكيم

على أنه مع ذلك قاموس صغير يعين اللغوى والكاتب والشاعر بما اجتمع فيه من كلمات قد لا نجدها فيما بين أيدينا من معاجم اللغة . ثم هو مرتب ترتيباً أبجدياً يدل على موضع الكلمة منه بسهولة وبغير كبير عناء .

لهذه الأسباب كان طبع هذا الكتاب خدمة كبرى أسديت إلى العربية يستحق ناشره من أجلها الشكر الجزيل

وهذه هى الطبعة الثانية من الكتاب ، وكانت طبعته الأولى منذ خمس عشرة سنة ؛ على أن مالقيه الكتاب من رواج ، وتقدير الأدباء والمتأدبين لقيمته العلمية والأدبية ، قد حدا ببعض المرتزقة من تجار الكتب أن يعيدوا طبعه من غير إذن ناشره ، فكان على عملهم طابع السرقة ودليلها ، فجاء مطبوعهم مغلوطاً ناقصاً مشوهاً يسيء إلى الكتاب وقارئه أكثر مما يسيء إلى ناشره

ولكن هذه الطبعة الجديدة بضبطها وتحقيقها والعناية بها قد أنستنا هذه السيئة التى أقدم عليها طابعه المغتصب ، وردت إلى الكتاب قيمته العلمية الجليلة .

س

شرح الايضاح

تأليف الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى

أتمت المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر بمصر طبع الجزء الرابع من شرح الايضاح فى علوم البلاغة للأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى ، فتم به شرح كتاب الايضاح للخطيب القزوينى ، وهو الكتاب الذى جمع فيه بين طريقة الامام عبد القاهر الجرجانى ، وطريقة الشيخ أبى يعقوب السكاكى ، بعد أن هذب الطريقتين ، وأبدع فى ترتيب مسائل علوم البلاغة ، فاستقام له بهذا طريقة ثالثة بلغ من حسنها أنها لا تزال قدوة المؤلفين فى علوم البلاغة إلى يومنا هذا

وقد شرح الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى هذا الجزء علم البديع من كتاب الايضاح ، وسار فيه على طريقته فى الأجزاء الثلاثة قبله ؛ لا يعنى إلا بشرح ما يهم من المسائل التى تكون من صميم هذه العلوم . فاذا فرغ من شرح المسألة عنى بشرح شواهدها وتكميلها وإيراد شواهد أخرى لها ، وضرب بما سوى هذا عرض الحائط ، وهو مما لا تزال المعاهد الدينية تشبث به ، وترى أنه الميزة التى يمتاز بها الأزهرى على غيره . ونرى نحن أن إصلاح العلوم فى الأزهر لا يتم إلا بالقضاء على هذا الأسلوب الذى يبعدها عن تحقيق ثمراتها ، وتلتوى به مسائلها على المعلم والطالب حتى ينتهى منها على مثل ما بدأ به فيها ، وحتى لو شاء الاثنان أن يقضيا سنة فى مسألة على هذا الأسلوب لقضياها فى تحقيقها ، وقد

تضيق بهما عن غايتهما ، ومن غريب أمر هذا الأسلوب أنك تتعب فى تذليله ما تتعب حتى تنتهى منه ، فاذا عدت إليه بعد هذا بسنة أو شهر أو يوم كنت كأنك تحاول شيئاً لم تذلله من قبل ، وأحوجك إلى مثل تعبك الأول أو أشق منه . فيالله من هذا الأسلوب العويص الذى لا يذلل ، وقه لهؤلاء المساكين الذين يشقون فيه هذا الشقاء بدون ثمرة نافعة !

ولا يفوتنا بعد هذا أن نذكر مثالا من شرح الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى هذا الجزء ، ليعرف منه القارىء نوعا من طريقته فى شرح مسائل البلاغة ، وهى طريقة يجمع فيها بين العلم والادب ، وتحقيق المسألة وإيراد الشاهد على نحو ما كان يفعل المتقدمون قبل شيوع الطريقة النظرية فى تدوين هذه العلوم

قال الخطيب فى تعريف علم البيان (علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة)

فقال فى شرحه : قد اخطار السبكى أن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ومن الايراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين ، فلا يكون الاول عنده شرطا فى الثانى كما سبق فى علم البيان ، ولا يكون كل منهما شرطا فى الثالث كما هنا ، ولكن الحق خلاف ذلك ، لأنه لا قيمة لوجوه التحسين عند فقد المطابقه ووضوح الدلالة ، ولا لوضوح الدلالة عند فقد المطابقة ، ولهذا عد من عيوب الطباق قول الأخطل :

قلت المقام وناعب قال النوى
فعصيت قولى والمطاع غراب

لأن هذا من غث الكلام وبارده
وكذا قول أبى تمام

يوم أفاض جوى أغاض تعزيا
خاض الهوى بحرى حجاك المزبد

لأنه جعل الحجى مزبدا ، ولا يعرف عاقل يقول إن العقل يزبد ، وكذلك خوض الهوى بحر التعزى من أبعد الاستعارات

وإنا نهنىء الأستاذ الصعيدى بتمام شرحه على الايضاح ، وندعو الله أن يقويه على هذا العمل المتواصل (ص)

بغداد أو المدينة المدورة

فى عهد الخلافة العباسية

كان الأستاذ النبيه بشير يوسف فرنسيس قد أخرج فى الصيف الماضى الجزء الأول من ترجمة كتاب « بغداد أو المدينة المدورة » لمؤلفه المستشرق الذائع الصيت الأستاذ « غى ليسترنج » ، وكنت فى وقته قد كتبت كلمة فى العدد « ١٥٣ » الصادر بتاريخ ٨ حزيران ٩٣٦ من مجلة « الرسالة » الغراء بينت فيها ما لفريق من علماء المشرقيات من الفضل الأكبر فى إخراج الآثار القيمة والأسفار العظيمة ، وقد وعدت الغراء بنشر مقال أصف به الكتاب عند نشر الجزء الثانى ، وهأنذا بعد أن تناولت الجزء الثانى - وهو المتمم للكتاب - من مؤلفه الفاضل أفى بوعدى فأقول كلمتى خدمة للحقيقة والتاريخ .

لقد بذل المؤلف فى اخراج كتابه هذا جهوداً عظيمة لا تقدر بقدر حتى تمكن من إخراج كتابه إلى عالم المطبوعات بصورة متقنة مستندا إلى أوثق المصادر التاريخية وأصدقها برهانا وأقواها حجة ، وإن هذا الكتاب لهو معجم جغرافى لمدينة بغداد وفروعها وشعباتها ، ومحلاتها ، وأزقتها ، وشوارعها العامة والخاصة ، وقبورها ، وبيوتها، ودورها ، وجسورها وجميع مرافقها ومساجدها ، ومعابدها ، ومدارسها ، ومعاهدها الدينية والعلمية منذ تأسيسها على عهد أبى جعفر المنصور المتوفى سنة (١٤٥ هـ ٧٦٢ م) حتى انقراض الدولة العباسية بهجوم المغول على بغداد واستيلائهم عليها سنة (٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م) . نظرة بسيطة يلقيها القارىء على مقدمة الكتاب وثبت المصادر التاريخية التى استق منها المؤلف وألف كتابه هذا تجعله يقدر ما لهذا السفر الجليل من القيمة التاريخية العظيمة التى خدم بها المؤلف العرب والعلوم التاريخية العربية ، وبعد أن فرغ المؤلف من مقدمته دون الوقائع المهمة التاريخية منذ سنة « ١٣٢ هـ ٧٥٠ م » حتى سنة « ٦٤٠ هـ ١٢٤٢ م » بجدول ذاكرا فيه اسم السنة واسم الخلفاء والحوادث والأبنية الحادثة والمؤرخين المعاصرين . ثم قسم الكتاب إلى أربعة وعشرين فصلا بين فيها الحوادث الواقعة واحدة تلو الأخرى بصورة واضحة لا إشكال فيها ولا التباس ، وقد وضح كثيراً من الحوادث فى ثمانى خرائط تبين موقع بغداد فى مختلف القرون . وقد بلغت صفحات الكتاب ثلثمائة واثنتين وعشرين صفحة من القطع المتوسط

وبعد فان الجهود العظيمة والأعمال الجبارة التى قام بها المترجم الفاضل لم تكن بأقل أهمية مما بذله المؤلف من الجهود .

ويكفيه فخراً أنه بالرغم من ان التعليم مستغرق كل وقته فانه اغتنم فرص الراحة والخلود إلى السكينة فآثر الخدمة العامة على النفع الخاص وثابر على جهاده فى الترجمة وتعقيب الحوادث من مصادرها الأصلية - رغم ندورها فى العراق - حتى اخرج ترجمته هذه إلى عالم المطبوعات باحسن صورة وأبدع أسلوب . وانى لايسعنى هنا إلا أن أقدم التهانى القلبية للمترجم الفاضل ، وأدعو اخوانه الشبان المتحمسين المخلصين إلى اقتفاء أثره والسير على منواله ليفيدوا بلادهم وأبناءها ويستفيدوا ، فان رجل الدنيا من أفاد واستفاد

(بغداد) ابراهيم الواعظ

Lundi - 21 - 6 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

5 me Année, No. 207

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ٢٠٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ — ٢١ يونية سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الأدب وتحصيله

على ذكر مقال « ادب السندوتش »

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

نعى صديق الأستاذ الزيات ـ صاحب الرسالة ـ على أدباء هذا الجيل الجديد، جهلهم بلغتهم وتقصيرهم فى تحصيل آدابها، وقال: « ان الواقع الأليم أن الذين درسوا لغتهم وفقهوها من الأدباء النابهين نفر قليل. فاذا استثنيت هؤلاء الستة أو السبعة وهم من الكهول الراحلين، وجدت طبقة الأدباء كطبقة الصناع والزراع والتجار يأخذون الأمور بالتقليد والمحاكاة، لا بالدرس والمعاناة » وقال أيضا: « ولا تجد فى تاريخ العربية قبل هذا العصر، ولا فى تاريخ اللغات فى جميع العصور، من يحسب نفسه أديبا فى لغة وهو لا يعرف منها الا مايعرف العامى الألَفّ »

وهذا صحيح. وأحسبنى من الستة أو السبعة الذين أشار اليهم الاستاذ؛ وإنى لمن الكهول فقد جاوزت الاربعين وقاربت الخمسين، ولكنى إن شاء الله من الباقين لا من الراحلين، فانى أحس من العزم والقوة والنشاط مالو فرق بعضه على الأدباء النابتين أو الناجمين فى زماننا هذا، لكفاهم

وزيادة . ولست أكتب لأقول هذا . وإنما أريد أن أرسم للقراء صورة لأيام التحصيل الأولى . وأقول « الأولى » لأنا ما زلنا دائبين على التحصيل لا نعرف له نهاية إلا نهاية الحياة نفسها .

عرفنا القراءة والاطلاع ونحن تلاميذ فى المدارس الثانوية ؛ وأدع غيرى وأتحدث عن نفسى فأقول إن مواردى كانت محدودة جدا ؛ وكان حسبى أن أؤدى نفقات التعليم . وكنت أحمد الله إذا وجدت بعد ذلك قرشاً فى اليوم . وكان من زملائى فى مرحلة التعليم الثانوى الاستاذ حسن فهمى رفعت بك - وكيل الداخلية الآن - ولا أعرف كيف كان حاله ، ولكنى أعرف أنه كان يعيرنى ما يشترى من الكتب بعد أن يفرغ منها ؛ وقلما كان يسترد ما يقرضنى من كتبه . وكان فريق منا يعنى بأن يحضر دروس الامام الشيخ محمد عبده ، والشيخ سيد المرصفى . وانتقلنا إلى التعليم العالى ، وكتب الله لى - على خلاف ما كنت أريد - أن أدخل مدرسة المعلمين العليا ، فكان مرشدى فيها وأستاذى ، زميلى وصديق الاستاذ عبد الرحمن شكرى ، فقد كان شاعراً ناضجا ذا مذهب فى الأدب يدعو اليه ؛ وكنت أنا مبتدئا ، فصرفنى عن البهاء زهير وابن الفارض وابن نباتة ومن إلى هؤلاء ، ووجهنى إلى الأدب الجاهلى والأموى والعباسى ، ودلنى على ما ينبغى أن أقرأ من الأدب الغربى . وكانوا ينقدوننا فى هذه المدرسة بضعة جنيهات فى الشهر : ثلاثة فى السنة الاولى ، وأربعة فى الثانية والثالثة ، فكنت أقسم هذه الجنيهات قسمة عادلة ، فأدفع للبيت نصفها وأستأثر بالنصف ، وأذهب إلى مكتبة فأنتقى منها « مؤونة الشهر » . وكنت أعود إلى البيت بهذا الحمل فتسألنى أمى ، « أنفقت فلوسك كلها ! وتظل طول الشهر تقول لى : هاتى ! . هاتى ! . أى تدبير هذا ؟ » .

فأقول : « يا أمى .. لك مؤونتك من السمن والعسل والأرز والبصل والفلفل والثوم ، ولى مؤونتى من المتنبى والشريف الرضى والأغانى وهازليت وتاكرى وديكنز وماكولى ؛ ولا غنى بك عن سمنك وبصلك ، ولا بى عن هؤلاء ؟ » .

فتبتسم وتقول : « طيب . . » وتدعو لى بالتوفيق

وكنت أشترى ديوان الشاعر ورقا ، أعنى بغير غلاف أو تجليد ، ليتسنى لى حين أخرج من البيت أن أحمل معى ملزمة أو ملزمتين ، أقرأ فيهما وأنا جالس فى مقهى ، أو إذ أتمشى على شاطىء النيل . وكان حديثنا إذ نجتمع فى الأدب والكتب ؛ وكانت رسائلنا التى نتبادلها فى الصيف حين نتفرق لا تدور إلا على ما نقرأ ؛ وكان أحدنا يلقى صاحبه فى الطريق اتفاقاً فيقول له : « لقد عثرت على كتاب نفيس بغلاف فتعال نقرأه » لا يدعوه إلى طعام ، أو شراب ، أو سينما ، أو لهو ، بل إلى قراءة كتاب . وكان كل من يقع على كتاب قيم يخف به إلى صاحبه فينبئه به ويلخصه له ويحضه على اقتنائه . وكان أساتذتنا فى مدرسة المعلمين يحثوننا على التحصيل وييسرون لنا أسبابه ، ما وسعهم ذلك ، فلما تركنا المدرسة وفرغنا من الطلب « الرسمى » كنا قد عرفنا أمهات الكتب فى الأدبين العربى والانجليزى ، وغيرهما أيضاً من الآداب ، ودرسنا أكثر شعراء العرب والغرب ، وكان لكل منا مكتبته الخاصة المتخيرة

وتزوجت . وفى صباح ليلة الجلوة ، دخلت مكتبتى ورددت الباب . وأدرت عينى فى رفوف المكتب ، فراقنى منها ديوان « شيللى » فتناولته وانحططت على كرسى وشرعت أقرأ ، ونسيت الزوجة التى ما مضى عليها فى بيتى إلا سواد ليلة واحدة ؛ وكانوا يبحثون عنى فى حيث يظنون أن يجدونى - فى الحمام ، وفى غرفة الاستقبال ، وفى « المنظرة » - حتى تحت السرير بحثوا ، ولم يخطر لهم قط أنى فى المكتبة ، لأنى « عريس » جديد لا يعقل فى رأيهم أن يهجر عروسه هذا الهجر القبيح الفاضح ! وكانت أمى فى « الكرار » أو المخزن تعد مالا أدرى لهذا الصباح السعيد ، فأنبأوها أنى اختفيت كأنما انشقت الأرض فابتلعتنى ، وأنهم بحثوا ونقبوا فى كل مكان فلم يعثروا لى على أثر ، فما العمل ؟

فضحكت أمى وقالت : « ليس فى كل مكان ... اذهبوا إلى المكتبة فانه لاشك فيها »

فقالت حماتى وضربت صدرها بكفها : « فى المكتبة ؟ يا نهار أسود ! وهل هذا وقت كتب وكلام فارغ ؟ »

فقالت أمى بجزع : « اسمعى ... كل ساعة من ساعات الليل والنهار وقت كتب ... افهمى هذا وأريحى نفسك ، فان كل محاولة لصرفه عن الكتب ، عبث »

فقالت حماتى : « لوكنت أعرف هذا ... مسكينة يابنتى ... وقعت وكان ما كان »

فقالت أمى : « هل تكون مسكينة إذا وطدت نفسها على هذه المعرفة ؟ ويحسن أن تكبحى لسانك . وأن تدعى الأمر لبنتك فانه من شأنها »

فلم تكبح لسانها بل قالت : « لو كانت ضرة ... لكان أهون ! »

فقالت أمى : « إنك حمقاء ... وليس فى الأمر ما يحوج إلى هذا الهراء ... اذهبى إليه وناديه ... »

فارتدت إلىّ ، وفتحت الباب علىّ ، وكنت ذاهلا ؛ فلما شعرت بالباب يفتح أزعجنى ذلك ، فأشرت إلى الداخل أن يرجع من غير أن أنظر إليه ؛ وكنت مقطباً ، وكان لسانى يخرج أصواتاً كهذه : « شش ! شش ! »

فخرجت المسكينة وأغلقت الباب ، وذهبت تقول لأمى والدموع تنحدر من عينيها إنى طردتها وصحت بها : « هشش ! » كما يصاح بالدجاج ؟

وقد عرفت هذا كله فيما بعد . فطردتها ، لأنى خفت أن تخرب لى البيت ؛ ثم إنى تزوجت بنتها ، ولم أتزوجها هى ، فما مقامها عندى ولها بيت طويل عريض وزوج كريم ؟ وكان رأى بنتها فيها مثل رأيى ، فلم يسؤها منى ما فعلت . وأراحنا الله من دوشتها ، ولكن زوجتى كانت تقول إلى آخر أيام حياتها رحمها الله : « ليس لى ضرة سوى هذه الكتب » - كانت تقولها مازحة ، فقد راضت نفسها على احتمال هذا الجنون منى ، واستطاعت أن تدرك أنه ليس لها ولا لسواها حيلة ، وأن فى الوسع صرفى عن أى شىء إلا عن الكتب والدرس . وياما أذكى المرأة !! تكون لها حاجة تريد منى قضاءها ، وتخشى رفضى وعنادى ، فتكتمها ولا تكاشفنى بها ، وتنتظر حتى ترانى غارقاً فى كتاب ، وذاهلا به عن الدنيا ، وآية الذهول أن تدخل مرات فلا أشعر بها ، فتقبل علىّ وتلاطفنى وهى عارفة بما سيكون منى ، فأعبس ، كما كانت تتوقع ، فتقول « كلمة واحدة ... لن أعطلك ... »

فأقول متململا متأففاً : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! قوليها يا ستى ولا تعطلينى » فتطيل عامدة لتضجرنى : « كلمة واحدة بس ... لماذا تغضب هكذا ؟ ... ألا يتسع صدرك لكلمة ليس إلا ؟ »

فأكاد أجن وأقول : « يا ستى قوليها ، وأريحينى ! »

فتقول : « المسألة الفلانية ... »

وأنهض ، وأمضى بها إلى الباب وأنا أقول : اصنعى ما تشائين . كل ما بدا لك اصنعيه ، ولكن لا تعطلينى ... أنا محتاج لعقلى كله الآن ... ألا تفهمين ؟ هذه نسخة مخطوطة ، منسوخة ... من ديوان ابن الرومى ... نسخها حمار كلها غلط وتحريف وتصحيف ، ... ليس فيها بيت واحد له معنى ... فكيف يمكن أن أصلح غلطة واحدة إذا كنت تطيرين لى عقلى بالفساتين والخياطة والركامة ... ؟ ؟ ... »

فتبتسم ، فقد بلغت سؤلها ، وتعدنى أن تحرس هذا الباب فلا تترك أحداً يدخل منه أو يقربه .

ومن العناء الذى تكلفته أنى اشتريت الأغانى الذى طبعه « الساسى » - اشتريته ورقاً على عادتى ، فكنت أراجع الأبيات التى ترد فيه ، فى دواوين الشعراء أو كتب الأدب الأخرى ، فأصلحها أو أتمم القصيدة - أنسخ ذلك فى ورقة وألصقها فى الكتاب ، وكلما فرغت من جزء جلدته ، وقد أصبح ضعف ما كان ؛ وهذا هو الكتاب الوحيد الذى بعته بأضعاف ثمنه ، فقد اشتريته بمائة قرش وخمسة قروش ؛ فلما بعت مكتبتى فى سنة ١٩١٧ أو ١٩١٨ - لا أذكر - ابتاعه منى وراق بخمسين وسبعمائة قرش . وقد ندمت على بيعه ، فما أستطيع أن أصنع الآن ما صنعته قديماً ، ولكن العناء الذى تكبدته نفعنى ، فقد أحوجنى إلى مراجعات لا آخر لها ، وأطلعنى على ما كنت خليقاً أن أخطئه فيفوتنى العلم به

وأنا مع ذلك أقل الثلاثة - العقاد وشكرى - اطلاعاً وصبراً على التحصيل . وأدع للقارىء أن يتصور مبلغ شرههما العقلى ؛ ولا خوف من المبالغة هنا ، فإن كل ظنى دون الحقيقة التى أعرفها عنهما . وأنا أجتر كالخروف ، ولكنهما يقضمان قضم الأسود ، ويهضمان كالنعامة ، فليتنى مثلهما !

ابراهيم عبد القادر المازنى

كثرة البطولة أو ندرتها ؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

لخص العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين ما بيننا من خلاف على مسألة النبوغ والبطولة فى ختام مقاله فقال :

« عصرنا الحاضر طابعه طابع المألوف والمعتاد لا طابع النابغة والبطل ، وإن كان مألوفنا ومعتادنا أرقى من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية

« إن كان هذا - يا أخى - هو الذى أردتُ فأظن أنه لا يرد على بمزايا العصر الحاضر ، وعلم العصر الحاضر ، وفن العصر الحاضر . وإذا كان النبوغ فى السبق وكانت المقارنة بين عصرين بقياس مسافتى البعد ، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرتَ وذكرتُ »

وموضع الوفاق بين ما قال الأستاذ وما قلت أننا لا ينبغى أن نقيس علم السابقين إلى علم المحدثين ، فليست المقارنة بين مقدار ما نعلم ومقدار ما يعلمون ، وإنما المقارنة بين الملكات فى الزمن الماضى ، والملكات فى الزمن الحاضر ، وهذا ما نختلف عليه ؛ إذ لا موجب عندى لأن تكون ملكات النابغين فى عصرنا أقل مما كانت فى عصر الأقدمين

إن النبوغ صفة فى أصحابها وليست صفة فى غيرهم ، فاذا تعلم غير النابغين أو لم يتعلموا فصفة النبوغ باقية فى أصحابها سواء ظهروا بين المتعلمين أو ظهروا بين الجهلاء . وكل ما هنالك من فرق أن النابغة الذى يظهر بين المتعلمين أنبغ من زميله الذى يظهر بين الجهلاء ، وتلك شهادة للنابغين فى العصر الحديث تضاف إلى ميزان الحسنات والمرجحات

ومسافة البعد بين النابغ القديم ومعاصريه ، هى مسافة البعد بين نابغينا وأبناء عصرنا إذا نحن تجاوزنا مسألة التعليم ووفرة المتعلمين ، لأن النبوغ ملكة مطبوعة ، والمسافة بين المطبوعين وغير المطبوعين اليوم هى هى المسافة بين الفريقين قبل مائة عام أو ألف عام . فليس فضل إديسون فى زماننا أنه يعرف فى علم الضوء وعلم الصوت ما ليس يعرفه أبناء عصره ،

ولكنما فضله أنه نابغ وهم غير نابغين . فأفاد بالعلم اليسير ما لم يفده الآخرون بالعلم الغزير ، وظلت المسافة بينهم وبينه فى النبوغ كالمسافة بين ارخميد ومن عاصروه من غير النابغين ، وإن اختلف العصران فى شيوع العلم وكثرة المتعلمين

يقول الأستاذ الفاضل : « مقياس النابغة فى نظرى أن يفوق أهل زمانه ويسبقهم فى فنه أو علمه أو أدبه حتى لا يدركوه إلا بعد أزمان ، وعلى مقدار هذا السبق يكون النبوغ . فسيبويه نابغة فى النحو ، لأنه رأى من قواعده ما عجز أهل زمانه عن النظر إليه »

وأنا أقول كما يقول الأستاذ : إن النابغة يفوق أهل زمانه فى معرض من معارض العلوم والفنون ، ولكنى لا أقول إن عصرنا لم ينجب أمثال سيبويه . بل أقول إن سيبويه لو عاش فى عصرنا لما فاق نوابغه الأحياء ، وإن نوابغنا الأحياء لو عاشوا فى عصره لما قصروا عن شأوه ، لأن الملكات التى تعرف وحدة الأسماء والأفعال بين لغات أوربا ولغات آسيا لا تقل عن الملكات التى تعرف الوحدة أو الاختلاف بين قبيلة وقبيلة من أبناء البادية . لا لأن الأمر يرجع إلى كثرة المتعلمين عندنا وقلة المتعلمين قبل نيف وعشرة قرون

وعندى أن المعاصرين ينظرون إلى نوابغهم وأبطالهم كما كان الأقدمون ينظرون إلى النوابغ والأبطال فى عصورهم إلا من كان منهم موسوماً بسمة الدين أو محوطاً بهالة الايمان . فالاستاذ يقول إن نابليون ظهر « فاستعبد الناس وأجرى الدماء أنهاراً وقلب الممالك رأساً على عقب ودوخ الدنيا فكان نابغة حقا فى ناحية . وبيننا الآن فى عصرنا من هم أعلم منه بفنون الحرب ومن هم أقوى منه إرادة وأبعد نظرا . ولكن من الصعب أن نسميهم نوابغ ، لأن الناس ليسوا مغفلين كما كانوا أيام نابليون . ولأنه وحده كان هو القاهر المريد ومن حوله كانوا المنفذين المأمورين . فظهر ولم يظهروا ، ونبغ ولم ينبغ بجانبه إلا قليل »

فليت الأمركا يبشرنا الأستاذ من هذه الناحية : إنما الواقع أن أحداً من أبناء القرن الثانى عشر لم يناد بأن الأمبراطور معصوم كما ينادى الفاشيون من أبناء القرن العشرين بعصمة « الدوتشى » ، وطاعته بغير تفكير ولا امتعاض

والواقع أن نابليون لم يجسر يوماً على صنيع كالذى صنعه « الفوهرر » قبل ثلاث سنوات من « تطهير » البلاد بلا محاكمة ولا سؤال

وقد كان « لنين » ينحى على القديسين ، ولا يعترف للعظماء بأثر فى توجيه التاريخ إلى الأثر الذى يعترف به الشيوعيون ، فلما مات أقاموا له ضريحاً لم يحلم به كاهن ولا راهب فى عهد القياصرة أو عهد الكنائس والقديسين

وإننا لنسمع كل يوم عن الألوف التى تندفع حول نوابغ الصور المتحركة للظفر بتوقيع بطاقة أو صورة شمسية ، كما نسمع بالألوف التى تندفع من أجل هذا حول أبطال الألعاب الرياضية وأبطال السباحة والطيران وأشباههم من أصحاب الشهرة فى كل ميدان يتصل بالجماهير . أما العلماء والأدباء فمن نبغ منهم واشتهر فليس نصيبه من الاعجاب والجزاء بأقل من نصيب أمثاله قبل أجيال وأحقاب ، ومن لم ينبغ ولم يشتهر فله قرناء يماثلونه بؤساً وغبناً وشظفاً فى أقرب العصور وأبعد العصور

لا ، بل نحن لا نستثنى أصحاب المكانة الدينية على اطلاق الاستثناء ، فما يربحه الدعاة باسم الدين اليوم لا يقل عما كانوا يربحونه فى الأيام الخالية ؛ والثقة بأغاخان اليوم وهو يعيش فى أوربا عيشة المترفين المتطلقين لا تقل عن الثقة بإمام زاهد عاكف على العبادة كان يعيش فى صومعته قبل عصر الكشف والاختراع

ولم تنفرد نحن باكبار البعيد فى الزمان أو المكان وترجيحه على أنداده وقرنائه الذين نراهم رأى العين ونعرفهم بالمصاحبة واللقاء ، فقديما كانوا يقولون إن زامر الحى لا يحظى باطراب ، وقديما كان الجاحظ يكتب الرسائل وينحلها الكتاب الأسبقين ليحظى بالاصغاء والتقريظ

وأحسب أن ايثار الماضى على هذا النمط له علة شائعة بل علل شائعات لا تنحصر فى وقت ولا يخلو منها قبيل

فالماضى يشبه المثل الأعلى لأنه غائب عن الانظار كالمثل الأعلى فى هالاته وخيالاته ، أما الحاضر فهو كالواقع المحسوس الذى نحب أبداً أن نتجاوزه ونطمح إلى ما وراءه

ولقد كان المشركون ينكرون النبى عليه السلام ولا ينكرون منه إلا أنه « يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » . . ترى هل كان الأنبياء فيما مضى لا يأكلون طعاما ولا يمشون فى سوق ؟ كلا بل كانوا يأكلون ويمشون ، ولكنهم بعدوا واحتجبوا فخيل إلى غير معاصريهم أنهم مختلفون

ومن العلل التى تجنح ببعضهم إلى تهيب « السلف الصالح » أننا ننظر إليهم كما ننظر إلى الآباء والأجداد ، كأنهم كبار ونحن صغار ، لأنهم ولدوا قبلنا بمائة عام أو مئات من الأعوام ، وينسى المتهيبون أن السابقين كانوا أطفالا فى سن الطفولة وأننا سنصبح شيوخا مع السنين أو نربى فى الشيخوخة على اولئك الآباء والأجداد

ومن تلك العلل ما أومأنا اليه فى مقالنا الاول عن سهو الذين يقارنون بين الماضى والحاضر فيجعلونهما كفتين تتساويان فى نطاق الزمان والمكان ، مع أن الحاضر زمن واحد والماضى حاضر قد تكرر عشرات ومئات

وعندنا نحن الوارثين للثقافة العربية سببان آخران لا يلحظان بهذه القوة فى جميع الشعوب : أحدهما أن العربى يعتز بالأنساب وينوط الفخار كله بماضيه ، لأنه سلالة من القبائل التى تغلب فيها العصبية وترسخ فيها الاصول

والثانى أن الماضى أقرب إلى منشأ الدين ، فيخيل الينا أن الأقدم فالأقدم هو الأصلح فالأصلح والأعلم فالأعلم ، وإن لم تدلنا الدلائل على اطراد هذا القياس

* * *

تلك الأسباب كلها خليقة أن تضاعف احتراسنا كلما عمدنا إلى الموازنة بين حاضر وغائب وقريب وبعيد . فهى صنجة تؤخذ من كفة الأقدمين وتضاف الى كفة المحدثين فى ميزان الانصاف . ومما لا شك فيه أن ملكات النبوغ لا تقل فى عصرنا بل هى أحجى أن تزيد وتنشط ، بل هى قد زادت ونشطت فعلا باتساع مجال السعى والمنافسة والتفكير والاستنباط ؛ ومما لا شك فيه أن الاقدمين لم ينظروا الى معاصريهم إلا كما ننظر نحن إلى معاصرينا ، وأنهم لم يشعروا قط بتلك المهابة التى نضفيها عليهم الآن ولا بذلك الترجيح الذى نمحضهم إياه . أما أنهم كانوا يرون نوابغهم وأبطالهم

كما نراهم الآن فذلك ما نخالف فيه الاستاذ لأنه خلاف المعهود والمروى والمسطور . وهبهم أكبروا معاصريهم لأنهم قلائل ، وأصغرنا معاصرينا لانهم كثيرون لا نادرون كما يقول الأستاذ الفاضل ، فانما يكون ذلك كالذهب الذى يكثر تداوله فيرخص سعره وهو ذهب لاشك فيه ، وانما يكون النبوغ نبوغاولا يكون شيئا آخر مهما يكن حظ الناس من التعليم ، لأنه ملكة فى الطباع لايختلف كنهها وإن اختلفت أنظار الناس اليها ، ولا تزال الانسانية بحاجة إلى الكثير منهم والقليل

وخلاصة القول أننا نستطيع أن نقول مع الاستاذ الكبير إن النبوغ فى عصرنا كثرة لاندرة ، ولا نستطيع أن نقول معه ان المسافة بين النابغ وسواد الناس تقترب فى العصر الحديث ، لان ازدياد التعليم يزيد نصيب المتعلم من المعرفة ولا يخوله فطرة أخرى ولا ملكة مطبوعة كتلك التى يخلق بها النابغون الممتازون

عباس محمود العقاد

العلم والوطنية

الى الأستاذ توفيق الحكيم

من الأستاذ أبى خلدون ساطع الحصرى

مدير دار الآثار ببغداد

قرأت الكلمة الرشيقة التى دبجتها يراعتكم الفنانة ، فى صدد الرد على استفتاء الرابطة العربية حول مسألة « العلم للعلم أم العلم للوطنية ؟ » .

قرأتها بامعان واهتمام ، وأعجبت بالأخيلة والتشبيهات التى تحلت بها ؛ غير أننى لم أقتنع بصحة الأفكار والآراء التى تضمنتها

لقد قلتم بصيغة التأكيد الحاسم : « العلم والوطنية لايمكن أن يتفقا ... »

إذن فأنتم تعتقدون أن العلم والوطنية مختلفان ؛ وزيادة على ذلك تقولون بأن اختلافهما هذا سيستمر إلى الأبد ، ولن يزول فى يوم من الأيام ...

على أنى أعترف أيها الأستاذ بأننى من الذين يدينون بدين العلم والوطنية فى وقت واحد ، ومن الذين يقولون على الدوام بوجوب « نشر الروح العلمى ، من جهة ، و « تقوية الشعور الوطنى ، من جهة أخرى

أفلا تعذروننى إذن إذا ما اعتبرت نظريتكم هذه من الخطورة بمكان ، فأخذت على عاتقى مناقشتكم فيها مناقشة شاملة لاظهار الحقيقة التى أعتقدها ؟

ooo

تقولون ، أيها الأستاذ ، بأن « العلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا » وتحاولون أن تبرهنوا على هذه الدعوى بثلاث قضايا :

« إن الوطنية هى الأنانية فى المجموع »

« والأنانية عمياء »

« والعلم هو البصر ـ المنزه ـ بحقيقة الأشياء ... »

إننى لا أود أن أبدأ المناقشة بالبحث عن مبلغ صحة هذه القضايا ؛ بل أود أن أسلم بها مؤقتاً ، لأرى هل تكفى للدلالة على صحة رأيكم فى هذا الصدد ...

تقولون : « إن الوطنية هى الأنانية فى المجموع » فهل تستطيعون أن تقولوا ـ فى الوقت نفسه ـ بأن العلم ينكر الأنانية على الاطلاق ، ولا يعترف بأثرها فى حياة الحيوان والانسان ؟

تقولون : « إن الأنانية عمياء » فهل تستطيعون أن تقولوا ـ فى الوقت نفسه ـ إن العلم يخالف كل ماهو أعمى ؟ أفتنكرون أن القوى الطبيعية أيضاً عمياء ؟

تقولون : « إن العلم هو البصر المنزه بحقيقة الأشياء » فهل تستطيعون أن تأتوا ببرهان يدل على أن الوطنية « خارجة عن حقائق الأشياء » ؟ ...

كلا . . إن الوطنية قوة اجتماعية فعالة ، ليس إلى إنكارها من سبيل ... آثارها تظهر دائماً ، من خلال الوقائع التاريخية والحادثات الاجتماعية ، بكل وضوح وجلاء . فهى تدخل لذلك فى نطاق « حقائق الأشياء » ، كما تدخل فيه سائر القوى والمؤثرات الطبيعية ، كالوراثة والمناعة والمغناطيسية والجاذبية ...

فاذا أردنا أن نجعل الوطنية موضوع بحث علمى ، يجب

أن ندرسها كما ندرس الحادثات والقوى الطبيعية بوجه عام ، والحادثات والقوى الاجتماعية بوجه خاص ...

ولا جدال فى أن العلم يدرس الكون وحادثات الكون « بحياد تام » . يدرس حواص الأشياء ، ويتتبع سير الحادثات ويتحرى أسبابها ، ويستقصى قوانينها ؛ وقد يتنبأ فى بعض الأحوال بمستقبلها أيضاً ، استنادا إلى القوانين التى اكتشفها والعوامل التى أظهرها ... إنه يفعل كل ذلك ، دون أن يقدم على استحسان أو استهجان الحقائق الثابتة بوجه من الوجوه ، دون أن يتأثر بموافقة أو مخالفة تلك الحقائق لمصالحنا المادية أو لنزعاتنا الفكرية بصورة من الصور . لأن مهمة العلم تنحصر فى معرفة حقائق الأشياء واكتشاف قوانين الحادثات ، ولا يتعدى . ذلك إلى تحبيذ أو تقبيح تلك الحقائق أو استحسان أو استهجان تلك القوانين ...

لنا أن نتخيل كوناً غير هـذا الكون ، ولنا أن نتصور « مجتمعاً غير هذا المجتمع . ولنا ألا نكتفى بالتخيل والتصور بهذه الصورة ، بل نوصل الأمر إلى درجة التمنى ، فنتمنى أن يتحول الكون إلى الحالة التى تخيلناها ، وأن يتطور المجتمع إلى الهيأة التى تصورناها . . ولنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً : لنا أن نعتبر ما تخيلناه وتصورناه فى هـذا الباب مثلا أعلى نسعى إلى تحقيقه بنشاط وحماس ، وهدفاً أسمى نتجه نحوه بقوة واندفاع ... لنا أن نفعل كل ذلك ، على أن نعلم فى الوقت نفسه . بأن تفكيرنا وعملنا فى هـذا السبيل يكون من قبيل الشعر أو الفلسفة أو السياسة ... فلا يدخل فى نطاق « البحث العلمى » بوجه من الوجوه . .

لكم ، أيها الأستاذ ، أن تتمنوا زوال الأنانية من الأمم ؛ ولكم أن تصبوا إلى رؤية مجتمع تتغلب فيه مصلحة الدول على مصلحة الدولة الواحدة . ولكم إذا شئتم أن تقوموا بدعاية ترمى إلى تضحية مصلحة الدولة الواحـدة إلى مصلحة سائر الدول . . فانى لا أناقشكم فى كل ذلك فى هـذا المقام ؛ غير أنى أقول بأنه لا يحق لكم بوجه من الوجوه أن تعزوا تمنياتكم ونزعاتكم هذه إلى « العلم » فتقولوا « العلم لا يتفق مع الوطنية »

فان العلم لا يختلف الآن إلا مع ما يخالف الواقع . . وإننا مهما تعمقنا فى تحليل طبيعة العلم من جهة وطبيعة الوطنية من جهة أخرى لا نجد بينهما ما يستوجب الاختلاف بوجه من الوجوه .

***

بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة من المناقشة أرى أن نترك هذه « الأحكام الآنية » جانباً ، لنستقرىء الوقائع التاريخية فننظر فيما إذا كان العلم والوطنية قد اتفقا أم اختلفا فعلا فى مختلف الأجيال ...

إننى أستطيع أن أذكر وقائع تاريخية كثيرة تشهد على « اتفاق العلم مع الوطنية » و « خدمة العلم للوطنية » بصورة فعلية . لعل أقدم هذه الوقائع يعود إلى عهد « أرخميديس » الشهير ، ويتعلق بقصة مقاومته للرومان . فان هذا العالم الكبير الذى يعتبر من آباء علم الميكانيك ، والذى يتردد اسمه حتى على ألسنة طلاب المدارس الابتدائية فى دروس الطبيعة والأشياء ، هذا العالم الكبير لعب (بعلمه) دوراً هاماً فى تاريخ وطنه سيراقسة . فعند ما حاصرها الرومان . وضع كل ما عنده من علم وقوة تفكير واختراع إلى خدمة وطنه . فاستعمل المنجنيقات والمرايا المحرقة لتخريب اسطول المحاصرين ، فمكن المدينة من الدفاع عن نفسها دفاع الأبطال . إذن ، فالعلم والوطنية اتفقا فى نفسية أرخميديس فى أمر الدفاع عن الوطن المحصور ، ولم يختلفا بوجه من الوجوه

ان الثورة الفرنسية أيضا تعطى لنا مثالا بارزاً « لتعاون العلم والوطنية » : عند ما تألبت الدول الأوربية على فرنسا بقصد خنق الثورة فى مهدها ، جابهت الدولة المذكورة مشكلة كبرى ، كادت تقضى عليها لولا مساعدة العلم والعلماء لها . فان الحصار الذى أحاط فرنسا بالنار والحديد من كل الجهات . حرم رجال الثورة إمكان استيراد المواد الأصلية الضرورية لصنع الصابون والبارود والمدافع والأسلحة ، عندئذ فكرت لجنة الدفاع الشعبى فى الاستفادة من علماء الكيمياء ، فاستنهضت هممهم لتخليص الوطن من هذه المحنة .

ومن هؤلاء العلماء « برتوله » و « فوركروا » وجهوا أبحاثهم العلمية وجهودهم الفكرية ، نحو إيجاد الطرق التى تساعد على إحضار المواد المذكورة بصورة صناعية من المواد الموجودة داخل البلاد . فنجحوا فى مسعاهم هذا وخدموا وطنهم بذلك أجل الخدمات .

وأما بعد ذلك فنستطيع أن نقول : إن « خدمات العلم للوطنية » أصبحت من الأمور الاعتيادية التى يصعب احصاؤها فان صحائف تاريخ العلوم من جهة وتاريخ الدول من جهة أخرى مملوءة بأمثلة دالة على ذلك ، ولا سيما ماحدث منها خلال الحرب العالمية .

ربما تقولون أيها الاستاذ ، « إن هذه كلها من الأمور التطبيقية » وستكررون فى هذا المقام رأيكم فى « العلم وتطبيق العلم » لأنكم قلتم فى كلمتكم « فالعلماء الحقيقيون لا يطبقون العلم ، إنما يعيشون حياتهم للمعرفة المجردة لا يبتغون من ورائها غير مجرد الدنو منها . تلك لذتهم الكبرى ، أما رجال الأعمال الذين يأتون بعد ذلك لاستغلال نتائج هذا العلم فليسوا من العلماء وإن درسوا العلم دراسة عميقة »

فاسمحوا لى أن أقول : إن الطبيعة بعيدة عن مثل هذه التقسيمات القطعية فى أمر « العلوم وتطبيقاتها » فان استغلال نتائج العلوم — بعد اكتشافها — لا يكون دائما من عمل رجال آخرين غير العلماء المكتشفين ، بل كثيراً ما نشاهد فى تاريخ العلوم أن العالم الباحث ، بعد أن يتوصل إلى معرفة الحقائق واكتشاف القوانين ينقل نفسه إلى التفكير فى النتائج المأمولة والفوائد المتوقعة منها ، ويبحث عن تطبيقاتها فهل يحق لنا — فى هذه الحالة — أن نخرجه من عداد « العلماء » بحجة أنه لم يكتف باكتشاف الحقيقة ، بل تعدى ذلك إلى التفكير فى الاستفادة منها ؟ فهل يحق لنا مثلا ألا نعتبر أرخميديس من « العلماء الحقيقيين » بالرغم من نظرياته واكتشافاته العلمية الكثيرة — لمجرد إقدامه على تطبيق بعض القوانين التى اكتشفها ؟ وهل يحق لنا أن نخرج « برتوله » من عداد العلماء — بالرغم من نظرياته وقوانينه المشهورة — لمجرد عدم اكتفائه باكتشاف تلك القوانين — وإقدامه على توجيه بعض أبحاثه العلمية إلى الاتجاه الذى تتطلبه منه خدمة الوطن ؟ .

كلا . . . إن مبدأ « العلم للعلم » يتطلب البحث عن الحقائق لنفسها ولو لم ينتظر فائدة من وراء معرفتها ، غير أنه لا يتطلب الامتناع عن الاستفادة منها .

إن هذا المبدأ يتطلب الاعتراف بالحقائق الثابتة ، مهما كانت نتائجها ؛ غير أنه لا يتطلب الامتناع عن توجيه الأبحاث العلمية نحو الحقائق التى ينتظر الحصول على فائدة وطنية من وراء معرفتها .

* * *

هذا وإتماماً لاستقراء الوقائع التاريخية ، يجب علىّ أن أشير إلى بعض الحوادث التى تدل على حدوث شىء من المخالفة والمشادة بين رجال العلم ورجال الوطنية فى بعض الأحوال :

إن تاريخ الثورة الفرنسية يعطينا مثالا بارزاً لذلك : فان رجال الثورة أعدموا « لافوازيه » Lavoisier الذى يعتبر مؤسس علم الكيمياء الحديث ، و « بايلى » Bailly الذى اشتهر بأبحاث فلكية هامة ؛ وسجنوا « كوندورسه » Condarcet الذى كان من كبار المفكرين ، فاضطروه الى الانتحار تخلصاً من المقصلة والعذاب ...

كما أن الانقلاب الألمانى الأخير أعطانا مثالا جديداً لذلك : فان الحكومة الوطنية ، طردت من البلاد عددا غير قليل من العلماء ، وعلى رأسهم « إينشتاين » الشهير ...

غير أنه يجب علينا أن نلاحظ أن هذه الوقائع لا تدل على خصام بين العلم والوطنية ، من حيث الأساس . لأن العالم قلما يتفرغ إلى الأبحاث العلمية تفرغاً مطلقاً ، فانه لا يتجرد عادة عن الحياة الشخصية ، بل كثيرا ما يقوم ببعض الأعمال السياسية أيضاً ، كما أن تفكيراته لا تكون علمية فى كل الموضوعات ، إذ أنه قد يفكر كما يفكر سائر الناس فى المسائل التى تخرج عن نطاق اختصاصه ، ولا سيما فى الأمور التى تدخل فى ساحة الدعايات الحزبية والأعمال السياسية . فاذا ما تحدث مخالفة بينه وبين رجال السياسة الوطنية ، يكون قد حدث ذلك بالرغم من علمه لا بسبب علمه .

فان « لافوزيه » مثلا كان من النبلاء الذين يحملون لقب « المركيز » كما انه كان من « الملتزمين » الذين كانوا يشتغلون بجباية الضرائب من الناس . فاذا ما اتهمه رجال الثورة الفرنسية - بحق أو بغير حق - بالخيانة للوطن ، وحاكموه فأعدموه ، انما كان ذلك من جراء صفاته وأعماله هذه ، لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية .

وكذلك الأمر في « إينشتاين » : فان أبحاثه العلمية ونظرياته الفلسفية لم تجرده عن النزعات الطائفية ولم تبعده عن الأعمال السياسية . فاذا وجد رجال الحكومة الوطنية الالمانية – بحق أو بغير حق – في سلوكه وسلوك طائفته ما يضر بسلامة الوطن ، كان ذلك من جراء أعماله وأعمال طائفته السياسية ، لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية .

ooo

وربما كان من المفيد أن نذكر رأى بعض العلماء لإيضاح هذا البحث أكثر مما تقدم . وربما كان رأى « باستور » الشهير من أبلغ الشهادات في هذا الباب :

إن هذا العالم الذى يعتبر بحق من العلماء الذين انتظمهم الروح العلمى بأكمل معانيه ، والذى قام بسلسلة أبحاث تعد بحق من أبرز وأنجع الأمثلة للطريقة التجريبية ... هذا العالم الكبير كان وطنياً متحمساً طول حياته ؛ وقد قال في خطبة بليغة ألقاها في أحد المؤتمرات الأممية :

« لا وطن للعلم أو بالأحرى ، وطن العلم يشمل العالم بأجمعه ومع هذا لكل عالم وطن وعلى كل عالم أن يهتم بكل ما يخدم مجد وطنه فنى كل عالم حقيق كبير نجدون دائماً وطنياً كبيراً » .

ooo

والآن بعد الانتهاء من هذه المناقشة ، اسمحوا لى أن أعود إلى إحدى القضايا التى كنت سلمت بها جدلا . وهى أولى القضايا الثلاث التى سقتموها للبرهنة على عدم امكان اتفاق العلم والوطنية :

« الوطنية هى الأنانية في المجموع » .

إننى لا أنكر صحة هذه القضية من حيث الأساس . غير أننى أرى من الضرورى أن نتبعها بقضية ثانية فنقول :

« الوطنية هى الأنانية في المجموع ، غير أنها التضحية والايثار في الفرد ... » .

نعم ان الوطنية هى التضحية والايثار - بالنسبة إلى أفراد البشر ، وإن كانت من قبيل الأنانية بالنسبة إلى الكتل البشرية . ونستطيع أن نقول : انها أرقى أشكال التضحية والايثار . فان مظاهر التضحية والايثار لا تتجلى في مجال من مجالات أعمال الانسان بالتنوع والسمو والقوة التى تتجلى بها في مجال الوطنية . وأما مظاهر الايثار التى تنشأ من الشعور الأممى فإنها لا تذكر بجانب ذلك ...

اننى لا أود أن أتوسع في هذه المسألة الآن غير أنى أود أن أختم هذه الرسالة باحدى الكلمات التى قالها جان جاك روسو بأسلوبه الخلاب :

« بعض الناس يحبون أبناء الصين ، وذلك لكى يتخلصوا من الواجبات الفعلية التى يتطلبها منهم حب أبناء وطنهم الأقربين » .

(بغداد) أبو خلدون

في التاريخ السياسي :

الحرب الأهلية الاسبانية

وخطرها على السلام

بقلم باحث دبلوماسي كبير

حينما اضطرمت الحرب الأهلية الاسبانية في أواخر يولية الماضي ، لمحنا في حوادثها منذ البداية عوامل معركة دولية خطيرة وكنا يومئذ نتلمس القرائن والأدلة لتأييد هذا الرأي ، لأن العوامل الدولية التي كانت وراء هذه المأساة لم تكن قد وضحت بعد بصورة جلية ، بيد أنه لم تمض عدة أسابيع على ذلك ، حتى تكشفت هذه العوامل واضحة ، وحتى بدا أصبع إيطاليا وألمانيا ظاهراً وراء الثورة الاسبانية يذكي ضرامها ويمدها بكل صنوف المعاونة العسكرية والسياسية ، وحتى بدت روسيا السوفيتية في جهة أخرى وراء الجبهة الجمهورية الاسبانية تؤيدها بكل ما وسعت وتمدها بالأسلحة والذخائر والفنيين ، وحتى بدت انكلترا وفرنسا أيضاً من وراء الجبهة الجمهورية تمدها بعونها السياسي والأدبي . وآثرت انجلترا وفرنسا الأخذ بسياسة عدم التدخل في المشكلة الاسبانية ونجحتا في حمل الدول الأخرى أعني ايطاليا والمانيا وروسيا والبرتغال على إقرار هذه السياسة ، وتألفت لجنة عدم التدخل الدولية في لندن . وبينما كانت هذه اللجنة تسير في مباحثها وقراراتها ببطء وتسويف ظاهرين كانت المعركة الدولية في اسبانيا تتفاقم يوما بعد يوم ويتوالى نزول القوات الايطالية والالمانية في الثغور الاسبانية لتشد أزر الجبهة الثورية ، وتتوالى الامدادات الروسية لتشد أزر الجبهة الجمهورية ويتسع تدخل ايطاليا والمانيا في اسبانيا نفسها ، وفي جزر البليار ومراكش الاسبانية بشكل يزعج فرنسا وانكلترا . عندئذ خطت السياسة البريطانية خطوة أخرى واستطاعت بعد مفاوضات ومباحثات طويلة أن تحمل الدول الممثلة في لجنة عدم التدخل على إقرار مشروع دولي لرقابة الشواطئ والحدود الاسبانية وذلك لمنع الامدادات الأجنبية عن الفريقين المتحاربين ، وتطبيق سياسة عدم التدخل بطريقة فعلية ، وترك المشكلة الاسبانية يحلها الشعب الاسباني وحده ، وبذلك تحصر الحرب في اسبانيا ، ويحمى السلام الدولي من عواقبها .

ونفذ مشروع الرقابة الدولية منذ عدة أسابيع . واشتركت فيه انجلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا والبرتغال ، وحصرت الشواطئ والحدود الاسبانية على يد السفن الدولية والمراقبين الدوليين . ولكن الواقع أن إيطاليا والمانيا كانتا قد بعثتا إلى اسبانيا قبل تنفيذ مشروع الرقابة من القوات العسكرية والجوية لمعاونة الجنرال فرانكو زعيم الثورة الاسبانية ما اعتقدتا أنه كاف لاحراز الجبهة الثائرة النصر النهائي على الجمهوريين وإقامة الحكم الفاشستي المنشود في اسبانيا على أنقاض الحكم الجمهوري ، بل ظهر أن إيطاليا وألمانيا لم تكفا عن إرسال الامداد حتى بعد أن نفذ مشروع الرقابة ، على أن الرقابة الدولية أفادت في تضييق نطاق المعاونات الخارجية ، وحصرت احتمالات الحرب الأهلية نوعا .

وفي أثناء ذلك حاولت السياسة البريطانية أن تتقدم خطوة جديدة في تصفية المشكلة الاسبانية ، فقدمت إلى الدول اقتراحها بسحب جميع الجنود الأجانب من اسبانيا سواء منهم من يحارب مع الجنرال فرانكو أو مع حكومة مدريد ؛ فرفضت إيطاليا النظر في الاقتراح ، وأجابت الصحف الايطالية بأن الجنود الايطالية لن تغادر اسبانيا قبل أن يحرز الجنرال فرانكو النصر النهائي . والمعروف المحقق أن لايطاليا في اسبانيا جيشاً لا يقل عن مائة وعشرين ألف مقاتل ، هذا عدا القوات الالمانية وهي تقدر بنحو ثلاثين ألفاً ، وهذه القوى الأجنبية هي عصب الثورة الاسبانية وهي سند الجنرال فرانكو ؛ وقد أبدت المانيا وايطاليا في غير فرصة سواء في التصريحات الرسمية أو عن طريق الصحافة انها لن تدخر وسعاً في تأييد الجنرال فرانكو حتى يحرز النصر النهائي ، وحتى تقوم في مدريد حكومة فاشستية ، ولم يبق ريب بعد أن الثورة الاسبانية إنما

هى محاولة عسكرية فاشستية تدبرها الفاشستية الايطالية والألمانية ، وأن الجنرال فرانكو إنما هو أداة هذه السياسة الأجنبية ؛ فالثورة الاسبانية تفقد بذلك كثيراً من صبغتها الوطنية ، وتفقد عطف الديموقراطية ، والعالم المتمدن الذى يعرف وسائل الفاشستية وأساليبها الهمجية وجنوحها إلى العنف والعدوان ، ويقدر خطرها على السلام العام

ولكن هل تنجح الفاشستية فى هذه المحاولة الدموية ؟ لقد مضى على الثورة الاسبانية التى دبرتها الفاشستية وسلحتها أحد عشر شهراً ، واستطاع الجنرال فرانكو بمؤازرة معاونيه الأجانب أن يستولوا على نصف الأراضى الاسبانية ؛ ولكنه لم يحرز حتى اليوم أى نصر حاسم ، بل فشل فى كل محاولة خطيرة قام بها لتحطيم قوى الجمهورية ، وكان مقدراً أن الثورة لن تستغرق فى تنفيذ برنامجها أكثر من عدة أسابيع ، ولكن مضت الأسابيع والأشهر ، وتحطم هجوم الجنرال فرانكو على مدريد ولقى الثوار أكثر من هزيمة شديدة أمام العاصمة ومزقت الوحدات الايطالية فى وادى الحجارة شر ممزق ؛ وعندئذ فكر الحلفاء فى مهاجمة ناحية أخرى من الجبهة الجمهورية ، فنظم فرانكو هجومه على بلاد الباسك منذ أكثر من شهرين ، وحاول أن يطوقها من البر والبحر ؛ ولكن قوات الباسك خيبت آمال الهاجمين، وردتهم غير مرة ، وانتقم فرانكو وحلفاؤه من الجمهورية الصغيرة الباسلة بتخريب بلادها وضياعها ، وأحرق الطيارون الألمان المدن والقرى الباسكية من الجو بطريقة وندالية أثارت سخط العالم المتمدن وكان فرانكو يقدر أنه بحصار بلباو من البحر يمهد لافتتاحها بسرعة وأنه كما حدث من الهجوم على مالطة يستطيع الاعتماد على معاونة الغواصات الايطالية ، ولكن انجلترا التى خشيت على مصالحها ومناجمها العظيمة فى هذه المنطقة بعثت بوارجها الكبرى إلى مياه بلباو ، وأنكرت حق حكومة فرانكو فى محاصرتها وخرقت السفن الانكليزية الحصار وأمدت المدينة المحصورة بالأطعمة ، وعاونت على إخلائها من غير المحاربين ؛ ومازالت قوات الباسك تصمد للهاجمين وتكبدهم أفدح الخسائر، وان كان فى الانباء الأخيرة ما يدل على أن بلباو قد لا تستطيع المقاومة طويلا

٭٭٭

قلنا إن الفاشستية الايطالية تزعم أنها لن تتخلى عن الجنرال فرانكو حتى يحرز النصر النهائى . وتزعم إيطاليا والمانيا معاً أنهما لن تسمحا ، باقامة حكومة بلشفية فى اسبانيا تهدد سلام غرب أوربا ؛ وهما تصفان حكومة اسبانيا الجمهورية بالحكومة البلشفية لأنها تستمد العون من حكومة موسكو ، وتلك دعاية مغرضة كما أسلفنا فى فرص سابقة . فالجبهة الاسبانية الجمهورية هى جبهة الشعب الاسبانى التى تحاول الفاشستية تحطيمها على يد الجنرال فرانكو . وإذا كان فى الجبهة الجمهورية عنصر شيوعى فهو أقلية سياسية ، كما هو الشأن فى معظم الدول الديموقراطية ؛ وإذا كانت الجبهة الجمهورية تعتمد على مؤازرة روسيا السوفيتية ، فلأنها الدولة الوحيدة التى سارعت لنجدتها فى محنتها ، ولأن روسيا ليست لها مطامع استعمارية فى اسبانيا بل يحدوها إلى هذا العون معركة المبادىء والمثل ، فهى فى أسبانيا تضرب الفاشستية ألد وأخطر خصومها على أنه إذا كانت الفاشستية تزعم أنها لن تتخلى عن فرانكو حتى يحرز النصر النهائى ، فان السياسة البريطانية من جهة أخرى تبدى صراحة أنها لن تسمح بانتهاك استقلال اسبانيا أو الاعتداء على سلامة أراضيها ؛ وهذا ما صرح به أخيراً مستر أيدن وزير الخارجية البريطانية فى مجلس العموم ، ومعنى ذلك أن بريطانيا لن تسمح بفوز الجنرال فرانكو ، لأن هذا الفوز الذى تدعمه الحراب الأجنبية يعقبه تحقيق بعض المطامع الايطالية فى جزر البليار وربما فى مراكش الاسبانية: وانكلترا مع تمسكها بسياسة الحيدة وعدم التدخل فى المسألة الاسبانية ، لا تخفى عطفها على حكومة بلنسية ، وفى ذلك تؤازرها فرنسا بل ربما ذهبت فرنسا إلى أكثر من هذا العطف فى معاونة الجبهة الجمهورية . وإذا كانت انكلترا وفرنسا تقفان فى الميدان الدولى إلى جانب أسبانيا الجمهورية . فان ذلك لا يرجع إلى لونهما الديموقراطى ولا إلى معركة المبادىء فقط ، بل يرجع

بالأخص إلى خوفهما من غلبة الفاشستية فى أسبانيا، ومما تهدد به مصالحهما الاستعمارية ومواصلاتهما فى غرب البحر الأبيض المتوسط.

ومن جهة أخرى فان انكلترا وفرنسا تخشيان على مصير السلام من تفاقم الحوادث الاسبانية. ولقد تجلى هذا الحرص على السلام فى حادث البارجة الألمانية دويتشلاند، فقد ألقت طيارات حكومة بلنسية القنابل على هذه البارجة أثناء رسوها فى ميناء أبيزا بجزيرة ميورقة فقتلت من بحارتها خمسة وعشرين وجرحت عدداً آخر؛ وثارت ألمانيا لهذا الاعتداء، فلم يمض يومان حتى ضربت بوارجها ثغر ألمرية الاسبانى على حين فجأة ضرباً شديداً فقتلت وجرحت من أهلها المسالمين مئات وخربت قسما كبيراً منها؛ وعلى أثر ذلك أعلنت ألمانيا وإيطاليا انسحابهما من لجنة عدم التدخل حتى توضع الضمانات الكفيلة بحماية بوارجهما؛ وكان لهذا الاعتداء الذى يشبه أعمال القرصنة من جانب البوارج الألمانية وقع عميق فى الأوساط الدولية، لأنه حتى مع التسليم بأن ألمانيا قد اعتدى عليها فى حادث البارجة دويتشلاند. فانها لم تتقدم بطلب الترضية الودية ولم تقدم إلى حكومة بلنسية إنذارا بها كما يقضى بذلك القانون الدولى، ولم يسبق فى قانون الأمم ان اعترف بحق الانتقام من المدن الآمنة دون أن تكون هناك حرب شرعية بين الخصوم. خصوصاً إذا وقع الانتقام على النساء والأطفال كما حدث فى ضرب المرية. ومن الغريب أن تنفرد ألمانيا بمثل هذا التصرف لاعتداء وقع على إحدى سفنها تبرره حكومة بلنسية بوجود هذه السفينة فى إحدى الموانى التى بيد خصومها الوطنيين، مع أن مثل هذا الاعتداء قد وقع من قبل فى أكثر من فرصة على السفن الانكليزية ولم تندفع فى مثل هذا الانتقام الوحشى

على أن انجلترا رأت مع ذلك أن تتفادى عواقب هذا المشكل الخطر، وأن تعمل على رد ألمانيا وإيطاليا إلى لجنة عدم التدخل، فوضعت مشروعاً جديداً يقضى بتعيين مناطق أمينة تستطيع السفن المشتركة فى المراقبة أن تلجأ إليها ويحترمها الفريقان المتحاربان، ويعترف المشروع فوق ذلك بحق الدفاع الشرعى للسفن التى يعتدى عليها وقت الاعتداء فقط، ولكن الاجراءات اللاحقة تكون موضع بحث بين الدول. وتدل الأنباء الأخيرة على أن ألمانيا وإيطاليا قبلتا هذا المشروع، وقررتا العودة إلى لجنة عدم التدخل، وبذلك تكون السياسة الانكليزية قد استطاعت أن تتفادى عواقب هذا الاحتكاك الخطر بين ألمانيا وحكومة بلنسية.

على أن المأساة الاسبانية ما زالت مفعمة بالأخطار والمفاجآت. والخطر فى هذه المأساة هى صبغتها الدولية، التى أشرنا إليها. فالصراع الدولى بين الجبهتين الاوربيتين الفاشستية والديموقراطية مازال قائماً، وإذا لم تبذل الدبلوماسية الأوربية جهوداً جدية لإخراج القوات الأجنبية من اسبانيا، وترك اسبانيا تقرر مصيرها بيدها، فسوف تبقى المشكلة الاسبانية خطراً دائما على السلم الأوربى.

ءءء

في الأدب المقارن

الحكمة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

يولد المرء جاهلا ثم لا تزال التجارب تبصره بحقائق الحياة ولا يزال الدهر يعلمه ويؤدبه، ولا يزال هو يثاقب فكره، يتعظ بماضيه وينتفع بمشاهداته، ويصوغ من جزئيات التجارب التي يمر بها كليات يلخص فيها نواميس الحياة وطباع الأشياء، التي يجدر بالعاقل أن يسايرها ويحتال لها، لا أن يصادمها ويجري على غير سننها، وتلك هي الحكم التي هي لباب التجارب وثمار المعرفة، والتي يغتبط الأديب أي اغتباط حين يستخلص عصارتها من مرير الشدائد وعصيب الأزمات، ويتجلى له ضياؤها بعد أن تنقشع غيوم المطامع وعواصف المخاوف، ويتوارثها الناس جيلا بعد جيل، وتتشكل مع اختلاف بيئاتهم وتقاليدهم، ويشدو بها الصغار وهم ناشئون ولا يعرف صدقها إلا الكبار، بعد أن يخوضوا أتون التجارب الذي ينضج النفوس

فالحكمة خلاصة التجربة العملية، ولا تقرأ في الكتب ولا تؤخذ عن المؤدبين. ومن ثم يستوي فيها الخاصة المثقفون والعامة الأميون، إذ كان كلاهما يستقي من معين الحياة المشهودة؛ وتذيع بين العامة أمثال وحكم هي غاية في الصدق ونفاذ النظرة وبلاغة التعبير. وقد يطابق بعضها أمثال الخاصة والحكماء في كتبهم؛ وتدل تلك الحكم السائرة بين الشعب على الكثير من أخلاقه وأعماله، من سعي وتوان، ووقار واستهتار، وامعان في الحروب واستراحة إلى السلم والدعة، ومن ثم نرى كثيراً من الأمثال المتخلفة عن جيل الانحطاط الماضي، رغم صدقها وعمقها مصوغة في أبذأ لفظ وأخش صورة، ونرى كثيرا منها يحث على القناعة والتواكل والقعود.

ومن الحكم ما ترسل موجزة مستقلة كأنها القضايا المنطقية مبدوءة ببعض حروف الشرط أو أسمائه، ومنها ما تصاغ في قصة محكمة ذات مغزى، ومن تلك القصص ما ينسب إلى حكيم من الأقدمين كلقمان، أو إلى شخص خيالي مثل جحا الذي صاغ العامة حوله قصصا بالغة غاية الحكمة والمتعة والفكاهة، ومن تلك القصص ما يجري على ألسنة الحيوان، ويقوم الأسد فيها بدور السلطان ويلعب الثعلب دور المكر والاحتيال، ويمثل الذئب دور الغدر والافتئات، وقد كان للأمم القديمة كالمصريين والفرس والهنود، من كل هذه الضروب حظ وفير، وفيها يبسط الحكماء المجربون لأبناء جلدتهم ثمار تجاربهم، ويحضون على حسن المعاملة ويدعون إلى الفضيلة.

والشرق، مهد المدنيات القديمة والامبراطوريات العظيمة، والملكيات المطلقة ذات الحول والأبهة والبذخ، والموارد الواسعة والكنوز الطائلة، هو مهد الحكمة ومطلع الحكماء والأنبياء، فيه تتجلى طباع الأشياء على جهارتها، ويتجاور البذخ المفرط والبؤس المرمض، وتتابع السعود والنحوس، وتتقلب الأيام والدولات وتعقب عصور الرخاء والازدهار عهود الشدائد والادبار؛ ومن كل ذلك تستخلص عبر الحياة وعظاتها، ويتجلى لذوي النفوس العالية غرورها وبهارجها، وتنصرف همة الحكماء والفضلاء إلى هداية مواطنيهم إلى سبيل الخير والسلامة وتلقينهم كيف يعيشون في أمن من جور الغاشمين وبطش الأقدار ويسعون جهدهم لتخفيف ما حولهم من آثار البؤس والبلاء، وإصلاح ما يرون من أسباب الفوضى والفساد، وهكذا كان يظهر المصلحون والأنبياء بين اليهود والهنود وغيرهم من أمم الشرق، بين الفترة والفترة.

وللحكمة الصادقة المصوغة في اللفظ البليغ المحكم مكانها في أدب كل لغة: ففي كل أدب ما لا يعد من الحكم المتواترة يقتبسها الأدباء في مواطنها، وقد نسيت أسماء قائليها وضاعت نسبتها وصارت من تراث الأدب المشاع، وفيه كذلك ما لا يعد من آثار الشعراء والكتاب التي أساسها الحكمة وقوامها خلاصات التجارب التي عركتهم؛ وفي الأدبين العربي والانجليزي تراث حافل من الحكم والامثال، وفي كل منهما أدباء اشتهروا خاصة بصوغ الحكم وجرت آثارهم على الأقلام والأفواه، لما تمتاز به من صدق النظرة وشمول الفكرة وإيجاز اللفظ.

ففي الانجليزية اشتهر شكسبير أولا وبوب ثانياً بروائع حكمهما. وسارت كثير من أبياتهما مسير الأمثال، لما امتاز به كلاهما من التمكن من اللغة وبلاغة الأداء ووجازة التعبير، رغم اختلافهما فيما عدا ذلك من نظرة إلى الحياة ومذهب في الفن؛ وندر من كبار أدباء الانجليزية من لم يسر له مثل أو أكثر فيما توفر عليه من موضوع كالطبيعة والجمال والاجتماع والمرأة وهلم جرا ومن الانجيل سرت في اللغة الانجليزية المكتوبة والمتكلمة أمثال.

وحكم عديدة ، لا تزال تحمل طابعها الاسرائيلي وتدل بأسماء أعلامها ومواطنها على نشأتها الشرقية ؛ وسرت في الانجليزية كذلك أمثال عديدة من الاغريقية واللاتينية يترجمها الأدباء إذا استعملوها وقد يثبتونها في لغتها الأصلية .

بيد أن ذلك هو كل ما هنالك ، والحكمة في الانجليزية نادرة إلى حد بعيد ، وهي لم تكن من مطلوب أدبائها ولا من هم شعرائها يتوخونها عمداً ويودعونها اللفظ البليغ الموجز ، ولم يكن الايجاز من دأبهم كما كان من دأب شعراء العربية وأدبائها في أحسن آثارها وأزهر عصورها ، فالأديب الانجليزي إذا أخذ في الكتابة أرسل لخياله العنان ، وأبرز فكرته الواحدة في شتى الصور متسلسلة مستتبعة غيرها من الأفكار ، أما الأديب العربي فيؤثر الايجاز البليغ ويودع المعنى الواسع الشامل البيت الموجز أو العبارة المحكمة ويتجه إلى غيره ، وهذا الايجاز المشهود في جيد الشعر الجاهلي راجع بلاشك إلى أمية العرب وحاجتهم إلى الاستغناء بالقول الجامع ، والاجتزاء بالحكمة الشاملة ، وقد تووِرثت هذه الخلة من خلال الأدب الجاهلي فيما تلا ذلك من عصور الأدب العربي كما تووِرث غيرها من خلال .

ومما حبب العرب في جاهليتهم في الحكمة أخذهم بحياة الحل والترحال ، واشتغالهم أبدا بالقتال وإدراك الثارات : فتلك حياة شديدة كانت تتطلب كثيراً من العمل وقليلا من الكلام المفيد مع قلته . وكان الانتفاع بالتجارب من أكبر أسباب النجاح فيها ، والاشتهار بالحكمة والدراية من صفات الشيوخ والرؤساء ؛ ومنهم كان كثير من فحول الشعر ورجال البيان ومصاقع الخطباء كالأفوه الأودي وأكثم بن صيفي وقس بن ساعدة الايادي . ومن ثم أثر عن الجاهليين مالا يعد من روائع الحكم نظما ونثراً . ومن أمثلتها خطبة قس بن ساعدة وحكم زهير بن أبي سلمى في معلقته . وقد أعجب المتأخرون من الشعراء والأدباء بهاتيك الحكم أيما إعجاب ، وشمروا عن ساعد الجد للاتيان بأمثالها ، وعدوها محك قدرة الشاعر وبرهان الشاعرية الصادقة ، وكاد يلهيهم الاشتداد في طلبها عن ابتكار شيء جديد في الشعر

وكان العرب في الجاهلية لا يعدون الشاعر فحلا حتى ينطق بالحكمة ، فإن لم يأت بشيء منها فهو بعد غر لم ينضجه تنور التجارب ولم تتكشف له حقائق الحياة ؛ وظل الأعشى فيما قبل مزوياً عن مرتبة الفحول ، رغم ضربه بسهم في مجالات المدح والهجاء والاعتذار ووصف الخمر ، حتى قال في مدحه سلامة ذو فائش : « والشيء حيثما جعلا » فرفعته هذه الجملة الموجزة إلى مصاف النابغة وامرىء القيس . وتروى حكايات كهذه عن شعراء الاسلام : فقد قيل إن جريرا سمع دالية عمر بن أبي ربيعة التي يقول منها : « إنما العاجز من لا يستبد » ، فقال : « ما زال هذا الفتى يهذي ، حتى قال الشعر » ، فهو لم يحفل بكل ما قاله الفتى في التشبيب ، حتى ضرب على وتر الحكمة فاستثار إعجابه .

وأدب الجاهلية وصدر الاسلام حافل بتلك الحكم البليغة المشتملة على تجارب قائليها من سادة القبائل وأشرافها ، الجامعة لنظراتهم في الحياة وخطتهم وسننهم فيها ، وتمدحهم بما رسموه لأنفسهم من مناهج وما أخذوها به من فضائل ، وهذا الباب من أكرم أبواب الادب العربي وأدعاها إلى الاعجاب ، ومن أجله كان العرب في تلك العهود يغالون بالشعر وينشئون أبناءهم على مدارسته ، وكانوا يسمون هذا الباب من الشعر بالادب ، لأن حفظ آثاره والتمثل بها يؤدبان النفس ويهذبان الخلق ، وذلك هو الاسم الذي أطلقه أبو تمام في حماسته على ذلك الضرب من القول الشامل للحكمة والتمدح بالفضيلة . وقد اتسع معنى هذا اللفظ فبعد أن كان اسم جزء صار اسم كل وأطلق على الشعر جميعه والنثر معاً . وليس شك في أن هذا التطور الطبيعي البسيط هو منشأ كلمة أدب اللغة ، وإن يكن بعض المستشرقين قد تحذلق وزعم أنها مقلوبة عن كلمة دأب ، فذلك من قبيل النظريات المحضة التي لا تبلغ مبلغ اليقين أبداً ؛ وليست إلا من قبيل التظرف العلمي والتظاهر بالتعمق في البحث ، وإن لم يجد ذلك العلم فتيلا ، ولم يدرك يوما منزلة الاقناع .

كانت الحكمة من أظهر أبواب الأدب في الجاهلية وصدر الاسلام ، وكان من أقطابها في الجاهلية من ذكر ، وفي الاسلام الامام علي والأحنف بن قيس وكثير من الصحابة ، وبظهور الاسلام ثم توطد الدولة زاد العرب كلفاً بالحكمة وزاد الداعي إليها أهمية ، فقد جاء القرآن الكريم والحديث حافلين بروائع الحكم وجوامع الكلم ، التي أربت على الغاية من البلاغة والسمو ، وحثا على طلب الحكمة التي هي ضالة المؤمن ، وقد ظل الكتاب والحديث دائما نموذج الأدباء ومستقاهم ؛ فلما فرضت الملكية المطلقة سلطتها كاملة ، وأخرست الأفواه وأسكتت النقد ، عادلة حينا وجائرة أحيانا ، وجد الناس في الحكمة الشاملة المعممة سلوة للنفوس المقهورة ، وعزاء عن المآرب المحظورة ، وتنفيسا عن المطامح المستورة ، واتقاء لشبهات السلطان ، فأجريت الأمثال والمواعظ على ألسنة السلف الصالح ، وملوك الأمم الغابرة وحكمائها وفلاسفتها ، ووضعت على أفواه الحيوان والارواح ، وأرسلت شعرا ونثرا ، وترجمت عن اللغات ، وكان من ذلك مترجمات ابن المقفع .

وكانت الصبغة الدينية التى لازمت توطد الدولة الاسلامية وتطور المجتمع الاسلامى ، داعيا آخر إلى انتشار الحكمة فى الادب ، وفى الحكمة كتب ونظم كثير من رجال الدين ، ومن آثار الحكمة التى مبعثها الشعور الدينى اشعار أبى العتاهية وابن عبد القدوس والامام الشافعى ، ومما زاد هـذه النزعة الدينية احتدادا ، وهذه الحكم الدينية ذيوعا ، ماكان يجاورها من مظاهر الترف المغرق وآثار اللذات والمفاسد ، فكانت تلك رد فعل لهذه ، وكان من الشعراء المغرقين فى المجون والتبذل كأبى نواس وبشار ، من تعاودهم رجعات من التبصر فى الحياة وغرورها ، حين تسئمهم اللذات ويرهقهم بشمها وخمارها ، فيرسلون فى أشعارهم من الحكم ما قد ينسب إلى أزهد الزهاد وأحكم الحكماء.

وبدخول الأدب العربى طوره الفنى طلب الشعراء البراعة والتفنن بصوغ الحكم وضرب الأمثال محاكاة للأقدمين وتوليدا من معانيهم ، وكانوا يشفعون الحكمة الانسانية أحيانا بمصداقها من عالم الطبيعة والحيوان والجماد ، فاذا أرسل أبو تمام حكمة فى ظهور فضل المحسود على يد الحاسد ضرب لذلك مثلا اشتعال النار فيما جاورت وإعلانها بذلك طيب عرف العود ، ويقول فى موضع آخر منتزعا مصداق كلامه من ظواهر الطبيعة :

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيكون بدرا كاملا

ويقول غيره :

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقى اللحاء

واشتغل المسلمون بدراسة الفلسفة اليونانية دون الأدب اليونانى ، فتأثر أدباؤهم بتلك الدراسة ، وازداد ولعهم بالحكمة ، واتخذت حكمتهم صبغة فلسفية أقرب إلى القضايا المنطقية وأشبه بالاستقراء العلمى ، وذلك واضح فى أشعار المتنبى والمعرى اللذين انحرفا بذلك بعض الانحراف عن الأسلوب العربى الأصيل ، الذى يمتاز بالبلاغة والوضوح والاطلاق ، وبلغ من تأثر شعر الحكمة فى العربية بروح الفلسفة اليونانية ، أن أبا على الحاتمى وضع رسالة يرد فيها أكثر حكم المتنبى إلى كلام أرسطو . وفى شعر المتنبى بلغت الحكمة العربية أوج رقيها ، أو بالأحرى بلغ الشعر العربى ذروة عظمته ، وبلغ من احتفاء الشعراء بتضمين الحكمة أشعارهم أن قيل فى الموازنة بين أبى تمام والمتنبى والبحترى إن الأولين حكيمان ، والشاعر البحترى ، لكثرة ما فى شعرهما من الحكم ، وأبو تمام هو القائل فى ذلك الضرب من الشعر :

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
ولولا خلال سنها الشعر مادرى بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فالولع بالحكمة ظاهر فى الأدب العربى : فاقتباس المأثور من كلام المتقدمين أكثر ذيوعا فى العربية منه فى الانجليزية ، والحكمة مادة جانب عظيم من كتب الأدب التى تحفل بما أثر عن الحكماء والخلفاء والفقهاء من جوامع الكلم ، وهى موضوع مطولات كثيرة كقصورة ابن دريد ولامية ابن الوردى وأرجوزة صاحب كتاب الصادح والباغم ، وبها تمتلىء الخطب المنسوبة إلى وفود العرب إلى كسرى وإلى أهل بيت المهدى عند مشاورته لهم فى حرب خراسان . وقد أولع الكتاب بنثر حكم الشعراء فى رسائلهم مسجوعة منمقة ، كما أولع الشعراء بنظم الحكم السائرة وأمثال العامة ، وكان الشعراء أكثر لجوءا إلى نظم الحكم وسرد العبر والاستشهاد بعظات التاريخ خاصة فى قصائد الرثاء ورسائل التعزية وأشعار الشكوى والوجدانيات ؛ وكثيرا ما كانت تساق الحكم فى هيئة نصائح . ويقول ابن عبد القدوس « والنصح أغلى ما يباع ويوهب » ، ومن شعر النصيحة جيمية محمد ابن بشير التى يقول منها :

قدم لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غرة زلجا

أما الموضوعات التى طرقتها الحكمة فى الأدب العربى فلا تحصر ، فقد جالت فى شتى نواحى الحياة : من غرور الدنيا وتقلبها ووجوب الحذر منها وتوقع زوالها ، إلى مزايا الشدائد وامتحانها للرجال ، إلى ندرة الصديق الصدوق ، ومن شؤون الحياة اليومية إلى سياسة الدول وحكم الشعوب ، ومن آداب الحوار إلى آداب مصاحبة السلطان ؛ وكان بعض الشعراء يتوفرون على ضروب دون غيرها من الحكمة ، حسب ماتوجههم اليه بيئاتهم ونفسياتهم ؛ فأبو العتاهية كان دائم الذكر للموت ، والمتنبى كان يشتق حكمه من حياة التناحر والمطامع والمعارك الأدبية والسياسية التى كان يحياها ، والمعرى كان يستق حكمته ويستخرج عبره من ظواهر الكون التى كان دائم الاشتغال بها ، فهذان البيتان من نظمه يحملان طابع تفكيره ولا يمكن أن ينسبا إلى سواه :

يغادر غابة الضرغام كيما ينازع ظبى رمل فى كناس
سجايا كلها غــدر ولؤم توارثها أناس عن أناس

فكثير من الظروف التى أحاطت بالأدب العربى فى الجاهلية والاسلام كانت تدعو إلى انتشار آثار الحكمة فيه ، فجاء حافلا بها منثوره ومنظومه على متعدد الصور ومختلف الأوضاع ، ومثل هاتيك الظروف لم تصاحب الأدب الانجليزى ، ومن ثم كانت الحكمة فيه أندر كثيرا ، فلا البداوة ولا الملكية المطلقة ولا رد الفعل المنعكس من الترف المفرط ، ولا الروح الدينى المتغلغل فى المجتمع ، لم يؤثر شىء من ذلك فى الانجليزية تأثيره فى العربية ولم يقتصر الانجليز على دراسة الفلسفة الاغريقية بل درسوا معها

الأدب الاغريقي ، وعنه تلقوا رسالته وهي الجمال ، فصارت هذه رسالة الأدب الانجليزي أيضاً ، فكان الأديب الانجليزي يتوخى الجمال فيما يشاهد ويحس ويكتب ، في حين كانت الحكمة والعبرة والموعظة قبلة الأديب العربي في كل ذلك ، ومن الأدب الاغريقي تعلم الأديب الانجليزي أيضا أن يطلق لفكره العنان ويفسح لبيانه المجال ، على حين ظل رائد الأديب العربي بلاغة الايجاز ، وكبح جمحات الخيال .

ومن ثم تمثل خير ما في الأدب العربي في حكم الشعراء والخطباء والكتاب ، وجوامع كلمهم وموجز بيانهم ، وتمثل خير ما في الأدب الانجليزي في سبحات الخيال المطلق المطنب ، من درامات وملاحم وقصص ، فالعيب الاجتماعي أو النقص السياسي الذي كان يراه الأديب العربي ، فتحمله الظروف سالفة الذكر على أن يصوغه حكمة موجزة عامة لا تثير ريبة السلطان ، كان يحوك حوله الأديب الانجليزي في قصة اجتماعية رحيبة الجوانب تشخص موضع الداء تشخيصا ؛ وتعين الدواء ، ويتجلى الفرق بين الاديبين في هذا الصدد في نوع عبقرية شاعريهما الفذين : فقد بلغت العبقرية الشعرية الانجليزية ذروتها في آثار شكسبير صاحب الدرامات العجاجة بالخيال المطلق ، وبلغت العبقرية الشعرية العربية أوجها في قصيد المتنبي الحافل بالحكمة البليغة

فخري أبو السعود

البطولة وهل ندرت؟

للأستاذ فتحي رضوان

يحلو لي أن أدخل في المناقشة التي أدارها الكاتبان النابغان ، عباس العقاد وأحمد أمين حول النبوغ والبطولة ... يحلو لي أن أدخل في هذه المناقشة خصما ثالثاً ، وإن كنت أكره لفظة « خصم » ، ولكن ماحيلتي وقد علمنيها القانون ... !

لقد طالعت مقال الكاتب « النابغ » أحمد أمين ، وأدركت نظريته التي بناها على أن النبوغ هو سبق النابغ لمعاصريه ، حتى ليعجزوا عن اللحاق به ، إلا بعد زمن قد يطول ، وذلك حين يكون النبوغ عالياً ورفيعا . وقد يقصر ، وذلك حين لا يكون النابغ ممتازاً إلا بقدر ...

ولقد ساقته هذه النظرية إلى نتيجة ، آمن بها ، ودافع عنها ، وضرب الأمثلة العديدة على صحتها وسلامتها . والنتيجة هي التي استوقفتني ، فدفعتني إلى التأمل فيما جاء بهذا المقال ، ثم هي التي حفزتني على كتابة هذا الرد فالأستاذ أحمد أمين يرى أن نوابغ هذا العصر قلة ، لأن أساليب التربية الحديثة ، ونظام المجتمع الذي نعيش في ظله أشاع العلم ، وأضعف الفوارق بين الخاصة والعامة ، وأتاح فرصة التحصيل والتفوق للفقراء وذوي الثراء . وقد بلغ اقتناع الأستاذ أحمد أمين بهذه النظرية وبنتيجتها مبلغاً حمله على أن يضرب لنا الأمثال بالتلميذ في المدارس الثانوية ، فهو ينظر اليه كل يوم ، فيراه يطالع كتب الطبيعة التي تشرح قواعد الضوء والصوت ، والحرارة والكهرباء ، فيقول : « إنه يعرف ما يعرفه نيوتن ، وأكثر مما يعرفه » ، ثم يراه يقرأ كتب النحو والصرف ، والبلاغة فيقوى يقينه بأن ما وصل اليه من نتيجة صحيح جداً فيقول : « إنه يدري من النحو ، ما لا يدريه سيبويه »

ثم يطمئن إلى هذا الاستقراء فيقول لنا إذا كان محصول علمه يفوق علم جهابذة العلوم والآداب ، وهو بعد تلميذ في المدارس ، يخطىء ويصيب ، وينجح ويتعرض للسقوط ، ويذاكر ويشكو قسوة الامتحان ، فكيف تظنون أن عهد النبوغ لم ينصرم بعد ؟ . وأين مجال التفوق أمام الموهوبين وذوي الجد ما دامت المدارس قد ذللت المعرفة وفتحت أبوابها على المصاريع ؟

قد كان التفوق والنبوغ بالأمس ممكناً ، لأن النابغة كان مبصراً وسط عمي ، وصاحياً وسط مغفلين ومدركا بين جهال . أما اليوم فأصغر علماء الطبيعة كأكبرهم ، يعرفان من أمر هذا العلم وقواعده قدراً يكاد يكون متساوياً ، فاذا وجد الفارق بين العالم الصغير والعالم الكبير فليس هو بالفارق الذي يضفي على الكبير منهما صفة النبوغ والتفوق ...

وقد سألنا الأستاذ أحمد أمين أن ندله على السياسي الذي يفوق أقرانه ويبذهم ، وقد نبهنا إلى استنارة الشعوب وبصرها الآن بأساليب الحكم وفقهها لطرائق الادارة ؛ ثم سألنا أن ندله على العالم الذي يسبق جيله أو معاصريه . ونبهنا إلى أن العلوم اليوم والفنون كذلك قائمة على سنة التخصص .

وأفهمنا أنه لا يوجد طبيب، وإنما يوجد اخصائيون فى كل فرع من فروع الطب، ولا يوجد قانونيون، بل مطبقون لناحية واحدة من نواحى القانون ...

والحق أننا نشكر للأستاذ هذا التنبيه، لأننا نستطيع بعده أن ندله على النابغين المتفوقين الذين يسبقون معاصريهم بالسنين ويفوتونهم بالمراحل. فالتاريخ لم يعرف حاكما كموسولينى ينبعث من خنادق الحرب، ثم يشتغل سنين معدودة فى الصحافة، ثم تدين له الدولة والأمة بالطاعة والانصياع. ويصبح البون بينه وبين أكبر رجال أمته شاسعاً، حتى لا يكاد يوجد فى إيطاليا إلا موسولينى، الكلمة كلمته، وكلمته قانون، وقانونه مقدس أسمى من أن يشوبه خطأ، ثم تتحالف عليه الدول وتطوق بلاده بحصار لا يرحم، فيجرح شجاعته، ويواجه العاصفة بسيل من الخطب ودنيا من التدابير ... فالتخصص ومجانية المدارس وتذليل أساليب التحصيل، كلها لم تحل دون بروز شخصية سياسية طاغية فى إيطاليا. وهذا البروز، هو النبوغ على الأقل كما وضح لنا الأستاذ أحمد أمين مقياسه - ولكن الأستاذ يريد أن ندله على نوابغ كثيرين وإلا كان محقاً فيما ذهب اليه من أن العصر الحديث لا يعتبر عصر النوابغ، بل عصر ارتقاء الجماعة الانسانية ارتقاء لا يسمح بايجاد الفوارق الواسعة بين العامة والخاصة، وبين الكبار والصغار. ولكن حسب الأستاذ الكبير أن يدير بصره فى العالم بأسره ليعلم أننا نعيش فى عصر النابغين فألمانيا يحكمها رجل واحد يتصرف فى أمورها كما يحلو له. أو على الأقل كما يحلو له ومستشاروه الذين من حوله.

وروسيا، على رأسها رجل يضع دستورها، وينفذ قانونها ويشرف على جيشها، والذين من حوله أقزام ينظرون اليه ولا يقوون على مقاومة إرادته ... وعلى الأستاذ الكبير أن يسأل من اليوم صاحب النفوذ الذى لا يحد فى تركيا، وفى بولندا - قبل وفات سلسودسكى - وفى النمسا وفى تشكوسلوفاكيا فى عهد مازاريك ليعرف أننا محكومون بالنابغين والمتفوقين فى عالم السياسة وليدرك أن بصر الشعوب بأساليب الحكم. وفطنتها الدستورية، لم تحل دون ظهور هذه الكثرة من ذوى السلطان المطلق ..

فاذا رجعنا إلى التاريخ القديم، وجدنا أن روما التى احتملت موسولينى أربع عشرة سنة متوالية، لم تستطع أن تحمل يوليوس قيصر مثل هذه المدة.

قد يعترض الأستاذ فيقول: ولكن من قال عن هؤلاء الحكام نابغون؟ وهو لا يحرجنى بهذا السؤال. لأنه هو الذى ضرب لنا المثل، بنابليون، ولا أحسب أن نابليون من حيث معدن العظمة يبذ واحداً من هؤلاء الذين ذكرت أسماءهم

فاذا أدرنا وجهنا إلى ميدان العلوم والفنون الفيناه ميدان العمالقة والأقزام، ميدان الذين تلامس هاماتهم السماء والذين تلاصق أسماؤهم التراب. على الرغم من أن هؤلاء وأولئك، حصلوا على نصيب واحد من العلم المدرسى. فالأستاذ أحمد أمين يصيب كثيراً من العناء إذا هو أراد أن يجد قريناً لرجل ككارل ماركس ألف كتاباً فثل هذا الكتاب عروشاً، وأزال دولا، وقلب وجه التاريخ، ورجل كداروين لا يشابهه فى ميدان الطبيعة أكثر الذين حوله، ولا نستطيع أن نقول إن كارل ماركس هو وحده النابغة فى ميدان الاقتصاد، ولا أن داروين هو وحده المتفوق فى ميدان الطبيعة، فالى جانب ماركس برودون وبلاخانوف ويوخارين وغيرهم وغيرهم ممن كانوا إلى جانب طلاب الاقتصاد وأساتذته وكتابه والمشتغلين به نوابغ بل عباقرة. وفى الأدب يكتب الآن الكثيرون، والمطابع لا تنفك تخرج المؤلفات والمصنفات. ولكن ألا يوجد الكاتب الذى تساوى كلمته فى حساب المادة عشرات الجنيهات، والكاتب الذى لا تساوى كتبه شروى نقير ... ثم ألا يوجد الكاتب الذى تفعل بدائعه فى النفوس وفى الشعوب فعلا تارة يدفع بها الى العنف، وأخرى يميل بها إلى الرضا ... فكثرة الكتاب فى أوربا وفى العالم. وكثرة الموسيقيين وكثرة الاقتصاديين لم تحل دون النابغين، ولكن الأستاذ احمد أمين يريد أن يرى هؤلاء النوابغ، ويريد أن يسألنا عن الفرق الكبير بين كاتب انجليزى وكاتب انجليزى آخر ... والحق أننا لا نتعب كثيراً فى أن ندله عليهم، لا بذكر الأسماء بل بوضع قاعدة تغير الموقف.

فالاستاذ لا يرى موسيقياً كالموصلى ولا كبتهوفن . ولا شاعراً كشكسبير ، ولا كالمتنبى . ولا كاتباً كعبد الحميد ولا كابن المقفع ولا كاكولى . فيقول : لا نبوغ فى هذه الأيام وينسى أن الذين يتحدث عنهم جميعاً طواهم الموت وأحاطهم القدم بجلاله . ومحا أسماء منافسيهم الذين كانوا يعيشون معهم وبقيت أسماؤهم وحدهم ، وأن المعاصرين يعيشون معنا ، ونحن نقرأ أسماء النوابغ وأسماء العامة ، أقصد العاديين من الكتاب والفنانين ، ولكن غداً سيموت الجميع . والأجيال القادمة هى وحدها التى ستدون أسماء المتفوقين الذين عاشت بدائعهم ، وخلدت مؤلفاتهم . وظهرت آثارهم . عظيمة ومؤثرة وجليلة وستقول هذه الأجيال كما يقول اليوم الاستاذ احمد أمين إن جيلها يخلو من النوابغ وإن الأجيال السابقة هى عهد المتفوقين والمبرزين .

فمثلنا مثل الذى يقف الى جانب الجبل ، لا يرى قممه ، ولا سوافله ، إنما يرى جسماً مسطحاً لا تضاريس فيه . فاذا بعد عنه ظهرت معالمه وبانت خطوطه واتضح له أنه عال فى ناحية ومنخفض فى ثانية ، أو قل إن مثلنا مثل الوالد يعيش مع بنيه فلا يدرى أنهم يزدادون طولا مع مرور الزمن ، فاذا غاب عنهم شهراً وعاد أدرك أن هذا أطول من ذاك ، وأن أكبرهم أشد سمرة من أصغرهم ، لأن طول النظر إلى الصورة لا يبرز معالمها .

المدارس انتشرت ، والمعارف رخصت ، ولكن النفس البشرية هى هى باستعدادها ، سيبقى النبوغ فيها استعدادا لا يضعفه نظام ، ولا يقويه نظام ، إنما يغير فيه قليلا .

لقد طرنا فى السماء ، وغصنا فى الماء ، ولكن لا يزال الواحد منا اذا ما خلا إلى نفسه فى القمر ، ثارت شجونه ، وتحركت فى عيونه شؤونه ، تماما كما يفعل ابن الصحراء وراكب الجمل .

وأحفادنا سيقولون — حينما يقرأون مقالنا — إننا تعجلنا الزمن ، فقلنا عن عهدنا إنه عهد لا نبوغ فيه ، وإنهم سيرونه عهداً ككل العهود ، فيه النوابغ وفيه العاديون ، فيه العمالقة وفيه الأقزام .

فتحى رضوان

على هامش رحلتى الى الحجاز

ليـــلة فى مكة

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ الشرقى بجامعة بودابست

أخذ الغسق يهبط بسرعة فى وادى مكة الضيق ، المشبع بهواء الصحراء الجاف ؛ وهنا بدأت خيوط الأصيل الذهبية تتلاشى ثم تختفى دفعة واحدة كأن ستاراً أسدل عليها بغتة ؛ وبعد فترة وجيزة أخذ الليل ينشر خيمته السوداء فنسينا حينذاك ذكريات الغروب الجميلة وأصبحت لدينا كحلم سافر بعيد ، ثم خيم السكون وشمل المدينة كلها .

وكنت أشاهد منظر غروب الشمس من إحدى نوافذ بيتى الصغير فى مكة . ولم ير الديك الذى كان يصيح طيلة النهار داعياً لا يقاف صياحه ، كأن عظمة هذا الغروب لم تؤثر فى نفسه ، ولكن الدجاج لاذت بالصمت وراحت تتسلق أقفاصها استعداداً للنوم .

وكان يقع فى طرف فناء البيت الصغير الذى أعد لضيافتنا قسم خاص بالحريم تجلس فى إحدى غرفه سيدة وقور اسمها سنية ، تقرأ القرآن على ضوء مصباح خافت اللون ، على حين كانت ابنتها فاطمة النحيلة الخصر منصرفة إلى اعداد طعام العشاء لارساله إلينا مع إحدى العجائز . وحتى هذه العجوز الشمطاء كانت تتخذ كل الحيطة عند احضارها الطعام بحيث لا يظهر وجهها ، وكانت تحمل الصينية على يديها ثم تدفعها بحذر على عتبة الغرفة وتنسل راجعة ، فأقوم بدورى لآخذ الصينية بمجرد وضعها على العتبة . أما الطعام فهو لا يخلو عادة من الأصناف العربية المشبعة بالتوابل

كانت هذه العجوز تحاول كما قلت أن تمنعنى من رؤية وجهها ، ولقد أفلحت فى ذلك إلى حد كبير ، فلم أر منها إلا ذلك الهيكل العظمى ، ولم أسمع من حركتها إلا صوت ذلك القبقاب الخشبى الذى كنت أسمع طقطقته على الدرج

حين صعودها وحين أوبتها إلى الحريم . فالمرأة فى كل زمان ومكان ، هي المرأة ، أو ذلك اللغز الغامض ، فى الغرب وفى الشرق على السواء ، فاذا ما دفعنى حب الاستطلاع لرؤية فاطمة الجميلة ، وليس هذا بمستغرب من رجل مثلى ، أخذت أنظر اليها خلسة من احدى الثغرات ، ويلوح لى أن الفتاة الصغيرة كانت تشعر أيضاً بأن العيون موجهة اليها من خصاص الشباك فكانت تتخذ كل حيطة وحذر فتقفل نوافذها وترخى السدول عليها حتى تمنع عنها تلك النظرات التى تخافها وتخشاها ، ولكن فاتها أن فى الفضاء تياراً خفياً ينشر جاذبية العواطف ، وينبعث من شعاعه شرارة سرعان ما تكون سبباً فى تأجج تلك النيران التى تضىء الحياة بلهيبها . هذه التيارات مخيفة فى الواقع لأنه حين اشتعالها تزيد أوار الحب فى القلوب البشرية . فتوقظ فيها وسائل الحياة ووسائل الموت دون تفرقة بينهما . أما أنا فلا أخفى عنك انى ارتعدت من هول ذلك التيار ، فرميت رأسى إلى الوراء حياء مخافة أن يقع نظر الفتاة على وأنا أتجسس عليها عن كثب ، ومخافة العار والفضيحة ولا سيما وأنا غريب عن البلاد

ففى أرض الحجاز ، تلك البلاد التى لا يوجد فيها من الجنس الأورى غير شخصى الضعيف ، مرتدياً تلك الملابس الأفرنجية ، والذى تخرج من فمه رطانة لا يفهمها غيره ، كنت مضطراً بحكم البيئة التى تربيت فيها أن أبحث وأدقق فى كل ما يقع نظرى عليه ، ولكن بروح أجنبية . فكان شأنى شأن اللص الذى يتسلل إلى بيت تحت جنح الظلام ، فى وقت هجوع سكانه ، ثم يخشى أن يقوده سوء الطالع فتصدم رجله قطعة من الأثاث ، أو يفتح باباً خلسة ، بيد مرتجفة ، بل قد تراه يتلفت ذات اليمين وذات اليسار خائفاً وجلا ، فاذا صادف أن شعوره الاجرامى لم ينبض فى صدره ، فحينذاك يكاد يطير فرحاً لاقتناصه فريسته ، وإذا لم يجد وازعا من ضميره فانه يفخر بانتصاره على ضحيته . ومن الأسف أن هذا الشعور الاجرامى يلازمنا من المهد إلى اللحد ، فأمامنا الرجل العادى الذى يهرع إلى فراشه ليلا على حين نقضيه نحن فى مسامرة النجوم . وفى الوقت الذى يعود هو فيه إلى بيته بعد أن يكون قد اكتسب قوته بعرق جبينه فما علينا إلا أن نوجه أنظارنا إلى ألوان الشمس العظيمة ساعة غروبها ، ونتعلم منها عن كثب طرق التحول ونعد قبلاتها الحلوة التى تطبعها على سطح الأرض من نعم الطبيعة . أجل يتحتم علينا أن نبحث بدقة وحذر خشية أن نتخبط فى ديجور الظلام كما يتخبط اللص فى الخفاء

انه لأحساس نبيل لو أتيح للانسان أن يكون كشجرة الأرز الباسقة ، تلك الشجرة المغروسة على أعالى القمم . تنقل عينها من حين إلى آخر على المروج الخضراء والكروم الزمردية ، ولكن هذه الشجرة ـ وهى سيدة الأشجار ـ ستبقى على الدوام مهددة بميلها للسقوط فى وسط الأدغال ، حيث الحركة والحياة بين الحشرات والأزهار وبين القطعان فى مراعيها ، وحيث الأطفال يضحكون وحيث تستغرق السعادة فى سباتها العميق

هذه الأفكار مرت سراعاً بمخيلتى ، عند ما كنت أنظر صفوف نوافذ منازل مكة التى تطل على هذا الوادى الضيق ، ثم وقع نظرى على المآذن الشامخة وقد فارقتها أشعة الشمس الذهبية ، كأنها تنادينى أن أقترب منها . وهذه الشمس التى غربت هى بغير نزاع ذلك الصاحب الأمين للأجنبى ، فشمس الصباح وشمس الظهيرة بهما قوة واقتدار مثل قوة الشاب العاشق ، ولكنها على الدوام واحدة لا تتغير ، أى انها لا لون لها ، وتكاد تكون فى الغالب وحشية شاحبة ومزعجة . انها لا شىء سوى القوة الغشوم ، فهى كالآلة ، بيد أنه ينقصها الاحساس ، والصوت ، والضمير ، والشوق . فهذه الشمس التى تغرب ، ليست سوى حب الرجل البالغ ، فالضمير ، والمعرفة ، والفرح ، والأحزان قد تغلبت عليها مئات المرات ، وأخضعتها لسلطانها ، وظلت الآن فى كفاحها تغالبها ، وستظل فى هذا الكفاح الدائم راضية بالحياة ، ممتزجة مع الموت

هنا سمعت المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة ، وهنا يجب علينا أن نولى وجوهنا شطر الكعبة المقدسة لنسجد للحى القيوم ، مالك الملك ، الذى خلقنا فسوانا ، وفى قدرته الحياة والموت ، صاحب الأمر الذى إذا أراد شيئاً فانما يقول

له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ، إننا ندعوه ونبتهل إليه فى قعودنا وقيامنا ، إذليس أفضل من الابتهال إلى قدرته ، تلك القدرة الدائمة الأبدية ، فطوبى لمن يخشون ربهم . نعم طوبى لهم وحسن مآب

خيم الظلام المخيف على جميع أطراف مكة ، وفى هذه البقعة الصحراوية الجرداء نرى بيت الله . ذلك البيت العتيق قبلة الشعوب الاسلامية ، الذين ينسون حطام الدنيا ومتاعها ويطأون المادة بأقدامهم ويستعيضون عنها بالايمان المطلق ، وهو لعمرى أثمن من كل شىء فى الوجود . فيتخلصون من شرور الجسد ويصعدون بأرواحهم إلى أعلى عليين . وما أحلى وأطيب سماعك آذان المغرب فى بلاد العرب ، أو على الأقل ما وجدت شيئا أروع منه ، خصوصا وقد قدمت الى هذه الأرض المقدسة لأتطهر من أدرانى وأبغى الثواب والمغفرة ، وسيعلم الانسان عند ما تصعد الروح إلى بارئها ، وعند ما تنهار أعمال الرجال ، فاننا بفطرتنا نلجأ إلى حماية الرب العظيم ، حيث الماء والهواء يحركان الصخور ؛ ولكن على الرغم من ذلك نحاول أن ننشل أنفسنا من وهدة القنوط بقوة الايمان ، تلك القوة التى تخفف عنا عذاب الضمير وتهدئ من ثورة عواطفنا الجامحة ، فتطمئن قلوبنا بذكر الله وتجرى على شفاهنا آيات الكتاب الكريم

أليست كلمات الله العذبة الفصيحة قادرة على أن ترشد الانسان مهما كان زائغ العقيدة إلى الصراط المستقيم ؟

ذلك الصراط الذى وعد الله به عباده المتقين فيرون ضوء الشمس الساطعة فى كل جزء من أجزاء الحياة ، وعند ما تشعر النفس بالكآبة فلاعزاء لها إلاأن تيمم نحوالخالق العظيم لأن الله سبحانه وتعالى يحب من عباده التوسل والضراعة إليه ، والكل يغترفون من فيض نعمائه لأنه رحيم رؤوف بعباده . على ضوء هذه العقيدة اضطجعت فى غرفتى وأغمضت عينى فشعرت بازدياد ضربات قلبى ثم ألفيت نفسى أتلو آية الكرسى ، وهناك شعرت بدمعتين حارتين تنحدران على خدى . ثم اسدل الليل ستاره وخيم السكون على أنحاء المدينة وبدأ القوم يوقدون مصابيحهم الزيتية ، وحضرت الخادم تحمل طعام العشاء . فسرعان ما شعرت بأنى أهبط من طبقات السمو والتفكير فى صفات الخالق إلى حضيض الأرض ، وبعد أن تناولت عشائى نهضت فارتديت سروالى وعصبت رأسى بعصبة أحكمت فوقها عقالا ، ثم يممت شطر جبل أبى قبيس لزيارة صديق الأستاذ عبد الله رافع الذى دعانى مع آخرين لقضاء ليلة ساهرة فى بيته . فاخترقت فى طريق سوق المدينة ورأيت الشوارع لا تزال مكتظة بالزوار وحجاج البيت الحرام . وكانت دار صديقى حافلة بالضيوف فما كدت أغشى الصالة الكبرى حتى أحسست أنى فى عزلة عن الضوضاء ، وشعرت بالهدوء الشامل والطمأنينة المريحة

وأستطيع أن أقول إن جماعة الوهابيين فى بلاد العرب يحرمون بتاتاً الاجتماع فى الولائم وغيرها ، وحجتهم فى ذلك أنها مخالفة لنصوص الشريعة والسنة ، ويقولون إن فى التقشف الغذاء النفسانى لكل طالب ، ويعززون رأيهم بأن الانسان ما خلق إلا للعبادة والتقوى ، وليس له أن يتوغل فى إعطاء النفس شهواتها لأن الحياة فى ذاتها كلها تعب وقصيرة ؛ وليس الغرض منها أن يتمتع الناس وينغمسون فى شهواتهم . بيد أنى أرى أنهم يبالغون فى هذا التحريم لأن الله حين نظر إلى التراب الذى خلق منه آدم والذى تكون منه العالم ، سقطت من عينه دمعة . وهذه الدمعة كانت تحمل شطراً من القلب ومن طبيعته أن يوجد فيه الحب والاحزان وغيرها من الصفات الكامنة الآن فى نفوسنا .

(البقية فى العدد القادم)

أول مدرسة مصرية فرنسية *

للدكتور زكي مبارك

هذه أول مرة تلقى فيها كلمة اللغة العربية ، بجانب كلمة اللغة الفرنسية ، في هذا المعهد ؛ وذلك حق كسبته اللغة العربية منذ عامين ، منذ إنشاء القسم المصرى الذى تسود فيه اللغة العربية سيادة أصيلة ، ويدرس فيه الأدب العربى دراسة مفصلة ، على نحو ما يدرس فى أرقى المدارس المصرية

والقسم المصرى لم ينشأ بهذا المعهد لمجرد المجاملة ، وإنما هى خطة تعليمية قضى بها المنطق السليم . وتوجيه صالح وفق إليه المشرفون على سياسة التعليم فى هذا المعهد الذى يجمع بين القديم والحديث .

فأنا أيها السادة أتكلم باسم أساتذة اللغة العربية فى القسم المصرى كما تكلم زميلى المسيو بارال باسم أساتذة اللغة الفرنسية فى القسم الفرنسى ، وكذلك يأخذ الأدب العربى مكانه فى تقاليد الحفلات السنوية منذ اليوم ، ويصير من حظ هذا المنبر أن يطرب فى كل عام وهو يستمع لغة القرآن .

وإنشاء القسم المصرى فى معهد الليسيه هو الذى أوحى إلى موضوع هذه الخطبة ، وهو الكلام عن أول مدرسة مصرية فرنسية فى التاريخ الحديث .

والمدرسة التى أعنيها هى البعثة التى أرسلها محمد على الكبير إلى فرنسا فى سنة ١٨٢٦ وقد كانت مؤلفة من اثنين وأربعين طالبا منهم ثلاثة من طلبة الأزهر الشريف .

وما سميت تلك البعثة مدرسة من باب المجاز فقد كانت مدرسة بالفعل ، وكذلك سماها المسيو جومار فى التقرير الذى نشره فى الجورنال أزياتيك فى سنة ١٨٢٨ .

ومن طريف التشابه أن أذكر أن المدرسة المصرية الأولى كانت مؤلفة من اثنين وأربعين طالبا ثم زاد طلبتها بعد ذلك وأن القسم المصرى فى الليسيه كان طلبته فى الأسبوع الأول اثنين وأربعين طالبا ثم تكاثر العدد وازدحمت الفصول .

ولعل تشابه الحظوظ فى هذه البداية يبشر بتشابه الحظوظ فى التسامى والتفوق . والله بالتوفيق كفيل .

سافرت البعثة من مصر فى يناير فوصلت إلى باريس فى يوليو ، وإنما كان السفر طويلا لأن المواصلات لم تكن سهلت إلى الحد الذى تعرفونه فى هذه الأيام ، وقد كانت تلك الرحلة المطولة سببا فى أن يتعرف الطلاب إلى الأقاليم الفرنسية ، ويدرسوا ما ائتلف وما اختلف من أخلاق الناس .

ولما استقر الطلبة فى باريس عاشوا تحت إشراف ثلاثة من الأساتذة المصريين ، وكان لأولئك الأساتذة الثلاثة واجبات دراسية ، ومن هذا ترون كيف كان المصريون يعرفون واجبهم فى ذلك الحين

كان الطلبة يقيمون أول الأمر مجتمعين فى بيت واحد يسمونه المركز ، ثم رؤى أن يتفرقوا فى المنازل الفرنسية ليتذوقوا الروح الفرنسى . فنظمت لهم لائحة مكونة من أربع عشرة مادة . وإليكم نصوص تلك المواد لتروا كيف كانت إدارة البعثة تفهم الواجبات التعليمية فى تلك العهود

المادة الأولى : (١) إن يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه يلزم أن يخرجوا من البنسيونات فى الساعة تسعة ويأتوا إلى البيت المركز من أول الأمر ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم إلى الأفندى النوبتجى لأجل أن يعلم ساعة دخولهم فى البيت ، وبعد ذلك يذهبون إلى المواضع المعدة للفرجة بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة ، ثم يرجعون إلى البنسيونات فى أيام الصيف الساعة تسعة ، وفى أيام الشتاء الساعة ثمانية

المادة الثانية : إن من لم يمتثل لخصوص ما سبق يمنع الخروج من البنسيون بحسب الاقتضاء جمعة أو جمعتين

المادة الثالثة : إن كل من له شكاية من معله لا تسمع ولا تقبل حتى يكتبها فى ورقة . ولا تسمع إلا إذا كانت من جهة التعليم أو جهة أخرى يحصل له منها ضرر

---

* خطبة ألقيت فى حفلة توزيع الجوائز بمعهد الليسيه فرانسه

(١) هذه اللائحة كتبت بقلم المغفور له الشيخ رفاعه بك الطهطاوى وقد احتفظنا بعباراته

المادة الرابعة : إن جميع الأفندية يمتحنون فى آخر كل شهر ليعرف ما حصلوه من العلوم فى هذا الشهر ويسألون عما يحتاجون إليه من الكتب والآلات ويكتب فى آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وأفعالهم على الوجه الصحيح

المادة الخامسة : لو احتاجوا شيئاً من الكتب والآلات فى أثناء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له ، ومعلمهم يخبر بذلك مسيو جومار ، فان رآه مناسباً يعطيهم ذلك بعد ما يخبر النوبتجى ، فان اشترى أحد شيئاً من غير إجازة يلزمه أن يدفع ثمنه من عنده

المادة السادسة : إنه بعد الامتحان بما ذكرنا فى المادة الرابعة إن استحق أحد من الأفندية الهدية (١) لنجابته تعطى له كتب وأدوات وسعة

المادة السابعة : فى محل التفرج أو الطريق لا ينبغى لأحد منهم أن يرتكب ما يخل بمروءته . وهذا الأمر هو أهم الجميع وممنوع أشد المنع

المادة الثامنة : إن كل الأفندية الذين فى البنسيونات لا يدخلون البيت المركز إلا كل خمسة عشر يوماً مرة وهو يوم الأحد

المادة التاسعة : إن يوم الأحد الذى لا يأتون فيه إلى البيت يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين إلى مواضع التفرج أو الرياضة أو ما ينبغى رؤيته ، وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل (٢) ، إن لم يكن عليهم شغل فيذهبون مع من ذكر إلى المواضع المذكورة

المادة العاشرة : إذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر مخالفته . وإذا أظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة . وإن كان يتشبث بأفعال غير لائقة وأطوار غير مرضية وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حاله وتبين عصيانه فمثل ما ذكر حضرة ولى النعم أفندينا فى القوانين التى أعطاها لنا نتشاور مع المحبين لحضرة أفندينا من أهالى هذه المدينة

(١) الهدية هي الجائزة في التعبير الحديث

(٢) يوم التعطيل هو الآن يوم العطلة

ونرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالا إلى مصر من غير شك ولا شبهة .

المادة الثانية عشرة : إن جميع الأفندية يكونون فى البنسيونات فى هذا الترتيب على حد سواء ، وإن كان فى البنسيونات مائدتان احداهما للمعلمين والأخرى للتلاميذ فأفنديتنا يأكلون مع معلميهم .

المادة الثالثة عشرة : إن الأفندية المذكورين يلزمهم جميع ما ذكر من القوانين من غير امتياز ولسبب ذلك أعطينا كل واحد منهم صورة ذلك

المادة الرابعة عشرة : كل المواد السابقة هى خلاصة أفكارنا ونتيجة أذهاننا وأذهان الأعيان الذين وصاهم علينا حضرة أفندينا ، وبناء على ذلك كل أحد يلزمه أن يتبعها مع التنبيه لأجل تحصيل رضاء حضرة أفندينا ولى النعم . فمن لم يمتثل أو تعلل بشىء يجرى عليه ما هو مذكور فى قانون حضرة أفندينا ولى النعم حفظه الله

ooo

أيها السادة :

حدثتكم أن محمد على الكبير وكل رعاية تلك البعثة إلى المسيو جومار ، فاسمحوا لى أن أشير إلى بعض النواحى من أخلاق ذلكم المربى العظيم .

كان المسيو جومار يحرص أشد الحرص على تذكير الطلبة المصريين بانهم من شعب مجيد له فضل سابق على الانسانية فقد قال فى الخطبة التى ألقاها عليهم فى حفلة توزيع الجوائز فى اليوم الرابع من يوليه سنة ١٨٢٨ :

« أيها الشبان ، هذه أول مرة بعد وصولكم إلى فرنسا تعطى لكم أمام الجمهور المكافأة التى تستحقونها على عملكم الذى ثابرتم عليه ، وهذا اليوم يعد من أفضل أيام حياتكم ، والأكاليل التى ستتوج بها رءوسكم بعد هنيهة هى رمز فخر عظيم ، لأنكم أتيتم فى عاصمة العلوم والفنون ، وفى وسط مدينة تجمع بين جوانبها كل ما وجد من عناصر المدنية اليونانية وكل ما وجد من العناصر الفخمة فى طيبة ذات المائة باب .

أمامكم مناهل العلم فاغترفوا منها بكلتا يديكم ، وهذا هو

قبسه المضىء بأنواره أمام أعينكم . فاقتبسوا من فرنسا نور العقل الذى رفع أوربا على سائر أجزاء الدنيا ، وبذلك تردون إلى وطنكم منافع الشرائع والفنون التى ازدان بها عدة قرون فى الأزمان الماضية فمصر التى تنوبون عنها ستسترد بكم خواصها الأصلية . وفرنسا التى تعلمكم وتهذبكم تفى ما عليها من الدين الذى للشرق على الغرب كله »

ولم يقف المسيو جومار عند هذا الحد من التذكير بمجد مصر ، بل تحدث إلى الجورنال أزياتيك عن البعثة المصرية فأشار إلى ما أنشأ محمد على الكبير من المدارس فى وادى النيل فقال إنها ستكون عاملا لرد النور إلى وطنه الأصلى . ذلك النور الذى يجب على كل من يعنى بنشر العلوم والمعارف والمدنية أن يرده إلى مهده الأصيل

***

ولعلكم تسألون أيها السادة عن عناية محمد على الكبير بتلك البعثة ، وجواب ذلك عند الشيخ رفاعة الطهطاوى ، فقد حدثنا مذكراته أن محمد على الكبير كان يبعث إليهم من وقت إلى آخر خطاباً يحضهم به على الجد والتحصيل ، وأثبت شاهداً لذلك نسوق منه طرفا للدلالة على مبلغ عناية ذلك الرجل العظيم بأولئك المبعوثين

قال طيب الله ثراه :

قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون . زيد قدرهم

قد وصلتنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم . وكانت الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة . وما فهمنا منها شيئاً ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسا على قلة شغلكم هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم . وهذا الأمر غمنا كثيراً . فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم . فكان ينبغى لهذا الوقت ان كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من أثمار شغله وآثار مهارته ، فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض الكتب فظننتم أنكم مثلهم فى العلوم والفنون فان ظنكم باطل . فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغى للانسان أن يتبصر فى عاقبة أمره وعلى العاقل أن لا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعبه ...

فان أردتم أن تكسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، الخ . الخ

ويحدثنا الشيخ رفاعة أن هذا الخطاب كان له فى أنفس الطلاب تأثير شديد ، وكان من نتائجه أن صاروا يكتبون إلى مصر فى كل شهر بياناً بما قرأوه وما تعلموه

***

أيها السادة . سمعتم اسم المسيو جومار فى هذه الخطبة غير مرة ، وعرفتم فضله على تلك البعثة . فمن الخير أن نشير إلى أن محمد على حفظ له ذلك الجميل ، فأرسل إليه خطاب ثناء فى 10 يناير سنة 1834 وترون ذلك الخطاب فى كتاب سمو الأمير عمر طوسون عن البعثات

أما بعد فقد كان المسيو جومار واثقاً كل الثقة وهو يلقى أول خطبة فى توزيع الجوائز على أول مدرسة مصرية ، وقد حققت الأيام ظنه فكان أولئك المبعوثون رسل علم وهداية وكانت معارفهم الأدبية والعلمية أساساً لما عرفت مصر من أصول التمدن الحديث

وأنا أيها السادة فى أول خطبة لتوزيع الجوائز على طلبة القسم المصرى أثق بتلاميذى أكثر مما كان يثق المسيو جومار بتلاميذه ، وأعتقد أن القسم المصرى بالليسيه سيخرج لكم نماذج جميلة من الشبان المثقفين الذين يعرفون واجبات الرجال

نحن نعرف تلاميذنا أيها السادة ، وأؤكد لكم أنا وضعنا فى صدورهم جذوة لن تخمد . وهديناهم إلى نمير من المعارف لن ينضب ولن يغيض

والتلاميذ الذين يفرحون اليوم بتسلم الجوائز خليقون أن ينسوا إساءتنا إليهم أيام الدرس ، فقد أسرفنا فى إثقالهم بالواجبات وعاقبناهم أحياناً على هفوات صغيرة لا تستحق العقاب . إنهم خليقون أن ينسوا عنفنا وقسوتنا فى معاملتهم فقد كنا على يقين من أن الأبوة تبيحنا حق التحكم فيهم ،

فى الأدب الانجليزى

شكسبير والأدب العربى

للأستاذ جريس القسوس

(مهداة الى الأستاذ فخرى أبو السعود)

يقف من يتعمق فى دراسة الأدبين العربى والانجليزى على ظاهرة غريبة حرية باهتمام من يعنون بدراسة الآداب الأفرنجية، أعنى بها التماثل الظاهر بين مايرد فى كلا الأدبين من قصص وحكم وآراء فلسفية: وهو تماثل يحمل المرء على الاعتقاد الجازم بأن أحد هذين الأدبين قد اقتبس من الآخر، أو تأثر به تأثراً بعيداً

وفى روايات شكسبير خاصة من القصص والحكم والكنايات والاشارات ما يثبت أن مؤلف هذه الروايات الخالدة كان ملماً بعض الالمام بالأدب العربى، وخاصة القديم منه، ولا نقول العكس لأن هذه القصص المتشابهة وردت فى الآداب العربية قبل الانكليزية بعهد طويل.

وأننى لا أرى مبرراً للزعم بأن شكسبير نقل حكمه وآراءه الفلسفية عن الادب العربى، إذ أن الشاعر فى كل آن ومكان وفى أية حالة أو ظرف من ظروف الحياة. لا يخرج عن كونه إنساناً يتألم ويحس بما يحس به غيره من الشعراء عند الامم الاخرى، وإن اختلفوا لغة وجنساً، فالحياة والطبيعة البشرية، اللتان هما المصدران الرئيسيان واللتان يستمد منهما الشاعر المخلد وحيه، إنما هما ثابتتان لا تتغيران أصلا فى كل بيئة وزمان، فشكسبير والمتنبى، وبيرون وعمر بن أبى ربيعة، وشلى وموسيه. ودانتى وأبو العلاء، جميعهم حلقوا فى سماء الشعر، واختلجت فى صدورهم أحاسيس وأخيلة وفكر متماثلة بعض التماثل فى المعنى، وإن كانت تختلف بما ألبسته هذه المعانى الرائعة من أثواب قشيبة منمقة. لهذا ترى العباقرة فى كل باب وفن يتجردون من السفاسف البشرية التافهة والهنات السخيفة التى يتمسك بأذيالها فئة الجهال، كالفروق الدينية والجنسية واللغوية، إذ يتسامى العباقرة عن كل تعصب ذميم ممقوت وينضوون تحت لواء مملكة واحدة هى فوق هذه الممالك التى تظهر متباينة الالوان على المخططات الجغرافية

ولعل هذا القول يصدق على التشابه الظاهر بين الحكم والآراء الفلسفية الواردة فى شكسبير والادب العربى، أكثر منه على الخرافات والقصص العامية.

فهذه تتداولها الألسن من قطر إلى قطر وتتناقلها الأجيال من عهد إلى عهد؛ ولاحرج على الأديب المنتج من تضمين أدبه قصة عامية تلقاها عن أمة أخرى بالرواية أو المطالعة. وللعالم والأديب الكبير بيزا Beza قنصل رومانيا السابق فى فلسطين. أبحاث شيقة حول موضوع شكسبير والخرافات الشرقية. وقد سرد فى محاضرة له قيمة سماها: Sheakespeare V. the Ohiental Folklore (شكسبير والقصص العامية الشرقية) طائفة من القصص والخرافات التى كانت تدور على ألسنة العوام والفلاحين فى الشرق، وحين

وتفرض علينا أن نلقاهم بوجوه تمثل الحزم وقلوب تضمر العطف والوداد

إنما نمنحكم الجوائز أيها الأبناء النجباء لتنسوا هموم الدرس فماذا تصنعون أنتم لمكافأة أساتذتكم؟ إن لنا فى ذمتكم جائزة واحدة فتفضلوا بها علينا

أو تدرون ماهى تلك الجائزة؟ هى أن تكونوا أبطالا يرفعون الوطن ويخدمون الإنسانية

لقد منحناكم خير ما نملك، فامنحوا الوطن والانسانية خير ما تملكون

أيها الأبناء النجباء

لقد شقينا لتسعدوا، فليس من الكثير أن نطلب منكم أن تشقوا ليسعد الوطن وتسعد الانسانية

تذكروا يا أبناءنا الأعزاء أن الشقاء فى سبيل الخير هو السعادة الغالية التى ينشدها أرباب القلوب

زكى مبارك

رجع الصليبيون إلى أوروبا نقلوا معهم الشيء الكثير منها ، فانتشرت تلك القصص بين الخاصة والعامة فى الأوساط الأوربية . فكان شكسبير أحد أولئك الذين ذكروا هذه القصص فى منتوجاتهم الأدبية . وأنا لا أدرى إلى أى حد تبلغ هذه النظرية من الصحة . بيد أننى وقفت على قصص عديدة فى روايات شكسبير ، ذكرتنى بأخرى فى الأدب العربي ، شبيهة بها بعض الشبه .

ولا إخال أحداً طالع رواية مكبث Macbeth ولا يذكر لأول وهلة قصة زرقاء اليمامة . فشكسبير قد ضمن هذه الرواية فكرة الغاب المتحرك . إذ حينما عبأ مكدوف Macduff جيشه العظيم منتقما لوالده المغدور به ، ومستعيداً ملكه المغتصب من مكبث القائد الطاغية العنيد ، بعث مكبث من يستطلع أمر العدو . فاعتلى أحد جنده ربوة عالية تشرف على جيش عدوه . وبدلا من أن يرى جيشاً لجبا ، رأى غابا كثيفاً يتحرك نحوه رويداً رويداً . فعاد الرسول وأخبر مولاه بما رأى . فأيقن مكبث أنه لا محالة هالك ، إذ بذاك تتحقق نبوءة الساحرات الثلاث اللاتى ظهرن له فى أول عهده ، وتنبأن له باعتلاء العرش ، وأنه لن يلقى حتفه حتى يرى غاب برنام Birnam ، wood ، يتحرك نحو مقاطعة دنسنان ، Dunsinane ، وما كان غاب برنام الذى شاهده جندى الطليعة يتحرك إلا جيش مكدوف متستراً بأشجار اقتطعها وحمل كل جندى منهم شجرة يسير تحتها متخفياً ليتمكنوا بذلك من مفاجأة العدو ، والإيقاع به على حين غرة . وهكذا أسفرت المعركة عن انهزام مكبث ولقاء حتفه على يد الابن الثائر .

وصاحب الأغانى (١) يذكر كيف كانت زرقاء اليمامة ترى الجيش من مسير ثلاثين ميلا ، وكيف أن قوماً آخرين غزوا قبيلتها . فلما قربوا من مسافة منظرها ، قالوا ، كيف لكم الوصول مع الزرقاء ، . فأجمعوا على اقتلاع أشجار تستر كل منها فارساً إذا حملها . ففعلوا ذلك وساروا . فأشرفت الزرقاء كعادتها ، فأجابت قومها وقد سألوها ، ماترى ، قائلة : « أرى شجراً يسير ، فقالوا : « كذبت أو كذبتك عينك ، واستهانوا بقولها . فلما أصبحوا . صبحهم القوم ، فاكتسحوهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وقيل أخذوا الزرقاء فقلعوا عينيها

وقصة أخرى يشير إليها المستشرق الانكليزى الشهير نيكلسون فى كتابه Literary History of the Arabs. فى سياق البحث عن الحياة العامية فى القسم الجنوبى من جزيرة العرب

ولقد وردت هذه القصة فى قصيدة (أسعد كامل أو أبو كرب) التى أطلق عليها نيكلسون اسم (قصيدة الساحرات الثلاث «The Ballad of the three witches» ذلك لما بينها وبين خرافة الساحرات الثلاث . اللواتى يمثلن ذلك الدور المدهش فى رواية مكبث . من تشاكل وتشابه عظيمين . والقصيدة كا سترى ، موضوعة فى قالب أقرب إلى العامية منه إلى الفصحى . وقد نقلها فون كريمر Von Kremer المستشرق الألمانى إلى الألمانيــة مودعا إياها كتابه Altarabische Gedichte وكذلك نقلها نيكلسون إلى الإنكليزية فى كتابه المذكور (١)

وفى هذه القصيدة يخاطب أسعد ابنه حسنا ويوصيه بالبطولة . ويسرد له فى سياق الحديث قصة الساحرات الثلاث كيف صادفنه غلاماً . فمزجت له الكبرى أولا دواء ، وأعطته فشرب ، وقدمت له الوسطى ضبعاً بريا امتطاه وذلله ، ثم جاءت الصغرى تمرّضه فتجنّبها . ولما أيقن فيه هذه الجرأة النادرة والقدرة على مقارعة الخطوب . تنبأن له بعهد سعيد ومستقبل باهر ، يتسنم فيه ذرى المجد . وهكذا تمت النبوءة فقد أصبح أسعد ، على ما جاء فى القصيدة ، قائد جيش مجر ، ثم ملكا تهابه الأعداء .

وأنت تذكر أن مكبث كان فى أول عهده قائدا مغوارا فى عسكر الملك دانكين Duncen ولما عاد هو وبنكو Benku مظفّرين لقيا فى طريقهما . ثلاث عجائز شمط ، دأبهن القيام بأعمال سحرية خارقة ، ولهن القدرة على قراءة المستقبل ، ومعرفة الغيب فتنبأن أن سيكون مكبث مبدئياً من الشرفاء ، ثم يعتلى العرش . وبعد ذلك بقليل تحقق القسم الأول من النبوءه . فقد اختار الملك القائد مكبث ليكون شريفاً . ثم تعلم كيف

(١) الأغانى ، ج ٢ ص ٢١

(1) Literary Hist. of the Arabs p. 19.

سوّلت لمكبث نفسه التطلع إلى الملك، فدعا الملك «دنكن» إلى وليمة وقضى عليه ليلا، ثم نصب نفسه ملكا على الشعب

ومن يدرس ما جاء على لسان هؤلاء الساحرات فى رواية مكبث من أقوال دقيقة معقدة ويقابل ذلك بحديث الساحرات فى العقيدة العربيـة يلقى تشابهاً يدعو إلى الاعجاب الشديد. فساحرات مكبث من شأنهن طبخ الادواء ومزجها واستعمالها فى جميع أعمالهن السحرية، وشبيه بذلك ما جاء عن ساحرة أسعد الكبرى، فقد ورد أنها

جاءت إليه الكبرى بأسقية — شتى وفى بعضها دم كدر

ثم إن الضبع الذى قدمته الساحرة الوسطى لأسعد هو من مطايا ساحرات أسعد: وفى رواية مكبث تشير إحدى الساحرات إلى اتخاذ زوجها النمر مطية تحمله إلى حلب العربية

ولا أدرى ما الذى حدا بشكسبير إلى ذكر حلب البلدة السورية العربية. لو لم يكن بين هاتين الخرافتين من علاقة وثيقة وسبب متين

أما وقد بسطنا بعض وجوه الشبه بين الخرافتين، فمن المستحسن الاتيان بقصيدة أسعد كامل بكاملها ليتسنى بذلك مقابلتها مع الخرافة الشكسبيرية بالتفصيل والتدقيق

الدهر يأتيك بالعجائب و — الأيام والدهر فيه معتبر
بينا ترى الشمل فيه مجتمعا — فرقه فى صروفه القدر
لا ينفع المرء فيه حيلته — فيما سيلقاه لا ولا الحذر
اتى زعيم بقصة (عجب) — عندى لمن (يستردهذا) الخبر
يأتى بتصديقها الليالى و — الأيام إن المقدور ينتظر
يكون فى (الأسد)(١) مرة رجل — (ثم) له فى ملوكه الخطر
مولده فى قرى ظواهر همـــدان بتلك التى اسمها (خمر)
يقهر أصحابه على حدث — السن (ويحقرهم) فيحتقر
حتى إذا أمكنته صولته — وليس يدرى ما شأنه البشر
أصبح فى هيوم(٢) على وجل — وأهله غافلون ما شعروا
رأوا غلاماً بالأمس عندهم — أزرى اديهم بجهله الصغر
أن يفقدوه لا در درهم — لو علموا العلم فيه لافتخروا
حتى إذا أدركته روعته — بين ثلاث وثلاثة صخروا

جاءت اليه الكبرى بأسقية — شتى وفى بعضها دم كدر
فقال هاتى إلىّ أشربهـــا — قالت له ذر فقال لا أذر
فناولته فمـــا تورع عن — حصاه حتى أماده السكر
فنهنهته الوسطى فنازلهـــا — كأنه الليث هاجه (الزعر)(١)
قالت له هذه مراكبنا — فاركب فشر المراكب الحمر
فقال حقاً صدقت ثم سما — فوق ضبيع قد زانه القمر
فدق منه جنباً فغـــادره — فيه جراح منهـــا به أثر
ثم أتته الصغرى تمرضه — فوق الحشايا ودمعه درر
فـــال عنها بمضجع ضجر — لا يتساوى الوطاء والزعر(٢)
كان إذ ذاك بعد صرعته — من شدة الجهل تحته (الابر)
فقلن لمـــا رأين جرأته — أسعد أنت الذى لك الظفر
فى كل ما توجه بوجهها — وأنت يشق بحربك البشر
وأنت للسيف والسنان وفى — الأبدان تبدو كأنها الشمر
(وإن) أنت المهريق (كل) دم — إذا ترامى (بشخصك) السفر
فارشد ولا تستكن فى (خمر) — ورد ظفاراً فانهـــا الظفر
فلست تلتذ عيشة أبداً — وللأعادى عين ولا أثر
نحن من الجن يا أبا كرب — يا تبع الخير هاجناً (الدغر)
فـــا بلوناه فيك من تلف — عن عمد عين وأنت مصطبر
ثم أتى أهـله فأخبرهم — بكل ما قد رأى فما اعتبروا
فسار عنهم من بعد تاسعة — إلى ظفار وشانه (الفكر)
فحـــلّ فيها والدهر يرفعه — فى عظم الشأن وهو يشتمر
حتى أتته من المدينة — تشكو الظلم شمطاء قومها غدروا
(أدت) إليه منهم ظلامتها — ترجو به ثأرها وتنتصر
فأعمل الرأى فى الذى طلبت — (فكان) كل بذاك يأتمر
فعبأ الجيش ثم سار به — مثل الدبا فى البلاد ينتشر
قد ملأ الخافقين عسكره — كأنه الليل حين يعتكر
تعم أعداءه (كتائبه) — وليس يبقى فيهم ولا يذر
حتى مضى منه (ثانية) — وفاز بالنصر ثم ينتصر
إنا وجدنا هذا يكون معاً — فى علنـــا والمليك مقتدر
فالحمـــد لله والبقاء له — كل إلى ذى الجلال مفتقر

(السلط – شرق الأردن)

جريس القسوس ب. ع
مدرس اللغة الانجليزية فى مدرسة السلط التجهيزية

(١) الأسر (٢) أهتوم

(١) الذعر (٢) الوعر

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٩٠ — من اكتتب ضمنا بعثه الله ضمنا

فى (الفائق) للزمخشرى :

قال عمر (رضى الله عنه) : من اكتتب ضمناً بعثه الله ضمناً [١] . وهو الرجل يضرب عليه بالبعث فيتعالّ ويتمارض ولامرض به . ويحكى أن أعرابياً جاء إلى صاحب العرض فقال :

إن تكتبوا الضمنى فانى لضمن   من داخل القلب وداء مستكن

٩١ — منذ ثلاثين سنة أنتظر

سئل الشاعر الاهوازى كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت (والله) أظرف الناس ، وأشعر الناس ، وآدب الناس .

فقال السائل : اسكت حتى يقول الناس ذلك .

فقال : أنا منذ ثلاثين سنة انتظر الناس ، وليسوا يقولون .

وعزيز على مدحى لنفسى   غير أنى جشمته للدلاله

وهو عيب يكاد يسقط فيه   كل حر يريد يظهر حاله [٢]

٩٢ — حلقة ، حلقة

فى تاريخ ابن عساكر :

كان زريع على عسس بلال فقال له يوماً : يابنى ، إن أهل الأهواء [٣] يجتمعون فى المسجد ويتنازعون ، فاذهب فتعرف ذلك ، فذهب ثم رجع إليه ، فقال : ما وجدت فيه إلا أهل العربية حلَقة ، حلَقة .

فقال له : ألا جلست إليهم حتى لاتقول : حلَقة ، حلَقة [١] ؟

٩٣ — الخاطر

قال ابن جنى فى (الخصائص) :

حدثنى أبو على (الفارسى) قال : قلت لأبى عبد الله البصرى : أنا أعجب من هذا الخاطر فى حضوره تارة ومغيبه أخرى ، وهذا يدل على أنه من عند الله ، فقال : نعم ، هو من عند الله إلا أنه لابد من تقديم النظر . ألا ترى أن حامداً البقال لا يخطر له .

ومن ظريف حديث الخاطر أنى كنت منذ زمان طويل رأيت رأياً جمعت فيه بين معنى آية ومعنى قول الشاعر :

وكنت أمشى على رجلين معتدلا

فصرت أمشى على أخرى من الشجر

ولم أثبت حينئذ شرح الجمع بينهما ثقة بحضوره متى استحضرته ، ثم إنى الآن وقد مضى له سنون أعان [٢] الخاطر واستثمده [٣] وأفانيه [٤] وأتودده على أن يسمح لى بما كان أرانيه من الجمع بين معنى الآية والبيت ، وهو معتاص متأب ، وضنين به غير معط .

٩٤ — أفضل الناس بعد رسول الله

أتى شيعى وسنى أبا نواس فقالا : أى الناس أفضل بعد رسول الله ؟

فقال : أفضلهم بعده يزيد بن الفضل .

فقالا : ومن يزيد بن الفضل ؟

فقال : رجل يعطينى كل سنة ثلاثة آلاف درهم ...

٩٥ — ريبة

فى (الكشاف) :

عن بعض العرب أنه سئل عن نسبه . فقال : قرشى والحمد لله ! !

فقيل له : قولك : (الحمد لله) فى هذا المقام ريبة . .

---

(١) نسب القول فى غير الفائق إلى ابن عمر وإلى عبد الله بن عمرو بن العاص وفى (النهاية) الضمن الذى به ضمانة فى جسده من زمانة أو كسر أو بلاء . المعنى من كتب نفسه فى ديون الزمنى ليعذر عن الجهاد ولا زمانة به بعثه الله يوم القيامة زمناً

(٢) (يظهر) بالرفع . والنصب جائز عند الكوفيين وحجتهم : (ألا ايهذا الزاجرى أحضر الوغى) وغيره . والشعر لابن الرومى

(٣) أهل الاهواء : أهل البدع ، النحل الزائغة

(١) يرى بلال — كما يرى ابن السكيت — تسكين اللام ، وقد حكى سيبويه فتح اللام . وحكى الأموى كسر الحاء وسكون اللام (وهى لغة بنى الحارث بن كعب)

(٢) فى اللسان : عانه عنانا ومعانة كما يقال : عارضه معارضة وعراضا

(٣) فى الأساس : استثمدنى فلان فثمدته أي استعطانى فاعطيته

(٤) فى اللسان : المفاناة : المداراة وفانيت الرجل داريته وسكنته

٩٦ — أستريح منه اليك

فى (الصناعتين) لأبى هلال العسكرى :

قال معاوية (رضى الله عنه) لابن أوس : ابغ لى محدثاً

قال : أو تحتاج معى إلى محدث ؟!

قال : أستريح منه اليك ، ومنك اليه ، وربما كان صمتك فى حال أوفق من كلامك .

٩٧ — والى شرطة بغداد وأهل السنة والشيعة سنة ٤٤٢

فى (النجوم الزاهرة) لابن تغرى بردى :

فى سنة (٤٤٢) كان من العجائب أنه وقع الصلح بين أهل السنة والشيعة ، وصارت كلمتهم واحدة . وسبب ذلك أن أبا محمد النسوى ولى شرطة بغداد ، وكان فاتكا ، فاتفقوا على أنه متى رحل اليهم قتلوه ؛ واجتمعوا وتحالفوا . وأذن بباب البصرة بـ (حى على خير العمل) وقرىء فى الكوخ فضائل الصحابة . ومضى أهل السنة والشيعة إلى مقابر قريش فعد ذلك من العجائب . فان الفتنة كانت قائمة . والدماء تسكب ، والملوك والخلفاء يعجزون عن ردهم ، حتى ولى هذا الشرطة

٩٨ — تغير شعره ورق طبعه

قال السمعاني : لما ورد على بن حسن الباخرزى بغداد مدح (القائم بأمر الله) بقصيدته التى صدر بها ديوانه وهى :

عشنا إلى أن رأينا فى الهوى عجبا
كل الشهور وفى الأمثال : عش رجبا
أليس من عجب انى ضحى احتملوا
أوقدت من ماء دمعى فى الحشا لهبا
وإن أجفان عينى أمطرت ورقا
وان ساحة خدى انبتت ذهبا [1]
وان تلهب برق من جوانبهم
توقـــد الشوق فى جنبيَّ والتهبا

(١) الورق الفضة . وفى المصباح : الورق النقرة المضروبة ومنهم من يقول : النقرة مضروبة كانت أو غير مضروبة . والنقرة القطعة المذابة من الفضة

فاستهجن البغداديون شعره وقالوا : فيه برودة العجم ، فانتقل إلى الكوخ وسكنها وخالط فضلاءها وسوقتها ثم أنشأ قصيدته التى أولها :

هبت على صبا تكاد تقول ... إنى اليك من الحبيب رسول
سكرى تجشمت الربى لتزورنى ... من علتى . وهبوبها تعليل

فاستحسنوها وقالوا : تغير شعره ، ورق طبعه

٩٩ — خطباء الطير

قال الثعالبي : خطباء الطير هى الفواخت[1] والقمارى[2] والراوشين[3] والعنادل[4] وما أشبهها ، وأظن ان أول من اخترع هذه الاستعارة المليحة أبو العلا السروى فى قوله :

أما ترى قضب الأشجار لابسة ... حسناً يبيح دم العنقود للحاسى؟
وغردت خطباء الطير ساجعة ... على منابر من ورد ومن آس[5]

١٠٠ — ما مدحته الا ثقة بضمانك

مدح ابن نباتة الكبير فخر الدولة وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة بقصيدة قال فيها :

لكل فتى قرين حين يسمو ... وفخر الملك ليس له قرين
أنخ بجنابه واحكم عليه ... بما أملته وأنا الضمين

فامتدح بعض الشعراء فخر الدولة بعد هذه القصيدة ، فأجازه بجائزة لم يرضها ، فجاء الشاعر إلى ابن نباتة وقال له : أنت غررتنى ، وأنا مامدحته إلا ثقة بضمانك فتعطينى ما يليق بمثل قصيدى . فأعطاه من عنده شيئاً رضى به ، فبلغ ذلك فخر الدولة ، فسير لابن نباتة جملة مستكثرة لهذا السبب .

(١) (الفاختة) ضرب من الحمام المطوق . الجواليقي : الفاختة مشتقة من الفخت الذى هو ظل القمر

(٢) القمرية ضرب من الحمام جمعه قمارى بكسر الراء غير مصروف (وفتحها بعضهم) وقمر او الأنثى من القمارى قمرية والذكر ساق حر (التاج) وفى المصباح القمري من الفواخت منسوب إلى طير قمر والأنثى قمرية والذكر ساق حر

(٣) الورشان وجمعه وراشين وورشان (بكسر الواو وسكون الراء) هو ساق حر . وقيل طائر يتولد بين الفاختة والحمامة

(٤) العنادل جمع عندليب وهو البلبل

(٥) الآس : ضرب من الرياحين ، خضرته دائمة أبدا ، واحدته آسة . وهو المعروف عند العامة بالريحان

١٠١ — أحسنت والله ! هذا أحسن

قال ابن الخطيب البغدادي : كان بين أبوي العباس (ثعلب والمبرّد) منافرات كثيرة ، والناس مختلفون في تفضيل كل واحد منهما على صاحبه . وقال محمد بن خلف : كان بين المبرد وثعلب من المنافرة ما لا خفاء به ، ولكن أهل التحصيل يفضلون المبرد على ثعلب

قال عبيد الله (١) بن عبد الله بن طاهر : حضرت مجلس أخي محمد بن عبد الله بن طاهر ، وحضره أبو العباس ثعلب وأبو العباس المبرد النحويان . فقال لي أخي محمد : قد حضر هذان الشيخان وأنا أحب أن أعرف أيهما أعلم ، فاجلس في الدار الفلانية ، ويحضر هذان الشيخان بحضرتك ويتناظران ففعلت ما أمر ، وحضرا فتناظرا في شيء من علم النحو ما أعرفه ، فكنت أشاركهما فيه ، إلى أن دققا فلم أفهم ، ثم عدت بعد انقضاء المجلس ، فسألني فقلت : إنهما تكلما فيما أعرف فشاركتهما في معرفتي ، ثم دققا فلم أعرف ما قالا . ولا والله يا سيدي ، ما يعرف أعلمهما إلا من هو أعلم منهما ، ولست ذاك الرجل فقال أخي : أحسنت والله ! هذا أحسن (٢)

(١) له محل من الأدب والتصرف في فنونه وروايه الشعر وقوله ، والعلم باللغة وأيام الناس ، وعلوم الاوائل من الفلاسفة في الموسيقى والهندسة وغير ذلك مما يجل عن الوصف (الاغاني) (٢) يعني اعترافه بذلك

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

نشيد الرقص

ومر زارا بالغاب يوماً ومعه صحبه فاكتشف وهو يفتش عن ينبوع مرجاً منبسطاً بين الأشجار والأدغال . وكان هنالك رهط من الصبايا يرقصن بعيداً عن أعين الرقباء . وإذ لمحن القادم وعرفنه توقفن عن الرقص ولكن زارا اقترب منهن وخاطبهن قائلا .

— داومن على رقصكن ، أيتها الآنسات الجميلات ، فما القادم بمزعج للفرحين وما هو بعدو للصبايا . انا من يدافع عن الله أمام الشيطان ، وما الشيطان إلا الروح الثقيل فهل يسعني أن أكون عدواً لما فيكن من بهاء ورشاقة وخفة روح ؟ وهل لي أن أكون عدواً للرقص الالهي ترسمه مثل هذه الأقدام الضوامر الرشيقات . . . ؟

لا ريب في أنني غابة اشتبكت فيها قاتمات الأشجار وساد الحلك على أرجائها ولكن من يقتحم ظلماتي بلا خوف ليجدن تحت سرواتي الرهيبات طرقاً تحف بجانبيها الورود . وليجدن أيضاً الاله الصغير الذي تشتاقه الصبايا منطرحا بسكون قرب الينبوع وقد أغمض عينيه

لقد نام في وقت الظهيرة ، هذا الاله المتراخي ، ولعله سعى طويلا ليصطاد من الفراشات عدداً كبيراً . .

لا يكدركن مني أيتها الراقصات الجميلات تأديبي لهذا الاله الصغير ، ولعله يصيح ويبكي ولكنه إله يجلب المسرة حتى في بكائه . فلسوف اقتاده إليكن والدموع سائلة على خديه ليطلب اليكن أن ترقصنه ، وإذا مارقص فسأرافقه أنا بانشادي فما تجيء نغماتي إلا هزيجاً أصفع به الروح الثقيل ، روح الشيطان المتعالي الذي يقول الناس إنه يسود العالم

وهذه هي الأغنية التي رفع زارا صوته بها بينما كان (كوبيدون) إله الحب يرقص مع الصبايا الفاتنات :

« لقد حدقت يوماً في عينيك ، أيتها الحياة ، فحسبتني هويت إلى غور بعيد القرار . غير أنك سحبتني بشابك من ذهب وأطلقت قهقهة ساخرة عند ماقلت إن غدرك لاقرار له . وأجبتني : — هذا ماتقوله الأسماك جميعها ، فهي إذ تعجز عن سبر الأغوار تحسبها لاقرار لها . وهل أنا إلا المتقلبة النفور ؟ وهل أنا إلا امرأة ، وامرأة لافضيلة لها . لقد تقول الناس كثيراً عن صفاتي ولكنهم أجمعوا على أنني غير المتناهية ، المليئة بالأسرار

أيها الرجال ، إنكم ترون في فضائلكم ، فأنتم لاقبل لكم بادراك شيء آخر غيرها أيها الفضلاء . . .

هذا ماكانت تقهقه به في سخريتها تلك الحياة ، غير أنني لا أثق بها ولا أصدق ضحكها عند ما تهجو نفسها

وناجيت يوماً حكمتي النفورة فقالت لي غاضبة : — إنك تطلب الحياة وتشتاقها وتحبها وذلك ما يحفز بك إلى بذل الثناء عليها

ولولا أنني تمالكت نفسي لكنت رددت بعنف على حكمتي وأعلنت الحقيقة لها وهي تغاضبني وهل من جواب أشد وقعاً على الحكمة من أن تهتك سرائرها

ما أحب شيئاً من صميم الفؤاد إلا الحياة ، ولا يبلغ حبي لها أشده إلا حين أكرهها . وإذا ما أنا اندفعت إلى الحكمة وأغرقت في الالتجاء إليها فما ذلك إلا لأنها تبالغ بتذكيري بالحياة . فان للحكمة عيني الحياة ولها ابتسامتها . بل لها أيضاً شابكها المذهب ، فما حيلتي بهما إذا تشابهتا إلى هذا الحد ؟

وعند ما سألتني الحياة عن الحكمة أجبتها : هي الحكمة يشتهيها الانسان بكل قوته ولا يشبع منها . فهو يحدق فيها ليتبين وجهها من وراء القناع ويمد أصابعه بين فرجات شباكها متسائلا عن جمالها وما يدريه ما هو هذا الجمال ومع هذا فان أقدم الأسماء لا تنفك عن الانجذاب إلى طعمة شباكها فهي متقلبة شديدة المراس . ولكم رأيتها تعض على شفتها وتسرح شعرها ، ولعلها شريرة ومخادعة ، بل لعل لهاصفات المرأة بأجمعها فهي لا تبلغ أبعد مداها في اجتذاب القلوب إلا عند ما تهجو ذاتها ...

وبعد أن قلت هذا عن الحكمة للحياة ، مرت على شفتيها ابتسامة شريرة وغضت من جفنيها قائلة : — عمن تتكلم ... لعلك تتكلم عني أنا ... وهل للانسان أن يعلن مثل هذه الأمور بوجه من تعنيه حتى ولو كان محقاً . فما قولك الآن في حكمتك يا هذا ... ؟

وفتحت الحياة المحبوبة عينيها فحسبتني عدت إلى التدهور في الهاوية البعيدة القرار »

هذا ما يتغنى زارا به وما انتهى الرقص وتوارت الصبايا عن أبصاره حتى تملكه حزن عميق فقال : لقد اختفت الشمس وترطب المرج وقد بدأ الغاب يرسل لفحاته الباردات . إن شيئاً مجهولا يدور حولي ويحدجني قائلا : — ألم تزل على قيد الحياة ، يا زارا ؟ ولماذا أنت حي بعد ؟ وما هي فائدة هذه الحياة ؟ ما هو مصدرك وإلى أين مصيرك أفليس من الجنون أن تبقى في الحياة ؟

ويلاه ، أيها الصحاب ، إن ما يتناجى فيّ إنما هو الغسق فاغتفروا لي شجوني . لقد جاء المساء فاغتفروا لي قدوم المساء ...

هكذا تكلم زارا ... ...

الكهنة

وتمثل زارا مرور رهط من الكهنة أمامه ، فقال لأتباعه : هؤلاء هم الكهنة ؛ فعليكم — وإن كانوا أعدائي — أن تمروا أمامهم صامتين وسيوفكم ساكنة في أغمادها فإن بينهم أبطالا ومنهم من تحملوا شديد العذاب فهم لذلك يريدون أن يعذبوا الآخرين .

إنهم لأعداء خطرون ، وما من حقد يوازي ما في اتضاعهم من ضغينة ، وقد يتعرض من يهاجمهم إلى تلطيخ نفسه . ولكن بيني وبينهم صلة الدم وأنا أريد أن يبقى دمي مشرفاً حتى في دمائهم .

وعاد زارا يتمثل أنهم مروا وانصرفوا ، فشعر بألم شديد قاومه لحظة حتى سكن روعه ، فقال : — إنني أشفق على هؤلاء

الكهنة ، وأنا لا أزال أنفر منهم ولكننى تعودت الاشفاق مرغماً نفورى منذ صحبت بنى الانسان ، ومع ذلك فأنا أتألم مع هؤلاء الكهنة لأنهم في نظرى سجناء يحملون وسم المنبوذين فى العالم ، وما كبلهم بالاصفاد إلا من دعوه مخلصاً لهم ، وما أصفادهم إلا الوصايا الكاذبة والكلمات الوهمية ، فمن لهؤلاء من يخلصهم من مخلصهم ...

لقد لاحت لهؤلاء الناس جزيرة فى البحر على حين ثارت عليهم زوبعة فنزلوا اليها فاذا هم على ظهر تنين نائم على العباب

وهل من تنين أشد خطراً على أبناء الحياة من تنين الوصايا والكلمات الوهمية وقد كمن فيها المقدور طويلا حتى حان وقت انتباه التنين ؟ وها هو يهب مفترساً جميع من بنوا مساكنهم على ظهره .

انظروا إلى المساكن التى بناها هؤلاء الكهنة وقد أسموها كنائس وما هي إلا كهوف تنبعث روائح التعفن منها . وهل للروح أن ترتفع إلى مستواها تحت لألاء هذه الأنوار الكاذبة وفى هذا الجو الكثيف ، حيث لا يسود إلا عقيدة تصم الناس بالخطيئة وتأمرهم بصعود درجات الهيكل زحفاً على الركب

انى لأفضل أن أنظر الى اللحظات الفاحشة من أن أرى هذه العيون أطبقت أجفانها معلنة خشوعها واستغراقها .

من ذا الذى اخترع هذه الكهوف وهذه الدرجات يرقاها النادمون زاحفين ، أهى من إيجاد من استحيوا من صفاء السماء فلجأوا إلى الاستتار ؟

لن أعود بقلبى ألج مساكن هذا الاله إلا اذا انثلمت قبابها واخترقها نور السماء الصافية لتتكشف عن الشقائق الحمراء النابتة على جدرانها المتهدمة .

لقد أرادهؤلاء الكهنة أن يعيشوا كأشلاء اموات فسربلوا جثثهم بالسواد فاذا هم ألقوا مواعظهم انتشرت منها رائحة اللحود .

إن من يجاور هؤلاء الناس فكأنما هو ساكن على ضفة الأنهار السودا. حيث لا يسمع إلا نقيق الضفادع الحزين

ليسمعنى هؤلاء الناس نشيداً غير هذا النشيد لأمرن نفسى على الاعتقاد بمخلصهم ، إذ لا يلوح لى أن أتباع هذا المخلص قد ظفروا بالخلاص .

لكم أتمنى أن أراهم عراة ، وهل لغير الجمال أن يدعوا الناس إلى التوبة ، ولكنهم عبارة عن فجائع مستترة لا يسعها أن تجتذب إلى الايمان أحداً .

والحق ، أن مخلصى هؤلاء الكهنة نفسهم لم ينحدروا من سماء الحرية وما وطئوا مسالك المعرفة قط ، فما كانت حكمتهم إلا نسيجا ملأته الخروق رقعوه بما أوجد جنونهم من آلهة . لقد أغرقتهم حكمتهم فى بحيرة الأشفاق فهم كلما زفروا فيها أرسلوا بجثة عظمى تطفو على سطحها .

ولقدزعق هؤلاء الرعاة بقطعانهم فضت متدافعة فى فجوة واحدة وقد علا صراخها كأن التوصل إلى مخارج المستقبل ممتنع من غير هذه الفجوة الضيقة . أما والحق ماهؤلاء الرعاة إلا فريق منهذه السائمة وقد ضاقت عقولهم ورحبت نفوسهم وسرعان ما تصغر العقول إذا كبرت النفوس .

لقد تركوا على كل معبر اجتازته أرجلهم آثار الدماء ، إذ كانوا يستلهمون جنونهم ليعلموا الناس أن الدماء تقوم شاهدة للحق . وقد جهلوا أن أفسد شهادة تقوم للحق إنما هى شهادة الدم ، لأن الدم يقطر سماً على أنقى التعاليم فيحولها إلى جنون وإلى أحقاد .

أفتقيمون للحق دليلا من اقتحام أحد الناس للهب فى سبيل تعاليمه . وهل لمثل هذا التعليم ما للعقيدة التى تتولد متقدة من لهبها نفسه ؟ إذا ما تلاقى رأس بارد بقلب مضطرم نشات من التقائهما تلك العاصفة التى يدعوها الناس مخلصاً .

ولكم وجد على الأرض من رجل أعرق منشأ وأرفع مقاماً ممن يدعوهم الشعب مخلصين ، وما كان هؤلاء المخلصون إلا عاصفات كاسحات تهب متوالية على الأرض

اذا ما كنتم تنشدون سبل الحرية ، أيها الاخوة ، فعليكم أن تنقذوا أنفسكم حتى ممن يفوقون هؤلاء المخلصين عظمة ومجدا . فان الانسان الكامل لم يظهر على الأرض بعد . لقد حدقت باعظم رجل وباحقر رجل عن كثب وهما عاريان فظهرا لعيانى متشابهين ، بل رأيت أعظمهما أشد توغلا فى المعائب البشرية من الآخرين .

هكذا تكلم زارا ... ...



في فن التصوير

يقف الانسان أمام صورة من الصور ويلقى عليها نظرة عارضة عاجلة فيصدر فى الحال حكمه عليها أعجب بها أم لم يعجب؟ أنالت من نفسه ارتياحا؟ أسكن وجدانه إليها؟ ولماذا أعجب بها؟ ولماذا لم يعجب؟ وما هى العاطفة الكامنة التى تصدر هذا الحكم بتلك السهولة لها أو عليها؟ أهو الذوق؟ وما هو الذوق؟ أهو العقل؟ وعلام يستند العقل؟ هذا ما نحاول شرحه فى هذا المقال متوخين الايجاز فى تناول موضوع التصوير بصفة عامة لأنه فن واسع الأفق لا يحيط به مقال واحد ولا كتاب واحد.

ليس التصوير إلا لغة للتعبير وأسلوباً من أساليب الوصف والافضاء عن الشعور والعاطفة، فكل مصور درس أصول التصوير وقواعده هو ككل إنسان تلقن قواعد الكلام وأصول الصرف والنحو ليستطيع التخاطب بلغة سليمة متآلفة، ولكن على قدر انتشار اللغة سليمة صحيحة غير مشوبة باللحن لا نجد كل متكلم أديباً ولا شاعراً، فكذلك ليس كل من تناول ريشة الفن وأتقن مزج الألوان فناناً موفقاً، وكذلك على قدر التفاوت بين طبقات الأدباء والشعراء يتفاوت الفنانون مقدرة وعجزاً.

فلغة التصوير على ذلك ليست إلا أداة أو وسيلة لغاية بعيدة يريد المصور أن يبلغها، ونحن إذ تنظر إلى الصورة يجب أن نبحث أولا عن هذه الغاية - ماذا يريد صانعها أن يقول. فاذا لم نجد من وراء صورته فكرة أو غاية مفيدة فالصورة لغو لا طائل تحته، إذ لكل صورة قصة يجب أن تقصها وإلا فهى بكاء صماء أو هراء من القول وهذر مخطوط ومضيعة للجهد والوقت بالغة ما بلغت أداة التعبير من إتقان. وأقل ما نلتمسه فى صورة من الصور أن نستخرج لها ميزة تميزها وشخصية تتسم بها. هل سجلت شيئاً جديداً كان خافياً علينا؟ أو هل فسرت معنى مجهولا؟ أو هل مهدت خطوة فى سبيل غرض سام؟ أو هل ألقت بصيصاً ولو ضئيلا من النور على ظلام الحياة؟ أو هل أضافت نغمة ولو خافتة إلى موسيقى الكون؟ اذا التمسنا شيئا من ذلك ووجدنا له أثراً يشير إليه أو لمسنا صدى له فى نفس المصور كان لنا أن نأمل من هذا الفنان شيئا.

المصور العبقرى كالشاعر العبقرى كلاهما كالنبى المعجز غرس الله فى قلوبهم بذرة الخلود تجمع بينهم رابطة الروح السماوى والنور الالهى وهم يصدرون عن إيمان صادق ووحى أمين وإن كان لكل وجهة يوليها وعالم يكشفه.

والمصور الصادق قطعة من الحياة تهذبت وتثقفت، يرتاد سبيله ملهماً ببصيرة سماوية وقلب دافق الاحساس مرهفه، ومهجة فياضة الشعور، ووجدان بالغ الدقة منته فى اللطف؛ فهو روح مجرد يطير فى كل أفق. ويحوم فى كل خميلة، ويرد كل غدير، ويعتلى كل فن، ويدوم فوق كل منظر بهيج فيحيطه بفؤاد خفاق، ويلتهمه بعين حديدة، ويحيله أشعة وظلالا ويحمله روحاً بروح تسجله للأبصار فى أسلوب ناطق وخفى، ويحده بأطار من شعوره وفيض إحساسه.

فاذا كان هذا قدر المصور الفنان الصادق الأمين. إنسان بالغ النبل نقى الروح زكى النفس عظيم السمو لزم أن يكون أسلوبه الذى يضمنه روحه نبيلا على قدر نبله سامياً على قدر سموه، ولزم أن تكون موضوعاته التى يختارها لأداء فكرته وحكاية قصته ولشرح عاطفته أو غير ذلك من الأغراض، لزم أن تكون على قدر نبله وسامية على قدر سموه؛ فالفنان الذى يصور البعث أو الوحى أو الصلاة أو الحزن أو الحب أو الأمومة وما يدخل تحت فصل الجمال الروحى أنبل من المصور الذى يصور الحقد والدمامة أو التبذل والوحشية أو الرذيلة للاستمتاع بتصويرها لا للنهى عنها. هذا تدور خواطره على مشاغل

الناس اليومية المادية ، وذلك لا تتعلق نفسه ولا يحس فى قلبه إلا بكل جليل الشأن . ويلى هذين من يعنى بتصوير الصغير من الأمور والتافه الحقير كلعب الأطفال وأعمال المهرجين وما إلى ذلك ولا ينبغي أن تضيق هذه الحدود إلى أقصى تخومها فنحكم بمقتضاها حكماً قاطعاً لا نقض فيه ، إذ أن الفنان النبيل قد يتناول موضوعاً يقل عن مستوى موضوعاته فيسبغ عليه من روحه ويضفى عليه من قدرته وبراعته ، ولكن كثيراً ما يشرئب النقاش الصغير غير الموهوب والمشغول بحقير الأمور إلى تقليد جليلها فلا يبلغ منه مبلغاً ولا يخرج عن الدائرة التى يدور فيها ، وينتهى حيث يبتدىء ، بل أنه يكشف عن عجزه ويدل على ضعفه ولا يتمخض بعد الجهد الشاق والعناء العنيف عن غير ما تطيقه مؤهلاته وما تنتجه قريحة مثله ، ومثل هذا النقاش يحسب غروره وحيا وطمعه عظمة فى الروح وعلوا فى النفس

وشتان بين الاثنين ! أحدهما كالنحلة لا يغذيها إلا الرحيق ولا تهيم أو تسعى إلا وراء الشذى الذكى والعبق النقى والعرف الندى ، ولا يستهويها إلا الزهر المنور والجو المعطر ؛ والآخر كالزنبور الطنان يقع على الأقذار ويستطعم الأدران ويأكل الحشرات والديدان .

والنحلة تنتج رحيقاً من رحيق ، والزنبور أذى وشرا . تلك رمز التضحية والغيرية ، وهذا عنوان الأنانية والأثرة ؛ تلك متواضعة خجولة تعمل فى رصانة وسكون ، وذلك مدع مغرور صخاب طنان بهرجت الطبيعة من ألوانه وعددت فيها للنميمة عليه والايقاع به أو لتفاديه

فلا تستصغرن من النحلة اندماج لونها وهدوئها ؛ ولا يغرنك من الزنبور بروزه وطنينه .

وكذلك لا يغرنك من الصورة بهرجة الدعاية لها بل ابحث عن الغاية المجيدة وعن التعبير الصادق الجميل .

كثيراً ما يتفق الناس على أن هذه المرأة جميلة ، وأن تلك دميمة ، ويكادون لا يختلفون فى حكمهم ، فما الذى جمع بينهم على رأى واحد ؟ قد يحتج بان هذه هى أذواقهم وهذه أمزجتهم وأنهم يرون أنها جميلة لأن هذا احساسهم فلا تطلب تعليلا ولا تحليلا ، وفى الحق أن المرأة الجميلة تعجبنا لأول ما نراها لأن قلبنا يهفو إلى حسنها . ونفسنا تصبو إلى جمالها ، ولكننا نتفق فى النزوع إلى جمالها والصبابة اليها بدافع من الغريزة فالغريزة هى فى الواقع التى تولف بين الرجال على الاعجاب بجمال المرأة أو هى على الأصح التى كانت منذ الزمن الأول ترغب الرجل فى المرأة ؛ فلما ارتقى وهذب من غرائزه وتسامى بها عن أن تكون مطلقة الحيوانية تغير إلى حد كبير نظره إلى المرأة فأصبح يجل جمالها لذاته مجرداً عن دافع الشهوة ، وبعدت عن خياله تلك الصور التى كانت تجسمها الغريزة الجنسية وتمثلها الرغبة الحيوانية ، فلم نعد نسمع شاعراً يتغنى بثقل الردفين وانقطاع الخصر وكثيب الرمل . ولم نعد نسمع قول بشار بن برد :

أو عضة فى ذراعهـــا ولها فوق ذراعى من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها بيدى والباب قد حال دونه الستر

ولم نعد نسمع تلك النواسيات الماجنة وما اليها من دلائل الاحساسات البهيمية ، وإذا بنا تطرق قلوبنا هذه الأغانى الخالدة التى تسمو بأرواحنا ، إذا بنا نسمع العقاد يقول :

أغلى جمالك فى النواظر أنه عوض لشين فى النفوس كثير
وأنا له منها المقـــادة أنه فى الأرض رمز كالها المحظور

وقوله : —

ان التعاطف بالأرواح بغيتنا وفى القلوب على الأرواح عنوان

وقوله : —

فعش فى جوار الناس شخصاً مجسما
وعش فى فؤادى صورة تتخيل

فالغريزة هى الأصل فى الاعجاب بشىء دون شىء ، ولما تهذبت وارتقت استحالت إلى ما نسميه نبلا أو ذوقاً رفيعاً وإن بقيت للغرائز الأولى بعد نزعاتها .

ولكن هذا الذوق له فصول وأسس ، وله قواعد وقوانين تضبطه وتحده . فلم يعد جمال الجسم الانسانى صباحة وجه ، وسطوع جبين ، وامتلاء جسم أو نحافته ، أو غير هذه الأوصاف من المعانى المطلقة . بل وضعت له مقاييس وأطوال - وإلى هنا يكون للذوق ضابط يحفظه فى حدود مرسومة ، ولكنه لا يخضع لها خضوعا مطلقاً ولا ينكمش بين تلك الأعلام والأوضاع الضيقة إذ أنه يكون بذلك جامداً كزاً ذا وجه واحد . ولكن ذلك الجمود يتحرك ويحيا بما ينفخ فيه من روح ، وما ينفث فيه من سحر ، فيتخذ صوراً متباينة مختلفة ، وإن كانت كلها تدور فى حدود هذه الأوضاع . ولكل وجه سيماه

ضربت المثل بجمال الجسم الانسانى مثلا فى المرأة لأنها مركز اهتمام الرجل ، ولأن الاتفاق على مقياس الجمال فيها يكاد يكون مفروغاً منه . وكلما بعد موضوع الحكم عن أن يكون ذا صلة بغريزة من الغرائز ، أو بعلاقة مباشرة بعاطفة فسيولوجية أو نفسية ، تعقد الموضوع ، وصعب الاتفاق على حكم واحد فيه ، واختلفت الأذواق : فهذا ذوق جميل يصدر حكما صائباً ، وذلك ذوق فاسد مضطرب الحكم . ولهذا السبب كان لا مناص من أن يوضع لكل شيء حدود يصدر الحكم على أساسها ، فالشجر والنبات ، والنهر والشلال ، والغدير والبحر ، والمحيط والجبل ، والسماء والسحاب ، والأبنية والعمائر . لكل هذه المظاهر أصول وقواعد يؤدى الفن فى حدودها ، وكانت هذه الأصول على ذلك ضابط الذوق إلى حد محدود ، فكأن الذوق الجميل لم ينشأ نشأة لدنية ، بل هو فى الحقيقة غاية الثقافة والتهذيب ، وهو عند ما يقبل شيئاً أو يرفضه يظهر لنا أنه أتى ذلك فى التو بغير سند واضح، ولكن عمل الذوق فى الحقيقة نتيجة طبيعية لما وعته النفس وكسبه العقل من قضايا مختلفة ومقدمات منطقية وتاريخ حافل من تجارب الحياة

وليس من شأننا هنا أن نعدد الأصول التى تراعى فى فى التعبير عن هذه المظاهر الطبيعية السالفة الذكر فلها مجال آخر نرجو أن يتاح لنا فى المستقبل ، ولكنا هنا سنبسط الشرائط التى يجب توفرها فى الصورة ، بوجه عام ، وفى الفنان أيضاً والتى يمكن بمقتضاها أن نصدر حكماً أدنى للصواب فيما نشاهده من صور الفن وهذه الشرائط هى كما ذكرها جون راسكن:

(١) الصدق والحقيقة (٢) البساطة
(٣) نوع من الابهام السحرى (٤) ايجاز التعبير
(٥) الجرأة (٦) السرعة

هذا ولكى يكون تقديرنا لجمال المظاهر الطبيعية أتم وأوفى يجب أن نجردها من النفعية وننظر لها نظرة خالصة للفن ذاته وللجمال ذاته . فعند ما نرى نهرا جميلا يجرى بين شاطئين بسقت عليهما الأشجار وغطاهما بساط سندسى من العشب يجب أن تقبل أذواقنا جمال هذا المنظر كما خططته يد الله بعيدا عن تدخل يد الإنسان فى التحكم فيه والسيطرة على أجزائه — فنخفى عن ذوقنا أنه أقيم هنا سد اعترض من النهر انسيابه الجميل — وأن هناك آلة رافعة وضعت لتختلس من مائه بضجيجها وصريرها ، وقامت على جانبه شوهاء كالقرحة فى الجسم الغض . وننى عنه أن هناك حطابا قويا يعمل فأسه فى جذع شجرة ليسقطها وليأخذ خشبها ليصنع منه بابا أو نافذة . والينبوع إذ يتسلسل ماؤه على الحصى ويتدفق على الثرى أجمل مما لو أحطناه بسور من البناء لنحصر ماءه ، والسياج الحديدى حول مجموعة من الأشجار مشوه لجمالها ، والعصفور الطليق أجمل من العصفور الحبيس فى قفص ضيق . وهكذا فإن القلب يحس إحساسا خالصا بجمال الطبيعة ويندمج فيها ويخفق لها لأن طبيعة الإحساس العاطفى المحض فى القلب وهو تامورة الحياة فى الجسم الإنسانى ، أجل وهو الذى يستجيب ويلبى كل شيء جميل حى

وإذا أصاب القلب مرض أو تعطلت وظيفته النبيلة لسبب ما كأن كدر صفاءه غضب أو اهتياج أو حقد أوغيرها من الحالات التى تخرجه عن طبيعته انبتت علاقته بالحياة فلم يعد يستجيب لها ولا يحس بها إحساسا سليما صحيحا . وكذلك الحال عند ما نرى مظهرا من مظاهر الطبيعة قد طرأ عليه ما يعطل من طبيعة الحياة فيه . فالزهرة النضرة يعجبنا منها رونقها واتساقها وزهاء لونها ونورها وهى بذلك حية سليمة ، وهى لحياتها جميلة غاية الجمال ، فإذا رأيناها ذاوية خبا رونقها ومالت إلى العدم ؛ والظبى رشيق الحركة وهو سليم صحيح ، فإذا أصيب فى ساقه بعرج فهو سقيم ثقيل ، والطير جميل وهو قوى الجناح سليمه ، فإذا كسر جناحه فهو ضعيف ذليل — وكل هذه المخلوقات سعيدة ما دامت وافرة الحياة سليمة الوظائف وهى بذلك جميلة غاية الجمال

ولا ينبغى أن نقرن النظر للشيء الجميل بتحليله إلى عناصره وتعليل مظاهره فنبحث فى أن ماء النهر يكون من عنصرى الهدروجين والأوكسجين . وأن النهر ينحدر ماؤه بالجاذبية ، وأن الشجر يمتص بجذوره من الأرض عناصر التغذية . وأنه يحيل ثانى أوكسيد الكربون إلى أكسوجين نهاراً والعكس ليلا .

فالنظرة إلى الجمال يجب أن تكون مجردة من جميع هذه العوامل وإلا طغى الفكر المحلل على الذوق السليم وسكتت العاطفة وقد تكلم العقل وانتقلنا إلى عالم مادى وبعدنا عن عالم الروح والكمال .



ربيعة الرقى وقصة الذئب والحمل

يعرف كل متأدب الشاعر الفرنسى المشهور لا فونتين Fontaine ومنظومته المعروفة (الأمثال) « Les Fables » ولكن من تتبع المصادر التى أخذ عنها هذا الشاعر أمثاله ، يتبين أن معظم هذه القصص المنظومة التى حكى أكثرها على لسان الحيوان ، مأخوذة من مصادر شرقية ولا سيما كتاب كليلة ودمنة وأشباهه . نقلت هذه القصص إلى أوربا قبل عصر لا فونتين بالتراجم اللاتينية أو على ألسنة التجار والمسافرين ، وتناولها هذا الشاعر وغيرها لتلائم أذواق بلاده ، ثم صبها فى قالب من الشعر الفرنسى السلس . وتبع هذه الطريقة شاعر فرنسى آخر اسمه فلوريان بعد لافونتين بنصف قرن .

وليس قصدنا أن نبحث فى هذا الموضوع لنكشف عن مرجع كل قصة من أمثال لافونتين ، وإنما نريد هنا أن نقتصر على واحدة من أكثر هذه الأمثال ذيوعا ، وهى قصة الذئب والحمل التى شاعت حتى طبقت الآفاق وصارت مثلا لتجنى الأقوياء على الضعفاء .

وكان كاتب هذه السطور يصحح كتاب « طبقات الشعراء المحدثين » لأبى العباس عبد الله بن المعتز الذى تطبعه لجنة ذكرى جب فى انكلترا ، وسيظهر عما قريب ، فألفيت الحكاية نفسها فى قصيدة لربيعة الرقى أحد الشعراء المحدثين ، وعلمت أن هذه الحكاية أيضاً مقتبسة من القصص الشرقية القديمة التى كانت شائعة عند المسلمين فى عصر ربيعة الرقى وعنهم نقلها أهل أوربا ، فنظمها لافونتين واشتهرت فى تلك الأقطار

وقد رأيت أن هذه المسألة لاتخلو من فائدة ، وأن ديوان ربيعة الرقى أحد شعراء الغزل المشهورين فى عهد هارون الرشيد غير مطبوع فاستحسنت أن أقدم إلى قراء الرسالة الكرام قصيدة ربيعة المشتملة على هذه القصة وهى هذه :

أعلل نفسى منك بالوعد والمنَى ... فهلاّ بيأسٍ منك قلبى أعلّلُ
ومَوْعِدك الشهدُ المصفى حلاوة ... ودُون نجازِ الوعدِ صاب وحنظل
وأمنحُ طرف العينِ غيرَكِ رقبة ... حذارَ العدَى والطرفُ نحوكِ أميلُ
لكيما يقولَ الناسُ إنّ امرأً رَمى ... رَبيعة فى ليلَى بسوءٍ لمبطلُ
لقد كذب الواشونَ بغياً عليهما ... وما منهما إلا برىءٌ معقّلُ
فلو كنت ذا عقل لأجمعت صرمكم ... برأيى ولكنى امرؤٌ لستُ أعقلُ
وكيف يصبر القلب لا كيف عنكم ... وبابُ فؤادى دونَ صرمِكِ مُقفَلُ
ومن أينَ لامن أين يَحزم قتلُكم ... وقتلى لكم يا أم ليلى محلّلُ
أغركِ أن لا صبرَ لِى فى طِلابِكم ... وأن ليسَ لِى إلاّ عليكِ معوّلُ
ولما تبينتِ الذى بى منَ الهوَى ... وأيقنت أنى عنكِ لا أتحول
ظلمت كذئب السوء إذ قال مرة ... لسَخْلٍ رأى والذئب غرثان مرمل
أأنت الذى فى غير جُرْمٍ شتمتنى؟ ... فقال : متى ذا؟ قال ذا عـام أوّلُ
فقال وُلِدْتُ العامَ بل رُمْتُ غدرة ... فدونك كلْى لا هَنـا لك مأكل

أتبكين من قتلي وأنتِ قتلتني بحبُّك قتلا بيناً ليس يَشكل
فأنت كذبَّاح العصافير دائباً وعيناه من وجد عليهن تهمل
فلو كان من رأف بهن ورحمة
لكف يداً ليست عن الذَّبح تَعْطُل
فلا تنظري ماتهمل العين وانظري إلى الكف ماذا بالعصافير تفعل

(باريس) عباس اقبال

حمى السياحة

كانت السياحة إلى ما قبل جيل فقط نوعا من الترف لا يتمتع به سوى الأغنياء : وكانت الرحلة إلى الشام أو إلى استانبول مثلا بالنسبة لآبائنا وأجدادنا حادثاً عظيما يتحدث به ؛ وكان السفر إلى باريس أو الريفييرا متعة الأمراء والخاصة . أما اليوم فان السياحة تغدو حركة ثقافية ورياضية عالمية ، يستطيع أن يتمتع بنعمها جميع الطبقات المتوسطة ، وغدت المواصلات البحرية والبرية والجوية ميسورة يطيقها ويستعملها جميع الناس ؛ وفى عصر السرعة الذى تهب ريحه اليوم على جميع الأمم والمجتمعات يستطيع السائح أن يطوف قارة بأسرها فى أيام معدودات ، ويستطيع أن يقطع البحر إلى إيطاليا فى سبعين ساعة فقط ، وإلى فرنسا فى أربعة أيام ، ويستطيع أن يقطع ما بين الاسكندرية ولندن بالطيارة فى عشرين ساعة . وقد نظمت جميع الأمم السياحية عواصمها وربوعها ومتنزهاتها بصور وأساليب جذابة سواء فى برامج الزيارة أو فى تخفيض النفقات ، وتسابقت معظم الأمم فى تقرير الامتيازات للسائحين بتسهيل المواصلات ومسائل النقد وغيرها مما يغرى السائح بتفضيلها ، وتعنى الهيئات الثقافية والرياضية بتنظيم الرحلات الرخيصة للطلبة وأصحاب المهن وجماعات المثقفين وتعنى مكاتب السياحة نفسها بتنظيم الرحلات الرخيصة للطبقات المتوسطة باجور مدهشة .

فالسياحة لم تبق اليوم أمنية المترفين ولا حكر الأغنياء ، ولكنها تغدو فى متناول معظم الطبقات ؛ ويرجع الفضل فى ذلك إلى تحسن المواصلات العالمية ورقيها السريع المدهش ، وإلى تنافس الأمم السياحية فى استثمار موارد السياحة إلى أقصى الحدود ، ويرجع أيضاً إلى تقدم الصلات الدولية بين الشعوب المختلفة وإلى الرغبة فى تبادل الاطلاع والمعرفة والتثقيف ، وتبادل المزايا التجارية والاقتصادية ، وقد هبت هذه الريح السياحية على مصر فى الأعوام الأخيرة ، وأتيحت الفرصة لطبقات جديدة من المتوسطين أن يقوموا برحلات بديعة بأجور زهيدة ، وسرت الرغبة فى جميع طبقات المثقفين ولا سيما الشباب أن يسافروا وأن يسوحوا وأن يتعرفوا أحوال الأمم الأخرى ، وقد وصلت هذه الحمى السياحية إلى أقصاها فى هذا الفصل حيث تعتزم ألوف عديدة من المصريين السفر إلى زيارة معرض باريس الدولى لا فرق فى ذلك بين المترفين وصغار الموظفين والطلبة والمتوسطين ؛ وهذه رغبة مشروعة لا اعتراض عليها ، بيد أنه يخشى أن تؤدى المبالغة فى تحقيقها إلى إسراف لا تحمد عواقبه ، إذ تتسرب أموال المصريين إلى الخارج بكثرة ، وتضطرب مالية كثير من المتوسطين وصغار الموظفين خصوصاً وإنه لا توجد بمصر قوانين لتقييد العملة أو تحديدها كما هو الشأن فى معظم البلدان ، ولهذا يحسن بولاة الأمور أن يبحثوا هذه المسألة وأن يضعوا لها بعض الحدود والقيود المعقولة

كتاب جديد لماريا ريمارك

صدر أخيرا فى أمريكا كتاب جديد لماريا ريمارك عنوانه : « الرفاق الثلاثة » Drei Kameraden . وريمارك كما نذكر هو مؤلف الكتاب الذى لقى أعظم نجاح فى عصرنا وهو القصة المسماة « كل شىء هادىء فى الميدان الغربى » ، التى تدور حوادثها على حياة الجندى أثناء الحرب الكبرى . والكتاب الجديد هو أيضا قصة اجتماعية عسكرية من النوع الذى حذقه هذا المؤلف الذى حباه الحظ بأكثر مما حبته مواهبه الكتابية

وريمارك الآن فى التاسعة والثلاثين من عمره ؛ وحياته قصة عجيبة . فهو ألمانى من وستفاليا ، وكان فى حداثته يغنى فى جوقة بعض الكنائس ؛ ولما نشبت الحرب كان جنديا يحارب فى الميدان الغربى ؛ ولما انتهت الحرب فى سنة ١٩١٨ وعاد ريمارك إلى وطنه لم يجد سبيلا للعيش ؛ فاحترف مهنة البائع المتجول فى القرى وأخذ يبيع السلع الرخيصة للنساء القرويات ، ولكنه كان فى خوف دائم من البوليس لأنه لا يحمل رخصة البائع ، ثم ترك هذه الحرفة واشتغل صبياً لبناء أثرى ، ثم اشتغل عاملا فى أحد الملاجىء وبدأ حياته الكتابية بتحرير الاعلانات ، وكان يحررها أحياناً بالنظم ، ثم اشتغل كاتباً رياضياً

لاحدى الصحف ، ثم كتب قصته الشهيرة فلم تنل فى البداية سوى قليل من النجاح ، ولكن القدر كتب له بعد ذلك هذا النجاح العظيم الذى لقيه والذى أثرى من جرائه وعرف الحياة الناعمة وهو ما يزال فى عنفوان شبابه ، وكان من حسن طالعه أيضاً أنه كسب على مائدة الميسر ذات يوم مبلغاً كبيراً من المال قبل أن يؤاتيه النجاح ، فاستطاع بذلك أن يصلح شأنه وأن يسيح فى معظم بلاد العالم . ويعيش ريمارك الآن فى منفاه فى سويسرا كباقى الكتاب الألمان الأحرار الذين طاردتهم ألمانيا الهتلرية وأخرجتهم من أرض الوطن

قسم التفكير والآداب بمعرض باريس

أنشىء أخيراً فى معرض باريس الدولى قسم للكتاب وإذاعة الفكر برياسة المسيو (جوليان كان) مدير المكتبة الوطنية . والمنتظر أن يكون هذا القسم نواة لمتحف الآداب الذى سينشأ فى المستقبل القريب فى أبنية «دار الصناعة» (الأرسنال) وسيكون متحف الآداب أكبر ما عرف من نوعه ، ويضم مجموعات عظيمة من الصور والمخطوطات والطبعات النادرة والتجارب المصححة والوثائق المتعلقة بتراجم كبار الكتاب والمجموعات الخاصة ؛ وهذه المجموعات والتحف توجد الآن مبعثرة فى أقسام المكتبة الوطنية : ويتضمن القسم الأدبى بالمعرض تطور الآداب منذ عصر الامبراطورية حتى الوقت الحاضر ، ومنها معروضات كثيرة تخص الكتاب المعاصرين. والمقصود أن تعطى فكرة واضحة عن تطور الكتابة والطباعة والأعمال الأدبية ، وأن تعرف أكثر الأوقات والمواسم الأدبية انتاجاً . ويشمل القسم الأدبى ما يتعلق بكتاب عظام مثل بلزاك وفكتور هوجو وفلوبير وستندال ورينان وبودلير وبروست ، ويقوم بعرض كل كاتب من هؤلاء كاتب من المعاصرين يختص بالتحدث عن حياته وآثاره وأسلوبه . ويشرف على عرض مخطوطاته وصوره وجميع الوثائق المتعلقة به ومنها تحفه وآثاره وتجارب المطبعة التى تحمل تصحيحاته ، وطبعات كتبه وترجماتها . كذلك أعدت أقسام خاصة لكل نوع من المدارس الأدبية مثل المدرسة الواقعية والطبيعية والرمزية ، وأدب المقاهى والأبهاء وغيرها . ولا ريب أن هذا القسم من المعرض سيجذب أنظار الكثيرين من الكتاب والأدباء من جميع الأمم

آثار فرعونية فى خطر

من أنباء فينا أن الدكتور أرنست آبلت العلامة الأثرى النمسوى والأستاذ بالمعهد المصرى بجامعة فينا قد أعاد أخيراً إلى العاصمة النمسوية بعد أن قضى بمصر بضعة أشهر منقبا فى بعض أنحاء الصعيد الجنوبية ، ووقف على معلومات ومواد أثرية ثمينة ولا سيما بشأن المعابد والهياكل الجنوبية . وقد صرح الدكتور آبلت لبعض الصحف النمسوية أن تعلية خزان أسوان ، وما يستتبع ذلك من غمر مياه النيل لبعض المناطق الأثرية المجاورة يهدد سلامة المعابد والآثار القائمة فى هذه المناطق خصوصاً أن المياه تغمر بعضها الآن حتى القمة ، وكانت البعثة النمسوية للحفريات قد توقفت عن العمل نحو ثلاث سنوات لحاجتها إلى المال ثم استأنفت عملها فى الشتاء الماضى . وقد عثرت أثناء حفرياتها على عدة هياكل عظيمة فرعونية وبعض تحف حجرية ؛ وستعود فى الشتاء القادم إلى استئناف أعمالها فى منطقة بنى سلامة من أعمال مديرية أسوان

كتاب فارسى قديم فى الجغرافيه

أصدرت مطبعة « بريل » فى ليدن E. J. Brill . Leiden كتابا فارسيا قديما فى الجغرافية ترجمه المستشرق منورسكى ترجمة كاملة عن الفن الفارسى :

وهذا الكتاب ـ واسمه « حدود العالم » ـ لمؤلف فارسى قديم لم يعرف ، ألفه سنة ٣٧٢هـ . وكان قد عنى به المستشرق الروسى بارتولد فكتب له مقدمة طويلة ونشره فى سنة ١٩٣٠ ، غير أنه وجد صعوبة فى تحقيق أسماء الأماكن والمدن الإنجليزية التى وردت فى الكتاب فعمد إلى اختصار بعض موضوعاته .

كتاب المثنوى فى الانجليزية

أصدرت مطبعة بريل فى ليدن الجزء السابع من سلسلة كتاب المثنوى لجلال الدين الرومى . وهى توالى إخراج هذا الكتاب سلاسل وأجزاء مع ترجمته إلى الإنجليزية وتعليقات عليه بقلم المستشرق رينولد نيكلسن

وكتاب المثنوى مؤلف قيم معروف ، وقد قرظ صاحبه بهذه العبارة المأثورة : « إنه جاء بكتاب وإن لم يكن نبياً » ، وقد عرض فيه مؤلفه لمبادىء الصوفية وتعاليمها فشرحها شرحا مستفيضاً .

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)



ممنون الفيلسوف

او الحكمة الانسانية

بقلم فولتير

ترجمة الأستاذ عبد اللطيف النشار

آلى ممنون على نفسه : أن يصير فيلسوفاً عظيما فى يوم من الأيام . وقليل من الناس هم الذين لم يعتزموا فى وقت ما مثل هذا العزم الرائع .

قال ممنون فى نفسه : إن بلوغ الكمال فى الفلسفة معناه بلوغ الكمال فى السعادة . وليس على أن أعمل لكى أصير فيلسوفاً إلا التجرد من كل الشهوات ؛ ولا شىء أسهل من ذلك كما يعرف كل إنسان . وسأبدأ بمقاومة الحب فإذا رأيت امرأة جميلة أقول فى نفسى إن هذه الخدود ستدركها الغضون ، وإن هذه العيون ستصبح طعاماً للدود ، وإن هذا الرأس سيصبح جمجمة منخوبة . فإذا ما تصورت خيالها وهى كذلك فإن جمال وجهها لن يؤثر فى نفسى

هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإنى سألزم القصد والاعتدال ، فإذا ما وجدت من نفسى إغراء على شرب النبيذ الشهى أو الطعام المرىء أو غيره مما يفتتن به المجتمع ذكّرتها بآلام الرأس من التغالى فى الشراب ، وبآلام البطن من التغالى فى الطعام ، وحذرتها من فقدان العقل والصحة . ومتى تجنبت التغالى ظلت صحتى موفورة وظل ذهنى نقياً وضاءً

وقال ممنون : كذلك يجب ألا أفكر كثيراً فى الثروة لأن رغائبى معتدلة وما عندى من المال يكفى لأن أعيش مستقلا

ويتضمن هذا الجزء الذى صدر أخيراً تعليقات المستشرق نيكلسن على الجزء الأول والثانى من الكتاب ، أما الاجزاء التى ظهرت من قبل فهى :

١ — نص الكتابين الأول والثانى .
٢ — ترجمة الكتابين الأول والثانى إلى الانجليزية .
٣ — نص الكتابين الثالث والرابع
٤ — ترجمة الكتابين الثالث والرابع إلى الانجليزية .
٥ — نص الكتابين الخامس والسادس .
٦ — ترجمتهما إلى الانجليزية .

لجنة احياء ذكرى المنفلوطى :

ناشدت لجنة إحياء ذكرى المنفلوطى أساطين الأدب وأعلام البيان فى الشرق العربى على صفحات الجرائد والمجلات أن يتفضلوا بالكتابة عن أدب الفقيد الخالد من شتى نواحيه بمناسبة مرور ثلاثة عشر عاما على وفاته وتمهيداً لإحياء ذكراه فى ١٦ يوليو القادم ، وكان ذلك فى أول مايو غير أنه والأسف يحز فى نفوسنا لم يتحرك قلم لأداء هذا الغرض النبيل كما أنه لم تصل السكرتارية حتى الآن أية رسالة فى هذا الموضوع ، ولقد قر الرأى ـ بناء على اقتراح الاستاذ توفيق حبيب ـ على وضع كتاب عن أدب المنفلوطى لتخليد ذكراه ، تتبارى فيه جهابذة الأدباء فى جميع أقطار الشرق العربى . وذلك بأن يختار كل من حضرات الأدباء والشعراء ما يروقه من الموضوعات فيكتب فيها بحثاً ضافياً يرسله إلى السكرتارية قبل آخر يونيو الحالى حتى اذا تكامل لديها ما يكفى لمادة الكتاب قامت بطبعه وأنفقت ثمنه فى تشييد قبر يتفق ومكانة المنفلوطى العالمية . واللجنة تتوجه بالرجاء الشديد إلى حضرات الكتاب والأدباء والشعراء ألا يضنوا بمجهوداتهم وأن يحققوا ما تعلقه عليهم من آمال .

سكرتير اللجنة
متولى حسنين عقيل

وهذه أكبر نعمة فى الوجود . ولن أجد ضرورة لحضور لحفلات الراقصة فى القصر . ولن أحسد إنساناً ولن يحسدنى إنسان . وهذا كله سهل . ولى أصدقاء سأحتفظ بهم ولم ينشب بينى وبينهم خلاف فلم أعترض أحدهم فى قول أو فعل وسيسلكون معي هذا المسلك . ولا صعوبة فى ذلك ...

وهكذا وضع ممنون خطة لفلسفته ثم أطل من النافذة فرأى امرأتين تسيران تحت الأشجار ، وكانت احداهما كبيرة تبدو عليها علائم الرضى ، والثانية صغيرة جميلة . ولكن علائم التذمر بادية عليها . وكانت تبكى وتتنهد ، فتأثر فيلسوفنا من رؤيتها - على أنه من المحقق أن جمالها لم يكن له دخل فى هذا التأثير - (لأنه آلى على نفسه ألا يزعجه شيء من هذا القبيل) بل كان تأثره بسبب الحزن الذى رآها فيه ، فنزل من المنزل ليعزى تلك السيدة بفلسفته ، فروت له الجميلة بأبسط اللهجات وأشدها تأثيراً ما تألم منه . وشكت له من عم تتخيل وجوده بريد أن يحرمها ثروة تتوهمها . وقالت : يظهر أنك رجل حكيم . وإنك لتنقذنى من متاعبي إذا أتيت إلى منزلى ودرست قضيتى وأشرت علىّ بالرأى الذى تراه

فلم يتردد ممنون فى اتباعها لدرس قضيتها دراسة فلسفية وليشير عليها بالرأى الراجح

وقادته المرأة الجميلة إلى حجرة تفوح منها روائح العطر وأجلسته على نمرقة متسعة وجلست أمامه جلسة المتحدث إلى من يحدثه وقد تقاربت أقدامهما . وكان أحدهما يقص قصته والآخر يصغى اليه أتم الاصغاء .

وكانت السيدة تتكلم وهى ناظرة إلى الأرض والدموع تنحدر من عينيها بين حين وحين . ثم ترفع بصرها لتنظر إلى وجه الحكيم ممنون . وكان الحديث فى منتهى الرقة . وقد زاد عطف الفيلسوف وسر بأن يكون فى وسعه تخفيف الألم عن مخلوقة بهذه الدرجة من الجمال ، وهذه الدرجة من التعاسة . ولما اشتدت حرارة الحديث جلس المتحادثان المتقابلان جنباً لجنب ، وتدانى الساقان ، وكان ممنون يمنحها من نصحه الرقيق ومن عطفه حتى صار كلاهما لا يستطيع الكلام عن الموضوع الذى كانا يتناولانه . وحتى صار كل منهما لا يدرى أين هو وفى مثل هذا الحين من الذى يظن أنه يأتى إليهما غير العم الذى كانت تشكوه ؟ لقد جاء مسلحاً ، وكانت أولى كلماته أنه سيضحى بالحكيم ممنون ، وبنت أخيه ، وقد أسرعت الأخيرة فقررت ، وهى موقنة بأن صاحبها سينجو إذا اشترى حياته بكل ما معه من المال وقد اضطر إلى بذل ما معه ليفتدى نفسه وقد كان الناس فى ذلك العهد سعداء لأنهم يستطيعون النجاة ، بسهولة بمثل هذه الوسيلة . وكانت أمريكا لما تستكشف بعد . وكان السيدات التاعسات أقل تعرضاً للخطر مما هن عليه الآن

وخرج ممنون من المنزل متعثراً بأذيال الخجل فذهب إلى منزله . وهناك وجد دعوة إلى تناول العشاء من بعض أصدقائه الخلصاء ، فقال فى نفسه اذا بقيت وحدى فى المنزل فان ذهنى سيظل مشغولا بالتفكير فى حادثة اليوم ، ولا أستطيع أن أتناول لقمة . وربما جلب إلى ذلك مرضاً ، ولذلك سأذهب إلى أصدقائى . وسأنسى فى مجلسهم ما ارتكبته اليوم من الحماقة

وذهب اليهم فوجدوا عليه بعض علائم القلق وحثوه على أن يشرب ليصرف عن نفسه الهم فقال فى نفسه : « إن قليلا من النبيذ لا يتنافى مع الاعتدال » وهكذا شرب ممنون حتى سكر .

ودعى إلى اللعب بالأوراق فقال إن اللعب بها مدة يسيرة مع صديق لا يتنافى مع الاعتدال . وهذا اللعب من خير الوسائل لتمضية الوقت .

ولعب حتى خسر كل ما معه وهو أربعة أضعاف ما كان مستعداً ليلعب به .

ولسبب ما نشأ خلاف بين اللاعبين واشتد الخلاف فصار مشاجرة ، فرماه بعض أصدقائه بصندوق صغير جرح رأسه وإحدى عينيه ، فحمل الفيلسوف ممنون إلى منزله سكران مفقود إحدى العينين .

نام . ولما أبل بعض الابلال أرسل إلى مدير المصرف الذى يودع فيه أمواله يطلب ما يفى به ديونه فى اللعب ، فعاد الخادم وأخبره بأن المصرف أفلس بالتدليس وأن مئات من الأسر قد أصبحت فى أشد حالات البؤس والفاقة ، فكاد يذهل ممنون ، وذهب إلى البلاط لرفع قضيته ، وهناك وجد عدداً من السيدات وآخر من القسس ورأته إحدى صديقاته فصاحت : « مالك ياسيو ممنون ! كيف فقدت إحدى عينيك؟ » ثم جرت دون أن تنتظر الجواب ، فانتظر ممنون حتى الساعة

التى يستطيع فيها الارتماء على قدمى الملك لبث شكواه .

وأخيراً جاءت تلك الساعة فقدم إليه عريضته واستقبله الملك إستقبالا حسناً . ولكن كبير الأمناء صاح به بعد ذهاب الملك : « كيف تقدم عريضتك إلى الملك مباشرة دون تقديمها إلىّ ؟ وكيف تطلب المقاضاة على تفليسة شريفة ضد ابن أخت وصيفة زوجتى ؟ إن هذا التصرف يدل على أنك لا تحرص على عينك الأخرى »

فعند ما سمع ممنون ذلك — وكان إلى الآن عازماً على هجر النساء والتقليل من الطعام والشراب وترك المشاجرة — عزم أيضاً على الكف عن دخول البلاط وعن طرق سبيل القضاء لأن هذا السبيل ألحق به الاهانة وحرمه الانصاف

وتصدع قلبه من الحزن فعاد إلى المنزل يائساً . ولكنه وجد المحضرين يشرعون فى بيع أثاثه وفاء لديون دائنيه فوقع على الأرض فى حالة تشبه الاغماء . ورأى فى الطريق السيدة التى قابلها فى الصباح مع عمها فضحكا منه ضحكة عالية .

وفى المساء صنع ممنون لنفسه وسادة من القش ونام بجانب الحائط ، فرأى فى الحلم تلك الروح الفلسفية التى كان يتعشقها وهى روح من النور لها ستة أجنحة جميلة . ولكن ليس لها رأس ولا قدمان وهى لا تشبه شيئاً مما سبقت له رؤيته ، فقال : « من أنت أيتها الروح ؟ »

قالت : « أنا روحك » فقال : « ردى إلىّ عينى وصحتى وثروتى وعقلى »

ثم قص عليها قصة يومه فقالت : « هذه حوادث لا تحدث فى الموطن الذى أنا فيه » .

قال : « وأين ذلك الموطن ؟ » فأجابته : « هو على بعد خمسمائة مليون فرسخ من الشمس ، وهو موطن جميل . وليس هناك شياطين تغرى ولا أصدقاء يجالسون المرء ليسلبوا ماله ، وليس هناك من يخرقون عيون الناس ، ولا إفلاس بالتدليس ، ولا أمناء ملوك يسخرون ممن يطلب العدالة ؛ وليست تخدعنا النساء لأنه لا نساء بيننا ، وليس عندنا طعام ولا شراب ، وليس عندنا تفليس لأنه لا ذهب عندنا ولا فضة ، وليس لنا عيون تقلع لأن أجسادنا نورانية ليست كأجسادكم . وليس عندنا بلاط لأن الكل متساوون » .

قال ممنون الفيلسوف : « اذا لم يكن عندكم نساء ولا طعام ولا شراب فكيف تقضون أوقاتكم ؟ » .

قالت : « نحن موكول إلينا مراقبة دنياكم وقد جئت إليك لأعزيك » .

قال ممنون : « ولكن لماذا لم تأتى بالأمس لتمنعينى من اقتراف ما اقترفت ؟ » .

فقالت : « لقد كنت مع أخيك الأكبر « حسن » الذى كان فى بؤس أشد من بؤسك لأن سلطان الهند أمر بقلع عينيه وهو الآن فى السجن ويداه ورجلاه فى السلاسل والاغلال »

قال : « وهل من العدل أن يكون اثنان من أسرة واحدة أحدهما أعور والثانى أعمى ، وأحدهما ينام على وسادة من قش والآخر فى السجن ؟ » .

فقالت الروح : « إن حظك سيتغير سريعاً . نعم إن عينك لن تشفى ولكنك ستصير سعيداً إذا نزعت عن فكرك الرغبة فى أن تكون فيلسوفا كاملا »

قال ممنون : « إذن فذلك مستحيل ! » فقالت الروح : « إنه لمن المستحيل أن يصير المرء كامل العقل كامل السعادة ، فنحن أنفسنا بعداء عن الكمال مع أننا أرواح . وسيأتى عالم غير هذا العالم يكون ذلك كله ممكناً فيه . ولكن بيننا وبين هذا العالم مائة الف مليون من العوالم يتدرج فيها المرء إلى ذلك العالم الكامل . وفى كل درجة من تلك الدرجات العالية تنقص الفلسفة وتنقص المسرات بالتدريج حتى يصير الناس فى العالم الكامل كلهم بلهاء »

قال ممنون : « أخشى أن تكون هذه العوالم التى تتدرج فيها إلى الكمال ليست إلا مستشفيات للمجاذيب وإن عالمنا هذا ليس إلا واحدا منها »

فقالت الروح : « إذا لم يكن هذا الوصف منطبقاً فانه ليس بالبعيد »

قال : « ولكن هل الشعراء والفلاسفة مخطئون إذ يقولون إن كل شىء فى هذا الوجود آخذ فى سبيل الارتقاء »

فقالت : « كلا ليسوا مخطئين ولكن لكى نتبين الصدق فيما يقولون يجب أن نراعى صلة كل شىء بمجموعة العالم فانما كمال الأشياء أن يتم اتصالها بالعالم لصالح العالم »

فأجاب ممنون : « لست أستطيع تصديق ذلك إلا إذا رجعت إلىّ عينى »

عبد اللطيف النشار

5 me Année, No. 208

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 28 - 6 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـدد ٢٠٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ — ٢٨ يونية سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الضعف فى اللغة العربية

للأستاذ أحمد أمين

رددت الجرائد والمجلات فى هذه الأيام الشكوى من ضعف الطلبة وخريجى الجامعة فى اللغة العربية - ولا شك أنها مسألة لا يصح أن تمر من غير أن يتداولها الكتاب بالشرح والتعليل ، ويقلبوها على وجوهها المختلفة ، حتى يصلوا إلى علاج حاسم .

أما إن الطلبة ضعاف جداً فى اللغة العربية فأمر لا يحتاج إلى برهان . فأكثرهم لا يحسن أن يكتب أسطراً ولا أن يقرأ أسطراً من غير لحن فظيع يكاد يكون بعدد الكلمات التى يكتبها أو يقرؤها ؛ وهم إذا خطبوا أو قرءوا أو كتبوا أو أدوا امتحاناً رأيت وسمعت ما يثير العجب ويبعث الأسف . وأما أن الضعف فى اللغة العربية نكبة على البلاد فذلك أيضاً أمر فى منتهى الوضوح ، لا لأن اللغة العربية لغة البلاد والضعف فيها ضعف فى القومية فقط ، بل لأنها اللغة التى يعتمد عليها جمهور الأمة فى ثقافتهم وتكوين عقليتهم ؛ فاللغة الأجنبية التى يتعلمها طلاب المدارس الثانوية والعالية ليست هى عماد الثقافة ، وليست هى التى تكون أكثر جزء فى عقليتنا ، إنما الذى يقوم بهذا كله هو اللغة العربية التى نتعلمها فى الكتاتيب ورياض الأطفال ، وندرس بها العلوم المختلفة

فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية . فالضعف فى اللغة العربية ضعف فى الوسيلة والنتيجة معاً ، على حين أن الضعف فى اللغة الأجنبية فى كثير من الأحيان ضعف فى الوسيلة فقط ، ولهذا أعتقد أن معلم اللغة العربية فى المدارس على اختلاف أنواعها عليه أكبر واجب وأخطر تبعة ، وبمقدار قوته وضعفه تتكون – إلى حد كبير – عقلية الأمة .

وبعد ، فما هى الأسباب التى نشأ عنها هذا الضعف ؟ أظن أنه يكفينا فى هذا المقال الاجابة عن هذا السؤال وإرجاء الكلام فى العلاج إلى مقال أو مقالات أخر .

فعندى أن الأسباب ترجع إلى أمور ثلاثة : طبيعة اللغة العربية نفسها ، والمعلم الذى يعلمها ، والمكتبة العربية .

فأما طبيعة اللغة العربية فهى صعبة عسره إذا قيست – مثلا باللغة الانجليزية أو الفرنسية . ويكفى للتدليل على صعوبتها ذكر بعض عوارضها : فهى – مثلا – لغة معربة ، تتعاور أواخرها الحركات من رفع ونصب وجر وجزم حسب العوامل المختلفة ؛ ولا شك أن اللغة المعربة أصعب من اللغة الموقوفة ، أعنى التى يلتزم آخرها شكلا واحداً فى جميع المواضع ومع جميع العوامل كاللغة الانجليزية والفرنسية .

وهى صعبة كذلك من ناحية أن حروفها وحدها لا تدل على كيفية النطق بها ، بل لا بد لصحة النطق من الضبط بالحركات أو المران الطويل ، على عكس اللغات الأوربية التى تدل كتابتها على كيفية النطق بها فى أكثر مواضعها . والضبط بالشكل عسير فلا نستعمله فى الجرائد والمجلات ولا فى أكثر الكتب الأدبية قديمها وحديثها .

وهى صعبة – أيضاً – من ناحية الاختلاف الكثير فى الفعل الثلاثى ، فله أشكال كثيرة لا يمكن إخضاعها لضوابط حاسمة . وكصيغ جموع التكسير فهى كثيرة وضوابطها قلما تطرد . وكنظام العدد والمعدود فانه معقد تعقيداً شديداً حتى لا يجيده إلا الخاصة وأشباههم .

كل هذا ونحوه يجعل اللغة العربية صعبة المنال ، وإتقانها يحتاج إلى مران كثير ومجهود كبير من المتعلم والمعلم .

ولست أعرض هذا لبيان ما إذا كانت هذه الأعراض مظهراً من مظاهر رقى اللغة أو ضعفها فان هذا لا يعنينى الآن ، وأما الذى يعنينى فهو تقرير صعوبة اللغة العربية وحاجتها الشديدة إلى عناية كبرى لتذليل صعوباتها ورسم أقرب خطة للتغلب عليها حتى يحذقها المتعلم من أقرب سبيل .

***

فاذا نحن وصلنا إلى المعلم فقد وصلنا إلى نقطة شائكة ، ذلك لأننا اعتدنا دائما أن ننقل النقد فى الأمور العامة إلى مسائل شخصية ، ونحول الكلام فى المبادىء العامة إلى فئات وأحزاب ، ونسىء الظن بالناقد ، فان كان من فئة خاصة ظنوا أنه يدافع عن فئته وأنه يريد تنقص غيره . فهل يسمح لى المعلمون بأن أصارحهم القول مؤكدا أن لا غرض لى إلا الاخلاص للحق ؟ إن كان كذلك فانى أصدقهم القول أن جزءاً كبيراً من ضعف اللغة العربيه يرجع اليهم . ولست أنكر أن منهم أفذاذا نابغين يصح أن يكونوا المثل الذى ننشده ، ولكن المنطق عودنا أن يكون حكمنا على الكثير الشائع لا على القليل النادر

فالحق أن دار العلوم والأزهر وكلية الآداب لم تستطع أن تخرج المعلمين الأكفاء الذين تتطلبهم والذين تتطلبهم اللغة العربية للأخذ بيدها والنهوض بها ومحاربة الضعف الفاشى فيها .

فأما دار العلوم فقد تأسست . والذى دعا وزارة المعارف إلى إنشائها أنها أحست بعجز الأزهر عن أن يمدها بالمعلمين الصالحين لها ، إذ رأت الأزهر تنقصه – إذ ذاك – الثقافة الحديثة والعلم بمناهج التربية والتعليم ، وقد نجحت الوزارة فى تحقيق هذا الغرض الى حد كبير ، وأخرجت رجالا نهضوا باللغة العربية إلى حد ما ، وأحسنوا التدريس على خير مما كان يدرسه الازهريون ، ولكن دار العلوم كانت سادّة لحاجة الأمة فى السنين الأولى من إنشائها ، ثم تقدمت الأمة فى ثقافتها ووقفت دار العلوم حيث كانت ، فأصبحت لا تؤدى رسالتها كاملة ، وأصبح خريج دار العلوم لا يحذق الأدب القديم ولا الأدب الحديث ، ولا يستطيع تغذية الشعب بالأدب الذى هو فى حاجة اليه ، ولا له من المهارة فى الوسائل ما يستطيع بها أن ينهض بالطلبة النهوض اللائق ، ولا هو يساير الزمن فى ثقافته حتى يخضع الطلبة لشخصيته القوية ؛ ودليل ذلك أمور كثيرة : منها ضعف المكتبة العربية وهو ما سأبينه بعد ؛ ومنها عجز معلمى اللغة العربية عن تشويق الجمهور والطلبة إلى القراءة العربية ، حتى انا نرى الناشىء لا يكاد يستطيع القراءة فى الكتب الأجنبية حتى يهيم بها ويفضلها ألف مرة على المطالعة العربية ؛

ومنها نظر الطلبة فى صميم نفوسهم إلى أن اللغة العربية مادة ثانوية وان وضعت فى المناهج فى أوائلها ؛ ومنها أن الثقافة فى الجمهور فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامى والأدب العربى والمعلومات العامة التى تتصل بذلك ضعيفة إلى حد بعيد ، والمسئول عنها - كما أسلفنا - هم معلمو اللغة العربية لأنها لغة البلاد وعليها يعتمد فى تكوين العقلية ، إلى كثير من مثل هذه الأسباب .

وأما الازهر من ناحية اللغة العربية فهو الآن وليد دار العلوم ، والمشرف على تعليم اللغة العربية فيه هم خريجوها ؛ فقصاراه أن يبلغ من الرقى ما بلغته مدرسة دار العلوم فى تعليمها ونظمها ومناهجها حتى يحل محلها ؛ ويكفى هذا برهانا على أنه لا يحقق الغرض الذى نرمى اليه .

وأما قسم اللغة العربية فى كلية الآداب فكذلك ناقص ضعيف ، فهو يعلم طرق البحث الجامعى ، وهذا يضطره إلى أن يتوسع فى مسألة وأن يهمل مسائل ، فلا يخرج الطالب دارساً لكل ما ينبغى أن يدرس . أضف إلى ذلك أنه يعتمد فى طلبته على طائفة تخرج أكثرها من المدارس الأميرية وحصلوا على شهادة الدراسة الثانوية ، وهؤلاء لا يصلحون صلاحية تامة لدراسة اللغة العربية إلا بعد عهد طويل لا تكفى له سنو الدراسة الجامعية ؛ ذلك أن اللغة العربية متصلة اتصالا وثيقاً بالدين ، ولا يمكن أن يحذقها ويستطيع أن يفهم كتبها القديمة إلا من بلغ درجة عالة فى فهم القرآن والحديث والفقه وأصول الفقه والتاريخ الاسلامى ، والطلبة الذين تأخذهم الجامعة لهذا القسم لم يثقفوا هذه الثقافة ، ولا تستطيع الجامعة أن تكمل هذا النقص مهما بذل المدرسون من الجهد .

ومن أجل هذا ترى أن طلبته بينما يجيدون نهج البحث فى المسائل إذ يقصرون تقصيرا معيباً فى مسائل تعد فى نظر الازهر ودار العلوم مسائل أولية وهى فى الواقع كذلك .

* * *

إذن من الحق أن نقول إن المعاهد التى تدرس اللغة العربية فى مصر تعجز عن إخراج المعلم الكفء ، ومن العجيب أن توجد هيئات ثلاث لتحضير معلمى اللغة العربية والبلد لا يحتاج إلا إلى هيئة واحدة ؛ ثم كل هذه الهيئات معيب لتوزع قواها ، ولو وجدت القوى فى هيئة واحدة - ولا أتعرض الآن لبيان ما هى - لاستطاعت أن تخرج خير نموذج للمعلم ، ولكن يعصف بهذه الفكرة الصالحة تعصب كل فئة لنفسها ، فضاعت بذلك المصلحة العامة

* * *

ويتصل بأمر المعلمين مسائل كانت هى الأخرى سبباً فى الضعف وهي مناهج الدراسة والامتحانات والتفتيش

فمناهج تدريس اللغة العربية متحجرة برغم ما يبدو من مدنيتها وأناقتها . خذ - مثلا - منهج قواعد اللغة العربية والبلاغة تجد أنهما إلى الآن لا يزالان هما بعينيهما منهجى سيبويه والسكاكى على الرغم من زخرفتهما ، فالتقسيم الذى قسمه سيبويه فى النحو والتعاريف التى وضعها والمصطلحات التى ذكرها هى هى فى كتب المدارس اليوم . وكل ما حدث حتى فى الكتب التى ألفت منذ سنوات قليلة - هو ذكر الأمثلة الرشيقة وتبسيط الشرح ، ولكن لم يبذل أى جهود فى معالجة النحو على أساس جديد كضم مسائل متعددة إلى أصل واحد حتى يسهل على الطلبة فهمها وتحصيلها وكوضع مصطلحات جديدة أقرب إلى الفهم ونحو ذلك . وحسبنا دليلا على ذلك ما نراه فى أجروميات اللغات الحية الأخرى ؛ فأجرومية اللغة الفرنسية أو الانجليزية اليوم تخالف - فى الجوهر - ما كانت عليه منذ عشرين سنة فضلا عن قرن وقرنين

ومصيبتنا فى البلاغة أعظم ، فبرامجنا لا توحى ببلاغة ، ولا تربى ذوقاً ؛ وإلا فقل لى بربك ماذا تفيد دراسة « الفصل والوصل » على هذا المنهج إلا تكرير مصطلحات فارغة ككمال الاتصال وكمال الانقطاع وشبه كمال الانقطاع وشبه كمال الاتصال ؟ وأخبرنى أى أديب يراعى ذلك عند كتابته ، ومتى كانت هذه المصطلحات الفارغة وسيلة لرقى الذوق الأدبي ؟

وليست برامجنا فى الأدب بأقل سوءاً من هذين ، فإنا نضع فى البرنامج أول الأمر مسائل فلسفية وقواعد فى النقد وتاريخ الأدب فى العصور المختلفة قبل أن يلم الطالب بجمهرة كبيرة من الأدب يقرؤها ويحفظها ويتذوقها ، وبذلك تقدم له نتائج من غير مقدمات ، ونصعده على السطح من غير سلم

والذين يضعون البرامج يكلفون وضعها فى أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو شهرين . وماذا على وزارة المعارف لو كلفت من يضع لها البرامج المستقبلة فى سنتين أو أكثر على ألا توضع إلا بعد دراسة عميقة ، ثم تنشر فى الجرائد والمجلات

وتتقبل الاعتراضات عليها ويعمل بالصالح منها، ثم تثبت الوزارة العمل بها عهداً طويلا حتى تتم تجربتها؟

ثم الامتحانات أمرها غريب! فمع هذا الضعف الذى نسمعه فى كل مكان، تظهر نتيجة الامتحانات فى اللغة العربية باهرة، والسقوط فيها نادر! فشىء من شيئين: إما أن تكون الشكوى فى غير محلها، وهذا مالا يسلم به عاقل، أو تكون الامتحانات على غير وجهها، وهذا مايقوله كل عاقل. وسبب هذا السوء فى الامتحان كثير، فنظريات النحو واسعة تحتمل أن يكون لكل خطأ تأويل من الصواب، ومنها عدم تقدير ورقة الامتحانات فى جملتها حتى يصح أن يسقط الطالب إن أتى بخطأ شنيع فى موضع ولو أصاب فى مواضع أخرى، ومنها الرحمة والشفقة فى التصحيح، وأؤكد أن لو زالت هذه الرحمة سنة من السنوات وأدرك الطالب ما تعامل به ورقته من الحزم فى الامتحان لخدم هذا الموقف اللغة العربية فى المدارس جملة سنين

ثم التفتيش؛ والمفتش معذور، فهو كالقاضى يطبق مواد القانون ولا يشرعها، فعليه أن ينظر كم موضوعا إنشائياً كتبه الطلبة، وهل هذا يتناسب مع العدد المقرر فى السنة. وهل ترك المدرس كلمة خطأ فى كراسة الطالب من غير أن يصححها، وهل أساء المدرس إساءة كبرى فاستعمل كلمة «التليفون» و«الراديو» أو على العموم استعمل كلمة ليست فى «القاموس المحيط» أو «لسان العرب» فأما هل نجح المدرس فى تعليمه اللغة العربية لطلبته، وما الوسائل التى استعملها، وهل تقدم الطلبة فى القراءة والكتابة فأمر فى المنزلة الثانية؛ وأما ما ينبغى أن يدرس هنا أو لا يدرس. وما العوامل فى الرقى باللغة العربية — على العموم — فأمر يرجع فى الأغلب إلى المشرع لا إلى المفتش

نعود — بعد — إلى المسألة الأخيرة من أسباب ضعف اللغة العربية. وهى مسألة «المكتبة العربية» فالحق أنها مكتبة ضعيفة فاترة، هى مائدة ليست دسمة ولا شهية ولا متنوعة الألوان. والحق أيضاً أن القائمين باحضارها لم يجيدوا طهيها؛ فدار العلوم وقد أتى على إنشائها أكثر من خمسين عاماً وقد خرجت الألوف من أبنائها، هل أجادت فى إخراج الكتب النافعة المختلفة الألوان والموضوع؟ أو هى قصرت كل التقصير فاخرجت من الكتب ما لا يتفق وعدد خريجيها ومنزلتهم فى الحياة الاجتماعية والأدبية؟

والأزهر وهو أقدم عهداً وأعرق أصلا لم يشترك فى التأليف الحديث اشتراكا جدياً، ولم يساهم بالقدر الذى كان يجب عليه، ولم يعرف عقلية الناس فى العصر الحديث حتى يخرج لهم ما هم فى أشد الحاجة إليه

وكلية الآداب — وإن قصر عهدها — لم تؤد رسالتها فى هذا الموضوع كاملة، واتجهت أكثر ما اتجهت إلى الثقافة الخاصة لا العامة

فمكتبتنا فى كل نواحيها ناقصة من ناحية الأطفال، ومن ناحية الجمهور، ومن ناحية المتعلمين. وحسبك أن تقوم بسياحة فى مكتبة أفرنجية وأخرى فى مكتبة عربية لترى الفرق الذى يحزنك ويبعث فى نفسك الخجل والشعور بالتقصير

ماذا يقرأ الطفل فى بيته وفى عطلته؟ وماذا تقرأ الفتاة فى بيتها؟ وأين الروايات الراقية التى يصح أن نضعها فى يد أبنائنا وبناتنا؟ وأين الكتب فى الثقافة العامة التى تزيد بها معلومات الجمهور؟ وأين الأدب القديم المبسط؟ وأين الأدب الحديث المنشأ؟ الاجابة عن هذه الأسئلة يعرفها كل قارىء لمقالتى. وواضح أن اللغة لا ترقى بكتبها فى قواعد النحو والصرف والبلاغة بمقدار ماترقى بالكتب الأدبية ذوات الموضوع

سيقول المعلمون: وماذا نصنع وليس العيب عيبنا، فوزارة المعارف ترهقنا بالدروس وترهقنا بنظام الكراسات وتصحيحها، وبنحو ذلك حتى لا نجد وقتاً لترقية نفوسنا والازدياد فى معلوماتنا فضلا عن المساهمة فى تضخيم «المكتبة العربية» والمشاركة فى إصلاح جوانب النقص منها

ذلك حق، ولكنه ليس ردا على ما أقول، فانى فى هذا المقال أكتفى باستعراض الأدواء استعراضاً خاطفاً سريعاً ثم أعود بعد، إن شاء الله إلى ذكر ما يعن لى من طرق العلاج

وأياً ما كان فالموضوع جد خطير، وهو — كما قلت — جدير بأن يتناوله الكتاب بالبحث والتفكير والكتابة ومناقشة الآراء؛ وكل ما أرجو هو ما أشرت إليه ألا تتحول المسألة إلى نزاع شخصى أو طائفى، فالأمر أهم من ذلك كله. وإلى الجحيم كل مسألة شخصية أو طائفية تقف فى سبيل الخير العام

احمد أمين

فى الحب أيضا

وجواب بعض المســائل

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

يظهر أنى لم أحسن البيان فيما كتبته عن الحب والوقت الذى تكون فيه النفس احسن تهيؤاً له ، فقد تلقيت رسائل من هنا وهنا . ومن مصر وغيرها من أقطار العرب ، جملة مااستخلصته منها أنى حمار طويل الأذنين ، وأن لى نهيقاً عالياً ولـكنه نهيق لا أكثر ، وقد أكون كذلك فما أدرى ، ولو أنى عرفت نفسى على حقيقتها لكان هذا حسبى . وعزائى . إذا كنت هذا ، قولُ رصيفى الفاضل ابن الرومى :

« فىَّ طبعٌ ملائكىٌّ لديه عازف صادف عن الإطراب
أو حمارية فمقدار حظى شبعةٌ عنده بلا إتعاب

فبين الملائكية والحمارية هذه الجامعة ـ إن الملائكية تغرى بالعزوف والزهد ترفعاً أو استنكافاً ، أو لا أدرى لماذا ، فما ارتقيت قط إلى هذه المرتبة ، وإن الحمارية تؤدى أيضاً إلى الزهد وإن كان هذا منها عن نقص الادراك وعدم الشعور بالحاجة . ولا تعنينى الاسباب ، وإنما تعنينى النتيجة وهى كما ترى واحدة والحمد لله ، ولقد أطلت النظر إلى وجهى فى المرآة لما وردتنى هذه الرسائل ورفعت يدى إلى أذنىَّ أتحسسهما ثم قلت لنفسى إن الحمارية طبيعية لا صورة ، وارتددت عن المرآة ورأسى مثنىٌّ على صدرى وأذناى مسترخيتان ـ مجازاً .

وقال أحد الأفاضل الذين كتبوا إلى ، إني لو قضيت يوماً على شاطىء البحر فى الاسكندرية لأدركت أن الحب يجىء فى وقت النشاط الجم لا الفتور كما زعمت . واعترف لى غير واحد أنهم أحبوا على الريق وذكر لى أحدهم أنه كان يلقى صاحبته كل صباح فأحبها ، وقال ثان انه سمع صوتاً فى الصباح فخيل اليه أنه يعرفه ، فلما رآها عرف أنذا كرته لم تخنه ، وكان أن أحب ذات الصوت الذى أيقظه من النوم ، ولـكن الله لم يكتب له الفوز بها . وذكر ثالث أن المرأة تتزين فى كل وقت ـ فى البيت وخارج البيت الخ الخ فما بى إلى الإطالة حاجة

لهذا قلت إنى لم أحسن البيان ، فما أردت أن أعين ساعة معلومة للحب فى الصباح أو الظهر أو العصر أو الليل ، وإنما أردت أن أبين أن الحب ـ ككل مرض ـ تكون فرصته حين يكون الجسم متعباً قليلا وان كان المرء لا يدرك ذلك ولا يفطن اليه . وهذا التعب الخفيف لا وقت له ، وما أكثر ما أصبحت برأس مصدع على الرغم من النوم ساعات طويلة فأضحك وأقول لزوجتى : « يا امرأة ، هل رأيت أحداً قبلى يفطر على الاسبرين؟ » فتسألنى : « أبك حاجة إلى الاسبرين؟ » فأقول : « نعم بى حاجة اليه . . إلى صيدلية كاملة من الاسبرين ... ولـكنى سأحاول الاستغناء عنه .. إنما أردت أن أبين لك أن زوجك أعجوبة . . الناس غيرى يصبحون وريقهم يجرى على الفول المدمس والبيض والقشدة واللبن والشاى والمربيات وما إلى ذلك . أما زوجك المحترم فلا يخطر على باله شىء من ذلك كل همه قرص من الاسبرين يعفيه من وقع هذه الفؤوس التى تحطم رأسه »

فتقول : « الذنب لك . . من قال لك افعل مافعلت البارحة ؟ »

فأقول : « يا ستى ان المهم الآن هو التسكين وبعد ذلك يصح أن يجىء دور الحساب ... ثم إنى لا أذكر ماذا كنت أصنع البارحة . . كلا . . لا يختلج فى ذاكرتى شىء . . . »

وأما صاحبنا الذى كان يرى فتاته كل صباح فأحبها ، فأقول له انهذا ليس من الحب على الريق وقد وقع لى ما وقع له ، أيام كنت تلميذاً فى المدرسة الخديوية ، وكان بيتى فى « البغالة » وطريقى إلى المدرسة من درب « الجماميز » ، وكنت أرى فى كل صباح فتاة على وجهها النقاب الأبيض وحولها ذلك الازار الأسود ـ وكان هذا هو اللباس الشائع فى ذلك الزمان ـ ومعها خادمها يحمل لها كتبها ويتبعها ويحرسها ، وهى ذاهبة إلى المدرسة السنية ، وعائدة منها إلى البيت فكنا نلتقى كل يوم ، واستملحت وجهها ، وأعجبنى قدها ، فكنت أتعمد أن أقف على أول الطريق حتى أراها مقبلة وتكرر ذلك فصار عادة .

ومضت سنوات طويلات وأصبحت مدرساً ، وإنى لراكب مرة إلى الجيزة واذا بى أرى أمامى فتاتى القديمة ، ومعها طفلان

فعرفتها . فما تغيرت عن العهد بها ، ونظرت حولى فلم أر أحداً معها سوى هذين الطفلين فتشجعت وقلت لها : « اسمحى لى .. إننا صديقان قديمان اذا كانت ذاكرتك كذا كرتى .. هل تذكرين هذا الوجه الدميم الذى كنت لا أخجل أن ألقاك به كل صباح فى شارع درب الجماميز وأنت ذاهبة إلى المدرسة ؟ »

فابتسمت وقالت : « أظن أنى أذكره » .

قلت — ويداى على طفليها — : « وهذان ... المحروسان أهما اللذان كان يمكن أن يكونا ولدى ؟ » .

ففهمت وهزت رأسها أن نعم ، فقلت : « وتسمحين لى أن أقبلهما ، إذ كنت لا أستطيع أن أقبل غيرهما ؟ » .

فهزت رأسها مرة أخرى ، فقبلتهما وقلت كالمعتذر : « اذكرى أنهما كان يمكن أن يكونا لى » .

وقصت على قصة عجيبة ، فقالت : إن جاراً لها أحبها وإن أباه أبى أن يزوجه قبل أن يفرغ من المدرسة ، فحاول أن يتصل بها فلم يوفق . فانتحر ، فسألتها : أين كنت تسكنين ؟ » فذكرت لى اسم الشارع والحارة ، فاذا الذى انتحر قريب لى ! وقلت لها : أما أنا وأنت فلم ننتحر ... آثرنا أن نتزوج ... أظن أن الأمرين سيان ... »

فأنا أيضاً أحببت فى الصباح ، كما أحب الفاضل الذى كتب إلى ، ولكن الحب لم يكن على الريق بل كان بتأثير العادة وفعلها . وصاحبنا الذى سمع الصوت فى الصباح فتذكره — هذا أيضاً لم يحب على الريق وانما استيقظت فى نفسه ذكرى . ولو كانت هذه أول مرة يسمع فيها الصوت الحلو لاستغرب ولكان قصاراه أن يستعذبه وأن يشتاق أن يرى صاحبته ، ولما منعه ذلك أن يتثاءب ويتمطى ويشتهى أن يعاوده النوم .

بقيت الزينة وأظن أنى قلت إن المرأة تحب أن تؤكد جمالها وتبرز مفاتنها بالزينة . وانها لا تستطيع أن تهمل زينتها حين تخرج فى أى وقت . فلا خلاف بينى وبين الناقد الفاضل فما أنكرت أن المرأة تطلب الزينة ، لأن طبيعتها تقضى عليها بذلك حتى ولو كان الرجال لا يرتاحون إلى هذه المساحيق المختلفة الالوان . ولو ظللت تنهي المرأة عن ذلك طول العمر لما انتهت إلا إذا كانت هى تزهد فى المحسنات من تلقاء نفسها أو تضطر إلى الزهد لمرض جلدى أو نحوه . وما أكثر من قلت لهن : « أين منديلك ؟ » فتخرجه وتريني وتسألني : « ماذا تريد أن تصنع به ؟ » فأقول : « لست أحب أن أرى فمك الجميل كالطامة المشقوقة ، فهاتى المنديل لأمسح هذا الأحمر » فتأبى وتقاوم ، فألح عليها وأقول : « ثم إن هناك داعياً آخر هو أن هذا الأحمر يحول دون التقبيل » فيكون هذا مغرياً لها بالاصرار على ترك الأحمر على شفتيها ، على حين كنت أظن — لغرورى — أنى زهدتها فيه .. !!

وأحمد الله الذى أعفانى وأراحنى من سخافة المساحيق ، فان زوجتى لا تتخذها ، فليس فى بيتى ذرة من الأحمر أو الأبيض . ومن القواعد المقررة عندنا أن على من تزورنا من قريباتنا أو منهن فى حكمهن لتقض يوماً أو أياماً معنا ، أن تجيء معها بمساحيقها ، فلن تجد حتى ولا ما يُنفَضُ على الوجه بعد حلاقة الذقن . وأحسب أن زوجتى اطمأنت إلى عجز فريستها عن النجاة فهى لا تعنى الآن بشىء من هذه المزينات ..

ولست مجنوناً حتى أقف على شاطىء البحر وأنظر إلى الفتيات الناهدات ، الرشيقات ، المشوقات ، وهن يخرجن من الماء وقد لصق بأبدانهن القليل الذى عليها ، فإنى محتاج إلى عقلى كله . ولكنى أحسب الفاضل الذى كتب إلى يدعونى إلى ذلك ، يدرك أن الأمر هنا أشبه بأن يكون أمر اشتهاء ، لا حب ، وخليق بالمرء وهو ينظر إلى هذه الفتنة المجتمعة ، أن تدركه الحيرة ، وأن يزوغ بصره ، فلا يعود يدرى أى هؤلاء الجميلات أولى بحبه ، فان لكل جسم فتنة ، ولكل محيا سحره . ولو أنى وقفت على البحر لكان الأرجح أن أحب هؤلاء جميعاً ، جملة ، وأن أشتهى أن أضمهن كلهن فى عناق واحد ، فان الظلم قبيح . ونفسى لا تطاوعنى على غمط الجمال فى أية صورة من صوره . ومن يدرى ... لعل القدرة على إدراك معانى الجمال فى مظاهره المختلفة هى التى وقتنى الحب ، ومنعت أن أعشق واحدة على الخصوص أجن بها . ولكنى لست واثقاً أن هذا كهذا ، وإن كان يحلو لى أن أغر نفسى به . والأرجح انها بلادة ، وان جلدى سميك ...

ويجب أن نفرق بين النشوة العارضة ، والنشاط الصحيح وبين الاعجاب والحب ؛ وأن ننسى كل ما علق بالحب من الحواشى الخيالية التى كان الفضل فيها لمبالغة الشعراء وهذيان المرضى ، فليس الحب إلا مرضاً فالشأن فيه هو الشأن فى كل

مرض . والمرء يصاب بالأمراض فى حالتى الصحة والضعف ولكنه يكون أكثر تعرضاً للمرض فى حالة الفتور الخفى الذى يضعف المقاومة ، لأنه يغرى بالاطمئنان على حين ينبغى الحذر . أو هو فى حقيقته ضرب من الجوع كما قلت . وفى الناس الشره المبطان ، وفيهم القنوع الذى يكفيه اليسير الموجود . والجوع ضعف . والجائع لا يملك من القدرة على مقاومة الاغراء ما يملك الشبعان

هذا جواب بعض ما وردنى من المسائل . وقد مللت الحب وذكره ، ولم أكن أظن أن الكتابة فيه تثير كل هذه الضجة ، قاتل الله الشعر والشعراء !!

ابراهيم عبد القادر المازنى

جهاد شعب مصر

فى سبيل حقوقه فى القرن الثامن عشر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ألف الاستاذ محمد فريد أبو حديد كتاباً أسماه « سيرة السيد عمر مكرم » تتبع فيه تاريخ الحركة القومية فى مصر منذ القرن الثامن عشر وتناول سيرة « السيد عمر مكرم » زعيم مصر إذ ذاك ، وأوضح فيه سعى مصر إلى الحرية والاستقلال فى فجر العصر الحديث ، وبين أن الروح القومية والتطلع إلى الحرية كانا قويين منذ القرن الثامن عشر

والكتاب تحت الطبع ، وسيظهر قريبا ، وهذا الفصل الممتع من ذلك المؤلف القيم :



ولم يكن صوت المصريين داوياً فى مجتمعات الديوان وحدها ، بل كان للشعب منافذ أخرى يعبر بها عن إرادته ويردد منها شكواه ويرسم بوساطتها أمانيه ومثله العليا ، فان بعض المتكلمين من الوعاظ الدين كانوا يتعاقبون فى تلك العصور كانوا بمثابة الصحفيين يعقدون مجالسهم فى المساجد فيلقون فيها دروساً فى معانى العدل وواجبات الحكام وحقوق المحكومين ، ويدسون فى خلال تلك الدروس نقدات للحكام لا يخشون منهم غضباً ولا يتوجسون منهم خوفاً ، وكان بعض الحكام يضيق بنقدهم ؛ ولكنهم كانوا فى أغلب الأحوال يتركونهم آمنين أحراراً لا يقيدون ولا يعاقبون على ما يصدر عنهم من النقد . وكان نقدهم فى كل الأحوال نقداً عالياً نبيلا يقصدون به تصوير المثل الأعلى للحكم ، ويدعون فيه إلى العدل وأداء الواجب . ولعل أول من نبغ من هؤلاء الوعاظ هو الشيخ الحفنى الذى كان يعاصر ملك مصر العظيم على بك الكبير . وهو محمد بن سالم الحفناوى أو الحفنى الحسينى نسباً وكان زاهداً ورعا كريماً كثير البذل للفقراء . واتخذ سبيل الدعوة إلى الخير على طريقة صوفية اسمها الطريقة الخلوتية وكثر أتباعه واعتقد فيه الناس اعتقاداً كبيراً سواء فى ذلك العامة والخاصة ، حتى قال عنه الجبرتى صاحب « عجائب الآثار » : « إنه كان قطب رحى الديار المصرية لا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ومشورته » ، وكان لا يتردد فى إبداء نصحه صريحاً قوياً وإن كره أهل الحكم رأيه وصراحته

وكان الشيخ الحفنى فوق هذا عضواً فى ديوان الحكومة يمثل الشعب المصرى مع جماعة من اخوانه تمثيلا رائعاً ، حتى كان على بك الكبير على شدته وقوة ملكه لا يستطيع مقاومته ولا معاداته . وكان فى مناقشاته فى الديوان لا يتردد أحياناً أن يهدد الحكام باسم الشعب إذا هم عمدوا إلى ما يسىء إليه أو يضر بمصلحته ، فقد وقف مرة يناقش فى ضرورة إرسال حملة حربية لإخضاع بعض الأمراء الخارجين فى الصعيد . وكان رأيه أن تلك الحملات الحربية تضر بالناس وتعطل مصلحتهم ، فلم يتردد فى آخر خطبته القوية أن يصيح قائلا : « والله لن نسمح أن يسافر أحد وإن سافرت الحملة فلن يحدث خير أبداً »

ولما توفى الشيخ الحفنى حل محله فى زعامة النقد واعظ آخر وهو ابن النقيب السيد على بن موسى الحسينى المقدسى ، وعرف بابن النقيب لأن جدوده كانوا نقباء الأشراف فى بيت المقدس . وكان واسع العلم يلقى دروساً فى المسجد الحسينى فى التفسير والفقه والحديث . وكان فوق ذلك كاتباً أديباً

حسن الأسلوب، وزاهداً لا يضن بشيء يملكه على سائليه. ولهذا كانت له مكانة عظيمة فى قلوب الناس. وكان فوق كل هذا فارساً ماهرا فى فنون الحرب واستعمال السلاح واللعب بالرماح. فكان يجمع كل صفات النساك المحاربين الذين ينهجون نهج القاضى عيسى الهكارى الذى كان معاصراً لصلاح الدين الأيوبى واشترك معه فى محاربة الصليبيين.

وكان أهل مصر يعرفونه بالحدث، ومع أنه كان محبوباً عند الأمراء ورجال الدولة لم يمتنع عن نقد ما كان يراه فيهم وفى أحكامهم من العيوب، وكان نقده أحياناً يبلغ حد المرارة والعنف. ولكن صدر هؤلاء الحكام لم يضق به، ولم يحدث له من وراء نقده أى ضرر. مع أنه ذهب مرة إلى القسطنطينية حوالى عام ١٧٦٣ للبلاد فلم يسمح له بالبقاء طويلا فيها لما عرف عنه من الصراحة فى النقد، واضطر إلى العودة إلى مصر. وكان الأمير محمد بك أبو الذهب يرحب به ويوسع له فى مجلسه مع ما يلقى منه من النقد، وكان يقابل نقده بالإحسان فوق التسامح، ومن ذلك أنه سأله مرة عن حاله، وكيف وجد عاصمة الخلافة فى استامبول عند زيارته لها، فكان جوابه على ذلك قوله: «لم يبق باستامبول خير ولا بمصر كذلك خير، فلا يكرم بهما إلا الاشرار الخلق، فلم يغضب الأمير من رده بل أرسل إليه بعد انصرافه من مجلسه هدية قدرها مائة ألف نصف فضة ليقضى بها ديونه ولينفق منها على الفقراء كعادته.

وقد عاصر هذا الواعظ الكبير شيخ آخر جليل كان ينهج مثل نهجه مع شيء من الاعتدال، وهو الشيخ على الصعيدى وكان معاصراً لملكى مصر العظيمين على بك الكبير ومحمد بك أبى الذهب. وبلغ من إكرام هذين الملكين له أنهما كانا إذا دخل عليهما أفسحا له وقبلا يده، ولم يردا له شفاعة، وكان كثير الشفاعة عندهما، يتدخل لمصالح الناس. فكان من الدولة بمثابة النائب الشعبى الذى يسعى لمصالح الناس عند أهل الحكم. وكان الناس يلجأون إليه إذا ما مسهم ما يشكون منه، فيكتب شكاواهم فى ثبت ويدخل بها على الأمير فلا يخالفه فى شيء مما يرجوه فيه، ولا ينقبض عنه، وكان يقول لمحمد بك أبى الذهب إذا وجد منه شيئاً من التردد: «لا تضجر ولا تأسف على شيء يفوتك بغير حق فى الدنيا، فان الدنيا فانية وكلنا نموت ويوم القيامة يسألنى الله عن تأخرنا عن نصحك؛ وها نحن قد نصحناك وخرجنا من العهدة». فاذا امتنع الأمير عن إجابة مطلب له صرخ وقال له: «اتق النار وعذاب جهنم» ثم يمسك بده ويقول له: «أنا خائف على هذه اليد من النار».

وسنذكر فيما يأتى أسماء بعض زعماء الشعب الذين اتجهوا فيما بعد خطة أخرى غير النقد والنصح عند ما تحولت مجارى الأمور فى أيام مراد وإبراهيم. وحسبنا هنا أن نقول إن أمراء مصر فى أثناء القرن الثامن عشر كانوا يحاولون بكل ما استطاعوا أن يكون حكمهم مرضيا عنه عند الشعب، وأن يكونوا فى سياستهم موفقين إلى العدل فيهم بحسب عقلية عصرهم وأساليبه وكانوا يعملون على تقريب أهل العلم والأعيان والأدباء، ويشجعونهم على غشيان مجالسهم، فكانت مجالس على بك الكبير تمتاز بوقار من يؤمها من العلماء الأجلاء، والزهاد الفضلاء. وكذلك كانت مجالس أبى الذهب من بعده، فى حين كانت مجالس الأمير رضوان بعد ذلك مضرب الأمثال فى البهجة الفنية والسمو الأدبى، حافلة بأسماء تباهى بها مصر من الأدباء المبرزين الأعلام، وكان هذا التقريب عاملا من أقوى العوامل على إيجاد روح من الود طالما ساعد على تبادل العطف بين الحاكم والمحكوم، وهو عطف كان يؤدى بغير شك إلى إصلاح الحكم والمحافظة على حقوق الناس وعواطفهم.

ولما تولى الطاغيتان إبراهيم ومراد؛ تغير الحال واختل الأمر ورأى الشعب أن لابد له من انتهاج خطة جديدة للمحافظة على حرياته وحقوقه؛ فخطا خطوة جديدة لم يسبق له عهد بها. فان الطاغيتين كانت تحيط بهما هالة من أهل الطاغوت. وهى عصبة للشر ما كانت تتنبه إلى حق، ولا ترعوى عن غى، ورأى أهل مصر أنهم حيال نوع جديد من الحكم، لا تنفع فيه النصيحة ولا تستقيم معه الأمور على الشفاعة، ولم يكن للشعب بعد أن عجز عن النصح إلا ذلك الحق الطبيعى الذى للشعوب وهو أن يرغم الحكام على الاصلاح، وهكذا رأى أهل مصر ألا ملجأ

لهم من طغيان إبراهيم ومراد ، إلا أن يلجأوا إلى القوة والثورة .

بعد مضى سنة واحدة من حكم الطاغيتين ، ثارت مسألة فى خلاف على وقف ، ولم يكن للمسألة فى ذاتها خطر خاص ، بل كان القصد منها نضالا على مبدأ قانونى وهو : هل يجوز للأمير القوى أن يدل بقوته ويثور على القانون فيعصاه ، أم لابد له من الخضوع للقانون ولو كان خصمه ضعيفاً لا سند له من سلطان الدولة ، وكانت الخصومة بين رجل من أفراد الشعب ، وأمير من كبار الأمراء من عصابة الطغيان ، واعتصم الرجل الضعيف بالشريعة فلجأ إلى القضاء ، ولوح الأمير القوى بالقوة والبطش . وحكم الشرع للرجل الضعيف ، فأبى الامير الإذعان للحق ؛ وأصبح الأمر معلقاً بين أن ينتصر القانون ، وبين أن تجتاح القوة كل سياج وكل حرمة .

فأدرك العلماء أن واجبهم يناديهم — وهم ممثلو الشعب والطبقة المستنيرة منه — بالمحافظة على القانون والحق ، ولم يترددوا لحظة ، بل هبوا لنداء الواجب ، وتصدر فيهم زعيم اسمه الشيخ الدردير ، رحمه الله وطيب ثراه ، فأرعد الأمير المدل وأبرق ، وأرغى وأزبد ، ونهر وتوعد ، فوقف العلماء وثبتوا ، وأرغوا وأزبدوا كذلك ، وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم . وكانت مظاهرة كبرى ، فأغلق الناس حوانيتهم لينظروا مآل النضال بين الحق والقوة ، وأوشك الأمر أن يؤدى الى فوضى شاملة ، لولا أن جزع عقلاء الأمراء من ذلك الاضطراب ، وأشفقوا من تلك الحال فاجتمعوا وتشاوروا ثم أرسلوا إلى الأمير المعاند فلاموه على وقفته ، وأمروه بالنزول على ما أراد القانون ، فأذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة ، ولم يرض العلماء أن يدعوا الأمر يفلت من أيديهم بغير حق مسجل يكتسبونه للناس ، فطلبوا أن تكتب لهم وثيقة بالحق المكتسب ، وكتب لهم صلح رسمى به شروط على الأمراء ، وتعهد من الحكام بالتزام ما يقضى به القانون ويحتمه العرف .

وقد أثرت أمثال هذه الصيحة فى الأمراء ، فصاروا يخشون الشعب خشية عظيمة ، حتى إنه عند ما أشيع مجىء الحملة التركية لإصلاح الحكم فى مدة مراد وإبراهيم بقيادة القبودان حسن باشا ، ذعر الطاغيتان خوفاً من أن ينتهز الشعب تلك الفرصة فيثور مظهراً ما فى نفسه من الألم ، فحاولوا التقرب إلى زعمائه . وقد وصف أحد من شهد ذلك العصر تذلل الأمراء بقوله : « فذهب إبراهيم بك إلى الشيخ البكرى ، ثم الشيخ العروسى والشيخ الدردير ، وصار يبكى لهم وتصاغر فى نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت ، فانه كان يخاف ذلك جداً » (١)

والحق أن شعب مصر كان عند ذلك قوى الاحساس بنفسه ، وبما ينبغى له من الحرية ، وما يجب له من الحقوق ، لا يتهاون فى إظهار ذلك الاحساس بشتى الوسائل كلما لاحت له فرصة ، أو كلما حدث حادث يشتم منه رائحة الاستهانة بكرامته أو الاعتداء على حرماته . ولهذا كانت ثوراته تتوالى عند كل مناسبة ، فما تكاد ثورة تهدأ فى القاهرة حتى تشب أخت لها فى رشيد ، وما تكاد تلك تخبو حتى تبدأ أخرى فى بلبيس ، وكان بعض هذه الثورات يبدو عنيفاً كأنما هو ينذر بثورة شاملة كثورة فرنسا . ونحن إذا بحثنا حال فرنسا قبيل ثورتها لا نستطيع أن نرى من بوادر ثوران النفوس أكثر مما بدا فى أواخر القرن الثامن عشر فى مصر ، فان فرنسا ظلت على ما كانت عليه من سوء الحكم ، ومن العبث بالحريات إلى أواخر ذلك القرن ؛ لا بل إن سوء الحكم فيها قد زاد فى أواخر ذلك القرن عما كان فى أواسطه . فكانت أفاعيل لويس الخامس عشر وخليلته المشئومة فى أواخر ذلك القرن جديرة بكل حنق وكل غيظ . ولكن الفرنسيين لم يثوروا عند ذلك ، وإنما كانت ثورتهم فى أيام الملك الطيب الذى جاء عقبه . أما فى مصر فقد بدت تلك الثورات كالشرر المتطاير وما كان أقمنها أن تنتهى إما بثورة تامة كثورة فرنسا ، وإما بإصلاح تدريجى شامل يتناول كل نظمها . وأغلب ظننا أن حكام مصر ما كانوا ليسمحوا للأمور أن تتفاقم إلى أن تحرج الصدور وتدفع بها إلى الثورة المدمرة ، فقد كانوا دائماً ينزلون عند إرادة الشعب بعد أن يروا غضبته ، ويصلحون ما يشكوا منه من فساد ، ويقومون ما يشير اليه من اعوجاج ؛ وتكررت الأمثلة الدالة على ذلك

فريد أبو حديد

(١) عجائب الآثار جزء ٢ ص ١١٨

مصر فى خاتمة القرن السابع عشر

كما رآها العلامة عبد الغنى النابلسى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس فى تاريخ مصر الاسلامية أغمض من العصر التركى بل نستطيع أن نقول إن ليل الاسلام وليل الأمم العربية والاسلامية كلها يبتدىء بابتداء العصر التركى. وبينما نرى تاريخ مصر الاسلامية زاهراً وضاء قبل الفتح التركى إذا بستار كثيف من الغموض والظلمات ينسدل من بعده على هذه العصور المجيدة، وإذا بالانحلال والفساد والفوضى تغمر ذلك المجتمع الزاهر الذى لبث قروناً يسطع خلال العصور الوسطى؛ وفى هذه المرحلة الغامضة المؤسية من تاريخ مصر لا نظفر بكثير من المواد أو المصادر التى تلقى كبير ضوء على المجتمع المصرى، ولا يدون المؤرخ غير تعاقب الولاة الترك ولا يكاد يروى لنا شيئاً من الأحداث العظيمة أو الحوادث الشائقة، اللهم إلا فى أواخر هذا العصر، حينما تستيقظ الحركة القومية المصرية من سباتها الطويل، وينزع الزعماء المماليك إلى تحطيم نير الأجنبى، ثم تمهد الحملة الفرنسية لانهيار الحكم التركى، وبزوغ العصر الجديد.

بيد أننا نستطيع أن نتتبع أحوال المجتمع المصرى فى تلك المرحلة على يد جمهور من الأدباء والرحل الذين وفدوا على مصر فى تلك العصور سواء من الشرق أو الغرب. وقد انتهت الينا طائفة من مشاهداتهم التى دونوها فى رحلاتهم، وهى وثائق لها قيمتها فى الكشف عن بعض نواحى المجتمع المصرى فى هذا العصر؛ ثم هنالك أنفس آثار هذه المرحلة اطلاقا، وهى مذكرات الجبرتى التى تلقى أعظم ضياء على تاريخ مصر والمجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر.

وقد رأينا أن نستعرض مشاهدات أولئك الرحل كلما سنحت الفرص، وأن نستخرج من آثارهم ما يفيد فى تعرف أحوال المجتمع المصرى فى تلك المرحلة. وسنبدأ اليوم باستعراض رحلة علامة وأديب دمشق وفد على مصر فى خاتمة القرن السابع عشر، وترك لنا عن رحلته بمصر أثراً يدون به بعض الملاحظات المفيدة عن المجتمع المصرى فى ذلك العصر.

ذلك الرحالة هو الفقيه والعلامة الصوفى الشهير عبد الغنى النابلسى، وهو شخصية غريبة تستحق الدرس؛ بيد أنا نكتفى هنا بترجمته بايجاز، فهو عبد الغنى بن اسماعيل بن عبد الغنى ابن اسماعيل بن احمد النابلسى الحنفى الدمشقى النقشبندى القادرى، وينعت بشيخ الاسلام وأستاذ الأساتذة؛ ولد بدمشق فى سنة ١٠٥٠ هـ (١٦٤٠م) ودرس القرآن والحديث والفقه والنحو، وقرأ على أعظم شيوخ العصر فى دمشق، وانتظم منذ فتوته فى الطريقة القادرية ثم الطريقة النقشبندية، وانكب على قراءة الأدب الصوفى ولا سيما آثار محيي الدين ابن العربى؛ وتولى التدريس حيناً بالجامع الأموى؛ وحمله تيار التصوف فى شبابه إلى نوع من الشذوذ والهيام فلزم داره مدى أعوام، وأطلق شعره حتى تدلى على كتفيه، وأطلق أظافره، وصارت تعتريه نوبات من الذهول حتى ظن أنه جن؛ ورماه خصومه بالزندقة واشتدت الحملة عليه؛ ولكنه تغلب على خصومه، وضاعفت المحنة هيبته وشهرته؛ وكان مغرما بالسياحة، فسافر إلى استانبول أو دار الخلافة كما كانت تسمى يومئذ، سنة ١٠٧٥هـ (١٦٦٤م) ومكث بها حينا؛ ثم طاف بالشام وثغوره، ورحل بعد ذلك إلى مصر والحجاز؛ وانقطع للتدريس منذ سنة ١١١٥ هـ، وهو فى الخامسة والستين من عمره وأقام فى أواخر حياته بالصالحية على مقربة من دمشق، وعلا قدره وطار صيته، وتوفى سنة ١١٤٣ (١٧٣٠ م) وقد أربى على التسعين من عمره، ودفن بالصالحية، وقبره يعتبر مزارا يتبرك به إلى اليوم.

وكتب النابلسى عدة كبيرة من الكتب والرسائل فى التفسير والحديث والفقه والتصوف؛ وقد اشتهر بالأخص ببديعيته فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم وهى المسماة «نسمات الأسحار فى مدح النبى المختار»؛ وله شرح لديوان ابن الفارض؛ ومنظومة فى تاريخ ملوك بنى عثمان؛ ودون رحلته عن الشام ومصر والحجاز فى سفر كبير أسماه «الحقيقة والمجاز»؛ وبلغت مؤلفاته ورسائله أكثر من مائة، اشتهر الكثير منها

فى أنحاء العالم الإسلامى [1]

ه ه ه

كانت أمنية الحج باعث الرحلة الكبيرة التى قام بها عبد الغنى النابلسى سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) فى الشام ومصر والحجاز ؛ وهو يخصص لهذه الرحلة كما قدمنا سفرا خاصا عنوانه « الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز » ، لدينا منه بدار الكتب نسخة خطية جميلة [2] ؛ وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام ، يخصص القسم الأول منه لرحلة الشام وفلسطين ، والثانى للرحلة المصرية ، والثالث لرحلة الحجاز ؛ ويدون النابلسى رحلته بطريقة اليوميات ، فيذكر تنقلاته وزياراته ومشاهداته ، ويستطرد فى أحيان كثيرة إلى ذكر النبذ التاريخية والأدبية ؛ وقد بدأ رحلته من مدينة دمشق فى غرة المحرم سنة ١١٠٥ ، (٢ سبتمبر سنة ١٦٩٣) وطاف أولا بمدن الشام وثغوره . ووصل إلى الحدود المصرية حسبما يذكر فى يومياته فى اليوم الثالث بعد المائة من بدء الرحلة وذلك فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١١٠٥ ، ودخل مدينة القاهرة من باب الشعرية فى ٢٤ ربيع الثانى (أواخر ديسمبر سنة ١٦٩٣) وهو يحييها بإعجاب وحماسة كما حياها من قبل جميع الأعلام الوافدين عليها من المشرق والمغرب ؛ ونزل ضيفا على صديقه الشيخ شاهين بن فتح الله حيث أفرد له دارا خاصة ملاصقة لداره ورتب له بها كل ما يلزم لراحته ورفاهته ؛ وكان أول من استقبله من أعيان مصر عميد السادة البكرية السيد زين العابدين البكرى ، فزاره بداره الواقعة على بركة الأزبكية ، ويشير النابلسى إلى فخامة هذه الدار وروعة مجلسها المنيف المطل على البركة ، ويصف البركة الشهيرة « ذات الروح والريحان التى فيها نفحة من نفحات الجنان » ؛ ثم يصف الحمام المجاور لدار البكرية ، وبه جناح خاص لا يدخله سوى السيد . وقد دعاه إليه وتمتع بالاستحمام فيه . وكان والى مصر التركى يومئذ على باشا خازن دار واليها من قبل السلطان احمد خان (١٦٩٠ — ٩٤) ، فاستصحبه السيد البكرى لزيارته بمنزله بالقصر العينى المطل على النيل ؛ وكانت لمضيفه السيد شاهين علاقة صداقة بالوزير (الوالى) فكان يدعوه للمنادمة ، ويذهب النابلسى معه إلى مجلس الباشا فيقضيان فى زيارته أوقاتا طويلة

وزار النابلسى المحكمة وقاضيها التركى عارف افندى وأعجب بضخامتها وبساتينها اليانعة ، وزار مراد بك المصرى وهو من أعيان الصناجق المصرية بقصره الفخم فى « سبيل علام » على قيد ساعتين من القاهرة ، وينعته « بفخر الاكارم والاماجد » ، وقد أعجب النابلسى بفخامة مجالس أعيان المصريين وبذخها وحسن روائها ، وكانت تجهز بالأنوار الساطعة من قناديل وشموع . وتطلق فيها مباخر العود والعنبر ، وينتظم فيها أهل الفن ويوقعون نغماتهم الساحرة على الجنك والعود والرباب وتنشد فيها القصائد الغراء ، وبالجملة . فقد كانت مجالس السحر والطرب والسمر الرفيع .

ويصف النابلسى جزيرة الروضة وجمالها ، والمقياس وعجائبه وجامع عمرو وفخامته ؛ ثم قلعة الجبل ، وقد كانت مركز الوزير التركى (الوالى) وبها ديوان العساكر ، ويصف لنا المؤرخ بئر « الحلزون » الشهيرة التى أنشأها بها السلطان الغورى لاستخراج الماء من أعماق الأرض وقد شهد البقر تدور فيها على عمق سحيق ، وكان بالقلعة يومئذ عدة من السرايات والجوامع والمساجد والحمامات كأنها مدينة مستقلة ، وأبراجها العظيمة مما يلفت الأنظار ، وكان بها مصنع خاص لعمل الكسوة النبوية ، وعمل السجاد للحرم الشريف .

ثم يحدثنا الرحالة عن الجامع الأزهر وعن شيخه وهو يومئذ الشيخ منصور المنوفى الشافعى الضرير ، وكان يكثر من زيارته ويجتمع بأساتذته وطلابه ويستمع لبعض ما يلقى فيه من الدروس ، ويقول لنا النابلسى إن طلبة الأزهر رجوه فى إلقاء بعض دروس فى الحديث فاعتذر إليهم ، وكانوا يجتمعون حوله ، ويلتمسون بركته ، وهو يبكى تأثراً .

وكان الرحالة كثيراً ما يمر فى غدواته وروحاته بباب زويلة ، وقد كان يومئذ مخرج القاهرة القديمة من الجنوب ، ولم يفته أن يصف محلة زويلة ، وما كان يجتمع بها يومئذ من أرباب الملاعب والسميا ، وهم طائفة المهرجين والحواة ، الذين لم ينقرض نسلهم إلى يومنا

على أن أهم ما عنى به الرحالة هو زيارته للقرافة ومزاراتها ، وقد كانت الفسطاط ما تزال مجمع المقابر والمزارات الفخمة ،

(١) راجع فى ترجمة عبد الغنى النابلسى وذكر مؤلفاته سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر (ج ٣ ص ٣٠ وما بعدها ، وكذلك الجبرتى ج ١ ص ٥٩ .

(٢) تحفظ هذه النسخة برقم ٢٤٤ جغرافيا

توسطها مقبرة الشافعي الخالدة ؛ وكان النابلسي كما رأينا من أقطاب الصوفية الذين تستهويهم ذكريات القبور والمزارات المشهورة ، ومن ثم نراه يفيض فى وصف زياراته للقرافة ومقابر الفسطاط التاريخية ولا سيما مقبرة الشافعي ، وينوه بعظمتها وسحرها ، ويترجم لمن يأتى ذكرهم من العلماء والأولياء ؛ ثم يصف زيارته لمزار وليه المصطفى ابن الفارض بجامع القرافة ، كما يصف لنا حلقات الذكر الصوفى الذى تنشد فيه القصائد والأناشيد المؤثرة ، ويقول لنا إنه شهد الأولياء أحياناً يأخذهم التأثر فيمزق بعضهم ثيابه أو يدوس الناس هائماً على وجهه لا يلوى على شىء .

ولبث النابلسي بالقاهرة ثمانين يوماً حتى اقترب موعد السفر إلى الحج : فقابل أمير الحاج المصرى إبراهيم بك واستشاره فى خير الوسائل للسفر الأمين ، وبذل أمير الحج له ما استطاع من النصح والمعونة . وأعد النابلسى عدته للسفر وودع أصدقاءه فى مظاهر مؤثرة ، وغادر القاهرة فى السادس من رجب (سنة ١١٠٥) فى ركب من المصريين والشاميين ، وغادرها من باب الشعرية كما دخلها ، وودع الوزير خارج القاهرة بقصره بالعادلية ، وإلى هنا تنتهى رحلته المصرية

٭٭٭

وإذا كان النابلسى لم يعن كثيراً بدراسة أحوال المجتمع المصرى يومئذ ولم يقدم الينا عنه بيانات شافية ، فانه يقدم الينا بيانات وملاحظات لها قيمتها فى دراسة المجتمع المصرى فى خاتمة القرن السابع عشر ؛ ولعل أنفس ما فيها أقواله عن معالم القاهرة ومعاهدها ، فهذه الأقوال فى ذكر أبواب القاهرة وبركة الأزبكية وجزيرة الروضة والمزارات الشهيرة وغيرها ما يفيد فى تعرف خطط القاهرة فى هذا العصر ، وهى تعتبر حلقة فى مجموعة الآثار التى لدينا عن الخطط ، ثم أن أحاديثه عن أعيان القاهرة وعن مجالسهم من الصور التى لها قيمتها فى تعرف مجتمع هذا العصر . ولنذكر أن العصر الذى يحدثنا عنه النابلسى يسبق بداية العصر الذى يحدثنا عنه الجبرتى بنحو خمسين عاما فقط ، ومن ثم فى وسعنا أن نصل بين المواد المشتركة فى هذين الأثرين فى دراسة المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر

محمد عبد الله عنان

فى الأدب المقارن

التشابه والاختلاف

فى الأدبين العربى والانجليزى

خاتمة

للأستاذ فخرى أبو السعود

يروع الناظر فى الأدبين العربى والانجليزى شدة ما بينهما من تباعد ، وكثرة ما هنالك من وجوه الاختلاف ، وقلة ما فيهما من وجوه التشابه والاتفاق ، ولا غرو فان الظروف الجغرافية والتاريخية التى أحاطت بنشأة كل منهما ونموه وازدهاره ، كانت متباينة أى تباين ، والعوامل الاجتماعية والسياسية التى تترك آثارها فى الأدب كانت متضادة أى تضاد ، فجاء الأدبان اللذان هما وليدا تلك الظروف والعوامل مختلفين أعظم اختلاف ، فى الموضوعات والأساليب والأشكال والأغراض ، ولم يتفقا إلا فى كل عام من الوجوه التى يستوى فيها جميع الآداب لشيوعها بين جميع شعوب الانسانية

فالأمة العربية أمة سامية ضربت فى فيافى الجزيرة أحقاباً ، وترعرع أدبها تحت سماء البادية ، ثم خرجت من جزيرتها فورثت حضارات الأمم الشرقية ، وأخضعت لسلطانها أغنى بلاد الشرق وسيرت تحت لوائها شعوباً أرق منها مدنية وأعرق فى العلم والصناعة ودانت لحكومة ملكية مطلقة ، وكان الدين أساس دولتها وشارة مجتمعها ؛ والأمة الانجليزية أمة آرية خرجت من جزيرتها المنعزلة لجولت فى البحار ، وشاركت فى تراث الاغريق والرومان ، واعتنقت المسيحية ، وساهمت فى الحضارة الأوربية ، وتمسكت بنظام الحكم الديمقراطى ؛ فهما أمتان مختلفتان فى الجبلة ونوع المجتمع ومتجه التفكير ، فاختلف أدباهما تبعا لذلك ، ولم يتفقا كما تقدم إلا فى وجوه عامة ومناح عارضة :

فعصر الجاهلية فى تاريخ الأدب العربى شبيه بعصر ما قبل اليزابث فى التاريخ والأدب الانجليزيين : فى ذينك العصرين كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته فى عزلة كبيرة عن العالم . على حال شبيه بعصر الأبطال فى بلاد اليونان الذى أنتج ملاحم

هوميروس ، وكان الأدبان تبعا لذلك جافيين ، وعرى اللفظ والأسلوب ، ساذجى المعنى ، بعيدين عن الصناعة الفنية ، وكانا أقل رقيا من الأدب الفنى الذى جاء فى العصر التالى . وإن يكن الأدب العربى بلغ فى عهد الجاهلية والبداوة والعزلة مبلغا من الرقى أعلى كثيراً من مبلغ الأدب الانجليزى قبل أن يتصل اتصالا وثيقا بثقافات الأمم الأخرى وآدابها

ونهضة العرب بظهور الاسلام تماثل نهضة الانجليز فى عصر اليزابث ، بوصول النهضة الأوربية إلى انجلترا ، واتجاه نظر الانجليز إلى ما وراء البحر ، ففى كل من هذين العصرين بدأت الأمة تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها ، وتتصل بالعالم وتصطنع حضارته ، وتبنى لنفسها إمبراطورية مترامية الأطراف ، وارتقى أدبها من جراء ذلك ارتقاء عظيما ، ورقت ديباجته ودخل فى طوره الفنى ، طور الانشاء المحكم والمجهود الأدبى المتصل ، وانتشرت كلتا اللغتين فى بقاع الأرض وافتتحت آدابها كثيرا من الأمم : فاللسان العربى الذى لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة فى الجاهلية ، صار يتكلم من تخوم الصين إلى المحيط الأطلسى ، وأثر فى لغات وأزال غيرها وحل محلها ، واللغة الانجليزية التى لم يكن يتكلمها إلا ملايين معدودة فى عهد شكسبير أصبحت تتكلم وتدرس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبح أدبها عالميا كما كان أدب العرب عالميا على عهد عظمتهم

ولم تكن كل من الأمتين توطد أركان أمبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلا حتى طاولها فى النفوذ والسلطان ، وداناها فى ازدهار العلوم والآداب : فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية ، استقلت الولايات الامريكية عن الامبراطورية البريطانية ، بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبية على طول المدى : فلم تنجب الأندلس من الأدباء من يذوالفحول العباسيين ، ولا ظهر فى أمريكا ولا غيرها من أنحاء الامبراطورية البريطانية من دانى شكسبير وملتون ، فلعل التراث الثقافى الحافل ، والماضى التاريخى المؤثل من ضروريات ازدهار الأدب الأساسية ، وذلك ما كان يعوز الاندلس الاسلامية ، وما يعوز أمريكا الحديثة ، فظلت كلتاهما تلتفتان إلى الوطن الاول فى طلب النموذج والمنهاج والوحى

وكلا الأدبين العربى والانجليزى تأثر إلى حد بعيد بالكتاب السماوى الذى تدين به أمته : فأثر القرآن فى المجتمع العربى وتاريخ اللغة العربية وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسيم شامل، فقد كان منذ جاء مثلا أعلى فى البلاغة وثقافة قائمة بذاتها ، والانجيل منذ ترجم إلى الانجليزية فى عهد الاصلاح الدينى كانت له اليد الطولى فى تثبيت الأسلوب النثرى الانجليزى ، وتثبيت مفردات اللغة وإدخال مفردات جديدة ، واشتقاق غيرها ، واختراع طرق للاشتقاق أدت إلى توسيع جوانب اللغة ، وكان دائماً قدوة للأدباء يحتذونها فى إسلاس الأسلوب ، وله أثر مباشر جلى فى كتابين هما من ذخائر الأدب الانجليزى ، أحدهما « رحلة الحاج » لبنيان والثانى « الفردوس المفقود » لملتون ، ففى كليهما يقوم أساس القصة على ما ورد فى الانجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب ، بل إن دراسة الانجيل كانت هى الثقافة الوحيدة التى نالها بنيان ، الذى كان قساً ضئيل الحظ من العلم ، ومع ذلك يعد أسلوبه المبنى على أسلوب الانجيل فى الذروة فى أدب اللغة .

تلك أمثلة من وجوه التشابه فى الأدبين ، وظاهر أنه تشابه عام عارض محدود ، أما وجوه التناقض فعديدة تشمل نواحى الأدب وتضرب جذورها فى صميمه : فالأدب العربى ازدهر فى كل دولة إسلامية فهو أشد تأثرا واصطباغا بالنزعة الدينية من الأدب الانجليزى ، ومع ذلك قد جرى العرب إلى غايات من الترف واجتناء اللذات لم يبلغ بعضها الانجليز ، وبدا أثر ذلك الترف المغرق بجانب ذلك الروح الدينى فى أدبهم ؛ وقضت التقاليد التى نمت فى المجتمع الاسلامى بإسدال الحجاب على المرأة ، فتقلص ظلها من المجتمع وضؤل أثرها فى الأدب ، وازداد ضآلة بمرور الأيام بدل أن يزداد جسامة بتوطد الحضارة وذيوع التعليم واتساع جوانب الأدب ، فكانت المرأة الانجليزية أبين أثرا فى أدبها - كاتبة ومكتوبا عنها - من المرأة العربية .

وعرف الانجليز فنونا لم يحفل بها العرب كثيرا كالتصوير والنحت ، وأغرموا بما اطلعوا عليه من آثار تلك الفنون من مخلفات الأمم القديمة ، وامتلأ أدبهم بوصف كل ذلك وتقديره والأدب العربى يكاد يكون خلوا من ذلك ؛ وانكب أدباء الانجليزية على دراسة الآداب الأوربية المعاصرة وأفادوا منها كثيرا ، وتوفروا خاصة على دراسة الأدب الإغريقى القديم ، فكان لهذا الادب أبعد الآثار وأشملها فى الادب الانجليزى : رحب آفاقه وبسط أساليبه وأشكاله ، ومد أمامه منادح القول ووجه نظره إلى جمال الحياة الذى تصويره غرض الادب والفن جميعا واكتسب الأدب الانجليزى صبغة إغريقية ظل الادب العربى

بعيداً عنها ، فان هذا الاخير لشديد اعتداده بنفسه لم يحاول أن يطلع على آداب غيره ، أو يستفيد من تراث اليونان الادبى الحافل فكان ذلك الاقبال على الادب الاغريقى من جانب الانجليز ، وذلك الاعراض عنه من جانب العرب من أكبر دواعى اختلاف الادبين وتباعدهما .

وفى عهد الدولة والحضارة والثقافة ، عهد الطور الفنى للأدب حين يبلغ أوج رقيه ، رضخ العرب للملكية المطلقة ، والملكية تكف الشعب عن الحكم وتكف الادب عن النقد والاصلاح وتلحق الادباء بحاشيتها ، فجاء الادب العربى بلاطياً فى جملته ، يتمدح بمآثر الملوك ويصف مواكبهم ومظاهر عظمتهم ، ويغفل الشعب وأحواله وآماله إلى حد بعيد ، على حين اعتمد الادب الانجليزى فى أكثر عصوره على استجلاب رضى الشعب ، وتصوير أحواله ونشدان آماله ، فامتلأ الادب الانجليزى بالنظارات النقدية والقصص الاجتماعية والبحوث السياسية ، وحفل بتمجيد الحرية والديمقراطية واحترام الفردية والرأى العام ، على حين امتلأ الأدب العربى بالمدائح والرسائل الديوانية ، فمن أكبر مظاهر اختلاف الادبين العربى والانجليزى ، صبغة الاخير الشعبية الفردية وصبغة الاول البلاطية الرسمية .

وهذا الانضواء تحت لواء الملكية أكسب الأدب العربى صفات وخصائص ظل الأدب الانجليزى خلوا منها : فغلبت على الادب العربى — الذى تعود الإغضاء والرضا بالكائن وعدم محاولة الاصلاح — نزعة المحافظة والتقليد ، على حين سادت الادب الانجليزى روح التجديد ، وتجدد على طول العصور لفظا وأسلوبا وموضوعا ؛ وكان من دواعى تلك المحافظه أيضا اشتغال غير العرب بالادب العربى ، بل ظهورهم على العرب فى مجال الصناعة الادبية ، وقدم من جراء ذلك كله الاسلوب على المعنى ، وكان يعد أديبا من تمكن من أصول اللغة وأحكم انشاء الجمل البليغة ، لا من لطف حسه وأرهف شعوره ، واتسعت نظرته وسمت فكرته فى الحياة ؛ وكان من أثر نزعة المحافظة والجمود التى سادت الأدب العربى ان جمدت أشكاله وموضوعاته ، فلم تتطور أشكاله وتتميز وتتعدد ، ولم تتجدد موضوعاته وتتكاثر وتتوالد ، على حين كان تاريخ الأدب الانجليزى تاريخ تجدد مستمر وإخصاب متزايد فى هذه النواحى جميعا .

ولسير الأدب العربى فى ركاب الأمراء ، واعتماده على عطفهم دون عطف الجمهور ، أهمل الأدب موضوعات كثيرة هى من صميم الفن ولباب الحياة ، وهى هم الأديب المفكر المحس ، كعبادة مفاتن الطبيعة والتفنن فى عرضها ، واستلهام حكم التاريخ والتأنق فى وصفها ، واستيحاء جلائل البطولة وتصوير روائعها ، واستخلاص مواضع الفتنة والمتعة والجمال من خرافات الأقدمين ، وإرضاء الفن بنظمها وتجديد شبابها ، وعرض آثار الرحلات التى يقوم بها الأديب ووقعها فى نفسه ، والسبح فى عوالم الخيال البعيدة الساحرة ، والضرب فى أعماق الماضى وآماد المستقبل وآفاق الانسانية الواسعة ، كان الأدب العربى — لاعتماده على صلات الأمراء — فى شغل شاغل بحاضر العيش وقريب المطلب عن كل تلك العوالم الزاخرة بالفن والحياة والشعور والمتعة ، فأهمل بعضها ولم يمس بعضها إلا مساً رفيقاً ، وبكل هاتيك العوالم وذخائرها وأصدائها يحفل الأدب الانجليزى

هذا الاختلاف المطرد الشامل فى البيئة والمجتمع والموضوع والأسلوب ، مرجع ذلك الاختلاف الرائع الملحوظ بين كتب الأدبى العرب وكتب الأدب الانجليزى ، وفحول هذا وأقطاب ذاك ، وسيرهم وآثارهم وعقلياتهم وشخصياتهم ، حتى ما نكاد نرى فى الأدبين شاعرين متماثلين أو كاتبين يذكرنا أحدهما بالآخر ، من جهة العقلية والأسلوب أو الموضوعات ، أو يتشابه موضوع كتاب هنا وموضوع كتاب هناك ، أو تخال فكرة قصيدة فى هذا الأدب صادرة عن نفس الحالة النفسية الصادرة عنها أخرى فى الأدب الآخر ، ليس هناك شيء من ذلك ، وليس بين الأدبين إلا التباعد والتناكر ، كما يتباعد ويتناكر شخصان غريبان مختلفا الموطن والنشأة والتربية ، والعقيدة الدينية والثقافة ، والنزعة فى الحياة والمتجه فى التفكير

فإذا وازنا بين كبيرى شعراء الأدبين ، المتنبي وشكسبير ، بدا لنا الاختلاف والبون العظيم : فجانب كبير من شعر المتنبي موقوف على المدح والهجاء ، ولم يقل فيهما شكسبير حرفاً ، وشعر المتنبي ملىء بالحكم البليغة الموجزة المتجاورة يزاحم بعضها بعضاً وشعر شكسبير حافل بوصف الشخصيات وتحليل النفوس تحليلا مسهبا لايتوخى بلاغة الايجاز فى شىء ؛ وبجانب المدح والهجاء والحكمة وما يتصل بذلك لم يكد المتنبي يطرق موضوعا آخر بعيدا عن دائرة حياته الشخصية ، بينما روايات شكسبير وقصائده تعج بوصف الطبيعة وتقديس الفنون كالموسيقى وتمجيد الأبطال ،

وتضرب فى شعاب الخرافة وأرجاء التاريخ ؛ وشكسبير يراوح فى نظمه بين أشكال الشعر المختلفة ، بين الشعر المرسل والدوبيت والسونيت ، والفقرات المتراوحة طولا ، المتداخلة القوافى ، وقد دعى ضرب من السونيت باسمه لما أكسبه بعبقريته من مرونة ، على حين ظل المتنبى - وهو الشاعر العظيم المتمكن من اللغة والادب المطلع على حقائق الحياة - متمسكا بالشكل الشعرى الوحيد الذى وصل إليه من المتقدمين ، وهو القصيدة المصرعة المطلع الموحدة الوزن والقافية غير الموحدة الفكرة ، فلم يمنح الادب العربى شكلا ولا موضوعا لم يكن من قبله ؛ وعاش المتنبى ومات طامحاً إلى الملك وتضريب الاعناق ، ساخطا على تبريزه فى مضمار الادب الذى كان يحسد عليه ويكاد له من أجله ، ولم يكن شىء من ذلك مما يخطر لشكسبير على بال

وجلى واضح أن هذه الفروق بين الشاعرين العظيمين إنما ترجع إلى العوامل الاجتماعية والسياسية ، التى كانت تحيط بكل منهما وتكون نفسيته وعقليته ، وإلى هذه العوامل ذاتها يرجع التباين الشديد بين أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن العميد وبديع الزمان من جهة ، وبين ملتون وبيرون وشلى وكيتس وجيبون وكارليل وما كولى من جهة أخرى ، وهو تباين يجعل من المحال تشبيه واحد من الفريق الاول بواحد من الفريق الثانى ، فى سيرته فى الحياة أو فلسفته الفكرية أو مذهبه الادبى ، وإن كان من أسهل الأمور استخراج العديد من أوجه الاختلاف والتضاد .

هـذا الاختلاف فى البيئتين الجغرافية والظروف التاريخية ، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية ، والجبلة والتقاليد والمنازع ، وهـذا التباين بين الادبين فى المشرب والاسلوب والموضوع وشخصيات الادباء وسيرهم ، كل ذلك يجعل الموازنة بين الادبين من أمتع الدراسات الأدبية وأحفلها بالدروس والعبر ، وأدعاها إلى استخلاص المبادىء والنظريات الادبية ، وإلى التفطن إلى العوامل المؤثرة فى الآداب ونتائجها ، وقديما قيل : وبضدها تتميز الاشياء . ولو كان الادبان شديدى التشابه وليدى ظروف متقاربة وعوامل مؤثرة متماثلة ، لما كان فى الموازنة بينهما كبير طائل ، ولا كان تتبع ظواهرهما يستحق طويل عناء ، ولأشبها أن يكونا أدبا واحدا مشتركا بين أمتين ، موزعا بين لسانين

فخرى أبو السعود

واجبنا الثقافى

نحــو الآداب والفنون

للأستاذ اسماعيل مظهر

قال الأستاذ الكبير لزلى إستيفن فى أول الفصل الثانى من كتابه العظيم « الفكر الانجليزى فى القرن الثامن عشر » ما يلى :

إن الكتب التى هى بمثابة الدعائم الثابتة فى تاريخ الآداب ، إنما تكون من طائفتين : احداهما طائفة الكتب التى تلخص جدل الماضى ، والثانية طائفة الكتب التى تعد جدل المستقبل

والظاهر من كلام هذا الرجل الفذ يتضمن فى مطاويه كثيرا من الحقائق التى ينبغى لنا أن ننعم النظر فيها ، ونطيل التأمل والاستبصار منها ، ذلك بأن آدابنا وفنوننا حتى الآن تفتقر إلى الطائفتين معاً : تحتاج إلى كتب تلخص جدل الماضى ، وتحتاج إلى كتب تعد العدة لجدل المستقبل .

أما الكتب التى تلخص جدل الماضى فلا سبيل اليها إلا بالترجمة والنقل عن اللغات الأخرى ، لنستكمل بها - فى لغتنا العربية المنيفة - الأداة التى تعدنا لجدل المستقبل . وعلى هذا نريد أن ننظر أتسع آدابنا وفنوننا اليوم تلك الكتب التى تتضمن مشاكل الماضى وتعدنا لمشاكل المستقبل ؟

أما الذين هم أميل إلى التفاؤل فيقولون إن ما بين أيدينا من الكتب يكفى لتكوين الأديب الذى يستطيع أن يخلق القضايا العقلية والنظريات التى سوف تكون عدة الجدل فى المستقبل . وعلى النقيض من هؤلاء فئة تذهب إلى عكس ما تذهب اليه الأولى وإن كل من يعرف مقدار التراث الذى خلفته القرون الأولى ، ويجول بفكره جولة يقطع بها تاريخ ستين قرناً من الزمان ليقنعه بعدُ الشقة التى تفصل بين أبناء العرب وبين المراجع التى هى عدة الجدل المستقبل ، بلزوم الإكباب على درس ما يلخص جدل الماضى ، من آثار الآداب والفنون .

* * *

عن لى أن أكتب فى هذا الموضوع ، وأن أخص الرسالة بما أكتب ، إثر سؤال تقدم به إلى صديق من خريجى الازهر ومن رجال التخصص فيه يريد به أن يعرف المصادر التى يستطيع أن يدرس فيها تاريخ الاسكندر المقدونى وحياته وأعماله ، وقد أراد

أن يكتب رسالة فى تاريخ هذا الرجل وأن يعقد فى الرسالة فصلا يبحث فيه العلاقة التاريخية بين الاسكندر المقدونى وذى القرنين الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم . وعبثاً ما حاولت أن أستذكر اسم كتاب واحد فى اللغة العربية يمكن أن يتخذ مرجعاً فى مثل هذا الدرس التاريخى الحافل . وهب أنى استطعت أن أقفه على اسم كتاب أو كتابين ، على تقدير ذلك ، فهل ذلك يغنيه عن الرجوع إلى المصادر القديمة التى تصدت لذكر الاسكندر المقدونى وفتوحاته ، مثل فلوطرخوس وإفلينيوس وإسطرابون وبطليموس ويوستين وكورتيوس . وغيرهم وغيرهم ممن لاتحصيهم الذاكرة ، وهل ذلك يغنيه إذا أراد أن يكتب فى أخلاق الاسكندر عن درس المراجع التى كتبت فى فيليبس الثانى أبيه ، والمراجع التى كتبت فى صفات أمه أو لمياس ؟ هل ذلك يغنيه عن أن يعرف أن هنالك قصة أكثر ما فيها خرافى تدعى عند الأعاجم قصة الاسكندر ، يرجح الثقات أنها كتبت فى مصر فى خلال القرن الثالث الميلادى ، وأن هذه القصة ترجمت إلى أكثر اللغات الحية ما عدا العربية بالطبع ، وأن ذيوع هذه القصة كان سببا فيما ذاع عن الاسكندر من الخرافات ، حتى قيل إنه نبى مرة وإنه رسول مرة أخرى ؟

ذكرت للأديب العالم الذى سألنى بجمل هذه الأشياء ، وزدت على ذلك أن درس تاريخ الاسكندر على الصورة التى رسمها يحتاج إلى إلمام بتاريخ الثقافة الهلينية وعلاقتها بغزوات الاسكندر فى الشرق ؛ ثم زدت على ذلك أن هذا الدرس يحتاج إلى إكباب على درس جغرافية حوض البحر المتوسط القديمة والمدن التى قامت حقا فيه وتاريخها وأثرها فى نشر الثقافة الهلينية ، ثم درس جغرافية الشرق القديمة من حدود بحر الروم إلى حدود بلاد الهند؛ ثم زدت على ذلك أنه من المحتوم على من يريد أن يدرس هذا الدرس وينحو هذا النحو أن يلم بتاريخ الصراع بين فارس وبلاد اليونان قبل ظهور الاسكندر ، وأن يلم بالحالات التى قامت فى بلاد فارس قبيل الفتح المقدونى .

صور لنفسك أيها الباحث بعد ذلك عدد المراجع التى يحتاج اليها باحث كهذا الباحث ليدرس موضوعاً خيل إليه بدءاً أن بحثه هين وأن درسه سهل ، وصور لنفسك بعد ذلك مقدار ما يكون فى بحث مثل هذا يتم بغير مراجع وثيقة فيه من نقص وجهل وتقليل ، ثم صور لنفسك بعد هذا كله مقدار ما يكون فى مؤلف يبرز للناس عفو الخاطر من قدرة على تلخيص جدل الماضى ، ليكون للمستقبل جدله الخاص به ؟ وإنى لأقول آسفاً إن صديقى هذا على مقدار ما كان فيه من شغف لبحث هذا الموضوع ، قد اضطر إلى الميل عنه إلى بحث آخر عربى المراجع . بحث من تلكم البحوث التى يعتمد فيها على كتب عربية لم يصقلها النقد ، ولم يقف على إخراجها للناس علماء أنفقوا من وقتهم فى تصحيحها وضبط أعلامها وألفاظها ما يجدر بكتب هى فى الواقع مراجع العلم ومآل العالم فى البحث

***

انتهت محاولة ذلك العالم بأن يتحول عن الاسكندر إلى غيره ، لأنه فقد المراجع التى يستطيع أن يتخذها عدة للبحث . ولم ينته الأمر عند ذلك . فقد أرسل إلى أديب من أدباء العراق كتابا يسألنى فيه عن المراجع العربية التى يستطيع أن يخلص منها بشىء من تاريخ تاسيس مدينة الاسكندرية والبحوث التى قام بها الذين عنوا بموضوع هذه المدينة ، ولقد أردت أن ألبى طلب الأديب فبحثت عن المراجع فلم أجد لها أثرا ، ونقبت عن الكتب التى ألمت بشىء من تاريخ العصر المقدونى بمصر فلم أقف لها على وجود وفى النهاية اضطررت أن أكتب اليه بأن يستعين بأحد الذين يجيدون اللغة الانجليزية ويراجع ما كتب مهفى وهوجارت واردن بيفن ، وأنا على علم بأن حظه من التأليف والبحث سوف لا يعدو حظ صديقى الأول :

وبعد فان أمثال الباحثين كثيرون ، يريدون أن يلخصوا جدل الماضى ، وأن يعدوا العدة لجدل المستقبل ، ولكن عمادهم مفقود ، وسلاحهم مفلول ، على أن ما طلب الباحثان لأهون بكثير مما يطلب غيرهما ، فالتاريخ على ما فيه من عويص المشكلات يهون نقل مراجعه إلى العربية ، بقدر ما يصعب نقل الآثار الادبية أو الفلسفية ، فلو أن كاتبا أراد أن يكتب فى تاريخ الشعر الاغريقى فاى المراجع يقصد وأى الابواب يلج ؟ ولو أن كاتبا آخر أراد أن يستقصى تاريخ المذاهب الفلسفية التى اندست فى ما نظم شعراء الحكمة عند اليونان ، فأى الكتب يستذكر وأى المدونات يدرس ؟

دعك من كل هذا ، وصور لنفسك حال باحث يريد أن يقف على تاريخ العصر الرومانى فى مصر ، أو أن يقف على شىء من تاريخ الكنيسة النصرانية فيها ، أو أن يقيم من تاريخ الصراع بين الهيئتين السياسية والدينية ، هيكلا يخلص منه تاريخ شامل لمصر فى خلال سبعة قرون حكم فيها الرومان أرض النيل ، فأى الكتب العربية يستوحى وأى الابواب يطرق ؟

أما إذا كان هذا مقدار النقص الذى نحسه فى مراجعنا العربية فى مسائل هى أكثر المسائل مساسا بتاريخنا ، فكيف بنا إذا

أراد أحدنا أن يتخذ من الكتب العربية مرجعاً لدرس تاريخ الاستكشاف الجغرافى وعلاقة ذلك بتاريخ الاستعمار الأوربى، أو التاريخ السياسى لدول أوربا فى القرن التاسع عشر، أو أثر الحروب الأوربية فى تكوين التصور السياسى الجديد فى القرن العشرين ؟

تشعرنا هذه الحقائق بأن أدبنا ناقص، وأن علمنا ناقص، وأننا مصدودون عن البحث بصواد ليس لنا من يد فى دفعها ونحن أكثر شعوراً بذلك إذا أردنا أن نؤلف فى تاريخ العلم الحديث أو فى تاريخ الفكر عامة أو فى تاريخ الفنون أو الفلسفة.

* * *

مثل الظرف الذى تجتازه ثقافتنا، قد اجتازته من قبل أمم عديدة. والعرب فى العصر العباسى، وأوربا فى حدود القرون الوسطى، أقرب ما نمثل به، على أن احتياجنا إلى الكتب التى ندرس فيها شتى موضوعات الأدب والفن، ونكمل بها عدتنا فى اللغة العربية، ينبغى أن لا يقتصر على كتب المراجع وحدها بل يجب أن يتعدى إلى الأمهات المؤلفة فى مختلف الموضوعات، ففى تاريخ اليونان مثلا تدعونا الحاجة إلى أن ننقل إلى جانب المؤلفات القديمة مؤلف جورج جروت مثلا، وفى تاريخ الرومان نضطر إلى نقل كتاب ممزن الذى حلل الحياة الرومانية اجتماعياً واقتصادياً وكتاب انحلال القيصرية الرومانية الذى يبحث الأسباب السياسية التى أدت إلى ذلك الانحلال. كذلك ينبغى لنا أن ننقل إلى العربية كل المراجع التى تعالج تاريخ الفكر وثورات العقل وأن نلم بكل ما يتاح لنا الالمام به من المظان التى توسع من أفق العلم بأخبار الأمم وحالاتها وأسباب ارتفاعها وسقوطها

أضف إلى ذلك أن أدبنا تنقصه المعاجم الكثيرة. فهل يمكن لأديب باحث أو عالم متفرغ للعلم أن يستكمل عدة البحث بغير معاجم قريبة التناول سهلة الأسلوب ؟ وإذا أردت أن تعرف مقدار افتقارنا إلى المعاجم فانظر هل فى مراجعنا شىء من المعاجم الآتية : —

(١) معجم لغوى تاريخى (٢) معجم اصطلاحى لمفردات العلوم
(٣) معجم لغوى عام (٤) معجم للآداب
(٥) معجم للفلسفة وعلم النفس (٦) معجم الأسماء القديمة
(٧) معجم الأسماء الحديثة : فى الجغرافيا والتاريخ
(٨) معجم الأسماء العربية (٩) معجم أسماء طبقات الحيوان
(١٠) معجم أسماء طبقات النبات (١١) معجم المصطلحات الاسلامية

إلى غير ذلك مما يصعب حصره وتحديد الحاجة إليه.

وإنك إذا تصفحت رسالة فى التاريخ القديم مترجمة إلى اللغة العربية عن الفرنسية، ثم قارنتها برسالة فى نفس الموضوع مترجمة إلى العربية عن اللغة الانجليزية أو الالمانية، لتعذر عليك فى كثير من الاحوال التمييز بين الاسم العلم الواحد لشدة ما تنافر الناقلان فى طريقة نقله إلى العربية، حتى لقد تقدم إلى كثيرون من طلاب الآداب يسألون عن حقيقة أسماء مختلفة عرضت فى درج رسائل فى التاريخ، وبمقارنتها اتضح لى أنها اسم واحد نقله عدة من المترجمين بصيغ مختلفة فى العربية. ولا شك فى أن هذه الفوضى الغامرة من شأنها أن تعمى على طلاب العلم وربما كانت سببا فى تناقضهم. واذا وقع التناقض للملمين بشىء من آداب اللغات الاوروبية بسبب ذلك، فأحرى بمن يدرسون باللغة العربية خالصة، أن يكونوا أشد تناقضا وأكثر تطوحا مع الأوهام التى أكاد أجزم بأنها شائعة فى أكثر ما يكتبونه ويؤلفونه شيوعا عظيما اذا تعرض أحدهم للكتابة فى غير الموضوعات الاسلامية، وما السبب فى هذا إلا احتياجنا إلى معاجم لأسماء الاعلام تجرى فى تعريب الأسماء القديمة والحديثة على قواعد معينة، اللهم إلا ما عربه العرب، وهو قليل، فانه يبقى كما عربوه.

خيل إلى بعض المشتغلين بحركة الثقافة فى مصر، وتتبعوا أطوارها منذ مائة سنة، أن ما نقل إلى العربية من فروع المعرفة كاف لأنه يكون جزءاً صالحا من العلم بحقائق الأشياء، والحقيقة التى أحسها تناقض هذا الخيال، فقد اتبع النقلة عندنا حتى الآن طريقين : إما التلخيص وإما نقل نتف من المذاهب أو قطع متفرقة عن كتاب الأدب المعروفين، وكلا الأمرين مضر أقصى الضرر بالثقافة الصحيحة، فان هذه الثقافة لا يمكن أن تلتق نتفا وأقساطا إلا لتكون أدبا ناقصاً أو علماً ناقصا أو فناً ناقصاً، والمعرفة اذا اعتورها النقص فى الأصول التى تقوم عليها، امتنع عليها أن تكون أداة قويمة لخلق التصورات العامة فى العلم والأدب والفلسفة. وخلق التصور العام فى العلم والأدب والفلسفة هى الغاية التى يجب أن تنتهى إليها الثقافة العامة، هى المثل الأعلى الذى ينبغى أن ينشد من العلم، وهى الهدف الذى يجب أن يرمى اليه التعليم.

إذن يكون ما نقلنا إلى اليوم من الآثار العلمية والأدبية عن المعرفة الجديدة، وبالحرى عن الثقافة الاوربية، إنما هو نتف وأجزاء، لها من الفائدة على قدر ما فيها من تعبير صحيح عن مذاهب أصحابها، وقلما يعبر الجزء عن الكل تعبيراً صادقا قويماً

من جراء هذا كان ذلك الارتجاج العظيم الذى نشهده فى مجالى الأدب العصرى فى مصر والشرق. ذلك بأنه أدب اعتمد على نتف من قديمنا وعلى نتف من الحديث المنقول عن أوربا، اعتمد على

درس غير كامل لآدابنا القديمة ، وعلى درس غير كامل للآداب الاوربية ، فكان فى جملته أشبه ببقايا السلع المختلفة إذا اجتمعت لتكون شيئاً جديداً ، ولك أن تتصور مقدار ما فى ذلك الشيء المكون من تلك البقايا من تنافر ونقص ، إذا أنت صورت لنفسك حيوانا استحدثت صورته من أجزاء مختلفة من البقايا الحفرية جمعت من مختلف أجزاء الكرة الأرضية .

* * *

تلك حال الأدب ، وهذه طريق العلم فى عهدنا الجديد ؛ فمن المسؤول إذن عن هذه الفوضى العظيمة ؟

من الحقائق التى لا نزاع فيها ان ما استحدث حتى الآن من ألوان الأدب والعلم على نقصه ، إنما يرجع إلى جهود بضعة أفراد يمكن عدهم على أصابع اليدين . على أن جهود هؤلاء كانت جهوداً متفرقة موزعة لم تجتمع يوما على غرض رمت اليه ولا نظرت إلى هدف صوبت نحوه ووجهت عملها نحو البلوغ اليه . ولقد عانى أكثر هؤلاء من عنت الدنيا ومن انصراف الناس عن الأدب والعلم ماجعلهم يفرون من ميدان العمل الواحد تلو الآخر ، ليفسحوا الطريق لغيرهم ممن يريدون أن يقامروا على موائد الأدب والعلم إما بمالهم وإما بعافيتهم ، تاركين للأقدار وزن ماجهدوا فيه وعملوا له السنين الطوال . ومن أعجب العجب أن أكثر الذين سقطوا فى ذلك الميدان كانوا ممن حملوا لواء فكرة جديدة أو مذهب حديث حاولوا نشره فى الناس وفيهم حرارة الايمان وحماسة الاقتناع بصلاحيته ، وكان من الواجب أن يؤيدوا ولو إلى الحد الذى يمكنهم من إتمام رسالتهم وتأديتها على وجه يضمن فى المستقبل سلامتها لتكون عدة من العدد التى يقوم من حولها جدل المستقبل . ولكن شيئاً من ذلك لم يعش فى بيئتنا الأدبية على صورة يتخيل معها أشد الناس تفاؤلا بأن لها أثراً ثابتا فى عقل الجماعات العلمية أو الأدبية فى هذه البلاد أو فى غيرها من بقاع الشرق .

فلا نكران إذن فى أن الافراد قد قاموا بأوفر نصيب فى تنشئة تلك الجرثومة التى تبعث فى أدبنا شيئا من مجالى الحياة ، ولا يطالب الافراد مطالب بأكثر مما جهدوا له إلا ويكون إلى الظلم والتجنى أقرب منه إلى الانصاف والعدل .

غير أن أمامنا بعد الأفراد الذين عملوا على تكوين التصور الأدبى الجديد جهات أربع يجب أن نتوجه إليها بالكلام فى ختام هذه الكلمة

فان الأدب والعلم لم ينلهما حتى الآن نصيب من تقدير ظهراء لهم من الجاه والمال ما يكفل لأفراد ممتازين فى المعرفة على اختلاف ألوانها إبراز آثارهم وتسجيلها فى تاريخ العصر الذى يعيشون فيه ولقد كان لظهراء العلم والمعرفة فى القرون الوسطى الأثر الأعظم فى نقل العلوم إلى أوربا ، كما كان لهم فى العصر العباسى الأثر الأدنى فى نقل العلوم والمعرفة إلى الشرق . وفى مصر ولله الحمد فئة من هؤلاء . ولكنهم لا يفكرون فى الأدب أو فى العلم أو فى حماية حرية الفكر إلا كما يفكرون فى أتفه الأشياء التى تمر بهم فى الحياة . وهؤلاء لا يستحقون من كل نصير للأدب أو حليف للعلم إلا أشد اللوم والتقريع . ولقد برهن هؤلاء على أنهم فى هذا العصر ، عصر النور والمعرفة ، أقل إجلالا للعلم وتقديراً للمعرفة والأدب والفن ، من أمراء المماليك رحمهم الله ، وقد إزدهر عهدهم بالأدب واستنار بالعلم ، لأنهم كانوا ولا شك من أشد الأمراء المسلمين رعاية لآثار العقل والفن أدبية كانت أو فنية . لقد كان أمراء المماليك ظهراء لرجال العلم نصراء لرجال الأدب وفى معتقدى أن ذلك أفخم وأروع ما خلفوا لأعقابهم من صالح الاعمال

بقى بعد ذلك جهات ثلاث : الأولى وزارة المعارف ، والثانية الجامعة المصرية ، والثالثة الأزهر الشريف ، ولا أعلم لماذا لا يكون فى كل من هذه الجهات مؤسسات علمية لترجمة مايعنيها من المؤلفات قديمة وحديثة ؛ اللهم إلا أننا لم ندرك بعد أننا فى نهاية الأمم المتمدينة من حيث العلم والمعرفة والعناية بنقل العلوم والمذاهب الأدبية والفلسفية إلى لغتنا العربية المبينة

سيظل أدبنا وعلمنا ناقصين من نقل المظان والأمهات إلى العربية ؛ فهل نحن فاعلون ؟

اسماعيل مظهر

على هامش رحلتي الى الحجاز

ليلة في مكة

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست

تتمة ما نشر في العدد الماضي

ولا بد أن هذا الأمر كان مقصوداً من الله جلت قدرته وهي بعض صفاته العليا . فالعلماء الذين يتجردون من المادة ويصعدون بأفكارهم إلى أعلى عليين، والصوفيون الذين يحاولون التوحيد بين ذواتهم وذات الله وفنائهم فيها ، والفلاسفة الذين أرصدوا أنفسهم في سبيل البحث عن الحق المطلق الذي لا يلبس وليس له زمان . ألم يكن هؤلاء جميعا يحاولون الوصول من طرق مختلفة ، إلى غرض واحد ، هو الاشراف الباطني ؟ تلك هي نعمة التجرد التي ترد الظلام كما يرده المشعل في الليل ، وفي الوقت ذاته يعمى حامله إلا عن نفسه .

ولا يخفى أن النفس العربية نبتت في الصحراء القاحلة - أجل - لقد رأت ذلك النور المتألق في تلك الصحراء التي تحدها بحار من الرمال ، ويعلوها أفق لا شائبة فيه حيث يستطيعون حتى في ضوء القمر أن يميزوا بين الظل والنور ، بين الأسود والأبيض . ولكنهم قلما يدركون شيئاً من أسباب هذا التطور ، ولا يعرفون ما تخفيه لهم الأقدار في رحلاتهم البعيدة وهم يجتازون مفاوز الصحراء ، إنهم يستخفون بمظاهر هذا العالم الفاني لانهم يعتقدون اعتقاداً جازما بحياة أطيب وأنقى من تلك التي يعيشونها الآن ، وللدار الآخرة خير وأبقى .

* * *

لقد راعني جلال الحفلة ، فرأيت الرجال يضطجعون على الأرائك المبعثرة في أركان الثوى يتمتعون بلذة التدخين في ظل المصابيح ذات الضوء الشاحب ، وعلى الرغم من أن التدخين محرم في الأراضي السعودية فقد ألفيت بعضهم يدخن النارجيلة ويسبح مع دخانها في عالم الخيال .

وقابلني رب الدار بكل بشاشة وترحاب وكذلك بقية الضيوف ، وكان السرور يطفح من وجوههم والبشر يتألق على محياهم ، وكانت أول تحية سمعتها من صاحبي قوله :

— على الرحب والسعة ، الله سبحانه وتعالى يوليك برحمته ويمنحك بركته .

فأجبت : شكراً لك وللرفاق ، وفي الحقيقة إنني مستأنس لوجودي بينكم ، فلا حرمنا الله منكم .

ثم اتكأت على إحدى الارائك ووضعت وسادة تحت ذراعي . وفي الحال أحضر صاحب الدار نارجيلة مزخرفة بالنقوش بيد أني اعتذرت عن التدخين لعدم تعودي عليه من قبل ، وانني أخشى أن يصيبني دوار منه ، مع اعتقادي بأن في تدخين النارجيلة لذة وتنشيطاً للقريحة ، وهو مظهر من مظاهر العز الشرقي البائد ، حيث تظل رافعاً رأسك ، محدقاً في عيرك وأنت تمسك بقبضة خرطوم النارجيلة .

في ذلك الثوى المثقل بدخان التبغ والذي كانت حرارته تكاد تصهر الوجه ، رأيت لأول مرة منظر الجواري وهن يدخلن علينا بأكواب الشاي المعطر ، وكانت إحداهن المسماة فريدة ، عذراء في ريعان الصبا . وهي من جنوب بلاد العرب ، صبوحة المحيا ، بسامة الثغر ، رشيقة في حركاتها ، تخطو كخطو الغزال الوحشي . وكانت تحلى جيدها ومعصمها ببعض الحلى ، وترتدي من الملابس أفخرها . وكانت عند ما تصل إلى موضع الضيف تحنى رأسها بابتسامة ثم تقدم اليه الشراب المثلج .

هذه الجارية كانت مملوكة لصاحب الدار الذي يسيطر عليها سيطرة تامة ، فمن حقه مثلا أن يبيعها أو يعتقها أو يهبها إلى غيره وعلى الرغم من أن الفتاة كانت تدرك ذلك فقلما كانت تأبه بهذه الأحمال الثقيلة ، بل كانت تتنقل من مكان إلى مكان دون خوف أو وجل ، كعصفور موضوع في قفص يحوي طيوراً جارحة . أما الرجال فانهم يتسامرون في خلواتهم بأحاديث الهوى والعشق ويلتمسون في ذلك عزاء وسلوى . لأن المرأة في كل البلاد العربية لا يمكنها أن تشترك في الحفلات والمجتمعات، بل انهن يكتفين بالنظر خلسة إلى الرجال أثناء سمرهم ، وهن

لا يعلمن شيئاً من مجريات الأمور الخارجية إلا ما يصل إلى سمعهن من الأحاديث التى تدور حول الموائد

ولقد أفضى إلىّ أحد الضيوف المسمى الغرابى بحادث زواجه المرة الثانية وما لاقاه من زوجه الجديدة من عنت وقسوة عند ما أراد التبنى بها . فالزواج فى تلك الديار موكول إلى أهل الزوجة ، وعليهم أن ينتخبوا بأنفسهم الزوج الصالح لابنتهم ، أما القبائل البدوية التى ترابط خارج مكة فهم لا يتزوجون إلا من عشيرتهم . وذكر صاحبى الغرابى ، انه بعد إتمام مراسيم حفلة العرس ، تلك الحفلة التى يحتفل بها الرجال والنساء كل على حدته ، يدلف العريس إلى مخدعه حيث تكون العروس فى انتظاره . ومن البديهى ان ذلك السيد الذى فرضوه عليها ، لم يقع نظرها عليه قبل الساعة .

يدخل صاحبنا المخدع الذى يكون مضاء بسرجة باهتة اللون ، وهناك يقع نظره على كومة منزوية فى أحد الأركان وما تلك الكومة إلا عروسه ملفوفة بين الوسائد ، ومشدودة بالحبال . وتشعر بدخول عريسها فتخرج رأسها من بين تلك الوسائد - كما يخرج القنفذ رأسه - فيتقدم اليها بلطف محاولا أن يصالحها ، ولكن عوضاً عن أن تمديدها اليه ، فانها تلطمه على خديه بكل قواها ، بحيث تبعده عنها . ثم يحاول أن يقترب منها للمرة الثانية فيكون نصيبه مثل ما أصابه فى المرة الأولى وربما أحدثت فى يده جروحاً من أظافرها الطويلة - أما هو فيجد نفسه غير قادر على معاملتها بالمثل ، وبفرض أنه حاول أن يضربها ، فانها لا تحس بتأثير تلك الضربات التى لا تقع إلا على الوسائد . وفى هذه الحالة ليس من وسيلة أمامه سوى أن يشرع فى تمزيق هذه الوسائد ، الواحدة بعد الأخرى . وهو فى خلال هذه الفترة معرض لكل ضروب اللكم والعض والخربشة . ولا يكاد يفرغ من هذه العملية الشاقة حتى يضنيه الاجهاد فتهدأ ثائرة العروس وتبدأ تسلم نفسها اليه » .

وضحكنا ضحكا عالياً من هذا الحديث ثم أخذنا نتمتع باحتساء القهوة العربية واكل شرائح البطيخ . وكانت هذه القصة الطريفة بداءة السمر لأنهم استحضروا بعد ذلك حاكياً كان مخبأ فى إحدى الزوايا ، وشرعوا يضعون عليه أقراصاً بها قصائد وأغانى تسودها مسحة من الحزن والكآبة . وارتفع صوت بعض الضيوف بأغان من نوع الرومبا . وكان فى ركن من أركان الثوى رجل يغنى بواسطة عود يحمله . وكان هذا الرجل قد تعلم هذا النوع من الضرب الموسيقى المصحوب بالغناء فى فترة إقامته بالديار المصرية ولما رآنى مهتما بالاغانى التى يذيعها اقترب منى وطلب إلى بالحاح أن أندمج معهم فى هذا اللهو البرىء ، فلبيت الطلب وتناولت العود فضممته إلى صدرى ، كما تضم المرضعة فطيمها ، وسرعان ما تحركت أصابعى فوق الأوتار وانبعثت من حلقى أنشودة بحرية ، من نوع تلك الأغانى التى تعلمتها فى البرارى فسر المدعوون من تلك النغمات التى لم تألفها آذانهم وأقبلوا يصافحوننى بحرارة . وهنا دخلت الجوارى حاملات فى أيديهن الصوانى الطافحة بأنواع شتى من المرطبات ، ثم تقدمت احداهن فتصدرت الثوى وبدأت تطربنا بصوت عربى جميل يسيل رقة وليونة على حين كنا نتلذذ بالشراب المثلج سكارى من رائحة التبغ ومسرات الغناء .

والواقع أن هذه الأغانى الشعرية الرائعة هى إحدى عوائد العرب القديمة التى ما برحت نافذة إلى عصرنا الحاضر دون تغيير ولا تبديل . فالعرب عن بكرة أبيهم ميالون بفطرتهم إلى الشعر ، ففيه الحكمة التى تأخذ بمجامع اللب ، وله تأثير خاص على الحواس والمشاعر . مع أنهم فى أحاديثهم الخاصة يلجاون إلى استعمال اللغة الدارجة ، وهى لهجة معقدة ليس فى وسع كل إنسان أن يتفهمها بمجرد سماعها . وقد يتعذر على كثير من الناس أن يتذوقوا طلاوتها لأول وهلة ، رغم أنها حافلة بالألفاظ العذبة والنكات السمحة . أما الشعر العربى فيدور كله حول الغزل ، ويرجع الفضل فى ازدهار حركة الشعر الغزلى إلى عمر بن أبى ربيعة الملقب « بدون جوان جزيرة العرب » .

وكانت الفتاة قد انتهت من غنائها فنهضت وغادرت الثوى ثم تقدمت اخرى وأنشدت قصيدة غرامية تفيض بالعواطف الذاتية ، وبعد ذلك خيم الصمت والسكون ، ولم يعد يسمع غير أصوات تقلب المياه فى جوف النارجيلة ، واصوات

التنهدات والزفرات وهى تخرج قوية حارة من صدور الرجال وراعنى هذا الصمت العميق الشامل، وأحسست أنى تحت تأثير قوة مغناطيسية لا قوة لى على دفعها أو ردها، وراعنى أيضا أنها كانت حالة جميع الضيوف تقريباً، فلقد رأيت أنهم يتوجعون ويتأوهون، ولاحظت أن البعض منهم يئن من لوعة الفراق، ويتذكرون خليلاتهم، فاقتربت من أحدهم ويدعى الكتبي وسألته على الفور:

هل أنت مغرم ياصاحبي إلى هذا الحد؟ فأحنى رأسه ولم يحر جواباً لأول وهلة، ولاحظت أن وجهه احتقن بالدم ثم سمعته بعد لحظة يقول:

ولكن ليس فى وسعى أن أملكها، فانا كما ترى رجل فقير. وهى من عائلة مثرية. ما حيلتى وقد وقعت فى شراك غرامها وأصبحت أسير هواها؟ لقد أصبحت أسير امرأة ...

وكف عن الحديث فجأة، فطيبت خاطره وقلت له:

— ولكن المرأة التى تشير إليها ليست كسائر النساء.

فقال الرجل:

— انك تقول الحق وتنطق بالصواب ولكن انظر إلى فقد أصبحت فى حالة يرثى لها، بعد أن وقعت فى غرامها. ما حيلتى وقد رزقها الله قداً نحيلا وقامة هيفاء، وعينين نجلاوين كعينى الغزال؟ انى أبتهل إلى الله ليل نهار أن يجعلها من نسائى ويرزقنى منها الذرية الصالحة

وتأثرت تأثراً شديداً من حالة هذا العاشق المدنف وأردت أن أنتقل إلى صاحب آخر، وكان الليل قد انسلخ منه نحو ثلثيه، فألفيت الضيوف يسبحون فى عالم الخيال وعالم الحب، وكلهم يشكون تباريح الهوى ولوعة الهجر، ولاحظت أن البعض منهم يبكون نساءهم ويندبون حظوظهم، وهكذا كانت ترتعد فرائصى من هول الموقف وأنا أفر من صاحب إلى صاحب

والخلاصة التى أستطيع أن أقررها أن هذه العواطف النبيلة التى اكتسبها البدو إن هى إلا أثر من آثار الصحراء التى يرجع الفضل إليها فى تهذيب نفوسهم، وفى تلقينهم أصول هذا الغزل الذى قلما نجده فى سواهم من الشباب

وحينذاك أخذ ضوء المصابيح يخفت فدخلت إحدى الجوارى الحسان إلى البهو تحمل مصابيح أخرى جديدة بعد أن سحبت المصابيح المستعملة من داخل الفوانيس.

وكان من حظى أن اقتربت الجارية من ناحيتى، ولاحظت أن وسادتى سقطت على الارض فالتقطتها من مكانها بمهارة وقدمتها إلى. هناك وقع نظرى عليها وطالعت وجهها فى ضوء المصباح اللامع، وراقنى منها شعرها الأسود المتموج كخيوط الليل، وأسنانها اللؤلؤية وقامتها الهيفاء، كما أعجبت بحركاتها الرشيقة، فأدمنت النظر اليها وصرت أتبعها بخاطرى وهى تتحرك كالطائر من غصن إلى غصن، ولاحظ مضيفى اهتمامى بهذه الجارية فاقترب منى وقال:

— هل أزعجتك عائشة؟

فأجبته على الفور:

— انها فتاة بديعة حقاً

ثم حاولت أن أغير مجرى الحديث، ولكنه أدرك حيلتى فقلت له: ماذا دهاك يا أخى؟ هل كنت سبباً فى إيلامك؟

فأجاب: كلا! لا شىء مطلقاً. لقد اغتبطت حين سمعتك تطنب فى جمال عائشة، لأنى شخصياً مفتون بها موله فى حبها

فقلت مبتسما:

— ولكن مادام الله قد من عليك بها فانك فى نظرى رجل سعيد.

فتبرم وقال فى ضجر: أنا سعيد؟ ومن أين لى هذه السعادة؟

فقلت له: أليست عائشة ملك يمينك؟

فقال: أجل إنها لى، ولكنها جارية، ابتعتها بعشرين ديناراً من سوق الرقيق، كانت إذ ذاك فى العاشرة من عمرها وهى الآن فى السادسة عشرة.

فنظرت اليه فى دهشة، بيد أنه أحنى رأسه ثم صرح لى أنه يحبها من أعماق قلبه، فسألته للمرة الثانية: وما يمنعك عنها وهى جاريتك وملك يمينك؟

فأجاب: هذا صحيح، ولكن دون ذلك خرط القتاد، فالانسان فى هذا الوجود قد يبلغ قمة المجد وقد يصل إلى الشهرة وإلى المال ولكن هذه أمور ثانوية وليست لها أدنى قيمة إذا

موانع الابتكار فى أدبنا الحديث

للأستاذ محمد يونس

> إنه ليسعدنا حقاً أن يكون قريباً ذلك اليوم الذى نشعر فيه من جمهرة كتابنا أنهم أحلوا الابتكار محل المحاكاة وأبدعوا فيما يكتبون ابداعاً فيه غناء وإغناء للأدب العالمى العام
>
> الدكتور منصور فهمى — مجلة المصرية

كان حديث الدكتور منصور فهمى فى مجلة المصرية ذا شجون ، فقد تناول فيه الأدب العربى الحديث والأدباء بالنقد اللاذع ، وصورهم بصورة المقلد المفتون ، وعراهم من أردية المجد التى اكتسوها بعد الكفاح الطويل

وأنا وإن كنت إلى حدّ ما أؤيد الدكتور فى أن أدبنا الحالى أدب تقليد ومحاكاة لا أدب ابتكار وإبداع . فإنى أخالفه فى تحديد أدب المحاكاة عندنا وفى قيمة هذا الأدب ، ثم لا ألقى اللوم كله على الأدباء أنفسهم . لأن الدوافع إلى المحاكاة كما سيرى القارئ قريباً أقوى من أن يغلبها الكاتب اللبيب

كان كلام الدكتور عن الأدب عاماً شاملا كل أنواعه ، ولكن من الظلم ونحن نلصق طابع التقليد على أدبنا الحديث أن نغفل طائفة خاصة من الكتاب برعت فى الابتكار وأعنى بها كتاب المقالة . فالمقالة خطت فى الأدب العربى الحديث خطوات واسعة وأصبحت تتحدث فى موضوعاتها الخاصة وأهدافها القريبة حديثاً وصل حد الابتداع عند كثير من الكتاب وهى ذى المقالة العربية فى مصر لا تقل عنها فى البلدان الغربية إن هذه المقالات التى تقدمها إليك الصحف والمجلات تحركك معها إلى حيث تريد من حيث لا تريده أنت ، وتفهمك مطالبها بكل وضوح ، هى فخر الأدب الحديث . وكثيرون لدينا برعوا فى حيل الاقناع وفى مفاجأة القارىء واللعب به وبكل ما يجعل للمقالة العربية مجدها وشخصيتها . إلى هنا يقف أدباؤنا عن الابتكار ، وما بقى من أنواع الأدب العربى أكثره خلو من الابتكار ، ولكن خلوه من الابتكار لا يعنى فقره فى الاجادة ودقة الانتاج ، فأدب المحاكاة أدب قائم بذاته له قيمته وفوائده ، وله — وهذا ما نريد الاشارة إليه فى هذا المقال — أوانه ، ولابد للأدب كما للمجتمعات البشرية من المرور فى أدوار تاريخية مختلفة يتبع فيها سنة التطور ومنطق التدرج وهو قانون ثابت لا تفيد معه ثورة الأديب ، ولا ألقاب الابتكار والتجديد التى تمنح له بغير حساب

وهذا الدور فى الأدب العربى ، دور محاكاة ونقل تتجه فيه العبقرية راضية أو غير راضية إلى النقل عن أدب الغرب أو إحياء ما اندرس من أدب العرب ، وهو تيار جارف لا يقف أمامه كاتب مهما كبر . ولذلك فشلت محاولات الابتكار عند كبار أدبائنا . هذه محاولات شتى قام بها كثيرون منهم فى السنوات الأخيرة وأرادوا أن يظهروا بها الابتكار والابداع . ليقرأها القارئ جيداً وليحكم عليها من غير مداجاة ، ألا يرى عليها الهزال والشحوب ؟ فيدرك أن هذه الجهود المبتورة

لم تود بنا إلى حب جارية مملوكة .

فهززت رأسى وأعدت نفس السؤال : ولكنها ملك يمينك ؟

فقال : هذا صحيح . إن جسمها ملكى ولكن روحها ليست ملكاً لى . إننى لا أبغى منها ذلك الجسد ولا متعة الشهوة وحدها . بل أريد أن تبادلنى حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص .

وراحت الدموع تنحدر من عينيه وتسيل فوق خديه ، ورمقته بنظرة فيها كل معانى الشفقة والرثاء لحالته ، فهو والد وله أطفال وزوجتان أخشى عليهم جميعاً عاقبة هذا الحب الجديد .

وأعقب ذلك صمت طويل . تذكرت فى خلاله مواقف الحب وسلطانها على النفوس . ثم رأيت أن أغادر الدار فودعت مضيفى وسرت اجتاز شوارع مكة الضيقة ، حتى وصلت إلى الميدان العام وكانت تخترقه قافلة يحدو أصحابها بغناء شجى مطلعه :

من ذا (يلمى) إن بكيت صبابة ... الدمع دمعى والعيون عيونى

عبد الكريم جرمانوس

لا تناسب اسم اولئك الكتاب وما لهم من مجد عظيم نالوه عن طريق النقل .

وما يقال عن النثر يقال عن الشعر أيضاً . ولقد أدرك شوقى — رحمه الله — فى أواخر أيامه أن خير ما يختم به إنتاجه قصص شعرية ، عجز عن أن يستمدها من المحيط الذى يعيش فيه فرجع إلى كليوباتره فى التاريخ المصرى ومجنون ليلى فى التاريخ العربى ، وكأن الحياة الدارجة ما استطاعت أن تلهم الشاعر الموهوب موضوعاً لرواية قوية تقترن بحياة هذا الجيل

ولا عيب على هؤلاء الأدباء أن ينجحوا فى دور الناقل ويخفقوا فى دور المبتكر ، ولا ينقص من قيمة جهدهم أن يبرز فى النقل وحده ، فالأدب المنقول يؤدى واجباً كبيراً فى خدمة الأمة العربية ويشغل حلقة لابد منها للوصل بين الماضى والمستقبل . هى قسمة لابد منها وتوزيع لنوع الانتاج بين أدباء المستقبل وأدباء اليوم الذين كان من حظهم أن يأتوا فى فى هذا العهد ، عهد النقل فلا يسطع نجمهم إلا فيه ولا يذهب تقيدهم به سناء عبقريتهم

وهنا من حق القارىء أن يسألنى : لماذا يعجز أدباؤنا عن الابتكار ؟ أهو كسل منهم كما يقول الأستاذ المازنى وفيهم النشاط الجم . أم فقر فى المواهب . وفيهم العبقرى الموهوب أم فقر فى المحيط وهو عامر بشتى الصور والمفاجآت ؟

وقد ثار مثل هذا التساؤل من حين قصير بين أدباء الانكليز وتناول ناقدان كبيران البحث عن أسباب جمود الأدب الانكليزى الحديث (ولاسيما فى ناحية القصة التى تحتاج أكثر ميادين الأدب الغربى) وتأخره عن الأدب الامريكى الذى أصبح يخطو خطوات واسعة وينتج آثاراً مدهشة .

قال أولهم : إن الابتكار — وليد ما أسماه شعوراً بالاستغراب يأخذ على الكاتب أنفاسه ويدفعه فى مجالى الابداع ، ومتى عجز المحيط عن إثارة مثل هذا الشعور فى الكاتب إما لكثرة الصور السابقة المرسومة عنه أو لفقره خلا جو الأدب من المبتكرين

وقال الثانى : إن الاديب يبتكر يوم يثق بمحيطه ويؤمن به ، ويعجز عن الابتكار اذا فقد هذه الثقة فلا يثير فيه العناية بدرسه وتصويره بلونه الخاص

وإنى أرى أن المانع من الابتكار فى الأدب العربى ، مزيج من السببين .

ولقد يبدو غريباً لأول وهلة أن تكون الحالة واحدة فى المحيط الانكليزى الذى كثرت الصور عنه وفى المحيط العربى الحديث الذى لم ترسم له صورة صحيحة باهرة إلى الآن ، ولكن هذا نتيجة فقدان الشعور بالاستغراب ، أما فى الأول فأحسب القارىء قد فهم سببه وهو كثرة الصور الباهرة التى رسمها لهذا المحيط أكابر الكتاب فلم تترك مجالا للمزيد ؛ وأما فى الثانى فلأن هذا المحيط لا يمكن أن يثير الكاتب إلى الاهتمام به ما دام فكره مشدوهاً بأنوار أخرى بديعة تأتيه من بعيد .

أرجو أن يتصور القارىء نفسه مكان الاديب العربى اليوم : فهو إذا كان مجدداً لا يزال مسحوراً بصور الأدب الغربى العامرة وما فيها من عبقرية ونبوغ ؛ وإذا كان من دعاة القديم فلا يزال مفتوناً بالصنعة الباهرة وقوة الاندفاع والحيوية التى يشهدها عند الجاحظ أو المتنبى مثلا . إن هذه الصور تأخذ بلبه فتشغله عن المحيط الذى هو فيه وهو لا يزال محدقاً بها غير ملتفت إلى ما حوله ما دامت أضواؤها الخلابة تبهر عينيه . وإنى لأشعر أن هذا الكاتب المنصف لنفسه ولقارئه إذا حاول رسم صورة لشخص من الذين حوله يقعده عن المحاولة ما يراه من تصوير باهر لأساتذة كبار كموباسان ودكنز . فيقول فى نفسه : خير أن أنقل هذه الصور الغربية للناس من أن أفحمهم على مجازفاتى فى التصوير . ويقعد عن الابتكار .

ومثله هنا مثل العاقل لا يشعل سراجه ما دامت الشمس طالعة ، فهو يكتفى بفتح باب النافذة فتضىء أشعتها المكان وليس فى هذا عيب على كهرباء البيت ولا انتقاص لمخترعها العظيم .

ولن يشعل صاحبنا العاقل كهرباءه إلا ساعة تغيب الشمس وهى هنا فى الأدب الساعة التى تذهب فيها دهشة الأديب من منتجات الأدب الغربى أو العربى القديم .

وهنا يدخل السبب الآخر الذى ذهب اليه الناقد الانكليزى الثانى ، فان انبهار الأديب العربى بصور الأدب الغربى أو العربى القديم يبهت أمامه صور محيطه ويضعف ثقته فيه ، فلا يزال هذا المحيط متردداً بين الغرب والشرق وبين الجديد والقديم وبين التقليد والرجعية وقد فقد شخصيته المستقلة القديمة التى تثير الكاتب إلى التغنى بامجادها ، ولم يكتسب الشخصية الجديدة التى تثيره إلى الاشادة بقوتها . ولذلك كان طبيعياً أن يذهب الكتاب والشعراء الى المحيطين البعيدين ، الغربى والعربى القديم ، لأن شخصيتيهما أقوى وأتم .

وأظن القارىء أدرك الآن لماذا اندفع شعراء العصر الأول من الاسلام فى الابتكار فى الشعر لأن المحيط الجديد الذى خرج اليه العرب من الجزيرة كان عامراً مدهشاً وهكذا ذهب أبو نواس المشدوه بالمحيط الجديد يفاخر به ويتهكم على شعراء الجاهلية ، أما ابن المعتز الذى الف حياة النعيم الجديد إلى حد ما ، فكانت أحسن نفحاته هى التى يستمد وحيها من الصحراء ومعانيها التى أصبحت غريبة عنه تثير استغرابه أكثر مما حوله ، وان كانت نضارة هذا المحيط الباقية حافزة له على عدم التخلى عنه تماماً كما صنع الذين جاءوا بعده ممن ذبلت أمامهم زهرة المحيط الجديد وعاشوا فى العهد المتأخر فرجعوا إلى تراث الجاهلية يقلدونه تقليداً فاضحا لأن هذا الشعر الجاهلى أقوى شخصية وأسطع نوراً من أى شعر جاء بعده

ونعود إلى أدبائنا اليوم ، فهم مهما غالوا فى المكابرة لا يستطيعون إنكار زهدهم واستخفافهم بهذا المحيط الباهت الألوان الفقير إلى الأمجاد الباهرة ، ولذلك فهم لن يبتكروا إلا يوم يؤمنون به ، ولا يؤمنون به إلا متى ذهب أثر الدهشة التى يحدثها الأدب الغربى الجديد أو العربى القديم فى أذهانهم ، على أن ترافق هذا زيادة فى سطوع المحيط .

هذه هى موانع الابتكار وهى قوية لا يستطيع الكاتب مهما كانت عبقريته التخلص منها

خير لأدباء هذا الجيل أن يكتفوا بأدب النقل ويجودوا فيه ويهيئوا المجال للجيل القادم فان مجدهم لن يقوم إلا على النقل وهو مجد له خلوده .

(نزيل القاهرة) محمد يونس

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

١٠٢ — فيه غيره . . .

ابن الشبل البغدادى :

وكأنما الانسان فيه غيره ... متكوناً والحسن فيه معار

متصرف وله القضاء مصرف ... ومكلف وكأنه مختار

طوراً تصوّب به الحظوظ وتارة ... خطأ تحيل صوابه الأقدار(١)

تعمى بصيرته ويبصر بعد ما ... لا يسترد الفائت استبصار(٢)

فتراه يؤخذ قلبه من صدره ... ويرد فيه وقد جرى المقدار

فيظل يضرب بالملامة نفسه ... ندماً إذا اعبت به الأفكار

لا يعرف الافراط فى إيراده ... حتى يبينه له الأصدار

١٠٣ — لم تبلغ قدريتى هذا كله

حدث المبرد : قال رجل لثمامة (القدرى المعتزلى) : أنت إن شئت قضى فلان حاجتى

فقال ثمامة : أنا قدرى ، ولم تبلغ قدريتى هذا كله ؛ انما قلتُ : (إن شئتُ فعلتُ)(٣) ولم أقل : إن شئتُ فعل فلان

١٠٤ — جد الأدب جد وهزله هزل

قال خالد بن يزيد الكاتب : لما بويع ابراهيم بن المهدى طلبنى ، وقد كان يعرفنى وكنت متصلا ببعض أسبابه(٤) . فقال : ياخالد ، أنشدنى من شعرك

(١) تحيل صوابه : تحمل صوابه خطأ

(٢) استبصر الشىء : استبانه ، وفيه : تأمل

(٣) فى شرح المقاصد : « اتفقت المعتزلة ومن تابعهم من أهل الزيغ . . . على أن العباد موجدون لأفعالهم مخترعون لها بقدرهم ، واجترأ المتأخرون فسموا العبد خالقاً على الحقيقة »

والجبرية تخالف القدرية فى مقالتها . فى (التعريفات) : الجبرية من الجبر وهو إسناد فعل العبد إلى الله والجبرية اثنتان : متوسطة تثبت للعبد كسبا فى الفعل كالأشعرية ، وخالصة لا تثبت كالجهمية أصحاب جهم بن صفوان

(٤) أسبابه : رجاله (حاشيته)

فقلت : يا أمير المؤمنين ، ليس شعرى من الشعر الذى قال فيه رسول الله : « إن من الشعر حُكما [1] » ، وإنما أمزح وأهزل ، وليس مما ينشده أمير المؤمنين

فقال لى : لا تقل هذا ياخالد ، فان جد الأدب جد ، وهزله هزل ، أنشدنى ، فأنشدته :

عش لحبيـــك سريعاً قاتلى | والضنى-إن لم تصلنى- واصلى
ظفر الشوق بقلب كمـــد | فيـك ، والسقم بجسم ناحل
فهمـــا بين ا كتئاب وبِلى | تركانى كالقضـــيب الذابل
يبكى العاذل لى من رحمـــة | فبكائى لبـــكاء العاذل

فاستملح ذلك ، ووصلنى

١٠٥ — ندماد الفتى قبل كأسه

العطوى (أبو عبد الرحمن) :

يقولون قبل الدار جار موافق | وقبل طريق المرء أنس رفيق

فقلت :

وندمان الفتى قبـــل كأسه
فما حث سير الكأس مثل صديق

١٠٦ — المليحة

قال ابن أبى الحديد : وجدت بخط أبى محمد عبد الله بن احمد الخشاب فى تعاليق مسودة أبياتا للعطوى وهى :

قد رأينا الغزال والغصن والنجمين
شمس الضحى وبدر الظـــلام
فوحق البيان يعضده البرهان
فى مأقط ألد الخصام [2]
ما رأينا سوى المليحة شيئا
جمع الحسن كله فى نظام
فهى تجرى مجرى الاصالة فى الرأى
ومجرى الأرواح فى الأجســـام

(١) الحكم : الحكمة ويروى أن من الشعر لحكمة . فى (النهاية) : قيل أراد بها المواعظ والامثال التى ينتفع بها

(٢) (البرهان) الحجة (المأقط) موضع الحرب فتضربه مثلا لموضع المناظرة والمحاجة . والالد الشديد الخصومه (للمبرد)

وقد كتب ابن الخشاب تحت المليحة : ما أصدقه إن أراد بالملحية الحكمة !

١٠٧ — شهود ثقات

أنشد رجل الامام ابراهيم الحربى قول الشاعر :

أنكرت ذلى فأى شىء | أحسن من ذلة المحب
أليس شوقى ، وفيض دمعى | وضعف جسمى ، شهود حبى

فقال ابراهيم : هؤلاء شهود ثقات . . .

١٠٨ — هذا من خاطر الجن

قال الصولى : حدثنى على بن عيسى قال : كان البحترى معى جالسا . فسلم علىّ ابن لعيسى بن المنصور ، فقال لى : من هذا

قلت : هذا ابن عيسى بن المنصور الذى يقول ابن الرومى فى أبيه :

يقتر عيسى على نفسه | وليس بباق ولا خالد
فلو يســـتطيع لتقتيره | تنفس من منخر واحد

فقال لى : أف ، وتف ! هذا من خاطر الجن لا من خاطر الإنس ووثب ومضى

١٠٩ — وإذا غاب فبالثانى

(فى محاضرات الأدباء) للراغب :

قال خالد بن صفوان لجاريته : أطعمينا جبناً فانه يشهى الطعام ويدبغ المعدة [1] ، ويهيج الشهوة ، فقالت : ما عندنا

فقال : ما عليك ، فانه يقدح فى الأسنان ، ويلين البطن وهو من طعام أهل الذمة .

فقال بعض أصحابه : بأى القولين نأخذ ؟

فقال : إذا حضر فبالأول . وإذا غاب فبالثانى

١١٠ — استعدت التاريخ

قال الفقيه المقرى : أنشدت يوما الابلى قول ابن الرومى :

أفنى وأعمى ذا الطبيبُ بطبه | وبكحله الأموات والأحياء
فاذا مررت رأيت من عميانه | أمما على أمواته قـــدّاء

فاستعادنى حتى عجبت منه مع ما أعرف من عدم ميله إلى

(١) بفتح الميم وكسر العين ، وبكسر الميم وسكون العين . والجمع معد بفتح الميم وكسر العين ، وبكسر الميم وفتح العين

الشعر وانفعاله ، وظننت أنه أعجب بما تضمنه البيت الأول من غريب اللف والنشر المكرر الذى لا أعرف له ثانياً فيه ، فقال : أظننت أنى استحسنت الشعر ؟

فقلت : مثلك يستحسن هذا الشعر

فقال : تعرفت منه ان العميان كانوا فى ذلك الزمان يقرأون على المقابر فانى كنت أرى ذلك حديث العهد فاستفدت التاريخ

١١١ — ... متى أتى الله بالفرج

فى (العقد) : قال عبد الله بن مسلم بن جندب :

تعالوا أعينونى على الليل إنه على كل عين لا تنام . طويل

قال عبد الله : فطرقنى عيسى بن طلحة فقال لى : سمعت قولك فجئت أعينك

فقلت : يرحمك الله . أغفلت الاجابة حتى أتى الله بالفرج

١١٢ — وآباؤنا أفعال غيرنا

أتى ضرار المتكلم بمجوسى ليكلمه فقال : أبو من أنت ؟

فقال : نحن أجل من أن ننسب إلى أبنائنا إنما ننسب إلى آبائنا

فورد على ضرار ما لم يكن فى حسابه . فأطرق ساعة ثم قال : أبناؤنا أفعالنا وآباؤنا أفعال غيرنا

١١٣ — ليته جور مشاع

عبدان الأصبهانى :

تكلفنى التصبر والتسلى وهل يسطاع إلا المستطاع ؟
وقالوا قسمة نزلت بعدل فقلنا ليته جور مشاع !!

١١٤ — وأما غيرهن فما نلتمس صبوتهن

قال المبرد : حدثنى الزيادى قال : قيل لأعرابى : ألا تخضب بالوسمة (١) ؟

فقال : لم ذاك ؟

قال : لتصبو إليك النساء

فقال : أما نساؤنا فما يرون بنا بديلا ، وأما غيرهن فما نلتمس صبوتهن

(١) الوسمة : (بكسر السين وقد تسكن) نبت يختضب بورقه

١١٥ — كيف يصوغ الموسيقى الألحان

قال الرشيد لابراهيم الموصلى : كيف تصوغ الألحان ؟

فقال : ياأمير المؤمنين أخرج الهم من قلبي وأمثل الطرب بين عيني . فتنزع إلىّ مسالك الألحان فأسالكها بدليل من الايقاع (١) فلا أرجع خائباً

فقال له الرشيد : يحقّ لك (ياابراهيم) أن تدرك ماطلبت

١١٦ — ان الحديث مع الغناء حرام

احمد بن علوية الكرمانى :

حكمُ الغناء تسمّع ومدام ما للغناء مع الحديث نظام
لو أننى قاض قضيت قضيّة أن الحديث مع الغناء حرام

١١٧ — اعطنى فروتى

فى الشرح الكبير للشريشى ، قال بعضهم : كنت فى متنزه لى وإذا شيخ معه صبى فى يوم بارد فكنت أسمع الصبي يقول للشيخ : أعطنى فروتى ، فيناوله شيئا لا أتبينه . فبعثت غلامى ينظر إليه فإذا عند الشيخ قنينة ، كلما طلب الصبى فروته سقاه قدحاً .

(١) الايقاع ايقاع ألحان الغناء وهو أن يوقع الالحان ويبينها تبيينا ، هكذا هو فى اللسان والعباب وفى بعض النسخ ويبنيها من البناء ، وسمي الخليل كتابا من كتبه فى ذلك المعنى كتاب الايقاع (التاج)

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٠ —

الفلسفة الهندية

البراهمية الأولى أو الأورثوذوكسية

تشبه آلهة البراهمية الأولى بوجه عام آلهة الإغريق، إذ لا يخفى على الباحث — إذا أغضى عن الموازنة الدقيقة — ما يلفت النظر من المشابهة الواضحة بين آلهة «الفيدا»، وآلهة «الإلياذة» و «الأودسا» تلك المشابهة التي لا تجعل مجالا للشك في أن آلهة الكتابين من أسرة واحدة يتفقون جميعاً في البساطة والطفولة وسرعة الغضب وسهولة العودة إلى الرضى وفي الخلو من الحقد وسوء النية والأنانية والوحشية المتأصلة في آلهة الأشوريين أو البابليين مثلا، وهم يتفقون كذلك في القرب من صف الإنسانية كاستعانتهم ببني البشر مثلا في الوصول إلى غاياتهم ثم مكافأتهم إياهم بحمايتهم لهم وعطفهم عليهم.

ومما يلفت النظر في هذه المشابهة هو بساطة اختصاص آلهة «الفيدا» كآلهة «الإلياذة» و «الأودسا» وخلوها من التعقيد الذي كان فيما بعد من مميزات الديانة «الأندويسمية» التي ظهرت بعد الفيدا بعدة قرون وكانت مزيجاً من الديانتين: «الفيدية» والهندية المحلية القديمة، فـ «أندرا» مثلا هو كبير الآلهة وهو إله السماء والمناخ، و «رودرا» و «أجنى» هما صاحباه وساعداه على تصريف شؤون الكون. و «جاما» إله الموت و «أوسهاس» إلهة الفجر. وهكذا كل إله له اختصاص محدد ودائرة محصورة.

بدء الخلق

تستقي «البراهمية» الأولى عقيدة بدء الخلق من أسطورتين قديمتين فأما أولاهما، فهي أن الإله «براجاباتي» هو في نفس الوقت خالق ومخلوق، لأنه كان في أول الأمر واحداً فاشتاق إلى التكثر وتمناه. فلم يكن من بقية الآلهة إلا أن أجابوه إلى سؤله. فضحوه وقطعوه إرباً ونثروا أجزاءه في جميع البقاع، لتحقق هذا التوحد المنشود من جميع الأجزاء. وهذا الشوق هو سر التجاذب الخفي الموجود في جميع عناصر الكون، وأنجع الوسائل لتحقيق هذه الغاية هي الضحايا التي يقوم بها بنو البشر.

على أن الوصول النهائي إلى هذه الغاية لا يتحقق تماماً، لأن ما يجتمع من هذا الإله بوساطة الجاذبية الطبيعية من جهة وبالضحايا المقدمة من بني الإنسان من جهة أخرى لا يلبث أن يعود إلى التفكك بعملية خلق جديد يتولاها هذا الإله بنفسه من نفسه رغبة منه في إنشاء كون وتكثير وحداته. وستظل هذه الدورة مستمرة كالحلقة المفرغة التي لا يمتاز مبدؤها عن منتهاها إلى ما شاء الله أن يكون، ولكن القرابين والضحايا هي أهم أسباب هذا التجاذب الذي يقع بين العناصر المتناثرة فيجمع شتاتها، إذ هي العامل الأوحد الذي يصل بين الإله والأناسي من جهة وبين الأفراد بعضهم مع بعض من جهة أخرى، وأكثر من هذا أنها هي التي تعيد للإله قوته بعد تفككها بسبب تناثر أجزائه.

هذه هي الأسطورة الأولى في عقيدة بدء الخلق، أما الثانية فهي أن الإله «براجاباتي» أحس يوماً بشغف مادي شديد نحو ابنة «أوسهاس» إلهة الفجر الجميلة فأبدى لها هذه الرغبة فارتاعت منها ارتياعا شديدا وفرت من وجهه مذعورة، فتعقبها وأخذ يرقب حركاتها، فكلما تشكلت بأنثى كائن من الكائنات تشكل هو بصورة ذكر هذا الكائن، وظل على هذه الحال حتى استولى عليها ونال منها بغيته، فحملت لساعتها بأول أفراد هذا العالم الموجود.

وحدة الوجود

كان من نتائج الأسطورة الاولى أن سرت في تلك البلاد

فكرة وحدة وجود ساذجة لم تلبث أن تحولت إلى وحدة الوجود الفلسفية ، تلك الوحدة التي أخذت تقوى مع الزمن حتى عم الاعتقاد بها بلاد الهند كافة . وها هو ذا البيرونى يحدثنا عن وحدة الوجود فى الديانة الهندية بعد تاريخ « الفيدا » ببضعة وعشرين قرنا فيقول : « قال (باسديو) فى كتاب (بكيتا) : أما عند التحقيق فجميع الاشياء إلهية لأن (بشن) جعل نفسه أرضاً ليستقر الحيوان عليها ، وجعله ماء ليغذيهم ، وجعله ناراً وريحاً لينميهم وينشئهم . وجعله قلبا لكل واحد منهم ، ومنح الذكر والعلم وضديهما على ما هو مذكور فى بيذ[1] » .

اختلاف الطبقات

كانت طبقات الشعب الهندى فى عهد البراهمة الاولى أربعاً . أولاها البراهمة « Brahmanes » وهم الكهنة ثانيها (كساتريا) « Ksatriyas » ويسميها البيرونى (كشتر) وهى طبقة الجند . ثالثها طبقة « Vaicyas » الفيسيا ، ويسميها البيرونى « بيس » وهى طبقة العمال وأصحاب المهن والزراع . رابعتها « سودرا Çudras » ، ويسميها البيرونى (سودر) وهى طبقة الأرقاء . ومما جاء فى كتاب البيرونى عن هذه الطبقات قوله : « وهذه الطبقات فى أول الأمر أربع ، علياها البراهمة قد ذكروا فى كتابهم أن خلقتهم من رأس براهم وأن الاسم كناية عن القوة المسماة طبيعة ، والرأس علاوة الحيوان فالبراهمة نقاوة الجنس . ولذلك صاروا عندهم خيرة الأنس ، والطبقة التى تتلوهم (كشتر) خلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه ، ورتبتهم عن رتبة البراهمه غير متباعدة جداً . ودونهم (بيش) ثم (شودر) خلقوا من رجلى براهم . وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان »[2]

كتابهم الأول المقدس — الفيدا

ليست « الفيدا » كتاباً هندياً أصلياً وإنما هى كتاب « أندوآرى » حمل الفاتحون عناصره معهم إلى وادى « البنجاب » المفتوح حيث فرضوا تعاليمه على الوطنيين فرضاً . وإذاً ، فهو لا يمثل العقلية الهندية ولا يصور المدنية القديمة التى كانت زاهرة فى تلك البلاد قبل وجوده فيها بأكثر من خمسة عشر قرناً كما أسلفنا ، بل بالعكس كثيراً ما يجد فيه القارىء صوراً عقلية واجتماعية هي على طرفى نقيض مع الصور التى اكتشفها الأثريون حديثاً للهند المحلية الغابرة ، وفوق ذلك هو مكتوب باللغة « السانسكريتية » التى لم تكن معروفة عند الهنود الأصليين من غير شك والتى هى لغة الآريين وحدهم .

غير أن هذا الكتاب لا يزال هو أقدم المستندات العلمية المعتمدة فى تاريخ الديانة الهندية ، وسيظل كذلك — رغم يقيننا بأجنبيته — حتى يكشف علماء العاديات ما يحل محله فى هذه الأولوية من الكتب المقدسه القديمة .

ولا يعرف المؤرخون بالضبط متى جمعت « الفيدا » وإنما كل الذى ثبت لديهم هو أن بعض أناشيدها يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل المسيح ، وأن صيرورة هذا الكتاب إلى ما هو عليه الآن قد استغرقت عدة قرون ، ويرجح بعض العلماء أنه قد جمع فى القرن الثانى عشر قبل المسيح ، وأن تياره القوى لم يستطع أن يجرف العقيدة القديمة من نفوس جميع أبناء الشعب الهندى ، وإنما قد صبغ تلك العقيدة بلونه الجديد كما أسلفنا ، ولم يقو على محوها إلا من نفوس الخاصة المثقفة أما الجماهير فقد ظلت العقيدة القديمة محتفظة بمكانتها فى نفوسهم احتفاظاً كان فى أول الأمر صامتاً أمام قوة الديانة الأجنبية المنتصرة . ولكنه أخذ بعد ذلك يقوى وينتعش شيئاً فشيئاً حتى برز منه الشىء الكثير على مسرح الوجود .

لكلمة « الفيدا » عدة معان ، أدقها : « العلم عن طريق الدين بكل ما هو مجهول » . وينجم عن هذا التعريف أن تكون « الفيدا » منبع جميع المعارف الهندية من : دينيات وأخلاقيات ونظريات علمية أو اجتماعية ، وهى تحتوى أوراداً تعبدية وأناشيد دينية ، وتعاويذ سحرية نزل بها الوحى من عند الله على قلب « براهما » فتلاها على الناس فاستظهروها وأخذوا يتعبدون بتلاوتها دون أن يكتنهوا أسرارها . وهى مؤلفة من اربع مجموعات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى باختلاف الموضوع الذى تعالجه ، فالأولى تسمى « رك بيذ »

---

(١) صفحة ١٩ من كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة » « لأبى الريحان البيرونى »

(٢) أنظر صفحة ٤٩ من كتاب البيرونى

Rec-Veda ، رك فيدا ، وهى تحتوى على الأوراد . والثانية تسمى : « سام بيذ ، Saman-Veda ، سامان فيدا ، وتحتوى على الأناشيد . والثالثة ، جزر بيذ ، Gajus Veda ، ياجوس فيدا ، وتحتوى على طقوس الضحايا والقرابين . والرابعة ، أثارفين — بيذ ، Atharvan-Veda ، أتهارفان فيدا ، وتحتوى على التعاويذ السحرية .

هذا ، واليك ما كتبه أبو الريحان البيرونى عن هذا الكتاب : « بيذ ، تفسيره العلم بما ليس بمعلوم ، وهو كلام نسبوه إلى الله تعالى من فم ، براهم ، ويتلوه ، البراهمة ، تلاوة من غير أن يفهموا تفسيره ، ويتعلمونه كذلك فيما بينهم يأخذه بعضهم من بعض ، ثم لا يتعلم تفسيره إلا قليل منهم . وأقل من ذلك من يتصرف فى معانيه وتأويلاته على وجه النظر والجدل ويعلمونه ، كشتر ، (١) فيتعلمه من غير أن يطلق له تعليمه ولو لبرهمن ، ثم لا يحل لبيش(٢) ولا لشودر (٣) أن يسمعاه فضلا عن أن يتلفظا به ويقرآه ، وإن صح ذلك على أحدهما دفعته البراهمة إلى الوالى فعاقبه بقطع اللسان . ويتضمن ، بيذ ، الأوامر والنواهى والترغيب والترهيب بالتحديد والتعيين والثواب والعقاب ، ومعظمه على التسابيح وقرابين النار بأنواعها التى لا تكاد تحصى كثرة وعسرة ، ولا يجوزون كتابته ، لأنه مقروء بألحان ، فيتحرجون عن عجز القلم وإيقاعه زيادة ونقصاناً فى المكتوب . ولهذا فاتهم مراراً (٤) ويروى لنا البيرونى كذلك أن أكثر البراهمة يدعون أن ، الفيدا ، معجزة لا يستطيع أحد مهما أوتى من ذكاء الجنان وقوة البيان أن يأتى بمثله ، أما أقلهم فيزعمون أن بلغاءهم قادرون على الاتيان بمثله ولكنهم ممنوعون عن ذلك احتراماً له ،

ولعلك - إن كنت ممن لهم إلمام بالمذاهب الاسلامية - تذكر أن هذه المسألة بالذات قد أثيرت بين علماء المسلمين ، وأن هذا الخلاف عينه موجود بينهم على الصورة التى وجد عليها بين البراهمة ، فذهبت الأكثرية الساحقة من علماء المسلمين إلى أنه ليس فى طاقة البشر الاتيان بمثل أصغر سورة من القرآن مهما أوتوا من الفصاحة والبلاغة ، وذهبت أقلية من

(١) كشتر (٢) بيش (٣) شودر ، أسماء طبقات فى الهند كما قدمنا
(٤) راجع صفحة ٦٠ من كتاب البيرونى المذكور

من هؤلاء العلماء إلى أن الفصحاء ممنوعون قسراً إرادتهم عن هذه المحاكاة بحيث أنه لو فرض وجود كتاب آخر يستوى مع القرآن فى البلاغة ويصعد إلى طبقته فى الفصاحة والاتقان لأمكن للفصحاء تقليده . وإذاً فالعجز عن الاتيان بمثل القرآن فى رأى هذا الفريق ليس أصلياً فى عقول الفصحاء ، وإنما هو عارض دعا اليه إجلال القرآن . ونحن نرجح أن عناصر الخلاف فى هذه المسألة بين علماء المسلمين إنما هي دخيلة جاءتهم من الديانة الهندية ، ونرجح كذلك أنهم لو لم يتأثروا بهذا الخلاف الهندى لظلوا جميعاً على رأى واحد فى هذه المسألة ولأجمعوا على أن القرآن لا يقصد بقوله : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، إلا إعلان العجز الطبيعى الأصيل ، وإلا لما صح التحدى ، لأنه لا معنى لأن تتحدى شخصاً ثم لا تدعه على حريته ، بل تحاول صرفه عما تحديته فيه وإذا ، فلو دقق هذا الفريق النظر فى الآية الكريمة لما ذهب إلى ما ذهب اليه .

هذا ، ولا يفوتنا قبل مغادرة هذه النقطة أن نعلن أن هذه المغالاة من جانب البراهمة فى تقديس كتاب الفيدا هى التى حالت بينه وبين التبديل والعبث اللذين وقعا فى كتاب البوذية كما سنشير إلى ذلك فى حينه

(يتبع) **غلاب**

استدراك : وقع خطأ فى المقال السابق عدد ٢٠٦ بأن وضع سطر أوله : غير أن النار . . . الخ فى آخر ص ٩٨٦ وصحته فى آخر ص ٩٨٧ فوجب التنبيه

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الانتصار على الذات

ليست إرادة الحق فى عرفكم ، أيها الحكماء ، إلا تلك القوة التى تحفزكم وتضطرم فكم ، تلك هى إرادتكم التى أسميها أنا (إرادة تصور الوجود) فانكم تطمحون إلى جعل كل موجود خاضعا لتصوركم ، وأنتم تحاذرون بحق أن يكون هذا الوجود قد أحاط به التصور من قبل فتريدون أن تخضعوا لارادتكم كل كائن لتتحكموا فيه بالصقل ليصبح مرآة تنعكس عليها صوره العقل

هـذا ما تطمحون إليه ، يا أحكم الحكماء ، وتلك هى إرادتكم تجاه القوة والخير والشر وتقدير قيم الأشياء .

انكم تريدون خلق عالم يمكن لكم أن تجثوا أمامه ، تلك هى نهاية نشوتكم وآخر أمنية لكم . ولكن البسطاء الذين يدعون شعبا يشبهون نهراً تخوضه أبداً ماخرة تقل الشرائع ، وقد جلسن عليها بعظمة وأنزلن على وجوههن الحجاب .

لقد أرسلتم إرادتكم وشرعتكم على نهر الزمان ، ولكن إرادة القوة مثلت أمامى وكشفت لى حقيقة الخير والشر فى اعتقاد الشعوب

وهل سواكم ، أيها الحكماء ، من أنزل بارادته المتسلطة هذه الشرائع فى هذه الماخرة وقد حليتموهن بالجواهر وأسبغتم عليهن أروع الأسماء .

لقد سار النهر يحملهن بانسيابه وسهم الماخرة يشق أمواجه ومن يبالى بالموجة تقاوم عبثاً فى إرغائها وإزبادها .

إن الخطر الذى يتهدد خيركم وشركم لا يكمن فى النهر ، أيها الحكماء ، بل الخطر كل الخطر فى إرادة القوة نفسها لأنها الارادة الحية الدائمة المبدعة .

ان ماسأقوله عن الحياة سيوضح لكم اعتقادى فى الخير والشر عند ما أتناول ببيانى ما تفعل العادات فى الأحياء .

لقد سايرت الكائن الحى على معابره وأشواطه لأتعرف إلى عاداته ، وعند ما كانت الحياة صامتة نصبت أمامها مرآة بألف ضلع لأستنطق عينيها فكلمتنى لحاظها .

فى كل مكان عثرت فيه على حى ، طرقت أذنى كلمات الطاعة فما من حى يتعالى عن الخضوع ، وعرفت أيضاً أن ليس من محكوم فى الحياة سوى من لا قبل له بإطاعة نفسه ... تلك هى عادة كل حى ..

وهذا ما سمعت أخيراً : إن تولى الحكم أصعب من الطاعة لأن الآمر يحمل أثقال جميع الخاضعين له وكثيراً ما ترهق هذه الأثقال كواهل الآمرين .

إن فى أمر خطراً ومجازفة ، وكل مرة يصدر الحى فيها أمراً يقتحم خطرا .

وإذا ما تحكم الحى فى ذاته فانه يؤدى جزية لسلطانه إذ يصبح قاضياً ومنفذاً وضحية للشرائع التى يسنها .

وتساءلت عن علة هذه الأمور وعن القوة التى ترغم الحى على الانقياد والتحكم فتجعله خاضعاً حتى إذا حكم . ولعلنى توصلت إلى سبر قلب الحياة إلى الصميم ، فاصغوا إلى قولى أيها الحكماء

لقد تيقنت وجود إرادة القوة فى كل حى ورأيت الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة لأن فى إرادة الخاضع مبدأ سيادة القوى على الضعيف ، فإرادة الخاضع تطمح إلى السيادة أيضاً لتتحكم فيمن هو أضعف وتلك اللذة الوحيدة الباقية لها فلا تتخلى عنها .

وبما أن الأضعف يستسلم للأقوى والأقوى يتمتع بسيادته على هذا الأضعف فان الأقوى يعرض نفسه للخطر فى سبيل قوته فهو يجازف بحياته مستهدفا للأخطار .

إن إرادة القوة كامنة حتى فى مجال التضحية والخدمة المتبادلة وبين نظرات العاشقين لذلك يتجه الأضعف إلى السبل الملتوية قاصدا اجتياز الحصن والتربع فى قلب الأقوى مستولياً فيه على قوته

لقد أودعتنى الحياة سرها قائلة : لقد تحتم على أن أتفوق أبداً على ذاتى . وانكم لتحسبون هذا الاندفاع إرادة إبداع أو غريزة تحفز بى إلى الهدف الأسمى والأبعد منالا بعديد جهاته ، فى حين أن ليس هنالك إلا وجهة واحدة وسر واحد . وإننى لأفضل العدم على التحول عن هذه الوحدة .

والحق أنكم حيث تشهدون انحدارا وسقوط أوراق من الأدواح ، فهنالك تشهدون تضحية الحياة من أجل القوة .

لقد وجب على أن أكون أنا الجهاد والمستقبل والهدف وأن أكون فى الوقت نفسه الحائل الذى يعترضنى فى انطلاقى إلى هدفى لذلك لا يعرف الانسان الطريق المتعرجة التى عليه أن يسلكها إذا هو لم يدرك حقيقة إرادتى .

مهما كان الشى الذى أبدعه ولو مهما بلغ حبى له فان على أن

أنقلب له خصما ، وأتحول عن حبي وحناني ، ذلك ما قضته إرادتي على

وأنت ، أنت يا من تطلب المعرفة ليس لك من سبيل غير سبيلي فعليك أن تقتفي أثر إرادتي ، وما تقتفي إرادتي إلا آثار إرادة الحق

ما عثر على الحقيقة من قال بارادة الحياة ، لأن مثل هذه الارادة لا وجود لها ، وليس للعدم إرادة كما أن المتمتع بالحياة لا يمكنه أن يطلب الحياة

ولا إرادة إلا حيث تتجلى حياة ، ومع هذا فان ما أدعو إليه إن هو إلا إرادة القوة لا إرادة الحياة

ان هنالك أموراً كثيرة يراها الحي أرفع من الحياة نفسها ، وما كان ليرى أشياء أفضل من الحياة ، لو لم تكن هنالك إرادة القوة .

هذا ما علمتني إياه الحياة يوماً ، وأنا بهذا التعليم أهتك أسرار قلبكم ، أيها الحكماء ، فأقول لكم : إنه ليس هنالك من خير دائم وشر دائم ، لأن على الخير والشر كليهما أن يندفعا أبداً إلى التفوق والاعتلا

وأنتم أيها الواضعون للقيم أقدارها بمقاييسكم وأوزانكم وبما تقولونه عن الخير والشر هل كان لكم أن تفعلوا هذا لو لم تكن لكم إرادة القوة ؟ وما تطمحون في أعماق ضمائركم إلا إلى الشهرة والشعور بتأثركم وفيضان أرواحكم . ولكم تجهلون أن في الأمور التي تخضعونها لتقديركم قوة أعظم من تقديركم تنمو وتتفوق على ذاتها لتحطم غلافها وقشورها ، فمن أراد أن يكون مبدعا سواء أ كان في الخير أو في الشر فعليه أن يبدأ بهدم ما سبق تقديره وبتحطيمه تحطيما . وهكذا فان أعظم الشر يبدو جزاء من أعظم الخير ، ولكن هذا الخير لم يعط إدراكه إلا للمبدعين

لقد حق علينا القول أيها الحكماء ، مهما كلفنا الجهر به فان الصمت أشد وطأة علينا ، لأن كل حقيقة نكتمها انما تتحول إلى سم زعاف فينا ، فلنحطم الحقائق التي نجهر بها ما يمكننا أن تحطم فان هنالك أبنية عديدة يجب علينا أن نرفعها

هكذا تكلم زارا . . .

العظماء

إن في بحراً هدأت أعماقه ، فمن يظن أنه يخفي مسوخا دأبها المزاح ؟ إن أغواري صامدة لا تتزعزع ، غير أنها تتماوج بالمعميات وتتجاوب فيها من الضحك نبرات وأصداء .

رأيت اليوم رجلا من العظماء الأجلاء الذين يكفرون من أجل الروح . فاستغرقت روحي في ضحكها هازئة بقبحه . غير أن هذا العظيم لم يبد ولم يعد . بل انتفخ صدره كمن يتنفس الصعداء ، فلاح لي بحقائقه المروعة وبأثوابه الممزقة غصنا كله أشواك وليس فيه ورد .

ما تعلم هذا القناص الضحك ولا عرف الجمال ، فانه راجع من غاب المعرفة أغبر الوجه بعد أن صارع فيها الوحوش فانطبعت صورهم على سيمائه ، فهو كالنمر يتحفز للوثوب ، وما أحب مثل هذه الأرواح المنقبضة على ما تضمر .

تقولون ، أيها الصحاب ، إنه لا جدال في الذوق وفي الالوان فكأنكم تجهلون أن الحياة باسرها نضال من أجل الأذواق والألوان .

ما الذوق إلا الموزون والميزان والوازن . . . فويل لكل حي يريد أن يعيش دون نضال من أجل الموزونات والموازين والوازنين

ليت هذا الرجل العظيم يتعب من عظمته ليظهر الجمال فيه فانه في ملاله من هذه العظمة يستحق أن أتذوقه فأجد له طعما .

اذا لم يتحول العظيم عن نفسه فلا يمكنه أن يقفز فوق خياله لتغمره أشعة شمسه . لقد تفيأ الظل طويلا ، هذا المفكر من أجل الروح ، فشحب وجهه وكاد في انتظاره أن يموت جوعا ، وهذه عيناه تشعان بالاحتقار وشفتاه تتبرمان بالاشمئزاز ، انه يلتمس الراحة الآن ولكنه لم ينطرح تحت الشمس بعد .

ليت هذا الرجل يتمثل بالثور فيفوح من سعادته عبق الأرض لا احتقار الارض . ليته كالثور الابيض يعج أمام المحراث فيرتفع عجيجه تسبيحا للأرض وما عليها .

لقد اكفهر وجه هذا العظيم إذ تلاعبت على خديه أظلال يده فاختفت عيناه . وأعماله نفسها لم تزل كالخيال تلوح ولا تبدو عليه . فان اليد ترسل ظلا قاتما على العامل إذا هو لم يتفوق على عمله

إنني أقدر احتمال هذا الرجل لنير الثور ولكنني أتمنى أن تشع نظرات الملاك في عينيه ، ولن تشع هذه النظرات ما لم ينس ما فيه من إرادة الأبطال . لأن ما أريد له هو أن يصير رجلا ساميا لا أن يبقى في مرتبة الرجل العظيم حيث يفقد الانسان إرادته فتتلاعب به أضعف النسمات .

لقد تغلب هذا العظيم على الجبابرة وتوصل إلى حل الرموز ولكن عليه الآن أن ينقذ هذه الجبابرة وهذه الرموز ليحولها إلى طفولة الألوهية .

إن معرفة هذا الرجل لم تتعلم الابتسام ولا الترفع عن الحسد كما أن موجة شهوانه لم تسكن في خضم الجمال . وما عليه أن يدفع

(البقية في ذيل الصفحة التالية)



ميكلانجلـو

العبقرية الملهمة

MICHELANGELO

للدكتور أحمد موسى

— ٣ —

وما صادفه من صعاب سبق ذكرها ، صادفه هنا فى تنفيذ مشروعاته الفنية الخاصة بحقوق أميرى المديتشى جيليانو ولورنسو ، اللتين كان قد أوصى بعملهما الكردينال جليودى مديتشى فى سنة ١٥١٩ ، ولم يبدأ فى تنفيذهما إلا سنة ١٥٢١ بعد تعديلات وأخذ ورد

على أنه عمل بيده فيها من سنة ١٥٢٧ إلى سنة ١٥٣٠ ، ووقف عندما اضطر للفرار لهبوب العاصفة السياسية التى انتهت بانهزام المديتشى وخروجهم من فلورنسا . عندئذ عمل ميكيلانجلو تحت لواء الجمهورية حتى عودة المديتشى ثانياً

وبعد موت البابا بقليل سافر فى سبتمبر سنة ١٥٣٤ إلى روما دون أن يتم أعماله إلى النهاية فقد ترك اثنى عشر تمثالا دون إكمال إلى أن أتمها جورجيوفاسارى (١٥١١ - ١٥٧٤) الذى كان مصوراً ومهندساً معمارياً ومؤرخاً لعصره ، والذى بنى قصر أوفيسين بفلورنسا بردهته المعتبرة من أجمل ردهات قصور إيطاليا

ويحسن بنا أن نعلم بعض الشىء عن هاتين المقبرتين المشهورتين ، اللتين تعدان آية من آيات الاعجاز الفنى ، فبين حائطين تنحصر مسافة خصصت للمقبرتين . ولكل منهما تمثالان رمزيان أحدهما لامرأة والآخر لرجل ، وفوقهما نافذة أشبه بقبلة وضع فيها تمثال للمتوفى جالس .

أما التماثيل الرمزية فهى عارية الجسم ، وأكبر من الحجم الطبيعى قليلا ، وتمثل الأوقات اليومية الأربعة وعلاقتها

بهذه الشهوات إلى سكون الشبع بل عليه أن يغرقها فى الجمال لأن اللطف لا ينفصل عن مكارم من بلغوا الأوج بتفكيرهم

على البطل ألا يستسلم للراحة ما لم يضع يده على رأسه ليتفوق على راحته ، وما يصعب على البطل شىء كادراكه الجمال ، لأن الجمال لا يستسلم لأبناء العنف .

ان بين الافراط والتفريط قيد أنملة ، فلا تحتقروا هذا المدى لأنه بعيد وإن قصر وفيه الأهمية الكبرى . ولكن عضلات العظماء لا تلجأ الى السكون وارادتهم لا تنضب . وما من جمال الا فى تنازل القوة الى الرحمة وحلولها فى المنظور .

انى لا أطالب بالرحمة سواك ، أيها المقتدر ، فلتكن الرحمة آخر مرحلة تقطعها فى انتصارك على ذاتك . وما كنت لأفرض الخير عليك لولا انى أراك قادرا على ارتكاب كل الشرور . ولكم أضحكنى أولئك الصعاليك يعدون أنفسهم رحماء وقد شلت يدهم ولا حول لهم ولا طول

عليك أن تتمثل فى فضيلتك بفضيلة الاعمدة التى تزداد بهاء ودقة وصلابة فى لبابها كلما ازداد ارتفاعها

أجل أيها الرجل العظيم إنك ستبلغ الجمال يوما فترفع المرآة إلى وجهك لتتمتع برؤية جمالك وعندئذ تختلج روحك بالشهوات وعندئذ تتجلى العبادة فى غرورك

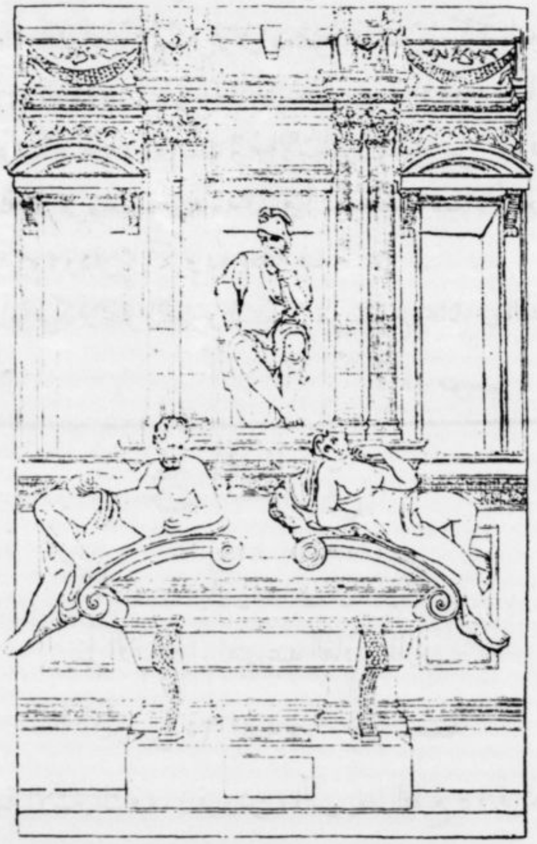
لا يقترب البطل فى أحلامه إلى مرتبة البطل الكامل مالم يغفل الروح ويتحول عنها .

هكذا تكلم زارا . . .

بالنفس وهي «الليل، النهار، و«الفجر، المساء» معبرة عن الأسى والحزن لوفاة الاميرين.

وقد عبر ميكيلانجو عن الليل بامرأة نائمة وعند قدميها بوم. وأما النهار فقد مثله برجل هرقلي التكوين، ولكنه ترك الرأس والذراع غير كاملين. وكلاهما في غاية القوة الانشائية وحسن الاخراج، ولكن الطريقة الوضعية لهذين التمثالين تكاد تكون مستحيلة بالنظر إلى الكيفية التي أجلسهما بمقتضاها، وهذا ما قررته عند ما تناولنا مميزاته الفنية بالبحث

ونأتي هنا بصورة لجانب آخر من هذه المقبرة (ش ١) فترى فيها لورنسو جالساً، وعند قدميه تمثالا الفجر والمساء (ش ٢، ش ٣). أنظر إلى رأس كل منهما وتأمل القوة في الاخراج والعظمة في الانشاء؛ فالوضع العام خال من الارغام



(ش ١)

والطريقة الوضعية أهدأ كثيرا من تماثيله لليل والنهار، وقد عبر عن الحزن تعبيرا قويا. هذا والتكوين الجسماني وسير الخطوط الانشائية مما يثير الدهشة والاستغراب لهذه القوة الخارقة في تقدير الجمال الكامل وحسن إخراجه

أنظر إلى جمال اليد اليسرى للمرأة، وإلى اليد اليمنى للرجل وتأمل نعومة جسم المرأة وقوة عضلات الرجل، ترى أن



(ش ٢)

ميكيلانجلو كان موفقاً كل التوفيق في هذين التمثالين

أراد أن يمثل لك بطريقة إخراجه ألم الأحلام الحزينة في الليل وما ترسمه على الملامح عند الفجر، فأخرج وجه المرأة على هذه الصفة، كما أراد أن يمثل لك كيف أن الحزن نهاراً يعود على الجسم العامل والعقل المفكر بملامح أقرب إلى إنهاك القوى والتعجيل بحلول الشيخوخة. فكان إماماً يحتذى وقائداً يتبع وفناناً يذكر على مر القرون

وتمثالاه لجيليانو وفلورنسو أقرب إلى الاخراج الاغريقي وهما لا يمثلان صاحبيهما وإنما هما رمزيان للتعبير عنهما فالأول مثل قائداً حربياً ارتسمت على وجهه ملامح التفكير وقوة الارادة وصرامة الأوامر. وأما الثاني (لورنسو) (ش ١) فتراه جالساً وقد اكتسى جبينه بغطاء رأسه فأحدث ظلا على العينين أكسب صاحبهما شيئاً من الخفاء وعمق التفكير. أنظر إلى اليد اليسرى وقد لامست شفتيه وإلى السبابة وقد جاورت الأنف، ثم تأمل المجموع الكلي، تر أن صاحب هذا التمثال بحالته هذه وبطريقة جلسته وعمقه في تفكيره، لا بد وأن يكون من رجال السلطة العامة. وهذا ما قصده ميكيلانجلو تماماً فقد سجل بذلك للأخوين أميز وأبرز صفاتهما وهي الحكم.

والدارس للمجموع الانشائى لهاتين المقبرتين يسجل لميكلانجلو المعرفة الصادقة بأصول علم التشريح بالنسبة إلى



(ش ٣)

التماثيل ، والاحاطة الكاملة بعلم النفس بالنسبة إلى مظهرها ، فضلا عن القدرة فى فن المعمار التى تجلت فى وضعه التصميم الكلى وما انطبع عليه من الانسجام

وله على الحائط الثالث للمقبرة مجموعة تمثل المادونا مع يسوع الطفل ، وهى جالسة والطفل متجه إلى ثديها للرضاعة ، وهى لاتقل جمالا عن قطعه الأخرى ، لا سيما وان المادونا على جانب كبير من الجمال الرفيع مع شىء كثير من الحزن

وعلى ذلك لا مناص للمؤرخ الفنى من اعتبار هاتين المقبرتين مجموعتين أعظم انتاج مجسم أخرجه ميكلانجلو وأكمل عمل فى أفرغ فيه غايته وأدى به رسالته ، كما أن ما شملناه من تماثيل بجانب تمثاله للنبى موسى (راجع المقال السابق) أهم وأبرز انتاج فنى فى مدرسة النحت الحديث

أما المرحلة الثالثة من حياته فقد بدأت منذ رحيله نهائياً إلى روما فى سبتمبر سنة ١٥٣٤ ، وإقامته فيها حتى وفاته بعد أن بلغ التاسعة والثمانين فى ١٨ فبراير سنة ١٥٦٤

وقد ارتقى رئيساً عاما للمعماريين والنحاتين والمصورين فى القصر الابوستولى ، وكلفه البابا بتصوير السقف السكستينى (نسبة إلى البابا سكستس الرابع) واشتغل منهمكا فيه من سنة ١٥٣٥ إلى سنة ١٥٤١ ، وصور « يوم القيامة » كما صور بين سنة ١٥٤٢ وبين سنة ١٥٥٠ الصور اللازمة لمجموعة باولينا .

أما من سنة ١٥٤٢ إلى سنة ١٥٤٥ فقد أكمل البناء التذكارى ليوليوس . وهو بناء شامل لطبقتين (دورين) لكل منهما ثلاث قبلات ، فى الطبقة الأرضية تمثال موسى ، وعلى اليمين واليسار وضع تمثالان جديدان ، الأول يمثل « ليا » امرأة يعوب الأولى وبيدها المرآة ، والثانى لامرأته الثانية « راشيل » ، وهى تصلى ، وهما مليئتان بالحياة والحركة .

أما فى الطبقة العليا ، فله قطع مثلت البابا والمادونا والكاهن والنبى ، وهى ليست فى جودة قطعه السابقة ، ولذلك يخيل الينا أنها من نحت تلاميذه .

ونحت بعض التماثيل وتركها دون إتمام ، منها مجموعته لبيتا pieta ومنها المجموعة الصغرى محفوظة بقصر روندانينى بروما ، ومجموعته الكبرى عملها خصيصاً لمقبرته وهى تشمل أربعة تماثيل موجودة الآن فى كاتدرائية فلورنسا بالردهة الرئيسية .

واشتغل فى هذه المرحلة بالشعر أيضاً وله ملحمات معروفة ، خصوصاً تلك التى كتبها غزلا فى معشوقته فيتوريا كولونا بين سنة ١٥٣٤ و ١٥٤٧ وكان لها تأثير عظيم فى فنه وفى مجرى حياته

ومنذ سنة ١٥٤٦ أسند اليه الاشراف الفعلى على بناء قبة كنيسة بطرس واشتغل بهندسة المعمار السبعة عشرة سنة الأخيرة من عمره ، ودفن فى كروسه بفلورنسا .

أما ميكلانجلو المصور فسيكون موضوع بحثنا فى العدد القادم .

أحمد موسى



وفاة جيمس بارى عميد الكوميديا الانكليزية

نعت أنباء لندن الأخيرة كاتباً من أعظم كتاب انكلترا المعاصرين هو السير جيمس بارى J. Barrie القصصي والكاتب المسرحي الكبير ؛ توفى عقب إصابته بالتهاب رئوى صاعق . وكان مولده سنة ١٨٦٠ فى قرية من أعمال اسكتلنده وتلقى تربيته فى جامعة أدنبورج ، وشغف بالأدب منذ حداثته وفى سنة ١٨٨٣ بدأ حياته فى الصحافة ، واشتغل بالتحرير فى جريدة « نونتنهام جورنال » ، ولفت الأنظار إليه بعدة مقالات أدبية رائعة ؛ وفى سنة ١٨٨٥ انتقل إلى لندن ، وظهر كتابه الأول بعد ذلك بعامين بعنوان : « الموت أفضل » Better Dead ، وهو مزيج من الخيال الساحر والتهكم اللاذع ثم ظهر كتابه Aul Licht Idylls ؛ وهو مجموعة صور ريفية فزاد فى شهرته ؛ وبعد قليل ظهرت روايته الصحفية الشهيرة « حينما يكون الرجل أعزب » When a man is Single ثم مجموعة صور جديدة عن الحياة فى أدنبورج ، وظهرت فى سنة ١٨٨٩ أقوى وأعظم رواياته وهى « أرملة فى ثياب خشنة » A widow in Thrums ، ثم رواية ظريفة عن التدخين عنوانها My Lady Nicotine ، ثم « الوزير الصغير » Little Minister

وفى ذلك الحين بدأ بارى يكتب للمسرح ، وافتتح مجهوده بمسرحية عنوانها Walker London فنالت نجاحاً عظيما وتلاها بكوميديا عنوانها « قصة غرام الأستاذ » Professor's Lov-Story فى سنة ١٨٩٥ ؛ وأصدر فى هذا الوقت أيضاً مذكراته فى حياته الأولى مع والدته بعنوان Margaret Ogilvy ثم استأنفها فى روايتين أخريين هما Tommy and Grisel و Sentimental Tommyn وتمتاز هذه السلسلة بأسلوبها الفكاهى اللاذع الذى برع فيه بارى براعة عظيمة

وفى سنة ١٩٠٢ ، أخرج بارى مسرحيته الغريبة : « العصفور الصغير الأبيض » ، وهى أول حلقة من سلسلة القطع الشهيرة التى اتخذ لها بطلا مدهشاً هو « بيتر بان »

واشتهر أيضاً بقطعة أخرى عنوانها : « لعبة الاختفاء مع الملائكة » Hide and Seak with the Angels ، وفيها يشرح طريقته فى العمل وفى الحياة كأنها مداعبة مع الملائكة

ويرى النقدة أن سير بارى بلغ أروع مواهبه فى الكوميديا ، وأنه يعرضها بفن لا يجارى ويتفوق فيها على المأساة (الدرامة) ، وفى أثناء الحرب أخرج بارى عدة من المسرحيات المؤسية والكوميدية ، بيد أنها لم تكن من النوع الممتاز وأشهر هذه القطع : « قبلة لسندريلا » Akiss forCindrella ويبدو بارى فى هذه القطع متأثراً بطابع هانس اندرسون

وحصل بارى سنة ١٩١٣ على وسام البارونية ، ثم وسام الاستحقاق سنة ١٩٢٢ . وانتخب منذ سنة ١٨٣٠ مستشاراً لجامعة ادنبورج .

أعياد جامعة لوزان :

قرأنا فى البريد السويسرى الأخير شيئاً عن جامعة لوزان التى احتفلت أخيراً بعيدها بمناسبة مرور أربعمائة عام على تأسيسها ويذكر القراء أن الجامعة المصرية قد اشتركت فى هذا الاحتفال على يد مديرها الأستاذ الكبير لطفى السيد باشا وقد نشأت جامعة لوزان سنة ١٥٣٧ أكاديمية متواضعة

أنشأها أهل برن فى مقاطعة فات (فود) بعد أن افتتحوها لتكون معهدا للتبشير للدين البروتستانتى الذى غلب فى سويسرا يومئذ ، وقطعت الأكاديمية الجديدة عهداً من الاضطراب خلال الجدل والخصومات الدينية ، ولكنها لقيت عضداً كبيرا فى معاونة البروتستانتيين الفرنسيين ؛ وفى سنة ١٧٠٠ زادت الأكاديمية على قسم اللاهوت قسمين جديدين للتاريخ والقانون ، ولما استقلت مقاطعة فات بشئونها الادارية عنيت بتنظيم الأكاديمية ، وصدر سنة ١٨٣٧ قانون بانشاء ثلاث كليات بها . وفى سنة ١٨٦٩ وضع العلامة لوى ريشونيه مشروعا لتنظيمها ، وأخيرا فى سنة ١٨٩٠ حولت إلى جامعة كبيرة . وأنشئت لها مبان فخمة .

وقد كان الاحتفال بعيد جامعة لوزان مظاهرة علمية دولية عظيمة ؛ فقد اشترك فيه ممثلو الجامعات والهيئات العلمية فى سائر أنحاء الأرض ؛ وافتتح الاحتفال فى الكتدرائية الكبيرة ، ثم أقيم مهرجان علمى بالجامعة لمنح العالميات الفخرية لطائفة من العظماء ؛ ثم نظمت بعد ذلك نزهة لقصر شيلون الشهير الذى تغنى به الشاعر بيرون

كتاب جديد لأميل لودفيج

يعنى الكاتب المؤرخ الألمانى الكبير أميل لودفيج بعد أن أخرج كتابه الضخم عن نهر النيل بقسميه حسبما ذكرنا ذلك فى الرسالة ، بوضع كتاب جديد عن كليوباترا ملكة مصر ، وينتظر أن يظهر هذا المؤلف الجديد بعد بضعة أشهر فقط ؛ وفى ترجمة كليوباترا يستطيع أميل لودفيج أن يعرض كل مواهبه وبراعته كمترجم لأبطال العالم . وقد ظهرت هذه البراعة من قبل فى جميع التراجم التى أخرجها المؤرخ عن « المسيح » وعن « نابوليون » وعن « بسمارك » وعن « ولهلم الثانى » وغيرها . بيد أنه يجد فى حياة كليوباترا ميداناً أكثر سحراً وخصوبة ، فحياة هذه الملكة المصرية العظيمة لم تكن سوى مأساة مؤثرة ؛ وأميل لودفيج فى الواقع كاتب مسرحى قبل كل شىء يجيد عرض المآسى ؛ وأخص ما فى تراجمه هو هذا العرض الذى يصوغها فى صورة الأشخاص الحية . تراها أمامك تحت قلمه بجميع مناظرها وجميع حسناتها وعيوبها ، وعنصر المأساة هو الذى يجذب أميل لودفيج ويذكى خياله وقلمه . ولا يتوفر هذا العنصر قدر توفره فى حياة كليوباترا فهى ملكة عظيمة وامرأة ساحرة . تستعمل سحرها كامرأة فى الذود عن مركزها كملكة ، فاذا خانها الحظ ، ولم يعد سحرها يحدث أثره ، وحينما تشعر أن كل شىء قد أفلت من يدها ولم يبق غير العبودية ، فانها تؤثر أن تغادر هذه الحياة بمحض إرادتها ؛ وفى حياة كليوباترا نلتقى بشخصيات عظيمة كشخصية أنتونى ، ويوليوس قيصر ، ثم أوغسطوس ، وفى هذا المزيج من العبقريات المدهشة يستطيع أميل لودفيج أن يطلق العنان لقلمه . وسوف تعنى شركة « الان وانوين » باخراج هذا الكتاب

جامعة انكليزية فى قبرص

منذ بضعة أشهر قام اللورد جورج لويد المندوب السامى لانكلترا بمصر سابقا برحلة فى بلاد الشرق الأدنى ، وقيل انه مكلف بمهمة سياسية وثقافية خاصة ، والآن يتضح لناطرف من هذه المهمة ؛ فقد راع السياسة البريطانية انتشار الثقافات الأجنبية الأخرى ؛ ولاسيما الثقافة الايطالية فى مصر وفلسطين وقبرص ومالطة ، فرأت أن تتق هذه المنافسة الخطرة بمثلها ؛ وعرض لورد لويد أخيراً نتائج بحثه على لجنة الشئون الخارجية بمجلس العموم البريطانى ؛ وأخص ما يقترحه اللورد علاجا لهذا المشكل أن تنشأ جامعة انكليزية فى قبرص تكون مهداً لاذاعة الثقافة البريطانية فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، ويقول لورد لويد بأن الثقافة البريطانية ليست أقل فى نوعها ونفوذها من الثقافة الايطالية ، وأن شعوب هذه الأنحاء تفكر ولا ريب أن تتغذى بالثقافة البريطانية . ثم ان الدعاية الايطالية التى تشتد وطأتها الآن فى شرق البحر الأبيض المتوسط لا يمكن مقاومتها إلا عن هذا الطريق الثقافى القوى

وإذا كانت إيطاليا وهى ليست ذات مصالح حيوية فى هذا القسم من البحر الأبيض تعنى هذه العناية بنشر ثقافتها فأولى ببريطانيا العظمى ذات المصالح العظيمة فى هذه البلاد أن تدعم هذه المصالح بنشر ثقافتها

مسارح الهواء الطلق

أعدت ألمانيا هذا العام ثمانية وأربعين مسرحا مكشوفاً يمثل فيها فى الهواء الطلق ، وتوجد هذه المسارح اليوم فى معظم المدن الكبرى ومراكز الاصطياف والاستشفاء ؛ ويجرى فيها التمثيل فى شهور الصيف من يولية حتى سبتمبر وقد اختير لها برنامج معظمه من القطع الكلاسيكية الخالدة مثل « حلم ليلة صيف » و « روميو وجوليت » لشكسبير ومسرحيات جيته وشيللر شاعرى ألمانيا العظيمين ، وكذلك أنتخبت عدة قطع محدثة من مسرحيات ابسن وهابتمان ، وبيرجنت ، وفلوريان جير وغيرهم ، وبعض قطع كوميدية شهيرة . وسوف تمثل أيضاً فى هذه المسارح المكشوفة أوبرات موسيقية لأعظم أقطاب الموسيق مثل جلوك ، وهاندل وريخارد شترادس ، وأوجين البرت وغيرهم

وفكرة المسارح المكشوفة مستمدة من اليونان القديمة حيث كانت أثينة واسبارطة وكورونته تغص بهذه المسارح الرياضية الفنية ؛ وكانت كالمدارس الشعبية العملية تتخذ أداة لتثقيف الشعب وتهذيب مشاعره

الاحتفال بذكرى وفاة ابن سينا

من أنباء الآستانة أن جمعية التاريخ التركية احتفلت فى ٢١ من هذا الشهر بمرور ٩٠٠ عام على وفاة الطبيب الفيلسوف التركى الكبير ابن سينا احتفالا يليق به . وقد بدأ الاحتفال فى الساعة الثانية فى معهد البيولوجيا بالجامعة . وألقى كثير من العلماء الأتراك والأجانب محاضرات شرحوا فيها الخدمات التى أداها ابن سينا للعلم . ونخص بالذكر من بين هؤلاء العلماء المسيو لوفان رئيس شرف الجمعية الدولية لتاريخ الطب والدكتور تريكور رداير أستاذ تاريخ الطب بالجامعة والرئيس العامل لنفس الجمعية والدكتور جوبولو . وقد نشرت بهذه المناسبة كتاباً عن حياة الفيلسوف الشهير وأعماله وعرضت فى الوقت نفسه كتب ابن سينا المخطوطة والمطبوعة فى المعهد البيولوجى وقد أعدت جمعية التاريخ التركية فى المطبعة الأميرية بالألوان الكتاب الأصلى للفيلسوف الشهير وهو الموجود فى متحف المؤلفات التركية والاسلامية

كذلك احتفل فى جميع أوزبكستان بالذكرى التسعمائة لوفاة (ابن سينا) وقد جمعت بهذه المناسبة النماذج النادرة لمؤلفات العالم الكبير باللغات العبرية والعربية واللاتينية فى مكتبة طشقند وقد نشر المستشرقون فى أوزبكستان نشرة تضمنت مقالات عدة عن ابن سينا

منح جوائز التفوق العلمى

اتصل بنا أن معالى وزير المعارف يدرس الآن مشروعاً لإقامة حفلات عامة فى القاهرة تمنح فيها جوائز للتفوق العلمى وهذه رغبة من رغبات الرسالة نادت بها فى مستهل هذا العهد الجديد

ونقول بهذه المناسبة إن مجلس إدارة الجامعة قرر إقامة حفلة سنوية تمنح فيها الدرجات الجامعية باحتفال كبير



بقعة من حبر

للقصصي الفرنسي رينه بازين

UNE TACHE D'EUCRE

Reué Bazui

للأديب أحمد المحمود

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، هذا كل ما أستطيع أن أذكره عن الثلاث والعشرين سنة الأول من سني حياتي ، ومجرد تعداد هذه الأرقام يكفي — كما ترى — لاظهار تشابهها المشترك وتوضيح وحدة اللون بينها .

مات أهلي ولم أعد الطفولة الأولى ، وإني لأستحضر صورهم في شيء من الجهد والمشقة ، وتكاد معالم البيت الذي شهد حبوى الأول تنمحي من ذاكرتي لولا أنني نشأت غير بعيد عنه أرنو اليه ويرنو إلي ، ولكن الدار بيعت وا أسفاه ! وغاضت حياتها أبد الدهر ، أجل بيع البيت لجرى عليه حكم القدر القاسي وفي هذا المكان اكتحلت عيناي بالنور ، وفي مدرسة البلدة تصرم ثمانية عشر عاماً من عمري وقد اعتاد المدير أن يشرح لنا معنى المدرسة وانها عائلة ثانية لها قيمتها وأثرها في النفس حتى خيل لنا أنها تفضل الأولى بمراحل كثيرة وتسمو عليها شرفاً وقدراً .

وما كدت أنهي دراستي الثانوية وأحمل شهادتها النهائية حتى بعث بي خالي إلى باريس لدراسة الحقوق والتثقف بالثقافة العالية وفي ثلاث سنوات نلت الاجازة التي مضى عليها ثمانية عشر شهراً وهي في يدي ، ثم أقسمت يمين المهنة وغدوت — بهذه الصفة المكتسبة على حد تعبير خالي — محامياً متمرناً وكنت كل صباح اثنين أثبت وجودي في المكتب مع زملاء آخرين وظهر لي بذلك انني حزت ثقة الأرملة واليتيم .

نلت اجازة الأدب — في يسر ولباقة — بينما كنت أتابع دراستي الحقوقية ، وأنا الآن أوشك أن أغدو « دوكتورا » في الحقوق ، ولقد كانت امتحاناتي حسنة في الجملة ، ولكنها ليست في الدرجة التي كنت أرجوها إذ قال لي أستاذي إن الذوق الأدبي عمل فيها عمله الشديد ، وطبيعة الحقوق — يا بني — لاتمت — على عادة العلوم — إلى القلب والعاطفة بسبب من الاسباب » . أصحيح أن قلبي موزع بين الأدب والحقوق ؟ ذلك ما لا أعتقده ، ولكنني لن أعترف بهذا إلى أستاذي الذي لم ينس بعد أنني نلت أجازة في الأدب . إنه يبني علي بعض الآمال ومن الطبيعي أن أبني عليه — بدوري أنا — بعض الأماني في الفحوص المقبلة .

وماضي حياتي تختصره ورقتان نلتهما وثالثة تتراءى لي عن بعيد ، وأوشك أن أنالها ، ثم خال ذو ثروة كبرى . والى تاريخ ١٠ ديسمبر ١٨٨٤ لم يكن ثمت حادث يذكر ولكن من يستطيع أن يضمن جمود الحياة فلا تتطور ، وهذا حادث خطير جرى لي بعد ظهر هذا اليوم فأثر في نفسي أثره العميق وهاج من خواطري كلما أمعنت التفكير فيه والتحليل له والوقوف عنده .

كثيراً ما كنت أذهب إلى دار « المكتبة الأهلية » للعمل في صالة المخطوطات الخاصة التي تضم بين جدرها الطبقة المشهورة من الكتاب والعلماء المرخص لهم بالعمل فيها ، وكنت في كل مرة ألج باب هذه الصالة أحس بشعور الغبطة والكبرياء لوجودي في مكان لا يقبل إلا من كان على جانب من الشهرة وذيوع الاسم . وأتخطى برهبة سدة الحارس الذي اتخذ مكانه إلى رتاج الباب يستقبل الزائرين القدماء ببسمة لا تخرجه عن وقاره وهيبته عند ما يمرون به إلى مقاعدهم . ولم تكن بيني وبينه هذه المعرفة الزمنية حتى يجود علي بابتسامة ، ولكنه على كل حال كان يستقبلني بانحناءة قصيرة من رأسه وقد اعتاد أن يراني كل يوم فلا يطلب مني البطاقة كما كان يطلبها من الزائرين الجدد وفهمت أنني أصبحت فرداً من أفراد العائلة فما علي إلا أن أجوس خلال البيت بأمن وسلام .

ها أنذا في هذه الصالة الفخمة أسرح البصر في اتساعها وجدرها المزينة التي تشبه في أصباغها الجميلة الألواح الفنية الرائعة فتبعث

فى النفس شعور الاجلال والتعظيم . وعلق بصرى بما يشبه المنبر فتبينت أن هذا المكان يجلس فيه النفر المختار من رواد هذه الدار الذين يتمتعون بألقاب العلم وأوسمة الأندية الأدبية . وينتثر إلى جانبي هذا الممر على صورة أصبحت عادية سكان المكتبة العلماء، ومن يتأملهم مقوسى الظهور مطرقى الرؤوس حادبين على كتبهم يفترسونها بصمت وسكون رهيبين يتعظم فى نفسه تأثير الفكرة فى العقل البشرى ومبلغ اجتياحها فى رؤوس هؤلاء التى قلت شعورها ، ومع ذلك فان هذا الجمع من القرعان كان لا يعدم بعض من برقت شعورهم

وغالبا ما ينقطع بعض هؤلاء العلماء القراء - عند ما أمر - عن القراءة فيشخصون إلى بعين « تائهة » بلهاء لا تميزنى جليا لاغراقها فى القراءة والتفهم ، ولكن هذه الابصار كانت تنحسر عنى عندما تلمح تقطيب وجهى فتنصب العيون وتعود إلى ما كانت عليه وهى أشد ما تكون نشاطا وشوقا وندما على أن أضاعت الوقت فى تفحص هذا الآتى الغريب . ولكننى كنت أحس بخواطر هؤلاء وبما هم دائبون فيه . هذا يبتدر رفيقه بأنه يدرس منشأ الصناعات والحرف وأصولها ، وذاك عاكف على دراسة عصر لويس الثانى عشر، وآخر يهمس فى أذن رفيقه : أنا أدرس أحوال المرأة المدنية فى عصر طيباريوس ، ويسرع آخر إلى شده الجمع بانه يبحث عن ترجمة جديدة لهوراس . وشعرت بان جميع من فى هـذا المكان يبتدرنى بالسؤال : وأنت أيها الحدث ماذا جئت تفعل هنا ؟ ألا لا تعكر صفاء هذا المكان الوقور

ماذا جئت أفعل هنا ؟ ! وا أسفاه ! . . . يا سادة . . . وهل أنا فى حاجة إلى أن أقول لكم إن خالى ما فتىء يستحثنى ويلحف على فى انهاء أطروحة الدكتوراه ويضطرنى إلى العودة إلى الريف ويبدى سأمه من بطء الوضع والتأليف، وهاهوذا صراخه فى كتبه إلى : « أقلل من النظريات يابنى ؟ . . . أسرع الى العمل ودع عالم الخيالات والاحلام وما الذى أهاب بك إلى انتقاء هذا الموضوع دون سواه ؟ . . » والواقع أن موضوع « اطروحتى الرومانية » انتقى خصيصا لتمديد إقامتى فى باريس. « ولاتين جونيوس » هذا موضوع اطروحتى — أيها السادة القراء — وانه لموضوع طريف كما ترون ولكنه صعب عسر التوضيح ، وليس بينه وبين الحياة العملية أقل صلة أو علاقة وهو يسبب لى تعبا كثيرا ونصباً جما ، وياليتكم تتصورون بعض ما أقاسيه من مشاق الدرس والمراجعات والمطالعات

ومن الصدق والواجب أن أقول إننى كثيراً ما أمزج مع هذه المشاق بعض القراءات المسلية الجذابة وأرود أمكنة المعارض والملاهى وان خالى يجهل من أمرى كل شىء. إلا أننى مدمن المكتب والموسوعات ومغرق فى استنطاق أسطرها ومتونها وهوامشها وان خالى ليعجب كثيراً بابن أخته الناشىء ، هذا الراهب الناسك « البندكتى » الذى لا يفارق دور العلم وأروقة « المكتبة الأهلية » فى باريس ، بابل الحديثة - كما يسميها - مفنياً لياليه وأيامه مع « غايوس » مستصحباً « لاتنيه » غير عابىء بكل ما لا يمت إلى هؤلاء بصلة . وأنا أحرص كثيراً على حسن ظنه بى فأرسل له دائما بطاقات الانتساب للكاتب ودور العلم موقعة من قيميها ومحافظيها وهو دائما يحتفظ بها حتى يتوفر لديه منها صندوق . ولقد وصلت هذا الصباح ناشطا أكثر منى فى بقية الأصباح وكأن سوء الطالع كان يرافقنى للقضاء على هذا النشاط المنبعث من قرارة نفسى فسبب لى بلية ما كان أشغلنى عنها وأغنانى ! . .

تنتصب إلى جانبي سدة قيم المكتبة اريكتان تحملان أوراق الطلب وأقلام الكتابة وقادتنى خطاى إلى الأريكة اليمنى ويالیتنى لم أقصدها، اذن لكنت فى نجوة عما أنا فيه الآن من أسف وندامة. أخذت الريشة المتصلة بسلسلة نحاسية وخططت بغير وضوح كثير اسم الكتاب والمؤلف الذى أتوخى مطالعته وأعدت الريشة إلى مكانها، ولكن ما أدرى والله كيف أركزتها ولعلها فقدت اتزانها فاضطربت وتدحرجت السلسلة والريشة وانى لأسمع صوتها . . لقد ارتجفت وندت نقطة حبر كبيرة . . . على . . . على كتاب أثرى . . . أمام أحد الأعلام الشيوخ ! . . وإن كنت أذكر لا أذكر إلا انتصاب هذا الانسان الأبيض الهزيل فى ظلام مقعده صارخا :

- يا للغباوة ! . . لقد لوثت الكتاب الأثرى !

وملت إلى المقعد أتفحص فعلتى التاعسة فوجدت أن نقطة الحبر السوداء القاتمة قد استقرت على غلاف الكتاب إلى جانب اسمه المذهب ، وهاهى ذى تتفرطح فتتشعب إلى مايشبه المغزل والسنان وأشكال مختلفة ، وهنا وهناك انتثرت نقاط صغيرة وتوزعت على صفحته كما تنتثر النجوم فى السماء . وإذا ببعض الخطوط تتجمع فتشكل أخدوداً ينحدر فيه الحبر إلى أسفل الصفحة . وتطلعت فاذا أنا محاط بهالة من القراء وكلهم ينظر إلى بعينين متفحصتين فجمدت عروقى وسمرت فى مكانى لانتظار الفضيحة وتمتمت بكلمات اعتذار وأسف كانت لاترد على مافات . وأما قارىء الكتاب فلم ينبس ببنت شفة وكأنه قد فقد الحركة وكنا ننظر سوية إلى تشكل البقعة « نرود بأعيننا خطوط جريانها وانبثاقها على الصفحة وكأنه قد عاد إلى مداركه بعد استقرار البقعة واستكمال

الملاحظة فاهتز اهتزازة محمومة وتناول من جيبه ورقة نشاف وشرع يمتص برجفة عصبية لطوخ الحبر ويعالجها بدقة الممرضة تضمد جراحا . واهتبلت الفرصة لا تقهقر إلى الصف الثالث من المقاعد حيث وضع لى غلام المكتبة الكتب التى طلبتها . وجلست أحمل نفسى على الاعتقاد بأننى لو لم أفه بشىء . ولو أننى أتوارى عن الأنظار أو أن أخبىء رأسى بين يدى كرجل أثقلته جسامة المسؤولية إذن لكفيت هذا الغضب وهذا الصخب ولكن الامر لم يكن ليتوقف عند هذا الحد . وفوقت البصر قليلا أسترق تتمة المشهد فاذانى أبصر هذا الانسان الابيض الصغير الذى كان واقفا الى جانب القيم يكثر من الحركات بيديه قد أصبح بين يدى وكان تارة يشير بسبابته إلى الكتاب الملوث وطورا إلى متجها نصف اتجاه ، وحزرت دون ما تعب أو مشقة أنه يقصدنى بالكلمات الخشنة التى كان يذروها ، وقد بدا لى بنظرة خاطفة أن قيم المكتبة أشفق على من كلمات هذا الشيخ الذرب ، فاحمر وجهى خجلا وأحسست بالخجل يسير فى كل جسمى

وهاهم أولاء يتصفحون دفترا وأظنه البيان الذى يشير إلى قيمة الكتاب وثمنه ومكان الابتياع وانهم ليتآمرون على إفراغ المكان منى وتحديد الجزاء والغرامة ! .. أواه ! .. يا خال تأهب لتحملها ! إلى هنا استرسلت فى أفكارى المحزنة ومارجعت إلى نفسى إلا وشعرت بان يدا تربت على كتفى دون أن أحس بدنو صاحبها ، قال:

— إن المحافظ يطلبك إليه

فنهضت أثاثر الغلام وما إن حاذيت القارىء الرهيب الذى كان قد استقر به مكانه حتى لمست بعضى فى الوصول إلى سدة القيم الذى بدرنى :

— أو أنت الذى لوثت هذا الكتاب ؟ ..

— نعم ياسيدى

— . . . إنك لم تتعمد فعلتك هذه ؟

— طبعا لا ، وأنا آسف لوقوع الحادث يا سيدى

— أنت على حق فى ندمك وعلى صواب ، لأن هذا الكتاب من أندر الكتب الاثرية الموجودة ، والبقعة أيضا من اغرب البقع ولا أعتقد أنى رأيت بقعة على هذا الشكل .

وأحسست بانى ساقول له إن الانسان يلوث كما يشاء ، لولا أنى أمسكت نفسى ، فقال لى :

— اكتب اسمك وصنعتك ومكان إقامتك ؟

فكتبت ما يلى :

« فابيان جان جاك مويارد محامى ، ٩١ ، شارع رن

— هذا كل شىء ؟ . . .

— نعم هذا كل شىء مؤقتا ولكننى أعلمك بان «مسيو شارنو» مغيظ جداً ومن المناسب والمستحسن أن تعتذر له عن الخطيئة التى اقترفتها .

— مسيو شارنو ! ؟ . .

— نعم المسيو شارنو عضو المؤسسة العلمية الذى كان يقرأ الكتاب الاثرى .

وتساءلت فى نفسى عن هذا القارىء الخطير . . . يا الهى ! . . أيكون المسيو شارنو هذا الذى تكلم لى عنه المسيو فلامارون رئيس لجنة التدقيق فى اطروحتى ؟ انهما زميلان إذن أحدهما عضو بمجمع العلوم السياسية والمعنوية والثانى عضو معهد دراسة النقوش والفنون الجميلة .

شارنو ! . . شارنو ! . . أجل ولا يزال جرس هذه الكلمة يطن فى أذنى ولاسيما فى المرة الاخيرة عند ما قال لى استاذى : انه (أى شارنو) صديق الحميم من معهد الفنون والآثار . وأحسست بأن خطراً يتهددنى فى شهادتى وامتحاناتى ونزلت إلى أعماق نفسى اتحسس غوامضها فاذا بى فى مأزق حرج ما أهتدى إلى الخروج منه ، وان الخوف يتسرب إلى من جهتين اثنتين :

أولا ـ لا أعلم ماذا ينتظرنى من الجزاء والعقوبة للكلمة التى فاه بها القيم عند ما استكتبنى اسمى وكنيتى . وثانياً ـ أخشى ان يفسد على هذا العالم « شارنو » عطف استاذى فلامارون لانتهاكى حرمة الكتاب الذى كان يقرأه ، هذا إذا كان نزقا غضوبا كما ظهر لى عند وقوع الحادث المشئوم .

وهل يجب أن أعتذر للمسيو شرنو ؟ وأى الأعذار أقدمها له ؟ وهل أنا لوثته حتى أسرع إلى الاعتذار ؟ أم ان هذا من حق الكتاب الذى احتمل اعتدائى ؟ ان المسيو سالم مما لحق بالكتاب وليس على قميصه أو أثوابه شىء من الحبر أو اللطوخ ، فلماذا اذن يأخذنى بهذه الحدة وهذا الغضب ؟ . . ولكننى سأقول له :

— سيدى أنا آسف جداً لاننى عكرت عليك الصفو فى أبحاثك العلمية . ان كلمة أبحاثك العلمية ستملق ولاريب أثرته واحساسه وستكون مخدراً قويا لأعصابه المتوترة . . .

واستجمعت نفسى للنهوض واذا بالمسيو شارنو يقبل بهزة عصبية وبغضب مازال يشتد منذ وقوع الحادثة وترتسم على وجهه أمائر الاستياء الشديد من تقلص فى الشفاه إلى سهوم فى الوجه والنظر وكان يتأبط محفظته وذراعه تضطرب فى امساكها الى خاصرته . وحدجنى بنظرة قاسية . . . وتابع خطاه .

حسنا يا مسيو شارنو ! . . إن رجلا غاضبا فى حالتك التى أشهد لايمكنه استساغة المعاذير ولكننى سأعتذر لك فيما لو تقابلنا اذا كان للايام أن تضعنا وجها لوجه . . .

(طرطوس) احمد المحمود

فهرس الموضوعات للمجلد الأول من السنة الخامسة

فهرس الكتاب للمجلد الأول من السنة الخامسة

5 me Année, No. 209

Lundi - 5 - 7 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
ـــــــ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٢٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
*
الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العــدد ٢٠٩ «القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ — ٥ يولية سنة ١٩٣٧» السنة الخامسة

فهرس العــدد

الجيــل الجديد

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

ـــــــ

زارنى منذ بضعة أيام عدد من شبان هذا الزمان فنظرت إلى ثيابهم الجميلة وتفصيلها المحبوك على قدودهم المشوقة وتحسرت على أيامنا . وكان بينهم واحد يلبس بنطلوناً قصيراً فقلت له : «أتلبس هذا عادة ؟» ، قال : «نعم . سبور» ، قلت : «فى أى مدرسة أنت ؟» ، قال : «فى الخديوية» ، قلت : «اسمع . أنا أيضاً كنت تلميذاً فى المدرسة الخديوية ولا أذكر أنى رأيت فيها ـ فى تلك الأيام ـ تلميذاً يلبس بنطلوناً قصيراً ، لا أدرى لماذا ؟ ربما كانت الروح «الاسبور» تنقصهم فى تلك الأيام ، ولكنى أعرف أيضاً أنى فى صغرى كنت لا أقبل أن ألبس هذا البنطلون القصير ... كان أخى الأكبر يأخذنى قبيل افتتاح المدارس إلى محل «ماير» ، وكان أشهر محلات الثياب فى تلك الأيام ، فيعرض على البائع أمثال هذا البنطلون فأقول لأخى : هذه سراويل لا بنطلون ، وآبى كل الإباء أن أتخذها . وأصر على البنطلون الطويل فيضحك أخى ويقول للبائع : «هات له بنطلوناً طويلا . . إنه يريد أن يكون رجلا ويحس أنه رجل ، فلا داعى للتنغيص عليه» . . وأنا أفهم أن تلبس هذا القصير

حين تلعب ولكن الحياة ليست كلها لعبا . . فيها ساعات للعمل والجد على ما أظن »

فقال أحد زملائه : « إنه لا يزال صغيرا »

قلت : « لا أدرى . لقد كنت أنا أيضا صغيراً لما كنت أرفض ارتداء هذا البنطلون . كنت فى التاسعة من عمرى يومئذ . وأحسب أن من كان فى التاسعة جدير بان يسمى صغيرا . . وليس للإحساس بالرجولة وقت معين أو سن مخصوصة . . فمتى تريد يا صاحبى أن تشعر أنك رجل ! »

والتفت إلى إخوانه وقلت لهم : « ليت واحداً منكم يقول لى كيف تقضون يومكم »

فترددوا ، وصار واحد منهم يبتسم ، وثان يفرك يديه ، وثالث يتمتم بكلام غير مسموع فقلت لهم : « أنا أصف لكم كيف كنا نقضى اليوم فى حداثتنا ... كان بيتنا فى ذلك الوقت عتيقاً جداً ، وله فناء واسع كبير فيه شجرة جميز ضخمة . وكان فى الفناء « حاصل » رحيب فيه أيضا بئر ، فكنت أستيقظ فى الساعة الخامسة صباحاً — صيفاً وشتاء — فأنحدر إلى هذا الحاصل وأدلى دلوى فى البئر فأملاه وأصبه على بدنى — بعد خلع ثيابى طبعاً . كان هذا يقوم عندى مقام « الدوش » فى أيامنا هذه ... فقد كان الماء يحمل إلى البيوت فى القرب على ظهور السقائين لا فى الأنابيب كما هو الحال اليوم ... ثم أصعد إلى المسكن فأفطر وأتناول كتاباً وأقرأ حتى يدنو موعد المدرسة فألبس ثيابى بسرعة ... فى دقيقة واحدة بلا مبالغة ، وما زلت الآن قادراً على ارتداء الثياب فى مثل هذا الوقت القصير ... أى فى دقيقة ... وأحسب أنى لو عملت فى فرقة تمثيلية لأدهشت المتفرجين بسرعة اللبس ... ما علينا ... انما ذكرت هذا لأنى رأيت كثيرين يضيعون ساعات فى ارتداء الثياب : يقفون أمام المرايا ويتأملون أنفسهم فى صقالها من الخلف والأمام ومن اليمين والشمال كأنهم سيعرضون فى مسابقة للجمال ، أو كأن أهم عمل للانسان فى هذه الحياة هو أناقة الملبس وحسن البزة وجمال الهندام . اذا مالت ربطة الرقبة نصف ملليمتر كان هذا عيباً فظيعاً ؛ واذا كانت هناك ذرة واحدة من التراب على نعل الحذاء خربت الدنيا وقامت القيامة فى البيت على الخادمة المهملة . ما علينا كما قلت . ثم أذهب أجرى الى المدرسة أجرى بالمعنى الحرفى لأنى كنت أقرأ فلم أجعل بالى إلى الوقت وموعد المدرسة . وما أكثر ما كنت أجرى وفى يدى ربطة الرقبة فلا يتيسر لى أن أضعها حول رقبتى إلا فى الصف أو فى المكتب . ولو تخلفت عن المدرسة لما كان فى ذلك بأس ولا منه ضير ، فقد كنت أنا ولى أمر نفسى ، ولكنا كنا نحب المدرسة وكانت لنا رغبة فى التعلم . وينقضى اليوم المدرسى فنكر راجعين إلى بيوتنا ثم نخرج للرياضة والنزهة والترويح عن النفس ساعة أو ساعتين

وأذكر لكم شيئاً . . كنا ثلاثة أو أربعة لا نكاد نفترق . ولم نكن فى مدرسة واحدة ولكنا كنا نلتقى بعد المدرسة فى بيت أحدنا ومعنا كتبنا أو بعضها فنتبادل الدروس التى تلقيناها فى يومنا ، ثم نمضى إلى قصر النيل أو غيره — على أرجلنا — فاذا كان اليوم يوم خميس ركبنا زورقاً على النيل وكان أبو أحدنا رجلا فيه شذوذ ، فكان يتفق أن يجىء إلى بيتى ويقف فى الفناء الرحيب تحت الجميزة ويصفق ، حتى إذا شعر أن أحداً أطل من النوافذ العليا كف عن التصفيق وانطلق يصيح : « ياأهل عبد القادر . . حرشوا ابنكم عن ابنى . . أفسد أخلاقه وعلمه السهر إلى الساعة اثنين » ، فيخيل لمن يسمعه يصيح أننا نسهر إلى الساعة الثانية صباحاً أى بعد منتصف الليل ، ولكنه كان يعنى الساعة الثانية بالحساب العربى : أى العشاء أو بعد ذلك بقليل ... »

فقال أحد الشبان : « لم يكن فى أيامكم سينما ولا غيرها من الملاهى التى تضيع الوقت »

فقلت : « إن اللهو ميسور فى كل وقت . وطالبه لا يعدمه فى أى مكان أو زمان . والمهم هو إرادة اللهو لا اللهو فى ذاته . وأنا أراكم تريدون الحياة كلها لهوا لا جد فيها ولا عمل ؛ وهذا هو الفرق بيننا وبينكم ، فقد كنا ندرك أن للهو ساعات لا ينبغى أن نعدوها ، أما أنتم فلا يكاد الواحد منكم يدرك أن للعمل وقتا أو أن العمل واجب . . تريدون اللقمة ممضوغة بل مهضومة قبل أن تضعوها فى أفواهكم ، بل أنتم لا تريدون أن تكلفوا أنفسكم عناء بلعها وازدرادها . . من منكم يعنى بأن يفتح كتابا غير كتب المدرسة ؟ لقد كنا نذهب إلى المكاتب

ونبحث فيها عما نريد من الكتب .. وأنتم تنشر لكم الصحف اعلانات مشوقة مرغبة مغرية عن الكتب فلا يخطر لأحدكم أن يشترى منها كتابا .. حتى كتب المدرسة لا تقرأونها .. وشكواكم أبدا من الامتحان وصعوبته .. وسعيكم دائما إلى التسهيل والتخفيف والرأفة .. وما أحسبكم تطلبون إلا أن تعطوا الشهادات بلا امتحان .. والوظائف بلا استحقاق ..

وقد سمعت بعضهم يقول إن الجرائد والمجلات تشغل الطلبة فى هذه الأيام عن الدرس والتحصيل، وأعتقد أن هذا كلام فارغ فقد كانت فى أيامنا جرائد ومجلات كنا نقرأها جميعاً .. اللواء والمؤيد والجريدة والمقطم والدستور والهلال والمقتطف، بل كنا نذهب إلى دار الكتب لنقرأ فيها المجلات القديمة مثل الضياء والبيان لصاحبهما المرحوم اليازجى ... وكذاب من يقول إنكم تقرأون الصحف، فما تقرأون فيها حين ترونها إلا أخبار الامتحان والاضراب والمظاهرات الساعية إلى الوزارات تستجدى النجاح ... وما تقرأون إذ تقرأون إلا المجلات الهزلية لأن حياتكم هزل بحت »

فقال أحدهم: إن الحركة الوطنية هى المسئولة عن انصراف الطلبة عن التحصيل. فلم يقنعنى قوله هذا وبينت له أن الحركة الوطنية كانت أيضاً فى أيامنا ... بل كانت فى ذلك الوقت أحمى، وكان مصطفى كامل يقيم البلاد ويقعدها بخطبه ومقالاته اليومية. ولكن قراءة المقال أو سماع الخطبة لا يستغرق اليوم كله ولا يستنفد الجهد أجمعه ... وقد كانت هناك فى أيامنا جمعيات أدبية شتى وكنا نعنى بأن نشهدها كلها. ولو أن جمعية أدبية قامت فى زماننا هذا لما حضرها إلا مؤسسوها ... وحتى هؤلاء فى مواظبتهم على الحضور شك كبير .. وفى كل أمة صحف ومجلات وأمور تشغل أبناءها، وما أظن أن أحداً سيدعى أن مشاغلنا أكبر من مشاغل الشعب البريطانى أو الألمانى أو الفرنسى .. ومع ذلك لا نرى هذه البلادة المخيفة والانصراف المؤنس عن الجد

وقصصت عليهم قصة فقلت: « إنى بعد أن تخرجت من مدرسة المعلمين العليا وأصبحت مدرسا اتفق يوماً ان كنت جالسا فى مقهى بميدان قصر النيل - ميدان الاسماعيلية الآن - وكان معى كتاب «حديث المائدة» لويندل هولمز، وكنت أقرأ فيه حديث الشاعر على المائدة، فمر بى انجليزى كان معلماً لى فى مدرسة المعلمين فخففت اليه وحييته، فقد كنت أحبه، فكان أول ما قاله لى: « أظن أنك لا تقرأ شيئا فى هذه الأيام؟ » فسألته عن سبب هذا الظن القبيح بى فقال: « ألست مدرساً وموظفا ولك مرتب تتقاضاه فى آخر كل شهر؟ فما حاجتك إلى القراءة؟ » وكان يتهكم. ولو أنى شئت لما عبأت بسوء رأيه هذا ولكنه شق على أن يتوهم أنى ما كنت أقرأ إلا طلباً للشهادة ورغبة فى الوظيفة، فرجعت إلى حيث كنت قاعدا وعدت اليه بالكتاب الذى كنت أقرأ فيه ودفعت به إليه وقلت له: « اسألنى إذا شئت .. امتحنى .. نعم فانى مستعد » فابتسم وقال: إنما كنت أمزح .. لأحثك على المواظبة على الاطلاع .. وانى لأعرف أنك تحب التحصيل للتحصيل، ففرحت بهذا جدا وعدت إلى مجلسى مسرورا مغتبطاً بحسن رأى استاذى؛ وقد لقيته بعد ذلك بسنوات طويلات المدد فى انجلترا وكنت أهم بالعودة وأتزود من مكتبة هناك فقال لى: « أراك لا تزال تقرأ؟ » قلت: « إن لنا مثلا يقول إن الزامر يموت وأصابعه تلعب .. صار الأمر عادة يا سيدى .. لا أستطيع ان أنام إلا إذا قرأت شيئا .. لا لأنام فان الكتب لا تنيمنى، بل لأحلق فى سماء الفكر وأرتفع لحظة عن هذه الأرض .. »

فاعتذر أحدهم بأن الدروس كثيرة وأنها مضنية، وهذا صحيح، فانها أكثر مما ينبغى، ولكنى قلت لهم: إن دروسنا كانت أقل وأفرغ وكان أمرها أهون، ولكن الذى كنا نقرأه من تلقاء أنفسنا، بلا حث أو حض، كان أضعاف أضعاف ما تتبرمون منه .. لقد كان أحدنا يقرأ فى الليلة الواحدة كتابا .. من منكم يعرف أن لداروين كتابا اسمه أصل الأنواع؟ .. أو من منكم يعرف اسم داروين؟ .. لقد قرأت هذا الكتاب الجاف فى صدر أيامى .. وقرأته بلا معين وحطمت راسى به .. وما أكثر ما حطمت راسى بأمثاله .. الحقيقة أنكم قوم ولا مؤاخذة فارغون .. وأنتم الذين سيكون فى أيديكم زمام هذا البلد المسكين! »

ولا أعرف لماذا زارنى هؤلاء الشبان، ولكنى أعرف أنهم انصرفوا راضين على الرغم من هذه العلقة!

ابراهيم عبد القادر المازنى

السندوتش والمائدة

للأستاذ عباس محمود العقاد

أدب السندوتش هو أدب الفاقة والعجلة، وأدب المائدة هو أدب اليسار والوقار، كما سماهما الكاتب البليغ الأستاذ الزيات وأصاب في التسمية، لأنها تسمية وتوصيف وتعليل في وقت واحد

وقد ختم الأستاذ مقاله سائلا: «ليت شعري إذا خلت أمكنة هؤلاء النفر - أدباء الكهول - الذين نبغوا بالاستعداد والاجتهاد كيف تكون حال الأدب الرفيع في مصر؟ أيذهبون وبطئان ما يعوَّضون على رأى الأستاذ أحمد أمين، أم يذهبون وسرعان ما يُخلَفون على رأى الأستاذ العقاد؟»

وفي جواب هذا السؤال أيضاً لست من المتشائمين، لأن الجواب بعضه من سر المستقبل، وبعضه من حقائق الماضي؛ فإن وقفنا من المستقبل بين الشك والرجاء فوقفنا من الماضي أدنى إلى رجاء المتفائل. وأقصى عن يأس المتشائم. بل لعله موقف لا يحمل في أطوائه غير يقين الرجاء

قبل ربع قرن من الزمان كان أناس غير قليلين يسألون كما يسأل الأستاذ الزيات اليوم: ترى من يرفع لواء الأدب بعد أعلامه البارزين في هذه الآونة؟ ترى هل ينطوى اللواء بعدهم أو تهيء له الأيام أكفاً تنشره كما نشروه وتعزه كما أعزوه؟

ولم يكن اسم واحد من الأسماء الستة أو السبعة الذين أشار إليهم الأستاذ الزيات معروفاً تلك المعرفة التي تغنى في اجابة السؤال؛ وربما كانوا مجهولين كل الجهل في غير مجال الأصحاب أو مجال المتطلعين المتسمعين إلى أبعد الأصداء؛ فكان الجواب الغالب على الألسنة أن المستقبل مقفر مدبر. وأن من مات فات وليس له لاحق بين ناشئة الجيل

فاذا سألنا في مفرق الجيلين مثل ذلك السؤال ورأينا البوادر تملى علينا مثل ذلك من الجواب، فليس من اللازم أن تصدق البوادر، وأن تنقضي خمس وعشرون سنة أخرى دون أن يخلف السابقين عوض من اللاحقين، وإن خفي نجمهم اليوم أو تراءى على الأفق تراثياً يتشابه فيه النجم والسديم

وإننا لنذكر اليوم الستة أو السبعة القائمين بأمانة الأدب وننسى الستين أو السبعين الذين كانوا يهزلون كما يهزل بعض الناشئين في أيامنا، ويتبلغون بالقليل من زاد الاطلاع كما يتبلغ أدباء السندوتش بيننا: نسينا أولئك الستين أو السبعين لأن الزمان قد نسيهم وعفى على أسمائهم وآثارهم، ولكنهم كانوا في أيامهم يحجبون الأفق ويشبِّهون الشخوص على الأنظار ويبعثون اليأس ويثبطون الرجاء. فليس من البعيد أن يكون لهم نظراء يلبسون الأمر علينا، وأن يكون للستة أو السبعة نظراء ينقشع عنهم الغبار بعد عشرة أو عشرتين من السنين، وإن جاز أن يخيب الظن كما يخيب بعض الظنون

وفي العالم كله نوازع شتى تنزع بالناس الآن إلى الأدب الرخيص أو أدب السندوتش أو أدب الفاقة والعجلة، وقلما تختلف البلاد في هذه النوازع على اختلاف النظم الاجتماعية والمذاهب الحكومية التي تساس بها الشعوب في العصر الحديث

ففي البلاد الديمقراطية يكثر القارئون بين سواد الشعب ويتوخى الناشرون الرواج فيؤثرون ما هو أشيع وأيسر على ما هو أندر وأنفع؛ ويطغى الأدباء الهازلون على أصحاب الجد والأمانة، فلا تتساوى الرغبة في الأدب النفيس والرغبة في الأدب الخسيس

وفي البلاد الفاشية يتحكم المستبدون في أذواق الكتاب والشعراء فلا يذعن لعسفهم واستبدادهم إلا طائفة من المرتزقة المتزلفين الذين لا يقدرون على الأدب القيم؛ ولو أبيح لهم أن يطرقوه ويتوسعوا فيه، فهم أحرى أن يعجزوا عنه وهم مكبوحون مسوقون بالرهبة والاغراء

وفي البلاد الاشتراكية يعتقد الحكام أن الآداب هي لسان حال الطبقات، وأن الأدب الذي يليق بهم هو أدب الطبقة السفلى ومن إليها من أشباه العامة والمسخرين. وحسبك من أدب يقوم على أذواق هؤلاء. ويجرى مع هذه الأهواء

ولا ننس عصر الآلات وما يحرف به الناس من سرعة جائحة ونزوة جامحة. ولا ننس الحرية الشخصية، وما سولته للصغار والأوشاب من غرور المساواة وتمرد المباهاة، فقد

بدأت باعتبار الرجل نفسه ندا للسراة والوجهاء. ولو كان فى الصعاليك والفقراء، وانتهت باعتبار الرجل نفسه ندا للعلماء والأذكياء ولو كان من الجهلاء والأغبياء ، فضعف الخجل من التقصير ، وضعف الطموح إلى مساواة الأعلين . وأصبح العيي الفه لايدارى عيه ولا فهاهته لأنه صاحب « حق » فى العي والفهاهة ، وصاحب دعوة فى المساواة لايعدم لها أنصارا بالألوف والملايين !

تلك النوازع فى بلاد العالم كله على اختلاف النظم الاجتماعية والمذاهب الحكومية خليقة أن تنصر أدب الفاقة والعجلة ، وتنحى على أدب اليسار والوقار . ولكننا نرجع إلى العصور الغابرة فلا يصادفنا عصر منها إلا كانت فيه نوازع كهذه النوازع فى نصرة الأدب المبذول وخذلان الأدب الكريم العزيز . وقريباً من عصرنا هذا كان تمليق الأغنياء والخضوع للجامدين والولع بمحاكاة الأقدمين وضعف الثقة والعجز عن حرية التفكير والابداع نوازع أخرى لا تقل فى أثرها الوخيم عما أحصيناه من مساوىء عصرنا ، فلا نفاد فى عصور الزمن لبواعث الضعف ولا نفاد فيها لبواعث القوة ؛ وشأن العقول فى ذلك شأن الأبدان بين دواعى السقم ودواعى الصحة . لا ينفرد عصر بالأمراض كلها ولا ينفرد عصر بالعافية كلها ، ولا يزال الحال فى تعادل ونقص وتعويض مادامت الحياة حية تعطى وتأخذ من دنياها بمقدار

على أننا لانخادع أنفسنا ولا نستر الفوارق التى بيننا وبين غيرنا . ففى انجلترا مثلا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم برتراند رسل وهو يتهد فى أعوص الموضوعات ؛ وفى فرنسا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم رومان رولان وبرجسون فى المثل العليا وما وراء الطبيعة ؛ وفى ألمانيا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم هوسرل وهيدجر فى معارض لايعنى بها فيما أحسب عشرة من قرائنا المصريين ؛ وفى إيطاليا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم فريرو وجنتيلى وجروشى فى معضلات الاجتماع والتاريخ . وإنما مثلت بالفلسفة وحدها لأن موضوعاتها أعسر ، وقراؤها أندر ، وعقول الباحثين فيها أكبر وأقدر ؛ وهى بعد عنوان لما وراءها من أدب الجد والأمانة والرصانة والترفع عن القشور

أما فى مصر فأدب الجد والأمانة والرصانة والترفع عن القشور إنما يقوم على كواهل أصحابه ولا يقوم على كواهل القراء ؛ وكل ما نملك من عزاء أن الجد والهزل فى هذا الباب يتساويان ، فليس بيننا كاتب هازل يعيش بهزله ، وليس بيننا كاتب جاد يعيش بجده ؛ وسبيل العزاء فى هذا أن الهزل والجد يعيشان على نمط واحد ، فلا يجور الهزل حتى يطمس معالم الجد ، وإن شاء أن يجور

كذلك يتعاقب أدباء الكهول وأدباء الشباب فى أوربا ، ولهم فى التعاقب معنى يتمثل فى تعاقب الأدوار وتلاحق الأفكار ، وتباين المدارس الذهنية على حسب الأحوال والأطوار

أما عندنا فحين ظهر بيننا من ينعتون أنفسهم بمدرسة الشباب لم يكن معهم شىء جديد ولا دليل على الحداثة غير شهادة الميلاد ، وراحوا فى دعوتهم يميعون تميع الذى يربت على عطفيه ويتحبب إلى نفسه ويفرط فى تدليل سنه كأنه يتقدم فى سوق الرقيق لا فى ميدان الفكر وحلبة الصراع

بيد أننا قد جربنا الاختلاف بيننا وبين أوربا الحديثة فى خصال كثيرة صلح بعضها ولا تزال لها بقية على سنن الإصلاح ؛ فلنجرب ما بيننا وبينها من اختلاف فى هذه الخصلة خمساً وعشرين سنة أخرى . ولا ننتظر نهايتها حتى تتفاءل ما وسعنا التفاؤل على أبواب المجهول ، وحسبنا منه فيما نحن فيه أن يتساوى الأمران فلا موجب للأمل ولا موجب للقنوط ، وكل ما كان بالأمس فهو وشيك فى غد أن يكون

أيذكر الأستاذ الزيات ما كانوا يعيبونه قبل خمس وعشرين سنة على كتاب الجيل الناشىء وشعرائه وناقديه ؟ ؟ كانوا يجمعون العيوب كلها فى كلمة واحدة يسمونها « التفرنج » ويعنون بها الخروج على قواعد العربية . وكان يخيل إلى سامعيهم أنهم على صواب لاريب فيه ؛ فهل نرى اليوم مصداق ذلك فى لغة الفريقين من الموسومين بالاعراب والموسومين بالتفرنج فى ذلك الحين ؟ أقرب الظن أن هؤلاء « المتفرنجين » من كهول اليوم أوفى للعربية من أولئك المستعربين المتشددين ، فإن لم يكن ذلك شفيعاً للأمل فى غد ، فلعله أن يكون معيناً على الانتظار !

عباس محمود العقاد

في التاريخ السياسي

المسألة الفلسطينية

والآراء المعروضة لحلها

بقلم باحث دبلوماسي كبير

تجتاز المسألة الفلسطينية الآن دوراً دقيقاً حاسماً؛ فهى الآن قيد البحث والدرس من جانب السياسة البريطانية. والسياسة البريطانية تحاول هذه المرة أن تضع لحلها تسوية دائمة يقبلها العرب واليهود معاً؛ ومنذ أن احتلت بريطانيا العظمى فلسطين، وصدر عهد بلفور لليهودية بجعلها وطناً قومياً لليهود، أعنى منذ عشرين عاماً، لم توفق السياسة البريطانية إلى تحقيق السكينة والسلام فى فلسطين؛ ذلك لأن النظام الغريب الذى ابتدعته السياسة الاستعمارية لهذه البلاد العربية لم يكن طبيعياً يرجى له البقاء، فهو فضلا عن كونه يقضى بتمزيقها إلى شطرين هما فلسطين وشرق الأردن، فانه أيضاً يقضى بجعلها، وهى البلاد الاسلامية العربية، وطناً قومياً لليهود من جميع أنحاء العالم؛ وقد كان حلم اليهودية منذ أواخر القرن الماضى أن تستعمر فلسطين، وان تحقق باستعمارها أمنية العودة إلى أرض الميعاد وإحياء مملكة إسرائيل بعد أن دثرت منذ الفى عام؛ فلما أسفرت تطورات الحرب الكبرى عن قيام الحكومة البريطانية باصدار عهدها بتعضيد إنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين، فتحت فلسطين على مصراعيها لتلقى الهجرة اليهودية من سائر الأنحاء، ولم تمض أعوام قلائل حتى طغى هذا السيل الجارف على فلسطين، واستأثرت اليهودية بمعظم مرافقها الاقتصادية. وشهد العرب فى فزع وروع بلادهم تتحول بسرعة إلى مستعمرة يهودية يكادون يصبحون فيها غرباء عن أوطانهم؛ ومع أن اليهود ما زالوا من الوجهة العددية أقلية (فهم اليوم نحو أربعمائة ألف مقابل نحو ثمانمائة ألف من العرب) فانهم من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية هم ذوو النصيب الراجح فى شئون فلسطين وفى مرافقها وثرواتها، تعضدهم السياسة الانكليزية وترجح رأيهم ومصالحهم.

هذا الوضع الشاذ لمصاير الأمة الفلسطينية لم يكن يرجى له البقاء، ولم يرتضه العرب منذ الساعة الأولى بل قاوموه بكل قواهم، وثارت فلسطين العربية غير مرة فى وجه هذا الاعتداء الصارخ على حقوقها القومية والتاريخية، وأسمعت صوتها للسياسة البريطانية وللعالم كله. وكان العام الماضى مشهد فصل رائع من ذلك النضال الجلد المؤثر الذى تخوضه فلسطين للذود عن كيانها. وللمرة الثالثة أو الرابعة تحاول السياسة الانكليزية أن تبحث المسألة الفلسطينية على ضوء الحوادث والتطورات الواقعة. وقد حاولت من قبل أن تعالجها ببعض الحلول الجزئية، كإنشاء مجلس تشريعى، أو تقييد الهجرة اليهودية، أو الحد من بيع الأراضى الى اليهود؛ ولكن الأمة الفلسطينية لم تقبل هذه الحلول العرضية، وما زالت تتمسك بمطلبها الأسمى، وهو إلغاء عهد بلفور وإلغاء الانتداب البريطانى ومع أن السياسة البريطانية ما زالت تصر على خطتها فى التمسك بالانتداب وعهد بلفور، فانها تشعر اليوم شعوراً قوياً بأنه يستحيل عليها من الوجهة العملية أن تمضى فى هذه الخطة، وأن السلام لا يمكن أن يستتب فى فلسطين ما لم يوضع حل نهائى شامل للمسألة الفلسطينية يرضى العرب واليهود معاً.

وهذه فى الواقع هى النقطة الشائكة فى الموضوع، ذلك أن كل حل تلحظ فيه أمانى العرب القومية لابد أن يحد فيه من نشاط الصهيونية وأمانيها فى فلسطين، وهذا ما لا ترضاه اليهودية، بل تقاومه بكل قواها؛ واليهودية قوة عالمية ذات شأن وذات نفوذ يذكر فى عالم السياسة والمالية العليا، والسياسة الانكليزية لا يمكن أن تنسى هذه الحقيقة، فاذا أضفنا إلى ذلك أن بريطانيا العظمى قطعت لليهودية فى شأن الوطن القومى عهوداً يصعب عليها أن تتراجع فيها، أدركنا مبلغ

ما يحيق بحل المسألة الفلسطينية ، من المصاعب الفادحة والاعتبارات الدقيقة .

* * *

وقد كانت آخر خطوة اتخذتها الحكومة الانكليزية فى سبيل المسألة الفلسطينية . انتدابها فى العام الماضى على أثر الاضطرابات الدموية التى اضطرمت بها فلسطين مدى أشهر لجنة ملكية لتحقيق أسباب هذه الاضطرابات وسماع أقوال العرب واليهود وتعرف موقف كل فريق وأمانيه وأسباب تذمره ؛ وأن توصى بعد درس الحالة بخير الحلول التى تراها كفيلة بوضع الأمور فى نصابها وحل المسألة الفلسطينية حلا يوفق بين مختلف الأمانى والرغبات ويكفل استتباب النظام والامن فى فلسطين ؛ وقدمت هذه اللجنة إلى فلسطين فى أواخر العام الماضى وقامت بمهمتها ؛ وفى الأنباء الأخيرة أنها وضعت تقريرها المنشود ورفعته إلى الحكومة الانكليزية لدراسته واتخاذ قرارها بشأنه ؛ ولم يعرف رأى اللجنة بعد فى حل المسألة الفلسطينية بصورة قاطعة . ولكن الصحف البريطانية أذاعت أخيراً أنباء يستفاد منها أن اللجنة ترى أن تقسم فلسطين إلى منطقتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ، وأن يختص العرب بالمنطقة الشرقية ولها منفذان إلى البحر عن طريق يافا وحيفا ؛ وأن يختص اليهود بالمنطقة الغربية ويعطى لها نظام الدومينون . وأن تجعل مدينة القدس وبيت لحم منطقة دولية مستقلة تحت إشراف عصبة الأمم، وأن تجعل حيفا قاعدة بحرية بريطانية ؛ ويلاحظ أولا أن هذه الفكرة فى تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب إلى مناطق اتحادية، وجعل مدينة القدس مركزا دينياً حرا على مثل « مدينة الفاتيكان » فى رومه ، ليست جديدة ولم تنفرد بابدائها اللجنة الملكية البريطانية ، بل هى فكرة ظهرت منذ أعوام وقل بها بعض زعماء الصهيونية ورجال السياسة ، على اختلاف فى بعض التفاصيل ؛ ولكن هل يعتبر هذا الحل علاجا ناجعاً للمسألة الفلسطينية ؟ وهل يرتضيه طرفا النزاع ؟ وهل يحقق السلام المنشود ؟ هذا ما يشك فيه الشك أولا ، لأن العرب لا يرتضون حلا لقضيتهم يقوم على تمزيق بلادهم واقتطاع نصفها لليهودية بصفة نهائية وحصرهم فى منطقة ضيقة هى أقل المنطقتين من حيث المزايا الاقليمية والاقتصادية ؛ وثانياً لأن اليهودية تأبى أن تحد اطماعها فى فلسطين على هذا النحو ، ولا ترضى بأقل من فلسطين كلها ميداناً لنشاطها الاستعمارى ، بل لقد حاولت اليهودية فى الأعوام الأخيرة أن تدفع نشاطها إلى شرق الأردن ، وهى المنطقة التى حرمها صك الانتداب على الوطن القومى اليهودى فكيف بها ترضى اليوم أن تحصر فى المنطقة الساحلية ؟ وكيف ترضى اليهودية أن تنزع من نفوذها مدينة القدس ، إيليا أو أورشليم عاصمة داود وسليمان ، ومثوى ذكرياتهم التى يكونها منذ ألفى عام ؟ الواقع أن فكرة التقسيم ؛ إذا صح أنها هى العلاج الذى تراه اللجنة الملكية ، حلا للقضية الفلسطينية ، تصطدم بأكبر العقبات ، ولا يلوح أنها تلقى حظاً كبيراً من القبول أو النجاح

* * *

هذا وقد تقدمت فى تلك الأثناء بعض المقامات المصرية العليا التى تعنى بالشئون العربية والاسلامية باقتراح جديد لحل المسألة الفلسطينية خلاصته أن تضم فلسطين إلى سوريا وأن تؤلف منهما مملكة عربية إسلامية متحدة يتبوأ عرشها أمير من أمراء العرب البارزين وتعقد هذه المملكة مع بريطانيا العظمى وفرنسا معاهدة صداقة وتحالف على مثل المعاهدة المصرية الانكليزية . وإدماج فلسطين فى تلك المملكة العربية الجديدة يعاون على حل مسألة الوطن القومى اليهودى بصورة عملية ؛ ذلك أن اليهود يصبحون فى المملكة الجديدة أقلية دينية . ويكون مثلهم مثل الأقليات الدينية بمصر ، تكفل لهم قوانين البلاد الأساسية المساواة مع باقى السكان فى الحقوق والواجبات

وأذاعت الأنباء أيضاً أن الأمير عبد الله أمير شرق الأردن يرى لحل القضية الفلسطينية رأياً مماثلا بيد أنه يرى أن تكون المملكة العربية المشار اليها مكونة من فلسطين وسوريا ؛ والعراق

ويقال إن هذا الاقتراح بإنشاء مملكة عربية متحدة تكون فلسطين إحدى أجزائها هو الآن موضع اهتمام الدوائر السياسية البريطانية . بيد أنه يلوح لنا أن هذا الحل يثير صعابا عملية جمة . ومن المحقق أولا أن الأمة الفلسطينية يسرها أن تنضم إلى شقيقتها الكبرى سوريا ، وأن يستأنف القطران بذلك وحدتهما التاريخية . ولكن هذا الضم لا يتوقف على رأى السياسة البريطانية وحدها ، بل يتوقف أيضاً على رأى السياسة الفرنسية التى تسيطر حتى اليوم على مصاير سوريا ؛ ومن المشكوك فيه جداً أن توافق عليه بريطانيا العظمى لأسباب عسكرية واقتصادية خطيرة ؛ ومن جهة أخرى فان سوريا الجمهورية لا ترتضى الانضواء تحت لواء الملوكية المقترحة ولبنان تتمسك باستقلالها وانفصالها ؛ وأما اليهودية فإنها قد لا تأبى مثل هذا الحل ، بل ربما رحبت به لأنه يفتح أمامها آفاقاً جديدة للعمل ، وإذا كان وجود الوطن القومى اليهودى فى فلسطين خطراً اقتصادياً واجتماعياً على الأمم الاسلامية المتاخمة له ، فإن هذا الخطر يغدو أشد وأعظم إذا اتسع نطاق العمل أمام اليهودية واستطاعت أن تخلق لها مراكز جديدة للنشاط والعمل فى القطر السورى أيضاً ؛ هذا ومن الخطأ أن نقدر قوة اليهودية باقليتها العددية ، فإن هذه الأقلية تستند إلى قوى عظيمة فى الخارج تغذيها بتعضيدها المادى والمعنوى ؛ واليهودية العالمية قوة لا يستهان بها

والخلاصة أن المسألة الفلسطينية لا تزال فى دور ؛ وليس فى الحلول المعروضة ما يؤدى إلى تسويتها بصورة دائمة مرضية ، غير أنه لما كانت الحكومة البريطانية قد اقتنعت بعد حوادث العام الماضى بأنه لابد من عمل شىء جديد يكفل استتباب النظام والأمن فى فلسطين ، فهى بلا ريب ستحاول القيام بتجربة جديدة ؛ واستتباب السلام فى فلسطين يهم السياسة البريطانية فى الظروف الحالية بنوع خاص ، لأنها أضحت ترى فى فلسطين مركزاً جديداً للدفاع الأمبراطورى يمكن الاعتماد عليه ؛ وتقرير اللجنة الملكية الآن قيد البحث والدرس .

وسنرى عند إذاعته على أى الأسس ترى اللجنة أن تقسم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية ، والأخرى يهودية ، وسنرى أيضا إذا كانت الحكومة البريطانية تميل إلى تطبيق هذه التجربة الجديدة فى فلسطين . على أنه مما لاشك فيه أن اليهودية تعمل اليوم كما عملت دائماً على تدعيم مطالبها وأمانيها مهما كانت السياسة الجديدة التى تنتهجها السياسة البريطانية ؛ وسيجتمع عما قريب فى مدينة تسيريخ (زيوريخ) بسويسرا مؤتمر صهيونى عالمى جديد ، يعيد إلينا ذكرى مؤتمرات بال الشهيرة التى وضعت فيها أسس السياسة الصهيونية الحاضرة ؛ ونحن على يقين من أن العرب لن يقصروا فى الدفاع عن قضيتهم التى برهنوا دائماً على أنهم أهل للدفاع عنها ؛ بيد أن الظرف الحاضر يقتضى بلا ريب مضاعفة الجهود ؛ فعلى العرب أن ينظموا صفوفهم ليستأنفوا نضالهم السلمي المشروع، مزودين بقوة العدالة والحق والايمان

(* * *)

فصول فى التصوف الاسلامى وفتوحات ابن العربى

التصوف والصوفية فى الاسلام

للأستاذ خليل هنداوى

وإن كانت « الابيقورية » ذهبت مذهبا متطرفا في المادة فان الصوفية أيضا قد نحت نفس هذا المذهب فى شططها وغلوها فى الروح والنفس وجوهر الله .

يقول الأستاذ « فريد وجدى » فى دائرة المعارف : إن التصوف هو مذهب كان الغرض منه تصفية القلب عن غير الله والصعود بالروح إلى عالم التقديس باخلاص العبودية للخالق والتجرد عما سواه . وهذا قديم كقدم النزعة التى أوجدته ، فان الانسان منذ ألوف من السنين أدرك أن خلف هذه الغلف الجسدانية سراً مكنوناً ، فنشأ هذا المذهب فى كل أمة راقية ، ولبس شكلا مناسباً لعقولها وأفكارها ، وهو معروف فى الهند والصين منذ ألوف من السنين ، وله عند الهنديين أساليب شديدة على النفس ، ولكنه لما وجد تحت ظل الاسلام وأحيط بأدب القرآن دخل فى دور جديد » . وقد اختلف العلماء والمتصوفون أنفسهم فى حقيقة تاريخ مذهب التصوف وإلى أين يذهب عهده . على أن عهده يرجع إلى قديم الزمن وإن لم يكن معروفا قبل بهذا الاسم . وقد اختلق العرب اشتقاقا لهذه الكلمة واختلفوا فى وضعها ، فمنهم من ذهب مذهب القائل : « ان أول من انفرد فى الاسلام بخدمة الله عند المسجد الحرام رجل يقال له « صوفة » واسمه الغوث بن مر فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه فى الانقطاع إلى الله ، فسموا بالصوفية » وقال الزبير : قال أبو عبيدة : « وصوفة وصوفان يقال لكل من ولى من البيت شيئاً من غير أهله . أوقام بشىء من أمر المناسك » . وقد ذهب قوم إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصُّفة فى الانقطاع إلى الله وملازمة الفقر ، وهم المعروفون فى الاسلام بأهل الصفة . والتصوف عندهم يقصد به رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الفضيلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص . ومنهم من نسب الصوفية إلى لباس الصوف . فقيل فى أحدهم صوفى ، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ، ولاهم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به ولكن أضيفوا اليه لكونه ظاهر الحال .

ويقول الشيخ الشعرانى فى كتابه الطبقات : « إن طريق الصوفية مقيدة بالكتاب والسنة ، وإنها مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء ، وإنها لاتكون مذمومة إن خالفت صريح القرآن أو السنة أو الاجماع لا غير ، أما اذا لم تخالف فغاية الكلام أنه فهم أوتيه رجل مسلم ، فمن شاء فليعمل به ومن شاء تركه . والتصوف هو عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل والكتاب والسنة . فكل من عمل بها انقدح له من ذلك علوم وأدب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها . فالتصوف انما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس كما أن علم المعانى والبيان زبدة علم النحو . ولا يدرك أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر فى علم الشريعة حتى بلغ إلى النهاية . وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هى وصلتهم إلى الله عز وجل فى كل لحظة ؟ وقد اجتمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر فى طريق الله إلا من تبحر فى علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها ، وتبحر فى لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك ، فكل صوفى فقيه ولا عكس .

وقد ورد فصل يحسن ذكره فى هذا الموضع للدلالة على الروح الصوفية التى كانت تسود عقول أصحابها من كتاب « اللمع فى التصوف (1) » قال الشيخ أبو نصر : سألنى سائل عن علم التصوف ومذاهب الصوفية وزعم أن الناس اختلفوا فى ذلك فمنهم من يغلو فى تفضيله ورفعه فوق مرتبته ، ومنهم من

---

(1) طبع فى مطبعة « بريل » فى مدينة « ليدن » سنة ١٩١٤ لصاحبه أبى نصر عبد الله بن على السراج الطوسي سنة ٦٤٠ وقد اعتنى بنسخه وتصحيحه « نيكلسن »

يخرجه عن حد المعقول والتحصيل ، ومنهم من يرى أن ذلك ضرب من اللهو واللعب وقلة المبالاة بالجهل ، ومنهم من ينسب ذلك إلى التقوى والتقشف ، وليس التصوف فى تنوق الكلام واللباس وغير ذلك . ومنهم من يسرف فى الطعن وقبح المقال فيهم حتى ينسبهم الى الزندقة والضلالة ، وليس من مذهبهم النزول على الرخص وطلب التأويلات والميل إلى الترفه والسّعات ، وركوب الشهوات لأن ذلك تهاون بالدين ، وانما مذهبهم التمسك بالأولى والأتم فى أمر الدين . والصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ولم يترسموا برسم من الاحوال المحمودة والاخلاق الشريفة .

ما هو التصوف ؟ سال سائل محمد بن على القصاب وهو أستاذ الجنيد الصوفى الشهير . فقال : أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام . وقال الجنيد : التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة . وفى الحقيقة أن هذه الكلمة هى التى يتخذها الصوفيون أساساً لتصوفهم فى المشرق كان أم فى المغرب . ويدخل موضوع التصوف المبنى على هذه القاعدة فى عداد المذاهب الفلسفية . فالانسان إذا أراد أن يكون مع الله بلا علاقة فهو محتاج ولا ريب إلى معرفة الله وتحديد علاقاته مع الانسان وعلاقات الانسان معه . ولا ريب أن هذه الموضوعات هى سبيل مظلمة من سبل الفلسفة التى يستضىء الفيلسوف عقله لانارتها ، والصوفى يعتمد توكله وإيمانه .

وكلمة التصوف جاءت إلى العربية من اليونانية « صوفيا Sofia » وهى تعنى إغلاق الفم والصمت . وليس يبعيد هذا ، لأن التصوف جاء إلى العرب ونشأ بينهم بعد هجرتهم من الجزيرة ، وتعرفهم إلى مدنيات الأمم المجاورة لهم كالفرس واليونان وكانت فكرة التصوف عند هؤلاء شائعة

والأرجح أن يكون التصوف مذهباً مستقلا له شأنه . ينظر صاحب هذا المذهب إلى الكون نظر أصحاب المذاهب الأخرى له . وكما أن المتشرع الحكيم يضع من عنده القوانين للكون ويحدد كل شىء بالنسبة اليه بنظام ، وكما أن الفيلسوف قد يجحد كل ما يصنعه غيره ويناقش الطبيعة بلغته الفلسفية ومنطقه الخاص ، فالصوفى كذلك له من مذهبه ما يجعله مستقلا تمام الاستقلال عن المذاهب الأخرى : ينظر إلى الكون بعينه المجسدة ، ويتفهم الفضائل حسبما يوحى اليه مذهبه . ولا بأس بأن نقول كما قال « فيكتور كوزان » : إن التصوف هو مذهب من المذاهب الفلسفية ؛ وإنما يستعين على الظهور بالدين ؛ وهو إن لم يكن غنياً بمنطقه وقواعده وارتقائه على العقل فهو يتضمن قالب المذهب الفلسفى ولا يحدد إلا نقطة نظر ضيقة المجال . وقد غلب هذا المذهب على المذاهب الطبيعية ، وعم فى سائر الديانات التى ارتكزت على الكتب السماوية والتعاليم البشرية .

على أن هذا لم يمنع قول القائلين : إن الصوفية ليست مذهباً يعتنقه المرء ، يأخذ بعقائده وتقاليده ، فانها أدنى إلى الطبائع فى بعض النفوس منها إلى قواعد مذهب مقرر . وأنت ترى كثيرين من الناس يعيشون عيشة الصوفية فى زهدهم وقناعتهم وماهم بالصوفيين .

حكم العلماء على الصوفية

نشأ المذهب الصوفى شأن كل مذهب يكون الاخلاص رائده ، ثم يتسرب اليه التحيل والهدى ، ولم يعرف التاريخ مذهباً داجى فيه أصحابه مثلما عرف من التصوف . فقد دخل فيه المخلص والزنديق والنشيط والبليد . فالتصوّف أسه الزهد والتظاهر بالفقر وكراهية الدنيا . وكم من أناس حبب لهم العيش الرخاء والتوانى فى السعى ، فأووا إلى هذه المذاهب التى تعلى من قيمتهم وتظاهروا بالتصوف . وقديماً كان الناس يتسابقون إلى إيواء الصوفى وإطعامه ، والمبالغة فى إكرامه . وهكذا كانوا ينتقلون فى عيشهم من بادرة إلى بادرة معتمدين على الظاهرة الصوفية ، وليس فى قلوبهم إلا الغل والنفاق . ولابن تيمية فتوى جليلة فى الصوفية وحال أقسامهم ، فقد قال بعد أن شرح موضع الصوفية من العلماء : « والصواب أنهم مجتهدون فى طاعة الله كما اجتهد غيرهم ، ففيهم السابق السابق بحسب اجتهاده ، وفيهم من قد يجتهد فيخطىء ، وفيهم من

يذنب فيتوب أو لا يتوب . وقد انتسبت إليهم طائفة من صوفية الحقائق الذين اعتنقوا مذهب الصوفية باخلاص قلب، ووفاء سريرة، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسم ممن لا يغنون فتيلا . والصوفية كانوا ولم يزالوا من جملة الزهاد، ولكنهم انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال . واتسموا بسمات خاصة بهم . والتصوف طريقة بدؤها الزهد الكلى كما قدمنا فى كل متاع الدنيا ؛ ثم ترخص المتنسبون اليها ـ لما حرموا من ملذة الدنيا فجعل البعض ذلك لهم حيلة ـ بالسماع والرقص ، فال اليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد ، ومال اليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب .

ويبدو ان هذا الضرب من التحيل لم يبخس حق قيمة المتصوفين الحقيقيين . وقد قال القشيرى فى رسالة : « لم يكن عصر فى مدة الاسلام وفيه شيخ من هذه الطائفة إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتباركوا به . فقد أذعن الامام الشافعى لشيبان الراعى حين طلب الامام أحمد بن حنبل أن يسأله عمن نسى صلاة لا يدرى أى صلاة هى ؟ وإذعان أحمد لشيبان كذلك حين قال لشيبان « هذا رجل غفل عن الله فجزاؤه أن يؤدب » . وكذلك إذعان الامام أحمد لأبى حمزة البغدادى واعتقاده فيه حين كان يرسل اليه دقائق المسائل ويقول : ما تقول فى هذا يا صوفى ؟ وكان يروى أن الامام أحمد كان يحث ابنه على الاجتماع بصوفية زمانه ، ويقول إنهم بلغوا فى الاخلاص مقاماً لم يبلغه

وقد أوى كثير منهم إلى ضروب من الكرامات زعموا أنها خاصة لا تصدر إلا عنهم ، يريدون من وراء ذلك أن الله يسخر قوات الطبيعة والأشياء لهم ، ولكن هذا النوع من هذه الكرامات لم يرق معشر العلماء فاختلفوا فى أحكامها . والناس فى إنكارها أقسام ، منهم من ينكرها مطلقاً ، ومنهم من يقول ان هذه الكرامات تشبه السحر من أهل السيميا ، وينصح للانسان بعدم صدهم وعدم تصديقه لهم . وقد أفتوا بتكفيرهم كما أفتوا بتكفير الغزالى وحرق كتابه الاحياء . ولكن البعض من أئمة هذا المذهب لم يجعلوا هذه الكرامات قواعد راسخة للصوفية لا يكون صادقاً إلا من يؤتاها ويأتى بها

وقد قال أبو يزيد البسطامى ــ واضع الله وراء جبته : « لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود . ومن ترك التقشف ولزوم الجماعة وحضور الجنائز وعيادة المرضى وتلاوة القرآن وادعى بهذا الشان فهو مبتدع ، وفى هذا دلالة واضحة على أن من يدخل فى هذا المذهب ويعتنق مبادئه ثم يطرح عنه قواعد الشريعة المشيد عليها هو مبتدع مختلق ، يحترف الصوفية فراراً من كلفات الدين ومشقات العيش

وخلاصة الأمر أن التصوف تقلب كثيراً وتحرر كثيراً وطرأ عليه ما يطرأ على سائر المذاهب عادة ، ولكن التصوف الحقيقى ظل محترما فى عيون الناس وقلوب الناس . وليس بوسعنا اخراج الحكم عليها من باب أحكام العلماء لاختلاف فتاواهم فيها وإنما علينا أن نستعرض مبادئها وقواعدها ونرى ما يلائم منهاجه منها سنة الحياة وما يباين ، وهنالك القول الفصل

خليل هنداوى

من الأدب التحليلي

أنا ... والنجوم !

للأستاذ علي الطنطاوي

ما من كلمة هي أثقل على أذن السامع وأبغض اليه، من كلمة (أنا). وما حديث أكره إلى الناس من حديث المرء عن نفسه ... بيد أني متحدث الليلة عن نفسي، وقائل (أنا). وجاعلها عنوان مقالتي، لأني منفرد بنفسي. لا أجد معي من أتحدث عنه إلا (أنا).

أنا حين أتحدث عن نفسي أتحدث عن كل نفس، وحين أصف شعور واحد وعواطفه، أصف شعور الناس كلهم وعواطفهم؛ كصاحب التشريح لا يشق الصدور جميعاً ليعرف مكان القلب وصفته، ولكنه يشق الصدر والصدرين ثم يقعد القاعدة، ويؤصل الأصل، فلا يشذ عنه إنسان ... سنة الله في الخلق، وقانونه المحكم، ونظامه العجيب الذي جعل الناس مختلفين وهم متشابهون - ومتشابهين وهم مختلفون، برأهم على الوحدة في الحقيقة، والتنوع في الجمال. فخلق العيون كلها خلقاً واحداً، كل عين ككل عين، في تركيبها ووضعها، وصفتها، وما عين مثل عين في شكلها ومعناها وجمالها. تلك حكمة الحكيم الخبير، وهذه صنعة المبدع القدير!

***

أنا منفرد على سطح دار في (الزبير)[1] في هذه الليلة الساكنة المتلألئة النجوم، وأمامي الصحراء التي تمتد إلى عمان واليمن ونجد والحجاز، وورائي السواد الذي يصل إلى أرض فارس، وهي قريبة، حتى اني لأرى لهيب النفط المشتعل في (عبادان) وأنا في مكاني ... أتأمل هذه الصحراء المجيدة المباركة، التي كتب على رمالها أروع سطور المجد، وأجل صحائف التاريخ، ونبت في رمالها دوح الحضارة الذي أوت اليه الانسانية، وتفيأت ظلاله يوم لا ظل في الأرض إلا ظله؛ وأفكر فيطول بي التفكير، ويطل بي الفكر على آفاق واسعة ودنياوات عظيمة. وتنبلج في نفسي أصباح منيرة، فأجد في رأسي مئات من الأفكار الجديدة الكبيرة، وفي نفسي مئات من الصور الرائعة المبتكرة. ولكني لا أكاد أمسك واحدة منها لأقيدها بالألفاظ، وأغلها بالكلم، حتى تفلت مني وتعدو في طريقها منحدرة إلى أغوار عقلي الباطن، فلا أنا استمتعت بها استمتاع الناس بأفكارهم. ولا أنا سجلتها في مقالة وصنعت منها تحفة أدبية، ولو أني قدرت أن أكتب معشار ما أتصور لكنت شيئاً عظيما. ولكني لا أقدر ... ولا أصب في مقالاتي إلا حثالة أفكاري؛ تنبت الأفكار في نفسي وتزهر وتثمر، ثم تذوي وتجف فآخذ الهشيم فأضعه في مقالتي!

ويتفجر الينبوع في نفسي، ويتدفق ويسيل، ثم ينضب وينقطع، فآخذ الوحل فأضعه في مقالتي!

وينبثق الفجر في نفسي، ويقوى ويشتد، ويكون الضحى والزوال، ثم يعود الليل، فآخذ قبضة من ظلام الليل، لأكتب منها مقالة، عنوانها ... «ضياء الفجر»!

من أجل ذلك أكره أن أنظر في كل ما نظرت، وأستحي أن أعود اليه، وأحب كل جديد لم ينشر. وأرى أن الذي يمدحني بمقالاتي يحقرني لأنه لا يعلم أنها درهم من خزائن نفسي المفعمة بالذهب، فهو يقول لي: إن الدرهم كبير منك لأنك فقير، ولكن الذي ينقد مقالاتي وينتقصها يقول لي: إنك غني فالدرهم قليل منك، إن هذه المقالة حقيرة لأنك أنت عظيم ...

لقد تعلمت هذه المسألة من عهد قريب، فصرت أحب النقد، وكنت أجهلها من قبل فاميل إلى الثناء والتقريظ

لبثت أعرض هذه المواكب من الأفكار، حتى تعبت. ومللت، فألقيتها كلها في الصحراء، وجلست أفكر في الصحراء وحدها ...

---

(١) الزبير: بلدة صغيرة. على سيف البادية. غربي البصرة. تبعد عنها سبعة أميال. فيها قبر بطل الاسلام الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة. وعلى مقدمة منها أطلال عليها نقوش ظاهرة المشهور هنا أنها أطلال مسجد البصرة الجامع وأهلها يبلغون اثنى عشر ألفا، كلهم مسلمون سنيون يميلون إلى السلفية. ويحبون العلم. فيها مساجد كثيرة كلها يقام فيه الجمعة ومدرسة أميرية راقية، ومدرسة أهلية إسلامية أسسها الشيخ الشنقيطي رحمة الله عليه. والراجح أنها هي البصرة القديمة والله أعلم فليس هذا من بطم.

نظرت إليها وهى متمددة على سرير الجزيرة الواسعة - نائمة - فامتلأت إكباراً لها وإعظاما، ثم فكرت أن لو فتحت الصحراء عينها - أكانت تبصرنى - وتحس بوجودى؟ أأشعر أنا بوجود رملة حملتها الريح فطارت بها. فمست وجهى وهي طائرة، ثم مضت فى سبيلها؟ ما أنا فى وجود الصحراء إلا رملة، وما حياتى إلا لحظة من حياتها. ولو تثاءبت الصحراء، أو حكت أنفها لتصرم قرن كامل قبل أن تنتهى من تثاؤبها وحكها أنفها... فما أعظم الصحراء وما أطول عمرها...

- بل ما أقل الصحراء. وما أقصر عمرها!

ما الصحراء؟ بل ما الأرض كلها؟ وما هذا المليار من القرون الذى عاشته؟ انه يوم من حياتى، انها نقطة من بحرى... انى نمت يوما فلما أفقت وجدت نقطة صغيرة هناك، فقلت: ما هذا؟ قالوا: مخلوق صغير يدعى الشمس... فعجبت من صغرها، ثم لم أحفل بها، فما أرضك هذا يا... يا أيها العدم!

هذا ما قاله لى كوكب قريب، كان ينظر إلىّ باسما... فذكرت ما قاله علماء الفلك عن الكواكب وعظمتها، فسكت ولم أنطق... وإذا بكوكب آخر يطل من هناك يقهقه ضاحكا يصرخ فى وجه الأول: اسكت اسكت أيها النملة الحقيرة، من أنت؟ إن آلافا مثلك لا تملأ واديا واحداً من أوديتى، انى أحمل مائة مثلك بين أصبعين من أصابعى...

وكان وراءه كوكب خافت لا يقول شيئا، لأنه لم يعلم بوجود هذا كله - لا يراه لبعده وصغره، وكان وراءه ستمائة مليون من الكواكب كل واحد أكبر من الذى قبله، وأصغرها من هذا الكوكب كالفيل من البعوضة... فجلست أحدق فى هذه الكواكب ذاهلا مشدوها، وانقطعت أفكارى عن الجريان وأحسست بضآلتى، حتى لقد خلتنى عدماً...

ثم صغرت هذه الكواكب فى نظرى لما رأيت شيئا أعظم منها، صغرت لما رأيت السماء «سقفا مرفوعاً»؛ حتى غدت كلها «مصابيح تزين السماء الدنيا»، ورأيت السموات تطيف بها كلها. تحيط بهذا الفضاء «سبعاً طباقا»، ورأيت الجنة من وراء ذلك «عرضها السموات والأرض»، ورأيت العرش والكرسى. وملك الكائنات العظيمة، فأحسست أن عقلى ينهدم ويتحطم حين يحاول التفكير فيها وهى مخلوقة، فكيف به حين يحاول التفكير فى الخالق؟

وذهبت أقابل بين هذه العظمة الهائلة التى لا يدنو من تصورها العقل. وتلك الدقة الهائلة دقة الجراثيم التى يمر الألف منها من ثقب إبرة، دقة الكهارب التى يكون منها فى الذرة الواحدة مئات من الكواكب الصغيرة، يدور بعضها على بعض، كما تدور كواكب المجموعة الشمسية، ذهبت أقابل بين هذا وذاك فعجزت. وأنكرت نفسى وجحدتها وامتلأت إيماناً بالخالق الأعظم، فصحت من أعماق قلبى:

لا إله إلا الله!

***

أنكرت نفسى. ولم أعد أراها شيئا... ونسيت يدى ورجلى، حتى لقد حسبتهما جزءاً من الكرسى أو السرير الذى أجلس عليه، وأضعت ميولى كلها وشهواتى، حتى لم يبق لى (أنا) وإنما صرت (أنا) الكون كله، الكون الذى ردد معى قولى، لا إله إلا الله! فأحسست حينما أنكرت نفسى. بلذة الوجدان التى لا توصف:

لا يعرف العشق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها

وبدأت أفهم ما كنت قرأته من أقوال أهل التصوف، وتعلمت أن الانسان لا يحس بعظمة، إلا إذا نسى نفسه وعظمته. هنالك يجد هذا «الجرم الصغير» الذى هو رملة فى الصحراء وعدم فى وجود الكوكب، والذى لا يمتد عمره أكثر من لحظة فى عمر السماء... يجده أكبر من الكواكب، وأخلد من السموات، لأنه عرف الله وأدرك حلاوة الايمان...

وقمت بعد ذلك أصلى، فلما قلت: الله أكبر، محى الكون كله من وجودى، ولم يبق إلا أنا العبد المؤمن الضعيف، والله الإله العظيم الجبار!

ليس فى الدنيا شىء أجل ولا أجمل من الصلاة!

(البصرة) **على الطنطاوى**

على هامش رحلتي الى الحجاز :

فى تكية الدراويش

للدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست

عن كتاب نشره باللغة المجرية بعنوان « الله أكبر »

كان شعاع شمس الشتاء يسطع فى جو القاهرة ويتألق فى السماء اللازوردية ، ويربق ضوءه القرمزى على المآذن والقباب فتتوهج أطرافها فى الضوء الساطع كما يتوهج الذهب فى كف الرجل الكريم . أما أسطح بيوت القاهرة فكانت فرصة لها لتداعب هذه الأشعة - تلك المداعبة الصحية - والريح تعبث بالأوراق والغصون فى حدائق قصر النيل الغناء

وكنت فى خلال هذا الوقت وحيداً فى غرفتى ، شاعراً بأن السكون يطبق على كجناحين كبيرين ، ومنصرفاً إلى دراسة بعض كتب الأدب العربى القديم لأقارن بين عصر وعصر ، وبلغ بى التعب أشده من عكوفى على القراءة ومحاولة تفهم معانى الكتاب لأنى كنت أميل بفطرتى إلى تحليل أفكار المؤلف والوقوف على المعانى المستترة فى باطن الكلمات . . ولاح لى أنى أشبه بغواص يجاهد فى بحر من الظلمات ليستخرج منه اللآلىء والأصداف . ما أمر العكوف على قراءة الكتب الخطية فى بلاد الشرق ؟ تغلق باب الغرفة دونك وتحاول أن تظل بمعزل عن العالم لتمثل فى خاطرك العصر الذى عاش فيه المؤلف والظروف التى كانت محيطة بها ، وانها لمعجزة أن يظل الكتاب مهملا سنوات برمتها ، فما تكاد تفتحه حتى تهب عليك النسمة القديمة بسحرها وعطرها وتسمع كلام المؤلف أو صوت الشاعر كأن لم يغيره تقلب الحوادث وانصرام الاجيال

وفيما كنت أقلب هذه الأفكار وأشباهها إذ طرق الباب ، وكان الطارق صديقى محمد أمين حسونه ، أتى لزيارتى ودعوتى إلى نزهة خلوية فى ضواحى القاهرة . وكانت الزيارة فى يوم الجمعة - وهو يوم عطلة عامة فى البلاد الاسلامية - ففى هذا اليوم المقدس تعطل المصالح والدواوين وتقفل الحوانيت ، ويتحتم على المسلمين أن يهرعوا إلى المساجد إذا سمعوا صوت الأذان . أما الآخرون الذين لا تربطهم بالتجارة صلة فهم يقضون ذلك اليوم فى اللهو والمتعة على ضفاف النيل الجميلة وفى داخل الحدائق الفيحاء المبعثرة فى جوانب القاهرة

وفى أثناء احتساء القهوة اقترح صديقى حسونه أن نقصد إلى حدائق الحيوانات للتريض أو تناول طعام الغداء فى ظلال الأهرام . ولكنى أجبته : وما رأيك فى زيارة إحدى تكايا البكتاش

هناك طفح وجه صديقى بشرا . وفى الحال وافقنى على القيام بهذه الزيارة . فقلت له : لقد زرنا الهرم عدة مرات وتحملنا بعض المشاق للوصول إليه بالترام . ثم تحدثنا عن بناء الأهرام وكيف حاول العرب أن يهدموا ذلك الأثر الخالد لاعتقادهم بأنه يحوى كنوزاً فى جوفه . ولكن على الرغم من المجهودات الشاقة التى بذلوها فانهم اضطروا إلى الانقطاع عن هدمه بعد أن أنهك قواهم وكلفهم نفقات باهظة ، وعند ما استولى المماليك على مصر كانوا يظنون أن الأهرام من عمل الطبيعة . وحاول البعض منهم أن يجرب أخذ الأحجار منها للبناء ولكنهم أكرهوا على التخلى عن هذه الفكرة لصعوبة تنفيذها وربما كان عدم قدرتهم على تنفيذها موافقة لارادة الله الذى قضت حكمته ببقاء هذا البناء المهيب الشامخ كرمز لعظمة مصر القديمة . وكثيراً ما قصدت إلى منطقة الأهرام وقضيت سويعات شاعرية أناجى القمر وأراقب أشعته اللجينية وهي تغمر الأحجار الضخمة التى يتألف منها البناء الشامخ

فى هذه البقعة الساحرة يجتمع الماضى والحاضر والمستقبل وتبدو عظمة مصر الخالدة التى بهرت العالم . ولكن مالنا تتغنى الآن بتلك الأكوام الحجرية المكدس بعضها فوق بعض . أجل ليس فى هذا ما يسر الخاطر ولا ما يشرح النفس - وما هى القيمة الروحية التى تمدنا بها رؤية الأهرام أمام زيارة تكية الدراويش ، تلك الطائفة التى ما زالت

تلهب فى نفوسنا أسمى معانى الخلود ومتاع الآخرة

***

وانطلقنا فى طريقنا إلى تكية البكتاشية بعد أن عبرنا شوارع القاهرة الرئيسية وانتهت بنا العربة إلى مقابر الخلفاء. هناك أفضى إلى صديق حسونه أنه حين كان طفلا وأسيئت معاملته أمام الأسرة، لم يجد من يلجأ إليه سوى كاب أرمنى كان مقعيا على الدرج فى نفس هذه البقعة، وكان يستدفىء بالشمس فاحتضنه ثم بكى. وبعد برهة وصلت إلى سمعه أصوات موسيقية متنافرة، فإذا بها حفلة من حفلات الزار التى تعودت نساء القاهرة إحياءها. وكانت الحفلة تقام فى أحد المنازل المجاورة لتلك القبور. فحمل صديقى الكلب وانطلق إلى هناك حيث أتيح له أن يشاهد أكثر من عشرين سيدة وهن يرقصن على نغمات الموسيقى بجنون وحشى إلى حد أن كن يتصادمن ويتلاحمن، وكان البعض منهن يمزقن الأثواب. أو يمتطين ظهور الخراف البيضاء المصبوغة بالدم. وأسر إلى صديقى بانه أحس بالراحة ساعتئذ ولم يعز هذه الراحة إلى أية صفة مجهولة، بل يبعد هؤلاء المريضات عن الانسانية، وفى عزلتهن هذه ما يشفى عواطفهن الهسترية ويبرئهن من النضال الدنيوى الذى وقعن فيه

وبينما كنا نبحث ونتجادل فى البواعث الحقيقية لحفلات الزار، ألفينا أنفسنا أمام أبنية التكية الملصقة بجبل المقطم، وبعد أن ارتقينا الدرج واجتزنا حدائق التكية أحسست بنشوة وانتعاش، كالنشوة التى تحدثها الريح فى يوم ساكن، ولقد ازداد سرورنا عند ما اجتمعنا بطائفة من الزوار الأجانب الذين أتوا خصيصاً لشهود حفلات الذكر والموسيقى، كذلك رأينا فريقاً من النساء وهن واقفات بخشوع وشاخصات بأبصارهن الى الأشجار الباسقة التى تكاد تشق أجواز الفضاء.

أما بيوت الدراويش ومساكنهم فتقع فى الجهة اليسرى من الحديقة، وهى مساكن نظيفة ـ غاية فى البساطة ولكنها فاخرة الرياش، تزينها لوحات بها رسوم رؤساء الطائفة السابقين. وتعلو هذه الاطارات – باطة – وهى رمز الدراويش. ويزور التكية عادة جم غفير من أعيان الأجانب وبعض أمراء الشرق، ولقد شاهدت الكثير من رسومهم الفوتوغرافية وتوقيعاتهم لدى شيخ التكية. ويقع بالجهة اليمنى من الفناء الداخلى مطبخ ضخم البناء، وما كدنا نصل إليه حتى شممت رائحة الشواء ورائحة الطهى الزكية، وسال اللعاب فى فمى وتحركت شهيتى فتقدمت نحو المطبخ ورأيت الطاهى يشوى شرائح اللحم الضأن. وعزم علينا الطاهى بأن نتذوق طعامه، فلم أجد مانعاً من إجابة طلبه وأخذت ألتهم قطعة اللحم بشهية

تبلغ مساحة مطبخ البكتاشية نحو ٢٠٠ متر مربع بحيث تسع إعداد طعام لأكثر من مائتى شخص تقريباً، ولقد أخبرنى الطاهى أن للزمن تقلباته وانهم الآن يتوخون الاقتصاد فى مأكلهم مع انهم من سنوات خلت كانوا يتمتعون بأنواع المآكل الشهية، وأنهم كانوا يولمون الولائم الفاخرة لأكثر من مائة ضيف بعد انتهاء حفلات الذكر، أما الآن فقد تغيرت الأحوال لأن الهبات التى كانت تصاهم كادت تقطع. ومن الغرابة أن كل ما فى التكية قديم أثرى، فالدراويش قد بلغوا من العمر عتياً، لا يعرف من أمرهم إلا نفر قليل من سكان القاهرة، ولا يزورهم إلا خاصة الأصدقاء، ولولا زيارة بعض الأجانب لأصبحت تلك الدور فى عالم النسيان. حتى صديقى المصرى حسونه الذى لازمنى فى هذه الزيارة لم ترق فى عينيه أحوال تلك الطائفة ولكنى على الضد منه ألفيت لذة عظيمة لزيارة هذه الطائفة التى تربطنى بها روابط روحية.

البقية فى العدد القادم

عبد الكريم جرمانوس

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس كار

نخاسة الأزهار

ما اجتزت سوق الأزهار مرة إلا شعرت بحزن شديد. كأنني أتجول في سوق النخاسة حيث تقوم المساومة على الأجساد وتلق العبودية طابعها المروع على وجه الانسان

يتمشى الأغنياء بين الأزاهر فيحدجونها بأنظارهم متفحصين أشكالها وصحتها وأعمارها. فاذا ما تمت الصفقة خرجت الزهرة المبيعة من سوق النخاسة لتتبع خطوات سيدها.

سيرى وراء من اشتراك أيتها الزهرة التعسة. اذهبي اليه لتخدمي شهواته، زيني قصره بجمالك فلسوف ينزلك ثمين الآنية ويحوطك بأطالس الأعشاب. سيكون مسكنك فخما. أيتها الزهرة، فودعي الشمس والهواء، ودعي الحرية فالعبودية فاتحة ذراعيها لتضمك إلى صدرها.

يا لشقاء هذه الأزهار! إنها تعرض أكواماً يلفحها الحر والقر فتذوى مهتوكة تحت نظرات الفاحشين من الناس

لقد مر البائع فارفعي رأسك أيتها الزهرة، ليراك منتصبة تملأك الفتوة نضارة، فأنت لنضارتك معروضة على المشترين

إن أكثر الأزهار المعروضة في سوق النخاسة تحني رأسها وقد ارتخت قوائمها فتلاعبت فيها أضعف النسمات. لقد رسمت الأسفار البعيدة عليها آثار الضنى. وكتب الشقاء على تويجها آيات المذلة والاستعباد. وما تهتم هذه الزهرات بجمالها، وهي تعلم ما تحتم عليها من الخضوع لسيد مجهول يتحكم فيها.

لقد تسعد إحداها إذا اشترتها فتاة لتزين بها نافذتها فتجد الماء وتجد الهواء لتحيا وتطل عليها من وراء الأشجار أشعة الكوكب الذهبي يناجي فيها ابنته في كل صباح.

هنالك تسمع الزهرة تغريد أخيها الطير يمازجه نشيد الغادة بصوتها الحنون.

ما أسعد الزهرة التي تمر بها فتاة معلقة بذراع أمها فتحملها إلى غرفتها الطاهرة تجود بعطرها في الليل ممتزجاً بأحلام العذراء.

أما أنت أيتها الأزهار التي ينترك الأغنياء في قصورهم في ليلة عيد، فما أشد ويلك وما أظلم الأفق الذي تستقبلين. أملأي أجواء القصر بالعبير في ليلة واحدة لقاء أجر معين، فانك ستحملين من عيد إلى عيد حتى يرتعي السل صدرك الضعيف فتجودين بالحياة على المزابل بزفرة دامية

وأشد منك شقاء يازهرات الأعياد زهرة تشتريها سيدة مستبدة لاتطلب من الأزهار إلا أوائل أريجها حتى إذا تخدرت منها طرحتها إلى الخدم يجهزون عليها بعيدة عن الهواء في ظلمات الليالي

ويل لهذه الأزهار تهمس أنينها همساً فلا يسمع أحد بلواها، فهي مستعبدة صامتة لاتعرف إلا أن تحني رأسها وتندفع إلى الفناء

تقتطف الزهرة من حضن أمها وتؤخذ بالعنف من بين أخواتها وأصحابها، لتطرح حيث تجود بنضارتها وعبير صباها، فيا للجريمة لاعقاب عليها!

لقد منعت القوانين نخاسة السود ولكنها ما منعت نخاسة الأزهار

ليهتف المصلحون بصوت وجدانهم فما من سميع وقد مات جان جاك روسو وبرنار دي سان بيار. ولكن من نستصرخ وإلى من نتجه؟ أفليس أنصار الحق نفسهم المنادون بمنع النخاسة بين الناس هم الذين ينسلون تحت جنح الليل يتلهون بدوس الأزهار واقتلاع وريقاتها الطاهرة من تويجها الضعيف ...؟

أفليست السلطة هي التي تسمح باقتلاع الأزهار من منابتها لتحمل إلى سحيق الأقطار حيث تعيش ولا أسرة لها لأن بذورها تطرح على أرض تخنقها وتواريها

° ° °

مررت يوماً في تلك الساحة، فرأيت زنبقة رائعة الجمال يساوم عليها رجل هرم ألقت السنون غشاء على عينيه، وهو يصب نظراته على الوريقات البيضاء فتختلج ويمد يده إلى

باقة من شعر طاغور

ترجمة الأديب نصري عطا الله سوس

— ١ —

لقد خلعت أغنيتي كل زينتها
إنها لا تزهى بالملبس والزخرف
إن الزخرف ليفصم عرى وحدتنا ويقف بيني وبينك ، وطنينه يغرق همساتك
وإن زهوى كشاعر ليتبدد خجلا أمام مرآك .
آه يا مولاى الشاعر !
إنى أجلس عند قدميك
وكل ما أبغيه أن تجعل حياتى بسيطة ومستقيمة كعود من القصب ، كى تنفخ فيه موسيقاك

— ٢ —

أتناول يديها وأضمها إلى صدرى
وأحاول أن أملأ ذراعى بجمالها ، وأن أسرق بسمتها الحلوة بالقبل ، وأن أشرب نظراتها الفاتنة بعينى
آه ! ولكن أين ذلك ؟ من ذا الذى يستطيع فصل الزرقة عن السحاب ؟
أحاول امتلاك الجمال فيتملص منى ، تاركا « الجسم » وحده بين يدى فأرجع حائراً تعباً
كيف للجسم أن يلمس الزهرة التى لا تمسها إلا الروح ؟

— ٣ —

قلبى ، ذلك الطير الآبد وجد سماءه فى عينيك
إنهما مهد الصباح ومملكة النجوم
إن أغانى تضيع فى أعماقهما .
دعينى أحلق فى هذه السماء المتفردة بلا نهائيتها
دعينى أشق سحبها وأنشر جناحىَّ فى نور شمسها

— ٤ —

قال : « حبيبتى ، ارفعى عينيك »
فنهرته فى حدة وقلت : « ابتعد » ، فلم يتحرك
وقف حيالى واجعل يدى الصغيرتين فى يديه فقلت : « اتركنى » ، ولكنه لم يذهب
مال علىَّ بوجهه حتى لامس أذنى فنظرت إليه وقلت : « ياللعار ! » ، فلم يتحول
ولمست شفتاه خدى فارتعشتُ قائلة : « لقد تماديت كثيراً » ، فلم يخجل
ورشق زهرة فى شعرى فقلت : « بدون جدوى » ، ولكنه وقف ساكناً
ثم أخذ إكليل الزهر من عنقى وذهب ...
إنى أبكى وأسائل قلبى : « لم لا يعود ؟ »

ساقها ليجس بضاضته ، فتلوى خجلا وذلا ، فانحدرت من أجفانى دمعة حرى رأيت مثلها تنحدر على مهل من التويج الأبيض ، فخيل إلى أن الزنبقة تقول لى : — اشترنى أنت ولا تتركنى فريسة فى يد هذا الرجل فإن نظراته تحرقنى ولمساته تقضى على ، أنقذنى فإنى إن تبعته أموت

هتفت : — سأخلصك أيتها الزهرة الطاهرة

فدهش الشيخ لهذا الهتاف ، فأدار وجهه نحوى وأرسل إلى نظرة الاحتقار مشيراً إلى الخادم ، فحمل الزنبقة وسار بها وعبثاً حاولت إقناع البائع بفسخ البيع لأن الشيخ كان قد أدى ثمن الأمة الشقية

تبعتها وأنا أزودها نظرات الأسى والحنان فكانت تبتسم لى بدموعها من بعيد . وتوارت عن ناظرى ، وفى صباح اليوم التالى وقفت أمام القصر أستخبر النسيم عن زهرتى الحزينة . ففتحت النافذة بعنف ورأيت الخادم يرمى بالزنبقة الذابلة إلى مطارح الأقذار

لكم من زهرة تجود بأنفاسها على مثل هذا الفراش ...

(ف . ف)

— ٥ —

أيها الحب

إن قلبي يتوق ليلا ونهاراً إلى أن يلقاك لقاء يستغرق كل شيء ... كلقاء الموت

! كتسحني كعاصفة

خذ كل ما لدى

شرد نعاسى

وانهب أحلامى واستلبنى من دنياى

وفى ذلك الدمار – وفى العراء الروحى المطلق ، دعنا نصير وَحدة من الجمال

وا أسفاه ! باطلة رغبتى

أين الأمل فى اندماج تام فيك وحدك ... يا الله .

— ٦ —

إن عينيك القلقتين الحزينتين تطلبان كُنهى كما يطلب القمر أعماق البحر

لقد نزعت عن حياتى أثوابها أمام عينيك — لم أخف عنك شيئا من البداية للنهاية . ولذا أنت لا تعرفينني

لو كانت حياتى جوهرة لكسرتها مئات من القطع وصنعت منها عقدا يزين عنقك

لو كانت زهرة صغيرة رشيقة لقطفتها من جذرها ورشقتها فى شعرك !

ولكن حياتى ، قلب ، يا حبيبتى ... لا شواطىء له ولا نهاية . إنك لا تعرفين حدود هذه المملكة ... ولو أنك ملكتها

***

لو كانت حياتى لحظة سرور لتفتحت عن بسمة لطيفة تدركينها فى لحظة !

لو أنها لم تكن غير ألم لذابت دموعاً شفافة تنعكس عليها أعمق أسرارها دون كلمة !

ولكنها حب ... يا حبيبتى

مسراتها وآلامها لا تحد

حاجاتها وثروتها أبديان

إنها قريبة منك كحياتك

ولكنك لا تستطيعين إدراك قرارها ...

— ٧ —

أنا أهواك يا غرامى فاغفرى لى حبى إياك

مثل عصفور ضال أُسِرْت

عندما هُزَّ قلبى سقط عنه قناعه وعاد عاريا . دثريه بالشفقة يا حبيبتى ، واغفرى لى حبى .

إذا لم تستطيعى حبى — يا حبيبتى — فاغفرى لى ألمى

لا تنظرى إلى من بعيد بازدراء

سأسترق خطاى إلى زاويتى وأجلس فى الظلام

وأحجب خجلى العارى بكلتا يدى

فأشيحى بوجهك عنى واغفرى لى ألمى

***

حبيبتى ، إذا كنت تحبينني فاغفرى لى سرورى

وإذا حمل فيض السعادة قلبى بعيدا فلا تبسمى لاستسلامى للخطر

وعند ما أستوى على عرشى وأحكمك بقسوة الحب ، وعند ما أمنحك عطفى — كإله — تحملى كبريائى — يا حبيبتى — وسامحينى عن فرحى ...

— ٨ —

أيتها المرأة ! إنك لست من صنع الله فقط . بل من صنع الرجال أيضاً

إنهم يضفون عليك من قلوبهم جمالا ...

الشعراء ينسجون لك نسيجاً من خيوط الخيال الذهبى ، والرسامون يمنحون صيغتك خلوداً مجدداً

البحر يعطى لآلئه ، والمناجم ذهبها ، وحدائق الصيف أزهارها ، لتجملك وتجعلك أنفس مما أنت

رغبات قلوب الرجال تضفى مجدها على شبابك

إنك نصف امرأة ونصف حلم .

نصرى عطا الله سوسى

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمـــد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١١ —

تطور البراهمية الأولى

نصت « الفيدا » على أن الخيرين يذهبون إلى جوار الآلهة ويمتزجون بهم فى عالم الخلود ، وأن الشريرين يذهبون على بعض الأقوال إلى العدم المطلق ، وعلى البعض الآخر يتجسدون من جديد . ولما أصبح القول بالرأى الأول يتنافى مع عقيدة خلود النفس التى كانت قد عمت جميع البيئات المفكرة على أثر إيمان الناس بأن العالم ليس إلا أجزاء « براجاباتى » المتناثرة ، فلم يبق إلا الأخذ بالقول الثانى ، فأخذوا به وتفلسفوا فيه ، فنقلوه من تجسد ساذج إلى تناسخ فلسفى معقد ، ولكنه كان تناسخاً آرياً ، مبعثه السرور من الحياة والتفاؤل فى تقدمها وسيرها نحو الكمال والرغبة فى الامتزاج بالإله « براجاباتى » والاتصال ببقية الآلهة والشغف بتحقق السرور والمعرفة الكاملة التى لا تتحقق إلا بالتناسخ الذى هو شبيه بفعل الإله « براجاباتى » فى تحقيق السرور والمعرفة ، إذ قررت شروح أحد نصوص « الفيدا » وهو النص الخاص بنثر أجزاء « براجاباتى » فى الكون ، أن هذه الأجزاء لم تنتثر إلا بدافعين قويين كانا عند هذا الإله : أحدهما الشغف بحيازة السرور ، والثانى الشوق إلى المعرفة . وإذاً ، فيجب أن يكون هذان المقصدان ضمن غايات التناسخ ليتم تشبهنا بهذا الإله الخير الذى رضى بتفريق أجزائه . ليحوز السرور بوجودنا ، ولتحدث له المعرفة الكاملة بطوفان أجزائه فى الكون كله .

غير أن هذا التفاؤل لم يلبث أن تضاءل شيئاً فشيئاً حتى تلاشى نهائياً وحل محله تشاؤم قاتم قابض أثر فى الحياة الفكرية الهندية تأثيراً عميقاً . وقد نشأ هذا التشاؤم فى أول أمره من اعتقاد المفكرين فى أن الحياة خير كلها ، وأنها لهذا يجب الحرص عليها والتهالك فى الاستمساك بها ، ولكن قصرها من ناحية وعدم التحقق من الاستيلاء على زمامها من ناحية أخرى ، يوجدان حسرة فى القلب وضيقاً فى الصدر وشعوراً بخيبة الأمل يسود له المزاج وتنقبض له النفس ، وهذا هو الذى كان فى المبدأ ثم جعل يتطور مع الزمن حتى زالت العقيدة فى خيرية الحياة زوالا تاماً وحلت محلها عقيدة تناقضها تمام المناقضة ، وهى أن الانسان شقى تعس فى جميع أدوار حياته ، إذ هو فى حياته الأولى فريسة للمصائب والنكبات والمخاطر والأمراض ، وهو قاصر عن الاستحواذ التام على جميع المتع والمسرات ، وإذا حاز شيئاً منها فالأجل قصير جداً يستوجب الشفقة والرثاء . فاذا ترك هذه الحياة كان أكثر تعاسة وبؤساً ، إذ هو ينتقل فى الأجسام المختلفة من وضيع إلى أوضع ، غير عارف بمصيره ولا متحقق من حظه ، لأن كل مرحلة من مراحل حياته المتعددة تقذف به إلى المرحلة التى تليها قذفاً دون إرادة منه ولا اختيار ، وفوق ذلك فهو مسئول فى كل مرحلة من هذه المراحل التناسخية أمام الآلهة مسئولية قاسية على ما اقترف أو ما هوى فيه قسر إرادته من آثام وسيئات

وإذاً فالحياة شر ، والعالم شر . وهذا الوجود المادى كله شر ، وكله باطل ، والحقيقة هى غيره ، والاعتقاد بأن هذا العالم المادى هو متناثرات أجزاء « براجاباتى » — كما كان سائداً فى الزمن السابق — جريمة من الجرائم ، لأن الآلهة حق ، وهذا العالم المادى باطل ، ولا يمكن أن يتكون الباطل من أجزاء الحق ، وإنما الصحيح هو أن أجزاء الحقيقة الالهية حالة فى هذا العالم المادى الباطل ، ولا وسيلة للخلوص من شر هذا العالم إلا استخلاص الحقيقة من الباطل ، فى جانبنا الاستخلاص لا يتحقق إلا بالتخلى عن المادة ، وفى جانب الآلهة . حسب الانسان أن يفهم أن وراء كل مظهر من هذه المظاهر حقيقة هى الجوهر الصحيح فى هذا المظهر . وهذه القاعدة عندهم تتناول حتى « براهما » ، رأس الآلهة نفسه ، فهم يعتقدون أن الحقيقة فى « براهما » هى « براهمان » ، أى الكائن

اللا شخصى أو الموجود المنزه عن الجرمية . والحال حلولا غير مادى فى جميع عناصر الكون ، وأن ادراكه على هذه الصفة هو المحقق الأوحد للنجاة من التناسخ المؤلم ولضمان الخلود ، ولكن هذا الادراك لا يتيسر إلا بهجر المادة وتجنب جميع مظاهر الحياة العملية وتسليم النفس للتأمل العميق المنتهى إلى الغيبوبة والامتزاج بالله والفناء فى ذاته

الكتب الدينية فى عهد التطور

البرانات

« الفيدا » وهو الكتاب الأساسى للديانة البراهمية ، وهو وحده المنزل ، أما غيره من الكتب فهى من عمل البشر المصطفين الذين هم أقرب الناس إلى « براهما » وهى لذلك لا تصل من القداسة فى نفوس الشعب إلى المرتبة التى وصلت إليها « الفيدا » وهى كذلك غير معجزة ولا مستحيلة التقليد ولكن إمكان تقليدها مقصور على طائفة واحدة من المقربين وهى طائفة « راشين » من خواص البراهمة . وهاك حديث البيرونى عن هذا الكتاب :

« وأما البرانات — وتفسير بران : الأول القديم — فإنها ثمانية عشر ، وأكثرها مسماة بأسماء حيوانات وأناس وملائكة بسبب اشتمالها على أخبار أو بسبب نسبة الكلام فيها أو الجواب عن المسائل إليها وهى من عمل القوم المسمين : « رشين » والذى كان عندى منها مأخوذاً من الافواه بالسماع فهو « آدبران » أى الاول . و « مج بران » أى السمكة و « كوم بران » أى السلحفاة . و « براه بران » أى الخنزير و « نارسنك بران » أى الإنس الذى رأسه رأس أسد . و « يامن بران » أى الرجل المتقلص الأعضاء بصغرها . و « تاج بران » أى الريح . و « نند بران » وهو خادم له « مهاديو » و « اسكندبران » وهو ابن « مهاديو » . و « آدت بران » و « سوم بران » وهما النيران . و « سانب بران » وهو ابن « بشن » و « برهماندبران » وهو السماوات . و « ماركنديوبران » وهو « رش كبير » . و « تاركش بران » وهو العنقاء . و « بشن بران » وهو « ناراين » . و « براهم بران » وهو الطبيعة الموكلة بالعالم . و « بيشن بران » . وهو ذكر الكائنات فى المستأنف » .

كتب أخرى

يروى لنا البيرونى كذلك أن للقوم كتباً كثيرة أخرى تعد بمثابة دساتير وقوانين دينية واجتماعية وأخلاقية . وقد لخص الكلام عنها فقال : « وأما كتاب « سمرت » فهو مستخرج من « بيذ » فى الأوامر والنواهى ، عمله أبناء « براهم » العشرون ولهم كتب فى فقه ملتهم وفى الكلام وفى الزهد والتأليه وطلب الخلاص من الدنيا مثل كتاب عمله « كورالزاهد » وعرف باسمه ومثل « سانك » عمله « كبل » فى الأمور الإلهية ومثل « باتنجل » فى طلب الخلاص واتحاد النفس بمعقولها ومثل « نايبهاش » لكابل فى « بيذ » وتفسيره وأنه مخلوق وتمييز الفرائض فيه من السنن . ومثل « ميمانس » عمله « جيمن » فى هذا المعنى . ومثل « لوكايت » عمله المشترى » الخ

ألوهية الطور الجديد

كان العامة فى الهند بعد تطور « البراهمة » يعتقدون بوجود ثلاثة آلهة : الأول « براهما » وهو الرئيس الأعلى . الثانى « فيسنو » وهو إله الحياة الدائب على إنماء الحياة وإزهارها ، والثالث « سيفا » وهو إله التدمير والخراب الذى أهم ميزاته الهدم والإبادة والذى لولا سلطان « براهما » لصير الحياة منذ زمن بعيد أثراً بعد عين . ولكن « براهما » الغير المحدود القوة يمسكها دائماً أن تميد ويحفظها من شر هذا المدمر الوحشى .

هذا عند العامة . أما الخاصة فكانوا يعتقدون - كما أسلفنا - بوجود إله واحد أزلى أبوى منزه عن الاستعانة بغيره وعن كل ما يوجب نقصه فى زعمهم .

وأبو الريحان البيرونى يذهب فى كتابه إلى ما هو أبعد من هذا فيؤكد أن فكرة الألوهية عند خاصة الهنود كانت سامية جليلة ، وأنهم كانوا يعبدون إلهاً متصفا بكل كمال ، منزها عن كل نقص . ويعلق على هذا بقوله : « ولنورد فى ذلك شيئا من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشىء المسموع

فقط ، ثم يروى بعد ذلك محادثة وردت فى أحد كتبهم المقدسة بين سائل مسترشد ومجيب موضح ؛ وفى هذه المحادثة يرى الباحث الأدلة ناصعة على ما يدعيه البيرونى من سمو التأليه عند خاصة الهند . وإليكم نص هذه المحادثة : قال السائل فى كتاب « باتنجل » : « من هذا المعبود الذى ينال التوفيق بعبادته ؟ قال المجيب : « هو المستغنى بازليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل وترتجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبرىء عن الأفكار لتعاليه عن الأضداد المكروهة والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمدى . إن العلم الطارىء يكون لما لم يكن بمعلوم ، وليس الجهل بمتجه عليه فى وقت ما أو حال ، ثم يقول السائل بعد ذلك : « فهل له من الصفات غير ما ذكرت ؟ ويقول المجيب : « له العلو التام فى القدر ، لا المكان ، فانه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام الذى يشتاقه كل موجود ، وهو العلم الخالص من دنس اللهو والجهل » : قال السائل : « أفتصفه بالكلام أم لا ؟ » قال المجيب « اذا كان عالما فهو لا محالة متكلم » . قال السائل : « فان كان متكلما لأجل علمه ، فما الفرق بينه وبين العلماء والحكماء الذين تكلموا من أجل علومهم ؟ ... قال المجيب : « الفرق بينهم هو الزمان فانهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ، ونقلوا بالكلام علومهم إلى غيرهم ، فكلامهم وإفادتهم فى زمان ؛ وإذ ليس للأمور الالهية بالزمان اتصال . فالله سبحانه عالم متكلم فى الأزل ، وهو الذى « براهم » وغيره من الأوائل على أنحاء شتى ، فمنهم من ألقى اليه كتابا ، ومنهم من فتح لواسطة اليه بابا ، ومنهم من أوحى اليه فنال بالفكر ما أفاض عليه » ، قال السائل : « فمن أين له هذا العلم ؟ » قال المجيب : « علمه على حاله فى الأزل وإن لم يجهل قط ، فذاته عالمة لم تكتسب علما لم يكن له كما قال فى « بيذ » ، قال السائل : « كيف تعبدون من لم يلحقه الاحساس ؟ » قال المجيب : « تسميته تثبت أنيته . فالخبر لا يكون إلا عن شىء ، والاسم لا يكون إلا لمسمى . وهو وإن غاب عن الحواس فلم تدركه ، فقد عقلته النفس وأحاطت بصفاته الفطرة ، وهذه هى عبادته الخالصة ، وبالمواظبة عليها تنال السعادة

ثم يعقب البيرونى على هذه المحادثة بقوله : فهذا كلامهم فى هذا الكتاب المشهور . وفى كتاب « كيتا » وهو جزء من كتاب « بهارث » فيما جرى بين « باسديو » و « أرجن » : إنى أنا الكل من غير مبدأ بولادة ومنتهى بوفاة ، لا أقصد بفعلى مكافأة ولا أختص بطبقة دون أخرى لصداقة أو عداوة ؛ قد أعطيت كلا من خلقى حاجته فى فعله ، فمن عرفنى بهذه الصفة وتشبه بى فى إبعاد الطمع عن العمل ، انحل وثاقه . وسهل خلاصه وعتاقه ، وهذا كما قيل فى حد الفلسفة : إنها التقيل بالله ما أمكن . وقال فى هذا الكتاب : « أكثر الناس يلجئهم الطمع فى الحاجات إلى الله . وإذا حققت الأمر لديهم وجدتهم من معرفته فى مكان سحيق ، لأن الله ليس بظاهر لكل أحد يدركه بحواسه ، فلذلك جهلوه ، فمنهم من لم يتجاوز فيه المحسوسات ، ومنهم من إذا تجاوزها وقف عند المطبوعات . ولم يعرفوا أن فوقها من لم يلد ولم يولد ولم يحط بعين أنيته أحد . وهو المحيط بكل شىء علما » (١)

(يتبع) **محمد غلاب**

(١) انظر صفحتى ٢٣ ، ٢٤ من كتاب البيرونى

الموشح

للأستاذ توفيق الضوى

لقد كان الشعر فى أول أمره سجعاً غير مقيد بالقوافى الموحدة ؛ إنما كان قطعاً قطعاً وشذوراً شذوراً كل اثنتين منها أو أكثر على قافية واحدة ، ثم توحدت القوافى فى بعض الأوزان الشعرية انطلاقا مع الأفكار والمحاكاة ، عدا الأراجيز التى بقيت مختلفة القوافى فسهل النظم عليها فى القواعد والضوابط التى هى من القيود المتينة ، ثم لما كثرت الأغراض وضاقت قوافى الشعر عن استيعابها عدل الأندلسيون إلى التفنن فيها فأوجدوا الموشحات غير متقيدين بالقوافى الواحدة ، بل تفننوا فيها بمظاهر مختلفة ذهابا مع الأفكار وهياما فى سماء الخيال . على أن للقريحة والذوق وللحس والخيال تأثيرا كبيرا على الشعر وتجديده وابتكار معانيه والتصرف فى قوافيه والتلاعب بأوزانه فوق ما لتأثير السلالة والاقليم والعمران وما يتعلق بها ، فلهذا كان الفرق بين الشعر العربى والأعجمى عند الأمم ، وبين الغربى والشرقى عند العرب . ومن المعلوم أن فنون الشعر سبعة : هى القريض ، والموشح ، والدوبيت ، والمواليا ، والزجل ، والكان وكان ، والقوما . وقيل إن الحماق منها أيضاً فتكون ثمانية . وثلاثة من فنون الشعر هذه معربة ولا يغتفر اللحن فيها ، وهى القريض والموشح والدوبيت ؛ وثلاثة ملحونة دائما وهى الزجل وكان وكان والقوما . وأما المواليا فيحتمل الاعراب واللحن . والآن نتكلم عن الموشح الذى هو مدار بحثنا ...

فالموشح فن من فنون الشعر الرائعة التى توسع فيها شعراء الاندلس اطلاقا لبنات أفكارهم فى سماء الخيال فأجادوا ما شاءت بلاغتهم وعنايتهم فى اظهار المنظومات فى قالب جديد مطبوع على غرار جميل مطرزة بوشى لطيف حتى تفوقوا على غيرهم بهذا التصرف البديع الذى اقتبسه عنهم المغاربة فالمصريون فالسوريون فالعراقيون ؛ وعم عالم الشعر العربى الذى زاده التوشيح محاكاة فوق محاكاة أوزانه المطربة ، فكانت الموشحات موسيقى الشعر التى تضرب على أوتار القلوب ، فتناولها الشعراء بمنتهى الاقبال والتكريم وتباروا فى الاجادة فى فنونها هائمين فى سهولها وضروبها ، راشفين من صافى معينها ، واصفين مظاهر الطبيعة والعالم على اختلاف شؤونها . فالاندلس أم الموشحات ، وصفاء أذهان شعرائها رأس هذه الاختراعات ... وهذا ما قاله صفوان المرسى الاندلسى يصف تأثير مناظر الاندلس فى شعرائها حتى أحسنوا النظم والنثر متفوقين فيهما على غيرهم

هنالك بين الغصن والقطر والصبا
وزهر الرّبى والنّدت، آدابى الصُّغرا
إذا نظم الغصن الحيا قال خاطرى
تعلم نظام النثر من ههنا شعرا
وإن نثرت ريح الصبا زهَرَ الربى
تعلمت حل الشعر أسبكه نثرا
فوائد أسمار هناك اقتبستها
ولم أر روضا غيره يقرىء السحرا
كأن هزيز الريح يمدح روضها
فيملأ فاها من أزاهره درا

قال ابن خلدون فى الموشح : لما كثر الشعر فى الأندلس وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً سموه الموشح ينظمونه اسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ، ويلتزمون عدد قوافى تلك الأغصان وأوراقها متتاليا فيما بعد إلى آخر القطعة . وأكثر ما ينتهى عندهم إلى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل فى القصائد . وتجاروا فى ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه .

قال أبو عبد الله محمد الأزرق الأندلسى فى مدح موشحه ذهابا إلى القصيدة :

بعثت بها عذراء رائعة الحلى قضت أنها للمُعلمات مرشحة
توشحت اللفظ البديع وأقبلت فها هي تبدو للعيون موشحة

ووصفها ابن دحية الأندلسى بقوله :

الموشحات هى زبدة الشعر ونسبته ، وخلاصة جوهره وصفوته . وهى من الفنون التى أغرب بها أهل المغرب على أهل

المشرق ، وظهر وافيا ظهور الشمس الطالعة والضياء المشرق ...

وقال ابن معصوم فى سلافة العصر : ولأهل اليمن أيضاً نظم يسمونه الموشح غير موشح أهل المغرب ؛ والفرق بينهما أن موشح أهل المغرب يراعى فيه الاعراب ، وإن وقع اللحن فى بعض الموشحات التى هى على طريقتهم لكون ناظمه جاهلا بالعربية فلا عبرة به ، بخلاف موشح أهل اليمن فانه لا يراعى فيه شىء من الاعراب بل اللحن فيه أعذب ، وحكمه فى ذلك حكم الزجل

وللموشحات اصطلاحات لا بد منها ، مثل اللازمة ، والمبدأ ، والدور ، والدرج ، والبطايحى ، والمجنح ، والخرجة ، والسلسلة ، والقفلة ، والانصراف ، والمجنب الخ

وأول من اخترع الموشحات فى شبه جزيرة الأندلس مقدم بن معافر الفريرى؛ والفريرى نسبة إلى فريرة وهو حصن بالأندلس من أعمال كورة البيرة ؛ وقد يكون جده منسوباً إلى فرير وهى قرية بين جيحون وبخارى فى بلاد العجم ، أو بلدة بخراسان كما ذكر السمعانى فى أنسابه وياقوت الرومى فى معجم البلدان . وهو من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى (٢٧٣ هـ ، ٨٨٦ م) وأخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عبد ربه مؤلف العقد الفريد . وجاء بعدهما كثير من الشعراء فتفننوا فى الموشحات حتى فاقوا من سبقهم فاشتهرت موشحاتهم ، وأشهرهم عبادة القزاز وغيرهم . وانتقل بعد ذلك الموشح من الأندلس إلى المغرب، ومن هذه إلى مصر ، ومنها اتصلت بسورية فالعراق، وذلك فى العصر العباسى الرابع وفى أثناء القرن السادس للهجرة ...

قال الزبيدى فى معجم تاج العروس : التوشيح اسم لنوع من الشعر استحدثه الأندلسيون ، وهو فن عجيب له أسماط وغصون وأعاريض مختلفة ، وأكثر ما ينتهى عندهم إلى سبعة أبيات . وقال أيضاً : الوشاح بالضم والكسر رسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما ، تتوشح المرأة به ، ومنه اشتق توشح الرجل بثوبه ، وقال غيره أخذ التوشح من الظبية الموشحة وهى التى فى جنبها طرتان

قال القيراطى موجهاً بالزجل والموشح ذهاباً إلى الشعر :

أرتاح للأقمار وهى طوالع وشموس راحى للمغارب تجنح
ويهزنى زجل الطيور بلحنها والروض بالزهر النظيم موشح

وباختراع فن الموشح كان له الأثر العظيم فى الشعر الأوربى ، فحاكى شعراؤهم هذه الأوزان والأشكال كما نرى فى منظوماتهم ، ولا سيما قصائد فكتور هوجو شاعر فرنسا فى ديوانه المسمى بالشرقيات ، وكذلك قصائد غوته الشاعر الالمانى وغيرهما من شعراء بقية الأمم الأوربية التى وقفت على أشعار عرب الاندلس وموشحاتهم الخالدة، فكانت القافية عندهم لا تلتزم فى أكثر من بيتين كالأراجيز عندنا ، أو أنها تلتزم فى أبيات وتتغير وتعود إلى اللازمة كما فى الموشحات ؛ ومنها نوع من الشعر يسمونه الأبيض وهو ما كان غير مقفى كشعر شكسبير شاعر الانكليز وغيره ...

قال أبو الوليد بن رشد الأندلسى في تلخيص كتاب أرسطو فى الشعر ما نصه : والمحاكاة فى الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفقة ، ومن قبل الوزن ، ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوحد كل واحد منها مفرداً عن صاحبه مثل وجود النغم فى المزامير ، والوزن فى الرقص، والمحاكاة فى اللفظ : أعنى الأقاويل المخيلة غير الموزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا فى النوع الذى يسمى الموشحات والأزجال وهى الأشعار التى استنبطها فى هذا اللسان أهل هذه الجزيرة إذ كانت الأشعار الطبيعية هى ما جمعت الأمرين جميعاً ؛ فالصناعة المخيلة أو التى تفعل فعل التخييل ، ثلاثة .. صناعة اللحن ، والوزن ، وعمل الأقاويل المحاكية . ومن أبدع فنون الموشحات كتاب المديحات لعبد المنعم عمر بن حسان الغسانى الأندلسى الجليانى الفه سنة ٥٦٩ هو يوجد فى المكتبة الخالدية فى القدس الشريف ، وكتاب جيش التوشح للسان الدين بن الخطيب ، وعقود اللآل فى الموشحات والأزجال ، لشمس الدين النواحى ، ردار الطراز فى عمل الموشحات لابن سناء الملك ، والدر المكنون فى سبعة فنون لمحمد احمد بن إياس الحنفى ، وحاوى الفنون وسلوة المحزون لابن الطحان وغيرها من المؤلفات القديمة القيمة . هذه كلمة موجزة عن تاريخ الموشح وعمله كتبتها خدمة لهواة الشعر والموسيقى ليكونوا على علم باصول الموشح وتاريخه لارتباطه الوثيق بفن الموسيقى والغناء

(اسكندرية) **توفيق الصوى**
أستاذ فى الموسيقى

من روائع أدب الغرب

ناقوس القرية

LA CLOCHE DU VILLAGE

لشاعر الحب والجمال : ألفونس دى لامرتين

الحياة : موجة فى خضم تاوهات ، صبرها الشهد ، كأس المجد ، تملأ بالعبرات .
« لامرتين »

كالزفرات تعلو خفقات الناقوس الخاشع المتئدة . الأحراج تمسكها . الوديان تبددها . يد الصغير ، توازن كأسبه ، وتفرغ نغمات الأرض العلوية ، فى نسيم الليل المدلهم .

رجف من أصواته العالية ، جزع من خفقاته المتوالية . البلبل يطير تاركا بيته المضطرب . مياه الغدير المتموجة ، تجنى الأزهار اليانعة من جوانبه . أرملة القرية ، تركع لصدى نغماته تترك خيط مغزلها لترسل الرحمات للموتى .

يوقظ فى قلبى ، غناء هذا البرج الرنان ...

لا سرور النهار الذى انتهى ،

ولا بؤس اليوم الذى انقضى ،

ولا صور الماضى الفتية ، والذكريات الغنية ، التى تهدمت فى هذه الطرقات بين الأنوار الذابلة .

لا نومى الهادىء فى ظلال أغصان الدلب الندية ،

ولا أول نسمة فى حياتى ،

ولا صوت أقدامى التائهة ، فوق هذه الذروات العالية ،

ولا السرور العظيم تحمله إلى موجاتك يا نسيم الصبا ، المثقل بالروائح العطرة التى لا تنضب .

لا ذكرى الجواد الواقف فى المرج وقد لوى عنقه الحريرى على يدى المدربة ، ومزج ضفائر عنقه . بشعرات رأسى الشقراء ، والأرض ترن تحت سنابكه القوية كالسندان ، بينا ردفه يحملنى ، وزبد شدقيه يكسو فضة ناصعة حشائش الوادى .

لا الحب نفسه ...

الحب ، الفجر الأول فى الحياة .

حيث شهور الربيع تجرى ماء الحياة فى نسغ النبات ، فتزهر العقول وتخضر الأحراج .

فى الظلال أصوات العذارى الحاملات الجرار لملئها من الينبوع ، تصل لسمعى وئيدة ، فتدب فى جسدى الرعشة ولا أنت ...

أنت التى أبكيك أبداً ،

الفورة الأولى لدمى ،

صوت الفؤاد الذى يغنى ، ويوقظ فى روحى الدمدمة السحرية ، معطرة بالعنبر ، فتنثر فى الأجواء رياح الشعر

أواه . أيها المجد ، ولا أنت ...

لا الشتاء يحمل اليك دون أسف أيامى مع بقايا الأعشاب الفارغة من الحب ،

ونثرات الأوراق الذابلة ، وصدى المجد الفارغ .

أعشاب الطريق ، مزروعات علوية . تعطر الأقدام ، ولكن جذورها لا تغرس فى القلوب .

لا أكاليل الأعراس ، يقطفون زهورها فى المساء . فيسممها الحقد ، ويذبلها الحسد .

ولا ما يهب الحياة نشوة . تاج المجد المحطم تحت يدى .

الزهرات المعارة ، لا تمسكها ساق . تذبل وتجف ، ثم تقع من فوق الجبين

٭٭٭

هو ذاك اليوم .

أصواتك ممتزجة بزفرات امرأة ، مخضلة بالعبرات ، مترعة باليأس ، رنت فى أرجاء الوادى ، تبكى نعشين مرًّا ، يجللهما الحزن ، ويسبل عليهما الألم رداءه ،

فى قبر واحد ، دُفنت أرواح ثلاثة ونسيت على حافة اللحد .

من الفجر حتى الليل ، من الليل حتى الفجر . تذرف الدمع أيها الناقوس . كما أذرفه . تجمع بين قلبينا زفرة محرقة . الأهوية والسماء تردد نواحك ، كما لو فقد كل كوكب أمه ، وكل نسيم ولده .

من ذلك اليوم رنانك المقدسة ارتسمت فى ذا كرتى المفجعة . وامتزجت بكأس آلامى المترعة . اختلطت زفراتك بأصوات قلبى ، وترددصداها فى أنحائه . معدنك الرنان المغموس فى اللهيب يماثلنى عند ما يبكى ، هو قطعة من روحى ، يوقع عليها ملاك نغماتك .

أرقد لغفلتك، وانهض ليقظتك. صوت نعيك، صديق تسمعه أذناى. بين رنين الأجراس ،أفرق نغمتك . تغمرنى موجاتك . كالأجراس تعلو فى جنباتها رنات بعوضة طائرة.

أقول لنفسى : هذه الزفرة الحزينة المبهمة، يحملها إلى نسيم الليل العميق ، موجة إثر موجة . أواه ! لأجلى تتردد هذه الأصوات العالية . أفهم ما يقول . ويدرك ما أفكر . والهواء الجاهل فى هذا السكون المحتدم يحمل إلى لهجته المؤثرة .

أقول لنفسى : صوت هذا المعدن المتردد، قبل أن يصل إلى قلبى، ويغمر جنباته ويغرق قطعاته، اهتز فوق أطلال الماضى الراقد . يحمل إلى من بقايا قبته المنهدمة أشياء.

حجر القبر، حيث دفن حى، يقرع بهذا اللحن العذب .

لا تعجب ياولدى إذا اهتزت أفكارى لأصوات هذا الناقوس . مغرم بصمته الأمين للردى . لأول رنة تختلج تحت قبته أقف مصغيا لما يحمله إلى الحمام

أما أنت، مذياع الحزن البشرى الذى اخترعته الأرض لتجهر بآلامها . غن نشيد القلوب المحطمة الرائع ، فزفراتك تهب الأحجار روحاً ، والمقل الجافة دموعاً ، والصلاة خشوعاً أبدياً ، والقبور حزناً سرمدياً .

***

عند ما يحمل العمال نفسى وبقايا حطامى ، تبق هنا روحى تقذف حممها الملتهبة نحو السماء . الباكون ، حاشية باردة ، تسير خلفى ، لتضع جسدى، تحت باب حقير، ترتمى عليه أشعة الشموس.

إذا يد ورعة قرعتك لشرفى . فلا تحزن مخلوقا بزفراتك المتصاعدة . لا تنشر الدموع فى الأفق . التمس جرس العيد واقرع فوق لحدى ، برنة سلسلة سجن قرحة تقع على عتبته غرد كالعندليب لحناً خالداً ، يرتفع من منزلك ، والسوط الأسمر يوجه نحو فجر النهار خفقته المحزنة .

غن أنشودتك المترددة فى أعماق السموات تطفىء شهوة الخصوم المتشبثين بأدران الحياة .

إليك

اقرع قبل اليوم ، دق رويدا الساعة . صديق فى منزلى الحقير، يحضر ليضىء فى هذا القلب المهدم ، الحزن العميم ، ويترك قبل أن يذهب قطرتين من العطر تضمخان طويلا كفنى .

حسين تفكجى

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

في بلاد المدنية :

ذهبت بعيداً طائراً فى أجواء المستقبل فارتعشت وذعرت عند ما نظرت ما حولى فما وجدت من معاصر لى غير الزمان. وليت الأدبار مسرعا حتى وصلت إليكم . يا رجال اليوم ، ونزلت بينكم فى بلاد المدنية . فألقيت عليكم أول نظراتى بصفاء نية لأنى جئتكم بقلب مصدوع ، ولا أعلم ما أهاب بى إلى الضحك بالرغم من ارتياعى ، فان عينى ما رأت من قبل مثل هذه الخطوط والألوان .

ذهبت فى ضحكى وقد ارتعش قلبى واصطكت رجلاى فقلت فى نفسى (لعل هذه مصانع آنية المواد الملونة) .

لقد برزتم أمامى يا رجال اليوم ، وعلى وجوهكم وأعضائكم من الألوان عشرات الأنواع ، وحولكم عشرات المرايا تعكس تموجات ألوانكم ؛ والحق أنكم لا تستطيعون أن تجدوا ما تتقنعون به أشد غرابة من وجوهكم نفسها . يا رجال اليوم ، فمن له أن يعرف من أنتم ؟

لقد حفر الماضى فى وجوهكم آثاره فألقيتم فوقها آثاراً جديدة ، لذلك خفيت حقيقتكم عن كل معبر وأعجزت كل بيان .

ولو كان لأحد أن يفحص الأحشاء فهل بوسعكم أن تثبتوا أن لكم أحشاء . وما أنتم إلا جبلة هباب ألوان وقطع أوراق ألصقت إلصاقا . وهذه جميع الأزمنة وجميع الشعوب تتزاحم مرسلة نظراتها من وراء قناعكم كما تفصح جميع حركاتكم عن تراكم كل العادات والمعتقدات فيكم . فاذا ما نزعت أقنعتكم وألقيت أحمالكم ومسحت ألوانكم ووقفت حركاتكم فلا يبقى منكم إلا شبح ينصب مفزعة للطيور .

والحق ، ما أنا إلا طائر مروع ، لأنى رأيتكم يوماً عراة لا تستركم ألوانكم فاستولى الذعر على إذ انتصبتم أمامى هيا كل

عظام تومىء إلى باشارات العاشقين .

إننى أفضل أن أكون من عمال الجحيم وخدام الأشباح ، لأن لسكان الجحيم ماليس لكم من شخصية معينة ، وأمرّ ما ألقاه هو أن أنظر اليكم سواء استترتم أو تعريتم . يارجال اليوم ...

إن جميع مايدعو إلى القلق فى آتي الزمان وجميع ما ارتاعت له فى الماضي تائهات الطير ، إنما هو أدعى الى الاطمئنان والارتياح من حقيقتكم ، لأنكم أنتم القائلون : (إنما نحن الحقيقة المجردة عن كل خرافة واعتقاد) وبهذا تتبجحون وتنتفخون دون أن يكون لكم صدور .

وهل من عقيدة لكم وأنتم المبرقشون بجميع ماعرف الزمان من ألوان حتى اليوم ؟ وهل أنتم إلا دحض صريح للايمان نفسه وتفكيك للأفكار جميعها ؟ فانتم كائنات أوهام يامن تدعون أنكم رجال الحقائق .

لقد قامت العصور كلها تتعارك فى تفكيركم ، وما كانت هذه العصور فى أحلامها وهذيانها إلا أقرب إلى الحقيقة من تفكيركم وأنتم منتبهون .

بليتم بالعقم ففقدتم الايمان وقد كانت للمبدع أحلامه وكواكبه قبلكم فوثق من إيمانه .

ما أنتم إلا أبواب فتحت مصاريعها لحفار القبور ، وما حقيقتكم إلا القول بأن كل شىء يستحق الزوال .

إنكم تنتصبون أمامى كهياكل عظام متحركة ، أيها المبتلون بالعقم ، ولا ريب فى أن أكثركم لم يخف عليه أمر نفسه عند ما تساءل : (هل اختطف إله منى شيئا وأنا نائم ؟ والحق أن ما سلب منى يكفى لايجاد امرأة ، فما أضعف أضلاعى) هكذا يتكلم العدد الوفير من رجال هذا الزمان .

إن حالكم ليضحكنى أيها الرجال ؛ ويزيد فى ضحكى أنكم لأنفسكم مستغربون . ولشد ما يكون ويلى لو امتنع على أن أضحك من استغرابكم ولو اضطررت إلى ازدراد ما فى أوعيتكم من كريه الطعام .

إنى أستخف بكم لما على عاتقى من ثقيل الأحمال فما يهمنى لو نزل عليها بعض الذباب فانه لن يزيدها ثقلا وما أنتم من يحملنى أشد الاتعاب أيها المعاصرون .

واأسفاه ! إلى أية ذروة يجب على أن أرتقى بأشواقى فانى أدير لحاظى من أعالى الذرى مفتشاً عبثاً عن مسقط رأسى وأوطانى ، فانا لا أزال فى أول مرحلتى تائهاً فى المدن أتنقل أمام أبوابها .

لقد اندفعت بعواطفى نحو رجال هذه الأيام ، ولكننى ما لبثت أن تبينت فيهم قوماً غرباء عنى لا يستحقون الاسخريتى ، وهكذا أصبحت طريداً يتشوق إلى مسقط رأسه وأوطانه . ولا وطن لى بعد الآن إلا وطن أبنائى فى الأرض المجهولة وسط البحار السحيقة ، لذلك وجب على أن أندفع بشراعى على صفحات المياه لأفتش عنه .

علىّ أن أكفر عن ذنبى أمام أبنائى لأننى كنت ابناً لآبائى . علىّ أن أكفر عن حالى العتيد بكل جهودى فى آتى الزمان

هكذا تكلم زارا .

المعرفة الطاهرة

عند ما أطلّ القمر علىّ ليلة أمس خيل إلى أنه أنثى أثقلها الحبل وكأن فى أحشائها كوكب النهار . وقد جاءها المخاض وأنا أميل إلى تذكير القمر منى إلى تأنيثه وان خلا من صفات الرجولة فانه رائد ليل يمر على السطوح وقد ساءت نواياه ، فهو كالراهب المتدفق شهوة وحسدا يتمنى لو يتمتع بملذات جميع العاشقين

لا ، إننى لا أحب هذا الهر المتجول على مزاريب السطوح ، لأننى أكره كل متلصص أمام النوافذ التى لم يحكم إقفالها .

ان القمر ليسير خاشعاً متعبدا على بساط النجوم وأنا أكره كل من ينساب فى مشيته فلا تسمع وقعاً لأقدامه . فإن خطوات الرجل الصريح تستنطق الأرض ؛ وما يمشى الهر إلا متجسساً ، وهذا القمر لا يتقدم إلا بخطوات الغدر كالهر .

ما أوردت هذا المثل إلا لكم وعنكم يا أبناء الخبث وقد أرهفتم احساسكم لطلب المعرفة الصافية ، وما أنتم فى نظرى إلا عبيد الملذات لأنكم أنتم أيضاً تحبون الأرض وما عليها ومنها . لقد عرفت طويتكم فاذا فى حبكم ما يخجل وما يفسد الأخلاق ، فما أشد شبهكم بكوكب الليل .

لقد أقنعوكم بأن تحتقروا كل ما ينشأ من التراب ، ولكن

هذا الاقناع لم ينفذ إلى أحشائكم ، وأحشاؤكم هي أقوى مافيكم ؛ وهكذا أصبح عقلكم خجلا من سيطرة أحشائكم عليه ، فهو يتبع الطرق الخفية المضللة فزعاً من خجله . أنصتوا إلى مناجاة عقلكم لنفسه فهو يقول : ليت لى أن أرتقى إلى حيث أنظر إلى الحياة محرراً من الشهوة فلا ألهث أمامها ككلب يدلى لسانه وقد شفه السغب من شهوته .

ليت لى أن أسعد بالتأمل متفوقاً على إرادتى متحرراً من خساسة الأنانية ومطامحها فيسود على السلام ولا يبقى لعينى سوى لحظات القمر الثملة .

ان عقلكم يطلب التملص من ذاته لأنه طريد يشتهى أن يتعشق الأرض كما يتعشقها القمر فلا تتمتع إلا عيونكم بجمالها

ان عقلكم يرى المعرفة الظاهرة لا تحتله ما لم ينبسط أمام الأشياء دون امتلاكها مكتفياً بانعكاس أشباحها عليه كما تنعكس الأشباح على مرآة لها مئات العيون .

أيها الخبثاء المتحرقون بالشهوات ، لقد خلت شهوتكم من الطهارة فلذلك تجدفون على الشهوة ، فأنتم لا تحبون الأرض كما يحبها المبدعون والمجددون الذين يسرون بما يبدعون وبما يجددون . فلا طهارة إلا حيث تتجلى إرادة الابداع ، فمن اتجه إلى خلق من يتفوق عليه فذلك عندى صاحب أطهر إرادة وأنقاها .

طلبت الجمال فما وجدته إلا حيث تنصب الارادة بأكملها إلى المراد ، وحيث يرتضى الانسان بالزوال لتجديد الصور وتبديلها ، فالمحبة والموت صنوان متلازمان منذ الأزل فمن أراد المحبة فقد رضى بالموت . هذا ما أقوله لكم أيها الجبناء .

ولكن نظراتكم المنحرفة المؤنثة تحب الاستغراق فى التأمل فتريدون أن يدعى جمالا ما تحدجونه أنتم بعين الحذر والجبن ؛ إنكم لتدنسون أشرف الأسماء .

ان اللعنة التى تحل بكم ، أيها السائرون وراء المعرفة الطاهرة إنما هى عجزكم عن التوليد فى حين أنكم تلوحون كالحبالى المثقلات على الآفاق .

إنكم تحشون أفواهكم بأنبل الكلمات لا يهامنا بأن قلبكم يتدفق عطفاً وما أنتم إلا منافقون .

لقد أخشنت القول لكم فكلماتى مشوهة ذرية ؛ غير أننى أتناولها من الفتات المتساقط من موائد ولائمكم فأستعملها حين أعلن الحقيقة للخبثاء . وهذا ما بيدى من حسك وأصداف يخدش آنافكم أيها الخبثاء .

إن الهواء الفاسد يهب بلا انقطاع حولكم وحول مآدبكم لأنه مشبع من أفكاركم الدنسة وأكاذيبكم وخداعكم .

عليكم بأن تبدأوا باطراح خوركم لتتوصلوا إلى الوثوق بأنفسكم فما ينقطع عن الكذب من لا ثقة له بنفسه

لقد أخفيتم وجوهكم بأقنعة الآلهة أيها الرجال الأتقياء فأنتم ديدان قبيحة تتشح برداء الارباب

إنكم لجد متبجحين يا رجال التأمل ، حتى أن زارا نفسه أخذ بمظاهر جلودكم الالهية فخفيت عنه الأفاعى الكامنة وراءها

لقد كنت أرى فى عيونكم روح إله أيها الطالبون المعرفة الطاهرة ، قبل أن تكشف لى تصنعكم فعرفت أنكم أمهر المتصنعين

لقد بعد المجال بينى وبينكم فما تميزت فيكم الثعبان القبيح ، ولا وصلت إلى رائحته الكريهة ، وماخطر لى أن أمامى حرباء تتلون بشهواتها . ولكننى عند ما اقتربت منكم تبددت الظلمة حولى . وهاإن الفجر يغمركم بأنواره فلكل قمر جنوح إلى الغياب فى شهوته . أنظروا إلى هذا القمر فهو فى أفقه شاحب مذعور وقد باغته الفجر بأنواره المرسلة ، فكل شمس يتجلى حبها الطاهر فى تشوقها إلى الابداع

أما ترون الفجر ينسحب على البحر وقد اهتاجه الشوق والحنين ؟ إنما تشعرون بظمأه فى حبه وحر أنفاسه ، فكأنه يزيد ارتشاف اللجج . وهاهى ذى تتعالى نحوه بآلاف نهودها ، واللجة نفسها متشوقة إلى وصال كوكب النهار ليرشفها ارتشافاً فتتحول إلى سحب ومسالك أنوار ، بل هى نفسها تفنى فى النور متحولة إلى نور

وأنا كوكب النهار أحب الحياة وكل لجة بعيدة الأغوار ؛ تلك هى معرفتى . انى أجتذب كل غور ليتعالى إلىّ ...

هكذا تكلم زارا ...

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١١٨ — المرأة والكتب

فى (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) لابن أبى أصيبعة : حدثنى الشيخ شديد الدين المنطقى بمصر قال : كان الأمير ابن فاتك محبا لتحصيل العلوم ، وكانت له خزائن كتب ، فكان فى أكثر أوقاته اذا نزل من الركوب لايفارقها ، وليس له دأب إلا المطالعة والكتابة . وكانت له زوجة كبيرة القدر من أرباب الدولة . فلما توفى (رحمه الله) نهضت هى وجوار معها إلى خزائن كتبه ، وفى قلبها من الكتب ، وانه كان يشتغل بها عنها(١) ، فجعلت تندبه ، وفى أثناء ذلك ترمى الكتب فى بركة ماء كبيرة فى وسط الدار هى وجواريها ... ثم أشيلت الكتب بعد ذلك من الماء ، وقد غرق أكثرها ، فهذا سبب أن كتب المبشر بن فاتك يوجد كثير منها وهو بهذه الحال

١١٩ — على الطنبور

قال جحظة : وهب لى جعفر بن المأمون طنبور عبيدة الطنبورية فاذا عليه مكتوب بآبنوس :

كل شىء سوى الخيانة فى الحب يحتمل

١٢٠ — حتى متى ارقعك ؟

قال أسماء بن خارجة لجاريته :

اخضبينى

فقالت : حتى متى أرقعك ؟ !

فقال :

عيرتنى خلقاً أبليت جدته وهل رأيت جديداً لم يعد خلقا

(١) فى (الوفيات) : قال القاضي ابن بكار : قالت ابنة أختى لاهلنا : خالى خير رجل لأهله لا يتخذ ضرة ، ولا يشترى جارية ، فقالت المرأة : لهذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر وأصعب . . .

١٢١ — فى الدنيا والآخرة

قال الجاحظ : روى أن أعرابيا اشتد عليه البرد فأصاب ناراً ، فدنا منها ليصطلى بها وهو يقول : اللهم ، لا تحرمنيها فى الدنيا ولا فى الآخرة

١٢٢ — الجديد والقديم

أبو بكر محمد بن نصر الأوسى :

وان كان عندى للجديد لذاذة فلست بناس حرمة لقديم

١٢٣ — اذا استحكمت المودة بطلت التكاليف

قال عبد العزيز بن الفضل : خرج القاضى أبو العباس احمد بن عمر بن سريج وأبو بكر محمد بن داود الظاهرى وأبو عبد الله نفطويه (١) إلى وليمة دعوا لها ، فأفضى بهم الطريق الى مكان ضيق ، فأراد كل واحد منهم صاحبه أن يتقدم عليه ، فقال ابن سريج : ضيق الطريق يورث سوء الأدب

وقال ابن داود : لكنه يعرف مقادير الرجال ...

فقال نفطويه : اذا استحكمت المودة بطلت التكاليف

١٢٤ — غزل الصداقة

فى (المقابسات) قال الحسن بن وهب : غزل الصداقة أرق من غزل العلاقة (٢) ،

وهذه نفثة فاضل قد أحس كمال الصداقة

١٢٥ — اسم أبو العتاهية

تكلم بعض القصاص قال : فى السماء ملك يقول كل يوم : لدوا للموت وابنوا للخراب .

فقال بعض الأذكياء : اسم ذلك الملك أبو العتاهية ...

١٢٦ — الشاكر والصابر فى الجنة

نظرت امرأة عمران بن حطان يوماً فى المرآة ـ وكانت من أجمل النساء ـ فأعجبها حسنها ، ونظرت إلى عمران ـ وكان قبيحاً

(١) بكسر النون وفتحها والكسر أفصح : لقب لدمامته وأدمته تشبيهاً بالنفط

(٢) العلاقة : الهوى والحب اللازم للقلب ، بفتح العين كما فى (اللسان والنهاية) وبالكسر أيضاً كما فى (القاموس) . وقد أنكر الاصمعى هذا كما فى (التاج)

فقالت : ابا شهاب ، تعال فانظر فى المرآة ! فجاء فنظر إلى نفسه وهو إلى جانبها كأنه قنفذ ورأى وجهاً قبيحاً ، فقال : هذا أردت ؟ !

فقالت : إنى لأرجو أن أدخل الجنة أنا وأنت

قال : بم ؟

قالت : لأنك رُزقتَ مثلى فشكرت ، ورُزقتُ مثلك فصبرت . والشاكر والصابر فى الجنة ...

١٢٧ — فلا

فى (العمدة) لابن رشيق : قيل لابى السائب المخزومى : أترى أحدا لا يشتهى النسيب ؟

فقال : أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا ...

١٢٨ — لاحكم الا للملاح

أبو القاسم المرتضى :

بينى وبين عواذلى   فى الحب أطراف الرماح [١]
أنا خارجى فى الهوى   لا حكم إلا للملاح

١٢٩ — ماء الملام ، جناح الذل

قال أبو تمام فى قصيدة :

لا تسقنى ماء الملام فاننى   صب قد استعذبت ماء بكائى

فبعث مخلد الموصلى اليه بقارورة يسأله أن يبعث [٢] له فيها قليلا من ماء الملام [٣] ، فقال لصاحبه : قل له يبعث الى بريشة من جناح الذل لأستخرج بها من القارورة ما أبعث اليه

قال ابن أبى الحديد : هذا ظلم من أبى تمام لمخلد ، وما الأمران سواء . لان الطائر إذا أعيا وتعب ذل ، وخفض جناحه ، وكذلك الانسان إذا استسلم ألقى بيديه ذلا ، ويده جناحه ، فذاك هو الذى حسَّن (واخفض لهما جناح الذل) ألا ترى لو أنه قال : واخفض لهما ساق الذل أو بطن الذل لم يكن مستحسنا

(١) العواذل : قالوا : « فاما مذكر من يعقل فلم يجمع على فواعل الافوارس وهوالك ونواكس فاما فوارس فلأنه شىء لا يكون فى المؤنث . . . فلم يخف فيه اللبس . وأما هوالك فانه جاء فى المثل : هالك فى الهوالك فجرى على الاصل لأنه قد يجىء فى الامثال مالا يجىء فى غيرها . وأما نواكس فقد جاءت فى ضرورة الشعر . قلت : ثلاثة رابعهم العواذل . . .

(٢) فى كتب الادب والعلم وبعض كتب اللغة : بعث الشىء وبالشىء دون التفات إلى ما يبعث به وحده أو مع غيره ، وإلى ما ينبعث بنفسه أو لا ينبعث بنفسه وللغويين المتقدمين كلام طويل فى هذا الفعل . وقد ردد أدباء فى هذا الزمان بعض ما قيل من قبل .

(٣) الآمدى فى (الموازنة) لم يعب قول أبى تمام وقد قال : « لما كان مجرى العادة أن يقول قائل أغلظت لفلان القول ، وجرعته منه كأسا مرة ، وسقيته منه أمر من العلقم وكان الملام مما يستعمل فيه التجرع على الاستعارة جعل له ماء على الاستعارة » .

١٣٠ — ولع الشعراء ببعض الالفاظ

فى (سر الفصاحة) للخفاجى :

قلما يخلو واحد من الشعراء المجيدين أو الكتاب من استعمال ألفاظ يديرها فى شعره . وقد كان أبو الحسن مهيار ابن مرزويه ممن غَرِى [١] بلفظ (طين وطينة) فما وجدت له قصيدة تخلو من ذلك إلا اليسير .

وقال أبو الفتح بن جنى : قلت لأبى الطيب المتنبى : إنك تكرر فى شعرك (ذا وذى) كثيرا ، ففكر ساعة ثم قال : ان هذا الشعر لم يعمل كله فى وقت واحد . فقلت : صدقت إلا أن المادة واحدة ، فأمسك

١٣١ — القاضى بسعادتك

قال أبو اليمن زيد الكندى : كنا نلقب [٢] أبا المكارم محمد بن الملك بن أبى جرادة (القاضى بسعادتك) وذلك أن القلانسى دعاه فى وليمة ـ وكنت حاضرها ـ فجعل لا يسأله عن شىء فيخبر عنه بما سر أو أساء إلا قال فى عقبه (بسعادتك) فان قال له : ما فعل فلان ؟ قال : مات بسعادتك ، وإن قال له : ما خبر الدار الفلانية ؟ يقول : خربت بسعادتك . فسميناه (القاضى بسعادتك) وكان يقولها لاعتياده إياها لا لجهل كان فيه ، وكان له أدب وفضل وفقه وشعر جيد

١٣٢ — وبأحسنت لايباع دقيق

حضر جحظة مجلس بعض الكبار مراراً ، وكان اذا غنى يقول له : أحسنت ، ولم يكن يخوله شيئا ، فقال فيه :

ان تغنيت قال : أحسنت ! زدنى   وبـ(أحسنت) لا يباع دقيق

(١) غري بالشىء أولع به من حيث لا يحمله عليه حامل وغرى بالضم مشدد لا كما أورده (أقرب الموارد) مبنيا للمجهول مخففا .

(٢) فى كتب الأدب لقبته كذا وبكذا وفي كتب اللغة لقبته بكذا . وقد خطأ صاحب (تذكرة الكاتب) الأول إذ لم يره كما يظهر وهو فى كلام الأدباء منذ ألف سنة .

١٣٣ — فلهذا يرقص الحبب

قال ابن خلكان : من معانى الأبيوردى البديعة قوله من جملة أبيات فى وصف الخمرة :

ولها من ذاتها طرب فلهذا يرقص الحبب

١٣٤ — أنت الحسن اذن

قال ابو نواس : استقبلتنى امرأة فسفرت عن وجهها ، فكانت على غاية الحسن ، فقالت : ما اسمك ؟

قلت : وجهك

قالت : أنت الحسن اذن !

١٣٥ — يتيم

قال ابن خالويه فى كتاب (ليس) : أنشدنى أعرابى :

ثلاثة أحباب : فحب علاقة وحب تِملاق وحب هو القتل (١)

فقلت له : زدنى

فقال : البيت يتيم (٢) .

١٣٦ — فر زيتون من الجبن

فى (الغيث المنسجم) للصفدى : كتب القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر لما التقى (الملك الظاهر) مع (زيتون الفرنجى) قريبا من عكا ، وهرب زيتون ، وأسر غالب من كان معه من الفرنج ، فجاء فى جملة الكتاب : « وفر زيتون من الجبن » قيل ان الملك الظاهر لما سمعها أعجبته وخلع عليه

١٣٧ — أينما كانت انتفعنا بها

فى كتاب (قضاة قرطبة) لمحمد بن الحارث الخشنى :

قال محمد بن فرج الفقيه : ما رأيت أعقل من زياد بن عبد الله (الخطيب بالمسجد الجامع بقرطبة) قلت له يوما : يزعم هؤلاء المعدلون (٣) أن هذه الشمس مقرها السماء الرابعة . فقال : (أينما كانت انتفعنا بها) ولم يزدنى على ذلك ، فعجبت من عقله

(١) الأحباب من جموع الحب بالكسر أى المحبوب والأنى حبة (التملق) مصدر كالتملق .

(٢) يتيم : فرد .

(٣) المعدلون : العدول الذين يزكون الشهود .

نفثة محزون

للأستاذ ابراهيم عبد الوهاب

فى ميعة الصبا ونضرته ، وفى ربيع الحياة وزهوه ، اختطف الموت ابنى ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، ففاض صدرى بهذه الكلمة تفجعا عليه ورثاء له

عافَ الحياة ومَلَّ من أوْصابها لما ألحَّ الداء فى أسبابها
بَكَرَتْ إليه يدالمنونِ ولم يكد يُوفِى من الدنيا على أوابها
ورمت مَنيته إليـه شباكها وعَدَتْ عليه بظفرها وبنابها
وطوت صحيفتَهُ ولما يَكتَمِلْ عنوانُ قصتها وبَدْءُ كتابها
فمضى كأزهارِ الربيع قصيرةً أيامُها وفريدةً فى بابها

***

أبنى أىُّ فجيعـةٍ غـدَّارةٍ دَهياء قد نزلت بفصلِ خطابها
رمت القلوب فأقصَدتْ حباتها ومَحَتْ جميل الصبر فى أعقابها
وأسالت الدمع الأبِىَّ كأنه غيثُ السماءِ هَمَى وهَطَلُ سحابها
لَهفى عليك وأنت نِضْوٌ خائر تشكو من الحمى ومن أذنابها
وتبيت مضطربا كأنك فى لظى قَلَقا تَوجَّعُ من أليم عذابها
حلت بجسمك لاتريد فراقه فكأنما ألْفَتْكَ من أحبابها
ورمت يديك برعدة مشئومة أيقنْتُ أن الموت ينذرنا بها
الجسم مرتعها ولحمك طعْمُها وعصير قلبك من لذيذ شرابها
صهرتك لم ترحم صباك ولم تَهِنْ حتى مضت بالروح فى أسلابها

***

وقف الطبيب إلى سريرك مطرقا حَيْرانَ مُغتمًّا لدائك آبها
ودعا صحابتـه إليك فلم يجـد رأياً جديداً أو مشيراً نابها
وأهابَ بالطب العتيـد فخانه وأراد معجزة فما أوْفَى بها

الطب إن شاء الإله وسيلة   تشفى من الحمى ومن أترابها
أو لم يشأ تلقاه شر رسالة   للموت يزجيها إلى أربابها
قل للمؤمل فى الطبيب وطبه   إن الحياة رهينةٌ بكتابها
لا الطب يصنعها ولا أقطابه   الله قدرها ليوم مآبها
هى صنعة المولى تملَّكَ سرَّها   وأجادها ووعى دقيق حسابها

***

أبُنَىَّ أزمعتَ النوى وتركتنى   أشتفُّ من كدر الحياة وصابها
أذكيت نار الحزن تلتهم الحشا   وتذيب قلبى من سعير لهابها
تلك الدموع الحائرات بمقلتى   هى مهجتى تنساب من أهدابها
أفلا رحمتَ أباك من أدوائه   حتى أضفت لها الفراق مشابهاً
ورحمتَ أمك من لواعج ثكلها   وغزير عبرتها وسود ثيابها
تبكى وتندب حظها وعِثارَهُ   ورَبيبَ مهجتها وصنوَ شبابها
وتود لو أنَّ الدموع شرابُها   أو أن ماء البحر من تسكابها
وتطوف حول القبر تلتمس الهدى   فكأنما أوفت على محرابها
حَيْرَى مُحَسَّرةً تمثل حزنها   فتكاد تلمسه على جلبابها
الخطب أرهقها وحطَّمَ عودها   ولَرُبَّ عاقلةٍ مضى بصوابها

***

قد كنت وثَّابَ الذكاء محبَّباً   وبرئت من طبعِ الخصال وعابها
قد كنت بهجة دارنا وسرورها   فغدت بفيض الحزن من أعتابها
قد كنت لى أملاً ألوذُ بنوره   فى لجة الدنيا وشق عبابها
غدت الحياة ثقيلة أيامها   ضَيِّقٌ على رغمى فسيح رحابها
ما أضيع الآمال بعدك والمنى   هى خُدْعَة الدنيا وكِذْب سَرابها

***

حشدت لى الأيام حرَّ نصالها   ومضت تجدُّ بحدها وذُبابها
وتتابعت نُوَبُ الزمان كأنما   ألِفتنى الأحداثُ فى إغبابها
وأصاب هذا الدهر خير أحِبَّةٍ   سلكتهمُ العلياءُ فى أنسابها
كانوا ملاذ الفضل معتصمَ الحجا   وبشاشة الدنيا وزَهْوَ خضابها
قد كنت أمرح بينهم فى روضة   والآن صرت لوحدتى ويبابها

***

أبنى إن عظمت بفقدك نكبتى   فرجائىَ المولى عظيمٌ ثوابها
ناداك ربك فاستجبت نداءه   وصدَفتَ عن دنيا الورى وكذابها
نم فى جوار الله غير مروَّعٍ   وانعم بجنته ورحب جنابها
وارتعْ هنا لك بين رَيِّق مائها   وبهيج سُنْدُسِها وفى أعنابها
وارجُ الإله لوالديك تصبُّراً   ينسيهما البلوى ووَقْعَ مُصابها
إن الذى خلق المكاره والأسى   هو بارئُ الرحمات يُسْعِدُنا بها

ابراهيم عبد الوهاب

المدرس بمدرسة المنيرة الابتدائية الأميرية



ميكيلانجـــلو

العبقرية الملهمة

MICHELANGELO

للدكتور احمـد موسى

— ٤ —

تكاد تكون شخصية ميكيلانجلو من أعقد الشخصيات؛ ذلك لتعدد نواحي دراسته وتحديد مواهبه الفنية فإذا استعرضت تاريخ حياته فى مختلف المصادر ، وجدت أن كل مؤرخ فنى تفرغ لتناوله من ناحية معينة ، بغية الوصول إلى تعريف محدود له ، ينتهى بوضع أساس يتفق وعظمته .

وقد قرأنا عنه الكثير ، وشاهدنا من إنتاجه وآثاره مافيه الكفاية ، ووجدنا بعض مؤرخى الفن يدرسه كمهندس معمارى ، وآخر يحلله كنحات ، وثالث كنقاش ، ورابع كمصور ، وخامس كشاعر ، وسادس كعاشق دفع به الهوى إلى تلحين ملحمات غزلية ألفها فى ساعات إلهامه .

وقد أخذنا على عاتقنا دراسة ميكيلانجلو دراسة فنية مبسطة ولكنها شاملة ، وتناولناه بالبحث كنحات عظيم . ولكننا لانكون قد أدينا رسالة الفن تمام التأدية. إذا لم ندرسه كمصور أيضاً . حتى تتم بذلك معرفتنا له من ناحيتيه البارزتين وهما النحت والتصوير ؛ ولا سيما وهو لم يكن ليقل عظمة فى الأخير عن الأول ، بل إنه قد استطاع إظهار أدق وأعمق مشاعره النفسية ، وأفكاره الملهمة فى التصوير الذى أخرجه على أعظم جانب من الإجادة وحسن الانسجام .

وإذا كنا قد علمنا أنه ترك بعض منحوتاته دون إكمال ، فإنه يهمنا أن نعلم أنه لم يترك من مصوراته إلا ما ندر غير كامل ، ومن هنا نستطيع أن ندرسه دراسة وافية كمصور ، ونصل بها إلى الأعماق التى لم نستطع الوصول إليها فى النحت الذى قررنا أن اتجاهه فيه كان مثلياً كما كان كذلك فى التصوير، وهى ظاهرة طبيعية يحتمها التناسق فى الإنتاج الفنى والخلق المبتكر .

وإذا كان ميكيلانجلو قد ظهر أمامنا بعد استعراض منحوتاته ، دائم الطموح نحو الكمال الانسانى ، ساعياً وراء المثل العليا فى التكوين الانسانى والموضوعى، مهتما تمام الاهتمام باختيار المواقف العنيفة التى خرج بها عن المألوف من ناحية الانشاء الوضعى والتى من مقتضاها أن ظهرت تفاصيل الجسم على أقوى ما يمكن ظهورها به ؛ فإن هذا نفسه كان الاتجاه الذى سار فيه والهدف الذى رمى اليه فى التصوير الذى لم يجمع فيه بين المناظر الشخصية مفردة كانت أو مجتمعة وبين الطبيعة إلا فيما ندر ، مخالفاً فى ذلك ما رأيناه عند ليوناردو دافينشى (راجع المقالين الخاصين به)

ويشعر المشاهد لمصوراته عموماً كأنه واقف يستعرض تماثيل مجسمة لاصور أو لوحات مسطحة، ومن هذا نستطيع أن نكون لفنه التصويرى طابعاً مميزاً وروحاً خاصاً ، وهو أنه كان مصوراً نحاتياً أكثر منه مصوراً بحتاً . إذ أن كل مصوراته تمت بصلة كبيرة إلى قواعد النحت ، أكثر من انتمائها إلى قواعد التصوير .

على أن مصوراته هذه لم تكن مرسومة بالزيت كما يعتقد كثير من الناس ، بل كانت تصويراً على الجص الطازج . وهذه الطريقة التى تتلخص فى التصوير بألوان الماء على طبقة رقيقة من الجص أو الجير قبل جفافه هى التى يعبر عنها رجال الفن بتصوير الفرسكو « Al Fresco »

وقد صور بعض مصوراته بطريقة أخرى . وذلك أنه أخذ الألوان الطبيعية من الأرض Tempera ، وأضافها إلى محلول الغراء والعسل ، وعند ما أراد التصوير بها أضاف اليها الغراء الكثيف أو بياض البيض واستعملها بعد ذلك مباشرة

ولعلنا بدرسه على ضوء أبسط أصول تاريخ الفن نضطر إلى تقسيم تراثه إلى ثلاث مراحل تستغرق كل مرحلة منها حوالى الثلاثين سنة ، على اعتبار انه عاش حوالى التسعين

وتنحصر المرحلة الأولى بين سنة ١٤٧٥ ، ١٥٠٥ وهى التى قضى معظمها كنحات وقد سبق لنا درسها ، وله فيها ثلاث قطع لاتزال باقية ، أولاها صورته «دفن المسيح» ، وثانيتها «مادونا مانشيستر» ، وتشمل مريم ويسوع ويوحنا وملائكة أربعة والروح الغالبة على هذه اللوحة ظهور البساطة بأجلى معانيها مع عظمة التكوين الانسانى وهذه وسابقتها محفوظتان بجاليرى لندن غير كاملتين .

وقطعته الثالثة تمثل العائلة المقدسة، وهى صورة مستديرة - ش ١ - محفوظة بمتحف أوفيسين بفلورنسا، صورها سنة ١٥٠٤



(ش ١)

وتمثل مريم والطفل وخلفهما يوحنا ومجموعة أطفال فى مؤخر اللوحة .

أنظر إلى مريم وكيف أسندت الطفل بوضع أطراف يدها اليمنى تحت إبطه واسنادها له بيسراه ثم تأمل الجمال البادى على ملامحها . وحسن إخراج الملابس وثناياها . إلى جانب جلستها الرائعة ، وظهور قدمها اليمنى بحالة فنية لاترتفع إلى مثلها غير عبقرية ميكيلانجلو .



(ش ٢)

ثم شاهد ما ارتسم على وجه يوحنا من علامات الحب والاشفاق على الطفل يسوع . ولاحظ شعر الرأس والذقن إلى جانب الحياة التى تشع من عينيه

ورسم الأطفال فى مؤخر الصورة أقوياء التفاصيل والتكوين الجسمانى وهذا من مميزاته الخاصة ، وميله إلى قواعد النحت أكثر من ميله إلى قواعد التصوير

وتعطيك النظرة الشاملة للجموع الإنشائى للصورة فكرة هائلة عن جمال الوضع الأولى والتصميم الكلى للوجه . فالرؤوس الثلاثة تكاد تكون بارتفاع واحد . ومع هذا لم تخرج على أصول الانسجام فضلا عن بعدها عن الازدحام الذى يؤدى غالباً إلى ضعف التوجيه . هذا إلى هدوء الألوان وبعدها عن الحدة .

وله مصورات تخطيطية بين سنة ١٥٠١ ، ١٥٠٥ منها ما مثل دراسات لرؤوس بمشاهدتها تعطيك فكرة صادقة



كتاب عن التربية فى مصر

صدر أخيرا كتاب بالانكليزية عن مستقبل التربية فى مصر بقلم أستاذ انكليزى معروف فى دوائر التربية المصرية هو الدكتور جاكسون الاستاذ سابقا بمعهد التربية ، عنوانه : « التربية والعهد الجديد فى مصر Education and the New Era in Egypt » ؛ وقام باصداره معهد التربية ؛ ويقول الأستاذ جاكسون إن الذى حمله على تأليف هذا الكتاب هو الحاجة الماسة فى هذه المرحلة من تاريخ مصر الاجتماعى ، الى وضع سياسة حديثة للتربية تقوم على جهود موحدة نزيهة ومثل عملية . ويتناول الأستاذ فى كتابه ثلاث مسائل رئيسية هى : أولا ـ مهمة التربية فى مصر وفى رأيه أنها العمل على انشاء ثقافة مصرية . ثانيا ـ مسألة اعداد المعلمين . ثالثا ـ مسألة النظام

ويتناول الاستاذ جاكسون هذه المسائل تناول العارف المطلع ، ولا غرو فقد انفق أعواما يعمل فى أوساط التربية المصرية ، وهو يحاول فى بحوثه أن يوفق بين المقاصد العملية وبين المثل النظرية ، ويقدم اقتراحات عملية لبعض المسائل المستعجلة التى تواجهها مصر اليوم : فهو يرى مثلا أن التعليم الثانوى فى مصر نظرى محض ويقترح أن تدمج فيه بعض العناصر العملية ، وينوه بخطر التعليم السطحى ، ويرى أن تزاد البعثات العملية القصيرة إلى الخارج ؛ ثم هو يحذر ولاة الأمر من التقتير على المعلمين لأن المعلمين المغبونين الساخطين يغدون خطرا على المجتمع ، ويرى فى تعليم اللغة الانكليزية ألا يبدأ به إلا من السنة الثالثة الابتدائية بعد أن يكون التلاميذ قد حصلوا على قسط معقول من اللغة العربية

ويتحدث الاستاذ جاكسون طويلا عن مسألة النظام والطاعة ؛ وهو يرى أن استتباب النظام شرط جوهرى للتقدم ، ويرى ضرورة التشدد فى مسألة القوانين النظامية ؛ ثم يقول

عن مدى تأثره بليوناردو دافينشي

ولعل أبرز ما أنتجه فى هذه المرحلة أيضاً الصور الكارتونية للتصوير الجصى (الفرسكو) الذى لم يتم عمله والذى كان مخصصاً لبيت البلدية فى فلورنسا ، وهذه تخالف فى روحها وتكوينها لوحاته التى أظهرت تأثره بليوناردو وهى تمثل مذبحة كاشينا « Cascina » التى انتصر فيها الفلورنسيون على محاربيهم من بيزا فى ٢٧ يوليو سنة ١٣٦٤

وقد مثل فى هذه اللوحة جمهرة من الفلورنسيين يستحمون وأعداؤهم من بيزا يفاجئونهم ، وهى رائعة الانشاء قوية الإخراج مليئة بالحركة والرشاقة

وله أيضاً فى هذه المرحلة (١٥٠٥) كارتونات مصورة لم يبق منها للأسف إلا اثنتان ، الأولى لأجوستينو فيسيانو والثانية تمثل منظر « الصاعدين » ـ ش ٢ ـ ، وهى بالنظر إليها تبين رجلا عجوزاً جلس على مرتفع من الأرض يشير بيمناه إلى الهدف الذى يريد الوصول إليه ، وأمامه ولداه وقد مد الأول منهما يسراه إلى رابع لم تظهر منه إلا أطراف أصابعه الأربعة ، والطريقة التى انحنى بها الولد للأخذ بيد زميله من أطراف أصابعه هى من أقوى ما يستطيع فنان اختياره

أنظر إلى اليد اليمنى وكيف استندت إلى حافة المرتفع ، ثم تأمل الحرص البادى على يده اليسرى الممدودة لمساعدة زميله

وإذا تأملت ما تخلل الاحجار من نباتات ظهرت نهاياتها ونظرت إلى الأشجار وما غلب عليها من ظل و نور ، وشاهدت الكيفية التى عالج بها أوراق الشجر إلى جانب المرتفعات البعيدة فى مؤخر الصورة ، تر أن ميكيلانجلو كان عنيفاً ولكنه العنف الذى أدى إلى الخلود الفنى .

احمد موسى

إنه مادامت الصبية فى وسعهم أن يقلبوا قرارات معلميهم إلى عكسها سواء بالشكوى إلى ذويهم او بالاعتصاب والصخب. فانه يستحيل عليهم ان يتعلموا إحترام السلطة المدرسية التى هى جوهرية بالنسبة للتعليم والعلم. إن الاعتصاب من انواع العنف فيجب محاربته وقمعه بالحزم من جانب السلطات وبتنمية الروح الاجتماعي فى المدارس وهو روح يكاد يكون مفقوداً.

ولا شك أن مسألة التربية وتوجيهها من أهم المسائل التى يجب ان تعنى بها مصر المستقلة؛ فمصر تحتاج الى خلق جيل جديد يتمتع بصفات جديدة تناسب العهد الجديد وتناسب مسئولياته؛ ومن الأسف أن ولاة الأمر لم يوفقوا حتى اليوم إلى تناول هذه المسألة الخطيرة بما يجب من الاهتمام، ولاريب أن كتاب الأستاذ جاكسون يحتوى كثيرا من الحقائق والملاحظات الجديرة بالدرس والاعتبار

حول عيد القاهرة الألفى

أذاعت الصحف أن وزارة التجارة والصناعة تنوى أن تنتهز فرصة سنوح العيد الألفى لمدينة القاهرة المعزية فتقيم معرضاً مصرياً عظيماً تدعو الدول ولا سيما الدول الشرقية والاسلامية إلى شهوده والاشتراك فيه؛ وهذه فكرة جليلة بلا ريب؛ وقد سبق أن نوهت «الرسالة» فى أكثر من مقال رنان باهمية هذا العيد التاريخى ووجوب الاحتفاء به فى مظاهر عظيمة تتفق مع أهميته وجلاله؛ على أن هذه الدعوة لم تلق إلى اليوم صداها المنشود؛ وإذا كان مجلس التنظيم قرر بهذه المناسبة أن يطلق اسم الخليفة المعز واسم القائد جوهر على شارعين من شوارع القاهرة القديمة، وإذا كانت وزارة التجارة تريد أن تتخذ هذه المناسبة لإقامة معرض دولى عظيم، فان هذه الاجراءات والقرارات المتفرقة لا تكفى فى نظرنا للاحتفاء بهذا العيد، بل يجب أن يكون الاهتمام به شاملا، وان تؤلف لجنة حكومية عامة تمثل جميع الوزارات المصرية والهيئات العامة، لتضع برنامجاً شاملا لهذا الاحتفال التاريخى الجليل، تندمج فيه هذه الاجراءات الجزئية التى ترى الجهات المختلفة اتخاذها؛ ومن المحقق أن عيد القاهرة الألفى هو من أعظم الأعياد القومية، فيجب أن يتخذ برنامج الاحتفال به هذا اللون، وعلى أى حال فما يدعو إلى الغبطة أن تبدأ السلطات بالتحرك للتفكير فى إحياء هذا العيد بعد أن طال صمتها، وبعد أن لم يبق على وقوعه سوى زمن قليل

الشيخ منصور المنوفى لم يكن شيخاً للأزهر

قرأت ما كتبه الأستاذ الجليل محمد عبد الله عنان فى عدد الرسالة الغراء (٢٠٨) تحت هذا العنوان – مصر فى خاتمة القرن السابع عشر كما رآها العلامة عبد الغنى النابلسى – فرابنى منه قوله «ثم يحدثنا الرحالة عن الجامع الأزهر وعن شيخه وهو يومئذ الشيخ منصور الشافعى الضرير» وحدثتنى نفسى أن هذا الاسم لم يمر علىَّ فى شيوخ الأزهر. فأخذت على عادتى أرجع إلى مصادرى التى قرأتها لأحقق هذا الأمر الذى استربت فيه، وأدركنى الشك فى صحته

فرجعت إلى الخطط التوفيقية وإلى تاريخ الأزهر فوجدتهما متفقين على ان الذى كان شيخاً للأزهر فى تلك السنة التى رحل فيها الشيخ عبد الغنى النابلسى إلى مصر. وهى سنة ١١٠٥ ﻫ – ١٦٩٣ م – هو الشيخ محمد النشرتى المالكى. وقد كان شيخاً للأزهر من وفاة الشيخ ابى عبد الله محمد بن عبد الله الخرشى سنة ١١٠١ ﻫ إلى ان توفى سنة ١١٢٠ ﻫ

وقد ذكر الجبرتى وفاة الشيخ الخرشى فى سنة ١١٠١ ﻫ وقال عنه إنه الامام العلامة والحبر الفهامة شيخ الاسلام والمسلمين وارث علوم سيد المرسلين الشيخ محمد الخرشى المالكى شارح خليل وغيره، ويروى عن والده الشيخ عبد الله الخرشى وعن العلامة الشيخ إبراهيم اللقانى. كلاهما عن الشيخ سالم السنهورى المالكى، عن النجم الغيطى عن شيخ الاسلام زكريا الانصارى، عن الحافظ ابن حجر العسقلانى بسنده إلى الامام البخارى

ثم ذكر وفاة الشيخ محمد النشرتى فى سنة ١١٢٠ ﻫ وقال عنه إنه الامام العالم العلامة الشيخ محمد النشرتى المالكى، وهو كان وصياً على المرحوم الشيخ الوالد بعد موت الجد، توفى يوم الأحد بعد الظهر، وأخر دفنه إلى صبيحة يوم الاثنين، وصلى عليه بالازهر بمشهد حافل، وحضر جنازته الصناجق والأمراء والأعيان، وكان يوماً مشهوداً

أما الشيخ منصور المنوفى فقد ذكر الجبرتى وفاته فى سنة ١١٣٥ ﻫ وكان قد جاوز تسعين سنة. وقال عنه إنه الشيخ

العلامة الفقيه المحدث الشيخ منصور بن على بن زين العابدين المنوفى البصير [1] (لا الضرير) الشافعى ، ولد بمنوف ونشأ بها يتيما فى حجر والدته . وكان باراً بها . فكانت تدعو له ، فحفظ القرآن وعدة متون ، ثم ارتحل إلى القاهرة وجاور بالأزهر وتفقه بالشهابين البشبيشى والسندوبى ، والشمس الشرنبابلى والزين منصور الطوخى ، ولازم النور الشبراملسى فى العلوم وأخذ عنه الحديث ، وجد واجتهد وتفنن وبرع فى العلوم العقلية والنقلية . وكان إليه المنتهى فى الحذق والذكاء وقوة الاستحضار لدقائق العلوم ، سريع الادراك لعويصات المسائل على وجه الحق ، نظم الموجهات وشرحها ، وانتفع به الفضلاء وتخرج به النبلاء وافتخر بالأخذ عنه الأبناء على الآباء .

وقد رايت بعد هذا أن أرجع إلى المصدر الذى نقل عنه الأستاذ عنان ، فذهبت إلى دار الكتب وطلبت رحلة الشيخ النابلسى « الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز » فوجدته قد ذكر فى صفحة (٢٠٢) أنه طلع عليه صباح يوم الأحد ٢٨ من شهر ربيع الثانى فحضر عنده الامام العالم الهمام الشيخ منصور المنوفى الأزهرى الشافعى الضرير شيخ ، الأزهر ومعه الجماعة والطلبة وكثير من المجاورين بالجامع الأزهر ، وحصل بعض أبحاث وفوائد علمية

ثم ذكر فى صفحة (٢٠٤) أنه أصبح صباح يوم الاثنين ٢٩ من شهر ربيع الثانى ، فجلس على عادته يستقبل من يأتى إليه من الأصحاب والاخوان ، ثم قام من مجلسه إلى مجلس الشيخ زين العابدين بدعوة منه ، فرأى عنده صديقه فخر العلماء الأعلام الشيخ أحمد المرحومى شيخ الأزهر ، ومعه بعض أصحابه الكرام ، فجلس يتذاكر معهم فى مسائل العلوم ويتطارح الكلام من منطوق ومفهوم

ثم ذكر فى صفحة (٢٧٥) أنه أصبح يوم الجمعة ١٠ من جمادى الثانى فاجتمع بالشيخ الامام العلامة منصور المنوفى الشافعى الضرير شيخ الأزهر

ثم ذكر فى صفحة (٢٨٤) أنه أصبح يوم السبت ٢٥ من جمادى الثانى فذهب بعد الظهر إلى عيادة صديقه العلامة الشيخ أحمد المرحومى شيخ الجامع الازهر

وهذه هى المواضع التى جاء فيها ذكر هذين الشيخين المتعاصرين فى كتاب الشيخ النابلسى ، وهو يعطيهما فيها صفة شيخ الأزهر فى الزمن الذى قضاه بمصر فى رحلته إلى الحجاز وكان ذلك فى سنة ١١٠٥ هـ كما سبق . فلو أخذنا هذا الكلام على ظاهره لكان للأزهر فى تلك السنة شيخان مجتمعان معاً وهذا غير مقبول ، مع مخالفته لما ذكرناه من أن شيخ الأزهر فى تلك السنة كان الشيخ النشرتى المالكى ، فلم يبق إلا أن الشيخ النابلسى تبرع بتلك الصفة لذينك الشيخين ، ويجب أن تؤخذ على هذا لا على أنها حقيقية تاريخية

وقد ذكر الجبرتى وفاة الشيخ أحمد المرحومى فى سنة ١١٢ وقال عنه إنه السيد عبد الله (لعله أبو عبد الله) الامام العلامة الشيخ أحمد المرحومى الشافعى

وهذا رأيى فى تحقيق هذه المسألة التاريخية أنشره على صفحات الرسالة الغراء ، ولعله يكون للاستاذ عنان رأى آخر فى تحقيقها ينشره علينا فيها ، والله يتولانا جميعا بتوفيقه

عبد المتعال الصعيدى

بين الجامعات الألمانية والانكليزية

احتفلت جامعة جتنجن الالمانية خلال هذا الاسبوع بمرور مائتى عام على قيامها ؛ وكان المظنون أن يكون هذا الاحتفال بالغاً فى أهميته وعظمته ، لما لهذه الجامعة القديمة العريقة من ماض علمى جليل ، ولما لها بالأخص من علاقات وثيقة بالثقافتين الانكليزية والامريكية اذ كانت دائماً مقصد الشباب من الأمتين . ولكن حدث مالم يتوقعه أحد ، وهو أن الجامعات الانكليزية والامريكية اعتذرت جميعاً عن شهود هذا الاحتفال الذى دعيت جميعاً إليه ، ولم تذكر الجامعات المعتذرة أسباب هذه المقاطعة العلمية ، ولكن بعض الصحف الانكليزية والامريكية تحدثت عنه ، وهى جميعاً ترجع الأسباب الى خضوع الجامعات الالمانية فى مناهجها العلمية والثقافية لسياسة الحكومة النازية خضوعا يضر بالمثل العلمية والثقافية العليا وينافى أسمى المزايا العلمية وهى حرية البحث وتوجيهه إلى الحقيقة وحدها ؛ ولم ترض الجامعات الانجليزية والأمريكية أن تشترك فى احتفال جامعة جتنجن حتى لا يقال أنها تعترف

(1) البصير هنا معناها الضرير (الرسالة)

بوحدة المثل الثقافية والتعليمية بين الدول الديمقراطية التى تمثلها وبين الوطنية الاشتراكية الألمانية .

والواقع أن حال الجامعة الألمانية قد ساء فى العهد الأخير وانحط مستوى التعليم العالى وأقفر كثير من الجامعات من الاساتذة والطلبة . مثال ذلك أن جامعة جتنجن فقدت من أساتذتها النصف فأصبحوا خمسة وأربعين بعد أن كانوا تسعين ، وأبعد البعض لأسباب عنصرية والبعض لأسباب سياسية . ونقص عدد طلبة الجامعة من ٤٢٠٠ فى سنة ١٩٣٣ الى ١٨٠٠ طالب فقط هـذا العام . وهجرها معظم الطلبة الأجانب ، وأصيبت سمعتها العلمية والثقافية

وقد حذت الجامعات السويسرية حذو الجامعات الانجليزية فاعتذرت عن الاشتراك فى هذا الاحتفال لأسباب مماثلة . ولكن الجامعة المصرية قد قبلت الدعوة واشتركت فى الاحتفال على يد مديرها .

انكلترا وطريق الهند

صدر أخيراً بالألمانية كتاب سياسى عسكرى خطير عنوانه « طريق انكلترا إلى الهند » England's Weg nach Indien بقلم الهر كارل بارتس K. Bartz وفيه يشرح المؤلف بأسلوب تاريخى سياسى قصة الصراع بين السياستين البريطانية والفرنسية لامتلاك الهند فى القرن الثامن عشر ، وكيف أن انكلترا استطاعت أخيراً أن تظفر بالهند دون معارك عسكرية كبيرة، لأن الهند كانت عندئذ ممزقة الأوصال مفرقة الكلمة ، فاستطاعت السياسة الانكليزية أن تضرب الطوائف والممالك الهندية بعضها ببعض .

ويقول الكاتب إن انكلترا من ذلك التاريخ تحمى امبراطوريتها الهندية بجميع الوسائل والقوى، وتحمى الطريق إلى الهند من جبل طارق ومالطه ومصر وعدن والجزيرة والدردنيل ؛ ثم يحلل جميع العوامل السياسية والعسكرية التى ترتبط بهذه المسألة ؛ ويستعرض شعوب الهند وآسيا ومهادها الصوفية الغربية ، كما يستعرض حياة الرجال الذين تدين لهم بريطانيا بامتلاك الهند .

ويلاحظ الكاتب أن انكلترا لا تطيق ظهور أية دولة عظيمة على مقربة من طريق الهند ؛ ومع ذلك فقد استطاعت إيطاليا أخيراً أن تفتح الحبشة وأن تربض فى منتصف هذا الطريق ؛ ومن المحقق أن انكلترا لقيت فى المسألة الحبشية هزيمة فادحة . بيد أن انكلترا لزمت الصمت ، وسارت فى برنامج تسليحها ، وسوف يبين لنا المستقبل ما إذا كان فى استطاعة السلاح الجوى أن يحافظ على طريق الهند ، وهو إلى اليوم لم يجرب تجريباً كافياً .

وفاة العلامة أدولف ايرمان

نعت أنباء برلين الأخيرة العلامة الأثرى أدولف ايرمان وهو من أكبر الاخصائيين فى علم الآثار المصرية ؛ وكان مولده فى سنة ١٨٥٤ ودرس التاريخ والفلسفة . ثم تخصص فى الحضارات القديمة . وبالأخص فى حضارة مصر الفرعونية ولبث أعواماً طويلة أستاذاً لحضارة مصر القديمة بجامعة برلين . ثم عين بعد ذلك مديراً لقسم الآثار المصرية بمتحف برلين . فعكف على دراسة النقوش القديمة وأوراق البردى التى يغص بها هذا القسم ، وأخرج عدة كتب ورسائل فى حضارة مصر الفرعونية وفى آثارها وفنونها

وزار الأستاذ ايرمان مصر مرتين ؛ بيد أنه درس الآثار المصرية فى متاحف أوربا دراسة مستفيضة ؛ وكان يعتبر حجة فيها ؛ وكان إلى جانب زميله الدكتور أبشر العلامة الاخصائى فى حل الرموز والنقوش الفرعونية أعظم أستاذين فى تلك المدرسة الأثرية التى ما زالت منذ نحو نصف قرن تعمل للكشف عن حقائق أعظم وأقدم حضارات العالم

الحركة التمثيلية فى مصر حديث لرئيس فرقة «دبلن جيت»

نشرت جريدة « ايرش تيمس » حديثاً طويلا للمستر هلتون أدوراد مدير فرقة « دبلن جيت » التى قدمت إلى مصر فى الشتاء الماضى ؛ ومما قاله أن الشعب فى مصر على اتصال دائم بالقارة الاوربية فلديهم إلمام بالقصص التمثيلية الاوربية أوسع من إلمام الشعب الانجليزى بها

قال : وقد زرنا مصر عامين متوالين فمن سوء السياسة الاستمرار على الذهاب إلى هناك . وسيكون فى العام القادم دور إحدى الشركات الفرنسية

وتقول الجريدة إن المستر إدوارس درس المسرح المصرى

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)



أغنية الدير

للكاتب الأنجليزى وليام كانتون

ترجمة الأستاذ كامل محمود حبيب

هبط جون أوف فولد إلى هيثهولم - لأول مرة - رئيساً للدير هناك وفى صحبته شتى المؤلفات النادرة الأنيقة فى الفلسفة والدين والأدب، مغلفة فى جلد ثمين موشى بالذهب والفضة ثم الملابس الغالية الطريفة من الحرير والمخمل؛ وعباءات من الكتان الجميل، دقيقة الصنع، وقلانس محلاة بالعسجد. أشياء تنبىء عن نعمة وترف...

وراح القس الجديد ينفث من روحه التواقة الصافية فى جنبات الدير، فوضع فى نوافذ الناحية الغربية التى يسكنها هو أصصا من البلور بها طاقات من شتى ألوان الزهور الناضرة. وزين حجرة سانت إيجون بالأصص المرصعة باليواقيت، فيها فنون وفنون من الزهر الصناعى؛ وفى سماء الحجرة طير من لجين تبدو كأنها محلقة فى سماء الأرض تهفو نحو هذه الطاقات وتحوم حولها؛ ثم أمر فصففت المناضد والكراسى الخشبية الجميلة فى حديقة الدير ليجلس عليها الموسيقيون كل صباح وكل مساء، يعزفون ويرتلون الأناشيد الدينية الشجية...

لقد كان الأب جون يفور نشاطا وقوة، فى روحه الصفاء والجمال، وفى قلبه الايمان واليقين؛ فأراد أن يبعث فى الدير روح الجنة ليستروح هو وإخوانه من الرهبان نسمات الخلد فى هذه الناحية النائية من الأرض...

وبذ هذا الدير غيره جمالا وروعة وبهاء

***

وكان الأب توماس وكيل الرئيس يرى ما يفعله الأب جون وفى قلبه الاضطراب والأسى، وفى نفسه الغيظ والحنق؛ وكان يجلس إلى نفسه بين الحين والحين يحدثها: «حقاً، إن هذه الأشياء لا تغنى الرب، وهى تبعث فى العين السرور والبهجة،

دراسة عميقة. ومن رأيه أن الشركات التمثيلية المصرية ستبلغ أعلى مستوى وأن أهل الاسكندرية أقل اهتماما بالروايات التمثيلية من أهل القاهرة

قال: وقد شهدنا فى أثناء مقامنا فى مصر التمثيل فى المسارح العربية ورأينا فيها حركة نشيطة جدا. وقد طلب إلينا أن نقبل عددا من الطلبة المصريين فى دبلن ولكنهم ليسوا متضلعين فى اللغة الانجليزية، فمتى جاؤا فستتاح لهم الفرصة لتعلمها ودراسة الطرق المسرحية فى وقت واحد

تأبين الرافعى فى طنطا

تألفت بطنطا لجنة من بعض المحامين والاطباء والعلماء وأعضاء مجلسى النواب والشيوخ ومن الأعيان والتجار لتأبين فقيد الأدب الكبير المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى وسيعلن فيما بعد عن ميعاد الحفلة ومكانها

وقد قررت اللجنة ألا يتعدى التابين الموضوعات الآتية:

(١) الرافعى: تاريخه وحياة الوظيفة (٢) الرافعى الشاعر (٣) الرافعى الأديب (٤) الرافعى المؤلف (٥) فلسفة الرافعى

وترجو اللجنة حضرات الأدباء والشعراء ممن يرغبون فى الاشتراك فيها بأعمالهم أن يخابروا سكرتيرها، ويتفضلوا بارسال خطبهم وأشعارهم إليه لعرضها على اللجنة وإقرارها

أمين حافظ شرف

طنطا — شارع الشيخة صباح القديم

وتدخل إلى القلب اللذة والطرب ، وتنفث فى الحياة المتعة والجمال ! ماذا تفيد هذه الكنوز الغالية ، والطرف الجميلة ، والآثار النادرة ؛ وهى تجذب القلب عن العبادة ، وتورث فى النفس حب الحياة وحب الاستمتاع ؟ ما للراهب ولهذه الأشياء وهو يريد وجه ربه مخلصاً له ؟ هذا بعض عبث الشيوخ وحرفهم حين يسيطرون على بيوت الله ، يجمعون شتى الطيبات ، وألوان الملذات ، فتلهيهم عن ذكر الله وعن الصلاة ؛ وعن أناس يبيتون فى العراء حفاة عراة ، ويتضورون جوعاً ، لا يجدون مأوى ، ولا يجدون كساء ولا طعاماً . ليت هذا الشيخ الغفل ينظر بعينى القس الورع إلى مايقاسيه الفقراء وذوو الحاجة فيخفف من غلوائه ، وينزع عنه بعض حماقاته ! ... »

وفى الحق لم يكن توماس ليستشعر فى نفسه الأسى والألم لما يقاسيه بعض الناس من فاقة وعوز ، ولم تكن فى قلبه الرحمة والشفقة ؛ ولكنه كان يحس ألم الحقد والحسد يتنزى فى صدره كلما وقعت عينه على ما انتثر هنا وهناك فى نواحى الدير منذ هبط الكاهن الأعظم جون

لقد كان توماس على غير ما كان عليه رفاقه : كان رجلا فيه الكآبة والعبوس ، فكان الرهبان والقسس يعبدون الله مخلصين وفى قلوبهم الطرب والسرور . وفى قلبه هو التجهم والحقد ؛ وفى أرواحهم اللذة والقناعة ، وفى روحه هو الجفاف والغلظة ؛ وفى أنفسهم الرضا والاطمئنان ، وفى نفسه التقلقل والاضطراب . ثم هم يرون فى أرض الله مسرحاً للعين والقلب والنفس جميعاً ، وهو فى منأى عنهم قد شغلته فكرة تضطرب فى رأسه

***

واعتاد الأب توماس أن يدلف إلى المعبد كل مساء وفى يده مصباحه ، وقد أرخى الليل أستاره ، ونامت الحياة فى كل حى ، يتهجد ويتعبد ، ساجداً راكعاً ، قارئاً مرتلا ؛ يناجى ربه فى هدأة الليل وسكونه ، يسأله ويستغفره ، فما يبرح حتى تخونه قوته ، ويهن عزمه ، وتضطرب مفاصله ، من أثر الاندفاع والبرد فى وقت معاً ؛ فيرتد إلى حجرته يتكفأ فى طريقه ...

وانطلق ـ ذات مرة ـ إلى حيث ينطلق كل ليلة ، وقد تأججت فى نفسه ثورة الحقد على رئيسه جياشة مضطرمة ، تكاد تعصف بإيمانه وعقيدته ... انطلق والبرد يزلزل أعصابه ويتغلغل فى أوصاله وهو فى طريقه لا يتململ ولا يعبأ ... وسجد فى محرابه ... غير أن صوتاً موسيقياً عذباً هادئاً رن فى مسمعيه فنزعه من أخيلته ، فأنصت يتسمع ... ثم استوى جالساً ، وحدق فيما حوله يريد أن يستشف أمراً ، وبدت عليه الدهشة حين رأى ضوءاً خافتاً يضطرب فى أرجاء الدير يزداد سطوعه رويداً رويداً ، وتعلو معه نغمات الموسيقى فتزداد حلاوة ووضوحاً

ورنت الموسيقى الإلهية فى جنبات المعبد ، وارتفعت الأصوات الملائكية تنشد نشيداً عذباً يرقق القلب ، ويبعث فيه الروعة والجلال . وخيل إليه أن الرسوم والأحجار والسقف والحوائط و ... جميعاً ترددهذا النشيد فى رنات سماوية . وأحس بالناى الإلهى تحت ركبتيه تنبعث منه أهازيج يطرب لها الفؤاد ، وتهتز النفس ،

واستولت على الراهب الحيرة فما استطاع ان يبرح مكانه ... ثم أرهف سمعه فاذا الصوت ينبعث من ناحية المحراب أولا ثم يمسك ، فيندفع كل ماحوله يرتلون الأنشودة فى صوت فيه السحر والجمال ، وترتفع رنات الموسيقا لتزيد النشيد طلاوة وحلاوة ، وبدا له المكان يهتز طرباً كأنه يرقص مع النغم الشجى المنبعث من هنا ومن هناك

وتراءت له صور الملائك تضطرب فى هذا الضوء الإلهى الساطع ، وفى أيديهم المعازف ، وخيل إليه أن هذه الأشباح رسوم صورها له خياله فحسب ، فانتفض من مكانه يحدق ذات اليمين وذات الشمال ، ويتحسس بيديه نواحى المكان ، وحين بدا له أن ما يرى حقاً لامرية فيه ، اضطرب ، وزالت عنه شجاعته ، وجمد فى مكانه وقد سيطر عليه الفزع والخوف ، غير أن صوتاً لذيذاً رن فى مسمعيه يطمئن نفسه :

نحن الملائك نبتهل إليك يارب

نحن الملائك نبتهل إليك يارب

وأجال بصره فرأى على جانبى المحراب ملكين يترنمان :

على مر الأيام والليالى ونحن نسبح بحمدك يارب

ونقدس اسمك العظيم يارب ، مادام هذا الكون اللانهائي .

ومن بين شفتيهما يتصاعد النفس فينعقد سحباً كثيفة بيضاء في أعلى المكان . فاستشعر في نفسه الخور والضعف غير أن حب الاستطلاع دفعه إلى المحراب ليرى ..

واستطاع أن يرى رسوم الملائك والملوك على أستار المعبد تردد هي أيضا هذه الأغنية

والصور على زجاج النوافذ ترتل هي أيضا الأغنية

ورؤوس الملائكة المنحوتة في رخام المعبد ترتل الأغنية

والأسد والدواب المرسومة هنا وهاهنا ترتل هي الأخرى الأغنية

وتماثيل القديسين المنثورة في نواحي المكان ترتل هي أيضا الأغنية .

والرسوم على الجدران ترتل أيضا الأغنية

وبدا له أن كلمات هذه الأغنية قد رسمت بحروف من ذهب يتوهج فيخطف البصر . على دروع الملوك والأمراء وذوي الجاه في سقف المعبد ؛ والجميع يهزجون ويهتزون من فرح ومن سرور كأنهم أحياء . وتصاعدت أنفاسهم إلى سماء المعبد ، سحبا تغطي السقف وتحيط بالأعمدة ، ثم أمسك الجميع سوى رنات الناقوس العظيم في أعلى المحراب

وملأ مسمعي توماس صوت يردد الأغنية خارج المعبد في نبرات أخاذة شجية ، يخترق سكون الليل وظلامه ليستقر في أذنيه هو . إنه ... إنه منبعث من حجرة التماثيل ، حيث الملوك والملكات ، حيث الأمراء والعظماء . حيث الكهنة والشهداء ، حيث القسس والرهبان ؛ قد صففت تماثيلهم الفضية والبرنزية والرخامية والحجرية . لقد أجابوا جميعاً دعوة الداعي فانطلقوا يترنمون بالأغنية الالهية في طرب ولذة ... وهدأت الموسيقى خارج المعبد لتبدأ مرة أخرى داخله ، ثم ... ثم اندفعوا جميعاً بصوت فيه العذوبة والحلاوة يرددون :

على مر الأيام والليالي ونحن نسبح بحمدك يارب ،

ونقدس اسمك العظيم يارب ؛ مادام هذا الكون اللانهائي

واصطرعت في رأس توماس أفكار متناقضة فما استطاع سوى أن يرفع عقيرته :

يا إلهي ، فليشملنا عفوك وغفرانك ؛

فليشملنا عفوك وغفرانك يا إلهي !

ثم تراخت قوته فانطرح على الأرض ذاهلا ...

° ° °

وأفاق فما وجد إلا الظلام يشمل الأرض ، وإلا السكون يسيطر على الكون ، وإلا مصباحه الضئيل يضطرب في ناحية من المعبد ... فارتد إلى حجرته وقد آلمه ما نازعته إليه نفسه من حقد على عبد من عباد الله الصالحين ، حباه الله بفضل من لدنه . فبذل فضل جهده في العناية بمخلوقاته الخرساء الصماء ، وفي تنسيق قطعة من أرض الله لتكون جنة الله على أرضه ، ونزع ما في صدره من غل ، فأيقن أنه إن لها الإنسان عن ذكر ربه ففي الكون مخلوقات ماتفتأ تردد مادامت السموات والأرض :

... نحن نسبح بحمدك يارب ،

ونقدس اسمك العظيم يا رب ؛ ما دام هذا الكون اللانهائي

كامل محمود حبيب

5 me Année, No. 210

Lundi - 12 - 7 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العــدد ٢١٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٤ جادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ١٢ يوليه سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

مصطفى لطفى المنفلوطى

بمناسبة ذكراه الثالثة عشرة



كان فى مستهل هذا العصر نفر من الأيفاع الخلصاء يتنقلون بين حِلَقِ الأزهر كما تتنقل النحل بين قطع الروض، لايتشممون غير الزهر، ولا يتذوقون إلا الرحيق؛ وكانوا كالفَراش رقاق الجسوم خفاف الأجنحة يتهافتون على أضواء النوابغ المعاصرين أينما تشع؛ وكانت الومضات الروحية الأخيرة للبارودى واليازجى ومحمد عبده وقاسم أمين ومصطفى كامل والشنقيطى قد التمعت التماعة الموت لتنطفىء كلها متعاقبة فى العقد الأول من عقود هذا القرن، فهيأت الأنفس والأذواق إلى أدب جديد كنا نفتقده فلا نجده؛

وكان إخواننا اللبنانيون فى مصر وفى أمريكا قد فتحوا نوافذ الأدب العربى على الأدب الغربى فأرونا فنونا من القول وضروبا من الفن لانعرفها فى أدب العرب ؛ ولكنها كانت فى الكثير الأغلب سقيمة التراكيب مشوشة القوالب ، فأجمناها على نفاستها كما أجِمنا أساليب المقامات من الألفاظ المسرودة والجمل الجُوف والصناعة السمجة والمعانى الغثة

وحينئذ أشرق أسلوب المنفلوطى على وجه (المؤيد) إشراق البشاشة ، وسطع فى أندية الأدب سطوع العبير ، ورن فى أسماع الأدباء رنين النغم ، ورأى القراء الأدباء فى هذا الفن الجديد مالم يروا فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع ، ومالا يرون فى غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة ، فأقبلوا عليه إقبال الهِيم على المورد الوحيد العذب

وكان هذا النفر من الأيفاع المتأدبين يجلسون فى أصائل أيامهم الغريرة أمام (الرواق العباسى) يتقارضون الأشعار ، ويلهون بأغفال الناس ، ويترقبون (مؤيد) الخميس ليقرأوا مقال المنفلوطى خماس وسداس وسُباع ، وطه مرهف أذنيه ، ومحمود مسبل عينيه ، وفلان مأخوذ بروعة الأسلوب فلا ينبس ولا يَطرف . وكلهم يودون لو يعقدون أسبابهم بهذا المنفلوطى الذى اصطفاه الله لرسالة هذا الأدب البكر ، وجعله الإمام المفتى تلميذه المختار ؛ ولكن المنفلوطى كان فى ذلك العهد الذى قرأناه فيه قد جاوز الثلاثين ، فهو قليل الإلمام بالأزهر ، لا يجلس إلى شيخ ولا يأوى إلى رواق ؛ وكان قد هيأ نفسه ليكون كاتباً لا (عالماً) فلم يحمل همه لامتحان ، ولم يشغل ذَرعه بشهادة

و بعد سنتين نشر مختار ما دبج من فصوله فى المؤيد فى كتاب عنونه بالنظرات ، وكان قد حكم على الشيخ عبد العزيز شاويش فى مقاله : (طبقات الكتاب) حكماً شديداً ورطه فيه على ما أظن صلته بالمؤيد وبالمغفور له سعد باشا . والشيخ شاويش يومئذ محرر اللواء بعد مصطفى باشا كامل ، ولطه به اتصال ، فعرضه على أن ينقد (النظرات) فنقدها ذلك النقد الغاضب الصاخب فى ثلاثين مقالة ونيفا لم تدع سبيلاً إلى التعارف بيننا وبينه

ثم زاولت التعليم فكنت أستعيد قراءة المنفلوطى مقسما بين أقلام الطلبة . وفى سنة ١٩٢٠ ترجمت (آلام فرتر) وكان صاحب العبرات يومئذ قد بلغ الغاية فى الشهرة والأدب ، فرغب فى أن يرانى ؛ وكان لنا صديق مشترك فجمع بيننا فى داره ؛ ورأيت المنفلوطى لأول مرة فرأيت رجلا مجتمع الأشُد ، مربوع الخَلق ، ممتلىء البدن ، غليظ الشارب ، حسن السّمت ، لاتلحظ على وجهه المطهم المصقول مخايل الفنان ولا سهوم المفكر ؛ ثم تحسبه وهو يحدثك حديثه المقتضب الخافض سَرِيا من عامة السراة فى الصعيد لا حظ له من بلاغة اللسان ولا رياضة القلم . ثم داخلته فتكشف لى عن ألمعية أصيلة تستترعادة بين الحياء والحشمة ؛ ووثق الودَّ بينى وبينه توافقُ المزاج المنقبض والطبع الحيى والوجود المنعزل ، فدرسته على ضوء ما أعلم من نفسى فلم أجاوز الحق فى تصويره وتقديره

كان المنفلوطى قطعة موسيقية فى ظاهره وباطنه ؛ فهو مؤتلف الخلق ، متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسق الأسلوب ، منسجم الزى ، لا تلمح فى قوله ولا فى فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز القَدامة . كان صحيح الفهم فى بطء ، سليم الفكر فى جهد ، دقيق الحس فى سكون ، هيوب اللسان فى تحفظ . وهذه الخلال تُظهر صاحبها للناس فى مظهر العيى الجاهل ، فهو لذلك كانَ يتقى المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة ؛ ومرجع ذلك فيه إلى احتشام التربية التقليدية فى الأسرة ، ونظام التعليم الصامت فى الأزهر ، وفرط الشعور المرهف بكرامة النفس . ولكنك إذا جلست إليه رأسا إلى رأس ، تسرَّح فى كلامه ، وتبارى لسانه وخاطره فى النقد الصريح والرأى الناضج والحكم الموفق والتهكم البارع ، فلا تشك فى أن هذا الذى تحدثه هو المنفلوطى الذى تقرأه . ثم هو إلى ذلك رقيق القلب ، عف الضمير ، سليم الصدر ، صحيح العقيدة ، نفاح اليد ، موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته

(للكلام بقية)

أحمد حسن الزيات

في التاريخ السياسي

ماذا في روسيا السوفيتية

الصراع بين البلشفية والرجعية

بقلم باحث دبلوماسي كبير

يتساءل الناس عما يحدث في روسيا السوفيتية ، وما هو سر هذه المحاكمات الدموية التي تترى منـذ عام في موسكو ، والتي يقبض فيها على أكابر الزعماء جماعات ، ثم يعدمون بعد محاكمة مرتبة موجزة ؟ ففي الصيف المـاضي قبض على عدة من الزعماء وعلى رأسهم سينو فييف رئيس الدولة الشيوعيـة الأسبق ، وحوكموا بتهمة التآمر على سلامة الدولة بتحريض ليون تروتسكي زعيم البلشفية المنفي ، وأعدموا بعد محاكمة قصيرة ؛ ثم عقدت خلال الأشهر الأخيرة عدة محاكمات مماثلة ، حكم فيهـا بالموت أو السجن على عدة أخر من الزعماء البارزين مثـل العلامة الفيلسوف بوخارين رئيس الدولة الشيوعية السابق ، وكارل رادك أعظم كتاب البلشفية المعاصرين ، وياجودا مدير البوليس السري وغيرهم ؛ ومنـذ أسابيع قلائل امتدت يد المطاردة إلى الجيش الأحمر وقبض على عدة من قادته وفي مقدمتهم المـارشال توخاتشفسكي ، وحوكموا بسرعة مدهشة بتهمة الاتصال بدولة أجنبية معادية لروسيا وإمدادها بمعلومات عن الجيش الأحمر وعن أسرار روسيا العسكرية ، ثم أعدموا ليلة صدور الحـكم ؛ وأذاعت الأنباء على أثر ذلك أن بوادر التمرد ظهرت في بعض وحدات الجيش الأحمر ، وأن الثورة نشبت بالفعل في بعض أنحاء روسيا ، وأن طاغية الـكرملين ستالين يلجأ في إخماد التذمر أو الهياج إلى أروع الوسائل ، وهكذا ؛ فما هي عوامل هذا الاضطراب الذي يتخــذه البعض نذيراً بانهيار النظام السوفيتي ؟ وما هي الحقيقة وراء ذلك كله ؟

إن الثورة البلشفية التي سحقت عرش القياصرة منـذ سنة ١٩١٧ ، وبسطت على روسيا سيادة « الـكتلة العاملة » ، واتخذتها ميداناً للتجربة الشيوعية ، لم تصل بعد إلى نهايتها ؛ وما زالت روسيا السوفيتية تعيش منذ عشرين عاماً في ظل نظم ثورية تسير من طور إلى طور ؛ وهذا الصراع الذي يضطرم اليوم بين ستالين وبين جماعة من خصـومه ، والذي تبدو بوادره في تلك المحاكمات الدموية الرنانة ، إنما هو نذير تطور جديد في الثورة البلشفية لم تكتمل عوامله بعـد ؛ ويلاحظ أن هذه الاجراءات الدموية التي يجد ستالين في اتخاذها إنما تقترن بصدور الدستور السوفيتي الجديد الذي تم وضعه في الصيف المـاضي ، ثم صدر في ديسمبر سنة ١٩٣٦ . بيد أنه يجب لـكي نفهم عوامل هذا التطور الأخير ، أن نرتد إلى الوراء ، لنرى كيف نشأ الصراع بين ستالين وخصومه ، وكيف أن هذا الصراع يرتبط أشد الارتباط بتطور التجربة الشيوعية في روسيا

كانت الثورة البلشفية تقوم عنـد بدايتها على دعائم ثلاثة : الشيوعية المطلقة ، وسيادة الـكتلة العاملة ، وإضرام نار الثورة العالمية ؛ وكان لنين رأس المذهب الجديد وزعيم الدولة الشيوعية الجديدة يستمد كل وحـيه من تعاليم إمام المذهب وأستاذه الأكبر كارل ماركس ؛ ولـكن التجربة الشيوعية لم تلبث أن اصطدمت من الوجهة العملية بمصاعب اقتصادية واجتماعيـة خطيرة ، ولم يلبث لنين نفسه أن اقتنع بوجوب الاعتدال في تطبيق التجربة والأخذ بسياسة اقتصادية جديدة تغفل فيها بعض المبادئ الشيوعية المتطرفة ، وتدمج فيها بعض المبادىء الرأسمالية من (البورجوازية) . وبدأ لنين بتطبيق هذه السياسة الجديدة منذ سنة ١٩٢١ ولـكنه لم يلبث حتى توفي (يناير سنة ١٩٢٤) وكانت وفاة لنين في الواقع فاتحة هـذا الصراع الذي تجوز الثورة البلشفية أطواره من ذلك الحين ؛ فقد تولى مقاليد الأمور بعد لنين ثلاثة من خاصة أصدقائه وأعوانه هم سنوفييف وكامنيف وستالين ؛ ولـكن قطباً آخر من أقطاب البلشفية هو ليون تروتسكي مؤسس الجيش الأحمر (الجيش البلشفي) وأعظم رجل في الثورة بعد لنين كان يسهر على مصاير الثورة ويحاول أن يسير دفتها طبق آرائه ، وبينما كان ستالين وزملاؤه يتوسـعون شيئاً فشيئاً في تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة ، وهي تنطوي بالأخص على الاعتراف بالملـكية الصغيرة ، ومهادنة الدول الرأسمالية والتعامل معها ، ومراعاة الاعتبارات الزراعية والتجارية والصناعية في الانتاج ، كان تروتسكي يعمل لمعارضة هذه السياسة ويرى أنها خيانة للثورة وللمبادىء الشيوعية الصحيحة ، وكان تروتسكي يشدد بالأخص في وجوب اضرام نار الثورة العالمية ويرى أنها هي السبيل الوحيد

لظافر الاشتراكية ، هذا في حين أن ستالين وفريقه يرون الاقتصار على تطبيق التجربة الاشتراكية في روسيا وحدها ويرون نجاحها محققاً دون الثورة العالمية ؛ وكان تروتسكي بماضيه الثوري الحافل وصداقته المؤثلة للنين ، وما له من فضل عظيم في نجاح الثورة البلشفية ، ونفوذ قوي في الجيش الأحمر ، عماد الثوريين المتطرفين ومعقد آمالهم ، ولكنه لم يحسن استخدام هذا النفوذ وتوجيهه ؛ ومن جهة أخرى فقد استطاع ستالين وفريقه أن يستغلوا الظروف الاقتصادية ، وأن يعتمدوا في تنفيذ سياستهم على الرجال الاداريين ؛ واستمر النضال بين الفريقين يشتد ويتفاقم ، ولكن ستالين استطاع أن يقوى مركزه ونفوذه شيئاً فشيئاً داخل الحزب الشيوعي وخارجه ، وأن يعمل على إضعاف خصومه وتسفيه معارضتهم وسياستهم ، ولما شعر بأنه غدا هو الأقوى والأشد ساعداً ونفوذاً ، رفع القناع فجأة ، وأخذ يطارد تروتسكي وشيعته جهاراً ؛ وكان يعتمد في البدأ على مؤازرة عدة من أكابر الزعماء مثل سينوفييف وكامنيف وتومسكي وريكوف وغيرهم ، فلما شعر أنه يستطيع العمل دونهم انقلب إلى مطاردتهم ، فانضم هؤلاء إلى الفريق المعارض ؛ ونزل ستالين وشيعته إلى ميدان النضال ، واستطاع تباعاً أن يقضي على خصومه وأن يخرجهم من حظيرة الحزب الشيوعي الذي هو كل شيء في حياة روسيا العامة ، والذي يسيطر ستالين باعتباره سكرتيره العام على توجيهه واستخدام نفوذه وسلطانه ؛ ثم خطا ستالين خطوة أخرى ، فنفى تروتسكي وشرد الزعماء من أنصاره ، وشتت شمل المعارضة كلها (سنة ٩٢٩) واستأثر عندئذ بكل نفوذ وسلطة وغدا سيد روسيا وزعيمها القوي ، وأخذ يوجهها في الطريق الجديد الذي اختاره لها ؛ فوضع مشروع السنوات الخمس لتنظيم الانتاج الروسي ، وهو المشروع الذي قلدته فيه ألمانيا وإيطاليا بعد ، وعمل على التقرب من الدول الغربية ، وكان من أثر هذه السياسة أن انضمت روسيا إلى عصبة الأمم ، وتفاهمت مع فرنسا تفاهما انتهى بعقد الميثاق الروسي الفرنسي ؛ وجد ستالين في تسليح روسيا ولا سيما منذ قيام الوطنية الاشتراكية (المتلريه) في ألمانيا حتى غدت اليوم أقوى دول القارة في التسليحات البرية والجوية ، وبذلك اجتنبت روسيا عزلتها السياسية القديمة ، واتخذت مكانتها في السياسة الأوربية العامة إلى جانب الكتلة الديموقراطية ، وأضحت عاملا حاسماً في التوازن الأوربي

على أن المعارضة القديمة التي لبث تروتسكي روحها وزعيمها لم تخمد ولم تسحق ، فقد استمر تروتسكي في منفاه في مختلف البلاد الأوربية يشهر بقلمه ولسانه حرباً عواناً على ستالين وسياسته ، ويذكي بنفوذه القديم روح النضال في أنصاره داخل روسيا ؛ وهو الآن في منفاه النائي بالمكسيك ، وبالرغم من محنته وشيخوخته ما يزال يشهر سهام الخصومة والنضال على عدوه ؛ ويقول التروتسكيون إن ستالين قد سحق الثورة وبدد تراث لنين ، وبسط على روسيا نوعاً من الاشتراكية الوطنية التي بسطها الهتلريون على ألمانيا ، أو بعبارة أخرى بسط عليها نوعاً من الدكتاتورية البورجوازية (الرأسمالية) ، وارتكب بذلك أعظم خيانة لقضية الثورة البلشفية والثورة العالمية

والواقع أن الدستور الجديد الذي صدق عليه مؤتمر السوفييت الأعلى في ٥ ديسمبر الماضي يدلل بروحه ونصوصه على هذه الحقيقة التي يتخذها التروتسكيون محوراً للخصومة والنضال ، وهو أن الثورة الشيوعية قد انتهت ، وانتهت كذلك فكرة الثورة العالمية . ذلك أن الدستور السوفيتي الجديد يعترف صراحة بحق الملكية الفردية التي يعتبر إلغاؤها أساساً جوهريا للمجتمع الشيوعي ؛ ويشمل الاعتراف بهذا الحق ملكية الايرادات الناتجة عن العمل وملكية المساكن الشخصية والأثاث المنزلي وحاجات الحياة اليومية ، ويشمل أيضاً حق الميراث ؛ ويمنح حق الملكية بالأخص للطبقات الممتازة في الدولة كالموظفين وأعضاء الحزب الشيوعي ، والذين حصلوا على أوسمة من ذوي المواهب والخدمات الممتازة ؛ ومن جهة أخرى فان الدستور الجديد يعترف بأن الحزب الشيوعي هو مصدر السلطات ، ويحمي الدكتاتورية التي يبسطها على روسيا في الوقت الحاضر ، ويؤيد بذلك طغيان ستالين زعيمه وسكرتيره العام ؛ ثم إن الدستور الجديد لا يعترف بحرية الصحافة والرأي والاجتماع كحق للأفراد ، وإنما يقرر أن الدولة هي التي تكفلها وهي التي تمد الشعب بالنشرات والصحف والخطباء وغيرهم ، وهي التي تسيطر بذلك على عقل الشعب وروحه ، وتسيره حيثما شاءت

هذه هي أسس الدستور السوفيتي الجديد ؛ فأي فرق بينها وبين الفاشستية الايطالية ، أو الاشتراكية الوطنية (الهتلرية) الألمانية ؟ انه الطغيان الحزبي المطلق ؛ وإنه لفناء الحقوق والحريات العامة كلها في شخص الدولة ، والدولة هي الحزب

عين الرضى وعين السخط

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

هل صحيح ما يقول الشاعر أن عين الرضى عن كل عيب كليلة . . . لا أدرى فقد صار كل شىء يحيرنى ، وما من أمر إلا أرانى يبدو لى فيـه رأيان أو مذهبان لطول ما عودت نفسى أن أنظر إلى « الجانب الآخر » ، فلو أنى كنت قاضياً لظلت أحكامى تدور فى نفسى ولا يجرى بها لسانى أو يخطها قلمى .

وليس هذا من التردد ، فان من كان ضيق الصدر متنبه الأعصاب مثلى قلما يتردد . وما أكثر ما يؤثر الجزم والبت وإن كان فى شك من الصواب كبير . ولـكنما هذا من حب الموازنة والرغبة فى إنصاف كل جانب من جوانب الرأى . وقد قلت لنفسى وأنا قاعد أتدبر قول هـذا الشاعر القديم إن أعظم الرضى رضى المرء عن نفسه . أم ترى هذا ليس من الرضى . . لا أدرى أيضاً . . . وأخشى أن أظل لا أدرى فلا أخرج بشىء أبداً . . . ولو أنى أعطيت نفس إنسان غيرى لمـا قبلت ؛ ومع ذلك لا تخفى على عيوبى ونقائصى من مادية وأدبية ، ومن بدنية ونفسية أو عقلية ، فأنا أعلم أنى . . . . ولـكن هل من الضرورى أن أفضح نفسى وأهجوها إلى الناس . . . ومن دلائل الرضى عن النفس على الرغم من الاحاطة بعيوبها ، والفطنة إلى مواطن الضعف والنقص فيها أنى أستخف بهذه العيوب ولا أبالى أن أذكرها ، ولا أعبأ شيئاً إذا رأيت الناس يعرفونها كما أعرفها ؛ وإنى لأدرك بعقلى أنها نقائص ومذام ولـكنى أرانى أتخذ أحياناً من المالئة بها مفخرة ومحمدة ، ولست أستخف بها فى الحقيقة ولـكنما أحاول تهوينها على نفسى حتى لا يكربنى أمرها ، ولأظل محتفظا بحبى لنفسى ورضاى عنها وغرورى بها ، وحب النفس من حب الحياة

وتذكرت وأنا أقلب هـذا وأديره فى رأسى مقالا أو فصلا لأديـون الـكاتب الانجليزى المعروف — أم ترى لا يقرأه أبناء الجيل الجديد — يتصور فيه أن الله جلت قدرته أذن للناس أن يخلعوا ويرموا ما لا يرضيهم من أجسامهم ، فهذا رمى أنفه وذاك آخر ألقى أذنيه ، وأخرج الثالث عينيه وقذف بهما ، ونزع رابع ساقه وطرحها ؛ وهكذا حتى صارت الأعضاء والجوارح الرمية المزهود فيها كوماً عالياً . وعاد الله فأذن لهم أن ينتقى كل واحد من هذا الـكوم بديلاً ممـا زهد فيه ورماه فأقبلوا يقلبون ويبحثون وأخذ كل واحد ما أعجبه ووضعـه موضع العضو المنزوع ، ثم نظروا بعد ذلك إلى أنفسهم فلم يعجبهم حالهم ولم يرضوا عن أنفسهم واستبشموا ما أخذوا بديلا مما نزلوا عنه فجأروا بالشكوى إلى الله تعالى وتوسلوا إليه أن يأذن فى أن يسترد كل منهم أعضاءه الأصلية . فتقبل الله دعاءهم رحمة منه بهم ، فما أسرع ما خلعوا ما استعاروا واستعادوا ما كانوا يسخطون عليه ويتبرمون به !

وهذه القصة الخيالية تدل على أن المرء لا يسمه إلا أن

القابض على السلطان ؛ ومعنى ذلك أن ستالين قد أضحى بقوة الدستور الجديد يشغل فى روسيا نفس المركز الذى يشغله موسولينى فى إيطاليا وهتلر فى ألمانيا ؛ وهذا النظام الذى يتوجه الدستور السوفيتى اليوم هو النظام الذى تعيش روسيا فى ظله منذ استطاع ستالين أن يجمع فى يده القوية كل مقاليد السلطة والحكم

وهذا هو محور النضال الذى يضطرم بين ستالين وخصومه ؛ وهذا هو السر فى تخوف الطاغية من كل حركة أو بادرة تدل على التذمر أو المقاومة ؛ ومنذ عام يجد ستالين فى مطاردة خصومه وكل من يخشى منهم منافسة أو مقاومة ؛ ولا تزال اجراءات القمع الدموية تجرى اليوم فى روسيا فى جميع دوائر الحكومة والجيش ، ولن تقف حتى يأمن ستالين كل معارضة وحتى يوقن أنه أخمد كل صوت وكل نزعة إلى المقاومة . ولـكن هل ينجح الطاغية فى هذه المهمة الفادحة ؟ هذا ما نشك فيه ؛ فروسـيا البلشفية هى غير ألمانيا وإيطاليا ، ولن يستطيع كائن أن يخمد فى هذا المجتمع الروسى الذى عاش فى ظل الثورة عناصر النضال والثورة ؛ وقد تسفر الحوادث عما قريب عن نتائج وتطورات جديدة ؛ بيد أنها لن تكون على ما نعتقد سوى طور جديد من أطوار الثورة البلشفية

(***)

يفطن إلى حقيقة نفسه ، ولكن إدراكه لعيوبه لا يمنع الحب والايثار . وأحسب أن من هنا ما يسمونه « مركب النقص » أى معالجة الانسان مداراة عيب يثقل على نفسه الشعور به ، ومحاولة تعويضه من ناحية أخرى ، والمقارنة والامتحان هما باب المعرفة ، ولا سبيل إلى هذا الذى يسمى « مركب النقص » إلا بعد المانأة أى الامتحان والمقارنة ولو امتنعت أسباب المانأة والمقارنة بينه وبين غيره لما شعر المرء بنقص فى نفسه أو فى بدنه ، ولما أحس الحاجة إلى مداراة النقص وستر العيب بالتماس الصحة أو القوة فى ناحية أخرى

وأرانى لا تخفى على عيوب أبنائى وهم أحب خلق الله إلى بعد نفسى كما لا أحتاج أن أقول فما أعدل بنفسى أحداً ، وما أكثر ما سمعت أمى رحمها الله تقول إذا رأتنى أشكو ألماً إنها تؤثر أن تكون هى المصابة ، وأحياناً كنت أسمعها تدعو الله أن يتوفاها قبلى فأنكر هذا عليها فى سرى وأعجب كيف يمكن أن يتمنى إنسان أن يموت قبل غيره . هذا إحساس لا أستطيع أن أدعيه . ولو أنى خيرت أن أموت قبل أولادى أو أن يموت أولادى قبلى لما رآنى أحد أتردد أو أتحير ، وربما أظهرت التردد نفاقاً وستراً للأنانية الصارخة ، ولكن هذا لا يكون منى إلا نفاقاً وَكذباً على الله والناس لا أكثر ولا أقل . وكثيراً ما سألت نفسى أترى الرجل غير المرأة ؟ وأنا أؤمن بأن أمى كانت مخلصة صادقة السريرة ، وقد كانت الدنيا كلها لا تعدل عندى قلامة ظفر من أصغر أصبع فى رجلها . فهل تراها لو أن الأمر كان جداً لا تتردد فى إيثارى على نفسها ؟ من يدرى ؟ الرجل غير المرأة على التحقيق . . وشعور الأب غير شعور الأم ، هى حملته تسعة أشهر على قلبها فهى تحس أنه قطعة منها بالمعنى الحرفى لا مجازاً ، ومن أين يتأتى للرجل مثل هذا الشعور وهو لم يعان شيئاً ولا يدرى أكثر من أن امرأته جاءته بغلام أو بنت قد لا يكون له رغبة فيه أو فيها . فأنا أستطيع أن أصدق هذا الايثار من المرأة ، ولكنى لا أستطيع أن أصدق أن يكون الرجل مثلها إيثاراً لابنه على نفسه — على الأقل فيما يمس الحياة — إلا إذا كانت نسبة عناصر الأنوثة فى نفسه كبيرة

ويحضرنى الآن بيت قلته من قصيدة نسيتها وأظنه كان ختام القصيدة وهو :

ألا ليتنى فى الأرض آخر أهلها فاشهد هذا النحب يقضيه عالَمُ

وعيب البيت فى نظرى أن فيه مغالطة واضحة — على الاقل لى — ذلك أنى لا أتمنى أن أكون آخر من يبقى فى الدنيا لأرى كيف يفنى العالم ، بل لأنى لا أريد أن أترك الدنيا ، فاذا كان لا بد من تركها والخروج منها ، فلتخرب قبلى أو فليكن موتى هو الايذان بخرابها وإمحاء هذا العالم كله . ولم أستطع وأنا أنظم البيت أن أختزل كل هذا فى شطر واحد.فجاء البيت غير دقيق فى التعبير عن حقيقة ما فى نفسى

وقد أحببت مرات عديدة — لا عداد لها فى الحقيقة فانى أبداً كما قال فى الأستاذ العقاد :

« أنت فى مصر دائم التمهيد بين حب عفا وحب جديد »

والسبب فى ذلك أن عمر الحب عندى لا يطول إلا ساعة أو ساعتين أو ليلة أو ليلتين — إلى أن أمل والسلام — وما من واحدة أحببتها إلا تمنيت على الله أن يهبنى القدرة لأصلح بعض ما لا أرضى عنه فاملأ هذه الساق وأديرها ، وأعالج الترهل الذى يبدو لى فى الثديين مثلا أو الردفين ، وأصلح الأنف ، وأخفف النتوء الذى فى أرنبته ، وأرسم الحاجبين رسما جديداً يكون أقرب إلى ذوق ورأيى فى التناسب ، وأعالج نفسها أيضاً علاجى لبدنها وهكذا إلى آخره ، فما بى حاجة إلى الاطالة ، وليس هذا من الاعتراض على خلق الله سبحانه وتعالى .. حاشا وكلا .. وإنما هو من اشتهاء الكمال كما أتصوره ، ولا كمال فى الدنيا مع الأسف

وقد صدق الشاعر فى الشطر الثانى من بيته كما لم يصدق فى شطره الأول فما من شك فى أن عين السخط تبدى المساوى . وثم عيون أخرى عديدة تبدى المساوى غير عين السخط ، وفى وسعنا أن نتسامح مع الشاعر المسكين وأن نقول إنه يعنى بعين السخط عينا تبدى المساوى ، وأنه لم يرد القصر ولا التخصيص

وأسأل نفسى وأنا أكتب هذا الفصل : « ماذا أخطر ببالك هذا البيت ؟ » والحقيقة أنى لا أدرى سوى أنى أردت أن أكتب كلاما فحضرنى هذا البيت ، فما أكثر الكلام الفارغ وما أسرعه إلى اللسان

ابراهيم عبد القادر المازنى

تأملات فى الأدب والحياة

للأستاذ اسماعيل مظهر

الثقافة التقليدية :

فى مقالات بعنوان « التعليم والحالة الاجتماعية » نشرتها فى الرسالة الغراء منذ حين ، روجت لنظرية استخلصتها من تاريخ الأمم ودعوتها نظرية « الثقافة التقليدية » . ومؤدى هذه النظرية أن لكل أمة من الأمم ثقافة مأثورة تنتقل على الزمن من أهل إلى أهل ، وتتوارثها الأمم طبقة بعد طبقة ، وأن الثقافة التقليدية الخاصة بكل أمة من الأمم أو سلالة من السلالات ، لها من الأثر فى الحالات الاجتماعية ، ما للصفات الوراثية الحيوية من الأثر فى الأفراد ، وأن شباب الأمم من حيث القدرة على الرقى والاحتفاظ بصورة من المدنية تلائم مقتضى البيئة والظروف القائمة من الدنيا الحافة بالأمم ، إنما يرجع فى الحقيقة إلى استمساك الأمة بثقافتها التقليدية واتخاذها أصلاً ثابتاً يغرس فيه ما ينتحل من ثقافات الأمم الأخرى ، فتتكيف هنالك المبادئ المنتحلة ، تكيفاً ملائماً لطبيعة ما توارث الأمم من مأثور ثقافتها التقليدية . وبذلك تحتفظ الأمة بطابع خاص وتجرى تطوراتها الاجتماعية والعقلية والنفسية على قاعدة ثابتة وأسلوب راسخ ، فتأمن بذلك شر الفورات الفجائية والثورات الجتاحة والكوارث الاجتماعية الفنية ، ويكون لها من مجموع ما حفظت من مأثور أسلافها ضابط يضبط نزوات الأفراد ، ويهيئ المجموع بعقلية ذات طابع تقليدى تكون لها بمثابة الكمّاحة التى تصدها عن التورط فى نواح من التطور غير مضبوطة المعايير ، أو التعلق بأذيال فكرات ومبادئ مريضة المنطق ، بعيدة عن حاجاتها الأولية التى تضمن لها الاتزان والتنقل فى طريقها إلى أسمات جديدة من المدنية أو الرقى العقلى

ولقد أردت بهذه النظرية أن تكون أساساً لسياسة التعليم فى مصر ، فنتخذ من الأصول التقليدية التى قامت عليها المدنيتان العظيمتان ، مدنية الفراعنة فى مصر ، وأساسها الزراعة والقوة الحربية ، ومدنية العرب وأساسها الاسلام والأدب العربى ، منارة نستشرف منها ما نحتاج من مبادئ عامة فنحور من برامجنا التعليمية وخططنا الثقافية بما يلائم طبيعة التقاليد المأثورة عنهما ، ذلك بأن الثقافة التقليدية فى نفسية الأمم وعقلياتها بمثابة الصفة الوراثية فى الفرد ، لا تنفك الأمم عن الأولى أو ينفك الفرد عن صفة تلقاها عن أسلافه

هـذه النظرية على ما فيها من بساطة فى الظاهر تحتاج فى إثبات حقائقها إلى تأملات تاريخية عميقة ، ينفذ الباحث من طريقها إلى أبعد غور من الأعماق التى ينزل إليها قارئ التاريخ المادى . فان وراء الحوادث الظاهرة فى صفحات التاريخ كانقراض الأمم المالكة ، أو فتوح البلاد ، أو انحدار الجيوش وانتصارها ، أو قيام الحكومات المختلفة وسقوطها ، أو تسلط الأفراد على الأمم وإطراح الأمم لسلطة الأفراد ، حقائق أخرى تصدر عن صفات نفسية تختفى من وراء الحوادث الظاهرة ، فتكون بمثابة القوة المحركة أو الطاقة فى المادة ، فهى خفية بأعيانها ، ظاهرة بآثارها . وهذه القوة إنما تمكن وتستخفى طوعاً لظروف خاصة ، وتظهر وتستقوى على غيرها طوعاً لظروف أخرى ، وهذه الظروف التى تكمن معها القوى المحركة للجماعات أو تظهر ، ينبغى أن تكون موضوع كل من يكب على التأمل فى الثقافات التقليدية لدرس ما لها من أثر فى كمون هذه القوى أو ظهورها ، بحسب ما يحيط بالجماعات من ظروف تبعدها عن ثقافتها التقليدية أو تقربها منها

أما إذا أردنا أن نستوثق من حقيقة هذه النظرية ، فعلينا أن نرجع إلى التاريخ ، علينا أن نرجع إلى أقرب تاريخ منا ، أى إلى تاريخ العرب . فان الأمة العربية سادت الدنيا عندما استمسكت بعرى ثقافتها التقليدية ، وفقدت الدنيا عندما انحرفت عن الاسترشاد بثقافتها المأثورة . وكذلك كان شأن روما وشأن اليونان قبل العرب . أما الدورات التى انتابت الأمم متراوحة بين الاستعلاء حيناً والتنكس حيناً آخر ، فما هى إلا دورات تقرأ فيها صوراً من التطور ترجع فى حقيقتها إلى استمساك الأمم بثقافتها التقليدية حيناً ، وتفريطها فى ذلك حيناً آخر

فعلينا إذن أن نرسم لمستقبلنا خطة نتخذ فيها ثقافتنا التقليدية نبراساً نستضيء به ، وإلا فانا سوف نظل نتخبط فى الظلام فلا نستقر

حادثة :

قد تقرأ تاريخاً كاملا كتاريخ الاسكندر المقدونى وفتوحاته الكبيرة ، وقد تستجلى فى هذا التاريخ صوراً من شجاعة الرجل ومن إقدامه ، وقد تجد فى انتصار من انتصاراته سبباً للتأمل والعبرة ؛ غير أن كل هذا لا يدلك على حقيقة الرجل قدر ما تدلك حادثة من الحوادث الصغيرة فى حياته

بعد أن هزم الاسكندر جيش فارس الهزيمة الأولى ، تقدم بجيشه نحو « طرسوس » ، وهى مدينة حصينة من مدن آسيا الصغرى ، تعرف فى التوراة باسم « طرشيش » ، وجاء عيون الاسكندر يخبرونه بأن الجيش الفارسى قد عزم على أن ينهب المدينة ويحرقها إذا لم يبادر الاسكندر باحتلالها . فترك قائده الأكبر « قرمنيون » على رأس المشاة وتقدم الفرسان منحدراً من الجبال الهاوية بقربة من البحر ، إلى السهل الذى تستوى فيه طرسوس ، وجد فى السير ، حتى يتسنى له أن ينقذ المدينة قبل أن يفعل بها الفرس ، والسهل الذى تستوى فيه المدينة شديد الحر كثير الرطوبة ، وقد أفرغ الاسكندر على جسمه درعه الثقيل وعدة حربه ، ممتطياً صهوة جواده الصوّال « بوقيفالوس » ، فقطع أميالاً من الوهاد والوديان ، حتى إذا أشرف على المدينة ، كان قد بلغ منه العطش ، فنزل على ساحل نهر « البَرَدان » وخلع درعه واستحم فى النهر ، والظاهر أن هذا النهر ينبع من الجبال ويستمد ماءه من ينابيع باردة ، فماؤه مثلج بفطرته ، ولقد أصاب الخليفة المأمون مرض إثر استحمامه فى نهر البَرَدان فمات ، ولقد أوشك الاسكندر أن يموت ، كما مات خليفة المسلمين من بعده ؛ ولزم الاسكندر فراشه بعد أن دخل « طرسوس » وشاع أن حياته فى خطر

كان من الأطباء الذين يمتون به ، طبيب شيخ يدعى « فليب الأكرناني » ؛ وكان من قبل طبيباً لأبيه ومن المتفانين فى خدمة بيت مقدونيا المالك ؛ وقد أقر جميع الأطباء بأن الاسكندر ميؤوس منه ، إلا هذا الرجل ، فأنه نصح للاسكندر أن يذعن إلى رأيه وأن يشرب جرعة سيعدها له بنفسه ، ورضى الاسكندر بذلك على رغم عناده ؛ وخرج الطبيب من حجرة الملك المريض ليعد جرعة الشفاء

فى اللحظة التى خرج فيها الطبيب إلى الحجرة ، دخلها رسول من قبل قائده « قرمينون » يحمل رقعة فى يده ، فقدمها إلى الاسكندر ؛ وكانت تحذيراً للاسكندر من طبيبه « الأكرناني » فقد اتصل بسمع القائد أن الطبيب مالأ الفرس عليه وأنه تلق منهم رشوة ليدس له السم فى الدواء

كان الاسكندر قد أتم قراءة الكتاب لما دخل عليه الطبيب حاملاً الجرعة التى أعدها ؛ فتناول الاسكندر الجرعة بيده اليمنى وناوله الرقعة بيده اليسرى ؛ وطفق الاسكندر يكرع الجرعة ، والطبيب ينظر فى الرقعة نظرات جامدة حيرى ؛ ثم ناول الاسكندر الكأس الفارغة للطبيب ، وناول الطبيب الرقعة للاسكندر ؛ ونظر كل من الرجلين فى وجه الآخر برهة ، ثم استلق المريض على فراشه ، وانصرف الطبيب إلى شأنه ، من غير أن ينبس أحدهما ببنت شفة .

ألست تجد فى هذا الحادث الصغير معنى عظيماً يدلك على أن القلب الذى حمله الاسكندر كان جديراً بأن يفتح العالم ويدوخ الدنيا برمتها ؟

حاجة اللغة العربية :

قد تكون لغتنا العربية السمحاء فى حاجة إلى كثير من وجوه الاصلاح . قد نقول بأن كتب النحو غامضة وأن قواعد الصرف مشتتة ، وقد نقول إن أدب العربية لم يخدم بعد الخدمة الواجبة ، بل نقول إن اختلاف مذاهب النحويين ، وجود الكثير من اللغويين أمران لابد من النظر فيهما وإصلاح شأنهما بما يلائم حاجات أبناء العربية فى هذا العصر ، كل هذا وأكثر منه صحيح ، والحاجة إليه ماسّة ؛ غير أن أحوج ما تحتاج إليه اللغة العربية المعجمات ؛ وأول ما نتكلم فى المعجمات القديمة

أما هذه فاما مطولة ترضى نزعة الباحث الذى تمكن من الأدب وربى فيه الذوق الأدبى ، فأدمن البحث وطلب الاستقصاء ؛ وإما مختصرة اختصاراً مخلاً فى كثير من نواحى الارشاد اللغوى ؛ وليس بين هذين وسط يسد طِلْبة الأديب

العابر فى رياض الأدب عبور المستفيد ، فلا هو بالمستقصى ولا هو بالقانع بما بين يديه ، وهؤلاء هم جمهرة الأدباء عندنا ، بل وفى كل الأمم . ناهيك بأن معجماتنا القديمة قد تركت كل مادة علمية من المواد التى عرفها العرب ودرسوها من غير تعريف ؛ فهذه دُوَيبَّة ، وذاك طُويْرٌ ؛ وهذا نبت يكون فى العراق ، وذلك عرق فى الساعد أو الزند ؛ وكذلك صفة الأمراض ، أفى الانسان كانت أم فى الحيوان ، فقد قرأت فى صبح الأعشى من عيوب الخيل ما يزيد على المئة عيب ، كلها ، كما أعتقد ، تمت إلى أمراض ؛ غير أنك قلما تقع على عبارة تشخص لك المرض أو أعراضه الصحيحة ؛ فمعجماتنا ناقصة من هذه الوجهة نقصاً شائناً ، ناهيك بأن فى كتب الأدب والتاريخ والخطط والشعر والتراجم ألفاظاً لم تدخل المعجمات القديمة ؛ ولا نقصد بذلك الألفاظ المولّدة ، بل نقصد بها ألفاظاً فصيحة صحيحة ، فالمعجمات القديمة إذن لم تحط بكل ما فى العربية من مادة لغوية ؛ وهذا نقص نضيفه إلى ما عدّدنا قبل .

نتكلم بعد هـذا فى أنواع المعاجم التى نطالب الآن بوضعها لتتم حاجة اللغة ؛ وأول ما نحتاج إليه المعاجم التى تقابل فيهـا مفردات لغتنا ، مفردات لغة أخرى ؛ وليست الحاجة فى هـذا مقصـورة على لغة أو لغتين فان الواجب يحتم علينا أن ننظر إلى كل اللغات الحية ، بل وبعض اللغات غير كثيرة الانتشار ، لنضع لها معجمات تقابل مفرداتها مفردات من اللغة العربية ، على غرار ما نرى فى المعاجم الكثيرة عند الأمم التى أدركت ما للمعاجم من أثر فى إحياء اللغات ونشر الثقافة والمعرفة .

تأتى بعد ذلك حاجتنا إلى المعاجم الخاصة بالعلوم والفنون ؛ فلست تجد الآن معجماً واحداً يرضى حاجة المختصين فى علم من العـلوم أو فن من الفنون ويسعفهم بالكلمة الصحيحة والتعريف الكامل للمصطلحات التى تصادفهم أثناء بحوثهم ؛ وهـذا نقص معروف شائع ، فلا حاجة إلى التوسع فى شرح الحاجة إلى سَدّ ثغرته ؛ وإنما يتبقى لنا أن نتعرف أن أمامنا فى هذا مجهود شاق طويل علينا أن نبذله وأن نضحى فيه بالجهد والمال والعين والعافية

أما الطّامة الكبرى والمصيبة العظمى فتشعر بها إذا قارنت بين الأسماء القـديمة والحديثة الواردة فى كتب التاريخ أو الجغرافية ، فقد تقرأ الاسم الواحد الدّال على ذوات بعينها مرسوماً بعدة أهجية مختلفة فى كتب مختلفة أو فى كتاب واحد ؛ فقد يتفق أن يكون المؤلف قد اعتمد على كتب إنجليزية تارة وعلى كتب فرنسية تارة أخرى ؛ فينتقل الاسم الواحد كما يلفظه ويرسمه الانجليز مرة ، وكما يلفظه ويرسمه الفرنسيون مرة أخرى ؛ ولا تبلغ بلبلة الألسن فى هـذه الناحية من الفساد مبلغها فى نقل الأسماء القديمة ، وبخاصة إذا كانت أسماء عرفها العرب ، فقد قرأت فى كتب مختلفة الأعلام الآتية : مرجراط ، مرجرات ، مرغرات ، مرغراط ، مرج راهط ، مرج راهد ، مرجراه ، وكلهـا للوقعة المعروفة فى مرج راهط ؛ وقرأت : رقطيس ، راقتيس ، راقطيس ، راقوده ، رقوته ، وكلهـا للمستعمرة الاغريقية المعروفة راقوطيس فى شمال الدلتا فى تاريخنا القديم وهى راقودة عند العرب ؛ وقد أذكر أن الفروق فى رسم الأعلام قد بلغ من الاختلاف فى أسماء أخرى مبلغاً لا يدرك كه أشد الواقفين على حقيقة الأسماء القديمة ، ولا شبهة عندى أن مبتدئاً فى درس التاريخ أو الجغرافية إذا وقع له مثل هـذا فى كتب مختلفة أو كتاب واحد لظن لأول وهلة أن اختلاف الرسم يدل على اختلاف الذات .

هذه الحال تحفزنا إلى الدعوة لوضع معاجم لأسماء الأعلام ، فنحتاج إلى معاجم فى أسماء الأعلام القـديمة ، ومعاجم لأسماء الأعلام الحديثة ، ومعاجم تضبط فيها أسماء الأعلام العربية ، وإن من الأسماء العربية ما تقرأه على أوجه عديدة إذ لم يكن تام الضبط بالشكل الكامل

لم أتناول فى هذه الكلمة إلا بعض حاجة اللغة العربية إلى المراجع ، فهل قدرنا كل ذلك ؟ وهل اتخذنا العدة للعمل ؟ وهل لهذا العمل ظهراء من أغنياء هـذا البلد والقائمين على أمره ؟ نرجو مؤملين أن تتوجه الجهود إلى هذا العمل إن كانت الرغبة فيه موجودة ، ونرجو أن يتضافر الكتاب والباحثون على خلق الرغبة فيه إذا لم تكن موجودة

اسماعيل مظهر

إلى الأستاذ أحمد أمين :

الضعف فى اللغة العربية

للأستاذ محمد سعيد العريان

تناول الأستاذ الجليل أحمد أمين فى العدد ٢٠٨ من الرسالة موضوع الضعف فى اللغة العربية ، بعد ما تناوله عديد من الصحف والمجلات فى هذه الأيام ؛ وما كان لى أن أعنى بمناقشة ما قال الكاتبون فى هذا الموضوع والادلاء برأيى فيه لولا اعتدادى بمكانة الأستاذ الكبير وما لآرائه من خطر وقيمة ، فأما لهذا أكتب إليه أستدرك أشياء وأنبه إلى أشياء لعل لها أثراً فى توجيه البحث ينتهى إلى الغاية التى يريد ونريد

وأحب قبل أن أمضى فيما أنا بسبيله أن أؤكد لأستاذى ما لا بد من توكيده : إننى فيما أكتب إليه بعيد عما يسميه النزاع الشخصى أو التعصب الطائفى ، فاذا رأى فى مقالى ما يحملنى إلى طائفة من القائمين على شئون اللغة العربيه فليتبرع لى بحسن الظن ، وإن رأى منى انحرافاً عن الصواب فلينسبنى الى الخطأ فى الاجتهاد ، لا الى الهوى والتعصب

***

وبعد فماذا يعنى الأستاذ بالضعف فى اللغة العربية ؟ أتراه يعنى أن اللغة العربية فى هذه الحقبة من تاريخها الأدبى سائرة إلى الضعف ؟ أم هو يعنى ضعفها على ألسنة تلاميذ المدارس وطلاب الجامعة وناشئة المتأدبين من كتاب هذا العهد ؟

هذا سؤال أحسب الجواب عنه صريحا محدداً فى مقال الأستاذ ؛ فما من شك فى أن اللغة العربية فى هذا العهد خير منها منذ ستين عاماً وقبل ستين عاماً ، وإن لم تبلغ بعدُ الهدف الذى ترمى إليه . وأما ضعفها فى ألسنة طلاب المدارس وخريجى الجامعة وناشئة المتأدبين ، فأمر لا شك فيه كذلك ولا يحتاج إلى برهان

وإذا تحدد موضوع البحث على هذا الوجه فان علينا مناقشة الأسباب التى يرجع إليها هذا الضعف فى اللغة العربية . وأرى الأستاذ الجليل يرجعها إلى أمور ثلاثة تتفرع فى النهاية إلى ست مسائل : هى طبيعة اللغة نفسها ، والمعلم ، وبرامج التعليم ، والامتحانات ، والتفتيش ، والمكتبة العربية . وسأقصر حديثى الآن على بعض هذه المسائل دون سائرها ؛ إذ هى عندى أجدر بالعناية وأحق بالنظر . وأولى هذه المسائل هو المعلم ، وأرانى أشارك الأستاذ فى قوله : « إن معلم اللغة العربية فى المدارس على اختلاف أنواعها عليه أكبر واجب وأخطر تبعة ، وبمقدار قوته أو ضعفه تتكون — إلى حد كبير — عقلية الأمة . . . » ولكنى مع ذلك لا أشاطره الرأى بأن جزءاً كبيراً من ضعف اللغة يرجع إلى المعلمين . فما المعلمون فى مدارسنا — وأنا واحد منهم — إلا أدوات عاملة بغير إرادة : ليس لهم حرية فى العمل ولا خيرة فى الطريقة ، ولا فكرة فى التنفيذ ؛ وإنما يشرع لهم الشارع فى وزارة المعارف وعليهم الطاعة العمياء والارادة الخرساء . قد يكون عيباً فى المعلم أن ينزل عن رأيه بهذا الهوان ؛ ولكنه يريد أن يعيش ، ومن ورائه المفتش ، والمفتش الأول ، والمراقب ، والوزير ؛ كل هؤلاء عليه عيون لواحظ ، ليس عليهم أن يوجهوه أو يروا له الرأى الصالح بمقدار ما عليهم أن يحصوا عليه مخالفاته لما أرادت الوزارة من الخطة والمنهج والنظام . . .

وأرانى وقد بينت للأستاذ موقف المعلم ومكانته فى المدارس المصرية ، مسوقاً إلى أن أعتب عليه أن ينال معلمى اللغة العربية ودارَ العلوم بما يشبه أن يكون مصدرُه فكرةً قديمة مستقرة فى موضعها من فكرة الكاتب الجليل لا تتصل بموضوع البحث من قريب أو بعيد ! وإلا فأين هذا الموضوع من دعواه بأن خريج دار العلوم أصبح لا يحذق الأدب القديم ولا الأدب الحديث ، ولا يستطيع تغذية الشعب بالأدب الذى هو فى حاجة إليه . . . ؟

إننا هنا نتحدث عن ضعف اللغة العربية فى المدارس لا ضعفها فى الأدب العام الذى يغذى الشعب ويساير النهضة ؛ ولو كان هذا هو الموضوع لاستطاع أن يجد البراهين فى كل ما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء منذ نيف وستين عاماً ، وكلها شاهدة بما لدار العلوم من أثر على اللغة فى هذا القطر وفى الأقطار العربية عامة ، وما أرى الأستاذ يستدرك فيعترف بأن من خريجى دار العلوم أفذاذاً نابغين يصح أن يكونوا المثل الذى ينشده إلا مجاملة لطائفة من أصدقائه وزملائه فى الجامعة ، وما تُغيِّر هذه المجاملة

شيئاً من وجه الرأى ، وما تغير شيئاً من الحقيقة التي يلاحظها كل من يقرأ مقالة الأستاذ الكبير ، وهى أنه خرج من البحث فى كفاية خريجى دار العلوم باعتبارهم معلمين ، إلى البحث فى كفايتهم باعتبارهم كتاباً وأدباء ومنشئين أثروا تأثيرهم فى الأدب العام أو لم يؤثروا ، وما هذا مصدر البحث ولا مورده ...

وما أريد أن أطيل فى هذا العتب ، فان هنا (النقطة الشائكة) التي كان همّ الأستاذ أن يتحاشاها ، وكان همى لولا (الواعية الباطنة) التي أقحمتْها فى غير موضعها من مقال الأستاذ الجليل

وأعود إلى ما كنا فيه فأقول إن الأستاذ لم يبلغ إلى الحقيقة فى قوله : إن دار العلوم وغيرها لم تستطع أن تخرج المعلمين الأكفاء الذين نتطلبهم وتتطلبهم اللغة العربية للأخذ بيدها والنهوض بها ومحاربة الضعف الناشىء فيها . وكان وجه الرأى أن يقول : إن وزارة المعارف لم تترك للمعلمين حرية العمل وحرية الرأى فى المناهج للأخذ بيد اللغة العربية والنهوض بها ومحاربة الضعف الناشىء فيها ؛ وذلك بما قيدتْهم من قيود لاتدع لهم الخِيرة فى أن يفكروا فى الوسائل ولا فى الغايات التي يجب أن يأخذوا بها الناشئة من طلاب اللغة العربية ليبلغوا بهم حيث يريدون

* * *

ولمنهج التعليم أكبر الأثر بعد ذلك فيما آلت إليه حال اللغة العربية فى المدارس المصرية ، وعلى ألسنة الناشئة من المتأدبين ؛ ولا أعنى بهذا منهج اللغة العربية وحده ، فهذا جزء من كل له أثره فى الثقافة العامة التي توجّه التلميذ وجهته ، وتُمدّه لأن يكون ما يكون فى غده : رجلاً لأمته يحرص على قوميّته وتراث أهله ومقوّمات وجوده ، أو واحداً كبعض من نعرف من شبابنا ، لا يعرف له قومية وليس فيه حِفاظ على ماخلّف الآباء ، ويُضيّع فيما يُضيع من تراث الأجيال لغةَ قومه ودين قومه . والدين واللغة فى تاريخ هذه الأمة شيء واحد ، يقوم كل منهما من الآخر مقام الجزء مما يكمّله ، وهما معاً عماد القومية العربية المسلمة التي نريد أن نطبع عليها ناشئة الغد .

هذا نقد عام لبرامج التعليم فى مدارسنا لا أحاول تفصيله ، وحسبى فى هذا السبيل أن أنبه أستاذى الجليل إلى أن نظر الطلبة فى صميم نفوسهم إلى أن اللغة العربية مادة ثانوية وإن وضعت فى المناهج فى أولها — ليس من عمل المعلم بقدر ماهو من تأثير المنهج الذى يفرض فيما يفرض على التلميذ فى المدرسة الابتدائية برنامجاً طويلاً عميقاً فى اللغة الانجليزية قبل أن يستقيم لسانه فى نطق جملة عربية واحدة . كما أن ضعف الثقافة فى الجمهور فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامى والأدب العربى والمعلومات العامة التي تتصل بذلك — ليس مسئولاً عنه معلمو اللغة العربية ، لأن ذلك ليس داخلاً فى برنامج ما يدرسون لتلاميذهم ، وليسوا هم القائمين على تدريس التاريخ الاسلامى ، ولا شيء مما يتصل به من المعلومات العامة فى مرحلة من مراحل التعليم ؛ وقد كان ذلك إليهم منذ سنين ، وكانت حال اللغة يومئذ خيراً منها فى هذه الأيام

وهناك أمر ذو خطر يتصل بمنهج اللغة العربية ذاتها ، ولا مناص من الالتفات إليه ؛ ذلك هو ترتيب المنهج وتوزيعه على سنى الدراسة المختلفة ، ولا أعنى هنا الكم والمقدار ، إنما أعنى الكيف والطريقة .

إن الأستاذ أحمد أمين قد قصر نقده للمناهج على المادة دون الموضوع ؛ فراح يتهم قواعد النحو والبلاغة فى مادتها وتقسيمها دون نظر إلى مؤداها وغايتها وموضوعها من مراحل التعليم

إن الآفة والعلة والداء ليست فى قواعد البلاغة ومصطلحات النحو وفصول الأدب ؛ فما نحن بمسئولين أن نجعل هذه المقاييس اللغوية تسلية وملهاة يتلهى بها التلميذ فى وقت بطالته وفراغه كأنها قصة أو فكاهة ، فما هذا موضعها من العلم ولا مكانها ؛ ولكن العلة والآفة والداء أننا نعلم التلميذ قواعد اللغة قبل أن يعرف شيئاً من اللغة أو يقرأ منها قدراً صالحاً ليعينه على الفهم والمحاكاة ؛ وأننا ندرس له البلاغة قبل أن نقدم له النماذج الكثيرة من الكلام البليغ التي تنبه فيه ملكة النقد قبل أن نعطيه قواعد النقد ومقاييس البيان الرفيع ، وأننا نجرّعه مصطلحات الأدب وفنونه قبل أن يتذوق الأدب نفسه . هنا العلة فلنلتمس لها الدواء قبل أن نفكر فى حلاوته أو مرارته .

إن قواعد النحو ، ومصطلحات الأدب ، وفنون البلاغة ، كفلسفة القصة من القصة : لا ينبغى التفكير فيها والمعاناة فى استخراجها قبل الفراغ من القصة نفسها ، والحكم على

الشيء فرع من تصوره ، كما يقولون ؛ فصوروا للطفل آداب لغته قبل أن يعطوه هذه المقاييس الصماء ليزن بها ما ليس في يده .

إن هذه المناهج بعيدة من الطبيعة بُعد الغاية التي وصلنا إليها من الغاية التي إليها نقصد ؛ وإنما ينبغي حين نريد تعليم اللغة العربية على منهاج صحيح أن نحاكي الطبيعة الخالقة في منهاجها الواضح ؛ والطبيعة قد أملت علينا الطريقة التي يجب أن نأخذ بها كل ناشئ يتلقى لغة من اللغات ، ففرضت عليه أن يمر في أطوار التعليم بثلاث مراحل : السماع والتلقين ، ثم المحاكاة والتقليد ، ثم الابتكار والانشاء . فان الطفل يولد وله صوت وسمع وليس له بيان ، ثم يأخذ في محاكاة الأصوات التي يسمعها ؛ فاذا تكونت له أعضاء النطق أخذ يلقف الكلمات مما يسمع من أهله فيرددها كما سمعها بلهجتها ونبرها ، ثم يتدرج من ذلك إلى التعبير عن حاجاته باللسان الذي يتحدث به مَن حوله ؛ على أن قاموسه في ذلك لا يعدو كلمات قليلة على مقدار وعيه وحفظه وقدرته على التقليد ؛ وكلما تقدمت به السن واتسعت الدائرة التي يضطرب فيها ويستمع إليها ويلقف منها زاد محصوله اللغوي ؛ ثم لا يلبث أن يلمّ بكل معنى وبكل لفظ وبكل عبارة ، فيتحدث كما يتحدث الناس ، لا يعجزه أن يفهمهم ولا يعجزون ، وحينئذ يتم تمامه اللغوي في اللغة التي يتحدث بها أهله .

هذه هي الطبيعة الملهمة وطريقتها في إعداد الطفل إلى تلقي اللغة والفهم عنها والابانة بها . فأين طرائقنا من هذه الطريقة التي فرضتها الطبيعة على كل إنسان ناطق . . . ؟

وعلى هذا المنهج الطبيعي نفسه تخرج الخالدون من أدباء هذه الأمة ، فبلغوا ما بلغوا وخلفوا لنا هذا التراث الباقي على الزمن من الشعر والأدب . وطريقة الأخذ عن الرواة هي طريقة الطبيعة نفسها ، وهي هي كانت كل ما يؤهل الأديب أو الشاعر إلى التبريز في الأدب والاجادة فيه . وما كان الأصمعي وأبو عبيدة والقالي وغيرهم ليعلموا تلاميذهم أول ما يعلمونهم — المحادثة والانشاء والقواعد والتطبيق ، إنما كانت دروسهم في حلقات الدرس والرواية هي هذه الأمالي الباقية من جيد الشعر والخطب والأمثال والقصص ، أما النحو والصرف وقواعد البلاغة فكانت شيئاً من وراء ذلك لا ينظر إليه إلا عند الحاجة ، وهي اليوم عندنا أول الطريق وآخره

وأمامنا الأمثال في كل جيل وفي كل عصر من عصور العربية ترشدنا إلى الطريق التي يجب أن نسلكها في تعليم العربية ، ولكننا نغمض عنها أعيننا ونضرب في البيداء ، ومع ذلك ما ننفك نسأل أنفسنا :

« أين ومتى نبلغ الغاية ؟ »

وهل بلغ البارودي وحافظ وأضرابهما ذلك المبلغ من الشعر والأدب بالقواعد والتطبيق ومعالجة الانشاء ، أو بالاطلاع والرواية والحفظ من مأثور النظم والنثر ؟

ينبغي أن نعلم العربية على الطريقة التي يتعلم بها الطفل أن يتكلم ؛ فلتكن دروس العربية الأولى أن نتحدث إلى التلميذ ثم نسأله أن يتحدث ، وأن نحمله على المطالعة ثم نطلب إليه أن يكتب ، وأن نقدم له الغذاء من متن هذه اللغة ومن أساليبها في أقاصيص صغيرة مسلية نقصها عليه بلسان عربي سلس الأداء واضح النبرات مفهوم المعنى ، ثم نطلب إليه أن يعيد ما سمع بلغة كالتي تحدثنا بها إليه ولا تخرج عن قاموسه الذي نعرفه كلمة كلمة لأننا نحن الذين أمليناه عليه كلمة كلمة في هذه الأحاديث والقصص التي رويناها له ، ولا نفتأ كل يوم نزيد في معجمه اللغوي كلمات وأساليب فيما نتحدث به إليه ؛ فاذا بلغنا به مبلغاً ما بهذه الوسيلة فلنفكر حينئذ في تلقينه قواعد اللغة وموازين الكلام الصحيح لا على أنها قواعد جديدة يجب أن يدرسها ، ولكن على أنها جزء غير مسموع من الكلام الذي سمع ، ونطق غير ملفوظ من الكلام الذي تحدث به . وهنا نقطة يجب ألا تغيب عن أحد من المشتغلين بالتعليم ، هي أن هذا ليس واجب معلم اللغة العربية وحده ، ولكنه واجب عام ينتظم المعلمين جميعاً ؛ وإلا كان عبثاً ما يحاوله معلم العربية ، فما يعالج هو تقويمه من ألسنة التلاميذ بالقدوة والمثال تفسده الرطانة الأعجمية في لسان باقي المعلمين

هذا هو الأمثل بأن يؤدينا إلى الهدف الذي نريده لو أخلص العاملون ، فليجربه من شاء ثم يحدثني عن النتيجة ؛ فانا نفسي قد حاولت هذه الطريقة في بعض الفرق (على غفلة من المفتش وغفلة من المنهج ...) فما أدعو إليها إلا مقتنعا بها مؤمناً بنتيجتها

* * *

والآن وقد وصلت إلى هذه النقطة من الموضوع ، أراني

مع الأستاذ أحمد أمين فى الحديث عن المكتبة العربية ؛ فلو أننى زعمت له ولنفسى أن عندنا المعلم الكفء الموهوب الذى لا يعل الحديث مع تلاميذه بلسان عربى مبين جذاب ليزودهم بالغذاء المرىء والنموذج الصالح من متن اللغة وأساليبها ، لما وسعنى الزعم بأن عندنا الكتاب الذى يصلح أن يكون لهذا التلميذ أستاذاً فى غيبة أستاذه ؛ يعطيه ما يعطيه المعلم من متن اللغة وأساليبها فى عرض جذاب يحبب إليه مطالعته والتزود منـه ثم يحمله من بعد على أن يحرص على المطالعة لتكميل ثقافته ويجعل لهـا وقتاً من وقته طوال حياته فى زمن التخرج وبعد التخرج

ولو أننى زعمت أن عندنا هـذا الكتاب لكذبتنى وزارة المعارف التى لا تعطى تلاميذ مدارسها الابتدائية إلا كتابا واحداً للمطالعة العربية ألفه مؤلفه فى القرن الماضى ... وما يزال حيث كان ! على حين تعطى هـذا التلميذ نفسه بضعة كتب للمطالعة الانجليزية قد تبلغ ستة كتب أو سبعة فى السنة الدراسية ، ثمن الكتاب منها يبلغ ضعف ثمن كتاب المطالعة العربية ؛ وهى دقة بالغة فى تنفيذ سياسة الاقتصاد ..!

على أن هنا حقيقة لا ينكرها أحد ولا يغفل عنها أحد ، هى أن المطالعة عند كل المشغوفين بالمطالعة — عادة لازمة أكثر مما هى وسيلة من وسائل العلم ، فاذا لم يعود الطفل أن يقرأ منذ حداثته فهيهات أن يمكن حمله على المطالعة المثمرة من بعد ؛ وهنا سر انصراف شباننا عن المطالعة والأدب إلى ذلك اللغو وتلك الدعاوى الفارغة التى تملأ أفواههم عن الأدب والتجديد .

ومن ثَمَّ يجب أن نبحث أولَ ما نبحث فى نقص المكتبة العربية للأطفال ، ثم من يليهم ، ثم من يليهم ، إلى أن نبلغ الطبقة التى نجد فيها من يقرأ أمثال الأغانى والأمالى وعيون الأخبار والطبرى وغيرها من تراثنا الأدبى الذى لا نجد من يقبل عليه إلا القليل من قراء العربية

وإنى أؤكد للأستاذ أحمد أمين أن المكتبة العربية لم تضعف هذا الضعف لعجزٍ فى المعلمين أو نقصٍ فى كفاية القائمين على شئون اللغة العربية ، ولكنّ وسائل التخذيل وقلة المكافأة ...

وقد عالجت طائفةٌ غير قليلة من أدباء العربية هـذا النقص فى مكتبة الأطفال ، وكان خليقاً أن يبلغوا بها مبلغاً تطمئن إليه ، لو لا قلة المكافأة وسوء التقدير ، وأنا نفسى ما أزال أعانى أزمة عنيفة بينى وبين نفسى من جراء محاولة من هـذه المحاولات لاصلاح مكتبة الطفل ، صرفتنى عن العمل لغيرها وقطعتنى عن الجو الأدبى الذى كنت أعيش فيه والذى كنت أمنى نفسى فيه لمنزلة فى الغد هى أجدى علىّ وأنفع ، وجعلتنى غرضاً لسهام اللوم من أصدقائى الذين كانوا يحسنون الظن باستعدادى الأدبى . والأستاذ الزيات صاحب الرسالة أول هؤلاء اللائمين ، مع إعجابه بما أقدم للطفل العربى من أدب سائغ . وهأنذا ما أزال فى المحاولة ، وما زلت أطمع فى أن أبلغ بالقصص المدرسية — التى أصدرها مع زميلين من زملائى — مبلغاً أقتنع فيـه بأنى قد أسديت يداً إلى المكتبة العربية وأحسبنى قد سمعت مرة من الأستاذ أحمد أمين ثناءً على عملنا كان خليقاً بأن يحملنى على الثبات ومضاعفة الجهد فى هذه المحاولة ؛ ولكن عملاً كهذا ياسيدى لا يجزئ فيه أن أسمع كلمات الثناء وعبارات التشجيع وأنا أبذل فيـه من أعصابى ومن مالى وعمرى ولا مكافأة ولا تعويض . أفيحسب أستاذنا الجليل أن سعيد العريان ومعه مائة مثله من معلمى اللغة العربية فى مدارس الحكومة يستطيعون أن يسدوا هـذا النقص فى المكتبة العربية ووزارة المعارف لا تحاول أن تشعرهم من قريب أو بعيد بأن لهم عليها حقاً أكثر من : أحسنتَ وأجدت ولله أنت ... !

أم تحسب أحداً يُقدم على أن يبذل لمثل هذا العمل جنيها لعله أحوج إليه فى بيته ، وهو يعلم أن وزارة المعارف لا تكافئ الكتاب والمؤلفين إلا أن يكونوا مفتشين أو أشباه مفتشين ؛ حتى لو أن معلماً صغيراً (مثلى . . . !) أنشأ عملاً خليقاً بأن يُنتفع به ، أسرع إلى محا كاته واحد من هؤلاء فيكافأ على التقليد ويضيع العمل الجيد على منشئه بلا مكافأة ولا تعويض ...؟

ياسيدى ! والله ما كان فى بالى أن أشكو ، ولا أردت أن يكون الحديث عن نفسى ، وليس من طبعى أن أقول : ليتنى وليت الناس ! ولا كان همى أن ألتمس المعاذير للمقصر والمجيد ؛ ولكنك رغبت إلى كل ذى رأى أن يدلى برأيه ، فهذا ما دفعنى إلى ذلك ، وأرجو ألا أكون على حيد الطريق فيما كتبت ، أو أن أزايل حسن الظن من نفسك ، ولعل لى عودة قريبة إلى الموضوع والسلام عليك .

(طنطا) محمد سعيد العريان

في القديم والجديد

كلمة وكليمة (١)

للرافعي فقيد اللغة والأدب

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

... إن الخلاف بين ما يسمونه القديم والجديد ليس بخلاف على جديد ولا قديم ، ولكن على ضعف وقوة ؛ فإن قوماً يكتبون وينظمون ، ولكن لم تقسم الفصاحة والبلاغة على مقدار ما يطيقونه من ذلك ، ولا يتسع الصحيح لآرائهم في اللغة والأدب ؛ وقد أرادوا أن يسعوا كل ذلك من حيث ضاقوا ، ويطاولوه من حيث تقاصروا ، وينالوه من حيث عجزوا ، فظنوا بالأمر ما يظن إنسان يمشي على الأرض ويعرف أنها تدور فيؤول ذلك بأنه هو مدير الأرض على محورها بحركة قدميه ... نحن نقول : أسلوب ركيك ، فيقولون : لا بل جديد ! ! ونقول : لغة سقيمة ، فيقولون : بل عصرية ! ! ونقول : وجه من الخطأ ، فيقولون : بل نوع من الصواب ! !

***

... إننا لا نعرف قديماً محضاً ولا جديداً صرفاً ، ولا نقيم وزن أحدهما إلا بوزن من الآخر إذا أردنا بهما سنة الحياة ، وأنت لم تجد حياً منقطعاً مما وراءه ؛ بل أنت ترى الطبيعة قيدت كل حي جديد إلى أصلين من القديم لا أصل واحد هما أبواه ، فمنهما يأتي ، ومنهما يستمد ، وهما أبداً فيه وإن كان على حدة

***

.. المذهب القديم هو أن تكون اللغة لا تزال لغة العرب في أصولها وفروعها ، وأن تكون هذه الأسفار القديمة التي تحويها لا تزال حية تنزل من كل زمن منزلة أمة من العرب الفصحاء ، وأن يكون الدين العربي لا يزال هو هو كأنما نزل به الوحي أمس ، لا يفتننا فيه علم ولا رأي ، وأن يأتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين ، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً ...

***

. . . سألت بعضهم ما هو هذا الجديد الذي تحامون عنه ؟ قال : هو ما يكتب به في الصحف . قلت : فإن فيما يكتب الضعيف والساقط والمرذول ثم ما هو إلى الجزالة والفصاحة ، ثم ما يلتحق بجيد الكلام ، فأي هذه تريد ؟ وأيها ليس قياساً من أصله العربي المعروف ؟ أفتجعلون النقص مذهباً من كماله ثم لا تكتفون بخطأ واحد وتدّعون أن الكمال في نفسه يجب أن يمدّ مذهباً من النقص ؟ أم الجديد هو ما يكتب به في الصحف ، تعني لأنك أنت تكتب في الصحف . . . . ؟

***

التجديد في الأدب إنما يكون من طريقتين : فأما واحدة فابداع الأديب الحي في آثار تفكيره بما يخلق من الصور الجديدة في اللغة والبيان ، وأما الأخرى فابداع الحي في آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة ، وأساليب الفن الجديدة . وفي الابداع الأول إيجاد ما لم يوجد ، وفي الثاني إتمام ما لم يتم ، فلا جرم كانت فيهما معاً حقيقة التجديد بكل معانيها ، ولا تجديد إلا من ثمت ، فلا جديد إلا مع القديم . . .

***

لم أقرأ إلى يوم الناس هذا في معنى هذا « الجديد » كلاماً يبلغ أن يصور منه برهان أو تؤلف منه قضية صحيحة ، وكل

(١) تحت هذا العنوان كان المرحوم الأستاذ الرافعي ينشر على قراء الرسالة الكرام كلمات جامعة تدور على أغراض مختلفة من الأدب والدين والأخلاق والاجتماع ، فكان موقعها في النفوس موقع الاعجاب البالغ والتقدير الكبير لكل آثار الرجل حتى أنها ترجمت إلى الفرنسية ونشرت في صحف القوم هناك ...

ولما كنا قد تتبعنا الرافعي في كل ما كتب ، واستوعبنا آثاره بالبحث والنظر ، فقد رأينا أن نصل ما انقطع ، فنتقدم للقراء بما نعرفه للرجل من مثل تلك الكلمات التي كان يرسلها عليه رحمة الله ؛ إلا أننا آثرنا أن نزجيها عقوداً كل عقد ينتظم حباته سلك من المعنى المشترك ، والغرض المتفق ، على أننا لسنا على رأي الرجل في كل ما تنقل عنه ، وإنما نريد أن نقرب للقراء آراءه ، وأن نقف بهم على مجمل فلسفته ، والله نسأل أن يجعله عملا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتغمد الرافعي بفيض رحمته العميم ؟ (فهمي)

أقاويلهم ترجع إلى ثلاثة أبواب : جديد ، ومجدِّد ، ولنجدد . فأما الأول فهو عندهم تقبيح القديم والزراية عليه والتنفير منه ، وأما الثانى فهو العائب والشاتم والمتهزئ ، وأما باب قولهم « ولنجدد » فهو لا يزال إلى الآن مقصوراً على قول كل واحد منهم للآخر : « ولنجدد » ...

***

... أما والله لا أعرف أهؤلاء القوم يجدون أم يسخرون ! ولكن الذى لا أجهله أن فى بعض الناس أرواحاً وأمزجة انطبعت فيها صور الاجتماع الأوربى بما يحوى من فضائله ورذائله لأن هذه نتائج تلك ما منها لهم بد — فتريد هذه النفوس الرقيقة الجميلة ! ! أن تنسخ الرسم الاسلامى الشرقى وتقر كل ذلك الأوربى فى مكانه . تلك هى نزعة التجديد . . . . ! !

... لقد رأيت لأصحاب « المذهب الجديد » أصلا فى تاريخ الأدب العربى كانت جذوره ممن انتحلوا الاسلام وهم يدينون بغيره ، وممن كانوا يدينون به وتزندقوا فيه ، حتى قال الجاحظ فى بعض رسائله يعنى هؤلاء وأولئك : « فكل سخنة عين رأيناها فى أحداثنا وأغبيائنا ! ! فمن قبلهم كان أولها »

ورحم الله أبا عثمان ، إن التاريخ ليعيد نفسه اليوم « بسخنة عين جديدة » ...

***

... إنهم إن أرادوا « بالمذهب الجديد » أن يكتب الكاتب فى العربية منصرفاً إلى المعنى والغرض تاركا اللغة وشأنها متعسفاً فيها آخذا ما يتفق كما لا يتفق ، وما يجرى على قلمه كما يجرى ، معتبرا ذلك اعتبار من يرى أن مخه بلا غلاف من عظام رأسه ، وأن عظام رأسه كعظام رجليه ! وأن أصابع قدميه كاهداب عينيه ! ! وأن مطلق التركيب هو مطلق النظام والمناسبة ! ! وأن اللغة أداة ولا بأس بالأداة ما اتفق منها ، ولا بأس أن ينزع الجراح منزعا من جلد العليل بأسنانه أو بأظافره أو بنصل الفأس ... ما دامت معقمة وما دام ذلك بعينه هو فعل المبضع لا يزيد المبضع عليه إلا فى الدقة . .

إن أرادوا بهذا وأشباهه ما يسمونه المذهب الأدبى الجديد قلنا : لا ، ثم لا ، ثم لا ، ثلاث مرات . . .

***

أظن أن اللغة العربية لن ترتفع منزلتها عند هؤلاء الحمقى المجددين إلا إذا أصبحت لغة فرنسا أو انجلترا ... فيومئذ يكون الجاحظ جاحظاً بقوة الأسطول ، وعبد الحميد بقوة الجيش ، وابن المقفع بسلاح الطيران ، إذ هم وأمثالهم أسلحة التاريخ التى يقاتل بها مجد الأمة ليغلب وينتصر ، وهذا بعينه هو من دليلنا على أن هؤلاء الخمسة أو الستة المجددين هم خمسة أو ستة مجانين فى أمراض العقل الاجتماعى . . .

« اختارها وأخرجها »

محمد فهمى عبد اللطيف

إلتقاء النجف بالأزهر

رأى العلامة الشهرستانى

للأستاذ عبد المنعم خلاف

العلامة الكبير السيد هبة الدين الشهرستانى رجل من رجالات العراق الذين يشار إليهم ، ويعتمد على رأيهم فى شئون الدين والدولة ، تولى وزارة المعارف العراقيــة لأول عهد البلاد بالاحتلال الانجليزى ، فكانت له فيها مواقف جريئة مع مستشارها الانجليزى لا يزال الناس يتحدثون بها ويثنون عليها . وكان العامل الأول على نشر التعليم بين المسلمين بعد أن كانوا يعزفون عنه نظراً للصبغة الاحتلالية التى كانت تسيطر عليه . وهو فوق ذلك صاحب قلم بارع فى سرد حقائق الاسلام وجلاء مآثره ، يشهد بذلك كتبه العديدة وخصوصاً كتابه « المعارف العالية » الذى نحا فيه منحى عصريا حيداً يحبب إلى الشباب قراءته ، وهو محاضر طلق اللسان لين الصوت وقور المظهر ، وديع النفس تشعر بأن فيضاً من سمو الروح وجلال الخلق يغمرك وأنت فى مجلسه . وهو من كبار مجتهدى إخواننا الشيعة ، وإن كان لسمو خلقه وغزارة علمه واتساع أفقه لا يختص بفريق دون فريق . وكان على رأس الرعيل الأول من علماء الاصلاح فى النجف الأشرف أهاب بعلمائه وطلابه سنة ١٣٢٨ هـ فى مجلته « العلم » أن يرموا بأبصارهم إلى ما وراء أسوار معاهدهم الدينية من شئون الحياة والعلوم العصرية ، كما أهاب الأستاذ الامام محمد عبده برجال الأزهر . وقد صار له الآن تلاميذ ومريدون يتولون نشر دعوته وتعميم طريقته

وقد كان من حسن حظى أن أتيحت لى فرصــة زيارته فلأت بصرى بصورته الجليلة . وشيخوخته الوقور التى ذكرتنى بالصور الذهنية لعلماء بغداد الأولين ، بعد أن ملأت سمعى بذكره العاطر وثناء الناس عموما عليه . فصدق العيان الخبر

وكان لا بد أن يتطرق الحديث إلى شئون المسلمين والآمال فى المســتقبل الذى تحفز التاريخ ليكتب فيــه صفحة جديدة للنهضة الدينية والدنيوية فى ديارهم

وهو يرى أن الوحدة الاسلامية المنشودة التى عهد لهـا المخلصون من رجال الاسلام ويدعون إليها لا يمكن أن تتم إلا بالتقاء النجف بالأزهر بتبادل الزيارات بين العلماء والبعثات بين الطلاب ، وإطلاع رجال كل من المعهدين على الأنظمة فى الآخر

وهذا رأى لا ريب سديد وقريب التحقيق يجب أن يلتفت إليه العاملون لجمع الشمل وتحقيق الوحدة . أنقله إلى مسامع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر المصلح الشيخ المراغى الذى تركزت فيه آمال النهضة الاسلامية ، وسار الأزهر فى عهده خطوات موفقة إلى الغاية التى ينشدها الناس من رجال الدين

والواقع أن الخلاف بين الشيعة وأهل السنة الذى يجسمه العوام والأغفال ، وينفخ فيه أعداء الطائفتين جميعاً من وراء ستار ، لا يمكن أن يزول إلا إذا رأى العوام رجال الدين من الفريقين يتآخون ويتبادلون الزيارات ويتملى كل منهم على الآخر فى أخوة وصفاء ، فالعوام هم الذين يعظمون الصغائر ويكبرونها ، أما العلماء من الفريقين فهم أفقه وأعقل من أن يجدوا مواضع الخلاف القليلة محلا لجفاء وهوة تفصل بين أهل التوحيد

ولقد وجدت هذه الرغبة فى التوحيد متجلية عند علماء الشيعة فى مواقف عدة ، فالسيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء يدعو إليها فى المؤتمر الاسلامى بالقدس ، وها هوذا العــلامة الكبير السيد هبة الدين الشهرستانى رجل الاصلاح ، يرسم الطريق ويضع الخطة لها ويعد بمواصلة العمل فى سبيلها على رغم شيخوخته ، والأســتاذ حسين مروة يدعو إليها منذ شهرين فى الرسالة .... كل هذا يبشر باقتراب الموعد ومواتاة الظروف ، ولم يبق إلا أول العمل فيها .

عبد المنعم خلاف

شخصيات مجهولة فى الأدب العربى

إبراهيم بن سهل الاشبيلى

بقلم محمد الأمين بن محمد الخضر الشنقيطى

كثيراً ما رأيت من بعض الأدباء جهلاً شائناً بذلك الشاعر المطبوع إبراهيم بن سهل ؛ لخدمة للأدب ، وإحياء لذكره ، أتقدم بهذه الكلمة الموجزة إلى صحيفة العلم و(رسالة) الأدب ، راجياً أن أتبعها أخرى إن سمحت لى ظروفى وكان فى صفحات الرسالة متسع

نسبه ، ميلاده ، وفاته

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبى يعيش بن سهل الاشبيلى ، نسبة إلى إشبيلية مدينة من أعظم المدن الأندلسية . ولد سنة ستمائة وتسع عشرة هجرية ، ومات غريقاً فى البحر وهو ابن أربعين ، سنة ستمائة وتسع وخمسين هجرية كما ذكره أبو الحسن الخزرجى

قال صاحب نفح الطيب : غرق وهو ابن أربعين سنة فى البحر . وقيل جاوز الأربعين . ولما غرق قال فيه بعض الأكابر : عاد الدر إلى وطنه . وذكر مالك بن المرحل فى غرقه قصة طويلة ، خلاصتها أنه كان من كتاب أبى على بن خلاص صاحب سبتة فأرسله مع ابنه إلى المستنصر ملك تونس فغرقا فى البحر لشدة هيجانه . ولما بلغ المستنصر غرق ابن سهل قال : عاد الدر إلى وطنه

اسلامه

كان يهوديا وأسلم . وقد اختلف العلماء والمؤرخون فى صحة إسلامه ، فمن قائل إن إسلامه كان ظاهراً وباطناً ، ومن قائل إنه فى الظاهر فقط . ولا بأس أن أنقل هنا بعض أقوال الفريقين . قال محمد الصغير الأفرانى المراكشى : كان يهوديا ثم من الله عليه بالدخول فى الملة المحمدية وحسن إسلامه . وقد مدح النبى صلى الله عليه وسلم بقصيدة بارعة ، قال أبو حيان وقفت عليها ، وهى من أبدع ما نظم فى معناها . وقال العزفى : كان يتظاهر بالاسلام ولا يخلو من قدح واتهام . وقال ابن مرزوق : صحح لنا من أدركنا من مشائخنا أنه مات على الاسلام . وقال صاحب نفح الطيب : اجتمع جماعة مع ابن سهل فى مجلس أنس فسألوه — لما أخذت منه الراح عن إسلامه — هل هو فى الظاهر والباطن أم لا ؟ فأجابهم : للناس ما ظهر ولله ما استتر . وقال ابن سعيد القيسى فى كتابه القدح الملى : كتبت إلى ابن سهل استدعيه إلى أنس بثلاث أبيات فأجابنى مراعا بأبيات آخرها

سآلفها إلف العتيق كتابه ولا أشتهى ورد آسواها الذى الخمر

فلما وصل أظهرت استحسان سرعة جوابه غير أنى أنكرت عليه منزع بيته الأخير فقال : أليس فى الجنة نهر خمر ؟ فقلت : بلى فقال : حسبى ، لا أبغى به بدلا . فقلت : بحرمة ما بيننا إلا ما أصدقتنى هل أنت على دين أسلافك ، أم على دين المسلمين ، وأزلت عنى شك الناس فيك . فقال : للناس ماظهر ولله مااستتر . وقال فى عنوان الدراية : سمعت شيخنا أبا الحسن الأندلسى يقول : شيئان لا يصحان : إسلام ابن سهل وتوبة الزمخشرى من الاعتزال . وقد استدل الأفرانى المراكشى على حسن إسلامه بقوله :

تسليت عن موسى بحب محمد
ولولا هدى الرحمن ما كنت أهتدى

وما عن قلى قد كان ذاك وإنما
شريعة موسى عطلت بمحمد

جاعلا أنه قصد بموسى الكليم عليه السلام ، وبمحمد نبينا عليه الصلاة والسلام ، وعندى أنه لا دليل فى هذين البيتين (رغم اعتقادى حسن إسلامه) ، وأن موسى المذكور غلام كان يعشقه ، وذكر اسم محمد تورية ، وقد جاء ذكر موسى هذا فى شعره كثيراً ، من ذلك قوله :

كسانى موسى من سقام جفونه
رداء وأسقانى من الحب أكؤسا

وقوله :

ليس نارى على موسى وحرمته
بواجب وهو فى حل إذا وجبا

وقوله :

أشاعوا أننى عبد لموسى نعم صدقوا على بما أشاعوا

وفى بيتيه الآتيين فصل القول أنه معشوقه لا الكليم عليه السلام

موسى تنبأ بالجمال وإنما هاروت لا هارون من أنصاره
إن قلت فيه هو الكليم فخده يهديك معجزة الخليل بناره

شهادات العلماء فيه

قال ابن القاضى فى كتابه درة الحجال : كان ابن سهل ممن انتحل صناعة القريض فافتن بها وتصرف ، وعنى بعالم الأدب فوعى وصرف ، إلى أن بلغ الغاية فى الشعر فصار فيه أوحد ، لا ينعت ولا يحد . وقال أبو الحسن الخزرجى فى كتابه إعلام الزمن : إبراهيم بن سهل كان شاعر زمانه أسلم بعد يهوديته ومدح النبى صلى الله عليه وسلم بقصيدة بديعة . وقال مالك ابن المرحل : كان ممنا ابن سهل وقد حسن إسلامه ، ولازم صلاة الجماعة ، ونظر فى الأدب فنبغ فى الشعر . وقال الافرانى : وإن من تتبع مقطعاته علم أن له خبرة واسعة بفن العربية كقوله :

أموسى أيا كلى وبعضى حقيقة وليس مجازا قولى الكل والبعضا
خفضت مقامى إذ جزمت وسائلى فكيف جمعت الجزم عندى والخفضا

وفى هذين البيتين تنكيت على أبى القاسم الزجاج إذ قال فى جملة : (وإنما قلنا بدل الكل والبعض مجازا) . وسئل بعض المغاربة عن السبب فى رقة نظمه ، فقال : لأنه اجتمع فيه ذلان : ذل العشق وذل اليهود

عفافه

وقد كان فيما يظهر من كلامه عف الازار ، وبيته المشهور من أعظم الأدلة على ذلك وهو :

وأبى عفافى أن أقبل ثغره والقلب مطوى على جمراته

وقوله :

بتنا نشعشع والعفاف نديمنا خمرين من غزلى ومن كلماته

وقد ذهب ابن القاضى فى شرحه لأبيات الذهبى لما تعرض لابن سهل إلى أن هذا من صناعته لا طبيعته ، ولعمرى إن هذا منه توريك وتحامل ؛ وإلا فأى مانع من أن يكون العفاف فيه سجية ؟

شعره :

وله ديوان شعر مشهور ، وقفت عليه وهو فى غاية الجودة ، ولا بأس أن أثبت هنا من شعره ما يرخص الدرر ، ويكون فى هذه الأسطر بمثابة الغرر . من ذلك قوله :

مضى الوصل إلا أمنية تبعث الأسا أدارى بها همى إذا الليل عسعسا
أتانى حديث الوصل زوراً على النوى أعد ذلك الزور اللذيذ المؤنسا
ويا أيها الشوق الذى جاء زائراً أصبت الأمانى خذ قلوباً وأنفسا

وقوله :

قالوا سيسلبك العذار سفاهة وحصاد عمرى فى نبات عذاره
إن لم أمت قبل العذار فعندما يبدو أيسلم عاشق بفراره
مثل الغريق نجا فوافى ساحلا فاذا الأسود روابض بجواره
إن العذار صحيفة تتلو لنا ما كان صان الحسن من أسراره

وقوله :

يا حسنه والحسن بعض صفاته والحسن مقصور على حركاته
صالحته والليل يذكى بيننا ناربن من نفسى ومن وجناته
أوثقته فى ساعدى لأنه ظبى خشيت عليه من نفراته
والقلب يرغب أن يصير ساعدا ليفوز بالآمال من ضماته

وقوله :

نظر جرى قلبى على آثاره خلع العذار فلالعاً لعثاره
يا وجد شأنك والزمان وخلنى ما المرء مأخوذ بزلة جاره

دنف يغيب عن الطبيب مكانه
لولا ذبال شب من أفكاره
للدمع خد فوق صفرة خده
فتراه مثل النقش فى ديناره

وقوله :

ردوا على طرفىَ النوم الذى سلبا
وخبرونى بقلبى أية ذهبا
علمت لما رضيت الحب منزلة
أن المنام على عينى قد غضبا
فقلت واحربا والصمت أجدر بى
قد يغضب الحسن إن ناديت واحربا

وقوله :

يقولون لو قبلته لاشتفى الجوى
أيطمع فى التقبيل من يعشق البدرا
ولو غفل الواشى لقبلت نعله
أنزهه أن أذكر النحر والثغرا
ومن لى بوعد منه أشكو بخلفه
ومن لى بوعد منه أشكو به الغدرا
وما أنا ممن تحمل الريح شوقه
أغار حفاظاً أن أبوح له سرا

وقد أبدع فى فنون البيان وأتى فى شعره منها بالعجب العجاب . فمن حسن توجيهه قوله :

لقد كنت أرجو أن تكون مواصلى
فأسقيتنى بالبعد فاتحة الرعد
فبالله برد ما بقلبى من الجوى
بفاتحة الأعراف من ريقك الشهد

وله موشح كبير ، أبدع فيه وأجاد ، تبارى العلماء فى شرحه وإظهار معانيه ودرره ، برهن فيه على سعة باعه فى العربية والصناعة الشعرية ، أوله

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى   قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر وخفض مثلما   لعبت ريح الصبا بالقبس

ولعلى فى فرصة أخرى أتمكن من شرح بعض أبياته وإبراز مكنوناته والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

موت صـــديق

للكاتب الفرنسى Xavier de Maistre

من كتابه « رحلة حول غرفتى »

ترجمة الأستاذ خليل هنداوى

سعيد ذلك الذى يجد صديقاً يلائمه منه قلبه وروحه . صديق يجمعه به وحدة ذوق ، وألفة عاطفة ، وجامعة معرفة . صديق لا يقلقه طمع ولا تسيره مصلحة . صديق يؤثر ظل شجرة على ترف مدينة . سعيد من يملك صديقاً !

كان لى صديق اختضره الموت منى فى عنفوان صباه ، ومطلع عمله ، فى المهد الذى أصبحت صداقته حاجة لقلبى شديدة . كنا نتآزر معاً على أعمال الحرب ، ولم يكن لنا الأغليون واحد نتناوبه وكأس واحدة نشرب بها ، وسقف خيمة واحدة يظللنا . فى الظروف التعسة كان لنا ذلك السقف حيث كنا نحيا معاً وطناً جديداً . رأيته ينجو من كل مهالك الحرب ويسلم من أهوالها كأنما الموت كان يدخر أحدنا للآخر ، وكأنما نفدت نباله التى صوبها إليه دون أن تصيبه . ولكن هذا لم يكن إلا ليجعل فقده — عندى — أكثر ترويعاً . ولقد كان فى قعقعة السلاح والذهول الذى يملك النفس من جراء الأخطار ما يحول دون بلوغ آلام نزعه إلى عاطفتى وإحساسى . وموته قد يكون نفعاً لوطنه وشؤماً على أعدائه . لو كان ذلك لكان أسفى عليه قليلاً ، ولكنى فقدته فى وسط المسرات ورأيته يحتضر بين ذراعىّ فى حين كانت تقوى صحته وتتوثق روابط مودتنا فى أيام الراحه والسكون

آه إننى لن أتعزى عن فقده ، وإن ذكراه لا تبرح قلبى ولا تحيا إلا فى طواياه . وإنها لن تكون فى الذين كانوا يحيطون به أو الذين حلوا محله . هذه الفكرة تجعل وقع فقده أنأى على النفس وآلم للقلب . وهذه الطبيعة التى تتراءى لنا خلية لا تبالى حظ الناس تضع رداء ربيعها الزاهى وتتزين بأبهى حلل جمالها

(البقية على صفحة ١١٤٢)

الشعر على اللسان النبوى

للسيد جلال الحنفى

الذى لا زلنا نسمعه ونقرأه بحيث بات من البديهيات التى لا يُتجادل فيها ، وأصبح من غير المحمود الخروج عليه : أن الشعر لم يكن يلتئم على لسان النبى صلى الله عليه وسلم . ويقال إن النبى أنشد قول طرفة المشهور على هذا الشكل :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار

فقيل له : ليس البيت كذلك يارسول الله ، وإنما هو هكذا :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

فرجع صلى الله عليه وسلم منشداً للبيت كما أنشده من قبل ، ولم يتمكن من إنشاده بلفظه

وإنى لأعجب منتهى العجب كيف يسوغ لأحد أن يتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا العىّ الذى ينقص أى امرئ إذا نسب إليه ، وناهيك بالنبى وهو أفصح من نطق بالضاد ، وصاحب الكلم الجوامع

ولا أريد هنا أن أدلى بالنصوص التى يعلم منها أن النبى رغب فى الشعر وحث عليه وافتخر ببعض رجاله ، ودرج على ذلك بقية من أصحابه ، وإنما أعرض هنا طائفة من المواطن التى تقيم الحجة على أن ما يسند إلى الرسول غير صحيح ، وأنه أنشد بضعة أبيات فى أحوال متعددة من دون أن يخرجها عن سننها

فلقد أنشد صلى الله عليه وسلم فى حفر الخندق من شعر عبد الله بن رواحة :

هذا الحِمال لا حِمال خيبرْ
هذا أبرُّ ربَّنا وأطهرْ

ولكن ابن شهاب الزهرى قال تعليقاً على هذا تخلصاً من الحجة التى تقع على القاعدة الموضوعة فى هذا الأمر ، قال :

« ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت »

والحقيقة أيضاً خلاف هذا إذ أنه صلى الله عليه وسلم أنشد فى حفر الخندق أيضاً لابن رواحة على ما رواه البخارى ومسلم والمؤرخون[1] :

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنـــة أبينا

وأنشد رسول الله يوم الخندق أيضاً[2] :

بسم الإلـه وبه هدينا ... ولو عبدنا غيره شقينا
يا حبذا رباً وحب دينا

وأنشد عليه الصلاة والسلام لأمية [3] :

رجل وثور تحت رجل يمينه ... والنسر للأخرى وليث مرصد

وأنشد فيما أنشد[4] :

أتيناكم أتيناكم ... فحيونا نحييكم
ولولا الذهب الأحـ ... ـمر ما حلت نواديكم
ولولا الحبة السمرا ... ء لم تسمن عذاريكم

وكان صلوات الله عليه كثيراً ما ينشد لعنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنال به كريم المأكل

وينشد للبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وإنى لأخجل فى تحقيق مثل هذا الأمر والدفاع عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما علقوه به من هذا العجز عن النطق بالبيت على وزنه من حيث لاحكمة هنالك ، ولولا أن تكون هذه المسألة ضاربة أطنابها بين المتقدات لما أسلكت قلمى فى سبيل نقدها

(بغداد)

جلال الحنفى
خطيب جامع عطاء

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤ : ٩٦)
(٢) البداية والنهاية (٤ : ٩٧)
(٣) خزانة الأدب للبغدادى (١ : ١٢٠)
(٤) نقد العلم والعلماء لابن الجوزى (ص : ٢٤)

بعض أسباب الضعف

فى اللغة العربية

للأستاذ عويس القرنى

كتب الأستاذ الكبير أحمد أمين فى أسباب الضعف فى اللغة العربية ، ودعا الباحثين أن يدلوا بآرائهم فى ذلك ليتبين الأمر على وجهه ونصل إلى علاج ناجع لترقيتها

وحرص الأستاذ المصلح على ترقية اللغة العربية هو الذى دعاه إلى فتح باب البحث ، ولذلك نتقبل نقده قبولا حسناً ؛ والأمر يهم مدرسى اللغة العربية ، إذ أن حديث الأستاذ يمسهم فى خاصة أمرهم ويرميهم بالتقصير والقصور ، فهم يدفعون عن أنفسهم ذلك بأدلة الواقع المحسوس

ولا يدعونا للدفاع عن أنفسنا عاطفة حزبية ، أو رغبة طائفية ، فذلك ما لا نرضاه ولا نميل إليه ، وإنما يدفعنا إلى ذلك الرغبة فى إظهار الحقيقة

والأستاذ الفاضل عودنا فى بحوثه وتآليفه الانصاف ووزن الأحكام بميزان الصدق والحق

ودار العلوم التى رماها بالتقصير والتخلف لم تتوان منذ أنشئت عن أداء مهمتها ، ولم تدخر وسعاً فى تقويم الألسنة وتثقيف العقول فى جميع مراحل التعليم

وأية نظرة إلى منهاج المدرسة تدل دلالة بينة على مقدار صلاحية أبناء الدار فى عملهم ؛ فهم يدرسون اللغة العربية أدبها وقواعدها وفقهها ، كما يدرسون القرآن الكريم ، والفقه وأصوله ، والفلسفة ، والمنطق ، والتاريخ ، والجغرافيا وغيرها يدرسون تلك العلوم بتوسع على أساتذة أكفاء

وأبناء الدار منبثون فى طول البلاد وعرضها ، يعلمون النشء ويقومون أخلاقهم ، ويبثون فى نفوسهم الوطنية الصادقة ويعودونهم البحث ويشوقونهم إلى الاطلاع

والعلوم التى يدرسونها فى مدرستهم يراها الأستاذ فى حديثه الماضى ضرورية لمعلمى اللغة العربية ، وهذه المواد لا تتوافر دراستها إلا فى ذلك المعهد الجليل

ودار العلوم لا تدعى الكمال ، وهى دائبة فى طلب الاصلاح وتعديل مناهجها كلما رأت ضرورة إلى ذلك

يقول الأستاذ إن خريجى دار العلوم لا يفهمون الأدب القديم ولا الحديث ، وهذا حكم لم تصح حيثياته التى تبرره ، ومن السهل على كل إنسان أن يرى الناس بالضعف أو الجهل ، ويظل حكمه موقوفاً إلى أن تتبين دلالاته

لا يضير مدرسى اللغة العربية قلة التأليف ، فان طبيعة عملهم تثقيف العقول ، وتعويدها البحث والتفكير المستقيم ، وعقد الصلة بين النشء وبين الحياة ، وهم لم يقصروا فى واجبهم ، والنهضة الفكرية كما يشهد الأستاذ لهم فيها أكبر نصيب

وعملنا كعمل غيرنا من أصحاب الفنون ، فكما لا ينقص من قدر الأطباء والمهندسين والقضاة ألا يؤلفوا فى فنونهم التى حذقوها ، فكذلك شأن المعلمين

ونجاح الانسان فى حياته منوط باتقان عمله ، وأداء رسالته

والآن أظهر بعض أسباب الضعف فى اللغة العربية ، مما لم يذكره الأستاذ فى حديثه السابق

اللغة العامية :

معلم اللغة العربية يبذل مجهوداً كبيراً فى تعليمها وتلقينها لأبنائه ، ولو كان يسمع التلميذ من بيئاته لغة عربية ، ويتحدث بلغة عربية لظهر مجهود المدرس وترقت حال التلاميذ ، ولم نشعر بهذا الضعف ، والذى يبنيه الأستاذ فى الفصل يُهْدَم خارجَه فى البيت وفى الشارع ؛ بل إن بعض مدرسى العلوم الأخرى يتحدثون مع تلاميذهم بلغة عامية ، ويقبلون منهم الاجابة بها متى أدت إلى المطلوب ، وينشأ من ذلك ما تراه من استهانة التلاميذ بلغتهم الأصلية ، ولا يتعودون التجويد ولا

العناية متى ما كان دون ذلك يقبل منهم

وما حيلة أساتذة اللغة العربية وحدهم ، وهم يبنون وغيرهم يهدم ؟

فعلة العلل — على ما أرى — طغيان اللغة العامية على الفصحى فى كل مكان ، حتى فى المدرسة نفسها

والعلاج أن نعنى باللغة العربية جميعاً فى محادثاتنا وكتاباتنا حتى نصل بها إلى حالة مرضية ، ونقوى أنفسنا بذلك

وقد لحظت وزارة المعارف وجوب التحدث باللغة العربية ، فختمت على مدرسيها جميعاً التحدث باللغة العربيـة الفصحى ، ولـكن الواقع غير ما يجب

الطريقة

ومن أسباب الضعف التى عرفتها منذ اشتغلت بالتدريس ، طريقة التدريس بها . فأمام المدرس منهاج مطول من القواعد وأبواب متعددة ، والمنهاج يتطلب منـه الشرح بطريقة خاصة ويطالب من المدرس تقسيم المنهاج على شهور السنة ، وإلقاء كل درس فى ميعاده . وإذا خرج المدرس عن الطريقة المطلوبة إلى طريقة يراها مفيدة للتلاميذ ، فقد يرى رؤساؤه أنه أتى أمراً إدا

والطريقة التى نسير عليها الآن يرى التلاميذ فيها عناية بالقواعد فيتوفرون عليها لعلمهم أنها وسيلة النجاح ، وطريق الحصول على درجات عالية ، ولا يصرفون تلك العناية إلى التطبيق العملى ، وإلى لباب الأدب ، والآثار الفنية التى تكون الذوق ، وتثمر العقل وتزيد الثروة ، فتجود لغتهم ، ويقوى تعبيرهم عما فى نفوسهم . والعناية بالقواعد تخرج التلاميذ عن الغاية الساميـة من العلم ، إلى اعتباره وسيلة للنجاح ، ولذا يهملون بانتهائه وينسـون باجتيازه

والذى أراه أن تغير الطريقة الحالية فى جميع سنى الدراسة إلى طريقة عملية تطبيقية ، وذلك إما بعرض نماذج أدبية مختلفة ، وإلقاء أسئلة منوعة فى الدرس تحوى أجوبتها الصحيحة القواعد المطلوبة ، وإما بوصف محسوس أو شرح حادثة ، ثم يوجه نظر التلاميذ إلى القاعدة ، بعد أمثلة كثيرة ، فالقاعدة تدرس كشىء ثانوى لا أولى

وهـذه الطريقة نافعة قد جربتها فثبتت لى فائدتها ، وكل عبئها يقع على المدرس فى تحضيرها وإعدادها إعداداً صالحاً ، وهى تقرب من الطريقة الطبيعية

القواميس العربية

ومن أسباب الضعف فى اللغة العربية فقرها من القواميس الحديثة المصورة التى تحدد المعنى فى الذهن تحديداً بيناً

وأمامنا الآن قواميس قديمة نأخذ منها معانى المفردات مع تقدم الزمن ، واختلاف العصور

ويشاهد الباحث حاجة ملحة إلى مظان البحث فلا يجد ، على حين نشاهد فى اللغات الأخرى ثروة عظيمة لمن يريد البحث والاطلاع . فعلى من تقع مسئولية ذلك ؟ أعلى مدرس اللغة العربية أم على العلماء ؟ أم على الجامعة ؟

الحق أننا شاعرون بالنقص ، ولـكن لا حيلة لنا فى الـكمال إلا بقدر

عويس القرنى

موت صديق

(بقية المنشور على صفحة ١١٣٩)

حول القبرة التى يستريح جثمانه فيها . فالأشجار مورقة متشابكة الأغصان ، تشدو العصافير تحت ظلالها ، وللذباب الربى أغاريد على أزهارها . كل شىء يتنفس فرحاً وحياة فى مسا كن الموتى ، وفى المساء ، حين يلمع القمر فى السماء ، وأنا أتأمل فى هذا المثوى الـكئيب أسمع الصرصور يوالى بطرب إنشاد « أغنيتـه » التى لا يسأم ترديدها ، متوارياً بين الأعشاب التى تحجب اللحد الذى يثوى فيه صاحبى . إن فساد الـكائنات هذا الفساد الذى لا يُحس به ، وكل نكبات الانسانية ومصائبها لا يعد شيئاً فى الوجود الـكلى . إن موت إنسان يحس به ، يحتضر بين أصحابه اليائسين ، وموت فراشة أهلـكها نسيم الصبح البارد فى فجوة زهرة ، هما حادثان متماثلان عند الطبيعة . فما الانسان إلا خيال أو ظل أو ضباب يذوب فى الفضاء

خليل هنداوى

هل التقليد هو النظرية السائدة في التعليم والتشريع بمصر الحديثة؟

للدكتور محمد البهى قرقر

فى مصر يلاحظ الانسان العادى إذا ما تتبع الصحف اليومية فحسب تغييراً متتالياً فى برامج التعليم وتعديلا من وقت لآخر فى قوانين البلاد المدنية

تؤلف وزارة المعارف لجاناً لتهذيب مناهج التعليم ، يكاد يكون ذلك فى آخر وفى أول كل سنة دراسية ، وتكلف وزارة الحقانية فى فترات قصيرة متتالية بعض رجالها المسئولين على شكل هيئات استشارية صغيرة — تغيير بعض مواد القانون الجنائى أو المدنى مثلا . كل ذلك تتسابق الصحف فى الاعلان عنـه ، وهو أيضاً حقيقة واقعة تتكرر كلما حدث تغيير أو بعض التغيير فى هيئة الحكومة المركزية

قد يمر الانسان العادى بمثل هذه الأخبار دون أن يقف بها وقفة تفكير ، بل ربما يعدها مثلا من النشاط الحكومى . ولكن الباحث الاجتماعى الذى يربط الحوادث بأسبابها ، أو الباحث النفسى الذى يفتش للظواهر النفسية عن مصادرها ، لابدع هذه الظاهرة ، ظاهرة التعديل المتكرر ، تمر إلا ويستخلص منها نتائجها . ولكن لا فى صورة نهائيـة يقينية — فذلك ما لا يعمد إليه الباحث المتروى — وإنمـا يضعها فى صيغة استفهامية مُردّدة . وأول ما يخطر بفكره : هل لهذا التغيير والتحوير من سبب ؟ هل ذلك السبب أساسى ؟ أى له علاقة بالأساس الذى بنى عليه التعليم وارتبط به التشريع ، أم هو عرضى إضافى ؟

وأساس التعليم والتقنين يختلف طبعاً باختلاف أحوال كل أمة ، ويتكيف بالظواهر الاجتماعية والأوضاع الجغرافية لكل شعب : فالجنس والدين واللغة والعادات من المقومات الأولية فى تكييف التعليم والتشريع . فالجنس — وأقصد به الجنس التاريخى الذى يتكون بمرور الزمن وتنشأ عنه وحدة جنسية — له صفات وغرائز نفسية ربما تباين كل التباين صفات وغرائز جنس آخر ، فالجنس الشمالى مثلا عرف بالبطء فى الفهم والتروى فى التفكير ، بينما الجنس الجنوبى — وخاصـة سكان البحر الأبيض المتوسط — حاد الذكاء كثير الأخطاء فى استنتاجاته العقلية . والدين له دخل كبير إلى حـد ما فى تكوين العادات الخلقية ، الفردية والاجتماعية منها ، فى كل شعب ، بل فى وسط شعب واحد ، فقد يرى الانسان فى الشعب مظاهر خلقية متبايـنة ترجع فى اختلافها إلى اختلاف معتقدات الشعب نفسها . وكل لغة — بسبب تميزها بوسائل التعبير التى تنم عن طرق فى التفكير لكل أمة خاصة — تعتبر عاملاً مهماً فى تلوين التعليم والتشريع لا يقل عن عوامل العادات والوضع الجغرافى والحالة الاقتصادية للأمة

فالتعليم الطبيعى إذن يسير على وفق غرائز الشعب وصفاته النفسية ، لا بد أن يلاحظ فيـه دين الدولة ولغتها وعاداتها . وسواء اعتبرت هذه كلها أو بعضها فى نظر أمة أخرى أو أفراد منها — بناء على صورة نفسية مخصوصة ملقنة مثلا — ساذجة فطرية أو راقية ، فالمبدأ الأساسى هو ربط التعليم بها ربطاً وثيقاً ؛ وهذا الربط عينه هو ما يسمى عند علماء النفس والتربية بنظرية التعليم الوطنى

كذلك التشريع . فالجنائى والمدنى منه يرتكزان على نفسية الشعب التى تتمثل فى أفراده وعلى أخلاق الشعب وعوائده التى للدين فيها أثر كبير . فالمشترع الحديث لا يفرض عقوبة على جرم مثلاً إلا إذا وثق أن من وراء ذلك الردع والتهذيب ، والردع والتهذيب كلاهما مرتبط بمعرفة نفسية المجرم وبظروف الأجرام ، والمرآة الوحيدة التى تنعكس عليها نفسية المجرم وتتشخص فيها هى تحليل نفسية الشعب الموروثة والمكتسبة ، والقياس الذى يوضح ظروف الجريمة هى عادات الشعب وقانونه الخلقى ، وليست المبالغة فى العقوبة وحدها كافية فى الردع والتهذيب كما يظن بعض المشترعين . وتشريع العائلة أساسه أيضاً دائماً عادات العائلة نفسها والعرف الشعبى الذى يحيط بها ومعتقدها الدينى الثابت فيها ومنهجها الخلقى الذى تسير عليه . فاذا كان التشريع على هذه الأسس كان أيضاً تشريعاً وطنياً ، والتعليم والتشريع

إذا كانا وطنيين كانت الغاية منهما محققة وثابتة وهى رفع المستوى التهذيبي للشعب من ناحيتين يلتقيان عند نقطة واحدة؛ إلا أن إحداهما وهى ناحية التعليم، ذات أثر داخلى، والأخرى وهى ناحية التشريع، أثرها من الخارج

وكل حركة سياسية وطنية ترمى دائماً — إذا كانت سائرة فى طريقها الصحيح — أولاً وقبل كل شىء إلى جعل التعليم والتشريع وطنيين، ولكن لا يعنى صبغهما بالصبغة الحزبية وإلا كانت الغاية منهما خدمة شخصية بحتة

على ضوء هذا التعريف الوجيز يمكن للانسان أن يتبين أسباب التعديل والتغيير فى مناهج التعليم وفى حركة التشريع بمصر الحديثة

قسمت مدارس الحكومة إلى درجات معينة: إلزامى وابتدائى وثانوى وجامعى. ووضع لكل نوع من هذه المدارس منهاج خاص، وربما — بل هو الواقع — لا يكون الخطوة الضرورية للنوع الذى يليه من التعليم. ثم لوحظ أنه لا بد أن يكون فى المنهاج الخاص لكل نوع وحدة عامة قد تتنافى مع الحالة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية التى تكتنف كل مدرسة والتى تؤثر إلى حد ما فى محيط تعليمها

ففى التعليم الالزامى مثلاً يوجد برنامج واحد شامل لمواد التعليم لكل مدارس القطر الالزامية، بينما المناطق الجغرافية المختلفة وأحوال البلاد الاجتماعية المتباينة لم تنل أية عناية فيه. وهنا يمكن للباحث الاجتماعى أن يدعى أن هذا المنهاج ليس وطنياً؛ إن هو إلا منهاج عبر على سفينة التقليد من حيز إلى آخر، من شعب إلى غيره، ولكنه لا يقطع بأجنبيته إلا إذا تحقق من نتائجه، ونتائج التعليم مهما اختلف فى أسلوبه يجب أن تكون التهذيب، وبلا ريب لم يكن التهذيب فى يوم من أيام حياة التعليم الالزامى نتيجة له، وإن كان مقصداً له مرسوماً، بل كانت نتائجه، وستكون كلما طال أجله على هذا النحو، إيجاد مشاكل اجتماعية تزداد تعقيداً على ممر الأيام. وليس أصرح فى بيان هذه النتيجة من كلمة النائب المحترم الأستاذ عزيز أباظه عند مناقشة ميزانية وزارة المعارف فى مسألة التعليم الالزامى. فهو يقول: «إن الوسيلة المتبعة فى التعليم الالزامى بمصر قد تكون متفقة مع الأحوال الفنية — وطبعاً هو يعنى أنها قد تكون طبق النظريات المقلدة — ولكنه يعتقد أن هذا التعليم فى وضعه الحاضر لا يفيد البلاد شيئاً» لأنه لم يقم على أسس البلاد الوطنية

كذلك إذا جاوزنا التعليم الابتدائى والثانوى، وناقشنا التعليم الجامعى، وخاصة ما يدّعى منه زعامة التعليم الأدبى والثقافة العربية، رأينا ما يسمى «بالتجديد» الذى صار نغمة تسمع فى كل جدل ومناقشة، ليس ما يجرى فيه من التعديل إلا تعديلاً وتغييراً لا يعدو أن يكون سببه التقليد أيضاً أو هو التقليد نفسه. فمثلاً إنشاء سنة توجيهية، كمقدمة لدراسة الأدب العربى، يدرس فيها آداب اللغتين اليونانية واللاتينية، مع شدة ما بينهما من ناحية وبين الأدب العربى من ناحية أخرى من تباعد وانفكاك، محض تقليد للجامعات الأوربية، فهذه تحتم دراسة اللغة اللاتينية، لأنها مرجع النقل (Tradition) فى العلم الغربى وأصل لمصطلحاته الفنية لليوم. كذلك تحتم هذه الجامعات على طالب التخصص فى الفلسفة الأغريقية دراسة اللغة اليونانية القديمة لصلة نفسها بخصوص هذا الموضوع من الفلسفة عامة، ولكن أمصطلحات فن دراسة الأدب العربى مشتقة كذلك من اللغة اللاتينية أو اليونانية مثلا؟ أم ذلك هو التقليد «والتجديد»؟

كذلك يجد الباحث الاجتماعى نظرية التقليد هى أساس محور التعديل والتغيير فى التشريع المصرى. فعند قراءتى: «يوميات نائب فى الأرياف» للأستاذ توفيق الحكيم فى مجلة «الرواية» استوقف نظرى حكاية حادثة قضائية هى نفسها تعد من الحوادث اليومية العادية، ولكنها تعطى للباحث صورة واضحة عن هذا التقليد: «سيقت امرأة ريفية إلى الوقوف أمام محكمة جزئية للحكم عليها، لأن جريمتها أنها غسلت ملابس فى ترعة عمومية، فلم يجد القاضى بداً من تغريمها، لأنه أمام نص قانونى». هذا النص القانونى اقتبس من النص الفرنسى الذى هو نتيجة لازمة لمخالفة نظام قائم فى فرنسا. هذا النظام القائم هو أن البلديات هناك شيدت أولا أحواضاً عامة للفقراء

للغسل والاستحمام تسهيلا لهم من جهة ، ومنعاً لانتشار الجراثيم فى مياه عمومية من جهة أخرى ، ثم شرعت بعد ذلك هذا النص وهو تشريع طبيعى . فتعديل القانون المصرى وإدخال هذا النص الفرنسى فيه دون أن يكون بريف مصر منشئات مثل هذه ، تعديل لم يراع فيــه إلا التقليد من ناحيته السلبية ، ولم يلاحظ بأية حال أسلوب المعيشــة فى قرى مصر وحالتها الاجتماعية وعوائد أهلها

وليست أمثال هذه الحوادث القضائية هى التى تظهر فقط أن أساس تعديل القوانين فى مصر هو التقليد ، بل مازال بعض كبار رجال القانون المصرى المسئولين يباهى ويفتخر بأن التشريع المصرى الحديث أصبح يضاهى أحدث القوانين لدى الأمم الراقية . ولكن الأمم الراقية نفسها إذا افتخرت بقوانينها فانما تفتخر بها لأنها وفق حضارتها وثقافتها ، وفق حالة شعوبها الاجتماعية والاقتصادية ؛ وبالعكس تسخر من الشعوب الأخرى التى تحاول تقليدها فى تشريعها لذات التقليد وحب الانتساب إلى الرقى والمدنية فى شكلهما الظاهرى . فكثير من الشعوب الغربية يعيب تركيا الحديثة فى اقتباسها القانون السويسرى مثلاً فى أحوال العائلة ، والقانون الفرنسى فى المسائل المدنية والتجارية — مع أن العائلة التركية لا تجتمع مع العائلة السويسرية إلا فى النسبة البشرية ؛ أما التربية ، أما الغرائز النفسية ، أما العادات المتناقلة فشتان ما بينها من اختلاف — . التقنين عند تلك الأمم الراقية ليس عملية هينة يقوم بها القانون وحده ، وإنما ساعده الأيمن فى ذلك العالم النفسى الذى يبحث فى تكييف صفات الشعب النفسية ، والعالم الاجتماعى الذى يربط ظواهر الأمة الاجتماعية بأسبابها ويقارن بينها وبين ظواهر أمة أخرى ، والعالم الاقتصادى الذى يبحث أسباب ضعف أو ارتفاع ميزان الأمة التجارى وحالة معيشتها

فالتعليم والتشريع إذن فى مصر الحديثــة كما يراه أى باحث اجتماعى نفسى أساســه التقليد أو على الأقل هو الجزء الأعظم المكون لهذا الأساس ، أما العوامل الوطنية المحلية فنصيبها فى ذلك ضئيل . وما يسمى بالحركة الوطنية لا يتجاوز الآن أن يكون حركة صورية فحسب لم تنفذ بعد إلى الألباب بل ربمــا يقال عنها أيضاً إنها تقليدية

تعليم وطنى ، تشريع وطنى وحركة وطنية فى مصر — لم تزل كلها بعد ألفاظا معانيها غير محدودة ، وخيالات لم تقابلها إلى الآن حقائق راهنة . نعم هناك المواد الأوليــة لبناء حركة تعليمية تشريعية وطنية ، هناك عادات للأمة ، هنــاك مقياس خلق — وليكن فيهما بعض نواحى النقص أو الضعف أو الانحطاط فمعالجة ذلك موكولة إلى المصلح الاجتماعى — ثم هناك دين ولغة تتمثل فيهما ثقافة الأمة الموروثة كما تتمثل فى أبى الهول وأهرام مصر مدنيتها القديمة ؛ هناك أيضاً البناء الذى ينقصه فقط الاتمام والتوسيع ، هنالك الأزهر الذى يرجع بنظره الآن إلى ألف عام مضت — وهو لم يتقوض بعد ولن يتقوض — كمصدر لهذه الثقافة الوطنية ، كمصدر لهذا التشريع الوطنى . ذلك هو فخر مصر ، فجامعة اكسفورد اللاهوتية ، جامعة اكسفورد التى هى معقل الثقافة الانكليزية القديمة الموروثة جيلاً عن جيل ، معقل لتقاليد Trdition لم تزل وستبقى فخر الشعب الانكليزى ما دام اعتزازه بالمحافظة على التقاليد

حركة وطنية ما هى إلا حركة رجعية ، وليست تقليدية ، حركة تنظر إلى تراث الماضى لتبنى عليه مجد المستقبل لا لتقوضه وتستبدل به غيره ؛ فالتبديل معناه إنشاء خلق جديد على رغم الطبيعة وســنة الــكون ، وتلك محاولة شاذة لم تخطر ولن تخطر ببال مصلح اجتماعى عاقل ، لأنها محاولة عبث وخيال لن يتحقق . تقليد وحركة وطنية شيئان لا يجتمعان فى نظر عالم اجتماعى نفسى ، لا يجتمعان فى نظر زعيم وطنى ، وإن كانا قد يجتمعان فى نظر روائى خيالى لم يلمس الحقائق بعد ؛ قد يجتمعان فى نظر من شغف « بالتجديد » والانتساب إلى البحث لا لأنه يحب الجديد ويميل إلى البحث ، بل لأنه قد لا يدرى ما هو التجديد وما هو البحث .

فى المقال التالى سأعالج العلل النفسية لهذا التقليد

محمد البهى قرقر
دكتور فى الفلسفة وعلم النفس
من جامعات ألمانيا

على هامش رحلتي الى الحجاز

في تكية الدراويش*

للدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ الشرقى بجامعة بودابست

خاتمــة

وتقع فى جانب الجبـل مغارة عميقة هائلة ليست كلها من عمل الطبيعة ، بل إنهم اجتهدوا فى توسيعها شيئاً فشيئاً ، فهذه المغارة هى فى الواقع مقبرة الدراويش يتوسطها مقام الشيخ الكبير أبو عبد الله المغاورى الذى يرجع الفضل إليه فى تأسيس تكية القاهرة ، يحف به مئات من قبور الاخوان الدراويش ، وهى متناثرة هنا وهناك فى جوف المغارة . وأسر إلى صديق بأن هؤلاء الاخوان إنما تحرروا من قيودهم الزمنية وانطلقوا إلى العالم الآخر ليظفروا بلمحات يكشف لهم فيها الغيب ، ويروا ما لا تراه العيون . بيد أننى لم أفكر كما فكرت الساعة فى أن الرجال فى أية لحظة من لحظات حياتهم هم أموات بالنسبة لتلك اللحظة ، فليس الوقت هو الذى يمضى سراعاً ، ولكننا نحن الذين نبتعد عن الزمن الصامت الثابت

وإذا ما أراد الزائر أن يهبط إلى جوف المغارة فعليه أن يخلع نعليه أولا ويودعهما فى صندوق خشبى مستطيل الحجم بجوار الباب ، كما يتحتم عليه أن يدفع بعض ما تيسر فى صندوق النذور . ولقد رأيت أن المترددين لزيارة هـذه القبور نفر يسير من سكان القاهرة الفقراء ، وأخصهم النساء اللواتى يلتمسن شيئاً من العزاء والسلوى فى وقوفهن أمام الأضرحة والقبور

خلعت وزميلى نعلينا وتأهبنا للتوغل فى داخل المغارة التى كانت شمس الصباح تنفذ من فوهتها . وبعد أن دفعنا بضعة قروش لحارس المقبرة وهو من الدراويش الأشداء ، دلفنا إلى مقصورة الشيخ الكبير مؤسس الطريقة ؛ وكان فى خارج المقبرة عدد من العجائز يرفعن أيديهن إلى السماء ويبتهلن إلى الله بالدعوات الصالحات ، وقد علمت أن فى وسع الموسرات منهن أن يدخلن إلى المقصورة ويمسسن الضريح بأيديهن للتبرك — ولكن هذا نادر — أما بقيتهن فمن الفقراء اللواتى لا يملكن قوت يومهن ، وهن يكتفين بالوقوف بباب المقصورة وأمامهن أحد الدراويش حاملا فى يده مقرعة ليفسح الطريق للزائرين

إن زيارة الأضرحة فى مصر لا تزال من العادات المتفشية بين جميع الطبقات ؛ وعلى الرغم من محاربة العلماء لها ، فليس من السهل القضاء على الخرافات الكثيرة المتأصلة فى نفوس العوام ، لأنهم يعتقدون أن بعض الأولياء تحل بركتهم بالرضى فيبرأون . ولقد قضى الوهابيون على هذه البدع والنقائص كلها فحرموا زيارة الأضرحة والتبرك بالأولياء ، واستطاعوا أن يعيدوا إلى بلادهم الشرائع الاسلامية خالية من كل شائبة . وهم يقولون إن قوة الانسان فى حد ذاتها محدودة ، وليس فى وسع أى مخلوق أن يشارك الله فى قدرته ؛ ويعتقدون أن وجود هذه الأضرحة يعيد إلى الذاكرة عبادة الأوثان التى قضى عليها الاسلام وحاربها بكل قوة

ووقع نظرنا على ضريح الشيخ المغاورى يتوسط المقصورة فى مساحة لا تقل عن تسع ياردات ، وفى طرف الضريح رأس من الحجر ملفوف عليـه قماش أخضر مطرز . وكذلك رأينا شمعتين كبيرتى الحجم موضوعتين بجوار الشاهد ، حتى خيل إلينا أنهما حارسان . ولا يجب أن يفهم من هذا أن هاتين الشمعتين موضوعتان لغرض الاضاءة ، كلا بل هما للزينة والتأنق ، لأننا شاهدنا مصباحاً متدلياً من السقف ينشر ضوءه الشاحب الخفيف على وجوه الزائرين

جلست مع صديق حسونه على القعد الحجرى المصاقب لضريح الشيخ ، نرقب عن كثب هذا المشهد المؤلم ، مشهد عشرات النسوة وهن يتمرغن فى الخارج على الحجارة ويرسلن أصواتاً مخيفة مزعجة كالنباح ، وأومأت إلى صديق أنه يستطيع أن يستخلص موضوع رواية يوضح فيها بجـلاء حالة المرأة

* عن كتاب نشره بالمجرية بعنوان « الله أكبر »

المصرية ، ثم يعرج على وصف حالة العامل المصرى والفلاح المصرى ويحلل نفسية كل منهما . فالفلاح فى مصر لا يزال يكد ويشقى ، ويلاقى من صنوف الهوان ومرارة العيش ، كما كان يعانيه زميله أيام بناء الأهرام دون تغيير أو تبديل فى أسلوب الحياة ، وما برحت الخرافات والبدع الدينية ظاهرة الأثر رغم تقدم الحضارة وانتشار العمران ، وما زالت مسيطرة على نفوس هؤلاء العوام

أجل ! إنه لولا وجودى فى القاهرة لما فكر صديقى حسونه فى أن يقصد إلى تلك الخرائب والأضرحة ، ولكنى أغريته بزيارتها حتى يتمكن من أن يجمع المواد التى يتألف منها كتاب أو رواية تضم معتقدات العوام وحالتهم الفطرية

ولا أبالغ إذا قلت إن هذه المغارة وهذا الضريح الذى يتوسطها وتلك الأضواء الخافتة المستحيية ، وهذا الشيخ الذى تفد النساء لزيارته خاشعات مسترسلات فى توسلاتهن الحارة .

كل هذه مشاهد كان لها تأثير خاص على مشاعرى . أما حارس الضريح الذى لا يأذن لأحد بالدخول إلا إذا ناوله الجمل المخصص للزيارة فانه قادنا إلى أقصى المغارة حيث ألفينا نحو ثمانى نساء يطفن بالضريح ويلمسن الكسوة بأيديهن تبركا . ولقد حدث أن شاهدت واحدة منهن وهى واقفة كالصنم ، شاخصة ببصرها نحو المصباح الذى يرسل ضوءاً خافتاً لونه أحمر ، شاهدتها جامدة كالتمثال أكثر من دقائق معدودة ، لا تبدى حراكا ولا يهتز لها جفن ، وراعنى أن ألفيت برقعها الأسود ملقى وراء ظهرها ، وكان وجهها شاحباً شحوب الموتى ، ولكن صديقى علل ذلك بأن الشمس قلما تسطع على هذه الوجوه ، لأنهن يعشن محجبات فى داخل دورهن وإذا ما خرجن أحكمن وضع البراقع السميكة التى تحجب عن وجوههن ضوء الشمس فيكتسب الجلد لون الصفرة . وكانت هناك عجوز شمطاء تلقى بجسمها على جدار الضريح كأنما الشخص المدفون أحد أحفادها ، وثالثة نحيلة طويلة ، ترتدى السواد وتلطم صدرها بكلتا يديها ، ثم لا تلبث أن ترفعهما إلى السماء وتتوسل بصوت مرتفع . ورأيت الدموع تنحدر من عينيها وقد ارتسمت على وجهها آيات الرعب والفزع ،

ثم سمعنا بعد ذلك صوتاً يخرج من صدرها ، وبعد برهة أخذت تولول وتمزق ثيابها . وكانت هذه الصرخة نذيراً لبقية النسوة اللواتى حافظن حتى هذه اللحظة على الصمت ، فانهن أسرعن إلى تقليد حركاتها والارتماء ثم التمرغ على الثرى والتدحرج حتى يصلن إلى المحراب ، وهناك تخور قواهن . أما صديقى فقد راعه هذا المشهد المؤلم الذى يصور حالة خاصة من حالات الأمراض النفسية ، فأمسك بذراعى وطلب إلىّ أن نغادر المكان سريعاً ، بيد أنه نسى أن هذه المناظر الهسترية هزتنى هزة عنيفة بحيث كدت أرتمى بدورى على الأرض ، لولا أننى قاومت هذه الرغبة وأقصيتها عن ذهنى . ما هذا البكاء ، وذلك العويل ، وشق الثياب ؟ لقد تمالكت رشدى ورحت أحدق فى وجوهن لأحاول أن أستخلص منها قصة كل واحدة ، وإليك نتيجة استنتاجى :

***

تربى الفتاة المسلمة على الطاعة والخضوع والانقياد ، لا على الحرية والصراحة فى الرأى والتفكير ، فالطاعة والانقياد هما الدعامة الأولى للتربية فى مصر ، وهذا هو السبيل للحياة المقبلة . فللوالد الحق فى أن يجبر ابنته على الزواج من الشخص الذى يختاره لها ويفرضه سيداً عليها . وليس عليها سوى الامتثال لمشيئته ، كما أن للزوج سلطة ضربها إذا عصيت له أمراً . وإذا أرادت المرأة أن تثأر لنفسها فليس أمامها سوى طريق واحد ، هو طريق المؤامرات السرية والدسائس . والعادة أن جميع الأزواج لا ينظرون إلى زوجاتهن إلا نظرة الازدراء والتحقير ، بل إن البعض منهن يعتبرن من سقط المتاع . وهذا هو السبب الذى يدعو الكثيرات منهن إلى أن يقصدن إلى تلك الأضرحة ليتوسلن إلى أصحابها ويستنجدن بكراماتهم من هول تلك الفظائع ولا يخفى ما للعواطف المكبوتة من الأثر السيء فى النفوس ، وهؤلاء اللائى يدفن رغباتهن فى صدورهن إنما يتعرضن لأفظع الآلام الهسترية ، فيعمدن إلى إقامة حفلات الزار والتوسل بزيارة الأضرحة للبرء مما يصيبهن من الأمراض العصبية

إننى لا أزال وأنا أكتب هذه السطور أتذكر صورة هذا

الرجل الذى دخل علينا ونحن بضريح الشيخ المغاورى ثم اتخذ موقفه بين الشمعتين وما كاد يرى صياح النسوة حتى راح يهز رأسه هزاً عنيفاً بطريقة منتظمة، ثم ينادى بأعلى صوته: الله، الله ... وبعد برهة كان يلتوى على الأرض التواء الحية الرقطاء وتتقلص عضلات وجهه، ويرسل صراخا كالنباح ثم يهتف قائلاً: الله أكبر! الله أكبر! حتى خيل إلينا أن صخور المقبرة أوشكت أن تلتقط منه لفظ الجلالة. وكدت أفقد رشدى من هول الموقف، وأحسست كأن حشرجة الموت تنشب مخالبها فى حلق، فأردت أن أستنجد بكل قواى غير أنى لم أستطع إلى ذلك سبيلا، فجاهدت قدر طاقتى حتى لا أسقط عن مقعدى، ولكن بلا جدوى أيضاً لأننى شعرت كأن بى مسا من الجن، وأن كابوساً قد جثم فوق صدرى، وأن العرق البارد يتحلب من وجهى. وأخيراً هدأت نفسى فغادرت المكان وهتفت بصديق أدعوه إلى الصلاة. ولكنه أجابنى بعدم قدرته على أدائها وهو لا يزال يرجف فزعا. فتركته ومضيت إلى القبلة، حيث عادت إلى طمأنينتى الأولى. وبعد الصلاة رحت أفتش عن صديق فاذا به يقف بجوار المحراب باهت اللون، ينتظرنى بفروغ صبر لنغادر هذا المكان الذى كان يرمقه بعيون مفتحة رعباً

وتأوه صديق ونحن نغادر باب المغارة، ثم أفضى إلىّ بأنه من الصعب أن يشعر بأقل ميل نحو الشرق، حيث الأضرحة والعقائد القديمة البالية والعادات المرذولة، ولكن أمه — تلك السيدة الوقور الطيبة الأخلاق — طالما شكت إلىّ إيمانه المزعزع واتجاهه نحو الغرب، وكانت تصلى من أجله عسى الله أن يرشده إلى الطريق السوى ويغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

وانطلقنا إلى حديقة المغارة وما كدنا نستقبل الهواء الطلق حتى وقع نظرنا على طائفة من السائحات الأمريكيات وهن يصغين باهتمام إلى شروح بعض التراجمة والأدلاء، فهتفت بصديق قائلا:

— هذا هو الغرب الذى تتعشقه

(تمت) عبد الكريم جرمانوس

الفلسفة الشرقيـــة
بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٢ —

النفس — طورها — التناسخ

رأيت فيما أسلفنا من مستحدثات عهد التطور تلك النظرية الفلسفية العميقة التى تقرر أن الوجود المادى باطل، ولكنه مشتمل فى داخله على جوهر سام هو وحدة الحقيقة فى كل موجود، ورأيت كذلك أن هذه النظرية لم تقتصر على كائن فى الوجود دون كائن، فهى قد تناولت الآلهة والأناس والحيوان والنبات، غير أن أهم ما يعنى الباحث فى هذا الجوهر الحق المختبئ وراء الأستار المادية إنما هو النفس

وقد عنى خاصة الهنود بها عناية شديدة منذ أقدم عهودهم بالتفكير، فقرروا أنها هى الجوهر الحق فى الانسان؛ ولذلك أطلقوا عليها اسم الانسان لأنهم اعتبروا الجسم بدونها باطلاً لا يستحق أن يدل على الانسان كما تدل عليه النفس. ولا شك أن الباحث حين يتأمل فى هذه النظرية للوهلة الأولى يلمح فيها عناصر نظرية «أفلاطون» فى النفس والمادة حيث يقرر أن النفس هى وحدها النور الخالد والحق الأسمى فى الانسان، أما الجسمان المادى فانه خيال باطل لا تطلق عليه كلمة «حقيقة» إلا تجوزاً، لحلول النفس فيه ولصوغه على نماذج المثل التى أبنا أن عناصرها مصرية

ويرى فلاسفة الهند أن النفس جاهلة بالفعل عالمة بالقوة، وأن الجهل والعلم صفتان متعاقبتان عليها باختلاف الظروف والأحوال. ولا جرم أن الهنود قد سبقوا «أرسطو» بعدة قرون الى نظرية جهل النفس بالفعل وعلمها بالقوة وفوزها بالعلم الفعلى عن طريق الكسب والتجربة، تلك النظرية التى بسطها أرسطو بسطاً واضحاً حين رد على أفلاطون القائل بأن النفس كانت عالمة بالفعل قبل أن تحل فى الأجسام المادية ثم نسيت

تلك المعارف بعد حلولها فى المادة الكثيفة ، وهى الآن لا تتعلم شيئاً جديداً ، وإنما تتذكر ما كانت قد تعلمته فى الماضى ثم نسيته

والنفس عند الهنود خالدة لا يعتورها الفناء ، لأنها هى كل ما فى الانسان من حقيقة كما أسلفنا ، ولهذا فهم لا يعتبرون الموت أكثر من تغيير ثياب النفس ومآويها ، إذ أنها هى لا تتعرض بالموت لأى شىء إلا انتقالها من مأوى الى مأوى عما يسمونه التناسخ أو التقمص . وقد أفاضت الكتب الهندية دينية وفلسفية فى هذه العقيدة أو النظرية إفاضة جعلتها كأنها وحى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهاك شيئا مما نقله لنا البيرونى خاصا بعقيدة خلود النفس وتقمصها :

قال « باسديو » لـ « أرجن » يحرضه على القتال وهما بين الصفين : « إن كنت بالقضاء السابق مؤمناً فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن معاً بموتى ولا ذاهبين ذهاباً لا رجوع معه ، فان الأرواح غير مائتة ولا متغيرة ، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الانسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة التى عقباها موت البدن ثم العود . وقال له : كيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود لا عن ولادة ولا إلى تلف وعدم ، بل هى ثابتة قائمة لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها ، ولا ماء يغصها ، ولا ريح تيبسها ، لكنها تنتقل عن بدنها إذا عتق نحو آخر ليس كذلك كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق . فما غمك لنفس لا تبيد ، ولو كانت بائدة فأحرى ألا تغتم لمفقود لا يوجد ولا يعود . فان كنت تلمح البدن دونها وتجزع لفساده فكل مولود ميت ، وكل ميت عائد ، وليس لك من كلا الأمرين شىء ، إنما هما إلى الله الذى منه جميع الأمور وإليه تصير » .

ولما قال له « أرجن » فى خلال كلامه : « كيف حاربت براهم فى كذا وهو متقدم للعالم سابق للبشر ، وأنت الآن فيما بيننا منهم معلوم الميلاد والسن ؟ » . أجابه قال : « أما قدم العهد فقد عمنى وإياك معه ، فكم مرة حيينا حقباً قد عرفت أوقاتها وخفيت عليك ، وكلما رمت المجىء للاصلاح لبست بدناً ، إذ لا وجه للكون مع الناس إلا بالتأنس » . وحكى عن ملك أنسيت اسمه أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته فى موضع لم يدفن فيه ميت قط ، وأنهم طلبوا موضعاً لذلك فأعياهم حتى وجدوا صخرة من ماء البحر ناتئة فظنوا أنهم ظفروا بالبغية . فقال لهم باسديو :

إن هذا الملك قد أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة فافعلوا ما تريدون فانه إنما قصد إعلامكم وقد قضيت حاجته »

وقال باسديو : فمن يؤمل الخلاص ويجتهد فى رفض الدنيا ثم لا يطاوعه قلبه على المبتغى أنه يثاب على عمله فى مجامع المثابين ، ولا ينال ما أراد من أجل نقصانه ، ولكنه يعود إلى الدنيا فيؤهل لقالب من جنس مخصوص بالزهادة ويوفقه إلى الالهام القدسى فى القالب الآخر بالتدرج إلى ما كان أراده فى القالب الأول ، ويأخذ قلبه فى مطاوعته ولا يزال يتصفى فى القوالب إلى أن ينال الخلاص على توالى التوالد »(١)

وقال فى كتاب « سانك » : أما من استحق الاعتلاء والثواب فانه يصير كأحد الملائكة مخالطاً للمجامع الروحانية غير محجوب من التصرف فى السموات والكون مع أهلها أو كأحد أجناس الروحانيين الثمانية . وأما من استحق السفول بالأوزار والآثام ، فانه يصير حيواناً أو نباتاً أو يتردد إلى أن يستحق ثواباً فينجو من الشدة أو يعقل ذاته فيخلى مركبه ويتخلص(٢)

قال صاحب كتاب «باتنجل» : إفراد الفكرة فى وحدانية الله يشغل المرء بالشعور بشىء غير ما اشتغل به ، ومن أراد الله أراد الخير لكافة الخلق من غير استثناء واحد بسبب ، ومن اشتغل بنفسه عما سواها لم يصنع لها نفَساً مجذوباً ولا مرسلاً . ومن بلغ هذه الغاية غلبت قوته النفسية على قوته البدنية . فمنح الاقتدار على ثمانية أشياء بحصولها يقع الاستغناء ، فمحال أن يستغنى أحد عما يعجزه واحد . تلك الثمانية هى : التمكن من تلطيف البدن حتى يخفى عن الأعين ؛ والثانى التمكن من تخفيفه حتى يستوى عنده وطء الشوك والوحل والتراب ؛ والثالث التمكن من تعظيمه حتى يراه فى صورة هائلة عجيبة ؛ والرابع التمكن من الارادات ؛ والخامس التمكن من علم ما يروم ؛ والسادس التمكن من الترؤس على أية فرقة طلب ؛ والسابع خضوع المرءوسين وطاعتهم ؛ والثامن انطواء المسافات بينه وبين المقاصد الشاسعة(٣)

تقاليد البراهمة

كتب كثير من علماء الفرنجة المحدثين المشتغلين بتاريخ

(١) انظر صفحتى ٢٥ و ٢٦ من كتاب البيرونى
(٢) انظر صفحة ٣٢ من كتاب البيرونى
(٣) انظر صفحة ٣٤ من الكتاب المذكور

الفلسفة حول تقاليد البراهمة وطقوسهم الدينيـة ، فهممت بأن ألخص لك هنا ترجمة ما كتبوه من هذه التقاليد على نحو ما فعلت فى الطقوس المصرية ، ولكنى وجدت ما كتبه أولئك العلماء ليس إلا هيكلا عظمياً إلى جانب ما نقله أبو الريحان البيرونى من هذه التقاليد ، فلم يسعنى إلا العدول عن الناقص إلى الكامل أو القريب من الكمال . وكنت أحب أن ألخص هـذا النص فى عبارات من عندى لكى لا أكثر من النقل عن الغير ، ولكن ضرورة الاصطلاحات الفنية من جهة وخلو كلام البيرونى من الحشو فى هذه النقطة من جهة أخرى قد ألجآنى إلى الاتيان بالنص لتحقق الفائدة المرجوة . وهاك ما قاله البيرونى عن هذه التقاليد :

عمر « البرهمن » بعد مضى سبع سنين منه منقسم لأربعة أقسام : فأول القسم الأول هو السنة الثامنة يجتمع إليه البراهمة لتنبيهه وتعريفه الواجبات عليه وتوصيته بالتزامها واعتناقها مادام حياً ثم يشدون وسـطه بزنار ويقلدونه زوجا من « جنجوى » وهو خيط مفتول من تسع قوى ، وفرد ثالث معمول من ثوب يأخذه من عاتقه الأيسر إلى جانبه الأيمن ويعطى قضيباً يمسكه وخاتم حشيشة يسمى « دَرْبهى » يتختم به فى البنصر اليمنى ، ويسمى هذا الخاتم : « بيـتر » والغرض فيه التيمن والبركة فى عطاياه من تلك اليد ، والتشديد فيه دون التشديد فى أمر « جنجوى » فان جنجوى مما لا يفارقه ألبتة ، فان وضعه حتى أكل أو قضى حاجته خالياً عنه ، كان بذلك مذنباً لا يمحصه عنه غير الكفارة بصوم أو صدقة . وقد دخل فى القسم الأول إلى السـنة الخامسة والعشرين من سنيه ، ووجدت ذلك فى « بشن بران » إلى السنة الثامنة والأربعين . والذى يجب عليه فيها هو أن يتزهد ويجعل الأرض وطاءه ويقبل على تعلم « بيذ » وتفسيره وعلم الكلام والشريعة من أستاذ يخدمه آناء ليله ونهاره ، ويغتسل كل يوم ثلاث مرات ، ويقيم قربان النار فى طرفى النهار ، ويسجد لأستاذه بعد القربان ، ويصوم يوما ويفطر يوماً مع الامتناع عن اللحم أصلاً ، ويكون مقامه فى دار الأستاذ ويخرج منها للسؤال والكدية من خمسة بيوت فقط كل يوم مرة عنـد الظهيرة أو المساء ، فما وجد من صدقة وضعه بين يدى أستاذه ، ليتخير منه ما يريد ثم يأذن له فى الباقى فيتقوت بمـا فضل منه ويحمل إلى النار حطبها من شجرتى : « بلاس » و « دوب » لعمل القربان ؛ فالنار عندهم معظمة وبالأنوار مقترنة ، وكذلك عند سائر الأمم فقد كانوا يرون تقبل القربان بنزول النار عليه ولم يثنهم عنها عبادة أصنام أو كواكب أو بقر وحمير أو صور

وأما القسم الثانى فهو من السنة الخامسة والعشرين إلى الخمسين ، وفى « بشن بران » بدل هذه الخمسين سبعون ، وفيه يأذن له الأستاذ فى التأهل فيتزوج ويقيم « الـكذخداهية » ، ويقصد النسل ، على ألا يطأ امرأته فى الشهر أكثر من مرة عقب تطهر المرأة من الحيض ، ولا يجوز له أن يتزوج بامرأة قد جاوز سنها اثنتى عشرة سنة ، ويكون معاشه إما من تعليم « البراهمة وكشتر » وما يصل إليه منه فعلى وجه الاكرام لا على وجه الأجرة ، وإما من هدية تهدى إليه بسبب ما يعمل لغيره من قرابين النار ، وإما بسؤال من الملوك والكبار من غير إلحاح منه فى الطلب أو كراهة من المعطى فلا يزال يكون فى دور هؤلاء (برهمن) يقيم فيها أمور الدين وأعمال الخير ، ويلقب : « بِرْهِتُ » ، وإما من شىء يجتنيه من الشجر أو يلتقطه من الأرض ، ويجوز أن يضرب بده فى التجارة بالثياب وبالفوفل ، وإن لم يتولها واتجر له « بيش » كان أفضل ، لأن التجارة فى الأصل محظورة بسبب ما يداخلها من الغش والكذب ، وإنمـا رخص فيها للضرورة ، إذ لا بد منها ، وليس يلزم البرهمن للملوك ما يلزم غـيره لهم من الضرائب والوظائف . فأما التتابع بالدواب والبقر والأصباغ والانتفاع بالربا فانه محرم عليه ، وصبغ النيل من بين الأصباغ نجس ، وإذا مس جسده وجب عليه الاغتسال ولا يزال يقاس ويقرأ على النار ما هو مرسوم لها

وأما القسم الثالث ، فهو من السنة الخمسين إلى الخامسة والسبعين ، وفى « بشن » بدل الخمسة والسبعين تسعون ، وفى هذا القسم يتزهد ويخرج من الـكذخداهية ويسلمها والزوجة إلى أولاده إن لم تصحبه إلى الأصحار ، ويستبهر خارج العمران على السيرة التى سارها فى القسم الأول ، ولا يستكن بسقف ولا يلبس إلا ما يوارى سوءته من لحاء الشجر ، ولا ينام إلا على الأرض بغير وطاء ، ولا يتغذى إلا بالثمار وبالنبات وأصوله ، ويطول الشعر ولا يتدهن

وأما القسم الرابع فهو إلى آخر العمر يلبس فيه لباساً أحمر ويأخذ بيده قضيباً ويقبل على الفكرة وتجريد القلب من

الصداقات والمداوات ، ورفض الشهوة والحرص والغضب ، ولا يصاحب أحداً ألبتة ، فان قصد موضعاً ذا فضل طلباً للثواب لم يقم فى طريقه فى قرية أكثر من يوم ، وفى بلد أكثر من خمسة أيام ، وإن دفع أحد إليه شيئاً لم يترك منه للغد بقية ، ولم يكن له غير الدؤوب على شرائط الطريق المؤدى إلى الخلاص والوصول إلى « موكش » الذى لا رجوع فيه إلى الدنيا

وأما ما يلزمه فى جميع عمره بالعموم فهو من أعمال البر وإعطاء الصدقة وأخذها ، فان ما يعطى البراهمة راجع إلى الآباء ودوام القراءة وعمل القرابين والقيام على نار يوقدها ويقرب لها ويخدمها ويحفظها من الانطفاء ليحرق بها بعد موته ، واسمها « هوم » ، والاغتسال كل يوم ثلاث مرات فى سند الطلوع وهو الفجر ، وفى سند الغروب وهو الشفق ، وفى نصف النهار بينهما ، أما بالغداة فمن أجل نوم الليل واسترخاء المنافذ فيه فيكون طهراً من كائن النجاسة واستعداداً للصلاة ، والصلاة هى تسبيح وتمجيد وسجدة برسمهم على الابهامين من الراحتين الملتصقتين نحو الشمس فانها القبلة أينما كانت خلا الجنوب ، فليس يعمل شىء من أعمال الخير نحو هذه الجهة ، ولا يتقدم إليها إلا فى كل شىء ردىء . وأما وقت زوال الشمس عن نصف النهار فانه مرشح لاكتساب الأجر ، فيجب أن يكون فيه ظاهراً ، والمساء وقت العشاء والصلاة ، ويجوز أن يفعلهما فيه من غير اغتسال ، فليس أمر الاغتسال الثالث مثل الأول والثانى فى التأكد ، وإنما الاغتسال الواجب عليه بالليل وفى أوقات الكسوفات بسبب إقامة شرائطها وقرابينها . وتغذى البرهمن فى جميع عمره فى اليوم مرتين عند الظهيرة والعتمة ، فاذا أراد الطعام ابتدأ باقرار الصدقة منه لنفر أو نفرين وخاصة للبراهمة المتوحشين الذين يجيئون وقت العصر للسؤال ، فان التغافل عن إطعامهم إثم عظيم ، ثم للبهائم والطير وللنار ويسبح على الباقى ويأكله ، وما فضل منه فيضعه خارج الدار ولا يقرب منه إذ لا يحل له ، وإنما هو لمن سنح واتفق من محتاج إليه ، سواء كان إنساناً أو طائراً أو كلباً أو غيره ، ويجب أن تكون آنية مائه على حدة وإلا كسرت ، وكذلك آلات طعامه . وقد رأيت من البراهمة من جواز مؤاكلة أقاربه فى قصعة واحدة وأنكر ذلك سائرهم [1]

(يتبع) محمد غلاب

(1) انظر صفحات ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ من كتاب البيرونى

من صور الشارع :

العدالة

للأستاذ أمجد الطرابلسى

اللّيلُ داجٍ وأعاصيرُهُ ... مجنونةٌ تضحكُ منه الرّعودْ
والبرقُ فى آفاقِهِ لاهبٌ ... كشعلةِ الغيظِ بصدرِ الحسودْ
والمطرُ الدّفّاقُ فى لحنِهِ ... مسترسلٍ يُبدئُهُ أو يُعيد
يصافحُ النهرَ فتعلو لهُ ... نغمةُ نايٍ وأرانينُ عود
والشارعُ الجَهْمُ مصابيحُهُ ... كأعينِ الذؤبانِ فوق النجود
قفْرٌ منَ الناسِ ، فلا سيّدٌ ... يخطرُ مختالاً ولا من مَسود
إلا عرابيدُ هُنا أو هنا ... كأنما أرجُلُهم فى القيود
يبغونَ مَنجى من مُلِثِّ الحيا ... لولا خُمارٌ مُستبِدٌّ عنيد
ونام ... إلا مرقصاً فاجراً ... يقظانَ لا يعرفُ معنى الهجود
نهارُهُ الليلُ ، وسُمّارُهُ ... كُثْرٌ إذا أغفى الغبىُّ البليد
تمزّقُ الدجيةَ أنوارُهُ ... كأنها أنوار عُرسٍ وعيد
وتطربُ الشارعَ أنغامُهُ ... رَنّانةٌ صخّابةٌ من بعيد
دخلته ... يا حسنَه منظراً ! ... راحٌ ورَوْحٌ ولحونٌ وغيد
من كلِّ خَوْدٍ خلقَتْ فتنةً ... لحظا وقدًّا ونهوداً وجيد
وأهوجٍ فى عنفوانِ الصِّبا ... صريعِ كأسٍ أو مُعنًّى خدود
والناسُ فى رقصٍ وفى نَشْوةٍ ... حولَ دُمى الحسنِ قيامٌ قُعود
ما منهمُ إلا فتًى عابثٌ ... ما فيهمُ إلا الضَّحوكُ السّعيد
كأنّهمْ فى فرحٍ دائمٍ ... مُذ نزلوا الأرضَ وعيشٍ رغيد

***

يا شاكياً أوصابَ هذى الدُّنا ... لا زلتَ إلفاً للضَّنى والجمود
أتدّعى البؤسَ وتشكو الورى ... ورهنُ كفيكَ المنى والسُّعود
أليس فوقَ الأرضِ غيرُ الأسى ... أما ترى عيناك غيرَ اللحود
هذى الأغاريدُ وهذا الهوى ... وذلك الحسنُ وتلك القُدود
وهذه الأقداحُ فوّارةً ... والدلُّ والسِّحرُ وخفقُ النهود
أليسَ فيها ما يَبُلُّ الصَّدى ... ويُفرِحُ القلبَ المعنى العميد

***

عدتُ إلى الشارع نَضْرَ المنى   والكونُ فى عَينىَّ خلقٌ جديد
تقولُ لى النفسُ وقد أُنسِيَتْ   ما أَلِفَتْهُ من شقاء تليد :
أليسَ حقًّا صفو هٰذى الدُّنا ؟   أليسَ لى من خيرِها ما أريد ؟

***

وسرتُ نشوانَ حليفَ الرِّضى   يغمُرُ جَفنىَّ جمالُ الوجود
فرحان . . . لولا منظرٌ لاحَ لى   أماتَ فى قلبى الحبورَ الوليدْ
طفلٌ على وجهِ الثرى نائمٌ   كأنهُ الجيفةُ فوقَ الصَّعيد
تحسبُهُ فى بؤسهِ كوكباً   تحت نثاراتٍ من السُّحْبِ سودْ
تدفعُ عنه البردَ أسمالُهُ   لو تدفعُ الأقدارَ كفُّ العبيد !

***

وجاءه الشُّرْطىُّ مستأسداً   يحرِمُهُ هـذا الرقادَ الشَّرودْ
أليسَ فى مَنظرِهِ غُصَّةٌ   لسادةِ الأرضِ عبيدِ النقود ؟
أما على الدولة غَسْلُ الثرى   من الفُضالاتِ وما لا يفيدْ ؟ !
أيقظهُ من نومِهِ هاتفاً   بلهجة الآمرِ ربِّ البنود
« هيّا إلى دارِكَ . . . . هيّا أفِقْ !
فى الدارِ لا فوقَ الرَّصيفِ المجود ! »

***

الدّار ! ما الدار ؟ وما شأنُها ؟   ما الأهلُ ؟ ما آباؤهُ ؟ ما الجدود ؟
وهل ينامُ الناسُ فى دورهم   أم مثلُهُ فوق الصّفا والجليد ؟
وهل له بين الصّروح العُلى   قصرٌ مشيدٌ ، أو مَقرٌّ وطيد ؟
يا ناسُ . . . دُلوه على مقبرٍ   وَهْوَ به راضٍ شكورٌ سعيد !!

***

يا نعمةَ الدنيا ويا عدلها !   ماذا جنى هذا البرىء الشهيد ؟
أماله مُتسَعٌ ناعمٌ   وسْطَ المقاصيرِ وفوقَ المهود ؟
ضاقَ الثرى عنه وأترابُهُ   بين الرياحين وفوق الوُرود
أليسَ حُلْما صفو هٰذى الدنا   وفوقها هذا الشقى الشريد ! ؟

***

يا طفلُ عِشْ فوق الثرى جائعاً   وقضِّ أيامَك كلباً طريد !
ليَهنِكَ الفقرُ وويلاتُهُ   فالفقرُ نُبْلٌ وسموٌّ وجود !
إن جعتَ فالمجدُ طعامٌ . . وإن   ظمِئتَ فالنبلُ شراب برود !
لا تحسدِ الناسَ على حظِّهم   فالأم الناس شقىٌّ حسود !
ولا تكن لصا ولا مُجْرِماً   فإن عقباكَ العذابَ المبيدْ !
ولا تَدَعْ للغيظ من مَسْرَب   إلى حناياكَ ولا للحقود !
واربع على الذلِّ ولا تأبه   واسجُدْ لمن يطلبُ منك السجودْ
فغاصبُ الأموالِ حرٌّ بها   يبخلُ إن شاء بها أو يجودْ !
مالكَ والدنيا ولذاتها   ألم تقدَّرْ لكَ دارُ الخلودْ . . ! ؟

***

إيهِ خروفَ الذبحِ متْ يائساً   فالكونُ للعقبان أو للأسود !
أو فاتخذ بين الورى مخلباً   كمخلب الليثِ ونابا حديد
ثم انتزع حقك مستنسراً   ولا تدعه لُعبةً للقرود ! . . .

(دمشق)   أمجد الطرابلسى

عناد ..!!

خطبت اليه عروس الخيال   أزف اليها المنى الساميه
أزف إليها أغانى السماء   وأمهرها مهجتى الغاليه
وأجعل حبى لهـا هيكلا   تكون صلاتى به ناميه
غلائلها من ضياء النجوم   وأزرارها القبلة الواريه
منازلها حيث شاء النعيم   وأبوابها فى يدى الحانيه
وأحلامها طول أيامها   كما تحلم الزهرة الراويه
تطوف عليها طواف السلام   وترقص رقصاتها العاريه
أفىء إليها بشوقى الوفير   فتلقى به نعمة العافيه
نظل كطيرين فى روضة   أليفين فى عيشة راضيه
نطير كروحين فى جنة   نعانق أحلامنا الظاميه
تقبل خد الصباح المنير   ونرقص للنسمة الساريه
وأنت تبارك أشواقنا   وتبنى لنا العش فى الداليه
فندعو بكل أهازيجنا   لمنشىء جنتنا الدانيه
وننشد أنغامك السامعات   ونشكر آلاءك الضافيه
حنانك لا أنت قارون فى   خزائنه الأنهر الجاريه
ولا أنت (فورد) ولا شبهه   ولا أنا ذو راحة خاليه
فهذا وذاك رهين الفناء   وكل سيقضى بلا باقيه
يعدِّد آلامه ذو الغنى   كعدِّ دنانيره الفانيه
ولكن قلباً كبير الغرام   يعيش الحياة . . . الثانيه

(الكرك)   حسنى فريز



ميكلانجلـــو

العبقرية الملهمة

MICHELANGELO

للدكتور أحمد موسى

خاتمـــــة

أما المرحلة الثانية التي تنحصر بين سـنة ١٥٠٥ ، ١٥٣٥ فهي تبدأ عندما رحل إلى روما وأقام فيها ، حيث أتم أبرز عمل في حياته ، ألا وهو تصوير السقف السكستيني بالفاتيكان على الجص (الفرسكو) ، فظل من مايو سـنة ١٥٠٨ إلى خريف سنة ١٥١٢ منكباً على العمل لا يعاونه مساعد ولا يتعرف إلى غيره ؛ الأمر الذي عاد عليه بشيء من حدة الأعصاب يؤوله غير عارفيه بكراهيته للناس

وهذا السقف مقبب يتوسطه حقل يكاد يكون مسطحاً ، وجنوبه مقببة أيضاً ولـكن بشكل سيمتريكي متناظر ، يتخلل هذه الجوانب نوافذ على هيئة أهـلّـة

ولا بد أن تؤدى بنا الرغبة في تفهم إنتاج ميكلانجلو تفهماً صحيحاً إلى تقسيم تصويره هذا السقف إلى أربع شعب : إحداها تتناول المصورات الدينية التي صورها في وسط السقف في تسعة حقول عدا صور الجوانب التي منها أربع كبيرة والأخرى صغيرة ؛ محاطة كلها باطارات وجامات من الشبهان (البرونز) ؛ والأخرى تمثل مناظر تاريخية للعهد القديم كخلق الدنيا ، وخلق آدم وحواء ، ونوح والطوفان ، والخالق يبدى إرادته ، وتناولت غيرها خلق النور من الظلام ، وخلق الشمس والقمر والنبات ، وخلق الحيوان ، وخلق آدم . وفي هذه القطعة عبر عن نهاية النهايات أبدع تعبير يمكن أن يتصوره ويخرجه فنان ، وخلق حواء والخطيئة والطرد من الجنة ، وفي هذه أجاد في تمثيل قوة الارادة عند حواء ، والطوفان



جزء من صورة الطوفان — كابلا سكستينا

وله صور على الجوانب المقببة لا يتسع المجال لذكرها جميعاً ، ولـكني أقتصر على ذكر أهمها من الصور التاريخية ، التي من أروعها صور الأنبياء والـكاهنات وهي تقع بين فتحات النوافذ وقد أجاد تصويرها وكلها ترمى إلى نشر رسالة الخلاص والتبشير بانتهاء الجاهلية واليهودية . وأستطيع أن أقرر أن هذه المناظر أجمل وأعظم ما أبدعه فنان على مر القرون ، فهي الـكعبة التي يحج إليها كل فنان حيث يقف ناظراً مستلهماً ، فيذهب به خياله إلى التسبيح بذكر العلي القدير الذي جعل من بين خلقه من استطاع الوصول بالفن إلى هذا الـكمال . يقف المشاهد أمام هذا الخلق الرائع والجمال السامي والنبل العظيم كما لو كان في حلم هنيء فيشعر دون إرادة منـه بعبيق العبادة يحيط به ، ونقاوة القلب

وصفاء الضمير يغمر كيانه ، ويحس أنه قد تجرد من حاجات النفس المادية ، ثم لا يلبث أن يرجع ببصره مطأطىء الرأس أمام العظمة الآلهية التي تمثلت خير تمثيل في إبداع العبقري الملهم

ولا بأس من أن نعرج قليلاً على ذكر بعض هذه المصورات التي أرى أن أهم ما يجب تعريفه للقارىء منها هو : صورة جرمياس وقد غطت وجهه تجاعيد الهم والتفكير والكرب ، وصورة يونس والحوت . وصورة كاهنة عجوز ساحرة

كما أن له صوراً قصد بها التحلية ولم يسمها وهي تشمل رجالاً وأطفالاً ، وقد عرت جسوم الأولين ، ويستوقف المتأمل في هذه الصور جمال التفاصيل وقوة الاخراج ، والابداع في إبراز الحركات الجسمانية كاملة قوية مما يجعلها تنبض بالحياة وتتحدث عن عظمة الفن



خلق الشمس والقمر — كابيلا سكستينا

ومن هذا نرى أن السقف السكستيني هو أعظم إنتاج وصل إليه ميكيلانجلو ، ليس في هذه المرحلة الثانية فقط ؛ بل في حياته كلها ، لأنها مثلت القدرة الفائقة في الخلق الفني الأسمى والتفوق الرائع في التعبير عن المثل الأعلى ، كما تعرفنا بعينيه المحيطتين اللتين نظر بهما إلى الحياة فتغلغل إلى كنهها

وسافر بعد هـذا إلى فلورنسا وهناك لا نعرف له إلا صورة واحدة أسماها « ليدا والبجعة » وهي مصورة بطريقة تمبرا Tempera (راجع المقال السابق) أتمها سنة ١٥٣٠ ، وللأسف توجد في أسوأ حال بالناشيونال جاليري بلندن

وكان أهم عمل له في المرحلة الثالثة صورته « ليوم القيامة » وهي هائلة عملها بالفرسكو على حائط الهيكل السكيتيني من سنة ١٥٣٥ إلى سنة ١٥٤١ ، وتشمل السيد المسيح كقاضي العالم وإلى جواره مريم وحوله القديسون وبالقرب منه صورتان رسمت كل منهما في نصف دائرة ممثلة مجموعات من الملائكة

أما في الوسط فيوجد سبعة ملائكة رفع الأتقياء إلى النعيم وعلى اليسار الالقاء بالمغضوب عليهم في الجحيم ، وهنا نرى عبقرية ميكيلانجلو قد بدت في أقوى مظاهرها

وتحت هـذه المناظر صورة أخرى تمثل البعث وغيره من المناظر الدينية ، كلها عظيمة الانشاء قوية الاخراج ، وفيها يتمثل العنف والسيطرة الكاملة على التصوير الجسماني في أروع مظاهره وأبدع حركاته ، وقد تحقق باخراجها على يد ميكيلانجلو حلم الفنانين والمثل الأعلى لمؤرخي الفن الذين يعتبرون خلقه وإبداعه أسمى مقياس يمكن الوصول إليه ؛ ولا سيما أنه قد تحرر في كثير من هذه المناظر من قيود الكنيسة وتعاليمها ، طامحاً نحو السمو والكمال الفني المنشود ، فخرج عمله شعراً منثوراً من الناحية المعنوية ، وتصويراً عظيماً من الناحية الفنية



صورة نبي — كابيلا سكستينا

والناظر إلى هذه الصور يرى عليها شيئاً من اللون الدخاني قد غلّبه على كل ألوانها مرور مئات السنين وكثرة إشعال البخور داخل الكنيسة

أما آخر أعمـاله التصويرية فهو مجموعة المصورات المسماة « باولينا » وهي أيضاً بالفاتيكان بروما . وأهمها صورتان عظيمتان



شيخ الأزهر وقت مقدم النابلسي

ذكرت ضمن مقالى المنشور بالرسالة (عدد ٢٠٨) عن رحلة الشيخ عبد الغنى النابلسى فى مصر فى أواخر القرن السابع عشر واقعة وردت على لسان الرحالة أكثر من مرة، وهى أن شيخ الأزهر وقت مقدمه إلى القاهرة فى أوائل سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) كان «الشيخ منصور النوفى الأزهرى الشافعى الضرير»؛ فعلق الأستاذ عبد المتعال الصعيدى على هذه الواقعة (الرسالة رقم ٢٠٩) بكلمة أبدى فيها ارتيابه فى صحتها، وذكر نقلاً عن الخطط التوفيقية أن شيخ الأزهر وقت مقدم النابلسى لم يكن سوى الشيخ محمد النشرتى المالكى، وأنه تولى مشيخته من سنة ١١٠١ هـ إلى سنة ١١٢٠ هـ

وقد رجع الأستاذ الصعيدى بنفسه إلى رحلة النابلسى (الحقيقة والمجاز)، فألفى ما نقلته عنه صحيحاً، وأنه أشار إلى الشيخ منصور النوفى ووصفه أكثر من مرة بأنه شيخ الأزهر ولكنه مع ذلك يصر على ارتيابه فى صحة هذا الوصف

ولم أكن أقصد حين كتبت مقالى عن رحلة النابلسى أن أحقق من كان شيخ الأزهر فى ذلك الحين، فهذه مسألة لم تكن ذات شأن فى موضوعى، وإنما قصدت قبل كل شىء أن أستخلص من هذه الرحلة الصورة التى يقدمها لنا الرحالة عن مصر ومجتمعها فى ذلك الحين؛ على أنى مع كل ما نقله الأستاذ الصعيدى عن المصادر المتأخرة (مثل الجبرتى والخطط التوفيقية) لا زلت أميل إلى الأخذ بقول النابلسى من أن الشيخ منصور الأزهرى كان شيخاً للأزهر حسبما يقدمه لنا، أولاً لأن هذا القول هو قول معاصر وشاهد عيان عرف الشيخ وحادثه بنفسه، ولست أعتقد أنه يسبغ عليه هذه الصفة عفواً، وثانياً لأن الشيخ النابلسى يقدم إلينا بياناً صحيحاً عن أكابر الحكام والمشايخ فى مصر وقت مقدمه، ومن الصعب أن نعتقد أنه يخطئ فى تعرف شيخ الأزهر وهو من الشخصيات البارزة التى يهمه أن يتصل بها أما كون الشيخ النابلسى يسبغ هذه الصفة على شيخ آخر

كبيرتان، الأولى لظهور المسيح، والثانية لصلب بطرس (١٥٤٥ — ١٥٥٠) وهما لا تقلان روعة عما سبقهما، ولو أن طريقة الاخراج كانت على شىء يسير من التكلف، أما الثانية فقد ظهرت واضحة جلية فى الكيفية التى سار عليها فى تصوير الأجسام الماثلة التى بدا عليها العنف والحركة

ومهما حاولنا الوصف فان مشاهدة هذه المناظر مما لا بد منه لمن يريد الوقوف على مدى القوى البشرية الموهوبة من الخالق ومدى ما يمكن الوصول إليه من عمل فنى رائع، إن قدّر لنا أن نفهمه استطعنا أن نستمتع بناحية من أسمى وأروع نواحى الاستمتاع الانسانى

وله أيضاً فى هذه المرحلة صورتان تخطيطيتان لمشوقته فيتوريا كولونا، ويتجلى فيهما تأثره بالدين، كما نلاحظ من عنايته الفائقة ما كان لهذه المشوقة من قدر فى نفسه وأثر عليها، أما صورته لمريم والمسيح مأخوذاً من الصلب، وصورته للمسيح مصلوباً فان أصولهما مجهولة للآن

وتكاد تكون جامعة أكسفورد هى الفريدة التى حصلت على مجموعة جيدة من تصويره الخطى، ويعقب ذلك جاليرى بوناروتى فى أوفيسين والمتحف البريطانى ومتحف اللوفر

تلك صفحة مبسطة لحياة رجل خالد اعتبره الفن إماماً والتاريخ مقياساً، فمحاولة الاحاطة به هنا متعذرة؛ لأن إبداعه الفنى وتحليل آثاره المطبعة لا يحيط بها إلا ضخم المجلدات

أحمد موسى

وكون المصادر المتأخرة تذكر أن شيخ الأزهر فى ذلك الحين هو الشيخ النشرتى فقد يمكن تفسيره بأن الشيخ المنوفى لم يمكث فى المشيخة سوى أشهر وربما أسابيع قلائل ، وعلى ذلك فقد أغفل المتأخرون ذكره فى ثبت مشايخ الأزهر

وعلى أى حال فانه مما يصعب على المؤرخ إغفاله قول معاصر وعلامة ثقة كالشيخ النابلسى

محمد عبد الله عنان

بحوث طبية هامة لطبيب مصرى :

رفع الدكتور أنيس أنسى بك الطبيب الباتولوجى الأول عامل وزارة الصحة إلى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا نتيجة بحث علمى قام به أخيراً وتناول فيه موضوعين : الأول خاص بسبب تضخم الطحال فى القطر المصرى ووادى النيل بوجه عام ؛ وقد سبق لباحثين كثيرين أن بحثوا فى هذا الموضوع منذ أربعين سنة فلم يصلوا إلى نتيجة حاسمة ، وتضاربت الآراء العلمية حول سبب « تضخم الطحال » فقال بعضهم : إن سببه « ميكروب » مجهول ، وقال آخرون : إنه نوع من الفطريات . الخ . غير أن الدكتور أنسى بك اهتدى إلى أن السبب الحقيقى لهذا التضخم هو بويضة البلهارسيا « المرض المتوطن فى مصر ووادى النيل » . وقد اعتمدت الجمعية الملكية البريطانية لطب المناطق الحارة والصحة العامة هذا البحث فى جلستها المنعقدة بتاريخ ٢٥ أبريل سنة ١٩٣٧ ونشرته بمجلتها

أما البحث الآخر فقد اقترن بقيام الدكتور أنسى بك بعدة إحصاءات لعمليات الزائدة الدودية فاهتدى إلى أن معظمها أو ما يقرب من ٦٠ ٪ منها راجع إلى التهاب حاد ناشىء عن الاصابة بالبلهارسيا أيضاً وخاصة فى المديريات الشمالية ، وقد بين أنسى بك أنه لا ضرورة لاجراء العملية لهؤلاء المصابين بل يكتفى بعلاج سببها وهو مرض البلهارسيا . ثم أوضح فى بحثه كيفية الوصول إلى التمييز بين التهاب الزائدة الدودية الصديدى الذى ينتهى غالباً بالتهاب البريتون والوفاة ، وبين التهاب الزائدة الدودية الناشىء عن إصابة البلهارسيا . فكان هذا أول بحث من نوعه فى عالم الطب . وقد قامت الجمعية الدولية للجراحة فى مؤتمرها العاشر ببحث هذه النتائج فاعتمدت ما انتهى إليه الدكتور أنسى بك ونشرته على نفقتها باعتباره استكشافاً جديداً لم يسبق المؤلف المصرى إليه أحد

فى الأكاديمية الفرنسية :

احتفلت الأكاديمية الفرنسية أخيراً باستقبال عضو جديد فيها هو الكاتب القصصى والصحفى الكبير إدمون جالو E. Jaloux ؛ وقد انتخب للكرسى الذى خلا بوفاة الشاعر والقصصى والنقادة الأشهر بول بورجيه الذى توفى منذ بضعة أشهر ، وكان بورجيه يشغل هذا الكرسى منذ أكثر من أربعين عاماً ؛ وقد افتتح إدمون جالو عهده فى الأكاديمية كالمعتاد بالقاء حديث طويل عن سلفه وعن حياته الأدبية ومميزاته ومواهبه ؛ وكان أهم ما فى حديثه أن بورجيه قد تأثر فى حياته بحادثين عظيمين طبعا حياته كلها بطابع خاص ؛ أولهما وفاة والدته وهو طفل وزواج والده من سيدة أخرى ، وثانيهما أنه رأى حكومة الكومون فى باريس (سنة ١٨٧١) وقد أثر الحادث الأول فى نفسيته أعظم تأثير ، واستطاع أن يدرس خلاله تلك العاطفة التى كثيراً ما ينوه بها فى قصصه وهى : « الغيرة »

وإدمون جالو من كتاب الجنوب فى فرنسا ، وهو مرسيلى الأصل ، وله عدة روايات وقصص ممتعة ، وهو صحفى يكتب فى كبريات الصحف الفرنسية فصولا أدبية مختلفة

وطن قومى للنور

اختار النوَر (الغجر) فى بولونيا لهم ملكا جديداً ، ومنهم فى بولونيا بضعة عشر ألفاً مفرقين فى سائر أنحائها ؛ وقد صرح الملك الجديد بأنه سيعمل على حل مسألة الوطن القومى للنور وسيزور السنيور موسولينى لأجل هذه الغاية ، وربما استطاع النور أن يجدوا لهم وطناً قومياً فى الحبشة يلم شعثهم ويجمع صفوفهم ؛ وهذه مسألة قديمة تبحثها بعض الجمعيات السياسية فى انكلترا وألمانيا منذ نحو قرن ، بيد أنها لم تعمل شيئاً لحلها . على أن النور استطاعوا خلال القرن الأخير أن يحصلوا على حقوق المواطنين فى معظم البلاد الأوربية مثل النمسا والمجر ورومانيا . وقد أخذ كثيرون منهم يهجرون حياة البدو ، ويستقرون على قواعد الحضارة الحديثة ، واندمج الكثير منهم فى المجتمع الحديث

ونسوا لغتهم وعاداتهم القديمة ؛ وقد حصل النور فى بلاد البلقان على حقوقهم السياسية بمقتضى معاهدة برلين فى سنة ١٨٧٨ ؛ وفى سنة ١٩٠٦ عقدوا أول مؤتمر من النور فى صوفيا وطوالب فيه بمنح الحقوق السياسية لنور تركيا ؛ وخطب يومئذ رئيس النور رمضان عليف ، وحثهم على المطالبة بالحقوق السياسية

والآن يرى النور أن يقوموا بحركة جديدة لانشاء وطن قومى خاص بهم على مثل ما فعل اليهود فى فلسطين . ومن المستحيل أن يعرف عدد النور ، بيد أنهم يبلغون فى أوربا وما حولها نحو ثلاثة ملايين

متحف للآلات الموسيقية

افتتح متحف فى نوبيرت من أعمال نيرمبرج (ألمانيا) يحتوى على مجموعة فريدة من الآلات الموسيقية هى أتم مجموعة من نوعها ، وتضم هذه المجموعة نماذج من الآلات الموسيقية فى القرون الخمسة الأخيرة ، وكلها فى حالة جيدة من الحفظ ويمكن العزف عليها ، وهى بذلك تقدم إلى الموسيقيين ومؤرخى الموسيقى مادة بديعة للدرس والتأمل ، وبواسطتها يمكن استعراض التطورات المختلفة فى تركيب البيانو الذى أصبح أداة العصر وكيف أصبح على ما هو عليه الآن ، ومن النماذج المعروضة بهذا المتحف معزف (اكلافسان) صنع فى سنة ١٧٠٣ ذو ثلاث أنغام وكان ملكا لآل مديتشى سادة فلورنس ، وبيانو صنع سنة ١٧٤٠ فى أوبرزنتوفن من أعمال بلفاريا ، وبيانو آخر كان ملكا لأمير الموسيق موتسارت من صنع كيرنباخ بعايانس ، ونماذج أخرى لآلات مختلفة ترجع إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر

موسم الفن والموسيقى فى سالزبورج

يقام موسم الفن والموسيقى فى مدينة سالزبورج (النمسا) هذا العام بين ٢٤ يولية و ٣١ أغسطس ، وقد غدا هذا الموسم حادثاً فنياً عالمياً يجلب إلى سالزبورج فى كل عام آلاف الزائرين من مختلف الأقطار ، ويشرف على إحياء هذا الموسم كالعادة أقطاب الفن العالميون نمسويون وغيرهم ، مثل أرتورو توسكانينى ، وبرونو فالتر ، وماكس رينهارت ، وهانس كنبر تسبوش ، ومعروف أن سالزبورج هى موطن موتسارت ، ولهذا تحظى أوبراته بعناية خاصة ، وسيمثل منها هذا الفصل « دون جوان » « والزمار المسحور » ، « ولبل فيجارد » ، وتمثل أوبرات خالدة أخرى مثل « الأساتذة المغنون » لفاجنر ، و« فيدليو » لفان بتهوفن ، و« فالستاف » لفيردى ؛ وأوبرات أخرى لريخارد شتراوس ؛ كذلك تقام حفلات موسيقية عظيمة من مقطوعات موتسارت وشوبرت ، وبيتهوفن وفيبر وهايدن وغيرهم ، ومنها حفلات كنسية تقام فى كاتدرائية سالزبورج ، وإلى جانب هذه الحفلات التمثيلية الرائعة التى تقام فى مسرح البلدية الكبير تقام طائفة أخرى من الحفلات الباهرة فى مسرح موتسارت من أول يولية إلى أول سبتمبر ، وتموج مدينة سالزبورج أثناء هذا الموسم الفنى العظيم بالزائرين من مختلف أنحاء الأرض ، ويبلغ الاقبال على هذه الحفلات حداً لا يتصور ، بحيث يستحيل على الراغبين أن يفوزوا بتذاكرهم إذا لم تحجز قبلها بأسابيع

ذكرى أبى العلاء فى الرابطة العربية

رأى مجلس إدارة الرابطة العربية وقد حان موعد العيد الألفى لفيلسوف العرب وحكيمها وشاعرها « أبى العلاء » أن يوجه إلى العالم العربى نداءه ورجاءه أن يعاونه فى المهرجان الأدبى الكبير الذى سيقيمه تخليداً لهذه الذكرى وإشادة بأدب هذا الشاعر الذى يعد مفخرة العالم قاطبة والشرق خاصة

وإن الرجل الذى تدعو الرابطة إلى الاحتفال بذكراه الألفية ليس بأقل مكانة من أدباء العالم الذين قادوا الذهن الانسانى وأناروا دياجير الحياة بما وهبوا من حكمة ، فهو فى مقدمتهم بل مجليهم الأوحد . فان قامت الشعوب الغربية بتخليد ذكرى هؤلاء الفلاسفة فى مواسم حافلة يحج إليها الناس من كل فج ليتلقوا منها الوحى والالهام الأدبى ، فالأحرى بالشرق العربى أن يخلد ذكرى فيلسوفه العظيم

وإن الروح الطيبة التى أملت الاحتفالات الفخمة بتخليد ذكرى المتنبى لتجعل الأمل قوياً والرجاء كبيراً فى أن يلقى هذا النداء كل اقبال وتشجيع

هذا وستصدر الرابطة قريباً بياناً جامعاً بأسماء حضرات أعضاء اللجنة التحضيرية وموعد إقامة المهرجان ونظامه ومدته

سكرتير الرابطة

كامل زيتونه



عـــزلة

للكاتب القصصي الفرنسي جي دي موباسان

ترجمة الأستاذ خليل هنداوي

وكان ذلك عقب غداء فشا على أثره طرب قوى ، قال لى صديق قديم :

— هل لك بأن تجوز ممشى « الشانزليزيه » سعياً على الأقدام ؟

انطلقنا بخطوات وئيدة ، تظللنا أشجار فى مطالع الايراق ، وقد هيمن السكون على تلك البقعة ، ما عدا تمتمة مبهمة دائمة تصاعد من قلب « باريس » ، ولقد تهب نفثات باردة تضرب وجوهنا ، ومن فوقنا قناديل من نجوم تبسط على أديم السماء الأسود أزراراً ذهبية !

قال رفيق :

— لست أدرى لماذا أرى الليل — هنا — أجمل منه فى مكان آخر ؟

يخيل إلىّ أن أفكارى تتمدد فى أرجائه ، وأن فى روحى هذه السارب من النور الدافق التى تطمعنى — خلال برهة واحدة — بأن أطّلع على السر الآلهى للأشياء ، ولكن سرعان ما توصد النافذة ، فينتهى باغلاقها كل شىء

وكنا بين الذهلة والذهلة نلمح على الأرصفة شبحين متلاصقين يزلقان فى الليل أو نمر بمقعد منزل استوى عليه كائنان لا يراهما الرائى إلا نقطة سوداء . همس فى أذنى رفيق :

— إنهما لا يبعثان فى فؤادى سأماً ، ولكن إشفاقاً كبيراً ، ومن كل أسرار الحياة لا يلوح لى إلا سر واحد يشغلنى ، وإن كل عناء فى الحياة مصدره أننا نحيا دائماً منعزلين ! وكل ما نبذل من جهودنا لا نريد به إلا الفرار من هذه العزلة . إن هؤلاء المشاق المنطرحين على المقاعد فى الجو الطلق يفتشون

تأبين الرافعي

نشرت الرابطة العربية بياناً فى الصحف اليومية والاسبوعية بأسماء حضرات أعضاء لجنة الاحتفال بتأبين فقيد العروبة والاسلام المرحوم السيد مصطفى صادق الرافعى ، وبالموضوعات النثرية التى سيتناولها الأدباء فى رثائه ، وحددت موعداً لاقامة الحفلة فى شهر اكتوبر المقبل ، فتحركت لذلك عواطف أعيان الأدب وأمراء البيان وقادة الفكر فى العالم العربى وأرسل إليها بعض حضراتهم ماجادت بهم قرائحهم الوقادة إشادة بأدب الفقيد الكبير وتقديراً لآرائه وبحوثه

ولما كانت الرابطة معتزمة إصدار كتاب جامع لتاريخ حياة الفقيد ، وبعض آثاره ، وما يقال فى رثائه شعراً ونثراً تخليداً لذكراه واعترافاً بجهوده الجبار فى خدمة العروبة والاسلام ، وليكون نموذجاً حياً للأدب الخصب والثقافة العالية فهى تأمل فى كتاب الشرق العربى وأدبائه ، وأئمة البيان فيه وشعرائه ، أن يبادروا بارسال ما توحيه إليهم ضمائرهم المؤمنة بفلسفة الفقيد الكريم ، والمقدرة لأدبه الحى الحديث والقديم ، فى أقرب وقت بعنوان سكرتير الرابطة بحدائق القبة شارع الملك رقم ١١٢ حتى يكون لدى الرابطة متسع لاصدار هذا الكتاب يوم حفلة التأبين

سكرتير اللجنة

كامل زيتونه

مثلنا عما يخفف مضض انعزالهم — وما ذلك إلا عمر لحظة — ثم يظلون منعزلين ونحن أيضاً

إنهم يحسون هذه العزلة ، أقل أو أكثر منا ، وهذا كل شيء . منذ حين أقاسي العذاب لأنني أدركت واكتشفت العزلة المروعة التي أحيا فيها ، وعلمت أن لا شيء يستطيع أن يقضي عليها مهما جربنا، ومهما عملنا ، ومهما ذهبت إليه خفقات أفئدتنا ، ونجاوى شفاهنا ، وضمات أذرعنا ، فنحن دائماً نظل منعزلين

إنني قدتك هذا المساء إلى هذه النزهة ، فراراً من الجوني إلى بيتي ، لأنني أتألم كثيراً من العزلة التي تهيمن على المنزل ، وما عسى يجدبني هذا ؟ إنني أكلمك وأنت تسمعني ، ونحن وحدنا جنباً إلى جنب ، ولكنا منعزلان ...

يقول الكتاب المقدس : سعداءهم مساكين الأرواح ، إن عندهم وهم السعادة ، إنهم لا يشعرون بشقائنا المنعزل ، ولا يهيمون مثلي في الحياة ، لا يعرفون من اللمس إلا لمس المرافق ، ولا يعلمون من الفرح إلا قناعتهم الأنانية بالفهم وبالنظر ، وبالتنبؤ وبالتألم دون نهاية من إدراك عزلتنا الأبدية

إنك لتراني مجنوناً ! أليس كذلك ؟

إنني بعد ما أحسست عزلة كياني ، خيل إليّ أنني أهوى يوماً فيوماً في مهوى مظلم لم يقع طرفي على حافة له ، ولم أدرك له نهاية ، وربما كان بلا غاية . فأفلتُ إليه وحدي دون رفيق معي ولا حولي ، ولا سالكٍ طريق الظلمة . هذا المهوى هو الحياة ، وخلال ذلك كنت أسمع صخباً عالياً وصيحات وأصواتاً فكنت أدنو من هذا الصخب المضطرب متسللاً ، ولكني لم أعلم علم الحق من أين مأتاه ، وما ألفيتُ إنساناً ، وما عثرتُ على يد أخرى ترتفع في هذا الظلام المسدل عليّ

هناك رجال مثلنا أحسوا هذا الألم الممض وتنبأوا به ، منهم « موسى » الصائح :

« من جاء ؟ ومن دعاني ؟ لا أحد !

أنا وحدي ! وهذه الساعة التي تدق

يا للعزلة ! يا للشقاء ! »

ولكن العزلة — عنده — ما كانت إلا شكا طارئاً ، ولم تكن حقيقة ثابتة كما هي عندي . إنه كان شاعراً ، يؤنس الحياة بأخيلته وأحلامه . إنه لم يكن وحده أبداً . ولكني أراني وحدي

وهنالك « غوستاف فلوبير » أحد كبار أبناء الشقاء في هذا الوجود ، لأنه كان أحد عباقرته ، كتب إلى صديقة له هذه العبارة اليائسة « نحن كلنا في صحراء ، لا يفهم أحد منا أحداً » بلى ! لا يفهم أحد منا أحداً ، فهما فكروا ، ومهما قالوا وجربوا فالأرض هل تعلم ما يجري على مسارح هذه الكواكب المنتشرة كذرة نارية في هذا الفضاء نرى منها على البعد ضياء بعضها ، والأكثر عددا منها ضائع في اللانهاية ، وقد يؤلف القريب منها كلا واحدا كما هو الحال في ذرات الجسد

وهكذا الانسان لا يدري ما يجول في صدر رفيقه الانسان وإن واحدنا لأكثر بعداً عن الآخر من هذه الكواكب السابحة ، وأكثر اعتزالا لأن الفكر لا يسبر غوره

هل تعلم شيئاً أبعث على الهول من هذا التماس الخاطف في الأكوان الذي لا نستطيع إدراكه . إننا نحب بعضنا بعضا كأننا مقيدون مبسوطة أذرعنا دون أن نقدر على ضم . على أن حاجة ضرورية للاتحاد تؤلفنا ، ولكن جهودنا لا تزال ضائعة ، وثقتنا غير مجدية ، وعناقنا ضعيفا ، وحناننا باطلاً ، فاذا أردنا اتحاداً لم تعمل مطامعنا إلا على إقصاء واحدنا عن الثاني

إنني ما شعرت أنني « واحد » إلا حين أستسلم لصديق وأفتح قلبي له . إذ أفهم ذلك الحاجز القائم بيني وبينه . هو هنالك ، ذلك الانسان ، أرى عينيه تسطعان حولي ولكن نفسه — وراءها — لا أدركها . هو يسمعني ، ولكن فيم يفكر ؟ أجل ! فيم يفكر ؟ إنك لا تفهم هذا القلق ، إنه ربما يقليني ، أو يحقرني ، أو يسخر مني ، إنه يفكر فيما أقول ، يناقشني ، يحكم علي ، يراني أبله أو أحمق . وأنى لي أن أدرك ما يفكر فيه ؟ وأنى لي أن أفهم هل يحبني كما أحبه ؟ وما يجول في هذه الجمجمة المستديرة ؟! وأي سر هذا الفكر المجهول في كائن : الفكر المتواري الحر الذي لا نقدر على معرفته ولا قيادته ، ولا الاستيلاء عليه ، أو الظفر به ؟

أنا ، أردت بكل نفسى أن أسلم نفسى كما هى وأفتح أبواب نفسى جميعها . ولـكنى لم أقدر على هذا الاسلام كله ، لأننى أصون فى أعماق نفسى « مكان ذاتى الخفية » حيث لا يظهر أحد ولا يقـدر أحد أن يكتشفه أو يدخله ، لأنه لا أحد يشبهنى ، ولأنه لا أحد يفهم أحداً !

أفهمتنى أنت الآن ؟ كلا ! إنك لتحكم على بالجنون ، إنك تتأمل فى ، وتحترز منى ! وتسأل نفسك : « ماذا به هذا المساء ؟ ولـكنك إذا قدر لك يوماً أن تدرك موضع الألم فىّ فعد إلىّ لتقول لى : « قد فهمتك ! » وحينذاك تجعلنى سعيداً — ولو عمر لحظة —

هن النساء اللواتى جعلننى أحسن تقبل وحدتى ، آه كم تذوقت من الألم فى سبيلهن ! لأنهن منحننى ، أكثر من الرجال ، التوهم بأننى لست وحيداً !

عند ما يحب الانسان يحس أن عالمه قد اتسع ، وأن سعادة — فوق السعادة الانسانية — تغمره . هل تعلم سبب ذلك ؟ وهل تعلم مصدر هذه السعادة ؟ يعود مصدره الى أن الانسان اعتقد بأنه ليس وحيـدا . وأن العزلة أو الابتعاد عن الـكيان الانسانى قد انتهى سلطانه ، ويا للوهم !

المرأة هى أشد قلقاً منا بهذه الحاجة الملحة للحب الثابتـة التى تأكل قلبنا المنعزل ، وهى الأكذوبة الـكبرى من الحلم

إنك لتعرف هـذه السويعات الجميلة التى نقضيها مع هـذا الـكائن الذى طالت غدائر شعره ، وراقت ملامحه أو فتكت لحاظه ، فأى هذيان يملك علينا أرواحنا ؟ وأى وهم يغمرنا ؟

أنا وهى لم نكن إلا واحداً فى هذه الساعة ، ولـكن هـذه الساعة لن تحين ، وبعد أسابيع انتظار وأمل وفرح خادع ، أجد نفسى فجأة أكثر انعزالاً ووحدة من أى عهد مضى ! فبعد كل قبلة وبعد كل عناق أجد العزلة تتسع آمادها ، ويا لهـا من عزلة مروعة مؤلمة !

يقول الشاعر « سوللى برودوم » :

ليس العطف والحنان إلا هياماً مقلقاً

كلها تجاريب باطلة يقوم بها الحب التاعس مجربا « الاتحاد المحال » بين « الأرواح والأجساد »

ونم وداعا ، فقد انتهى كل شىء ، على أن هنالك جهدا فى معرفة المرأة التى كانت كل شىء لنا ، فى لحظة من الحياة ، وما عرفنا ولن نعرف الفكرة الباطنة والسطحية من دون ريب ! وفى الساعات ذاتها حيث يخيل إلينا أن الأكوان أصبحت فى عهد اتحاد سرى وامتزاج كامل للرغاب ، تنزل إلى أعماق نفسها ، وكلمة قد تكون واحدة تبدى خطأنا ، وتطلمنا — كأنها البرق الوامض فى الليل — على الهاوية التى تفصل بينها وبيننا !

وهنالك ماهو خير وأحسن فى الوجود ؛ أن تقضى أمسية مع امرأة تحبها دون أن تتكلم ، سعيداً كل السعادة ، مغتبطا بمجرد قيامها إزاءك . حاذر أن تطلب أكثر من هذا ، لأن امتزاج كائنين مستحيل

أما أنا الآن فقد غلّقتُ أبواب نفسى ، لا أقول لأحد عما أعتقد ، ولا أظهر ما أفكر . أنظر إلى الأشياء ، وأنا عالم ما تحمله إلىّ العزلة المروعة — دون أن أُعلن عنها ، وما عسى تهمنى الأفكار والمشاحنات والمسرات والاعتقادات ؟ لا أستطيع أن أقاسم أحداً فكرة ، نفسى تتنصل من كل شىء ، وفكرتى الباطنة تظل خافية على الناس ، وعندى جمل عامة لـكى أجيب بها على الأسئلة التى تلقى على كل نهار . وعندى ابتسامة تقول : نعم ! حين لا أكلف نفسى مشقة الـكلام

لبثنا فى مشينا حتى عرجنا فى سيرنا على قوس النصر ، ثم هبطنا حتى ساحة (...) وكان يعرض فكرته متمهلاً وقد أضاعت ذاكرتى الشىء الـكثير مما عرضه

وقف فجأة باسطاً يده نحو المسلة العاليـة المنتصبة الشامخ رأسها فى النجوم المنفية القصية عن موطنها الحاملة تاريخ وطنها المنقوش بإشارات غريبة ، وقد هتف صاحبى :

— إننا كنا مثل هذه الأرض !

ثم غادرنى دون أن ينبس بكلمة

أهو مجنون أم عاقل ؟ لست أدرى : ولـكن يخيل إلى طوراً أنه على بينة من أمره ، وطوراً أنه قد فقد عقله

خليل هنداوى

5 me Année, No. 211

Lundi - 19 - 7 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مصـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العــدد ٢١١ « القاهرة في يوم الاثنين ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ١٩ يوليه سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الضعف في اللغة العربية

للأستاذ أحمد أمين

أبنت في مقالي السابق أعراض الداء ووعدت القارىء أن أعرض في المقال التالي للعلاج

وقد قرأت في الصحف وصفاً لعلاج قيل إن مكتب التفتيش في وزارة المعارف اقترحه ؛ وخلاصته زيادة الحصص للغة العربية ، وتوسيع مكتبة التلميذ . وأظن أن هذا علاج ليس كافياً ولا شافياً ، وأنه لا يلاقي المرض في الصميم ، وأنه لا يقدم في الموضوع ولا يؤخر ، فلو ضاعفنا الحصص والمعلم على حاله من النقص ، والمنهج كما هو من الضعف ، لم نصل إلى نتيجة ولم تتحسن حالة المرض

إنما العلاج الحقيقي في إصلاح المعلم وما إليه من منهج وامتحان وتفتيش ، فالمعلم الآن تخرجه ثلاثة معاهد : دار العلوم والأزهر وقسم اللغة العربية في كلية الآداب . وكلها معيبة بعيوب أبنتها في مقالي السابق ، فلا بد للاصلاح من توحيد تلك الجهود الموزعة والاقتصار على معهد واحد يسلح بكل أنواع الأسلحة الملائمة

وعندى أن أصلح معهد لذلك هو « دار العلوم » ، فتاريخها القديم في التعليم ، وسبقها الأزهر في هذا الباب ، يجعلان المصلحة

فى بقائها ؛ وكذلك صبغها الدينية ، وما بين اللغة العربية والدين من صلة وثيقة يجعلها أصلح من قسم اللغة فى كلية الآداب ، ولكنها فى شكلها الحاضر غير صالحة ، بل لابد لصلاحيتها من أمور :

(١) فصلها عن وزارة المعارف وتبعيتها للجامعة أسوة لها بكل المدارس العليا التى كانت تابعة للوزارة كالمعلمين والهندسة والزراعة والتجارة . فالجامعة أوسع حرية وأكثر استقلالا ، والحرية والاستقلال أصلح للنحو العلمى والرقى العقلى

(٢) إعادة النظر فيها من جديد : فى نظامها وبرامجها ، فقد بليت وأكل عليها الدهر وشرب ، ولم تعد أساليبها التى كانت صالحة منذ عشرين عاماً صالحة الآن ؛ على أن يشرف على وضع هذه النظم جماعة من خيرة رجال مصر ثقافة وعقلا وسعة تفكير وعلماً بمناهج التربية

(٣) أن تكون الدراسة فيها مقصورة على المواد العلمية ، وبعد الانتهاء يدرس المتخرج سنة أو سنتين أساليب التربية فى معهد التربية .

(٤) أن يعاد إنشاء تجهيزية دار العلوم لتغذى دار العلوم ، على أن تكون مدرسة ثانوية تابعة للجامعة أيضاً ، ويعاد تنظيمها بخير مما كانت ، فيتوسع فيها فى الدراسة الدينية من قرآن وتفسير وحديث وما إلى ذلك ، وتدرس فيها لغة أجنبية حتى يخرج الطالب منها مساوياً للطالب فى المدارس الثانوية الأخرى ومتفوقاً فى اللغة العربية والدين الاسلامى ، وخريجو هذه المدرسة يغذون دار العلوم وقسم الفلسفة فى كلية الآداب ونحو ذلك ، ويكون فى دار العلوم دروس فى اللغة الأجنبية أيضاً تتمم ما درسه الطلبة فى المدرسة الثانوية

(٥) تكون الدراسة فى دار العلوم دراسة قاسية شديدة دقيقة ، فى الانتقال وفى الامتحان ، فلا يسمح لضعيف ولا متوسط الكفاية أن يخرج من هذه المدرسة لأنها ستكون — على ما أعتقد — أفعل مدرسة فى رقى الأمة وتكوين عقليتها والنهوض بحياتها .

هذا هو فى نظرى أهم علاج لضعف اللغة العربية ، فالحصة من هذا المعلم الكفء خير من مائة حصة من معلم غير كفء ؛ وقديماً قالوا : « ضربة المعلم بألف »

* * *

ويلى هذا فى الإصلاح إصلاح برامج التعليم ؛ فالحق — كما قلت — أنها برامج متأخرة توضع على عجل وتنفذ على عجل ، والفرق بين برنامج قديم وبرنامج حديث فرق ضعيف لايمس الأصول . واذكر أن وزارة المعارف كانت كلفت ثلاثة كنت أحدهم فى وضع برامج اللغة العربية سنة ١٩٢٨ ، فاجتهدنا فى النحو أن ندمج أبواباً بعضها فى بعض ونحذف أبواباً لايترتب عليها عمل فى كتابة صحيحة أو نطق صحيح ، وحذفنا كل منهج البلاغة القديم ووضعنا مكانه منهجاً جديداً كل الجدة ، ولم نضع منهجاً لأدب اللغة إلا فى السنتين الأخيرتين من المدارس الثانوية ، أما السنوات الثلاث الأولى فقصرناها على قراءة نصوص فى الأدب نثراً ونظماً وتذوقها ومعرفة موضع الجودة فيها وتكليف الطلبة حفظ الكثير منها واحتذاءها ، ولكن — مع الأسف — أهمل هذا النهج بل وضاع أيضاً .

فمناهج اللغة العربية وخاصة فى المدارس الثانوية تحتاج إلى ثورة تقلبها رأساً على عقب تبسط فيها المصطلحات وتحذف منها الأبواب القيمة ويقتصر فيها على ما ينتج استقامة اللسان والقلم

ولو ألف فى وزارة المعارف هيئة فنية « مراقبة » للبرامج ووضعها وطريقة تنفيذها لكانت أفضل من كل المراقبات الأخرى لأن هذا هو العمل الأساسىّ للوزارة وما عداه تبع له .

وليس عمل برنامج اللغة العربية فى المدارس الابتدائية والثانوية من الأمور السهلة ، فهو يحتاج إلى دراسة المناهج السابقة من أول وضعها ، ويحتاج إلى دراسة المناهج للغات الحية الأخرى فى الأمم المختلفة للاستفادة منها والاتصال بتلاميذ المدارس فى مراحلهم المختلفة لمعرفة مقدار عقليتهم وهكذا .

ثم الامتحان له كبير أثر فى ضعف اللغة ، لأن التلاميذ عندنا اعتادوا أن يقرءوا للامتحان ، ويتعلموا للامتحان ، وبقدر صعوبة الامتحان والتشديد فيه تكون عناية الطلبة .

والامتحان فى اللغة العربية معيب من وجهين : من وجهة

ورقة الامتحان فانها فى أغلب شأنها نظرية لا عملية وتعتمد على الذاكرة والحفظ أكثر مما تعتمد على التفكير والعمل . واللغة أداة للتعبير ، والغاية منها تقويم القلم واللسان فيجب أن يرمى الامتحان إلى هذه الغاية ؛ أما أن تكون الأسئلة فيما هو التشبيه الضمنى ، وما هى الاستعارة المكنية ، وأثر الثقافة اليونانية فى الثقافة العربية ، فأسئلة لا يصح أن تكون فى المرحلة الأولى ولا الثانية من التعليم ، إنما تكون بعد أن يستكمل الطالب الجانب العملى

وكذلك من جهة التصحيح ، فقد استولى على مصححى اللغة العربية نوع من العطف أشبه ما يكون بالعطف على المجرم فلا يعاقب ، وبعطف الأم الجاهلة على ابنها فلا تؤدبه ، وأخشى أن يكون هذا التقليد فى تصحيح اللغة العربية موروثاً عن رجلين أحدهما المستر دنلوب وكان ينصح بالتساهل فى اللغة العربية لأنه لم يكن يهمه أمر قوتها ، وثانيهما المرحوم الشيخ حمزة فتح الله فقد طبع على الرحمة التى لا حد لها ، وشاع عنه أن لكل مسألة وجهين ، ثم انحدر هذا التقليد من السلف إلى الخلف

والمصححون يبنون تساهلهم على فكرتين باطلتين : أولاهما أن اللغة العربية هى اللغة الأصلية فلا يصح أن يرسب الطلبة فيها ، وهذا خطأ ، لأن لغتنا الأصلية هى اللغة العامية لا اللغة العربية الفصحى وشتان ما بينهما ، ولو كانت هى لغتنا الأصلية ما شكونا هذا الضعف ؛ وثانيتهما غلبة الرحمة عليهم وقد أبنا ضررها .

وليس أدل على فساد الامتحان من حسن النتيجة المئوية مع ضعف الطلبة ضعفاً نضجّ منه جميعاً بالشكوى . أمن المعقول أن نلمس هذا الضعف ثم تكون نسبة النجاح فوق الثمانين فى المائة ؟

كل هذا جعل التلاميذ يهزءون باللغة العربية ولا يعيرونها التفاتاً ، ويحترمون اللغة الأجنبية والرياضة لأن الاحترام عندهم تابع لنسبة النجاح ، فكلما كانت النسبة قليلة كانت العناية بالعلم أقوى؛ وليس ينسى أحد منا العبارة التى تدور على ألسنة الطلبة وهى أنهم إذا سمعوا طالباً يجتهد فى استذكار اللغة العربية قالوا : له « وهل يسقط أحد فى العربى ؟ »

ثم لهم طريقة فى التصحيح ليست صحيحة ، فهم لا يقومون الورقة ككل ، ولكن يجزئونها جزئيات صغيرة ثم يضعون درجة على كل جُزَىء ، فيحدث أن الطالب يأتى بأخطاء شنيعة تدل على الجهل التام ومع ذلك ينجح ، حتى يخيل إلىّ أن التلميذ إذا أعرب « فى البيت » فى حرف جر والبيت مفعول به منصوب لأعطوه ٥٠٪ على صحة إعرابه « فى » وخطئه فى إعرابه « البيت »

ومالى أذهب بعيداً وقد حدث فى هذا العام أن كانت فتاة قريبة لى تمتحن فى البكالوريا ، فجاءت يوم امتحان اللغة العربية وقالت: لقد أعربت « كفى حزناً » كفى فعل أمر وحزناً مفعول به، أليس كذلك ؟ فقلت : نعم ليس كذلك ، وقالت: لقد قلت إن من خطباء العصر الأموى أبا بكر الصديق وعلى بن أبي طالب ، أليس كذلك ؟ فقلت أيضاً : نعم ليس كذلك ، وأطلعتنى على بقية الأجوبة فأيقنت برسوبها ؛ ولو كان لى الأمر ما أنجحتها مهما أجادت بعد هاتين الغلطتين الفظيعتين ، ولكنى دهشت أشد الدهش لنجاحها !

أنا كفيل بأن سنة واحدة توضع فيها ورقة الامتحان عملية أكثر منها نظرية ، ويشدد فيها فى التصحيح شدة حازمة تساوى الشدة فى تصحيح الرياضة واللغة الأجنبية ، كافية فى أن يوجه الطلبة عنايتهم الكبرى للغة العربية فيزول الضعف وتحسن النتيجة

ولا ننسى أن التفتيش بعد ذلك له أثره ، فلو حدد الغرض منه لبانت قوته الحالية أو ضعفه ، فليس المفتش جاسوساً يضبط الجريمة ، ولا هو عدّاد يعد موضوعات الانشاء والتمرينات ، ولا غرضه الأول أن يقول إن كلمة كذا ليست فى القاموس ، كلا ولا غرضه الأول أن يكتب عن المدرس أنه جيد أو ممتاز أو ضعيف ، إنما مهمته الأولى حسن توجيه المعلمين إلى تحقيق الغرض من دراسة اللغة العربية والوصول بالطلبة والمدرسين والكتب والمناهج إلى أرقى حد مستطاع ، وبمقدار تحقيق هذا الغرض أو عدم تحقيقه يكون الحكم على قيمة التفتيش

إذا أصلح المعلم والمنهج والامتحان والتفتيش صلحت اللغة العربية فى المدارس . وهذا هو العلاج الوحيد الصحيح ، أما ماعداه فعلاج غير حاسم ولا ناجع

أحمد أمين

أدب الموافقة

للأستاذ عباس محمود العقاد

« أعتقد أن قيمة الكاتب موصولة صلة خفية بمقدار ما يستجيشه من روح الثورة . ولعلى أقترب من صحة التعبير إذا قلت روح المقاومة . إذ لست من الحمق بحيث أتخيل أن كتاب الجناح الأيسر وحدهم هم أصحاب المزية الفنية »

« قلت محتجاً على صاحبي : إن أجمل الآثار الفنية ومنها الآثار التي يكتب لهـا الشيوع بعد ظهورها كثيراً ما كانت في بداية الأمر مقصورة في عرفان قدرها على فئة جد قليلة . وناولته كتاباً اتفق أن كان معي ساعتئذ قائلاً : إليك فاقرأ . إن بيتهوفن نفسه قد جرى عليه مثل ذلك »

« ستدفعون الفنانين بينكم إلى الموافقة . ومن أبى من خيرتهم المنتقاة أن يبتـذل فنه ألجأتموه إلى السكوت ، فتعود الثقافة التي تزعمون خدمتها وإيضاحها والذود عنها وهي وصمة عار عليكم »

« مهما يكن من جمال العمل الفنى فى بلاد الجمهوريات الشيوعية الروسية فهو يعيب صاحبه إن لم يكن على النسق المرسوم . إن الجمال عندهم خلة من خلال الموسرين ! ومهما يكن من عبقرية الفنان فهو مصدوف عنه عفواً أو قسراً إن لم يعمل على النسق المرسوم ، فـكل ما يطلب منه الموافقة ، وهو ضامن بعـدها كل ما عدا ذلك »

« إذا اضطر العقل اضطراراً إلى الاذعان لكلمة الأمر فأقل ما هنالك أنه قادر على الاحساس بفقد الحرية . أما إذا سيس العقل من بداية الأمر سياسة توحى إليه أن يذعن قبل أن تأتيه كلمة الأمر فقد بلغ من فقده أن يفقد حتى الشعور بالاستعباد . وإنى لأعرف من أجل هذا أن كثيراً من الفتيان الشيوعيين يستغربون ويمعنون فى الانـكار إذا قيل لهم إنهم محرومون نعمة الحرية »

« إن خير الوسائل التي يبلغ بها الـكاتب مزيته العالمية لهي مواهبه المتفردة كل التفرد . لأن المرء إنمـا يكون بشراً عريق الانسانية بفرط ما فيه من الخصال الفردية ، فما كان روسى أعرق روسية من مكسيم جوركى ، وما أصغت أسماع العالم إلى كاتب روسى أشد من إصغائها إليه »

* * *

تلك شذرات من الـكتيب اللطيف الطريف الذى كتبه الأديب الفرنسى الكبير « أندريه جيد » بعـد عودته من البلاد الروسية ، متحريا فيه ما تعود أن يتحراه من الصدق والصراحة والاعتراف بالخطأ والانفة من الاصرار عليه ذهابا مع الغرور والـكبرياء . وقد كان من نصراء الدولة الروسية الحديثة وأصحاب الرجاء العظيم في تجاربها ومساعيها . فلما شهد الحقيقة بعينيه لم يخادع نفسه ولم يغالط حسه ، وعاد يأسى ويأسف فى لهجة منزهة عن الضغينة والتشهير ، ولـكنها تشف عن خيبة الرجاء فى كثير من الأمور

فالثقافة هى مقياس الصلاح فى كل نظام

أما مقياس الثقافة فهو الابتكار والحرية ، أو هو « المزايا الشخصية » التي يعبر عنها الفنان والشاعر والـكاتب كما قررنا ذلك وأعدنا تقريره مرات ، ولا نظنه اليوم فى غنى عن التقرير

لا أمل فى نظام حكوى أو نظام اجتماعى لا تقترن به ثقافة العلوم وثقافة الفنون

ولا أمل فى ثقافة نعرف ما تنتجه قبل أن ينتج ، ونستغنى عما تصوغه قبل أن نطلع عليه ، لأنه لن يعدو ما نعلم وما نظن من موضوع ومن غاية ومن قالب ومن تصوير وتفكير

وقد نسى « جيـد » أن الـكاتب الروسي فى ظل الشيوعية مطالب بشيء غير « الموافقة » وأصعب تحصيلاً على طالبه من الموافقة ! لأنه إذا وافق الروسيين الخاضعين للأمر والوحى والالهام فمن الواجب أن لا يوافق القراء الغرباء الذين لا يخضعون لأمر ولا يصدرون عن وحى أو إلهـام . وويل للـكاتب الروسي الذى يصاب باستحسان العالم لمـا يكتب ويبتلى بتقريظ النقاد فى بلاد رأس المال لمـا يمثله من شعور ويرمز إليه من آمال ويشابه به الآدميين الموسرين من عواطف وأحلام وأفكار

تلك إذن خيـانة ، تلك إذن مخالسة وخديعة ، تلك إذن مؤامرة بين الـكاتب وبين نظام رأس المـال ، ويكفي أن يتشابه الانـسان الشيوعى والانـسان « البورجوازى » فى بعض العواطف والأحلام لتثبت دلائل المؤامرة كل الثبوت ، أو يثبت شـذوذ الـكاتب عن خلائق الشيوعيين ، لأنه إنسان كسائر الناس ! !

ومن أضاحيك القوم أن تصدر رواية لبعض أعلامهم بالانجليزية والفرنسية والشيكية ولا تصدر بالروسية ، ونعني بها رواية « نحن » لمؤلفها الكاتب الروسى النابغ « زمياتين » الذى يدين بالثورة ولكنه يدين بآمال لبني الانسان وراء آمال الشيوعيين .... فيقول الناقدون الحكوميون الحصفاء : وماذا عسى أن تكون تلك الآمال ؟ أليس هذا دليلاً على أن الكاتب يخامره شعور كشعور الموسرين الذين فقدوا غناءهم فهم أبداً فى حنين إلى حال وراء هذه الحال ؟ !

وحقت اللعنة على زمياتين لأنه يحظى بالشهرة والمتابعة بين أناس من الآدميين البورجوازيين ، فضاع الرجل فى بلاده ولم يغن عنه إعجاب القراء فى غيرها ، ولم يؤذن له أن يكون إنساناً لأن الانسانية تشمل الناس جميعاً . أما الشيوعية فلا ينبغي أن تشمل أحداً غير الشيوعيين ! . .

ونحسب أن المقاييس كلها عرضة للضلال والحيرة والاشتباه ، إلا مقياس الحرية الفنية فهو وحده حسب الباحث من قياس صحيح واف لمراتب الأمم وفضائل المجتمعات ومآثر الحكومات

فلا حرية — حق الحرية — حيث تتقيد الثقافة الفنية ، ولا استعباد — حق الاستعباد — حيث تنطلق الثقافة الفنية من قيودها

وبهذا المقياس الصادق المحكم ننفذ إلى الصميم من وراء الأغشية والظواهر ولا نقصر الحكم على الحرية التى تمثلها الشرائع ودساتير الحكومات

فرب أمة لا تشتمل قوانينها على حرف واحد يحرم الابتكار والحرية ، بل تنص القوانين فيها على حرية الرأى وحرية الابداع والتصوير ، ثم يظهر « الأثر الفنى » فيها فتضيق به الصدور وتشيح عنه الأبصار وتتلاحق الكوارث على رأس صاحبه ، لأنه يقول ما لا يعجب الناس وان لم يقل ما يخالف القوانين ويناقض الدساتير

تلك أمة من العبيد وان قيل على الورق إنها أمة من الأحرار . وشر ما فيها أنها مستعبدة مقهورة بغير حراس وغير قيود وغير طغاة ، ولو كان استعبادها من حراسها وقيودها وطغاتها لزال الاستعباد حين يزول جميع هؤلاء

ورب أمة تزدحم الأوراق فيها بتحريم هذا وعقوبة ذاك ولا تنقطع فيها مبدعات الجمال وآيات الفنون فترة من الفترات . فارجع إلى مقاييس القوانين كلها تقل لك إنها أمة مغلوبة مسلوبة ، وارجع إلى مقياس الفن وحده يقل لك ما هو أصدق وأعمق ، وهو أن السعة سعة النفوس والأذهان لا سعة الدساتير المسطورة على الأوراق ؛ وإن نفساً تتسع للابداع الحديث وترحب بالرأى الغريب وتستقبل النوازع النفسية والخوالج الفنية بغير حدود ولا أرصاد لهى حرة فى غنى عن الاذن لها بالحرية ، وهي وشيكة أن تنفض عن كواهلها كل ثقل يحول بينها وبين العمل الطليق

* * *

شر الآداب هو أدب الموافقة والمجاراة . لكننا نخطىء إذا حسبنا الحكومات الغاشمة علة هذا الأدب دون سائر العلل التى تفرضه على الكتاب والقراء

فالأدب التجارى أدب موافقة ومجاراة وإن لم تفرضه حكومة ولم يطلبه حاكم غاشم . لأن الذى يكتب للرواج يكتب ما يوافق الأذواق ويجارى الاهواء ، ولا يكتب ما ينبعث من سليقة حرة وقريحة شاعرة ، والذنب فى ذلك على الأخلاق لا على القوانين

والأدب الضعيف أدب موافقة ومجاراة وإن لم تفرضه حكومة ولم يطلبه حاكم غاشم ، لأن النفس الضعيفة لن تهتدى إلى القوة ولو أخلى لها الحاكم طريقها . فهى توافق وتجارى عجزاً عن الخلاف والانفراد ، لا خوفاً من التفكير الطليق والقول الصريح

والأدب الجامد أدب موافقة ومجاراة ، لأنه ينافر الحركة ويوافق السكون والركود

والأدب الذليل أدب موافقة ومجاراة ، لأن الذليل لا يحسن غير التمليق والازدلاف . ولن يكون الملق إلا بالموافقة ولو كانت غير مأجورة ، وبالمجاراة ولو كانت غير مشكورة

وما من عيب تعيبه على أدب من الآداب إلا انتهى فى قراره إلى أن يكون ضرباً من الموافقة ونقصاً فى الحرية والابداع . فالموافقة لا جديد فيها ولا حاجة إليها ولا دوام لها ، وإنما تولع النفوس بالأدب لأنها متغيرة وليست براكدة ، ولأنها متطلعة وليست بعمياء ، وكيف يتفق التغير والمطابقة ؟ وكيف يتمشى التطلع والاستقرار ؟

إلا أننا نبادر فنقول إن أناساً يتمردون ولا يجيئون بخير مما هو منظور من الأدباء الموافقين المستسلمين ، لأن التمرد المصطنع إن هو إلا موافقة مستورة ومجاراة معكوسة ، فيه كل ما يؤخذ على التقليد من نقص وكل مما ينبي عليه من وخامة ، وذلك ما نعود إلى تفصيله فى مقال تال

عباس محمود العقاد

منتســكيو

آراؤه ومثله

للأستاذ إسماعيل مظهر

إن اسم منتسكيو لاسم عظيم . والأثر الذى خلفته أعماله ينزل من الخلود فى داخل أوربا وفى خارجها منزلة تمهد لمن يريد أن يترجم له أن يتصل به منتحيا طرقاً شتى ومداخل متفرقة . ذلك بأن أعمال هذا الرجل العظيم قد تركت أثراً رئيساً فى جميع ما ظهر فى عالم الفكر من النظريات السياسية ، حتى أن كاتباً من أشهر كتاب هذا العصر قد ذهب فى نقد نظرياته مذهباً قضى فيه بأنها أول ما مهد لظهور فكرة « العقد الاجتماعى » التى كونها « رُوسُو » ودافع عنها أبلغ دفاع . ولا شك فى أنك تبهر بعبقرية هذا الانسان الفذ إذا علمت أن نظرياته السياسية كانت العمدة فى صوغ دستور الولايات المتحدة ، ومن هنا كان أثر « منتسكيو » عظيماً فى الترويج للفكرات والمبادىء التى قام عليها الدستور الانجليزى ، كما كانت باكورة الدراسات العميقة التى تناولت بُدايات التكوين السياسى الذى نشأ فى فرنسا خلال القرون الوسطى . فكان بمجموعة أعماله ودراساته وأفكاره من الرجال الذين عبّدوا الطريق للثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر

لهذا يجدر بنا أن نمهد للكلام فى الترجمة له بذكر شىء من الأطوار التى تقلبت فيها حياته السياسية . فقد كان « منتسكيو » رئيساً لمحكمة « بوردو » العليا ، وهى أول هيئة تشريعية إقليمية كانت فى فرنسا . وكان أعضاؤها يطمعون فى أن يكون لهم مقاعد فى محكمة باريس العليا . غير أن محكمة العاصمة الكبرى لم تذعن لهذا المطلب . لهذا ظلت النزعة « البرلمانية » جلية الأثر جد الجلاء فى كل ما كتب « منتسكيو » ، بالرغم مما كان يطنب فيه من الالمامات التاريخيــة المستفيضة وتعلقه فى مجال البحث الاجتماعى بمعالجة مشكلات أوربا خاصة ؛ والانسانية عامة . فيجب أن نبي إذن ذلك الأثر المزدوج الذى أحدثته المحاكم العليا فى تاريخ فرنسا . فانها كانت حتى نهاية القرن السادس عشر الأداة الرئيسة التى اتخذتها الملوكية المركزية ، ذريعة لمدّ نفوذها ، وتثبيت سلطانها ، إتقاء لنفوذ النبلاء ومطامعهم من ناحية ، ودرءاً لسلطان الكنيسة من ناحية أخرى . وكانت هذه الأداة مجدية فى إضعاف نفوذ النبلاء الموروث ، وهو نفوذ يتضمن فيما يتضمن سلطاناً واسعاً ، مالياً وإدارياً

وكانت الخطة أن تقرر المحاكم العليا أن من حقها النظر فى « الدعاوى الملكية » التى كان كبراء أصحاب القطائع يرغبون فى أن تنظر أمام محاكمهم الخاصة . وكذلك قررت تلك المحاكم على اختلافها ، أن من حقها النظر فى الدَّعاوَى التى يقتضى النظر فيها انتقاصاً من سلطان الكنيسة ، قضائياً ومالياً . ولا شك فى أن القوة الباطشة التى حازتها الملوكية المركزية فى فرنسا فى القرن السابع عشر ، كانت نتيجة لأشياء ثلاثة : الجيش ، ومجلس البلاط ، والمحاكم العليا

ولم تكن المحاكم العليا عند أول نشأتها فى فرنسا ، إلا جزءاً من مجلس البلاط . وكان من أثر هذه المحاكم كما يقول « هانوتو » أن احتفظت فرنسا بوحدتها ، ولم تُمَزَّق ولايات متفرقة

وفى أخريات القرن السادس عشر حدث انقلاب ، ساد محاكم فرنسا العليا ، وظهر أثره واضحاً فى روحها المعنوية وفى عملها . فانها بدأت تستمسك بقوة بكل ما يدعى الملك من حقوق الدولة ، لتقضى بذلك على ما بقى لكبار أصحاب القطائع ورؤساء الكنائس من الامتيازات . غير أنها ، بجانب هذا ، بدأت تظهر بمظهر الأداة المستقلة عن إرادة الملك أيضاً . فكانت بطبيعة تكوينها وتاريخها ، الوسيلة الوَحِيدَة التى يمكن أن تعارض إرادة الملك آمنة رخية البال . ذلك بأن أعضاء هذه المحاكم كانوا يملكون بالوراثة حق الجلوس فيها . ولم يكن من الهين أن يُسلب واحد منهم حقه فيها ، حتى أن « رشيليو » فى كتابه « العهد السياسى » ، قد عَبَّر بعمق عن الأخطار التى يجوز أن يواجهها العرش من نفوذ أعضاء المحاكم العليا ، أو من مسلكهم الذى يسلكونه عند الضرورة . وعصر « الفُرُونْد » Fronde والسنوات الأخيرة من حكم الملك لويس الخامس عشر ، قد حققت كل ما جال فى مخيلة « رشيليو » من المخاوف . ومجمل ما نرمى إليه من هذا كله أن نوضح أن « منتسكيو » كان يرى أنّ الوظيفة الأولى للمحاكم العليا إنما هى فى أن تصمد لقوة الملك وأن تحد من سلطانه : قال :

« إن هذه الهيئات — المحاكم العليا — من أبعد الأشياء

تلاؤماً مع طبع الملوك . فإن أعضاءها كثيراً ماينغصون على الملك بسرد حقائق غير مرغوب فى سماعها ولا يتصلون بالملك إلاّ لعرض الشكايات الحق . وأنت إذ ترى أن فئة من البطانة الملكية تلقي فى سمع الملك دائماً أن الشعب فى رغد وسعادة فى ظل الحكومة ، إذا بتلك المحاكم تظهر ما فى أقوال هؤلاء من كذب ونفاق ، وتقرع مسامع العرش ، حيناً بعد حين ، بصدى تلك الأنات العميقة الجافية التي تتنفس عنها صدور أولئك الذين يمثلونهم »

***

كتب منتسكيو بضع عبارات بالغة منتهى الجودة والابداع حلل فيها نفسيته ، وصور بها أخلاقه ويحسن بنا أن ننقل بعض فقرات منها ؛ وذلك أقوم سبيل تعرف به شيئاً من حقيقة منتسكيو :

يقول إنه وهب حساً عميقاً جعله يقدس معنى الصداقة ، فلم يجازف بان يخلع نعت الصديق على كل من اتصل بهم من الناس ؛ ولذا يذكر ، ولعله يذكر بحق ، أنه لم يفقد طوال حياته غير صديق واحد .

وكان خجولاً . حتى أن الخجل كان مصيبته الخلقية الكبرى ؛ قال :

« يخيل إليّ ان الخجل يغشّى على كل أعضائى الجسمانية ، فيربط لسانى ، ويظلم أفكارى ، ويقضى على كل ما عندى من قدرة على التعبير . ومن العجيب أنى أقل تعرضاً لنوبات الخجل فى حضرة ذوى الألباب منى فى حضرة الحمق والمغمورين »

فلا عجب إذن إذا رأينا « منتسكيو » يمقت كل المقت ذلك الجو الخانق الذى كان يأنسه فى البطانات الملكية ؛ قال :

« لم أجهد نفسى فى أن أسعد وأربى من طريق البطانة . وإنّما أمّلت دائماً أن أثرى من عملي فى ضياعى ، وأن أتلقى الخير من يد الآلهة لا من يد البشر » .

وليس لنا بعد هذا أن نعجب من أن « منتسكيو » كان لا يرى سبيلا للفرار من متاعب الحياة إلا بالنزوع إلى أسمى ما تتجه إليه الأنفس الأبيّة ، المتطلعة إلى المثل العليا ، والغايات السامية ؛ قال: —

« كان الإكباب على الدرس والتحصيل الدواء الواحد الذى استطعت أن أنجو به من كثير من مرارات الحياة . ولم آنس فى الحياة من حرج ، لا تكفى ساعة واحدة أقضيها فى القراءة ، لكى تذهب بكل آثاره من نفسى »

وكان عريض الأمل ، شامل النظر ، كلى المرامى ، إنسانى النزعة ، فإن الثورة الفرنسية ، وهو من أكبر الممهدين لها ، لم تلبث أن استفوت عليها بعد قليل الروح القوميـة ، فأسلمت نابليون قيادها ، وألقت بين يديه بروحها ؛ تلك الروح التى كانت أكبر الأسباب فى انتصاراته ؛ غير أن سيل الفكر الجارف الذى تقدم شبوب الثورة ، كان من غير شك ، ذا صبغة إنسانية . ومن كلمات لمنتسكيو ننقلها هنا يتضح لك الاتجاه الحقيقى للفكر الفرنسى قبيل الثورة العظمى ؛ قال :

« إذا وضح لى أن شيئاً من الأشياء لى فيه نفع ، ولكنه مضر بأسرتى ، فإنى أنفيه من عقلى ، وأطرده من مخيلتى . وإذا وقعت على شىء نافع لأسرتى ، ولكنه مضر بوطنى ، فإنى أجتهد فى أن أنساه . أمّا إذا سقطت على شىء مفيد لوطنى ، ولكنه مضر بأوربا ، أو بالسلالة البشرية ، فأقل ما أعتبر أن نيله جريمة كبرى . »

وكان لمنتسكيو نظرات فلسفية عميقة فى حقيقة الخلق الانسانى ، طبقها واتخذها فى الحياة إماماً . وكان ككل الفلاسفة العمليين الذين درجوا من قبله يعتقد أن اللذة والألم دستور السلوك الانسانى . ولكنها اللذة التى لا تطفر لتصير شهوة ، والألم الذى يحتمل بصبر وشجاعة فى سبيل تحقيق المثاليات ؛ قال :

« إن دورة عقلى قد هيئت ، لحسن الحظ ، بحيث تجعلنى شديد الحساسية فأتأثر بالأشياء ابتغاء الاستمتاع بها . ولكن لم تبلغ حساسيتى بالأشياء حداً يجعلنى أتألم من فواتها »

من هنا نستطيع أن نؤلف صورة تدلنا على شىء من حقيقة « منتسكيو » ، وهذا كافٍ للتعريف به . ولهذا ننتقل الى الكلام فى مبادئه ونظرياته السياسية ، فإنها أخص ما يعلق بالذهن كلما ذكر اسم « منتسكيو »

***

إذا شرعت تقرأ كتاب منتسكيو «روح القوانين» ، وضحت لك صورتان جليتان : الأولى ، رجوعه فى التدليل على نظرياته إلى التاريخ ؛ والثانية : نزعته إلى أحكام الآخرة بين النظرية السياسية ، والعلوم الطبيعية . وللصورتين أهميتهما القصوى فى التعريف بمنتسكيو ودرس مذهبه . ناهيك بأنهما بداية ذلك التطور الفكرى الكبير الذى تناول منازع هذا الرجل العظيم منذ نشأته

مُفكراً ، حتى تمام تكوينه كقوة عظيمة ، أثرت ، ولا تزال تؤثر ، فى مناحى الفكر والعمل الانسانى .

كان « منتسكيو » مفرط العناية بقراءة التاريخ . ولن تبالغ إذا قلت إنه كان بالتاريخ أشد هياماً من « روسو » . ذلك إلى أنه أوسع من « فولتير » نظراً ، وأشمل إحاطة ، وأنزع إلى معالجة المشكلات الاجتماعية . ومع كل هذا فإن معرفته بالتاريخ مقيسة على مفهومه الحديث ، كانت ضيقة محدودة . وكان من المحتوم أن يكون علمه بالتاريخ ضيق الحدود ؛ إذا وعينا أن التاريخ الحديث خلق جديد من مخلوقات القرن الثامن عشر

كانت معرفة « منتسكيو » بحوادث التاريخ تامة ، بالغة منتهى الضبط والإحاطة . ولقد حوى كتابه « عظمة الرومان وانحطاطهم » أسمى صور البلاغة ، وجمال الأسلوب . بل إنك لا تقول شططا إذا قضيت بأن أكثر النظريات التحليلية التى بثها فيه « منتسكيو » عند الكلام فى أربعة القرون التى أظلت نشوء النصرانية ، سبقاً وتعقيباً ، كانت عادلة متزنة ، لا هي إلى الافراط ولا هى إلى التفريط . ولقد كتبت الفصول الأولى من هذا الكتاب فى عصر لم يكن سلطان النقد قد تناول فيه التاريخ بعد ؛ فإنه كتبها قبل ظهور كتاب « تييوهر » الذى يعد الفتح الأول للنقد فى مجال التاريخ . وكانت آراؤه فى القيصرية الرومانية الغربية وسبب انحلالها نفس الآراء التى ذاعت فى سبب انحلال القيصرية البوزنطية . وتلك وجهة من النظر التاريخي ذاعت فى القرن الثامن عشر ؛ ومن حسن الحظ أن البحوث التى ظهرت فى خلال نصف القرن الماضى ، قد طهَّرت منها عقول المؤرخين ، تطهيراً كاملاً

وكان « منتسكيو » ، إلى هذا ، محيطاً بتاريخ رومية أوسع إحاطة . فهما جوهره أقوم فهم ، ملماً بعناصره أمتن إلمام . ولكن معرفته بتاريخ اليونان كانت بغير شك أقل من معرفته بتاريخ رومية . وكتاباته فى تاريخ العصور الوسطى ، لا تخرج عن كتابات مُلِمٍّ بالآثار البدائية (الأرخيولوجيا) لا بالتاريخ

أما معرفته بتاريخ فرنسا فكانت شاملة ، وبخاصة تاريخها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ؛ ولا شبهة فى أنه كان محيطاً بتاريخ العصر الذى عاش فيه . وكان شديد العناية بدرس تاريخ انجلترا ، مشغوفاً بمسائله ومشكلاته . ولكن نظرته فيه كانت شاذة بالرغم من طرافتها

ولم يهمل « منتسكيو » التاريخ العام . الذى يعتبر تاريخ رومية وفرنسا وانجلترا ، أجزاء منه وتتفاً ؛ بل زوده بعناية الدرس والتحصيل . فان تاريخ مصر وبابل والهند والصين واليابان وشعوب خط الاستواء ، وشعوب الجمد الشمالى ، كانت ماثلة له حية فى مخيلته . ولكن لم يكن الزمان قد زوَّدَ المشتغلين بالتاريخ بعد بمدة يستخرجون بها من ماضى الشعوب صوراً واضحة جلية

يظهرنا هذا على أن عنايته بالتاريخ كانت كبيرة ولكن من الخطأ أن نتصور أن فلسفته السياسية كانت مستمدة من معرفته بالتاريخ ، أو مستندة إليها ؛ فانك إذا مضيت تماثل بين ما كتب أرسطوطاليس أو لا دويرابس ، وبين ما كتب « منتسكيو » وقعت على الفارق العظيم ، والصدع النائى الذى يفصل « منتسكيو » فى العصور التى تقدمته ، والعصور الذى تلته ، وجملة الفارق بين الأساليب التى اتبعها القدماء والأساليب التى انتحاها المحدثون . فان « منتسكيو » كان يتخذ من التاريخ مضربا للأمثال والمثلات ، ليؤيد وجهة نظره ، ولكنه لم يستمد من التاريخ بالذات تلك الآراء التى قامت عليها نظرياته السياسية ، وليس عندنا من دليل على هذا أقوم من الدليل الذى ترجع فيه إلى الفصل الثامن من كتابه « روح القوانين » إذ يقول :

« كما أن الديمقراطيات تفسد وتنهار باعتداء الأمم على المحاكم العليا – البرلمان – والحكام والقضاة ، واستلاب حقوقهم وخصائصهم ، كذلك تسقط الملوكيات ، أو هى تأخذ فى الانحلال إذا مضت تسلب من النقابات والجمعيات والمدن امتيازاتها الطبيعية والحالة الأولى مظهر لاستبداد الجماعات ، والثانية مظهر لاستبداد الفرد . »

« إن السبب الذى أسقط أسرتى « تسن » و « سووى » كما يقول مؤلف صينى ، إنما يرجع إلى أن أمراء الأسرتين لم يكتفوا من الحكم بالاشراف الأعلى على شئون الدولة ، كما كان شأن الأمراء فى الأسر اللواتى سبقت فى الحكم ، وكما هو طبيعى أن يكون فى ملوكيات رشيدة ؛ بل حاولوا أن يتحكَّموا ويحكموا فى كل شأن من الشئون بأنفسهم ، وبغير واسطة . وكلمات هذا المؤلف الصينى ، تعبر عن الأسباب التى يعود إليها

سقوط الملوكيات فى كل الأزمان . »

« إنما تسقط الملوكيات بأن تقوم فى نفس الملك شهوة ان يظهر جبروته وسلطانه ، فيحرّف النظم المقررة ويفسدها ، بدل أن يحافظ عليها ويرعاها . ومثل ذلك أن يغتصب الحقوق والامتيازات التى تقوم عليها بعض النظم من يد فئة ، ويهبها باختياره ، ولمجرد إشباع شهوته ، لفئة أخرى ، أو أن يحكم خياله وتصوراته فى شؤون الدولة ؛ دون عقله ونُهاه . »

« تنهار الملوكية عند مايقدم ملك يحاول أن يحصر كل شيء فى ذاته . فيركز الحكومة فى عاصمته ، ويركز العاصمة فى بطانته وحاشيته ، ويركز البطانة فى ذاته ؛ وفوق كل هـذا يكون سقوط الملوكية سريعاً مروّعاً ، عند ما يسيء الملك فهم سلطته ومركزه ، وحب شعبه له ، وعند ما يغيب عن فهمه أنه يجب أن يشعر دائماً بأنه فى أمن وسلام ، قدر ما يشعر المستبد القاهر أنه دائماً فى خطر » اه

فهل من شك فى أن « منتسكيو » ، وهو رئيس محكمة « بوردو » العليا إنما يُعبّر بهذا عما قام فى ذهنه عن ملوكية لويس الرابع عشر وخَلَفِه ، وأنه ذلك المؤلف الصينى ، الذى يخيَّل إلينا أنه لم يوجد إلاّ فى مُخيِّلة مؤلف « روح القوانين » لم يُقحم فى هذا الموقف إلاّ ليكون مادة لضرب المثل ، وإظهار المَثُلَة ؟ ليس هذا ببعيد . ذلك بأن « منتسكيو » يعرف تمام المعرفة ، كما ذكر فى غير الموطن الذى نقلنا عنه هذا القول ، أن الملوكيات كثيراً ما فسدت وانحلت متأثرة بأسباب تختلف كل الاختلاف عن الأسباب التى ذكرها .

كذلك لايستطيع المؤرخ أن يعزو كبير قيمة لنزعة هـذا العبقرى إلى الاستعانة بالعلوم الطَّبيعية . فإن قوله بأثر البيئة الطبيعية كأن أمراً له فى البحوث الاجتماعية والسياسية ، إلى جانب الجدة والحداثة ، خطره العلمى . غير أن هذا البحث مَجلُواً فى الصورة التى لابسته فى ما كتب « منتسكيو » ، وفى الصورة المحرفة التى ظهر بها فى بحوث « روسو » ، لن يجد فيه الفكر الحـديث مقنعاً ، أو يقع فيه على حقيقة تنقع الغلة . فلقد عالج تطبيق العلوم الطبيعية على الاجتماعيات من وجهة هي على غرابتها وبعدها عن مناحى الفكر الحديث ، تثير عند المحدثين الذين يعرفون مرامى العلم العملى ومنازعه ، كثيراً من الاستخفاف بها ، والسخرية منها . ومثلنا على ذلك ما عالج به حالات انجلترا الاجتماعية من الآراء التى بثها فى فصلين من « روح القوانين »[1] فإن آراءه التى بثها فى ذينك الفصلين ، تحمل على القول بأن « منتسكيو » كان فيها إلى الهزل والمجانة ، أقرب منه إلى الجد . ويزيدنى بهذا الأمر ثقة أن فلاسفة القرن الثامن عشر لم يَتعفَّفوا عن النزعة إلى المجون ، بجانب ما كان فيهم من حب النفع العلمي ، والاستقامة فى التفكير . وعندى أن « منتسكيو » لم يرم بما كتب فى الفصلين السالفين إلا إلى الاستخفاف بقرائه من الانجليز . وما قولك فى رجل يبدأ البيان عن حالات الانجليز الاجتماعية بالكلام فى تأثير طقس بلادهم ، فيعزو إليـه نزعة الانجليز إلى الانتحار ؛ ثم يحاول أن يعلل الصورة التى تلابس ميولهم القومية ، فيقول إنها ترجع إلى ضعف الاستعداد الطبيعى على ترشح العصارة العصبية . وهذا قول لايكفى أن يكون سبباً فى تعليل ميول الانجليز القومية لاغير ، بل يكفى للقول بأن الشعب الانجليزى مقضى عليه بالفناء جميعاً .

وهو يحاول فى فصل تال أن يفسر تأثير ذلك الأمر على شكل الحكومة الانجليزية فيقول إن سلالة لها استعدادها فى التأثر بالاستثارات المختلفة وقلة ثباتها على شيء ، لن تصبر على حكومة تُلقى مقاليدها فى يد فرد واحد ، فلا تقوم خارجة على سلطان الحكومة وعلى سلطانه ، وإنه من الطبيعي أن تحلم أمة غَرَسَ فيها طقس البقعة التى تسكنها من كرة الأرض خِليقة القلق والجزع ، بحيث لا تحتمل البقاء على حالة بعينها ، أو الصبر على شيء بذاته ، بقوانين مستخلصة من التجارب ، فيكون من الصعب نبذها والنزوع إلى غيرها . ويخلص « منتسكيو » من هذا إلى رأى أعجب من كل آرائه الأخر ، مؤداه أن الدستور الانجليزى ، إنما هو جنى الضباب الذى يحط على بلادهم . أضف إلى ذلك أنه يعزو دين الانجليز إلى السبب عينه ، فى موضع آخر من ذلك الكتاب . (٢)

اسماعيل مظهر

---

(١) هما الفصلان الثانى عشر والثالث عشر .

(٢) المصادر : دائرة المعارف البريطانية ، وبخاصة بحث الاستاذ أ . ج جرانت أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة ليدز سابقاً .

من ذكريات الحملة الفرنسية

رستم مملوك الامبراطور

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يرقد نابوليون في مثواه الخالد في مؤخرة صرح الانفاليد بباريس، في تابوت من المرمر القاتم، تظلله قبة فخمة رائعة، وقد ركزت حوله عدة من الأعلام التي ظفر بها الامبراطور في الوقائع الشهيرة التي خاضها وكان النصر حليفه فيها مثل مارنجو، وفاجرام، وايلو، وأوسترلتز، وفينا، والاهرام، وغيرها؛ وقد استوقفنا يوم أتيحت لنا زيارة قبر الامبراطور منظر ذينك العلمين الممزقين اللذين كتب أمامهما موقعة الاهرام، فلم نستطع أن نميز لهما لوناً أو علامة خاصة أو أن نقرأ فيهما شيئاً

كانت الحملة المصرية من أعظم الحوادث التي تركت في ذهن نابوليون أثراً خالداً؛ ومع انها اختتمت بالفشل من الوجهتين العسكرية والسياسية فانها تركت من الوجهة المعنوية أعمق الآثار؛ ولم يكن نابوليون حين مقدمه إلى مصر فاتحاً يبحث وراء طالعه فقط، ولكنه كان يتصور انه يستطيع أن يعيد حلم الاسكندر، فيبدل الأمم والحضارات؛ ومن ثم فقد حشد في جيشه المطابع والأدوات العلمية إلى جانب المدافع، والعلماء المبرزين في كل فن إلى جانب الضباط والقادة؛ ولم يكن ظفر نابوليون بفتح مصر والبقاء فيها مدى حين، ليضارع تلك الجهود البديعة التي اضطلع بها علماء الحملة الفرنسية لدراسة مصر وحضارتها، وتلك النتائج العلمية الباهرة التي وفقوا اليها، ودونوها فيما بعد في كتاب «وصف مصر» أعظم وأقوم موسوعة ظهرت عن مصر، في العصر الحديث

ولما عاد نابوليون من مصر إلى فرنسا حينما تعقدت الحوادث وتجهمت، (اكتوبر سنة ١٧٩٩)، لم يكن لديه أمل في استبقاء مصر طويلا، ولكنه أراد أن يغادرها جنده في أفضل الظروف والشروط؛ وهذا ما وقع بعد قليل، فقد انتهت الحوادث بجلاء الفرنسيين عن مصر في أواخر سنة ١٨٠١؛ ولكن نابوليون لم يقطع صلته بمصر، ولم ينقطع اهتمامه بشئونها؛ فقد عنى بعد ذلك بتأليف لجنة من العلماء الذين رافقوا الحملة إلى مصر مثل برتوليه ومونج وفورييه، لتضع موسوعة شاملة عن مصر، وظهر أول مجلد من هذه الموسوعة، أو كتاب وصف مصر الذي أشرنا اليه في سنة ١٨٠٩، واستمر صدورها بعد ذلك أجزاء متعاقبة الى سنة ١٨٢٦، وكانت من أعظم ثمار الحملة العلمية

ولبث نابوليون وثيق الصلة بمصر وذكرياتها عن طريق آخر؛ ذلك هو حرسه الخاص الذي ألفه من بعض المماليك والأقباط والترك والسود الذين اصطحبهم معه من مصر؛ وكانت هذه الفرقة المختارة التي يرتدي أفرادها الثياب الشرقية الزاهية ويركبون الخيول المطهمة تصحب القنصل الأول، ثم الامبراطور، في غدواته وروحاته، الى التويلري ومالميزون؛ وكان منظرها الفخم المروع معاً، يثير طلعة الباريسيين ودهشتهم، فيحتشدوا لرؤية أولئك الفرسان الشرقيين، أولي الشوارب المفتولة، والعمائم الملونة، والثياب الفضفاضة، كلما مر ركب نابوليون

وكان عميدَ هذه الكوكبة المختارة جندي مملوك يدعى رستم. ولرستم مع نابوليون قصة طريفة نرويها في هذا الفصل. كان رستم أحد أولئك المماليك الذين يصعب تعقب أصولهم أو حياتهم الأولى، أتى به القدر الى القاهرة بعد أن بيع مراراً وائتي خطوبا، وقدم الى بونابارت في القاهرة حينما طلب أن يؤتى له ببعض الأدلاء الوطنيين. وكان رستم يومئذ فتى في عنفوانه وسيم المحيا، فراق نابوليون منظره، وسأله حسبما يقرر لنا رستم بعد ذلك في مذكراته، هل يجيد الركوب والطعان، فأجاب رستم بالايجاب. وسأله نابوليون عن اسمه، فأجاب ان اسمه الأخير يحيى، ولكن اسمه الحقيقي الذي سمي به في بلاد الكرج مسقط رأسه هو رستم؛ فأمره نابوليون أن يتسمى بهذا الاسم، ثم وهبه سيفاً دمشقياً رصعت قبضته ببعض الجواهر، ومسدسين زينا بالذهب، وألحقه بخدمته

ولم تمض أيام قلائل حتى اضطر نابوليون الى مغادرة مصر مسرعاً الى فرنسا، فلم ينس أن يصطحب معه مملوكه الجديد رستم على ظهر السفينة «موبرون» التي أقلته الى فرنسا مع بعض علماء الحملة من أصدقائه؛ وكان رستم يختص بخدمة سيده الجديد، ويقضي المساء على مقربة من الحلقة التي تتألف كل ليلة في مؤخرة «موبرون» من نابوليون والعالمين برتوليه ومونج

يتحدثون فى الشئون العامة أو يلعبون الورق ؛ وكان نابوليون كثيراً ما يقول لمملوكه انه سيجد فى باريس كثيراً من المال والنساء الحسان ، فيطرب رستم، وتضطرم مخيلته بالأحلام اللذيذة ، ويتذكر ماضيه التعس الحافل بصنوف البؤس والمخاطرة ، وما أسبغ الحظ عليه من رعاية ذلك السيد العظيم الذى سيقوده إلى مستقبل حافل بصنوف السعادة والنعيم

ووصلت « موبرون » الى المياه الفرنسية بعد رحلة خطرة دامت نحو خمسين يوماً ؛ ولما وصل رستم فى ركب سيده إلى باريس ، رأى منظراً رائعاً لم يتصوره من قبل ، وسحرته عظمة العاصمة الفرنسية ، التى لم تكن القاهرة أعظم مدينة شاهدها فى الشرق الى جانبها شيئاً مذكوراً ؛ ولم تمض أشهر قلائل حتى ظفر نابوليون بالغاء الحكومة الادارية المؤقتة (الديركتوار) ، وصدر دستور القنصلية (ديسمبر سنة ١٧٩٩) ، وانتخب نابوليون قنصلاً أولا ، وانتخب معه صديقاه كامباسير ولبرون كقنصلين ثان وثالث ؛ وهنا جاء دور رستم فى الظهور الى جانب سيده فى المواكب العظيمة ، وكان نابوليون يتوق دائماً الى أن يحيط نفسه بتلك المظاهر الشرقية الساحرة ، فكان رستم يتقدم عربة القنصل الأول دائماً ، وهو على ظهر فرس بديع ، وقد ارتدى صدرية من القطيفة الزاهية فوق ثوب واسع ، ووضع على رأسه عمامة بيضاء أنيقة ؛ وكان منظره الشائق الساحر معاً أجمل ما فى ركب القنصل حين يغدو وحين يروح

وجاء دور الامبراطورية وتألق نجم رستم سراعا ، وشهد الحفلة الدينية الكبرى التى توج فيها الامبراطور بالرغم من معارضة رجال الخاصة ، وأعد له بهذه المناسبة ثوبان فاخران وضع رسمهما « إيسابى » مصور الامبراطور ، وظهر رستم فى كنيسة « الانفاليد » وعليه صدرية من الكشمير الفاخر المطرز بالذهب وعمامة رائعة الحسن ، وذاعت شهرته حتى أصبح من طرائف باريس التى يعنى برؤيتها كل زائر للعاصمة ، وطبعت صورته ووزعت بالألوف فى جميع أنحاء فرنسا ؛ وأغدق الامبراطور على مملوكه العطاء والصلة ورتب له عدة رواتب حسنة حتى غدا من أهل اليسار والنعم ؛ وكان الامبراطور يثق به ثقة لاحد لها ، فلم يكن من أقطاب حرسه الخارجي فقط ، ولكنه كان حارسه الأمين فى حياته الداخلية أيضاً ؛ فكان ينام عند عتبة غرفة الامبراطور فى البهو الملاصق ، وكان هو الذى يحمل العشاء إلى الامبراطور والامبراطورة حينما يكونان فى الفراش ؛ وكان ملحوظا بالرعاية من جميع أعضاء الأسرة الملكية والحاشية ، حتى أن الملكة هورتنس ابنة الامبراطورة جوزفين ، وزوجة الجنرال مورات ، عنيت بتصويره ، وكانت تغنى له المقطوعات الساحرة حتى لا ينام أثناء التصوير

وتاقت نفس رستم إلى الزواج ، وهام بحب آنسة تدعى دوفيل وهي ابنة أحد منادى الامبراطور ، وكانت رائعة الحسن فى التاسعة عشرة من عمرها ؛ ولما طلب رستم يدها قامت فى سبيله بعض صعاب شكلية لأنه لم يكن كالفتاة كاثوليكي المذهب ، ورفض الأسقف الموافقة على هذا الزواج ، فتدخل الامبراطور وقضى على هذه الصعاب ، وتم زواج رستم بالآنسة دوفيل فى سنة ١٨٠٦ ؛ ورزق رستم منها غلاما سمي «أشيل» ، فطرب الامبراطور لمولده وأغدق العطاء لمملوكه

وظل رستم متمتعاً برعاية الامبراطور ، يمرح فى ظلال النعماء والنفوذ ، حتى وقعت الكارثة ، وهزم نابوليون فى حرب التحرير واضطره الحلفاء الظافرون إلى التنازل عن العرش والسفر إلى جزيرة «إلبا» ؛ وهنا سئل رستم كما سئل المخلصون من حاشية الامبراطور ، عما إذا كان يرغب فى مرافقة الامبراطور إلى المنفى ، فتردد رستم فى اللحاق به ، وهرول إلى زوجه فى باريس مغادراً ذلك القصر الذى أنفق فيه أعواما طوالا متمتعاً برعاية أعظم رجل فى فرنسا ، وفى أوربا بأسرها ؛ ودلل بذلك على أثرته ، ووضاعة نفسه ؛ بيد أنه ندم على فعلته بعد ، حينما رأى بداية العهد الجديد تميل إلى اضطهاد كل من كانت له صلة وثيقة بالعاهل المنفي ؛ وكانت فرقة المماليك التى ينتمى إليها رستم قد انحلت مع مرور الزمن وغادرها معظم رجالها ومات عدد منهم ، وبقي رستم بعد ذلك أبرز أعضائها القدماء ، ورأى رستم نفسه ينزل من علياء نفوذه بسرعة ، ويجرد من سيفه وعمامته ، وينظر إليه بعين الشك من الحكومة الجديدة . ألم يكن رستم أخلص حرس الامبراطور وأقربهم إليه وأشدهم وطأة على أعدائه ؟ وأحيط رستم برقابة صارمة ، ونقل عيون الحكومة الجديدة عنه أغرب الأخبار ، وقيل أنه يدبر مؤامرة لقلب الحكومة الملكية ؛ والواقع أن رستم كان أبعد الناس عن هذه

الريب ، ولم يكن يود إلا أن يعيش فى سلام بعيداً عن ذلك الماضى الذى يريبه ويزعجه

ولما عاد الامبراطور من منفاه فى إلبا توجس رستم شرا ، وهرول إلى سيده القديم يلتمس الصفح والاعادة ؛ فأبى الامبراطور رؤيته ، ورده باحتقار . وكان رستم يقيم عندئذ منزويا فى بعض ضواحى باريس . فلم يكن أحب إلى نفسه من أن يستأنف حياة الانزواء والهدوء ؛ ولم يمض غير قليل حتى وقعت الكارثة الحاسمة وهزم نابليون فى واترلو وحمل إلى منفاه فى سنت هيلانه ؛ ولم يهتز رستم لهذه الحوادث ، وقنع من الحياة بالهدوء والسكينة ؛ وعاد إلى سكنى باريس بعد أن نسيته الحكومة الجديدة ، ولم تحاول إقلاق راحته ؛ بيد أنه لم يكن يتمتع بعد برخائه القديم بعد أن أنقصت رواتبه ، وكثر عياله ، فنراه فى سنة ١٨٢٤ يسافر إلى لندن إجابة لدعوة أحد أصحاب المسارح ، وهنالك يعرض نفسه فى ثيابه الشرقية القديمة ويكسب بذلك بعض المال

وقضى رستم فى لندن نحو عام ، ثم عاد إلى باريس ، وانتقل بأسرته إلى بلدة دوردان على مقربة من باريس ليعيش فيها ؛ وهنالك لم تفارقه صفته القديمة « مملوك الامبراطور » ؛ وكانت هذه الصفة تثير من حوله الفضول وتسبغ عليه مهابة خاصة ؛ بيد أنه لم يكن يتمتع يومئذ بشيء من مظاهره الشرقية القديمة ؛ وكان يحب الصيد ، ويغشى مجتمعات المدينة ، ويتصل بكثير من أهلها بأواصر الصداقة المتينة ؛ وكان كثيراً ما يقص ذكرياته عن الامبراطور ويفاخر بما لديه من آثار الامبراطور مما أفاضه عليه أيام عزه ؛ وكان بعض الساخطين عليه يرمونه بالخيانة ، ويقولون عنه إنه خائن لبلاده خائن لولى نعمته ، بيد أن رستم لم يكن ليعبأ بهذه المطاعن ، وكان يحتفظ دائماً بسكينته وهدوء نفسه

وتوفى رستم فى سنة ١٨٤٥ ، فى الرابعة والستين من عمره ودفن بمقبرة دوردان وكتب على قبره ما يأتى « هنا يثوى رستم رضا ، مملوك الامبراطور نابليون سابقاً ؛ ومولده بتفليس من أعمال الكرج » ؛ وكانت وفاته خاتمة لآخر الذكريات الحية فى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر (١)

محمد عبد الله عنان

---

(١) استقينا معظم التفاصيل الخاصة بحياة رستم من المؤرخ الفرنسى لونوتر Lenotre

وحى الثلاثين

للأستاذ عبد المنعم خلاف

على مقطع من مقاطع الزمن الذى يبنينى ، أقف مستدبراً مواكب الحياة الحاضرة ، لأستعرض هذه العقود الثلاثة التى كونت جسمى ذرة ذرة ، وملأت رئتى شهقة وأفرغتها زفرة ، وسلسلت عقلى فكرة فكرة !

وأريد فى وقفتى هذه أن يكون فى روحى غيبوبة وامتداد ، وفى ذاكرتى صحو واجتماع ، وفى قلبى حنين واهتياج ، وفى عقلى سكون وإدراك ، وفى جسمى صحة ووُقود ، وفى قلمى حساسية وبيان . . . فإن الصور التى أرصدها مخبوءة فى رُكام من أيامى البالية التى لبستها أمام الشمس والقمر فطبعاها بالخاتمين « الأبيض والأسود » ثم نضوتها ومعها بسمة أو دمعة أو فكرة أو ذكرى ، أو قطعة من قلبى أو هزة من جسمى فى غَرارة الطفولة أو صحوة الصبا أو فوْعة الشباب الذى يوشك أن يمضى به ما أشاب الصغير وأفنى الكبير من كرّ الغداة ومرّ العشى . . !

***

أمس ! ياوادى الظلال الساكنة من حياتنا العاملة الناصبة . أنا الآن فى حركة إدبار وارتداد إليك ، فى ساعة ليس لى فيها حاضر راهن يشغلنى ، ولا أمل غائب يغازلنى ، واقفٌ فيك على أطلالى ! أبحث فيها عن صور عينى ولها فيك ظلال ، وأنغام أذنى ، ومنها بك أصداء . . بل إنى لأبحث عن سرى وميراثى من عهد آدم حادراً فى الأصلاب متنقلاً فى الأحقاب فى عالم غَيبى ومَشهدى !

فمن لى بما يَروِى لى ما بين مُبتداىَ ويومى هذا . . ؟ إنها شُقَّة بعيدة أحسب أنها تُعيى تهاويلَ الخيال المسعِد !

***

وقد قالت « الفسلجة » : إنى صورة تتجدد فيها خلايا جسمى كل سبع سنين . . . فلستُ أنا الجسم الأول ولا الثانى ولا الثالث ولا الرابع . . . وليس فِىَّ بقية منها ، فإذا بحثت عن أجزائى التى ماتت وأبعاضى التى غيّبت ، فلن أجدها إلا فى ذلك الجسم العظيم

الذى أنا خلية منه : الأرض . ويالها من تيهٍ لمن يبحث !

إذاً يا روحى ، أنت « المكان » الذى يمكن أن أبحث فيه عنى : سرًّا كامناً فى عالم الغيب ، ثم نواةً فعُقدةً فلُبًّا فثمرةً مدركة . فأفسحى لى من شأنك العظيم واحرقي بخوراً يُعِدُّ لى جواً أعيش فيه ساعة الذكرى !

* * *

ودخات قدس الروح المعطر ، ومعي ذلك « الصندوق العجيب » جمجمتي ! أتحسس الشعاعَ الأول الهادى إلى مفتاح حياتى ، فلم أرَ ولكنى سمعت نَجْوى تقول :

« حينما طلبت شعلةُ الحياة حطباً جديداً قبل ثلاثين سنة ، دُفع بك وأنت « لاشيء » فى غيبوبة الأزل على حبل نسل تناهى إليك من أبيك عن أبيه عن ... آدم فى صف كبير من لداتك الذين أتى دورهم فى الاحتراق ... فانعقدت البذرة وتخلقت وركبت الذات ووضعت الذرة الصغيرة التى فيها كل ميراث آدم ، واتصلت بها الشرارة الخفية المجهولة فدار قلبك الصغير فأضاف بنبضه صوتاً إلى ضوضاء الحياة . . وبحركته دفعاً فى موكبها . . وبحرارته جمرةً فى شعلتها ... فاختلج آدم فمَن والاه على السلسلة التى بينك وبينه ، فَرَحاً بالامتداد والخلود .. واستَبقَتْ الملائكة والشياطين إلى احتلال الأمكنة فيك استعداداً للمعركة المقبلة ... وعششت فى قلبك الغربان والخفافيش السودُ ، والحماماتُ البيض شأنها على كل غُصْن ... وطارت عليك الذرات الجامدة التائهة لتكون لَبِناتٍ حيةً فى البناء الجديد .

ثم فَصَلتَ عن المستودع الذى التى فيه أزَلُك وأبَدُك ، وخرجتَ فى موكب الربيع فى ابريل سنة ١٩٠٧ مع أوراقه وأزهاره وأغصانه وأفراخه . . كتلةً لحية عمياء بكماء صماء . . فأسرع جو الأرض إلى رئتيك المختلجتين فى ارتباك وسرعة لتلحقا حركة الحياة بالأحياء ، وفتحت الأضواء أجفانك ، وكل شعاع يريد أن يكون بشير النور ورسالة الشمس أم الحياة إلى « عدستك » الجديدة .

وكان أول صوت اقتحم أذنيك من ضجة الحياة ، صوت الآلام . . آلام تكاليف الحياة وحمل أمانتها الفادحة التى عرضت « على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » . . . صوت أمك . .

وبكيتَ من ازدحام هذه العوامل على جسمك الرقيق الغريب بينها فأذاقوا فاك لذَّته فسكتَّ ... وكان هذا أولَ درس عرفته من منطق أهل الأرض مع المزعجين . !

* * *

ثم عاشت هذه الكتلة طفيلية فى حياة كحياة النبات ، وفى فراغ كفراغ النائم ومضت الدنيا تدور كل يوم حول « صندوقها العجيب » فتَدْخُلُ إليه على شعاع أو صوت أو طعم أو لمس لتثبت وجودها فيه أو لتُخْلَقَ فيه خلقاً آخر على الأصح « والأكوانُ عِداد العقول » كما يقول الرافعى العظيم .

وتفاعلت أشياء الدنيا مع أشياء القلب فأخذ الشخص الكامن يبدو ويمتد فكل ذرة تلد وكل معنى يتركب من هذه الأبجدية وظهرت بعض النِّسب بين الأشياء ، واشرأبت الأشياء إلى براهين وجودها . .

فقلت لصوت النجوى : أكانت الدنيا عدما قبلي ؟ !

فأجاب : قالت بعض الفلسفات : الدنيا فكرة !

قلت : لا ! بدون برهان . . .

قال الصوت : أنت وأخوك قد خرجتما من مستقر واحد بجسمين مختلفين قد تقمصتك روح وتقمصته أخرى . أفرأيت لو خالف بينك وبينه فكنتَ إياه وكان إياك ؛ أفلا كان العالم غير ماهو الآن عندك وعنده وعند الناس ؟

فتأملتُ ولم أعط الجواب للآن . !

* * *

ثم انقطع الصوت وابتدأت أرى فى الجمجمة خيوط ضوء على حواء وآدم فى شخصي الأمِّ والأب ، وأسمع منها أهازيج الجنة وأصوات ولدانها فى أصوات لداتى وأترابى بملاعب الطفولة ، وأرى قطعة من سماء القاهرة والشمس فيها والقمر ، فوق المكان الذى تيقظت فيه من الغيبوبة والذهول : حارة الروم . . . سقاها الحيا ، فوقفت أبحث عن الطفل الصغير وضعفه وجهله وبراءته وفراغه وثيابه وحلواه وحيوانه وصورته التى كان يتعجب منها كثيراً . . . فوجدتها أشياء لا تزال تضحك كما كانت . . . وأنا أبكى بملئى وأنوء بقوتى ، وأنفجر بامتلائى وأجن بيقظتى . .

ففتحت لها قلبي فكادت تنكره وتختنق بما فيه .

وقلت يا حمراء هل رجعة ! قالت وهل يرجع ما فاتا !

***

ثم جاء العهد الذى رأيت فيه الدنيا فى شخص المعلم لها عصا تلوح لي بها إلى الحق والواجب ، والنفس والغير ، وتشير بها إلى الأمام . . . إلى الغاية . . . إلى الرجولة ، ثم تُصلصل بالقيود حين يصلصل الجرس . . .

فصحوت لأعلام الطريق واستيقظت لصحبة ذلك الشخص الغامض المبهم الذى ابتدأ يضايقنى بندائه ، ويشغلنى بأشيائه ... أنا ! فتمنيت وتخيلت وتشبهت وجاء الأمل والعمل ، وأسلمنى الزمان إلى عهدالشباب بنداءاته وهزاته ، وأقبلت الدنيا بأعراسها واحتوائها ومباهجها ومفاتنها تتحبب وتغازل وتُغنى للثمرة الناضجة . . واستيقظت الشياطين والملائكة للمعركة التى رَسَمت خططها واحتلت لها الأمكنة فى قلب الجنين ، وحامت الحمامات والفراشات البيض ، والأغربة والخفافيش السود ، فتغيرت نبضات القلب وسُمعت منه أصوات لاعهد لها ولا تاريخ . . وقال الجسد : هأنذا . . . وقالت النفس : وهأنذى ... وقالت الحياة : دونكما . . .

ووقفت أنا . . . أرى المعركة وأتفرس فى القتلى والمصروعين بدهشة وأسف ولذة وعجب إلى يومى هذا ، وهكذا يدور الصراع والقبر الموعد . . .

***

وارتسمت البشرية بعلومها وآدابها كلماتٍ على ذلك العرض الأبيض الذى فى رأسي : فألِفٌ وياء ، وواحد وألْف ، وأرض وبحر وسماء ، ومادة وقوة ، ومثلثودائرة ، وزنوج أفريقيةوبيض أوروبا ، وبوذا وفينوس ، والجل وزبلن ، والسلحفاة والطيارة والراديو ، والقبر والقصر ، والحق والواجب . . وقيل وقالوا ... ولست أدرى بعد ذلك : أهو قبض على ريح . ؟ . أو إمساك على ماء ؟ ! أو سراب على سبسب ؟ !

***

أيها الدهر الذى صحبته ولبسته ذَرَّة صغيرة الى أن صرت كوناً فيه قلب وعقل ! هأنذا كواقف فى صحراء تلتقى بها على مدى بصره آفاق السماء ، إذا تلفت وراءه وجد إبهاماً وغموضاً وإذا تطلع أمامه وجد إبهاماً وغموضاً . . .

وددت لو أنى كنت الرجل الأول لأشهد نشأة الانسان والرجل الأخير لأشهد فناء الانسان . . . الانسان الواحدالهائل الذى يتمثل فى هذه الأشخاص التى تمتلىء بها الأرض وتفرغ منها كل لحظة . . . الانسان الذى وقع عليه كل الضوء وكل الظلام . . . وددت هذا لأعرف ! ولكن ليس لى متقدم عن زمانى هذا ولا متأخر .

يالَبِنات الجسد ... ياقلبى الذى لم أره ولن أراه .. ياأعضائى وأجزائى التى تجمعَتْ لأكون . . .

ياناصيتى وقدمى ، وإهابى وفؤادى وظاهرى وباطنى . . !

أما سئمتن الأُلفة تحت هذا الرباط الضاغط ، فترون الفِكاك والانطلاق ؟

إنى أشعر أن حمَّلتكن إصراً ، وأرهقتكن من أمرى عُسراً ، وآذيتكن من جوار روحى : بيت النار !

إني يقظ للصحبة وفىٌّ للرُّفقة فى هذه الرحلة ، لا أبخل عليكن بالنظرة الرائية !

***

أيتها الأيام المقبلة التى فيها الأعباء الكبيرة والصحو من الرؤى والأحلام ، وبلوغُ القمة ثم الانحدار إلى الحفرة التى فيها الدوام والقرار . .

أُعيد حرارة قلبى من يدك الباردة . . ، وما وراء قلبى فهو لسطوة قوانينك ، وصرامة نواميسك . فهذا شَعْرى فاصبغيه بلون الكفن . . . وجلدى فسجلى فملك بتجعيده ، وقدماى فافتلي قيدهما ، وأوصالى فافصمي عراها ، وإن شئت فاغلق عينى وأحوجى سمعى إلى ترجمان ، واجعلينى كجذع هصرت غصونه وذهبت حِلاه وفنونه . .

أما قلبى فدعيه لي بأوتاره وأشواقه ، صوتاً أخيراً وصاحباً محدثاً أعيش معه يوم يدبر الناس وتزيغ الحواس ؛ حتى تطلبنى الأرض جسداً تأكله !

عبد المنعم خلاف

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

لما جاءني نعي الرافعي بعد ظهر الاثنين ١٤ مايو سنة ١٩٣٧ غشيتني غشية من الهم والألم سلبتني الفكر والإرادة وضبط النفس فلم أكد أصدق فيما بيني وبين نفسي أن (صادق الرافعي) الذي تنعاه لي (البلاغ) الساعة هو الرجل الذي أعرف ويعرف الناس؛ ودار رأسي دورة جمعت لي الماضي كله بزمانه ومكانه في لحظة فكر، وتتابعت الصور أمام عيني تنقل إليّ خيال هـذا الماضي بألوانه وأشكاله ومجالسه وسمره وأحاديثه، من أول يوم لقيت فيه الرافعي من خريف سنة ١٩٣٢ إلى آخر يوم جلست إليه في قهوة (پول نور) منذ شهرين لحدثته وحدثني ثم انصرفت وانصرف وفي نفسي منه شيء وفي نفسه مني . . .

وعدت إلى النعي أقرؤه وفي النفس حسرة والتياع، فما زادتني قراءته شيئاً من العلم إلا أن مصطفى صادق الرافعي قد مات!

حينئذ أحسست كأن شيئاً ينصبّ انصباباً في نفسي، وأن صوتاً من الغيب يتناولني من جهاتي الأربع يهتف بي، وأن حياة من وراء الحياة تكتنفني الساعة لتملي عليّ شيئاً أو تتحدث إليّ بشيء. ونفذتُ إلى أعماق السر حين شعرت كأن عينين تطلّان عليّ من وراء هـذا العالم المنظور لتأمراني أمرا، هما عينا الرجل الذي أحببته حباً فوق الحب، وأخلصت له وأخلص لي إخلاصاً ليس منه إخلاص الناس، ثم نزغ الشيطان بيني وبينه ففارقته وفي نفسي إليه نزوع وفي نفسه إليّ، ثم لم ألقه من بعد إلا مرسوماً في ورقة مجللة بالسواد ... وانحدرت من عيني دمعتان!

وانطلق بي الترام إلى غير وجهة معروفة، والدنيا في نفسي غير الدنيا، والناس من حولي غير الناس؛ فلما صار بي الترام في ميدان (العتبة) رأيت جماعة من الشباب والصبيان يسيرون في موكبهم وموسيقاهم هاتفين بنشيد الرافعي:

حماة الحمى يا حماة الحمى   هلموا هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في العروق الدما   نموت نموت ويحيا الوطن

فكأنما كانت أصوات هؤلاء الشبان، في تلك الساعة، هاتفة بهذا النشيد، لتنبهني إلى أن الرافعي الذي وقع في نفسي منذ قليل أنه مات، هو حي لم يمت؛ وأن هذه النقلة من حياة إلى حياة، خليقة بأن تكون لمثل الرافعي هي الميلادَ الثاني. وثاب إليّ نفسي، فاستشعرت برد الراحة وهدوء الايمان

وانتهيت إلى (نادي دار العلوم) فما جلست قليلا حتى أقبل صديق الأستاذ محمود شاكر وفي عينيه دموع وفي شفتيه اختلاج فمدّ إليّ يداً يصافحني وهو يقول: «الرافعي مات . . .» وأطرق وأطرقت، وانسرب الفكر في مساربه، فما عرفت إلا منذ الساعة أيُّ واجب عليّ لهذا الراحل العزيز.

* * *

لقد عاش الرافعي في هذه الأمة وكأنه ليس منها. فما أدت له في حياته واجباً، ولا اعترفت له بحق، ولا أقامت معه على رأي؛ وكأنما اجتمع له هو وحده تراثُ الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة، فعاش ما عاش ينبهها إلى حقائق وجودها ومقوّمات قوميتها، على حين كانت تعيش هي في ضلال التقليد وأوهام التجديد. ورضي هو مقامه منها غريباً معتزلا عن الناس لا يعرفه أحد إلا من خلال ما يؤلف من الكتب وينشر في الصحف، أو من خلال ما يكتب عنه خصومه الأكثرون، وهو ماض على سنته، سائر على نهجه، لا يبالي أن يكون منزله بين الناس في موضع الرضا أو موضع السخط والغضب، ولا ينظر لغير الهدف الذي جعله لنفسه منذ يومه الأول، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربي في هذه العجمة المستعربة، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال؛ وما كان – رحمه الله – يرى في ذلك إلا أن الله قد وضعه في هذا الموضع ليكون عليه وحده حياطة الدين والعربية، لا ينال منهما نائل إلا انبرى له، ولا يتقحّم عليهما متقحِّم إلا وقف في وجهه؛ كأن ذلك (فرض عين) عليه وهو على المسلمين (فرض كفاية)؛ وأحسبه قال لي مرة وقد كتب إليه صديق بلفته إلى مقال نشرته صحيفة من الصحف لكاتب من الكتاب تناول

فيه آية من القرآن بسوء التأويل : « يا سعيد ، مَن تراه يقوم لهذا الأمر إن سكت الرافعي ؟ » وما كان هذا من اعتداده بنفسه ، ولكنه كان مذهبه وإليه غايته ، وكأن القدرة التي هيّأته وأنشأته بأسبابها لهذا الزمان قد فرضت عليه وحده سداد هذا الثغر ؛ وكان إلى ذلك لا ينفك باحثاً مدققاً في بطون الكتب حيناً وفي أعماق نفسه المؤمنة حيناً آخر ، ليستجلي غامضة من غوامض هذا الدين أو يكشف عن سر من أسراره فينشر منه على الناس ؛ وأحسبه بذلك قد أجدّ على الإسلام معانيَ لم تكن تخطر على قلب واحد من علماء السلف ، وأراه بذلك كان يمثل (تطوّر الفكرة الإسلامية) في هذا العصر . فإذا كانت الأمة العربية المسلمة قد فقدت الرافعي فما فقدت فيه الكاتب ، ولا الشاعر ولا الأديب ؛ ولكنها فقدت الرجل الذي كان ولن يكون لها مثله في الدفاع عن دينها ولغتها ، وفي النظر إلى أعماق هذا الدين يزاوج بينه وبين حقائق العلم وحقائق النفس المستجدّة في هذا العصر ، ولقد يكون في العربية كتاب وشعراء وأدباء لهم الصيت النابه ، والذكر الذائع ، والصوت المسموع ؛ ولكن أين منهم الرجل الذي يقوم لما كان يقوم له الرافعي : لا يترخّص في دينه ، ولا يتهاون في لغته ، ولا يتسامح لقائل أن يقول في هذا الدين أو في هذه اللغة حتى يردّه من هدف إلى هدف أو يفرض عليه الصمت . . .

***

وبعد فماذا يعرف الناس عن الرافعي وماذا أعرف؟ هل يعرف الناس إلا ديوان الرافعي ، وكتب الرافعي ، ومقالات الرافعي ؟ ولكن الرافعي الذي يجب أن يعرفه أدباء العربية ليس هناك . فماذا يكتب عنه الكاتبون غداً اذا أرادوا أن يكتبوا هذا الفصل الذي تم تأليفه في تاريخ العربية ، وماذا يقول الراثون عنه في حفلة التأبين ؟

لقد عشت مع الرافعي عمراً من عمري في كتبه ومقالاته فما عرفته العرفان الحق ؛ وعشت معه بعد ذلك في مجلسه وفي خاصته ، وخلطته بنفسي وخلطني بنفسه ؛ فما أبعد الفرق بين الصورتين اللتين كانتا له في نفسي من قبل ومن بعد ؛ أفتراني بهذا أستطيع أن أقول عن الرافعي شيئاً أؤدي به بعض ما عليّ من الدَّين للعربية وللفقيد العزيز ؟ مالي أتهيب هذا المجال فلا أقدم حتى أحجم ؟ انني لأحس عبئاً ثقيلاً على عاتقي ، لا طاقة لي بأن أحمله ، وليس على أحد غيري أن يقوم به . ولقد طلب إليّ الأستاذ الزيات منذ عامين أن أكتب شيئاً عن الرافعي يعرّفه الى قراء « الرسالة » فما أحسبني لقيت في ذلك من الجهد الا بمقدار ما استحضرت الفكر وتداولت القلم ؛ على أن الرافعي كان يومئذ حياً ، وكنت أحذر أن يغضب أو ينالني منه عتب ؛ فكيف بي اليوم والرافعي بعيد في عالم الثاني ، والكلمة اليوم للتاريخ ، ووسائل العلم مني قريبة ؛ ورسائل الأستاذ الزيات تترى تستنجزني الوعد وتقتضيني الحق الذي عليّ للأدب والعربية ، وصوت الفقيد العزيز يهتف بي حيثما توجهت : « إن لي عليك حقاً وإن للأدب عليك . . . ! »

ولكني ما أكاد أمسك القلم حتى يكتنفني الشعور بالعجز فأكاد أوقن أنه لا أحد يستطيع أن يكتب عن الرافعي إلا الرافعي نفسه ، ولكن الرافعي قد مات . . .

أيها الحبيب العزيز الذي ما أزال من كثرة ذكراه كأنني منه على ميعاد ، معذرة إليك !

***

وهأنذا أحاول أن أكتب عن الرافعي ؛ فلا ينتظرْ أحد مني أن أتكلم عن الرافعي الشاعر ، أو الرافعي الكاتب ، أو الرافعي الأديب ، أو الرافعي الفيلسوف ؛ فما يتسع لي الوقت ، وما يرضيني عن نفسي ولا يقنعني بالوفاء أن أكتب عن هذه الحيوات الكثيرة التي اجتمعت في حياة إنسان ؛ فلينهض لذلك غيري ؛ ولكني سأكتب عن الرافعي الرجل الذي عاشرته زمناً ، ونعمت بصحبته ، وخلطته بنفسي ، وتحدث قلبه إلى قلبي ، وتكاشفت روحه وروحي ؛ سأكتب عن الرافعي الرجل الذي عاش على هذه الأرض سبعاً وخمسين سنة ثم طواه الموت ؛ سأحاول أن أجمع شتات حياة تفرقتْ أخباراً وأقاصيص ونوادر على لسان معاصريه أو غابتْ سراً في صدور أهله وخاصته ؛ أما الرافعي الشاعر الكاتب الأديب الفيلسوف فسيجد الباحثون مما أقول عنه مادة لما يقولون فيه ، ولعلي أن أوفق في البلوغ إلى ما قصدت . وإنني لأتهم نفسي من كثرة ما أحب الرافعي أن أتحيّف الأدب لو بدا لي أن أقول : هذا رأيي . ولكني سأقول : هذا ما رأيت . فمن كانت له عين بصيرة تنفذ إلى ماوراء المرئيات وتربط الأسباب بالمسببات فسيبلغ جهده ويرى رأيه .

ولقد كان الرافعي منذ شهرين إنساناً حياً بعواطفه وأمياله وحبه وبغضه وشهواته النفسية ، ولكنه اليوم فصل من تاريخ العربية بألوانه وفنونه ؛ فلا علىّ اليوم إن قلت كل ما أعرف عنه خيراً وشراً ؛ فانما أكتب للتاريخ ، والتاريخ لايحابى ولا يحتسب، وستمرّ بى فى تاريخ الرافعي حوادث وأسماء سأصفها وأعرِّف عنها بقدر ما ، كما سمعتها أو عرفت عنها ؛ فأيُّما كاتبٍ أو أديب أو رجل أو امرأة أو ذى شأن أحس فيما أكتب شيئاً ناله بما يوجب المدح أو المذمّة فلا يشكر ولا يتعتّب ؛ فان التاريخ بعد أن يقع لايمكن محوه بممحاة تلميذ . . . وما فات من تاريخ الإنسان فهو جزء انفصل من حياة صاحبه ، وإنما له ماهو آت ، وما أحب أن يقول لى أحد صدقت أو كذبت ؛ فما هـذا الذى أكتب رأيا أراه ، ولكنه رؤية رأيتها أو رواية رويتها فأثبتُّها مسندة إلى راويها وعليه تبعتها .

إن التاريخ الأدبى للرافعى يبدأ من سنة ١٩٠٠ وتاريخ ميلاده قبل ذلك بعشرين سنة ؛ وأنا ما بدأت صلتى بالرافعى إلا سنة ١٩٣٢ فما كان من هذا التاريخ فسأرويه من غيب صدرى أو مذكّراتى وعلىّ تبعته ، وما كان من قبل فقد سمعت به من أهله وأصدقائه الأدنين وخلطائه منذ صباه ، أو كان مما قصه علىّ أو عرفت عنه من أوراقه الخاصة ورسائله إلى صحبه ورسائل صحبه إليه . فهذه مصادر علمي أقدمها بين يدى هذا الحديث ليعرف قارئه أين مكانه من الصدق ومنزلته من الحق . على أن الذاكرة خئون ، وما يمر على فكر الإنسان من مختلف الحوادث وصروف الأيام ينسيه أو يلهيه أو يخلط فى معلوماته شيئاً بشيء ؛ فمن كان يعرف شيئاً من تاريخ الرافعي ورأى أنى تصرفت فيه بنقص أو زيادة أو تغيير أو تبديل فليراجعنى الرأى وليرشدنى إلى الصواب ، على أن أكون عنده بمنزلة من حسن الظن وأن يكون عند نفسه ؛ وإلا فليرحنى وليرح نفسه فما بى حاجة إليه ولا به حاجة . ورجائى هذا إلى أصدقاء الرافعى وخاصته وخلطائه ؛ أما الذين يروون عن السماع فليعلموا أن الحديث المتداول يزيد وينقص ، فما أرويه هو أقرب إلى الحق مما قد يكونون سمعوه .

***

الرافعى فى يوم الأخير

فى الساعة الثانية بعد ظهر الأحد ١٣ مايو سنة ١٩٣٧ نهض الرافعى عن مكتبه فى محكمة طنطا الكلية الأهلية منطلقاً إلى داره فى رفقة صديقه الأديب أمين حافظ شرف ، وتحت إبطه عديد من الكتب والصحف والمجلات ، تعوَّد ألا يسير إلا ومعه مثلها ، وفى يمناه عصاه يهزها أمام ووراء ؛ وما افترقا حتى تواعدا على اللقاء مساءً فى مكان ما ، ليذهبا معاً إلى (متنزه البلدية) فيشاهدا فرقة راقصة هبطت إلى المدينة منذ قريب . وتغدى الرافعي وصلى الظهر ونام ، ثم نهض فى الساعة الخامسة فصلى العصر وجلس يداعب أولاده قليلا — وجلوسه مع أولاده يداعبهم ويمزح معهم ويتبسط لهم جزء من عمله اليومى — ثم ذهب إلى عيادة الدكتور محمد الرافعى حيث لقي هناك أخاه الدكتور نبوى وصهره الأستاذ مغازى البرقوقي ، فجلس الرافعى يمزح ويضحك ويتندّر أكثر مما عرف عنه من المزاح والضحك والتندّر فى يوم من الأيام ؛ ثم صلى المغرب والعشاء فى العيادة ، ودعا أخاه ليصحبه الى مأتم جار من العامة ليعزيا أهله ؛ والمعروف عن الرافعي أنه كان يكره حضور المآتم وتقديم التعازى كراهة ظاهرة ؛ وقلما كنت تشاهده فى مأتم إلا فى النادر ، حتى انه لما توفيت زوج ابنه الأستاذ سامى الرافعي لم يجلس فى المأتم إلا لحظات ، ثم انفرد فى خلوته يستوحى الحادثة مقاله المعروف : « عروس تُزَفّ إلى قبرها ! » وجاء المعزون يلتمسون الأستاذ الرافعي فلم يجدوا إلا ولده وصهره . أفكان الرافعي بحضور هذا المأتم فى يومه الأخير يريد أن يصل نسباً أو يعقد آصرة بالعالم الثانى ؟ أو كان ميعاداً الى لقاء قريب ... !

ثم ذهب الرافعي بعد التعزية الى موعد صديقه ماشياً ، وقطعا الطريق الى المتنزه على الأقدام ؛ فتفرّجا ، وشاهدا ماشاهدا فى الحفلة الراقصة ، وأخذ الرافعي ما أخذ من وحى الراقصات لفنِّه ومادته الأدبية ، وأخذ صديقه ما أخذ ؛ أفكان بهذه الحفلة يريد أن يصل ما انقطع من قصة (الجمال البائس) و (القلب المسكين) و (فى اللهب ولا تحترق) . . . ؟

وفى منتصف الساعة الثانية عشرة كان الرافعي فى طريقه إلى

بيته، بعد ما ودع صديقه في منتصف الطريق؛ فلما بلغ الدار، خلع ثيابه، وتناول عشاء خفيفاً من الخبز والبطارخ، والبطارخ طعام الرافعي الذي يحبه ويؤثره على كل طعام في المساء، لأن له عملا أدبياً معه...!

واستيقظ مع الفجر على عادته كل يوم، فتوضأ وصلى، وجلس في مصلاه يدعو الله ويتلو قرآن الفجر. وأحس بعد لحظة حُراقاً في معدته فتناول دواءه وعاد إلى مصلاه، وصحا ولده الدكتور محمد فشكا إليه مايجد في معدته، وما كان إلا شيئاً مما يعتاده ويعتاد الناس كثيراً من حموضة في المعدة، فأعطاه الدكتور شيئاً من دواء وأشار عليه أن ينام، ولبس الدكتور ثيابه، ومضى ليدرك القطار الأول إلى القاهرة، ومضت ساعة؛ ثم نهض الرافعي من فراشه لا يحس ألماً ولا يشكو هما وما به علة، فأخذ طريقه إلى الحمام؛ فلما كان في البهو سمع أهل البيت سقطة عنيفة أحدثت صوتاً شديداً؛ فهبوا مذعورين ليجدوا عميد الدار جسداً بلا روح.

قال الدكتور محمد: « ولما وجدت البرقية تنتظرني في محطة القاهرة وليس فيها سبب مايدعونني إليه، تحيرت حيرة شديدة؛ بلى قد أيقنت أن شيئاً حدث، وأن كارثة وقعت؛ ولكن لم يخطر في بالى أنه أبى. لقد تركته منذ ساعتين سليما معافى قوى القلب أقوى ما يكون قلب رجل في سنه ... كل المفاجآت المروعة قد خطرت في بالى إلا هذا الخاطر، ولكن ... ولكن الذى مات كان أبى ... ! »

يا صديق، لك العزاء ولنا؛ أحسبت أن الرافعي سيموت في فراشه وهو قد نذر أن يموت في الجهاد وفي يده الراية ينافح بها الشرك ويدعو إلى الله ويواصل حملة التطهير ...؟

طبت نفسا يا مصطفى، لكم كنت تخشى الهرم والمرض والزمانة ولزوم الفراش وثقل الأيام التى تعد من الحياة وما هى من الحياة، فأى كرامة نلت؟ وأى مجازجزت؟ وهل رأيت الطريق بين الحياتين إلا ما كنت تريد؟ وهل كانت إلا خفقة نفس نقلتك من ملأ إلى ملأ أرحب وأوسع في كنف الخلد وفي ظلال الجنة؟

يرحمك الله يا صديقي ويرحمنا!

(لها بقية) « طنطا » **محمد سعيد العريان**

الفلسفة الشرقيـــة
بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٣ —

البوذية

لما كانت البوذية ثانية الديانتين الجوهريتين في بلاد الهند، فقد كان من الطبيعي — وقد بدأنا بالبراهمة — أن نثني بها محاولين إيضاح غوامضها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، ولكن ينبغي لنا قبل الدخول في تفاصيل هذا المذهب أن نلم بشيء مما حواه لنا التاريخ الغامض عن حياة المنشىء العظيم لهذه الديانة الخطيرة التى لعبت في تاريخ الانسانية دوراً من أهم الأدوار. وإليك هذا الموجز المضطرب من حياة هذا الزعيم الديني الكبير ولد « جوتاما سيرهارتها » في « كابيلا فاستو » على حدود « نيبال » حوالى سنة ٥٦٠ قبل المسيح من أسرة نبيلة، إذ كان والده رئيس قبيلة « ساكيا ». ولما شب زهد في نعمة والده وأخذ هذا الزهد يزداد شيئاً فشيئاً حتى إذا بلغ من نفسه منتهاه ألقى بالحلل الفاخرة جانباً واستبدلها بثياب خشنة مرقعة ثم هجر منزل أسرته إلى الغابات والأحراش لا يلوى على شيء من مظاهر النعمة التى كانت تحدق به إحداق السوار بالمعصم، لأنه آمن بأن مصدر جميع هذه الآلام التى تكتظ بها الحياة البشرية إنما هو الهوى المنبعث من الشهوات الجسمانية، وأن المخلص الوحيد من هذا السجن المطبق إنما هو في التلاشي المادى، وهذا التلاشي لا يتحقق إلا بالزهادة والتخلي عن جميع ملاذ الحياة وشهواتها. وقد أيقن كذلك بأن اللذائذ المادية ستار من الظلام يحجب عن النفس كل معرفة حقة، فالوسيلة الوحيدة إذاً، للتخلص من الألم ولتحقيق المعرفة هي الزهادة في المادة من جميع نواحيها.

لم تكد هذه العقيدة تستولي على نفسه حتى بدأ في تحقيقها، فانسلخ عن كل مظاهر الترف وانسحب عن المدينة إلى إحدى

الغابات الموحشة ، فآوى فيها إلى شجرة كبيرة اتخذ تحت ظلالها الوارفة مقامه ، ثم أخذ يحاسب نفسه على ماقدمه من خير وشر حيناً ، ويتأمل فى أسرار الكون وخفايا الوجود حيناً آخر ، واستمر على ذلك زمناً طويلا لايزاول من أساليب الحياة إلا هذا الأسلوب المماثل الذى لافرق بين أمسه ويومه وغده .. وأخيراً شعر ذات ليلة وهو سابح فى بحار الفكر والتأمل أن المعرفة قد انقذفت إلى قلبه دفعة واحدة ، وأن أداء واجبه منذ اليوم لم يعد يتحقق بالنسك والتأمل فحسب كما كان قبل ليلة المعرفة ، وإنما أصبح يتناول إلى جانب ذلك شيئاً آخر ، وهو التبشير بمذهبه فى كل مكان ، ومحاولة غرسه فى كل قلب ، فهب لساعته يصدع بديانته الجديدة جهراً وفى غير مبالاة ، وسرعان ماتجمع حوله عدد من الشباب والشيوخ يتشربون تعاليمه تشرب الأرض اليابسة للمياه ، ثم جعل عدد هؤلاء التلاميذ يزيد شيئاً فشيئاً وأخذت هذه الديانة تنمو ويتسع نظامها حتى بلغ عدد معتنقيها نحو أربعمائة وسبعين مليونا من الأنفس فى الشرق الأقصى .

كان بدء بوذا فى الصدع برسالته على رأس العام السادس والثلاثين من عمره ، فظل جهاده فى نشرها زهاء أربع وأربعين سنة لم ينضب أثناءها لنقاشه نبع ، ولم يخفت لتبشيره بدينه صوت ، ولكن لم يثبت عنه أثناء هذا الزمن الطويل الذى قضاه فى نشر رسالته أنه غضب مرة واحدة مع مناقشه ، بل كانت الرحمة والعطف يفيضان من أساليبه فى مختلف الظروف ومتباين الأحوال لافرق بين أن يكون مناقشه من تلاميذه المحبين أو من خصومه الحاقدين .

وأخيراً توفى هذا الحكيم حوالى سنة ٤٨٠ قبل المسيح عن ثمانين عاما قضاها بين الزهد والتقشف والدعوة لديانته الجديدة ، وكان موته بين جمع من تلاميذه الأصفياء — مثال البساطة البعيدة عن جميع مظاهر الجلال التى تحوط عادة آخر ساعات عظماء الرجال

شخصية بوذا بين الشك واليقين

سأل الملك « ميلاندا » أحد ملوك الهند الأقدمين الحكيم « ناجازينا » وهو أحد أتباع البوذية قائلا : « أيها الحكيم المحترم هل رأيت بوذا ؟ » فأجاب الحكيم : « كلا ياصاحب الجلالة » . س : « وهل أساتذتك رأوه ؟ » . ج — « ولاأساتذتى ياصاحب الجلالة » قال الملك : « إذاً ، ياناجازينا ، فليس هناك بوذا ما دام لم يقم على وجوده برهان قوى » . فلما سمع الحكيم « ناجازينا » هذا الاعراض الذى وجهه الملك إلى إلهه . وكان حقا لايملك على وجوده برهانا مباشرا ، شرع يدلل عليه بآثاره الكونية فقال: « إذا غاب بوذا عن الأنظار ، فهنالك آثاره التى أنشأها ، ومصنوعاته التى خلقها فهي أقوى الأدلة على وجوده ، هنالك هذا العالم البديع الذى خلقه ، وهناك هذا العدد المظيم الذى أرسى سفنه بحكمته وقدرته على شاطيء النجاة بعد أن أنقذها من خضم الألم . وإذا كان من يرى مدينة منسقة بديعة التكوين والتنظيم لايستطيع إلا أن يعلن إعجابه بمنشئها وأن يرفع الصوت قائلا : ما أحكم هذا المهندس الماهر الذى شيد هذه المدينة وأتقن تنظيمها ! فالأمر يجب أن يكون كذلك بالنسبة إلى مدينة الكون العام التى أنشأها بوذا وأحكم تنسيقها .

وفى الحق أن نظرة واحدة إلى ماعليه الكون من نظام وانسجام تكفى لترسيخ الإيمان اليقينى بوجود بوذا » . فلم يكد الملك يسمع من الحكيم هذا البرهان حتى أعلن أنه مقتنع بوجود بوذا اقتناعه بوجود جده الأعلى مؤسس أسرته المالكة الذى لم يره كذلك ، وصرح بأن المشاهدة ليست كل شئ ، وأعلن أن كثيراً مما لا تعترف به المشاهدة له وجود واقعي يقيني

ويعلق الأستاذ «أولترامار» فى كتابه « تاريخ وحدة الوجود الهندية » على هذا بقوله : « أما النقد الحديث ، فلا يجد فى هذا البرهان ما وجده ذلك الملك الطيب القلب من الرضى والاطمئنان فهو إذ يوافق على أن مؤسس البوذية وجد تاريخياً لا يستطيع أن يؤمن بأن هذا المؤسس كان فى الواقع على النحو الذى صورته عليه الأسطورة الهندية ، وفوق ذلك فتاريخ الديانات يعترف فى صراحة أمام النقد الحديث بأن براهين هذا الحكيم كانت مبنية على أسس ضعيفة واهية لا تستطيع الثبات فى ميدان الجدل المنطقى وأن قيمة هذه البراهين تزيد ضآلة بقدر ما يكشف التاريخ أن أهم مصادرها هو الأساطير الشعبية المفعمة بالخرافات والأباطيل »

ويؤكد الأستاذ « أولترامار » أن استخلاص العناصر التاريخية الصحيحة من وسط ذلك المحيط الهائل المليء بالأساطير الخيالية فى ترجمة بوذا وصفاته وتعاليمه من الصعوبة بموضع ، وهو

لهذا يحيل القارئ إلى مؤلفات ثلاثة رجال من كبار العلماء الذين وصلوا إلى نتائج بحوث قيمة في هذا الموضوع ، ليستأنس بآرائهم وهم : « كيرن » و « سينار » و « أولدنبيرج » . فأما أول هؤلاء العلماء وهو الأستاذ « كيرن » فهو ينكر إنكاراً تاماً القيمة التاريخية لهذه الأساطير ويصرح بأنه لا أثر للحقيقة في كل مانقل لنا عن « بوذا » وبأن هـذه السيرة البوذية لم تكن إلا رموزاً لمثل العليا في نظر الشعب

وأما الأستاذ « سينار » فهو لا يرى في السيرة البوذية أكثر من أنها أسطورة قديمة رصعت بأبهى ما وعاه الشعب من أخلاق عدة أبطال طواهم الزمن فنسيت أسماؤهم وعلقت بالأذهان آثار بطولتهم

وأما الأستاذ « أولدنبيرج » فهو أقل قسوة على بوذا من زميليه ، إذ يعترف بأن طائفة من الحقائق الحائرة منبثة في وسط هذا البحر من الأساطير وأنه يتيسر للباحث الدقيق أن يستخلص من بين الفرث والدم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . أما بوذا على حالته التي هو عليها الآن في الأسطورة قبل تمييز الخيال من الحقيقة فهو لا يبعد عن كونه شخصية رمزية

ويميل الأستاذ « أولترامار » إلى هذا الرأي الأخير ، إذ يعتقد أن الباحث العميق يمكنه أن يصل — عن طريق الموازنة الدقيقة بين كل المصادر — إلى حقائق يقينية عن شخصية بوذا وديانته وتعاليمه وأنه هو شخصياً قد وصل إلى كثير من هذه الحقائق ، وأن إحدى هـذه الحقائق التي وصل إليها هي أن بوذا قد وجد حقاً ، وأنه كان شخصية غير عادية لها من الميزات مالم يفز بهـا سواها في العصر الذي كانت تعيش فيه ، وأن هذا الرجل — بصرف النظر عما أحكمت حوله الأساطير من سياج التأليه — كان قوي الإرادة إلى حد بعيد ، ولـكن هذه القوة وجهت كلها إلى النضال الداخلي ، فبينا كان ظاهره يدل على الوداعة ولين الجانب وخفض الجناح كانت نفسه تحوي في داخلها عراكا قويا ضد الشهوات والرغبات ولم يسمح لهذا النضال أن يتجاوز نفسه إلى الخارج إلا في ناحية واحدة وهي ناحية إقناع سائليه ومناقشيه ولـكن هـذا الإقناع كان دائماً ممزوجا بروح السلام العام الذي يتخلل كل نواحي مذهبه

وعنده أنه كما أن الأرض تحمل ما يأتي فوق ظهرها من خبائث الأشياء دون ضجر وتتقبلها قبولها للطيبات ، كذلك يجب على البوذي أن يحتمل باسما احتقار الناس وإهاناتهم وأن يتقبلها بنفس الروح التي يتقبل بها الاجلال والتشريف . وكما أن الماء يتخلص عن التراب ، ليروي الظمآن ، كذلك يجب على البوذي أن يشعر أعداءه بنفس الخيرية التي يشعر بها أصدقاءه

وأهم ما يلفت النظر في شخصية بوذا هو أن وثوقه بنفسه وإيمانه بمبدئه ، وعقيدته في نجاح رسالته لم تكن ممكنة التشبيه بأي شيء آخر ، وهو لهذا يقول : « إن من المحتم أن هناك طريقاً للخلاص ، وأن من المستحيل ألا توجد هذه الطريق ، وسأعرف كيف أبحث عنها ، وسأجد حتما تلك الوسيلة التي توصل إلى الخلاص من كل وجود .

كان بوذا يجمع حوله الشباب ، ليلقي عليهم تعاليمه المؤثرة التي كانت تنال من نفوسهم منالا بعيد الغور ، ولـكن الأسطورة التي كانت كأنها إطار حول حياته زعمت أن موجة من الايمان كانت تخرج من عيني بوذا بمجرد نظره إلى تلاميذه فتسلك سبيلها إلى قلوبهم وتحتلها احتلالا قوياً قبل أن تنبس شفتاه بأية كلمة من تعاليمه .

(يتبع)

محمد غلاب

حديث في سفر

للأستاذ محمود السيد

لقد كان التطلع إلى الأحداث الجارية منذ يوم الهدنة التى أعقبت الحربَ الكبرى فى البلاد الشرقية المجاورة لنا ، ديدنى ، والسفرُ إليها غايتى ، ومعرفةُ بواعث النهضات الرائعة التي نهضها أهلُها ، مقصِدى . وكنت أحاول البدء بتركية التى أحسن لغتها وألمُّ بعض الالمام بأدبها القوى فى حيويته الرقيق بجماله ، فلم أوفق . على أنى قد وفقت فى العام الثانى والثلاثين والتسمائة والألف ، لزيارة بلاد الجارة الصديقة إيران ، وكنت يومئذ تعباً جداً من لغوب الحياة الراكدة ، سائماً أيامَها المتواليةَ المتكررةَ عندنا فى غيرما انبعاث صحيح ، ولا انقلاب من العهد القديم إلى عهد الدنيا الحديث ؛ نازعاً إلى اغتراب أنسى فيه ، إلى حين من الزمن ، آلام المتطلعين من أبناء الشعب الصابر النبيل ، إلى حياة هنيئة حرة فى مجد جديد يرام كالمجد القديم ؛ وقد أسمع وأرى ما يذكّر ويفيد

غادرت بغداد شاخصاً إلى طهران مساء اليوم السابع عشر من شهر أيار ، مستقلا قطار خانقين . وفى فجر اليوم التالى بلغت هـذه البلدةَ الصغيرةَ التى يتكلم قطينها شتى اللغى ، لأنها بلدةُ الحدود ونافذةُ العراق المطلةُ على إيران . وقد ذكرت فيها والأسف يحز فى قلبى كائنةَ المغول الأولى ، إذ جاءوها فى محرم الحرام من العام الثالث والأربعين والسمائة للهجرة ، نازلين إليها من همذان ففتحوها ثم قربوا من يعقوبا ؛ وكانت بغداد سكرى فى غفلة عن الزمن القلّب الحوّل والأقدار الغادرة . ولم يفعل خليفتها ووزيره وصحبهما سوى التهيؤ — التهيؤ فقط — للدفاع بأجناد من الخلائق فقدت المُثل العليا ، فخارت عزائمُها ووهت بعد مرّة ، إذ أوهنها تخنيثُ الترف ، وتبلبلُ العقائد ، وانحطاطُ الخُلق ، واضمحلالُ روح الاستقلال ، ثم ارتد المغول عنها متحفزين لهجمة ثانية قاضية . وكذلك فعلوا ، فقد عادوا مرة أخرى فى العام الخامس والخمسين بعد السمائة للهجرة يقودهم هلاكو . . .

لم أقِم فى خانقين التي كانت طريق البلاء الأكبر النازل على العراق بعد ازدهار الحضارة العربية الاسلامية فيه ، إلا ساعتين .

واكتريت لى سيارة رافقنى فيها إلى كرمانشاهان تاجر ايرانى ذو سجاحةٍ وظَرْفٍ . ثم جاء بعده عَقيبَ السرى منها مسافر عراقى من مشايخ العلم ، تراءت لى فى محياه دلائل الحماسة فى الدين ، وفى سلوكه دلائل الحماسة فى القومية . فهو عربى من أهل النجف ، يدرك روح العصر بعض الإدراك ، على ميل شديد فيه إلى الماضى ، وحنين إلي دولة العرب فى أيامهم الذهبية التى خلت من قبل . وكان سميراً من الطراز الأول ، ورجلا يصلح ، لو أدرك روح العصر كل الادراك ، لأن يكون قريباً من الكمال الانسانى المجرد من الصفات التي يخلعها على الانسان فى المجتمع نضال المتعصبين فى الملل واعتراكُ النحل وتصادمها . وهو — كما كان يقول — من العاملين لآخرتهم كأنه موشكٌ أن يموت غدا ، ومن العاملين لدنياهم كأنه يريد أن يعيش أبداً . وقد حدانى الحديثُ ذو الشجون إلى أن أسأله : من السعيد فى الدنيا أيها الشيخ الفقيه ؟

فأجابنى وهو يعبس بمسبحته السوداء : ومن ذا الذى تعني ؟ آلسعيد من أهل السياسة ؟ آلسعيد من أهل الحرب والطعان ؟ آلسعيد من التجار ؟ آلسعيد من المحترفين خدمة الحكومة بأعمال الدولة ؟ آلسعيد من ذوي الحرف والصناعات ؟ .. إلخ

فحيّرنى تسآله هذا ، وأعجبت بمنطقه ، فقلت وقد أدركت بعض قصده : من السعيد من الطبقة التي تنتمى إليها أنت ياشيخى ؟

قال : أحسنت . لقد حددت التعريف فأنصفت . . السعيد منا نحن رجال العلم القديم والدين من صح فيه قولُ عمر بن عبد العزيز الوراق لأبى بكر بن حزم : « إن الطالبين الذين أنجحوا والتجار الذين ربحوا هم الذين اشتروا الباقىَ الذى يدوم بالفانى المذموم ، فاغتبطوا ببيعهم ، وحمدوا عاقبةَ أمرهم . . . فالسعيد الموفق من أكل من عاجله قصداً ، وقدم ليوم فقره ذخراً ، وخرج من الدنيا محموداً . . . »

قلت : يا شيخى هذه فلسفة صوفية قد تنافى — إذا كنت مقتصراً عليها — ما زَعمتَ لى إذ قلت فى بعض حديثك إنك من العاملين للآخرة ومن العاملين للدنيا فأهملت الدنيا هنا ؟ أليست هى على رأيك : « الأمر الفانى المذموم » .

قال : إذن لا بد من إيضاح . . إن أمرها لفان ومذموم

لأمثالي إذا ما اقتصرنا في الحياة عليه . وهذا التشديد في ذمها صِمّامُ أمننا ، لأننا صرنا إلى حال لا تَسُرُّ المؤمنَ المحضَ ؛ وإذ كان هذا العصرُ عصرَ الاختصاص ، فإننا قد بَعُدْنا – إلا الأقل الأندرَ منا – عن اختصاصنا وهو العمل بروح الدين ورُحنا نتطلع إلى مطامع الدنيا ، وحطامِها ، فَنَسينا النصيحة والدين معاً ، وأقبلنا على كل ما فيه زهو وغرور . . .

قلت : هذا صوت صارخ في البرية ، فهل للشيخ أن يَنصَحني ؟

قال : لا تعجل . فان لكلامي بقية قليلة ، وفي القليل بُلغة . فأصغيت إليه . فمضى يقول : فأما العمل للدنيا بالنسبة إليّ ، فاني أحرث الأرض وأزرع في بستان ورثته من آبائي أرضاً قاحلة ، وأتعفف عما في أيدي الناس ، ولا أمد عيني إلى مال ؛ وبمنتوج بستاني وعمل يدي أحفظ على كرامتي ، وأشترى ورقي وحبري وكتابي وثوبي وطعام عيالي ، وأرفع رأسي موفور العزة في عشيرتي وأهل بلدي ؛ فهل من تقصير لدي بعد هذا في أمر الدنيا ؟

قلت : كلا . لقد أوفيت يا شيخي .

قال : وأنصحك يا صاحبي – ولعلك في غنى عن النصح – أن تكون ذا دين ، فاني لأشم في رائحة كتبك هذه التي تحمل بين يديك في رحلتك ، التي لا أعرف منها الغاية والمدى ، شيئاً أراه فوق التجدد الذي أنشده – مع من ينشده – لكم معشر الشباب اليوم فقد يصح لكم التجددُ على طريقة معتدلة لا تمس الدينَ ، ولا تَذهبُ بالقومية مذاهب الفناء والدمار ؛ ولكن غير هذا لا يصح .

قلت : ياشيخي ! الآن كنت تنادي بالاختصاص ، فقدفهمت أنك من حماة الدين الذي لن أمسه بسوء إن شاء الله ، وإن كنت أقرأ كتباً تجادل فيه ، فلكي أستطلع طلع المجادلين وأعرف مقالاتهم .

قال مقاطعاً :

للرد عليهم ولا شك .

فقلت مستمراً في قولي : ولكني أراك في قولتك الأخيرة متطرفاً إلى القومية ، فهل لي أن أفهم رأيك الواحد في النحلتين .

قال : بلي ؛ فأنا قوميٌ بعد كوني مسلماً . وإذا ادعيتُ مع المدعين أن للعرب الفضلَ الأكبرَ في هذه الحضارة العتيدة ، فلن أُخطئ الهدفَ من الصواب . وأنت تعلم أن أجدادنا نشروا ثقافتهم في آسية وأشاعوا علومهم في أوربة صَعَداً من الأندلس وأسسوا في بلادهم المدارس ، وسافروا إلى أقصى البلاد في سبيل العلم ، بعد أن نقلوا إلى اللغة العربية كثيراً من الكتب العلمية ، ونقحوها وهذبوها أصولاً وفروعاً ، وأضافوا إلى بعضها ، فأصبح زمام الحركة العلمية العالمية في أيديهم دهرا .

وكان سلطانهم ممتداً من ساحل المحيط الاطلانطيكي إلى تخوم الصين ، وكانوا هم أهل الصنائع والفنون

وكانوا أهل الشرائع العادلة ، وأولى نظام في سياسة الملك قويم ، وآداب خالدة رائعة ، وفلسفات

قلت : معلوم

قال : أجل ، فهذا شيء مفصل في كتب التاريخ ؛ فما الذي يعنيني الآن من أن أفخر بهم ، وبماضيهم المجيد الزاهر ، لكي أبعثَ في نفوس بني جلدتي – أبنائهم – الصَبُوَّ إلى السير على آثارهم مع آداء الواجب الحق لما يتطلبه العصر الحديث منها من أعمال مهما كان نوعها ، ترفع لأمتنا رايتها خفاقة بين رايات الأمم الحية القوية المنيعة الجانب ، الرافلة في حلل المدنية ، المتمتعة بمتع المجد والاستقلال . وكذلك كان أجدادنا العرب أولئك في أزمانهم السعيدة ، وأيامِهم الخالدةِ الذكر ، في سِفْر الحياة . وإنهم كانوا مع شيوع الفلسفة لديهم مسلمين حق إسلام ، يشعرون برابطة العروبة غالباً ، وإن كانت القومية على الطراز الغربي الجديد غير معروفة لديهم . . . فأكرر لك مرة ثانية : أنا قوميٌ بعد كوني مسلماً ؛ وليس عندي – لنفسي – رأي غير هذا . . .

إلى هذه النقطة من الحديث بلغ الشيخ . فانتهينا الى مرحلة من الطريق ، وجبت فيها علينا الراحة . وكنا في ضاحية قرية كائنة على حرف واد يُشرف عليه جبل سامق ، نبتت في سفوحه الجنات والحدائق الغلب ؛ فأردت أن أكتفي من الرجل بما سمعت فالتفتُّ الى السائق أسأله « الشايَ » له ؛ فقال مبتسماً وهو ينزل من السيارة : لعلك ترى في كلامي اقتضاباً مخلا ، فانى وان كنت شيخاً ، لا أعرفني الا من أقل الطلبة علماً فان ألفيتَ في منطقي وفي رأيي ما لا تراه وافياً ، فسامحني فيه ، فهذا حديث عجلان ...

« نزيل القاهرة » محمود . أ . السيد

الخطـــابة في عهد علي بن أبي طالب

للأستاذ احمد احمد بدوي

— ١ —

ارتقت الخطابة فى عهد على بن أبى طالب ارتقاء واضحاً وصارت سلاحاً قوياً يلجأ إليه الخليفة وخصمه ؛ يثيران بها الأنصار ، ويحفزان النفوس الى الغارة والحروب ؛ ولقد خلف لنا هذا العصر قدراً كبيراً من الخطب ، لم يؤثر مثله طول عهد الخلفاء الراشدين ؛ وليس ذلك بعجيب ؛ فان المسلمين لم يقفوا موقفاً يحتاج الى كثرة الخطابة ، كهذا الموقف الذى وقفوه أيام علىّ ومعاوية .

لم يقف المسلمون قبل اليوم يحارب بعضهم بعضاً ، وانما كانوا يجتمعون لحرب المشركين ، ونشر لواء الدين ، تملأ قلوبهم الروح المعنويّة ، والايمان القوىّ المتين ، وتحدوهم العقيدة أن لهم احدى الحسنيين ؛ فكان لهم من أنفسهم وازع أىّ وازع ؛ قلبهم يدفعهم ، وعقيدتهم تقودهم ؛ فلم يكونوا يوم خرجوا لمحاربة الفرس والروم فى حاجة الى اطالة القول والإطناب فى الخطابة لأن الدين الجديد وعقيدتهم فى وجوب نشره كان يحفزهم الى الجهاد ، ويملأ قلوبهم ثقة بالنصر ، معتقدين أن الله يمدهم بروح من عنده ، وأن المجاهد منهم تنتظره جنات وعيون ، أو نعيم الدنيا وما يغنمه من العدو ، وما يناله من الفىء .

أما اليوم فهم مدعوّون لحرب قوم لا يشركون بالله ، ولا ينكرون محمداً ، بل هم على دينهم وعقيدتهم ، ومن جنسهم وملتهم ولذلك كان الموقف الجديد فى حاجة الى خطيب يبرّر حرب المسلم أخاه المسلم وقتل العربى بنى قومه العرب ، واحتاج قادة الفريقين وزعماؤهم الى الخطابة يقوّون بها الرّوح المعنوية ، ويخلقون فى نفوسهم الايمان بأنهم يحاربون من أجل الحق والدين الذى آمنوا به ، وبأن جهادهم ليس إلا لتمكين الاسلام ، وتنفيذ أحكامه ، وكان المتحاربون فى حاجة إلى هذه الرّوح حتى تشتد سواعدهم على قتل إخوانهم وذوى قرباهم ، وكان الزّعماء يلجأون إلى الخطابة كثيراً ، حتى لا تفتر هذه الرّوح ولا تضعف ؛ وكثرة تكرار القول تدخل فى النفوس توهم صدقه وصحته ، وذلك هو السرّ فى كثرة ما ورثناه من خطب هذا العصر كثرة لم نعهدها فى خطب الخلفاء حينما كانوا يحثون المسلمين على حرب المشركين .

— ٢ —

ولكن الذى بين يدينا من خطب علىّ وصحبه ، أكثر مما ورد لمعاوية وأركان حربه ، ويمكن أن نرجع ذلك إلى أن كثيراً من آثار معاوية وأنصاره ، قد امتدت إليه يد النسيان والضياع ، بعد سقوط دولتهم ، وتشتت شمل معاونيها ، فإن الدولة الأموية بعد سقوطها لم يحاول أنصارها يوماً رفع رءوسهم ولا محاولة رجوعها ، ففقد بفقدانها الكثير من آثار خلفائها ؛ أما العلويون فمع أنهم كانوا يحاربون ويُقتلون ، ويلاقون من الحياة الشدّة والعناء ، كان لهم فى كل مكان الأنصار والمروّجون لدعوتهم والساعون إلى إقامة خلافتهم ، وقد نجحوا فى كثير من الأحيان فكان من الضرورى لهم أن يحفظوا كلام إمامهم ، وأن يتناقلوا أحاديثه وخطبه .

ويمكن أن نرجعه إلى أن كثيراً من الخطب التى نسبت إلى علىّ وضعت بعد عصره وضعاً ، وأضيفت إليه من غير أن يكون قد قالها ، ولا نريد الآن أن نمحص هذه الخطب ، وأن نبين ما وضع منها وما لم يوضع ، ولكن نقرّر أن كثيراً من هذه الخطب ألصق به إلصاقاً ؛ فكان سبب ما نراه من كثرة كلام علىّ كثرة يقل أمامها ما قاله معاوية ؛ هذا إلى أنه مما لا شك فيه أن علياً كان أبين من معاوية قولا وأفصح منه لساناً .

ويمكن أن يكون السبب قلة حاجة معاوية إلى الخطابة بالنسبة إلى علىّ ، فلقد كانت الروح المعنوية فى نفوس أهل الشام أقوى وأشد منها فى نفوس أهل العراق ، لأن معاوية قد ألقى فى روعهم أنهم إنما قاموا يقتصون لخليفة قتل مظلوماً ، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ؛ ومن أولى بالدفاع عن حق عثمان من معاوية ؟ وكان مكر معاوية ودهاؤه حين يقول : إننا لا نريد منهم سوى قتلة عثمان ، فليدفعوهم إلينا ونحن نبايع صاحبهم — يحرك الشاميين إلى الأخذ بثأر عثمان ، فلا حاجة إلى كثرة الخطابة وتكرير القول ، هذا إلى أن أهل الشام كانوا أطوع لمعاوية من

أهل العراق لعليّ . فمعاوية وأبوه وأخوه من قوادهم يوم حارب المسلمون فى الشام ، وإلى أن الشاميين كانوا فى موقف المدافعين عن بلادهم ، الذائدين عن حياضهم وعن أبنائهم ونسائهم ، وهذا مما يقوى فى نفوسهم روح الجهاد ويدفعهم إلى الحرب والقتال .

وهناك سبب آخر هام دعا إلى كثرة خطابة على وصحبه ، فلقد كان الخلاف يمشى إلى قلوب أنصاره ، وكان المخالفون يبينون رأيهم بالخطابة فكان من الضرورى أن يقف بينهم خطباء يدعونهم إلى الألفة واجتماع الشمل ؛ هذا إلى أن أصحاب عليّ قد خذلوا خليفتهم ، وتقاعسوا عن نصرته ، فاضطر إلى أن يرقى ذرا المنابر . وأن يرسل فيهم الصيحة تلو الصيحة يحرضهم على مناجزة أعدائه . وللإمام وأنصاره خطب كثيرة فى هذا الغرض .

على أن معاوية كان يلجأ إلى الخطابة الصامتة : فما كان عليه الا أن يعلق على المنبر أصابع زوج عثمان التى قطعت فى الدفاع عنه ، وقميص عثمان ، فيغنيه هذا عن تدبيج القول واطالة الحديث؛ اذ يجد من حوله ينادون : هيا الى الأخذ بالثأر ، هيا الى الحرب والقتال ؛ وقد يكون السبب مزيجاً من ذلك كله .

— ٣ —

لم يكن لعليّ بدّ من أن يخلق فى أنصاره الرّوح المعنوية ، وأن يبرر لهم موقفهم من حرب قومهم واخوانهم ، وأن يملأ قلوبهم بالحماسة والبسالة ، ويوغر صدورهم ضد عدوّه معاوية ومن معه ، فأحياناً يلجأ الى العاطفة الدينية يثيرها فيظهر أعداءه فى مظهر المارقين عن الدين ، والهادمين لأسسه ومبادئه ، هذا الدين الذى كان أجلّ مايعتزون به ويحاربون فى سبيله ، فيقول عليّ فى خطبة : «وايم الله ماوتر قوم قط بشىء أشد عليهم من أن يوتروا دينهم ، وانّ هؤلاء القوم لايقاتلونكم الا عن دينكم ؛ ليميتوا السنّة ، ويحيوا البدعة ، ويعيدوكم فى ضلالة قد أخرجكم الله عز وجلّ منها بحسن البصيرة ؛ فطيبوا عباد الله أنفساً بدمائكم دون دينكم ، فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنات النعيم ؛ وان الفرار من الزّحف فيه السلب للعزّ ، ومغلبة على الفىء ، وذلّ المحيا والممات ، وعاب الدّنيا والآخرة ، وسخط الله وأليم عقابه »

وهذه الفكرة قد تكرّرت فى أكثر خطب عليّ لتتأكد فى نفس أصحابه ؛ ولتصبح عقيدة إلى جانب عقيدتهم ، تدفعهم إلى حرب قومهم وبنى ملتهم .

وأحيانا يثير فيهم الأنانية ، فيبين لهم سوء المغبّة إذا انتصر معاوية عليهم ، ويحدثهم عما سوف ينالهم على يديه من الذلّ والهوان ، فيقول : «أما والله لئن ظهروا عليكم بعدى ، لتجدنهم أرباب سوء ، كأنهم والله عن قريب قد شاركوكم فى بلادكم ... وكأنى أنظر إليكم تكشون (١) كشيش الضباب ، لاتأخذون لله حقاً ، ولا تمنعون له حرمة ، وكأنى أنظر إليهم ، يحرمونكم ويحجبونكم ، ويدنون الناس دونكم » . وأحسب أن المرء حين يغرس فى نفسه أنه إنما يدافع عن كيانه ، ليحفظ على نفسه حياتها وسعادتها وأمنها — يدافع عن حياضه ببسالة وقوة وهو مايرمى إليه عليّ بخطابته .

وتارة يلجأ إلى ماضى أعدائه ؛ فيذكرهم به ، ويتحدث عما كان لهم ولآبائهم من قبلهم من خصومة للإسلام ، وسعى إلى تحطيم أساسه ، ثم يأخذ فى بيان ماله من مآثر ومزايا ، تجعل الموازنة بينه وبين معاوية ضربا من العبث ؛ قال عليّ : « . . . لم يرعنى إلا شقاق رجلين قد بايعانى ، وخلاف معاوية ، الذى لم يجعل الله له عز وجل سابقة فى الدين ، ولا سلف صدق فى الاسلام ، طليق بن طليق ، حزب من الأحزاب ، لم يزل لله عز وجل ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ،وللمسلمين ـ عدواً ، هو وأبوه حتى دخلا فى الإسلام كارهين ؛ فلا عزو إلا خلافكم معه ، وانقيادكم له ، وتدعون آل نبيكم صلى الله عليه وسلم ، الذين لاينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ، ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً » وبيان مآثر على ومزاياه ، ونقائص معاوية والطعن فى أغراضه ومقاصده ، أهم مايدور عليه خطب العلويين حين يدعون قومهم إلى الحرب والقتال .

أما معاوية بن أبي سفيان فقد لجأ أيضاً إلى الناحية الدينية يثيرها فى نفوس قومه ويحفزهم بها إلى الجهاد والقتال ؛ ينثر أمامهم حجته الوحيدة التى دفعته إلى الخلاف وشق عصا الطاعة وهي قتل عثمان ، وادعاؤه أن علياً آوى قتلته ولم يأخذ بثأره ، ولذلك كان هو ومن معه قوماً نكثوا البيعة ، وسفكوا الدم الحرام فى البلد الحرام .

وهناك شيء آخر يستطيع أن يستغله معاوية فى إثارة حفيظة قومه : ذلك أن علياً وصحبه قوم أقبلوا من بلادهم ،

(١) كش الضب : صوت

واعتدوا على حرمة الشاميين وحرمة ديارهم ، فليس أمامهم إن أرادوا الحياة خالية من العار إلا أن يقاتلوا ويذبّوا عن نسائهم وأبنائهم ، قال معاوية يحرص قومه على القتال : « . . . أنظروا يا أهل الشام ، إنكم غدا تلقون أهل العراق ؛ فكونوا على إحدى ثلاث خصال : إما أن تكونوا طلبتم ماعند الله فى قتال قوم بغوا عليكم ؛ فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا بيضتكم ، وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكم ؛ وإما أن تكونوا قوماً تذبّون عن نسائكم وأبنائكم ، فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل واسألوا الله لنا ولكم النصر . . . »

وأيضاً كان يلجأ معاوية وصحبه فى تقوية الروح المعنوية إلى الحديث عن ضعف جيش العراق وتفرق كلمته وإدبار أمره ؛ ولا ريب أن مثل ذلك الحديث يشجع قومه ويغريهم بالثبات ، حتى يتم الانتصار ؛ قام عمرو بن العاص يحرض أهل الشام على القتال فقال : « إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم ، وفلوا حدهم ، ثم إن أهل البصرة مخالفون لعلىّ ، قد وترهم وقتلهم وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل ، وإنما سار فى شرذمة قليلة منهم من قد قتل خليفتكم ؛ فالله الله فى حقكم أن تضيعوه ، وفى دمكم أن تطلّوه »

أما العلويون فإنهم لم يستغلوا هذه الناحية أيما استغلال ، مما يدل على أن جيش معاوية لم يدع لهم هـذه الفرصة ، بل كان جيشاً متحداً متماسكا ، ولكنهم استغلوا ناحية أخرى ؛ هي أن معاوية ليس معه من له قدم سابقة فى الاسلام ، أما هم فمعهم جلّة الصحابة والأنصار والبدريين ؛ قال الأشتر النخعي يحث العلويين على الحرب : « . . . إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدريين قريب من مائة بدرى ، سوى من حولكم من أصحاب محمد ، أكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فمن يشك فى قتال هؤلاء إلا ميت القلب ! . . . » وهـذا هو الحق فلقد كان أكثر الصحابة منضمين تحت راية على ، ولكن ذلك لم يستطع الوقوف أمام دهاء معاوية وعمرو بن العاص ؛ فقد استطاعا بفضل ما أوتياه من الحصافة والمكر أن يظهرا بقلتهما على كثرة على ومن تبعه من صحابة وأنصار

— ٤ —

لم يكن التحريض على القتال هو كل أغراض الخطباء فى ذلك العهد ؛ بل كان من أغراضهم أيضاً الصلح بين المتقاتلين ؛ فلقد سمت الرسل بين الفريقين تريد حقن الدماء ، وكانت الخطابة عماد أحاديثهم ، وإن لم يوفق الخطباء إلى أداء مهمّتهم ؛ فلقد كانوا مهدين أكثر منهم سياسيين دهاة ، يستلون السخائم من الصدور

واستمع إلى حبيب بن مسلمة رسول معاوية إلى علىّ يقول : « . . . أما بعـد فإن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله عز وجل ، وينيب إلى أمر الله ؛ فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته ، فعدوتم عليه ، وقتلتموه رضى الله عنه ، فادفع إلينا قتلة عثمان ؛ إن زعمت أنك لم تقتله ، نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس ، فيكون أمرهم شورى بينهم ، يولّى الناس أمرهم من أجمع عليهم رأيهم » ولذا قال له على : « وما أنت (لا أم لك) والعزل ؟ ! » . ويقول عدى ابن حاتم رسول على إلى معاوية : « أما بعد فإنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ، ويؤمن به السبل ، ويصلح به ذات البين إن ابن عمك سيد المسلمين ، أفضلها سابقة ، وأحسنها فى الإسلام أثرا ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله عز وجل بالذى رأوا ؛ فلم يبق أحد غيرك وغير من معك ، فانته يا معاوية ؛ لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل » . فلما انتهى ، قال معاوية : كأنك جئت متهدداً ، لم تأت مصلحاً

والحق أن الخطابة التى كان يقوم بها سفراء الزعيمين لم تكن لتدل إلا على أنهما يرغبان فى أن يستخلصا حقهما بالسيف ؛ أما السفارة فلكيلا يكون ثمت مدعاة للوم أحدهما إذا اضطر إلى امتشاق الحسام

وكان من أغراضها أيضاً نصح الصحب ، وإرشاد المقاتلين إلى ما يجب أن يفعلوه فى الحرب كما يفعل القائد قبل الهجوم ، يوصي جنده ويمنحهم نصائحه : قال علىّ يرشد مقاتلته : « معاشر المسلمين ، استشعروا الخشية وتجلببوا السكينة ، وعضوا على النواجد فإنه أنبى للسيوف عن الهام ، وأكملوا اللأمة ، وقلقلوا السيوف فى أغمادها قبل سلّها ، والحظوا الخزر ، واطعنوا الشزر ونافحوا بالظّبا ، وصلوا السيوف بالخطا ، واعلموا أنكم بعين الله ومع ابن عم رسول الله . . . »

ومن أغراض الخطابة لذلك العهد الدفاع عن الرأى ، ومقارعة الحجة بالحجة ، وتفنيد براهين الخصم ، وأظهر مثال لذلك الخطب

التى قالها على والخوارج ؛ فهي خطب مليئة كلها بالحجج والبراهين من جانب الخوارج ومن جانب الامام

— ٥ —

كانت أساليب الخطابة لذلك العهد رصينة فى جملتها ، سهلة الألفاظ إلا فى القليل ، لها مميزات الخطابة القوية ، تعتمد على الألفاظ الضخمة ، وعلى الجمل القصيرة يقل فيها السجع إلا إذا جاء عرضاً غير مقصود ، فالخطبة ترسل إرسالا ، لا تكلف فيه ولا تنمق ، ومع ذلك تكون قوية الأسر ، متينة السبك ، ولا غرو فلقد كان القائلون مقاويل العرب وأبلغهم وكان المقام يتطلب لساناً بليغاً يحرضهم ويدعوهم

ولقد كثر الاقتباس من القرآن ، وكان عليّ وصحبه أكثر غراما بالاقتباس يدخلون الآية والآيات فى معرض خطبهم

هناك ملاحظة تبدو فى خطب على وتظهر ظهوراً واضحاً إذا أنت وازنت بين خطبه التى قالها فى أول النزاع وآخره ؛ فانك تجد خطبه التي قالها بعد التحكيم ، والتي يستفز فيها القوم إلى حرب معاوية ، ضخمة فى ألفاظها ، قوية فى أسلوبها ، متينة فخمة ، أمتن وأقوي من تلك الخطب التي قالها فى أول النزاع ، وكانت خطبه تشتد وتقوي ، كلما ضعف أمله فى نصرة قومه ، وزاد تواكلهم وتخاذلهم ، وحسبك أن ترجع إلى خطبته التي قالها لرؤساء أنصاره ووجوههم بعد أن رجع من حرب الخوارج ؛ أو إلى خطبته بعد أن أغار النعمان بن بشير على عين التمر ، أو عندما أغار الضحاك بن قيس على الحيرة ، أو حينما أغار سفيان بن الغامدى على الأنبار ، واستمع إلي السيل المتدفق من فم على حين يقول : . . . ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم اغزوهم من قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتخاذلتم وتواكلتم ، وثقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، حتى شنت عليكم الغارات ، وملكت عليكم الأوطان ؛ هذا أخوغامد قد وردت خيله الأنبار ، وقتل حسان بن حسان البكرى ورجالاً منهم كثيراً ونساء ، وأزال خيلكم عن مسالحها ، والذى نفسى بيده ، لقد بلغنى أن كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة ، فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعثها ، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام ، ثم انصرفوا وافرين ، ما نال رجلا منهم كلم ، ولا أريق لهم دم ، فلو أن امرأ مسلما مات من دون هذا أسفا ما كان عندى فيه ملوما ، بل كان به عندى جديرا

يا عجباً كل العجب ! عجب يميت القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان ، من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ، حتى أصبحتم غرضا ، تُرمَون ولا ترمُون ، ويغار عليكم ولا تغيرون ، ويعصي الله عز وجل فيكم وترضون ، إذا قلت لكم اغزوهم في الشتاء ، قلتم هذا أوان قُرٍّ وصِرّ ، وإن قلت لكم : إغزوهم في الصيف ، قلتم : هذه حمارة القيظ ، أنظرنا ينصرم الحر عنا ؛ فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر ، يا أشباه الرجال ولا رجال ! ويا طغام الأحلام ! ! ويا عقول ربات الحجال ! لوددت أني لم أركم ، ولم أعرفكم ، معرفة والله جرت ندما ، وأعقبت سدما ! قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبي قيحا ، وشحنتم صدري غيظا ، وجرعتمونى نُغَب التهمام أنفاسا ، وأفسدتم على رأيي بالعصيان والخزلان . . . .

وتعليل هذه الظاهرة سهل يسير ، هو ذا التخاذل الذى بدا من القوم بعد التحكيم ، فلقد سئموا القتال وملوه ، وركنت نفوسهم إلى الهدوء والدعة ، واستسلموا إلى الراحة ، ووجدت الفرقة سبيلها إلى قلوبهم ، فكان الإمام فى أشد الحاجة إلى ما يبعث الحياة فيهم ، ويعيد الحماسة اليهم ، فلا غرو ، كان يلجأ إلى الخطابة فيجعلها قوية الأسر ، مليئه بالألفاظ الضخمة التي تثير النفس ، وتبعث النخوة ، مفعمة بالتحذير والإنذار ، علها تحيي الميت أو تبعث الروح فى الجماد .

نستطيع أن نقول : إن الخطب فى عهد على تؤرخ لنا الحالة السياسية ، وتسجل أهم ما كان فى فترة خلافة عليّ ، وفضلا عن ذلك نستطيع إذا أنت تتبعت الخطب ، أن تلمس الحوادث التى قيلت فيها لما ، وهى تكشف لك فى صراحة نفسية الامام على ، وتبين الأدوار التى مرت فيها آماله : من النهوض والتفاؤل فى أول الأمر ؛ إلى اليأس والقنوط فى آخره ، كما أنها تكشف أيضا نفسية قومه ، وتضعها أمامك فى صورة واضحة ، وإن المؤرخ ليجد فى هذه الخطب معينا لا ينضب ، يساعده على فهم نفسيات المتقاتلين ليدرك النتائج التى وصلت اليها الحرب ، وكيف كانت طبيعية لا بد من حدوثها .

أحمد أحمد بدوى

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٣٨ — صلاة ... !

في (معجم الأدباء) : قال حسان بن علوان البَيُسْتي : كنت أنا وجماعة من بني عمي في مسجد بَيُسْت[١] ننتظر الصلاة فدخل أعرابي وتوجه إلى القبلة ، وكبر ثم قال : (قل هو الله أحد ، قاعد على الرصد[٢] مثل الأسد ، لا يفوته أحد ، الله أكبر !) وركع وسجد ، ثم قام فقال مثل مقالته الأولى وسلم . فقلت : يا أخا العرب ! الذي قرأته ليس بقرآن ، وهذه صلاة لا يقبلها الله . فقال : حتى يكون سفلة[٣] مثلك ، أتى آتي إلى بيته وأقصده وأتضرع إليه ويردني خائباً ، ولا يقبل لي صلاة ! (لا) إن شاء الله (لا) إن شاء الله ، ثم قام وخرج

١٣٩ — مسيلمة وأشعب

قال الثعالبي : قد تظرف من قال في كذب مسيلمة وطمع أشعب :

وتقول لي قولاً أظنك صادقاً
فأجيء من طمع إليك وأذهب
فإذا اجتمعتُ أنا وأنت بمجلس
قالوا : مسيلمة ، وهذا أشعب ! !

---

(١) بيست : بالفتح ثم الضم ثم السكون بلدة من نواحي برقة وبها مولد حاتم الطائي (ياقوت)

(٢) الرصد : الطريق ، موضع الرصد والجمع أرصاد . في (المصباح) : الرصدي نسبة إلى الرصد وهو الذي يقعد على الطريق ينتظر الناس ليأخذ شيئاً من أموالهم ظلماً وعدواناً

(٣) السفلة — بالكسر ثم السكون ، وبالفتح ثم الكسر وبالكسر ثم الكسر — نقيض العلية : أراذل الناس . قال الجوهري : ولا يقال رجل سفلة كما تقول العامة . وفي اللسان والتاج : سأل رجل الترمذي فقال له : قالت لي امرأتي : ياسفلة فقلت لها : إن كنت سفلة فأنت طالق . فقال له : ماصنعتك ؟ قال : سماك (أعزك الله) قال : سفلة والله . فظاهر هذه الحكاية أنه يجوز أن يقال للواحد سفلة . (قلت) : احتقار حرفة أو صنعة أمر نكر ، ولسنا اليوم في تفنيد المقالة الزائفة

١٤٠ — إنما هو بركة من السماء

في (تاريخ ابن عساكر) عن أنس قال : كان أبو طلحة يأكل البَرَد وهو صائم ، ويقول : ليس بطعام ولا شراب . قيل له : أتأكل وأنت صائم ؟ !

فقال : إن ذا ليس بطعام ولا شراب ، وإنما هو بركة من السماء نطهر به بطوننا

١٤١ — رد الله عليك غربتك

كان الصاحب بن عباد يقول : لم أسمع جواباً أظرفَ وأوقعَ وأبلغَ من جواب عبادة فإنه قال لرجل : من أين أقبلت ؟

قال : من لعنة الله

فقال : رد الله عليك غربتك

١٤٢ — وعد الله ووعيده

عند أبي عمرو بن العلاء . .

في (عيون الأخبار) : اجتمع أبو عمرو بن العلاء وعمرو ابن عبيد فقال عمرو : إنّ الله وعد وعداً ، وأوعد إيعاداً ، وإنه منجز وعدَه ووعيدَه ، فقال أبو عمرو : أنت أعجم . لا أقول : إنك أعجم اللسان ، ولكنك أعجم القلب . أما تعلم ، ويحك ! أن العرب تعد انجاز الوعد مكرمة ، وتركَ إيقاع الوعيد مكرمة ثم أنشده :

وإني ـ وإن أوعدتُه أو وعدتُه لمخلفُ إيعادي ومنجز موعدي

١٤٣ — عاد الدر الى وطنه

سئل بعض المغاربة عن السبب في رقة نظم ابن سهل فقال اجتمع فيه ذلان : ذل العشق ، وذل اليهودية .

ولما غرق قال فيه بعض الأكابر : عاد الدر إلى وطنه

١٤٤ — أدب الخواص

قال الوزير أبو القاسم المغربي في كتاب الخواص : كنت أحادث الوزير أبا الفضل جعفرا[١] وأجاريه شعر المتنبي

---

(١) المعروف بابن حنزابة (بكسر الحاء وسكون النون) . قال ابن خلكان: كان أبو الفضل عالماً ، محباً للعلماء ، وكان يملي الحديث بمصر وهو وزير ، وقصده الأفاضل من البلدان الشاسعة ؛ وبسببه سار (الدارقطني) من العراق إلى الديار المصرية

فيظهر من تفصيله زيادة تُنبه على ما فى نفسه خوفاً أن يُرى بصورة من ثَناه الغضبُ الخاص عن قول الصدق فى الحكم العام وذلك لأجل الهجاء الذى عرض له به (١)

١٤٥ — أطعموا آذاننا

كان مروان بن أبى حفصة إذا تغدى عند إسحق الموصلى يقول له : أطعموا آذاننا ، رحمكم الله !

١٤٦ — روائح الجنة فى الشباب

فى (أغانى) أبى الفرج : قال :

محمد بن هاشم الخزاعى : تذاكروا يوماً شعر أبى العتاهية بحضرة الجاحظ إلى أن جرى ذكر أرجوزته التى سماها (ذات الأمثال) فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابى روائح الجنة فى الشباب !

فقال الجاحظ للمنشد : قِفْ ، ثم قال : انظروا إلى قوله :

روائح الجنة فى الشباب

فان له معنى كمعنى الطرب الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة .

١٤٧ — انه العرب لا تستخذى

أحب الأصمعي أن يستثبت فى كلمة (استخذيت) (٢) أهى مهموزة أم غير مهموزة قال : فقلت لأعرابى : أتقول : استخذأت أم استخذيت ؟ فقال : لا أقولهما

قلت : ولِمَ ؟

قال : لأن العرب لا تستخذى

---

(١) فى قوله :

بها نبطى من اهل السواد يدرس أنساب أهل الفلا

قال ابن خلكان : المراد بالنبطى أبو الفضل جعفر ، وهذا ماغض منه :

وما زالت الأشراف تهجى، وتمدح

(٢) المبرد فى (كامله) يقول : هذا غير مهموز واشتقاقه من قولهم أذن خذواء أى مسترخية . وابن قتيبة فى (أدب الكتاب) عدها من التى تهمز . والعوام تدع همزها و (اللسان) أوردها فى خذأ وخذا وقال : استخذيت وقد يهمز ، واستخذيت وترك الهمزة لغة . . . والبطليوسى يقول فى (الاقتضاب) : « ترك الهمزة فى هذه اللفظة أقيس من الهمز . وقد حكى أن من العرب من يترك الهمز فى كل مايهمز إلا أن تكون الهمزة مبدأ بها » واستخذى : خضع

١٤٨ — أسهل الموت وأصعبه

الصابى :

إذا لم يكن للمرء رد من الردى فأسهلهُ ما جاء والعيشُ أنكدُ

وأصعبه ما جاءه وهو رائع تُطيف به اللذات والحظُّ مسعدُ

١٤٩ — فزع الاغنياء ، شهوة الفقراء

سئل (سيافيدس (١)) عن الموت فكتب : نومٌ لا انتباهَ معه ، وراحة المرضى ، انفصالُ الاتصال ، نقصُ البنية ، رجوعٌ إلى العنصر (٢) ، فزعُ الأغنياء ، شهوةُ الفقراء ، سفرُ النفس ، فقدان الوجدان (٣)

١٥٠ — الفراق

قيل لبعض الصوفية : لِمَ تصفرّ الشمس عند الغروب ؟

قال : خوفاً من الفراق وبه ألم !

---

(١) قال أبو الفرج بن هندو : كان سيافيدس فيلسوفا حرم على نفسه النطق حتى أن بعض الملوك عرضه على السيف لينطق فما زال على السكوت ثم إن الملك لما يئس من نطقه أمر بأن يكتب له مسائل ليوقع تحتها الجواب

(٢) العنصر : الأصل الذى تتألف منه الأجسام

(٣) الوجدان : الوجود

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

العلماء

وكنت نائماً فإذا نعجة تتقدم فتقضم اللباب المعقود إكليلا على رأسى ، فكانت تعمل أنيابها فيه وتقول : لم يعد زارا من العلماء وذهبت بعد ذلك مزدرية متفاخرة . ذلك ما أخبرنيه أحد الأولاد

أحب أن أستلقي على الأرض حيث يلعب الأطفال تحت الجدار المتهدم وقد نبت في شقوقه العوسج والشقائق الحمراء . فانني لم أزل عالماً في عيون الصغار وفي عيون العوسج والشقائق الحمراء . لأنها طاهرة حتى في أذيتها

أنا لم أعد عالماً في نظر النعاج . تبارك حظى فهذا ما قضى به علىّ . والحقيقة هى أننى هجرت مسكن العلماء فخرجت منه جاذبا بابه بعنف ورائى .

لقد جلست روحي الجائعة طويلا الى الخوان ، وما أنا كالعلماء متطبع على المعرفة كمن اتخذ كسر القشور مهنة له ، فأنا عاشق الحرية والسير في الهواء الطلق على الارض الباردة كما أفضل ان أتوسد جلود الثيران على افتراش امجاد العلماء وألقابهم .

إن بي من الحماس ومن لهب الفكر ما يقطع علىّ أنفاسى فلا يسعنى الا الاندفاع الى رحب الفضاء هاربا من الغرف المكسوة بالغبار .

ولكن هؤلاء العلماء يتفيأون الظلال فلا يقتحمون السير على المسالك التى تلهبها حرارة الشمس ، بل يكتفون بالاستكشاف كالمتفرجين يفتحون أشداقهم وينظرون إلى المارة في الشارع . هكذا يفتح العلماء أشداقهم وينتظرون انقاد شرارة الفكر في أدمغة المفكرين . وإذا ما لمستهم بيدك تطاير الغبار ما حولهم كأنهم أكياس من الحنطة ، ولكن أحداً لا يظن أن هذا الغبار المتطاير منهم هو دقيق السنابل الصفراء التى ينشح بها الصيف فى زهوه .

إذا ما تظاهر العلماء بالحكمة ، فان حقائقهم وأحكامهم تهزنى برعشة البرداء إذ تنتشر منها روائح المستنقعات ، ولكم أسمعتنى حكمتهم نقيق الضفادع

إن لهؤلاء العلماء مهارتهم ولأناملهم لباقتها ، فليس من نسبة بين صراحتي وتعقيدهم ، فأناملهم لاتنى تغزل وتحيك ناسجة للعقل ما يستره . فهم كالساعات إذا ما أحكم ربط رقاصها دلت بضبط على سير الزمان وأسمعتك طقطقة خافتة . إنهم يعملون كحجر الرحى فيطحنون كل ما تلقى إليهم من حبوب ، وكل منهم يراقب حركة أنامل الآخرين ، وجميعهم يتلهون بالنكايات ويترصدون من يتعارج بعلومه ، فهم أشبه بالعناكب في تلصصهم . ولكم رأيتهم يستقطرون سمومهم بكل حذر ساترين أيديهم بقفازات من زجاج ولهم مهارة خاصة بلعب النرد المزور ، ولكم انحنوا فوقه والعرق يتصبب من وجوههم

لا صلة بينى وبين هؤلاء الناس فان فضائلهم تبعد عن فضائلى بأكثر مما تبعد عنها أكاذيبهم ونردهم المزور

وما وجدت مرة بينهم إلا وكنت فوقهم ، ولذلك أبغضنى هؤلاء العلماء . لأنهم لا يطيقون أن يسمعوا بمرور أى كان فوق رؤوسهم ، ولذلك وضعوا الأخشاب فوق رؤوسهم وأهالوا فوقها التراب والأقذار ليخنقوا وقع أقدامى ، ولم يزل حتي اليوم أكثرهم علماً أقلهم إدراكا لأقوالى

لقد نصبوا بينى وبينهم حائلا كل ما فى الانسان من ضعف وضلال ، وهم يدعون هذا الحصن لمسكنهم السقف المستعار .

ولكننى بالرغم من كل هذا لا ازال امشى فوق رؤوسهم وأنا انشر أفكارى . ولو أننى مشيت على عيوبي فلن أزال ماشيا فوق جباههم ، ذلك لأنه لا مساواة بين البشر ، وهذا مايهتف به العدل ، فما أريده أنا لا حق لهم بأن يتناولوه بإرادتهم .

هكذا تكلم زارا . . .



رسالة الشعر



دمشق

للدكتور عبد الوهاب عزام

يا أخى صاحب الرسالة : هذه أبيات نظمتها فى إحدى زياراتى لدمشق العظيمة وطويتها .
ثم رأيت أن موضوعها يشفع لما فيها من قصور فأرسلتها إليك لترى رأيك فى طيها أو نشرها

هذى دمشق نخل القلب بمتار طالت على القلب أشواق وأسفار
كم ماطلتك بها الأيام أمنيَة لها على الدهر إعلان وإسرار
حطّ الرحال فهذا جهرةً بَردى وذى دمشق هناك الأهل والدار
لا تُعجلنى فما الأيام مُسعدة لا تخدعنى فصرف الدهر غدار
دعنى أؤلف آمالا مشتّتة وأسمع القلب . ملء القلب أسرار
دعنى أزود قلبى ملء مُنيته فى فؤادىَ أسفار وأخطار

* * *

وردت جلّق ملتاعاً ومغتبطاً تطوى بنفسي آمال وأفكار
دمشق مجتمع الأعصار قد زخرت فيها كما اندفقت فى البحر أنهار
خطّت أمامى سراعاً فوق رقعتها من الوقائع أسطار فأسطار
فكل رجل على التاريخ سائرة وكل طرف إلى التاريخ نظّار
وللأذان دوى فوق أربعها وللأذان يبطن الأرض إسرار
يذيع قبر بلال[1] فى مآذنها صوتاً له من وراء الغيب تسيار
كالنبع شق الصفا والترب فازدهرت منه الخمائل ، وهو الدهر ثرار

* * *

ذهبت للمسجد المعمور[2] أسأله وقد تدل على الاعيان آثار
رأيت فيه خلال القوم ماثلة وللبناء من البانين أقدار
علوت فى قمة التاريخ مأذنة[3] لها من الحق والتاريخ أحجار
تطوف حولي خطوب الدهر فى صخب وتزحم العين دولات وأقطار
أرى الوليد على ملك لسطوته ذل الزمان ، وفيه المجد خطّار
دانت لهيبته الاهوال واجتمعت فى همّة العُرب أقطار وأعصار
كأن ما بين سيحون وقرطبة على الخريطة أفتار وأشبار

* * *

أحيت دمشق رميم الشعر فى خلدى لاغرو قد تبعث الأشعار أشعار
وقفت فيها أُسيم الطرف فى فتن من الجمال لديها الطرف يحتار
كلا فؤادى وطرفى فوق بهجتها بين الحضيض وبين السفح طيار
تندى القلوب وتجوى من نضارتها ورب أخضر منه تقدح النار
واها لقلبى إن يبد الجمال له سطراً تبدت من الآلام أسفار
خاض المطامع ، طماح المنى عرم علي الشدائد والسراء ثوار .
وقاسيون على الجنات مطّلع بين الرياض وبين الشهب نظّار
عارى المناكب بالشجراء متزر ثبت الجنان على الأحداث ، جبار
نسر يرى اللوح منه هامة عطلا لكنه ذنبَ الطاووس جرّار
والصالحية حيا الله ساكنها وحىّ فى سعدها دار وديار
شجا فؤادى دروس فى تدارسها والدهر بالناس دولات وأدوار
يادار هذا زمان السعد فابتسمى لافاتكِ السعد بعد اليوم يادار :

* * *

وقفت بالغوطة الخضراء أنشُدها قلباً أضلّته أفياء وأشجار
هفا كما انطلق العصفور من قفص دعته فى الروض أطيار وأزهار
قالت : رأيت دمشقاً فى مفاتنها فكيف ينجو فؤاد فيك سمّار ؟
فسل دمشق هناك الروض مزدهر والجو مبتسم والحسن سحّار
قالت دمشق : وما عندى به خبر سائِل بدُمّر لايخدعك إنكار .
يادمّر الخير قلبي فيك مرتهن لاتجحديه فما يجديك إصرار ؛
ردى فؤادى فنى دهرى له عِدَة وفى فؤادى لأرض العرب أوطار
فقد وردتك يوماً فى حمى نفر من الغطاريف فيهم يأمن الجار
كأنما كل حر فى عزيمته نجم يضىء علي الأهوال سيار
وكان مجلسُنا أيكاً على بردى تردد الحسن فيه فهو محتار
نزجى الأحاديث من شكوى ومن ألم ومن أمانٍ ذوت فيهن أعمار
نبنى علي أُسُس التاريخ آتِيَنا وللمعالي من التاريخ أسوار
وننشد المجد تدعوه عزائمُنا والمجد مُصغٍ إذا ناداه أحرار
إما أرى المجد قد أضنى أشعته وأشرقت فيه دولات وأمصار
أبصرت فى الظلمات الشمسَ طالعة لمّا تراءى لنجم الصبح إسفار

(١) بلال بن رباح مؤذن رسول الله . وقبره فى دمشق (٢) مسجد جامع بنى أمية بدمشق (٣) مأذنة الجامع الأموى صعدت فيها مع بعض الأصحاب

مختارات من أدب الرافعي

بَايْ يا بابا !

« في سنة ١٩٠٤ تزوج المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وفي سنة ١٩٠٥ ولدت له (وهيبة) ، فلما صارت بنت سنتين جلس إليها يوماً يناغيها ويداعبها ، وحب الرافعي لأولاده شئ أكثر من محبة الآباء ، فمال عليها يقبلها، فآلمها ، فقالت له الطفلة ، وقال لها ، فكانت هذه القصة في هذه القصيدة »

محمد سعيد العريان

طفلتي في العمرِ مرّتْ   من سنيها اثنتينِ
ليستا فيما غدتْ تعـ   ـملُ إلا ضحكتين
جئتُها يوماً فألقيـ   ـتُ عليها قُبلتين
وأمالتْ عُنُقاً آ   لمتُهُ من غمزتين
فمضتْ غضبى وقالت :   «بايْ يا بابا بايْ يا بابا»

***

إعتاباً يا ابنتي أم   ذاكِ من غيظ الحبيبه ؟
بدأتْ دنياكِ منذُ الـ   يوم والدنيا عجيبه . . !
وغريبٌ منك أن تد   ري معانيها الغريبه ...
نجمةٌ أبعدُ ما تلـ   قى إذا لاحتْ قريبه
مثلُها حُبُّك للبا   با ومعنى « بايْ يا بابا »(1)

***

نغمةٌ كالبلبل استعـ   لى على الورد فغنى
أتمنى أن تعيدي   مثلها إذ أتمنى
قد غدا يذهبُ في الدنـ   يا العنا لفظُكِ عنا
وأرى الشعرَ فنوناً   صرتِ لي منهن فنّا
حكمةٌ ما مثلها الحكـ   ـمةُ عندي « باي يا بابا »

***

لو أتتني كلُّ بشرى   ملءَ أنحاء البلاد
أو أتاني السعدُ يوماً   هاتفاً باسمي ينادي
أو سعى بالمدحِ والتمـ   ـجيدِ لي كلُّ العبادِ
أو شدا في كلِّ أرضٍ   بقريضي كلُّ شادِ
لم يكن أحلى بسمعي   كلُّ ذا من «باي يا بابا»

سنة ١٩٠٧

مصطفى صادق الرافعي

(١) يراد بكلمة « باي » عند العامة ، وأحياناً ينطقونها « يا باي » التكره ومعنى النفرة ؛ فان أصلها . يا أباه ، من نداء الاستغاثة ؛ فهذا المعنى الذي يظهر قريباً من اللفظة هو أبعد من حب البنت لأبيها من النجمة التي تلوح قريبة وهي ماهي في بعدها .

الرافعي

بين الجد والمجود

فجيعة في ساعة

وساعةٍ كالسِّوارِ حولَ يدي   ضاعت فأوهي ضياعُها جلدي
مازال يطوي الزمانَ عقربُها   حتى طواها الزمانُ للأبدِ
ضيَّعها نجليَ الصغيرُ وكم   حمّلني من خسارةٍ ولدي
قالوا : فداءٌ لهُ فقلتُ لهم :   كلاهما فلذتان من كبدي
قالوا : التمس غيرَها . فقلتُ لهم :   وهل معي ما يقيمُ لي أودي ؟
من مُسعدي إنْ أكن على سفرٍ ؟   ومن يفي ليَ بالوعد إنْ أعدِ ؟
إلتبست أيامي عليَّ فلا   أفرقُ ما بين السبتِ والأحدِ
واختلَّ وقتي فإنْ وعدتُك أنْ   أزوركَ اليومَ جئتُ بعد غدِ
كم رُمتَ عدَّ الساعاتِ مهتدياً   بالشمس لكنْ غلطتُ في العدد
روَّضتُ نفسيَ على السؤالِ وما   حملتُ ذلَّ السؤالِ من أحدِ
جهلُ الفتى بالزمانِ أهونُ منْ   سؤالِ غيرِ المهيمنِ الصمدِ
أمست يدي بعدها معطلةً   منظرُها في العيونِ كالرمدِ
فمن لعيني بحُسنِ طلعتها ؟   ومن لأذني بصوتها الفردِ ؟
كم آنستْ وحشتي بدقتها   فالآن أصبحتُ شبهَ منفردِ
لا غروَ إن أقضِ حقَّ عشرتها   عشرتُها لي طويلةُ الأمدِ
قد لازمتْ معصمي سنين إلى   أن أصبحت قطعةً من الجسد
ناطقةٌ بالصواب أن سُئلتْ   إن قلتَ كمْ لم تنقصْ ولم تزدِ
على الصراطِ السويِّ سائرةٌ   إن حادت الشمسُ عنهُ لم تحدِ
أرنو إليها إذا مشيتُ وإنْ   جلستُ في مجلسٍ كشفتُ يدي
ألم تشاهدْ ذا نعمةٍ حدثتْ   إذا مشى في ثيابهِ الجُدُدِ ؟
صبرتُ صبرَ الكرامِ آملُ أنْ   تعودَ لي ثانياً فلمْ تعدِ
فلذتُ بالأولياءِ علَّ لهم   سرّاً وإن كنتُ غيرَ معتقدِ
منْ لي بالعرَّافين أسألهم   عنها وبالنفاثات في العُقدِ
أسأتُ بالأصدقاء كلهم   ظنّي ففتشتُهم فلم أجدِ
شتّان بيني وبين لاقطها   بات قريراً وبتُّ في كمدِ
ليت الذي طُوّقت بها يدُهُ   في جيدهِ حبلٌ شُدَّ منْ مسدِ

محمود غنيم



قصة الحب والحياة

جرازيلا

كان لامرتين فى الثامنة عشرة من عمره عند مالمسه الحب بأنامله الناعمة ، وطاف به الشعر فى آفاق الوحى والالهام . وكانت « جرازيلا » الفتاة الأولى التى أسمعته نغمات الغرام ، وأسكرت روحه بتلك الخمرة العلوية التى تسكبها الآلهة فى ارواح الشعراء والمفكرين

فجرازيلا هى التى غرست فى فؤاد «لامرتين» زهرة الشوق والحنين . وهى التى جعلته ينطق بأرق مافى الحياة من صبابة وتذكار ، وألم ودموع !

لقد أحب دانتى بياتريس فكتب عنها الصحائف والأوراق وعشق جميل بثينة فصعد لأجلها التأوهات والزفرات ... ولكن لامرتين فى حبه لجرازيلا أرانا شيئاً خفياً لم تقع على مثله العيون

فالذى يقرأ ما كتبه لامرتين عن جرازيلا يعانق تمثال الحب ويتفهم معانى الحياة . . . لأن هناك أقوالاً إذا لم تبلل العيون بالدموع فهي تفعم النفوس بغمائم الحزن والكآبة ، ومرارة الشوق والتذكار

إن لامرتين عرف أن يسمع تلك الفتاة الساذجة البريئة تغاريد الحياة المعنوية وحفيف أجنحة الهوى . . . وأن يجعلها ترى من وراء ضباب أحلامها شجرة الحب المتعالية فى الفضاء ، ونهر الغرام الجارى بين الأرض والسماء

والذى يصغى إلى غمغمة تلك التعابير الشعرية الحنونة التى سالت على يراعة لامرتين ، ترفعه العاطفة إلى جنة سحرية فيرى مواكب الأرواح هائمة فى رحاب النعيم ، وغوانى الشعر راقصة على أنات الرباب فى ضوء القمر ! !

* * *

شغف « لامرتين » بالطبيعة منذ صباه وغذى شعوره وإحساسه برقة الحب والغرام ، وعناصر الحسن والجمال ... فجاءت كتاباته صورة حية للمثل الأعلى الذى ينشده أصحاب التأمل وأبناء الخيال

ثم أحب التجول والاغتراب ليتغلغل فى صدر الطبيعة وليجنى فى حناياها تلك الزهرة القدسية الخالبة التى تملأ القلب عبيراً ، والنفس نشوة وكمالاً ... فارتحل إلى إيطاليا بلاد الشمس المشرقة والماء المترقرق ، والذكريات الزاخرة بالحياة والحرارة

وجاب أنحاءها فتعرف إلى آثار التاريخ الرومانى القديم الذى لم يمح الدهر سطراً واحداً من ذكرياته

وفى « روما » المدينة الخالدة استطاع الشاعر أن يدرس عصر النهضة درساً وافياً دقيقاً فكان يذهب فى الصباح الى نهر « التيبر » المنساب فوق رفات الدهور والأجيال ، فيجلس على ضفافه ويتطلع من ثنايا مائه إلى آماله وأمانيه التى يخبئها المستقبل . وعند ما يخيم الظلام يعود إلى مخدعه فينام راضياً مطمئناً

وهنا تشوق لامرتين إلى سماء « نابولى » الزرقاء ليشاهد فيها قبر « فرجيل » الذى كان يجد لذة فى ترديد أشعاره فذهب إليها . وفى هذه الأثناء التقى الشاعر بأحد أصدقائه القدماء فعاش معه عيشة ألفة ودعة

نابولى عند الايطاليين جنة سحرية فاتنة سكنتها أرواح الشعراء والأنبياء . . . هى غابة ابتدعتها عبقرية الله لتبقى مكمناً للفن والفكر والموسيقى ، ومأوى لكل من يريد أن يرسم أفكاره التواقة إلى المثل الأعلى ، وأحلامه الشاردة وراء أشباح الموت والحياة ! !

تأثر « لامرتين » لهذه المناظر وشعر بجاذب عاطفى فلهب

يدفعه إلى تفهم أسرارها . فمن مشاهد الصيادين يتفيأون فى ظلال مراكبهم الصغيرة . . . والعاشقين يتشاكون الهوى تحت ألوية الدجى . . . والشمس المودعة تلقى نظرتها الحزينة على قمم الجبال . إن جميع هذه المناظر كانت تحرك إحساسه فينظمه شعراً لطيفاً عذباً كما تنظم القيثارة أنغامها وتنهداتها ! !

وبعد أن مرت بالصديقين أيام قليلة أحب لامرتين تلك الحياة الشعرية التى يحياها الصيادون فى مراكبهم تحت السماء الصافية ، وفوق متون الأمواج ، فتمنى كثيراً لو أتيح له أن يحيا تلك الحياة .

وشاءت الأقدار أن تحقق أمنية الشاعر ، وأن يلتقى بفتاة طاهرة تلمع فى صدرها محاسن الحب والعاطفة ، فقاده حسن الطالع إلى التعرف بصياد شيخ فى السبعين من عمره كان ينتصب دائماً قرب زورقه انتصاب الطيف بين الموت والحياة ! !

هنا اكتمل الحلم وتحقق الأمل . . .

كان ذلك فى ليلة من ليالى الصيف القمراء . . . بدا البحر فيها صافياً كمرآة العذراء فى ساعة عرسها . . . أما السماء فقد تكللت بتاج من الأنوار لتضىء العيون وتهدى القلوب . . وفى وسط هذه التأثرات مرت بالشاعر العبقري أحلام موردة تركت فى نفسه أثراً لا يمحوه الدهر .

ثم تلت هذه الليلة ليال جميلة فى زورق ذلك الصياد الشيخ !!

***

مات الصيف فأسرعت ربة الحقل بالرحيل لتستريح فى وادى الذكرى . ثم جاء الخريف الحزين فتناثرت أوراق الأشجار واعتصب جبين الأفق بغيمة من تلك الغيوم السوداء المنذرة بخمود جمرة الأفراح . . . وفى ليلة باردة اتفق الصديقان مع الصياد على سياحة فى عرض البحر فركب الثلاثة الزورق وساروا يداعبون الأمواج بمجاذيفهم الخشبية كأنهم فى حلم من الأحلام المزهزهة . ولم تكد تمضى على ذلك ساعة حتى ثارت الأمواج منبئة بالكارثة الرهيبة . ثم أطفأت النجوم مصابيحها فاشتد حلك الظلام اشتداداً مخيفاً هو المصيبة العظمى . إلا أن الشيخ المسكين لم يستسلم إلى الهلكة فصاح بهم أن يغالبوا المنية حتى تلوى من أمامهم خاسرة مضعضعة .

وظلوا عالقين بين أشداق الموت ساعتين كاملتين حتى قذفتهم الأمواج الصاخبة إلى جزيرة تدعى « إيسكيا » كان بيت الصياد مبنياً فيها . . . وفى ذلك البيت الحقير كان يعيش الشيخ مع زوجه العجوز وحفيدته الحسناء غرازيلاّ .

لم تكن « غرازيلاّ » كسائر الفتيات . ولم تصنع مثلهن من طين وماء . . . لأن الله حباها بجمال رائع فتان ... فعيناها سرقتا سوادهما من ظلام الليل ، وجيدها التالع استعاد سحره من عرف الزهور البيضاء ، أما قوامها الخالب فقد سكبته الطبيعة من ضياء الفجر لتبهر به عقل كل من يراها ويتأمل فى معانى حسنها وجمالها

***

نشأت بين الصديقين والعائلة القروية ألفة لم تلبث أن تحولت إلى محبة سماوية ، فأصبح الفريقان لا يحتملان ألم الفراق . وقد كونت هذا التقارب عاطفة غريبة بين الفتاة والشاعر ، فإنها أحبته عند ما ألقت عليه أول نظرة . وبعد أن درس «لامرتين» أخلاق العائلة وتبين مشاربها وأفكارها شعر بجاذب روحى مجهول يحبب إليه كل فرد من أفرادها .

وأحب أن يقرأ لهم فى إحدى الليالى رواية «بول وفرجيني» ففعل . وفيما هو يقص عليهم تلك الفاجعة المؤلمة التى صورها كاتب فرنسا الكبير « برناردين دى سان بيير » أحس بدمعة حرى تتسايل على يده ، فنظر فاذا غرازيلا تبكي جاثية عند قدميه ، وإذا الشيخ وزوجه مطرقان كأن داهية دهياء حلت فى تلك الساعة !

فكانت هذه الكآبة دليلا على رقة عواطفهم .

***

فى إحدى الليالى تسلم رفيق الشاعر كتاباً من أمه تسأله أن يأتى إلى فرنسا لحضور زفاف شقيقته فرافقه لامرتين إلى نابولى ، ثم ودعه وعاد إلى الفندق ليصرف فيه ليلته . غير أن لامرتين لم يكن يحس بالرابطة التى توثقه بصديقه إلا بعد أن فارقه . وعند ما أقبل الصباح كان يقاسى آلام الشوق على سريره

وعلمت « غرازيلا » بمرض لامرتين فأسرعت إلى «نابولى» مع أخيها الصغير . ولم تكد تدخل عليه وتشاهد نحوله واصفراره حتى تفجرت بالدموع وجداً ولوعة . وبعد أن جلست قرب

فراشه نزعت من جيدها أيقونة مقدسة وعلقتها فوق رأسه لتقيه من الموت . ثم خرجت متأثرة باكية تضرع إلى الله ألا يفجعها فيه ! !

مضى على هذا الحادث أسبوع كامل شفى فى أثنائه لامرتين من آلامه فعاد إلى منزل الشيخ . ولم يكد يطأ عتبة ذلك المنزل حتى أقبل عليه أصحابه يعربون له عن تعلقهم ومحبتهم وإعزازهم . وكان فى زيارتهم فتى فى العشرين من عمره مشوه البنية ، لكنه طيب الأخلاق شأن أمثاله القرويين الذين لم تفسد المدنية عواطفهم . . . وسأل الشاعر عن أمره فقيل له إنه ابن خال لغرازيلا ، وإنه سوف يكون زوجها عند ماتسمح الظروف . هنا شعر بمرارة خرساء تمزق فؤاده !

مالت الشمس نحو المغيب تاركة قبلة حرى على وهاد تلك الجزيرة الهادئة ، وبمغيبها غمرت روح الشاعر سكينة عميقة ممزوجة بالأسى الساحق . . . وما أن صمم على ترك هذه الأسرة لتنعم بأحلامها وتأملاتها حتى وقفت غرازيلا والعجوز فى سبيله قائلتين إنهما لاتسمحان له بمغادرة المنزل مادامت العائلة تعتبره فرداً منها . وظلتا تتوسلان إليه حتى رضى أخيراً .

وتسلل الحزن إلى روح الشاعر فأوى إلي حجرته ليذرف فيها دموعه . وكان عند ماتهدأ ثورة عاطفته يلجأ إلى مذكراته فيبثها حنينه وشكواه ! !

***

مرت على هذه الحادثة ثلاثة أشهر فعاد إلى الشاعر انبساطه الماضى لأنه استعاض عن صديقه المخلص بغرازيلا الحبيبة التى كان يقضى معها أيامه ولياليه على شواطيء تلك الجزيرة الشعرية الباحرة . وهنا شاءت الحياة أن تضرم لوعة الشاعر . . . فى ذات ليلة عاد إلى المنزل فلحظ انقباضاً مرتسماً على وجهي العجوزين أما غرازيلا فكانت عيناها مملوءتين بالدموع .

تساءل الشاعر عن سبب انقباضهم وحيرتهم فقال الصياد : إن خال غرازيلا جاء طالباً يدها إلى ابنه ، ولما كان في هذا العقد سعادة للفتاة فقد أجابه الشيخ بالارتياح ، أما غرازيلا فلم تنطق بغير دموعها السحاحة .

عند ذاك أحس لامرتين بتعلقه بغرازيلا ، فأهمه كثيراً أن تخرج من ذلك المنزل ، وأن لا يراها فيما بعد صادحة بين جنباته وزواياه ، ثم دخل مخدعه يائساً وانطرح كالمحموم لشدة تأثره . . . وعبثاً حاول الرقاد .

وكانت تلك الليلة باردة جداً ، والبرق شديد اللمعان فى الفضاء ، والريح تئن كثكلى ترثي وحيدها ، والسيول تتساقط بروعة فتلقى الرعب فى القلوب . . وكان باب الحجرة يضطرب كلما هبت العاصفة . وقد خيل إلى الشاعر أنه يسمع أنيناً جارحاً ؛ وأن فماً يردد اسمه بلوعة وأسى !

وكما تبرز الدمعة من العين الباكية ثم تتلألأ على الوجه ، برز الفجر من أحشاء تلك الليلة المخيفة ، فأنار سفوح الجزيرة وأغوارها بضوئه الضعيف . فى تلك الساعة استيقظ لامرتين من رقاده . ولم يكد يسمع صراخ العجوزين والأخوين الصغيرين حتى تسمّر فى مكانه . . . ذلك لأن غرازيلا فرت إلى مكان مجهول . وهاج الحزن فى صدر الشيخ جميع آلامه فدنى من لامرتين وبيده ورقة مبللة كانت ملقاة على فراش غرازيلا ورجا إلى الشاعر أن يقرأها له فاذا هى تحتوى على هذه الكلمات المتقطعة :

« لقد احتملت كثيراً حتى أصبحت لا أقوى على الاحتمال أقبلكم قبلة الوداع . . . سامحونى . . . أفضل أن أكون راهبة متجردة من أحلامها وأمانيها على أن أعيش عيشة الذل مع الرجل الذى لم تهبنى السماء إياه . . . ردوا الخاتم إلى ابن خالى . . . سأصلي لألفونس ولأخوى الحبيبين . . . »

ولم يصل لامرتين إلى النهاية حتى ارتعشت يده فهوت الورقة إلى الأرض . وعند ما انحنى ليلتقطها رأى عند عتبة الباب زهرة حمراء كانت تحملها غرازيلا دائماً ، ووجد بجانبها تلك الأيقونة التى تركتها فوق رأسه يوم كان مريضاً . هنا علم أن الصوت الذى كان يناجيه فى عتمة الليل هو صوت غرازيلا . . . فمضى شاكياً !

***

قضى الأمر وفرت غرازيلا لتدخل إلى الدير ، ولكن فرارها راش سهماً ماضياً فى قلب لامرتين . فخرج منتحباً بين الأودية والوهاد .

وعند ما مالت الشمس نحو المغيب اهتدى إليها فى أحد الأكواخ . وما أن رآها حتى جثا بجانبها ووضع يديها بين يديه

ثم أدناهما من فه ليدفئهما بحرارة أنفاسه . وبصوت متقطع خاطبها قائلا : لماذا اختبأت هنا ؟

فاعترفت غرازيلا له أنهم أرادوا أن يجمعوها بغير الرجل الذى اختارته روحها . . ثم قالت إنها لم تهب قلبها لغيره فى العالم

وأحنى لامرتين رأسه ليشكوا لها ما يكابده من يأس وحرقة فقاطعته قائلة :

« لقد صرفت ليلة أمس باكية عند باب مخدعك . وعند ما خرجت قلت فى نفسى إنى لن أراك أبداً لأنى سأصير راهبة تنقطع إلى عبادة الله على ضوء الشموع ، وفى ظلال انفرادها الطويل الملول . . ولكنى قرعت باب الدير فوجدته موصداً وهكذا رجعت إلى هذا المأوى لأقضى فيه ليلتى . ثم أشعلت المصباح أمام صورة العذراء وخاطبتها قائلة : أيتها القديسة إنى أهب حياتى بما فيها من صبوة وإغراء لخالق . . وإذا جاء غداً ذلك الحبيب فقولى له إنى أحببته بكل ميولى وعواطفى ، وإنى هجرت العالم لأجله . . قولى له إنى ضحيت بأعز شىء لدى ، ها هو ذا شعرى الذى كان يحبه فانى أقصه . خذيه أيتها العذراء وأبقيه معك ليظل آمناً بين يديك .

وهنا نزعت منديلها من رأسها فبدت كغصن عرى من أوراقه ! !

اختبأ الليل بين خرائب الأبدية ثم بزغ الفجر معلناً قدوم الشمس ، فقدم الصياد مع عائلته ليتفقدوا غرازيلا . وعند ماشاهدوا تلك الكآبة التى ارتسمت على محياها الناضر ركعوا قربها ملتاعين ونار الحزن تأكل أفئدتهم .

* * *

عاد الجميع صامتين الى الجزيرة . وبعد أن صعدوا صلواتهم لتختمر فى الفضاء الوسيع ارتموا على مضاجعهم تخفرهم هيبة الأسى ، وتظللهم أجنحة اليأس والانفعال

وسارت الأيام فى طريقها . . . ففى ذات ليلة من ليالي الربيع الجميلة كان الشاعر نائماً في حجرته فسمع قرعاً قوياً على الباب ففتحه فاذا صديقه القديم يدخل عليه قائلاً :

« أتيت لأصطحبك حالاً الى فرنسا لأن والدتك تريد أن تراك قبل موتها . فاذا لم تذهب تركت فى قلبها غصة أليمة ترافقها الى الأبدية »

أثرت هذه الكلمات فى قلب « لامرتين » فعاوده دفعة واحدة تذكار الماضى الذي قضاه فى حضن أمه . ولما لم يحتمل جسده المكدود قوة الصدمة وقع مغمى عليه . وعندما ثاب اليه روعه وعد صديقه بالرحيل

ثم دخل حجرته ورتب ثيابه ، وبعد أن أخذ ورقة وأفرغ عليها جميع ما تضمره روحه العظيمة ، أقسم لغرازيلا أنه سيعود اليها عند ما تبرأ والدته العزيزة من مرضها . وأراد أن يودع غرازيلا قبل رحيله فمنعه صديقه . غير أن الفتاة استيقظت حينذاك فهبت مذعورة . وعندما علمت حقيقة الأمر وقعت فاقدة الرشد

تسرب داء الغرام إلى قلب « غرازيلا » فاصفرت زهرة حياتها اصفرار الوردة عندما يمسها الخريف بيده القاسية . أما لامرتين فكان يهتف باسمها فى الحلم واليقظة !

ولم تشأ غرازيلا أن تفارق الحياة دون أن تبثه أسرار فؤادها ولاعج غرامها فأرسلت إليه هذه الرسالة :

حبيبي ألفونس

يقول لى الطبيب إنى سأترك الحياة بعد حين ، فلذلك أريد أن أودعك الوداع الأخير ! آه يا ألفونس ، حبذا لو كنت قريبا منى الآن ، إذا لبقيت حية . . ولكن هى إرادة الله أيها الحبيب

إن جسدى سيضمه التراب ويبلى سريعا أما روحى فستظل مرفرفة فوق رأسك إلى الأبد . إنى أترك لك — كتذكار — لما بيننا من عهود — شعري الذي كنت تحبه وتداعبه بأناملك الجميلة فاحفظه لأن رؤيته تعيد إليك ذكرى تلك الليالى التى صرفناها معاً فى هذه الجزيرة الحبيبة التى تحن مثلى إليك

(غرازيلا)

* * *

منذ ذلك اليوم انطبعت على محيا « لامرتين » كآبة خرساء وقطنت عينيه اللطيفتين أشباح اليأس والحنين . وكان كلما شاهد جنازة فتاة يخونه الصبر والتجلد فيرتمي على الأرض باكياً منتحباً ! أما روحه فقد اتشحت بوشاح الحزن والكآبة حتى تفصدت بهذه القصة الرائعة المؤثرة التي فتحت لمؤلفها الشاعر العبقري مغالق الخلود .

(البرازيل) يوسف البعينى



الشيخ منصور المنوفي لم يكن شيخاً للأزهر

ذكرت فى العدد (٢٠٩) من مجلة الرسالة الغراء ارتيابي فيما نقله الأستاذ محمد عبد الله عنان عن رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي من أن الشيخ منصوراً المنوفي الضرير كان شيخاً للجامع الأزهر وقت قدومه فى رحلته إلى مصر ، وبنيت هذه الارتياب على أمرين : أولهما اضطراب ما ذكره الشيخ عبد الغني النابلسي فى ذلك ، وثانيهما مخالفته لما جاء فى الكتب التي عنيت بذكر شيوخ الأزهر وترتيب ولايتهم له . من تاريخ الجبرتي والخطط التوفيقية وكنز الجوهر فى تاريخ الأزهر ، وقد خرجت من ذلك بترجيح هذه المصادر على هذا المصدر المضطرب .

ولكن هذا الترجيح الذى ذهبت إليه وهو المتعين عندى فى هذه المسألة لم يرض به الأستاذ محمد عبد الله عنان لوجهين : أولهما أن القول بأن الشيخ منصوراً المنوفي كان شيخاً للأزهر فى ذلك الوقت قول معاصر وشاهد عيان عرف الشيخ وحادثه بنفسه ، ولا يصح أن يسبغ عليه هذه الصفة عفواً ، وثانيهما أن الشيخ النابلسي يقدم إلينا بياناً صحيحاً عن أكابر الحكام والمشايخ فى مصر وقت مقدمه ، ومن الصعب أن نعتقد أنه يخطيء فى تعرف شيخ الأزهر . وهو من الشخصيات البارزة التى يهمه أن يتصل بها ، وقد رأى فى التوفيق بين هذا المصدر وتلك المصادر السابقة أنه من الممكن أن الشيخ المنوفي لم يمكث فى ذلك سوى أشهر أو أسابيع قليلة . وأن يكون هذا هو السبب فى إغفال تلك المصادر له فى ثبت مشايخ الأزهر .

ولا شك أن من يرجع إلى مانقلته فى ذلك من رحلة الشيخ النابلسي يرى أنه ذكر أنه قابل فى صباح يوم الأحد ٢٨ من شهر ربيع الثانى الشيخ منصوراً المنوفي شيخ الجامع الأزهر ، ثم ذكر أنه قابل فى اليوم الثانى (يوم الاثنين ٢٩ من شهر ربيع الثانى) الشيخ احمد المرحومى شيخ الأزهر ، فإما أن يكون للأزهر فى ذلك الوقت شيخان وهو غير مقبول ، وإما أن يكون الشيخ منصور المنوفي قد عزل فى اليوم الأول وولى الشيخ احمد المرحومي مكانه فى اليوم الثانى وهو غير مقبول أيضاً . لأنه لو حدث مثل هذا فى ذينك اليومين لأشار إليه الشيخ النابلسى فى رحلته .

على أن الشيخ النابلسي يعود بعد هذا فيذكر أنه قابل الشيخ الأول فى يوم ١٠ من جمادى الثانى ، وقابل الشيخ الثانى فى يوم ٢٥ من جمادى الثانى ، وهو فى ذلك أيضاً يصف كلا منهما بما وصفه به فى الأول من أنه شيخ الجامع الأزهر ، والظاهر من هذا أنه يجرى فيه على وصف ثابت لهما فى هذه المدة التى كانت بين المقابلتين ، فلو أخذنا كلامه فى ذلك على حقيقته لاجتمع للأزهر فى ذلك الوقت شيخان معاً ، وهو ما لم تجر العادة به فى الجامع الأزهر ،ولا فى التقاليد الاسلامية .

ولا شك أنه لا يمكن الأخذ بقول الشيخ النابلسى فى ذلك مع هذا الاضطراب الذى نجده فيه ، ولعل كلا من ذينك الشيخين كان شيخ رواق من أروقة الأزهر ، فالتبس من أ .ر هذا على الشيخ النابلسى ذلك الأمر ، وما هو إلا بشر يصيب ويخطىء ، والعصمة لله وحده .

عبد المتعال الصعيدى

تعديل جديد فى عقوبات جرائم النشر

يصعب على الذهن الحر أن يسيغ أي حجر على حرية الرأي أو أي اتجاه الى التشديد فى المؤاخذة على زلات القلم ؛ وقد كانت النصوص الخاصة بجرائم النشر فى مصر موضع تعديلات كثيرة فى الأعوام الأخيرة بسبب التطورات السياسية والدستورية المختلفة التى وقعت فى هذه الفترة ؛ وأخيراً رأت السلطات المختصة أن

تجري تعديلا جديداً فى هذه النصوص ، وأن تشدد العقوبة فى بعض المواطن قمعاً لنوع سيء من القذف هو التهجم على الاعراض والكرامات الشخصية ؛ وقد كان القانون يعاقب بالحبس أو الغرامة على أمثال هذه الكتابات القاذفة ، وكان اتجاه القضاء فى الغالب الى التخفيف والاكتفاء بعقوبة الغرامة ، فنشأ عن ذلك أن ذاع هذا الأسلوب المستهجن من الكتابة فى الآونة الأخيرة ذيوعاً مثيراً ، فرأى الشارع فى التعديل الجديد وجوب الحكم بالحبس على من يدينه القضاء فى أمثال هذه الكتابات

والذي يهم الكاتب أن يسجل من الناحية الأدبية هو أن حرية القلم والرأى لا يمكن أن تتأثر بتشديد النصوص الجنائية فى مثل هذه المواطن ، فالقلم يجب أن يتحلى إلى جانب الحرية بخلة الأدب والتعفف عن مس الكرامات والأعراض الشخصية ؛ وما يبعث على الأسف هو أن يضطر الشارع إلى الالتجاء إلى النصوص فى تحقيق هذا المثل الذى يجب أن يحققه القلم لنفسه دون إرغام ؛ وقد كان خيراً لو استطاع الكتاب أنفسهم أن يضعوا لأنفسهم دستورهم الخاص ، وأن تحدد حدود الجدل والنقد بسائر صنوفه بحدود متينة من النزاهة والعفة والترفع عن لغو القول ؛ والقانون الانكليزى يعاقب السب والقذف الشخصيين بعقوبات شديدة رادعة ، ولكن يندر أن تتورط صحيفة انكليزية في مثل هذا الجرم ؛ والصحافة الانكليزية تضرب أرفع الأمثال لادب الحوار والجدل وعفة النقد والمناقشة ؛ فماذا يضيرنا أن نهتدى نحن في كتاباتنا بهذه المبادىء السامية ؟

وثيقة دبلوماسية فرعونية

أضحت مواثيق عدم الاعتداء من أهم عناصر السياسة الدولية الحاضرة ؛ ولكن هنالك ما يدل على أن هذه المواثيق التى استحدثتها السياسة الدولية بعد الحرب ، ليست من ابتكار الدبلوماسية الحديثة وحدها ، ففى تراث المصريين القدماء ما يدل على أنهم عرفوا مواثيق الاعتداء قبل آلاف الأعوام ؛ وهنالك وثيقة مدهشة من هذا النوع عثر عليها الأستاذ دنكان العلامة الأثرى الأمريكي ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام ، وتعتبر بحق أقدم وثيقة دبلوماسية وصلت إلينا

وهذه الوثيقة عبارة عن نقش على صفحة فضية يحتوى على نصوص ميثاق بعدم الاعتداء عقد بين الملك رمسيس الثانى وبين ملك الحيثيين خيتاسار ، وذلك فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ومن الغريب أن هذه النصوص لا تبعد كثيراً عما تستعمله الدبلوماسية فى عصرنا عدا بضع فروق وصيغ يسيرة ؛ فعنوان الوثيقة مثلاً هو : « ميثاق سلام وأخوة دائمة » ، ويلى ذلك نصوص الميثاق وهى مدمجة فى ثمانى عشرة مادة هذه أهمها : « يتعهد الحيثيون والمصريون كل قبل الآخر أن يلجأوا فى تسوية جميع الخلافات التى تنشأ بين الدولتين إلى الوسائل السلمية وألا يلجأوا فى تسويتها إلى القوة والعنف » . فأى فرق بين هذا النص وبين النصوص المماثلة فى مواثيق عدم الاعتداء المعاصرة ؟ أما ضمان التنفيذ فى هذا الميثاق القديم ، فقد رجع فيه إلى ما يتفق وروح العصر الذى وضع فيه ؛ ومن ثم فقد نص فيه على ما يأتي : « إذا ارتكب أحد الفريقين المتعاقدين ما يخالف هذا الميثاق الأبدي ، فقد حلت عليه لعنة جميع الآلهة المصرية والآلهة الحيثية »

ولم يقل لنا التاريخ القديم كم دام مفعول هذا الميثاق بين الفريقين المتعاقدين ؛ ولكن الأستاذ دنكان يؤكد لنا أنه قد دام بلا ريب أكثر مما دام مفعول ميثاق تحريم الحرب الأمريكى بين الدول ، أو ميثاق لوكارنو بين ألمانيا والحلفاء السابقين .

وان هذا الاكتشاف لأقدم وثيقة دبلوماسية يضيف آية جديدة إلى تراث الفراعنة ، وما يزال هذا التراث كل يوم يتكشف عن عجائب وحقائق جديدة تدلل على ما وصلت إليه الحضارة الفرعونية فى النضج وروعة الابتكار .

قرآن . . . !

يتلوا القراء فى النقلة (١٣٨) فى هذا الجزء من (الرسالة) قرآن ذاك الأعرابي الجلف أوالقرآن الأعرابى أوتلك الأفكوهة ضاحكين . وإني أضيف فى هذا الموطن أن هنالك قرآناً إلحادياً مجوسياً دسه الداس بل الدساس[١] فى سورة (النجم) : «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ــ تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن ترتضى — ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذن قسمة

(١) الدساس : من الحيات الذى لايدرى أى طرفيه رأسه وهو أخبث الحيات ، أحمر كأنه الدم (اللسان)

ضيزى » وهناك قرآن فارسي شعوبي بثه راويه الخبيث المتحذلق النبي في القرن الثاني أو الثالث مرفوعاً معنمنا وحشره في سورة (العصر) : « والعصر إن الانسان لفي خسر — وإنه فيه آخر الدهر (١) — إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وهناك غير ذلك ، وعند الطيالسي والترمذى ماعندهما . وأنى يكون ما كذبوا ؟ كيف وهناك ثلاثة وأربعون كاتباً من كتاب الوحى ، وقد جمع القرآن قبل أن أظلمت بفقد رسول الله هذه الدنيا ، وقد كتبت النسخ غير المعدودة ، الكثيرة في زمن النبي (صلوات الله عليه) وصاحبيه وقد ملأت المصاحف في وقت الفاروق بلاد الاسلام كلها جماء « وإن لم يكن عند المسلمين إذ مات عمر مئة ألف مصحف من مصر إلى العراق إلى الشام إلى اليمن وما بين ذلك — فلم يكن أقل » كما قال ابن حزم وما مصحف عثمان إلا المصحف النبوى البكرى العمرى ، مازاد وما نقص . وقد عرف ذو النورين ألحان العرب — ولسان الكتاب المضرى — والعربية لغات ، والعرب أمم ، وقد انتشروا في الأرض ، ورأى الاحتفاظ باملاء القرآن ، فكتبت تلك المصاحف المسماة بالعثمانية . وأعجب العجب وأكذب الكذب هذه الرواية : « لما فُرغ من المصحف أتى به عثمان فنظر فيه فقال : قد أحسنتم وأجملتم أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها » وقد حار أبو بكر السجستاني صاحب (كتاب المصاحف) في هذا الكلام — وقد رواه — فقال : « هذا عندى يعنى بلغتها وإلا لو كان فيه لحن لايجوز (٢) في كلام العرب جميعاً لما استجاز أن يبعث به إلى قوم يقرأونه » ثم سطر السجستانى بعد قليل : « . . عن الزبير أبي خالد قال : قلت لأبان ابن عثمان : كيف صارت (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) ما بين يديها وما خلفها رفع وهى نصب ؟ قال من قبل الكتاب الخ » فهل كان الزبير أبو خالد يعرف هذا الاصطلاح المولد في فن النحو أعنى الرفع والنصب ؟ وهل كان نحو أو شيء منه

(١) كتاب المصاحف . راجع الرسالة ، الجزء (٢٠٤) الصفحة (٩١٥)

(٢) لايجوز : نعت لحن

في أيام أحد من الصحابة أو بعدهم بمدة طويلة ؟ وهل هذا لحن أو خطأ وقد بينه سيبويه في كتابه (١) وأوضحه علم العربية ؟ وكيف لم يستفد السجستانى وأمثاله من (الكتاب) وقد جاءوا من بعد صاحبه وقرأوا علم الخليل وأماليه فيه ؟ وهل بنى العلماء (علم العربية) إلا على قرآن العربية ؟ وكيف اجترأ السجستانى أن يروى عن سعيد بن جبير أن مثل « فأصدق وأكن من الصالحين » (٢) لحن وهو في القرآن العربي وهو في كلام العرب وشعرهم ؟

دعنى فاذهب جانباً يوماً وأكفك جانباً (٣)

وقد كشف الخليل (قاعدته) أيما كشف ، وبيانه في (الكتاب) .

إني لأقول هازئاً : الحق أن في الكتاب لحناً — كما افترى المفترون على عثمان وكما قولوه — لكن العرب ما أقامته بألسنتها ولن تقيمه أبداً ، وما اقتدر في هذا الدهر على إقامته وإصلاحه إلا أمثال رجال التضليل (أى مبشرى البروتستانت) وهاشم العربى (٤) (بل الأعجمي) في (تذييله) على (مقالة في الاسلام) معلمين الخليل وسيبويه والكسائى والفراء ما جهلوه ، وهادين العرب الصرحاء الأقحاح إلى الذى لم يعرفوه . وهو الحياء فاذا فارق المرء فارتقب كل عجيبة .

وبعد فان كان كتاب كل أمة أو ملة فيه تبديل وتحريف وفيه زيادة ونقصان ؛ وفيه الخطأ والخطل ، وكان كاتبه غير صاحبه ف « ذلك الكتاب لا ريب فيه » « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون »

النشاشيبي

(١) راجع كتاب سيبويه الجزء الأول الصفحة (٢٤٨)

(٢) راجع سيبويه ، الأول ، الصفحة (٤٥٢) والمفصل الصفحة (٢٥٥)

(٣) عمرو بن معدى كرب

(٤) عزى (التذييل) في حياة (الشيخ اليازجى) إليه فتبرأ منه ثم عصبه به مبشرو البروتستانت بعد وفاته : كتبوا في آخره : هاشم العربي الشيخ اليازجى وكلام التذييل ملآن بالأغلاط الصرفية والنحوية واللغوية ، واليازجى — على كثرة خطئه في اللغة — لايجهل كل هذا الجهل



تاريخ بئر السبع وقبائلها

تأليف عارف العارف قائمقام بئر السبع

تعد منطقة بئر السبع أكبر مديرية فى أرض فلسطين لأنها تشتمل على نصف مساحة أراضيها ، وهى بلاد شاسعة الجوانب بعيدة الأطراف ، وليس لها حدود طبيعية تفصلها عن شبه جزيرة طور سينا وبلاد شرق الأردن

وتقع هذه الناحية على طريق القوافل العربية ، مثل قبائل سبأ ومعين وحضرموت وثمود التى كانت تأتى إلى أسواق كنعان واسرائيل وأرام لعرض البضائع المختلفة ، كما كانت طريق الجيوش البابلية والأشورية والفارسية واليونانية والرومانية الزاحفة لفتح الديار المصرية ، وكما كانت طريق الجيوش المصرية المتوغلة منذ زمن بعيد فى الديار الشامية والعراقية الشمالية .

***

يفتتح المؤلف كتابه « تاريخ بئر السبع وقبائلها » بذكر الروايات التى وردت فى الكتب القديمة عن بئر السبع وعن الشأن الخطير الذى كان لتلك الأرجاء فى عهد بنى اسرائيل الأول أى من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس ق . م . أى من عهد وفاة موسى إلى زمن بختنصر ملك بابل .

وقد اعتمد المؤلف فى هذا البحث على ما ورد فى أسفار الكتاب المقدس وحده مع أننا نعتقد أنه لو راجع أيضاً الروايات القليلة المبعثرة فى كتب المشنا والتلمود وذلك أمر سهل عليه لأنه يتقن العبرية — لوقف فيهما على أخبار مهمة عن بنى اسرائيل والعرب في تلك المنطقة من جنوب فلسطين .

ونلاحظ أيضاً أنه كان حريا بالمؤلف أن يذكر اسم هذه المنطقة فى الآداب العبرية القديمة ، فقد سميت فى التوراة باسم نجب أى الجنوب ، وعرفت فى الطور الثانى من حياة بنى اسرائيل بفلسطين أى بعد رجوعهم من بابل باسم الداروم ، أى الجنوب أيضاً وعرفها العرب المسلمون بهذا الاسم أيضاً فى عصر البعثة الاسلامية وزمن الخلفاء الراشدين ، فقد ورد في سيرة ابن هشام إن أسامة بن زيد بن حارثة أرسل على رأس جيش صغير إلى الشام وأمر بأن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين

ولب موضوع الكتاب قد تضمنه البابان الثالث والرابع ، لأن المؤلف يبحث فيهما عن الأحاديث والأخبار المتعلقة برجال القبائل فى بئر السبع ، ويتكلم عن الحروب التى وقعت بينهم وبين القبائل القريبة منهم والنائية عنهم وقد أبان المؤلف فى هذين البابين عن مقدرة فائقة على تنظيم المعلومات الغزيرة التى جمعها بمثابرة ودأب من أفراد القبائل الضاربة هناك ، ففتح لنا بذلك عالماً عظيم الشأن كنا نجهله مع قربنا منه واتصالنا به ، وإذا كان المستشرقون قد جاءوا إلينا بأخبار عن حياة القبائل فى بئر السبع فان كل ما ذكروه منها لا يكاد يذكر بالنسبة إلى ذلك الفيض الدافق من المعلومات التى قدمها عارف بك العارف ، وذلك يرجع إلى أنه من أهل البلاد وحاكم على البدو

ويجد القارىء فى هذين البابين كثيراً عما ورد فى المصادر العربية عن أيام العرب فى الجاهلية ، كما يجد فيهما صورة مصغرة لحياة بنى اسرائيل الفطرية فى عصر القضاة قبل أن يأخذوا نصيبهم من الحضارة فى أرض كنعان .

ونود أن نلاحظ أن كثيراً مما ذكره رجال البدو لمؤلفنا بعيد عن الحقيقة التاريخية وليس إلا محض خيال لانهم لم يدونوا شيئاً ولم يكتبوا حوادثهم ولا قيدوا أنسابهم وإنما هي روايات ينسجها خيالهم وفقاً لمصلحتهم وتبعاً لاطماعهم

فما يقولونه من أن أغلبهم أو أن جميعهم وعلى بكرة أبيهم إنما

نزحوا إلى هذه الديار من الجزيرة العربية ليس إلا نظرية ساذجة لا يقبلها عقل الباحث السليم ، فان مما لاشك فيه أن عدداً «عظيما» من هذه البطون ليس إلا سلالة تلك القبائل التى عمرت تلك الديار منذ أزمان بعيدة وأحقاب طويلة نبينهم بلا شك بقية تلك القبائل التى كانت فى هذه المنطقة قبل الفتح الاسرائيلى مثل العمالقة والمدنيين والادوميين ، ثم منهم بقية البطون الاسرائيلية مثل بنى شمعون ودان ويهوذا ، وكذلك لاننسى وجود أرهاط من الانباط فى هذه النواحى القريبة من شبه جزيرة طورسينا ، ولا ننسى كذلك أن هناك أفخاذاً من قبائل يمنية قديمة وصلت من أقصى بلدان الجزيرة إلى هذه الاماكن منذ زمن قديم

ولا شك أن العرب أخذوا يتسربون إلى هذه المناطق قبل الاسلام بعدة قرون واستوطنوا بعض أماكنها كما استوطنوا النواحى الاخرى من صحراء سوريا وتخوم بلاد العراق والشام .

وقد ذكر المؤلف ، وحق له أن يذكر ، أن هناك بعض قبائل تَمُتُّ بصلة إلى الافرنج الصليبيين .

ونحن نعتقد أن البحث الدقيق فى اللهجات المختلفة يساعد الباحث على كشف الغطاء عن هذه المشكلة الجنسية العويصة التى تبلبلت فيها الاجناس البشرية ، وقد نرى فى بعض الالفاظ المستعملة هناك بقية باقية من الاستعمال العبرى القديم مثل كلمة نقابة عند البدو فى هذه الانحاء فهى تدل على المعابر والمسالك المنيعة فى الجبال لأنها وردت فى مخطوط عبرى يرجع إلى القرن السابع . ق . م

وقد أحسن المؤلف بذكره نماذج من شعر أعراب القبائل ولكن فاته أن يأتي بمثل ذلك من رطانتهم العربية ، ولو أنه فعل لقدم خدمة جليلة للبحث العلمى اللغوى حيث كان يمكن أن نقف على لهجاتهم وأن ندرسها دراسة علمية ونقارن بينها وبين اللهجات العربية الاخرى ونتبين ما فيها من الالفاظ الغريبة التى جاءتها بلا شك من اللغات السامية الأخرى .

ولا نستطيع أن نكف أنفسنا عن التساؤل : لماذا صقل المؤلف الأحاديث التى سمعها من الأعراب صقلا عربياً صحيحاً وفصيحاً ؟ ولماذا لم يتركها فى لغتها البدوية الطبيعية والفطرية ؟ . . .

لذلك نلح على المؤلف ونشتد في الالحاح أن لا ينسى حين يقبل على طبع كتابه الطبعة الثانية أن يضيف إليه جملة أحاديث وأقاصيص الكثير من رجالات الأعراب من نواح مختلفة بلهجاتهم الطبيعية ورطانتهم الفطرية دون أن يتعرض لها بشىء من الزيادة أو الحذف .

ثم يأتى بعد ذلك الباب الخامس الذى يشتمل على تاريخ بئر السبع على ممر الأحقاب من أقدم الأزمنة التاريخية إلى يومنا الحالى

وثمة أمر آخر له خطره ، وهو أن المؤلف الذى يتقن العربية والعبرية لم يقع فى ذلك الخطأ الفاحش الذى وقع فيه غيره من المؤلفين الشرقيين الذين يجهلون اللغات السامية ، وهو أنهم لا يضبطون كتابة أسماء الأماكن وأسماء الأعلام كتابة صحيحة كما ينطق بها أهل الشرق بل يكتبونها كما هى مدونة عند الغربيين الذين لا يستطيعون نطق الأسماء الشرقية نطقاً صحيحاً دقيقاً

أما مؤلفنا فكان فى أغلب هذه الاحوال محسناً لكتابة هذه الالفاظ بضبطها الصحيح .

ولنا فى هذا النوع بعض ملاحظات على مؤلفنا منها أنه لم يكن يجوز لعالم مثله أن يستعمل اسم البتراء دون أن يشير إلى اسمها الحقيقى القديم الذى منه اشتقت كلمة بتراء المحرفة ، فالمؤلف يعرف أن البتراء التى تعرف اليوم بوادى موسى كانت عاصمة لبنى أدوم قديماً ثم للأنباط فى العصور المتأخرة ، وقد عرفت باسم سلع ومعناه : الصخرة ، ثم جاء اليونان وترجموا هذه الكلمة إلى اليونانية وأطلقوا على هذا المكان اسم بترا أي الصخرة أو الحجر

وكان عالمنا المرحوم أحمد زكي باشا كلما قرأ لبعض الكتاب كلمة بتراء بدلاً من سلع هاج وماج لانه يعرف أن العرب أنفسهم كانوا يستعملون فى القديم كلمة سلع لا كلمة البتراء ، وقد أشار الى ذلك فى جملة مقالات نشرت بجريدة الاهرام قبل وفاته بزمن قليل

وفى الباب السادس يبحث فى حالة بئر السبع في وقتنا الحاضر ، ومع أنه موجز فانه شامل كامل لان المؤلف من الافراد المعدودين الذين خبروا البلاد خبرة وافية .

ولا ننسى أن نشير الي تلك الخريطة المفصلة لقضاء بئر السبع فهى بلا شك أول خريطة علمية دقيقة مبينة لمواطن القبائل العربية ومعينة لاسماء الامكنة في تلك البيداء الشاسعة الاطراف .

اسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب)
أستاذ اللغات السامية بدار العلوم

(طبعت بمطبعة الرسالة والرواية بحارة المدرستين ـ شارع المهدي)

5 me Année, No. 212

Lundi - 26 - 7 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

١٢٠ في العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢١٢ « القاهرة في يوم الاثنين ١٨ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ٢٦ يوليه سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

جلالة الملك فاروق الأول



اجتمع لجلالة الفاروق أعز الله نصره ما لم يجتمع لملك قبله من المزايا والخصائص فأحببناه أكثر من أخ : وأجللناه أكثر من ملك : شباب كمنضور الربيع كله حياة وجمال وخصب ، وخلق كَسَحَرِيّ النسيم فيه الرَّوْح والريحان واللطف ؛ ونشأة كنشأة الأخيار المصطفَيْنَ أقامها الله على أدب الدين وخلال الفتوة ؛ وجاذبية

كشعاع الروح الإلهي تجذب القلوب الصاغية بالهيام والحب؛ وشخصية على طراءة السن تبهر العيون بالجلالة وتملأ الصدور بالهيبة؛ وديمقراطية على عزة الملك كرحمة الله تقر فى الأذهان معنى السمو وسر العظمة؛ وعهد كإشراق الشمس قبله السرى المجهد والغسق الداجى، وبعده الصباح المسفر والضحى الماتع؛ وتاجٌ كدارة النور أو هالة القدس حلاّه (مينا) بالشمس وزينه (المعز) بالقمر، فهو يتألق على جباه المصور بالقمرين لا بماس الأرض ولا بلؤلؤ البحرين؛ وببعض هذه الخصائص والمزايا قدس الشعوبُ الملوكَ فى الأمس البعيد، وفضَّل الناس الملكية فى اليوم الحاضر

***

مَن مثلُ فاروق جمع أطراف المجد فورث ملك الفراعنة وخلافة الإسلام وسلطان العرب، فكان رمزاً لأول حضارة مدنت الإنسان، وأقوم رسالة هذبت الحياة، وأعدل أمة حكمت الأرض؟ أليس هذا التاج المعنوى الذى يضعه الشعب على مفرقه يوم الخميس المقبل خليقاً بأن يسامى أضخم التيجان ملكا وأرفعها مكانة؟ وهل يغض من خطر التاج أن انحسرت ظلال ملكه بعد أن ورفت على أكثر بقاع الكون؟ إن قيمة التاج فى خلوص جوهره وأثالة مجده وسطوع تاريخه؛ وهذا التاج الذى له ملك مصر وهذه الملايين العرب والمسلمون ينظرون إليه نظرهم إلى الشعاع الهادى والأمل الباسم، هو من حيث هذه الصفات الثلاث أعظم تاج على جبين ملك

***

لاجرم أن فاروقاً الأول هو أول ملك فى تاريخ مصر القديم والحديث نشأته الأمة على طبعها وحسها، وأعدته لعرشها بنفسها، وتوجته بطوعها ورضاها هذا التتويج الدستورى الشعبى الحر، ففتحت به عهداً لم يسبق، وسنت به سنة لم تكن، وفصلت بالفاروق بين ماض كليل بغى فيه الاحتلال على سيادتها واستقلالها، واعتدت فيه (الامتيازات) على أنفسها وأموالها، وبين حاضر زاهر يزخر فيه النيل بالحياة، ويجيش بالقوة، ويفيض بالأمل، ويقيم مُلكه على الديمقراطية، وعرشه على الدستور، وحكمه على العدل، وصلته بالدول على المساواة. فهل تعجب إذا انقلبت البلاد من ضفاف الشلال إلى أرياف الدال، بشراً يتهلل فى الوجوه، ومرحاً يتنزى فى الأفئدة، وزينة تتخايل فى الأرض، وأعلاماً تخفق فى الجو، ودعاء يصَّعَّد فى السماء، استعداداً للاحتفال بتتويج الفاروق سيد أعزاء مصر، وزين شباب الإسلام، وملك ملوك العرب؟

إن لابتهاج الشعب بتولى الفاروق حقوقه الملكية بواعث شتى: بعضها يرجع إلى شخصه، فشخصه عذب الروح قوى الجاذبية؛ وبعضها يرجع إلى عهده، فعهده أول عهد مصر بالسيادة والحرية؛ وبعضها يرجع إلى حكمه، فحكمه حكم الدستور والديمقراطية؛ ولكل أولئك ملابسات ومناسبات توزعت عواطفَ هذه الأمة الوديعة المطيعة المخلصة، فغرقت كما ترى فى نشوة من نشوات الروح، فيها بهجة القلوب بالحب، وغبطة النفوس بالعزة، ولذة الحواس بالطمأنينة.

***

مولاي الفاروق!

إن من دلائل الفوز التيسير. وما لك الملك الذى اصطفاك لخلافة هذا المجد العريق قد يسر لشعبك فى مستهل عهدك ما تعسر عليه الحِقَبَ الطوال من سيادته على أرضه. فتول القيادة العليا للسفين على هدى من الدستور ووحى من شمائلك الحرة؛ وأفِض من شبابك الفردوسى على ما خمد من عزائم هذا الشعب لطول ما كابد من عنت الأحداث وطغيان الدخيل؛ واطبع النَّشْء من شعبك الهين اللين على غرارك فى ثقافة العقل وثقافة الطبع وثقافة الجسم، فإنك المثل الأعلى لكل ذلك. ومَثَلك الفريد يا مولاى هو ما تحتاجه مصر فى تجديد ما رثَّ منها، وتكميل ما نقص فيها، وتوفير مواهب الانشاء بها، وتنظيم قوى الدفاع عنها، وتوثيق أسبابها العمرانية والاجتماعية والسياسية لتربط بين أملاك العروبة وملكك، وتصل طرفى المجد بين عرش (مينا) وعرشك. ثبت الله ملكك بالسلام، ونضَّر عهدك بالوئام، وجمَّل حكمك بالرخاء والصفاء والسكينة

احمد حسن الزيات

تاج مصر

من مينا إلى فاروق

للأستاذ عباس محمود العقاد

اسم الملك فى مصر القديمة دليل على عراقة النظام الملكى فيها ، لأنه دليل الرسوخ والتوطد والعمران المستفيض على حين يعرف الملك فى البلدان الأخرى بأسماء قريبة من البداوة أو من حالة البداية الفطرية .

فالملك فى اللغات اللاتينية (Rex) مأخوذ من كلمة الراجا الهندية وهي فى الأصل بمعنى الربان .

والملك فى اللغات السكسونيـة (King) مأخوذ من كلمة جنا كا (Jan aka) الهندية وهي بمعنى الوالد ، ولعلها كما يرى بعض الباحثين فى اللغات القديمة قريبة من كلمة الخان وما إليها .

والملك فى العربية وأخواتها بمعنى الاستيلاء ، والامارة بمعنى الأمر ، وكلاهما يتحقق لأصغر الحاكمين ولو كانوا من رؤساء العشائر ، لأن المرجع فيهما إلى الرآسة حيثما كان رئيس ومرؤسون .

أما « بارو » أو فرعون كما نعرفها الآن فمعناها « الباب الكبير » أو « الباب العالى » وهو الاسم الذي كان المصريون الأقدمون يعرفون به ملك البلاد ، وتسمية الملك به دليل على « تطور » الحكم عندهم من حالة الأبوة أو الزعامة البدائية أو الرآسة المستمدة من أواصر القرابة إلى حالة السياسة وتدبير العمران وقيام الدواوين ومراسم السلطان .

كذلك كان المصريون يعرفون التيجان ومعانيها السياسية إذ كان غيرهم لا يتجاوزون عهد العصابة أو عهد الاكليل من النسيج والزهر ، ثم من المعادن والجواهر ، فكان لملك الوجه البحري تاجه وشعاره ، وكان لملك الوجه القبلي تاجه وشعاره ، ثم اتحد الوجهان فاتحد الشعاران ؛ وظل الملوك حينا يلبسون هذا أو يلبسون ذاك للدلالة على الحقوق السياسية التى تناط بكل تاج وكل شعار .

وعراقة النظام الملكي معقولة طبيعية فى بلاد كالبلاد المصرية تحتاج إلى نظام واحد فى الرأى ونظام واحد فى الحكومة ، ويد واحدة تشرف على سقيها وتدبير معيشتها ؛ ويساعد على استقرار « النظام » فيها أن أمورها كلها مستقرة تجرى على مثال واحد قليل التغيير والتبديل .

قال الأستاذ ألفرد فيدمان الألمانى فى كتابه (ديانة قدماء المصريين) : « إن الهيمنة على جداول الأرض كانت بطبيعتها أقرب إلى التركيز والتوحيد من سائر المرافق الأخرى . إذ لا يتأتى تنظيم الري فى مصر على نحو مضمون مكفول بغير هيمنة واحدة تمنع الأفراد أن يجوروا على المصلحة القومية فى سبيل المنافع الفردية » .

وتناول الأستاذ اليوت سميث هذا الرأى فشرحه وفصله فى كتابه « التاريخ الانسانى » وأيد فيه ماسبقه إليه العالم الألمانى من تعليل عبادة الملوك فى مصر القديمة ، إذ كان المالك عندهم لزمام النيل ومقادير الماء مالكا فى ظنهم لمصادر الحياة ، خليقاً أن يحاط بمظاهر من التعظيم ومناسك من التقديس لا يحاط بها الانسان ، ولا تكون لغير الأرباب .

ويزكي هذا الرأي أن « مينا » رأس الملوك الذين وحدوا البلاد وجمعوا بين حكم الوجهين إنما كان فى معظم أعماله مهندساً يسوس الماء ويدرى من ثم كيف يسوس البلاد ، وإليه ينسب المؤرخون الأولون تحويل مجرى النيل وإقامة السدود فى أقاليم منف والفيوم .

* * *

ثم جاء عهد الحضارة العربية وهى الحضارة الثانية التي بقي لها بعد الحضارة الفرعونية أخلد الآثار فى تكوين الشعائر وتقرير نظام الحكومة بين المصريين .

والفرق بين مظاهر الملك فيها ومظاهر الملك فى الحضارة الفرعونية هو الفرق بين حاكم يقول : إنه « عبد الله » وحاكم يقول ويقال له : إنه هو الاله وسيد الخلق والأمر وباعث الخير من الأرض والسماء .

فليس للملك العربى « تاج » ولا يحب الملوك العرب أن يتشبهوا بالأعاجم فى هذه المراسم . مدح عبد الله بن قيس الخليفة

عبد الملك بن مروان بقصيدة من جيد شعره يقول فيها .

إن الأغر الذى أبوه أبو العا   صى عليه الوقار والحجب
خليفة الله فوق منبره   جفت بذاك الأقلام والكتب
يعتدل التاج فوق مفرقه   على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك : يا ابن قيس ! تمدحني بالتاج كأني من العجم وتقول فى مصعب (ابن الزبير) :

إنما مصعب شهاب من اللـ   ـه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه   جبروت وليس فيه رياء

أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً . . . هذا وعبد الملك بن مروان كان من ملوك العرب الذين أكثروا من اقتباس الأزياء والشارات الفارسية ، إلا مراسم التيجان التى بغضتها إليه النعرة العربية كما بغضتها إليه موجدته على ابن الزبير ومن مدحوه وجنحوا إليه !

وأيا كان سر الإنكار فى نفس عبد الملك فقد ظل الملوك المسلمون يؤثرون العمامة على التاج ويتخذون آثار النبى عليه السلام – ومنها البردة والخاتم – شعاراً للخلافة أعز عندهم وعند الرعية من كل شعار .

ثم جاء خلفاء الترك فاختاروا العمامة على التزين والترصيع ، حتى لبسوا الطربوش وميزوه على سائر الطرابيش بحلية من حلى التجميل ، كراهة منهم أن يتخذوا التاج ويتشبهوا بالملوك الأوربيين

أما ملوك مصر فقد لبثوا يتخذون الآثار النبوية شعاراً للخلافة حتى زالت عنهم هذه الآثار فعوضوها بما يشبهها ، ثم جروا على سنة الولاة العثمانيين حين دخلت مصر فى حوزة الدولة العثمانية .

* * *

ثم قامت الأسرة العلوية على أساس الانتخاب والتولية فى وقت واحد : فقد أساء الوالى العثمانى الحكم فاجتمع العلماء والنقباء بدار المحكمة واستقر رأيهم على اختيار محمد على الكبير والياً عليهم وإبلاغه ذلك والكتابة إلى الآستانة فى هذا المعنى . وانتقلوا إلى دار محمد على باشا هاتفين : إننا لا نريد هذا الباشا – يعنون خورشيد باشا – والياً علينا . وقال السيد عمر مكرم : « إننا خلعناه من الولاية » . . . فقال محمد على باشا : ومن تريدونه والياً عليكم ؟ فقالوا بصوت واحد : إننا لا نرضى إلا بك لما نتوسم فيك من العدالة . قال بعد تردد : إنني لا أستحق هذا المنصب وقد يكون فى التعيين مساس بحق السلطان . فعاد العلماء والنقباء يقولون : إن العبرة برضى أهل البلاد وقد أجمعنا على اختيارك .

فقبل محمد على وألبسه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى الكرك والقفطان وهما خلعة الولاية . ولم يمض على ذلك شهران حتى جاء الفرمان من قبل السلطان باقراره فى منصبه وتعزيز ما اختاره الشعب لنفسه ، فكانت هذه هي بيعة الشعب المصرى لمحمد على الكبير ولأسرته من بعده

* * *

وكانت النهضة المصرية وشاء الله لمصر أن تكون ولاية مليكها المحبوب « فاروق الأول » فتحاً جديداً فى تاريخها لا مثيل له فى جميع هاتيك العصور ، وقدوة للاحقين جمعت كل حسن سائغ من الماضى وتنزهت عن كل ما يأباه المليك ويأباه رعاياه :

إستقلال الفراعنة بغير شوائب الوثنية ، وملك العرب بغير رعاية أجنبية ، واختيار الشعب بغير الولاية العثمانية . وقد كانت الدولة البريطانية تزعم لنفسها المزاعم فى إبان الحرب العظمى ، فبطلت هذه المزاعم وقام الملك الفاروق بالأمر بيننا أول ملك خلص لمصر عرشه وخلص له حبها واختيارها . فلا نظير لهذا الملك فى عهد الفراعنة ولا فى عهد العرب ولا فى دولة العثمانيين ولا فى دولة الانجليز . وهنيئاً لمصر هذه البداية ، وهنيئاً للفاروق هذه المزية ، وهنيئاً للمستقبل ما يرجى له من طوالع هذا الفأل الحسن وهذا البشير السعيد

وإن من الخير لمصر أن يكون تاجها هو التاج الذى اختاره الله للمليك الفاروق الفارق بين جيلين وعصرين :

تاج محسوس بالقلوب مثاله هو شخص المليك المحبوب ، ورمز تراه الأفكار قبل أن تراه الأبصار ، وطلعة كما قال عبد الله ابن قيس :

. . . شهاب من اللـه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه   جبروت وليس فيه رياء

عباس محمود العقاد

حديث الملك فاروق

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

عرفت فضل النظام الملكي ومزيته في ليلة صيفية كان هذا الموضوع آخر ما أتوقع فيها أن يجرى لي في خاطر . وكنا نحو عشرين – ما بين كبار وصغار ، ورجال ونساء ، وشيب وأطفال – خرجنا في أربع سيارات إلى الصحراء – صحراء مصر الجديدة – ومعنا الطعام والشراب والسجاجيد والوسائد والأواني والأوعية وسائر ما يحتاج إليه مثلنا في مثل هذه الرحلة ، إلا الأكواب فقد نسيناها على فرط حرصنا على تذكرها ، فاضطر أحدنا أن يعود بالسيارة إلى حيث مساكن الأحياء ليشترى لنا كفايتنا من هذا الذي نسيناه . وفرشنا السجاجيد وأخرجنا الوسائد والحشايا وصففنا الأطباق ووزعنا الفوط والأشواك والملاعق والسكاكين – فقد أبى أكثرنا إلا أن يكونوا من أبناء المدنية وإن كان أصل الفكرة أن نجعلها ليلة « بوهيمية » وأن نطلق النفس على السجية وننفي التكلف – وشرعنا نأكل ونسمر ونضحك ونلعب ونتخاطف الطعام والشراب ويجرى بعضنا وراء بعض . وكنت جالساً على حافة السجادة وساقاي ممدودتان أمامي – كأنما يمكن أن أمدهما ورائي ! – وظهري إلى مؤخرة إحدى السيارات فإن احدى ساقي مهيضة فليس في وسعي أن أجلس كما يجلس خلق الله . فأقبلت عليّ إحدى الفتيات وأراحت كفها على كتفي وقالت: « ولكن كيف نسينا الأكواب ؟ »

فهززت كتفي التي عليها راحتها — فقد كان الجو حاراً — وقلت : « وهل أنا أعرف ؟ »

فأبت إلا الالحاح وقالت : « ولكنك كتبت كل شيء في ورقة وراجعت كل شيء على ما فيها ؟ »

فقلت بإيجاز : « صحيح »

فقالت : « إذن كيف حدث هذا ؟ .. لابد أنك تعمدت.. »

ولم تتمها فقد صاحت إحدى الفتيات في هذه اللحظة : « الملك فاروق ! »

وإذا بالقاعدين والمضطجعين جميعاً يثبون إلى أقدامهم كأنما شكبهم جميعاً حديد محمي ، ولولا ساقي وصعوبة هذه الحركة المباغتة عليها ، لكنت وثبت كما وثبوا ، فإن للجماعة عدواها ، وصارت كل يد على أقرب كتف ، وجعلت العيون تدور في كل ناحية ، والألسنة تجرى بالسؤال الطبيعي : « فين ؟ » . وكانت الفتاة التي أطلقت هذه الصيحة تشير إلى سيارة تخطف بعيداً عنا ، ولا يكاد يبدو منها شيء لكثرة الغبار الثائر وراءها . وسكنت الضجة أخيراً فقالت إحدى الفتيات : « هل سمعتم أغنية الملك فاروق ؟ » فقلنا جميعاً – أعني الرجال – : « لا » – بلسان واحد . فقالت : « أغنية جميلة » قلنا : « هات أسمعينا » فهزت كتفها ، وأولتنا ظهرها ، وأخفت وجهها في حجر زميلة لها . فسأل أحدنا : « هل فيها شيء يدعو إلى الحياء ؟ » فقالت بنته : « لا . إنما خجلها من أن تغني » قلنا : « إذن أسمعونا ياناس »

فأبين أن يسمعننا شيئاً ، وتركننا متلهفين على السماع الذي حرمناه . ولم أطق أنا صبراً فعمدت الى الحيلة ، وغيرت الموضوع ثم ملت على جارتي وسألتها – فيما بيننا – : « هل تعرفين هذه الأغنية ؟ » فهزت رأسها أن نعم ، فسألتها : « ماذا فيها ؟ » قالت : « لا شيء في الحقيقة وهي شائعة جداً »

قلت : « اهمسي بها في أذني » ففعلت وإذا بالأغنية كما يأتي :

« مصر فرحانه بفاروقها   مصر فرحانه بحبيبها
كل بنت تستمنى   لو جلالته يكون خطيبها »

ففهمت لماذا خجلت الفتيات أن يغنينها وإن كان لفظها لا يراد به المعنى الحرفي ولا يدل على أكثر من الحب العام الذي فاز به هذا الملك الشاب السعيد الحظ . وخطر لي وأنا جالس أفكر في هذه الأغنية الشائعة أن ملكا مثله يسعه أن يثق بحب الشعب له وأن يطمئن إلى دوام هذا الحب ، فإن المرأة تصنع بنا معاشر الرجال المغرورين ما تشاء

وقلت لنفسي وأنا أرمي بعيني هذه الصحراء المهولة التي يضيئها القمر : إنه ليس في وسع رئيس جمهورية أن يفوز بمثل هذا الحب . ولا يعقل أن يكون رئيس جمهورية شاباً في مثل سن الملك فاروق ، وعلى أنه ماذا صنع الجمهوريون حين ألغوا الملكية واعتاضوا منها الجمهورية ؟ لم يصنعوا شيئاً سوى أنهم قلدوا الملكية ، واحتفظوا بكل مظاهرها ، وحرموا الشعوب إمكان الحب لرؤساء دولهم ،

واتخاذ هؤلاء الرؤساء رموزاً لأوطانهم وأعلاماً عليها ، وعناوين لها ، وأفقدوها معنى قومياً تتعلق الشعوب به . والجمهوريون يشعرون بذلك ويفطنون إلى الزيف الذي تكافوه ، ولذلك يحفون رئيس الجمهورية بكل ما كان يحف بالملوك من المظاهر والمراسم . فله قصره ، وحرسه ، وحاشيته ، وإنعاماته — كائنة ما كانت — وله مقام كمقام الملك ، واحترام كاحترامه ، وتقاليد ملكية مقررة لا تختلف ولا يمكن التساهل في أمرها . وكل ما ذهب هو نظام الوراثة . هذا والملكية نشوءها طبيعي فى الأمم ، فقد كان الملك فى العصور الأولى هو الأقوى أو الأقدر على العموم وبقدرته أو قوته الممتازة استحق التسويد . أما الجمهورية فنظام قائم على التكلف والمغالطة . والزعم فيه هو أن الأمر والرأي للأمة ، ولا أمر ولا رأي للأمة فى الحقيقة ، وإنما الأمر والرأي لنفر ممن فى أيديهم مقاليد الأمور ، وأعنة الشئون . وما دامت الشورى هي نظام الدولة ، والدستور هو الذي يجري على قاعدته الحكم ، والملك لا يحكم إلا بواسطة وزرائه ، فلماذا تتكلف الأمم عناء التبديل والتغيير والمغالطة لنفسها وتجيء برئيس جمهورية لا يختلف عن الملك فى شيء ، ثم تزعم أنها جاءت بجديد ؟ كل ما تصنعه الأمم التى اعتاضت الجمهورية من الملكية هو أنها أفسحت المجال لأطماع وراء الأطماع العادية فى مناصب الحكم أي فى المناصب الوزارية . وقد يكون من عجائب الانسان أنه لا يقنع بمنصب الوزارة — وهو منصب حكم فعلى لا وهمي — وأن يروح يطمع فى منصب لا يكون لصاحبه وهو فيه من الأمر قليل أو كثير . وكل ما يفيده هو الأبهة التى ليس وراءها حقيقة . ومن مغالطات الانسان لنفسه أن يدعى كره الملكية وأن يتخذ مع ذلك كل مظاهرها ما خلا الاسم ، ويروح على الرغم من هذا يقنع نفسه أنه غير شيئاً حين أبدل الملك برئيس جمهورية . وقد تكون الجمهورية أو ما إليها معقولة فى بلد حديث العهد بالوجود مثل الولايات المتحدة ؛ أما فى الأمم القديمة التى نشأت فيها الملكية وتقررت زمناً فان التغيير لا يكون إلا مغالطة ولا يكون الباعث عليه إلا الأطماع الشخصية أو جنون الحركات الثورية التى يفقد فيها العقل اتزانه واستقامة نظره ، وهدوءه

ولم أسترسل فى هذه الخواطر التى لا أدرى لماذا دارت فى نفسي ، فعدت إلى رفاقي أسألهم عن الملك فاروق وأحاول أن أعرف سر هذا الحب كله . فقالت فتاة صغيرة بسذاجة محببة : إنه شاب حلو . فقلت لنفسى : إن هذا معقول فإن الأمم تحتاج إلى الشباب لتجديد نفسها . ومجرد وجود ملك شاب على رأس أمته يشعرها بفيض جديد من الحياة والشباب على الخصوص ، وينعش فى نفوسها الأمل . ولعل فتاتنا الساذجة لا تدرك ذلك كله ، ولكنها صدقت من حيث لا تدرى . وقال رجل : إنه شديد التمسك بعادات قومه ودينهم . فقلت لنفسي : وهذا أيضاً صحيح وهو من مزايا الملكية ، والشعوب تحب أن ترى فى ملكها رمزاً لكل ما تحرص عليه وتضن به ، من دينها وعاداتها وتقاليدها وآمالها ، ولا يتأتي هذا كما يتأتي فى الملكية . وقال ثالث : إنه متواضع رقيق الحاشية والقلب . فحدثت نفسى أن هذا أيضاً صحيح ، ومعقول أن يكون باعث حب ، فما من أمة تحب العجرفة والشموخ والغطرسة والجبروت فى حكامها ، حتى ولو خضعت لهم مكرهة ، وهى تؤثر الحدب والرعاية والعطف والعدل ، وهذا كله حقها . وقال آخر : إن الأمل فيه عظيم ، وإن البشرى به حسنة ، وإن فاتحة عهده آذنتنا بالخير . ولا يكون مثل هذا الأمل الكبير فى رجل عرفت حياته ونزعاته واتجاهاته ، وأصبح ما يمكن أن يكون منه مما يسهل أن يعرف بالقياس على ما كان فعلا فى ماضيه المعروف . وعظم هذا الأمل دليل على عظم الرغبة فى الانتقال إلى ما هو خير . ودلالات هذا الأمل كثيرة وليس هنا مقام القول فيها . وقد كثرت فى جلستنا الأسباب التى يعزى إليها حب الشعب للملك الشاب ، وكلها صحيح ولكنى لا أذكر الآن أن واحداً منا أشار إلى جاذبيته الخاصة ، وقد يكون مرجعها إلى الشباب ، ولكنى أحسبها هبة من الله ، فما أكثر الشبان وما أثقل الكثيرين منهم !

وعدنا وما كان لنا حديث إلا الملك فاروق وحبه لأمته وحب الأمة له . وما أظن أن حديثاً آخر كان خليقاً أن يكون أشهى وأمتع . ومتى كان الحديث عن الملك فى المجالس أشهى الأحاديث وألذها فان للملك أن يبشر وللأمة أن تستبشر

ابراهيم عبد القادر المازني

لمناسبة تتويج الفاروق

خواطر تاريخية ودستورية

عن رسوم التتويج والتولية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تستقبل مصر بعد يومين حادثاً من أعظم الحوادث فى تاريخها الحديث هو الاحتفال « بتتويج » جلالة مليكها فاروق الأول ، أو بالحرى ببلوغ المليك رشده الدستورى وتوليه مقاليد الشئون ، وافتتاح عهده السعيد فى ظل الاستقلال والحريات الدستورية ؛ ويلاحظ ان هذا الحادث الذى هو الأول من نوعه في تاريخنا الحديث ، سوف ينشىء سابقة دستورية ينسج على منوالها ، وسوف يكون هو الحجر الأول فى صرح تقاليد الملوكية المصرية الدستورية

ولقد كان للملوكية المصرية فى عصور الاستقلال والمجد رسوم وتقاليد مؤثلة ؛ وكانت رسوم البيعة والتولية من أعظمها وأعرقها ، وكانت تتشح بألوان ساحرة من الفخامة والبهاء ، وتعتبر من الحوادث القومية الجليلة ؛ ولو لم تنكب مصر بمحنة الفتح العثمانى فى سنة ١٥١٧ ، وينهار بذلك صرح استقلالها وملوكيتها التالدة ، لكان عرش مصر اليوم أقدم عروش العالم وأعرقها

فالحادث العظيم الذى تستقبله مصر فى الغد يعتبر من الوجهة التاريخية ذا أهمية خاصة فى تاريخها : أولاً لأنه يصل ماضى الملوكية المصرية المستقلة بحاضرها بعد أن انقطع سيرها زهاء أربعة قرون ؛ وثانياً لأنه يفتتح عهد الملوكية الدستورية فى عصر الاستقلال ؛ وهذا المعنى التاريخى المزدوج هو الذى يسبغ على تتويج مليك مصر الشاب خطورة قومية ودستورية ذات شأن

وسوف تتخذ اجراءات التتويج هنا صفة رمزية معنوية ، فليس هناك تتويج بالمعنى الحقيقى ، وليس لمصر الحديثة تاج موروث أو آلات وأزياء ملوكية خاصة يتقلدها المليك عند توليته ؛ وانما هنالك اجراء دستورى خطير هو فى الواقع أسمى مظهر يبدو به الملك الدستورى لأمته ، وأقدس عهد يقطعه لها حين تقلده لأمورها ؛ وهذا الاجراء هو أداء الملك لليمين التى نص عليها الدستور فى مادته الخمسين ، وذلك أمام البرلمان مجتمعاً بمجلسيه فى هيئة مؤتمر ونصها : « أحلف بالله العظيم انى أحترم الدستور وقوانين الأمة المصرية وأحافظ على استقلال الوطن وسلامة أراضيه » ؛ وسيتلو هذا الاجراء الخطير عدة حفلات واستقبالات عظيمة يتاح فيها للأمة أن تبدى عميق حبها وولائها لمليكها ، ويستعرض فيها الجيش المصرى الذى تؤمل مصر أن يستعيد فى المستقبل القريب مجده العسكرى التالد ، ويغدو حصنها المكين ، وحامى حمى استقلالها وذمارها

وإذا كان « تتويج » الفاروق سيقتصر على ثلاثة اجراءات ومظاهر رئيسية ، هى أداء اليمين الدستورية يوم الخميس القادم ، فأداء صلاة الجمعة فى اليوم التالى فى مسجد الرفاعى ، ثم استعراض الجيش فى اليوم الثالث ؛ فان هذا البرنامج على بساطته المؤثرة يحتوى جميع العناصر القومية والشعبية التى تأخذ بها جميع القصور والأمم العريقة ، بل والتى عرفتها الملوكية المصرية فى ظل الدولة الاسلامية ؛ ذلك أن تبادل العهد بين العرش والأمة عن طريق اليمين الدستورية التى يؤديها جلالة الملك أمام ممثلى الأمة ، والتي هى معقد رسوم التولية ، ليست فى الواقع إلا مظهراً جديداً من مظاهر نظام البيعة القديم تطور مع الزمن طبقاً لتطور الفكرة الدستوريه ؛ ففى العصور الوسطى كانت الخلافة أو العرش مصدر السلطات الروحية والزمنية ، وكانت البيعة تعقد للخليفة أو صاحب العرش بهذه الصفة ؛ أما اليوم فان الأمة تغدو فى ظل النظم الدستورية هي مصدر السلطات ، ويغدو العرش رمزها الأسمى ، وهي التى يدين لها الجميع بالولاء

أما التتويج بصورته الشكلية المعروفة عند ملوك النصرانية من وضع التاج على رأس الملك الجديد فى حفل دينى على الأغلب فلم يتبع دائماً فى الدول المصرية الاسلامية ، ولم يتبع إلا فى دولة الخلفاء الفاطميين ، فقد كان لخلفاء هذه الدولة ضمن آلات الملك تاج من الجوهر الثمين يعرف بالتاج الشريف وبه جوهرة عظيمة تعرف

باليتيمة ومن حولها جواهر دونها ، وله موظف خاص يوكل بوضعه على رأس الخليفة فى المواكب والأيام العظام يعرف « بمتولى شد التاج » . أما الدول التى تلتها كالدولة الأيوبيـة ، ودولة المماليك البحرية ، ثم دول السلاطين الشراكسة ، فلم يكن التاج بين الآلات الملوكية التى اختصت بها ، بل كان أهمها العرش (أو سرير الملك) وكان سلاطين هذه الدول يضعون على رؤوسهم أيام التولية طرحة سوداء مرقومة بالبياض ، أو عمامة سوداء مرقومة بالبياض ، تنويهاً بشعار الخلافة العباسية القديمة وهو السواد ، وقد كانت هذه الدول تنضوى من الوجهة الروحية تحت لواء الخلافة العباسية الذاهبة ، على أنه لم يكن سوى انضواء شكلى فقط

ثم إن الحفلات القوميـة التقليدية كانت فى هذه المناسبات العظيمة تحتوى دائماً على العنصر العسكرى ، وعلى بعض المظاهر الدينية ؛ فكانت مواكب الخلفاء فى الدولة الفاطمية تمتاز بروعة عسكرية ، وكان يحف بالخليفة الجديد وينتظم فى ركبه صفوة القادة والضباط والجند فى أثواب وأزياء باهرة ، ويشق هذا الركب الخلافى العسكرى الفخم مدينة القاهرة فيعرض على أنظار الشعب المعجب طرفاً من قوة الدولة والجيش ؛ وكانت مواكب السلاطين فيما بعد تمتاز أيام التولية أيضاً بهذا الطابع العسكرى الفخم ؛ وما زال الطابع العسكرى فى عصرنا أعظم مظهر للمواكب المشهودة فى أرقى الدول وأعظمها

أما المظاهر الدينية فقد كانت تتخذ مكانتها دائماً فى المواكب الخلافية والسلطانية ، وكانت فى ظل الدولة الفاطمية أشد ظهوراً وتمكناً منها فى أية دولة مصرية أخرى ؛ ذلك لأن الدولة الفاطمية كانت خلافة مذهبية وكانت الإمامة الدينية شعارها ، وكان الخليفة يجمع بين يديه جميع السلطات الدينية والزمنيـة ؛ وكانت مواكب السلاطين تحتوى أيضاً مثل هـذا الطابع الدينى ؛ بيد أنه يجب أن نفرق بين هذه المظاهر التى كانت تتفق من الوجهة الشكلية مع روح العصر ، وبين مسألة أخرى هي مدى مثول العنصر الدينى فى تولية الخلفاء والسلاطين المصريين. وقد أثيرت هـذه المسألة أخيراً لمناسـبة تتويج جلالة الملك فاروق ، ورأى بعضهم أن تجرى إلى جانب الحفلة الدستورية حفلة دينيـة فى أحد مساجد القاهرة يتلو فيها شيخ الأزهر على جلالته صيغاً معينة يجيب عنها جلالته بما يناسبها ، فيكون هـذا بمثابة تتويج دينى لجلالته إلى جانب التتويج المدنى ؛ وكانت حجة هؤلاء أن مصر دولة إسلامية دينها الرسمي الاسلام ؛ وقد اعترض على هـذا الاجراء بحق بأنه ينافى الأوضاع الدستورية ويخلق فى الدولة سلطة روحية لا وجود لها ؛ على أننا نزيد هنا أن هذا الاجراء لم تعرفه القصور المصرية فيما عرفت من رسومها وتقاليدها ، ولم يحدث قط فى تاريخ مصر الاسلامية ، أن تلقى خليفة أو سلطان عهداً أو تفويضاً من زعيم دينى سواء أكان قاضى القضاة أم شيخ الأزهر ، ولم يتلق السلاطين مثل هذا التفويض إلا من الخليفة العباسى ، الذى أقاموه هم بمصر بعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد ليتخذوا من لوائهـا أداة من أدوات السياسة . بيد أنه كان إجراء شكلياً فقط ؛ كذلك لم يحدث قط فى تاريخ مصر الاسلامية أن توج خليفة وسلطان فى مسجد من المساجد ، بل كان التتويج يجرى دائماً فى مقر الملك ، فى القصر الفاطمي أيام الدولة الفاطمية ، وفى دار الوزارة الكبرى ثم فى قصر القلعة أيام الدولة الأيوبية والدول التى تلتها ؛ أما العناصر والمظاهر الدينية فى حفلات تولية الخلفاء والسلاطين فكانت تلخص فيما يلى : مثول قاضى القضاة وأكابر العلماء إلى جانب أقطاب الهيئات العسكرية والمدنيـة الأخرى ، فى حفل التولية ، وفى الموكب الملكي ؛ وأداء الخليفة لصلاة العيد أو الجمعة فى الجامع الأزهر أو جامع عمرو أو جامع الحاكم أو غيرها من المساجد الجامعة ؛ ولم يظهر نفوذ رجال الدين فى مسائل العرش والتولية إلا فى أواخر دولة الملوك الشراكسة حيث كان للعلماء والقضاة الأربعة نفوذ يذكر فى تولية بعض السلاطين وعزلهم وتقرير رشدهم ؛ بيد أن هذا النفوذ كان عارضاً يرجع إلى أحوال الدولة المصرية والمجتمع المصرى يومئذ ؛ ولم يكن من العوامل الأساسية فى مسائل العرش والتولية .

والواقع أن إجراء رسوم التتويج بالمسجد هو أقرب إلى الشعائر الوثنية والنصرانية ، والكنيسة تؤدى مثل هذا الدور الذى يراد أن يؤديه المسجد ـ فى الأمم النصرانية ؛ وقد شهدنا هذا المنظر فى تتويج جلالة ملك انكلترا حيث جرى تتويجه فى

الكنيسة وتلا عليه مطران كنتربرى صيغاً معينة أجاب عليها؛ ومع أن الدول الأوربية قد تحررت منذ بعيد من سلطان الكنيسة فان هذه الاجراءات ماتزال تمثل فى الاحتفالات القومية الكبرى كالتتويج وغيره، فنرى الأمبراطور نابوليون بونابرت مثلا يجوز رسوم التتويج فى كنيسة الأنفاليد فى فاتحة القرن التاسع عشر، كما توج سلفه الأمبراطور شارلمان قبل ذلك بألف عام فى إحدى كنائس رومة وتولى البابا ليون الثالث وضع التاج على رأسه؛ على أن هذه المظاهر النصرانية والمناظر الوثنية التي ترجع إلى روح العصور الوسطى أيام كان سلطان الكنيسة الروحى يغشى كل سلطة زمنية وتستظل بلوائه الملوكية لتدعم سلطانها الزمنى، لم تعرفها الملوكية الاسلامية ولم تأخذ بها ولم يلعب المسجد فى هذا الميدان مثل هذا الدور الذي تلعبه الكنيسة فى تتويج ملوك النصرانية، كذلك لم تعرف الدولة الاسلامية لرجال الدين سلطة خاصة كتلك التى يزاولها الأحبار النصارى فى مثل هذه المناسبات السياسية والقومية.

وعلى ذلك فان البرنامج الذى وضع لتتويج جلالة ملك مصر والذى يقوم على العناصر التقليدية الثلاثة: العنصر الدستورى وقوامه أداء جلالته لليمين الدستورية أمام ممثلى الأمة، والعنصر الدينى ومظهره أن يؤدى جلالته صلاة الجمعة فى اليوم التالى فى أحد المساجد الكبيرة، والعنصر العسكرى ومظهره أن يقوم جلالته باستعراض الجيش المصرى الباسل فى حفل نخم، هو فى الواقع برنامج موفق، يتفق على بساطته مع الروح الدستورية الصحيحة، ويجانب تلك البدع والرسوم الوثنية التى زعم البعض أنها تسبغ على حفلات التتويج لوناً روحياً خاشعاً، وتنوه بصفة مصر الاسلامية فى حين أنها تنافى الأوضاع الدستورية والتقاليد الملوكية الاسلامية؛ بل إن هذا العهد الدستورى المؤثر الذى يتقدم به المليك لأمته يوم توليه مقاليد أمورها، ليذكرنا كيف تمت ولاية جده العظيم محمد على لمصر على يد زعماء الأمة المصرية فى منظر من أعظم المناظر الديمقراطية التي يسجلها التاريخ المصرى

محمد عبد الله عنان

عرش الشمس

يقدمه واحد وأربعون قرناً!

للأستاذ عبد المنعم خلاف

حينما أرسلت خيالى يرود لى ما يقع عليه «عرش الشمس» الذي يتبوأه اليوم الفاروق، من البحر فوق، إلى البحيرات تحت، عرفت فى نفسى كلاماً يُوحى إلى أن خذ قلمك وسر فى موكب التتويج جندياً يحمى أو شاعراً يغني! فانه موكب يسير فيه واحد وأربعون قرناً هى كل تاريخ الانسانية الذى وعته ذا كرتها .. وتحتشد فيه الدنيا لرجوع شباب «أمها» فى مَلِك نظيف المادة مكتمل، واسع الروح قِدّيس الحياة، قد صنعه الله على عينه، وآتاه البسطة فى العلم والجسم، واختار له ذلك الاسم الذى يومىء الزمن به إلى تاريخ وقف وتاريخ أقبل، وحاطه بحكماء أذكياء على علم تام بكمالات النفوس وواجبات الملوك، وعَبَّد له طريق الحكم وأزال منه الأشواك ورفعه على عرش لا تخفق فوقه راية أجنبية، وأعده ليكون ملكا بطلا ومربياً شعبياً وقائد جيل!

وهأنذا فى الموكب أهتف: —

أشهد أن لا إله إلا الله يا مليكي! فلا أعبدك ... ولا أنسى بك مَلِكَكَ وبارئك وإلهك ... كن فتنوا بعبادة الملوك فى الماضى، ومن لا تزال فى قلوبهم بقية من هذه الجاهلية فى الحاضر

ولكني أجد فى قلبي سطوة الحب لمعناك الذى أخرجه الله على قلوب الناس إخراجاً مفاجئاً فى ظرف غريب، كما يُخرجُ الفجرَ فتطرفُ له كل عين، ويتفتح له كل قلب، وتغتسل الأرض به من الظلام!

ولمعناك يا مولاى فى ذهني صورة تمتد امتداد النهار ... فتقع على الزنجى فى جنوب الوادى، وعلى الأسكندرى ومن بينهما

لحبك حب هؤلاء جميعاً ، لأنك المنى الندىُّ الذى يَنْضح الله به قلوبهم الجافة ، ويبثه فيها رحمةً مُهداة .

هى صورة مؤتلفة الأصباغ من ألوان بِرّك الذى واليته على أمتك تقول به لها : أنا لك !

ومن كمالِكَ الذى تستعلن به مصر فى كل مكان وطئته قدماك وتقول للناس : أنا هو !

ومن دينك الذى نقول له : يا سلاماً من رحمة الروح لنا . . وظلا ظليلا من سلطان الله فى أرضه علينا . . . وهدًى ضاحياً على أعلى منارة !

ومن شبابك الذى يقول به الزمان لمصر : تجددى تجددى يا أم أبى الهول ! تجددى فى آمال قلبك أيتها العجوز . . !

***

كلا ! ليس مصادفة ومحض اتفاق أن يضع أبوك العظيم اسمك الكريم على ذاتك المفداة . . . وإنما هو الإلهام والإرهاص الذى ترسله المقادير حين تريد أن تحدث انقلاباً تضطرب به أحشاء الزمن ، وأن تحجز بين تاريخين بحاجز من قَدَرها . . !

كلا ! ليس مصادفة واتفاقاً أن تخرجك المقادير على مسرحها هـذا الاخراج الفنى العجيب الذى استجمعت فيه كل براعتها وحسها وبلاغتها فى التكميل والتجميل : فأفرغت ذاتك فى نصاب الرجولة ووشتها بألوان الروض ... وقدست روحك بدين السماح وأضاءت عقلك بنور العلم . . . وزينت قلبك بمختار الأخلاق ومصطفاها ... وإنما يراد بك أن تكون صورة من صور الكمال الانساني يراها شبان هـذا الزمان فيسيرون إلى الكمال الأعلى وفيك لهم أسوة . . !

كلا ! ليس صـدفة أن يتكون قلبك فى عهـد ثورة الأمة وزلزلتها حين ذهبت تدق بيـدها المضرجة باب الحرية الحمراء ، تقرعه على مسمع « أسد » ظافر بما سلب ، تَيَّاه بما غلب ، بطاش بمن يجأر أو يهمس بالكلمة المقدسة : الحرية ! حتى ظفرت منه بما زلزلت الأرض له ... وإنما كان ذلك من الأقدار صبًا لقلبك الملكي في القالب الذى صبت فيـه قلوب شباب أمتك ليكون الاحساس الوطنى تحت ضغط الثورة ، على سواء فى الأعلى والأدنى . . . وذلك هو المقياس الصحيح لوحدة الأمة وعرشها . .

فليكن هذا كله فى موضع التأمل من عقول الشباب والأمل من صدورهم والعمل من أجسادهم ؛ فانها برسالة تطلب جنوداً ذوى أرواح من شعل ، وقلوب من جبل ، وأجسام من عمل !

ولتهنأ الأمة بملك يدرك الحرية ويعرفها معرفة الرأي الذى كان يدور فى عقله حينما يرى تلاحم الحجج بين حُماتها وغُزاتها . . ويعرفها فى قلبه معرفة الدم الذي كان يفور فيه حينما يسمع أن دما من دماء جنوده الشبان سفك على مذبحها . . .

وليهنأ الملك بالعرش الذى يقدمه إليه واحد وأربعون قرناً ... ويحمله أربعة من أبطال الدنيا : رمسيس وعمرو وصلاح الدين ومحمد علي . . . وتحوم حوله قلوب خمسة عشر مليوناً تصلي فى ملكوت السموات إلى مالك الملك أن يجعل عينه الراعية على الملك الشاب الالهى . . وأن يحدث به انقلاباً تحتاجه أوضاع الأرض !

« القاهرة » عبد المنعم محمد خلاف

تولية محمد على باشا الكبير

صفحة مصرية نبيلة

وضع الأستاذ المؤرخ القصصى الكبير محمد فريد أبو حديد قصة سينمائية عن قيام حكم محمد على باشا الكبير سماها « ابنة الملوك » وعهد إلى الأديب يوسف تادرس الناقد المسرحى بكتابة « السيناريو » وفى هذه المناسبة السعيدة ننشر من مناظرها هذا المنظر الذي يصور كيف نصب الشعب المصري محمد على باشا والياً عليه بحكم إرادته ومحض اختياره

المنظر : قاعة فى قصر محمد على باشا بالأزبكية . محمد على باشا فى ملابس الولاية واقف وأمامه أدهم أحد ضباط الأرنؤود .

أدهم : . . . وبعد قليل وصل السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي فلقيا عناء كبيراً في اختراق الكتل البشرية المجتمعة فى ساحة بيت القاضي والطرق المؤدية إليها فقد كان عددها يعدو الأربعين ألفاً .

محمد على : (فى دهشة) أربعون ألفاً ؟ !

أدهم : أجل يامولاي وقد بلغ بهم الحماس حداً لامثيل له . . . كانوا يضربون على الدفوف ويهتفون من أعماق قلوبهم : «عايزين الحاكم اللى نرضاه» «عايزين الباشا بتاعنا»

محمد على : (يبتسم) وبعد !

أدهم : صعد السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي والعلماء والأعيان إلى القاضى . . . حاولت الدخول فلم أستطع ولكنى علمت أن كلمة الجميع قد اتفقت على خلع خورشيد باشا لأنه ظالم مستبد .

محمد على : وهل انفض الاجتماع على هذه النتيجة ؟ !

أدهم : الاجتماع لم ينفض بعد . . . لقد غادرتهم مجتمعين وجئت مسرعاً لأتلقى تعليمات مولاي .

محمد علي : لابأس سيقفنا الشيخ عبد المنعم على مادار فى الاجتماع . . . قل لى يا أدهم ماذا يقول الناس عنى ؟

أدهم : إنهم فى حيرة ياسيدي . . . يقول البعض إنك ستسافر في الأسبوع القادم إلى جدة لتقوم بأعباء الولاية، ويقول آخرون إنك تخشى السفر ولن تبرح القاهرة

محمد على : (يبتسم ويهز رأسه)

أدهم : مولاي : أتسمح لى أن أسألك سؤالا ؟

محمد علي : سل يا أدهم .



أدهم : كيف قبلت منصباً كهذا ؟

محمد على : لا يرفض المرء ترقية مهما كانت . . . لقد كان هذا المنصب وسيلة إلى الرتبة التي ساوتنى بخورشيد . . . إنه اعتراف من الباب العالى بجدارتى لمنصب الولاية

أدهم : أتترك مصر إلى جدة ؟ ! تغادر هذه الجنة الزاهرة إلى تلك الصحراء القاحلة ! ؟

محمد على : ومن قال لك إنى راحل أيها النبي ؟

أدهم : مولاي . . . لقد أحس رجالك بحيلة خورشيد لاقصائك عن القاهرة فتوسلوا إليك أن ترفض السفر فأبيت . فهل لى أن أتساءل . . . ؟ !

محمد على : (مقاطعاً باشارة من يده) لاتتساءل . . . لنترك كل شيء إلى الظروف . وما قدر فسوف يكون

(يدخل سرور ويؤدى التحية)

سرور : سليمان أغا وضابطان يطلبون الاذن على مولاي

محمد على : (يبتسم) أدخلهم . وإذا جاء الشيخ عبد المنعم فأخبرنى

تواً . (يخرج سرور) إذهب الآن يا أدهم وتسقط الأخبار في القلعة فلعلك تحمل إلينا شيئاً جديداً .

(يخرج أدهم — يدخل سليمان أغا وضابطان من الأرنؤود ويؤدون التحية)

محمد علي : خيراً .

سليمان أغا : جئنا يامولاي لنعرف ما ذا استقر عليه رأيك .

محمد علي : لقد أعلنتكم برأيي وإني مصر عليه .

سليمان : مولاي ! ولكن مصلحة جنودك ورجالك لايمكن إغفالها .

محمد علي : تطلبون إلي أن أخالف أوامر الباب العالى ؟ ! إنكم تطلبون المستحيل . . . لقد قبلت المنصب والرتبة فلا بد أن أرحل إلى جدة .

سليمان : وكيف تتركنا ؟ ! ومن يهتم بنا إذا تخليت عنا ؟ . .

محمد علي : إن خورشيد باشا صاحب الأمر في البلاد وتستطيعون أن . . .

ضابط(١) : نحن لانقبل أن يتحكم خورشيد فينا .

ضابط(٢) : ألا من سبيل لتحقيق أمنية رجالك يامولاي ؟ !

محمد علي : لاأظن ، فانها تتعارض وأوامر الباب العالي .

سليمان : يؤلمني ياسيدي أن أصرح بأن رجالك قد قر رأيهم على أن يحولوا بينك وبين السفر .

محمد علي : أجاد أنت فيما تقول ؟ !

سليمان : أجل ياسيدي سنمنعك بكل الوسائل .

محمد علي : كيف ؟

ضابط ٢ : سنلجأ إلى القوة إذا أدى الأمر إليها .

محمد علي : وإذا صممت أنا على السفر ؟

ضابط ١ : تعرض نفسك للخطر .

محمد علي : إن ذلك تهديد !

سليمان : سيدى . . . إن خورشيد هو الذى سعى لابعادك ليتحكم فينا ويستبد بنا .

ضابط ٢ : إنه لا يريد بنا الشر فحسب ، بل بك أيضاً . . . إنك تدرك خديعته وتعرف أن فى سفرك الخطر كل الخطر ومع ذلك تصر على رأيك . . .

محمد علي : إذا نزلت على رغبتكم كنت فى نظر السلطان ثائراً وحق لخورشيد باشا أن يلقى القبض علي ويرسلني إلى الأستانة .

سليمان : لن يستطيع هذا . . . إننا قوة كبيرة فى البلاد . . . ثق يا سيدي أنه لن يصل اليك إلا على أجسادنا

محمد علي : (يبتسم ويقول ساخراً) وإذا بدأت الحرب وقفتم فى وجهى بين يوم وآخر وجعلتم تطالبوننى بالرواتب أليس كذلك ؟ ! لا . لا . . . لن أقبل .

سليمان : مولاى . . . إننا لا نفكر الآن فى الرواتب ؛ نحن ننظر إلى كياننا ، إلى الخطر الذى يهددنا . . سنكون طوع أمرك فهل تعطينا كلمة ؟ . .

محمد علي : لا أستطيع أن أفكر فى الأمر إلا إذا وثقت من شيئين : ألا يطالبنى الجنود بالرواتب الآن ، وألا يوقفونى مواقف حرجة فيما بعد .

سليمان : لك ذلك ياسيدى . لن تكون الرواتب مصدر قلق لك

محمد علي : (ساخراً) أحق هذا ؟ !

ضابط ١ : أجل يا سيدي ولنقسم بين يديك

(يدخل سرور ويؤدى التحية)

سرور : مولاى . . . الشيخ عبد المنعم .

محمد علي : (لسرور) ادخله حالا (لسليمان أغا) لا أستطيع أن أعطى كلمة الآن . . . وسأرسل إليكم كلمتى فى المساء ؛ وعليكم أن تكونوا على استعداد .

سليمان : حسن يا سيدى

(يؤدى الثلاثة التحية ويخرجون)

(يدخل الشيخ عبد المنعم مسرعاً)

عبد المنعم : مولاي . . . إنهم في أثرى إلى هنا .

محمد علي : من ؟

عبد المنعم : السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والأعيان وأولاد البلد .

محمد علي : وماذا حدث ؟ . . .

عبد المنعم : أوه ياسيدى . لقد كان يوماً عظيما . . . احتشدت الألوف . . .

محمد علي : (مقاطعاً) عفواً يا سى الشيخ أعرف كل هذا .

أريد أن تقص على مادار فى الاجتماع . أريد النتيجة فحسب .

عبد المنعم : وقف السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى ومن ورائهما العلماء والأعيان أمام منصة القاضي، وعرض السيد عمر مظالم الشعب فكان الجميع لساناً واحداً على خلعه

محمد على : وما السبب الذى بنى عليه قرار الخلع ؟ !

عبد المنعم : السبب أنه حاد عن سنن العدل وسار بالظلم فأصبح خارجاً على الشريعة .

محمد على : وبعد ؟

عبد المنعم : تحدث العلماء وأصحاب الرأي فى اختيار وال جديد واقترح السيد عمر مكرم اسم مولاى فقال الشيخ الشرقاوى : « إننا لا نستطيع أن نجد خيراً منه » وقال آخر : « إنه رجل ذكي محب للخير » وتبارى العلماء والتجار فى ذكر مناقب مولاى .

محمد على : ألم يعترض أحد ؟

عبد المنعم : لم يعترض أحد على شخصك يامولاي ولكن البعض رأى فى التعيين دون الرجوع إلى الباب العالى افتئاتاً على حقوقه

محمد على : وماذا قال السيد عمر ؟

عبد المنعم : ثار وصاح قائلا : « أي حقوق ؟ يجب أن يكون للشعب رأى فى اختيار حاكمه . . . كفانا مالقينا من حكامهم

محمد على : (يبتسم) ياله من رجل جريء ! — فما الذى كان ؟

عبد المنعم : نزل الجميع عند رأيه فى النهاية وقرروا أن يجيئوا إلى هنا ليعرضوا عليك الولاية

(تسمع ضجة وجلبة صادرة من بعد تقترب شيئاً فشيئاً)

عبد المنعم : أتسمع يامولاى ؟ . . إنهم قادمون

(يسير محمد علي إلى نافذة ويطل من خلف الستر وينصت قليلا ثم يلتفت إلى الشيخ عبد المنعم)

محمد علي : اذهب الآن . . . لا أحب أن يراك أحد هنا وتستطيع أن تدخل معهم

عبد المنعم : حسناً ياسيدى . . (يخرج)

(يعود محمد على ليطل من خلف الستر . ترتفع أصوات الشعب ويسمع هتافات مختلفة وضرب بالدفوف)

(يدخل سرور ويؤدى التحية)

سرور : السيد عمر مكرم والعلماء ياسيدى

محمد على : أدخلهم ياسرور

(يخرج سرور وبعد لحظة يفتح الباب على مصراعيه ويدخل السيد عمر مكرم ثم الشيخ الشرقاوى وكثير من العلماء والأعيان)

السيد عمر : السلام عليكم ياسيدى

محمد على : عليكم السلام ورحمة الله . . .

(يتقدم محمد على ويصافح الجميع)

محمد على : تفضلوا . . . (يشير إليهم بيده فيجلسون) خيراً ياسيد عمر ؟ لعل ما جئتم من أجله خير ؟

الشيخ الشرقاوي: إنه خير باذن الله ياسيدى

السيد عمر : سيدى . . . لقد خلعنا خورشيد باشا من الولاية على البلاد واخترناك والياً علينا وجئنا نعرض الأمر عليك

محمد على : أيسمح لى صديقى أن أوجه إليه سؤالاً ؟ !

السيد عمر : تفضل ياسيدى

محمد على : هل من سلطتكم أن تعزلوا الولاة وتقيموا غيرهم ؟

السيد عمر : أجل ياسيدى . . . « إن للشعوب طبقاً لما جرى به العرف قديماً ولما تقضى به أحكام الشريعة الاسلامية الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا ما انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة . . »

الشرقاوى : ولقد انحرف خورشيد عن العدل وسار بالظلم ، لذلك أجمعنا على عزله واختيارك مكانه فإننا نتوسم فيك العدالة وحب الخير وبعد النظر

محمد على : ولكن خورشيد باشا لن يقبل القرار

السيد عمر : سواء علينا قبوله أو رفضه . . . فإن إرادة الشعب فوق إرادته

محمد على : وإذا رفض النزول من القلعة ؟

السيد عمر : نرغمه بالقوة

محمد على : وإذا لم يرض الباب العالى أن يسلم لكم بحق اختيار الحاكم

السيد عمر : لا يهمنا سلم أم لم يسلم . . . يجب أن يخضع لرأى الشعب ويختار الحاكم الذى نرضاه

محمد على : ولـكن الأمر خطير ... فهل قدرتم مبلغ خطورته

السيد عمر : أجل يا سيدى ... الشعب يتمسك بحقه كاملاً ولن يقبل التفريط فيه وإن كلفه ذلك حياته

الشرقاوى : أجل . . . لن نقبل التفريط فى حقوقنا وفيما تفرضه الشريعة علينا

السيد عمر : البلاد مصرة على تنفيذ إرادتها ولو أدى الأمر إلى استعمال القوة

محمد على : أما من سبيل إلى الرجوع ؟ . .

السيد عمر : (مقاطعاً) عفواً يا سـيدى . . . لقد جرب الشعب المصرى فى السنين الماضية أكثر ما يجربه شعب من المظالم والمتاعب وقد صحت عزيمته على ألا يرضى بحاكم (يشير بيده إلى محمد على باشا) إلا الذي اختاره

العلماء : أجل . أجل . لا نرضى إلا به

السيد عمر : هل تقبل يا سيدى ثقة هـذا الشعب الذي أحبك واختارك دون غيرك والياً عليه ؟

محمد على : إننى عالم بمـا فى قبولى من خطورة ، عالم به تماماً ولـكننى أمام إجماع الشعب ونزولاً على رغبة ممثلي الأمة الـكريمة لا يسعنى إلا القبول

الشرقاوى : شكراً يا سيدي . . .

محمد على : وإننى أشعر بثقل الحمل الذى تريدون وضعه على عاتق

السيد عمر : نحن على يقين من أن الله سيعينك وأنت بلا شك عالم بما تمتلىء به قلوبنا من الآمال

محمد على : أسأل الله أن يوفقنى إلى تحقيقها بمؤازرتكم ومعونتكم

السيد عمر : سيطلع علينا عهـد جديد باذن الله تبطل فيه المظالم وتقام فيه الشرائع والأحكام

محمد علي : لن يبرم أمر إلا بمشورتكم ومعونتكم إن شاء الله

(يتناول السـيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى صرة من أحد العلماء ويخرجان منها ملابس تشريفه وهى عبارة عن جبة عليها كرك ويقفان ثم يتقدمان إلى محمد علي باشا الذي يقف فيلبسانه الجبة بين سرور العلماء)

السيد عمر : مولاى . . . لقد اختارك الشعب لأنه رأى الخير فى اختيارك ولن يرضى بديلا منك . نسأل الله تعالى أن يسدد خطاك ويديم الملك فيك وفى بيتك

العلماء : (يقفون ويرفعون أكفهم بالضراعة) آمين . . .

محمد علي : أشكرك ياصديقى وأشكر السادة العلماء وأصحاب الرأى فى البـلاد . . . إننى سعيد بثقة هـذه البـلاد العزيزة وأسأل الله أن يعيني على خدمتها ورفع لوائهـا حتى تعيد مجدها الغـابر وتصبح سيدة الأمم .

العلماء : (رافعين أكفهم بالضراعة) آمين .

(تسمع ضجة من الخارج عند باب القاعة ويرى حجاج الخضرى يحاول الدخول ولـكن الجنود يمنعونه ويمسكون به وسرور ينهره)

سرور : لا . لن تدخل .

حجاج : دعني . . . أريد أن أكلم الباشا .

محمد على : دعوه . . . دعه ياسرور

(يترك الجنود حجاجاً فيتقدم خطوة نحو الباشا)

حجاج : مولاى ... الشعب يريد أن يرى الوالى الذى اختاره

السيد عمر : أجل يا سيدى ... يحسن أن تطل عليهم من الشرفة

(يسير محمد على إلى الشرفة ويفتحها ويخرج ليطل منها وإلى جانبه السيـد عمر وخلفه الشرقاوى وعند ما يظهرون للجماهير ترتفع أصواتهم بالهتاف كالرعد)

أصوات : ينصر الله الوالى . ينصر الله مولانا السيد عمر . ينصر الله الباشا .

(ستار سريع)

عاش الملك

بقلم السيد زياده

أية قوة تنبعث فى نفسى الآن لأكتب ؟... ألا ما أشدها قوة نازية بالفرح أستغربها على نفسى أنا المخلوق لأحزن !! ولكنى إذ أنتشى وإذ يستطيع الفرح أن يستأثر بنفسى إنما أرانى فرداً ضئيلا من أمة فيه بعض ما فيها جماعات وأفراداً من صخب الفرح ، ولاء للعرش القائم على دعائم المجد ، وحفاوة بالملك القادم بين دعوات القلوب .

***

لقد دنت من الأفق شمس اليوم الضاحك الذى ينصرم فيه تاريخ مصر الممتحن ليبدأ به تاريخها السعيد ...

اليوم الذى نظر إليه الشعب من بعيد كأول أيامه الخالدة ، وميلاد حياته الزاهرة ، وفاتحة عهده الجديد ...

اليوم الذى تنتظره الأمة انتظار المحب الولهان ليوم اللقاء الموعود .

اليوم الذى تتقدمه الحياة منذ شهور ببشائر الخير ، وتحفه بدلائل النعيم ، وتزفه بآيات الفرح ...

اليوم الذى يجلس فيه مليكنا الدستورى على عرشه المؤيد ليملك زمام شعبه المخلص له ...

دنا اليوم الذى يتحقق به حلم الشباب فى قلب مصر
وافتر ثغر الحياة عن بسمة الزمن
وتهاتفت القلوب من أعماقها بالولاء للملك
ورقص غصن النيل المديد المياس بحواشيه وأعطافه
ونادى المنادى بأن فاروق الحبيب مقبل بعد غيبة ليتلق بكاهل الشباب أعباء الملك فهب الجميع يهتفون : عاش الملك . عاش الملك

***

مرحباً يا مرمق أبصار الأمة ، ومبسم ثغر النيل ، وحبة قلب الكنانة ، وعنوان فخر الشباب ...

مرحباً يا باعث المجد من مرقده ، وناشر العز بعد انطوائه ، ومطلق الشعب فى هنائه ...

مرحباً يا حجة الزهو حين تزهو ، وقوة الأرواح حين تصبو ونور النفوس حين تسمو ، وحياة العزائم حين تتحد ...

مرحباً يا قائد الأمة الحية ، ومعجب ملوك العالم ، وحامل لواء السلام ...

***

أيها القادم من حيث فتن الغرب بجلاله ، ليفتن الشرق بأعماله : هذه أرواحنا تناديك ظامئة إليك ، تستقبل من صفو وجهك الرِّيَّ والحياة

أيها المتهلل بطلعة القمر من أبهة الملك فوق عرش الأفئدة .. هذه قلوبنا تحييك مصفقة لك خافقة بك تقتبس من حبك المرسل فى نواحيها النور والأمل . . .

أيها المشرف على واديه السعيد به إشراف العاطف الكريم الحنون . . . هذه عيوننا تتطلع إليك مرقرقة فيها دموع الفرح متسامية إليك منها نظرات الحنين ، تطالع فى ركابك العالى بهجة العيد الدستورى المخلد . . .

***

يا أيها المليكُ المَلَكُ . . . إن لك فى كل موضع من كل قلب صورةً تقدَّس واسماً يُرَدَّد .

يا أيها العاهل العظيم ، أقبل على وادى النيل الشاعر بأنك رمز آماله . . . إن لك فيه تاجاً سنياً عَقَدَت نسجه العتيدَ مئاتُ السنين بيد الخلود ، وعرشاً جليلاً هيأتْ مجلسه الوطيدُ قلوبُ الشعب بأعظم الولاء ... فما خلقت هامتك الشريفة إلا لتحمل أعرق تيجان الملوك ، وما خلق مقامك السنيُّ إلا ليتبوأ أسنى عروش الدول .

***

يافاروق ! لقد أشرق فى بدء عهدك تاريخ الفاروق ، ومضيت على سَنن أبيك لتتمَّ نهجَه ، واتبعت فى علاك مناهج الرسل ؛ فما أسعد المُلكَ الأشمَّ بك ، وما أكبر المثل الأعلى للملوك فيك !!.

ليست عابثةً هذه الأمة التى تعد نفسها لتحييك بتحية فاقت كل تحايا الأمم للملوك بروحها الدفاقة الزاخرة التى هى روح الحب فى إيمان القلوب تحت إلهام الله . . . هذه الحماسة المتَّقدة فى قلوب شعبك ما هى إلا تعلقه بك ، وهذا البشر الشامل كل بقعة من وادى النيل ما هو إلا ولاؤه لك . . .

إن لنا من عبقرية شبابك آمالا شابة ناضرة ستحققها الأيام بيدك .

فامض بالأمة فيما شئت من سبل المجد ، وضع مصر من حيث أردت لها من صفوف الدول الماجدة ، وابسط علينا من ظلالك حياة العز والرَّغد ... وعش لنا يافاروق ...

السيد زيادة

إلى سدة المليك الشاب

شعب يبايع

للأستاذ محمد غنيم

النيلُ(1) تحملُ سِبطَ إسماعيلا — أرأيتَ نيلاً جاء يحملُ نيلا
لو كانتِ الأملاكُ تحدو مَركباً — لرأيتَ بينَ حُداتِها جبريلا
سارتْ فغضَّ البحرُ من غلوائه — ومشى كما تمشي الجيادُ ذَلولا
هبَّتْ عواصفه فكُنَّ حِيالَها — رَهواً كما هَبَّ النسيمُ عليلا
مالا طمَتْ أمواجه جنباتِها — بل أوسعتْ جنباتِها تقبيلا
لو أنَّ زاحفةً تفوهُ لكبَّرتْ — نينانُهُ ولهلَّلتْ تهليلا
يا بحرُ فوقك دُرَّةٌ هيهات أنْ — تلقى لها فيما حويتَ مثيلا
أوَلستَ تعرفُ فيه مَن أجدادُه — قطعوك عرضاً بالسفين وطولا؟
فلطالما ملأوا المياه مراكباً — ولطالما ملأوا السهولَ خيولا
عرفتهمُ الأيامُ إنْ هُمْ حاربوا — أُسْداً وإنْ حكموا الأنامَ عدولا

***

أشرقْ بنورك في البلاد فإنما — صبرُ البلاد على فراقك عِيلا
الشعبُ يا فاروقُ صادٍ . نيلُهُ — مِن يوم بُعدِك لا يَبُلُّ غليلا
ما كان يُسعدُه التجلُّدُ ساعةً — لو لم يكنْ بك قلبُه مأهولا
ماغبتَ عن بصرِ البلاد وسمعِها — يوماً ولا بعدَتْ ركابُك ميلا
كانت تُطالع ماتقول فتنتشي — طرباً . وإنَّ من المقال شَمولا
وترى على القرطاس رسمَك زاهياً — غضًّا فيُصبحُ طرفُها مكحولا
قد كنتَ أنت حديثَها وسكوتَها — حتى غدا بك وقتُها مشغولا
زُرتَ الممالكَ داعياً فكشفتَ عن — مصرَ الفتاةِ حجابَها المسدولا
أنعِم بشعبٍ أنتَ عنوانٌ لهُ — وكفى بعنوان الكتابِ دليلا
تمشي الممالكُ في ركابك أينما — تمشي وتحني هامَها تبجيلا
سَمِعوا بمجد الأقدمين وأبصروا — بعيونِهم للأقدمين سَليلا
كي يعلموا أنَّ الكنانةَ أمَّةٌ — طابت فروعاً في الورى وأصولا
إنَّا لفي زمنٍ يفيض دِعايةً — كادت تدقُّ به الشعوبُ طبولا
هم يعلنون عن الشعوب كأنها — سِلَعٌ ونرضى بالسكوت خمولا
مَنْ راح ينشرُ للبلاد دِعايةً — فكأنه يبني لها أسطولا

***

وليَ الأمورَ بمصرَ أصيدُ يافعٌ — بزَّ الأوائلَ فتيةً وكهولا
جاشتْ بصدري يومَ قُلِّدَ عرشَهُ — ذكرى فراعنةِ القرونِ الأولى
ما أبهجَ الإكليلَ فوق جبينهِ — هذا الجبينُ يزيِّنُ الإكليلا
هذا هو الفاروقُ أشرقَ وجهُهُ — فسلِ الغزالةَ هل تريدُ أفولا ؟
أفديه من مَلِكٍ أغرَّ وراءه — شعبٌ يرتِّلُ حمدَه ترتيلا
يعنو لطلعته ويهتف باسمه — ويكادُ يتلو قولَهُ إنجيلا
مَلِكٌ تواضعُه يزيدُ جلالَهُ — ليس الغشومُ المستبدُّ جليلا
يُنسيك من فرط التواضع تاجَهُ — فتكادُ تحسبُهُ أخاً وزميلا
يرنو إليه الطرفُ غيرَ مُنكَّسٍ — والبدرُ يظهرُ من سَناه خجولا
يقضي لُبانتَهُ الغنيُّ ببابه — ويرى الفقيرُ دعاءَهُ مقبولا
لبقُ الحديث كأنما هو مُلهَمٌ — قد أدركَ المعقولَ والمنقولا
لا تُحصِ أعمارَ الملوك فإنني — أجدُ الملوكَ مداركاً وعقولا
ماقلتُ : قد بلغ الرشادَ بسِنِّه — فعليه كان بطبعه مجبولا
إنَّا عهدنا الرُّشدَ فيه سجيَّةً — ما كان في يومٍ عليه دخيلا
ماضرَّ غرساً طاب قبلَ أوانِهِ — أنْ كان حرًّا في النبات أصيلا
قد كان ذو القرنين مثلك يافعاً — وأرى كما تتشابهان ميولا
هيهاتَ أنتَ أجلُّ منه حضارةً — وأعزُّ أوطاناً وأكرمُ جيلا

***

(1) النيل باخرة مصرية من بواخر شركة مصر للملاحة

فاروقُ تلك عِناية الله التى   قد حقَّقتْ فى عهدِك المأمولا
إن الكنانةَ ظنَّت استقلالَها   حُلماً فكنتَ لحُلْمها تأويلا
وهى المشاكلُ كلُّها وجدتْ لها   فى عهدِك الزاهى السَّعيد حُلولا
عهدٌ قصيرٌ غيرَ أنَّ غضونَه   فى جَبْهَةِ التاريخِ صِرْن حُجُولا
لوحاكتِ التيجانَ تاجَك لم يجدْ   يوماً إليها الثائرون سَبيلا
ليتَ الذين وَلُوا العُروشَ جميعَهم   كانوا على حُكم الشعوب نزولا
أسِّس على الدُّستور مُلكَك وابْنِه   تبلُغْ به الشمَّ الرَّواسيَ طولا
كم ثلَّ الاستبدادُ عرشاً بعدما   أجرى حواليه الدماءَ سُيُولا
مَنْ لم يعزِّزْ تاجَه وسريره   باللهِ والدستور كان ذليلا

***

إنَّ الكنانةَ بايعتْكَ فكُنْ لها   ظِلًّا كما كان الجدودُ ظليلا
وَهَبتْ لعرشِك مالَها ودماءَها   إنْ شئتَ تلْقَ كليهما مَبذولا
فامْلأْ بلادَك حكمةً ومعارفاً   واجعلْ بلادَك فى المناعة غِيلا
لن يستقيمَ لشعبٍ استقلالُه   يوماً إذا حمَلَ السِّلاحَ كليلا
أين المدافعُ كالرُّعود دويُّها   والخيلُ تصهلُ بالجنود صهيلا
يارُبَّ طائرةٍ سمعتُ أزيزَها   فحسبته فى مسمَعَيَّ هديلا
فانهض بمصرَ وجيشِها حتى يرى   شَبَحُ المنيةِ طيفَها فيميلا
واكبحْ جِماحَ الطامعين وقُلْ لهم   لا تطمعُوا فى أُخت عِزْرائيلا
وهُنا تُعادي مَنْ تشاءُ عِداءَهُ   مصرٌ وتأخُذُ من تشاءُ خليلا

***

فاروقُ يَفديك الحمى بهلاله   وصليبه . وأرى الفداءَ جليلا
أصبحتَ فى مرح الشَّبابِ ولهوِه   عن خيرِ شعبٍ فى الورى مسؤولا
حَمَلَ الشبابُ يَراعَهُ وكتابَه   وحملتَ عِبئاً كالجبالِ ثقيلا
أوْلتكَ مصرُ قيادَها فأعدْ لها   مجداً بناهُ الأقدمون أثيلا
وسُسِ الأمورَ إذا جمحْنَ بمُصطفى   تَلْقَ الحُزونَ إذا مشيتَ سُهولا
هو صارمٌ ماضِي الغِرار أليلُه   فاحمِلْه عضْباً فى يديك صَقيلا
قد أفرغتْ مصرٌ كنانتَها فما   رضيت به بين السِّهام بَديلا
وإذا تحوّلتِ الجبالُ فمُصطفى   عن حقِّه لايَقبَلُ التحويلا

***

يامصطفى لهِجتْ بذكرك أمةٌ   أبناؤها لا يجحدون جميلا
ولقد تولّيتَ الأمورَ فلم تكنْ   سيفاً على رأس الحمى مَسْلولا
لا تثنينَّك عن طريقك عُصْبةٌ   ملأت حناجرُها البلادَ عويلا
إنَّا بلوناهم فكانَ فعالُهم   مُرًّا وكان كلامُهم معسولا
فلينصبوا فى غير مصرَ شِباكَهم   حَسْبُ البلادِ وحَسْبُهم تدجيلا
سِرْ فى طريقك . لا تُعِرْهُم مَسمعاً   واعلمْ بأنَّ من الكلام فضُولا
أنَّى اتجهتَ وجدتَ خلفَك أمةً   ورأيتَ ربَّك بالنجاح كفيلا

« كوم حماده »   **محمود غنيم**

تتويج رعمسيس الثانى

فرعون مصر الشاب

للأستاذ عبد الرحمن صدقى

كانت وفاة الملك سيتى الأول والد رعمسيس فجيعة للبلاد جزعت لها ولبست من أدناها لأقصاها ثياب الحداد . وقد قضى نحبه فى عنفوان العمر واكتمال الرجولة بعد حكم مجيد زاهر . فامتد سلطانه واتسعت رقعة ملكه شمالا حتى دانت له الشام كلها ، وبلغ حدود الحثيين فى آسيا الصغرى وممالك بابل وآشور إلى أعالى الفرات ، واستتب له الأمر جنوباً فى النوبة ، وضرب على أيدى قبائل البدو فى الصحراء الغربية فكف عن الوادى الخصيب غاراتهم المتكررة . ثم جعل همه إلى صلاح البلاد وعمرانها ؛ وأمامنا حتى اليوم على علو همته شهود ناهضة ناطقة ، منها ضريحه الرائع ومعبد العرابة وبهو الكرنك الشاهق مرفوع السمك على عُمُده الفخمة وقد ازدانت جوانبها بتهاويل منقوشة تمثل انتصاراته وتروى وقائعه تخليداً لعظمته ومجده .

ولكن كان العزاء عن فقده ما يبدو من المخايل على ولده وإن كان بعد في سن الحلم .

فانظر إلى المليك الشاب من ذا الذى لا يعنو لفتنة طلعته : فانه ليروعك أول ما يروعك — بالقامة الفارعة وجمال الوجه واستواء الخلق ، وهو ممشوق لطيف الأوصال لدن الأعطاف حلو الشمائل ، ومع ما يلحظه المتأمل فى ملامحه من القوة والتفاوت كضيق الجبين وقنى الأنف ومتانة الفك وشدة الذقن فان هذه جميعاً تكسوها سماحة ودماثة . كما أنه ليس من ذوى الطبائع الحزينة المسترسلة فى سبحات التفكير الهائمة فى أودية الأحلام ، وإن كانت له سيماؤها لفرط ما صقلته التربية وهذبت حواشيه ، وإنما طبعه الغالب هو الأقدام والعزيمة يعمران هذا الجسد الذى ارتاض على المشقة والجهد من سباق العجلات إلى الرماية والصيد فضلا عن المعارك الحربية ، فتوفرت له منها مزايا سرعة الحركة ورباطة الجأش والاستخفاف بالخطر . وشد ما كانت تستجيشه أوصاف الشعراء لوقائع أسلافه . ثم هو يحس منذ نعومة أظفاره بأنه مولود للرياسة والملك . وكان يطيب له أن يستذكر المراسم التى هيأته لوراثة السلطان ، فيذكر شعائر التطهير وكيف ضمه والده إلى صدره على مشهد من كبراء الدولة ورجال القصر لتسرى إليه نفحات الحياة ، ثم نادى به ملكا من بعده فى وسط الهتاف المتصاعد والمديح المرتل .



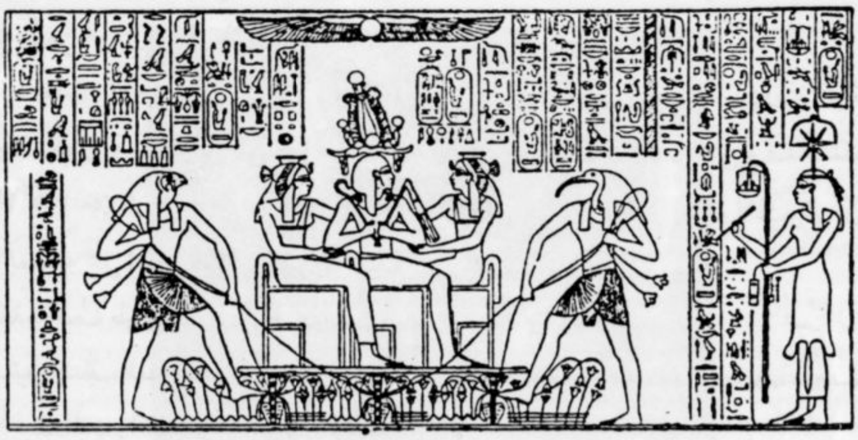
تمثال رعمسيس الثانى فرعون مصر الشاب
(محفوظ بمتحف تورين بايطاليا)

ولقد كانت التقاليد الدينية والسياسية حافزاً للفراعنة على رعاية مملكتهم بهمة وصدق ، فهم على العرش خلفاء الآلهة ، وهم مسئولون عما يفعلون بين يدى أوزيريس فى يوم الحساب . فلا جرم يكونون فى مقدمة خدام الدولة الساهرين على تدبير شئون مصر وممتلكاتها وتفقد أحوالها . وإن رمسيس لم يكد يشب عن طوقه ، ويتجاوز طور الطفولة حتى تولاه أبوه يدربه ويخرجه على يديه . فصحب الابن أباه فى حرب الشام ، وكان يعاونه فى الحفلات الدينية ويطلع على كافة شئون الملك وتدبير إدارته . فهو لما توكله إليه الآلهة اليوم من واجبات وتبعات غير هياب .

ولقد انقطع بين عشية وضحاها عهده بالصبا الغرير حين اجتز حلاق القصر طرته المتهدلة على صدغه الأيمن شارة عليه . وعما قريب تضاف إلى قدرته الانسانية على عظمتها قوى الهيبة تنتقل إليه مع شعائر الملك . وهذى رعاياه كبيرة الأمل كشأنها فى مستهل كل عهد بأنه وإن كان الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل .

ولقد جرت العادة منذ ألفى سنة بأن تجرى مراسم التتويج فى منف عاصمة الوجه البحرى بمقتضى احتفال مقرر منذ أقدم عصور المملكة المصرية المتحدة . ولكن فراعنة الدولة الحديثة قد آثروا أن يكون تتويجهم فى طيبة عاصمة الصعيد وهو منشؤهم ومنبت أعراقهم تحت رعاية الاله آمون . فلما جاء رعمسيس عاود السنة القديمة لأن أسرته من الدلتا ولأنه فوق ذلك موقن بأن الوجه البحرى يرتفع كل يوم شأنه ويعظم خطره من الناحيتين الحربية والاقتصادية .

وهكذا استهلت أعياد تتويج رعمسيس فى منف بعد الفيضان . ومنف مدينة عريقة في القدم واقعة فيما يلي ملتقى فرعى الدلتا وهى عامرة بالأهلين تطوقها خمائل النخيل الباسقة ، وتقوم فى أفقها الغربى مثلثات الاهرام ، وتسطع شمسها المتجددة على الحقول فتشيع فى فلاحيها النشاط والطرب كما تهب من ناحية بحر الروم نفحة باردة تنعش الأبدان .



حفلة التتويج عند الفراعنة (من آثار العرابة)

ولما كان المصريون الأقدمون يؤمنون بأن الاسم — سيان المنطوق والمكتوب — يقوم مقام المسمى وله قوة رهيبة تخلق الأحياء والأشياء ، فقد عكف الكهان على اختيار الأسماء الملكية الأربعة ليكمل بها اسم الملك . وتم بسرها لرعمسيس سلطة الملوك وجبروت الأرباب .

ثم تعاقبت المراسم تنقل للملك الجديد القوى السحرية المقترنة بتاجى مصر . فترى الملك بعد التطهر يتلقى على هذه المنصة التاج الأبيض شعار الوجه القبلى ، وعلى منصة أخرى التاج الأحمر شعار الوجه البحرى ، ويسمون هاتين الحفلتين إشراق ملك الجنوب وإشراق ملك الشمال . ويقوم بالتتويج كاهنان مقنعان يمثل أحدهما الاله حوريس فى صورة صقر، والآخر الاله ست فى صورة سلوقى . ثم يتوج الملك بالتاج التوأم للوجهين القبلي والبحرى معاً ، ويجلس على العرش وعلى جانبيه إله الجنوب وإله الشمال وقد وضع الكاهنان إلى دعامة العرش أزهار اللوتس وهو نبات جنوبى ، والبردى وهو نبات شمالى ، وربطا النباتين بعضهما إلى البعض بأربطة متقاطعة . وهما مع هذا لا ينفكان يشدان فضول الأربطة بيديهما ويسندان برجليهما عراها حرصاً على توثيقها ؛ وأخيراً ينهض الملك والتاج على رأسه وهو متشح بالطيلسان وفى يديه المحجن المعقوف وسوط أوزيريس ويؤدى فريضة « الطواف بالحائط » حول المحراب إشارة إلي أنه يتسلم ملك حوريس وست ويتكفل بصيانته ودفع العدوان عنه .

ولم يبق بعد ذلك إلا اتخاذ الضمانات الرسمية . فان الآلهة تتخذ سجلات مستوفاة تحصى فيها كل شئ تجنباً للملاحاة والخلاف . وهذان كاهنان يمثل أحدهما إله العلم تحوت ، ويمثل الآخر إله الكتابة سخت ، يحرران الصكوك بالصيغة الملكية ويودعانها ديوان السماء . وأخيراً يدونان اسم رعمسيس على ورقة من نبات السبط المقدس تخليداً لحكمه .

ولقد كان لتراتيل الكهنة فى وسط السكون الرهيب فعل الرقى والتعازيم السحرية فى نفس رعمسيس ، فضلا عما كانت مصحوبة به من الحركات الموزونة والوقفات النبيلة والاشارات الملتوية فى ترسل ويسر . فامتلأ يقيناً بالرسالة الموكولة إليه وبقدرته على تأديتها وبأن التوفيق ملازمه طيلة حياته . ونهض بعد انتهاء المراسم وقد سرت فى اعطافه النفحة الالهية .

وحكم رعمسيس فرعوناً على مصر .

وقد ذهب بعدها إلى طيبة حيث جرى شبه تتويج ثان له ، وكان ثمة عيد الاله « مين » فى آخر مارس عقب موسم الحصاد . وعبادة « مين »لها شأنها الأكبر فى بلاد مصر الزراعية . فهو إله الخصب وحامي الحقول والبساتين ، وهو يقرن أحياناً بآمون إله طيبة الأعظم ورب الأرباب والبشر وأب الفراعنة . وفى هذا العيد قدم الملك إلى « آمون — مين » قربانا من الحصاد فى ذلك الأوان

وقد غادر رعمسيس قصره فى طيبة كما تطلع الشمس باهرة اللألاء من مشرقها ، وشخص إلى هيكل «مين» فى محفته الفاخرة يحملها ويحمل المراوح إلى جانبيها عظماء الدولة ، ويتقدم المحفة الملكية كاهنان يمسكان مجامر البخور ، وكاهن آخر يرتل الأناشيد وهو ممسك بيده قرطاساً من البردى . وفى طليعة الموكب تعزف الطبول والأبواق عزفها الهاتف الآمر ، ويسير وراءه فى نظام جليل رائع أكابر رجال القصر تتبعهم فيالق من جنود الحرس البواسل . ولكن الاله « مين » يخرج من محرابه محمولاً على أكتاف ثلاثين كاهناً يصحبه عجل أبيض باعتباره الصورة الحية التى يتجسد فيها ، ويتقدمه صف طويل من الكهنة يحملون الشارات الدينية وتماثيل السلف الصالح من الفراعنة الراحلين ، ويتقدمون إلى المذبح حيث الملك واقف . وهنا يتعرف الاله مين على ابنه فيدخله فى عداد الأرباب كسائر أسلافه . وإنه لحدث عظيم . وإذ ذاك يطلقون طير الأوز فى جهات الأفق الأربع لاذاعة البشرى فى أركان المعمورة كما فعل الآله حوريس نفسه عند تتويجه . ويجرى الاحتفال ويتم فى وقار ودقة على حسب الأصول المرعية . وفى النهاية يقدم الملك القرابين لتماثيل أسلافه ويقتطع بمنجل قصير جرزة مصطنعة فيقدمها للآلهة باعتبارها باكورة الحصاد فى عهده

ويعود فرعون إلى القصر ، فيقبل عليه رجال البلاط ووزيره باسار وجميع الموظفين يحيون مليكهم وينشدون فى مديحه :—

أقبل عليّ بوجهك أيها الشمس المشرقة
يا من تضئ القطرين بسنا جمالك
أنت شمس الورى
تنفى عن مصر الظلمات
ولك طلعة أبيك رع
الصاعد فى معارج السماء
وإليك يوحى بكل ما يجرى فى بلدان الأرض
وأنت راقد فى قصرك
وإنك لتسمع ما يدور فى الخافقين من أحاديث
لأن لك الألوف من الأسماع
وعينك أنفذ من نجوم السماء
وتبصر مالا تبصره الشمس
وكل ما يقال ولو كان همساً ونجوى
يقع لا محالة في سمعك .
وكل ما يفعله امرؤ في الخفاء
فان عينك تراه .
يا رعمسيس يا رب الجمال ورب الحياة !

وكذا كانت أعياد التتويج عند قدماء المصريين تمتزج فيها عبادة فرعون بعبادة الآلهة لاعتبارهم أن الملك العظيم هو حمى الدولة وحمى الدين .

عبد الرحمن صدقي

ابراهيم باشا

موقعة نصيبين (*)

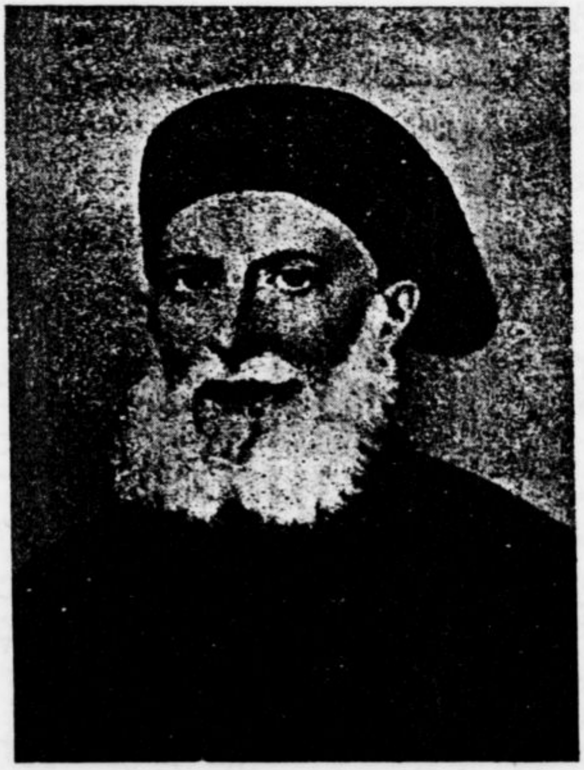
فى أواخر هذا الشهر يخرج الأستاذ محمد بدران ناظر مدرسة بنبا قادن الابتدائية ترجمة عربية لكتاب « إبراهيم » تأليف القاضى بير كربتيس بتصريح خاص من شركة روتلدج الانجليزية ، والكتاب مثال من الدقة والأمانة فى الترجمة . وإليك فصلا من فصوله ننشره بمناسبة تتويج الفاروق أعز الله ملكه .

لما علم محمد على بأن الجيش التركى يستعد للزحف على بلاد الشام ويحرض أهلها على الثورة أمر وزير حربيته أن يلحق بإبراهيم رغم معارضة قناصل الدول وأسرع وزير الحربية إلى مقر القيادة العليا لجيش إبراهيم . وكان الطريق أمامه طويلاً ، ولا يستطيع هو السير فيه مسرعاً كما يسير الرسول . ولذلك سبقه مبعوث خاص يحمل إلى إبراهيم أوامر أبيه . ولم نستطع الاطلاع على نص هذه الأوامر ، ولكن فى مقدورنا أن نتكهن بمعناها لأن إبراهيم قد خول منذ يونيه سنة ١٨٣٩ الحق المطلق فى أن يفعل كل ما يراه صالحاً ، فيبدأ الحرب أو يحافظ على السلم حسبما تمليه عليه الظروف [١]

ولما ترك محمد على لإبراهيم أن يتصرف فى الأمر بحكمته وحسن تدبيره ، كان يعرف أنه لن يهاجم العدو إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطرارا ، على الرغم من أن تركيا ومصر كانتا فى حالة حرب فعلية فى البر والبحر منذ شهر مارس من عام ١٨٣٩ ، كما أنبأ القنصل الاغريقي العام بالقاهرة حكومته فى ٢٦ من ذلك الشهر [١] . ولطالما استفز الأتراك إبراهيم بموقفهم العدائى ؛ ولولا قدرته على كبح جماح نفسه لتكشف ستار السلم عن حقيقة الحرب العلنية .

وقد كتب فى ذلك القنصل اليونانى العام فى الإسكندرية إلى وزارة خارجيته بتاريخ ١٨ يونية يقول :

« تدل الأنباء الواردة من المنطقة التى يعسكر فيها الجيشان فى الوقت الحاضر على أن جيوش السلطان تواصل الزحف ، وتشجع أهل البلاد على الثورة بتقديم الأسلحة وبذل الوعود لهم . وقد تقدم (سليمان باشا والى مرعش) فى جيش مكون من نحو ثمانمائة فارس ، حتى بلغ عينتاب واستولى على المدينة ، وإن كانت قلعتها لاتزال فى أيدى المصريين . ويقال إن حافظاً باشا القائد العام للجيوش التركية كان مع هذه القوة ، ولكنه تخلف عنها قبل أن تصل إلى عينتاب . ورأى جنود السلطان سكوت الجيش المصرى وامتناعه عن القتال إطاعة للأوامر الصادرة من الوالى إلى إبراهيم باشا ، بعد أن هددته الدول الأوربية وأنذرته ألا يكون البادىء بفتح باب العدوان ، فاغتنموا هذه السانحة وتوغلوا فى البلاد من غير أن يلاقوا مقاومة ، اللهم إلا مناوشة بين الفرسان السالفى الذكر وكتيبة صغيرة من البدو » [٢] .



وقد أفصح هذا القنصل العام نفسه فى رسالة سابقة بعث بها إلى حكومته عن حقيقة تهديد الدول الأوربية . وقبل أن ننقل إلى القارىء شيئاً من هذه الرسالة نقول إن ميخائيل توسزا Michael Tossizza الذى بعث بهذه المعلومات إلى أثينا ، لم

(*) تقع قرية نصيبين على الطريق الواصل بين بيرة جك والاسكندرونة وهى غير نصيبين التى بالجزيرة ، ويسميها الافرنج والترك نزيب (المعرب)

(١) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ٦٣

(١) المصدر عينه ص ٥٨

(٢) المصدر عينه ص ٦٣

يكن من رجال الدبلوماسية الرسميين ، ولا من رجال البحرية ، بل كان تاجرا استوطن الإسكندرية قبل أن تستقل بلاد اليونان ، وكسب صداقة محمد على . واحتفظ بهذه الصداقة . فما أنشأت بلاد اليونان أول قنصلياتها فى القطر المصرى فى عام ١٨٣٣ ، عهدت بأمور القنصلية إليه . ولم يكن يرسل فى أول الأمر تقارير منتظمة إلى وزارة خارجيته ، كما أنه لم يبدأ الاشتغال بالمسائل السياسية إلا فى سنة ١٨٣٨ (١) . ولم يكتسب قط فى حياته ذلك الأسلوب الخاص الذى تكتب به المراسيم والوثائق السياسية ، بل كانت معانيه على الدوام واضحة كل الوضوح . ويمتاز ما كتبه توسزا بميزة أخرى غاية فى الأهمية ، وهى ناشئة من الصداقة الوثيقة التى كانت بينه وبين محمد على . وقد كتب هذا القنصل إلى وزارة خارجيته فى ٢٣ يوليه سنة ١٨٣٨ يقول :

« لقد أبلغ المستر كامبل وكيل إنجلترا السياسى الوالى بصفة رسمية أن بريطانيا العظمى تعارض أشد المعارضة فيما يطلبه من الاستقلال ، وتصر على أن يبقى كما هو ؛ وإلا فإن الدول الأربع: إنجلترا وفرنسا والروسيا والنمسا ستعمل مجتمعة لمنعه من نيل استقلاله ، ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة . وهذه الدول متفقة على ذلك ، وقد قررت أن تزيد قوة الأسطولين البريطانى والفرنسى فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن ترسل الجنود النمساوية إلى بلاد الشام إذا استلزم الموقف ذلك . ويلوح أن سمو الوالى سيجيب بأنه إذا عجز عن نيل رغباته بالرضا والمسالمة ، فستلجئه الضرورة إلى أن يعمل لنيلها بوسائل أخرى ؛ ومهما كانت العاقبة فسيكون من أكبر دواعى الشرف له أن تهزمه الدول الأربع الكبرى »(٢)

وكتب توسزا رسالة أخرى فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٣٨ يضم فيها بروسيا إلى جماعة الدول المتفقة . ولهذا الأمر أهميته ، لأننا عرفنا من قبل أن هلمث ڤون ملتكه كان وقتئذ مع الجيش العثمانى الذى كان يعمل بكل ما فى وسعه ليستثير غيظ إبراهيم . وليس يخفى علينا أن ملتكه كان فى ذلك الوقت رجلا لا خطر له ، ولا يكاد يعرفه أحد ؛ ولكن انضمام النمسا والروسيا وبروسيا كان مقدمة لحلف القياصرة الثلاثة الذى تم فيما بعد ، ومضاعفاً للخطر الذى كان يتعرض له جيش إبراهيم . وقد أبلغ قناصل هذه الدول الثلاث محمداً علياً أن دولهم لا تسمح بأن يطرأ على العلاقة القائمة بينه وبين الباب العالى تغيير ما ، وأنه إذا أقدم على عمل أيا كان نوعه فستنضم هذه الدول إلى تركيا لقتاله والتغلب عليه ؛ فأجابهم الباشا عن ذلك بقوله :

« إننى لا أرغب فى الحرب ، ولن أقدم على عمل عدائى ، ولكننى راغب فى الاستقلال ، ولن أتخلى عن هذه الغاية »(١)

على أن هذا التحذير كان له أثره فى نفس محمد على ؛ ورأى أن خير وسيلة لتجنب هذه الأحاديث البغيضة المنذرة بأسوإ العواقب ، أن يرحل إلى الجنوب . وكانت الإشاعات متواترة بأن مناجم من الذهب صالحة للاستغلال قد كشفت فى السودان . ورأى الباشا من مصلحته أن يتحقق من هذه الأنباء الهامة بنفسه ، حتى إذا ما اضطر إبراهيم إلى الزحف على الأتراك ، حلت بهذا الكشف مشكلة من أهم المشاكل . وزيادة على ذلك فإن غيابه يهيىء الظروف للمسألة التركية كلها أن تستقر على قرار ثابت مكين . لكن هذا الغياب المؤقت لم يكن ليفت فى عضد الزمرة الدبلوماسية المتحدة التى ظلت تعارض محمداً علياً بعد رجوعه فى ١٥ مارس سنة ١٨٣٩

ولا شك فى أن إبراهيم كان يعرف كل هذه الحقائق ويعرف أيضاً كيف يتمظ بعبرها ؛ لأن أباه كان دائم الاتصال به لا يقطع عنه أخباره ؛ وكانت معرفته بها وتقديره خطر الموقف الذى كان يواجهه سبباً فى أنه لم يحرك ساكناً حينما استثار الأتراك غيظه ؛ وذلك لأنه أيقن أن الأتراك يلقون معونة أوربا السياسية ؛ وعرف الباب العالى ذلك فوقف من المصريين هذا الموقف المغضب . وكان ڤون ملتكه وڤون ملباخ Von Mulbach وغيرهما من الضباط البروسيين لا يفتأون يحرضون قواد الترك العسكريين ، ويستعينون بما طبع عليه الألمان من اعتداد بالنفس ومغالاة فى الاطمئنان إلى مقدرتهم ، فيغرون حافظاً باشا بالاستمرار على مناوأة إبراهيم .

وصادف تحريض الضباط البروسيين هوى فى نفس القائد التركي العام ، فلم يشك قط فى الظفر بأعدائه ، لأن له جيشاً جراراً ، وإدارة للمخابرات دقيقة النظام ، وهيئة طيبة من الضباط نواتها مساعدوه الألمان .

(١) المصدر عينه ص ٣ من المقدمة .

(٢) المصدر عينه ص ٤٠

(١) المصدر عينه ص ٤٤

وشجعه على الاعتداد بنفسه أن إبراهيم لم يقابل هجومه فى ٢٣ إبريل بهجوم مثله . ولما سقطت عينتاب فى يده زاد اطمئنانه ، ولم يساوره قلق ما حتى جىء إليه بأحد الأسرى الذين وقعوا فى يد الأتراك عند استيلائهم على قرية تل باشر . وهذا الأسير هو فرجاني شيخ عرب الهنادى . وكان رجلا سواه الله وعدله ووهبه من الكبرياء بقدر ما وهبه من قوة الجسم . وأخذ القائد العام يسأل أسيره ، لعله يعرف منه مايفيده فى موقفه ، لكن الرجل كان عنيداً لا يلين فأجابه بقوله : « عن أى شىء تسألنى ؟ دونك رأسى فليس ينجيه منك لسانى ، بل ربما أوقعنى فى الهلاك وكان منطقى سبباً فى إراقة دمي » . فأجابه حافظ بقوله : « لن أمس شعرة من لحيتك إذا صدقتنى القول » . فقال له الأسير : « أقسم بالقرآن أنى سأبرح هذا المكان حياً سليما من الأذى ، أخبرك بما تريد »

فلما أقسم ضحك فرجانى ملء شدقيه وقال :

« أتريد أن أخبرك بالحق وأطلعك على رأيى فى معسكرك ومعسكر إبراهيم ؟ أتريد أن تعرف ما سيقع فى المستقبل ؟ ألا هل يستطيع أحد أن يتنبأ بما فى عالم الغيب ؟ لكنك إذ أصررت على معرفة الحقيقة فانى مبلغك إياها : إن معسكر إبراهيم معسكر جنود ، أما معسكركم فمعسكر حجاج » .

فقال له القائد التركي غاضباً : « وما ذا تقصد بهذا القول ؟ »

فرد عليه بقوله : « رأيت فى معسكر إبراهيم أكداساً من الأسلحة وإلى جوارها كتائب من الجند المشاة مدججين بالسلاح ؛ ورأيت المدافع وإلى جانبها رجال المدفعية ؛ ورأيت الاصطبلات وبقربها الفرسان ؛ ورأيت كل إنسان فى موضعه متأهباً لأداء واجبه ؛ ولم أر شيئاً من ذلك فى معسكركم ، بل رأيت فيه يهوداً وتجاراً وأئمة ؛ رأيت فيه رجالا يقرضون المال ، ورجالا يبيعون ، وآخرين يصلون ، ولذلك قلت : إن معسكركم أشبه شىء بمعسكر الحجاج . وتسألنى لمن سيكون النصر ؟ فأقول إن هذا ما لا أعرفه ، لأن علمه عند الله ، وستعلمن نبأه بعد حين » (١)

إن للأتراك أغلاطاً ولكنهم قوم كرام . ومع أن حافظاً قد تألم وكاد يصعق مما قاله العربى الصريح ، فقد فك أسره وخلي سبيله ، وقبل أن يعود إليه صوابه جاءه رسول ومعه خطاب من إبراهيم ؛ ولم يكن هذا الرسول يحمل راية الهدنة لأن الحرب لم تكن أعلنت رسمياً بين الدولتين . وكان تاريخ الخطاب ٨ يونيه سنة ١٨٣٩ وقد جاء فيه :

«إن التعليمات التى أرسلتها الدول العظمى إلى قناصلها المقيمين فى الاسكندرية قد أقنعتنى بأنهن غير راضيات عن الحرب ؛ وإنى لأعرف أيضاً أن سمو مولاى المعظم غير راض عنها ، ولكن على الرغم من هذا .

(١) فان سليمان باشا المرعشلى أرسل فصيلة من جنوده هاجمت جيوشنا فى بولانق .

(٢) وأرسلتم فرقة إلى باياس (١) لتحريض أهلها على الانتقاض علينا

(٣) وبعثتم بالحاج عمر أوغلو إلى كرد داغ (٢) للغرض نفسه .

(٤) وغزوتم أرضنا وهاجمتم عرب الهنادى التابعين لنا .

(٥) ووزعتم الأسلحة على أهل ولاية عينتاب ، ودخل سليمان باشا المرعشلى هذه المدينة ولا يزال باقياً فيها إلى الآن . وبالأمس هاجمت قوة من الفرسان تحت قيادة سعادتكم صفوفنا وأمرتم مدفعيتكم أن تصوب نيرانها على فرساننا الهنادى فى مخافرنا الأمامية » .

وبعد أن ذكر إبراهيم هذه الأسباب قال :

« ولقد صبرت إلى الآن على هذا كله ولم أقابله بمثله ، لأننى كنت أحاول أن أقنع نفسى بأن هذه الأعمال العدائية تغضب السلطان مولانا المعظم . فاذا كنتم سعادتكم تعزون سكوتى عنها إلى الخوف فانكم مخطئون فى ظنكم ، إذ ليس لسكوتى الا سبب واحد هو حرصى علي احترام رغبات سمو والدى وسيدى المعظم . وإذا كنتم سعادتكم قد تلقيتم الأمر باستئناف القتال ، فما بالكم تنهجون هذا النهج وتدسون الدسائس . هلموا إلى ميدان القتال ولكن هلموا إليه بصراحة ، وخوضوا غمرات الحرب كما يجب أن تخاض . وإلا إخالكم قد نسيتم ماحدث منذ بضع سنين ، وستلقون رجالاً لايعرف الخوف طريقه إلى قلوبهم ؛ أما الدسائس فاننا لانطيق احتمالها إلى الأبد . فهل أحظى منكم بجواب صريح ؟ فان فعلتم فسينقل ردكم إلى إذا رغبتم حامل هذا الخطاب الأمير ألاى محمود بك (٣) » .

(يتبع) محمد بدران

---

(١) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر جزء ١ ص ١٨٨ .

(١) ميناء صغير فى خليج الأسكندرونة (المعرب)

(٢) جبل الأكراد (المعرب)

(٣) كدلفين وبرو (ج ١ ص ١٩٣)

مشروع تقسيم فلسطين وأخطاره

لباحث عربي كبير

جلس سكان فلسطين مساء يوم الأربعاء الواقع فى ٧ يوليو ، أمام الراديو منتظرين سماع تقرير اللجنة الملكية . وكان السكون مخيما في معظم البيوت وفى المقاهى والأندية . وما كاد المذيع يفرغ من قراءة خلاصة التقرير واستنتاجات الحكومة المنتدبة حتى انتاب أهل البلاد ذهول دام بضعة أيام من شدة الصدمة .. وأراد فخامة المندوب السامى أن يتلطف بهم ويجالهم ويهون عليهم المصاب بدعوته أهل البلاد إلى إنعام النظر والتروى في إبداء الرأى ، وأن يحكموا العقل على العاطفة فى تقرير الحكم على مشروع اللجنة الملكية

اتبعنا هذه النصيحة وقرأنا بامعان خلاصة التقرير ، ثم أخذنا في قراءة التقرير نفسه . فما كان أشد دهشتنا عند ما رأينا اللجنة الملكية تخالف فى تقريرها جميع تقارير اللجان البريطانية ، والخبراء الانكليز ، وكتب حكومة لندن البيضاء ، ورأى عصبة الأمم ، فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية ، حتى أنها تخالف أيضاً صك الانتداب نفسه

تقول جميع هذه المستندات بأن التزامات الحكومة المنتدبة نحو العرب واليهود متساوية ، فقالت لجنة اللورد بيل خلاف ذلك ، وأوصت حكومة جلالة الملك بتنفيذ التزاماتها نحو اليهود أولا ثم النظر في التزاماتها نحو العرب . أى أنها توصى بانشاء الوطن القومي اليهودي ، ثم بالنظر فى المحافظة على حقوق العرب !.

وصرحت حكومة جلالته وعصبة الأمم مراراً بأن ليس الغاية من تصريح بلفور إيجاد دولة يهودية فى فلسطين ، فقال اللورد بيل فى تقرير لجنته بأن المراد من تصريح بلفور وصك الانتداب إيجاد دولة يهودية فى الأراضى المقدسة عند ما يصبحون أكثرية فيها

وينص صك الانتداب صراحة بأن واجب الحكومة ترقية الحكم الذاتى فى فلسطين ، فقالت اللجنة الملكية بأن إنشاء مجلس تشريعي يخالف لصك الانتداب ! ..

ولم تكتف اللجنة الملكية بهذا ، بل تهكمت في تقريرها بالعرب وزعمائهم ، ولم تر فيهم إلا مثالب ، ولم تر فى اليهود وأعمالهم إلا محامد ؛ وجمعت فى تقريرها جميع الآراء والأقوال اليهودية التى تزعم أن ليس للعرب حق فى فلسطين ، وأن الأراضى المقدسة حق لبنى إسرائيل ! فكان تقريرها هذا مجموعة أضاليل يهودية . حتى أنه لو قيل للدكتور وايزمن ، زعيم الصهيونية ، أن يكتب تقريراً عن القضية الفلسطينية ومطالب اليهود ، لما جرؤ على كتابة مثل تقرير اللجنة الملكية !..

إن تقرير اللجنة الملكية خطة سياسية مرسومة ، يراد منها أولا إزالة مفعول التقارير البريطانية السابقة التى جاءت كلها منذ الاحتلال حتى الأيام الأخيرة لصالح العرب مثنية عليهم ، ومظهرة سوء السياسة الصهيونية وخطرها على أهل البلاد ووخيم عواقبها ، وثانياً تحقيق إنشاء « المملكة اليهودية »

إننا لا نبالي بحكم اللورد بيل على العرب لأن حكمه فريد ، وطبيعى أن هذا الحكم الشاذ لا يؤثر فى رأي المنصف العادل على حكم التاريخ ، ولا على الأحكام البريطانية العديدة السابقة ، ولا يقلل من أهميتها ومفعولها

والذي يهمنا فى هذا المقال هو إظهار أخطار مشروع تقسيم فلسين ، و « المملكة اليهودية » التى تريد الحكومة البريطانية إيجادها فى قسم فلسطين الطيب

تمويه التقسيم

قسم اللورد بيل فلسطين إلى ثلاثة أقسام ، أعطى الأول إلى اليهود ، واحتفظ بالثانى لدولته ، وأبقى الثالث لأهل البلاد . أما قسم اليهود فيشمل جميع الفضاء الشمالى وسهل الحولة ومرج ابن عامر ، والسهل الساحلى حتى ١٠ كليومترات جنوبى رخبوت ، وتبلغ مساحته حوالى ثمانية ملايين من الدونمات (الدونم ألف متر مربع) ، وفيه من المدن العربية صفد وعكا وحيفا وطبرية والناصرة ، ومن القرى عدد عظيم ، حكم عليها أن تصبح يهودية ، وقضى على سكانها العرب البالغ عددهم أربعمائة ألف عربى بأن يرحلوا من وطنهم العزيز . أما القسم الذى سيوضع تحت انتداب بريطاني جديد فيشمل القدس وبيت لحم وضواحيهما وجميع الأراضى التى تسير فيها طريق يافا ــ القدس ، وسكة حديد يافا — القدس . ويدخل فى هذه المنطقة الرملة واللد وقرى عديدة كلها عربية . وعلاوة على هذه المنطقة فالحكومة المنتدبة تحتفظ لها بمنطقة لم تعين حدودها على ساحل خليج العقبة ، وستكون هذه المنطقة جميع ما يدخل فلسطين من صحراء سيناء وقسم كبير من فضاء بئر السبع إن لم يكن كله لأسباب سياسية

واعتاد الانكليز واليهود القول بأن ما بقى من فلسطين خاص

بالعرب ليوهموا العرب بأن ما يبقى لهم قسم مهم عظيم . والواقع أن ما يبقى لهم من وطنهم حسب مشروع التقسيم ، جبال نابلس وجبال الخليل والقسم الجنوبي من القسم الساحلي ، وهذا القسم من السهل قاحل على أكثر السنين لعدم انتظام سقوط الأمطار فيه . وبعبارة أخرى إن ما يريد اليهود والانكليز ابقاءه عربياً (مؤقتاً) جبال جرداء وصحراء محرقة . وهم يريدون إلحاق هـذا القسم بشرق الأردن الفقير وتأسيس مملكة عربية منهما

أطلق على مشروع لجنة اللورد بيل مشروع تقسيم فلسطين ، وكلمة تقسيم تخدع كثيرين من الذين لا ينظرون بعيداً أو الذين لا يعرفون طبيعة الأراضي فى فلسطين . أما الحقيقة فهي أن مشروع اللجنة الملكية يعطي فلسطين كلهـا لليهود ، لأن اعتبار البلاد هو بمـا فيها من أراض صالحة للزراعة ، لا بجبالها الجرداء ولا بصحاريها الجدباء . وإذا علمنا أن مساحة الأراضي الصالحة للزراعة فى فلسطين لا تزيد على ٦٫٥٤٤٫٠٠٠ دونم ، حسب تقدير الخبير الكبير السير جون هون سمبسون ، وإن هـذه الأراضي الصالحة للزراعة مؤلفة من سهول فلسطين وهي : سهل عكا ، وسهل الحولة ، ومرج ابن عامر ، والسهل الساحلي ؛ وإذا علمنا أن جميع هذه السهول داخل ضمن القسم اليهودي ، عدا جنوبي السهل الساحلي القاحل فى أكثر الأوقات ، رأينا بجلاء أن جميع فلسطين الصالحة للزراعة وهي فلسطين الحقيقية والتي من خيراتها يعتاش جميع سكان البلاد ، داخلة ضمن القسم اليهودي ، وما بقي من فلسطين قاحل لا يعول من فيه من السكان

اجلاء لا تبادل أراضي وسكان

يريد اليهود ترحيل الشعب العربي من فلسطين ليكونوا فيها وحدهم ـ فحقق لهم اللورد بيل قسماً كبيراً من أمنيتهم ، وذلك بقبوله هذا المبدأ ، وإصراره على إرغام العرب الذين يعيشون فى « مشروع القسم اليهودي » من فلسطين ، على الرحيل إلى القسم الآخر منها ، أو إلى حيث يشاءون ، فيما لو قبل مشروع تقسيم فلسطين . ووضع اللورد بيل اصراره فى عبارات كثيرة ما استعملها الدبلوماسي إلا لإخفاء الحقيقة والظهور بمظهر الشفيق العادل ، فقال بأن « مصلحة الفريقين تقضي بأن يبذل أقصى ما يمكن من الجهد للوصول إلى اتفاق بشأن تبادل الأراضي والسكان » .

ربما يخيل للقارىء من هذا القول أن هناك أقلية من العرب تملك أقلية من الأراضي فى (مشروع التقسيم اليهودي) ، لا ، إن هذا خطأ مبين ، إذ أن كل ما تملكه اليهود من أراض فى فلسطين منذ ابتداء ـ حركتهم الصهيونية ، مليون وربع من الدونمات ، بينما مساحة القسم الذي تريد اللجنة الملكية إنشاء مملكة يهودية فيه تبلغ حوالى ثمانيـة ملايين دونم . فمن هذين الرقمين يظهر أن « المملكة اليهودية » ستنشأ على أراض لا يزال العرب يملكون فيها ستة أضعاف ما يملك اليهود . كما أن عدد سكان العرب فى هذه المنطقة لا يقل عن أربعمائة ألف ، بينما عدد اليهود فيها لا يزيد على ثلاثمائة ألف .

وفى الواقع أن لجنة اللورد بيل تريد إخراج ما لا يقل عن أربعمائة ألف عربي من (مشروع القسم اليهودي) واستبدالهم باليهود القاطنين بما يسمونه (القسم العربي) البالغ عددهم ١٫٢٥٠ فقط ، والذين لا يملكون فيه إلا بضع مئات من الدونمات . فاستعمال تعبير تبادل السكان فى هذه الحال غاية في الهزء والسخرية بالعرب . ليس الأمر أمر تبادل سكان ، وإنما هو إجلاء العرب عن القسم الخصيب من بلادهم الذي منه يعتاشون والذي من دونه لا حياة لهم .

ويصحب جلاء العرب عن وطنهم استيلاء « الحكومة اليهودية » على أراضيهم ، وهذا ما يريده اليهود . وما أوصت به اللجنة الملكية أراد اللورد بيل مساعدة اليهود إلى أكبر حد ، فقرر منع بيع الأراضي بيعاً حراً لتنزل أسعارها ، وأعطي « الحكومة اليهودية » الحق فى تعيين ثمن أراضي العرب ليوفر عليها مبالغ طائلة ؛ وعليه سيستولى اليهود على أراضي العرب مقابل أثمان زهيدة . فالأفراد من العرب الذين لهم أراضي فى (المنطقة اليهوديه) ويمنون النفس بالثراء سوف لا ينالون الأسعار التي يمكن أن ينالوها فيها لو لم ينفذ مشروع تقسيم فلسطين .

الموت الاقتصادي

ربما يفكر البعض ، متأثرين بما سمته اللجنة الملكية « فوائد التقسيم » وبالدعاية التي يقوم بها بعض موظفي الحكومة . فى أن لا فائدة من رفض التقسيم مادام اليهود واصلين إلى أكثر من النتيجة التي يوصلهم إليها تقرير اللورد بيل ، ويقولون متسائلين : ألم يحدد تقسيم فلسطين الأطماع اليهودية ؟ فاذن لماذا نرفضه ؟

غريب هذا المنطق : لنفرض (وهذا ليس بصحيح) أن ليس في إمكان العرب صد تيار اليهود عن فلسطين ، وليس في مقدورهم المحافظة عليها عربية ، وأن سيأتي يوم يصبح فيه القسم المعطى لهم الآن يهودياً إن لم يكن فلسطين كلها ، ولكن ذلك

لا يتحقق غدا ، ولا بد له على الأقل من خمسين سنة . وسيظل اليهود خلال هذه السنين في نضال عنيف ، وسيبذلون خلالها جهوداً عظيمة وأموالا طائلة ، حتى يصلوا إلى النتيجة التى يوصلهم إليها الآن مشروع التقسيم . فهل من الصواب إذن أن ننيلهم اليوم ما لعلهم ينالونه بعد مشقة وبعد جهاد يدوم نصف قرن ؟ أو ليس من الحكمة السياسية ، إن لم يكن من الواجب الوطنى ، أن نصبر ونناضل بالطرق المشروعة ، ونتخذ الوقت عوناً لعله يأتى لنا بما يفرج ؟ وما يدرينا أن تتغير الظروف الدولية فتكون لنا عوناً على المحافظة على عروبة فلسطين وعلى نيلنا حقوقنا فيها ؟ أما إن تأسست اليوم مملكة يهودية فى قسم من فلسطين فيكون الأمر قد انتهى ، ولا نعود بقادرين ، مهما أتت الظروف على إرجاع ما ذهب منا ، وما تقسيم فلسطين ، وتأسيس مملكة يهودية في قسمها الطيب إلا وسيلة يراد بها تسهيل استيلاء اليهود على جميع فلسطين وشرق الأردن دفعة واحدة .

* * *

إذا نظرنا نظرة اقتصادية إلى ما يريد اللورد بيل ابقاءه (مؤقتاً) للعرب من وطنهم وجدنا أن هذا القسم قاحل لا يعيش من فيه ، وخير دليل على ذلك نزوح ألوف من سكانه إلى السهل الساحلى حيث الخصب وحيث بساتين البرتقال منتشرة ، ثم إن ألوفاً عديدة من سكان هذه المنطقة مزارعون يعتاشون من أعمالهم فى الأراضى التى يملكونها فى السهول الداخلة في المنطقة اليهودية . ومثال ذلك جميع القرى الواقعة حتى على مسافات بعيدة من السهل الساحلى ومدن طولكرم والرملة واللد ويافا ، فإن هذه القرى العديدة وهذه المدن الكبيرة تعتاش بما يعمل أهلها فى أراضيهم ومزارعهم الواقعة فى السهل الذي يريد مشروع التقسيم أن يستولي عليه اليهود ؛ فمتى حرمت هذه القرى والمدن من أملاكها ، أصبح لا عمل لأهلها إلا مكافحة الجوع والشقاء (فكيف تصبح حالة سكان هذا القسم من فلسطين متى رحل إليه الأربعمائة ألف عربى سكان القرى والمدن التى سيستولى عليها اليهود إن قبل العرب التقسيم أو مكنوا الانكليز من تحقيقه ؟

حرمت مدينة يافا ، بموجب مشروع التقسيم من بساتين البرتقال التابعة لها والتي منها يعتاش سكانها ، فمعنى ذلك أن أهل هذه المدينة سوف لا يجدون لهم مرتزقاً يمكنهم من الاستقرار في مدينتهم . وسيأخذ اليهود الذين يحيطون بهم من كل ناحية فى مضايقتهم ، وستكون النتيجة حتما رحيل سكان يافا وتهويد المدينة ، ومصير اللد والرملة وهما فى منطقة الانتداب كمصير يافا ، لأن هاتين المدينتين حرمتا أكبر قسم من أراضيها ، وبغير هذا القسم من الأراضى لا حياة لسكانهما .

* * *

ستحل من غير شك (فى المنطقة العربية) بل فى (المملكة العربية) المنوى إقامتها فى بلاد فقيرة ، أزمة اقتصادية هائلة بل مجاعة شنيعة . وهذه الحالة ترغم الملاك فيها إلى بيع ما يملكون ، أو رهنه ، أو إيجاره على سنين عديدة ، وليس فى هذه البلاد من شار ولا مرتهن ، ولا من مستأجر ، غير اليهود . . . وهكذا يأخذ اليهود فى وضع أيديهم على (القسم العربى) ويلحقونه بمملكتهم ، فتصبح فلسطين برمتها فى مدة وجيزة مملكة يهودية خالية من أصحابها العرب . ربما يعترض على هذا الحكم من لا يعرف السياسة وتلاعبها بأن ليس لليهود الحق فى شراء الأراضى فى القسم العربي من فلسطين . هذا صحيح ، ولكن فى إمكان من يضع هذا القانون أن يضع غيره ، لاسيما وأنه غير قابل للتنفيذ ، والقانون وحده لا يستطيع الحيلولة دون وضع اليهود أيديهم على البلاد بمختلف الطرق مادامت موارد البلاد الاقتصادية لا تفى بحاجة السكان .

ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل إن (المملكة العربية) الهزيلة سوف لا تعرف الاستقلال لأنها لا تقدر على حمل اعبائه الاقتصادية . والبلاد التي ليست مستقلة استقلالا اقتصادياً والتى تجاورها دولة غنية قوية طامعة فيها ، لا تمكنها المحافظة على استقلالها السياسى .. وستكون النتيجة التحاق الدولة العربية بالدولة اليهودية ، سواء طلب العرب ذلك بدافع العوامل الاقتصادية ، أم اضطروا إليه أمام حيل الدولة اليهودية ، فتنتشر الملايين من اليهود فى جميع أنحاء البلاد ، ويصبح العرب فيها أقلية فقيرة لاشان لهم يذكر ، إن لم يرغموا على الرحيل إلى صحراء الجزيرة .

فشروع التقسيم لا يحدد فى الواقع المطامع الصهيونية ، وإنما هو وسيلة لتحقيقها بمدة وجيزة ، وهو حيلة يراد بها الوصول إلى تأسيس مملكة يهودية واسعة فى فلسطين كلها ، وفى شرق الأردن ذلك البلد العربى الذى لا يطبق عليه صك الانتداب ، ولا يسرى عليه تصريح بلفور ، وفى ذلك ما فيه من الأخطار الفادحة لجميع البلاد العربية

دولة لولد مستعبدة

أقرت اللجنة الملكية أن الدولة العربية التى تريد إيجادها لا تستطيع الحياة حياة اقتصادية وحاولت تخفيف شدة الضربة على

العرب بالمال ، فرددت عبارة « إعانة مالية » مراراً ، كأن المال هو كل شيء في الحياة ، وكأنه أعز من الأوطان والمقدسات. وقالت: « بما أن ذلك القسم من فلسطين الواقع في منطقة الدولة العربية لن يستفيد فيما بعد من قدرة المنطقة اليهودية على دفع الضرائب ، وبما أن مساحة منطقة الدولة اليهودية ستكون أوسع من مساحة المنطقة الحالية التي تضم أراضي اليهود ومستعمراتهم (بما لا يقل عن ست مرات) فينبغي أن تدفع الدولة اليهودية إعانة مالية للدولة العربية »

مما لاريب فيه أن شعب الدولة العربية المنوى إنشاؤها سوف لا يقدر على دفع ضرائب تسد الأكلاف الضرورية لسير أعمال الدولة كما هي حال شرق الأردن الآن ، فإن حكومة هذا الشرق تتقاضى إعانة سنوية من الحكومة البريطانية تمكنها من استمرار وجودها . ولتمكين حكومة (الدولة العربية) من الحياة يريد اللورد بيل أن تدفع الدولة اليهودية للدولة العربية إعانة مالية . أي أن حياة المملكة العربية تتوقف على ما تجود به عليها الدولة اليهودية . . .

إن في إمكان الدولة اليهودية أن ترفض دفع هذه الاعانة المادية بعد أن تكون قد نالت ما تبتغى . فمن يضمن دفع هذه الاعانة ؟ أهي الحكومة البريطانية ؟ لقد رأينا قيمة ضمانات هذه الحكومة ولا سيما تجاه العرب . لا ينبغي إن تبهر هذه الاعانة من يوطنون النفس على الاستفادة منها . إن اليهود لن يدفعوها إذا وجدوا مصلحتهم تقضى بذلك . وسيجدون ألف عذر ليتملصوا من دفعها . لقد تعهدت المانيا بدفع تعويضات لفرنسا ولغيرها من الدول ولم يمض على تعهدها عامان حتى أخذت في تأجيل الدفع ثم التنصل منه نهائيا ، ولم تستطع فرنسا القوية على إرغامها . فهل في مقدور الحكومة العربية الضعيفة إرغام اليهود على دفع هذه الإعانة ؟

ولنفرض أن اليهود سيدفعون هذه الإعانة عن طيب خاطر فان هذه الإعانة ضرب من استعمار اليهود للدولة العربية الفقيرة ، ووسيلة إلى تدخل اليهود في سياستها وفي جميع أمورها. هناك قاعدة اقتصادية سياسية بسيطة تقول بأن الذي في يده ميزانية الدولة في يده مصيرها . فلما كانت خزينة الدولة في العهد السابق في يد الملوك ، كانت السلطة المطلقة في يدهم أيضاً ، ولما انتقل حق فرض الضرائب من الملوك إلى البرلمانات ، انتقلت السيادة معها . فأصبحت البرلمانات مصدر السلطات . ونرى في هذه الأيام ، في البلاد الديموقراطية ، أن نفوذ وزير المالية آخذ في الازدياد حتى أنه أصبح يتدخل في دوائر زملائه ويشرف عليها نوعا ما ، لماذا ؟ لأن في يده توزيع ميزانية الحكومة على دوائر الوزراء . فالاعانة المالية اليهودية ستمكن الدولة اليهودية من الحصول على امتيازات خاصة في الدولة العربية ، ومن مراقبة ماليتها وسياستها . . . أي أن الدولة العربية ستكون طوعا أو كرها المستعمرة الأولى للدولة اليهودية ، وسوف لا يمر على ذلك مدة طويلة حتى تدمج الدولتان ، ويتألف منهما دولة يهودية كبرى تهدد ما جاورها من البلاد العربية . . .

ورأت الحكومة البريطانية تحقيقاً للتقسيم صرفا لشرق الأردن عن المطالبة بحقوق العرب بأن تمده بثلاثة أمور : الحاق القسم الباقي من فلسطين به ، وتأسيس مملكة عربية (مستقلة) منهما ، وإعطاء مليونين من الجنيهات لحكومة شرق الأردن بدل المنحة التي تدفعها سنويا لسد عجز ميزانيته . . .

(البقية في العدد القادم) **انصاري**

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٤ —

البوذية

نشأة الديانة والفلسفة البوذيتين

ذاعت في بلاد الهند قبل البوذية بزمن طويل أسطورة دينية مؤداها أن إنقاذ الإنسانية من آلامها سيكون على يدى شاب نبيل حسن الخلق والخلق ، يولد بين أحضان النعمة ويشب بين أعطاف الترف والسعادة ، ثم يتخلى عن المادة ويزهد في الشهوات فيصل إلى المعرفة الكاملة التي بها ينقذ الانسانية من بين براثن الشر والألم . فلما ظهر بوذا وكان قد نشأ على النحو الملائم لبطل الأسطورة المتقدمة آمن الناس بأنه هو المنقذ المنتظر ، وكان هو شخصياً يعرف هذه الأسطورة فآمن بأنه بطلها المنشود ، فأعلن أنه لا شيء أنجع للوصول إلى النجاة من وسيلتين : أولاهما التخلى عن المادة ، وثانيتهما المعرفة . ثم بدأ جهاده بتحقيق هاتين

الوسيلتين فى نفسه ، فتخلى عن اللذائذ تخلياً عملياً ، ثم لم يلبث أن أعلن أنه وصل إلى نهاية المعرفة كما أسلفنا

نشأت عن المبدأ الأول من هذين المبدأين الديانة البوذية التى هى وليدة الزهد والتقشف قبل كل شىء ، وعن المبدأ الثانى وهو المعرفة نشأت الفلسفة البوذية . وسنحاول هنا أن نلم فى شىء من الإيجاز بالديانة البوذية وأركانها وتطوراتها ثم بالفلسفة البوذية وعناصرها الأولية

الديانة البوذية

لم يشأ بوذا فى أول أمره أن يقحم فى مذهبه أى شىء له علاقة بما بعد الطبيعة ، بل لم يتحدث عن الإله على أصح الأقوال ، وإن كان بعض مؤرخى الفلسفة قد رووا عنه أنه تعرض للألوهية بالإنكار وصرح بأن ليس هناك إله على النحو الذى يصورونه به ، وإنما هناك روح عام متغلغل فى كل شىء . ويروى البعض الآخر أن بين أقدم النصوص البوذية نصاً ينكر الألوهية أصرح الانكار ، إذ هو يتساءل قائلا : « ما هو الآله ؟ هل هو نفس العناصر ؟ إذا كان ذلك فلا يكون فى الأمر جديد سوى وضع اسم مكان آخر

وإذا كان غيرها ، ولها هى هـذه الخواص التى نشاهدها ، فقد ثبت خلوه هو من بعض الخواص الثابتة للعناصر ، وهو نقص فيه . وإذا كان له كل خواصها فلم يكن في حاجة إليها ، لاتخاذها وسيلة لايجاد العالم . وإذاً فنحن أمام خلاء من الألوهية يؤيده المنطق »

وأنا شخصياً أستبعد هذا الالحاد على ذلك المتنسك النورانى والمصلح الأخلاقي العظيم ، ولعل هـذا النص قد دُسَّ عليه فى العصر الذى تلا عصره

وكان أهم ما يرمى إليه هو تخليص الانسانية من آلامها المتوالية التى يجددها التناسخ بقدر ما يعدده من وحدات العودة إلى الحياة التى هى فى كل مرة مليئة بالألم والشقاء . وقد اعتبر بوذا — كما أسلفنا — الجهل والشهوة الأساسين الجوهريين لهـذا الألم ، وأكد أنه لا خلاص للانسانية إلا بالمعرفة والتخلى عن المادة ، وهما وسيلتان متلازمتان أبداً ، إذ لا توجد المعرفة الصحيحة حيث يحل التهالك على المادة ، ولا تستقر الزهادة حيث يوجد الجهل

ولا ريب أن هـذا الحط من شأن الحياة وما فيها من متع ولذائذ قد قسم البوذيين إلى قسمين : القسم الأول الدينيون ، والقسم الثانى المدنيون أو الأحرار . ولـكن ليس معنى هذا أن طائفة الدينيين من البوذيين كانت مكلفة بتأدية طقوس دينية خاصة . كلا ، فبوذا لم يكلف أتباعه بأى نوع من أنواع العبادة ، وإنما كل ما كان يمتاز به الديني على المدنى من البوذيين هو أن الأول كان أكثر تنسكا وأقل تعلقاً بالمادة من الثانى ، وهو لهـذا كان نموذجا له فى حياته العملية . لأنه أسرع منه خطى فى السير نحو الخلاص من شوائب المادة المدنسة

غير أنه لا ينبغى أن يفهم من هـذا أن جميع أفراد الطائفة الدينية البوذية كانوا بعيدين عن جميع مظاهر الحياة ، لأن الواقع يخالف ذلك ، إذ كان أكثرهم مع تنسكهم يتصلون بالناس فى المعاملة وأحوال المعيشة ، لـكن فى شىء من الاعتدال ، بل من الحذر والاحتياط . أما أقلهم فكانوا رهابنة يعيشون فى عزلة من الناس لا ينشغلون إلا بالتأمل فى أسرار الـكون والنظر فى عظمة الوجود

كان الملك محرماً على البوذيين الدينيين كافة حتى الذين يتعاملون منهم مع الناس ، وكان الواجب على كل فرد منهم أن يتسول طعامه يوماً فيوما وألاّ يدخر شيئاً مهما قل إلى غده

أحس المدنيون من البوذيين فى داخل أنفسهم بشيء من القلق المضنى ، فأيقنوا بأنهم لم يصلوا بعد إلى الهدوء النفسانى المنشود الذى به وحده تتحقق السعادة ، وبحثوا عن سبب ذلك فعلموا أنه التعلق بالمـادة والتخلف عن الطريق القويم الذى سار فيـه إخوانهم الدينيون ، ولـكنهم لم يستطيعوا أن يطبقوا على أنفسهم تلك المناهج الضيقة ولا أن يذعنوا لهاتيك القواعد التى كانت قد بدأت تقسو وتتشدد فى جميع أساليب الحياة ، فحظرت على البوذى أكل اللحوم والأسماك ، وقيدته بأنواع محددة من الأطعمة والأشربة والثياب ، ورسمت له الخطة التى يجب عليه أن يسلـكها ، فاكتفى أولئك الأحرار من البوذيين بالايمان النظرى ببوذا وباتباع الأخلاق البوذية السامية من : صدق وأمانة وحلم وحياء ووداعة وإيثار وتضحية وغير ذلك من جلائل الصفات ، وجعلوا بيوتهم مأوى لاخوانهم الدينيين ؛ أما مشكلة عدم وصولهم إلى السعادة النفسية ، فقد وجدوا لها حلا طريفاً ، وهو أن من آمن ببوذا وتخلق بأخلاقه وآوى رجل دينه وأكرم مثواهم وعاش عيشة مدنية ، فإن روحه بعد موته تتقمص بوذ يادينيا ، لتصل عن طريقه إلى الخلاص من المادة الذى يضمن لها السعادة والنجاة

مستحدثات البوذية :

أتت الديانة البوذية بمحدثات لم يكن للبراهمة بها عهد من قبل مثل نبع الوحي من داخل النفس بدل أن كان البراهمة يسندونه إلى الآلهة . ويعلق العلماء الأوربيون على هذا المبدأ بما يفيد عظمة بوذا وسموه على جميع سكان الهند وثقته بنفسه إلى الحد الذي لم يؤلف عند الشرقيين الذين وصلت ضآلتهم أمام أنفسهم إلى حد إسناد كل شيء إلى السماء ، تلك الضآلة التي كادت تمحو منتجاتهم العقلية الخاصة من صحائف مجهودات الفكر البشري . وسنرد على هذه الحملة الجائرة حين نعرض للوحي والالهام عند الكلام على الاشراقية إن شاء الله .

ومن الميزات التي اختصت بها البوذية إعلانها أن مهمتها نجاة العالم وإنقاذه من الألم والشقاء ، وفي هذا الغيرية مالم يخطر للبراهمة الأنانيين على بال ، وبهذه النقطة يقترب بوذا من المسيح في نظر العلماء الذين يصدقون حادثة الصلب ويتخذون منها برهاناً على غيرية المسيح وتضحية نفسه في سبيل إنقاذ البشر من الخطايا والآثام .

ومن هذه المستحدثات البوذية إلغاء نظام الطبقات الذي مر بك مفصلا في البراهمية « الأرثوذكسية » ثم أقره عهد التطور حتى جاء بوذا فحرمه على جميع معتنقي ديانته ، وإن كان الأستاذ « دينيس سورا » يري أن بوذا لم يلغ نظام الطبقات ، وإنما كانت المقاطعة التي نشر فيها ديانته خالية قبل وجوده من نظام الطبقات لأن من المسلم به أن البراهمة لم ينشروا ديانتهم في جميع بقاع الهند ، ولكن هذا الرأي غير صحيح ، لأن بعض النصوص البوذية روت لنا أن بوذا كان كثيراً مايتلاقي مع بعض البراهمة يتيهون في البراري والقفار فلا يكترث بهم ولا يلتفت إليهم .

ومهما يكن من الأمر ، فقد محا بوذا كل تلك الفروق التي كانت البراهمية قد وضعتها بين طبقات الشعب بزعمها أن الكهنة خلقوا من رأس براهما ، والجند من ذراعيه ومنكبيه ، وأرباب الحرف من ساقيه ، والأرقاء من قدميه ، فلما جاء هذا المصلح العظيم أعلن أن جميع بني البشر سواسية لا فضل لأحد على أحد إلا بالزهادة والمعرفة .

الأخلاق البوذية

بدأ بوذا منذ فجر اليوم الأول لتبشيره بديانته يعلم تلاميذه الفضائل التي رأى أنها وسائل الخلاص والنجاة ، ولكنه شاء أن يعلمهم هذه الفضائل عن طريق إنبائهم بأضدادها ، فأعلن أن الرذائل الواجبة التجنب عشر ، وهي : الشهوة والمقت ، والعمى والجهل ، والادعاء والرأى ، والشك والاهمال ، والخلاعة والوقاحة .

كانت هذه الرذائل في أول الأمر تذكر في تعاليم بوذا على النحو المتقدم ، دون ترتيب ولا تخصيص ، أما بعد ذلك فقد قسمت إلى فصائل اختصت كل ناحية من الانسان بفصيلة معينة منها بعد تطورها وتحديدها في مجموعتها . وهاك هذا التقسيم : إن الرذائل التي تهوى بالانسان عشر ، وإن نواحيه التي تأتى هذه الرذائل ثلاث اختصت كل ناحية منها بعدد من تلك الرذائل ، فرذائل الجسم ثلاث ، وهي : التعذيب والسرقة والزنى ؛ ورذائل النطق أربع ، وهي الكذب والنميمة والسباب والطيش ؛ ورذائل التفكير ثلاث ، وهي : الطمع والخبث والتزييف .

لم تكن البوذية تسوى بين هذه الرذائل ، بل جعلتها متفاوتة في مراتب الاثم كما هي متفاوتة في سرعة الانحاء عن مرتكبها ، ولكنها صرحت بأن الندم هو من أهم وسائل الخلاص منها

على أن الفضائل المضادة لهذه الرذائل المتقدمة ليست في مجموعها من النوع العالى في رأى البوذية ، وإنما هي فضائل سلبية لأن من تعفف عن السرقة مثلا لم يزد على أنه هجر رذيلة من شأنه أن يهجرها ، وهو لهذا لا يسمو إلى درجة من يستعمل فضيلة الزهادة أو التضحية ، أو ما شاكل ذلك .

وعندهم أن أهم تلك الفضائل الايجابية ما يأتى :

(ا) حب الحقيقة . (ب) الرأفة (ج) الطهر

(د) الاحسان . (هـ) مداومة التقوى

(و) احتمال كل المؤلمات والمقززات . وغير ذلك مما يصادفه القارىء من أمثلة عالية في كل صفحة من صفحات السيرة البوذية الفاتنة .

« يتبع » محمد غلاب



رفائيل

الفنان أبداً

RAFFAELLO SANTI

للدكتور أحمد موسى

عرفنا من المقالات السابقة أن عصر الرفعة قد امتاز بعدد عظيم ممن توافرت فيهم الكفايات التي إذا قورنت بغيرها آمنا باطلاق بعض المؤرخين على هذه المرحلة الزمنية « عصر النهضة »

وعرفنا بعض الشيء عن ليوناردو دافينشى ، وتناولنا بالبحث ميكيلانجلو الذى اعتبرناه عبقرية ملهمة فى عالم الفن ، كما فحصنا اتجاهه ونواحى إنتاجه ، ووصلنا إلى أنه كان أعظم فنان ظهر رغم ما بذله حاسدوه من مجهود لتدبير المكائد له حتى يقضوا على صيته وسمعته

واليوم نعالج شخصية أخرى على النقيض ، غمرتها محبة الناس واستأثرت باكبارهم وتدليلهم إلى حد بعيد . ومن تكون هذه الشخصية غير « رفايللو سانتى » الذي كان على أكبر جانب من جمال الطلعة وسمو النفس ودقة الشعور ورقة الشمائل ؟

ولد رفايللو يوم ٢٨ مارس (؟) سنة ١٤٨٣ فى أوربينو ، وتلقى أول دروسه على والده المصور جيوفانى سانتى الذي مات عندما بلغ الابن الثانية عشرة من عمره ، ثم على معلم آخر ربما كان تيموتيوڤيتى الذي عاش فى أوربينو فى ذلك الحين أيضاً ، والذي كان صديقاً حميا له فيما بعد

ولم يترك رفايللو مدينة أبيه إلا سنة ١٤٩٩ عندما أراد الالتحاق بالعمل عند المصور المشهور بيروجينو فى مدينة بيروجيا وإذا رجعنا إلى مصوراته كلها نرى أن بينها واحدة أرخها سنة ١٥٠٤ وأسماها سبوسالزيو (Sposalizio) ، غير أن هذا لا يتخذ دليلا على أنه لم يقم بتصوير لوحات أخرى قبل هذا التاريخ ، إذ المعروف أنه اشتغل بالتصوير فى كنيسة بيروجيا وفى سيتا دي كاستيلا

وفى هذه السنة أيضاً (١٥٠٤) سافر إلى فلورنسا وأقام فيها بضع سنوات لم يتركها أثناءها إلا عندما كان يذهب فى بعض الآونة إلى بلدته أوربينو أو إلى بيروجيا حيث يقيم معلمه



مدرسة أثينا — صورة حائطية بالفاتيكان

وتأثر فى فلورنسا بتراث ليوناردو (راجع الرسالة) وبفن فرا بارتولوميو Fra Bartolommeo فدقته فى التصوير وعنايته المنهجية ترجع إلى ليوناردو ، على حين ترى السيمتري وجمال التناظر وإبداع التقسيم ورشاقة الحركة إلى بارتولوميو

وصور فى فلورنسا لوحة لأجل سان فاتشسكو فى بيروجيا تمثل دفن المسيح ، وهي القطعة التى لا تزال محفوظة بجاليرى بورجيره فى روما

واستدعاه البابا يوليوس الثاني سنة ١٥٠٨ للتوجه إلى روما حيث زخرف وصور بعض غرف بالفاتيكان ، وهنا بدأ اسمه ينتشر ، وما كاد يسمل لدى البابوين يوليوس الثانى وليو العاشر إلا وكانت

الألسنة تلهج بذكره ، وعم صيته إيطاليا وغيرها من البلدان المجاورة وكلفه فرانس الأول ملك فرنسا بأعمال فنية كما تهافت عليه كثيرون من الأكابر ، والتف حوله تلاميذ عديدون من المعجبين به والراغبين فى فنه

ولم يكن مظهر رفاييللو ليدل على أنه فنان ، بل كان أقرب إلى مظهر الأمراء منه إلى رجال الفن . فتكوينه الجسمانى الرقيق وملابسه الرائعة الاختيار ، وشبابه الغض ، إلى جانب أدبه الجم وحديثه الخلاب ، كل هـذا جعل الناظر إليه أو المتحدث معه يظن أنه فى حضرة أمير أرستوقراطى

وكأن المشيئة أرادت ألا يكون بين ميكيلانجلو وبين رفاييللو أي تشابه أو انسجام ، حتى الاتجاه الفنى عند كليهما كان مختلفاً ، فالموضوع الانشائى وطريقة الاخراج والتعبير تباينت عنـد كل منهما

وكان فى الخمس السنوات الأخيرة من حياته الرئيس الأعلى لبناء كنيسة بطرس ، وتعمق فى دراسة علم الآثار ومعرفة أسرار الفن القديم ، وفكر فى رفع الانقاض والأتربة عن آثار روما القديمة عندما كان محافظاً للآثار فيها

وبلغ الذروة فى سن مبكرة وفجأة أصيب بحمى انتهت بموته ، ولم يكن قد أكمل السابعة والثلاثين من عمره حين وافته المنية فى ٦ إبريل سنة ١٥٢٠ ودفن فى الپانثيون بروما

يقول بعض المؤرخين بأن حزنه على خطيبته ماريابيينا التى ماتت قبله بقليل كان من أهم العوامل التى قربت منيته ؛ فلقد كان على رقة إحساسه ودقة تكوينه الجسمانى عاشقاً مخلصاً ومحباً متفانياً . فضؤلت مقاومته للمرض

وسجل جمال خطيبته فى كثير من مصوراته وعلى الخصوص فى لوحاته التى مثلت المـادونا السكستينية ودونّا فيلاتا ولا يزال بعضُ هذه الصور محفوظاً فى أوفيست بفلورنسا .

وأقيم له تمثال تذكارى من البرنز في أوربينو بارتفاع أربعة أمتار تقريباً ، صنعه المثال الايطالى المعروف لوريجي بللى سـنة ١٨٩٧ ، كما نحت المثال الألمـانى هانل تمثالاً له لايزال من النماذج الفذة لطراز النحت الألمـانى .

هذه قد تكون أبسط قصة تقال عن فنان لانظير له ، عاش قليلا ولـكنه أنتج كثيراً ، وهو إلى جانب ميكيلانجلو لا يُعدان فقط ثروة الفن الايطالى الحديث بل ثروة العالم أجمع .

ولم يشتغل رفاييللو بالتصوير الجصى (الفرسكو) إلا بعد أن سافر إلى روما حيث قام بتصوير ثلاث غرف وردهة كبيرة في الفاتيكان ، وفيها جمع بين التصوير الرمزى والدينى .

وبعد أن كان البابا يوليوس الثانى عازماً على زخرفة الغرف بواسطة بعض المصورين المعاصرين أمثال پيروجينو وسودوما وغيرهما ، تراه قد تحول اتجاهه إلى روفاييللو بعد أن شاهد تصويره وتفوقه على معلمه ، فكلفه القيام باكمال العمل إلى نهايته .

أما عمله فى الغرفة الأولى (Stanza bella Salgneura) (١٥٠٨ — ١٥١١) فهو متجه فى جوهره إلى الروح الفنية التى كانت لها الغلبة فى ذلك الحين وهي روح من النهضة ، ويتلخص موضوعها فى التعبير عن قوة القوى المسيطرة على العقل الانسانى ، المهيمنة على مصير الانسان ؛ فيرى الشاهد أمام عينيه صوراً رائعة للتعبير عن اللاهوت (الدين) والفن (الشعر) والفكر (الفلسفة) والقانون (الفقه) ، صورها كلها على مساحات دائرية الشكل ، وإلى جانب كل منها التفاسير المرتبطة بموضوع الصورة كالخطيئة والعقوبة والدنيا وحكم سالوم .

أما الصور الكبيرة فى هذا المكان فقد جعلها تنطق بالحقائق التى ترمز إليها في عالمنا الدنيوى .

وفى المكان المسمى ديسپوتا (Disputa) صور المسيحيين الصالحين مجتمعين حول الهيكل وقد فتحت فوق رؤوسهم أبواب السماء (النعيم) . وفى پارناس (Parnass) صور الشعراء الأقدمين والمحدثين ملتفين حول أپولو وآلهات الشعر من حوله .

أما الفلسفة فقد صور مايعبر عنها بمدرسـة أثينا الجامعة (الكارتون محفوظ بميلانو) وهى شاملة للمشتغلين بالعلوم العقلية أمثال أفلاطون وأرسطوطاليس وحولهم تلاميذهم ، واتخذ الفنان الركن الأيمن من الصورة لتصوير نفسه مع معلمه پيروجينو .

أما الدين فهو ممثل فى صورته بالبابا والقيصر وهما يصرّفان الأمور والشئون بموجب الكتب السماوية .

« له بقية »

أحمد موسى



شـــقاء

للأستاذ اسماعيل مظهر

هذه صورة من صور الريف ، حملتها ذاكرتى مذ كنت شاباً فى مقتبل العمر ، وقد انتهيت من مجهود عام دراسى شاق فى زمان كنا ندرس أكثر المواد باللغة الانجليزية ؛ وما كدت أنتهى من تاريخ رومية واليونان والحساب والهندسة والجبر وأدب شكسبير ، حتى سارعت بالسفر إلى الريف أستجم بسكونه وسذاجته ، وأطلب فى حقوله وهوائه وشمسه راحة القلب وسلوى النفس ورخاء البال ، وأسعد بالعمل فى الحقول جهد استطاعتى لأشارك فى عمل له نتاجه وثمره القريب . غير أنى شعرت بعد قليل من الاستقرار فى الريف أن الحياة قلما تهيئ الراحة التى نطلبها أو تحقق بعض ما نتمنى من الوحدة والاتساق يشيعان فى نواحى العقل والنفس ، ويعوضان على المرء بعض ما ينفق فى حياة المدن من إرهاق يأنسه فى تنافر الصور فى المرئيات والمعقولات . ذلك بأن قريتنا الصغيرة كانت قد احتلت بكائن غريب الأطوار من نسل آدم وحواء ، أجدر به أن يكون على نشوء الانسان من صورة دنيا : المثل الأعلى والبرهان الصادق الملموس الظاهر للعيان

* * *

بقربة من غدير يمر بجوار القرية ، شجرة من الصفصاف تتدلى فروعها الطويلة فتمس صفحة الماء الجارى ، حتى ليخيل إليك أن بين الماء وفروع تلك الشجرة صراعاً ؛ كأن الماء يحاول أن يقتلعها ويجرفها بتياره ، وكأن الشجرة تحاول أن تقاوم إرادته فتتشبث بالأرض . أما الغدير فيجرى هادئاً مطمئناً بريئاً من فكرة العنف والفساد . وأما الشجرة فتظل بفروعها على صفحة الماء الهادىء . كأنها نرجس فى خرافات الأقدمين .

فلا جلاد إذن ولا عراك ، ولا تناحر ولا خصام ، فى ذلك العالم الجميل الذى يضم الشجرة والغدير ، وما العاصفة والعراك إلا فى خيالك وفى نظرك إذ يخدعك عن هذه الحقيقة ، كما يخدعك عن كثير من حقائق الحياة .

وبين أصل الشجرة وحافة الماء منسطح صغير من الأرض كسته الأعشاب البرية . ونبتت فيه حشائش النجيل الجميلة وقليل من السعد ، تناثرت من فوقه بضع شجيرات من عشب البرنوف الأخضر الزاهى . وقد هجر فتيان القرية وعذاراها الحسان هذه البقعة الجميلة ، شأنهم فى هجر كل جميل ، سعياً وراء العيش والضرب فى مناكب الأرض . لعنة الله على مناكبها .

تلك بقعة من الأرض أصح ما توصف به أنها ملك الطبيعة على قلة ما تملك الطبيعة من وادينا العظيم ، فلا محراث يبج بطنها ، ولا فأس تقلب طبقاتها ، ولا منجل يحصد ما نبت فيها ، بل ولا إنسان يحييها تحية الحب والجمال . فهى أحق بأن تدعى « الشقة الحرام » كما يسمون البقعة التى تكون بين جيشين متحاربين No Man'sLanp .

وكنت أمر على هذه البقعة المهجورة عجلان مسرع الخطو فأحييها تحية صامتة ، وأتمنى لو أن مشاغل الزرع والانتاج ، والحرث والحصاد ، والرى والصرف ، تمكننى أن أسعد بيوم واحد أقضيه فى ظل هذه الصفصافة . وفوق بساطها السندسى الجميل . وكانت هذه الأمنية تعاودنى صبيحة كل يوم وأنا رائح إلى الحقل ، وفى كل أمسية وأنا غاد إلى دارى . ولكن الأمل باق ما دامت هذه البقعة بكراً لم يغشها إنسان ولم يفكر مخلوق فى أن يسعد بجمالها قبلى . ودرجت على ذلك الأيام . فالصفصافة واقفة مشرفة بهامة الجبار على مجرى الغدير . وغدائرها الطويلة يمايلها النسيم على صفحة الماء ، وخيال العراك الدائم بين الشجرة والغدير قائم فى وجدانى ، وأمل المتعة بيوم أقضيه فى ظل الشجرة المحبوبة متجدد كل يوم .

ولكن لا . فلا بد من يوم تغشى فيه الآمال الحلوة الخلابة

سحائب من الكدر . فان مخلوقاً غريباً احتل البقعة الحرام ، واستظل بالصفصافة المقدسة . وقد خلع رداءه وجلس على حافة الغدير ينظر فى مائه المنساب الدافق كأنه يستوحيه الأسرار ، مثبتاً ناظريه فى نقطة واحدة كأنما جاذبية الأرض قد تجمعت فيها ، والماء ينساب متحدراً إلى غاياته ، والصفصافة قائمة بظلها الوارف ما يعنيها فى هذه الحياة من شيء ، استظل بها فيلسوف من طبقة أفلاطون ، أو أبله «ممسوخ» شوهت الطبيعة من خلقه كذلك الشبح الذى رأيته على ما وصفت صبيحة ذات يوم .

هو مخلوق هبط هذه البقعة من عالم سحرى عجيب ، ضئيل الجسم نحاسيُّ اللون صغير العينين أفطس الأنف دقيق الشفتين على غير قياس ، بارز الذقن إلى غاية غير مألوفة ، مكتنز الرأس طويل الوجه بارز الصدر مخسوف الظهر . طويل الذراعين قصير الرجلين . وقد اندكت رقبته بين كتفيه ، فقصرت قامته على قصرها ، وغشيت نحاسية وجهه بقعة من السواد الفاحم أتلفت مساحة منه غير صغيرة ، ونبت فيها شعرات قصار ملس كأنها الحشائش الفطرية فى حرجة كثيفة حجبت الأشجار الباسقة عن أرضها ضوء الشمس . وهو فوق ذلك أجرد ، فلا شارب ولا لحية له ، غليظ اليدين والقدمين واسع الشدقين بارز الأسنان إذا مشى فهو الهرة إذ تتلبث ؛ وإذا نظر فكأنه يريد أن ينفذ ببصره إلى ما فى سريرتك . وما تنم حدة نظراته وجودها ، إلا عن شدة ما قاسى من الزمن ومن الطبيعة ومن الناس

مررت بهذا المخلوق محسوراً على أملى الذى سوف لا يتجدد بعد اليوم ، وعلى البقعة الحرام يستبيحها هذا القزم الأسود العجيب . فكنت أراه كل صباح ثم أخلفه من ورائى فى رواحى إلى الحقل وفى غدوتي إلى الدار وما رأيته يوماً بعيداً عن ظل الصفصافة أو غير ناظر إلى صفحة الغدير . وقد ألف المكان وألفه نظرى ، فكان يخيل إلى أن الصفصافة والغدير قد أصبحا له ، على حد قول هوجو ، بمثابة البيضة والعش والسكن والوطن والكون

ولقد هممت مرات عديدة بأن أسأل ما شأنه ، وما حاله ، وما الذى جعله يختار قريتنا دون القرى الأخرى . وكنت أقمع هذه الرغبة وأسلط إرادتي على حب الاستطلاع في نفسى . ولكنى هزمت ذات يوم فوقفت إزاءه وأطلت النظر فيه ، فأخذ يخالسنى النظر وحول عينيه بحوي وما تزالان تنظران في الأرض وتتحركان حركة عصبية شديدة ، حتى ليخيل إليك أن هذا الانسان ما يظن فيك إلا أنك وحش مقدس يريد الانقضاض على الفريسة المسكينة الوادعة . ولم يكن فى هذا غير مصيب . فقد هممت أولاً أن أقرئه السلام ، ثم ترددت وقام فى نفسى أن أجره من أذنه الغليظ لأريه الطريق المسلم إلى القرية الأخرى . ولكن لم كل هذا التعب ؟ فهو جالس على حافة الغدير مستجمع كأنه النسر الأجرب العجوز وقدمي حاضرة . فركلة واحدة تسلم به إلى الغدير يتولاه برحمته الأبدية . ولأى شيء خلقت الرجل وفيها القدم ، ولأى شيء زودت بهذه العضلات القوية ، إن لم يكن لمثل هذا الظرف ولمثل هذا المخلوق الأشوه . فان الطبيعة ما أبدعت من شيء إلا وأبدعت معه طريقة التخلص منه . وقد قام فى نفسى أن الطبيعة لم تدربنا على العدو والقفز ، والركل واللكز ، والطفر والوكز ، فى طفولتنا إلا لتكون عدتنا لمثل هذه الساعة ، وفى مثل هذا الظرف ، ولمثل هذا القرد الأزعر العجيب

ولقد قويت فى نفسى هذه الشهوة وخيل إليّ أن الأمر سهل هين والطريق مقفر والحقول خاوية . وقد انحدرت الشمس فغابت فى عينها الحمئة السحيقة . وما أجَّل لهذا المخلوق فى الحياة بعد هذا كله إلا استيقاظة نفسية ، سرعان ما تبخرت معها فكرة الثورة على النظام وعلى الطبيعة ، وتحركت شفتاى على غير إرادة منى وقرأته السلام

يالله ! ها هوذا قد نظر إليّ بكامل وجهه ، وعيناه تبمثان بصيصاً فيه الرعب والوجل والألم والقسوة والجود . وأخذ يجاهد جهاد المستميت ليرد تحيتى بأحسن منها ، وأخذت الكلمات تخرج من شفتيه غير متماسكة الحروف ، فكان فيها مد وغن .وقصر واستطالة ، وعوج واستقامة ، وإمالة وإشمام ، ومضت دقائق ما أعرف عددها قبل أن يتم رد السلام :

— وعليكم السلام ... ورحمة الله وبركاته ... إزاى حضرتك سلمات ... أهلا وسهلا ... يا مرحب

— اسم أخينا إيه ؟

— اسمي ...

— أيوه

— اسمى ... والله اسمى ... اسمي ... محمد

— بتعمل إيه

— أ ... نا

— أيوه أنت

— أنا ... بشتغل ... فى غيط ... عم حمدان ... اللي ... قصادك ده !

— وبلدك إيه ؟

— أ .. نا

— أيوه إنت

— بلدي ... بلدي ... بعيد من هنا ! بينا وبينها ... تلاته تعريفه تمام . واسمها ... اسمها ... الخرابة

ولقد صدق المسكين . فأية بقعة من بقاع هـذا العالم الواسع تقذف الانسانية المسواة فى أحسن تقويم بمثل هذا الشبح الممسوخ إلا بقعة خراب !

إذن فقط هبط علينا من الخرابة . وكيف يستوى أن يعيش فى العمران والمدنية ، من تلفظه الخرائب الموحشة الجرداء . وبلدة الخرابة قرية لا يدور اسمها على ألسنة موظفى الحكومة إلا قليلا فهي فى شمالى الدقهلية وفى أرض بور تبلغ مساحتها بضعة آلاف من الأفدنة كلها مرتفعات وأخاديد ، وقد تجمعت المياه فى بعض المنحدرات ونبتت فيها النِّسيلة والبَشْنين . أما المرتفعات فقد تجمع من فوقها السبخ الأحمر الكريه وتوجتها أدغال من الطرفاء ، وما إن تبعث على هذا الخراب الشامل بنظرة حتى يخيل إليك أن الله قد أنزل على هذه الأرض حسباناً من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً

وعلى تبة من تباب هذه الأرض السبخة المالحة تقوم أكواخ قرية الخرابة ، وقد نبت عليها شوك العاقول الأخضر ، وتسلقتها حشائش العليق ، وامتدت الرطوبة إلى نصف ارتفاعها . وعقدت أسطح الحجرات باللبن النيء ، وفتحت فى أعلاها النوافذ بارزة من أواسطها ، فيخيل إليك إذا نظرت فيها أنهن عجائز القرية المهجورات مسخن بكارثة ، وهن يتطلعن جميعاً إلى الشمال . فاذا جن الليل وأرسل القمر أشعته الفضية على هـذا الكون الميت العجيب ، شبه لك أن القرية قطيع من الفيلة السود ، تتساوق متزاحمة ، ولكن فى صمت كأنه صمت القبور

ومن حول هذه القرية تقوم بضعة شجيرات من السنط بهت لونها وامتقعت أوراقها ، وما يغشاها من طرفى النهار إلا غربان تنعق ، وما يألفها في الليل إلا البوم تنوح من حول القرية طيلة ساعات السواد ، نادبة حظ الأحياء والأموات ، مرسلة بأنأتها الطويلة الشجية الحزينة ، ترثي الطبيعة المجرودة الغبراء

وعلى مسيرة بضع دقائق تقع جبانة القرية ، وقد انتثرت فيها القبور كأنها كثبان الرمل سفتها الرياح ، فتجاورت مزدحمة فى بقعة من الأرض ، والأرض من حولها فسيحة براح ، كأن طبيعة الانسان الاجتماعية قد أقسمت لتزحمنَّه فى القبور كما تزحمه فى الحياة . وقد ترى اللحد ومن فوقه ذلك الكثيب علاه السبخ الكثيب ، ومن حوله نبت الشوك وحوَّط القبر من جميع جهاته ، كأن الطبيعة قد أرادت أن تحدد تخوم كل قبر لتكفي الموتى مؤونة العراك على امتلاك القبور ، وهنالك تقع على جحر ذئب ، وهنا على نبيشة ثعلب ، وقد تنتبه على حركة طائر فى وحشة ذلك الصمت الأبدى ، فترى قطاة أزعجها مسيرك فى مدينة الأموات ، فتركت عشها من فوق قبر لتثقل به على صدر ميت كان بالأمس جباراً لا يرحم ، عنيداً لا يلين ، مشبوب الشهوات واسع الأمل مستثار الجنان

وإنك لتعجب كيف أن قزم الخرابة يترك تلك الجبانة التى نشأ بمقربة منها ، بل وفى حضنها الرهيب . ليهبط قريتنا ، فلا نراه إلا ونذكر الخراب والغربان والبوم . ولا نحييه إلا وفى مخيلتنا مجمل هذه الصور التى صورتها ، يحيها منظره ويدعوها إلى الوعى مجرد الذكرى ، بأن فى بلدتنا شخصاً من الخرابة . وتداعى الأفكار صفة نفسية ، ولكن لابد من باعث يحركها ويدعوها . فكان هذا سبباً في أن يبعد الناس عن طريق هذا الانسان لئلا تقوم فى مخيلتهم ذكريات الخرابة وذلك القفر المجدب الحزين والأكواخ تسلقتها الحشائش والأشواك والأشجار الميتة القائمة من حولها ، والغربان والبوم ، والجبانة والقبور ، فتغشى الطبيعة المرحة الباسمة سلسلة من تلك الذكريات الباكية . فلا ريب إذن في أن الأقدار قد تناصرت علي هذا المسخ المشؤوم . ولكن لم يقس عليه من الأقدار شيء بقدر ماقست عليه الطبيعة التى شوهت من خلقه ، و « الخرابة » التى نبذته وقذفت به إلي الوجود .

وقد يولد بعض الناس مثقلين بأوزار ، أو محكوماً عليهم بأن يعيشوا فى جفوة عما يحيط بهم من الأشياء ؛ فمنهم من تجنى عليه الطبيعة ، ومنهم من تجنى عليه الأسرة ، ومنهم من يجنى عليه الناس ، ومنهم من تجنى عليه البيئة ، وكثير منهم من يجنى على نفسه ، ومنهم من يخرج إلى الدنيا حاملاً وزر أبيه ، أو وزر أمه ، او وزريهما معاً . وهو بعد تلك الأداة الضعيفة ، وذلك المخلوق البائس . الذي لا اختيار له فيما اختارت له الأقدار ، ولا



الاحتفال بتولية جلالة الملك

أذاع مجلس الوزراء البرنامج الرسمي التالي للاحتفال بتولية صاحب الجلالة الملك وهو

الوصول الى الاسكندرية

١ – تصل الباخرة بمشيئة الله الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ الموافق ٢٥ يوليه سنة ١٩٣٧ فيصعد إليها عضوا مجلس الوصاية والأمراء والنبلاء الموجودون بالاسكندرية، ورئيس مجلس الوزراء والوزراء وكبار رجال القصر، ومحافظ الاسكندرية وقائد حاميتها المصرية ومدير الموانى، ومدير البلدية، ومدير خفر السواحل

٢ – ينزل المستقبلون ما عدا رئيس مجلس الوزراء لانتظار جلالة الملك على رصيف محطة الاسكندرية

٣ – يقل جلالة الملك لنش المحروسة لتشريف سراى رأس التين وبمعية جلالته رئيس مجلس الوزراء وكبار رجال القصر

٤ – يعود لنش المحروسة إلى الباخرة فيقل جلالة الملكة وحضرات صاحبات السمو الملكي الأميرات وبمعية جلالتها ناظر خاصة جلالة الملك

٥ – يقوم ركاب جلالتها وسموهن الملكي إلى محطة الاسكندرية قبل قيام ركاب جلالة الملك وبمعية جلالتها ناظر خاصة جلالة الملك

٦ – يتحرك ركاب جلالة الملك إلى محطة الاسكندرية فى الوقت المناسب لكى يقوم القطار الملكى الساعة ٩،٣٠ صباحاً

٧ – يكون فى مثول الاستقبال بالمحطة حضرات المستقبلين على ظهر الباخرة والمعتاد وجودهم عند تشريف جلالة الملك ثغر الاسكندرية سنوياً .

٨ – يقوم القطار الملكي إلى محطة سراى القبة رأساً ويقف فى المحطات المعتاد وقوفه فيها ويكون الاستقبال طبقاً لما يتبع عند

حيلة فى ما مضت به الكلمة المبرمة فى ألواح الأبد والأزل .

***

فى الإنسان طبيعة مشتركة، من تفاسير الوجوه ماينم عنها، ومن الذكريات وتداعى الأفكار ما يرسم على وجوه أبناء آدم تعابير واحدة. فكنت إذا ذكرت «محمداً» مساعد حمدان العربي وبلدته «الخرابة»، ارتسم على الوجوه مايدل على ماقام فى النفوس من الاستيحاش والتشاؤم والبغض والاستفزاز.

وفى صبيحة ذات يوم، أشبه بذلك اليوم الذي احتل فيه ذلك القزم سيف الغدير المحبوب، اجتمع نفر من أهل القرية وقد ذر قرن ذكاء بأبهته السماوية، ينظرون فى الماء ليتبينوا شيئاً يعلو ويهبط أمام قنطرة تحجز مياه الرى

تلك جثة «محمد الخرابة»، فقد تولاه الغدير برحمته الأبدية، أما أهل القرية فقد ظهرت على وجوههم تعابير الرحمة ممزوجة بالكثير من راحة البال والضمير. فلا الشوه يمازج ذكرياتهم، ولا الخرابة بغربانها وبومها وأشجارها الميتة وقبورها الموحشة وسكونها الرهيب الأليم، وليلها المربد الهادى هدوء الموت، يمر على مخيلاتهم أو يلابس وعيهم من بعد ذلك

***

ولكن . . . هنالك بمقربة من الجثة المسجاة، جلست «فاطمة» ابنة حمدان، بوجهها الصبوح وعينيها الواسعتين، وبشرتها القمحية الجميلة وقوامها اللين المتعاطف، جلست وحدها بغير شريك من فتيان القرية وفتياتها، وهى أفتنهن جميعاً، تخالس الجثة النظرات صامتة مبهوتة، وترمق الجسد البارد بعينين حائرتين جامدتى النظرات، وقد تقاطرت منهما دموع انحدرن كالحصيات الكبار

اسماعيل مظهر

انتقال جلالته من الثغر إلى سراى القبة العامرة .

٩ — تعد دفاتر لقيد أسماء المهنئين فى قصرى رأس التين وعابدين .

حفلات مباشرة السلطة الدستورية

يوم الخميس ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ٢٩ يوليه سنة ١٩٣٧ .

١ — يقوم الركاب الملكي من سراى عابدين العامرة الساعة ٨،٣٠ صباحا إلى دار البرلمان عن طريق ميدان عابدين فشارع الخديو اسماعيل فميدان الفلكي فشارع الخديو اسمعيل فشارع قصر العيني فشارع مجلس النواب .

٢ — تكون العودة إلى سراى عابدين العامرة من طريق شارع قصر العيني فشارع سليمان باشا فشارع فؤاد الأول فميدان ابراهيم باشا فشارع ابراهيم باشا إلى السراى العامرة .

٣ — عقب عودة جلالة الملك إلى السراي الملكية العامرة تجرى التشريفات العامة حسب الترتيب الذى سيعلن عنه وفى الوقت نفسه تقام حفلات استقبال فى المحافظات وعواصم المديريات للموظفين والأعيان الباقين بها .

٤ — بعد انتهاء التشريفات يقدم وزير الحربية باسم الجيش المصرى ويحضوو كبار الضباط إلى حضرة صاحب الجلالة الملك عصا المشيرية هدية منهم لجلالته رمزاً لاخلاصهم وولائهم

٥ — تجرى تشريفات حضرة صاحبة الجلالة الملكة قبيل الظهر وبعده طبقاً لترتيب المقابلات الذى سينشر فيما بعد :

٦ — قبيل المساء يذيع جلالة الملك كلمة على شعبه فى الراديو

٧ — تقام مأدبة عشاء بالسراى وتعقبها حفلة ساهرة

***

يوم الجمعة ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ٣٠ يوليو سنة ١٩٣٧

١ — يؤدى جلالة الملك فريضة الجمعة فى مسجد الرفاعى ، ثم يزور قبر المغفور له والده

٢ — تقام مأدبة غداء للعلماء فى قصر عابدين يحضرها رئيس مجلس الوزراء ووزير الأوقاف

٣ — فى الساعة الخامسة بعد الظهر تقام حفلة شاى بسراى عابدين العامرة

٤ — فى الساعة ٨،٣٠ مساء يشرف حضرة صاحب الجلالة الملك مأدبة العشاء التى يقيمها رئيس مجلس الوزراء بسراي الزعفران والحفلة الساهرة التى تليها

***

يوم السبت ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ٣١ يولية سنة ١٩٣٧

١ — فى الساعة ٨،٣٠ صباحاً يستعرض حضرة صاحب الجلالة الملك الجيش

٢ — فى الساعة الخامسة مساء تقام حفلة شاي بسراي عابدين العامرة يحضرها ضباط الجيش على اختلاف رتبهم وأسلحتهم ، وكذلك الضباط المتقاعدون من رتبة أميرالاى فما فوقها

رسائل عن مصر فى أواخر القرن الماضى

أصدر متحف بروكلين الأمريكي أخيراً كتاباً عنوانه « رحلات فى مصر » Travels in Egypf ، وذلك من ديسمبر سنة ١٨٨٠ إلى مايو سنة ١٨٩١ ، وهى عبارة عن رسائل بقلم تشارلس أدون ولبور ، نشرها وعلق عليها العلامة الأثرى الأستاذ جان كابار . ولمؤلف هذه الرسائل المصرية قصة مؤثرة فقد كان من علماء الآثار الأمريكيين . ووفد على مصر فى أواخر القرن الماضى ، وقضى بين أطلالها ومعابدها القديمة نحو عشرة أعوام فى التنقيب والدرس ، ثم توفى فى سنة ١٨٩٦ . دون أن يتمكن من نشر شىء من مباحثه العديدة ، وترك مجموعة أثرية فخمة ومكتبة نفيسة عن الأثريات المصرية وهبهما أبناؤه إلى متحف بروكلين تخليداً لذكراه . وفى سنة ١٩٣٢ عثر الأستاذ كابار فى هذه المجموعة على رزم من رسائل مهملة ، وما كاد يتصفحها حتى أيقن بنفاستها وأهميتها من الوجهتين التاريخية والأثرية

ذلك أن تشارلس ولبور كاتب هذه الرسائل عاش فى مصر في فترة وصلت فيها المباحث الأثرية القديمة إلى ذروة الازدهار ؛ وكان بمصر يومئذ العلامة الفرنسى ماسبيرو يقوم بأعظم حفرياته ومباحثه ، وكذلك العلامة الألمانى هينريخ بروكش ، والمستشرق الانكليزى سايس ، وكان ماسبيرو يومئذ قد وفق إلى أعظم اكتشافاته وهو اكتشاف الموميات الملوكية فى الدير البحرى ؛ وكان مستر ولبور وثيق الصلات بأولئك العلماء الأعلام وبأعمالهم

ومباحثهم ، وكان أيضاً وثيق الصلات بالأهالى فى المناطق الجنوبية التي يجرى فيها الحفر ، وقد وفق فى حفرياته إلى اكتشاف بعض القطع الأثرية وأوراق البردى ، وهى تحفظ الآن فى المتحف البريطانى . فهذه الجهود والتطورات العلمية الهامة التي شهدتها مصر فى أواخر القرن الماضى يصفها مستر ولبور فى رسائله باسهاب ، ثم هو يصف خلالها حالة الريف المصرى والمجتمع المصرى يومئذ ؛ وهذه الرسائل التي وجهها إلى أسرته وإلى بعض أصدقائه هى التي يضمها المجلد الضخم الذى أصدره متحف بروكلين وقام على نشره الأستاذ كابار ، وهى رسائل لها قيمتها فى تاريخ مصر الأثرى والاجتماعى فى أواخر القرن الماضى .

جوجليلمو مركونى

فى يوم الثلاثاء الماضى نعت أنباء رومة العلامة المخترع الأشهر جوجليلمو مركونى ، الذى كان لاختراعاته فى المواصلات اللاسلكية أعظم أثر فى تطور الحياة البشرية فى عصرنا ؛ وكان مولد هذا العلامة الكبير فى مدينة بولونيا (بايطاليا) فى ٢٥ أبريل سنة ١٨٧٤ فى أسرة كريمة من أب إيطالى وأم ارلندية ، وتلقى مركونى تربية حسنة فى جامعة لجهورن ثم فى جامعة بولونيا ؛ وكان من أساتذته العلامة الرياضى الشهير روزا . وأبدى مركونى منذ حداثته عناية خاصة بكل ما يتعلق بالكهرباء ، وشغلته فكرة نقل التموجات الكهربائية عن طريق الهواء فأجرى فيها تجارب لم تشجعه عليها الحكومة الايطالية يومئذ ؛ فذهب إلى انكلترا واتصل بالسير وليم بريس كبير مهندسى التلغرافات يومئذ ، وأجرى تجاربه باشرافه ، ونجحت التجربة لأول مرة فوق خليج برستول . وفى سنة ١٨٩٩ تقدمت التجربة خطوة جديدة ، واستطاع مركونى أن ينظم المواصلات اللاسلكية بين فرنسا وانكلترا فوق القنال الانكليزى . وفى سنة ١٩٠١ استطاع أن ينظم المواصلة اللاسلكية فوق المحيط الاطلانطيقى بين كورنوال فى انكلترا وجزيرة نيوفوندلند فى أمريكا على مسافة ٢١٠٠ ميل ؛ وعلى أثر ذلك افتتحت المواصلة اللاسلكية بصفة رسمية بين أوربا وأمريكا ، وكلل اختراع مركونى بالنجاح الكامل ؛ وذاع الاختراع بسرعة ، واستعملته السفن التجارية منذ أوائل هذا القرن ، وكذلك نظم فى جميع الأساطيل الحربية ، وأضحى أداة سهلة سريعة للمواصلات البرقية ؛ وخصص مركونى حياته لتحسين اختراعه المدهش ؛ وأنشأ منذ سنة ١٩٠٠ شركة للمواصلات اللاسلكية سميت باسمه ولها اليوم فروع فى جميع أنحاء العالم . ولما دخلت إيطاليا فى الحرب الكبرى تولى مركونى الاشراف على المواصلات اللاسلكية الايطالية ؛ وفى نهاية الحرب انتدب عضواً فى الوفد الايطالى لدى مؤتمر الصلح ، وتولى عن إيطاليا توقيع معاهدات الصلح التي عقدت مع النمسا وبلغاريا ؛ ومنح مركونى من ألقاب الشرف العلمية والأوسمة الرفيعة ما يضيق المقام عن ذكره ؛ ومنح جائزة نوبل للعلوم فى سنة ١٩٠٩ ؛ وانتخب منذ سنة ١٩٣٠ رئيساً للمجمع العلمي الايطالى ؛ وأنعم عليه بلقب المركيز ، وانتخب عضواً بمجلس الشيوخ

واليوم يغدو اختراع مركونى فى المواصلات اللاسلكية وتبادل التموجات الأثيرية أعظم ما عرف العصر ؛ ولم يحدث أى اختراع آخر مثل ما أحدث اختراع مركونى من ثورة فى نظم الحياة البشرية ، ولم يقرب مثل ما قرب بين أبعد أطراف العالم . وإذا كنا نستطيع اليوم فى لمح البصر أن نتصل بأوربا وأمريكا واستراليا ونحن جلوس فى منازلنا ، وأن نصغى إلى آخر الأنباء العالمية ، وأن نسمع الموسيقى والغناء على بعد آلاف الأميال ؛ وإذا كانت السفن فى عرض المحيط ، والطيارات فى جوف الفضاء ، تستطيع الاتصال والاستغاثة عند اللزوم ، فالفضل فى ذلك كله يرجع إلى عبقرية جوجليلمو مركونى

ولم ينبغ فى عصرنا من المخترعين نبوغ ماركونى في ميدانه سوى رجل واحد هو أديسون المخترع الأمريكى ؛ على أن مركونى يتفوق على أديسون من الناحية العلمية ، ويمتاز بسعة آفاقه التي لم يحد منها بحر ولا جبل ولا هواء . وقد عاش مركونى طول حياته فى جو من الهدوء والثقة ، يحمله النجاح الى التماس النجاح ؛ وكان مثل العلامة المتواضع يرتفع بالفكرة الانسانية إلى ذروتها .

حرب الميكروبات

إذا كان عصرنا عصر المعجزات العلمية ، فهو أيضاً عصر المهلكات . ولم يسبق فى التاريخ أن سخر العلم لاختراع المهلكات البشرية كما سخر فى عصرنا ؛ فالأمم العظيمة كلها تسخر قوى العلم لاختراع الأسلحة الجديدة وصقل الآلات المهلكة . وتحسين الأسلحة الجوية والبحرية . وتحويل الحرب إلى عملية ميكانيكية مخربة ؛ وأفظع ما فى هذا النشاط المخرب هو الحرب الكيماوية التى يوجه اليوم لها نشاط العلم والاختراع ؛ فعلماء الذين يعتبر واجبهم المقدس أن يعملوا لخير الانسانية ورفاهتها وصون الحياة البشرية من الأدواء والأمراض ، يعملون اليوم لافناء المجتمع الانساني ، وسحق المدنية ، وقتل الانسان بواسطة الغاز الخانق ، والسوائل الملتهبة والجراثيم (الميكروبات) الفتاكة ؛ وتشتغل المعامل الكيماوية فى معظم الأمم الكبري اليوم باختراع هذه المهلكات والعمل على مضاعفة قواها المهلكة ؛ وقد كانت ألمانيا أول دولة لجأت إلى هذه الوسيلة المروعة ، واستعملتها فى الحرب الكبرى ، فاستعملت الغاز الخانق وأنواعاً أخرى من الغازات الخطرة ؛ وكانت هذه مفاجأة مروعة لجيوش الحلفاء . بيد أنها لم تبلغ يومئذ مدى كبيراً . فلما انتهت الحرب فطن الحلفاء الى هذا السلاح الجديد الخطر ، وأدركوا ما للحرب الكيماوية من أثر عظيم فى المستقبل ، وانكب علماؤهم ومعاملهم على بحث السوائل والغازات والميكروبات المهلكة ؛ وكانت المانيا التى وجدت فى المباحث الكيماوية السرية ملاذها وسلامتها بعد هزيمتها الساحقة فى الحرب — فى مقدمة الدول التى خصت الحرب الكيماوية باهتمامها ؛ ويقال إنها انتهت فيها إلى نتائج خطيرة . والمعروف أن ألمانيا حاولت فى الحرب الكبرى أن تستعين على إهلاك اعدائها بالميكروبات وانها حاولت تطبيق هذه التجربة فى رومانيا . ومنذ سنة ١٩٣٣ ، أعنى منذ قيام النازى فى الحكم تعمل المعامل الألمانية ليل نهار لابتكار وسائل الدمار البشرى وتعنى عناية خاصة بمسألة الميكروبات . وقد وجه معهد كوخ إلى المعامل الألمانية منشوراً فيه بيان مفصل عن الميكروبات التى يمكن استعمالها فى الحروب المقبلة ، وعن أفضل الوسائل لاستعمالها .

ويقول الدكتور ليفين الألمانى الاخصائى الكبير فى هذا الموضوع : إن الميكروب هو أفضل مهلك للجيوش ، لأنه متى ارتفعت صيحة الذعر فى الجيش فقد قضى عليه .

وتعنى الدول الكبرى الآن بهذه المشكلة الخطرة ، وتجتهد في ابتكار وسائل الوقاية ، إلى جانب ماتعني به من اختراع المهلكات ، وهى جميعاً تفطن إلى الكوارث المروعة التى تتعرض لها الشعوب والانسانية من جراء هذا الخطر الشامل .

وفاة طبيب عالمى

نعت أنباء باريس الأخيرة الأستاذ الدكتور لا برسون العلامة الرمدى الشهير : توفى فى الخامسة والثمانين من عمره بعد حياة علمية وطبية حافلة ؛ وقد بدأ حياته أستاذاً للرمد فى كلية الطب بجامعة ليل ، ثم انتقل إلى باريس حيث عين أستاذاً للرمد في جامعتها ، وعين مديراً لقسم الرمد فى « أوتيل ديو » وانتظم عضواً فى أكاديمية الطب ، ثم انتخب رئيساً لها ، وطارت شهرته كحجة عالية فى أمراض العين ، ووضع كتباً ورسائل كانت مرجع الأطباء الرمديين فى جميع أنحاء العالم ، وكان لتعاليمه ومؤلفاته أثر كبير فى تطور طب العيون بفرنسا ، وقد تخرج على يده عدد كبير من أطباء العيون فى فرنسا وفى خارجها .

تصويب

قرأت فى عدد الرسالة الأخير فى مقالة الأستاذ المؤرخ الجليل محمد عبدالله عنان فى صفحة ١١٧١ فى الجانب الأيسر من الرسالة فى السطر الرابع أن الملكة هورتنس ابنة الامبراطورة جوزفين من زوجها الأول كانت زوجة القائد مورات . والذي قرأناه فى الكتب هو أنها كانت زوجة لويس أخى نابليون الذى نصبه ملكا على هولندة ، وولدت من نابليون الذى صار فيما بعد نابليون الثالث . أما زوجة القائد مورات الذى نصبه نابليون ملكا على نابل فى إيطاليا فهى كارولين أخت نابليون . ويلاحظ أن الضمير فى الفعل فى الجملة مفرد مما يدل على أنه لايتكلم عن اثنتين فالرجو إيضاح وجه الصواب للفائدة

(ش)



المستشرقون

تأليف السيد نجيب العقيقي

للأستاذ الحوماني

يكاد يكون الاستشراق علماً بنفسه له أصوله وفروعه ، وله مقدماته ونتائجه ؛ ويكاد يكون رجاله ، على رغم شتاتهم ، شعباً خاصاً له أفقه الخاص به ، وحياته القاصرة عليه ، وقد مر بهذا الشعب وبرجاله فى العالم قرون لم يكتشفه ، كما هو ، عالم ولا أديب ولكن هنا لك بضعة من الكتاب نقلوا لنا وللغربيين نتفاً من أخبار هذا الشعب . . . فى معرض النقد أو التقريظ ، والناقل إما شرقى يشكر للمستشرق إنصافه أو ينعى عليه تعصبه ، وإما غربى يشكر له عصبيته أو ينعى عليه انصافه .

نقرأ فى بعض الكتب وفى كثير من الصحف أشياء عن هذا الشعب شعب المستشرقين ، ونقرأ أشياء لكثير من أفراد هذه الجماعة جماعة الاستشراق عما يكتشفون فى عالمهم من آثارنا نحن الشرقين .

اما أن نسمع بكاتب جمع شتات هذا الشعب فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، ولم شعثه ، ثم كشف عن آثاره بين جلدتين تشتملان على كتاب وبلسان شرقي عربى يصور لنا حياتهم قديمة وحديثة ، ويبعث فينا آثارهم مكتسبة وموروثة ، ويكشف لنا آراءهم خاطئة وصائبة ، ويمحص لنا أقوالهم جائرة ومنصفة ، ويمعن فى البحث عن أغراضهم وأهوائهم ، ويعلل أفعالهم وأقوالهم ، ويحلل آراءهم وأفكارهم ، بعيداً عنهم وهو فى الصميم من جماعتهم ، منصفاً فى الحكم عليهم والقضاء لهم ، أما هذا الكاتب فلم نسمع أو لم أسمع أنا به على الأصح فيمن غبر أو حضر من كتابنا ماخلا هذا الشاب المثقف (النجيب) صاحب كتاب « المستشرقون » المؤلف الحديث الذى أخرجته لنا فى الأيام الأخيرة مطبعة الاتحاد البيروتية فى مائتين وخمسين وجهاً من القطع الوسط يحمل اسم مؤلفه « نجيب العقيق »

لا أحب أن أعرض لعروبة الكتاب والناحية البيانية فيه فان مؤلفه واحد من هؤلاء الشباب الذين عمروا قلوبهم بالثقافة الأجنبية فى معاهد إنما شيدت لقتل العروبة فى بلادنا لغة وخلقاً ومعتقداً ، وإذا قرأت فى الكتاب جملا فصيحة فانما هى نتاج الغريزة العربية فى المؤلف ، وثمرة حبه للأدب العربى وغرامه بالديباجة العربيـة الذي حمله على ألا يدع مؤلفاً عربياً ، قديماً أو حديثاً ، سمع به واستطاع الوقوف عليه ، إلا اتصل به وأخذ منه ، فهو كاتب عربي فى مؤلفه هـذا بما قرأ لا بما درس . من أجل ذلك كانت ديباجته فيه عادية لا روعة فيهـا ولا سحر ، وربما وقفت عند كثير من جمله تتبين ماتشتمل عليه من معان أبهمها الاعجام .

فالكتاب فى لغته بسيط ، وهذا لايحط من قيمته العلمية ، فانما يؤخذ مؤلفه بما أودعه من فكرة لا بما تنق فيه من ديباجة .

ما أحببت أن أعرض فى نقدى هذا لشئ من ذلك ولكنى أحب أن أعرض لمواطن الجمال فى الكتاب معللا يضع خلال خبرتها فى نفس الكاتب .

عرفت نجيباً منذ أنشأت عروبتى ولم أزل أعرفه حتى اليوم ؛ ولأول نظرة ألقيتها عليه شربت روحه ولم أزل أشربها حتى الآن

قرأت فى شمائله الحرية فى غير أنانية ولا أثرة ، والصراحة فى غير مراء ولا صلف ، ولمست فيه الروح الوثابة والعمل الجبار ؛ قرأت فى شمائله كل ذلك ولم أزل أقرأه فيها حتى ساعتى هذه

توسمت فيه إذ ذاك النجابة ولم يكن قد أنتج بعد . فكتابه هذا هو باكورة عمله ، وإذا كان وليد أدبه الغض وشبابه الناضر

فماذا نرقبه من أدبه الكهل ؟ ثم ماذا سيطلع علينا به وقد أشرف على الأربعين سن الحكمة والنضج ؟

الحرية فى نجيب حملته على ألا يتقيد فى كتابه بدين درج عليه فى البيت وتلقنه فى المدرسة حتى كان جزءاً من دمه الفائر ونفسه الجبارة ، ولم يحل دون تحرير فكره فى مؤلفه هذا هيبة المستشرقين فى نفوس الضعفاء من كتابنا حتى تحامى أكثر هؤلاء إبرام ما نقض أولئك من حق أو نقض ما أبرموه من باطل .

عرفت العقيقي حراً فى زياراته لى وتحدثه إلى ؛ عرفته حراً فى شمائله ، حراً فى جدله ، حراً فى رأيه . وها أنذا أقرأه اليوم فى مؤلفه الجديد حراً فى درسه وتفكيره ، حراً فى بحثه وتحليله ، حراً في نقضه وإبرامه .

والصراحة فى نجيب حملته على أن يكتب فى الأدب للأدب ، ويبحث فى العلم للعلم ، ويجهر بالحق للحق .

فاذا نقم على المستشرق لتعصبه الذى يدفعه إلى الطعن على الاسلام (مثلا) فانما ينقم عليه للحق الذى يراه دون رياء أو تزلف يتملق بهما المسلم حباً للمال أو سعياً وراء الشهرة التى يحسبها النفر الخامل من متأدبينا فى الضجة الفارغة واللقب الكاذب .

العقيقي صريح في كتابه إلى أبعد حد في الصراحة لم يراع معه نبي الرجعيين من قومه عليه فيما يحمل على عصبية المستشرقين لدينهم أو عنصرهم ، ولا حذر انتقام الجهلاء من غير قومه فيما يصوب من حملات الغرب على الشرق .

والروح الوثابة في نجيب حملته على ألا يترك أديباً إلا جلس إليه ولا كتاباً إلا وقف عليه ، حدت به هذه الروح إلى أن يبحث ما اتصل به من علم ، وأن يدرس ما استطاع درسه من فن ، حتى بدا له أن يبدع فيما ينتج فولدت هذه الروح فيه فكرة الكشف عن هذا الشعب شعب الاستشراق المبعثر هنا وهناك .

ويهجر العقيقي أصدقاءه بضعة أشهر فلا يزورهم خلالها إلا لماماً ، ويمعن فى البحث والتنقيب ، والكتابة والترجمة ، ثم يطلع عليهم بعد عام وقد سهم وجهه وتغضن جبينه ، فاذا به يتأبط كراريس تشتمل على قلب نابض بالحياة ، وإذا بضربات هـذا القلب تقرع الأسماع ، وإذا بهذا القرع يملأ الأفق دوياً .

يتناول نجيب فى كتابه رأى المستشرق فى لغة العربى أو أدبه أو خلقـه أو معتقده فيمر به فى طريقه إلى الحكم على وطن المستشرق وعلى مدرسته وعلى كنيسته ثم على حكومته ، فاذا توفر لديه البحث عن وطنه كيف غادره ، وعن مدرسته كيف تخرج منها ، وعن كنيسته كيف اعتنق دينه فيها ، وعن حكومته وكيف كانت منزلته منها ، استطاع إذ ذاك أن يمحص هذا الرأى فيرجعه إلى المستشرق نفسه مجرداً عن الاهواء أو إلى أحد هذه العوامل متأثراً به إذ قلما استشرق غربى دون أن يتأثر بواحد منها

وهو يثبت فى كتابه أن الاستشراق غالباً مدفوع بسياسة الغرب ودينه لغزو الشرق واستعماره وقتل القومية فيه حتى تتوفر الغلبة للغرب عليه .

هذا ما أحببت أن أشير إليه من موضوعات الكتاب ويكاد يكون أروع موضوعاته ، فالشرق جد محتاج إلى مثل هذا المؤلف وما أحوجنا إلى كتاب آخر من هذا النوع يخلقه قلم العقيقي ويطلق عليه اسم (الغزاة) يعنى فيه بالارساليات التبشيرية عنايته بالاستشراق

وبعد فليس لى فى ختام كلمتى هذه إلا أن أعلن إعجابى بهذا الأثر ، وأدعو كل عربي أديب إلى الوقوف عليه والامعان فى درسه . فهل يرينا المستقبل من أبنائنا من يضرب على هذا الوتر فيحرر نفسه من العبودية بين يدى كل غربى مستشرق ؟ ؟ ؟

« بيروت » **الحوماني**
صاحب العروبة

فى قصيدة الدكتور عزام

كان فى قصيدة « دمشق » للدكتور عبد الوهاب عزام التى نشرت فى العدد الماضى – كلمات يتعذر فهمها بغير الشكل ، وقد أهمل شكل بعضها – فنعيد هنا نشر الأبيات التى وقع فيها ذلك :

حطَّ الرحال فهذا جهرةً بَرَدى وذى دمشق. هناك الأهل والدار
نسرٌ يرى اللُّوح منه هامة عطلا لكنه ذنبَ الطاووس جرار

وقد وقع تحريف فى الأبيات الآتية وصحتها كما يلى :

خافى المطامع طماح المنى عرم على الشدائد والسراء ثوار
شجا فؤادى عفاء فى مدارسها(١) والدهر بالناس دولات وأدوار
إنى أرى المجد قد أضنى أشعته وأشرقت فيـه دولات وأمصار

(١) فى الصالحية مدارس إسلامية قديمة خربة

(طبعت بمطبعة الرسالة والرواية بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧)

5 me Année, No. 213

Lundi - 2 - 8 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العدد ٢١٣ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ٢ اغسطس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد



أسبوع التاج

كانت مصر كلها طوال الأسبوع الماضي، من صباح أحده إلى مساء سبته، في سكرة من الطرب النشوان، وفورة من الحماسة المضطرمة. والطرب والحماسة كلمتان مسكينتان لا تقعان من حقيقة الأمر في كثير ولا قليل. وكيف تدرك من هاتين الكلمتين وأشباههما تلك الحال العجيبة التي قامت بسكان هذا البلد الوفي أبنائه ونزلائه لمقدم الفاروق، وتتويج الفاروق، ومواهب الفاروق، فجعلت كلامهم وأنغامهم وأحلامهم هتافاً لمجده لا يفتر، ودعاء لعهده لا ينقطع؟!

انفعلت قلوب الناس بما أجنته للمليك الشاب من الإعجاب والحب والأمل، فعبرت عن ضوء رجائها، وحرارة ولائها، بهذه

العنوان (فاروق الأول) مكتوب على شكل التاج من صنع الخطاط محمد حسني

الملايين من المصابيح الكهربائية ، رصعت بها وجوه العمائر والمتاجر ، وجعلت منها عقوداً منظمة على أطورة الطرق ، وأبراجاً متوجة فى بُهَر الميادين ، وأقواس نصر فى مداخل الشوارع ؛ وافتن فيها الصناع فرسموا بها أشكالا تعبر عن شتى العواطف، وخطوطاً تسفر عن خالص الأدعية ؛ ثم راحوا يرقصون ويهزجون فى إشراق باهر تشعه القلوب المتهللة ، وتعكسه المدينة المتألقة . ولكن ماذا يصنع الكاتب وقد انبثق فى حسه هذا النور، وانفتح فى ذهنه هذا العالَم ، إذا أراد أن يمثله للخاطر البعيد ، ويسجله فى صحيفة الأبد ؟ هل يملك إلا ريشة من المعدن لا تلين، وألفاظاً من اللغة لا تدل ؟ وهل اللغة مهما اتسعت موادها إلا أبعاض من صوت النفوس ، وأصداء لهتاف القلوب ؟ ماذا يقول الكاتب أو الشاعر فى ثلاثة ملايين من الناس تجردوا من هموم الحياة وأنانية الذات ، واحتشدوا فى مسالك القاهرة يَسْبحون فى أمواج هذا النور المعبر ، وقد انطوي كل منهم على عالم زاخر بالأمانى والأخيلة والأحاسيس ، ولا حديث لهم ولا نجوى إلا ملكهم الأغر ، وطالعه الأسعد ، وعهده الأغر ، وخلقه الأكمل؛ هذا يذكر فى فخر حادثاً من حوادث ديمقراطيته ، وذاك يروي فى إعجاب نادرة من نوادر عبقريته ، وذلك يقص فى زهو عملا من أعمال نبله ؛ والألسنة كلها فى كل مكان أشبه بلواقط الراديو ذوات المصدر الواحد تردد الحديث نفسه بصوته وطريقته ؟

قد يحتشد الناس فى أيام الزينة ومواكب النصر بدافع الايحاء أو الإغراء أو الفضول فيقفون عند الظواهر والأشكال لايحسون الروح ولا يلمسون الجوهر ولا يحفلون الغرض ، ولكن مواكب التاج كانت أنساً خالصاً لكل فرد ، وعرساً خاصاً بكل أسرة ؛ ساهم فيه كل بماله (نقوطاً) ، وبقلبه إخلاصاً ، وبسروره غبطة . وهذه هى العقدة النفسية التى تنحل أمامها قوى الكاتب قبل أن يجد لها وصفاً أو يحدد لها علة .

* * *

رأيت جلالة الفاروق فى حفلات التتويج عن كَثَب ، وفى ذهنى صورة طبيعية للغلام الشابل[1] الذى يهدف للثامنة عشرة من سِنيه ، فاذا رجل وقور الطلعة ، رزين الحركة ، ظاهر الأبهة ، باهر الجلالة ؛ نظرته نظرة روحه لانظرة عينه ، وعقله عقل جسمه لا عقل سنه : فأدركت حينئذ معنى قول الشاعر الفرنسى : « إن النفوس التي تولد على دَرَج العرش لاتنتظر عبقريتُها كرور السنين » وتعليل ذلك أن الطفل الملكى متى كان سليم الفطرة تستجيب غرائزه إلى وحى العمل الذى يُهيأ له ؛ وعلمُه بأنه يهيأ لوراثة المُلك يحمله على اتخاذ سَمْته وسِمَتِه ؛ ثم ينشأ فى جو يساعده مافيه من النظام والاحترام ومظاهر القدرة وتقاليد الأسرة على سمو المدارك ونضوج الرجولة ؛ ولا ينفك يسمع فى مجارى دمه النبيل أصوات أجداده الأمجاد تأمر وتنهى ، وتشير وتوحى ، وترسم وتدل ؛ فاذا رُفع إلى العرش واستوى عليه لم يجد فى نفسه شيئاً جديداً ينكره ، ولا فى جوه مظهراً غريباً يستريبه ؛ فيسير أمره على مارسمته النشأة ، وهيأته الطبيعة ، لاتكلف ولا تعسف ولا تظاهر ولا تذبذب .

لذلك انتقل الفاروق من حال التلميذ إلى حال الملك فى سهولة أدهشت الناس فى مصر وفى غير مصر .

وليس لهذا الدهش موضع ، فان الرجل الذى يختل توازنه ويضطرب أمره ، هو الذى يتحول بغتة من العجز إلى القدرة ، ومن الخضوع إلى السلطة ، ومن الصعلكة إلى المُلك ، فيستر صغره بالكِبْر ، وضعفه بالاستبداد ، وفشله بالخديعة ؛ ثم لايطمئن إلى حاله ، ولا يستقر فى محله ، فيتعلق بالظنون ، ويستمسك بالدسائس ، ويعتصم بالترفع ؛ ولكن الفاروق المظيم ربيب المُلك وسليل محمد على وإبراهيم وإسماعيل وفؤاد يرى نفسه طبيعياً فى موضعه ؛ وموضعه فوق الحكم وفوق الأحزاب وفوق المطامع ، فلا يمكن أن يكون إلا كما تراه . ومخايل الفاروق ودلائل الحال تؤكد أنه سيكون في عهده السعيد الجيد موئل الدستور ، وملاذ الحرية ، وحارس الدين ، وراعى الشعب ، ومرشد الحكومة فى الحيرة ، ومرجع الأحزاب فى الخلاف ؛ أما ثقافة العقل والجسم والخلق فتلك رسالته التى وكَل الله إليه أداءها بالتشجيع والتشريع والقدوة .

احمد حسن الزيات

(١) الشابل المتلئ نعمة وشبابا

السرقات الأدبية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

سأقص على القراء حادثة أعذر من لا يصدقها ولا ألوم من يرتاب فى صحتها ، ولكنها مع ذلك حقيقية ، وبعض الحقائق أغرب من تلفيقات الخيال . وذلك أنى على أثر الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ ذهبت إلى الاسكندرية لأقضى فيها أياماً أو لأتخذ فيها مقامي – حسب الأحوال – وكنت لا أزال سقيم الأعصاب جداً . وكنا في رمضان فأفطرنا واسترحنا ثم خرجنا لنحيي الليل بالسهر كما هى العادة وكنت منشرح الصدر ، ولكنى لم أكد أتجاوز عتبة البيت حتى وقفت وقلت لقريبى إنى محموم ، فأنا راجع ، فجسني فلم يجد بى شيئاً فأصررت على أنها الحمى ، فرقدت وكنت لا أكاد أطيق الصهد الذى أحسه . وزال عنى ذلك بعد ساعة أو اثنتين غير أنى لزمت الفراش وعادنى طبيب الأسرة فى اليوم التالى فقال : إن هذه حمى عصبية . فاستغربت ولكنى عانيت من الأعصاب ما جعلنى أصدق كل شىء ، وبقيت أياماً فى البيت زارنى في خلالها صديقى الأستاذ العقاد وترك لى رواية روسية أتسلى بها ، فأكببت عليها وقرأتها فى ساعات أحسست بعدها أنى صرت أقوى وأصح بدناً وأقدر على المكافحة والنضال فى الحياة ، وأنه صار فى وسعى أن أستخف بما يحدث لى سقم الأعصاب من الوهم . وعدت إلى القاهرة ، ومضى عام فطلب منى بعضهم أن أترجم له رواية ؛ فقلت لنفسى إنى مدين لهذه الرواية الروسية بشفائى وبالروح الجديدة التى استولت على ، فيحسن أن أنقلها إلى العربية عسى أن تنفع غيرى كما نفعتنى . وقد كان . نقلت الرواية بسرعة ، وكنت أذهب إلى المطبعة لتصحيح المسودات فيقول لى العامل أحياناً : إن الأصول نفدت ، فأقعد فى أى مكان وأفتح الرواية وأروح أترجم وأرمى للعمال بالورقة بعد الورقة ، وكأنى أدون كلاماً حفظته من قبل . ولست أذكر هذا لأباهي به ولا لأقول لكم إنى رجل بارع ، بل لسبب آخر سيأتى ذكره فى موضعه . وفرغنا من الترجمة والطبع ؛ ولم يعن الناشر بأن يبعث إلى بنسخة من الرواية ولم أعن أنا بأن أطلب أو أدخر نسخة ؛ وقد نسيت أن أقول إنى سميتها « ابن الطبيعة » وكان اسمها فى الأصل « سَنين » وهو اسم بطلها . وليس هذا إعلاناً فقد نفدت من زمان طويل . كان هذا فى سنة ١٩٢٠ . وفى سنة ١٩٢٦ شرعت أكتب قصة « ابراهيم الكاتب » وانتهيت منها ولم أرض عنها فألقيتها فى درج حتى كانت سنة ١٩٣٠ فخطر لى أن أنشرها ، فدفعت بها إلى المطبعة ، فاتفق بعد أن طبعنا نحو نصفها أن ضاعت بعض الأصول وكنت لطول العهد قد نسيت موضوعها وأسماء أشخاصها فحرت ماذا أصنع ؛ ثم لم أر بداً من المضى فى الطبع فسددت النقص ووجهت الرواية فيما بقى منها توجيهاً جديداً . ونشرت الرواية . وبعد شهور تلقيت نسخة من مجلة « الحديث » التى تصدر فى حلب وإذا فيها فصل يقول فيه كاتبه إنى سرقت فصلا من رواية ابن الطبيعة . فدهشت ولى العذر . واذكروا أنى أنا مترجم ابن الطبيعة وناقلها إلى العربية ، وأن أربعة آلاف نسخة نشرت منها فى العالم العربى ، وإنى أكون أحمق الحمقى إذا سرقت من هذه الرواية على الخصوص . فبحثت عن ابن الطبيعة وراجعتها وإذا بالتهمة صحيحة لا شك فى ذلك ، بل هى أصح مما قال الناقد الفاضل . فقد اتضح لى أن أربع أو خمس صفحات منقولة بالحرف الواحد من ابن الطبيعة فى روايتى « ابراهيم الكاتب » . أربع أو خمس صفحات سال بها القلم وأنا أحسب أن هذا كلامى . حرف العطف هنا هو حرفه هناك ؛ أول السطر فى إحدى الروايتين هو أوله فى الرواية الأخرى ... لا اختلاف على الاطلاق فى واو أو فاء أو اسم إشارة أو ضمير مذكر أو مؤنث ... الصفحات هنا هى بعينها هناك بلا أدنى فرق . ومن الذى يصدقنى إذا قلت إن رواية ابن الطبيعة لم تكن أمامى ولا في بيتى وأنا أكتب روايتى ؟ من الذى يمكن أن يصدقني حين أؤكد له أنى لم أر رواية ابن الطبيعة مذ فرغت من ترجمتها ، وأني لو كنت أريد اقتباس شىء من معانيها أو مواقفها لما عجزت عن صب ذلك فى عبارات أخرى ؟ لهذا سكت ولم أقل شيئا وتركت الناقد وغيره يظنون ما يشاءون فما لى حيلة . ولكن الواقع مع ذلك هو أن صفحات أربعاً أو خمساً من رواية ابن الطبيعة علقت بذاكرتى – وأنا لا أدرى – لعمق الأثر الذى تركته هذه

الرواية فى نفسى تجرى بها القلم وأنا أحسبها لى . حدث ذلك على الرغم من السرعة التى قرأت بها الرواية والسرعة العظيمة التى ترجمتها بها أيضا . ومن شاء أن يصدق فليصدق ، ومن شاء أن يحسبني مجنونا فان له ذاك . ولست أروي هذه الحادثة لأدافع عن نفسى فما يعنيني هذا ، وإنما أرويها على أنها مثال لما يمكن أن تؤدى إليه معابثة الذاكرة للانسان . وليست الذاكرة خزانة مرتبة مبوبة ، وإنما هى بحر مائج يرسب ما فيه ويطفو بلا ضابط نعرفه ومن غير أن يكون لنا على هذا سلطان . فالمرء يذكر وينسى . ويغيب عنه الشيء ويحضر بغير إرادته وبلا جهد منه ، ويعلق بذاكرته مايعلق وهو غير دار أو مدرك لمايحدث ، وتتزاوج الخوالج وتتوالد كما يتزاوج الناس ويتوالدون وهو غير شاعر بشيء مما يجرى فى نفسه من التفاعل وأثره

ولست أحب أن أجعل من نفسى قاضيا يحكم على هذا بالسرقة وعلى ذاك بالانتحال إلى آخر هذا ، وإنما أحب أن أعلل وأفسر الحالات أو الحركات النفسية التى تؤدى إلى ما يمكن أن يسمى سرقة أو اقتباساً أوالتى تغرى إنسانا بما فكر فيه غيره . ولاجديد فى تعليلي أو تفسيرى فانه قائم على علم النفس ، وإنما الجديد فيه هو التوجيه أو التطبيق ، ولا فضل فى هـذا ولا مزية له . ومن أجل ذلك أقصر هذا الفصل على الأمثلة فان المقام لايتسع لها ولما يدولى من وجوه التعليل ، وأرجو أن تتاح لي فرصة قريبة أشرح فيها مذهبي ورأيي فى هذه الحالات

وقد عنى العرب بتعقب شعرائهم ، فكل شاعر ظهر له من ينخل كلامه ويغربله ويرد المعانى إلى أصحابها أى إلى الذين سبقوا إليها . والسبق في الزمن هو الذى يكسب السابق الحق في المعنى ؛ وأنا أقول المعنى لأنه لم يكن ثم موضوع للقصائد غير الأغراض المألوفة مثل المدح والهجاء والفخر والغزل وما إلى ذلك . ولما كان البيت فى الشعر العربي القديم هو الوحدة فقد صارت الأبيات المفردة هى مدار هذا الضرب من النقد ؛ فهذا أخذ معنى البيت الفلانى من فلان ، وذاك نظر إلى قول علان ، إلى آخر هذا إن كان له آخر . ولهم فى هذا الباب حكايات بعضها لاشك مختلق والبعض قد يكون صحيحا ، وأعنى بهذه الحكايات ما يراه المرء فى كتب الأدب من أن بعض الشعراء المستهترين المستخفين بالدنيا ومافيها من مثل أبى نواس سمع شاعرا مغمورا ينشد قصيدة فأعجبه معنى بيت فيها فأخذه جهرة وقال : أيروى لك هذا المعنى وأنا حى ؟ . . ومثل ما يروون من أن المتنبي كان ينكر فى حياته أنه قرأ شعر ابن الرومي ، فلما قتل وجدوا بين أوراقه نسخة خطية بالطبع من ديوان ابن الرومى وعليها تعليقات بخط المتنبي . ولافائدة من محاولة التمثيل لهذا النوع من السرقات فان الكلام خليق أن يطول بلا جدوى ومن غير أن نجئ فيه بجديد وأكثر القراء يستطيعون أن يرجعوا إليه إذا شاءوا فى كتب الأدب المتداولة . لهذا أوثر أن أسوق أمثلة مما فى الآداب الغربية مما يدخل فى باب السرقات فان الأمر فى هذه أمر موضوع يقتبس ، أو قصيدة برمتها تؤخذ من أولها إلى آخرها على طولها بالحرف الواحد . والقليلون يعنون بتعقب هذا فذكر أمثلة منه خليق أن يكون أمتع .

أشهر شعراء الاغريق هومر كما لا أحتاج أن أقول ؛ وقد قرأت ترجمتين انجليزيتين له وحطمت رأسى بهما وأعترف أنه لم يرقنى منه إلا القليل ، ولكن كنت أخشى أن أجاهر بهذا الرأى لئلا يقول عنى إخوانى إن ذوقي فاسد أو إن بى نقصاً فى الاستعداد الأدبى ؛ أما الآن فانى أستطيع أن أجهر بذلك وأن لا أخشى تهماً كهذه . على أنى لا أذكر هومر الآن لأقول رأيي فيه بل لأروى قصتين صارتا الآن معروفتين : الأولى أن الأدب الاغريقي كان فى العصور الوسطي مجهولا أو مدفوناً وكان لايعرفه إلا الرهبان الذين احتفظوا بنسخ منه ضنوا بها على النشر والاذاعة لأنه أدب وثنى ، وفيما عدا هؤلاء الرهبان لم يكن أحد يعرف شيئاً لاقليلا ولا كثيراً عن الأدب الاغريقي ، فكان من سخرية الأقدار أن الرجل الذى رد إلى العالم هومر فى القرن الرابع عشر كان سكيراً نصاباً وشريراً كبيراً ، وأن الرجل الذى حمله على ترجمة هومر كان من أبرع كتاب النهضة ، وأن الرجل الذى آلى على نفسه أن يعمل على نشر جمال الأدب الاغريقي فى العالم كان لايعرف حرفاً واحداً من اللغة الاغريقية . هؤلاء الثلاثة الذين جمعهم الحظ هم بيلاتس Pilatus وبوكا كشيو Boccaccio وبترارك Petrarch . فأما أولهم فكان مغامراً يؤثر أن يستخفى لأسباب لعل البوليس أعرف بها ؛ وكان قذراً كثير الشعر دميم الخلقة ، ولكنه كان يعرف اللغة الاغريقية فجاء به

بوكا كشيو وأنزله عنده ضيفاً فبقي ثلاث سنوات . أما بوكا كشيو فمعروف مشهور وهو عندى أنبغ نوابغ الايطاليين ولكنه كان ساذجاً وكان لايعرف قدر نفسه وكان عظيم التوقير لبترارك حتى لقد صار فى آخر حياته يخجل لأنه كتب ما كتب باللغة الايطالية العامية لا باللاتينية . وأما بترارك فقد اقتنع لسبب لانعرفه بأن المخرج الوحيد من السوء الذى يراه فى زمانه هو إحياء درس الأدب الاغريقي ، ويظهر أنه كان هناك اعتقاد بأن هذا الأدب المقبور هو القادر وحده على حل المشاكل التى كانت تواجه العالم في ذلك الزمان ، وهكذا عرف الناس هومر بعد أن قبره الزمن عدة قرون .

ومن المحقق أن هومر كان يعرف الأساطير المصرية وأنه استعان بها فى قصيدتيه — الالياذة والأوديسية — وأحسب أن كثيرين قرأوا البحوث التى نشرها الأستاذ عبد القادر حمزة وأثبت فيها — استناداً إلى ما وقف عليه وكشف عنه العلماء بالآثار المصرية والتاريخ المصرى القديم — أن هومر أخذ كل العقائد وكل القصص من المصريين . والمصريون كما لا أحتاج أن أقول — أسبق بآلاف السنين لا بمئاتها فقط ، وهم الذين نشروا فى العالم القديم العقائد التى لا تزال باقية إلى اليوم . وهم أول من فكر فى الروح والآخرة والحساب والعقاب . وقد ذهبت مدنيتهم ولكن آثارها بقيت وهى على قلتها كافية للدلالة على حضارتهم . وقد نشر الأستاذ عبد القادر حمزة النصوص وأثبت منها أن هومر أخذ قصصه من مصر وأن كل مافعله هو تغيير الأسماء وقلبها إغريقية . وأنا أزيد على ذلك أن هيرودوت يقول عن هومر كلمة لها مغزاها ، ذلك أنه يصف عمله بأنه « تنظيم » ، ويقول عنه في موضع آخر إنه وضع « إطاراً » للقصص ، وفى موضع آخر أيضاً إنه « جمع » . ومعنى هذا أنه كان معروفاً أن هومر لم يبتكر قصصه وإنما جمعها ورتبها ونظمها . ويظهر أنه كانت هناك روايات متعددة مختلفة وأن هومر شعر بالحيرة بينها ولم يدر أيها يؤثر : ألرواية المصرية أم الروايات المشوهة التى شاعت فى اسبارطة وأثينا وفى غيرهما ؟ ولهذا اضطرب ولم يستقر على رأى فى أيهما هو البطل — هكتور أو أخيل — ويرجح بعضهم أنه لحيرته بين الروايات المختلفة أعد نصيبين ، واحداً ينشده على الجانب الأسيوي والآخر ينشده على الجانب الأوربى . على أن المهم أن هومر أخذ موضوعه كله بكل ما انطوى عليه من مصر ، فلولا مصر لما كان هومر . وأحسب أن الدنيا ما كانت حينئذ تخسر شيئاً فقد أصبح هومر اسماً لا أكثر

وأدع التوافه مثل قول أكثر من ناقد واحد : إن الرومان مدينون بفكاهتهم للاغريق ، وإنه ما من نكتة فى الأدب الرومانى إلا وهى مأخوذة من نكت الاغريق أو لها مايقابلها عندهم ، ومثل قولهم إن « الأبولوجيا » أو الاعتذار الذى كتبه سنيكا لما أمره نيرون بالانتحار ليس سوى تقليد ضعيف للأبولوجيا التى كتبها أفلاطون عن سقراط بعد الحكم على سقراط بالموت ، ومثل قولهم إن وصف درع « إينياس » فى قصيدة فرجيل مأخوذ من وصف هومر لدرع أخيل ، وقولهم أيضاً إن خير ما فى إينيادة فرجيل منقول بالحرف من إينيوس Ennius وكاتاللاس Catallus وأن القصيدة كلها فى الحقيقة ليست أكثر من مقاطيع منقولة من شعراء سابقين مثل هومر وأبوللونيوس Appollonius ورودياس Rhodias ولوسيلياس Lucilius ولوكريشلاس Lucretius وأن مكروبيوس Macrobius ضبط كل هذه السرقات ، ومثل قولهم إن الشاعر الانجليزى « مارلو » — معاصر شكسبير — انتحل أبياتاً كثيرة ترجمها عن اليونانية فى روايته « الدكتور فاوست » . أدع كل هذا لأنه كما قلت من التوافه وأثب إلى ملتون الشاعر الانجليزى المشهور ، وأعترف أنى لا أحبه وأنى ما استطعت في حياتى أن أقرأ له قصيدة مرتين . وأشهر ما لملتون قصيدة « الفردوس المفقود » وأختها « الفردوس المستعاد » والأولى لا الثانية هى التى تقوم عليها شهرته . وهذه يقول النقاد إن من المعروف أنها عبارة عن جملة سرقات من ايسكلاس ودافيد وماسينياس وفوندل وغيرهم . ولكنه لم يكن معروفاً أن الفردوس المفقود كله — موضوعه ومواقفه وعباراته أيضاً — مترجمة ترجمة حرفية عن شاعر إيطالي مغمور غير معروف كان معاصراً لملتون . لم يكن هذا معروفاً حتى اهتدى إليه « نورمان دوجلاس » فقد اتفق له أن عثر على نسخة وحيدة من رواية « ادامو كاروتو » Adamo Caruto لمؤلفها « سرافينو ديللا

سالاندرا » Serafino Della Salandra وهذه الرواية وضعت فى سنة ١٦٤٧ .

وأنا أنقل هنا ما يقوله « نورمان دوجلاس » قال :

سأسوق الآن بلا تمهيد ما يكفى لاثبات أن الفردوس المفقود ليس إلا نقلا وترجمة لهذه الرواية

محور قصيدة سالاندرا هو ما أصاب العالم من جراء العصيان الذى أغرى به الانسان الأول . وهذا هو محور موضوع ملتون

والأشخاص فى رواية سالاندرا هم الله ، وملائكته ، والانسان الأول والمرأة الأولى والحية وإبليس وزملاؤه . وكذلك فى قصة ملتون

وفى فاتحة القصيدة أو التمهيد لها يذكر سلاندرا الموضوع ويتكلم عن الله وأعماله . وكذلك يفعل ملتون

ثم يصف سلاندرا مجلس الملائكة المتمردين وسقوطهم من السماء في منطقة جرداء نارية ويسوق أحاديثهم وكيف أنهم يحقدون على الانسان ويتفقون على الاحتيال على إسقاطه ويقررون أن يجتمعوا فى الهاوية حيث يتخذون التدابير الخليقة أن تجعل من الانسان عدواً لله وفريسة لجندهم . وكذلك فى ملتون

وسالاندرا يجسد الخطيئة والموت ويجعل الموت ثمرة الخطيئة . وكذلك يفعل ملتون

ويصف سالاندرا سبق العلم الالٰهى بنتيجة الاغواء وسقوط الانسان وتهيئته تعالى لأسباب الخلاص . وكذلك ملتون

ويصف سالاندرا موقع الجنــة والحياة السعيدة فيها . ويفعل ملتون مثله

ويشرح سالاندرا الاعجاز فى خلق العالم والانسان وفضائل الثمرة المحرمة . وكذلك ملتون

ويروى سالاندرا الحوار الذى دار بين حواء والحية ويصف الأكل من الشجرة المحرمة واليأس الذى استولى على أبوينا — آدم وحواء — وكذلك ملتون

ويصف سالاندرا فرحة الموت بما ارتــكبته حواء والسرور الذى عم الجحيم والحزن الذى انتاب آدم وخروج آدم وحواء من الجنة وحزنهما وندمهما . وكذلك يفعل ملتون

ويتوقع سالاندرا مجىء المخلص وهزيمة الخطيئة والموت ويتكلم عن عجائب الخلق ويصف قتل قابيل لأخيه هابيل ويذكر الخطيئات فى الدنيا والحرب وأهوالها . وكذلك ملتون

ويصف سالاندرا الحب الذى ينطوى عليه عيسى عليه السلام والعزاء الذى يشعر به آدم وحواء حين يبشرهما الملك بمجىء المسيح ثم خروجهما من جنتهما الأرضية . وكذلك يفعل ملتون

فالموضوع مأخوذ برمته كما أثبت ذلك نورمان دوجلاس .

ويقول برتون راسكو : « إن هذا ليس كل شىء ويحيل القارىء على كتاب اسمه « أولد كالابريا » — كالابريا القديمة — ويؤكد أنه يؤخذ منه أن ملتون ترجم قصة سالاندرا حرفا بحرف وأن ماليس مترجما عن سالاندرا مترجم عن غيره من الشعراء القدماء

والذى يجعل الأمر أغرب أن ملتون كان قد أعلن قبل ذلك عزمه على نظم قصة خالدة لا يسمح الناس بأن يدعوها تموت وتقبر ،ويعنى بها الفردوس المفقود ، وبعد أن أعلن عزمه هذا بسط لسانه فى كل الشعراء الانجليز الذين تقدموه مثل شوسر وسبنسر وشكسبير ومارلو وجونسون ووصفهم بأنهم صناع آليون ، وانتقد هومر وفرجيل وتاسو وعاب شعرهم . ويعلل نورمان دوجلاس اهتداء ملتون إلى قصة سالاندار بأن ملتون لقيه فى رحلته إلى إيطاليا ، وأن سالاندرا يرجح أن يكون أعطاه نسخة من قصته عسى أن يعينه على ترجمتها إلى الانجليزية . ويقول إن ملتون كان له أصدقاء يراسلونه من إيطاليا وإنه قابل جروتياس Gratius فى باريس وجاليليو Galelio في فلورنسا ، وإنه يحتمل أن يكون هذان قد أعطياه نسخة من القصة لما نشرت بالايطالية . والمحقق على كل حال أن قصيدة الفردوس المفقود نسخة طبق الأصل من قصيدة سالاندرا الايطالى .

وأنتقل الآن إلى ما هو أحدث فى أثناء الحرب العظمى . لم يكن لنا عمل بعد السعى وراء الرزق إلا القراءة والاطلاع واتقاء التعرض لمكاره الاعتقال والسجن وما عسى أن يكون وراءهما . وقد وقتنى الكتب ذلك مرة وجاء القوم يفتشون بيتى وكان معهم ضابط انجليزى ، فلما دخل المكتبة وأجال عينه في الرفوف وما عليها من كتب الأدب حسن رأيه فىّ ومال إلى الرفق ، فانتهى الأمر بخير . ولكن هذا استطراد فلنرجع إلى ما كنا فيه . والذى أريد أن أقوله هو أن صديق الأستاذ العقاد أعارنى

يوماً قصة « تاييس » لأناتول فرانس فقرأتها بلهفة فقد استطاع المترجم الانجليزي أن يحتفظ بقوة الأسلوب وتحدره وبراعة العبارة وسحرها . ومضت بضعة شهور ثم دفع إلى الأستاذ العقاد رواية « هايبيثيا » للكاتب الانجليزي « تشارلز كنجزلي » فقرأتها أيضاً ، ثم سألني : ما رأيك ؟ قلت : غريب . قال : إن الروايتين شيء واحد . قلت : صحيح

والواقع أن الروايتين شيء واحد وأن تاييس مأخوذة من هايبيثيا بلا أدنى شك . وفي وسع من شاء أن يقول إن أناتول فرانس ما كان يستطيع أن يكتب — أو ما كان يخطر له أن يكتب روايته لو لم يسبقه تشارلز كنجزلي إلى الموضوع . ذلك أن تاييس في رواية أناتول فرانس هي هايبيثيا في رواية كنجزلي ، والعصر هو العصر والبلاد هي البلاد ، وكل ما هناك من الاختلاف هو أن أناتول فرانس أستاذ فنان ، وأن تشارلز كنجزلي أستاذ مؤرخ . وأنا مع ذلك أفضل رواية هايبيثيا وأراها أكبر وأعمق وأملأ للنفس وأمتع للعقل ، فما لأناتول فرانس في تاييس غير براعة الأسلوب وحلاوة الفن ، ولكن الصور في رواية هايبيثيا أتم وأصدق ، والشخصيات أكثر ورسمها أقوى وأوفى والموضوع أحفل . وفي وسعي أن أقول بلا مبالغة إنها تعرض عليك عالماً تاماً لا ينقصه جانب واحد من الجوانب ؛ أما تاييس فليست سوى لمحة خاطفة من هذا العالم

وتشارلز كنجزلي يرسم لك الحياة في تلك الفترة من تاريخ مصر بكل ما انطوت عليه ويريك الناس والأشياء والعادات والأخلاق والآراء والفلسفات الشائعة والفردية بدقة وأمانة ، أما أناتول فرانس فيرسم لك بقلمه البارع خطوطاً سريعة تريك ما وقع في نفسه من ذلك العصر ، فهو أشبه بالمصورين الذين يجرون على طريقة الامبرشنزم أي الذين يصورون وقع المناظر في النفس لا المناظر كما هي في الحقيقة والواقع .

هذا بعض ما يسعني الآن أن أذكره وأمثال هذا كثير في الآداب الغربية ، وليس له في الأدب العربي نظير ، وأسباب ذلك كثيرة يطول فيها الكلام فلنرجئها إلى فرصة أخرى تتسع لوجوه التعليل المختلفة .

ابراهيم عبد القادر المازني

في التاريخ السياسي :

المأساة الفلسطينية
ومشروع التقسيم البريطاني
بقلم باحث دبلوماسي كبير

لما تسربت الأنباء الأولى عن مشروع اللجنة الملكية البريطانية في تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ، وقبل أن يذاع تقرير اللجنة أبدينا في «الرسالة» أن هذا الحل الجديد الذي ابتكرته السياسة البريطانية لتسوية المسألة الفلسطينية لم يكن حلاً موفقاً ، وأنه لا يمكن أن يرضي أحداً من الفريقين المتنازعين

والآن وقد مضت أسابيع على ظهور تقرير اللجنة عن مشروع التقسيم ، وعرفنا إلى أي حد ذهبت اللجنة الملكية في استنتاجاتها وفي توصياتها ، وكيف استقبل العرب مقترحاتها بعاصفة من السخط والانكار المطلق لا في فلسطين وحدها ولكن في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وكيف اعتزمت فلسطين أن تستأنف النضال في سبيل حياتها وكيانها ، وكيف تغدو اليوم وشيكة انفجار جديد لا تؤمن عواقبه ، فانه يصعب علينا أن نعتقد أن الحكومة البريطانية التي أقرت مقترحات اللجنة على عجل لم تعتده في مثل هذه المناسبات الخطيرة ، ستغضي عن هذه العوامل الجديدة التي ظهرت في الميدان منذ ظهور التقرير ، والتي لا يمكن أن تعاون على استتباب السلام المنشود في فلسطين

إن مشروع التقسيم الذي تقترحه اللجنة يمزق فلسطين شر ممزق بل هو يقضي القضاء الأخير على كيانها القومي ويخرجها من عداد الأمم والمجتمعات ذوات المميزات الخاصة ويحرمها من كل أمل في التقدم والنهوض ؛ وإن نظرة واحدة إلى الحدود المقترحة لهذا التقسيم تكفي للحكم بأن فلسطين تمحى بمقتضاه من خريطة الوجود ولا يبقى منها برسم الدولة العربية الجديدة سوى صخور وبسائط صحراوية لم يتح للعمران طيلة القرون أن يذللها وأن يستثمرها ؛ وماذا عسى أن يبقى من فلسطين العربيـة إذا اقتطعت منها كل

سواحلها وثغورها وقواعدها المقدسة وكل بقاعها الخصبة ؟ إن الدولة اليهودية التي يشير التقرير بانشائها تشمل في الواقع كل قواعد فلسطين وثغورها التاريخية عدا ثغر يافا الذي يبقى وحده مخرجاً بحرياً للقسم الصحراوي الذي خصص للعرب ؛ أما بقاع فلسطين المقدسة التي لبثت علماً عليها طوال القرون فقد تقرر أن تؤلف منها منطقة خاصة توضع تحت إشراف عصبة الأمم أو بالحرى تحت إشراف الانتداب البريطاني ، وبذلك تجرد كل فلسطين من قواعدها التاريخية وكل ثرواتها ومواردها الاقتصادية في مصلحة الدولة اليهودية الجديدة ؛ ومع ذلك فاللجنة الملكية تنوه في تقريرها بأهمية هذا التقسيم بالنسبة للعرب ، وتقول لنا إنه « سيمكنهم من الحصول على استقلالهم الوطني والتعاون على قدم المساواة مع العرب في البلاد المجاورة ، وذلك في كل ما يؤول إلى وحدة العرب ونجاحهم وسيخلصون نهائياً من خوف تسلط اليهود عليهم ووقوع الأماكن المقدسة بيد اليهود »

على أن هذه الألفاظ المعسولة لا تغير شيئاً من الحقيقة الهائلة وهي أن مشروع التقسيم يمحو فلسطين العربية من خريطة الوجود لينشئ على أنقاضها وتراثها التاريخي مملكة اسرائيل وليحقق بذلك حلم اليهودية القديم ؛ نعم إن المساحة التي تضمها الدولة اليهودية الجديدة هي أقل مما تطمح إليه اليهودية ، ولكنها تحتوي كما قدمنا على أطيب ما في فلسطين من قواعد وثغور ، واليهودية تغدو في هذا الحيز الضيق أقوى وأشد إيماناً بالمستقبل ؛ ثم هي مع ذلك بدء فقط ؛ واليهودية تأسف بلا ريب أن تخرج بيت المقدس من قبضتها وهي مثوى تراثها الروحي وذكرياتها المقدسة ، ولكنها تتعزى عن ذلك بخروجها من قبضة العرب أيضاً ، وكونها وهي في يد انكلترا أقرب إلى نفوذهم ؛ ومن يدري فقد تسنح الفرصة فيما بعد لاستردادها بطريقة من الطرق ، وبذلك يصبح ظفر اليهودية باحياء مملكة إسرائيل القديمة كاملا شاملا

والخلاصة أن مشروع التقسيم هو قرعة الفناء للأمة الفلسطينية وهي حقيقة لم يتردد العرب لحظة في إدراكها ، ومن ثم كان رفضهم للمشروع بهذا الاجماع السريع المؤثر الذي هو عنوان الخطر القومي ، والذي تلوذ به الأمم المجاهدة في مواقف الحياة والموت ؛ ولقد جاهدت فلسطين منذ نكبت بالانتداب والوطن القومي اليهودي في سبيل حريتها وعروبتها ، ولم تقبل أن تكون ميداناً لهذه التجربة اليهودية الخطرة التي لم تكن تتوجها مع ذلك أية صبغة شرعية أكثر من وعد الحكومة البريطانية بمؤازرتها ، فكيف ينتظر منها أن تقبل اليوم أن تقوم في قلبها وفي أطيب بقاعها مملكة يهودية تتمتع بصفة شرعية دولية ، تنازعها البقاء ، وتنذرها بالفناء العاجل بما هيئ لها من أسباب التفوق السياسي والاقتصادي والاجتماعي

***

ومن حسن الطالع أن الأمة الفلسطينية لا تقف وحدها في هذا النضال الذي هو بالنسبة إليها معركة الحياة والموت ، فان شقيقاتها العربيات قد فزعت لفزعها وهبت من حولها تنصرها وتشد أزرها بالقول والعمل معا ، فألقى رئيس الوزارة العراقية تصريحاته الرسمية المعروفة في إنكار مشروع التقسيم والحملة عليه بشدة ، وفي التنويه بما تعتزمه العراق من مقاومته باعتباره خطراً لا على فلسطين وحدها ولكن على الأمة العربية بأسرها ؛ ولم يقف رئيس الوزارة العراقية عند هذه التصريحات القوية الحازمة بل قدم احتجاجه بصفة رسمية إلى الحكومة البريطانية ؛ وأيد الشعب العراقي موقف حكومته بتنظيم مظاهرات الاحتجاج في بغداد وغيرها ؛ وحذت الحكومة السورية حذو الحكومة العراقية في القاء التصريحات الرسمية بمعارضة مشروع التقسيم ، وفي توجيه الاحتجاج الرسمي إلى لجنة الانتداب بعصبة الأمم ، وقام الشعب السوري بمظاهرات مماثلة لتأييد فلسطين في موقفها ؛ وقامت مظاهرات مماثلة في الحجاز ، وما تزال عواصم الجزيرة العربية كلها تضطرم بأمواج الاحتجاج والسخط على مشروع التقسيم والعطف على فلسطين وتأييدها في جهادها . كذلك لم تكن مصر بمعزل عن هذه الحركة وإن تكن الحكومة المصرية قد آثرت أن تعمل في صمت وهدوء ؛ فقد أعرب رئيس الحكومة المصرية في بيانه الرسمي بمجلس الشيوخ عن اهتمام الحكومة المصرية بالقضية الفلسطينية وأشار إلى ماجرى من اتصاله بالحكومة البريطانية في شأنها أكثر من مرة ، وإلى أنه عقب ظهور تقرير اللجنة الملكية قد بادر باستئناف هذا الاتصال والسعي بالمسائل الدبلوماسية إلى العمل على صيانة حقوق العرب

ومصالحهم ، مؤثراً ألا تكون هذه المساعى موضع المناقشة العلنية حرصاً على مصلحة فلسطين ذاتها ؛ هذا إلى ما أبدته الهيئات السياسية والوطنية المصرية من احتجاج على مشروع التقسيم وتأييد قلبي لفلسطين .

والواقع أن قيام اليهودية فى فلسطين في مثل هذا الحشد القوى المنظم ، خطر داهم لا على فلسطين وحدها ، ولكن على العالم العربى والاسلامى كله ؛ ويزيد هذا الخطر ويذكيه أن تنتظم اليهودية على هذا النحو إلى دولة ذات شخصية مستقلة تجثم في قلب العالم العربى ؛ وهذا الخطر متعدد النواحى ، فمن الوجهتين السياسية والاقتصادية يخشى أن تكونَ هذه الدولة الجديدة التى لايتأتى لها البناء إلا على ماتستطيع تقويضه من صروح الأمة العربية ، مصدر اضطراب دائم فى هذا الجزء من الجزيرة العربية ؛ وخطرها السياسى على كيان الأمة العربية ظاهر لايحتاج إلى بيان ؛ أما خطرها الاقتصادى فنحن نعرف كيف تعمل اليهودية بوسائلها القوية المعروفة أينما حلت على الاستئثار بجميع الثروات والمرافق ؛ على أن هناك خطراً أشد وأفدح من قيام اليهودية فى صميم المجتمع العربى والاسلامى على هذا النحو ، هو الخطر المعنوى إذا صح التعبير ؛ ذلك أن اليهودية كما يشهد تاريخها الفكرى والفلسفى تضطرم دائماً بروح الثورة والانتقاض والهدم ، وقد كان هذا الروح الثورى الهدام مبعث كثير من الحركات الثورية الهدامة الخفية والظاهرة التى قلبت أوضاع المجتمع ، وبث إليه كثيراً من عناصر الانحلال والفوضى ؛ ويكفى أن نمثل لذلك بالشيوعية التى تعتبر اليوم أخطر عناصر الهدم ، فهى من نفثات العقلية اليهودية ؛ ومذ حلت الصهيونية فى فلسطين ظهرت معها العناصر الشيوعية وأخذت تتسرب إلى مصر وسوريا والعراق ؛ وهذه العناصر الثورية الهدامة التى تحملها اليهودية معها إلى فلسطين ، تغدو إذا ما اشتد ساعد الدولة اليهودية الجديدة خطراً داهما على الأمم العربية التى تجثم فى صميمها .

والأمم العربية تقدر كلها هذا الخطر ، وكلها من وراء فلسطين فى درئه ومقاومته ؛ وقد أبدت فلسطين عزمها جلياً قاطعاً على استئناف النضال إذا لم تسمع شكايتها العادلة ، وإذا أريد أن نفرض عليها سياسة التقطيع والتمزيق بالقوة القاهرة . على أننا من جهة أخرى نعتقد أن السياسة البريطانية الفطنة لم يفتها أن تقدر ما كان لمشروع التقسيم من سوء الواقع ، ولم يفتها بالأخص أن تلاحظ موقف البلاد العربية والإسلامية الأخرى وما ينطوى عليه من دلائل لاتستطيع السياسة البريطانية أن تغفلها ؛ ومع أن الحكومة البريطانية قد وافقت على تقرير اللجنة الملكية عن مشروع التقسيم فان ذلك لايعنى أنها قد اتخذت خطتها النهائية إزاء المسألة الفلسطينية ؛ كذلك لم يتخذ البرلمان البريطانى أي قرار في شأن المشروع بالرغم من المناقشات العديدة التى جرت حوله والتى لم تخل من بعض ميول معارضة للتقسيم ، بل آثر أن يرجئ قراره حتى تنتهى لجنة الانتداب الدائمة لعصبة الأمم من بحث المشروع ، وهو الآن أمامها قيد النظر .

والخلاصة أن السياسة البريطانية لاتزال بالنسبة للمسألة الفلسطينية فى مفترق الطرق ، وهى إذا استطاعت أن تغفل اعتراضات العرب على مشروع التقسيم وإقامة الدولة اليهودية ، فانها لاتستطيع أن تغضى عن موقف الأمم العربية والاسلامية ، وهى جميعاً تؤيد فلسطين فى ظلامتها ومحنتها ؛ وانكلترا التى تربطها بالأمم العربية والاسلامية روابط صداقة متينة هى اليوم أشد حاجة منها فى أى وقت آخر إلى تأييد هذه الأمم ومحالفتها ؛ وموقع فلسطين والجزيرة العربيـة فى طريق المواصلات الأمبراطورية أمر جوهرى بالنسبة لمستقبل الدفاع عن الهند والأمبراطورية البريطانية ؛ فهذه العوامل كلها مما يحملنا على الظن بأن المسألة الفلسطينية قد تجوز تطورات هامة أخرى قبل أن يستبين المصير النهائى الذى قدر لها ؛ وللسياسة أعاجيب لاتفنى وكم سمعنا أيام اشتداد النضال بين مصر وانكلترا ، وعيد السياسة البريطانية بضم مصر إلى الأمبراطورية إذا لم تخلد إلى السكينة وتقبل المصير الذى يفرض عليها ، ولكن مصر لم تن للوعيد حتى اضطرت سياسة القوة الغاشمة أن تختفى ، وأن تترك المجال حراً لسياسة التفاهم والوفاق ؛ وكل مانرجوه فى هذه الكلمة هو أن توفق الأمة الفلسطينية المجاهدة فى دفاعها المؤثر عن كيانها ، وأن يكلل جهادها بما يحقق أمانيها وطمأنينتها .

بمناسبة إشراق دولة الفاروق الجديدة

لمحات من شمس الأمس الغاربة

السلطان الغوري ومفاوضات الدولية

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

تستقبل مصر اليوم عهدها الجديد المشرق بتولية مليكها المحبوب الذي يتربع فوق عرش القلوب ويحكم شعبه عن ولاء ثابت له فى حنايا الصدور . وعهد الفاروق وان كان جديداً ناضراً يستأنف عهود المجد السابقة ويسترجع آيات العلا الغابرة فقد كانت مصر أبدا واسطة عقد الدول وجوهرة تاج المدنية .

وإن لعهدنا الحاضر معنى خاصا فى تاريخ البلاد ، ونحن إذ نحتفل فى هذين اليومين بتتويج مليكنا المحبوب فإنا نشهد يوما من أكبر أيام مصر وأعظمها دلالة وأحفلها ببواعث الفخر والاعتبار والسرور ، وذلك لأن عهد الفاروق الجديد أول عهد يخفق فيه على مصر علم الاستقلال بعد فترة سلب الدهر منها علمها ونزع عنها تاجها . ونود هنا أن نتخطى القرون الماضية التى شهدت تلك المأساة فنطفر إلى آخر عهد كان فيها ذلك العلم عالياً مكرماً عزيزاً ، لنذكر فى نشوة السرور الحاضرة بعض ما كان لبلادنا من العز الغابر لنحس بالنشوتين معا نشوة الأمل الطالع ونشوة ذكرى المجد التالد .

كان قانصوه الغوري آخر السلاطين العظماء الذين حكموا مصر منذ انقرضت دولة الأيوبيين فى مصر فتعاقبوا على حكمها نحو ثلاثة قرون كانت مصر فيها أقوي أمم الشرق والغرب تبسط سلطانها على الشام والنوبة ويمتد نفوذها فى البحر حتى قبرص وتدين لها بلاد الشرق قاطبة بالزعامة وتتقرب اليها دول الغرب قاطبة لابتغاء ما عندها من كنوز التجارة ولتخطب مودتها فى السلم ولتتقي عداوتها فى الحرب ، وكانت مع كل ذلك قلب المدنية التى تكدست فيها آثار العلم والفن والصناعة التى بلغتها الإنسانية إلى ذلك الوقت

تولى قانصوه فى مارس سنة ١٥٠١ وهو جركسي الأصل . نشأ فى بيت الملك الأشرف قايتباي العظيم وما زال حتى صار أميراً من أمراء الجيش ووكلت اليه قيادة فرق الحدود المصرية فى طرسوس وكليكية وملطية . فلما مات قايتباي اختاره الملك الناصر ابنه لرياسة أمراء حلب وصار من كبار الأمراء الذين كان يقود كل منهم ألف فارس فى الحرب ، وكانوا لذلك يسمون (مقدمى الألوف) ؛ وبلغ بعد ذلك الى أكبر مراتب الدولة فأصبح دوادارا ثم وزيراً .

وحدثت عقب ذلك احداث جعلت الناس يتطلعون اليه ليجعلوه سلطاناً . ولم يرض بذلك فى أول الأمر إذ كان يؤثر أن يكون أحد كبار الأمراء حتى لايتعرض للمسئولية الجسيمة التى يتطلبها تبوء العرش . ولكن كبار الأمراء اضطروه إلى قبول التاج اضطراراً حتى قيل إنه بكى عندما عجز عن مقاومتهم ونزل مرتين عن الجواد الذى أركبوه اياه ليسيروا به إلى القلعة ليحتفلوا بتوليته السلطنة بها

ولي الغورى عرش مصر ولقب بالملك الأشرف أبى النصر . وسار فى القاهرة عقب ذلك فى موكب حافل يحف به الأمراء وجنود الجيش المظفر ، وكان يلبس الخلعة الرسمية التى كانت عادة السلاطين أن يلبسوها وهى الخلعة التى أهداها الخليفة العباسى إلى السلطان العظيم بيبارس من قبل منذ نيف وقرنين عندما انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة عقب تحطيم التتار بغداد وقضائهم على الحكم العباسى بها .

سار السلطان قانصوه فى ذلك الموكب يلبس تلك الخلعة وهى عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق من الذهب حول العنق وسيف بدوى متدل من حمائله ، وحملت على رأسه المظلة الرسمية التى يعلوها رسم طير من الفضة المذهبة . وكان عمره عند ذلك نحو الستين وله لحية ضرب فيها البياض ، وهو بدين أسمر اللون واسع العينين .

وكانت مصر فى أيامه مركز حركة سياسية متصلة لاتنقطع لأن أحوال العالم فى وقته كانت تؤذن بشر انقلاب عرفه التاريخ الحديث

كانت اسبانيا قد تمكنت من طرد العرب من غرناطة ، ولم تكد مصر تفيق من تلك الهزة حتى سمعت بأن دولة أخرى مجاورة وهى البرتغال قد عرفت طريقاً الى الشرق تسير فيه السفن من بلادها إلى الهند مباشرة عن طريق البحر حول رأس الرجاء ، وكانت بلاد العالم كله تتطلع الى مصر لتنظر ما هى فاعلة فى هذين الحادثين وتترقب سير هؤلاء البحارة الذين هاجموا بحار الشرق ليروا أيستطيعون أن ينفذوا الحلم الذي تصوروه فى محاولة القضاء على تجارة مصر . وكانت مدن أوربا المطلة على البحر الأبيض المتوسط كالبندقية تقف عند ذلك مشدوهة تنظر تارة إلى مصر

وتارة الى شبه جزيرة الأندلس ، وهي تحاول أن تحتفظ بمودة الأولى لتحتفظ بتجارتها معها وأن تحتفظ بمودة الثانية خشية على سمعتها بصفتها إحدى البلاد المسيحية الخاضعة للبابا والتى ما كان ينبغى لها أن تعادى المسيحيين فى سبيل نصرة المسلمين .

وكانت حدود مصر الشمالية تضطرب كذلك بين قوتين ناشئتين إحداهما قوة الشاه اسماعيل الصفوي فى بلاد العراق وإيران ، والأخرى قوة النزلاء العثمانيين فى بلاد الأناضول وأوربا ، فقد كان محمد الفاتح أتم فتح القسطنطينية وجعل عاصمة دولته فيها محل الدولة البيزنطية العظمي . وكان الشاه اسماعيل الصفوى قد جمع أكثر العراق وإيران فى دولة عظيمة تهدد الشرق كله بأن تكتسح بلاده وتبسط عليها مذهبها الدينى الشيعي .

وكانت دولة الصفوى أشد دول الشرق خطرا على حدود مصر لأنها كانت تتبع طريق الدعاية والخفاء فى الاغارة على البلاد التى تليها . وكانت لا تتورع عن أن تحالف المسيحيين لتساعدهم على القضاء على عظمة الدولة الاسلامية السنية الكبرى وهى مصر

فكانت القاهرة بطبيعة هذه الظروف مركزا لتيارات مختلفة بعضها مقبل من الشرق وبعضها من الغرب ، لكل منها وجهة ولكل منها لون . وسننقل هنا بعض مناظر المفاوضات السياسية التي شهدتها أبهاء الحكم عند ذلك

كانت أسبانيا تدين لملك كبير وملكة عظيمة جمعا تاجى قشتالة وأرغونة فى سبيل توحيد كلمة مسيحيي الأندلس ، وتمكنا بذلك من القضاء على آخر أثر من آثار الحكم الاسلامى الذى كان لا يزال يتحصن فى غرناطة . وبلغت شكوى مسلمى الأندلس مسامع العالم الاسلامى ولاسيما دولة مصر ذات المجد التالد . وخشى عاهلا الأندلس أن يفتح ذلك عليهما باب الجهاد الصليبى القديم ؛ وشاعت إشاعات سوداء عن عزم سلطان مصر أن ينتقم من رعاياه المسيحيين للثأر لمن وقعت عليهم مظالم أسبانيا من مسلمى المغرب .

فعوّل ملكا أسبانيا على أن يرسلا من قبلهما إلى مصر رسولا عظيم المقام فى الدولة وهو « بطرس مارتير دانجير » وسار من غرناطة مارّا بفرنسا وإيطاليا وأبحر من البندقية فى سبتمبر سنة ١٥٠١ وبلغ الاسكندرية فى ديسمبر من ذلك العام

تردّد السلطان الغورى فى مقابلة ذلك السفير ولكنه سمح له بعد لأى بأن يمثل بين يديه ، وكان ترجمان السلطان « تنجرى بردى » من أصل أسبانى فساعد على تخفيف ما كان عند السلطان العظيم من الموجدة على سفير الملكين اللذين اشتهرا باضطهاد المسلمين وإذلالهم وإيقاع أشدّ صنوف الأذى بهم .

وقابل الرسول السلطان مرارا مقابلة علنية ثم سمح له بلقاء سرّى تمّ فيه اقناع السلطان بأن مابلغه عن مظالم الحكم الاسبانى إنما هو من أكاذيب يهود الأندلس ، فانّ السفير أقنع السلطان العظيم أن وقعة ملكى الأندلس إنما كانت مسدّدة إلى اليهود ، وأن هؤلاء قد هاجروا من تلك البلاد وجعلوا يشنون الغارة عليها ويرمون مليكيها بالظلم والعسف كذبا لإيغار صدور المسلمين وملوكهم على دولة أسبانيا الناشئة . فلم يعد ذلك السفير من مصر إلا بعد أن كتبت له معاهدة صداقة وسلام حملها معه وغادر القاهرة فائزا فى فبراير سنة ١٥٠٢

وكانت دولة البرتقال فى هذه السنوات قد أفلحت فى تثبيت أقدامها على شواطىء آسيا وجعلت تناصب مصر العداء فى بحار الهند فأثر هذا فى تجارتها حتى خلت أسواق بيروت والاسكندرية من الأفاويه التى كانت دول أوربا تتهافت على شرائها من تجار البندقية الذين يشترونها من أسواق مصر والشام . فثارت مصر لما أصابها من خسارة فى تجارتها وفى سفن أسطولها ، وأخذت تستعدّ لمقابلة عدوان دولة البرتقال بمثله وجهز السلطان فى الوقت نفسه بعثات سياسية أرسلها للمفاوضة مع البابا والبندقية ومع أسبانيا والبرتقال ، وكانت رسالاته تنطوى على رجاء المليك المتحضر للدول الأخرى أن ترعى حقوقه وأن تقلع عن معاداته حفظا للسلام كما كانت تنطوى على تهديد المسيحية بالايقاع بما للمسيحيين فى الشرق كله من مصالح ورعايا ومعاهد . وكان أول رسول له فى هذه المفاوضات هو رئيس دير جبل صهيون واسمه « فرا ماورو دى سان برناردينو » ثم أرسل بعد ذلك ترجمانه الخاص « تنجرى بردى » . ولكن هذه الرسائل لم تفض إلى نتيجة حاسمة ، واضطر السلطان إلى أن يعلن أنه سيعمد إلى القوة والبطش للانتقام . وما كاد يعلن هذا العزم حتى بادرت دول أوربا فأرسلت إليه سفراءها للاعتذار له وإظهار صداقتها ومودتها وأنها غير راضية عن الدول التى تسعى للاضرار بمصر أو تعمل على الكيد للمسلمين ، وكانت البندقية أولى الدول التى سارعت إلى إظهار المودة والصداقة لشدة الترابط بينها وبين مصر .غير أن الظروف أساءت إلى هذه

الصداقة الوراثية بين البندقية ومصر وكادت تصل بها إلى القطيعة والعداوة، إذ اتفق أن ضُبط فى الشام فى شهر مايو سنة ١٥١١ . رجلان أحدهما من جزيرة قبرص واسمه « نيقولان سوربيه » وكانا آتيين من الشرق من بلاد الشاه اسماعيل الصفوى يحملان خطابين موجهين من الشاه إلى حكومة البندقية معنونين إلى « توماسو كونتاريني » قنصل البندقية في دمشق و « بطرس زين » قنصلها بالاسكندرية . وكان السلطان العظيم قانصوه يرى فى الشاه الصفوى عدوا خطيرا. فلما رأى هذه المراسلة بينه وبين البندقية زاد حنقه على تلك الصديقة ورأى أنها تخادعه وتتظاهر بمودته في حين أنها تراسل عدوه الأكبر، وأوشك الأمر أن يفضى إلى عداوة صريحة بينهما

فأمر السلطان بالقبض على القنصلين ، وقدمها إلى القاهرة وسجنهما بها وعزم على أن يعامل رعايا البندقية معاملة رعايا الدول المعادية فيقبض عليهم ويصادر أملاكهم وأموالهم ويقطع علاقته بدولتهم إيذاناً بالعداوة الصريحة .

وكانت فرنسا والبندقية تتنافسان على النفوذ فى الشرق ، فلما رأت فرنسا هذا التوتر فى علاقة مصر بالبندقية سارعت إلى إرسال سفير إلى السلطان ليوثق معه روابط المودة وكان هذا السفير اسمه « اندريه لرو »

ولما رأت البندقية أن فرنسا تسعى هذا السعى فى تلك الأزمة لم ترض أن تترك الميدان لمنافستها خشية ما يعود عليها من الضرر لو تغيرت سياسة مصر نحوها ، فبادرت بإرسال سفير كبير لمقاومة مسعى فرنسا وكان سفيرها هو « دومنيكو تريفيسان »

وهكذا شهدت القاهرة فى سنة ١٥١١ معركة سياسية دولية لم يكن فيها سفراء فرنسا والبندقية هم المتنافسين على صداقة سلطان مصر فحسب ، بل كان إلى جانبهم سفراء آخرون بعضهم مسيحيون كسفراء (جورجيا) البعيدة ، وبعضهم مسلمون كسفراء النزلاء العثمانيين وسفراء شاه إيران .

ولعله من المناسب هنا أن نصف استقبال سلطان مصر لسفير البندقية مستمدين تفاصيل ذلك من كاتب صحب ذلك السفير .

قال شاهد العيان يصف رحلة السفير ومن معه إلى مقرها بالقاهرة ويصف لقاء السلطان لهم :

« نزلنا ببولاق ثم سرنا إلى المنزل المعد لنا في بقعة من أحسن بقاع القاهرة . وكان المنزل آية فى الفخامة والرواء لا يستطاع أن يوجد مثله فى بلد من البلدان . قيل إن نفقات بنائه بلغت مائة ألف دوقية . وكانت جدرانه مغطاة بالنقوش موشاة بالذهب وكانت أرضه مغطاة بالفسيفساء وأبوابه مطعمة بالأبنوس والعاج .

« وفى الغد أتت إلى السفير هدية من السلطان (وهنا وصف ما تحتوى عليه الصور) وفى يوم الاثنين ذهبنا إلى المقابلة الأولى لصاحب العرش وكان نظام المقابلة على النحو الآتى :

«جاء المهمندار والترجمان إلى السفير فى بيته ليصاحباه ، وركب جواده ومن حوله معيته بعضهم يركب خيلا وبعضهم يركب بغالا . وسرنا فى المدينة حتى بلغنا القلعة فنزل السفير ومن معه وصعدوا سلماً ثم دخلوا من باب يحرسه جماعة كبيرة من الجنود ثم دخلوا من أربعة أبواب واحداً بعد الآخر . وكان عند آخر باب منها فرقة موسيقى تصدح بالأنغام . ثم مررنا بعد ذلك بثلاثة أبواب أخرى حتى دخلنا إلى فناء صغير تحيط به حوائط قد علقت عليها أنواع السلاح والدروع وإلى جوانبها نحو خمسين رجلا يعملون فى صناعة السلاح المختلفة ، وقد علمنا أن هؤلاء العمال إنما أعدوا قصداً لا طوعاً لصناعة السلاح والاستعداد للحرب فانا ما كدنا نمر حتى ذهبوا جميعاً وتفرقوا .

« وأخيراً رأينا السلطان فى فناء القلعة الفسيح جالساً على مسطبة علوها نحو خطوتين فوق الأرض تغطيها قطيفة خضراء وعلى رأسه قلنسوة كبيرة يعلوها قرنان عاليان يبلغ كل منهما نصف ذراع . وكان يلبس قفطاناً من القطن الأبيض فوقه جبة من قماش لونه أخضر قاتم . وكان يجلس مربعاً ساقيه كما يجلس الخياطون عندنا وعن يمينه سيفه ودرعه وكانا لا يفارقانه أبداً . وكان عن يمينه على مسافة قليلة نحو عشرين من الأمراء الملكيين الذين يقود كل منهم ألفاً فى الحرب وقوفا ، وكلهم يلبسون الأبيض وعلى رؤوسهم قلانس مثل قلنسوته ، وكان سوى هؤلاء عدد كبير من المساعدين كلهم وقوف يملأون فضاء الفناء .

« وتقدم السفير حتى إذا ماوقعت عينه على السلطان رفع قبعته وانحنى إلى الأرض فلمسها بيديه ثم رفعهما إلى شفتيه وجبهته دلالة على مقدار احترامه للسلطان العظيم ، ثم سار مع من معه نحو خمسة عشرة خطوة وحيا مرة أخرى ، وكان عند ذلك قد صار

على نحو عشرين خطوة من السلطان . وكانت هذه المسافة تغطيها الأبسطة ولم يكن من المباح السير فوقها ، فحيا السفير تحيته الأخيرة وأخرج من صدره خطاب (الدوج) مكتوباً على ورق بنفسجي وقد ختم بخاتم من الذهب ولف برباط تدلى منه دلايات من الذهب ، وقبل السفير الخطاب ثم وضعه على رأسه وسلمه للمهنمندار فناوله للسلطان ففتحه ثم أرجعه فقرىء له ، فلما انتهى من سماع ما فيه سأل السفير عن حال الدوج وصحته ، ولما انتهى السفير من الجواب حيا وتراجع إلى الوراء خارجاً هو ومن معه .

وقد تعددت المقابلات بعد هذه المقابلة الأولى ، كانت إحداها في بهو فسيح يقول فيه شاهد العيان : « وهذا البهو لا يمكن أن يقاس به بهو التشريفات الكبير فى قصر الرياسة العظيمة فى البندقية وذلك لعظمته وجماله ونفاسة نقوشه وأثاثه »

وكانت المقابلة الثالثة فى ساحة الرميلة المجاورة للقلعة فى حديقة خاصة بالسلطان فى ذلك الميدان الفسيح .

وكانت المقابلة الرابعة فى هذا الميدان نفسه ولكن فى غير الحديقة وكان السلطان هذه المرة جالساً على منصة إلى جانب سور القلعة وكان يلبس ملابس كالتى كانت عليه فى المقابلة الأولى ، وكذلك كانت هيئة الاستقبال كالهيئة السابقة . وتقدم السفير حتى صار على أربع خطوات من السلطان ثم وقف هو ومن معه وجعل يتكلم مع السلطان بصوت عال بوساطة ترجمانه ، وجاء فى أثناء الاجتماع السيد « بطرس زين » قنصل البندقية فى دمشق وهو المتهم بخيانة السلطان وكان يلبس ثوباً من قطيفة قرمزية .

واستمرت المقابلة ثلاث ساعات كان السفير فى أثنائها واقفاً يحمل قبعته في يديه وكان موضوع الحديث علاقة البندقية بدولة الصفوى ، وكان السلطان يتكلم غاضباً فى لهجة قاسية ولهذا كان السفير يبذل الجهد لكى يهدىء من غضبه ، وكان كل همه أن يظهر براءة حكومة البندقية من كل سعى ضد مصر فنظر السلطان إلى السفير وصاح به قائلا : —

« أنا أعلم أن حكومة البندقية بريئة من السعى ضدى ولكن هذا الكلب (مشيرا إلى قنصل البندقية بدمشق) يعمل على خيانتي وقطع علاقتى بدولتك » وكان السلطان وهو يقول ذلك يضطرب أشد الاضطراب من الغضب فاستمر السفير فى خطابه يحاول الدفاع عن دولته ، فصاح به السلطان قائلا : « أيها السفير — هل تعلم كيف سارت الأمور ؟ إذا كنت قد أتيت سفيرا للصدق فمرحبا بك ، وأما إذا كنت قد حضرت لتدافع عن الخونة وعن أعدائى فلا مرحبا بك . فترك بلادى وخذ معك مواطنيك من تجار بلادك »

فعاد السفير يلاطف فى حديثه وقال : « إنى أجهل ياسيدى السلطان ما كان من هذا القنصل . ولكنى أؤكد براءة دولتى وصفاء مودتها لكم . فإذا كان عندكم مايدل على كذب قولى فأنا مستعد أن أرهن حياتى على صدق ما أقول . وأما إذا كان القنصل قد أضر بمولاى بجهله وغباوته ، ولا أستطيع أن أسلم بأنه يقصد إلى ذلك قصدا ، فان حكومة بلادى كفيلة بعقابه على جرمه الشنيع ؛ فأسلمه لي لأعود به إلى بلادى ليلقى بها جزاءه بعد تحقيق دقيق . وسيلقى من الجزاء مايعلن للعالم كله صدق مودتنا لكم وتعلقنا بكم »

ثم قام السفير ووضع بيده غلا حول عنق القنصل المتهم . ولما انتهت المقابلة عاد السفير راكباً واقتيد القنصل سائرا على قدميه حتى وصل إلى البيت الذى كان السفير نازلا فيه .

وفى هذه المقابلة تناول الحديث موضوع الجزية المفروضة على قبرص وكانت البندقية تدفع تلك الجزية كل سنة لمصر .

وتعددت المقابلات بعد ذلك وكانت مقابلات خاصة بلغ عددها سبعا ، وفى المرة الأخيرة استأذن السفير السلطان فى السفر فأذن له وخلع عليه خلعة من القطيفة المحلاة بالفراء حول رقبتها .

وكان نجاح ذلك السفير فى هذه المفاوضات عظيما فانه استطاع أن يحصل لدولته على معاهدة صداقة صريحة جدّد بها عهود المودّة الأولى .

وهكذا بقيت مصر مركزا عظيما للتوازن السياسى والاقتصادى بين الدول يقصدها الجميع ويتقرب إليها الجميع إلى أن أراد الله أن تفجعها دولة شرقية فى استقلالها وعظمتها — تلك الدولة التى كانت مدينة لمصر بأكبر دين فى نشأتها وتقدمها — وهي الدولة العثمانية التى لولا حماية مصر لها فى نشأتها ووقفاتها الكريمة في الدفاع عن المدنية الاسلامية أمام هجمات تيمور لما كان لها فى العالم وجود .

ولكن إذا كان القضاء قد قدر لها أن تفقد استقلالها عند ذلك فقد شاء كذلك أن يعود لها ذلك الاستقلال عزيزا مجيدا لنعيد إن شاء الله سيرة عظمتها ولتستأنف قصتها فى القيام برسالة المدنية والسلام فى العالم الجديد .

محمد فريد أبو حديد

تأملات فى الأدب والحياة

للأستاذ اسماعيل مظهر

فى اللغة العربية :

من المشكلات العويصة التى تواجهها اللغة العربية فى هذا العصر ، مشكل قلَّما انتبه له المشتغلون باللغة ، لأنه يتعلق بموضوع لايمكن يوماً ما أن يكون ذا علاقة بشئون الحياة العامة تلك الشئون التى يوجه لها الناس عادة معظم اهتمامهم ، ويصرفون فيها أكثر مجهودهم ، ويوجهون نحوها أخص عنايتهم .

ذلك بأن الموضوع الذى سنتكلم فيه له علاقة بنواح علمية صرفة ، قلما يحتاج إلى النظر فيها غير العلماء المختصين ، وندر أن يحتاج إليها كاتب أديب ، أو شاعر مستجدد أو مستقدم . هذا بالرغم من أن أفق الأدب قد اتسع مداه ، وتصور الشعر قد تعالى إلى أسمات لم يفكر فيها الأقدمون .

أما المشكل فينحصر فى وضع أسماء عربيــة لأفراد الحيوان والنبات تعين الأشخاص والطبقات المختلفة بما فيها من الفصائل والعشائر والمراتب والأجناس والأنواع . ولقد كثر الجدل حول هذا الموضوع ولم يستقر الرأى فيه على شئ يصح الأخذ به ؛ فان لكل رأى من الآراء رأياً يناقضه ، ولكل أسلوب من الأساليب التى قيل بها أسلوباً ينابذه ، والأمر فوضى لا ضوابط له ولا حدود ، ينتحيها المترجم أو واضع الاصطلاح ، حتى يأمن أن يخرج له ناقد برأى جديد يسفه ماذهب إليه . وكل مالا حدود له ، لاعلم فيــه . فالعلم أولَ شئ حدود وضوابط ، هى أشبه بالمنطق عند القدماء . ومنطق العلم من شأنه البيان والتعيين فان ماهو مدخول بشك ليس من العلم الثابت فى شئ . فما بالك بمسألة علميــة ، كالتى نحن بصددها ، لم يتفق باحثان على قاعدة واحدة يمكن أن تتخذ أساساً للنظر فيه ؟

ظلت العربية واقفة وعجلة الزمان من حولها تدور ، وتسارع دورانها في خلال القرنين الفارطين ، حتى بعدت الشقة بين الحياة الجديدة ومطلوبات العلوم والفنون ، وبين اللغة العربية ، حتى أن الفرق ليروع كل واقف على حقيقة الهوّة التى تفصل بين العلوم والآداب ، وبين قدرة اللغة العربية على تأدية مدلولات مصطلحاتها في كلمات أصيلة مضرية الأصل أو صحيحة الاشتقاق .

ولقد انحصر الخلاف بين الناظرين فى هذا الموضوع فى نقط ثلاث : الأولى القول بالتعريب ؛ والثانية القول بالنحت ؛ والثالثة القول بالاشتقاق . ولا بد من الكلام في كل نقطة من هــذه النقط لنظهر ماوراءها من مناحى القوة والضعف ؛ حتى نخلص فى النهاية برأى ، آمل أن أكون قد وفقت فيه .

أما القول بالتعريب فرأى الذين يريدون اختصار الطريق وأخذ الأمر بنواصيه الظاهرة ، دون خوافيه . ولا شك فى أن العرب قد نزعوا هذه النزعة ، وجنحوا هذا الجنوح . ويريد القائلون بالتعريب أن يتخذوا مما عمل العرب ركيزة يرتكزون عليها تعززاً لرأيهم فيه . غير أن هؤلاء لم يفطنوا إلى أشياء من أوجب الواجبات أن تكون دستور القول فى مثل هذا الأمر . فالعربى أول شئ قد عرب وفى نفسه سليقة العرب وفى لسانه فصاحتهم وفى لغته بلاغتهم ، وهذا أمر يتطلب منا الحكم في مَن منّا يمكن أن يكون ذا سليقة عربية أو ذوق عربى يقارب ذوق الأقدمين أصحاب اللغة ؟ هذا شئ . وهنا لك شئ آخر فإن العربى لم ينزع إلى التعريب إلا مكرهاً ، بدليل القلة النادرة فى ماورد من الألفاظ المعربة مقيسة على الألفاظ العربية الأوزان الصحيحة الاشتقاق . وهذا يدل على أن قاعدة العرب كانت الاشتقاق على الصيغ التى كان يرى العربى أنها أصلح لأداء المراد . وهذا أمر له من الشأن مالم يفطن له الأكثرون . ذلك بأنى أعتقد أن العربى لم يزن ما اشتق من الأسماء خبط عشواء ، وإنما راعى فى اشتقاقها سليقة خاصة به . وبعد هذا وذاك ينبغي لنا أن نعرف أن التعريب ليس من السهولة بحيث يتصور الداعون إليه ، بل إن من أسماء الحيوان والنبات أكثرية مطلقة يفضل العرب أن يصوغ لها اسماً عربياً كائناً ما كان على أن يعربها فتكون غليظة غلظ الجبال ، لندرة مايوافق تركيب حروفها جَرْسَ تركيب الحروف العربية من حيث المخارج وتلاؤم ذلك فى الألفاظ العربية .

على أن جملة هذا القول لا تغنى عن التصريح بأننا فى حاجة إلى التعريب ، ولكن بقصد وقدر معلوم ، على أن تتقيد في

التعريب بقواعد ، أخصها أن يكون المُعَرَّبُ على وزن عربى من الأوزان قياسية أو سماعية حتى يلائم جَرْسُه جَرْس الكلمات العربية ، وحتى لا يحس منه المتكلم بالعربية نفوراً أو يجد فيه تنافراً مع ما تأتى من صيغ نعته الكريمة .

ومع القول بأننا فى حاجة إلى التعريب ، ينبغى أن نلحظ أن لجوءنا إليه إنما تدعونا إليه ضرورة قصوى يقف عندها جهدنا فى البحث والاستقصاء ، وتقليب كافة الأساليب بكامل وجوهها .

ننتقل من هذا إلى الكلام فى رأى يقول به المؤيدون لنظرية التعريب إطلاقا ، وبلا قيد . هم يقولون إن أسماء الحيوان والنبات لغة علمية عالية ، لا ينبغى لنا أن نزايلها بوضع ألفاظ أو مصطلحات عربية تقصينا عن جو العلم . وفى هذا القول وجوه من الضعف ووجوه من القوة . ذلك بأن القائلين بهذا الرأى قد فطنوا إلى حقيقة وغابت عنهم حقائق كثيرة ، لم يجعلوا لها وزنا فى كفتى الميزان الذى اتخذوه وسيلة للحكم فى موضوع من أدق الموضوعات التى تتصل بحياة اللغة العربية .

أما الحقيقة التى لم تغب عنهم ، فقولهم بأن أسماء الحيوان والنبات لغة عالية . وهذا ما ليس إلى نكرانه من سبيل . أما الذى غاب عنهم فحقيقة ذات علاقة شديدة بالحقيقة التى لم تغب عنهم . ذلك بأن أسماء الحيوان والنبات لغة عالية فى اللغات الأعجمية أى فى اللغات « الأندوجرمانية » ، وليس فى اللغات السامية . ولا أظن أن هذا الفارق ضئيل بحيث لا يعتد به ، بل على العكس من ذلك أعتقد أن ذلك الفارق من أكبر الفوارق التى تحفزنا إلى القول بأن أسماء الحيوان والنبات إن كانت عالية فى اللغات « الأندوجرمانية » ، فلن تكون بالنسبة للغات السامية إلا أسماء غريبة لا تمت اليها بأى سبب من الأسباب .

أضف إلى ذلك أن جهادنا فى سبيل اللغة العربية ينبغى أن يتجه متجهاً واحداً ، هو أن تصبح هذه اللغة قادرة على الاستقلال بمصطلحاتها العلمية والفنية والأدبية ، بمعنى أنها تصبح لغة العلم ولغة الأدب ولغة الفن فى مدارسنا ومعاهدنا بحيث نستطيع أن نؤدى بها أغراض المعرفة من غير استعانة بلغة أخرى . ولنفرض مثلاً أننا أردنا أن ندخل طرفاً من علم الحيوان فى كليات الأزهر فهل يمكن لنا أن ندخله من غير أن تكون اللغة العربية تامة القدرة على أداء المعانى والأسماء الضرورية لدرس هذا العلم الكبير فى وسط لا علاقة له بغير اللغة العربية ؟ وكيف تصبح اللغة العربية وافية بمطالب العلوم والفنون ، ما لم تكن تامة الوسائل لاداء أغراض العلم لطلاب لا يعرفون غير العربية ؟ وهل من الممكن بعد هذا أن ندرس هذا العلم ونحشو العبارات العربية الصريحة بالفاظ يونانية ولاتينية ، لا ينطقها أهلها الأصليون في بعض الأحيان إلا بصعوبة ؟ وليجرب مني بعض حضرات طلاب الأزهر قراءة الجمل الآتية :

إن « الأورنثيرونكهوس پارادوكرس » حيوان ثديبى بيوض يعيش في أوستراليا ! والأنثرپشكوس طروغلوديطس حيوان من البريمات يعيش في أفريقية ! والأرخوپتريكس طائر منقرض!

على هذه الصفة تكون عبارات علم الحيوان في العربية ، إذا أردنا أن نلزم التعريب الحرفي الذى يوافق اللغة العالمية في اللغات « الاندوجرمانية » (الهندية الجرمانية) . ولعمرى كيف يستطيع عربى لا صلة له باللاتينية واليونانية أن ينطق هذه الكلمات الأعجمية المنحوتة من مقاطع متباينة وأهجية متنافرة نطقاً صحيحاً كما تنطق في لغتها العالمية التى يتغنى بها فئة من ذوى الرأى لم يفطنوا إلى الصعاب التى تكتنف نظريتهم ، بل إنهم لم يحاولوا أن يفطنوا لها

* * *

ننتقل الآن إلى رأى القائلين بالنحت ، وهم ولا شك أقل من القائلين بالتعريب . أما النحت فباب يلحقه اللغويون بفقه اللغة ، ولكل من مشهورى اللغويين رأى فيه . فمن رأي السيوطى أن معرفته من اللوازم . وعرفه ابن فارس في كتابه « فقه اللغة » فقال : إن العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة ، وهو جنس من الاختصار واستشهد بقول الخليل :

أقول لها ودمع العين جار ... ألم يحزنك « حيعلة » المنادى

والحيعلة من قول « حىَّ على » . قال ابن فارس :

« وهذا مذهبنا فى أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحوت ، مثل قول العرب للرجل الشديد « ضَبْطر » من « ضبط وضبر » ؛ وفى قولهم « صَهصَلق » ، إنه من « صهل وصلق » ؛ وفى « الصَّلدَم » إنه من « الصلد والصَّدْم » وقد ذكر ابن فارس مذهبه هذا مفصلاً فى كتابه مقاييس اللغة .

ومن كلام ياقوت فى معجم الأدباء :

« سأل الشيخ أبو الفتح عثمان بن عيسى الملطي النحوي ، الظَّهيرَ الفارسيَّ عما وقع من ألفاظ العرب على مثال «شقحْطب» فقال : هذا يسمى من كلام العرب المنحوت ، ومعناه أن الكلمة منحوتة من كلمتين ، كما ينحت النجار خشبتين يجمعهما واحدة . فشقَحْطب منحوت من « شقّـد وحطب » . فسأله الملطي أن يثبت له ما وقع من هـذا المثال إليه ، ليعوّل فى معرفتها عليه ، فأملاها عليه فى نحو عشرين ورقة من حفظه ، وسماها كتاب « تنبيه البارعين على المنحوت من كلام العرب » اهـ . وهذه الوريقات مفقودة على الأسف .

ويحكى الفرَّاء عن بعض العرب « معى عشرة فأحْدِهنَّ لى » أي صيرهن أحد عشر اهـ .

وقد ذهب اللغويون إزاء النحت مذاهب . فنهم فئة لا تقول برأى ابن فارس . إذ لو صح رأيه إذَنْ لأصبح النحت كثيراً فى اللغة ، وبذلك يمكن القياس عليه ويطّـرد فى كثير من الأحوال ومنهم فئة تقول برأيه . ولا شك فى أن قليلاً من التأمل يرجح قول ابن فارس فى أن كل الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف أكثرها منحوت . وأقرب مثل على هذا كلمة « قُرْدُوح » أى القرد الكبير فهى بلا شك منحوتة من « قَرّ » و « دَوْح » والقرود تقر فى الدَّوْح ، فسمى العرب واحدها قُرْدُوح ، وما كان أكثر تسامحهم ، ما دام جرس الكلمة جارياً على الذوق العربى السليم .

وسواء أكان النحت أصلاً من أصول الوضع الصحيحة فى اللغة أم كان غير ذلك ، فان الرأى غير متفق على اتخاذ النحت أساساً من الأسس التي يلجأ إليها فى وضع الألفاظ الاصطلاحية الجديدة . ذلك بأن القول بأن اللغة العربية لغة اشتقاق ، وليست لغة نحت ، تجعل الذين يريدون التوسل بالنحت إلى وضع المصطلحات الحديثة يتريثون طويلاً . ولكنا بالرغم من هذا نعرض الأسئلة الآتية :

أولاً — أيعتبر النحت قياسياً أو سماعياً ؟ وما حد القياس والسماع فيه باعتبار أقوال فقهاء اللغة ؟

ثانياً — أيجوز أن نجرى على النحت فى وضع المصطلحات التى نعجز عن ترجمتها أو تعريبها تعريباً يفى بحاجات اللغة ؟

ثالثاً — أيفسد النحت اللغة العربية إذا روعى فيه

(١) أن يكون المنحوت على وزن عربى نطق به العرب

(٢) ألا يكون نابياً فى الجرس عن سليقة اللغة (٣) أن يؤدى حاجات اللغة من إفراد وتثنية ونسب وإعراب

رابعاً — أيجوز أن تنحت ألفاظ على غير وزن عربى عند الضرورة ، أم تقتصر على أن يكون المنحوت على وزن عربى إطلاقاً

خامساً — هل كون اللغة العربية لغة اشتقاق فى بنيتها ، ينافى النحت مع مراعاة شروط خاصة كالتي سبق أن ذكرناها ؟

سادساً — إذا أضفنا إجازة النحت إلى الاشتقاق ، أيكون هذا توسيعاً فى اللغة وتيسيراً ، أم تضييقاً وتعسيراً ؟

* * *

وقبل أن نمضى فى شرح ما نراه حلاً لهذا المشكل الكبير ينبغى لنا أن نلقى نظرة فى التعريب والنحت . فنقول إنهما فى أكثر الأحوال عسيرين كل العسر ، شاقين كل مشقة ، جامدين كل جمود ، وبخاصة إذا كثرت مقاطع الكلمات الأعجمية المراد تعريبها أو تعددت حروفها إلى ما فوق الخمسة ، أو تكونت من أكثر من لفظ كما فى أسماء الأنواع من النبات والحيوان . وكذلك فى النحت فقد تجد أن حروف الكلمتين المراد نحت كلمة منهما قد تنافرت حتى ليتعذر نحت كلمة منهما توافق الجرس العربى .

على أننا بالرغم من كل هذا ، وبالنظر إلى كثرة الأسماء التى نريد إيجاد مقابلات لها فى العربية ، وهي تعد بالملايين ينبغى توسيعاً لأقيسة اللغة وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون والآداب أن نعتبر التعريب والنحت أصلين من أصول الوضع فى اللغة ، على أن نحذر من التمادى فيهما كل الحذر ، وألاّ نلجأ إليهما إلا عند الضرورة القصوى ما دامت أوزان اللغة وصيغها تواتينا بحاجتنا من الأسماء التى نطلبها .

* * *

بقى علينا بعد ذلك أن نعرف هل تواتينا اللغة العربية بما نحتاج إليه من الأسماء ؟ إن لى فى هذا رأياً جديداً لعلى أوفق إلى تبيانه فى الأسطر التالية .

جمدت اللغة العربية بتعنت اللغويين ، كما جمدت الشريعة الاسلامية بتعنت أصحاب المذاهب . فان القول بقياسية الصيغ وسماعيتها ، بنسبة الكثرة والقلة ، بالرغم من أنها صيغ سمعت من أعراب أُصَلاَء ، قد أصاب اللغة بجمود لم يبلغ الشعور بقسوته بقدر ما بلغ فى زماننا ، ولم يأنس جيل من أبناء العربية بمقدار

أثره فى تقييد أساليبهم العلمية بقدر ما أنس جيلنا هذا . فان أكثر الصيغ التى وردت منها أسماء النبات والحيوان صيغ سماعية ، ومعنى أنها سماعية أنه ممنوع عليك أن تقيس عليها وأن تصوغ على غرارها أسماء جديدة تدل على حيوان أو نبات لم يذكره العرب ، على قلة ما تستطيع أن تعين من أشخاص الحيوان والنبات التى ذكرها العرب لضعف التعاريف أو فقدانها كلية .

فلم يبق أمام الواضعين للأسماء الجديدة إلا الصيغ القياسية ، وهى قليلة مقيسة بالعدد الوافر الذى ورد فى كلام العرب من الصيغ التى اعتبرها اللغويون سماعية . وهذه القيود الثقيلة التي لا مبرر لها إلا مسألة إحصائية قيدت اللغة وقيدت الواضعين بقيود وصفدتهم بأغلال ، هي السر الوحيد فيما يقال عن عجز اللغة العربية عن مجاراة اللغات الأخرى في الأسماء الدالة على الأشياء الحديثة ، ذلك فى حين أن إجازة الصوغ على تلك الصيغ التى قيل إنها سماعية يفتح على اللغة أبواباً واسعة تجعلها تفوق كل لغات الأرض فى القدرة على الوضع اللغوى الأصيل الذى لا يخرج عما اتبعه العرب من الأصول التى جروا عليها فى بناء لغتهم المجيدة .

ولا أريد أن أذهب هنا مذهب القائلين بأن كل ما قيس على كلام العرب ، ويقصد بهم العرب الأصلاء إلى نهاية القرن الثالث الهجرى ، فهو من كلام العرب ، وعلى رأسهم الامام ابن جنى ، على ما أري فى رأيه من رجحان ، بل أريد أن أتواضع قليلا فأقول إن الظرف العلمي يحفزنا إلى التسليم ، على الأقل ، بالقول بأن كل الأوزان التى صاغ منها العرب أسماء الحيوان والنبات قياسية ، بصرف النظر عما ورد منها قلة وكثرة فى كلام العرب . فاننا بذلك نوسع حقيقة من أقيسة اللغة ، وتقل حاجتنا إلى التعريب والنحت ، حتى لأكاد أومن بأن حاجتنا إليهما تنعدم تقريباً ، وإنى لأفضل اسماً مصوغاً على صيغة نطق بها العرب ، مع مراعاة الشروط التى اتبعوها فى الوضع والتى سأشرحها بعد ، على اسم معرب أو منحوت مهما حسن جرسه فى السمع . فاننا بذلك نحافظ على سلامة اللغة ونكون قد أمِنَّا التطوح باللغة فى مهاوى الفساد الذى سوف يؤدى إليه التمادى فى التعريب بالجملة ، إذا اتبعنا رأى بعض المتطرفين الذين لم يتذوقوا بعد لِلُغة العرب طمعا على أن العربى لم يجر فى وضع الأسماء على غير قاعدة ، بل إنه اتبع قاعدة أوحى إليه بها طبيعة الظرف الذى أحاط به فى مختلف البيئات التى عاش فيها ، وساعدته سليقته على تطبيقها . فانك إذا تأملت الأمر بعض الشيء ، ألفيت أن العربى كان ينظر فى الشيء فيلحظ فيه كثيراً من الصفات ، فاذا غلبت فى الشيء صفة صاغ له اسماً مستمداً من اللفظ الذى يدل على هذه الصفة والأمثال على ذلك كثيرة لا تحصى . ولا بأس من أن أورد هنا بعضاً منها .

الإسْليح : نبات ؛ قال أبو حنيفة الدينورى : واحدته إسلحة طوال القصب ، فى لونه صفرة تأكله الابل . وقيل هو عشبة تشبه الجرجير ، وينبت فى حقوف الرمل ، والأولى أكثر (ابن سيده) . وقيل هو نبات مُسْهِلى ينبت ظاهراً ، وله ورقة رقيقة لطيفة وسَنِفة محشوة حباً كحب الخشخاش . وهو نبات مطر الصيف يُسلِح الماشية (ابن خالويه واللسان) اهـ . فأخص صفة لحظها العربى فى النبات أنه يسلح الماشية أي يسهل بطونها ، فسماه الاسليح

الرَّتم والرَّتيمة : قال أبو حنيفة : الرتم والرتيمة نبات من دقّ الشجر كأنه من دقته شبه بالرتم ، وهو الخيوط (اللسان) وقيل إنه شجر له زهر كالخيرى وحب كالعدس (ابن سيده) والرتمة خيط يعقد فى الأصبع للتذكير (ج) رتم كالرتيمة (ج) رتائم ورتام وأرْتمة ، والرَّتم محركة نبات كأنه من دقته شبه بالرتم زهره كالخيرى وبزره كالعدس (القاموس ١١٦ : ٤)

السُّلْتُ : قال الليث شعير لاقشر له أجرد . زاد الجوهرى : كأنه الحنطة . وعن أبي حنيفة : هو صنف من الشعير يتجرد من قشره كله . وعن اللسان : وينسلت حتى يكون كالبرّ سواء

السُّمْنة : عن أبي حنيفة : دواء تُسمَّنُ به النساء .

الشَّعارير : صغار القثاء ، الواحدة شعرورة ، سميت بذلك لـما عليها من الزَّغب

الظُّفرَة : نبات حريف يشبه الظفر فى طلوعه (التاج)

الظِلامُ ؛ والظالم ، قال الأصمعى : هو شجر له عساليج طوال وتنبسط حتى تجوز أصل الشجرة ، فمنها سميت ظِلاماً

العَصب : شجرة تلتوى على الشجر وتكون بينها ، ولها ورق ضعيف ؛ وفى اللسان شجرة العصبة نبات يلتوى على الشجر ،

وهو اللبلاب اه . والاسم تشبيه بعصابة الرأس لأنه يلتوى على غرارها

العَطفُ : نبات يلتوى على الشجر ، لا ورق له ولا أفنان قال ابن بَرّى : العطَفة : اللبلاب ، سمى بذلك لتلويه على الشجر

العِقدُ : شجر ورقه يلحم الجراح (التاج)

فمن هذا يظهر لك أن العربي لم يجر فى وضع الأسماء على غير قاعدته ، وإنما كانت قاعدته أن يلحظ فى الشئ صفة ، فيرجع إلى لغته حتى يقع على الكلمة التى تؤدى معنى تلك الصفة ثم يصوغ منها الاسم على وزن يلذ فى أذنه جرسه

على أن لنا فى لغتنا العربية من الأصول ما يقابل كل الأصول التى نحت منها الفرنجة أسماء الحيوان والنبات يونانية كانت أم لاتينية . فاذا استعنا بالصيغ السماعية على ما بين أيدينا من الصيغ القياسية ، انفتح أمامنا الباب المغلق ، وخرجنا إلى الرحاب الواسعة وحافظنا على سلامة اللغة أن يطيح بها التقريب السقيم ، أو يتلاعب بها من ليس فى مقدورهم تفهم أصولها وأساليبها

والسبيل المعقول هو أن نكب على جمع أسماء النبات والحيوان ثم نعرف من أية الصيغ وردت ونحصر هذه الصيغ حصراً كاملا بقدر الامكان ، ثم نجيز قياسها والصوغ عليها فى أسماء الحيوان والنبات . فاننا بذلك لا نخرج عن القاعدة التي جرى عليها العرب مادمنا سنراعى شرط لحظِ الصفة في المسمى على ما عمل أسلافنا طيب الله ثراهم ، فان تسمحهم في هذا الشأن ، يضطرنا إلى القول مع الأئمة الذين قالوا من قبل « إن كلاماً قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب »

وإن لغتنا لواسعة وإن لنا فى أقيستها وصيغها التى وردت على لسان العرب ، ما يكفل لنا وضع الأسماء الجديدة التى يظن البعض أن وضعها من المستحيلات . وإني جرياً على القاعدة التى شرحتها هنا ، لقمين بأن أضع اسماً لأى نبات أو حيوان لا اسم له فى العربية ، مصوغاً على ما ورد فى كلام العرب

وقد جمعت حتى الآن من أسماء النبات أكثر من ألفى اسم ، وسأضع فى هذا الموضوع رسالة آمل أن تكون مبدأ عهد جديد في صوغ أسماء عربية للحيوان والنبات

اسماعيل مظهر

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢ —

نسبه ومولده :

الرافعى سورى الأصل ، مصرى المولد ، إسلامي الوطن : فأسرته من (طرابلس الشام) ، ضم ثراها عظام أجداده ، ويعيش على أرضها إلى اليوم أهله وبنو عمه ؛ ولكن مولده بمصر ، وعلى ضفاف النيل عاش أبوه وجده والأكثرون من بنى عمه وخئولته منذ أكثر من قرن ؛ وهو فى وطنيته (مسلم) : لا يعرف له أرضاً من أرض الإسلام ينتسب إليها حين يقول : « وطنى . . . » فالكل عنده وطنه ووطن كل مسلم ؛ فأنت لم تكن تسمعه يقول : « الوطنية المصرية... » أو « الوطنية السورية ... » أو « الوطنية العراقية . . . » إلا كما تسمع أحداً يقول : هذه دارى من هذا البلد ، أو هذه مدينتي من هذا الوطن الكبير الذى يضم أشتاتاً من البلاد والمدائن . وإنما الوطن فيما كان يراه لنفسه ولكل مسلم ، هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية ؛ وما مصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الإسلامى الأكبر ينتظمها جميعاً كما تنتظم الدولة شتى الأقاليم وعديداً من البلاد

وكثيراً ما كانت تثور الخصومات بين الرافعى وبعض الأدباء فى مصر ، فما يجدون مغمزاً ينالون به منه عند القراء إلا أن يتهموه فى وطنيته ، أعنى مصريته ؛ وكان الرافعي يستمع إلى ما يقولون عنه فى ذلك مغيظاً حيناً وساخراً حيناً آخر ، ثم يقول : أفتراهم يتهموننى فى مصريتى لأننى فى زعمهم غير مصرى وفى مصر مولدى وفى أرضها رفات أبى وأمي وجدى ، أم كل عيبى عندهم فى الوطنية أننى صريح النسب ؟ . . . وإلا فمن أبو فلان وفلان ؟

ومن أين مَقْدمه ؟ ومتى استوطن هذا الوطن ... ؟

***

ورأس أسرة الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ بطرابلس الشام ، ويتصل نسبه بعمر بن عبدالله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه ، في نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقه في الدين ، مامنهم إلا له تاريخ مشهود وجهاد مشكور ومسجد ومزار .

وأول وافد إلى مصر من هذه الأسرة هو المرحوم الشيخ محمد الطاهر الرافعى ، قدمها فى سنة ١٢٤٣ هـ (قريب من سنة ١٨٢٧ م) ليتولى قضاء الحنفية فى مصر بأمر من السلطان ؛ وأحسب أن مقدمه كان أول التاريخ لمذهب الامام أبى حنيفة فى القضاء الشرعى بمصر . ولم يعقب الشيخ محمد الطاهر غير فتاة وغلام ، انتهى بموتهما نسبه فليس فى مصر أحد من ولده ؛ ولكنه كان كرائد الطريق لهذه الأسرة [1] ، فتوافد إخوته وأبناء عمومته إلى مصر يتولون القضاء ويعلمون مذهب أبى حنيفة حتى آل الأمر من بعد أن اجتمع منهم فى وقت ما أربعون قاضياً في مختلف المحاكم المصرية ، وأوشكت وظائف القضاء والفتوى أن تكون مقصورة على آل الرافعى ؛ وقد تنبه اللورد كرومر إلى هذه الملاحظة فأثبتها فى بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية الانجليزية .

وقد تخرج فى درس الشيخ محمد الطاهر وأخيه الشيخ عبد القادر الرافعى أكثرُ علماء الحنفية الذين نشروا المذهب فى مصر . ومن تلاميذهما الأدنين المرحومان الشيخ محمد البحراوي الكبير والشيخ محمد بخيت مفتى الدولة السابق

ولما توفى المرحوم الامام الشيخ محمد عبده ، كان شيخ الحنفية فى مصر يومئذ هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعى ، فدعاه الخديو عباس إلى تولي وظيفة الافتاء ، وكان رجلاً زاهداً ورعاً فيه تحرّج وخشية . فلم يجد فى نفسه هوى إلى قبول هذا المنصب ، تحرُّجاً من فتنة الحكم وغلبة الهوى فى شأن يتصل بحقوق العباد وفيه الفصل فى الخصومات بين الناس . . . فلما بلغته دعوة الخديو ذهب إلى لقائه وفى نفسه همّ ، وهو يدعو الله ألا يئول إليه هذا الأمر ضناً بدينه ومروءته . . . وتمت مراسيم التولية ، وتلقى الأمر من صاحب العرش بقبول وظيفة (مفتي الدولة) ثم نزل الى عربته فركبها عائداً الى داره وهو يتمتم ويدعو ؛ فلما بلغ الدار نزل الحوذي ليفتح له العربة ويساعده على النزول ، فاذا هو قد فارق الحياة قبل أن يجلس مجلس الحكم مرة واحدة ليقضى فى شئون العباد . . . واستجاب الله دعاءه . . . !

وأبو الأستاذ الرافعى هو المرحوم الشيخ عبدالرزاق الرافعي ، كان رئيساً للمحاكم الشرعية فى كثير من الأقاليم ، وهو واحد من أحد عشر أخاً اشتغلوا كلهم بالقضاء من ولد المرحوم الشيخ سعيد الرافعي . وكان آخر أمر الشيخ عبد الرزاق رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية ؛ وفى طنطا كانت إقامته الى آخر أيامه ، وفيها مات ودُفن ، وفيها أقام مصطفى صادق وإخوته من بعد أبيهم فى بيته ، فاتخذوا طنطا وطناً ومقاماً ، لايعرفون لهم وطناً غيرها ولا يبغون عنها حولا . ولقد حاولت وزارة الحقانية أكثر من مرة أن تنقل مصطفى إلي غير طنطا فكان يسعي سعيه لالغاء هذا النقل ، حتى لايفارق البلد الذى فيه وفاة أبيه وأمه ، وفيه مسجد السيد البدوى . . . [1]

---

(١) العجيب أن يكون أول قادم إلى مصر من هذه الأسرة ليس فى مصر أحد من ولده ، ومع ذلك تستطيع أن تحصي من آل الرافعى فى مصر الآن ما يزيد على ستمائة . وأسرة الرافعى كثيرة الولد ، فما منهم إلا له ثمانية أولاد أو عشرة أو اثنا عشر أو أكثر من ذلك ؛ وحسبك أن تعلم أن أولاد وأحفاد الشيخ عبد الرازق الرافعى (والد المترجم) يبلغون الآن واحدا وسبعين ولدا وبنتا ، وأن الشيخ عبد الرازق هذا هو واحد من أحد عشر أخا تولوا كلهم وظائف عالية فى القضاء الشرعى ؛ وقد مات المرحوم مصطفى صادق وعمره سبع وخمسون سنة ولم يتزوج إلا واحدة ، وولد له منها أحد عشر ولدا وفتاة افترط منهم واحدة فى سنتها الأولى وخلف عشرة يكون فقده . . . ! !

(١) كان للرافعي صلة روحية بالسيد البدوى ترتفع عن الجدل والمناقشة، وله فيه مدائح وتوسلات شعرية ربما استطعت أن أجلو منها شيئاً على قراء الرسالة فى غير هذا العدد .وكان الرافعي إذا أم مسجد السيد البدوى للصلاة اتخذ مجلسه تحت القبة فلا يمل الجلوس ساعات يقرأ ويدعو وهو يهتز وعيناه مسبلتان ؛ فاذا فرغ من دعائه وتلاوته رفع رأسه ومسح بيده على صدره ، ثم يمضى وما تزال شفتاه تتحركان بكلام ... وكان بيت آل الرافعى القديم فى طنطا ، قريباً من مسجد السيد البدوى ، فى حارة سيدى سالم ، وهى حارة قديمة ضيقة ملتوية يقال إن السيد البدوى أوي إليها أول ماهبط إلى طنطا منذ ألف سنة ؛ وكانت إلي عهد قريب هى مجمع دور الأعيان والسروات من أحباب السيد البدوى واللائذين به .

وكان الشيخ عبد الرازق رجلاً ورعاً له صلابة فى الدين وشدة في الحق ، مابرح يذكرهما له مع الاعجاب معصروه من شيوخ طنطا .

حدثني نسيب قال : « كنت غلاماً حدثا ، وكن الشيخ عبد الرازق الرافعى من جيراننا وأحبابنا الأجلاء ، وكان يتخذ مجلس العصر أحياناً فى متجر جاره وصديقه المرحوم الحاج حسن بدوى الفطاطرى ، فى شارع درب الأثر ، ودرب الأثر يومئذ هو شارع المدينة وفيه أكبر أسواقها التجارية ؛ فنى عصر يوم من رمضان ، كان الشيخ عبد الرازق يجلس مجلسه من متجر صديقه ، فمر به رجل ينفث الدخان من فمه وبين أصبعيه دخينة ، فما هو إلا أن رآه الشيخ عبد الرازق ، حتى اندفع إليه ، فانقض عليه ، فأمسك بثيابه ، فدعا الشرطى أن يسوقه إلى القسم لينال الحد على إفطاره فى رمضان فى شارع عام . وما أجدى رجاء الرجل ولا شفاعة الشفعاء ؛ فسيق الرجل إلى القسم فى (زفّة) من الصبيان ، ليتولى الشيخ حده بنفسه على إفطاره . وما كان القانون يأمر بذلك ولا يجيزه ، ولكن الشرطة ما كانوا ليخالفوا أمر قاضى المدينة ، وما كانوا يعرفون له عندهم إلا الطاعة والاحترام »

وحوادث الشيخ عبد الرازق من مثل ذلك كثيرة يعرفها كثير !

واسم (الرافعى) معروف فى تاريخ الفقه الاسلامى منذ قرون وأحسب أن هناك صلةً مابين أسرة الرافعى فى طرابلس الشام وبين الامام الرافعي المشهور صاحب الشافعي ؛ وقد سألت المرحوم الأستاذ الرافعى مرة عن هذه الصلة ، فقال : لا أدري ، ولكنى سمعت من بعض أهلي أن أول من عُرف منا بهذا الاسم شيخ من آبائى كان من أهل الفقه وله حظ من الاجتهاد والنظر فى مسائله ، فلقبه أهل عصره بالرافعى تشبيهاً له بالامام الكبير الشيخ محمود الرافعى صاحب الرأي المشهور عند الشافعية ، والله أعلم .

والأستاذ الرافعي حنفى المذهب كسائر أسرته ، ولكنه درس مذهب الشافعى وكان يعتدّ به ويأخذ برأيه فى كثير من مسائل العلم .

وأم الرافعي كأبيه سورية الأصل ، وكان أبوها الشيخ الطوخى تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام ، وأصله من حلب ، وأحسب أن أسرة الطوخى ماتزال معروفة هناك ، على أنه كان اتخذ مصر وطناً له قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعي . وكانت إقامته فى (بهتيم) من قري مديرية القليوبية ، وكان له فيها ضيعة ، وفيها وُلد الأستاذ مصطفي صادق الرافعى فى يناير من سنة ١٨٨٠ م [1] ، إذ آثرت أمه أن تكون ولادتها فى بيت أبيه .

وكانت أم الرافعى تحبه وتؤثره ، وكان يطيعها ويبرّها ؛ وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تغرغرت عيناه كأنه فقدها بالأمس ، وكان دائماً يحب أن يسند إليها الفضل فيما آل إليه أمره ؛ وقد توفيت فى أسيوط ودفنت بها ، ثم نقلت إلى مدافن الأسرة بطنطا ، وقد شيّعها الرافعي على عنقه إلى مقرها !

***

علم وثقافة :

لأسرة الرافعي ثقافة أُسمها كما يسميها الأستاذ اسماعيل مظهر (ثقافة تقليدية) ، فلا ينشأ الناشىء منهم حتى يتناولوه بألوان من التهذيب تطبعه من لدن نشأته على الطاعة واحترام الكبير وتقديس الدين ، وتجعل منه خلفاً لسلف يسير على نهجه ويترسم خطاه . والقرآن والدين هما المادة الأولى فى هذه المدرسة العريقة التى تسير هذه الأسرة على منهاجها منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [2]

وعلى هذه النشأة نشأ المرحوم مصطفى صادق ، فاستمع إلى أبيه أول ما استمع تعاليم الدين وحفظ شيئاً من القرآن ، ووعى كثيراً من أخبار السلف ، فلم يدخل المدارس المدنيـة إلا بعد

(١) لا نعرف للرافعى (شهادة ميلاد) تحدد يوم مولده بالضبط . وشهادة الميلاد الموجودة بملف خدمته فى وزارة الحقانية هى لأخيه المرحوم محمد كامل الرافعى ، وقد كنت أحسب مولده فى سنة ١٨٨١ أو ١٨٨٢ ، وبأحدهما أخذ الأستاذ الزيات فى مقالته عنه بالرسالة غداة نعيه . ثم وقعت لي بين أوراقه الخاصة ورقة مكتوبة بخطه يثبت فيها أن تاريخ ميلاده فى يناير سنة ١٨٨٠ فبها أخذت هنا .

(٢) يتخذ الرافعى فى بيته امرأة قارئة حافظة ؛ تقرأ كل يوم ماتيسر من القرآن ، وتعلم بناته من القرآن فى وقت فراغهن من المدرسة ، وتقيم ألسنتهن في تلاوته .

ما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين . فقضى سنة فى مدرسة دمنهور الابتدائية ، ثم نقل أبوه قاضياً إلى محكمة المنصورة فانتقل معه إلى مدرسة المنصورة الأميرية[١] ، فنال منها الشهادة الابتدائية وسنُّه يومئذ سبع عشرة سنة أو دون ذلك بقليل ؛ ومن زملائه في المدرسة الابتدائية الأستاذ الجليل منصور فهمي بك ، ونيازى باشا وأحسبه قال لى : إن منهم كذلك الشارع القانونى الكبير عبد الحميد بدوى باشا

ومن أساتذته فى المدرسة الابتدائية شيخنا العلامة الأستاذ مهدى خليل المفتش بوزارة المعارف ، وكان يدرس له العربيـة ؛ وكان الرافعي ردىء الخط لا يكاد يقرأ خطه إلا بعد علاج ومعاناة فكان الأستاذ مهدى يسخر منه قائلا : « يا مصطفى ، لا أحسب أحداً غيرى وغير الله يقرأ خطك ! » وقد ظل خط الأستاذ الرافعي رديئاً إلى آخر أيامه ، ولـكن قراء خطه قد زادوا اثنين : هما سعيد العريان والعمال فى مطبعة الرسالة ...

وهنا أذكر حكاية طريفة تدل على مبلغ وفاء المرحوم الرافعي وتكشف عن شئ من خلقه : فقد صحبنى مرة منذ عامين إلى نادي دار العلوم ، وما أكثر ما كان يصحبنى إليـه إذا هبط القاهرة . وجلس وجلست معه فى جمع كبير من المفتشين والمدرسين ورجال التعليم ، وكان المرحوم الأستاذ أبو الفتح الفقي نقيب المعلمين السابق جالساً إلى جانب الأستاذ الرافعي يتحدثان ، وأنا بينهما أترجم للأستاذ الرافعي حديث محدِّثه مكتوباً فى ورقة ، وبينما نحن كذلك والحديث يتشعب شعبه ويتسرب فى مساربه ، والجمع حولنا مرهف الآذان يستمع إلى حديث الرجلين ، إذ نهض الرافعي واقفاً ، فانتبهت ، فإذا القادم الأستاذ مهدى خليل يبدو من طوله وجسامته واكتمال عضله كأنما يطل علينا من نافذة ... وإذا الرافعي يطأطئ له وينحنى يهم أن يقبل يده ؛ ثم عاد إلى مجلسه فمال عليّ يقول فى همس : « هـذا أستاذى مهدى خليل ... » وفى صوته رنة هى أقرب إلى صوت طفل لأبيه حين يمر بهما معلم الغلام فيميل إلى أبيه يُسرّ إليه ... ومضى الأستاذ مهدى غير عابئ ولا ملتفت بما فيه من طبيعة المرح وعادة الاغضاء ، وأحسبه لم يعن بالسؤال عن هذا الزائر الذى نهض له أو بالنظر إلى وجهه ، على حين ظل ذكره على لسان الرافعي طول اليوم

* * *

وفى السنة التى نال فيهـا الرافعى الشهادة الابتدائية — وهى كل ما نال من الشهادات الدراسية — أصابه مرض مشف أثبته في فراشه أشهراً — وأحسبه كان التيفويد — فما نجا منه إلا وقد ترك في أعصابه أثراً كان حبسة في صوته ووقراً في أذنيـه من بعد .

وأحس الرافعى آثار هذا الداء بوقر أذنيه ، فأهمه ذلك هما كبيراً ، ومضى يلتمس العلاج لنفسه في كل مستشفى وعند كل طبيب ، ولـكن العلة كانت في أعصابه فما أجدى العلاج عليـه شيئاً ، وأخذت الأصوات تتضاءل في مسمعيه عاما بعد عام كأنها صادرة من مكان بعيد ، أو كأن متحدثاً يتحدث وهو منطلق يعدو . . . حتى فقدت إحدى أذنيه السمع ، ثم تبعتها الأخرى، فما أتم الثلاثين حتى صار أصم لا يسمع شيئا مما حواليه ، وانقطع عن دنيا الناس .

وامتد الداء إلى صدره فعقد عقدة فى حبال الصوت كادت تذهب بقدرته على الـكلام ، ولـكن القدر أشفق عليه أن يفقد السمع والـكلام في وقت معاً ، فوقف الداء عند ذلك ، ولـكن ظلت فى حلقه حبسة تجعل فى صوته رنينا أشبه بصراخ الطفل ، فيه عذوبة الضحكة المحبوسة استحيت أن تكون قهقهة . . .

وكانت بوادر هذه العلة التى أصابت أذنيه هى السبب الذى قطعه عن التعليم فى المدارس بعد الشهادة الابتدائية ، لينقطع لمدرسته التى أنشأها لنفسه وأعد برامجها بنفسه ، وكان هو فيها المعلم والتلميذ

وحظ الرافعى من الشهادات العلمية حظ أبيه ، فان الشيخ عبد الرازق الرافعى على علمه وفضله ومكانته ، وعلى أنه كان رئيساً للمحكمة الشرعية فى كثير من الأقاليم — لم تكن معه شهادة (العالمية) حتى جاء إلى طنطا . ولأمر ما نشب خلاف على بينه وبين بعض علماء طنطا حفزه وهو شيخ كبير إلى طلب الشهادة ،

(١) جاء فيما كتب الأستاذ الزيات عن الرافعي أن دراسته فى المنصورة كانت بمدرسة الفرير . وأحسب هذا قد جاءه من أن المرحوم الرافعي كان لايعرف من اللغات غير الفرنسية والعربية ؛ ولـكن اللغة الأجنبية فى مدارس الحكومة كانت إلى ما بعد الاحتلال بقليل هى الفرنسية ، ولم تدخلها اللغة الانجليزية إلا بعد أن قويت شوكة المحتل حتى نفذت إلى برامج التعليم ...

فتقدم إلى امتحانها ونالها، لغير غرض يسعى إليه إلا أن يستكمل براهينه في جدال بعض العلماء . . .

وكان لأبي الرافعي مكتبة حافلة تجمع أشتاتاً من نوادر كتب الفقه والدين والعربية ؛ فأكبَّ عليها مصطفى إكباب النهم على الطعام الذي يشتهيه ؛ فما مضى إلا قليل حتى استوعبها وأحاط بكل ما فيها وراح يطلب المزيد . وكان له من علته سبب يباعد بينه وبين الناس فما يجد لذة ولا راحة في مجالسة أحد ، وكان ضجيج الحياة بعيداً عن أذنيه ، وكان يحس في نفسه نقصاً في ناحية يجهد جهده ليداريه بمحاولة الكمال في ناحية ، وكان يُعجزه أن يسمع فراح يلتمس أسباب القدرة على أن يتحدث ، وكان مشتاقاً إلى السمع ليعرف ماذا في دنيا الناس فمضى يلتمس المعرفة في قراءة أخبار الناس ، وفاتته لذة السامع حين يسمع فذهب ينشد أسباب العلم والمعرفة ليجد لذة المتحدث حين يتحدث ، وقال لنفسه : إذا كان الناس يعجزهم أن يسمعوني فليسمعوا مني . . . وبذلك اجتمعت للرافعي كل أسباب المعرفة والاطلاع ، وكانت علته خيراً عليه وبركة . وعرف العلم سبيله من نافذة واحدة من نوافذ العقل إلى رأس هذا الفتى النحيل الضاوي الجسد الذي هيأته القدرة بأسبابها والعجز بوسائله ليكون أديب العربية في غد . . . !

كانت مكتبة الرافعي في هذه الحقبة من تاريخه ، هي دنياه التي يعيش فيها ، ناسُها ناسه ، وجوُّها جوُّه ، وأهلها صحابته وخلانه ، وعلماؤها رُواته ، وأدباؤها سُمّاره ؛ فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة عن العلماء والرواة فماً لفم ، فنشأ ذلك نشأة السلف . يرى رأيهم ، ويفكر معهم ، ويتحدث بلغتهم ، وتستخفه أفراحهم ، وتتراءى له أحلامهم ومناهم

وإذ كان قد فقد السمع قبل أن يتم تمامه ويكون أهلا لغشيان المجالس يتحدث إلى الناس ويستمع إلى حديثهم ــ فان حظه من العامية المصرية كان قليلا ، وكان عليه أن يسألني أحياناً أو يسأل غيري من خاصته ، عن كلمة أو عبارة أو مثل مما يسمع من أمثال العامة حين تلجئه الحاجة الأدبية إلى شيء من ذلك ، وكان يمزح معي أحياناً ويقول : « فلتكن أنت لي قاموس العامية . . . »

وإذ كان أبوه وأمه قريبي عهد بمنبتهما في سورية ، وكان لم يسمع أكثر ما سمع في طفولته إلا منهما ــ فان لهجته في الحديث ظلت قريبة من السورية إلى آخر أيامه ، على حين تسمع إلى كل أسرته وإخوته وبنيه يتحدثون باللهجة المصرية فما ينم صوت أو كلمة على أن أصلهم سوري ، ولكن مصطفى كان بلغته ولهجة حديثه هو وحده النميمة على هذا الأصل ، وكأنه لم يقدم من سورية إلا منذ قريب .

ولم تُجْدِ على الرافعي معرفته الفرنسية إلا قليلا أو أقلَّ من القليل ، فمنذ انتهى من المدرسة لم يجد في نفسه إليها نزوعاً قوياً ، فلزمها سنوات يقرأ فيها بعض ما يتفق له من الكتب القليلة المقدار في العلم والأدب ، ثم هجرها إلى غير لقاء ، ولو أنك كنت تسمعه أحياناً يأسف على هجرها ويمني نفسه بالعودة إليها في وقت فراغ ؛ وهيهات أن يجد الرافعي فراغا من وقته .

هذه ثقافة الرافعي وتلك وسائله إلى المعرفة ، وقد ظل هذا على الدأب في القراءة والاطلاع إلى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثماني ساعات متواصلة لا يمل ولا ينشد الراحة لجسده وأعصابه كأنه من التعليم في أوله لا يرى أنه وصل منه إلى غاية .

وكان إذا زاره زائر في مكتبه جلس قليلا يحيّيه ويستمع لما يقوله ثم لا يلبث أن يتناول كتاباً مما بين يديه ويقول لمحدثه : « تعال نقرأ . . . » وتعال نقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعي ويستمع الضيف ، فلا يكف عن القراءة حتى يرى في عيني محدثه معنى ليس منه أن يستمر في القراءة . . .

وفي القهوة ، وفي القطار ، وفي الديوان ، لا تجد الرافعي وحده إلا وفي يده كتاب . وكان في أول عهده بالوظيفة كاتبا بمحكمة طلخا ، فكان يسافر إلى طنطا كل يوم ويعود ، فيأخذ معه في الذهاب وفي الاياب (ملازم) من كتاب أي كتاب ليقرأها في الطريق . وفي القطار بين طنطا وطلخا (وبالعكس) استظهر كتاب نهج البلاغة في خطب الامام علي ، وكان لم يبلغ العشرين بعد . . . ؟

(لها بقية) « طنطا » محمد سعيد العريان

تصويب : جاء في الجزء الأول من هذه المقالات المنشور بالعدد ٢١١ أن الرافعي توفي صباح الاثنين ١٤ مايو ، وهو خطأ صوابه الاثنين ١٠ مايو ، وكان يومه الأخير هو الأحد ٩ مايو سنة ١٩٣٧

إبراهيم باشا

موقعة نصيبين

— ٢ —

واستقبل حافظ باشا الأمير ألاي والبكباشي الذي كان يصحبه أحسن استقبال، وأتحفهم بالهدايا وأخبرهم أنه سيرسل رده في اليوم التالي. وكانت الروح السارية في هذا الرد من أوله إلى آخره هي أن الخضوع لا يكون بالأقوال بل بالأفعال. ثم انتقل حافظ باشا من هذا المبدإ إلى قوله إنه لا يعترف بأن التهم التي يوجهها إليه إبراهيم قائمة على أساس صحيح؛ وحاول أن يثبت أن الجنود المصرية لا الجنود الشاهانية هي المعتدية، وجاء في ختام هذا الخطاب ما يأتي:

« لقد أعطيت لنفسي الحرية في كتابة هذه الرسالة الودية، لتكون دليلا على حسن نيتي؛ وقد أرسلتها مع الأميرالاي حاذق بك وبصحبته الأميرالاي أجد بك من ضباط الجيش الشاهاني المظفر. وعند ما تصلكم هذه الرسالة إن شاء الله سيتوقف العمل بما فيها على حكمتكم السامية » (١).

وبينما كان القائدان يتبادلان الرسائل على هذا النحو، كان رسول يستحث الخطى إلى إبراهيم، يحمل إليه رسالة من أبيه مؤرخة ٩ يونية سنة ١٨٣٩ يقول فيها:

« تسلمت رسالتك التي تقول فيها إن العدو يواصل زحفه وإنه احتل الآن ستين قرية وراء عينتاب، وإنه وزع السلاح على الأهالي وحرض العصاة على مهاجمة عَكّار (٢) وسلب أموال حاكمها وقتله. وقد قلت بعد ذلك إنه ليس من الحكمة أن يسمح للأتراك بالسير على هذه الخطة، وطلبت إليّ أن أخبرك بما تفعل.

« إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول، وإذا ما صبرنا عليه بعد ذلك عز علينا أن نقفه، لأنه يبذر بذور الفتن ذات اليمين وذات الشمال؛ وكلما صبرنا عليه رغبة منا في عدم معارضة رغبات الدول الكبرى، زاد عدونا إيغالا في بلادنا وزادت الأمور حرجا. وتلك حال ترغمنا على العمل؛ فعلينا أن نرد هجومه بهجوم مثله. ولما كان العدو هو المعتدي فإن الدول لن تلق التبعة علينا.

« فنصيحتي إليك أن تبادر عند وصول رسالتي إلى يديك بالهجوم على جنود العدو الذين دخلوا في أرضنا، وأن لا تكتفي بإخراجهم منها، بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله » (١)

ووصلت هذه الأوامر إلى إبراهيم في غسق الليل؛ فأراد أن يهاجم العدو عند مطلع فجر اليوم التالي. ورأى سليمان باشا (الكولونيل سيف ساعد إبراهيم الأيمن، الذي طالما أشرنا إليه في هذا الكتاب) غير هذا الرأي، وأصر على أن وجود الضباط البروسيين في جيش حافظ باشا يحمله على الظن بأن مواقع العدو قوية محصنة؛ وطلب الضابط الفرنسي أن يستكشفا بنفسيهما تلك المواقع قبل الهجوم عليه. ولما كان من شيمة إبراهيم أن ينصاع دائما إلى حكم العقل، فقد قبل هذا الرأي عن رضى وطيب خاطر.

وفي صباح اليوم التالي اضطلع القائدان نفسهما بتلك المهمة الخطيرة، مهمة استطلاع مواقع الجيش التركي. وما زالا يقتربان من خط النار حتى أصاب الرصاص حصان أحد جنودهما فقتله وكانت نتيجة هذا الاستطلاع أن عرفا أن نصيبين التي اعتصم بها حافظ باشا أمنع من عقاب الجو، وأن ليس في مقدورهما أن يستوليا عليها عنوة (٢)، لأن فون ملتكه وفون ملباخ ندبا معسكر الأتراك عند سفح التل الذي يجري عنده نهر كرزين (٣) وجعلا هذا النهر حائلا بين المصريين والجيش التركي. ولذلك اضطر المصريون أن ينسحبوا من مواقعهم ويهاجموا العدو من جهة أخرى. وأيقن إبراهيم وسليمان باشا أن الفضل في اختيار هذا

---

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٩٧

(٢) بلد صغير واقع على بعد ٣٢ كيلو مترا من شرق طرابلس والذين هجموا عليه في ذلك الوقت هم المتاولة. (المعرب)

(١) فنترنيه في كتابه السالف الذكر ص ٣٠٩

(٢) المصدر عينه ص ٣١٢.

(٣) هو نهر يصب في الفرات وتقع نصيبين على ضفته اليسرى. وقد كتبه المؤلف وفنترنيه كرسيم وكتبه فريد بك قرصيم، ولكن الخرائط التي اطلعنا عليها وكذلك كدافين وزميله والرافعي بك يكتبونه كرزين (المعرب)

الموقع المنيع الذى اتخذه الجيش التركى لنفسه يرجع إلى مهارة الضباط البروسيين وخبرتهم الفنية ، ولكنهما قدرا أن الألمان لن يستطيعوا أن يتنبأوا بالحركة الجريئة التى سوف يقدمن عليها

والحق أنهما لم يخطئا التقدير ، لكنهما حين أقدما على ما أقدما عليه عرضا أنفسهما لأشد الأخطار رغم أنهما بنيا خطتهما على نفسية البروسيين وعقلية الأتراك . وقد وصف تلك الخطة إيميه ڤنترنيه Aimé Vingtrinier صاحب سيرة سليمان باشا بقوله :

« وكانت فكرة سليمان وميضاً من العبقرية إذا أفلحت وأوهاما من عقل مخبول إذا أخفقت . ولكنه كان مؤمناً بصوابها ، واستطاع أن يبث هذا الإيمان فى الجيش كله لافرق بين قائده الأعلى وأصغر جندى فيه » (١) .

وكانت الخطة التى نفذت بإشراف إبراهيم وعلى مسئوليته هى أن يترك الجيش المصرى المعسكر الذى كان يحتله وقتئذ ، ويسير مخترقا قرية مزار (٢) ، وأن يتم ذلك بين طلوع الفجر وغسق الليل ؛ ثم يلتف حول جبل بيازار ويعود بعدئذ فيتجه نحو العدو مولياً وجهه شطر الجنوب فى اتجاه قرية كرد قلعة (٣) ، وكانت الفكرة التى بنيت عليها هذه الحركة كلها هى : أولا أن ڤون ملتكه عند مارى أن الجيش المصرى قد رفع معسكره لايشك مطلقاً فى أن قواد هذا الجيش لن يفعلوا ما كانوا ينوون أن يفعلوه ، وهو تعريض جناحهم للخطر ، وأنه سيمكنهم بذلك من أن ينفذوا الشطر الأول من خطتهم قبل أن يدرك حقيقتها . وثانياً أن ڤون ملتكه إذا ما أدرك حقيقة الموقف وأراد الانسحاب إلى مواقع خير من مواقعه الأولى ليهاجم منها المصريين قبل أن يصلوا إلى أماكن آمنة ، لن يتمكن من التغلب على كبرياء القائد التركى ، بل إن هذا القائد سيتغلب على المنطق الألمانى الضعيف .

ويقال إنه لما فرض حافظ باشا رأيه على الضباط الألمان غضبوا أشد الغضب ودفعوا إليه استقالتهم ، فلما فعلوا ذلك قال لهم السر عسكر : « إن الجندى لا يستقيل قبيل الموقعة » . وكان هذا الالتجاء إلى المبادىء الخلقية العسكرية كافياً لحل المشكلة ، فلم ينسحب ڤون ملتكه بل أفرغ وسعه فى معالجة هذه الحال الطارئة ، فعدل خططه ونقل مدافعه التى أصبحت عديمة الفائدة لأن المصريين أبوا أن يقدموا أجسامهم طعاماً لنيرانها ، ووضعها حيث يمكنه الاستفادة منها . وأيقن أن الموقعة الحاسمة ستبدأ عند مطلع فجر اليوم التالى ، وكان يخشى أن تكون نتيجتها وبالاً على الجيش العثمانى ، لأن إبراهيم خرج على القوانين الحربية ، فأبى أن يتبع البديهيات الأولى فى فن الحروب ، وخرق مبادئها الأولية . ولشد ما تألم ذلك العالم الخبير بفنون الحرب حين رأى أن عدوه قد أبى أن يعمل ما يجب عليه أن يعمله . ولا شك فى أنه كان يعتقد أن أمثال ماكماهون Mae Mahon وبازين Bazaine (١) ممن يتمسكون بالقواعد والأصول ، خير من رجال كإبراهيم أو سليمان باشا يضعون قواعدهم لأنفسهم .

وما أسفر صبح اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيه حتى بدأت المعركة بهجوم المصريين . وكان جل اعتماد الأتراك على فرسانهم لأنهم ظنوا أن طبيعة الأرض تحتم عليهم اتباع هذه الخطة الحربية . وقد يكونون مصيبين فى ظنهم لأننا لاندعى لأنفسنا تلك الخبرة بالفنون العسكرية التى تمكننا من أن نبدى رأيا فى هذا الموضوع . وكل الذى يعنينا هنا هو أن مشاة المصريين صدوا هجوم الفرسان العثمانيين ، فولى هؤلاء الفرسان الأدبار لا يلوى آخرهم على أولهم . وعندئذ وقع الاضطراب فى صفوف الجيش العثمانى كله فتضعضعت أركانه ولم تأت الساعة التاسعة حتى كان إبراهيم سيد الميدان غير المنازع .

وأقبل إبراهيم على خيمة حافظ باشا . وقد وصفها ڤنترنيه وصفاً لا نعتقد أنه كان جاداً فيه ؛ لأنه قال « إنها كانت واسعة الأرجاء كأنها قصر مشيد ، مزخرفة كأنها حجرة استقبال

(١) المصدر عينه ص ٣١٤ .

(٢) تقع هذه القرية جنوبى نصيبين بغرب . (المعرب)

(٣) فى الجزء الأول من كتاب كدڤين وبرو وفى كتاب الرافعى بك رسم واضح لموقعة نصيبين ومواقف الجيوش المحاربة والأماكن الواردة هنا فليطلع عليه من شاء . ولم نعثر فى جميع المصادر التى اطلعنا عليها على اسم القرية التى يسميها ڤنتر نيه والمؤلف Kardikala ويسميها كدڤين وزميله Coadikala ، وقد راجعنا من أجل ذلك من المصادر التركية قاموس الأعلام لشمس الدين سامى بك ومعجم التاريخ والجغرافيا لعلى جواد بك والكتاب السنوى لولاية حلب وبعض الأطالس التركية عدا المصادر العربية الكثيرة ، واستعنا بمن نعرفهم من أفاضل الأتراك والسوريين . وأكبر ظننا أن الاسم الذى أثبتناه هنا هو الاسم الصحيح (المعرب)

(١) قائدان من قواد الحرب الفرنسيه الألمانية (١٨٧٠ — ١٨٧١) هزمهما الجيش الألمانى فى هذه الحرب . (المعرب)

لأحد الأباطرة العظام ، يبهر الرائي جلالها وعظمتها » [1] يبدو على هذا القول كثير من المبالغة ، ولكن الذي لا شك فيه أنه كان في هذه الخيمة المزخرفة أريكة من الأرائك التركية المطعمة بالصدف ، البعيدة عن الذوق والجمال الفني بعدها عن النفع ، ثمنها عظيم ولكن الجالس عليها في عنـاء . وقد ترك بعضهم على هذه الأريكة أوسمة حافظ باشا ورسائله .

فلما دخل ابراهيم هذا المسكن المؤقت المترف ، الذي لا نشك في أن ڤون ملتكه كان يعده مخالفاً للسطرين الثالث والرابع من الفقرة التاسعة من القسم الرابع عشر من المادة الثانية عشرة بعد المائتين من القواعد الخاصة بنظام الجيوش في الميدان ، كان يكسوه العثير ويتصبب من جبينه العرق . ولما رأى هذه الأبهة الكاذبة تبسم ابتسامة ملؤها السخرية والازدراء ، ومشى من فوره إلى الأريكة غير حافل بالأوسمة التي لم تكن لها قيمة في نظره ، لأنه أكبر من أن يهتم بهذه الصغائر . ولكن الوثائق المتروكة وما قد يكون فيها من أمور ذات بال استرعت نظره ، فوقف يفحصها وإذا به يجد فيها فرماناً يعين حافظ باشا والياً على مصر بدل والده [2] فأمر أن يعنى بفحص الأوراق الباقية عساه أن يجد فيها من المعلومات ما له قيمة حربية . وبعد أن وكل هذه الأمور إلى من يعنى بها ، أرسل الفرسان المصريين لمطاردة الأتراك الفارين ، وأعد العدة لمواصلة الزحف على مرعش وملطية وديار بكر

ويقول لنا القنصل اليوناني العام في تقريره المرسل إلى أثينا إن ابراهيم كتب إلى محمد علي من خيمة حافظ باشا نفسه ينبئه بهزيمة الأتراك ، وأن الموقعة لم تدم أكثر من ساعتين ، وأن البشير وصل بهذا النبأ السار إلى القاهرة في اليوم الثالث من شهر يوليه [3] ؛ ومنها أرسل بالبرق إلى الاسكندرية حيث كان الباشا مقيماً في ذلك الوقت [4] وجاء في تقرير قنصلي آخر أن مدافع الجيش لم تطلق أكثر من ساعة ونصف ساعة ، وأن الأتراك زلزلت أقدامهم فجأة ، فطارت قلوبهم وولوا مدبرين ، وأنهم خسروا خمسة آلاف قتيل ونحو سبعة آلاف أو ثمانية آلاف أسير ، أما عدد الجرحى فلم يرد له ذكر في هذا التقرير [1]

ولم يعش السلطان محمود حتى يعرف نتيجة مغامرته العظيمة ضد أعظم أتباعه وأشدهم بطشاً ، بل وافته المنية بعد يومين من واقعة نصيبين ، وقبل أن يصل نبأ هذه الطامة التي حلت بالجيش التركي إلى الآستانة . ويقول الڤيكونت بنسنبي في موته : «لاشك في أن العلة كانت قد نشرت جناحيها عليه منذ شهور ، وأنه لم يحس بوطأتها فظل يعمل كل ما من شأنه أن يعجل يوم حمامه »

وماذا كانت علة السلطان يا ترى ؟ لقـد اختلف الأطباء في تشخيص مرضـه ، فأما الطبيب الانجليزي الدكتور ملجن Dr Milligen الذي عرض عليه فقال إن محموداً قضى نحبه بسبب اضطراب في المخ ناتج من إدمان المسكرات ، وقال الدكتور نونر Dr Neuner الذي كان يعالجه إنه مات بذات الصدر ، ووافق الحكيم باشي التركي كبير أطباء القصر على رأي الطبيب البريطاني [2]

(يتبع) محمد بدران

(1) فنترنييه في كتابه السالف الذكر ص ٣٣٠ .

(2) مصر في القرن التاسع عشر تأليف إدورد جون طبعه في باريس بوازار ص ٤٥٤ ؛ والكتاب مترجم إلى العربية بقلم الأستاذ محمد مسعود . (المعرب)

(3) في الأصل الانجليزي ٣ يونية ولقد استنتجنا من أول الأمر أنه ٣ يولية ثم رجعنا إلى المصدر الذي اعتمد عليه المؤلف وهو كتاب « النزاع بين تركيا ومصر » فوجدنا تسزا يقول بصريح العبارة إن الأخبار وصلت إلى الاسكندرية من القاهرة بطريق البرق في ٣ يولية ثم تأيد النبأ في المساء بخطاب جاء بالبريد . (المعرب)

(4) يولينس في كتابه السالف الذكر ص ٧٠

(1) يولينس في كتابه السالف الذكر ص ٧٢

(2) كدلفين وبرو في كتابهما السالف الذكر ص ٣٠٦ وما بعدها .

مشروع تقسيم فلسطين
وأخطاره
لباحث عربي كبير

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

الاماكن المقدسة

لم تكتف اللجنة الملكية بحرمان العرب من قسم فلسطين الطيب . مورد حياتهم ، بل سلخت القدس وبيت لحم ومنطقة واسعة توصلهما بالبحر عن البلاد العربية ، ووضعته مع غيره تحت انتداب بريطانى دائم ، بحجة أن المحافظة على هاتين المدينتين « أمانة مقدسة فى عنق المدنية » ، كأن العرب لا يعرفون المدنية وكأنهم لا يدركون مقدار ما لهذين المكانين من قداسة

إن العرب هم أكثر الشعوب تقديساً للقدس وبيت لحم ، والانكليز يعرفون ذلك ، غير أنهم اتخذوا مبدأ « المحافظة على قداسة القدس وبيت لحم » وسيلة لسلخهما عن البلاد العربية ، وتسهيلا لتحقيق المآرب اليهودية فى هذا الجزء من البلاد المقدسة

مهدت اللجنة الملكية فى تقريرها السيطرة اليهودية على هذا القسم من فلسطين ، فهى توحى بأن تكون لغته الرسمية الانكليزية لتزول مع الزمن منه الثقافة العربية والروح القومية . ومهدت السبيل لأن تكون أكثرية موظفى الحكومة فى هذه المنطقة من اليهود . إذ هى تقول (صفحة ١٣٨) بأنه لو لم يكن هناك الانتداب الحالى على فلسطين ، لاعتبرت الحكومة اليهود والعرب جماعة واحدة ، ولا تنتخب من بينهم الموظفين حسب كفايتهم لا حسب جنسيتهم ، كما هى الحال الآن ، ولكان أكثرية هؤلاء الموظفين من اليهود لأنهم أكثر كفاية وأكثر مقدرة . وتقول اللجنة بعد ذلك بأن الانتداب الجديد (صفحة ٣٨٢) لن يجعل ثمة مجال للبحث فى حفظ التوازن بين ادعاءات العرب إزاء اليهود أو بالعكس ، لأن الحكومة ستنظر إلى جميع السكان نظرة واحدة . ومعنى هذا أنها سوف لا تراعي النسبة بين الموظفين ، بل ستأخذ الأقدر والأفيد لها . والموظفون اليهود أقدر بكثير من الموظفين العرب فى نظر لجنة اللورد بيل

ومتى أصبحت اللغة الرسمية الانكليزية ، ومتى أصبح الموظفون من الانكليز واليهود ، صعب جداً على العرب العيش فى هذه المنطقة من بلادهم واضطروا إلى النزوح عنها ، فتصبح الأكثرية الساحقة فيها من اليهود . وحتى لو فرضنا أن عرب هذه المنطقة سيظلون فيها ، فان اليهود سينسلون إليها وسيصبحون فيها أكثرية . وعندها يطلبون إجراء استفتاء سائلين سكان هذه المنطقة فيما إذا كانوا يريدون الانضمام إلى « المملكة اليهودية » أو إلى « المملكة العربية » . وتكون النتيجة الانضمام إلى « المملكة اليهودية » ، ووضع اليهود أيديهم على الأماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية ، وإقامة هيكل سليمان مكان الصخرة الشريفة . . . وستجد الحكومة البريطانية عذرا لذلك تبرر به عملها قائلة بأنها تحب العدل ولا ترغب فى حكم جماعة رغم مشيئتهم ! . . .

ثم إن القدس مدينة كبيرة ، يعيش أهلها على الوظائف والموظفين العديدين الذين فيها ، وعلى التجارة مع القرى . فمشروع التقسيم يحرم أهل القدس من الوظائف ويقلل عدد موظفى المدينة ، ويقطع القرى التى تتعامل مع القدس عنها . وسيحل حينئذ أزمة اقتصادية شديدة يقاسي سكان المدينة العرب آلامها . . .

***

تقول اللجنة الملكية إنه « يجب أن يلقى على عاتق الدولة المنتدبة أيضا عبء المحافظة على الأوقاف الدينية وعلى الأبنية والمقامات والأماكن الواقعة فى أراضى كل من الدولتين العربية واليهودية والمقدسة لدى العرب واليهود » . وهى فى هذا القول تريد إيهام الرأي العام بأن فى المملكة العربية مقدسات يهودية ! والحقيقة أن ليس لهم فى القسم المنوي إبقاؤه عربياً شيء من هذا القبيل . أما العرب فلهم فى مشروع « المملكة اليهودية » جوامع وكنائس وأوقاف دينية وأبنية ومقامات وأماكن مقدسة عديدة ، تتعهد الحكومة البريطانية بالمحافظة عليها ! لقد رأينا قيمة تعهدات الحكومة البريطانية ومدى ما يمكن الاعتماد عليها . . .

ثم ما الفائدة للعرب من بقاء جوامع وكنائس ومقامات مقدسة فى قسم من بلادهم يرغمون على الرحيل عنه ؟ إن العرب يقدسون الجوامع والكنائس مادام فيها مصلون ، أما إن قدر للشعب العربى أن يرحل عن وطنه (وهذا لن يكون) فخير له أن تنسف الجوامع والكنائس ، وأن تمحى آثاره المقدسة ، من أن تبقى أثراً يذكر الأجيال بأنه كان فى هذه البلاد شعب عربى لم يعرف كيف يحتفظ بها . . .

دولة يهودية

إن لمشروع تقسيم فلسطين فائدة واحدة ، ذكرها اللورد بيل فى تقريره ، وهى تحقيق أحلام اليهود من تأسيس مملكة لهم فى الأرض المقدسة .

لقد منح تصريح بلفور اليهود وطنا قومياً فى فلسطين ، يعطيهم الحق فى القدوم إلى الأراضى المقدسة وسكناها دون أن يغير ذلك كيان العرب وحقوقهم . غير أن هذا التصريح لم يحقق آمال اليهود ؛ على أنهم قبلوه ليكون وسيلة لتحقيق تلك الآمال . وجاء اللورد بيل وأوصى بالغاء الانتداب القائم على تصريح بلفور ، وإعطاء اليهود مملكة فى أطيب قسم من فلسطين ، مستقلة تمام الاستقلال ، ولها ما لأكبر الدول من سيادة ومكانة . ومثل هذه الدولة لا تحقق آمال اليهود كلها ، بل هى إلى إحياء الصهيونية ، بعد أن كادت تفشل ، ووسيلة لإيصال اليهود إلى غايتهم الرئيسية ، وهي : إنشاء دولة يهودية ممتدة من النيل حتى الفرات ، واستعمار الشرق الأدنى ، لاسيما الشرق العربى ، استعماراً اقتصادياً .

إن تأسيس مملكة يهودية فى فلسطين أو فى قسم منها ، مهما كانت رقعته ، خطر عظيم على الشرق العربى أجمع . لأن منح اليهود مملكة معناه تقوية نفوذهم في جمع أنحاء العالم ، وسيطرتهم على الدوائر السياسية الدولية ، سيطرة تجعل لدولتهم ، مهما كانت صغيرة ، أهمية دولية لا تقل عن أهمية كبار دول العالم . ويتلو ذلك تزلف الدول لهذه الدولة القوية ، فتأخذ فى عقد محالفات معها ، تضمن للدولة اليهودية حرية العمل فى الشرق الأدنى لاسيما فى بلاد العرب منه .

وفى أثناء ذلك تكون « الحكومة اليهودية » آخذة فى حشد اليهود فى « القسم اليهودى » من فلسطين . وقد صرح رجالاتهم من الآن ، بأنه سيبلغ عدد اليهود فى هذا القسم عما قريب خمسة ملايين ، جلهم من الشبان والشابات الصالحين للعمل . لهذا ستكون قوة التجنيد عندهم معادلة ، ان لم تكن أقوى ، لقوة تجنيد بلاد عادية يبلغ سكانها خمسة عشر مليوناً . وستدرب الحكومة اليهودية هذا العدد الكبير من الرجال و الشبان والنساء على الأعمال الحربية . وسيكون لديها جيش قوى مجهز بأحدث عدد الحرب . وزيادة على الجيش المحلى فإن للدولة اليهودية جيوشاً احتياطية منتشرة فى جميع أنحاء العالم . لأن كل يهودى خارج فلسطين سيعتبر نفسه جنديا فى جيش « الدولة اليهودية » وسيلبى النداء مهما كان بعده عن الأراضي المقدسة . وليس فى العالم قوة تحول بين ملايين اليهود وبين الانضمام إلى جيشهم فى فلسطين . . . وإن حوادث اسبانيا الحالية خير برهان على ذلك .

وقسم المملكة اليهودية من فلسطين لا يتسع بصورة طبيعية لأكثر من مليون . فمتى وجد فيه ثلاثة ملايين إن لم تقل خمسة أو أكثر ، اضطروا بحكم الطبيعة إلى التوسع ، ولا توسع لهم إلا فى البلاد العربية . أما استيلاؤهم على بقية فلسطين وشرق الأردن فسهل متى كان لهم مملكة ، لعوامل اقتصادية عرضناها فيما تقدم . ومتى استولوا على « المملكة العربية » المنوي خلقها زاد عددهم فى فلسطين ، حينئذ يوجهون وجههم شطر سوريا ولبنان . وعندذلك ، مهما كانت شجاعة العرب ، ومهما كان صبرهم على القتال ، لا يكون فى مقدور جيش القطر السورى الشقيق ، حتى وإن عاضده بقية البلاد العربية ، الوقوف أمام جيش « المملكة اليهودية » العديد والمجهز أحسن تجهيز حربى حديث . . . ومتى زال استقلال سوريا ، هدد العراق ، ومصيره أن يجزأ بين الطامعين فيه ، يدخل قسم منه فى المملكة اليهودية . أما مصر فستجابه خصما عنيداً يكون عونا لأعدائها عليها . . .

ولنفرض أن لا خوف على استقلال سوريا والعراق ومصر السياسي من « الدولة اليهودية » ، فإن هذه البلاد سوف لا تنجو ولن تنجو من استعمار اليهود الاقتصادى لها . فوجود دولة يهودية فى فلسطين أو فى قسم منها معناه زوال كل ما لمصر من أمل فى زعامة البلاد العربية ثقافياً واقتصادياً ، إذ ستكون الدولة اليهودية حائلا بينها وبين هذه البلاد ، وسوف لا تنجو هى من استعمار اليهود الاقتصادى . ومعناه أيضاً زوال كل ما للعراق من أمل فى تقوية الرابطة بين البلاد العربية ، وتوحيدها ، ومن وصوله إلى البحر الأبيض المتوسط . أما سوريا ، بما فيها لبنان ، فان لم يزل استقلالها زوالا نهائياً ، فستكون تحت نفوذ الدولة اليهودية سياسياً واقتصادياً . . .

إن وجود « مملكة يهودية » فى فلسطين أو فى قسم منها ، ضربة قاضية لآمال العرب (بما فيهم مصر) ، وسبب لفقدان السلام والهدوء من الشرق العربى . لهذا يجب على كل عربى أن لا يرضى أبدا بتقسيم فلسطين ، ولا يمكن الحكومة منه . ويجب على جميع البلاد العربية أن تتساند وتحول دون تأسيس مملكة يهودية فى قسم من فلسطين ، فتحول بذلك دون وقوع الأخطار العديدة التى ذكرنا بعضها .

اقتصادى

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٥ —

كتاب البوذية

جمع تلاميذ بوذا الأولون حكمه وعظاته وتعاليمه ومناهج حياته العملية وضموا إليها قصصاً عجيبة وأساطير شيقة عن التجسد والتناسخ، وأخرى حوت كثيراً من معجزات بوذا وخوارقه للمادة وغير ذلك، فبلغت هذه المجموعة نحو عشرين مجلداً أطلق عليها كتاب « السلال الثلاث » ولكنها لم تكن مصونة صيانة « الفيدا » ولا صيانة « البيرانات » أو أي كتاب آخر من كتب البراهمة التي أقامت حولها القداسة سياجا من الناعة حفظها من التبديل. ولهذا مازج كتاب البوذية كثير من الخلط والعبث والانتحال حتى دس على بوذا مالم يدر له بخلد أو يخطر له على بال.

تطور البوذية

لم تظل البوذية طويلا على هذه البساطة التي رأيناها، إذ لم تلبث أن تحولت إلى ديانة معقدة، فيها كثير من الظلمة والخفاء و «الماوراء» الطبيعيات، فبوذا قد تحول إلى إلـه خفي ذي أسرار عجيبة، منها أن الإلـه تجسد في بوذا، لينقذ البشرية بأن يحمل عنها عبء خطاياها القديمة، ويحول بينها وبين ارتكاب أخرى جديدة، لا بواسطة نشر نور المعرفة بين الناس كما كانت الحال في العهد الأول، بل بطريقة فيها من الأسرار العويصة مايجعل الفرق بين العهدين بعيداً والخلف شاسعاً. وليس هذا فحسب، بل إن بوذا قد أصبح بعد هذا التطور رمزاً للإله المنقذ الذي جعل يجيء إلى هذا العالم الأرضي من حين إلى آخر، متقمصاً جسد أحد بني الانسان، لينقذ البشرية في شخصه الذي يسمى في كل مرة: «بوذا» ويجرى عليه مايجري على أفراد بني الانسان جميعاً من أكل وشرب وزواج وإنسال وغير ذلك من خصائص الأناسي. وقد كان بوذا الذي نحن بصدد مذهبه الآن هو الرابع من هؤلاء الأشخاص الذين تقمص الإله أجسادهم.

الفلسفة البوذية

لما تطورت البوذية على النحو الذي رأيناه آنفاً وخاضت فيما وراء الطبيعة، كان من المحتم أن يكون لها فلسفة، لاسيما وأن عناصر هذه الفلسفة موجودة في التعاليم الأساسية لهذه الديانة حيث قرر بوذا كما أسلفنا أن النجاة لاتتحقق إلا بعاملين متلازمين الزهادة والمعرفة، وأن من شأن الأولى أن توجد ديانة متصوفة، ومن شأن الثانية أن توجد فلسفة معقدة، وهذا هو الذي كان بالفعل، إذا أعلنت البوذية أن الانسان لايكون حكيما إلا إذا تمت له المعرفة، وهي لاتتم إلا إذا مر أمامه سلسلة مشاكل الكون المتماسكة الحلقات وأخذ في حل حلقاتها واحدة بعد واحدة. وعندها أن سلسلة المشاكل الكونية يجب أن يبدأ في حلها على النحو الآتي:

حيث إن الحياة مزيج من الألم والشيخوخة والموت، فأول الأسئلة التي ترد على الذهن هي: س: لم كان الموت؟. ج: لأننا ولدنا، ومن ولد يجب أن يموت. س: ولم ولدنا؟. ج: لأننا موجودون، والولادة والموت نوعان من الوجود، فالموت يقودنا إلى الحياة، والحياة تقودنا إلى الموت. س: ولم كان هذا الوجود؟ ج: لأننا خاضعون لارتباطات وثيقة بكل ما يغذي وجودنا، ولا سيما بالقوى الثلاث: المادية والنفسية والأخلاقية. س: ولم كان هذا الارتباط بالأشياء الخارجية أو الميل إليها أو الاتصال بها؟ ج: لأننا بالرغم من آلامنا الكثيرة نحس بظمأ إلى الحياة وشغف بها. س: ولم كان هذا الظمأ؟. ج: لأننا — وقد منحنا الاحساس — ننعطف بغريزتنا إلى البحث عن الاحساس اللذيذ، وهو يوجد في استمرار الحياة. س: ولم كان هذا الاحساس؟: ج؟ لأنه يوجد تماس بين أعضائنا وبين الأشياء الخارجية. س: ولم كان هذا التماس؟ ج: لأن لنا حواس ستاً تتجاوب مع ستة أنواع من الأشياء أو مع ست حقائق موضوعية وبالأحرى مع ستة اختصاصات. س: ولم كان الاختصاص؟ ج: لأن كل مشخص يتألف من كائنين: المادة والمدرك. ومعنى هذا أنه اسم وصورة في آن واحد. س: ومم جاءت الاسمية والصورية؟. ج: جاءت من أنه توجد معرفة، ووجود المعرفة يستلزم وجود كائن معنوي جدير بأن يعرف كما يستلزم وجود

عملية المعرفة . س : وبم جاءت المعرفة ؟ ج : جاءت من أن طبيعتنا مكونة من استعدادات شتى ، وأن سلوكنا الحاضر وليد نتائج معارف سابقة . س : وبم جاءت هذه الاستعدادات ؟ . ج : جاءت من الجهل الطبيعي فينا ، لأننا لو كنا نملك المعرفة الحقة لما سقطنا فى السطحية التى تطبقها استعداداتنا تطبيقاً عملياً فى كل لحظة .

السكون عند البوذية

كل شيء حركة دائمة ، وليس هناك فى الحقيقة كائنات موجودة ، وإنما كل ما فى السكون لا يزيد على أنه حالات لهذه الحركة الأبدية يمتاز بعضها عن بعض بفروق ناشئة من سنن طبيعية لا يؤلف بينها عنصر جوهرى شامل ، وإنما هى موجودة من نفسها وبفعلها تتكون حوادث الوجود . فاذا اتخذنا الانسان مثلا كنموذج لبعض الظواهر الناشئة من السنن الكونية وجدناه مؤلفاً من خمسة عناصر : المادة والاحساس والادراك والنمو والوجدان .

وترى الفلسفة البوذية أنه لاثبات لأى واحد من العناصر على حالة واحدة ، وتتخذ من هذا برهانها على أنه لا يوجد فى الكون جوهر يؤلف بين الحوادث الكونية المشاهدة ، إذ لو كان هذا الجوهر موجوداً لما كان كل ذلك التعقد الذى يرافق هذه الظواهر دائماً ، ولشاهدنا فوق ذلك أثره الخاص ، مع أن الواقع أنه لا يشاهد لغير الظواهر الطبيعية أى أثر ، فمثلا الشهوة والجهل المجتمعان أبداً ينتجان أحداثاً ، والأحداث تنتج انفعالات ينشأ عنها إدراك الكائن لِأَنِّيَّتِه . وهذه الانفعالات وذلك الإدراك للأنية ينتجان الوجود الشخصي ، وهذا الوجود الشخصى ينتج الحواس ، والحواس تنتج التماس مع الأشياء ، والتماس ينتج الاحساس ، والاحساس ينتج الرغبات ، والرغبات تنتج تشرب المشتهيات . وهذا التشرب ينتج الصيرورة ، والصيرورة تنتج التوالد ، والتوالد ينتج الألم والشيخوخة والموت ، والموت ينتج الحياة بوساطة التناسخ ، وهكذا تتكون دائرة الحركة المتداخل أولها فى آخرها تداخلا محكما .

النفس عند البوذية

تنكر البوذية النفس كما تنكر كل ما وراء الطبيعة ، ولكن آخر حلقة من هذه السلسلة المنطقية التى أسلفناها وهى حلقة التناسخ لا تلبث أن تخلق مشكلة عويصة وهي : إذا كان عنصر حياة مذهبكم هو التناسخ ، فما هو ذلك الكائن الذى يتناسخ ؟ فإن قلتم : إنه الجسم فلا يمكن أن يتناسخ جسم فى جسم ، لأنه يلزم عليه أن يتضخم هذا الكائن إلى مالا نهاية ، أو أن يذهب منه شيء ويحل محله شيء آخر ، فيترتب على ذلك تشويش فى النظام لا حد له ، إذ يعاقب البريء على جريمة الآثم ، ويثاب المجرم على براءة البريء ، وهذا لا يقبله عقل ؛ وإن قلتم : إن ما يتناسخ هو شيء غير الجسد ، قلنا لكم : ما المانع من أن يكون هو النفس ؟ غير أن البوذية تنفلت من هذا الجواب كما هو شأنها كلما أحرجت بأسئلة ما وراء الطبيعة وتقول : إن هذا السؤال غير مفيد ، لأن جوابه غير محدود ما دامت عناصر الشخص بعد موته ليست عينه تماماً وليست غيره تماماً ، وإنما هى مزيج من العينية والغيرية معاً

مصير البوذية

حينما نشأت البوذية كانت البراهمية قد خَلِقَتْ بعض الشيء ، فاستطاعت تلك الديانة الناشئة أن تهزمها وتحصرها فى أمكنة معينة من بلاد الهند ، ولكن البراهمية لم تلبث أن استردت قوتها وحملت على البوذية حملة عنيفة أجلتها بها عن أكثر البلاد الهندية ، حتى إذا فتح الاسلام الهند أجهز على البقية الباقية منها ، ولكن هذه الديانة حينما أجلتها البراهمية فى القرون الأولى للميلاد المسيحى لم تكن قد انعدمت من الوجود ، وإنما كانت قد تفرقت شمالاً وجنوباً إلى الصين واليابان وجاوة وسومطرة ، وظلت هناك حيث التقت بالاسلام فصدمها خصوصاً فى جاوة وسومطرة صدمة قاسية لم تقو بعدها على المناهضة والغلاب فتخلت له عن الميدان معترفة بأن البقاء للأصلح ، سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

ولكن ليس معنى هذا أن البوذية قد امحت من سجل الكون ، كلا فهي لا تزال تحتل قلوب الملايين من بنى البشر وإن كانت قد تبدلت تماماً وخضعت لأهواء الشعوب التى اعتنقتها وانهزمت أمام عاداتها وتقاليدها انهزاماً جعلها أثراً بعد عين . فبعض الشعوب مثلا أدخل فيها عبادة النساء ، والبعض الآخر أدخل عبادة الفيلة محتجاً بأن بوذا قد تقمص أجسادها مرات متعددة ، والبعض الثالث جعل من شعائرها أن يباح للكهنة والقديسين كل موبقة مهما بلغت فداحة ما فيها من عهر ومجون ما دام هذا الكاهن يدعى أنه لا يحس أثناء هذا الفجور بسرور إلى غير ذلك مما لم يخطر لبوذا ولا لتلاميذه ولا لأنصاره الأولين ببال

« يتبع »

محمد غلاب

أدب المنفلوطى

بقلم السيد جورج سلستى

كتبت على أثر الحملة الطائشة التى قام بها بعض الأدباء على المنفلوطى وأدبه بمناسبة ذكراه الثالثة عشرة

أحق ما يقولون من أن صاحب « النظرات » (ليس بالكاتب ولا الأديب) ، وأنه صنم من أصنام الأدب (يجب علينا تحطيمه وطرحه) ، وأنه خلو حتى (من ناحيةٍ واحدة خليقة بالتحليل ووجهٍ واحدٍ جديرٍ بالدرس) ؟ !

أتكون نفثاته الشائقة نفاية (لا قيمة لها ولا وزن) ، وكتاباته الممتعة (مزيفة جوفاء) ، وأدبه الرائع (سقيماً هزيلاً) ؟ !

أبلغ العقوق فى هذا الجيل حدَّه الأقصى فيتهجم الأبناء على آبائهم والتلاميذ على أساتذتهم ولا يعترفون لهم حتى بالتثقيف ولا يقرون لهم بفضل ولا شبه فضل ؟ !

أكلما طلع كاتب جديد كان القدح أول كلماته ، والنقد الجارح أول نفثاته ، وكان الهدم نصيب نابغة من نوابغ الأدب العالى وقطب من أقطاب الفن الرفيع ؟ !

أحتم على الأديب الناشىء أن يتخذ النقد المرّ وسيلةً لبلوغ ما يصبو إليه من مكانة ، والتهكم اللاذع سبيلا إلى مايطمح اليه من مقام ، كأن لا نهج إلا هذا النهج ، وكأن الانتاج ليس من مزايا التفوق والنبوغ ؟ !

إننا نكبر الجرأة — والجرأة من مزايا الأديب — ولكن عندما تكون محدودة ، مكبوتة النزوات ، مكبوحة الأهواء ؛ لأن الجرأة المطلقة تهوّر وجنون .

وإننا نجلّ النقد — والنقد عماد الأدب الصحيح — ولكن عندما يكون نزيها لاتحامل فيه ولا طعن .

نود أن يكون الناقد فذًّا فى أدبه فذًّا فى رجولته لأننا نربأ به أن يكون طفيلياً يعيش على فتات سواه ، لا ، بل نربأ بكل من يمت إلى الأدب بصلة أو سبب أن يبنى مجده على تقويض زعامة غيره وهدم بنيان سواه .

ليس المنفلوطى بالأديب الكامل ، فالأديب الكامل لم يخلقه الله بعد ؛ ولا هو سيد الكتاب ولا إمام المنشئين ولا أمير الشعراء ولكنه من سادة الكتاب ومن أئمة المنشئين ومن الشعراء المجيدين ، فعلام الانكار ؟ !

وليس المنفلوطى من الروائيين الأفذاذ ولا القصاصين النوابغ ولكنه من خيرة من نقلوا الرواية الأعجمية إلى لغة الضاد وممن كتبوا فى القصة فبلغوا فيها شأواً ؛ فعلام التضليل ؟ !

إن فى أدب المنفلوطى مآخذ ، ما فى ذلك ريب ، ولكن ما ضعف أقله لا ينبذ جله . وعلى الناقد الحصيف ألا يجسم الأخطاء ويتعامى عن مواضع السموّ والجمال .

يقولون إن المنفلوطى لم يكن يهمه من الانشاء غير الأسلوب وفى هذا القول غلوٌّ كثير .

فهو على افتتانه بالمظهر كان يولى « الجوهر » اهتمامه وعنايته ؛ إلا أن روعة أسلوبه طغت على سواها فظهر أدبه أقرب إلى السطحية منه إلى العمق .

والتقعر لم يكن من شأنه فقد كان يلقى بآرائه فى سلاسة ووضوح فى ألفاظ جزلة ناعمة ، فأتت ديباجته وضاءة مشرقة تغمرها العذوبة ويفيض عليها السحر . أيكون ساحر البيان سقيم الأدب هزيله ، وتكون السلاسة جُرْماً والعذوبة إثماً ؟ !

ويقولون إن الجيد فى لغة جيدٌ فى كل لغة ، وإن المنفلوطى إذا نُقِلَ إلى لغة أعجمية تعرّى من بهرجه وظهر ما فى أدبه من ضعف .

وهذا قول فيه نظر . فليس لقطعة من الأدب الانكليزى جلالها ذاته لدى نقلها إلى الفرنسية مثلا ، ذلك لأن لكل لغة سحرها الخاص فى الأداء والتعبير لا سيا فى الشعر والأدب .

وإنك عبثاً تستطيع بالغاً ما بلغت من قدرة أن تنقل شكسبير بسحره وفتنته إلى لغة أخرى ؛ وما ذلك إلا لأنه كان — وهو المتضلع من لغته البصير بدقائقها وأسرارها — على عنايته

بالفكرة شديد العناية بالأسلوب . ذلك الأسلوب الذى يفقد جل روعته بالنقل .

لندع شكسبير ولنتخذ أحد الكتاب المعاصرين مثالا . وليكن بول فاليرى هذا المثال .

فهذه « مقبرته البحرية » تكاد تكون أحجية ، وهي بالفرنسية معجزة فى السبك ، وما أحسب أن أحداً يأنس فى نفسه القدرة على نقلها إلى لغة أخرى ويظل محتفظاً بقوتها وروعتها الأصيلتين ، وليجرب نفسه من يشك فى القول أو من يرتاب فى صحته .

فتلاؤم الألفاظ فى كل لغة له جرسه الخاص ووقعه الخاص ، ولن يكون له مثل وقعه ومثل جرسه فى النقل والترجمة .

ويقولون إن المنفلوطي لم يصوّر إلا ناحية واحدة من نواحى الحياة هى البؤس ، وإنه لم يوفق حتى في هذه الناحية .

وهذا قول مردود ، فقد اشتهر المنفلوطى بمقالاته أكثر منه برواياته ، وهذه « نظراته » فى أجزائها الثلاثة طافحة بكل طريف؛ وقد عالج فيها جميعاً من فنون الأدب وشؤون الحياة الشيء الكثير وهب أنه لم يكتب فى الاجتماعيات ولا فى الشعر ولا فى النقد الأدبى ، وأنه وقف قلمه السيال على المأساة دون الملهاة ، وعلى تصوير البؤس دون السعادة ، فهل يلام الحزين إن لم يفتر ثغره بالبسمات ؟ وهل تلحى الكئيب إذا لم تعرف مقلتاه إلا الدموع وإذا لم تفض نفسه إلا بما تشعر به ، ويجيش به صدره المجهود ؟!

ثم من ذا الذي كتب فى البؤس فبلغ مدي المنفلوطى فيه ؟ ومن هو الكاتب العربى الذى حرك بنفثات قلمه مكامن الأشواق وهز مختلف الأحاسيس وتلاعب بالعواطف وأجري الشؤون من العيون كما حركها وأثارها وأجراها مصطفى لطفي المنفلوطى ؟!

ويقولون إن التكلف احتل كتاباته كلها وإن قلمه كان يجرى بما لم تكن تشعر به نفسه . وفى هذا القول ما فيه من هراء

فلقد قال فيه عارفوه والذين لازموه فى حياته إنه لم يكتب إلا عن فيض شعوره وحسه ، وإن كتاباته صور حقيقية لنفسه ، وإن أدبه وكرم خلقه وما تحلى به شخصه من مزايا وصفات إنما هى رسائله وكتبه لا تنقص ولا تزيد ؛ أما أسلوبه فخال من التكلف وتكاد كلماته الطيعة تسيل رقة وعذوبة

والمنفلوطي إلى هذا كله شاعر مجيد وله قصائد رائعة لا نعيبها إلا قلتها . وهو فى شعره شأنه فى نثره متخير اللفظ متين السبك ، لطيف المعانى بارع الوصف ، وله فى الوجديات غرر وفى الحكم آيات

. . . . وبعد فحسب المنفلوطى فضلا على الأدب العربي أنه انتقل به فى مستهل النهضة من الجفاف إلى الايراق والايناع ، وإنه حبب جمهور المتأدبين في الانشاء الرفيع وأساغ له الاستمتاع بالسلاسة وتذوق العذوبة فيه . وحسبه فخراً أنه نسيج وحده فى عصره لم يجاره فى فحر بيانه منشيء فى جيله

ومن كان له فى الأدب خدمات مصطفى وفضل مصطفى ، فلن يضير مجده تهجم المتهجمين ولن ينال من مكانته تشدق المتشدقين

على أنه يؤلمنا والله ألا توزن الأقوال وألا تقدر الرجال

« بيروت » جورج سلستى



رسالة الشعر



مختارات من أدب الرافعى

« انقطع الرافعى عن التعلم فى المدارس بعد حصوله على الشهادة الابتدائية لعلة أصابته فى أذنيه ، فكان لذلك أثر شديد فى نفسه ، وكان بذلك يرى نفسه وهو فى العشرين كأنما ودع الشباب ؛ فهو كثير الالتفات إلى الماضي والحنين إليه ؛ وما كان له ماض بعد إلا المدرسة التى هجرها برغمه من جراء العلة التى نالته . فاستمع إليه فى القطعتين التاليتين يتحدث عن المدرسة وعهد الدراسة كما يتحدث الشيخ الهم عن ماضيه البعيد . والقطعتان من أول ماقال الرافعي من الشعر وهو ابن عشرين سنة » . أما القطعة الثالثة فقد ألقاها فى الحفلة السنوية لجمعية الاتحاد والاحسان السورية المصرية بطنطا فى ٢٢ أبريل سنة ١٩٢١

محمد سعيد العريان

(١) زمن الدراسة

زمن كالربيع حلّ وزالا ... ليت أيامه خُلقن طوالا !
يحسب الطفلُ أنه زمن الهمّ ... وما الهمُّ يعرف الأطفالا
يابنى الدرسِ ، مَن تمنَّى الليالى ... كليا ليكمُ تمنَّى المحالا
ليلةٌ بعد ليلةٍ بعد أخرى ... وليالى الهنا تمرُّ عِجالا
قد خبَرْنا الأنامَ فى كل حالٍ ... فإذا الطفلُ أحسنُ الناسِ حالا
وهو إن جدَّ لم يزل فى صعودٍ ... وكذا البدرُ كان قبلُ هلالا
غير أن الكسولَ فى كل يومٍ ... يجد اليومَ كلَّه أهوالاً
ويرى الكُتُبَ والدفاتر والأقْ ... لامَ وأوراق درسِه أحمالا
وإذا مامشى إلى قاعة الدرْ ... سِ ذراعاً يظنُّه أميالا !
من يقم فى الأمور بالجِدِّ يهْنأْ ... والشقا للذين قاموا كسالى
وزمانُ الدروس أضيقُ من أن ... يجدَ الخاملون فيه مجالا
أيها الطفلُ لاتضيِّع زماناً ... لستَ تلْقي كمثله أمثالا
ربما نلتَ مايفوتُ ، وهيها ... تَ إذا فاتكَ الصبى أن تنالا !

(٢) بعد المدرسة

ما لأيام ذا الصِّبى تتفانَى ؟ ... وقديماً عهدتُها تتوانَى
ذهبتْ بالصِّبى ، سلام عليها ... من فؤادٍ بحبِّها ملآنا
كل ذى حالة سيُمْنَى بأخرى ... ويلاقي بعد الزمان زمانا
والفتى مَن إذا تغيَّرَ حالٌ ... لم يقف فى وُجوهه حيرانا
هذه ساعة الحصاد ، فمن كا ... نَ تَغَنَّى أراحَه ما عانَى
والذى يزرع التهاونَ فى الأشْ ... ياء لايجتنيه إلا هوانا
ليس يُجدى الإنسانَ أن يأمل النا ... سُ فلاناً من قومه وفلانا
فاسْعَ فى الأرض، إن عِقبان هذا الـ ... جوِّ لايرتضين فيه مكانا
واحذر الناسَ، إنما يأمن النا ... سَ صَبِيٌّ يظنُّهم صبيانا
واركب الجِدَّ فى الأمور ولا تجْ ... بُنْ إذا فات بعضُها أحيانا
إن هذا الوجود كالحرب: لا يُكْ ... رَمُ فى الحرب من يكون جبانا

« سنة ١٩٠١ »

مصطفى صادق الرافعى

(٣) مصر والشام

يا نسمة النيل مُرِّى بالسلام إلى ... نعيم وادى الهوى فى أرض لبنان
إلى النسيم الذى رقَّت نضارتُه ... كدمعة الفجر رفَّتْ فوق ريحانِ
إلى النسيم الذى يَنْدَى على كَبِدي ... ندَى السرورِ على آفاق أحزانِ
إلى النسيم الذى من طول أُلفتهِ ... للزهر أحيا بروح الزهر أغصانى
بالله يا نسمات النيل طِرْنَ إلى ... ذاكَ النسيم بأشواقي وتحنانى
قلبى يرفُّ رفيفَ الطير بينكما ... كأنَّما أنتما فيهِ جَناحانِ

***

لِمصرَ فى حقِّها الأدنى علىَّ هوًى ... وللشآم هوًى فى حقِّها الدانى
لستُ الكريمَ بداري إنْ رعيتُ لها ... عهداً ولم أرْعَ فيهِ عهدَ جيرانى

***

يا مصرُ أرضُكِ مهدُ العقل كان بها ... والشام منبت أرواحٍ وأديانِ
نبوّة العقلِ فى مصرٍ، وجارتها ... نُبُوّة الروحِ فيها مُنذُ أزمانِ
كلتاهما تركتْ فِى الدهرِ معجزةً ... إيمانُ عقلى فيها عقل إيمانى
معنًى من الحسن أعيانى تفهُّمُهُ ... لكنهُ هو معنى الخالدِ الفانى

***

الشام من مصرَ، لكن قد تجاورتا ... لِتُصبحا المعالى شِبهَ ميزانِ
ألم ترَ الدهرَ وزّاناً بمجدهما ... مُلكاً بملكٍ وتيجاناً بتيجانِ
الشام من مصرَ لكن قد تباينتا ... لأنَّ حسنَهما فى الأرض حُسْنَانِ
لونانِ فِى واحدٍ كالغصنِ تنظرهُ ... لوناً وبالوردِ غصنُ الوردِ لونانِ
والشرق وجهٌ من الدنيا تُطلُّ بهِ ... ومصر والشام فى ذا الوجهِ عينانِ
يا مصر يا سوريا ألمجدُ (دائرةٌ) ... وأنتما فى محيط المجد (قُطران)
كلا كما مُشْبِهٌ فى الحسن صاحبَهُ ... أأنتما واحدٌ أمْ أنتما اثنانِ
أري الممالكَ إخواناً مُعَلَّةً ... لكنَّما مصرُ والشامُ الشقيقانِ
لو تُسألُ الأرضُ: أينَ ابناكِ؟ لالتفتتْ ... إليهما ثم قالتْ : هاهما ذانِ

رحلة ما تنقضي

للأستاذ فخرى أبو السعود

ما طول لبثى فى ديار قرار ... والنفس تائقة إلى الأخطار؟
إنى سئمت لطول لبثىَ موطنى ... ورغبت عن خدنى وعفتُ جوارى
ومللت نفسى إذ غدت وكأنها ... دثر من الأطلال والآثار
قد آدَها طولُ القعود ولم تزل ... وثابة العزمات والأوطار
لأجددنَّ برحلة عزماتِها ... وأُصَدِّعَنْ عنها قيودَ إسار
أأقيم فى أرض وفكرىَ ماوَنى ... فى الكون عن دأب وعن تسيار؟
تالله أهدأُ أو تُسابِقَ خطوتى ... خطواتِهِ فى شاسع الأقطار
فى رحلة فى الأرض تعقب رحلة ... لم أدر غايتها وأين قرارى
أحثُّ خطوى فى مَسارحَ لم تُجَبْ ... بالكهرباء ولم تُجَزْ ببخار
متمليًا أنَّى ترامتْ بى النوى ... من فتنة الأرياف والأمصار
ألقى شروقَ الشمس يومًا من ذرى ... طود ويوماً من عباب بحار
وتظل دائبةً وأمعنُ دائباً ... حتى أودع قرصها المتوارى
وأسيرُ من رمل لِوادٍ معشب ... غَشَّتْ حصاه سواقطُ الأزهار
نفسى هنا لك صاحبى أكرِمْ به ... من صاحب من صفوة الأخيار
أنسى على سَنَنِ الطريق بلابلى ... ويخف ما بالنفس من أوقار
وأرى الحياة مع المسير جميلةً ... والمكثُ حلفُ الهم والأكدار
ويقول مَن هذا الغريبُ معاشرٌ ... أنا فيهمُ سرٌّ من الأسرار
أغشَى ديارهمُ وأطوى أفقهم ... وأمر فيهم كالخيال السارى
وهُمُ حيالى دائبون بمسرح ... العيش ذى وِرْدٍ وذى إصدار
فكأنهم دونى شخوصُ رواية ... عُرِضتْ مشاهدها على النُّظَّار
يا ليت عمرى رحلة ما تنقضى ... موصولة الأسفار بالأسفار
لا أصطفى وطناً ولا آوى إلى ... دار فهذا الكون طرًّا دارى
لا دارَ إلاَّ حيث أغنى فى حمى ... جبلٍ مُنيف أو مَعين جار
أروى فؤادى من مباهج عالم ... هو مسرح الألباب والأبصار
وأبيع فى الأسفار عمراً واحداً ... أشرى به ألفاً من الأعمار

فخرى أبو السعود



رفائيل

RAFFAELLO SANTI

الفنان أبداً

للدكتور أحمد موسى

— ٢ —

أما فى الغرفة الثانية Stanya d El!odoro (١٥١٢ — ١٥١٤) فقد صور مناظر دينية ومناظر قصصية ، تناول فى الأولى العلاقة بين الكنيسة والخالق ، وتحرير الكنيسة الفاتيكانية من أعدائها بواسطة البابا يوليوس الثانى . وفى الثانية مثل طرد هيليودورس من معبد أورشليم بفارس هبط من السماء . ولعل من أجمل تصاويره (الفرسكو) تلك التى مثلت صد اتيلاس عن روما سنة ٤٥٢ بقوة ليو الأول . وادماج ذلك في محاربة الفرنسيين وطردهم من إيطاليا بعد مذبحة نوفارا سنة ١٥١٣ . أما القطعة التى مثلت تحرير بترى من السجن بواسطة الملاك فهى أيضاً لا تقل روعة عن سابقاتها .

وتبين صور السقف أربعة مناظر للعهد القديم (بحالة سيئة الآن) ، الأول يهوا وموسى ، والثانى فداء اسحاق ، والثالث ظهور يهوا لنوح ، والرابع حلم يعقوب .

وفى الغرفة الثالثة Stanya dell Encendio (١٥١٤ـ١٥١٧) سجل عصر البابوين ليو الثالث والرابع .

أما القطعة التى مثلت مأساة احتراق بورجو بالحى الفاتيكانى ومحاولة البابا ليو التاسع إخمادها ، وسيره فى التصوير على الخط الاغريقى الرائع الذى مثل حرق ترويا فإنها من أعظم ما أنتجه رفائيل .

وفى الغرفة الرابعة Stanz'a Constantine ترى من أبرز فيها المذبحة الهائلة بين قسطنطين الأكبر وماكنتيوس ، والتى لم يتم تلوينها إلا بعد وفاة رفائيل بواسطة تلميذه رومانو



١ – مادونا ديللا سيديا – فلورنسا

وله من الأعمال العظيمة غير ما ذكرنا زخرفة وتحلية بعض الأماكن والمسالك المقبية بالفاتيكان ، وقد قام بهذه المهمة الفنية تلبية لطلب البابا ليو العاشر ؛ فعمل بالدور الأرضى وبالدور الأعلى كثيراً من المناظر الدينية وبخاصة تلك التى تنتمى إلى العهد القديم ، صور منها على السقف اثنتين وخمسين قطعة مساحة كل واحدة ١٣ × ٤ أمتار كلها بالفرسكو ، كما رسم كثيراً من النقوش والزخارف العربية وغيرها ووصل فى ذلك إلى غاية الاتقان مع وضوح اتساع خياله وروعته . ولم يقم بالعمل جميعه بمفرده ، كما كان الحال عند ميكيلانجلو ، بل استعان بتلامذته في التنفيذ بعد وضعه التصميم بنفسه . ومن بين هؤلاء التلاميذ من هو جدير بالذكر حقاً أمثال رومانو ، وبين ، وبيرينو دل باجا ، وكالدارا



٢ ــ مادونا كونستبيلا ــ بطرسبرج

وله كرتونات مصورة بالماء (١٥١٥ — ١٥١٦) ، جعلها لتغطية الأجزاء السفلى لحوائط الفاتيكان فى أيام الأعياد الرسمية ، هى أشبه بتلك التى تراها فى القصور إلى منتصف القرن التاسع عشر وكلها لتشمل مناظر دينية من أهمها عودة بولس ، وتحرير بولس من سجنه ، وبطرس يستلم مفاتيح السماء من يسوع ، وشفاء الأعرج ، وموت أنانياس ، ومعاقبة كلياس بالعمى ، وبولس وبرنابا فى ليسترا ، وبولس يعظ فى أثينا ؛ والسبع الأخيرة من هذه القطع الكرتونية موجودة بمتحف ساوث كنسنجتين بلندن

وله قطع جمعها للنسيج وعرضت فى الفاتيكان لأول مرة فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٥١٩ بالكابيلا سكستينا لمناسبة « يوم استفان » وهذه كلها جمعت منذ حوالى مائة وعشرين سنة (١٨١٤) فى مكان خاص بالفاتيكان (Galleria degli Arazzi) . ولهذه القطع أمثلة موجودة بمتحف برلين ودرست منذ سنة ١٧٢٣

وإذا كنا لم نذكر للآن سوي الأعمال التى كلفه البابوات القيام بها ، فانه قام بغيرها للأفراد أمثال أوجستينو شيجى وهو أحد رجال المال الذى طلب إليه تحلية كنيستين فى روما . ففي الأولى المسماه « القديسة ماريا ديللا پاسا » صور رفائيل سنة ١٥١٤ الكاهنات الأربع فى أروع ما يمكن إخراجه من جمال الخلقة وحسن التكوين والروعة الانسانية . أما الثانية المسماة « القديسة ديلل پوپولو » فانه علاوة على وضعه تصميم الصحن ، وضع الرسوم التخطيطية التى رسمت بعدئذ على باطن القبة . وهذه الرسوم تمثل خلق السبعة الكواكب التى أخرجها الفنان الوينسيو ديللا پاسا بالفسيفساء سنة ١٥١٦ .

وفى هذه السنة نفسها صور على حائط الردهة الصغرى بفيلا فارنيزينا صورة « انتصار جاليتيا » ووضع تصميم الرسوم التى أخرجها تلميذاه رامونو وپينى والتى مثلت مناظر عشق « آمور وپسيشه » لسقف الردهة الكبرى .

ومهما يكن من شيء فان خيال هذا الفنان العظيم وقدرته على الخلق الرائع الذى يذهب بالمتأمل إلى ملكوت السمو ويحرك لسانه بالتسبيح بقدرة الله ، كل هذا لم يتمثل على أشده إلا فى تصوير العذراء التي أفنى روحه وتفانى بكليته فى إخراج صورها على أقصى ما يمكن لعقل إنسانى أن يتصوره من الجمال .

هذا بيان أساسه المنطق والمقياس الصادق ، ولا أثر للمبالغة فيه ولا إلحاح رغبة فى تجليته على صورة تستأثر باعجاب القارىء ،



٣ ــ ضحية ليسترا ــ كنسنجتن لندن



٤ ـ بولس يعظ فى أثينا ـ كنسنجتن لندن

فقد يحوم مثل هـذا الكلام حول فنان آخر ، أما رفائيل فيكاد نطاق القول يضيق عن تناول حقيقته ووصفه .

وفى هذا المجال العظيم صور رفائيل . وأظهر نهاية مقدرته ونبوغه ، وقد لجأ بعض المصورين إلى تصوير المادونا ودس ما صوره بين مخلفاته ، ولكنا ـ خصوصاً فى الوقت الحاضر ـ بعد تقدم علم التصوير الفوتوغرافى ، لاثبات الصور الحقيقية من المقلدة لا سيما بعد إمكان الكشف عن طبقات اللون على سطح اللوحات واتجاه الفرشاة ، لا نقع فيما وقع فيه بعض مؤرخى القرن الثامن عشر والتاسع عشر .

وقـد أجمع مؤرخو الفن على أنه لم يوجد ولن يوجد فنـان بعد رفائيل يستطيع أن يخرج ماريا والطفل بهـذه العظمة والقوة والجمال الذي أخرجهما به ، أما حنان الأم ومحبتها لطفلها وكمال الانسجام الانسانى فى وضعهما فهـذه صفات تلتصق بمـا صوره رفائيل .

أما الطهارة التى تجلت والعفة التى تمثلت فى وجه العذراء ، فهذه عسيرة على غيره من رجال الفن مهما كبر اسمهم .

احمد موسى



٥ ـ قصة صيد السمك ـ كنسنجتن لوندن



تراثنا الفنى فى ظل الاشراف الأجنبى

من الحوادث المدهشة المؤلمة معاً ما كشفته التحريات الأخيرة من ضياع عشرات آلاف من التحف الفنية النفيسة من المتحف المصرى، مابين تماثيل وصور وحلى فرعونيـة وغيرها، وقد اكتشفت هذه الفضيحة المؤسية على أثر حادث التمثال الفرعوني الذى اختفى من المتحف وظهر أخيراً فى متحف بافالو بأمريكا، ثم رده المتحف الأمريكى بعد أن وقف على الحقيقة، وكان تصرفه مثلا للأمانة العلمية المؤثرة، وقد كنا نعتقد أن خسارة مصر الفنية تقف عند مجموعات التحف الفرعونيـة النفيسة التي تحتفظ بها متاحف العواصم الأوربية والامريكية والتى تسربت من مصر خلال الخمسـين عاماً الأخيرة ومعظمها بطرق غير مشروعة، على يد البعثات الأجنبية التي تستتر بصفاتها العلمية والأثرية؛ ولـكن ظهر مع شديد الأسف أن البقية الباقية التى استطعنا أن نحتفظ بها من عبث أولئك العابثين، وأن نودعها فى متحفنا القومي، لم تسلم أيضاً من الاختلاس والاعتداء، بل ظهر أن هذا الاختلاس يصل اليوم إلى آلاف مؤلفة من التحف التى أدمجت وقيدت في سجلات المتحف ولا وجود لها اليوم؛ ونحن لانعتقد أن هذا الاختلاس المؤلم قد وقع فى يوم أو فى شهر أو أشهر بل وقع بالتوالى خلال أعوام طويلة ولم تفطن إليه السلطات ذات الشأن. ذلك أن تراثنا الفنى كان مع الأسف خلال العصر الأخير تحت الإشراف الأجنبى، ومنذ أكثر من خمسين عاماً يتولى بعض العلماء الأجانب، وهم جميعاً فرنسيون إدارة المتحف المصرى؛ وما حدث من تسرب تحفنا ونفائسنا الفنية وقع فى عهد هذه الادارة الأجنبية؛ وكان صوت المصري وصوت السلطات المصرية خافتاً فى الماضى، فلم يرتفع كما يرتفع اليوم بالاحتجاج على هذه الفضائح المزرية؛ وكان إذا أتيح له الاحتجاج يقنع بالترضية اللفظية. أما اليوم فان مصر لا تستطيع صبراً على هـذا الاعتداء الشائن على تراثها الفنى، ولا بد من أن تقوم السلطات المصرية بكل ما تستطيع لتعقب الآثار الضائعة، ولا بد لها قبل كل شئ أن تعتبر بهذا الدرس، وأن تعمل على رفع الاشراف الأجنبى نهائياً عن المتحف المصرى، كما وفقت من قبل إلى رفعه عن دار الـكتب المصرية بعد عهد طويل من الاشراف الأجنبى تسربت فى ظله معظم التحف الخطية من القطر المصرى إلى ألمانيا التى كان يستأثر علماؤها بادارة دار الـكتب المصرية

لسنا ننكر ما أفادته مصر فى العصر الأخير من معاونة العلماء الأجانب، ولـكن التعاون العلمى الصحيح يجب أن ينزه عن أن يتخذ أداة للاستيلاء على تراثنا الفنى والعلمى بوسائل ظهر فى أحيان كثيرة أنها لا تتفق مع مبادئ الأخلاق الرفيعة، ولا تتفق بالأخص مع الثقة الـكريمة التى كانت مصر تمنحها فيما مضى للعلماء الأجانب

مستقبل المهن العقلية

تساءل كاتب فى إحدى الصحف الفرنسية الـكبرى عن مستقبل المهن العقلية وأبدى تخوفه من أن يصير التفكير والمهن العقلية إلى مصير سئ؛ وإذ كان التفكير قوام الحضارات الرفيعة فانه يخشى أن تصاب الحضارة البشرية في ركن من أعظم أركانها إذا لم تفطن الأمم المختلفة إلى ما أصاب التفكير والمهن العقلية من ضروب الركود والغبن؛ ويقول هذا الباحث إن الفنون والمهن العقلية قد تضاءلت آفاقها وميادينها فى العصر الأخير وانحط معيارها المادى إلى أدنى الحدود، هذا فى حين أن الحرف اليدوية والمادية قد ازدهرت وارتفع معيارها المادى؛ وقد كان الفرق منذ ثلاثين سنة شاسعاً بين المهن العقلية؛ والحرف اليدوية من حيث التقدير المادى؛ أما اليوم فقد تضاءل هذا الفرق بل ربمـا تفوقت الحرف اليدوية فى بعض الأحيان على المهن العقلية؛ ولنضرب لذلك مثلا، فنى إدارة شركة من الشركات أو تحرير صحيفة من الصحف ترى

الموظفين الذين يتولون أعمالاً ومهناً عقلية كالتحرير والادارة ، يتقاضون أجوراً لا تكاد تزيد على الأجور التي يتناولها بعض رؤساء العمل مثلا ، وأحياناً يتفوق هؤلاء فى أجورهم على المحررين ويتناول العامل الفنى مثلا فى مصنع من المصانع أجراً يفوق مايتناوله الطبيب أو المحامى العادى من مهنته ؛ هذا مع أن الحالة قبل الحرب الكبرى كانت تختلف عن هذه الحالة كل الاختلاف ويرجع ذلك إلى تنظيم الحركة الصناعيـة والعملية منذ الحرب الكبرى ، وتنظيم النقابات والاعتصابات لرفع الأجور والمنح ، وتحسين أحوال العمال بوجه عام . أما أصحاب المهن العقلية فلم يفكروا ولم تسمح لهم ظروفهم بخوض مثل هذا الكفاح . بيد أن من الخطر على الحضارة أن يترك أصحاب المهن العقلية دون عون ، وأن يدفعوا بفعل الظروف الاقتصادية إلى مصاير سيئة تحملهم على التفكير فى تحقيق العيش من طرق أخرى . ومن مصالح الأمم والحضارة أن تدعم الحركة الفكرية والمهن العقلية ، وأن تيسر لأربابها سبيل العيش المريح ، هذا وإلا فانه يخشى أن يخمد النبوغ وينطفئ وتتحول الحضارة إلى ركام من الماديات المبتذلة .

مؤتمر فنى للتربية :

يعقد بمدينة كوبنهاجن عاصمة الدانماركة بين أول أغسطس والعاشر منه مؤتمر للتربية على مبادئ مونتيسورى المشهورة برياسة الدكتورة ماريا منتيسورى صاحبة هذه الطريقة ؛ وهذا هو المؤتمر السادس من نوعه ، وسيشهده مندوبون عن دول كثيرة وعن طائفة عديدة من معاهد التربية العالية ؛ وستلقي الدكتورة منتيسورى محاضرات فى الموضوعات الآتية (١) لماذا يمكن أن تؤثر التربية فى سلام العالم (٢) ماذا يجب أن تزود به التربية لكى تعاون على تحقيق السلام (٣) ماذا يجب أن تسلح التربية به لمقاومة أخطار العصر (٤) ضرورة التفاهم العالمى لاعداد الانسانيـة إعدادا خلقيا (٥) التربية كوسيلة لرفع مستوى الانسان والمجتمع . وسيلقي أعلام آخرون من رجال التربيـة مباحث أخرى ، وتبحث أساليب منتيسورى للتربية بحثاً علمياً وفنياً ، ويقام فى نفس الوقت معرض دولى لمطبوعات هذه الطريقة وأشغال مدارسها .

وقد اشتهرت أساليب منتيسورى للتربية فى العصر الأخير ، وهى تنسب إلى الدكتورة منتيسورى التى كانت أول امرأة حصلت على درجة الطب من جامعة رومة ؛ وتولت إدارة معهد الأطفال الشواذ فى سنة ١٨٩٨ ، وحصلت بطريقتها الخاصة على نتائج طيبة فى رفع المستوى العقلى لهؤلاء الأطفال . وفى سنة ١٩٠٧ طبقت الدكتورة منتيسورى طريقتها على الأطفال العاديين وأسفرت عن آثار حسنة وذاعت فى عدة معاهد فى رومه وميلانو وبعض عواصم القارة . وتقوم هذه الطريقة بالأخص على ما يأتى : (١) تدريب الحواس والمنطق (٢) السيطرة على اطراف الجسم وحركاته (٣) تعليم القراءة والكتابة والحساب

وتتبع الآن كثير من رياض الأطفال فى اوربا وامريكا طريقة منتيسورى

تأييد تصويب

استدرك قارئ فاضل هو (ش) فى عدد الرسالة الماضى على عبارة وردت فى مقالى المنشور فى الرسالة (عدد ٢١١) تحت عنوان « من ذكريات الحملة الفرنسية » عن الملكة هورتنس بوهارنيه ابنة الامبراطورة جوزفين من زوجها الأول الكونت دى بوهارنيه ، إذ ورد به أنها كانت زوجاً للجنرال مورات ؛ والواقع أن ذلك سهو يؤسف له ؛ وقد كانت الملكة هورتنس فى الحقيقة زوجاً لأخى نابوليون ، لويس بونابارت ملك هولنده كما ذكر (ش) فى ملاحظته ؛ أما زوج الجنرال مورات فقد كانت الأميرة مارى كارولين أخت نابوليون ؛ وكانت حياة الملكة هورتنس من بعد سقوط الامبراطور فى سنة ١٨١٥ حتى وفاتها فى سنة ١٨٣٧ مؤسية مؤثرة ؛ وتولى أصغر أولادها لويس نابوليون عرش فرنسا فيما بعد باسم نابوليون الثالث

هذا وإنى لأشكر لحضرة القارئ غيرته واستدراكه

(م . ع . ع)

الملكة هورتنس :

فى التصويب الذى نشر فى عدد الرسالة الأخير وردت الجملة « فولدت من نابليون الخ » والصواب « فولدت منه » بالهاء والهاء تعود على لويس بونابرت أخى نابليون بونابرت ووالد لويس نابليون الذى صار يعرف باسم نابليون الثالث (ش)



قلب غانية
وقصص أخرى

تأليف الأستاذ محمود تيمور

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

للقصة اليوم فى الأدب العالمى خطر كبير ، ومكانة معتبرة ، فهى فى الأمة مظهر رقيها الأدبى ، وتقدمها الفكري ، وهي وسيلة الكاتب يضمنها ما يريد من إبداء فكرة ناضجة ، أو شرح ظاهرة اجتماعية ، أو تحليل شخصية غريبة ، أو توضيح عاطفة نبيلة ، حتى قضايا التاريخ ، ومسائل العلم ، ومشاكل السياسة ، كلها قد أصبحت تؤدي بالقصص ، وتروى بالحكاية . ولعل من المعلوم أن القصة بمعناها الفنى الدقيق لون جديد فى الأدب العربى كان فى طليعة المضطلعين بأعبائه المرحوم محمد تيمور الكاتب المسرحى مؤلف «الهاوية» و « العصفور فى القفص» و«عبد الستار افندى» وغيرها من القصص التى نسج بردها بأسلوب نازل ، وأخرجها فى لغة عامية مهلهلة ، بحجة أنها أقرب إلى عقل الشعب ، وأنفذ إلى قلبه ، فكان فى صنيعه هذا إرضاء للفن بالموضوع والفكرة وخذلان فى الأداء واللغة . فلما استأثرت به المنية – عليه رضوان الله – قام من بعده سيد آخر هو الأستاذ محمود تيمور ، فحاول أن يكون نبوغه جماع ما كان لأخيه من الروح الفنية ، وما كان في نفس والده من النعرة العربية ، فصار يكتب القصة بأسلوب مبين ابتعد فيه عن الجفوة والخشونة ، وارتفع به عن السقط والابتذال ، وكأنى به قد ألفى نفسه وحيداً فى الميدان ، واستشعر عظم الأمانة الملقاة على عاتقه ، فأخذ يسد الفراغ بكلتا يديه ، وراح يعمل في نشاط وتوثب ، مرهفاً العقل والحس ، حتى أخرج للناس وللفن جملة طيبة من القصص الممتع ، نشر جلها فى الصحف وطبع منها نحو ثمانى مجموعات آخرها هذه المجموعة التى بين أيدينا « قلب غانية وقصص أخري » وهى موضع النظر ، ومدار الحديث . . .

ثمانى قصص أو قل ثمانى قطع فنية هي التى تشتمل عليها هذه المجموعة مقدمة بكلمة المؤلف عن حافظ القصصى فى يوم ذكراه . وقصص الكتاب تختلف طولا وقصراً ، فأطولها « قلب غانية » التى وقعت فى صدر الكتاب ، وأقصرها قصة « أم » التى جاءت فى ختامه ، ثم هى أيضاً تختلف فى جوها وبيئتها ، وتتباين بأبطالها وشخصياتها ، ففي قصة « حنين » يدلف بك تيمور إلى صميم الريف العظيم ، فيستطيع أن ينقلك إلى « شمسه المحرقة وظلاله الوارفة ، وهوائه الساخن، ونسيمه اللطيف ، وغدرانه الوديعة ، وسواقيه الناعسة » حتى ليسمعك « خوار بهائمه ، وأغانى فلاحيه» ويريك « البهائم متراصة أمام معالفها ورؤوسها محنية على العلف تأكل فى شره فلا تسمع منها غير جرش وقضم وأنفاس ترددها بين الحين والحين » (1) ، وفى « قلب غانية » يقودك إلى « حى غير مشهور » إذ وراء جدرانه حب قائم ، وغرام يضطرم ، فيطلعك على طراز من الناس تجرى بهم الحياة وهم بطئان ، وتتغير الدنيا في تقاليدها وألوانها وهم لا يريمون مكانهم ، إذ الحياة « لا تستحق عندهم أكثر من حشو البطون ، والنوم ملء العيون وما لهم من الفراغ بعد ذلك فهم يقضونه « فى اطمئنان وتبلد » بين النارجيلة والثرثرة حول سلوك الناس ؛ وفى قصة « سراب » و « حورية البحر » و « السجينة » يأخذ تيمور بيدك إلى منابت الارستقراطية ، فاذا أنت في أسر من أفرادها الباشا والبك ومن أهون متاعها السيارة والمسرة ، ولها الأمر والنهى ، وفيها الخدم والحشم ، والظئر والمربية ، « حياة كلها رخاء وبهجة تسير

(1) هذه الفقرات من كلام تيمور ص ١١٦ وما بعدها وكل ما هو مفتح بين الأقواس .

وفق الهوى » وكل شيء فيها ميسور « المال والمرأة والأخوان » أما في قصة « قبلة » فتيمور يهبط بك إلى طبقة نازلة فاذا أنت في « حارة قديمة ضيقة عابثة خالية من المصابيح لا تكاد الشمس تغرب عنها حتى تستولى عليها وحشة كئيبة » وهناك ترى « الدخاخني والمكوجي وبائع الفول » وتتعرف على السايس والعربجي والزبال إلى آخر ما هناك من الأشخاص والمعالم.

فتيمور من غير شك قصص شعبي لا يختص منه بطبقة من الطبقات، ولا يقصر أدبه على طائفة دون طائفة، ولكنه يضرب في كل ناحية ويجرى في كل حلبة، وإن من المدهش حقاً أن نرى ذلك الأديب النابه موفقاً في كل قصصه، صادقاً في كل ما يصف، فكأنه نشأ في كل هذه الطبقات وخالطها ولمس أحاسيس أهلها واستشف ما يجول في خواطرهم وما يدور بنفوسهم فهو من الجميع وللجميع، يستوعب شؤونهم ويتحفز لها بقوة واحدة هي قوة الملكة المصورة، والنظرة الشاملة، فكأنه ـ وهو يصف ـ مصور لا كاتب، وكأن ما يصفه مبسوط أمامه فهو ينقله على وضعه الطبيعي، ومن ثم كان أدب تيمور هو الصورة الصادقة للحياة المصرية في أدق نواحيها، فهو للسائح في بلادنا دليل مرشد، وهو للمؤرخ القادم مصدر ناطق، وهو للاجتماعي الباحث مادة نافعة

وهناك ظاهرة في أدب تيمور يعيبها عليه بعض النقاد، وهي خروجه على حدود الحشمة والوقار والأخذ عما يسمونه الأدب المكشوف، وإنك لتجد شيئاً من هذا في قصة السجينة، وقلب غانية، وسراب؛ وتيمور يدافع عن نفسه بأن « الأدب ليس له عنده غير اسم واحد هو الأدب بمعناه الواسع، وليس له إلا هدف واحد هو الفن(١) »، وأنا لا أريد أن أفيض القول في الأدب المكشوف والأدب المستور فان القول في ذلك يطول، ولكني أريد أن أقول: إن من الخطل أن نتخذ الدين والأخلاق ميزاناً من موازين النقد فنطمس شعر النواسي مثلا لما فيه من العهر والفحش، وإنما الواجب أن نصور الحياة بالأدب، وأن نقدر الفن للفن، وأن نفرق بين الأديب والواعظ، والظاهر أن القدماء كانوا أسمح منا نفوساً في ذلك، فقد عاب بعض النقاد شعر ابن حجاج بما تضمنه من فحش المعاني، فقال ابن سنان الخفاجي يرد عليه: « وليس الأمر عندي على ذلك لأن صناعة التأليف في المعنى الفاحش مثل الصناعة في المعنى الجميل، ويطلب في كل واحد منها صحة الغرض وسلامة الألفاظ على حد واحد ... »(٢) فان كان في قصص تيمور بعض النواحي المكشوفة فإن في الناس من يقبلها كما أن في الناس من ينكرها، وهي على كل حال ليست بعيب فني يحصى على الرجل ...

وأما بعد فهل استطاع تيمور أن ينجو من سنان هذا القلم؟ لقد حاولت أن ألتمس ما عليه فلم أقع إلا على هفوات طفيفة كأن يقول: «وكان كساب أفندي يرتدي زعبوطا !!» وأنا ما رأيت أفندياً يرتدي زعبوطا إلا في قصة تيمور

ثم هناك هفوات في اللغة والنحو قد يكون من السهل أن يتداركها الأستاذ في طبعة ثانية، وأنا لست ممن يتساهلون في الخطأ اللغوي والنحوي، لأن الكاتب الذي لا يراعي أشراط الكتابة هو فنان ناقص! وإني لأشهد أن تيموراً قد ارتقى أسلوبه عن ذي قبل، وهو كل يوم في تقدم مطرد، وإني لأرجو له تقدماً أوفى وأتم؟

محمد فهمي عبد اللطيف

(١) الرسالة ٢٠٢ (٢) كتاب سر الفصاحة

5 me Année, No 214. — Lundi - 9 - 8 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ٢١٤ « القاهرة في يوم الاثنين ٢ جمادى الثاني سنة ١٣٥٦ — ٩ اغسطس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

مصطفى لطفى المنفلوطى

بمناسبة ذكراه الثالثة عشرة [1]

— ٢ —



كان مولد المنفلوطى كمولد الرافعي في بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة ؛ ولكنه كان خِلْفةً لنبعتين مختلفتين : فأبوه عربى صريح النسب إلى عترة الحسين ، وأمه تركية شابكة القرابة إلى أسرة الجوربه جي ؛ ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة ، فحفظ القرآن فى المكتب ، وتلق العلم فى الأزهر ؛ الا أن للأدباء من أبناء الفقهاء نَبوةً فى بعض الحالات على إرادة الوراثة والنشأة ؛ فهم يصدفون فى منتصف الطريق عن دروس الفقه

(١) أنظر العدد ٢١٠ من الرسالة

والأصول والعقائد ، إما لأن أذواقهم الأدبية الموهوبة لا تسيغ أساليب كتبها المعقدة ، وإما لأن طباعهم المدنية الحرة لا تطيق الحياة الدينية المقيدة . فكان السيد مصطفى على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يُلقي باله كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب ؛ فهو يحفظ الأشعار ، ويتصيد الشوارد ، ويصوغ القريض ، وينشئ الرسائل ، وتسير له شهرة في الأزهريين بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ الإمام ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة . ثم يستفيد المنفلوطي من قربه إلى الإمام صلته بسعد باشا ، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين نُفوقه لدى (المؤيد) ؛ والامام المجتهد محمد عبده ، والسياسي الخطيب سعد باشا ، والصحفي الكاتب على يوسف ، كانوا أقوى العناصر فى تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده ؛ وأولئك الثلاثة كانوا على ما بينهم من التفاوت فى نواحي النبوغ أفهمَ رجال العصر الحديث لحقيقة الأدب وأشدهم حدبا على بؤس أهله

كان المنفلوطي لا يعمل جاداً لشهادة الأزهر ، وإنما كان يعتمد في نيلها على جاه الإمام ، كما كان يعتمد من هم على شاكلته من أبناء العلماء على وساطة والديهم ؛ والإمام المفتي مفسر وحي الله ، وشارح فن عبد القاهر ، ومعيد الأدب إلى الأزهر ، كان يقيس كفاية الطالب بمقياس سيبويه لا بمقياس أبي حنيفة . فلما قبضه الله إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على سنده وأمله ، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده . ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن فهب يبتغي فى (المؤيد) الوسيلة إلى النباهة والنجح ، وأوى من الوزير سعد باشا حامي النبوغ إلى ركن منيع ، فخلق له منصب التحرير فى وزارة المعارف فضمن له به رغد العيش ووفرة الانتاج حتى اختار الله له ما عنده

***

كان المنفلوطي أديباً موهوباً حظ الطبع فى أدبه أكثر من حظ الصنعة ؛ لأن الصنعة لا تخلق أدباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة ؛ والنثر الفني كان على عهده لوناً حائلا من أدب القاضي الفاضل ، أو أثراً ماثلاً لفن ابن خلدون ؛ يتمثل الأول قوياً فى طبقة المويلحى وحفنى ناصف ، ويظهر الثانى ضعيفاً فى طبقة قاسم أمين ولطفى السيد ؛ ولا يستطيع ناقد أن يقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين ؛ إنما كان أسلوب المنفلوطى فى عصره كأسلوب ابن خلدون فى عصره بديعاً أنشأه الطبع القوى على غير مثال ؛ والفرق أن بلاغة (النظرات) مرجعها إلى القريحة ، وبلاغة (المقدمة) مرجعها إلى العبقرية .

أعلم أن المنفلوطى تأثر فى القديم بابن المقفع وابن العميد ، وفى الحديث بجبران ونعيمة ، ولكن هذا التأثر دخل فى فنه دخول الإلهام والإيحاء ، لا دخول التقليد والاحتذاء ؛ فله من الأولين إشراق الديباجة وقوة النسج ، وله من الآخرين جدة الموضوع وطرافة الفكرة ، ولكنك لا تتذكر وأنت تقرأه أحداً من أولئك جميعاً

عالج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس وبلغ فى إجادتها شأواً لا ينتظر من نشأة كنشأته فى جيل كجيله . وأذكر أننا كنا نقرأ (غرفة الأحزان) و (اليتيم) وأمثالها فنطرب للقصة على سذاجتها أكثر مما نطرب للأسلوب على روعته . وسر النبوغ فى أدب المنفلوطي ظهوره على فترة من الأدب اللباب ، ومفاجأته الناس بهذا القصص الرائع الذى يصف الألم ويمثل العيوب ، في أسلوب طلى وسياق مطرد ولفظ مختار . أما صفة الخلود فيه فآتيةٌ من جهتين : ضعف الأداة وضيق الثقافة . فأما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن عالماً بلغته ولا بصيراً بأدبها ، لذلك تجد فى تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ فى غير موضعه . وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم الغرب ؛ لذلك تلمح فى تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة . فإذا قدر الله لأدب المنفلوطى أن يفقد سحره وخطره فى أطوار المستقبل ، فإن تاريخ الأدب الحديث سيقصر عليه فصلاً من فصوله يجعله فى النثر بمنزلة البارودى في الشعر . وكفى بذلك عرفان فضل وخلود ذكر . أما مسألة الأدب الباكي والأدب الضاحك ، أو الأدب الضعيف والأدب القوى فمغالطة مريضة من النقد سنعرض لها فى فرصة أخرى .

احمد حسن الزيات

أدب التمرد

للأستاذ عباس محمود العقاد

في ختام مقالنا عن أدب الموافقة قلنا « إن أناساً يتمردون ولا يجيئون بخير مما هو منظور من الأدباء الموافقين المستسلمين ، لأن التمرد المصطنع إن هو إلا موافقة مستورة ومجاراة معكوسة : فيه كل ما يؤخذ على التقليد من نقص ، وكل ماينعى عليه من وخامة ، وذلك ما نعود إلى تفصيله في مقال تال »

فليس كل التمرد إذن خيراً من كل الموافقة ؛ وليس كل التمرد ابتكاراً وخلقاً واستقلالا بالرأى والفطرة . فكيف على هذا نميز بين التمرد النافع المحمود والتمرد الذى هو ضرب من الموافقة المعكوسة ؟

والمحك الذي لايخيب ولا يخطئ في التمييز بين كل أدب صحيح وكل أدب سقيم هو هذا : هو أن الأدب الصحيح لن يكون آلياً يجري على نمط الأشياء التى تصنعها الآلات والتى تعرف سلفاً كما يعرف كل مصنوع في قالب مصبوب .

والأدب الذى يوافق ولا يخالف « آلى » محض ، لأن صاحبه ينزل عن مرتبة الانسان إلى مرتبة الآلة التى تحذو حذو ماسبقها ولا تضيف إليه أو تمسه بتحسين وتنقيح .

وكذلك الأدب الذي يتمرد على كل شئ ولا يميز بين ما هو أهل للموافقة وما هو أهل للنسخ والمناقضة إنما يصنع كما تصنع الآلة ويغنيك عن صاحبه كل الغنى ، لأنك تعرف رأيه قبل أن تسمعه ، وتدرك أسلوبه قبل أن تراه .

وغاية ما بين هذا وذاك من فارق أن الموافق يؤتى له بشئ فيراه كما يراه السابقون ولا يحب أن يراه على خلاف مانحلوه من لون ورسموه من شكل ونهجوه من طريق : يقال له هذا أبيض ، فيقول نعم هذا أبيض ؛ ويقال له هذا جميل ، فيقول نعم هذا جميل .

أما المتمرد الكاذب أو المتمرد المصطنع فأنت تعلم مايقول عن الأبيض قبل أن يلمحه بعينه ، وما يقول عن الجميل قبل أن يتأمله بفكره ويروزه بحسه وبصره: فالأبيض عنده أسود ، والجميل عنده قبيح ، والنافع عنده ضار ، والضار عنده نافع على غير قياس وفي غير تمييز وتمحيص . فاذا به ينزل عن مرتبة الانسان وينقلب آلة معروفة الوزن والحساب على العكس والمناقضة ؛ ومثل هذا لايخلق جديداً ولا يحمل في عالم الأدب والفن أمانة ، ولا يبالى بشأنه إلا كما يبالى بشأن المريض لاستطلاع حالة من أحوال سقم النفوس والأذواق .

***

إن « الآلية » هى الوصف الوحيد الذى ماجاز قط ولن يجوز أبداً في نتاج أدب صحيح أو فن صحيح .

وإنما يجوز الخلاف فيما عدا ذلك من الأوصاف . أما وصف الآلية فالاتفاق على انكاره بداهة من البداهات ، إذ كان معدن الفن كله حرية السليقة والقدرة على الابداع والاتيان بالجديد حتى في عرض المعنى القديم .

ونحن حين نقول الحرية لا نقصر الغرض منها على حرية الفنان في مواجهة العسف والاملاء والإيحاء من غيره ، ولا نقصد منها أن الفنان يأبى ما يرسم له ويساق إليه على حكم القسر والاضطرار ؛ ولكننا نقصد بها مقصداً قد يلوح في بادئ الرأى غريباً نابياً وهو هو المألوف المشهود فيما يمارسه وفيما قد مارسه كل صاحب فن وكل صاحب رسالة أدبية : نقصد بها « حرية الفن » حتى بين الفنان ونفسه ، فليس له أن يعتسف ولا أن يدعو ملكته إلى غير ما ترضاه وتنساق اليه بمحض « الحرية » وعفو السليقة ، وليس له هو أن يخط للحرية الفنية حدودها أو يشق لها طريقها ، لأنها « حرية مطلقة » لا فرق عندها بين طغيان صاحبها وطغيان عدوها ، ولا محاباة عندها في استجابة أمر تراد عليه .

***

ومن الأدباء الواقعيون والخياليون ، ومنهم أنصار الماضى وأنصار المستقبل ، ومنهم الماديون والروحيون ، ومنهم المتفائلون والمتشائمون ، إلا أنهم جميعاً في هذه الخصلة سواء ؛ وهى الخصلة التى يتمردون بها على الآلية ويرتفعون بالانسانية إلى ذروتها العليا ؛ وما كانت للانسانية علامة ترفعت بها عن درك الحيوان إلا التكليف ؛ وما كان التكليف إلا الدرجة الأولى من سلم الحرية التى تأخذ

بشيء وتدع ما عداه ، والتي تختار بين الحميد والذميم والمطلوب والممنوع . أما الدرجات فوق ذلك فهي « الحرية الفنية » التي تنبعث من باطن الانسان بغير آمر ولا زاجر ، ولا تتوقف على التكليف والتخيير .

نعم ليس الواقعيون أو الماديون عنواناً آخر للموافقين أو المقلدين . فمن يصف الواقع ليس باللازم اللازب أن يخضع له ويرضاه ، ومن ينكر المثل العليا ليس باللازم اللازب أن ينكر الحركة ويخلد إلى الجمود .

لقد كان المتنبي « واقعياً » إلى جانب العمل ، وكان المعرى واقعيا إلى جانب الزهد والقعود ، وكلاهما مع هذا مثل بارز في التمرد والثورة على « الآلية » والتقليد ؛ فأسلوب المتنبي جديد ، وخبرته للناس جديدة ، وثورته على الواقع معناها أنه من المتمردين وليس من الموافقين .

أما المعرى فهو على تشاؤمه وزهده قد دفع الحاضر المحيط به دفعة الجبار الذي يهدم بيديه وهو قائم في مكانه . وقل فيه ماشئت إلا أنه آلة وليس بانسان في الصميم من الحرية الانسانية ؛ وقل في تمرده ماشئت إلا أنه تمرد آلى وليس بتمرد « حر » يمتاز به المعرى بين سائر المتمردين ؛ وإلا فمن هو المتمرد الذى يشبه المعرى فى تناول الأمور ونقد العيوب وصياغة النقد فى منظومه ومنثوره ؟ ؟

تلك علامة الأدب الصحيح أو الفن الصادق : علامته أن عشرين شاعراً ينكرون أموراً بعينها ثم يختلفون فى نمط الإنكار اختلافا يحمل عنوان كل شاعر منهم ولا يخالط غيره من العناوين

***

من الواجب أن نثور على أدب الموافقة

وأوجب منه أن نثور على أدب « الثورة » الكاذبة ، أدب التمرد البخارى أو الكهربائى الذي يحطم ذات اليمين وذات الشمال كما تحطم القاطرة بغير سائق .

وفى أوربا اليوم غاشية من هذا التمرد الزرى يوشك أن تسرى إلى أمم الشرق ، لأنها أشبه الأمور معاً بكسل الكسالى وجموح الجامحين . فأما الكسلان فالتمرد الآلى مغنيه عن التحصيل ، ومغنيه عن إجهاد الذهن ورياضة الذوق على التفريق والتمييز ؛ وأما الجامح الأهوج فالتمرد الآلى فى يديه كالسيف الذي يشهره المجنون وهو مغمض العينين أو مفتوحهما على حد سواء

وأظهر ما كان ظهور التمرد الآلى فى عالم التصوير ، لأنه الفن الذى يفاجىء العيون ولا يخفى الشذوذ فيه حتى يتسرب إلى الأفكار والأذواق . فالمصورون المجددون اليوم فى أوربا اللاتينية يصورون لك ما شاءوا الا ما تراه وتحسه وتتخيله وتفقه مغزاه . ومن المحقق أنك تبحث عن وجه الرجل المرسوم فلا تراه ، وعن مشاهد الطبيعة المرسومة فلا تراها ، وعن الرمز المتوقع أو الشبه المنتظر فلا تلمح أثراً لهذا ولا لذاك . . . وكل شكل جائز أن تلقاه فى الصورة إلا الشكل الذى يجب أن تلقاه ! ! ولا تدرى بعدها ما الذى على الانسان أن يتعلمه ليسلك فى عداد المصورين ؟ هل يتعلم الرسم ؟ هل يتعلم مزج الألوان ؟ هل يتعلم التشريح ؟ هل يتعلم التعبير ؟ هل يتعلم مشابهة الملامح ؟ ؟ كلا ! لا ضرورة لذلك فى صناعة التصوير على مذهب هؤلاء المجددين . فما من صورة حديثة فيها سمة من تلك السمات . ولعل تعلم الحلاقة أو تعلم الطبخ أو تعلم النسيج أقرب إلى إخراج صورة الانسان على هذا المثال من تعلم الرسم والتشريح والألوان .

وإنما تبدو لنا حقيقة هذا التمرد إذا نظرنا نظرة واحدة إلى وجوه دعاته والمتظاهرين بفهمه واستحسانه . فجميعهم أمساخ مشوهون ، أو ضعفاء مهملون ، لا يقعون فى موقع من الأنظار ولا الخواطر . ودأب هذه الزمرة من الناس أن تنكأ الأذواق والضمائر لتبلغ ممن يعافونها ويعرضون عنها مبلغاً من الانتباه والمبالاة ، وتلك سريرة خفية فى جماعة الخلعاء حيث كانوا وحيث تهيأ لهم الظهور بالتفحش فى الأخلاق ، أو التفحش فى الأذواق ، ومن كان منهم سوىَّ الخلق معتدل التركيب فى ظاهر الأمر فآفته لا محالة نقمة مطوية تلحقه بزمرة الأمساخ والمشوهين ، ولولا ذلك لما جنح إلى إيذاء الشعور واللجاجة فى إيذائه حتى يقال من حوله إنه ليس بحقير وإنه لا يترك بغير انتباه .

ذلك نموذج من وباء « التمرد الآلى » فى الفنون الأوربية الحديثة ، وهو تمرد أدنى إلى الغثاثة والعقم من كل جمود وكل موافقة .

عباس محمود العقاد

حلم بالمدرســة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

رأيت فى المنام أنى رددت تلميذاً . وقلما أذكر ما أراه فى أحلامى لأني أنام كالقتيل من فرط الاعياء والنصب ثم لأن ذاكرتى خوانة . وأحسب أن من فضل الله على أنه أعفانى من الشغلان بالأحلام وتأويلها . فما ينقصنى من دواعى الاضطراب إلا هذا . وقد كنت فى حياة أمي رحمها الله أصبح فأدخل عليها وأجلس إلي جانبها على حشيّة مطروحة فوق السجادة وأمامها الموقد وعليه وتحته أدوات القهوة كلها فتصب لى شيئاً فى الفنجانة وتناولنيها فأسألها : « نمت نوماً مريحاً ؟ » فتقول : « لله الحمد » فأسألها مرة أخرى : « أحلام لطيفة إن شاء الله ؟ » فتقص على مارأت وأنا مصغ وبى كالذهول من شدة استغرابى لدقة الوصف وإحاطته بالألوان والأصوات والاحساسات وما يدور فى النفس من معان ، وأرانى أسأل نفسى وأنا أنصت : « أتراها تتخيل ؟ » ولـكنى أعرفها صادقة تتق الله وتخشاه فلا يسعنى إلا أن أتعجب لهذه القدرة التى حرمت مثلها .

وأذكر أنه لم يسؤنى أنى رجعت تلميذاً أجلس فى الصف وأصغي إلى المعلم وأجعل بالى إليه . وقلت لنفسى وأنا ماض إلى المدرسة : إن الحياة مدرسة لا تنتهى . والمرء لا يكف عن التعلم لحظة واحدة إلا حين تنقطع أنفاسه ويخرج من الدنيا . وصحيح أن أكثر ما يتعلمه الانسان فى مدرسة الحياة يدفن معه فلا ينتفع به أحد — لا هو ولا سواه — ولو كان الذي أفاده فى حياته يبقى بعـده ويتخلف فى الدنيا دونه لما كان المرء خليقاً أن يشعر بعبث التجارب وما استطاع أن يحصل فى فسحة العمر طالت أم قصرت ؛ إذ ما خير أن أتعلم وأن أحصـل وأن أستخلص الحكمة والعبرة ممـا أجرب وأعانى إذا كان كل ذلك يطوى معي بل لا يعود له وجود ؟ ولـكن ما يبدو من قلة الجدوى فى النهاية لا يمنع أننا نظل نتعلم ما دمنا أحياء . وإذا كان هذا هكذا فالأولى أن يكون المرء تلميذاً جهرة وصراحة فلا يذهب يدعى أنه فرغ من التعلم وحصل كل ما ينبغي له تحصيله . وهذا الذى أصنعه الآن من استئنافى عهد التلمذة هو الذى يقضى به الصدق — صدق النفس على الأقل .

ولا أذكر ما الذي ردنى إلى المدرسة وكل ما أعرفه أني رأيتني أقصد اليها وأنى كنت فرحاً بذلك ، وكان معى شىء أحمله ولم ألتفت إليه إلا بعد أن صرت بين التلاميذ الآخرين فقد وجدت « الفصل » غاصاً بهم ، ولـكنى لا أذكر منهم إلا وجه الأستاذ محمود عزمى فقد كان يجلس إلى أقصى اليمين ، وكان مكانى الذي قصدت إليه فى أقصى الجنوب ، وكانت وراءه نافذة مغلقة فوضعت ما أحمل على حافتها ، وعرفت فى هذه اللحظة فقط أن الذى أحمله هو قطع شتى من الحلوى والفطائر والسندوتش . وتذكرت وأنا أضع ذلك على حافة النافذة المحكمة العسكرية التى شهدت جلساتها أيام كنت أعمل فى جريدة الأخبار . وكانت المحاكمة طويلة وكنت أوافى الجريدة بأنبائها مفصلة ، وكانت الجلسات تعقد فى الصباح وفى المساء أيضاً كل يوم . وكنت أتعب وأجوع وأظمأ ، فكان المرحوم أمين بك الرافعي يبعث إلىّ مع الخادم الذى يجيء ليأخذ منى الأوراق التى كتبتها بالسندويتش وما إليه و « بترموس » فيه عصير الليمون فكنت آكل وأشرب وأفرق

وكان الأستاذ الذى وجدته فى « الفصل » شاباً وكنت أحس أنى أعرفه . ولم أستغرب أن يكون شاباً ، وحدثت نفسي ان هذا خير من أساتذتى القدماء الذين كانوا جميعاً من الشيوخ ، ولا أعنى الشيوخ ذوي العمائم بل من الشيوخ فى السن ، ولا استثنى منهم إلا واحداً هو الأستاذ الشيخ احمد الاسكندرى ، أرانى لا أزال أضن به أن أسلكه مع سواه ممن علموني فى صغرى . وقلت لنفسى وأنا واقف فى مكانى — فما أذكر أنى قعدت — عسى أن يسير بنا هذا الأستاذ الشاب فى نهج مستقيم واتجاه سديد فقد أضلنا تعليمنا القديم وحيرنا وتركنا كالتائهين فى الصحراء ، وما كان لنا من أساتذتنا السابقين مرشد أو معين ؛ وأحسبهم ما كانوا يعرفون إلا ما يعلموننا ، فلهم العذر إذا كانوا قد عجزوا عن هدايتنا وإرشادنا والأخذ بأيدينا .

وكان الأستاذ يحمل خيزرانة — فما استطعت حتى فى الحلم أن أتخلص من صور المدرسة القديمة ، وكان أبرز ما فيها العصا —

وابتسمت وأنا أنظر إلى الخيزرانة فى يد المعلم ونظرت إلى الأستاذ عزمى فأدرك ما أريد وهز رأسه وابتسم ابتسامته المحببة وقال: « أيوه يا سيدى . . . لا يزال القديم على قدمه مع الأسف »

وقال الأستاذ شيئاً فهمت منه أنه يريد أن يلقى أحدنا كلمة استهلال - أي أن يفتتح الدرس ، فأعربت عن استعدادى لألقاء الكلمة المطلوبة ، فقال الأستاذ عزمى : « من أول يوم يا مازنى ؟ » فابتسمت له راضياً وتنحنحت استعداداً للكلام ، وأذن لى الأستاذ فقلت كلاما لا أذكر منه مع الأسف ولا حرفاً واحداً ، ولكني أذكر أني كنت وأنا أتكلم أحدث نفسى بأن الأثرة كانت تفسد على التلاميذ حياة المدرسة المشتركة فكان أحدنا إذا اشترى شيئاً من الحلوى أو « المخلل » - فقد كنا نشتريه قبيل الغداء ونحمله معنا إلى موائد الطعام - أقول إن أحدنا كان إذا اشترى شيئاً يضن به على إخوانه ولا يسمح لهم بأن يشاركوه فيه ، وكان ربما ذهب إلى ركن خفي وأخرج من جيبه بعض ما فيه وراح « يبلع » قبل أن يفاجئه أحد ويطلب منه قطعة . ولكنا كبرنا الآن وعرفنا أن الأثرة عيب وأن لذة المشاركة أحلى وأطيب . وإن جديراً بى فى مستهل حياتى المدرسية الجديدة أن أستن سنة الإيثار أو على الأقل المشاركة ، وأن أقلب جو المدرسة جو تعاون ومودة .

كان هذا يدور فى نفسى وأنا ألقى كلمتى ، فامتدت يدى إلى النافذة واستراحت أناملى عليها إلى أن أستطيع أن أهتدى وأنا أتكلم إلى مناسبة تسمح بأن أوزع الحلوى والسندوتش على الزملاء ، ولكن المناسبة لم تعرض مع الأسف لسبب خارج عن إرادتى فقد استيقظت فانتسخ الحلم قبل أن يتم . وكان الذى أيقظنى صوت دق عنيف على باب العمارة وصياح عال : « افتح يا محمود . . . إنت ميت ؟ . . »

فأخرجت الساعة من تحت الوسادة ونظرت إليها فاذا هى الثالثة صباحا ، فقلت: والله إن محموداً لمعذور ! وهل كان عليه أن يظل واقفاً بالباب ينتظر مقدم صاحبنا إلى الفجر ؟ وفتح الباب ودخل الرجل - فقد كان رجلا كما لا أحتاج أن أقول - يزمجر ويبرطم وبدأ الفصل الثاني من رواية إزعاج خلق الله فى سكون الليل فقد شرع يدق باب شقته ويصيح وينادى ، وبقى على هذا الحال ربع ساعة لا تنقص دقيقة . وكان الذى يثير ثائرته ويهيجه إلى ما به أن من فى بيته - لا أدرى من - لا يريدون أن يفتحوا له الباب ، وكانوا يقولون له : « اذهب فنم حيث كنت » فيرج الباب ويهزه ويهدد بكسره ويدعو البواب المسكين أن يساعده على تحطيمه كأنما يمكن أن يعينه البواب على فعل كهذا . . . وأخيراً فتح الباب ووسعنى أن أضحك قليلا وأن أستأنف النوم - لا الأحلام مع الأسف . . . وتذكرت حكاية الرجل الذى رأي فى منامه أن واحداً يعرض عليه تسعة وتسعين جنيها وهو يأبى إلا أن تكون مائة ؛ واشتد الحوار واللجاج بينهما فاستيقظ الرجل فنظر فى يديه فألفاهما خاليتين فارغتين كفؤاد أم موسى ، فندم وأغمض عينيه ومد كفه وقال « طيب رضينا . . . هات بقى »

كذلك أنا والله ... كنت أود أن أعود إلى حلمى لأرى ما يكون منى ومن إخوانى . وكان الذى يعنينى على الخصوص أن أعرف كيف يكون سلوكنا فى المدرسة وهل نعود إلى « الشقاوة » القديمة التى اشتهرنا بها ؟ . وهل « نحوى » على المدرس كما كنا نفعل فى صبانا ؟ . وهل يمكن مثلا أن ننثر الحبر الأزرق على ثيابه البيضاء حين يمر بنا ؟ . ونضع سن الريشة بين « الدرج » وغطائه ونذهب نخرج منها أصواتاً قد لا تكون موسيقية ولكنها كافية لإزعاج المعلم وبلبلة خواطره وتحييره الخ الخ

والأحلام — على ما يقال — تؤول بضدها ، فإذا كان هذا صحيحاً فهل معنى هذا أنى سأرتد معلماً ؟ .. أعوذ بالله .. ولا قدر الله .. لقد نجوت من هذا فلن يردنى إليه شئ كائناً ما كان .

وذكرت لهذه المناسبة حادثاً مضحكا — أو لا أدرى ماذا يفعل — ذلك أنى كنت محرراً فى جريدة الأخبار . وكانت الأحكام العسكرية مرفوعة فى ذلك الوقت ولكن الرقابة التحفظية على الصحف كانت قد ألغيت ، وكان صديق لى يبعث إلىّ بمقالات عن وزارة المعارف ويضع فى ذيلها اسماً مستعاراً مثل « مطلع » أو نحو ذلك فقد نسيت . وكانت هذه المقالات تقض مضجع الوزير يومئذ . وكنت أخشى أن نفاجأ بهجوم على الجريدة فتؤخذ الأصول ويعرف الكاتب فكنت أنقلها بخطي وأحرق الأصل ؛ ويظهر أن أحدهم

اتصل بعمال المطبعة الذين لا يعرفون أن فى الأمر سراً لأنهم يرون المقالات بخطى . فاقتنعت الوزارة أنى أنا الكاتب ولم تستغرب ذلك لأني كنت من موظفيها ومن رجال التعليم بها . وفي إحدى الليالي كنت عائداً إلي البيت — وكان يومئذ فى صحراء الامام — فصار كل من يلقانى هناك يقول لى: إن الشيخ (يريدون شيخ الامام وهو قريبي) يطلبك فسألت عنه ، فلم أجده ، فذهبت إلى بيتى ونمت ، وفي الصبـاح بعث إلى الشيخ خادمه فلحقت به فقال : « إركب » فركبت . وكانت له مركبة يجرها جواد أصيل وسألته : « إلى أين إن شاء الله ؟ » قال « إلى وزارة المعارف » فدهشت وسألته : « وماذا أصنع فى وزارة المعارف ؟ » قال: « تتسلم عملك » فصحت من فرط الدهشة : « عملي ؟.. ماذا تعنى ؟ » قال: « جاءنى وزير المعارف أمس وأنت تعرف أنه صديقي وقال لى إنه علم أن المازنى قريبي وأنه يعتمد على فى اقناعك بقبول العودة إلى وظيفة كوظيفة أقرانك فى الوزارة » فأدركت أن الوزير غلط وظن أني أنا كاتب المقالات التي أقامت القيامة وقلت : « إن للمسألة فيها غلط . . لست كاتب المقالات » قال : « زى بعضه » قلت : « هذه رشوة لا أستحقها مع الأسف » قال : « يا أخى لا تكن مجنونا » قلت : « مجنون . . عاقل . . كيف أستطيع أن أدخل وزارة المعارف وأنا أكتب كل يوم بامضائى ضد الوزارة كلها ؟ . بأى وجه ألقى الناس ؟ . . كل ذمة لها ثمن . . لا تحسب أن أحداً أرفع من أن يرشى . . ولكن من سوء الحظ أن هـذه الرشوة تعرض فى الوقت الذى لا يسعنى فيه أن أقنع ضميرى بقبولها . . وقد قلت لك إنى لست الكاتب كما توهمت الوزارة فأرحها وأعفها من تكلف هذه الرشوة . »

وانتهى الأمر على هـذا الوجه . وانى ليخيل لى أحيانا أنى كنت مغفلا ولكن من يدرى ؟ . . وسواء أكنت أم لم أكن فما أعرفنى ندمت قط على شيء مضى وفات . . ولماذا أعنى النفس بالماضى ولا خير في ذلك ؟ والحاضر حسبي مشغلة . والحمد لله على ما وفق وأعان .

ابراهيم عبد القادر المازني

كان لمصر أسطول

فهل يعيد التاريخ نفسه ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مصر بين الدول التى دعتها الحكومة البريطانية إلى الاشتراك فى حفلة العرض البحرى الكبرى التى أقيمت لمناسبة تتويج جلالة الملك جورج السادس ، ولكن مصر اعتذرت عن إجابة هذه الدعوة لأنهـا لا تملك من الوحدات البحرية اللائقة ما يصلح لاشتراكها فى مثل هذا الحفل الدولى العظيم

وبالأمس احتفلت مصر بتتويج جلالة مليكها الفاروق احتفالا رائعاً يذكرنا جلاله وروعته بمجد عصورنا الذاهبـة وعظمتها ، وروعة أيامها ومناسباتها المشهودة ؛ واشترك الجيش المصري الباسل بوحداته البرية والجوية فى هذه المناسبة السعيدة اشتراكا يذكرنا بماضيه العسكرى الباهر ، ويبعث إلى الأمل فى أن يغدو سراعا كما كان فى الماضى درع البلاد وحصنها الحصين

ولكنا لم نسمع للأسف صوت الأسطول المصرى ، ولم نشهد أثره فى تلك المناسبات العظيمة لأن مصر لا أسطول لها

هذه الحقيقة المؤلمة يجب أن تلفت أنظار مصر المستقلة إلى مركزها الدقيق بين دول البحر الأبيض المتوسط ، وإلى ما يمكن أن تواجهه فى المستقبل من الأخطار من هـذه الناحية خصوصاً فى هذا العصر الفياض بالتطورات والاحتمالات السريعة ، وفى هذه المياه التى تنذر من آن لآخر أن تضطرم بكدر الخصومات والمنافسات التى تتفاقم عواملها يوماً بعد يوم

فمصر بلد بحرى بلا ريب تمتد شواطئه إلى مسافات بعيدة على طول البحرين التاريخيين العظيمين : بحر الروم أو البحر الأبيض المتوسط ، وبحر القلزم أو البحر الأحمر ؛ وقد لعب هذان البحران العظيمان منـذ فجر التاريخ فى تاريخ مصر وفى مصايرها أدواراً خطيرة ؛ وسوف يلعب كلاهما بلا ريب دوره الخطير فى مستقبلها

وقد شعرت مصر دائماً بمركزها البحرى الخطير فى هذين البحرين ، فكان لهـا منذ أقدم العصور أساطيل حربية تجوس

خلال هذه المياه وتذود عن شواطئها ، وأساطيل تجارية تحمل تجارتها إلى أقصى ثغور العالم القديم

وكما أن لمصر تاريخ مجيد فى الغزوات والفتوحات البرية التى بلغت أحياناً قاصية الأناضول شمالاً ، وأقاصى السودان والحبشة جنوباً ، فكذلك لمصر تاريخ مجيد فى الغزوات والفتوحات البحرية، بل إن تاريخ مصر البحرى يبدو أحياناً فى ألوان من العظمة تضارع سيرة أعظم أساطيل هذه المياه فى العصور الوسطى ؛ فقد كان الأسطول المصرى طوال هذه العصور يملك ناصية شرق البحر الأبيض ، ويناهض أسطول الدولة البيزنطية ، وأسطول البنادقة أعظم أساطيل العصر ، وكانت له فى تلك المياه جولات وفتوحات عظيمة حتى أواخر القرن الخامس عشر

ومنذ القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) نرى مصر تعنى بأسطولها عناية فائقة ، وتنشئ دور الصناعة أو المصانع البحرية العظيمة لتغذى أسطولها باستمرار بمختلف الوحدات البحرية ؛ وكانت دور الصناعة بمصر والاسكندرية ودمياط أيام الفاطميين تخرج أعظم الوحدات البحرية المعروفة فى ذلك العصر . وبلغ الأسطول المصري فى أوائل عهد الدولة الفاطمية نحو ستمائة قطعة ترابط فى الاسكندرية ودمياط وعسقلان وفى البحر الأحمر . وكان للاسطول وشئونه ديوان خاص يعرف بديوان الجهاد أو ديوان العائر ؛ واشتبكت مصر أيام الفاطميين مع الدولة البيزنطية فى عدة معارك بحرية شهيرة . وفى أيام الدولة الأيوبية لعب الأسطول فى المعارك الصليبية دوراً خطيراً ؛ وكانت الحراقات أو قاذفات النار المصرية عاملا حاسما فى هزيمة لويس التاسع ورده عن مصر . ومع أن الأسطول لم يحظ أيام دول السلاطين بمثل العناية التى حظى بها أيام الفاطميين ، فإنه لبث منذ القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر عاملاً هاماً فى التوازن الدولى فى شرقي البحر الأبيض المتوسط . وفى أوائل القرن الخامس عشر افتتح الأسطول المصرى جزيرة قبرص فى عهد الملك الأشرف بارسباى (سنة ١٤٢٥ م) ، وغزا رودس أكثر من مرة ؛ وكان يشتمل يومئذ على نحو ستين قطعة ، وكان معظم بحارته من المتطوعين الذين يهرعون إليه كلما دعا داعى الجهاد . وما زالت مصر أيام السلاطين تحتفظ بأسطولها حتى الفتح العثمانى ، بل نرى السلطان الغورى آخر أولئك السلاطين يجدد الأسطول المصري ويعده لمحاربة البرتغاليين للمحافظة على طريق الهند القديم الذى كانت مصر حارسته وكانت تعلق عليه أهمية تجارية خاصة . وفى سنة ١٥٠٨ م أعني قبيل الفتح العثمانى بأعوام قلائل نرى الأسطول المصرى بقيادة أمير البحر حسين يهزم الأسطول البرتغالى فى البحر الأحمر بقيادة الأميرال لورنسو الميدا ، ثم يشتبك بعد ذلك فى معارك بحرية شديدة مع أسطولى برتغالى آخر بقيادة أمير البحر الشهير البوكركي على مقربة من باب المندب

والظاهر أن مصر لبثت بعد الفتح العثمانى مدى حين تحتفظ بأسطولها ، أو على الأقل بسمعتها البحرية ، فنرى التواريخ النصرانية تنوه بشجاعة البحارة السكندريين فى موقعة لبانتو البحرية الشهيرة التى نشبت بين الأسطول العثمانى بقيادة على باشا ، والأساطيل النصرانية المتحدة بقيادة الدون خوان سنة ١٥٧١م ، واشتركت فيها إلى جانب الترك وحدة بحرية مصرية ، تنوه التواريخ النصرانية بشجاعتها وبراعتها

بل ما لنا نرجع بعيداً ، وقد كان لمصر فى أوائل القرن الماضى أسطول ضخم ، وكانت من الدول البحرية التى يحسب حسابها فى شرق البحر الأبيض المتوسط ؛ ففى عهد محمد على استعادت مصر صفتها القديمة كدولة بحرية ، واستأنف الأسطول حياته فى هذه المياه بعد أن قطعت زهاء ثلاثة قرون . ومع أن الأسطول المصرى لم يبلغ عندئذ قوته القديمة ، فإنه لم يلبث أن غدا عاملا يحسب حسابه . واهتم محمد على بإنشاء الأسطول منذ بداية حكمه ، فأنشأ أسطولاً صغيراً فى البحر الأحمر ثم قرنه بإنشاء أسطول كبير فى البحر الأبيض المتوسط ، وأنشأ بالاسكندرية دار صناعة عظيمة لصنع الوحدات البحرية . ومع أن الأسطول المصرى قد نكب فى موقعة نافارين الشهيرة فى المياه اليونانية سنة ١٨٢٧ ، فان عبقرية محمد على أبت ألا أن تنشىء لمصر أسطولاً آخر أعظم وأضخم ، فلم تمض أعوام قلائل حتى كان لمصر أسطول ضخم قوامه ست وثلاثون قطعة من مختلف الوحدات ، بها الف وثمانمائة مدفع ؛ وبلغ رجاله نحو ثمانيــة عشر الف مقاتل ، وذلك فى سنة ١٨٤٣ أعنى لأقل من قرن مضى . وكانت معظم هذه الوحدات البحرية من صنع دار الصناعة المصرية الشهيرة ، وقليل منها اشترى من الخارج

وأنك لتدهش حقاً إذا علمت أن الميزانية المصرية لم تزد إيراداتها فى ذلك الحين على ثلاثة ملايين جنيه ، وكانت هـذه الملايين الثلاثة كافية للانفاق على الجيش والأسطول ، ومختلف المرافق والمشاريع الاصلاحية العديدة التى اضطلع بها مصلح مصر العظيم

هذا ولسنا نتحدث هنا عن أسطول مصر التجاري ، وكيف كان طوال العصور الوسطى يأخـذ بأعظم قسط فى المواصلات البحرية بين مصر وثغور البحر الأبيض المتوسط ، شرقه وغربه وشماله ، وكيف كان إلى جانب أساطيل البنادقة والجنويين يأخذ بقسط وافر فى تجارة الهند فى تلك العصور

***

عرضنا هذه الخلاصة التاريخية ليرى القارىء كيف كانت مصر فى عصور استقلالها دولة بحرية عظيمة ، وكيف كان الأسطول المصرى فى تلك العصور عاملا من عوامل التوازن والاستقرار فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

والآن وقد استأنفت مصر حياتها الحرة المستقلة بعد فترة من المحن غلت فيها إرادتها وحرياتها ؛ الآن وقد عادت تحمل على كاهلها أعباء الاستقلال وتكاليفه ، وتعد أسباب الدفاع عن هذا الاستقلال ، وتعيد تنظيم جيشها الباسل ليتبوأ مكانته التاريخية القديمة بين الجيوش الحديثة ، فانه يلوح لنا أن حديث الأسطول المصري مما يناسب المقام والظروف .

وإذا كان من حسن الطالع أن تكون مصر صديقة وحليفة لبريطانيا العظمى أعظم الدول البحرية ؛ وإذا كانت مصر تستطيع إلى حين أن تعتمد على معاونة حليفتها العظيمة فى رد اعتداء المعتدين عليها وخصوصاً من البحر ؛ وإذا كانت بريطانيا العظمى ترى من مصلحتها الحيوية أن تعاون بأقصى ما تستطيع فى سلامة مصر من كل اعتداء خارجى ، فإن ذلك كله لا يمنع مصر من أن تفكر فى المستقبل وأن تتطلع إلى اليوم الذى تستطيع فيه أن تنظم لنفسها نوعاً من الدفاع البحرى إلى جانب الدفاع البرى والدفاع الجوى .

ونقول نوعاً من الدفاع البحري لأننا لا نطمع أن تغدو مصر دولة بحرية فى المستقبل القريب ؛ وإنما نطمع فى أن يكون لمصر فى الفرصة الملائمة قوة بحرية دفاعية تؤيد سيادتها فى المياه المصرية وتقوم بقسطها من الدفاع عند الطوارىء والمفاجآت ، وتكون نواة لأسطول مصر المستقبل . ذلك أن مصر باعتبارها دولة بحرية من دول البحر الأبيض لا تستطيع أن تغضى عن هذه الحقيقة إلى الأبد ، ولا مندوحة لها من أن تساير تطور الحوادث والظروف

ولمصر أسوة بدول أخرى من دول البحر الأبيض ليست أكبر منها ولا أعظم موارد ، مثل اليونان وتركيا ؛ فكلتاهما تملك قوة بحرية متواضعة ، ولكنها فى نفس الوقت تكفي لأغراض الدفاع المحلية ، وكلتاهما تعتبر من الدول البحرية فى هذه المياه

إن عصرنا الحاضر عصر التسليحات والأهبات الدفاعية ؛ والبحر الأبيض المتوسط ليس مكفول السكينة ، بل يخشى أن يكون فى المستقبل القريب مسرحا لمنافسات وخصومات ربما أصاب مصر رشاشها ؛ ومن بواعث الأسف أن تكون حقوق الأمم اليوم عرضة للانكار والانتقاص من جانب بعض الأمم التى تعتد بقوتها ؛ ففى مثل هذه الفترات المضطربة من الحياة الدولية التى يسود فيها قانون القوة ، ترتجف الأمم الضعيفة إشفاقاً على مصايرها ، وتستمد من بعض المحالفات القوية ما تعتمد عليه لدرء الخطر ، ولكن ذلك لا يعفيها من واجب الأهبة والاستعداد قدر استطاعتها ؛ وإذا كانت مصر لظروف خاصة قد تخلفت فى هذا المضمار عن غيرها من الأمم ، فان عليها أن تستكمل اليوم ما فاتها بالأمس ، لكى تستطيع مسايرة الحوادث والظروف ، ولكى تثبت قبل كل شىء أنها تحرص على استقلالها الذي نالته بعد طول كفاح

وهذه هى تكاليف الاستقلال الفادحة ؛ فان استقلال الأمم لا تكفله الحقوق الدولية إذا لم تدعمه أهبة الدفاع ؛ ومصر اليوم تبدأ فى هـذا الميدان حياة جديدة ، وتعنى بتنظيم دفاعها يحفزها إلى هذا الواجب المقدس تاريخ جيشها المجيد ؛ ولكن مصر أيضا دولة بحرية ، وقد كان لها أسطول مجيد كما كان لها جيش مجيد . فلتذكر إذن تاريخ هذا الأسطول الذى بسطنا خلاصته فى هذا الفصل ؛ وإذا كانت ظروفها الحاضرة لا تفسح لها مجالا للعمل السريع فى هذا الميدان ، فان المستقبل القريب قد يمهد لها سبيل التفكير ، وقد يمدها أيضا بالوسائل والموارد التى تعاونها على تحقيق هذا المشروع الحيوى الجليل .

محمد عبد الله عنانه

عـــالم !

للأستاذ على الطنطاوى

« مهداة إلى روح المرحوم أستاذنا الرافعي »

حدثني بعض مشايخي عمَّن رأى بعينه وسمع بأذنه . قال :

وقعت الصيحة فى « حىّ الميـدان » أجل أحياء دمشق وأكبرها ، صبيحة يوم من أيام سنة ١٨٣١ ، بأن إبراهيم باشا ، قادم لزيارة عالم الشام الشيخ سعيد الحلبى [١] فى مسجده . وابراهيم باشا من قد علمت فى بطشــه وجبروته ، ومن يده إلى السيف أسرع من لسانه إلى القول وعينه إلى النظر . . . ومن كان جبار سورية وفاتحها وسيدها ؛ فطار الفزع بألباب الميدانيين ، وهم فرسان دمشق وحماتها ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، ماذا يصنعون ؟ إنهم يعلمون أن الشيخ لايقيم وزناً لأحد من أبناء الدنيا ، فلا يبجل سلطاناً لسلطانه ، ولا يوقر غنياً لغناه ، ولا يقيس الناس بما على جسومهم من ثياب ، ولا بما فى صناديقهم من مال ، ولا بما يبتزون من أموال الدولة [٢] ، ولـكن يقيسهم بما فى نفوسهم من فضائل ، وما فى قلوبهم من إيمان ، وما فى رؤوسهم من علم ؛ وإذا نظر الناس من خارج فرأوا الطبْـل سميناً عظيما ، نظر هو من داخل فرآه خالياً حقيراً . . .

وكانوا يخشون أن يسوء ذلك من شأنه الباشا ، ويودّون لو رجوا الباشا ، ولـكن كيف يصلون إليه وهو فى قصره ، حوله الحجاب والأعوان ، والجند بالسلاح ، ومن حوله الموت ألواناً وأشكالاً ، يحمي حماه ، ويحرس أبوابه . . . ويتمنون لو رَجَـوا الشيخ ،ولـكنّ الشيخ أعزّ من مائة ملك جبار ، تحميه هيبته، ويحرسه تقواه وتحف به الملائـكة واضعة لهاأجنحتها ...[٣]

(١) كان عالم الشام قبل طبقة الشيخ محمود الحمزاوى والشيخ محمد الطنطاوى والشيخ بكر العطار وأصحابهم .

(٢) يعني الرواتب .

(٣) جاء فى الأثر : إن الملائـكة لتضع أجنحتها لطالب العالم رضى بما يصنع .

ولم يكونوا يخافون أن ينال الشيخ بسوء ؛ فهذا شيء تُحيله عقولهم لـما استقر فيها من إجلال الشيخ وإكباره . ولا تراه أبصارهم ، لأنهم يقضون عن آخرهم قبل أن تراه أبصارهم ، ولـكنهم كانوا يخشون الشيخ على الباشا ، ويخشون الباشا على نفوسهم .

* * *

ومضوا يقيمون معالم الزينة ، ويبنون أقواس النصر ويرفعون الرايات على طريق البطل الفاتح . ويقطفون أزهى أزهار الغوطة لينثروها عليه . . . فما كان الأصيل حتى تم كل شيء . وأقبل الباشا فى الموكب الفخم ، والجند والسلاح والدَّبدَبَة . . . حتى انتهى إلى باب المسجد وكان باباً صغيراً . فاعترض الباشا كأنه يقول له : إرجع أو أرجع دنياك ، إنك تدخل بيت الله بشراً خاضعاً ، أما أن تكون تزور إآلـه . . .بألف عبد ، وألف ثوب فلا ! إنه لا يجتمع ميراث النبوة التى جاءت بالتوحيد والمساواة ، ببقايا الجاهلية التى قامت على الشرك والتميز بين الناس إلا محى أحدهما . . . فانظر هل محا باطل حقاً ؟

قال الراوى : وتردد الباشا هنيهة يفكر . ثم أبعد أعوانه وترجل ودخل المسجد منفرداً ، وكان الشيخ جالساً على حصير قد وضعت فوقه حشية ، وكان مادًّا رجله فسمعته يقول :

. . . والمرء إذا خاف الله ، وصدق فى مخافته . خافه كل شيء ، لأنه لا يرى كبيراً إلا صغره عنده أن اللهُ أكبر . . . الله أكبر . إن لهذه سراً إلـهياً ، ولـكن المسلمين استعجموا فهم لا يرددون منها إلا حروفها فارغة من المعنى ، وما فرض الله على المسلم أن يقولها كل يوم (٨٥) مرة أقل ما يقولها [١] ويسمعها من المنارة ثلاثين مرة . . . [٢] إلا ليعلم أنه لا كبير فى الدنيا وأن من كان مع الله لم يبال شيئاً : لا الملك ولا المرض ولا الوحش ، فلو أن المسلم عرف معنى هذه الكلمة وهو يقولها ما عرف الذل ولا الجبن ولا الـكسل .

قال رجل من طرف الحلقة :

(١) إن صلى الصلوات المفروضة (١٧) ركعة كل يوم ، وذلك مالا يكون المسلم مسلماً إلا به .

(٢) فى كل أذان ست مرات .

فإن قتله الملك ياسيدى الشيخ ، أو أماته المرض ؟

فقال الشيخ : سبحان الله ! وهل يهاب المسلم القتل ؟ أو ينغض الموت ؟ إن الموت شديد لأنه انقطاع اللذات ، وخسران الدنيا ، ولكنه لا يكون بهذا المعنى إلا عند الكافر الذى يعيش فى الدنيا ، ويستمتع بملاذها ؛ أما من كان يتهيأ فيها للعيشة الخالدة ويقيم فيها كالمستعد للسفر ، ويرقب ساعته كما يرقب المسافر ساعة القطار ، ويراه حين يمضى ليلقى ربه ، كالآيب إلى وطنه حين يذهب ليلقى أهله وصحبه ... من كان هذا شأنه لا يرى فى الموت موتا ، وإنما يرى فيه ولادة جديدة ، وابتداء حياة ، وقد جاء في الحديث : إن أفضل الشهداء رجل يقول كلمة حق عند إمام جائر فيقتله بها ...

وكان الباشا قد وقف على الحلقة متنفّجاً ، مصعراً خدّه ، شامخاً بأنفه ، فنظر إليه الشيخ رحمه الله فلم يتغيّر ولم يبد عليه أنه رأى فيه أكثر من رجل ، وأشار إليه أن اجلس كما كان يفعل بغيره ، فلم يتمالك الباشا أن جلس . . . ونظر في الحاضرين يقلب فيهم بصره ، يفتش عن شئ أضاعه فيهم ، عن الخضوع والإكبار اللذين تعوّد أن يراهما حوله دائماً ، ينتظر أن يقوموا له ، وأن يقفوا بين يديه صفاً ، ولم يدر أن القوم كانوا في غير هذا ، لم يدر أن الشيخ قد علا بهم ، حتى جعلهم يطلون على الدنيا من شرفة طيارة ، أو من قطع السحاب ، فيرون الأرض كلها كمفحص قطاة ، ولا يرون فى الباشا العظيم إلا نملة .. فمنذ الذى يحفل بنملة ...

وأجال الباشا نظره فيهم حتى علق برجل الشيخ ، وكانت ممدودة نحوه . فأثار مرآها كبرياءه وسلطانه ، ورأى فيها علامة تعجب أضيفت إلى عظمته وجلاله ، إضافة سخرية وتهكم ؛ ورآها كبيرة في عينه ، فأحس كأنما هي في عينه ، ونظر في الحاضرين ألم يجرد واحد منهم سيفه يتقرب إلى الباشا بقطعها .. ؟ وكان الباشا ينظر بعين بصره المادية ، لم تفتح بعدُ عين بصيرته المعنوية فيفاضل بين قصره وسريره ، ومكان الشيخ وحصيره ، وبين جنده وأعوانه ، وتلاميذ الشيخ وإخوانه ، فيوقن أن دنيا الشيخ كلها لا تثبت لحظة لسيفه الذى لم تثبت له دنيا الخليفة العثمانى (امبراطور الشرق) . . . وكان كالأسد الذى زعموا أنه مر على قنبلة من القنابل المدمرة . . . ملقاة في أجمته ، فعجب منها وحقرها وقال : ويحك أى حيوان أنت ؟ يا للضعف والمهانة ! أين الأنياب ؟ أين المخالب ؟ أين . . أين . . يا للهوان ! ما ذا يصنع بأهله. قالوا : ثم ركلها برجله ، فانفجرت القنبلة ! وانفجرت القنبلة من فم الشيخ فرجع يتكلم

* * *

قال :

ومن عجيب صنع الله فى الانسان أن خلقه حيوانا كالحيوان ، ولكنه وضع فيه مَلَكا ووضع فيه شيطاناً ، فمن كان همّه من دنياه لذتا بطنه وفرجه ، وابتغاهما من حل ولم يعرف غيرهما لم يكن فيه إلا الحيوان ، فهو يرتع كما يرتع الحمار ، ويتبع غريزته كما يتبع ؛ ومن كان همه اللذة من حل وحرمة ، ومن كان لا يبالى ما اجترح من السيئات ، لم يكن فيه إلا الشيطان ، وكان العقرب والخنفساء خيراً منه ، لأن مصيرهما إلى التراب ومصيره إلى النار . ومن كان همه أن يعيش فى هذه الحياة كما يعيش فى مدرسة يتلقى فيها أساليب الكمال ، ليعيش من بعدُ فى أساليب الكمال ، فهو الانسان حقاً . .

ومن عجيب صنع الله فى الانسان ، أنه وضع فى نفسه الملك ، فلا يحتاج مهما كان ضالاً فاسقاً ظالماً إلا إلى تنبيه الملك فى نفسه ، ليطرد الشيطان ، ويقود الحيوان ، فلست أنت الذى يعظه ، ولكنه يعظ حينئذ نفسه ، وهذا معنى قولهم :

لا تنتهي الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

وذلك ثوابه الجنة ، والجنة لا تكون بالتشهى والأمل ، ولكن بالجد والعمل . ولو أن تلميذاً أمضى عامه فى لعبه ولهوه ، ثم تمنى النجاح ، أكان ينجح ؟ ولو أن صياداً ألقى بندقيته فلم يضرب بها ورمى شبكة فلم ينصبها ، ثم حلم بالقنيصة أكانت أحلامه تعدو فى أثر الغزال حتى تأتى به مكتوفاً ؟ أم كانت السمكة تأتيه وحدها وعلى ظهرها الملح والفلفل تقول له : كلني ؟ . .

قال رجل : ولكن القلوب قست يا سيدى الشيخ ، فما علاجها؟

قال : إن الشيطان لا يأتى إلا من إشعاره الكمال ، فأشعر نفسك النقص ، وذكرها في الصحة المرض ، وفى الحياة الموت . ولقد أدركنا من مشايخنا من إذا قسا قلبه امّ المستشفى أو قصد المقبرة ، نخوف نفسه المرض وذكرها الموت . والمؤمن لا يزال بخير ما زال بين الخوف والرجاء ، فإن لم يخف أو لم يرج فقد هوى ... ولقد سمعنا ان منهم من كان يدني يده من المصباح ويقول : يا نفس إن لم تصبرى على هـذا فكيف ويحك تصبرين على نار جهنم ؟ وإن المؤمن ما ثارت فى نفسه شهوة ، إلا أطفأها بأنهار الجنة ، أو أحرقها بنار جهنم ، فاستراح منها . . .

وما الانسان لولا العقل ؟ وكيف يكون العقل إن لم يكن معه الايمان ؟ إنه لا يكون إذن إلا كما قالوا : أوّله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة . . . وللسلطان سكرة ، فمن أسكره سلطانه وعزته على الناس ، فليذكر هوانه على الله ، وأن الله أهلك أشد الملوك : النمرود ، بأضعف الخلق : البعوض

فيامن أصله من التراب ، لاتنس أن نهايتك إلى التراب !

***

وكان الباشا يشعر ، والشيخ يتكلم ، كأنه كان محبوساً فى صندوق ، ثم فتح عينيه فنشق الهواء الطلق ، أو كأنه كان فى ظلمة فاحمة ، فطلع الشيخ عليه شمساً نيرة ، فتضاءل حتى جلس على ركبتيه ، ورأى نفسه دون هؤلاء كلهم ، لأنهم ألصق منه بالشيخ وأدنى إليه ، ولم يعد يزعجه مرأى الشيخ وهو ماد رجله... بل كان يراه الغريق ويراها خشبة النجاة ، وكان يبصرها عالية كجناح النسر المحلق ، ثم لم يعد يري فيها شيئاً ، لقد استحال الشيخ فى نظره إلى فكرة ... لم يعد يري فيه إلا الحقيقة تمثلت إنساناً

* * *

قال الراوى : فلما ذهب الباشا ، بعث إلى الشيخ بكيس فيه الف دينار من الذهب العين ، فلما جاءه به الرسول وألقاه بين يديه تبسم الشيخ رحمه الله ورده إليه ، وقال له : سلم على سيدك وقل له : إن من يمد رجله لا يمد يده . . . . .

البصرة

علي الطنطاوي

من أدب القوة

مثال..!

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

ثارت نفسه ثورة ضارمة جامحة لِتَحَيُّن الغاصبين وطنه وتمزيقه شر ممزق ؛ فصرخ الدم فى عروقه ، ولصرخة الدم دوى يسمعه الأحرار فتصيبهم جِنّةٌ تخرجهم من ديارهم إلى القبور... وتحرّك الإيمان فى قلبه ، ولحركة الإيمان زلزلةٌ تتحطم بها كل الشهوات ويستيقظ لها المؤمنون يقظة تخرجهم من قبور الغفلة إلى حومة الجهاد ... وأقبل الملك والشيطان يصطرعان على فكره وهو بينهما كما تكون كُدْسَةُ الحَبّ بين شِقّى الرحى . . . يدعوه الأول إلى خطة الأقل والأكثر فيها الفداء فى الدار التى عريت من الخلود وازينت بالشر ، ويقول له : إنك ما كنت لتحيا هنا ، وإنما الحياة هناك . . . فاذبح مالك لحريتك ، واذبح شهوة الدعة فى الزلة لكرامة العزة ، واخرج من كل شيء لله الذى أعطاك كل شيء ...

إيتـه جسداً عارياً من الحلى والزينة ، فإنها سلاسل تربطك بالأرض . . . وائتـه نفساً عارية من كلَب شهوة البقاء . . . وائته عقلا عاريا من صور البنين والملوك والذهب والفضة والمنصب ... فإن كل أولئك أقذاء وحجب تغشى العين فلا تبصر ذلك اللفظ الصارم الذى لا يرحم ، العابس الذى لا يبتسم : الواجب !

إيتـه عبداً مملوكا طائعا ولك الكرامة قبل أن تؤخذ آبقاً كارها وعليك كلمة السوء ...

ويدعوه الثانى إلى خطة الأقل فيها السلامة . . . والأكثر فيها العيش الموفور المعطَّر المُدثَّر المفضض . . . ويقول له : مالك مجنوناً بالفناء وقد خلقت للبقاء ؟ ! الناس قطعان حيوان ليس فيهم حرمة ولا لهم واجب فلماذا تموت ليحيوا . . ؟ أتموت أنت الشابّ الغُرانِقَ المُقبِل ليحيا العجائز والشيوخ المدبرون . . ؟ لماذا تحمل وطنك بكل ما فيه على قلبك ؟ ألقه عنك يتحطم وعش على أنقاضه . . . دع أوهام الأديان وأحلام الفلاسفة والشعراء . . . أنت « لا تأتى إلى دنياك هذي مرتين ؛

فلا تقف فى وجه لذاتك مكتوف اليدين . ! » ولماذا تقدم نفسك للذبح ويتأخر فلان وفلان ؟ إنتظر حتى يتقدموا ... أتموت ليبقى الزعماء فلان وفلان وفلان يتمتعون بالمجد والنعمة والحمل على الأعناق . ؟ أتخشى حساب الله على تخلفك عن الجهاد ؟ ومن أنت حتى يحاسبك الله العظيم ؟ ! على أن فى الحياة كفارة ...

فيقف فى غمرة من الحيرة بين وحى الملك ونزغ الشيطان ، ولكن صراخ الدم وزلزلة الإيمان مضافاً إليهما حديث الملك مضافاً إليها حكم العقل بأن الحياة الدنيا ما دامت تنتهى فالأولى أن تنتهي بشرف ... وما دامت اللذات والمناعم ، بنت ساعتها ، لا تحيا فى النفس إلا ريثما تحيا فى الحس . وليس لها نصيب من حياة الذكرى الخالدة فالأولى أن تُفطَمَ النفس عنها وبخاصة إذا دعا داعى الواجب وقالت قوانين الحياة الشريفة : ياإنسان ، النجدة !

كان «موظفاً» في الحكومة ، والوظيفة رخصة تبيح لصاحبها عند نفسه وعند بعض الناس أن يغضى على كل لعنة تصيب دينه ووطنه . . ! وأن يكفر بالله ويعبد الرغيف . . . وليس الرغيف الضرورى فحسب بل الرغيف المرصع بكل لذات الفم له ولأبنائه وذرياتهم إلى يوم القيامة .. ! حتى لا يستهدف بزعمه للمناتهم ... وأن يقيم حول ذلك الرغيف سورا وقلاعا من العادات والضياع يحفظه ممن يتعقبونه ...

ياما أعجب أنانية الانسان ! إنه لا يدرك من حقه إلا ما امتلكه من التافه والحقير ... أما حقه الكبير الذى به سر حياته فلا يدركه ولا يغار عليه ولا يألم لوخز قلبه في عقيدته كما يألم لشوكة تخز خلية من خلايا جسده الترابى . . ! ولا يثور لحق وطنه المسلوب كما يثور لمتاع سرق أو حمار نَفَقَ . . !

ولكن صاحبنا كان من الذين يضعون دائماً قلوبهم على أكفهم يعلنونها مستبرئة ظاهرة ليخيفوا بمرآها من ليست لهم قلوب . . . أو من كانت قلوبهم هواء ، أو ليجعلوها دائماً تحت التأثير المباشر للحوادث ، تقرعها الحادثة فتجد صداها مردداً فى صدق وبعدٍ عن الرياء والتدليس ، أو ليستفتوها إذا نزل أمر عاجل يتعجل الفتوى من إلهام الطبيعة وميزان الفطرة . لذلك ما كانت قيود الوظيفة ضمامة على سمعه تمنعه من سماع نداء الواجب ، ولا كمامة على فيه تمنعه من كلمة الحق . . . فلم يكن يدلس على نفسه بتأويل الحوادث ودفعها إلى غير وجهها وتحميلها غير ما يتقاضاه منطقها ، وخاصة إذا كان مدار الحوادث دينه أو وطنه ، فحينذاك يضع قلبه فى كفة ميزان والوظيفة بما وراءها من جاه ومال ودعة فى كفة ، ويختار الذى هو راجح وخير ، وهو الأول دائماً !

فلما أن طار الحريق فى جو وطنه من أنفاس الأحرار حسرة على ما أصاب بلادهم وحريتها كتب يقول :

« أيها الحاكمون ! »

أنا عامل فى حكومتكم ، ولكنى ما بعتكم حريتى لأنى لا أملكها ؛ فإنها ألطف وأدق من أن تملك ؛ إذ هي فى الحصن المغلق على سر الإنسان : فى القلب ...

لذلك أعلنكم أن هذا الجانب الخفي الرفيع منى قد أعلن الثورة عليكم ، وترك لكم هذا الجسد مِلْكَ يمينكم ، فإن شئتم أخذتموه بها فقطعتم منه الوتين .. وتلك غاية مكنتكم . . وإن شئتم تركتموه سلاحاً تقاتلكم به حريتى التى تحكمنى من داخلى .. وتلك غايتها وغايتى !

أما أن أهادنكم على الدَّنيَّة فى دينى والخائنة فى وطنى فذلك ما ليس إليه طاقة حر . .

المال الذى آخذه منكم إنما هو لتحقيق كرامتى بين الناس ؛ فإذا لم أجد لأمتى كرامة فما كرامتى أنا ؟ ! إذاً فهو الآن عندى كعلف الدابة التى تركب . . ولن أكونها !

والجاه الذى أتمتع به فى حكومتكم الدخيلة الغاصبة ، إنما هو جاه العبد . . لن يرتفع به إلى أن يكون سيداً مهما كان قربه من سيده ؛ لأن السيادة ليست له فى نفسه ، ولا فى اعتبار الناس ، ولا فى اعتباركم أنتم ، فهو جاه مثلث التزييف ، وأنا آباه !

ودولاب الأعمال فى حكومتكم يدور بحرية وإخلاص منكم ليفنى الحرية والاخلاص منا ؛ فاشترا كى معكم جريمة لا يغتفرها قلب الوطن ولا حساب الله .. فلن أصبر بعد اليوم على ما أرى من قبيح فعلكم بأمتى ونقضكم المواثيق التي اوثقتم بها أنفسكم وتمزيق وطني ذلك التمزيق الذى سيفنيه لو بلغتم مرادكم فيه ، وما أنتم ببالغيه »

وبهذا انطلق من وظيفته كما ينطلق الطير من قفص فيه حَبٌّ وماء ، ونشيده : الجوَّ الجوَّ ! ولم يَأسَ على الحب والماء لأنهما ليسا الشئ الهامَّ فى سعادة قلبه . . .

ثم سار يجاهد ويضرب في الأرض ، لا يملك غير وجهه جاهاً ، وغيرَ يديه ثروةً ، وغير قلبه خزانة .

عبد المنعم محمد خلاف

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٣ —

الرافعى فى الوظيفة

فى أبريل سنة ١٨٩٩ عُيِّنَ الرافعي كاتباً بمحكمة طلخا الشرعية ، بمرتب شهرى أربعة جنيهات ، وأعانه على الظفر بهذه الوظيفة ما كان لأبيه وأسرته من جاه فى المحاكم الشرعية ؛ وما كان الرافعى ليجهل جاه أبيه وأسرته فى هذه المحاكم ، وما كان منكوراً لديه أن لهم يداً على كل قاض فى القضاء الشرعى ؛ فنشأ بذلك نشأة الدلال فى وظيفته ، لا يراها إلا ضريبة على الحكومة تؤديها إليه عَمِل أو لم يعمل ، لمكانة أسرته من النفوذ والرأى ، ولمكانته هو أيضاً . . . ألم يكن يرشح نفسه ليكون أديب هذه الأمة ؟ هكذا كان يرى نفسه من أول يوم ، وظل كذلك يرى نفسه لآخر يوم . . .

وكانت إقامته بطنطا فى هذه الحقبة ؛ فمنها مغداه وإليها مراحه فى كل يوم ، يتأبط حقيبة فيها غداؤه وفيها كتابه ، وما كان أحد ليستطيع أن يلفته إلى ضرورة التبكير إن جاء فى الضحى ، أو يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله .

لم يكن يرى الوظيفة إلا شيئاً يعينه على العيش ، ليفرغ إلى نفسه ويُعِدّها لما تهيأت له ، فما انقطع عن المطالعة والدرس يوماً واحداً ، وما كان أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته .

وقضى الرافعى فى طلخا زمناً ما ، ثم نقل إلى محكمة إيتاى البارود الشرعية ، ثم إلى طنطا ؛ وفى طنطا انتقل من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بعد سنين ، لأنه رأى المجال فى المحاكم الأهلية أوسع وأرحب ، والعملَ فيها أيسر جهداً وأكثر مالاً وأملاً ؛ وظل فى محكمة طنطا الأهلية إلى يومه الأخير .

وحياة الرافعى فى طلخا وإيتاى البارود وطنطا لا تخلو من طرائف ، وتاريخه فى الوظيفة حافل بالصور والمشاهد التى كان لها أثرها من بعد فى حياته الأدبية ؛ فنى طلخا عرف الكاظمى شاعر العراق الكبير واتصل به وانعقدت بينهما أواصر الود على ما سيأتي تفصيله ؛ وفى إيتاى البارود تفتحت زهرة شبابه للحب وتعطشت نفسه إلى لذاته ، وعلى (جسر كفر الزيات) فيما بين إيتاى البارود وطنطا مسته شعلة الحب المقدسة فكشفت عن عينيه الغطاء ليرى ويحس ويشعر ويكون (شاعر الحس) من بعد ؛ وفى طنطا كان نضجه وتمامه وإيناع ثمره .

وما أستطيع أن أصف بتفصيل واضح كيف كان يعيش الرافعى فى تلك الأيام البعيدة ، ولا كيف كانت صلته بالناس ، ولا كيف تفاعلت حوادث أيامه باحساسات الشباب التى كانت تجيش بها نفسه الثائرة ؛ ولكنى أعرف شيئاً واحداً هو كل ما يهمنى إثباته فى هذا البحث ، هو أن روحا رفافة كانت تطيف به فى تلك الأيام فتنتزعه من وجوده الذى يعيش فيه لتحلق به فى أجواء بعيدة وتكشف له عن آفاق مجهولة لم يسمع بها ولم يعرفها فتوحى إليه الشعور بالقلق وألم الحرمان والاحساس بالوحدة ، فلا يجد متنفساً ينفس به عن نفسه غير الشعر ، وكان ذلك أول أمره فى الأدب وإليه كان آخر ما يمتد أمله ، فما كانت له أمنية إلا أن يكون شاعراً ، شاعراً وحسب .

* * *

لم يتعلم الرافعى الحب مما يسمع في مجالس الشبان ، كما يتعلم أبناء هذا الجيل من أكاذيب التى يتداولونها فى مجالسهم فيتعلمون الحبَّ منها فنًّا له قواعد مرسومة وغاية محتومة . . . لكنه استمع إلى وحى الحب أول ما استمع في همسات روحه ، وخلجات وجدانه ، وخفقات قلبه ، وانفعال أعصابه ؛ إلى ما كان للحب في نفسه من صورة مشرقة شائقة مما قرأ من أخبار العذريين من شباب العرب ؛ فأحس كأن شيئا ينقصه ، فراح يفتقده وشعر كأن إنسانة من وراء الغيب تناديه وتهتف باسمه في خلوة نفسه وجلوة خاطره تقول : ها أنا ذى . . . فهام بالحسن ينشده شعره وينشد فيه مثاله الذى يدور عليه ، وطار على وجهه كالفراشة الحائمة تقول لكل زهرة : أأنت التى ... فلا يستمع إلى جواب وإن الصوت البعيد لدائب يهتف في أذنيه : إننى هنا ، إننى هنا ياحبيبي فاقصد إليّ . . .

لم يكن يحب إنسانة بعينها يناديها باسمها ويعرفها بصفتها ، بل كانت محبوبته شيئاً فى نفسه وصورةً من صنع أحلامه ، يرى فى كل وجه فاتنٍ لمحةً من جمالها ، وفى كل طلعةٍ مشرقة بريقاً من فتنتها ، وفى كل نظرة أو ابتسامة معنى من معانى الحبيبة النائمة فى قلبه وفى أمانيه . . . فمضى يتنقل من زهرة إلى زهرة ، عفيف النظر والشفة واللسان ، حتى انتهى أمره إلى أمر . . .

لم ينس الرافعي إلى آخر يوم من حياته ما كان من شأنه وشأن قلبه فى صدر حياته ، فكان دائم الحديث عن هذا العهد كلما رفّت به سانحةٌ من سوانح الماضى تذكره ما كان من أمره وما آل إليه أمره .

ليس قصدي الآن أن أتحدث عن الحب فى تاريخ الرافعي ، فإن للحب فى تاريخه فصلاً ضافى الذيول كثير الألوان متعدّد الصور له مكانة المفرد من هذا البحث فى غير هذا الباب . ولكنى أتحدث عن الرافعي فى بكرة الشباب فما لى مندوحة عن الإلمام بما كان يصطرع فى نفس الرافعي في بكرة الشباب .



شباب الرافعي

***

عاش الرافعي لفنه ولنفسه من أول يوم ، فما عاقته الوظيفة عن أن يكون كما أراد أن يكون ؛ على أنه كان إلى اهتمامه بفنه وعنايته بما يكمله ، وعلى أنه كان لا يرضى أن تتعبده قوانين الوظيفة وتقيده أغلالُ النظام الحكومي – كان إلى ذلك دقيقاً فى عمله الرسمي دقة تبلغ الغاية . وكان إليه تقدير رسوم القضايا والعقود ونحوها مما يتصل بعمل المحكمة ؛ فكان كاتباً حاسباً لا يفوته شيء مما يسند اليه ، حتى آل أمره من بعد إلى أن يكون المرجع فى هذا العمل لكتاب المحكمة جميعا ، يستفتونه فيما أشكل عليهم من الأمر فى تقدير الرسوم ؛ ثم لكثير من كتاب المحاكم فى مختلف البلاد ، ثم لوزارة الحقانية نفسها وهي المرجع الأخير ، تكتب إليه فى زاوية مكتبة من محكمة طنطا تسأله الرأي فى حسبة أو إشكال أو شيء مما يتصل بذلك ، فيكتب إليها بالرأى لتبلغه فى منشور عام إلى كل المحاكم الأهلية .

وكان عليه العبء من هذه الناحية فى محكمة طنطا ، وقد طلب أكثر من مرة أن يحال إلى المعاش ليتفرغ لفنه ، فما كان يمنعه من المضى فى طلبه إلا ذعر سائر موظفي المحكمة وإلحاحهم عليه أن يبقى لئلا يخلو موضعه .

وكان فى صلته بموظفى المحكمة الذين يشركونه فى عمله نبيلاً كريم الخلق إلى حد بعيد ، فكان يتطوع ليحمل عنهم تبعة كل خطأ يقع فيه واحد منهم مهما كان مدى الخطأ ونتيجته ؛ وقد رأيته مرة فى صيف سنة ١٩٣٤ وقد لزمه مفتش من مفتشى الحقانية ثلاثة أشهر أو أكثر ، يستجوبه عن خطأ فى تقدير الرسوم لأكثر من مائة وعشرين قضية ، بلغ النقص فى الرسوم المتحصلة عنها بضعة وتسعين جنيها ؛ والرافعي يرد المفتش ويدافعه ويرى له الرأى ويصف له العلاج ، والمفتش دائب على الحضور كل يوم يبحث ويفتش ويستقصى وما ضاقت به أخلاق الرافعي ؛ على حين لم يكن على الرافعي فى هذه القضايا المائة والعشرين خطأ واحد ، وما كانت إلا من أخطاء زملائه فى المكتب حمل عنهم تبعتها حتى لا يتعرضوا لشرٍّ هو أقدر منهم على الخلاص منه .

وكان من اعتداده بنفسه وحفاظه على كرامته بحيث لا يسمح لرئيس مهما علا منصبه وارتفع مكانه أن يجحد منزلته أو ينال منه أيَّ نيل ؛ وكان يفرط فى ذلك إفراطاً يدعو إلى الشك أحيانا فى تواضع الرافعي وكرم خلقه وحسن تصرفه .

من ذلك أنه لما كان هذا المفتش يؤدى عمله فى المحكمة — وكان عمله التحقيق مع الرافعي — كان الرافعي يُلزم المفتش أحياناً أن يحضر هو إلى مكتب الرافعي فى حجرته الخاصة بالموظفين ليسأله وهو جالس إلى مكتبه والمفتش على كرسيه إلى الطرف

الثاني من المكتب . وكنت إحدى هذه المرات جالساً إلى جانب الرافعي – وكان يستدنيني ويشركني في عمله حين أذهب لزيارته في الديوان – فلما جاء المفتش هممت بالانصراف ، فشد الرافعي ذراعي بعنف وهو يقول : « إجلس يا أخي . . . » ووجه إليه المفتش سؤالاً ، فالتفت الرافعي إليّ قائلا : « فَهِّمه من فضلك يا شيخ سعيد أحْسن مُش قادر أفَهِّمه . . . (1) » ثم التفت إلى المفتش قائلاً وهو يشير إليّ : « حضرته مدرس ، يقدر يخلّيك تفهم . . . ! »

لم يكن اعتداد الرافعي بنفسه يبلغ به إلى مثل هذا الشذوذ في كل أحواله ، وإنما كان كذلك مع هذا المفتش بخاصته ، لأنه كان يعتقد أنه يرمي إلى إحراجه والتضييق عليه لقضايا مدنية كانت بين الرافعي وبين أصهار هذا المفتش ولم يقبل فيها الرافعي شفاعته .

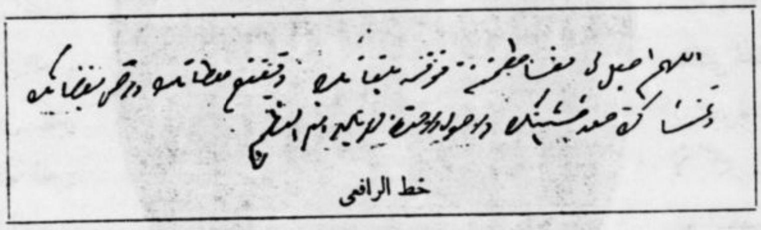
وكان من تقاليد المحكمة كلما نقل إليها قاض أو نائب جديد ، أن يهرع إلى مكتبه موظفو المحكمة يهنئونه ويتمنون له ؛ فما أكثر ما كان يتخلف الرافعي عن وفد الموظفين ، ويظل وحده في مكتبه ؛ فإذا فرغ القاضي أو النائب من استقبالهم ، مضى هو إلى مكتب الرافعي في حجرته ، فينهض الرافعي لاستقباله ، فيقفان لحظة يتبادلان الشكر والتهنئة على هذا الاتفاق الذي هيأ لهما هذا التعارف . . . ثم يذهب إليه الرافعي بعد ذلك في مكتبه ليشكر له ويكرر التهنئة .

حتى مدير المديرية – ومحكمة طنطا هي جزء من ديوان المديرية – لم تكن صلته بالرافعي صلة المدير الحاكم بموظف صغير فكانت بينه وبين أكثرهم صلات من الود والصداقة فوق ما يعرف من الصلات بين الموظفين ؛ ولكن منهم رجلا واحداً كان أقرب قرابة إلى الرافعي من أهله ومن خاصته ومن . . ومن تلامذته هو صاحب السعادة محمد محب باشا أقدر مدير عرفته مديرية الغربية منذ كانت مديرية ؛ وكان للصلة بين الرافعي ومحب باشا أثر كبير في أدبه سنتحدث عنه فيما بعد

***

لم يكن للرافعي ميعاد محدود يذهب فيه إلى مكتبه أو يغادره ، فأحياناً كان يذهب في التاسعة أو في العاشرة ، أو فيما بين ذلك ، فلا يجلس إلى مكتبه إلا ريثما يتم ما أمامه من عمل على الوجه الذي يرضيه ، ثم يخرج فيدور على حاجته ، فيجلس في هذا المتجر وقتاً ما ، وعند هذا الصديق وقتاً آخر ، ثم يعود إلى مكتبه قبيل ميعاد الانصراف لينظر فيما اجتمع عليه من العمل في غيبته ، وقد لا يعود . . .

وكان هذا منه يغضب زملاءه في العمل ، فكانوا ينفسون عليه ويأكلون لحمه ، ويبلغه عنهم ما يتحدثون به فيهز كتفيه ويسكت ، ثم لا يمنعه ذلك من بعد أن يأخذ بيدهم عند الأزمة ؛ وكان كتبة المحامين وأصحاب المصالح في المحكمة يسمونه بذلك عمدة المحكمة . . . !



خط الرافعي

وحدث مرة أن جاء إلى محكمة طنطا رئيس شديد الحول ، فلما صعد إليه موظفو المحكمة للتهنئة ، لم يجد بينهم الرافعي ، فلما سأل عنه تحدث الموظفون في شأنه ما تحدثوا ؛ فاستاء الرئيس وأرسل يدعوه إليه ، فلم يجده الرسول في مكتبه ، فغضب الرئيس وثارت ثائرته ، وأمر باستجوابه عن الاستهانة بنظام المحكمة ومواعيد العمل الرسمي ؛ وجاء الرافعي فبلغه ما كان ، فهز منكبه وجلس إلى مكتبه يمزح ويتحدث على عادته كأن لم يحدث شيء ؛ ورفع الرئيس كتابه إلى وزارة الحقانية ، يبلغها أن في محكمة طنطا كاتباً أطرش ، لا يحسن التفاهم مع أصحاب المصالح على شدة اتصال عمله بمصالح الجمهور ، وهو مع ذلك كثير التهاون بنظام المحكمة ومواعيد العمل ولا يخضع للرأي . . . وطلب الرئيس في آخر كتابه إقالة الرافعي من الخدمة . . .

وأرسلت وزارة الحقانية مفتشها لتحقيق هذه الشكوى ، وليرى رأيه فيما طلبته محكمة طنطا ؛ وكان المفتش المندوب لذلك

(1) آثرت في هذا الخبر أن أرويه كما جرى باللغة العامية ، ليتأدى معناه إلى قارئه على وجهه . وكان الرافعي ينادي خاصته والمقربين إليه : « يا شيخ فلان . . . » على اختلاف منازلهم وأعمالهم ولباسهم ؛ ولم يكن كل أحد يستأهل عنده هذا اللقب .

هو الشاعر اللبق الظريف المرحوم حفنى ناصف بك . ولم تكن بين الرافعي وحفنى ناصف صلة ما إلى هذا الوقت ، إلا ذلك النسب البعيد الذي يجمع بينهما فى أسرة أبوتّون ... وإلا ... وإلا تلك الكلمة القاسية التى كتبها الرافعى بأسلوبه اللاذع عن (شعراء العصر) سنة ١٩٠٥ ونشرها في مجلة الثريا وجعل فيها حفنى ناصف ذيل الشعراء ...

وجاء حفنى ناصف إلى الرافعى فحيا وجلس ، وبسط أوراقه ليحقق ... وقال الرافعي : قل لهم فى الوزارة : إن كانت وظيفتى هنا للعمل ، فليؤاخذونى بالتقصير والخطأ فيما يُسند إلىّ من عمل ؛ وإن كانت الوظيفة : تعال فى الساعة الثامنة ، واجلس على الكرسى كأنك مشدود إليه بحبل — فلا علىّ إن تمردت على هذا التعبد .. قل لهم فى الوزارة : إنكم لا تملكون من الرافعي إلا هذين الإصبعين ساعات من النهار ... !

واستمع الأديب الشاعر إلى حجة الأديب الشاعر ، ثم طوى أوراقه وحيا صاحبه ومضى ؛ فلما كان فى خلوته ، كتب تقريره إلى وزارة الحقانية يقول :

إن الرافعى ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود ... إن للرافعى حقاً على الأمة أن يعيش فى أمن ودعة وحرية ... إن فيه قناعة ورضى ، وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه . دعوه يعيش كما يشتهى أن يعيش ، واتركوه يعمل ويفتنّ ويبدع لهذه الأمة فى آدابها ما يشاء أن يبدع ، وإلا فاكفلوا له العيش الرخىّ فى غير هذا المكان ..!

وبلغ التقرير وزارة الحقانيـة ، وانطوت القضية ، وصار تقليداً من تقاليد المحكمة من بعد أن يغدو الرافعى ويروح لاسلطان لأحد عليه ، وله الخيرة في أمره ؛ ولكنه مع ذلك لم يهمل فى واجبه قط ، ولم ينس يوماً واحداً أنه فى موضعه ذاك بحيث يرتبط به كثير من مصالح الجمهور .

قلت : إن الرافعي لم تكن بينه وبين حفنى ناصف صلة ما . ولكن حفنى تولى القضاء بعد ذلك مرة أو مرتين فى محكمة طنطا فتقاربا وتوثقت بينهما أواصر الود ؛ وكانت طنطا فى ذلك الوقت حلبة من حلبات الشعر والأدب ؛ فلا يمضى أسبوع حتي يقدم إليها أديب أو شاعر لزيارة الشاعرين : حفني والرافعى ، فيقوم للشعر سوق ومهرجان . وكان بين الرافعى وحفنى من التقارب فى الصفات ما يؤكد هذه الصلة ويوثق هذا الود ؛ فكلاهما شاعر ، وكلاهما من دعاة القديم ، وكلاهما أديب مرح يجيد الدعابة ويستجيد النكتة البكر ، وإن كانت فكاهة حفني أظهر وأبعث على الضحك وتكشف عن فراغ القلب ، وفكاهة الرافعى أعمق وأدل على قصد العبث والسخرية وامتلاء النفس . ولعل روح الفكاهة فى الرافعى كان لها شأنها فيما كان بينه وبين المرحوم حافظ إبراهيم بك من صلة الود والاخاء .

حدثنى الأستاذ الأديب جورج ابراهيم — صديق الرافعى وصفيُّه منذ حداثته — قال : لقد كانت الصلة بين الرافعى وحفنى أكثر مما يكون بين الأصدقاء ، وكانا يتزاوران كثيراً ، أو يجتمعان فى قهوة (اللوفر) بميدان الساعة ، وكنت أغشى مجلسهما أحياناً . . . فكنت أرى حفنى يتواضع للرافعي ويتصاغر فى مجلسه ، على مقدار مايتشامخ الرافعي ويتكبر ويدعى الأستاذية ، حتى ليرى له الرأى فى القضايا التى لم يدرسها حفنى بعد ، فلا يحكم فيها إلا بما حكم الرافعى !

* * *

ظل الرافعي فى وظيفته تلك ، موزع الجهد بين أعماله الرسمية وأعماله الأدبية وما تقتضيه شئون الأب وشئون رب الدار ، على المورد المحدود والبساط الممدود . . . وما زاد مرتب الرافعى الشاعر الكاتب الأديب الذائع الصيت فى الشرق والغرب ، الموظف الصغير فى محكمة طنطا الكلية الأهلية ، على بضعة وعشرين جنيهاً فى الدرجة السادسة ، بعد خدمة ثمان وثلاثين سنة فى وظائف الحكومة . . .

على أن الرافعي كان له مرتب آخر من عمله فى المحكمة ، هو ثمن ما كان يبيع من كُتبه للموظفين والمحامين وأصحاب القضايا الذين يقصدون إليه فى مكتبه لعمل رسمى ؛ فما كان أحد منهم يستطيع أن يظفر برضا الرافعي فيقضى له حاجتـه ، حتى يبيعه كتاباً من كتبه . وكانت ضريبة فرضها الرافعى من طريق الحق الذى يدعيه كل شاعر على الناس !

ليت شعرى أكان على الرافعى ملام أو معتبة أن يفعل ذاك . .؟ لنا الله أيها الأدباء فى هذه الأمة التى لا تحفظ الجميل !

« لها بقية » (طنطا) محمد سعيد العريان

أدب الميوعة والدلال

للسيد ماجد الأتاسى

منذ أسابيع خلت نعى أستاذنا « الزيات » فى مقاله البليغ « أدب السندوتش » ، على أدباء هذا الجيل النابتين « جهلهم للغتهم ، وتقصيرهم فى تحصيل آدابها » .

ثم علق الأستاذ « المــازنى » على هذا المقال ، وحدثنا عن شغفه بالكتب فى أيام تحصيله الأولى ، وعن جلده على القراءة والدرس ، وقص علينا قصته مع كتبه يوم زواجه ، وكيف آثر الخلوة إلى هذه «الضرة» صباح يوم الجلوة على الجلوس والتحدث إلى زوجه العروس التى لاقت من «ضرتها» كل مايسوء ويضجر والتى نسأل الله لها الرحمة والرضوان ، وإلهامها أن تقابل ماتجد من اغتياب أستاذنا لها فى شتى المناسبات ، بالصفح والغفران ، وهى آمنة مطمئنة فى فسيح الجنان .

ثم تناول الأستاذ « أحمد أمين » هذا الموضوع بالبحث والدرس ، والتحليل والتعليل ، ووعدنا أن يعود إليه — كرة أخرى — ليصف لنا طرق العلاج ، وفنون الدواء من «صيدليته» ولعله يفعل .

وأخيراً عالج الأستاذ « العقاد » أدب « السندوتش » من — الوجهة العالمية — وأتى على عوامل شيوعه وتفشيه فى آداب الأمم الأخرى المعاصرة .

وهكذا تداول أساتذتنا الأئمة هذا الموضوع من أكثر من ناحية — بالبحث والدرس ، والتحليل والتعليل

وما كان لى — وأنا أحبو على عتبات الأدب حبو الأطفال وأحمل فى ميدانه أجسام الأقزام — أن يدفعنى مايلابس — عادةً — نفوس الشباب ، من الغرور والصلف والتهور والنزق ، إلى أن أزج بنفسى بين أرجل هؤلاء العمالقة الأئمة الأخيار .

ولكننى أحببت — ولست أدري لم — أن أصرف أستاذى « المــازني » ساعة عن هذه « الضرة » الباقية التى يهيم بها ، والتى لايطيق لها هجراً ولا بعداً ، وأن أثقل فأهذر — أمامه — حيناً ، فعهدى به أنه محظوظ من جماعة الثقلاء ، فلكم طرقوا بابه موهناً وهو يغط فى نومه ، وسحبوه من فراشه لسؤال أو مزاح . ثم إنى — بعد هذا — أطمئن وأقول له إننى لست من هؤلاء الشباب « الناعمين » أبناء الجيل الجديد ، الذين جاءوه زائرين ، فأذاقهم « علقته » وردهم إلى الباب مدحورين ، ثم فضحهم وشهَّر بهم « في الرسالة » أمام الناطقين بالضاد أجمعين .

لئن نعى الأستاذ « الزيات » والأساتذة « المازنى والعقاد وأمين » من بعده ، على أدباء هذا الجيل الناجين ، جهلهم بلغتهم ، وتقصيرهم فى تحصيل آدابها ، فما أحقنى إذن ، أن أشغب على زملائى الناشئين ـ وعلى الكهول فى سوريا أيضاً ـ فأنعى عليهم جميعاً : ضعف النفس ، وضمور الشخصية ، وقلة الاستعداد لحمل رسالة الفكر الحر ، والعقيدة الثائرة ؛ وأن أسمى هذا النوع من حملة الأقلام « أدباء الدلال » بعد أن أسمى أستاذى « الزيات » أدبهم « أدب السندوتش » هــذا الذي تقوم ثقافته على « نتفات من الكتب ، ولقفات من الصحف ، وخطفات من الأحاديث » والذي نجد نتاجه « مختضراً معتسراً كجنين الحامل أسقطته قبل التمام » .

إن شأن اللغة فى الأدب الفحل ثانوى بالقياس إلى نفس الأديب وشخصيته ، وإن الجهل بها والتقصير فى تحصيل آدابها ، من السهل واليسر ـ إلى حد بعيد ـ أن نعالجهما ونبرأ منهما ، إذا ما تعهدناهما بالإرادة القوية ، والعزيمة الحازمة ، والكدح الصابر ، والمعاناة الجلدة .

ولكن اللغة بلا نفس تنفخ فيها الحيــاة ، ولا شخصية تطبع هذه الحياة بطابع خاص ، ودون فكرة تذاع ، لاتكون إلا حطاماً تدوسه الأقدام ، وقرقرة تعافها الآذان

كثيرون وكثيرون من الأدباء أوفوا فى معرفة لغتهم على الغاية ، وأشرفوا فى تحصيل آدابها على الذروة ، ولكن طبيعتهم التى لابستهم ، وبيئتهم التى أخرجتهم ،وعوامل أخري ، كل هذا لم يهيء لهم النفس التى تهــدم لتبنى ، والشخصية التى تستقل لتهيمن ، فتهوروا وتدهوروا وانحدروا إلى الوادى بين جموع الناظمين والمنشئين واللاعبين ، من حيث طفر إلى القمة أهل النفوس والشخصيات ، فتبوؤا قمم « أولمب » واستقروا فى جنات « عبقر » ذلك لأن قوام الخلود فى عالم الأدب ، نصيب هــذا

الأدب من فيض الحياة وزخرها ، وقسطه من معرفتها وخبرها . وهذه الحياة التي أعدت للرجال أهل العود الصلب واللسان العضب ، محرمة على من ضعفت نفوسهم ، وضمرت شخصيتهم ، ولانت قناتهم ، وموصدة أبوابها دون أولئك الذين يتهيبون مجاهلها ، ويخافون جدها ،ويجفلون من عثارها ، ويمولون جياعاً على عتباتها ، والذين لاتحملهم أقدامهم الرخوة للجرى فوق شوكها ، والوثب على صخورها

هؤلاء « الناعمون المدللون » أهل الدلال والدعة ، هم طفيليات فى هذه الحياة ، وهم - بالتالى - متطفلون على موائد الأدب ، وليس للمتطفلين فى عالم الأدب بقاء

بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا ، فأقول بأن أصحاب النفس الشديدة ، والروح القوية ، والشخصية الجبارة ، يتهيأ لهم من حسن البيان ، وجودة المقال والارتفاع بفنون الكلام ، ماتتقطع دونه أقلام من تمكنوا من ناحية اللغة ، وتفقهوا فى أساليبها ، وبصروا بنتاجها ، من أهل البرودة والنعومة والدلال

ذلك لأن الفكرة فى النفس القوية قوة ، قوة عاصفة جامحة حرون ، « تتكهرب » لها الأعصاب المرهفة ، ويثور لحملها الوجدان ، فما تجد النفس ترفيها وتنفيساً إلا فى أن تقذف بها فى أسلوب نير كومضة البرق ، قوي كالحمم تنطلق من فوهة البركان ، بليغ يرتفع فى آفاق البلاغة والبيان إلى ما تتقطع دونه علائق الأحلام والأفهام

هذا هو الأستاذ البشرى يقول : « إن السيد جمال الدين الأفغانى كان غريباً عن العربية ، وإن قاسم أمين كان شبه غريب عنها ، وإن حسين رشدى باشا كان قل أن تطرد على لسانه ثلاث كلمات عربية متواليات ، ومع هذا كانوا يرتفعون بالعبارة أحياناً إلى ما يتخاذل من دونه جهد أعيان البيان »

ولا عجب من هذا ، ألا ترى إلى مقالنا ، كيف يبين ويرتفع في سماء الوجدان ساعة ثورتنا وغضبتنا ، إلى ما لا قدرة لنا عليه فى ساعة الرضى والاطمئنان ؟

كذلك هى النفس القوية ، أبداً فى ثورة عاصفة ، وغضبة جامحة ، وكذلك هى أبداً فى تحفز للوثبة ، وتأهب للطفرة والهجمة فان لم تجد أمامها ما تحطم ، رجعت إلى قرارتها تثير حرباً عواناً بين خيرها وشرها ، وحقها وباطلها ، وتقاها وفجورها ، لأن الهدوء والركون صور من صور الموت ، والنفس القوية لا تعرف فترات الموت والبرودة والجمود ، ما دامت تبصر النور ، وتتنفس الهواء .

* * *

الحياة سفر الأديب الموهوب : وهى صراع دائم بين الغى والرشد ، والحق والباطل ، والجمال والقبح ، والهدى والضلال ، والحب والبغض ؛ فالأديب الحق هو الذى ينزل إلى ميدان هذه المعركة المحتدمة ، يقاتل ويناضل ويصاول في سبيل الرشد والحق والهدى والحب والجمال ، إلى أن يحطم أصنام الشر والبطل ، ويهدم حصون الضلال والقبح ، أو يتحطم هو على أقدام الحق الذى ناضل فى سبيله ، وتحت ظل الراية ، التى نافح عنها ، وهكذا يلفظ النفس ، راضى النفس ، مطمئن الضمير ، هادىء الخاطر ، يبسم لأحلام القبر كما نسعى إلى الفراش إذا مسنا اللغب وأثقل جفوننا النعاس ، فنسحب اللحاف ، ونسبله علينا ، هادئين باسمين لنستسلم إلى الأحلام .

هذه هي الحياة ؛ وهذه هى رسالة الأديب : قطع الصخر ، وتجرع الصاب ، وتحطيم الأصنام ، والطفرة على حطامها إلى قمم المجد ، وسماء الخلود .

فهل أعد أدباؤنا الناشئون — والكهول أيضاً — نفوسهم ومهجهم وأدمغتهم لهذه المعركة التى وقودها النفوس الطامحة ، والقلوب الراغبة ، والضمائر الحرة ، والعقول النيرة ؟

اللهم لا ! اللهم لا !

من يمتري فى هذا فلا ينعى على أدبائنا الناجين — وعلى الكهول عندنا — رخاوة العصب . والدلال والدعة والأنوثة واللين ؟

من يمترى فى هذا ، فلا ينعى عليهم ضيق الأفق ، وقحط الخيال ، وقصر المدى ، وضعف الجنان ، وتهيب القديم لأنه قديم ، وحب الجديد لأنه جديد ، والحرص على السلامة والمسالمة ، والراحة والركون ، والنفرة من المصاولة والمعاركة وقلة الجلد على حياة الجهد والتعب والضوضاء ، والتهيب من التجربة والاقدام ،

وضعف التعلق بالحق والمثل الأعلى والجمال ؟

إن حياة الأدباء أصبحت مضرب المثل ، ووحدة القياس ، في خمول النفس ، وكسل العقل ، وضعف الاستعداد للحياة ؛ فاذا قيل لك : هذا أديب فاعلم أنه من هؤلاء الذين يخرجون إلى الشارع ، والفراش على أكتافهم « والمخدة » فوق ظهورهم .

أجل ! إننا لا نرى من ينقطع إلى الأدب من شبابنا إلا الذين خانتهم أقدامهم فى الوثوب إلى مراقى المجد ، والطفرة إلى قمم الظفر والذين نزلوا إلى ميادين الحياة ، فلما بلوها وبلتهم ، وعجموها وعجمتهم ولوحت لهم بسياطها من بعيد هرولوا وارتدوا على أعقابهم ناكصين حائلة ألوانهم ، مرتعدة فرائصهم ، ثم انتحوا جانباً قصياً من الطريق ، بعيداً عن مواطن أهل الرجولة والإقدام ، على غرار العاجزين المتسولين الذين يقبعون فى زوايا الشوارع القذرة ، أمام أهل الأعمال .

هاهم أولاء شبابنا الذين يخفقون فى الشهادات « والبكالوريات » تسألهم : ما تصنعون ؟ فيقولون : ندرس الأدب . وهكذا أصبحت دراسة الأدب صناعة العجز ، ودليل الخور ، وبرهان الفقر فى المواهب ، أو الضعف فى النفس . وقد ينتهى هؤلاء إلى شئ ما فى دراستهم هذه ، فتراهم يصيحون نائحين فى مآتم الموتى ، أو مهرجين فى حفلات الأحياء ، أو حارقين للبخور أمام أهل الجاه

ولا عجب من هذا ، فهم لا يصلحون للحياة ، ومن لا يصلح للحياة لا يصلح لحمل القلم ، والوقوف فى صفوف الأدباء

ثم هذه هي المقاهى ، ودور البطالة واللهو والعبث ، أصبحت ملاجئهم يلجأون إليها كما يلجأ العجزة إلى دورهم وملاجئهم ، ويفرون إليها من زحمة الحياة ، وهم يقرقرون ويموءون وينقنقون

أعرف أديباً كهلاً — أو على الأصح متأدباً — : أفتدرى يا صاحبي ما هى رسالة أدبه ؟ رسالته — بالضبط — رسالة « عميان الجنائز » والنائحات اللاتى يستأجرن فى المآتم للندب واللطم والشق والعويل ، أو رسالة « البرابرة » الذين يستأجرون فى مصر لتأديب المآدب ، وتنظيم الحفلات

يسمع أن صديقه فلاناً قد مرض ولزم الفراش ؛ وقد يكون مابه لفحة حر ، أو زكام طفيف ، فهو — منذ أيام المرض الأولى — يعد لصديقه العزيز مرثيته العصماء ليبكى فيه — إذا ما مات وأظنه يريده أن يموت ليرثيه — ليبكى فيه النجم الذى أفل ، والبحر الذى نضب ، والرحمة التى رفعت ، والرجولة التى فقدت . ويسمع أن « فلاناً » وهو من أهل الجاه الطويل العريض — سيؤم المدينة بعد أيام ؛ فاذا قدم كان صاحبنا الأديب الخالد أول المستقبلين والمرحبين ، وكان أول الخاطبين بين يديه والمادحين ؛ وقد يكون هذا العين ممن لا يعرفهم صاحبنا إلا « بالسلام » وقد يكون من هذه الطبول المنفوخة الجوفاء التى نقع عليها فى طريقنا صباح مساء ؛ وقد يكون ممن كان يشهر بهم أديبنا آناء الليل وأطراف النهار ؛ وقد يكون من هؤلاء المجرمين الذين يروحون ويجيئون أمامنا بأثواب القديسين والأقطاب ، فنسجد لهم ونحملهم على الأعناق ؛ قد يكون هذا العين من كل هؤلاء ، ولكن أديبنا لا يتحرج إذ يخلع عليه الألقاب ، وإذ يغرقه بالتحيات ، ويجعله فى البلاغة سحبان وإن كان أعيا من باقل ، وفى الكرم حاتماً وإن كان أبخل من أشعب ، وفى الشجاعة عنترة وإن كان أجبن من أبى دلامة

وليت هذا الرثاء وهذا المديح كانا من وحى الخاطر ، ومن بنات القريحة ؛ وإنما هما سرقات من الكتب رصفت رصف الحصى ، ونتفات من الدواوين ركبت تركيب « اللعبة »

أعرف أديباً آخر — أو على الأصح متأدباً — أفتدرى يا صاحبي ما رسالته ؟ رسالته هى مهمة « سماسرة » القطن فى مصر أو « سماسرة » البصل والثوم عندنا فى سوريا . إذا كان الصباح يدعو إلى الانتداب ، ويتغنى بمآثره و « يسمسر » له ؛ وإذا كان الضحى ، وكان الحكم الوطنى ملأ الجو بالتصفيق ، وحطم الآذان بقصائده ينشر فيها مجد بنى عبد شمس ، ويذيع فيها صنيع أبناء عدنان ؛ وهو « يسمسر » للحكم الوطنى لأن بيد الحاكمين مناصب الدولة ، ورياسة ديوان وزارة المعارف ؛ وهو عند الأصيل معارض للحكومة الوطنية ، متحمس فى معارضته ، مسرف فيها ، لأنهم طردوه ولم يقبلوه ، وهو أخيراً فى المساء رجل مسالم يقف بعيداً « على الحياد » لا يدعو إلى شئ ولا يؤمن بشئ لأنهم لوحوا له من بعيد بالسوط ، مهرول إلى عقر داره ، مضطرب

النفس ، مهتز القلب ؛ وآثر السكوت والرضى بالواقع على الشغب المغرض ، والنعيب المضجر

أعرف متأدباً قيل له ذات يوم «لم لا تنتسب إلى هذا الحزب ومبادئه كيت وكيت؟» فقال : «إنني أؤمن بمبدئه ، وأرضى عن منهجه ، وأطمئن إلى برامجه ، ولكن خصومه أصدقائي وصحبي ، فلا قدرة لي على خصامهم ! . . وعلى أن أكون حرباً على هذا الحزب بين صفوفهم ! . . »

هـذه خطوط هي إلى اللمحات الخاطفات أقرب منها إلى الصور الجامعات ، أوردناها — على عجل — لتلمس أيها القارئ نواحي من هذه الحياة التي يضطرب فيها جماعة الأدباء ، والتي هي ضرب من ضروب الجمود بل الموت .

***

يزعم أدباؤنا أن سماءنا غائمة ليس لها روعة الإيحاء والالهام ، وأن آفاقنا ضيقة ليس لها القدرة على تفتيق الأذهان والأحلام ، وأن حياتنا جامدة ليس فيها من فيض الحيـاة ما يحرك الشاعر والأوتار .

لا ! لا ! لم تغم السماء ولـكن عيونكم حسرى ما ترتفع ، ولم تضق الآفاق ولـكن أذهانكم لم تفتق ، ولم تتجمد حياتكم ولـكن أوتار قلوبكم ما تتحرك .

ها هنا زعمـاء يرقصون على قبور الأمة ، ويرتفعون على أشلاء الشهداء ، ويتناصرون لاقتسام الغنائم تناصر الذئاب الجائعة أمام الجيف في أقصى الصحراء ، والناس ـ على رغم هذا ـ يحملونهم على الأعناق ، ويحرقون أمامهم البخور ، ويهتفون باسمهم أطراف الليل وآناء النهار

في كل مكان مرجفون يرجفون ، ومضللون يكذبون ، وغادرون يغدرون ، وماكرون يمكرون ، وجاهلون يتعالمون ، وأغبياء يرتفعون ، ومجرمون في ثياب الأقطاب والأولياء ، وبين الهتاف والتصفيق يروحون ويجيئون .

والحقيقة في كل هذا تشرد فلا مأوى ولا مصير ، والفضيلة تستغيث وتستجير فلا مجير ولا نصير .

أليس في كل هذا ، ما يلهب الحقد والضغينة في صدر الأديب ويحوله إلى طاغية غشوم ، يبطش بلا رحمة ولا هوادة ، في أهل المجد المزيف المجرم ، والجاه الملوث الـكاذب ؟

في كل مكان أمة تصنع لقمتها من دمعها ودمها وقطع كبدها ثم ترفعها بيدها المرتعشة المشلولة إلى فمها لتسد رمقها ، فاذا اليد القوية تمتد إليها وتتخطفها ، وهي على شفتيها ، والسوط يهتز في يسراها .

في كل مكان نعاج رواقص على سكينة الجزار ، وسياط هاويات على ظهور المستضعفين من العبـاد ، وعذارى يشردن ويبعدن عن أوطان الآباء والأخوة والامهات ، وشذاذ الآفاق يشترون الضمير البشرى بالأصفر الرنان ، وذئاب « جنيف » تعصف بها غرائز الوحشية والجشع ، فتنتشر في بقاع الأرض الآمنة المطمئنة ، تثير الفتنة ، وتبعث الروع ، وتستنزف الدماء ، ومن ورائها الخبث الأوروبي يحارب في سبيل السلام ، ويبغض في سبيل الحب ، ويرهب في سبيل التأديب ، ويسرق في سبيل الاطعام ، ويوقظ الفتنة في سبيل الأمان !

أليس في كل هذا ما يشعل النخوة في رءوسكم ، ويحرك المروءة في نفوسكم ، ويثير الغيرة في قلوبكم ، ويدفعكم إلى إغماد أقلامكم في أفئدة هذه الذئاب ، وصوغها أسرة لهذه العذارى المشردات ، وإرسالها سهاماً في صدور الظالمين الطغاة ، ورفعها أعلاماً خفاقة للحق والخير والجمال ؟

أين أنتم يا أصحاب المشاعر الرهيفة ، والقلوب الرقيقة ؟ يقولون « الأدب نزيف القلب : طاهره ورجسه ، ونشيد الشعور : نبيله وخسيسه ؛ ومعيار القوة فيه أن ينزف القلب فيتفجر ، وأن ننشد فنبدع . » إذن ، لم لا تسمعوننا دقائق من زئيركم ، إلى جانب الشهور الطوال من نحيبكم نحيب الأطفـال ، ونواحكم نواح العجائز ؟

ستقولون : « هـذا ما يجرى على اللسان . وما يفيض عن القلب » ؛ وسنقول لـكم : « إنكم مرضى في أعصابكم ، يا أنصاف الرجال ، وأشباه النساء . »

لي : يا طلاب الأدب الباكى النائح ، يا عجائز الفن

هؤلاء هم آباؤكم وأمهاتكم وأبناء عشيرتكم ، يزجون فى السجون . ويرسفون في القيود ، وتتلظى رقابهم على شفرات منجل الجلاد ؛ ترتعش جفونهم المثقلة لتلمح ومضات النور ، وتلهث صدورهم من خناق الكهوف ، ويغلي فى صدورهم الشوق إلى مروج الحياة الحرة ، حيث ترقص عرائس الأحلام والآمال فى أحضان الربيع . . .

أليس من جمود الحس ، وبلادة الشعور ، وغلظ القلب ، أن تشربوا كأسكم على قبور الآباء ، وأن ترقصوا فى مأتم الأمهات ، وألا تحرك أوتار قلوبكم هذه الأمانى المشتركة الطوال العراض ، وألا يهيمن على نفوسكم هذا الموقف الذى تمازج فيه الأنوار بالظلمات ، والآلام بالآمال ، والضجر بالرغبات ؟ فما نراكم إلا مالئين بنحيبكم جو الرجال ، وقارعين آذانهم بنواح « الدلع » والدلال ؟

المجد ، والشهرة ، والنبوغ ، والخلود : كل هذا من عرائس القلب ، وحسان الخيال .

لم لا يوقظ الحب في قلوبكم ، وتلهب الشهوة فى جسومكم عرائس هذه العواطف العليا اللاتى يرقصن على أكف النجوم عاريات ، وينمن على ظهور القرون غافيات ، ويضربن على أوتار التاريخ منشدات ، ويقطفن أكاليل الغار من رياض الجنان ، ليعصبن بها رءوس المجانين من أهل العشق والغرام ؟

لم لا تترامون على أقدام هذه العرائس التى يشع منها نور الرجولة ، وتتفتح تحتها أزهار الحياة ، بدل أقدام غانياتكم التى يفوح منها روائح الرجس والخزى والعار ، والتي مصيرها إلى فجوة قذرة فى جوف التراب ؟ أليس فى اختطاف الرجال رغباتهم من يد الأقدار ، وركوبهم مراكب الهول فى سبيل الآمال ، وتبوئهم عروش النصر مضمخة بالدماء ، أليس فى كل هذا مايبعث فيكم عواطف الرجولة والشدة والبأس ، بدل الأنوثة والبرودة والقنوع والدلال ؟

أيها السبعة ، ياشباب الشيوخ ، وياشيوخ الشباب

ابعثوا الثورة والتمرد فى نفوس الناشئين من الأدباء ؛ قولوا لهم : « إن حياة الأديب لاتكون إلا فى ميادين الطعن والضرب والعراك ؛ ولا تهنأ إلا تحت ظلال الحق والحب والخير والجمال ! »

قولوا لهم : « إن القلم الذى تحملونه أعد لتغمدوه فى قلوب الباطشين الظالمين ، والمجرمين الحاكمين ، والأتقياء المزيفين ، فإن لم تفعلوا فاغمدوه فى قلوبكم فما خلقت الحياة لنذل جبان رعديد ، وفى القبور مراد للاغبين »

إذا فعلتم هذا ، أيها السبعة الأئمة ، في العالم العربى جميعه ، تصبح معضلة الضعف فى اللغة من الهنات الهينات ؛ وتقر عيونكم بأدباء على غراركم : هم أهل لحمل القلم ومجده ، وهم أهل لأن يقولوا عن أنفسهم ماقال (فولتير) عن نفسه « مايمنعنى عن أن أكون ملكا ، وإن لم يزن مفرق تاج ؟ ! »

أجل ! آنئذ يصبحون ملوكاً على عروش الأدب والبيان ؛ ملوكا تتحطم تحت أقدامهم عروش ملوك البطش والجاه ، وتحمل عروشهم الخالدة أعناق القرون والدهور والآباد .

« حمص سورية » ماجد الأتاسى

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الشعراء

وقال زارا لأحد أتباعه : منذ بدأت أعرف حقيقة الجسد لم تعد الروح روحاً فى نظرى إلا على أضيق مقياس ، وهكذا صرت أرى (كل ما لا يفنى) رمزاً من الرموز .

فأجاب التابع قائلا : لقد قلت هذا من قبل يازارا ولكنك أضفت إليه قولك « وكثيراً ما يكذب الشعراء » فلماذا قلت هذا ؟

فقال زارا : أنت تسأل لماذا ، وما أنا ممن يحق عليهم أن يُسألوا . ما أنا ابن الأمس وقد مر زمان طويل على إدراكي أسباب ما أرتأيه ، وهل أنا خزانة تذكارات لأحفظ الأسباب التى بُنيت عليها آرائى ؟ إنما يكفيني عناء أن أحفظ هذه الآراء نفسها ، أفليس فى العالم عصافير تشرد من أماكنها ؟ ولكم وجدت فى قفصى من طير غريب يرتجف إذا ما مرت عليه يدى ومع ذلك فماذا قال لك زارا يوماً ؟ لقد قال إن الشعراء كثيراً مايكذبون، وهل زارا نفسه إلا واحد من هؤلاء الشعراء ؟ أفتحسب أنه بهذه الصفة قد أعلن الحق ؟ وما الذى يكرهك على تصديقه ؟

فقال التابع : إنني مؤمن بزارا .

أما زارا فهز رأسه وابتسم قائلا : ليس الايمان مما يرضيني حتي ولو كان هذا الايمان معقوداً على ، ولكن إذا قال إنسان بكل جد : إن الشعراء يكذبون ، فانه ليقول حقاً لأننا نحن الشعراء نكذب كثيراً ، ولا بد لنا من الكذب ما دام ما نجده من العلم قليلا . ومَنْ من الشعراء بيننا لم يغش شرابه وفى سراديبنا تستقطر السوائل المسمومة ؟ ولكم فيها من أمور يقصر عن وصفها البيان . إن افتقارنا فى المعرفة يهيب بنا إلى محبة مساكين العقول وبخاصة إلى محبة مسكينات العقول الفتيات . . . فنحن نعود بشهواتنا إلى الأمور التى تتحدث عنها العجائز فى السمر ونقول إن ما نبحث فيه إنما هو قضية المرأة الأبدية .

يخيل لنا أن أمامنا طريقاً سوياً يؤدى إلى المعرفة وأن هذا الطريق لا ينكشف لمن يدركون الأمور بالعلم . فنحن لا نؤمن إلا بالشعب وبحكمته . فالشعراء جميعهم يعتقدون أن الجالس على منحدر جبل مقفر يتنصت إلى السكون يتوصل إلى معرفة ما يحدث بين الأرض والسماء . وإذا هم هزهم الشعور المرهف خيل لهم أن الطبيعة نفسها أصبحت مغرمة بهم فيرونها تنحنى على آذانهم لتلهمهم البيان الساحر والأسرار ؛ فيقفون مباهين بالهامهم أمام كل كائن يزول .

واأسفاه ! إن بين الأرض والسماء أموراً كثيرة لايحلم بها إلا الشعراء وهنالك أمورٌ أخرى كثيرة فوق السماء ، فما جميع الآلهة إلا رموز أبدعها الشعراء .

والحق أننا منجذبون أبداً إلى العلياء ، إلى مسارح الغيوم فنرسل اليها أكراً منفوخة ملونة ندعوها آلهة وبشراً متفوقين . والحق أنهم من الخفة على ما يجعلهم أهلا لاقتعاد مثل هذه العروش وبلاه ! لكم تعبت من كل قاصر يطمح إلى جعل نفسه شيئاً معدودا ؟ ولكم أتعبنى الشعراء ؟

وما نطق زارا بهذا الكلام حتى ثارت نفس تابعه ، ولكنه كظم غيظه فسكت وسكت زارا أيضا وغيض نظره كأنه يسبر أقاصى نفسه ، ثم تنفس الصعداء وقال : انا من الأمس ومن الزمن القديم ولكنَّ فى شيئاً من غد وبعده ومن الآتى البعيد . فقد أتعبنى الشعراء الأقدمون منهم والمجددون فما هم فى نظرى إلا رغوة لا صريح تحتها ، بل هم أسِرَّة بحار جفت مياهها . إن أفكارهم لم تنفذ إلى الأغوار ، وقد وقف شعورهم عند أول جرفها . وخير ما ترى فى تأملاتهم قليل من الشهوة وقليل من الضجر فليست بحورهم إلا مجالات تنزلق على تفاعيلها الأشباح فهم لم يدركوا شيئاً بعد من القوى الكامنة فى النبرات . لم يبلغ الشعراء درجة النقاء فهم يعكرون جداولهم ليخدعوا الناس ويوهموهم أنها بعيدة الغور ؛ إنهم يريدون أن يقيموا أنفسهم موفقين بين مختلف المعتقدات غير أنهم لا يزالون رجال العمل الناقص السائرين على السبل المتوسطة الحائرة فهم يعكرون المياه بأقذارهم .

واأسفاه لقد ألقيت شباكي فى بحارهم آملا اصطياد خير الأسماك ولكننى ما سحبت هذه الشباك مرة إلا وقد علق فيها رأس إله قديم . وهكذا كان يجود البحر بحجر على الجائع . ولعل الشعراء أنفسهم خرجوا هم أيضاً من البحر وفيهم ولا ريب

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٦ —

سامكهيا:

عاش الحكيم « كابيلا » مؤسس هذا المذهب فى القرن السادس قبل المسيح كما يظن أكثر الباحثين المدققين . وقد نشأ هذا الظن عندهم من أن أقدم النصوص التى تحدثت عنه وعن مذهبه ترجع إلى القرن الخامس قبل المسيح ، وأنه قد عثر فى هذا المذهب وفي المذهب البوذى على تأثرات قوية متبادلة بين المذهبين بالتساوى مما يدل على أنهما متعاصران تقريباً لاسيما إذا كان بعض تلك النقط المتشابهة واضح الأصلية فى أحدهما والحداثة فى الثانى ، والبعض الآخر على العكس من ذلك تماماً .

سمى هذا المذهب بـ « سامكهيا » لقوله بالتعدد الذى لايتناهي فى النفوس ، وهو على الأصح مذهب إلحادى لايقول بإله مسيطر متصرف فى الكون ، وهـذه إحدي النقط التى يلتقى فيها مع البوذية التى صورتها لنا نصوص العصر الذى تلا عصر « بوذا » وبعبارة أدق : لعلها إحدى النقط التى تأثرت فيها البوذية بعـد موت زعيمها بمذهب « سامكهيا » الإلحادى الذى لايشك باحث في أن الالحاد متأصل فيه .

يرى صاحب هذا المذهب أنه لايوجد للكون إله قدير منفرد بالتصرف فيه ، وإنما يرى أن هناك روحا عاماً أو عالماً من الأرواح غير محدود ولا متناه ، متشابه الوحدات ، وأن هذه الوحدات بتكاتفها مع المادة هي التى تحدث فى الكون هذه الآثار وتلك التغيرات على النحو الذى يفصله فيما بعد ، وهو يرى كذلك وجود عالمين هما فى الحقيقة والأزلية والأبدية سواء . وهما : النفس ، وتسمى بالهندية : « بوروشا » والمادة ، وتسمى : « برا كريتى » . وهذان العالمان لايتفقان فى أى شيء آخر عدا الحقيقة والأزلية والأبدية . ومع ذلك ، فان بينهما صلة قوية ، لأن مجاورة النفس للمادة هي التى تكسبها الحركة التى هى منشأ كل النتائج الصادرة عنها ، ولكن النفس وحدها لاتستطيع أن تفعل شيئاً وإن كانت حية مشتملة بالقوة على جميع عناصر القدرة التأثيرية ، وهى مبصرة ولكنها عاجزة على عكس المادة العمياء المشتملة على قدرة كامنة يستحيل بروزها من غير اتصالها بالنفس ، وهم لهذا يشبهون اتحادها باتصال مقعد وأعمى التقيا فى صحراء ، فاتفقا على تعاون عملى بينهما يضمن لهما النجاة ، وهو أن يحمل الأعمى المقعد على كتفيه ، ليمكنه من السير فى مقابل أن يدله المقعد بوساطة بصره على الطريق الذى لم يكن فى مكنته أن يعرفه لولا معاونة رفيقه ، وقد وصلا معاً إلى شاطئ النجاة بفضل هـذا التعاون العظيم . وهكذا شأن النفس مع المادة هيأ لهما اتحادهما إبراز خواصهما التى لم تكن لتوجد بدون هذا الاتحاد .

وللمادة ثلاث صفات ملازمة لهـا ، وهى الخيرية والهوى والظلمة ، وإن هذه الصفات تظل تتفاعل فيما بينها في عصور مختلفة حتى تصل إلى حالة الاعتدال التى تسوي بينها ، فإذا وصلت إلى هذه الحالة تتطورت تطوراً آخر جديداً نشأت عنه الطبيعة ، وبارتباط النفس والمادة المتطورة والطبيعة الناشئة عن هذا التطور يوجد هذا العالم المشاهد . غير أن هذه النظرية لم تلبث أن تلاشت

بعض اللآلىء ، فهم أشبه بنوع من المحار المنع بأصدافه ، ولكم وجدت فى داخلهم بدل الروح شيئاً من الرغوة المالحة . إن الشعراء يقتبسون من البحر غروره : وهل البحر إلا أشد الطواويس غروراً ؟ فهو حتى أمام أقبح الجواميس يدحرج أمواجه ويبسط أطالس مراوحه وأطراف وشاحه المفضض فيحدجه الجاموس بنظرات الغيظ لأن روحه المقتربة من الشاطىء لا تزال ملتصقة بمعلفه ومرعاه فما يبالى بالجمال وبالبحر وبهاء الطواويس . هذا هو المثل الذى أضربه للشعراء . والحق أن فكرهم لطاووس مغرور بل هو بحر من الغرور ، ففكر الشاعر يطلب مَنْ يشاهده حتى ولو كان المشاهد جاموسا .

لقد أتعبنى هذا الفكر وسوف يأتى زمان — وهو قريب — يتعب فيه هذا الفكر من ذاته .

رأيت بعض الشعراء يتحولون عن الشعر ويوجهون النقمة إلى ما كانوا عليه ، ورأيت من يقدمون كفارة للفكر ، وما نشأ هؤلاء المكفرون عن الضلال إلا بين الشعراء .

هكذا تكلم زارا . . . .

وحلت محلها نظرية أخرى على العكس منها تماماً ، إذا أصبحت فكرة الارتباط الحقيقي بين النفس والمادة لا وجود لها ، وإنما أصبح الرأى السائد هو أن النفس تجتمع مع المادة اجتماعاً مؤقتاً ، أساسه الضرورة التى تتطلبها الحياة الدنيوية ، ثم لا تلبث هذه الضرورة أن تزول فتتخلص النفس من هذه الصلة المقيدة لها ثم تنطلق إلى عالم الأبدية الأعلى حيث تنام بلا نهاية نوما عميقاً هادئاً لا تزعجه الرؤى ولا تنغصه الأحلام .

ويرى كذلك أن الشر فى هذا العالم موجود وجوداً ذاتياً وأنه لا يقدر على محوه إلا بوساطة العمل الصالح والتخلى عن جميع اللذائذ والتأمل فى أسرار الكون ، وعلى الخصوص بالمعرفة التى هى الغاية المثلى من جميع هذه المحاولات المتقدمة .

وهم للحصول على هذا الخلاص المنشود يغالون فى التصوف مغالاة شديدة حتى ليجلس الواحد منهم على شاطىء أحد الغدران عدة أعوام طويلة دون أن يغادر مكانه ، ويقتات بالأعشاب ويديم التفكر فى أسرار الكون ، ولا يزال يغالب نفسه حتى ينتزعها نهائياً من دنس المادة ، وقد تصل به الحالة أثناء هذا التنسك إلى أن يصير جسمه نصف متحجر وتنبت فيه الحشائش وتلتف عليه الأغصان .

ومع ذلك فسوف لا يعم هذا الخلاص جميع النفوس البشرية وإنما سيبقى منها عدد غير متناه ساقطاً فى أحابيل الشر مسجوناً فى غيابات الأجسام المادية ، لأنه مهما اقتطع من اللامتناهي عدد ذهب إلى الخلاص ، فان ذلك الاقتطاع لا يؤثر فيه ولا يخرجه عن صفة اللانهائية لا سيما إذا عرف أن الأصل هو الشر أو الانحباس فى سجن المادة ، وأن التخليص عارض ، ولكن أنجع الوسائل إلى هذا التخليص هو معرفة القوي الكونية الخمس والعشرين ودوام التفكير فيها . ولذلك يقول «بياس ابن براشن» : اعرف الخمسة والعشرين باالتفصيل والتحديد والتقسيم معرفة برهان وإيقان ، لا دراسة باللسان ، ثم الزم أى دين شئت فان عقباك النجاة . . .

وهذه القوى الخمس والعشرون هي : النفس الكلية والهيولى المجردة ، والمادة المتصورة ، والطبيعة الغالبة ، والعناصر الرئيسية وهى : السماء والريح والنار والماء والأرض ، وتسمي « مهابوت » والأمهات التى هى بسائط العناصر ، فبسيط السماء « شبد » وهو المسموع وبسيط الريح « سبرس » وهو الملموس . وبسيط النار « روب » وهو البصر . وبسيط الماء « رس » وهو الذوق ، وبسيط الأرض « كند » وهو الشموم . ولكل واحدة من هذه البسائط ما نسب إليه وجميع ما نسب إلى ما فوقه . فللأرض الكيفيات الخمس ، والماء ينقص عنها بالشم ، والنار تنقص عنها به وبالذوق ، والريح بهما وباللون ، والسماء بها وباللمس . ولعلهم فى نسبتهم الصوت إلى السماء يقصدون به أن لدوران الكواكب في أفلاكها تلك اللحون الموسيقية التى زعم « فيثاغورس » أن سماعها يتاح لكل من صفت نفسه ولطف حسه . والحواس المدركة ، وهي : السمع والبصر والشم والذوق واللمس والارادة المصرفة والضروريات الآلية . واسم الجملة : « تتو » والمعارف مقصورة عليها (١)

أما الانسان فهو عند هذا المذهب معقد تعقيداً يلفت النظر ، إذ هو مكون من ثلاث شخصيات مختلفة : الأولى الجسم المادي الذى ينحل ويتفكك بالموت ثم تتلاشى أجزاؤه فى أصولها الناشئة عنها من عناصر المادة . الثانية جسم دقيق شفاف ، وهو الذى يعتبر فى الحقيقة الجوهر الصحيح للانسان ، وهو الذى يتناسخ ويتقمص الأجسام الأخرى . الثالثة النفس التى هى الواحد الحق المماثل كل المماثلة لجميع الآحاد الحقة التى هى من عالمه النفسانى الغير المتناهى .

ويرى هذا المذهب أيضا أن الحواس الإنسانية لم توجد اتفاقاً ولا عبثاً ، وإنما وجدت وفاقاً لعناصر الكون ، فكل حاسة من حواس الانسان يقابلها عنصر من عناصر الطبيعة يصلح لأن تقع عليه هذه الحاسة بالذات كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الديانة البراهمانية .

وليس هذا التعقيد فى شخصيات الانسان مقصوراً على مذهب « سامكهيا » وحده ، وإنما هو أسلوب هندى عام اشتركت فيه أكثر مذاهب تلك البلاد . بل إن غير « سامكهيا » قد يصل بهذه الشخصيات إلى أربع أو سبع أو عشر حسب الظروف والأحوال .

« يتبع »

محمد غلاب

(١) أنظر صفحتى ٢١ ، ٢٢ من كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة » للبيرونى .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٥١ — تكون رأساً لخيار محمودين

في (رسالة [1] أرسطو للاسكندر) :

إنك قد أصبحت ملكاً على ذوي جنسك وأوتيت فضيلة الرياسة عليهم فما يشرف رياستك ويزيدها نبلا أن تستصلح العامة، وتكون رأساً لخيار محمودين لا لشرار مذمومين . فان رياسة الاغتصاب — وإن كانت تذم لخصال شتى — أولى ما فيها بالمذمة أنها تحط قدر الرياسة وتزري بها ، وذلك أن الغاصب إنما يتسلط على الناس كالعبيد لا كالأحرار فرياسة الأحرار أشرف من رياسة العبيد . وقد كان ملك فارس يسمي كل أحد عبداً ويبدأ بولده ، وهذا مما يصغر قدر الرياسة : لأن الرياسة على الأحرار والأفاضل خير من التسلط على العبيد وإن كثروا .

لا تلتفت إلى مشورة من يشير عليك بغير الذي أنت أهله . ولا تعبأ بكلام أقوام خسيسة آراؤهم ناقصة هممهم يتوهون عندك الأمور ويحملونك على العامة

١٥٢ — نحن لا نملك علينا من لا يشاور

يروى أن روميا وفارسيا تفاخرا ، فقال الفارسي : نحن لا نملك علينا من يشاور

فقال الرومي : نحن لا نملك علينا من لا يشاور

١٥٣ — الملك الدستوري

في (الكامل) لابن الأثير : كان عضد الدولة لا يعول في الأمور إلا على الكفاة ، ولا يجعل للشفاعات طريقاً . شفع مقدم جيشه (أسفار) في بعض أبناء العدول [2] ليتقدم إلى القاضي ليسمع تزكيته ويعدله . فقال : ليس هذا من أشغالك إنما الذي يتعلق بك الخطاب في زيادة قائد ، ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم ، وأما الشهادة وقبولها فهي إلى القاضي ، وليس لك ولا لنا الكلام فيه ، ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير شفاعة

(١) رسالة مهمة مطبوعة في أوربة

(٢) العدل من الناس المرضي قوله وحكمه ، جائز الشهادة ، وعدل الرجل زكاه . (اللسان)

١٥٤ — أنا عبد الشرع وشحنته

في (رحلة ابن جبير) : حضر صلاح الدين أحد رجاله المتميزين مستعديا على رجل . فقال السلطان : ما عسى أن أصنع لك وللناس قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيه ممتثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشِحْنَتُه [1] ، فالحق يقضي لك أو عليك

١٥٥ — تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل

كتب ابن العميد (أبو الفضل محمد بن الحسين) إلى عضد الدولة [2] :

بعد أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها وانتقاض مِرَرِها [3] والأحوال الداعية إلى ارتفاع جل الموجود منها وعدم الزيادة فيها — الطوفان بالنار والماء ، والموتان [4] العارض من عموم الأوباء ، وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء ، فان كل ذلك يخترم العلوم اخترماً ، وينتهكها انتهاكا ، ويجتث أصولها اجتثاثاً ، وليس عندي الخطب في جميع ذلك يقارب ما يولده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتتسع قدرته ، فان البلاء به لا يعدله بلاء ، وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذي أحله الله من الفضائل بملتقى طرقها ، ومجتمع

(١) شحنة الكورة من فيهم الكفاية لضبطها من أولياء السلطان (اللسان) مثل الشرطة : رجال البوليس

(٢) الثعالبي : اقرأني محمد بن الحسين الفارسي النحوي فصلا من كتاب لابن العميد إلى عضد الدولة كنت مررت عليه وأنا عنه غافل فنبهني على شرفه في جنسه ؛ وحرك مني ساكنا معجبا بحسنه متعجبا من نفاسة معناه وبراعة لفظه .

(٣) المرة : طاقة الحبل ، وكل قوة من قوى الحبل مرة وجمعها مرر (اللسان)

(٤) الموتان (بالضم والفتح) الموت الكثير الوقوع ، موت يقع في المال والماشية (النهاية ، اللسان)

فرقها . وهي نور [١] نوافر ممن لاقت حتى تصير إليه ، وشُرَّد نوازع [٢] حيث حلت حتى تقع عليه ، تلتفت إليه تلفت الوامق ، وتتشوف [٣] نحوه تشوف الصب العاشق ، قد ماسكتها وحشة المضاع ، وحيرة المرتاع ،

١٥٦ — للرعية المنام وعلينا القيام

كان الرشيد فى بعض حروبه فألح عليه الثلج ليلة ، فقال له بعض أصحابه : أما ترى مانحن فيه من الجهد والنصب ووعثاء [٤] السفر والرعية قارة وادعة نائمة ؟ !

فقال : أسكت ، فللرعية المنام ، وعلينا القيام ، ولا بد للراعى من حراسة الرعية وتحمل الأذى . وإلى ذلك اشار بعضهم :

غضبت لغضبتك الصوارم والقنا   لما نهضت لنصرة الاسلام
ناموا إلى كنف بعدلك واسع   وسهرت تحرس غفلة النوام [٥]

١٥٧ — محلم العربى كسرى

فى (تاريخ الطبرى وشرح النهج لابن أبى الحديد) : لما قُدم على عمر بسيف كسرى ومنطقته وزبرجه [٦] وزيه فى المباهاة وزيه فى غير ذلك ، وكانت له عدة أزياء لكل حالة زى ـ قال : علىّ بمحلِّم ـ وكان أجسم عربى يومئذ فى المدينة ،فألبس تاج كسرى على عمودين من خشب ، وصُبَّ عليه أوشحته [٧] وقلائده وثيابه ، وأجلس للناس ، فنظر إليه عمر ونظر إليه الناس فرأوا أمراً عظيما من أمر الدنيا وفتنتها ، ثم قام عن ذلك فألبس زيه الذى يليه ، فنظروا إلى مثل ذلك فى غير نوع حتى أتى عليها كلها ، ثم ألبسه سلاحه وقلده سيفه فنظروا إليه فى ذلك ثم وضعه ثم قال : والله إن أقواماً أدوا هذا لأمناء ؟ فقال على : إنك عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا .

(١) نارت المرأة من الديبة نوراً ونواراً (بالكسر) وهي نوار (بالفتح) وهن نور (الأساس)

(٢) نوازع : غربة ، تنزع إلى وطنها أى تشتاق وهي نازع بغير هاء

(٣) تشوق لكذا إذا طمح بصره إليه ثم استعمل في تعلق الآمال والتطلب (المصباح) .

(٤) من المجاز : (أعوذ بالله من وعثاء الـ فر) : من شدته (الأساس) وأصله من الوعث وهو الرمل والمشى فيه يشتد على صاحبه ويشق (النهاية)

(٥) ولمحمد بن يزداه فى المأمون (وكان وزيره) :

من كان حارس دنيا إنه قمن   ألا ينام وكل الناس نوام
وكيف ترقد عينا من تضيفه   همان من امره : حل وإبرام

(٦) الزبرج : الزينة من وشى أو جوهر ونحو ذلك ، والزبرج الذهب (اللسان) .

(٧) الأوشحة : من جمع الوشاح (بكسر الواو وفتحها والأشاح على البدل) كرسان (نظمان) من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر ، والوشاح أديم عريض يرصع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها ، والوشاح اسم سيف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (اللسان ، التاج)

١٥٨ — متى يمسكن أزواجهن عن الحركة

ابن سعيد المغربى فى بعض مصنفاته : وكان الملك العادل [١] ابن أيوب من أعظم السلاطين دهاء وحزماً ، وكان يضرب به المثل فى إفساد القلوب على أعدائه وإصلاحها له . وكان صلاح الدين ـ وهو السلطان ـ يأخذ برأيه ، وقدم له أحد المصنفين كتاباً مصوراً في مكايد الحروب ومنازلة المدن ـ وهو حينئذ على عكا محاصراً للفرنج ـ فقال : ما نحتاج إلى هذا الكتاب ومعنا أخونا أبو بكر . . . وكان (العادل) كثير المداراة والحزم ، كثير المصانعات حتى إنه يصوغ الحلي الذى يصلح لنساء الفرنج [٢] ، ويوجهه في الخفية إليهن حتى يمسكن أزواجهن عن الحركة [٣]

١٥٩ — وأين أنت من محادثة الرجال ؟

قال المأمون للحسن بن سهل : نظرت فى اللذات فوجدتها مملولة خلا سبعاً .

قال : وما السبع يا أمير المؤمنين ؟

قال : خبز الحنطة ، ولحم الغنم ، والماء البارد ، والثوب الناعم ، والرائحة الطيبة ، والفراش الموطأ ، والنظر الحسن من كل شيء .

قال : وأين أنت ـ يا أمير المؤمنين ـ من محادثة الرجال ؟

قال : صدقت ، هى أولى منهن

(١) محمد بن أيوب ، كان ملكا عظيما ذا رأى ومعرفة تامة قد حنكته التجارب ، حسن السيرة ، جميل الطوية ، وافر العقل ، حازما فى الأمور صالحا ، مائلا إلي العلماء ، ممتعا فى دنياه ، كان يأكل وحده خروفا لطيفا مشويا ، ولادته سنة (٥٤٠) وتوفى سنة (٦١٥) ودفن فى التربة التى بمدرسته (فى دمشق) وقبره على الطريق يراه المجتاز من الشباك المركب هناك (ابن خلكان) .

(٢) نساء ملوكهم وأمرائهم الصليبيين .

(٣) تمنعه .

خواطر وأفكار

للأستاذ أديب عباسى

الخاطر المخامر كالداء المخامر : هذا يضعف الجسم ويعرضه لأدواء أخرى ، وذاك يضعف الفكر ويعرضه للكلال والانقباض فى نطاق ضيق

* * *

يجب ألاَّ يخدعنا سكوت الناس عن رأى من الآراء أو فكر من الأفكار فنظن أن هـذا السكوت دليل الرضى وآية القبول ؛ فقد يكون الرأى من السخف ووضوح الخطأ فيه بحيث لا يتكلف أحدٌ مشقة العناية به والانبراء لتفنيده

* * *

الخطأ الكبير من صفات العقول الكبيرة ، أما صغار العقول فلا يمكن أن تكون لهم أخطاء كبيرة

* * *

قصر النظر كبعد النظر لازم فى بعض ظروف الحياة ، لا سيما فى الأزمات

* * *

الناجح والفاشل فى الحياة يلتقيان عند قـلّة الأصدقاء والمريدين لهم إرادة بريئة من الملق والزلفى أو حب الاستعلاء والظهور

* * *

يقولون لو عرف الانسان كفايته متى تكون لفتر سعيه وقلّت أطاعه ، وليس أنأى عن الصواب من هذا الرأى . فالواقع أن الناس يسعون ويعملون ويؤملون كأنهم باقون إلى آخر الدهر ومن هنا ترى الشاب والكهل والشيخ يستوون فى المطامح والأطماع

* * *

كثرة التحليل والتعليل والتدبر كثيراً ما تكون سبيلاً للفشل بدل أن تكون عوناً على النجاح

* * *

يضطر المرء أحياناً أن يمثل دور المخدوع ، لعله أن يقلل من أذى الحاقدين وشرهم ، لا سيما إذا كانوا ذوى حول وسلطان

* * *

حتى الأغراض تهون عند البعض فى سبيل الانتقام

* * *

خير للمرء أن يخطئ مع التجربة من أن يتجنب التجربة كيلا يخطئ

* * *

تعوُّدك الأمر من الأمور أسهل جداً من انقطاعك عنه

* * *

فى الناس الميل لذكر السيآت ونسيان الحسنات ، لأنهم فى قرارة نفوسهم لا يحبون أن يكونوا المحسن إليهم ، ويودون دائماً أن ينالوا ما يشتهون بجدهم وسعيهم

* * *

فى طبيعة الناس جميعاً الملل من المؤثر يجىء على وتيرة واحدة ومن هنا ترى الناس على الاطلاق يتمنون لو يبدّلون أحوالاً بأحوال وأوضاعاً بأوضاع مع العلم واليقين أن الأحوال والأوضاع الجديدة قد لا تكون خيراً من الحال والوضع القديم

* * *

السياسى كالدجال يعتمد على خداع الفكر كما يعتمد الدجال على خداع البصر .

* * *

إذا اشتد الجدل حول الرأى من الآراء أو الخطة من الخطط وانتصر الرأى أو الخطة ، فمن الخير والحكمة أن ننزل بالرأى أو الخطة درجة أدنى من التقدير ، وذلك أن حرارة النضال وشهوة الفوز لابد أن تكون أخرجت الرأى أو الخطة عن نطاق الصحة وصدق التقدير .

* * *

معارك الفكر الكبرى تترك كثيراً من قتلى الأفكار الأبرياء كما أن المعارك الحربية تترك كثيراً من القتلى فى غير ميادين القتال .

* * *

السعادة كالأفق دائماً أمامك .

* * *

ليست الفضيلة أن تمتنع عما لا تستطيع ، إنما الفضيلة امتناعك عما تطوله يداك وتخصه بهواك .

إذا أكثر المرء الحديث فى فضيلة من الفضائل فشك فى نصيبه منها

***

إذا جاء الاعجاب بالشىء بعد كره له ، فذاك هو أصدق الاعجاب

***

الاعجاب المفاجىء كثيراً ما ينتهى بالكره والاحتقار

***

الابتكار بالطبع غير الإغراب ، ولكن كثيراً ما يلتبس الواحد بالآخر . ومن هنا يجب ألا يخدعنا الإغراب عن مكان الابتكار فيه ، إن يكن تحته ابتكار

***

من الكتاب من لا يريد أن يريك الفكرة فى وضاحة من الألفاظ واستقامة من الأسلوب ، وذلك لأنه ليس على يقين من نجة هذه الفكرة أو صدقها ، فيرى أن يلففها ويغمضها بالملتوى من الأسلوب ومبهم البيان

***

حديث النعمة لا يعرف الاعتدال ، فإما السرف الشديد وإما الكزازة

***

الدنيا مع الواقف

***

الفشل أشدُّ أثراً فى حياة الأفراد من النجاح

***

ليست النتيجة بقياس صحيح لجودة الرأى وصواب النهج والخطة ، فقد ينتهي الرأى الخاطىء على غير انتظار بنتيجة طيبة وقد ينتهى الرأى الصائب بنتيجة سيئة

***

قدِّر السوء والشرَّ نتيجة لما تسعى . فان جاءك الخير أحسست به قوياً ، وإن جاءك الشر يكن لك من توطينك النفس عليه واقياً يقيك أذى اليأس وأخطار الخيبة

***

الشخصية القوية الواضحة كالفكرة القوية لا تزيدها المقاومة إلا رسوخاً وظهور معالم

***

منتهى الشك بدء اليقين .

***

الطفولة أسعد أوقات الحياة لأنها الدور الأوحد الذى يستطاع العيش فيه للحاضر دون الآتى أو الغابر من الزمن .

***

تظلم الثعلب إذ تشبه بمكره رياء الناس . فهو يمكر ويختل تحت أقسى الظروف ، وأشد الضرورة ، أما أكثر الناس فيختلون ويعالثون ويراءون ترفاً وفى غير حاجة سوى حاجتهم إلى إظهار الصغار وهوان النفس .

***

حتى الصغائر تظهر صغيرة فى صغار النفوس .

***

عند الاضطرار تتقارب صفات الخلق .

***

يبلغ من لؤم الطبع فى بعض الناس أن يؤذوا الأصدقاء إذا وُجد بينهم أعداء يريدون لهم الأذى ولا يستطيعون أن يفردوهم لأذاهم من بين هؤلاء الأصدقاء .

***

لو أتيح أن يتساوى جميع الناس فى الفضائل ، لأضحت رزائلنا ضرباً من الامتياز يُرغب فيه ويُسعى إليه .

***

التوقح أشرف من الرياء ، فهو على الأقل يدلُّ على الجرأة

***

عاد مشتركا — إن أمكن — وصادق منفرداً .

***

الإقدام لا يكون شجاعة إلا مع تقدير الخطر .

***

كل شىء يخف أثره وقيمته إذا تكرر إلا التضحية .

***

من ضحي مرة وأعادها ثم أعادها ، بعد إنكار لها ، فمنزلته فوق منزلة البشر .

***

أعط بعض ذاتك تعط كل ذاتك .

أديب عباسى



رسالة الشعر



مختارات من أدب الرافعى

« على جسر كفر الزيات كان للرافعى فى صدر شبابه مغدى ومراح ومن عيون الملاح على هذا الجسر تفتحت زهرة شبابه للحب ؛ و (العصفورة) التي ينسب بها الرافعى فى القصيدة التالية فتاة من بنات كفر الزيات لقيها على الجسر فهفا إليها قلبه وتحرك لها خاطره ، وهى كانت أول هواه ، وعمره يومئذ اثنان وعشرون سنة »

محمد سعيد العريان

عصافير يحسبْن القلوبَ من الحبِّ — فمَن لي بها (عصفورةً) تقطت قلبي [1]
وطارت فلما خافت العينُ فوتَها — أذالت لها حبًّا من اللؤلؤ الرطبِ
فياليتني طـــير أجاوز عُشَّها — فيُوحشَها بُعدى ويؤنسَها قربى !
ويا ليتها قد عشَّشتْ فى جوانبي — تغرِّد فى جنب وتمرح فى جنب
ألا يا عصافير الرُّبى قد عشقتُها — فهُبِّي أعلمكِ الهوى والبكا هُبِّي
أعلمكِ النَّوح الذى لو سمعْتِه — رثيتِ لأهل الحب من شغف الحب
خذي فى جناحيك الهوى من جوانحي
ورُوحي برُوحي لَّلتى أخذت لُبِّي
نظرتُ إليها نظرةً فتوجَّعتْ
وثنَّيتُ بالأخرى فدارت رَحَى الحرب !
فمِن لحظة يَرمي بها حدّ لحظةٍ — كما التحم السيفان عضباً على عضب
ومن نظرة ترتدّ من وجه نظرة — كما انقلب الرُّمحان كعباً إلى كعب
فساقت لعيني عينُها أيَّ أسهم — قذفن بقلبي كلَّ هول من الرعب
وساق لسمعي صدرها كلَّ زفرة — أقرّت بصدري كل شيء من الكرب
ودارت بيَ الألحاظ من كل جانب — فمنهن فى سلبي ومنهن فى نهبي
فقلت: خُدِعْنا ، إنها الحرب خدعة — وهوَّنَ خطبي أن أسْرَ الهوى خطبي
فقالت: إذا لم تنجُ نفسٌ من الردى — فحسبك أن تهوى فقلت لها : حسبي
ولي العذر إمّا لامنى فيكِ لائم — فأكبر ذنبي أن حبَّك من ذنبي
ويا من سمعتم بالهوى ، إنما الهوى — دمٌ ودمٌ : ها ذاك يصبو وذا يُصْبي
متى ائتلفا ذَلاً وَدَلاً تعاشقاً — وإلا فما فى رونق الحسن ما يَسبي
سلونيَ أنبئْكم ، فلم يدرِ ما الهوى — سواي ، ولا فى الناس مثلي من صبّ
إذا شعراء الصَّـــيد عُدُّوا فإنني
لشاعرُ هذا الحسنِ فى العجْم والعُرب [1]
وإن أنا ناجيتُ القلوبَ تمايلتْ — بها نسماتُ الشعر قلباً على قلب
وبي مَن إذا شاءتْ وصفتُ جمالَها — فوالله لا يبقى فؤادٌ بلا حُب ! !
من الغيد ، أما دَلُّهـا فملاحةٌ — وأما عذابي فهو من ريقها العذبِ
ولم يُبقِ منها عُجْبُها غيرَ خطرةٍ — ولا هي أبقتْ للحسان من العُجب
عرضْتُ لها بين التذلّل والرضا — وقد وقفتْ بين التدلُّل والعتْب
وأبصرتُ أمثالَ الدُّمى يكتنفنها
فقلت : أهذي الشُّهب أم شبه الشهب ؟
فما زال يَهدى ناظرى نورُ وجهِها — كما نظر المَلَّاحُ فى نجمة القطب
وقد رُحْنَ أسراباً وخِفتُ وشاتَها — فعيني فى سرب وقلبيَ فى سرب
وقالت : تجلَّدْ . قلت : يامَيّ سائلي — عن الحزن يعقوبا ويوسفَ فى الجب
وما إن أرى الأحباب إلا ودائعاً — تُرَدُّ ، فإما بالرضاء أو الغضب . !

سنة ١٩٠٣ — **مصطفى صادق الرافعي**

---

(١) مما يحسن ذكره أنه كان لأحد بني المنجم جارية (صفراء) مولدة ، فبلغ به الوجد بها إلى أن مرض ونحل ، فدخل عليه الطبيب فجسه وقال : هذا الفتى قد أحرقته (الصفراء) . يريد إحدى الطبائع الأربع ، فقال العليل : أصبت وأحسنت من حيث لا تشعر ... الرافعي

أقول : والرافعي يعني بهذا أن عصفورته التي ينسب بها كان اسمها (عصفورة)

(١) من هذا كان الرافعي فى سنيه الأولى مولوعاً بأن يسمى (شاعر الحسن)

في هدأة الليل

قيثارتي ...

« كأنما قلبي في خفقة * فراشة أنت لها المشعل »

الكَوْنُ سَاجٍ ؛ وَالدُّجى مُسْبَلُ ... وَالبَدْرُ فِي هَالتِهِ يَرْفُلُ
وَاللَيْلُ كاليَمِّ بَعِيدُ المَدَى ... لا آخِرٌ يُرْجَى وَلاَ أَوَّلُ
وَنَسْمَةُ الأَمْوَاجِ خَفَّاقَةٌ . . ... حَيْرَى فَلاَ قَصْدٌ وَلا مَوْئِلُ
رَخِيَّةُ الأَنْمُلِ فى مَسِّهَا ... كأَنَّهَا فِي لِينِهَا المُخْمَلُ
وَالنَجْمُ وَهْنَانُ السَنَا رَاجِفٌ ... وَالطَّيْرُ مَعْقُودُ اللَّهَا مُجْفِلُ
فَسَلْسِلِي الأَنْغَامَ فِي هَيْنَةٍ ... كَمَا سَرَى فِي الجَدْوَلِ السَلْسَلُ
وَرَقْرِقِي الأَلْحَانَ نَثْمَلْ بِهَا ... فَمِنْ رَقِيقِ اللحْنِ مَا يُثْمِلُ

* * *

أَغْفَتْ لِحَاظُ الكَوْنِ مِنْ حَوْلِنا ... وَغَابَ فِى أَغْصَانِهِ البُلْبُلُ
وَأَسْبَلَ الجَفْنَ بَنَانُ الكَرَى ... وَأَسْدَلَ السُّجْفَ الدُجَى المُسْدِلُ
وَعُدْتُ فِي اللَيْلِ وَقِيثَارَتِي ... تُرَجِّعُ اللحْنَ وَتَسْتَرْسِلُ
لَحْنٌ كَمَا الحُلْمُ رَفِيفُ الرُؤَى ... يَحْفِلُ بالآمَالِ مَا يَحْفِلُ
قَدْ فَاضَ فِى قَلْبِي فَأَحْيَا بِهِ ... مَا كَادَ مِنْ نَضْرِ المُنَى يَرْحَلُ
كأَنَّمَا أَوْتَارُهَا جَـدْوَلٌ ... يَنْهَلُ مِنْهُ الرَّوْضُ مَا يَنْهَلُ
رُوحِي عَلَى ضَفَّاتِهِ نَبْتَةٌ ... حَيَاتُهَا فِي رَوْضِهَا الجَدْوَلُ

* * *

كَمْ تُسْكِرُ النَّفْسَ أَرَانِينُهَا ... وَيَسْتَخِفُّ القَلْبَ مَا يُذْهِلُ
كأَنَّمَا أَلْحَانُهَا نَسْمَةٌ . . ... تَرُوحُ بَيْنَ الزَهْرِ أَوْ تُقْبِلُ
وَالقَلْبُ فى هَبَّاتِهَا زَهْرَةٌ ... تُرْسِلُهَا الأَنْسَامُ مَا تُرْسِلُ

* * *

يا أَيُّها القَلْبُ إِلاَمَ الأَسَى ... وَالكَوْنُ صَافٍ حَوْلَنَا يَجْذَلُ
أَذْبَلَتْنِي مِنْ طُولِ ذَاكَ الضَّنَى ... وَالزَهْرُ إِنْ طَالَ المَدَى يَذْبُلُ
فَدَعْ أَسَى الدُنْيَا وَآلاَمَهَا ... وَاطْرَحْ مِنَ الأَشْجَانِ مَا يُثْقِلُ
حُثَّ الخُطَى وَانْعَمْ بِصَفْوِ الصِّبَا ... فَالعُمْرُ يَخْبُو ، والصِّبَا يَأْفِلُ
مَا خَافَ ذَاكَ العُمرِ إِلاَّ الرَّدَى ... نِهَايَةُ السُنْبُلَةِ المِنْجَلُ .

* * *

قِيثَارَتِى هُزِّى الدُّنَا نَشْوَةً ... كَمَا تَهُزُّ السُنْبُلَ الشَّمْأَلُ
كأَنَّمَا قَلْبِى فى خَفْقِهِ ... فَرَاشَةٌ أَنْتِ لَهَا المِشْعَلُ
إِنْ أَبْقَتْ الدُّنْيَا لَهُ مَأْمَلاً ... فَأَنْتِ سُؤْلُ القَلْبِ وَالمَأْمَلُ

* * *

فَسَلْسِلِي الأَنْغَامَ فى هَيْنَةٍ ... كَمَا سَرَى فى الجَدْوَلِ السَلْسَلُ
وَرَقْرِقِى الأَلْحَانَ نَثْمَلْ بِهَا ... فَمِنْ رَقِيقِ اللحْنِ مَا يُثْمِلُ

اسكندرية

احمد فتحي مرسى

حمامة الموكب(1)

لا والذى علم الغيوب وصانها ... لا أدعى علماً بأى مغيب
لكن فطنت إلى دقائق حاضرى ... فنظرت للآتى بعين مجرب
إن الحمامة فوق ركب مليكنا ... روح النبى محمد فى الموكب
هذى مبايعة بسر ما انجلى ... وسينجلى فى لمحة أو أقرب
ركن الخلافة لن يظل معطلاً ... تاج الخليفة بين أجنحة النبي
واهاً لكم يا آل مصر رأيتمو ... روح الرسول على الفناء الأرحب
هبطت على القصر المنيف بسحرة ... ميمونة يوم الخميس الأطيب
ورأت خليفتها لدى استيقاظه ... فى الفجر نعم المجتبَى والمجتبِي
ولى المتوج وجهه مستقبلاً ... بيت الإله بعزة وتهيب
ذرعت له أفق السموات العلا ... لتراه يوم حلوله فى المنصب
لترى معزاً دينها ومجدداً ... سلطانها ومعيد عزة يعرب
وافرحة الورقاء لما شاهدت ... تقوى الإله وعزة المتربب
أمنت على القسم العظيم وليه ... وحبته سر طريقها والمذهب
وافرحة الفاروق بالروح التى ... نزلت على أهل لديه ومرحب
فاروق يا مولاي إن إشارة ... أغنت لديك عن المقال المسهب
المشرق الأقصى رنا إسلامه ... شوقاً إلى مصر وأقصى المغرب
يرجو إمامتها وأنت إمامها ... أيذاد عندك ظامئ عن مشرب

عبد اللطيف النشار

(1) يريد الحمامة التى هبطت على المركبة الملكية وظلت عليها فى ذهاب الموكب إلى البرلمان ورجوعه إلى عابدين



مهر الوظيفة

للأديب نجيب محفوظ

كانوا أربعة فتيان ، جمعتهم فى البدء نشأة الصبا على ما بين القصور الشماء والبيوت البسيطة من تفاوت ونفرة ، وآخت بينهم زمالة الدراسة الطويلة ما بين ابتدائية وثانوية وجامعية ، وأغراهم بالطموح إلى المجد اجتهاد عظيم وعزم متوثب ونجاح مؤازر لم يخنهم عاماً من الأعوام حتى غدوا تملأهم الثقة ويلهب قلوبهم الحماس .

وذكروا في حياتهم الدراسية العالية مثالاً لهم شرذمة من رجال مصر نشأوا على الاخاء نشأتهم ، وتزاملوا فى الدراسة زمالتهم . ثم كان منهم الوزير الخطير والمالي الكبير والفيلسوف الحكيم والمشرع العبقرى ، جعلوهم نبراساً منيراً بهداه يهتدون ، ومن قوته يستمدون ، وبعظمته يرجون ويأملون ، ولم تقصر أخيلتهم عن التوفيق والابداع ، فربط كل منهم نفسه بواحد من هؤلاء العظام اما لصفة ظاهرة أو سجية غالبة أو خلق معروف .

فلما أن حصلوا على ليسانس الحقوق ووضعوا أول قدم فى طريق الحياة العملية الجديدة انتظر كل منهم نصيبه داعياً أن يجد فيه مايحقق أحلامه ويؤدى إلى هذه الحياة التي سعى إليها طويلا وبذل النفس كى يحقق مثلها الأعلى ، وما كانت الوزارة لدى الزميل منهم إلا بعض أحلامه . . .

وفى الفترة التى أعقبت ظهور النتيجة ارتحل اثنان من الأربعة — وهما الثريان — إلى المصايف كعادتهما كل عام ، وسافر واحد من الاثنين الباقيين إلى كفر الشيخ مسقط رأسه ، وبقى في القاهرة « الأستاذ » جودة وهو شاب بسيط الحال من أسرة فقيرة فى الصيت والرجال ، عميدها موظف صغير بالبريد جاوز الخمسين ولم يجاوز مرتبه خمسة عشر جنيهاً ، ولم ين الشاب عن السعى فحرر عدة طلبات استخدام وأرسلها إلى وزارة الحقانية وأقلام القضايا فى الوزارات المختلفة ، وكان طيب القلب قليل الخبرة فانتظر على شئ من الأمل والاستبشار ، وفات يوم ويومان وأسبوع وأسبوعان ، وشهر وشهران ولم يلق رداً أو يرى فى الأفق بشيراً من الأمل ، فراجع نفسه فى تفاؤله وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد من يهتم لشأنه سوى أبيه العجوز الضعيف الذى لا يملك له ضراً ولا نفعا .

وعلى غير انتظار زاره صديقه رشدى ففرح به أيما فرح وكان فى أشد الحاجة إلى من يبادله الرأى ويبثه الشكوى ويتقبل منه العزاء ، فبادره سائلا :

« أراجع أنت من كفر الشيخ . . . ؟ »

فرد عليه الشاب وهو يتنهد :

« أى كفر الشيخ يارجل . . . لقد كنت تلك الشهور التى غبتها عنك كالرحالة أجوب البلدان وأزور الرجال وأتسقط الرزق . . . والآن ما أخبارك أنت . . . ؟ »

« لاشئ مطلقاً سوى أنى سعيت للتوظف وعدت من مسعاى بالخيبة . . . هل من أخبار عن صديقنا حامد وإبراهيم ؟ »

« أخبار سعيدة والحمد لله . . . هما الآن موظفان بالحكومة المصرية . . »

« مبارك حظهما . . . ولكن كيف حدث هذا . . . ؟ »

« كيف حدث هذا ؟ أتحسب أن حامداً يشق فى طلب وظيفة وأبوه مستشار فى محكمة النقض والابرام ؟ لقد كان تعيينه بالنيابة العمومية أمراً مفروغاً منه من يوم أن التحق بالكلية »

« حسن . . وابراهيم ؟ نعم إن إبراهيم غنى ولكن أهله فلاحون وليسوا من ذوى المناصب الحكومية . . . »

« المال أبو الخوارق ، وإبراهيم شاب جسور ، أفتعلم ماذا صنع ... ذهب إلى وكيل وزارة الخارجية وهو من بني بلدته ،

وطلب يد ابنته ومهرها ألف جنيه . . . ولما كانت هذه الفتاة من ذوات الأمزجة الرقيقة اللاتى لا يجوز أن يمضين شهر العسل في مصر فما قريب سنذهب جميعاً لتوديع صديقنا العزيز وهو فى طريقه إلى السفارة المصرية بروما . . . »

فبدت الدهشة على وجه الشاب وتساءل :

وما الذى زكاه — وهو شاب ناشىء — فطاب فى عينى هذا الرجل الخطير . . . ومثل ابنته يتنافس فيها خيرة الموظفين الممتازين . . ؟

« ما فائدة التساؤل ؟ هب أنها عاطل من الجمال . . . أو أن رشاشاً ينلل سمعتها . . أو . . أو . . فما يهمنى سوى رواية ما عندى من الأخبار . . . »

وصمتا لحظة جامدين خلا فيها كل منهما إلى أفكاره ثم نظر الشاب إلى رشدى وقال :

« ها إن الصديقين يرسمان الخطوة الأولى فى الطريق المؤدى إلى المجد ولا يبعد أن يحققا مرة أخرى المثل الأعلى الذى سبق أن حققه الباشوان اللذان كان الصديقان يترسمان شخصيتيهما »

فأحنى الأستاذ رشدى رأسه مؤمناً فعاد الآخر إلى سؤاله بعد تردد :

« وأنت . . . ؟ »

« أما أنا فقد سعيت كما سعيت وأغلقت الأبواب فى وجهي كما أغلقت فى وجهك ولكنى لم أسلم للخيبة كما سلمت لها ، ففى ميدان المحاماة متسع لجميع ذوي العزائم والهمم ، والمحاماة ميدان تبرز فيه ملكات الرجال ومزاياهم ، فلا ينبغ فيها إلا كل عبقرى جبار ؛ وما أجدرها أن تبلغ بى ماتتمني نفسى من المثل الأعلى ... »

* * *

هذا جميل ، ولكنه لا يستطيع أن يحتذى حذو رشدى ولا أن يأمل آماله ، فآل رشدى على شىء من الثراء يمكنهم من أن يؤيدوا الشاب حتى يقف على قدميه ، أما هو فلا يمكن أن يطالب أباه بشىء من هذا ، لأنه يعلم علم اليقين أنه شيخ فقير وأنه يربى خمسة من البنات والبنين ، فما عسى أن يصنع . . . ؟ »

لقد أظلمت الدنيا فى عينيه وذوت أزاهير آماله اليانعة وبات يذكر أحلامه عن المجد والوزارة بالاستهزاء المرير والسخرية الأليمة ، وداخله شعور قوى بتفاهته وتفاهة الدنيا وأحلامها ومسراتها ، فعاش زمناً فى ظلمة أشد حلكة من ظلام القبور .

* * *

وبعد حين زاره فجأة الأستاذ رشدى ، وكان فى هذه المرة منشرح الصدر جذلا مسروراً فبادره بقوله : —

« قل معي يا بشرى . . . لقد اهتديت إلى كنز ثمين . . . فأصبت منه حظاً وأرجو أن تنال منه مثل حظى . . » فنظر إليه نظرة المريض المشرف على الهلاك إلى طبيبه . فاستطرد رشدى قائلا :

« لن تغرب شمس الغد على حتى أكون من الموظفين . . من أعضاء النيابة العمومية . . »

« مبارك . . »

« أرجو أن أهنئك بدوري عما قريب .. والآن اصغ إلى فانى أعلم أنك تتلهف الى معرفة حقيقة المسألة . هو مكتب للمعاملات المالية فى الطابق الخامس من عمارة رقم ٨٥ شارع سليمان باشا مديره رجل فى الأربعين حنكته الأيام والتجارب ففاق الفلاسفة فهماً للنفوس والرجال ، يعرفه جميع الماليين وكبار الموظفين لأنه يقرض النقود بأرباح هادئة . وقد غدا بحكم اتصاله بكبار رجال الدولة من زبائنه ذا نفوذ عظيم . له ظاهر يعلمه الناس جميعاً وباطن يعلمه هو وهم وأمثالنا من ذوى الحاجات . . هلم أدلك على قريب لى من أصدقائه المقربين ، خاطبه فى أمرك فان رأى أن شروطك ملائمة كان واسطتك إليه ، وثق يا صديق أنه إذا كتب لسعيك لديه النجاح فانك لا شك غداً من موظفي الحكومة الممتازين »

* * *

وفى عصر ذلك اليوم كان عند قريب الأستاذ رشدى . . . وقد قدمه إليه صديقه فلقي منه ترحيبا شد عزيمته وأنعش أمله ، قال له الرجل بعد ما بسط له مسألته :

« أذكر لى الوظائف التى ترغب فى الالتحاق باحداها »

فأجابه جودة :

« النيابة العمومية . . . قلم القضايا . . . السفارات أو القنصليات . . . »

« أوه ... إنك تنظر إلى علُ ... فما هي مؤهلاتك ... ؟ »

« ليسانس الحقوق »

« شهادة فى ذاتها مبجلة ... ولكن ليس العبرة بالشهادات... هل لك أقارب من ذوى المناصب . . . ؟ »

فضحك الشاب وقال :

« لو كان لى ما سعيت إليك . . . »

« حسن . . . من يطلب ثميناً فليدفع ثميناً . . . إلا أنى أرجو أن تذكر أنه ما أنا إلا واسطة نزيهة ، وإنى إن مددت لك يدا فلأنك صديق رشدى ولأنه حدثنى عنك بما جعلنى أقدرك وأعطف عليك . . . والآن اسمح لى أن أعرض عليك الوسائل التى قد تبلغ بك إلى غايتك المقصودة ، وما علىّ جناح إن لم يصادف بعضها هواك أو لم يستحق احترامك فعلى العرض وعليك الاختيار . . . »

فأحنى الشاب رأسه أن نعم ؛ فاستطرد الرجل همسا :

« النساء من أنجع الوسائل تحقيقاً للغرض ... أم جميلة ... أخت شابة ... زوج ظريفة ... أرى وجهك تحتقن فيه الدماء .. وتلهبه سورة الغضب ، حسن فلندع هذه الوسيلة . . . »

« نعم . . . نعم . . . »

« وسيلة أخرى شريفة جدا . . . الزواج . . . ولكنه ليس زواجا بهذه الفتاة أو تلك ... وإنما هو طلب الانضواء تحت لواء اسم كبير . . . أو أسرة عتيدة . . . »

فانبسطت أسارير وجه الشاب وخفق قلبه من نشوة الأمل وصاح :

« هذا على هين . . . »

« لا تتسرع فليس الأمر كما تظن ... فشهادتك لا تكفي ... هـذه الأسر تهمها المحافظة على المظاهر ... وصون اسمها عن انتقادات الصالونات ما أمكن . . . فمهر كبير يخرس الألسن ويدعم أى ادعاء وإن بعد عن الحقيقة . . . »

فعاوده اليأس واستشعر الخيبة مرة أخرى وقال : —

« فلألحق بوظيفة . . . وليدعوا لى فرصة حتى اقتصد من مرتبي وأفى بوعدى . . . »

« وما الداعى لرهان غير مضمون . . . والزبائن النافعون غيرك غير قليلين . . ؟ » .

« إذاً هات وسيلة أخرى . . . »

« وآسفاه إنها لا تكاد تختلف عن هذه إلا فى الاسم . . : مهر المال »

« وكم ينبغى أن أدفع ؟ »

« مهر الوظائف التى تطلب من الألف فصاعدا . . . »

الألف . . . إن والده لم يربح من الحكومة طوال عمره بها ضعف هذا المبلغ فكيف يأتى به فى ساعة من الزمن ؟ أواه . . . إن اليأس ينشب فيه أظافره فيستقر فى قلبه . . . ولكن التمعت فى ذهنه فكرة فصاح :

« لم لا يقرضنى صاحبك المرابى المبلغ الذى يريد ويكتب على صكا أسدده فيما بعد من مرتبي ؟ »

« فكرة حسنة ، ولكنه رجل مرت به جميع التجارب وهو يرفض عادة أن يقرض مبالغ ضخمة لغير ذوى المراكز المالية المضمونة ، ولكنه قد لا يرى بأسا من كتابة صكوك وهمية كهذه بمبالغ صغيرة . . . مائة جنيه أو مائتين لمن يرغب فى وظيفة كتابية مثلا . . . »

وظيفة كتابية ؟ أين هذه من المجد والوزارة ومَثَله الباشا العظيم؟ ولكن ما باليد حيلة وقد سدت فى وجهه الطرق وأظلمت الدنيا في عينيه فينبغي أن يغض عن الآمال العالية ولو إلى حين ريثما يبحث عن كسرة الخبز أولا ، ومن يعلم فقد تتمخض البداية الصغيرة عن نهاية عظيمة ! فكم من الوزراء بدأوا كتبة فى المحاكم المقبورة فى أقاصى الصعيد

وهكذا اضطر إلى أن يحول قلبه عن محركات الدولة الكبرى إلى آلاتها الصغرى الميكانيكية التى تتحرك ولا تدرى لم تتحرك أو كيف تتحرك

وأصبح ذات يوم فوجد نفسه فى حجرة واسعة تتزاحم فيها المكاتب الهرمة يقعد وراءها قوم خيل إليه — لجمودهم وتفاهتهم — أنهم قطعة من بنيانها المتهدم

المركز صغير . . والمرتب ضئيل . . ترى هل ينتظر طويلا كى يضخم هذا المرتب أو يعلو هـذا المركز ؟ واقترب برأسه من زميل له وسأله همساً :

« ما موعد علاوتى المقبلة ؟ »

فنظر إليه الرجل دهشاً ورد عليه بصوت مسموع رنان :

« يحل موعد علاوتك — ومقدارها جنيه واحد — بعد



دولة الأدب والعهد الجديد

يحق لدولة الأدب أن تتطلع إلى العهد الجديد ، عهد الملك الفتى فاروق الأول ، وأن تؤمل أن تجتنى من الرعاية والشباب والجدة ما يسبغ عليها قوة جديدة ويحملها إلى آفاق جديدة أوسع وأعظم من آفاقها الحاضرة ، وقد كنا وما زلنا نؤمل أن تفتتح الهيئات الرسمية والعلمية العهد الجديد بطائفة من المشاريع العلمية والأدبية الجليلة ؛ ومن بواعث الأسف أن الجهات الرسمية لم تفطن إلى أهمية هذه المناسبة السعيدة وكونها من أصلح الظروف لوضع المشاريع الأدبية وترتيب الجوائز العلمية والأدبية ، وقد رأينا الأمم الأوربية تتخذ هذه المناسبات لتنظيم الرعاية الأدبية وتنظيم المشاريع والجوائز العلمية الجليلة ، ورصد الاعتمادات والهبات لتشجيع الحركة الفكرية وتشجيع الكتاب والمفكرين ، وافتتاح العهد الجديد بنوع من الحملة الأدبية والعلمية تسبغ على الحركة الفكرية حياة جديدة . أما فى مصر فقد مرت هذه المناسبة الجليلة ، مناسبة تتويج الملك الشاب وافتتاح عهده الغض الجديد دون أن تحظى الحركة الأدبية من جهاتنا الرسمية والعلمية بما كان خليقاً أن تحظى به من المشاريع والجوائز ؛ ولم يفطن إلى هذه المناسبة سوى دار الكتب المصرية إذ رتبت عدة جوائز أدبية من الكتب للمتفوقين من الطلاب ؛ وهذا الاجراء على ما ينطوى عليه من معنى مشكور إنما هو اجراء متواضع كنا نود أن يصدر مثله مضاعفاً من هيئاتنا الرسمية العلمية ؛ وقد كان خليقاً بوزارة المعارف العمومية والجامعة المصرية والأزهر ومجمع اللغة أن تنظم جميعاً مشاريع وجوائز علمية تعلن فى مفتتح العهد الجديد وتكون عنوان عصر جديد من الاحياء العلمي والأدبى ؛ ولكنها جميعاً غفلت عن هذه الفكرة الجليلة . على أن الوقت مازال متسعاً للتفكير والعمل ؛ وما زلنا نؤمل أن تنتهز هيئاتنا العلمية هذه الفرصة لتعمل على شد أزر الحركة الأدبية بصورة عملية ؛ وإذا كانت الحركة الأدبية قد حققت لنفسها فى العصر الأخير تقدماً يبعث إلى الفخر والرضى، فقد كانت فى ذلك مستقلة تعمل من تلقاء نفسها ، ولو حظيت بقسط من الرعاية الرسمية لكان تقدمها مضاعفاً ، فهل نظفر فى العهد الجديد بمثل هذه الرعاية الكريمة ؟ هذا ما نرجو ، وهذا ما ندعو إليه .

آثار للشاعرة سافو بمصر

عثر أحد علماء الآثار الايطاليين وهو السنيور بريشا والسيدة ليديا نورسا أثناء مباحثهما في مصر عن الآثار الخزفية القديمة على قطعة من الخزف ترجع إلى القرن الثانى من الميلاد ، وقد نقشت عليها ثمانية عشر سطراً من نظم الشاعرة اليونانية الشهيرة « سافو » ، وهى أول مقطوعات من نوعها وجدت لهذه الشاعرة وقد قام بترجمة هذه النقوش العلامة الايطالى جوفريد و كوبول ، وظهر من تلاوتها أن الشاعرة قد كتبتها أثناء إقامتها بجزيرة أقريطش ، وهي فى ملخصها ترنم بمحاسن الطبيعة والأحراج الخضراء فى تلك الجزيرة .

أربع سنوات بصفة اسمية تصير فعلية بعد سنة فالمدة كلها خمس سنوات . . . »

ولفتت إجابة الرجل انتباه الحاضرين فعرفوا بداهة السؤال الذى اقتضى هذه الاجابة فلم يملكوا أنفسهم من الضحك . . . ومن حقهم أن يضحكوا من هذا الشاب الذى يسأل عن موعد علاوته ولما يمض عليه فى العمل أسبوع . وقال له واحد منهم:

« ستعلمك هذه الوظيفة أن تستهين بأمتع فترة من عمرك وهى الشباب . . . فتستحث كل يوم – من أجل جنيه واحد – خمس سنوات من العمر اليانع أن تفوت وتنطوى . . . ! »

نجيب محفوظ

وسافو كما هو معروف أعظم شاعرة عرفت فى التاريخ ، وهي يونانية عاشت فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس قبل الميلاد ، وهى صاحبة أعظم وأجمل مقطوعات غنائية عرفتها دولة الشعر .

ومن الغريب أن تخرج هذه التحفة الأثرية من مصر ؛ ومن الأسف ألا تجد السلطات المصرية وسيلة لمنع هذا السيل المتسرب من تحفنا وآثارنا .

مؤتمر للصيد تمثل فيه مصر

من أنباء برلين أنه سيعقد بها مؤتمر دولى عظيم للصيد فى شهر نوفمبر القادم ؛ وسيقام إلى جانبه معرض للصيد يكون أعظم ماعرف العالم من نوعه إذ سيغطى مساحة قدرها نحو عشرة أفدنة ، وسيضم نماذج من آلات الصيد ومناظره المختلفة منذ فجر التاريخ إلى يومنا ، وستشترك مصر فى هذا المؤتمر ، وترسل نماذج وصوراً من آثارها المتعلقة بالصيد عند الفراعنة لتعرض فى هذا المعرض العظيم .

العيد المئوى لدار نشر عظيمة

احتفلت دار النشر الألمانية الشهيرة «تاوخنتز» Tauchnitz بليبزج بعيدها المئوى ؛ ولعله لا يوجد بين مئات الملايين الذين يقرأون الانكليزية فى مختلف أنحاء الأرض من لا يعرف مطبوعات هذه الدار الشهيرة التى اشتهرت بجمالها وأناقتها واعتدال أثمانها ؛ وقد كان تأسيس هذه الدار فى سنة ١٨٣٧ على يد كرستيان برنهارد تاوخنتز ، أسسها لتقوم بنشر مؤلفات الكتاب البريطانيين والأمريكيين وبالفعل لم تترك علماً من هؤلاء الكتاب الذين يكتبون بالانكليزية إلا نشرت جميع مؤلفاته فى قطع جميل موحد ، وتضمنت مطبوعاتها مؤلفات جميع كتاب العصر الفكتورى مثل ليتون وتاكرى وكارلايل ودكنز وكولنس وهاردى وكونان دويل وكابتن ماريات ، وجميع الكتاب الأمريكيين مثل كوبر ومارك توين وبريت هارت وادجاربو وهاوتورن وغيرهم ؛ وقد جرت الدار على أن تنشر مؤلفات الكاتب كلها فى نفس القطع والشكل ؛ وقد أخرجت حتى يومنا أربعين ألف مجلد و٥٢٦٠ كتاباً للمؤلفين الانكليز والأمريكيين فى القرن الماضي والقرن الحاضر . ومن الغريب أن دار تاوخنتز كانت تنشر كتب المؤلفين دون استئذان ولكنها كانت ترسل إليهم بعض تعويضات عن حقوقهم وكان ذلك صنيعاً يحمد من جانبها لأنه لم يكن هناك فى ذلك العصر تشريع دولى لحماية المؤلفين وحقوق التأليف ، ولكن مطبوعات تاوخنتز لم يكن يسمح بدخولها فى انكلترا ولا الأملاك البريطانية لاعتدائها على هذه الحقوق فيما يظهر ، بيد أن السائح الانكليزى يشترى منها خارج بلاده بكثرة ، ويشتريها جميع الذين يتكلمون الانكليزية فى مختلف البلاد . ويقدر أن قراءها من الانكليز لا يزيدون على عشرين فى المائة بينما يقدر قراؤها من أبناء الأمم الأخرى بنحو ثمانين فى المائة .

وفى سنة ١٩٣٤ بيعت حقوق أسرة تاوخنتز فى النشر إلى دار نشر ألمانية أخرى فى ليبزج هى دار أوسكار براندشتتر ، وهى تقوم أيضا بنشر المؤلفات الانكليزية تحت عنوان معروف هو « مكتبة البتروس »

التاريخ السياسى المعاصر

صدر أخيراً بالانكليزية كتاب عن التاريخ السياسى المعاصر عنوانه « العلاقات الدولية منذ معاهدة الصلح » Int. Relations Since the Peace Treaties لمؤلفه المؤرخ الأستاذ هنرى كار وقد كان الأستاذ كار مدى أعوام طويلة ، من كبار موظفي وزارة الخارجية البريطانية ، وأتيحت له فرصة حسنة لدراسة العلاقات الدولية عن كثب ومراجعة المحفوظات والوثائق الهامة ؛ وهو يقدم لنا فى كتابه عرضاً موجزاً للحوادث والعلاقات الدولية منذ عقد معاهدات الصلح فى سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٧ ، ومن رأيه أن معاهدة فرساى كانت وثيقة سيئة لم يحسن وضعها ، لأنها قصدت فى مجموعها إلى إذلال ألمانيا وانتهاز فرصة هزيمتها وضعفها إلى حدود أبعدت الشعب الألمانى نهائياً عن أوربا الغربية وجعلت من المستحيل على الحلفاء السابقين أن يطمعوا فى ولائه أو مصادقته ، ثم يستعرض الأستاذ كار سياسة إيطاليا الفاشستية وألمانيا النازية فى النمسا وأوربا الوسطى ، وأن ما يجمع بين السياستين هو عاطفة السخط على الدول التى استغلت ظفر الحرب واستولت على جميع الثمار والأسلاب ، ولكن هذه الجامعة السلبية ينقصها كثير من عناصر الوئام والتناسق . وكتاب الأستاذ كار على العموم سجل بديع لتاريخ الدبلوماسية الأوربية منذ خاتمة الحرب الكبرى إلى يومنا .

الحب والشعراء

قرأت المقال الطريف « فى الحب أيضاً » للأستاذ الأديب إبراهيم عبد القادر المازنى فى الرسالة عدد ٢٠٨ حتى وصلت إلى قوله : « وخليق بالمرء وهو ينظر إلى هـذه الفتنة المجتمعة ، أن تدركه الحيرة ، وأن يزوغ بصره ، فلا يعود يدرى أى هؤلاء الجميلات أولى بحبه ، فإن لكل جسم فتنة ، ولكل محيا سحره ، ولو أني وقفت على البحر لكان الأرجح أن أحب هؤلاء جميعاً ، جملة ، وأن أشتهى أن أضمهن كلهن فى عناق واحد فإن الظلم قبيح . ونفسى لا تطاوعنى على غمط الجمال فى أية صورة من صوره . ومن يدرى لعل القدرة على إدراك معانى الجمال فى مظاهره المختلفة هى التى وقتنى الحب ، ومنعت أن أعشق واحـدة على الخصوص وأجن بها » الخ

وهنا رأيت أن روح التصوف قد حلت فى الأستاذ من غير أن يعرفها ، أو يعرفها ولا يريد أن يتظاهر بها . فإنه بين الصوفية من يقول : « همه أوست » أى كل شيء هو ؛ ويرى أن الله روح سائر فى الكون . فكل شيء فيه مظهر من مظاهر جماله تعالى . لذلك لا وجود للقبح عندهم بل كل شيء حسن فى ذاته . وهؤلاء غير من يقول « همه أزوست » أى كل شيء منه . فهم لا يقولون كقولهم إن الله روح سائر فى الكون ، بل إنه تعالى مصدر لوجود الكون ، وإن كل شيء في الكون وميض جمال قدرته وشعاع كمال صنعه ؛ وعلى هذا فلا وجود للقبح بالنسبة إلى قدرته تعالى وصنعه

ولكن هؤلاء الصوفية مع تلك العقيدة لم يضنوا بقلوبهم على فرد خاص من أفراد الجمال الكثيرة فى هذا العالم كما يضن الأستاذ بقلبه . فإننا كلما تتبعنا حوادث حياتهم ودرسنا سيرتهم وجدنا أن قلب كل منهم تقريباً علق بفرد خاص من أولئك الأفراد وأصبح فيما بعد دليلا لسموهم النفسى ، وسبباً لتقدمهم الروحانى

بقى ما هو الحب ؟ فينظر الأستاذ إليه نظرة المتشائم ويقول إنه مرض ، وينسب ما اتصف به الحب من المزايا والمحاسن فى الشعر والأدب إلى الشعراء ومبالغتهم فيه . فكأن الشعراء هم الذين وصفوا هذا المرض المستحق للذم بالأوصاف والمزايا تفاؤلاً فيه ، وإلا فهو نفسه لم يكن خليقاً بها . لذلك ختم الأستاذ مقاله بالدعاء على الشعر والشعراء . ولكننا نقول للأستاذ ألا يبادر فى الدعاء عليهم فإن للتشاؤم وجوداً في كل مكان مهما كان مصدره ، سواء أكان خيبة أمل ، أم كبر السن ، أم فساد الطبع . فبين الشعراء أيضا من يرى رأى الأستاذ . قال الشاعر الفارسى :

چنین قحط سال شد اندر دمشق
که یاران فراموش کردند عشق

اشتدت المجاعة فى دمشق إلى درجة أن نسى الناس العشق .

وقال الآخر : أين نه عشق أست آنكه در مردم بود
أين بلا أزخوردن كند بود

إن العشق الذي يوجد فى الانسان لا أصل له فان هذا البلاء يوجد من أكل القمح .

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

القسام والقسامة ، السمحة

قال الأستاذ فكري أباظه [1] : « لماذا لا يستعمل الناس هذا اللفظ الجميل البليغ — يعنى الكسم — ولا أعلم ما رأى مجمع اللغة العربية فى فصاحته ودقته وروعته »

قلت : هذا (الكسم) العامي هو القسام والقسامة محرفين ناقصين ففي (التاج والأساس) : « قسم قسامة والمقسم والقسيم : الجميل معطي كل شئ منه قسمة من الحسن فهو متناسب كما قيل متناصف . ورجل قسيم وسيم بين القسامة والقسام »

ومن استثقل (القاف الثقيلة) لفظها سعدية زغلولية [2] أو محمودية رازقية (نسبة الى محمود باشا عبد الرازق رحمة الله عليه) أو علوية وقراءة جماعة منهم فى القرآن بها — كما قال ابن خلدون — وهي متوارثة فيهم ، ويرون أنها الصحيحة المضرية . وقاف الجماعة هى بين القاف والكاف

وما دمت فى ألفاظ ... فأقول : إنى وجدت فى هذا الشهر العربى فى جريدة ومجلة وكتاب هـذه الكلمة غير الصحيحة : (السمحاء) وهى لفظة لا توجد فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما هى (السمحة) أى السهلة كما فى (النهاية) والحنيفية السمحة هي الملة التى ما فيها ضيق ولا شدة كما فى (اللسان والتاج) فهناك السمح والسمحة لا الأسمح ولا السمحاء . والحديث المشهور الذى رواه الخطيب عن جابر هو : « بعثت بالحنيفية السمحة ، ومن خالف سنتي فليس منى » وهو من الأحاديث الضعيفة كما فى (الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير) للحافظ الأسيوطى

قارئ

(١) فى مقالة فى مجلة (٢) نسبت إلى الاسم واللقب ...



نقد كتاب إحياء النحو

تأليف الأستاذ ابراهيم مصطفى

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ١ —

لا ريب فى أن نحو اللغة العربية ثقيل عسير ، يحتاج إلى كثير من التهذيب والتبويب ؛ ليصبح سهل المأخذ ، قريباً إلى النفوس ، محبباً إليها درسه وفهم قواعده وأصوله

ولقد أخذت كتاب إحياء النحو ، راجياً أن أجد فيه — كما يدل عنوانه — روحا جديدة تبعث فى النحو الحياة ، أو فكرة حديثة تذلل صعبه ، وتجمع ما تشتت من أبوابه ومسائله ، وهأنذا ، بعد القراءة ، أبين رأيى فى الكتاب ، بالصراحة التى يتطلبها العلم ، وبالأدلة التى لا تدع مجالا للشك ، آملا أن أكون قد وفيت بحق النقد البرىء

وسوف أنهج فى بحثى النهج الذى اتبعه المؤلف ، فأذكر النتائج التى وصلت إليها بعد القراءة ، ثم أتحدث بالتفصيل عن الأسباب التى أدت إليها ، ويؤلمني أن تكون النتائج هى :

أولاً : أن الكتاب ليس فيه شىء جديد

ثانياً : أن الكتاب لم يحدث فى دراسة النحو ، أو كتبه ، أو قواعده أى تغيير أو تبديل

ثالثاً : أن ما فى الكتاب ليس إلا تعليلات كهذه التعليلات التى يستنبطها النحاة لشرح ما بين أيديهم ، مما وقع فى كلام العرب ، وإنك لواجد مثل هذه التعليلات التى جاء بها المؤلف ، وأكثر منها فى الحواشى والتقارير

رابعاً : أن المؤلف ادعى على النحاة قضايا غير ممحصة

خامساً : أنه فى الأبواب القليلة التى أراد ضم بعضها إلى بعض يزيد النحو عسرا ، لا سهولة وفهما ، فضلا عن أنه لم ينجح فى هذا الضم

وسآخذ الآن فى مناقشة آرائه ، وتفصيل القول فيها :

تعريف النحو

يأخذ المؤلف على النحاة ، أنهم يعرفون النحو بأنه علم يعرف به أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناء ؛ وهم لذلك قد ضيقوا دائرته تضييقاً شديداً ، ويجب (فى رأيه) أن تتسع هذه الدائرة ، حتى يصبح النحو قانون تأليف الكلام ، وبيان كل ما يجب أن تكون عليه الكلمة فى الجملة ، والجملة مع الجمل ، حتى تتسق العبارة ، ويمكن أن تؤدى معناها

وليسمح لى الأستاذ المؤلف أن أخبره بأن هذا التعريف غامض الغموض كله ، فبيان كل مايجب أن تكون عليه الكلمة فى الجملة قول عام مبهم ، يشمل بيان أن تكون هذه الكلمة مستعملة فى معناها الحقيقى ، أوغير مستعملة ، قصد بها السجع مع كلمة أخرى أو لم يقصد ، رمي بها إلى طباق أو تورية أو جناس ، أو لم يُرمَ بها ، إلى غير ذلك ، وعلى هذا يشمل تعريف النحو علوم اللغة العربية كلها ؛ لأنها جميعها ما وضعت إلا لبيان كلّ ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة ؛ ثم قسمت وأصبح لكل علم اختصاص خاص ؛ ولا أحسبنى فى حاجة إلي أن أحدث الأستاذ عن اختصاص علم المعانى وعلم البيان وعلم البديع ، التى ترمي جميعها مع علم النحو ، كما قلت ، إلى بيان مايجب أن تكون عليه الكلمة فى الجملة ؛ ولا إخال المؤلف يريد أن يجعل علم النحو عاما شاملا يضمّ تحت جناحيه علوم العربية كلها .

ولكن يظهر أن المؤلف (وتعريفه لعلم النحو غير محدّد ولا واضح كما قلت) يرمى بكل ما يجب أن تكون عليه الكلمة فى الجملة إلى وصف حالها من تقديم أو تأخير أو نفى أو إثبات أو تأكيد أو استفهام ، وهنا أريد أن أقف معه وقفة قصيرة نستبين فيها غرض علم النحو وغايته .

لا أحسبنى أبعد عن الصواب إذا قلت : إن غرض علم النحو (كما هو واضح فيما بين أيدينا من كتبه) ليس إلا تكوين الجمل تكوينا سليما ، وإقدارنا على النطق الصحيح الخالى من الخطأ فى التركيب . فليس صحيحا إذاً أن ندعى على النحاة أنهم قصروا بحثهم على أواخر الكلمات ، بل هم قد تعرضوا كثيراً ، وكثيراً جداً ، أكثر مما توهم المؤلف الفاضل إلى بيان وضع الكلمة من الكلمة والجملة من الجملة ، وإلى حذف بعض أجزاء الكلام لدليل أو لغير دليل ، وإلى كثير مما يعرض للكلمة من النفى والاثبات . وأكبر الظن أنى أجلب السآمة للقارئ إذا أنا أخذت أحدثه عما فى كتب النحو من ذلك كله ، ولست أكلفه إلا أن يرجع إلى كتاب من هذه الكتب ليرى بعينيه أن المؤلف كان مغاليا كل المغالاة حين ادعى على النحاة أنهم لم يعنوا إلا بأواخر الكلمات . ولأجلب الطمأنينة إلى النفوس سوف أنقل هنا مثالا صغيرا يبين دعواي : قال ابن هشام فى كتابه أوضح المسالك : وللفاعل أحكام : أحدها الرفع . . . الثانى وقوعه بعد المسند . . . الثالث أنه لابد منه... الرابع أنه يصح حذف فعله . . . الخامس أن فعله يوحد مع تثنيته وجمعه ... السادس أنه إن كان مؤنثاً أنث فعله بتاء ساكنة ... السابع أن الأصل فيه أن يتصل بفعله ، ثم يجيء المفعول ، وقد يعكس ، وقد يتقدمهما المفعول ، وكل من ذلك جائز وواجب .. الخ فأنت ترى من هذا أن حكم آخر الكلمة لم ينل إلا واحداً من سبعة — بل أقل من ذلك كثيراً — من عناية ابن هشام ؛ أما بقية أحكام الفاعل فهى علاقته بالكلمة التى قبله وبعده ، وما يعرض لهذه العلاقة من تذكير أو تأنيث أو تقديم أو تأخير أو غير ذلك . وإذا شئت أن أعد الكثير من أبواب النحو التى تنقض ادعاء المؤلف طال بي القول وانتهى بي إلى الإملال

أما إذا قصد المؤلف إلى أن من غرض النحو أن يفضل أسلوباً على أسلوب ، أو أن يوجب نحواً خاصاً من التعبير إذا كان الحال يستدعيه ، أو أن يبين سر جمال نوع من القول — فذلك أمر قد تكفل به علم المعانى والبيان والبديع ، فالنحو مثلا يقف أمام الجمل الآتية موقف المصحح لها جميعاً وهى : مصر مستقلة ، وإن مصر مستقلة ، وإن مصر لمستقلة ، واستقلت مصر ، ومصر استقلت ؛ يصحح النحو هذه الجمل كلها ويقبلها ، وإذا تكلمت بواحدة منها في أى حال قبلها النحو ، ولم يخطئها ؛ أما علم المعانى فينظر إلى الحال التى يقال فيها الكلام ، فعند ما يكون المخاطب منكراً استقلال مصر مثلا وقلت له مصر مستقلة كنت مخطئاً ، لأن الحال يستدعى أن تؤكد له القول ، وأن تقول له : إن مصر مستقلة . فاذا أراد المؤلف أن يجعل ما يبحث فيه علم المعانى والبيان من اختصاص علم النحو ، ومما يجب أن تتناوله بحوثه ، فانه لم يزد على أن ضم علمين أحدهما إلى الآخر من غير ضرورة ملحة بل ضما يجلب معه الاضطراب والخلط .

هذا إلى أن المؤلف لم يشر إلى علاقة الكلمة بالكلمة ، ولا ارتباط الجملة بالجملة من أول كتابه إلى آخره ، بل قصره على حكم آخر الكلمات ، ولم يعن بغيرها .

فلسفة العامل

أطنب المؤلف في ذكر فلسفة العامل وبيان أهميته لدى النحاة ، ثم أخذ ينقد مذهبهم من غير أن يذكر رأيه الصريح في العامل ، فالنحاة قد اضطرّوا — لمذهبهم فى وجوب ذكر العامل — إلى التقدير الذى سماه تقديراً صناعياً ، ولم يبين لنا كيف نحلل هذه الجمل التى اضطر النحاة فيها إلى التقدير . وهل نكتفي حين نبين مكان كلمة الضيف فى قولنا : الضيفَ أكرمته ، بأن نقول إن الضيف لم يرد به أن يكون مسنداً إليه ، ولا مضافاً إليه ، ولذلك كان منصوباً ، أم ماذا ؟

أما أن النحاة بالتزامهم أصول فلسفة العامل قد أضاعوا معانى الكلام فى باب المفعول معه ، فلا إخالنى في حاجة إلى بيان تحامل المؤلف مما نقله هو حين تحدث عن المفعول معه من أن النحاة قد تنبهوا للمعنى ، وأوجبوا أن يتبعه اللفظ ؛ فقد قال الرضى فى شرح الكافية ما نصه : الأولى أن يقال : إن قصد النصّ على المصاحبة وجب النصب وإلا فلا . ففكرة النظر إلى المعنى فى المفعول معه قديمة معروفة ، وهى التى يقبلها العقل ويستريح إليها .

وأما ما انتقده المؤلف من كثرة خلاف النحاة فى كل عامل يتصدون لبيانه ، فالمغالاة فيه ظاهرة ، فهذه الخلافات لاتجدها فى لباب كتب النحو ، ولكنك تجدها في الحواشي والتقارير ، ولا يعطي لها من العناية إلا مقدار ضئيل لا يخشى منه على دراسة لباب النحو وأصوله ؛ على أن الأستاذ المؤلف قد زاد رأياً جديداً فى عامل النصب وأنه وجود الكلمة في حالة لايراد بها أن تكون مسنداً إليها ولا مضافة وسوف نناقشه فى ذلك .

معانى الاعراب

جعل المؤلف الضمة والكسرة علامتى إعراب فحسب ، أما الفتحة فليست علامة إعراب ولا دالة على شيء ، بل هى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب التى يراد بها أن تنتهى بها الكلمة كلما أمكن ذلك ، فهى بمثابة السكون فى لغة العامة .

ذلك قول يتهدم أمام النقد :

أولا : لأنه ليس من المعقول ولا من الواقع فى شىء أن تكون المعاني التى قصد إليها العربى تدور حول اثنين : هما الاسناد والاضافة ، حتى يهتم بهما العربى وحدهما ولا يعنى بغيرهما فلا يضع له علامة تدل عليه ، فعندنا الحال والتمييز ، وعندنا أنواع المفعول والاستثناء ، ولا إخال واحداً مما ذكرت أقل من معنى الاضافة حظاً لدى اهتمام العربى ، بل إن بعض هذه الأنواع لا يتم الكلام إلا به ، ولا يفهم المعنى إلا بذكره ، فالكلام يكون أبتر ناقصاً إذا حذفت الحال أو المستثنى أو نوعاً من أنواع المفعول أو التمييز ؛ وإذا شئت أن تلمس ذلك ، فهاك أمثلة توضح لك ما قلنا :

تقول : عدت المريض ، واجتهدت رغبة فى النجاح ، وسوف أزورك الساعة الخامسة ، ونجح التلاميذ إلا سعيداً ، واشتريت أقتين جبنا ، وما جئتك إلا زائراً ؛ فانظر كيف كان المعنى فى المثال الأول بذكر المفعول به ، ولو أنك حذفته لصار المعنى ناقصاً مبتورا ؛ وفى المثال الثانى إذا أنت حذفت المفعول لأجله ، جعلت الكلام غير معلل ولا مسبب ، فتقل فائدته ومعناه ؛ أما إذا حذفت المفعول فيه فى الجملة الثالثة فإنك سوف تلقى بمن تزوره فى خضم من الظن والتخمين ، لأنه لا يدرى متى تزوره حتى يتهيأ للقائك ؛ ولا إخال المستثنى فى المثال الرابع يقل أهمية عن المستثنى منه ، فكلاهما مقصود يهتم به القائل ، ولو أنك حذفت المستثنى لفسد المعنى وأصبح خاطئاً . وقل مثل ذلك فى الحال والتمييز ؛ فقد بدا لك أن العربى يقصد هذه الأنواع قصداً ، ويعنى بها عناية تامة ، فلِمَ لَمْ يميز كلا منها بحركة ، كما ميز المضاف إليه بحركة ، وإذا علمت أن المضاف إليه لم يذكر فى الكلام قصداً ، ولم يؤت به لأنه مراد لذاته ، (كما يقولون) وإنما جيء به لتعريف المضاف أو تخصيصه وتقليل شيوعه فحسب — إذا علمت ذلك أدركك العجب حين ترى أن ما يقصد فى الكلام ويعنى به : من حال أو تمييز أو غيرهما ، لايهتم العربى بأن يجعل له علامة خاصة تدل عليه ، أما مايذكر عرضاً فإن العربى يحتفل به أيما احتفال ، ويضع له حركة تميزه . ذلك قول لا يستطيع العقل أن يقبله .

ثانيا : لأنه ليس من الصحيح أن الفتحة هى الحركة الخفيفة المستحبة التى يراد أن تنتهى بها الكلمة ، فلو كان ذلك صحيحاً ما وقف العرب بالسكون على الكلمات التى تنتهي بالفتحة ، ولا انتهزوا فرصة اختتامها بالفتحة ، فوقفوا بها استمتاعاً بما يحبونه من نطقها . ولست أدرى كيف وصل المؤلف إلى هذه النتيجة وكيف استنبطها ، مع أنه ليس فى الكلام العربى كله كلمات يقف عليها المرء بالفتح إلا إذا كان آخر الاسم منونا مفتوحاً ، فلو كان العرب يحبون الوقوف بالفتحة لجعلوا وقفهم بها لا بالسكون ، ولا ختتموا بالفتحة كل كلمة تقع فى آخر الجملة ، ولما أتوا بكلمات مفتوحة فى أول الكلام ووسطه ؛ وذلك غير ما هو واقع بين أيدينا

ثالثا : لأن المؤلف أراد أن يجعل الضمة علامة الاسناد ، فتكلف فى سبيل ذلك عناء ومشقة ، وانتحل أسباباً لا تثبت أمام الانتقاد :

فمن ذلك أنه اضطر فى سلامة قاعدته إلى أن يخرج اسم (لا) من أن يكون مسنداً إليه ، لأنه ليس بمتحدث عنه ، ولذلك كان حقه الفتحة .

« يتبع »

احمد احمد بدوى

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧ }

5 ème Année, No 215.
Lundi - 16 - 8 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢١٥ « القاهرة في يوم الاثنين ٩ جمادى الثاني سنة ١٣٥٦ — ١٦ اغسطس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

صفحة

فلسطين المنكوبة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أعجب أعاجيب الاستعمار في هذا الزمان مشروع التقسيم الذي اقترحته لجنة « اللورد بيل » للتوفيق بين العرب واليهود في فلسطين — أو على الأصح للتوفيق بين العهود المتناقضة التي قطعتها بريطانيا للعرب أولاً ثم لليهود من بعد ذلك. وتزعم بريطانيا الآن أن فلسطين لم تكن داخلة في ما عنته بالبلاد العربية التي وعدت بمساعدتها على الاستقلال. وقد فند الأمير عبدالله هذا الزعم بمذكرة بعث بها إلى المندوب السامي في فلسطين وأورد نصوص الرسائل والتصريحات البريطانية التي لا يبقى معها ظل من الشك في أن فلسطين كانت داخلة في جملة البلاد العربية الموعودة بالاستقلال والحرية. على أن الأمر ليس أمر رسائل أو ما يجري مجراها وإنما هو أمر بلاد لا شك في أنها عربية من قديم الزمان وأن حق العرب فيها وهم أهلها لا ينكره إلا مكابر ذو غرض، أو كما قال الأمير عبدالله في مذكرته: « إن حق العرب في بلادهم فلسطين صريح لايحتاج إلى وثيقة أو وعد، فهم أهلها منذ أجيال، وفي إقامة متصلة بها، وهم على الرغم مما اجتاحهم من حروب وتكابدهم من خطوب لم يفرطوا فيها ولم يتحولوا عن شبر منها »

ومن غرائب ما تجيء به الأيام أن اليهود عاشوا فى كنف العرب أحراراً آمنين على أموالهم وأرواحهم لا يتقون شراً ولا يخشون أذى ولا يتعرضون لاضطهاد ولا يسامون تضييقاً أو حجراً، على حين كانوا في أوربا يعدون «أنجاساً» منبوذين، لا يوا كلهم أحد ولا يشاربهم ولا يجلسهم إلا دونه. فإذا احتاج إلى مال يقترضه منهم دعاهم إليه وعنف بهم وبسط فيهم لسانه أقبح البسط وأبذاه وأخذ المال وركلهم. ومن شاء فليقرأ رواية السير «وولتر سكوت» عن عصر ريتشارد قلب الأسد وليتأمل كيف كان القوم يعاملون اليهود وبأى عين كانوا ينظرون إليهم. فإن قيل هذا كان عصر جهالة وعماية قلنا فما الرأى فى هذا العصر وما يلقى فيه يهود أوربا من العنت والعسف والجور والتحقير والمهانة؟ — كتبهم تحرق، وأموالهم تصادر، وعلماؤهم ينفون من الأرض، وجنسهم يعير بأنه دون الجنس الآرى، ومعاملتهم ومخالطتهم ومصاهرتهم محرمة، حتى اتخاذ الخدم منهم جريمة تستوجب العقاب. وأوربا التى تنكبهم هذه النكبة وتسومهم هذا الخسف ولا يرتفع فيها صوت بالدفاع عنهم واستهجان ما يحل بهم من العذاب الغليظ والمقت الشديد هى التى تريد أن تتخلص منهم فلا تجد إلا فلسطين المسكينة تقذف بهم عليها وتقول: اتخذوا لكم وطناً قومياً هنا ...

ومن سوء حظ اليهود أن لا وطن لهم، ولكن العرب لا ذنب لهم فى ذلك ولا كانوا هم الذين حرموهم أن يكون لهم هذا الوطن. وما تعلق اليهود بالوطن القومي و «صهيون» إلا من طول ما قاسوا من العذاب فى أوربا وهول ما صبه أهل هذه القارة عليهم من البلاء. وإنك لتجد اليهود القدماء فى فلسطين لا يحلمون بهذا الوطن القومى إلا مجاراة وتقليداً لليهود الأوربيين وخوفاً من أن يتهموا بالخروج على ملتهم، لأنهم كانوا حتى على أيام الحكم التركى يعيشون فى بلهنية ورخاء، بل كانت حياتهم أهنأ وأرخى من حياة أبناء البلاد العربية

فلولا وعد بلفور ما حات الجفوة ولا وقعت النبوة بين العرب واليهود، ولكن انجلترا التى تعهدت للعرب أن تؤازرهم على الفوز باستقلالهم وحريتهم فثاروا لهذا على دولتهم رمتهم بالوطن القومي والهجرة اليهودية فلم يسعهم إلا أن يتدبروا ما هددوا به؛ وهل هو إلا الجلاء عن وطنهم؟ وإلا أن يكرهوا ذلك ويثوروا عليه، ومن الذى لا يثور على من يبغى إخراجه من دياره وطرده من وطنه..؟

والآن تجيء بريطانيا فتقول دعونى أقسم بينكما البلاد فلليهود شطر وللعرب شطر، ولتكونوا بعد ذلك إخواناً وجيراناً متوادين. تأخذ منى أرضى وتعطيها لأجنبى وتقول لى كن أخاً له واصغ إليه بالود: وبأى حق تخول نفسها أن تفعل ذلك؟ لا حق إلا أنها وعدت اليهود بانشاء وطن قومى لهم في فلسطين. ولكن من خولها أن تبذل لهم هذا الوعد؟ لا أحد... هى خولت نفسها ذلك وانتحلت الحق فيه وعدت نفسها ملزمة بالوفاء، والعرب ملزمين بالاذعان لقضائها فيهم. ولو أنها كانت تقطع اليهود من بلادها هى لما كان لأحد وجه اعتراض على ماتصنع، فإن الأرض أرضها وهي حرة فى أن تجود بها على من تشاء من خلق الله. ولكن البلاد ليست بلادها ولا تزعم قط أنها مستعمرة لها وإنما هى فيها بما سموه «الانتداب» والانتداب معناه أن البلاد أمانة فى عنق الدولة التى ندبتها العصبة لإصلاحها وترقيتها وإعدادها لحكم نفسها بنفسها ولنفسها، ولم نكن نعرف قبل اليوم أن من معانى أداء الأمانة تضييعها والتسخى بها على غير أصحابها ...

وانظر كيف تقسم البلاد بين العرب واليهود!.. تأخذ الساحل كله — ما خلا يافا فقد أنقذتها جارتها تل أبيب وأن ميناءها شر ميناء فى البحر الأبيض — نقول تأخذ الساحل والأرض الخصبة وتهديها إلى اليهود، وتعمد إلى الجبال الجرداء، والفيافى التى لا شجر فيها ولا ماء، وتقول للعرب هذا نصيبكم ولن يضيركم محلها وخرابها فان لكم الجنة فى الآخرة فطيبوا نفساً وقروا عيناً واحمدوا الله واشكرونى. ولا تنسى بريطانيا نفسها فإن لها حظاً من الغنيمة...

وفى الرقعة التي جعلتها من نصيب اليهود كثرة عربية فهؤلاء سيجلون عنها ويخرجون من ديارهم لأن بريطانيا شاءت هذا. وفيها ثروة العرب جلها إن لم تكن كلها وليس لليهود من المزارع إلا حوالى العشر، فهذه الثروة أيضاً تنتقل إلى اليهود ويفقدها العرب ويرحلون إلى الصحراوات والجبال العارية. ولا منفذ للعرب إلى البحر إلا من يافا، والطريق إلى يافا مما تحتفظ به بريطانيا لنفسها؛ ومؤدى هذا أن تخرب تجارة العرب بعد أن تخرب زراعتهم ويضيع مالهم كما ضاع وطنهم.

وتقول بريطانيا إن هذه هى الوسيلة الوحيدة للسلام والوئام

بين العرب واليهود فى فلسطين ، فلو أنها تعمدت أن تثير بين الشعبين العداوة والبغضاء وأن تبذر بذور الحرب فى فلسطين لما فعلت غير ذلك . فلن يكف اليهود عن التطلع إلى ما بقى فى أيدى العرب من البلاد ، لأن دولتهم ستضيق بهم لا محالة ، ولأن مالهم وعلمهم وما يحسون من العطف البريطانى عليهم — كل ذلك خليق أن يغريهم بالطمع فى بقية فلسطين . وأما العرب فغير معقول أن يصبروا على هذا الظلم ، أو أن يكفوا عن الحنين الطبيعي إلى ما فقدوا ، أو أن تفتر رغبتهم فى استرداده ، فهى الحرب بين الأمتين لا مفر منها ولا هوادة فيها ولا حيلة لأحد في اجتنابها . فإذا كانت الحرب ما تبغي بريطانيا فالمشروع يبلغها مأربها على التحقيق .

ووراء فلسطين ــ أو ما يبقى منها فى أيدي العرب ــ شرق الأردن يغرون أميره بالإمارة على البلاد كلها ؛ ومن وراء شرقي الأردن العراق وفلسطين طريقها إلى البحر الأبيض ، وبين العراق وفلسطين أواصر عروبة لا انفصام لها ، وبعيد أن تنام العراق على هذا ؛ ومصر جارة فلسطين وشقيقتها ، وقد تكون اليوم ذاهلة عما يجره عليها هذا التقسيم العجيب من المتاعب وما يهددها به من الأخطار ، ولكن الغفلة تزول وسيجىء يوم قريب تدرك فيه مصر أنها لاتستطيع أن تنفض عما يجرى على حدودها ، أو تستخف بالأثر الذي يكون لإنشاء دولة يهودية على الساحل الشرقي القريب من ساحلها ، وسترغمها الحوادث على أن تدرك أن القربى بينها وبين فلسطين أجدى عليها وأربح لها من هذه العزلة التى يحملها على الاخلاد لها الجهل وقلة الفطنة وضيق أفق النظر . وكل آت قريب ، ولكن الشيء فى أوانه خير منه بعد الدرس القاسى والامتحان الأليم والتجربة المرة

وإن عصبة الأمم لتنظر الآن فى أمر فلسطين ولكنه لا إيمان لنا بالعصبة التى لاخير فيها فما أجدت شيئاً على الحبشة المسكينة ولاهى تجدى فتيلاً على الصين . فليوطن العرب أنفسهم على الاستغناء عن كل عون من غير أنفسهم وليعلموا أن الذي يسعهم وحدهم بلا معونة من أوربا كثير لايستهان به ؛ وإذا كان سبعون مليوناً من العرب لايدخل فى طوقهم شيء فماذا يرجون ؟ .

ابراهيم عبد القادر المازنى

مصر مجاز المشرق

عامل بعيد الأثر فى تاريخها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

من الحقائق الجغرافية والتاريخية ما يلازم حياة الأمم حتى ليغدو من صميم هـذه الحياة ، بل يغدو أحياناً عاملاً حاسماً فى تكوينها وتطورها ؛ فعلاقة النيل بحياة مصر مثلا علاقة أزلية خالدة لم يفصمها تعاقب الدهور والعصور ؛ وإذا كان هيرودوت قد ذكر منذ ألفين وثلاثمائة عام أن مصر هبة النيل ، فان هذه الحقيقة لا تزال ماثلة إلى اليوم بكل قوتها وروعتها ، وقد كانت ماثلة راسخة قبل هيرودوت بآلاف السنين . وقد كان النيل منذ أقدم العصور حياة الأمة المصرية المحتشدة حول ضفافه الخضراء ، وسيبقى أبد الدهر مصدراً لهذه الحياة ؛ وكان منـذ فجر التاريخ عاملاً أساسياً فى تكوين هذه الحياة وفى تطور مظاهرها وأساليبها مدى العصور والدهور . كذلك كان موقع مصر الجغرافى وما يزال عاملاً جوهرياً فى تطوراتها التاريخية وفى مصايرها السياسية والاجتماعية ، فقد كان هذا الركن الذى تشغله مصر صلة الوصل بين قارات العالم القديم ، وكان لهذه الحقيقة الجغرافية فى تطور تاريخها القديم والحديث أعظم تأثير

بل إن هذه الحقيقة الراسخة لتغدو فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر أشد وضوحاً وتأثيراً ؛ ذلك أن القدر شاء أن تحفر مصر قناة السويس وأن تغدو مرة أخرى طريق الهند والشرق الأقصى . وهل ينسى مؤرخ ما كان لقناة السويس من أثر عظيم فى مصاير مصر في العصر الأخير وفى وضعها السياسي الحاضر ؟ وهل ينكر انسان أن القناة ستبقى عصراً هى العامل الفصل فى مصير مصر ومستقبلها الدولى ؟ ونقول إن مصر قد غدت كرة أخرى طريق الهند والشرق الأقصى ، لأن مصر كانت منذ أقدم العصور حلقـة من أهم حلقات الوصـل بين الشرق والغرب ، وكانت خلال العصور الوسطى حتى أواخر القرن الخامس عشر طريق الهند المختار ، وكانت ثغورها دائماً سواء في البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأحمر قواعد رئيسية لتجارة الغرب مع الهند

والشرق الأقصى ؛ ونحن نعرف ان مصر والشأم كانتا منذ القرن التاسع وحدة جغرافية وسياسية متحدة ، وكانت حدود مصر منذ الدولة الطولونية تصل حتى أقصى الشأم ؛ وكانت هذه المياه كلها على طول ساحل الشأم وسواحل مصر حتى برقة تقع تحت السيادة المصرية ؛ كذلك كانت مياه البحر الأحمر حتى ثغور الحجاز . وكان للهند والشرق الأقصى فى تلك العصور طريقان رئيسيان : الأول طريق قسطنطينية ، والثانى طريق المياه والأراضي المصرية ؛ ولكن الطريق الأول لم يكن دائماً خير الطريقين ، لأنه بعد اجتياز أراضي الدولة البيزنطية ، ينحدر إلى مسالك وعرة فى أرمينية وفارس وما وراء النهرين ، وكان أيضاً أطول الفريقين شقة ؛ ولهذا كان طريق الثغور المصرية هو طريق الهند والصين المختار ؛ وكانت جمهورية البندقية لتفوقها البحرى فى البحر الأبيض المتوسط تستأثر فى تلك العصور بأعظم قسط من تجارة الشرق الأقصى ؛ وكانت مصر ، سيدة الطريق إلى الهند ، تستأثر بأعظم قسط من أرباح هذه التجارة ومكوسها ، وكانت المكوس التي تفرض فى ثغور مصر والشأم على التجارة الصادرة إلى الشرق الأقصى من أعظم موارد الخزينة ، هذا إلى ما تجنيه التجارة المصرية من أرباح الوساطة وأعمال النقل وغيرها

كانت مصر إذاً فى تلك العصور كما هي اليوم طريق الهند والشرق الأقصى ؛ بيد أنها كانت عندئذ سيدة هذا الدرب والمتحكمة فى مصايره ، تدعم إرادتها وصولتها بقوات برية وبحرية يخشى بأسها . ولما غزا الصليبيون سواحل الشام فى نهاية القرن الحادى عشر واستقروا حينا فى فلسطين وبعض ثغور الشام اضطربت مواصلات الهند من هذه الناحية حينا ، ولكنها تحولت إلى الاسكندرية ودمياط وإلى القلزم وعيذاب ثغرى البحر الأحمر ؛ وكانت القوافل التجارية تخترق مصر من الأسكندرية ودمياط براً إلى ثغر القلزم (وموقعه القديم مكان ثغر السويس) ، أو في النيل حتى قوص ، ثم إلى عيذاب ؛ وتسير بعد ذلك بحراً إلى الهند والصين ؛ وكانت ثمة طريق برية أخرى تخترق الشام والجزيرة ثم فارس وخراسان والسند ، أو تنحرف شمالا إلى بخارى ثم الصين ؛ وهذه الطريق الأخيرة هى التى سلكها ماركو بولو الرحالة البندقى الشهير فى القرن الثالث عشر والتى وصفها لنا فى رحلته أبدع وصف ؛ ثم سلكها من بعده في أوائل القرن الرابع عشر إلى الهند الرحالة المغربى الشهير ابن بطوطة الطنجى . والواقع أن فكرة قطع طريق الهند وحرمان مصر من مغانمها لم تكن بعيدة عن أفكار الصليبيين ؛ فلما انهارت حملاتهم ومشاريعهم واستطاعت مصر أن تردهم نهائياً عن الشام وثغوره ، استردت مصر كامل سيادتها وسيطرتها على طريق الهند ؛ ومن جهة أخرى فإن جمهورية البندقية لم تكن كباقى الدولة النصرانية متحدة الرأى مع الصليبيين دائما ، وكانت فى معظم الأحيان تؤثر مصالحها التجارية وتؤثر البقاء على صداقة مصر

ولبثت مصر تسيطر على طريق الهند والبندقية تستأثر بمعظم مغانم التجارة الهندية حتى أواخر القرن الخامس عشر ؛ وكانت علائق مصر والبندقية دائمة التوثق تنظمها دائما معاهدات متوالية تسعى جمهورية البندقية دائما إلى عقدها مع حكومة السلاطين . ولكن حدث فى أواخر القرن الخامس عشر أن حاول البحارة البرتغاليون اكتشاف طريق جديد للهند ؛ واستطاع فاسكودى جاما فى سنة ١٤٩٧ أن يكشف طريق رأس الرجاء الصالح ، وأن يصل عن هذا الطريق إلى ثغر قاليقوط فى غرب الهند ؛ ولم تمض أعوام قلائل حتى أنشأ البرتغاليون فى هذا الثغر مستعمرة برتغالية ، وأخذت بعوثهم البحرية تتردد إلى الهند عن هذا الطريق الجديد . وفى الحال شعرت مصر بالخطر الذى يهدد طريقها الهندية ومواردها التجارية ، وشعرت البندقية حليفتها وشريكتها بما يهدد تجارتها مع الشرق الأقصى من الخراب والإمحال ؛ وظهر هذا الخطر بصورة واضحة حينما أخذت التجارة الهندية التى كانت تسير إلى مصر عن طريق عدن وجدة وسواكن تتحول إلى الطريق البحرية الجديدة ، وأخذت السفن البرتغالية تطارد السفن المصرية التى تشق هذه المياه ؛ عندئذ هبت مصر تدافع عن مواصلاتها الهندية وامتيازاتها التجارية التى استأثرت بها مدى القرون ؛ وكان ذلك فى عهد السلطان الغوري الذي شاء القدر أن يكون آخر ملوك مصر المستقلة ؛ فبادر السلطان بإنشاء أسطول مصرى جديد فى مياه البحر الأحمر ليقاتل أولئك الخصوم الجدد . وفى بعض الروايات أن البنادقة أمدوا السلطان بالأخشاب والذخائر لتجهيز هذا الأسطول ؛ وعلى أي حال فقد التقى الأسطول المصرى بسفن البرتغاليين فى البحر الأحمر أكثر من مرة وأحرز قائده أمير البحر حسين على الأسطول البرتغالى بقيادة الأميرال لورنزو الميدا

فى سنة ١٥٠٨ انتصاراً حاسماً ؛ ولكن البرتغاليين عادوا فهاجموا الأسطول المصرى وهزموه فى العام التالى ؛ ولم يك ثمة شك فى مصير هذا النضال ، فإن البرتغال كانت يومئذ فى مقدمة الدول البحرية التى يخشى بأسها ، وكانت مصر من جهة أخرى ترقب خطراً آخر أعظم وأجل ، هو خطر الترك العثمانيين . أما البندقية فقد حاولت من جانبها أن تتأهب للنضال محافظة على تجارتها ، ولكن الدول الأوربية الكبرى ، فرنسا واسبانيا والبابوية ، اتحدت فى مجمع كامبرى لمقاومة البندقية والقضاء على محاولاتها

وهكذا فقدت مصر طريق الهند فى نفس الوقت الذى فقدت فيه استقلالها ، وفقدت كل ما كانت تجنيه من وراء هذا الامتياز القديم من المغانم الطائلة . ومنذ أوائل القرن الخامس عشر يغدو طريق رأس الرجاء الصالح ، هو الطريق المختار للهند والشرق الأقصى ؛ ومن ذلك الطريق سارت البعوث البحرية المتوالية لا كتشاف مجاهل المحيط الهندى والمحيط الهادى .

***

على أن القدر شاء أن تسترد مصر طريق الهند فى ظروف لم تكن تحلم بها ، وكانت بالنسبة إليها مفتتح عصر من الكوارث والمحن ؛ أجل كان افتتاح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ نذيراً بفاتحة الدور الخطير المحزن الذى قضى على مصر أن تؤديه فى ربط الشرق بالغرب وتوثيق المواصلات بين بريطانيا العظمى والهند وأستراليا ؛ بل لقد ظهر هذا النذير واضحاً منذ أيام الحملة الفرنسية حيث شعرت إنكلترا بالخطر الذى يهدد مواصلاتها المستقبلة من استقرار الفرنسيين فى مصر ، فبذلت كل ما وسعها لتحطيم الحملة الفرنسية واجلاء الفرنسيين عن مصر ؛ وكأنما استطاعت انكلترا يومئذ أن تنفذ إلى حجب الغيب ، وأن تتصور قيام هذه القناة تشق الصحراء بين البحرين الأبيض والأحمر ؛ وكانت القناة منذ افتتاحها شراً مستطيراً على مصر ، لأنها لفتت أنظار الدول الأوربية إلى هذا الشريان الحيوى الجديد فى طريق الشرق الأقصى ، وأذكت اطماع السياسة الاستعمارية . ولم تلبث مصر أن سقطت فريسة هذه السياسة التجنية ؛ وكانت محنة فقدت مصر فيها استقلالها ؛ ومهما كانت البواعث التى تذرعت بها السياسة البريطانية لاحتلال مصر فى سنة ١٨٨٢ فان حراسة القناة ، وهى شريان حيوى لطريق الهند ، كانت بلا ريب أهمها وأخطرها ؛ وقد غدت هذه الحقيقة فيما بعد شعار السياسة البريطانية ومحورها الأساسى فى التمسك باحتلال مصر .

ولما وقعت الحرب الكبرى ظهرت أهمية القناة كطريق حيوى للمواصلات الامبراطورية البريطانية ، ولعبت دوراً خطيراً فى حمل القوات والمؤن من أنحاء الأملاك والمستعمرات إلى ميادين القتال الأوربية ؛ وازدادت السياسة البريطانية اقتناعاً بأهمية هذا الشريان الحيوي فى مواصلاتها الامبراطورية ، وازدادت تمسكا بحراسته والسيطرة عليه ، حتى إنها رأت يومئذ أن تعلن حمايتها على مصر تمهيداً إلى ضمها إلى أملاك التاج . فلما لم تقبل مصر هذا المصير ، واضطرت أن تشهر النضال فى سبيل حريتها واستقلالها ، وأعلنت انكلترا فى سنة ١٩٢٢ إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، كانت مسألة المواصلات الامبراطورية أو بعبارة أخرى مسألة قناة السويس من المسائل المحتفظ بها ؛ ولما آن للمسألة المصرية أن تحل أخيراً بعقد معاهدة الصداقة المصرية الانكليزية فى أغسطس الماضي ، كانت مسألة المواصلات الامبراطورية وحماية قناة السويس عقدة العقد ، وكانت بالنسبة للسياسة البريطانية غاية الغايات ؛ وقد جاءت نصوص المعاهدة منوهة بأهميتها وخطورتها بالنسبة لمصاير العلاقات بين مصر وانكلترا

على أن المستقبل فياض بالاحتمالات ؛ وقد حمل تطور فنون الحرب الحديثة وتقدم التسليحات الجوية بعض الخبراء على الشك فى مستقبل قناة السويس كشريان للمواصلات الامبراطورية ؛ وقد أيدت ظروف الحرب الحبشية وتطوراتها هذه النظرية ؛ ومع أن السياسة البريطانية مازالت على تمسكها بأهمية القناة وخطورتها بالنسبة للدفاع الامبراطورى ، فانها تتوجس اليوم من حركات إيطاليا الفاشستية ومطامعها الاستعمارية ، وتتوجس بالأخص من تفوق تسليحاتها الجوية ، وتنظر دائما إلى احتمال العود إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، إذا وقع ما يهدد سلامة القناة ؛ وهكذا نرى أن التاريخ قد يعيد نفسه ، وأن أحداث الحرب والسياسة قد تؤثر فى أهمية القناة كطريق للهند والمواصلات الامبراطورية ؛ على أنه إذا شاء القدر أن تفقد مصر طريق الهند مرة أخرى ، وان تغدو القناة فى عرف السياسة والحرب بل وفى عرف التجارة كما مهملا ، فإن مصر تكون آخر من يأسف لضياع هذا الامتياز المحزن ، وإنها لترى فيه يومئذ بشير الخلاص والرضى

محمد عبد الله عنان

هل أسلوب الحكم وحده كاف في تطور الشعب ورقيه؟

للدكتور محمد البهى قرقر

بتطور العلم الطبيعي ومراعاة الحقائق الراهنة والدنو من الواقع تغير مقياس الحكم على النظريات العلمية الفلسفية . فبعد أن كان أساس الحكم عليها تعمق صاحب النظرية في الفكر وتشعب تفكيره فى فروض متعددة وخيالات مظنونه ، أصبح إمكان استخدامها أو عدم إمكانه فى حياة الإنسان العملية ميزان الصحة أو الخطأ فى الحكم على نظرية من النظريات الفلسفية .

ففلسفة العصر الحديث توجه عنايتها إلى الواقع وإلى الناحية العملية والسلوك النفسى للفرد والجماعة أكثر من النظر فيما وراء الطبيعة والبحث عن معنى النفس وهل هى جوهر أو عرض ، أو غير ذلك من الأسئلة التى تحوم حول ماهية النفس وكيفية تركيب الوجود على العموم .

وأسلوب الحكم ونوع النظام الذى تسير عليه أمة من الأمم خضع لهذه القاعدة ، لأنه لا يخرج عن أن يكون عملاً عقلياً له صدى نفسى عملى أيضاً فى تلك الأمة . فهو من أهم موضوعات الفلسفة الواقعية الحديثة ؛ يلقى استحساناً فى كل مكان إذا برهن على يد قائد سياسى إمكان استخدامه والانتفاع به فى الحياة العملية للشعب ، ولكن ربما يكون طالع نحسه فى سوء استخدامه لافى ذاته نفسه .

فالحياة العملية هي فى الواقع محك أية نظرية فلسفية ؛ فإن لم تتفق النظرية معها أو لم تجد نفعاً لهــا فهي إما خيال مفروض أو لم يئن الأوان لها بعد ولم يدن وقت استخدامها ، لا لأنها لم تنضج — فقد تكون فى ذاتها ناضجة — ولكن لأن الحياة العملية للشعب ربما لم تتطور نسبيا بما يدانيها .

فصلاحية نظام أى حكم أو عدم صلاحيته مرتبط بحال الأمة التى ينفذ فيها . وكونه عاملاً من عوامل رقى الشعب يتوقف إلى حد كبير على موقف الشعب العملي نفسه منه ومن مبادئه ، وعلى تأثره به .

وكل أنظمة الحكم فى العصر الحديث تدعى أنها تقصد إلى تحقيق فضيلة خلقية ، يكون من ورائها رفاهية الشعب ورقيه ، وشعور كل فرد بمعنى السعادة .

فالنظام الشيوعى يزعم أنه يريد تحقيق العدالة ومعنى المساواة فى كل ناحية من نواحى الحياة وبالأخص فى الناحية الاقتصادية التى لم يمسها بالتعديل نظام حكم قبله . وحينما كان نظريا لقى أتباعا كثيرين ولا سيما بين الطبقات الفقيرة والعاملة . فلما نزل به زعماؤه فى الحياة العملية وحاولوا تطبيقه أثبت أنه خيال مفروض ووهم لا يمكن أن يساير الحقيقة . ولم ينل الشعب الذى رغب فى الأخذ به من ورائه إلا الفوضى والشقاء . ومع ذلك لم يحكم الشعب نفسه ، وإنما تحكمت فيه فئة قليلة منه ضمنت لها السيطرة بالقوة والعنف، فهو حكم استبدادى لاشعبي .

والنظام الديمقراطي « الهاديء الرزين » ، الذى لا يتشدد فى معنى الوطنية — أو على الأصح الذى لا يعرف وطنا — ، والذي هو مفعم بحب « الانسانية » ، يبني أيضاً الوصول إلى العدل ، يبني إعطاء الشعب حقه بتسليمه مقاليد أمره . وخلابته ـ لأنه يحض على محبة الانسانية والعمل على « السلام » ، وفى الوقت نفسه يتملق الشعب ويدعى أنه فى خدمته ، مع المحافظة على نشاط الفرد المالي ـ لقى أنصاراً عديدين وأضحى أمنية لكثير من الأمم الضعيفة التى لم تزل فى سن الطفولة بعــد خلقها ونشأتها ، لأنها تحب العمل للانسانية المزعومة وتميل للسلام العالمى — بمقتضى ضعفها — وتود أن تخرج عن حكم الفرد أو الهيئة الأرستقراطية

والحياة العملية لمثل هذه الشعوب أصح مقياس للوقوف على حقيقة هــذا النظام وعلى مبلغ حصته فى رقيها ، لأنها تفهم « الديمقراطيــة » فهما ساذجا فطريا ، فهما لغويا لا سياسيا ، فالمعنى السياسى وملكة التلاعب بالسياسة لم تتكون عندها بعــد ، ولأنه ليس من إنتاجها العقلى بل اقتبسته وآمنت به ، فأثره حينئذ ، إيجاباً أو سلباً ، أظهر ، والحكم له أو عليه أصح وأقرب للواقع .

ومصر دولة من الدول الحديثة العهد التي تغرم بالديمقراطية ، ونظام حكمها ينص على أنها « دولة ذات سيادة ، وهى حرة مستقلة وحكومتها ملكية وراثية ، وشكلها نيابى — المادة الأولى من

دستور سنة ١٩٢٣ » ، وهو مظهر لا اعتراض عليه من ناحيته الشكلية والقانونية ، ولا من ناحية ما إذا كانت هناك رقابة أجنبية فعلية ، أو سياسة مجاملة ، تقيد في الواقع بعض الشيء من هذه السيادة ، فالدول الصغيرة تتمتع دائماً من الوجهة الدولية باسم السيادة التامة وإن كانت تسير فى سياستها العملية طبقاً لخطة دولة أخرى ذات نفوذ أكبر تحت ستار « الصداقة » أو « المحالفة » لغرض مزدوج : لوقاية الدولة الصغيرة من اعتداء أجنبي — وما هو في الواقع إلا اعتداء على نفوذ الدولة الكبرى فى سياسة الدولة الصغرى — ولمنفعة الدولة الحليفة الكبرى اقتصادياً وأدبياً فى السياسة العالمية . ولكن الشيء الذى يرغب الآن فى بحثه هو : هل من الممكن بواسطة هذا النظام نقل مصر من حالتها الراهنة إلى حالة أرقى ، وما مبلغ أثره فى تطور الشعب ؟

وبحث هذا يتطلب الوقوف على السلوك العملى للشعب إزاء هذا النظام ، ثم على مقدار استفادته منه . ولبيان السلوك العملى له وموقفه تجاه هذا النوع من الحكم أود أن أقتبس من دستوره بعض المواد التى لها صور عكسية بارزة فى حياة الأمة العملية والتى يقابلها بعض الظواهر النفسية التى لها صفة الأغلبية فى الشعب ، وبعبارة أخرى المواد التى لها مساس كبير بهذا السلوك النفسى .

(١) فى الفصل الثالث من الدستور يقضى أسلوب الحكم بتأليف هيئة شعبية نيابية ، لها صفة الرقابة على القوة التنفيذية بطريق الاقتراع العام . وصاحب الأغلبية فى هذه الهيئة يتولى رياسة تلك القوة .

ومن خصائص الشعب المصرى وألزم صفاته للآن السير وراء العاطفة والرغبة فى التصديق ، والتمسك بالعقيدة ، فهو سريع التأثر بالوعود الخلابة ، وخصوصاً بالتي على وفق رغباته المتخيلة ، لا يضعف تأثره بذلك إرهاب أو اصطدام بالواقع ، وهكذا شأن العاطفة إذا هي احتلت من النفس مكاناً واسعاً ، يكاد يكون لها كل سلطان على السلوك النفسى .

لهذا لم تتحلل نتيجة الانتخاب بعد من أثر الدعاية المنظمة — التى تسير طبق رغبات الشعب — ومن قوة العاطفة الحساسة الخارجة عن الاعتدال التى هى أميل بكثير إما إلى الانفعال والقابلية « فى حالة التصديق » وإما إلى الرفض والمعارضة « فى حالة الجحد والانكار » .

وزيادة على ما للشعب من هذه العاطفة فهو لم تتكون عنده بعد الملكة السياسية ، أو بعبارة أخرى لم تتميز عنده قوة الحكم المبنية على الروية والتفكير من قوة العاطفة الثائرة التى لم تهذب بعد . ولعل ذلك يرجع إلى جهله وتركه مدة طويلة إلى الطبيعة التى كانت تكتنفها عوامل متناقضة .

فالأكثرية النيابية إنما تعبر عن قوة العاطفة المصدِّقة التى تغلب على الشعب وتكون الجزء الأعظم من نفسيته . ولهذا يصح أن يقال إن الحكم الديمقراطى الصادر عن ملكة سياسية والمرتكز على قوة شعبية لا تغلب عليها العاطفة لم يتحقق للآن ، وإن وجد أسلوبه ورسمت مبادئه النظرية .

(٢) ينص الدستور أيضاً على الحرية الشخصية ، على حرية الاعتقاد ، وعلى حرية إبداء الرأى والنقد

(المواد ٤ ، ١٢ ، ١٤) . حرية الفكر والاعتقاد ، حرية إبداء الرأى والنقد يتمتع بها إذن ، قانونياً ، كل فرد يعيش فى مصر . والمصرى طبعاً يفكر ويبدى رأيه وينتقد ككل إنسان لأن هذه معان عامة ، ولكن طريقته فى التفكير وفى إبداء الرأى وفى النقد ربما تنم عن فهم آخر لمعنى الحرية فيها : تنم إما عن سوء فى الفهم أو قصر فى إدراك ما هى الحرية فى شيء من الأشياء ، وربما لم يفهم بعد أن الحرية معنى محدود غير مطلق ، حرية فى شيء مقيدة بجواز استعمال شيء آخر ربما يكون مضاداً للأول ونقيضاً له .

حرية التفكير ما زالت تستخدم فى مهاجمة الدين وجرح العاطفة الدينية للشعب ، بل أظهر صورها التهكم بمعقدات الأمة والسخرية بعاداتها ، حرية إبداء الرأى تستعمل فى الخروج عن المألوف للأمة والاستخفاف بما هو مقدس عندها ، حرية النقد سبيله العملى جرح الكرامة الشخصية أو الجدل للجدل فى غير طائل .

حرية التفكير ، حرية إبداء الرأى وحرية النقد حق سام من حقوق الشعوب المتمدينة ، ولكنه لا يصح أن يتخذ أداة للهدم ،

فوظيفته يجب أن تكون إيجابيـة لا سلبية . جعلته بعض الدول الراقية حقاً شرعياً لأفرادها بعد ماشعر الشعب من نفسه بقدرته على كظم شهوته العقلية وحاجته إلى تقرير ذلك ضد حاكم مستبد أو ابتغاء المساواة بالفئة الارستقراطية التى كفلت لنفسها هذا الحق منذ زمن بعيد .

فتقرير حرية الفكر وإبداء الرأى والنقد لكل فرد من أفراد الشعب حق إنسانى فطرى جميل ، وأجمل منه استعداد الشعب وإعداده لاستخدام ذلك فى طريقه الطبيعي وتشريعه له من نفسه ، لا إعطاؤه له منحة أو فرضه عليه فرضاً ، فالطفل إذا ما أفسح له الطريق ربما يلقى حتفه فى هاوية .

(٣) كذلك المساواة أمام القانون . المساواة فى وظائف الدولة مبدأ شريف نصت عليـه المادة الثالثة من الدستور المصرى ، (المصريون لدى القانون سواء ، وهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية . . . . .)

المساواة فى الحقوق العامة مزية من مزايا الحكم وظاهرة من ظواهر عدله ، ولكن أساس التفضيل وقاعدة الاختيار لوظائف الدولة فى الأمم الراقية الجدارة الشخصية وإمكان القيام بالواجب نحو الأمـة ؛ ومقياس تلك الجدارة الانتاج العملى لا الهوى الحزبى ؛ وما شرعت المساواة وجعلت حقاً من حقوق الشعب إلا لافساح المكان للجدارة والكفاية لا للنسب والعائلة . وكلما كان الشعب إلى الفطرة أقرب كانت لعلاقة النسب والقرابة فى التمييز بين فرد وآخر وتخصيصه بمنصب من مناصب الدولة الكبرى الأثر الأول ، لأن قوة الحكم فى الشعب حينئذ ما زالت تعتمد على العصبية ، فإذا ماتطور الشعب بعوامل التهذيب جعلت القاعـدة فى الاختيار والتفضيل الكفاية الشخصية وتنوسيت عصبية القرابة الضيقة ، لأن مجموع الشعب أصبح حينئذ يعتبر كمجموع أفراد لعائلة واحدة .

ومن هنا تغلب الظاهرة النفسية التى تسمى « المحسوبية » ـ والتى تعد مرضاً اجتماعياً خلقياً فى الشعب ـ فى الشعوب الفطرية أو فيما هى أقرب إليهـا وإن اتخذت أحدث الأساليب فى نظام الحكم ، فإذا كانت هذه الظاهرة متفشية الآن فى مصر ـ وستبقى متفشية فيها مهما شرع ضدها من قوانين ، لأن علاج ذلك ليس بسن قانون وتشريع وإنما بتهذيب الشعب نفسه ـ فذلك لأن الشعب المصري مازال يعتبر قاعدة الجدارة فى الاختيار فى المنزلة الثانية .

فالمبادئ الأساسية التى هي مظهر الحكم الديمقراطي ، من تمثيل نيابى وإعلان حرية الفكر وإبداء الرأى والمساواة أمام القانون والتمتع بالحقوق السياسية والدنية لكل فرد مصرى أو متمصر ، موجودة فى أسلوب الحكم المصرى الحديث ، ولكن مظاهر الحياة الواقعية للشعب تدل على أن سلوكه العملى منحرف عنها وموقفه تجاهها سلبي . وبالرغم من ذلك فهل يترقب لهـذا النظام أثر إيجابي حتى يكون كفيلا بتغيير هذا الموقف وبترقية الشعب ؟ .

لا يجحد أن تمشى الحكم مع هذه الأسس من العوامل التى تشعر الفرد باستقلاله وحريته وتؤمنه على حياته الفردية وتفسح المجال لجده وذكائه . واستقلال الفرد وإفساح المجال لجده ومواهبه من أسباب رقي الأمة كمجموعة متكونة من أفراد تربطهم روابط عدة ، طبيعية وثقافيـة ، ولكن هذه النتيجة الايجابية مقيدة بتنفيذ هـذه الأسس وبفهم الشعب لها فهماً صحيحاً ، والتنفيذ والفهم كلاهما ليس حاصلا لأى أسلوب من أساليب الحكم ، وإنما هما مقدمة من مقدمات نجاح الحكم نفسه وعادة تتكون بالمران فى نفسية الشعب .

فأسلوب الحكم نفسه لاينتج عادة وإنما يرعى العادات . فى ظله تتكون عادات ذات أثر إيجابى أو سلبى فى رقى الشعب أو انحطاطه . وتكون العادات الحسنة سبيله الوحيد التربية والتهذيب . فاذا استقر فى نفس الشعب حب الحرية وفهمها فهماً صحيحاً ، إذا عرف معنى المساواة ، كان عمله طبق ذلك الفهم وهذه المعرفة ، وكانت خطواته دائماً إلى الأمام ؛ وما أسلوب الحكم الديمقراطى حينئـذ إلا مظهر خارجى فقط لمعنى نفسى مستقر ، طبيعى أو مكتسب .

فالشك إذن محوط بنظام الحكم وبنتائجه الايجابية فى رقي الشعب كعامل أول فى تطور الأمم . ولكن الأمر الذى لامرية

فيه هو عامل التربية التى تنفذ إلى نفس الفرد والجماعة وتكيفها حسبما تختط الأمة لنفسها .

فاذا لم يرب الشعب الضعيف المستعبد على حب الحرية والمطالبة بالاستقلال ، لم يشعر بمعنى الحرية وبمزايا الاستقلال إذا ما تركته القوة المستعمرة وخلته ونفسه ، بل بالعكس لا يطل من هذا الاستقلال إلا الفوضى وعدم استقرار النظام حتى يتحكم فيه نفر من الشعب نفسه ويسوسه بالقوة والعنف ويومئذ يشعر بحكومة وبنظام .

فاذا قدر للنظام الديمقراطى فى أمة لم تتكون عندها بعد الملكات الاستعدادية له أن يكون ذا نتيجة إيجابية فى تطور الشعب فلن تلمس إلا بعد زمن طويل وجهد شاق يقوم به زعيم مترسم لبرنامج معين مقصود . ومع ذلك يصح أن ينسب هذا التطور إلى الزعيم كرب اجتماعى لا إلى الحكم الديمقراطى من حيث هو .

فالنظام الديمقراطى فى انكلترا مثلا ليس نظاما موضوعا ولا مواد دستورية مفرغة فى الصيغ القانونية ، وإنما هو نظام يحس به الشعب وقد خلقه من نفسه خلقا ، وتكون كنتيجة لازمة لأسلوب مخصوص فى التربية ، ولعادات مخصوصة لها بطول الزمن قوة الملكات الفطرية .

والشعوب الأخرى التى تحاول تقليد الدستور الانكليزى ولم يكن لها بعد ما للشعب الانكليزى من الاستعدادات والملكات السياسية لاتستفيد من هذا التقليد إلا التخبط وعدم الاستقرار . وما أشد عنايتها حينئذ بالصيغ الدستورية ، وما أكبر ولعها بالترنم بأغانى الدستور والتشدق بمواده ، أما الشعب نفسه ، أما مصالحه ، فأمر ثانوى يأتى بعد تنفيذ نصوص الدستور ، كأنما الشعب خلق للدستور لا أن الدستور وجد لخدمة الشعب ورفاهية الأمة . ما ذلك إلا لأن التقليد فيما يسمى « دستوراً » لا فيما يقصد من الدستور ، فى مظهر من مظاهر المدنية لا فى : كيف تتكون المدنية . بينما الشعب الانكليزى نفسه أو أى شعب آخر كون له دستوراً من نفسه لا يلقى الأهمية إلا على : ما ذا يقصد من الدستور . وهكذا الضعف يخلق صفة الأمانة والإخلاص فى المظاهر فقط ، فما أشد الأمم الضعيفة تمسكا بنصوص ما يسمى قوانين دولية ، وما أخلص الفقهاء للنصوص الفقهية ـ لا للروح الفقهية ـ فى وقت الضعف وانحطاط مستوى الانتاج العقلى .

لحرية الفكر وحرية إبداء الرأى والمساواة أمام القانون — أو بعبارة أخرى الدستور نفسه — معان تغرس فى النفوس ويروض عليها الشعب الفطرى أو ما هو قريب منه حتى يقيد حريته الهوجاء التى لا تعرف حرمة للغير ولا للجماعة ، وحتى يحد كل فرد من جشعه وأنانيته ، ويومئذ توجد الحرية الصحيحة وتستعمل فى موضعها وتتحقق المساواة أمام القانون فعلا .

فالدستور قبل كل شيء معنى خلقى أو هو يرتكز على الأخلاق التى تأخذ صبغتها الوطنية ، وما أحوجه لذلك فى ثباته واستقراره إلى الدين والتدين . فكلما اشتد ميل الشعب الديني ازداد تمسكه بالدستور ، وكلما تحللت حكومة من الحكومات من دينها كان حكمها إلى الديكتاتورية أقرب . وهل هناك في التاريخ الحديث من هو أشد تدينا وأعرق في الدستور من الشعب الانكليزى والحكومة الانكليزية ؟

وإذن أولى بمصر أن تعنى بدينها وخلقها وبتنشئة شبابها على التربية الوطنية من أن تجري وتتعلق بمظاهر نفعها — إن كان فيها نفع — محدود ، أولى بها أن تنظر فيما يخلق الشعوب ويبنيها لا فيما يظهر عليها من أثواب ويكون لها من ألوان !

محمد البهى قرقر
دكتور في الفلسفة وعلم النفس
وعضو بعثة الامام الشيخ محمد عبده

من تاريخ الأدب المصري

أحمد بن يوسف

المعروف بابن الداية

للأستاذ محمد كرد علي

كان والده من جلة كتاب الدولة الطولونية انتقل من بغداد إلى مصر ، وكان من أهل المروءات والفضل ، ونشأ ابنه أحمد في مصر كاتباً فصيحاً وشاعراً مجيداً ، وحاسباً منجماً . وأصل آبائه من أقباط مصر على الغالب ، وكان جدهم الأول سميه أحمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون . ولأحمد هذا المعروف بابن الداية ثلاثة وعشرون مصنفاً فقدت ولم يبق منها فيما نحسب سوى قطعة من « كتاب المكافأة وحسن العقبى » تدل على علو كعبه في البلاغة وقد أثبت في كتاب المكافأة أخباراً في المكافأة عن الحسن والقبيح مما شاهده في عصره ، وذكر قصصاً شهدها أو نقلت إليه عمن أحسن إلى إنسان فكوفئ على إحسانه ، وساق في المكافأة على الحسن إحدى وثلاثين قصة ، وفي المكافأة على القبيح إحدى وعشرين قصة ، قال في آخرها : وإذ قد وفينا ما وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح ما رجونا أن يكون ذلك عوناً للاستكثار من مواصلة الخير ، وتطلب المعارفة في الحسن ، وزجر النفس عن متابعة الشر ، وإبعادها عن سورة الانتقام في القبيح وقد قالوا : الخير بالخير والبادى أخير ، والشر بالشر والبادى أظلم — رأيت أن أصل ذلك حفظك الله بطرف من أخبار من ابتلى فصبر ، فكان ثمرة صبره حسن العقبى ، وأخبار حسن العقبى تسعة عشر خبراً سقط بعضها فيما يظهر

قال من أخباره : « حدثنا أحمد بن أبي يعقوب قال : أنكر المهدي على هرثمة بن أعين (من أكبر قواد بني العباس) تحككه بمعن بن زائدة وأمر بنفيه إلى المغرب الأقصى . فكلمه الرشيد فيه واستل سخيمته عليه . ومات معن . وزادت حال هرثمة ، وشكر للرشيد ما كان منه . وأفضت الخلافة إلى موسى الهادي فتمكن منه هرثمة . وحدثت الهادي نفسه بخلع الرشيد ، وجمع الناس على تقليد ابنه العهد بعده ، وعلم بهذا هرثمة ، وتذكر عارفة الرشيد فتمارض . وجمع الهادى الناس ودعاهم إلى خلع الرشيد ونصب ابنه مكانه فأجابوه وحلفوا له ، وأحضر هرثمة فقالوا له : تبايع ياهرثمة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين يميني مشغولة ببيعتك ، ويساري مشغولة ببيعة أخيك فبأي يد أبايع ؟ والله يا أمير المؤمنين لا أكدت في الرقاب من بيعة ابنك أكثر مما أكده أبوك لأخيك في بيعته . ومن حنث في الأولى حنث في الأخرى . ولولا تأول هذه الجماعة بأنها مكرهة وإسرارها فيك خلاف ما أظهرت لأمسكت عن هذا . فقال لجماعة من حضر : شاهت وجوهكم ، والله لقد صدقني وكذبتموني ، ونصحني وغششتموني . وسلم إلى الرشيد ما قدره الهادي فيه »

قصة ثانية : « حدثني هرون بن بلال قال حدثني ياسين بن زرارة قال : كان ببعض أرياف مصر نصراني من أهلها كثير المال فاشي النعمة سمح النفس ، وكانت له دار ضيافة ، وجرايات واسعة على ذوي الشعر بالفسطاط . فهرب من المتوكل رجل كني عن اسمه لخطر منزلته ، لميل كان من المنتصر إليه ، فلما دخلها رأى فيها كثيراً من أهل بغداد ، فخاف أن يعرف فنزع إلى أريافها ، فانتهى به المسير إلى ضياع النصراني فرأى منه رجلا جميل الأسر ، وسأله النصراني عن حاله ، فذكر أن الاختلال انتهى به إلى ما ظهر عليه . فغير هيئته ، وفوض إليه شيئاً من أمره ، فأحكم فيما أسند إليه واضطلع به . ولم يزل حاله يتزايد عنده حتى غلب على جميع أمره ، وقام به أحسن قيام ، فكان محل الرجل الهارب من النصراني بفضل كلما ذهب له

« وورد على النصراني مستحث بحمل مال وجب عليه . (وسأله) النصراني عن خبر الفسطاط فقال : ورد خبر قتل المتوكل وتقلد المنتصر . ووافى رسول من المنتصر في طلب رجل هرب في أيام المتوكل يعرف بفلان بن فلان ويوعز إلى عمال مصر والشام بأن يتلقوه بالتكرمة والتوسعة فيلحق أمير المؤمنين في حال تشبه محله عنده . فعدل النصراني بالمستحث إلى بعض من أنزله عليه ، وخلا الهارب بالنصراني فقال : أحسن الله جزاءك ، فقد أوليت غاية الجميل وأحتاج إلى أن تأذن لي في دخول الفسطاط فقال : يا هذا إن كنت استقصرتني فاحتكم في مالي . فإني لا أرد أمرك

ولا أزول عن حكمك ؛ ولا تنأ عنى ، فقال له : أنا الرجل المطلوب بالفسطاط وقد خلّفت شملا جمًّا ، ونعمة واسعة . إنما عدل بى الخوف على نفسى . فقال له : ياسيدي فالمال فى يدك وما عندك من الدواب فأنت أعرف به منى فاحتكم فيه ، فأخذ بغالا وما صلح لمثله ، وخرج النصرانى معه . وقدم كتاباً إلى عامل المعونة من مستقره ، فتلقاه عامل المعونة فى بعض طريقه ، ووصاه وجميع العمال بالنصرانى ، وصار إلى الحضرة فأصدر اليهم الكتب فى الوصاة به إلى أن قدم بعض العمال المتجرة فتتبع النصراني ورام الزيادة عليه فخرج إلى بغداد

« قال لى هرون إن ياسين قال له : إن النصرانى حدثه أنه دخل إلى بغداد فلم ير بها أدنى محلا ، وأكثر قاصداً منه ، ثم استأذنت عليه وعنده جمع كثير فخرج أكثر غلمانه حتى استقبلونى فلما رآنى قام على رجليه ثم قال : مرحباً يا أستاذى وكافلي والقائم بى حين قعد الناس عنى . وأجلسنى معه وانكب على ولده وشمله ، وأنا أتأمل مواقع الاحسان من الأحرار ، وسألنى عن حالى في ضياعى فأخبرته خبر العامل ، وكان أخوه فى مجلسه فنظر إليه من كنا عنده ، وقال له : كنت السبب فى تقليد أخيك فصار أكبر سبب فى مساءتى ، فكتب من مجلسه كتاباً إليه بجلية الخبر وأنفذه . وأقمت عنده حولا فى أرغد عيشة وأعظم ترفه . وورد على كتب أصحابى تخبرونى بانصراف العامل عن جميع ما كان اعترض عليه فى أمرى . وأخرج أمر السلطان في إسقاط أكثر خراج ضياعى والاقتصار بى على يسير من مالها . قال ياسين فكتب النصرانى ببغداد حجة أشهد فيها على نفسى أن أسلمه فى جميع الضياع التي فى يده (وسماها وحددها) لهذا الرجل الذي كان هرب، وصار بها إليه ، فقال له : قد سوغك الله هذه الضياع ، فانى أراك أحق بها من سائر الناس ، فامتنع الرجل من ذلك وقال له : عليك فيها عادات تحسن ذكرك ، وترد الأضغان عنك ، ولست أقطعها بقبض هذه الضياع عنك . ورجع النصراني إلى الفسطاط فجدد الشهادة له فيها . فلما توفى النصرانى أقرها فى يد أقاربه ، ولم يزالوا معه بأفضل حال »

محمد كرد على

ظاهرة هامـــة

للأستاذ عبد المغنى على حسين

يروى كثير من الناس عن بعض الذين ماتوا من أقربائهم أو أصدقائهم ، أن هؤلاء ، عند ماحضرهم الموت كانوا يهتفون بأسماء بعض الذين سبقوهم إلى الدار الآخرة . ويروى الراوون أن المحتضر كان يتحدث إلى (الموتى) كما لو كانوا منه على مرآى وعلى مقربة . أما قول الناس فى تعليل ذلك فهو أنه هذيان نتيجة اختلال الشعور . وبعض الناس يسلم بالعجز عن تعليل هذا الأمر . والجميع يعرفون بالتجربة أن المريض إذا (نادى على الأموات) على حد قولهم ، فقد تحقق دنو أجله ، ولم يعد ثم أمل فى تماثله .

هذه الظاهرة معروفة مشهورة فى بيئتنا المصرية ، ولا أحسب القارئ الكريم إلا قد سمع بها ، إن لم يكن شهدها بنفسه . ولكن أرجو ألا يحسبها قاصرة على البيئة المصرية ، أو على أية بيئة معينة ، فالواقع أنها شائعة فى العالم أجمع ، ومعروفة بين بنى البشر على اختلاف جنسياتهم وألوانهم ومدنياتهم ودياناتهم . وهى ، بالنظر لشيوعها هذا ، خليقة أن تسترعى اهتمام الباحث المفكر ، سيما وأنها تتصل بذلك السر الأعظم : الموت . هذه الظاهرة قد استرعت فعلا اهتمام من اشتغلوا بالبحوث الروحية ، وهى عندهم عظيمة الدلالة ، الخطر .

أمامى الآن كتاب أخرج فى عام ١٩٢٥ ، لأحد كبار الباحثين الروحيين من الانجليز ، هو سر وليم باريت ، عضو الجمعية الملكية البريطانية (T.R.S) ، وفى هذا الكتاب دراسة مستفيضة لتلك الظاهرة الشائعة ، ومن يتصفحه ير كيف يمكن أن يصل الباحث إلى نتائج خطيرة من ظواهر مشتتة لاتحمل فى ظاهرها دلالة ولا قيمة علميـة . عمد الباحث المذكور إلى دراسة هذه الظاهرة دراسة استقرائية على طريقة العلم الحديث التي بلغت به مابلغ . تلك الطريقة القائمة أولا على شهود أكبر عدد ممكن من الظواهر ، ثم وصف تلك الظواهر بدقة وتفصيل وصدق ، ثم المقارنة بينها وملاحظة ما فيها من عناصر مشتركة ، ثم استنتاج ما يمكن استنتاجه . ويأتى بعد ذلك استنباط التجارب

للوقوف على مبلغ صحة هذا الاستنتاج .

لجأ سروليم باريت إلىَ أصدقائه من أطباء ومديري ا! تشفيات الكبيرة فى مدينـة لندن ، طالباً تمكينه من زيارة من تحضره الوفاة من المرضى كلما سمحت الظروف وسمح ذوو المريض فحضر بنفسه عدداً كبيراً من الحالات ، ودون ما شاهده وسمعه ، وكانت تعاونه فى هذا العمل زوجته « ليدى باريت » . وكتب أيضاً إلى أصدقائه من أطباء المستشفيات فى عدد كبير من مدن العالم راجياً موافاته بوصف ما قد يعرض لهم من هذا الأمر . وبذا تم له جمع عدد كبير من تلك الحالات ، رتبها وبوبها ، وقدمها لجمعية البحوث الروحية بلندن Society of Psychical Research ثم أذاعها على ملأ القارئين فى هذا الكتاب

فى الكتاب وصف دقيق لكل حالة ، وبه الأسماء والأمكنة مذكورة ، وكذا الزمن باليوم والساعة والدقيقة . أما المحتضر فقد يكون رجلا أو امرأة ، شيخاً أو شاباً أو طفلا ، وقد يكون انجليزياً أو أوروبياً أو أمريكيا أو هندياً أو زنجياً ، وهو فى أكثر الحالات يعاني آلاما جساما ، ووجهه متجهم ، فاذا به ينسى ألمه برهة ، ويتهلل وجهه ويقول : « ماذا أرى ؟ هذا أنت يا فلان . لقد جئت لتستصحبنى . . . » أو نحو ذلك من الكلام

ولكن لو اقتصر الأمر على مثل هذا لما كان له كبير وزن من الوجهة العلمية ، إذ من الممكن القول بأن المريض وقد برحت به العلة ، وتسممت أعصابه ، واضطربت دورة الدم فى مخه ، قد اختلط عقله ولم يعد يفرق بين الحقيقة والخيال ، وصار سواء عنده الشعور الذى يصل الى مخه بالطريق المعتاد من الخارج والشعور الذى ينبعث من عقله الباطن ، فالذكريات القديمة تتمثل له فى شكل حقائق راهنة مصطبغة بالمشاعر المستولية عليه ، فهو من هذه الوجهة كالنائم إذ يحلم بالفكرة كأنها شئ محسوس . ولكن الكتاب لا يحوى هذا الضرب من الحالات فقط ، بل به مجموعة أخرى هى بيت القصيد ، وهى النقطة الدقيقة حقاً التى عندها يرغم الانسان على التفكير الجدى فى أن كلام المحتضر لا يمكن أن يكون محض هذيان .

فى الكتاب حالات هتف فيها المحتضر باسم شخص مات ولم يكن المحتضر يعرف أن ذلك الشخص قد مات ، فكان يبدو عليه التعجب لوجود ذلك الشخص بين (الأموات) مع أنه — في زعمه — بين الأحياء . يكون المحتضر مثلا قد دخل مستشفى منذ شهر أو أكثر ، وفى تلك الأثناء توفى فجأة واحد من أقربائه ، فكتم الأهل والأطباء عنه الخبر حتى لاتسوء حاله الصحية بتأثير الصدمة والحزن ، فتأتي ساعة احتضاره فاذا به يحدث بعض الذين ماتوا من قبل ، وبينا هو يحدثهم إذا به يقول مندهشاً « ما هذا ؟ أهذا أنت يا فلان ؟ ! وما الذى جاء بك مع هؤلاء ، وكان يجب أن تكون فى جهة كذا الآن ؟ . . . » ثم ينظر إلى الحاضرين ويقول « لماذا لم تخبرونى بأن فلاناً قد سبقنى ، فهاهو ذا قد جاء ليستصحبنى . . . » أو نحو ذلك من الكلام .

وإنى أورد هنا حالة من تلك الحالات اخترتها لا لأنها مؤثرة بل لأن فيها جميع العناصر التى يطلبها الباحث : طفلة فى الثامنة من عمرها تدعى جينى ، لها صديقة فى نحو سنها تدعي أديث . مرضت جينى ونقلت إلى مستشفى ، وفى أثناء مرضها توفيت أديث فجأة ، وكتم الخبر عن جينى ، فلما جاء الموت يطلب جينى رجت الحاضرين أن يبعثوا بصورة من صورها إلى أديث كتذكار ، مما يثبت أن الخبر كتم عنها حقيقة . وبعد دقائق من رجائها هذا قالت : « انظروا ! هذه هى أديث . إنها تقول إنها ستكون معى . لماذا لم تخبرونى بذلك . . . »

تدل ظواهر هذا النوع من الحالات على أن المحتضر يدرك تماماً أن في الحجرة معه طائفتين من الناس ، الطائفة المعتادة من أهل هذه الدنيا ، وطائفة أخرى من أهل العالم الذى هو قادم عليه ، والطائفة الثانية لا تقل عنده عن الأولى وضوحاً ، وليست أبعد عن حسه من الطائفة الأولى .

يقول المؤلف : « إن مثل هذه الحالات تضطر الانسان إلى التسليم بالغرض الروحى ، حتى أن البروفسور شارل ريشيه لم يجد بداً من التسليم بأن نظريته عن الحاسة السادسة لا تكفى لتعليل هذا النوع من الظواهر . . . » (١)

وفي الكتاب أبواب فيها وصف موسيقى سمعت ساعة احتضار بعض الناس دون أن يكون لها مصدر عادى معروف . وبهذه المناسبة أقول إن بعض من أصدقهم روي لى أنه حضر

(١) البروفسور شارل ريشيه أستاذ فرنسى مشهور ، من علماء الفسيولوجيا ، توفى منذ بضع سنين ، كان يشتغل بالبحوث الروحية ويفسر أكثر ظواهرها بافتراض حاسة سادسة للانسان أسماها Cryptethesia

اتجاهات الأدب العالمي في العصر الحاضر

وكيف يتجه أدبنا (١)

للأستاذ خليل هنداوي

أيها السادة

في هذه الجلسة أحدثكم حديثاً أراد البعض أن يكون جديداً ، أو أنا نفسي كنت ولا أزال أطلب الجديد وألح في طلبه وأردد بيت الشاعر الزهاوي :

سئمت كل قديم ... حتى سئمت حياتي
إن كان عندك شيء ... من الجديد فهات

ولكن أنى لي أن أعرف حدود هذا الجديد الذي تريدونه وأريده ؟ وأنى لي أن أعرف الرجل الذي يستطيع أن يدلني على الجديد الذي يبغيه ؟ إنني ما فكرت يوماً في هذا الجديد إلا ذكرت قول حكيم الجامعة : « لا جديد تحت الشمس » ومع هذا أراني كلما استقبلت هذه الشمس وما تحتها رأيت شيئاً جديداً ، وما أضيق الحياة لو بقيت حدودها ماثلة لا تتزحزح كما تراها العين !

إني محدثكم حديثاً أرجو ألا تقيسوه بمقياس الجديد ، لأننا لا نملك مقاييس صحيحة تفرق بين الجديد والقديم ، فقد تعثرون في هذا الحديث على قديم وجديد . وليس هذا كل ما يهمني ، وإنما همي أن أوجه عقولكم إلى « نصيب الأدب في حياة الأمم الحاضرة وحياتنا » ومتى ذكر الأدب هرعت وراءه صفوف من الذكريات لا تعد ، أو احتشدت حوله جحافل من حياة الناس لا تحصى ، لأن حديث الأدب هو حديث الحياة ، ومتى كان حديث الحياة تافها ؟ ومتى كان حديث الحياة يرويه رجل أو يحكم فيه رجل ؟

قد يقول البعض : ولم اخترت هذا الحديث الذي إن خص بعضنا فلن يرضي عنه الجل ؟ وما هو نصيب الأدب في الحياة الحاضرة حتى تحدثنا عن اتجاهاته وعهدنا الحاضر عهد علم ومادة ، لا عهد بضائع كلامية ؟

إنني لا أري رأى من يقول باندحار سلطان الأدب ، لأن الأدب ، أو قولوا الفن ، ليس بشيء غريب عن كياننا ، ولا بعنقاء مغرب نحلق وراءها ونريد صيدها ، ولا بثوب نرتديه ونطرحه متى نشاء . وأنى لنا أن نهمل الأدب إذا كان الأدب جوهراً كامناً في صميم أنفسنا ، أو إذا كانت الحاجة إليه حاجة نفسية تأتي من داخل النفس لا من خارجها ؟

ويقول البعض : ونحن لا نجحد قيمة الأدب ولكننا لا نجد فيه ألهوة تنفي سأمنا وتملأ فراغنا حين ننتهي من جدنا . نتخذه مسلياً لا قائداً يتصرف بأمورنا ، ولكن هذا الأدب قد يكون ضرباً من اللهو يتفكر به قوم قل جدهم ولكن ليس الأدب كله . وكيف يكون الأدب الذي يمثل حياة الناس ويصور هناءهم وشقاءهم ، وحيرتهم وظمأ نيتهم ، ثم يأتي المجتمع يحاول أن يهدم هنا ، ويبني هنالك ، كيف يكون هذا الأدب لهواً تلهون به في فراغكم وهو الأدب الذي ينفذ إلى النفس فيجردها من خرقها الرثة وينشيء لها حياة جديدة وجواً جديداً ؟ وإذا كانت رسالة العلم ، أن تقرب وسائل الحياة ، وتنوع أسباب الرفاه والراحة فإن رسالة الأدب من حياة الأمة رسالة تثقيف الروح وتهذيب

موت شاب في ريعانه فسمع مع الحاضرين (زغردة) انبعثت من أحد أركان الحجرة ، ولم تكن صادرة بطبيعة الظروف عن أية واحدة من الحاضرات .

وبعد فلعل القارىء الكريم يسلم معي بما لهذه الظاهرة وأشباهها من دلالة ، وبأنها تفتقر فقط إلى الدراسة المنظمة . أما من وجهة الدين فهناك الأقوال بأن المحتضر يرى أرواح الموتى ويحادثهم : روى أن بلالاً كان يبتسم عند الموت ، فقيل له في ذلك فقال « سنلقى الأحبة محمداً وحزبه » وروى ابن مالك عن أبي أيوب الأنصاري قال : « إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من عباد الله كما يتلقون البشير في الدنيا ، فيقبلون عليه ويسألونه ، فيقول بعضهم لبعض : أنظروا أخاكم ليستريح فإنه كان في كرب شديد . قال : فيقبلون عليه ويسألونه ما فعل فلان ، ما فعلت فلانة . . . » الحديث .

عبد المغني على حسين

---

(١) نص المحاضرة التي ألقاها الأستاذ في بيروت في قاعة محاضرات كلية المقاصد الخيرية الاسلامية بناء على دعوة جمعية خريجي الكلية

النفس وصقل العقل . رسالة تنزل منها منزلة الايمان ، رسالة لايستطيع العلم أن يقوم بها وحده . وما وحّد علم بين أبناء وطن واحد ، ولكن الأدب وحد ويوحّد !

أما حاسة الارتياح إلى الأدب والفن أو حاسة تذوقهما فهى حاسة جذورها بعيدة القرار فى النفوس . هذه الحاسة تدفعنا بالرغم منا ، وبدون وعى منا إلى أن نطلب الموسيقى مثلاً لأن نفوسنا تحن إليها ، وإلى أن نغتبط بمطالعة قصة أو انشاد قصيدة تمثل نفوسنا برغم المادة التى ترين على قلوبنا . هذه الحاجة هي ميزان أذواقنا وميولنا ، لاشئ يقدر على إخمادها ، والذهاب بها . ناهيك بأن كثيراً من هذه الأنواع الفنية والأدبية ماتتصل أسبابه مباشرة بأسباب حياتنا الاجتماعية ، وان الأديب الذى لايشعر بهذه الحاجة التى تسوقه إلى الكتابة لايستطيع أن يبدع شيئاً ، أو الفنان الذى لايحس هذا الدافع فى نفسه لايقدر أن ينشىء شيئاً !

كانت المقاييس التى توجه الأدب والفن أيها السادة مقاييس فنية تستلهم صدقها ودقتها من الأدب والفن نفسها . عودوا مثلاً إلى الأدب الفرنسى وانظروا كيف يدرسه الطلاب على مقاييس فنية صرفة ، أما اليوم فقد تبدلت المقاييس وأخذت مقاييس المبادئ الاجتماعية والسياسية تطغى عليه . وبحسب هذه المقاييس تغيرت اتجاهات الأدب والفن ، وتطورت غاياتهما فى الجيل الحاضر . وتعليل ذلك أن الأدب كان يحيا منكمشاً بنفسه يصف الجمال للجمال ، ويرسم الفن للفن ، ويقنع بأن يطل على الحياة إطلالاً ، ويعمل على إكبار شأن الفرد ويجعل الأديب نفسه قلب الوجود تتلاقى فيه الاشياء أكثر مما يتوزع فى الأشياء . وأما اليوم فقد خرج إلى الحياة ، وإلى المجتمع وإلى السياسة . فأصبحنا ندرس الأدب على هذه الطريقة .

من الأدب الأدب الذى لا غاية له إلا نفسه . يتغنى الشاعر مثلا لأنه يريد أن يغني لنفسه ويسمع ألحان نفسه ؛ ومن الأدب الذى نزل إلى المجتمع وخبر خلائق النـاس وعالج الحياة ؛ ومن الأدب الذى تفيأ ظل الدولة والسياسة والأحزاب . أما الأدب الأول في إمكاننا أن ندعوه «الأدب الارستقراطي» لأن الأديب فيه لا يعمل إلا لنفسه ؛ أو لفئة نزرة العدد تعجب به ؛ فهو من نفسه فى عالم واسع المدد منفصل عن هذا الوجود ، والأدب الثانى ندعوه « الأدب الديموقراطى » يعنى بالطبقة الوسطى ويعالج مسائلها ويصور آلامها ويقلب وجوه حياتها ؛ والأدب الثالث ندعوه « أدب الأزمة » تخلقه أزمة اجتماعية كأدب الثورة الفرنسية ، وأدب الثورة البلشفية الحمراء ، أو تبدعه أزمة سياسية كأدب الحرب العظمى الذى صور فظائع الحرب وجوها المكفهر ، وأدب الفاشية الايطالية ، والهتلرية النازية . أو تخلقه أزمة عصبية أو دينية أو اقتصادية . وقد يقوم أدب على غير هذا الغرار يتجرد من كل هذه العوامل الضيقة ، عوامل الزمان والمكان ، أدب شامل إنسانى يعانق الانسانية من أقصاها إلى أقصاها على اختلاف شعوبها ونزعاتها . ولكن حدث هذا الأدب يقوى في أيام البلاء ويخف في أيام الهناء ، لأن الشقاء يقرب الضعيف من الضعيف ! حتى إذا استراح الاثنان عادا إلى نزاعهما الذى لا ينتهى

ومن ذا يتأمل فى أدب اليوم ولا يجده ميدان صراع فى كل بقعة من بقاع الحضارة ؟ فأدب الأمم الديمقراطية يذود عن الديمقراطية ويدافع عن حرية الفرد بما فى وسعه أن يدافع ، لأنه يعلم أن تقييد الأدب هو نوع من القضاء على حريته التى لا يحيا إلا بها . هذه الحرية يتباهى بها لأنه يراها مستمدة من حرية الحياة التى لاتضيق ، وأدب الأمم الدكتاتورية يصول صولة أربابها ويفرض على الناس نفسه ، فبينا نرى فى الأدب الديمقراطي كل فرد يفكر وحده تفكيره الخاص ، له استقلاله وذاته وعالمه واعتقاده ، نرى فى الأدب الدكتاتورى أن الفرد الواحد يفكر تفكير الأمة كلها ، وأن الأمة كلها تفكر تفكير هذا الفرد . وخير ممثل للأدب الحر المدرسة الأدبية الفرنسية التي لا تزال تحترم مبدأ ثورتها الذى أعلن حرية الفرد وزاد عنها . ولعل الوضع السياسى الذى خرجت به من الحرب العظمى أيد هذا الأدب ، ولم يزج بها في أحضان الآداب الأخرى التى ولدتها الأزمات المختلفة . وفى هذه المدرسة تجد ألوان الأدب والتفكير متآلفة على اختلافها ، فيها الأدب الفردى والأدب الاجتماعي والأدب الانسانى والأدب الشعبي والأدب الشيوعى ، ولكن

هذا لا يجعلنا نقول: إن مقاييس أدبها وفنها لم تختلف، فلقد تبدلت المقاييس الفنية، وكاد يحل محلها مقاييس تتبع النظريات السياسية والاجتماعية، ولكن محمة هذه المدرسة أنها وسعت كل هذه الألوان المتقاربة، وهذه المبادىء المتنافرة، وتقبلتها كلها باسم الديمقراطية . . .

إن أدب الأمم الدكتاتورية يسعى كما توجهه الديكتاتورية ضيق الفسحة، قريب الغاية، سليب الحرية، لأن أصحابها جعلوا منه وسيلة للدعاية المحلية، وتسيطروا على كل ما يتفرع من الأدب والفن كالمسرح والسينما. وأول من بشر بأدب (الدعاية) الأديب الروسى «بليكانوف» الذى كان يقول فى مطلع هذا القرن «إن كل أثر فنى مرتبط بحياة الشعب السياسية» وقد شاعت هذه النظرية فى مؤتمر (فولتا) الذى انعقد في (روما) سنة ١٩٣٤ للبحث فى أدب المسرح وفنه، فقال فيه أحد مخرجى السوڤييت: «إن أدب التمثيل بحاجة إلى الاقتراب من الشعب، وملامسة روحه» وقال فيه أحد فنانى الألمان: «إن السياسة الممثلة يجب أن تتمثل فى أدب التمثيل لأن السياسة اليوم هى روح حياة الشعوب.»

وفى روسيا بعد هدوء ثورتها الاجتماعية أدرك أقطابها قيمة الفن، فسخروا كل أنواع الأدب والفن لنشر دعاياتهم ومبادئهم. وعن السينما يقول «لينين» إنها الفن الأول للثورة . . . لأنها تصور الآلام الاجتماعية التى كانت ظهور الناس تلتوى تحتها، وتهيء النفوس لحياة أعدل ومثل أعلى. وفى المؤتمر الأخير الذى عقده أدباء الروس قال أديبهم الكبير «مكسيم غوركى»: «إن الدولة اليوم يجب أن يقودها ألوف من أرباب الثقافة الكاملين. وهذه وسيلة ضرورية لترد على الشعب العامل وسيلة إنماء عقله وبراعته ومواهبه التي هى حق من حقوقه المسلوبة فى جميع أنحاء العالم. هذه الغاية التى تتحقق بالعمل — تحتم علينا — نحن الأدباء — أن نكون مسئولين عن عملنا وسلوكنا الاجتماعى وهو عمل لايحيل منا أدباء واقعيين، وقضاة على الناس ونقاداً للحياة فحسب. وإنما هو عمل يعطينا الحق بانشاء حياة جديدة وتطور جديد. ومثل هذا الحق يوجب على كل أديب أن يشعر بمسئوليته الخطرة فى هذه المرحلة»

هذا مايقوله «مكسيم غوركى» أشهر أدباء الروس والأديب الأكثر انسانية فى أكبر مقاطعة غدت الآداب بالأدب الانسانى، لأن تيار «الدعاية» قذف به إلى حيث يريد! وهكذا ارتدى الأدب رداء محلياً حتى غدا الأدب في روسيا أدباً روسياً والفن فناً روسياً! وكذلك الأمر فى «الفاشية» فانها عملت بهذا المذهب القائل «إن الموضوع الأدبى يجب أن يستمد من قلب الأمة لا من المحيط الخارج عنها» وأصبحت تريد من الفن أن يخدم الدولة . . .

أما الهتلرية الجرمانية فقد أرادت أن تتفوق فى هذا الباب، فسخرت العلم الذى لايسخر للدلالة على أصالة الجنس الجرماني وطهارته من اخلاط العناصر وقد طغت أيما طغيان على حقول الأدب والفن. يقول ممثلها فى أحد مواقفه «إن كل ما نعجب به اليوم من علم وفن واختراع إن هو إلا وليد فئة قليلة من الشعوب. وربما كانت هذه الفئة تنسلها سلالة واحدة ومن هذه السلالة تنحدر الثقافة الانسانية . . . لتتوار هذه الفئة، فكل جمال الحياة يتوارى معها . . . أريد أثراً جرمانياً يبقى أثر الجرمانية فيه بعد ملايين السنين» وقد أيد هذه النظرية أحد رجالها بقوله «إنا نريد فناً حقيقياً، فناً جرمانياً يستمد روعته من قلب الابداع الفنى، فناً يدخل إلى أعماق نفوسنا ويهزها هزاً!» ويقول وزير دعايتها «فى اللحظة التى تسطر فيها السياسة رواية شعب ما، حيث يتلاشى عالم وينشأ عالم، حيث تزول قيم عتيقة وتقوم قيم جديدة، لايجدر برجل الأدب والفن ولا يحق له أن يقول: هذا شىء لا يهمنى ولا يعنيني . . . ونحن، رجال السياسة — إزاء هذه الحركة، رجال فن لأننا نهيء شعباً. ولست أدعو إلى أن يكون الأدب عسكرياً، وانما يجب على الأدب أن يخلق ويصور العلاقات المرتبطة بهذه الحركة الانقلابية . . . يجب على الأديب أن يجر نفسه إلى الزوبعة التي تعصف فى وطنه. يمشى تحت عجاجتها ولا يقف شاهداً على الربوة! إننا نحكم على الفن والأدب بالنسبة إلى تأثيرها في الشعب. وكل ما خالف هذا لا نرضاه . . .»

(البقية فى العدد القادم)

خليل هنداوى

بحث في الإيمـــان

للأستاذ على الطنطاوى

إلى الأخ البغدادى الذى كتب إلى أمس

كتبت إلى تسألنى عن الإيمان ، وتريد دليلا عقلياً على صفات الله السمعية ، وصورة حسية لما خبر به من المغيبات كالجنة والنار ، والجن والملائكة ، حتى لكأنك تراها بعينك ، وتعرض للقضاء والقدر وتسرد شبهاً عرضت لك تطلب منى ردها ، إلى آخر ما ذكرت فى كتابك من مسائل تنوء بها أكبر الأدمغة البشرية ، وتعجز عن حلها العقول العظيمة ، بَلْهَ عقل مثلى ودماغه . من أجل ذلك أزمعت السكوت عن الجواب ، ثم بدا لى فرأيت الكلام فى هذه المسألة واجباً ، لأن معرفة الله أول مطالب الحياة ، وأسمى غاية لوجود البشر ، ولأن الشباب فى حاجة إلى مثل هذا البحث ؛ ثم إن البحث فى ذاته لذيذ ممتع . فأقدمت على فتح بابه ، وذكرت ما ألهمته فيه

المعارف البشرية

أورد النسفي رحمه الله في أول عقائده هذه الكلمة الجامعة قال : « حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق ، وأسباب العلم كثيرة : الحواس السليمة ، والعقل ، وخبر الصادق المعصوم » أى أن المعارف البشرية إما أن تكون مشاهدة محسة نراها ونسمعها ، وإما أن تكون معقولة ندركها بالفكر والقياس الصحيح ، وإما أن تكون مغيبة علمنا بها من طريق الوحى . أما المحسات فيتساوى فيها الناس والحيوان ، وليس فى إدراكها ميزة للناس ، وإن كان أفقها عند الناس أوسع ، وإدراكهم لها أرقى . وأما المعقولات فيستوى فيها الناس كلهم من كل ذى عقل سليم . وأما الإيمان بالمغيبات فهى الميزة التى تمتاز بها عقول المؤمنين الذين يشاركون الناس فى الحس والتفكير ، ويختصون دونهم بالإيمان .

وسنحاول أن ندرس فيما يلى قيمة كل مصدر من مصادر المعرفة الثلاثة .

الحواس

تستطيع أن تشك فى كل شىء ، ولكنك لا تستطيع أن تشك فى شىء تراه أو تلمسه ، لأن الحس أصح طرق المعرفة وأدناها ، ولأنك إذا قلت : هذا الشىء (محسوس) ، تكون قد عبرت بأبلغ تعبير عن الثقة بوجوده ، والاطمئنان إليه ، والحواس هى طريق المعرفة الأولى ، والنوافذ التى تطل منها النفس على العالم الخارجى ، فلو أغلقت هذه النوافذ آض العالم عدماً . ولو أن رجلاً ولد أعمى أصم لكان عالم الألوان والأصوات (بالنسبة إليه) غير موجود ، ولما استطاع مطلقاً تصور الخضرة والحمرة ...

كل هذا مسلم به ، ولكن هل يحق لنا أن ننكر وجود شىء من الأشياء لأننا لا ندركه بحواسنا ؟ هل يجوز لنا أن نقول إنه ليس فى الوجود ملائكة مثلا ، لأننا لم نر الملائكة ولم نسمع أصواتهم ولم نلمسهم ؟ هل نستطيع أن ننكر الشياطين ؟

وبالعبارة الثانية : هل هذه الحواس كاملة تطلعنا على كل شىء فى الوجود ؟ وهل هى صادقة لا تخدعنا ولا ترينا الشىء على غير حقيقته ؟

إنى أسألك أولا : كم هي الحواس ؟ فتقول إنها خمس . فأسألك : ألا تعرف لها سادسة ؟ فتضحك وتحسبنى أمزح ، لأن الحواس كاملة لا يمكن الزيادة عليها . وأنها مشهورة معروفة من قديم الزمان ، لم يفكر أحد أن بالإمكان كشف حاسة سادسة لها .

بينما يعرف صغار طلبة البكالوريا الذين يقرأون علم النفس ، أن هناك حواس أخرى ، وتعرف ذلك أنت إذا دققت فى نفسك وحللت مشاعرك ؛ ألا تشعر بالتعب موجوداً فى عضلاتك عقب المشي الطويل أو الحركة العنيفة ؟ ألا تحس بالجوع والعطش والتهاب الجوف ، وغثيان النفس ؟ فبأى حاسة من الحواس الخمس عرفت ذلك ؟ أأبصرته أم سمعته ، أم شممت ريحه أم لمسته ؟ إنك لم تدركه بشىء من ذلك ، بل بحاسة سادسة دعنا نسمها (الحاسة المشتركة) مثلاً . . .

ثم ... ألا تحس وأنت مغمض عينيك بأن يدك ممدودة أو مرفوعة ، وأن كفك مقبوضة أو مبسوطة ؟ إنك لم ترها ، ولم

تدركها بحاسة من الحواس الخمس ، وإنما أدركتها بحاسة سابعة دعنا نسميها (الحاسة العضلية) مثلا ...

وكذلك حسك بالحرارة والبرودة ، فإنها حاسة ثامنة ، وحسك بتوازن جسمك عند المشي أو الوقوف ؛ بل لقد استطاع العلماء أن يكشفوا مركز هذا الحس ، وأن يعلموا أنه فى الأذن الداخلية ، فى مادة كلسية مبلورة ، لو أتلفت فى حيوان فقد حس التوازن وسار مترنحاً كما يترنح السكران . . .

فالحواس ليست كاملة لأن الكامل لا يقبل الزيادة ، وما دامت ناقصة فسيظل فى الوجود أشياء لا ندركها أو ندركها ولا ندرى أننا ندركها

ولنأخذ الكائنات التى ندركها ، هل ندركها كاملة ؟ أنا أرى الألوان ولكن هل أراها كلها ؟ هل أرى ما وراء الجدار ؟ هل أبصر عصفوراً على شجرة من مسيرة يوم ؟ هل أميّز رجلا فى الصحراء على بعد عشرة أميال ؟ وأنا أسمع الأصوات ، ولكن هل أسمع صوت نملة تسير على التراب ؟

أفيحق لى أن أنكر أن للنملة صوتاً لأنى لا أسمع هذا الصوت ؟ أو أن أجحد ما وراء الجدار لأنى لا أبصر ما وراءه ؟ فأنا إذن أدرك من الكائنات أنواعاً معدودة ، وأدرك من هذه الأنواع مقادير محدودة

وهذه المقادير التى أدركها ، هل أدركها على حقيقتها ؟ ألا تخطئ حواسى أو تضل ؟ إنى أضع أصبعي الوسطى على السبابة ثم أجرى القلم على باطن الأصبعين فأحس بقلمين ... وأضع العود المستقيم فى الماء فأراه منكسراً ... وأنظر فى الصحراء فأرى الرمال مياهاً غزيرة . على حين أنه ليس هناك إلا قلم واحد ، وإن العود المستقيم يبقى فى الماء مستقيما ، وإن رمال الصحراء لا ماء فيها ، ولكن حواسى أخطأت وضلت . وانظر أى كتاب من كتب علم النفس (السيكولوجى) تر من ذلك شيئاً كثيراً ، فاذا كانت هذه هي قيمة الحواس ، فهل يحق لنا أن نجعلها وحدها طريق المعرفة ، وأن ننكر كل أمر لا تقع عليه حواسنا ؟ ألا ننكر نفوسنا قبل كل شئ لأن نفوسنا وأرواحنا لا تدركها حواسنا ولا تعرف ماهيتها ؟

الخيال

وإذا ثبت أن الحواس ناقصة محدودة ، ثبت أن الخيال محدود ، لأن الانسان لا يستطيع أن يتخيل شيئاً جديداً لم يدخل في دائرة الحس ، ولأنه لا عمل للخيال إلا تأليف صور جديدة من الأجزاء القديمة . فالذى نحت تمثال فينوس لم يأت به من العدم وإنما جمع فى ذهنه أجمل أنف رآه ، وأجمل فم ، وأجمل عين ، ثم ألف منها صورة جديدة لم يدركها الحس بمجموعها ولكنه أدرك مفرداتها على كل حال . والذي صور الحصان المجنح ، أخذ جسم الحصان وجناح الطائر . من أجل ذلك سمى كثير من علماء النفس هذا الخيال جامعاً ، وكرهوا أن يطلقوا عليه لفظ (الخيال المبدع) . فكيف إذن تستطيع أن تتصور الجنة أو الملائكة أو الحياة الأخرى وأنت لم تدرك بحواسك أى جزء من أجزائها ؟ إنه ليس فى النفس شئ لم يدخل لها من العالم الخارجى ، وأنت لم تعش فى الجنة ، فاذا قلت لك مثلا ... إن فى الجنة أنغاماً موسيقية عطرة ، أو أن فيها عطوراً لها رائحة خضراء ، فهل تستطيع أن تتخيل هذه الأنغام العطرة ، أو هذه الرائحة الخضراء ؟ هل تقدر أن تتخيل بعداً رابعاً غير الأبعاد الثلاثة المعروفة (الطول والعرض والارتفاع) ؟ هل تتصور مثلثاً ليس له زوايا ، ودائرة ليس لها محيط ؟ كذلك لا تقدر أن تتصور أن لله يدا ليس لها طول ولا عرض ولا جسم ولا صلابة ولا صفة من الصفات البشرية ولا تشبه الأيدى ولا تشاركها إلا في الاسم . ألا تجد نفسك مضطراً إلى التسليم بالعجز والاقرار بأن المستحيل على الخيال البشرى الوصول إلى معرفة ذات الله وصفاته الآلهية ؟

العقل

تقدم معنا أن الحواس خدعت ، فأحست القلم قلمين ، ورأت العود المستقيم منكسراً ، والسراب ماء . ولكن العقل لم يخدع . وكان يعلم أنه قلم واحد ، وأن العود مستقيم ، والسراب ليس بماء ، فالعقل إذن أوسع قدرة ، وأصح حكما من الحواس . ولكن أليس لقدرته حدود ؟ هل يقدر العقل على أن يحكم على كل شئ ؟

الجواب : لا . لأن العقل لا يستطيع أن يحكم على شئ ،

أو يدركه إلا إذا حصره بين شيئين هما الزمان والمكان . لذلك يسأل العقل دائماً : متى ؟ وأين ؟ فلو قلت لك : إن حرباً وقعت ولكنها لم تقع اليوم ولا أمس ولا قبل سنة ولا أقل ولا أكثر لم تصدق ذلك ولم تدركه . ولو قلت لك : إني رأيت مدينة ليست في شمال ولا جنوب ولا سهل ولا جبل ولا هواء، ولا هي في مكان، رددت ذلك وكذبته ، لأن الزمان والمكان ركنا العقل لا يقوم إلا عليهما . وبديهي أن ما اتصل بذات الله لا يخضع للزمان والمكان، ولا يطلق عليه متى وأين ... ولذلك يعجز العقل عن إدراك أي شيء يتصل بالله عز وجل وصفاته ، ولا يستطيع أن يعرف عنها شيئاً بلا معونة من الخارج

ثم إن العقل محدود ، فلو قلت لك : إن خطا أبيض يمتد في الظلام ليس له آخر ، وأردت أن تفكر في هذا الخط ، وتجمع في إدراكه عقلك ، لعجزت عن إدراكه وشعرت بأن عقلك ينازعك منازعة شديدة إلى وضع آخر له ،ويميل إلى قطعه وإدراك نهايته . ولو قلت لك : إن المؤمن خالد في الجنة دائماً دائماً دائماً . . . وفكرت في ذلك لأحسست من عقلك ميلاً قوياً إلى وضع حد لهذا الدوام . ويتجلى هذا الميل في الرياضيات العالية التي فرضت اللانهاية نقطة وجعلت منها (+ ∞) لانهاية موجبة ،و(– ∞) لانهاية سالبة . . .

فاذا كان العقل محدوداً ، فكيف يحيط بالله وهو عز وجل غير محدود ؟ هل يمكن أن تضع بغداد في غرفتك ؟ لا . ولله المثل الأعلى !

الوحي :

بيّن لك من هـذا ضرورة الوحي ، والوحي ضرورة عقلية وضرورة عملية .

أما ضرورته العقلية فما رأينا من عجز العقل عن إدراك ماوراء المادة ، وعن معرفة الله ، فلم يكن بد من إتمام نقص العقل بعلم من الخارج ، وهذا هو الوحي .

فالوحي علم خارجي يصل إليـه العقل بالسماع والتعلم ، كما أن المعارف المعقولة علم داخلي يصل إليه العقل بالادراك والتفكير ، وكلاهما من الله . لذلك لا يمكن أن يكون بينهما تناقض مطلقاً ، لأن الله عز وجل مبدع حكيم ؛ ومن شروط حكمة المبدع ألا يكون فيما يبدعه تناقض ، فالدين الصحيح (أعني الوحي) والعقل السليم متفقان في المبدأ ، متعاونان على بلوغ الغاية ، لا يقوم أحدهما إلا بالآخر . فلابد للوحي من عقل يدركه ويؤمن به ، ولابد للعقل من وحي يكمل نقصه ، ويمكنه من إدراك ما لا يستقل بادراكه منفرداً . وليس معنى هذا أن العقل يستطيع إدراك كل ماجاء به الوحي ، لأنه لو كان هذا لما كان للوحي من حاجة ، ولكن معناه أن الوحي لايناقض العقل ، ولا يوجب مايحيله ، أو يحيل مايوجبه

وأما ضرورته العملية فهي أن الفضيلة والعدالة لاتقومان في الأرض إلا بقيام الدين . وبيان ذلك ان الانسان مسوق أبداً في حياته بالمنفعة الخاصة ، لايعمل عملا إلا إذا كان له فيه فائدة أو لذة ؛ وعبثاً تحاول حين تحاول أن تجد عملا واحداً يعمله امرؤ لمنفعة غيره فقط ... ولست بحاجة إلى سرد أمثلة من لاروشفوكلد فقد نشرت عنه الرسالة فصلا ممتعاً في عدد من أعدادها الماضية لا أذكر رقمه تستطيع أن تفتش عنه وترجع إليه ، ولكن أسأل القارىء وآمل أن يجيب بانصاف : هل يتصور رجلا ملحداً (لايؤمن بالله واليوم الآخر) فقيراً جائعاً ليس معه إلا قرش واحد لعشائه يضع هـذا القرش في صندوق الطيران الوطني أو صندوق جمعية خيرية من غير أن يراه أحد ، ثم لايخبر بذلك أحداً ولا يرجو (بالطبع) ثواب الله ، وإنما وضعه حباً للآخرين ؟ أو يتصور طالباً رأى ورقة جاره في الامتحان تستحق الرسوب ، فضحى بنفسه من أجله فوضع اسمه على ورقته ، ورضي بأن يرسب هو لينجح ذاك ، واحتمل لوم أهله وتأنيب أصحابه ، ولم يخبرهم ولم يخبر ذلك الطالب بما فعل ، ولم يرج عليه ثواباً من الله ، وإنما فعله حباً للآخرين ؟

قد يفعل ذلك إذا كان عاشقاً ؛ غير أن العشق أبعد شيء عن حب الآخرين ، بل هو الأنانية بأفظع أشكالها . فأنت لاتحب مطلقاً شخص المحبوب ، وإنما تحب لذتك فيه : تحب نفسك . ولو ضاعت هذه اللذة ، بأن فقد المحبوب جماله بمرض مشوه أو بذل نفسه لغيرك لأقلعت عن حبه ، بل لكرهته أشد الكراهية ؛ والحب العذري خرافة ليس هذا موضع الكلام في بطلانها .

فمن هو إذن الذي يضع قرشه في الصندوق وينام جائعاً ، ويؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ؟ هو المؤمن بالله واليوم الآخر

لا لأنه أسمى من البشر فهو خارج عن النواميس النفسية ، والمبادئ العامة ؛ بل لأنه يشتري لذة كبرى بلذة صغرى ، فهي أيضاً أنانية . . . يبذل قرشه هذا ليأخذه في الآخرة أضعافاً مضاعفة ، ويضحى بحياته هذه القصيرة الشقية لينال حياة طويلة سعيدة فى الجنة . . . فالضحية إذن لاتكون إلا ثمرة للدين ، اى للوحى .

ولنعرض المسألة بشكل أوضح : لو محى الدين من الأرض هل تكفي القوانين والأخلاق الوضعية لضمان الفضيلة والعدالة ؟ أما الأخلاق فليس لها مؤيد عملى ، وأما القوانين فتؤيدها القوة ، فالقانون معناه الشرطي . فاذا سرق اللص ولم يره أحد ، ولم يقدر عليه الشرطى ، فسرقته جائزة عملا وإن لم تجز نظريا . وإذا قتل القاتل ولم يشهد جريمته أحد فجريمته جائزة وهو غير مسئول أمام القانون . ونتيجة ذلك ان الجرائم تنتشر ويستعمل الناس ذكاءهم ومواهبهم فى ابتكار الحيل للفرار من القانون كما نرى اليوم فى بعض بلدان الغرب التى تستغل فيها العلوم والفنون للسرقة والغش والاحتيال ، فى حين أن الدين يؤيده اتباعه ، وضامنه فيه . فالمتدين لايستطيع أن يسرق او يقتل ولو لم يره احد ، لعلمه ان الله يراه ، ويطلع عليه ، وهذه اقوى وسيلة لنشر الفضيلة :

لاتنتهى الأنفس عن غيّها ما لم يكن منها لها زاجر

فـكرة الإلـه

وهناك فائدة أخرى للدين : هي الاطمئنان الذى يحس به المؤمن حيال النكبات والمصائب ؛ فبينما نري غير المؤمن مقبلاً على الانتحار ، يائساً قانطا ، نجد المؤمن راضيا بقضاء الله مستسلما إليه . وقد يفهم من هذه الفائدة أن الدين فطرة فى الانسان على حد قول دور كايم : الانسان حيوان ذو دين وأ كبر الأدلة على ذلك فكرة الإلـه . فالاعتقاد بوجود إلـه ازلى خالدقوى خير عادل موجود مع الانسان منذ وجد الانسان . وليس من حاجة لاقامة الأدلة العقلية على وجود الله ، كما أنه لا حاجة للتدليل على أن الجزء أصغر من الـكل ، لأنهما من البديهيات

وبيان ذلك أن الانسان لما بدأ يفكر نظر فى نفسه فوجد فيها مبادىء لا يد له فيها ، ولا يدرى من أين جاءته ولا يعرف عليها دليلا واحداً ، وجد أن الذي هو هو . الماء هو الماء ، ليس الماء ورقة ولا شجرة ولا قطعة ولـكنه ماء . . . والأرض هى الأرض . هذه بديهية ثابتة لا يستطيع العقل أن ينكرها مهما اختلفت الأعصار والأمصار ، فما هو الدليل عليها ؟

ما هو الدليل على أن الجزء أصغر من الـكل ، وأن وجود الشىء ذاته فى الوقت عينه وانعدام هذا الشىء مستحيل . إن التدليل على أمر معناه رد هذا الأمر إلى بديهية ثابتة . فكيف ندلل على البديهية وإلام نردها ؟

وكيف يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل ؟

ومثل هذه البديهيات تماماً الاعتقاد بوجود إلـه ، بدليل أن البشرية لم تعش يوماً واحداً بغير هذا الاعتقاد وإن اختلفت المدارك فعرف بعض الناس الالـه الحقيقى الذى لا تدركه الأبصار ، وألصق بعضهم صفة الالـه ببعض المخلوقات ثم عبدها لا لذاتها بل لأن فكرته عن الالـه تمثلت له فيها — وقد يعترض على معترض بأن فى الشبان اليوم من ينكر الالـه ولا يقر بوجوده فأجيب بأن هذا الشاب لو ضاع فى صحراء ويئس من المعونة أو أصابه مرض عضال عجز عنه الأطباء لعاد مؤمناً بالله ، ولآب إلى الله مقراً مستغفراً . فالايمان لم يذهب من نفسه وإنما غطته عوارض زائلة . وذلك قريب من قول السيدة رابعة العدوية وقد خبروها أن (فلاناً) من العلماء أقام ألف دليل على وجود الله . فقالت لو لم يكن عنده ألف شك لما أقام ألف دليل ! قيل لها : فما هو إذن ؟ قالت من ضاع فى الصحراء وانقطع ماذا يقول ؟ قالوا يقول : يا ألله ! قالت : ذاك هو الله . وقول أناتول فرانس : إن كذا غراماً من السكر فى بول أشد الناس إلحاداً ترده مؤمناً . يريد أنه لو أصيب بمرض ويئس من الحياة .

* * *

فاذا عرفت يا سيدي قيمة الحواس ، وحدود الخيال ، وطاقة العقل ، وفائدة الايمان ، كنت أنت الذى يجاوب على ما بعثت لى به من أسئلة . والسلام عليك ورحمة الله .

« دمشق »

على الطنطاوى
مدرس الأدب العربى
فى الكلية الشرعية ببيروت

الفلسفة الشرقيـــة
بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٧ —

المدرسة اليوجية

نشأت هذه المدرسة حوالى القرن الثانى قبل المسيح على أصح الأقوال وسارت فى تعاليمها على منهج مدرسة « سامكهيا » ولهذا لم يكن لهـا فى الابداع الفلسفي شئ يستحق الذكر ، وإنما يقدر مجهودها فى السلوك العملى الذى بعثته من مرقده بعـد أن طغت عليه عوامل أخري شديدة التأثير . ويتلخص هذا السلوك فى الزهادة التامة ومحاولة إنقاذ الروح من سلطان البدن ومحاسبة الانسان نفسه على مقـدار ما حصل عليه كل عضو على حدة من هذا التحرر من سيطرة المـادة

وعندها أن الانسان مكون من قنوات كثيرة ، وأن العلة الوحيدة فى أنه لا يصل إلى مبتغاه من المثل الأعلى فى الخلوص من الطبيعة هى أنه حين يتزهد لا ينجح فى مراقبة جميع أعضائه ، وإنما هو يسيطر على بعضها فقط . فالبعض المتروك هو سبب الرسوب فى هوى الطبيعة السحيقة والرزوح تحت أنيارها الثقيلة والرسوف في أغلالها الضيقة

أما من استطاع أن يخلص كليته بتمامها من سلطان المادة ، فانه يصير إلى نهاية المعرفة فينكشف له ماوراء الحجب ويحيط بأسرار الأقدار ويدرك كل ما تجرى به من أقلام الغيب وتحصل عنده القدرة الكاملة على قهر الزمان والمكان فينطويان أمامه متى شاء وكيف شاء . ويستطيع أن يختفى عن الأعين وأن يتشكل بأية صورة يشاء وأن يشكل جميع العناصر كما يريد ، وأن يحيط بمكنونات أفكار غيره ، وأن يظهر فى عدة أمكنة فى نفس اللحظة . فاذا وصل إلى هذه المرتبة فقد حصل على درجة الغيبوبة وتفانى فى الكل الأول . وهذه هى عليا درجات الكون أو غاية اليوجية ، ولعل ألطف رد على تلاميذ هذه المدرسة هو ما قاله أحد قواد إحدى الفرق الحربية الانجليزية فى الهند حين سمع هـذه الميزات التى يعزوها «اليوجيون» إلى مدرستهم ، فقال : ساخراً « إنى أظن أن زهاد الهنود إن استطاعوا — كما يزعمون — التغلب على الزمان والمكان والاختفاء عن الأعين واختراق حجب الأقدار ومعرفة خفايا الأسرار إلى آخر ما يدعون ، فنى على يقين من أنهم لا يستطيعون التغلب على رصاص بنادقنا وقذائف مدافعنا »

غير أن نساك اليوجيين قد وجدوا لهذا الاعتراض رداً وهو أن حصول الشخص على الميزة شيء واستعمالها الفعلى الذى ينشأ عنه انقلاب نظام الكون شيء آخر .

ومهما يكن من الأمر ، فان هذه المدرسة تعتبر مثلاً أعلى فى التنسك والزهادة وإن كانت تابعة لغيرها فى الأفكار والنظريات . ولما كانت تعاليمها المتنسكة تتفق مع طبيعة الهنود وما فطروا عليه من روحانية وميل شديد إلى العزلة ، وانعطاف قوى نحو التأمل فى أسرار الكون وخفايا الوجود ، فقد راجت مبادئها رواجا عظيما ، واعتنقها خلق كثير ، ولا تزال إلى اليوم حية آهلة بالمعتنقين والمريدين .

الفيدانتـــا

كان هذا المذهب فى أول نشأته محصوراً فى شرح « الفيدا » وتأويلها وتخريج آياتها المتشابهة ، ولكنه بفضل تلك البحوث المستفيضة التى كان زعماؤه يخرجونها حول تلك النصوص العتيدة المغرقة فى التعقد أخذ يرتقى شيئاً فشيئاً ويخطو إلى النظر العقلى خطوات واسعة حتى تحول إلى فلسفة نظرية عويصة فى عهد « سانكرا » ذلك الفيلسوف العظيم الذى يؤكد الباحثون العصريون أنه لا يقل عمقاً فى التفكير ودقة في النظر وغوصاً فى بحر الفلسفة المنطقية عن « كانْت » و « هجيل » وهما أرق فيلسوفين في العصر الحديث .

يرى هذا الفيلسوف أن العالم صدر عن الله بطريق الانبثاق ، وهو يعود إليه بطريق الجذب ، وهـذه فكرة قديمة سبق بها الأولون هذا الفيلسوف بزمن بعيد . ولكنها أخذت تتطور بين مباحث هذه المدرسة حتى وصلت إلى حولية من النوع الراقي ، فقررت أن هذا العالم الظاهر ليس هو حقيقة الإله ، وإنما هو

كائن أدنى محدث ، ولكن كل جزئية منه تشتمل على طرف من تلك الحقيقة الالهية ، ولهذا يجب أن يفهم الانسان أن شخصه الخارجي الذي يشبه غيره في شيء ويختلف عنه في شيء ، والذي يولد ويموت ويأكل ويشرب ليس في الحقيقة شيئا مذكوراً وإنما الذي يجب أن ينظر إليه في شخصه هو الحقيقة الالهية ، لهذا يصح أن يقال له : أنت الانسان والاله ، أنت الخالق والمخلوق ، والعابد والمعبود ، أنت المشخص و « اللامشخص » . وإذا صرفنا النظر عن الناحية الدنيا فيه ، قلنا له : أنت الواحد الأوحد والكل الأعلى والأول والآخر .

ولما كانت هذه المدرسة تؤسس تعاليمها على أن عالم الظاهر لا يساوي شيئاً كما أسلفنا ، فقد احتقرت المعرفة الظاهرية واستخفت بالتجربة والمشاهدات إلى أبعد حدود الاستخفاف وأعلنت أن المعرفة الوحيدة الجديرة بالاجلال هي معرفة الحق الأعلى أو هي ما كان موضوعها الحقيقة الالهية ، وأنها لا تجيء إلا عن طريق الالهام البصيري الذي يتوصل إليه بالتنسك والرياضة والخلوص من المادة . وأخيراً أعلن « سانكرا » أنه لا يصل إلى « براهمان » إلا من تحققت لديه المعرفة الكاملة وتخلص من جميع علائق المادة ، إذ هو في هذه الحالة وحدها يصل إلى درجة الغيبوبة الكاملة أو التفاني في الله أو السعادة الأبدية .

غير أنه لم يكد يعلن هذه الآراء حتى هب المتعصبون من البراهمة يرمونه بأنه بوذي يتقمص جسم براهمي ، أو زنديق يرتدي ثوب متدين ، لأن النتيجة الأخيرة التي انتهى إليها مذهبه هي نفس زبدة تعاليم البوذية ، ثم جعلوا يحاربون مذهبه بكل ما أوتوا من قوة وسلطان حتى قضوا عليه ؛ وكان ذلك موافقاً بالمصادفة لأوان الفتح الإسلامي ، فاجتمع هذان العاملان وتكاتفا على قطع هذه السلسلة الفكرية من تاريخ الهند ، وعلى بدء تاريخ جديد يبرز للباحثين أثر الاسلام في تلك الأصقاع على صورته الحقيقية .

خاتمة

الطبيعة — الرياضة — المنطق

لا نريد أن نغادر الحديث عن تلك البلاد إلا بعد أن نقرر في صراحة أن الفلسفة بجميع أقسامها : الالهية والرياضية والطبيعية قد أزهرت فيها إزهاراً فائقاً ، وأن المقدمة الضرورية للفلسفة وهي المنطق قد بلغت في مدارسها الحد الكافي للتفلسف الراقي .

فأما الالهيات فأحسب أن ما مر بك فيها كاف للتدليل على ما نقول . وأما الرياضة بجميع أقسامها فلم تصل في أي بلد آخر — إذا استثنينا مصر — إلى مثل ما وصلت إليه الهند من رفعة وارتقاء . ويكفي أن نصرح بأن الهنود هم أساتذة « فيثاغورس » أكبر رياضي اليونان على الاطلاق ، وهم أساتذة العرب في الحساب والهندسة والفلك ، بل إن أرقام الحساب المستعملة الآن في العربية هي هندية الأصل .

أما الطبيعة فحسبنا لنبرهن على سابقيتهم فيها أن نعلن أنهم قد وصلوا إلى نظرية « الذر » أو الجوهر الفرد قبل « ديموقريطس » و « لوسيب » أول قائلين بهذا في بلاد اليونان بزمن بعيد ، وأنهم قاموا في الكيمياء بتجارب جبارة كلفت كثيرين منهم الحياة نفسها كما روى التاريخ في عدة نواح من حديثه عن تلك البلاد .

وأما المنطق فهو قديم جداً في المدارس الهندية حتى ليرجعه بعض المؤرخين إلى القرن الثاني عشر . ولا شك أن أصحاب هذا الرأي يجزمون بأن المنطق الهندي هو أساس منطق ارسطو ، ولكن البعض الآخر لا يصعد بالمنطق الهندي على سلم الماضي أكثر من عصر المدرسة اليوجية أي بعد عصر ارسطو ، ولكن هذا الرأي الأخير عندي غير صحيح ، إذ أن المنطق قد وجد بلا شك في مدرسة « سامكهيا » وهي قبل أرسطو بزمن بعيد .

وعلى هذا نستطيع أن نجزم بأن الفلسفة بأكمل معانيها قد وجدت في بلاد الهند ، وأن اليونان مدينة لتلك البلاد بكثير من نظرياتها التي يعتقد السطحيون أنها مبتدعة ، وبالتالي نصرح أن الهند كانت ولا تزال لبنة هامة ، بل حجراً أساسياً في بناء الفكر البشري الراقي ما في ذلك شك ولا ارتياب .

« يتبع »

محمد غلاب

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٤ —

شاعر الحسن

كلف الرافعي بالشعر من أول نشأته ، فما كان له هوى إلا أن يكون شاعراً كبعض من يعرف من شعراء العربية ، أو خيراً ممن يعرف من شعراء العربية ... كان الرافعي واسع الأمل ، كبير الثقة ، عظيم الطموح ، كثير الاعتداد بالنفس ؛ فمن ثم نشأ جباراً عريض الدعوى طويل اللسان من أول يوم ... وبهذه الكبرياء الأدبية الطاغية ، وبما فيه من الاستعداد الأدبي الكبير ، وبما في أعصابه من دقة الحس وسرعة الاستجابة لما تنفعل به — بكل أولئك تهيأ الرافعي لأن يكون كما أراد أن يكون ، وأن يبلغ بنفسه هذا المكان بين أدباء العربية

وإذا كان الرافعي قد بدأ شاعراً كما أراد ، فما كانت له خيرة في المذهب الذى آل إليه من بعد ، ولكنها نوازع الوراثة ، وعوامل البيئة ، ودوافع الحياة التى كانت تضطرب به وتذهب به مذاهبها

لم يكن الرافعي يقدر في أيام نشأته الأولى أنه سينتهي من الأدب إلى هذه الغاية ، وأن الحياة ستردّه من الهدف الذى يسمي إليه في مملكة الشعر إلى هذا الهدف الذي انتهى إليه في ديوان الأدب والإنشاء . وما كان أحد من خاصته وأصدقائه ليعرف أن الرافعي الشاعر الشاب الذى توزعته الصبابة ، وفتنته الحياة ، وتقاسمته لذات الصبا ، وتمناه الهوى ، وتصباه الحب والشعر والشباب — سيكون مكانه في غده هـذا المكان في الدفاع عن الدين والذود عن العربية والصيال في سبيل الله . وما كان هو يأمل في مستقبله إلا أن يكون شاعراً تسير إليه في إمارة الشعر منزلة تحمل ذكر فلان وفلان من شعراء عصره

ومضى الرافعي يسمي إلى غايته في الشعر ، وقد تزود زاده من الأدب القديم ، ووعى ما وعى من تراث شعراء العربية . وكان أمامه مثلان من شعراء عصره يمتد إليهما طرفه ويتعلق بهما أمله : هما البارودي وحافظ ؛ أما أولهما فكانت له زعامة الشعر ، على مفرقه تاجُه وفي يده صولجانه ، قد قوى واستحصد واستوي على عرشه بعد جهاد السنين ومكابدة الأيام ؛ وأما الثانى فكان في الشباب والحداثة ، وكان جديداً في السوق ، قد فتنته الشهرة وفتنت به من حوله ؛ فأخذ الرافعي ينظر إليه وإلى نفسه ، ويوازن بين حال وحال ، ويقايس بين شعر وشعر ؛ فقر في نفسه أنه هو وهو ، وأنهما في منزلة سواء ، وأنه مستطيع أن يبلغ مبلغه ويصير إلى مكانه إذا أراد ؛ فسار على سنته وجرى في ميدانه ، لا يكاد حافظ يقول : أنا . . . حتى يقول الرافعي : أنا وأنت . . . وما فاته أن حافظاً يغالبه بالشهرة السابقة ، ويطاوله بالجاه والأنصار ، ويفاخره بمكانه من الأستاذ الإمام ، وبمنزلته عند البارودي زعيم الشعراء ، وبحظوته عند الشعب ؛ فراح الرافعي يستكمل أسباب الكفاح ويستتم النقص ؛ فأكد صلته بالبارودي ، وعقد آصرة بينه وبين الأستاذ الامام ، ومضى يتحدث في المجالس ، وينشر في الصحف ، ويذيع اسمه بين الناس . وانتهز نهزة فذهب يستطيل بأنه (شاعر الحسن) وبأن حافظاً لا يقول في الغزل والنسيب ... !

كانت المنافسة بينه وبين حافظ منافسة مؤدبة كريمة ، لم تكدر ما بينهما من صفو المودات ، ولم تجن على صداقتهما القوية ، فظل الرافعي وحافظ صديقين حميمين ، منذ تعارفا في سنة ١٩٠٠ إلى أن قضى حافظ رحمه الله في سنة ١٩٣٢

ليس من همي أن أتحدث عن شعر الشاعرين ، أو أقايس بين فن وفن وشاعرية وشاعرية ، فقد يبدو لى هنا بعد مابين المنزلتين في الموازنة بين الرافعي وحافظ في الشعر ؛ وما يهمنى في هذا الحديث إلا إثبات الصلة بين الرجلين ؛ فمن أراد شيئاً وراء هذا فسيجد فيما أثبته هنا مقدمات البحث وهيكل البناء .

* * *

في إبان هـذه المعركة الصامتة بين الرافعي وحافظ ، قدم إلى مصر شاعر كبير لم يكن الرافعي يعرفه أو يسمع به أو قرأ شيئاً

من شعره ، ذلك هو شاعر العراق الكبير المرحوم عبد المحسن الكاظمى ، ونشرت له الصحف غداة مقدمه قصيدة عينية من بحر الطويل [1] ، قرأها الرافعى فاستجادها ورأى فيها فنا ليس من فن الشعراء المعاصرين الذين قرأ لهم ، فملكت نفسه وبلغت منه مبلغا ، فقرر لساعته أن يسعى إلى التعرف به ، ليصل به حبله ويقتبس من أدبه ، وكان الرافعى يومئذ كاتباً بمحكمة طلخا ، ففارق عمله بغير إجازة ، وسعى إلى لقاء الكاظمى فى القاهرة ، وهو يمنى نفسه بأن يكون بينهما من الود ما يرفع من شأن الرافعى ويجدى على أدبه . وكان فى الكاظمي — رحمه الله — أنفة وكبرياء ، فأبى على الرافعي أن يلقاه ورده ردا غير جميل ، إذ كان الرافعى يومئذ نكرة فى الأدباء ، وكان الكاظمي ما كان فى علمه وأدبه وشهرته وكبريائه ، مع خلته وفقره . واصطدمت كبرياء بكبرياء ، وثار دم الرافعي وغلى غليانه ، فذهب من فوره فأنشأ مقالة (أو قصيدة ، لا أذكر) نال فيها من الكاظمي ما استطاع أن ينال بذمه والزراية عليه والغض من مكانته ؛ وما كان الرافعي مؤمنا بما كتب ، ولكنه قصد أن يلفت الشاعر إليه بالانذار والتخويف ، بعد ما عجز أن يبلغ إليه بالزلفى والكرامة .

وفعلت هذه الكلمة فعلها فى التقريب بين الأديبين ، فاتصل الرافعى بالكاظمي وصفا ما بينهما وأخلصا فى الوداد والحب حتى لم يكن بينهما حجاب ، وحتى صار الرافعى أصفى أصفياء الكاظمى ، وصار الكاظمى أشعر الشعراء المعاصرين عند الرافعي ، ثم ارتفعت الصلة بينهما عما يكون بين التلميذ والأستاذ ، وتصادقا صداقة النظراء ؛ حتى إنه لما هم الكاظمى أن يسافر إلى الأندلس فى سنة ١٩٠٥ كتب كتابا إلى الرافعى يقول فيه : « . . . ثق أنى أسافر مطمئنا وأنت بقيتى فى مصر . . . »

هؤلاء الثلاثة : البارودى ، وحافظ ، والكاظمي ، هم كل من أعرف ممن تأثر بهم الرافعى من شعراء عصره . أما شوقى ، وصبرى ، ومطران ، وغيرهم ممن نشأوا مع الرافعي فى جيل واحد فلا أعرف بينه وبين أحد منهم صلة تمتد إلى أيامه الأولى ، وما سمعت منه — رحمه الله — حديثاً يشعر أن صلة خاصة كانت تربطه بواحد منهم في حداثته ؛ فلعل عند غيرى من أهل الأدب علما من العلم يكمل هذا النقص ويسد هذه الخلة ، فليتفضل من يعرف بنشر علمه مشكوراً على وفائه للأدب والتاريخ .

* * *

بدأ الرافعى يقول الشعر ولما يبلغ العشرين من عمره ، ينشره فى الصحف وفى المجلات السورية التى تصدر فى مصر ، وكانت المجلات الأدبية كلها إلى ذلك الوقت فى أيدى السوريين ؛ فمجلة الضياء ، والبيان ، والثريا ، والزهراء ، والمقتطف ، وسركيس ، والهلال ، وغيرها — كان يقوم عليها كلها جماعة من أدباء سورية : كالبستانى ، واليازجى ، وصروف ، وجورج زيدان ، وسليم سركيس وغيرهم ؛ وكانت إليهم الزعامة الأدبية فى اللغة والأدب الوصفى والتاريخ ، أما أدب الانشاء فكان قسمة بينهم وبين أدباء مصر .

والآن أدع لصديقى الأديب الأستاذ جورج ابراهيم حنا ، أن يتحدث عن الرافعى فى أول عهده بالشعر ؛ قال :

« بدأت صلتى بالمرحوم الرافعي قريباً من سنة ١٩٠٠ ؛ كنت يومئذ أقول الشعر ، وكان اسمى معروفاً لقراء مجلة الثريا ، ولم أكن أعرف الرافعى أو أسمع به ، وكان لأخيه الوجيه سعيد افندى الرافعى متجر في شارع الخان بطنطا ، يستورد إليه النقل والفواكه الجافة من الشام ، وكنت زبونه ، فذهبت إليه يوماً أشترى شيئاً من فاكهة الشام ، إذ كان له بها شهرة وكان بى إليها شوق ؛ فلما صرت إليه ، لقيت هناك فتى نحيلا فى العشرين من عمره ، يلبس جلباباً ، جالساً إلى مكتب فى المتجر قريب من الباب ، فما رآنى الفتى حتى نادانى ودعانى إلى الجلوس ، ثم قال لى : أتعرف أنى شاعر ؟ قلت : لا ؛ لست أعرف . قال : أنا مصطفى صادق الرافعي ، وهذه الكراسات كلها من شعرى . وعرض على بضعة دفاتر كانت على المكتب ، ثم استأنف قائلاً : ولكنه شعر الحداثة فهو لا يعجبنى ؛ سأختار أجوده وأمزق الباقى ، وسأطبع ديوانى بعد قليل فتعرفنى . . . ! »

قال : « وعرفت الرافعي من يومئذ ، وقويت بيننا الصلة حتى صرت أدنى أصدقائه إليه : يقرأ على شعره ، ويستمع إلى رأيى

(١) أحسب عند صديق الأستاذ محمود شاكر علماً من هذه القصة أدق مما رويت هنا ، فإنما أثبتها من الذاكرة كما حكاها لى المرحوم الرافعى منذ سنوات أربع لمناسبة قصيدة قرأناها معاً فى مجلة أبولو من نظم الآنسة رباب الكاظمى ؛ فإن كان عند صديق تفصيل أو إيضاح فليتفضل بنشره .

فيه ، ويستشيرنى فى أمره . وقد كان أوله كآخره ، فما لبثت حتى أعجبت به وأحللته من نفسى أرفع محل من الحب والتقدير »

***

ظل الرافعي يقول الشعر لنفسه ، أو ينشر منه فى المجلات الأدبية ، أو يقرؤه على أصدقائه . وأصدقاؤه يومئذ صفوة من شباب السوريين فى طنطا : منهم الأديب جورج ابراهيم ، والصيدلى إلياس عجان ، والطبيب تودرى ، وكانوا يتخذون مجلسهم عادة فى وقت الفراغ ، فى صيدلية (كوكب الشرق) بطنطا

فلما كانت سنة ١٩٠٣ ، وعمر الرافعي يومئذ ثلاث وعشرون سنة ، نشر حافظ بك إبراهيم ديوانه ، وقدم له بمقدمة بليغة كانت حديث الأدباء فى حينها وطال حولها الجدل حتى نسبها بعضهم إلى المويلحي . واستقبل الأدباء ديوان حافظ ومقدمة ديوانه استقبالا رائعاً ، وعقدوا له أكاليل الثناء . والرافعي غيور شموس ، فما هو إلا أن رأى ما رأى ، فعقد العزم على إصدار الجزء الأول من ديوانه ، وما دام حافظ قد صدر ديوانه بهذه المقدمة البليغة التى أحدثت كل هذا الدوى بين أدباء الجيل فإن على الرافعي أن يحاول جهده ليبلغ بديوانه ما بلغ حافظ ، وإن عليه أن يحمل الأدباء على أن ينسوا بمقدمته مقدمة ديوان حافظ

وصدر الجزء الأول من ديوان الرافعي فى الموعد الذى أراد بُعَيْدَ ديوان حافظ بقليل ، وقدم له بمقدمة بارعة فصل فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته ، وهى وإن كانت أول ما نعرف ممــا كتب الرافعي ، تدل بمعناها ومبناها على أن ذلك الشاب النحيل الضاوى الجسد ، كان يعرف أين موضعه بين أدباء العربية فى غد . وإذا كانت مقدمة ديوان حافظ قد ثار حولها من الجدل ما حمل بعض الأدباء على نسبتها إلى المويلحي . فقد حملت هذه المقدمة الأديب الناقد الكبير الشيخ ابراهيم اليازجى على الشك فى أن يكون كاتبها من ذلك العصر ، مما يخادع نفسه فى قدرة الرافعي على كتابتها .

قال الأستاذ جورج ابراهيم :

« لما هم الرافعي أن يكتب مقدمة ديوانه ، جاء إلى فى جلبابه والحر شديد ، فحدثنى من حديثه ، ثم سألنى أن أهيئ له مكاناً رطباً يجلس فيه ليكتب المقدمة ، فجلس فى غرفة من الدار ، ثم تخفف من لباسه . . واقتعد البلاط بلا فرش ، وبسط أوراقه على الأرض وتهيأ للكتابة ؛ فخفت أن تنال منه رطوبة البلاط فى مجلسه الطويل . فقال : لا عليك يا جورج ؛ إنى لأحب أن أحس الرطوبة من تحتى . . . فينشط رأسى . . . ثم استمر فى مجلسه يكتب وليس معه ولا حواليه من وسائل العلم إلا قلمه وأوراقه ، حتى فرغ من المقدمة فى ساعات . . .

قال : « فلما تم طبع الديوان أهدى نسخة منه فيما أهدى إلى العلامة الشيخ ابراهيم اليازجى ، والشيخ اليازجى يومئذ أديب العصر وأبلغ منشىء فى العالم العربى . وكان الرافعي حريصاً على أن يسمع رأى الأستاذ اليازجى فى شعره وأدبه ، ومضى زمان ولم يكتب اليازجى ، على حين تناولت كل الصحف والمجلات ديوان الرافعي ومقدمته بالنقد أو التقريظ ، واحتفل به المؤيد احتفالا كبيراً فنشر مقدمته فى صدره ، والمؤيد يومئذ جريدة العالم العربى كله .

قال : « واستعجبت أن يهمل أستاذنا اليازجى هذا الديوان فلا يكتب عنه ، واغتم الرافعي لذلك غماً شديداً ؛ إذ كان كل ما يكتب الأدباء فى النقد لا يغنى عن كلمة يقولها اليازجى . فذهبت أسأله ، فقال لى : أنت على ثقة أن هذه المقدمة من إنشاء الرافعي؟ قلت : هو كتبها بعينى فمــا أشك فى ذلك . قال اليازجى : وأنا ما أبطأت فى الكتابة عن الديوان إلا من الشك فى قدرة هذا الشيخ على إنشاء مثل هــذه المقدمة ؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها فى مظانها من كتب العربية . . . قلت : ياسيدى ؛ إنه ليس بشيخ ، إنه فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين . . . »

وكتب اليازجى بعد ذلك فى عدد يونيو سنة ١٩٠٣ من مجلة الضياء فى تقريظ الجزء الأول من ديوان الرافعي ما يأتى :

« . . . وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة فى تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهباً عزيزاً فى البلاغة ، وتبسط ما شاء فى وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته ، بكلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيال ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه . . . »

ثم انتقد الأستاذ اليازجى بعض ألفاظ فى الديوان ، وعقب عليها بقوله :

« . . . على أن هــذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان

يستحب أن يخلو منه ، لأن المرآة النقيـة لا تستر أدنى غبار ، ومن كملت محاسنه ظهر فى جنبها أقل العيوب ؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضناً بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب ، ورجاء أن يتنبه إلى مثلها فى المنتظر ، فإن الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه ، ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة فى مثل هذه السن ، سيكون من الأفراد المجلين فى هذا العصر ، وممن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر »

* * *

بلغ الرافعى بالجزء الأول من ديوانه مبلغه الذى أراد ، واستطاع بغير عناء كبير أن يلفت إليـه أنظار أدباء عصره . ثم استمر على دأبه ، فأصدر فى سنة ١٩٠٤ الجزء الثانى من الديوان ، وفى سنة ١٩٠٦ أخرج الجزء الثالث ، وفى سنة ١٩٠٨ الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ ومضى على سنته ، معنيا بالشعر ، متصرفاً فى فنونه ، ذاهباً فيه مذاهبه ، لا يرى له هدفاً إلا أنه يبلغ منزلة من الشعر تخلد اسمه بين شعراء العربية .

وتألق نجم الرافعى الشاعر ، وبرز اسمه بين عشرات الأسماء من شعراء عصره براقاً تلتمع أضواؤه وترمى أشعتها إلى بعيد ؛ ولقى من حفاوة الأدباء ما لم يلقه إلا الأقلون من أدباء هذه الأمة ، فكتب إليه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده يقول :

« . . . أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل ، وأن يقيمك فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل »

وكتب المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا يقول :

« . . . وسيأتي يوم إذا ذكر فيـه الرافعى قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة فى أجمل قالب من البيان »

وكتب حافظ ، وقال البارودى ، ونظم الكاظمى ، وتحدث الأدباء والشعراء ما تحدثوا عن الرافعى الشاعر . وظل هو على مذهبه ذاك حتى سنة ١٩١١ ، ثم تطورت به الحياة ، وانفعلت أعصابه بأحداث الأيام ، فانحرف عن الهدف الذي كان يرمي إليه من الشعر ، وتوجه وجهة جديدة فى الأدب سنتحدث عنها بعد

ليس كل شعر الرافعي فى دواوينه ، وليس كل ما فى دواوينه يدل على فنه وشاعريته ؛ فالجيد الذى لم ينشر من شعر الرافعى أكثر مما نشر ؛ وقد كان فى نية الرافعى لو أمهلته المنية أن يتبرع لشعراء اليوم بأكثر ما فى دواوينه ، ثم يخرج منها ومما لم ينشر ديواناً واحداً مهذباً مصقولاً . ليقدمه هدية منتقاة إلى الأدباء والمتأدبين ، ولكن . . . ولكن الموت غاله فبطل أمله وبقى عمله تراثاً باقياً لمن يشاء أن يسدى يداً إلى العربية يتم بها صنيع الرافعى .

لم ينقطع الرافعي عن الشعر بعد تلك الفترة ولكنه لم يقتصر عليه ، وسنتحدث عن ديوان الرافعي الذي لم ينشر حين تحين الفرصة للحديث عن أعماله الناقصة التى لم تتم ، فحسبي الآن وإلى اللقاء فى الأعداد المقبلة .

« سيدى بشر »   محمد سعيد العريان

حاشيتان :

(١) سألني كثير من الأصدقاء أن أترجم لهم (خط الرافعى) المنشور بالعدد السابق من الرسالة ، ترجمة بخط المطبعة ؛ فاليهم ما يريدون : « اللهم اجعل لى نفساً مطمئنة ، توقن بلقائك ، وتقنع بعطيائك ، وترضى بقضائك ، وتخشاك حق خشيتك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . »

وقد وجدت هذه الورقة المكتوبة بخطه بين أوراقه الخاصة على المكتب ، ولعلها من آخر ما كتب . رحمه الله .

(٢) لم تتهيأ لى الفرصة فى هذا الأسبوع لأنشر شيئاً من مختارات أدب الرافعى ؛ فمعذرة وإلى اللقاء في الأسبوع الآتى .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٦٠ — هذه الصلة وأنا العائد

قال القاضي ابن خلكان: كان الملك المعظم شرف الدين عيسى[(١)] بن الملك العادل عالى الهمة ، حازماً ، شجاعاً ، مهيباً فاضلاً ، جامعاً شمل أرباب الفضائل ، محباً لهم ، وكان يحب الأدب كثيراً ، وله رغبة فى فنه ، وكان قد شرط لكل من يحفظ (المفصل) للزمخشرى مائة دينار وخلعة ، فحفظه لهذا السبب جماعة ، ولم أسمع بمثل هذه المنقبة لغيره ، وكان من النجباء الأذكياء : مرض أبو المحاسن محمد بن نصر (الوزير والشاعر الشهير) فكتب إليه:

انظر إلى بعين مولى لم يزل ... يولى الندى وتلاف قبل تلاف
أنا كالذى أحتاج ما يحتاجه ... فاغنم ثوابى والثناء الوافى

فجاء (الملك) بنفسه إليه يعوده ومعه صرة فيها ثلاث مائة فقال : هذه الصلة وأنا العائد . وهذه لو وقعت لأحد من أكابر النحاة ومن هو في ممارسته طول عمره لاستعظم منه

١٦١ — القيام عند ضرب النوبة

فى (نزهة الجليس) : قال العلامة السيد محمد كبريت المدنى: سبب قيام آل عثمان عند ضرب النوبة أن السلطان علاء الدين السلجوقي لما شاهد عزم السلطان عثمان وعلم قابليته[(٢)] فى فتح أطراف تلك البلاد أكرمه وأمده ، وبعث إليه الراية السلطانية والطبل والزمر ووسمه باسم السلطنة تقوية ليده وشداً لعضده . فلما وصل إليه ذلك ، وضربت النوبة بين يديه قام عند أول سماعه لها على قدميه تعظيما لذلك . فهم يقومون عند ضرب النوبة إحياء لتلك السنة

١٦٢ — المال ناموس الملك

فى (المنهج المسلوك فى سياسة الملوك) : قد كان يقال :

(١) هذا الملك الأديب هو الذى تقدم إلى الفتح بن على البندارى بترجمة (الشاهنامه) راجع الصفحة (٣) الجزء الأول من (كتاب الشاهنامه) للعالم المحقق الدكتور عبد الوهاب عزام .

(٢) القابلية الاستعداد للقبول (التاج) والكلمة ليست مولدة بل متأخرة وكأنها عصرية . . .

المال ناموس[(١)] المُلك تظهر به هيبته ، وتقوى أبهته . حكى أن سابور ملك الفرس اتخذ أعمدة وقواعد من الذهب ، وجعلها على باب خزانة المال يجلس عليها الخزنة وغيرهم ، فعظم بذلك عند نظرائه وأهل مملكته ، فلما أفضت المملكة إلى ولده جعل يفرق الأموال ويسرف فى العطايا ، فلما نفدت الأموال أخذ تلك الأعمدة وسبكها فوجدها مجوفة قد ملئت رملا فذهب حينئذ ناموسه ، وقلت هيبته عند أهل مملكته حين علموا سر هذه الأعمدة . فلهذه المعانى يجب حفظ المال والاحتياط عليه

١٦٣ — فقد أدى الى مصالح الرعية

فى (كتاب غرر ملوك الفرس وسيرهم) : كان كيقباذ يقول : ليس غرضنا فيما نحتفل فيه من أصناف الزين بالقصور الشيدة والفرش الممهدة والملابس الفاخرة والأطعمة الملونة إلا تزيين أمر المملكة ، وتفخيم أسبابها فى أعين الناظرين إليها والواردين من النواحى عليها ، دون الانهماك فى الشهوات ، والاستكثار من اللذات . وجدوي شأن المملكة وإقامة مروءاتها عائدة عليها بالمصلحة ، وما أدى إلى مصلحتها فقد أدي إلى مصالح الرعية .

١٦٤ — أمارات القيام ، يا غلام هات الطعام

فى (التاج ومحاضرات الراغب) : كان لكل ملك أمارة يستدل بها أصحابه إذا أراد أن يقوموا عنه ، فكان اردشير إذا تمطى قام سماره . وكان الأردوان الأحمر[(٢)] ، وله وقت من الليل وساعات تحصى فاذا مضت جاء الغلام بنعله فقام من حضره . وكان كيشاسف[(٣)] بدلك عينيه ، ويزدجرد يقول : (شَبْ بِشُدْ)[(٤)] وبهرام يقول : (خُرَّمْ خُسْفاذ)[(٥)] وسابور يقول : حسبك يا إنسان . وقباذ يرفع رأسه إلى السماء ، وأبرويز يمد رجليه . وأنو شروان يقول : قرت أعينكما !

(١) يريد بناموس الملك : قوامه وقوته . واللفظة بهذا المعنى مولدة .

(٢) لعل الصواب الأصفر ، والأردوان علم على جماعة من ملوك النبط وكانوا من ملوك الطوائف بعد الاسكندر (الأستاذ احمد زكى باشا)

(٣) يشتاسف (فى التاج المنسوب للجاحظ) كيشاسف : معرب كشتاسب (محمد عارف وكيل جمعية المعارف)

(٤) معناه مضى الليل (محمد عارف)

(٥) نام مسروراً (احمد زكى) خرم : المسرور ، طيب الوقت مستريح الحال ، وخسفاذ : معرب خوش باد (مفهوم . . .) محمد عارف

وكان عمر يقول : قامت الصلاة . وعثمان يقول : العزة لله . ومعاوية يقول[١] : ذهب الليل . وعبدالملك يقول[٢] : إذا شئتم . والوليد إذا قال : أستودعكم الله . والهادى إذا قال : سلام عليكم . والرشيد يقول : سبحانك اللهم وبحمدك . والمأمون إذا استاق على فراشه . والمعتصم إذا نظر إلى صاحب النعل . والواثق إذا مس عارضيه وتثاءب .

وحكى عن بعض البخلاء أنه سئل: ما أمارتك لقيامنا؟ قال : قولى : ياغلام ، هات الطعام . . .

١٦٥ — الصيد

الصابى : مآرب الناس منزلة بحسب قربها من هزل أو جد ، ومرتبة على قدر استحقاقها من ذم أو حمد ، وإذا وقع التأمل عليها والتدبر لها وجد أولاها بأن تعده الخاصة نزهة وملعباً ، والعامة حرفة ومكتسباً — الصيد الذى فاتحته طلاب لذة ونظر ، وخاتمته حصول مغنم وظفر ، وقد اشتركت الملوك والسوقة[٣] فى استجماله ، واتفقت الشرائع المختلفة على استحلاله ، ونطقت الكتب المنزلة بالرخصة فيه ، وبعثت المروءات على مزاولته وتعاطيه ، وهو رائض الأبدان ، وجامع شمل الاخوان ، وداع إلى اتصال العشرة منهم والصحبة ، وموجب لاستحكام الألفة بينهم والمحبة .

١٦٦ — العامل (الوالى) النصرانى فى الدولة الاسلامية

فى (كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) للبطريرك سعيد بن بطريق : ولى المأمون (وهو فى مصر) بكام النصرانى عمل بورة وما حولها . وكان بكام إذا كان يوم الجمعة لبس السواد وتقلد بالسيف والمنطقة ، وركب وبين يديه أصحابه ، فاذا بلغ المسجد وقف ودخل خليفته . وكان مسلماً يصلي بالناس ويخطب باسم الخليفة ويخرج إليه .

١٦٧ — من نبأ الورقاء أنه محلكم حرم

قال أبو المحاسن شرف الدين محمد بن نصر الدين : إنه حضر درس الامام فخر الدين الرازى يوماً وهو يلقى الدروس فى مدرسته بخوارزم ودرسه حافل بالأفاضل واليوم شات وقد سقط ثلج كثير ، فسقطت بالقرب منه حمامة وقد طردها بعض الجوارح[١] ، فلما وقعت رجع عنها الجارح خوفاً من الناس الحاضرين فلم تقدر الحمامة على الطيران من خوفها وشدة البرد فلما قام الامام فخر الدين وقف عليها ورق لها وأخذها بيده ، قال شرف الدين : فأنشدته فى الحال :

يا ابن الكرام المطعمين (تبرعا) ... فى كل مسغبة وثلج خاشف[٢]

العاصمين إذا النفوس تطايرت ... بين الصوارم والوشيج الراعف[٣]

من نبأ الورقاء أن محلكم ... حرم وأنك ملجأ للخائف

وفدت عليك وقد تدانى حتفها ... فحبوتها ببقائها المستانف[٤]

لو أنها تحبى بمال لانثنت ... من راحتيك بنائل متضاعف

١٦٨ — ارقص للقرد فى زمانه

فى (وفيات الأعيان) : لما ولى جلال الدين الزينبى الوزارة دخل عليه هبة الله بن الفضل بن القطان — الشاعر المشهور — والمجلس محتفل بأعيان الرؤساء ، وقد اجتمعوا للتهنئة فوقف بين يديه ، ودعا له ، وأظهر السرور والفرح ، ورقص[٥] .

فقال الوزير لبعض من يفضى إليه بسره : قبح الله هذا الشيخ فانه يشير برقصه إلى ما تقول العامة في أمثالها . أرقص للقرد[٦] فى زمانه

(١) فى (العقد) : إذا شئتم . وكان يزيد يقول : على بركة الله

(٢) فى (العقد) : إذا وضعت الخيزرانة وفى (التاج): إذا ألقى المخصرة وفى (الأغانى) : قال مصعب للشعبي : إذا شئت فقم

(٣) السوقة من الناس : الرعية ، من لم يكن ذا سلطان . سموا سوقة لأن الملك يسوقهم ويصرفهم على إرادته . . . الذكر والأنثى والواحد والجمع فيه سواء ، وجمعه سوق (بضم ثم فتح) وأما أهل السوق فهم سوقيون واحدهم سوقى (النهاية ، اللسان ، التبريزى)

قلت : السوقة لفظة منكرة وميراث خبيث من زمان الجاهلية . وإنما تعد الاسلامية أولئك (السائقين) عبيداً وأجراء كما قال عمر : (من ولى أمر المسلمين فهو عبد المسلمين) وكما قال أبو مسلم الخولانى لمعاوية (السلام عليك أيها الأجير) وبيت صاحب (اللزوميات) مشهور

(١) الجوارح ذوات الصيد من السباع والطير

(٢) خشف الثلج (فهو خاشف) وذلك فى شدة البرد تسمع له خشفة (صوتا) عند المشى (اللسان)

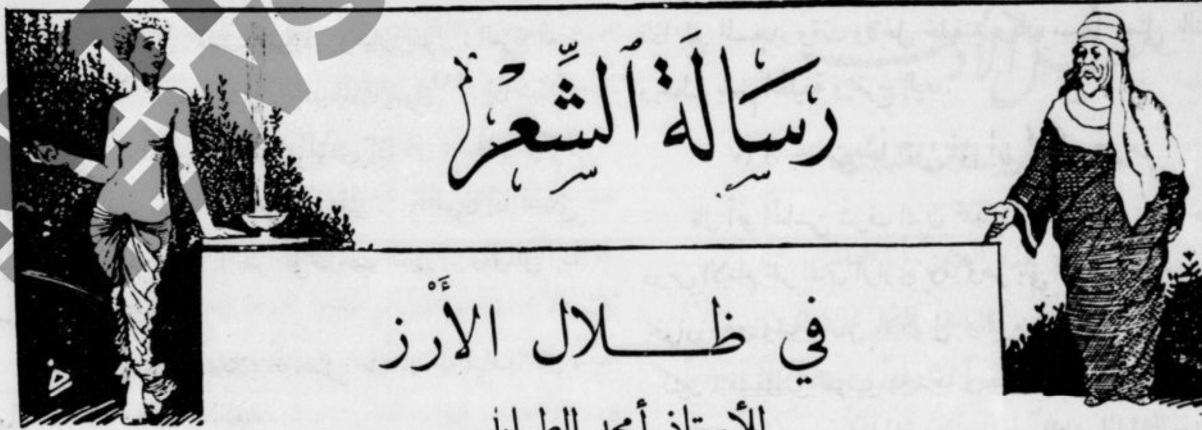
(٣) الوشيج : الرماح . فى الأساس : من المجاز : قنار عاف ، ورماح رواعف (٤) المستانف بلا همز ضرورة

(٥) ومن قول بن القطان هذا :

كل من صفق الزما ... ن له قمت أرقص

(٦) ابن عتبة الاشبيلى :

أصبحت فى (الدهر) مستضاما ... أرقص فى دولة القرود



في ظلال الأرز

للأستاذ أمجد الطرابلسي

قلبيَ يا ابن الفناء ! ماذا يُصْبيكَ في هيكلِ الخلودِ ؟
أيُّ جمالٍ تراه يبدو يا قلبُ فى مَقْبَرِ العهود ؟
وأيُّ لحنٍ هناك يشدو به وُجومُ المدى البعيد ؟
أراكَ يا أيُّها المُعَنَّى فى الأرض كالهارب الطريد
تَفِرُّ من نقمة البرايا وتتَّقي زحمةَ الوجود
تمشى على هامش الفيافى مجتنباً رنَّةَ القيود
مُلتمساً ملجأً بعيداً عن الوشاياتِ والحُقود
كالوحش ليستْ تقرُّ عيناً إلا ببيداءَ خلفَ بيدِ
بالأمسِ فى بَعْلَبَكَّ ، ذكرى الـ زّمانِ من عِزِّهِ التليد
قمتَ على رسمها تُغَنِّى غناءَ مُستوحشٍ عميد
غنيتَها رائعَ المعانى يميسُ فى أجملِ البُرود
واليومَ فى الأرْز يا فؤادى وغابِهِ الأعطرِ البَرود
فى حِضْنِ لُبنانِهِ المُوَشَّى وعرسِه الضاحكِ السعيد
تُجَنُّ فى بحْرِكَ القوافى كالموجِ فى الزاخرِ المديد
ويحكَ يا قلبيَ المُدَوِّى ! يا نبعةَ الحُبِّ والقصيد
دُرُّكَ ضِنَّهُ ولا تبدِّدْ يتيمةَ البكرِ فى الصعيد
كرِّمْهُ يا قلبُ فهو أغلى من الدمِ الطاهرِ الشهيد
تعوَّدِ الصمتَ فهو أولى بالحرِّ فى دولة العبيد
خيرُ صلاةِ الحزين دمعٌ يَفيضُ من ناظرٍ شَرود

***

يا أرْزَ لبنانَ ! يا مُصَلَّى ما فاتَ من غابرِ العهودِ
أليسَ فى دوحِكَ المُعَلَّى أرائكُ الأعْصُرِ الهُجودِ ؟
تفَيَّأتْ ظلَّه وأغفتْ من بعدِ إعيائها الشَّديدِ
يا مربضَ الثلج يا مَحَطَّ الـ نُّجوم يا مأمنَ الشَّريدِ !
بِنْتَ وَحَوَّمْتَ فى الأعالي نَسراً تَحَرَّى ذُرى القُنودِ
تُرى تعاليتَ عن مُناخ الـ نِّفاقِ والذلِّ والسّجود ؟
أمْ قَدْ ترَفَّعتَ عن فَناءِ الـ وَرى فأمعنتَ فى الصّعودِ ؟
يا أرزُ لا تظلِمِ البرايا فى دهرِها المُنْجبِ المُبيدِ !
ما أجدرَ الناسَ بالتَّحَنِّى لا بالزِّرايات والصُّدود !
وارحمتا للورى جميعاً من حَمَلٍ أعزلٍ وسِيد !
وارحمتا للورى جميعاً الموقدِ الشرِّ والوقود !
والآسرِ الخلق والأسارى والحاسدِ النّاسَ والحسيدِ !

***

إيهِ أُولُمْبَ العصورِ ! ماذا لَدَيْكَ عن أعصرِ الجُدود ؟
لعلَّ أدواحَكَ الروانى مثلُ أبى الهَولِ فى الجمود
نسألها ، والسكوتُ دوماً خيرُ جوابٍ لها سَديدِ
هاتِ الأحاديثَ عن (عَبيدٍ) وعن (كُلَيْبٍ) وعن (لَبيد)
ونسرُ (لُقمانَ) ما دهاه من بعدِ عُمرٍ له مديد ؟
أىُّ الأساطيرِ نَسَّقَتْها قريحةُ الشاعرِ المُجيدِ
وأيُّها قد شهدتَ حقاً فى الزَّمَنِ الغابرِ التليدِ
وأيُّها نَسْجُ أُمّهاتٍ فى الليلِ حولَ الصِّلى قُعودِ
يَقْصُصْنَها للبنينَ شغلاً لهم عن اللَّعبِ والهُجودِ



أرزة لامرتين

يا ليتَ شعرى ! وأين شعرى   من ظُلُماتِ المدى البعيد ؟
لعلَّ أمس الحياةِ شطرٌ   من قَصَصِ الجدِّ للحفيدِ ! !

***

مددتُ كفّى أصوِّرُ اسمى   فى صفحةِ الأرزةِ الهَجودِ
فارتعشتْ باليراعِ كفى   واحترقتْ فى دمى جهودى
ويلى ! أأنعى إلى وُجودى   بأحرفٍ من يدي وجودى ؟
أينَ (لمَرْتين) أين (جُوليا)   هل عنهما اليوم من مُفيد (١)
سلْ عنهما الدودَ فى ثراه   إن ضَنَّ غولُ الرّدى بدُودِ
أمسِ على قربِهِ إلينا   أشدُّ قُرباً إلى ثمودِ

***

إيه لمرتينُ ياصديقي !   يا شاعرَ المأمل الفقيد !
يا صرخةَ النايِ فى الليالى !   ونفحةَ الزهرِ والورود !

(١) لامرتين الشاعر الفرنسى المشهور ، وقد زار الأرز عام ١٨٣٢ أثناء تجواله فى الشرق صحبة ابنته جوليا ونقشا اسميهما على أرزة تعرف اليوم باسم أرزة لامرتين . وقد توفيت جوليا فى العام نفسه وعاد الشاعر الكبير إلى وطنه وحيداً

وهتفةَ البلبلِ المُغَنّى !   وبسمةَ البرعمِ الوليد !
يا شاعرى ! متَّ غيرَ نَقْشٍ   عَزَّ على الموتِ والخُلود
خَلَفْتَه لِلْحجيجِ دُنيا   من التَّصاويرِ والوُعود
يرفُّ كالزَّنبقِ المُنَدَّى   في جبهةِ الأرزةِ الوَدُودِ
يضحكُ للزائرين أُنساً   بِهِمْ ويَفتَرُّ للوُفود
نَقَشْتَهُ لاهياً شَغيلاً   عن الفُجاءاتِ والنُّكود
و (جوليا) غِرَّةٌ لَعوبٌ   خفّاقةُ الحُلْمِ والنُّهود
بسّامَةُ الطرفِ والأماني   ضحّاكةُ الثغرِ والخُدود
تضحكُ فى نَوْمِها وتَعدو   خلفَ الفراشاتِ في النُّجود
تناغِمُ الطيرَ ليس تدرى   ماذا وراءَ الغَدِ الصَّيود
ماذا لدى الغيبِ من هدايا   أو نُوَبٍ كالظَّلامِ سُود
كم عَبْرةٍ تَعقبُ ابتساماً   ومأتمٍ نامَ خلفَ عيد
خطَّتْ حروفَ اسمِها غروراً   تحتَ اسمِكَ الخالدِ المَجيد



من مناظر الأرز

آملةً أنْ تعود يوماً فتقرأ الخطَّ منْ جَديد
ما أخيبَ العمرَ للأمانى ! وألعبَ الدهرَ بالجُدود !
وأوسعَ النابَ في صِباه ! وأقربَ القبرَ للمهود !
خطَّتْ وخطَّ القضاء سَطراً فى لوحِهِ المُفْعَمَ الرَّصودِ
أمسكها الموتُ لم يدعْها تعودُ للموكنِ المَشيدِ
غاضَرَها والصِّبا غَريضُ بلا ضَجيجٍ ولا وَعيـد
بعيدةَ الحصَّبِ والمغانى غَريبـةَ الدارِ والشُّهودِ

* * *

إيه (لمرتين) ! أىُّ كنز من الحشاشاتِ والكُبودِ
أودعتَهُ أرضَنا بَليـلاً بدمْعِكَ المُسْبَلِ البَديدِ
هديةُ الشـاعرِ المغنِّى لموطنِ الشعرِ والخُلودِ
فريدةٌ بعتها بجرحٍ فى القلبِ مُسْتَعْبِرٍ فَريد
وعدتَ من بعدها وحيداً يالوعـة الشاعرِ الوحيـد !
تضربُ بين الربى البواكي كالزورقِ التائِهِ الشَّريد
قيثارةً تُرسِلُ الأغانى من مِزَقِ القلبِ والوَريد
تَنوحُ فى هـدأةِ الليـالى وفى الأعاصيرِ والرُّعود

* * *

للهِ ياشـاعرى دمـوعٌ ذرفتَ كاللُّؤْلُؤِ النَّضـيدِ
ما فَتِئَتْ فى الْخُطوبِ تَحنو على جراحاتِ ذا الوُجودِ
هلاَّ حبستَ النُّواحَ قهراً للزَّمَنِ الشَّامِتِ الحقود
مازالَ هذا الزمانُ خصماً للعبقريِّـينَ والبُنـود
دَعْ لاهبَ الجُرحِ فى الحنايا يأتكلُ الصَّدرَ كالوَقودِ
فاسبلْ على وَقْدِه سُتوراً من البَشاشاتِ والسُّعودِ
غلِّفْ جِراحاتِكَ الدَّوامى بِبَسْمَةِ السـاخِرِ الجَليـد
وكنْ على صولةِ الرَّزايا أعنـدَ من دهرِكَ العَنيـد
هـذا هو المجـدُ لا دموعٌ تُسَحُّ فوقَ الثرى المَجودِ
تضحكُ من شكِّها البرايا فى عرسِلها الناعم الرَّغيـد

* * *

أوَّاه ! مالى أُريقُ شِعرى دماً على مذبحِ الجُحود ؟
أنتَ عزائى وأنتَ روحى فعدْ إلى القلبِ يانشيدى ؟

« دمشق » أمجد الطرابلسى

تَرَدُّد . . .

أنت ياليلى مُنًى جنَّحها حلم الحب الجميل الناضر
أنت فى فجر حياتى نجمة قد أضاءت غيهباً فى خاطرى
قد تأملتك دهراً ، خاشعاً أثم النور بطرف حائر
ويرانى من يرانى هائماً غير أنى فى صباح سافر
أنت كالجدول يجري هانئاً هازجاً ينشـد لحن الطائر
وأنا الطائر فى أحنائه نغم الحب الحنون الساحر
رددى ياليل لحنى واذكرى أنه ذوْبُ فؤاد صابر
من ترى يعرف أحلام الندى غير من فازوا بحب ظافر
من ترى يعرف أسرار الربى وزهور الحقل غير الشاعر
قد ملأتِ الكأس من خمر الهوى فاسكبيه فى فؤاد ثائر

(السلط) حسنى فريز



رفائيـــل
RAFFAELLO SANTI
الفنان أبداً

للدكتور أحمد موسى

— ٣ —

وله صورة أخرى للمادونا مؤرخة سنة ١٥٠٦ وهى مسماة « مادونا ديجلى أنسيدى » محفوظة بجاليرى لندن ، وغير ذلك صورة للعائلة المقدسة محفوظة بپينا كوتيك ميونيخ وهى صورة منظمة تنظيما سيمتريكيا جميلا ، غير أن روعة تصويره لعلاقة الأم بالابن لم تكن على درجة من الجودة ، كتلك التى عهدناها فى صوره الأخرى . وغير ذلك من صور المادونا ما هو محفوظ ببرلين وميونيخ ، وبانجلترا لدى اللورد كوبر وبمنزل بردج واتر بلندن ، كما أن له صورة مشهورة بإنشائها المجيد وهى المادونا « الدياويم » وقد توسطت الصورة ، وعن يمينها يسوع الطفل قد أخذه النوم بينما هى ترفع عن وجهه القناع بيمناها لتمكن يوحنا الطفل من مشاهدة يسوع ، وقد ركع يوحنا أمامه وكمال الخشوع بادٍ على وجهه وجمال النقاوة يغمر محياه وهى تسنده بيسارها .

والمادونا إلبا بمتحف بطرسبرج ومادونا الدوبراندينى بلندن تسجلان تطور رفائيل واتجاهه اتجاهاً لا يعد جديداً من الناحية الفنية ؛ ولكنه يعد عظيما من الوجهة الدراسية .

هذا ولا ننس أن نذكر أن من بين صور المادونا ما أثار إعجاب مؤرخى الفن بالاجماع ، من ذلك مادونا دى فوليجنو (١٥١١) بجاليرى الڤاتيكان ، ومادونا ديلپيسكا (بمتحف پرادو فى مدريد) ومادونا ديلتندا بميونيخ ومادونا كولديڤينو أمورا بناپولى ومادونا ديلليمپاناتا بقصر پيتى بفلورنس .

ولقد وضع تصميم صور للعائلة المقدسة وترك إكمالها لتلامذته وأشهر هذه الصور بمتحف پرادو بمدريد (؟) وهى المسماة لا پيرله La Berla وفيها ظهر أبدع تعبير للأمومة فى أسمى معانيها والحب فى أبلغ مظاهره .

أما للفن الخالص فله أروع صورة للمادونا وهى المسماة « مادونا دى سان سيستو » Madonna di San Sisto أو المادونا السكستينية . وعلى هذه اللوحة الرائعة التى يبلغ طولها ٢/٦٥ متر وعرضها ١/٩٦ متر والتى يغلب الظن أنه صورها سنة ١٥١٥ ، يتجلى أعظم ما وصل إليه رفائيل من الإنتاج الفنى الخالد الذى سجله له التاريخ بمداد من نور ؛ فترى العذراء (ش ١) قد اعتلت الغيوم كملكة للسماء حاملة يسوع الطفل بين ذراعيها وقد تأبطته يمناها ، وبكل حنان أسندت ساقيه بيسراها ، أما الوجه فهو أنبل ما استطاع فنان إخراجه . وفى الجهة اليسرى للصورة القديس سكستس الثانى وهو ينظر إلى يسوع نظرة التقديس المملوءة بكل ما أوتى رفائيل من قوة العبادة التى ملأت قلبه ، وفى الجهة اليمنى منها القديسة بربارة . وعند قدمى العذراء ترى ملاكين يفيضان ببراءة الطفولة ووداعتها اللتين تمتلكان جميع الحواس لكثرة ما فيهما من الصفاء والنقاء .

وقد عملت هذه الصورة خصيصاً لكنيسة دير پيارسوا ، واشتراها القصر السكسونى سنة ١٧٥٣ بحوالى عشرة آلاف جنيه انجليزى فى وقت كانت قيمة الجنيه فيه تعادل عشرة جنيهات فى الوقت الحاضر .

وتنفرد جاليرى درسدن وحدها بامتلاك أعظم قطعة لرفائيل ولذلك تسميها « درة الجاليرى » بعد حصولها عليها من القصر السكسونى .



١ — مادونا سكستس — جاليرى درسدن

وبهذا تكون معظم صوره للمادونا قد انتهت ، وله غير ذلك صورة تمثل زواج ماريا بيوسف (ش ٢) سنة ١٥٠٤ وأسماها سبوساليتزيو Sposalizio محفوظة بميلانو وصورة القديس جورج يقتل التنين (باللوفر) وهى مصورة سنة ١٥٠٦

والقطعة التى يتجلى فيها حبه وهيامه بالموسيقى ، وقد أظهرت أستاذيته فى الفن وعظمته فى الانشاء التكوينى فضلا عن التوفيق الكامل فى اختيار الألوان ومزجها وإيجاد الانسجام المثالي بينها . هذه هى صورة القديسة سيسيليا (ش ٣) وحولها ثلاثة تلاميذ (بولس ومجدلين ويوحنا) والقديس جيمينيانوس صورها سنة ١٥١٣ تلبية لطلب الكردينال لورنسو بوتشى لأجل سان چيوفانى فى مونتابولونا (محفوظة بينا كوتيك بولونا) وقد اهتم بتصوير تفاصيلها اهتماما خاصاً حتى أنك لترى أنه على صغر مساحتها نسبياً إلى ما شملته في دقة رائعة وبراعة فائقة . فالملائكة فى السماء وآلات الموسيقى على الأرض وتفاصيل الملابس والوجوه وما ارتسم على كل منها يبين لنا إلى حد بعيد مدى القدرة العظيمة التي أظهرها فى هذه القطعة .

وله صورة هامة صورها لكنيسة ماريا ديللوسبا سيمو Lo Spasims di Licilia فى سنة ١٥١٧ والتى حازها فيليب الرابع ملك أسبانيا من نفس السنة تبين « حمل الصليب » وهى محفوظة بمتحف پرادو بمدريد (؟)وتشمل ستة عشر وجها كبيرا بين نساء ورجال عدا رؤوس الخيول وبعض الناس فى مؤخر الصورة وهي رائعة الإنشاء التكوينى والموضوعى ، ترى فيها الوجوه التى طغى عليها اليأس والقنوط إلى وجوه قد انعكس عليها ما فى قلوب أصحابها من حقد كمين على المسيح . وهناك فى پرادو صورة أخرى لماريا « البحث عن المأوي » وغير ذلك صورة العائلة المقدسة تحت شجرة البلوط . وله فى سنة ١٥١٨ صورة رسمها للملك فرانس يوسف الأول ملك فرنسا وأسماها « القديس ميخائيل يحارب الشيطان بالسفود » باللوفر . وهناك بعض صور أخرى عملها فى بدء حياته الفنية ، كما أن هناك عدد غير يسير من اللوحات صورها بعد الذي ذكر ، وكلها يضيق المقام عن



٢ — ترويج ماريا (سبوزالينيو) — ميلانو

ذكره ، وبذلك ينتهي إنتاج هذا الفنان الخالد من الناحية الدينية وصورغير هذا كله صوراً شخصية لنفسه ولغيره ، ومن أهم ما يجب ذكره هنا ما صوره أثناء إقامته بفلورنسا ، وهو صورته لصديقه انجيولو دونى وزوجته مادلينه ستروزى دونى (١٥٠٥ بفلورنسا) وصورته لنفسه بفلورنسا أيضاً . أما صوره أثناء إقامته فى روما فأهمها صورة البابا يوليوس الثانى جالساً على كرسى ذى مسند مرتفع محفوظة بفلورنسا ومنهانسخة جيدة منقولة عنها ومحفوظة بلندن) وصورة الكردينال توماس انجرامى (محفوظة بفلورنسا) والصورة النصفية لشاب هو بيدو التوفيتى وقد كان يظن أنها صورته الشخصية إلى وقت ليس ببعيد (محفوظة بميونيخ) وصورتاه دونّا بيلانا ودونّا جراڤيدا (بفلورنس) . وصورته المزدوجة لشخصين هما بيازّانو وناڤاجيرو (بروما)



٣ ــ القديسة سيسيليا ــ بولونيا



٤ ــ زفاف آمود وبسيشه ــ فيلا فارنيزينا

وبعدئذ وأخيراً صورته المجموعية للبابا ليو العاشر مع الكردينال جيليودى موتيشى ودى روسى (قصر بيتى بفلورنسا)

ولقد حاول العمل أيضا كمعماري ووصل إلى حد لا بأس به وأنتج انتاجا جديراً بالذكر هنا ، حيث وضع تصميما لكنيسة بطرس روما ، وقد كلف بعض المختصين بعمل أنموذج مصغر منه أثار إعجاب معاصريه .

هذا مجمل قصة رفائيل سيانتى الذى مات فى سن السابعة والثلاثين ، ونحن إن ذكرنا هنا إنتاجه القيم دون تعمق فى نقد مصوراته ولوحاته فان هذا راجع لسببين أولهما ضيق المجال وثانيهما أننا لانرغب فى أن تكون دراساتنا جامعية ، بل نكتفى بأن نذهب بذوق القارىء إلى السمو ونضع نصب عينيه أن الفن فى مصر ضعيف وأن الذين يقومون بالهيمنة عليه ليسوا ممن تخصصوا فى الفن علمياً وأن واجب الحكومة وواجب الشعب هو الالتفات إلى ما فى هذا الاتجاه الخاطىء من خطورة على تهذيب النشء والسمو بذوقهم ونحن نعتبرهم رجالا للمستقبل .

وإنه لما يثير عندنا الدهشة والاستغراب أن وزارة المعارف فى الوقت الذى لا تبيح فيه اشتغال تمورجى بالطب ولا تسمح لكاتب محام بالاشتغال بمهنة المحاماة تسمح بملء إرادتها أن يهيمن على الفن وعلى دراسته العلمية والثقافية غير من تخصص فى دراسته التاريخية والفلسفية .

احمد موسى



رجل البيت...

للأديب عبد الحميد جوده السحار

دق جرس الباب فأسرعت نعمات هانم لتفتح لزوجها كما هى عادتها فى أول كل شهر فما كادت ترى وجهه حتى بادرته

— استلمت المرتب طبعاً . . . سلمه بدورك

فقال لها وهو يدخل :

— انتظرى حتى أدخل وأستريح . . . انتظرى قليلا

— لا ... هاتها ... أمدد يدك فى جيبك ... أوه...أسرع

وضع حسن أفندى يده في جيب سترته الداخلي وهو يتململ وأخرج رزمة من الأوراق المالية ووضعها فى يد زوجته التى كانت ممتدة إليه تنتظر أوراق البنكنوت . استلمت نعمات هانم مرتب زوجها فنادت ابنها حسونة ثم ابنتها فيفى وهى سائرة إلى جوار زوجها وكان متجها نحو غرفته ليغير ملابسه . لبى حسونة وفيفى النداء وسارا وراء والديهما ودخل الجميع غرفة الوالد فقالت نعمات هانم :

— خذ يا حسونة نقودك . . : وأنت يافيفى . . . خذى هذا

وأخذت تعد — واحد . . . اثنان ... ثلاثة ... أربعة . هذا للبقال ... واحد ونصف هذا للخباز ...واحد ... اثنان . هذا للجزار . . . أوه . . . آسفة ياحسن بك . . . نسيت أن أعطيك مصروفك . خذ ولا تحزن . . . واحد . . . اثنان . . . ثلاثة ونصف . . هـذا أجر المنزل وبقيت في يدها بضع أوراق مالية فطوتها وقالت : هذا للخياطة طبعا

فرفع زوجها رأسه وقال :

— كل هذا للخياطة ... لا لا ... هذا إسراف ...لا أو..

— هذا للخياطة والتنزه والملحقات . . . سنشترى أنا وفيفى أقمشة للصيف ونرسلها إلى الخياطة . . . مسكينة فيفى إنها لا تملك إلا تسعة فساتين فقط

فقال حسونة : ولكن يا ماما . . . أنا محتاج إلى بذلة جديدة

— أوه حسونة . . . الشهر الآتى ياحبيبى

ونظر حسن أفندى إلى حذائه البالي وسترته التى تغير لونها وهم بالكلام ولكنه فضل السكوت لأنه كان يعلم جيداً أن لا فائدة من الكلام .

* * *

انتقلت العائلة إلى غرفة المائدة لتناول الغداء ، فأخذ حسن أفندى ككل أول شهر ينتقد العمل فى الحكومة ويصف الحكومة بمقبرة الكفايات ويعلم الله أن حسن افندى هذا لا يصلح لأى عمل حكومى أو غير حكومى فهو متردد ضعيف العزيمة ولا يحسن غير الخط . التحق بالحكومة من عشرين سنة أيام أن كان كل من يستطيع القراءة والكتابة يلتحق بها . يعتقد أنها نابغة وأنه لو كانت الأجازات موجودة فى أيامه لحصل على أعلى الدرجات . ثم قال : التحق اليوم بوزارتنا موظف جديد متخرج من كلية التجارة وجاءت قرعته فى مكتبي فناولته حساباً بسيطاً ليتمه ، وقدم إلى الحساب فلم أفهم منه حرفاً . مسكين هذا الشاب إنه اتبع طرقاً عقيمة طبعاً وكان خطه رديئاً ، فقلت له : « اسمع يا بنى . سأنصحك لوجه الله أترك كل ما تعلمته فى المدرسة واتبع الطريقة التى سأعلمها لك » فبهت الشاب ونظر إلىّ مذهولا فقلت : « الطريقة التى سأعلمها لك اكتسبتها بالمران الطويل وسترى أنها بسيطة » ثم شرحتها له وأراد أن يعترض فقلت له : « اسمع . إعمل بطريقتى ولا تعمل بغيرها إننا نتبعها من عشرين سنة . أتريد أن نغير من نظامنا إكراماً لخاطرك . لا يا بنى لا اسمح لك بغير طريقتى »

فقال حسونة : « ولكن يا أبي لماذا لم تتركه يتبع طريقته التي تعلمها »

فرد أبوه محتداً : « أية طريقة ؟ لايوجد للحساب سوى طريقة واحدة ، أتظن أنكم تتعلمون الآن ؟ انكم تضيعون وقتكم سدى . رحم الله أيام أن كنا نحصل كل العلوم فى أربع سنوات . اترك فلسفتك ياسيد حسونة »

أراد حسونة أن يرد ويقنع أباه ولكن نعمات هانم تدخلت وقالت :

— لنترك هذا الحديث . عليك ياحسن بك أن تكون هنا فى الساعة الثامنة والنصف لنذهب إلى السينما

— لا أستطيع الليلة . . عندى شغل كثير .

— بل يجب أن تحضر .

— فثار حسن افندى وقال :

— قلت لا أستطيع . يجب أن تكون الكلمة كلمتى ، نعم يجب أن أطاع هنا . . أنا رجل البيت . . أنا رجل البيت .

وقام ثائراً واتجه نحو غرفته ثم لبس ملابسه . وفى أثناء خروجه قالت زوجته :

— تذكر الساعة الثامنة والنصف .

***

فى الساعة الثامنة أخذت نعمات هانم تعد نفسها للخروج فدخلت غرفة الزينة وأمرت حسونة أن يجهز نفسه واختارت لفيفى الفستان الذى ينبغى لها ارتداؤه فقال حسونة :

— قد نلبس ونتعب أنفسنا ولكن أبى قد لايحضر .

فردت نعمات هانم : « اطمئن »

فما كادت نعمات هانم تتم قولها حتى سمع رنين الجرس فنظر حسونة إلى أمه فرآها تبتسم فابتسم أيضاً .

— اسرعى يافيفى وافتحى . . إنه جاء

فتحت فيفى الباب فدخل حسن افندى مسرعاً وما كاد يرى زوجته حتى قال :

— حظكم حسن . . لقد تمكنا من إنجاز كل شىء قبل الثامنة لحضرت لأمتعكم بالسينما . . هيا اسرعوا .

فنظر حسونة إلى فيفى ثم إلى أمه وضحكوا .

وهكذا أثبت حسن افندى أنه حقاً رجل البيت .

***

ظهرت نتيجة البكالوريا وكان حسونة من الناجحين فأراد أن يلتحق بكلية من كليات الجامعة فاجتمعت العائلة ودار النقاش والمفاضلة واشتد الجدل بين الوالد المحترم والوالدة المهذبة ، وترك حسونة المسكين ولم يأخذ رأيه حتى كرأى استشارى. الأب يرغب فى إلحاق ابنه بكلية الهندسة والأم ترغب فى أن ترى ابنها طبيباً .

— هندسة .

— طب .

— قلت هندسة . . هندسة

— قلت طب . . طب

— قلت هندسة وكفى . . أنا ولى أمره . . .

والتحق حسونة بكلية الطب .

***

وخطب فيفى خطيبان أحدهما محام والثانى ضابط بوليس فاجتمعت العائلة المحترمة ودار النقاش . . فالأب يفضل المحامى ويدافع عنه ويقول يكفى أنه يعمل حرا وأنه شاب سيكون له مستقبل باهر ، والأم تفضل الضابط لأن منظره بالشريط الأحمر كما تقول « يسر » وأن ماهيته ثابتة ، أما المحامى فمن يدري قد يتخاصم الناس وقد لايفعلون . اشتد الجدل .

— المحامي

— الضابط

— قلت المحامى

— قلت الضابط

— لا . . . لا أقبل هذا أبداً . . . الكلمة هنا كلمتى والرأى رأيي . . . أنا رجل البيت . . . أنا رجل البيت لن تتزوج إلا المحامى . . .

وتزوجت فيفى من الضابط

وهكذا عاش حسن أفندى . . . رجل البيت

عبد الحميد جوده السحار



تعطف ملكي كريم

حضرة المحترم الأستاذ أحمد حسن الزيات مدير مجلة الرسالة

رفعت إلى الأنظار العلية الملكية النسخة التي قدمتموها إلى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم من العدد الذى أصدرتموه من مجلتكم فنالت حسن القبول والتقدير وإنى أتشرف بإبلاغ ذلك إلى حضرتكم مع شكر جلالته السامى .

وتقبلوا وافر الاحترام كبير الأمناء

تحريراً فى ٦ اغسطس سنة ١٩٣٧ سعيد ذو الفقار

اللغة العربية والألفاظ الدخيلة

لاشك أن اللغة العربية تجوز فى عصرنا طوراً من الإحياء والتجديد ، ولا شك أن مصر هى التى تحمل لواء هذه النهضة المباركة ؛ بيد أن هذه النهضة تتكشف أحياناً عن مظاهر ضعف تدعو إلى الأسف ؛ فبينما نجد لغة الصحافة والأدب تبلغ مستوى رفيعاً ، إذا لغة المصالح الحكومية والمحررات الرسمية بوجه عام لاتزال على جانب عظيم من الركاكة والضعف ، هذا إلى كثير من الألفاظ الأجنبية الدخيلة تستعمل فى الدوائر الحكومية والعسكرية ؛ وهذه الألفاظ الدخيلة ، وهي تركية فى معظمها ، هى من آثار عصر مضى ، ويجب أن تمحى اليوم لاعتبارات قومية وأدبية ظاهرة المغزى ؛ واللغة العربية ليست قاصرة عن أن تؤدى بديلا لهذه الألفاظ الأجنبية التى أضحت فى الدوائر الرسمية كالطفيليات الضارة . ولقد رأت تركيا الكمالية من قبل أعوام أن تطهر اللغة التركية من جميع الألفاظ الأجنبية التى تسربت إليها ، ومن المعروف أن العربية كانت تمثل فى التركية بنسبة عالية ولكن زعماء تركيا الكمالية الذين يضطرمون بغضاً لكل ما يمت إلى الاسلام واللغة العربية بصلة ، لم يجدوا بديلاً فى التركية لتلك الثروة العربية التى أطلقت ألسنتهم قروناً ، بل عمدوا إلى اللغات الأوربية يشتقون منها ويستعيرون . ومن حق العربية على نفسها وعلى أبنائها أن ترد إلى التركية بضاعتها المزجاة من الألفاظ العتيقة ؛ واللغة العربية ليست فى حاجة إليها ، وليست عاجزة عن أن تقدم مكانها البديل ؛ أليس مما يبعث إلى الخجل والأسى أن نسمع حتى اليوم كلمات « حقانية ، وباشكاتب ، وحكيمباشى » وأمثالها تدون فى محرراتنا الرسمية ، وأن تكون اصطلاحات الجيش المصرى إلى اليوم كلها تركية ؟ ولقد سبقت العراق مصر فى التحرر من هذه الآثار البالية ، واستحدثت لنفسها فى الدواوين وفى الجيش ألفاظاً واصطلاحات عربيـة ، وضربت بذلك مثلا رفيعاً يحتذى ، فعلى مصر التى تتصدر لزعامة الآداب العربية أن تحرر نفسها من هذه البقية العتيقة من العصر البائد ، وأن تطهر لغتها ومحرراتها من هذه الألفاظ الدخيلة ، وأن تكون فى ذلك قدوة حسنة لجميع أبناء العربية فى مختلف الأقطار .

مؤلف جديد فى تاريخ العرب

صدر أخيراً مؤلف جديد بالانكليزية عن تاريخ العرب والاسلام عنوانه « تاريخ العرب » History of the Arabs بقلم الدكتور فيليب حتى أستاذ الآداب السامية بجامعة برنستون الأمريكية ، والأستاذ حتى شرقى تفقه فى الجامعات الأمريكية وعرف بتضلعه فى لغات الشرق وآدابه . وكتابه عن العرب مؤلف جامع يقع فى نحو ثمانمائة صفحة . ويشتمل على تاريخ الأمة العربية منذ فجر التاريخ إلى سقوط دولة السلاطين فى مصر وسقوط مصر فى يد الترك العثمانيين فى سنة ١٥١٧ م ، وانتقال زعامة الاسلام من الأمة العربية إلى الأمة العثمانية . ويمتاز كتاب الدكتور حتى بطابعه العلمى ، ومع ذلك فإن هذا الطابع لم يحل دون حسن العرض وطلاوة الأسلوب . وتمتاز الفصول الأولى من الكتاب ، وهى التى تتعلق بأصل الأمة العربية وحضاراتها الأولى من الحميرية والنبطية والسبأية ، بكثير من الدقة والوضوح ، وربما كانت فى الواقع أقيم فصول الكتاب وأكثرها طرافة لأن البحث فى أصول العرب والحضارة العربية

قبل الإسلام مازال من الموضوعات الغامضة على البحث الحديث. ومع أنه يصعب على المؤرخ عادة أن يبسط هذه النواحي المشعبة لتاريخ العرب والاسلام في مجلد واحد، فان المؤلف استطاع أن يلم بهذه النواحي إلماماً حسناً، وأن يقص تاريخ الخلافة في عصورها وعواصمها المختلفة، وتاريخ الأسر والدول الاسلامية المختلفة بطريقة شاملة على إيجازها.

وقد كان المرجع الموجز فى تاريخ الاسلام والعرب بالانكليزية حتى اليوم كتاب المرحوم السيد أمير على «مختصر تاريخ العرب» ولا يزال إلى يومنا من أقيم المراجع الجامعية فى بابه. وكتاب الدكتور حتى من هذا الطراز، فهو أيضاً يمكن أن يعتبر من المراجع الجامعية الموجزة فى هذا الباب، بيد أن كتاب السيد أمير على يمتاز بميزة لم تتوفر فى أى مؤلف آخر صدر بالانكليزية فى عصرنا عن تاريخ العرب؛ ذلك أنه كتب بقلم مسلم يفهم روح الاسلام الصحيح، ويستطيع أن يدرك كثيراً من أسراره التشريعية والأخلاقية والاجتماعية، وإدراك روح الاسلام الصحيح شرط أساسى لكتابة تاريخ الاسلام بروح الفهم والإنصاف. وهذه الخلة قلما تتوفر للكتاب غير المسلمين

مسارح العراء

كانت مسارح العراء فى العصر القديم من أهم ظواهر الثقافة الفنية والرياضية، وكان لها شأن كبير فى الحياة الاجتماعية فى أثينه ورومه؛ والآن تعمل بعض الأمم العظيمة الحديثة على إحياء مسرح العراء القديم ليتسع لعشرات الألوف من النظارة بين الخضرة والهواء الطلق بدلا من المسارح الضيقة المغلقة التى لا تتسع إلا لفريق من الخاصة والتى يتاح كثيراً لأفراد الشعب زيارتها والتمتع بما يعرض فيها من المظاهر الفنية الساحرة. وقد سبقت ألمانيا البلاد الأخرى فى هذا المضمار، فأنشأت مسارح عظيمة فى العراء فى أجمل المواقع والبقاع، ويبلغ عددها اليوم نحو مائتين وخمسين مسرحا يؤمها نحو مليونى متفرج؛ وهذه المسارح على خمسة أصناف: مسارح الميادين العامة، مسارح القصور، مسارح الطبيعة، مسارح الحدائق، والمناظر الهندسية الضخمة؛ وقد انتخبت عدة من القصور التاريخية والغابات الشهيرة بجمالها لانشاء هذه المسارح، ومنها ما يتسع لأكثر من عشرة آلاف متفرج دفعة واحدة

وقد أقامت ألمانيا هذا الصيف معرضاً دولياً لمسارح العراء فى مدينة فرانكفورت، وهو أعظم مظاهرة فنية من نوعه؛ وبه مناظر لتطورات المسرح والتمثيل منذ فجر التاريخ إلى يومنا؛ ومن الأمم المشتركة فيه فرنسا وهولنده وسويسرا وإيطاليا واليابان والصين. وكل منها تعرض مناظر مسرحها القومي، ولا سيما المناظر التي اشتهرت فى التاريخ؛ من ذلك مناظر قدمتها فرنسا ترجع إلى القرن السادس عشر، وأخرى قدمتها سويسرا وإيطاليا وهي جميعاً تدل على روعة المسرح وازدهاره فى عصر الإحياء؛ وفي هذه المجموعة الغريبة من المناظر الفنية يشعر الانسان بالدور العظيم الذي يؤديه المسرح فى نشر الثقافة الفنية والأخلاقية فى مختلف المجتمعات التى تتذوقه وتغذي مشاعرها منه. وسيبقى هذا المعرض الفنى العظيم قائماً حتى نهاية شهر سبتمبر

الروح الأوربى

ظهر أخيراً بالفرنسية كتاب عنوانه «الروح الأوربى» L' Espsit Européan بقلم مسيو ديعون فلدن وفيه يعالج الكاتب مشكلة أوربية جديدة هى فقد ما يسميه هو «بالروح الأوربي». وقد كان جان جاك روسو يقول فى القرن الثامن عشر إنه لم يبق في أوربا فرنسيون وألمان وأسبان وانكليز، وانما هنالك أوربيون فقط، ويرجع ذلك فى رأيه إلى أن أحداً من هؤلاء لم يتلق تربية قومية خاصة. ورأي المؤرخ الفرنسى البير سوريل أن ذلك يرجع إلى نفوذ اليسوعيين لأنهم هم الذين يتولون شئون التربية فى معظم أنحاء أوربا، ولكن أوربا اليوم قد تغيرت تغيراً عظيما وأصبح «الروح الأوربى» القديم أثراً بعد عين. ذلك لأن النزعة القومية العميقة قد طغت بعد الحرب على أوربا طغياناً شديداً واتخذت لونا محلياً يقرب إلى التعصب وقد كانت الفاشيستية أول من وضع بذرة هذا التعصب القومي العميق، ثم جاءت الوطنية الاشتراكية (الهيتلرية) في ألمانيا فأذكت هذه الحركة ودعمتها بفكرة الجنس أو الدم؛ وطغت هذه الموجة القومية العمياء على معظم المجتمعات الأوربية؛ وحتى فرنسا التى عرفت بنظرياتها الحرة الواسعة رأت نفسها مضطرة إزاء هذا التيار أن تنهج نفس المنهج، وأن تأخذ بهذه النزعة القومية الجديدة. والآن ينهار الروح الأوربى القديم انهياراً تاماً، ويندر أن يتفاهم رجال السياسة الأوربية على خطة أو جهة موحدة، لأن النزعات والمصالح القومية تمزق الدول والمجتمعات. هذه هى المسألة التى يعالجها الكاتب فى كتابه بمنطق حسن وأسلوب جذاب.



سيرة السيد عمر مكرم

تأليف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

للأستاذ احمد أمين

ما كان لي — ولست متخصصاً في تاريخ مصر — أن أقدم للقراء كتاباً في تاريخ مصر الحديث.

وأغرب من هذا أن أقدم كتابا في تاريخ مصر الحديث للأستاذ محمد فريد أبو حديد، وهو الذي وقف حياته على دراسة التاريخ، وبخاصة تاريخ مصر، فترجم «فتح العرب لمصر» تأليف الأستاذ بتلر، وهو الكتاب الفخم الضخم، لقي في ترجمته العناء المضني، وأخرجه للقراء كأنه مؤلف عربي؛ فذكر الأصول بنصها الأصلي، وترجم الإنجليزية، فلولا ماوضع على الغلاف من أنه ترجمة ماشك القارئ أنه عربي الأصل، عربي الأسلوب، عربي التفكير

وأخرج «ابنة المملوك»، وهي رواية تمثل عصر المماليك في مصر تصويراً دقيقاً، سلسل حوادثها تسلسلا بديعاً، وصاغها في أسلوب شيق، ورونق أنيق

ثم له الفصول الضافية، والمقالات الكثيرة في تاريخ مصر، وأحداث مصر، وبطولة مصر

ما كان لي بعد هذا كله أن أقدم كتاب «السيد عمر مكرم» للقراء، وكان يكفي أن يقال إنه كتاب في تاريخ مصر للأستاذ محمد فريد أبو حديد، ليثق القارئ به، ويقومه أحسن تقويم

ولكن أتاح لي القدر أن أقرأ الكتاب قبل نشره وطبعه، فراقني فيه — بجانب ناحيته التاريخية — ناحيته الأدبية؛ فقد استطاع مؤلفه أن يصوغه صياغة لذيذة شائقة؟ يقرؤه القارئ فكأنه يقرأ رواية ممتعة لا كتاباً علمياً دقيقاً، مع أنه كتاب علمي دقيق أيضاً:

على أن في عالم التأليف روايات شائقة، بنيت على أحداث تاريخية ثابتة، ولكن عيبها أنها قيمة من ناحية الأدب، وليست بقيمة من ناحية التاريخ، فلا يعرف القارىء أي الحوادث ثابت تاريخياً وأيها من نسج الخيال، أما هذا الكتاب فقيم من ناحيتيه الأدبية والتاريخية معاً، فليس فيه من الوقائع ما هو نسج الخيال؛ ومع ذلك استطاع المؤلف بمهارته أن يسبغ عليه متعة الرواية وإن لم يكن رواية

أشهد لقد بدأت قراءته وفي عزمي أن أفرغ منه بعد أسبوع على أقل تقدير، وأن أخصص له كل يوم بعض الوقت ولأعمالي الأخرى بعضه؛ ولكني مابدأت به حتى أنساني عملي، وأنساني وقتي؛ واستمررت في قراءته بلذة وشغف حتى أنهيته شاكراً غاضباً؛ فأما الشكر فلأنه هيأ لي ساعات سعيدة لذيذة صرفتها في قراءته، وأما الغضب فلأنه اختلس مني زمني، من غير جرم يستوجب الحد

ومزية أخرى واضحة في الكتاب، تظهر لكل قارئ، وهو أن المؤلف عني أكثر ما عني — لا بالملوك والأمراء كما فعل أكثر مؤرخينا — بل بالشعب وحركاته ونفسيته وحياته الاجتماعية وآماله الوطنية. واتخاذه السيد عمر مكرم محوراً لكتابه أكبر دليل على هذا؛ فهو ليس ملكا ولا أميراً، ولكنه أحد أفراد الشعب، وعظيم من عظمائهم، يشعر بشعورهم، ويأمل آمالهم، ويقصده الشعب في حوائجهم، ويرجعون إليه في خطوبهم. فاتخذه المؤلف نواة نسج حولها تاريخ مصر في هذا العصر وخاصة تاريخ الشعب وتطوراته ونظراته وآماله وآلامه.

وكان حب «فريد» لمصر، وعصبيته لكل ماهو مصري، وحسن تقديره للشعب المصري سبباً في بعض الأحيان أن يلوّن بعض الأحداث لوناً زاهياً جميلا براقاً يعجب الأديب والشاعر والسياسي، ولست أدري إلى أي حد يعجب المؤرخ الجاف المتزمت. ولكن نحن — على كل حال — أحوج ما نكون إلى الإكثار من الكتابة في تاريخ مصر في عصورها المختلفة، ومن جوانب الرأي المختلفة؛ فكل هذا يخدم مصر ويخدم الحق ويخدم التاريخ ويخدم السياسة

وأخيراً أهنئ أخي «فريداً» بنجاحه في هذا الكتاب، وتوفيق الله له، وأجدني مغتبطاً سعيداً بتقديمه للقراء، وأرجو أن يجدوا فيه من الفائدة واللذة ما وجدت

أحمد أمين

نقد كتاب إحياء النحو

تأليف الأستاذ ابراهيم مصطفى

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ٢ —

لا أحسب المؤلف يؤمن بذلك ، ولكنه (كما قلت) قد اضطر إليه اضطراراً ؛ لتسلم له فكرته ، فانني إذا قلت : لا تلميذ فى فصلى راسب ، أريد أن أتحدث عن كل تلميذ فى فصلى ، وأن أثبت له أنه غير راسب ؛ فتلميذ مسند إليه ، ومتحدث عنه ، لا ريب فى ذلك ، وإنما سوغنا حذف خبر لا النافية للجنس فى كثير استعمالها ؛ لأن الخبر وجود عام ، والعرب (إذا كان الخبر وجودا عاما) حذفوه ، لأنه مفهوم من الكلام . ألا تراهم يفعلون ذلك بعد لولا ؛ فيقولون : لولا محمد لهلك على ، فيحذفون خبر (محمد) والأصل لولا محمد موجود لهلك على ؟ ولا إخال المؤلف يشك فى أن محمداً مسند إليه ، محذوف الخبر ، كما حذف خبر لا من غير أن يؤثر فى اسمها ، بل هو باق على حاله ، مسنداً إليه ، ولا إخالني فى حاجة إلى تذكير المؤلف بأن العرب يلتزمون حذف متعلق (الجار والمجرور) إذا كان وجوداً عاماً .

ومن ذلك تمحلات الأستاذ لنصب مفعولى (ظن) ، وإذا كنت لم أقتنع بأن اسم لا لم يعد مسنداً إليه ، فانني كذلك لا أستطيع أن أقتنع بأن المفعول الأول لظن لم يعد مسنداً إليه ، فانك إذا قلت : ظننت أخاك حاضراً ، لم ترد — بلا شك — أن تخبر السامع بأنك ظننت ظناً ما ، ولكنك تريد أن تخبره بأنك قد ألقى فى روعك ظن حضور الأخ ، فأنت إذاً تقصد إلى أن تتحدث عن الأخ بأنك قد ظننت حضوره ؛ وأما احتجاجه بأنه يجوز حذفهما إذ لم يعودا مسنداً إليه ومسنداً ، فردود بأن المبتدأ الذى هو مسند إليه بالاجماع يجوز حذفه إذا دل عليه دليل ، وكذلك مفعولا ظن يجوز حذفهما إذا دل عليهما الدليل ، وليس ثمت استعمال عربى ترى فيه مفعولي ظن محذوفين لغير دليل ، بل لايمكن فهم هذه الألفاظ إلا وهى متعلقة بمفعوليها ، ويطول بى القول إذا أتيت بهذه التراكيب التى توهم المؤلف فيها حذف المفعولين لغير دليل ، وبينت له أن دليل المفعولين قائم فى الجملة يلمسه السامع بأقل انتباه .

ومن ذلك أننا نجد الاسم الذى نريد التحدث عنه منصوباً فى باب الاستثناء ، ألا ترى أنك حين تقول : نجح التلاميذ إلا سعيدا تريد أن تخبر عن سعيد بأنه لم ينجح ، وتقصد ذلك قصداً ، ومع ذلك نجد سعيداً (وهو متحدث عنه) منصوباً أبداً ، لانستطيع رفعه

رابعاً : لأنه لم يجعل الفتحة علامة إعراب ، جعل نصب جمع المذكر السالم ، وجمع المؤنث السالم محمولا على الجر وتابعاً له ؛ لأن العرب يعنون بالدلالة على الجر ويغفلون النصب ، وتلك علة تهدم من أساسها ، فلو أن العرب كانوا يغفلون النصب حقا لما جعلوا له علامة تميزه فى المفرد ، ولحلوا النصب على الجر فى المفردات أيضاً ، وذلك ظاهر البطلان ؛ على أن المؤلف وقف أمام المثنى ولم يستطع شيئاً ، فقال : ولكن باب التثنية فى العربية غريب ، وأرجو أن يدلنى الأستاذ المؤلف على موطن غرابته ومواضعها ، فانني لا أعرف فيه وجه غرابة إلا أنه استعصى على أن يسير مع فكرة المؤلف ، وما كان أغناه عن هذه الفروض التى ليس لها اطراد .

اختصار أبواب النحو

أبواب النحو حول سبعين بابا ، أراد المؤلف أن يختصرها ، فلم يستطع أكثر من أن يضم ثلاثة أبواب هى المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل تحت عنوان واحد هو المسند إليه ، وأن يستغنى عن بعض التوابع وأن يدمج الباقى بعضه فى بعض ، وسوف نناقش رأيه فى هدوء لنرى أنه حتى فى هذه الأبواب القليلة لا يستطيع ضمها ولا اختصارها

أولاً : لأن المبتدأ له معنى ليس للفاعل فى كثير من التراكيب ، فنحو : هذا محمد ، وعلى أخوك ، لا نجد المبتدأ فى الجملة يتصل أى اتصال بمعنى الفاعل أو نائبه

ثانياً : لأن المبتدأ له أحكام يختص بها دون الفاعل ، من حيث وجوب أن يكون معرفة إلا إذا سوغ الابتداء بالنكرة مسوغ ، وليس كذلك الفاعل ؛ ومن حيث علاقته بالخبر ، الذى يجب أن يتأخر عنه أحياناً ، وأن يتقدم عليه أحياناً ، والذى يقع حيناً مفردا ، وحيناً جملة ، أو شبهها ، وليس للفاعل حظ من ذلك ، ولا أريد أن أدخل فى تفصيل هذا المجمل ، فيتعب القارىء ، أو يمل

ثالثاً : لأن نائب الفاعل له أحكام ليست للفاعل ، ألا تراه

يقع جاراً ومجرورا ، والفاعل لا يكون كذلك ؟ وإذا كان ظرفاً أو مصدراً وجب أن يكون مختصاً ، ولا يشترط ذلك فى الفاعل ، إلى غير ما ذكرت من الأحكام ؛ هذا إلى أن باب نائب الفاعل ، يقصد فيه إلى غرض آخر ، هو بيان صورة الفعل عند مايسند إليه

فأنت من هذا ترى أن ضمّ هذه الأبواب تحت عنوان المسند إليه يؤدى فى النهاية إلى بيان أنواعه : من مبتدأ ، وفاعل ، ونائب فاعل ، وإلى ذكر أحكام كل نوع على حدة ؛ لا مفر من ذلك ولا مهرب . أما فى علم المعانى حيث تتفق كلها فى الأحكام التى يتناولها هذا العلم من تقديم وتأخير وذكر وحذف وإثبات ونفى ... الخ فقد وضعت كلها تحت عنوان واحد هو (باب المسند إليه) .

هذا شأن المؤلف فى باب المسند إليه ، وقد رأيت أن فكرته لا تسير إلى غايتها ، بل تنتهى إلى ما أراد الهرب منه . أما شأنه فى باب التوابع فأعجب وأغرب ؛ ويجب أولا أن أسجل هنا ظاهرتين على المؤلف : أولاهما أنه لم يتعرض إلا لتحليل الجمل البسيطة الأولية ، أما الأساليب القوية الصعبة ، التي من أغراض علم النحو فهمها وإدراك مغازيها ، فلم يتعرض لها المؤلف ، وأحسب أن كتب النحو المطولة لم توضع لتوضيح مثل قام محمد وعلى . وثانيتهما أن المؤلف يغالى كثيراً فى قيمة العامل حتى ليتوهم قارىء مؤلفه أن كتب النحو لم تشرح فى التوابع إلا العامل فيها وذلك وهم ، فمن يقرأ هذه الكتب ير أن ذكر العامل لم يأت إلا عرضاً ، أما القصد والغرض فبيان علاقة التابع بالمتبوع وذكر مميزات كل صيغة ، وما تتضمنه من معنى وشرح قيمة كل اسلوب .

وسآخذ الآن فى مناقشة بعض ماجاء به من الآراء :

أولا : قال الأستاذ : « إن باب العطف ليس له إعراب خاص ، وليس جديراً أن يعد من التوابع ، ولا أن يفرد باب لدرسه » فهل قال أحد إن للعطف إعرابا خاصاً ، غير إعراب متبوعه ؟ ولكن هل اتحادهم فى الاعراب يمنع من أن يفرد للعطف باب لدرسه ؟ يكفى أن ترجع إلى كتب النحو لترى أن ما ذكر فى باب العطف جدير بأن يكون له باب يخصه ؛ فهناك حروف العطف المختلفة ، ولكل منها معنى خاص بها ، تكفل ببيانه علم النحو . وباختلاف معانى هذه الكلمات تختلف علاقتها بما قبلها وبما بعدها ، وكذلك لكل حرف منها شرط لوجوده فى الجملة حتى يكون استعماله صحيحاً (وهذا كله عكس ما توهم المؤلف من أن كتب النحو لم تدرس هذه الأدوات إلا من ناحية بيان أثرها فى الاعراب) ثم هناك غير ذلك عطف على ظاهر ، وعطف على ضمير مرفوع أو منصوب ، أو مجرور ، ولكل ذلك حدود وشروط ، لا تكون الجملة صحيحة إلا بمراعاتها فأين تذكر هذه الحدود وتلك الشروط إلا فى باب خاص بها ؟ ومن الغريب أن المؤلف يدعو فى أول كتابه إلى دراسة علاقة الكلمة بالكلمة ، والجملة بالجملة ، وأحسب أن باب العطف الذى يريد حذفه — تتجلى فيه هذه العلاقة تمام الجلاء ، وفضلا عن هذا كيف يفهم طلاب اللغة العربية : الصغار والكبار ، هذه الحروف وكيف يعربونها ويعربون ما بعدها ؟ أنقول لهم : إن هذه الحروف حروف تشريك ، وإن مابعدها شريك ماقبلها ، كما يفهم من حديث المؤلف ، هذه الحروف منها مايفيد التشريك فى اللفظ والمعنى ومنها مايفيد التشريك فى اللفظ دون المعنى ، كما هو مفصل فى كتب النحو ، على أنه (إذا كان هذا كل ما يريده) ليس هناك كبير غناء فى وضع لفظ مكان لفظ ، ولا سيما إن كان اللفظان مترادفين ، فظهر لك من هذا وجوب أن يكون للعطف باب خاص بأحكامه .

ثانياً : جعل المؤلف البدل والتوكيد باباً واحداً ، وذلك إن دل فانما يدل على أن صاحب الكتاب يريد أن يتناسى الفوارق المعنوية بين البابين ، والتى يوضحها ويبينها الاستعمال ؛ فبينما نرى فى باب البدل أن المقصود بالحكم هو البدل ، نرى فى باب التوكيد عكس ذلك إذ أن المؤكد هو المعنىّ بالحديث المقصود منه وإنما جىء بالتوكيد ليثبته وليقوى معناه ، ولأضرب مثلا يبين ما أردت :

تقول : قرأت الكتاب بعضه ، فالمقصود من الجملة هو البدل (بعضه) لأنك لم تقرأ الكتاب كله ؛ وتقول : قابلت الوزير نفسه ، والمقصود من الجملة هو الوزير ولم تأت كلمة (نفسه) إلا لتؤكد أنك قابلته ، ولم تقابل (سكرتيره) مثلا ، وأحسب هذا فرقاً معنوياً واضحاً يكفى لأن يجعل لكل منهما باباً خاصاً به ؛ هذا إلى أن للتوكيد ألفاظاً لايتعداها ، ولا يكون بغيرها ، أما البدل فتحلل من هذه القيود وغير خاضع لها .

أحمد أحمد بدوى

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧ ﴾

5 me Année, No 216.

Lundi - 23 - 8 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢١٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٦ جمادى الثاني سنة ١٣٥٦ — ٢٣ اغسطس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

حوادث العـــراق

ذيول الانقلاب العسكرى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كان فى العراق ما خفنا أن يكون ، وجاءت الأنباء بأن بكر صدقى باشا رئيس أركان الحرب فى الجيش بوغت فى مطار البصرة وهو يتهيأ للسفر إلى تركيا برصاصات أطلقها عليه جندى ، وهمّ قائد القوة الجوية بأن يدفع عن صديقه فلحق به ، ولقى حتفه مثله فحملت الجثتان فى طيارة إلى بغداد حيث دفنتا ، وأبى الجندى الذى اغتالها أن يفضى بشئ عن بواعثه على هــذه الجريمة ؛ وأرجح الآراء أن الاغتيال سياسى ، وأنه إحدى نتائج الانقلاب العسكرى الذى قام به المرحوم بكر صدقى باشا فى العام الماضى ، والذى عصف بالوزارة الهاشمية وشرد رجالها ، والذى كان من ضحاياه المرحوم جعفر باشا العسكرى وزير الدفاع يومئذ . وفى الأنباء الواردة عن الحادث الجديد أن الجندى الذى أردى بكر صدقى كان يصيح وهو يفرغ رصاصته فى صدره : « يا لثارات جعفر » وسواء أصح هذا أم لم يصح ، وكان الرجل قد أطلق هــذه الصيحة أو لم يطلقها ،

فإن المحقق أن الأمر أمر انتقام ، وأنه بعض رد الفعل لذلك الانقلاب العسكري المفاجئ الذي أحدثه بكر صدقي . فقد كان للوزارة الهاشمية أنصارها ولرجالها شيعتهم ، وللعهد الجديد خصومه؛ وبعيد أن يكون الجيش كله — بأجمعه — قد رضي عما وقع ، وارتاح إلى التدخل لقلب وزارة وإقامة أخرى ، وسره أن يغتال جعفر العسكري ويدفن حيث لا يدري أحد ، وأن يكون قتلته معروفين ولا يسألون عما اجترحوا ؛ وغير معقول أن يكون الشعب العراقي قاطبة حامداً شاكراً ، قانعاً ، راضياً مطمئناً ، فإن هذا مطلب عسير ، وغاية لا تنال ؛ ومتى بدأت تجيز لنفسك أن تقتل ، وأن تستخدم القوة بعد إحكام التدبير في الخفاء ، في تحقيق مآربك — كائنة ما كانت — فقد أجزت هذا لسواك ، وأغريتهم بأن يحتذوا مثالك ويقتاسوا بك ؛ ومتى أمكن أن يأتمر جانب من الجيش بوزارة ، فإن من الممكن أن يأتمر جانب آخر منه بوزارة غيرها ، لأن الأصل — والواجب — أن يبقى الجيش بمعزل عن السياسة والأحزاب والوزارات ، وألا يعرف إلا وطناً يدافع عنه ويذود عن حقيقته حين يدعى إلى ذلك ، فإذا زججت به مرة واحدة في السياسة ، فقد أغرقته في لجها المضطرب إلى ماشاء الله ؛ وعزيز بعد ذلك أن تصرفه عنها وأن ترده إلى الواجب الذي لا ينبغي أن يعرف سواه . وهذا هو الذي خفناه وأشفقنا على العراق منه يوم حدث الانقلاب العسكري في العام الماضي . وإنا لنعرف للوزراء الحاليين كزملائهم السابقين وطنية وغيرة وإخلاصاً ، ولم يكن جزعنا لأن وزارة معينة ذهبت وأخرى جاءت ، فما نفرق — ولا ينبغي لنا أن نفرق — بين أحد منهم ، وإنما خفنا على العراق عاقبة اتخاذ الجيش أداة لإسقاط حكومة وإقامة أخرى ، فإن الحكم ليس من شأن الجيش بل من شأن الساسة والنواب والأمة ، وكل دولة تحرص على إقصاء الجيش عن كل ماله صلة بالسياسة ودسائسها ومكايدها ومناوراتها وخصوماتها ، اتقاء لما يفضي إليه اشتغاله بذلك من الشقاق وتفرق الكلمة وتوزع الولاء والمؤامرات والفتن والهزاهز . وقد صح ما توقعناه مع الأسف وخسرت العراق اثنين من رجال الحرب مشهورين بالاقتدار والحزم . وقد كان المرحوم ياسين باشا الهاشمي يكبر المرحوم بكر صدقي باشا ويوقره ويعرف له قدره ، ولكن بكر صدقي أخطأ مع الأسف فجر الجيش إلى ميدان كله شر وفساد ، وكان هو الضحية الأولى لخطئه

ولا نعرف ماذا انتوت حكومة العراق أن تصنع ، ولكنا نرجو ألا تجمح مع أول الخاطر ؛ ولا شك أن التحقيق واجب ، وأن عقاب الجاني فرض ؛ غير أن الأمر يحتاج إلى الاعتدال والحكمة وبعد النظر ، أكثر مما يحتاج إلى البطش والتنكيل . ولا خير في مثل ما جاء في بعض الأنباء من أن الوزارة العراقية تريد أن تشتت شمل أنصار العهد السابق جميعاً ، فان أنصار الحكم السابق لا ينقصهم التشتيت ، وكل ما يؤدي إليه ذلك هو تعميق الهوة وإيغار الصدور . وإغراء النفوس بالانتقام وأخذ الثأر ، والعراق اليوم أحوج ما يكون إلى الصفاء والسكينة ليتيسر له أن يستأنف النهضة التي صدها الانقلاب العسكري ، أو جعلها على الأقل أبطأ وأقصر خطوات مما كان يُرجى أن تكون ، وليتسنى له أن يؤدي واجبه للقضية العربية التي عُنيت بها وزارة السيد حكمت سليمان عناية مشكورة . ولا سبيل إلى شيء من ذلك إلا بعد أن يستقر الأمر على حدود مرضية ، في الظاهر والباطن أيضاً لتخلو النفوس من دواعي النقمة وتتصافق الأيدي على العمل المشترك لخدمة الأمة ، ولا يكون هذا إلا بالتفاهم والتراضي والتعاون ، لا بالبطش والتنكيل . وقد جربت الوزارة السليمانية القوة والتشتيت ، ولسنا نراهما أجديا عليها فتيلا . نعم كانت البلاد ساكنة ، ولكنه سكون ظهر الآن أنه يستر شراً عظيما ، ومتى آثرت الضغط والحجر ، فقد ألجأت الناس بكرههم إلى العمل في الخفاء والتدبير في السر ، والنفاق في الجهر ، ولسنا نعرف أن اجتناب الاعتدال أثمر غير هذا . ومن سوء الحظ أن بلادنا فقيرة في الرجال ، فكل من تفقد ، خسارة لا تعوض . وفق الله العراق ورجاله ، وسدد خطاهم وألهمهم الحكمة والرشاد

إبراهيم عبد القادر المازني

الخروج من النفس

للأستاذ عباس محمود العقاد

كل ناقد لا بد له من قدرة على الخروج من نفسه بعض الأحايين ، أو من قدرة على تصور الأشياء كما يتصورها مائة انسان لا كما يتصورها فرد واحد فى جميع الحالات

وما كان « الخيال » ملكة من أنفس الملكات وألزمها للناقد والأديب والشاعر والعالم إلا لأنه يتيح للأنسان أن ينظر إلى نفسه أحياناً كما ينظر إلى غريب ، وأنه ينظر إلى الغرباء أحياناً كأنهم نسخ أخرى منه يحس معها وتحس معه ، ويحس باللحظة عينها بالفوارق بين تلك الأحاسيس جميعها ، فينقد ويؤلف ويقسم ويوزع ويعلم أن الصواب لا ينحصر فى سمت واحد ولا حالة واحدة ، وأن الأمر لا يكون خطأ لأنه يخالف ما استصوب ، ولا يكون دميما لأنه يخالف ما استحسن، ولا يكون بدعاً غريباً لأنه يخالف ما تعود ، ولكنما الحقيقة فصيلة من فصائل الجان ، تتشكل كما يتشكلون بمختلف الأشكال والنماذج والألوان

وبعض الأمم يبتلون بضعف الملكة الناقدة لأسباب كثيرة بعضها أصيل وبعضها عارض يزول

فمنها ما يؤتى من جانب الغرور عقب النصر الباهر ، وفى أيام الرخاء الوافر؛ ومنها ما يؤتى من جانب الجمود والركود وطول العهد بالحضارة ، بين جيران من ذوي الخشونة والجلافة ؛ ومنها ما يؤتى من جانب العزلة وقلة المخالطة والهجرة ؛ ومنها ما يؤتى من بلادة الحس وضيق العطن وشيوع الجهل والفدامة ؛ ومنها ما يؤتى من التعصب الشديد الذى يؤصله فى النفس طول الظلم والاضطهاد مع قوة فى الشكيمة وقدرة على التحول والتصرف تحول دون الأمة والفنـاء .

وأحسب أن المصريين من أكثر الأمم سخرية بما استغربوه ولم يتعودوه ، فلا يكون الخطيب خطيباً ولا الواعظ واعظاً ولا الممثل ممثلاً إلا إذا خاطبهم باللهجة المصرية التى لا تشوبها مسحة من اللهجات العربية الأخرى ولو كانت ريفية من صميم البلاد المصرية

وأذكر أن ممثلاً سورياً كبيراً حضر إلى مصر بعد اغتراب سنوات فى أوربا تتلمذ خلالها على أساطين المسرح الحديث وعاد إلى مسرحنا بنمط جديد فى بعض الأدوار يبذ به أنداده وسابقيه ، فذهبت ومعي اثنان من الأدباء ـ وأقول من الأدباء لا من عامة السواد ـ وأصغينا إلى الرجل وهو يترقى في دوره حتى شارف القمة وألهب النفوس بالتشوف واحتداد اللهفة ، ونظرت إلى جانبي فما راعني إلا أحد الصاحبين ، وقد غلب ضحكا ، وإلا الصاحب الثانى يكاتم الضحك مكاتمة شديدة ، وكل ذلك لأن الممثل قد مط الحروف وهو يصرخ ويهيج على نحو يقارب الفرنسية من جهة ، والسورية من جهـة أخري ، فنسي الأديبان أن الانسان قد يتألم سورياً وفرنسياً وليس من الضرورى أن يتألم مصرياً وقاهرياً وإلا انقلبت الخوالج الآدمية فأصبح الألم مما يضحك والهياج مما يدعو إلى الفكاهة ، وحسبا أننى لم أفطن لاختلاف اللهجة كما فطنا ... فخرجا يتندران بهذه القصة ويزهيان بالفطنة التى رزقاها وحرمتها، والذوق « الدقيق » الذى عدانى وما عداهما !

وكان عيد الحرية العثمانية فذهبنا جمعاً من الاخوان نشهد الحفل الحافل في بعض المسارح المشهورة يومذاك ، وكان بين الخطباء ترك وعرب وسوريون . فما أحسب أن رواية هزلية فى ذلك المسرح أثارت قط مجانة وضحكا وسخرية كالتى أثارتها « حماسة » الخطباء والشعراء وذكريات الفجائع والمظالم فى أيام الاستبداد . وكان أحد الخطباء مبيناً مفوها متدفقاً كأحسن ما يكون الخطيب فى لغة من اللغات ، إلا أنه ارتضح لهجة غريبة فبطلت محاسنه واحتجبت مزاياه . ولم يكن قصارى الأمر عنـد أصحابنا أنه يجهل العبارات المصرية والمخارج القاهرية ، و إنما كان عندهم جاهلاً بكل شئ يجعل الخطيب خطيباً ويجعـل السامعين يستمعون إليه .! فلما قلت لهم : إني أعد الرجل من أقدر من سمعت وأوفاهم بياناً ، قام أحدهم يحكيه ويردد عباراته ويمثل إشاراته وحركاته فسقطت الحجة كلها وقطعت جهيزة قول كل خطيب ! ! ... وإلا فماذا يبقى من قول القائل الذى يخالف اللهجة القاهرية هـذه

المخالفة ، والذي يستطيع القاهري أن يحكيه ويتماجن عليه ؟؟ لا يبقى بالبداهة شيء !

ويؤمن العامة إيماناً عجيباً بتلازمة الأشياء لصورها وأسمائها وعاداتها التي ألفوها حتى لا يجوز أن تقع التفرقة بينها بنحو من الأنحاء

سألت أحدهم مرة : ما اسمك ؟ فأخفى اسمه الصحيح وقال لي إن اسمه « على » وهو في الحقيقة يسمى إدريس ، وكأنه امتحن ذكائي بهذه الأكذوبة وظن أنني لا أفرق بين الكذب والصدق إذ كان الرجل الذي يسمى « إدريس » تلزمه هذه التسمية لزوماً لا فكاك منه ولا يمكن أن يسمى علياً بحال من الأحوال . ! فلما دعوته مرة أو مرتين باسم « على » وصدقت ما قال تدرج إلى غشي ومخادعتي في غير ذلك موقناً أنني سأجهل الحق كما جهلته في استبانة اسمه الصحيح . وأين ... نعم أين بالله عليّ من إدريس ؟!

هذا مثل هابط جد الهبوط في ملازمة الأشياء لظاهرها وأسمائها بحيث لا تقبل الاختلاف ولا التصور على مثال آخر ، ولكن الذين يهبطون هذا الهبوط كثيرون وإن لم يظهروا هذا الظهور . وما من ناقد ينكر كلاماً لأنه يخالف أسلوباً من الأساليب إلا وهو قريب إلى طبقة ذلك القدم الذي يستجهل كل من يتخيل أن أسماء تطلق على الناس غير اسم إدريس !

كنا نناقش أستاذاً مدرساً في مسألة اجتماعية فاحتج علينا برأي فيها لبعض الأئمة السابقين ، قلنا : وهل هذا الامام حجة فيما نحن فيه ؟

قال : سبحان الله ! إننا نقضي العمر نتعلم اللغة العربية ولا نحذقها كما حذقها ذلك الامام وهو طفل لم يتعلمها على معلم . أفيكون هذا حظه من الفهم ثم يجهل كلاماً نحن ندريه ؟

قلت : أو لم يخطر لك أن ذلك الامام يقضي العمر بتكلم اللغة العامية التي نحذقها نحن ولا يبلغ من حذقها ما بلغناه ؟ أو لم يخطر لك أن الطفل المولود بين الفرنسيين أو الانجليز أو الألمان يسبق ذلك الامام إلى معرفة الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية ؟؟ أتظن أن العربي وحده يحسن اللغة التي يتكلمها ؟ وإذا أحسنها أتظن أنه يحسن كل شيء على هذا المنوال بغير كتب وبغير معلمين ؟

فلاح عليه وأنا أساجله السؤال أنه لم يكلف بداهته قط أن تتصور للأمور أوضاعاً غير الوضع المعروض عليه . وقد تنساق أمة كاملة إلى خطأ شبيه بخطئه كما انساق العرب إلى تسمية الناس جميعاً « بالأعاجم » لأنهم لا يفهمون مايقولون

ولست أرى ميزاناً للنقد والذوق أصوب وأحكم من سؤال المرء عن عشرة شعراء أو فلاسفة يقرأ لهم ويعجب بهم ويشهد لهم بالشعر والفلسفة . فكلما اختلف هؤلاء وتباعدت بينهم أوجه الشبه وأسباب الاختيار والترجيح كان ذلك دليلا على سعة القريحة وقدرتها على الاستحسان لجملة أسباب متفرقات لا لسبب واحد متكرر محدود . وكلما تماثل هؤلاء وتقاربوا كان ذلك دليلا على ضعف النقد وعجز الملكة الموكلة بالاستحسان والانتقاء

ومن هنا نعتقد أن البارودي خطا بالنقد العربي خطوات كما خطا بالشعر في معناه وأسلوبه . فانتقل بنا من المدرسة التي كانت تقصر الشعر على الجاهليين والمخضرمين إلى مدرسة تعرف الفضل للعباسيين والمحدثين ، وانتقل بنا مع ذلك من جماعة الزي الواحد والنمط الواحد إلى جماعة المكاثرين بالأزياء والأنماط . فقد كان الناقد قبله يستحسن البحتري ثم لا شيء بعده ولا شيء غيره ، فجاء البارودي على آثار من سبقوه يجمع بين المعري والبحتري وبين ابن الرومي وابن المعتز في ديوان واحد

ولا تزال في مصر بقية من المحدودين المطوَّيين على أنفسهم يلج بهم الغرور ويشتد بهم الوهم على مقدار ما يضيق بهم المجال وينحسر بهم الذوق والشعور. فهم على يقين مابعده يقين أن « الذوق » لم يخرج من مصر ، وأن الذوق هو ما اصطنعوه من الفكاهة الغثة أو الرقة المحفوظة المدبرة المتشابهة العبارات والتحيات والمصطلحات ، أو الجناسات الكلامية والفكرية التي لا تطلع على الذهن بلمعة من نور ، ولا تترك فيه فضلة من فهم ، ولا تبعث فيه حركة من حياة . وتسألهم : كم عدد الشعراء الفحول في عشرة آلاف سنة بين القوم الذين رزقوا الذوق كله والاحساس كله ولم يتركوا على زعمهم بقية منهما إلا كما يترك السؤر في الاناء المهجور ؟ ؟ وكم واحداً من « أبناء البلد » الذين لا ذوق إلا ذوقهم ، ولا إحساس إلا

إحساسهم ، ولا فكاهة إلا فكاهتهم ، ولا فطنة إلا فطنتهم ، قد صعد فى مراتب الفن والشعر إلى مواطئ أقدام المحرومين المساكين ، الذين لا يشعرون ولا يتذوقون ، ولا يستمرئون اللطافة ولا يستملحون المعانى والنكات ؟؟ وإذا كان ما استقروا عليه هو غاية الحس والذوق ، وحمادى الابداع والاحسان ، وقصارى الاناقة والجمال ، فما بالهم لم ينجبوا رجلا واحداً خلاقاً فى عالم الشعر أو الكتابة أو التصوير أو الموسيقى ، وقد أنجبت الأمم المئات والألوف ؟

سيمضى زمن نرجو ألا يطول قبل أن يفقه أدعياء الذوق بيننا أنهم صفر من الذوق ، وأن الله لم يخلق على الأرض طائفة أغلظ منهم حساً ، وأثقل منهم روحاً ، وأفرغ منهم لباً ، وأعضل منهم داء على العلاج

وسيمضى زمن نرجو ألا يطول قبل أن يفقه أدعياء النقد عندنا أن الذوق الذي يستحسن حسناً جميل ، وأجمل منه الذوق الذي يستحسن الحسنين ، وأجمل منهما الذوق الذى يستحسن الشيئين بينهما تناقض فى الحسن كأنهما ضدان

وسيمضى زمن نرجو ألا يطول قبل أن يشيع بيننا أن الآكل قد يشتهي طعاماً لذيذاً ولا يمنع ذلك أن تشتمل الأطعمة على الف لون لذيذ غيره ، وأنه إذا جاز هذا فى الآكال التى تعد وتحصر فأخلق أن يجوز فيما ليس له آخر ، وهو أطعمة الألباب وأصناف المعانى وألوان الشعور

ونرجو ألا يطول الزمن قبل أن يتعلم الهازلون الماجنون كيف يخرجون من نفوسهم ليعرفوها ويعرفوا سواها ، كما يخرج السائح من وطنه ليعرف وطنه ، ويخرج القارئ من زمنه ليعرف زمنه ، ويبتعد المصور من صورته ليراها حق الرؤية ويبلغ بها جهده من التسوية والتجويد

وتلك نقلة صعبة على من يحتاج إليها . فى عالم المادة أكثر الناس انطلاقا إلى الخروج المحبوسون فى المكان المغلق المحدود . أما فى عالم الفكر والروح فالمحبوسون فى المكان المغلق المحدود هم أقل الناس انطلاقاً إلى الخروج وأكثرهم قناعة بما هم فيه .

عباس محمود العقاد

المحاكمات التاريخية الكبرى

١ـ الحركة النهليستية
ومصرع القيصر اسكندر الثانى

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الثورة البلشفية نتيجة محزنة للمعركة التحريرية الرائعة التى اضطرمت مدى ستين عاماً بين القياصرة وبين الحركة الثورية الروسية . ولم يثل عرش القياصرة ويسحق طغيان القيصرية وتمحى نظم الاقطاع وامتيازات النبلاء إلا ليقوم مكانها طغيان جديد أشد إمعاناً فى الارهاب والسفك وثل الحقوق والحريات العامة . ومن ذا الذي يستطيع أن يقول إن الشعب الروسى يتمتع اليوم فى ظل النظم البلشفية بلمحة من الحرية التى كان ينشدها فى أيام القياصرة والتى اعتقد أنه ظفر بها كاملة في ثورة مارس سنة ١٩١٧ الاشتراكية ثم فى ثورة اكتوبر البلشفية . كانت روسيا منذ منتصف القرن التاسع عشر مسرح نضال عنيف بين طغيان القيصرية وبين العقلية الروسية الجديدة الطموح إلى الاصلاح والتحرير ؛ وكانت روسيا الجديدة تنشد الاصلاح السلمى بادىء بدء وتحاول عن طريق الاصلاحات الدستورية والاجتماعية تحطيم الأصفاد المرهقة التي تطوق القيصرية بها عنق الشعب الروسى ؛ وكان رسل روسيا الجديدة يومئذ جمهرة من الشباب المستنير الذى حفزته مؤثرات الثقافة الحرة إلى التطلع إلى آفاق جديدة . كان هؤلاء هم طلائع «النهلزم» أو الحركة النهلستية كما سماها ترجنيف ، وكانت هذه الدعوة الاصلاحية المتوثبة دعوة مثل ومبادىء يذكيها طائفة من الكتاب الأحرار بأقلامهم الملتهبة ؛ وكان أخص ما يميز الدعوة الحديثة على قول ستبنياك مؤرخ الثورة الروسية « هو إنكار كل ما يفرض على الفرد إنكاراً مطلقاً تعززه الحرية الفردية . وقد كانت النهلستية ثورة قوية مضطرمة لا على الطغيان السياسى ولكن على الطغيان المعنوي الذى يرهق حياة الفرد الخاصة » . على أن هذه الحركة الاصلاحية السلمية لم تلبث إزاء

عنت القيصرية وإغضائها عن الاستماع لدعوتها ، أن تطورت بسرعة إلى حركة ثورية تعتزم أن تحقق مثلها بالنضال والعنف . واحتشد الشباب المتوثب من جميع الطبقات تحت لواء الحركة الجديدة . بيد أنهم على قول ستبنياك « كانوا عزلا إلا من النظريات والمثل، وكانوا يحاربون قوة هائلة مدججة بالسلاح والعدد، ولم يك ثمة سبيل لأن يحركوا كتلة الشعب التي ترزح في أغلال الرق والذلة » . وكانت القيصرية تضاعف إجراءات القمع وتمعن في مطاردة أولئك الرجال والنساء الذين يتجاهلون حقيقة الحياة والنظم القومية الروسية .

وهنا يضطرم النضال وتنشب بين القوتين الخصيمتين : القيصرية والنهلستية — تلك المعركة الهائلة التي تقطر في كل مراحلها دماً ، وتتناثر حولها الأشلاء من كل صوب ، ويتساقط في حلبتها قياصرة وأمراء وقواد وحكام وشباب من كل الطبقات . كانت القيصرية وعميدها ، وكل المؤيدين لطغيانها ، هدفاً لطائفة من المؤامرات والجرائم التحريرية المحكمة تعصف بهم وتثل أرواحهم بين آونة وأخرى ؛ وكانت هذه الجمهرة المستبسلة من الشباب الغض بين فتية وفتيات تلقى بنفسها إلى تلك الغمار المروعة وهي تودع الحياة في كل مرة أفراداً وجماعات ؛ وكان العنف يذكي العنف فكلما وقع اعتداء جديد على زعيم من زعماء الطغيان حشد الطغاة في الحال حول المشانق رهطاً من الشباب المجاهد وأعدموهم بعد محاكمات مرتبة تختتم دائماً بمجازر بشرية . ذلك هو تاريخ النهلستية أو الحركة التحريرية الروسية التي سطرها التاريخ بمداد من الدم الغزير .

بدأ هذا النضال العنيف في سنة ١٨٧٥ بعد أن نضجت الحركة الثورية ، واحتشد حول المثل الحرة الجديدة جيش حقيق من الفدائيين ؛ وكانت القيصرية كلما اشتد ساعد الحركة الثورية واشتدت مطالب الأحرار في سبيل الاصلاح الدستوري اشتدت من جانبها في القمع والمطاردة ، وازدادت حرصاً على سلطانها المطلق . وكانت سلطات الطغيان تبسط على أنحاء روسيا الشاسعة حكما من الارهاب المطبق ، تدعمه جاسوسية بارعة خطرة ؛ وكانت القيصرية هي الباغية المتجنية لأنها لم تستمع إلى دعوة الاصلاح ، بل آثرت سلاح القمع الهمجي ، فمالت على الحركة الثورية تحاول تمزيقها ، ومالت على الأحرار تحاول إفناءهم ، وأسرفت في القبض والاعتقال والنفي إلى سيبريا ، وتدبير المحاكمات الصورية واتخاذها وسيلة لإعدام الزعماء والقادة والشباب المجاهد ؛ وأجاب الأحرار من جانبهم بتنظيم حركة من الإرهاب الثوري ذهب ضحيتها ثبت حافل من الوزراء والقضاة ورجال الشرطة وغيرهم من أعوان الطغيان . وكانت هذه المعركة الشهيرة في صحف الكفاح الثوري ذروة الحركة النهلستية ، وكان قوامها من جانب سلسلة من الجرائم السياسية المروعة ، ومن الجانب الآخر سلسلة من المحاكمات الرنانة . ففي سنة ١٨٧٧ قبضت الحكومة على خمسين من الأحرار النهلستيين وحوكموا في موسكو بتهمة التآمر على سلامة الدولة وهي التهمة الخالدة التي يشهرها الطغيان دائماً في وجه خصومه . وكان منهم صوفيا باردين وهي فتاة ثورية نابهة عرفت مثل النهلستية أمام قضاتها بما يأتي : « إن الجماعة التي أنتمي إليها هي جماعة الدعاة السلميين . إن غايتنا هي أن نبعث إلى نفس الشعب مثل نظم أفضل وأقرب إلى العدالة ، أو بالحرى أن نوقظ المثل الغامض الذي يجثم في نفسه ، وأن نبين له عيوب النظام الحاضر حتى لا يعود في المستقبل إلى نفس الأخطاء التي يعانيها . أما متى تدق ساعة هذا المستقبل المنشود فهذا ما نجهله وليس علينا نحن أن نبينه » . وأسفرت المحاكمة عن القضاء على كثيرين بالاعدام والسجن والنفي . وفي العام التالي قبض على نحو مائتين منهم وقدموا إلى المحاكمة في بطرسبرج ولينجراد فهلك في بدء المحاكمة منهم ثلاثة وتسعون بالتعذيب والانتحار ، وقتل النهلستيون من جانبهم عدة من الجواسيس ، وأطلقت فتاة تدعى فيرا زاسولتش النار على تربيوف مدير الشرطة فجرحته جرحاً خطيراً (فبراير سنة ١٨٧٨) وقدمت إلى المحاكمة فبرئت وحملت على الأعناق في مظاهرة صاخبة، ثم فرت خيفة المطاردة والانتقام. وفي أغسطس أعدم الزعيم الاشتراكي كرفالسكي في أودسا فلم تمض بضعة أيام حتى انتقم له الثوار بقتل رئيس الشرطة مزنتزيف . وفي فبراير سنة ١٨٧٩ قتلوا في خاركوف حاكم المقاطعة البرنس الكسى كروبتكين ، وانتقمت القيصرية على الأثر باعدام الزعيم أوسنسكي وبعض رفاقه . وهكذا لبثت المعركة على اضطرامها أعواماً طويلة تحصد أرواح الفريقين .

وكان مصرع القيصر اسكندر الثاني أعظم حوادث هذا النضال الدموي المروع وكان ذروة الحركة النهلستية ؛ وكانت المحاكمة التي تلت أعظم المحاكمات السياسية التي عرفتها هذه الحركة الفياضة بالحوادث والمحاكمات الرنانة . وكان اسكندر الثاني الذي

تولى العرش سنة ١٨٥٥ يجنح فى بداية عهده إلى نوع من الأصلاح ومسالمة الحركة التحريرية وتحقيق بعض غاياتها . وكان تحريره لرقيق الضياع فى سنة ١٨٦١ فاتحة طيبة لهذه السياسة الاصلاحية؛ وكان يميل فى نفس الوقت إلى إجراء بعض الاصلاحات الدستورية التى لا تؤثر فى مجموعها على حقوق السلطة العليا ، ولكن تتخذ فى الوقت نفسه صورة المنح والمزايا الدستورية ؛ وكان يعتقد أنه يستطيع تحقيق هذه الغاية بانشاء المجالس المحلية (زمستفوس) ، ولكن الحركة التحريرية لم تحفل بهذه المشاريع الجزئية بل اشتدت في مطالبها وضاعفت جهودها فى سبيل الكفاح والنضال ، وشهرت على القيصرية حربها العوان ، وردت القيصرية بمضاعفة إجراءات القمح الذريع ، واضطرمت بين اسكندر الثاني وبين النهلستية تلك المعركة الدموية المروعة التى أتينا على وصفها

ورأت اللجنة التنفيذية الثورية أو اللجنة التنفيذية لإرادة الشعب كما كانت تسمى ، أن تقضى على الشر من أصوله فقررت إعدام القيصر (٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٩) ونظمت شعبها الفدائية ، ودبرت تباعا عدة مشاريع لاغتيال القيصر . فبدأت فى شهر نوفبر بوضع لغم فى طريق القطار الذى يسافر فيه القيصر ولكنه لم ينفجر . وفى ديسمبر وضع الفدائيون لغما آخر فى طريق القطار الملكى إلى موسكو انفجر عند مرور القطار، ولكن القيصر وصل إلى موسكو فى قطار سابق؛ وفى مساء ١٧ فبراير سنة ١٨٨٠ نسف الفدائيون قاعة الطعام فى قصر الشتاء على ظن أن القيصر كان عندئذ يتناول طعامه فيها ، ولكن القيصر كان فى مكان آخر من القصر ، ولم يكن قد جلس إلى المائدة بعد ، فقتل فى الحادث وجرح سبعة وستون من الجند والحشم . ونشطت القيصرية من جانبها إلى مطاردة الجناة ، فأعدم عدة من الفدائيين ، ومنح لوريس مليكوف وزير الداخلية سلطة مطلقة على العاصمة لكى يستطيع السهر على حياة القيصر وأسرته ، وخول له الإشراف المطلق على القضايا السياسية وعلى جميع السلطات الادارية والمدنية .ورأى مليكوف من جهة أخرى أن يتخذ بعض إجراءات لاستمالة الشعب فأفرج عن كثير من المعتقلين وكانت تغص بهم السجون ، ورد آلاف الطلبة إلى الجامعات التى أخرجوا منها . وأصدرت اللجنة التنفيذية بياناً قالت فيه .« إنها لن تترك الكفاح حتى يتنازل اسكندر الثاني عن سلطانه للشعب ويترك مكانه لجمعية وطنية تأسيسية تضع مبادئ الاصلاح الاجتماعى » . ولكن حدث فى مساء ٢٧ فبراير أن استطاعت الشرطة السرية أن تقبض على أندرى جليابوف زعيم اللجنة الثورية فى دار صديقه وزميله فى اللجنة المحامى تريجوني وقبض على تريجونى فى نفس الوقت ، وحمل النبأ إلى القيصر وزير الداخلية مليكوف فابتهج به أيما ابتهاج ، لأنه كان يعتقد أن جليابوف رأس اللجنة المدبر ولن يهدأ له بال ما دام حراً طليقاً . ورفع الوزير الى القيصر فى نفس الوقت مشروع المجالس المحلية الذى اعتزمت الحكومة تنفيذه بعد أن وضع فى صيغته النهائية فوعد القيصر بالنظر فيه فى الغد .

وكان ذلك فى مساء يوم الجمعة ٢٧ فبراير سنة ١٨٨١ وكان القيصر يعتزم أن يشهد يوم الأحد أول مارس تمارين فرسان الحرس فى ميدان ميخايلوفسكى كعادته كل أحد . فرجاه وزير الداخلية ألا يفعل لأن جليابوف صرح أمامه أن القبض عليه لا يمنع وقوع اعتداء جديد على حياة القيصر ، ولكن القيصر لم يعبأ بهذا النصح وصمم على الذهاب .

وكان القبض على جليابوف ضربة شديدة للجنة التنفيذية . وكان يقيم منذ حين فى بطرسبرج باسم سلاتفنسكى مع صاحبته وزميلته صوفيا بيروفسكايا بزعم أنها أخته ، وكانت صوفيا ساعده الأيمن فى تدبير المشاريع وإدارة الشئون ؛ فلما قبض عليه ولم يعد ليلة ٢٧ فبراير جمعت صوفيا أعضاء اللجنة التنفيذية المقيمين فى بطرسبرج فى الحال وكان منهم ضابط البحرية سوخانوف ، والصحفى تيخوميروف ، وأسابيف وفرولنكو ، وجراتشفكى ، وحنه كوريا ، واجتمعت اللجنة فى دار فيرا فنجر ، وبحثت الموقف الخطير الذى انتهت إليه ، وكيف أخفقت مشاريعها المتوالية فى الأشهر الأخيرة ، واستطاعت شرطة القيصر أن تشل كل حركاتها ، وأن تقبض أخيراً على زعيمها ؛ وبعد مناقشات عاصفة قررت اللجنة بالاجماع أن تنفذ مشروع جليابوف لاغتيال القيصر وعهدت إلى صوفيا بيروفسكايا بالاشراف على التنفيذ ، وكانت اللجنة ترمي بهذه المشاريع الجنائية المتوالية فضلا عن الانتقام للضحايا العديدين ، إلى غاية سياسية عملية هى أن تستغل ما يترتب على الاغتيالات السياسية من الاضطراب والروع وتحقيق بعض مطالبها الدستورية . ولكن هذه الخطة لم تحدث أثرها المنشود بل زادت بالعكس فى سخط القيصرية وحرصها على سلطانها ، وزادتها إقداماً وقسوة فى تتبع خصومها .

(للبحث بقية — النقل ممنوع) **محمد عبد الله عنان**

عصبة الأمم فى التاريخ

للدكتور حسن صادق

١ – فكرة عصبة الأمم وتطورها

يكثر الناس فى هـذه الأيام من الكلام عن عصبة الأمم بمناسبة انضمام مصر إليها فى هذا العهد الجديد ، ومنهم من يحبذ هذا الانضمام ويرجو من ورائه خيراً ، ومنهم المتشائم الذى يتمثل فى ذهنه الماضى القريب وما جرى فيه من حروب وعدوان بين دول هى أعضاء فى العصبة ، ويرى أن غنم هـذه العصبة للقوى وغرمها على الصغير الضعيف . وليس من غرضنا فى هذا المقام أن نخوض غمار السياسة فى مجلتنا الأدبية ، ولكننا سنبين فى هذه الكلمة كيف ولدت فكرة العصبة وتطورت خلال الزمن حتى برزت فى شكلها الحالى ، ونرجو أن يجد القارىء فى هـذا الموضوع بعض الفائدة العلمية التاريخية .

من يتصفح التاريخ يجد أن الشعوب دائماً فى حروب تفصلها فترات تطول حيناً وتقصر أحياناً . وكلما وضعت حرب أوزارها يبحث الانسان عن وسائل لتنظيم السلام ويهتم لهذا الأمر جد الاهتمام . ولم يشعر الانسان في أى وقت بشدة حاجته إلى توطيد أركان السلام أكثر مما شعر عقب الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ لهول مالاقى الناس منها . وقد كانت فكرة عصبة الأمم كائنة قبل الحرب ، وظهرت جلية فى كتاب للمسيو ليون بورجوا الفرنسى عنوانه « عصبة الأمم » . ثم بدت هذه الفكرة بعد ذلك رسمياً فى مذكرة الرئيس ويلسون فى ديسمبر سنة ١٩١٦ . وانتشرت هذه الفكرة بين رجال الحكم والسياسـة فقويت ، ثم ازدادت قوة حين تغلغلت فى الرأى العام وسرت بين الشعوب التى عانت فى الخنادق أفظع الآلام وذاقت في تلك الحرب الضروس طعم الأهوال البشعة التى يذيب ذكرها لفائف القلوب .

وفكرة عصبة الأمم تضرب بأصولها إلى أزمان بعيدة ، لأنها تتصل بشعور طبيعي ضرورى ، وبرغبة شديدة فى الهدوء والسلام . والباحث المدقق يجد أن عصبة الأمم وجدت منذ أن تكونت شعوب منظمة قامت بينها الصلات الكثيرة المختلفة . وقد أنشأ الرومان مايمكن أن نسميه « جمعية شعوب » وكانوا هم بطبيعة الحال رؤساء هذه الجمعية .

وبعـد وقت طويل جاءت المسيحية تحمل للعالم أفكار المساواة والأخاء على الأخص . وهذا المثل الأعلى العظيم تحقق تقريباً فى القرون الوسطى أى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر . فالمسيحية فى ذلك العهد كانت عبارة عن أسرة مكونة من جميع الأمم المسيحية ، تحت نفوذ رئيسين وهما البابا والإمبراطور . ولم يكن هذا النظام في الواقع إلا نوعاً خاصاً من « عصبة الأمم » تقوم على أساس من الدين . وكان رئيس المسيحية يحظى بسلطان كبير ، فكان فى استطاعته أن يصدر قرار الحرمان ضد أية دولة أو ضد جماعة من الأفراد ، ومن حقه أن (يشلح) أي فرد ولو كان رئيس دولة ؛ وهذا القرار الذي يجعل الدولة التى صـدر ضدها خارجة على القانون له نتائج خطيرة ، لأنها تصبح عرضة لعدوان الدول الأخرى عدواناً مشروعاً . وهـذه الحال من غير شك تنتج اضطراباً خارجياً . وفوق ذلك فان رعايا الأمير الخارج على القانون يصبحون فى حل من يمين الطاعة والاخلاص له ، وينتج عن هذا اضطراب داخلى دون ريب . وقد لجأ الباباوات كثيراً إلى هذه الوسيلة لحفظ السـلام وليصبحوا رؤساء إمبراطورية شاسعة كما يقول بعض المؤرخين .

وكانت الحروب فى تلك الأزمنة مشروعة ضد الملحدين ، وجائزة فى أحضان المسيحية نفسها . ولكن الباباوات والأساقفة كانوا يبحثون عن وسائل لتقصير مدتها وتخفيف نتائجها ؛ من ذلك أن مجالس الدين فى تولوز وكليرمون بفرنسا أذاعت فى الناس مايسمى « هدنة الله » و « سلام الله » ووجدت هذه الاذاعة من الدول المسيحية ما تستحقه من الاحترام .

والغريب فى ذلك العهـد أن الحرب نفسها كانت متلفعة بروح من العدل . ولم تكن الموقعة تقوم على خطط حربيـة ، ولكن كان المعتقد أن الذى يخرج من الحرب ظافراً ، سيخرج من محكمة الله فى الآخرة وعلى رأسه تاج النصر والظفر ؛ وعلى ذلك كانت تجرى المواقع بطريقة تبعث اليوم فى النفس دهشة شديدة . فالخصوم كانوا يتواعدون فى ساعة ومكان معينين ، ويصطفون للموقعة بطريقة نمطية لاتتغير ، ثم يهجم بعضهم على بعض وجهاً لوجه . وكانت خدع الحرب إلى القرن الخامس عشر تعتبر خيانة وعاراً ينفر منه المقاتل أشـد النفور . وأول موقعة

طبقت فيها خطة حربية بمعنى الكلمة هي موقعة روكروى بين فرنسا وأسبانيا ، إذ قام الأمير دي كونديه بحركة التفاف طوق بها الأسبان وانتصر عليهم ، ولكن هذا العمل من جانب الأمير بعث التذمر فى صدور كثير من فرسانه النبلاء ، لأنه لايمت فى نظرهم ونظر عصرهم بأية صلة إلى النبل والشرف فى القتال . وإذن نستطيع أن نعتبر موقعة روكروى خاتمة الطريقة الحربية فى القرون الوسطى وبداية الحروب الحديثة التى تبرر جميع الوسائل وتجعل القتال أشد هولا مما كان .

وهذه القواعد التى ذكرناها لم تكن مقبولة فى كل موطن ، فهى لم تكن تطبق إلا فى أوربا المسيحية التى كان يحيط بها الأرتوذكسية اليونانية والاسلام ، ثم الأسيويين الذين كانت أوربا تطلق عليهم اسم البرابرة .

نستنتج مما سبق أن أوربا في تلك العصور كانت تشتمل على وحدة حقيقية على رأسها البابا والأمبراطور . ولكن فى أواخر القرن الرابع عشر وخلال القرن الخامس عشر قويت الأمم فى كل النواحى وأخذت كل أمة طابعها الخاص ، وشرعت تتناضل وتتقاتل . ثم ظهر الاصلاح الدينى على يد لوثر وكلفن ، فأصاب المسيحية بضربة شديدة وفرقها شيعاً .

وعقب هذه الحوادث ، رغب الناس فى إقامة نظام جديد للعلاقات الدولية . وحاول أحد رجال الدين من الجزويت (سوارز ١٥٤٨ — ١٦١٧) أن يقيم نظاماً أقوى على الثبات من نظام القرون الوسطى ، بأن يدخل على العلاقات الدولية مبادىء المسيحية الثابتة . أدرك هذا الرجل أن لكل دولة الحق فى سيادة زمنية متينة ، على أن تكون فيما بينها جميعاً جمعية حقيقية . ثم ذهب علماء البروتستانت إلى أبعد من هذا ، وجعل جنتليس أولا ثم جرتيوس من بعده مكاناً أكبر فى تعاليمهما لسيادة الشعوب ، وأعلن فى شجاعة أن العلاقات الدولية ينبغي أن تحرر من كل صبغة دينية . ولجنتليس فى هذا المقام كلمة مأثورة لاقت رواجاً هائلا فى ذلك الوقت وهى « فليعتصم علماء اللاهوت بالصمت فى هذا الميدان ، لأنه غريب عنهم وهم غرباء عنه » والمفكرون الذين أتوا من بعدهما ، عملوا على توكيد آرائهما حتى انتشرت انتشاراً كبيراً .

ولما تولى هنرى الرابع عرش فرنسا جدد بناءها وأراد أن يعيد بناء أوربا كلها ، وكان هذا الحلم موضوع حديثه فى أغلب الأحيان مع وزيره سوللي . وقد أعد هذا الوزير ماسمي « غرض هنرى الأكبر » وخلاصته أن تكون أوربا اتحاداً حقيقياً مسيحياً مكوناً من ست دول ملكية وراثية ، وخمس دول ملكية انتخابية ، ثم خمس جمهوريات . وكان سوللى يرى أن هذا المشروع لا يمكن تحقيقه إلا اذا انهارت قوة الأسرة الملكية النمسوية ، ومن هنا نشأ النضال ومقاومة الحركة الجرمانية . وكان الغرض أن يوضع على رأس الاتحاد المسيحى المرغوب فيه مجلس مكون من ستين عضواً تنتخبهم الدول الداخلة فى الاتحاد ، ويقيم هذا المجلس فى هذه الدول على التوالى ، وأن تكون أحكامه إجبارية ، وتوضع تحت تصرفه لهذا الغرض قوة مادية عامة ، وأن تكون حرية التجارة كاملة بين جميع البلدان التى يشملها الاتحاد . ثم رؤى أن يكون أول عمل يقوم به هذا الاتحاد هو ابعاد الأتراك عن أوربا

ومات هنري الرابع من قبل أن يرى هذا المشروع الكبير نور الإنفاذ ، ولكن فكرته استقرت فى النفوس والأذهان ، وظهرت آثارها فى المؤتمرات السياسية . في مفاوضات وستفاليا التى اختتمت بها حرب الثلاثين سنة فى عام ١٦٤٨ ، دار البحث عن وسائل تقضى على الاضطراب الألمانى من ناحية ، وتجعل ألمانيا غير ذات حطر على أوربا من ناحية أخرى . وكان فى ألمانيا حينذاك قوتان : الامبراطورية وكانت فى حالة تدهور وانحلال ، ونحو أربعمائة دولة صغيرة تخضع إلى حد ما لسلطان الامبراطورية ، ففصلت هاتان القوتان حتى لا يتكدر صفو السلام ، وأعلن أن هذه الدول الصغيرة أصبحت مستقلة عن الامبراطورية . وهذا الاعلان سمى بالحريات الجرمانية ، وقد ضمنت هذه الحريات الدولتان الظافرتان فرنسا والسويد . وهذا يعنى أنه في ذلك الوقت ظهرت فكرة انشاء توازن أوربى ضامن للسلام الدولي

وفى نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، كثرت حروب لويس الرابع عشر حتى اشرأبت أعناق الناس للصلح والسلام ، وجرى البحث عن كيفية تنظيمها واقامة أسسها . وبعد معاهدة أترخت سنة ١٧١٣ نشر القسيس دي سان بيير — وقد حضر المفاوضات بصفته سكرتيراً — مشروعاً يجعل السلام دائماً فى اعتقاده ، وأمل فى وضع قانون عام لأوربا كما كان الحق الخاص للأفراد مقرراً بالأوامر الملكية . وأعلن القسيس أنه للمحافظة على سلام العالم ، ينبغى انشاء محكمة عامة تكون أحكامها

اجبارية . والدول التي تأبى انفاذها يجب أن توضع خارج القانون . والذي يلفت النظر هو أن مشروع القسيس دى سان بيير أوسع مدى من مشروعات سابقيه ، فلم يكن خاصاً بأوربا وحدها ، بل بالعالم كله . وقويت هذه الفكرة على مر الأيام وظهرت آثارها فى عدة مناسبات وعدة معاهدات مثل معاهدتى ١٧٦٢ ، ١٧٨٣ ، كما نتج عنها فكرة العمل على خير الانسانية التى ظهرت فى كتب جان جاك روسو

وقد تأثرت الثورة الفرنسية بهذا التيار من الأفكار . وفى ١٨ مايو سنة ١٧٩٠ أعلن « فولتى » للجمعية التأسيسية قوله : « ستدعون الى الانعقاد جمعية الأمم » ووجهة النظر هذه اقتبسها بعض عظماء المفكرين ، وعلى الأخص الفيلسوف الألماني « كانت » فقد أعلن أن الحرب هي حالة الانسانية الطبيعية ، وإذن ينبغي إيجاد حالة للسلام بتكوين حلف من شعوب حرة . والشعوب الحرة فى اعتقاده لا تكون إلا فى الجمهورية . وكثير من أفكار كانت ، وعلى الأخص الفكرة الأخيرة ، اعتنقها الرئيس ويلسون ونادى بها كما هو معروف

وأول من ابتكر اسم « عصبة الأمم » هو الكاتب الفرنسى المشهور « جوزيف دى مستر » ، فقد وردت للمرة الأولى فى حديثه السابع من كتابه البدائع الصيت «أمسيات سان بطرسبرج»

وفى أثناء حروب نابليون الأول وعقب سقوطه ، دار البحث عن انشاء هيئة لمنع عودة مثل تلك الحروب . ومن أجل ذلك فكر القيصر اسكندر الأول الروسى فى إقامة الحلف المقدس ، أو الحلف الدينى بين الملوك . وكان الغرض منه الدفاع عن مصالح الملوك أكثر مما يكون الدفاع عن قواعد السلام

وخلال القرن التاسع عشر وفى أوائل القرن العشرين ، انتشرت أفكار الجنسية والقومية وشقت طريقها بين الشعوب الأوربية ، بفضل المفكرين الذين يعتبرون أن أوربا هى الأسرة الوحيدة للشعوب الحرة .

وعقب الحرب الألمانية الفرنسية فى سنة ١٨٧٠ ، خيم على أوربا ضيق سياسى شديد ، فحاول رجال الدولة تبديده بخلق توازن أوربى تكون مهمته تجنب ألوان الخلاف والشقاق . وظلت الأفكار التي ترمى إلى التفاهم الدولى تنمو وتقوي حتى حرب سنة ١٩١٤ . والذى يدل على نمو هذه الأفكار ، كثرة عدد المؤتمرات التى أقيمت من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٩١٤ وانشاء هيئة قضائية دولية فى لاهاى واتفاقيات السلام الموقعة فى سنة ١٨٩٩ ، وسنة ١٩٠٧ وهذه المحاولات كلها أدت إلى تكوين عصبة الأمم فى سنة ١٩٢٠

وحين إنشائها ، قامت عقبة فلسفية عملية مآلها : كيف العمل لحمل الدول التى تزداد ميلا يوماً بعد يوم إلى الأخذ بمذهب الفردية ، على الخضوع لعصبة الأمم ؟ وهل ينبغى جعل عصبة الأمم دولة عليا حتى تقوم بدور هام ، أو جعلها تقتصر على أداء أعمال ثانوية فقط ؟ وفى الحق أننا إذا أنعمنا النظر نجد أن من الصعب على أمة من الأمم أن تقبل سلطة أعلى من سلطتها ، أو أن تقبل أن يكون للعصبة الحق فى فرض سلطانها على الدول ، لاسيما وهــذه العصبة تعتمد على مبدأ دينى كما كان الحال فى القرون الوسطى .

ولكى تكون عصبة الأمم ذات مبدأ مقبول ، ينبغى أن تقدر كل القوى الدولية . وهذه القوى ليست الدول فقط ، ولكنها كامنة أيضاً فى بعض هيئات دولية وبعض تيارات فكرية . وربما نرى فى المستقبل هذه العصبة تدعو إلى تمثيل الدول فيها ، ممثلى القوى الدينية والخلقية والاجتماعيــة والاقتصادية . وهذا أمر صعب التحقيق ، ولكنه إذا تحقق يجعل للعصبة نفوذاً أقوى مما لها الآن .

٢ – تكوين عصبة الأمم

ولدت عصبة الأمم رسمياً فى ١٦ يناير سنة ١٩٢٠ فى وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ، حيث اجتمع مجلس الإدارة للمرة الأولى برآسة المسيو ليون بورجوا الفرنسى ، المكونة من ممثلى الدول الكبرى المتحالفة ، وقام بأعمال السكرتير السير جيمس آرك درموند : ولم يصدف عن هذا المجلس من الحلفاء إلا الولايات المتحدة الأمريكية ، حتى قيل إن عصبة الأمم ولدت مشوهة هزيلة وكانت أولى خطواتها عرجاء

كيف تكونت عصبة الأمم هذه ؟

أخذت فكرتها مكاناً كبيراً أثناء الحرب العظمى وسيطرت على مفاوضات الصلح ، حتى أن الحلفاء وضعوا ميثاق العصبة فى مقدمة معاهدات الصلح جميعاً . وهذا الميثاق لكبير أهميته ثم لروح الخلاف الذى بدأ يدب بين الحلفاء أنفسهم ، كان شديد الصعوبة فى إعداده . وقد اجتمع المندوبون فوق العادة الذين كلفوا القيام بهذا الأمر فى باريس ، وحاولوا ونجحوا آخر الأمر فى التوفيق بين

المشروعين الانجليزى والأمريكى . والنص الأخير الذى اتفق عليه هو فى الواقع ماعرضه الرئيس ويلسون مع بعض تحفظات هامة أرادتها بريطانيا لتجنب نفسها التدخل فى منازعات الشعوب الأخرى

انتظم فى سلك العصبة معظم الدول . فى مبدأ الأمر ، اشتملت على كل الدول التى قامت فى وجه ألمانيا ووقعت على معاهدات الصلح . وهذه الدول هى : بلجيكا ، بوليفيا ، البرازيل ، بريطانيا ، كندا ، استراليا ، زيلندة الجديدة ، الهند ، ثم آرلندة بعد قليل ، كوبا ، جمهورية خط الاستواء ، فرنسا ، اليونان ، جواتيمالا ، تاهيتى ، الحجاز ، إيطاليا ، اليابان ، ليبريا ، نيكاراجوا ، هندوراس بنما ، بيرو ، البرتغال ، رومانيا ، يوغوسلافيا ، سيام ، تشيكوسلوفاكيا ، أورجواى . وهذه الدول يطلق عليها اسم أعضاء مؤسسين لعصبة الأمم

ثم انضم إليها ١٣ دولة كانت على الحياد أثناء الحرب وهي : أرجنتين ، شيلي ، كولومبيا ، الدانمرك ، أسبانيا ، نرويج ، باراجواى هولندة ، إيران ، سلفادور ، السويد ، فنزويلا . وهذه الدول والتى ذكرت من قبلها تعرف باسم أعضاء أصليين فى العصبة . ومن سنة ١٩٢٠ إلى الآن طلبت عدة دول الانضام إلى العصبة وقبلت ١٤ دولة منها وأصبحت أعضاء فيها

وللقبول فى العصبة أربعة شروط ذكر نصها فى الميثاق ، وهى :

(١) تقبل الدولة عضواً فى العصبة إذا كان لها حكومة حرة ؛ والحكومة الحرة فى رأى ويلسون هى التى تكون على رأس أمة تحظى بالانتخاب العام وحرية الصحافة ، وتكون من نفسها حكومة برلمانية ، ولكن مع هذا قبلت الحبشة ولم تكن إلا حكومة مطلقة .

(٢) أن تكون الدولة منظمة حتى تستطيع أن تعضد حربياً أى حكم يصدر عن مجلس العصبة .

(٣) أن تمثل الدولة أمة حقيقية تربط أفرادها صلة الجنسية والقومية

(٤) أن تكون الدولة قد قدمت ضمانات فعالة تثبت احترامها للتعهدات الدولية . وقد أثار هذا الشرط مناقشة حادة حين عرض فرض دخول ألمانيا العصبة . وقد طرحت هذه المسألة منذ سنة ١٩٢٣ من جانب الانجليز ، ولكن مندوب فرنسا تمسك بهذا الشرط وأقفلت المناقشة على ذلك . وقد رفض قبول بعض الدول فى العصبة لأسباب مختلفة ، ومنها الدول القوقازية مثل أرمينيا وجورجيا وآذربيجان لأن حدودها كانت لاتزال مثاراً للاحتجاج فلما سويت هذه الحدود فى جلاء ، دخلت هذه الدول العصبة في الوقت نفسه الذى دخلت فيه إيران ، وقد رفض قبول امارة ليخنشتين فى العصبة لأن مساحة أرضها ضئيلة لم تبلغ الحد الأقصى الذى عينه ميثاق العصبة .

وبعد اجتماع العصبة الأول ، دخلها أربع دول هى أسبانيا وكورستاريكا وفنلنده ولكسمبرج . ولما بدأت النمسا وبلغاريا فى إنفاذ تعهدات الصلح ، استطاعتا دخول العصبة ، ثم قطعت المجر على نفسها وعوداً رسمية صريحة بانفاذ ما فرض عليها فقبلت فى العصبة فى سنة ١٩٢٢ . ولم يبق فى ذلك الوقت خارج العصبة من الدول الكبرى غير الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا السوفيتية . أما ألمانيا فقد رؤي أنها قامت بتعهداتها فى مسألة السلاح والتعويضات ، ثم جاءت اتفاقات لوكارنو واستقر الرأى على أنها لا تكون ذات قيمة إلا إذا كانت الدول الموقعة عليها أعضاء فى العصبة ، ومن أجل ذلك قبلت ألمانيا فى العصبة فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٦ ومثلها فى مجلس العصبة وزير خارجيتها الهر فون شترزمان . ولكن ألمانيا إنفاذاً لسياستها ورغبة منها فى استرداد كامل حريتها ، تركت العصبة بعد سنوات قليلة كما استقالت أسبانيا والأرجنتين .

وفى العصبة عنصر دائم هو السكرتارية العامة . وقد نص فى الميثاق على أن يكون السكرتير العام انجليزى . وقد تولى هذا المنصب سير جيمس أرك درموند يعاونه ثلاثة آخرون فرنسى وياباني وإيطالى . والسكرتارية منقسمة إلى جملة أقسام ، وهى تعد أعمال مجلس العصبة وتقوم بدور الوساطة بين مجلس العصبة وجمعيتها العامة .

ويمكن أن نقول إن الجمعية العامة هى عنصر الديمقراطية فى العصبة ، وإن مجلسها هو العنصر المختص بالحكم . وكان من المتفق عليه فى بادىء الأمر أن يتكون المجلس من خمسة أعضاء دائمين يمثلون الدول الخمس الكبرى وهي انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وإيطاليا واليابان . ولكن لما امتنعت الولايات المتحدة عن دخول العصبة ، كون المجلس من أربعة أعضاء ، حتى قبلت ألمانيا فأكملت هذا النقص . وكان من المتفق عليه أيضاً أن يكون إلى جانب هؤلاء أربعة أعضاء مؤقتين ، وكانوا بادىء الرأى يمثلون البلجيك والبرازيل وأسبانيا واليونان . ثم زيد عدد الأعضاء المؤقتين إلى خمسة

وليس المجلس بازاء الجمعية فى المركز الذى يكون لمحكمة الاستئناف بالنسبة لمحكمة الدرجة الأولى ، فليس هناك أي استئناف أو أى فرق فى الدرجة ، فالمجلس هيئة تنفيذية تسيطر عليها الدول الكبرى ولايخضع لأية رقابة . والجمعية العامة تسيطر عليها الدول الصغيرة لكثرة عددها ، وتستطيع فى بعض الحالات أن تعمل بمفردها . وينتج عن ذلك أن الخلاف جائز الوقوع بين هذين المنصرين فى العصبة .

واختصاصات مجلس العصبة كثيرة ، فهو الذى يوافق على تعيين السكرتير العام ويقرر محل إقامة العصبة ، وهو إلى الآن فى جنيف ، وهو الذى كان يعد الخطة التى ترمى إلى إعادة النظر فى التسلح ويفرض الرقابة على تجارة الأسلحة حتى لاتكون خطراً على سلام العالم . وفى حالة وقوع اعتداء دولى أو ظهور شبح الاعتداء أو خطر الحرب ، يتخذ المجلس مايراه ضروريا للوصول إلى حل سلمى للخلاف ، أى أنه يقوم بدور الوساطة بين الدول الأعضاء . ومن الناحية النظرية ، يستطيع المجلس أن يطلب من الدول التى ليست أعضاء فى العصبة ، أن تتخذ بعض تدابير يراها ضرورية لحفظ السلام . وهو المختص بتسلم وفحص تقارير الدول المنتدبة . ثم أعطت معاهدات الصلح مجلس العصبة اختصاصات مؤقتة مثل إدارة وادى السار (المادة ٥٠ من معاهدة فرساى) لمدة ١٥ سنة . وقد أجرى استفتاء فى شهر يناير سنة ١٩٣٥ فى ذلك الوادى وكانت النتيجة أن أعيد إلى وطنه الأصلى ألمانيا . وقد عين المجلس لهذا الغرض لجنة مكونة من خمسة أعضاء ، فرنسى وسارى وثلاثة أجانب . وأسندت رقابة مدينة دانزج إلى رقابة مجلس العصبة (المادة ١٠٢ من معاهدة فرساى) كما أسند إليه رقابة تسلح ألمانيا والقيام بتحقيق فى أرضها إذا تطلب الأمر . وقد تخلصت ألمانيا من كل رقابة واستردت حريتها فى التسلح وحطمت أغلال معاهدة فرساى الجائرة ، ولم تستطع العصبة منعها من انفاذ مشيئة شعبها الحي .

ما هى الصلات التى بين المجلس والجمعية ؟

الجمعية تعين أعضاء المجلس المؤقتين ولها الرأى فى مسألة قبول أعضاء جدد فى العصبة . ولكن اختصاصات الجمعية والمجلس فى أغلب الأحيان تختلط وتمتزج . وهما يقفان على جميع المسائل التى تدخل فى حيز نشاط العصبة أو تمس السلام الدولى . ومن ناحية المبدأ ، لايجتمع المجلس إلا مرة واحدة في العام ، واجتماعات خاصة ، أما اجتماعات الجمعية فعامة علنية

والجمعية تعقد مرة فى السنة ، ولكنها تجتمع فى أى وقت تراه إذا دعت الظروف إلى ذلك ، أو إذا جدت مسألة تتطلب النظر فى الحال . وفى العصبة لجان كثيرة مثل لجنة العمل الدولى ولجنة المواصلات والنقل ولجنة الاقتصاد والمال ولجنة الصحة ولجنة التعاون الفكرى . وقد أنشأت العصبة محكمة العدل الدائمة الدولية بجنيف فى سنة ١٩٢٠ وهى مختصة بالفصل فى ضروب النزاع القانونى . أما محكمة لاهاى فمختصة بالفصل فى النزاع السياسي . فكل نزاع الآن يقع بين دولتين أو أكثر ، يمكن أن يقدم للفصل فيه إلى ثلاث جهات : محكمة التحكيم في لاهاى ، ومحكمة العدل الدولية ، ومجلس عصبة الأمم

وقد ظهر نظام جديد عقب الحرب هو نظام الانتداب . ورقابة الدول المنتدبة من اختصاص العصبة . والانتداب هو إدارة دول ناشئة ، موكولة إلى دول كبيرة تعتبر فى عرف السياسة أنها أرقى من الدول الواقعة تحت الانتداب ، وهى أجزاء من الأمبراطورية العثمانية ومستعمرات ألمانيا القديمة . والانتداب ثلاثة أنواع : (ا) وهو ضرب من الحماية ، (ب) وهو قريب جداً من النظام الاستعمارى ، (ج) وهو عبارة عن ضم مقنع . وليست العصبة هي التى قامت بتوزيع الانتداب ، ولكنها فقط أقرت أمراً واقعاً . وفى كل عام تقدم الدولة المنتدبة تقريراً إلى العصبة عن إدارتها ، ولمجلس العصبة أن يبدي النقد الذى يرى من ورائه نفعاً .

ونستخلص من كل ماسبق أن عصبة الأمم ضعيفة ليس لها قوة مادية تكسبها الاحترام المرجو ، وأحكامها قليلا مانطاع ، وهى لهذا ترجو وتطلب أكثر مما تأمر وترغم . وما يزال فى الأذهان ذكرى اعتداء اليابان على الصين وإيطاليا على الحبشة .

ومن يدرى لعل العصبة فى المستقبل تستطيع أن تقوم بدور هام يحتاج إليه العالم . وقد كسرت الحرب النظم القديمة وهدمتها ، وينبغي إعادة البناء لا من خرائب الماضى وعلى مثالها ، بل بطريقة منظمة على ضوء حوادث الماضى وأحداثه ، حتى تتجنب الانسانية أهوالا أفظع وأبشع من التى سبقت

حسن صادق

علاقة مصر ببلاد النوبة في الجنس والدين

للأستاذ فهمي عبد الجواد حبيب

تمهيد

بلاد النوبة من البلاد القديمة تقع جنوب مصر وعلى بعد خمسة أميال من مدينة أسوان. ويحدها من الشرق البحر الأحمر ومن الغرب صحراء ليبيا، وتمتد جنوباً حتى ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق، غير أن هذا التحديد جغرافياً أكثر منه سياسياً إذ لم يكن لها حدود سياسية ثابتة. وقد كان ملوك الدولة المصرية القديمة يسمونها «خنت» أي الأراضي الجنوبية كما كانت تسمى «Ta - Sti» أي أرض القوس (أي المشهورون برمي النبال) ولهذا سماهم العرب رماة الحدق.

وقد أخطأ بعض الكتاب في إطلاق كلمة كوش على جميع بلاد النوبة، والصواب أن إقليم «كوش» يمتد من الجندل الثاني تقريباً حتى ملتقى النيل الأبيض بالأزرق، وأما الاقليم الواقع بين الجندلين الأول والثاني فكان يعرف «بالواوات».

هذا ويطلق أيضاً بعض الكتاب خطأ كلمة «أثيوبيا» على بلاد النوبة معتمدين في ذلك على خريطة سريدوت ومن نحا نحوه من المؤرخين، فينسبون للنوبيين ما ليس لهم إذ أن هؤلاء المؤرخين كانوا يعنون بكلمة «اثيوبيا» جميع البلاد الواقعة جنوب مصر كالسودان والحبشة وغيرها. ومما زاد الطين بلة في تعزيز هذا التعريف الخاطىء ما وقع فيه رهبان سوريا من الخطأ عند ترجمتهم الانجيل من اليونانية حيث ترجموا كلمة «كوش» بأثيوبيا ويعنون بها بلاد الحبشة.

وكانت النوبة على عهد العرب تنقسم قسمين: النوبة السفلى وتمتد من الجندل الأول إلى الرابع وعاصمتها دنقلة، والنوبة العليا وتمتد من الجندل الرابع حتى بلاد الحبشة وعاصمتها سوبة على النيل الأزرق.

وقد كانت لهذه البلاد في وقت ما عزة ومناعة ثم اعتورها ما يعتور كل موجود حتى صارت حالها إلى ما هي عليه الآن.

العلاقة بينها وبين مصر في الجنس

أجمع المؤرخون على أن المصريين والنوبيين من أصل واحد مدللين على صحة قولهم هذا بأن كلا الشعبين ينتسب إلى الجنس الحامي فضلا عن تشابه لون بشرتهم. والواقع أن سكان مصر العليا والنوبة حتى الآن متشابهان، وأما الوجه البحري فنظراً لأن حدود مصر من جهة القنطرة سهلة الغزو فكان عرضة للغارات الخارجية ولذا سار منها الغازون أمثال الرعاة والاسكندر وقمبيز وغيرهم؛ ومن ثم تأثر الوجه البحري بدم هؤلاء الغزاة فتغير كثيراً عن مصر العليا. وهناك عامل آخر أثر في جنسية سكان شمالي مصر وبشرتهم نوعاً ما، ذلك أنه رحل إلى شمالي افريقيا قبل بناء الأهرام بعض الأوربيين، وهؤلاء المهاجرون انتشروا في شمالي افريقيا حتى جزائر كناريا. وقد وجدت ابنة لخوفو شرق الهرم الأكبر من الجنس الأبيض ذي الشعر الأشقر وتعليل ذلك أن خوفو تزوج واحدة من هؤلاء البيض، كما أنه وجد في العوينات رسوم لفريقين من المتحاربين السمر والبيض

وقد حدث في عهد الأسرة العشرين حادث ذو بال: ذلك أنه في عهد هذه الأسرة قل دخل الحكومة لفقد مصر كثيراً من البلاد الأسيوية فنقص ما كان يتقاضاه كهنة آمون في عهد الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة فضلا عن ضعف الملوك، فدعا ذلك إلى ازدياد سلطة هؤلاء الكهنة حتى تمكن أحد رؤسائهم المسمى «حرحور» من اغتصاب العرش وأسس الأسرة الحادية والعشرين. ولكن المصريين اعتبروا كهنة آمون مغتصبين للملك فصار عهدهم فوضى ولم يستطيعوا حفظ سلطانهم ولا القيام بما تتطلبه عظمة آمون من النفقات، ورأوا أن معبودهم يعبد في «نبتة» عاصمة النوبة في ذلك الوقت وأن له المقام الأول بين آلهة النوبيين فلهذا اختاروا «نبتة» لتكون قبلتهم في هجرتهم فهاجروا إليها من طيبة بعد أن حكموا بها ١٢١ سنة من ١١٠٠ — ٩٧٩ قبل الميلاد.

وقد رحب بمقدمهم النوبيون نظراً لأن المدنية التي نشرها المصريون في النوبة كانت لا تزال قوية الدعائم، وكان هؤلاء الكهنة

على جانب كبير من العلم فساعدهم هذا على أن يكونوا رؤساء كهنة آمون فى نبتة وتدخلوا فى السلطة الزمنية كما سبق أن تدخلوا فى مصر وتزاوجوا مع النوبيين .

وفى عهد الأسرة ٢٣ تزوج أمير نوبى يسمى « كاشتا » أميرة مصرية ، ثم خلفه على ملك النوبة ابنه « بعنخى » وهنا يجب علينا أن نشير إلى مالهذا التزاوج من أهمية إذ لو كان النوبيون ممتزجين بدم زنجى لما قبل الكهنة على ماهم عليه من المقام الرفيع أن يتزاوجوا بهم ، ولما تزوج نوبى بأميرة مصرية .

الديانة

كان النوبيون كالمصريين يعبدون آلهة عدة مثل تيتون وملول، ولما استولى المصريون على بلادهم احترموا آلهتهم ثم أدخلوا عبادة آمون بها وأقاموا له المعابد، وأخذ النوبيون يعبدون آمون حتى أصبح أكبر آلهتهم وصارت آلهتهم الأصلية في مقام ثانوى وكان النوبيون يعبدون من الآلهة المصرية غير آمون إزيس وأوزيريس .

دخول المسيحية اليها

لايعلم بالضبط كيف ومتى دخلت المسيحية بلاد النوبة ؛ ويقول البعض إنها دخلت من جهة الجنوب ، ولكن ليس هناك دليل يثبت صحة ذلك . والمرجح أنها دخلت فى هذه البلاد من جهة الشمال عن طريق مصر فى أول القرن السادس حيث كانت الوثنية هى دين أهل البلاد « فأليمبيدوس » الذى زار النوبة فيما بين ٤٠٧ — ٤٢٥م يقول إن البجة وقبائل أخرى من سكان الصحراء الشرقية كانوا وثنيين ، كما أن كتاب شيود وسيوس يثبت أن عبادة إزيس وأوزيريس كانت منتشرة فى بلاد النوبة فى هذا الوقت ؛ وحتى بعد ذلك بثلاثين سنة كانت إزيس تعبد فى جزيرة فيلة . ويؤيد دخول المسيحية إليها من الشمال عن طريق مصر أن المسيحية لما انتشرت فى الأمبراطورية الرومانية أخذ الأباطرة يضطهدون معتنقيها ففر بعضهم من مصر التي كانت تحت سيطرتهم فى ذاك الوقت إلى الجنوب كما فر البعض إلى الواحات الغربية ليكونوا فى مأمن من أذى الرومان وبطشهم . وهذا هو بعينه ما حصل مع الفارق لكهنة طيبة ؛ فهم لما أرادوا الهجرة ذهبوا إلى النوبة كما ذهب إليها المماليك فى عهد محمد على باشا فراراً منه

ولما زاد اضطهاد الإمبراطور دقلديانوس للمسيحيين وأوقع بهم وقعته المشهورة كثر التجاء الرهبان وغيرهم إلى الجبال والصحراء، فنزح إليها الكثيرون وأقاموا بها يبشرون بدينهم ما استطاعوا ، حتى إذا ما أتى زمن قسطنطين وترك للمسيحيين حريتهم واستأمن الرهبان وغيرهم أخذوا فى الظهور وفى إعلان الديانة المسيحية يعملون لها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وكان لسلكو زعيم سكان الصحراء الغربية والنوبة أكبر نصيب فى انتشار المسيحية فى هذه البلاد فقد وجد فى معبد كلابشة كتابة ترجمتها « أنا سلكو زعيم سكان الصحراء الغربية والنوبيين كافة قد أتيت إلى كلابشة مرتين وحاربت سكان الصحراء الشرقية (البجة) ونصرنى الله عليهم وأقسموا لي بآلهتهم إزيس وأوزيريس فصدقتهم) والإله الذى نصر سلكو هو بلا شك إله المسيحيين . ومن هذه الكتابة أيضاً تعلم أن سكان الصحراء الشرقية كانوا إلى آخر القرن السادس الميلادى يعبدون الآلهة المصرية . وقد كان من نتيجة المودة بين سلكوا وجستينيان (٥٢٧ — ٥٦٥م) أن أرسل الأخير أسقفا وهدايا إلى سلكو فعمد هذا الأسقف الملك سلكو الذى أخذ ينشر المسيحية في بلاده . وفى عهد خلفه أربانوم تحولت معابد كلابشة والسبوع وعمدة وأبو سمبل وفيلة إلى كنائس ، وقد تم ذلك قبل نهاية القرن السادس واتخذ المسيحيون دنقلة عاصمة للمملكة المسيحية .

دخول الاسلام اليها

أرسل عمرو بن العاص بعد أن استتب له الأمر في مصر عبد الله بن سعد لغزو بلاد النوبة عام ٢١ هـ فحاربهم وهزمهم وقرر عليهم الجزية ولكنه لم يتعرض لدينهم

وفى عام ٣١ هـ غزاهم عبد الله بن سعد فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه لثانى مرة وهزمهم ثم كتب لهم عهداً جاء فيه : « وعليكم حفظ المسجد الذى بناه المسلمون بفناء مدينتكم (دنقلة) ولا تمنعوا منه مصلياً ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم » .

ومن هذا العهد يتضح لنا أمران :

الأول — أن النوبيين حتى عام ٣١ هـ كانوا يدينون بالمسيحية

حول الثقافة العربية

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

إن من يطالع المؤلفات الحديثة عن الحضارة العربية يرى آراء متضاربة فى الأساس الذى قامت عليه ، وفى المناهل التى استقت منها ؛ ويرى كذلك تحاملاً عليها وانتقاصاً لقيمتها . فبعض المؤرخين لا ينسب إلى العرب أى فضل فى خدمة المدنية ، وينفى عنهم الابتكار ، ويقول إنهم لم يكونوا غير نقلة للعلوم ، وإن نتاجهم العقلى هو من الدرجة الثانية من حيث قيمته وأثره على تقدم العلم ، وإنهم كانوا متأثرين بالثقافة اليونانيــة وقد اتبعوها وفضلوها على غيرها . وهناك فريق آخر من الأوروبيين يرى غير ذلك ، ويقول بأن العرب فضلوا الثقافة الهندية وتأثروا بها أكثر من غيرها ، وإنهم كانوا عالة عليها اقتبسوا منها أكثر ما جاؤا به من آراء ونظريات فى العلوم والفنون ، ويرى هذا الفريق فى هذا نقصاً معيباً وناحية الضعف فى الحضارة العربية

وقد حاولت أن أعرف الأساس الذى يبنى عليه هؤلاء العلماء أقوالهم وأحكامهم فى الحضارة العربية ، فتوصلت بعد بحث إلى أن الأساس الذى يعتمدون عليه فى هذا الشأن هو هذا الاقتباس ، إذ يرون فيه النقطة الضعيفة فى تاريخ العلوم والفنون عند العرب

إن اقتباس العرب عن اليونان أو الهنود أو غيرهم ممن سبقهم من الأمم لم يكن إلا بموجب غريزة فى الانسان تميزه عن الحيوان ، فالانسان على رأى الفيلسوف كورزبسكي (Korzybsky) يأخذ دائماً ما عمله غيره ويزيد عليه ، وإن قوة الانتاج فى (الانسان) لا تقوم وتقوى إلا على نتاج السابقين . وعلى هذا فليس فى الجري على هذه الغريزة عيب أو مجال للتنقص

لا ننكر أن العرب اقتبسوا عن غيرهم ، وهذا الاقتباس مما ساعد على تقوية قوى الانتاج فيهم ، ومما أدى إلى إصلاح الأخطاء التى وجدوها فى تراث الأمم التى سبقتهم وإلى إضافة بحوث ونظريات هامة جعلت العلماء المنصفين يعتبرون بعض العلوم من موضوعات العرب . وتصفح بسيط لتاريخ العلوم فى الرياضيات والطبيعيات والطب والفلسفة والفلك يثبت صحة رأينا ويريك خصب القريحة العربية بأجلى بيان

قال البارون دى فو : « إن الميراث العلمى الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به . أما العرب فقد حفظوه وأتقنوه . . . فهم لم يكونوا حفظة وخزنة للعلوم فحسب ، ولـكنهم توفروا على ترقيتها وتطبيقها باذلين الجهد فى تحسينها وإنمائها حتى سلموها للعصور الحديثـة . . . » وقال الدكتور سارطون فى إحدى محاضراته فى جامعة بيروت الأميركية : « إن بعض الأوروبيين يحاولون أن ينتقصوا من قدر العرب العلمى فى القرون الوسطى ، وذلك بقولهم إن العرب لم يكونوا غير نقلة للعلوم ولم يزيدوا عليه شيئاً ... هذا خطأ ... وإذا افترضنا أن العرب لم يكونوا غير نقلة أليس فى عملهم هذا خدمة كبيرة للعالم ؟ فلولا نقلهم لمـا تقدمت العلوم تقدمها الحاضر ولـكنا حتى الآن في قرون وسطى ... »

ويعتقد الدكتور سارطون بأن نقل العرب لم يكن ميكانيكياً بل على الضد فيه روح وحياة

والثانى — أنه كان يوجد بدنقلة عاصمتهم بعض المسلمين مما أدى إلى بناء مسجد لهم ، ولـكن من هم هؤلاء المسلمون ؟ إنى أرجح أنهم من المصريين أو العرب الذين نزحوا إلى العاصمة — دنقلة — بعد الغزوة الأولى بقصد التجارة .

وفى خلافة المأمون ثار البجة ، فسار إليهم عبد الله بن الجهم وهزمهم وعقد صلحاً مع ملـكهم كانون الذى تعهد بالمحافظة على أرواح المسلمين وأملاكهم .

ومن هذا يتضح أن المسلمين كانوا عدداً قليلا وكان لهم ممتلـكات فى بلاد النوبة .

وفى عام ٩٦٩ م أرسل جوهر الصقلى رسلا إلى جورج ملك النوبة ليستلموا الجزية وليدعوه إلى الاسلام فسلم الجزية ولـكنه امتنع عن اعتناق الاسلام .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى انتشر الاسلام فى الجهات القريبة من دنقلة وما أتت نهاية القرن الرابع عشر حتى كان الاسلام قد عم هذه البلاد .

فهمى عبد الجواد حبيب
المدرس بالمدارس الأميرية

هذا من جهة الذين يعيبون على العرب نقلهم عن الغير ، أما الذين يقولون بأن العرب فضلوا ثقافة على أخرى فمخطئون ، وسنحاول تبيان رأينا بإيجاز

اختلفت أقوال علماء الغرب في أي الثقافات فضّل العرب فقال كاجوري إن الكرخي وأبا الجود والخيامي فضلوا الطريقة اليونانية على الهندية في استعمال الأرقام ، وقال كانتور بوجود مذهبين مختلفين (في زمن البوزجاني) أحدهما يتبع الثقافة الهندية والآخر اليونانية ، وقال أحد علماء الغرب بأن العرب تأثروا بالثقافة اليونانية وفضلوها على غيرها ، وقال آخرون مثل ذلك في الهندية

والحقيقة أنه لم يكن موجوداً أي تفضيل، فقد كان علماء العرب في العصر العباسي يترجمون ما يقع تحت أيديهم من المخطوطات هندية كانت أو يونانية ، فالبيروني ذهب إلى الهند وساح فيها بقصد البحث والاستقصاء والتنقيب . وكذلك محمد بن موسى بن شاكر ذهب إلى اليونان ابتغاء الحصول على مخطوطات ورسائل ، وهناك من العلماء العرب من أوجدتهم ظروفهم إلى أن يستقوا من ثقافتين أو أكثر وقد مزجوا ما استقوا وكونوا من ذلك ثقافة خاصة . وعلى هذا فلم يكن هناك فكرة تفضيل إحدى الثقافات على غيرها بل جمع العرب الثقافات المختلفة التي نهلوا منها وخرجوا من هذا الجمع بثقافة تميزهم على غيرهم من الأمم . وقد لاحظ الدكتور سارطون كل هذا فقال : « والعرب لم يقتصروا على علوم اليونان فحسب ، بل أخذوا عن الهنود ، وفي كثير من الحالات جمعوا بين الثقافتين الهندية واليونانية . . . » وسبق الجاحظ الدكتور سارطون فيما قال ، فنجد في كتاب الحيوان ما يلي : « وقد نقلت كتب الهند وترجمت حِكم اليونان ، وحولت آداب الفرس فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً ... »

يتبين مما مر أن العرب لم يفضلوا ثقافة على أخرى ، ولم يأخذوا بإحدى الثقافات ويتركوا البواقي ، إنما هم طلاب علم راحوا يبحثون عنه في الكتب والمخطوطات والرسائل القديمة من يونانية وهندية وفارسية وحبشية وسريانية وعبرية وغيرها ، فنقلوا ما عثروا عليه إلى لسانهم وهو معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة عند سائر الأمم المتمدنة ، وكان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية ؛ وقد يكون النقل عن اليونانية أكثر من غيره ولكن هذا لا يعني أن العرب فضلوا ثقافة على غيرها . وعلى فرض أنهم تأثروا بالثقافة الأغريقية ، فهل هذا يعني أن نية علمائنا الأقدمين تفضيلها على غيرها . وعلى كل حال فالقول بأن العرب فضلوا ثقافة على أخرى أو القول بوجود مذهبين مختلفين أحدهما يتبع الطريقة اليونانية والآخر الهندية قول خطأ لا يجب أن يؤبه له وهو من خيالات المستشرقين ، إذ لا يوجد من الأدلة ما يحققه بل على العكس لدينا شواهد عديدة تجعلنا نميل إلى أن العرب لم يخطر ببالهم تفضيل ثقافة على أخرى كما تجعلنا نميل أيضاً إلى القول بعدم وجود مذهبين مختلفين أو مذاهب مختلفة ، وبأن المآثر العربية في العلم والفن تأثرت بعناصر الثقافات المتعددة التي ساعدت على إيجاد ثقافة عربية لها مميزاتها وخصائصها الممتازة

(نابلس) **قدري حافظ طوقان**

اتجاهات الأدب العالمي

في العصر الحاضر

وكيف يتجه أدبنا

للأستاذ خليل هنداوى

تتمة مانشر فى العدد الماضى

والآن أرانى أجلتُ إبراز الاتجاهات الاجتماعية والعوامل التى تؤثر فى الآداب الحاضرة فأين نجد أدبنا فى غابره وحاضره وكيف يتجه ؟

كنت أود أن يتسع لى المجال أو أن يرجأ البحث عن اتجاهات أدبنا فى الغابر إلى فرصة ثانية ، لأن التكلم عن اتجاهات أدب مهما كانت قيمته ليس بالشى الذى يغني فيه الالمام ، ولكنى ناظر إلى ناحية من نواحيه الاجتماعية القومية ، وغير خائض فى خصائصه الأدبية .

إن أدبنا أيها السادة كان كثير الخصب والانتاج ؛ وتبارك الله ما كان أخصبه ! ولكن خصبه فى الموضوعات التى تثب إليها اليوم كان خفيفاً جداً . خذوا الشعر مثلا ، والشعر أبرز ما راج فى أدبنا ، فهو شعر لا أجده قد صفا كثيراً لنفسه ولا لمجتمعه . نما بعضه فى جو ارستقراطى لايتصل بسواد الشعب ، نما فى ظلال الطبقة المترفة ؛ وإذا غادر هذا الجو غادره إلى جو كان يرائى الأديب فيه ويداجى . أما المجتمع فلم يقم له أدب خاص يعبر عنه . وإذا أفاد بلاط الملوك والأمراء فى نمو بعض الأدب الذى كانت تستحثه الدعايات والعصبيات فقد قتل ذلك الأدب الذى كان يجب أن ينطلق عن الحياة . وهذا المتنبى على جلاله وهو الذى يعد أحدّ الشعراء مزاجاً وأكثرهم اندفاعاً لم يخلص من أدب الرياء . وهذا المعرى الذى يطفح شعره ببعض نظرات متألمة لا نجد أن تألمه كان نتيجة اختلاطه بالمجتمع ، ولكنه كان وليد تشاؤم صرف اختص به مزاجه . ويمكننى القول إن كثيراً من أدبنا خلقته أزمات سياسية وعصبية ليكون ضرباً من ضروب الدعاية . ولكنه كان مجرد دعاية تؤرث نار العداوة ، وتعبر عن نوازى العصبية فى الأحزاب والقبائل وتحيى الضغائن فى الأمة الواحدة . على أن أزمة الشعوبيـة التى احتدمت نارها بين الأعارب والأعاجم كان يجدر بها أن تخلق نوعاً قوياً من أدب الدعاية القوميـة ولكن الأدب لبث يمالئُ الأوساط المترفة ، ينظم لها الشعر مسبحاً بحمدها ، أو مسلياً لها من مللها وسأمها .

أما أدبنا الحاضر فلا يمكننا الركون إليه ، لأنه أدب مضطرب يمثل اضطراب هذه الثقافة المكتسبة التى لم نتم هضمها ولم تتمركز فينا ! أدبنا الحاضر لم يتحرر من قيود القديم سالكا طريقته الخاصة دون تردد . وأديبنا لم يؤمن بأن فى الحياة التى تتكرر فصولها كل يوم أمام عينيه أدباً غنياً يغذى فكره ؛ وأديبنا لايزال يعتقد بأن النزول إلى الحياة يضعف من قيمة أدبه . وبهذا يكتب الأدب فيه كل الألوان إلا لون الأدب ، وفيه أثر كل بيئة إلا بيئته التى هو فيها . على أن الأديب الحقيق حين يبث نفحة أرضه يحملها لتعانق نفحات الأرض كلها ، وحين ينشر نسمة شعبه ينشرها ليضمها إلى نسمات الشعوب !

لا أود أن أحدثكم من أدبنا الحاضر عن آفاقه الانسانية التى يسمو إليها ، ولا عوالمه الرحبة التي تتعانق فيها الانسانية ، ولا ذلك الجمال الذى يكسو الآثار الكونية به ، وإنما أحدثكم عن اتجاهات أدبنا من الناحية التى هى أصدق انطباقاً على حياتنا الحاضرة ، وهذه الحياة الحاضرة مؤثرة فى أدبنا مهما فر منها ، وفى أديبنا مهما تجافى عنها ! لأن الأديب ليس كالعالم الذي يقدر أن يحيا فى بيئة وكأنه ليس منها !

لو أراد واحد فى الأجيال الآتيـة أن يستقرىء نفوسنا وحالنا لرأيتـه لايستطيع ، لأننا لانمثل فى أدبنا عواطفنا ولا نصبغه بألواننا . إنا نكتب أدباً لا يمثل آلام حياتنا الاجتماعية والنفسية التى نعانيها . ألم تمر بنا أزمات مختلفة وظروف مروّعة ؟ فأين الأدب الذي ولدته هذه الأزمات ؟ وأين قصة كقصة البؤساء تمثل البؤس الذى برح بنا فى عهد الحرب ؟ وأين القصة التى تمثل حيرتنا وألمنا ؟ وأين مسرحية كمسرحية « غليوم تل » تصور أبطالنا وشهداءنا ؟ وهذا شوقي الذي خلف لنا تراثاً من سر حياته الشعرية لم يجد فى هذه الأزمات ما أوحى إليه مسرحية يصور بها مشهداً من هذه المشاهد التي قد يكون فيها ماهو أشد وأقوى على خلق التأثير من الموضوعات المطوية التى عالجها فى مسرحياته . وأخيراً أين ذلك الأديب الذى يترجم عن عصره ؟

على أن البعض يقول : وما عسى يغنى الأدب الذى يأتي بالتلقين لا بالالهام ؟ وكيف يملك الأديب حريته فى التعبير ، وإنما الأدب بحريته ؟

أجيب هذا البعض بأنى لا أدعو أدبنا إلى أن يتقيد ، وما كنت يوماً لأدعو إلى أن أخلق للأدب أجواء محدودة يخوض فيها . وكيف أدعو إلى تحديد اتجاهات الأدب والتحديد معناه وقف روحه وحريته التى لايحيا إلا بها ؟ كيف أدعو إلى حبسه ضمن تقاليد جديدة ؟ ولكأنى بذلك أهدم تقاليد وأرفع تقاليد وفى هذه وتلك عبودية ، وفى العمل نفسه عبودية أدهى !

أجل ! لا أريد أن يكون الأدب كله اجتماعياً ، أو ذاتياً ، أو إنسانياً أو قومياً ! وإنما أنشد أدباً حراً يستوحى ابداعه من قلب الحياة ، لايكون من الحياة على هامشها ، وإنما على متنها . ولا يمر هو بجانب ويترك الحياة بجانب آخر . وإنما همه أن يرافق الحياة فى مراحلها ، ويعمل على تفوقها وتساميها . همه أن يوجه الحياة كما يريد . وإذا تحدثت عن اتجاهات يتجه إليها فانمـا هى اتجاهات يكون للأديب فيها مادة غزيرة ، وعالم نبيل الغرض .

إننا أمة لانزال فى دور الكفاح ، الكفاح فى كل نواحيها . ودور الكفاح دور اضطراب وحركة ، وهذا الدور لايجمل بالأديب أن يمر به هادئاً ساكناً دون أن يرفع صوته ، وإنك لن تجد أمة خلا مثل هذا الدور فيها من أدب يمثلها ويعبر عنها ويستحثها ويجعل قلبها بركاناً هادراً مهما كانت هذه الأمة حرة النزعة ، انسانية المبدأ ، لأنها ترى قوميتها مثل انسانيتها . ولن يصدق للانسانية قلب لا يصدق لوطنه . وليكن أدبنا مجرداً ما أراد ، متوجهاً حيثما توجه ، ولكنا نريد معه أدباً قويا يساهم فى بناء الجبهة القومية ، ويستمد روحه من الثقافة القومية ، ونريد معه أدباً اجتماعياً يخلق ثورة التجديد والابداع وينفض هذه المزق الرثة من التقاليد ، إذ لايؤتى الانقلاب السياسى ثمره إذا لم يكن مقروناً بالانقلاب الاجتماعى .

أحس هنا بل أكاد أسمع أصواتاً تنادي من حولى : أتريد أن تجعل من الأدب الواسع الانسانى خادماً للقومية ، ومهذباً للمجتمع ؟ كأنك لم تعرف التعاريف الأولية التي تفصل الأدب عن القوميات والفن عن الأخلاق التى ضيقت حدوده وأفسدت جماله الذى لايحيا إلا فى المطلق !

بلى ! إنى أفهم كما يفهمون ، وأدرك أن للأدب غاية أسمى وأعلى ، ولكنى ممن يعتقدون أن الأدب لايتجرد من شخصية أمته كالأديب لايستطيع أن يتجرد من شخصيته ولا تمكنه أن يكون إنسانياً قبل أن يكون قومياً ؛ وإذا تكلمت عن اتجاهات أدبنا الحاضر فان عوامل كثيرة تحملنى على تحديد هذه الاتجاهات ؛ وقد تكون هذه الاتجاهات مفيدة لظروف حاضرة تموت بموتها ، وقد يبطل غداً بعضها ويبقى بعضها ، وقد يبطل كلها ولكن ماهمى مادمت أعتقد أن هذه الاتجاهات محيطة بحياتنا الحاضرة ، ولا نستطيع أن نحل عقدة من عقدها إلا بمقتضاها !

يظنون أن الأدب القومى أن يكون الأديب بوقاً ينفخ فى كل حادثة ، وفي مقدم كل وزير أو زعيم ، ومثل هذا الأدب لا يحتاج إلى أن نبدى إعراضنا عنه ، وإنما الأدب القومى روح يعلقنا بحب هذا الجو وهذه الأرض ، ويجلو لنا عن روائع الجمال فيها ، ولست أذكر أننى تلوت شيئاً من هذا !

أذكر أننى فى هذه السنة كنت أنا ورفاق نقوم برحلة فى أطراف الفرات الأوسط ، فجزنا قرية تدعى (الميادين) وكانت أناشيد الرفاق تتعالى . فهب من فى السوق يصفقون لهم ، فما راعنى ذلك ، ولكنى أبصرت رجلاً ضريراً مخدود الوجه ، ممزق الثياب ، هب يلمس بوجهه مواقع الصوت والصدى ويداه تصفقان ، فطفرت من عينى دمعة وتمثلت الشعور الوطنى يتيقظ فى نفسه . فقلت : ألا يجد أدباؤنا فى هذا المظهر مادة وموضوعاً ؟ ألا يجد شاعرنا عاطفة تهزه كالعاطفة التى ولدتها فيه قبلة محبوبة ؟ وأخيراً ألا نجد فى هـذا الضرير رمزاً للأمة التى فقأوا عينيها فهبت تتلمس النور بغير الحاسة التى خلقت لالتقاط النور ، وقد استحالت كل حاسة فى جسدها عيناً تبصر ، وقلباً يشعر !

أعرف فى هذا البلد فئة — قد تكون مخلصة — تدين بالأدب الانسانى ، ولا تعنى بالأدب القومى ، تمشى فوق رءوس الحقب ، وتعلو على حالات عصرها لأنها فى اعتقادها حالات زائلة كالغيوم ؛ ولا أستطيع أن أناقش هذه الفئة ، ولا أن أصرفها عن غايتها النبيلة ، ولكنى أعلم أن الأدباء الانسانيين أنفسهم الذين بشروا بالدعوة الانسانية والأدب الانسانى هم قوميون قبل أن يكونوا انسانيين ، لأن الذى لا يتسنى له أن يحس آلام شعبه الذى هو من لحمه ودمه ، لجدير بألا يتسنى له أن يحس آلام الانسانية . .

اتركوا الأدب والفن وعودوا إلى العلم المجرد والأخلاق تجدوا أن كل شعب يثبت فيهما شخصيته التي تختلف عن شخصية غيره. تأملوا الطرق الرياضية الجبرية التي يسلكها العقل الجرماني تجدوا أنها طرق مطلسمة مبهمة تلائم هذا العقل. على حين أن العقل الفرنسي الرقيق يخضع المنطق له ويسلك فيه الطرق الواضحة. وكذلك قولوا في الأخلاق: فكل أمة رتبت أنظمتها بحسب عاداتها. ولو أن طريقة العلم واحدة لما وجدنا طريقة كل عالم تختلف عن طريقة الآخر ... وإذا كان هذا شأن العلم والأخلاق فكم يكون اختلاف الأدب والفن اللذين يترجمان عن حياة الأمة؟

يقولون: لا وطن للفن! باعتبار أنه إذا صدر عن انسانية معينة فإنه يخص كل الناس. لأن الانسانية الكلية هي مجموعة هذه الانسانيات، والفن الكلي هو مجموع هذه الفنون، والفن صلة القربى بين الناس.

يقولون: لا وطن للفن! وأنى لنا أن نسلخ الفن عن الشعب الذي خلقه على صورته، أبالا مكان أن نسلخه عن الطبيعة التي أحاطت به، والتراب الذي حمله؟ والسماء التي حنت عليه، والهواء الذي تنشقه، والوطن الذي احتضنه، وصدى أصوات الأجداد الذين نقلوا إلى الأحفاد ما ورثوه؟ إن الشعب باستطاعته أن يقتبس عن شعب آخر ثم يبقى ما يقتبسه كما هو؛ ولكن من جراء ذلك أن يتنازل عن شخصيته، ويخضع لهذا الغريب خضوعاً أعمى لا يفسر إلا بالجحود بعبقرية الوطن. لقد أخذت روما عن اليونان أنظمتها وفنونها التي أحبتها ولكنها لم تفهمها، فأعطت زخرفة جميلة ولكنها لم تعط أثراً فيه حياتها. وهكذا لا نستطيع أن نقول: هذا أدب انساني قبل أن نقول: هذا أدب عربي أو إيطالي أو جرماني! إن أطوار الأدب والفن هي ترجمان صادق عن العصر المتحول، يظهر لنا مراحل الطريق، ومراحل السعي، ويحدد لنا أعمار الأمة، ومن خلال كل هذه الخطوط والصور والألوان نجد صورة الوطن، ونستشف ملامحه الحقيقية؛ وقد رأينا أن الأدب أكثر أنواع الثقافة تعلقاً بحياة الأمة، لأنه لا يصور إلا حياتها ولا يسرح إلا في جوها، والبذرة العبقرية تكتسب من بيئتها صفات متى حان الوقت أظهرتها، وحولتها إلى الابداع؛ وعصير الأرض الوطنية يسقي الشجرة الانسانية؛ وبهذه الانسانية الشخصية، وبهذا المثل الأعلى الخاص يعلن كل شعب مزاياه وعبقريته. والعظماء أنفسهم لم يستغنوا عن هذه القاعدة، لأنهم كانوا قبل كل شيء وليدي بيئتهم وجيلهم.

إن انكار القومية ليس جحوداً بقيمة التاريخ ونتائجه فحسب، بل هو إغضاء عن الجغرافية وجهل بعمل الأرض والسماء والبيئة، لأن الأوطان ليست بفكرات خيالية ولا شعرية ولا وهمية، وإنما هي حقائق ظاهرة ثابتة؛ والثقافات المختلفة تثبت ذلك، وكل وطن يحدد حياة أهله ويلهمهم فنه! ولكل شعب أدبه وفنه، وهو بهذا يمثل دوره في القصيدة الكبرى، وإنا نود أن نعود إلى حمل مشعل جديد ورسالة جديدة إلى الانسانية، ولكنا نريد ألا تصرفنا هذه الانسانية عن قوميتنا، بل نريد أن نكف عن هذه الانسانية إذا ساومتنا على قوميتنا!

أذكر في هذا الموقف حادثة طريفة أدبية تمثل تأثير القومية في الأفراد الذين كانوا يؤمنون بالدعوة الانسانية. لقد كان العالم النقادة الفرنسي «تين» ذا ثقافة ألمانية صرفة. كان يعجب بألمانيا ويحبها حباً جماً ويراها له وطناً ثانياً بعد فرنسا. وكان يرى مع الفيلسوف «رينان» ان ألمانيا هي أم العقل والذكاء. وأن الألمان هم أساتذة العالم في العلوم والآداب والفلسفة، وهم أساتذة العقل الراهن. هبت حرب السبعين، وغمرت ويلاتها الفرنسيين. فضربت اعتقاد «تين» في الصميم، وكانت له يقظة قاسية مؤلمة، إذ وجد القول بأن العلم الانساني هو كل شيء للانسان قولاً كاذباً، وألفى ان الفن لا يحيا اذا كان الوطن يتمرغ في الشقاء، فأخذه الاشفاق على وطنه، وحمل بعدها حملات عنيفة على غطرسة العقل الألماني الانساني، وقال: «ان زمان العلم الخالص الانساني قد انتهى ... والآن يجب قبل كل شيء أن نساعد فرنسا على أن تحيا حياة تنطبق على حياتها الماضية ...»

ونحن في مرحلة شبيهة بهذه المرحلة، لا يجدر بنا في الوقت الذي تفتش فيه الأمم عن قوميتها، أن نضيع قوميتنا بحجة الانسانية. وقد قدمنا للانسانية تراثاً خالداً من الدين والفلسفة في سبيل الانسانية ... وكيف نطمع ونحن ضعفاء القومية أن نفيد الانسانية؟ والأمة الضعيفة القومية لا تعطي نتاجاً!

أعطونى أمة ضعيفة القومية ذات نتاج خالد ! أليس لنا في اليونان أمة العبقرية والفنّ مثل واضح على ذلك ؟ لقد تحجرت مواهبها وعبقريتها منـذ تلاشت قوميتها . وهل أعطي العرب نتاجهم الأدبي إلا يوم كانوا أقوياء ؟ وأى نتاج لهم فى عصر الضعف والتلاشي ؟ وهل يدرس الطـلاب من الأدب الغربي إلا أدب الأمم التى ثبتت قوميتهـا ، وخفقت حريتها ؟ . . . وإذا كانت الثقافة أحلت لهـذه الأمم أن تسخر ما لا يسخر للدعاية أفهل يلومنا أحد على أن نسخر هـذا الشئ نفسه لغاية أسمى وأعلى ، لغاية إحياء قومية نبيلة : « ومن أحيـاها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . . . إنى أخاف إذا غالينا فى تجريد أدبنا من قوميتنا أن يقولوا : هذا أدب إنسانى ولـكن بلا وطن ! وضعف القومية يقتل كل خاصة مبدعة فى الشعوب . لقـد عملنا عملنا الانسانى كأفراد فلنجرب أن نعمله كأمة !

نحن فى مرحلة نستطيع أن نقول فيها للأديب ما قاله وزير الدعاية النازية : « لايحق لك أن تقول « لايهمنى شيء من هذه المرحلة » . وما قاله مكسيم غوركي « يجب على كل أديب أن يشعر بمسئوليته الخطرة فى هذه المرحلة لأن عليك أيها الأديب يتوقف كل شيء لأنك لست حاكياً تردد ، ولا آلة فوتوغرافية عمياء تصور ما يعرض لعدستها ، ولا اسطوانة حاك تستنطقها أية إبرة نفس الكلمات ، وإنما أنت الصوت وغيرك الصدى . أنت الريشة التي تصور ، والأمة الأخيلة التى تلتقطها . أنت الابرة التى تنقش على الاسطوانة ما تريد والشعب الاسطوانة ، فعليك أن تتخير الكلمات التى تريد أن تنقشها . . . وإذا كان هم الرجل السياسى أن ينظم علاقات أمة وشؤونها فى الداخل والخارج . فان هم الأديب أن يوجه حياتها ومجتمعها . ويعطينا أدباً يستمد حياته من قلب حياتها لا من بطون الـكتب والحجارة . . . »

الساعة قد دنت : وعلى هذه الأرض التى سطعت عبقريتها بريد جديد من المجد والجمال أن يتيقظ !

إنا تذوقنا من ألوان الاضطهاد فى الأجيال السابقة ما يجعلنا نسخر حتى السماء فى تشييد حريتنـا وقوميتنا . . . فـكيف لا نسخرك أيها الأدب لهذه الحرية ، وكيف لا نسخركم أيها الأدباء لأدب أرى فيه وجه أمتى . ؟

خليل هنداوى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

– ٥ –

الرافعى فى أهله

« إذا رأيت رجلا موفقاً فيما يحاوله مسدّد الخُطا إلى الهدف الذى يرمى إليه ، فاعلم أن وراءه امرأة يحبها وتحبه ! »

وأنا لا أعرف – فيمن أعرف – أحداً تنطبق عليه هذه الحكمة الغالية انطباقها على حياة الرافعى ؛ فالواقع الذى يعرفه كل من خالط الرافعى واتصل به وعرف طرفاً من حياته الخاصة ، أنه ما كان ليبلغ مبلغه الذى بلغ لولا الحيـاة الهادئة التى كان يحياها فى بيته ؛ فالى زوجه يعود فضل كبير فى نجاحه وتوفيقه وهدوء نفسه ، هذا الهدوء الذى هيأه إلى دراسة نفسه ودراسة من حوله والتفرغ لأدبه وفنه ، لا يشغله عنهما شاغل مما يشغل الناس من شئون الأهل والولد .

وقد تزوج الرافعى في الرابعة والعشرين من عمره ؛ ولزواجه قصة فيها طرافة وفيها مجال للفـكر والنظر ؛ وماذمت قد أخذت على نفسي أن أكتب عن الرافعى فى كل أطواره ، فلا على أن أقول ما أعرف من قصة زواج الرافعي ؛ ولا أحسبنى بذلك أتجاوز مالى من الحق أو أتعرض لعتب أو ملامة ، فقد خرج الرافعى من ملك نفسه وأهله إلى حكم التاريخ ، وللتاريخ حق واجب الوفاء

وزوج الرافعي مصرية صريحة النسب ، من أسرة البرقوق المعروفة فى (منيه جناج) – دسوق – وأخوها الأديب الـكبير الأستاذ عبد الرحمن البرقوق صاحب (البيان) ؛ وقد كانت صلة الأدب بين الرافعى وعبد الرحمن البرقوق هى أول السبب فى هذا الزواج .

حدثنى المرحوم الرافعى قال : ... كنت فى الرابعة والعشرين وكنت أعرف عبد الرحمن البرقوقى نوعاً من المعرفة التى تربط

بين شابين توافقا فى الطبع ، واتفقا فى الغاية ؛ وكان عبد الرحمن طالباً أزهرياً ولوعاً بالأدب ، له حظوة ومكان عند الأستاذ الامام إذ كان من تلاميذه الأدنين ؛ وكنا نلتقى أحياناً ؛ فسرنى منه ماسره منى ؛ وكان يعيش عيشة مترفة ليست منها حياة الأزهريين إذ كان له من غنى أبيه ومن جاه أسرته عز وكرامة ... فما تعارفنا حتى تصافينا ، ثم اتصل بيننا الود ، فكنت له وكان لى أصفى ما يكون الصديق للصديق . . .

لم أكن أعرف له أخا أو أختاً ، ولم يجر فى بالى قط أن الصلة بيننا ستتجاوز ما بيننا ، حتى كان يوم جلست فيه أتحدث إلى نفسى ، فكأننى سمعت صوتاً من الغيب يهتف بى أن صديق عبد الرحمن هو صهرى وأخو زوجى ... وانتبهت إلى نفسى وأنا أسائلها : أله أخت ؟ ياليت ... ! لو كان إننى إذاً من السعداء..(١)

وكانت نفسى فى الزواج ، فما هى إلا أن تحرك فى نفسى هذا الخاطر حتى سعيت إلى صديقى عبد الرحمن ، وقلت له وقال لى ، وجرنا الكلام إلى حديث الزواج ، فقلت لصاحبى : من لى يا أخى بالزوجة التي أريد ؟ ووصفت له الفتاة التى تعيش فى أحلامي ؛ فلما فرغت من حديثى قال صاحبى : أنا لك بما تريد . قلت : أتعرف ؟ قال : هي هدية أقدمها إليك . قلت : مَن ؟ قال : اختى!

قال الرافعي : وغشيتنى غشية من الفرح ، فما تلبثت حتى مددت إليه يدى فقرأنا (الفاتحة) ، وما وقع فى نفسى وقتئذ أننى أمد يدي لأخطب عروسى لنفسى ، ولكنى أمدها لأتعرف إلى العروس التى خطبتها علىّ الملائكة وأثبتت نبأ الخطبة فى لوح الغيب

وبنى بأهله ، وعاشا أهنأ ما يكون زوج وزوج ، ثلاثاً وثلاثين سنة — ثلث قرن — لم يدخل الشيطان بينهما مرة واحدة ، ولم يتخاصما لأمر ، إلا مرة . . .

قال الأستاذ جورج ابراهيم : لقد حضرت عرس الرافعي ، وصحبته طوال يومه حتى صعد إلى جلوة العروس ، وشهدت اضطرابه وخجلته ، واستمعت إليه من بعد يتحدث عن سعادته ويغبط نفسه على حظه وتوفيقه ، وما شكا إلىّ مرة واحدة همّاً ناله ، ومضى عام . . . وجاءنى ذات يوم ، فجلسنا نتحدث ، وتسرحنا في الحديث ، ولكن وجه الرافعي كان ينم على شيء . . على سر يطويه ، ثم لم يلبث أن أفصح ، قال : يا جورج ، لقد عزمت على أمر ... سأطلق زوجى ! وراعنى هذا النبأ ونال منى ؛ قلت : تطلقها ! لماذا ؟ قال : إن إخوتها يجحدون حقها فى تركة أبيها ، لا يريدون أن تستمتع منه بشيء . . . قلت : فهذا هو السبب ؟ قال : نعم ، قلت : فما ذنبها هي ؟ قال : أيهون عندك أن تكون زوجى ليس لها عند إخوتها حق ولا كرامة ؟ قلت : ويهون عندك أن تأخذها بما اقترف أخوها ؟ . . . مصطفى ، إنك جبار ، أوْ لا فاذكر أن الطلاق جريمة لم يقترفها قبلك أحد من أسرة الرافعي ؛ أولا هذا ولا ذاك ، فاذكر أن أهل (طرابلس الشام) لا يذكرون الطلاق إلا كما يذكرون نادرة معيبة وقعت مرة ولن تتكرر من بعد . . . فكن بعض أهلك يا صاحبي . . . !

قال : وأطرق الرافعي هنيهة ثم قال : أحسبتنى أفعلها ... ! ؟

ولم يدخل الشيطان من بعد بينه وبين أهله ، إذ كان كل منهما يعرف لصاحبه حقه وواجبه . . . ومضت اثنتان وثلاثون سنة بعد هذه الحادثة ، كما يمضى شهر العسل ، أو شهر الغزل ، ليس فيه إلا العطف والمحبة والاحترام .

***

كان الرافعي يعيش فى بيته عيشة مثالية عالية ؛ فهو زوج كما يجب أن يكون الزوج ، وأب كما ينبغى أن يكون الأب ؛ وما كان منكوراً لأحد من أهله أن الرافعى ليس موظفاً كسائر الموظفين عمله فى الخارج وحسب ؛ بل كانوا جميعاً يعلمون ما عليهم لهذا الرجل الكبير ، ويشعرون بما عليه من تبعات تفرضها عليه مكانته الأدبية ، فيهيئون له أسباب الهدوء والراحة والاطمئنان . كان في بيته كالملك من الحكومة الدستورية : يملك ولا يحكم ، ويعيش فى جو من الاحترام والرعاية والطاعة ، فوق الأحزاب وفوق المنازعات ؛ فمن ذلك لم تكن (سياسة) البيت تشغله أى شغل أو تشغب فى هدوئه وتعكر صفوه ؛ فكان خالصاً لنفسه ، منقطعاً لفنه وعمله الأدبى ، فدار كتبه له هو وحده ، وطعامه مهيأ فى موعده وعلى نظامه ، وفراشه ممهد فى موضعه لساعته ، ونظامه الذى يحقق له الهدوء والراحة ونشاط الفكر مرعىّ مضبوط

على أنه كان إلى ذلك يعرف واجبه لزوجه وأولاده ، فما هو إلا أن يفرغ من عمله حتى تراه بين أهله مثلا عالياً من الحب والوفاء ؛ وأنا ما عرفت أبا لأولاده كما عرفت الرافعي ؛ إذ يتصاغر لهم ويناغيهم ويدللهم ويبادلهم حباً بحب ، ثم لا يمنعه هذا الحب

(١) كان الرافعي يؤمن بالغيب والالهام إيماناً عجيباً ، وله فى هذا الباب حوادث — سيأتى ذكرها — تشبه أن تكون من الخرافة أو من صنع الأحلام .

الغالى أن يكون لهم أبا فيما يكون على الآباء من واجب التهذيب والرعاية والارشاد ، ناصحا برفق حين يتحسن الرفق ، مؤدبا بعنف حين لايجدى إلا الشدة والعنفوان .

***

وما دمت بصدد الحديث عن الرافعى فى أهله ، فان واجباً علىّ أن أتحدث هنا عن شيء من (حب الرافعى) أراه يتصل بهذا الموضوع :

في فترة ما من حياة الرافعى — سأتحدث عنها بتفصيل أوفي فيما بعد — كان للرافعي هوى وغرام ، ووقع له فى هواه مايقع للمحبين من ضرورات الحب ، ودافع نفسه مادافع فلم يجد له طاقة على المقاومة ، واحتال على الخلاص فما أجدته الحيلة إلا همًّا على هم ، وكان حبه أقوى منه ، ولكن دينه وأخلاقه كانت أقوى من حبه . وقال لنفسه : ما أنا وهذا الحدث الذى يعترض طريق ويغلبنى على إرادتى ؟ إن فى بيتى امرأة أحبها وتحبنى — والحب عند الرافعى لا يأبى الشركة ! — وإن لها علىّ حقاً ليس منه أن يكون منى لغيرها نظرة أو ابتسامة إلا أن تأذن لى ! ماذا يكون من أمرى وأمرها غداً أمام الله حين يطلب كل ذى حق حقه ؟ أأقول لها : نعم قد ضيعت حقك وأعطيت من قلبى الذى لا أملك لمن لاتملك ؟ وَيْلى ! إنها الخيانة والاثم والعار !

وذهب إلى زوجه فحدثها وحدثتــه ، ثم أفضى إليها بخبره وكشف لها عن نفسه ، ثم قال : وأنت يازوجتى هل يخفى عليك مكانك منى ؟ ولـكن . . .

واستمعت إليه زوجته هادئة مطمئنة . . . ثم أذنت له . . .

وكتب الرافعي رسالته الأولى إلى صاحبته التى غلبته على قلبه ، وقرأت زوجته الرسالة وطوتها وأرسلت بها إلى صندوق البريد ...

وجاء جواب صاحبته فقرأته زوجته كما قرأت رسالته ، وصار هذا دأبهما من بعد... لاترى زوجته لها حقاً عليه إلا أن تعرف ، ولا يرى على نفسه في ذلك ملامة مادامت زوجته تعرف ... !

وأنشأ هذا الحب طُرْفَتين فى الأدب العربى تم بهما نقص العربية فى فلسفة الحب والجمال ، هما كتابا « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر » ولـكن . . . ولـكن أحداً لم يقرأ القصة الأخرى . . . قصــة الحب والوفاء والتضحية ، لأن الرافعى لم ينشرها فيما ألف من الـكتب فى فلسفة الجمال والحب . . . !

« سيدى بشر » محمد سعيد العريان

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمـد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٨ —

الديانة الفارسية

لا ريب أن من يلقى على الديانة الفارسية نظرة فاحصة يأخذ بلبه ما يجده بارزا بين جوانبها من المبتـدعات « الزرادشتية » التى يجزم بعض مؤرخى الحركة العقلية بأنها لم يسبق لها نظير في تاريخ الديانات القديمة ، إذ لا يعرف التاريخ قبل « زرادشت » مجدداً قلب الدين القـديم رأساً على عقب وأحدث فيه أحداثاً جديدة إلا « أخناتون » الفرعون المصرى الذى نادى بالتوحيد فى وسط معمعان الوثنية والتعدد الطاحنين ؛ ولـكن «أخناتون» فى نظر هؤلاء المؤرخين لم يبلغ مرتبة « زرادشت » لأن دعوته كانت تجديداً سياسياً أكثر منها دينياً ، ولهذا قد فشل تجديده على أثر صعود خلفه على العرش ، وإذاً فزرادشت هو الفذ الأسبق فى هذا التجديد

ولـكن ليس معنى هذا أن « زرادشت » قد قطع كل العلائق بالديانة القديمة وأنشأ ديانته إنشاء كاملاً ، كلا ، وإنمـا هو قد أقر منها الشئ الـكثير ، وهذا هو الذى يحدونا إلى أن نلقى على الديانة القديمة نظرة عجلى قبل أن نعرض للديانة « الزرادشتية »

الديانة قبل زرادشت

ليس عندنا من المصادر عن الديانة الفارسية السابقة على « زرادشت » القدر الكافى لإعطائنا عنها صورة واضحة تمكننا من تحليلها على الطريقة العلمية القيمة ، وإنما كل ما نعرفه فى هذا الصدد هو أن نقوشاً أثرية يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح وجدت فى الشمال الغربى من بلاد فارس ، ووجدت فيها أسماء آلهة هندية ثلاثة وهي : « ميتهرا » و « أندرا » و « فارونا »

ولما كان من غير الممكن أن تصل هذه الآلهة الهندية إلى ذلك المكان دون أن تخترق البلاد الفارسية ، فقد استنتج بعض الباحثين ونخص منهم بالذكر الأستاذ « دينيس سوريه » أن للديانة الهندية أثراً عظيما على الفارسية الأولى . وقد ذهب غيرهم إلى ما هو أبعد من هذا ، فزعم أن « أهورامازدا » إله « زرادشت » هو محرف عن « أور رواناشول » الإله الهندى العتيق ، ولكن هذه مغالاة شديدة من أصحاب هذا الرأى ، إذ النظريات العلمية لا يصح أن تبنى على مثل هذه التكهنات المستنتجة من التحككات اللفظية

ومهما يكن من الأمر ، فإن تأثر الفارسية بالهندية أمر مقطوع به ، إذ أننا نجد مثلاً فى الكتاب الفارسى المقدس « زند أفيستا » أسطورة تحدثنا عن « نيما » أول إنسان[1] أنه أطعم أبناءه لحماً محرماً (ولعله لحم ثور) ليصيرهم خالدين ، وأنه قد فعل هذا نزولا عند نصيحة أحد الآلهة ، وقد ظلت هذه العقيدة فيما يظهر سائدة حتى جاء « زرادشت » فأعلن احتجاجه ضد هذه الخرافة وصرح بأن الخلود لا يمكن أن يتوقف على أكل لحم الثور وإنما هوشيء معنوى يمنحه «أهورامازدا» لمن يستحقه بالفضيلة[2]

ومن هذه الأساطير أيضاً ما يحدثنا به « هيرودوت » من أن الملكة « أميستريس » حين صارت عجوزا أمرت بدفن أربعة عشر طفلاً من أبناء النبلاء أحياء ، ليكون ذلك قربانا عنها ، ليقربها من الآلهة .

تمتاز هذه الديانة القديمة بأنها كانت تأمر بعبادة العناصر الأربعة : النار ممثلة فى كوكبيها العظيمين : الشمس والقمر ، والهواء والماء ، والتراب ، وبتقديس كل مظاهر الطبيعة ، وبأنها تأمر بتضحية بعض الحيوانات كالثيران والكباش ، ولكن يجب أن يكون ذلك على يد جمعية مؤلفة من رجال الدين تنعقد خصيصاً للاشراف على الضحايا . وكانت بعض الحيوانات تمتاز بقداستها على البعض الآخر ، فكلب الماء مثلاً كان مقدساً إلى حد أن من يقتله يجب أن يعاقب بضربه عشرين الف عصا ، وكان هذا المسكين يموت غالباً قبل أن يستوفى هذا العدد ، غير أنه إذا نجا بمعجزة ، وجب عليه أن يشكر الآلهة على هذه النجاة ، وذلك بتقديمه عشرة آلاف قربان من السوائل ، وأن يقتل عشرة آلاف ضفدعة ، ولم تكن هذه الحماية مقصورة على كلاب البحر ، بل كانت القنافذ والكلاب البرية كذلك ، كما كانت الثعابين والنمل والضفادع على العكس من ذلك تماما .

وعندهم أن الميت يجب أن يدلك بالشمع ثم تعرضه جمعية رجال الدين للطيور والكلاب ، لتمزق جسمه وتأكل منه ما تشاء ، ثم يوارى الباقى فى التراب . وقد تطورت هذه العقيدة فيما بعد فتحولت إلى عقيدة عرض الأموات فى برج السكوت . ومن المحتمل أيضاً أن يكون الهنود الذين لا يزالون يعرضون جثث موتاهم لتمزيق الوحوش قد تأثروا بهذه الشعيرة .

وعندهم أيضاً أن الشعر والأظافر بعد فصلها من الأجسام الحية تصبح مدنسة ، وكذلك النَّفَسُ البشرى مدنس ؛ ومن عقائدهم كذلك أن الجثة البشرية قد تطهر إذا قطعت ومزقت أجزاؤها ثم مر أحد الناس بهيئة خاصة من بين هذه الأجزاء .

وعندهم أن زواج الأمهات والأخوات والبنات ليس مباحاً فحسب ، بل إنه مستحب وموصى به ، أما الزنى فهو عندهم جريمة كبرى .

لم تمنع عبادة العناصر الفرس من اتخاذ آلهة أخرى لكل واحد منها اختصاص محدد مثل « أناهيتا » إلهة الماء والخصوبة التى صوروها بعدة أشكال وبدلوا اختصاصاتها كثيراً والتى يظن بعض الباحثين أنها أثر من « إيستار » إلهة « بابل » القديمة لا سيما وإن شمال بلاد الفرس كان خاضعاً لاستعمار البابليين فى ذلك العهد .

كان بعض الشعب يعتقد أن « هاومو » — وهو اسم لشراب كحولى — هو اسم لشخصية بين الآلهة والبشر والبعض الآخر يعتقد أنه إله يجب أن يعبد ، وقد عبدوا هذا الشراب بالفعل ، ووضعوا عدة أناشيد ، للتغنى باسمه . وقد صرح الأستاذ « دينيس سواريه » بأنه لا مانع عنده من أن يكون لهذه الأناشيد التى تغنى بها الفرس القدماء فى عبادة الخمر أثر على رباعيات عمر الخيام التى جاءت بعد ذلك ببضعة عشر قرناً .

هذا كله خاص بعقيدة العامة وجماهير الشعب ؛ أما الخاصة فقد كانت لهم عقيدة أرقى من هذه العقيدة على نحو ما كانت الحال عند المصريين القدماء ، إذ تحدثنا آثار ملكية وجدت فى

---

(١) يلاحظ أن « نيما » الذى هو أول إنسان عند الفرس ، هو نفس « ياما » أول إنسان فى الديانة الهندية كما أسلفنا .

(٢) راجع . ج . هـ . مولتون . (الزورواسترية الأولى) صفحة ١٤٩

مدينتي : « سوز » و « بيرسيبوليس » أن كثيراً من الملوك كانوا يؤمنون بالالٰهين : « ميترا » و « أناهيتا » وغيرهما من آلهة الشعب ، ولكنهم كانوا يضعون على رأس هذه الآلهة جميعاً الاله « أهورا مازدا » الذى سنتحدث عنه فى ديانة « زرادشت » ، ومما يلفت النظر في عقيدة الخاصة هو أن هذا الاله الرئيس كان عندهم غير مرئى وأن النار لم تكن إلا رمزاً له فحسب ، وأنه لم يكن له معبد خاص ، وإنما كانت جميع بقاع الأرض معابد له .

لقد ظل هؤلاء الملوك يعبدون « أهورا مازدا » عبادة حرة غير مقيدة بتعاليم نبوة « رزادشت » حتى آخر القرن الخامس قبل المسيح حيث اعتنقوا الديانة « الزرادشتية » وطبقوا كل طقوسها .

« الديانة الزرادشتية »

حياة زرادشت

يجمع أكثر الباحثين على أن « زرادشت » قد وجد حقاً وإن كانوا جميعاً لا يجرؤون على القول بأن لديهم أى برهان علمى يدل على وجوده ؛ وهم يجمعون كذلك على أنه وجد حوالى نهاية القرن الثامن قبل المسيح ، وإن كان قد شذت عن هذا الاجماع الأخير شخصية من أجل الشخصيات العلمية ، وهى شخصية الأستاذ « كليمان » الفرنسى الذى يرى أنه وجد فى أوائل القرن العاشر قبل الميلاد (١)

يحدثنا أولئك الباحثون أن تاريخ هذا الزعيم الدينى مفعم بالأساطير الشعبية الغريبة التى لايخلو منها شعب من الشعوب والتى رأينا صورة منها فى تاريخ « بوذا » ؛ فمن هذه الأساطير أنه ولد ضاحكا ، رافعاً وجهه ويديه نحو السماء ، وأنه حدثت ليلة مولده معجزات شتى رآها الخاصة والعامة ؛ ومنها أنه تحدى بعض مشاهير السحرة في عصره فحاولوا أن يهلكوه بكل ما أوتوا من علم وقوة ، ولكنهم فشلوا فى ذلك فشلا ذريعاً . ومن ذلك أنه كان ينسحب من البقاع الآهلة بالسكان ويأوى إلى الصحراء ، ليعتكف فيها مناجياً ربه بقلبه ولسانه ، وأنه كان يوحى إليه بوساطة رؤساء الملائكة ، وأنه عرج به إلى حيث الاله نفسه فصار أمامه ، وأنه سحر الملوك ببراهينه ، وأنه كان دائما على رأس الدعاية التى أسسها لدينه ، وأنه مات فى إحدى الحروب الدينية التي كان يقوم بها تبعاً لأوامر شريعته ، إلى غير ذلك من الأساطير الفاتنة التى تنظمها الشعوب عادة ، لتحوط بها زعماءها أو تتخذها رمزاً لمستقبلها .

أما التاريخ فيحدثنا أن « زرادشت » نشأ فى بيئة ريفية متواضعة لاتستطيع أن تحمى نفسها مما ينزل بها من غارات جيرانها ، ولهذا كان أكبر ما يشغل « زرادشت » فى شبابه هو أن ينجو هو وأسرته من غزو القبائل الرحالة التى كانت تهدد تلك الجهات فى ذلك العهد . ويحدثنا أيضاً أن أخلاقه الشخصية كانت على أسمى ما يمكن أن يكون فى تلك العصور ، فقد رأينا آنفاً أنه عارض الدين القديم لحماية الأخلاق ، إذ أعلن أن الخلود لا يكون إلا جزاء للفضيلة ؛ وقد أعلن كذلك أن قتل أى كائن حى فى الغزو والغارات المؤلفة لأجل السرقة والسلب هو من أفظع أنواع الجرائم حتى ولو كان هذا المقتول حيواناً ، ولكن التبعة فى ذلك واقعة كلها على المعتدين لا على المدافعين عن أنفسهم . وعنده أيضاً أن أجل الغايات هي الخلود النفساني وإن كان السمو لم يمنعه من أن يعنى بالحياة الدنيا عناية فائقة إلى حد أن يفسح فى أدعيته مكاناً عظيما لطلب متع الحياة من : مال وخيل وجمال فيقول « أنا أسألك أن تنبئنى بالحقيقة يا « أهورا » هل أنت العدل حقاً ؟ وهل حقاً سأنال هذه المكافأة التى وعدت بها ، وهي عشرة أفراس وحصان وجمل ، وأيضاً الهبة المستقبلة التي وعدتني بها وهى النعيم والخلود » (١)

أهم مميزات الديانة الزرادشتية

قبل أن ندخل فى تفاصيل هذه الديانة يجمل بنا أن نشير إلى أهم مميزاتها العامة التى تأسست عليها ، وهى :

(١) إن هذه الديانة أسست على فكرة خطيرة أحدثت فى تاريخ الديانات هزة عنيفة لا عهد لها بها من قبل ، وهي أن جميع الآلهة المذكورة فى تاريخ الديانات كانت آلهة محلية أي كان لكل شعب آلهته ، بل لكل مقاطعة آلهتها ، أو لكل قرية إلهها ، وأن كل التطورات التى أحدثها الزعماء الدينيون قبل « زرادشت »

(١) راجع كتاب « ديانات العالم » للأستاذ « كليمان » صفحة ١٥٨ طبعة باريس سنة ١٩٣٠ .

(١) نقله الأستاذ « ميه » عن كتاب « أفستا » فى محاضراته الثلاث عن هذا الكتاب طبعة باريس سنة ١٩٢٥

كانت تتناول تغييرات داخلية كما أشرنا إلى ذلك حين مثلنا لك بأخناتون ، أما « زرادشت » فقد استطاع أن يعلن فى جرأة أن « أهورامازدا » ليس إلهاً فارسياً ، وإنما هو إله الكون كله ، وأنه هو نبي تلقي الوحى من هذا الاله العالمي الذى ليس له شريك وإنما له خصم هو دونه فى الرفعة وهو « أهرمان » إله الشر الذى سينهزم على ممر الزمن وسينعدم جنده وأنصاره بانعدام الرذيلة من فوق الأرض .

(ب) إن هذه الديانة تمتاز عن غيرها من الديانات القديمة بأنها بنيت على أساس مبدأ تعميم الخير وإبادة الشر ، وهى ترى أن من أهم الوسائل الضرورية لتحقيق هذه الغاية هو تقوية النوع البشرى ونشر الخصوبة والعمران على سطح الأرض . ويلاحظ بعض الباحثين أنه وإن وجد الخير والعدل فى غير الديانة الفارسية من الديانات القديمة ، إلا أن تلك الديانات لم تتخذهما غاية لها كما فعل « زرادشت » ؛ فخصومة « أوزيريس » وشقيقه « سيت » لم تكن حرباً بين الخير والشر ، وإنما كانت خصومة سياسية اضطرمت نارها من أجل الاستيلاء على العرش ، وإن كان أصحاب هذا الرأي لا يستطيعون أن يجحدوا أن الحق والعدل قد فازا فى هذه الأقصوصة بأكبر نصيب ، ولكن هناك فرقاً بين كون العدالة ممثلة فى الأسطورة كما كانت الحالة فى مصر وكونها غاية لها كما هي الحال فى الديانة « الزرادشتية » .

أما فى بابل فالحالة أدهى وأمر ، إذ نلقى الآلهة هناك بعيدين كل البعد عن فكرة العدالة كما تدل على ذلك أسطورة الطوفان البابلى الذى نكبت به آلهة بابل بنى الانسان دون ذنب جنوه ولا جريمة اقترفوها ، وإنما كان بسبب نزاع قام بين أولئك الآلهة .

(ج) وحد « زرادشت » بين الإله « مازدا » وبين الخير توحيداً جعلهما اسمين لمسمى واحد ، فسبق أفلاطون إلى هذا المزج الفلسفى والأخلاقي العظيم . وبهذا أصبح الخير قلب الديانة « الزرادشتية » الذي ينبض بحياتها ، وقد أعلن أن الخير سيعم الكون كله عند ما تسود الفضيلة وينهزم إلـه الشر « أهرمان » الذي هو العـدو الأوحد لأهورا والذى هو دائم الحرب معه مستعينا بجنوده من أنصار الرذيلة والفساد ، والذى يجب على كل مؤمن أن يقوم بنصيبه من قتاله بإبادة جانب من جوانب الرذيلة

يرى بعض العلماء أن تأسيس الديانة الزرادشتية على الفكرة من حيث هى ليس مميزاً لها ، وإنما المميز هو تأسيسها على فكرة الخير ، إذ كل الديانات الراقية : قديمها وحديثها قامت على مبادىء مختلفة ، فالبوذية مثلا أسست على مبدأ : الألم ، والمسيحية على مبدأ : الحب ، والإسلامية على مبدأ : التوحيد

ويعلق ذلك الفريق من العلماء على هذا الرأى بقوله : «ولكن الشعوب التى ظهرت فيها هذه الديانات لم تفهم تلك المبادىء العالية التى قصد إليها زعماؤها ، وإنما أحاطوها بسياج سميك من أساطير الوثنية الأولى التى بعثوها من مراقدها وأنزلوها من الاحترام العملى منزلة طغت على الغاية الأساسية للديانة ؛ فأنت إذا فتشت في هـذه الديانات الراقية بعد وفاة زعمائها وجدت ذلك ملموساً لا يحتاج إلى جدل ، فـ « بوذا » لم يتخيل قط أنه سيؤله ويعبد بعد موته ، ولو تخيل هذا في حياته لانكسر قلبه حزناً وألما ؛ و « زرادشت » لم يتصور ألبتة أن الشعب سيرفعه بعد عشرين سنة إلى منزلة « أهورامازدا » ؛ والمسيح لم يدر له بخلد أن الشعوب التى اعتنقت ديانته ستتغالى إلى هذا الحد فى شخصيته البشرية ؛ ومحمد لم يكن يسمح من غير شك أن تدعو أمته قوماً من البشر للشفاء أو لقضاء الحاجات كشركاء لله الذى قضى نبيهم حياته فى النداء بتوحيده وإفراده بكل شىء .

أما ما تحاوله العقلية العصرية من تفسير هذه الديانات بما يلائم روح هـذا العصر فهو فاشل أو قليـل النجاح ، لأن عامة الشعوب لا تستطيع أن تتعقل تلك المبادىء السامية التى أتت بها هاتيك الديانات .

« يتبع » محمد غلاب

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٦٩ — وتضحى ممالك قوم طعم

أبو العلاء احمد بن سليمان :

تلوا باطلا ، وجلوا صارماً وقالوا : صدقنا فقلتم : نعم
يدول الزمان لغير الكرام وتضحى ممالك قوم طُعَم[1]

١٧٠ — جهنم اليهود وجنتهم فى الدنيا

في (شرح النهج) لابن أبي الحديد : كل مافى التوراة من الوعد والوعيد فهو لمنافع الدنيا ومضارها . أما منافعها فثل أن يقول : إن أطعتم باركت فيكم ، وكثرت من أولادكم ، وأطلت أعماركم ، وأوسّعت أرزاقكم ، واستبقيت اتصال نسلكم ، ونصرتكم على أعدائكم . وإن عصيتم وخالفتم اخترمتكم ، ونقصت من آجالكم ، وشتت شملكم ، ورميتكم بالجوع والمحل ، وأذللت أولادكم ، وشمت بكم أعداءكم ، ونصرت عليكم خصومكم وشردتكم فى البلاد ، وابتليتكم بالمرض والذل ، ونحو ذلك .

ولم يأت فى التوراة وعد ووعيد بأمر يتعلق بما بعدالموت[2]

١٧١ — يادولة السوء لالقيت صالحة

يادولة السوء لا لقيت صالحة
هل لانقراضك من وقت فينتظر[3]

(١) دالت له الدولة : كانت له . الطعم : جمع الطعمة : المأكلة ، يقال : جعل السلطان ناحية كذا طعمة لفلان أى مأكلة له (الأساس ، اللسان)

(٢) نكتة فى (الأحكام فى أصول الأحكام) لابن حزم : إن اليهود استجازوا الكذب على الباطل بغير العبرانية ، وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الأعمال لايفهمون إلا العبرانية فلا يكتبون عليهم غيرها . . .

(٣) الدولة : بالفتح والضم وجمع المفتوح دول بالكسر ، وجمع المضموم بالضم . وفى القاموس : دول مثلثة (فينتظر) بالرفع على الاستئناف والقطع ومن قول البسامي :

ألا يادولة السفل أطلت المكث فانتقلى
ويارب الزمان ، أفق نقضت الشرط فى الدول

والدولة تجمع على الدولات قال :

وفيت كل صديق ودنى ثمناً إلا المؤمل أيامى ودولاتى

وكيف نرجو خلاصا أو نري فرجاً
وفيك طول وفى أعمارنا قصر ! !

١٧٢ — أؤدب أحدهما وأقبل رأس الآخر

فى (الموشح وخزانة البغدادى) : قال أبو جعفر محمد بن موسى المنجم : كنت أحب أن أرى شاعرين فأؤدب أحدهما وهو عدى بن الرقع لقوله :

وعلمت حتى ما أسائل عالماً عن علم واحدة لكي أزدادها

ثم أسائله عن جميع العلوم فاذا لم يجب أدبته ، وأقبل رأس الآخر وهو زيادة بن زيد لقوله :

إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده أطال فأملى أوتناهي فاقصرا[1]

١٧٣ — الدنيا سوفسطائية

فى (الذريعة إلى مكارم الشريعة) للراغب الأصفهانى : قال بعض الحكماء المكر والخديعة محتاج إليهما فى هذا العالم ، وذلك أن السفيه يميل إلى الباطل ، ولا يقبل الحق ، ولا يميل إليه لمنافاته لطبعه فيحتاج أن يخدع عن باطله بزخارف مموهة خدعة الصبى عن الثدي عند الفطام ، ولهذا قيل : مخرق[2] فان الدنيا مخاريق ، وسفسط[3] فان الدنيا سوفسطائية . وليس هذا حثاً على تعاطى الخبث بل هو حث على جذب الناس إلى الخير بالاحتيال .

١٧٤ — أين الوعد

فى (وفيات الأعيان) : قال أبو محمد بن الحسن بن عسكر

(١) من أبيات (الكتاب) والشاهد دخول (أو) لأحد الأمرين . ومن شواهد (شرح الكافية) على أنه روى بـ (أو) و بـ (أم) فعلى الأولى قوله (أطال) الهمزة للصيرورة ومصدره الاطالة وعلى الثانية تكون الهمزة للاستفهام والفعل طال . (أملى) امتد من الملى وهو الزمن الطويل : أى أنتهي حيث انتهى بي العلم ولا أتخطاه مطيلا كان أو مقصراً وبعد البيت :

ويخبرني عن غائب المرء هديه كفى الهدى عما غيب المرء مخبرا
ولا أركب الأمر المدوى سادرا بعمياء حتى أستبين وأبصرا

(الهدى) السيرة (المدوى) المبهم المستتر (السادر) المتحير

(٢) مخرق الرجل أوهم أنه على حق وصواب وهو على خلافه (الشريشى) والكلمة مولدة . وفى مقامات الحريرى (لأكذب من أبى ثمامة حين مخرق باليمامة) وفى اللغة الخرق والتخرق والتخريق : الاختلاق

(٣) السفسطة قياس مركب من الوهميات والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته (التعريفات) وفى (محصل الرازي) السوفسطائية الذين قدحوا فى الحسيات والبديهيات

الصوفى الواسطى : كنت ببغداد فى سنة (٥٢١) جالساً على دكة باب ابرز للفرجة ، فجاء ثلاث نسوة ، فجلسن إلى جانبي ، فأنشدت متمثلا :

هواء ولكنه جامد … وماء ولكنه غير جار

وسكت ، فقالت احداهن : هل تحفظ لهذا البيت تماماً ؟ فقلت : ما أحفظ سواه . فقالت : إن أنشدك أحد تمامه وما قبله فماذا تعطيه ؟ فقلت : ليس لى شىء أعطيه ولكنى أقبل فاه ، فأنشدتنى :

وراح من الشمس مخلوقة … بدت لك فى قدح من نهار
هواء ولكنه جامد … وماء ولكنه غير جار
إذا ما تأملتها وهى فيه … تأملت نوراً محيطاً بنار
كأن المدير لهـا باليمين … إذا مال للسقى أو باليسار
تدرع ثوباً من الياسمين … له فرد كُمٍّ من الجلّنار (١)

فحفظت الأبيات منها . فقالت لى : أين الوعد ؟ . . — تعنى التقبيل — أرادت مداعبتى بذلك .

١٧٥ — كيف الحياة مع الحيات فى سفط

ابن عسال الطليطلى (عبد الله بن فرج) : حين أخذ الإفرنج طليطلة سنة (٤٧٨) :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس
فما المقام بها إلا من الغلط (٢)
السلك ينثر من أطرافه وأرى
سلك الجزيرة منثوراً من الوسط (٣)
من جاور الشر لا يأمن عواقبه
كيف الحياة مع الحيات فى سفط ! (٤)

(١) الياسمين : بفتح السين وكسرها ، الواحد ياسم ، وبعض العرب يقول شممت الياسمين ، وهذا ياسمون . وهو فارسى معرب لا يجرى مجرى الجمع (التاج) . الجلنار :-زهر الرمان معرب كلنار . الأبيات لأبي القاسم على بن محمد القاضي التنوخى الانطاكى

(٢) الراحلة عند العرب كل بعير نجيب ذكرا وأنثى ومقصوده بالرواحل غير الابل فى ذاك الأقليم

(٣) الوسط اسم لما بين طرفى الشيء وهو منه ، والوسط (بسكون السين) ظرف : كل موضع صلح فيه بين فهو وسط بالتسكين وإلا فبالتحريك (اللسان ، التاج)

(٤) السفط : وعاء مثل القفة جمعه أسفاط

١٧٦ — عائشة بنت طلحة زعيمة السفور

فى (الأغانى) : كانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها من أحد ، فعاتبها مصعب (١) في ذلك ، فقالت : إن الله (تبارك وتعالى) وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ، ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد

١٧٧ — يكتب هذا فى مكارم الأخلاق

فى (تاريخ بغداد) لابن الخطيب : قال محمد بن احمد بن موسى القاضى : حضرت مجلس موسى بن اسحق القاضى بالرى سنة (٢٨٦) وتقدمت امرأة فادعى وليها على زوجها خمسمائة دينار مهراً ، فانكر ، فقال القاضى : شهودك ، قال : قد أحضرتهم ، فاستدعى بعض الشهود أن ينظر إلى المرأة ليشير اليها فى شهادته ، فقام الشاهد وقال للمرأة : قومى ، فقال الزوج : تفعلون ماذا ؟ قال الوكيل : ينظرون إلى امرأتك وهى مسفرة (٢) لتصح عندهم معرفتها ، فقال الزوج : وإنى أشهد القاضى أن لها على هذا المهر الذى تدعيه ولا تسفر عن وجهها ، فردت المرأة وأخبرت بما كان من زوجها ، فقالت المرأة : فإني أشهد القاضى أن قد وهبت له هذا المهر وأبرأته منه في الدنيا والآخرة

فقال القاضى : يكتب هذا فى مكارم الأخلاق

(١) مصعب بن الزبير زوجها . سمع مصعب عزة الميلاء تغنى فى بيت عائشة فى شعر امرىء القيس :

وثغر أغر شتيت النبات … لذيذ المقبل والمبتسم
وما ذقته غير ظن به … وبالظن يقضي عليك الحكم

فصاح : يا هذه إنا ذقناه فوجدناه على ماوصفت

(٢) فى الأساس واللسان والمصباح والتاج : سفرت فهى سافر بغير هاء واسفر الوجه والصبح أضاءا وأشرقا . وامرأة مسفرة فى كلام العلماء فى القرن الخامس وما بعده

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الحادثات الجسام

على مقربة من جزر زارا السعيدة ، تقوم في البحر جزيرة فوقها بركان يقـذف حُمَمه عليها بلا انقطاع ، ويقول الشعب وبخاصة العجائز فيه : إن هـذه الجزيرة منتصبة صخراً يسد باب الجحيم ، غير أن هنالك منفذاً ضيقاً يخترق البركان وينتهي إلى هذا الباب

فى ذلك الزمان ، حين كان زارا يسكن جزره السعيدة ألقى مركب مرساته أمام الجزيرة التي يعلوها الجبل المشتعل . ونزل بحارته إلى البر ليقتنصوا بعض الأرانب ، وما حان وقت الظهيرة واجتمع القبطان برجاله بعد أن لموا شعثهم حتى رأى هؤلاء الناس رجلاً يخترق الفضاء بغتة إليهم ثم اقترب منهم وصاح بهم بصوت جلى قائلاً : لقد حان الزمن ، لقد اقترب كثيراً ...

ومر بهم الشبح مسرعاً وهو يتجه إلى البركان ، فتميزوا به شخص زارا لأنهم كانوا رأوه من قبل جميعهم ماعدا القبطان وأحبوه كما يحب الشعب من يخشى

فقال شيخ البحارة — هذا زارا يسير إلى الجحيم

وفى الزمن الذي نزل فيه البحارة إلى جزيرة اللهب ، كان شاع اختفاء زارا بين الناس وقال صحبه لمن سألوا عنه : إنه أبحر على مركب تحت جنح الظلام ولم يعرف أحد الوجهة التي يقصدها

هكذا ساد القلق من اختفاء زارا ؛ وبعد ثلاثة أيام زاد هذا القلق بعد أن أخبر البحارة بمـا رأوا ، وشاع بين الشعب أن إبليس قد اختطف زارا ، ولـكن صحب زارا لم يأبهوا لهذه الاشاعة بل ضحكوا منها وقالوا : إن ما نعتقده هو أن زارا قد اختطف الشيطان

غير أن اختفاء زارا كان يشغل بال صحبه ، وما مضت خمسة أيام حتى عاد إليهم ، فكان سرورهم عظيما

وهذا ما نقله زارا لهم عن حديثه مع كلب النار . قال : إن للأرض جلداً ولهذا الجلد أمراضه ، وأحدهذه الأمراض الإنسان

وهنالك مرض آخر يدعى كلب النار ، وقد كان هذا الكلب السبب فى تناقل الناس الأكاذيب وتصديقهم لها . وما اجتزت البحار إلا لأكشف هذا السر فرأيت الحقيقة عارية من أخمص قدميها حتى عنقها ، فما تخفي عنى الآن حقيقة كلب النار ، وحقيقة جميع أبالسة التمرد والأقذار التى لا تتفرّد العجائز بالذعر منها

لقد هتفت قائلاً : اخرج من أغوارك أيها الكلب النارى وقل لي كم هى عميقة أغوارك ومن أين تأتى بما تنفثه علينا . إنك تكرع من البحر بشراهة ، وذلك ما تنم عليه مرارة الملح فى ثرثرتك ، والحق أنك وأنت كلب الأغوار لا تستمد غذاءك إلا من الأماكن السطحية ، فما أنت إلا كالمتكلم من بطنه لأننى فى كل مرة سمعت فيها أقوال أبالسة التمرد والأقذار تبينتهم أشبه بك فى دناءتك وأكاذيبك . لقد اتفقت أنت معهم على النباح واتفقتم جميعكم على ذر الرماد ونشر الظلام فأنتم أعظم المتفاخرين وتعرفون كيف تدفعون بالأوحال إلى الفوران وحيث تـكونون لابد أن يحيط بكم الوحول وكل ماهو إسفنجي مضغوط ضيق المسام وما يطلب الانطلاق إلا من اتصف بهذه الصفات . والحرية هى الصرخة التى تفضلونها غير أنني فقدت إيمانى بالحادثات الجسام منذ رأيت الصراخ والدخان يتعاليان حولها .

صدقنى يا إبليس الثورات الصاخبة الجهنمية ، ليست أعظم الحادثات فى أكثر ساعاتنا ضجيجاً بل هى فى أعمقها صمتاً . وما يدور العالم حول موجدى الشغب الجديد بل هو يدور على محور موجدى النظم الجديدة .

لابد لك أيها الشيطان من الاقرار بسخافة ما كانت تنقشع عنه قرقعتك وضباب دخانك وهل من جسام الأمور أن تتحول مدينة إلى مومياء وأن يتداعى عامود إلى الأوحال ؟ وهذه كلمة أخرى أوجهها إلى هدامى الأعمدة : إن أقصى الجنون هو فى إلقاء الملح إلى البحر وفى إسقاط الأعمدة إلى الوحول ، لأن هذه الأعمدة كانت مطروحة على أوحال احتقاركم وها هي ذى تنهض بسيماء الآلهة وقد انطبع عليها الألم الساحر . فهى والحق تدين لـكم بالشكر لأنـكم أسقطتموها أيها الهادمون

وهأنذا الآن أسدى النصح للملوك والـكنائس ولـكل من أضعفته الفضيلة أو أهرمه الزمان فأقول : دع القوة تسقطك لتعود إلى الحياة لترجع الفضيلة إليك .

هكذا تكلمت أمام كلب النار ، فقاطعنى بهريره قائلا : (الكنيسة ، وما هى هذه الكنيسة؟) فقلت : إن الكنيسة شئ أشبه بالدولة ، بل هى من أكذب أنواع الدول ، ولكن صه أيها الكلب ، فانك أخبر بنوعك من أى كان . إنما الدولة حيوان خبيث على شاكلتك فهى تحب أن تتكلم فترسل بيانها دخاناً وهريراً لتخدع الناس وتجعلهم يعتقدون بأن أقوالها مستمدة من غور الأمور . فهى تريد أن تكون أعظم حيوان على وجه الأرض والعالم يراها على ما تريد . (*)

وظهرت على وجه الكلب أفظع معاني الحسد فصاح : ماذا تقول وهل يعتقد أحد أن الدولة هى أعظم حيوان على الأرض ؟

قال هذا وخرجت من بين شدقيه إعصار من الدخان وازداد هريره حتى حسبته مقتولا بغيظه . ولكنه ما لبث حتى استعاد السكون فقلت له : — لقد تملكك الغيظ ، يا كلب النار ، وذلك دليل على أننى أقول الحق عنك . وهأنذا أستمر فى إعلان الحقائق فأحدثك عن كلب آخر من أتباع النار وهذا الكلب يتكلم حقيقة من قلب الأرض ، فلهاثه من ذهب ، وما يحسب حساباً للرماد والدخان والزبد الحار فإن فيما حوله ترتفع قهقهة تنتشر كأنها سحاب يزهو بعديد ألوانه . وهو عدو هريرك وزبد شدقيك وما فى أحشائك من الاختلال . إن هذا الكلب يأخذ الذهب والضحك من قلب الأرض لأن قلب الأرض من ذهب ، فاعلم هذا أنت .

وغلب الكلب على أمره عند سماعه هذه الكلمات فأرخى ذيله خجلا وبدأ يعوى وهو يزحف زحفاً إلى مغارته .

هذا ما سرده زارا لأتباعه ولكن أتباعه ما كانوا يبالون بما يقول وقد اشتد شوقهم إلى إخباره عما حدث للبحارة والرجل الطائر فى الهواء .

ولما سمع زارا ما قصوه عليه قال : ماذا عسانى أظن بما قلتم ؟ أفأ كون شبحاً من الأشباح ؟ ولعل ما رأوه لم يكن سوى خيالى ولعلكم سمعتم حكاية المسافر وخياله ، غير أنه من الواجب على أن أشدد النكير على خيالى فلا يذهب كما يشاء نائلا من شهرتى .

وهز زارا رأسه بتعجب متسائلا عما يقوله فى هذا الحادث وهو لا يدري لماذا هتف الخيال قائلا : لقد اقترب الزمان .

هكذا تكلم زارا . . .

(*) لا ريب فى أن زارا لا يقصد بهذا الوصف إلا الدول القابضة على عنق الشعب بالحكم المطلق

العرّاف

« . . . ورأيت الناس يستولى عليهم حزن عميق ، وقد وهنت قوى خيارهم فيما يعملون . وانتشر تعليم يؤدى إلى الإيمان فى أن كل شىء باطل ومتشابه وقيد الزوال . فتجاوبت الأصداء فى الهضبات مرددة : كل شىء باطل ومتشابه وقيد الزوال

لقد حصدنا ولكن غلالنا أكمد لونها وتهرأت ، فأى شىء تساقط تحت جنح الظلام من وراء كوكبه اللئيم ؟

لقد ذهبت جهودنا سدي وفسد خمرنا فاستحال سماً زعافاً فكأن عيناً حاسدة أصابت حقولنا وقلوبنا فأذوتها

جففنا جميعنا فإذا نزلت بنا حارقة فلا يتطاير منا غير الرماد . لقد تعب منا كل شىء حتى لسان اللهيب

غاضت الينابيع أمامنا وتراجع البحر عنا وقد زلزلت الأرض تحت أقدامنا ولكنها لم تفغرفاها لتوارينا . فمن لنا ببحر نغرق فيه ، إننا نصرخ طالبين البحر فيذهب صوتنا بدداً على سطوح المستنقعات

والحق أننا بذلنا أقصى جهودنا طلباً للموت ولما نزل جثثاً تحيا وعيونها جاحظة طى اللحود . »

هذا ما قاله أحد العرّافين فذهب قوله نافذا قلب زارا فبدّله تبديلا ، وأصبح زارا حزيناً متعباً يضرب فى الأرض شبيهاً بمن ذكرهم العراف فى نبوءته

وقال زارا لأتباعه : لن يمضى زمن طويل حتى ينسدل هذا الغسق القاتم على وجه الأرض ، وأنا أحاذر ألا أجد وسيلة للعبور بنورى إلى ما وراءه فأنقذه من الانطفاء . هل من حافظ له بين هذه الأحزان وأنا قد أعددته ليضىء فى العوالم البعيدة ويشع فى طيات الظلام السحيق

وسار زارا شارداً يحمل همه فى قلبه ، فأمضى ثلاثة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً ولا يعرف الراحة حتى وقف لسانه عن الكلام فاستغرق فى نوم عميق . وجلس صحبه حوله يسودهم القلق طوال الليالى متوقعين أن يفيق ليردوه عن أحزانه

وأفاق أخيراً فخاطبهم بصوت كأنه ترديد صدى بعيد قائلا : (أصغوا إلىّ ، أيها الصحاب ، لأقص عليكم ما رأيت فى حلمى وساعدوني على تعبيره ، فإن حلمى قد أغمض عينى ولم يزل معناه كامناً فيه

« يتبع »

فليكس فارس

هذى المعاهد

قَضَّيتُ آمالَ الحشاشة أجمعا ... ورأيت ما اغترق العيونَ وأمتعا
وعرضتُ من فِتَنِ الطبيعة موكباً ... سيظل في خلدى نضيراً مونعاً
ومضيت عن نظرٍ بديع معجب ... حَسَنٍ إلى نظرٍ أَحبَّ وأَبْدَعا
وجَلَتْ حلاها لى الطبيعة أُفقها ... وأديمها وأراكها المتضوعا
وقرارةً هبطتْ ونجداً صاعداً ... وخميلة نضرت وعشباً أمرعا
ونميرَ ماءٍ سارياً متوانيا ... حيناً وحيناً دافقاً متـدفعا
ينساب آنا ساكناً مترقرقا ... بسطت حواليه الغصونُ الأذرعا
ورمَتْ عليـه ظلالها مخضرَّةً ... فكأنَّ روضاً رفَّ فيه وأفرعا
ويغيب آنا فى حنايا غابه ... إلا خريراً منه شق المسمعا
يتلو على سمع الصخور قصيدةً ... عذبَ البيان مجنّساً ومسجّعا
ويفيض من جسر إلى جسر إلى ... جسر يزمزم تحتـه متخشّعا
ويضل عن بصرى ويذهب ضاوياً ... ويعود يلقـانى مليئاً متـرعا
صرَّفتُ فى تلك المجالى نظرتى ... ورويت طرفى مرسَلاً ومرجَّعا
واشتقتُ لى فى كل بيت مسكناً ... منها وجانِبَ كلّ دوحٍ مضجعا
يا حُسْنَ أبياتٍ هناك تتابعت ... زُمَراً تفرّق بعضها وتجمعا
جثمتْ على قمم الربى وسفوحها ... وبدا بها نَوْرُ الزهور مرصّعا
وزكتْ بساحتها الثمارُ شهيةً ... وعدَتْ حواليها السوائم رُتَّعا
ويجودها هامي السحاب فتنجلى ... أبهى من الثلج النقى وأنصعا
ما ضرَّ مالِكها ونازلَ حُسنها ... ما نال من آماله أو ضيَّعا
فتَنٌ نعمتُ بها نهاراً خلتنى ... قد جُبْتُ حُسْنَ الكون فيه أجمعا
مُذ طالعتها الشمسُ فى رأد الضحى ... حتى زها فيها الأصيل مشعشعا
هذى المعاهد كم سعدتُ بظلها ... وخطرت فى جنباتها مستمتعا
وصحبتُ فيها الليل آخِرَ قافلٍ ... ولقيتُ فيها الصبح أولَ مَن سعى
ومضتْ بها ذِكَرٌ إليَّ حبيبة ... وخَلا بها ودٌّ نما وترعرعا
وقبستُ منها الشعر أمسِ ولم تزل ... توحى إليَّ الشعرَ والعليا معا

اكستر (انجلترا) — فخرى أبو السعود

قلبى ... قلبى

للمرحوم مصطفى صادق الرافعى

قلبى أأنت نصيرى فى محبتها ... أم أنت ياقلب فيها بعض أعدائى
كل الذى فيك من برئى وعافيتى ... هو الذى فيك من سقمى ومن دائى
يا رحمتا لك من قلب كصومعة ... فى رأس شاهقة فى جوف صحراء
شيدت من الصخر لكن فى طهارتها ... هى الغمامة قد شيدت من الماء
فالموت فيها بلا معنى يميت كما ... فيها الحياة بلا معنى لأحياء
ياحسرتا لك من قلب تقلب من ... جوع لجوع وإظماء لإظماء
عند الأحباء لا يألو منازعة ... وإن تكن روحه عند الأحباء
ناء قد ازْوَرَّ عن ناء وما ابتعدا ... لكن معاند من يهوى هو النائى
يظل ذاكر حب غير محتفل ... ذكرى وناسِيَ حب غير نَسَّاء
أوفى بك الحب ياقلبى على زمن ... كالأرض بعد حصاد الزرع للرائى
سوداء شعثاء مغبراً جوانبها ... من بعد لفاء ريا النبت خضراء
قلبى إن بت مطوياً على حرق ... من الصبابة تطفيها بإطفاء
ويك اتئد إن نيراناً تحرقنى ... فى حبها هى نيرانى وأضوائى
يا بؤس للقلب من هجر عرفت به ... ثقل الزمان على قلبى وأحشائى
يمر يوم فيوم فى تسلسله ... والحب جالسنى فى يوم أخطائى
مثل الضباب على الأنوار يتركها ... مرضى من النور قد حمت بظلماء
وشقة الهجر تمضى لا انتهاء لها ... إذا الدلال مشى فيها بإبطاء

حمامة الموكب الملكى

صَحِبَتْ رَكْبَهُ المُعَزَّزَ وَرْقَا ... ءُ وَحَفَّ الرِكابَ سِرْبُ الحَمَامِ
وَقُلُوبُ الطَّيْرِ قَدْ شَفَّهَا الشَّوْ ... قُ إِلَيْهِ فَكَيْفَ قَلْبُ الأَنَامِ
هِيَ رَمْزُ السَّلَامِ قَدْ هَزَّهَا البِشْ ... رُ فَمَالَتْ عَلَى رَسُولِ السَّلَامِ
يَهْبِطُ الطَّيْرُ أَيْنَمَا هَبَطَ السِّلْـ ... مُ وَسَادَ الوَرَى لِوَاءُ الوِئَامِ

اسكندرية — احمد فهمى مرسى



الفيتامينات

VITAMINS

للأديب عبد المنعم عبد الحميد بدر

... الجسم كالمعمل الكيماوي تجري داخله عدة تفاعلات كيماوية معقدة للقيام بوظائفه الحيوية المختلفة ، والروح كالعالم الكيماوي داخل هذا المعمل أمامه المواد الكيماوية والمواد الأخرى التي يريد اجراء التجارب عليها لتحليلها والاستفادة منها . فاذا نقصت إحدى هذه المواد وخصوصاً إذا كانت ذات أهمية كبرى وقفت التجارب أو قل وقف معظمها لنقص هذه المادة التى كانت تدخل فى إجراء كل منها وبذلك يضعف الجسم وتنتابه الأسقام والآلام .

ومن هذه المواد المهمة والتى يحتاج إليها معمل الجسم بكثرة الفيتامينات ، إذ أقل ما يقال في وصفها أنها من المواد التى تنظم الحياة ، فعليها يتوقف سير عمليات الهضم والتمثيل وقوة الجسم أو ضعفه وقابليته للأمراض أو مقاومته لها . وتوجد هذه الفيتامينات فى المواد النباتية كالخضر والفاكهة ومحاصيل الحقل كالقمح والشعير والفول ، والمواد الحيوانية كاللحوم والألبان متى كان كل منها طازجاً أو مضى عليه زمن طويل غير أنه محفوظ بطريقة خاصة تمنع تطرق الفساد إليه

تعريف الفيتامينات

هي عبارة عن مواد كيميائية معقدة غير معروفة التركيب إلى الآن وهى ذات أهمية أساسية لنمو الجسم وبقائه فى حالة صحية وغيابها يجعل النمو غير طبيعى فضلاً عن تعرض الجسم للأمراض المختلفة التى يسببها نقصها في الجسم . فمرض نحافة العظام والكساح يتسببان عن نقص فيتامين (د) فى الأم أثناء الحياة الجنينية فينشأ الطفل وفيه هذا المرض ، كذلك إذا غذى بالأغذية الصناعية كالألبان المجففة بطريقة تؤدى إلى موت الفيتامينات فيها إذا اضطرت الظروف إلى تغذية الطفل بغير لبن أمه الكامل والمحتوى على جميع الفيتامينات لأى سبب من الأسباب . وكثيراً مايؤدى نقص الفيتامين فى الجسم إلى إحداث مضاعفات شديدة أمراض خبيثة تأتى تدريجياً وببطء قد تودى فى نهاية الأمر بالحياة

وتوجد سبعة فيتامينات وهي : فيتامين (ا) وفيتامين (ب) وفيتامين (ج) وفيتامين (د) وفيتامين (ه) وفيتامين (و) وفيتامين (ز) والستة الأولى أكثر أهمية من الفيتامين السابع ، وعلى العموم فلكل منها وظيفة خاصة لا يمكن أن يؤديها فيتامين آخر فى حالة عدم وجوده

طبيعة الفيتامينات

لم يعرف للآن التركيب الكيميائى للفيتامينات ما عدا الفيتامين (د) الذي توصل إلى معرفة طبيعته فقط فى الوقت الحاضر بالنسبة لعلاقته الشديدة بالأرجوسترول Ergosterol وهي مادة عضوية معقدة التركيب يمكن تحضيرها في المعمل ، وبعض العلماء يعتبر الفيتامينات مواد حية والبعض الآخر يعتبرها مواد كيميائية معقدة غير حية يمكن الوصول إلى معرفة تركيبها بالبحث والتجارب ؛ غير أنه لم يمكن تحضير أى فيتامين على حالة انفراد فيقال إن هذه المادة هى فيتامين (ا) أو (ب) . . . الخ ، وكل ما أمكن عمله هو الحصول على مركزات أو مستخلصات أو مجففات تكون فيها هذه الفيتامينات بكثرة كزيت كبد الحوت ومجفف عصير العنب والموالح أو مستخلص الفواكه واللحوم ويستدل على وجود الفيتامينات كيميائياً بما يأتى : —

(١) فصل الفيتامينات من المواد الغذائية باستخدام طرق كيميائية وتركيزها فى مركزات صناعية سهلة التداول (٢) عن طريق دراسة بعض الصفات الكيميائية المهمة (٣) عن طريق دراسة طبيعة المواد التي تقتلها وتؤدى إلى تحللها

وتدرس الفيتامينات من وجهة وجودها أو عدمه بطرق حيوية خاصة وذلك عن طريق نوع من الأرانب الغينية

Guinea Digs لمعرفة ما إذا كان أى نوع من الغذاء يحتوى على نوع مخصوص من الفيتامين أم لا . ولتوضيح ذلك نفرض أن المطلوب معرفة هل يحتوى التفاح على فيتامين (١) أم لا لذلك يؤخذ نوع الأرانب المذكور ويغذى أو يحقن بمادة غذائية تحتوى على جميع الفيتامينات ماعدا فيتامين (١) ثم تغذى أو تحقن بمستخلص التفاح فان نما جسمها نمواً عادياً ولم تضطرب أي عملية من عملياته المختلفة فى مدة تتراوح ما بين ٢١ ، ٢٥ يوماً دل ذلك على وجود فيتامين (١) فى التفاح . أما إذا مرضت الأرانب وظهرت عليها أعراض كالأعراض التي تنشأ عن نقص الفيتامين (١) كان ذلك دليلا على عدم وجود الفيتامين (١) فى التفاح

وتعتبر الفيتامينات على وجه العموم مواد نباتية إلا أنه توجد عدة اعتراضات مهمة تقف حائلا دون قبول هذا الرأى وأهمها صلاحية أى Ergosterol أو أى Estrol مماثل له سواء وجد فى الأنسجة الحيوانية أو النباتية ـ لأن يتحول إلى فيتامين (د) صناعياً بفعل الأشعة فوق البنفسجية وكذلك توجد شبهة قوية فى أن بعض الحيوانات لها قدرة اكتناز فيتامين (ج) فى كبدها وتمثيله

تقسيم الفيتامينات

تقسم الفيتامينات من وجهة ذوبانها فى الماء أو فى الدهون ومذيباتها إلى قسمين رئيسيين وهما : —

(١) فيتامينات توجد فى الدهون فهى بالطبع تذوب فى الدهون ومذيباتها وهى فيتامين (١) وفيتامين (د) وفيتامين (هـ) وفيتامين (ز)

(ب) فيتامينات قابلة للذوبان فى الماء وهى (ب) و (ج) و (و)

خواص الفيتامينات

لقد أجري العلماء عدة تجارب دقيقة أمكن بها معرفة المواد الغذائية التي يوجد فيها كل فيتامين بكثرة أو بحالة مناسبة للجسم حتى يتمكن الانسان من إدخالها ضمن غذائه للمحافظة على سلامة جسمه ووقايته ومقاومته للأمراض . وسنبدأ بذكر خواص كل فيتامين على حدة ثم نذكر بعد ذلك وظيفة كل فيتامين والنتائج التي تحدث فى حالة عدم وجوده فى الجسم أو نقصان مقداره عن الحد المناسب لحالة الجسم ونذكر المواد الغذائية والمركزات الصناعية التي يوجد فيها كل فيتامين على الترتيب

فيتامين (١) ويسمى :

(١) فيتامين ضد التهاب العين Anti - ophthalmic

(٢) فيتامين ضد عدوى الأمراض Anti - infetine

يتأثر هذا الفيتامين بالحرارة إلا أن درجة التأثر تتوقف على ظروف البيئة التي يوجد بها وهذا الفيتامين سريع الأكسدة فى الجو العادي فاذا سخن فى درجة حرارة عالية تحت جو مفرغ من الهواء أمكن المحافظة عليه خصوصاً إذا أزيل غاز الأكسجين واستبدل مكانه بغاز متعادل كالأزوت غير الفعال . وهذا الفيتامين لايتأثر ـ بدرجة كبيرة ـ بدرجات الحرارة العالية عند تعقيم المواد الغذائية المحفوظة إلا أنه يفقد بسرعة الأكسدة عند تجفيف الفاكهة والخضروات ما عدا الفاكهة التي تعامل بغاز ثانى أكسيد الكبريت قبل التجفيف .

وظائف هذا الفيتامين الحيوية

(١) يمنع عدوى الأمراض (خصوصاً التهاب العين وأعضاء التنفس) (٢) يساعد على نمو الجسم (٣) يحافظ على سلامة البنية (٤) يساعد على عمليات الهضم (٥) عامل مهم للتناسل (٦) يحتاج إليه الطفل مدة الرضاعة ولذلك يجب توفره فى لبن الأم (٧) يمنع تعرض الجسم لمرض الانفلونزا

بعض النتائج التي يسببها عدم وجود فيتامين (١) أو وجوده بقلة :

(١) ضعف مقاومة الجسم لعدوى الأمراض (٢) وقوف الجسم عن النمو (٣) تعرض العين لما يأتي : —

(١) مرض العين والتهابها وفقدان قوة الابصار أثناء الليل (ب) فقدان غدد العين لخاصية البكاء (ج) تعرض جميع أعضاء التنفس للأمراض (د) التهابات بقناة الهضم (هـ) التهابات بغدد اللعاب تحت اللسان (٤) إسهال (٥) ضعف طبيعى (٦) فقدان شهية الأكل (٧) تعرض الجسم للأنفلونزا

ويوجد هذا الفيتامين فى مركزات صناعية : —

(١) فى الجزء الذى لايتصبن من زيت كبد الحوت وهو محضر بالصيدليات (٢) كاروتين محضر من الجزر أو الخضروات الخضراء فيتحول الكاروتين إلى فيتامين (١) في الجسم والمادة الوحيدة التي يوجد فيها هذا الفيتامين بغزارة هى زيت كبد الحوت

المواد النباتية التي يوجد بها هذا الفيتامين هي : —

(١) بكثرة مثل : برسيم حجازى — جزر — خس — سبانخ — طماطم (٢) بكميات حسنة وهى : —

(١) فواكه : — مشمش — موز — برتقال — خوخ — أناناس — قراصية (ب) خضراوات : — خرشوف — كشك

ألماز — كرنب — كرفس — ذرة (صفراء) — بسلة (الخضراء) فلفل (أخضر) — قرع — فاصوليا — بطاطا (صفراء)

والمواد الحيوانية التي يوجد بها هذا الفيتامين : —

(١) بكثرة : — زبدة — جبن — قشدة — بيض (المح) لبن (غير مفروز) (٢) بكميات حسنة : — الكبد — الكلى — حيوانات بحرية Oyster - clam

فيتامين (ب) ويسمى :

(١) فيتامين ضد مرض البري بري Anti - b eriblri

(٢) فيتامين ضد مرض الأعصاب Anti - neuritic

يتوقف تأثير الحرارة على هذا الفيتامين تبعاً للوسط إذا كان حمضياً أو قلوياً أو متعادلاً وهو يتأثر بالحرارة سواء وجدت فى محلول أو فى المواد الغذائية الطبيعية ، والوسط له تأثير على درجة الحرارة التى يقتل عندها أو تقل كميته ، فمثلا المواد الغذائية الطبيعية كالحبوب تفقد هذا الفيتامين عند تسخينها إلى درجه ١٢٠ مئوية لمدة نصف ساعة ولكن يسهل قتله عند درجة ١٠٠°م إذا كان الوسط متعادلاً أو قلوياً نوعاً ما ويقتل هذا الفيتامين تماماً عند درجة ٢٥٠° مئوية لمدة ٤ ساعات فى معظم المواد الغذائية .

وظائف فيتامين (ب) الحيوية

(١) يساعد عمليات الهضم (٢) يساعد على تكوين العظام
(٣) يمنع أمراض الأعصاب (٤) تحتاج إليه الأم مدة الرضاع
(٥) يقوى أعضاء الهضم

بعض النتائج الحيوية التى يسببها عدم وجود الفيتامين (ب) أو قلته :

(١) ضعف أو فقدان شهية الأكل (٢) ضعف عمليات الهضم والأعضاء المختصة بها (٣) ضعف نمو الأطفال مدة الرضاع (٤) ضعف البنية (٥) التعب (٦) انخفاض فى درجة حرارة الجسم العادية (٧) ظهور علامات مرض البرى — برى كما يأتى :

(ا) فقدان تعاون الأعضاء (ب) شلل تدريجي بالأطراف
(ج) اختلال وظيفة أعضاء الهضم (د) النحافة

ويوجد هذا الفيتامين فى المركزات الصناعية الآتية

(١) محضر من الخميرة Marmite (٢) محضر من فضلات الأرز بعد تبييضه (٣) محضر من نخالة القمح

والمركب الوحيد الذى يحتوى هذا الفيتامين بغزارة هو الخميرة

والمواد النباتية التى يوجد بها هذا الفيتامين :

(١) بكثرة وهى حبوب : — قمح — ذرة — أرز — شوفان (بشرط عدم فصل الدقيق عن النخالة) — بسلة (٢) بكميات حسنة : كشك ألماز — تفاح — فول — موز — جزر — كانتالوب — قرنبيط — بلح — كرفس — عنب — خس — ليمون هندى — بطاطس — بندق وجوز — سبانخ — برتقال — طماطم — خوخ — لفت — قراصية — أناناس

والمواد الحيوانية التى يوجد بها هذا الفيتامين :

(١) بكثرة : — بيض (المح) (٢) بكميات حسنة : — المخ — الكبد — الكلى — الجبن — اللبن — Ozster (حيوان بحرى)

فيتامين (ج) — ويسمى فيتامين ضد الاسخربوط Anti - Scorbntis

يتحمل هذا الفيتامين الحموضة عن الفيتامينات الأخرى ويحتفظ طبيعته فى المحاليل الحمضية أكثر من القلوية والمتعادلة ولذلك يتطلب أثناء عمليات حفظ عصير بعض أنواع الفاكهة المحافظة الدقيقة على هذا الفيتامين لمنع أكسدته ، ولا يتأثر هذا الفيتامين بالأشعة فوق البنفسجية ، ويجب المحافظة عليها من الأكسدة أثناء تعريضه لهذه الأشعة ، ومن المعتاد أنه يتلف أثناء التخمرات الحمضية بواسطة البكتيريا ولا يفقد طبيعته أثناء التخمر بواسطة الخميرة أو فى حالة وجود الأحياء الدقيقة التى تساعد على تخمر سكر Centose وبعض أنواع البكتيريا الأخرى ، ويلاحظ أن عمليات الطبخ المنزلى تساعد دائماً على قتل هذا الفيتامين بخلاف المواد المحفوظة فى العلب التى يمكن المحافظة على مقدار الفيتامين الذى تحتويه بالمحافظة عليها من التعرض لفعل الأكسدة مع ارتفاع درجة الحرارة المستخدمة . ولقد تيسر فى الوقت الحاضر الاحتفاظ بهذا الفيتامين فى المواد الغذائية المجففة وخصوصاً إذا أجريت عمليات التفريغ الهوائى أثناء عملية التجفيف .

وإذا عرضت المواد الغذائية التى تحتوي على هذا الفيتامين والتى يراد تجفيفها إلى أبخرة غاز ثانى أكسيد الكبريت ساعد ذلك على الاحتفاظ بكمية أوفر منه فى الطريقة السابقة خصوصاً إذا عوملت المواد الغذائية المراد تجفيفها بواسطة محلول قلوى يعرف باسم Lye Solution وهو مكون من الماء والصودا الكاوية في العادة بنسبة تركيز ½ ٪ إلى ٣ ٪ وذلك قبل تعريض المواد التى يراد تجفيفها إلى أبخرة غاز ثانى أكسيد الكبريت ، فاذا تم التفريغ

الهوائى أثناء عملية التجفيف (فى حالة العصير) فان الفيتامين تزداد كميته أيضاً فى المادة الناتجة . ويمكن الاحتفاظ بهذا الفيتامين فى بعض المواد الغذائية كالمشمش والقراصية إذا حفظت بطريقة التجمد ، وذلك لو فرغت الأوعية التى بها المواد من الهواء الذى يفضل تعويضه فى هذه الحالة بغاز غير فعال كالأزوت

خواص هذا الفيتامين الحيوية

(١) يمنع مرض الأسخربوط (٢) يساعد على تكوين العظام (٣) يساعد على تكوين الأسنان وحفظها فى حالة سليمة

بعض النتائج الحيوية التى يسببها عدم وجوده أو قلته : —

(١) الأسخربوط : — (ا) إدماء الجلد والمفاصل والأطراف (ب) إدماء العضلات والأنسجة (حـ) آلام وورم فى المفاصل والأطراف (د) إحداث عظام المفاصل صوتاً عند تحركها

(٢) تحلل كالسيوم العظام (٣) تحلل الأسنان وفقدانها

(٤) نقص فى وزن الجسم (٥) تعب (٦) فقدان الشهية للأكل (٧) تغير لون الوجه واصفراره

ويوجد هذا الفيتامين فى المركزات الصناعية الآتية : —

(١) محضر من عصير البرتقال (٢) محضر من عصير الليمون

ويوجد فى المواد النباتية :

(١) بغزارة : — كرنب — خس — بصل — سبانخ — طماطم — عصيرطماطم — فواكه — عصيرالليمون Lemon Juse برتقال — عصير برتقال

(٢) بكثرة : — خضروات — كرفس — راوند — لفت — عصير ليمون بلدى — خوخ — أناناس — شليك — تانتارسن

(٣) بكميات حسنة : — فول (مطبوخ) — تفاح — بنجر — كرنب (مطبوخ) — موز — عنب — جزر — قرنبيط — خيار — عصير عنب — بسلة مطبوخة — فلفل أخضر — ليمون هندى — بطاطس — قرع عسلى — سبانخ (مطبوخ) — كمثرى ذرة سكرية — لفت أخضر — بطيخ — بصل

ولا توجد مواد حيوانية بها هذا الفيتامين سوي اللبن

فيتامين (د) : — ويسمى فيتامين ضد مرض نحافة العظام Anti - rachitic وظائفه الحيوية هى : —

(١) يساعد على تكوين العظام (العناصر المهمة هى الكلسيوم والفوسفور)

(٢) ينظم عملية ترسيب العناصر المعدنية فى العظام والأسنان

(٣) تحتاج إليه الأم الحامل لمنع نحافة عظام الطفل

بعض النتائج الحيوية التى يسببها عدم وجود الفيتامين (د) أو وجوده بقلة : —

(١) نحافة العظام (ا) عظام غير صلبة (ب) تضخم الكوعين والعقبين (حـ) بروز الجبهة (د) تغير شكل الصدر (هـ) إعوجاج الساقين

(٢) ضعف عمومى فى الأعصاب (٣) تحلل الأسنان وفقدان المادة الكلسية .

(٤) قلة وجود عنصرى الكالسيوم والفوسفور فى الدم والعظام عن الكمية الضرورية

المركزات الصناعية : —

(١) استعمال الأشعة فوق البنفسجية من أقواس كهربائية خاصة

(٢) محضر من الجزء الذي لا يتصبن من كبد الحوت .

(٣) محضر من ارجوسترول بعد تعريضه للأشعة فوق البنفسجية .

(٤) تعريض المواد الغذائية للأشعة فوق البنفسجية .

(٥) مركب طبى معروف اسمه Uegetol

ويوجد هذا الفيتامين بكثرة طبيعياً وكذلك صناعياً فى :

(١) زيت كبد الحوت (٢) أشعة الشمس المباشرة

(٣) الأشعة فوق البنفسجية .

ويوجد فى مواد نباتية بكثرة : بيض (مح) ـ سمك السالمون وبكميات مناسبة فى : — الزبدة — اللبن الكامل — سمك Lem - Ayster

فيتامين (هـ) : — يسمى فيتامين ضد العقم Anti - Sterility

وهذا الفيتامين عامل أساسى لوظيفة التناسل فى الذكر والأنثى وعدم وجوده أو قلته يسبب عدم القدرة على التناسل فى الذكر والأنثى ويوجد بكميات مناسبة فى الخس والبرسيم الحجازي — شعير — فول — قمح (دقيق وردة) عسل أسود — شوفان (دقيق ونخالة) — أرز — ذرة (كله) ويوجد فى اللحوم

فيتامين (و) : — ويسمى فيتامين ضد البلاغرا ويمنع هذا الفيتامين مرض البلاغرا الذى أعراضه : —



القرآن وعلامات الترقيم ـ فتوى لمشيخة الأزهر

تلقت لجنة الفتوى بالجامع الأزهر اقتراحاً ، من الأستاذ محمود عفيفي المحامي ، خاصاً بطبع المصحف الكريم على الكيفية الآتية :

أولا : أن يكون بالرسم العادى المتبع الآن بالأزهر الشريف وفروعه وجميع المعاهد العلمية بمصر والبلاد العربية اسلامية وغير إسلامية .

ثانياً : أن يراعى وضع علامات الترقيم وسط الجمل لافوقها كما هو متبع الآن .

ثالثاً : أن يوضع تفسير عصرى مختصر بهامش هذه الطبعة بمعرفة هيئة من كبار العلماء .

وقد جاء فى تقرير مرافق لهذا الاقتراح ماخلاصته : إن الغرض هو تيسير تناول كتاب الله الكريم وسهولة تلاوته كما أنزل مع فهم ما غمض من معانيه ، لأن كثيراً من المتعلمين فى المدارس مع نبوغهم فى اللغة العربية لايستطيعون تلاوة القرآن فى المصحف بطبعته الحالية ، لاختلاف هجائه عن الهجاء الذي ألفوه ودرسوه فى معاهدهم ، فحرصاً على أن تكون تلاوة هؤلاء وأمثالهم ممن لايحفظون القرآن ولم يتلقوه عن القراء صحيحة يجب طبعه بالهجاء العادى المعروف لهم ، وحرصاً على فهم معانى القرآن لمن يقرأه فى المصحف يجب وضع تفسير مختصر مفيد على هامش هذه الطبعة .

رأى اللجنة فى هذا الاقتراح

وقد أبدت اللجنة رأيها فى ذلك فقالت : إنها توافق على وضع تفسير مختصر مفيد على هامش المصحف ، وترجو أن يوفق الله جماعة من العلماء لوضع هـذا التفسير ، حتى يعم الانتفاع بالقرآن الكريم .

أما وضع علامات الترقيم وسط الجمل لافوقها ، فاللجنة ترى أن المصحف الكريم قد وضعت فيه قديماً وحديثاً علامات على بعض الحروف وبعض الكلمات وفى وسط الجمل للدلالة على كيفيات لهذه الحروف كالإدغام والإخفاء وللدلالة على معان تتعلق بالتلاوة كحسن الوقف ولزومه وامتناعه وغير ذلك ، وهذه العلامات لاترى اللجنة حاجة لإحداث تعديل فى وضعها لأنها وضعت فى أماكنها للدلالة على أغراض خاصة وقـد أدت بوضعها فى أماكنها هذه الأغراض بوضوح لالبس فيه ، وبين كل ذلك فى التعريف الشامل بالمصحف الذي وضع فى ذيل الطبعة التى أمر بها حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول سنة ١٣٤٧ هـ

وأما إنشاء علامات ترقيم أخرى للدلالة على أن الجملة استفهامية مثلا ، ومقولة لقول سابق أو محذوف ، فلا ترى اللجنة مانعاً منها بشرط أن يوضع بشكل لا يوجد لبسا على القارىء فقد كان المصحف الكريم مجرداً عن « التعشير » و « الاعجام » و« النقط » و « رموز الوقف » ثم أحدث كل ذلك واستحسنه

---

(١) اضطرابات داخلية (٢) تبقع وسماكة الجلد (٣) مرارة والتهابات بالفم واللسان (٤) إسهال (٥) إضطرابات عصبية وعقلية

ويوجد بغزارة فى محضر الخميرة وبكثرة فى اللحوم والكبد والخميرة والبنجر وفى : بطاطس — سبانخ — لفت (أخضر بيض — لبن — سمك (السالمون) . ويوجد بكمية حسنة فى : موز — جزر — لفت — بنجر — خس — كرنب — طماطم

فيتامين (ز)

أقل الفيتامينات أهمية وقد اهتدى إليه أخيراً فى زيت بزر الكتان أما صفاته وخواصه فلم تدرس بعد .

عبد المنعم عبد الحميد بدر
كلية الزراعة

مترجمة بتصرف عن William Wetson, Columbia S. C. As A Scientific Exhibit, American Medical Association, Uinneapolis, Minn, U. S. A.

كثير من العلماء حفظاً للآى وضبطاً للاعراب خصوصاً للأعاجم وغيرهم ممن لايحسنون العربية ، قال الزيلعي من علماء الحنفية : هو وإن كان محدثاً فستحسن ، وكم من شيء يختلف باختلاف الزمان والمكان . اهـ

وأما طبع المصحف الكريم على قواعد الرسم الكتابى العادى المتبع الآن ، فاللجنة ترى لزوم الوقوف عند المأثور من كتابة المصحف وهجائه وذلك لأن القرآن الكريم كتب وقت نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومضى عهده صلى الله عليه وسلم والقرآن على هـذه الكتبة لم يحدث فيها تغيير ولا تبديل ، وقد كتبت بها مصاحف عثمان ، ووزعت على الأمصار لتكون إماماً للمسلمين ، وأقر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عمل عثمان رضى الله عنه ، ولم يخالفه أحد فيما فعل ؛ واستمر المصحف مكتوباً بهذا الرسم فى عهد بقية الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والأئمة المجتهدين فى عصورهم المختلفة ولم ينقل عن أحد من هؤلاء جميعاً أنه رأى تغيير هجاء المصحف عما رسم به أولا إلى تلك القواعد التى حدثت فى عهد ازدهار التأليف والتدوين فى البصرة والكوفة، بل ظل مصطلح القرآن قائما مستقلا بنفسه بعيداً عن التأثر بتلك القواعد

ولا ريب أنه وجد فى تلك العصور المختلفة أناس يقرؤون القرآن ولا يحفظونه وهم فى الوقت نفسه لايعرفون من الرسم إلا ما وضعت قواعده فى عصر التأليف والتدوين وشاع استعمالها بين الناس فى كتابة غير القرآن ، ولم يكن وجود هؤلاء مما يبعث الأئمة على تغيير رسم المصحف بما تقضى به تلك القواعد .

قال العلامة نظام الدين النيسابوري في كتابه « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » ما نصه :

« وقال جماعة من الأئمـة : إن الواجب على القراء والعلماء وأهل الكتاب أن يتبعوا هذا الرسم فى خط المصحف ، فإنه رسم زيد بن ثابت ، وكان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكاتب وحيه » . اهـ .

وجاء في الاتقان للامام السيوطى ما نصه :

« وقال اشهب : سئل مالك : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا ، إلا على الكتبة الأولى . رواه الدانى فى المقنع ، ثم قال : ولا مخالف له من علماء الأمة . وقال فى موضع آخر : سئل مالك عن الحروف فى القرآن ، مثل الواو والألف : أترى أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك؟ قال : لا . قال أبو عمرو : يعنى الواو والألف المزيدتين فى الرسم، المعدومتين فى اللفظ ، نحو « أولوا »

وقال الإمام أحمد : يحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو وياء أو ألف أو غير ذلك .

وقال البيهقى فى شعب الإيمان : من يكتب مصحفاً ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ، ولا يخالفهم فيه ، ولا يغير مما كتبوه شيئاً فإنهم كانوا أكثر علماً ، وأصدق قلباً ولساناً . وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدرا كا عليهم » . اهـ .

وقد جاء فى فقه الحنابلة ما يؤيد نقل السيوطى فى الاتقان عن الامام أحمد بن حنبل .

وجاء فى حواشى المنهج فى فقه الشافعية : أن كلمة « الربا » تكتب بالواو والألف ، كما جاء فى الرسم العثمانى ، ولا تكتب فى القرآن بالياء أو الألف ، لأن رسمه سنة متبعة .

وجاء فى المحيط والبرهان فى فقه الحنفية : أنه ينبغى ألا يكتب المصحف بغير الرسم العثماني .

على أن قواعد الاملاء التى حدثت فى عهد التأليف والتدوين لم يتفق عليها واضعوها بل اختلفوا فى رسم كثير من الكلمات كما هو مدون فى مواضعه ، وهى بعد ذلك عرضة للتغيير والتبديل ، وقد صارت اليوم موضع شكوى وتفكير نظراً لما فيها من كتابة أحرف لا وجود لها فى المنطق ، وترك أحرف منطوق بها ، فلا ينبغى والحالة هذه أن يخضع القرآن فى رسمه لهذه القواعد المختلف فيها ، والتى هى عرضة للتغيير والتبديل .

وأما مايراه أبو بكر الباقلانى من أن الرسم العثمانى لايلزم أن يتبع فى كتابة المصحف ، فهو رأي ضعيف ، لأن الأئمة فى جميع العصور المختلفة درجوا على التزامه فى كتابة المصاحف ، ولأن سد ذرائع الفساد مهما كانت بعيدة أصل من أصول الشريعة الاسلامية التى تبنى الأحكام عليها ، وما كان موقف الأئمة من الرسم العثمانى إلا بدافع هذا الأصل مبالغة فى حفظ القرآن وصونه .

وأما ما ذكره صاحب الاقتراح من أن كثيراً من المتعلمين لايحفظون القرآن ، ولا يحسنون قراءته فى المصحف ، لعدم معرفتهم الرسم العثمانى ، فاللجنة ترى ـ تسهيلا للقراءة على هؤلاء ـ

أن ينبه فى ذيل كل صفحة على ما يكون فيها من الكلمات المخالفة للرسم المعروف .

على أن الأمر أهون مما يتصوره المقترحون للتغيير ، لأن رسم المصحف العثمانى لا يخالف قواعد الإملاء المعروفة إلا في كلمات قليلة معدودة . ومع ذلك ، فليست هذه المخالفة مما تحدث شيئاً من اللبس على القارىء المتأمل ، لأنها إما بحذف حرف ، كحذف الألف فى « بسم الله الرحمن الرحيم » أو زيادة حرف ، كزيادة الألف فى « أولوا » أو إبدال حرف من حرف ، كرسم « الصلوت » بالواو بدلا من الألف ، أو وصل ما حقه الفصل مثل وصل « ان » بما الموصولة ، كما فى قوله تعالى : « إنما لتوعدون لآت » أو فصل ما حقه الوصل ، كفصل « فى » الجارة من « ما » الموصولة ، مثل « فى ما فعلن فى أنفسهن »

وواضح أن مثل هذا لا يشتبه على أحد أن ينطق به صحيحاً

وإن من يطلع على التعريف بالمصحف الذى أشير إليه فيما سبق ، يستطيع أن يتعرف تلك الكلمات بسهولة ، والله أعلم

(الرسالة) بقى أن لجنة الفتوى لم تذكر الحكمة فى الاستمرار على الرسم المضلل فى كتابة قوله تعالى « ولا تقولن لشاى (لشىء) إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » وقوله تعالى « والسماء بنيناها بأييد (بأيد) » ، و « بأييكم (بأيكم) المفتون »

مشكلة برامج التعليم

إصلاح برامج التعليم المصرية مشكلة طال عليها العهد ، وتقلبت بين مختلف التجارب والعهود ولم تستقر على وضع ثابت حتى اليوم ؛ وقد كان اضطراب برامج التعليم وتغييرها بين آونة وأخرى من أهم الأسباب التى أدت إلى انحطاط مستوى الثقافة المدرسية ، وبث الفوضى إلى معاهد التعليم وإلى نظم الدراسة والامتحانات ؛ وكان آخر العهد بتغيير البرامج منذ نحو عام فقط ولكن النظام الجديد ما كاد يستقر حتى سمعنا وزير المعارف الجديد يصرح منذ أيام بأنه يعتزم تأليف لجنة من ذوى الخبرة فى شئون التربية من رجال المعارف وغيرهم لتبحث برامج التعليم وتضع لها من الأسس الجديدة ما يتفق مع حاجات العهد الجديد ، وهذه فى الواقع فكرة لابأس بها ؛ ولكن الذى يصح التساؤل عنه بهذه المناسبة هو : أليس لهذه التجارب التعليمية من نهاية ؟ ومتى توفق وزارة المعارف إلى وضع الأسس النهائية لبرنامج التعليم القومى ؟ ذلك أن مسائل التربية يجب أن تكون بمعزل عن التقلبات السياسية ، ويجب أن تكون بالأخص بمعزل عن الآراء والرغبات الشخصية ؛ ومن المستحيل أن نظفر بسياسة إصلاحية ثابتة للتعليم إذا لم نوفق إلى وضع المبادىء والأسس النهائية ، وإذا لم تتخذ هذه المبادىء والأسس صفة الاستقرار إلى حين معقول ؛ ولا بأس من أن تكون التفاصيل ذاتها عرضة للتغيير والتبديل كلما دعت الحاجة أو دعت التجارب ، ولكن الاستمرار فى الانشاء والمحو على هذه الصورة كل عام أو عامين أو بعبارة أخرى كلما تغير وزير المعارف ، خطة عقيمة ضارة نلمس الآن نتائجها السيئة . وإذن فلنؤمل أن تكون هذه التجربة الجديدة التى يزمع وزير المعارف القيام بها لوضع النظم الأساسية للتعليم والتربية ، هى ختام هذه الفوضى ؛ بيد أنه يشترط لنجاح مثل هذه التجربة أن تجرى بعيداً عن الجو الحكومى ، وأن تقوم بها صفوة من ذوى الخبرة والثقافة الرفيعة ، وأن يسترشد فى إجرائها بكل ما يقتضيه العهد الجديد من تنمية الروح القومية وتوسيع الأفق وتعزيز العناصر الأخلاقية والعملية فى ثقافتنا .

هل اكتشف سر التحنيط عند الفراعنة ؟

المعروف أن العلم الحديث بالرغم من تقدمه بخطى الجبابرة فى سائر النواحى ، لم يوفق إلى اكتشاف سر التحنيط عند قدماء المصريين ؛ وقد كانت للفراعنة في هذا الفن براعة ليس أدل على عظمتها وروعتها من تلك الموميات العجيبة من جثث الملوك والأمراء الفراعنة التي أخرجت من قبورها والتي ما زالت بعد آلاف الأعوام تحتفظ بشكلها البشرى احتفاظا مدهشاً حتى أنك لترى الأظافر وشعر الجلد والرأس باقية كما كانت أثناء الحياة . وقد حاول العلم الحديث أن يجرى تحنيط بعض العظماء لتخلد هياكلهم البشرية فلم تطل التجربة أكثر من أعوام تطرق بعدها البلي والعدم إلى الجثمان المحفوظ ؛ وهذا ما حدث لجثمان (لنين) زعيم روسيا البلشفية فإنه لم يمكث بعد تحنيطه أكثر من بضعة أعوام ثم اضطرت السلطات إلى مواراته بعد أن ظهرت عليه أعراض التحلل . بيد أنه ظهر أخيراً فى أمريكا علامة شاب هو الدكتور جون فيدمان من جامعة الينوا يقول إنه قد وقف على سر التحنيط عند القدماء، وإنه يستطيع أن يحقق حفظ الجسم المحنط أجيالاً وأحقاباً ،وأنه اهتدى أخيراً إلى سر المركب الذى كان يستعمله القساوسة

المصريون، وأن أهم المواد التى كانت تستعمل لمزج هذا المركب هو محلول « النترسلولوز » . وقد يكون هذا العلامة قد وفق حقاً إلى اكتشاف مركب جديد لتحنيط الجثث ؛ ولكن الحكم على صحة الاكتشاف وعلى مدى أهميته لا يمكن تحقيقه قبل مضى مدة طويلة ، لأن التجربة لا يمكن الحكم عليها إلا بمرور الزمن الطويل

ونحن نذكر أن المؤرخ الأول هيرودوت قد عرض إلى مسألة التحنيط فى مباحثه التى أجراها عن المصريين القدماء وعن مدنيتهم وأحوالهم التى شاهدها واطلع عليها بنفسه ؛ وقد ذكر لنا هيرودوت فى كتابه أن التحنيط كان عند المصريين درجات وأن الجثة كانت تنقع بعد استخراج الأمعاء والحواشى نحو سبعين يوماً فى محلول لم يوضحه لنا تماماً لأنه هو لم يستطع الوقوف على سره نظراً لتحوط الكهنة فى الاحتفاظ بهذا السر ، وأن التحنيط كان على ثلاث درجات : الأولى للملوك والأمراء وهي أتقن الدرجات ، والثانية للنبلاء والأغنياء ، والثالثة لأفراد الشعب ، وهذه أبسطها وأقلها اتقاناً . وقد حاول كثير من العلماء أن يهتدي إلى سر هذا المحلول العجيب الذى يشير اليه هيرودوت ، ولكن العلم أخفق حتى يومنا فى اكتشاف هذا السر

كتاب جديد عن فلسطين

ظهر أخيراً فى انكلترا كتاب جديد عن فلسطين وضعته صحفية انكليزية شابة تدعى مس بربارا بورد وعنوانه « فتاة صحفية فى فلسطين » Neusgirl in Palestine ، وقد زارت مس بورد فلسطين فى الشتاء الماضى وأنفقت بضعة أشهر فى درس الحياة الاجتماعية الفلسطينية وعنيت بالأخص بتعرف أحوال المجتمع النسوى على اختلاف أجناسه وبيئاته ؛ وهى تقول لنا إنها قد زارت المرأة الفلسطينية فى القصر وفى الكوخ وفى الصحراء ، وتعرفت إلى أفقر الفتيات من النصارى واليهود كما تعرفت إلى حريم الأمير عبد الله ؛ ودرست عادات هذا المجتمع النسوي المتباين وأخلاقه وخواص حياته . وكتاب المؤلفة هو كتاب سائحة ، ولكن يطبعه شيء من العناية بالبحث والتحقيق أكثر مما يبذل السائح العادى ؛ وقد قصدت أن تظهر كتابها فى هذه الآونة التى تطرح فيها المسألة الفلسطينية على بساط البحث ليعاون فى تفهم أحوال المجتمع الفلسطيني .

وقد وفدت المؤلفة أخيراً على مصر وأقامت فيها بضعة أسابيع وشهدت حفلات التتويج ، وتعرفت إلى البيئات النسوية المصرية وهى تنوي فيما يظهر أن تضع كتاباً آخر عن مصر والمجتمع المصرى على طراز كتابها عن فلسطين ، بيد أنه لا ريب فى أن هذه الكتب التى تكتب على جناح السرعة خلال سياحة سطحية لا يمكن أن تكون مراجع قيمة عن الموضوعات التى تتناولها . وسنرى فى القريب العاجل ماذا تكتب هذه المؤلفة الشابة عن مصر والمجتمع المصرى .

حول أرزة لامرتين

كتب الأستاذ أمجد الطرابلسى فى حاشية قصيدته المنشورة فى صفحة ١٣٤٩ من عدد مجلتكم الأخير أن الشاعر الفرنسى دى لامرتين وابنته جوليا زارا أرز لبنان عام ١٨٣٢ ونقشا اسميهما للذكرى على شجرة هناك تشتهر الآن بأرزة لامرتين

والواقع غير ذلك فان الشاعر الفرنسى لم يزر مع ابنته غابة الأرز قط ولم يكتب هو اسمه ولم ترسم وحيدته اسمها على شجرة الأرز المذكورة . وكل ما فى الأمر أنه حاول أن يقوم برحلة إلى الأرز خريف عام ١٨٣٢ والمعروف عن هذه الرحلة أنها أخفقت لشدة الزمهرير إذ ذاك وكثرة الثلج والجليد ونحن نعلم أن لامرتين لم يسع بعد ذلك لادراك رحلته مرة أخرى وأنه استعاض عن مشاهدة الأرز عن كثب برؤية الغابة من بعيد

هذا وقد وضع الكاتب هنرى بردو كتاباً عنوانه « رحَّل المشرق » عالج فيه مسألة زيارة الفرنسى العظيم للبنان وأرزه وقد استطاع أن يثبت أن التوقيعين المنقوشين على الشجرة المشهورة إنما خطهما صديق قديم للامارتين وأسرته وذلك قبل قيام شاعرنا برحلته رغبة منه فى مفاجأة صاحبه المجيد مفاجأة طريفة رقيقة

خليل عطا الله
(كلية الحقوق)



سيرة السيد عمر مكرم

تأليف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

فرغت من قراءة هـذا الـكتاب التحليلي المحكم ، كما يفرغ الانسان من شهود فلم تاريخي متقن ، وبدل أن أرفع يدى لأصفق ، أخذت قلمى لأكتب . شبهت هذا الـكتاب بالفلم لأنه أوسع من الرواية ، وأوضح من القصة ، وأروع من السيرة ؛ ففيه البيئة والمكان ، وفيه الصور والألوان ، وفيه الوقائع التي تتكلم ، والخوالج التى تتجسم ، والدقائق التي تسفر ، والفروق التى تتضح . وتجلية الحياة المصرية السياسية والاجتماعية فى القرن الثامن عشر على هذه الصورة الرائعة البارعة الملهمة لا تتهيأ إلا لأمثال الأستاذ فريد ممن توفروا على اكتناه الحق في هذا العهد المجهول المظلوم ، وأوتوا مع ذلك البصيرة التاريخية التى لا تطيش ، والضمير العلمى الذى لا يخدع ، والقلم الفنى الذى لا يزلُّ . والأستاذ فريد من كتابنا القلائل الذين لا يخرجون ما ينتجون إلا عن اختصاص محيط ودرس شامل وروية صادقة وضرورة حافزة وغرض نبيل . وقد عهده الناس فى تأليفه محققاً ، وفى ترجمته أميناً ، وفي قصصه مجوداً ، وفى شعره مجدداً ، وفى أبحاثه حجة . وهو بعد زيدان زعيم المذهب التاريخى فى القصة على نحو ما كان (ولتر سكوت) ؛ وحبه الخالص لمصر صرف هواه وجهده إلى تاريخها القديم والحديث فخدمه خدمة جلى وغرسه فى قلوب النشء غرساً مثمراً بالتعليم فى أسمى درجاته ، وبالتأليف فى شتى فنونه ؛ واعتزازه الصادق باستقلال وطنه وجّه نشاطه إلى ذلك العصر الذى خلص فيه سلطان مصر إلى أبنائها الخلَّص الذين وُلدوا فيها، ونُشّئوا لها، وذادوا عن حياضها المطهرة طمع الواغل الدخيل ذيادَ الأحرار البررة ؛ واتصافه بالخلق النبيل والطبع الحر جعله يُغرم فيه بالشخصيات الـكريمة الحرة التى جلاها لقراء (الرسالة) فى مناسبات شتى ، ومنها هذه الشخصية العزيزة السيدة : شخصية السيد عمر مكرم التى أفرد لها هـذا الـكتاب الذي نتحدث اليوم عنه

* * *

(سيرة السيد عمر مكرم) صورة فنية مشرقة لمصر فى القرن الثامن عشر ، تقرأها فكأنك تشاهده ، وتستبطنها فكأنك تعيش فيه ؛ برز فيها وجه هذا الرجل الأبى صادقَ النظر أشم الأنف ناطق الملامح ، فجعله فريد مثالا للخلق المصرى المحض فى ذلك العهد ، ومثلا للجيل المصرى الناشئ فى هـذا العهد « وقد رأينا الأمم الحديثة — وهى تسعى لتحفيز أبنائها إلى المكارم ، وحضهم على المعالى — تلجأ إلى التاريخ فتستخرج منه صور المجـد والبطولة فتعرضها على الجيل الحاضر ليجد فيه مثلا يحتذيه ، وأملا يتطلع إلى تحقيق مثله ، وهى تقصد بذلك إلى إعلاء نفوس أبنائها ، والتسامي بأرواحهم وعواطفهم ، وإثارة الخامد من طموحهم ، بالتلويح لهم بأعلام المجد ، والاشارة إلى ذرى الأمانى الانسانية . ومصر بحمد الله عريقة فى كل مكرمة ، غنية فى كل فن ، عبقرية فى كل وجهة ؛ فليس الواقع بمعجزها ، ولا الحق بخاذلها ، إذا هى أرادت المُثُل العالية ، أو رسم صور البطولة والمجد » (١)

---

(١) من مقدمة المؤلف

الكتاب مشوّق جذاب بموضوعه وطريقته وأسلوبه . أما موضوعه فجهاد مصر في سبيل حقوقها وبلوغها من ذلك بفضل الأحرار من زعمائها أمثال السيد عمر مكرم ماتبغيه من حفظ كرامتها وإنفاذ إرادتها حتى بلغ من فوزها أن تحللت من إرادة الخليفة فعزلت بقوتها من الولاة من يفسد ، وولت برأيها منهم من يصلح ؛ وهو موضوع من أحب الموضوعات إلى النفس ، لأنه قصة الحياة ومطمح الانسانية إلى السمو . وأما طريقته فطريقة التحليل النفسى بصدقه ودقته ، والعرض الروائى بطلاوته وحبكته . وأما أسلوبه فقد ارتفع فيه فريد إلى الدرجة العليا من الفن : جزالة فى رقة ، وبلاغة فى سلامة ، وإيجاز في وضوح ، ومنطق فى شعر . وحسبي من ذلك أن أضع أمامك صورة صغيرة من الفصل الجميل الممتع الذى عقده لثورة المصريين على الفرنسيين فى مارس من سنة ١٨٠٠ ، وقد عز القاهريين النصير ، وخذلهم الأمير ، وأهملهم الخليفة ، وسلط عليهم المحاصرون النار ، وأرسلت عليهم السماء المطر ، حتى قال فريد : « وأمسى أهل تلك الأحياء المنكوبة ليلة العاصفة وهم فى أشد حالات البؤس والكرب ؛ يحاولون الخروج من منازلهم برغم الرعد والبرق والمطر المنهمر ، فتعوقهم المياه المتدفقة ، وتنزلق أقدامهم فى الأوحال الخوانة ، فاذا بهم يسمعون قصف المدافع من بين أيديهم ، ويرى بعضهم أخاه صريعاً إلى جانبه قد أصابته رصاصة لايرى قاذفها البعيد ، فيقف لحظة ينظر فى إسعاف الصريع ، فاذا به يسمع هيعة من خلفه ، فينظر فاذا باللهب يندلع فى منزله الذى تركه منذ حين قصير ، فيذكر الصبية الذين خلفهم فيه ، فيثب قلبه فى صدره ، ويهم منتفضاً كالملسوع . ويعدو نحو بيته وهو لا يعى من الفزع ؛ وفيما هو يعدو تطرق أذنيه صرخات داوية يملؤها الهلع والذعر ، من نساء كدن يخرجن عن الوعى من الهول ؛ ويرى ماء المطر يهبط على النيران فلا يزيدها إلا توهجاً واندلاعاً ، ويسمع من دون فحيح اللهب وقعقعة النار صوتاً كأنما هو من صبية يستغيثون ، فيقتحم اللهب يطمع أن ينقذ فلذات كبده من بين أنياب السعير ، فما يكاد يخطو فى المنزل خطوات حتى تحيط به النيران ، ويطيش سائراً ويتخبط حائراً حتى يوقن أنه لن يستطيع إنجاء ولده ، فتثور الطبيعة فى رأسه ، ويخشى على نفسه ، فيحاول العودة من حيث أتى ، ولكن النار تحيط به وتأسره ، فيضطرب ويختنق ، ويحاول الصراخ فلا يخرج صوته ، ثم يثبت في مكانه ويقع لايعى ، وينطبق اللهب مرة أخرى كأن ليس فى جوفه شىء »

فأنت ترى أن « سيرة السيد عمر مكرم » بمنهاجها الذى سارت عليه ، وغرضها الذي هدفت إليه ، وأسلوبها الذى كتبت به ، حرية بأن تكون فى يد كل شباب قدوة ، وفى يد كل كاتب نموذجاً ، وفى يد كل قاريء ثقافة ولذة .

جزى الله مؤلفها الفاضل خير مايجزي به العامل المخلص على جهده وقصده وتوفيقه .

الزيات

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧ ﴾

5 me Année, No217.

Lundi - 30 - 8 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢١٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٣٥٦ — ٣٠ اغسطس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الملك المـــوفق

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

منذ بضعة أسابيع أدى صاحب الجلالة الملك صلاة الجمعة في مسجد من مساجد الاسكندرية على عادته المحمودة ، فلما انتهت الصلاة نهض جلالته ، فهتف باسمه الناس ، فأشار إليهم جلالته بيده أن كفوا ، ومال على أحد العلماء وهمس فى أذنه أن بيوت الله للعبادة لا لهذا ، ولذكر الخالق لا لذكر المخلوق .

وفى جمعة أخرى أمر واحـداً من رجال حاشيته ، فأعطى الإمام عشرين جنيهاً لخدم المسجد ، فتناولها الإمام شاكراً ، داعياً ؛ وكان للمسجد خادمان فنقد كلا منهما عشرة ، واتصل الخبر بجلالة الملك ، وعلم أن الإمام حرم نفسه ، فدعاه إليه وكلمه فى هذا ، فقال الرجل : إنى خطيب وإمام لا خادم ، وقد أعطيت المال لأفرقه على الخدم ففعلت وأمضيت مشيئة مولاى . فسرت جلالته عفةُ الرجل وأمانته وتقواه وأجزل له الثواب .

ولجلالته عناية بأن يعرف على أى وجه تنفذ أوامره . حدث في منتصف أغسطس أن حضر جلالته حفلة تمصير شركة البواخر الخديوية ، فطاف بالباخرة « محمد على الكبير » ولاحظ أن

المدخنة لونها أحمر ، فالتفت إلى عبود باشا وقل إنه يؤثر أن يكون لونها أخضر ، فقال عبود باشا : « حباً وكرامة ، سيكون ماشاء مولاى » فقال جلالته وهو يبتسم : « سأسأل عن المدخنة ولونها » .

ويذكر القراء أن وزير الأوقاف السابق وقف مرة في البرلمان يرد على سؤال عن الأزهر ورثاثة فرشه ، فكان مما قاله — وظهر أنه كذب — أن طلبة الأزهر يقطعون السجاجيد ويأخذون مايقتطعون منها لفرش مساكنهم . وقد هاج الأزهر وماج لهذا ، وكتب الشيخ الأكبر الأستاذ المراغى إلى وزير الأوقاف يومئذ يبين له أن الموظفين الذين أمدوه بهذه المزاعم كذبوا عليه وغشوه ، ويطلب منه أن يحقق مع المسئولين عن هذه الأكاذيب والتشنيعات ، ولكن الوزير طوي الأمر لسبب ما ، ولم يعن بالتحقيق الذى كان واجباً .

وكأنما عز على جلالة الملك أن يكون الأزهر بهذه الرثاثة ، وأن تضن عليه وزارة الأوقاف بالفرش اللائق ، وأن يقول وزيرها السابق ما قال فى طلبة هذا المعهد الاسلامي العالمى الذى لم يبق على عيده الألفى إلا القليل ، ولكن الحكمة والأناة شعار الملوك ، فقد سكت جلالته حتى خرج هـذا الوزير من الوزارة ، وتولاها غيره ، ثم أمر بأن يفرش الأزهر بالسجاد على نفقة جلالته الخاصة ، وبأن يكون السجاد مصرياً من صنع مصريين . ولو أن جلالته أمر بذلك والوزير السابق قائم بالأمر فى الأوقاف ، لكان هـذا بمثابة دعوة صريحة إلى الاستقالة ؛ ولكن جلالته تريث حتى لا تختلط الحسنة بالسيئة ، فليس همّ جلالته أن يؤنب وزيراً ، وإنما همه أن يصنع جميلاً وأن يسدى مكرمة . والأزهر معهد مهول ، وسيحتاج من السجاد إلى شيء كثير ، فأخلق بصناعة السجاد المصرية أن تنشط من جراء ذلك نشاطاً عظيماً ، وجدير بالسجاد المصري أن ينفرد بالسوق بعد هذا فلا يتخذ مصرى سواه .

ولا يزال جلالة الملك فى صدر الشباب ، ومع ذلك آثر الزواج على العزوبة ؛ وله فى ذلك حكم لا حكمة ، فإنه ملك ، والملك قدوة لشعبه . والمثل يقول إن الناس يكونون على دين ملوكهم ، والزواج عفة وتقوى وحصانة . وقد وقع اختيار جلالته على مصرية من بيت كريم ، وفى هذا الاختيار معنى إنساني بارز ، ومظهر ديمقراطى لا يخفى ، فقد عرف جلالته الآنسة ذو الفقار ، وكانت تصحب الأسرة الملكية فى رحلتها فى أوربا ، فهو اختيار فيه كل المعانى الانسانية وليس فيه أى معنى سياسى . وحسناً صنع جلالته ، فما بقى للزواج السياسى أية فائدة أو قيمة فى هذا الزمان . وإن الأمة المصرية تشعر الآن أنها صارت أقرب إلى ملكها بهذا الاختيار الموفق الذى احتذى فيه جلالته حذو المغفور له والده العظيم . وقد كان مما تحرص عليه الأسر المالكة فى العصور الماضية أن تبقى بمعزل عن أممها ، فلا تخالطها ، ولا تصاهرها ، وقلما كانت تبادلها حتى الشعور ، فالآن تغير كل هذا ، وأدركت الأسر المالكة أنها لشعوبها وأن شعوبها لها ، وكان من خير ما صنع المغفور له الملك فؤاد وأوقعه فى نفوس الأمة أن آثر أن تكون جلالة الملكة من رعاياه . واليوم يقتاس به جلالة الملك فاروق فيختار الملكة من رعاياه كذلك ، فلا يبقى موضع فى قلوب الأمة غير مشغول به

وهكذا يمحو جلالة الفاروق الفوارق التى تباعد ما بين الملك وأمته اكتفاء بالولاء الصادق ، والاخلاص الصحيح ، والحب الثابت ، والاجلال العميق ، واستغناء بذلك عن كل ما عداه مما لا خير فيه ، ولا محل له في هذا العصر ، فإن الملوك من طينة الخلق جميعاً ، فلا معنى للحرص القديم على أن يظلوا طبقة مستقلة عن شعوبهم لا تمسها ولا تقربها ولا تتصل بها من ناحية من النواحى . وأخلق بالشعوب أن تكون أعمق ولاء وأصدق وفاء لملوكها إذا شعرت أنهم منها ، وأنهم يمثلون خير ما للأمة من المزايا والخصائص والصفات والطباع ؛ وأنهم رمزها الأعلى حقاً ، وعنوانها الأرفع صدقاً ، وأن الأمر في ذلك أمر حقائق واقعة ، لا أمر ألفاظ جوفاء وكلمات فارغة .

لقد ثبت العرش البريطانى على الرغم من زلازل الحرب العظمى وما تلاها ، لأن الشعب البريطانى يعرف أن العرش منـه وله ، وأنه عنوان مجده ، وأنه الصلة الوثيقة بين أبعاض امبراطوريته ؛ وللعرش فى مصر أحق بالثبات والدوام على الزمن ، فقد قامت هذه الأسرة المجيـدة باختيار الأمة لها ، وكان المصريون هم الذين ولوا محمد على باشا أمرهم ، وألقوا اليه بمقاليدهم ، وملكوه زمامهم . ولم يخيب محمد على ظن مصر به وبقينها فيه ، فقد رفع مقامها ، وأعلى شأنها ، وجعل منها دولة محسودة مرهوبة الجانب ، مخوفة

السطوة ؛ وحسبه فخراً أن احتاجت الدول العظمى إلى التألب عليه والائتمار به لحرمانه ما كان حقيقا أن يفوز به من الثمرات . ولا شك أن مصر مدينة برقيها الحديث للخديو اسماعيل على الرغم من كل ما جر اليه حكمه ، وإن كان مؤرخو الغرب يبالغون فى ذلك ويهولون به ليستروا مؤامرات أوربا ومكائدها ، وما أوقعت فيه مصر بسوء نيتها وفساد طويتها . والمغفور له الملك فؤاد هو الذى أزخر تيار النهضة الحديثة وعرف كيف يذلل كل عقبة اعترضته فى الاحتلال وفى عدم الاستقرار . والآن يجيء جلالة الملك فاروق بفيض من الحيوية ، وبمثل حكمة الشيوخ المحنكين فى شبابه الغض ، وبقلب كبير ملؤه الحب لأمته ، وعزم صادق على الوثوب بها . ولَحسْبنا هذه الفواتح بشيراً بمستقبل سعيد فى ظل حكمه المديد المبارك إن شاء الله .

ابراهيم عبد القادر المازنى

الليــــــل

للأستاذ أحمد أمين

فى ليلة حالكة السواد بعدت عن ضوضاء المدينة إلى مكان قصيّ على شاطئ البحر أهرب بنفسى من جرائيم المدنية ووباء الحضارة ، وأغسلها من أدران التقاليد والمواضعات ، وأطهرها بالانغماس فى عالم اللانهاية : فى السماء والماء والجو الفسيح الذى لا يحده حد ولا ينتهى إلى غاية

غاب فيها القمر فلمعت النجوم ؛ ولو طلع لكسفها وهى أكبر منه حجما ، وأعظم قدراً ، وألمع ضوءاً ، ولكن دنيانا هذه يسود فيها التهويش حتى فى القمر والنجوم

كان سواد هذه الليلة أحب إلى نفسى من ضوء الشمس ونور القمر ، فللنفس حالات تنبسط فيها فيعجبها البحر الهائج ، والوسط المائج ، واللون الأبيض والأحمر ، والنكتة اللاذعة ؛ وتنقبض فتأنس إلى الليل الساكن ، والوحدة المريحة ، والسكون العميق ، واللون القاتم

* * *

لك الله أيها الليل ! فما زلت بالفن حتى ملكته واحتويته ، فجعل يشيد بذكرك ويرفع من شأنك ، حتى لم يجعل لأخيك النهار نصيبا يقاس بنصيبك ، فاقتسمتما الزمان قسمة عادلة ، واقتسمتما الفن قسمة جائرة !

فالمغني يقصر مناداته عليك ، ولا يلتفت فى هتافه إلا إليك ؛ فإذا غنى بالليل نادى الليل ، وإذا غنى بالنهار لم يخجل فنادى الليل أيضاً ؛ والآلات كلها تتبعه فتردد على أوتارها ماردده المغني بكلماته . ثم كان اسمك على قلته وضؤولته أداة طيعة فى صوت المغنى يوقع عليه ما شاء من نغمات : مرحة وحزينة ، ومديدة وقصيرة ، وعالية وهادئة ، وباعثة للقوة واليأس والأمل ، وداعية إلى الضعف والخمول والكسل

وحتى الصور ! لماذا شغف برسم غروب الشمس أكثر مما شغف بطلوعها إلا لأن غروبها إيذان بقدومك وارتقاب لزورتك ؟

أما الأدب فله فيه الباع الطويل والقول الذى لا ينتهى . تداولت عليه الأدباء ، فنقموا عليه حينا ، وتذللوا له حينا ، من عهد الأستاذ امرئ القيس إذ يقول :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مُغار الفتل شدت بيذبُل

إلى عهد الأستاذ محمد عبد الوهاب إذ يقول :

« بالله ياليل تجينا ، وتسبل ستارك علينا »

شكوا طوله وتفننوا فى ذلك ما شاءوا ، فتخيلوا أن نجومه شدت بالحبال ، وربطت فى الجبال ، أو أن النهار ضل طريقه فظل الليل لا يبرح ولا يتزحزح كالذى يقول بشار :

أضلَّ النهارُ المستنيرُ طريقهُ أم الدهرُ ليلٌ كله ليس يبرح ؟

أو أن النجوم حارت لا تدرى أتيامن أم تياسر فوقفت فوق الليل بجانبها كقول جرير :

أبُدِّلَ الليلُ لاتسرى كواكبُهُ أم طال حتى حسبت النجم حيرانا ؟

وشكوا قصره فأبدعوا فى ذلك أيما إبداع ، فشبهوه بعارض البرق كالذى يقول :

يارب ليل سرور خلته قِصَرا كعارض البرق فى أفق الدُّجى بَرَقا

قد كادَ يعثرُ أولاهُ بآخرهِ وكاد يَسْبقُ منه فجرُهُ الشفقا

وأنكروا من قصره وجوده فقالوا :

وليلة من الليالى الغر لم تك غير شفق وفجر

كان هؤلاء الذين يشكون طوله ويشكون قصره يتحدثون بعواطفهم ، ويترجمون عن مشاعرهم ، فجاء قوم على أثرهم يتحدثون بعقولهم ، فقال الفرزدق :

يقولون طال الليلُ والليلُ لم يَطُـلْ
ولكنَّ من يبكي من الشَّوْقِ يَسْهَرُ

وقال ابن بسام :

لا أظلمُ الليـلَ ولا أدَّعِي أن نجومَ اللَّيلِ لَيْست تغور
ليلى كما شاءت فإن لم تَجُد طال ، وإن جادت فليلى قصير

***

أيها الليل ! كم لففت ثوبك على متناقضات : حزن على ميت ، وسرور لميلاد ، ومحب مهجور يشكو طولك ، ومحب واصل يشكو قصرك ، وعابد متهجد يناجي ربه ، وداعر فاجر يبغي حظه ، ودمعة حرى تسبلها أم ولهى بجانب سرير مريض ، وضحكة صارخة تخرج من فم سكير عربيد ، ومجلس أنس تتجاوب فيه الأقداح والأوتار ، ويلبس فيه الليل ثوب النهار ، بين بدور ، وكاسات تدور ، كأنه مسرح صغير تمثل فيه الجنة بصنوف نعيمها ، أو معرض تعرض فيه الملاهي بشتى ألوانها ، ومجلس بؤس تتجاوب فيه الزفرات والحسرات ، وتتساقط فيه النفوس ، قد شرقوا فيه بدموعهم ، وتلظى الهم في ضلوعهم ، فهم بين كاسف بال ، وساهم طرف ، ومنقبض صدر ، ولهيف قلب

***

يترقبك السارق ليحتمي بسوادك في سرقته ، والعاشق ليفر في سكونك بعشيقته ، والناسك ليبتهل إلى الله في صلواته ، ويتحد معه في مناجاته ، والشاعر لينظم شجونه في قصيدته ، والملحن ليوقع لحنه على قيثارته ، والسياسى ليدبر مؤامراته ، والعالم ليفكر في نظرياته

***

ولكن لماذا استأثرت بكل هذا والنهار قسيمك في الخدمات وعديلك في الحياة ؟ بل هو أشد منك حياة وأكثر قوة ، فسلطانه الشمس وسلطانك القمر ، وسلاحه الضوء وسلاحك الظلام ، وشعاره البياض وشعارك السواد ؛ وهو مبصر وأنت أعمى ، وطبيعته الحركة وطبيعتك السكون ؛ وهو يدعو إلى النشاط والعمل وأنت تدعو إلى الخمول والكسل ، ولكن شاء الله أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ، فجعل من قوة النهار ضعفاً ومن ضعفك قوة

انتهزت فرصة السكون الذى منحك الله فجعلت منه حركة دونها حركة النهار ، فحركته حركة جسم وآلات ، وحركتك حركة عواطف وانفعالات ، وشتان ما بينهما ! لقد أطاق الناس مصائبه ولم يطيقوا مصائبك ، فقال الشاعر :

وحُمِّلْتُ زَفْرات الضحى فأطقتها
ومالي بزفرات العشى يدان

واستعنت بسلطان الحب فجعلته من أعوانك ، وأسرت العواطف فاتخذتها من خدامك ، فلما اجتمع لك الحب والعواطف نازلت بها الزمان ، وغلبت بها كل سلطان ؛ فالوصل لا يلذ إلا في ظلك ، والهجر لا يلدغ إلا في كنفك ، والسرور لا يشع إلا في حضرتك ، والألم لا يضنى إلا في هدءتك

من تعب في النهار وجد فيك راحته ؛ ومن أتعبته الحركة نعم فيك بسكونه ، ولكن من تعب فيك لم يجد في النهار عوضاً عنك ، ولم يرض به بديلا منك

***

جالت هذه المعاني في فكرى ، وامتلأت بعظم الليل نفسى ، فمنّ عليّ بنومة لذيذة ، هادئة عميقة ، فقابل جميل ثنائي بجميل صنعه ، وأدى فريضة شكري بجزيل فضله

(سيدي بشر) احمد أمين

المحاكمات التاريخية الكبرى

٢ ـ الحركة النهلستية
ومصرع القيصر اسكندر الثانى

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

اعتزم القيصر شهود حفلة الاستعراض العسكرية فى ميدان ميخايلوفسكى كما قدمنا ، وقام البوليس باتخاذ الاجراءات المعتادة للمحافظة على سلامة القيصر فزار الشوارع التى يمر بها الركب الملكي ؛ وكان ثمـة فى شارع « مالايا سادوفيا » حانوت لبان افتتح هنالك منذ ثلاثة أشهر يديره شخص يدعى كوبوزيف وزوجه ؛ وكان البوليس يشتبه فى أمر هذا الحانوت وأمر صاحبه ، فزاره فى عصر يوم السبت بحجة التفتيش الصحى فلم يجد فيـه ماريب ؛ ولم يكن كوبوزيف فى الواقع سوى عضو من أعضاء اللجنة التنفيذية وضعته اللجنة هنالك ليكون عوناً لها على التنفيذ.

واعتزمت اللجنة الثورية من جانبها أن تنتهز هذه الفرصة لتنفيذ قرارها باغتيال القيصر فغادرت بيروفسكايا مسكنها وذهب أسابيف إلى حانوت كوبوزيف ليضع لغماً قوياً تحت شارع « ماليا سادوفيا » وأنفق كبالتشتش وهو عضو اللجنة المتخصص فى صنع القنابل طول الليل فى منزل فيرا فنجر مع جراتشفكي وبيروفسكايا ، ولم يأت الصباح حتى تم صنع قنابل أربعاً حملها كبالتشتش وبيروفسكايا . وفى صباح يوم الأحد أول مارس وزعت صوفيا القنابل الأربع على أربعة من الشبان الفدائيين هم جرنفتسكى واملیانوف وميخايلوف وريسا كوف وعمره تسعة عشر عاماً فقط ؛ وتفرق الأربعة فى نقط أربع عينت فى خريطة التنفيذ حول منعطف نفسكى والطرق المفضية إليه . وفى الساعة الثانيـة بعد الظهر كان كل فى مكانه المعين ينتظر إشارة صوفيا ووقفت صوفيا مدى حين ترقب ميدان الاستعراض عن بعد . ولـكنها مالبثت أن علمت أن الركب الملـكى لن يمر بالشارع الذى وضع فيه اللغم ، فسارت عندئذ صوب منعطف نفسكى فى اتجاه جرنفتسكي وأخرجت منديلها ، ففطن الفتيان إلى إشارتها وساروا تباعاً صوب قناة سانت كاترين لمقابلة الركب الملـكى ، واستولى الفزع على أحدهم وهو ميخايلوف فانسل واختفى فى آخر لحظة ، وبقي الثلاثة الأخرون يرقبون الانذار الأخير .

وذهب القيصر إلى ميدان الاستعراض نحو الظهر . ولـما انتهى الاستعراض ذهب إلى قصر ميخايلوفسكى القريب حيث تناول طعام الغداء مع الجراندوقة كاترين ميخايلوفنا ؛ وفى الساعة الثانية وبضع دقائق انتظم الركب الملكى للعودة ، وأمر القيصر سائق مركبته أن يعود إلى قصر الشتاء من نفس الطريق . وكان يحرس العربة الملـكية ستة من الفرسان القوزاق وتتبعها عربة أخرى يقف فيها مدير البوليس ، ثم ثالثة بها ضباط الحاشية . وسار الركب مسرعاً فى شارع انجنرنايا ، مجتنباً بذلك شارع ماليا سادوفيا (الذى وضع به اللغم) ثم اتجه يميناً إلى جسر قناة القديسة كاترين ؛ وكان المكان قفراً ليس فيه غير رجال الشرطة والمخبرين الذين ينتشرون على طول الطريق وسوى قليل من المارة .

بيد أن الركب ما كاد يقترب من جسر القناة حتى دوى انفجار هائل وانعقدت فوق الموكب سحابة من الدخان الـكثيف ، وكانت هـذه قنبلة ريسا كوف انفجرت وراء العربة فأتلفت مؤخرتها ؛ وفى الحال أوقف السائق العربة ونزل القيصر منها سالماً وكان قد سقط على مقربة منهـا قوزاقي وثلاثة من الشرطة وغلام من المارة مصابين بجراح بالغة . وقاد رجال الشرطة صوب القيصر فتى عريض المحيا غائر العينين هو ريسا كوف ، فسأل القيصر : أهو الفاعل ؟ وفى تلك اللحظة سأل أحد كبار الضباط : « هل جرح صاحب الجلالة ؟ » فأجاب القيصر : « شكراً لله فإنى سليم معافى » وهنا قال ريسا كوف : « لاتعجل بشكر الله » وسار القيصر ومن حوله الحاشية إلى مكان الانفجار ليرى الجرحى ولـكنه ما كاد يسير بضع خطوات حتى دوى انفجار آخر وانكشف الغبار والدخان عن منظر مروع :

سقط القيصر صريعاً وقد كسر ساقاه ، وبقر بطنه ، واحترق وجهه ، ومن حوله عدة من الجرحى . وفى الحال حمل القيصر مضرجاً بدمائه إلى قصر الشتاء ، ولـكنه زهق بعد ذلك بقليل دون أن يعود إلى رشاده أو يفوه ببنت شفة .

وعثر رجال البوليس بين الجرحى على الفتى الذى ألقى القنبلة

الثانية ، وكان فى دور النزع وتوفي بعد ساعات قلائل دون أن يبوح باسمه للمحقق . ولكن البوليس وقف على اسمه بعد ذلك وقد كان أجناتوس جرنفتسكي الثورى البولونى وأحد الفدائيين الأربعة . أما الرابع وهو أمليانوف فقد اختلط بالناس واستطاع الفرار

واعترف ريساكوف بالقاء القنبلة الأولى ، وشرح للمحقق سيرته فذكر أنه طالب بمدرسة المناجم وعضو فى حزب « إرادة الشعب » ، وأنه يشتغل ببث الدعوة الثورية بين العمال وقدم بعض تفاصيل عن المؤامرة وتدبيرها ولكنه لم يعرِّف عن أحد من زملائه . وفى ساعة متأخرة من الليل واجه المحقق بجليابوف ، فحياه جليابوف بحرارة ؛ ولما علم بمقتل القيصر أبدى ابتهاجه ، وقال إنه وإن لم يشترك بنفسه فى تنفيذ الحادث بسبب اعتقاله فانه يشترك فيه بكل قلبه ، وإنه اشترك فى عدة محاولات سابقة لاغتيال القيصر ، ولم يمنعه من الاشتراك فى قتله سوى مصادفة سخيفة ، ولذلك فهو يطلب أن يحاكم مع ريساكوف وسوف يدلى للمحقق بكل ما يثبت مسئوليته .

ولم يمض يوم آخر حتى استطاع البوليس أن يظفر بآثار المرهبين . وفى مساء نفس اليوم هاجم مركزهم فى شارع تالينايا فانتحر صاحب الدار وهو ثوري يدعى سابلين قبل دخول البوليس وقبض البوليس على صاحبته المدعوة جسيا هلفمان وضبط لديها بعض القنابل . وقبض فى صباح اليوم التالى على ميخايلوف ، ولاحظ البوليس فى الوقت نفسه أن حانوت اللبان فى شارع مالاياسادوفيا قد أغلق واختفى صاحباه ففتش الحانوت مرة أخرى فاكتشف فيه سرداباً خفياً يصل حتى منتصف الشارع وقد وضع فيه لغم ثبت بسلك رفيع إلى آلة كهربائية ؛ وفى يوم ١٠ مارس استطاع البوليس أن يقبض على صوفيا بيروفسكايا وكانت لاتزال مختفية فى العاصمة ترقب الحوادث ، فاعترفت في الحال باشتراكها فى مقتل القيصر واشتراكها فى حادث القطار الملكى .

وهكذا استطاعت الشرطة أن تضع يدها على جميع الجناة ولم يفلت من يدها سوى امليانوف الذى اختفى عقب الحادث ولم يعترف أحد عليه .

— ٣ —

وفى نفس اليوم الذى قبض فيه على صوفيا بيروفسكايا أعنى فى يوم ١٠ مارس ١٨٨١ وجهت اللجنة التنفيذية لحزب إرادة الشعب إلى القيصر الجديد — اسكندر الثالث — كتاباً ضافياً تستهله بالاعتذار عن مخاطبته فى تلك الآونة الدقيقة « إذ يوجد ماهو أسمى من أية عاطفة بشرية وهو الواجب نحو الوطن ثم تقول فيه :

« إن المأساة الدموية التى وقعت على جسر ترعة سانت كاترين لم تكن حادثاً غامضاً غير متوقع ، بل كانت بعد كل ما حدث فى الأعوام العشرة الأخيرة قضاء محتوماً ، وهذا ما يجب أن يفهمه الرجل الذى ألقى إليه القدر مقاليد الحكم . ولقد نمت الحركة الثورية واشتد ساعدها بالرغم مما اتخذ من إجراءات القمع الذريع ، وبالرغم من أن حكومة القيصر الراحل قد ضحت حريات كل الطبقات ومصالحها ولم تدخر وسعاً فى ازهاق المجرم والبرىء وفي تعمير السجون النائية بالمعتقلين . ولقد شنق عشرات ممن يسمونهم بالمحرضين فماتوا فى هدوء الشهداء . ولم تقف الحركة الثورية بل استمرت قوتها فى ازدياد . أجل يا مولاى إن الحركة الثورية لا تتوقف على إرادة الفرد ، بل هى عملية تقوم بها الاداة القومية ولن تنجح المشانق التى تقام لصفوة قادة هذه الحركة فى انقاذ النظام السياسى المحكوم عليه ، كما أن صلب المسيح لم ينجح فى إنقاذ العالم القديم الفاسد من ظفر النصرانية المصلحة

« ونحن أول من يعرف كم يحزن ويؤسى أن تبدد هذه المواهب والعزائم كلها فى أعمال التخريب ، فهذه القوى يمكن فى ظروف أخرى أن تستخدم فى عمل الانتاج : في تربية الشعب وفى تثقيفه ، وفى زيادة رفاهته وتحسين نظمه ؛ فلماذا إذن نلجأ إلى خوض هذا النضال الدموي ؟

« لأنه لا توجد لدينا يا مولاى حكومة بمعنى الكلمة ، وواجب الحكومة هو أن تعبر عن أمانى الشعب وأن تمثل إرادته ، ولكن الحكومة عندنا قد انحطت إلى عصابة قصر ، وغدت أحق من اللجنة التنفيذية بأن توصف بعصابة من الغاصبين »

وتستعرض اللجنة بعد ذلك مثالب الحكم القيصرى وإمعانه فى استعباد الشعب وتسخيره ، وما جلبته هذه السياسة على روسيا من الخراب والبؤس وما ترتب عليها من فقدان الحكومة لكل نفوذ معنوى . وهذا هو السبب فى اضطرام الحركة الثورية ، بل هذا هو السبب في ابتهاج الشعب لازهاق القيصر ثم تقول :

« ولا مخرج لهذه الحالة سوى أمرين : فاما الثورة المحتومة التى لا يمكن أن يمنعها أى قمع ، وإما التوجه إلى سلطة الأمة

العليا . وإن اللجنة التنفيذية لتنصح إلى جلالتك باتباع الطريق الثانى ، ففي ذلك خير أمتنا وبه تجتنب المصائب المروعة التى تحملها الثورات . وثق بأنه متى عدلت السلطة العليا عن اتباع الهوى وقررت أن تستلهم فى عملها رغبات الأمة ففى وسعك أن تطرد الجواسيس الذين يلوثون الحكومة ، وأن ترد حرسك إلى ثكناته ، وأن تهد المشانق ؛ وسوف توقف اللجنة التنفيذية نضالها وتنفض القوى التى حولها لكى تعنى بالعمل الثقافى لخير الشعب ... ونحن نؤمل ألا تطغى لديك عاطفة السخط الشخصى على الشعور بالواجب ، والرغبة فى تعرف الحقيقة ، فنحن يحق لنا أن نشعر بالسخط أيضا ؛ وإذا كنت قد فقدت أباك فقد فقدنا نحن أخوة ونساء وبنين وأصدقاء أعزاء ؛ ولكننا على أهبة لأن نخمد مشاعرنا الشخصية إذا اقتضى ذلك خير روسيا ، وننتظر منك أن تفعل مثلنا »

« إن الشروط التى يجب تحقيقها لكى تترك الحركة الثورية المجال للعمل السلمى قد عينها التاريخ لا نحن . وإنا لنذكرك بها فقط فهى :

أولا — العفو العام عن الجرائم السياسية فهذه لم تكن جرائم ، بل هى أعمال يمليها الواجب الوطنى

ثانياً — استدعاء ممثلى الأمة الروسية لتعديل مناهج الحياة الاجتماعية والسياسية الحاضرة وصوغها وفقا لرغبات الشعب

ثم تشير اللجنة إلى الشروط التى يجب توافرها فى الانتخاب الحر ووجوب إطلاق حرية الصحافة والرأى والاجتماع وتختم خطابها إلى القيصر بما يأتى :

« هذه هى الوسيلة الوحيدة لتوجيه روسيا إلى طريق التطور السلمى والنظامى ، وإنا لنعلن خاشعين أمام الوطن وأمام العالم أجمع أن حزبنا سيخضع من جانبه لقرار الجمعية الوطنية التى تنتخب طبقاً للشروط المذكورة ، ولن يقوم بأى عمل عنيف لمعارضة الحكومة التى تستند إلى ثقة الجمعية الوطنية »

« والآن فقرر لنفسك يا مولاى . أمامك طريقان ولك الخيار . وإنا لا يسعنا إلا أن نرجو القدر أن يملى عليك عقلك وضميرك الحل الوحيد الذى يقتضيه خير روسيا وتقتضيه كرامتك الشخصية وواجباتك أمام الوطن — ١٠ مارس سنة ١٨٨١ »

« للبحث بقية — النقل ممنوع » **محمد عبد الله عنان**

بمناسبة الذكرى

فى حضرة سعد

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

لما قصدت القاهرة سنة (١٣٤٣) لأقول (كلمتى فى اللغة العربية) تقدم سعد (رضى الله عنه) إلى الأستاذ الكبير حافظ بك عوض بأن يلاقينى ويقول لى : (إن سعداً يحب أن يرانى فهل أحب أن أراه ؟ !) فلما قيل لى ذلك قلت : يا شيخ ، قل : يأمر ، إنما هو الآمر المطاع . وهل أنا فى هذا البلد إلا فى حمى عمرو بن العاص وحماه ؟ ثم يممنا فى اليوم الثانى ذاك العرين : بيت الأمة ، وعرجنا إلى عليّة فيه ، وكان الزعيم يومئذ موعوكا

فإن تك قد نالتك أطراف وعكة فلا عجب أن يوعك الأسد الورد [(١)]

وطلع علينا سعد ومشى إلينا فسارعنا إليه

لم أر قبلى من مشى البحر نحوه ولا رجلا قامت تعانقه الأسد [(٢)]

ومكثت والأستاذ حافظ عوض فى تلك الحضرة ذات الجلال وذات الهيبة حيناً ، وكانت أحاديث جمة أروى منها حديثين : ذكر الزعيم سعد جمال الدين الأفغانى (رضى الله عنهما) وأياديه البيض فى هذه اليقظة العربية الأدبية ، وأفاض فى هذا المعنى ، فقلت : يا مولاى ، إنه لم ينتبه من أمم الشرق فى ذاك الوقت إلا أمتان لا ثالثة معهما : الأمة اليابانية وجمال الدين . فابتهج البطل الخالد بهذا القول فى بطل مثله ، وقال : حقاً إن جمال الدين أمة وحده . ثم قلت له قبل توديعه : يا مولاى ، من دأب الطبيعة عند ارتقاء أمة أن تلخصها فى رجل ، ومصر لم تبرح تتقدم وتعلو منذ حين طويل ، وقد لخصها الله فى سعد . فأجاب جواب الأبطال العظماء المتواضعين ، وهل يكون العظيم إلا متواضعاً ؟ وهل يستعير رداء الكبر يلبسه إلا الصغير ؟ ثم قبلنا تلك اليد الطاهرة المباركة مودعين . ولما عدت إلى مصر سنة (١٣٤٦) ، وكان أمر الله وقضاؤه ذهبت إلى (القبر) وسلمت على صاحبه

طافت الكاس بساقى أمة من رحيق الوطنيات سقاها
عطلت آذانها من وتر ساحر رنّ مليّاً فشجاها [(٣)]

وقرأت فاتحة (الكتاب) لقائدين من قواد محمد : عمرو ابن العاص ، وسعد زغلول

النشاشيبى

(١) أبو تمام (٢) المتنبى (٣) شوقى

رابطة النقد بالأثر الأدبى
وأهداف النقد
للأستاذ خليل هنداوى

نص المحاضرة التى ألقيت فى حمص بروضة البلدية فى ١٧ يوليه على جمع غفير من هواة الادب . وكانت حفلة زاهية دلت على إقبال شديد على حوض الادب . وقد تخللها قصائد ومقطوعات لشعراء حمص الشباب جددت عهد ديك الجن الحمصى ، وقد أطرب الزائرين عزف نادى (دوحة المياس) ولا عجب فى تعانق الادب والفن فى مثل هذه الحفلة ، فانهما عنصران يتمم أحدهما الآخر . وهكذا سادت الجو روح وثابة منعمة بالخواطر الرفيعة والشعر الجميل . وفى هذا الجو العالى ألقيت هذه الكلمة ...
(خ . ه)

كنت أود أن أزوركم خفيفاً لا مثقلا ، أمتع العين ببهجة مدينتكم ولا أجهد عقلى وعقولكم . كنت أود أن آتيكم زائراً لا محاضراً حتى أرى ألوانكم الطبيعية وتروا لونى الطبيعي . ولكن الأخ الأستاذ محمد روحى فيصل ألح علي فى أن تكون الزيارة للمحاضرة ، ولكنه روعنى كثيراً وكاد يدخل الجزع فى نفسى لأنه وصفكم لى وصفاً يبعث على الخوف . قال لي : إنك ستنزل فى قوم يدرسون آثار الأديب ويحصون عليه خطراته ، ويمعنون فيها تحليلا وتعليلا . بل سترى فئة عرفت آثارك وتعرف أفكارك ما تجانس منها وما تنافر . لأنهم قوم يقرأون ويدرسون ويحللون ويناقشون. فقلت له : ما دام الأمر هكذا فدعهم على الأقل يتناولونى وأنا بعيد عنهم ، ويسلقونى بألسنتهم الحداد من حيث لا تشوى نارهم جسدى ، ولا تبلغ مديتهم ودجىَّ . أتريد أن تسلمنى إليهم يداً بيد؟ ولكن ما دواعي هذا الجزع ؟ ولم أخشى الفئة الناقشة ؟ ألسنا ندعو إلى أدب عميق يستمد من ثقافة عميقة ؟ ألسنا نحرره من الدجالين ونغزوه غزواً مستمراً بالفكر حتى يغدو أدب الحياة وأدب الحقيقة ؟ وكيف أخشى قوماً هذا عملهم ؟ وإنما الأجدر بي أن أكون واحداً منهم فيما يعملون . والأجدر بى أن أشكر هؤلاء القوم لأنهم مراقبون — لا بمعنى لجان المراقبات والحياد السياسى — ولكن بمعنى المراقبة الحقيقية التى تجعلنا نتحقق إذا كتبنا ، ونتأنى إذا فكرنا ، وإذا كان هدفنا من الأدب هذا الهدف فلمن ننشد هذا الأدب ؟ ألشباب لا يقرأون أم لشباب يقرأون ولا يفكرون ؟

يظن الصديق الكريم أنه روعنى وفى الحقيقة شجعنى . إذ الخير لى أن أعطى فكرة تُناقش وترد لى محطمة من أن أعطي فكرة تفنىٰ بين عميان يقدسونها ولا يحسونها !

هذه ظاهرة حسنة من ظواهر أدبنا تدل على الاتجاه الثقافى الذي اتجه إليه أدبنا فى العهد الجديد . وقد كنا فى عهد إذا وجد الأديب لم يوجد القارئ ، وإذا وجد القارئ لم يوجد الأديب ، وقد بدأنا بعهد يستطيع الاثنان فيه أن يوجدا !

ها قد جئت ولا أدرى ما يكون نصيبى بعد ما سكن روعى . ولكنى أرجو أن يكون حظى فى هذه المدينة حظ ذلك المكان المسحور الذى شاع عنه أنه لا يبيت فيه بائت ليلة إلا لقى حتفه حتى جاءه رجل يريد الموت ، وما أشد عجب الناس حين وجدوه حياً ، لأنه بإرادته الموت عاش . وهكذا أرجو أن أفك هذه الطلاسم لأنى أريد أن أراكم غير مطلسمين . وأريد أن ترونى غير مطلسم !

وعلى ذكر النقد وشيوع النظرة النقدية عندكم آثرت أن تكون كلمتى — بينكم — حول النقد ورابطة النقد بالأثر الأدبى .

تدركون جيداً المرحلة التى فصلت بين انحطاط أدبنا الأخير وبين تباشير النهضة الأدبية الحديثة ، وتدركون أن آفاقاً كثيرة تفتحت ، وأن اضطرابات فكرية هزت عالمنا الجامد ؛ وتدركون أن النقاد يرجعون هذه البوادر إلى مدرسة الأدب الغربى التى هى أعمق وأكثر ألواناً وصوراً وأكثر درساً للحياة واكتمالاً من الناحية الفنية . على أن للأدب الغربى — فى أدبنا — جوانب أبرز من جوانب ، والجانب الأكثر بروزاً في نظرى هو جانب النقد الذى يسرنى أنكم غلبتموه — فيكم — على كل شيء . فنظريات النقد التى شاعت فى أدبنا يعود لها الفضل فى هذا التقدم . والنقد كما يفهم الأدباء ظاهرة يخلفها الأثر الأدبي ، إذ لا نقد إلا بعد الأدب . ولكنى أريد أن أفهم اليوم هذه النظرية معكوسة عندنا لأنا بدأنا بالنقد قبل أن نبدأ بالأدب . ولأن الأدب الغربى الذى خلق لنا أجواء نقد ، وأعطانا مقاييس نقد صحيحة ، لم يفتح عندنا أجواء إنتاج بعد !

تقلبت مدارس النقد في الأدب الغربي كثيراً تقلب الأدب نفسه، والنقد فيه كان مصاحباً للأدب. وليس للنقد حدود واضحة؛ ففيه نزوع إلى الجمال ونشدان الحقيقة وتسجيل التاريخ الأدبي. وقد قسم الكاتب الفرنسي (ڤان تيجام) ثقافة الأدب في كتابه «الأدب بالمقارنة» إلى ثلاث مراحل: الأولى المطالعة بلذة؛ والثانية المطالعة بنقد؛ والثالثة تاريخ الأدب. ولكن هذه النتيجة الملائمة للمنطق تأتي مشوشة، فهو لم يوضح عمل النقد، ولكن يبدو له أن عمل النقد شيء ذاتي ولا يمكنه أن يكون تاريخاً. أما تاريخ الأدب فهو يريد به دراسة قوية حقيقية للآثار الأدبية وما تحتويه وما تتجه اليه وما تكنّ من فن وثروة. على أن هذا هو ما ينشده النقد وينزع اليه ما استطاع

سأل الأستاذ (روزو) في مجلته «الآداب الحديثة» الأدباء: «إلى أين يذهب النقد؟» فأجاب الأستاذ (لانسون) محدداً علاقات النقد وتاريخ الأدب: «قد تمكن كتابة تاريخ الأدب بدون نقد، ولا تمكن كتابة النقد بدون تاريخ الأدب. فاذا أردت مثلاً أن تدرس المدرسة الشعرية الرمزية، فأنت مضطر إلى أن تصعد إلى أعلى وأن تسبق هذه الحركة وتطلع على ما هيأها»

ويقول (ادمون جالو): «إن النقد لا يستطيع أن يتفوق على تاريخ الأدب؛ ومن العسير أن نحكم على رجل نجهل حياته. وأظن أن القلق في أحكامنا التي نصدرها على معاصرينا إنما يأتي من هذه الناحية» على أن الناقد وإن لم يكتب التاريخ فهو يهيئ عناصره ومواده، وكثيرون من الناقدين يهيئون الأماكن المقبلة للآثار الحاضرة

وقد تطورت مهنة النقد في العصور كثيراً. فلقد كان في عصرنا قاضياً يميز الكتاب الجيد من الكتاب الرديء، والأثر الرائع من الأثر السخيف. ولكن في هذا الحكم ما فيه من الجور لأنه يضع الحكم على الآثار في أيد ليست منها على شيء! ثم أصبح الناقد معلماً يوضح الطريق الواجب اتباعها، ولكن هذه المهنة زالت أيضا وأصبح هم الناقد غير هم المعلم. وفي هذا المعنى يقول النقادة (سانت بوف): إن مهمتي كأستاذ أن أوقظ قبل كل شيء مسالك الذوق بواسطة التحليل والتحديث. أما الناقد فله واجبات أخرى الناقد يعطي أحكامه بسكون وعلازمة نفسه!»

وقد أعلن (لاسير) أن للنقد رسالة سامية لا تقف عند تحليل المؤلفين، وإنما همه أن يؤثر في الجماعات، ومثله الأعلى أن يعد شعباً حر النزعة، مفتوح آفاق العقل، صافي العاطفة، لكي يأتي الشعراء والمبدعون من بعده ويجدوا من يفهمونهم ويعشون معهم ويسمعون إلى ألحانهم. ولعل هذه النظرية تلائم نظرية الشاعر (ستيفان مالارمى) في أن الشاعر يجب ألاَّ يتلوه إلا شاعر، أو قارئ يستطيع أن يسمو معه في لحظة ما ويتحد معه اتحاداً شعرياً. وهذا أهم ما في رسالة النقد لأن عبقريات كثيرة — بغير النقد — تنطفئ لأنها لا ترى طريق اتصالها بالجماعات

ويرى (ماسبى) أن النقد يعمل كمعلم ... «إننا نفتقر إلى معلمين ولا نطلب إلى النقد أن يعجبنا ... لا شيء أصعب اليوم ولا أعسر من وضع نظام وترتيب في الآثار الأدبية والفنية. وإزاء هذه الميول والأهواء المتباينة يجب أن يكون الواجب الأول للأدب أن يرينا أين نحن؟ ومن نحن؟ وأن يفصل بين العبقريات. وبعبارة أجلى أن يكون حارساً أميناً»

ونحن مهما تجردنا من هذا النقد المعلم فمن المحال أن نتجرد منه تجرداً تاماً، لأن من طبيعة الحال أن يقبل الناس على الناقد ويروا فيه «المطلع الحاكم» الذي يصحح بجرأته بعض الأخطاء الكبيرة. ويمكن القول بأن تقدير الآثار على رغم بعض الخطأ في هذا التقدير قد يكون ضرورياً في مجتمعنا الحاضر ...

وبعض النقاد يعملون على أن يتجردوا ويتركوا الحكم للقارئ نفسه. وذلك بأن يفتحوا له طريقاً يسلكها ويكتشفها لنفسه... ولكن هؤلاء مهما تجردوا — يحملون شيئاً من أنفسهم دخل في بضاعتهم من حيث لا يشعرون.

أما مدارس النقد التي قامت وتقوضت ثم قام غيرها ويقوم غيرها فهي أكثر من أن تحصى، ولكل فوائدها واكتشافاتها. فقد نشأ النقد نشأة ضيقة منذ نشأ. كان يرى أن الشيء الجميل له قواعد معينة معروفة ولا يكون بدونها جميلا. وهذا نقد مجرد ينصر الفكرة المجردة، ولكنه يهدم بنقد آخر لا يؤمن بالتجرد، بل يرى أن الجميل لا يكون مجرداً، وإنما هو كغيره له علاقات تربطه بغيره. وقد شاعت هذه النظرية كثيراً حتى نشأ عنها (النقد بالمقارنة والموازنة بين الأشكال الجميلة والآثار الأدبية في الشعوب

المختلفة ثقافتها) وهذا النقد قد وسع آفاق النقد إلى ما لا حد له . ويعجبنى فى هذا العرض سلسلة المقالات التى تنشرها مجلة الرسالة الغراء « بين الأدبين العربي والانجليزى » للأستاذ فخري أبو السعود . ولعلها تكون فاتحة سلاسل للمقارنة بين الأدب العربى والآداب الشرقية الأخرى التى اتصل بها أدبنا وتأثرت به وتأثر بها كالأدب الفارسى مثلا الذى لا تزال علاقاته مع أدبنا تكاد تكون مجهولة .

أجل ! قد ولى عهد كان يرى أن الانسان مملكة إلى قلب مملكة ، وجاء عهد يرى أصحابه أن الانسان شئ من أشياء هذه المملكة ، يؤثر فيها ويتأثر بها بمقدار ... وقد أوحت هذه النظرية للنقادة الفرنسى (تين) نظرية تحليل الأثر الأدبى بعوامل الجنس والبيئة والزمن ... ونظرية التطور أوحت (لبرونتيير) أن يعتبر الأنواع الأدبية ككائنات حية تتطور ويولد بعضها من بعض . وقد شاعت نظرية جديدة تقول إن الأثر الأدبى لا تكمل صفاته إلا بدرس صاحبه . لأن المؤلف إنما يصف نفسه ويمنح أشخاصه كثيراً من شخصيته . على أن الأثر الأدبي يخضع من وجوه كثيرة لضرورات كثيرة وظروف كثيرة . ولكن لماذا نشغل كثيراً بالمؤلف إذا كان المؤلف نفسه ليس بسيد أثره الذى أعطاه، ولا بسيد عمله الذى يريد أن يظهره ؟ بل نذهب إلى أبعد من هذا الحد ونقول : إن المؤلف هو الذى يطابق أثره ويمشى عليه ، وليس الأثر هو الذى يطابقه . ومهما كان هذا النقد موضوعياً علمياً فمن الواجب أن يتبعه نقد ذاتى يبث الناقد فيه آراءه الذاتية الشخصية . ومن هذه الناحية تولد النقد (المنفعل أو المتأثر) الذى يرى أن الناقد الحقيقى هو الذى يتكلم عن خلجات نفسه فى الآثار الرائعة التي يطلع عليها . ومهما أشرق على طبائع مختلفة ونماذج متباينة فهو يرعى شخصية وحدود اتصال الحادث بنفسه . ولكن هذه الذاتية إذا تطرفت كثيراً أخرجت النقد عن كونه علماً ! ويطلب فى الناقد الحقيقى أن يكون ذا موهبة تحليلية نفسية ، وأن يكون قادراً على الخروج من حدود الذات ليمكنه تذوق الفكرة الغريبة مع صيانته لشخصيته . ونقد آخر يعمل على ترتيب درجات الآثار الأدبية ، وآلة ذلك — كما يقول سانت بوف — الذوق ، لأن الذوق يعبر عن كل دقيق وعن كل خفى يتمشى فى أنفسنا !

ونشأ فى إبان النهضة العلمية النقد الفلسفي ، ويقول أصحابه : إن إلحاق النقد الأدبى بالعلم لا معنى له ، إذ لا يوجد علم يختص بشخص دون شخص ، والنقد الأدبى لا يعرف إلا الأفراد فى الرجال والآثار . ويقول هؤلاء : إننا لا نضم العلم إلى النقد ، ولكن نضم الفلسفة إليه . والنقد الحديث قد دخله شيء من مدرسة أفلاطون وشوبنهاور وبرغسون . نعم إن الغاية من الأدب والنقد إنشاء اللذة النفسية ، ولكنا نريد أن نعرف تحليل هذه اللذة التى يغمرنا بها الشعراء والكتاب . وبذلك نزيدها أضعافاً مضاعفة . وهل كانت المجادلة على الشعر الصافى (Pure) إلا قبساً من فلسفة ما وراء الطبيعة . ونقد (تيبودى) الذى أوجد الاتصال بين الرمزية وفلسفة برغسون هو نقد مشبع بالروح الفلسفية المرتكزة على فلسفة الفنون والآداب . وهنالك النقد الاجتماعى والأخلاقى الذى يقيد الأدب والفن ويرى صلاحهما بمقدار معالجتهما للمسائل الاجتماعية والأخلاقية ، ولا ينصرها إلا بمقدار ما ينصران الأخلاق . وهكذا نجد فى النهاية ألواناً كثيرة للنقد نشأت لتحليل ألوان الأدب وكل غايتها أن تفتح للأدب آفاق التجديد والابداع .

***

لقد دخلت هذه المدارس النقدية أدبنا وعملت فيه — على غير نظام — وأثرت فيه تأثيراً مباشراً . وليس طه حسين والعقاد واحمد أمين إلا وليدى هذه المدارس على اختلاف الاقتباس وتباين الطرائق : على أنكم إذا شئتم أن تقارنوا بين من أنتجهم أدبنا الحديث — بين الناقدين والمبدعين — فسدت المقارنة وشالت كفة المبدعين ، لأننا لا نجدهم كما نجد الناقدين . وهذا الأمر يجعلنى أعتقد بالنظرية التى أعلنتها « إنا بدأنا بالنقد قبل أن نبدأ بالأدب » فنقادنا الذين تثقفوا بالأدب الغربى قد فتحوا فتحاً جليلاً فى أدبنا القديم . ولكنه فتح لم يعد بكل الفائدة على توجيه أدبنا الحديث . فأدبنا الحديث لا يزال جامداً مقلداً لا تتلمس فى أقلام أدبائه المبادئ الفنية التى يجب أن تكون فيهم ؛ وبهذا أفاد الأدب العربى الناقدين ولم يفد الأدباء المجددين .

قد يقول حملو لواء التجدد : إننا نريد التجديد والتطور ، ولكن القدماء يمنعون علينا هذا التطور ويجدوننا في أدبهم هدامين . ولأصحاب المذهب القديم أن يقولوا ذلك لأنهم يرون فى أساليب المجددين التواء وتنكباً عن الأساليب العربية ؛ ثم لا يجدون فى أساليبهم ذلك العمل الفنى الذى يبشرون به . وما

ذلك إلا لأن جل المجددين أنفسهم يمشون ولا يدركون أين يمشون ؛ ويأخذون من كل ثقافة برقعة فيأتى ثوبهم مؤلفاً من رقع ! ! فهل درسوا نظرية كل مدرسة فى الفن والحياة ؟ فليس الأدب الغربى كله من هذه البضاعة التى ألف أن يحملها إلينا من حين إلى حين أناس لم يستقيموا لأدبهم ولم يستقم الأدب العربى لهم . وإنا إذا دعونا إلى التجديد وإلى تدبر الأدب الحديث فلا ندعو إلى تعطيل الأسلوب العربى والبيان العربى ، لأننا نعلم أن لكل لغة من بيانها صبغة إذا زالت زال منها كل لون من ألوان عبقريتها . ولكنا لا نجد حرجاً في خلق المدارس الجديدة ليغذى أنصار كل مدرسة مدرستهم بخير ما يغذى . وفى الأقطار العربية فئات لا ينقصها من الثقافة شىء . ولا يضير العربية تعدد هذه المدارس لأنها باعث من بواعث النشاط والتحفز .

نحن في عهد قد اتسعت فيه مناحى ثقافتنا وأصبح لا يشبعنا ما كان يشبع من قبلنا ، وأصبحنا نطلب من الأدب أن يكون شيئاً غير التنميق والزخرفة والشعوذة . والأدباء والشعراء الذين كنا نطرب لهم بالأمس لم يعودوا يملأون نفوسنا ، وإنا إذا طربنا اليوم يبعض آثارهم فلأن هذه الآثار تخاطب فينا جزءاً عتيقاً من أنفسنا لا يزال يمد رأسه من حين إلى حين ، كالمقطوعة الشعرية مثلاً نسمعها فى مناسبة ما من فم قائلها فتطربنا ، ولكن إذا عدنا إلى « جوها » لم نجد شيئاً ، وإذا تلوناها تلونا فيها شيئاً كثيراً الا الشعر . وشعراؤنا على اختلافهم ينظمون كثيراً ولا نعرف لشاعر منهم لوناً خاصاً يتميز به إذا ميزت الألوان ؛ لأن جلهم لا يزال يرعى عهد القدماء « القائل » احفظ أشعار الأوائل وانهج على منوالهم تصر شاعراً . . . ولم يعلم هؤلاء أن العصر قد تبدل وتبدلت بتبدله مطالبه ، وأن الشعر أصبح ذا رسالة تفتقر إلى ثقافة عميقة وذوق مهذب فني . فهل هب من شعرائنا من يدرس النظريات الفنية ؟ وهل فى تحليل هذه النظريات والاستفادة منها ما يضر مواهبهم ؟ وهل يعارض أصحاب القديم فى ادخالها وهى لا تهدد البيان ولا تحرف اللسان ؟

كان الشاعر — مثلاً — يكفيه أن يجمع بين أية فكرة وأية لفظة لا يبالى الملائمة ولا يبالى أصل هذه الفكرة ! أما الآن فهو مضطر إلى أن يفرق بين الخطرة الفكرية والخطرة الشعرية ، وأن يعي علاقات الألفاظ بالمعانى وينسق ألحانها دون أن يخونه شىء . وهذا يدعوهم إلى أن يمارسوا النظريات الجديدة فى الفن وعلم النفس . وهذه النظريات هى وقف على العقل الانسانى الشامل لا تختص بأدب ولا تنتسب إلى قبيل ، وإن من واجب المدارس الأدبية إزاء هذه التطورات ألا تقف عند نظريات معينة فى النقد تجعل من طلابها نقاداً ومؤرخين ، وإنما هنا لك النظريات الفنية التى تزيد فى اطلاع الطالب على أعماق النفس البشرية وتجعله أكثر ارتباطاً بالحياة وتفهماً لها . وبهذا تعمل على تطور الأدب — لا تاريخ الأدب — تطوراً مخصباً يعود على كل حقول الأدب بالانتاج والابتكار . قلت : إن النقد تقدم في أدبنا ، وليس معنى ذلك أنه بلغ الذروة التى يريد بلوغها . فللنقد عند الناقدين مذاهب كما للأدباء ؛ وكل مذهب يفهم النقد كما يريد ، بينما يقف نقدنا عند مرحلتين : (١) نقد الآثار القديمة وتنظيمها وإنشاء دراسات مخصبة عليها . وقد خطا النقد العربى فى هذه المرحلة خطوة واسعة موفقة (٢) نقد الآثار الحديثة وأكثره عمل تهديمى صرف ، أو إضرام بخور المجاملة للأصنام الأدبية ، دون أن يجرب أن يكون نقداً عميقاً يلتفت إلى البناء . وإذا كانت فائدة النقد الأول إحياء مآثر الماضين ففائدة النقد الثانى أجل وأعلى لأنه يحيي الأحياء ويفتح لهم طريق الإبداع . ومن هذا ترى سر تهافت طلابنا على الدراسات القديمة وتجمد روح الانتاج والابداع فيهم .

تلوت قراراً جديداً أصدرته الجمهورية الألمانية هذا العام تمنع فيه الأدباء الأحداث أن يجروا أقلامهم فى ميدان النقد ، لأن النقد عمل ثقافى يحتاج إلى مراس واطلاع واختبار . وهى تزعم أنها تريد من وراء هذا أن تحمى آثار العباقرة من التهجم ، ولكنى أريد أن يبقى النقد وأن يتناوله الشباب . وإذا أريد حماية الأدب فلا نستطيع أن نحميه بمثل هذا القرار لأن النقد غريزة فى النفس ، بل ربما كان النقد وحده عبقرية . وقديماً قالوا إن النقد يرافق الأثر الأدبى ولا يخلقه . ولكنى أرى أن النقد في كثير من المواطن لم يكن مرافقاً وإنما كان خالقاً . أجل ! إن العبقرية تكاد تكون — كما يجمع علماء النفس — شذوذاً فى الناس كالمعجزة ، ولكن هذه المعجزة مرتبطة — من نواح كثيرة — بما حولها ، ولولا ما حولها لفسدت . وهكذا ساعد النقد عبقريات كثيرة على الظهور لأنه عبر عنها وفسر ما يكنفها من إبهام . ولذلك

لا حاجة إلى خنق النقد بحجة حماية الأثر الأدبى ، لأن الأثر الأدبى والنقد لا يحتاجان إلى وسيط بينهما للتفاهم ، ولا إلى قانون يحمى أحدهما من الآخر . فليوجد الأثر الأدبى من شاء ، ولينقده من شاء . . .

تقولون لى : وكأنما بك لم تكفك مقاييسنا الجديدة فى النقد فما هى مقاييسك ؟

إننى لا أميل إلى مقاييس تقريبية محددة مقيدة . ومن ذا يستطيع أن ينشىء للحياة وأذواقها المتباينة مقاييس . . ؟ وأية عين ترى مثل ما ترى الأخرى ؟ ولقد نتغذى بثقافة واحدة فى بيئة واحدة ، وتتجه وجوهنا شطر آفاق واحدة ، ولكنا لا نتفق فى النهاية على تفهم ما نراه . ولكننا رأينا الحياة جميعاً ، وفهمنا منها كل بحسب مزاجه ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون للنقد مناح نوجهه إليها .

فالواجب الأول — عندى — للنقد أن يكون فى القارئ شخصية مستقلة فى النقد ، تترك صاحبها لا يقبل الشئ نقلاً ، وإنما يقبله إذا قبله عقلياً ... استقلال الشخصية أول ما يجب أن يلهم النقد . فبقدر ما يؤلمنى فقدان الاستقلال الشخصى فى الأمم ، كذلك يؤلمنى فقدانه فى الأفراد . وكما يقبل عليك الأديب بشخصيته ، أقبل أنت عليه بشخصيتك

والواجب الثانى للنقد — وهو واجب ما أحوج نقدنا إليه ! هو توجيه العقول إلى التوليد . وذلك بإنماء الذوق الفنى فى النفس حتى تتلمس مواقع الجمال ، وخلق الأجواء الخاصة له . فالشعر إذا لم يكن محدوداً فذلك لأن المحدود نفسه يتحدد فيه ويفقد روحه المنطقية ، ومن كان يتنبأ بأن الشعر يخضع لظروف جديدة ؟ أليس علم النفس أثر فيه كما أثر فى نواح مختلفة من الأدب ؟ ألم يدل فيه وجهات كثيرة وخلق منه اتجاهات كثيرة ؟ وبينما كان الشعر لغة لا تصف من النفس إلا حالات العاطفة الهائجة ، ومن البحر إلا أمواجه المصطفقة أصبح يهوى إلى الأعماق التى تثير هذه العواطف المتماوجة فى سكون النفس ! إذ ليس من الضرورة أن تصف أوعى ما فى نفسك وأقربه للاهتزاز والارتجاج . ويكفى من القصيدة أنها تضرب على وتر فى أعماقك تسمع رنينه ولا تسمعه ! على أنى لست متشائماً من تأخر الانتاج ، لأننا نؤثر أن نتكلم بالنقد على أن نتكلم بأدب غير ناضج ، ولا نريد أن يذهب تأثير الأدب الغربى إلى أبعد من جو النقد . نريده موقظاً فقط لا موحياً إلينا ، وفاتحاً عن أفق لا أن يكون هو الأفق !

والواجب الثالث أن يساعد النقد — كما يقول (لاسير) على أن يعد شعبا مفتوح آفاق التفكير صافى الذوق لكى يأتى المبدعون ويجدوا من يفهمهم ويعشون معهم . . .

خذوا النقد وسيلة لا غاية . وسيلة لفتح آفاق الانتاج القوى . ولا تجعلوه غاية سيركم بل اجعلوه طريقاً إلى غايتكم . وليكن لون انتاجكم لون نفوسكم ولون هذه الطبيعة . ولا ترتدوا ثياب غيركم لأنكم لن تحسنوا تقليد غيركم ، ثم لن تجدوا بعدها لونكم الخاص . ولا تمشوا وراء خطوات غيركم مقلدين ... إننى رحبت بالروح النقدية عندكم على أن تكون مقدمة للابداع المنشود!

فليكن لناقدكم ضمير يوحى إليه أن يعترف بالجمال حينما رآه ! وليكن نقدكم نقطة يتعانق فيها العدل والحق والجمال .

وليفتح لكم النقد طريقاً إلى التوليد .

وليفتح الناقدون الطريق للروح المولدة .

وإذا لم نكن عباقرة فلنمهد — على الأقل — الطريق للعباقرة.

ولعل الذى وصفكم لى بأنكم ذوو عقول ناقدة مناقشة هو الذى يصفكم لى فى المستقبل بأنكم ذوو عقول مبدعة مولدة

« حمص » خليل هنداوى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٦ —

« لايؤاخذنى القارىء بما أخذت به نفسى من الترتيب فى هذه المقالات ؛ فقد يبدو لكثير من القراء أنني أسير على غير منهاج واضح حين أجمع بين الحديث عن الرافعي الشاعر ، والرافعى الأديب ، والرافعى فى أهله ، أو حين أثب من موضوع إلى موضوع لايمت إلى سابقه ولا يصله به سبب .

« وعذرى الذي أقدمه إلى القراء من هذا الخلط هو أنى أسير فى تاريخ الرافعى على الترتيب الزمنى لا ألقي بالا إلى غيره ؛ فأيما حادثة اعترضت حديثاً وجرت فى زمانه تناولتها ، حتى لايفوتنى شىء مما أريد إثباته ، فأسير مع الحادثة من حيث تبدأ فى زمانها وأنتهى بها حيث تنتهي من تاريخه ، ثم أعود إلى ما كنت فيه على حساب السنين ؛ فهذا من هذا ؛ وللباحث من بعد أن يجمع عناصر موضوعه على ما يشتهي ويتناولها من حيث يريد »

شعراء العصر فى سنة ١٩٠٥

قدّمت الحديث فى الجزء الرابع من هذه المقالات عن شيوخ الرافعي فى الشعر الذين أخذ عنهم أو اقتفى آثارهم ، أو جرى معهم على سَنن . وأثبتُ ما كان بينه وبين حافظ من المنافسة ، وما كان يتمتع به حافظ يومئذ من الشهرة والجاه والحظوة عند الشعب ، تلك الشهرة التي ألهبت غيرة الرافعي وحفزته إلى الكفاح وحمّسته إلى استكمال أسباب الغلبة بعقد الأواصر وإنشاء المودّات والدعاية لنفسه . ثم بينتُ ما كان بين الرافعي والكاظمى من صلة الحب والتقدير ؛ وتساءلت فى آخرة القول : هل من صلة بين الرافعى وبين غير هؤلاء الثلاثة من شعراء الجيل ؟ هل كان لغير البارودى وحافظ والكاظمى من شعراء العصر أثر فى شعر الرافعي ؟ وما مبلغ هذا الأثر ؟ وما نتيجته ؟

على أن الباحث المحقق لايقنعه هذا التساؤل ، وليس يكفيه من وسائل البحث أن يعلم من شعراء العصر هؤلاء الثلاثة فحسب ؛ ولقد نشأ الرافعى الشاعر فى أول هذا القرن ، وأوانُه حافل بشُلّة من الشعراء لم يجتمع مثلهم فى زمان فى بلد ؛ فما مبلغ تأثر الرافعي بكل أولئك الشعراء المعاصرين ؟

هنا أدع للرافعى نفسه أن يتحدث ، وما حديثه هذا إلا طرف من الدعاية التى كان يقوم بها لنفسه في أول عهده بالشعر ليبلغ المنزل الذى يطمح إليه . وإنه ليكشف عن شيء من خلق الرافعى وكبريائه واعتداده بنفسه ، ويدل على قوة الرافعى وعنفوانه وشدته فى النقد ، إذ كان هذا الحديث أول ما كتب الرافعى في النقد .

إن أدباء العربية عامة لايعرفون من الخصومات الأدبية أشهر شهرةً من الخصومة بين الرافعي وأدباء عصره ؛ فالخصومة بين الرافعي وطه ، وبين الرافعى والعقاد ، وبين الرافعى وعبد الله عفيفى ، وبينه وبين غير هؤلاء — هي خصومة مشهورة مذكورة فى موضعها من تاريخ الأدب العربى في هذا الجيل ، مشهورة مذكورة فى موضعها من تاريخ النقد فى العربية.

وإن قراء العربية عامة ليعرفون الرافعي الناقد معرفة بصيرة ، ويعرفون شدته وعنفوانه فى النقد ، شدةً حبّبته إلى الكثير ، وألّبتْ عليه الكثير . على أن من يريد أن يعرف أول شأن الرافعي فى النقد فليقرأ مقال الرافعى عن شعراء العصر في سنة ١٩٠٥

***

نشر الرافعى مقاله ذاك فى عدد يناير سنة ١٩٠٥ من مجلة الثريا بتوقيع (*) وأحسبه أخفى اسمه وراء هذا الرمز حذر التهمة ، وليبلغ به مبلغه فى الدعاية لنفسه ، فقد جعل نفسه فى الشعراء رابع الطبقة الأولى من طبقات ثلاث تنتظم كل من يعرف الرافعى من شعراء عصره . جعل الطبقة الأولى منهم على الترتيب :

الكاظمى ، والبارودى ، وحافظ ، والرافعى ...

وفى الطبقة الثانية على الترتيب :

صبرى ، وشوقى [1] ، ومطران ، وداود عمون ، والبكرى ،

---

(١) لم يثبت الرافعي طويلا على هذا الرأى في ترتيب شعراء عصره ، وفيما كتب بعد ذلك من المقالات بتوقيعه الصريح ، بيان رأيه فى آخرته

ونقولا رزق الله ، وأمين الحداد ، ومحمود واصف ، وشكيب أرسلان ، ومحمد هلال ابراهيم ، ثم ... حفني ناصف !

وفى الطبقة الثالثة :

الكاشف، والمنفلوطي، ومحرم ، وإمام العبد ، والعزبى، ونسيم.

ثم ألحق بهؤلاء اثنين يعرفهما من شعراء العراق ، هما : السيد ابراهيم ، ومحمد النجفى

وقد افتتح الرافعى مقاله بما يأتى :

« قرأت فى بعض أعداد (الثريا) كلمة عن (الأدب قديماً وحديثاً) فقلت : كلمة مألوفة . ولم ألبث أن رأيت جملة أخرى لأديب غيور على الشعراء ، كان رأس الشعر بين أولها وآخرها كأنما خدش بين حجرين ؛ فقلت : إني أنظم الشعر فأسرّ ، وأقرأ عنه فأسرّ ، فمالى لا أنفثها والقوم قد أصبحوا يتنافسون فى أسماء الشعراء ، كما يتنافسون في ألقاب الأمراء ؛ وقد استويا فى الزور ، فلا أكثر أولئك شاعر ، ولا أكثر هؤلاء أمير

« ثم رأيت بعد أن عزم الله لى كتابة هذا المقال أن أتركه بغير توقيع ، وإن كنت أعلم أن أكثر من يقرأونه كذلك سيخرجون من خاتمته كما لو كانوا أميين لم يقرأوا فاتحته . فإن الحكمة كلها والمعرفة بجميع طبقاتها أصبحت فى أحرف الأسماء . فإن قيل : كتاب لفلان ... قلنا : أين يباع ، وإن كان من سقط المتاع . على أن اسمى قد لا يكون فى غير بطاقتى و كتبي إلى أصحابي القليلين ، وفى سجلّ بعض الجرائد والمجلات ، فليظننى القاريءُ ما ضرب على رأسه الظن

« وسأذكر في هذه الأسطر كل من عرفته أو اتصل بى اسمه من الشعراء ، وأقطع عليه رأيى ، فإما وسعه فكمل به ، وإما أظهره كما هو فى نفسه ، لا كما هو عند نفسه ؛ ولذلك فقد ضممتهم إلى ثلاث طبقات ، وجاريت فى تسمية بعضهم بالشعراء عادتنا المألوفة »

ثم كتب رأيه بعد ذلك فى كل شاعر ممن ذكرت مقتبساً من شعره مستشهداً به على ترتيبه فى موضعه من طبقته

وكان مما قاله عن صديقه ومزاحمه حافظ :

« ... وأكثر شعره فى هذه الأيام (سنة ١٩٠٥) أضعف من قبل ... والذين لم تستقم ألسنتهم ولم تزل أفكارهم على سقم يقولون : إن شعر حافظ اليوم خير منه في ديوانه الأول ؛ وذلك لأنهم لا يدركون موقع الخيال الشريف ، ولا يهتزون للمعنى البكر إلا في اللفظ الثيب ، وهؤلاء يفضلون (شوقي) عليه ، وهيهات بعد أن استنوق الجمل ... ! »

وكتب عن نفسه :

« لو كان هذا الشاعر (يعني نفسه) كما أسمع عنه ، فإنى أكون قد ظلمته إذ لم أقدمه عن هذا الموضع (الرابع من الطبقة الأولى) ؛ فقد أخبرت أنه لم يتم الرابعة والعشرين من عمره ، ولذلك فإنى لا أكتب عنه إلا ما أعرف من شعره ، سواء كان فتي أو كهلا ؛ وهو قد طبع من ديوانه الجزء الأول من سنة مضت ، وذكر فى مقدمة شرحه أنه نظمه فى عامين ، وأنه لم يقل الشعر إلا منذ ثلاث سنوات من طبع ذلك الجزء ؛ ولم ألبث أن رأيت منذ أشهر فى بعض أعداد مجلة (الجامعة) تقريظاً مسهباً جداً للجزء الثانى من ديوان هذا الشاعر ؛ فأكبرت ذلك ، ولا شك أنه ينظم اليوم فى الجزء الثالث قياساً على ما تقدم ...

« ومما امتاز به هذا الشاعر ولعه الشديد بالغزل ، وبلوغه فيه أسمى ما يبلغه النظم ؛ وله مزية أخرى ، وهى غوصه على المعانى فى الأغراض التى لم تطرق ، وكثيرون يعدونه بذلك شاعر مصر ، وديوانه معروف ، وشعره مشهور ... الخ »

وقال عن شوقي :

« سيأخذ بعض القراء العجبُ إذا رأى شوقى بك ثانى الطبقة الثانية وهو هو (شوق بك شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية) ، ولكنا نعجب أكثر منه إذ رأينا الشوقيات قد انقلبت إلى شوكيات ؛ فأى ذوق سليم يطمئن لهذه المعانى المكررة وتلك الألفاظ النافرة من مثل : « قضى أرْيحيُّ القوم » وغيرها . ولا أدرى لهذا الانقلاب سبباً إلا إذا صح ما يقال من أن (صبري وسلمان) كانا يهذبان شعر الرجل من قبل ، وهو قول لا أجزم به ولا أرفضه ...

« ... وإنما اشتهر قديما يوم كان الكاظمى فى العراق ، والبارودى فى سيلان ، وصبرى من مهذبى شعره على ما يقال ، وحافظ فى السودان ، والرافعى لم يقل الشعر بعد — على ما قبل

لى ! — وأثبت له الشهرة إضافته إلى الحضرة الخديوية على نحو مايذكر النحاة فى باب (الجر) بالمجاورة ... »

وختم المقال بقوله :

« ... وسنرى ما يكون من امتعاض الشعراء بعد هذا المقال ، ولكنى أطلب إليهم أن يخفضوا عن أنفسهم ؛ فلا أنا من معية الأمير ، ولا من حاشية السفير ، وليس ما كتبت إلا رأيى ، فليبق كلٌّ فى رأيه وعند نفسه أشعر الشعراء »

وذيلته مجلة (الثريا) بما يأتى :

« أتى إلينا مكتب بريد الزيتون يوماً ملفاً ضخما وارداً من مصر ، وداخله كتاب موجز ومعه المقالة المتقدمة للنشر . أما الكتاب فهذه صورته بعد الديباجة :

« ... دونك مقالةً بكرا لم يُنسج على منوالها بعدُ فى العربية ، حَرِيّة بأن تصدّر بها مجلتك الغراء ؛ ولا يروعنّك شدة لهجتها فكلها حقائق ثابتة ، وإن آلمت البعض فان الحق أكبر من الجميع ؛ وإنى لبالمرصاد لكل من ينبرى للرد عليها ، وأنا كفء للجميع ؛ وما إخال أحداً يستطيع أن ينقض حرفاً مما كتبته ، وإن هم لزموا الصمت فحسبك من سكوتهم إذ ذاك إقراراً بأنى أنزلت كل شاعر فى المنزلة التى يستحقها .

« ولا يعنيك معرفة اسمى ، فأنا ابن جَلا وطَلّاع الثنايا ؛ فانظر إلى ما قيل وليس لمن قال ، وبعد هذا فإن أعجبتك مقالتى فانشرها وإلا فاضرب بها عرض الحائط .

« وإنى أقترح عليك أن تنشر جميع ما يردك من الردود فى المعنى ، سواء جاهر أصحابها بأسمائهم أو تستّروا ، فإن الموضوع طلّ شعىّ ، وفى إطلاقك الحرية للكتّاب ما ينشط بهم لحرية الجولان فى هذا المضمار »

قالت الثريا : « وقد تصفحنا المقالة فراعنا شدة لهجة الكاتب وبتنا نقدم رجلاً ونؤخر أخرى فى نشرها ، إلى أن تغلب علينا الميل لنشرها ، إن لم يكن لشئ فلكثرة ما حوته من رائق الأشعار لفحول الشعراء ، وهم نخبة شعراء مصر فى هذا العصر ؛ فأقدمنا على نشرها كما وردتنا بالحرف الواحد ، غير متحملين تبعتها ؛ وللكتّاب الأدباء الحرية فى الرد عليها ، وأبواب الثريا ترحب بكل ما يردها من هذا القبيل ، سواء من المشتركين أو غيرهم

« ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يُهدّم ، ومن لا يَظلِم الناسَ يُظلَم[(١)] »

* * *

أحسب أن لهذا المقال أهمية كبيرة لمن يريد أن يدرس الرافعى دراسة أوسعَ قائمةً على قواعد من العلم والتحليل النفسى ؛ وإنما يستأهل هذا الاهتمام من ثلاث نواح :

أولاً : إنه أول ما أنشأ الرافعي فى النقد ؛ فهو كالمقدمة لهذه المعارك الطاحنة التى قامت بين الرافعي ولفيف من أدباء عصره بعد ذلك بعشرين سنة ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعى فى النقد أن يبدأ من هنا

ثانياً : إنه ثَبْتٌ جامع لأسماء الشعراء الذين نشأوا مع الرافعى فى جيل واحد ، وقرأ لهم ونظر فى شعرهم نظر الناقد أو نظر المعجب المحتذى ؛ فلابد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعى فى الشعر ، وعن الشعراء الذين تأثر بهم أو تأثروا به ، أن يعرف هؤلاء الشعراء.

ثالثاً : إن فى هذا المقال لوناً من ألوان الدعاية التى كان يقوم بها الرافعي لنفسه ليبلغ إلى الهدف الذي كان يرمي إليه بين أدباء العصر ، فلا بد لمن يريد أن يدرس وسائل الرافعى إلى الشهرة وذيوع الصيت أن يقرأ هذا المقال .

وبعد فإن فيه شيئاً من أخلاق الرافعى المزهوّ بنفسه ، المعتدّ بعلمه ، القوىّ بإيمانه ، المتقحّم على مواطن الهلاك ؛ الرافعى القزم الضعيف الذى وقف على السفح تعتمد خاصرته على راحته وهو ينظر إلى فوق ليقول للشعراء العالقة على القمة : إنزلوا إلىّ أو أصعد إليكم فأرميكم إلى بطن الوادى أشلاء ممزقة ليس فيها عضو إلى عضو ولا يسمع لكم صريخ . . . !

الرافعى ...؟ لقد كان الرافعي طويل اللسان من أول يوم ...!؟

« سيدى بشر » محمد سعيد العريان

---

(١) كان لهذا المقال رنة وصدى بين جماعة الشعراء فى ذلك العصر . وقد تحدث عنه المرحوم الرافعي مرة إلى قراء الرسالة ، فى العدد ١٠٩ فى مقال بعنوان (كلمات عن حافظ) وصف فيها أثره وما أحدث من ضجة بين الشعراء ؛ فليرجع إليه من شاء .

على أن الرافعى لم يصرح فى ذلك العدد أنه كاتب المقال ، ولكنه لم يستطع كذلك أن ينفيه عن نفسه ، وإن كان معروفاً لدى خاصته وأصدقائه أنه كاتبه ؛ وأسلوب الرافعى لايخفى على أحد من قرائه .

وقد ذكر الرافعى أن هذا المقال نشرته الثريا فى سنة ١٩٠٣ وهو سهو حقيقته ما ذكرت .

من تاريخ الأدب المصرى

شعر القاضى الفاضل

للأديب محمد سعيد السحراوى

وقفت على نسخة مخطوطة من ديوان القاضى الفاضل فى دار الكتب المصرية فأحببت أن أعرض طرفا منه خدمة للأدب
(م . س)

سيرة القاضى الفاضل

ولد بمدينة عسقلان عام ٥٢٩ للهجرة ؛ فهو ليس مصرى الأصل وإن كان مصرى الدار . تولى أبوه القضاء فى نيسان وهو طفل ، وثقفه تثقيفاً دينياً بحتاً حتى كبر ، فقدم إلى القاهرة فى عهد الحافظ لدين الله ، وخدم فيها الموفق بن يوسف ابن جلال مدير ديوان الانشاء إذ ذاك فتعلم فنون صناعته ، وحذا حذوه في كتابته ، ثم انتقل إلى الأسكندرية يخدم بعض حكامها حتي عرف بينهم بالذكاء ، وبنبوغه فى صناعة الانشاء ، فلما سمع به العاضد استدعاه إلى القاهرة وعينه كاتباً ، وفى عام ٥٦٦ للهجرة توفى الموفق بن يوسف بن جلال فجعل العاضد القاضى الفاضل مكانه — وظل يكرمه كل وال ويرقيه ، حتى ولى الملك صلاح الدين فجعله كاتبه وقاضيه ، ووزيره ومشيره ؛ وظلت هذه حاله إلى أن توفى فى ١٧ ربيع الآخر عام ٥٩٦ للهجرة أي فى الليلة التى هزم فيها الأفضل ودخل العادل القاهرة

نسبه وصفاته

وهو الوزير مجير الدين أبو على عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء المجد على بن القاضى السعيد أبى محمد ويعرف بالبيسانى . وقد ذكر عنه المؤرخون أنه كان ديناً كثير الصدقة والعبادة ، وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الأسرى ؛ وكان يكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان . وكن ضعيف البنية ، رقيق الصورة ، له حدبة يغطيها الطيلسان . وقالوا عنه أيضاً إنه كان فيه سوء خلق يكمد به نفسه ولا يضر أحداً ؛ وكان يحل أصحاب الأدب ويكرمهم ويعاونهم ، ويؤثر أرباب البيوت والغرباء ولا ينتقم من أعدائه ، فإما أن يحسن اليهم أو يقتصر على الاعراض عنهم [(١)]

والقاضى الفاضل كاتب معروف وأديب له طابع خاص ، وأسلوبه لا يكاد يجهله مطلع على الآداب العربية ، فهو كما يقال عنه — رب العلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والفضل الذي ماسمع به الأوائل لمن عاش فى زمانه ، وماتعلق أحد بغباره أو جرى فى مضماره [(٢)] وهو كذلك شاعر جيد الشعر كما سيجئ

شعره

شعر القاضي الفاضل صورة من نفسه ، يدل على رقة حسه ؛ أكثره فى الغزل ، لأنه أسلس ضروب الشعر قيادة للمحسنات اللفظية التى أغرم بها القاضى الفاضل غراماً شديداً ، وكلف بها كلفاً ظاهراً ، فى غير تصنع واضح ، أو تطرف يخرج بها عن المعنى الذي يقصده . وقد اكتسب القاضي الفاضل من البهاء زهير وابن سناء الملك وابن قلاقس وغيرهم من الشعراء الذين عاشوا معه فى مصر ، رقتهم وموسيقاهم الشعرية العذبة ، كما اكتسب مما كان يأتيه من أشعار الأندلسيين الذين كانوا فى إبان نهضتهم الأدبية ، الأخيلة الرائعة والطرائق المستحدثة ، وإن كان قد حافظ على نظام سابقيه ، فظل ينظم فيما تعود سماعه وما كثر النظم فيه فلم ينظر إلى الطبيعة الساحرة نظرة الأندلسيين إليها ، ولم يجب الآفاق البعيدة التى جابوا فيها ؛ وربما كان ذلك نتيجة لنشأته الدينيــة واحتراماً لجلال المركز الذى وصل إليه

الفخر

القصيدة الأولى فى ديوانه يعرفها بعض الأدباء ، وهي فى الفخر ، وفيها يصف بلاغته متلاعباً فيها بالمعانى وهى خير مثال على شعره ومنها :

قضى نحبه الصوم بعد المطال ... وأطلق من قيد فتر الهلال
وروّض كاتب جنبي اليمين ... وأتعب كاتب جنبي الشمال

---

(١) ابن خلكان صفحة ٤٠٢ وما بعدها وابن الاثير جزء ١٢ صفحة ٦٥ والخريدة للاصفهانى وغيرهم
(٢) ابن خلكان

فدع ضيقة مثل شد الإسار   إلى فرجة مثل حل العقال
وقم هاتها مثل ذوب النضار   وموج البحار وطعم الزلال
جزى الله عنى عروس الدوالى   ولا أخطأتها كؤوس الغزالى
بما أطعمت من لذيذ الثمار   وما ألبست من نسيج الطلالِ
وما ساست من مذاب السرور   وما خفضت من جماح التغالى
فكم زخرفت جنة للعذاب   وكم رفعت قبساً للضلال
أغالط بالكأس حكم الزمان   فيوم علىّ ويوم بمالى
فجاءت بما فى عيون النساء   ومرت بما فى رءوس الرجال
وأسلو الغزال بها إذ أرى   بكاساتها دم ذاك الغزال
إذا مزج الماء منها الكئوس   مزجنا أسنتها بالنصال
وسكران كدر من سكره   زمان على كل عقل ممال
فسكر الشباب وسكر الشراب   وسكر الصدود وسكر الوصال
فلا تذكرن عهود الوصال   فعهدى بها والليالى ليالى
ولم أبك عهداً رجاء الرجوع   ولكن أجدده بالصقال
بعثن الليالى بيأس جديد   علىّ قديماً فجاست خلالى
فما جاء عن منطق ذم جان   ولا جاء عن جوهري ذم حالى
ولم استغث تحت ظل الخطو   ب جرجرة البُزل تحت الرحال
خشنت لحال كشوك القتاد   ولنت لأخرى كشوك السيال
ولست لساناً لذل السؤال   وما زلت صدراً لعز السؤال
حديث يناجي فروع السحاب   وأصل يناجى أصول الجبال
ولى قلم منه عين الكلا   م تجرى فتنظر عين الكمال
يراع تظل رياض الطرو   س منها موشحة بالصلال
كمثل الوقيعة فيها الظلال   يشيع الوقيعة لى فى الزلال
وكتب يفيض بأرجائها   عين الجدا أو لسان الجدال
تقدمها الشكل من فوقها   كمثل السهام أمام النصال

وهى طويلة جمعت عدة أنواع من الشعر فأوعت .

الغزل

وشعر القاضى الفاضل الغزلى رقيق جزل ، فهو يقول معاتباً .

وإنى لمطوى الضلوع على جوى   بأيسر منه ينشر الوابل السجم
وأملت نفع الكتم فيه مغالطاً   غليلي ولكن قل ماننفع الكتم
وقد كان لى عزم على الصبر صابراً   فقد خانه بعد النوى مانوى العزمُ
وأسعفها باللؤلؤ النثر جفنه   ويسعفها من بعدها اللؤلؤ النظمُ
لنفسى أريد الوصل لا بعد موتها   فلا خبر من بعد الممات ولا علمُ
لحى الله هذا العيش إن كان ما أرى   فآنفه ظل وسالفه حلمُ
ويزعم صبرى أنه لى عدة   وأكبر ظني أن سيكذبني الزعمُ
فلا بعد إطلال الحمي القطر وحده   ولا دارها دمي ولا غلتى الظلم

* * *

تحرج عن وصلى مخافة إثمها   فلا تحرجى إن الصدود هو الإثم
وأكثر أيامى تعقبها الأسى   عليها ولكن قد تقلبها الندم
رضيت بما يقضى على قسط جوره   فلِمْ يغضب القاضى وقد رضى الخصم .

واستمع إليه يقول متغزلاً ، وفي هذه الأبيات يظهر مدى أثر الشعر الأندلسي فيه :

سنّ النسيم تعانق الأغصان   أفلا يسن تعانق الخلانِ ؟!
قد كان بينهم حديث ساكت   ناجى خواطرهم بغير لسان
فهمت قلوبهم فلما لم يجب   عنها اللسان أجابت العينانِ
والقلب يدرك وهو ليس بسامع   لفظ الدموع بألسن الأجفانِ
يا راجلاً من عينه قد أصبحت   فى الناس مقفرة بلا إنسانِ
فإذا جرت منها الدموع فإنما   تجرى لسقيا ذكرك العطشان

ومنها :

بلد بما يسقى غليلك ماؤه   ما دمت تنزل منه فى نيران
وعجبت من متوسل مستوصل   بجهنم منه إلى بستان

وهو كذلك يقول :

يا هلالاً إذا أنار ضللنا   وغُصَينا إذا تثنَّى ثنانا
بينما جلنار وجهك يبدو   إذ رأينا فى صدرك الرمانا

ومن غزله أيضاً :

تلذ بجنتها أعين   وفيها الذى تجتنى الأنفسُ
لها نكهة إذ تحيي بها   يغض لها عينه النرجسُ
وجاءت بعود لها خاطب   أرم لهَيْبته المجلسُ
لها معجز إن تأملته   فما سر إعجازه ملبسُ
أري العود من قبلها أخرساً   وفى يدها ينطق الأخرسُ
كأن المدامة من لحظها   ونار الغرام بها تقبسُ

وله :

ومالى في صيد العقارب حيلة   سوى عقرب دبت على ورق الورد

وإني شجاع لا على كل حية … سوى حية صيغت من الشَّعر في الخد!

وفي الأبيات الآتية تبدو حيرته ويتجسم قلقه ، فله من قصيدة :

يمزقني ذا الحب كل ممزق … ويصبح خلقي فيه وهو جديدُ
مقيم وقلبي في ركابك سائر … قريب ـ ولكن ما أريد ، بعيدُ

وله من قصيدة أخرى :

ليال تقضت ليس يوم براجع … إليها ولكن الليالي سترجعُ
فياليت أسباب الليالي تقطعت … كأسبابنا فيها إذا تتقطعُ
وإن فرطت منا وأعيي اتباعها … فياليت أن النفس لا تتبعُ
وإن كان قلبي بين جنبي حاضراً … فليت هموم القلب لا تتبوعُ
وبيني وبين النائبات وقائع … يهونها الموت الذي أتوقعُ
فكل زمان ليس لي فيه صاحب … وكل حبيب ماله فيّ موضعُ !

وقال في حبيب مريض ، وفيها تصوير لنفسه بديع :

وما عدته بل عدت سقمي بقربه … ومما به مابي عليه قريب
أغيب برغمي ثم أحضر غائباً … وأنظر آثار الضنا فأغيب !

وقال مداعباً :

بين الضلوع جهنم من حبهم … فودتهم لا يسمعون حسيسها
فمع الظلام الدمع كان طليقها … ومع الصباح الهم كان حبيسها

وقال :

وما قضى الدهر لي من قربه وطراً … إلا اقتضى الوطر المقضي أوطارا
يا من شقيت به دنيا وآخرة … ترى عرفت سوى الدارين لي دارا؟!
أشقى البرية منظوراً ومنتظراً … هذا الضعيف الذي يهواك جبارا !

ومن شعره الموسيقي العذب قوله :

وقف الطيف بجفني كطفل … سائلاً أين الكرى أين رحل
إنما كان الكرى يسكنها … فالكرى من وصلهم ثم انتقل
إنه يا طيف طوفان طغى … وابن نوح ليس ينجيه الجبل
إن قلبي من قلوب لم تبن … سرها لو لم تبينه المقل
حالت الأشياء عن حالاتها … فتولى الماء إيقاد الغلل

هذه أمثلة من شعره الغزلي ، وما هي إلا قطرة من بحره الفياض ؛ ومنها نستطيع أن نحكم على نفسيته ؛ وهي لا تتعدى ما قال المؤرخون فيه .

« يتبع » محمد سعيد السحراوي

فردريك نيتشه

FRIEDRICH NIETZSCHE

للأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف

عصره — مولده — تعليمه — شغفه بالأدب والموسيقى — أثر شوبنهاور وفاجنر في تفكيره — أول مؤلفاته — « إنسانى وإنسانى إلى أبعد حد » « زرادشت » — بقية أعماله — فن نيتشه وفلسفته — وفاته — مدرسته

بدأ التفكير الاجتماعي يظهر جلياً في آداب الأمة الألمانية في خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ويرجع سبب ذلك إلى تغلب النزعة الواقعية على غيرها من النزعات . وكان لهذه النزعة الجديدة أثرها الجليل ، فقد بدأت تسير في سبيلها هادئة حتى تغلغلت في نفوس المتأدبين . وكان على رأس القائمين بهذه الحركة الجديدة فريدريك نيتشه الذي أخذ يميل شيئاً فشيئاً إلى الاعتقاد بأن جماعات الناس تهوى إلى أسفل . وقد أرجع أسباب ذلك إلى أن الأدباء لا يعنون إلا بالفرد في منتجاتهم الفنية ، في حين أن حاجة الفرد ومتاعبه ومشاكله ليست بالذات حاجة العصر ومتاعبه ومشاكله ، وإن حالة الأديب قد تناقض حالة الجماعات البشرية . وعندئذ مال معه بعض صحبه إلى تفكيره هذا ، وبدأت الناس تحس بأن ما كتبه الأدباء عن ماجريات الأحوال وشئون الحياة ، أو ما كتبوه عن المسائل الاجتماعية والشئون السياسية التي سار ويسير إليها العالم ، ليست إلا بعض آراء من شتاتها . ومن ثم أدرك عامة الناس بأن لهم وجوداً ، وأنه يجدر بهم أن يعبروا عن آرائهم بصراحة . فأنجبت هذه الحركة أدباء فنانين من طراز جديد ، منهم المصلح الاجتماعي ، ومنهم الثوري الاشتراكي ، ومنهم طبقات الفوضويين . ولنحاول هنا أن نلم بتاريخ حياة فردريك نيتشه لنتعرف مكانه من بين هؤلاء .

* * *

ولد فريدريك نيتشه في اليوم الخامس عشر من شهر اكتوبر سنة ١٨٤٤ م ، في قرية « ريكن » Roecken الواقعة بالقرب من « لتزن » Loetzen . وقد يبدو لمن يحدق في صورة نيتشه أو يسمع باسمه أنه يمت إلى أصل بولوني ، ولكن الباحثين قد فرغوا من إثبات أصله الألماني . ويرجع التشكك في اسمه

إلى أن الألمان الذين كانوا يستوطنون المناطق التي يتغلب فيها السلافيون لا يرون غضاضة فى صبغ نهاية أسمائهم بالصبغة السلافية . وكذلك فعلت عائلة نيتشه. أما تكوين رأسه واصفرار لون شعره وزرقة عينيه ، فدليل كاف على أنه ينتمى إلى «الشماليين» أى سكان شمال أوربا .

وكان لفريدريك أب قس ورث عنه نزعته للموسيقى وذكاءه المتقد واحساسه المرهف وأعصابه الملتهبة . أما القوة فقد ورثها عن أمه التى أخذ عنها قوة الارادة ، والقدرة على العمل ، والقوة الحيوية ، وقوة مناعة جسمه ضد هجمات أعصابه الثائرة . أما الوعظ والدعاية لما يؤمن به فقد ورثه عن أبويه كليهما ، ولذا كان حب الوعظ والارشاد قويا عنده إلى حد أنه كان يهيم بوقع الكلمة التى ينطق بها . وكان من اجتماع نزعته الاصلاحية إلى قوة إرادته وصدق حيويته لهيب من النار يسرى فى كلماته فتهتدى به الناس وتطمئن إلى حرارته فى جو انعدمت فيه حرارة الإيمان .

وليس غريباً أن يكون هذا شأن نيتشه ، فقد كان فى صغره شعلة ذكاء تتقد منذ سنى دراسته الأولى . فقد كتب مذكراته عام ١٨٥٨ ، ولما يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، بأسلوب واضح متزن يشف عن ذكاء مبكر ، إذ قال : « أصبحت فى الطور الشعرى الثالث . » وكتب أيضاً : « يجب أن أتمرن على القريض أكثر من ذى قبل ، وإن أمكن فسأنظم فى كل ليلة قصيدة . » ومع كل ذلك لم تخلُ قصائده الأولى هذه من أبيات موسيقية أخاذة تحوى معانى مبتكرة . وفى سن الخامسة عشرة نظم قصيدته المعروفة باسم « بغير وطن » ذات النزعة الرومانتيكية . فالتف حوله الأدباء الناشئون وألف منهم جمعية أدبية أسماها « جرمانيا » . وكان يأمل أن يتتلمذ فى المستقبل على جين پاول Jean Pawl بعد أن مال إلى فنه كل الميل . ولكن غير واحد من أصدقائه نصحوه بقراءة «هيلدرين» Hoelderin «ونوفاليس» Novalis فقرأهما كما قرأ « شكسبير » و « ترسترام شاندى » Tristram Shandy وهو فى سن الخامسة عشرة . وكتب إذ ذاك فى مذكراته : « إننى أقيد كل فكرة طريفة ؛ وقد انضح لي أننى إلى ما قبل الآن كنت غير ملم بشىء من العلوم . »

ولم يكن شغف نيتشه بالأدب أكثر من شغفه بالموسيقى . وكان أحب الموسيقيين إليه « روبرت شومان » (Robert Shumann) الرومانتيكى النزعة ، ولكنه مال بعد ذلك إلى شوبان (Chopin) ، إذ قال عن موسيقاه إنها تمثل جمال ونبل الفكر كما تمثل المرح وعظمة الروح الانسانية والشعور الفياض سواء بسواء » وفضلا عن ذلك فقد وضع نيتشه أيام صباه قطعاً موسيقية قال عنها بعد أن تقدم فى السن : إن « نغماتها » تكاد تكون مطابقة لموضوعات مختلفة من پارسيفال (Parsival) التى ألفها فاجنر (Wagner) بعد عهد الصبا لنيتشه .

وعند ما التحق نيتشه بجامعة « بون » (Bonn) عام ١٨٦٤ كان يرغب فى دراسة اللاهوت ، ولكنه نزع عام ١٨٦٥ إلى دراسة الآداب الكلاسيكية إلى جانب دراسته الأصيلة . غير أنه هجر فيما بعد دراسة علوم الدين وتعلق بالبحث فى العلوم ، ثم رحل إلى « ليبزج » (Leipzig) طلباً لحرية الفكر وحرية الرأى ، ولكنه سرعان ما أدرك « أنه لا يوجد مكان تتوافر فيه حرية الفكر » وكان شوبنهاور (Schopenhauer) قد ساعده على تحرره من عقيدته الدينية ، بعد أن اتصل به فى « ليبزج » التى قال فيها نيتشه : « هنا وجدت مرآة رأيت فيها العالم والحياة كما رأيت نفسى منعكسة بها فى أجلى وضوح ؛ وهنا حدقت فى عين شمس الفن الذى لا نهاية له ؛ وهنا رأيت المرض والبرء ، رأيت المنى والملجأ ، رأيت النار والجنة » وفى هذا ما يدل بمفرده على مقدار تأثر نيتشه بشوبنهاور ، كما تأثر به بعد ذلك فى أبحاثه الأدبية التى كتبها أثناء دراسته فى الجامعة ، والتى أدهشت أساتذته ، إذ عجبوا لأسلوبه العلمى الرصين . ولكن كل أبحاثه الأدبية لم تكن لتغريه إذ كانت تنقصها الفكرة الانسانية . ودفعه هذا الاتجاه الجديد فى تفكيره إلى تغيير منهج دراسته الذى كان قد صمم عليه . فقد كتب إلى صديق له عام ١٨٦٩ يقول : « إننا دون شك أتباع القدر . فمنذ أسبوع أردت أن أكتب إليك بأنى اعتزمت دراسة الكيمياء وترك دراسة الآداب لمن هم أليق بها منى ، وهؤلاء هم الشيوخ . والآن يغرينى شيطان القدر بالأستاذية فى الآداب »

ولم يكن تعرّف « نيتشه » إلى «شوبنهاور» أهم ما وقع للأول فى حياته إذ أن تعرفه إلى فاجنر قبل نزوحه إلى « بازل » Basel

كان له أثر عميق فى نفسـه . ولم يكن حب « نيتشه » لموسيقى « فاجنر » وليد يومه ، بل لقد اعتبر « نيتشه » صديقه « فاجنر » الممثل لكل الفنون الحديثة التى ارتشفها وهضمها . وبلغت تلك الصداقة أبعد مدى لها سنة ١٨٨٨ عند ما قضى كلاهما الصيف فى قرية بالقرب من « لوزرن » Lutzern . وحرص نيتشه على ألا تنتزع الأيام منه هـذه الصداقة ، وود لو أن تبقى صلته بصديقه فاجنر إلى الأبد ، وقال عنها : « لقد كانت أيام تبادلنا فيها الثقة ، أيام مرح وسرور . والحق أنها لحظات لهـا أعمق أثر فى نفسى » . قال ذلك نيتشه عن صديقه الذى أخلص له فقال فيه : « إننى لا أعرف ماذا كان حظ الآخرين من مصادقتهم لفاجنر ، إلا أنى أعرف أن سماءنا لم تغشها سحابة قط » وما ذلك إلا لاعتقاد نيتشه بأن صديقه عبقرى كريم الخلق ، تنطبق عبقريته على وصف شوبنهار للعبقريات

وفى ذلك العهـد ألف نيتشه أول كتبه القيمة الذى أسماه « انحدار التراجيـدية من روح الموسيقى Die Geburt der Tragoedie aus dem Geiste der Musik وأتمه عام ١٨٧١ وقد ضمنه أهم ما وقع له فى حياته الخاصة وصداقته مع فاجنر ، كما ضمنه مراميه الأولى والأخيرة فى الحياة ، ومساس الحاجة إلى الموسيقى . ولقد كتب كتابه هـذا بأسلوب رائع تجلى فيه هيامه بالفنون ، وأثبت قدرته على البحث كعلامة . ولم يحجم نيتشه عن أن يقول رأيه فى الفنون الاغريقية وفى الاغريق . ويعد كتابه هذا من أروع الـكتب الـكلاسيكية التى تناولت الفن من عديد نواحيه التاريخية والفلسفية والعقلية . فلقد حاول نيتشه « أن يرى العلوم والمعارف بعين الفنان ، وأن يرى الفن عن طريق الحياة » وهاجم فى كتاب آخر له أسماه « نظرات لا تتفق وروح العصر » Un zeitgemaessen Betrachtungen ووضعه فيما بين سـنة ١٨٧٣ و ١٨٧٥ — عديد الاتجاهات فى الثقافة الألمانية . فقد قال بأن ألمانيا تعيش فى حالة همجية من الثقافة . وأفصح فى هذا الـكتاب عن طبيعة الحقائق الواقعية وما يقع تحت الحس فى كل آن . وطالب بأن يكون الفن ممثلا للعصر والحياة . وفى هذا الـكتاب ينزع إلى المثل العليا ، كما يميل فى كتابته إلى التهكم المشبع بروح الفكاهة ، وفى كتابه الذى أسماه « بعض فوائد ومضار التاريخ في الحياة » Von Nutsen und Nachteil der Hisioriefürdas Leben قال بأن كثرة المعلومات ليست وسيلة الثقافة ، ولا هى دليل عليها إذ المسألة متعلقة بالسمو فى الحياة . أما التخمة الناجمة عن التهام التاريخ وحشره فى الرأس حشراً فانها تجعل الحياة مريرة كما تجعلها خطرة . فالتاريخ يضعف الشخصية ، ولا يمكن لشخصية أن تتحمله إلا إذا كانت غاية فى القوة . أما ضعاف الشخصية فالتاريخ يؤيدهم ، إذ يصبحون دائرة معارف متنقلة ، ولا يكون لهم رأى ، وإن جرأوا على ذلك فهو رأى محايد ، ليس لشخصيتهم فيه أثر . ومن رأيه « أن وظيفة الانسانية أن تعمل دون انقطاع لتخرج إلى العالم شخصيات عظيمة » . والذى جر نيتشه إلى هذا التفكير هو شدة تأثره « بشوبنهاور » و « فاجنر » ، غير أن أثرهما فيـه لم يدم إلا بعض الزمن . فقد أدرك عند ما شاهد حفلات « باريوت » Bayreuth — الحفلات الموسيقية والتمثيلية السنوية الهامة — أدرك أنه خدع في رأيه ، فقال بأن فاجنر يتخذ وسائل خشنة جامحة لإظهار تلك الفخامة العاصفة . وذلك الاضطراب العظيم المخيف وإن كان مزركشاً ومحلى بزخارف بهيجة أبغض الأشياء إلى نيتشه .

وفى سنة ١٨٧٦ أخذ نيتشه فى دراسة الفيسيولوجيا والطب والعلوم الطبيعية . ومن ثم أخذ يدرس من جديد جميع المسائل التى عالجها من قبل . وكتب في فترة العطلة التى قضاها فى جنوب ألـمانيا كتاباً أسماه « الخلاص » Loloesurq ، وهو أول جزء من كتاب جمع فيـه مختارات أقواله واختار له اسماً آخر هو : «إنسانى وإنسانى إلى أبعد حد» - Menschliches , Allsumen-schliches وكان ذلك عام ١٨٧٨ . ولـما أن أهدى كتابه هذا إلى صديقه فاجنر ليطلعه على آرائه الجديدة بعث إليه فاجنر بقطعته الموسيقية «بارسيفال» ونجم عن ذلك فتور بين الصديقين ، إذ تمسك كل منهما برأيه . ولعل كتاب « إنسانى ، وإنسانى إلى أبعد حد » هو كما أسماه صاحبه « كتاب لأحرار الفكر » وفى هـذا الـكتاب من التضارب فى القول ما جعل الناس تتحدث عنه . فبينما تراه فى هذا الـكتاب ملماً بكل شىء سليم المنطق ، تراه غاضباً فى بعض مواضع الـكتاب مهتاج الأعصاب مريضاً . والواقع أنه كان يقاسى الآلام ، ولـكنه كان يحاول الـكلام كمن لم يمس بسوء . وكان يريد الاحتفاظ بهدوئه ليهزأ بالعالم ، كما قال بعد ذلك بعشر سنين . والحق أن نيتشه كان ثائراً على نفسه .

« يتبع » ابراهيم ابراهيم يوسف

الفلسفة الشرقيــــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٩ —

الديانة الفارسية

الزرادشتية ومصدرنا عنها

ليس لدى الباحث عن الديانة « الزرادشتية » إلا مصدر واحد، وهو كتابها المقدس : « زند أفيستا » الذى وإن كان لم يتم جمعه إلا حوالى القرن السادس بعد المسيح إلا أنه قد احتوى على جزء عظيم يدعى « جاتها ياسنا » وهو الذي يرجح جميع العلماء أنه كلام « زرادشت » نفسه ويرجعون تاريخه إلى القرن السابع أو العاشر قبل المسيح على ما اختلفوا فى وجود النبي الفارسى كما أسلفنا . وما ليس من كلام « زرادشت » من هذا القسم هو — فى رأى الكثرة المطلقة من الباحثين — يمثل «الزرادشتية» الأولى حق تمثيل ، ويصح أن يعتمد عليه في تاريخ العصر الأول من عصور هذه الديانة . وهذا القسم قد وجد مكتوباً بلغة قديمة ترجع إلى ذلك التاريخ الذى عينه العلماء .

الميتافيزيقا

يجد الباحث فى قسم « الجاتها » أن « زرادشت » أرجع جميع آلهة العهد القديم إلى إلٰهين اثنين : إلٰه الخير « أهورا مازدا » أو « هور مازاد » أو « هرموز » ؛ وإلٰه الشر أو الكاذب أو الردىء ، وهو الذي سيسمى فيما بعد بـ « أهرمان » فى رأى المحققين . ولكن هذه التثنية ليست على علاتها ، ولم تكن تثنية بمعناها الصحيح ، لأن الإلٰه الذى خلق الكون هو « أهورا » أما « أهرمان » فلم يكن له عمل إلا إيجاد شبه ظل من الشر لكل خير يخلقه « أهورا » وهو وإن كان أزلياً كمازدا ، لأنه توءم ردىء له إلا أنه ليس أبدياً مثله ، إذ هو سيفنى عند ما يتغلب الخير على الشر فيمحوه من الوجود . أما رفعته عليه فهى ثابتة بنص الكتاب المقدس الذى أسلفنا الاشارة إليه . وإليك شيئاً من هذا النص :

« استمعوا بآذانكم الأشياء الجيدة وانظروا فيها بوضوح حتى تصمموا على أحد الايمانين ، لأن كل إنسان يجب عليه أن يصمم هو بنفسه قبل الفناء النهائى لكى يتكون حظ كل واحد منكم حسب اختياره .

إذاً ، فالروحان الأولان اللذان ظهرا في الوجود كتوءمين هما : الخير والشر ، وهما دائماً فى التفكير والقول والعمل والحكماء قد اختاروا بينهما ، وحسناً اختاروا ، ولكن الفاليك هم الذين أساءوا الاختيار . وعند ما تقابل هذان الروحان فى مبدأ الوجود أسسا الحياة و « اللاحياة » . وفى نهاية الأشياء سيكون أردأ أنواع الوجود من نصيب الذين يتبعون الكذب كما يكون أحسن الفكر من نصيب الذين يتبعون الخير . . . » إلى أن يقول :

« أيها الفانون ، إذا أنتم أطعتم أوامر « مازدا » الذى نظم السعادة والألم ووضع قاعدة العقاب الطويل للكذابين وبارك الأخيار فانكم ستفوزون بالسعادة الأبدية [1] »

قد رأيت من هذا النص سمو « مازدا » على « أهرمان » من جميع النواحى ، وعلى الخصوص من ناحيتى الأخلاق والأبدية ، ولكن هذا الالٰه مع سموه وجلاله لم يسلب القوة والإرادة من البشر حتى ولا الأشرار منهم ، بل ترك لهم من الإرادة ما يكاد يساوى إرادته نفسها ، ليكونوا كاملى الحرية فى الاختيار . ولولا هذه الحرية لما رأينا الكذب والشر يسودان كثيراً على هذه الأرض وينتصران أحياناً على الخير ؛ وهذه السيادة وذلك الانتصار كانا أحياناً يدفعان « زرادشت » إلى التشاؤم واسوداد المزاج كما يظهر ذلك فى الأنشودة الآتية : « نحو أى بلد أفر أو أنجو بنفسى ؟ لقد فصلت من النبلاء ومن أمثالى ، والشعب ليس مسروراً منى ولا الكذابون الذين يحكمون البلاد أيضاً . ما ذا أعمل لأرضيك أنت يا (مزدا أهورا) ؟

أنا أعرف جيداً لماذا لم أحز أي نجاح : ذلك لأنى ليس لدى

(١) ياسنا آية ٣٠

مال ولا رجال . أنا أدعوك يا (أهورا) أن تمنحني مساعدتك كما يساعد الصديق صديقه .

يا « مازدا » متى تشرق شمس انتصار الخير فى العالم بوساطة الحكمة السامية الممثلة فى المحررين الذين سيجيئون [١] ؟ .

لم تقبل هذه التثنية « الزرادشتية » إلا أثناء حياة مؤسسها ، أما بعد موته فقد دار حولها الجدل ولم يفهم الناس هذه الموازنة المعقدة التي وضعها زرادشت بين الخير والشر . وما زال هـذا الجدل يعمل عمله حتى انتهى حوالى القرن الرابع بعـد المسيح باحداث تغيير جوهرى فى هذه الديانة ، فذهب فريق من رجال الدين إلى إنكار التثنية بتاتاً وإعلان التوحيد حيث صرحوا بأن « مازدا » هو الإلـه الأوحد ، وأن « أهرمان » ليس خصماً له وإنما هو خصم روح القدس فى « مازدا » إذ هذا الأخير يحتوى على روحين : أحدهما خيّر والثانى شرير [٢] .

الملائكة والأرواح الخفية

يتحدث كتاب « زند أفيستا » عن عدد من كبار الملائكة كانوا وزراء لأهورا مازدا ، وقد حددهم القسم المتأخر من هذا الكتاب بستة وزراء ، كل واحد منهم له اختصاص معين وعمل محدود ؛ ووزاراتهم هى كما يأتي : (١) الفكرة الخيرة . (٢) الفضيلة الُجلّى . (٣) الامبراطورية المشتهاة (٤) التنازل الكريم . (٥) الصحة (٦) الخلود

هؤلاء هم رؤساء الملائكة الذين يكونون الهيئة العليا التى تلى « أهورا » مباشرة . وهناك عدد عظيم من صغار الملائكة ومن الأرواح والجن ، لكل واحد منهم أيضاً مهمة يقوم بها ومنزلة يشغلها ، وهذه المهمات تختلف فى جواهرها كما تختلف فى قيمتها ، فبعضها أخلاقي كصغار الأعمال الخيرية ، وبعضها مادى كالعناصر والنباتات المختلفة . وقد أخذ هذا العدد الأخير يتضاعف وتزداد سلطته حتى طغى أو كاد على الديانة الزرادشتية ولو فى البيئات العامية على الأقل حيث عاد بالجماهير إلى عبادة العناصر كما كانت الحال فى الديانة القديمة . وقد بعث « ميترا » من جديد وأصبحت النار والشمس والقمر والنجوم ملائكة ثم آلهة ، واستردت أهميتها الأولى فى تلك الأوساط وعاد إلى الوجود من جديد « أهوما » إله الخمر الذي رأيناه فى الديانة الأولى كما حدثت خرافات أخرى لم يكن للفرس عهد بها من قبل كذلك العملاق ذى الأرجل الثلاث والذى له أهمية فى إدارة العالم . ولكن ينبغي أن نلاحظ أن مازدا هو الذى كان لا يزال الإله الرئيس على جميع هؤلاء ، ولم يكن الآخرون إلا آلهة ثانويين أو ملائكة أو أرواحاً .

هؤلاء جميعاً هم أعوان « مازدا » أو هم الحزب الأعلى ؛ أما الحزب الأدنى أو أنصار إله الشر فهو يتألف طبعاً من «أهرمان» رئيساً ، وقد كان الشعب فى أول الأمر يتمثله فى ثعبان أو فى ذكر الضفدع أو فى حيوان ردئ مزعج أو فى حصان جمح وتوحش ثم استطاع أحد الملوك أن يقبض عليه ويخضعه ، ولكن لما تقدم الشعب وارتقت عقليته لم يعد يتمثل إلـه الشر على هذه الصورة المادية الساذجة ، وإنما خطا به نحو التصور المعنوي فرفعه إلى عالم المدركات العقلية وجعل له وزراء ستة كأهورا يختص كل واحد منهم بعمل من أعمال الشر والسوء ، وعلى رأس هؤلاء وضعوا « أندرا » الإلـه الشعبى القديم ، ولكن تحت اسم وزير سابع خاضع لأهرمان . ودون هؤلاء الوزراء وضع رجال الدين أيضاً ملائكة شر وأرواح سوء وشياطين وسوسة وضلال ، وذلك مثل ملك الرعد وملك العواصف المدمرة ، وكالأرواح الحالة فى الحيوانات المؤذية والحشرات الضارة ؛ وهناك أيضاً من هذا الحزب شياطين موكل كل واحد منها برذيلة من الرذائل ، عليه أن ينميها وينشرها ويعلى شأنها [١]

لم يكتف رجال الدين بهذا التقسيم ، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك فعينوا شمال بلاد فارس كمستقر لأرواح الشر وشياطينه ، وعلموا الشعب بعض تعاويذ سحرية إذا قرأها المؤمن فرت من أمامه أرواح الشر وتضعضعت قوتها وهوت إلى مكان سحيق . وكان أهم هـذه التعاويذ ما أخذ من الكتاب المقدس ثم قرئ بطريقة خاصة ولهجة معينة ورنة مُوقَّعَة .

الإنسان أو الشخصية البشرية

لم يوجد فى القسم القديم من « زند أفيستا » ما ينبئنا برأى

(١) ياسنا آية ٤٦

(٢) راجع (١) . (ف) « جكسون » . دراسة زرادشتية صفحة ٧٠ طبعة نيويورك سنة ١٩٢٨

(١) انظر تفصيل كل هذا في كتاب .. جاكسون الذى أشرنا إليه آنفاً من صفحة ٣٧ إلى صفحة ١٠٩

زرادشت فى الشخصية البشرية من : جسم وروح من حيث المبدأ أو المصير ، وإنما كل ما لدينا فى هذا الشأن قد وجد فى الأجزاء الأخيرة التي كتبت بعد عصر زرادشت بزمن غير يسير ، أى بعد ما ارتقت المعارف الإنسانية نوعا ما وبدأ الخاصة يفكرون فى ثنائية الانسان ويحللونه إلى جسم وروح .

يجد الباحث فى هذه الآيات المتأخرة أن الانسان يتألف من جسم وروح وأن الجسم يتكون من أربعة أشياء : اللحم والعظم والقوة الحيوية والصورة أو القالب ، وهذا الأخير هو وحده الذى يعود إلي الحياة فى حالة البعث دون الثلاثة الأول التى لا تبقى

وأما الروح ، فهي عندهم خمسة أنواع ، بين كل واحد منها وبين الأربعة الأخرى شيء من الترادف أو التقارب يجعل التحديد الدقيق صعباً أو كما يقول أحد الباحثين الأوربيين « إن مفردات لغاتنا لا تستطيع التعبير الصحيح عن هذه المعانى » . وهاك هذه الأقسام الخمسة للروح :

(١) النفس والالهام والعقل (٢) الدين والضمير الخلق والوحى (٣) الوجدان النفسي والشعور والاحساس (٤) الروح بأدق معانى الكلمة (٥) الفرافاشي . وهو عبارة عن شبح سماوى هو فى نفس الوقت ملك حارس وروح جوهرية ، وعلى الجملة هو الانسان الحقيقى الذى ليس الكائن البشرى إلا مظهراً له ، وهو وحده الذى يستطيع أن يتصل بأهورامازدا ويحيا فى حضرته ، ولهذا عند الموت يفني الانسان كله فى هذا « الفرافاشي » [1]

مصير الروح

عند ما يموت الميت تظل الروح ثلاثة أيام وثلاث ليال معلقة إلى جانب الجسم ، منعمة بنعيمه أو معذبة بعذابه ، وفي فجر اليوم الرابع تهب عليها ريح إما معطرة إذا كان الميت خيراً ، وإما نتنة إذا كان شريراً فتحملها إلى موضع تلتقى فيه إما بفتاة جميلة ، وإما بعجوز مفزعة ، وليست الأولى فتاة حقيقية ولا الثانية عجوزاً حقيقية ، وإنما هى صورة أعمال الميت ، وهى ضميره نفسه الذى سيقوده إلي حيث معبر الحساب والحكم الأخير . وعلى باب هذا المعبر يوجد ثلاثة قضاة بينهم « ميترا » وهناك ينصب ميزان توضع في إحدى كفتيه حسنات الميت وفى الأخرى سيئاته . وبناء على صعود إحدى الكفتين يصدر الحكم على مصير هذا الميت .

ويلاحظ أن الثواب والعقاب لم يكونا ينصبان على كل حسنة أو كل سيئة على حدة ، بل على مجموعة النوعين ، فاذا رجحت الحسنات كفرت السيئات مهما كانت كل واحدة منها فى ذاتها جسيمة ؛ كما يلاحظ أن الندم والتوبة لم يكونا معتبرين ، وأن الغفران فى الحساب لا وجود له ألبتة لأنه مؤسس على العدل لا على الرحمة .

وعلى أثر انتهاء الوزن وصدور الحكم يؤمر المحاسب بالمرور فوق هذا المعبر أو الصراط الممتد فوق الجحيم ، الذي يتسع أمام الأخيار ويضيق حتى يكون أدق من الشعرة وأحد من الشفرة أمام الأشرار .

فهؤلاء الأخيرون يهوون في جحيم مظلم ظلاماً كثيفاً إلى حد يستطاع معه لمسه باليد ، فاذا هووا فى الجحيم كانوا متزاحمين كأنهم كمية من الشعر فى مَعْرَفة حصان ، ومع ذلك فكل واحد منهم يشعر فى وسط هذا الزحام بوحدة قسية وعزلة ممضة .

أما الأخيار ، فيذهبون إلى النور حيث يستقبلهم « أهورمازدا » بعد أن يمروا فى وسط العمل الصالح والقول الخير والفِكر الطيبة ، وهناك يستمتعون في كنف « مازدا » بالسعادة الأبدية .

هذا كله بالنسبة لمن ثقلت موازينهم أو خفت ؛ أما من استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فهم يوضعون فى مكان فسيح بين السماء والأرض ، يقاسون فيه آلام الحر والبرد ، ويحسون بجميع التغيرات الجوية ، ويظلون ينتظرون فى أمل ورهبة الحكم الأخير على مصيرهم الذى يظل مظلما ماداموا فى هذا المكان . وأشهر أهل هذا الموضع هو : « كيرزاشبا » الذي قتل وحشاً مرعباً فحسب له ذلك حسنة ، ثم دنس النار المقدسة فحسبت عليه سيئة مساوية للحسنة الأولى فظل بين النعيم والجحيم [1]

« يتبع »

محمد غلاب

(١) راجع كتاب «مولتون» صفحات : ٢٥ ومابعدها و«جاكسون» صفحات ١٢٣ وما بعدها

(١) راجع « مولتون »صفحة ١٧٦

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٧٨ — والأبيات على ظهر يده

فى (مطمح الأنفس وشرح الشريشي) : خرج القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسي من بنى يحيي إلى حضور جنازة بمقابر قريش ، وكان رجل من بنى جابر يؤاخيه ينزل بقرب المقبرة ، فعزم عليه فى الميل إليه ، فنزل وأحضر له طعاماً ، وأمر جارية له بالغناء ، فغنت تقول :

طابت بطيب لثاتك الأقداح   وزها بحمرة وجهك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه   نمت بعَرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبست ظلماؤها   فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتبها القاضي طرباً بها فى ظهر يده ، ثم خرج من عنده . قال يونس بن عبد الله : فلقد رأيته يكبر للصلاة على الجنازة والأبيات مكتوبة على ظهر يده .

١٧٩ — أوسعتهم سباً وأودوا بالابل

فى (مجمع الأمثال) : حديثه أن رجلا من العرب أغير على إبله فأخذت ، فلما توارَوا صعِد أكمة وجعل يشتمهم ، فلما رجع إلى قومه سألوه عن ماله فقال : أوسعتهم سباً [١] وأودَوا بالابل [٢] . يضرب لمن لم يكن عنده إلا الكلام .

١٨٠ — اللثغة

قال على [٣] بن هرون المنجم : كنت وأنا صبي لا أقيم الراء فى كلامى وأجعلها غيناً ، فدخل المفضل بن سلمة على أبى وأنا بحضرته ، فتكلمت بشيء فيه راء ، فلثغتُ فيها [٤] فقال له الرجل : ياسيدى ، لمَ تدع ابنك يتكلم هكذا ؟ فقال له : وما أصنع وهو ألثغ ؟ [١] فقال له : إن اللُّثغة لاتصح مع سلامة الجارحة ، وإنما هى عادة سوء تسبق إلى الصبى أول ما يتكلم بتحقيق الألفاظ أو سماعه شيئاً يحتذيه ، فإن تُرك على مايستصحبه من ذلك مرن عليه ، فصار له طبعاً ، وإن أُخذ بتركه أول نشوئه استقام لسانه . وأنا أزيل هذا عن علىّ ثم قال لى : أخرجْ لسانك فأخرجته فتأمله فقال : الجارحة صحيحة ، قل يابنى : (راء) واجعل لسانك فى سقف حلقك ، ففعلت ، فلم يستو لى ، فما زال ينقل لسانى إلى موضع موضع من فمى ، ويأمرنى أن أقول الراء فيه ، فاذا لم يستو نقل لسانى إلى موضع آخر حتى قلت راء صحيحة فى بعض تلك المواضع ، فطالبنى بإعادتها ، وألزمنى ذلك حتي ذهبت اللثغة ، فأمر أن أطالب بهذا أبداً ، ويُتقدم به إلى معلمى ، وأوخذ بالكلام به ، ففعل ذلك ، ومرنت عليه ، وما لثِغت إلى الآن .

١٨١ — كلهم أعداء

قال ابن الجوزى : مر رجل بإمام يصلى بقوم فقرأ : «ألـم ، غُلبت الترك» فلما فرغ قال له محمد بن خلف : ياهذا ، إنما هو (غُلبت الروم)

فقال : كلهم أعداء ، لا نبالى من ذكر منهم .

١٨٢ — لبس التكمل فى العينين كالكحل

فى كتاب (الأنساب) للبلاذُرى المدائنى قال : كان عبد الله ابن الزبير يشمّر إزاره ، ويحمل الدِّرَّة ، يتشبه بعمر بن الخطاب فقال أبو حرة :

لم نرَ من سيرة الفاروق عندكم
غير الإزار وغير الدِّرَّةِ الخلَقِ [٢]

---

(١) أوسعته الشيء إذا جعلته يسعه ، والمعنى كثرته حتى وسعه فهو يقول كثرت سبهم فلم أدع منه شيئاً (الميدانى)
(٢) أودى به : ذهب
(٣) أخبارى ، أديب ، شاعر ، متكلم . وفاته سنة (٣٥٢)
(٤) اللثغة تكون فى غير الراء أيضاً

(١) بعضهم فى حكاية الألثغ :
تشغب المنكغ الحغام وغيق   أحمغ سكغ شغاب مكغغ
يريد :
تشرب المنكر الحرام وريق   أحمر سكر شراب مكرر
(٢) الدرة : السوط ، التهذيب : الدرة درة السلطان التى يضرب بها . (الخلق) البالية . شيء خلق : بال ، الذكر والأنثى فيه سواء لأنه فى الأصل مصدر ، والجمع خلقان وأخلاق . ويقال : ثوب أخلاق إذا كانت الخلوقة فيه كله

١٨٣ — كأنها رءوس رجال حلقت فى المواسم

قال الأغر النهشلى لابنه لما بعثه لحضور ما وقع بين قومه : يا بُنىّ ، كن بدًا لأصحابك على من قاتلهم ، وإياك والسفيه فإنه ظِلُّ الموت ، واتق الرمحَ فإنه رِشاء(١) المنية ، ولا تقرب السهام فإنها رسل تعصى وتطيع

قال : فبم أقاتل ؟

قال : بما قال الشاعر :

جلاميدُ أملاءُ الأكفّ كأنها
رءوسُ رجالٍ حُلِّقتْ فى المواسم(٢)

فعليك بها ، وألصقها بالأعقاب(٣) والسوق

١٨٤ — فالدب فى الصحراء ما أفقهه

ناظر أبو زيد عبدُ الله بن عمر الدبوسى(٤) بعض الفقهاء فكان كلما ألزمه أبو زيد إلزاماً تبسم أو ضحك فأنشد أبو زيد :

مالى إذا ألزمتهُ حجةً ... قابلنى بالضحك والقهقههْ
إن كان ضحك المرء من فِقهِهِ ... فالدب فى الصحراء ما أفقهه !(٥)

١٨٥ — يا مسكين أين أنت ؟

ذكر الحافظ السلفى فى (معجم السفر) : أن شخصاً قال فى مجلس الامام ابن القابسي (وهو بالقيروان) : ما أقصر المتنبى فى معنى قوله :

يُراد من القلب نسيانُكم ... وتأبى الطباع على الناقلِ(٦)

فقال له : يا مسكين ، أين أنت من قوله تعالى: « لا تبْـديلَ لِخلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ القيِّمُ ؛ ولَـكنّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلمُـون »

(١) الرشاء : الحبل والجمع أرشية
(٢) أملاء : جمع ملء
(٣) جمع عقب : مؤخر القدم ، والسوق جمع الساق
(٤) نسبة إلى دبوسية وهى بلدة بين بخارا وسمرقند . والدبوسي أول من وضع علم الخلاف
(٥) يخبر بالجملة مطلقاً وفى كتاب الله : (قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم) والعكبرى فى (إعراب القرآن) يراه مستأنفاً أو حالا . وهم النحاة . . . وفى شعرهم :
قلب من عيل صبره كيف يسلو ... صالياً نار لوعـة وغرام
(٦) وقبله وهو مطلع القصيدة :
إلام طماعيـة العاذل ؟ ... ولا رأى فى الحب للعاقل

١٨٦ — أبو تمام ، البحترى ، المتنبى

فى (المثل السائر) : سُئل الرضى عن أبي تمام ، وعن البحترى ، وعن أبى الطيب فقال : أبو تمام خطيبُ منبر ، والبحتري واصف جُؤْذر(١) ، والمتنبى قائد عسكر

١٨٧ — التخصص بمعرفة التلصص

قال الثعالبى : سمعت أبا بكر الخوارزمى يقول : أنشدنى الصاحب تتفة له ، منها هذا البيت :

لئن هو لم يكفف عقارب صدغه ... فقولوا له : يسمح بترياق ريقه(٢)

فاستحسنتُه جدا حتى حمت من حسدي عليه ، ووددت لو أنه لى بألف بيت من شعرى ! . قال الثعالبى : فأنشدت الأمير أبا الفضل عبيد الله بن احمد الميكالى هذا البيت ، وحكيت هذه الحكاية فى المذاكرة ، فقال لي : أتعرف من أين سرق الصاحب معنى هذا البيت ؟ فقلت : لا والله . قال: انما سرقه من قول القائل (ونقل ذكر العين إلى ذكر الصدغ) :

لدغت عينك قلبى ... إنما عينك عقربْ
لكنما المصة من ... ريقك ترياق مجربْ

فقلت: لله در مولانا الأمير فقد أوتى حظا كثيراً من التخصص بمعرفة التلصص ...

(١) فيها لغات منها هذا (ضم الجيم وهمزة ساكنة ، وضم الذال) ، ومنها فتح الذال ، ومنها على مثال كوثر . والعرب تشبه به وبأمه لأجل عيونهما . . .
(٢) الرواية (لئن) وترجيح الشرط على القسم عند اجتماعهما وتقدم القسم وإن لم يتقدم ذو خبر — قليل . وبيت فيه عقرب بل عقارب لا يحمد صاحبه . والنكتة فى (النقلة) معرفة التخصص بالتلصص .

من الأدب الرمزي

فى الطبيعة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

احتفلت الطبيعة لعيني العاشقة ، فحشدت أطفالها جميعاً ، ووقفت تعاجبني بهم ، وأبرزت نهودها من جبالها ، وأرسلت شعرها من حورها ، ورقرقت خدها بماء النبع ، وموّهته بدم الشفق ، وكللت جبينها بالزهر المضفور ، ومشقت قدّها في رقص السرو ، وخرجت عليّ بماء الضحى السابغ ضياء وملء الليل الساجي نجوما ، ومشت تتهادى على الحصى الملوّن . وتخطو على الجدد البيض والحمر ، وأخذت تغازلني بالنسيم الذي استروحتُ فيه بردَ قلبها لحر قلبي ... فسجدتُ أمامها بجسدي كله على الشوك والحصى في حضن صخرة مشرفة على هوة . . !

وقلت لها : هل أنا إلا منك ياذات الشباب المتجدد أبداً ؟ يا أيتها الأم الولود الأكول الضاحكة المعولة . . . ياذات البطن البراح الذي مما فيه البحرُ والدّيمومُ بعجائبهما وولائدهما . . . يا ذات الأثداء التي تدِرُّ وتمتص . !

سأرتد إليك وأجرد نفسي من شعور الانفصال عنك ، وأقف في صفوف أطفالك صورةً من صور الجمال أو القبح كما تشائين .. وسأطلق أنفاسي موْجةً في هبوات الريح ، وأصواتي نغمةً في النشيد الكبير الذي يملأ أسماع السموات والأرض . . وخطفات ذهني مع ومضات البروق . وسأضع جسدي لبنةً في البناء العام كالجبل والحصى الموضوع تحت السقف المرفوع . .

إني أخ كبير لأبنائك الذين تلدينهم مع ساعات الصباح والمساء ، أتلقفهم بعيني هاتين اللتين فيهما الإعجاب والرحمة للجمال والقبح ! عينيَّ اللتين وراءهما قلب خلقه الله أوسعَ منك وأعجب وأكثر ولادة . . . إنه يلد كل أبنائك ولادةً ثانيةً بمخاضها ورضاعها وفصالها ! ثم لا يرسلهم وينساهم فانين ضائعين كما تفعلين.. بل يبقيهم كلمات تامةً دائمة مسجلة في اللوح المحفوظ ...

فسأليهم .. اسألي الورد والشوك ، والحمل والذئب ، والورقاء والرقطاء ، والغراب والعصفور ، والنحلة والجعل ، وسائرَ ما تلدين من الأعلى والأدنى : ألست أوالي عليهم نظرتي وفكرتي ؟ واسألي الشمس والنجوم : ألا أسافر معها سفراً غير زمنيّ فلا أيام فيه ولا ليالي . !

واسألي النهار : ألا أغتسل بأول قطرة من ضياء فجره إلى آخر قطرة من شفق غروبه ، وأسير معه في موكب الحياة العام أدِبُّ بقدميّ على قارعة الطريق الممدود من أول الدنيا إلى آخرها . . ؟

واسألي الليل : ألا أجلس فيه متيقظاً أسترقُ السمعَ وألتقط الكلمات الخفية التي ينثرها في غفلة على الأجساد الهاجعة في موتتها الصغرى ؟

واسألي البحر : ألا أُسلم إلى عرائس موجه جسدي يعبثن به ، وأملأ بصري بأفقه ولجه وزبده ، وسمعي بضجيجه وصخبه ، ويدي بقواقعه وأصدافه ؛ وأتوسع كثيراً كثيراً حتى أغطيه بروحي وأشربه بكأسي التي وراء حسي ؟

واسألي الصحراء : ألا أقف في محرابها الأصفر ، وأمسح عضلات جبالها التي أعياها الوقوف ، وأرقدُ قلبي على مهادها بجانب ذراتها الجامدة وأشواكها الحادة ؟

فيا أيتها الأم إني غير عاق في البنوّة بيني وبينك ، والأخوة لأبنائك جميعاً مما علا أو سفل فأسبغي عليّ من شبابك الدائم ، واكشفي لي عن محاسنك المكنونة ، وعبقرياتك المضنون بها على غير أهلها ، وزاوجي بيني وبين بناتك العرائس الأبكار اللائي لم يطمثهن إنس قبلي ولا جان ... واسكبي في قلبي من ذاك الإكسير المخلد الذي يجعلك دائماً أصبى من أولادك ؛ ولا تأكليني فيما تأكلين من بنيك أيتها الهرة ... !

***

وحينما تغضبين أيتها الأم ، فتزأرين بحناجر الريح ، وتحطمين أبناءك بالقارعات العاتية ... وتثور أخلاطك فتقذفين الحممَ والشواظ واليحموم من تحت ، والصواعق وحرائق البروق وجبال الثلوج من فوق ، وتنفضين ما على الأرض بالزلزلة والميدان ، فلا يسلم من يدك بعوضة ولا جمل ... وتفتحين فكّيك لابتلاع الحقول بعشبها وشجرها ، والمدن بمدرها ووبرها فتسدين الفجوات التي خلت في أحشائك ، وتشبعين

جوعك إلى العناصر بأكل أبنائك الذين يضجون وهم فى الهول بين يديك بالثغاء والرغاء ، والزئير والطنين ، والهديل والنعيب ، وغيرها من أصوات الحيوان الأبكم ؛ وبالدعاء والبكاء من الحيوان الناطق : ابنك البكر الذى دلّلته وعزّزته وأعطيته مصباحا ومفتاحا زعم بهما أنه إلـهك ! وجعل قضيتك كلها « معادلة جبرية » فى نصف سطر من قلمه العجيب الذى يجعل الدنيا كلمات وأرقاما ... ! حينذاك أحاول أيضاً أن أقترب منك فى غضبك لأرى عبقرية الإماتة والتخريب فيك كما رأيت إبداع الايجاد والتكوين ، ولأرى الدنيا صوراً من القبح والبشاعة والقسوة والفوضى كما رأيتها صوراً من الجمال والانسجام والنظام ...

* * *

ولكنك تحتجبين عنا حين تبدلين الثياب لتخفي عوراتك وسوآتك وشناعاتك ، فتقتلين كل ذى عين حتى لا يراك فيقسم ألا يقترب ولا يعشق ولا يفنى فى مظاهر خداعك وطلاء حقيقتك ، وترسلين نارك التى تحرق دائما ، وماءك الذى يغرق دائماً ، وقوارعك التى تحطم دائماً . . . فلا مطمع لأحبابك فى رشوتك بالحب والشعر ، ولا محسوبية ولا شفاعة أمام قوانينك الصارمة . !

* * *

وهأنذا أبحث عن حِرْز حَرِيز فيما وراء يدك المخربة ، أخط فيه قبرى وأختبىء فيه وأرصد منه دائماً حركة التجدد ورجوع الشباب والجمال إلى ديباجتك ، واحتفالك لغير عينى من عيون الشباب الشعراء المقبلين . . . وهم يسكبون فى سمعك ما أسكبه الآن من كلمات الهوى والغزل .. ويقولون لك : « ياذات الشباب المتجدد . . اسبغى علينا من شبابك وأرضعينا يا أمنا من إكسير الخلد . . . » فأناديهم من مكانى البعيد الذى لا سلطان لكِ عليه قائلا : أيها الطامعون فى الخلود مع هذه العجوز المتجددة ... لا تطمعوا أن تعطيكم ما بخلت به على من قبلكم من بنيها ... إنها لم تسمح لأحد بالبقاء الكثير حتى لا يجتويها ويكفر بجمالها ، فابحثوا عن مثل هـذا المكان الحريز الذى أناديكم منه ... واقنعوا أن يكون حظ أحدكم منها قبراً معلوماً فى القبور ، يقف أمامه أبناؤها اللاحقون ويشيرون إليه قائلين : هنا يرقد قلب شاعر عرف أمنا فكان يشترى فيها الحبر بالذهب ... فاسكبوا على قبره كأساً منه..!

عبد المنعم خلاف

أطفال الطبيعة

للأستاذ محمد عبد اللطيف السحرتي

لم تكن إلا زقزقة العصافير تطوف بأثير نفسى ، وأنا عائد إلى البلدة فى طريق الحبيب الذى تحتضنه أشجار الكافور الخضراء الفارعة — لم يكن أعذب لنفسى من زقزقة تلكم العصافير التى مازجت أصواتها أحلامى ، وأنعشت ألحانها إلهامى — فى هذه الساعة السعيدة طابت أحلامى ، ونَبُل حديثي مع نفسى ، ولم يكن يهزني إلا مرأى الفلاحين المساكين ، وهم يكدحون حول الوادى فى صبر وقناعة وأحلام مضطربة ... ثم تعاودنى أصوات العصافير فتمحى مادوم بنفسى من هزات الأسى ، وتنقل إلى شعورها الفرح ، وتبعث فىّ سعادتها البريئة .

يا إلـهي ، لكأنك خلقت العصافير للطبيعة أطفالاً كما خلقت للناس أطفالهم ! وشتان بين أطفالها وأطفالنا : فأطفالها فى طفولة خالدة ، وأطفالنا بعد عمر قصير يكبرون ، فتنداح براءتهم وتنمحى شفافة نفوسهم !

هؤلاء الأطفال الخالدون يُنَبِّلونَ انفعالاتنا ، ويطهرون نفوسنا من هموم الأعمال اليومية ، ويخلقون لنا جواً روحياً ساجياً ينعم فى بحبوحته الأدباء والشعراء ، ويلقون علينا دروساً روحية ثمينة . ولقد ألقت علىّ عصفورة درساً خلقياً بليغاً ، وأنا فى حديقة « مونسو » البديعة بباريس ، عند ما كنت ألقى لها فتات الخبز ، فكانت وهى تتناوله تنادى أخواتها لتشاطرها الغذاء ، وهذا درس فى الايثار يلقيه علينا هؤلاء الأطفال الكرام

ولكم أحب الأدباء هؤلاء الأطفال الأعزة ، ومن بين هؤلاء الأديب الفرنسى كوبيه فى قطعته « موت العصافير » التى يُظهر فيها إشفاقه عليها ويبدي تخوفه من مفاجأة الموت لها فى الشتاء ، ويسائل فى انفعال وهزة : « هل العصافير تختفى لتموت ؟ » .

والذى نعلم أن العصافير تختفى فى مكان أمين ، وأنها في الجو الطليق تجد أمانا من الموت ولا تخشاه ، وإنما هى تخشى الانسان ، وهى إذ تمرح فى أمن وإيمان ، وتحمل الغذاء فى كل مكان ، وتستقبل الشمس فى الصباح وتودعها فى الغروب ، إنما تحمل للانسان رسالة الفرح والبراءة والجمال ، والحياة الطويلة ، إن لم أقل الخالدة !

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

رأيتني هجرت الحياة واخترت مهنة حارس للقبور على الجبل المقفر حيث يرتفع قصر الموت ، فكنت أحرس النعوش وهي أسلاب النصر تغص بها الدهاليز المظلمة ، فكنت أرى الساقطين في معترك الحياة المسجين في التوابيت المغطاة بالزجاج يحدجونني بنظراتهم المروعة . وهنالك نشقت عرف الأبدية غباراً يتطاير على روحي فيرهقها ولا أستطيع أن أنفض عنها هذا الغبار الثقيل

وكانت أصداء الليل تدور بي ومعها شبح العزلة والانفراد ، فكان رفيق سكون الموت تتعالى فيه من حين إلى حين حشرجة المدنفين

وكنت أحمل المفاتيح وقد علاها الصدأ أعالج بها أصلب الأبواب فتصرف مصاريعها بصراخ أبح تئيم يذهب مدوياً في الدهاليز كأن الدرفات أجنحة تقبضها أطيار تنعق متململة ممن يريد تنبيهها من رقادها

وعندما كان يخيم السكوت بعد هذا الدوي كان يبلغ رعبي أشده فأبقى وحدي محاطاً بهذا الصمت الرهيب

ومر الزمان متمهلاً ، لو صح أن في مثل هذه الرؤى زمان ، إلى أن وقع ما أفقت له مذعوراً .

قرع الباب ثلاث مرات بدوى كأنه الرعد القاصف ، فهتفت الدهاليز ثلاث مرات بصدى كأنه الزئير ، وتقدمت إلى القفل أعالجه فلم يتزحزح قيد أنملة ، وهبت العاصفة بشدة فدفعت بالمصراعين ورمت إليّ بنعش أسود وقد تصدع الهواء بالصفير والولولة وسقط النعش فانحطم وخرجت منه آلاف من القهقهات ، فرأيت آلافاً من الأطفال والملائكة وطيور البوم والمجانين والفراشات الضخمة يطفرون حولي ساخرين

واستولى الخوف عليّ فاذا أنا مطروح على الأرض أصرخ صراخاً مريعاً فانتبهت لصوتي مذعوراً .

وسكت زارا لحظة وهو حائر فإذا بأحب أتباعه إليه ينهض ويقبض على يده قائلاً : « إن تعبير رؤياك إنما هو في حياتك نفسها يا زارا . أفلست أنت النعش وقد حشدت الحياة فيه سيئاتها وعبوس ملائكتها ؟ أفليس زارا يجتاح اللحود مقهقهاً كالأطفال ساخراً بالساهرين على القبور الخافرين لها ، مستهزئاً بكل من تقرقع المفاتيح فى أيديهم .

لسوف يذعر هؤلاء الناس منك فيطرحهم ضحكك أرضاً فيغمى عليهم ثم ينتبهون وبذلك يثبت عليهم سلطانك .

لقد أطلعت لنا كواكب جديدة فى الآفاق ونشرت من الليل ما كنا نجهله من البهاء . والحق انك مددت ضحكك فوق رؤوسنا فأظلنا بعديد ألوانه . فمنذ الآن ستتعالى قهقهة الأطفال من النعوش وستعصف من الجهود القاتلة الريح التي نتوقعها .

لقد مثلت نفسك أعداءك فأزعجتك رؤياك ، ولكنك انتبهت منسلخاً عنهم وعدت إلى روعك ، وهم أيضاً سينتبهون فيرجعون إليك .

هكذا تكلم التابع ، فدار سائر الأتباع بزارا يشدون على يديه محاولين اقناعه بالنهوض من فراشه والانسلاخ عن أحزانه ليعود إليهم ، غير أن زارا بقي جالساً على فراشه وعيناه جاحظتان كأنه عائد من سفر بعيد لا يعرف ممن حوله أحداً ، ولكن أتباعه رفعوه وأوقفوه فانتبه فجأة وتغيرت سحنته فمد يده يداعب شعر لحيته ورفع عقيرته قائلا :

— كل هذا سيكون عند مايحين زمانه . فأعدوا لنا غذاء طيباً الآن لأ كفر عن الرؤيا التي رأيت ؛ غير أن العراف سيجلس إلى جنبي ليأ كل ويشرب معي وسأريه بحراً يغرق فيه نفسه

هكذا تكلم زارا ...

ولكنه حدق فى وجه تابعه الذى عبر له حلمه ، حدق به طويلا وهو يهز رأسه ...

الفداء

وسار زارا يوماً على الجسر فأحاط به رهط من أهل العاهات والمتسولين وتقدم إليه أحدب يقول له :

— التفت إلى الشعب يا زارا فهو أيضاً يستفيد من تعاليمك وقد بدأ يؤمن بسنتك . ولكن الشعب بحاجة إلى أمر واحد ليتوطد إيمانه بك : عليك يا زارا أن تتوصل إلى إقناعنا نحن أهل العاهات . وأمامك الآن نخبة منهم وما لك بعد مثل هذه الفرصة تنتهزها لتقوم باختبارك على مثل هذا العدد من الرؤوس . بوسعك الآن أن تشفي العميان والمقعدين فتخفف الأثقال ، وتريح المتعبين .

تلك هي الطريقة المثلى لهداية هؤلاء القوم إلى الايمان بزارا

فأجاب زارا :

— من يرفع عن ظهر الأحدب حدبته فقد نزع منه ذكاءه. هذه هي تعاليم الشعب . وإذا أعيد النور إلى عيني الأعمى فانه ليرى على الأرض كثيراً من قبيح الأشياء فيلعن من سبب شفاءه . ومن يطلق رجل الأعرج من قيدها فانه يورثه أذية كبرى إذ لا يكاد يسير ركضاً حتى تتحكم فيه رذائله فتدفعه إلى غاياتها . هذه هي التعاليم التي ينشرها الشعب . وهل على زارا إلا أن يأخذ عن الشعب ما أخذه الشعب عنه ؟

غير أنني منذ نزلت بين الناس سهل على أن أرى منهم من تنقصه عين ، ومن تنقصه أذن ، وآخر فقد رجليه ؛ وهنالك من فقدوا لسانهم أو أنفهم أو رأسهم .

وهكذا رأيت أقبح الأمور . وهنالك أشياء أشد قبحاً مما ذكرت لا يسعني ذكرها فما يصعب عليّ سكوت عن أكثرها .

رأيت رجالا فقدوا كل شيء ، غير أنهم يملكون شيئاً يسوده الافراط ، فهم رجال كأنهم عين عظيمة أو فم واسع أو بطن كبير أو عضو آخر كبير لا غير . وما هؤلاء الناس إلا أهل العاهات المعكوسة

وعند ما عدت من عزلتي لأجتاز هذا الجسر للمرة الأولى وقفت مندهشاً لا أصدق ما أرى فقلت : هذه أذن ، أذن وسيعة كأنها قامة رجل ؛ وتقدمت إليها فلاح لى وراءها شيء صغير لم يزل يتحرك وهو ناحل ضعيف يستدعى الاشفاق ، فان الأذن الكبرى كانت قائمة على ساق دقيق . وما كانت هذه الساق إلا إنسانا. ولو أنك تفرست في هذا الشيء بنظارة لرأيت فوقه وجهاً يتقطب بالحسد وينم عن روح صغيرة تريد الانتفاخ وترتجف على قاعدتها .

وقال لى الشعب : إن هذه الأذن ليست رجلا فحسب ، بل هى أيضاً رجل عظيم بل عبقرى من عباقرة الزمان . غير أننى ماصدقت الشعب يوماً إذا هو تكلم عن عظماء الرجال ، فاحتفظت بعقيدتى وهى أن هذا الرجل ذو عاهة معكوسة إذ ليس له إلا القليل من كل شيء والكثير من شيء واحد .

وبعد أن وجه زارا هذا الخطاب إلى الأحدب ومن تكلم بالوكالة عنهم اتجه نحو أتباعه وقد تحكم الكدر فيه فقال :

والحق أننى أسير بين الناس كأننى أمشى بين أنقاض وأعضاء منثورة عن أجسادها . وذلك أفظع ما تقع عليه عيناى فاننى أرى أشلاء مقطعة كأنها بقايا مجزرة هائلة . وإذا ما لجأت عينى إلى الماضى هاربة من الحاضر فانها لتصدم بالمشهد نفسه . فهنالك أيضاً أنقاض وأعضاء أشلاء وحادثات مروعة، ولكننى لا أرى رجالا ...

إن أشد ما يقع على أيها الصحاب إنما هو الحاضر والماضى وما كنت لأطيق الحياة لو لم أكن مستكشفاً ما لابد من وقوعه فى آتى الزمان ، وما زارا إلا باصرة تخترق الغيب فهو رجل العزم وهو المبدع ، هو المستقبل والمعبر المؤدى إلى المستقبل ، هو واأسفاه ذو عاهة ينتصب على هذا المعبر .

وأنتم أيضاً تتساءلون مراراً : من هو زارا ؟ وبماذا نسميه ؟ فلا تتلقون غير السؤال جواباً كما أتلقاه أنا .

أهو من يَعِدُ أم من ينفذ الوعد ؟ أهو فاتح أم وريث أهو الطبيب أم هو الناقه ؟

أشاعر هو أم حقيقة ؟ أمحرر أم متسلط ؟ أصالح أم شريرٌ ؟

ما أنا إلا سائر بين الناس قطعاً من المستقبل الذى يتراءى لبصيرتى ، وجميع أفكارى تتجه إلى جمع وتوحيد كل متفرق على أسرار ومبدد على الصدف العمياء .

وما كنت لأحتمل أن أكون إنساناً لو أن الانسان لم يكن شاعراً محللاً للأسرار ومفتدياً لإخوانه من ظلم ما تسمعونه صدفة ودهراً . وما الفداء إلا فى إنقاذ من ذهبوا ، وتحويل كل ما كان إلى ما أريد أن يكون .

ما المخلص والمبشر بالغبطة إلا الارادة نفسها وهذا ما أعلمكم إياه يا أصحابي ، ولكن اعلموا أيضاً أن هذه الارادة لم تزل سجينة مقيدة.

إن الارادة تنقذ ، ولكن ما هى القوة التى تفيد المنقذ نفسه ؟

إن داء الارادة الوحيد إنما هو كلمة « قد كان » تقف الارادة أمامها تحرق الأرّم عاجزة عن النيل كل ما كان ، فالارادة تنظر بعين الشر إلى كل ما فات وليس لها أن تدفع بقوتها إلى الوراء ، فهى أضعف من أن تحطم الزمان وما تريده الزمان ، وهذا داء الارادة الدفين

إن الارادة تنقذ ، ولكن ما هو تصور الارادة فى عملها للتخلص من دائها وهدم جدران سجنها ؟

وا أسفاه ! إن كل سجين يصبح مجنوناً ، وما تنقذ الارادة السجينة نفسها إلا بالجنون .

إن الزمان لا يعود أدراجه . ذلك ما يثير غضب الارادة وكيدها فهنالك صخر لا طاقة للارادة برفعه ، وهذا الصخر إنما هو الأمر الواقع .

هكذا تكلم زارا ....

فليكس فارس



رسالة الشعر



في استانلي (*)

للأستاذ محمود غنيم

كلُّ شيء في الصيف يشكو الخمودا ... وأرى البحرَ وحدَهُ في نشاطِ
قذف البحرُ درَّهُ المنضودا ... أرأيت الجُمانَ فوق الشاطي ؟

***

ياخليليَّ أين أين الرداء ؟ ... أنا مالي بكلِّ ذاك يدانِ
ذاكَ ماء أم هذه كهرباء ... أمْ لهذا الخليجِ تيَّارانِ ؟

***

أنا أخشى عوارىَ الأجسادِ ... لست أخشى العُبابَ والأعصارا
يصرعُ الموجَ ساعدي وفؤادي ... خائرٌ واهنٌ أمامَ العذارى

***

رفعوا في الزوابع الأعلاما ... يُنْذِرون الأنامَ بالأخطارِ
نكِّسوها ثم ارفعوها إذاما ... لاح سربٌ من الأوانسِ عارِ

***

أعوارٍ تلك الدُمى أم كواسى ... بلباس يفصِّل الأجساما ؟
لاوقاه اللهُ البلى من لباسٍ ... إنه كان واشياً نماما

***

صاح ماذا رأيتَ حولَ الماء ... أهْوَ سِرْبٌ من الحمائمِ ظَامِ ؟
طيَّبَ اللهُ خاطرَ الصحراء ... أصبح البحرُ مرتع الآرامِ

***

ها هنا لؤلؤٌ بغير محارِ ... سابحٌ باحثٌ عن الغوَّاصِ
وظباء لم تدرِ معنى النِّفارِ ... تَضَعُ السهمَ في يد القنَّاصِ

***

أُنظر الشمسَ والهوى والهواء ... كيف راحت تنساب في الأجسام
إن للشمس والهواء شفاء ... لايساوى ماللهوى من سقامِ

رُبَّ ثغرٍ يداعبُ الأمواجا ... ينثُر الماء كاللُّجين المُذابِ
تشتهيه النفوسُ ملحاً أُجاجا ... خارجاً من بين الثنايا العِذابِ

***

رُبَّ ساقين غاصتا في الماء ... كلُجينٍ ينسابُ وسْط لجينِ
بدتا آيتينِ في الإغراء ... وهما فيه نصفُ عاريتين

***

إن فوق الرمال غيداً نياما ... كالأفاعي: لينٌ بغير عظامِ
ليس سُمًّا لعابُها بل مُداما ... هو بُرْءُ السقيمِ، رِيُّ الظَّامِ

***

قال جاري: ألاتكونُ رزينا ؟ ... قلت: لاتلحني، فقدتك جارا
وتلفتُّ يَسْرَةً ويمينا ... قال: ماذا أضعت؟ قلت: الوقارا

***

أيها المشتكي من الإقلالِ ... متِّع النفس بالجمال متاعا
لم يُبيحوا لنا شُيُوعَ المالِ ... وأباحوا لنا الجمال مُشاعا

***

صاح قل لي: مابال تلك الصدورِ ... كشفُها لايحلُّ للأحداقِ ؟
ليتهم حرَّموا ذوات (1) الشُّعورِ ... فهْي عندي مثل القذى في المآقي

***

لاتضيقوا بالمعصم المكشوفِ ... وتقولوا: خيرُ الجمال المصونُ
ماغناء الشذى بغير أنوفِ ؟ ... قيمةُ الحسنِ أن تراه العيونُ

***

لاتقولوا: قد غاض ماء الحياء ... واقرأوا الآيَ في وجوه الحسانِ
رُبَّ عضوٍ من هذه الأعضاء ... نمَّ عن سرِّ قدرة الرحمنِ

(*) من شواطئ الاستحمام في الاسكندرية

(1) يقصد صدور الرجال

وحى جديد . !

إلى ذات الوجه الأسمر

هذه السُّمْرَةُ العجيبةُ ، ماذا　　راح يُغْرِى بوصفها تبيانى ؟ .
أين شعري منها ، وأين خيالى　　هي فوق الخيال والأوزانِ
رُبَّ معنى توحى به لم يحوِّمْ　　حوله شاعرٌ مدى الأزمانِ
أنا منها فى مهبط الوحى ، لكن　　عقَدَ الحبُّ فى ذراها لسانى .
غير أنى مُسْتَلْهِمٌ سِحْرَ عينيك　　م المعاني ، ويالها من معانِ
لا تغضِّى عنى جفونَك حتى　　أتلقَّى عنهنَّ آى افتنانى
أسعدينى بنظرةٍ منكِ تَشْفِى　　غُلَّة الصدرِ مِنْ شَجِيٍّ عانِ
وهَبى لى سويعةً من وصالٍ　　بعد عمرٍ قضيتُ فى حرمان
وأتيحي لناظرىَّ متاعاً . . .　　عبقرياً من حسنك الفتّانِ
أضجعى رأسكِ الصغيرَ على صد　　رى وأصْغِى لهذه الألحانِ
ودَعينى أسكبْ بأذنيك أنغا　　م جريح شدا على الأغصان
لا تشيحي عنى بوجهٍ أفدّيه　　بدنيا من باسمات الأمانى . !

(القاهرة)　　أحمد فتحى

أيها الآسفُ الحزينُ الباكِى　　إيْكِ ماشئتَ ضيعةَ الأخلاقِ
قِفْ إن اسْطَعْتَ دورةَ الأفلاكِ　　أو فَـكِلْ أمرَ الخلق للخلّاقِ

***

ها هنا أعشقُ الملاحةَ صِرْفاً　　ما عليها من الثياب غِشاء
ها هنا ليس يعرف الكحلُ طرفاً　　لا ولا يغمرُ الخدودَ طِلاء

***

ها هنا روعةُ الطبيعة تبدو　　فتراها عذراء بين العذارَى
أنظر البحرَ وهو جزر ومدٌّ　　وانظر الشمس فيه إذ تتواري

***

أيها البحرُ قد نزلتُك ضيفاً　　فكأنى أغرقتُ فيك همومى
ليت عمْرِى جميعَهُ كان صيفاً　　ينقضى فوق شطِّ بحر الرُّوم

« الاسكندرية »　　محمود غنيم

من صور الطريق

الاعمى . .

هَذِهِ السَّيْرُ ، وَأضواهُ المطَافُ　　فتولَّتْ هديَهُ الخَمْسُ اللِّطَافُ (١)
وَاهِنُ الخطْوَةِ لَمْ تَنْهَضْ بِهِ　　مِنْ عياءِ الجِسْمِ أطرافٌ ضِعافُ
رَاعَنِى مِنْهُ جَبِينٌ شَاحِبٌ　　كجبينِ الزَّهْرِ أذْوَاهُ القِطَافُ
وَيَدٌ مِنْ حَوْلِهِ حَائِرَةٌ　　دَأْبُها فِي السَّيْرِ خَفْقٌ وَارْتِجَافُ
رَهْنُ كَفَّيْهِ السَّنَا لَكِنَّمَا　　دُونَ عَيْنَيْهِ حِجَابٌ وسِجَافُ
مَنْ رَأَى الظَّمْآنَ يَرْجُو رَشْفَةً　　وَعَلَى جَنْبَيْهِ رِيٌّ وَارْتِشَافُ ؟
أَوْ غَرِيقاً عَاجِزاً فِي مَوْجِهِ　　وَعَلَى مَرْمَى ذِرَاعَيْنِ الضِّفَافُ ؟

***

... يَامُطِيفاً لا تَنِى عَزْمَتُهُ ...　　أَيْنَ يَرْسُو بِكَ فِي الأَرْضِ الطَّوَافُ
رَنَّحَتْ عِطْفَيْكَ أَوْصَابُ الضَّنَى　　مِثْلَمَا رَنَّحَتِ العِطْفَ السُّلافُ
وَشَغَافُ القَلْبِ أَذْوَاهُ الأَسَى　　فَذَوَى مِنْ طُولِ مَايَلْقَى الشَّغَافُ
حَوْلَكَ النَّاسُ جُمُوعٌ حُشِدَتْ　　وَلَهُمْ عَنْكَ بِعَادٌ وَانْصِرَافُ
لَمْ يُصَافُوا مَنْ خَلَتْ رَاحَتُهُ　　وَاحْتَفَوا بالرَّاحَةِ المَلْأَى وصافوا
فَامْضِ فى شَأْنِكَ لاتَحْفِلْ بِهِمْ　　أَتَجَافَوا عَنْكَ أَمْ لَمْ يَتَجَافُوا
لاتُرَجِّ النَّصْفَ، أَوْ تَشْكُ الأَسَى　　لَيْسَ بَيْنَ النَّاسِ عَدْلٌ وَانْتِصَافُ
أَرَأَيْتَ النِّضْوَ يَشْكُو دَاءَهُ　　لِطَبِيبٍ طِبُّهُ سُمٌّ زُعَافُ

***

لَوْ أَتَاهُ النَّاسُ طُرًّا خُضَّعاً　　وَافَتِ الدُّنْيَا بِنُعْمَاهَا وَوَافُوا
أَوْ سَعَى المَجْدُ إِلَيْهِ ، وَلَهُ　　بِجَنَابَيْهِ اعْتِصَامٌ وَالْتِفَافُ
لَمْ يَجِدْ فِيهِ غِنًى عَنْ عَيْنِهِ　　فَرِغَابُ الْمَجْدِ وَالدُّنْيَا زِيَافُ
قَسَماً لَوْ زُفَّتْ الدُّنْيَا لَهُ　　فِي مَجَالِيهَا لَمَا أَجْدَى الزِّفَافُ
لَيْسَ يُغْنِي الزَّهْرَ فى مَنْبَتِهِ　　رَائِعُ الطَّلْعَةِ وَالْجَوُّ جَفَافُ

« الاسكندرية »　　أحمد فتحى مرسى

---

(١) يعنى أصابع كفه الخمس والطاف الدقق . وقد استعملها العرب ومنها قول أبى تمام فى وصف القلم :

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت　　عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوضت　　لنجواه تقويض الخيام الجحافل



على سور (جينان)(١)

للكاتب الصينى الشهير (بانغ جينغ شينغ)

ترجمة محمد مكين الصينى

لما رجع (هونغ سين) إلى المنزل قال لأخيه: « هل سمعت أن اليابانيين يريدون أن يحتلوا مدينة (جينان)؟ »

فأخذ أخوه يشك فى وفاء جنود الصين وقال: « ألم يقاومهم جنودنا؟ »

قال وهو يريد أن ينوه بكرامة جنود الصين وإخلاصهم: « بلى! »

فجعل أخوه يرتاب فى كفايتهم قائلا: « هل فى المدينة قوة كافية؟ »

قال: « لا بد أن تسقط المدينة فى أيدى اليابانيين عاجلا أو آجلا! ولكن الواجب علينا أن ندافع عنها باذلين أقصى جهدنا، فإن خضعت لهم فى آخر الأمر قوتنا فلن تخضع لهم روحنا. » ثم رفع رأسه وأصلح بيده شعره.

فطفق أخوه يرتاب فى توازن القوتين المتحاربتين قائلا: « بلغنى أنه قد وصل إلى (جينان) خمسة آلاف من جنود اليابان. »

قال، وهو يتمشى في الغرفة: « اسمع! قد شرع اليابانيون يطلقون المدافع! لا يتوقف الانتصار على كثرة الجنود، فاذا اشتدت حمية قومنا وتطوع نصفهم للدفاع فلا تخش سوء العاقبة ولو... »

ثم توقف عن الكلام لأن قلم الرصاص الذى فى يد أخيه انكسر ونشأ عن ذلك فرقعة صغيرة، ووقف ينظر إلى أخيه بعين الريبة وسكت هنيهة ثم قال: « هل كتبت فى هذه الأيام إلى السيدة الوالدة؟ »

قال أخوه: « لا. قد انقطعت المواصلات بين (جينان) و (تسينغ تاو)(١) منذ أيام كما علمت فلا يمكن أن يصل إليها الخطاب لو بعثت به. »

— « إذا لم يصلها خطاب منا فلا محالة يشتد اضطرابها. ولا أمل فى الدراسة هذا العام مع هذه الحالة، فان استطعت أن تعود إلى البلد مبكراً فعلت. إن السيدة الوالدة بعد وفاة السيد الوالد فى حاجة إلى من يعولها، ويكفى أن يتطوع أحدنا للدفاع » ولما سكت تأمل فيه أخوه شاكا فى أمره.

وقد أكثر من الكلام، وبعد أن دار في الغرفة دورتين جلس إلى مكتبه فأخذ كتاباً ينظر فيه كأنه يطالعه.

قد تتابعت فى ضواحى المدينة أصوات المدافع وارتفعت الصيحات داخل المدينة.

تذكر فجأة أمراً ما فوضع الكتاب على المكتب ورمق أخاه حزيناً كئيباً يقول: « شانغ سين! »

« مالك يا هونغ سين؟ »

قال لأخيه بكل لطف: « إذهب إلى الآنسة « لوس » لعلها هي وأمها فى حال سيئة من الذعر »

فأومأ أخوه برأسه أن سمعاً وطاعة.

وبعد خمس دقائق جلجلت أصوات المدافع تتخللها فترات قصار، فقام أخوه يقصد الباب فصافحه قائلاً: « يا أخى! » وقد خالف فى ندائه هذا عادته فانه كان دائما يدعو أخاه باسمه فتلاق بصره بصر أخيه ثم قال: « إلى اللقاء! »

---

(١) (جينان) حاضرة مقاطعة (شانتونغ) شبت فيها حرب بين الصين واليابان سنة ١٩٢٨ إذ تقدمت جيوش الحكومة حاضرة نحو بكين وحاولت اليابان منع تقدمها ثم عقدت الهدنة

(١) (تسينغ تاو) ميناء فى جنوب (شانتونغ) بينها وبين (جينان) سكة الحديد

فنظر إليه أخوه نظرة المحزون المهموم وقال : « ألا تخرج الليلة فتكتب خطاباً إلى السيدة الوالدة ؟ »

فأشار برأسه أنه سيفعل ، وخرج أخوه ، وكان ذلك بعد الظهر .

وبعد المغرب أخذت أصوات المدافع تتكاثر وتتعالى فى ضواحى المدينة ، وارتفعت الصيحات بالويلات ؛ ولما كاد الليل ينتصف خفتت أصوات المدافع شيئاً فشيئاً وأخذت تقل ، وكان (هونغ سين) يتمشى فى غرفته ويظن أن أخاه في منزل الآنسة (لوس) فدعا له بالأمن والسلامة ، ثم فتح خزانة الثياب وأخرج منها ثوباً من ثياب الألعاب الرياضية فلبسه ، وشد رباط حذائه ثم أقفل باب المنزل وخرج .

وكان القمر وهو في أيام التربيع الثانى ممتقعاً لونه معلقاً فى جو الشرق تحيط به غيوم فاحمة كأنها تحاول أن تبتلعه .

وكانت الرصاصات وقنابل المدافع تتطاير هنا وهناك ، وأصوات البكاء والعويل تملأ أذنيه .

جعل يمشى فى أقرب طريق إلى البوابة الغربية لسور المدينة ؛ ولم يخطُ إلا خطوات قلائل حتى طارت قنبلة من فوق رأسه فوقعت على جدار بعض البيوت فملئت أذناه جلبة وضوضاء من تهدم الجدران يعقبه أصوات الفزع والصراخ والبكاء ؛ ثم عاد الجو بعد هنيهة إلى ما كان عليه من سكون وهدوء .

ولما اجتاز عدة شوارع رأى بيتاً تشتعل فيه النيران اشتعالا هائلا ، ورأى جماعة من الرجال والنساء ، منهم من يحمل على ظهره أمه الفانية ، ومنهم من يقود أباه الهرم ، ومنهم من تحمل على ذراعها رضيعها ، وهم يهيمون على وجوههم في الشوارع باكين صارخين لايدرون إلى أين يلتجئون . وبيناهم كذلك إذا بقنبلة تسقط بينهم فانفجرت فملئ الجو صراخاً وأنيناً : أنين الذين يشرفون على الموت الزؤام ، فأغمض عينيه ومضى فى سبيله قدماً بخطوات واسعة . ثم ارتبكت رجلاه فجأة ارتباكا كاد يعثر منه ، فنظر إلى الأرض فاذا بجثة سيدة ملقاة على الثرى تبين فى نور القمر أن قنبلة قد ذهبت باحدى رجليها وتركتها غارقة في دمائها البريئة ، وطفل لم يمض على ولادته حول كامل مكب على صدرها يرضعها

ولما بلغ جانب السور رأى نور القمر يسطع من بين الغيوم السوداء ، وشاهد كثيراً من جثث الجند مبعثرة على مسند السور هنا وهنالك يئن فيها من لم تزهق نفسه بعد ، فالتقط من الأرض بندقية وسلب إحدى الجثث كنانة الرصاص ثم أخذ يصعد على السور ، وما كاد ينتهى إلى شرفته حتى تدحرجت جثة من فوق السور عثر فيها ثم نهض من عثرته على الفور . ولما انتهى إلى الشرفات التفت يمنة ويسرة فوجد مسافة نيف وخمسين متراً خالية من حراسة الجند ، ثم أخرج رأسه من بين شرفتين ليعرف حالة العدو ، فطار نحوه الرصاص ومر بجانب أذنه ، فانسحب سريعاً وانتقل إلى مابين الشرفتين الخامسة والسادسة من يساره ، وأخرج رأسه مرة أخرى فرأى بأشعة القمر بضعة عشر جندياً يابانياً يحاولون تسلق السور من هذا المكان الخالى من الحراسة ، بعضهم على أكتاف بعض ، فصوب بندقيته إلى أحدهم فى الطبقة السفلى وأطلق عليه رصاصة فأصابته بالمصادفة فانهارت الطبقة السفلى وتدحرج الذين فوقها إلى الخندق كلهم أجمعون .

ولكن بعد هنيهة اجتمعوا عند السور مرة أخرى فأطلق عليهم رصاصتين فأصاب أحدهما وأخطأ الآخر ، وبينا هو فى اضطراب وغضب إذا برجل يناديه من وراء ظهره : « من أنت يا رجل ؟! »

أجابه (هونغ سين) بدون تروّ ولا تردد : « من عساكر الخفية . »

ولما التفت إلى خلفه وجد بضعة عشر جندياً قد أتوا إلى النقطة التى يدافع عنها وحده فدلهم على اليابانيين تحت السور ، فأطلقوا عليهم وابلا من الرصاص فأصابوا شرذمة منهم وتوارى الباقون فى حقول القمح بجانب السور ، ولما لم يحسوا بحركتهم ظنوا أنهم قد فروا من وجوههم ، فأخرجوا مطمئنين رءوسهم من خلال الشرفات ، وإنهم لكذلك إذا بنار تتلألأ أمامهم عن بعد ، وإذا بقنبلة طارت نحوهم فذهبت باحدى الشرفات وتطايرت شظايا القنبلة فى كل صوب ، ومات عقب انفجارها أكثر المدافعين عن السور ؛ فانسحب الباقون إلى نقطة أخرى بعيدة عن مسقط القنبلة ثم جاءت قنبلة أخرى لم تصب شيئاً .

وبعد بضع دقائق اقترب بضعة عشر جندياً يابانياً من السور فأطلق عليهم وابل من الرصاص فاختفوا فى حقول القمح

واستمروا على الكر والفر ، وبعد مدة مات المدافعون عن السور من قنابل المدافع ولم يبق منهم إلا جندى واحد مع (هونغ سين) الذى أصيب فى ذراعه اليسرى فعصبها بمنديله .

انفجر الليل واجتمع الأعداء فى شرق السور الشمالى وخف الضغط على نقطتهما فأخرج (هونغ سين) من جيبه علبة لفائف التبغ وقدمها إلى زميله الجندى قائلا : « دخن لفافة »

ثم جلسا حلف شرفات السور ورأيا مئات من آثار قنابل المدافع على السور وقد اشتمل ضباب الصباح على وحشة واكتئاب

قال (هونغ سين) : « لولا عرقلة اليابانيين لوصلت جيوشنا إلى مدينة (ديجو) : »

وقال الجندى : « يسوءنى جداً أنهم أهلكوا الليلة خلقاً كثيراً من إخواننا . » ثم امتص الدخان بقوة .

وعبر (هونغ سين) عن آماله قائلا : « لعل عدد الباقين منا يكفي للدفاع عن المدينة يوماً آخر . »

فهز الجندى رأسه ثم أخرج من جيبه رغيفاً من الخبز وقال لزميله : « أتحب أن تتناول شيئاً من هذا ؟ » فهز (هونغ سين) رأسه وأخرج لفافة من لفائف التبغ ليسد بها جوعه

دار الجندى بعينيه حول وجه (هونغ سين) وأطرافه وهو يأكل من خبزه ثم قال : « يا أخى ! إنك لا تشبه الجندى فى الصورة . »

فسأله (هونغ سين) مبتسما : « لا يهمنى هل أشبه الجندى فى الصورة أو لا أشبهه . قل لى هل أشبه الجندى فى الدفاع ؟ »

قال الجندى معجباً به : « نعم . ما رأيت قط جندياً باسلا داهية مثلك ! »

ثم شبع الجندى فكثر حديثه فقال . « ألا إن المتطوعين فى هذه المرة كثيرون ، وكنا بعد ظهر أمس ندافع فى جهة الجنوب فجاء طالب من طلبة المدارس ليساعدنا على الدفاع ، وما كان أشجعه فى القتال : لكنه وا أسفاه لم يكن يدرى كيف يختفي وراء شرفات السور فأصيب بعد قليل بجرح . »

قال (هونغ سين) : « أكان ذلك بعد ظهر أمس : »

« نعم . »

« كيف شكله ؟ »

« أقصر منك بقليل ويشبهك فى السحنة غاية الشبه . »

قال ذلك وهو يديم النظر إلى عينى (هونغ سين)

فسقط على الأرض ما بقى فى يد « هونغ سين » من لفافة التبغ

فسأل الجندى فزعاً : « هل يلبس الزى الأزرق الخاص بالطلبة ؟ »

« نعم . »

« أجرحه فى خطر ؟ » قال هذا وهو فاغر فاه ينتظر جواب صاحبه الذى قال :

« جرح فى ترقوته اليسرى ، فاذا أتيح له من يسعفه أمكن أن يشفى ؛ ولكن أنى يكون لنا فراغ لنعتنى بجرحه ؟ فتساقط المسكين على الأرض وجعل ينادى : « يا أماه ! » فسأله على سبيل المزاح « يارجل ! أفتريد أن ترضع أمك ؟ »

فنهض (هونغ سين) من فوره .

فقال له الجندى : « أتريد أن تعود إلى المنزل ؟ »

« لا . بل إلى جهة الجنوب . »

« لإسعاف الجرحى ؟ »

« لإسعاف شقيق ؟ » ثم مشى نحو الجنوب .

فقال الجندى : « وا أسفاه ! »

فى هذه اللحظة نفسها اشتد هجوم الأعداء فى شرق السور الشمالى وتوالت أصوات المدافع وتعالت معمعة المدافعين على السور وأصوات البكاء والعويل والصراخ داخل المدينة كأن الأعداء قد اقتربوا من جانب السور هناك .

فأدبر (هونغ سين) ودنا إلى شرقي السور الشمالى ساكتاً صامتاً يسمع الجندي يقول : « يا للخطر ! إن عدد المدافعين هناك غير كاف ، وإنى لذاهب إلي مساعدتهم . »

رأى الجندى ينهض من مكانه فيضع على كتفه بندقيته ويمشى نحو الشرق الشمالى .

فناداه (هونغ سين) : « انتظر ! »

فأقبل الجندى ووجده واقفاً واجماً رانياً إلى شرق السور الشمالى ولا يذهب إلى الجنوب .

فسأله الجندى : « مالك يا أخى ؟ »

فلم يجبه ببنت شفة وهو لا يزال واقفاً فى مكانه شاخصاً ببصره .

قال الجندى : « أنا ذاهب »

« نذهب معاً »

فهز (هونغ سين) رأسه هزة ومسح بكمه مدامعه وأخذ يعدو مع الجندى نحو شرق السور الشمالي الذى اشتدت عليه قنابل المدافع اليابانية .

محمد مكين الصينى

أحد أعضاء البعثة الصينية فى الأزهر



حول العيد الألفى للأزهر

أذاعت الصحف أن مشيخة الجامع الأزهر تنوى أن تضع برنامجاً جديداً للاحتفاء بالعيد الألفى للأزهر، وأنها ستبدأ قريباً باتخاذ الخطوات العملية لإحياء هذه الذكرى الخالدة، وهذه أول مرة نسمع فيها مذ تقلد الشيخ الأكبر منصبه باهتمام المشيخة بعيد الأزهر؛ وقد كانت للمشيخة عناية خاصة بهذا العيد منذ أعوام، وكان لها برنامج حافل وضعته للاحتفاء بالذكرى الألفية. وقد اتخذت بالفعل عدة خطوات عملية فى هذا السبيل فانتدبت مختلف اللجان لوضع تاريخ الأزهر ولتنظيم الاحتفال، ودعوة مندوبى العالم الاسلامى، وغير ذلك مما يقتضيه إحياء هذه الذكرى الجليلة؛ ولكن هذه الاستعدادات وقفت فجأة منذ نحو عام ونصف، وقيل يومئذ إن الوقت ما يزال متسعاً فلا داعى للعجلة في هذا الاستعداد؛ وكان هذا القول غريباً في ذاته لأنه لم يبق بيننا وبين انقضاء الألف عام على قيام الأزهر سوى ثلاثة أعوام إذا اعتبرنا تاريخ البدء فى إنشائه وهو جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ؛ وقد اعتادت الحكومات والهيئات العلمية أن تحسب حساب هذه الأعياد قبل وقوعها بأعوام طويلة، وأن تتخذ أهبتها فى تؤدة وروية، وأن تعد كل شيء بنظام حسن؛ ونحن لا نلوم مشيخة الأزهر لأنها عدلت عن برنامج الاحتفال السابق ووضعت برنامجاً جديداً؛ لأن البرنامج القديم كانت تحدوه فى الواقع بواعث واعتبارات خاصة، وكان واضعوه يتصرفون بروح ضيق، وكانت الفكرة كلها ينقصها الروح القومي والروح العلمي الصحيح؛ ولكنا نأخذ مشيخة الأزهر أنها تأخرت حتى اليوم فى الاهتمام بموضوع لا يدانيه شأن آخر من شؤون الأزهر فى أهميته وجلاله.

وثمة مسألة أخرى نريد أن نلفت إليها النظر، وهى أن الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر يجب أن يكون احتفالا قومياً بالمعنى الحقيق، ويجب أن تشرف الحكومة المصرية على وضع برنامجه وعلى تنظيمه؛ ومن حق الأزهر أن يقوم فى تنظيم هذا الاحتفال بأكبر قسط ولكنا لا نرى أن يستأثر بوضع البرامج ودعوة اللجان وغيرها؛ وإذاً فيجب أن تتولى تنظيم الاحتفال لجنة حكومية عليا يمثل فيها الأزهر والهيئات العلمية المختارة، وبعض الشخصيات البارزة، ويجب أن يشتمل برنامج الاحتفال على كل ما اصطلح العرف عليه في مثل هذه المناسبات. وفى وسع اللجنة الخاصة أن تستأنس بما تقوم به الهيئات العلمية الأجنبية فى أعيادها الكبرى من المظاهرات العلمية والاجتماعية لاحياء هذه الذكريات. (م)

كتاب جديد عن مصر

ظهر أخيراً كتاب جديد عن مصر باللغة الألمانية عنوانه « طريق مصر إلى الحرية » Aegyptens Weg zur Freiheit بقلم الكاتب الصحفي باول شمتس. والهر شمتس هو مكاتب جريدة « لايبزجر نويسته ناخرختن » فى القاهرة، وقد عرف بعنايته بشئون مصر والشرق الأدنى، وتبدو هذه العناية فى فصول ومباحث كثيرة ينشرها فى الصحف الألمانية عن هذه الشئون. وكتابه عن مصر صغير لا يتجاوز المائة والعشرين صفحة، ولكنه يقدم للقارئ العادى كثيراً من الحقائق والمعلومات النافعة، وهو يصور لنا مصر منذ العهد المسيحي حتى قيام الحرب الكبرى تعيش على هامش التاريخ؛ وفى العصر الأخير تدب فى مصر روح

الوطنية الملتهبة ، وتنهض مصر الفتاة لاسترداد حرياتها واستقلالها أولا من يد الترك ثم من يد الانكليز . ومصر اليوم من المراكز الحيوية في سير الشئون الدولية ، وفي تطورها ، ومصر همزة الوصل بين الشرق والغرب . على أن الهر شمتس لايقدم إلينا جديداً في تصويره للشئون المصرية ، وكل ما هنالك هو أن هذا الكتيب الذي صدر بالألمانية في وقت اتجهت فيه الأبصار إلى مصر يعاون على فهم الشئون المصرية في ألمانيا وأوربا الوسطى .

تاريخ المقاهي

قرأنا في إحدى المجلات الأوربية الكبرى بحثاً طريفاً في تاريخ المقاهي ؛ خلاصته أن المقهى منشأة شرقية عرفت أولا في الشرق . وفي أواسط القرن السادس عشر سافر إلى المشرق طبيب ألماني يدعى ليونارد راوفولف وزار الشام ، ورأى في مدينة حلب أول مقهى وشرب فيه أول قدح من القهوة شربه في حياته ، وعاد إلى ألمانيا يصف المقهى والشراب الأسود الذي يشبه الحبر ؛ وكان المقهى في تلك العصور لا يخرج عن مكان مفتوح يؤمه الناس ويشربون فيه القهوة جلوسا على الأرض ؛ وكانت القهوة قد عرفت في البلاد العربية قبل ذلك بنحو مائة عام ، ولم يكن المقهى ذائعا إلا في العواصم الكبرى ؛ وعرف الترك المقهى من العرب ، وظهر في قسطنطينية أول مقهى في سنة ١٥٥٤ ؛أما في مصر فقد عرفت المقاهي قبل ذلك بنحو نصف قرن .

ومضى قرن آخر قبل أن ذاعت المقاهي في أوربا ؛ وفي سنة ١٦٤٥ ظهرت في البندقية أول دار من هذا النوع ؛ ثم ظهرت في لندن وأكسفورد بعد ذلك بقليل ؛ وكانت القهوة فيها على الطريقة الشرقية . ولم تلبث المقاهي أن ذاعت في انكلترا بسرعة . ولبثت المقاهي ممنوعة في رومة حتى أوائل القرن الثامن عشر . وظهرت المقاهي في فرنسا في أوائل القرن السابع عشر ، وافتتحت في باريس سنة ١٦٨٩ دار أنيقة سميت قهوة بروكوب ؛ وكان الفيلسوف فولتير من روادها . فذاع من بعده ارتياد الأدباء للمقهى ؛ ولم يظهر المقهي في برلين إلا في أوائل القرن الثامن عشر .

وكان المقهى في تلك العصور مركزاً للمقابلات والسمر ، ولم يعرف الموسيقى إلا في أواسط القرن الثامن عشر ؛ إذ افتتح في برلين أول مقهى موسيقى ؛ وكان هذا النوع من المقهى قد عرف قبل ذلك في باريس ؛ وكانت الفرقة الموسيقية التي تختار للعزف فيه تؤلف عادة من بعض الموسيقين العميان ؛ وكانت المقاهي تسمى في فينا بالمنتديات الفضية لأن الموائد والكراسي والمشاجب كانت من معدن يطلى بالفضة . وفي سنة ١٧٩٠ ظهر في لندن مقهى من نوع خاص لا يدخله سوى السيدات ؛ ويتولى الخدمة فيه سيدات . كذلك ظهر في لندن أول مقهى وضعت فيه مائدة البليارد ، وكانت عند ظهورها عجيبة من العجائب .

وتطورت المقاهي بعد ذلك ، وتفنن أصحابها في تجميلها وتأثيثها وتزويدها بمختلف الملاهي من الموسيقى والغناء وورق اللعب والرقص وغيرها ، وبلغت ما بلغت في عصرنا من الأناقة وحسن التنظيم ؛ وكثرة التنوع والافتنان في كل ما يجلب المسرة والمتاع إلى نفوس الزائرين ، وأضحت منتديات للسمر والسياسة والأدب .

حرية الفكر في مؤتمر القلم الدولي

قرأنا في البريد الفرنسي الأخير أخبار مؤتمر القلم الدولي الذي عقد في باريس في أواخر شهر يونيه . وسبق أن أشارت اليه « الرسالة » وذكرت أن مصر ستمثل فيه على يد وفد من أعضاء نادي القلم المصري برياسة الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب ؛ وقد شهد المؤتمر مندوبو خمسين دولة وتولى افتتاحه وزير المعارف ؛ وكانت أعظم ظاهرة في جلساته ومناقشاته مسألة حرية الفكر التي أصبحت مهددة في كثير من الدول والتي سحقت بالفعل في بعض الدول التي تسودها النظم الطاغية . وألقى الكاتب الفرنسي الكبير جول رومان رئيس نادي القلم الدولي بهذه المناسبة خطاباً رناناً نوه فيه بقدسية الحرية الفكرية ؛ ومما قاله : « إن للفكر قوانينه وأخلاقه وعاداته التي لا تستطيع أية حدود بل ولا يستطيع التاريخ أن يوقفها أو يمليها ؛ فالفكر وحده هو الذي يضطلع بوضعها ومراعاتها ؛ وإذا تنزل الفكر إلى الدعوة إلى فضائل لا توجد ، أو لا تستطيع الوجود إلا بمالأته فهو يرتكب بذلك حماقة لا تغتفر ؛ وإذا كانت جمعية القلم لا دخل لها في السياسة

فانا مع ذلك لا نستطيع أن نسترشد إلا بقيمة الفكر وحياته وحقوقه في جميع أنحاء العالم ؛ ولن نستطيع أن نقبل أى حجة لتعطيل حرية الفكر وحقوقه ، ذلك أنا نعلم أن قبول غل واحد يصفدنا فيما بعد بأغلال لا نهاية لها » . هذا وسوف نتحدث فى فرصة أخرى عن قرارات هذا المؤتمر الأدبى الخطير .

الأزهر فى مؤتمر القوانين

عاد منذ أيام اثنان من أعضاء وفد الأزهر في مؤتمر القانون الدولى بعد الاشتراك فى دورة المؤتمر .

وقد بدأت هذه الدورة فى اليوم الرابع من هذا الشهر ، وكان اليوم الأول خاصاً بحفلة الافتتاح التى أقيمت تحت رعاية وزير العدل فى الحكومة الهولاندية واشترك فيها بعض أعضاء محكمة العدل الدولية فى لاهاي ؛ ثم دامت جلسات المؤتمر بعد ذلك من اليوم الثانى إلى أن كانت جلسة الختام فى اليوم الحادى عشر من الشهر .

وكانت مصر ممثلة فى المؤتمر من جهتين : الأزهر ، وممثلوه هم الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حسن والشيخ محمود شلتوت ومحمد عبد المنعم رياض بك والأستاذ حسن البغدادى ؛ والجامعة المصرية وكان يمثلها الدكتور عبد الرزاق السنهورى بك .

وقد كان الربح الأدبى والعلمى الذى وصل إليه الوفدان ربحاً عظيما إذ ألقى الدكتور السنهورى بك بحثه عن الجنسية فى اليوم الثالث للمؤتمر . وأعقبه بعد ذلك فى الأيام التالية الأستاذان الشيخ عبد الرحمن حسن والشيخ شلتوت فألقيا بحثيهما باللغة العربية للمرة الأولى فى دورات المؤتمر كلها . وكان البحث الأول خاصاً بالشريعة الاسلامية وعلاقتها بالقانون الروماني ، والبحث الثانى خاصاً بالمسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الاسلامية .

وقد تناقش كثير من أعضاء المؤتمر عند تلاوة هذه البحوث وكان الأستاذ البغدادى يتولى الترجمة العربية والفرنسية والأسئلة وأجوبتها كما تولى ترجمة البحوث نفسها عند إلقائها .

ومن المظاهر المشرفة التى نالتها مصر فى هــذه الدورة أن جلسة الختام التى تليت فيها قرارات المؤتمر النهائية . كانت خاصة برؤساء اللجان والمقررين ، فكانت الغالبيــة العظمى من الدول يمثلها فى هذه الجلسة ممثــل واحد سوى مصر ، فقد حضر من وفديها فى هذه الجلسة اثنان هما فضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن والأستاذ عبد المنعم رياض بك .

وكذلك كان من الربح العظيم الذى وصلت اليه مصر بواسطة الوفد الأزهرى أن قرر المؤتمر جعل اللغة العربية إحدى اللغات الرسمية له . وقد قلنا إن بعض البحوث التى ألقيت فى هذه الدورة ألقيت فعلاً باللغة العربية . وكذلك قرر المؤتمر حسبان الشريعــة الاسلامية مصدراً من مصادر التشريع الحديث .

وقرر المؤتمر فى ختام جلساته أن تعقد دورته القادمة فى سنة ١٩٤٢ فى مدينة لاهاي أيضا .

بعثة أزهرية جديدة باسم جلالة الملك فاروق

علمنا أن الرأى قد استقر على اختيار بعض العلماء المتازين أيضاً لتأليف بعثة جديدة يتلقى أعضاؤها فى جامعات أوربا من العلوم ، ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلوم الشرعية وذلك على النهج الذى اتبع فى تأليف بعثة « فؤاد الأول » الأزهرية

وسيطلق على هذه البعثة الجديدة اسم « بعثة فاروق الأول »

وتفكر إدارة المعاهد الدينية فى هــذه الأيام فى تأليف بعثة أزهرية جديدة تؤلف من بعض العلماء الأزهريين المتازين الاكفاء لتوفدها إلى بعض المقاطعات الإسلامية فى الهند ، للدعوة إلى الدين الإسلامى ونشر مبادئه بين طوائف المسلمين فى هذه المقاطعات

اضطراب آخر فى شيوخ الأزهر

اطلعت فى أثناء تحقيقى للاضطراب الذى وقع فى رحلة الشيخ عبد الغني النابلسى على اضطراب آخر فى كتاب « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر » للشيخ أمين المحبى بن فضل الله بن محب الله المولود بدمشق سنة ١٠٦١ هـ والمتوفى بها سنة ١١١١ هـ فقد ذكر فى الكلام على الشيخ محمد بن حسن بن محمد بن أحمــد جمال الدين بن بدر الدين المعروف بالمنير ما ذكره الجبرتى عنــه ، وخلاصته أنه ولد بسمنود سنة ١٠٩٩ هـ . وقدم الجامع الأزهر وعمره عشرون سنة فدرس على كثير من شيوخه وبرع فى كثير من علومه خصوصاً علم الحديث ، وكان عالى السند فيه ، وكان يعرف أيضاً جملة من الفنون الغريبة كالزايرجة والأوفاق وغيرهما



سيرة السيد عمر مكرم

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

بقلم الأديب توفيق الطويل

بارح الجيش الفرنسي أرض مصر بعد أن عرف الشعب مكانة ظالميه عند دفع العاديات، فرأى جيش السلطان لا يملك العودة إلى القاهرة إلا في ظلال أعوانه الانجليز، ورأى المماليك يفرون إلى الشرق ويهربون إلي الغرب ويلتمسون صداقة الفرنسيين أو مرضاة العثمانيين أملا في العودة إلى حكم البلاد، فعرف الشعب من ذلك أن مصيره موكول إليه وأن اعتماده على غير نفسه غفلة وخداع لا ينبغي أن يطولا . وكان على يقين بأنه يستطيع أن يصمد للحرب الطاحنة وحده شهوراً وأياماً كما فعل في ثورته الثانية العنيفة على الجيش الفرنسي المنظم. وكان زعماء هذا الشعب الكريم تعوزهم التضحية وينقصهم الاخلاص، ينتفعون بتقلبهم مع الحكومات على حساب الوطن المسكين سوى رجل واحد جمع الزعامة والجهاد والتضحية . كان ينزوي حين لا تنفع المقاومة، ويثور ثورة الأسد حين تمس الحاجة إلى الثورة والتمرد . . ذلك هو السيد عمر مكرم . . . فلما سمع صوت الشعب يدوي مطالباً بحكومة جديدة خرج من عزلته وتولى قيادته . واحتشدت جموع الشعب التي بلغت أربعين ألفا بجوار الأزهر على كثب من بيت القاضي الذي كان يجتمع فيه الزعماء لاختيار الوالي الجديد . وانعقد اجماعهم على قبول «محمد على باشا» والياً بعد أن رشحه الزعيم الأكبر «عمر مكرم» لما عرفوه عنه من الذكاء والعدل والشهامة والعطف على المصريين

وقد ذاع صيته في أواخر أمره وذهبت شهرته في الآفاق، وأتته الهدايا من الروم والشام والعراق، وكانت وفاته سنة ١١٩٩ هـ

وقد زاد المحبي على ما ذكره الجبرتي من ذلك أنه بلغ أمره أن صار شيخاً للأزهر، وأن أول من انتزع مشيخة الأزهر من المالكية، وكان رحمه الله شافعياً

فهذا اضطراب آخر في شيوخ الأزهر، فالشيخ المنير غير معدود في هؤلاء الشيوخ، وقد كان شيوخ الأزهر في عهده الشيخ عبد الباقي المالكي القليني، فالشيخ محمد شنن المالكي، فالشيخ عبد الله الشبراوي الشافعي، فالشيخ محمد الحفني الشافعي، فالشيخ عبد الرؤوف السجيني، فالشيخ أحمد الدمنهوري، فالشيخ أحمد العروسي، وقد صار أولهم شيخاً للأزهر سنة ١١٢٠ هـ وصار آخرهم شيخاً له من سنة ١١٩٢ هـ إلى سنة ١٢٠٨ هـ

والشيخ عبد الله الشبراوي هو الذي ذكر صاحب تاريخ الأزهر أنه أول من تولى مشيخة الأزهر من الشافعية، وقد صار شيخاً للأزهر من سنة ١١٣٧ هـ إلى سنة ١١٧١ هـ، فكيف يكون الشيخ المنير شيخاً للازهر بين توالي أولئك الشيوخ؟ وكيف يكون أول من انتزع مشيخة الأزهر من المالكية إلى الشافعية ؟

فالحق أن الشيخ المحبي أخطأ في هذا كما أخطأ قبله الشيخ عبد الغني النابلسي في الشيخ منصور المنوفي الشافعي، وقد كانا شاميين بعيدين عن الأزهر ورجاله، ولا شك أن هذا يضعف من قيمة ماشذا فيه من ذلك .

ولو صح أن الشيخ منصور المنوفي كان شيخاً للأزهر كما ذكر الشيخ عبد الغني النابلسي لكان هو الذي انتزع مشيخة الأزهر من يد المالكية إلى الشافعية لا الشبراوي ولا المنير لأنه أقدم عهداً منهما كما سبق .

عبد المتعال الصعيدي

إزاء الطغاة من حكامهم . . . وقبل الوالى الجديد ترشيحهم بعد تردد . فقام إليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وألبساه الكرك والقفطان فى بيته وخلعا عليه حكم البلاد باسم الشعب المصري الكريم . وكان ذلك فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ ، فتميز الوالى القديم « خورشيد باشا » غضباً وقال: « ولاني السلطان فلن يعزلنى الفلاحون » فلم يكن بدّ من أن ينزله هؤلاء الفلاحون بالقوة من قصره بالقلعة . وبدأ الكفاح المجيد بين شعب يفدي حاكمه الذى اختاره لنفسه بل يفدى حريته واستقلاله بالمهج والأرواح، وبين جيش يريد أن يحكمه على غير إرادته .. وكانت الثورة قائمة على مبدأ أعلنه الزعيم الأعلى لرسول السلطان الذى احتج بقوله تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فأجابه الزعيم بأن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وأن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس بالجور والظلم كان لهم عزله وخلعه . . .

وأصاب الشعب النصر الحاسم داخل المدينة وخارجها . . . وبارح البلد خورشيد باشا بعد أن عرف بالتجربة أن إرادة الشعوب من إرادة الله . . .

ولبث الشعب المجيد يعين حكومته الجديدة فى رد أعدائها من مماليك وأتراك وانجليز حتى نحاه عن ذلك « واليه » وصارح زعيمه بأن واجب الدفاع والاشتراك فى سياسة البلاد قد سقط عن الشعب بعد أن صارت قوة الدولة كفيلة به . . ونهض الوالى بالبلاد نهضة زاهرة شملت تجارتها وزراعتها وصناعتها وثقافتها ولكنها كانت بعيدة عن روح الشعب الذى أكره على الاعتزال ولم تكن ثمرة جهاده ولا نتيجة سعيه ولا وليدة ذهنه فذبلت وماتت بموت موجدها . .

واعتزل الزعيم ، حتى إذا اشتط الوالى فى ضرائبه التي أكرهته عليها كثرة إصلاحاته وحروبه خرج من مكمنه وأعلن مبدأه الذى لا يقبل فيه شكا ولا جدلا : أن ليس للباشا أن يغير نظام الحكم ولا أن يفرض ما شاء من الضرائب ولا أن يحكم الشعب بغير قانونه وعاداته . . ولكن الباشا عرف كيف يفرق بين الزعماء وينتفع بحقدهم على زعيمهم فيأمر بخلعه من نقابة الأشراف ونفيه بعيداً عن موطن الثورات . .

هذا موجز مشوه لسيرة البطل الذى تناوله الأستاذ الجليل محمد فريد أبو حديد فى كتابه القيم الممتع الذى أصدره فى هذين اليومين وأبان فيه نهاية الكفاح المجيد الذى كان الشعب المصرى قد بدأه منذ قرن ونيف من الزمان . . والكتاب آية أدبية جمعت ثلاثة عناصر قلّ أن تجتمع فى كتاب : دقة العلم ، وجمال الفن، وحرارة الوطنية .

على أن فى الكتاب رأياً ترددت كثيراً فى التسليم به ، ذلك هو تحديده للوقت الذى تحرك فيه الشعب المصرى للمحافظة على حقوقه وحرياته بعام ١١١٤ ه إذ أن الحادثة التى أبدت هذا تتلخص في شكوى رفعها العلماء إلى الديوان فاستجيبت لعدالة الحاكم « الفعلى » يومذاك لا لحرص الشعب وزعمائه على حقوقهم ولا لخوف الحاكم من عنادهم . فأما عدالة الحاكم فيشهد بها قول الشيخ حسن الحجازى شاعر العصر يرثيه :

ألا قل لمن فى موت حاكم مصرنا
غَدَا فرِحاً لا عشْت حلّ بك الغمُّ

إلى أن قال :

فأرجح ميزاناً وأوفى مكايلاً | وأخمد نيراناً وقام به سلم
وليس له من مبغض غير معرض | عن الحق أو من فى عقيدته سقم

إلى آخر ما جاء فى الرثاء الذى أورده الجبرتى (١٠٧ و١٠٨ ج١)

وأما الدليل على أن الشعب وزعماءه يومئذ لم يكونوا قد آمنوا بعد بالحرص على حرياتهم وحقوقهم فيشهد به مجيء فرمان من الدولة عام ١١٣٧ ه يأمر بمنع العلماء من اجتماعهم بالباشا . وكان ذلك في وقت قد اشتد فيه الظلم ، وعانى الشعب ألواناً من التعدي على الحريات وانتهاك الحرمات ونهب الأموال ، فلم يقاوم الفرمان شعب ولا زعماء . ولما تكرر الظلم بعد هذا طالب الشعب العلماء بالذهاب إلى الباشا فاعتذر هؤلاء الزعماء بأنهم ممنوعون من طلوع القلعة ... ! (١٣١ ، ١٣٥ ج ١ من الجبرتى) فالشكوى وحدها ليست دليلاً على التحرك لدفع الظلم ، وإنما الدليل أن يقاوم المظلوم حتى ينصف أو يستشهد .

والرأى عندي — إن صح أن يكون لى رأى إلى جانب رأى أستاذى المؤرخ — هو أن الشعب قد تحرك للمحافظة على حقوقه وحرياته في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الميلادى (أواخر الثانى عشر الهجرى) إذ سمعنا فى هذه الفترة سلسلة من الحوادث تقوم على دفع الظلم ومقاومة أهله والاعتزاز بالحرية. ورأينا فيه كيف يهتم الحكام — أقوياء وضعفاء وعدول وظلمة — بالرأي العام وزعامته. وسمعنا بالحفنى وابن النقيب والصعيدى، وعرفنا موقف العلماء فى فتنة الوقف، بل أروع من هذا كله موقفهم فى فتنة الأزهر (٥٦ ج ٢ من الجبرتى) يوم رفضوا شيخ الأزهر الحنفى حين عينه شيخ البلد ولم يعبأوا بمنطقه يوم أصر قائلا لهم: أليس الحنفية مسلمين كالشافعية؟ أليس مذهب النعمان أقدم المذاهب؟ أليس القاضى حنفياً والوزير حنفياً والسلطان حنفياً . . . ؟ وانتهى إصرارهم بالانتصار الحاسم على أكبر رأس فى البلد.

ورأينا فى هذه الفترة العالم الذي يغضب على الحاكم فيقول له فى وجهه: لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً (١٩ ج ٢) ورأينا العالم الذى يقول للعامة وهى تستنصره لدفع الظلم الذى يوقعه الحكام بهم: «فى غد نجمع أهالي الحارات والأطراف وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم» فما جاء مساء ذلك اليوم حتى ذل له الحكام واستكانوا لعناده (١١٠ ج ٢ من الجبرتى)

تكرر هذه الحوادث وظهور المقاومة فيها جميعاً هو الشاهد العدل على تحرك الشعب لحقوقه فى هذه الفترة ... أما مجرد الشكوى من الظلم فى فترات منقطعة، والصبر عليه، والعجز عن التمرد والسكوت عن كفاح المستبد حين يصر على استبداده فهو الدليل على أن الشعب لا يحرص على حقوقه ولا يتحرك للمحافظة على حرياته . . .

هذا هو الرأى الذى خطر لى عند قراءة هذا الكتاب القيم الذى كسبته القومية المصرية وربحه الناطقون بالضاد . . .

توفيق الطويل

يا ليل الصب ومعارضاتها

أعاد السيد محيي الدين رضا طبع قصيدة «يا ليل الصب متى غده» لأبي الحسن الحصرى وهى تقع فى ٩٩ بيتاً ومعارضاتها قديماً وحديثاً وهي ٣٠ معارضة لأشهر الشعراء أمثال: شوقى وصبرى وولي الدين يكن والأمير نسيب والزهاوى والرافعي والزركلى ونظيم والمعلوف والخوري. وهى تقع فى ٥٤ صفحة من القطع الصغير طبعت على ورق جيد وثمن النسخة عشرة مليمات وتطلب من مكتبة خضير بالعتبة الخضراء بمصر وأجرة البريد خمسة مليمات

رحلتى إلى الحجاز

للأستاذ محيي الدين رضا

هو مجموعة مقالات نشرها المؤلف فى مختلف الصحف المصرية عن رحلته إلى الحجاز، وقد حوت وصفاً صحفياً طريفاً لكثير من نواحى الحياة فى هذا البلد الأمين وصوراً قلمية لكثير من شخصياته. والكتاب دعاية حسنة للحج وتشجيع على تأدية هذه الفريضة من فروض الدين.

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧)

5 me Année, No 218.

Lundi - 6 - 9 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـدد ٢١٨ « القاهرة فى يوم الاثنين أول رجب سنة ١٣٥٦ — ٦ سبتمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـدد

فن الحـــكم

للأستاذ أحمد أمين

يعانى الشرق الآن محنة من أشد أنواع المحن ، سببها أنه بدأ يحمل عبء نفسه ، وقد كان يحمله عنه المحتل

كان المحتل يصرّف أمور الأمة كما يرى ، فيحرّم ما يشاء ويحلّ ما يشاء ؛ ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ؛ فاذا استعان ببعض أفراد الأمة فبأيديهم لا بعقولهم ؛ وقد يستعين بعقولهم أيضاً ولكن على شرط أن تكون فى خدمة عقله ، وفى الاتجاه الذى رسمه قلمه ، فمن حدثته نفسه أن يفكر تفكيراً حراً طليقاً فالويل له . أمسك بيده المال وهو عصب الأمة ، ينفق منه كما يشاء في الوجوه التى تخدم سلطانه ، ويبخل كما يشاء فيما يعارض مناهجه ؛ فهو شحيح كل الشح على التعليم العالى ، وعلى الجيش وما إليه ؛ وهو سخى فيما يصلح الأرض ويدر الثروة . وعلى كل حال لم يقف من الأمة موقف المعلم النزيه يؤهل تلميذه ليكون رجلا يوماً ما ، ويمرنه على أن يستقل بنفسه شيئاً فشيئا ، إنما وقف منه موقف السيد من عبده يسخره وله الغلة ، ويطعمه ما يسد رمقه ليقوى على العمل له

ثم كان أن جاهد الشرق جهاداً شاقاً طويلاً جعل حكم الأجنبي له شاقاً عسيراً، وساعدت الأحداث الخارجية وما فيها من قلق واضطراب على أن يغير المحتل سياسته، ويحمّل الأمة أكبر عبئها، ويطلق لها اليد في التصرف في أكثر شؤونها. فأصبحت الأيدي التي كانت تعمل بعقول غيرها غير كافية، واشتدت الحاجة إلى العقول المفكرة، وأساليب الحكم العادلة الحازمة، فإذا بالشرق أمام مدرس يلقي لأول مرة أول درسه، أو قاض يجلس على منصة القضاء أول عهده، حتى الذين تولوا الحكم في عهد الاحتلال والحكم بعد الاحتلال يشعرون بالفرق بين الحكمين، واختلاف الصعوبة في العهدين، فقد كانوا في عهد الاحتلال أيديا مسخرة، وهم في عهد الاستقلال عقول مدبرة

***

أول درس يجب أن يتعلمه الشرق تضحية الحاكم؛ وأعني بذلك أن يضحي بشهواته في سبيل تحقيق العدل الدقيق، فلا تستهويه شهوة المال، ولا شهوة الجاه، ولا شهوة المنصب فتصرفه عن إحقاق الحق وإبطال الباطل. وطبيعي أن الشعب لا يرضيه من الحاكم في عهد الاستقلال ما كان يرضيه منه في عهد الاحتلال؛ فقد كان في عهد الاحتلال يصبر على الظلم كارهاً بحكم القوة، فلما رأى أن حكومته منه، وأنها تستمد قوتها من قوته، لم يرض عن ظلم، بل هو يشتط في طلبه فلا يرضى عن عدل مشوب بظلم، إنما يريد عدلاً خالصاً، ويتطلب منها المثل الأعلى في العدالة وإلا لا يمنحها رضاه

ثم هو لا يرضى بتحقيق العدل السلبي وحده، مثل عدم الترقية لصلة أو قرابة، وعدم الظلم في توزيع مياه الري ونحو ذلك، إنما يطالب بتحقيق العدل الايجابي أيضاً، مثل إصلاح نظم التعليم ونظم المال ونظم الصحة ونظم الشئون الاجتماعية؛ فإذا قصر الحاكم في ذلك ملّ المحكوم وسئم وشكا من أن العهد الجديد لم يفترق عن العهد القديم إذ لم تتحقق آماله ولم يظفر بما كان يرجو من سعادة.

***

على أن من الانصاف أن نقول إن تبعة صلاحية الحكم وعدمه لا تعود إلى الحاكم وحده، بل إن جزءاً كبيراً يحمله الشعب المحكوم نفسه، فالحكم فعل وانفعال مستمران بين الحاكم والمحكوم، والنتيجة التي نراها من تقدم الأمة أو تأخرها هي نتيجتهما معاً لا نتيجة الحاكم وحده.

والأثر الذي يقول «كما تكونون يولى عليكم» ليس قانوناً للقدَر بل هو قانون طبيعي، فحالة المحكوم تشكل الحاكم — لا محالة — بالشكل الذي يتفق وحالته، وقد علّمنا التاريخ أن عسف الحاكم لا يتم ولا ينجح إلا إذا سبقه استنامة المحكوم وضعف إحساسه؛ وصلاحية الحاكم مسبوقة دائماً بتنبه المحكوم وحسن تقديره للعدالة والظلم.

بل إن أساليب الحكم ونظريات الحكومات لم تتقدم على مر الزمان تقدم الشعوب في تقدير العدل والظلم، فنظم الحكم التي وضعها اليونان والرومان وعلى رأسهم أفلاطون في جمهوريته وأرسطو في كتابه السياسة لم تتقدم كثيراً في عهدنا الحاضر، ولكن شعوب اليوم في فهم الحكم ومدى سلطة الحاكم وإبائهم أن يتجاوز حده أرقى بكثير في ذلك من شعوب الأمس الدابر. لقد كان الحاكم يستطيع أن يحكم في سهولة ويسر وإلى عهد طويل شعبه على رغم أنفه بسلطانه وجبروته، ثم هو يتحمل اعباء الحكم على كتفه وحده؛ أما اليوم فلا يستطيع حاكم مهما أوتي من العقل والقوة أن يحكم إلا برضا شعبه وبمعونته وبمشاركته إياه في حمل العبء؛ وإن وجدت حالات تخالف ذلك فحالات شاذة لا يسمح النظام الاجتماعي ببقائها طويلاً.

بل تبين فساد رأي أفلاطون وأرسطو وأمثالهما في أن هنالك طبقة خاصة يجب أن تَحْكُم، وأنها وحدها الصالحة للحكم، وأن من عداها غير صالح إلا لأن يُحْكَم؛ وتبين أن الحاكم الحق للشعب هو الشعب نفسه، وإنما يركز آراءه في الحكم في أشخاص لأن الناس اعتادوا تجسيد المعاني والرمز إليها بمحسوسات تقريباً لعقولهم وتبسيطاً لأفكارهم، ولا ينجح حاكم ولا مصلح إلا إذا مثل رأي الناس أو على الأقل رأي طائفة صالحة منهم، فلو أتى مصلح بما لا يتهيأ له فريق من الناس لعد مجنوناً، بل إن الشعب أو الطائفة منه هي التي تخلق حاكمها وتخلق مصلحها إذ هو ليس إلا مبلوراً لأفكارهم ومركزاً لآرائهم. وليس الحاكم أو المصلح

جذر الشجرة ولكن زهرتها ، إنما الجذر والساق والأوراق هى الشعب نفسه .

* * *

يميل الشرق إلى أن يُحكم حكما ديمقراطياً ، وله الحق في ذلك ، لأنه جرب أنواعاً من الحكم الاستبدادى على أنواعه المختلفة فكانت مميتة لمشاعره ، عائقة لتقدمه ، وكان الحكام المستبدون ينعمون بكل صنوف الترف والنعيم على حساب بؤس الشعب وفقره .

ويميل إلى الديمقراطية لأنها على ما بها من عيوب لا تزال أرق أنواع الحكم وأبقاه ، وحكم الاستبداد إن رضيته بعض الأمم حيناً ، أو فرض عليها فرضاً حينا ، أو ارتكن على بعض الظروف حينا ، فليس هو الحكم الصالح للبقاء أبداً

لقد انهار الاستبداد في مظاهره المختلفة وحلت محله الديمقراطية بأشكالها المختلفة . انهار استبداد رجال الدين بعد أن سيطروا على الشعوب أزماناً طويلة لقى فيها الناس من عنتهم ما كره إليهم الحياة

وانهار استبداد الأب بأسرته فلم يعد ذلك الأب الذى لا إرادة فى البيت بجانب إرادته ، ولا الأب الذى كلمته حكم ، وطاعته غنم ، وحل محله أب هين لين يأمر حيناً فيطاع ، ويؤمر حينا فيطيع

وتغيرت الغايات للسلطات فأصبحت الغاية من الحكومة لا أن تظهر بمظهر الآمر الناهى ، ولكن أن تحقق العدالة والحرية للناس حتى للضعفاء ؛ وأصبحت الغاية من الأب لا أن ينعم بسلطانه ، وإنما الغرض منه ومن الأسرة كلها إيجاد جو صالح لنمو الطفل وتربيته ورقيه . وليس الغرض من المعلم أن ينفذ إرادته بالعصا ، وإنما الغرض منه ومن الناظر والمدرسة كلها أن يمسكوا بدل العصا مصباحاً يضىء للتلاميذ حقائق الحياة وسبل الحياة

ولكن هذا الحكم الديمقراطي ليس يصلح إلا بتنظيم دقيق، بل هو إلى النظام أحوج من الحكم الاستبدادى ، لأن الحكم الاستبدادى يحمل عبئه فرد واحد وأعوانه أياديه ، وهو الرأس المدبر ، فطبيعى أن يكون ظلمه وعدله منظما ، أما الحكم الديمقراطى فيحمل عبئه عدد كبير ، فإذا لم يؤد كل واجبه اختل البناء ، ومثله مثل الآلة ذات الأجزاء المختلفة أو كالساعة ذات القطع المتعددة المتباينة، ولا ينتظم سير الآلة ولا سير الساعة حتى يقوم كل جزء بعمله

وسبب آخر لحاجة الحكم الديمقراطى للنظام دون الحكم الاستبدادى ، وهو أن الحكم الاستبدادى يرمى إلى تحقيق مصلحة فرد واحد أو طائفة محصورة ، وذلك سهل يسير

أما الحكم الديمقراطى فيرمى إلى مصلحة الشعب جميعه وخاصة الضعفاء ، كالفقراء والمرضى والفلاحين والعمال ، وهؤلاء عددهم فى كل أمة كبير ، ولا يمكن تحقيق الخير لهم إلا بجهد كبير ونظام دقيق

فإذا لم يتحقق هذا النظام فشل الحكم الديمقراطى ، وظن قصار النظر أن العيب يرجع إلى طبيعة الحكم ، وهو فى الواقع لم يرجع إلا إلى سوء تطبيقه واستعماله . ثم إذا اختل كان نذيراً بعودة الاستبداد ، وارتكن المستبدون وذوو السلطان إلى ما يبدو تحت أعين الأمة من سوء الحكم الديمقراطى وفساده ، واتخذوا ذلك ذريعة إلى استرجاع سلطانهم واستعادة استبدادهم ، وأعادوا الأمة إلى سيرتها الأولى يسخرونها لمنفعتهم ويستغلونها لصالحهم

فأ كبير الحياة للشرق الآن تحرى العدالة فى الحاكم ، وتضحية شهواته ، وتنظيم حكمه وحمل كل عبئه ، وتنفيذ واجبه فى دقة ، وإلا كان تحت خطر الفوضى التى تقدم للأسد الرابض حجته وصياحه من جديد بأن الشرق أعطى حريته فلم يحسن استعمالها

احمد أمين

مصير الحضارة

للأستاذ عباس محمود العقاد

يجتمع اليوم فى مصانع العالم ومخازنه من أسلحة الحرب وأدوات الهلاك ووسائل التدمير ما لم يجتمع مثله قط فى تاريخ الانسان .

فهل يعقل العقل أن تلبث هذه الآلات مشلولة معطلة ينتهي أمرها بانتهاء صنعها ويقف الخطر منها عند حد التخويف والانذار ؟

وإذا هى استخدمت فيما صنعت له وانطلقت من عقالها وفعلت كل ما يخشى من فعلها الموبق الوخيم ، فماذا يبقى من الحضارة ؟ وماذا يبقى من تاريخ الآدمية بعد أن عبر هذا الشوط الطويل فى آفاق الزمان ؟ ألا تكون النهاية ؟ ألا نرجع كرة أخرى إلى حالة بين الهمجية والحيوانية ينقطع السلم بعدها فلا نهتدى منه إلى طريق صاعد ، ولا نعود — إذا ملكنا رأينا — إلى تجربة قد رأينا فى خواتمها ما يصد النفوس عن البدء فيها ؟

أكبر ما يرجوه الآملون فى مستقبل الانسان أن تنقبض هذه الشرور الجهنمية فى محابسها كما تنقبض الشياطين فى القماقم ، فتخيف الناس خوفاً يعصمهم من آفاتها ويذودهم عن اللعب بنيرانها

فإن لم يصدق هذا الرجاء فأكبر الرجاء بعده أن تصمد البنية الآدمية للخطر المحيط بها وأن تفلت منه بيقية صالحة تحفظ عناصر الحضارة والأخلاق كما تصان الذخيرة المنتقاة من أنقاض الحريق

وأصحاب الرجاء فى هذه العاقبة السليمة يعلقون رجاءهم على اختلاف الحال بين العصور التى سبقت زوال الحضارة فيما سلف وبين العصور التي نحن فيها والعواقب التى نحن منساقون اليها

فى الأزمنة الغابرة كانت غارات الهمج على الأمم المترفة هى المعول الأكبر الذى يضرب فى أركان الحضارة ويقتلع العمران من أساسه ، وكانت غارات الهمج مصحوبة بحال من العقم فى القرائح والأفكار تصيب الفنون والعلوم بالفاقة والكساد والنضوب ، فكانت تنقضى السنون وراء السنين ولا جديد فى عالم التأليف ولا فى عالم الاختراع ولا فى عالم الفنون والآداب ، وتلك فى الوقع هى علامة الدثور والاضمحلال التى لا تزيدها الغارات الهمجية إلا التسجيل والاعلان . ولا شك فى أن الحضارات الأولى قد أخذت تموت وتتهاوى قبل أن يجهز عليها المغيرون من أبناء القبائل العارمة ، ولا أدل على موتها من ضمور ملكة الخلق والابتكار فيها .

أما اليوم فالأمر بيننا مختلف والاختراع بيننا أروج وأكثر مما كان فى أيام ازدهار الحضارات البائدة ، وما تطلع الشمس صباحاً واحداً فى أنحاء العالم المتمدن على غير كتاب جديد أو ثمرة فنية جديدة أو اختراع طريف أو تنويع وتحسين فى اختراع قديم . فالبنية الآدمية بما اشتملت عليه من قدرة على التفكير أو قدرة على الشعور أو قدرة على الابتكار بنية سليمة مهيأة لطول الحياة ومغالبة الأحداث وتعويض المفقود .

هذا مع اختلاف آخر لا يقل فى أثره ولا دلالته عن ذلك الاختلاف ، وهو أن الغالبين والمغلوبين في أيامنا سوف يكونون من أبناء الحضارة الحديثة المشاركين فى علومها وصناعاتها وأدواتها وآلاتها ، فمن كتب له النصر من المحاربين فى المعمعة القادمة سوف يضطلع بأمانة الحضارة وحده إذا قدرنا أن المهزومين يعجزون كل العجز عن متابعة الطريق واستئناف العمل النافع ؛ وسوف يستبقى من علومنا وأفكارنا ما يصلح أن يكون خميرة يأكل من زادها أبناء الأجيال المقبلة ، ثم يفتنون فيها ويزيدون عليها .

هذا وذاك مع اختلاف ثالث لا يقل عن ذينك الاختلافين فى تغليب دواعى الأمل على دواعى القنوط ، وذاك أن معارف الحضارة الحديثة لا تشبه معارف الحضارات الأولى فى جواز الفناء عليها . فقد كانت معارف المصريين واليونان والرومان الأقدمين أشبه شيء فى جملتها بحرفة الصانع القديم الذى يصون سره ويحمله معه إلى قبره ، أو كانت بمثابة الخبرة الشخصية التى لا تقبل التعميم ولا اتصال النسق بين حاضرها وماضيها ، لأنها مسائل اجتهادية يكاد يبدأها كل عامل من البداية ولا يدعمها إلى أساس يبنى عليه من يخلفه من أبناء الصناعة .

أما حضارة العصر الحديث فهى حضارة قائمة على أساس العلم

الشائع المقرر الذى جعل لكل اختراع قاعدة ولكل صناعة أصلا ولكل مرحلة من مراحل التعليم مسافة وحداً ؛ فلو فنيت ثلاثة أرباع المصنوعات الحديثة من الدنيا لكان الربع الباقى مشتملا على جميع قواعدها وأصولها ومراحل التعليم والابتكار فيها ؛ ومن البعيد عن التصور أن تعمد الحرب إلى عناصر العلم المتفرقة فتجمعها كلها إلى بقعة واحدة وترسل عليها صيباً من القذائف الناسفة فتمحوها محواً ولا تذر منها بقية للتجديد والترميم .

ذلك بعيد عن التصور ، ولاخوف من اتجاه النية اليه أو اشتمال الطاقة على تنفيذه لو جاز أن يداخل النيات على أبعد الفروض .

***

نعم إن هناك خطراً أخطر على الحضارة من تدمير عناصر العلم بالقذائف الناسفة والآلات الجهنمية التى هى نفسها مادة من مواد العلم وجزء من أجزاء الصناعة .

هناك خطر على الحضارة أخطر من القذائف والآلات الجهنمية وهو إفساد الطبائع ومسخ العقول وتلويث الأخلاق وتعويد الناس أن يسخروا بكل نبيل جليل وأن يقنعوا من الدنيا بعيشة البهم ولذائذ الحيوان .

فلو شاعت هذه الآفة — بل هذا الوباء — بعد الحرب المقبلة لكان بقاء العلوم والصناعات وزوالها على حد سواء ، ولكانت الحضارة شيئاً لايستحق الحرص عليه ولا الأسى لفقده ولا التفكير فى استبقائه ، ولبلغت الحرب بالناس أقصى مانخاف من وبالها المحذور .

ومن خاف هذه العاقبة فله عذره الواضح مما نراه من تهالك على المتاع الزائل وتهافت على الشهوات الحسيسة وتهاتف على المثل العليا والأخلاق الفاضلة والمطالب التى تتجاوز ساعتها أو يومها أو عمر طالبها على أبعد احتمال .

الاشتراكيون لايؤمنون بغير الخبز ، والفاشيون لايؤمنون بغير الخنجر ، والذين يأنفون من مذهب أولئك ومن مذهب هؤلاء حيارى لايهتدون إلى قرار ؛ ومتى أصبحت الغاية المنشودة ما كان فيه آباؤنا وأجدادنا منذ ألوف السنين فنحن راجعون إلى وراء ، مقبلون على هبوط يشبه الفناء .

إلا أن الأفق لا يخلو فى هذه الظلمة أيضاً من بارقة بعيدة يوشك أن يستفيض منها ضياء شامل .

فكما شاعت اللذات كذلك شاعت السآمة من اللذات ، وشاعت النزعة إلى التبديل ، وتسرب القلق إلى الضمائر ؛ فليست هى فى حالة استقرار ، ولكنها فى حالة تحفز وانتظار .

ويخيل إلينا أن الدنيا تتجه إلى تفكير جديد فى القرن العشرين يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من طور العقائد التقليدية إلى طور العقائد بالبحث والاجتهاد ، أو يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من هذا إلى الايمان بالعقل وحده ، ثم الغلو فى التعويل عليه كما غلا العقليون المعروفون « بالراشنلاست » فى أوائل القرن الغابر ، أو يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من « الراشنلازم » إلى المذهب الروحى أو مذهب البصيرة والالهام الذي شاع منذ خمسين سنة فى الأمم الغربية كافة

أما هذا التفكير الجديد الذى ننتقل إليه الآن فهو التقاء العالم المشهود وعالم الأسرار عند « الفلسفة الرياضية » التى انتهى إليها البحث فى النور والاشعاع

فقديماً كان العلم الطبيعي فى ناحية والعلم الرياضى فى ناحية أخرى

كان العلم الطبيعى فى تجارب المحسوسات ، وكان العلم الرياضى فى الحقائق الذهنية التى لا تحتاج إلى العالم المحسوس

فاليوم وصل العلم الطبيعي بكل شيء إلى الاضاءة والاشعاع ، ووصل بالاشعاع إلى النسب العددية والتقديرات الرياضية ، وجاز في عرف العقل المثقف السليم أن تقاس الحقيقة من « باطن » العقل وداخل السريرة ، على مثال يقارب هداية الملهمين ومكاشفة القديسين فى الزمن القديم .

تلك البارقة من التقاء عالم المادة وعالم الأسرار بشيرة بالخير وشيكة أن تعصم النفوس من تيه الظلمات ، وأن تسلم زمام الحضارة الانسانية إلى غاية أبعد من الغاية التي يدين بها عباد الخبز وعباد الخنجر ، حيثما اهتدى بها العلم والفلسفة والعقيدة فى أعقاب الضياء .

المحاكمات التاريخية الكبرى

٣ ـ الحركة النهلستية
ومصرع القيصر اسكندر الثانى

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تلك هي الوثيقة التاريخية المؤثرة التي وجهتها اللجنة التنفيذية إلى القيصر الجديد ؛ ولكنها لم تحدث أثراً . ولم تكن الدوائر القيصرية تفكر فى النزول عند نذير الرهبين ولما يجف دم الجريمة الرنانة التي كانت فى الواقع ذروة الارهاب السياسى ؛ ومن ثم فقد ردت القيصرية بمضاعفة إجراءات القمع والإمعان فى مطاردة الرهبين والثوريين ، وقبض خلال شهر مارس فى بطرسبرج على عشرات منهم ، ولكن لم يقدم فى النهاية إلى المحاكمة القضائية سوى ستة هم أندرى جليابوف وصوفيا بيروفسكايا ونيكولا كيبالتشش وجسيا هلفمان وتيموتي ميخايلوف ونيكولا ريساكوف وبدأت المحاكمة فى ٢٦ مارس سنة ١٨٨١ أمام محكمة عليا ألفت من ستة من الشيوخ وعضوين يمثلان النبلاء هما الكونت بوبرنسكي والبارون كورف ، وممثل للتجار ، وممثل للفلاحين ، وعمدة موسكو ، وممثل لبطرسبرج ؛ وتولى الرياسة الشيخ فوكس ، وتولى إجراءات الاتهام النائب مورافييف الذى غدا فيما بعد وزيراً للعدل .

وكان أهم المتهمين فى تلك القضية الشهيرة هما بلاريب جليابوف وصوفيا بيروفسكايا عضوا اللجنة التنفيذية لحزب إرادة الشعب وهما فى الواقع مدبرا الجريمة ورأسا الحركة الإرهابية يومئذ ؛ وكان جليابوف من أقطاب حزب إرادة الشعب وأعظمهم نفوذاً وكان يومئذ فتى فى الثلاثين من عمره ؛ وكان مولده فى أسرة من الأرقاء ، ولكن الرقيق حرر وهو طفل فتفتحت أمامه آفاق جديدة ، وتلقى تربية حسنة ، وتخرج فى مدرسة الحقوق فى أودسا وشغف منذ حداثته بالأدب الثورى والنظريات الاشتراكية والتحريرية ، ولم يلبث أن لفت أنظار السلطات ، واعتبر فى سلك المحرضين الخطرين ونفى من أودسا . فذهب إلى كييف وهنالك اتصل بأسرة غنية كان يعطى لولدها درساً وتزوج من ابنتها « أولجا » وعاش حيناً فى هدوء وعزلة ، ولكنه لبث مع ذلك متصلا بالأوساط الثورية، ولما اضطرمت الحركة الثورية فى سنة ١٨٧٤ ونزل إلى ميدانها ألوف من الفتية. والفتيات الذين ألهبت عقولهم وأرواحهم النظريات التحريرية الحديثة ، نظمت القيصرية من جانبها حملة القمع الذريع وقبض على ألوف من الدعاة والمحرضين وعقدت المحاكمات الرنانة تباعاً ؛ وكان منها المحاكمة الشهيرة التي عقدت فى بطرسبرج سنة ١٨٧٧ وقدم فيها إلى المحكمة ١٩٣ متهما بينهم جليابوف وبيروفسكايا ، ولكن جليابوف برئ ؛ وما كان يغادر سجنه حتى اجتمع مع أقطاب زملائه وأسسوا حزب « إرادة الشعب » وقرر الحزب أن يلجأ إلى سلاح الارهاب السياسى . وفى أغسطس سنة ١٨٧٩ قررت اللجنة التنفيذية إعدام القيصر اسكندر الثانى حسبما قدمنا ؛ ودبرت لذلك عدة محاولات متوالية ولكنها أخفقت . وكان جليابوف رأس اللجنة الدبر وكان يوجه الحزب بنفوذه القوى إلى مُيدان النضال العنيف وكان شجاعاً لسناً قوى العزم والارادة لايحجم عن شىء . وكان وقت المحاكمة كما قدمنا فتى فى الثلاثين من عمره ، مديد القامة ، قوى البنية . وسيم الطلعة ، حلو الحديث ، يميل إلى الدعابة ويتدفق حين الجدل فصاحة وبياناً .

وكانت صوفيا بيروفسكايا تنتمى إلى أسرة عريقة شغل كثير من أعضائها مراكز كبيرة في الدولة ؛ وكان والدها حاكما لمقاطعة سنت بيترسبرج ، ولكنها آثرت منذ حداثتها حياة الحرية والمغامرة ، فغادرت منزل الأسرة إلى العاصمة وتلقت تربيتها فى إحدى مدارس المعلمات ، ثم عينت بعد ذلك معلمة فى إحدى مدارس الأقاليم ؛ ولكنها لم تجنح إلى السكينة والعزلة بل اتصلت بالحركة الثورية ، وقبض عليها لأول مرة بتهمة التحريض وهى دون العشرين . ولما أفرج عنها اشتغلت مدى حين ممرضة فى أحد المستشفيات ثم قبض عليها مرة أخرى فى قضية بطرسبرج الكبرى مع جليابوف وزملائه فبرئت ، ولكنها نفيت إلى إحدى المقاطعات الشمالية . بيد أنها تمكنت من الفرار وعادت إلى العاصمة حيث التحقت عضواً بحزب « إرادة الشعب » . وكانت حيناً

قبض عليها في مارس سنة ١٨٨١ في السابعة والعشرين من عمرها ولكنها كانت تبدو بنظراتها الساحرة وعينيها الخضراوين ومحياها الوسيم أصغر بكثير من عمرها . وكانت صوفيا تحب جليابوف حباً جماً وترسم خطاه ومغامراته بعزم مدهش ؛ وكان هذا حبها الأول والأخير . وكان جليابوف يبادلها هذا الحب المضطرم وكانا يعيشان معاً في أفق ساحر من الجوى والمثل الثورية .

أما عن باقي المتهمين فكان كبالتشش مهندساً في نحو الثلاثين من عمره ؛ وكان ميخايلوف عاملا فتى من عمال المعادن ؛ وكانت جسيا هلفمان فتاة من أسرة متوسطة تخرجت في مدرسة القابلات ولم تكن حسناء ولكنها كانت مخلصة مطبوعة ، وكان تعمل في مطبعة اللجنة السرية وتدير المنزل الذي يجتمع فيه الأعضاء .

بقي ريسا كوف ، وقد كان فتى حدثاً في التاسعة عشرة ينتمي إلى أصل متواضع ؛ وكان وقت القبض عليه طالباً بمدرسة المناجم يعني ببث المبادئ الثورية بين العمال ؛ وكان أهم متهم في القضية بعد جليابوف وصوفيا بل كان مفتاح القضية في الواقع ذلك أنه قبض عليه متلبساً بجريمته على أثر إلقائه القنبلة الأولى على موكب القيصر ، وقد رأى فيه النائب المحقق دبرجنسكي منذ الساعة الأولى فريسة سهلة ، فمال عليه بالاغراء والألفاظ المعسولة واستطاع أن يحمله على الاعتراف بكثير من الوقائع والمعلومات الهامة المتعلقة بالجريمة وحزب إرادة الشعب ، وكان ريسا كوف فتى هائم الذهن ، مضطرب الأعصاب ، فكان تارة يدون اعترافاته للمحقق وتارة يحاول تأييد مسلكه ؛ وقد نشرت أقواله فيما بعد في كتيب صغير ضمن ما نشر من وثائق هذا العهد ، وهي أقوال روح فتى هائم يتخبط بين الرغبة في التمسك بمبادئه ومثله ، وبين الروع الذي يثيره فيه شبح الموت ، ويقص ريسا كوف في مذكراته كيف كانت مشاعره الحساسة التي شحذتها طفولة بائسة تتأثر أيما تأثر بما يراه بين الفلاحين والعمال من مناظر البؤس المطبق ، وكيف ترك لقاءه الأول لجليابوف في نفسه أعظم أثر ، وكيف أذكي لجليابوف في نفسه عاطفة الكفاح ، فانضم إلى جماعة المرهبين ، وارتكب جريمته على أنها عمل مجيد .

— ٤ —

ودام التحقيق زهاء ثلاثة أسابيع ، وفي يوم ٢٦ مارس سنة ١٨٨١ بدأت المحاكمة الشهيرة أمام المحكمة العليا التي ألفت كما قدمنا من ستة من الشيوخ وعضوين من النبلاء وعضو عن التجار وعضو عن الفلاحين اختارتهم المحكمة وعمدة موسكو ؛ وتولى رآستها الشيخ (السناتور) فوكس وتولى مهمة الاتهام النائب مورافييف ؛ واعترف جميع المتهمين بانتمائهم إلى حزب إرادة الشعب واشتراكهم في تدبير المؤامرة وتنفيذها ، ما عدا جسيا فانها أنكرت قيامها بأي عمل إيجابي ، وميخايلوف فانه اعترف بانتمائه إلى فرقة المرهبين ولكنه أنكر اشتراكه في تنفيذ الجريمة .

وكان اعتراف جليابوف بالأخص رناناً مؤثراً ؛ فذكر أنه عضو في اللجنة التنفيذية وأنه انضم إلى الحزب نزولا على إيمانه وعقيدته ، وأنه وهب حياته منذ أعوام لخدمة قضية الحرية ، ثم قص في بلاغة وقوة على المحكمة تاريخ أعمال اللجنة التنفيذية وما دبرته من مختلف المشاريع لازهاق القيصر ، واعترف بأنه هو الذي دبر مؤامرة أول مارس ، وأنه هو الذي اختار المنفذين لها من بين المتطوعين الفدائيين ، ولكنه حاول جهده أن يبرئ ميخايلوف من تهمة الاشتراك .

وسمعت المحكمة عدة شهود من الشرطة وحجاب المنازل التي كان يتردد عليها المتهمون وعدداً كبيراً من الضباط والمخبرين الذين شهدوا مصرع القيصر ، وبعض زملاء ريسا كوف وأساتذته ، فنوهوا جميعاً بذكائه ورقة خلاله . وسمعت تقارير الخبراء عن خواص القنابل والمفرقعات التي استعملت في الجريمة ووقفت المحكمة بذلك على كثير من تفاصيل الحادث وسير الحركة الثورية .

وألقى النائب مورافييف ممثل الاتهام مرافعة قوية عنيفة ، فقدم المتهمين في صورة مجرمين من أروع طراز ، وأبالسة من البشر ظمئين إلى الدم ، وحمل على الحركة الثورية وعلى مثلها ودعاتها بشدة ، وقال إن هؤلاء القتلة لا محل لهم بين مخلوقات الله وإنهم من عناصر الهدم والفوضى يعبدون طريقهم بالقتل ، وإن الوطن الروسي الذي خضبوه بدم القيصر الثمين قد عانى كثيراً من أعمالهم ، فعلى روسيا أن تصدر حكمها عليهم في شخص هذه المحكمة وليكن مصرع أعظم الملوك خاتمة حياتهم الاجرامية .

ثم جاء دور الدفاع ؛ وكان الدفاع مهمة شاقة أمام هذا القضاء المسير وهذه المحكمة التى عقدت لأداء مهمة معينة . وكان شاقاً بالأخص أمام اعتراف المتهمين الشامل ؛ ولم يكن للبواعث المعنوية والمثل العليا اعتبار فى هذا الجو الخانق . ومع ذلك فقد قام الدفاع بمهمته التقليدية ، فتولى الأستاذ أونوفسكى الدفاع عن ريساكوف وصور للمحكمة عقلية المتهم الفتية الساذجة ورجا المحكمة أن تراعى فى تقديرها لجرمه حداثة سنه واضطراب أعصابه . ودافع الأستاذ خارتولارى عن ميخايلوف ففند أدلة اتهامه ، وبين أنها فيما عدا أقوال ريساكوف لاتنهض دليلا على اشتراكه . وأن ريساكوف لم يكن متزناً ولامتفقاً فى أقواله . ودافع الأستاذ جركى عن جسيا هلفمان وبين أنها لم تقم قط بأي دور إيجابى فى هـذه المحاولات الاجرامية ، وأن كل ماقامت به هو أنها كانت تؤجر المكان الذى اعتاد المتهمون أن يعقدوا فيه اجتماعاتهم . ودافع الأستاذ حيراردى عن كبالتشش وشرح للمحكمة العوامل والظروف القاسية التى دفعته إلى سبيل الاجرام .

وتولى الأستاذ كدرين الدفاع عن صوفيا بيروفسكايا ؛ وكانت مهمة فادحة لا تبعث إلى شىء من الأمل ، فقد لبثت صوفيا حتى آخر لحظة متمسكة باعترافاتها ، واضطر الأستاذ كدرين أن يلجأ فى دفاعه إلى ضروب من البلاغة المؤثرة ؛ فصور صوفيا فتـاة وديعة هادئة يجيش بأعظم حب لوطنها ، وتعتقد بإيمان راسخ أن المثل الثورية هى سبيله الوحيد إلى الخلاص والمجد ؛ واستعرض نشأتها النبيلة ، وحياتها المضطربة ، ومثلها العليا ؛ وبين أنهـا لم تنزلق إلى الجريمة إلا مدفوعة بحبها للوطن .

أما جليابوف فقـد آثر أن يتولى بنفسه الدفاع عن نفسه . وكان دفاعا رناناً تردد صداه خارج روسيا ، ووصفه مكاتب « التيمس » فى بطرسبرج بأنه أعظم ظاهرة فى القضية . وكان جليابوف يتدفق منطقاً وبياناً ؛ وكانت أقواله محاضرة فلسفية وسياسية مؤثرة ، واستهل جليـابوف دفاعه بقوله : إن المبادئ بالنسبة لأولى المبادئ أثمن لديهم من الحياة ، وفند مطاعن النائب العام فى مبادئ حزب إرادة الشعب ، وبسط مثل الحركة الثورية وغاياتها . ثم عطف على المسائل العنيفة التى تلجأ إليهـا الحركة الثورية ، فذكر أنها ليست إلا مهمة من المهام العديدة التى يتطلبها تطور روسيا ، وأنه يجب لـكى تفهم غايات الحزب ووسائله أن يدرس ماضى هذا الحزب ، وهو ماض قصير ولـكنه حافل بالتجارب . وسترى المحـكمة متى استعرضت كتاب حياته المفتوح أن أصدقاء الشعب الروسى لن يعمدوا دائماً إلى إلقاء القنابل ، وإننا قد عرفنا خلال نشاطنا أحلام الشباب الوردية . وإنه ليس خطأنا أن يكون هذا العهد قد انقضى .

« وإن حياتنا القصيرة التى قضيناها بين الشعب قد كشفت لنا عن حقيقة آرائه وآماله ، وعرفنا من جهة أخرى أن هنالك فى ضمير الشعب كثيراً من العناصر التي يجب تأييدها . وقد عولنا على أن نعمل باسم المصالح التى أخذ الشعب يشعر بها ؛ وليس باسم النظريات الخالصة . وقد رأينا سبيلنا العملية إلى ذلك أن ندبر مؤامرة لاحداث انقلاب حكومى ؛ ونظمنا لذلك القوى الثورية أتم تنظيم . وقد كانت مهمتى الشخصية ومقصد حياتي أن أخدم الصالح العام . وعملت لذلك طويلا بالوسائل السلمية ولـكنى أيقنت فى النهاية أن الالتجاء إلى العنف أمر محتوم » .

« للبحث بقية — النقل ممنوع » **محمد عبد الله عنان**

خذ الحق واترك الباطل

اليابان والاسلام

المساعي لتحقيق انشاء الدولة الآسيوية العظمى

مترجمة عن جريدة الوقت الهولندية

لقد عرفت اليابان بشدة تمسكها بلغتها ونزعتها القوية للبقاء على ماقد وجدوا عليه آباءهم خصوصاً فيما يتعلق بدينهم ومعتقداتهم؛ ولكن الذى يبعث على الدهشة والاستغراب هو موقفهم الآن تجاه الدين الاسلامي وانتشاره الرائع فى بلادهم . في مدة قصيرة جداً صار لهذا الدين أتباع ومعتنقون كثيرون ؛ والأغرب من ذلك أن هؤلاء كان جلهم من أهل الوجاهة والسلطة . إن عددهم الآن فى الحقيقة لا يستحق أن يقارن بعدد معتنق الأديان الأخرى ، إذ أن البوذويين يبلغون ما يقرب من الأربعين مليوناً ، والشنتويين يناهز عددهم الستة عشر مليوناً ، ولكن إذا راعينا حداثة دخول هذا الدين بينهم وجدنا أن عددهم لا يستهان به . ولكى نعرف تماماً أهمية هذا الدين عندهم فلنتصفح أوجه الحوادث الأخيرة التى طرأت على تلك الحركة ، وبعد ذلك يكون سهلا علينا أن نستنتج هل كان دخولهم ورغبتهم فيه بدافع الميل الدينى الخالص أم كانت هناك أسباب أخرى ألجأتهم إلى ذلك

إلى منتصف سنة ١٩٣٤ لم يكن فى اليابان أية دعاية اسلامية تستحق الذكر ، ولم يكن هنالك أقل رجاء بأن سيكون لذلك الدين ما لنهضته الموجودة الآن . نعم قد سمع من بعض الأجانب تصريحات بوجوب إيجاد تلك الدعاية . فمثلا من قبل ١٨ أو ٢٠ سنة مضت تكونت بسعى بعض الترك والتتار والهنود والسوريين وكذلك بعض اليابانيين جمعية جعلت مهمتها نشر الدين الاسلامي فى جميع أنحاء آسيا الشرقية . ثم إنه يوجد فى الأماكن المجاورة للموانى مسلمون أجانب جاءوا إليها بقصد التجارة لسبب انتشار تجارة اليابان . وهؤلاء قد بدأوا بالدعوة سرًّا بين أفراد اليابانيين ، فانسلخ كثيرون منهم عن ديانتهم القديمة . وهكذا بقيت هذه الدعاية فى طى الخفاء إلى انتهاء سنة ١٩٣٤ . وفى ١١ أكتوبر سنة ١٩٣٤ افتتح أول مسجد فى كوبا ، وكان عدد الحاضرين يوم الافتتاح لا يتجاوز ثلاثين رجلاً منهم روسيون وهنود . ولم تتحقق إقامة هذا المسجد إلا بعد أن تقدمت طلبات حارة من جانب المسلمين إلى الحكومة ، لأنها فى بادئ أمرها رفضت رفضاً باتاً أن يبنى مسجد إسلامى على أرض يابانية بوذوية . وكان ذلك يوماً مشهوداً ألقى فيه رئيس جمعية نشر الديانة الاسلامية السيد ميان عبد العزيز خطبة حماسية . ومن هنا بدأت الدعوة جهراً وظهرت تلك الحركة فى أبهى مظاهرها . أما السبب فى بناء المسجد فى كوبا دون العاصمة فذلك راجع إلى أن المسلمين هنالك كانوا أكثر عدداً ونشاطاً . ومعظم هؤلاء من التتار التركمان الذين فارقوا الأراضي الروسية فى إبان مطاردة الروسيين

بنى هذا المسجد الفخم بأموال الأغنياء التاجرين وشيدت بجانبه مدرسة إسلامية . ثم ظهر من جانب الحكومة أسفها على طول تمنعها من الاذن لهم بذلك . فأرادت أن تبرر موقفها بالعمل مع المسلمين على تعميم هذا الدين فى أقرب وقت ممكن . ففى يوم افتتاح ذلك المسجد نشرت إحدى الجرائد اليومية الكبرى (أوسكامينخي) مقالة مسهبة عن انتشار الاسلام فى جميع أنحاء المعمورة ، وأهابت بالأمة اليابانية أن تضم نفسها إلى هذه الرابطة المتينة . ثم بين الكاتب أن هناك شبهاً فى العادات بين المسلمين واليابانيين ، من ذلك خلعهم لنعالهم عند دخول الأماكن المقدسة ، وغسل القدمين ، ثم غسل اليدين قبل كل أكلة . وقد تحاشى الكاتب مقارنة المسائل الجوهرية فى هذين الدينين كالتوحيد وتعدد الزوجات وما أشبه ذلك

ثم تأسست فى أول سنة ١٩٣٥ جمعية إسلامية أخرى فى عاصمة اليابان . وقد أسست بفضل التتارى السيد عبد الحى . نالت هذه الجمعية الناشئة مساعدات جمة من عظماء البلاد وأصحاب السلطة فيها ، ولم يمض عليها حين من الزمن حتى انضوى الألوف من اليابانيين إلى لوائها ، معظمهم من أرباب الوظائف العالية وكبار الرأسماليين وأصحاب الأمر فى الجيش . وقد جعلت غايتها درس المدنية الاسلامية ومدنية البلاد الاسلامية العصرية ، ثم توثيق عرى المودة بين بلادهم وبين تلك البلاد .

وفى إحدى الحفلات التي أقاموها وحضر فيها أعيان البلاد ووزراؤها ألقى أحد أمراء التتار كلة بليغة فى فضل الاسلام وخاض فى موضوع تفسير (ترجمة) القرآن إلى اللغة اليابانية وذكر لهم عظم انتشار الاسلام فى الشرق أجمعه (وقد تم الآن هذا التفسير وطبع منه آلاف النسخ التي وزعت على ألوف اليابانيين) ثم ألقى فيلسوفهم أوهارا كلة بليغة عن هذا الدين الجديد (عندهم) وأشار بصفة خاصة إلى أن الاسلام مع ما فيه من اليسر والبساطة محتو على كثير من الحكم الحقة، واختتم كلامه بأن قال: « إنه رى الدين الاسلامى أوفق الديانات وأليقها بالأمة اليابانية »

الحكومة اليابانيــة الآن تعتبر الدين الاسلامي ديناً معترفاً به اعترافاً رسمياً. فقد وعدت تلاميذ المدارس الاسلامية بامكان التحاقهم بالمعاهد والكليات العلميــة التابعة للحكومة، وأذنت للمسلمين بشراء الأراضى لاقامة المعاهد الاسلاميــة. ولم يقف إحسانها إلى المسلمين عند هذا الحد، بل فرضت لهم مساعدة مالية، وجلبت لهم أساتذة وعلماء من الأزهر الشريف بمصر لتلقين من يحبون من اليابانيين دراسة القرآن؛ ودعت إلى بلادها الدعاة المسلمين للتعاون على إكثار عدد المسلمين الذين قد بلغوا عشرين ألفاً. كل هذا وقع عند انتهاء سنة ١٩٣٥. وفى شهر ابريل من هــذه السنة نفسها شـيد بمعاونة الحكومة مسجد آخر فى توكيو. وهنا ألقى السيد ميان عبد العزيز خطبة بليغة سياسية جاء فيهـا قوله: « إن اليابان قد وقفت الآن لسلوك الطريق المؤدى إلى إنشاء الدولة الأسيوية العظمى، وسيكون الاسلام فى طليعة هذه الحركة ».

لم تكتف الحكومة بكل هذا التنشيط لهذه الحركة الجديدة، بل قررت في سنة ١٩٣٦ عقد مؤتمر إسلامى فى توكيو، فكم بهذا قد أسدت إلى الاسلام من خدمات! وقد رفع الشاعر الكبير السـيد عبد الرحيم بك قليلات تقريراً ضافياً عما رآه وشاهده أثناء مكثه في تلك البـلاد من ازدياد نمو تلك الحركة. من كل هذا نرى دون مبالغة أن البلاد اليابانيــة حقاً هي الأرض الموعودة للدعاة المسلمين، ونرى أنهم أتوا فى الوقت المناسب للقيام بمهامهم. والظاهر أن الحكومة اليابانية تحبذ كل شيء ينتسب إلى الاسلام. وحسبك ما ذكرناه دليلا

ثم نر الآن ماهى البواعث على إنماء الحركة الاسلامية فى بلاد مثل اليابان؟. أما من ناحية المسلمين فالأمر بين، وذلك سعيهم لتعميم الاسـلام فى جميع البلاد الآسيوية. وقد ظهرت بوادر هذه الحركة من بعد الحرب العظمى؛ وظاهر هــذه الحركة عند العامة مسـألة دينيــة محضة، ولكن الزعماء يقصدون من ذلك مقصداً آخر سياسياً. فان الرئيس بقوله: « إن اليابان الآن فى طريقها نحو تحقيق إنشاء دولة آسيوية عظمى الخ » قد نحا منحى سياسياً محضا.

أما الأمة اليابانية فانها تعلل الباعث لها على ذلك بأنه هو حبها للتسامح مع الأديان، كما صرح ساستها به مراراً ونطقت بذلك قوانينها. فالحكومة تتصنع التظاهر بذلك والساسة البـارزون ورجال الحربية وغيرهم يظهرون ميلهم اليــه لبساطة تقاليد هذا الدين ويسره متأثرين بقول فيلسوفهم أوهارا عنــد ما أكد لهم ذلك فى خطابه:

ولماذا لم تجب الحكومة مطالب المسلمين في بادىء الأمر؟ قد تساءلت عن ذلك الجرائد اليابانية نفسها فأنكرت أولاً أن تحول الأمة نحو الاسلام بسبب إحساس عام طرأ على أفرادها، وكان الذى حملها على ذلك القول هو توجه تلك الأمة بأجمعها نحو ذلك الدين عند افتتاح مسجد كوبا ودرس القيصر نفسه للقرآن. ثم عللته بعد ذلك بأنه إنمـا هو نتيجة تأثير الدعاية التى قام بها المسلمون القاطنون فيهـا، ولـكن للتأثير عليهم بذلك يلزم مضى وقت طويل، إذ أن اعتناق دين جديد عند اليابانيين أصعب منه عنـد الأوربيين، فدخولهم فيـه لم يكن بسبب شعور قومي عام ولم يكن كذلك بدافع الاعتقاد الدينى الخالص.

إذا فكر المرء قليلاً ونظر إلى مطامع اليابان فى بلاد الصين وما حوالبها من البلدان الآسيوية التى يقطنها ٢٦٠ مليوناً مسلماً — ويوجد فى غرب بلاد الصـين ٣٠ مليوناً مسلماً — ثم إلى سياسة المسلمين الذين يدمجون كلة تعميم الاسلام فى كلة توحيد الآسيويين، وقابل بين هذا وبين محاباة اليابان وتحبيذها لتعاليم محمد صلى الله عليـه وسلم ومحاباة زعمائهـا، وعلاوة على ذلك أن أغلبية المحبذين لها هم من السياسيين البارزين ورجال الحربيـة والرأسماليين الـكبار — لاستنتج معنا أن تلك المحاباة لم يقصد منها إلا تحقيق مطامعهم السياسية وأمانيهم فى الامبراطورية الآسيوية العظمى. ولم يكن اختيارهم للدين الاسلامى لمزية فيـه لا توجد

من تاريخ الأدب المصرى

أحمد بن يوسف

المعروف بابن الداية

للأستاذ محمد كرد على

« لاحقة »

ليس ما نشرته « الرسالة » لى فى عدد ٢١٥ هو كل ما عُرف من أخبار أحمد بن يوسف الكاتب . فقد ذكر من ترجموا له أن أباه يوسف بن ابراهيم كان من ذوى المروءات التامة والعصبيات المشهورة ، وأنه كان كاتباً مجيداً يعد من كتاب الطبقة الأولى ، وأنه ولد داية ابن المهدى ، وكاتب ابراهيم بن المهدى ورضيعه وصاحبه ، وأنه صنف كتاباً فى أخباره وفي أخبار المتطببين وغير ذلك ، وأنه قدم دمشق سنة ٢٢٥ ، ولعلها كانت سنة هجرته من بغداد إلى مصر . وذكروا أسماء من روى عنهم ورووا عنه ؛ وممن روى عنهم من غير المسلمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب وعيسى بن حكم الطبيب

وكان يوسف بن ابراهيم من أصحاب الثروة يجرى على كثيرين فى الفسطاط . ولما حبسه ابن طولون فى « بعض داره ، وكان اعتقال الرجل فى داره يؤيس من خلاصه ، فكاد ستره أن ينتهك لخوف شمله عليه » جاء جماعة من أبناء الستر إلى أحمد بن طولون وطلبوا إليه أن يقتلهم إذا كان معتزماً على قتله ، وقالوا إن لهم ثلاثين سنة ما فكروا فى ابتياع شئ مما احتاجوا إليه ولا وقفوا بباب غيره . وفى الساعة التى توفى فيها يوسف بن ابراهيم بعث أحمد بن طولون أيضاً بخدم فهجموا الدار وطالبوا بكتبه « مقدرين أن يجدوا كتاباً من أحد ممن ببغداد ، فحملوا صندوقين وقبضوا على أحمد وعلى أخيه ، وصاروا بهما إلى داره ، فأدخلوهما إليه وهو جالس وبين يديه رجل من أشراف الطالبيين ، فأمر بفتح أحد الصندوقين ، وأدخل خادم يده ، فوقع على دفتر جراياته على الأشراف وغيرهم ، فأخذ الدفتر بيده وتصفحه ، وكان جيد الاستخراج ، فوجد اسم الطالبى فى الجراية ، فقال له وأحمد يسمع : كانت عليك جراية ليوسف بن ابراهيم . فقال له : نعم أيها الأمير ، دخلت هذه المدينة وأنا مملق ، فأجرى عليّ فى كل سنة مائتى دينار ، أسوة بابن الأرقط والعقيق وغيرهما . ثم امتلأت يداى بطول الأمير فاستعفيت منها »

هذا الوالد هو الذى أنجب احمد بن يوسف . وأنت ترى أن أحمد بن طولون كان يتخوف منه ، لمكانته واتصاله الوثيق بالبيت العباسى وربما وقع فى خاطره أنه عينٌ عليه ، فى زمن كان فيه ابن طولون يرمى إلى نزع يده من الخلفاء وتأسيس ملك فى مصر يكون له ولعقبه على عنق الدهر .

ولذا كان ابن طولون حذراً يقظاً وقد اتخذ أساليب مهمة لأخذ الأخبار ، واتقاء عادية كل من طرأ على مصر ، وعنده أن كل غريب يجعل تحت الترقيب ، ولا سيما إن كان عراقياً أو يمت إلى السياسة بأدنى سبب .

تثقف أحمد بن يوسف ثقافة أبناء الأعيان فى عصره ، فجاء كاتباً شاعراً رياضياً منجما أو هو كما وصفوه « مجسطى إقليدسي » حسن المجالسة والعشرة تام المروءة كأبيه ، وصار له اتصال دائم بأرباب الدولة ومنهم عظماء فى الأدب والكتابة والفقه والطب

فى غيره من الأديان ، بل إن كل دين عندهم من هذه الوجهة فى درجة واحدة ، إلا أن الاسلام تميز عن غيره بكثرة المعتنقين ؛ واليابان تؤمل بهذا وجود جبهة قوية لها أمام الاشتراكية ، ورابطة متينة لبناء الوحدة المزمع إنشاؤها .

أما كون الحكومة فى السنتين الأوليين لم توفق إلى تلك النظرية — أو أنها لم ترد الاعتراف بها — فذاك بحث آخر ؛ ويحتمل أن يكون لزعماء المسلمين يد في حملها على الاعتراف بنظرية نشر الدين الاسلامى لترويج تجارتها فى تركيا وفى أواسط آسيا . وقد وفقت إلى ذلك وقدرت على مزاحمة الصادرات الأوربية ونالت إقبالاً كبيراً من البلاد الاسلامية كبلاد العرب والأفغان وإيران . وما دامت اليابان ترى حاجتها فى الاسلام للوصول إلى تلك الأغراض فضررها سيكون بليغاً على الديانة النصرانية .

إن الاسلام يعقد فى مساعدات اليابان له أماني ذهبية ، واليابان بدورها تنتهز هذه الفرصة لاشباع مطامعها السياسية والتجارية . وقريباً يظهر هل تلك الأمة حقيقة راغبة فى اعتناق ذلك الدين ، أو يظهر ما أخفته وراء تلك المجاملات اهـ .

« المرشد — سورابايا »

والهندسة والفلك لم تتعرض كتب التراجم لهم ، مثل على المتطبب المعروف بالديدان وقال فيه إنه كان « حسن المعرفة لكتب أفلاطون ورموزه ومبرزاً في الطب » وكان على صلة بالمهندسين واستفدنا من كلامه أنه كان لهم في بغداد موضع يجتمع فيه وجوه العلماء بالهيئة والهندسة في دار العباس بن سعيد الجوهري ترب المأمون .

ولم نعرف حقيقة الديوان الذي كان يعد من كتابه أو من رؤسائه ، فإن ابن النديم وصفه في الفهرست بالمهندس المصري ، وقال إنه فسر كتاب الثمرة ، وكتاب الثمرة من تأليف بطليموس أما سائر كتبه فقد ذكر منها ياقوت في معجم الأدباء طائفة صالحة ، ومنها سيرة احمد بن طولون وسيرة ابنه خُمارَوَيْه وسيرة هارون ابن أبي الجيش ، وأخبار غلمان [1] بني طولون ، وكتاب أخبار الأطباء ، وكتاب مختصر المنطق ألفه للوزير العالم الكاتب العف على بن عيسى ، وكتاب ترجمته ، وكتاب أخبار المنجمين ، وكتاب أخبار ابراهيم بن المهدي ، وكتاب الطبيخ . وكل هذه الأسفار فقدت ، ولولا أن عثر له في الأعوام الأخيرة على كتاب « المكافأة » بل على جزء منه لفطى الزمن على فضل أحمد ونبوغه في الكتابة أيضاً . وكم من رجل سدل على صيته القناع بعد قليل من رحيله لفقد ما كتبه وقلة أنصاره ، وربَّ رجل تضاعفت شهرته في مماته أكثر من حياته لاغفال حساده أمره بعد موته ولكثرة من أشادوا بعلمه وأدبه وابداعه .

وإذا كتب لأحمد بن يوسف أن تدرس حياته وأدبه دراسة أدبية ، وتهيأ لبعض المتفرغين من الباحثين أن يجمعوا طائفة من كلامه ، وهو قليل في المطبوعات التي بين الأيدي ، ولا يبعد أن يعثر له على أشياء في بعض المخطوطات — يسهل على نقاد الأدب أن يسلكوه مع سميه احمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون في سلك واحد ، وربما يثبت لهم أن احمد بن يوسف المصري أوسع علماً من سميه البغدادي بما أصابه من الحظ العظيم من الثقافة التي تنم عليها أسماء مصنفاته فقط . وكيف لا تتأفق شهرة الكاتب البغدادي واتصاله كان بأعظم خليفة ، وكيف لا تضؤل شهرة الكاتب المصري وصلته كانت ببيت يعد في عرف السياسة يومئذ خارجاً على الخلافة ؟ وبغداد في ذلك العصر يحمل إليها كل جميل ويعد ما يحمل منها جد جميل

إن كتاب « المكافأة » بأسلوبه ورشاقة بلاغته من أبلغ ما كتب كتاب العرب في القصص ، يشبه أسلوب ابن المقفع فهو من غراره في السلاسة وعدم الكلفة . وقد نقل فيه شيئاً من القصص عن والده وعن رجال البلاط الطولوني وغيرهم وعن ابن المقفع وقال إنه « مما نقله ابن المقفع عن الفرس وتعاله العرب »

روى لي أحد أصدقائي أن حافظ إبراهيم « رحمه الله » استظهر هذا الكتاب في سنة نشره وقال لي الأستاذ عبد العزيز البشري إنه قرأه ثلاثين مرة وما ارتوى من ديباجته . لا جرم إن بلاغة أحمد بن يوسف من النوع الذي لو راهنت على أنه ليس في وسع جهابذة النقد أن يسقطوا لفظة من جملته لربحت الرهن ، وصدقك الأدباء في قولك بتفرده في أسلوبه ، وأنه بلا جدال المفرد العَلَم بين من أنبتهم مصر من الكتاب في الدهر الغابر

وبعد فمن عجيب ما فهمناه من حياة احمد بن يوسف أنه كان يحاذر محمد بن سليمان لما دخل مصر في سنة ٢٩٢ للقضاء على الدولة الطولونية ، وكان يستدعى « الواحد بعد الواحد من أسباب الطولونية ويستصفى ماله بالسوط وعظيم الإخافة » . وكان الطولونيون يعرفون أن هواه مع بني العباس بالطبيعة ويراقبون حركاته ، وما ندرى وهو الذي جمع سيرة دولتهم ورجالها إن كانوا راضين عما كتب أم غير راضين ؟ لأن حرية القول ظاهرة في كلامه من كتاب المكافأة ، ولا شك أن سائر ما دونه من تاريخ القوم من هذا النمط . مات احمد بن يوسف سنة نيف و ٣٣٠ وقال ياقوت وأظنها ٣٤٠

وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية فإن الظاهر أن احمد ابن يوسف عُمِّر طويلاً لأنه يروى عن رجال عرفهم في أيام احمد بن طولون ، وهذا هلك في سنة ٢٧٢ والظاهر أنه كان صاحب مزارع انتقلت إليه من أبيه ومنها ما كان على مقربة من المحلة الكبرى

محمد كرد علي

---

(١) في اللسان : يقال فلان غلام الناس وإن كان كهلا كقولك فلان فتى العسكر وإن كان شيخاً ، والعرب يقولون للكهل غلام نجيب وهو فاش في كلامهم . ويقصد أحمد بن يوسف بغلمان بني طولون رجالهم والقائمين بدولتهم

الظاهرة الهامة (*) وتأويلها

للأستاذ محمد أديب العامري

من الناس من يموت فجأة ، فهذا يقف قلبه عن النبض لتوقف الأعصاب التي تحركه ، فلا يصل الدم إلى أجزاء الجسم ، فتهبط الحرارة ويقف الغذاء ويسكن الجسم ، ثم ينحل من بعد . وهؤلاء لا يعانون دور النزع الذى يسبق انقطاع المرء عن الحياة ؛ ومن ثم لا يصاحبهم بالطبع هذيان النزع الأخير .

ومن الناس من يموت متدرجاً ببطء شديد ؛ فاذا تقدم فى السن إلى حد بعيد تصلبت أوعيته الدموية ، وتيبست عضلاته ، وتعب جهازه العصبي ، وأضاع كثيراً من رشده . ومن المعتاد فى مثل هؤلاء أن يفقدوا شيئاً من قواهم الشعورية التفكيرية قبل موتهم بأشهر ، بل بسنين ؛ فيصرحون بأشياء لا يصرح بها الانسان السوى عادة ، ويتحدثون أحاديث تحمل الناس على اعتبارهم مجانين ، أو أشباه مجانين .

ولكن أكثر الناس يموتون فى فترة ، لا هى قصيرة كالفجائية ، ولا هى زائدة الطول كما هو الحال فى « الموت التدريجى » . فهؤلاء يقعون فى المرض فيؤثر المرض على بعض أجزاء أجسامهم ؛ وهم أثناء ذلك يحتفظون بقواهم العقلية من شعور ووعى وتفكير ؛ فاذا استفحل المرض أثر على الجهاز العصبي فعطل قوته الواعية (الشعور) وتحكم فى المريض جزء آخر من قواه العقلية ، وهذا الجزء هو المسئول فيما أعتقد عما يظهر على المريض من هذيان .

وقبل أن نتوسع فى شرح ما يقع للمريض فى هذه الحالة وحالة « الموت التدريجى » أحب أن أتعرض قليلاً لعمليات العقل الانسانى ، ففى هذه العمليات التأويل المرجح لظاهرة الهذيان التي تسبق الموت .

عقل الانسان هو عبارة عن قواه المدركة التي يسميها علماء النفس « الشعور » مضافاً إليها قواه الفكرية الأخرى التى يسمى بعضها « شبه الشعور » ويسمى بعضها « اللاشعور » أو « العقل الباطن » . فعند ما تكتب مقالة فأنت تفكر تفكيراً عنيفاً مقصوداً وموجها ، وهذا العمل نوع من الأعمال الشعورية وعند ما تحل مسألة رياضية أو عقلية فان عملك هذا يعتبر من نوع الشعور كذلك . والأعمال الشعورية التى يعملها الانسان قليلة وإن ظهر أول الأمر أنها كثيرة . أما المشى فمن أعمال المرء شبه الشعورية . فانك عند ما تقصد من بيتك إلى السوق تطلق رجليك دون تفكير شعورى واع فى الشوارع والمنعطفات . وآية ذلك أنك تستطيع أن تقوم بعمل عقلى شعورى أثناء المشى ، وعمل اللاشعور من أعمال العقل التى نظن عادة أنه أقلها أهمية ولكنه فى الواقع أكثرها إشغالا لقوانا العقلية وأكثرها دلالة على حقيقة شخصياتنا . فأنت تكون تعمل عملا شعورياً متعباً فلا يلبث تفكيرك أن ينصرف إلى أفكار خيالية بعيدة الوقوع . فأنت ترى نفسك وقد غنيت أو امتلكت أملاكا عريضة ، أو تزوجت من فتاة جميلة ، أو حصلت على شهادة عالية وأنت لا بث مكانك لم تنفض يدك من عملك . وتنصرف حالا إلى الانتقام من خصومك أو التحبب إلى أصدقائك على نحو لا يتأتى لك حين تفكر فى أساليب هذا الانتقام أو التحبب ويقع ذلك أثناء اليقظة وتسمى هذه الأفكار « أحلام النهار » فاذا ما نمت تعطل معظم التفكيرين الشعورى وشبهه وانطلق اللاشعور يعمل عمله . فأنت فى النوم طائر مرة ، محارب أخرى ، مسافر ثالثة . وبالجملة يقع لك ما كنت ترغب فى تحقيقه فامتنع عليك فانشغل به اللاشعور بعد أن أعرض الشعور عن حمل المرء على تحقيقه . وأهم ما يجب أن يعرف من هذا هو أن « أحلام النهار » والأحلام العادية وعمل النفس اللاشعورى إنما يكون أهمها فى رغبات الانسان المكبوته ، وما كان يعمله لو أتيحت له الوسائل . ومن هنا ترى أن أكثر أعمال المرء فى يقظته ونومه إنما هي أعمال لاشعورية

والذى يلاحظ المريض المقبل على الموت يرى أنه ينتقل من وعيه الكامل إلى هذيانه شيئاً فشيئاً ، فهو يهذى بادئ الأمر شيئاً قليلاً بينا يتخلل هذيانه تفكير واع ، ثم يتمادى في الهذيان حتى يطغى الهذيان عليه ، فلا يكون كلامه إلا خليطاً لا يتصل

(*) أنظر مقال الأستاذ عبدالمغني علي حسين من الصفحة ١٣٣١ من عدد الرسالة ٢١٥ .

بالشعور أو شبهه بسبب . والاصغاء إلى المتوفي فى هذه الحالة دراسة مهمة لشخصيته وتفكيره ومتاعبه . لأنه يفكر آنئذ بلا شعوره ويعطيك نفسه غير مغلقة ولا مصطنعة . والأرجح أن جميع ما يصدر عن المريض له تعليل على هذا الأساس ، أى أن هذيانه تفكير لاشعوري .

وأحسن ماتشبه هذه الحالة بالنوم ، فالنوم فى الواقع شبه موت مختصر ، تثور فيه رغبات المرء المكبوتة ومخزونات اللاشعور العديدة على صورة أحلام . والذين تجرى أحلامهم على ألسنتهم أثناء النوم يتحدثون حديثاً يشبه الهذيان . على أن هذا الهذيان نفسه أصح دلالة كما قلت على نفسية النائم مما يصرح به أثناء وعيه الكامل عن شعور محكم مضبوط . ولهذا يعمد المحققون إلى مثل هذه الحالات ليعرفوا منها أسراراً يقصدون إليها . وهم لذلك يلجؤون إلى طرق طبية خاصة توصلهم أحياناً إلى أغراضهم .

واصغ إلى هذيان المريض تجد أنه يحدثك عن أهم المشاكل التى كانت تعترضه فى حياته . ويساعدك على تحقيق هذا معرفة بالمريض تكون قد أطلعتك على أحواله الخاصة . ومع أن هنالك مايؤيد أن المريض إذا أقبل على الموت عرف ذلك ، فان هذا لايدل على أن المريض يرى شيئاً من الحياة الثانية ويتحدث عنه ، إلا إذا كان هو من شديدى الايمان بهذه الحياة والعناية بها والتحدث عنها بحيث أنها تشكل فى عقله قسماً من أفكاره اللاشعورية التى يتحدث عنها وهو يهذى . ونحن هنا يجب أن نلتمس التأويل الممكن لحديث بعض المحتضرين عن أناس توفوا قبل .

فما قيل من أن محتضراً « كان يتحدث إلى الموتى كما لو كانوا منه على مرأى وعلى مقربة » سهّل التأويل على أساس نظرية اللاشعور . وأما أن هنا لك « حالات هتف فيها المحتضر باسم شخص مات ولم يكن المحتضر يعرف أن ذلك الشخص قد مات » فقول يحتاج بعد إلى تحقيق شديد . فالمرء قد يختزن في لا شعوره معلومات لا تكون فى متناول شعوره دائما ، فهو ينكر معرفتها في حال وعيه وشعوره فى حين أنها ترد على خاطره حين يتيه فكره لاشعوريا ، فلا يكفى قول رجل لك عن أمر إنه لا يعرفه دلالة على عدم معرفته ، إذ المرء نفسه قد يجهل أنه يعرف شيئاً مختزناً فى اللاشعور .

وإذا أريد الوصول إلى قرار علمي صحيح فى هذه الظاهرة فلا يجب أن تحمل أقوال المحتضر على شئ خاص حين يمكن حملها على معانٍ طبيعية عادية . فقول مريضة محتضرة عن شقيقة لها سبقتها إلى الموت دون أن تعلم « انظروا هذه هي شقيقتى إنها تقول أنها ستكون معى . لماذا لم تخبرونى بذلك ؟ » قول لا يدل دلالة قاطعة على أن الشقيقة المحتضرة عرفت قبيل موتها عن موت أختها ، كما يتضح من التأويل التى يمكن أن يؤولها هذا الكلام بصورة طبيعية ، أن العمد إلى تأويل روحية غير مستندة إلى ما يعتمد عليه العلم من وسائل الاثبات لا يزيد إيضاح هذه الظاهرة شيئاً ، بل يزيدها تعقيدا

هذا — ولا ريب أن المريض يعرف قبل الموت بزمن ، قصر أو طال ، بأنه سيموت . والرجل المسن الذي يرى قواه العقلية تنحط وقواه الجسدية تذهب ، هو رجل يموت فى الواقع ، وهو يعرف أن انحطاطه هذا آيل به إلى الموت . فعند مايقع خلل فى أحد أجهزة الجسم المهمة يتحقق الموت ولا سيما إذا كان عالماً بشئ من طبيعة الحياة . والانسان المريض الذى يقبل على الموت يعلم قبيل موته فى الغالب أنه سيموت ، لأن الانحطاط الشديد الناتج من اختلال العمل فى بعض الأجهزة كما مر لا بد وأن يشعر المرء إشعاراً داخلياً بيناً بأن الخيط الذى يصله بالحياة وشيك الانبتات ، فلعل هذا هو الذى ينقله إلى التفكير اللاشعورى فى الحياة الثانية وفى معارفه الذين سبقوه اليها .

« عمان » **محمد أديب العامرى**
مدير مدرسة عمان الثانوية

فردريك نيتشه

FRIEDRICH NIETZSCHE

للأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف

تتمة مانشر فى العدد الماضى

وفى سنة ١٨٧٤ كتب نيتشه فى مذكراته « إن دينى – إن كان لي شيء يصح تسميته بذلك – لايتعدى العمل لمنتجات العبقرية . أما الفن فهو التربية التي تحقق ما نأمله فى الحياة وبذلك تهون علينا الحياة بما فيها من ألم . » وذكر نيتشه فى نهاية الجزء الرابع من كتابه « إنسانى ، وإنسانى إلى أبعد حد » فى فصل « عن روح الفنان والأديب » كلاما بلهجة اليائس ، إذ اعتبر الفن في تدهور وانحلال – ولعله كان يتحدث فى ذلك عن نفسه بالذات . فقد حمل نيتشه على الفنانين الذين يحجمون عن النظر إلى المثل العليا ، ويكتفون بالنظر إلى أعمالهم فقط . ولهذا انقلب على الفنانين وراح يمجد العلماء الذين يعملون للفكر ، فكل عالم أصبح فى نظره « إنسانى ، وإنسانى إلى أبعد حد » . وهكذا بدأ يشيد بسقراط الذى كان قد نعته من قبل « بقاتل التراجيديا واتخذه مثلا أعلى له .

وعد نيتشه بعد كتابه الأخير من الحكماء البلغاء القابضين على ناصية المنطق والخيال والقول الحكيم . وكان فى جده صارماً وفى لذعه قارصاً وفى مزحه ظريفاً . وهو إذا ما غضب بلغ حد الغضب ، وإذا ماعمد إلى اللعب نسى نفسه ، وإذا مارقص تفانى فى الرقص ، وكان الرقص أحب الأشياء إلى نفسه . وكان نيتشه يري فى نفسه رأس حكماء الألمان ويعتقد بأن أسلوبه هو الأسلوب الخالد ، إذ فى وسعه أن يكتب فى عشرة جمل مالا يكتبه غيره فى كتاب كامل . وكان قد قرأ من الألمان ليشتنبرج Lichtenbetrg و « هينه » Heine ، ومن الفرنسيين مونتانى Montaigne وفونتنل Fontenelle وشامفور Chamfort وغيرهم . وكان يجد للفرنسيين آراء صادقة لم تجتمع فى كافة كتب الفلاسفة الألمان .

وتخطى نيتشه فى سنة ١٨٨١ تلك الأزمة التى عاجلته بعد كتاب « إنساني وإنسانى إلى أبعد حد » وكتاب « آراء وحكم مختلفة » Vermischte Meinungen nud Sprueche وكتاب « الهائم وظله » Der Wandrer Und Sein Schatten ، وأحس بأنه قد استرد قواه الجسمانية والروحية بعد أن جال فى التيرول وفى جبال الألب وفي شمال إيطاليا . ورأي نيتشه أن الحياة تفتحت له من جديد ، إذ أخذ يدرك الأشياء على حقيقتها بعد أن زال عنه الغشاء . وقد أدى به تجواله إلى هيامه بتلك البلاد الجنوبية هياماً ضارع حبه لوطنه . ومن ثم أصبح شخصاً آخر لايؤمن بوطن خاص ، وصار « أوربياً » لايفرق بين شعب أو وطن ، حتى لقد قال « لكي تكون ألمانيا صادقاً ، يجب أن تنتزع النعرة الألمانية من صميمك » . كذلك قال : « إن الألمان هم رجال الأمس البعيد وسيصبحون رجال الغد البعيد ، اما أنهم رجال اليوم فلا ! » وما ذلك إلا لتعهدهم بتربية العاطفة بدلاً من تعهدهم تربية الفكر . وألمانيا فى اعتبار نيتشه أحط مستوى من بقية دول أوروبا فى الناحية الثقافية . ولم يشعر نيتشه بأنه ألماني إلا بالقدر الذى تسمح به طبيعته « الأوربية الصادقة » فهو ألمانى كما هو بولونى أو إيطالي أو غيرهما . ولعل حياته الأولى ومحيطه الذى عاش فيه ساعداه على أن يكون ذلك الرجل

وإذا كانت أعمال « أفلاطون » و « اسپينوزا » و « بسكال » و « روسو » و « جيته » قد أحدثت تطورات في الفكر البشري كما يقول نيتشه فان كتاب « شفق الصباح » Morgenroete الذى أخرجه نيتشه عام ١٨٨٢ وجعل له عنواناً آخر هو « أفكار عن الأحكام الخلقية » أحدث هو الآخر تطوراً فى الفكر البشرى . وفيه عالج المسائل الأخلاقية ، فمثلا كتب عن العادات المستحبة . وتساءل : ماهى العادة التقليدية ؟ فقال بأن العادة التقليدية هى الخضوع إلى مايضاد العادات الغريزية . وقال بأن على الناس أن يتعلموا من جديد ، وعليهم أن يرفضوا ما اتفق عليه العالم من عادات تقليدية ، إذ لايوجد « عدل أبدى » ، ولهذا فهو ثائر على كل اعتبار ، حتى على الاعتبارات الدينية المسيحية . وأعقب كتابه هذا بآخر عنوانه العلم المرح Froehlich Wis- senschaft وقد حاول فيه أن يحرر الانسان من قيوده المكبل بها ، ويبعده عما لحق به ، كيما ينتعش فكره . ولم تمض أربع سنوات أخرى حتى أخرج كتاباً آخر عنوانه « لغة الريح

الساخن » (الذى من شأنه أن يذيب الثليج) - Sprache Der Tauwinds . والكتب الثلاثة الأخيرة تمم بعضها بعضاً . وفيها من غريب الآراء فى الاخلاقيات مالا يصح تلخيصه فى مثل هذه العجالة .

وعثر نيتشه في قراءاته على « زرادشت » فيلسوف الفرس الأقدم ومعلمها الأول والحكيم الخالد الذى عالج كل مسألة . فاتخذ من اسمه شخصية تملى على الناس آراءه الخاصة . فأصدر فى فبراير سنة ١٨٨٣ الجزء الأول من كتاب « زرادشت » . ولم يكن نيتشه فى حاجة إلى أكثر من عشرة أيام لوضعه ، فجاء فى أسلوب من الشعر المنثور الذى لايجارى . وكتب كتابه هذا أثناء تجواله فى طريق «زاوجلى» الذى يطل على خليج « رابللو » بالقرب من « جنوه » هنا لك نزل على نيتشه وحى ذلك الكتاب الذى اختار له اسم « كتاب للجميع ولغير أحد » وجعل له عنواناً آخر « هكذا قال زرادشت » - Buchfuer Alle Vnd Keinen , Also Sprach Zarathustra كذلك أتم الجزء الثانى والثالث منه فى عشرة أيام أخر . فكتب الجزء الثانى فى بلده « سلز ماريا » بين أواخر يونية وأوائل يولية من عام ١٨٨٣ وأتم الجزء الثالث فى يناير سنة ١٨٨٤ فى مدينة « نيس » . أما الجزء الرابع الذى كتبه لأصدقائه فقط فقد اقتطع من وقته زمناً أطول . وكان نيتشه أثناء وضع هذا الكتاب على أتم مايكون من عافية وصحة . وكان لايسأم السير فى الجبال التى كانت توحى إليه بكل ما يكتب كما أن البحر المتد أمامه كان له أثر في ذلك الوحى . ونقد كتب « زرادشت » كما لو كان يرقص أو يلعب . فقد قال بلسانه « كان من السهل أن يرانى الناس راقصاً . وكنت لا أعرف للتعب معنى . فقد سرت فى الجبال عدة أيام ، وفي كل يوم أسير سبع أو ثمانى ساعات متوالية ، وكنت أنام ملء جفنى ، وأضحك من كل قلبي . لقد كنت مستكمل كل معدات الحياة والفكر صبوراً . وكان هذا العهد يختلف عن تلك الأيام التى كتب فيها « إنسانى ، وإنسانى إلى أبعد حد » اختلافاً كلياً

وكم كان نيتشه شكوراً فى كتابه الرجل الطيب Ecco homo الذى أتى فيه بشىء من مذكراته لعام ١٨٨٨ .

ويعتبر كتاب « زرادشت » الذى وضعه نيتشه فى رأى بعض النقاد ومنهم بيتر جاست Peter Gast « من الكتب الواجب تقديسها » . وقال نيتشه نفسه فيه « إنه نوع أنيق من الدعاية للأخلاقيات .» بل هو« شعور نبى » . « وهذا الكتاب رقص وموسيقى ، هو ألحان جميلة وحكم غالية ، هو العاصفة والهدوء، هو المرح الكامل والظرف والغضب ، وهو إلى جانب ذلك مرعب ومخيف ، إذ فيه أسرار دفينة . » وإنه « كالغابة والليل والأشجار أي مجمع الظلام ، فمن لايخاف ظلمته سيجد فيه زهوراً ورياحين» هذه هي كلمات نيتشه في كتابه الذى كان يعجب به ويسميه « قرار المحيط » . وكتاب زرادشت هذا يعد بأجزائه الأربعة صباح وظهر وعصر ومساء اليوم الذى سيولد فيه الانسان الكامل أو السوبرمان Superman كما أسماه Uedermensch . وهذا الانسان الكامل قد تخيله نيتشه فى كتابه « العلم المرح » . ولهذا الانسان وحده حق الحياة ومن أجله تحمل نيتشه مضض الحياة . أما الانسان الراقي Hoehere Mensch الذى تكلم عنه فى كتابه « زرادشت» يختلف عن الانسان الكامل الذى جاء بوصف له فى الجزء الرابع . ولاداعى للاسترسال فإن (الرسالة) تترجم فى التحدث عما يتضمنه كتاب «زرادشت»، ونكتفى بما أشرنا إليه لنتحدث عن أسلوب نيتشه فى هذا الكتاب . فقد نهج فيه نهجاً فريداً . وكان نيتشه قد كتب إلى« روده» Rohde إمام اللغة فى ذاك العصر يسأله إن كان هناك فى اللغة الألمانية أسلوباً يضارع أسلوبه في زرادشت من حيث القوة ، وإن كان يعتقد بأن اللغة الألمانية بلغت أقصى شأوها على يدي جيته Goethe ولوتر Luther ؛ ويقول نيتشه « إن أسلوبى هو الرقص ، هو لعب متجانس فى كل أشكاله ، كذلك هو القفز والاحتقار لكل تكرار » ويعد كتاب « زرادشت » أكثر كتبه انتشاراً وأبعدهم أثراً وغوراً ، وفيه تتجلى شخصيته وشاعريته . وهو يقول عنه : « إن هذا الكتاب أنشودة الليل — وفى الليل تجيش كل فوارة بصوت أعلى . كذلك روحى هي الأخرى فوارة . » وقال نيتشه على لسان زرادشت متحدثاً إلى شخصه : « إننى جوال أتسلق الجبال » كذلك قال: « إننى لاأحب المنبسط من الأرض ، وقد تبينت أننى لا أستطيع الهجوع إلا يسيرا . ولا أنتظر من القدر إلا أن أبقى هكذا جوالا أتسلق الجبال» وهذا الشعر الرمزى هو طابع كتاب«زرادشت» العظيم .

ولنيتشه في هذا الكتاب شاعرية فذة ، فهو فى بعض الأحايين يخجل من أن يكون شاعراً ، لأنه قد يكذب مع علمه بكذبه ، ومع رغبته فى الكذب . ولهذا فهو يأبى أن يكون من طبقة الشعراء الذين لا ينظرون إلى أعماق الأشياء وأعماق الحياة . أما أنه كان ميالا إلى التلاعب بالكلام والصور فى شعره فذلك لا ينكره أحد . وكان نيتشه رومانتيكي النزعة الأدبية ، ولكنه كان يأبى أن يعرف عنه ذلك ، هذا إلى أنه كان عدواً لدوداً للأدب الرومانتيكي ، ومع ذلك فقد كان كلاسيكيا فى تذوقه للأدب . وكان من أنصار الايضاح والتبسيط ، يكره التفاصيل كما يكره التعقيد والتشكك . وكان يتذوق أدب « يونج ستلنج » Yung Stilling وجيته Goethe وشتفتر Stifter وجتفريد كلر Gottfried Keller وهم من غير نزعته . وكذا ظهرت هويته فيما لا يملكه .

وكان نيتشه يعمل فى نفس الوقت الذى أخرج فيه كتاب « زرادشت » فى تأليف كتاب آخر أظهره سنة ١٨٨٦ تحت عنوان « ما وراء الخير والشر » وهو مقدمة شبه مسرحية لفلسفة المستقبل ، وقال عنها نيتشه بأنها طريق ممهد لأرض زرادشت الموحشة الخطرة . وهو يختلف مع كانت Kant فى تفكيره إذ يتساءل : لم الاعتقاد فى مثل هذه الأحكام عن الأخلاقيات؟ وفى رأيه أنه لا يوجد مظاهر أخلاقية ، ولكن توجد تعابير أخلاقية للمظاهر . وكما يوجد لطبقة السادة تعاليمهم الأخلاقية ، كذلك يوجد لطبقة العبيد تعاليمهم الأخلاقية الخاصة بهم . ولهذا فالخير والشر أشياء تتغير معانيها بتغير الزمان وتغير البيئة . ويرى نيتشه « أن التعاليم الأخلاقية لطبقة السادة كانت قد اختفت من أوربا ألفى سنة إلا أنها رجعت فى عصره ، وكانت قد بلغت أوجها حينما وصل نابليون أسمى مجده . وفى رأى نيتشه أن الخير لا يوجد إلا عند الفقراء الذين لا قوت لهم ، وعند الضعفاء الذين لا حول لهم ، وعند المرضى والقبحاء وهؤلاء جميعاً هم المتدينون »

وكان نيتشه قبل إصداره كتابه الأخير على وشك إتمام نصف كتابه الأعظم « قوة الارادة لبلوغ الحكم ومحاولة قلب القيم جميعها » Der Wille zur Macht, Versuch einer Umwertung aller Werte وما يقصد نيتشه من « قوة الارادة لبلوغ الحكم » ؟ هو يقول : « إن الكائنات الحية تعمل قبل كل شيء لتظهر قوتها إذ الحياة هي قوة الارادة لبلوغ الحكم » وهو يرى في الجزء الأول من هذا الكتاب الذي لم يتم وضعه أن اللاإرادة هي المسيطرة على مشاعر الناس . وبذا تسيطرت اللاإرادة على الإرادة للحياة . وفى الجزء الثانى من الكتاب نقد لكل القيم العليا : ففيه نقد للدين ونقد للأخلاقيات ومثلها العليا ونقد للفلسفة . أما الجزء الثالث فقد جعله كتاباً خاصاً بمبدأ تقرير القيم الجديدة . وقد اعتمد فى وضع قيمه الجديدة هذه على اللاإرادة التى اعتبرها أساس القوة وأساس السيطرة . ونظرته فى الحياة هذه أصبحت عقيدة . فقال إن الارادة أساس الحكم في الطبيعة ، وهى أساس الحكم عند الفرد والجماعة ، وهى أساس الحكم فى الفن . أما كتابه الرابع فقد أراد أن يكون تمهيداً لتطور وازدهار هذه الفكرة . وينتهي الكتاب بالقسم الأخير منه الذى اختار له « العودة الأبدية » عنواناً . ولكن لسوء الحظ لم يتم نيتشه كتابه هذا ، وكان الجميع يتوقعون أن يزدان به الأدب الألمانى . ولم يكن هذا كل ما كان يريده نيتشه ، بل لقد وضع تصميم كتاب آخر عن « الوحدة والانعكاف » فى جزء خاص من كتاب « زرادشت » ولكن الأجل لم يمهله ؛ ولم يعش ليرى أعماله تنتشر وتروج . وكانت سنة ١٨٨٨ هي أكثر السنين التى أنتج فيها نيتشه مؤلفاته

وقد لاحظ النقاد فى بعض كتبه الأخيرة انطفاء جذوة فكره ، وبدت عليه أعراض الخبل ، وكان قد تملكه بعض الوقت . وقد جر عليه تطرفه — وليس فى ذلك مايعيبه — قسوة القدرة وإعراض الناس عنه ، ففى أواخر سنة ١٨٨٨ أصيب نيتشه بهزة عصبية شديدة ، وبدأ جسمه بعد ذلك فى الاضمحلال . ولكنه بقى حتى أواخر أيام حياته طيب القلب ، شديد الصبر ، كثير الأدب ، مراعياً إحساسات الناس كافة . وكان فى سنة ١٨٨٨ قد خيل إليه أن لابد له من أن يبذل أقصى مجهود فكرى ، فجمع أشعاره التى أسماها « أغانى زرادشت » ، ومنها قصيدة « غروب الشمس » الخالدة . ومن من الناس لايمجد « زرادشت » أو « الانسان الكامل » حين يذكر اسم نيتشه ؟

وبقى نيتشه حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس

من تاريخ الأدب المصرى

شعر القاضى الفاضل

للأديب محمد سعيد السحراوى

تتمة مانشر فى العدد الماضى

المديح

هناك نوعان من الشعر قيل كلاهما فى مناسبته ، أحدهما يموت بموت المناسبة ، التى قيل فيها ، والآخر يخلد ويخلد معه هذه المناسبة ، ومن النوع الأول شعر المديح ، فشعر المديح عند القاضى الفاضل أقل شعره كمية وقيمة ، ومنه قوله يمدح صلاح الدين :

جهادك حكم الله ليس بمجهود ... وعزمك أمر الله ليس بمردود
سفينة نوح ما ركبت وعسكر ... كطوفانه والشام بالفتح قد نودى
كأنـا بيحر الكفر قـد غيض ماؤه
إذا ما استوت سفن لها القدس كالجودى
إذا سد باب الآذى فالجود نافذ ... ويارب مفتوح كآخر مسدود

وقوله يمدحه أيضاً :

صحا الدهر لكن بعدما طال سكره ... وما كان إلا من دم البغى خمره
أقمت عليـه الحد بالحد ضارباً ... بسيف إذا ما اهتز قد بان سكره
فمن كان ذا هم فقـد زال همُّـهُ ... ومن كان ذا نذر فقد حل نذره
فيا ملـكا لايملك الخطب صبره ... كما أنه لايجهل الدهر شكره
يجور على الهامات عادل سيفه ... ويجرى على أهل الأوامر أمره
لقد قمت فى نصر النبى وآله ... مقاماً على الرحمن قد حق أجره
سرى ملك الافرنج ينصر جمعهم ... فما ضرهم فى نصرة الحق كفره
وما هى إلا آية نبوية ... أقامت لهم بالنفع من خيف ضره
وعادتهم من قبل آية جدهم ... فينصرهم من لا يؤمل نصره

وقال من موشح فى مدح الفضل بن يحيى بن خالد :

دع اللوم يا عاذلى ... فما أنت بالعادل
ولا تـكثرن الـكلام ... وأقصر فهذا الملام
على الصب مثل الـكلام ... ولو قمت فى كل عام
تلوم إلى القابل ... فما أنت بالقابل

وليست هذه النماذج فى مستوى شعره الآخر على ما أعتقد ، وفيها تكلف ظاهر — وأكبر ما يلفت النظر فى شعر المديح عند القاضى الفاضل أنه لايبدأه — إلا فى القليل النادر — غزلا كما كانت عادة أسلافه ، كما أنه لاينزل به إلى المستوى الذي نزل إليه كثير من الشعراء الأقدمين . وأقصى ما وصل إليه مديحه قوله :

لقد سالمتنا صروف الزمان ... وما برحت قبلها عائدة
وأمطرت نوء الندى دائماً ... فهزت به أرضنا الهامدة
وأسهرت عينك للمكرمات ... فأقررت أعيننا الهاجدة
وأطفت حرارة آمالنـا ... مغانمُ إحسانك الباردة

وقوله :

وتلق خطوب الدهر إن جد جدّها
بعزم مجـــد فى عزيمة هازل
بفخر يرد النجم ليس بصاعد ... وجود يرد القطر ليس بنازل
سماك نخار لا يسمى بأعزل ... ولا لله ليست تـراع بعازل
أقول إذا ماجاء هل من مفاخر ... كقولى إذا ماجدّ هل من منازل
وكم لك من يوم أغر محجل ... ترد به قسرا نوازى النوازل

وكذلك قوله فى مدح شجاع وزير الخلافة من قصيدة طويلة :

أما ومنك على أعدائك الطلب ... فإن أعدى عدو عندنا الهرب
أنت الحياة التى ما بعدها رغب ... أو الحمام الذى ما قبله رهب

عام ١٩٠٠ يقاسى آلام مرضه حتى وافته المنيـة فى مدينة فيمار Weimrr . ولم يكن فى نظر الناس حين ارتحل إلى العالم الآخر إلا أديباً غريب الأطوار والأفكار . أما اليوم فله شهرة عالية كأديب وفيلسوف . وقد كان نيتشه شاعراً مجيداً ذا عقل وثاب وإحساس فياض عميق ، فى حين أن بقية الشعراء لم يكن لهم إلا مجرد « نزوات مضطربة » وما كان نيتشه يهمه اصطلاح الناس على تمجيده أو الاعتراف بفنه ، فقد قال : «إن الطيبة لن تعود طيبة إذا لاكها الجار فى فمه » فكيف حال الطيبة إذا لاكتها الناس عامة ؟.

وكذا مات نيتشه ، ولـكن ما انقضت بعض الأعوام على وفاته حتى أخذ الأدباء والنقاد يشعرون بجبروت فـكره ونبل غرضه . وكم من زعماء الأمم يتطلعون اليوم إليه كرائد لهم ، ويستمدون الوحى من تفـكيره ! وكفاه بذلك فخراً .

ابراهيم ابراهيم يوسف

فليس يعصمهم فى الفلك ما ركبوا
وليس ينجيهم فى الأرض ما ضربوا

وقوله فى مدحه أيضاً :

لك المجد تردى عن عداه علاه … فأى رجاء قد عداه نداه
إذا شئت يوماً أن تراه فانما … ترى ما ترى فى النجم دون مداه
وجودك سحب والسحائب أرضها … فهذى البرايا لو علمت تراه

وأختم مختاراته في المديح بقصيدته الجيلة التى قالها فى العزيز مستعطفاً ومادحاً ومصوراً ومعاتباً :

هذا الذى كنت به أوعد … أنجز وعد الأمس هو الغد
فالغد قد أعجلنى حثه … عن أن أقول اليوم لا تبعدوا
مالك إلا اليوم في شدتى … أنت صديق وأنت أنت العدو
فليت لا كان لسانى لمن … ليس له فى كشف خطب يد
بدا به البخل فألحاظه … عطشى وفي ريقه المورد
تستشهد الأغصان فى أنها … كعطفه اللدن وما أشهد
والناس حساد على وصله … وما ألوم الناس أن يحسدوا
إن شبهوه صنما فأنهم … فانهم فى الحب قد ألحدوا
وذلك الجمر على خده … يقبسك النور ولا يوقد
كأنما قام بمحرابه … من صدغه ذو خشية يسجد
يدعو لأيام العزيز التى … بالعدل فى أحكامها تخلد
فكل أرض بالندى جنة … وكل دار للدعا مسجد
يا نعمة الله التى فضلها … يجحد إيمان الذى يجحد
تستنفد الآمال معروفه … وهو على المعهود لا ينفد
لله باب منك فى أرضه … ما دونه ملجا ولا مقصد
ويستوى مورد معروفه … مسود هذا الخلق والسيد
عبدهم حر بإعتاقه … وحرهم بالجود مستعبد
كلهم أسرى ندى سرهم … إنهم فى كفه أعبد

الزهد

وشعره فى الزهد وبكاء الزمان ، والحنين إلى الأوطان كثير وأكثره فى بكاء الشباب وذم المشيب فهو يقول من قصيدة :

فالعمر كالكأس والأيام تمزجه … والشيب فيه قذى فى موضع الحبب

ويخاطب الشباب بقوله منها :

نار وإن لم يكن كالنار محرقة … فإن فى الشعر منها آية اللهب
ولى صباه وأبقى شهب ليلته … والصبح ليس بمأمون على الشهب
يا ليلة ما أظن الصبح يذكرها … شيبت رأسى ورأس الفجر لم يشب
وخيمة العمر إن شد الصباح لها … عموده كان حبل الشمس كالطنب
ونحن نأمل أسباب الحياة بما … مثلته وأراه أضعف السبب
وحجة العمر أكدار فان غلطت … بالصفو دنياك فاعدده من النغب
يحبك الناس إن أمسكت عن طلب … والله يمقت إن أمسكت عن طلب
إن كان رزق بماء الوجه مجتلباً … فرزق ربك يأتى غير مجتلب

ويقول فى الشيب أيضاً :

ما مع الشيب حديث فى غزل … قد شغلنا منه بالضيف نزل
لست ممن ينزل الضيف به … فيراه الضيف عنه فى شغل

وكذلك يقول :

بلغت أول عمرى أرذل العمر … فلم يزدني اشتعال الشيب فى الشعر
والشيب والشعر كانا ساكنى خلدى … وإنما انتقلا منه إلى نظرى
أما خديعة أحلام أغر بها … فى يقظتى فكر جاءت على فكر
كان الحمام أمام الصفو أرفق بى … من الحياة التى أفضت إلى الكدر
علا البياض فتور كان أوله … هذا البياض الذى يعلو على الشعر
فالليل ليل شباب المر إن سلكت … فيه المنية لم يسلك بمعتكر
عمر الفتى ليلة والموت صبحتها … والشيب بين الدجى والصبح كالسحر

متفرقات له

وللقاضى الفاضل شعر غير قليل فى الرثاء والهجاء والوصف والحكم وغير ذلك فهو يرثى العزيز فيقول مخاطباً قصره :

لئن صرت فوق الأرض أرضاً فربما … عهدناك من جوف السماء لنا سما
حكيت لنا بالأمس عنهم حقيقة … فأصبحت أنت اليوم ظناً مرجماً
عزيز علينا أن نراك على البلى … تراباً نهى المشغوف أن يتيمما
تصدى له من لا يراقب حرمة … ومن ليس يرعى للمكارم محرماً
وما ساءنى أن ترحل الدار بعدهم … إذا ذهب الحامى فلا بقى الحمى

وقال هاجياً ما زحاً :

ولقد رأيت وما سمعت بمثله … للبين بينهم غراباً أعصما
وجه عليه من القباحة مسحة … ظلم اليسار وقد رآه فأظلما
وعليه وجه قد أجيبت دعوة … فيه من الداعي عليه فأرغما
لو أنه ذنب لكان كبيرة … أو أنه طود لكان مقطما
لو شئت أن أرقى لنيل قرونه … لجعلت ذاك الكتف تحتى سلماً

وقال فى كتم السر :

السر مالٌ أو دم … في سحره لا فى يديه
إن كان يكتم سره … كان الخيار به إليه
أو كان يفشى شره … كان الخيار به عليه

وقال من قصيدة :

وإن امرأ أنفاسه نحو قبره … خطاه لمحثوث المسير ولا يدري

وقال أيضاً :

يا خائباً بالمعاصى … كفيت عقبى الخلو
لئن أمنت الأعادى … فالنفس أدنى عدو

وقال فى كتاب :

كتاب صحبت الأنس حين قرأته
كصحبة ما فيه من اللفظ للمعنى
هو الجوهر الأعلى وما قد رأيته
من الجوهر الأعلى هو العرض الأدنى

وقال :

لا يعجز الله هارب هربا … سحابه مدرك إذا طلبا
أين يفر المغرور من أجل … ومن بلاء كلاهما كتبا
إذا رأى الشمس حوله اشتبكت … قال أداة تفيدنى الغلبا
وهي بمنصوبها له شرك … وهو على نفسه به نصبا
يا موقد البنى إن موقده … لناره يصطلى بها حطبا
عمائم للسنان تلبسها الرمح … وترخى لها الدما عذبا
وتسبح العدا بها قضبا … تخر يوم الوغى له القضبا

وله أيضاً :

سرت فكأن الليل قبل خدها … فأبق به قطفاً وأسند عقربا
لما استغربت فى موطن الحب غربتى
فهذا الدجى في صبحها قد تغربا

وقال يخاطب الليل :

فياليل ما افترق العاشقان … إذا كنت بينهما حاضراً
فقد جاءني هاجرى واصلا … فلا يرجعن واصلى هاجرا
وسرّ به غلتى واردا … ولا تفجعنى به صادرا
ودعنى أطارحه شكوى الفراق … واحفظ عهود الهوى ظاهرا
لعلك تعرف سر الغرام … فتصبح للمبتلى عاذرا
وتعشق بدرك عشق البدور … وترجع مثلى بهم حائرا
فلا تبعث العجز قبل اللقاء … ولا تتبع الأول الآخرا
فكم فى حواشيك من طائر … يقص به قلبي الطائرا
ويكسر صبحك لى عينه … فياليل دمت له كاسرا

هذه نماذج عرضتها من شعر القاضى الفاضل وهى ليست أحسن ما فى ديوانه ، ولكنها هى التى تعطى الأديب صورة صحيحة عنه ، وأردت بعرضها التنويه به كشاعر لا يزال ديوانه مخطوطاً ، موجهاً نظر الأدباء والباحثين إلى الكنز الثمين الدفين فى دار الكتب المصرية وغيرها — الذي إن كنا لا نستطيع نشره الآن ، فاننا لا شك نستطيع الاشادة به على صفحات « الرسالة » التى تغار على نشر التراث العربي القيم ، تاركا البحث والتحليل فى شعره وأدب غيره من الأدباء والمغمورين إلى الباحثين والأدباء .

أما ديوان القاضى الفاضل فمخطوط بمكتبة معهد دمياط ، وأخذت له صورة فوتوغرافية محفوظة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨٥٩ أدب .

محمد سعيد السحراوى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٧ —

ملكة الإنشاء

بلغ الرافعي الشاعر مبلغه بعد سنة ١٩٠٥ ، ونزل منزله بين شعراء العصر ، وجرت ريحه رُخاء إلى الهدف المؤمل ، فامتد نظره إلى جديد . . .

وأخذ الرافعي يروض قلمه على الانشاء ، لعله يبلغ فيه مبلغه في الشعر ، فأنشأ بضع مقالات مصنوعة فتنتْه وملكتْ إعجابه فتهيأ لأن يصدر كتاباً مدرسياً في الإنشاء ، سماه «ملكة الإنشاء» يكون نموذجا للمتأدبين وطلاب المدارس يحتذون فنّه وينسجون على منواله ، ووعد قراءه أن ينتظروه في غلاف الجزء الثاني من ديوانه ؛ وأحسبه كان جادًّا فيما وعد ، لولا أمور نشأت من بعد وصرفته عن وجهه ، فظل الوعد قائماً بينه وبين قرائه حتي نسيه ونسوه .

ولا أحسب أن شيئاً ذا بال قد فات قراء الرافعي بعدم نشر هذا الكتاب ؛ وحسْب الأدباء والباحثين في التاريخ الأدبي أن يقرءوا من هذا الكتاب الذي لم ينشر مقالات ثلاثاً نشرها الرافعي في الجزءين الثاني والثالث من ديوانه ، وفي الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ إعلاناً ونموذجاً لكتابه ؛ فإن في هذه المقالات الثلاث كل الغَناء للباحث ، تدله على أول مذهب الرافعي في الأدب الإنشائي ، وطريقته ونهجه (١)

* * *

الجامعة المصرية

قلت : إن الرافعي كان جاداً فيما وعد بإصدار كتابه « ملكة الإنشاء » لولا أمور نشأت من بعد وصرفته عن وجهه ؛ فهذا كان يوم إنشاء الجامعة المصرية في سنة ١٩٠٧ ، وكان أمرها هو ما يشغله .

كان قد مضى على الرافعي يومئذ عشر سنين في مدرسته التي التي أنشأها لنفسه ، وكان فيها المعلمَ والتلميذ ، يدرس ويطالع ويتعلّم ، لا يرى أنه انتهى من العلم إلى غاية ؛ وما كان يدرس ليكون عالماً في الأدب ، أو راوياً في التاريخ ، أو أستاذاً في فرع من فروع المعرفة ؛ إنما كان يدرس ليتزوّد للشعر زادَه ، وليبلغ من العلم مبلغاً يعينه على أن يقول وينشىء . فلما أنشئت الجامعة المصرية ، تطلّع إلى مايقال هناك في دروس الأدب ، لعله يجد فيه الجديد الذي يتشوّف إليه ويطلبه ؛ فماذا وجد هناك ؟

لقد مضى على إنشاء الجامعة سنتان وما استحدثت شيئاً في الأدب يفتقر إليه الرافعي ، وما تحدث أساتذتها حديثاً في الأدب لايعرفه الرافعي . ماذا ؟ أهذا كل ماهناك ؟ وأيقن الرافعي من يومئذ أنه شيء ، فلبث يتربص ...

وطال انتظار الرافعي وما استطاعت الجامعة أن تثبت له أن فيها دروساً للأدب ، وما استطاع الرافعي أن يقنع نفسه بأن في الجامعة أساتذة يدرسون الأدب ، فكتب مقالاً في (الجريدة) يحمل على الجامعة ، وعلى أساتذة الجامعة ، وعلى منهج الأدب في الجامعة . ورنّ المقال رنينه وأحدث أثره ، فاجتمعت اللجنة الفنية للجامعة ، ونشرت دعوة على الأدباء إلى تأليف كتاب في (أدبيات اللغة العربية) جعلت جائزة الفائز فيه مائة جنيه ، وضربت أجلاً لتقديمه إليها سبعة أشهر .

وقرأ الرافعي دعوة الجامعة ، فما رضي ولا هدأت نفسه ؛ لقد كان أمله يومئذ أكبر من ذلك ؛ إن مائة جنيه شيء مغْرٍ لمثل الرافعي الأديب الناشئ ، الموظف الصغير ، الزوج العائل ، أبي وهيبة وسامي ومحمد ؛ ولكن . . . ولكنه يطمع في أكثر من مائة جنيه ، يطمع في أن يكون هو أستاذ الأدب بالجامعة .

« إنهم على الأغلب سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه ، فيكون الحاضر لديهم كالغائب عنهم . ولا فضل لدارهم إلا أنها مصدر التلقين ؛ فاذا طبع الكتاب صارت كل مكتبة في حكم الجامعة ، لأن العلم هو الكتاب لا الذي يلقيه ، وإلا فما بالهم لايعهدون بالتأليف لمن سيعهدون إليه بالتدريس ؟ وهل يقتصرون على أن يكون من كفاية الأستاذ القدرة على إلقاء درسه دون

---

(١) تقرأ في الجزء الثاني من الديوان ص ٦٧ « وصف البحر » وفي الجزء الثالث ص ٨٠ « رسالة فكاهية » وفي ديوان النظرات ص ٩٢ « الحسن المصنوع »

القدرة على استنباط الدرس واستجماع مادته حتى لا يزيد على أن يكون هو بين تلامذته التلميذَ الأكبر . . ؟

لِمَ تنفض إدارة الجامعة يدها من قوم هم رؤساء الصناعة ، وظهور مناصبها العالية ، وألسنة الحكم فيها ؛ ثم تلتمس من ضعف الأفراد ما لم تؤمله فى قوة الجماعة وهى تعلم أن الحمل الذى تتوزعه الأكف يهون على الرقاب[1] ؟ »

وما سبعة أشهر لمن يريد أن يؤلف فى تاريخ آداب العرب ؟ إنه لفن لم يتناوله أحد من قبل ، وإن مراجع البحث لكثيرة وإن من وراء ذلك جهداً لا يطيقه إنسان .

وكتب الرافعى مقاله الثانى فى (الجريدة) ينعت الجامعة ولجنة الجامعة ، ويتأبى على الدعوة التى دعت ، ويقرر أن الذين دعوا الدعوة إلى وضع الكتاب وجعلوا لذلك العمل إلى فِصاله سبعة أشهر ، إنما مست بهم الحاجة إلى كتاب وأعوزهم مؤلفه فالتمسوه بتلك الدعوة يفتشون عنه فى ضوء الجائزة . . . ومضى الرافعى يتجنى ويتدلل ، وعادت الجامعة تفكر فى الأمر .

وأعادت نشر المسابقة لتأليف الكتاب ، وزادت المدة إلى سنتين ، والجائزة إلى مائتين ، وتعهدت بطبع الكتاب المختار .

ووجد الرافعى ما يشغله ، فعاد إلى نفسه ، وأغلق دار كتبه عليه . . .

***

تاريخ آداب العرب

إن كثيراً من الأدباء لا يرضيهم أن يعترفوا للرافعى بيد على العربية أو يروا له صنيعاً فى الأدب يستحق الخلود ، إلا حين يذكرون كتابه « تاريخ آداب العرب » ، وإنه لكتاب حقيق بأن يذكر فيذيع فضل الرافعى على الأدب والأدباء .

انقطع الرافعى لتأليف كتابه من منتصف سنة ١٩٠٩ ، إلى آخر سنة ١٩١٠ ، وفى سنة ١٩١١ أتم طبع الكتاب على نفقته قبل أن يحل الأجل الذى عينته الجامعة .

لم يكن الرافعى طامعاً فى جائزة الجامعة . ولذلك لم يتقدم إليها به قبل طبعه ، ترفعا عن قبول الحكم فيه لجماعة ليس منهم من هو أبصرُ منه بالمحكوم فيه .

كان أسبق المؤلفات ظهوراً إلى دعوة الجامعة ، الجزء الأول

(١) ما بين القوسين من مقال الرافعى بنصه .

من كتاب العلامة جورج زيدان ، ثم الجزء الأول من تاريخ آداب العرب . « سبقه ذاك بشهر أو شهرين سبقاً مطبعياً »[1]

وكانت مقالات الرافعي فى (الجريدة) ، وكتابه « تاريخ آداب العرب » من بعد ، هما السبب فى تدريس الآداب العربية وتاريخها فى الجامعة المصرية ، وهما السبب كذلك فى وضع ما وضع من الكتب فى هذا العلم .

وأعان الرافعى على جمع ما جمع من وسائل البحث لكتابه مكتبات ثلاث كلها حافل بالنادر من كتب العربية ، مطبوعها ومخطوطها ، هي : مكتبة الرافعى ، ومكتبة الجامع الأحمدى ، ومكتبة القصبى بطنطا .

وكان من وسائل تشجيعه على إتمامه وطبعه ، ما أعانه به مدير الغربية الأديب المرحوم محمد محب باشا من معونات أدبية ومادية ...

ليس من همي هنا أن أتحدث عن القيمة الأدبية لكتاب الرافعي تاريخ آداب العرب ؛ فقد فرغ الأدباء من الحكم عليه ، وما منهم إلا له فيه رأى محمود وثناء مستطاب ؛ وما ناله أحد بنقد إلا الأديب طه حسين الطالب بالجامعة المصرية ، إذ يقول فى مقال نشرته له (الجريدة) سنة ١٩١٢ : « ... هذا الكتاب الذى نشهد الله على أننا لم نفهمه ... » لكنه عاد فصحح رأيه فيه سنة ١٩٢٦ ، فاعترف بأنه لم يعجبه أحد ممن ألفوا فى الأدب إلا الأستاذ مصطفى صادق الرافعى « فهو قد فطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص فى انتحال الشعر وإضافته إلى القدماء ، كما فطن لأشياء أخرى قيّمة وأحاط بها إحاطة حسنة فى الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العرب[2] ... » .

نال الرافعي بكتابه هذا مكاناً سامياً بين أدباء عصره ، وشغل به العلماء وقتاً غير قليل ، وحسبك به من كتاب أن يقضى الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد بك (باشا) أسبوعاً يخطب عنه في مجالس العاصمة[3] ويكتب عنه مقالاً ضافياً فى الجريدة جاء فيه : « قرأنا هذا الجزء ؛ فأما نحوه فعليه طابع الباكورة فى بابه ، يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكاً تاماً وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفاً حسناً ؛ وليس من السهل أن تجتمع له

(١) حكاه الرافعى.

(٢) ص ٩٠ ، ٩١ فى الشعر الجاهلى ، ص ١٥٢ فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين بك .

(٣) عبارة الأستاذ لطفى السيد إلى الرافعى .

الأغراض التى بسطها فى هذا الجزء إلا بعد درس طويل وتعب مملٍ ... وأما أسلوب الرافعى فى كتابته فانه سليم من الشوائب الأعجمية التى تقع لنا فى كتاباتنا نحن العرب المتأخرين ، فكأنى وأنا أقرؤه أقرأ من قلم المبرد فى استعماله المساواة وإلباس المعانى ألفاظاً سابغة مفصلة عليها ، لا طويلة تتعثر فيها ولا قصيرة عن مداها تودى ببعض أجزائها ... » .

وكتب عنه الأمير شكيب أرسلان — وهو أشهر كتاب العربية فى ذلك الوقت — مقالة فى صدر المؤيد جاء فيها : « لو كان هذا الكتاب فى بيت حرام إخراجه للناس منه ، لكان جديراً بأن يُحَجَّ اليه ؛ ولو عكِف على غير كتاب الله فى نواشئ الأسحار ، لكان جديراً بأن يعكف عليه . . . »

وقال عنه المقتطف : « إنه كتاب السنة . . . » وما كتب المقتطف مثل هذه الكلمة من قبل ومن بعد لغير هذا الكتاب .

وأسلوب الرافعي فى هذا الكتاب أسلوب العالم الأديب ، يجد فيه كل طالب طلبته من العلم والأدب والبيان الرفيع . وكان الرافعي يومئذ قد أتم الثلاثين . . . !

* * *

فى السنة التالية ، أصدر الرافعى الجزء الثانى من تاريخ آداب العرب ، وموضوعه اعجازُ القرآن ، والبلاغةُ النبوية ؛ وهو الذى أصدره من بعد فى طبعته الثانيــة باسم « اعجاز القرآن[1] » ، وباسمه الثانى يعرفه قراء العربية ، وقد طبعه على نفقته المرحوم الملك فؤاد رحمه الله . وفى مكتبة الرافعى الآن أصولُ الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب ، ومعها تعليقات كان المرحوم الرافعى ينوى إضافتها إلى الجزء الأول فى طبعته الثانية فعاجلته المنية ؛ فهل للعربية فى هذا البلد أوفياء مخلصون يعرفون للرافعى منزلته ولكُتُبه مكانها فيطبعوا هذه الأجزاء الثلاثة وينشروها على الناس ؟ وهل يسمعني معالى وزير المعارف وهو القائم على شئون العلم فى هذا البلد ، وهو هو الذى كان يعرف الرافعى صديقاً وجاراً مواطناً فوق معرفته إياه أديباً وعالماً وشاعراً كان فى الأدباء والعلماء والشعراء خير داعية لمصر الزعيمة بين الناطقين بالضاد ...؟

(١) ليس فى مكتبة من مكتبات التجارة الآن نسخة واحدة من تاريخ آداب العرب أو إعجاز القرآن على كثرة مايطلبهما الناس ؛ وقد عثر الرافعي فى العام الماضى على نسخة قديمة منهما فاشتراها لنفسه بجنيه كامل ، وكان ثمنها من قبل ٢٠ قرشاً .

لقد قلتُها مرة ، فهل أظلّ حياتى كلها أهتف بهذه الأمة التى لاتعرف الجميل فلا تجيب . . . !

أيها الناس ! لقد أوشكت أن أومن بأن الرافعى مات . . . !

* * *

حاشية : قلت : إن من المكتبات التى استعان بها الرافعي في تأليف كتابه ، مكتبة القصبي بطنطا ، وهي المكتبة التى أنشأها وجمعها المرحومان الحسيبان الشيخ إمام القصبى وولده الشيخ محمد القصبي شيخا الجامع الأحمدى قبل المرحوم الشيخ الظواهري الكبير

وقد حدثني عنها أبى ، كما حدثنى عنها المرحوم الرافعي ، أنها مكتبة حافلة ، مشحونة بفرائد العلوم والفنون ، زاخرة بنوادر المخطوطات والمطبوعات من كتب الدين والعربية ؛ وهى الآن محبوسة فى حجرة رطبة لا ينفذ إليها الهواء من حجرات زاوية القصبي بطنطا ، لم يفتح بابها منذ ربع قرن أو يزيد لعدم عناية القائمين عليها وجهلهم بقدرها ، فإذا لم يكن السوس قد أتى عليها فإن هناك فرصة لا تزال لإنقاذ ما يمكن انقاذه منها ، وحسْب العربية ما لقيت من أهلها فى عصور الجهل والانحطاط يا أولى الألباب . . . ! ؟

« شبرا » محمد سعيد العريان

الفلسفة الشرقيــــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٠ —

الديانة الفارسية

مصير العالم

يحدثنا قسم « الجاتها » أن نهاية العالم موقوتة بموت « زرادشت » وأن « أهورا » أراد أن يختم به هذه الحياة الدنيا، وهو لهذا يدفعه في حماسة إلى تأدية رسالته بأسرع ما يستطاع ويأمره أن يصدع بأوامر ربه وأن يعلن أنه سيتقدم بعد موته إلى القضاة الثلاثة الواقفين على الميزان أمام باب الصراط، ليؤدي الحساب عن نفســه والشهادة عن جميع أتباعه الذين سيتحقق فناؤهم على أثر موته.

غير أن الـكون ظل بعد « زرادشت » سائراً في طريقه كما كان في حياته وقبل وجوده، ولم يمت الأنصار ولا الخصوم، ولم ينته العالم. فلما رأى رجال الدين الألسنة الحداد بدأت تتجه اليهم من جانب خصومهم. أرادوا أن يتحللوا من هــذه الورطة التي أوقعهم فيها نبيهم الساذج، فأضافوا إلى الـكتاب المقدس آيات جديدة تحوى تأويلات للآيات القديمة وتصرح بأن جميع الزمن المحدد للـكون هو اثنا عشر ألف سنة مضت منها ثلاثة آلاف سنة في خلق العالم الروحاني، وثلاثة آلاف في إنشاء العالم المادى، وثلاثة آلاف فصلت بين وجرد بني الانسان ووجود « زرادشت »؛ وثلاثة آلاف بين عصر « زرادشت » ونهاية الحياة الدنيا. أما التصريح الجازم في الجزء القديم بأن نهاية العالم ستكون عند نهاية حياة « زرادشت » فقد عرفوا كيف يتخلصون منه بلباقة لا بأس بها حيث أعلنوا أن « زرادشت » لم يمت كما رأى الناس في الظاهر، وإنما نزلت بذرته الخصبة في البحيرة المقدسة، وستظل فيها تغدو وتروح حتى قبيل نهاية العالم، فاذا حان هذا الوقت المضروب نزلت إلى هذه البحيرة فتاة عذراء طاهرة، لتغتسل فيها، وإذ ذاك تتغلغل هذه البذرة إلى بطن العذراء فتحمل لساعتها بمنجى العالم ومن على يديه سيكون انتهاؤه فاذا ولد هذا المنجى وشب، أخذ يدعو إلى دينه واصطفى له من التلاميذ خمسة عشر رجلا وخمس عشرة امرأة، ليعاونوه على تأدية رسالته إلى أن ينتهي أجله المحدد بسبع وخمسين سنة فينتهي بانتهائه الـكون. وعلى أثر ذلك يبدأ البعث فتمتلىء بقاع الأرض بمياه شديدة الحرارة تسيل كلها من معادن صهرتها النيران القوية فأما الأخيار فيحسون كأنها حمامات من لبن فاتر يجد الجسم فيه لذة وسروراً؛ وأما الأشرار فسيجدونها قاسية مؤلمة، ولعل العذاب بمياه هذه المعادن هو آخر ما يقاسيه أهل الأعراف الذين هم بين الجنة والنار، ثم يدخلون بعد ذلك في زمرة المعفو عنهم

عند ذلك ينهزم إلـه الشر الهزيمة الأخيرة ويُلقى بالثعبان الذي كان يمثله في وسط هذه المعادن فينصهر فيها ويستقر كل من السعداء والأشقياء في مكانه استقراراً أبدياً بلا تغيير ولا تبديل. ولـكن عقيدة التأبيد في الجحيم لم تستمر على حالها، بل لم تلبث أن صارت موضع نقاش بين رجال الدين انتهى بأن قر الرأى على أن للعذاب في الجحيم حداً ينتهي عنده فيلحق المعذبون بالأخيار المنعمين، وإذ ذاك يتم السلام النهائى.

الفلسفة العملية أو الأخلاق

ليست الأخلاق من وضع الأهواء البشرية ولا من اختراع المنافع الفردية حتى تتأثر بالأزمنة والأمكنة والظروف المختلفة، وإنما هي قوانين عامة خالدة، ولذلك نرى الفضائل الجوهرية هي هي عند قدماء المصريين، وعند الهنود والفرس والصينيين واليونان والرومان كما هي عند شعوب القرن العشرين في جميع بقاع الأرض إلا من تغيرت طباعهم، وتبدلت فِطَرُهم بسبب من الأسباب التي أجمع علماء الأخلاق والنفس والاجتماع على تأثيرها في السلوك البشرى.

لهذا كانت الفضائل عند الفرس كما هي عند غيرهم من الأمم تتألف من صفوف ودرجات، لـكل صف منها منزلته الخاصة، فمثلا الشرف والاحسان والأمانة الزوجية من الجانبين كانت في الصف الأول. ولقد كانت العدالة والدقة والاخلاص والصدق

من أجل الفضائل كما كان العمل على تنمية النوع البشرى وتقويته من أهم الواجبات الدينية ، ولهذا أباحت الشريعة « الزرادشتية » تعدد الزوجات ، ليكثر النسل ، وحرمت الصوم لتتوفر القوة فى جميع أفراد الشعب ، وكذلك محاولة زيادة خصوبة الأرض والاستمتاع بما فى هذه الحياة من خيرات ولذات مشروعة كانت من أسمى فروض الشريعة حتى أن إهمال بقعة من الأرض بدون نبات أو عدم الاكتراث بالتزين كارتداء رث اللابس أو عدم المبالاة بتنظيم قص الشعر والأظافر ، كل ذلك كان من الجرائم المقوتة ، أما الرذائل المستفظعة فهى أضداد هذه الفضائل طبعاً .

هناك فضائل ثانوية أو مستحبات أخلاقية مثل أكل اللحوم وجميع الأطعمة المغذية ومحاولة الاحساس بالسرور ، ومثل مهاجمة الأعداء من الأفراد بنظير ما قدموه ، أما الدفاع عن النفس أو عن الوطن ، فقد كان من الواجبات المقدسة .

هذه هى أهم الفضائل الجوهرية والثانوية ولم يبق عدا ذلك إلا أعمال هي إلى الأساطير الوثنية أقرب منها إلى الفلسفة العملية وذلك مثل حظر قتل القنافذ وكلاب البحر كما أسلفنا .

الديانة المانوية

حياة مانى

لم يعرف التاريخ عن حياة « مانى » أو « مانيس » مؤسس الديانة المانوية أكثر من أنه ولد فى « بابل » سنة ٢١٥ وقتله أحد ملوك الفرس فى سنة ٢٧٥ بعد المسيح وأنه كان متنسكا متصوفا متشائما لا يؤمن بانتصار الخير على الشر ألبتة ولا أمل عنده في صلاح هـذا الوجود ، وأنه تأثر فى بعض نواحى مذهبه بالزرادشتية وفى البعض الآخر باليهودية القديمة التى عبثت بها العقلية الرومانية فبدلت منها الشيء الكثير ، وفى البعض الثالث بالديانة البراهمية الأولى ، وفى الرابع بالمسيحية قبل وضع قواعد الكنيسة كما يتبين ذلك كله فى آرائه .

مذهبه

يرى « مانى » أن العالم نشأ من عملاق قسم جسمه إلى أجزاء ثم كون الموجودات من بعض هذه الأجزاء . ولا ريب أنك تذكر أسطورة بدء الخلق عند الهنود ، وهي التى حدثتنا عن اشتياق الإله « براجاباتى » إلى التكثر وعن تجزيئه نفسه ونشره أجزاءه فى الكون ليوجد منها جميع الكائنات .

أما رأيه فى المبادئ الأولى فهو يتلخص فى أن للكون مبدأين الخير والشر ، وهما أزليان أبديان متساويان فى كل شيء . ولاشك أنه فى هذه النقطة قد تأثر بزرادشت من ناحية وبديانة « الثانوية » الغالية التي نشأت من مذهب زرادشت من ناحية ثانية . وإليك ما يقوله الشهرستانى عن هذا المذهب : « حكى محمد بن هارون المعروف بأبى عيسى الوراق ، وكان فى الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم ، أن الحكيم مانى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين ، أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا ، وأنكروا وجود شيء لامن أصل قديم وزعم أنهما لم يزالا قويين ، حساسين ، سميعين ، بصيرين ، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان ، وفى الحيز متحاذيان تحاذى الشخص والظل » . إلى أن يقول : « ثم اختلفت المانوية فى المزاج وسببه والخلاص وسببه فقال بعضهم : إن النور والظلام امتزجا بالخبط والاتفاق لا بالقصد والاختيار ؛ وقال أكثرهم : إن سبب المزاج أن أبدان الظلمة تشاغلت عن روحها بعض التشاغل فنظرت إلى الروح فرأت النور فبعث الأبدان على ممازجة النور فأجابتها لإسراعها إلى الشر ، فلما رأى ذلك ملك النور وجه إليها ملكا من ملائكته فى خمسة أجزاء من أجناسها الخمسة فاختلطت الخمسة النورية بالخمسة الظلامية فخالط الدخان النسيم ، وإنما الحياة والروح فى هـذا العالم من النسيم ، والهلاك والآفات من الدخان ، وخالط الحريق النار ، والنور الظلمة ، والسموم الريح ، والضباب الماء ، فما فى العالم من منفعة وخير وبركة فمن أجناس النور ، وما فيه من مضرة وفساد وشر فمن أجناس الظلمة فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكا من ملائكته فخلق هذا العالم على هـذه الهيئة ، لتتخلص أجناس النور من أجناس الظلمة » (١) .

الميتافيزيقا المانوية

يرى هذا المذهب أن الانسان الأول مخلوق للنور أو للشمس الذى هو « أهورا مازدا » وكان هذا الانسان فى أول الأمر نوراً

(١) صفحتى ٦٥ و ٦٧ من الجزء الثانى من كتاب الشهرستانى

محضاً وأن حكمة خالقه إياه إنما هي الجهاد ضد الظلام ، ولكن هذا الخصم العنيف لم يلبث أن انتصر على الانسان وكبله بالأصفاد وقاده إلى سجنه الحالك ولكن قوة إله الخير عملت على تخليصه من هذا السجن فنجحت بعض الشيء ، لأن إله الشر كان قد تمكن من حبس جسمه النوراني في هذا الغمد الكثيف المكون من المادة المظلمة . وإذاً ، فالمادة أو الجسم الانساني أو « الماكروسكوم » و « الميكروسكوم » كما كانوا يسمونهما هما أصل الشر والسوء في هذه الحياة ، لأنهما سجن الروح النورانية ومن هذا نشأت عند « ماني » فكرة وجوب تخليص النفس من الجسم أو إنهاء هذا العالم المادي باضعاف النوع البشري وإبادة النسل بوساطة حظر الزواج وغير ذلك من وسائل التخريب والتدمير التي عمل على نشرها والتي لم تكن ملائمة لطبيعة الفرس الذين حبب إليهم زرادشت متع الحياة ولذاتها وعرفهم وسائل القوة والاخصاب .

مصير العالم المادي

ليس للمانوية في هذا الشأن شيء جديد لأنها تبعت خطوات الزرادشتية شبراً بشبر وذراعاً بذراع إلا فيما يختص بفناء الشر وامتزاج مملكته بمملكة الخير وتحقق السلام العام ، فقد أنكرت المانوية ذلك تمام الانكار ، وجزمت بأن المملكتين ستظلان متباعدتين متعاديتين أبدا .

نهاية ماني

لم تكد مبادئ المانوية تنتشر في بلاد فارس حتى تذمر الشعب مما احتوت عليه من ضعف ويأس وتشاؤم وانزواء وحرمان من لذات الحياة المباحة ، ثم أخذت هذه الضجة تعلو وتنتشر حتى بلغت أسماع الملك فأحضره أمامه ، وناقشه في مذهبه ، فلم يخف عليه شيئاً مما فيه ، وصرح أمامه بأن التخلص من الشر أمر مستحيل ، وأن استمرار العالم في الحياة معناه استمرار الشر ، وأن الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذا الشر هي تدمير هذا العالم ، فلم يكن من الملك إلى أن قال له : إن الحكيم المخلص لمذهبه يجب أن يبدأ هو قبل غيره بتطبيق هذا المذهب على نفسه ، فإن لم يفعل بدأ أنصاره ومريدوه بتطبيقه على أستاذهم ، ولما كنا من أنصارك فقد وجب علينا أن نبدأ بتطبيق هذه المبادئ عليك ، ثم أشار إلى الجلاد أن ابدأ بتدميره ليؤمن قبل موته بالشروع في تحقيق مذهبه وقد حدث هذا بالفعل كما أشرنا إليه في حياة ماني .

الديانة المزدكية

عاش « مزدك » حوالي نهاية القرن الخامس بعد المسيح ، وكان قد تأثر بمذهب ماني من بعض نواحيه ، وسار على منواله في كثير من مبادئه الفلسفية والدينية ، وإن كان قد خالفه في آرائه الاجتماعية مخالفة شديدة حيث أعلن وجوب اعتناق الشيوعية المغالية ، وصرح بأنها هي وحدها الوسيلة إلى إبادة الشر ، إذ الحقد الذي يأكل قلوب بني الانسان ، والحرب التي تمزق أشلاء أحد الأخوين بيد الآخر لا مصدر لهما إلا الأموال والنساء ، فاذا ألغيت الملكية وأبيد الزواج وأصبح المال والمرأة مباحين لجميع الأفراد بلا قيد ولا شرط طهرت القلوب من الحقد إلى الأبد ووضعت الحرب أوزارها إلى نهاية الوجود ، وهو كما يبني أن تباح الأموال والنساء ، يريد كذلك ألا يختص أحد بطقوس دينية دون الآخرين حتى تزول جميع الفروق والاختصاصات التي هي منشأ كل بلاء في هذا الكون .

سقوط الديانات الفارسية

لما فتح « الاسكندر المقدوني » بلاد فارس وانتشر الإغريق في أنحاء البلاد وأحرقوا الكتب المقدسة والصحف الدينية ، تبلبلت العقول والأفكار والعقائد في تلك الأصقاع ، وصادفت هذا الاضطراب ظروف أخرى لا تقل أهمية عن الأولى ، وهي اجتماع ذلك الخليط العجيب من الفرس والمصريين واليونان واليهود في مدينة الاسكندرية كما سنشير إلى ذلك عند الحديث عن الأفلاطونية الحديثة .

اجتمع هذان العاملان القويان فحدث من اجتماعهما مزيج ديني غريب غمر الشرق الأدنى من أقصاه إلى أقصاه . ويعلق الأستاذ « سورا » على هذا بقوله : « إن هذا التخمر الديني المتباين العناصر هو الذي قذف بالمسيحية إلى حيز الوجود كما تقذف الأنبذة بالزبد إلى خارج أوانيها » .

هـذا فى فلسطين ومصر ، أما فى بلاد بارس فكانت سائدة فيها الديانة الفارسـية « الزرادشتية » بعد أن عبثت بها أيدى الأهواء والأغراض ، وبدلت فيها وزادت عليها مطامع رجال الدين وشهواتهم ، وقد ظلت هذه السيادة طول حكم الدولة الساسانية ولم تحـنِ الرأس إلا فى القرن السابع بعـد المسيح حين هاجمها الاسلام وهو فى عنفوان شبابه ، فذابت أمام سطوته ذوبان السكر فى المياه (على حد تعبير أحد المؤلفين الفرنسيين) وإن كان البعض الآخر من الباحثين يجزم بأن الديانة « الزرادشتية » لم تتلاش تماماً أمام الاسلام ، وإنما تركت آثاراً تذكر فى بعض نواحيه ، إذ ليس بعض الفرق الاسلامية إلا لوناً من ألوان الديانة الفارسية ، بل ليس تغنى عمر الخيام بالخمر وتقديس بشار بن برد للنار وزندقة ابن المقفع ومروق الجاحظ فى بعض آرائه إلا من بقايا الديانات الفارسية .

غير أن الذي لا شك فيه هو أن الاسلام قد اكتسح الديانة « الزرادشتية » اكتساحاً ملموساً ولم يدع لها من معتنقيها إلا نحو عشرة آلاف نسمة فى بلاد الفرس ونحو مائة ألف في بلاد الهند وهم الذين أشرنا اليهم في مبـدأ حديثنا عن الفرس ، وقلنا إنهم لا يزالون يُعرِّضون جثث موتاهم للوحوش .

أما المـانوية فقد انتقلت إلى أوربا مع الرومانيين الذين كانوا فى بلاد فارس ، ثم جعلت تنتشر فى جميع أجزاء الامبراطورية الغربية الرومانية ، ولـكن فى خنوع وإذعان للمسيحية جعلاها إلى الأهازئ أقرب منها إلى المذاهب الجدية كأن تصرح مثلاً بأن خالق الـكون هو إلـه الشر ، وأن المسيح هو إلـه الخير خصمه العنيف الذى ضرب المثـل الأعلى على خيريته بتضحية نفسه للصلب فى خير الإنسان .

ما زالت هذه الديانة المانوية تتلاشى فى المسيحية على هذا النحو حتى ابتلعتها نهائيا ولم يبق لها فى الوقت الحاضر من أثر فى أوربا إلا على الآراء الاجتماعية مثل الاشتراكية والشيوعية وما شاكلهما من الآراء المتطرفة التى اعتنقتها المانوية بعد عصرها الأول ثم حملتها معها إلى أوربا فكانت جرثومة كثير من المذاهب الاجتماعية الأوربية فى العصور الحديثة .

« يتبع » محمد غلاب

التخيـــــل[1]

للدكتور جميل صليبا

للتخيل بحسب اصطلاح الفلاسفة معان كثيرة فبعضهم (ديكارت) جعله قوة مصورة تعيد ما فى الخيال من الصور وتمثله تمثيلا محسوساً . وبعضهم جعله قوة مبدعة تركب الصور وتؤلف المعانى الجديدة وتخترع . وبعضهم جعله قوة وهمية كاذبة تنشأ عنها الأوهام والأحلام ، حتى لقد وصف تلاميذ ديكارت هـذه القوة بقولهم: إنها « مجنونة المنزل» و « باعثة على الخطأ والرذيلة» أما فلاسفة العصر الحاضر فيجدون التخيل ضرورياً للانسان لأنه يخفف آلامه ويحبب إليه الحيـاة ويكشف له عن أسرار الـكون . إن اختلاف معانى التخيل جعل أحـد الفلاسفة المعاصرين يقول : إن هذه الـكلمة الضرورية للغة العامة يجب أن تزول من قاموس علم النفس لـكثرة معانيها[2] وأنه يمكن استبدالها بكلمات أوضح منها كالصورة والابداع والأحلام . على أنه لا غنى لنا عن هذا الاصطلاح لأن فى كل من المصورة (التخيل التمثيلى) والابداع والأحلام شيئاً من التخيل . ولنبحث الآن في التخيل المبدع

التخيل المبدع

التخيل التمثيلى والتخيل المبدع : الحقيقة والخيال

التخيل التمثيلى هو ذاكرة بدون عرفان ، أو هو كما قيل رجوع الصور النفسية إلى ساحة الشعور . ونحن نعلم أن الصورة هي بقاء الاحساس فى الشعور بعد غياب المؤثر . أو هى ذكرى الاحساس . فإذا استرجع الإنسان صورة جبل أو نهر ولم يعرف أى جبل يرى ولا أى نهر يتصور كان تخيله تمثيلياً Imagination reproductrice لأن الخيال يعيد ما حفظته النفس وبقى فيها بعد غياب المحسوسات . فهو إذن شبيه بالذاكرة إلا أنه كما قلنا ذاكرة بدون عرفان . إن هذا الخيال التمثيلى يقتصر كما تري على استرجاع الصور المحفوظة في

(١) من كتاب « علم النفس » للدكتور جميـل صليبا يقوم بطبعه « مكتب النشر العربي بدمشق »

(٢) غوبلو Goblot المفردات الفلسفية . مادة التخيل . الخيال بحسب الاصطلاح غير التخيل (ابن سينا)

النفس . أما التخيل المبدع فيركب هذه الصور ويستخرج منها نماذج جديدة . أنظر إلى المصور ، إنه يرسم بريشته صورة خيالية يراها فى أعماق نفسه فهو لم يسترجع صورة بسيطة محفوظة فى نفسه فقط بل ركب بعض ما فى هذه الصور البسيطة إلى بعض فألف منها صورة جديدة .

إلا أن هذا الفارق بين التخيل التمثيلى والتخيل المبدع ليس مطلقاً ، لأن الخيال التمثيلى لا يسترجع الصور النفسية كما هى بل يبدلها فيمحو بعض عناصرها ويضم إليها بعض العناصر الجديدة. وقد بينا ذلك عند البحث فى الشعور وخطور الذكريات . فالذكريات ليست صوراً مطابقة للماضى بل هى فى الغالب مركبة من الماضى والحاضر معاً ، لأن النفس تنشئها إنشاء ، والادراك ليس بسيطاً بحيث يحدث فى النفس خيالا مطابقاً للشئ المدرك فقط . بل هو إنشاء صورة مركبة من عناصر نفسية متحولة . فالصورة ليست إذن خيالا ثابتاً بل هي حقيقة متبدلة ، حتى لقد قال المسيو (لوروا) : « الادراك والتذكر كل منهما اختراع » .

وعكس ذلك صحيح أيضاً . أى إن التخيل المبدع لا يبدع الصور من العدم بل يستمد عناصرها من الواقع . فالخيال إذن منسوج من الحقيقة . وقد فرقوا فى الإبداع بين الصورة والمادة فقالوا : إن التخيل لا يبدع مادة جديدة بل يقتصر على جمع بعض الصور إلى بعض فيحلل ويركب ويصغر ويكبر . فهو يبدع صورة جديدة ، إلا أن مواد عمله مقتبسة كلها من الواقع . فالصورة وحدها إذن جديدة ، والتخيل مبدع بمعنى أنه يجمع العناصر بعضها إلى بعض فيؤلف منها مركبات جديدة . فكل إبداع هو فى الحقيقة تركيب .

وإذا قيل : إن العقل لايقتصر فى الابداع على جمع الصور وإنه إنما يجمع هذه الصور إلى المعانى المجردة والأحوال الانفعالية والنزعات والاهواء ، قلنا مهما كان نوع التركيب ، ومهما كانت حالة العناصر فان الابداع ينتهى دائماً إلى الصور . قال أحد العلماء المعاصرين ماخلاصته : « المخترع شاعر حدسى . قد يقال إن هناك عقولاً منطقية ، جدلية لاتتقدم إلا بالقياس والخطاب ـ سيراً على طريقة (فوبان) الذى كان لايهجم على حصن قوى إلا بعد أن يعد للأمر عدته ـ غير أن الأمر على خلاف ذلك ، لأن هذه العقول حدسية أيضاً . فهى تجمع ثنايا الطرائق وأصول المنطق وأحكام العقل وصور القياس بعضها إلى بعض بدلاً من أن تجمع الألوان والأصوات والأوزان والاستعارات الحسية ، والأوضاع المشخصة » . ومهما كان الاختراع فى أوله بعيداً عن الصورة فهو دائماً يقلب المثال المجرد إلى صورة محسوسة تدل عليه وتحييه وتخرجه من أعماق اللاشعور إلى الحياة الظاهرة الملموسة .

هل تستطيع النفس أن تبدع الصور ؟

إن أكثر علماء النفس يقولون مع « لوك » Y. Loch « إن النفس عاجزة بنفسها عن ابداع أية فكرة بسيطة . فكل صورة هى إذن نسخة ، ولاتصور إلا بالاحساس . إن الأكمه لايستطيع تصور الألوان ، والأصم لا يستطيع أن يبدع الألحان . فالتخيل ليس مبدعاً من حيث هو موجد ، بل هو مبدع من حيث هو مركب

إلا أن الفكر يجمع كما قلنا فى هذا التركيب عناصر مختلفة فهو يجمع الصور المشخصة إلى الفكر المجردة ، والنزعات والأهواء . ولعله لايعجز عن إبداع بعض الفكر ، أما الصور فلا يتناولها إلا عن طريق الاحساس ، وإذا تمثلها أمكنه أن يمزج بعضها ببعض ويحصل بهذه المازجة عن صور جديدة . نعم إن الأكمه لايستطيع تخيل الألوان ، ولكن البصير يستطيع أن يتخيل ألواناً متوسطة مركبة من الألوان البسيطة فيتصور لوناً بنفسجياً أكثر احمراراً من البنفسجى الطبيعى . قد يقال : إن الطبيعة أغنى من الفن ، وإن اختراعات المصورين ليست إلا تقليداً لما فى الطبيعة من الصور المختلفة وإن فى غروب الشمس من الألوان مالا يستطيع أعظم المصورين أن يأتى بمثله . هذا صحيح ، لأن الألوان الطبيعية أكثر تنوعاً من الألوان الفنية . إلا أن أصوات الطبيعة أفقر من أصوات الفن ، وهى فى الغالب على نمط واحد . كحفيف الأغصان وتغريد الطير ، وخرير الماء ، ونقيق الضفادع . إن آلات الفن ليست من هبات الطبيعة بل هى من اختراع الانسان . نعم إن الانسان لم يتصور بوضوح لحن العود قبل اختراعه له ولكن العود لم يتكامل إلا بعد أن انتقل الانسان به من صوت إلى آخر وتخيل فى كل دور من أدوار انتقاله صوتاً أحسن وقعاً وأعمق تأثيراً من الأصوات المألوفة ، ففى كل درجة من درجات هذا التكامل قد تقدم الخيال وأبدع صورة جديدة لاعهد للفن بها من قبل .

« دمشق » جميل صليبا

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

بقية كلامه عن (الفداء)

لذلك تهب الإرادة وقد تملكها الغيظ مقتلعة الأحجار منتقمة من كل من لا يجاريها فى كيدها وثورتها ، وهكذا تصبح الإرادة المنقذة قوة شريرة تصبّ جام غضبها على كل قانع بعجزها عن الرجوع إلى ما فات . وهل انتقام الإرادة إلا عبارة عن كرهها للزمان لأنه أوقع ما لا قبل لها برده ؟

والحق أن إرادتنا مصابة بالجنون ، وقد نزلت لعنة على البشرية منذ تعلّم الجنون أن يتفكر . فإن خير ما طرأ على الإنسان حتى اليوم إنما هو فكرة الانتقام ؛ وهكذا سيبقى العقاب ملازماً للألم فى كل زمان وفى كل مكان . وهل فكرة الانتقام إلا العقاب بذاته ، فما كلمة الانتقام إلا كلمة مكذوبة يقصد بها التعبير عن الضمير .

إن كلّ مُريدٍ يتألم لأنه لا قِبلَ له بالرجوع إلى الماضي لردّ ما فات ، ولهذا لزم أن تكون الإرادة بل كل حياة على الاطلاق كفارة وعقاباً .

بتأثير هذه الاعتقادات تلفّع العقل بالغيوم فانبثق منه الجنون هاتفاً : كل شيء يزول ، فكل شيء يستحق الزوال .

إن العدل نفسه يقضى بأن يفترس الزمان أبناءه ، هذا ما أعلنه الجنون .

لقد وضع الناموس الأدبى وفقاً للحقوق وللعقاب ، فأين المفر من نهر الحياة الجارف وما الحياة إلا عبارة عن عقاب ؟ وهذا أيضاً ما أعلنه الجنون .

ليس من حادث واحد يمكننا أن نزيله من الوجود ، فكيف للعقاب أن يمحو الحادثات ؟ وهل من خلود لغير الأعمال فى وجود لا ينفك يحول العمل عقاباً والعقاب عملاً ؟ ولا مناص من هذه الحلقة المفرغة ما لم تتوصل الارادة إلى الفرار من ذاتها فتصبح حينذاك إرادة منفية .

إنكم تعرفون ، أيها الاخوة ، هذه الأغانى التى يتشدق بها الجنون . وقد أقصيتكم عن سماعها عند ما علمتكم أن الارادة مبدعة . كل ما فات يبقى مبدأ منثوراً كأنه أسرار ومصادفات رائعة إلى أن تقول الإرادة : إننى أنا أردت هذا . ثم تقول : وهذا ما أريده الآن وسأريده غداً .

هل نطقت الارادة بمثل هذا حتى اليوم ؟ وإلى متى ستنطق به ؟ هل هى تملصت من قيود جنونها فأصبحت تفتدى الحادثاتُ بعزمها وتبشر بالحبور ؟ هل هى اطرحت فكرة الانتقام وتوقفت عن حرق الأرم من كيدها ؟ من ترى تمكن من تعليمها مسالمة الزمان بل ما يفوق هذه المسالمة ؟

يجب على الارادة ولا أعنى سوى إرادة الاقتدار أن توجه مشيئتها إلى ما هو أعظم من المسالمة . ولكن أنى لها ذلك ومن سيعلمها أن توجه هذه المشيئة إلى ما فات ؟

وتوقف زارا عن الكلام فجأة كأن رعباً شديداً حل به فاتسعت حدقاته وشخص بأتباعه سابراً أفكارهم وما وراء أفكارهم غير أنه ما لبث أن عاد إلى الضحك فقال بكل هدوء :

— ما تهون الحياة بين الناس لأن الصمت صعب على المرء وخاصة إذا كان ثرثاراً .

هكذا تكلم زارا . . .

ولكن الأحدب الذى كان يصغى إلى هذا الحديث وهو يستر وجهه بيديه سمع قهقهة زارا ففتح عينيه مستغرباً وقال : — لماذا يخاطبنا زارا بغير ما يخاطب به أتباعه .

فقال زارا : — وهل من عجب فى هذا ؟ أفما يصح أن يخاطب الأحدب بأقوال لها حدبتان .

فقال الأحدب : — ولا عجب أيضاً فى أن يخاطب زارا تلاميذه كمعلم أولاد ، ولكن لماذا يخاطب أتباعه بغير ما يخاطب به نفسه . . .

هكذا تكلم زارا ...

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٨٨ — العرب واليهود فى الأندلس

كتب أيوب بن سليمان المروانى [١] إلى بسام بن شمعون اليهودى الوَشْقى [٢] فى يوم مَطير :

لما كنت — وصل الله إخاءك وحفظك — مطمح نفسى ، ومنتزع اختيارى من أبناء جنسى ، على جوانبك أميل ، وأرتع فى رياض خلقك الجميل — هزتنى خواطر الطرب والارتياح فى هذا اليوم المطير ، الداعى بكاؤه إلى ابتسام الأقداح واستنطاق البمّ والزير [٣] ، فلم أر معيناً على ذلك ، ومبلغاً ماهنالك ، إلا حسن نظرك ، وتجشمك من المكارم ما جرت به عادتك : وهذا يوم حرم الظرف فيه الحركه ، وجعل في تركها الخير والبركه . فهل توصل مكرمتك أخاك إلى التخلى معك فى زاوية ، متكئاً على دَنّ مستنداً إلى خابية [٤] . ونحن خلال ذلك نتجاذب أهداب الحديث التى لم يبق من اللذات إلا هي ، ونجيل الألحاظ فيما تعودت عندك من المحاسن والأسماع فى أصناف الملاهى ، وأنت على ذلك قدير ، وكرمك بتكلفه جدير . ولا يعين المرء يوماً على راحته إلا كريم الطباع ، وها أنا والسمع منى إلى الباب وذو الشوق حليف استماع :

فإن أنى داع بنيل المنى ودعت أشجانى ونعم الوداع [٥]

١٨٩ — شاعرة يهودية أندلسية

فى (النفح) : كانت بالأندلس شاعرة من اليهود يقال لها قسمونة بنت اسمعيل اليهودى ، وكان أبوها شاعراً واعتنى بتأديبها

(١) هذا المروانى من ذرية عبدالعزيز أخى عبدالملك بن مروان وهو من أهل المئة السادسة (النفح)

(٢) وشقة : بلدة فى الأندلس

(٣) البم : الوتر الغليظ من أوتار المزاهر (اللسان) الزير : الدقيق من الأوتار أو أحدها وأحكمها فتلا (التاج)

(٤) الخابية : أصله الهمز لأنه من خبأت إلا أن العرب تركت همزها

(٥) ذلكم الذى فى الأندلس ، والحال فى هذا الدهر كما قال : وليس بيني وبين قيس ... » وهى سياسة الانكليز ومكرهم ، وحمق اليهود ، جنون اليهود

وربما صنع من الموشحة قسما فأتمته هى بقسم آخر . قال لها يوما : أجيزي هذا البيت ، فأجازته ، فقام كالمختبل وضمها اليه ، وجعل يقبل رأسها ، ويقول : أنت (وعشر الكلمات) أشعر منى . ونظرت فى المرآة يوما فرأت جمالها وقد بلغت أوان التزوج ولم تتزوج فقالت :

أرى روضة قد حان منها قطافها ولیس يرى جان يمد لها يدا
فوا أسفى ! يمضى الشباب مضيعا ويبقى الذى ما إن أسميه مفردا

وقالت فى ظبية عندها :

يا ظبية ترعى بروض مزهر إنى حكيتك فى التوحش والحور
أمسى كلانا مفردا عن صاحب فلنصطبر قسراً على حكم القدر

فسمعها أبوها فنظر فى تزويجها .

١٩٠ — بلاد أمان

المتنبي :

حمى أطراف فارس شَمَّرِىٌّ يحض على التباقى بالتفانى [١]
فلو طرحت قلوبُ العشق فيها لما خافت من الحدَقِ الحسان [٢]

١٩١ — ثهلان ذو الهضبات ما يتحلحل

قال ابن قتيبة : كان الأحنف إذا أتاه إنسان أوسع له ، فان لم يجد موضعاً تحرك لِيُرِيَه أنه يوسع له . وكان آخر لايوسع لأحد ويقول : ثهلانُ ذو الهضبات ما يتحلحلُ [٣]

١٩٢ — لاتسألوا عن أشياء

سُئل بعضُ الوعاظ : لِمَ لَمْ تنصرف (أشياء) ؟ فلم يفهم ماقيل له ، ثم سكت ساعة فقال : أنت تسأل سؤال الملحدين لأنّ

(١) التاج : قال الفراء : الشمرى : الكيس فى الأمور المنكمش (انكمش فى الأمر تشمر وجد) وشمرى فيها أربع لغات إحداها فتح الشين والميم . والشطر الثانى إما من قوله (تعالى) (ولكم فى القصاص حياة) وإما من قول أبى بكر لخالد : (أطلب الموت توهب لك الحياة) وقول المتنبي هو فى عضد الدولة

(٢) معنى بديع غريب . قال العكبرى وغيره : يريد بقلوب العشق أهل العشق . قلت : ربما أراد العشق نفسه . وهو الشعر ومبالغته

(٣) للفرزدق وأصله :

فادفع بكفك (إن أردت) بناءنا ثهلان ذا الهضبات ، هل يتحلحل ؟

وقبله :

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل

الله يقول : (لا تَسْألوا عن أشياء) (١)

١٩٣ — ليتنا نخرج منه كفافاً

سئل الشَّعبى هل يجوز أن يُؤكَل الجِنّى لو ظُفر به ؟

فقال : ليتنا نخرج منه كفافاً لا لنا ولا علينا . .

١٩٤ — رأى السلامة فى الوقف

فى (البيان والتبيين) : كان مهدى بن مهلهل يقول : حدثنا هشامْ (مجزومة) ثم يقول : ابنْ (ويجزمه) ثم يقول : حسانْ (ويجزمه) لأنه حين لم يكن نحويًا رأى السلامة فى الوقف

١٩٥ — نعوذ بالله من قوم لايشعرون

فى (الغيث المسجم) : قال بعضهم يعتذر عن اشتغاله بالشعر : ولعمرى ما أنصفنى من أساء بى الظن ، وقال : كيف رضى مع درجة العلم والفتوى بهذا الفن ، والصحابةُ كانوا ينظمون وينثرون ، ونعوذ بالله من قوم لايشعرون !

١٩٦ — هذا سبب الاعجاب

قال اسحق الموصلى : قلتْ لزهراء الكلابية : حدِّثينى عن قول الشاعر :

أحبُّك أن أُخبرتُ أنك فارِكٌ

لزوجك ؛ إنى مولَعٌ بالفوارِكِ (٢)

ما أعجبَه من بغضها لزوجها ؟

فقالت : عرَّفتْه أنّ فى نفسها فضلةً من جمال وشَمَخاً بأنفها وأُبَهةً ، فأعجبتْه

(١) الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم ، عفا الله عنها ؛ والله غفور حليم »

وأشياء عند الخليل (فعلاء) وعند الأخفش (أفعلاء) وعند الكسائى (أفعال) وهناك أقوال فى سبب المنع منها أن ترك صرفها لكثرة الاستعمال خفت كثيراً فقابلوا خفتها بالتثقيل . . . ومنها التشبيه بفعلاء ، وقد يشبه الشىء بالشىء ، فيعطى حكمه . . .

ومن وقف على كلام النحاة فى (أشياء) عذر هذا الواعظ المسكين . . .

(٢) فى (الأساس) : فلانة فرك من الفوارك وهى خلاف العروب . وخير النساء اللعوب العروب ، وقد تعربت لزوجها إذا تغزلت له ، وتحببت إليه

١٩٧ — اسقه الماء

دخل الشعبىّ على مسلم بن قتيبة فقال له : ماتشتهى ياشعبى ؟

فقال : أعزّ مفقود ، وأهون موجود

فقال : يا غلام ، اسقه الماء

اصلاح

كان (تطبيع (١)) فى النقلة (١٨٠) وهو (أول نشوئه) وصوابه . (أول نشوءه) وفى النقلة (١٨٧) وهو :

لكنما المصة من ريقك ترياق مجرب

وصوابه : لكن المصة من ريـ قك ترياق مجرب

والخطب فى زيادة (ما) فى لكن (وتشديد نونها) فهدمت الزيادة البيت ، ورب زيادة نقص . وهى (المطبعة) ودواهيها

(١) التطبيع : لفظة وضعتها للخطأ المطبعي وشرحت أمرها فى مقالة فى (البلاغ)

الصحراء

للأستاذ أنور العطار

سربت في رحابها قصص الحـب وغنت في شاطئيها الرمال
ما ثنتها الأحقاب عن متعة الشدو ولا طاف بالنشيد ملال
تتغنى والكون نشوان باللحـن فتهتز في الأقاصي الجبال
وتضج الوديان بالنغم البكـر وتزهى أغوارها والدحال
نغمات أصغت إليها الليالي ووعتها العصور والأجيال
فإذا العالم ابتسام وصفو وربيع منضر مخضال
وإذا الكائنات يغمرها النـو ر ويطفو على مداها الجلال
حفلت ساحها بخير الرسالا ت وسح الندى وفاض النوال

***

المروءات لمحة من سناها والبطولات والحجا والكمال
ملء أفيائها السخاء المنقى ملء أعطافها السرى والنضال
كرمت عنصرا وطابت نجارا وصفت كالنمير فيها الخلال
فهي مهد النجوى ومنبثق النو ر ودنيا ترودها الأبطال
ما عليها إن شحت الأرض بالخيـر إذا لم تشح فيها الخصال
ليس يحيا فيها الضراعة والذل ولا يصحب العلا إذلال
لا تطيب الحياة تطفح بالبؤ س إذا لم يهزها استبسال
حرة تنجب الغطارفة الصيـد فلا عاجز ولا سأال
كلهم كادح نمته الدرايا ت وزانت أقواله الأفعال
يغنم العيش خالصا لم يهجنـه ابتذال ولم يعبه اتكال
والهناءات شرعة لم يردها خائر العزم ، والهناء اهتبال

***

هاهنا الشعر والرحيق المصفى هاهنا السحر والليالي الخضال
هاهنا السامر المضمخ بالعطـر وللحب في حماه اختيال
هاهنا قيس يسكب الروح أنغا ما وعيش المتيمين ابتهال
شجن صارخ ويأس مذيب وحظوظ سود ودمع مذال
ضائع في مجاهل الأرض تبكي لبكاه الآثار والأطلال
يسأل النجم أين ليلاي يا نجـم ولا يهتدي المحب السؤال
تتناجى الرمال إن هو غنى وترامى كأنها الأطفال
يرسل الشعر حافلا بالخيالا ت كما ترسل الرؤى الآصال
تتنزى أضلاعه من جوى الحـب وداء الهيام داء عضال
يا له شاردا تقاذفه البيـد ويطويه ضعفه والكلال

***

لمعت في القفار هلهلة الفجـر ، وللفجر مطرف هلهال
فعلى الرمل من رؤاه تهاويـل وفي الأفق جدول سلسال
والنعامات ما تني مجفلات ولقد زان حسنها الإجفال
هي في بسمة الصباح أباديـد وفي موجة الضحى أرسال
تتحرى مواقع الماء تجلي لا هفات وزودها الأوشال
صغرت رقعة الفلاة بعينيـها وقل المدى وضاق المجال
تنهب العمر في مسابقة الظل فيضوي أرواحها الإرقال
قلت مجنونة أطاف بها الذعـر فما تستقر فيها الحال
عيشها كله عناء وكد وانتواء لا ينقضي وارتحال
زحمت في وجيفها منكب الريـح وضاعت كما تضيع الظلال
فهي خط في مصحف الأفق ناء غيبته الأبعاد والأطوال

***

عن يميني وعن شمالي رمال قلقات مروعات نهال
يوشك الهلك أن يصافح عيـني وبي منه رعدة وانذهال
هاهنا الموت كالح الوجه باد وله جرأة وفيه صيال
لطمت خدها الجنوب من الذعـر وجنت من الصراخ الشمال
والمناحات في الرياح توالى لم يفتها الإرنان والإعوال

***

دارة للعواصف الهوج تلهو في حماها الخطوب والأهوال
تتلظى الرمضاء في ساحتيها ولها في دم الشموس اغتسال
تتدجى الدنيا وتصطخب الأر ض وترغي فيها الشجون الثقال

وَهْيَ غَلْفَاءُ ما يعاوِدُها الرُّعْـــبُ   وَلَيْسَتْ تروعُها الأوجالُ
لاتنالُ النكباءُ من عزمِها الثَّبْـــتِ   وما إن يَهيجُها زِلزالُ
جَثَمَتْ في فضاءِ ربّى شَمَّا   ءَ وتاهتْ كأنَّها الرِّئبالُ

* * *

أَغفتِ الكُتْبُ ما تُبينُ من البُهْـــرِ   ونشَّتْ من الظَّمَاءِ التِّلالُ
حُمَّتِ الكائناتُ واحتدمَ الحَرُّ   وذابَ الحصا وسالَ الضَّالُ
لفظتْ روحَها الهجيرُ مَلالاً   وتراختْ من اللُّهاثِ الرِّئالُ
يأكلُ الحرُّ لحمَها وهي صَرْعَى   مثلما تأكلُ الشموعَ الذُّبالُ
فهي هَلْكَى على فِراشٍ من الجمْـــرِ   براها شُحُوبُها والهُزالُ

* * *

أيُّهذا السَّرابُ يا صورةَ الدُّنْـــيا تهاوتْ في لُجِّكَ الآمالُ
لُحْتَ لي تزدهيكَ بيضُ الأماني   فارتوى خاطري ورفَّ الخيالُ
علقتْ مهجتي بلألائكَ الغَمْـــرِ   وأغْرَى بناظريَّ الزِّيالُ
فنيتْ في رؤاكَ قافلةُ العُمْـــرِ   وأودى بها الأذى والمِطالُ
لم تزلْ ترتمي على الماءِ هَيْمَى   وهو ناءٍ لا يدَّنيهِ مَنالُ
شخصتْ مقلتي وضلَّ ضلالي   ومن الحبِّ فتنةٌ وضلالُ
تتسلَّى بنا الأعاليلُ جذلَى   والأعاليلُ محنةٌ وخَبالُ
لا يردُّ الإعياءَ عنَّا التشكِّي   لا ولا يصرفُ العذابَ مقالُ
فاضحكي يا رمالُ من خُدَعِ الآ   لِ فقدْ يُضحِكُ الفطينَ الآلُ
وارقصي في مجاهلِ البيدِ حتَّى   تتعايا الجِنَّانُ والأغوالُ
وامرحي في سوانحي وخيالي   ليس يثنيكِ عن مرامٍ مُحالُ
واحطمي هذهِ القيودَ لأحيا   ربَّما أفنتِ المنى الأغلالُ
ودعيني أعشْ كما انتفضَ الطلُّ   ورفَّ السنا وماجَ الزُّلالُ
أو كما غرَّدتْ عِشاشُ القماري   وتغنَّى في الوهدةِ الشلَّالُ

* * *

خفقَ القلبُ فاذَّكرتُ بلادي   وبلادي الحقولُ والأدغالُ
وبلادي الأنهارُ تهتفُ سكرى   والندى السمحُ والسُّلافُ الحلالُ
والرياضُ اللطافُ تعبقُ بالعطْـــرِ   حلَتْها الأفياءُ والأظلالُ
والينابيعُ حُفَّلٌ بالأناشيـــدِ تراخَى فيها السنا والبلالُ
لا يروِّعكَ مَدمعي وهيامي   أنا سرُّ الهوى وأنتِ الجمالُ
تتراءى لناظري منكِ أرْوا   حٌ رقاقٌ يلذُّ منها الوصالُ
فأناجي وما أملُّ التناجي   وأغنِّي وللهوى استرسالُ
وبنفسي لحنٌ حبيبٌ يُسلِّيـــني وحلمٌ يهفو إليه البالُ
وتصاويرُ من رباعي شتَّى   ما لها الدهرَ في الوجودِ مثالُ
هي سلوايَ إن أظلَّني الهمُّ   ومادتْ بيَ الخطوبُ الطِّوالُ
نهلَ الحبُّ من مناعمِها الزُّهْـــرِ وضاءتْ بسحرِها الأشكالُ
فهي في العينِ صورةٌ ليس تُمْحَى   نامَ عنها البِلَى وأغفى الزوالُ
وهْيَ في القلبِ فرحةٌ تملأ القلْـــبَ فتطوى بحُلْمِهِ الآجالُ
يا ربَاعَ الخلودِ عاشَ لكِ السعْـــدُ ولا زالَ خِدنَكِ الإقبالُ
أنتِ منِّي الحلمُ الذي أشتهيهِ   ومجنِّي ومفزعي والمآلُ

* * *

أيُّهذا القفرُ الذي ادَّرعَ الهوْ   لَ وغابتْ في صمتِهِ الآزالُ
أنا في كونكَ الرحيبِ نداءٌ   أخفتتْهُ الأوجاعُ والأعلالُ
تترامى بيَ الهمومُ العواتي   والشَّجا المرُّ والأذى والنَّكالُ
أتعبتْني المنى وما زلتُ أشقى   وأعنَّى وللمنى بلبالُ
وبقلبي داءٌ عياءٌ قد استعْـــصى وجرحٌ لا يعتريهِ اندمالُ
وجناحُ الحياةِ منِّي مَهيضٌ   لا تقوِّيهِ رحلةٌ وانتقالُ
فلعلِّي أبلُّ في جوْبيَ البيـــدَ وما يُرتجى ليَ الإبلالُ
خاطري من أذيَّةِ الدهرِ مكدو   دٌ وجسمي من الضَّنى أسمالُ
أقطعُ العمرَ في غمارِ الرزايا   وحياتي زهادةٌ واعتزالُ

* * *

يا رمالَ الآبادِ ما آدكِ السَّـــيْرُ ولا هدَّ عزمَكِ الترحالُ
أبدًا توغلينَ في المجهلِ النَّا   ئي وما إن يروعُكِ الإيغالُ
غابَ في يمِّكِ الرهيبِ أخو القفْـــرِ وطاحَ المسافرُ الجوَّالُ
هدأ الدهرُ من نضالِكِ تعبًا   نَ وما نالَ من قواكِ النضالُ
أنتِ لحنٌ من الخلودِ نقيٌّ   ونشيدٌ من البقاءِ حلالُ

أنور العطار



اختيار الأسماء وتبديلها

« وعلم آدم الأسماء كلها » القرآن

استبدل(١) سميّ صاحب النبي — زاد الله مصر في أيامه ارتقاء ومجداً — بذلك الاسم الأعجمى ، هذا الاسمَ (الفريدَ) العربي مستنا بسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) و« لكمْ في رسولِ الله أُسْوَةٌ حسنة » في (صحيح التِّرمُذى (٢)) : « كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يغير الاسم القبيح » وفي (مسلم والترمذى وأبي داود) : « عن ابن عمر — رضى الله عنهما — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — غيّر اسم عاصية وسماها جميلة » وفي (صحيح البخارى) : « قال : ما اسمك ؟ قال : حَزْن ، قال : بل أنت سهل » وفى (سنن أبى داود) : « سمي حرباً سلماً وسمى المضطجع المنبعث ، وأرضاً تسمى عفرة سماها خضرة ، وشعبَ الضلالة سماه شعب الهدى »

فاستبدال ملك مصر — أيده الله — (فريدة) ب(سافيناز) هو (والله) من الجودة والارصان والاتقان بمكان . وما أجدر الناس — والناس على دين ملوكهم كما يقال — في مصر وغير مصر من بلاد العرب والإسلام أن يغيروا أسماءهم القبيحة ، والأعجمية والإفرنجية ، وأن يختاروا لبنيهم وبناتهم الأسماء العذبة الحسنة العربية . وقد قال محمود جاد الله (صاحب الكشاف) : « قد قدّم الخلفاء وغيرهم رجالا بحسن أسمائهم ، وأقصوا قوماً لشناعة أسمائهم » وقال : إن الأسامى السُّنُع — يعنى الجميلة والشريفة الفاضلة — جديرة بالأثرة ، وإياها كانت العرب تنتحى في التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز » وليستهد الجاهل في ذلك الفقيه العالم صاحب الذوق . وإياك وفاقده . إياك من فاقده فرب عالم أو عويلم قد سلبه الله الذوق سلباً . فمن استرآه (طلب رأيه) في كلمة أو اسم أتحفه بآبدة ...

وإن الكلمات والأسماء العربية الفائقة البارعة الباهرة لتملأ الدنيا

(قارىء)

الهبات الملكية للبعوث الإسلامية في الأزهر

أفردت مشيخة الجامع الأزهر في مشروع الميزانية العامة باباً خاصاً للهبات الملكية — جاء فيه أن حضرة صاحب الجلالة الملك قد تفضلَ فأمر بوقف مبلغ قدره الف جنيـه لينفق على الطلاب الوافدين إلى الجامع الأزهر من اليابان وجهات البلقان ، ووقف مبلغ قدره ٧٢٠ جنيهاً سنوياً للطلاب الذين يفدون إلى الجامع الأزهر من بلاد الصين . ثم ذكرت بعد ذلك مايفيد أن جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول قد وقف في حياته مبلغاً قدره مائة جنيه تصرف في كل عام مكافأة للأول والثانى من الناجحين في امتحان الشهادة من طلاب الكليات الأزهرية الثلاث

وبهذا يصبح مجموع الهبات الملكية لطلاب البعوث الاسلامية في الأزهر ولبعض طلاب الأزهر المتفوقين ١٨٢٠ جنيهاً سنوياً

حديث طل

روى في مجلة العرب (الرسالة) الأستاذ محمد سعيد العريان المتحلى بالفضل والآداب ، والسابق في الميدان ، من كلام فقيد الأدب العربي ونابغتـه المرحوم (مصطفى صادق الرافعى) هذه الجملة : « فان الموضوع طلي شهى » والطلي في العربية :

---

(١) يضل بعضهم في استعمال هذا الفعل والقاعدة هي أن يجر (المتروك) بالباء ويجرد (المأخوذ) منها . وممن كان يخطىء في ذلك كثيراً الشيخ ابراهيم اليازجى ، في مجلته (الضياء) السنة (٣) الصفحة (٦٨٣) وهـذا من قوله لا من قول غيره : « وكانوا (أى الرومان) إذا مات أحد كبراء الدولة يذبحون عند نضد الحطب الذي يحرقون عليه جثته عدداً من أولئك الأرقاء أو غيرهم ممن ذكر (يعنى الأسرى) ثم استبدلوا هذه العادة بالصراع ، ولذلك كانت من الملاعب المخصوصة بالمآتم » يريد استبدلوا الصراع بهذه العادة . وفى الصفحة (٧٥٦) من تلك المجلة : « السيارة هى اللفظة التى اختارها أحمد زكى الشهير لتعريب كلمة أتومبيل ومنهم من اختار استبدالها بالجوالة أو الجوابة أو الدوارة » يريد ومنهم من اختار استبدال الجوالة الخ بها

(٢) روى الوفيات ومعجم البلدان أقوالا كثيرة في هذه النسبة منها ضم التاء والميم

الجَدْىُ ، الصغير من أولاد الغنم ، وجمعه الطليان ، وإنما سمى طلياً لأنه يُطلى أى تشد رجله بخيط أياماً . و (قول طلى) أى عذب أو ذو طلاوة قد نُقِد ، والنقد حق لا يدفعه تعقب ، ولا يجدى الجدل . وقد وجدت فى اللغة لفظة صحيحة تسد مسد المنقودة ، وتشاكلها فى أكثر حروفها ، وهى (الطل) وهذا ما جاء فى (أساس البلاغة) للزمخشرى : « يوم طل : رطب طيب ، وحديث طل . وعن أعرابية : ما أطل شعر جميل وأحلاه ؛ وامرأة طلة : حسنة نظيفة » وفى شرح القاموس : « الطلة الخمرة اللذيذة وقيل : السلسة » وفى لسان العرب : « وحديث طل أى حسن »

فقل (الطل) وكُلْ (الطلى) . . .

(***)

« الاسكندرية »

المسرح المصرى والنفوذ الأجنبى

كانت وزارة المعارف قد انتدبت فى الشتاء الماضي خبيراً أجنبياً لدراسة شؤون المسرح المصرى هو مسيو إميل فابر المدير السابق لمسرح الكوميدى فرانسيز . وقد نوهنا يومئذ بما هنالك من شذوذ فى هذا الانتداب ؛ وكانت نتيجة هذه الدراسة أن وضع مسيو فابر كالمعتاد تقريراً لا يخرج فى معناه عما قيل وعرف منذ سنين ؛ ولكن كانت ثمة نتيجة أخرى هى أن وزارة المعارف حملت على انتداب فرقتين فرنسيتين للتمثيل فى دار الاوبرا فى الموسم المقبل ؛ وقد كان المعتاد من قبل أن تستقدم فرقة فرنسية واحدة إلى جانب بعض الفرق الأجنبية الأخرى ؛ ولكن سنشهد هذا العام أول فرقة الكوميدى فرانسيز ، ثم نشهد من بعدها فرقة الأوبرا كوميك ؛ وهذه لعمرى وسيلة بديعة لاصلاح المسرح المصرى وتحريره من النفوذ الأجنبي . ولقد كنا نظن حينما تألفت الفرقة القومية أنها بداية عهد جديد فى تاريخ المسرح المصري ، وأننا سنظفر عما قريب بتمصير هذا المسرح وإصلاحه ليفى بالغايات القومية ؛ ولكنا رأينا نفوذ الجهة الأجنبية التى استعبدت الفن المصرى منذ قرن يشتد عن ذى قبل ؛ وظهر أثر هذا النفوذ واضحاً فى تنسيق القسم المصرى بمعرض باريس ، ثم ظهر فى هذه النتيجة المعكوسة التى انتهى إليها انتداب الخبير الفرنسى لإصلاح المسرح المصرى ، ولسنا نعرف متى يتحرر الفن المصرى من هذه السيطرة الأجنبية التى تحاول تمكين أغلالها دائماً ؟ ولكن الذي نعرفه هو أن الفن المصرى لا يمكن أن ينهض من عثاره ما دام خاضعاً للتوجيه الأجنبي ، وأن مصر لن تظفر بقيام المسرح المصرى المنشود ما لم تعمل أولا على تحريره من هذه الأغلال .

فهارس للفن الأندلسى

من المعروف أن اسبانيا تملك كثيراً من التحف الفنية الأندلسية ؛ ولكن توجد إلى جانب ذلك مجموعات أخرى من تراث الاندلس الفنى لم تذع محتوياتها ؛ ومن ذلك مجموعة الجمعية الاسبانية الأمريكية ، فهى تملك مجموعة كبيرة من المصنوعات الخزفية الأندلسية ، ومن قطع الوشى والنسيج الأندلسية . وقد صدر أخيراً فهرسان كبيران مصوران لمحتويات هذه المجموعة الشهيرة أحدهما للتحف الخزفية وهو بقلم السيدة أليس فوردنهام ، والثانى للوشى والنسيج ، وهو بقلم السيدة فلورنس ماي ؛ وقد صدر الفهرس الأول بمقدمة بديعة عن تاريخ الخزف الأندلسى ، ونماذجه وألوانه ولا سيما فنون غرناطة ، وما كان لها من أثر عميق فى تقدم فن النقش والتلوين . وقد اشتهرت مالقة وغرناطة منذ القرن الثالث عشر بصناعة الخزف المذهب ؛ واشتهرت تونس فى هذا العصر بصناعة الآنية المزخرفة المساة « ملكي » وكان لبلنسية شهرة فائقة فى هذا الفن ، وكان لها أثرها فيما بعد فى ارجوان وقشتالة ؛ ثم ذاع هذا الفن الأندلسى بعد ذلك فى فرنسا وانكلترا . وكان الملوك والأمراء فى العصور الوسطى يزينون قصورهم وأبهاءهم بنماذج من الخزف الأندلسى والتلوينات الأندلسية ، ولا سيما الألوان الذهبية الوهاجة التى برع فيها أهل الأندلس . كذلك يصف الفهرس الخاص بالنسيج براعة أهل الأندلس فى هذا الفن ، وما كان لهم من فضل فى تقدم النقوش والنماذج المماثلة ، واستحداث صور الأزهار والزخارف المستديرة . وقد كان للفن الأندلسى أعظم الأثر فى تطور هذا الفن الدقيق أيام عصر الإحياء ، وكانت غرناطة أيام ازدهارها تخرج من الحرير والكتان أفخم وأبدع النماذج التى كانت تستوردها أعظم القصور والشخصيات

آراء جديدة في العقاب

تطورت فكرة العقاب في القرن الماضي تطوراً عظيما ، ثم هي لا زالت تتطور اليوم . وقد أصبحت الغاية الأولى من العقاب هي الاصلاح الاجتماعي بعد أن كانت هي الزجر والردع . وللعلامة الألماني الدكتور هانس فون هنتج كتاب في هذا الموضوع ظهرت أخيراً ترجمته الانكليزية وعنوانه « العقاب ؛ أصله ، وغايته ونفسيته » . ويقول الدكتور فون هنتج في تصديره إنه يقصد بمؤلفه أن ينفذ إلى ذهن الرجل العادي قبل الأستاذ الباحث ؛ لأن الرجل العادي هو المسئول في الواقع عن وضع التشريعات الحسنة والسيئة ؛ ويتناول فكرة العقوبة والعقاب من ناحية جديدة ، ويضع للعقاب تعريفاً جديداً ، ويصفه بأنه نوع من التطعيم لخطر صناعي لا يقل شبهاً عن الأخطار التي تفرضها الطبيعة ذاتها لصون قوانينها ، ويعرفه في مقدمته بما يأتي : « العقوبة تعني إنشاء خطر صناعي ، والعقاب إضرار منظم ، وصدع للحياة منظم في شكل قوانين يستعملها المجتمع ليعود الانسانية على تجنب بعض طرق العمل التي تخاصمها أو تؤذيها »

ويرى الدكتور فون هنتج أن فرض العقوبة لا يبرره سوى السعي إلى تخفيف الضرر الانساني ، وعنصره القانوني يتوقف تماماً على مقدرته في التأثير في غرائز الفرد ومشاعره ، فالرجل الذي لا يشعر مثلا شعوراً قوياً بغريزة الاحتفاظ بالنفس لا تؤثر فيه العقوبة كثيراً ؛ وكذلك لا يكون للعقوبة قيمة اجتماعية إذا كان اكتشاف الجريمة التي توقع من أجلها العقوبة أمراً عارضاً . ويقدم لنا المؤلف أمثلة عملية عديدة يرى أن العقاب فيها لا أثر له ولا وازع ، ويقول لنا إن مضاعفة العقوبة في مثل هذه الأحوال إنما هي قسوة همجية لا تحقق شيئاً من الردع المقصود ؛ بيد أن القانون قد اعتاد هنا أن يضاعف العقوبة ، دون أن يحاول صقل الجهد في الاثبات والاكتشاف ؛ في حين أنك ترى مثلاً فتى مغامراً يعتمد دائماً على حقه في الافلات من العقوبة ، وبذلك لا يخشى العقوبة إلا بقدر ما يخشى جهنم

والعقوبة المادية ذاتها ليست كل شيء في تحقيق فكرة العقاب ؛ فشاق السجن مثلاً يستطيع الكثيرون تحملها ، ولكن الضرر الحقيقي هو في الحياة التي تلي حياة السجن . والواقع أن معظم العقوبات القانونية قاصرة عن تحقيق الأغراض التي وضعت لها ؛ ومن الواجب أن تكون القوانين في الدولة المثلى ، سواء أكانت مدنية أو جنائية ، سائرة وراء معيار الانسانية في تقدير الخطأ والصواب

ويعالج الدكتور فون هنتج موضوعه الدقيق بوضوح يقربه إلى فهم القارىء العادي ، ويجعله في نفس الوقت مرجعاً قيماً للباحثين

تعميم تدريس الدين في التعليم الثانوي والابتدائي للبنين والبنات

قررت وزارة المعارف تعميم تدريس مادة الدين في جميع فرق الدراسة بالمدارس الثانوية والابتدائية للبنين والبنات بعد ما كانت مقصورة على السنتين الأولى والثانية

وقد اعتمد معالي وزير المعارف المنهج الذي وضعه مكتب تفتيش اللغة العربية لهذا الغرض وستبدأ المدارس بتطبيقه في السنة الدراسية المقبلة

وأهم ما في هذا المنهج درس أخلاق ومناقب عمر بن الخطاب والسيدة عائشة والسيدة خديجة درساً صحيحاً يتجلى فيه ما لهم من أخلاق حميدة ومواقف مشهورة تبعث الطلبة على الاقتداء بهم ، ودرس الآيات الكريمة والأحاديث النبوية ، وأن تقترن هذه الدراسة بما يناسبها من الموضوعات ، وأساس الدين الإسلامي ، والآداب الإسلامية ، وأدب الإنسان مع خالقه ومع المجتمع ، ودرس سيرة أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ، والاسلام والشورى ، والاسلام والحكومة الصالحة ، ودرس سيرة عمر بن عبد العزيز ، والإمام أبي حنيفة ، وسعد بن أبي وقاص ، وأسماء بنت أبي بكر ، والسيدة حفصة ، ودرس الرسل والحكمة في إرسالهم ، والإسلام وقواعده الخمس ، والفضائل التي عزّ بها الإسلام ، وتأثير الإسلام في تهذيب النفوس ، وشرح الفضائل والرذائل ، وعناية الإسلام بشأن المرأة ، والبدع والعادات المخالفة للدين

حول أرزة لامرتين

أخي السيد خليل عطا الله :

لست أدري كيف يجب أن أقول : ويل للتاريخ من الشعر أم ويل للشعر من التاريخ ؟ وإنما أحب أن تعلم أنني يوم زرت الأرز ، منذ شهر ونيف ، ونظمت فيه قصيدتي ، لم أكن عالماً ولا مؤرخاً ، ولعلي لن أكون أحدهما أبداً ، وإنما أنا شاعر تجولت وإخواناً لي في ظلال الأرز ساعة من زمان صحبة دليل ، واستمعت مأخوذاً إلى

ما يقصه علينا هـذا الدليل من ذكريات شعرية عذبة ، وأنعمت النظر فيما تركته هذه الذكريات من آثار محسوسة باقية ، فوجدتنى أطرب لهـذا الفيض الشعرى الساحر ، فأسوغ طربى شعراً كفاني صدقه شرفاً ومجداً . ولا أعرف فى الناس يا أخى من هم أحق بالرثاء من هؤلاء العلمـاء والمؤرخين الذين يستحقون كل إجلال وإعظام ، والذين يفنون زهرة صباهم ، وعنفوان شبابهم ، وجلد كهولتهم ، وراحة شيخوختهم، بين أكوام الأوراق ورفوف الكتب ، ليظهروا حقـاً أو ليزهقوا باطلاً ؛ أما أنا فليس أحبّ إلى نفسى من أن تكون الحياة كلها أسطورة ! ولعلها كذلك ! . . .

أقول هذا لتوقن أنه لا ذنب لى فى هذا الخطأ التاريخي الذى ارتكبته ، وإنما هو ذنب ذلك الدليل (الصادق) الذى طاف بى أرجاء الغابة يدلنى ويعلمنى ويهدينى السبيل ؛ وذنب تلك اللوحة الرخاميـة المنصوبة على أرزة لامرتين ، أستغفر الله ، بل على الشجرة التى (يزعمونها) أرزة لامرتين ، تلك اللوحة التى تؤكد زيارة الشاعر الـكبير للأرز خريف عام ١٨٣٢ ، والتى رأيتهـا ولاشك فى الصورة التى نشرتها (الرسالة) العزيزة . وإنى إن شكرتك على ملاحظتك التاريخيـة القيمة فكم أحبّ أن أوجهها بدورى إلى أولئك الإخوان فى بلدة (بشرى) الذين نصبوا تلك اللوحة منذ سنوات على الشجرة المذكورة وفى أعلى النقش تخليداً لذكرى هذه الزيارة بمناسبة مرور مائة عام عليها ، دون أن يشيروا بكلمة إلى حقيقة هذه الزيارة أو حقيقة هذا النقش ؛ وكم أودّ أيضاً — رغم كل هذا — أن يتمسك أولئـك الاخوان بمعتقدهم ، وأن يؤمنوا بزيارة الشاعر الـكبير وابنتـه لأرزهم ، ونقشهما اسميهما على إحدى شجراته ، ولو كتب هنرى بوردو ألف كتاب ، لا كتاباً واحداً فى دحض هذه الزيارة وتفنيدها . لا أريد بهذا الحقيقة والتاريخ ، وإنما أريد الاحتفاظ بهذا الـكنز الشعرى الروحى الثمين . ومن يدرى فلعل كاتباً آخر يقوم غداً فينقض كل ما كتب صاحبنا (بوردو) ويثبت كل ما أنـكر !

وختاماً أشكر يا أخى ملاحظتك الرقيقة من كل قلبي ، وإن كنت آسف ، وأحسبك ستأسف مثلى ، على أنك أفقدتنى أو كدت تفقدنى عطفى على قصيدة هى على من أعز شعرى

والسلام عليك ...

« دمشق » **أمجد الطرابلسى**

السينما والعلوم

لم يقف نشاط الفن السينمائي عند إخراج الروايات والقطع التاريخية والاجتماعية ، ولـكنه اتجه فى العصر الأخير أيضاً إلى الناحية العلمية فأخرجت عدة شرائط مصورة عن حياة الحيوان والنبات وعن كثير من الصناعات الدقيقة ، والآن تخطو السينما خطوة أخرى فى هذه الناحية ، فقد بدأت منذ حين تخرج لنا سير أقطاب العلم فى شرائط مصورة تمثل حياتهم واكتشافاتهم العلمية ، وكان أول شريط من هذا النوع شريطاً يمثل حياة الطبيب العلامة الفرنسى لوى باستور الذى اكتشف عدداً كبيراً من الجراثيم ، وساعدت تجاربه واكتشافاته العلمية على تقدم الطب تقدماً عظيما ، وكان نجاح هذا الشريط عظيما ، إذ يقدم عن حياة باستور صورة مطابقة مؤثرة . وتلا ذلك إخراج شريط آخر عن حياة فلورانس نيتنجيل المصلحة الانسانية ، ومنظمة المستشفيات الشهيرة . والآن تفكر إحدى الشركات الأمريكية السينمائية فى إخراج شريط علمى جديد يمثل حياة العلامة والمخترع السويدى الشهير ألفريد نوبل ؛ ونوبل كما هو معروف مخترع الديناميت الحديث ، ولـكنـه اشتهر بمأثرة إنسانية أخرى هى وقفه أمواله الطائلة على منح جوائز نوبل الشهيرة للآداب والعلوم والأعمال السلمية ، وهى تعتبر أعظم الجوائز الدولية فى هذا الميدان ، ولم يعرف حتى اليوم من هو الممثل الذى سيقوم بدور المخترع الشهير ، ولـكن الشركة التى تعنى بإخراج هذا الشريط وهى شركة كولومبيا ستبذل كل جهودها لتحقق لهذا الشريط العلمي الجديد نجاحاً باهراً . وهكذا تعاون السينما فى تاريخ العلم بصورة عملية شائقة .

عيد مدينة برلين

احتفل فى برلين فى أواخر أغسطس بالعيـد المئوى السابع لقيام مدينة برلين العاصمة الألمـانية ؛ واقترن الاحتفال الرسمى بعدة حفلات موسـيقية فخمة فى بهو قصر برلين ، وأقيم قداس موسيقى فى كنيسة كلوستر باشراف الموسيقي الأشهر ادوين فيشر ؛ وكان من أهم المظاهر التى لفتت الأنظار إلى هذا العيد نماذج بديعة عرضتها شركة « أوربا الوسطى » فى ميدان بوتسدام تمثل تاريخ خطط برلين من نشأتها إلى يومنا .



كتاب إحياء النحو

للأديب السيد عبد الهادى

نشر الأستاذ أحمد احمد بدوى ، فى مجلة الرسالة ، نقداً لكتاب إحياء النحو للأستاذ الجليل ابراهيم مصطفى ، ولقد قرأته بامعان وتدبر كما أقرأ غيره من البحوث التى تتعلق بعلم النحو وخاصة فى الأشهر القليلة الأخيرة التى قامت فيها ضجة حول الضعف في اللغة العربية وأسبابه وعلاجه ، وقد كان النحو محوراً فى هذه البحوث كلها ، فقد جعل كل من الباحثين النحو فى صورة خاصة سبباً من أسباب الضعف فى العربية وجعله فى صورة أخرى ، أوجز فى بيانها ، سبباً من أسباب التقوية فى العربية أي أن الباحثين المحدثين أجمعوا على تعبير نحوى قديم ، هو النحو فى الكلام كالملح فى الطعام يفسده ويصلحه ، فكان طبيعياً أن أقرأ أنا وأمثالى نقد الأستاذ بدوى لإحياء النحو لأنه نقد للمنهج الجديد الذى نريد أن نأخذ به نفوسنا والنشء كذلك فى معرفة قواعد اللغة العربية وهذه هي ناحية الأهمية فى هذا النقد بغض النظر عن علم المؤلف وجلال قدره فهذا أمر يعرفه الكل

وقد استهل الأستاذ نقده بأن نحو اللغة العربية ثقيل عسير يحتاج إلى كثير من التهذيب والتبويب ليصبح سهل المأخذ قريباً إلى النفوس محبباً إليها درسه وفهم قواعده وأصوله ، ولى على ذلك اعتراض ثانوى ذلك أن الأستاذ يريد أن يهذب النحو ويبوبه ليفهم بذلك قواعد النحو ، فأوجد بذلك شيئاً اسمه النحو وشيئاً اسمه قواعد النحو ، وهذه نتيجة خاطئة سببها على ما أظن الأسلوب الانشائي الذى لا يعنى بتحديد المقصود من كل عبارة ومن كل لفظ ، وإنما يعني برصف بعض جمل منمقة تؤدى معنى عاما لا تحده خطوط أربعة ، وهذا إنجاز فى بعض أنواع الكتابة فهو غير جائز في النقد . وتفصيل القول فى هذا أن هناك مسائل ككون الفاعل مرفوعاً واسم إن منصوباً والتالى لمن مجروراً ؛ هذه المسائل وأمثالها هى قواعد اللغة العربية ولا سبيل لتغييرها أو تبديلها ، ولم يقصد أحد من الباحثين المعاصرين باصلاح النحو إصلاح هذه القواعد — هذه القواعد تحتاج إلى ما يحصرها وينظمها ويقيم الدليل على صحتها ، وذلك هو علم النحو أو هو النحو بحذف كلمة علم لأنها مفهومة ولا بد من تقديرها عند ما نقول النحو — والنحو هو محل بحث الباحثين ، وتجديد المجددين ، وليست قواعد اللغة محلاً لذلك ، وإذن ليس هناك شئ اسمه قواعد النحو كما خيل للأستاذ — وإلا فليقل لنا الأستاذ ماهى قواعد النحو التى يقصدها

ثم عقب الأستاذ على ذلك بذكر النتائج التي توصل إليها متأملاً بعد القراءة ، وأولى هذه النتائج أن الكتاب ليس فيه شئ جديد ومعنى ذلك أنه نقل من القديم لا أكثر ولا أقل ففيم النقد إذن ، وفيم ذكر النتائج الأربع الباقية إذا لم يكن هناك جديد ؟ المتفق عليه أن الشئ إذا كان صورة مما سبقه فليس محلا للنقد أبداً

والنتيجة الثانية أن الكتاب لم يحدث فى دراسة النحو أو كتبه أو قواعده أى تغيير أو تبديل . ويلاحظ هنا أن الأستاذ لا يزال يصر على استعمال « قواعد النحو » وأي فرق بين النتيجة الأولى والثانية ؟ أليست الثانية تفسيراً للأولى ؟ فهلا أضاف الأستاذ احدى النتيجتين إلى الأخرى لأنهما فى معنى واحد ، والأستاذ لا يجهل أن نتيجة واحدة قد تكون خيراً من عشر

نتائج ، وهو لا يجهل كذلك أن العدد فى الليمون

والنتيجة الثالثة أن ما فى الكتاب ليس إلا تعليلات كتعليلات النحاة ، وأظن هذا أيضاً داخلا تحت عدم الجدة التى لحظها الأستاذ فى النتيجة الأولى

والنتيجة الرابعة أن المؤلف ادعى على النحاة قضايا غير ممحصة ولننتظر ما يقول الأستاذ فى ذلك ونعقب عليه فى حينه

وأما النتيجة الخامسة فهى أن المؤلف فى الأبواب القليلة التى أراد ضم بعضها إلى بعض يزيد النحو عسراً لا سهولة وفهما على أنه لم ينجح في هذا الضم . هذه هي النتيجة الخامسة والأستاذ يعترف فيها صراحة أن المؤلف قد أحدث حدثاً جديداً ، زاد النحو عسراً ، وهو أمر يستحق النقد الذى ينشر فى الرسالة على دفعتين ومع ذلك يقول الأستاذ فى النتيجة الأولى إن الكتاب ليس فيه شيء جديد ، هذا تناقض لا يصح أن يكون نتيجة الغفلة الفكرية وإنما هو نتيجة غفلة الذاكرة فحسب ، ألست معي أيها القارىء الكريم فى إقرار هذا التناقض الغريب ؟

ثم أخذ الأستاذ فى مناقشة ماورد فى الكتاب فابتدأ بتعريف النحو ولم يرض عن التعريف الذى ارتضاه المؤلف ليوسع دائرة النحو فقد قصره النحاة على معرفة أواخر الكلمات إعراباً وبناء ، وأراد المؤلف أن يكون النحو قانون تأليف الكلام وبيان ما يجب أن تكون عليه الكلمة فى الجملة والجملة مع الجمل حتى تنسق العبارة ويمكن أن تؤدى معناها . لم يرض الناقد عن هذا التعريف لعلم النحو ، ولكن القارىء يدهش إذا علم أن الناقد عاد ودافع عن هذا التعريف وأثبت أنه الصواب من حيث لا يريد حيث قال : « فليس صحيحاً إذن أن ندعى على النحاة أنهم قصروا بحثهم على أواخر الكلمات بل هم قد تعرضوا كثيراً وكثيراً جداً أكثر مما توهم المؤلف الفاضل إلى بيان وضع الكلمة من الكلمة والجملة من الجملة ... ... » وضرب الناقد مثالاً لذلك باب الفاعل فى كتاب أوضح المسالك لابن هشام

وإذا كان المؤلف قد آمن بأن هذه المباحث من مباحث النحو التى توسع فيها النحاة والتى خصوها بعناية تعدل أضعاف عنايتهم بحركات أواخر الكلمات فكيف استقام عنده تعريفهم للنحو بأنه علم يعرف به أحوال أواخر الكلمات اعراباً وبناء ؟ وإذن يكون تعريف النحو كما عرفه النحاة قاصراً عن غايته بشهادة الناقد نفسه لأنهم قد تعرضوا لمباحث كثيرة غير حركات الأواخر كما يقول الناقد ولكنهم جعلوا التعريف قاصراً على معرفة أواخر الكلمات اعراباً وبناء — وإذا كنا قد اكتفينا بنقد الأستاذ بدوى من مقاله نفسه مسلمين بصحة ما قاله بالحرف الواحد فهل لنا أن نستوضحه بعض الشىء ونسأله : هل صحيح أن النحاة وفوا المباحث النحوية التى هى غير حركات الاعراب حقها إحصاء وتبويباً ؟ فأين إذن الباب الذي بحث النفي ؟ وأين الباب الذي بحث التوكيد ؟ وأين الباب الذى بحث التذكير والتأنيث ، وأين أمثال هذه الأبواب التى هى العمدة فى تركيب الجمل وفهم خواصها ؟ نعم ذكرت بعض هذه المباحث مفرقة فى الأبواب المختلفة ، وقد اعترف المؤلف بذلك ، ولكنه دعا إلى جمعها وتكميلها وتنظيمها حتى تفيد فائدتها المرجوة ، ترى أليس تعريف المؤلف هو التعريف الصواب الشامل؟

وأخيراً رمي الناقد بقضية لم يقم عليها برهاناً إلا الثقة الغالية التى يأمل أن يجدها من القراء ، فقد ادعى أن المؤلف لم يشر إلى علاقة الكلمة بالكلمة بل قصر الكتاب على حكم آخر الكلمات ولم يعن بغيرها . كيف لم يشر المؤلف إلى علاقة الكلمة بالكلمة مع أن الكتاب كله فى علاقة الكلمة بأختها ؟ ألا ترى أن المؤلف قد أرجع الحركات المختلفة إلى معان مختلفة ، وأن الكلمة تأخذ حركة خاصة إذا كان لها مركز خاص فى الجملة وعلاقة خاصة بغيرها من الكلمات وبتغير هذا المركز وهذه العلاقة تتغير الحركة ؟ أليس ذلك هو المبدأ الذى ينادي به المؤلف والذى استغرق الكتاب من أوله إلى آخره ؟ أو ليس ذلك بحثاً فى علاقة الكلمة بالكلمة والكلمة بالجملة . هذه مغالطة ظاهرة وحاشا لله أن تكون سوء فهم أو قصد .

ثم انتقل الأستاذ إلى نقد الكتاب فى فلسفة العامل فذكر أن المؤلف لم يذكر رأيه صراحة فى العامل ، والمسألة يكفى فيها التلميح عن التصريح لأنها واضحة جلية ، فالمؤلف يرى أنه ليس هناك شىء اسمه العامل يرفع وينصب ويجر وإنما يفعل ذلك المتكلم تبعاً لمركز الكلمة فى الجملة وعلاقتها بأخواتها ، وأظن أن الدفاع

عن نظرية العامل لا يجدى شيئاً وقد تهدمت تماماً وملها الناس وأصبح المشتغلون بالنحو لا يملكون أنفسهم من الضحك حين يقدرون العامل فى مثل زيداً رأيته حيث يقولون رأيت زيداً رأيته. على أنه فى كثير من الأحوال تكون الجملة واضحة فاذا حاولت تقدير عامل لكلمة فيها تعقدت كما فى قولنا «أحقاً ما تقول؟»

وانتقل الأستاذ بعد ذلك لمعانى الأعراب، وهو ينقد رأى المؤلف فى أن الفتحة ليست علامة إعراب، وإنما هي الحركة المستحبة عند العرب وشأنها شأن السكون فى اللغة العاميـة. ينقد الأستاذ هذا الرأى لأنه فى نظره يجعل كل الأسماء المفتوحة الآخر لا يعنى بها العربى ولا يهتم بها، مع أنها تعبر عن معان هامة فى الجملة قد لا تفهم إلا بها؛ وقد أقام الأستاذ الدليل على ذلك. ونحن لا نخالفه فى أن من الكلمات المفتوحه ما يدل على معان هامة فى الجملة لا تفهم إلابها، ولكننا نسأل الأستاذ: من أين له هذا الفهم؟ من أين أتى له أن المؤلف قصد أن المعاني التى تدل عليها الأسماء المفتوحة الآخر معان لا يعتني بها العربى وليست ذات خطر فى الكلام؟. لا يزال كتاب «إحياء النحو» بين أيدينا فيستطيع الأستاذ أن يقرأه مرة ثانية ليقتنع بأن المؤلف لم يقصد بتاتاً إلى ما فهمه؛ ولقد قرأت الكتاب وأجهدت نفسى فى الفهم لأجد مايشير إلى ذلك تصريحاً أو تلميحاً فلم أجد. فليدلنا الأستاذ على الموضع الذى فهم منه هذا الفهم فإنا نكون له شاكرين

ولقد وضح المؤلف هذه المسألة وبينها تماماً حين عقد مشابهة بين الفتحة في اللغة العربيـة وبين السكون فى اللغة العامية حتى لا يدع مجالاً لفهم خاطئ وحتى يقرب المسألة من الأذهان، فهل يستطيع الأستاذ أن يفهم أن المؤلف قصد أن الكلمات الساكنة الآخر فى اللغة العاميـة، وكل كلمات اللغة العامية ساكنة الآخر، تؤدى معانى ثانوية يمكن الاستغناء عنها؟ وبم إذن تؤدى المعانى الهامة، ما دام الأستاذ قد حكم على المشبه، وهو الفتحة فى اللغة العربية، بأنه في رأي المؤلف، لا يأتى إلا مع كلمات معانيها لا يعتنى ولا يهتم بها فانه سيفعل ذلك مع المشبه به، وهو السكون فى اللغة العامية، أى أن اللغة العامية تصبح فى رأى المؤلف خالية من المعانى الهامة قاصرة على المعانى الثانوية التى لايضير تركها ولا ينفع ذكرها. تلك هى النتيجة التى يريد أن يخرج بها الناقد وهى أبعد ما تكون عن العقل السقيم بله العقل السليم.

أن تكون الفتحة فى العربية كالسكون فى العامية ليس معناه أن الكلمات المفتوحة ليست مهمة ولا تعتنى بها اللغة، بل إن العلاقة بين هذين المعنيين منعدمة تماماً، إنما ذلك لأنها الأصل فى الحركات ولا يعدل عنها إلا لغرض هو الإسناد أو الاضافة؛ ولم يقل أحد إن معنى الإسناد أهم من المعانى التى تؤديها الكلمات المفتوحة الآخر. ترى عند النحويين دائماً شيئاً اسمه الأصل وما عداه الفرع ولكنهم لا يجعلون أحدهما أهم من الآخر، فهم يقولون الأصل فى المضارع الرفع والأصل فى الأسماء الأعراب الخ، وليست فروع هذه الأصول بأهم منها بل لم يلتفت أحد مطلقاً إلى وجود أهمية أو عدمها فى هذا التقسيم. إن بناء أهمية وعدمها على أصل وفرع فى النحو فكرة خاطئة ومنطق فاسد.

والأستاذ لا يؤمن بأن الفتحة أخف الحركات، فأيها إذن أخف؟ وما رأى الأستاذ فى هذه الأدلة الكثيرة التى أوردها المؤلف؟ وهلا تعرض لواحد منها فنقضه؟ لم يفعل الأستاذ ذلك. النقد الصحيح أن يتعرض الناقد للأدلة وينقضها الواحد بعد الآخر حتى تكون حجته دامغة ودليله قاطعاً؛ وإذا لم يفعل الأستاذ ذلك فقد كفانا مؤونة الرد عليه.

«يتبع»

السيد عبد الهادى
بالدراسة العليا بكلية الآداب

مجموعة شعر ضائعة

تركت على الحشائش بمتنزه الحياة بحلوان مجموعة قصائد لى فى كراسة صغيرة مجلدة بعضها نشر فى الأهرام والمقتطف وبعضها لم ينشر. فمن وجدها فليتفضل بردها مشكوراً مأجوراً ؟

سيد قطب
مدرس بحلوان الابتدائية

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة محمج رقم ٧ ﴾

5 me Année, No 219.

Lundi - 13 - 9 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢١٩ « القاهرة في يوم الاثنين ٧ رجب سنة ١٣٥٦ — ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

معاملة النـــاس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

لو أني صدقت ماحدثني به شيوخ الجيل الماضي الذين هم في منزلة آبائنا وأعمامنا ، وما رووه لي في وصف حياتهم المنقرضة ومعاملاتهم وعلاقاتهم ، لكنت حرياً أن أعتقد أن ذاك الجيل الذي انقضى كان أفضل وكان حظه من الرجولة أعظم ، ونصيبه من البساطة التي يستقيم بها النظر أوفر وأجزل ؛ فقد كان الفقر لايعيب أحداً في ذلك الزمان ، ولا يغرى الصديق بالفرار من صديقه أو اجتنابه ؛ وكان حسن الأدب والتواضع ولين الجانب لايعرض المرء للاستخفاف أو قلة المبالاة به ؛ وكان للعلم شأنه وكرامته ، وكانت المعاملات تقوم على الصدق والثقة ولا تحتاج إلى الصكوك وما إليها ؛ وكان الصغير يوقر الكبير ، ولا يغمط الكبير فضل الصغير أو يبخسه حقه ، إلى آخر ذلك مما لاحاجة إلى التقصي فيه . وقد أدركت بعض ذلك ففي وسعي أن أطمئن إلى الصدق في سائره ، فمن ذلك أنه بعد وفاة أبي بشهور ثقيلة ، دق علينا الباب رجل من العلماء كان زميلا لأبي ، وقال

إن « الأفندى » — يعنى والدى فقد اتخذ زى الأفندية فى آخر زمانه — ترك معه قبيل وفاته مبلغاً من المال ، وإنه لاعلم لأحد بذلك ، وإنه يخشى أن يزوره الأجل ، ودفع إلينا المال ومضى مرتاح الضمير . ولا أدرى ما شأن غيرى ، ولكن الذى أدريه أنه لو ائتمنني أحد على مال له لكان حقيقاً أن ييأس من رده :

وقد وجدت بالتجربة أنه لا كرامة لمن لا مال له ، وأن صاحب المال ، وإن كان قد جمعه بشر الوسائل وأرذلها وأسفلها ، قد يغتابه الناس ويبسطون فيه ألسنتهم ولكنهم لا يلقونه بغير الحفاوة ولا يبدون له غير التعظيم والتوقير ، وأن من شاء أن يضمن إكبار الناس له فليشعرهم بالاستغناء عنهم ، وأن الناس ينزلونك حيث أنزلت نفسك ، ولا يخطر لهم أن يرفعوك عنه ، فإذا كنت معهم عف اللسان مكفوف السلاطة مأمون الغضب ، لم يهابوك ولم يبالوك ، ولم يتقوا أن يسيئوا اليك وان كانوا يرون منك انك تكره أن تسيء إلى نملة ؛ وقد يظهرون لك الاحترام ولكنهم يعدون ذلك فضلاً منهم وإيثاراً للصنع الجميل ، لا حقاً لك عليهم . أما إذا كانوا يعرفون أن أدبك لا يمنعك أن تهيج بهم وأن لينك قد ينقلب صلابة وعنفاً ، ورقة ملمسك خليقة أن تحور شوكا حاداً كشوك القنفد ، إذا خطر لهم أن يجاوزوا معك الحدود التى ترسمها لهم في علاقتك بهم ، وتفرضها عليهم ، فأيقن أنهم لايكونون معك فى حال من الأحوال إلا على ماتحب وترضى ، وقد يسخطون عليك فى سريرتهم ويكتمونك ماينطوون عليه لك من المقت والحقد ، ولكن هذا لاقيمة له ، فان الخوف من عصفك بهم يظل يقيك أذاهم . وماذا يضيرك أن يجدوا ويضطغنوا إذا كانوا لايجرؤون أن يكشفوا لك عن هذه الصفحة المستورة ؟؟ وإنك لتعلم أنهم ينافقون ويبدون غير ما يبطنون ، ولكن الحيلة فى ذلك قليلة ، والشأن شأنهم لا شأنك ، وعلى أنه ماداعى الغيظ والنقمة ؟ وما موجب الكراهية والمقت ؟ وما الحاجة إلى النفاق ؟ إن كل ما تبغيه منهم أن يجنبوا الاساءة اليك كما تجنبها اليهم ، فاذا بدأوك بذلك فانهم الظالمون ، والشاعر القديم يقول :

لا تطمعوا أن تهينونا ، ونكرمكم
وأن نكف الأذى عنكم ، وتؤذونا !

فإذا كانوا يأبون إلا أن ينتحلوا الحق في الاساءة بلا مسوغ ، فذنبهم على جنبهم . وتالله ما أسرع ما يرتد الناس إلى الواجب وحسن الأدب إذا رأوا منك تمرداً على سوء الخلق وقلة الحياء ! ! كان كبير من الكبراء يدخل حيث أكون ، فيمر بى وكأنى قطعة أثاث ، وكنت ألقاه كثيراً ، فحملت هذا فى أول الأمر على الذهول أو نحوه ، ولكنه تكرر وباخ وتبينت فيه سخافة الكبرياء والنفخة الكذابة ، فقلت : أكيل له بصاعه ، وصرت أتعمد أن أدخل عليه وهو مع الناس فأحييهم وأهمله ، وأتخطاه بيدي وعينى كأنه ليس هناك ، ولم يكن له غير هذه النفخة ، فلما خرقت القربة المنفوخة ، لم يبق شيء ، فلم يطق صبراً ، وأقبل يوماً فهممت أن أشيح بوجهى عنه ، فاذا هو يطوقنى بذراعيه ! !

وليست هذه المبادئ التى يلقنها التلاميذ فى المدارس ، ولكنها هي المبادئ التى ألقنها ابنى ، وأحرص على أن يفهمها ويعمل بها ، وقليل من رياضة النفس عليها تكفيه ، لا مثلى ، فقد نشأت على غير ذلك واعتدت خلافه ، فخيب الناس والدنيا أملى فى كل ناحية ، وأحدثوا لى رجات نفسية أتلفت أعصابى . وكنت أعتقد مثلاً أن فى وسعي أن أسير فى الحياة من غير أن أسيء إلى أحد أو أخشى أن يسيء إلي أحد ، وأن عليّ أن أعطى الناس حقوقهم فى صراحة وباخلاص ، وأن لى أن أثق أن سيعطينى الناس حقى ولا يقصرون فى أدائه إليّ كاملا ؛ فاذا الأمر على خلاف ذلك ونقيضه . أنا أكف أذاى عن الناس ، ولكنهم هم لا يعنون بمثل ذلك ، حتى لصرت مضطراً أن أحتال لاتقاء أذى الناس ، وأنا أؤدى للغير حقه غير منقوص ، ولا أبخل عليه بالاسراف فى الأداء ، ولكنه هو لا يخطر له أن لى حقاً يؤدى ، أو كرامة تحفظ ، لا لسبب إلا أنى لا أتقحم على الناس ولا أركبهم بالغطرسة ، ولا ألح عليهم ببيان ما يجب لي ، ومن هنا تغير رأيى فى كل ما نشأت عليه ، وأدركت أنه لا يوافق هذا الزمان ؛ وتغير سلوكى مع الناس ، واختلفت سيرتى وتربيتى لأبنائي . وما زلت أجنب أن أبدأ بعدوان ، فما لهذا معنى ، ولكنى لا أتردد في دفع الأذى ، ولهذا مزيته ، وتلك أن ترغم الناس على أن يكونوا خيّرين !

ابراهيم عبد القادر المازنى

المحاكمات التاريخية الكبرى

٤ - الحركة النهلستية
ومصرع القيصر اسكندر الثانى

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

خاتمـــة البحث

وكانت مرافعة جليابوف عن نفسه خاتمة المناظر العاصفة فى تلك القضية الشهيرة . وكان هذا الزعيم الثورى المضطرم حسبما يصفه مكاتب التيمس ، يحدج قضاته بنظرات ملتهبة كأنها نظرات وحش يُطَارد ، وكانت ألفاظه وعباراته الرنانة تحدث أثرها فى المحكمة والنظارة ؛ وكلما ضجت الجلسة ألقى على الجمهور نظرته الملتهبة حتى يعود إلى سكينته . ولمـا انتهى من مرافعته ، أذنت المحكمة للمتهمين تباعاً بأن يقول كل منهم كلماته الأخيرة . فكرر كبالتشش أقواله عن نيات حزبه السلمية ، وأنهم لم يسفكوا الدم رغبة فى السفك ، ونوه بأنه قد اخترع جهازاً للطيران يرجو أن ينسب له بعد موته إذا أخرج إلى حيز التطبيق . ونفت صوفيا عن نفسها ما اتهمها به النائب من القسوة وفساد الخلق واحتقار الرأى العام . وحاول ريسا كوف أن يكرر نظرياته السياسية ؛ وأصر ميخايلوف على نفى اشتراكه فى الجريمة

وبذا اختتمت المرافعات فى هذه القضية الشهيرة ولم تستغرق فى الواقع سوى ثلاثة أيام . وفى صباح يوم ٢٩ مارس أصدرت المحكمة حكمها وهو يقضي باعدام المتهمين الستة شنقاً . فاستقبل المتهمون مصيرهم فى سكينة وثبات . وهل كانوا يتوقعون مصيراً آخر ؟ إن الحكم بالاعدام كان قاعدة مقررة فى جميع الجرائم السياسية التى جرت فى الفترة الأخيرة ، ولم يفلت من هذا المصير المروع سوي قلائل من الثوريين الذين اشتروا حياتهم بالاندماج فى سلك البوليس السياسى ؛ ولم يطعن أحد من الستة المحكوم عليهم فى الحكم بطريق النقض ، ولـكن ريسا كوف وميخايلوف رفعا طلباً بالعفو لم تر المحكمة أن تراجع القيصر فى شأنه ؛ وحاول ريسا كوف ليلة التنفيذ أن يلجأ إلى الخطوة الأخيرة فعرض أن يندمج فى البوليس السياسى وأن يفتدى حياته بالعمل على مقاومة الارهاب والمرهبين ، وأفضى بأسماء وبيانات جديدة عن الثوريين ونظم الحركة الثورية ، فلم يقبل طلبه وخاب مسعاه

وقدمت جسيا هلفمان إلى المحكمة بلاغاً قلت فيه إنها حامل لأربعة أشهر ، وطلبت إرجاء التنفيذ حتى تضع حملها ؛ فانتدبت لفحصها لجنة طبية أيدت دعواها ، فقررت المحكمة أن ترجئ التنفيذ حتى تضع حملها ويمضى على وضعها أربعون يوماً

* * *

وكان التنفيذ فى اليوم الثالث من ابريل سنة ١٨٨١ ففى نحو الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم حمل المتهمون الخمسة على عربتين عاليتين إلى ميدان سيمونفسكى حيث نصبت المشنقة وكانت والدة صوفيا قد سعت إلى رؤيتها فلم توفق إلى ذلك إلا عند خروج الموكب من السجن . وكان المتهمون قد ألبسوا أردية سوداء ، وأوثق كل منهم فى مكانه فى العربة ، وظهره إلى الخيل وقد وضعت على صدره لوحة كتب عليها بحروف بيضاء ظاهرة : « قاتل الملك » وكان يتبع المحكوم عليهم عربة بها خمسة قسس ؛ وكان الموكب رهيباً يحف به حرس قوى من الفرسان والمشاة ، وقد اصطف الجند على طول الطريق من السجن حتى ميدان التنفيذ . وكان الميدان غاصاً بعشرات الألوف من النظارة إذ كان تنفيذ الاعدام يجرى فى ذلك العصر بطريقة علنية ؛ وكان الشعب يهرع دائماً إلى رؤية هذه المناظر المؤسية . وفى نحو الساعة التاسعة وصل موكب المحكوم عليهم إلى ساحة التنفيذ فأنزلوا من العربات وتلا عليهم سكرتير مجلس الشيوخ الحكم ؛ ثم قرعت الطبول إيذاناً بالاجراءات الأخيرة ، فكشف النظارة رؤوسهم وتقدم القسس من المحكوم عليهم وفى يدهم الصلبان فقبلوها . وأبدى المحكوم عليهم فى تلك اللحظات الرهيبة ثباتاً يثير الاعجاب والخشوع إلا ريسا كوف فانه كان مضطرباً ممتقع اللون ؛ وبعد إجراء المراسيم الدينية قبّـل كل صاحبه وودعه الوداع الأخير

وقبل الساعة العاشرة بقليل تقدم الجلاد فرولوف بثوبه الأحمر إلى فرائسه يحيط به معاونوه وألبس المحكوم عليهم الأكفان والقلنسوات . وبدئ التنفيذ باعدام كبالتشش ثم تلاه ميخايلوف فصوفيا فجليابوف فريساكوف ؛ وحدث حين إعدام ميخايلوف أن قطع حبله وسقط على النطع ثلاث مرات قبل أن يزهق ، فثار الجمهور لهذا المنظر المروع ، وعلت غمغمة السخط والروع . ولكن الجلاد أتم مهمته بهدوء ولم يحدث حادث . وكان هذا آخر إعدام علني في روسيا القيصرية . وكان له في الرأي العام أيما أثر . ووجه كاتب روسيا الأكبر يومئذ الكونت ليون تولستوي إلى القيصر اسكندر الثالث خطاب احتجاج على هذه الفظائع المثيرة

وأما جسيا هلفمان فكان لها قصة أليمة أخرى ، ذلك أن حزب إرادة الشعب لجأ إلى الرأي العام الخارجي ليحاول إنقاذ هذه الفتاة المنكودة من براثن الموت ، وأذاع شاعر فرنسا وكاتبها الأكبر يومئذ فكتور هوجو في الصحف الفرنسية خطاباً مفتوحاً إلى القيصر يناشده فيه الرأفة بآلام الفتاة ؛ ورددت صحافات القارة هذا النداء . وفي الثالث من يوليه سنة ١٨٨١ عدلت عقوبة الاعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . وفي شهر سبتمبر نقلت جسيا إلى مستشفى السجن ووضعت طفلة لم يعرف مصيرها . وتوفيت الأم بعد ذلك بأشهر قلائل في فبراير سنة ١٨٨٢ من جراح أصابتها وقت الوضع وقيل إنها أحدثت فيها عمداً

* * *

هذه صفحة مؤسية مروعة معاً من صحف الثورة على الطغيان ، وقد كانت النهلستية بلا ريب من أعظم الحركات التحريرية العنيفة التي عرفها التاريخ ، وكانت من أحفلها بمواطن النضال الدموية وكانت القيصرية من جانبها من أشد النظم الطاغية إمعاناً في القسوة والعنف وإخماد النزعات الحرة . وكان هذا النضال الذى يخضب أرض روسيا بدماء الفريقين ، ويدفع بآلاف من الشباب المستنير إلى ظلمات السجن والنفي مسألة حياة أو موت للقيصرية ولروسيا الجديدة معاً ؛ وقد سار هذا النضال حيناً بعد مصرع اسكندر الثاني ومصرع قاتليه . ولكن القيصرية ضاعفت أهباتها ووسائلها لقمع الارهاب . ومع أن الرهبين استطاعوا أن ينزلوا بالقيصرية وأعوانها عدة ضربات دموية أخرى وأن يدبروا اعتداءين جديدين على حياة القيصر ، فان القيصرية استطاعت بوسائلها الذريعة أن تمزق شمل الحركة الثورية ؛ وركدت ريح النهلستية في أواخر القرن الماضي بعد أن هلكت زهرة دعاتها وأنصارها ؛ ثم استعادت شيئاً من نشاطها في أوائل هذا القرن ، ولكن القيصرية استطاعت من جانبها أن تجتنب العاصفة بتحقيق بعض الاصلاحات الدستورية المنشودة ، وإصدار الدستور الروسي الجديد سنة ١٩٠٦ . على أن المثل الثورية التي بعثتها النهلستية في روسيا الجديدة لم تخمد جذوتها بل لبثت على اضطرامها حتى مهدت الحرب الكبرى أخيراً لانفجارها الرائع في سنة ١٩١٧ . وعندئذ لم تقف العاصفة عند سحق القيصرية وكل نظمها القديمة ، بل دكت نظم المجتمع الروسي القديم كله وقامت البلشفية على انقاضه تطمح إلى اضرام نار الثورة العالمية وتحقيق مثل ماركس ولنين

كانت النهلستية حركة فريدة بين الحركات التحريرية . وكانت وسائلها العنيفة من طراز لم يعهد التاريخ كثيراً من أمثاله ؛ ذلك أنها جعلت من الثورية ديناً تدين به الشبيبة المستنيرة ، ينبث إلى أعمق عقولها وأرواحها ، وجعلت من الحرية هيكلا مقدساً تتفانى هذه الشبيبة في الحج إليه ، وتسقط في سبيله صرعى لا تلوى على شيء إلا أن تموت في سبيل العقيدة الجديدة ؛ وقد كانت ضحايا النهلستية عظيمة فادحة . ومن الصعب أن نقدم عن هذه الضحايا بياناً شافياً لأن الأساليب الهمجية والرسائل السرية التي كانت تتبعها القيصرية في مقاومة الحركة كانت تحصد المئات والألوف في خفاء وصمت ؛ يهلكون ألوفا في أعماق السجون أو في معسكرات الاعتقال النائية في أعماق سيبريا ، هذا عدا من حصدتهم المشانق وهم وحدهم ألوف ؛ وليس من المبالغة أن نقول إن المناظر الدموية التي يقدمها إلينا كفاح النهلستية ، تفوق في روعتها مناظر عصر الارهاب ابان الثورة الفرنسية ؛ ذلك أن الثورة الفرنسية كانت بالرغم من اضطرامها وعنفها قصيرة الأجل محدودة

المدى ، وكانت آثارها المعنوية تفوق أحداثها المادية بكثير . أما الثورة النهلستية فقد استطالت نحو أربعين عاماً ؛ تضطرم آنا وتخبو آنا ، ولكنها لبثت دائماً تلتهم فرائسها من الجانبين . هذا إلى أن نزعة الكفاح في الحركة الثورية الروسية كانت أعرق أصولاً وأبعد مدى . وبينما نرى الثورة الفرنسية تستسلم بعد أعوام قلائل إلى الحركة العسكرية الرجعية وتغدو أداة ذلولا فى يد جندى طموح هونابليون ، إذا بالحركة الثورية الروسية تمضى فى طريقها برغم كل مقاومة حتى تفوز بتحقيق كل مثلها وغاياتها . بيد أنه كان ظفرا سلبيا فقط ، وكان ظفراً قصير المدى ؛ فقد مهدت الحركة النهلستية كما قدمنا إلى الانقلاب العظيم الذى درج زعماؤه وقادته فى غمارها وتغذت عقولهم وأرواحهم بتعاليمها ومثلها ، وكان ظفر الثورة البلشفية كاملا شاملا ، ولكن شتان بين تلك المثل الحرة الاصلاحية التى تنشدها النهلستية ، وبين ذلك الهدم الشامل الذى انحدرت اليه اليه الثورة البلشفية . أجل سقطت القيصرية صرعى المثل الجديدة وأعلنت سيادة الشعب أو الكتلة العامة فى عبارات ضخمة ، ونودى بالحريات والحقوق العامة ، واستطاعت الثورة الجديدة أن تحتفظ بانتصارها الظافر مدى حين كان شعارها فيه مكافحة الخطر الخارجى ؛ ولكنها ما كادت تثبت أقدامها حتى استحالت بسرعة إلى نوع جديد من الطغيان لا يقل فى أساليبه ووسائله فظاعة عن أساليب القيصرية ووسائلها ؛ ولم تلبث أن غدت سيادة الشعب اسماً بلا مسمى ؛ واستطاعت الزعامة الجديدة أن تفرض سلطانها المطلق على ذلك العالم الروسي القديم الذى كان يطمح إلى عالم جديد من النور والحريات المثلى ؛ وانتهت الثورة التحريرية بعد كفاح طويل إلى تلك النتيجة المحزنة التى أشرنا إليها فى فاتحة هذا البحث . ذلك أن النظم التى تسود روسيا الآن باسم البلشفية ليست فى الواقع إلا صورة من أشنع صور الطغيان الدموى التى عرفها التاريخ (١)

(تم البحث — النقل ممنوع) محمد عبد الله عنان

(١) رجعنا فى كتابة هذا البحث إلى تاريخ روسيا لرامبو (بالفرنسية) وإلى دائرة المعارف الفرنسية وكتاب Soukhomline عن القضايا الشهيرة فى روسيا (بالفرنسية) وإلى كتابنا « تاريخ الجمعيات السرية »

في تاريخ الأدب المصرى

ابن الصيرفى

أبو القاسم على بن منجب بن سليمان الصيرفى

مات بعد سنة ٥٤٢

للأستاذ محمد كرد على

كان ابن الصيرفى من كتاب الدولة الفاطمية ، ومن عظماء المنشئين والمؤلفين من المصريين فى عهده ؛ جزل حظه من البلاغة والشعر والخط الجميل ، وأخذ صناعة الترسل عن صاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش ، ثم انتقل منه إلى ديوان الانشاء وبه الحسين الزبدى ثم تفرد بالديوان . ولابن الصيرفى تصانيف تجعله فوق أقدار رؤساء الدواوين وكتاب الملوك والسلاطين ، ومنها فى الأدب والتاريخ والترسل كتاب « عمدة المحادثة » و « عقائل الفضائل » و « استنزال الرحمة » و « منائح القرائح » و « رد المظالم » و « لمح الملح » ومنها « الاشارة إلى من نال الوزارة » و « قانون ديوان الرسائل » وهذان الكتابان مطبوعان . وله غير ذلك من التصانيف منها اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء كديوان ابن السراج وأبى العلاء المعرى وغيرهما . وله شعر جيد لكنه اشتهر بالكتابة . وقد ضمن كتابه الاشارة إلى من نال الوزارة ذكر من تقدم من سفراء الدولة ووزرائها وسلاطينها ، ولم ير أن يتوسع في إشباع الموضوع قائلاً : « إذا كان الاستقصاء لا يليق بكل تصنيف لا سيما إذا خدم به سلطان ينفق أوقاته فى تدبير دولة وإقامة سنة واستضافة مملكة ، وإذا بقيت من زمانه فضلة استعجل بها جزءاً من الراحة ، يستعين به على ما يستأنفه من مهماته » بدأه بترجمة الوزير ابن كلس الآمرى وإليه أهدى كتابه . وفى هذا الكتاب مثال واضح من سوء إدارة الفاطميين أخريات أيامهم ، وما توسعوا فيه من الألقاب ، وما أوغلوا فيه من المصادرات ، وما كان لهم وعليهم . وكان من لوازم الدعاء الذى يستعمله ابن الصيرفى فى كل سجل ورسالة وتقليد وكتاب ، بل يستعمله الاسماعيلية الفاطميون عامة أن يقال بعد الصلاة على النبى

(وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على ابن أبي طالب)

وذكر في مقدمة قانون الرسائل ما ننقله بحرفه: « ولما رأيت أولى الفطر الصحيحة، والعقول الرجيحة، قد سبقوا إلى النظر في سائر العلوم، ووضعوا فيها المصنفات، ونظموا ذكرها في الكتب المؤلفات، ثم انتقلوا عن ذلك إلى قوانين الأشياء فقرروا في كل منها ما كان أصلاً يعتمد عليه، ونهوا عما كان فساداً لنظامها أو أدى إليه، وخالفوا بين أحكام تلك التصنيفات لاختلاف الأزمنة وتباين البلاد والأوقات، فوجدتهم قد صنفوا في كتابة الخراج كتباً كثيرة، وعُنوا بكتابة الجيش عناية كبيرة، فألف كل من العراقيين والمصريين في ذلك ما وصلت إليه طاقته واقتضاه ما أوجبه وقته والبلد الذي يحتله. فأما صناعة الشعر وذكر بديعه وسائر أنواعه وتقاسيمه، فقد أكثر كل منهم فيه المقال، وتوسع في تصنيفه وأطال، ورأيتهم أهملوا الكلام في الكتابة الجليلة قدراً، النبيهة ذكراً، الرفيعة شأناً، العلية مكاناً، التي هي كتابة حضرة الملك المشتملة على الانشاء إلى ملوك الدول، والمكاتبة عنه إلى من قلّ من الأمم وجلّ، وكيف يجب أن يكون متوليها وما يخصه من الأخلاق والأدوات، وما يجب أن يكون فيه من الفضائل، وأن يجتنبه من القبائح والرذائل، وكيف ينبغي أن تكون أمور أتباعه ومعينيه، وأي الحالات ينبغي أن يكون عليها ديوانه الذي يتولاه وينظر فيه »

وكتاب قانون ديوان الرسائل درة نفيسة قدمه إلى الأفضل ابن أمير الجيوش وقال: « يجب أن يكون هذا الكتاب مخلداً في ديوان الرسائل يقتدي به كل من يخدم فيه، ويستضيء بهدايته ويحتذي أمثلته وأن يؤخذ المستخدمون في الديوان بفهمه وبحفظه » ثم قال: « ثم ينتفع بهذا الكتاب إذا جعل بحيث استقر مخزوناً بديوان الرسائل للقراءة فيه وتدبره كل من تصفحه أو يعمل بمقتضاه على مرور السنين وكرور الأحقاب والأعوام، فيكون كالمعلم لهم، والمهذب لأخلاقهم، والهادي لهم إلى سنن الصواب الذي قد درست معالمه وتنوسيت أحكامه »

ومما رأى أن يكون رئيس الديوان من المسلمين « ومع ذلك فيجب أن يكون متمذهباً بالمذهب الذي عليه الملك ليكون أنقى جيباً وأنصح غيباً، فان المسلمين وإن جمعتهم كلمة الاسلام، فقد اختص كل واحد منهم بمذهب يباين به بعضهم بعضاً، حتى حدث بذلك بينهم من التباعد والتنافر قريب مما بين المسلمين والمشركين »

وعاد فأكد هذا المعنى في موضع آخر من أن الكاتب ينبغي أن يكون على دين الملك ومذهبه لكونه يكاتب الملوك المخالفة ملتهم ملة ملكه، وربما احتاج في مكاتباته إلى تفخيم ملة ملكه والاحتجاج لها وإقامة الدلائل على صحتها، ولن يحتج لملة من اعتقد خلافها، بل المخالف للملة إنما يبدو له مواضع الطعن ومواضع الحجاج، فان اعترض معترض بالصابي وأنه كان يكتب عن ملوك مسلمين وهو على غير ملتهم، فالجواب أنه كان من أهل ملة قليل أهلها، ليس لهم ذكر ولا مملكة، ولا لهم دولة قائمة، ولا منهم محارب لأهل الاسلام، ولا من يكاتِب ويكاتَب، ولا من يخشى من الكاتب الميل إليه، والانحراف معه. ثم إن المشهور من أحوال ذلك الكاتب أنه كان قد حفظ من ملة الاسلام وسنتها مما يحتاج إليه في كتابته مالا يوجد عند كثير من المسلمين في زمانه، وكان في صناعته الغاية في وقته فقادت ملوك عصره الضرورة إليه، إذ لم يجدوا من المسلمين من يغني غناءه ولا يسد مسده »

قال: « ومما يحتاج أن يفهمه هذا الكاتب أن يعرف الفرق بين مخاطبة الملوك الاسلامية وبين مخاطبة الملوك المخالفين للملة واللسان، لأن مخاطبة من يتكلم باللسان العربي مشهورة المقاصد معروفة الطرائق يستعمل فيها الأسجاع وتنميق الألفاظ وتحسينها وزخرفتها وترتيبها مع ضبط المعنى وحسن التأليف. وأما مكاتبة المخالفين للسان فإنه لا ينبغي أن يهتم فيها بالألفاظ المسجوعة، ولا ضرب الأمثال والتشبيهات والاستعارات، فإن ذلك إنما يستحسن مادام مفهوماً في تلك اللغة وغير منقول إلى غيرها، وأكثر هذه الضروب إذا نقلت من لغة إلى لغة فسدت معانيها، وعاد حسنها قبيحاً؛ ومنها مالا يفهم بعد نقله بتة؛ ومنها ما إن فهم له معنى كان غير ما قصد، لا سيما إن كان الناقل لها مقصراً في اللغتين المنقول منها والمنقول إليها. وأرى أن الأفضل في هذا الباب أن يتولى هذا الكاتب نقل ما يكاتب به إن كان عارفاً بها فينقل ما يكتب به ويكتبه بخط أهل تلك اللغة ولسانهم، إما في ذيل الكتاب أو في كتاب طيه، لأنه قد لا يجد الملك الذي يصل إليه الكتاب ناقلاً ماهراً عالماً باللغتين، فربما أفسد الناقل المعنى فعاد الكتاب المصلح مفسداً فيبطل الغرض الذي قصد به. وهذا باب يجب صرف العناية إليه جداً، وليس يحتاج في مكاتبة أهل

اللغات المخالفة بغير المعانى السديدة البريئة من الاستعارات، والكتابات الصائبة لمواضع الحجج التى تبقى جزالتها ونضارة معانيها وبهجتها مع النقل والترجمة.»

وذكر فصلاً فى عمل من يستخدم خازناً لديوان الرسائل فقال: «ينبغى أن يؤخذ بجعل كل شىء من الرسائل مع شبهه، وجعل كل سنة على حدتها، ويجعل لكل شهر إضبارة، ولكل صفقة من الأعمال إضبارة وعليها بطاقة فى مضمونها» قال: «وينبغى لهذا الخازن أن يحتفظ بجميع ما فى هذا الديوان من الكتب الواردة، وينسخ الكتب الصادرة والتذاكير وخرائط المهمات، وضرائب الرسوم وغير ذلك مما فيه ـ احتفاظاً شديداً، ويكون بالغاً فى الأمانة والثقة إلى الحد الذى لا مزيد عليه، فإن زمام كل شيء بيده؛ ومتى كان قليل الأمانة أمالته الرشوة إلى اخراج شئ من المكاتبات من الديوان، وتسليمه إلى من يكون عليه فيه ضرر أو لمن يأخذه نفع. وهذا أمر متى اعتمده الخازن أضر بالدولة ضرراً كثيراً من حيث لا يعلم الملك ولا أحد. ومن أحسن ما سمعته فى أمانة خازن مارواه على بن الحسن الكاتب المعروف بابن الماشطة في كتابه المعروف بجواب المعنت فى الخراج من أنه كانت تجمع الأعمال والحسابات بالعراق بعد كل ثلاث سنين إلى خزانة تعرف بالخزانة العظمى، وكان يتولى فى وقته ذلك رجل يعرف بمحمد بن سليمان الكانجار، وكان شديد الأمانة بالغاً فيها إلى المبلغ الأقصى، وكان رزقه كل شهر خمسمائة درهم تكون بخمسين ديناراً من صرفهم ذلك؛ وكان لهذا الخازن خازن يعينه يقال له إبراهيم، فحدث إبراهيم أن رجلا لقيه فى بعض طرقه من أسباب أبى الوليد أحمد بن أبى دؤاد فقال له: هل لك فى الغنى بقية عمرك وأعمار عقبك من بعدك من حيث لا يضرك؟ فقال: هذا لا يكون. فقال: بلى، فى خزائنك دفتر فى قراطيس أعرف موضعه من بعض الخزائن من رفوفها، وأسألك أن تنقله من ذلك الرف إلى رف غيره ولا تخرجه ولا تغيره وأحمل إليك مائة ألف درهم وأعطيك كتاب ضيعة تغل لك كل سنة ألف دينار وتخرج عن الديوان. قال: فارتعد من هول ما سمعه وقال: ليس يمكننى فى هذا شئ إلا بأمر صاحبي، فقال له: فاعرض ذلك على صاحبك واجعل هذا الشئ له ونجعل لك شيئاً آخر. فعرف محمد بن سليمان الخازن صاحبه بالخبر، وكان فى منزله آخر نهار، فقال له: ماذا قلت للرجل؟ قال: قلت له إنى أستأمرك، فأمر ابناً له وابن أخ بالتوكيل به، فلم يفارقاه طول ليلته، فلما أصبح صار معه إلى الديوان فوقفه على الدفتر، فأخذه محمد بن سليمان الخازن وحمله في قبائه ولم يزل يترقب على بن حسين صاحب الديوان حتى حضر، فلما حضر صار إليه، وكان أبو الوليد فى حبسه فقص عليه القصة، ودفع اليه الدفتر فنظر فيه فوجده نسخة كتاب من بعض النظار بما وقف عليه من فضل ما بين القوانين التى كانت تلزم ضياع احمد بن أبى دؤاد وبين ما يلزمها على معاملة العامة لجميع السنين، وأن جملته أكثر من ثلاثين ألف ألف درهم (ثلاثة ملايين دينار) فأحضر على بن عيسى أبا الوليد وأسمعه كل غليظ على جلالة رتبته، وأمر بأخذ قلنسوته وأن يضرب بها رأسه ويطالب بالمال. فلولا أمانة هذا الخازن، ونزاهة نفسه وصدفها عن المال الذى بذل له مع كثرته لرغب فيه، ولرأى أن لا شىء عليه في نقل دفتر من مكان إلى مكان، وهو فى الخزانة لم يبرح منها، فيتوجه عليه بذلك ضرر، ولا خرج من يده فيظهر فى يد غيره، ولا يعرف موضعه فيطلب منه، ورأى وجوه السلامة واضحة، ونيل الغنى قريباً فكان يضيع على هذا السلطان ذلك المبلغ الكثير من المال»

محمد كرد على

بين العلم والأدب

للأستاذ علي الطنطاوي

قرأت منذ أيام في صحيفة يومية ، مقالة يسأل فيها كاتبها عن العلم والأدب والقول فيهما ، والمفاضلة بينهما ، فوجدته قد حمل الكلام على غير محمله ، وساقه في غير مساقه ، فأفتى وهو المستفتى ، وحكم وهو الدعي ، فلم يدع مذمة إلا ألحقها بالأدب ، ولم يترك مزية إلا نحلها العلم ، وزعم بأن الأمر قد انتهى ، والقضية قد فصلت ، وحكم للعلم على الأدب ... فلم أدر متى كانت هذه المنافرة وأين كانت هذه المفاخرة ، ومن هو الذي جلس في منصة القضاء ، ومن الذي زعم أنه وكيل الأدب حتى أخزاه الله على يديه ، وأذله به ؟ . . .

ومتى كان بين العلم والأدب مقاربة ، حتى تكون بينهما (مقارنة) ، ومتى كان بينهما مناضلة ، حتى تكون بينهما مفاضلة ؟ وهل يفاضل بين الهواء الذي لا يحيا حيّ إلا به ، وبين الذهب الذي هو متاع وزينة وحلية ، ولو كان الذهب أغلى قيمة ، وأعلى ثمناً ، وأندر وجوداً ؟

إن الأدب ضروري للبشر ضرورة الهواء . ودليل ذلك أن البشرية قد عاشت قروناً طويلة من غير علم ، وما العلم إلا طفل ولد أمس ولا يزال يحبو حبواً . . . ولكن البشرية لم تعش ساعة واحدة من غير أدب ، وأظن أن أول كلمة قالها الرجل الأول للمرأة الأولى ، كلمة الحبّ ، لمكان الغريزة من نفسه ، ولأنها (أعني غريزة حفظ النوع) كانت أقوى فيه ، والحاجة إليها أشد وبقاء النوع معلق بها ، فكانت كلمة الحب الأولى أول سطر في سفر الآداب ، كتبت يوم لم يكن علم ، ولا عرفت كلمة العلم . . . ودرج البشر على ذلك فلم يستغن أحد عن الأدب ، ولم يعش إلا به ، ولكن أكثر البشر استغنوا عن العلم ولم يفكروا تفكيراً علمياً ، وهؤلاء هم الأكابر من العلماء كانوا ينقطرون في ساعات من ليل أو نهار ، إلى مطالعة ديوان شعر ، أو النظر في قصة أدبية ، أو صورة فنية ليلبوا صوت العاطفة ، ويستمعوا نداء الشعور ، وأكثرهم قد أحب ، وملأ نفسه الحب ، فهل بلغ أحداً أن أديباً نظر في معادلة جبرية ، أو قانون من قوانين الفيزياء أو أحسّ الحاجة إلى النظر فيها ؟ وهذا أكبر عالم في مختبره ، يسمع نغمة موسيقية بارعة ، أو يرى صورة رائعة ، أو تدخل عليه فتاة جميلة عارية مغرية ، فيترك عمله ويقبل على النغمة يسمعها ، أو الصورة يمعن فيها ، أو الفتاة يداعبها ، فهل رأيت شاعراً متأملاً يدع تأمله ، أو مصوراً يترك لوحته ليستمع منك قوانين الرقاص ونظرية لابلاس ؟

هذه مسألة ظاهرة مشاهدة ؛ وتعليلها بيّن واضح هو أن المثل العليا كلها تجمعها أقطاب ثلاثة : الخير والحقيقة والجمال . فالخير تصوره الأخلاق ، والحقيقة يبحث عنها العلم والجمال يظهره الأدب . فاذا رأيت الناس يميلون إلى الأدب أكثر من ميلهم إلى العلم فاعلم أن سبب ذلك كون الشعور بالجمال أظهر في الانسان من تقدير الحقيقة . . . وانظر إلى الألف من الناس كم منهم يهتم بالحقيقة ويبحث عنها ؟ وكم يعني بالجمال ويسعى للاستمتاع به ؟ إن كل من يعنى بالجمال ويتذوقه بل إن كل من يذكر الماضي ويحلم بالمستقبل ويحس اللذة والألم واليأس والأمل يكون أديباً ، ويكون الأدب - بهذا المعنى - مرادفاً للانسانية . فمن لم يكن أديباً لم يكن إنساناً .

ولندع هذا التفريق الفلسفي ولنفاضل بين العلم والأدب من الناحية النفسية (السيكولوجية) إننا نعلم أن العلم يبحث عن الحقيقة فهو يستند إلى العقل . أما الأدب فيتكئ على الخيال . فلننظر إذن في العقل والخيال : أيهما أعمّ في البشر وأظهر ؟ لا شك أنه الخيال . . فكثير من الناس تضعف فيهم الملكات العقلية ، ولا يقدرون على استعمال العقل على وجهه ؛ أو تكون عقولهم محدودة القوى ، ولكن ليس في الناس من لا يقدر على استعمال الخيال ، وليس فيهم من يعجز عن تصور حزن الأم التي يسمع حديث ثكلها ، أو لا يتخيل حرارة النار ، وامتداد ألسنة اللهب ، عند ما يسمع قصة الحريق ؛ بل إن الخيال يمتد نفوذه وسلطانه إلى صميم الحياة العلمية فلا يخرج القانون العلمي حتى يمر على المنطقة الخيالية (الأدبية) . ولا يبنى القانون العلمي إلا على هذا الركن الأدبي . وبيان ذلك أن للقانون العلمي أربع مراحل : المشاهدة والفرضية والتجربة والقانون . فالعالم يشاهد حادثة طبيعية ، فيخيل القانون تخيلا مبهماً ويضع الفرضية ثم يجربها فاما أن تكذبها التجربة فيفتش عن غيرها ، وإما أن تثبتها فتصير

قانوناً ، فالمرحلة التي بين المشاهدة والفرضية مرحلة أدبية لأنها خيالية . وقد شبه هنرى بوانكاره الرياضى الفرنسى (أو غيره فلست أذكر) شبه عمل الذهن فى هذه المرحلة بعمل الذى يبنى جسراً على نهر ، فهو يقفز أولا إلى الجهة المقابلة قفزة واحدة ثم يعود فيضع الأركان ويقيم الدعائم . وكذلك الفكر يقفز إلى القانون على جناح الخيال ، ثم يعود فيبنيه على أركان التجربة ؛ فالقانون العلمى نفسه مدين إذن للخيال أى للأدب .

ثم إن الخيال يخدم العلم من ناحية أخرى هي أن أكثر الكشوف العلمية والاختراعات قد وصل اليها الأدباء بخيالهم ، ووصفوها فى قصصهم قبل أن يخرجها العلماء ؛ فبساط الريح هو الطيارة ، والمرآة المسحورة هى التلفزيون ، والحياة بعد قرن هى هى خيال وِلْز فى روايته مستقبل العالم ...

أنا إلى هنا فى القول بأن الحقيقة فى صف العلم والجمال مع الأدب ؛ ولكنى أقول ذلك متابعة للناس ، وسيراً على المألوف ، والواقع غير ذاك . ذلك أن العلم فى تبدل مستمر ، وتغير دائم ؛ فما كان يظن فى وقت ما قانوناً علمياً ظهر في وقت آخر أنه نظرية مخطئة ؛ والكتاب العلمى الذى ألف قبل خمسين سنة ، لم يعد الآن شيئاً ولا يقبله طالب ثانوى ، فى حين أن الأدب باق فى منزلته ، ثابت فى مكانته مهما اختلفت الأعصار ، وتناءت الأمصار . فإلياذة هوميروس ، أو روايات شكسبير ، أو حكم المتنبي ؛ كل ذلك يقرأ اليوم كما كان يقرأ فى حينه ، ويتلى فى الشرق كما يتلى فى الغرب ، ولا يعتريه تبديل ولا تغيير

فأين هى الحقيقة ؟ وأى الشيئين هو الثابت ؟ وأيهما المتحول ؟

***

وعد عن هذا ... وخبرنى يا سيدى الكاتب : ما هى فائدة هذا العلم الذى تطنطن به وتدافع عنه ؟ وماذا نفع البشرية ؟

تقول : إنه خدم الحضارة بهذه الاختراعات وهذه الآلات ؛ إن ذلك احتجاج باطل ، فالاختراعات ليست خيراً كلها ، وليست نفعاً للبشرية مطلقاً ، والعلم الذي اخترع السيارة والمصباح الكهربائى ، هو الذى اخترع الديناميت والغاز الخانق ، وهذه البلايا الزرق ، فشره بخيره والنتيجة صفر

ودع هذا ... ولنأخذ الاختراعات النافعة : لنأخذ المواصلات مثلا ... لاشك أن العلم سهلها وهونها ، فقرب البعيد ، وأراح المسافر ، ووفر عليه صحته ووقته ، ولكن هل أسعد ذلك البشرية ؟

أحيلك فى الجواب على (شبنكلر) لترى أن البشرية قد خسرت من جرّائها أكثر من الذي ربحته : كان المسافر من بغداد إلى القاهرة ، أو الحاجّ إلى بيت الله ، ينفق شهرين من عمره أو ثلاثة فى الطريق ، ويحمل آلاماً ، وتعرض له مخاوف ، ولكنه يحسّ بمئات من العواطف ، وتنطبع فى نفسه ألوف من الصور ، ويتغلغل فى أعماق الحياة ، ثم يعود إلى بلده ، فيلبث طول حياته يروى حديثها ، فتكون له مادة لاتفنى ، ويأخذ منها دروساً لاتنسى ، أما الآن فليس يحتاج المسافر (إن كان غنياً) إلا إلى الصعود على درجة الطيارة ، والنزول منها حيث شاء بعد ساعات قد قطعها جالساً يدخن دخينة ، أو ينظر فى صحيفة ، فهو قد ربح الوقت ، ولكنه خسر الشعور ، فما نفعتنا المواصلات إلا فى شيء واحد ، هو أننا صرنا نقطع طريقنا إلى القبر عدواً ، ونحن مغمضو عيوننا ... لم نر من لجة الحياة إلا سطحها الساكن البراق !

ولنأخذ الطب ... وليس من شك أن الطب قد ارتقى وتقدم ، وتغلب على كثير من الأمراض ، ولكن ذلك لايعد مزية للعلم لأنه هو الذى جاء بهذه الأمراض ، جاءت بها الحضارة ؛ فاذا سرق اللص مائة إنسان ، ثم ردّ على تسعين منهم بعض أموالهم أيعدّ محسناً كريماً ، أم لا يزال مطالباً بالمال المسروق من العشرة ؟

أنظر فى أىّ مجتمع بشرى لم تتغلغل فيه الحضارة ، ولم يمتد إلى أعماقه العلم ، وانظر فى صحة أهله وصحة المجتمعات الراقية ؟ هل الأمراض أكثر انتشاراً فى فيافى نجد ، أم فى قصور باريز ؟ أو ليس فى باريز أمراض لا أثر لها فى البادية ؟ فليس إذن من فضل للعلم في أنه داوى بعض الأمراض بل هو مسئول عن نشرها كلها ؟

وتعال ياسيدي ننظر نظرة شاملة ، هل البشر اليوم (فى عصر العلم) أسعد أم فى العصور الماضية ؟ أنا لا أشك فى أن سعادتهم فى العصور الماضية ، عصور الجهالة (كما يقولون) كانت أكبر وأعمق ، ذلك لأن السعادة ليست فى المال ولا القصور ولا الترف ولا الثقافة ، ولكن السعادة نتيجة التفاضل بين ما يطلبه الانسان ، ويصل إليه ، فإذا كنت أطلب عشرة دنانير وليس عندى إلا تسعة فأنا أحتاج إلى واحد ، فسعادتى ينقصها واحد ، أما روكفلر فسعادته ينقصها مليون ، لأن عنده تسعة

تحقيق تاريخي

مولاي اسماعيل والأميرة دوكنتي

للأستاذ ابن زيدان

ذكر بعض مؤرخي أوربا أنه لما رجع سفير مولاي اسماعيل، عبد الله بن عائشة الرئيس البحري الشهير من بعض سفاراته في فرنسا، وتلاقى بمولاي اسماعيل، كان من جملة ما وصف له عند الإفضاء إليه بنتائج سفارته جمال الفتاة دوكنتي بنت لويز الرابع عشر، فكان ذلك أعظم باعث لمولاي اسماعيل على خطبتها من والدها بواسطة سفيره المذكور. غير أن والدها لم يحقق رغبته، ولم يعر أدنى التفات خطبته، لأسباب: منها عدم ملاءمة طبعها لطبعه، ومباينة نبعها لنبعه، وتعدد أزواجه وسراريه، وكثرة حشمه وذراريه، إلى علل أخرى هي أولى بعدم الذكر، وأحرى لبعدها عن الحقيقة، ولتلون مغامزها ومغازيها الدقيقة

طالما بحثت ونقبت بتعطش لحجة يستند إليها في إثبات هذه الأحدوثة الغريبة الغريبة في بابها. بالطرق الرسمية، فلم أعثر على شيء يستحق الذكر فيها، أو تطمئن إليه النفس، سوى ما جاء به بعض مؤرخي أوربا، مما لا سند لهم فيه، فيما علمت وقرأت غير كتاب ابن عائشة المذكور، ذلك الكتاب الذي سأفيض القول فيه وفي قيمته فيما يلي بحول الله. ثم جال بفكري أنه لابد أن تكون هذه القضية، إن كان لها أصل، ثابتة مسجلة بوزارة الخارجية، فرحلت إلى فرنسا. ولما حللت بعاصمتها باريس ذهبت تواً إلى وزارة خارجيتها، فقوبلت من رؤسائها بمزيد الاحتفاء والاعتناء، وحملت على كاهل البرة والاحترام، ووسوعدت على تصفح كل ما يهمني في بحوثي التاريخية، من الوثائق والأوراق الرسمية. فجست خلالها أياماً أبحث وأنقب، وآخذ ما راقني بالتصوير والتقييد، فلم أجد من بين أخبار تلك الذخائر ضالتي المنشودة، فرجعت أدراجي، وأعملت الفكر في هذه القضية، وقابلت بين هذا الكتاب الملصق بابن عائشة، وبين غيره من المكاتيب الرسمية الرائجة إذ ذاك، حتى المكاتيب الصادرة من ابن عائشة، الممضاة بخط يده، فلم أجد بينها وبينه مناسبة ما، لا من حيث الأسلوب الدبلوماسي الجاري به العمل في ذلك العصر، ولا من حيث التقصير الواقع في هذا الكتاب، بالنسبة لأهمية هذا الأمر الجلل

أما من حيث الأسلوب الدبلوماسي، فإن كل من يرجع إلى تاريخ العلائق السياسية الخارجية إذ ذاك وما يصدر فيها من المكاتيب والوثائق الرسمية الاسماعيلية، يُدرك بالبداهة أن نسبة هذا الكتاب لابن عائشة المشتمل على هذا الأمر المهم، إنما هي خيالية فحسب، لجريانه وصدوره على غير المألوف والمعهود من الأساليب الكتابية والدبلوماسية المتبعة إذ ذاك

وأما من الحيثية الأخرى، فإنه يبعد كل البعد أن يخطب ملك عظيم إلى ملك عظيم بنته وهو أجنبي عنه بهذه الوسيلة المخلة بعظمتهما معاً، إذ التقاليد تقضي في مثلها ألا يصدر فيها مثل هذا الكتاب الذي هو أشبه برسالة تكتب لمطلق إنسان، بأسلوب يزري بعظمة السلطان، ويقضي بيله هذا السفير العظيم الشان، إذن فما يقتضيه الحال حينئذ؟ يقتضى أن يحرر في ذلك كتاب رسمي، باسم جلالة الخاطب لجلالة المخطوب إليه،

وتسعين مليوناً وهو يطلب مائة؛ فأنا بدنانيري التسعة أسعد من روكفلر... وكذلك الانسان في الماضي لم تكن مطالبه كثيرة فكان سعيداً لأنه يستطيع أن يصل إليها، أو إلى أكثرها؛ أما مطالبه اليوم فهي كثيرة جداً لا يستطيع أن يصل إلا إلى بعضها فهو غير سعيد!

* * *

هذا وأنا لا أعني الأدب بمعناه الضيق، أي الكلام المؤلف نثراً أو نظماً، بل أعني الأدب بالمعنى الآخر؛ أريد كل ما كان وصفاً للجمال وتعبيراً عنه، لا فرق عندي بين أن تعبر عن جمال الفتاة بصورة أو تمثال أو مقطوعة من الشعر؛ ولا فرق عندي بين أن تصور غروب الشمس بالريشة والألوان، أو بالألفاظ والأوزان، فالموسيقي أديب، والمصور أديب، والنحات أديب، والشاعر أديب؛ والأدب بهذا المعنى أهم من العلم، وأنفع للبشرية... ولو كره العالمون!

علي الطنطاوي

ويرسل صحبة سفير عظيم ماهر كابن عائشة ، مع هدايا نفيسة ، وتحف مغربية تستلفت الأنظار ، وتحف المخطوبة من الاعتبار باطار ، وتقضي بنيل الأوطار ، طبق المقرر المعتاد في السفارات المتبادلة بين الملكين فيما هو أوهى وأوهن من هذا الأمر

لا بد أن أعرض على القراء نص هذا الكتاب ، وكيف وجد وبأي لغة كتب ، ولأي لغة نقل ، وبشهادة من يراد اثباته ، مما لم تجر به عادة ، ولا ارتكب مثله لا في البدء ولا في الإعادة ، لتعلموا قيمته :

هذا الكتاب نقل عن مجلة فرنسية ، سميت مجلة فرنسا ، وكتب لأول مرة باللغة الأسبانية ، ولم يحرر أصله الموهوم باللغة العربية ، التي هي لغة من ألصقت نسبته به ، والتي هي لغة الدولة المغربية الرسمية ، والتي كانت تخاطب بها الدول الأجنبية ، ونقل من اللغة الاسبانية إلى اللغة الفرنسية ، والذي شهد على ابن عائشة به كاتب أجنبي لتاجر أجنبي كان مقيماً بسلا في ذلك العهد ، وإذا تحققت هذا وأحطت به علماً . فإليك نص هذا الكتاب منقولاً عن المجلة المذكورة عدد ٦٢ مترجماً بقلم رئيس الترجمة العلمية بالرباط سابقاً الكمندار إسماعيل حامد الأشهر :

« وبعد فقد أمرني مولانا السلطان على أنه إن كان جواب ملك فرنسا موافقاً لما تضمنه كتابنا هذا فأتجهز للسفر على أي مركب من المراكب الحربية الفرنسوية ترد على مرسى سلا أو غيره لأتوجه الى حضرة سمو ذلك الملك الفخيم وأعرض على جنابه العلي المعاهدة التي يرغب سيدنا عقدها معه بمزيد الاشتياق والفرح ، وأن أحقق لديه بكل التأكيد بأنه يفتخر سيدنا بمصاهرة أعز الملوك وأجلهم ، وأن يبيح له الدخول في جميع مراسي الإيالة الشريفة وسائر مدنها وأقطارها ، وكذلك لكافة رعيته ، وعليه أشهد أن القبطان عبد الله بن عائشة هو الذي أملى عليّ هذا الكتاب باللغة الاسبانية ، ثم ألزمني بترجمته إلى اللغة الفرنسوية ولأجله وضع فيه خاتمه والسلام . الامضاء : جان ماني دولا كلوازري النازل بمدينة سلا في مقابلة تجارة السيو جوردا ، وكتبه في ١٤ نوفمبر سنة ١٦٩٩ موافق ٢١ جمادى الأولى سنة ١١١١ »

هذا أصل الكتاب . وهذه ترجمته حرفياً فلنبحث الآن فيما يعضده أو يعضده ، لنكون على بينة من أمره ، ولنميز بين خله وخمره ، فنقول : هل يمكن لابن عائشة ، وهو ذلك السفير الخطير أن يملي على كاتب أجنبي نص هذا الكتاب الخاص بمولاه ، المتعلق بأمر يهمه ، من الواجب أن يكون سرياً لا يتجاوز الخاطب ، والسفير يلمه عليه باللغة الأسبانية ، ويلزمه بترجمته إلى اللغة الفرنسية ؟ هذا ما لا يوافق عليه عظمة الخاطب ومهنة السفير ، ولا يقبله العقل السليم ، ولا يصدقه الواقع ، حتى فيما هو أقل من هذا الأمر الخطير ، وإلا فأين كتاب الدولة ومترجموها ، المعتنون بتنميق مكاتبها ، وتطريزها بالذهب ، وتلوينها بأصباغ مبهجة خلابة رائقة ، بطرق فنية ، امتاز بها كتاب المملكة المغربية ؟ ما بقي لنا إلا أن نتساءل قائلين :

هل يمكن أن يكون ابن عائشة وضع هذا الكتاب افتياتاً منه على ولي نعمته وهو لا يعلم ، ووجهه للملك لويز ليجس نبضه في الأحدوثة التي لم تعزز بثانية في بابها ، حتى يعرف من أين تؤكل الكتف ، فان نجح مسعاه قدمه قرباناً لمولاه ، بين يدي نجواه ، رجاء ازدياد تمكن وتقرب منه ، وإن أخفق وخاب كتم الأمر عنه وقنع بالحالة التي كان عليها معه ، ولذلك كله تجشم مشقة الالتجاء إلى ذلك الكاتب الأجنبي ، وإملاء الكتاب عليه بنص أسباني أجنبي ، وإلزامه بنقله إلى نص فرنسي أجنبي . واكتفى بوضع الخاتم عن الامضاء بخطه ، ولكن هناك عقبة كأداء تعترضه في هذا السبيل ، وهي أن هذا الأمر من الأهمية بمكان ، وليس بالأمر الهين الذي يمكن تمشيه والوصول إليه في طي الخفاء ؛ ولا يؤدي به إذا أخفق فيه إلى عقاب سلطانه وجفاه .

إننا نعلم جيداً كغيرنا أن المغرب كان إذ ذاك طافحاً بكتاب بارزين هم أولى باسناد هذه المهمة إليهم ، وأحق بالقائها عليهم ، لو كانت تخطر ببال ، فكيف عدل ابن عائشة عنهم إلى هذا الكاتب دون سواه ، وهو كاتب أجنبي لتاجر أجنبي ، لا علاقة له بمطلق شؤون الدولة ، ولا بالبلاط السلطاني وكيف اطمأن إليه في هذه القضية المهمة ، التي يتوقف علاجها على كاتب ماهر من كتاب أسرار الدولة الممارسين لها العارفين بأساليبها ممن يتلاعب بأطراف الكلام ، ويداوي بيلسم بلاغته الكلام ، ويوصل بسحر بيانه إلى هدف القصد والمرام ؟ فهل بلغ البله بابن عائشة إلى هذا الحد ، فخاطب أعظم ملوك أوربا إذ ذاك بمثل هذا الخطاب الصبياني في خطبة فلذة كبده ، وريحانة قصره وقرة عين ملكه لملك عظيم ، عرف بعلو الهمة والشهامة والغيرة ،

والمحافظة على أبهة الملك وسطوة السلطان ؟ هذا يسأل عنه من درس حياة الخاطب ، وسيرة سفيره ابن عائشة معه ، وما لسفيره هذا من المكانة المكينة فى العقل والدهاء ونفوذ البصيرة ، وعدم الدخول فى ميادين الفضول ، والبصر بما يصلح من الشئون الدولية ، ومالا يصلح ، وعدم تجاوزه لحدود وظيفته ، وما تقتضيه رسوم مرتبته ، فلم يكن ابن عائشة مغفلا ولا أبله ولا إمعة ولا فضولياً ولا ثرثاراً حتى يأتي بسر من أسرار سيده ، لو كان ، ويضعه بين يدى كاتب أجنبى لتاجر أجنبى ، ويتبرع باطلاعه عليه والإفضاء به إليه ليفضى به لدولته ، فيذيع وينتشر قبل وصوله لصاحبه المخاطب به ، ويشهده مع ذلك على نفسه ، وهو يعلم قيمة شهادته عنده وعند غيره إذ ذاك

نحن لانشك فى أن المصاهرة هى من آكد العلائق وأوثقها بين ملوك الدول ، ولا زال الملوك يرغبون فيها ، توطيداً لدعائم عروشهم ، وتثبيتاً لمراكزهم ، وتسييراً لنفوذهم ، وسعياً وراء تأمين ممالكهم ، فليس هناك من عار يلحق الجد أبا النصر اسماعيل لو ثبتت خطبته لبنت أعظم ملوك أوربا فى عصره ، سعياً وراء ربط علائقه معه برباط من المصاهرة وثيق ، واستطلاعه على أسرار دولته ، الذى لا يتأتى إلا بالمصاهرة ، وليس فى الدين الاسلامي مانع منه ؛ ومن الضرورى لدى كل المسلمين أن الشرع الاسلامى ، يبيح التزوج بالكتابية ، وفرنسا من أهل الكتاب ، فحينئذ لاداعى لتستر الجد مولاي إسماعيل ، وتكتمه فى هذا الأمر الذى يبيحه شرعه القويم لو شاء ، ولا موجب لالتجائه إلى هذه الخطبة بهذا الأسلوب المريب الغريب المخل بعظمته وعظمة المخطوب إليه ، كما أنه لا داعى لارتكاب ابن عائشة هذه الهفوة ، وهو ذلك السفير الحازم (الضابط) المجرب العارف بمقتضيات أحوال الملوك وما تتطلبه مناصبهم ومراسيمهم ، وما تتنافس فيه نفوسهم الطامحة من التنافس فيما يظهرهم بمظاهر العظمة والجلال والفخار المطلق ، على أن ابن عائشة إنما كان سفيراً فى الشئون الراجعة إلى وظيفته ، ولا شك أن هذا الأمر ليس منها في قبيل ولا دبير ، فلم يكن ابن عائشة فى الدولة الاسماعيلية وزير خارجية ، وإنما كان رئيس البحرية ، يترأس الأساطيل المغربية التى كانت تمخر عباب البحر إلى شواطىء الدانمارك ، وفرنسا ، وغيرهما ، فكيف يمكن أن يكافه مخدومه بهذا الأمر ، وهو بعيد عنه تمام البعد ؟ بل كيف يمكن تدخله فيه ، وهو بهذه الثابة ، مع وجود من تسيغ التقاليد الدولية تكليفه بذلك من وزراء ورؤساء الدولة الاسماعيلية المدنيين السياسيين ؟ بل كيف لا يفطن مولاى إسماعيل لذلك ، وهو ذلك الملك الألمعى « الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا » يندب لكل مهمة أهل بلواها ، حسبما شهد له بذلك غير واحد ، حتى من ساسة أوربا ؟ قال الأب بيستوفى مؤلفه المعنون بحكاية حوادث بالمغرب ، صفحة ٣٥ منه فى حقه : يدرك مايدور فى ضمير مخاطبه قبل أن ينطق بمراده . إلى أن قال : بصير بعواقب الأمور ، آخذ بالأحوط فى متوقع الحوادث ، وبصفحة ٦٠ منه لا يسند تدبير أموره بغيره من قواد وكتاب ، ولكن يستشيرهم فيما عزم عليه فيحبذون .

لو كان هذا الكتاب صحيحاً ، لجاء على صورة المكاتبة الدولية ، وبأسلوبها ، ولكانت له أهمية كبرى ، وطنين ورنين فى الدوائر الإدارية الفرنسية ذات الشأن ، ولاحتفظ بأصله ، كما احتفظ بغيره ، مما هو أتفه منه في السجلات الدولية والفرنسية المعدة لذلك ، ولتناقله كتاب ذلك العصر من مؤرخى الشرقيين ، والغربيين ، فقد تتبعت بغاية اليقظة والتثبت جل المصادر المتعلقة بتاريخ دولتنا الإسماعيلية ، مغربية وفرنسية ، وغيرها مما كتب بلغات مختلفة ، وأساليب متعددة في ذلك العصر ، كرحلة مويط ، وتاريخه للدولتين ، الرشيدية والاسماعيلية ، وسواه كثير ، فلم نعثر على شىء ، ولم نقف لهذه الأحدوثة على أثر ولا خبر يسمع وتطمئن النفس إليه ، ولطالما تباحثت فى ذلك مع جماعة من علية المستشرقين وغيرهم ، فلم يفيدوا بما يحسن السكوت عليه ، ومنهم من وعد بالبحث فى مواطنه ، وبعد مدة أجاب سلبياً ، وغاية ما هنالك ، رواج القضية حتى استفاضت بدون استناد لأصل أصيل يثبتها ، ولقد أجهد نفسه البحاثة الكبير الكنت هنرى دوكسترى ، وهو من هو فى البحث ، والتنقيب ، عسى أن يصل إلى أصل يعتمد عليه فى الإثبات ، بصفة رسمية ، فلم يظفر بشىء كسابقيه ، ومن أتى بعده ، وكل من ذكرته فى هذا الموضوع من المؤرخين المستشرقين وغيرهم ، وبينت له وجهة نظرى فى إبطال القضية ، ودحضها بالحجج الواضحة ، حبذ النظرية واقتنع بها

والباحث الولع مثلى بالبحث والتنقيب عن الآثار والوثائق

التاريخية ، ولا سيما ما كان متعلقاً منها بسلفنا الطاهر ، لابد أن يكون جد مسرور لو عثر على مايطمئن نفسه ، ويقر فى قرارتها ثبوت هذا الأمر الخطير بالطرق الرسمية المعروفة المتبعة . هذا ولا عار يلحق الخاطب العظيم ، لو كان هـذا الكتاب صحيحاً ، وحبذا ذلك ، وأبى لويز الرابع عشر أن يحقق له هـذه الأمنية لأسباب ارتآها ، وعلل خارجية يعقلها من يعلم بوقوع هـذه الشئون بين من لايعد من الخاطبين ومخطوباتهم فى سائر الطبقات ، ولكننا وياللأسى والأسف لم نقف ولا وقف غيرنا ممن أجهد نفسه فى البحث قبلنا على ما يثبت ذلك ، فليس هنالك نص محفوظ فى الدوائر الرسمية يتضمن ذلك ، وليس هنالك جواب يدل على وجود هذا الكتاب من والد المخطوبة ، والجواب ضرورى ولا شك حسب القواعد الجارية ، ولا سيما فى مثل هـذه المهمة التى أصبحت الشغل الشاغل لكثير من الباحثين ، والتى يريد إثباتها كثير من المستشرقين ، بل والشرقيون كذلك من غير التفات إلى مصدر وثيق ، ولا نص رسمى صريح يحمل على اليقين . على أنه لو كان هنالك كتاب لكان عنه جواب بالطبع ؛ ولو كان هنالك جواب لحفظ أصله من غير ارتياب ؛ ولو كانت هنالك رغبة حقيقية من جلالة الخاطب فى هذا الأمر لوقع منه ما يؤيده من مراجعة الملك المخطوب إليه بواسطة نائبه الذى كان بمثابة وزير الخارجية إذ ذاك ، وكان يقيم ، فى الغالب ، بثغر طنجة ، وكانت الأمور الخارجية ، كيفما كانت ، منوطة به من جانب السلطان فى ذلك العهد ، وما ذاك إلا لكون هذا الكتاب يقتضى بنصه الصريح شـدة رغبة مولاي اسماعيل فى ذلك ، فكيف يمكن أن يكون راغباً فيه متعلقاً كل التعلق به ولا يراجع المخطوب اليه ، ولا يخاطبه فى شأنه بمكاتيب رسمية تفصح عن مراده تمام الإفصاح ؟ ذلك مما ينقض هذه القضيــة بوضوح ، ويصيرها فى حيز العدم .

جعل مؤرخو أوربا لهذه القضيه سبباً غريباً نعده نحن ، بحسب تقاليدنا الدينية وتقاليد ملوكنا الغيورين العظماء ، من قبيل الروايات والتشبث بالخيال الكاذب . أتدرى ما هو هذا السبب ؟ هو وصف ابن عائشة تلك الفتاة الجميلة لمولاى الجـد اسماعيل وصفاً كاشفاً جعله ينزو هـذه النزوة التى تقضى على ما عرف به من الثبات الذى يحطم النزوات والوثبات والمشهود له به من كتاب عصره سواء فى ذلك الأوربيون وغيرهم ، بل صيره ينزع هـذه النزعة التى تجعله فى صف الذين تقودهم غرائزهم إلى الهيام بمـا يرضيها ويشبع نهمها بأي وسيلة كانت ، مع أنه كان بقصره الفاخر العامر من الأزواج الطاهرات والسرارى وأمهات الأولاد الأعجميات الجميلات ما يغنيه ولا شك عن التعلق بفتاة وإن كانت أميرة بعيدة عنه تمكن أحد سفرائه من وصفها بكل دقة ؛ فقد نص « بيدجان مكان » فى تعليقه على ما كتبه « سان أولون » على أن مولاى اسماعيل ، وإن كان ولوعاً بالنساء ، فإنه لم يكن من الذين يستهويه حبهن ، ويستولى على فكره ، بل كان مقتصراً على ما تدعو إليه الحاجة إليهن ، ولم تشغله كثرة نسائه عن تدبير شئون مملكته ، والنظر فى مصالحها ، إلى آخر ما قال من هذا القبيل فلينظر فى كتابنا « المنزع اللطيف ، فى التلميح لمفاخر مولاى اسماعيل بن الشريف » وليس سفيره ابن عائشة بذلك المتهور السخيف ، الذى يتجرأ على مولاه وسيده ، بوصف هذه الفتاة له وجهاً لوجه ، وهو الذى كان يقف بين يديه وقوف الملوك بين يدى مالكه ، بأدب واحتشام ، وتهيب لمقامه واحترام

والذى يرفع نقاب الغموض عن هذه القضية ، هو ما كان بين الخاطب والمخطوب إليه من غاية الرعاية وتمام المودة ، وحسن العلائق ، والمخاطبات التى كانت أكبر عنوان على تعظيم أحدهما للآخر والتنويه به . واعتناء كل منهما باجابة صاحبه عن كل أمر له علاقة بتوثيق العلائق السياسية بينهما ، وأي علاقة تضاهى علاقة المصاهرة فى هذا الباب أو تحل محلها ؟ فكيف إذن تصح خطبة سيدنا الجد اسماعيل الأكبر منــه بهذه الصفة ؟ وكيف لايجيبه جواباً يعبر فيه عما تكنه نفسه للجد من إجلال وتقدير عهدا منه فى غير هذا الأمر ؟

هذا ما ظهر لي فى هذه الأحدوثة أبديته ، راجياً من الباحثين والمؤرخين أن يرشدونا إلى أصل ثابت غير الكتاب الذي أبديت فيه رأيي ، ولهم مزيد الشكر مني سلفاً .

« الرباط »

ابن زيدان

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢١ —

الفلسفة الصينية

يلاحظ الباحثون أن لديهم مصادر لابأس بها عن جميع الفلسفات الشرقية القديمة ماعدا الفلسفة الصينية فإنها ظلت إلى ماقبل هذه السنين الأخيرة مدروسة دراسة ناقصة ، إذ لم يوفق قبل هذا العصر أحد لأن يكتب عنها كتاباً وافياً يعالج نواحي فلسفتها العميقة المتشعبة ، ولكن ليس معنى ذلك أن هذه الفلسفة ظلت مجهولة تماماً إلى أن ظهرت تلك البحوث الأخيرة ، كلا ، فهذه الفلسفة قد عرفت فى العالم الأوربى المتمدين قبل الفلسفة الهندية مثلا ، إذ ترجم « كونفيشيوس » سنة ١٦٨٧ و« مانسيوس » سنة ١٧١١ ، ولكن الذى ظل ينقص الباحثين إلى هذا العهد الأخير هو الكتب الشاملة لجميع نواحى هذه الحياة العقلية القيمة ؛ غير أن هـذه الثغرة قد أخذت تضيق على أثر شعور العلماء المحدثين بوجوب استيفاء هذه الدراسة الهامة ، ذلك الشعور الذى تجلى بوضوح فى كتاب العالم الكبير والمستَصْين الخطير (ا . ف . زانكير) . ولا ريب أن هذا المؤلف وأمثاله قد كشفوا للعقل الحديث عن ناحية هامة من نواحى الفكر البشرى كانت مجهولة لدى العامة ، ومعروفة معرفة مشوهة لدى الخاصة . ولهذا الجهل أو التشويه ثلاثة أسباب : الأول صعوبة اللغة الصينية إلى حد يصعب معه إتقانها واكتشاف أسرارها . الثانى فقدان الثقة نهائياً من جميع الترجمات التى نقلت النصوص الصينية إلى اللغات الأوربية لما وجد بينها من تباين واختلاف جديرين باسقاطها كلها من صف الحقائق العلمية . السبب الثالث هو ذلك الغرور الأوربى المتعجرف الذى ظل إلى ماقبل هذه السنوات الأخيرة يجزم فى طفولة بأن أول فلاسفة الدنيا هو « تاليس » وأن العقلية الشرقية — ولا سيما الجنس الأصفر — غير قادرة ألبتة على أن تنتج آراء فلسفية ذات قيمة عالية ، إلى غير ذلك من الدعاوى السطحية التى أنزلتها البحوث الأخيرة عن الفلسفة الصينية منزلة الخجل والسخرية ، إذ كشفت الدراسات الحديثة عن أن للصين فلسفة عميقة مبتدعة جديرة بالاحترام يرجع تاريخها إلى عشرين قرناً قبل المسيح ، وأنها استطاعت أن تلون الحياة العملية العامة للأمة جماء بلونها الراق ، وأنها استطاعت كذلك أن تحفظ الكيان الخلق الكامل لهذه البلاد مدى أربعة آلاف سنة ، بل إن بعض العلماء يعتقد أن الفضل فى هذا التماسك الاجتماعى والمقاومة السياسية واحتفاظ الصين باستقلالها إلى الآن يرجع إلى تمسكها بالأخلاق العالية المسجلة في فلسفتها

على أن هذا لايمنعنا من أن نعترف مع الأستاذ زانكير بأن الفلسفة الصينية لم تعرف علم النفس التجريبي على النحو الذى يدرس عليه الآن ، وأن العقلية الصينية لم تعرف المناهج العلمية ، بل وأنها لم تنجح تماماً فى تأليف كتاب منظم متقن فى علم المنطق وإن كان هذا كله يجب أن ينظر إليه بعين التحفظ والاحتياط ، لأننا سنشير فيما بعد إلى المنطق الصينى ، وسنبين بعض مافيه من عمق وسمو كما أننا سنشير كذلك إلى مالهم من مجهود لابأس به فى العلوم المختلفة الأخرى

غير أن أولئك العلماء الذين استهانوا بالفلسفة الصينية ورموها بالخلو من النظريات لهم فى ذلك بعض العذر ، وهو أنهم لاحظوا فى جميع الأطوار التاريخية لهذه الأمة أن الفلسفة العملية هي التى تفوز بأهم الأدوار فخدعهم ذلك عن الفلسفة النظرية التى هى أساس كل هذه الأخلاق العملية . وفى الواقع أن من طلائع مميزات الأمة الصينية تحوُّل النظريات بسرعة إلى أخلاق عامة فى الشعب كله ، ولهذا قال « سوزوكى » اليابانى مانصه : « إذا كان الدين ممثَّلا فى اليهود ، والتنسك فى الهنود ، والتفلسف فى الإغريق ، فإن الأخلاق هي الثقافة الروحية التى التقت في إمبراطورية [1] الوسط بممثليها الحقيقيين وبنموها المنظم المحدود [2] »

---

(١) إمبراطورية الوسط هى الصين
(٢) راجع كتاب تاريخ الفلسفة الصينية القديمة تأليف « سوزوكى » صفحة ٤٧ طبعة لندن سنة ١٩١٤

بلغت الأخلاق الصينية من السمو إلى حد أن يروي لنا الأستاذ « زانكير » أن المبشرين المسيحيين حين اتصلوا بالصينيين فى القرن التاسع عشر ورأوا ماعندهم من أخلاق بهتوا خجلا من عقيدتهم القديمة عن هذه الأمة ولم يجدوا لهم من هذه الورطة مخلصاً إلا أن يعلنوا أن الإله قد أوحى إلى الصينيين كما أوحى إلى الإسرائيليين ، وأن « شانج — تى » ليس إلا الرب السماوى المذكور في الكتاب العبرى المقدس ، بل إن أحد « اليسوعيين » فى القرن التاسع عشر اشتغل بجمع بعض النصوص الصينية ، ليثبت منها هذا الوحى الإلهى ، وإن عدداً كبيراً من القسس والعلماء قد حاولوا أن يربطوا بين التوراة وبين الكتب الصينية تارة فى الأخلاق وتارة فى أصول العقيدة ، وثالثة فى اللغة [1] على نحو ما رأينا من التحككات اللفظية التى قام بها العلماء بين الفلسفتين : الهندية والفارسية . ويستطرد هذا العالم فيقول ما ملخصه : وقد ظلت الفلسفة الصينية مجهولة القيمة فى أوروبا إلى القرن التاسع عشر ، وهذا طبيعى ، لأن الفلسفة التى تسمو فيها الأخلاق إلى هذا الحد لايمكن أن تفهم حق الفهم فى العصور التى — مع الأسف الشديد — لاتعنى بالأخلاق كثيراً ؛ ولكن العجيب فى رأيه هو هذا التناقض البارز الذى وجد كثيراً في كتب « المُستَصْينين » والذى أنزل أولئك الباحثين فى نظر « زانكير » منزلة العوام والأميين كما يصرح بذلك بعد أن يسرد طائفة كبيرة من آرائهم المتضاربة المتناقضة ثم يسأل أولئك المتعالين متهكماً فيقول : تقولون إن العقلية الصينية غير جديرة بالاحترام ، لأنها لم تترك تراثاً علمياً ، فهل تستطيعون أن تنبئونى متى عرفت أوروبا العلم ؟ وهل كان لسيها أقل فكرة قبل القرن السادس عشر عن العلم أو عن مناهجه الحديثة ؟ وهل كل شعوب أوروبا لم تكن مستوية مع الصين فى هذه النقطة تمام الاستواء إلى عهد النهضة ؟

على أن هذه التهمة التى رموا بها العقلية الصينية هى باطلة من أساسها ؛ فالصينيون قد عرفوا منذ أكثر من ثلاثين قرناً الرياضة والفلك إلى حد أن كان لهم فيهما بحوث قيمة تدور حول بعض معقدات فروع هذين العلمين مثل معرفة الفروق الدقيقة بين السنتين : الشمسية والقمرية ، ومعرفة أوقات دورات هذه الأفلاك الثلاثة : الأرض والشمس والقمر بالنسبة إلى بعضها . وفوق ذلك فقد كانت لهم دراية عظيمة بالأدب ونقد النصوص والتاريخ والجغرافيا وتاريخ الفنون وعلم اللغات . كل هذه المواد كانت معروفة ومدروسة فى الصين بدرجة من العناية لم تكن تبلغها أوروبا قبل القرن السادس عشر

أما العلوم الطبيعية فيكفى لإثبات نبوغهم فيها أن نعلن فى فخر أنهم هم الذين اخترعوا البوصلة وأحجار المناظير ورواسم « كليشهات » الطباعة المصنوعة من الخشب ، وأنهم عرفوا الورق والحرير و (البورسيلين) والطلاءات الثابتة وبرزوا في كل هذا على أوروبا قبل عصر النهضة

نعم إن أوروبا قد سبقت الصين في هذه العصور الحديثة ، ولكن ذلك ليس معناه نقص العقلية الصينية أو عدم استعدادها للنبوغ فى هذه العلوم ، كلا ، وإنما هو ناشىء من أن الصينيين لم يحتكوا بأوروبا احتكاكاً مباشراً متواصلاً ، فلم ينلهم نصيب كبير من هذا النمو العلمى الحديث ، ويدل على ذلك أن الشبان الصينيين الذين أخذوا بحظ من العلوم العصرية لم يكونوا أقل نبوغاً من شباب أى شعب آخر

ثم يعلق الأستاذ زانكير على هذا بقوله : والآن نعود إلى النقاش فى مشكلة الفلسفة المنهجية فنسأل أولئك المتجنين على الصينيين : ما ذا يقصدون بهذه العبارة ؟ إن كانوا يريدون بها تطبيق مناهج العلوم التجريبية على الفلسفة ، فنحن نوافقهم على أن الصينيين لم يعرفوا هذا الفن ، ولكننا نعود فنهمس فى آذانهم بأن أوروبا لم تنجح في هذه الطريقة إلى الحد الذى يبرر هذه الطنطنة ، ويستدعى تلك الكبرياء . بل بالعكس إن أحدث الآراء الفلسفية المحترمة قد عدلت نهائياً عن هذه الفكرة ، وآمنت بأن العلم قد عجز أن يكون أستاذ الفلسفة وملهمها ، وأعلن استعداده إلى العودة من جديد إلى بنوتها والتتلمذ عليها ، واعترف أن مناهجه الميكانيكية ليست إلا جزءاً من مناهج الفلسفة ابتدعته هي حينما ألجأتها الحاجة إلى دراسة المظاهر الخارجية التى لا تعرف إلا عن طريق هذه المناهج التجريبية . وأخيراً فهل سقراط وأفلاطون والقديس أوجستان والقديس توماس — ولم يعرف واحد منهم المنهج التجريبي — لم يكونوا فلاسفة فى نظر أولئك المتجنين [1] ؟

(١) تاريخ الفلسفة الصينية تأليف (ا . ف . زانكير) صفحة ١٦ طبعة باريس سنة ١٩٣٢

(١) راجع كتاب زانكير صفحات ١٧ وما بعدها

نحسب أننا بعد هـذا كله قد رسمنا لك صورة واضحة للفلسفة الصينية فى شكلها العام ، ولِمَا أصدر عليها الباحثون من أحكام متسرعة لم تلبث أن انهارت أمام النقد العصرى النزيه

مصادرنا عن الفلسفة الصينية

يرى العلماء أن أهم مصادر فلسفة شعب من الشعوب هو الكتب التى سجلت فيها آراؤه الفكرية وأخلاقه العملية ، وأن أصدق ما يحقق هذه الغاية عند الشعوب القديمة هى الكتب الدينية ، لأن الدين والفلسفة توءمان فى النفس البشرية لا يستطيع أحدهما أن يستغنى عن الآخر ، إذ لا تكاد العقيدة الدينية تستقر فى النفس حتى توقظ التفكير الذى هو مبدأ الفلسفة ، ولا تكاد الفلسفة تبدأ فى مهمتها دون أن تفتتحها بالبحث عن الإله ، وهو الجوهر الأساسى فى العقائد . وإذن فنستطيع أن نجزم بأن الدين والفلسفة شقيقان مستقلان بدآ من مصدر واحد متجهين إلى غاية واحدة وإن اختلفت أثناء الطريق وسائلهما ، بل قد يعظم هذا الاختلاف حتى يصل إلى درجة الخصومة كما حدث بين «أنا جزاجور» ورجال الدين فى أثينا ، أو بين الفلاسفة ورجال الكنيسة فى أوروبا فى القرون الوسطى ، ولكن الصينيين لحسن حظهم لم يعرفوا هذه المعارك الدامية التى شهدتها أوروبا المتمدينة بين الفلسفة والدين مراراً عدة ، بل ظل العقل والدين عندهم فى وئام وسلام يتعاونان تعاون الشقيقين على حل خفايا الكون ومشكلات الوجود .

لهذا كله كان من الطبيعى فى الصين — أكثر منه فى أى بلد آخر — أن نبحث عن مصادر الفلسفة بين صفحات الكتب الدينية وفى تقاليد الشعب وعاداته الشفهية ، وهذا هو الذى كان بالفعل ، إذ اعتمد الباحثون العصريون فى الفلسفة الصينية على ما يأتى :

(ا) العادات والتقاليد الدينية التى ظلت — بفضل العزلة — كما كانت منذ آلاف السنين ، ولم تنل منها هذه العصور الطويلة كما نالت من تقاليد الشعوب الأخرى ، والتى لا تزال قادرة على إعطائنا صورة أمينة لما كان عليه العقل الصينى منذ تلك العهود .

(ب) الكتب الدينية الخمسة المسماة : «وو — كينج» والتى يمكن أن تعد بين أقدم الكتب الإنسانية ، ومع ذلك فلا يستطيع العالم الدقيق أن يطمئن إلى هذه الكتب كمصادر موثوق بها عن العصر الأول ، إذ قد ثبت أن أكثرها كتبه «كونفيشيوس» ملخصاً بأسلوبه الخاص ، ولهذا ينبغى للباحث الاحتياط من هذه الكتب كما يقول أحد العلماء الألمان ، ولكن ليس معنى هذا أننا نتهم «كونفيشيوس» بتشويه هذه الكتب ، كلا ، ولكنه لما صرح بأنه لم يأت فى مذهبه بجديد ، وإنما أقر أنقى وأطهر ما كان فى العقيدة القديمة ، فقد خشى الباحثون المحدثون أن يكون قد ألغى من هذه الكتب كل ما ليس نقياً فى نظره ، وهذه خسارة علمية كبرى ، لأن العالم يهمه أن يجد الآثار التاريخية بقضها وقضيضها ، ليستطيع أن يستخلص منها الحقائق في حياد تام . وفوق ذلك فإن تلاميذ «كونفيشيوس» قد شرحوا هذه النصوص وعلقوا عليها ، وربما يكونون قد حذفوا منها أو أضافوا إليها .

يوجد بين هذه الكتب الخمسة ثلاثة جديرة بالعناية ، وهى : «شو — كينج» ، و «شى — كينج» ، و «إى — كينج» ؛ فأما «إى كينج» فهو أهم هذه الكتب من حيث تصوير الناحية العقلية للأمة ، وقد حوى كثيراً من التطورات الفكرية المختلفة وهو لهذا يدعى : «كتاب التغير» وعليه أكثر من غيره يعتمد «المستصينون» فى فهم الحياة الفلسفية لهذه الأمة ، لأن التطور الذى وقع له ليس تطور حذف ولا تشويه ، وإنما هو تطور إضافة وتأويل للنصوص القديمة بما يتفق مع سير العصور المختلفة . أما نصوصه فقد أثبت العلماء أن بعضها يرجع إلى القرن الثانى عشر قبل المسيح ، وأن هذا البعض قد وجد عليه الطابع النحوى واللغوى لتلك العصور التى كتب فيها . والفضل فى هذا التحقيق العلمي يرجع إلى العالم الدقيق «ألبز» الذى استطاع بمعونة علوم اللغة أن يحدد — ولو على وجه التقريب — العصور التى كتبت فيها هذه النصوص . وإذاً ، فنحن نرى أنه اجتمعت فى هذا الكتاب المحافظة الدقيقة مع التطور المستمر .

وأما «شو — كينج» فأهميته كلها تنحصر فى احتوائه على جميع النواحى الأخلاقية إذ أنه ضم بين دفتيه أسمى أنواع الفضائل والخيرات التي اتصف بها حكماء ملوك الصين فيما قبل التاريخ تلك الفضائل التى اتخذها «كونفيشيوس» فيما بعد نموذجاً احتذاه وسار على منواله .

كان هذا الكتاب أكثر الكتب الصينية تعرضاً إلى التشويه والتبديل ، إذ تحدثنا القصص الشعبية أنه كان فى عهد «كونفيشيوس» مائة فصل كاملة نسخها هذا الحكيم بخطه ، وأنه لما أمر الامبراطور «اتسين — شى — هوانج — تى»

فقيد الأدب السوداني

التيجاني يوسف بشير

للأديب المبارك ابراهيم

فى أواخر شهر يوليو المنصرم ، منيت النهضة الأدبية الحديثة فى السودان بخسارة جد فادحة قل أن يأتى الزمان لها بعوض ، وذلك بوفاة شاعر هو من أنحل شعراء النهضة ، هذا إن لم أقل إنه أرهفهم إحساساً أجمعين !

***

يعد الفقيد من أصغر شعرائنا المجيدين سناً ، إذ كان مولده فى مدينة أم درمان عام ١٩١٢

وقد تلقى علومه بمعهد أم درمان العلمي ؛ وبعد تخرجه ساهم فى تحرير جريدة « ملتقى النهرين » ، قبل اندماجها فى جريدة « حضارة السودان » . ثم حرر فى مجلة « أم درمان » ، ومجلة « الفجر »

وكان الشاعر الشاب يؤمل أن تواتيه الظروف ، فينزح إلى القطر المصرى الشقيق ، للانتظام فى أحد معاهده العالية ، غير أن جده العاثر لم يمكنه من إدراك هذه البغية

ومن رقيق شعره فى الحنين إلى أرض الكنانة :—

عادنى من حديثك اليوم يامصر ... رَبِّيٌّ وطوفت بي ذكرى
وهفا باسمك الفؤاد ولجت ... بسمات على المباسم سكرى
إنما مصر والشقيق الأخ السو ... دان كانا لخافق النيل صدرا !
نضر الله وجهها فهى ما تز ... داد إلا بعداً علىّ وعسرا !

***

والتيجانى لم يكن كأولئك النظامين الذين إذا ما شاءوا أن يؤلفوا القوافى أتوا بالتعابير الجاهزة الجافة ، فقوموا قصيدهم منها كما يقوم البناؤون البيت أو البناء بقوالب من الطوب . . . كلا لم يكن شاعرنا كأولئك ، وإنما كان رحمه الله أشبه ما يكون بالمثال الماهر الذى يعمد إلى المواد الأولية البكر فينحت منها فى غير محاكاة ، تماثيل هى آية من آيات الفن الخالد على الزمن

وإليك أغرودة من أغاريد الشاعر المرقصة ، وقد أسماها « النائم » قال :

أيها النائم فى مهد أغانيّ ولحنى !
هكذا يدفق يا نا ... عس فى حسنك حسنى
أنت يا واهب ألحا ... نى ويا ملهم فنى
إنما أصنع من كرْمك صهبائى ودنى :
يا أمانىّ التى أعبدها فى كل لون
وأغانىّ التى ألهمها ملهم جن !
والتى ذوبها المط ... رب فى الصوت الأغن
كلما طار بها اللح ... ن وفراها المغنى :
خفقت ذات جناحيـ ... ن : مدوٍ ومرن :
عبرت كل فؤاد ... وتغشت كل أذن :

وكل آثار الفقيد من هذا الضرب الذى يمتاز بالرصانة فى الأسلوب ، والسمو فى الخيال ، والتجديد فى المعانى

***

وفن التيجانى فى مجموعه ، مزاج من الأحاسيس العاطفية المتناهية فى الدقة ، والتأملات الروحية الفلسفية الصوفية : التى ترى أن كل الكائنات ، كبيرها وصغيرها ، جليلها وحقيرها ، تحدث عن جلال الخالق عز وجل

وليس أدل على صدق هذا القول من قصيدة شاعرنا التى نشرتها له « الرسالة » فى العدد ٣٨ من سنتها الثانية . تحت عنوان

باحراق الكتب افتقد الناس كتابى : « شو ـ كينج » و « شى ـ كينج » فلم يجدوهما ، فاضطروا إلى أن يستنسخوهما من جديد . وقد اعتمدوا فى هذا على ذاكرة شيخ قدير وعالم جهبذ كان قد اشتهر فى عصره بالدقة وقوة الذاكرة ، وهو « فو — سانج » . ولهذا السبب قد أصبح كتاب « شو — كينج » ثمانية وخمسين فصلا بعد أن كان مائة .

ومهما يكن من الأمر ، فان هذا الكتاب له أهمية عظمى من الناحية الأخلاقية ، لاحتوائه على كثير من الحكم والمواعظ والأمثال والقصص التى تعلي من شأن الفضيلة والخير .

هذه هى المصادر القديمة التى يعتمد عليها . وهناك كتب أخرى قد كتبت فى العصور المتأخرة وسنشير إليها عند ما نعرض لعصورها فى شىء من التفصيل .

« يتبع » محمد غلاب

« الصوفي المعذب » ، وهـذه القصيدة تمثله صوفياً من الطراز الأول ، ومنها : —

الوجـــود الحق ما أو سع في النفس مداه
والسكون المحض ما أو ثق بالروح عراه
كل ما في الكون يمـــشي في حناياه الإلـه
هـذه النملة في رقتهـا رجـع صـــداه !
هو يحيا في حواشيـــها وتحيـا في ثراه !
وهي إن أسلمت الرو ح تلقتها يـــداه !
لم تمت فيهـا حياة الله إن كنت تراه !

* * *

وله من نفس القصيدة ، وكأني به كان يصور شعوره عند دنو الساعة الأخيرة :

أذني . . . لا ينفـذ اليو م بهـا غيـر العويل
نظري . . . يقصر عن كل دقيـق وجليـــل
غاب يا نفسي إشرا قك والفجر الجميـــل
واستحـال الماء فاستحـــجر في كل مسيل
رجـع اللحن إلى أو تاره بعـــد قليل !

* * *

وكان حب الشاعر المفرط للبحث والتنقيب في أمهات الكتب الأدبية والفلسفية يحمله على أن يقطع ليـالي برمتها ساهراً : يقلب صفحات كتبه تارة ، وصفحات أفكاره تارة أخرى ، أو يغازل عرائس أشعاره وقوافيه ، البارعات الجمال ، ذلك دون أن يقيم لصحته وزناً ، أو يعطي جسمه الغـاوي راحته من الهجود وفي ذلك يقول : —

ويح نفسي تنام من دونها الأ نفس شوطاً وما تهم بشوط !
أنا والنجم ساهران نعد الصبح خيطاً من الشعاع لخيط !
كم صباح نسجته أنا والنجـ ـم وأرسلت شمسه من محطي !

* * *

وكان من جراء هذه الجهود المتواصلة التي كان يبذلها الشاعر في الانكباب على الدرس والتحصيل أن أصيب بداء « السل » الذي أودى بحياته في أقل من نصف عام . فرجع هـذا اللحن الجميل إلى أوتاره ، على حد تعبير الشاعر . والشاعر نازل في ريعان الشباب ، ولما يتجاوز الخامسة والعشرين

* * *

هذا وقد خلف الشاعر ديوان شعره ، الذي كان يعده للطبع بعنوان « إشراقة » . وقد قدم له بقصيدة شيقة جاء فيها :

قطرات من الندى رقراقه يشرق البشر دونها والطلاقه
قطرات من الصبا والشباب الغض (م) منسابة به منساقه
ورذاذ من روحي الهائم الولهان (م) أمكنت في الزمان وثاقه !
قطرات من التأمل حيرى مطرقات على الدجى براقه
يترسلن في جوانب آفاقي (م) شعاعاً أسميته « إشراقه »

* * *

في سنة ١٩٢٧ ، نشرت له مجلة « البلاغ الأسبوعي » أولى قصائده ، وهو يومذاك طالب حديث السن في الخامسة عشرة من عمره ، ومطلعها : —

تبدى الصدود وإنني أهواها حسناء ما عرف الهوى لولاها !

وأما آخر ما نظمه الشاعر وهو على فراش الموت ، فقصيدة بليغة مؤثرة ، يخاطب فيها صديقه الشاعر السوداني المشهور : محمود أنيس . وفيما يلي جانب منها : —

أرأيت الصديق يأكله الدا ء ويشوى عظامه المحراق ؟
جف من عوده الندى فتعرى وتنفت من حوله الأوراق !
وأنا اليوم لا حراك كأن قد شد في مكمن القوى أوثاق
بت استنشق الهواء اقتساراً نفس ضيق وصـدر مطاق
وحنايا معروقة ، وعيون ، غائرات ، ورجفة ، ومحاق !
مالنا دون ذا احتيال فإن الله (م) في علمه الشئون الدقاق !
كيف أجزيك يا « أنيس » ومالي من يد بالجزاء مثلي تساق
فالقريض الذي تقدر لا أعلم (م) إن كان في الجزا يستشاق
فاحتفظها ذكرى فإن مت فاقرأ بينها الحب ما عليه مذاق
أو حيينا فسوف نقرأ فيها فترة لا أعادها الخلاق !

* * *

ألا رحم الله فقيـد الأدب السوداني ، فلو عاش لغدت له شهرة مدوية بين قراء العربية في شرقنا العزيز .

(أم درمان سودان) المبارك ابراهيم

همس وعزلة

للأديب يوسف البعيني

إلى أخي وصديقي الأستاذ فليكس فارس

مرَّ عليكِ الخريف بحزنهِ وكآبته . . .
ثمَّ كفنكِ الشتاء بضبابهِ وثلوجه . . .

ومع أنكِ تسمعين همهمةَ الرياح ، وتشاهدين تناثرَ الأوراق في الأودية والمنحدرات ، أراكِ لا تحرِّكين شفتيك ولا تهمسين بكلمة . فهل أخرسَ الموتُ لسانك ؟ لسانك الذي كنتُ أسمعهُ شادياً مغرِّداً يُفعم القلبَ حباً ، والروح فرحاً وانتعاشاً !

واأسفاهُ ... إنَّ ليالى الانزواء والانفراد قد حوَّلتْ رائعَ إنشادكِ إلى وحشة خرساء صامتة ... فما عدتِ تغازلين القمر ، والجدول ، والزهر ، والشمس المطلة من وراء جدائل الشفق

فسلامٌ على أيامك الغُرِّ الحسان ...
أيامِ زهوكِ وسرورك ! !

***

عجباً . . !
أهكذا يذوى الانفراد زهرةَ الأرواح ؟
ويحوِّلُ إيناعها الناضر إلى ذبولٍ مؤلم وإطراقٍ مخيف ؟
عجباً . . !
أهكذا تجرِّد العزلة زهرة الأرواح من زهوها الأنيق لتتعرى كالحُلم الحزين فى برودةِ الموت ؟

***

واأخيبتاهُ عليكِ ... لم تعدْ حرارةُ أنفاسك تُدفئكِ ! إنى أخشى عليك من تجمُّدِ العناصر ، وظلمة ليالي الخريف الحالكة !

***

دمعةٌ فابتسامة ،
ليلٌ فصباح ،
هذا هو قانونُ الحياة
فلا حزنٌ يبقى ، ولا يأسٌ يدوم

فاستعدى لكي تنفضى عن منا كبك غبار العزلة والانفراد ، وأن تفتحي للفجر قلبكِ الطافح بخمرةِ الحبِّ والجمال

فما قريب يأتى الربيعُ بنسماتهِ العليلة ،
وزهورهِ البيضاء ،
وأندائهِ النابعة من أجفانِ النجوم !
كفاكِ صمتاً . . .
فالصمتُ للعظام والجماجم ،
وليس لكِ يا ابنة الآلهة !

***

فهل تستيقظين وتنزعين عن وجهكِ نقابَ الموت أيتها الوحيةُ الحبيبة
المتسربلة بالضباب ،
والمتّشحة بالشعور والعواطف ،
والمصغية إلى أغاني الكواكب ؟
نعم . . سوف تستيقظين ،
وسوف ترافقين ذاتى الخفيَّة . . .
فنفرحُ معاً عند أقدام الوادى ، ونحتسى كؤوسَ الحياة منفردين
إنَّ الربيعَ حياةٌ . . .
ومن لا يشاركُ الربيع في سرورهِ وأفراحه ، فليس من أبناء الحياة ! !

«البرازيل» **يوسف البعيني**

تشريع ولز للزواج
وأثره الاجتماعي

للأستاذ خليل جمعه الطوال

إن الانسان مدني بفطرته ميال بطبيعتــه إلى تفهم نواميس الكون التي تحيط به ، والوصول إلى عللها ونتائجها ؛ وهو إلى جانب ذلك قلما يطمئن إلى نظم معينة ، أو يستقر على حالة ثابتة . ولعل مسألة الهيئة الاجتماعية كانت أولى المسائل التي أكب على دراستها دراسة جدية لما لها من الأثر البليغ المباشر في مشاكل حياته اليومية التي يصطدم بها صباح مساء حتى لينوء بحملها . وإذا كان لا بد من نتيجة مرضية لدراسته هذه التي أعارها جزءاً من اهتمامه غير يسير ، فقد انتهى إلى أن المجتمع يرتكز على نظم واهية لا تماشي البيئة في سرعة تضخمها ، ولا الأحوال في استمرار تطورها ، فجاءت هــذه النتيجة حدثاً جديداً بل صدمة عنيفة ألقت الرعب في قلوب الكثيرين من علماء الاجتماع الذين انقسموا إزاءها إلى ثلاث فرق رئيسية لكل منها في الأمر وجهة نظر خاصة لا تقرها الفرقتان الأخريان وهي : (١) فرقة المتشائمين (٢) فرقة المحايدين (٣) فرقة المتفائلين

فالفرقة الأولى : هم الذين تسرب إليهم اليأس من الاصلاح فألقوا حبــل الأمور على غاربها وانكفأوا على أنفسهم يتوقعون انطلاق رصاصة الدمار الأخيرة التي لا يستطيعون لدرئها سبيلا ؛ فنهم من مال إلى الزهد عن عقيدة دينيــة واكتفى من العيش باليسير ؛ ومنهم من لزم عقر بيته يصابح الفجر بنكده ويشحن الزمن بزفرات بؤسه

والفرقة الثانيــة : وهم سواد المجتمع الأعظم ، فقد شغلتهم أعمالهم الشخصية وسعادتهم الوقتية التي راحوا يهتبلون لها السوانح كلما طرأت ـ عن التفرغ لدراسة أحوال المجتمع ، ووقفوا من تقلب أوضاعه واصطراعها موقف المتفرج في حومة القتــال لا يبدون رأياً ، ولا يدفعون عادية ، ولا يقرون أمراً

أما الفرقة الثالثة فهم الذين هالهم ما رأوه في جوف هذه النظم والأوضاع من البؤس المسرع إليهم ، فأحدث هذا المنظر في نفوسهم آثاراً شتى ليست على مستوى واحد من العمق والتأثير ، ولذلك هبوا من غفوتهم واستيقظوا من رقدتهم مشمرين للأمر ليدفعوا عن البشرية عدوانه وليسدوا ثلمة الشقاء قبل أن تتسع ، فنهم من استل سيفه وقام بحركة اصلاح عنيفة ، كما حدث في روسيا الشيوعية وإيطاليا الفاشية . ومنهم من لزم حد الاعتدال فقام يدعو تارة بلسانه وطوراً بيراعه كأفلاطون ومور وسبنسر وموريس وبرناردشو وإبسن وكثير غيرهم من أساطين علم الاجتماع

ومن كبار دعاة هذا الرهط في انكلترا اليوم الكاتب العالمي الفذ هربرت جورج ولز الذي جاءت آراؤه ونظرياته خلاصة وافية ضافية ونتيجة صادقة صائبة لدراسات سابقيه ومتقدميه

دعوة ولز

صنف ولز قرابة الخمسين كتاباً بأسلوب يستهوي القارئ ويغريه ، بعيداً عن التقعر والاسفاف ، خالياً من اللبس والإبهام ومن مستهجن اللفظ وزركشة العبارة التي قد تزيد الفكرة تعقيداً ، وتجعل المعنى ملتاثاً سقيماً ، وذلك لأنه يكتب مؤلفاته للخاصة والعامة على السواء ، ويدعو لآرائه رعاع القوم ودهماءهم كما يدعو سراة الناس وأمراءهم . وقد تناول في كتبه معظم البحوث الاجتماعيــة التي اصطبغ بها أسلوب الأدب الانكليزي الحاضر من سياسية وعلمية وتشريحية ، ولا سيما البحوث الدينية إذ تناول كثيراً من مسائل الدين المسيحي وعقائده بمشرط النقد والتجريح ، فجردها بطريقة علمية من معظم السفاسف والترهات التي حاكها حولها إنكشارية الدين من القساوسة والرهبان ليجعلوا منها ذريعة إلى أطماعهم الشخصية وأغراضهم الذاتيــة . وله في التاريخ مؤلف لم يسبق لغيره أن نسج على منواله ، لا ترى فيــه أثراً للدعوة القومية والعصبية الوطنية ، إذ هو عدوهما الأزرق وخصمهما الألد ، في الجهر والخفاء . ومما يستوقف النظر ويدل على سعة علمه ومعرفته بنتائج الظروف والتطورات قبل وقوعها هو صدقُ تكهنهِ عن كثير من الحوادث ، فقد تنبأ عن مصير الاشتراكية الحاضر وعن الحرب الكبرى فجاء حدوثهما دليلاً على صدق نبوءته ونفوذ

بصيرته . وعلاوة على ما ضمنه هذه الكتب من الآراء السديدة التي قضى في دراستها طول العمر وريق الشباب فقد كتب على صفحات الجرائد والمجلات كثيراً من المقالات التى كان ينتزعها من صفحة الحياة اليومية ، وتمليها عليه مستلزمات البيئة الاجتماعية

وخلاصة القول أن ولز يدعو فى جميع كتاباته « البيولوجية » « والسيكولوجية » إلى مقت الحروب وتحطيم آلاتها المدمرة وإلى إزالة الاستعمار والروح الوطنية ، وينادى بالحرية والعلم والعالمية ؛ وهو فى دعوته هذه إنما يُهيئ السبيل السوى للحوادث التى لابد من وقوعها في المستقبل القريب

أما خير كتب ولز فى هذا الموضوع وأحدثها فهو كتابه الطوبى العصرية Modern utopia الذي يرى به إلى إيجاد مدينة كبرى فاضلة لتكون وطناً للهيئة الاجتماعية بأسرها ووافية بحاجات السعادة البشرية ، وقد رشحت مادة هذا الكتاب من دراساته للفلسفة الأفلاطونيـة التي تتغلغل فى ثناياها واتسم بطابعها . ولولز فى هذا الكتاب آراء طريفة فى المرأة والزواج أعرضها على صفحات الرسالة الغراء لا لأنها تلائم روح عصرنا وتتمشى مع حضارتنا ، ولا لأنها وقعت من نفسى موقع القبول والاستحسان ، بل لأطلع جمهور القراء على ناحية جديدة من مناحى التفكير الغربى

يرى ولز أن ناموس الطبيعة فى كائناتها قائم على أن تتوالد وتتكاثر ، وعلى أن يفترس القوى الضعيف بأنياب محددة ومخالب قوية طبقاً لنظام تنازع البقاء وبقاء الأفضل ، وما الحياة فى نظره إلا حلبة تتصارع فيها الكائنات الحيـة على اختلاف أنواعها وأجناسها فيخرج منهـا القوى ظافراً منصوراً ، ويولى الضعيف منهزماً مكسوراً . وليس ما نشاهده من فتك الإنسان بأخيه فى مجاهل أفريقيا وغابات الهنـد وفي جزر زيلندا أو ما يماثله بين شعوب الأسكيمو التي تقتات باللحوم البشرية حيث يقيمون فى كل يوم مجزرة هائلة من بنى الإنسان تتفطر لهولها القلوب الجلامد ، وتسح لها العيون الجوامد ، أو ما نشاهده من تطاحن الأمم والشعوب على استعمار الأمم الضعيفة ، واقتسام ثروتها ؛ ومن فتك الحيوانات بعضها ببعض - إلا مظهراً من مظاهر تنازع البقاء ونوع من حكم الطبيعة على الضعيف بالموت والفناء . وعليه فلا سبيل لتقـدم البشرية ، وقد أصبحت مشا كلها تشغل الحيز الأكبر من عقول مفكريها ، كشوبنهور ، ونيتشه ، وبرناردشو ، وهكسلى إلا إذا أسندت أمرها وألقت مقاليدها ووكلت بشؤونها حكومة عالية واحدة تسيطر على هذه الحركة وتبيدها ، لئلا تصبح الهيئة الاجتماعية أشبه بأجمة للافتراس . ويتم ذلك بمنعها الضعيف عن التناسل والتكاثر وجعلها عدد الوفيات منه يزيد فى كل عام على المواليد زيادة مطردة ؛ وهكذا فلا تمضى حقبة من الزمن حتى تصبح الهيئة البشرية بكاملها كتلة واحدة من القوة متجانسة الأجزاء متماسكة الذرات ، ولا يكون بعد ثمة تنازع على البقاء ، الذي يشبهه ولز بشوكة فى جانب حق الضعيف والمدنية ، أو حسكة فى لهاة العدل والإنسانية .

فولز فى هذا الموضوع يناقض زميله ومعاصره برناردشو الذى يذهب الى أن خيرَ وسيلة للخلاص من هذا الضعيف هى أن ندعه فريسة فى يدي القوي ونتركه يتمرغ فى حمأة الموبقات والشرور المهلكة التى ينقاد إليها بضعفه ، وهكذا يكون كمن بحث عن حتفه بظلفه

أما كيف يتسنى للحكومة إخراج ما يقترحه عليها من الآراء إلى حيز العمل فيراه فى أن تهيمن على الزواج وتجعله شريعة مدنية لا دينية ، وخاضعاً لقوانين معلومة تضمن بها صيانة المجتمع من الضعف والانحلال

ويقول بعضهم تعليقاً على آراء ولز : إن بعض الناس — وقد رأوا أنه يسلبهم بشريعته هذه حق الزواج وهو جل مابقى لديهم من ذلك التراث النفيس الذى ورثوه عن تلك الامبراطورية الرومانية المقدسة ، يوم كانوا فيها قابضين على زمام السلطتين الدينية والمدنية ومن ورائهم محاكم التفتيش بسراديبها المخيفة ، وأقبائها الموحشة — أخذوا ينسبونه إلى الكفر والالحاد والجنون ، لا لأنه هتك ستر الدين وخرج على عقيدة من عقائدهم الجوهرية ، بل لأنه أذاقهم مرارة الحق إذ غمز مطامعهم الشخصية ، وحاول أن ينتزع من أفواههم لقمة دسمة يرون فيها وهم يتشدقون بمضغها

هيبة الدين وجلاله ، وسلاح الايمان وسطوته ، ولأنه ليس لأكثرهم أيضاً من حرية الفكر وإنطلاق الذهن ما يدركون به كارثة الهيئة الاجتماعية التى تنتج من الزواج فى غالب الأحيان .

ويقول أيضاً بأن الزواج فى عرفهم ليس إلا رباطاً مقدساً لا تبلى جدته ولا تنحل عقدُته لسبب من الأسباب إلا بالموت ما دام الكاهن قد أعطى الزوجين بركته القدسية وربطهما بحباله الأزلية

فولز إذاً من أشد خصوم البابوية خاصة والكنيسة الرومانية عامة — وهى التى يسميها بالكنيسة الأفلاطونية لما بينها وبين طبقة أفلاطون الحاكمة من العلاقة المشتركة من حيث الزواج — لإصرارها على أن الزواج لا يتم إلا بالإكليل الذي يضعه هو من الأهمية على الهامش فقط .

أما خلاصة ما يضعه من التشريع : فأن يكون طالب الزواج بالغاً سِناً تؤهله لذلك (الرجل ٢٧ سنة ، والمرأة ٢٠ سنة) مؤدياً ما عليه من الديون والضرائب القانونية ، ذا دخل ثابت معلوم — تحدد الحكومة نهايته الصغرى — يمكنه من أن يعيش مع زوجه وأولاده عيشة رخية ، وذا شخصية فعالة قادراً على العمل ، وألا يكون مجرماً عند زواجه ، ومكفراً عن الأجرام التى سبق أن ارتكبها ، وبالغاً من التهذيب درجة عالية . على أن أهم هذه الشروط أن يكون كلا الزوجين خالياً من الأمراض المعدية والوراثية كالسل والجنون والسرطان .

هذه هى الشروط الأساسية التى يريد ولز وضعها ، ويشترط على كل من طالبى الزواج أن يقدم بها شهادة للجنة المسؤولة عنه ، وهذه بعد أن تطالعها وتبحثها تعين لهما يوماً معلوماً يحضران فيه لاجراء بعض المراسم القانونية لكل منهما بانفراد عن رفيقه ، وبحضور الشهود والمميزين ... وكل اثنين يتعاقدان على غير هذه الكيفية يكون عقدهما فاسداً بحكم القانون ، وترتب عليهما الحكومة عند أول مولود لهما مبلغاً مقرراً من المال يدفعانه للخزينة حتى يبلغ المولود سن الرشد ، وذلك لقاء عنايتهما به ، وضماناً لمستقبله ، وجزاء لتحديهما القانون ، وذلك بعد أن تمنعهما من أن يتناسلا مرة ثانية

الطلاق

لا يحق للزوجة فى حالة زواجها من الرجل زواجاً مدنياً بالشريعة الولزية أن تطلب طلاقها منــه إلا إذا أقامت عليه البينة أنه سيئ الخلق فظ الطباع يعاملها معاملة قاسية ، أو أنه قالٍ لفراشهــا ومنصرف عن الاهتمام بأمرها إلى السكر والدعارة والفسق ، إلى ما هنالك من الصفات المستنكرة ؛ فمتى توافرت هذه الأسباب أو بعضها يتقيد كل من الزوجين برفيقه مدة معلومة وذلك حتى يصبح أصغر أولادهما غنياً عن عناية أمه به ، وبعدها يتم الطلاق . ويحق لكل منهما أن يتزوج ثانية بمن يريده . على أن ولز لا يميل حقيقة إلى الطلاق ؛ وذلك لما ينتج عنه للأسرة — وهى التى تمثل الهيئة الاجتماعية بأصغر أشكالها — من وخيم العواقب التى تفت فى عضدها وتجعلها مشوشة النظام ، مفككة الأوصال ، واهية الروابط التى ترتبط بها أفرادها ربطاً محكماً ؛ ولكنه يستحسنه فى مثل هذه المناسبات الاضطرارية ، والأحوال الشاذة لعلمه أن ما ينتج عن عَدَمه من تنغيص حياة الزوجين أضر بهناء الأسرة من وخيم عواقب الطلاق

الزواج المؤقت « المتعة »

يبيح ولز « المتعة » فى كتابه : « الطوبى العصرية » Modern utopia وهى أن يتزاوج اثنان لمدة أربع سنوات أو خمس مثلا وبعدها يكون لهما الحق فى الانفصال أو فى تجديده ثانية على ألا يكون لهما الحق فى التناسل فى مثل هذا النوع من الزواج المؤقت

مساواة المرأة بالرجل

يقول ولز إن مساواة المرأة بالرجل وعدمها من الأمور الرئيسية التى كانت ولا تزال مثار البحث والاختلاف بين كبار العلماء والفلاسفة . فقد ذهب أفلاطون قديماً إلى أن المرأة خلقت وهى غاية بنفسها وموازية للرجل فى الحقوق والواجبات ، وإلى أنها حرة فى جميع أمورها وتصرفاتها لا فرق بينها وبين الرجل إلا فى الجنس فحسب ، فباب العمل والتنافس على الجاه والثروة يجب أن يكون مفتوحاً على مصراعيه للجنسين على السواء

كما أنه أباح للمرأة التي فى الطبقة الحاكمة حق ممارسة الألعاب الرياضية والتدرب على حمل السلاح فى سلك الجندية . ولكن أرسطوطاليس ذهب إلى عكس هذا المذهب وقال : لم تخلق المرأة إلا لتحفظ النوع من الفناء ، وإن هي للرجل إلا أمة صاغرة تسير بإرادته دون أن يكون لها حق الاعتراض عليه ؛ فهو ينكر على أفلاطون مساواته للجنسين بلهجة شديدة ملؤها الهزء والاستخفاف . أما هو وإن كان له مذهب ثالث وسط بين هذين المذهبين إلا أنه يفضل النظرية الأفلاطونية على تلك الأرسطوطاليسية التي يعيب على العرب خاصة وعلى الشعوب الشرقية عامة شدة تعصبها لها والعمل بها لما هم فيه من التأخر والانحطاط ، على حين أن الشعوب الغربية وهى التى تعمل بالنظرية الأفلاطونية قد قطعت شوطاً بعيداً فى مضمار المدنية

يحمل ولز على العرب مثل هـذه الحملة الشعواء كشأن غيره من الشعوبيين الذين يحاولون إفساد التاريخ العربي والنيل من المدنية الاسلامية التى ظلت تسود العالم مدة من الزمن ليست قليلة ، وهو لو درى أن أوروبا بأسرها قد أخذت تضيق قليلا قليلا من نطاق مساواة المرأة بالرجل بعد أن أطلقت لها العنان إلى جانب الرجل مدة قرن ونيف ، وذلك لما انغمست فيه من فساد الأخلاق وخشية من أن يتسرب هذا الداء منها إلى بنيها . أجل لو عرف هذا وأشباهه ودرس البيئة العربية لأنصفهم ولما عاب عليهم شدة محافظتهم على المرأة

المرأة والعمل

يرى ولز أن المرأة خلقت ضعيفة الجسم والتركيب لاتقدر على تحمل الأعمال الشاقة ومزاولتها كالرجل ، وأن الطبيعة إنما أعدتها بهذه الكيفية لتقصر مهمتها على إدارة البيت وتربيـة الأطفال ؛ فعليها أن تنصرف بكليتها نحو هـذه الغاية السامية التي خلقت لهـا ، وأن تجعل سعيها موجهاً نحو إغراء الرجل وحمله على الزواج منها ، وبذلك تصبح شريكة له في سرائه وضرائه ومساهمة معه فى حلو الحياة ومرها . أما إذا وكلت أمر بيتها وإعالة أطفالها إلى من يقوم بهما تحت إشرافها وكانت فيها مواهب القدرة على العمل والتفوق على الرجل فلا بأس من أن تمارس ماهى كفؤ له من الأعمال على أن يكون ذلك لها من الأحوال الشاذة لاقاعدة مطردة . فولز فى هذا الموضوع يقف موقف الحيرة والتردد وهو أيضاً كما يشاهد القارئ يخالف آراءه السابقة بعض المخالفة فى شدة تحفظه

المرأة والحكومة

ينظر ولز إلى الأمومة نظره إلى وظائف الحكومة ، ولذا يريد أن تدفع الحكومة لها عنـد كل ولادة مبلغاً مقرراً من المال يزيد بزيادة ماتلده من الأولاد ، وتبقى مستحقة لهذا المبلغ حتى يبلغ أصغرُ أولادها سِنَّ الرشد ، وذلك لكى تصرفها عن التطلع إلى الوظائف المدنية . وهى بهذه الطريقة أيضاً تشجع على الزواج أولئك الذين يحجمون عنه بسبب الفقر وتنقذ من وهدة الشقاء والبؤس الأراملَ اللواتى ينفصلن عن الحياة الزوجية بموت أزواجهن ولا يكون لهن من المال مايقوم بأودهن وأود أولادهن حيث يصبحن فريسة تنتاشها مخالب البؤس وبراثنُ الفقر ، أو يُطوحنَ بعفافهن وشرفهن فى سوق الدعارة والموبقات

ولولز عدا ماتقدم آراء متطرفة فى شيوعية النساء وفى النظرية اليوجينية أو التأصيل لا أرى ضرورة للتبسط فيها لأنها تنبو عن الذوق العربى الذى لم تفسده الحضارة الغربية بعد

خليل جمعة الطوال

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٨ —

الطور الثاني من حياة الرافعي

هل كان للرافعي خِيَرَة في المذهب الجديد الذى ذهب إليه عند ماشرع يكتب « تاريخ آداب العرب » ؟

وهل كان يعنى مايفعل حين انحرف عن الهدف الذى كان يسعى إليه فى إمارة الشعر إلى المنحى الجديد فى ديوان الأدب والإنشاء !

هل كان عن قصد ونية أن يتخلَّى الرافعى عن أمانى الشباب وأوهام الصبا وأخيلة الفتيان وأحلام الشعراء ، ليقف نفسه على العربية وتراث العربية يستبطن أسرارها ويغوص على فرائدها ، وعلى الإسلام وأبطال الإسلام يكشف عن مآثرهم وينشر آثارهم ؟ . . .

الحق أن الرافعى لم يكن له خِيرة في شيء من ذلك ولا كان يعنيه ولا توجهت إليه نيته ؛ ولكنه ألف تاريخ آداب العرب لأنه وجد فى نفسه رغبة إلى أن يؤلف فى تاريخ آداب العرب ، وكتب فى إعجاز القرآن لأن إعجاز القرآن باب فى تاريخ الأدب ؛ فلما أخرج كتابيه إلى الناس لم يلبث أن ارتد إليه الصدي مما يقول الناس ؛ فاذا هو عندهم أديب ليس مثله فى أدباء العربية ، وإذا هو عندهم كاتب من الطراز الأول بين كتاب العربية ، وإذا هو صاحب القلم الذي يكتب عن إعجاز القرآن فيُعجز ، ويتحدث عن الإسلام حديث المؤمن إلى المؤمن ، حديثَ قلب إلى قلب ليس بينهما حجاب فكل ما ينطق يُبين . . . ووجد الرافعي كأنما اكتشف نفسه . . .

وهنا بدأ الرافعى الكاتب الذى يعرفه اليوم قراء العربية ، على حين أخذ الرافعي الشاعر يتصاغر ويختفى رويداً رويداً حتى نسيه الناس أو كادوا ، لايتحدثون عنه إلا كما يتحدثون عن شاعر استمعوا حيناً إلى أغاريده العِذاب ثم ترك دنياهم إلى العالم الثانى ليتحدث إليهم من صفحات التاريخ . . .

لقد عرف الرافعى من يومئذ أن عليه رسالة يؤديها إلى أدباء الجيل ، وأن له غاية أخرى هو عليها أقدر وبها أجدر ؛ فجعل الهدف الذي يسعى إليه أن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ، وأن ينفخ فى هذه اللغة روحا من روحه يردُّها إلى مكانها ويردّ عنها ، فلا يجترىء عليها مجترئ ولا ينال منها نائل ولا يتندر بها ساخر إلا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف عن دخيلته .

ونظر فيما يكتب الكُتاب فى الجرائد ، وما يتحدث به الناس فى المجالس ، فرأى عربية ليست من العربية ، هى عامية متفاصحة ، أو عجمة مستعربة ، تحاول أن تفرض نفسها لغة على أقلام المتأدبين وألسنتهم ، فقر فى نفسه أن هذه اللغة لن تعود إلى ماضيها المجيد حتى تعود (الجملة القرآنية) إلى مكانها مما يكتب الكتاب وينشىء الأدباء ، وما يستطيع كاتب أن يشحذ قلمه لذلك إلا أن يتزود له زاده من الأدب القديم .

وعاد الرافعي يقرأ من جديد ، ينظر فيما كتب الكتاب وأنشأ المنشئون فى مختلف عصور العربية ؛ يبحث عن التعبير الجميل والعبارة المنتقاة واللفظ الجزل والكلمة النادرة ، ليضيفها إلى قاموسه المحيط ومعجمه الوافى ، فتكون له عونا على ما ينشئ من الأدب الجديد الذى يريد أن يحتذيه أدباء العربية .

***

هذا سبب مما عدل بالرافعي عن مذهبه فى الشعر إلى مذهبه الجديد فى الأدب والانشاء . وثمة سبب آخر كان الرافعى يصرح به كثيراً لمن يعرفه : ذلك أنه كان يرى فى الشعر العربى قيوداً لاتتيح له أن ينظم بالشعر كل مايريد أن يعبر به عن نفسه الشاعرة . هكذا كان يقول هو ، وأقول أنا : إنه كان يعجز أن يصب فى قصيدة من الشعر ما كان يستطيع أن يكتبه فى سهولة ويسر مقالا من مقالاته الشعرية الرائعة التي يعرفها قراء العربية فيما قرأوا للرافعى . والحق أن الرافعي بطبعه شاعر فى الصف الأول من الشعراء ، لا أعنى الشعر المنظوم ؛ فذلك ميدان سبقه فيه كثير من شعراء العصر ، بل أعنى الشعر الذى هو التعبير الجميل عن

خلجات النفس وخطرات القلب ووحى الوجدان ووثبات الروح . ولقد كان — رحمه الله — بما فيه من اعتداد بالنفس ، يكتب المقال الفنى المصنوع فيقيس لفظه بمعناه ويربط أوله بآخره ويجمع بين أطرافه كل ما ينبض به قلبه من معانى السرور والألم ، والرجاء واليأس ، والرغبة والحرمان ؛ فإذا فرغ من إنشائه جلس يترنم به ويعيده على سمعه الباطن ، ثم لا يلبث أن يلتفت إلى جليسه قائلا: « أسمعت هذا الشعر ؟ أرأيت شاعراً فى العربية يملك من قوة البيان ما يجمع به كل هذه المعانى فى قصيدة منظومة ... ؟ »

هذه العبارة التى كان يسمعها جلساء الرافعى كثيراً ، تفسر لنا قول الرافعي إن فى الشعر العربى قيوداً لا تُتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن نفسه الشاعرة ، أو تؤيد ما أدعيه أنا ، من أنه كان يشعر بالعجز عن الابانة عن كل خواطره الشعرية فى قصيدة من المنظوم ولا يعجزه البيان فى المنثور . نعم ، كان شعر الرافعي أقوى من أداته ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره . . .

أفترى فى العربية شاعراً يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من « أوراق الورد » فى قصيدة منظومة دون أن يتحيف المعنى ويختل الميزان؟

لا أحسب أن الرافعى كان يعنى ما يقول حين يزعم أن القيود فى الشعر العربى من أسباب الضعف فى الشعر ؛ فهو نفسه لم يكن يستطيع أن يجهر بهذا الرأى ، بل أحسبه في بعض نقداته الأدبية أنكر مثل هذا القول على بعض الأدباء وراح يتهمه بمحاولة الغضّ من قدر الشعر فى العربية ؛ فما أراه كان يقول ذلك إلا تعبيراً عن معنًى تأبى كبرياؤه الأدبية أن يصرح به .

***

ذلك هو السبب الثانى الذى عدل بالرافعى عن الاستمرار فى قرض الشعر معنياً به مقصوراً عليه .

لم يهجر الرافعي الشعر هجراً باتاً بعد أن اتخذ لنفسه هذا المذهب الجديد ، ولكنه لم يجعل إليه كل همه ، واتجه بقلبه ولسانه إلى الهدف الجديد ، فلا يقول الشعر إلا بين الفينة والفينة إذا دعته داعية من دواعى النفس أو من دواعى الاجتماع . وسترى فيما سيأتى بعد ، أنه قد صبا إلى الشعر ثانية عند ما مسّ الحب قلبه واتقدت جذوته فى أعصابه سنة ١٩٢٣ ، فدعته نفسه ؛ وعند ما اتصل ببلاط الملك فؤاد — رحمه الله — سنة ١٩٢٦ ، فدعته داعية الجماعة .

***

حديث القمر

قلت إن الرافعى بطبعه كان شاعراً ، ولكن شعره كان أقوى من أداته ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره فنزع إلى النثر الفنى . وقلت إنه كان يرمى إلى أن يعيد (الجملة القرآنية) إلى مكانها مما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء لتعود اللغة على أولها فصيحة جزلة مبينة ، وإنه أخذ على نفسه أن يكون نموذجاً فى هذا الأدب الجديد يحتذيه أدباء العربية . وقدمت فى المقال السابق أن الرافعى كان على نية إصدار كتاب مدرسي سماه (ملكة الإنشاء) يكون عوناً للمتأدبين وطلاب المدارس على الاقتباس لاجادة الإنشاء . فكل أولئك ما دفعه إلى إصدار كتابه « حديث القمر » من بعد

كتاب « حديث القمر » هو أول ما نشر الرافعى من أدب الإنشاء ؛ أصدره بعد كتابيه : تاريخ آداب العرب ، وإعجاز القرآن . وما بى أن أصف حديث القمر لقراء العربية ، فهو مشهور متداول ، وهو ضرب من النثر الشعرى ، أو الشعر النثرى ؛ يصف من عواطف الشباب وخواطر العاشق وما إليهما في أسلوب فنى مصنوع أحسبه لا يطرب الناشئين من قراء العربية في هذه الأيام ، إلا أن يقرأوه على أنه زاد من اللغة ، وذخر من التعبير الجميل ، ومادة لتوليد المعانى وتشقيق الكلام فى لفظ جزل وأسلوب بليغ

ومن هذا الكتاب كانت أول التهمة للرافعي بالغموض والإبهام واستغلاق المعنى عند فريق من المتأدبين ؛ ومنه كان أول زادى وزاد فريق كبير من القراء الذين نشأوا على غرار فى الأدب لا يعرفه ناشئة المتأدبين اليوم

***

شبوخه فى الأدب

أما إذ وصلت إلى هذا المكان من تاريخ الرافعى فإني أسأل

نفسى : عمن أخذ الرافعي هـذا المذهب فى الكتابة ، وبمن تأثر من كتاب العربية القدامى والمحدثين ؟

هذا سؤال لا أجد جوابه فيما حدثنى به الرافعى أو أحد من أهله وصحابته ؛ وما أستطيع أن أثبت شيئاً فى هـذا المقام يعتمد عليه الباحث .وأ كبر ظنى أن الرافعى نفسه كان لا يعرف أستاذه فى الأدب والإنشاء ؛ فما كان همه أول همه أن يكون كاتباً أو منشئاً ، ولكن تطوّرات الزمن هى ردته من هدف إلى هدف وألزمته أن يكون ما كان . وقد قرأ الرافعى كثيراً وأخذ عن كثير ، فمذهبه فى الكتابة من صنع نفسه ، وهو ثمرة درس طويل وجهاد شاق اختلطت فيه مذاهب بمذاهب وتداول عليه أدباء وأدباء من كتاب العربية الأولين . ولكنى أجد من الفائدة هنا أن أشير إلى اثنين من أدباء العربية كان يقرأ لهما الرافعى أ كثر ما يقرأ إلى آخر أيامه : هما الجاحظ وصاحب الأغانى . وكان يعجب بأدبهما ويعجب لإحاطتهما عجباً لا ينقضى وإعجاباً لا ينتهى ، وكان لا بد له حين يهم بالكتابة بعد أن يجمع عناصر موضوعه فى فكره أو فى مذكرته — أن يفتح جزءاً من الأغانى ، أو كتاباً من كتب الجاحظ يقرأ فيه شيئاً مما يتفق ، ليعيش فترة ما قبل الكتابة فى جو عربى فصيح .

ومما لا يفوتنى إثباته فى هـذا المجال أن مجلة (الهلال) قد استفتت أدباء العربية يوماً منذ سنوات ، فى أى الكتب العربية تعين الناشىء الأديب على مادته ؟ وكان للرافعى فى هذا الاستفتاء جواب لا أذكره ، أحسبه يفيد الباحث عن المصدر لأدب الرافعي

وسمعت الرافعى مرة يقول : « إن كلمة قرأتها لفكتور هوجو كان لها أثر فى الأسلوب الأدبى الذى اصطنعته لنفسى ؛ قال لى الأستاذ فرح أنطون مرة : إن لهوجو تعبيراً جميلا يعجب به الفرنسيون كل الإعجاب ، قوله يصف السماء ذات صباح : « وأصبحت السماء صافية كأنما غسلتها الملائكة بالليل »

قال الرافعى : « وأعجبنى بساطة التعبير وسهولة المعنى ، فكان ذلك حذوى من بعد فى الإنشاء »

أفندعى بهذا أننا عرفنا واحداً من شيوخ الرافعي فى الأدب والإنشاء ... !

« شبرا » محمد سعيد العريان

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

نشيد القبور (*)

هنالك جزيرة القبور ، جزيرة الصمت والسكون ، وهنالك أيضاً أجداث شبابي ، فلأحملنّ إليها إكليلاً من الأزاهر الخالدات

بهذا ناجيت نفسى ، فقررت أن أقتحم الغمر

يا لصور الشباب وأشباح أحلامه ، يا للحظات الغرام ! يا لأويقات الحياة الإلهية ! لقـد تراميت سريعاً إلى الزوال ، فأصبحت أستعرض ذكرياتك كما أستعرض خيال الأحبة الراقدين فى القبور .

إن نفحات الطيب تهبّ منك يا أعزّ المضيعات فتروّح عن قلبي وتستقطر مدامعى ، إنها لنفحات تستنبض قلب العائم وحيداً على العباب .

أنا المنفرد أرانى أغنى الناس وأجدرهم بالغبطة لأنك كنت لى يوماً أيتها الذكريات ولمّا أزل أنا لك ، فقولى لى : على مَ تساقطت ثمراتك الذهبية عن أغصانها ؟

إننى لم أزل منبتا لغرامك الذى أورثتنيه يا أيام الشباب وبذكرك تنوّر فضائلى بعد وحشتها بعديد ألوانها الزاهية

وآسفاه ، ما كان أولاك بألاّ تفارقينى ، أيتها الأيام الساحرات فقد اقتربت إليّ وإلى شهواتى لا كأطيار يسودها الذعر بل كأطيار تستأنس بالواثق بنفسه

أجل لقـد كنتِ معدّة مثلى للبقاء على العهد إلى الأبد ، يا أويقات الشباب ، وليس لى أن أدعوك خائنة وقد وصفتك بالأويقات الإلهية .لقد مررت سراعاً أيتها الأويقات الهاربات وما هربت منى ولا أنا هربتُ منك ، فما أنا مسؤول ولا أنت أيضاً عن خيانتك وعن خيانتى

لقـد أماتوك طلباً لقتلى ، يا أطيار آمالى وصوبت الشرور

(*) هذا النشيد يقع فى الكتاب بعد نشيد الرقص .

سهامها نحوك لتصل مخضبةً بالدماء إلى قلبي فأصابت هذه السهام مقتلاً منى لأنك كنت أعز شيء لدي بل كنت كل ما أملك ، لذلك قضى عليك بالذبول فى صباك والزوال قبل أوانك

لقد صُوِّبت السهامُ إليك وأنت أنعم من الحرير وأضعف من ابتسامة تمحوها نظرة قاسية

فليسمع أعدائى ما أقول :

— إنّ القتل أخف جرماً من جنايتكم على ، فقد سلبتمونى ما لا قبل لى بالاستعاضة عنه بشيء ، ذلك ما أقوله لكم ، أيها الأعداء . أفما قتلتم أحلام شبابى وحلتم دون إتيانى بمعجزاتى ؟ لقد سلبتم منى تفكيرى ، وهأنذا أحمل هذا الاكليل لتذكاره حاملاً معه لعنتى لكم ، أيها الأعداء ، لأنكم قصرتم مدى أبديتى فانقطعت كأنها صوت ينقطع في الزمهرير تحت جنح الظلام فاتسنى لى أن أنظر إلى هذه الأبدية إلا لمحا لأنها توارت عنى بطرفة عين

وأنت ساعة ناجتنى فيها طهارتى قائلة :

— يجب أن تكون جميع الكائنات إلٰهية ، وأنت أرسلتِ إليَّ الأشباح المدنسة ، يا أيام الشباب ؛ فانقضت تلك السانحة وعادت حكمة الشباب تقول لي : (يجب أن تكون جميع الأيام مقدسة فى نظرى) وما هذه الكلمة إلا كلمة الحكمة المرحة . وعندئذ أتيتم أيها الأعداء فحولتم ليالى راحتى إلى أرق وهموم ، فأين توارت هذه الحكمة المرحة ؟

لقد كنت فيما مضى أتوقع السعادة فأرسلتم على طريق بومة مروعة مشئومة فتبددت أمانيَّ العِذاب

نذرت يوماً أن أرتجع عن كل كراهة ، فحولتم كل ما حولى إلى قروح ، فأين مضت مخلصات نذورى الطاهرات ؟

لقد مررت على سبيل السعادة كفيف البصر فرميتم على طريق الأعمى كوماً من الأقذار فأصبحت كارهاً للطريق القديم الذى تلمسته . وعند ما توصلت إلى القيام بأصعب أعمالى ، عند ما تمكنت من الاحتفال بالانتصارات التى تغلبت فيها على ذاتي أهبتم بمن يحبوننى إلى الهتاف قائلين بأننى أوقعت بهم أشد الآلام

والحق أنكم لم تنقطعوا عن تشريد خير العاملات فى قفيري وتحويل جناها إلى علقم مرير ؛ ولكم أرسلتم إلى إحسانى أشد المتسولين إلحاحاً ودفعتم أهل القحة ليطوفوا باشفاقى وهكذا نلتم من فضليتى وهي ممنعة بإيمانها

وكنت كلما قدمت أقدس ما عندى محرقة للتضحية تسارعون فى تقواكم إلى إحراق أدسم ذبائحكم لتتصاعد أبخرة شحمها مدنسة خير ما قدست

وطمحت يوماً إلى الرقص متعالياً بفنى إلى ما وراء السبع الطباق فأفسدتم على أعز المنشدين لدى ، فرفع عقيرته بأفظع الأناشيد وقرع أسماعى بنغمات الأبواق الحزينة الباكية

لقد كنت قائلا أيها المنشد البريء ، إذ غدوت آلة في يد الغدر فقضت نغماتك على خشوعى بينما كنت أتهيأ للقيام بأروع رقصى

وما أنا بالمعبر عن أسمى المعانى بالرموز إلاعند ما أدور راقصا ، لذلك عجزت أعضائى عن رسم أروع الرموز بحركاتها . فأرتج على وامتنع عليَّ أن أبوح بسر آمالى . لقد ماتت أحلام شبابى وفقدت معانيها المعزيات

إننى لأعجب لتحملى هذه الصدمات وأعجب لصبرى على ما فتحت فيَّ من جراح ، فكيف أمكن لروحى أن تبعث من مثل هذه القبور ؟

أجل إن فيَّ شيئاً لا تنال منه السهام مقتلا ، ولا قبل لأحد بدفنه لأنه يزحزح الصخور عنه فتتحطم ، وما هذا الشيء إلا إرادتى ؛ والارادة تجتاز مراحل السنين صامتة لا يعتريها تحول وتغير . إن إرادتى قديمة لا تنى تدفع قدمى إلى السير فهى القوة المتصلبة المتعالية عن الفناء

ليس فيَّ من عضو لا يصاب إلا قدمي السائرة إلى الأمام تدفعها هذه الارادة الثابتة الصامدة المتجلدة التى تخترق المدافن دون أن تنطرح تحت لحودها

إن فيكِ وحدكِ يا إرادتى يصمد ما لا تبدده أيام الشباب ، فأنت لا تزالين حية وفتية تملأك الآمال ، تجلسين على ركام المدافن وقد طبع الزمان عليها قبلاته الصفراء . إنك لن تزالي أيتها الإرادة هدّامة لجميع القبور ، فسلام عليك يا إرادتى ، لأنه لا بعث إلا حيث تكون القبور

هكذا تكلم زارا .... فيلكس فارس

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٩٨ — صرت فى راحة ابن أيوب أقرا

(أعظم مروحة فى الدنيا)

فى (ثمرات الأوراق): قال أبو الفوارس بن اسرائيل الدمشق: كنت يوماً عند السلطان صلاح الدين بن أيوب، فحضر رسول صاحب المدينة ومعه قَوْد (1) وهدايا، فلما جلس أخرج من كمه مروحة بيضاء عليها سطران بالسَّعَف (2) الأحمر وقال: الشريف يخدم مولانا السلطان ويقول: هذه المروحة ما رأى السلطان ولا أحد من بنى أيوب مثلها، فاستشاط السلطان صلاح الدين غضباً، فقال الرسول: يا مولانا السلطان، لا تعجلْ قبل تأملها، وكان السلطان صلاح الدين ملكا حليما فتأملها فإذا عليها مكتوب:

أنا من نخلةٍ تجاورُ قبْرا ساد من فيه سائرَ الخلْق طُرا
شملتنى عناية (القبر) حتى صرت فى راحة ابن أيوبَ أُقرا

فإذا هى من خوص النخل الذى في مسجد الرسول فقبّلها السلطان صلاح الدين، ووضعها على رأسه، وقال لرسول صاحب المدينة النبوية: صدقتَ فيما قلتَ من تعظيم هذه المروحة !!!

١٩٩ — لم يحلنى الا على الأزهار

قال أبو جعفر الذهبي لفاضل أديب جمع بينه وبين فاضل أديب:

أيها الفاضلُ الذى قد هدانى نحوَ من قد حمِدتُه باختيارِ
شكر اللهُ ما أتيتَ وجازاك ولا زلتَ نجمَ هَدْى لسارِ
أىُّ برقٍ أفاد أىَّ غمامٍ وصباحٍ أدّى لضوءِ نهارِ (3)
وإذا ما غدا النسيمُ دليلى لم يُحِلنى إلا على الأزهار

(1) القود (بفتح القاف وسكون الواو): الخيل أو جماعة منها
(2) السعف: ورق النخل
(3) «وصباح» أى وأى صباح. والشرط على مثل هذا هو العطف على مماثل المحذوف. وبيت (الكتاب) وهو لأبى دؤاد:
أكل امرىء تحسبين امرأ ونار توقد بالليل نارا
ومن (أمثلته وهو من أمثالهم): ما كل سوداء تمرة ولا كل بيضاء شحمة

٢٠٠ — الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

العباس بن الأحنف:

تعتلّ بالشغل عنا ما تكلمنا
الشغل للقلب ليس الشغلُ للبدنِ

قال أبو الفرج الأصفهانى: لا أعلم شيئاً من أمور الدنيا خيرها وشرها إلا وهو يصلح أن يُتمثل به بهذا النصف الأخير

٢٠١ — يستر المحاسن كما يستر القبائح

نقل ابن الجوزى عن بعضهم قال:
قلت لجاريتي: ألا تلبسين الحلى؟
قالت: لا، لأنه يستر المحاسن كما يستر القبائح
ابن الرومى:

وما الحلْيُ إلا زينة لنقيصة يتمم من حسن إذا الحسن قصّرا
وأمّا إذا كان الجمال موفَّراً كحسنك لم يحتج إلى أن يُزوّرا

٢٠٢ — كلنا فى الهوى سوا

ابن زريق المقدسى:

كلّ من جئتُ أشتكي أبتغى عنده دوا
يتشكّى شكيّتى كلّنا فى الهوى سوا !!!

٢٠٣ — فترجمت العيون عن القلوب

فى (ديوان المعانى): عن أبى عكرمة قال: أنشدت أعرابياً قول جرير:

أبدّل الليل لا تسرى كواكبُه
أم طال حتى حسبت الليل حيرانا ؟!

فقال: هذا حسن، وأعوذ بالله منه! ولكن أنشدك فى ضده من قولى، وأنشدنى:

وليلٍ لم يقصره رقادٌ وقصره لنا وصْلُ الحبيبِ
نعيمُ الحبّ أورق فيه حتى تناولنا جناه من قريبِ
بمجلس لذّة لم نقوَ فيه على الشكوى ولا عدّ الذنوبِ
بخلنا أن نقطّعه بلفظٍ فترجمتِ العيونُ عن القلوبِ

فقلت له: زدنى فما رأيت أظرفَ منك شعراً. فقال: حسبك.

٢٠٤ — فأين عنها نعزف ؟

قال الحسين بن الحسين بن مطير :

إنّ الغوانيَ جنةٌ ريحانُها   نَضِرُ الحياةِ فأين عنها نعزف؟(١)
لولا ملاحتهنّ ما كانت لنا   دنيا نلذّ بها ولا نتصرّف

٢٠٥ — دواء اللبس الحبس

كان بعض الولاة إذا اشتبه عليه حكم حبس الخصمين حتى يصطلحا ، ويقول : دواء اللبْس الحبْس . . .

٢٠٦ — مايصنع الشيطان بين الحيطان ؟

رأى أبو نؤاس غلاماً جميلاً يمشى فى بعض السكك فقال له : ماتصنع الحور بين الدور ؟

فقال الصبي : مايصنع الشيطان بين الحيطان ؟ !

٢٠٧ — كأنى فى عيونهم السماح

بكر بن النطاح :

تراهم ينظرون إلى المعالى   كما نظرت إلى الشيب الملاحُ
يُحِدّون العيونَ إلىّ شَزْراً   كأنى فى عيونهم السماحُ

وهذا بديع فى حسنه ، بليغ فى تشبيهه

٢٠٨ — لم يجد أحمق يقبله سواك

أنشد رجل الفرزدق شعراً ، وقال : كيف تراه ؟

فقال : لقد طاف ابليس بهذا الشعر فى الناس فلم يجد أحمق يقبله سواك

٢٠٩ — انما سرق محجنى

قال الجاحظ في (كتاب الحيوان) : حدثنا حماد بن سلمة قال : كان رجل فى الجاهلية معه محجن يتناول به متاع الحاج سرقة فاذا قيل له : سرقت قال : لم أسرق إنما سرق محجني . فقال حماد : لو كان هذا اليوم حياً لكان من أصحاب أبي حنيفة (٢) .

٢١٠ — دف ومزمار ونغمة شادن

ابن سيد الناس :

يا عصبة ما ضرّ دين محمدٍ   وسعى إلى إفساده إلا هي
دفٌ ومزمارٌ ونغمة شادن(١)   أرأيتَ قطّ عبادةً بملاهِ ؟ !

٢١١ — اذا انقطع وصلته

قيل لأعرابى كان يُسهب فى حديثه : أما لحديثك هذا آخر قال : إذا انقطع وصلته . . .

٢١٢ — قد جاءك بالشمال فأته باليمين

فى (نزهة الألباء فى طبقات الأدباء) للأنبارى : حكى أبو زكرياء (التبريزى) أن المتنبى كان بواسط جالساً وعنده ابنه مُحسَّد قائماً وجماعة يقرأون عليه فورد إليه بعض الناس فقال : أريد أن تجيز لنا هذا البيت وهو :

زارنا في الظلام يطلب سراً   فافتضحنا بنوره فى الظلام

فرفع رأسه وقال : يا محسد ، قد جاءك بالشمال فأته باليمين فقال :

فالتجأنا إلى حنادِس شَعْرٍ   سترتنا عن أعين اللوّام

قال أبو الجوائز (الحسن بن على الواسطي) : معنى قول المتنبى لولده قد جاءك بالشمال فأته باليمين أن اليسرى لا يتم بها عمل وباليمني تتم الأعمال ، فأراد أن المعنى يحتمل زيادة فأوردْها . وقد ألطف المتنبى فى الإشارة ، وأحسن ولده فى الأخذ

٢١٣ — أنتم الأطباء ونحن الصيادلة

سأل الأعمش أبا حنيفة عن مسائل فأجاب ، فقال الأعمش : من اين لك هذا ؟

قال : مما حدّثتَنا

فقال : يامعشر الفقهاء ، أنتم الأطباء ونحن الصيادلة

---

(١) نعزف عنها : ننصرف عنها . والزاى تكسر وتضم

(٢) عدو لأصحاب الرأى ، القياس يقول . .

(١) الدف : بضم الدال وفتحها

مختارات من أدب الرافعي

أغاني الشعب

« لم يوفق شاعر من شعراء العربية توفيق الرافعي في تأليف الأناشيد ، ولم يكتب لنشيد وطني أو طائفي من الذيوع والشهرة والانسجام مع الألحان ما كتب لأناشيد الرافعي ؛ فكان بذلك خليقاً أن نسميه « شاعر الأناشيد »

وهذا نشيد الكشافة المصرية « اسلمي يا مصر » ، ونشيد شباب الوفد « حماة الحمى » ، ونشيد الشبان المسلمين ، ونشيد بنت النيل ، ونشيد تلاميذ المدارس الثانوية « مجداً مجداً مدرستي » كلها من تأليف الرافعي ، وهي دائرة على كل لسان في كل حفل أو ناد

« وعرف الرافعي لنفسه هذه الميزة التي فاق بها شعراء العربية عامة في باب هو من الشعر في هذا العصر صلبه وقوامه ، فأجمع أمره على إخراج ديوان « أغاني الشعب » يضع فيه لكل جماعة أو لطائفة من طوائف الشعب نشيداً أو أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانيها ؛ وقد جرى الرافعي في هذا الميدان شوطاً بعيداً ، وأنجز طائفة كبيرة من أغاني الشعب نشر بعضها وما يزال سائرها في طي الكتمان بين أوراقه الخاصة ومؤلفاته التي لم تنشر بعد ، ولا أدري متى يقدر لها أن تنشر ... !

« والذي أنشره اليوم نشيد من هذه الأناشيد ، وضعه الرافعي على لسان الفلاحة المصرية ، وسيجد القراء في أسلوبه ومعانيه شيئاً مأنوساً يحببه إلى الشعب ويخفف وقعه على فؤاده ولسانه »

محمد سعيد العريان

نشيد الفلاحة المصرية

الفجر قد غبّر ثم لاحا
والديك قد أذّن ثم صاحا
وأطلقتْ حمامتي الجناحا
والكلبُ بالباب غدا نبّاحا
واشتاقت البهائم السّراحا هيّا إلى غيطك ، سُقْها : حا ، حا

أروح والجارةَ نملا الجرّة
نمرّ بالغيط القريب مرّه
نرى الهنا والفرحَ والمسرّه
يارب لا تنزل بنا مَضَرّه
وا كتب لداري ، رزّ والأفراحا هيا إلى غيطك ، سقها : حا ، حا

البنتُ يا مولى الدعا المجابِ
إحفظ عليها صحةَ الشبابِ
وافتح على أولاديَ الأحبابِ
مَن راح للغيط وللكتّابِ
ذا يقرأ الغيطَ وذا الألواحا هيا إلى غيطك ، سقها : حا ، حا

يا نخلة الغيط احذري الغرابا
يا نعجة الغيط احذري الذئابا
يا صاحب الغيط احذر العذابا
من الربا ، والفقرَ والخرابا
إن الربا ليس لنا مُباحا هيا إلى غيطك ، سقها : حا ، حا

إياكَ أن تذكر لي (الخواجا)
فقد رأيتُ جارنا المحتاجا
راحَ إليه مالُه وماجا
وباع حتى البطَّ والدّجاجا
لا خير فيمن جانب الصلاحا هيا إلى غيطك ، سقها : حا ، حا

إياك والرهن على الغيطانِ
فتُنزِل الدود على الأقطانِ
وتفتح الأبوابَ للشيطانِ
وتجعل الهدمَ على حيطاني
الشمس جاءت والصباح راحا هيا إلى غيطك ، سقها : حا ، حا

أنا ابنةُ الفلاّح أمُّ النصرِ
فلاّحة يا بنت هذا العصرِ
لكن كوخي من أساس مصرِ
يُسْنِدُ فيها ركن كلِّ قصر
هلُمَّ غنّي معنا الفلاّحا هيا إلى غيطك ، سقها : حا ، حا

سنة ١٩٠٧

مصطفى صادق الرافعي

الغـــــدير

على صفحتَيْكَ تلوح النجومْ   وفوق لجينك يلهو القمرْ !
مياهك راكدة كالهمومْ !   أأفنى مياهك طول السهرْ ؟

ترف عليها طيوف النخيلْ   وترقص فيها ظلال الغصونْ
وتنْسَابُ منهوكة كالعليل   طواه الأمي واحتواه السكونْ !

وتمضى الهوينى رويداً كما   يمر الزمان على اليائسِ !
وتسبح فى صمتها مثلما   يجوب الكرى مقلة الناعسِ !!

فياسارياً ماينام الدجى   وما يستطيب الكرى والوَسنْ
تسائل عيني عنك الحجا :   أهذا الغدير رقيب الزَمنْ ؟ !

تلف الحقول وتطوى القرى   وما لك من صاحب أو رفيقْ
أما ياغدير سئمتَ السُرَى   وبُعد المطاف وطول الطريق ؟!

فأيَّان تلقى غبار المسيرْ ؟   وأنَّى تلبِّى نداء العدَمْ ؟ !
وحتَّامَ تحيا حياة الأسيرْ   وفيها الملال ومنها السَّأمْ ؟

طويتَ القرون ولمَّا تزَلْ   فتيًّا كما كنتَ منذ القدَمْ !
كأنك في الأرض نور الأمَلْ   ينير الدياجى ويمحو الظُّلَمْ !!

تقبِّلك الوردةُ الهائمهْ   وترشف مِن فيكَ معني الأملْ
وتغضى فتحسبُها نائمهْ   ولكنها أسكرتْها القبلْ ! !

وتحضنك النسْمة المترفَهْ   وتشكو إليك لهيبَ الجوى
وتهمسُ فى أذْنك المرَهفهْ   حديث العتاب ونجوي الهوى

وترق وئيداً إلى الرابيهْ   وتعدو حثيثاً إلى المنحدَرْ
ونفسك دائبة ساعيهْ   وغيرك يشكو الونَى والخوَرْ !

وتشرق فى الظلمة الدامسهْ   كأنك فى الأرض معنى الهدَى
وتضحك فى الليلة العابسهْ   فعش هانئاً قد أمِنتَ الردَى

وأمواهك العذبة الشاديَهْ   ترتل لحن المنى باسمَهْ
هنا الشعر والسحر والعافيهْ   هنا الحب والفتنة الهائمهْ ! !

هنا قد عرَفتُ الهوى والجمالْ   وأدركْتُ كيف يكون الخلودْ
هنا قد درَى القلب معني الكمالْ   ومعنى الحياة وسِرَّ الوجودْ !!

ربك صِف ما وراء الغيوبْ   وحدِّثْ عن المقبل المنتظرْ
أناخت على كاهلِيَّ الخطوبْ   فجئتكَ أشكو إليك القدرْ !!

فيا معهد الحب أينَ الحبيبْ ؟   ويا موطن الحسن أين الهوى ؟!
تنكَّرْتَ لى فكأنى غريبْ   وما غيرتْنى صروف النوى !

تليد من جمال

رائعٌ واللهِ هذا الـوجه حالى القسمات
مُعجِبُ الحسنِ وسيم   رغم حيف السنوات
رغم شيْب قد تَمَشَّى   فى المعانى والسِّمات
وتراءى مستطيراً   طائفاً بالشعَرات
لم يزل حُسنُك رغم الـشيْب يسبى المُهُجَات
يأسر اللب ويُنْسى   كلَّ عذراء مهَاة
غضةِ الجسم توافت   كنضير الزهرات
غرةِ القلب لعوبٍ   خطرت كالنسمات
رائعٌ حسنُك مِن بيـن وجوه الغانيات
ووضئٌ يجذب الأعـين دون الأُخْرَيَات
رائعٌ كالشفق الغا   رب يُذكى اللهفات
ينبئُ الناظرَ عن ما   ضى الُحلَى والحَسَنات
وتليدٍ من جمالٍ   كان ممنوعَ اللَّدَات
كان شغلَ العابديه   وعناءَ العاذلات
لم يزل ينبئُ عنه   عذبُ تلك البسمات
وأرى أطيافَه فى   حُسن تلك اللحظات
إن يكن قد ودَّع الطيـشَ وسحرَ اللفتات
وغريرَ الضحكاتِ   وطروبَ الثرثرات
فقد اعتاضَ بحلم   ووقـار وأناة
رائعٌ ينبئُ عن قلـبٍ ملىء بالعظات
وبأشتات التجاريـب وجمِّ الذكريات
قد جَنَى حلواً من العيـش ومُرَّ الحادثات
فهو يَسبى اليوم بالُحسْـنِ ويَسبى بالصِّفات
وأحاديثَ عِذابٍ   كشهيِّ الثمرات
زانت الغيدَ رزانٌ   ذاتُ حُسنٍ وحَصاة

فخرى أبو السعود

سأغمض عينيَّ حتى أرى   خيالك يملأ لِي خاطرى
وأحيا بذكرك بين الورى   فهل أنت إن لم أعُدْ ذاكرى ؟!

« اسكندرية »   محمود السيد شعبان



مملكة النحل

عيشة النحل وتربية الحديثة

بقلم جمال الكردانى

أفراد الخلية

كلنا لا نجهل هذه الحشرة الصغيرة التي تعطينا العسل ، وقد يعدها من ليس على علم بمعيشتها من الحشرات الحقيرة مع أنها فى الواقع تنشىء من جوعها مملكة هى مثال الاستقلال والرق والنشاط . يعيش النحل معيشة اشتراكية فى جماعات تقدر زنة الجماعة منها بما يقرب من خمسة إلى ستة أرطال ، والجماعة تملأ ثلاثة أوأربعة أقداح ، وتتميز فى أفراد الجماعة الواحدة ثلاثة أنواع هى اليعسوب والذكر والشغالة

وقد يكون أوفق أن نعطى اليعسوب لقب ملكة الجماعة لجلالها وحسن سيطرتها على مثل هذا العدد الكبير — وهى وحيدة في الحالة العادية للخلية — ولكن تتعارض معيشتها بين الأفراد الأخرى للجماعة مع هذا اللقب إذ أنها تختلف عن عيشة ملوكنا بيننا ، فالأجدر إذن تسميتها أم الخلية ، ويعزز هذه التسمية أنها والدة كل نحلة فى الخلية تقريباً

والملكة لا تترك مدينتها إلا مرة أو مرتين للإخصاب فقط بل تمضى معظم حياتها فى ظلام الخلية ، وإن كان هذا حكم واجبها وهو وضع البيض . وقد يشغلها هذا الواجب الدقيق عن الالتفات إلى شئ سواه فلها خدم بمرتبة الوصيفات لملكاتنا تحرسها وتقدم إليها الطعام وتؤدى لها غير ذلك من الخدمات . وإذا ساعدتنا الظروف على رؤية ملكة الخلية يتضح لنا جلالها إذ نجدها على القرص وحولها ما يقرب من عشرين نحلة تواجهها دائماً وتأبى أن توليها ظهرها تأدباً ، وهذا الحرس ككل أفراد الجماعة يقدم حياته فداء اليعسوب إذا لزم ذلك

ويمكننا تمييز اليعسوب بطول مؤخرها لوضع البيض وقصر جناحيها ، لأنها كما قلنا لا تطير خارج الخلية كثيراً . وللملكة حمة بلغ من عفافها أنها تأبى أن تلدغ بها من هو أقل منها وأضعف سلطاناً ، فهى لذلك لا تستعملها إلا لمحاربة مثيلاتها الملكات إذا اقتضت الضرورة

والذكر ليس كبيراً كاليعسوب وإن كان منظره أضخم وليس له حمة . ولكون وظيفته تقتصر على إخصاب الملكات الصغيرة لا يوجد منه فى الخلية غير بضع مئات . يعيش الذكر فى الخلية عيشة رخاء وراحة ، لا يشترك بقسط من العمل ، فلا يجمع هباء النبات ولا رحيق الأزهار بل تطعمه العملة ؛ وإذا أراد الزيادة انقض على ما هو مخزون بالخلية . ويتخذ الذكر له ركناً بعيداً عن جلبة الخلية فينام حتى منتصف النهار ، ويخرج بعد تناول الطعام شاقاً صفوف العملة محدثاً حركة بين باقي النحل ولا يبالى حتى بالحراس فيطير إلى الأزهار البعيدة ليعرض جسمه لأشعة الشمس وهناك يشاكس الرعاة من النحل فيقلبها أثناء جمع قوتها . وفى الأصيل يرجع إلى الخلية بطنين عال فيتناول غذاءه وينام إلى اليوم الثاني . وهذه الحياة حياة كسل ولا بد أن تنتهى ككل شئ لذيذ فى وقت قريب ، ففى الشتاء عند قلة الغذاء تنقض عليه العملة فتقتله وينتهى الرخاء بالفناء

أما العاملة أو الشغالة فهى أصغر أفراد النحل جسماً ، وقد يكون ذلك استعداداً طبيعياً يساعدها على تأدية أعمالها الشاقة فى خفة ونشاط . والشغالة أكثر أفراد النحل عدداً فقد يصل عددها ٣٠٠٠٠ فى الخلية الواحدة . وكل واحدة لها واجبات خاصة وعندها استعداد طبيعى لأدائها ، فمنها يتكون حرس الخلية ورعاة الحقول والمربيات إلى غير ذلك . ويخيل إلينا أن كل عاملة تنافس غيرها بالسعى والجد فهى تقضى حياتها لا تميل إلى الكسل ولا تعرف الرفاهية

وأهم عمل للشغالة تموين الخلية بالغذاء فتطير الرعاة من زهرة

إلى أخرى ومن حقل إلى حقل يساعدها على ذلك زوجان قويان من الأجنحة ، الأماميان منهما أكبر من الخلفيين ، وإذا مازارت زهرة تدخل لسانها الطويل المغطى بالشعر فى قاعدتها وتمتص الرحيق . وأحب الأزهار إلى النحل هي ذات اللون الأزرق والأرجوانى والأصفر ؛ وتحب كذلك الأزهار الحمراء المشوبة بألوان أخرى زاهيـة مثل حنك السبع . وللنحلة غير العينين المركبتين ثلاث أخرى بسيطة على شكل مثلث (.·.) ويختلف شكلها فى الذكر هكذا (.·.) ، وهذه العيون تساعدها على اختيار ما تريده من الأزهار . وطبيعى أن تعاود النحلة زهرة أو حقلاً عدة مرات لأن قدرتها على الحمل لا تمكنها من أخذ كل ما يروق لهـا من زهرة ما مرة واحدة . ويساعدها على زيارة الزهرة نفسها مرات عدة ما تفرزه عليها من رائحة خاصـة تميز منطقة هذه الزهرة عن بقية مناطق الحقل . ومن هنا نقدر قوة حاسة الشم عند النحل . وأثناء انتقال الرعاة فى الحقل وزحفها على أزهاره المختلفة يجتمع هباء النبات في شبه كيس فى الرجلين الخلفيتين للنحلة ، فإذا دخلت أخرى تركت بعض هذا الهباء بدون قصد ، وبذلك يحدث الإخصاب بين الأزهار . وكثيراً ما يربى النحل فى المزارع لهذا الغرض . وعلاوة على جمع رحيق الأزهار تقوم الشغالة بصنع أقراص العسل الشمعية وملئها بالشهد نفسه . ومن واجبات المربيات حراسة البيض وتقديم الطعام للصغار . وعلى عاتق العملة تقع حراسة الخلية وأقراصها ومليكتها من كل معتد أو فضولى كالدباب والعثة . وألد أعداء النحل هو الزنبور الأحمر (زنبور البلح)

وينقسم النحل بحسب الجهة التى يعيش فيها إلى عدة أقسام ويتميز كل نوع من الآخر بحجمه ولونه ، فالنحل البلدى أو المصري صغير مائل إلى البياض ، أما القبرصي فلونه أحمر وأضخم من المصرى . وهناك نوع يعيش فى إيطاليا وهو أطول قليلاً من القبرصى . أما النحل الكرنيولى ويعيش فى يوغوسلافيا فلونه أسود وهو أطول من الايطالى وأضخم من القبرصى

الاستعمار والخراب

نواة مستعمرة النحل ملكة ملقحة لوضع البيض ، فبعد ستة أيام من خروجها من العذراء تطير إلى علو بعيد ويطير وراءها الذكور ؛ وأثناء هذه المسافة الطويلة تخور قوى بعض الذكور فيسقط إلى الأرض ؛ وفى النهاية تختار الملكة أحدها وهو الذكر المثابر على الطيران ويكون عادة من خلية غير التى أنتجت هذه الملكة . ويموت الذكر بعد عملية التلقيح ، وتقتل العملة مابقى من الذكور فى الخلية وعند عودة الملكة ملقحة تظهر أعضاء التذكير البيضاء اللون متصلة بفتحتها التناسلية إذ تنفصل عن جسم الذكر عقب السفاد . وإذا ماوصلت الملكة إلى الخلية استقبلتها (الشغالة) بالالتفاف حولها ؛ وبعد يومين تبتدئ فى تأدية وظيفتها فتضع ما يقرب من ٤٠٠ بيضة كل ٢٤ ساعة ، وتستمر على نشاطها سنتين أو ثلاثا

وللملكة قدرة على وضع بيض ملقح وبيض غير ملقح ؛ فالأول ينتج الملكات والخناث (العملة) تبعاً لنوع الغذاء الذى يقدم لليرقات بعد فقسها و تبعاً لشكل الثقوب التى تربى فيها ، والثانى ينتج الذكور

ومدة إفراخ البيض ثلاثة أيام فى جميع الأفراد . وعند خروج اليرقات الصغيرة تتغذى جميعاً بالغذاء الملكى مدة ثلاثة أيام وهو سائل يشبه اللبن تفرزه الشغالة الصغيرة من غدد خاصة فى رأسها ؛ وبعد هذه المدة تتغذي الشغالة بمزيج مركب من العسل وحبوب الطلع يسمي بخبز النحل . أما يرقات الذكور فتتغذى بخبز النحل مع جزء من الغذاء الملكى وتستمر الملكات على غذائها . وتمكث يرقات الملكات خمسة أيام إلى أن تشرنق ، وكذلك يرقات الخناث. أما يرقات الذكور فتمكث ستة أيام ، وفى هذه الأثناء تنسج حولها شرنقة تتحول داخلها إلى عـذراء . وبعد مضى سبعة أيام على عذراء الملكات وثلاثة عشر يوماً على عذارى الخناث وخمسة عشر يوماً على عذارى الذكور تخرج منها الحشرات الكاملة

وتعمر الملكة زمناً طويلا قد يصل إلى أربع سنوات ، وتضع فى السنوات الأولى من حياتها ما متوسطه ٤٠٠ بيضة فى اليوم، ثم يقل شيئاً فشيئاً فى السنوات التالية ؛ ولذا يستحسن تغيير الملكة بأخرى جديدة كل سنتين أو ثلاث حتى لا تضعف الخلية

وتعيش الخنثي زمناً يختلف من عشرة أيام إلى ستة أسابيع تبعاً لمقدار الشغل ودرجة صعوبته: وغالباً تقضى الخناث التى تولد فى الخريف فصل الشتاء فى راحـة قليلة ، ثم تعاود عملها فى فصـل الربيع الذى تنتهى فيه حياتها . والذكور لا تعمر كثيراً وليس لها منفعة معظم السنة بل أنها فضلا عن ذلك تتطفل على ما تجمعه الشغالة

وهكذا تكون المستعمرة . وتستمر الملكة فى وضع البيض والشغالة تخدم الخلية ، فإذا مات جيل من الشغالة حل محله جيل يعقبه وهكذا . وفى حالة عدم تلقيح الملكة ، وذلك ينشأ عن عدم



حديث لأميل لودفيج مع الأديب المصري جورج فطاوى

تعد ضواحي سان موريتز قبلة الكتاب والفنانين منذ « نيتشه » فان منظر بحيرات سيلس ماريا في سفح جبال الألب مما يخلب النفوس ؛ ولهذا أقام بها الكاتب المشهور أميل لودفيج منذ سنوات. ولقد تعرفت منذ ثلاث سنين بمؤرخ حياة الرجال العظماء حينما كان يعد كتابه الكبير عن ماء النيل . ويسرني أن أسمع منه أثر رحلاته العديدة في مصر والسودان . ولهذا انتهزت فرصة وجودي في ضيافته يوماً لأسأله عن الأسباب التي حملته على وضع كتابه هذا الأخير . وقد وجدت على مكتبه ست تراجم لكتاب النيل « بالايطالية والمجرية والبرتغالية والفرنسية الخ » وغيرها الآن تحت التحضير ، ولكن الذي يهمه أكثر من هذا كله هو الترجمة العربية

قال إميل لودفيج : « إن الشرق يجذبني اليه منذ كنت صبيا . فقد كنت أسمع أبي يتحدث عن مصر فتبهج هذه الحكايات مخيلتي ؛ ذلك أن أبي — وكان يدعى هرمان لودفيج كوهين — كان طبيباً للعيون ، ودعاه السلطان عبد الحميد لاستشارته فاستمر في رحلته إلى مصر حيث اكتشف علاجاً للرمد ، وتغلغل في بيوت القاهرة العريقة ، وتعرف بأميرات عديدات من البيت المالك ، وزار السودان ، ودرس قبائل البشارية الذين كانوا يدعونه « حكيمباشي »

« وهأنذا قد عبرت وادي النيل من الحبشة إلى الدلتا بعد مضي نصف قرن على رحلة أبي . ولما أصبت بالملاريا في أثناء مقامي بالحبشة عند منبع النيل الأزرق كانت زوجتي هي التي قامت بوصف البحيرات الكبري ، ومن وصفها وضعت الخمسين صفحة المخصصة للنيل الأبيض . وقد حكم نقاد أمريكان عديدون بأن هذه الصفحات هي خير ما في الكتاب »

« المعروف أن مدام لودفيج هي نفسها إفريقية ، فقد ولدت في دربان من أب ألماني وأم اسكتلندية وهي ساعد زوجها الأيمن »

وأضاف لودفيج قائلاً : « ولقد وضع جلالة الملك فؤاد تحت تصرفي خلال ثلاثة أسابيع باخرة تدعي « الكاشف » صعدت

رؤية الذكور لها أو عدم اللحاق بها عند طيرانها ، تبدأ الملكة بعد ثلاثة أسابيع وتضع نوعاً من البيض غير ملقح يسمى بالبيض الكاذب وهنا تتعرض المستعمرة للخراب

أما إذا ماتت الملكة أو ضاعت فيبتديء الضعف يتطرق إلى الخلية ، وينتهز الأعداء فرصة هذا الضعف ، فتظهر دودة تفتك بالشمع ، وتغير الزنابير والنمل على النحل فتاً كله . وإذا استمر الحال كذلك شهرين فمصير الخلية الخراب إن لم تمد بملكة جديدة . وفي أغلب هذه الأحوال تبحث الشغالة عن بيضة ملقحة من بيض الملكة المفقودة وتنقلها إلى عين ملكية ، وعند فقسها تعامل معاملة الملكات في المعيشة والتربية والغذاء فتنتج ملكة حقيقية . أما عند عدم وجود بيض ملقح فتتطوع شغالة أو أكثر لوضع البيض ويكون غير ملقح طبعاً فتنتج ذكوراً فقط فتسير الخلية إلى الخراب . وتسمى مثل هذه الشغالة بالأم الكاذبة . ولا تستطيع الأم الكاذبة وضع البيض في صفوف متتالية وعيون متعاقبة كما هو شأن الملكة . كذلك تضع الأم الكاذبة أكثر من بيضة واحدة في كل عين ؛ وقد يكون البيض على جدر هذه العيون وذلك لعدم وجود غريزة وضع البيض عند الأم الكاذبة لقصر بطنها . ونجد في مثل هذه الحالة طنيناً مستمراً بالخلية وهذا لأن الطمأنينة لا تدب في نفوس أفرادها . ويجب اسعاف مثل هذه الخلية ببرواز به بيت ملكي من خلية أخري أو شراء ملكة جديدة ووضعها في الخلية ، إلا أن ذلك يحتاج إلى مهارة ودراية .

(البقية في العدد القادم)

جمال الكرداني

بها النيل ، وهذه الأسابيع الثلاثة مع رحلتي إلى اليونان هي أسعد أيام حياتي

و « النيل » من بين جميع مؤلفاتي هو الذي اقتضى أكثر الجهد والعناء والبحث والعمل الطويل ، لأن مؤلفاتي الأخري مثل « نابليون » و « بسمارك » و « لنكولن » و « غليوم الثاني » قد ألفتها خلال فصل صيف ، من مارس إلى نوفبر . وأما قصصي التمثيلية ، فقد كان يلزمني يومان اثنان لأكتب كل فصل منها . وعلى الضد من ذلك قد قضيت عشر سنوات لأضع مأساة نهركم العظيم التي أردت أن تكون من القوة بحيث تمثل أبطالي من البشر ، تخلصت من الوقائع والاحصاءات والوثائق لأعيد في ذهن القارئ جو ما عبرت من أماكن ، وما استنشقت من عطر لا سبيل إلى نسيانه ... لأن منشأ أكثر مؤلفاتي هو أثر شعور يتمكن مني ؛ فكتاب « ابن الرجل » مثلاً قد تمثل إلى ذهني ذات مساء بينا كنا في طريقنا من بيت المقدس إلى الناصرة »

ولما سألته عن الشخصيات المصرية التي احتك بها ، حدثني عن تشرفه بلقاء المغفور له الملك فؤاد فقال :

« لقد كان يتمنى لو وضعت حياة الخديو اسماعيل ، ولما كان الموضوع لا يلهمني الالهام الكافي فقد وعدته بأن أخصص بضع صفحات من « النيل » لذكري والده

والحق أن خير رجال الحكم المصريين الذين أتيح لي لقياهم هو سفيركم في لندن : الدكتور حافظ عفيفي باشا ؛ وفي خلال مروري بلندن في يونيه الماضي تحدثت طويلاً إليه . وقد أراد تقدمتي إلى جلالة « الملك فاروق » لولا أن سفري إلى أمريكا قد حرمني هذا الشرف »

وكان المسيو لودفيج عائداً فعلا من الولايات المتحدة حيث قضي زمناً بالقرب من الرئيس روزفلت في بيته الخلوي بهايد بارك . وهو يحمل لرئيس الحكومة الأمريكية أشد الإعجاب ، إذ قال :

« إنه رجل من نوع جديد ، ظهر لأول مرة في الحياة العامة ، رجل القرن العشرين ، الباسم أبداً ، المستبشر المتفائل على الدوام . فإنني ما رأيت قط نظرة أصفى من نظرته ، ولا وجهاً أشد من وجهه حزماً وعزماً . وهو رجل الحكم الوحيد السعيد الذي عرفت . . . وسيكون اسم كتابي عن حياة روزفلت : « بحث في الهناء والمقدرة » . والرئيس يود بكل جوارحه لو فرض على سياسة العالم التآلف والوفاق . وأعظم أمانيه وأعزها تدعيم السلام في أوربا

وله في هذا الصدد آراء دقيقة ثمينة ، غير أني أخشى أن يكون قد سبق السيف العذل ولات حين تدخل ؛ ولم أستطع أن أخفي عنه رأيي في هذا ، فإني أرى أوربا تندفع ، منخفضة الرأس ، نحو حرب جديدة ؛ وأشفق من أن تقع الواقعة حتى قبلما يترك روزفلت الحكم

والبحث عن الكوارث المقبلة لا يكون في الصعوبات المادية التي تعانيها أوربا بل في روح الشر والعداء المشبعة بها بعض الدول ، ولكن روزفلت ساهر ؛ والفرق بينه وبين الديكتاتوريين أنهم يريدون أن يخافهم الناس وروزفلت يريد أن يحبوه »

وعبثا حاولت معرفة رأي المسيو لودفيج في المعاهدة الانجليزية المصرية ، فقد قال :

« إن كل شيء يتوقف على السياسة الدولية وعلى الحرب القادمة التي لا أرى مفراً منها »

ومع ذلك فهو لا يخفي عطفه الشديد على الفلاح المجاهد العنيف الذي يشتغل بقوة ؛ وهو يعني كثيراً بما ينتظره من مصير . وكذلك يتمنى لو جمعت الأخوة يوماً ما بين العرب واليهود

على أن تشاؤمه لا يحول بينه وبين الأمل في مستقبل حضارتنا المهددة فهو يقول :

« إن ما ينبغي هو إنقاذ الميراث الأدبي المجيد للشاعر جيته من المتوحشين . وإذا عشت حتى عام ١٩٣٩ فإنني سأعيد كتابة حياة مؤلف فاوست . فهو الرجل العظيم الوحيد الذي لا أمل الإعجاب به طرفة عين . أما الآن فقد أتممت كتاباً يختلف اختلافاً محسوساً عن كل ما كتبته حتي اليوم وهو « كليوباترة » ، وقد كتبته في أربعة أسابيع ، كأنني كنت في حلم »

وهكذا تراني قد ظللت وفياً لبلادكم وأرجو أن أسافر إلى القاهرة هذا الشتاء في شهر فبراير ، وأتحدث في الجامعة .

ع . قطاري

حول مهمة دار الكتب

تحتفظ دار الكتب المصرية ، فضلاً عن مجموعة مخطوطاتها الحافلة ، بطائفة كبيرة من المطبوعات النفيسة النادرة ؛ ومنها ما يرجع تاريخ صدوره إلى القرن السادس عشر أو القرن السابع عشر ، وكثير منها من مطبوعات القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ؛ وهذه المجموعة من المطبوعات القديمة هي في الواقع أنفس ما تحتفظ به دار الكتب بعد مخطوطاتها ، من المصادر والمراجع القيمة التي لايستغنى باحث عن الرجوع إليها ؛ ومنها معظم المراجع في المباحث الاسلامية والشرقية ؛ ومنها مراجع عربية مثل تاريخ العميد بن المكين المطبوع في القرن السادس عشر ، ونزهة المشتاق للإدريسي المطبوع في أواخر هذا القرن ، وتاريخ ابن عربشاه ، وتاريخ ابن العبري المطبوعان في القرن السابع عشر ، ومراجع نفيسة أخرى تعتبر في حكم النادر والمخطوط .

وقد جرت دار الكتب حتى اليوم على تيسير سبيل البحث والمراجعة للباحثين القلائل الذين يعتمدون في مباحثهم على هذا التراث ، وكانت تسمح لهم باستعارة هذه الكتب خارج الدار بإذن خاص ولمدد محدودة ؛ ولكن حدث أخيراً أنها قررت حبس هذه المراجع وعدم التصريح بخروجها من الدار وقصر المراجعة فيها على القراءة بالدار ذاتها ؛ وحجة دار الكتب في ذلك المنع هو أن هذه المراجع أصبحت لندرتها كالمخطوطات يجب المحافظة عليها من الضياع ، وإبقاؤها أبداً داخل الدار في متناول الباحثين

ونحن مع دار الكتب بلا ريب في المحافظة على نفائسها والحرص عليها من الضياع والتبديد ؛ ولكنا نلاحظ أن هذا القرار معطل لمهمة دار الكتب الأصلية . ذلك أن دار الكتب لاتحتفظ فيما عدا هذه المجموعة من المطبوعات القديمة ، بكثير من الكتب والمراجع الحديثة القيمة ،وجل ما اقتنته الدار في الثلاثين عاماً الأخيرة من كتب القصص والأدب السائر والمؤلفات العادية ، وأما ما اقتنته من الكتب والمراجع النفيسة في هذه الفترة فقليل جداً بالنسبة إلى الآلاف المؤلفة من كتب القصص الفرنسي والانكليزي التي ما زالت تجد في اقتنائها ؛ ومعظم ما يقرأ ويعار لايخرج عن هذه الدائرة ، وهذه نتيجة يؤسف لها ، ولكن هذا هو الواقع ؛ وخير ماتقوم به دار الكتب هو معاونة البحث العلمي وذلك بوضع مجموعتها من المراجع القيمة تحت تصرف الباحثين ؛ فإذا كانت تريد اليوم أن تحبس هذه المجموعة بحجة المحافظة عليها فان ذلك يعطل البحث والمراجعة ، لأن معظم الذين يستفيدون من هذه المجموعة لا تسمح لهم ظروفهم بالمكث ساعات طويلة في دار الكتب ، ومن المستحيل عليهم أن يترددوا عليها بلا انقطاع ليقوموا بمباحثهم في حجراتها . وخير لدار الكتب أن تعود إلى نظامها القديم في إباحة استعارة هذه الكتب ، مع اتخاذ التحوطات والضمانات اللازمة . هذا مع سعيها في نفس الوقت إلى تجديد هذه المجموعة ، وذلك بشراء الطبعات الجديدة للكتب التي صدرت لها طبعات جديدة وهي كثيرة تعد بالآلاف . أما إذا كانت دار الكتب تريد أن تغدو متحفاً آخر ، وإذا كانت تريد أن تقتصر مهمتها الثقافية على تقديم كتب القصص والأدب الخفيف للشباب ، فذلك ما لا نسيغه ولا نعتقد أنه متفق مع وجودها ومهمتها الحقيقية .

تحقيق صحفي شائق

قال الرئيس جفرسون ذات مرة في تعليقه على مهمة الصحافة : « إن إلغاء الصحافة لا يجرد الأمة من مزاياها بقدر ما يجردها إغراقها في الكذب . وإن المرء لا يستطيع أن يصدق اليوم شيئاً تنشره الصحف » ، وقد مضى منذ عهد الرئيس جفرسون عصر طويل تطورت فيه الصحافة وغدت قوة عالمية يخشى بأسها . بيد أنه يبقى أن نتساءل دائماً : هل تؤدي الصحافة دائماً مهمتها طبقاً لمبادئ الحق والأخلاق ؟ هذا ما تصدى لتحقيقه بالنسبة للصحافة الأمريكية اثنان من أكابر الصحفيين الأمريكيين هما مدام سوزان كنجسبوري وهورنل هارت ؛ وقد نشرا نتيجة تحقيقهما في كتاب صدر أخيراً تحت عنوان « الصحف والأخبار » Neuspapers and He Neus وجرى هذا التحقيق تنفيذاً لرغبة « محسن مجهول » رصد لهذا الغرض مبلغاً كبيراً من المال لدى كلية « برين مور » ، وقدم إليها مجموعة كبيرة من قصاصات صحفية لبث يجمعها مدى أعوام . وقد استعرض المؤلفان في كتابهما حالة الصحافة الأمريكية اليوم ، والقواعد الأخلاقية والثقافية التي تسير عليها طبقاً لدستور الصحافة الأمريكي ؛ وخرجا من ذلك بأن الصحافة تجري في تغذية قرائها على أسلوب

آلى محض ، فتقصد قبل كل شيء إلى إثارة الشعور والحس ، وإذكاء تطلع القراء ؛ وإن معظم قراء الصحف الكبرى يستقون معلوماتهم ويكونون أفكارهم من قراءة العناوين ورؤوس الموضوعات . وأما من حيث الناحية الأخلاقية فان الصحف لا تسير على وتيرة واحدة ، وكل منها تخرج الخبر المعين فى الصيغة التى تناسب اتجاهها السياسى أو الاجتماعي ؛ ويترتب على ذلك أن الخبر الواحد يحدث آثاراً شتى طبقاً للصيغ والتعليقات المختلفة التى أخرج بها ؛ ومن هنا تضعف الحقيقة فى رواية الأخبار.

كذلك يتناول المؤلفان مسألة الاعلانات وما تحدثه من الأثر فى أذهان القراء . ومما يلاحظانه أن الصحف الزنجية تغرق فى نشر اعلانات السحر ؛ وبذلك تستمر على تغذية عقول الزنوج بهذا الضرب من التخريف . وإلى جانب ذلك تكثر الصحف البيضاء من نشر اعلانات المنجمين وقراء الطالع . وينوه المؤلفان فى تحقيقهما بنتيجة خطيرة هي أن الصحافة كانت مسئولة في العصر الأخير عن زعزعة الايمان بالديمقراطية والثقة فى مزاياها ، وذلك لما تغرق فيه من تشويه نتائج الحكم الديمقراطى ، ومن نشر الأنباء التى تسبغ الريب على صلاحيته من النواحى الاجتماعية والأخلاقية والسياسية .

نقول : وإنه ليجدر بأحد الصحفيين المصريين النابهين أن يقوم بمثل هذا التحقيق ، فيحدثنا عن الآثار التى أحدثتها الصحافة فى العصر الأخير فى عقلية المجتمع المصرى ، وعن مدى التزام الصحافة المصرية فى أساليبها وفي مقاصدها للقواعد الأخلاقية والثقافية الحقة .

توماس مان والجامعات الألمانية

كانت جامعة بون الألمانية ضمن الجامعات التى منحت كاتب ألمانيا الأكبر توماس مان درجاتها الفخرية ، وكان ذلك قبل قيام الوطنية الاشتراكية فى ألمانيا ، وأيام أن كان الكاتب الكبير فى إبان مجده ؛ ولكن ألمانيا الهتلرية تنكرت لجميع الكتاب الأحرار ، وكان توماس مان فى مقدمة ضحايا النظام الحالى ، فغادر ألمانيا إلى انكلترا مع أخيه الكاتب الكبير هينريش مان ؛ ثم نزعت عنه الحكومة الهتلرية جنسيته الألمانية ؛ وعلى أثر ذلك سحبت جامعة بون منه درجتها الفخرية ، وأعلنته بهذا التجريد فى خطاب موجز جاف ؛ فرد عليها توماس مان بخطاب مسهب يفيض وطنية ونبلا ؛ وفيه يحمل على النظام الحالى فى ألمانيا ويستعرض آثاره المخربة للحضارة الألمانية والتفكير الألمانى ؛ ثم يعرب عن حزنه لما أصاب الجامعات الألمانية فى هذا العهد من الصغار والذل . ويقول : « إن الجامعات الألمانية تحمل قسطاً عظيما من المسئولية فى المحنة الحاضرة لأنها أساءت فهم مهمتها التاريخية ، وسمحت بأن تكون مهاداً لتغذية القوى الهمجية التى خربت ألمانيا من الوجهات الاخلاقية والسياسية والاقتصادية ... وإن كاتبا ألمانيا يدرك مسئوليته وتتوق وطنيته إلى الإعراب من الوجهة المعنوية عن كل ما يحدث فى ألمانيا لا يستطيع أن يغض الطرف عن ذلك البلاء الذى يعصف بوطنه ، والذى يسحق الأجسام والعقول والأرواح ويسحق الحق والصدق » . وقد ظهرت رسالة توماس مان هذه إلى جامعة بون أخيراً بالانكليزية وأحدث نشرها أثراً عميقاً فى انكلترا وأمريكا . وتوماس مان هو بلاريب أعظم كتاب ألمانيا المعاصرين ، وهو يحمل جائزة نوبل للآداب

مدرسة اللغات الشرقية وخلف السير دينسون روس فيها

أعلنت « الصنداى تيمس » أن مدرسة اللغات الشرقية قد ساعدها الحظ فوجدت خلفاً للسر دينسون روس من بين رجالها هو المستر الف ترنر . وكان قد عين أستاذاً فى جامعة «سانسكرت» بلندن سنة ١٩٢٣ واشتغل مع السر دينسون روس فى مدرسة اللغات الشرقية

ومن المحتمل أن يكون المستر ترنر أقل معرفة بالشرق الأوسط من السر دينسون ، ولكنه من المستشرقين الذين لهم شهرة عالية . وقد تخصص فى فقه اللغات الهندية الآرية

كاتب فرنسى يزور مصر

وصل إلى الإسكندرية الأستاذ كلودفارير الكاتب القصصى الفرنسى المعروف . وسيزور القاهرة ويقضى يومين فيها ثم يبرحها عائداً إلى فرنسا

والمسيو كلودفارير ينتسب إلى جماعة من البارزين فى المجتمع الفرنسى والمشتغلين بالثقافة ؛ وتنظم هذه الجماعة الآن رحلة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط للدرس والسياحة



الربع الخالى

THE EMPTY QUARTER

تأليف الشيخ عبد الله فلبى

للأديب محمد عبد الله العمودى

المستر سنت جون فلبي ، صديق العرب وخليفة لورنس ، يعدُّ من أبرز شخصيات الاستشراق فى العالم العربى

اتصل بالملك ابن السعود فأحبه وأخلص له ، ورافق البدو فى البوادي كثيراً فبهرته عظمة الصحراء فرتادها ، وتقلب فى كثير من أقاليمها ، وتكاد آثاره تنحصر على قلب البلاد العربية حيث الملك ابن السعود وأقوامه الوهابيون .

له مؤلفات جليلة ، ومجهودات جبارة ، عرّف فيها عالم الغرب بشعب العرب الفتىّ الناهض وقائدهم الأعظم

وهذه المؤلفات هي المرجع الوحيد لمن يبتغي تاريخ نجد ، وحركة « الاخوان » الأخيرة ، وكلها باللغة الانجليزية منها : « قلب جزيرة العرب » و « بلاد الوهابيين » و « تاريخ بلاد العرب » و « الربع الخالي » أخيراً . . .

وهذا السفر الذى نحن بصدده يعد بحق من أروع الأسفار وأخلد الآثار ، وأدهش الأخبار ، وإلا فهل يخطر ببال أحد أن هذه الصحراء العربية التى طالما تهيبها الغزاة ، وارتدت عنها أنظار المستكشفين ، يقتحمها المستر فلبي فيبرز لنا عالماً مجهولاً ، وبقعة مسحورة ؟ !

هذا الربع الخالي يقع بين حضرموت ونجد ، واليمن وعمان ؛ وهو عبارة عن مفازة عظيمة ، واسعة الأكناف ، مترامية الأطراف تتناوح فيها الرياح ، وتدوى بها الأعاصير ؛ وللبدو فيها خرافات وأوهام يحار المرء فى صحتها كقولهم بوجود قصور قائمة ، وعيون جارية ، ومدن مطمورة تحت الرمال ! وما إلى ذلك من غريب الأخبار . . . والمؤرخ فى مثل هذه الحال لا يمكنه أن يرفض كل أخبار هذه البقاع لما عُلِم من أنها كانت آهلة بالعمران والسكان فى عصور واغلة فى القدم ... وما نعلم أحداً طعن فى هذه الرمال وكتب عنها تقارير قيمة ، وأبحاثاً لها أهميتها فى عالم الكشف سوى ثلاثة من الأوربيين هم : برترام توماس [١] ، وچيزمان [٢] والمستر فلبي أخيراً . . .

وكتبهم هذه لا تتعدى المشاهدة والملاحظة التى مرت بهم فى أثناء سيرهم فى طريق خاص ، بل فى طريق مأهول . فياليت شعرى ما علم المناطق المجهولة التى لم تطأها حتى أقدام البدو من أبنائها ؟ ؟

ومهما كانت الاحاطة محدودة وضيقة بهذه البقاع فإن المستر فلبى قد نشر لنا صفحة من صحفها المطوية ، وصورة من صورها الغامضة ، وقفنا على الشيء الكثير من أسرارها وخفاياها

وأمنيته فى اختراق هذه الآفاق تعود إلى سنة ١٩١٨ حتى تحقق حلمه فى عهد الملك ابن السعود بعد أن أخذ عليه إقراراً كتابياً أنه غير مسؤول إذا ما لحقه سوء فى الطريق ؛ فأمضى المستر فلبى وتوكل على الله . وانحدر من (الهفهوف) أو (الهفوف) باقليم الحسا فى عشرين رجلا و ٣٢ جملاً محملة بالماء والزاد والمتاع ، واستغرقت رحلته أكثر من شهرين ، اخترق الجنوب ثم انعطف نحو الشمال حتى بلغ (السُّلَيِّل) من أعمال (نجران)

ومؤلفه هذا يقع فى ٤٠٠ صفحة من القطع المتوسط ، ومحلى بصور رائعة تمثل مناظر ذلك العالم المجهول . وقد قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام ؛ الأول يشمل صحراء (جافوره) و (جبرين)

(١) Arabia Felipi
(٢) in unknawn Arabia

وهاتان المنطقتان تقعان جنوب الحسا فيهما عيون ونخيل ، وهجر « للاخوان » ثم تليهما إلى الجنوب منطقة (الرمال) وهي عبارة عن مفاوز ذات سطح متموج ؛ ويأتي القسم الثالث وهو « الربع الخالى » ويمضى المستر فلبي ويصور لنا شبحه المخيف كما يتصوره البدو وكيف يبتلع الأرواح ، ويدفن الأشباح ! وبعد هذا القسم فى نهاية الكتاب تأتى شذرات قيمة ، وملاحظات دقيقة ، لبعض العلماء الطبيعيين فى المتحف البريطانى بلندن عن النيازك التى سقطت فى بقاع الربع الخالى ، وعن أنواع غريبة الشكل من الطيور والحيوانات والحشرات ، ومن الأخيرة جمع صناديق قدمها للمتحف البريطانى . . .

والقيمة العلمية لهذا الكتاب يلمسها المرء فى ثنايا السطور ، فهو يرسم لنا مناظر خلابة للصحراء ، والأشياء المتصلة بمظاهر البادية تصويراً طبيعياً ، قريب الانتزاع ، صادق النظرة ، من وصف الاطلال التي مر عليها ، ومراتع الوحوش التى أبرد فيها ، وآفاق البادية المجلوة التى كانت من أمتع المناظر ساعة الأصيل !

وقد أفاض فى حياة الأفراد والجماعات التى تعيش في ذلك العالم المجهول وأخصهم « بنى مرة » و « المناصير » فعرض لحياتهم البسيطة الساذجة ، ومراعيهم المتجهمة المتناثرة فى عرض الصحراء ، وكيف أنهم يعتمدون فى قوتهم على لحوم الغزلان والوعول والأرانب التى تكثر فى تلك البرارى . .

وفى هذا الكتاب يكشف لنا المؤلف عن ناحية سياسية مجهولة بين حضرموت ونجد ؛ فمن المجزوم به أن القبائل الحضرمية المتاخمة لحواشى الربع الخالى من الصعب عليها الاتصال والامتيار من بلاد نجد ، لوجود هذه الفلاة الفاصلة ، ولكن المؤلف يميط اللثام ، ويرفع الظن ، ويعلمنا أن صلات القبائل الحضرمية فى الشمال وأخصها الصَّيْعر والعوامر والمناهيل متينة بالبلاد النجدية ، ولابن السعود سلطة نوعية على هذه القبائل ، فقد روى المؤلف فى ص ١٠٣ حادثة (سيف ابن طناف) شيخ مشايخ المناهيل فى (حضرموت) وكيف فاض إلى نجد من أقصى حدود حضرموت ومعه هجين من الأصائل ليقدمه لابن جلوي حاكم الحسا السابق دليلا على الولاء والخضوع !

ومن عجيب ما حدثنا به المؤلف فى ص ١١٦ أنه بينما كان يجوس خلال بعض الغياض يطارد الجعلان لاحظ سائلاً قرمزي اللون يسيل على لحاء إحدى الشجيرات ؛ فتبينه فوجده مادة صمغية تشبه تلك المادة التى أنزلها الله فى البرية على بنى اسرائيل ليقتاتوا بها عند رحيلهم من مصر وهى « المن » الواردة فى القرآن الكريم في قوله تعالى (وأنزلنا عليهم المن والسلوى) . وقد ذهب العالم الاسرائيلى الدكتور يهودا إلى أن هذه اللفظة مصرية قديمة بمعنى (لا نعرف) وذلك أنه لما خفى أمرها على بنى اسرائيل ، ولم يدركوا حقيقتها وكنهها كسوها هذا اللفظ الذى معناه في المصرية ما تقدم . ويزيد هذا العالم أن هذه اللفظة لا تزال شائعة الاستعمال فى اللسان العبرى الدارج : فهل لأستاذنا الدكتور ولفنسون أن يتكرم باماطة اللثام عن أصل هذه الكلمة ومصدر اشتقاقها ، وشجرة المن وما ورد عنها فى الآثار اليهودية ؟

ويمضى المستر فلبي ويصف لنا الشىء الكثير من القصور المتهدمة ، والآثار التى تشير إلى الماضى السحيق وخاصة فى منطقة جبرين [1] ، كما عثر هناك على حلق مفككة ، وخرز مبعثر هنا وهناك ، وشظايا خزف ، وجرار مدفونة فى الرمال !

ويعجبنا من المؤلف أنه كان فى أثناء الرحلة حركة فعالة ، فقلما ترك فرصة إلا وشغلها فى البحث والتنقيب ، خلال الأشجار وثنايا المخارم ، وادعاص الرمل ؛ وكان فى سيره لا يساير القافلة بل كان فى اتجاه آخر يتعثر بين انجاد الفلاة وأغوارها ، علّه يقع على جديد ، أو يتوصل إلى شىء غريب ، وقد كان له ما أراد فقد وضح لنا أن منابت الربع الخالى لا تنبت إلا العبل والعندب والعلقة والبركان والمرخ والحمض والغضا والحرمل والسمر والسرح ، وهذه النباتات يقتات بها حيوان ذلك الاقليم وتساعف الجمال فى رحلاتها الطويلة الشاقة . ومن أدهش ما حدثنا به المؤلف أنه توجد فى تلك الصحارى الغبراء مروج مخضلة ومناظر ساحرة ، لمسارح الابل ، ومراعي الشاء !

ولعل الظاهرة الطبيعية في ذلك البلقع من الأرض ، هي الرياح فقد كانت شديدة الدوى ، قوية الاعتكار ، ومع هذا فلها موسيقى عذبة ، ولحن مطرب ، ترنحت لها أعطاف الشيخ عبد الله وخال نفسه فى الـ music hall وذلك عند ما اعتلى قوزاً من الأقواز ، وكانت الرياح تصفر حواليه ، وهناك استرعى انتباهه لحن عذب ، ظنه لأول وهلة صادراً عن أحد رفاقه ، ولكن تبين له أخيراً أنها أغان مبعثها الرمل Singing Sands وقد

(١) هكذا يضبطها المؤلف بالجيم المعجمة ، مع أنها فى كتب الأدب بالياء المثناة ولعل للهجات القبائل دخلا في هذا من إبدالهم الياء جيما وبالعكس كما هو مشاهد فى حضرموت .

استكتب المؤلف أحد العلماء الطبيعيين عن أسبابها فى فصل أدرجه فى خاتمة الكتاب

وهذه الرياح الهوج كانت من أكبر الصعاب فى عرقلة سير الاستكشاف ومضايقة المؤلف فى أبحاثه ، فهو يحدثنا فى ص١٨٨ كيف ثارت الطبيعة ، فعصفت الرياح ، وانبعثت الأعاصير ، فزعزعت المضارب وحطمتها ثم استوى عليها الرمل وما أخرجوها إلا من بطن الأرض

وهذه الظاهرة ليس للشك فيها مجال ، فكثيراً ما سمعنا فى حضرموت أن الرجل يقف فى وسط هذا الرمل فما تمضى عليه خمس دقائق حتى يصير مغروزاً فيها ؛ والحضارمة لا يسمونه إلا « البحر السافى ! »

ويمضى المؤلف ويصف لنا الآبار في هذه الأصقاع ، فيحدثنا أنها كثيرة جدا ، وما على البدوى إلا أن ينبش الأرض على بعد بعض قوائم ، فيرى الماء وقد نزا من جوفها ! وحفظ هذه الآبار من سفى الرياح غريب ، فيقول إن البدو يغطون أفواهها بالجلود العريضة وأغصان الشجر ، وهم على اتفاق تام على رعاية هذه المصلحة العامة فى جميع تطوافهم

وعند ما دخل المؤلف منطقة (شنَّة) ص ٢٢٨ تراءت له منبسطات من الرمل محاطة بكثبان تكون شكل بحيرات وأخرى منها مستطيلة ، أدى بحثه إلى أنها بحيرات كانت موجودة من العصر الجيولوجى الثالث ، وكانت تتدفق اليها الأنهار من شتى أنحاء الربع الخالى ، حاملة الطمي معها ، ثم لم تلبث هذه البحيرات أن جفت وفاضت عليها أنفاس الرياح فغمرتها بكثبان الرمل !

ويظن المستر فلبى أن بلدة (شنة) لا تبعد عن البقعة التى كان وادى الدواسر يصب مياهه فيها في الأعصار القديمة ؛ ويعزز رأيه بأن حفافى تلك البحار لا تزال محسوسة حتى هذه الساعة فى الأجراف التى تعود إلى العصر الميوسينى في طرقات (جيبان) وأفاض المؤلف فى هذه الظاهرة الجيولوجية العجيبة التى خرجنا منها بأن بقاع الربع الخالى كانت آهلة فى عصور سحيقة بالسكان والعمار ، وكانت حضرموت وظفار وجبال القرا ، بل الشاطئ الجنوبي من الجزيرة العربية مغموراً بالمياه ؛ وكانت وديان الدواسر وتثلث وحبونة وسحبة وبيشة أنهاراً تصب مياهها فى رحاب الربع الخالى ؛ فلما جفت هذه الأنهار ، وأضحت ودياناً كما هى اليوم انحسر الماء عنها نخلت تلك البقاع فلم يبق فيها إلا هذه الآثار من الأصداف وأحجار البحر ، وفضلات الزجاج ، والصخور الغريبة التي شاهدها المؤلف وشحن منها صناديق . وقال عن وادى الدواسر إنه أعظم الأنهار القديمة ينحدر من جبال عسير واليمن فيمر على (دام) و(السُّلَيِّل) فيلقى بنفسه فى أحضان الربع الخالى !

وهذه النظرية المحيِّرة لم يقل بها المستر فلبى وحده ، بل فطن لها كثير من علماء الجيولوجيا كالطبرون والعالم الايطالى كاتانى داتيانو ، إذ يعتقدون استناداً إلى الأدلة الجيولوجية أن الجزء الجنوبى من بلاد العرب كان فى يوم ما مزدهراً بحضارة عظيمة تعود إلى ماقبل التاريخ ، أيام كانت هذه البقاع تأهل بأقدم أمم الأرض وأشدها قوة من بنى عاد . . .

وهذا السفر الجليل الذى خدم فيه المؤلف العرب لم يسلم من بعض الهنات ، من ذلك ما جاء فى ص ٧٧ عند الكلام على قبيلة « المناصير » فقال ، استناداً إلى ضعف رواية ، إنها قبيلة كانت تدين بالمسيحية واسمها يدل عليها !

وفى ص ٧٨ تكلم عن أجود أنواع الابل ، فقال إنها الابل التى تنتمى إلى قبيلة (آل بوشامس) من قبائل عمان ، وهذه القبيلة لاتعد من المسلمين ! بل تنتمى إلى المذهب الاباضي، ولهم صلاة عجيبة !

وهذه شطحة من (أخينا الشيخ عبد الله) ، فالاباضية فرقة من فرق الاسلام :

وفى بقاع الربع الخالى يوجد حيوان من نوع الماعز يسميه الأهالى « الوضَيْحى » وقد أطلق المؤلف عليه اللفظ الأفرنجى Oryh ، وهذه اللفظة لا تعنى إلا (الوعل) وهو يختلف عن « الوضيحى » فى انتصاب قامته ، وتقوس قرنيه مع انتظام عقد عليهما ، وهذا الحيوان يوجد بكثرة فى جبال حضرموت ، أما الوضيحى فيظهر أن اسمه العلمى Antelope

وفى الكتاب نبذة عن رملة (وبار) الشهيرة إذا ساعفتنا الظروف نقلنا منها شيئاً لقراء الرسالة

وأخيراً ، لا يسعنا إلا أن نهتف هتاف المعجبين بهذا المجهود الذى بذله المستر فلبى فقدم للعرب خدمة تذكر له أبد الدهر

محمد عبد الله العمودى
بدار العلوم

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧ }

5 me Année, No 220.

Lundi - 20 - 9 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة

مصـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٢٠ «القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ رجب سنة ١٣٥٦ — ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٧» السنة الخامسة

فهرس العـــدد

حقيقـــة النفس

هل إليها من سبيل ؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كان «ويندل هولمز» يقول — ولا يزال، على الأقل فى كتابه فقد شبع موتاً من زمان — إن الانسان فى حقيقته ثلاثة ؛ وإن «احمد» — مثلا — توجد منه ثلاث صور : فهنا أحمد كما يعتقد هو في نفسه، وهناك أحمد ثان كما هو في رأى محمد، وهناك أحمد ثالث هو الذى يتكون من اعتقاده فى رأى محمد فيه، وعلى هذا القياس يمكن أن يكون هناك ألف أحمد أو أكثر، ولا يكون لأحمد الحقيقى وجود فى الواقع، لأنه ضائع بين شخصياته المتعددة، ولأنه هو نفسه قلما يعرف حقيقة نفسه فكيف بمعرفة غيره ؟

كنت أفكر في هذا الذى قاله ويندل هولمز لأن صديقاً لى كان يبدو لي كأنه طائفة من النقائض جُمعت وخُلط بعضها ببعض وعُجن التراب فيها بالنار، ثم صيغ من هذا المزيج المتنافر وغيره، مما يخفى علينا، إنسان نعرفه باسمه، ولا نعرف كنهه وحقيقته ؛ وابتسمت وقد خطر لى أنه كالهربات التي يجد رجال الجمارك مكتوباً على صناديقها: «بطاطس» أو «زيتون»

ويفتحونها فاذا البطاطس أو الزيتون هناك ، ولكن حشوه حشيش أو رصاص أو غير ذلك من المحظورات ! وكنت أعجب له هل يدرك ، يا ترى ، أن له بواطن وظواهر مختلفات . وأنه أشخاص كثر لا شخص واحد ، وأن فى أعماقه تيارات شتى تتلاقى لتتدافع لا لتتساير ؟ فسألته عن ذلك فقال : « إنك لست أقل منى تعدداً ، أنت أيضاً لك جوانب كثيرة » فبينت له أنى لا أنتقد ولا أعيب ، وإنما أريد أن أفهم ، فكان مما سمعته منه : « إنك أنت أيضاً لك سيرة فى حياتك العامة ، وسيرة أخرى فى حياتك الخاصة ، ولك رأى تذيعه ورأى تضمره ، وشخصية تكشف عنها وأخرى تسترها ، ونزعة تبديها ونزعة تحجبها ؛ أو لعلك لا تتعمد شيئاً من ذلك ولا تفطن إليه ولا تدريه ولكنك على التحقيق تغير جلدك فى اليوم الواحد أكثر من مرة »

قلت : « إذن ما حقيقة الانسان؟ »

قال: «حقيقته يعلمها الذي خلقه وركبه فيما شاء من الصور »

قلت : « قد تؤدي هذه الحيرة إلى إنكار المرء لنفسه . أين أنا بين هذه الصور العديدة المتناقضة التى تبدو لى كأنها لى ؟ »

قال : « وما المانع ؟ »

قلت : « وإذا ضاعت نفسى ؟ إذا خفيت عنى حقيقتها ؟ »

فصاح بى وهو يضحك : « إذا ؟ تقول إذا ؟ إن حقيقتها ضائعة يا صاحبى من قبل أن تفطن إلى احتمال ضياعها ! تعال ... تعال »

قلت : « إلى أين ؟ »

قال : « وما سؤالك هذا ؟ أتكره أن تريح رأسك المتعب أو أن تنظر إلى صورة لجانب من نفسك الخفية المضمرة ؟ »

قلت : « ماذا تعنى ؟ »

قال : « أعنى أن النفس كتاب فيه ورق كثير ... كثير جداً ... ولكنه مطوى ... يحتاج إلى يد تفتحه وتقلب صفحاته ؛ هذه الأيدى هي المناسبات والظروف . وكثير من الناس تظل كتب نفوسهم مطوية لأن حياتهم لا تتيح لهم أسباباً تدعو إلى فتح الكتاب والنظر إلى ما فيه ... وقد تكون نفيسة جداً ، ولكنها تبقى مغلقة مجلدة ، لأن حياتهم تتدفق بانتظام فى مجرى مألوف مثلا ، لا يحوج إلى الرجوع إلى الكتاب والاستمداد من وحيه والاسترشاد بما فيه ... ملايين وملايين من الخلق هكذا ، وتراهم فترى البساطة والوضوح والجلاء . . . لاشيء يبدو خفياً أو معقداً . . . ولكن من يدري كيف يكونون لو أن الكتاب فتح مرة ؟ وماذا ترى يبقى حينئذ من البساطة والوضوح ؟ تعال ، تعال » .

قلت : « هل لي أن أعرف أى يد ستفتح لى اليوم كتابى وتقرئنى بعض ما فيه ؟ »

قال : « فتاة رشيقة ظريفة تنسيك الدنيا والسعى والكدح وراء الرزق » .

قلت : « ومعنا رابع أو رابعة ؟ »

قال : « رابع : أخوها »

فهممت بسؤال ولكنه زجرنى عنه ، وقال : « اركب اركب» . وبلغنا البيت فأطلق النفير فأطل الذى هو « أخوها » وصاح: « حالاً . حالاً »

وخرجنا إلى روضة على النيل وكانت جلسة ظريفة ممتعة ، نعمنا فيها بالضحك والحديث وأنس المجلس ثم رجعنا ، فسألنى لما صرنا وحدنا : « ما رأيك ؟ »

قلت: « لا أدرى ماذا تستفيد من هذه المجالس إلا الحسرة . أولى بك أن تقصر ... هو أحجى وأرشد »

قال : « لا أستطيع . إنى مدبر فعينى لا تزال تتلفت إلى ما أولى عنه . أنت أصغر مني فالذى أمامك لا يزال إن شاء الله أطول مما خلفت وراءك . وهل وراءك إلا الطفولة الغافلة والحداثة الجاهلة والشباب الغرير ؟ ولكنى أنا ورائى خير ما فى العمر . . . فلا يسعنى إلا أن أنثنى وأتلفت وأدور وأتوقف . غير أنى لا أتحسر لأنى أصح إدراكا لحقائق الحياة من أن أفعل ذلك ؛ وحسبى متعة النظر ولذة الحديث ، ومن متى أن أرى الشباب كيف يلهو كما كنت ألهو . ولست أحجم عن اللهو إذا تيسرت لى أسبابه وإلا فى لهو العقل الكفاية »

قلت : « اسمع . إنى لا أرى مما يليق بك أن . . . »

فصاح بى: « خل ما يليق بى لى ، فانه شأنى . واسمع . إن لي حياتين : حياة العمل وهذه مشتركة بينى وبين الناس وأنا فيها

جاد صارم ، وحياتى الخاصة وهذه لى وحدى وليس للناس شأن بها فيما لا يمسهم منها ... لا تعترض ... إن الناس جميعاً كذلك ومنافق كذاب من يدعى غير هذا»

ومن آرائه أن أهل المدن المتحضرين ليسوا أقل خشونة وجلداً من أهل الريف ، ولا أرق ولا أطرى كما يتوهمهم البعض . ومن قوله لى فىّ ذلك : « إنكم تنظرون إلى أفراد معدودين من ذوى اليسار والترف ، وتقيسون أهل المدن جميعاً على هؤلاء الآحاد وتنسون أن كثرة الناس من الفقراء الذين لا يكفون عن السعي والكدح فى سبيل الرزق ليلا ونهارا ... أين فى الريف من يتعب كتعب أهل المدينة ؟ أين في الريف من يعدم قوتاً ، ويبيت طاوياً كما يبيت الكثيرون من سكان المدن ؟ وأين هو هذا الترف فى حياة المدينة ؟ وليس فى المدن رذيلة إلا وفى القرى مثلها ؛ ولكن المدن مزدحمة غاصة ، وتيار الحياة فيها زاخر ، فالعيوب تبدو أبرز . كلا ، الانسان هو الانسان سواء أكان فى قرية سحيقة أم فى مدينة ، ولكن الحياة فى القرية أهدأ وضغطها على الأعصاب وإتلافها لها أخف وأقل ؛ فالناس فى المدن أطلب للترفيه، وأكثر مصارحة بالرغبة فيه »

وآراؤه فى مجالسه العامة غير آرائه فى مجالسه الخاصة ، فهو مثلا فى حياته العامة لا ينحرف مقدار شعرة عن تأييد التقاليد المقررة ، ولا يكف عن الدعوة إلى مغالبة النفس وضبطها وكبحها والحرص على الفضائل الاجتماعية ، ولكنه حين يكون بين إخوانه الذين اصطفاهم لا يتردد فى المعالنة بانكار الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، ويذهب إلى أن هذه كلها أكاذيب يستعان بها على تنظيم حياة الجماعة ووقايتها ما تجره الفوضى ، ويؤدى إليه إرسال النفس على السجية الساذجة بلا كابح . وعنده أن الانسان حيوان مصقول لا أكثر ، ولكن الصقل لايمنع أن تطغى عليه حيوانيته إذا استفزها شىء ، فلا تعود طبقة الدهان — وإن كانت سميكة — تنفع أو تصد . وما من إنسان فى رأيه يحجم عن الشر حتى من غير استفزاز إذا وسعه أن يقدم عليه وهو آمن . وكل امرئ يشتهى أن يكون له مال الأغنياء ، وقوة الأقوياء ، وسطوة الحاكم ، وبطش الظالم ، وفجور الفجار ؛ ولكنه يقيس قدرته إلى شهوته فيطلب ما فى طوقه ، ويقصر عما عداه ، وتفعل العادة والنظام المألوف والشرائع فعلها أيضا

ولست أعرفه مشى فى جنازة أو بكي على ميت، فإن هذه عنده سخافة . وحبه مع ذلك للحياة وجزعه من الموت أقوى ماعهدت، ووفاؤه لإخوانه وحدبه ورقة قلبه من الفلتات المفردة فى هذه الدنيا . وهو حين يذكر نظرية قديمة ظهر بطلانها وعفي عليها الزمن ، يخيل إليك أنه يؤبن ميتاً على قبره من فرط شعوره بالزوال؛ وإذا سمعته يبين فساد رأى رأيته يترفق بالرأى ولا يعنف فى تفنيده كأنما يتقى إيلامه وجرحه

وقد قلت له مرة : «إنك تهدم بيد ما تبنى بالأخرى» فقال : « كلا ، فان الذين أصارحهم بما أنطوى عليه من الآراء الخاصة — أو على الأصح أدع نفسي تتفتح على هواها بلا كابح فى حضرتهم — يسعهم أن يفهموا ويقدروا ، بل أن يهتدوا إلى أصح وأصدق من آرائي ؛ أما سواد الناس فأصلح لهم أن يبقوا على التقاليد ، وأن تتحدر حياتهم فى المجارى المقررة المحفورة من قديم الزمان ، وإلا ارتدوا إلى الهمجية . ثم إني أخشى أن أكون مخطئاً فكيف أستبيح أن أزلزل للناس نفوسهم ؟ ألا يمكن أن يكون الناس على صواب وأكون أنا الذى ركبت من الغلط أبلد الحمير ؟ جائز ... كل شىء جائز »

صحيح ! كل شىء جائز ! ولهذا تضيع الحقيقة

ابراهيم عبد القادر المازنى

تواردالخــــواطر

للأستاذ عباس محمود العقاد

قبل أربع عشرة سنة كتب صديقنا الأستاذ المازنى مقالا عن الخيام ألمع فيه إلى تصوف الخيام واستغرب أن يدين رجل مثله بخيالات المتصوفة وشطحاتهم البعيدة عن تحقيق العلم وتقرير الواقع لأنه « كانت له موهبة تنأى به عن التصوف : ذلك أنه كان رياضياً بارعاً ؛ ومما يذكر له فى هذا الباب تنقيحه التقويم السنوى تنقيحاً أظهر فيه من الحذق والأستاذية ما أطلق لسان جيبون المؤرخ الانجليزى بالثناء عليه . وله كذلك طائفة من الجداول الفلكية ومؤلف فى علم الجبر بالعربية ؛ والذهن الرياضى مجاله وعمله ضبط الحدود والحصر وتعليق النتائج بأسبابها والمعلول بعلته ، وهو عمل يتطلب من الدقة والعناية والترتيب والتبويب مالا يطيقه أو يقوى عليه ذهن المتصوف . ومن العجيب أن فتزجرالد لم يفطن إلى دلالة هذا ولا خطر له أن يسوق هذه الحجة فيما ساقه لتبرئة الخيام من التصوف »

ومن رأيى الذى لا أزال أراه أن الملكات الرياضية أقرب الملكات إلى التصوف والفروض البعيدة والعقائد الخفية ، فكتبت يومئذ بصحيفة البلاغ مقالاً عن القرائح الرياضية والتدين ، ناقشت فيه رأى الأستاذ المازنى وبينت فيه أسباب العلاقة بين القريحة الرياضية وبين التدين والايمان بالغيب ؛ وأهمها أن حقائق الرياضة ذهنية وليست خارجية ، فهى أقرب إلى الفروض وأبعد عن مراجعة الواقع الذى يراجعه علماء الحس والتجربة والمشاهدات العملية ؛ فاعتماد الرياضيين على البديهة أكثر من اعتمادهم على الملاحظة ، واستعانتهم بالفرض أكثر من استعانتهم بالتجربة : وموقفهم أمام المجهول موقف من يسلم به فرضاً ولا يستبعد فيه أى شىء ، وهذا سر تدينهم وإخباتهم وميلهم إلى تصديق المعجزات والخفايا وما شاكلها مما يلى البديهة الغامضة ولا تكاد تجمعه بظواهر الأشياء صلة . وفى عصرنا هذا لم يشتهر أحد من الرياضيين كما اشتهر أوليفر لودج الانجليزى وفلامريون الفرنسى وأديسون الأمريكى ، وكلهم من أعظم علماء الرياضيات ، وكلهم مسترسل فى إثبات أسرار الروح وكشف غوامض الاستهواء

قلنا : « لهذا تتآخى فروع هذه الحقائق أحياناً وتتآلف العلوم التى تبحث فيها وتتقارب الملكات التى تكون فى المشتغلين بها ، فيكثر من يجمع بين الفلسفة والرياضة ولا يندر أن ترى من يجمع بينهما وبين الموسيقى معاً . فالفارابى مثلاً كان رياضياً مبتكراً فى الموسيقى ، وفيثاغوراس أقدم فلاسفة ماوراء الطبيعة عند اليونان كان يبنى فلسفة الكون كله على النسب الموسيقية بين الأعداد . وقد مر بمصر قبل أيام نابغة من أفذاذ الرياضة هو ألبرت اينشتين صاحب فلسفة النسبية التى دهمت الناس ببدع فى تعريف الوقت والفضاء يكفى أن نذكر منها أن الخط المستقيم ليس من اللازم أن يكون أقرب موصل بين نقطتين . وهو فيلسوف رياضى وموسيقار بارع في العزف على القيثار . وليس يخفى الشبه القريب بين ملامح العظماء من الفلاسفة والرياضيين وملامح العظماء من نوابغ الموسيقيين . فقد تلتبس عليك صورهم حتى لا تكاد تميز بعضهم من بعض ولا سيما فى نظرات العين وسعة الجبهة وارتفاعها . . . . » ومن ذلك أن ينبغ العازفون والحاسبون والعدادون فى الطفولة الباكرة وفيما دون الخامسة أحياناً ولا يحصل ذلك في سائر العلوم

ذكرني ذلك البحث القديم الجديد اتفاق عجيب بين أمور متعددة لا رابطة بينها فى هذه الأيام

فالأستاذ المازنى يكتب عن توارد الخواطر ، وفى مقالى الأخير بالرسالة كلمة عن الرياضيات واتصالها بعالم الروح ، وبينا أفكر فى هذه الموضوعات إذا بكتاب جديد يصدر من مطبعة « جولانكز » الانجليزية عنوانه « عظماء الرياضيين » لمؤلفه الأستاذ (بل) الرياضى المشهور في الجامعات الأمريكية . فتصفحته واستقصيت بعض تراجمه فإذا به لا يقول ما قلته عن الصلة بين التدين والرياضة والموسيقى والحقائق الفرضية ، ولكنه يعرض لنا تراجم العظماء الرياضيين وعجائب آرائهم ونوادر صباهم وطرائف أخبارهم فلا يسع القارىء إلا أن يخرج منه بتلك النتائج التى أجملناها قبل أربع عشرة سنة كأنها استقصاء ثم تلخيص لكل ما ورد فى ذلك الكتاب

من ذلك أن الرياضي الكبير سلفستر يقول : « ألا يجوز إذن أن توصف الموسيقى بأنها رياضيات الحس ، وأن توصف الرياضيات بأنها موسيقى العقل ، وأن يقال إن الموسيقار يحس

رياضيا وأن الرياضى يفكر موسيقيا ؟ فالموسيقى هي حلم الحياة، والرياضة هى عمل الحياة، وكلتاهما تستوفى نصيبها من الأخرى حين يرتقى الذهن البشرى إلى أوجه الأعلى، ويسطع فى مزدوج من العبقرية يجمع بين موزار وديرشليه، أو بين بيتهوفن وجاوس، وهو الازدواج الذى تجلى وميض منه فى عبقرية هلمهولتز وأعماله »

ومن ذلك أن الرياضى السويسرى النادر المثال ليونارد إيلر الذى قيل فيه إنه يصنع المعادلات كما يتنفس الهواء، كان شديد التدين، وكان يصلى بالأسرة فى منزله ؛ وخطر له أن ينتقل من ألعوبة دبروها فى البلاط الروسى للفيلسوف « ديدرو » إلى الجد كل الجد فى إثبات وجود الله بالمعادلات الرياضية . فلما تمادى ديدرو فى تكفير رجال الحاشية الروسية ومجادلتهم فى وجود الله تعمدت كاترين الكبيرة أن تداعبه وتفحمه من طريق الرياضيات التى كان يجهلها كما يجهل اللغة الصينية، فوكلت به إيلر فواجهه فى جد ورصانة ولفق له معادلة وتحداه أن يجيب إن استطاع الجواب ... فلم يدر الفيلسوف بماذا يجيب، وكانت أضحوكة البلاط إلى حين

قال الأستاذ (بل) مؤلف الكتاب : « ولم يقنع إيلر بفكاهته الفاخرة بل حاول بعد ذلك أن يجلو الزنبقة وراح وهو جاد غاية الجد يركب المعادلات والبراهين الرياضية التى تثبت أن الله موجود وأن الروح مجردة من المادة . وقيل إن هذه البراهين تسربت إلى فلسفة الفقه والتصوف على أيامه فكانت على الأرجح نخبة الأزاهير التى تتمثل فيها عبقريته الرياضية بمعزل عن الشؤون العملية »

ومن ذلك أن جاوس الملقب بملك الرياضيين عرف تصحيح الحساب قبل بلوغ الثالثة من عمره . وكان أبوه رئيساً لطائفة من العمال، فلما كان يوم السبت واستدعاهم لإحصاء مالهم وما عليهم بمسمع من طفله الصغير غلط فى الجملة فصاح به الطفل : «يا أبتاه ! ليس هذا بصحيح، وإنما الصحيح كيت وكيت» وروجع الحساب فإذا هو على صواب

ويقول المؤلف : « ومما تشوق ملاحظته — لما هو معهود فى الرياضيين من الميل إلى الموسيقى — أن فيرستراس الكبير لم يكن يقبل الأنغام على ضروبها مع اتساع مشاركاته ، فلم تكن تعنيه ولم يزعم هو أنها تعنيه »

وعندنا أن هذا غريب حقيق بالملاحظة كما قال المؤلف ، إلا أن غرابته تهون كثيراً متى ذكرنا أن فيرستراس هو القائل إن الرياضي لا تستقيم له ملكة الرياضة إلا بقسط من الشاعرية فيه ، وأنه كان يعارض إخوته فى تعلم الموسيقى لأنهم كانوا يروضونه بها على الرقص وشهود المجتمعات

وكان « كبلر » يزعم أنه اهتدى إلى نسبة بين حركات الكواكب السيارة ومواقعها تشابه النسب التى بين الأنغام الموسيقية والمقامات

وتتعدد الأقوال التى ترجع بتركيب الكون كله إلى النسب الرياضية ولا سيما بعد ماظهر في السنوات الأخيرة من تحليل النور ورد المادة كلها إلى الاشعاع ، ورد الاشعاع كله إلى مقدورات عددية يوشك أن تخرج به من عالم المادة إلى عالم الحساب . فبعد مقال أفلاطون : « إن الله يهندس » ومقال جاليلى : « إن كتاب الطبيعة العظيم مكتوب بلغة الرياضيات » ومقال جاكوبى : « إن الله يحسب » يقول الأستاذ جينس في كتابه « الكون الخفى » وهو من أقطاب العصر الحديث: « إن مهندس الكون الأعظم قد بدا لنا اليوم محض رياضى ... وإن الكون يلوح لنا رياضياً على منوال مخالف لكل معنى تصوره الفيلسوف « كانت » أو كان فى وسعه أن يتصوره فى أيامه ؛ فإن الرياضيات بالايجاز تهبط إلى الكون من عل ولا تصعد إليه من الأدنى »

ومن الاتفاق الذى ينساق فى هذا المساق ما رواه الأستاذ جينس فى كتابه المتقدم عن رأى هكسلى فى المصادفات وتوارد الخواطر . فهو يعتقد اعتقاده أننا لو أسلمنا الآلات الكاتبة إلى ستة قرود يدقون على حروفها بغير قصد ولا معرفة ، ملايين بعد ملايين من السنين لكان لزاماً أن يجيء الوقت الذى « تنكتب » فيه بهذه الوسيلة جميع الكتب التى فى المتحف البريطانى »

ولا يخفى ما يريده هكسلى بهذه النكتة المنطقية ، ولكنه على كل حال قد خرج بالمسألة إلى « ما وراء الطبيعة » وأبطل حكم العقل والارادة فيها . فمهما يطل عمر الانسان فما هو ببالغ أن يفسر لنا على هذا النمط اتفاق الخواطر فى صفحة واحدة بله الألوف من المجلدات التى تحويها دار الكتب البريطانية

ولا حاجة إلى القرود الستة وملايين السنين والآلات الكاتبة لتعليل توارد الخواطر فى الآراء أو فى العبارات ، فإن علم النفس يغنينا حيث لا يغنى التطوح ملايين السنين وراء

المشهود والمحسوس . وقد كان علم النفس كفيلا حتى الآن لتعليل حفظ العقول صفحات عديدة فى حالة « الغيبوبة » أو حالة التنويم المغناطيسي أو حالة « التنويم الذاتى » أو ما يشبه هذه الحالات من عوارض الحمى العصبية . فإذا رأينا حالة كالتى رواها صديقنا الأستاذ المازنى يستوعب فيها الانسان بضع صفحات لا يخرم منها حرفاً ولا نقطة ثم يعيدها وهو معتقد أنه يمليها من وحى بديهته فلنرجع إلى علم النفس فى وصف العوارض التى تأتى بهذه الغرائب فإنه لكفيل بتعليلها أو بإبداء مقطع الحق فيها

وإنما العبرة من جميع ما تقدم أن نسأل : ترى لو صدر كتاب « عظماء الرياضيين » قبل كتابة المقال الذى ناقشت به الأستاذ المازنى منذ أربع عشرة سنة ، أما كان أقرب الاحتمالات إلى الذهن أننى قرأت ذلك الكتاب واستوحيت منه التحليل الذى فرقت به بين عقول الطبيعيين وعقول الرياضيين وعقول الموسيقيين ؟ أما كان من المستغرب يومئذ أن يقال إننى لم أطلع على ذلك الكتاب وإن كان مؤلفه لم يبسط فيه الرأى الذي بسطته ، ولم يتجاوز أن جمع أخبار الرياضيين وعجائبهم فى سجل واحد ؟

فأما وصدور الكتاب بعد كتابة المقال محقق لا شك فيه فهذا التوافق يبدو سهلا جائزاً خلواً من الغرابة . ومن ثم ينبغى أن نقدم الاستقراء العقلى — فى تمحيص الخواطر المتواردة — على استقراء التاريخ مع رجاحة هذا وصعوبة الاستغناء عنه ، لأن استقراء التاريخ وحده لا يكفي للبت فى جميع الأمور

ونعنى بالاستقراء العقلى أن نمتحن ذهن الكاتب وأن نتابع وجهته فى تفكيره ؛ فإذا عرفنا أنه قمين أن يقول ما قال ، وأن يخوض حيث خاض ، ويتوجه حيث توجه ، فالاتهام بعد ذلك ضرب من اللغو والتمحل ، وإن لم يكن كذلك فهو متهم ولو لم يكشفه استقراء التاريخ

أما حين يقع الاتفاق فى العبارات والحروف صفحات متواليات فليس من المروءة أن نجزم باستحالة ذلك قبل أن نحتكم إلى الاستقراء العقلى من طريق علم النفس ودرس الذهن الذى تقع له أمثال هذه الغرائب ، فقد يهدينا الحكم الوئيد هنا حيث يضلنا الحكم السريع ، ولا ضير علينا إذا تطابق الحكمان فى النهاية بعد الموازنة والمقابلة بين جميع الفروض .

عباس محمود العقاد

١ – مصر

فى أواخر القرن الثامن عشر

كما يصفها الرحالة سافارى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مصر خلال العصور الوسطى كعبة لطائفة كبيرة من الرحل والباحثين يفدون عليها من المشرق والمغرب ، تجذبهم عظمتها وآثارها وعلومها وفنونها ؛ وقد ترك لنا كثير من هؤلاء الرحل آثاراً قيمة عن مصر وأحوالها فى مختلف العصور . ونستطيع أن نذكر من هؤلاء ابن حوقل وعبد اللطيف البغدادى وابن بطوطة ، والبلوى ، وابن خلدون من الرحل والعلماء المسلمين ، وماركو بولو ودى جوانفيل وبيترو مارتيرى من الرحل الغربيين . ولم ينقطع ورود هذا الرهط من الرحل بعد الفتح العثمانى ، بل نلاحظ بالعكس أن الرحل والباحثين الغربيين يفدون على مصر منذ القرن السابع عشر فى فترات متقاربة ويضعون عنها المؤلفات والبحوث المطولة ؛ ولدينا منهم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ثبت حافل ؛ ولدينا من آثارهم مجموعة نفيسة من الوثائق والصور عن مصر فى هذه الفترة . وإذ كان العصر العثمانى من أغمض عصور التاريخ المصرى وأشدها ظلاما ، فانّ هذه المجموعة من آثار الرحل الغربيين تعتبر من أهم مراجعنا فى دراسته وتصويره

بيد أنه مما تجدر ملاحظته هو أن القرن الثامن عشر كان بالنسبة للدولة العثمانية فترة انحلال وضعف ؛ فقد كانت قواها العسكرية تنهار تحت ضربات روسيا القوية ، وكانت الاضطرابات والمتاعب الداخلية تقوض من صرحها القديم الشامخ ؛ وكانت مصر فى ذلك الحين قد أخذت تتحرك من سباتها الطويل ، وتترقب الفرص لتحطم ذلك النير الغاشم الذى يعصف بقواها المادية والروحية منذ قرنين . وفى منتصف القرن الثامن عشر استطاع زعماء مصر ، بقية الأمراء من الشراكسة أن يستردوا نوعا من الاستقلال المحلى ، وأن يبسطوا حكمهم الفعلى على مصر ، وأن يجعلوا سلطة الدولة العثمانية اسمية رمزية فقط ؛ وتعاقب فى

حكم مصر منهم عدة بدأت بابراهيم بك ورضوان بك ، ثم على بك الكبير . فحمد بك أبى الذهب ، فمراد وابراهيم . على أن هذا الحكم الداخلى المستقل كان نوعا من المغامرة التى لا تستند إلى قوة مادية يخشى بأسها أو تأييد شعبى حقيقى ، وكانت مصر عاجزة عن مواجهة الأخطار الخارجية دون معاونة الدولة العثمانية . فى تلك الفترة التى انهارت فيها قوى الدولة العثمانية ، والتى تركت مصر فيها مفتحة الأبواب دون حماية حقيقية ، نرى ثبتاً من الرحل الغربيين يفدون عليها فى فترات متقاربة ، ويدرسون أحوالها وشئونها بعناية ودقة ؛ وكان جل هؤلاء الرحل من الفرنسيين والانكليز ؛ فهل كان مقدمهم إلى مصر فى تلك الظروف أمراً عرضياً ؟ وهل كانوا طلاب سياحة وثقافة ودرس فقط ؟ أم كانوا طلائع الاستعمار الغربى المتوثب يومئذ ، قدموا إلى مصر يجوسون خلالها ويتفقدون شئونها وأسرارها تمهيداً لمشاريع يجيش بها هذا الاستعمار ؟ يلوح لنا أن هذه الرحلات والدراسات المستفيضة لم تكن بريئة كل البراءة ، ولم تكن بعيدة كل البعد عن وحى الاستعمار ومشاريعه ؟ ولقد ألفى الاستعمار فى هذه الدراسات كل ما رغب فى معرفته عن مصر وعن أحوالها الاقتصادية والسياسية وبالأخص عن قواها الدفاعية . وفى خاتمة القرن الثامن عشر دبر الاستعمار الأوربى أول مشاريعه لافتراس مصر ، وجاء بونابرت إلى مصر تحدوه أحلام امبراطورية عظيمة ، كان يعتقد أنه يستطيع أن يتخذ مصر قاعدة لتحقيقها .

وكان فى مقدمة الرحل الذين قدموا إلى مصر قبل الفتح الفرنسى بقليل رحالة ومستشرق فرنسى ترك لنا عن مصر فى أواخر القرن الثامن عشر أثراً من أنفس الآثار وأقيمها ، فان الرحالة العلامة هو كلود إتيان سافارى (Savary) ، الذى قدم إلى مصر فى سنة ١٧٧٦ ، تحدوه أحلام مشرقية باهرة ؛ وكان مولده فى فترى سنة ١٧٥٠ ، ودرس دراسة جامعية حسنة فى رن وباريس ، وكان فى السادسة والعشرين من عمره حينما اعتزم الرحلة إلى المشرق يجذبه بهاء المشرق وروعته ؛ وقضى فى مصر ثلاثة أعوام طاف خلالها أرجاء الديار المصرية من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ، وزار جميع معالمها ومعاهدها وآثارها ، ودرس جميع أحوالها وشئونها ومجتمعاتها ، ودرس اللغة العربية والدين الاسلامى : ثم زار الجزر اليونانية ، وعاد إلى فرنسا سنة ١٧٨١ بعد غيبة دامت خمسة أعوام ؛ ووضع عن رحلته ودراساته فى مصر طائفة من الرسائل المستفيضة ملأت ثلاث مجلدات ، ونشرت بين سنتى ١٧٨٥و١٧٨٩ ؛ ثم نشر ترجمة حسنة للقرآن وأتبعها بكتاب فى تفسير قواعد الدين الاسلامى تحت عنوان Morale de Mahomet ، وترجم بعض قصص ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية ، ووضع أجرومية للغة العربية والعامية ظهرت بعد وفاته . وتوفى فى باريس سنة ١٧٨٨ ، وهو دون الأربعين .

***

كان سافاري إذاً رحالة من طراز خاص ، أعدته مواهبه ومعارفه للقيام بدراسات حسنة فى بلاد المشرق ؛ فقد درس اللغة العربية ، وعرف تاريخ المشرق ، وعرف كثيراً عن الاسلام والشريعة الاسلامية ؛ ومن ثم كانت رسائله عن مصر تمتاز بطابع من الدقة لا نجده فى كثير من الكتب والدراسات المماثلة ، وهو يقدم إلينا هذه الرسائل تحت عنوان « رسائل عن مصر » Lettres sur L'egypte ، ويصف لنا محتوياتها فيما يأتى : « بها وصف لخلال أهل مصر القديمة والحديثة ووصف لنظم الدولة ، وأحوال التجارة والزراعة ، وغزو القديس لويس لدمياط منقولا عن جوانفيل والروايات العربية ، ومعها خرائط جغرافية » ويهدى سافارى كتابه إلى « صاحب السمو أخى الملك . . لما أسبغه عليه من مؤازرة مكنته من نشر رسائله ، وإنه لشرف عظيم أن يتوجها باسم مولاه . . » ويوجه رسائله إلى هذا الأمير أخى الملك ؛ وقد كان ملك فرنسا يومئذ هو لويس السادس عشر وأخوه الدوق دورليان . ويبدو مما كتبه سافارى فى رسالته الأولى أن الأمير المشار إليه هو الذى نصحه عند سفره أن يدرس أحوال المجتمعات التى اعتزم زياراتها وخلالها وعاداتها ولغاتها .

وقد كان لآثار مصر الفرعونية وذكرياتها القديمة فى نفس سافارى أعظم الأثر ، وهو يعرب لنا فى مقدمته عن عظيم إعجابه بذلك التراث الباهر ، ويقول لنا : « إن من يرى الآثار التى

تحتفظ بها مصر ، يستطيع أن يتصور أى شعب هذا الذى تحدت صروحه أحداث الزمن . فهو لم يكن يعمل إلا للخلود ؛ وهو الذى أمد هوميروس وهيرودوت وأفلاطون بكنوز معارفهم التى أسبغوها على بلادهم ؛ وإنه لمن الأسف أن العلم لم يستطع بعدُ أن يكشف عن أسرار النقوش الفرعونية (الهيروغليفية) التى تنقش بها هذه البلاد الغنية ، فمعرفة هذه الأسرار تلقى ضياء على التاريخ القديم ، وتبدد الظلمات التى تكتنف عصور التاريخ الأولى »

وقد تحققت أمنية سافارى بعد ذلك بقليل ، إذ اكتشف حجر رشيد ووقف العلم على أسرار اللغة الفرعونية ، وبدأت البحوث الأثرية بين الأطلال والآثار الفرعونية تكشف تباعا منذ أوائل القرن التاسع عشر عن روعة هذه المدنية الفرعونية الباهرة التى ما زالت هياكلها وآثارها العظيمة ، مدى العصور مثال الاعجاب والاجلال والتقدير .

* * *

ويبدأ سافاري رسائله عن مصر من الاسكندرية فى ٢٤ يوليه سنة ١٧٧٧ بعد أن مكث فى مصر أكثر من عامين ، ويوجهها جميعاً إلى هذا الأمير الذى يهدى إليه كتابه ، ويستهلها بوصف جامع لجغرافية مصر ، ثم وصف بديع لمدينة الاسكندرية وآثارها الرومانية ؛ ويستعرض بعد ذلك حوادث الفتح العربى ، ودخول الاسكندرية فى ظل الحكم الاسلامي ، ويعطف على قصة مكتبة البطالسة الشهيرة ، وينقل خرافة إحراقها بأمر عمر عن بعض الروايات العربية . ويبدو مما يكتب سافارى أن الاسكندرية كانت فى أواخر القرن الثامن عشر لا تزال تحتفظ بقسط من عظمتها القديمة وتجارتها الزاهرة برغم الأحداث الكثيرة التى مرت بها . وكان مما أثار اهتمام الرحالة بنوع خاص منظر عمود السوارى وما يحيط به من الأسرار المغلقة ، والمسلات التى كانت تسمى يومئذ «إبرة كيلوباترة» والمقابر الرومانية ، أو كما يسميها مدينة الأموات

ولم يفت سافاري أن يلاحظ آثار الفتح العثمانى المخربة ؛ فهو قد درس تاريخ مصر الزاهر فى عهد الدولة الاسلامية ، واستطاع أن يقدر مما شاهده يومئذ من أحوال مصر تلك النتائج المحزنة التى انتهت إليها بعد قرنين ونصف قرن من حكم غشوم عاسف جاهل ؛ وهو يقول لنا بحق إن الفتح التركى كان خاتمة لمجد مصر وإن حكم الباشوات قضى على العلوم والآداب ، وخرب التجارة والصناعة والزراعة ، وأسبغ حجاباً من العفاء الشامل على كل ما كان لمصر الاسلامية من عظمة ورخاء

ثم ينتقل سافارى من الاسكندرية إلى رشيد ، ويقضى بها ردحاً من الزمن ، ويصف لنا رشيد وأهلها وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية فى عدة رسائل شائقة ؛ ويقول لنا إن الحياة فيها ساحرة مغرية ، وإن لأهلها أزياء خاصة ، وإنهم يقصون الشعر ويرسلون اللحى ؛ ثم يقصد بعد ذلك إلى القاهرة فى مركب شراعى ، ويخترق فرع رشيد ماراً ببعض القرى الشهيرة يومئذ مثل برمبال ومحلة أمير ، ويصف لنا هذه الرحلة البطيئة الشائقة ، ويصف لنا بالأخص منظر القرويات على الشاطئ ، وكيف يهرعن إلى النهر لأخذ الماء وغسل الثياب والاستحمام أحيانا ، وكيف شهد كثيرات منهن يسبحن فى النهر نحو المركب وهن يصحن : « يا سيدى هات ميدى (١) » ويقول لنا فى لغة شعرية : إنهن يسبحن فى كثير من الظرف ، وإنهن يتمتعن بأجسام رشيقة ساحرة ، وبشرة سمراء بديعة

وفى هذه المواطن وأمثالها تبدو براعة سافارى الوصفية ، وتبدو قوة بيانه . والواقع أن سافارى يكتب بأسلوب رفيع سواء من الناحية العلمية أو الناحية الأدبية ؛ ولا يفوته أن يقدم إلينا خلال وصفه كثيراً من المقارنات التاريخية والأدبية الشائقة ؛ وهو من هذه الناحية يتفوق على كثير من الرحل الذين كتبوا عن مصر ؛ كما أن رسائله تمتاز كما قدمنا بطابعها العلمى الدقيق

وسنرى عند ما يتم سافاري رحلته النيلية ، ويصل إلى مدينة القاهرة أى صور قوية شائقة يقدمها إلينا هذا الرحالة العلامة عن حياة العاصمة المصرية والمجتمع المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر ؛ وسنرى أى وثيقة نفيسة تقدمها إلينا رسائله عن تاريخ مصر السياسي والاجتماعى والاقتصادى فى هذه الفترة المضطربة التى تعز مصادرها ووثائقها

فينا فى أوائل سبتمبر
« للبحث بقية »

محمد عبد الله عنان

---

(١) الميدى عملة صغيرة من نقود هذا العصر

أسباب التقليد

فى التعليم والتشريع

بمصر الحديثة

للدكتور محمد البهى قرقر

فى مقال سابق[1] حاولت أن أبين أن التقليد هو أساس التعليم والتشريع اليوم فى مصر ، أساس التعديل فى برامج التعليم والتغيير فى القوانين المدنية والجنائية ، وخصصت بالذكر هاتين الناحيتين لأنهما مظهر الأمة الثقافى والطابع العقلى الذى يعبر عن « نفسية » الشعب .

وإذا ذكرت التقليد فلا أريد منه الناحيـة الإيجابية التى يجب أن تشجع و تُنمى فى زمن الطفولة ، فذلك لم يكن هو النظرية السائدة فى التعليم والتشريع بمصر ، وإنما أقصد النوع السلبي الذى هو ذاك ، أقصد النوع الذى لايتعدى محاكاة الظواهر المقلدة ولا ينفذ إلى كيفية تكونها وهو الذى تدفع إليه العاطفة المجردة عن الروية . ولهذا قلما تتخذ الظاهرة المقلدة صفة الثبات والاستقرار ، بل سرعان ما تنمحى من الوجود إذا خفيت العاطفة التى بعثت على تقليدها أو تغلبت عليها عاطفة أخرى تحمل على تقليد مظهر آخر .

لـكل كاتب أو مؤرخ أن يبدى رأيه فى علل هـذا التقليد وأن يوضح الباعث عليه . له أن يعتقد مثلا أن السبب هو رغبـة مصر الحديثة الفتية النشأة فى مسايرة المدنية الحاضرة والتقدم بسرعة إلى مصاف الدول الراقية ، فهى لذلك لا غنى لها عن التقليد ، ولا مفر إذن من أن تتعثر فى طريقه مرة أو أكثر . ولـكن التقليد الناشىء عن مثل هذه الرغبة فى الأمم الأخرى هو دائماً أشبه بسياسة مرسومة ثابتة نعرف إلى أى شىء تنتهى وأى طريق تسلك ، فهو نوع إيجابى من التقليد ، وذلك مالا أعتقده فى الحركة التقليدية السائدة اليوم فى مصر لأنها حركة هوجاء متقلبة ، تهدم اليوم ما بنته بالأمس ، وتبنى فى الغد من جديد على غير أساس .

لذلك الـكاتب أو هذا المؤرخ أن يعتقـد أيضاً أن العلة هي الضعف ، إذ يشاهد أن الأمة الضعيفة تقلد القوية فى مظاهرها لأنها ربما تتخيل الجمال مفرغا فى تلك المظاهر — فهى لانحطاطها لم تتكون عندها ملـكة مستقلة للجمال ، مطبوعة بطابعها الخاص ، أو على الأقل لم تنضج عندها تلك الملـكة بعد ، أو لأنها ربما تحاول بذلك أن تستر ما بها من ضعف ونقص ؛ فما دام شعار القوى مثلا هو القبعة ، أو ما دامت ميزته فى قوم هو ليس منهم العجمة فى التعبير ، فربما يُخيِّـل الضعيف لنفسه إذا ماوضع القبعة فوق رأسه ، أو إذا ماأفصح عن مراده فى أمته بغير لغته الوطنية ، أو لهج لسانه من حين لآخر بكلمات أجنبية ، أنه قد أصبح في منزلة القوى وأن له أن يتيه كبرا وخيلاء ، ولم يدر أن سـلوكه العملى الناشىء عن صفات نفسية خاصة به ، وأن طريقه فى التفكير الخاضع لبيئته وما ورثه في دمه عن أسلافه ينم عن أنه ما زال هو الضعيف ، ولـكنه تزيى بزى القوى فحسب .

وربما يكون الضعف هو السبب الرئيسى والعلة غير المباشرة لـكثير من صور التقليد ، ولـكن البحث النفسى الحديث يتجنب الآن بقدر الامكان استنتاج قوانين عامة لجملة من الظواهر النفسية — لأن ذلك قد مضت مدته بفقدان العلوم الطبيعية والرياضية نفوذها على العلوم العقلية ، وتأثيرها فى تكوين كليات لها عامة تشرح بها جزئيات متعددة — ويفتش لـكل ظاهرة عن علتها الخاصة بها والمباشرة فى تكوينها .

والتقليد الآن فى مصر فى أهم ناحيتين من نواحيها الثقافية والعقلية : فى ناحيتى التعليم والتشريع ، ظاهرة تغلب على نفسية الشعب ، أو بعبارة أدق على رجاله المسئولين فى توجيه سياسته العامة . وإذن لبحث هذه الصفة يجب استعراض المؤثرات التى أوجدتها فى نفسية هؤلاء وتعهدتها إلى درجة النضوج . وأظن أننا إذا رجعنا ببصرنا إلى تاريخ مصر الحديثة فى جيل سابق وجدنا تلك المؤثرات بادية فى شىء واحد : فى الابتعاد عن التربية الوطنية الذي كان نتيجة لخطة إحدى مدارس التعليم في مصر ولسياسة أخرى تعليمية كانت تهيمن على مدرسة ثانية منها .

فالتعليم فى مصر ليس واحداً ، والمدرسة التى تخرج منها الشعب متباينة النزعة مختلفة الغرض . فبينما نرى مدرسة وطنية ، وهي الأزهر ، تعتمد فى تهذيب أبنائها على ما ورثته الأمة من ثقافة

(١) نشر فى مجلة الرسالة في العدد ٢١٠

في صورتها التي احتفظت بها من عصور مضت ، إذا بنا نرى مدرسة أخرى ، وهى مدارس الأرساليات الأجنبية ، تلقن الناشئة المصرية مبادىء تنتهى بخلق أمم متعددة فى أمة واحدة ، وبفئات من الناس مختلفة لا تجمعهم وحدة فى التفكير ولا وحدة فى الفرص . وبينما نشاهد هذه وتلك إذا ببصرنا يقع مرة أخرى على مدرسة ثالثة ، وهى مدارس وزارة المعارف ، ليس بينها وبين اللتين قبلها من صلة إلا أنها ربما تكون أو تحاول أن تكون مزيجاً منهما ، ولكنه مزيج لا ينتج عنصراً جديداً كما فقدت فيه كل من مادتيه خواصها .

فالأزهر — فى نظر علماء الشعوب والاجتماع — لا شك أنه المدرسة الوطنية التى تربط الأمة بماضيها — وإن كان ينقصها ربط الحاضر بالماضى ، وتلقن جيل اليوم ما كان لخلفه من دين ولغة وعادات خلقية وقومية ، وهو لهذا كان ولم يزل مكان الخطر على الاستعمار الغربى وعلى سياسته فى حكم الشعوب الاسلامية كما يراه الأوربيون أنفسهم الذين تخصصوا فى السياسة وفى فلسفتها . ففى المجلة [1] العلمية السياسية الألمانية « Valf in Werden » لمخرجها الأستاذ الفيلسوف السياسي Ernst Krieck الأستاذ بجامعة Heidelberg ، بحث جدير بالاعتبار عرض كاتبه لبيان صلة الاسلام ومقدار علاقة الأزهر على الخصوص بالحركات الوطنية في الشرق تحت عنوان « الاسلام والفاشستية » فكاتب هذا البحث يرجع الحركة الوطنية الحالية ضد السيادة الفرنسية فى تونس ومراكش والجزائر إلى الأفراد الذين غلبت عليهم الدراسة الوطنية — الاسلامية — وعلى الأخص إلى أولئك الذين تلقوا علومهم فى الأزهر بالقاهرة . فالأزهر فى رأى هذا الكاتب وفي رأى كثير من أمثاله منبع الخطر على السيادة الأجنبية فى الشرق كله .

وفوق ما للأزهر من هذه الصبغة الوطنية فهو مدرسة الشعب والسواد المنتج من الأمة . ولسبب ما ، إما لأسلوبه فى التعليم « وعدم تمشيه فى وقت من الأوقات على نظم التربية الحديثة » ، أو لشعبيته ، أو لسبب آخر غير هذا وذاك ، ولّت الطبقة المثرية من الأمة من أرباب المناصب الكبرى فى الحكومة وجهها نحو مدارس الإرساليات الأجنبية ، وقصدت الطبقة المتوسطة إلى النوع المزيج وهو النوع الحكومي ، وقنع الأزهر بالشعب وبأبنائه ، طوعاً أو كرهاً ، واضطر لهذا أن يكون بعيداً عن أفق سياسة الدولة ، لأن سيادة الروح « الأرستقراطية » وجدت في ظل الحكم التركى ثم فى حكم الاحتلال كل أنواع التأييد . فأسلوب التعليم في هذه المدرسة بعيد فى ذاته عن التهيئة إلى موجة التقليد الطاغية اليوم فى مصر والتى تنذر بالخطر ، لأنه هو نفسه ضد التقليد والعقبة فى طريقه ، وكذا رجالها ليسوا ممن يتبعون سياسة التقليد لأنهم أبعدوا عن السياسة العامة للدولة واكتفوا بالتحدث إلى الشعب عن الحياة الآخرة والسبل الموصلة إلى السعادة فيها ، وإن فرطوا بهذا الاكتفاء فى حق أنفسهم كأبناء الشعب وفى حق دينهم لإظهاره بالمظهر الروحى فحسب ، ثم أخيراً فى حق وطنهم لإقصاء أنفسهم وهم أكثرية عن سياسة توجيه الأمور فى الدولة أو لرضاهم بهذا الاقصاء

والمدرسة الثانية ، وهى مدارس الإرساليات الأجنبية كانت — ولا تزال — تعمل على قطع الصلة بين الوطن وتراثه العلمى والدينى والخلق ، وبين أطفاله وشبانه من أهل الطبقة العالية الذين ولوا الأمر فيما بعد ؛ إذ كانت القاعدة أن ينتخب أولو الأمر منهم ؛ ثم زودتهم بثقافة أجنبية ملؤها الدعاية لأمة من أمم الغرب طبقاً لجنسية الإرسالية . وإن نوع هذه الثقافة قد يكون مختلفاً — وفى الواقع [1] هو كذلك — عن ثقافة البلد الذى تنتمى إليه الإرسالية اتباعاً لخطة سياسية مرسومة لم يُرد بها — كما يدعى أو كما يفهمه الشرقي البسيط — القيام بعمل خيرى من نشر ثقافة حديثة ومكافحة لأمية ؛ وإنما قصد بها ضمان السيطرة على النفوس والتصرف فى ميولها ؛ فنشأت فى الأمة فئة تجهل الأمة نفسها ، تجهل عقليتها وطباعها ، تحتقر الشعب وتهزأ بتقاليده ، ثم بعد ذلك شاء القدر أن يكون زمامه بيدها

ولاختلاف ميول هذه الثقافة واتجاهاتها — وإن كانت

(١) عدد يولية سنة ١٩٣٧ من العام الخامس للمجلة صفحة ٣٣٩ — ٣٤٨

(١) في المجلة المذكورة يشير الكاتب (صفحة ٣٤٣) إلى أن فى فرنسا نفسها لا يوجد دروس للدين فى أية مدرسة من مدارسها بينما تساعد الحكومة الفرنسية فى شمال أفريقيا المبشرين والارساليات التعليمية مساعدة جدية فى نشر الدين المسيحى بين الوطنيين بغية خلق عدم الوحدة بينهم واستخدام بعضهم ضد بعض .

متحدة فى غرض الدعاية — كانت وجهة هذه الفئة الحاكمة مصوبة على العموم نحو ظواهر المدنية الغربية ، واقتباس ما يوحى به ميلها الثقافى ، لا اقتباس ما قد يتفق مع مدنية الأمة وثقافتها القديمة ومايتطلبه الشعب ولايتعارض مع قوانينه الخلقية وسننه الطبيعية . وهنا نجد مظاهر شتى لهذا التقليد أنشأتها ميول الثقافة الأجنبية المختلفة . فمن تثقف بالثقافة الفرنسية من تلك الفئة — وهو عدد كبير — كان المثل الأعلى فى نظره حضارة فرنسا وحريتها المزعومة ، وعمد إلى التقليد فى مظاهر الحضارة الفرنسية ، وإلى الاقتباس من القانون الفرنسى ، لأنه يمثل فى نفسه ، كما تلقن ، صورة العدالة ، وينطوى فى نظره على «حب» الحرية وتقديس معنى الإنسانية — وما كان القانون الفرنسي ، ولا أى قانون وضعى آخر يمثل فى يوم من الأيام صورة العدالة على الاطلاق ، ولا ينطوى على حب الحرية للحرية نفسها ، ولا يقدس الانسانية للانسانية ؛ وإلا لما أعطي القسوة صفة خلقية ، وأنكر على الوطنى المستعمر حقه الطبيعى فى الحياة مادام في ذلك حفظ السيادة الفرنسية . وماشهرة فرنسا بحب العدالة وبحب الحرية وبتقديس الانسانية إلا لما قامت به من الثورة ، كرد فعل نفسى ضد حكم الظلم والاستبداد ؛ ثم استغلّ بعد ذلك استغلالاً أدبياً فى صالحها . وللارساليات التعليمية فى الدعاية به وخصوصاً فى الشرق قسط غير قليل . ثم تكون نتيجة هذا التقليد عكسية ، ونهاية الاقتباس خاطئة ، لأن مصر الشرقية غير فرنسا الغربية ، ومصر الضعيفة الحديثة النشأة غير فرنسا المستعمرة . وبالرغم من ظهور الخطأ وعكسية النتيجة لايدير المقلد وجهه نحو أمته ويدرس حالتها النفسية والاجتماعية ، ثم يقتبس ما تدعو إليه هذه الدراسة ، لأنه لم يألف الأمة ولم يتعرفها منذ طفولته

ومن تثقف بالثقافة الانكليزية عشق تقاليد الأمة الانكليزية وأعجب على الأخص بالبرلمان الانكليزى وبعراقة الدستور الانكليزى ونظام الأحزاب الانكليزية وبتمتع الأقلية بحرية المعارضة ، فهوى وفقاً لميله تقليد انكلترا فى مظاهرها الدستورية ونظامها البرلمانى ؛ ولكنه يخطئ أيضاً في تقليده ، لأن الشعب المصرى ذو صفات نفسية تغاير تمام التغيير صفات الشعب الانكليزى ؛ له طريق آخر فى التفكير وأسلوب آخر فى المعاملة ؛ هو شعب ناشئ لم تتركز طبائعه بعد ، ولم يروض على عادات خلقية تتناسب وفطرته ، فإذا نوقش فى خطأ تقليده أصر عليه وسرد تأييداً لإصراره أقوال الساسة الانكليز والعرف الدستوري فى البرلمان الانكليزى . وأولى به أن ينظر إلى الواقع وفى أى شعب هو يعيش . أولى به أن يتعلم خواص الشعوب بدل أن يحلق فى خيال نظرى «قانونى» لا طائل تحته . ولكن ميله الثقافى هو الذي حدد له نهاية الطريق وأملى عليه برنامج السير

ومن تثقف بالثقافة السويسرية يستهويه نظام التعليم ونظام الأسرة فيحاول تقليد الشعب السويسرى ، أو بعبارة أخرى يضطر أن يسير فى طريق ميوله الثقافية ، والتعليمية — وليس إلا طريق التقليد طبعاً — ثم لايلبث أن يرى نتيجة تقليده بين يديه خاسرة ، لأن المصرى في طبعه وفى ميوله الغريزية غير السويسرى الذى هو نفسه يغاير نفسه — وبناء على هذا يتغير نظام تعليمه — فى منطقة أخرى من مناطق الاتحاد السويسرى . والأسرة المصرية التى حددت عاداتها طريق سلوكها فى الحياة وعين دينها ولغتها طريق تفكيرها وفهمها لما يحيط بها ، غير الأسرة السويسرية التى تتطلب أيضاً بحكم الوراثة وبحكم العادات وطبيعة البلاد أسلوباً في التعليم خاصاً بها

وهكذا دواليك نجد العمل الجدى لهذه الفئة تقليداً سلبياً قلما يتحول إلى محاكاة إيجابية ، إلى « التمصير » الذى هو عملية نفسية يقوم بها الفرد كالأمة ، عملية تتطلب أولا أن تنشأ الأفراد تنشئة وطنية ثم تزود بثقافة أخرى أجنبية . وإذن يكون عمل الفرد كعمل الأمة مصبوغاً بصبغة وطنية وفي الوقت نفسه مسايراً خطى الأمم الراقية . فالأمة اليابانية مثلا تقلد الحضارة الغربية ولكنه تقليد إيجابى ، لأنها تنظر إليها ثم تحاكيها لا فى صورتها الأولى ولكن فى صورة يابانية شرقية بعد ما تكون قد مزجت بينها وبين حضارتها الموروثة ووفقت بينهما . وهو لهذا تقليد فيما ينفع ، تقليد لايمس بالخطر العوامل الأولى المكونة لحضارة الأمة ، كأمة مستقلة

لجهل الوطن وما فيه والنزوع إلى التلون بلون غربى — كما هى النتيجة الحتمية لأسلوب هذه المدرسة — من الأسباب القوية لهذا التقليد السلبى ؛ ثم اختلاف النزعة نحو هذا التلون ،

تبعاً لاختلاف نوع الثقافة ، من أكبر العوامل فى كثرة التغيير والتعديل اليوم فى سياسة الأمة التشريعية والتعليمية

وربما تكون تبعة المدرسة الثالثة ، وهى مدارس وزارة المعارف ، فى هذا التقليد أقل من المدرسة السابقة ، ومع ذلك فعليها تبعة كبيرة أيضاً ، لأنها لم ترسم لها خطة تعليمية وطنية ، أو أرغمت ، فطاوعت ، على السير وراء سياسة استعمارية ، سياسة أوربية أجنبية . فالاتجاه الذى توحى به وتخلقه فى تلامذتها لايخلو من مبالغة فى عظمة الغرب واحترام المدنيـة الغربية ، كأبلغ شىء وصل إليـه العقل الانسانى — ولكن لا لخدمة الانسانية ولكن لسيادة القوى — وذلك يقوى غريزة التقليد فى الطفل ويدفعها إلى ناحية معينة قلما تحيد عنها أو تتصرف فى تقليدها ؛ ثم فى الوقت نفسه لا يخلو ذلك الاتجاه من النظر إلى الشرق كوطن وإلى تقاليده ودينه ولغته كمقومات لثقافته من إلقاء نظرة بسيطة عليها قلما يصحبها احترام أو يتبعها تقديس مما يدعو إلى الارتباط بها والحنين إليها

وهكذا يسير الشعب إلى غير وطنه ويقاد فى غير طريقه الطبيعي ويدفع به فى كفاح لم يتهيأ ولن يتهيأ له ، وهو كفاح ضد الطبيعة ومقتضياتها ؛ وهيهات أن يفوز إن لم تهلكه الحرب هلاكا بطيئاً ، وذلك شر أنواع الهلاك وآله

فبـدأ التقليد ليس معيباً إذا كان إيجابياً ، لأنه إلى جانب الفكرة الخالقة والعقل المستقل فى الانشاء من عوامل تقدم الأمة ، فما كان لأمة أن تستقل فى نهضتها العقلية بنفسها ولكن يجب عليها أن تكيفها بشخصيتها وطابعها . وهذا التكييف نفسه مدين إلى حد كبير بالاعتماد على ثقافة الأمة الموروثة أو هو نفســه المحافظة على تلك الثقافة والاعتزاز بها

واليوم آن للأزهر أن يعمل على تأدية رسالته ، من ربط حاضر الأمة بماضيها ، فى ثبات وجرأة ؛ وهى رسالة شاقة ، ولكنه راعى الواقع ، فلا يدرى إنسان متى تتهيأ الفرصة للأزهر من جـديد ، فيمنحه الدهر رجلاً مستقل الفـكر ، قوى الارادة ، صادق العزيمة ، متفهماً للحياة كما منحه فى السابق رجل [1] التاريخ والاصلاح ، وكما يمنحه اليوم بصنوه [2] . فما أشد تقاربهما فى الفكرة ، ولـكن ما أبعد المسافة بين توليهما شؤون تلك الجامعة العالمية

وإذا كانت روح السياسة العامة الآن للدولة مشبعة بمجاملة الأجانب ومنحهم حرية كاملة فى تعليم جالياتهم وعدم إلزامهم بثقافة البلد الوطنية — كما هو الشأن فى البلاد الأوربية نفسها — فلا يصح أن تقصر تلك السياسة فى حق أبناء الأمة وتكل أمر تربيتهم إلى جهة أخرى غير الأمة نفسها . يجب أن تفهم حد المجاملة وتدرك ما ينطوى عليه حق الأمة فى استقلالها وحريتها

وإذا كانت وزارة المعارف اليوم تعنى بالثقافة الوطنية بعض العناية فيجب أن يكون الدافع لها عليها مصلحة الوطن والعمل على تحقيق استقلال الأمة لا الرغبة فى كسب عواطف الشعب أو استمالة طائفة منه خاصة ، فما أكثر تغير الشعب فى عواطفه ، ولـكن ما أثبته على حب من أخلص اليه فى خدمته !

محمد البهى قرقر

دكتور فى الفلسفة وعلم النفس

وعضو بعثة الامام الشيخ « محمد عبده »

(١) الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده

(٢) الأستاذ الأكبر المراغى

من الأدب الرمزي

فيما وراء الطبيعة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

رَكْبٌ مَسُوق إلى مايجهل بعصاً قاهرة يقظة فلا التفات ولا اعتراض ولا جُموح . . .

من الذَّرَّات التي لاتدركها الأبصار لدقتها وصغرها . . إلى الذرات الضخمة التي لاتدركها الأبصار لجلالتها وكِبَرها ، يتألف الركب المسوق المدفوع الذي لايعرف من أين ولا إلى أين

لقد وُلد فيه كل شيء أثناء الرحلة فَحيَّ مسافراً وهَـلك مسافراً . .

يسير الزمان والمكان في الركب المهدود ، وتسير الابعاد والحدود ، والمُهود واللُّحود ، والحركة والجمود ، والموت والحياة ، والظلمات والنور ، أضداداً مؤتلفة ونقائض مجتمعة في صمت . !

السموات شاخصة العيون إلى الأرض . . والأرض مشرئبة الأعناق إلى السماء . . واللجة مقبلة في لَهْـفة على الشاطيء . . . والشاطيء واقف يترقب اللجة . . وهكذا يرنو كل شيء إلى كل شيء . . زوارق سائرة في لجة لايعلم لها شاطيء . . . أجسام هابطة أبداً الى غير قرار . . . كل شيء يدور على نفسه نحو كل أفق ليرى النهاية ، فلا يرى إلا أشياء دائرة مثله . . .

أبداً تخرج الحياة من الموت ويخرج الموت من الحياة ليشهدا سير الركب ؛ ثم يفنيان في الطريق . . .

أبداً تسافر الأضواء في ملايين سنيها محاولة كشف النهاية فلا تقع إلا على ذرات ترسل أضواءها . . .

الرحلة طويلة شاقة ومع ذلك فليس فيها مراحل ولا مواقف ...

الصمت والصبر شعار القافلة إلا صُراخاً ينبعث من «أكثر شيء جَدلاً» . من الانسان . صاحب الجمجمة الدائبة على التلفت إلى الوراء والتطلع إلى الأمام ، وسؤال كل شيء : ما أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ وإلى أين تنتهي ؟ ولمـاذا نحن هنا ؟ « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ » فيجيبها كل شيء : (ما المسئولُ بأعلمَ من السائل . . .) ثم يردد كل شيء صدى تلك الـكلمة الـكبيرة المعزِّية : « ما أشهدتُهم خَلقَ السموات والأرضِ ولاَ خلْقَ أنفسِهم »

الركب سائر بانسجام ونظام . . . وهذا هو موسيقاه التي تستحثه وتنسيه وعثاء السفر . . .

من جمح وحاد عن طريق الركب ضل واحترق ضلالَ النيازك والشهب واحتراقها . . .

كل شيء قانعٌ بالنظر إلى عصا القهر المرفوعة عليه أبداً ، إلا هذه الجمجمة . . ! فهي تحاول جهدها أن ترى اليد القابضة على العصا . . . ومن هنا تعبت من النظر وزاغ منها البصر وتراجع حتى لم تعدْ ترى العصا إلا في يدها هي المصنوعة من الطين . . ! فعبـدَت نفسها وسجدت لها . . !

***

ألا يا عابد البطولة الإنسانية وفاديها ومالئُ كئوسها من دمه ومحرق حبة قلبه بخوراً لها . . ! ليس هذا موقع العبادة من قلب الإنسان والفكر المدله من رأسه ... وإنما هذه العصا المرفوعة أبدا هي مكان السجود ... فارفع جبهتك كثيراً كثيرا لتسجد عليها فوق . . !

أنظر إليها وحدها واجد كما جمد لها قلب الجبل ... واخفق كما خفق لها جوف البحر ... واعصف كما عصفت لها جوانح الريح ... واصفر كما اصفر منها وجه الصحراء ... والتهب كما التهب بها وجه الشمس ... وسر كما سار أمامها الركب المسوق .. !

أنظر إليها دائما فهي تشير إلى الطريق ... فإذا عميت عنها فهي شـعلة تحرق البصر ... وسر في طوعها دائماً فهي حماية وسلاح ... فإذا شردت كارهاً فهي صوت وصاعقة . . !

***

قال لي ضباب مبهم في نفسي : لم تحوم حول اللجة ولا تضرب في أعماقها ؟

قلت : أنا عاجز قاصر ضئيل محدود ... فليس لي يدان باقتحام عالم القدرة والاستطالة والجلالة واللانهائية !

قال : لقد أتيت بشيء مما في اللجة وأنت لما تزل على الساحل...

قلت : كذلك الذي يأتي به الطير البحري المتربص على الساحل : سمكة ميتة طافية قذف بها جوف البحر ... أو صغيرة خفيفة مبذولة

لأنها ليست من الزجاجة بحيث تختفى فى عالم العمق والاحتجاب ...

قال : لقد أفرغت نفسك من كل شىء وهيأتها لصداقة الطبيعة وأفهمتها أن تتصل بها اتصال بُنُـوَّة بأمومة ؛ فلا تفزع من هولها وقسوتها ولا تجفـل من غموضها وإبهامها ، ولا تشمئز من وجوه القبح فيها ، ولا تجمُـد أمام وجوه الجمال بها ، ولا تغفل عن الدقيق ، ولا تقصر عن إدراك الجليل ؛ وحقيق على من انتهى إلى هذا أن يبتدىء بشىء آخر . . .

قلت : أجل ! كما يبدأ ثور الطاحون من حيث ينتهى . . !

قال : لولا الغطاء الذى على عينى الثور لجمح وأبى الدوران على محيطه الضيق

قلت : لو استطاع الثور أن يزيح ذاك الغطاء عن عينيه لحُلَّت العقدة ... فما دامت هناك يد غير مدفوعة تضع ذاك الغطاء فهو عاجز مملوك يرى السلامة فى التسليم والدوران . . . وإلا فظهره مبسوط مكشوف والسوط له حاضر . .

***

لقد قلت لنفسى يوماً : سأبعثك للارتياد فيما وراء الزمن والفلك فاصنعى الريش وأعدى الجناحين ... فإذا وقفت هناك فلا يَخْسأَنَّ بصرك دون أن ترىْ طرفى الركب المسوق . . سيكون ذلك عسيراً ولكن تجردى وامتدى فإن فيك قوة على ذلك . .

وقلت لها : إن المكان سينتهي . . . فترين الفراغ وعماياته ومهاويه التى ليس لها قرار .. فطيرى فيه مغمضة العين ، واضربى فيه بمجموع الإدراك لا بأفراده فإنها تغرق فى لججه وظلماته ..

وقلت لها : أعدى السمع للموسيقى التى تميتُ طرَباً ، والعينَ للاضواء التى تحرق لهباً . . واللمس والذوق لما لا يلمس ولا يذاق

وقلت لها : هناك كلام دائم قديم فاملئى معانيك منه واحذري أن تحدثى به ناس الأرض . . وسترين كل ما كان فى الأرض هناك فى منطقة الصمت الذى يصعق ، والسكون الذي يهول . . سترين ما يقال إنه تبدد من الأضواء والأصوات وأمواج الخلائق وومَضَات المعانى . .

وقلت لها : سترين بالقوى المطيعة أبداً ، العاملة بلا ضعف يلحق ولا فتور ولا سأم ، القائمة على مراقبة الذرات فى حركاتها وتنقلها ، والحبات فى تولدها وانفلاقها . والرياح فى انسيابها واندفاعها ، والأمواج فى رحلاتها ومدها وجزرها ، والأضواء فى انبثاقها وفيضانها ، والظلمات فى انطباقها وانفراقها ، والاجرام فى نثارها ونظامها ... فقفى هناك طويلا وتعجبي من صبر هذه القوى المجندة ويقظتها وطاعتها ، واملئى سمعك بنشيدها وهى هاوية صاعدة راكعة ساجدة تحت المشيئة الواحدة القاهرة الضاربة على العوالم بنطاق من العلم والقهر ، فلا رد ولا اعتراض ولا هرب من أقطارها ...

وقلت لها : ربما تستطيعين الوصول فى خطفة من خطفاتك إلى المنطقة الثابتة التى لا تتغير ... فإن كان ذلك فاحذرى أن تتوغلي فى متاهاتها ! فربما لا ترجعين إلى ثوبك الأرضى ثابتة فيترك فى الأرض معذباً مجْفوّاً لا يفهمه الناس ولا يرحمون ... فاحذري !

وقلت لها : التراب عنصر كثيف ثقيل يزيد « ثقله النوعى » كلما بعد عن نطاق الأرض ، ولو كان نضرة خد أو حرير ورد ، أو عبير زهر ، أو نغم وتر ! فخففى رحلك منه حتى تسرعى ...

وقلت لها : لا تنسى أن تلقى بنظرة منك على الذَرَّة التى أنت منها ... وحاولى أن تتبينى مكان هذا الذى يقول فيها : أنا إلٰه ! سترينه قزماً يدب ممسوخ القوام ... وقد كان يستطيع أن يتطاول ببعض ما فيه لو عقل وأراد ورأى عصا القهر التى تدفع عجلة الفلك...

قلت لها كل ذلك فقالت : يا هذا الذى يصنع الألفاظ ويحاول خديعتي بها . ! يا من

يُشَمِّـر لِلُّـجِّ عن ساقه ويغمره الموج فى الساحل !

عشْ كهذا الطير الساحلى مكتفياً بالنظر إلى اللجة الرجراجة الهائلة ، قانعاً بما تقذفه إليه من النفايات ، عالما بأنه مخلوق مُعَـدٌّ للسـاحل وحده ، فهو دائماً ينكتُ بمنقاره فى الرمل والقواقع وغثاء البحر ...

هو يعلم أن فى جوف اللجة سمكا كثيراً صغيراً وكبيراً يشبع جوعه الذى يحسه فى دوام ... ولكنه يعلم كذلك أنه لو تقدم خطوة نحو اللجة لا بتلعته حقيقة من حقائقها وغاب فيها قبل أن يبتلع إحداها وتغيب فيه ... عش هكذا دائراً على نفسك فى محيطك الضيق مادام على عينيك الغطاء . . .

وابحث فى لجة نفسك عن الأشياء التى تنشدها فلعلك تجد منها صوراً صغرى تدركها بالوحى الصغير إدراك النبوة للكبرى بالوحى الكبير . . .

***

ومع هذا لا يزال الضباب المبهم يناديني ويسألني سؤاله ... وأنا أنادي :

لمحة من النور الذي عندك ضحاه الدائم الذي لا يغيب يا هادي الركب وصاحب القافلة ... النور الذي تهتدي به ظلمات الدنيا وأضواؤها إلى مسالكها ومساربها ومواقعها ... النور الذي أعطيت به كل شيء خلقه ثم به هديته ...

النور الذي اهتدت به كل ذرة في بناء العالم وكل خلية في جسمه وكل قوة من قواه إلى مكانها وعملها ... ثم إيماءة بطرف عصاك إلى المخبوء وراء الزمان والمكان والأجرام والشواخص والكثافات ... ثم قدرة على الانفصال عن الركب لأشهده كله وهو يسير . . . !

(الاسكندرية) عبد المنعم خلاف

ابن العـــديم وتآليفه

للأستاذ محمد كرد علي

كان كمال الدين عمر العقيلي الحلبي رئيس الشام (٦٦٦ هـ) من بيت علم . تولى خمسة من أهله منصب قاضي القضاة بحلب ، وأكثرهم على جانب من الأدب والفضل ، وكلهم مذ كان الاسلام يحفظ القرآن . وكان كمال الدين هذا محدثاً حافظاً مؤرخاً صادقاً فقيهاً مفتياً منشئاً بليغاً كاتباً محموداً . درس وأفتى وصنف ، وترسل عن الملوك ، وكان رأساً في الخط المنسوب لا سيما النسخ والحواشي « يقرأ الخط العقد كأنه يقرأ من حفظه . وأما خطه في التجويد والتحرير والضبط والتقييد فسواد مقالة لأبي عبد الله ابن مقالة ، وبدر ذو كمال ، عند علي بن هلال » « وهو أكتب من كل من تقدمه بعد ابن البواب » ترجم له ياقوت في معجم الأدباء وعرض لتراجم أهله ، وكان ياقوت اجتمع بكمال الدين ، وأخذ عنه وبالغ في مدحه ، وقال إن من أجداده بني أبي جرادة ، وكان أبناء العديم يُعرفون بهذا اللقب وقد كتب بخطه ثلاث خزائن من الكتب : واحدة لنفسه وخزانتين لابنيه ، لكل منهما خزانة قال ياقوت وأنشدني لنفسه وبإملائه بحلب في ذي الحجة سنة ٦١٩ (وكان كمال الدين شاباً) :

وساحرة الأجفان معسولة اللَّمى
مراشفها تهدي الشفاء من الظما

حنت لي قوسي حاجبيها وفوَّقت ... إلى كبدي من مقلة العين أسهما
فوا عجبا من ريقها وهو طاهر ... حلال وقد أضحى عليَّ محرما
فإن كان خمراً أين للخمر لونه ... ولذته مع أنني لم أذقهما
لها منزل في ربع قلبي محله ... مصون به مذ أوطنته لها حمى
جرى حبها مجرى حياتي فخالطت ... محبتها روحي ولحمي والدما
تقول إلى كم ترتضي العيش أنكدا ... وتقنع أن تضحى صحيحاً مسلما
فسر في بلاد الله واطَّلب الغنى ... تفز منجداً إن شئت أو شئت مُتْهما
فقلت لها إن الذي خلق الورى ... تكفل لي بالرزق مَنًّا وأنعما
وماضرني أن كنت رب فضائل ... وعلم عزيز النفس حراً معظما
إذا عدمت كفاي مالاً وثروة ... وقد صنت نفسي أن أذل وأحرما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأخدما

ونظن البيت الأخير مقحما إقحاماً في هذه القصيدة ، لأنه بيت من قصيدة مشهورة لعلي بن عبد العزيز القاضي من أهل القرن الخامس التي يقول في مطلعها :

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

قال ياقوت بعد إيراد هذه القصيدة : ولا يظن الناظر في هذه الأبيات أن قائلها فقير وقير ، فإن الأمر بعكس ذلك لأنه ، والله يحوطه ، رب ضياع واسعة ، وأملاك جمة ، ونعمة كثيرة ، وعبيد وإماء وخيل ، ودواب ، وملابس فاخرة وثياب . ومن ذلك أنه بعد موت أبيه اشترى داراً كانت لأجداده قديماً بثلاثين ألف درهم ؛ ولكن نفسه واسعة ، وهمته عالية ، والرغبات في الدنيا بالنسبة إلى الراغبين ، والشهوة لها على قدر الطالبين . قال ياقوت : وكان إذا سافر يركب في محفة تشيله بين بغلين ، ويجلس فيها ويكتب ، ورحل إلى العراق ومصر والحجاز

ويقول ياقوت أيضاً إن كمال الدين صنف مع هذه السن كتباً منها كتاب « الدراري في ذكر الذراري » ، جمعه للملك الظاهر غازي ، وقدمه إليه يوم ولد ولده العزيز الذي هو اليوم سلطان حلب . وكتاب « ضوء الصباح في الحث على السماح » ، صنفه للملك الأشرف ، وكان قد سير من حرَّان بطلبه ، فانه لما وقف على خطه اشتهى أن يراه فقدم عليه فأحسن إليه وأكرمه ، وخلع عليه وشرفه . وكتاب «الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة»

وأنا سألته جمعه فجمعه لي وكتبه فى نحو أسبوع وهو عشرة كراريس. وكتاب فى الخط وعلومه، ووصف آدابه وأقلامه وطروسه، وما جاء فيه من الحديث والحكم، وهو إلى وقتى هذا لم يتم. كتاب «تاريخ حلب» فى أخبار ملوكها وابتداء عمارتها ومن كان بها من العلماء، ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكتاب، وشاع ذكره فى البلاد، وعرف خطه بين الحاضر والباد، فتهاداه الملوك. ومن كتبه تبريد حرارة الأكباد، فى الصبر على فقد الأولاد. وكتاب «دفع التجرى عن أبى العلاء المعرى» وكتاب «التذكرة» وهو فى أجزاء فى دار الكتب المصرية أولها الجزء الخامس وآخرها الجزء السادس عشر، وفي هذه الأجزاء قصائد جميلة لأناس من معاصريه ورسائل منثورة وغيرها (راجع ما كتبناه فى هذه التذكرة فى المجلد السابع من مجلة المقتبس ص ٨١١). ومما نقله أبيات للسابق أبي اليمن محمد بن الخضر المعرى وهى :

حلب معهد الصبا والتصابى ... فسقاها الوسمىُّ ثم الوليّ
موطنى بعد موطنى فكأنى ... لغرامى بحبها البحترى

إلى أن قال :

فلديها كل الفنون وفيها ... ما اشتهاه الشرعىُّ والفلسفىُّ
غير أنى أرى الأطايب شزراً ... وحليف الإفلاس عنها قصيّ

وكان في حلب فى ذاك الزمن جلة من العلماء كما قال الشاعر، بل إن من قراها ما كان أشبه بدار علم مثل معرة النعمان وكفر طاب، وكفر طاب اليوم مزرعة خربة

ومما اقتبسه فى هذه التذكرة أبيات لسنان صاحب الدعوة

لو كنت تعلم كل ما علم الورى ... طراً لكنت صديق كل العالم
لكن جهلت فصرت تحسب أن من ... يهوى خلاف هواك ليس بعالم
فاستحى إن الحق أصبح ظاهراً ... عما تقول وأنت شبه النائم

وسنان هذا هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الدعوة دعوة الاسماعيلية، ومقدم الفرقة الباطنية بالشام، وإليه تنسب الطائفة السنانية. وهو الذى كتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب جواب كتاب هدده فيه، على مانقل ذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان، وافتتحه بقوله :

ياذا الذى بقراع السيف هددنا ... لاقام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازى يهدده ... واستيقظت لأسود البر أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى بإصبعه ... يكفيه ماقد تلاقى منه إصبعه

ثم أردف هذه الأبيات بكتاب كله تهديد لصلاح الدين.

وقد كتب مرة أخرى :

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت ... بيوتك فيها واشمخر عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى ... مغارمها منا وفينا حديدها

وفي خزانة المجمع العلمى العربى بدمشق نسخة من كتاب دفع الظلم والتجرى، وسماه هناك «كتاب الانصاف والتحرى فى دفع الظلم والتجرى عن أبى العلاء المعرى» وهو مخروم من آخره نقص منه بيت القصيد وهو تبرئة المعرى من التعطيل، وكان أعداؤه ينحلونه أبياتاً ليصححوا دعواهم عليه انحلال العقيدة. وفى هذا الكتاب فصول جميلة فى نشأة المعرى وعماه وشيوخه ورحلته إلى بغداد وقوة حافظته. وقد استفدنا منه أنه كان عند أبى العلاء أربعة كتاب فى جرايته وجارية يكتبون عنه ما يكتب إلى الناس، وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف، وكتب له جماعة من المعرة أخصهم أنسباؤه ومنهم ابن أخيه، وكان ملازماً لخدمته ويكتب له تصانيفه، ويكتب عنه الإجازة والسماع عمن يسمع منه ويستجيزه، وكتب تصانيفه بخطه حتى يقع بخطه من المصنف الواحد نسختان وأكثر. واستفدنا منه أن المعرى زار دار العلم ببغداد لا دار العلم فى طرابلس، ولم يكن فى طرابلس دار علم، وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك بن عمار فى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة. وأبو العلاء مات قبل جلال الملك فى سنة تسع وأربعين واربعمائة

وأهم مصنفات ابن العديم على ما يظهر تاريخ زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية، أخذت بالتصوير الشمسى من إحدى خزائن الأستانة وهى فى ثلاثة مجلدات. بدأ كتابه بجغرافية حلب والبحيرات التى فى أعمالها، وما فيها من الجبال وما جاء فى صحة تربة حلب وهوائها واعتدال خراجها وصفة مائها، وما ورد من الكتابة القديمة على الأحجار بحلب وعملها. وعقد فصلا فى بيان أن معاوية ومن كان معه بصفين لم يخرجوا عن الإيمان بقتال علىّ عليه السلام، وفصلا فى ذكر ما جاء فى الكفّ عن الخوض في حديث صفين. وذكر الرواندان وعين زربة وبهسنى والمرزبان والشغروبكاس

وعربسوس ، وفصلا فى ذكر فضائل الشام ، وحلب وفويق نهر حلب وما ورد فيه وذكر الغراب ومخرجه ومعرفة من حفره ، وذكر جتيهان نهر المصيصة وسيخان نهر أذنة والعاصى نهر أنطاكية وحماة والبردان نهر طرسوس ، وذكر البحر الشامى ويعرف ببحر الروم . وأشار إلى مايتعلق بحلب وأعمالها من الملاحم وأمارات الساعة . وعقد فصلا فيمن نزل من قبائل العرب بأعمال حلب ومن كان قبلهم فى سالف الحقب ، وهو من أهم فصول كتابه . وذكر من نزل فى أعمال حلب من حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وعقد باباً فى فتح حلب وقنسرين وما تقررت عليه أحكامها ، ونقل شرط عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) على أهل قنسرين وهو على الغنىّ ثمانية وأربعون، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المدقع اثنا عشر يؤديها بصنار — والغالب أنها دراهم والدرهم على الأكثر عشر الدينار ، ويقدر الدينار بنحو نصف جنيه مصرى ذهباً — وعلى مشاطرة النازل بينهم وبين المسلمين وألا يحدثوا كنيسة إلا ما كان فى أيديهم ولا يضربوا بالناقوس إلا فى جوف بيعة ، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة ، ولا يرفعوا صليباً إلا فى كنيسة ، وأن يؤخذ منهم القبلى من الكنائس للمساجد ، وأن يُقْروا ضيوف المسلمين ثلاثاً ، وعلى ألا يكون بين ظهرانى المسلمين الخنازير ، وعلى أن يناصحوا المسلمون ولا يغشوهم ولا يمالؤا عليهم عدواً ، وأن يحملوا راجل المسلمين من رستاق إلى رستاق ، وألا يلبسوا السلاح ولا يحملوه إلى العدو ، ولا يدلوا على عورات المسلمين ، فمن وفى وفى المسلمون له ، ومنعوه بما يمنعون به نساءهم وأبناءهم ، ومن انتهك شيئاً من ذلك حل دمه وماله وسباء أهله وبرئت الذمة منه ؛ وكتب بذلك كتاباً . وهذا الكتاب فيما نذكر لم يرد بهذا النص فى كتب الفتوح والبلدان المشهورة

ومما روى ابن العديم قال : وأخبرنا قاضي العسكر أبو الوليد محمد بن يوسف بن الخفر قال : كانت حلب من أكثر المدائن شجراً فأفنى شجرها وقوع الخلف بين سيف الدولة بن حمدان وبين الإخشيد أبي بكر محمد بن طفج ، فإن الإخشيد كان ينزل على حلب ويحاصرها ويقطع شجرها ، فإذا أخذها وصعد إلى مصر جاء سيف الدولة وفعل بها مثل ذلك ، وتكرر ذلك منهما حتى فنى ما بها من الشجر . واتفق بعد ذلك نزول الروم على حلب وأخذ المدينة فى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ففنى شجر الشربين لذلك ، وكانت الوقعة بين سيف الدولة وبين الدمستق في هذه السنة فى سفح جبل بانقوسا وسميت وقعة بانقوسا . وقال في سيف الدولة إنه كان يتشيع فقيل على أهل حلب التشيع لذلك .

ومما ذكره جبل برصايا وقال إنه جبل عال شامخ شمالى عزاز يشرف على بلد عزاز وكورة الأريتق (الأرتيق) وتحتهما قرية يقال لها كفر شيغال وقفها نور الدين محمد بن زنكى على مصالح المسلمين . وهذا الجبل بين عزاز وقورس . وذكر ما فى حلب من اعزازات وما فيها وفى أعمالها من العجائب والخواص والطلسمات والغرائب . وقال إن حلب من الأرض المقدسة ، وإن أهل حلب فى رباط وجهاد ، وإنها كانت باب الغزو والجهاد ، ومجمع الجيوش والأجناد ، وذكر صفة مدينة حلب وعماراتها وأبوابها وما كانت عليه أولا وما تغير منها وما بقى . ثم ذكر فصولا أخرى في فضلها وفضل قنسرين وفصولا في أنطاكية ، ومنبج ، ورصافة هشام وخناصرة ، وبالس ، وحياد بنى القعقاع، ومعرة النعمان — نسبة للنعمان بن بشير — ومعرة مصرين ، وحاضر قنسرين وسرين وكفر طاب ، وأفامية ، وشيزر ، وحماة ، وبغراس (بيلان اليوم) والمصيصة ، وعين زربة ، واذنة ، والكنيسة السوداء ، وطرسوس، وذكر كيفية النفير بطرسوس وكيف كان يجرى أمره ، وعقد فصلاً لفضل طرسوس والحصون المجاورة لها وللمصيصة وانطاكية، وذكر حصن ثابت بن نصر وهو الذى كان مشهوراً قبل الثغور وبنائها ، وذكر حصن مُجَيْف ، وحصن شاكر ، وحصن الجوزات ، وعرض لتل جبير ، وأولاس ويقال له حصن الزهاد ، وذكر الهارونية ، وحصن الأسكندرونة ، والتينات ، والمثقب ، وسيسيه ويقال لها سيس وهي مدينة قريبة من عين زربة إلى غيره من الحصون ، وذكر مرعش والحدث المعروفة بالحدث الحمراء ، وزبطرة ، وحصن منصور ، ومكطية ، وسُمَيْساط ، وربعان ، ودلوك ، وقورض وكيسوم . فاستدللنا بهذا أن عمل حلب كان يتناول قسماً مهماً من الجزيرة ومعظم بلاد قاليقلا ، وبعض بلاد آسيا الصغرى (ويقع الكتاب فى ٥١٨ صفحة وعدد أوراقه ١٩٦)

محمد كرد على

تطور علم الكلام

فى رسالة انقاذ البشر من الجبر والقدر

للأستاذ محمد على كمال الدين

من آثار الماضين المطمورة فى الخزائن رسالة « إنقاذ البشر من الجبر والقدر » للشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ . وقد قام بنشرها وطبعها الشاب الفاضل على الخاقانى النجفى عضو منتدى النشر فيها .

لم تقتصر هذه الرسالة على طلاوة الحديث وسهولة الأسلوب فقط، بل استهلت بمقدمة وجيزة متقنة الترتيب والتنسيق والتأليف، عرضت لتاريخ تطور علم الكلام لم نجد لها مثيلا فى مطولات الكتب. ويدرك الباحث قيمة هذه المقدمة عند مقارنتها مع مقدمة مختصر كتاب الفرق بين الفرق؛ فقد كان المؤلفان متعاصرين فضلا عن أن لهما سبقاً فى التأليف على معظم مؤلفى الكتب المتداولة اليوم فى مثل هذه الموضوعات

لقد قارنا بين المقدمتين فوجدنا شبها بين مسلكى المؤلفين ، ولو أن بين موضوعى الكتابين فرقاً ظاهراً . أما وجه الشبه فإن كلتا المقدمتين تبحثان عما جد من نقط الخلاف بين المسلمين . وأما وجه الافتراق فإن مقدمة مختصر كتاب الفرق بين الفرق لم توضح العوامل النفسية والاجتماعية الداعية لهذا الاختلاف ، وأنها لم ترنا نظرية جديدة فى أسباب هذه الحركة الفكرية ؛ أضف إلى ذلك أنها قرنت نظرية الاستطاعة مع نظرية القدر فى حين أن هذا الاقتران لا يصح منطقياً إلا على رأى القائل : إن القدر مرادف للجبر ، وهو خلاف رأى ذلك المؤلف نفسه ؛ فإن بحث الاستطاعة وتقدمها وتأخرها عن الفعل إنما حدث بين علماء الجبر أنفسهم ، فكأنما المؤلف غفل عن التطور الفكرى والظروف والمدارج العقلية التى يمكن للنظريات أن تحل أو تخلق فيها ؛ فى حين أن مقدمة المرتضى كما ستراها علمية فنية ، فقد بدأت فى نظرية نسبة المعاصى ونفيها عن الله ، ثم أعقبت ذلك بنظرية العدل فنظرية الاعتزال يعني المنزلة بين المنزلتين ، وتلاها بنظرية القدر ويعنى بها الجبر ؛ على أنه راعى فى ذلك كله العوامل النفسية والاجتماعية المباشرة لخلق مثل هذه النظريات التى جاءت مرتبة بعضها وراء بعض فكان منها علم الكلام

وهذا هو الذى دعانى إلى العناية بدراسة هذه المقدمة وإلى تحليلها فلعلنا نستنتج تاريخ علم الكلام وتطور نظرياته . قال الشريف :

« واعلم أن أول حالة ظهر فيها علم الكلام وشاع بين الناس فى هذه الشريعة هو أن جماعة ظهر منهم القول باضافة معاصى العباد إلى الله سبحانه ، وكان الحسن ابن أبى الحسين البصرى ممن نفى ذلك ووافقه فى زمانه خلق كثير من العلماء كلهم ينكرون أن تكون معاصى العباد من الله ، منهم محمد الجهنى وأبو الأسود الدؤلى ومطرف ابن عبد الله ووهب ابن منبه وقتادة وعمر ابن دينار ومكحول الشامي وغيلان وجماعة كثيرة لا تحصى ؛ ولم يك ما وقع من الخلاف يومئذ يتجاوز باب إضافة معاصى العباد إلى الله سبحانه ونفيها عنه وغيره من هذا الباب »

فأنت ترى أن الشريف بدأ مقدمته يبحث نفسى علمى عن الحالة التى ظهر فيها علم الكلام وهو وإن لم يصور فى المقدمة تلك الحالة بوضوح وجلاء إلا أن تحليلها العلمى يكشف لنا عنها ، فقد درج فيها مثلا جماعة من أكابر التابعين ممن تصدوا لنفى ذلك القول ؛ ومن تصدى مثل هؤلاء العلماء تتجلى لنا أهمية هذا القول وقيمة القائلين به ومبلغ تأثيرهم وتأثيره فى أفكار الناس ، كما أن وجود أبي الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ هـ بين هؤلاء الجماعة النافين ، وهو المعروف بعلمه ومكانته ، يدل دلالة صريحة على أن البدأ فى هذا القول لا يعدو هذا التاريخ ، أى لا يعدو سنة ٦٩ كما يدل على وجود رأى خاص بعلماء النفى . فنحن الآن نبحث نقطتين إحداهما العوامل التى كونت ذلك القول ، وثانيتهما علماء النفى ورأيهم وكيفية تكون هذا الرأى .

(١) عوامل نسبة المعاصى إلى الله .

أما الحالة والعوامل النفسية التى دفعت إلى هذا القول فيمكن استنتاج رأى الشريف فيها من موضوع البحث نفسه . بحث

المعاصي ، فانه من الواضح أن العرف والعادة يقضيان باستحالة ظهور هذا البحث فجأة وبدون أسباب ، فى حين أن الذى كان عليه المسلمون ونشأوا عليه هو الطاعة طاعة الله . ورسوله التى تجلت أسبابها فى عهد النبي والصحابة . فهل يمكن تغيير اتجاه الأمة فجأة ، من هذا التوغل فى الطاعة إلى البحث فى المعاصى دون أن تجد عوامل اجتماعية وروحية مما تدفع إلى هذا التغير

والسيد المرتضى لم يساعده الايجاز فى مقدمته على بيان عوامل البحث فى المعاصى ، وربما كان معتمداً على فهم القارىء واستنتاجه فان الباحث إذا رجع إلى الاحداث التاريخية قبل سنة ٦٩ يجد أنها بدأت فى مقتل عثمان وثنت بوقعة الجمل وحروب صفين ، وناهيك بمفعول هذه الأحداث وعظيم أثرها على الفطرة العربية والايمان المتغلغل ، فكان أن تمخضت عن خروج الخوارج المتصلبين فى نظرياتهم الدينية والذين لم يكتف بعضهم بتخطئة علي ومعاوية وأصحابهما بل يريدون من الناس أن يحكموا بكفرهما وكفر من ناصرهما . وهـذه الأحداث هي التى كونت نظريتهم فى تكفير مرتكب الكبيرة وهى كما ترى عين نظرية المعاصى المبحوث عنها غير أنها توسعت بنسبة هذه المعاصى إلى الله .

وهنا يجد سؤال : كيف ومتى توسعت نظرية تكفير ذوى المعاصى فشملت إضافة هـذه معاصى العباد إلى الله تعالى ؟ وبتعبير أوضح كيف تطور الموضوع من إيجابي لدى فريق إلى سلبي لدى فريق آخر ، ومن تكفير مطلق إلى تبرئة مطلقة ، فى حين أن طبائع الجماعات والأحزاب المتطاحنة تسترسل بالطعن بعضها فى بعض باصرار وشدة . وإن رأت الاعتدال فانما يكون بالإعراض والاغفال لا فى التبرئة ، فان من المعلوم أن نسبة عصيان العبد إلى ربه تستلزم نقض ذلك التكفير وتخفيف وطأته ، وذلك يستحيل تحقيقه عقيب تلك الأحداث الدموية أى عقيب سنة ٤٠ ، نعم يمكن أن يتكون من إصرار الخوارج على التكفير ومن حركاتهم الطفيفة ضد معاوية والعنيفة ضد ابن الزبير ، ومن تفاقمها ضد عبد الملك وعامله الحجاج يمكن أن يتكون من جميع ذلك عوامل لتهيئة نفسية الأمة فى تكوين جماعة ذات رأى في تبرئة الصحابة بقصد مناضلة الخوارج ، والوقوف ضد تيارهم كما أن الأحداث التى قام بها يزيد بن معاوية والتى فتنت الناس فى دينهم ولطخت ثيابهم بدم الحسين وبدماء أهل المدينة ، وأيضاً حصار مكة المكرمة من قبل الحجاج لا بد أنها ولدت فى نفوس الناس الشك والحيرة فى العاقبة وسوء المنقلب ، فمن الجائز أنهم لجأوا إلى وسيلة تبرئة الصحابة والتابعين كيما يحصلوا هم على هذه التبرئة ضمناً فنسبوا معاصي العباد إلى الله . ونحن نرى أن نشوء فئة تبرئ الأحزاب وتصحح أعمالها وأغلاطها لا يحصل عادة إلا بعد استقرار الوضع السياسى واطمئنان النفوس ، وأيضاً بمعونة جيل جديد ينضم إلى بقايا تلك الأحزاب ؛ فمن هذا النشء الجديد ومن أولئك البقية الذين كانوا شباناً عند تلك الحروب والفتن الداخلية التي انغمسوا فيها مسبوقين غير مختارين ؛ فمن هؤلاء وأولئك يجوز أن تتكون فئة مختلطة تفكر أو تعتقد بتبرئة السلف — وبتعبير آخر يمكن أن يحدث على عهدها مثل هذه النظرية التى خلقها التطور الفكرى — والسيد المرتضى وإن اكتفى بذكر النظرية عن تحديد وقتها أو تعيين الجيل الذى اعتنقها فانى أرى أن خير جيل وأفضل وقت يمكن أن تتجلى فيه نظرية نسبة عصيان العبد إلى الله هى المدة بين سنة ٦٠ و ٦٩ مراعين فى ذلك سنن الاجتماع ومدى تطور عقلية الجماعة .

وإجمال القول أننا جعلنا التسعة والعشرين عاماً بين سنة ٤٠ و٦٩ هى المدة التى تطورت فيها النظرية من قضية بسيطة إلى قضية مركبة ، أو من دور الشعور بها فالتفكير ، إلى دور نضوجها وبروزها نظرية ثم معتقداً ، ذلك المعتقد الذى اضطر أبا الأسود الدؤلى وإخوانه التابعين إلى إنكاره . ومن الأدلة على صحة رأينا هذا هو المكانة العلمية التى كان عليها الحسن البصرى كما يظهر من قول المرتضى (وكان الحسن بن أبى الحسين البصرى ممن نفى ذلك) فانك تعلم أن مثل هذه المكانة لا يبلغها إلا من قارب عمره ٣٩ عاما وقـد كانت ولادة البصرى سنة ٣٠ هـ وعليه لابد وأن تكون المدة من ٦٠ إلى ٦٩ هى القدر المتناسب لخلق نظرية نسبة المعاصى لله .

(٢) علماء النفي ورأيهم :

أما علماء النفى فيظهر لنا من المقدمة أن المرتضى يرى أنهم

جمع غفير من السلف الصالح فانه بعد ما ذكر سلسلة صالحة من التابعين ألحقها بقوله : مع جماعة كثيرة لاتحصى . والمنطق يحكم فى ذلك . فان سواد الأمة ورجال العمل فيها مسوقين طبعاً لرفض نسبة معاصى العباد إلى الله ، ذلك القول الذى ينفر منه الحس ولا يقبله العرف فقد عسر على فهم الناس الإذعان بأن الكفر والفسق وسائر الأجرام التى يرتكبها العصاة عادة — تنسب إلى الله وهو فى الوقت نفسه العادل الرؤوف الرحيم . فكان رأى هؤلاء القول بالعدل وأنهم ينفون أن تنسب معاصى العباد إلى الله .

ويضيف المرتضى إلى ذلك أنه لم يكن فى ذلك الدور الذى حصرناه بين ٦٠ و ٦٩ غير بحث المعاصي نفياً وإثباتاً .

فان قيل إن النقطة الأولى أعنى البحث فى نسبة المعاصى لله يؤول إلى القول بالقدر الذي هو بمعنى الجبر على رأى المرتضى ، وأيضاً النقطة الثانية أعنى البحث فى نفيها عنه بنسبتها إلى الانسان تؤول إلى القول بالاختيار وهو الذي يدعوه المرتضى العدل . قلت : ولكن هذا المآل لايتحقق فعلا قبل تفهم الأمة حقيقة بواعثه نفسها وقتلها بحثاً ودرسا ثم تطبيقاً ، ومن الجائز تحقق ذلك وتحقق هذا المآل ولكن بعد سنة (٦٩) أى بعد تقادم نظرية نسبة المعاصى ونفيها ، وأيضاً بعد مرور زمن يتناسب مع مدى تقدم عقلية الأمة ، وعليه فيكون عهد نظرية القدر ونظرية الاختيار متأخراً كما قال المرتضى بعد عهد طويل .

ولا يذهبن بنا الظن إلى أن معنى تأخر هاتين النظريتين أنهما لم تخطرا ببال أحد ولم يعرض لهما الكتاب والسنة والأحاديث مطلقاً ، فقد عرض الكتاب فى مختلف الموارد إلى القدر والاختيار تصريحاً وتلميحاً وكناية ، وكذلك الحديث ؛ غير أنا لانرى أن ذلك يستلزم أن تصبح علماً مفرداً لدى الناس إذ ليس كل مايعرض له الكتاب والسنة يتفهم الناس نظرياته العلمية فعلا ، فقد جاء أن الكتاب يحوى بين دفتيه علوماً لم تكتشف بعد . ولذلك رأينا الشريف المرتضى قد خطأ القائلين أن القدر أول موضوع فى علم الكلام فقال : ولم يك ما وقع من الخلاف حينئذ يتجاوز باب نسبة معاصي العباد إلى الله ونفيها عنه . ومن هنا نعرف أن رأى المرتضى لايتفق مع رأي القائلين بأن معبد الجهنى وغيلان الدمشقى هما أول القائلين بالقدر وإنما يرى فيهما كما عرفت فى أنهما يقولان بنفي معاصى العباد عن الله وهى النظرية العدلية . وخلاصة رأي المرتضى كما يأتي :

(١) إن أولى النظريات فى علم الكلام الاسلامى هى نظرية نسبة المعاصى إلى الله

(٢) ثانيتهما النظرية العدلية وهى رأى علماء النفى

(٣) يستنتج أن عام ٦٠ — ٦٩ هو أعلى حد يمكن أن يكون مبتدأ لتاريخ علم الكلام ؛ وذلك لأنا ضبطنا الأرقام على أساس تاريخ وفاة العلماء أى على أخس المقدمات . ومن هنا يعرف القارئ أن تاريخ علم الكلام يجوز أن يتقدم على سنة ٦٠ ولا يمكن أن يتأخر عن سنة ٦٩ ، وهكذا الشأن فى جميع أرقام بحثنا التالية فيجوز عليها التقدم ولا يجوز التأخر وسيتجلى رأى المرتضي أكثر فى أجزاء المقدمة التالية قال :

« بيان القدرة والمقدور وما أشبهه . فأما الكلام فى خلق أفعال العباد فى الاستطاعة وفيما اتصل بذلك وشاكله فانما حدث بعد دهر طويل ، ويقال إن أول من حفظ عنه القول بخلق أفاعيل العباد جهم بن صفوان فإنه زعم أن ما يكون في العبد من كفر وإيمان ومعصية فالله فاعله كما فعل لونه وسمعه وبصره وحيويته ، وأنه لا فعل للعبد فى شيء من ذلك ولا صنع ، والله تعالى صانعه ، وإن لله تعالى أن يعذبه فى ذلك على ما يشاء ويثيبه على ما يشاء . وحكى عنه علماء التوحيد أنه يقول مع ذلك إن الله خلق في العبد قوة بها كان فعله ، كما خلق غذاء يكون به قوام بدنه ، ولا يجعل العبد كيف يصرف حاله فاعلا لشيء على حقيقة ، فاستبشع من قوله أهل العدل وأنكروه مع أشياء أخرى حكيت عنه . ولما أحدث جهم القول بخلق أفعال العباد قبل ذلك ضرار بن عمرو بعد أن كان يقول بالعدل فانتفت عنه المعتزلة واطرحته ، فخلط عند ذلك تخليطاً كثيراً وقال بمذاهب خالف فيها جميع أهل العلم وخرج عما كان عليه واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بعد ما كان يعتقد فيهما من العلم وصحة الرأى لأنه كان فى الأول على رأيهما وأخذ عنهما »

« لها بقية »

محمد على كمال الدين

(العراق — النجف)

الفلسفة الشرقية
بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٢ —

الفلسفة الصينية
العصر الأول

عقيدة العامة

لا يستطيع الباحث أن يحصل على نتائج قيمة فى دراسة عقيدة شعب من الشعوب إلا إذا صعد مع الماضى إلى العناصر الأولى لهذه العقيدة بقدر المستطاع . ولا شك أن العقيدة الصينية هى إحدى تلك العقائد القديمة التى تتكون من عناصر مختلفة وأساطير شعبية متباينة . ولهذا وجب علينا قبل أن ندرس الوحدتين الصينيتين : الدينية والفلسفية أن نلم بمعتقدات العامة فى عصور ما قبل التاريخ ، حتى إذا ما وصلنا إلى العصور الراقية ، استطعنا أن نربط بين الأصل والفرع على نحو يرضى البحث العصري .

تتكون عقيدة العامة عند الصينيين من أقدم عصورهم من عبادة الأرواح الخفية والقوى الغامضة التى كانوا يشاهدون آثارها دون أن يدركوا كنهها على نحو ما فعلت جميع الشعوب الغابرة . وكانت هذه الأرواح المعبودة مؤلفة من نوعين : أرواح الموتى : من آباء وأجداد وغيرهم ، وتسمى عندهم بال « كُـوى » وأرواح القوى الطبيعية مثل الشمس والقمر والكواكب وتسمى عندهم « شين » .

وكانت هذه الأرواح بنوعيها تنقسم من حيث المكان إلى قسمين : الأرواح العليا أو السماوية ، وهى جميع الكواكب والنجوم ؛ والأرواح الدنيا أو الأرضية ، مثل : الأنهار والبحيرات والمنابع ، والغابات والمروج والأودية والجبال والتلول والربوات . وتندرج فى هذا القسم الأدنى أو الأرضى أرواح الموتى كذلك .

ولقد كان الصينيون ولا يزالون إلى اليوم يؤمنون بأن هناك أرواحاً موكلة بالمطر ، وأخرى بالجفاف ، وثالثة بالانبات ، وغير ذلك ، وأن هناك أرواحاً خاصة لحماية المنازل ورعاية أفراد الأسر .

كان هذان النوعان ال « كُـوِى — شين » إذن هما اللذين يحكمان الكون ، ويسيران كل حركاته . ولهذا كان من الطبيعى أن تنحصر تفكيرات أفراد الشعب وحكامه ومشاغل قلوبهم فى البحث عن نيات هذه الأرواح ومقاصدها ، وما يرضيها ، وما يغضبها ، لكى يعمل كل فرد من أفراد الأمة حاكما كان أو محكوماً على اجتذاب رضى هذه الأرواح ، وجلب خيرها ودفع شرها . وكانت هناك وسائل كثيرة تستعمل للحصول على هذه الغاية مثل السحر والرقى واستنطاق الوحى على لسان رجال الدين

تمتاز العقيدة الصينية القديمة عن عقائد الشعوب الأخرى بالمغالاة فى تقديس الأجداد إلى حد لم يعرف له نظير عند الأمم الغابرة ، ففى الماضى قدموا عبادتها على عبادة أرواح السماء ، وقد حافظوا على هذا التقديم من أي تغير طوال هذه العصور السحيقة ، ولا يزالون إلى هذا العصر يشعرون الباحث فى معتقداتهم بنفس هذا الشعور الذى يذكرنا بطفولة الانسانية ، ولكن لعل هذا النوع من العبادة قد بقى إلى الآن ، لأنه يحمل فى ثناياه مبادئ أخلاقية سامية تدفع الأبناء إلى احترام الآباء فى حياتهم وبعد مماتهم وليس بغريب على الصينيين أن يكون أثبت العقائد عندهم هو ما يمت بصلة إلى الأخلاق كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل الماضي

هناك ناحية أخرى قد تميز الشعب الصينى عن غيره ، وهي الاغراق فى تقديس الأرض وعبادتها حتى كانوا يطلقون عليها اسم : « القوة المحسنة التى تتسلم البذور لتردها ثماراً مضاعفة » ولا ريب أن السبب فى هذا هو أن الشعب الصينى كان شعباً زراعياً يضع الاستغلال والاستنبات فى المنزلة الأولى فى الحياة

عقيدة الخاصة أو عبادة السماء

بقدر ما كان العامة يقدسون الأرض لما تفيضه عليهم من نعمة الخصوبة ووفرة الإنبات ، كان الخاصة يعبدون السماء لما يرونه بعين الفكر كامناً فيها من قوة معنوية لها كل السلطان على الأرض وما فيها ، وهكذا ظهر الفرق منذ أقدم العصور واضحاً بين عقيدة العامة الساذجة التي تأمر بعبادة الأجداد وغيرهم من الموتى ، وعقيدة الخاصة التي تحصر العبادة في السماء أو في « شانج — تي » أي السلطان الأعظم

لم تكن عقيدة الخاصة هذه مستحدثة في العصور المتأخرة ، وإنما هي قديمة جداً ، إذ نراها مسطرة في أقدم فصول كتاب « إي — كينج » . ولقد كانت الرياسة في هذه العبادات الراقية مقصورة على الملك الذي كان يسمى : « تي » أي السلطان وكانوا يلقبونه أيضاً بابن السماء ؛ وقد تطورت هذه الرياسة في العصور المتأخرة فتجاوزت الملك إلى حكام المقاطعات والأقاليم

لم تكن عقيدة الخاصة مجرد عبادات وطقوس دينية فحسب ، وإنما كانت ممتزجة بتفكيرات قيمة حول الكائن من حيث هو كائن وتحليلات لا بأس بها للقوى الطبيعية السماوية والأرضية التي كانوا يشاهدون آثارها ، وكان ذلك مقصوراً على الخاصة ومحرماً على العامة تحريماً قاسيا . ويتضح هذا التحريم من قراءة أقدم فصول « إي — كينج » إذ لا يكاد الباحث يتصفحها حتى يجزم بأنها لم تكتب إلا للحكماء والملوك وخاصة الأمراء وعلماء كبار رجال الدولة

وفي الواقع أن حكماءهم كانوا يقولون : ليس من العقل أن تُسَلَّم إلى الجمهور الأداة التي يسيء استعمالها ، والتي قد تجرحه فترديه قتيلا . وقد ظلت فكرة « المضنون به على غير أهله » قائمة في بلاد الصين حتى هذه العصور الحديثة ، ولهذا قال : « لا أو — تسي » حكيمهم المتنسك في العصور التاريخية : « كما أنه من غير الممكن إبعاد الأسماك عن الماء دون أن تموت ، كذلك من المستحيل أن تكشف أسرار الدولة أمام العامة دون أن تفسد الحال »

من هذا نعرف مقدار حرص الخاصة على عدم تسرب أسرار عقيدتهم إلى العامة . والآن نريد أن نشير إلى شيء من تفاصيل هذه العقيدة ، وعلى أي نحو كانت العقلية الصينية تفهم القوى المتصرفة في الكون وتؤمن بها وتوجه إليها التقديس . وإليك هذه الإشارة :

كان أولئك الخاصة من أقدم العصور يسندون التأثير في جميع الكائنات إلى قوتين عظيمتين : السماء والأرض ؛ ولكنهم كانوا يرون في السماء وحدها السلطان الأعلى « اللامحدود » القوة ، وكانوا يعتقدون أن السماء نفسها كائن حي متحرك بالإرادة ، وبعبارة أدق : أن السماء هي العالم الحي المتحرك حسب نظام دقيق عجيب ، وأنها هي كل الكون ، وأن الأرض وجميع ما عليها من خصوبة وتناسل ومظاهر أخرى ليست إلا رمزاً تمثيلياً من رموز السماء . وقد كانت الأرض هي الرمز النسوي للسماء لما يظهر على سطحها من خصوبة ونباتات ؛ ولكن ليس معنى هذا أن خاصة الصينيين كانوا يعتقدون — كما اعتقد بعض الشعوب الأخرى القديمة — بأن الكائنات تناسلت من زواج السماء مع الأرض ، كلا . وإنما كانوا يعتقدون بالوحدة المطلقة وبأن الأرض ليست إلا مظهراً للسماء بحيث يستحيل تصور فصلها عنها كما تستحيل تثنيتهما في الحقيقة ، لأن كل واحدة منهما هي الأخرى ، وهي أصل جميع الكائنات في نفس الوقت . ولئن وجدنا في كتاب « إي — كينج » أن عناصر الوجود الإيجابية مستقرة في السماء وعناصره السلبية موجودة في الأرض مثلا ، وأن الأرض تدعى بالأميرة المخصبة ، فليس معنى هذا هو التثنية الحقيقية ، وإنما هي رموز لا أكثر ولا أقل

وهكذا نتلاقى عند هذه النقطة من الفلسفة الصينية بوحدة الوجود سافرة جلية بعد أن قصرها أولئك المتفيهقون على العقلية الآرية وجزموا بأنها برهان السمو الفكري . وليست هذه الوحدة موجودة في الفلسفة الصينية بهيئة غامضة ، أو قابلة للفرض والتخمين ، كلا ، بل إنهم يصرحون بأن كل كائن من الكائنات الموجودة حية كانت أو جامدة إنما هو نتيجة لإحدى حركات

الوحدة المطلقة ، وأن جميع الحوادث الكونية ليست ناشئة إلا عن تغير المظاهر الطبيعية ، وأن هذه الوحدة هي المنشأ والمرد لجميع الموجودات بغير استثناء . غير أن هذا التأثير لا يتجه من الوحدة إلى الكثرة الناشئة عنها بطريقة مباشرة ، وإنما يتجه إليها بوساطة قوى هي كذلك ناشئة عن تلك الوحدة ، وعلى هذا النحو تحدث الموجودات . فمثلا الرعد يحدث الحركات الأبدية التي تجذب أحد الضروريين إلى الآخر ، والهواء يحدث فرقهما وكذلك المطر يحدث الخصوبة ، والشمس تحدث الحرارة ، والجبال تحقق السكون ، والماء يحدث السرور ؛ وهكذا تحدث القوة الطبيعية وحدها بعض الحوادث حيناً ، وتتكاتف مع إحدى القوات الأخرى على إحداث البعض حيناً آخر ، وتتضارب مع قوة ثالثة إما للإحداث أو للكف عنه حيناً ثالثا ، وبناء على ذلك كله فليس للعالم عند الصينيين منشئ أجنبي عنه ، وإنما المنشئ هو عين المنشأ ، كما هي الحال عند الهنود وعند الرواقيين مع الاحتفاظ بالفروق الدقيقة المميزة لكل واحدة من هذه الفلسفات

على أن أهم مايجمل بنا أن نشير إليه في هذا الموضع هو تصريح الفلسفة الصينية أو عقيدة الخاصة منذ عصور ماقبل التاريخ بأن جميع الكائنات هي نتائج التغير والتحول الدائبين والناشئين من الحركة . تلك النظرية التي طالما تلألأت في سماء الفكر الإغريقي في عصر ما قبل « سقراط » وكانت منشأ مجد « هيراكليت » ومبعث تلك المجادلات الفلسفية التي احتدم أوارها بينه وبين « بارمينيد » وتلميذه « زينون الإيليائي » .

وليست هذه هي النظرية الفلسفية الوحيدة التي سبق الصينيون فيها الإغريق ، بل إنهم قد سبقوا أفلاطون بتلك النظرية التي أسلفناها آنفاً ، وهي تصريحهم بأن السماء كائن حي ، متحرك بالإرادة . وإذا أردت التوسع في إيضاح هذه النظرية فارجع إلى أفلاطون أو إلى كتب ابن سينا وابن رشد فإنك ستجد فيها الفصول الضافية والبحوث المستفيضة .

لايفوتنا قبل أن نغادر هذا الفصل أن نعلن أن هذا الكون الأوحد عند الصينيين لم يكن مادياً محضاً ، وإنما كان طبيعياً أي مادة مشتملة على روح ، بل إنهم صرحوا بأن الجانب المادي في الطبيعة لم يحتفظ بنظامه كاملا إلا بفضل الجانب الروحي ، وكذلك ينبغي أن نشير إلى أن الإنسان له عندهم منزلة خاصة ، بل إنهم كانوا يعتبرونه عالماً مستقلا ويضيفون اسمه إلى اسمي السماء والأرض كمظهر قوى من مظاهر الوحدة الكونية أو الكون الأوحد ، لأنه هو المشتمل على الروح من بين جميع الكائنات وفي هذا يقول كتاب « شو-كينج » : إن السماء والأرض هما أبوا الكائنات جميعها ، والإنسان من بين جميع الكائنات هو وحده الموهوب روحا » .

ولكن ليس معنى إضافة اسم الإنسان إلى اسمي : السماء والأرض هو تكوين ثالوث كثالوث الهنود أو المسيحيين ، بل إنها وحدة مطلقة كما أسلفنا . وكذلك يجب أن نعلن أن هذه النظريات الراقية لم تكن يوماً ما عامية ثم تهذبت ، وإنما هي وليدة أفكار الخاصة والهذين استخلصوها مباشرة من دراسة ماحولهم من الظواهر الطبيعية

« يتبع » **محمد غلاب**

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢١٤ — لقد صغرت عظيما

سأل رجل خالد بن صفوان فقال : هبْ لى دنينيراً . فقال خالد : لقد صغّرتَ عظيما (صغرك الله !) الدينارُ عشر العشرة ، والعشرة عشر المئة [١] ، والمئة عشر الألف ، والألف ديتُك

٢١٥ — ألم العيون للذة الآذان

كان جحظة البرمكى ناتىء العينين جداً ، قبيح الوجه ، وكان طيب الغناء ، ممتد النفَس ، حسن المسموع ، حلو النادرة كثير الحكاية ، صالح الشعر فقال فيه ابن الرومى :

نبئتُ جحظة يستعير جحوظه   من فيل شِطرنج ومن سرطان
وارحمتا لِمُنادميه ! تحمّلوا   ألَمَ العيون للذّة الآذان

٢١٦ — عتاب بين جحظة والزمان

فى (الايجاز والاعجاز) للثعالبى : كان الشبلى يرقص على قول جحظة :

ورَقّ الجوُّ حتى قيل : هذا   عتابٌ بين جحظةَ والزّمان

٢١٧ — نزلنا عن الأكوار نمشى كرامة

قال يونس بن محمد المفتي : أخبرنا عبد الله بن منظور قال : لما سرنا إلى الزيارة ، وانتهينا إلى باب الخشبة ، وهو الباب الذى يفضى إلى القبر (قبره صلوات الله عليه) نزل رجل عن راحلته وأنشد :

نزلنا عن الأكوار نمشى كرامة   لمن بان عنه أن نلم به ركباً [٢]

فلما سمعه الناس نزلوا عن رواحلهم ومشوا إلى القبر

---

(١) فى (أدب الكتاب) : « ومائة زادوا فيها ألفا ليفصلوا بينها وبين منه فلو لم تكن الألف لالتبس على القارىء » قلت : الحال تقتضى حذفها حتى لا يضل لافظها وكم أضلت هذه الألف ففتح الميم قارىء المئة ومد ...

(٢) المتنبي من قصيدة فيها :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه   حريصاً عليها مستهاماً بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى   وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد   إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا

وتمثل هذا الرجل بهذا البيت أحسن من مدح أبي الطيب المتنبي من مدحه به ، وقاله فيه

٢١٨ — يا كفى الله شر ما هو حاك

أبو عامر بن الفضل التميمى و« هذا كلام عليه أمارة الأمارة وله ملاحة البداوة ورشاقة الحضارة [١] » :

واصلتنى الهمومُ وصلَ هواكِ   وجفانى الرقادُ مثلَ جفاكِ
وحكى لى الرسول أنك غضبى   يا كفى الله شر ما هو حاك ! !

٢١٩ — ذهب ذلك القليل

فى (روضة العقلاء ونزهة الفضلاء) : قال شعيب بن حرب : قال لى شعبة [٢] : عقولنا قليلة فإذا جلسنا مع من هو أقل عقلا منا ذهب ذلك القليل . وإنى لأرى الرجل يجلس مع من هو أقل عقلا منه فأمقته

٢٢٠ — ارجاف العوام مقدمة الكون

كان ابن الزيات يقول : إرجافُ العوامّ مقدّمة الكون . نظمه جحظة :

وإرجاف العوامِ مقدّماتٌ   لأمرٍ كائن لاشكّ فيهِ [٣]

٢٢١ — لا ...

كان ابن الليث قاضى مصر يكتب فى فتيا فسمع جارية تقول :

ترى فى الحكومة ياسيدى   على من تعشق أن يُقتلا ؟ [٤]

فرمى القلم من يده وهو يقول : لا

٢٢٢ — فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة ؟

فى (نفح الطيب) : كان محمد بن أبى بكر القرموطى المرسى من أعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة المنطق والهندسة والعدد والموسيقى [٥] والطب ، فيلسوفاً ماهراً ، آية الله فى المعرفة بالأندلس يُقرىء الأمم بألسنتهم فنونهم التى يرغبون فيها وفى تعلمها . ولما

---

(١) دمية القصر : والبداوة والحضارة بالفتح والكسر

(٢) من أئمة الحديث . فى تاريخ بغداد : قال النضر بن شميل : مارأيت أرحم بمسكين من شعبة

(٣) العوام فى البيت بالتخفيف

(٤) الحكومة : القضاء . فى الأساس : وهو يتولى الحكومات ويفصل الخصومات

(٥) بكسر القاف وقد فتح بعضهم

تغلب طاغية الروم على مرسية عرف له حقه فبنى له مدرسة يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود . وقال له يوماً وقد أدنى منزلته : لو تنصرت وحصلت الكمال كان لك عندى كذا ، (١) وكنت كذا . فأجابه بما أقنعه ، ولما خرج من عنده قال لأصحابه : أنا عمرى كله أعبد إلهاً واحداً ، وقد عجزت عما يجب له ، فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة كما طلب الملك منى ؟ !

٢٢٣ — وأستشهد بالموتى

فى (كشكول العاملي) : قيل لأعرابى : كيف غلبت الناس؟ فقال : كنت أبهت[٢] بالكذب ، وأستشهد بالموتى . . .

٢٢٤ — انها لم تجعد عنى

فى (الكشاف) : شهد رجل عند شُريح (القاضى) فقال : إنك لسبط [٣] الشهادة !

فقال الرجل : إنها لم تُجعّد عنى [٤]

فقال : لله بلادك ! وقبل شهادته

٢٢٥ — علم الله نيتى من سمائه

فى (أمالى) القالى : كان الجُمّاز منقطعاً إلى أبى جزء الباهلى ، فتنسك أبو جزء وقال للجماز : لا أحب أن تخالطنى إلا أن تتنسك ، فأظهر الجماز النسك وأنشأ يقول :

قد جفاني الأميرُ حين تقرّى   فتقرّيت مكرهاً لجفائهْ [٥]
والذى انطوى عليه المعاصى   علم الله نيّتى من سمائهْ

٢٢٦ — المصغر لا يصغر

فى (وفيات الأعيان) : اجتمع الكسائى يوماً بمحمد

(١) كذا : تستعمل مفردة ومكررة معطوفاً عليها وبلا عطف ، والكثير التكرير مع العطف

(٢) بهته : قابله بالكذب

(٣) بسكون الباء وفتحها وكسرها . والسبط فى الأصل : الشعر المسترسل الذى لاحجنة فيه (لاجعودة فى أطرافه)

(٤) الشعر الجعد هو الذى فيه التواء وتقبض خلاف المسترسل . وقد جاء قول الرجل — كما قال الزمخشرى — على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال وهو فن من كلامهم بديع ، وطراز عجيب منه قول أبي تمام .

من منبىء أبناء يعرب كلها   أنى بنيت الجار قبل المنزل

(٥) تقرأ : تنسك وقد سهل . وقد تستبدل الياء بالهمز تخفيفاً كما قالوا قريت . فكتابتها (والحالة هذه) بالألف المقصورة حسب القاعدة

ابن الحسن (الشيبانى صاحب أبى حنيفة) فى مجلس الرشيد فقال الكسائى : من تبحر فى علم يهدى إلى جميع العلوم . فقال له محمد : ما تقول فيمن سها فى سجود السهو ، هل يسجد مرة أخرى ؟ قال الكسائى : لا . قال محمد : لماذا ؟ قال : لأن النحاة تقول : المصغر لا يصغر (١)

فقال محمد : فما تقول فى تعليق الطلاق بالملك ؟ قال : لا يصح قال : لِمَ ؟ قال : لأن السيل لا يسبق المطر .

٢٢٧ — والى العقول

فى كتاب (الزهرة) لعلى بن داود (الظاهرى) : ليتحر الساق العدل فانه والى العقول ، وإلا ناله من خَجْلة[٢] الاستعفاء ما ينال الوالى من خجلة العزل .

٢٢٨ — قل لى متى

أحمد بن فارس :

إذا كان يؤذيك حرُّ المصيف[٣]   وكرب الخريف ، وبرد الشتا
ويلهيك حسن زمان الربيع   فأخذُك للعلم قل لي متى ؟

٢٩٩ — الله أعدل

قال المنصور لبعض أهل الشام : ألا تحمدون أن دفع عنكم الطاعون منذ وَلِينا كم ؟

فقال الشامى : إن الله أعدل من أن يجمعكم علينا والطاعون . . .

٢٣٠ — أف على النرجس والآس

فى (نزهة الجليس) للعباس بن على المكى : كتب الشاه اسماعيل ملك العجم إلى الملك الأشرف قايتباى — ملك مصر — هذين البيتين :

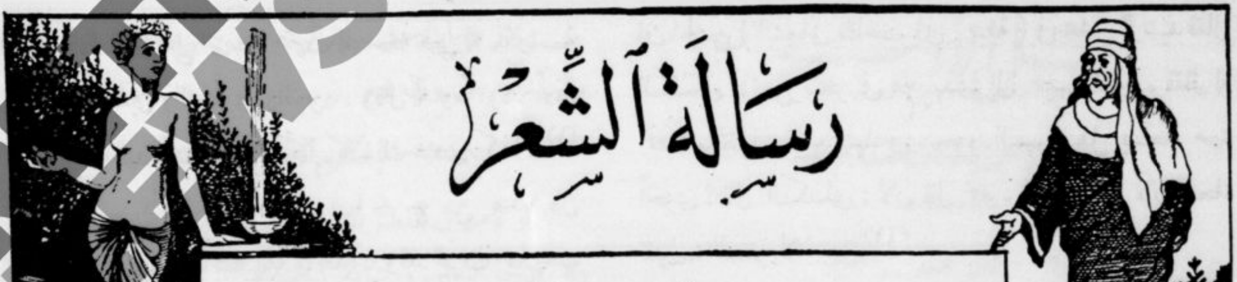
السيفُ والخنجرُ ريحانُنا   أفٍّ على النرجس والآس[٤]
شرابنا من دم أعدائنا   وكأسنا جمجمة الراس

(١) فى (طبقات الأدباء) إن هذه المسألة جرت بين بشر المريسى والفراء . وفى رواية فى (تاريخ ابن الخطيب) أنها بين محمد بن الحسن والفراء

(٢) فى اللسان : به خجلة أى حياء

(٣) يقع القبض فى عروض المتقارب ويقع الكف فى عروض الهزج ولا يجوز غيرهما . وقد قالوا : القبض فى عروض المتقارب أحسن من التمام . ويجوز أيضاً فى هذا البحر اجتماع العروض الصحيحة مع العروض المحذوفة

(٤) النرجس : بفتح النون وبكسرها



المال

للأستاذ فخرى أبو السعود

إيّاك يبغى رائح أو مغتد ... وإليك يسألك حائد أو مهتد
وعليك أنت تجمّعوا وتفرّقوا ... كلٌّ إلى أرَبٍ يروح ومقصد
وعلى هواك تواصلوا وتباغضوا ... متزاحمين عليك عَذْبَ المورد
متنافسين على جَداك ففارق ... فيما يُجمّعه وغصّانٌ صَدِ
مَن نال مِن جدواك رامَ تزيُّداً ... هيهات مهما زدْتَه لم يَزهد
أحببْ إلى أسماعهم وقلوبهم ... بصداك لا بل باسمك المتردد
قطبُ الحياة وملتقى طلابها ... طراً وسلْكُ نظامها المتبدد
يُعلِي مكانك عالمٌ بصروفها ... وبطبعها المتقادم المتجدد
بك تُطْلَبُ الدنيا ويُدْرَكُ مابها ... مِن متعةٍ لأخى النُّهى المتزيِّد
وتَصُونُ ماء الوجه يومَ ملمة ... وتَقومُ دون الحادثات بمرصد
وأراك تقْحَمُ كل حصن مغلق ... أشِب وتفتح كل باب موصد
وأراك عدة كل حر ناهض ... يَقْضِى حقوقاً للعلا والسودد
وأراك جيشاً للغنيِّ مؤزراً ... يمشى بجند حيث سار مؤيَّد
وكأنّ هذا الكون دولة مَن مشى ... فى جانبيه بمُطْرَفٍ أو متلد
أنا إنْ حوَيْتُ قليلَ فيْضِك خلتنى ... مَلِكاً على هذا السَّوَاد المُجْهَد
يشقَوْن كى أهنا وأخطر مُكرَماً ... فيهم وأُدعَى بينهم بالسيِّد
ويسارعون إلى رضاى محكَّماً ... فى خير ماصنعَ الصُّنّاع وأجوَد
وتهش لي أنّى ذهبتُ ديارُهم ... طرباً ويُبْشرُ عندمَقدَمِي النَّدِي
فإذا خلَتْ كفِّي فيالى مُجْتوى ... إن جاءأُنكِرَ أو مَضَى لم يُفقَد
أنت الصديق الصادق الفرد الذى ... يُغْنِي إذا افْتُقِدَ الصديقُ ويَفْتَدِي
نِعْمَ المصاحبُ فى المُقام وحبذا ... خِدناً لِذى السَّفرِ الفذِّ المُبعِدِ
فتشتُ عن وجه الصديق فلم أجد ... فيمن عرفت سوى الطلُّوب المجتدي
مَنْ ليس فى يوم الرفيهة مُؤْنِسِي ... بحديثه أو فى الكريهة مُسعدى
حتى إذا أقصيتُ كلَّ مُسائل ... عنّى وصاحب حاجةٍ متودِّد
ألفيتنى فرداً لعمرك واحداً ... فنبذتهم ووَفرْتُ ماملكتْ يدي

فخرى أبو السعود

ريحانتى الأولى أو الحرمان

للأستاذ سيد قطب

ريحانتى الأولى وروح شبابي ... أنذا دعوت سمعت رجعَ جواب
أنا فى الجحيم هنا وأنتِ بجنة ... من روْح إعجاب وريْق شباب
أنا فى الجحيم وأنت ناعمةُ المنى ... خضراءُ ذات تطلّع وطِلاب
أنا لا أريدك ها هنا فى عالمى ... إنى أعيذكِ من لظًى وعذاب
لكنها الذكرى تثور بخاطرى ... مجنونةً حمقاء ذاتَ غِلاب

***

عيني رعتكِ وأنت نابتةٌ فلم ... تغفل ولم تفتر ولم تتألم
وتعهدتك يدى وأنت نحيلة ... وغذاكِ من نفسى الحنانُ ومن دمي
فنموتِ والآمالُ حولك تنتشى ... وتهم راقصة وتهتف بالفم

حتى إذا أينعتِ وانطلق الشذى ... ألفيتُ نفسى فى صميم جهنم
ملقىً هنالك لا أحس ولا أرى ... إلا الشواظ وكلٌّ داجٍ معتم

***

بيني و بينكِ شُقة لا تنتهى ... أبَداً أُقارب حولهـا وأُباعد
هى شقة النفسِ الخرابِ ، وإنها ... لمجاهل لم تُـكتشف وفدافد
الشمس فيها لا تطلُّ وما بها ... إلا الرواكدُ والظلام البارد
أنا لستُ سالـكهاوأنتِ حفيةٌ ... أن تجتُبِي عنها ونجمك صاعد
فإذا الذى بيني و بينكِ كلُّه ... ذكرى تطل برأسها وتعاود

***

وأراكِ من خلل الغيوم أسيفةً ... إذ تذكرين رعايتي وجهودى
وترَيْن حاضرنا وغابرنا معاً ... وتراجعين مواثقي وعهودى
نفسى فداكِ فلا أراكِ شجية ... ترقى الغصونُ لوجهك المعبود
وقف عليكِ تطلعى وتلهفى ... وقف عليكِ قصائدى ونشيدى
لـكن أعيذكِ خطرة فى عالمى ... إنى أعيذكِ وحشتى وركودى

أيهـا البحر (١)

للآنسة نفيسه السيد

سرِّحْ الطرفَ فى الجلال وهاتِ ... نفحاتٍ مِنْ آيه البيِّناتِ
واملأ النفسَ مِنْ معانيه سِحْراً ... مُسْتَفيضاً فِى أرْوَع الآياتِ
موْطِني بُورِكَ المقامُ حوالَيْـــكَ كريمَ الغَدَوات والرَّوحاتِ
حيْثُ نشئت فى ظلالك أرعى ... شاطِئَ اليمِّ فى مَراح الحياة
وملاذُ النُّفوسِ أنْتَ إذا ما ... أثقلتْها الأيَّامُ بالحادثاتِ
فتوَلِّي إليْكَ منطَلِقاتٍ ... مِنْ قيُودِ الهُمُوم والحسَراتِ
نائياتٍ عنْ عالم الأرْض تحْيِي ... فَتَراتٍ مِنَ المنَى صافِياتِ

***

دُولٌ أقْبلَتْ عليكَ ودالتْ ... مِن قديم وأنت فى الرَّاسياتِ
مُشبهٌ للزَّمانِ تأخذُ عنْهُ ... سِرَّهَ مِن تقلُّبٍ وثَباتِ
تحَديثُ الأيَّامِ فيكَ مُعَادٌ ... فِي قديم من العصُور وآتِ

(اسكندرية) ... نفيسه السيد

(١) من القصائد التى ألقيت فى حفلة « أدب البحر » التى أقيمت بالاسكندرية

من وحى جنائن دمشق

تعـــــالي

للسيد جورج سلستى

تعالَيْ لنسهرَ حتى السَحَرْ ... فللمغرمينَ يلذُّ السهَرْ ،
فهذا الغدير ، وهذى الرياض ... التى تعشقين ، وهذا الزَّهَرْ
أطلَّ عليها جميعاً ، كوجهكِ ... غبَّ الشجونِ ، أخوكِ القمَر
يوشِّعُها من سناءِ ضياه ... ووهْج أشعَّتـهِ بالبدَر !
تعالَيْ فقد رقدَ المرجفون ، ... وغطَّ الوشاةُ ، ونامَ القدَر !
سجا الليلُ إلاَّ هبوبَ النسيمِ ... العليلِ ، وإلاَّ حفيفَ الشجر
وأبلسَ إلاَّ خريرَ الغدير ... وجرجرةَ الماءِ فى المنحدر
تعالَيْ أساقطُ منكِ الكلامَ ، ... فإنَّ كلامَ الحسانِ دُرَرْ
وتحت ستار الدجى يُستطابُ ... حديثُ القلوبِ ويحلو السمَر
تعالَيْ فكلِّي جوارحُ تهفو ... لمرأى المحيَّا الوسيم الأغرّ
تعالَيْ فشوقي إليكِ تلظَّى ... وانَّ حنيني إليكِ استعَرْ
تعالَيْ أبثك نجوى الفؤاد ... وأشكو إليكِ صُرُوف الغِيَرْ
وما فعلتْ بِيَ أيدي البعادِ ... وما خلَّفتْ من بليغ الأثرَ !

***

هنا مجتلى عبقرىُّ الرواءِ ، ... وضىء المحاسنِ ، فذُّ الصور
زهـا بغـلائلهِ الفـاتنات ... وماجَ بوشْيِ الربيع النضِر
كأنَّ جنانَ الخلودِ عليه ... تجاَيَن بالروْنَقِ المبتـكَرَ !
مراء تشعُ بسحرِ الجمال ... فتسبي العقولَ ، وتسبى النظَر
هنا الروضُ يطفحُ بالنعمياتِ ... فيشأو جميعَ الرياضِ الأُخَر
هنا متعةُ النفسِ يا منيتى ... وراحُ النهى ومراحُ الفِـكَر
هنا جنةُ اللهِ فى أرضه ... إذا كانَ من جنةٍ للبَشَر
تعالَيْ فإنَّ لقاءكِ فيهـا ... لسرُّ الحياة ونعمى العمُر

***

تعالَيْ نذوب غراماً فنبقى ... حديثَ الدهورِ ونجوى العُصُر

جورج سلستى



مملكة النحل

عيشة النحل وتربيته الحديثة

بقلم جمال الكرداني

تتمة ما نشر في العدد الماضي

ومن العوامل التي تسبب خراب الخلية وتؤدي إلى دمارها ظاهرة تسمى بالتطريد ، والتطريد هو هجر الملكة الخلية مع بعض الحاشية لتكوين مستعمرة أخرى ، وذلك لضيق الخلية أو وجود منازع لها في الملك . ويحدث التطريد في الربيع أي في أوائل ابريل حيث تكون الخلايا قوية وآهلة فتحس الملكة بضيق المكان فتضطر للمهاجرة . وعند ما ترى الملكة نخاريب (عيون) ملكية تتنبه إلى أنه سيخرج منها يوماً ما ملكات تنازعها الملك فتعمد للسعها داخل عيونها وتمنعها من ذلك الشغالة حديثة السن فيعز على الملكة ذلك وتوثر الرحيل

عند ذلك ترسل الملكة بضع نحلات هي الكشافة للبحث عن محل لائق للهجرة ، وهو عادة الأشجار والجدران العالية ؛ ثم يخرج النحل الكبير في السن ويتجمع بالقرب من باب الخلية ويتماسك بواسطة الأرجل حتى تتكون كتلة تسمى بالطرد

وعند تمام اجتماع الطرد تخرج الملكة وتركب وسط هذا التل ثم يطير الطرد قاصداً المكان الذي تهديه إليه الكشافة

ويسبق هذه الهجرة ظواهر يمكن النحال ملاحظتها ، وهي انقطاع الملكة عن العمل وربما كان ذلك لانشغالها بفكرة الرحيل ، ويلاحظ كذلك تجمهر النحل على أبواب الخلية . كذلك يوجد غالباً دوي غير عادي داخل الخلية . وفي استطاعة النحال منع التطريد إذا فطن له فيعمل على توسيع المكان بوضع براويز جديدة كلما لزم ذلك مع ملاحظة مسألة التهوية . ويجب أخذ البراويز التي بها بيوت ملكات أو قطع البيوت منها أولاً بأول حتى لا تفقس . وإذا كانت مهارة النحال فائقة فيمكنه عزل الملكة القديمة (الأصلية) في برواز سلكي يوضع في الخلية فيرى النحل ملكته ولكن لا يرى لها بيضاً على الأقراص فتذهب نزعته للتطريد . وإذا رأى النحال أن الملكة لا تستحق مثل هذا الحفظ يخرجها من الخلية ويعيها ويدخل ملكة جديدة ، فيظن النحل أن التطريد قد تم ، وأن هذه الملكة زعيمته الجديدة ؛ ويمكن منع التطريد بتاتاً بقص أجنحة الملكة من جانب واحد

النحل والعسل

عرف النحل من قديم الزمن ، وكانت الجماعات منه تسكن شقوق الصخور والتجاويف التي توجد في سوق الأشجار وعند تحقيق فائدته استأنسه الانسان ، ونقله قدماء المصريين إلى جانب بيوتهم ، وكونوا له بيوتاً أرقى من الأولى ، وهذه ما زالت ترتقي حتى كونت الحديثة

وتنجح تربية النحل في الحدائق والمزارع حيث تحاط الخلايا بأشجار تظللها ، ويحسن أن تكون قصيرة متساقطة الأوراق مثل التفاح والخوخ والبرقوق ، لأن الأشجار العالية تساعد على التطريد كما أن الدائمة الخضرة تمنع أشعة الشمس . ويستحسن تظليل الجهة الشرقية والجهة الجنوبية قليلاً تسمح لأشعة الشمس بالوصول إلى الخلايا إذ أنها من العوامل المنشطة للنحل ؛ ويقام عادة سياج في الجهتين الشمالية والغربية لمنع الأهوية الباردة عن الخلايا

وخلايا المناحل المصرية نوعان بلدية وأفرنكية ؛ أما البلدية فعبارة عن اسطوانة من نوع طين القلل طولها ١٢٠ سم وقطرها ١٥ سم تسد بقرصين أحدهما به ثقب وتلتصق بالجدران الداخلية إلا من أسفل أقراص الشمع ويبلغ عددها من ٢٠ إلى ٢٥ قرصاً

أما الأفرنكية فعبارة عن صندوق خشبي يتصل بقاعدته أربع قوائم قصيرة وغطاؤه محكم القفل سهل الفتح ، ويرتكز على حافتي جانبين متقابلين من هذا الصندوق عشرة براويز مساحة السطح المحصور بين دائر كل برواز ٣٥٫٥ × ٢١٫٥ سم٢ وعرض حافته العليا ٢٫٥ سم وبين كل برواز والذى يليه مسافة قدرها ١٫٥ سم . كما أن مستوى القاعدة ممتد من أحد جوانب الصندوق إلى الخارج مسافة ١٢ سم لوقوف النحل قبل دخوله الخلية أو طيرانه منها ؛ ويخرج النحل من الخلية ويدخلها عن طريق فتحة عرضية فى قاعدة وجه الصندوق من جهة الامتداد .

وأهم جزء من أجزاء الخلية سواء كانت بلدية أو أفرنكية فهو القرص الشمعي ، ويقوم النحل فى الخلايا البلدية ببنائه كله ؛ أما فى الخلايا الأفرنكية فيثبت أساس شمعي على كل برواز ويكون عمل النحل هنا قاصراً على تعلية أضلاع الأشكال المسدسة المنقوشة على هذا الأساس الشمعي ، وهذا الأساس يقلل من تعب النحل فى بنائه من جهة ويجعله يبذل هذا المجهود فى عمل عسل من جهة أخرى . وقد وجد أن المجهود اللازم لعمل أربعة أرطال من العسل يبذل فى صنع رطل واحد من الشمع . وهذا الشمع يتكون من دخول العصير الذى تمتصه النحلة من الأزهار فى غدد لها أسفل الجسم فيستحيل إلى شمع فاذا ملئت هذه الغدد فاض منها الشمع على شكل قشور تزيلها النحلة برجليها الخلفيتين ، وباستعمال فمها ورجليها الأماميتين يمكنها بناء الأقراص أو تعلية الأساسات

ولون القرص الشمعي أبيض فى الابتداء ويحفظ لونه إذا استعمل فى تخزين العسل ، أما إذا استعمل للإفراخ فان لونه يسمر . ويمكن الاحتفاظ بالقرص صالحاً للاستعمال مدة خمس سنوات إذا اعتنى به ولم يكسر عند استخراج العسل .

وعند تمام بناء القرص تقوم الشغالة بجمع العسل وتخزينه وطريقة ذلك أن تمتص النحلة رحيق الأزهار وترسله إلى حوصلة خاصة موجودة بالجزء الأمامي من البطن حيث تحصل فيه تغيرات كيميائية وغيرها ويكتسب الطعم الخاص به ، وبعد وضع العسل فى العيون يتبخر ماؤه قليلا ثم تغطيه الخناث بغطاء من الشمع . ويخزن العسل فى الجزء العلوى والجانبي من القرص ، أما الجزء الأوسط منه فتشغله الأفراخ .

ويقطف العسل مرة فى السنة عادة في أغسطس أو سبتمبر ، ولكن إذا كانت الخلايا قوية والنحل مجدا يقطف العسل مرتين فى أغسطس واكتوبر . ويلاحظ عند قطف العسل ترك ربع المقدار فى الخلية ليكون غذاء للنحل فى الشتاء . وفى الطريقة البلدية توضع الأقراص فوق بعضها فى إناء من الفخار مثقوب من أسفل ، فتراكم الأقراص يسبب سيل العسل وخروجه من الثقب إلى إلى إناء معد لذلك . وهذه الطريقة طبعاً غير مرضية لما يشوبها من الأوساخ وغيرها وخصوصاً إذا استعملت الأيدى لتكملة العصر

أما فى الطريقة الحديثة فنحصل على العسل بوضع البراويز المحتوية عليه فى جهاز يسمى الفراز يديرها دورات سريعة ، وبنظرية الطرد المركزى ينفصل العسل من البرواز ويسقط فى اسطوانة محيطة بالجهاز ، وعند ضمان نظافة الجهاز يكون العسل نقياً رائقاً حلواً شهياً .

وكلنا طبعاً لا نجهل لذة طعم العسل وحلو مذاقه وخصوصاً وقت طفولتنا كما أننا لا ننسى أنه يدخل فى معظم الفطائر والمربات فيزيد طعمها حسناً .

ويستعمله الغربيون بدل السكر فيضعونه فى أقداح الشاي وما شاكل ذلك . وكثيراً ما يدخل فى العقاقير الطبية ليزيل شيئاً من مرارتها ويكسبها طعما مقبولا . والعقاقير التى يلزم الانسان منها مقادير صغيرة جداً ولا يتسنى للفرد أخذها بمقاديرها الحقيقية وهى على حالتها الراهنة ، تمزج بالعسل بحساب معلوم ويتعاطى الانسان منها مقادير تحتوي على هذه الكميات الضئيلة من العقاقير وقد قال الله تعالى « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس »

جمال الكردانى
بكلية الزراعة

***

تعليق

ورد فى مقال (مملكة النحل) المنشور فى العدد الماضي من الرسالة أن يرقات ذكور النحل تتغذى بخبز النحل مع جزء من الغذاء الملكى (اللبن) بعد ثلاثة الأيام الأولى ، والحقيقة أن يرقان الذكور والشغالة بعد تغذيتها فى الثلاثة الأيام الأولى بالغذاء اللبني تغذى بغذاء نصف مهضوم من العسل وحب اللقاح (أنظر مملكة النحل العدد الرابع من المجلد الثامن — ابريل سنة ١٩٣٧)

يوسف احمد موسى
معاون أعمال فرع النحل بوزارة الزراعة



من قصص التاريخ

جاسبار هوزيه

١٨١٢ – ١٨٣٣

للأستاذ عبد اللطيف النشار

إن كان البؤس مؤهلاً لبقاء الذكرى فليس أحد أحق بأن يعيش فى ذاكرة الناس من جاسبار هوزيه .

أربى عمره على العشرين ولكنه لم يعش فى الواقع إلا أربعة أعوام ، وذلك لأن بقية عمره يجب أن تحذف من حساب الأعمار . عاش ما بين العام الذي ولد فيه وبين اليوم الذى بلغ فيه من العمر ثمانية عشر عاماً ، وهو يجهل تمام الجهل ما يعلمه الأطفال دون عمد — ما يعلمونه بالغريزة وحدها . كان يجهل مثلا أن فى الدنيا مزارع وأن فى هذه المزارع طيوراً وزهوراً ؛ وكان يجهل أن فى الدنيا رجالا وأن هؤلاء الرجال يمشون ويضحكون ويبكون ؛ وكان يجهل أن فوقنا سماء وأن فى السماء كواكب وأن أحد هذه الكواكب يضيء فى النهار وبقيتها تنير فى الليل .

هكذا عاش ثمانية عشر عاماً وهو لا يعرف شيئاً عن الدنيا ولا عن الناس ولا عن الأفراح ولا الأحزان .

وفى يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٢٨ وجد جاسبار هوزيه عند باب مدينة نورمبورج فى بافاريا وكان هذا أول عهد الناس به وعهده بالناس .

ولما ترك هذا الباب حاول المشي ولكن قدميه خانتاه لأنه لم يعتد المشى فوقع . وهو الآن يمشى لأول مرة فى الطريق وهمهم بأصوات غير مفهومة لأنه لا يعرف الكلام . ولو كان يعرفه لخاطب الناس بمثل هذا القول :

« فى هذا اليوم أترك للمرة الأولى سجناً مظلماً وضعت فيه منذ مولدى ولم أنتقل منه ، ولم أعرف غيره . ولست بالأعمى ولكن لأول مرة ترى عيناى اليوم ضوء الشمس ، ولست بالأصم ولكنى إلى ماقبل لحظات لم أكن أعرف ما الأصوات ؛ وهكذا أنا بينكم لا أستطيع المشى ولا السماع ولا النظر . إننى رجل ولكنى أقل بينكم من الأطفال .

وكانت قوانين هذه المدينة شديدة على المتشردين ، فلما رأى الجنود جاسبار مرتمياً على الأرض قادوه إلى قسم البوليس ، ولكن كان عبثاً ما حاوله المحققون من الحصول على إجابة منه

وخطر ببال واحد منهم أن أمامه دواة وقلماً وورقة ، فلما رأى جاسبار هذه الأشياء تناول القلم وكتب اسمه فاستدل المحققون بذلك على أنه يدعى الخرس والصمم ، وعلى أنه متشرد فأرسلوه إلى السجن

وكان من بين الذين حضروا التحقيق معه طبيب اسمه الدكتور « دومر » وقد استرعت هذه الحالة اهتمامه فصار يعوده في السجن ويترقب تصرفاته

ولما جيء إليه فى السجن بقطعة من اللحم وبقدح من الجعة ارتاع ورمى بالقدح ، وجيء له بقطعة من الخبز وبقدح من الماء فتهلل وجهه وتغدى منشرحاً ثم نام

وفى خلال الأيام الأولى زار السجن عدد كبير من الناس ليروا هذا المجهول . وكان بعضهم يحمل إليه الكعك ، والبعض يحمل إليه اللعب

وكان الفريق الأخير حكيما لأن المعاملة المعقولة مع مثل هذا المخلوق هى معاملة الأطفال . لكن جاسبار كان يرفض كل مايقدم إليه إلا جواداً خشبياً حين رآه تهلل وأبدى رغبة دالة على نفاذ الصبر فى الحصول عليه . فأدرك النظارة من ذلك أنه كان يملك مرة مثل هذا الجواد الخشبى ، وأنه كان فى يأس من استرجاعه

وعلى التدريج استطاع جاسبار رؤية النور وسماع الأصوات ، وكان من قبل يبكي عندمايسمع دقات الساعة من الكنيسة المجاورة وينزعج عندما تمر بالقرب من السجن فرقة موسيقية . وقد أغمي عليه فى أول مرة سمع فيها الألحان

وكان الدكتور « دومر » يراقب فى اهتمام شديد كل هذه التطورات ، فلما اقتنع بامكان تعليمه طلب إلى ولاة الأمور تسليمه إليه . وبدأ يعلمه ووجد تقدمه مستمراً . وبعد مدة كتب جاسبار تاريخ نفسه فى العجالة الآتية :

« كنت لا أعرف كم عمرى لأنى لم أكن أشعر بوجود الأيام والليالى ولا بمدلول العمر ، ولكنى كنت أشعر بوجودى فى الغرفة المظلمة التى لم أعرف غيرها . وكان رجل يزورنى كل يوم ويأتى بالطعام ، وكنت أشعر بأنى غير وحيد فى هذه الدنيا . وقد وضع الرجل أمامي شيئاً لم أكن أعرف ما هو لكن شكله كان يسرنى ، وهو جواد خشبي ، وكنت أرى ذلك الرجل يمشى فأحاول المشى مثله ولكنى كثيراً ما كنت أقع أو يصطدم رأسى بالحائط . وأفهم الآن — ولكنى لم أكن أفهم من قبل — أن ثيابى كانت بين حين وآخر تتبدل بثياب أنظف وأن شعرى كان يقص . وأحسب أن ذلك الرجل كان يضع فى طعامى مخدراً ليتمكن من إحداث هذا التغيير دون أن أشعر

وفى يوم من الأيام جاء بدواة وقلم وورقة وأمسك بيدى وعودنى كتابة اسمي ولم أكن أعرف معنى لهذه الحركة ولا للاسم الذى أكتبه . ولكن سهل عليّ ذلك بحكم الاعتياد . وأظن تعلمى كتابة اسمى قد استغرق نحو عام من العمر . وأحسب أن هذا الاسم ليس هو اسمى الحقيقي ولكنه الاسم الذى أرادوا أن يطلقوه عليّ . على أننى غير راضٍ عنه وأريد إن مت أن يكتب على قبرى : « المجهول »

ولست أشك في أن أبى أراد إنكارى ولم يرد قتلى وهذا هو الذى يجعلنى أعتقد أن اسم جاسبار هو زيه ليس اسمى . ويظهر أنني أصبحت عبئاً ثقيلا عليهم بعد إذ بلغت هـذا العمر فأرادوا التخلص منى . ففى أحد الأيام دخل الرجل الذى اعتاد أن يحمل إليّ الطعام والشراب ولكنه لم يقدم لي طعاماً ولا شراباً فاستغربت

وزاد استغرابى لما وضع عصابة على عينيّ وحملنى فلم أسائل نفسي عما يراد أن يصنعوه بى

وهنا تخوننى ذاكرتى ولكن أحسب أن وجودى فى الطريق لأول مرة صدم أعصابى وأظن أنهم أزالوا العصابة عند باب « نورمبورج »

وأقام جاسبار عند الدكتور درمر وصار يرافقه في الأسواق ويظهر بين الناس . وفى أحد الأيام أصيب جاسبار وهو يدخل باب المنزل بطعنة من خنجر قذف به فجرح فى جبينه ولكن الجرح كان خفيفاً . ولم يتمكن أحد من معرفة الذي شرع فى قتله

لكن هذا الشروع كان كافياً للدلالة على أن حياة جاسبار لم تكن في مأمن بتلك المدينة .

وطلب اللورد ستانهوب وهو من أغنياء الانكليز إلى الدكتور دومر أن يترك له جاسبار فتركه له . وأرسل جاسبار إلى مدرسة فى انكلترا . وكان يقيم بها فى منزل الدكتور منهرمان .

وفى يوم ما كان جاسبار يسير بالقرب من متحف أوزن فأصيب بطعنة وهرب الذى طعنه .

وعلى الرغم من أن الطعنة كانت مميتة فقد تمكن جاسبار من العودة إلى منزل الدكتور منهرمان . وكان كل ما استطاع أن يفوه به قبل موته أنه ولد فى ٣٠ ابريل سنة ١٨١٢ فى بافاريا .

وأعلن اللورد ستانهوب أنه يكافئ من يرشد عن قاتله بخمسة آلاف فلورين ، ولكن البحوث الرسمية وغير الرسمية ذهبت كلها سدى . ومات جاسبار فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٣٣ .

عبد اللطيف النشار



تشجيع جلالة الملك للكتاب والمؤلفين

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فأمر بمنح الأستاذ محمد بدران ناظر مدرسة بنبا قادن الابتدائية والعضو فى لجنة التأليف والترجمة والنشر خمسين جنيهاً تشجيعاً له على ما بذله من جهد فى ترجمة كتاب « ابراهيم باشا » فقابل الأستاذ بدران هذا العطف الملكى الكريم بالشكر والضراعة إلى الله أن يحفظ لمصر فاروقها

مدالية ذهبية اسلامية الى فضيلة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر

تلقت مشيخة الأزهر فى الأيام الأخيرة كتاباً من وزارة الخارجية ، جاء فيه ان جمعية « اسلام سيفا سماج » — وهى جمعية إسلامية كبرى فى بومباى — قد قررت منح حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر « المدالية الذهبية الاسلامية » التى أنشأتها هذه الجمعية وجعلتها وقفاً على كبار المسلمين الذين يؤدون أعمالا ذات أثر ملموس فى تاريخ النهضات الاسلامية الحديثة

وقد أرسلت الجمعية هذه المدالية الذهبية منذ أيام إلي فضيلة الأستاذ الأكبر مشفوعة بصورة من قرار مجلس ادارتها

متى يعلن الأدب المصرى عن نفسه

ظهرت أخيراً ترجمة ألمانية لرواية تركية من قلم الكاتب التركى قربان سعيد عنوانها « على ونينو » فأثار ظهورها اهتماماً فى دوائر النقد الأدبى ، وظهرت عنها فى الصحف الألمانية عدة مقالات نقدية ، ووصفها أحد النقدة المعروفين فى إحدى الصحف النمسوية الكبرى بأنها رحلة بديعة فى القوقاز وبلاد الكرج وفارس ، وفى تلك المناطق التى لا يؤمها الأوربى كثيراً والتى تختلط فيها المذاهب واللغات المختلفة فى صعيد واحد . وليست هذه أول مرة يترجم فيها الأدب التركي الحديث الى اللغات الأوربية ، ولكن المهم هو أن كاتباً تركياً يستطيع بانتاجه الأدبي أن يتقرب إلى الذوق الغربى ، وأن يثير اهتمام الدوائر النقدية الأوربية . ولا ريب أن الحركة الفكرية فى تركيا الحديثة لم تبلغ مابلغته الحركة الفكرية فى مصر من القوة والتقدم ، ولكنها تمتاز بخاصة لم يبلغها الأدب المصرى بعد ، وهي أنها استطاعت فى بعض النواحى أن تجاري الحركات الأدبية الأوربية وأن تعرف عن نفسها ، وأن تلفت أنظار النقد الأوربى ، وأن تنال استحسانه فى بعض الأحيان . أما فى مصر فمن بواعث الأسف أننا لم نوفق فى هذه الناحية بعد ، ولا تزال الأمم الأوربية تجهل كل شيء عن أدبنا وتفكيرنا . نعم ترجمت فى الأعوام الأخيرة بعض القصص المصرية إلى بعض اللغات الأوربية ، ، ولكنها لم تثر اهتماماً نقدياً كافياً ، وكان نقلها إلى الأدب الأوربى نتيجة اتصالات شخصية ، ولم يكن مترتباً على مزاياها الأدبية الخاصة . وما دام الانتاج القصصى فى مصر يعتمد على النقل والاقتباس ، ولا يتحرى الطرافة ودراسة الحياة والظروف القومية فانه سيبقى حيث هو مجهولا من الأدب الأوربى

أما قصة « على ونينو » هذه التى أثارت استحسان النقد الأوربى ، فهى قصة غرامية شائقة وقعت حوادثها فى مدينة باكو حيث كان « على » يدرس فى جامعتها ، وحيث عرف « نينو » أجمل فتاة فى العالم ، وهي تقدم لنا صوراً حسنة عن الحياة الشرقية فى القوقاز وبلاد الكرج وفارس ، وعن العواطف والمشاعر والأخلاق فى هذه الانحاء

الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية فى عصبة الأمم

هبطت على (الأهرام) برقية من جنيف فى اليوم السادس عشر من هذا الشهر تقول :

« ظهر على الشمسى باشا مندوب مصر فى عصبة الأمم للمرة الأولى فى اللجنة السادسة التابعة لهذه العصبة فأحرز فيها نجاحاً جديراً بأن تفاخر مصر به وبأن تشكره عليه جميع البلاد التى تتكلم باللغة العربية

فمن المعلوم أن جميع البيانات والمنشورات التى تتعلق بالتعاون الفكرى كانت تصدر حتى الآن باللغتين الفرنسوية والانجليزية .

ولكن على الشمسى باشا أظهر ما لمصر من المكانة،منذ افتتاح جلسة اللجنة بتدخله فى المباحثة تدخلاً باهراً أثبت على أثره الفائدة العظيمة والحاجة الماسة إلى الاعتراف للغة العربية بمثل الحقوق التى تتمتع بها اللغتان الفرنسوية والانجليزية »

وقد أوضح هذه النظرية ببلاغة نادرة ، وأيدها بحجج دامغة وافق عليها جميع المندوبين وهم من أعظم المفكرين فى جميع البلدان

وهكذا قبل اقتراح على الشمسى باشا ووافقت اللجنة باجماع الآراء على استعمال اللغة العربية فدخلت هذه اللغة دخولاً باهراً في الميدان الدولي وأصبح من الواجب الاعتراف بعلي الشمسى باشا بأنه أدى لمصر وجميع البلاد العربية أعظم الخدم وأجلها

معرض باريس

هل كان معرض باريس الدولى دعاية حسنة لفرنسا ، وهل تحقق ما كان معقوداً عليه من الآمال؟ هذا ما تتساءل عنه معظم الصحف الفرنسية ؛ وترى صحف اليسار الاشتراكية أن المعرض كان نجاحاً عظيما لحكومة الجبهة الشعبية التى افتتح فى ظلها ، والتى أشرفت على مراحله الأخيرة ، ولكن صحف الكتلة الوطنية ترى أن معرض باريس كان كارثة على سمعة فرنسا ، وأنه كان فشلاً ذريعاً للحكم الاشتراكى ؛ وتقول فى التدليل على ذلك إن المعرض قد فتح بصفة رسمية منذ ٢٥ مايو الماضى ، ولكنه فتح قبل أن تتم معظم أقسامه ، ولا تزال إلى اليوم بعد أشهر من افتتاحه أقسام لم يتم إعدادها . ولم يجذب معرض باريس إليه إلى اليوم ما كان منتظراً من الزائرين ، ولم تقم حكومة الجبهة الشعبية بدعاية قوية فى هذا السبيل ، ولم تقدم من التسهيلات ما يغرى بزيارته . وقد شعرت الحكومة بفشلها ففكرت أن تمد أجل المعرض عاماً آخر ابتداء من نوفمبر القادم وهو الموعد الذي حدد لإغلاقه ؛ ولكن تقوم دون ذلك صعاب كثيرة يجب تذليلها ، ذلك لأن كثيراً من الأمم الكبري المشتركة فى المعرض مثل ألمانيا وانكلترا تعارض فى مد الأجل لأنها تحتاج إلى معروضاتها لتعرض فى جهات أخرى ، ولأنها لا تستطيع أن تستمر فى الاشراف على أقسامها فى معرض باريس إلى أجل غير مسمى ، والحكومة الفرنسية تسعى إلى مد الأجل لكى تستطيع تحصيل نفقات المعرض وهى تقدر بمليارات الفرنكات ؛ وتقدر إدارة المعرض أنه يجب لتحصيل هذه النفقات أن يزور المعرض على الأقل عشرون مليونا من الزائرين ، وهو عدد لم يتحقق إلى اليوم سدسه ولا خمسه . وعلى أى حال فان مصير المعرض لن يتطور قبل نوفمبر القادم وهو موعد إغلاقه الأصلى

ضوء جديد على اللغز الروسى

ما زالت روسيا لغزاً مغلقاً على المؤرخ والسياسى ، يصعب النفاذ إلى روحها وعقليتها ؛ فهى تخرج من ثورة إلى ثورة ، وتتحرر من طغيان القيصرية لتقع بين براثن طغيان أشد وأروع هو طغيان البلشفية . وقد ظهر أخيراً بالانكليزية كتاب قيم يلقى كثيراً من الضياء على اللغز الروسى ، ويشرح لنا تكوين روسيا السياسي فى مراحله المختلفة ؛ وعنوانه : « تاريخ روسيا السياسى والدبلوماسي Political and Diplomatic History of Russia بقلم الأستاذ المؤرخ فرنادسكي Vernadskey ؛ ويقول الأستاذ فرنادسكى إن نظام الطغيان هو نوع الحكم الوحيد الذى يصلح لروسيا ، وإن روسيا عاشت مدى الأربعمائة عام الماضية تحت نير الطغيان ؛ ويستعرض العوامل الجغرافية والتاريخية التى تؤيد هذه النظرية ؛ فروسيا أعظم أمم الأرض من حيث المساحة ، وكما أن حرمان ألمانيا من الحدود الطبيعية جعلها دائماً دولة عسكرية من الطراز الأول ، فكذلك حاجة روسيا إلى الدفاع عن أقاليمها

الشاسعة يجعلها دائماً في حاجة إلى اليد والنظم الحديدية . ولروسيا مهمة جعلتها قبلتها دائماً هي حماية الشعوب السلافية ؛ وروسيا السوفيتية تسير على هذه السياسة لأن ظروفها وعواملها لم تتغير .

ويقول لنا الأستاذ فرنادسكي أيضاً إنه يستحيل علينا أن نفهم روسيا المعاصرة إلا إذا وقفنا على العناصر التي تتكون منها .

و كتاب الأستاذ فرنادسكي الجديد هو في الواقع ملحق لكتابه القيم عن تاريخ روسيا « History of Russia » الذي ظهر في سنة ١٩٢٩ ، وأثار إعجاب الدوائر الأوربية والتاريخية بدقة عرضه وقوة تصويره ورزانة استنتاجه ؛ وقد وصفته الدوائر النقدية يومئذ بأنه أعظم كتاب ظهر عن روسيا في عصرنا . وقد استقبل كتاب الأستاذ فرنادسكي الجديد بمثل ما استقبل به كتابه الأول من الاعجاب والتقدير ؛ ويعتبر فرنادسكي أعظم أستاذ في عصرنا للتاريخ الروسي .

جائزة جيته

كانت لجنة نوبل بجامعة استوكهلم قد منحت في أوائل هذا العام جائزة نوبل للسلم للكاتب الألماني فون أوسيتسكي ، وكان لذلك وقع سيئ لدى حكومة ألمانيا النازية ؛ لأن فون أوسيتسكي كاتب ديموقراطي يدعو إلى السلام ومقاطعة الحرب ، وهذا ما لا يروق لزعماء ألمانيا الحاضرة ؛ وكان أوسيتسكي معتقلاً في أحد المستشفيات حينما أسند إليه هذا الشرف الدولي العظيم ؛ وقد احتجت الحكومة الألمانية يومئذ على ما اعتبرته تحدياً لها ، وقرر الهر هتلر أن يحرم على الكتاب الألمان قبول جوائز نوبل ، وأمر بانشاء جائزة أدبية كبرى تسمى بجائزة « جيته » وتخصص لأعظم كاتب ألماني يخدم بقلمه ودعوته الحركة الاشتراكية الوطنية الألمانيـة . وفي الأنباء الأخيرة أن جائزة « جيته » منحت للكاتب الألمـاني أروين جيدو كولنهاير . وهو من الكتاب الشيوخ ، ولكنه استطاع أن يجاري النازية ، وأن يحوز استحسان زعماء ألمانيا الحاضرة ؛ ولم تكن له شهرة أدبية من قبل ، ولكن الاعتبار الأول في منحه هذه الجائزة الكبرى ، هو أنه خدم الحركة النازية بقلمه ودعايته ؛ وقد علق أحد الكتاب الألمان المنفيين على ذلك بقوله : « إن النجاح الذي أسبغته جائزة جيته على كولنهاير قد عوضه عن الفشل الذي ما فتئ يلاقيه في حياته الأدبية »

الأستاذ استراتمان Strathmann

في اليوم الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٧ بلغ الأستاذ الكبير المستشرق Strathmann الستين من عمره ، وهو مدير المعهد الشرقي بجامعة هامبورج ، والأستاذ الألماني الوحيد المتخصص في الفرق الاسلامية والمخرج لمجلة « Der Islam »

لهذا الأستاذ كثير من الأبحاث الاسلامية وله مؤلفات عدة تمتاز بالدقة العلمية والمنطق السليم وتعد لهذا من المراجع الأولى في الأوساط الأوربية للاستشراق ، لأنه إذا كتب يكتب عن تفكير وروية ثم عن احتياط شديد . وهذا غاية ما يمتاز به العالم .

وفوق ماله من المزايا العلمية وسعة الاطلاع فهو وديع هادئ لا يحب الظهور ، ولا يميل إلى الاعلان عن نفسه ؛ يسير مع طلبته كأحدهم ولكنه مع ذلك لا يتهاون في النقد العلمي معهم ، بل قد تكون له في ذلك أحياناً ثورة نفسية باعثها الرغبة الشديدة في تعويد تلامذته الكتابة العلمية ، ومن ورائها قلب طاهر يضمر لهم كل محبة وإخلاص .

يرحب بالمصريين ولا يضن عليهم بارشاداته القيمة وإن أخذت كثيراً من وقته ؛ ويعمل دائماً على تعريفهم بمشاهير علماء الاستشراق في أوربا ، فاذا وفد إليه وافد من هؤلاء سارع إلى دعوة طلبته وفي مقدمتهم المصريون إلى منزله البهيج المنظر لتبادل الحديث والتعرف بالوافد ثم يشيعهم بعد ذلك بكل عطف . فضلاً عن أنه يدعوهم من وقت لآخر لتوثيق عرى الرابطة بينهم .

فاذا بلغ اليوم الستين من عمره فانما يبلغها ووراءه مفخرة عظيمة من الأبحاث العلمية المستقلة وطلبة نجباء في كثير من بقاع الأرض .

دكتور محمد البهي

ماذا تعني الفاشستية

لم تثر مسألة من المسائل في عصرنا من الجدل قدر ما تثير الفاشستية ؛ ومع ذلك فلا يزال معنى الفاشستية ومراميها الحقيقية

بعيداً عن فهم الرجل العادى . وقد صدر أخيراً بالانـكليزية كتاب يوضح هذا اللغز ويفسره عنوانه «الفاشستى» The Facist بقلم الـكاتب السياسى ا . أشتون وفيـه يحلل معنى الفاشستية ويستعرض مثلها بطريقة واضحة . ومما يلاحظه فى مقدمة كتابه أن من العبث أن ندرس الفاشستية من واقع عقائدنا وآرائنا السياسية ، بل لابد لذلك من أن تلبس جلد الفاشستى ؛ وهو يحاول ذلك فى كتابه ؛ ويلخص لنا مستر أشتون مركز الفرد فى الدولة الفاشستية بما يأتى : « إن الفرد لا قيمة له فى نظر الدولة مطلقاً ، وليس له حق البقاء إلا كفرد من المجتمع ؛ وقد استبدلت حقوقه الشخصية بتسليم كل أفكاره ومشاعره ورغباته إلى الدولة ، فلا حق له فى التفكير أو التقدير ؛ ولهذا أصبحت قوة التقدير عنده معطلة جامدة ، وكل ما يسمح له أن يفكر فيه هو ما تسمح به الدولة أن يفكر ؛ وهو يدهش إذ يرى فى العالم أناساً لا يعتقدون أن الفاشستية هى خير طريق إلى الحياة »

ويلاحظ المؤلف أيضاً أن من خطل الرأى أن نعتقد أن الأكثرية من الدولتين الخاضعتين للنظم الفاشستية ، وهما إيطاليا وألمانيا ، ساخطة على هذه النظم ؛ ولـكن يلاحظ من جهة أخرى أن ألمانيا وإيطاليا هما دولتان فى طور الفتوة ، وليست لإحداهما كما لانكلترا أو فرنسا أو أمريكا تقاليد ديمقراطية عريقة ؛ بل لقد كانت الفـكرة الديمقراطية لديهما طارئة ، ولم يرسخ غرسها ؛ ومن ثم قد استحالت الديمقراطية فى إيطاليا غير بعيد إلى حالة من الفوضى يستغلها المحترفون ، وأما الشعب الألمانى فهو بطبعه شعب عسكرى يجنح إلى النظـام والالتفاف تحت الألوية العسكرية ، ويقدم خضوعه للنظم التى تشبع بهذه الروح بسهولة لا توجد فى الشعوب الأخرى

مصاير الحرب والسلام فى أوربا

لفت أنظار الدوائر السياسية فى انكلترا وفى القارة كتاب سياسي خطير ظهر أخيراً بالانكليزية عن نيات ألمانيا ومشاريعها العسكرية عنوانه : « مؤامرة هتلر ضد السـلام » Hitler's Conspiracy against Peace ومؤلفه الدكتور اكنر (وهو غير الطيار الشهير) أحد الـكتاب الألمان المنفيين ؛ وفيه يستعرض أغراض هتلر العسكرية كما يبسطها فى كتابه المعروف « كفاحى » ويدلل على أن ألمانيا النازية قد قطعت شوطاً كبيراً فى الاستعداد لتنفيذ هذا البرنامج بالعنف والسيف ؛ وهذه مسألة ليست جديدة فى الواقع ، ولـكن الجديد فى كتاب الدكتور اكنر هو المعلومات الهامة التى يذيعها عن جهود الحـكومة النازية لتكوين العقلية العسكرية فى الشعب الألمانى وإقناعه بأن الحرب هى وحدها طريق المجد والرخاء ، وعن الدعاية المدهشة التى تنظم فى ألمانيا ضد الدول التى يعتبرها النازى عقبة فى سبيل أحلام ألـمانيا . كذلك يقدم لنـا المؤلف طائفة من المعلومات الجديدة عن مشاريع ألـمانيا فى أسبانيا وآمالها فى محالفة الحـكومة الفاشستية التى تحاول أن تعاون فى إقامتها فيها ، وعن أطماع ألمانيا فى المشرق ووسائلها للتمهيد لهذه الأطماع ؛ وهذه الحقائق الغريبة يدعمها المؤلف بطائفة من الوثائق والأدلة الهامة السرية والعلنية . والـكتاب صفحة هامة من التاريخ السياسى تلقى ضياء كبيراً على مصاير الحرب والسلام فى أوربا

كتاب عن المسألة الاستعمارية

أضحت المسألة الاستعمارية من أخطر المشاكل الدولية التى تهدد سلام العالم ؛ وما زالت المأساة الحبشية ماثلة أمام الأعين بكل روعتها ، فقد ذهبت أمة عريقة فى الاستقلال هى الحبشة ضحية لهذه الشهوة الاستعمارية الخطرة وأدركت الأمم الصغيرة مرة أخرى أن الحق والسلامة والعدالة الدولية كلمات جوفاء إذا لم تدعمها القوة الغاشمة . وقد صدر أخيراً كتاب خطير عن المسألة الاستعمارية عنوانه « المسألة الاستعمارية : أهميتها الدولية » Colonial Problem, les Intern. Significance بقلم الأستاذ الدكتور بون ؛ وفيه يبحث الـكاتب دعاوى الدول المحرومة من المستعمرات مثل ألـمانيا وإيطاليا واليابان فى المساواة الاستعمارية ويستعرض ثروات الأمم الاستعمارية الـكبرى وعدد سكانها ومواردها

الطبيعية وموارد مستعمراتها ، ويقارن مزاياها الاقتصادية ، ويخرج من بحثه بأن القيمة الاقتصادية للمستعمرات مبالغ فيها لأنها ليست فى الواقع عاملا مفيداً فى تخفيف ضغط السكان فى الدول الكبرى ، هذا فضلا عن أن عبء الدفاع عنها وقت الحرب يثقل كاهل أصحابها

ويرى الدكتور بون أن عصر بناء الإمبراطوريات الاستعمارية قد انتهى ، وأن عصرنا هو عصر انحلال لهذه الإمبراطوريات وكل ما تستطيع الدول المحرومة أن تشهده هو عملية التصفية ؛ وينوه المؤلف بالأخص بالعامل النفسي فى الدول المحرومة ويصف حقد ألمانيا لفقد مستعمراتها بواسطة معاهدة فرساى ؛ ويرى أيضاً أن الشروط التى يجب توفرها لضمان سلام العالم هي عود الأمم إلى التعاون ، وتنازل الأمم الاستعمارية عن بعض امتيازاتها للدول المحرومة ، وعود الأمم المحرومة إلى موقف التعقل والرشاد .

أدب البحر

أقامت جمعية « أبولو » في الأسكندرية فى الأسبوع الماضى حفلة شعرية عن أدب البحر نظمها سكرتير الجمعية الدكتور أبو شادى . واشترك فيها جمع حفيل من حضرات الشعراء والمستمعين ...

وقد بدأت الحفلة بكلمة الدكتور أبى شادى، ثم تلتها قصيدة رائعة للأستاذ « احمد محرم » ثم توالى الشعراء فى إلقاء قصائدهم وكانت من القصائد المبرزة فى الحفلة قصائد حضرات الشعراء « يوسف فهمى ، ومحمد السيد ، وزكى غازى ، وفتحى الشهابى ومصطفى السحرتي »

ثم نهضت الآنسة نفيسة السيد وألقت قصيدة جميلة هزت الأسماع ننشر بعضها في هذا العدد تشجيعاً لها على المضي في هذا الميدان ... متجاوزين عن بعض هنات بسيطة لا تشوه من جمال القصيدة .

وقد لاحظنا فى الحفلة أن كثيراً من شعرائها قد خرجوا فى إلقائهم عن قواعد اللغة البسيطة...فمثلا نرى الشاعر « محمد السيد » قد خرج بكثير من كلمات القافية عن صحتها ... فنراه ينطق كلمة « زفاف » بفتح الزاى وصحتها بالكسر وكلمة « هتاف » بكسر الهاء وصحتها بالضم ... وكذلك نرى الشاعر « مصطفى صبحى » ينطق « ريح الشمال » بكسر الشين وصحتها بالفتح ... إلى غير ذلك مما تعصانا عنه الذاكرة

والحفلة فى مجموعها مجهود موفق نشكره للدكتور أبي شادي ولحضرات الشعراء الأفاضل ، ونهنئ به الاسكندرية التى تلبثت زماناً طويلاً بعيدة عن أمثال هذه المحافل الأدبية

فتحى . م

ذكرى شاعر قوقازى

احتفل أخيراً فى بلاد الكرج والقوقاز بالعيد المئوى لمولد الشاعر الكرجى إيليا شافشفادزى ، أعظم شعراء الكرج فى القرن التاسع عشر وكان هذا الشاعر زعيما وطنياً لعب دوراً عظيما فى إذكاء الروح الوطنية بين مواطنيه ، واتخذ الشعر والأدب سلاحاً لدعوته ، ولبث مدى أربعين عاماً زعيم أمته الفكرى ؛ وقد نظم الشعر بكثرة وبراعة واشتغل بالأدب والصحافة ، وكان له مع القيصرية مواقف وطنية مؤثرة ؛ ولما صدر الدستور الروسى على أثر ثورة سنة ١٩٠٥ ، احتفظت القيصرية بكراسي مجلس الشيوخ لصنائعها من رجال البلاط ؛ ولكنها لم تجد بداً من النزول على ضغط الحركة الوطنية فى القوقاز ، ورأت أن تهدئها باختيار ممثل لها فى مجلس الشيوخ ؛ وكان هذا الممثل هو الشاعر الكبير شافشفادزى أو البرنس شافشفادزي ، وهو الأول والأخير الذى حظى بهذا الشرف ؛ وقد انتظم الشاعر مع ذلك فى صف خصوم القيصرية منذ مقدمه إلى بطرسبرج ، فكانت النتيجة أن القيصرية توسلت إلى التخلص منه بوسائلها المعروفة . وكان أن قتل بعد ذلك بأشهر قلائل على أثر عودته إلى القوقاز . ولكن القيصرية لم تستطع أن تقتل الحركة الوطنية التي أذكاها شافشفادزي بقلمه ولسانه ، بل لبثت آثارها ماثلة فى الجيل الذى خلفه ، والذى استطاع فيما بعد أن يعاون فى هدم القيصرية والطغيان . ومما هو جدير بالذكر أن ستالين زعيم روسيا وطاغيتها الحالى هو من مواطنى الشاعر وتلاميذه فى الوطنية والحركة التحريرية



كتاب إحياء النحو

تأليف الأستاذ ابراهيم مصطفى

للأديب السيد عبد الهادى

تتمة

واصل الأستاذ بدوى نقده ، فى مقاله الثانى ، لمعانى الأعراب وأخذ يناقش بعض الأمثلة الواردة فى الكتاب دون اعتماد على نقل قديم أو سند من رأى . فبينا ترى الكتاب قد امتلأ بآراء أئمة النحو القدماء وبالنصوص القديمة الصحيحة مؤيدة بأسماء الكتب وأرقام الصفحات ، وذلك شأن الباحث الحديث الذى لا يقطع صلته بالماضى ولكنه لا يقف عند حده ، ترى نقد الأستاذ قد خلا منه تماماً ؛ وخلو النقد من أمثال هذه النصوص والآراء يسقط قيمته ويحيله إلى مجادلات لفظية لا تغني عن الحق شيئاً .

ولعلي لا أجد بياناً أوفى ولا حجة أقطع فيما بينى وبين الأستاذ بدوى من خلاف حول معانى الإعراب إلا أن أقدم للقارئ الكريم صورة صحيحة دقيقة عن رأى المؤلف فيها ، وإذ ذاك يستطيع القارئ بنفسه أن يحكم للكتاب أو عليه وأن يقدر فضل المؤلف ودقة نظره وأن يعرف إلى أى حد كان هذا النظر صحيحاً جديراً بأن يكون إحياء للنحو بكل ما فى كلمة الاحياء من معنى .

فاللغة العربية لغة معربة أى تتغير حركات الحرف الأخير من كلماتها تبعاً لتغير التراكيب ، وهذه أهم ظاهرة تلفت النظر فى اللغة العربية ، وقد كان العرب شديدى العناية بالإعراب ، وكان حسهم به دقيقاً يقظاً ؛ وقد قالوا : اللحن هجنة على الشريف . وقال عبد الملك بن مروان : شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن . هذا شأن حركات الإعراب ومنزلتها فى اللغة العربية .

أما الحركات الأخرى التى ليست حركات إعراب وهى التى تكون فى أوائل الكلمات أو فى أوساطها فليست أقل شأناً فى العربية من حركات الإعراب فإنها أداة للتفريق بين المعانى المختلفة ، فهى تفرق بين اسم الفاعل والمفعول فى مثل مكرَم ومكرِم ، وبين فعل المعلوم وفعل المجهول فى مثل كَتَب وكُتِب ، وبين الفعل والمصدر فى مثل عَلِم وعِلْم ، وبين الوصف والمصدر فى مثل فرِح وفرَح وحَسن وحسْن ، وبين المفرد والجمع فى مثل أسَد وأسْد ، وبين الفعل والفعل فى مثل قدِم وقدُم ، وبين معان أخرى كثيرة يتبينها الناظر في مفردات اللغة العربية بسهولة وبكثرة عظيمتين .

من هذا نرى عناية اللغة العربية بالحركات على اختلاف أنواعها وحرصها على الدقة فيها حرصاً شديداً .

وقد حاول علماء النحو أن يعرفوا منشأ حركات الاعراب ، وفكروا فى ذلك طويلا وأنعموا النظر ودققوا الإحصاء ، فهداهم كل ذلك إلى أن حركات الإعراب ليست إلا نتيجة لعامل مذكور فى الجملة ، وإن لم يكن مذكوراً فلا بد من تقديره حتى يسلم العقل بوجود حركة الإعراب لأنها عرض حادث لا بد له من محدث ، ومحال أن يوجد الحادث من غير محدث ؛ وقد أطالوا الكلام فى العامل لأنه فى نظرهم سبب حركات الإعراب ، فجعلوا الأصل فى العمل للأفعال ، والأسماء تعمل حملا عليها ، وبعض الحروف يعمل

حملا على الفعل ؛ وجعلوا بعض العوامل قوياً وبعضها ضعيفاً . وعلى الجملة قد وفوا العامل حقه من البحث والإحصاء ، وألفوا كتباً تجمع قواعد النحو تحت عنوان العوامل . وقد عشنا على هذه النظرية طوال هذه السنين حتي أحالها الزمن إلى عقيدة ثابتة يؤمن بها الصغير والكبير ، فأعطينا للكلمات المختلفة قوة ترفع وتنصب وتجزم ، ولم نعط لأنفسنا هذه القوة ، ونحن الذين ننشئ الكلمات ونغيرها ونبدلها ونحن الذين نرفع وننصب ونجزم .

وقد جاء المستشرقون وحاولوا أن يجدوا أصلا لحركات الإعراب فافترضوا أنها بقايا لزوائد كانت تلحق بالأسماء ، وقد انقرضت الزوائد وبقيت الحركات دالة عليها ، وهذا مجرد فرض لم تقم على صحته أدلة كافية باعتراف المستشرقين أنفسهم

ثم جاء الأستاذ الجليل مؤلف « إحياء النحو » ونظر فيما قرره النحاة فى منشأ حركات الإعراب وما انتهى إليه المستشرقون ، أطال النظر فيما سبقه من الآراء والنظريات ، وأطال الاتصال بالعربية وأساليبها الصحيحة فلم يرقه ما قرره أولئك ولا هؤلاء فى منشأ حركات الاعراب ، واهتدى بثاقب فكره إلى أن حركات الإعراب إنما هى إشارة إلى معنى خاص يقصده العربى حين يلتزم الفتحة أو الكسرة أو الضمة ، ولم يستقم عنده أن يكون الإعراب حكما لفظياً يتبع لفظ العامل دون أن تكون له إشارة إلى معنى خاص ، أو أثر فى تصوير المفهوم ؛ فما كان للعرب أن يلتزموا هذه الحركات ويحرصوا عليها الحرص الشديد وهى لاتعمل فى تصوير المعني شيئاً ؛ ونحن نعلم أن العربية لغة الايجاز ، فالعرب يحذفون الكلمة إذا فهمت والجملة كذلك ، ويهملون مالاحاجة إليه رغبة فى الإيجاز كعلامة التأنيث فى الصفات الخاصة بالمؤنث ، كما فى أيم وظئر ومرضع ، فهل يعقل فى لغة هذا شأنها من الايجاز أن تلتزم حركات إعراب مختلفة دون أن تكون هذه الحركات دالة على معان مختلفة

نرى فى اللغة العربية ظاهرة التعدد فى صيغ الكلمات والأدوات التى تؤدى وظيفة واحدة ، ولكن لكل واحدة معنى خاص تشير اليه كصيغ الجموع المختلفة ، كل صيغة لها دلالتها الخاصة ، والصيغ المختلفة للصفة المشبهة لكل صيغة دلالتها الخاصة ، وأدوات النفى لكل أداة معنى خاص فى النفى ؛ وأدوات الشرط المختلفة كذلك لايعدل عن واحدة إلى الأخرى إلا تبعاً للمعنى ؛ وهكذا في كل الظواهر التى نشاهدها فى اللغة العربية ، وما علامات الإعراب إلاظاهرة من هذه الظواهر الكثيرة تسير على منهاجها وتأخذ حكمها ، وتكون دالة على معان مختلفة ، وتتغير تبعاً لتغير هذه المعانى ؛ فالذى يعدل بالعربى عن حركة من حركات الإعراب إلى الأخرى إنما هو المعنى وليس عاملا من العوامل . ذلك ما ارتآه الأستاذ الجليل مؤلف « إحياء النحو » فى حركات الإعراب . أشهد ويشهد معى كل منصف أنه فتح جديد فى فهم العربية

فما عسى أن يقول الأستاذ بدوى فى ذلك وما عساه أن يقول فى هذه العبارة « نريد أن نفهم حركات الإعراب كما نفهم الظواهر الأخرى فى اللغة العربية كصيغ الجموع المتباينة وصيغ الصفات المختلفة وأدوات النفى المتنوعة من حيث دلالة كل واحدة منها على معنى خاص ؟ »

وأخيراً لم يرق لدى الأستاذ الناقد أن تضم أبواب الفاعل والمبتدأ ونائب الفاعل تحت باب واحد هو المسند إليه وحجته أن المبتدأ لا يصح أن يكون نكرة والفاعل يصح أن يكون كذلك وللمبتدأ أحكام مع الخبر من حيث تأخره وتقدمه عليه ووقوع الخبر جملة حيناً ومفرداً حيناً آخر وليس للفاعل حظ من ذلك . والجواب عن ذلك سهل يسير ؛ فلو أن الأستاذ فهم كيف وحد المؤلف أحكام المبتدأ والفاعل وأزال وجوه التفرقة بينهما لانتفت عنده كل شبهة ولآمن بأن البابين باب واحد شطرته الصناعة الفاسدة شطرين ، وذلك أننا حينما ننظر إلى المبتدأ والفاعل كشىء واحد هو المسند إليه نستطيع أن نوحد أحكامهما المختلطة ؛ وأهم ما يفرقون به بين الفاعل والمبتدأ أن الفعل يوحد مع الفاعل الجمع أو المثنى ، وأما المبتدأ فلا بد أن يطابقه الخبر ، ولكن المؤلف جمعهما فى هذا الحكم بقاعدة سهلة يسيرة هى أن المسند إليه إذا تقدم وجب أن يطابقه المسند فى العدد وإذا تأخر وجب أن يكون المسند مفرداً وهى قاعدة مضطردة لا يقام لسبيلها والحال كذلك في التعريف والتنكير ، وذلك أنه إذا تقدم المسند إليه وجب أن يكون معرفة ، وإذا تأخر جاز أن يكون نكرة ، والحال كذلك فى التقديم والتأخير ، فاذا كان المسند إليه من



كتاب إحياء النحو

اكتشاف لغوى مهم

للأستاذ يوسف كركوش

تمتاز اللغة العربية عن سائر اللغات بحركات الاعراب التى تلحق أواخر الكلم ، إلا ما يقال عن بعض اللغات السامية : كاللغة السريانية : من أن لها علامات اعرابية ، وهى لغة ميتة . وأما سائر اللغات سواء الحية منها أو الميتة فان أواخر كلماتها ساكنة ، مهما تغير موقع تلك الكلمات من الجملة ، وأما باقى أبحاث اللغة : من صرف ، واشتقاق ، وبلاغة ، إلى غير ذلك فهى موجودة فى أكثر لغات العالم

وقد بذل علماء اللغة العربية — منذ القرن الأول للهجرة — جهوداً جبارة للكشف عن حقيقة هذه الظاهرة الاعرابية ، ومعرفة أسبابها ، فاستنبطوا قواعد وضوابط زعموا أنها تكشف عن حقيقة هذه الظاهرة ومعرفة أسبابها . فكان من نتيجة استنتاجهم أن هـذه الحركات الاعرابية متأثرة بعامل يكون فى الجملة ، فكأنهم اعتبروها كائنات حية تؤثر أثرها . وإنا أنعترف لهم بالفضل لتتبعهم واستقرائهم كلام العرب ، منظومه ومنثوره ورحلاتهم الطويلة الشاقة لأجل مشافهتهم الأعراب ؛ ولكنهم لم يوفقوا فى استنباط هذه القواعد والدساتير

وقد أولعت منذ نعومة أظفارى — بدرس اللغة العربية ومدارستها، وقرأت كل ماوصل إلى يدى من مؤلفاتها ؛ ومع ذلك لم يزل الشك يساورنى فى صحة هذه القواعد والدساتير التى وضعها علماء اللغة لها ، هذا مع اعترافى بصحة هذه الظاهرة الاعرابية . فكنت على الدوام أتطلب وأتساءل وأجمع المعلومات لعلى أهتدى إلى تعليل صحيح لهذه الظاهرة بحيث يكون قريباً من الذوق الفطري .

وصادف أني اجتمعت بزميل لي يشاركني هـذه الفكرة ويجول فى ذهنه ما يجول فى ذهنى ويتمنى لو تسني له أن يزيل اللثام عن هذه القضية . فقد احتلت حيزاً كبيراً من عقله فكان حين صادفنى هذه المرة أن قال لى قبل كل شىء : البشرى . فقلت له : ومثلك من يبشر بخير . فقال : طلع علينا كتاب من مصر لأستاذ مصرى اسمه إبراهيم مصطفى واسم الكتاب « احياء النحو » فيه تحقيق فكرتنا . ثم ناولني نسخة من هذا الكتاب

ألفاظ الصدارة وجب تقديمه ، وإن أوقع تقديمه فى لبس وجب تأخيره والعكس بالعكس ، وهكذا نجمع أحكام الأبواب الثلاثة تحت باب واحد فنسهل بذلك على الدارس المبتدىء ونحببه فى دراسة النحو ولا نفوت من أحكام اللغة حكما واحداً صغيراً أو كبيراً .

وإنى أسأل الأستاذ بدوى سؤالاً واحداً بعد ذلك كله : ألم يجد فى كتاب إحياء النحو شيئاً واحداً يستحق التقدير والثناء حتى كان كل نقده من أول حرف إلى آخر حرف ذماً وانتقاصاً ؟ لا أظن أحداً من الناس يوافقه على أن كتاباً خرج فى مائتى صفحة ليس فيه موضع لثناء أو تقدير ، ولو أن كتاباً خرج كذلك بالفعل لوجب على من يريد أن يحاربه أن يتلمس له موضع حسن حتى يوهم الناس أن نقده برىء خال من الهوى والتعصب .

السيد عبد الهادى
بالدراسة العليا بكلية الآداب

فكان سروري به عظيما لا يوصف . فقرأته بإمعان وترو متجرداً من عواطف الحب والكره ، فرأيت المؤلف قد علل الحركات الاعرابية من ضم وفتح وكسر ، وكذا التنوين وعدمه بتعليل طبيعي فطري يجري مع الذوق السليم . فكدت أطير فرحاً وزال عني ذلك الكابوس الذي كان جاثماً على صدري

فالكتاب جليل عظيم القدر ، لا باعتبار مادته ، بل باعتبار نزعته التجديدية ، وترتيب معلوماته ترتيباً منطقياً لاستجلاء تلك الفكرة السامية . فهو بحق « إحياء النحو » . وهذا العمل اكتشاف مهم في اللغة العربية : لاظهاره ما للغة العربية من مزايا جليلة ، ولازالته عناء البحث عن طالبيها ؛ فبعد أن كان الطالب يحتاج إلى مدة كبيرة لمعرفة أسباب هذه الظاهرة صار يكفيه من الوقت لمعرفة ذلك أقل بكثير

وكنت أعتقد أن هذا الكتاب سوف يحدث ضجة في العالم العربي ولا سيما مصر ، وأن الأقلام ستأخذه بالنقد والتحليل لاظهار حقيقته ؛ ولكن — مع كل الأسف — لم يقع بعض هذا ، مع أن في العالم العربي لا سيما في مصر فطاحل العلماء في اللغة العربية . هذا مع خطورة هذه المسألة ، فهي جديرة بالبحث لأنها مسألة حيوية لها صلة بالتفكير والتعبير . ولو أن مثل هذا الكتاب ظهر في إحدى البلدان الغربية لأعاروه أهمية عظمى . وإني لأربأ بأبناء أمتي أن يبلغ بهم الجمود هذا الحد فيصدق فيهم قول أعدائهم من الأجانب : إن الأمة العربية أمة بعيدة عن التطور عدوة لكل تجديد .

والعجب كل العجب من الأستاذ « أحمد أمين » أنه حين كتب في (الرسالة) حول موضوع « ضعف اللغة العربية » لم يحمل الضعف ناشئاً من قبل قواعد اللغة ، بل اعتبره ناتجاً من قلة كفاية المعلم ، وما إلى ذلك من مناهج ، وتفتيش ووسائل التربية . وهذه لا ينكر أن لها أثراً في ضعف اللغة ، ولكنها في المرحلة الثانية ، وهي غير خاصة باللغة العربية ، بل تشمل سائر الدروس

وبصفتي فرداً من أبناء الأمة العربية — أقترح : أن يشكل (مجمع اللغة العربية الملكي بالقاهرة) لجنة تنظر في هذا الكتاب وتمحصه تمحيصاً دقيقاً ، وتختبر هذه النظرية التي دعا إليها المؤلف في كتابه وتضع لنا قواعد على ضوء هذه النظرية . إذ أن مثل هذا العمل من أهم أغراض المجمع المذكور ، فان من جملة أغراضه أن يبحث كل ماله دخل في تقدم اللغة العربية

(الحلة — العراق) يوسف كركوش

كتاب في قصور دمشق

ثلاثون قصة وقصة (من أب الحياة)

تأليف الأستاذ محمد النجار

أخذ الاهتمام بالقصص يزداد في العالم العربي لما تبين من نفاسة قيمته الفنية والأدبية ، وعظم فائدته القومية والانسانية . وكانت مصر وما تزال مجلية في الحلبة ؛ ثم بدا نمو هذه الحركة ونشاطها في لبنان . أما دمشق فظلت في تأخر حتى إذا ظهر كتاب (في قصور دمشق) رحب به الأستاذ منير العجلاني في المقدمة التي كتبها له واستزاد مؤلفه من أمثاله وحثه على الاستمرار في الكتابة

وأقاصيص الكتاب صغيرة تتراوح بين ثلاث وأربع صفحات تفضح — إذا صح القول — كثيراً مما في زوايا الخدور في صراحة يستهجنها بعض المتأدبين ويحبها المحافظون ، وفيه كثير من الأساليب واللهجات العامية

تلذ قراءة هذا الكتاب للفتيان لأنهم يذهبون مع رغباتهم ويستطيبون لذات الحياة مهما كبحوا جماح أهوائهم وربما فسروا حكاياته مع ما يتفق وغرورهم ، أما الكهول فلعلهم لا يجدون في هذه الأساطير كبير غرابة لأنها أحاديث تملأ المجالس الخاصة ، وما هي بالأمر الذي يطغى على دمشق بل هو ناحية صغيرة من نواحيها الجديرة بالاهتمام . وليست هذه الحال تختص بدمشق وحدها ففي كل بلد من عجائب أسرار البيوت ما تعافه النفوس الأبية .

ولا ريب أن الأستاذ النجار قد عانى مر المشاق في سبيل تلقف هذه القصص وجمعها من مجالس اللذات وأفواه الهامسين وأحاديث الأندية ، وهو على عنايته بإبراز هذه الصور واضحة مجردة عناية يشكره الأدب الواقعي عليها ، مصلح ينبه قومه إلى هذه الأسواء وضرورة معالجتها .

(دمشق) مظفر البقاعي

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي بمارة عجم رقم ٧ }

5 me Année, No 221.

Lundi - 27 - 9 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٢١ « القاهرة في يوم الاثنين ٢١ رجب سنة ١٣٥٦ — ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

مصر العربيـــة

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

أبهجتنا معشر العرب ونعشتنا كلمة مصر المعرقة في العربية والكرم في (عصبة الأمم) في هذا اليوم ، ذودا عن فلسطين إحدى الولايات (المديريات) المصرية من قبل ، وحدتني على[1] أن أبعث إلى (الرسالة) مجلة الأمم العربية بهذا القول ، وقد أنشأته إذ سمعت ضُباح[2] غرّ غمّر في عربية مصر ، ومصرية عمرو[3]

* * *

لما كان مهرجان شاعر العربية الأكبر أحمد شوقي (رحمه الله) في شوال سنة (١٣٤٥) وجئت القاهرة : الحاضرة اللغوية للأمم العربية كيما أجهر بكلمتي في ذلك اليوم المشهود ، استهللتها بهذا الكلام : « ليست دار العربية رمالَ الدهناء أو هضبات نجد أو الحجاز أو إقليم الشام أو أرض العراق ، بل دارها كل مكان ينطق بالضاد أهله ، ويتلو فيه كتاب محمد (صلوات الله عليه) قراؤه ؛ وأقوى القوم عربية بل العرب العرباء أعرفهم بأدب العربية ،

(١) حداه على كذا لا إلى كذا
(٢) أصل الضباح لمثل البوم والثعلب
(٣) هو سيدنا أبو عبد الله عمرو بن العاص الصحابي العربي المصري (سلام الله عليه ورضوانه)

فهرس العـــدد

فأهل مصر إذن هم القبيل المقدم في العربية ، وهم سادات العرب»

وهذا التاريخ المصرى ، وهذى أحاديثه ، وهذه الاسلامية المشرقة فى مصر ، وهذه العربية المنورة فى مصر ، وتلكم الأيادى البيض ، وتلكم الآثار ، وهذه المساعى في هذا الزمان ، وهذه كلمة مصر المجلجلة في (دار العصبة[١]) ذائدة عن فلسطين فى هذا الوقت . كل ذلك يقول لى : صدقت ، صدقت ! ...

فقد ساندت مصر العاملين فى إعزاز العربية وإعلائها يوم كانوا يعملون ، وقد حمت مصر هذه العربية حين لا أباة ضيم ولا حماة يحمون

حمت مصر دونهم هيكل الديـــن وروح البيان من فرقانه[٢]

وإن كانت إنما وقت عربيتها وحمت إسلاميتها ، إذ الاسلامية والعربية والمصرية كلمات فى هذا الوجود مترادفات

وما يجادل فى عربيــة المصرية ومصرية العربية إلا كافر بالشريعة الكونية ، وإلا محترق محتقد على هذه الإسلامية ، وإلا ناشئ أضلته على علم (وهو غافل) هذه المدرسة الغربية ، وإلا وغد سمسار باع الغالى رخيصاً فى سوق العلوج والفرنج والحكومات الأجنبية ، وإلا غبي جاهل ، ولهذا يقال :

قد اطلعت على سرى وإعلانى
فاذهب لشانك ليس الجهل من شانى[٣]

وإن مصرياً يجهد أن ينسلخ من عربيته لطالب فى الدنيا محالا ، ولن يكون مرغبه إلا من بعــد أن يفارق محلته ، وينسى لغته ، ويضمحل أدبه ، ويفنى مجده فى ثلاثة عشر قرناً ، ويمحى حسبه ، فكونُ مراده إنما هو بعدمه ، ولن يكون هذا إلاَّ ألاَّ يكون هو

ومكلف الأيام ضــد طباعها
متطلب فى المـاء جذوة نار[٤]

. وإذا ذكرنا العربية فإنما نعنى هــذه العبقرية ذات التعاجيب المحمدية ، وهذه القوة الخلقية ، وهذه المقاصد القرآنية ، وهــذه

---

(١) أول هاد إلى مثل هذه العصبة هو كتاب الله : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغي حتى تفئ إلى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل »

فى (جمع البيان) وهو تفسير ابن جرير الطبرى : قال ابن زيد : هذا أمر من الله أمر به الولاة كهيئة ما تكون العصبة بين الناس ، وأمرهم أن يصلحوا بينهما فان أبوا قاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله فاذا رجعت أصلحوا بينهما

(٢) شوقي (٣) مسلم بن الوليد (٤) التهامى

الآداب الالـهية ، وتلك الحضارة والمدنية

هذه هى العربية ، وإن أظل وهن ، وإن جاء ضيم ، فالقوة فى النفوس ما بادت ، والعزة فى غد « إن مع اليوم غداً يا مسعدة[١] » وإن درج أهلها الأولون أنشد المصريين المنشدون:

فان يك سيار بن مُكرم انقضى
فانك ماء الورد إن ذهب الورد[٢]

وإن قال عربي منتم إلى العربية ، ما معه من العربية شيء : لست بعربى ، فليس لمصرى أن يقول مقاله ، ويضل ضلاله ؛ إن المصرى هو وارث ذاك المجد ، والمصرية هى وارثة العربية . وإن لم يكن المصرى هو العربي ، فليت شعرى من يكون العربى ؟ وإن لم تكن مصر دار العربية ، فأين — يا قوم — فى الدنيا دارُها ؟

وإن قال زنيم نيط بالمصرية : لست فى شيء من العربية ، قالت له المصرية : ولست فى شيء من المصرية . أنكر العربية فأنكرته المصرية

وأنت زنيم نيط فى آل هاشم
كما نيط خلف الراكب القدح الفرد[٣]

إذا لم يكن المصرى هو العربي كل العربى فهل العربي هو المغربى أو العراقى أو الشامي أو الحجازى أو النجدى أو اليمانى أو الحضرمي أو العمانى أو ذلك البدوى ، ذلك الأعرابى

هل ذهب كل هؤلاء بمنقبة العربية وقعد المصرى حَجرةً[٤] العربية حِجْرٌ[٥] عليه . . . ؟ ؟ ! !

إن العربية لن تنكر بنيها كَبُروا أو حقروا ، نأوا في الدار أو قربوا ، قلّ عديدهم أو كثروا ، فكل أولئك بنوها ، ولكن يحزنها ويغضبها عقوق فى بنيها ، وأقرب الأبناء إلى أمهم ابن فى الدنيا برّ . وهل رأت العربية في حين أبرّ بها من مصر ؟

وليست العربيــة بالعزوة ، ليست العربية نسبة ، ولكنها عقيدة ونحلة وملة ، ولكنها خليقة وأدب ولغة

ليست العربية نسبة ، ولكنها جامعة تؤلف بين القلوب ، وفيها وفى شريعتها الحرية ، وليست كمثل جامعة غربية ، لأهلها ضجيج وعجيج « وأولئك الأغلالُ فى أعناقهم »

---

(١) يضرب مثلا فى تنقل الدول على مر الأيام وكرها (الميدانى)
(٢) المتنبي
(٣) حسان (٤) ناحية (٥) حرام

فالعربى هو ذلك المتمدن المتحضر المهذب المثقف، المتعلم العالم العزيز الأبى الناطق بلسان القرآن. وليس بعرب « خُرّاب بادية غرثى بطونُهم [١] » ولا قرلمضيب [٢] فى (الجزيرة) ولا مُدْلَغِفُّون [٣]

وآنف من أخى لأبى وأمى إذا مالم أجده من الكرام [٤]

وقد قلت من قبل : ألاَ إننا كلنا أجمين عرب أو عربيّون وإنه ليَحُقّ هذا لهجة عربية ألهجنا منذ القديم بها، وأدب عربى نُجِعْنا به [٥] وتروينا منه، وخلق عربى اشتملنا عليه [٦]. وما الأمة إلا لغتها وأدبها وخلقها، وكفى بذلك جامعاً، وإن النسب الواشج إلا زائدة، ولو عزا العازى كل أمة وفتش أصلها لتشظّت وراحت أمماً . . .

وهو قول لم يلاق مكذّباً، ولم يجد أحد عنه مُتَعَقَّباً [٧]

وإن هذه العربية أم العلم، وربة التفكير، وزعيمة البحث والنظر — لن تقول لمصرى من أبنائها — وهنالك فى وادي النيل ماهنالك وهنالك التاريخ الناطق، وهناك مجد باسق، فلن تقول له : طلّس [٨] وطرّس، بل تقول له : مجّد وقدّس؛ إنك قد سكنت جنتين، وكنت ذا المنقبتين، وكانت دارك مصدر المدنية، وموئل العربية قد جمعت العز من أطرافه : سؤدد (المصرى) ومجد العربى [٩]

مصر مصدر العلم والمدنية

مصر موئل العرب والعربية

مصر ! حيا الله مصر ! حيا الله رَبعَها [١٠]

محمد اسعاف النشاشيبى

(١) المتنبي، والخارب اللص وخصه الأصمعى بسارق البعران
(٢) القرضوب : اللص
(٣) الادلغفاف : المجئ للسرقة فى ختل واستتار (المخصص)
(٤) المتنبى
(٥) سئل أبىّ عن النبيذ فقال : عليك بالماء، عليك بالسويق الذى نجعت به أى غذيت به فى الصغر « الأساس »
(٦) من المجاز : عجبت من حاله واشتماله على أخلاق جميلة وسير مرضية (الأساس)
(٧) متعقباً : متفحصاً يعنى أنه من السداد والصحة بحيث لايحتاج إلى تعقب
(٨) طلس الكتاب : محاه وطرسه بالغ فى إزالته
(٩) من مهيار
(١٠) ربعها : قومها

سلوك المرأة وسلوك الرجل

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أمر النساء فى كل حال عجيب. وإذا كان أحد من الرجال يفهمهن — كما ينبغي أن يُفْهَمن — فأنا والله بهن جاهل. ولى العذر، فما أراهن يفكرن فى شأن على نحو ما أفكر أنا أو يتناولنه من الناحية التى أتناوله منها. وأحسب أن هذا الضرب من الجهل هو الوحيد الذى لايعيب المرء أو يسقط قيمته أو يزرى به. قالت لي مرة فتاة من معارفنا : « ماقولك ؟ » قلت : « خير إن شاء الله ! نعم ياستى ! » قالت : « هل يشغلك شيء غداً ؟ » قلت : « إذا كنت تعنين بالشيء العمل فإنه لا ينقطع ؛ على أن أمرى بيد الله ثم بيدى فأشيرى كيف تأمرين، والعوض على الله » قالت : « اسمع . نريد . . »

فقاطعتها : « نريد ؟ . هكذا ؟ بلفظ الجمع ؟ »

قالت : « لا تقاطع من فضلك . اسمع . . . نعم أختى وبنت عمى وأنا »

قلت : « أهلاً وسهلاً . . تفضلى »

قالت : « الجو فى هذه الأيام بديع .. تهيئ لنا زورقاً حسناً نظيفاً مريحاً، نركبه فى النيل ونقضى يومنا كله على متن الماء، ونتغدى فيه أو فى إحدى « المقاتات » التى نمر بها فى طريقنا »

قلت : « اقتراح جميل، ولكن.. أنا وحدى أكون معكن ؟ وفى خدمتكن ؟ ارحمن ينمى يافتيات ! »

فقالت : « تستطيع أن تدعو فلاناً وفلاناً »

فدعوتهما وأعددنا الطعام ومررنا بهن فحملناهن إلى قصر النيل حيث كان الزورق ينتظر، ولم ألق إليهن نظرة حتى نزلن من السيارة وشرعن ينحدرن إلى مكان الزورق ؛ فدهشت، فقد كانت ثيابهن زاهية نظيفة مكوية، بل كانت أنخر وأبرع ما رأيتهن فيه، فتناولت ذقنى بيدى وقلت : « هيه ... نهارك أسود يا أبا خليل » ولم أكد أهز رأسى هزتين حتى نادتنى إحداهن فنظرت إليها

مستفسراً فقالت : « خذ بيدى فإنى أخشى أن أزل وأقع على التراب أو تنوص قدمى فيه » فسألتها وأنا أتناول يدها :

« أين تحسبين نفسك ؟ فى سباق الخيل ؟ ما هـذه الثياب التى لبستها ؟ »

قالت وهي تحنى رأسها لتنظر إلى قدميها : « ما لها ؟ ألا تعجبك ؟ »

قلت : « تعجبنى وتعجبنى .. ولكنها لن تعجبك بعد نصف ساعة فى الزورق »

ولا أطيل . ركبن ، ووثبنا نحن وراءهن فأشرنا إليهن أن يجلسن فنظرن إلى المقاعد — ولم يكن بها سوء والله — متأففات مترددات فنفضنا لهن التراب الموهوم عن الحشايا المطروحة على المقاعد . وصحيح أنها ليست وثيرة جداً ، ولا جميلة المنظر ، ولكنها نظيفة . غير أن فتياتنا تبادلن نظرات تنبئ بالامتعاض ولا تنبئ بالرضى ، ثم انتهين بأن جلسن متلاصقات جداً محاذرات أشد الحذر ؛ وكان لابد أن أغضى عن ذلك فليس ذنبي أنهن جئن فى ثياب لا تصلح إلا على الأرض اليابسة . وناولت أحد إخوانى مجدافاً وأخذت أنا الآخر ، وتركنا الدفة لثالثنا ، وقام الملاح فدفع الزورق عن الشاطئ بالمردى ، ثم بدأنا نجدّف . وكنت أضرب الماء برفق شديد حتى لا يطير منه شئ ، ولكنّ رشاشاً منه كان يصيبهن على الرغم من ذلك فيصرخن ويتلاغطن ثم يتدانين ويعبّسن ويمسكن عن الكلام ولا تبقى لهن عين يدرنها فى المناظر التى جئن لينعمن بالنظر إليها

وأخيراً قال الذى بيده الدفة : « خذ أنت الدفة وأعطنى المجداف »

فلم أتردد فى القبول فما كان يسرنى أن أكون سبب التنغيص . واتخذ صاحبي مقعده وراح يضرب الماء بعنف فيتعالى الصراخ فلا يعنى بأن يلتفت إليهن ولا يزيد على أن يقول وهو يضحك : « لا بأس ! سينشف الماء ثم يفرك الوحل فلا يبقى شيء ... » وقد حرن ماذا يصنعن لاتقاء هذا المطر . وكنت ربما ضحكت إذ أراهن يخرجن مناديل فى سعة الكف وينشرنها على حجورهن كأنما من الممكن أن تستر شيئاً .

وأخيراً بلغنا مكاناً دنونا من شاطئه ، وقال الملاح : إن الأحسن أن يجر الزورق بالحبل . وقام فأخرج حبلا طويلا شده إلى الزورق ووثب إلى الشاطئ وراح يجر ، وقعد أحدنا عند الدفة ليضبط الزورق فلا يجنح أو يلصق بالأرض . فعاد إلى الفتيات البشر وانطلقت ألسنتهن وان كن لم ينسين موجدتهن علينا لما أصابهن من البلل . ثم تهامسن ونهضن وجعلن يصحن بالملاح وهو بعيد لا يسمع ونحن نسألهن ماذا يبغين وهن لا يبالينا أو يجبننا . وسمع الملاح فوقف وارتد الينا ، وإذا بهن يردن أن يتولين هن جر الحبل أو « اللبان » كما يسميه النواتية . فنصحنا لهن ألا يفعلن وحذرناهن وأنذرنهن فأبين إلا أن يفعلن ، وفى ظنهن أن هذا أسلم لثيابهن ، وأشرح لصدورهن وأجلى للصدأ وأجلب للصحة أيضاً ، فتركناهن يفعلن وأدنينا لهن الزورق من الشاطئ وحملناهن واحدة واحدة إلى الأرض . فذهبن يجررن إلى أول الحبل حيث تركه الملاح ودفعنا نحن السفينة إلى الماء مرة أخرى وكنا نراهن فاذا باثنتين منهن يتناولان الحبل معاً وكانت الثالثة تدور حولهما ولا تصنع شيئاً فمرة تكون أمامهما وتارة تكون خلفهما وهكذا ، فانتهى الأمر بأن التف الحبل على سيقانهن جميعاً فصرخن ووقفن يحاولن تخليص أرجلهن مما أحاط بها فخلصت أرجلهن ولكن الحبل صار على صدورهن وأعناقهن ، والزورق يضطرب بنا ونحن نحاول أن نضبطه بالمجداف . واستطعن أخيراً وبعد لأى وصراخ فظيع أن يتجنبن شنق أنفسهن ، فتهامسنا بأن الأولى بنا أن نسكت وندعى الجهل بما حدث وأن ننتظر ماذا يصنعن بعد ذلك . ويظهر أنهن خجلن أن يقلن شيئاً فعدن إلى الحبل واستأنفن جره فحمدنا الله ولكنهن كن يمشين شيئاً ، ثم يقفن فجأة وعلى غير انتظار منا ، فيضطرب بنا الزورق فناديناهن ، فلما تنبهن إلى أننا نريد أن نكلمهن وقفن وأقبلت علينا واحدة منهن وقفت بعيداً وأشارت إلينا تسألنا عما نريد ، فصحت بأعلى صوتى : « لا تقفن » فقالت ويدها على أذنها : « إيه ؟ » فقلت لصاحبيّ : « صوتكما أقوى فكلماها وأفهماها أن الوقوف يضايقنا ويتعبنا ، ففعلا . فلما عرفت ما نريد بدأت تسألنا هل نحن مسرورون ، وهل هن يحسن جر الحبل ؟ فأثنينا على براعتهن ، وامتدحنا حذقهن ، وأكدنا لهن أن الدولة حين تحتاج إلى ربابنة ونواتية للأسطول فانهن سيكن خير المرشحات أو خير أساتذة المدرسة البحرية . وكنا نرجو أن

تعود إلى زميلتيها فيستأنفن جر « اللبان » ولكنها تذكرت أن بها حاجة إلى منديل مما فى حقيبتها فأخرجناه لها وحملناه إليها فذهبت به وإذا بثانية تعود وتصيح بنا أنها هى أيضاً تحتاج إلى منديل فناولناها إياه، وبدا لها أن الثالثة قد تطلب منديلها فيحسن أن تأخذه لها على سبيل الاحتياط ، فأجبناها إلى ماطلبت ، فذهبت ثم عادت وقالت إن الثالثة لا تريد المنديل فهى ترده لنضعه حيث كان فأطعنا ومضت ، وبعد دقائق أخرى عادت الثالثة تقول : إنها رأت أن الأحسن على كل حال أن تأخذ المنديل ، فدعونا الله أن يعيننا على الصبر وأعطيناها المنديل فذهبت وأوعزنا إلى الملاح أن يلحق بها وأن يتولى هو الحبل ولا يدع للفتيات إلا المظهر

ولما جاء وقت الطعام تخيرنا رقعة من الأرض خضراء ظليلة وتأهبنا للجلوس فنظرت الفتيات إلى الأرض مشفقات من البلل كأنما بقى ما يخشين على ثيابهن التى خططها الحبل بالوحل فنشرنا لهن مناديلنا فان مناديلهن لا تصلح لشىء إلا للزينة . فجلسن عليها كالرماح استقامة ، وكنا نشعر أنهن غير مرتاحات وأن الجلسة متعبة لهن ، وأن خوفهن البلل ينغص عليهن ولكن ماذا كان يسعنا أن نصنع ؟ ولو كان يسعنا أن ننقل لهن بعض أثاث البيت من سجاجيد وحشايا ومتكآت وما إلى ذلك لفعلنا . ولكنا لم نكن نعلم أنهن سيرتدين هذه الثياب التى تصلح للعرض ولا تصلح لرحلة على النيل .

وانحدرت الشمس قبل أن نعود إلى قصر النيل فكدن يبكين لأنهن تأخرن وكن على موعد مع الخياطة ، فعجبنا لا تـعادهن معها فى يوم يخرجن فيه لمثل هذه الرحلة التى طلبنها وأردن أن تستغرق النهار كله ... ولكن المرأة هكذا أبداً ... تكون لها عين فى الجنة وعين فى النار . ولست ألومها أو أعيبها فإنها طبيعتها التى لا حيلة لها فيها ، ولكنى أرجو ألا ألام — وأن أعذر — إذا كنت أشعر بالحيرة والعجز فى كثير من الأحيان عن الفهم الصحيح والتقدير المرضى المريح ؛ وأحسب أن الرجال جميعاً مثلى جهلة مساكين . ولا شك أن المرأة يحيرها كذلك مالا تفهم من طباع الرجل وسلوكه ، فالعجب بعد ذلك أن الجنسين يستطيعان أن يقنعا أنفسهما بأنهما متفاهمان ، وأن كل شىء بينهما على ما يرام

إبراهيم عبد القادر المازنى

٢ — مصر
فى أواخر القرن الثامن عشر
كما يصفها الرحالة سافارى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أشرف سافارى على القاهرة بعد رحلة ممتعة فى النيل ، فلم ترقه العاصمة ولم تبهره مناظرها كما بهرته مناظر الاسكندرية ؛ ذلك أن القاهرة التى كانت خلال العصور الوسطى أعظم مدن الاسلام ، انتهت فى أواخر القرن الثانى عشر إلى مدينة متواضعة تحيط بها التلال والخرائب ويصف لنا سافارى خطط العاصمة المصرية يومئذ ، وضيق شوارعها وأزقتها ؛ ولكن القاهرة كانت مع ذلك تلفت النظر بمساجدها الثلاثمائة وقلعتها التاريخية المنيفة ، ويقدم الينا سافارى عن القلعة وعن أبنيتها وسكانها صورة شائقة، فيقول لنا إنها فقدت مناعتها القديمة منذ اخترع الديناميت ، وان لها مدخلين تحرسهما ثلة من الانكشارية وستة مدافع مصوبة نحو مسكن « الباشا » ذلك أن الانكشارية يمالئون البيكوات المصريين ، والبيكوات هم الذين يملون إرادتهم على الباشا ، وفى داخل القلعة قصر سلاطين مصر السالفين ، قد غلب عليه العفاء والخراب ، ولكن بقيت منه عدة أعمدة فخمة وجدران زاهية ؛ وفى أحد أبهائه المهجورة تصنع الكسوة النبوية التى يحملها أمير الحج كل عام . ويسكن الباشا بناء كبيراً يطل على «قره ميدان» ، ويعقد الباشا الديوان ثلاث مرات فى الأسبوع فى غرفة الديوان الشاسعة ، وقد خضبتها دماء البكوات المصريين الذين فتك بهم الباب العالى قبل ذلك بأعوام قلائل . أما اليوم فهم سادة مصر ، وليس لممثل السلطان أية سلطة فعليـة ، وإنما هو أداة فى أيديهم يحركونه طبق أهوائهم ، بل هو سجين فى القلعة لا يستطيع أن يغادرها دون إذنهم . أما الانكشارية فيسكنون فى قصر صلاح الدين وقد بقيت منه أطلال تدل على عظمته السابقة ، وأربعون عموداً من الجرانيت الأحمر ؛ وإلى جانبه توجد منظرة عالية تشرف على القاهرة ، يرى منها منظر المدينة الرائع بميادينها ومآذنها وحدائقها

وهنا لا يتمالك سافارى نفسه من أن يصيح : « ان المطل من هذه المنظرة لتأخذه نشوة من التأملات اللذيذة » ولكن يغشاه فى الحال كآبة ، فيقول لنفسه : « ان هذه البلاد الفنية التى كانت عصوراً ملاذ العلوم والآداب والفنون يحتها اليوم شعب جاهل بربرى يسومها سوء الخسف ؛ أجل إن الطغيان ليسحق بنيره الحديدى أجمل بلاد العالم ؛ والظاهر أن شقاء الانسان يزداد بنسبة ما تقدمه الطبيعة لإسعاده . . . »

هكذا يقدم لنا سافارى ذلك المنظر المحزن منظر مصر الاسلامية وقد أودى الحكم التركى الغاشم بكل عظمتها وبهائها السابقين .

* * *

ويصف لنا سافاري ثغر بولاق الذى كان مدخل القاهرة يومئذ ، ومرساه الضخم الذى يغص بعثات السفن ، وما به من الخانات التى خصصت لسكنى التجار الأجانب وتخزين بضائعهم . وفى مياه بولاق أيضاً كانت ترسو سفن النزهة البديعة التى يتخذها البيكوات وغيرهم من الأكابر للنزهة والسمر فى النيل أيام الصيف الحارة ولا سيما فى الليالى المقمرة . ثم يصف الرحالة بعد ذلك جزيرة الروضة والمقياس ، ويستعرض تاريخ مقاييس النيل وقصة وفائه ؛ وهنالك فى الروضة على مقربة من المقياس كانت طائفة من القصور الفخمة التى خصصها البيكوات للتنزه فيها مع حريمهم وهى منعزلة تحيط بها الرياض الفيحاء ، ولا يسمح لانسان بالاقتراب منها ولا سيما حينما يوجد بها حريم الأمراء .

أما الحياة الاجتماعية المصرية فيخصها سافارى بكثير من عنايته ، ويفرد لها عدة رسائل شائقة ؛ وهو يصف المصرى بالكسل ، ويقول لنا إن الجو يؤثر فى عزيمته ، ومن ثم فانه يميل إلى الحياة الهادئة الناعمة ، ويقضى يومه فى عمله وفى منزله ، ولا يعرف المصري صخب الحياة الأوربية وضجيجها ، وليست له أذواق أو رغبات مضطرمة . ونظام العائلة المصرية عريق فى المحافظة ، فرب البيت هو السيد المطلق ؛ ويربى الأولاد فى الحريم ويدينون للوالد بمنتهى الخضوع والطاعة والاحترام ، ويعيش أفراد الأسرة جميعاً فى منزل واحد ، ويتمتع الوالد بكل مظاهر التكريم والاجلال ولا سيما فى شيخوخته . ويجتمع أفراد الأسرة حول مائدة الطعام جلوساً على البسط ؛ وبعد الغداء يأوي المصريون إلى الحريم حيناً بين نسائهم وأولادهم ؛ وفى المساء يتريضون فى النيل فى قوارب النزهة ، ويتناولون العشاء بعد الغروب بنحو ساعة . وهكذا تجرى الحياة على وتيرة واحدة . ويشغف المصرى بالتدخين ويستورد الدخان من سورية ويخلط بالعنبر . وللتدخين أبهاء خاصة منخفضة يجتمع فيها السيد مع مدعويه ؛ وبعد انتهاء الجلسة يأتى الخادم بقمقم تحترق به العطور ، فيعطر للمدعوين لحاهم ، ثم يصب ماء الورد على رؤوسهم وأيديهم .

والمرأة المصرية ماذا كانت أحوالها فى ذلك العصر ؟ يقول لنا سافارى إنها كانت كالرقيق لاتلعب أى دور فى الحياة العامة ؛ وإذا كانت المرأة الأوربية تسيطر على العروش ، وتقود الآداب والعادات ، فان دولة المرأة فى مصر لا تتعدى « الحريم » ولا علاقة لها بالشئون العامة . وأعظم أمانيها أن تنجب الأولاد ، وأهم واجباتها أن تعني بتربيتهم . والحريم هو مهد الطفولة ومدرستها ، وفيه يربى الأولاد حتى السابعة أو الثامنة . كذلك يعني النساء بالشئون المنزلية ، ولا يشاركن الرجال فى الظهور ، ولا يتناولن الطعام معهم إلا فى فرص خاصة ، ويقضين أوقات الفراغ بين الجوارى والغناء والسمر ؛ ويسمح لهن بالخروج إلى الحمام مرة أو مرتين فى الأسبوع . وهنا يصف لنا سافارى حمامات القاهرة ، ومناظر الاستحمام والزينة ، وكيف يشغف النساء بالذهاب إلى الحمام مع جواريهن ، وهنالك يقضين أوقاتاً سعيدة بين مجالى التزين واللهو ، ويستمعن في الابهاء الوثيرة إلى الغناء وقصص الحب

وتستقبل المرأة زوارها من النساء بأدب وترحاب ، ويحمل الجوارى القهوة ، ويدور الحديث والسمر ، وتقدم أثناء ذلك الفاكهة اللذيذة ، وعند الانتهاء من تناولها تحمل الجوارى قماقم ماء الورد فيغسل المدعوات أيديهن ، ثم يحرق العنبر وترقص الجوارى . وفى أثناء هذه الزيارات النسوية لايسمح للزوج أن يقترب من الحريم ، إذ هو مكان الضيافة الخاصة ، وهذا حق تحرص المصريات عليه كل الحرص . وقد ينتفعن به أحياناً لتحقيق أمنية غرامية ، إذ يستطيع العاشق أن ينفذ إلى الحريم متنكراً فى زى امرأة ، فإذا لم يكتشف أمره فاز ببغيته ، وإذا

اكتشف أمره كان جزاءه الموت . والمرأة المصرية مفرطة فى الحب والجوى ، مفرطة فى البغض والانتقام ، وكثيراً ماتنتهى الروايات الغرامية بفواجع مروعة .

وتوجد طبقة خاصة من نساء الفن هى طبقة القيان «العوالم» ، وهؤلاء العوالم يمتزن بالذلاقة ومعرفة الشعر والمقطوعات الغنائية ، ولا تخلو منهن حفلة ، وتقام لهن منصة يغنين من فوقها ، ثم ينزلن إلى البهو ويرقصن فى رشاقة ساحرة ، وأحياناً يبدين فى صور مثيرة من التهتك ، ويدعون دائماً فى كل حريم ، وهنالك يروين القصص الغرامية ويخلبن الألباب بذلاقتهن ورشاقتهن وفصاحتهن .

وهكذا يحدثنا سافارى بافاضة عن الحياة الاجتماعية المصرية فى أواخر القرن الثامن عشر ، ولأحاديثه فى هـذا الوطن قيمة خاصة ؛ فهى أحاديث باحث مطلع درس وشهد بنفسه ، وملاحظات عقلية مستنيرة ، تمتاز باتزانها ودقتها فيما تلاحظ وفيما تصف وتعرض

***

وأخيراً يصف لنا سافارى آثار هليوبوليس والجيزة ؛ ويقدم لنا عن الأهرام وأبى الهول صوراً شعرية ساحرة ، ويستعرض مختلف الروايات عن أصلها وبنائها منـذ هيرودوت إلى عصره ، ويصف لنا منفيس وأطلالها ، ويحدثنا عن الجيزة وخططها وتاريخها وعن الفسطاط ومعالمها وكنائسها وآثارها ، كل ذلك بافاضة ممتعة تتخللها مقارنات وملاحظات تاريخية قيمة ؛ ثم يحدثنا بعد ذلك عن رحلته في دمياط وضواحيها ، وكيف تتبع فى رحلته سير حملة القديس لويس الصليبية منذ نزولها في دمياط وسيرها بعـد ذلك حتى مدينة المنصورة . ويقدم إلينا خلاصة تاريخية لهـذه الحملة الشهيرة مشتقة من المصادر الاسلامية ومذكرات دى جوانفيل مؤرخ الحملة وأحد شهودها

وإلى هنا تنتهى رسائل سافارى عن الوجه البحرى ومدينة القاهرة والحياة الاجتماعية المصرية ، وهذه الرسائل تشغل الجزء الأول من مؤلفه عن مصر ، وهى أهم وأقوم مافى المجموعة . أما بقية الرسائل ، وهي تشغل الجزءين الثانى والثالث ، فيخصصها سافارى لوصف رحلته فى الوجه القبلى ، ووصف مدنه وآثاره وواحاته ، ثم وصف الجو والاقليم والزراعة والتجارة ، وديانة المصريين القدماء وآلهتهم ، والنيل وخواصه الأزلية ؛ وهـذه الرسائل تحتوى كثيراً من البحوث والملاحظات القيمة ، بيد أنها لا تقدم إلينا جديداً يعتد به ، ولذا اكتفينا بالاشارة إليها

***

هذه خلاصة شاملة لرسائل العلامة المستشرق سافارى عن مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وهى رسائل لا شك فى قيمتها وأهميتها ؛ وإذا استثنينا مذكرات الجبرتى ، فإن رسائل سافارى تعتبر أنفس وثيقـة من نوعها عن أحوال مصر فى هذه الفترة المظلمة من تاريخها ؛ وتبدو قيمة هذه الرسائل بنوع خاص فيما تقدمه إلينا من صور الحياة الاجتماعية المصرية بافاضة لا نجدها فى مصادر أخرى ؛ فهى من هذه الناحية وثيقة ذات أهمية خاصة . وقد كانت بحوث سافارى بلا ريب مصدراً من أقوم المصادر التي انتفع بها علماء الحملة الفرنسية فيما بعـد حينما وضعوا موسوعتهم الشهيرة فى « وصف مصر » بعد ذلك بنحو ربع قرن (١)

تم البحث

(فينا في أوائل سبتمبر) **محمد عبد الله عنان**

---

(١) اعتمدنا فى استعراض رسائل سافارى على الطبعة الكاملة من رسائله التى ظهرت سنة ١٨٨٥ فى ثلاثة أجزاء ؛ واعتمدنا فى نقل ترجمته الشخصية على معجم لاروس الكبير

على تمثال فوزى المعلوف

كلمة الأستاذ فليكس فارس

في حفلة ازاحة الستار عن تمثال الشاعر فوزى المعلوف
في ١٢ سبتمبر في مدينة زحلة — لبنان

عند ما أزيح الستار عن هذا النُّصب كأنه إنسان عين لبنان. وحبة القلب فى بلاد العرب، رأيت القرى المحدقة بهذا الوادى تميد من جهاتها الأربع وقد أطلت من ورائها طغمات أصنام تتراشق نظرات الاستغراب وتتبادل هتفات الاستنكار

إننى أعاينها بالجرح الوسيع فتحته فى القلب أدواء البلاد ونكبات الأمة، وأسمع صخبها وضجيجها بالأذن التى لم تزل تدوى فيها زفرات البائسين وصيحات المشردين والشهداء

أولئك هم أصنام الشعب المستضعف الفُلول، استفزهم ما راود أمجادهم من حذر، وخامر أحلامهم من وساوس، فتراكضوا من مقاعد الزعامات والمناصب المنتزعة بدهاء الجهل ودسيسة العجز، ومن أبواب الهياكل والمعابد وجوانب القوى المسيطرة على العناصر الحائرة المتعثرة، هرعوا يتصايحون:

نحن أرباب هذه الأرجاء وأسياد شعبها.. نحن الأحياء يعبدنا الأحياء، فمن ترى هذا الصنم الجامد لايملك سمعاً ولا بصراً يرفع على مثل أنصابنا فيحنى الناس الرؤوس أمامه خاشعين ؟

من هذا الدخيل الجامد الصامت تُقحمه الهيكل قوة مجهولة وتفرض به على النفوس عبادة لاتوجه إلينا، محرقة عند قدميه بخوراً لايتعالى نحو تيجاننا ؟ وصاح أحد صغار الأصنام بأسياده الجسام: أفما عرفتموه ؟ إنه ذلك الفتى الضعيف الناحل الذى كان يحدجنا بلفتات الاحتقار ويقرع أسماعنا بأناشيد زهوه واغتراره. إنه هو الذى أنكر ألوهيتنا المتعددة السائدة على عشرات العناصر المتقاطعة، فادعى أن للوطنية إلهاً واحدا وأن قطعاننا قطيع واحد لراع واحد هو حق الحياة

أفليس هذا الصنم الجامد، ذلك الفتى الذى رأى فى عزتنا مذلة لقومه، وفى عظمتنا صغارا لبلاده، فتوارى وفى دمعته نار وفى أنينه إرعاد

فقالت طغمة الأصنام: ومن يجرؤ على رفع هذا الانسان المتحجر إلى مصاف الأرباب فيقتعد المنصة العالية فوق مستوى الرعية ؟

أوصل هذا الانسان إلى نفوذ سر السيادة فرقص على الحبلين، وتعارج على الساقين، موهما الشرق أنه ذو الحول والطول وراء ستائر الغرب، ثم عاد موهما الغرب أنه يقود من بلاده قطعاناً له تخديرها إذا شاء واستنفارها إذا شاء ؟

ألهذا الرجل منبسطات السهول ومرتفعات الأنجاد ليستغلها بالسياط تلهب ظهور العاملين فيستقطر من جلودهم نضاره ويقيم على عبوديتهم زعامته .. ؟

أعرف أن يستغل نزعات طائفة أو مطامح عنصر أو تعصب فئة فاستنبت زعامته من الضغائن وأنماها من الأحقاد ؟

أورث مالاً من جدوده فابتاع من متسولات الضمائر مقاماً يسمع الناس منه روائعه وبدائعه ؟

أجهل لغة قومه أم تجاهلها، وأعرض عن تقاليد أجداده أم استنكرها، محاولا اقتباس مظاهر تتمرد سريرته عليها ؟ هل أقام المآدب وأحيا المراقص تخاصر واستخصر ليثبت أنه أهل للمدنية وقيادة الشعوب إلى النور أم هو توسل على الأقل بالمتابعة متخذاً منا موقع الذنب ؟

بأية فضيلة من فضائلنا تحلى هذا الابن ليرفعه من حوله إلى مقام الأرباب ؟

ووجمت الأوثان التى عبدت حتى الأمس القريب متسائلة عما إذا كان العهد الجديد المشرقة أنوار ضحاه ولو بعد حين سيرفع لأمثال هذا المتمرد من الأموات أنصاباً وسينادي بأمثاله من الأحياء أرباباً

* * *

إن أنوار الحق تتفجر على كل قطر عربى ؛ ففى لبنان كما فى مصر والعراق وسوريا وبلدان الجزيرة كلها أبطال يقوضون مقاعد الأصنام فى السياسة كما قوضها من قبل فى الدين رسل الله وأنبياؤه. وهاهى ذي أوثان الأمس تتلمس رؤوسها بسواعدها المرتجفة متراجعة بخطوات من فقد ثقته بنفسه

اعزبى أيتها الأوثان أيا كنت ومن أية جهة طلعت رسومك على الآفاق، فما النصب الذى يحييه أحرار الأمة الآن بالصنم الذى يزاحمك فى هيكل الوثنية، وقد آن لها أن تضمحل. ما نصبنا إلا

تمثال عزتنا الجريحة وقوميتنا المضللة ؛ إن هو إلا الرمز الكامل لآلامنا وجهادنا فى المرحلة التى قدر علينا أن نجتازها ، ليرد الاختبار سوانا إلى محجة الصواب ولنعرف نحن أن نميز بين طريق سلامتنا ومهاوى انقراضنا .

ليس المقام مقام تأبين وتفجع على من يمثل هذا التمثال فإن صفحات تاريخ الأدب مليئة بكلمات أمراء البيان عمن خشع الغرب لبيانه الشرق وما حلق فوقه من متقدميه ولا من معاصريه بيان . ولئن كان مأتم فوزى من أروع الأيام وأفجعها على الشرق العربى بأسره فإن يوم فوزى إنما هو اليوم الذى يرتفع فيه تمثال صفحة خالدة طبعت عليها مساوئ فترة الانتقال وفجائع طور التجاريب .

أى أخى فوزى ! يا شاعر الأمة المشردة . إننى وأنا أنظر إلى ابتسامتك المرة واشراق جبينك المتجهم أسمع صوتاً يقرع الفضاء من أصداء هذا الوادي مردداً قولك :

أنا الغريب فلا أهل ولا وطن
إذا انتسبت أمام الناس وانتسبوا
ومن يكون غريباً فى مواطنه
لابدع إن أنكرته الأرض والشهب

ويليه ، صوت آخر يتردد على ذلك الشاطئ الحزين صداه

قسما بأهلى لم أفارق عن رضى
أهلى وهم ذخرى وركن عمادى
لكن أنفت بأن أعيش بموطنى
عبداً وكنت به من الأسياد

أسمع هذا الإنشاد فيخيل إلى أن صيحات جيل كامل فى أمة مروعة فقدت قوميتها لخسرت أوطانها

إن لخطرات الحظ تأثيرها على الأمم كما لها تأثيرها على الأفراد ؛ وليس للفرد كما ليس للمجموع أن يطفر من سلسلة الوقائع إلى مستقر يستحدثه لجأة لنفسه ؛ غير أن هنالك قوة سمها الارادة الجزئية إن شئت تتمرد على الانقياد لما يضير ، فاذا هى تنبهت صمدت بوجه التيار بالمقاومة السلبية حتى يعبر الكاسح فتتمكن من استئناف سيرها نحو وجهتها ، وإن هى استسلمت وجبنت فقدت الشعور بذاتها ومشت متطايرة مع العاصف ينثرها هباء على مرا كضه .. إن هذه الأمة التي كونت شخصيتها من مبادئ واحدة فى الأصل ومن ثقافة انطوت سريرتها عليها منذ أجيال ، ومن بيان وعى علوم المتقدمين ، وما قصر عن استيعاب علوم المتأخرين لا يستقيم لها أمر ولا يستعاد لها مجد مالم تتوصل إلى إحياء حضارة تتوافق وما كمن فيها من فطرة وحوافز

لقد مرت بهذه الأمة أدوار من التاريخ قضت على استقلالها وحضارتها فذهبت قطعاناً مبددة تترا كض وراء كل ناعق يجزها ويحز رقابها ، ولو أن العناية لم تستبق لنا في كل حقبة أنموذجا لكياننا ورسماً لما كنا ولما يجب أن يكون لما بقى لنا من صفاتنا الأصلية شئ نستدل به على حقيقتنا

إن سريرة الأمم المبتلاة بالانحطاط المرهقة بالمظالم تنكمش منسحبة من كتل الشعب لتتجلى من حين إلى حين لمعات أنوار فى بيان عباقرته المتمردين . وإذا نحن استعرضنا فيلق المجاهدين من أول منبه للفاضلين تحت الأطلال إلى هذا المنتصب بيننا الآن كأروع رمز لشخصية الأمة الكامنة وراء تشردها وتقاطعها ، لما رأينا واحداً من هؤلاء المجاهدين ينزع مثل هذه المنازع الضليلة التي يتوغل فيها المشككون الحائرون فى هذه الأيام

إذا شئنا أن نتبين حقيقة موقفنا من أنفسنا ومن سوانا ، وإذا صعب على البعض منا أن يتميز طريقه إلى قوميته ووطنيته فليتنصت إلى ما تصدو به أجواء البلدان العربية كلها من أقوال المصلحين الذين عاشوا بآمال أمتهم وماتوا بعللها وأدوائها

أولئك المضطهدون هم أولى باثارة سرائرنا ممن كانت حياتهم لهم لا للناس ، فما شعروا بذل الأمة لأنهم استغلوه ، وما أحسوا بأنهم غرباء فى أوطانهم لأنهم أنكروا كيانها ومالأوا على حقها

ما يثير النعرات الدينية والاقليمية فى هذه البلاد إلا الأنانيون الذين يرون فى تبدد الأقوام تجارة رابحة لسعاياتهم ، أما الأرواح الجبارة التى أشبعت من مبادئ الشرق العليا حرية واستقلالاً ومجداً فانها تمر بأجنحتها محلقة فوق كل عنصر ثقافته من وحى الشرق ، والهامه وبيانه من لغة كفلت حياتها قوة لا تطاولها قوة ...

لقد كان زمن أمكن فيه للأمة أن تبعث جسما واحداً حين مزقت كفنها وشقت لحدها ، ولكنها انتثرت بين أنامل الجامعين وقد عبثت بالرمة أهواء الحياة بعد أن جمعتها روعة الموت ، فاذا بالميت الواحد هيا كل عظام عديدة تهب من مرقدها منفرطة

يتسلق كل منها ذروة لاستقبال أنوار الضحى وأوائل شعاع الشمس

تلك سانحة من الدهر ولت ولن تعود ما لم نستعدها بعشرات الأعوام جهود من يذكرون أن جميع هذه الهياكل القزمة، وقد بدأت تدب فيها الحياة، إنما هي هيكل جبار واحد جرعه سيف واحد وتسجى طوال الأجيال جثة واحدة في قبر واحد

لا يضع للأمة دستورها الحقيقي إلا من مثلوا سريرتها وثقافتها شاملة لروح المذاهب والعناصر كلها؛ وما أدري أن بين عباقرة الشرق العربي أحياء وأمواتاً من سجن روحه بين جدران طائفته وحطم جناحي عبقريته في قفص إقليمه منكراً وطن فكرته الواسع الأرجاء ...

هنالك تحت ظلال الأرز نصب لم يزل يهتف من أعلى ذرى لبنان بقوله:

أنا مسيحي ولي الفخر بذلك، ولكنني أهوى النبي العربي الكريم، وأحب مجد الاسلام وأخشى زواله. إنني أسكن المسيح شطراً من حشاشتي ومحمداً الشطر الآخر

أنا شرقي ولي الفخر بذلك؛ ومهما أقصتني الأيام عن بلادي أظل شرقي الأخلاق، سوري الأميال، لبناني العواطف

ذلك هو نداء جبران: فما ذا تجيبه يا فوزي؟

أفما أنت شاعر الأمة المشردة؟ أفما تمازجت في روحك كل عظمة من وحي أنبياء الشرق جميعهم، ومن إلهام عباقرته وفروسية أبطاله في كل زمان ومكان؟ ...

أفترضى أن يضرب حولك من لبنان نطاق يوقفك في طريق النهضة وقفة تمثال أودنيس في جبيل وباعال وباخوس بين أعمدة بعلبك المحطمة؟ ...

لا وحقك يا فوزي، ما أنت في تقدير أخيك الذي قاد أوائل خطواتك نحو قمة الخلود، وفي تقدير كل نافذ لروحك ومدرك لعظمتك إلا المثل الأعلى للوطنية الحقة التي عشت من أجلها شريداً ومت من أجلها شهيداً ...

اليوم لا ترى حولك إلا فئة قليل عديدها تطوف ممجدة فيك الشاعر المبدع الكبير، ولكنك سترى غداً أفواجاً من كل عنصر ومن كل قطر عربي تتوارد اليك لتحيي فيك بطلاً من طليعة الفيلق الذي حطم سلاسل الأمة بتحطيم أصنامها والقضاء على أرباب شركها وأوهامها

فليكس فارس

محمد بن جعفر الكتاني

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

للأستاذ محمد المنتصر الكتاني

تمهيد

في تاريخ الرجال كثير من الخلاف يكاد يعجز الباحث والمؤرخ عند ما يريد التوفيق — وتاريخ رجال المغرب ورجال المشرق في هذا سواء — فبينا أنت تقرأ عن خالد مثلاً أنه ولد في القرن الثاني إذا بك تجد في تاريخ آخر أنه مات في القرن الرابع، ثم هو نفسه تارة يصوره لك بعض المؤرخين في صورة العابد العالم الثقة الصدوق، وحيناً تقرأ عنه عند غير المؤرخ الأول أنه لم يكن بالعالم ولا الثقة وإن هو إلا كذاب مضل. وفي كتب التراجم أمثلة لهذا النوع كثيرة.

ويريد جمع من النقاد معرفة السبب فتعييهم المعرفة ويعلهم تعداد الأسباب والاحتمالات فيقفون عندها دون جزم بواحد منها

وعندي أن لذلك أسباباً كثيرة أهمها:

(١) فقدان الثقة في كثير من المترجمين. إذ هؤلاء يكتبون — عمداً — ما توحيه إليهم أغراضهم وإن خالفت ما يعرفون.

(٢) جهل بعضهم بحالة المترجم، فهم إذا سئلوا عنه حملهم الاعتداد الكاذب بالنفس أن يجيبوا بصفات لو قدر وعاش المسؤول عنه وسمعها لنفاها وأنكر أن تكون فيه؛ وقد يضطر هذا المجيب لكتابة ما أجاب به فيزيده تنميقاً وتزويراً في جمل مغرية مشوقة يستر بها تضليله وكذبه.

(٣) الخصومة المذهبية. فترى المؤرخ في هذه الحالة يهتم اهتماماً مريباً بالبحث عن النقائص، حتى أنه ليجهد نفسه إلى حد الإعياء ليخرج له معايب من قصص وحوادث تافهة لا يؤبه لها عادة. وكنا نحسن الظن في هذا الخصم المذهبي لو اعتنى بالمزايا اعتناءه بالنقائص ولكنه لا يعرج له على مزية ولو كانت كوضح الشمس، وبالعكس الحب المذهبي، فبقدر ما يخفي الأول من مزايا ومحاسن يستر هذا الثاني العيوب والمخازي.

(٤) الاستسلام لاحدى عاطفتي الحب والبغض ، فذاك صديق المؤرخ أو سلف لصديقه توجب عليه المجاملة والاطراء التبادل أن يخضع لمقتضيات هذه الصداقة فيُحسّن القبيح ويقبّح الحسن ويعرف المجهول ويجهل المعروف ، وبالعكس لو كان المترجم عدواً له أو سلفاً لعدو ؛ وقد يكون الحامل على الحب أو البغض غير الصداقة والعداوة

(٥) الخوف من ذي نفوذ أو سلطان ، فهو إذا تكلم بالحقيقة عذّب وأهين فيتحاشا هذه الاهانة وذاك العذاب — إذ لم يكن من الكلام بد — بالتقية متأوّلا على أنها مذهب لكثير من طوائف المسلمين إن لم يكن ديناً فتديناً ! وقد يستغني عن التأويل . وهذا السبب الخامس لم يكد يخلو منه أحد من مؤرخي المتقدمين والمتأخرين

(٦) الجبن الأدبي أو يسمونه بفقدان الشجاعة الأدبية ، فهو إذا تكلم خاف ألا يقبل كلامه أو يتهم فيه بغرض ، ومن خصائص هذا الجبان الأديب الخوف من النقد لحد الهلع ، وإن تحمس يوماً واقتحم هذه الأوهام وكتب شيئاً لايجرؤ أن يوقعه باسمه الصريح بل يكتفي بالرمز ؛ وهذه العلة هي داء كثير من الثقات في هذا العصر لو تغلبوا عليها لأنتجوا وأفادوا

وأزيدك شيئاً وهو أني لا أرى علاجا لهؤلاء أنفع من وجوب اعتبار الشروط المطلوبة في رواة الحديث من عدالة وضبط ومعرفة في مؤرخي الرجال ، فكما أن المحدث لاتقبل روايته إذا فقد منه أحد الشروط الثلاثة فكذلك المترجم لايلتفت لكلامه إلا إذا عرفت ثقته وعدالته ومعرفته بالرجل الذي يترجم له معرفة بثبت سندها ومصدرها ؛ وبهذا فقط تسلم الأعراض من الأغراض وتحفظ الحقوق فلا يوضع رفيع ولا يرفع وضيع

لهذه الأسباب التي جعلتها كقواعد جامعة لما لم أذكر من العلل ولغيرها سقطت قيمة كثير من كتب التراجم قديماً وحديثاً . وتمتاز الحديثة منها (والحمد لله الذي لا يحمد على شر سواه) بالتفنن في أساليب الطعن والغمز واللمز ببراعة لايفطن لها الكثير من الناس إلا قارئ عني بها عناية خاصة أو قارئ أتيحت له معرفة دخائل جامعيها ونواياهم . أضف إلى هذا مافيها من تراجم قوم لم يعرفوا بين عشيرتهم حتى بالطلب قد أغدقوا عليهم من بحور العلم ما غمرهم ومن جبال السنة ما دك كواهلهم دكا ، ومن صفات النبل والكرم ما أصبحوا به ملائكة تدوزهم الأجنحة إلا أن معرفة مرافقيهم بهم قصتها ، ومن ضروب الاصلاح والارشاد ما يشرحه العارفون بلغتهم على النقيض من ظواهر اللفظ والمعنى ، وهنا يجمل المذهب القائل بأن لكل (١) لفظ ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً .

وبعد فهذه ترجمة إمام كبير عرفه الناس قبلي وترجموه لكن باختصار وعلى غير هذا الأسلوب ، تربطني به صلة هي صلة الوالد بالولد ، بل صلة الروح بالجسد ؛ ولكي يطمئن قارئ ويهدأ روعه أعاهده عهداً أدين بوفائه ألا أكون أحد أولئك المترجمين الستة ؛ وسأحمل نفسي على تناسي هذه الصلة الكريمة زمناً ؛ وسأعنى بالحق المجرد ولو كان على أو عليه مقتصراً على ذكر حياته — دون تحليل — في شيء من التفصيل وتاركاً كثرة تلك التعاليق الفضفاضة التي اعتادها الناس اليوم والتي إن دلت على شيء فإنما تدل على نفس المؤرخ أكثر مما تدل على نفسية المؤرخ له ، ولا يفزع إليها غالباً إلا من فقد مادة القول في أحوال من يترجمه وماجرياته . وفي اعتقادي أن ذلك مما يشوه الحقائق التاريخية ويغطيها بحجاب كثيف يعسر على الناقد النزيه تمزيقه ويقصي القارئ عن تفهم الأشياء بعقله لا بعقل سواه غير متأثر ببيئة أو مذهب

وقد رتبت حياته على فصول ، فأذكر أولاً أسرته ثم نسبه فنشأته فشايخه فتلاميذه ، معرجاً على وصف خُلقه وخلْقه ومذهبه ومعارفه وثناء الكبار عليه ومدائح الشعراء فيه وتعلق الملوك به ، ثم أرجع فأتحدث عن رحلاته ومؤلفاته وشرح العلماء لها أو ترجمها أو نقدها وأختم الترجمة بحادثة وفاته ورثائه ونقله فذكر مترجميه فأوهام بعضهم فمصادر الترجمة

وقد أخالف هذا الترتيب أو أسهب في فصل وأختصر في آخر مضطراً في الاسهاب والاختصار لما بيدي من ثروة المادة أو فقرها

---

(١) ورد هذا المعنى خاصاً بآي القرآن في بضع أحاديث مرفوعة أخرجها الطبراني في معجميه الكبير والأوسط والبزار وأبو يعلى ، صحح الحافظ نور الدين طريقاً منها على شرط الصحيح ونقله السيوطي تحسين حديث الأول في الكبير وموقوفه على ابن مسعود عند الطبراني أيضاً ومرسله عن الحسن البصري عند أبي عبيد في فضائله وأبي نصر السخري في الأبانة وانظر معناه عند الحافظ الطحاوي فقد رواه مرفوعا في مشكل الآثار جـ ٤ ص ١٧٢

أسرته

تنحدر أسرة الامام ابن جعفر من سلالة الفاتح بن الفاتح ادريس بن ادريس المطلبي الهاشمي الحجازي ثم تتشعب بطوناً وأفخاذاً حتى تنحصر فى ملك زواوة الكتانى يحيى بن عمران

كانت فاس مقر أسلافه فى ظلال ملوك دولتهم الادريسية التى ملكت (١) مائتى سنة وثلاث سنين سوى شهرين تقريباً وكان عملها (٢) بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران وقاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة ، وكانوا يكابدون مملكتين عظيمتين ومتغلبين كبيرين هما دولة العبيديين بمصر وأفريقيا ودولة بنى أمية فى الأندلس ، وكانوا ينازعون الخلفاء إلى درك الخلافة العظمى ويقعدهم ضعف سلطانهم وقلة مالهم بالنسبة إلى هاتين الدولتين

وفى سنة ٣١٧ تغلب موسى بن أبى العافية السفاح البربرى على جميع بلاد المغرب بعد حروب وفتن طالت وأزمنت بينه وبين الأدارسة انتهت أخيراً بانتصاره والانتقام منهم انتقاماً خسيساً فقتل كثيراً وذبح كثيراً ومن أفلت منهم أجلاهم عن بلادهم وأخرجهم من ديارهم مغلوبين على ملكهم مطرودين عن دار عزهم التى بناها أسلافهم وفروا بأجمعهم إلى قلعة (٣) حجر النسر فتبعهم السفاح إليها وشدد عليهم الحصار وحاول استئصالهم والقضاء عليهم لولا تقريع رؤساء المغرب وأكابر دولته له إذ قالوا « أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتقتلهم أجمعين ؟ هذا شيء لانوافقك عليه ولا نتركك له » فخاف قولهم « ولا نتركك له » واعتبره تهديداً بالثورة عليه فارتحل عنهم لفاس وخلف عليهم قائده أبا الفتح التسولي فى ألف فارس يمنعهم من التصرف (٤)

وقد ذكر الامام المقّرى فى كتابه الكنور أسماء جماعة من الأدارسة الذين فروا من قلعة حجر النسر لهذا الحصار المخنق الذى تركه عليهم ابن أبى العافية ، وذكر المواضع التى فروا إليها ، فكان من بينهم جد أسرة الإمام الملك يحيى بن عمران . ولفظ

(١) الاستقصا جـ ١ ص ٨٩

(٢) الأنيس المطرب جـ ١ ص ١٤٤ ط الوطنية

(٣) هى حصن شاهق منيع بسوماته قرب جبل العلم من المغرب الأقصى قال صالح بن عبد الحليم فى الأنيس المطرب بناه محمد بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس رضى الله عنه وقال ابن خلدون فى العبر اختطه كبير الأدارسة ابراهيم بن محمد بن القاسم .

(٤) العبر جـ ٤ ص ١٧ و جـ ٦ ص ١٣٥ — الاستقصا جـ ١ ص ٨١ الأنيس المطرب جـ ١ ص ١٢٢

المقرى : « ثم فر إلى زواوة الكتانى أمير المؤمنين (١) يحيى بن عمران بن عبد الجليل بن يحيي بن يحيي بن محمد بن إدريس »

وما أن وطئ يحيى بن عمران هذا تراب زواوة حتى بايعه أهلها ولقبوه بأمير الناس . يؤخذ هذا من كلام ابن جزى في مختصر البيان حيث عرف الكتاني يحيي وهو يتكلم عنه بملك زواوة أمير الناس . ومن كلام المقري حيث نعته بأمير المؤمنين بل صرح ببيعة قبائل زواوة ليحيي العلامة الشريف الزكي المدغرى قال فى درته : خرج هذا الجد — يعنى يحيى — من فارس مع أبناء عمه واستقر معهم فى حجر النسر ثم انتقل إلى جبل زواوة حوز الجزائر فاراً بنفسه وبويع بذلك الجبل وسمى أمير الناس . ونقل عنهم هذا جماعة من متأخرى المؤرخين (٢)

ويدل على وجود هذه الإمارة أو هذه الدولة التى لم أعرف من ملوكها غير يحيى بن عمران ما خلفت من معاهد وآثار فى القطر الجزائرى لا تزال ماثلة إلى اليوم مما لا يكون عادة إلا من أثر الملوك والدول . ومن هذه الآثار مسجد سيدى الكتاني بقسطنطينية ، قال عنه مؤرخ الجزائر الأستاذ احمد توفيق المدنى : هو من أجمل وأبدع مساجد القطر الجزائرى . ومنها مدرسة سيدى الكتاني التى بجانب المسجد قال عنها المؤرخ المدني : ولا تزال إلى يومنا مدرسة علم (٣) . وذكر فى النبذة أن لها أوقافاً وناظراً ومدافن لبعض أهل العلم

وبما سقت من النقول والأدلة على إمارة الكتانى يحيى يظهر خطأ العلامة القاضى محمد الطالب ابن الحاج إذ يقول عنه فى كتابيه الأشراف ونظم الدر : وكان يعرف بأمير الناس مع كونه لم تتقدم له ولاية إذ لم أقف على من ذكره من الأمراء . وإذا علمت أن حجة القاضى بن الحاج فى نفي الامارة عن يحيى إنما هى عدم وقوفه على من ذكره من الأمراء علمت وهن هذه الحجة بوقوف غيره على من ذكره منهم كابن جزى الكلبي والمقرى والشريف المدغرى — وكلهم أقدم منه — وغيرهم ممن نقل كلامهم ؛ على أن قول القاضى : ولعل ذلك — يعنى شهرة يحيى بالكتانى — لظهور الخباء من الكتان أيام إمارة بعض أسلافه مما يشعر باضطرابه فى نفى هذه الامارة إذ المعروف عند كافة من أرخ للعائلة — وهم

(١) وفى نسخة أمير الناس

(٢) الدرر البهية جـ ٢ ص ١٠٩

(٣) كتاب الجزائر ص ٢٣٣

كثير سيأتي ذكر بعضهم — أن يحيى هذا هو أول من استبدل خيام الصوف والشعر بالـكتان أيام امارته هو لا إمارة بعض أسلافه كما يزعم ابن الحاج ويؤكده إجماع المؤرخين — وابن الحاج منهم — على أن يحيى بن عمران أول من لقب بالـكتانى لهذا السبب

وفى بحر القرن السادس فى دولة السلطان المرشد عبد المؤمن إبن على الموحدى رحمه الله رجع أسلافه من زواوة إلى المغرب الأقصى واستوطنوا مدينة شالة [1] وقيل بل استوطنوا قبيلة بنى الحسن ، ووفق الامام فى النبذة بين القولين بأن قبيلة بنى الحسن كانت إذ ذاك من عمالة شالة فهى فى حكم المحل الواحد . وهو توفيق وجيه ، وتسمية الممالك باسم قواعدها استعمال شائع بين كل الناس منذ القدم ، ويجوّز فى النبذة أن يكون الراحل الأول من زواوة هو الشريف محمد بن عبد الله بن هادى بن أمير الناس الـكتانى يحيى وأن يكون ولده الشريف أبا بكر حفيد حفيد الـكتاني الأمير

وفى سنة ٦٥٦ أو ٦٥٤ كما ذكر جماعة من المؤرخين ، وقال الشريف [2] الفضيلى سنة ٦٦٦ أو ٦٦٤ انتقل أسلاف الامام رحمه

(١) ويسميها بعض المؤرخين بسالا القديمة موقعها على ميلين من البحر على ضفاف وادى أبي رقراق الذى يتصل بمدينة سالا الحديثة وهناك مصبه فى النهر ، يرجع تاريخ بنائها إلى عهد قديم جداً اختلفوا فيمن أسسها هل البربر سكان البلاد الأصليون ؟ أم الفينيقيون ؟ أم الرومان ؟ أم اسكندر ذو القرنين ؟ أم أفريقش الحميرى ؟ أم القرطاجنيون ؟ بكل قال جماعة واتفقوا على أنها بنيت قديماً إذ جاء وصفها عن الرحالين قبل الاسلام بنحو اثنى عشر قرناً تقريباً ووجد فى الحفريات الأخيرة من الآثار البربرية القديمة والفينيقية والرومانية ما يشهد لهذا القدم ، خربت فى عهـد الوندال الـكوطيين إلا ما اعتاص عليهم تخريبه وفتحها عقبة بن نافع الفهرى لـما أتى المغرب للمرة الثانية ســنة ٩٢ ، وعلى يده أسلم أهلها أولا ثم ارتدوا . وفى سنة ٩٠ فتحها موسى بن نصير وأجبر أهلها على الرجوع للدين الحق ثم ارتدوا وبقى أهلها فى أرجوحة بين الايمان مرة والـكفر مرات إلى أن قيض الله لهم مجئ الفاتح الأكبر إدريس بن عبد الله المحض عليهما السلام ففتحها فيما فتح من مدائن المغرب عنوة فى القرن الثانى بعد أن أخرج منها دولة برغواطة الزنادقة وعلى يد إدريس هذا تفتحت أفئدة أهلها أخيراً لقبول نور الهداية والتوحيد كباقي بلاد المغرب

كان لشالة شأن فى دول الاسلام وقد استعملت لبعضهم كقاعدة للملك عمرت وخربت مراراً ، وفى سنة ١٢٠٥ تم خرابها — بفظائع وقبائح قال المؤرخ بوجندار : يخجل القلم لذكرها — على يد السلطان يزيد بن محمد العلوى قال بوجندار : ولم يبق اليوم من معالمها ومراسمها إلا ما صار مرعى للمواشى والدواب ووكراً للصدى والبوم والغراب

(أنظر كتابى شالة وآثارها ومقدمة تاريخ رباط الفتح)

(٢) الدرر البهية جـ ٢ ص ١٠٩

الله من شالة إلى مكناسة الزيتون ، وأفاد مؤرخ لا أعرفه ! إن المنتقل الأول إلى مكناسة هو الشريف موسى بن أبي بكر بن محمد

واشتهر منهم بهذه المدينة علماء أجلة وفقهاء مهرة وعارفون كبار ترجم لبعضهم مؤرخ البيت المـالك النقيب ابن زيدان في تاريخ مكناس

وفى آخر القرن التاسع [1] كما حقق الامام رجع من مكناس إلى فاس مدينة الآباء والجدود أول قادم منهم وهو الشريف محمد بن قاسم بن عبد الواحد ونزل بمحى عقبة بن صوال وبقيت بها منهم فرقة انقرضت فى أواخر القرن الثانى عشر وهم أولاد الشريف احمد بن على بن احمد ولم تزل فاس عشهم إلى الآن سوى أفراد اختاروا السكنى بغيرها من مدن المغرب وآخرين طوح بهم الزمن إلى السنكال وصعيد مصر ودمشق

وكان أسلافه فى كل هذه المدن التى حلوا بها كقبائل زواوة وتلمسان [2] وضواحيها وشالة ومكناس الذروة والسنام لشهرتهم بينهم بالدين المتين والتقوى والعلم والفقه والشرف المتواتر

قال ابن خلدون فى مقـدمة العبر عن شرف بنى ادريس — وآباء الامام منهم — إنه قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغاً لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه إذ هو نقل الأمة والجيل من الخلف عن الأمة والجيل من السلف

وقال العلامة القاضى محمـد الطالب ابن الحاج فى نظم الدر واللآل : واشتهر هنالك — زواوة أولاده — الملك الـكتانى يحيى — بصراحة الشرف ، وظهروا ظهور النار على الشرف . قال ثم انتقلوا من زواوة إلى بنى الحسن من عمالة شالة ومنها لمكناسة الزيتون وكان لهم فيها الصيت الشهير بصراحة النسب وعلو المكانة وعظيم الحظوة عند ملوك بنى مرين ، ومنها انتقلوا إلى فاس ومن لدن انتقلوا إليها وأهلها يعظمون قدرهم ، ويعدون فى المحافل فخرهم ، ويثبتون تواتر شرفهم ويتنافسون في مصاهرتهم ، ويتفاخرون بمجاورتهم ومصاحبتهم

« له بقية » محمد المنتصر الكتانى

(١) المعروف عند المؤرخين أن رجوعهم منها كان فى وسط القرن العاشر ، لـكن الامام رد هذا بأدلة قطع بها

(٢) قال المؤرخ الشريف محمد بن أحمد الـكتانى فى كتابه التنبيه إن الـكتانيين فى عصره وهو العصر الثانى عشر سكنوا تلمسان وضواحيها فيما سكنوه من المدن ، وأضرحة بعضهم هناك مشهورة

في سبيل الاصلاح

بحث في الوظيفة والموظفين

للأستاذ على الطنطاوى

الوظيفة فى اللغة : مايقدر للرجل فى اليوم من طعام أو رزق أو نحوه ؛ والوظيفة العهد والشرط ؛ والتوظيف تعيين الوظيفة ؛ والمواظفة الموافقة والمؤازرة

والوظيفة فى العرف عمل يقوم به الرجل للمنفعة العامة ، (أي المنفعة المشتركة بين جميع الأفراد الساكنين فى المكان القومى) ويأخذ عليه أجرة من الخزانة العامة

طبيعة الوظيفة ومنشؤها

البحث فى منشأ الوظيفة يقتضى البحث فى ظهور الحكومة لأنها مجموع الموظفين ، أو بالعبارة الثانية مجموع الأشخاص الذين يقومون بأعمال ضرورية لا تقتصر منفعتها عليهم وحدهم بل تمتد إلى الهيئة الاجتماعية التى يكون لهم عليها حق الطاعة والانقياد

وقد أكثر الباحثون من الكلام فى منشأ الحكومة وظهر فى ذلك كثير من النظريات أشهرها نظرية (العقد الاجتماعى) التى أثارها الفيلسوف الانكليزي هوبس Hobbes (١٥٨٨ — ١٦٧٩) واشتهر بها من بعد جان جاك روسو ، وكان لها أكبر الأثر فى الثورة الفرنسية الكبرى ؛ غير انها سقطت الآن ، وأصبحت فى رأي العلم أسطورة خرافية ، وأجمع العلماء على اطراحها ، لأن هذا العقد لم يوجد أبداً ، وهوبس ورسو وان اختلفا فى المبدأ — فرأى الأول أن الانسان مفطور على الشر ، وأن الانسان ذئب الانسان Homo homini lupus واعتقد الثانى العكس — وان اختلفا فى هذا فهما متفقان على أن الانسانية اجتازت دوراً طبيعياً مطلقاً من كل القيود ، قبل أن تدخل فى الحياة الاجتماعية وتنشيء الحكومة ، وتلك فرضية باطلة . والحقيقة ان الانسانية لم تعرف هذه الحياة الطبيعية أبداً ، وانما عاشت من البدء حياة اجتماعية ساذجة تتمثل فى القبيلة والاسرة والجماعة . وهذا الذى رآه العلماء المحدثون مطابق لما جاء في الكتب السماوية

ولن نفيض فى هذا البحث لأنه ليس من غرضنا تحقيق القال فى منشأ الحكومة ، ولكن غرضنا عرض مسألة (الوظيفة والموظفين) عرضاً اجتماعياً ، وبيان صلتها بالحياة العامة ، لتعالج وينظر فيها فى هذا العهد الذى تقف فيه مصر والشام وغيرهما من الأقطار العربية على مفترق الطرق تصفي حساب الماضى تصفية عامة ، فتبقى على الصالح وتلقى الفاسد . لذلك ندع الكلام فى منشأ الوظيفة ، وننظر إليها نظرنا إلى (ضرورة اجتماعية) نشأت من ميل الانسان الفطري إلى الحياة الاجتماعية . وما ظهر فى هذه الحياة من حاجات جديدة ليست حاجة فرد دون فرد ، ولكنها حاجة المجموع ، استلزم القيام بها انقطاع جماعة من الناس إليها تكفل لهم الناس بالمعيشة وعاهدوهم على الطاعة ليمكنوهم من انجاز عملهم الذي انقطعوا له ، على نحو مايفعل الذين ينتسبون إلى جمعية أو نادٍ أو شركة ، حين ينتخبون جماعة منهم يديرون الشركة أو الجمعية ويجعلون لهم راتباً معيناً ويعطونهم حق اتخاذ القرارات ويتعهدون بطاعتها وتنفيذها ؛ غير ان جماعة الموظفين أو الحكام لم تنشأ بعقد كهذا العقد ، ولكنها نشأت بالتدريج وبشكل طبيعي . والراجح انها كانت تستند فى أول أمرها إلى القوة والطغيان ، وانها كانت إرادة طرف واحد ، هو الطرف القوي (الحكام) اضطر الفريق الثاني (الشعب) إلى قبولها والخضوع لها ، لأنه ضعيف ولأنه رأى وجود هذا الحاكم القوي الظالم أخف الضررين وأهون الشرين ؛ إذ لولاه لكانت الحالة فوضى وإذن يكون كل قوىّ حاكماً على كل ضعيف ، فيكون بدل الظالم الواحد ألف ظالم

ثم تبدل هؤلاء الحاكمون الأقوياء على مر الأيام حتى استحالوا أخيراً موظفين خاضعين لنوع من الأنظمة والقوانين يختلف رقيها وشدتها باختلاف الممالك والبلدان

أما طبيعة هذه الوظيفة فليس لها شبيه فى الحقوق الخاصة

وخيرما يمكن أن يقال فيها أنها تمثيل شخصية الدولة الحقوقية ، والتعبير عن إرادتها ، وقديماً كان يشبهها فريق من العلماء بالوصاية ، ويرون الحكام بمثابة أوصياء على الشعب ، ثم اتضح أن الوظيفة لا تشبه الوصاية بشيء ، وأنها أقرب إلى الوكالة . فساد الرأى

بأن الحكام وكلاء عن الشعب يقومون بأعمالهم بالنيابة عنهم ، ويعبرون عن إرادتهم ؛ بيد أن هـذه الوكالة تحتاج إلى موافقة جميع الأفراد ، وهذا غير واقع ولا ممكن . فما هى طبيعة هذه الوظيفة إذن ؟

إنها كما قلنا من طبيعة خاصة لا شبيه لها فى الحقوق الخاصة .

« وغية ما يستطاع أن يقال فى هـذا الشأن هو تشبيه الحكام — كما أشار إلى ذلك الأستاذ هريو Hauriou — بالمتبرعين بالعمل ، أى بأفراد يقومون بإدارة مصالح الدولة من دون أن يعهد إليهم بها من قبل جميع الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة ، ولكن هذا التبرع يختلف عن مثيله فى الحقوق الخاصة بأنه لا يحتاج إلى إجازة المتبرع له (١) »

وكون الوظيفة ضرورية يبرر هـذا الوضع الشاذ للسلطة العامة ، أو هيئة الحكام أو الموظفين

حقوق الموظفين وواجباتهم

تبين أن تقسيم الهيئة الاجتماعية إلى طبقة الحكام (أعنى الموظفين) والمحكومين (أى الشعب) ، وتكليف المحكومين بالعمل والكسب لإعالة الحاكمين ضرورة حيوية ، ولما كانت القاعدة فى الضرورة أنها تقدّر بقدرها ، وأن لها أحكاماً خاصة ؛ وجب أن يمنح هؤلاء الحكام (أى الموظفين) أقل قسط ممكن من الحقوق ، لتخف أحمال الشعب ، وتقلّ أتعابه ، ويحملوا أكبر مقدار من الواجب ، ليتحقق على أيديهم أكبر قسط ممكن من الخدمة العامة

أما أن يكون على الموظفين واجب فأمر أساسي اقتضته طبيعة الوظيفة ؛ أما أن يكون لهم حقوق ، فأمر ناشىء عن تلك الواجب ، يستحيل قيامهم بها دون الحصول على هذه الحقوق .

وأول الواجب فى الوظيفة أن تكون الغاية من إحداثها تحقيق منفعة عامة ضرورية لا يستغنى عنها ولا يمكن تحقيقها إلا بإحداث هذه الوظيفة ، وبغير هذا الشرط لا تكون الوظيفة مشروعة ، بل تكون شكلاً من أشكال الاستبداد كما لو أحدثت لمنفعة شخص أو لإرضائه ، أو لتأمين مصلحة خاصة لحزب من الأحزاب ، أو جمعية من الجمعيات السياسية

وثانيها أن يختار من الأشخاص أقدرهم على تأمين هذه المنفعة وأن يراعى فى اختياره الكفاية الشخصية والمواهب الذاتية ، لا الأسرة ولا اللون الحزبى ولا الشفاعات .

ولهم بعد ذلك حق الطاعة على الرعية من غير أن تحتاج عقودهم وأعمالهم ومقرراتهم إلى المصادقة الفردية من جميع المحكومين أو تحتاج إلى حكم قضائى . يؤيد ذلك اعتبار الحكام (الموظفين) منتخبين من قبل الشعب ، وحائزين لثقته ، وأنهم (لما هم عليه من الصفات والمزايا) أقل خطأ من سائر الأفراد ، وأنه لو أعطى الأفراد حق الاعتراض على كل العقود العامة وإقامة الدعاوى دائماً لأدى ذلك إلى الفوضى وعرقلة سير القضايا العامة وضياع المصلحة التى من أجلها أوجدت الحكومة

وبديهى أن حق الطاعة لا يكون للحكام إلا إذا اتبعوا الدستور وساروا على القوانين والعادات المرعية

ومن حق الموظفين الذين انقطعوا عن الكسب لأنفسهم وعن تأمين مصالحهم الخاصة أن تؤمن هذه المصالح من قبل الدولة وأن يمنحوا بعض الامتيازات ، ويتمتعوا ببعض الحصانات .

أى أن للموظف قبل كل شىء أن يأخذ راتباً من خزانة الدولة ولكن كيف يقدر هـذا الراتب ؟ وما هو الأسلوب الصحيح لتعيين مقداره المشروع ؟

جاء فى البخارى عن عائشة : « أن أبا بكر رضى الله عنه لما استخلف قال : لقد علم قومى أن حرفتى لم تكن تعجز عن مئونة أهلى وشغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبى بكر من هذا المال »

وكان الذى فرضوا له برديه إذا أخلقهما وضعهما وأخذ مثلهما. وظهره (دابته) إذا سافر ، ونفقته على أهله . كما كان ينفق قبل أن يستخلف ؛ فرضى بذلك (١)

وهذا الأسلوب طبيعى ومقبول ، ولكنه شخصى لا يصح اتخاذه قاعدة عامة ، لأنه يؤدى إلى الفوضى ، ولا يجعل للرواتب أسلوباً معروفاً ، ولا أصلاً ثابتاً ، ثم إن فيه حيفاً على الموظفين المقتصدين الذين كانوا يعيشون قبل الوظيفة عيشة ضيقة أو النابغين المفلسين الذين لا يجدون قبل الوظيفة ما ينفقون ، كما أن فيه منفعة المسرفين وتشجيعاً لهم على إسرافهم . وقد يرد هذا الاعتراض

(١) عن الأستاذ ج ستيف فى كتابه الحقوق العامة الشاملة

(١) أبو بكر الصديق للطنطاوي ص١٩٩

الأخير بأن الموظف لا يعطىَ إلا ما فيه تأمين حاجاته الضرورية ، غير أن فى ذلك ظلماً للموظف ظاهرا

فما هى القاعدة المقبولة إذن فى هذه الرواتب ؟ ...

هي أن يعطى الموظف أقل بقليل مما يستطيع أن يحصله من العمل الحر ، أو ما يحصله رجل مكافئ له في المواهب والسجايا والكفاءة من عمل مشابه لعمله ؛ وهذا تقدير معقول دائم الاعتبار يختلف باختلاف البلدان والشعوب ، وغناها وفقرها ، ورقيها وانحطاطها ، وكون ما يعطاه الموظف أقل بقليل مما يستطيع تحصيله فى العمل الحر ، ناشئ عن فكرة الدوام فى الوظيفة بالنسبة للعمل الحر والراحة والاطمئنان فيها ؛ فالتاجر لا يضمن لنفسه مقداراً من الربح كل شهر ، كما تضمن الدولة للموظف راتبه ، والتاجر مهدد بالإفلاس والضياع ، وليس على الموظف شيء من ذلك . ثم إن الدوله توفر للموظف من راتبه قسطاً كبيراً يكفيه ويغنيه أيام مرضه وتقاعده عن العمل ، والتاجر موكول إلى نفسه

وللرواتب ضابط آخر هو ألا تزيد نسبتها فى الميزانية العامة عن الخمس (عشرين فى المائة) وهذا طبيعى لأن الغاية من الحكومة ضمان المنفعة العامة ، وهؤلاء الموظفون وسيلة إلى هذه الغاية . أفيعقل أن تكون الوسيلة غاية ؟ أيعقل أن يأخذ الأعضاء الإداريون في الشركة نصف الأرباح ؟ كذلك لا يعقل أن يأخذ الموظفون نصف موازنة الدولة رواتب لهم

***

وقبل أن ندع الحديث عن وجائب الموظفين وحقوقهم نعرض هذه المسألة : هل الموظفون عمال يقومون بعمل بعينه ثم إذا وفوه كانوا أحراراً في أوقاتهم وأعمالهم ، أم هم مقيدون خارج الوظيفة ببعض القيود ؟ وبالعبارة الثانية : ما هي علاقة الأخلاق والسلوك بالوظيفة ؟ لا أعنى التفكير والاتجاه السياسى أو العمل الأدبى ، فإنه لاخلاف فى أن للموظف أن يفكر كما يشاء أو يعمل أى عمل علمى أو أدبى أراد ، ويأتى كل ما يجيزه القانون لغيره من الأعمال العامة (١) ولكن أعنى السلوك الشخصي ، وأكثر الناس على التفريق بين الأخلاق الاجتماعية ، كالصدق والأمانة والأخلاق الشخصية كالعفاف فلا يرون ما يمنع الموظف إذا كان أميناً على أموال الدولة ، قائماً بما أسندت إليه من عمل أن يسلك سبيل اللهو ، وينتهز اللذات ، ويلبي صوت نفسه وجسمه ، ولا يرون ذلك قادحاً ، ولا يجدون له صلة بالوظيفة

وهذا الرأي باطل كل البطلان ، لاسيما فى بلاد كبلادنا لا يزال الناس ينظرون فيها إلى الموظف (والموظف الكبير على التخصيص) نظرة إجلال وإكبار ، ويتخذونه قدوة ويسلكون مسلكه ، وقديماً قيل : الناس على دين ملوكهم ، فاذا فسد الموظفون فسدت الأخلاق العامة ، ثم إن من الوظائف ماله علاقة ماسة بالأخلاق وما ينبغي فى صاحبه الكمال حتى يكون فى نظر الناس سالماً من الشوائب منزها عن المعايب كوظائف المعارف (التعليم) والعدلية (القضاء) ، جاء فى الحديث : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم . فما ظنك بمدرس يقوم فى النهار واعظاً معلماً ، يوفى التبجيل ، يكاد يكون رسولا ... فاذا كان الليل اجتمع هو وتلميذه في الحانة أو الماخور ، أو اجتمع معه على باطل ... وما ظنك بمفتش يدخل الصف على المدرس ، ممثلا القانون والأمة والدين ، يراقب ويسجل ويكون لقراره صفة التقديس فلا يرد ولا يكذب ، وتكون مقدرات المدرس معلقة به ، ماظنك بهذا المفتش إذا ذهب فى المساء يؤم الحانات أو يطرق أبواب المعلمات... أو يأتي المنكرات ؟ وقل مثل ذلك فى القاضي ، بل ربما كان احتياج القاضي إلى الكمال ، فى كل أحواله ، وفى كافة أموره ، أشد من احتياج المعلم ، لأنه يجلس مجلس الأنبياء ، ويقوم مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذلك عنيت القوانين الشرعية ، بأخلاق القاضى فلم تكتف بالعلم ، وإنما اشترطت فيه بعض الشروط الأخلاقية ، فأوجبت فيه أن يكون حكيما فهما مستقيما أميناً مكيناً متيناً (مجلة — مادة : ١٧٩٢) وقيدته ببعض القيود فألزمته اجتناب الأفعال والحركات التى تزيل المهابة (مادة :١٧٩٥) ومنعته من قبول هدية الخصمين أبداً (١٧٩٦) ومن الذهاب إلى ضيافة كل من الخصمين قطعاً (١٧٩٧) الخ

فياحبذا لو عمل بهذه الأحكام ، ووضع مثلها للمدرسين ورجال المعارف خاصة ، وللموظفين عامة

(١) أنظر في العدد ١١١ من (الرسالة) مقالى «الوظيفة والموظفون» الذى وجهته إلى وزير معارف سورية يوم كنت معلماً ابتدائياً فى وزارته ... فقد أوضحت فيه هذه المسألة وعقدته على بيانها

وقد يعترض معترض بأن هـذه قيود لايجوز أن يقيد بها الموظف ، بل يجب أن يتمتع بحريته كما يتمتع بها كافة الناس ، والجواب أنها قيود حقيقة ، ولـكنها ضرورية لتأمين الغاية من وجود الموظفين ، وهى المنفعة العامة ، فاذا كانت هذه القيود شاملة الموظفين ، وإذا دخلوا فى الوظيفة على معرفة بها ، لم تعد قيوداً اضطرارية وإنما تـكون بمثابة شرط اختيارى ، ثم إن فى امتيازات الموظفين وحقوقهم التى يمتازون بها من سواد الشعب ما يبرر تقييدهم ببعض القيود اللازمة

تعيين الموظفين

درسنا الوظيفة على أنها ضرورة حيوية ، الدافع إليها والغاية منها المنفعة العامة ، وأبنا أن الواجب فى اختيار الموظفين ، ملاحظة قدرتهم على تحقيق هـذه الغاية وكفاءتهم للقيام بها ، وهذا هو الحق الذى يقضى به العقل والنقل ، جاء فى الحديث عن ابن عباس [1] : من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين

وفى الحديث [1] عن يزيد بن أبى سفيان قال : قال لى أبو بكر الصديق حين بعثنى إلى الشام : يا يزيد إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ولى من أمر المسلمين شيئاً فاستعمل عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا حتى يدخله جهنم .

وكان الشأن فى المسلمين الأولين أنهم يفرون من الولاية ويخشونها ، ولا سيما القضاء فربما عرض عليهم فأبوا ، فنالهم أذى فصبروا واحتسبوا ولم يقبلوا . وحديث الأئمة فى هـذا الباب أبي حنيفة ومالك وغيرهما مشهور معروف ، والأحاديث فى التنفير من طلب الوظيفة كثيرة جداً حتى عقد لها الحافظ عبد العظيم فى (الترغيب والترهيب) باباً مستقلاً . جاء فى الحديث الصحيح (الذى رواه الشيخان البخارى ومسلم) عن عبد الرحمن بن سمرة : يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ، فانك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها

وروى أبو داود والترمذى عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من ابتغى القضاء وسأل فيه شفعاء وكل إلى نفسه ومن أكره عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده

وروى مسلم وأبو داود عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبى ، ثم قال : يا أبا ذر : إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لايولى أحداً حرص على الولاية أو سألها . جاء فى الحديث (الذى رواه البخارى ومسلم وأبو داود) عن أبى موسى . قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من بنى عمى ، فقال أحدهما : يارسول الله ، أمرنا على بعض ماولاك الله تعالى . وقال الآخر مثل ذلك . فقال : إنا والله لانولى هذا العمل أحداً سأله أو أحداً حرص عليه

* * *

هذا هو الأصل فى تعيين الموظفين ، يختار الأصلح للعمل ، الأقدر عليه وهو مقيم في بيته ، ويحتال عليه بالاقناع وبالتهديد حتى يقبل مكرهاً ، فانتهى الأمر عندنا إلى مايعلمه الناس كلهم ، وأصبحت تعرض المائة من الموظفين فلا تكاد تجد اثنين من أهل الكفاءات ، وإنما تجد من أدخلته الوظيفة شفاعة شفيع ، أو جاه وسيط ؛ وخير شفيع اليوم « شفيع النواب » [1] وخير وسيط « الأصفر الرنان » أو غير ذلك مما يعلم ولا يقال ، وما فى قلب كل قارىء منه غصة ، وما يحفظ منه كل قارىء حوادث وأخباراً . . .

الموظفون فى بلادنا

وما دمنا في الحديث عن بلادنا ، وما دامت غايتنا الاصلاح فلنصور الداء كله . . .

قدمنا الـكلام فى أن الوظيفة ضرورة تقدر بقدرها وأن عدد الموظفين يجب أن يكون معلقاً بالنفعة العامة ، فلا يقل عن العدد اللازم ، كيلا يحمل الموظفون مالا طاقة لهم بحمله فتتعطل

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد

(١) قال الفرزدق : ليس الشفيع الذي يأتيك متزراً . . .

المصلحة ، ويقف دولاب العمل ، ولا يزيد حتى يرهق الشعب ، وأن نسبة الرواتب يجب ألا تتجاوز خمس الموازنة وأن ينفق الباقى على المصلحة ذاتها كما ينفق جلّ أرباح الشركة على المنفعة العامة للأعضاء كلهم ، لا على منفعة مجلس إدارتها القائم عليها

على حين أننا نرى فى بعض هذه البلدان العربية بلداً يأخذ موظفوه خمسة أسباع الموازنة (٥/٧) وينفق سبعان فقط (٢/٧) على المصلحة ذاتها . . . أليس معنى هذا أن الشعب كله أصبح خادماً لهذه الفئة ، بدل أن تكون هى خادمة له ؟ وأن غاية الوظيفة حياة الموظفين وسعادتهم لا المنفعة العامة الضرورية ؟

وقدمنا بأن حد الراتب أن يكون أقل بقليل مما يحصله الموظف فى العمل الحر على حين أن الراتب عندنا يزيد أضعافاً مضاعفة على ما يحصل من العمل الحر . بل لا نسبة بينهما مطلقاً وقد نشأ عن ذلك أن كان عندنا طبقتان طبقة مترفة سعيدة هى طبقة الموظفين ، وهى الأقل عدداً ، وطبقة مرهقة متألمة شقية هى طبقة جمهور الشعب . وإنى لأقول (عن استقراء وبحث) إنه ليس فى المائة ممن أعرف من الموظفين اثنان أو ثلاثة يستطيعون إذا أخرجوا من وظائفهم ، تحصيل نصف الراتب أو ربعه من العمل الحر ، ذلك أن علو الوظائف وكثرة الراتب لم تكن قائمة على الكفاءة ، بل مر وقت كانت تقاس فيه كفاءة الموظفين بمقدار اتصالهم بالأجنبى المسيطر وتزلفهم إليه . فنشأ عن هذا أن اتسعت الهوة بين الشعب والحكام (أى الموظفين) . وحمل لهم الشعب فى نفسه أشد البغضاء ، وأمر النقمة ، حين رأى المئات من المكلفين لا يقوم ما يدفعونه كلهم من الضرائب ينتزع انتزاعاً من أفواه عيالهم وأعناق بناتهم — لا يقوم براتب موظف واحد كبير . وحين رأوا فى القانون خروقاً كثيرة يسقط منها المال على الموظفين الكبار ، فيأخذونه بلا ورع ولا حياء من أجور سفر إلى تعويضات إلى غير ذلك مما أضرب عليه مثالا واحداً شاهدته بعينى فى إحدى البلدان العربية : جاء مفتش للغة الانكليزية من داره التى لا تبعد عن المدرسة أكثر من خمسمائة متر ماشياً على رجليه ، فلبث فى المدرسة نحواً من نصف ساعة ، ثم ذهب لشأنه فعلمت علم اليقين أنه قدم إلى الوزارة القائمة الآتية (مصروفات تفتيش) :

قرش صاغ

٤٠	أجرة سيارة (من أقصى المدينة إلى المدرسة)
١٠	ثمن أوراق وأقلام للتفتيش
٣٠	ثمن غداء ومصروفات متفرقة
٨٠	المجموع

فأخذ ثمانين قرشاً (وهى اليوم أكثر من مائة فرنك) ولم ينفق منها فلساً واحداً

الوظيفة فى بلادنا قد خرجت عن الأصل الذي قررناه فى أول هذه المقالة ، فلم تعد ضرورة حيوية ولم تعد غايتها المصلحة العامة ، بل أصبحت باباً للكسب وطريقاً إلى المعيشة وأصبحت قبلة الناشئين وهدفهم ، لا تخلو وظيفة إلا أقدم عليها المئات من الشباب المتعلمين ولو كانت وظيفة عامل بريد أو كاتب ديوان ولو كانوا ليسانسيين ودكاترة ، وتوصلوا إلى رضا الرؤساء (وأكثرهم من بقايا العهد البائد) بشتى الوسائل الباطلة والطرق الدنسة الملتوية ، ثم اذا فاز منهم من فاز ثابر على إطاعتهم لأن بقاءه معلق بهم ورقيه موقوف على رأيهم ؛ وإذا كان هذا الفائز فى الوظيفة شريفاً ، أو كان على بقية من المبادئ التى تلقاها فى المدرسة ، وأحب أن يعيش فى الوظيفة بإخلاص وشرف واستقامة ، ذاق الأمرّين وأصلاه الرؤساء حرباً حامية ، حتى يَخرج أو يُخرج غير مودّع ولا مأسوف عليه ...

ضاع الشرف واضمحلت الأخلاق ومات النبوغ فكم من نابغ موهوب وعبقرىّ نادر دفن نبوغه وعبقريته فى وظيفة خاملة . الوظيفة فى بلادنا خصيمة النبوغ . هذا الرافعى الذى لم ينشأ فى العربية فى كل عصورها كاتب أبلغ منه عاش ومات كاتباً فى محكمة صغيرة ، وهؤلاء الجاهلون فى أرفع وظائف المعارف ، والظالمون فى أعلى درجات القضاء ...

إن مسألة الوظيفة عقبة من أشد العقبات فى طريق هذه الشعوب العربية الناهضة ، فيجب أن ينظر إليها ويبحث فيها ، ويوليها الكتاب والمفكرون وأولو الأمر والحكام الوطنيون أكبر العناية ، ويحلونها من الاهتمام فى أرفع مقام

على الطنطاوى

من وحى الشجرة الضالة

على طريقة الشعر المنثور

للأستاذ خليل هنداوى

— ١ —

أتدرين لماذا أحبك أيتها الشجرة القديمة
التى اشتركت جذورها مع جذور الزمان ...
لا أحبك لأنك قوية عالية المناكب غليظة الجذع ، ولا أحبك لكهولتك التى لا تزال تتدفق بالحياة كالشباب ، ولا أحبك لأنك رمز القدم ...
أحبك لأمر واحد وأحب معه كل قديم من أجله ...
لأن فى القديم شيئاً من حيواتى الغابرة التى لا أعيها ...
وربما كان لى عين إلى أعماقك !
وربما كان لى ثغر في عروقك ...
وربما رأيت الحياة بك مرات كثيرة ...
إنك أقدر على تفسير اللاشعور فى نفسى من نفسي ...

— ٢ —

ما أضل أولئك الذين يظنون انهم استطاعوا ان يقولوا :
« قد وجدنا ما أضعنا »
أيستطيعون أن يتمثلوا ما أضاعوا حتى يجدوه ؟
لو كان الشيء الذى أضعته واحداً لقلت :
ما أهون الأمر !
ولكنى أضيع كل يوم شيئاً ولا أجد هذا الشيء ...
وشقائى أنني كلما ذهبت أفتش عن هذا الضائع ، أضعت معه شيئاً آخر كان معي !
فحياتى أشياء ضائعة ، وسعي ضائع وراءها .
فأين تريدون أن أجد أجزاء نفسى التي تناثرت منى على طريق العمر ؟
وبينا كنت أحمل هذه الأجزاء كعوامل لسعادتى وحياتي أمسيت أحملها ذكريات ثقيلة

هل بامكانى أن أطرح هذه الذكريات عنى كما تطرحين أيتها الشجرة هذه الأوراق البالية عنك كل خريف ؟
أتعاودك ذكرى الأوراق المتساقطة بعد أن يكسوك الربيع سواها ؟
فاذا لم تعاودك ذكرى الورقة الأولى فلماذا تعودين إلى إبداع الورقة الجديدة — كل ربيع — على مثال الورقة الأولى ؟
أليست الورقة الأولى هى مصدر إلهامك ومدار حياتك ؟
وحقك ! أينما رأيت أوراقك قلت : هذه الورقة الأولى !
دعينى إذاً أفتش فى هذه المسارب قبل أن تنمض عيناى ..
لأقول : هنا سحبت قدميها مرة ، ففي هذا المكان جزء منها فلأحاول أن أوقظ هذا الجزء ...
وأقول : هنا جلسنا ذات يوم وضحكت لنا الحياة . فلأحاول أن أستعيد هذه الضحكة من الآن من التى طوتها
وأقول : هنا تركت بقية منها لم تعد تحملها نفسها ولا يجدها أحد سواى . فلأجرب أن أستنقذ هذه البقية من النسيان !
وأقول : هنا يعبق الجو بأشذاء وعطور من جسدها يوم كان يتفتح للمياه كالزهرة ، فلأجرب أن أغمر روحى بهذه الأشذاء وهذه العطور .
وهنا يطفح المكان بألوان محاسنها التى تحولت ... فلأعمل على إحياء هذه الألوان الباهتة .
وهنا أمس أشياء كثيرة ! أحسها ولكني لا أقدر أن أمسكها لأنها أفلتت منى كما أفلتت منها ...
دعينى إذاً أفتش عن أجزاء نفسى فى كل مكان ، قبل أن يطوينى الزمان .

— ٣ —

أيها الزائر لحدي — هنا — لا تكثر التأمل فى الأرض حيث ذرات جسدى تقيم لأنك لن تجدنى هناك ...
ولكن تأمل فى الشجرة التى تغمرنى ظلالها وتحنو على أغصانها وتشدو لي أطيارها
إنك تجدنى فيها على كل ورقة تتحرك ، وفى عصارة كل عود يرتجف ، وتسمع همسى فى كل خشخشة منها !
أنا ميت فى الأرض ، وحى فى الشجرة .

خليل هنداوى

الفلسفة الشرقيــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٣ —

الفلسفة الصينية

أخلاق العصر الأول أو الفلسفة العملية

أشرنا فى الفصل السابق إلى أن فلسفة الخاصة لم تتأثر ألبتة بأفكار العامة ولم تحمل أى طابع من طوابع العقلية الشعبية ونجزم هنا بأن عكس ذلك هو الذى وقع أى أن العامة هى التى تأثرت بفلسفة الخاصة ، ولكنه تأثر أخلاقي فحسب ، وإنما نقول فحسب ، لأن فلسفة الخاصة النظرية ليس لها على عقيدة العامة إلا آثار طفيفة لا تكاد تذكر ، فبينما نرى فلسفة الخاصة تعجز عن رفع الجماهير إلى الايمان بـ « شانغ — تى » وهو السلطان الأعلى نشاهد فلسفتها العملية تسود الشعب كله خاصة وعامة ، بل وتلون عقيدة الجمهور بذلك اللون الأخلاقي الراقي

نحن نعلم أن الصينيين كانوا يرون أن السماء كائن متحرك تبعاً لقانون منظم، وهذا القانون يربط القوى الثلاث : السماء والأرض والإنسان ربطاً محكما ، وإن كان لكل واحدة من هذه القوى فى الظاهر طريق خاص أو غاية مقصود تحقيقها . فغاية السماء تسمى : « تيانْ تَاوْ » . وغاية الأرض تسمى : « تُوتَاوْ » . وغاية الإنسان تسمى : « جين تاو » إلا أن هذه الغايات ليست في الحقيقة إلا غاية واحدة ، وهى غاية العالم أو قانون الطبيعة أو واجب الموجودات

لهذا الارتباط المحكم بين تلك الغايات الثلاث أثره العميق فى كل شئ ، إذ لا يكاد اضطراب بسيط يحدث فى أحدها حتى يتردد صداه فى جميع جزئيات الآخرَين ، فمثلا إذا حاد الإنسان عن الطريق السوى ، فاقترف جريمة من الجرائم حدث فى الحال اضطراب فى السماء والأرض ، وليس الكسوف والخسوف والزلازل وظهور الكواكب ذوات الأذناب والجدب والأوبئة ليس كل ذلك إلا نتائج جرائم الانسان وحيدته عن الطريق المستقيم ، فاذا ماحدث فى السماء هذا الاضطراب الناشئ من سلوك الانسان وأعقبه اضطراب الأرض عاد الأثر من جديد إلى السماء فتضاعف اضطرابها . ولهذا تقول « أونج فان » أو القاعدة العظمى ، وهى أقدم مستند فلسفى صينى : إن سلوك احترام من يستحق الاحترام يجلب الغيث فى الوقت المراد والتبصر يجلب الحرارة فى الوقت المراد والتمرن على التأمل يجلب البرودة فى الوقت المراد ، وحكمة الملك تجلب الهواء فى الوقت المراد ، ولكن الفظاظة تديم المطر من غير انقطاع ، والكسل يديم الحرارة من غير انقطاع ، والهوس يجلب البرد من غير انقطاع ، واحتقار مايستحق الاحترام يجلب الجدب ، والحماقة تجلب العاصفة »

وإذا رأينا أن الصين يربطون المظاهر الطبيعية بالفضائل والأخلاق إلى هذا الحد ، استطعنا أن نجزم بأن الواجب هو الذى كان له القيادة العليا فى هذا الشعب ، وبأن كل فرد كان يحاول بقدر طاقته أن يكون فاضلا حتى لا يكون مجلبة للوباء أو للجدب فتشقى بسببه الأمة جمعاء ، ولكن الفضيلة عندهم لم تكن تتحقق بعمل أو ببضعة أعمال خيرية وإنما هى كمال الخلق وتحقيق الاستنارة التامة للنفس ، واتباع الصراط السوى فى كل شيء ، ذلك الصراط الذى هو موجود بالفطرة لدى كل روح بشرية والذى هو برهان احترام النفس الانسانية وارتباطها بالسماء.

وأكثر من ذلك أن المستَصْينين الذين اشتغلوا باللغة الصينية عثروا فى دراساتهم على أن كلمة : « تاو » التى هى الطريق المستقيم أو الغايةُ المثلى لكل الكائنات أو تحقيق الواجب تدل أيضاً على نصيب الانسان الممنوح له من السماء ، وهذا برهان آخر على ارتباط الفضيلة والواجب بحظ الانسان فى الحياة عند هؤلاء القوم .

وعند الصينيين أن الانسان خيّر بفطرته ، لأنه جزء الطبيعة والطبيعة هي الإله ، ولكن الانسان ليس مجبراً على اتباع طبيعته الخيرة دائماً مثل النبات أو الحيوان ، وإنما هو كائن مفكر له كسب واختيار قد يبعدانه أحياناً عن الصراط السوى الذى هو صوت السماء أو صوت الطبيعة . أما الخير الموجود فى نفسه ،

فليس كامل التكوين ، وإنما هو موجود على هيئة استعداد فقط وعليه هو أن يحققه حتى تصبح الفضيلة طبيعة عملية له .

وهنا أحسب أنى لست فى حاجة إلى التنبيه إلى أن الصينيين قد سبقوا الرواقيين إلى هذه النظرية بعدة قرون حيث قرر هؤلاء الأخيرون أن الانسان هو جزء الطبيعة التى هي الإله ، وأنه خير بفطرته ، وأن الشر لا يقع منه إلا إذا حاد عن طبيعته ، وأن هذه الحيدة لا تأتيه إلا من التفكير وحرية الاختيار .

وعلى ذكر حظ الانسان الذى تمنحه إياه السماء ينبغى لنا أن نشير هنا إلى أن القدر كان عند الصينيين على نوعين : الأول هو الأقدار الناشئة عن أفعال الإنسان نفسه ، وهذا النوع لا يمكن تعديله أو التغيير فيه . والنوع الثانى هو الحظ الذى تبدأ السماء بتوزيعه على الإنسان ، وهذا يمكن تلطيفه أو تحويل شره إلى خير كما ينص على ذلك كتاب « شو — كينج »

رفع الصينيون إلههم إلى أسمى آواج الكمال الخلق فنزهوه عن الظلم وعن الاستثناء (المحسوبية) فمن المستحيل مثلاً أن ينزل بالبشر الآلام والأرزاء اتباعاً لهواه ، أو أن يطرد من رحمته إنساناً لم يجرم ، أو أن يعفو عن آثم لم يقلع عن إثمه كما كان يفعل آلهة البابليين والعبرانيين ؛ وإنما هو إله فاضل يمنح النعمة والسعادة للأخيار ، ويقسو إلى أقصى حدود القسوة على المجرمين والأشرار . وفى هذا يقول كتاب « شو — كينج » ما نصه . « إن الفضيلة وحدها هى التى تؤثر فى السماء ، وإنه لا يوجد أمام الفضيلة ألبتة شئ بعيد بحيث تعجز عن اللحوق به ، وإن المتكبر منخفض ، والمتواضع مرتفع ؛ فإذا لاحظت ذلك ، فإنك ستسير على صراط السماء ... »

من الفضائل الهامة التى نصت عليها الأخلاق الصينية الرحمة التى تجب للصغير على الكبير ، وللضعيف على القوى ، وللفقير على الغنى . ويحدثنا أحد العلماء بأن الآية الموجودة فى الانجيل فى هذا الصدد موجودة بنصها فى أقدم الكتب الصينية وهى : « إنما السعداء هم الرحماء » راجع الانجيل وكتابى « شو — كينج » و « إى — كينج »

ومما لا شك فيه هو أن الفلسفة العملية الصينية لم تكف لحظة عن مهاجمة العنف وعن الأمر بالرحمة فى المعاملات ، بل وعن إفهام الأقوياء والأغنياء أن الضعفاء والفقراء خير منهم ؛ وأن هذه الخيرية سر غامض كامن وراء هذه المظاهر السطحية الخداعة من غنى وقوة وجاه . ومن هذا ما يقوله كتاب « إى — كينج » :

« إن الهواء الذى يصفر فى السماء إنما هو تصوير لقوة الرجل الذى يظهر صغيرا ، وإن الرجل الذى يمشى فوق ذيل النمر دون أن يعضه هو الذى سينجح ، وإن التواضع يخلق النجاح ، وإن الحكيم المتواضع يستطيع أن يجتاز البحر الأعظم »

ويعلق أحد الباحثين على هذا بقوله : ولكننا يجب علينا ألا نفهم أن الرحمة التى تدعو إليها الديانة الصينية هى الرحمة التى تجر إلى الضعف ، وإنما هى الثبات فى وداعة والصلابة فى تحقيق الواجب . وعلى الجملة هي المقياس المضبوط في كل شئ أو هى الاعتدال أو التوسط فى كل شئ ، وهذا التوسط كانوا يسمونه : « تشونج » أى الفضيلة فى ذاتها ، وفيها يقول « إى — كينج » : « إن احتمال فظاظة الأفظاظ فى وداعة ، واختراق الأنهار فى ثبات وشجاعة ، وعدم إهمال البعيد ، وعدم الانشغال بالغير ، كل هذا مجتمعاً هو الذى يحقق السير فى طريق الاعتدال الأوسط »

وهناك نص يعد من أقدم نصوص كتاب « شو — كينج » يقول : « إن الفضائل التى تصيّر الانسان غاية فى الكمال : هى المنونية مع الجد ، والتخلى مع الثبات ، والحشمة مع البساطة ، والحزم فى السلطان مع الحكمة ، وسهولة الانقياد مع القوة ، والصلابة فى الاستقامة مع الوداعة ، والرحمة مع التمييز ، والشدة مع الإخلاص ، والشجاعة مع العدالة . فإذا اتبع رعاياك هذه المحامد ، فإنهم سيكونون مستقيمين فى الطريق السوى »

من خلال هذا كله نلمح فى سهولة أن الأخلاق الصينية قد أقيمت منذ أقدم عصورها على أساسين جوهريين : الأول المثالية العليا والثانى سعادة المجتمع . ويعلق العالم « زانكير » على هذا بقوله : ولقد فهم بعض الباحثين أن الأخلاق الصينية نفعية جافة فظة . وفى الواقع أن النظرة السطحية المتسرعة فى فلسفة الصينيين لابد أن تنتج هذه النتيجة ، إذ لا يكاد الباحث يتصفح كتبهم حتى يلتقى فيها بقاعدة « الفضيلة طريق السعادة » أو « السعادة غاية الفضيلة » فإذا كان الباحث من أولئك الذين لا يكلفون أنفسهم التعمق جزم بنفعية هذه الأخلاق ، بل بأنانيتها

ولكن نظرة فاحصة، وتأملة دقيقة، تظهران أن هذه السعادة المقصودة ليست هي سعادة الفرد، وإنما هي سعادة المجتمع، وليس ذلك النجاح الموعود به لمكافأة الفضيلة هو نجاح الشخص، وإنما هو النجاح في تحسين أحوال البيئة العمرانية التي يقيم فيها الفضلاء. وفي الحق أن الأثرة عند الصينيين من أقبح الرذائل، وأن الغيرية أو الايثار في رأيهم من أجل الفضائل، وأن الفضيلة بوجه عام تنحصر في الخضوع الحر الذي يصدر من الفرد نحو مجتمعه صدوراً إدارياً، لأن ذلك المجتمع الممثَّل في أوامره الحية إنما هو عندهم صور أمينة للأوامر السماوية. وهكذا نرى أن القانون والحرية هما الدعامتان الجوهريتان للأخلاق الصينية، وفوق ذلك فهما تذكراننا بعبارة «كانت» القيمة، وهي: «إن السماء التي تسطع نجومها فوق رأسي هي عين القانون الأخلاقي الذي في داخل نفسي»

نظام الأسرة

كان لرب الأسرة في الصين كما كان في روما حق الحياة والموت على جميع أفرادها بدون استثناء ودون أي تذمر أو اعتراض، ولكن بقدر ما كان أرباب الأسر في روما قاسي القلوب متحجري الأكباد لا يبالون بتضحية فرد أو عدة أفراد في سبيل هوى من الأهواء أو شهوة من الشهوات. كان رؤساء الأسر في الصين على العكس من ذلك تماماً تفيض الرحمة من قلوبهم، وينبع الحنان من بين جوانحهم، ولا يسلكون مع جميع أفراد أسرهم إلا سبل العدالة والاستقامة، ولا يتخذون في معاملاتهم إياهم رائداً غير الفضيلة، وإن كانوا لا يتوانون لحظة واحدة في اتخاذ أقسى أنواع الحزم إذا تطلبت الحالة الاخلاقية أو الاجتماعية ذلك. أما واجبات المرءوسين نحو رؤسائهم في الأسرة من احترام واخلاص وطاعة فإننا نكتفي بما أشرنا إليه منها عند حديثنا عن الأخلاق العامة.

السلطان

تنتقل السلطة إلى الملك عند الصينيين من السماء مباشرة، ولهذا يجب أن يكون فاضلاً، مستقيماً، حكيماً، بل قديساً منزهاً عن النقص، لأنه الابن الحقيقي للسماء؛ وليست البنوة المادية هي المعتبرة، بل إن الاصطفاء المعنوي هو كل شيء، وإن منحة السماء لا تتوقف على جاه ولا مولد، وفي هذا يقول «شو — كينج»: «إن من يستضيء بالفضيلة الساطعة هو وحده الذي يمكن أن يسمو ولو كان ابن فلاح» وهذه القاعدة الأخلاقية تعلن في صراحة أن «الامبراطور» إذا حاد عن الصراط السوي، فإن السماء تسلب منه السلطة؛ وهذا طبيعي لأن الملك مادام قد قطع برذيلته صلته الداخلية بالسماء، فيجب ان تزول صلته الخارجية بها. ولقد تجسمت هذه الفكرة حتى خصص «كونفيشيوس» فيما بعد في قانون العقوبات الذي أنشأه مادة لعقاب الفرد الذي يفقد صلته بالسماء.

أقنعت هذه النظرية الملوك بأن الحكم بحد السيف والخنجر مستحيل، وبأن السلطة الوحيدة الدائمة إنما هي المنبثقة من الفضيلة، وفي هذا يقول كتاب «إي — كينج» في وعظ الأمراء: «إن القوانين القاسية لا تستطيع أن تحقق الرخاء، وإن نصيب الحزم يساوي نصيب الخيرية، وإن القسوة يجب أن تقف عند التوسط، فاذا ما تعدته فقدت نتيجتها النافعة. ومن يطبق القانون بوداعة مع حزم، وبخيرية مع قسوة معتدلة، يفز بالشهرة، إذ يكون قد أدى وظيفته على وجه الكمال. إن الشعب إذا أحس بقسوة القانون عصاه دون أقل تأنيب من الضمير» ويقول أيضاً: «إن الوداعة الداخلية، والحزم المعتدل، والترضية الممنوحة للجميع من غير استثناء، والأمانة، والاستقامة، كل ذلك هو الذي يحقق تحسين حال الشعب ويعظم امتداد الثقة حتى تتناول الخنازير والأسماك»

لم تكن هذه القواعد الأخلاقية عند الصينيين مجرد نظريات علمية تسجل في الكتب دون أن تحقق في الواقع، كلا، وإنما كانت أخلاقاً عملية طبقها الشعب: عامته وخاصته وملوكه. ومن هذا السمو الأخلاقي العملي ما تحدثنا به الأساطير الصينية عن أحد ملوك عصر ما قبل التاريخ، وهو (هوانج — تي) أي الامبراطور الأصفر الذي عاش حوالي القرن السابع والعشرين قبل المسيح، والذي تمثله لنا الأسطورة مثلاً أعلى للفضيلة والحكمة، وإن كانت الكتب المقدسة لا تذكر عنه شيئاً

أما «شو — كينج» فهو يحدثنا أن بلاد الصين كانت سعيدة قوية في عهد ملوك الأسرتين: الأولى والثانية أي أسرتي

« رِهيَا » و« شانج — إن » لأن ملوكهما كانوا فضلاء وحكماء؛ وكذلك امتدت السعادة إلى أول عهد الأسرة الثالثة التى أسسها « ون — وانج » الحكيم الذى كان يطلق عليه اسم الملك المهذب، والذى هو النموذج الأعلى لكونفشيوس ، والذى ساهم بخطه فى نسخ « إى — كينج » وقد حكم فى سنة ١١٢٢ قبل المسيح

غير أن السلطة انتقلت إلى ملوك غير مستقيمين فسلبت السماء سلطتها منهم ، وسقط الشعب فى حضيض التنازع والتفرق ، وأخذ صغار الحكام يستأثرون بالسلطة . وعلى الجملة ساد الشقاء والبؤس تلك البلاد خمسة قرون كاملة انتهى بانتهائها هـذا العصر وبدأ العصر الذى سنتحدث عنه فى الفصل الآتى

« يتبع » **محمد غلاب**

الخـــريف

LA CHUTE DES FEUILLES

للشاعر شارل هوبر ميلله فوى

ترجمة السيد عارف قياسه

« ميلله فوى شاعر فرنسى رقيق من شعراء القرن التاسع عشر (١٧٨٢ — ١٨١٦) طبع بطابع الحزن العميق . تجرع كأس الحمام والغصن أملود والشباب ريق ، عقب هزال ألح عليه إلحاحاً فحطم جسمه تحطيما . نظم ميلله فوى مراثي عديدة — وبهاك نبه ذكره وعلا شأنه — ولعل أشهرها الخريف La Chute des Feuilles أحس الشاعر الشاب بالموت يدب فى مفاصله اللدنة وأعضائه الغريضة فعمد إلى يراعته وقرطاسه وأثبت هذه الآية الشعرية يبكى فيها حياته الفقيدة وشبابه الراحل وغصنه الذاوى . وأنت حين تقرأ غير هذه المرثية مما سجلته يراعة (ميلله فوى) تحس بالكآبة Melancolie تسيل من كلماته وتفيض وتفيض حتى تغمر قلبك فلا تستطيع أن تحبس عينك عن إرسال أدمعها » (عارف)

تناولت يد الخريف الغابات فنضت عنها ثيابها ، وعرّت الأشجار من أوراقها الذاوية ، وكست أديم الغبراء بطبقة صفيقة منها ، ففقدت الغابة سرها ، وصمت البلبل الغريد عن الشدو

شاب مريض تبلغت به العلة — أفعم الأسى فؤاده فى فجر حياته ، وذب دبيب الموت فى جسمه فى ميعة صباه — أخذ يطوف بخطى بطيئة متمهلة فى الغابة العزيزة على سنيه الأولى وينشد هذه الألحان :

« أيتها الغابة التى أحب ! وداعاً مابعده من لقاء . المنية تنشب أظفارها فى جسمى . حدادك أنذرنى بجدى العاثر . إنى أرى في كل ورقة تسّاقط من أوراقك آية من آيات موتى

أى عرّافة « أبيدور[1] » المشئومة ! لقد قلت لي :

« ستذوى أوراق الأشجار وستصفر فى نظرك ولكن للمرة الأخيرة »

السرو الخالد المتموج المياد أرخى فوق رأسه أفنانه الطويلة وابتدرنى قائلاً :

« سيذوى شبابك . سيذوى قبل ذوى عشب المرج وعُسلج الهضاب »

يا لله ! هأنذا أقضى نحبي . مسّنى قر نكباء حرجف

أرى ربيع حياتى يتلاشى (كتلاشى الشموع فى زفرة اللظى الحمراء)

تساقطى أيتها الورقة الزاهقة تساقطى !

غشاوة على الأبصار وحجاب على الأعين هذه السبيل

إنها تخفى على يأس أمى مقري فى الغد

ولكن إذا توجهت حبيبتى — مع دلوك الشمس — شطر المسلك المنعزل ، شعثاء الشعر ، مشقوقة الجيوب تبكى على ، أيقظي بهمساتك الخفيفة ظلى القرير .

قال ذلك ، ثم طفق يبعد . . . وبلا إياب

الورقة المتساقطة أخيراً أعلنت انطفاء شعلته

تحت السنديانة شق لحده . ولكن حبيته لم تأت لزيارة جدثه ، ووراعى الوادى هو الوحيد الذى يكدر صفو الرمس بوقع أقدامه

حماه « سوريا » **عارف قياسه**

---

(١) مدينة تقع على شاطىء بحر إيجة اشتهرت بعرّافيها

تطور علـــم الكلام

فى رسالة انقاذ البشر من الجبر والقدر

للأستاذ محمد على كمال الدين

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

يظهر للباحث من عنوان المرتضى « بيان القدرة والمقدور » ومن قوله عن زعم جهم بأن ما يكون في العبد من كفر وإيمان ومعصية فالله فاعله . يظهر أن المرتضى يرى أن نظرية جهم فى خلق الأفعال هى عينها نظرية القدر ، وهي هي نظرية الجبر ؛ وقد صرح بذلك فى رسالته فى معرض صفات الله عنـد نهاية صفحة ٤٠ بقوله : « سبحانه وتعالى عما وصفه به القدرية المجبرة المفترون » وعليه يكون القدر فى عنوان كتابه : « إنقاذ البشر من الجبر والقدر » عطف تفسير على الجبر

كما يظهر أيضاً من قوله : ولمـا أحدث جهم القول بخلق أفعال العباد قبل ذلك ضرار بن عمرو بعد أن كان يقول بالعدل فانتفت عنه المعتزلة واطرحته . يظهر أن النظرية العَدلية كانت هى السائدة بين طبقات الأمة حتى بعد حدوث الاعتزال أى بعد القرن الأول ، وأنها سبقت نظرية الاعتزال فى الحدوث وسبقت نظرية خلق الأفعال ؛ وأيضاً عند تدقيق أسطر المرتضى المبحوث عنها ولاسيما ما يخص ضرار بن عمرو نستنتج النقط الآتية :

(١) إن واصلاً وعمراً هما رجلا الاعتزال وإن ضراراً كان معتزلياً ؛ ونعرف هذا من استتباع المرتضى انتفاء المعتزلة عن ضرار بخروجه عما كان عليه واصل وعمرو بعد أن كان على رأيهما وأخذ عنهما

(٢) إن الزمن الذى حدث فيه الاعتزال هو عند المائة الأولى ، ويدل على ذلك أن ولادة واصل كانت سنة ٨٠ والعادة تقضى أن المرء لا يكون عالماً قبل أن يتجاوز العشرين من عمره وبإضافة العشرين إلى الثمانين تكمل المائة ، وهو نتيجة طبيعية للتطور العقلى فإن للجدل العنيف بين طبقات الأمة فى تكفير ذوى الكبائر أو تفسيقهم يؤدى عادة إلى خلق جماعة وسطى تضع لذوى الكبائر منزلة بين المنزلتين

(٣) إن الزمن الذى حدثت فيه نظرية خلق أفعال العباد يكون بعد المائة الأولى بدلالة اطراح المعتزلة لصاحبها ضرار لأنه وافق جهماً فى نظريته الجديدة ؛ ونرجح أن يكون الزمن الذي حدثت فيه النظرية هو المدة المحصورة بين وفاة الحسن البصرى سنة ١١٠ وبين مقتل جهم سنة ١٣١ . على أن هذا الزمن المفروض حرى أن تحدث فيه النظريات العلمية لكثرة انتشار العلم والدرس مع ازدياد عدد العلماء وشدة تضارب الآراء والأهواء

(٤) فى هذا الظرف الذى حدثت فيه نظرية جهم ظهرت آراء ومقالات غريبة لم يصرح بها المرتضى ؛ غير أنه أضاف فى عرض حديثه عن ضرار أنه خلط تخليطاً كثيراً وقال بمذاهب خالف فيها جميع أهل العلم . ولم أجد مسوغا للمرتضى فى عدم تصريحه بنوع هذه الآراء فى حين أن صاحب الملل والنحل ذكر كثيراً منها . ولو أن المرتضى ذكر بعضها لوجدنا من مقدمته سلماً كاملاً للتطور الفكرى . ونعود الآن إلى بقية أجزاء المقدمة ، قال :

« ثم تكلم الناس بعد ذلك فى الاستطاعة فيقال إن أول من أظهر القول بأن الاستطاعة مع الفعل يوسف السمنى ، وإنه استزله إلى ذلك بعض الزنادقة فقبله عنـه ؛ ثم قال بذلك حسين النجار وانتصر لهذا القول ووضع فيه الكتب فصارت مذاهب المجبرة بعد ذلك على ثلاثة أقاويل : أحدها أن الله تعالى خلق فعل العبد وليس للعبد فى ذلك فعل ولا صنع ، وإنما يضاف إليه لأنه فعله كما يضاف إليه لونه وحيويته ، وهو قول جهم . الثانى أن الله تعالى خلق فعل العبد ، وأن العبد فعله فى استطاعة حدثت له فى حال الفعل لا يجوز أن تتقدم الفعل ، وهو قول النجار وبشر المريسي ومحمد بن برغوث ويحيى بن كامل وغيرهم من متكلمى المجبرة نحو الأشاعرة وغيرهم »

قبل تحليل هذا القسم نلفت نظر القارىء إلى كلمة المرتضي « مذاهب المجبرة » بدون أن يقرنها بكلمة القدرية ، فهى وإن لم تدل على رجوعه عن رأيه فى مرادفة الجبر والقدر ولكن يشم منها حدوث كلمة جبر ومجبرة ، وأنها غلبت فى نسبتها إلى جهم وجماعته بدلاً من لفظة القدر التي حاول أن يهرب عنها الفريقان المتطاحنان . ولو أردنا التماس سبب لغلبة جهم فى هذا التملص من صفة (القدرية) ربما وجدناه فى مطابقة فهم العامة لمعنى كلمة

الجبر مع النظرية ولا سيما وإن جهماً ونظريته وأصحابه فرس أفراخ، فهم أحرى أن يتحاشوا ويعملوا على الخلاص من وصمة الحديث « القدرية مجوس هذه الأمة » .

ولنعد إلى بحثنا فقد استأنف المرتضى بحثه مراعياً تدرج الموضوعات بمقتضى تاريخها وتسلسلها الطبيعي فعرض لنا صورة من الجدل الذى جد بعد قرن وربع قرن بين علماء الجبر أنفسهم إضافة إلى النقاش الحاد بينهم وبين العدلية والمعتزلة ؛ فهذا ضرار لم يأخذ بنظرية صاحبه جهم كما هي ، بل حاول الجمع بينها وبين لون من الاختيار فقال : إن الانسان وإن يكن مجبراً على خلق الأفعال فإن هذا الجبر لا يتنافى على رأيه مع الاستطاعة على القيام بالعمل ، أى أنه لا يتنافى وجود فاعلين على أن يكون أحدهما كالقوة البخارية والثاني كالآلة المحركة ؛ وزاد أن هذه الاستطاعة سابقة على حدوث الفعل بخلاف جهم الذي سلب هذه الاستطاعة من أساسها ، وادعى أن إسناد الأفعال للإنسان على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة كما يسند اليه لونه وحيويته ، وكما يقال أمطرت السماء ، وكسفت الشمس ، وخسف القمر إلى غير ذلك

والذى يرمى إليه المرتضى حدوث بحث وموضوع جديد فى علم الكلام هو بحث الاستطاعة ولم يعين وقت حدوثه كما هى عادته ولكن سنة التطور العقلى تقضى بأن حدوثه إذا لم يكن فى حياة جهم أى قبل سنة ١٣١ فعقيب مقتله . على أن تعدد الآراء في بحث الاستطاعة مع تعقد النظريات يدل على طول زمن البحث فيها كما تقتضيه الأبحاث الفلسفية التي غمرت المجتمع بعد عهد المنصور أى بعد سنة ١٣٦ ... وعليه سوف لا تجد غرابة في بعد الزمن الذى حدث خلاله الرأى الثالث فى الاستطاعة أو القول الثالث من أقاويل المجبرة كما اصطلح المرتضى وهو قبل سنة ١٨٩ أى قبل زمن وفاة يوسف بن خالد السمتى صاحب هذا القول ؛ على أنه إذا كان الرأيان أو القولان الأولان يقرران نفى الاستطاعة مطلقاً أو وجودها سابقة على الفعل فبمقتضى التطور لا مناص أن يكون القول الثالث هو حدوث الاستطاعة حتى الفعل حيث لا رابع لها . بقي علينا أن نعرف السبب الذى ساق المرتضى إلى نسبة هذا القول للزنادقة . أقول إن اقتران تحقق الاستطاعة مع الفعل صريح بأن هذه الاستطاعة أمر غير ذهنى فلا يمكن أن يتصوره العقل مجرداً بل يتحقق خارجاً كما تتحقق الحرارة مع النار ، وهذا عين مقالة الزنادقة القائلين بعدم وجود أمور ذهنية غير واقعة تحت الحواس ، لذلك نسب المرتضى إليهم هذا القول

أما شخصية يوسف بن خالد السمتى هذا وهل نسبته هذه إلى مذهب (السمنية) من مذاهب الهند القديمة فذلك مالم أستطع تحقيقه الآن لانعدام المآخذ لدى

ولكن الذى يلفت نظر الباحث اهتمام المرتضى بهذه المقالة : الاستطاعة مع الفعل ، فقد جعلها مفتاحاً إلى مقالة كثير من المجبرة مثل بشر بن غياث المريسى المتوفى سنة ٢١٨ ، ومحمد بن عيسى الملقب ببرغوث ، ويحيى بن كامل من أصحاب بشر ، وأيضاً الحسين بن محمد النجار الذى وضع فى هذه المقالة الكتب وغيرهم . فكأن المرتضى يشير إلى أن تاريخ اتساع علم الكلام وتشعب نظرياته عند المسلمين بدأ عند هذه المقالة ومنها أخذ يزداد توغلاً وعمقاً فكثر فيه المؤلفون والمجادلون والمجالدون ؛ غير أن تحقيق تطور هذه النظرية الذى هو موضوع بحثنا يحتاج إلى دقة وبحث واستقصاء أكثر ولا سيما وقد شغلت عهداً طويلا يبتدئ من سنة ١٣١ ويستمر إلى سنة ٢١٨ وهو عهد وفاة بشر المريسى ثم إلى عصر الأشعري وهو سنة ٣٠٠ . والآن نأتي على آخر أجزاء المقدمة ، قال المرتضى :

« ثم تكلم الناس من بعد ذلك فيما اتصل بهذا من أبواب الكلام فى العدل واختلفوا فيه اختلافاً كثيراً والكلام فى ذلك أوسع أبواب العلم »

فكان العدل هو العامل الأكبر فى خلق علم الكلام فقد ابتدأ مع أول نظريه وهى نسبة المعاصى لله أو للعبد نفسه ، واطرد مع جميع نظرياته ، وأخيراً أصبح العدل موضوعاً مستقلا لدى المعتزلة بل أصبح أوسع أبواب العلم كما يقول المرتضي ؛ غير أن المجبرة والصفاتية والأشاعرة تحاشوا التوغل فيه كما تتوغل المعتزلة

جدول تطور علم الكلام

الآن وقد أنهينا مقدمة المرتضي مع تطور علم الكلام الذي ارتآه وحاولنا البرهنة على صحة رأيه فى هذا التطور فلا ندرى إن كنا موفقين فى بعض هذه البرهنة أو غير موفقين ، غير أن القارىء ربما أدرك ما لاقيناه من العناء فى هذا السبيل . واكمالا للفائدة رأينا أن نلخص رأى المرتضي بالتطور فى الجدول الآتى :

النظرية	أصحابها	نقيض النظرية	أصحابه	الزمن
نسبة المعاصي لله		نسبتها للانسان والقول بالعدل	السلف	من ٦٠ إلى ١٠٠
تفسيق ذوى الكبائر وتكفيرهم	السلف والخوارج	منزلة بين المنزلتين	المعتزلة	١٠٠ — ١١٠
القدر أو الجبر ونفى الاستطاعة	جهم بن صفوان	الاختيار ومطلق الاستطاعة	السلف والمعتزلة	١١٠ — ١٣١
الجبر والاستطاعة قبل الفعل وعنده	ضرار بن عمرو	» » »	» »	١٣١ —
» » حال الفعل	يوسف السمنى وبشر المريسى	» » »	» »	١٣١ — ٢١٨
» » » »	النجارية والأشاعرة	» » »	المعتزلة	٢١٨ — ٣٢٤

نتيجة البحث ورأينا الخاص

يلاحظ القارىء أنا حاولنا أن نتلمس رأى المرتضي نفسه لنكشفه أمام القارىء كيما يمكنه أن يستخلص منه طريقة تطور علم الكلام. وقد آن لنا أن نعرض أمام القارىء آراءنا الخاصة والنتائج التى حصلنا عليها، وللقارىء أن يأخذ بها أولا يأخذ. وهى تتلخص فى أربعة أمور: زمان علم الكلام، المكان الذى نشأ فيه، عوامل تكوينه، صبغته

(١) أما الزمن الذي نشأ فيه علم الكلام فهو عصر خلافة الامام على وحركات الخوارج وجدالها معه، وأول نظرية هي بحث المعاصى والكبائر وتكفير مرتكبيها سنة ٣٨

(٢) المكان الذى نشأ فيه علم الكلام هو العراق وبعض ما جاوره من بلاد الفرس بدلالة أن هذه الأقطار كانت منبت الخوارج ومراكز حروبهم ونظرياتهم فضلاً عن أن معظم علماء الكلام كانوا من أهل هذين القطرين

(٣) إن عوامل تكوين علم الكلام لم تكن دراسية بالأساليب والمناهج التى نعرفها بل كونتها ثورة فكرية عامة صدع بها الدين والكتاب المقدس وسندتها قابلية الفرد والمجتمع وغذتها الخميرة العلمية الموروثة تلقيا وتلقينا من دراسة الأمم والمدارس القديمة من سريانية وكلدانية وحيوية وجنديسابورية وحرانية وعبرية واسكندرية، فكانت هذه الثورة الفكرية بما كان لها من مقومات ومغذيات هى المدرسة الكبرى لعلم الكلام وناهيك بالمجتمع مدرسة عظمى سريعة النموطيبة النتاج

(٤) كانت صبغة علم الكلام منذ نشأته الأولى فى الصدر الأول فطرية، فمشت نظرياته بمقتضى العقلية العربية الاسلامية، وقد كفلتها الذهنية الخصبة فتوصلت إلى نتائج تلك النظريات طفرة ومن دون تعمل، وأخذت بها كآراء صحيحة وإن لم تراع الترتيب والتبويب العلمي. ولا أظن أن هذا الأسلوب من الدراسة يمنع من أن ندعوه علم الكلام أو يمنع من اصطباغ معتنق نظرياته بصبغة علماء الكلام. وعليه يكون لعلم الكلام دوران: أولا صبغته الفطرية وهي تبتدئ منذ سنة ٣٨ وتنتهى فى سنة ١٣٦؛ والدور الثانى صبغته الفلسفية الحاضرة وتبتدئ منذ عصر الترجمة سنة ١٣٦ ﻫ

وتقريباً للأذهان سنضرب للقارئ مثلاً يرتضيه الخيال ويتفق مع النواميس الاجتماعية، فربما أعطانا صورة لتلك الثورة الفكرية، وهذا المثال هي الثورة الثقافية والاجتماعية الماثلة لدى الشعوب والحكومات الشرقية التي استقلت بعد الحرب العامة فقد شاهدنا هاته الشعوب والحكومات كيف سارعت وتطورت فى دراسة نواحى الاستقلال وما يلابسها من نظريات اجتماعية وسياسية ومدنية وقضائية وعلمية وفنية وعسكرية وما إلى ذلك من خصومات الحضارة الأوربية وأساليبها — درست جميع ذلك بطريقة عملية تلقينية وبأساليب التفكير والتجربة والتقليد إذ لم تكن لدى تلك الحكومات ما يصح أن يقال لها مدارس فنية أو عسكرية قضائية أو اقتصادية، ومع ذلك وجدنا ابن الريف والفلاح الأمى قد سارع فى تلك البلاد إلى تلقي الأنظمة والفنون الحربية بما فيها آلاتها وأدواتها الميكانيكية كما وجدنا الحضرى ساق السيارة والباخرة والقطار، والتاجر والصانع أصبح سياسياً أو إدارياً أو صحافياً أو مهندساً فى حين أن معظم هؤلاء وأولئك لم يكونوا قد سمعوا بشئ فى ذلك فضلا عن مشاهدته والقيام بما يتطلب. والأغرب من ذلك كله أن جميع هؤلاء الفنيين أو المدربين الشرقيين قد نجحوا رمهروا ببضعة سنين

ونحن نرى فى هذا المثال صحة المقارنة وانطباقها مع تلك الموجة العربية الاسلامية كل الانطباق إلى درجة لم يبق معها مجال للحيرة والشك فى سرعة قبول المسلمين لنظريات علم الكلام وفى كيفية امتزاج هذا العلم وأشباهه مع الدين الإسلامى

(العراق . النجف) محمد على كمال الدين

في الأدب العربي

دعبل الخزاعي
الشاعر المتمرد

للأستاذ عبد الحليم عباس

قال دعبل : مضى على ستون عاماً ما تصرم منها يوم إلا وقلت فيه شعراً . وقد يكون مغالياً في هذا ولكن الشيء الذي ليس فيه مغالاة أنه نظم كثيراً أضعاف ما خلص إلينا ، فقد ضاع الكثير من شعره ؛ وليس هذا الضياع بالمستغرب ، وإنما المستغرب أن يصل إلينا شيء من شعره فقد كان الرجل طلعة ، هجاء ، ومرعباً بهجائه . وحسبك أن تعلم أن من جملة من أقذع في هجوهم خمسة من الخلفاء ، وفئة صالحة من الأمراء والوزراء والقواد ، ثم كان إلى جانب ذلك شيعياً . أفلا ترى أن الزمن كان متسامحاً إذ أبقى على شيء من شعره ؛ على أن هذه البقية كافية للحكم على شعره ، وتقديره من حيث الجودة ، ولكنها لا تكفي أبداً لدراسته من الناحية النفسية ، فليس يمكننا أن نعرف معرفة صحيحة أسباب تمرده ، ولا أن نجزم في الحكم على بواعث ثورته ؛ وقصارى جهدنا أن نفترض وأن نتخذ من الكلمة الصغيرة ترد في سيرته مفتاحاً للغوص على هذه النفس العجيبة ...

كان البحتري يتعصب لشعره ، ويفضله على مسلم بن الوليد ، ويقول في أسباب هذا التفضيل : « إن شعره أدخل في كلام العرب من شعر مسلم ... » أما إنه أدخل في كلام العرب من شعر مسلم فما لا يمترى فيه اثنان ، بل لعله أدخل في كلام العرب من شعر كل الشعراء الذين تقدموه في الدور الأول للدولة العباسية ؛ واما أنه خير من مسلم فالبقية الباقية لا تجيز لنا هذه المقارنة . هو متين السبك ، شديد أسر التراكيب ، فحل الأسلوب ، حتى لو دعته الضرورة أن يقول شعراً في أقل الأمور التي لا تدعو إلى الاحتفال بالشعر ولفظه ، قال :

أسر المؤذن صالح وضيوفه أسر الكمى هفا خلال الماقط
بعثوا إليه بنيه ثم بناتهم مابين ناتفةٍ وآخر سامط
يتنازعون كأنهم قد أوثقوا خاقان أو هزموا كتائب ناعط

وما هذا المؤذن الذى أسره صالح وضيوفه ، وكأنهم أسروا الخاقان وهزموا الكتائب ؟ ديك دجاجٍ لا أكثر ولا أقل . أتينا بهذه الأبيات ، لندلل على أن دعبل لا يتنزل عن فحولة اللفظ حتى في أتفه المواقف . . ولكن واأسفاه لقد ضاع جلة هذا الشعر الفحل . ولنترك الآن الأسف والحكم على شعره فليس ذلك بمجدٍ شيئاً . . ولندرسه على ضوء ما تبقى من شعره ومن سيرته

والآن أيهما الشقى بصاحبه : أدعبل وهو يحمل خشبته — على حد تعبيره — فلا يجد من ينزو به الغيظ وتثور به الحمية فيصليه عليها ، أم أهل عصره وهم يتجرعون غصص ثورته ، ويصطلون بنار هجوه ، يمدحهم مرة فيغدقون عليه النعم ، ويتملقونه بالهبات ، عله يفيء إلى الرضا ، ولكنهم ما يعتمون — لا لشيء إلا أن دعبل أراد — أن يرو الرضا ينقلب سخطا ، والمدح هجاء مقذعاً ، لا تشفع فيه عارفة ، ولا ينهنه الخوف من سُلطان .

لم يترك وزيراً ترهب صولتُه ، ولا قائدا يُخشى فتكهُ ، إلا شنَّع عليه حتى الخلفاء رقى إليهم ، فأقضَّ مضاجعهم ، وبعث فيهم من الوجل أضعاف ما بعث فيه سلطانهم . تصافى والمأمون — عقب هجائه لأبيه — فلا أذنٌ سمعت ، ولا قصيدة اشتهرت حتى كان كما يقول تاريخ عصره أول داخل على الخليفة ، وآخرُ من يترك مجلسه ، ولكنها أيام ... وإذا ببغداد تنشد قصيدة جديدة في هجو الخليفة من نظم دعبل

ويأخذ الرشيد بطبعه ، وهو الخاملُ بعد لم تعرفه أندية الشعر ولا محافلُ بغداد ، وتصله هبتهُ قبل أن تراه عينه ، ثم يموت الرشيد فيكون رثاؤه إياه ...

قبران في طوس : خير الناس كلهم ،
وقبر شرهم هذا من العبر
لا ينفع الرجسُ من قرب الزكيِّ ولا
على الزكيِّ بقرب الرجس من ضرر
والرجسُ هاهنا هو الرشيد ...

ونعجز إن نحن لا حقناه ، نذكر من تصدى لهجائهم ، فحسبك أن تعلم أنه لم يسلم منه — كما يقولون — أقرباؤه ولا عشيرته الأدنون ، فقد هجا خزاعة ، وما خزاعة غير قبيلته التي أراد أن يكون فيها نسبه . فالبعض يهمس همساً خفياً — فرقاً منه — أنه دعيّ النسب في خزاعة . فأيهما الشقي ؟ أهو بعصره ، أم عصره به ؟

أما هو فقد استمرأ طعم الشقاوة ، بل نظن أنه كان يجدُ فيها لذته

ما أطول الدنيا وأعرضها وأدلني بمسالك الطرق

الحق أن أهل عصره هم الأشقياء به ، هو بلاء صُبّ عليهم في أرفه العصور وأحلاها :

لقد طبع — أبو علي — وهذه كنيته — على الهجاء ، وما هو بالهجاء ، وإنما الحريق يأتي على العدو والصديق ، فما علة هذا ؟ أهي نفسٌ فطرت على الشر بطبيعتها ؟ أم أن هنالك دوافع وحوافز ساقته إلى النقمة وقسرته على هذا التمرد ؟ هذا ما نحاول جهدنا أن نتلمسه في سيرته وما نأسف — من أجله — على ضياع الكثير من شعره

وأول مايتبادر للذهن أنه قد يكون في عقيدته الدينية تعليل لنقمته على عصره ، فقد كان شيعياً كما أسلفنا ، أشاد بمدح العلويين فمن المحتمل أن يكون انساق مع عاطفته الدينية ، فأخذ يشنع على العباسيين ، الخلفاء والوزراء وكل من له صلة بهم ؛ على أن هذا إن يصدق على شاعر فعلى غير دعبل ، فالعصر العباسي شهد ثلاثة من الشعراء المتشيعين ، دعبل ، والسيد الحميري ، وديك الجن ، وأوسطهم أخلصهم للعلويين ، السيد الحميري هو الذي اتخذ مدح العلويين مجالاً لشعره ، أما الاثنان الآخران فقد كان تشيعهم من النوع الحقيق — إن صح هذا التعبير — انهمك الشاعر السوري في رثاء جاريته وردة ، وفي البكاء والحنين على جوار أخر ... أما دعبل فقد وجد في الهجاء متسعاً يلهيه عن التشيع ... لم تعرف له في العلويين قصيدة عبقرية خلا واحدة

مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مقفر العرصات

صحيح أنها صادقة اللوعة ، تنم عن إخلاص ، وهو شيء لا ننكره ، وإنما الذي نذهب إليه وتؤيده سيرته نفسها أن يكون مصدر نقمته على الذين هجاهم نظرته إليهم كمغتصبين أو كأعوان لمغتصبي حق أبناء علي ، وإلا فما يمنعه أن يلمح إلى أفضليتهم في خلال هجائه للعباسيين على الأقل ؟ مرة واحدة ذكرهم في هجو الرشيد

وليس حيٌّ من الأحياء نعرفه من ذي يمانٍ ومن بدوٍ ومن حضر

إلا وهم شركاءٌ في دمائهم كما تشارك أيسارٌ على جزر

وليس يرد على هذا أن المأمون جدّ في طلبه لهذه القصيدة فغير دعبل يستشعر الخوف ، أو يتدبر العواقب . أليس هو القائل للمأمون نفسه :

إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الأوهد

والقائل للمتوكل :

ولست بقائل قذعاً ولكن لأمرٍ ما تعبدك العبيد

وللمعتصم :

ملوك بني العباس في الكتب سبعةٌ ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب

كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة خيارٌ إذا عدوا وثامنهم كلبُ

وشيء آخر . إذا كان كرهه للخلفاء ، ومناصبته إياهم العداء ، تشيعاً لأبناء علي ، فما ذنب أقربائه ؟ ما ذنب عشيرته خزاعة ، بل ماذنب هؤلاء الذين ليس لهم من جريرة غير موافقة أسمائهم للقافية في شعر دعبل

ما جعفر بن محمد بن الأشعث عندي بخير أبوة من عثعث

عد البيوت التي ترضى بعشرتها تجد فزارة العكلي من نسبك

إذن فلم تكن العقيدة الدينية هي كل السر في هذه الثورة ، وعامة هذا الهجاء ، لعله تعصبه للقحطانية على النزارية ، لا على الأرجح ، لأن من بين من هجاهم من ليسوا من نزار ، بل نظن أن هذه كلها دوافع جاءت متأخرة ، وإنما السر كله في تركيبه

يقول لأحد أصدقائه : ما كانت لامرئ عندي من مِنةٍ إلا وتمنيت موته . فما عسى يرى علماء النفس في هذه الخاطرة ؟ ! أإباء منحرف عن وجهته ؟ كيفما يكن فما هو بالرجل الخير هذا الذي يود أن يكافئ المحسن إليه بتمني الموت له

وما ترى فيمن تهتاج نفسه لقول الشعر ، فتضيق عليه فنون الشعر إلا أن ينشئه هجاء ، فإذا سأله سائل: لمن؟ قال : « لم يستحقه أحد بعد » ، حتى إذا ما لاحاه أحد ، ذكر اسمه فيه ، ونشره فى الناس

ودعبل يعلل هذه الظاهرة فى نفسه بأن الهجاء آخذ بطبع الشاعر من المديح وأن الناس له أرهب . وقد قال مثل هذا بشار وقد يكون بشار صادقاً بالقياس لنفسه ، بل هو صادق مافى ذلك شك ، ولكن دعبلاً قد أخطأ فى تعليل ظاهرة الهجاء فيه ؛ إنه مسوقٌ إليه بطبيعته ، إنه يفتنُّ فيه ، ويتخذه مجالاً لفنه ، كما يتخذ بعض الشعراء الغزل مجالاً للقريض

وعدا هذه الطبيعة المتمردة الناقمة فيه منذ نشأته الأولى ، فقد كان يرافق الشطار واللصوص ، واتهم مرة بالقتل

وبقىَ هذا الخلق ملازماً له كل حياته ، فكان يلاقى قطّاع الطرق يؤاكلهم ويؤانسهم ، فلا يؤذونه « ولا هو يتعرض لهم بأذى » قال أحدهم : مازلت أعرف فيه مشية الشطار

هو ناقمٌ ولكنك لاتلمح فيه هذه النقمة إلا هينة لينة ، فلا يشكو الزمن كما يشكوه غيره من كبار الناقمين ، كأنه أعلى من أن يضج بشكوى ...

حملت على زمنٍ ظالمٍ فوف تكافى بشكر زمن

وهو إذ يتهجم على الأحياء ويستنفد جهد ثورته ، لا يوازن بين قدره وأقدارهم كما يفعل ابن الرومي فى الهجاء ، ولعلَّ مردَّ هذا إلى أن دعبل لم يكن معجباً بنفسه كما كان ابن الرومى الذى أضعف أدواته الشعر

وإذا كان الهجاء آخذا بطبع الشاعر ، فما باله يكره ملاقاة الخلفاء أمنية كل شاعر ؟ أراد ابن الدبر أن يقدمه للخليفة فاعتذر أحد أصدقائه : إن أبا على موسومٌ فى الهجاء ومُنيته أن يخمل ذكره . فقال دعبل لصديقه : ماعدوت الذى بنفسى

ولسنا نحب أن نختم هذا الفصل دون أن نشير إلى شيء من التسامح الذي تحلى به عصره . أحب أبو مسعد المخزومى أن يوغر عليه صدر المأمون فأنشد هجاءه فيه ، فقال : أجيبه ، قال : لو أمرتنى أن آتيك بالذى على منكبيه لفعلت . قال : أما هذه فلا ...

إن العصر الحديث لجد محتاج إلى ملوك وأمراء ووزراء يستبقون القتل والسجن لغير رجال الأدب

« شرق الأردن » عبد الحليم عباس

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

حكمة البشر

ليست الأعالى ما يخيف بل الأعماق ، فعلى الجرف تحدق العين فى الهاوية وتمتد اليد نحو الذرى فيقبض الدوار بالإرادتين على القلب

أفتعلمون أيها الصحاب ما هى إرادة قلبي المزدوجة ؟ إن الخطر المحدق بي على منحدرى إنما هو اتجاه نظرى إلى الذروة بينما تتلمس يدى مستنداً فى الفضاء . وما أعلق إرادتى إلا على الانسان فتشدنى إليه مرهقات القيود لأننى منجذب منه إلى الإنسان المتفوق فإليه تندفع إرادتى الثانية . إنما أنا أحيا بين الناس كالضرير لا يعرف من حوله ، كيلا تفقد يدى ثقتها من الوقوع على مستند مكينَ

أنا لا أعرفكم ، أيها الناس ، تلك هي ظلمتى ألتفع بها وتعزيتى ألجأ إليها

فأنا جالس أمام الباب متوجهاً إلى الأوغاد صائحاً بهم : إلىّ يا من يريد أن يخدعنى

إن أول حكمة بشرية أعمل بها هى أن أستسلم لخداع الناس فلا أضطر إلى الوقوف أبداً موقف الحذر لأن فى الناس من يخدعون

ولو أننى وقفت هذا الموقف فى العالم أ كان يتسنى للإنسان أن يثقل منطادى فيمنعه من الانفلات والانطلاق إلى أبعد الآفاق ؟

إن إغفالى للحذر إنما هو عناية تسهر علىّ لإيصالى إلى ما هو مقدور

إذا أنت امتنعت عن الشرب من كل كأس فإنك هالك ظمأ(1) ، فإذا أردت أن تبقى طاهراً بين الناس فعليك أن تتعود الإغتسال بالماء القذر

لكم ناجيت قلبي لأعزيه ، فقلت له : صبراً أيها القلب الهرم ، إنك لم تفلح بهذه النقمة فتنعم بها كأنها نعمة

وهذه حكمتى البشرية الثانية : إننى أدارى المغرور بأكثر

---

(1) أليس هذا معنى قول بشار :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه

(الرسالة)

مما أدارى الفخور ، لأن الغرور الجريح مبعث كل النائبات ، فى حين أن العزة الجريحة تستنبت جرحها ما هو خير منها

إذا لم يحسن الممثلون لرواية الحياة أدوارهم فيها فخير لك ألا تشهدها ؛ وليس أمهر من أهل الغرور فى التمثيل لأنهم يقومون بأدوارهم وكل إرادتهم متجهة إلى اكتساب رضى الشاهدين وإعجابهم ، وهم لايدخرون وسعاً فى سبيل خلق شخصيتهم وتمثيلها، لذلك يلذ لى أن أنظر من خلالهم إلى الحياة فهم خير دواء للسوداء . إننى أدارى أهل الغرور لأنهم أساة أحزانى المقيمون الانسان ممثلا أمام عيانى

وفوق ذلك فمن له أن يسبر الأعماق فى تواضع المغرور فأنا أريد له الخير وأشفق عليه بسبب اتضاعه ، فهو يريد أن يقتبس منكم ثقته بنفسه متغذياً من نظراتكم ، متسولاً الثناء من تصدية أكفكم . إن المغرور ليصدق أكاذيبكم إذا ما أحسنتم إيرادها عنه ، فما هو إلا حائر يشك بأعماق نفسه فى قيمة نفسه

إذا كانت الفضيلة الحقيقية تجهل ذاتها فالمغرور كذلك لايعرف شيئاً عن تواضعه

أما حكمتى البشرية الثالثة فقائمة على أننى لا أدع لاستحيائكم سبيلا إلى تنفيرى من مشاهدة الأشرار ، فأنا أسر بالنظر إلى ما تخلق حرارة الشمس من عجائب المخلوقات كالنمور وأشجار النخل والأفاعى ذوات الأجراس . ولكم بين الناس مثل هذه المخلوقات العجيبة أفقستها حرارة الشمس أيضاً ، وفى الأشرار أيضاً من البدائع الشىء الكثير ...

إن أوفركم عقلا لا يبلغ فى نظرى منتهى الحكمة ، كذلك لا أرى الشر إلا مبالغاً فى وصفه . ولكم تساءلت مشككا : لماذا لا تزال الأفاعى تطن بأجراسها ؟

إن لكل شىء مستقبله حتى الشرور ، فالظهيرة البالغة التناهى فى إشراقها لم تنكشف للإنسان حتى اليوم . لكم من أمور تعتبر شروراً فى هذا الزمان وهى لاتتجاوز الثلاث عشرة قدماً حجماً ، ولا الثلاثة أشهر بقاء ، وغداً سيولد ماهو أعظم منها . ولا بد من أن تخلق الحياة التنين المتفوق خليقاً بالانسان المتفوق ؛ فان شموساً محرقة ستدخل حرارة الابداع فى الغابات الغضة الرطبة لم تمسمها يد بعد

لا بد من أن تصبح وحوشكم نموراً وعقاربكم تماسيح ، فيجد القناص فى الغاب ما يرضيه

والحق أن فيكم كثيراً من المضحكات يارجال العدل والصلاح .

ولشد ما يضحكنى خوفكم ممن دعوتموه إبليساً . لقد بعد المجال بين روحكم وكل عظيم ، فاذا مالاح لكم الانسان المتفوق بصلاحه أورثكم خوفاً ورعباً . فانكم ، أيها الحكماء والعلماء ، ستولون الأدبار إذا ما لفحتكم الحكمة المشمسة على الانسان المتفوق فى غبطته وعريه .

لقد وقعت عينى عليكم ، أيها العظماء ، فأدركت هذا السر ، وهأنذا أعلنه لكم ، إنكم ستصفون الانسان المتفوق الذى أنبئكم به بأنه شيطان الشياطين .

أتعبنى هؤلاء العظماء ، وأشدهم إرهاقاً لى أوفرهم عظمة ، فأنا أتوق إلى اجتياز مرتبتهم فأفوتها وأنا أتجه إلى الانسان المتفوق

لقد عرتنى هزة عند ما شاهدت خيار العظماء فى عريهم فشعرت بجناحين استنبتهما ساعداى لأحلق بعيداً عنهم فى آفاق الدهور الآتية . إننى أتوجه إلى الدهور البعيدة ، إلى الظهيرات الغارقة بأنوار لم يحلم بها الفن من قبل ، فهنالك تتجلى الآلهة خجولة من كل ما يقع من حوادث على الأرض .

ليتنى أراكم متنكرين ، أيها الاخوة والأقرباء ، أهل الصلاح والعدل ، فتبدون بحللكم وقد نفخها الغرور ، وليتنى أجلس بينكم متنكراً أنا أيضاً ، كيلا أعرف من أنتم ولا أعرف من أنا ، لأن هذه آخر حكمة لى من حكم البشر .

هكذا تكلم زارا ...

مناجاة . . . !

حبيبى ! إنْ دنا ثغرى   إلى خـدَّيْك لهفانَا . . .
فلا تغضبْ ! فقد يُغرى الْـ   ـهوى باللثم أحيـانَا !
وما ذنبي إذا ما كنـ   ـتُ فى وجدى مِنَ الناسِ ؟!
هو الحبُّ ! وما فى الحبِّ (م) يا فتَّانُ مِن باسِ
فقم نمرح مع الأطيا   ر إنَّ الله يرعانَا !
وبادِلني — فداك الرُّو   ح — أنفاساً بأنفاسِ !

* * *

حبيبى ! نم على كَفِّي   لأروى العين مِن حُسنِكْ !
وأسقى رُوحىَ الظَّمْأى   إلى الأنوار مِن دَنِّكْ ! !
وأطوي سـاعةً همِّى   وآلامي وأكدارِى
وأحيـا بين أحـلامى   وأنغـامى وأشـعارى
وترنو سـاعةً عينا   يَ فى صَمْتٍ إلى عَيْنِكْ !
وثغرى خاشــعٌ يُملِي   على أذْنَيْكِ أسْرَارِى !

* * *

حبيبي ! هاتِ لي وحدِى   رحيق الخُلْدِ مِن ثغركْ !
ودعنى أرشـف الألحا   ن والأشواق مِن شَعرِكْ !!
لأهدِى نفسِىَ الحيْرى   وأروِي قلبىَ الصَّـادِيَ
وأسْتَافُ الصَّبَابة والْـ   ـهوى مِن نورك الهادِى !
عشقتُ الحسْنَ فيكَ وما   عَشِقْتُ الحسْنَ فى غيْرِكْ !!
فهيَّا قم بنا نشـدو   مع الأطيار فى الوادى !

* * *

عبـدْتُ اللهَ فى محرَا   بِ أشـواقي وأشجانِى !
وفيما شاهدَتْ عيْنِي   وفيما قال شيطانِى ! !
وفى الأطيار والأنهـا   ر والأزهار والعُشْبِ
وفى حِسِّى وفى رُوحِى   وفى نفسِى وفي قلبى !
وفى الحسْناء أبْصِرُها   فأهواهاَ وتهــوانى !!
وأنشدها من الأشما   ر مايوحيه لى حُبِّى !

* * *

حظي من الناس !

لى الله من مستهدف شفَّه السقم   فليس له روح يقوم بها جسم
مشت فى حياتى والشباب مصاحبى   هموم لها فى محو آثاره همُّ
حياة يعاف الهامدون صروفها   وينكر مسراها به الدم واللحم
لأجمل منها فى تجهمه البلى   وأحلى مذاقاً من لذاذتها السم
نصيبي من دنياى مالا أحبه   وحظى من أبنائها الكاشح الفدم
وحولى ممن يظهرون لى الرضا   قلوبٌ إذا هبت سخائمها سحم
محضت صحابي الأقربين مودتى   وباعد عنى كيد أعدائي السلم
فمالى أصلى الشدّ فى وحدتى وما   لقلبى تغشاه الكآبة والغم
ومالالى فى الغيب قدنذروا دمي   وجوههم تندى وأحقادهم تنمو
إذا لم يكن غير الرياء خليقة
فأجدى لهذا الكون من أهله العقم

* * *

ألا أيها الشاكى الذى ليس ينتهى   متى ينجلى عن فجر أيامك الوهم
طويت على يأس شبابك كله   ولو شئت لم تيأس ولم يرعك السقم
أتشقى بما قالوا و يؤذيك مالغوا   وتشفق من عدوانهم كلما هموا ؟
وتجزع إما نال منك معاشر   ضئال لهم فى كل مخزية سهم ؟
عزاءك إن ضاقت فؤادك غمة   فإن سمام البغى ترياقها الحلم
وصبرك للأعداء أنقى لكيدهم   وشكواك من ظلم اللئيم هى الظلم

(حمص)   رفيق فاخوري

وداعاً يا هوَى نفسِى   عرفْتُ الحبَّ والوَجْدَا !
ومَن تامَتْهُ غانيـةٌ   يرى فى غَيِّهِ رُشْدَا !
وداعاً ! قد وهبْتُ الحبَّ (م) آهـاتى وأنفاسي
وأوهامي وأحـلامي   وتفكيرى وإحْسَاسِى !
فدعنى ! ليس فى دُنْيا   ىَ ما يُرْجي وما يُهدا !
فلم يترك لِيَ المحبو   بُ ما أعطيه للنَّاسِ ! !

(اسكندرية)   محمود السيد شعبان



من أساطير الاغريق

غـــرام أورورا

للأستاذ دريني خشبة

رأته على رمال الهلسبنت [1] يرتع ويلعب ، فوقفت تملأ عينيها وقلبها بجماله ، ثم نظرت إليـه وهو يداعب البحر المضطرب ، ويتواثب فوق عبابه الزاخر ، فسحرها قوامه ، وفتنتها قسماته ، ونسيت أنها ربة الفجر الوردية الهيفاء ، وأن من ذُكران الآلهة من هو أكثر من هذا الشاب تيتون ـ بن بريام ملك طروادة ـ جمالاً وأشد فتنةً وأخلق بحب ربّة جميلةٍ لعوب مفتان ، مثل أورورا ... ولـكن ماذا يصنع أهل هذا العالم فى قلوبهم ، ولا سلطان لأحدهم على فؤاده ؟ يستوى فى ذلك الأرباب وغير الأرباب

لقد كان تيتون يتقلب بين الموج ، فتتقلب نفس أورورا فى جحيم من الهوى ، وتتلظى فى سعير من الحب ، وتنجذب نحو الفتى الجميل المفتول بكل ما فيها من نورانية وقداسة ... وكان يبرز من الماء ليستجم على الشاطئ الناعم الوادع ، فتكاد تجن به ، وتود لو ترشف قطرات الماء التى تنحدر على جسمانه ذى العضل وتتلألأ فى ثنايا شعره الأسود الفاحم

وطفقت توسوس لها نفسها المغرمة بالأمانى ! وتزخرف لها الأحلام ، فصممت أن تتكشف له ، وتتبرج على مقربة منه ، وتدل وتميس ، عسى أن تأسر لبه ، وتسبى قلبه ، فيسلس قياده ، وينخذل فؤاده ، دون مشقة أو عناء ... ولـكن تيتون أبى ، واستكبر قلبه أن يلين ؛ ولم يستطع ذلك الرمس الناصع الذائب فى ساقيها ، ولا هذا الورد المتفتح فى خديها ، ولا الأبالسة الراقصة فى عينيها وفوق ثدييها ، أن ترقق من عناده ، أو تنتصر على فؤاده ، أو تسكب فى نفسه صبابةً أو هوى

— إذن أنت ما تشتهى !

— أشتهى ماذا أيتها الغادة ؟ إذهبى فاعرضى مفاتنك الرخيصة على غيرى !

— ومن أنت حتى تكلم أورورا ربة الفجر هكذا ؟

— أورورا ؟ كيف ؟ مايدرينى ؟

— أجل ، أنا أورورا ... انظر

وأخذت ترف فى الهواء ، وتسبح فى السماء ، وتغوص فى الماء ، وتأتى من آيات الإعجاز مابهر تيتون

— الصفح إذن يا ربة ؟!

— لا صفح إلا أن تهب لى حبك ، وتُلقى بين يدى قلبك !

— وكيف ، وأنا بشري عاجز ، ولا ألبث أن أفنى فى بضع سنين ، وهذا أبى الضعيف الشيخ قد خطب لى حسناء من بنات الملوك ؟

— « أما أنك عاجز فلا ؛ وأما أنك لا تلبث أن تفنى فى بضع سنين فسأهبك الخلود ، وسيخلعه عليك زيوس سيد الأولمب فلا تموت أبداً ، بل تحيا كالآلهة إلى لا نهاية الأزل ؛ وأما أبوك الضعيف الشيخ فلا أحب إليه من أن يراك فى كل ما ذكرت ، ولا سيما إذا علم أنى سأكون لك من دون هذه الفتاة التى خطبها لك ، والتى لا تلبث أن يخط الشيب رأسها ، ويعصر الزمان عودها فتجف ، وتذوى ، وتحملها أنت كأثقل الأعباء إلى القبر ... حيث الدود والذباب ، والـكلاب والذئاب ... »

— ولـكن ... ألا تأذنين لى فى لقاء أبى ؟

— لن يكون هذا أبداً ...

— هذه قسوة يا ربة !

— ستفتنك هذه القسوة بعد قليل

(١) مياه الدردنيل

وانطلقت تداعبه وتلاعبه ، وتضاربه وتقالبه ، حتى زالت عنه وحشته ، فأنس إليها ، وأقبل بكل مشاعره عليها ، واتفقا على الرحيل من فورهما إلى أولب ، فانطلقا يطويان الرحب

***

— من هذا يا بُنيَّة ؟

— ... ؟ ...

— صيد جيل ، ومجازفة جديدة ؛ أليس كذلك ؟

— أجل يا أبى ، وليست مجازفات أبنائك أروع من مجازفاتك

— مجازفاتى أنا ؟ أية مجازفات يا أورورا ؟

— مجازفاتك الغرامية التى لا تحصى مع الغيد الرعابيب من عبادك

— أى غيد رعابيب يا أورورا ؟ جراءة بالغة !

— لعل الإله الأكبر ، سيد الأولب ، قد نسى ! على كل حال فسيدة الأولب حيرا العظيمة لا تنسى ... لقد شهدتك تلهو مع يو ، وتعبث مع لا تونا ، وتتساقى كؤوس الغرام مع يوروبا .. و ... و ...

— أسكتى ... إنك ابنة لا خير فيك ... وماذا تبتغين لهذا الشاب الغرانق الجيل يا أورورا ؟

— الخلود ... الخلود يا أبى ... ينبغى أن يعيش أبداً ... لن يموت ... لن يموت ... ألا تراه جيلاً يا أبتاه ؟ ألا تبهرك منه وسامته وقسامته ؟ ألا تنظر إليه كيف هو عبل قوى عبقرى سمهرى؟ لقد لقيته عند شاطيء الهلسبنت ، ورأيته يشق اليم فعلقه قلبى ، وهويته نفسى ... وكان الموج يلفه فى أعرافه ، ثم يسجد تحت قدميه كأنه يقبلها ، فلما خرج من الماء ، رأيت الدنيا كلها تحف به ، وتغازله وتناغيه ، فلم أر أن يفوز به غيري ، ولا أن يستأثر بجماله سواى ، وقد رضى أن يتبعنى إلى أولب ، فتفضل يا أبتاه وامنحه الخلود ، فالموت لمثل هذا الجمال قسوة هائلة ، وذبول هذا الحسن شيء مخيف جداً ... ينبغى أن يعيش إلى الأبد حبيبي تيتون ... أليس كذلك يا أبي ؟ أليس كذلك ؟ أليس خليقاً بالخلود كالآلهة ؟

وتقدم تيتون فسجد بين يدي سيد الأولب ، وتفضل رب الأرباب فمنحه الخلود ... وأسفاه ! ألا ليته ما فعل ... ألا ليته ما فعل ؟ !

قال زيوس وهو يحدث نفسه :

« إذهبي يا أورورا ، سأعذبك بهذا الحبيب ، وسأنتقم لكبريائى منك ، وسيكون تيتون عبئاً ثقيلا على قلبك ، وسيعيش إلى الأبد بجانبك كما اشتهيت ، وسأعلمك كيف تستبيحين أن تكلمى أباك كما فعلت ... فوعزتى وجلالى لأعذبنك بألف حبيب وحبيب ! »

***

وعاشت أورورا مع حبيبها تيتون أحسن عيش وأجمله ، واستمتعا بسنين كانت أشهى من الأحلام ، وأنجبا طفلهما اليافع الجميل ممنون (١) فكان لهما كالقبلة الحلوة فوق ثغر الحياة الباسم

ومرت الأيام ، وأورورا جميلة وردية كما هى ، لأنها ربة ، ولأن قوانين الزمان من قدم وحداثة لا تجوز على الآلهة لأنه لا أول لهم ولا انتهاء ؛ فأورورا جميلة دائماً ، ووردية أبداً لا ينى قلبها يخفق بالحب وينشده ، ويهيم بالجمال ويفتقده ، ونفسها عاشقة وامقة كذلك ، وإن أماني الغرام تجيش فى صدرها دواماً ، فهى إن خلت إلى حبيبها تيتون ألزمته فنوناً من العزل ، وضروباً من النجوى ، إذا صبر لها الشباب ، واحتملها الصبا ، فليس المشيب بصابر لشيء منها ، ولا محتمل القليل الأقل من تكاليفها ، ولا له جلد على أفانينها

— ما هذه الشعرة البيضاء التى بزغت فى سواد شعرك كما تبزغ نجمة الفجر فى أخريات الليل يا حبيبي ؟

— « أية شعرة بيضاء يا أورورا ؟ ربما كانت نذير المشيب ياحبيبتى !

— « المشيب ؟ ! كلمة غريبة لم أسمعها إلا منك ! ماذا تعنى ؟

— آه ! أنتم معشر الآلهة لا تعرفون المشيب ، أما نحن ، معشر البشر ، فسرعان مايذهب صبانا ، ويولى شبابنا ، فنشيخ ونهرم ، وتصبح لنا رؤوس مجللة بشعر أبيض يشبه إبر الشوك ، يقول الشعراء إنه نور قبيح يسمى بين أيدى الكهول ليشق لهم ظلام القبور ! !

— يا لهول ؟ إن هذا الضرب من خيال الشعراء يخيفنى !

(١) قتله أخيل فى حروب طروادة

— اطمئنى ! أنا باق إلى جانبك آخر الدهر . أليس قد وهبنى الخلود سيد الأولب ؟

— بلى ! ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

— هذه الشعرة البيضاء التى قال فيها شعراؤ كم ما قالوا ؟

— الشعرة البيضاء ؟ مالها هذه الشعرة البيضاء ؟ ليست شيئاً مادام سيد الأولب قد وهبنى الخلود ؛ إن الذى أفزع الشعراء من الشيب هو ما ينذر به من غروب شمس الحياة !

— ولكن الشعرة البيضاء تنذر بأكثر من هذا ؟

— آه ! قد فهمت ما يوسوس فى صدرك ؟ ألم أعد جميلا يا أورورا ؟

— بل أنت ما تزال جميلا يا حبيبي .

— إذن لا عليك من هذه الشعرة البيضاء .

***

وتمتعا سنوات أخريات ؛ ولكن الشعرة البيضاء أصبحت شعرات وشعرات ، حتى غلب نور المشيب حلك الشباب ؛ ولم تعد لطُرَّة تيتون المصفوفة تلك النضارة وهذه اللمعة ، وذلك السحر الذي كان يرف مع النسيم على جبينه المشرق الناصع فيثير الغرام فى قلوب العذارى ... بل حال لونها الأسود الفاحم ، ونبت فيها قتاد شائك تنفشه الرياح على جبين متغضن باسر ذى أسارير ، يبعث الرهبة فى أفئدة العفاريت :

— تيتون !

— نعم يا حبيبتى !

— لا ! لا ! لا تنادنى بهذا النداء .

— ولِمَهْ ؟

— لم يعد يصلح ... لقد اشتعل رأسك شيباً ، وتغضن جبينك ، وتَرَهّل خداك وبرزت عظامهما ، وغارت عيناك جداً وانطفأ فيهما بريق الشباب الغض ، والصبى الغريض . وعضلاتك لقد عصرتها السنون يا تيتون ! ويْ ! مالك تنحني هكذا ؟ هل ضاعت منك درة ثمينة ، فأنت تبحث عنها في أديم الأرض بعكازك هذا الغليظ ؟ آه ! بل ضاع منك شبابك أيها الشيخ الهرم فأنت تبحث عنه فى هذا الثرى !

— حسبك يا أورورا ... حسبك يا ربة !

— « لا ، أبداً ، ليس حسبي ، أغرب عني أيها المسخ الشائه ظل فى عقر الدار حتى أرتد إليك ! !

وانطلقت ربة الفجر الوردية غاضبة صاخبة ، وذهبت تطوى الفيافى وتهيم فى الرحب ، حتى كانت من غير قصد عند شاطيء الهسپنت ، حيث لقيت لأول مرة حبيبها الجميل الشاب تيتون ابن پريام ملك طروادة ، منذ نصف قرن من الزمان ! ! أواه تيتون ! ! يا للذكريات الحلوة التى تطيف بالقلب كما تطيف أطيب الأحلام بعيني نائم ! ! هنا ، على رمال ذلك الشاطىء الهادىء ، وبين طيات ذلك الموج الذى يبدو كأنه لم يتغير ، رأت أورورا الوردية تيتون البارع ، وشعره الأسود الفاحم يتهدل على جبينه الوضاح ، ثم لا يلبث أن يستوى حين تمر عليه أمشاط الأمواج . وهنا ... ثارت عاصفة الغرام القديم فى قلب ربة الفجر الوردية لأول مرة ، وشب لظى الحب ملء جوانحها ... وفوق هذه الرمال السافيات تكشفت أورورا لتيتون الفتى لتخلب لبه وتملك عليه قلبه ، ولكنها ما استطاعت إلى ذلك من سبيل ، حتى تقلبت تحت قدميه ، وتبرجت بين يديه ، فرضى ماعرضت عليه ، وانطلق معها إلى أولب ! فما لها اليوم غاضبة على تيتون ؟

مشت على شاطىء غرامها الأول فثارت فى فؤادها الذكريات وأرسلت عينيها تفتش بين طيات الموج الجياش عن تلك الصورة الحبيبة الرائعة ، التى تطفو هناك ... هناك فوق ذاك الشبح كحلم جميل ... صورة تيتون وهو يصطرع مع اليم فيصرعه ، ويغالب اللجة فينتصر عليها ... ثم جلست على صخرة مشرفة على البحر الممتلىء بالذكريات ... وطفقت تبكى !

لا ريب أنها عنفت نفسها على ماصنعت أمس مع تيتون ! ماذنبه ؟ ما جريرته ؟ بأى حق تنعى عليه شيبته ولا يد له فيها ؟ ولماذا تخزه بقوارص الكلم لأن جبينه تغضن وامتلأ بأسارير الكبر ؟ ولماذا تعيب عليه عينيه الغائرتين المنطفئتين ؟ ولم تذكره بشبابه وتهكم عليه فتقول له إنه يبحث عنه بعكازه فى التراب ؟

لا ريب أنها كانت قاسية ، ولا ريب أنها لامت نفسها ، لأن كل تلك الأفكار ترددت فى أعماقها ؛ وقد سألت روحها المتألمة ألف سؤال فلم تستطع أن تراها محقة فيما صنعت ...

***

وعادت أورورا أدراجها إلى تيتون البائس الهرم فهشت له

وبشت ، وراحت تملق له ، وتتحايل على قلبها ترجو لو تستطيع أن تخدعه فيسيغ هذه الكومة المتراكمة من القبح والشَّوه والدمامة ؛ قبعت في ركن سحيق تجمل أوضار السنين وتنوء بكارثات الليالي

ولبثت تتغفل نفسها بضع سنين ؛ ولكن للآلهة[1] كما للبشر قوة محدودة من الاحتمال ، ومدى غير واسع من الصبر ؛ وقد جاهدت أورورا نفسها مجاهدة طويلة شاقة ، عادت بعدها إلى التبرم بتيتون ، والضيق بشيخوخته الثقيلة ، والنقمة على تلك اللحظة الأسيفة التي لقيته فيها ، ونوبة الجنون التي جعلتها تتورط لدى سيد الأولمب فتسأله أن يهب حبيبها نعمة الخلود.

— وفيم كل هذا الحزن يا أختاه ؟

— وما العمل للخلاص منه ؟

— أنت المخطئة ، ذلك لا ريب فيه

— مخطئة ! وكيف ؟ هل كنت عامدة أن أقصد إلى الهلسبنت لأراه ثمة ؟

— أبداً وليس هذا ما عنيت

— إذن كيف كنت مخطئة ؟

لأنك سألت سيد الأولمب أن يهب حبيبك الخلود ، ونسيت أن تسأليه أن يديم له شبابه ، ويحفظ عليه صباه . إذن كنت تمتعت بجماله الفتان أبد الحياة !! أليس كذلك يا أورورا ؟

— بلى ، هو ذاك ولكن ... لقد سبق السيف العذل !

— على كل حال هناك من هو أجمل من تيتون فلا تبتئسي

— أجمل من تيتون ؟ وكيف الخلاص من تيتون قبل كل شيء ؟

— « لا أيسر من ذلك ، إسحريه !

— أسحره ؟ ! آه ، أسحره ؟ فكرة يا أختاه ! ولكن من هو هذا الشاب الوسيم الذي عنيت أنه أجمل من تيتون ؟

— وَيْ ! لا بد من صيد آخر قبل أن تطلق سراح الصيد القديم ؟!

— لا بد يا أختاه لا بد ؟

(١) ليذكر القارئ أن القصة من أساطير اليونان

— إذن فاذهبي إلى جبل هيماتوس حيث يرعى سيفالوس الجميل قطعانه !

— « ثم ... ؟

— ثم عودي فاسحري تيتون واخلصي منه !

— وماذا ترين أن أسحره إليه ؟

— إنه عجوز هرم يدب على عكاز ... ألا تسحرينه (نطّاطا[1]) ؟

— بلى ! فكرة أخرى نابغة يا أختاه !

* * *

ولقيت أورورا حبيبها الجديد سيفالوس الراعي فهويته وشغفته حبا ؛ أما تيتون فياويحه ، وياويح للعشاق من قلوب العذارى ! إنه مازال إلى اليوم يثب مع آلاف الجنادب في الحقول والغيطان[2] بعد إذ سحرته أورورا

دريني خشبة

(١) بالعربية (جندب)

(٢) السهل المطمئن الواسع من الأرض



مصاير تراث اسبانيا الفني

ماذا كان مصير ذخائر أسبانيا الفنية بعد عام من حرب أهلية طاحنة سحقت فى طريقها كل شئ ؟ لقد أثار مصير هذا التراث الفنى العظيم جزع الدوائر العلمية والفنية فى جميع أنحاء العالم ، وهو جزع من حقنا أن نشاطر فيه بنوع خاص ؛ ذلك أن بين هذا التراث آثارا وذخائر إسلامية عزيزة هي البقية الأخيرة من ذكريات الأندلس الاسلاميـة . وقد رأت حكومة الجمهورية الاسبانية إزاء هذا الجزع أن تدعو العلامة الأثري الانكليزى السير فردريك كنيون إلى إسبانيا ليتحقق بنفسه مما بذلته الحكومة من جهود عظيمة لصون هذا التراث ؛ فاستجاب السير كنيون إلى هـذه الدعوة وطاف أياماً بمدريد وبلنسية ، وعاين الأماكن التى نقلت إليها المخطوطات والصور والتحف الفنية ، ونشر نتائج تحقيقه في جريدة التيمس . وخلاصتها أن الحكومة الجمهورية قد استطاعت أن تنقذ معظم تراث أسبانيا الفنى ، وأن مجموعة قصر « برادو » التى ظن أنهـا أتلفت ، وهي من أعظم المجموعات الفنية قد نقلت على عجل إلى بلنسية ، وحفظت فى قلعتها المنيعة فى صناديق غير قابلة للحريق ؛ وحفظت مجموعة البسط والمنسوجات الملكية أيضاً فى أحد أبراج القلعة ، ومنها عدة من مجموعة الدوق ألبا الشهيرة . أما مجموعة الأسكوريال من الكتب والمخطوطات ، وهى التى تضم بينها المكتبة العربية الأندلسية ، فقد نقل منها نحو ألف مخطوط إلى بلنسية ؛ ونقل إليهـا أيضاً مجموعة كبيرة من نفائس المكتبة الوطنية ، وحفظت باقى الكتب والمخطوطات بمدريد فى مستودعات أمينة أحيطت بجميع الوسائل الممكنة للصيانة والانقاذ . ومن ذلك يتضح أن جميع محتويات مكتبة الأسكوريال الشهيرة ، ومنها المجموعة العربية الأندلسية التى تضم نحو ستة آلاف وخمسمائة مخطوط عربى قد أنقذت من ويلات الحرب ، وحفظت سليمة إلى اليوم ، وذلك بالطبع يثلج صدر كل عربى وكل مسلم

ولا زالت مجموعة كبيرة من الصور تحفظ بقصر « برادو » غير تلك التى نقلت إلى بلنسية وفيها كثير مما حمل من قصر الأسكوريال ؛ ونقلت مجموعة كبيرة من الذخائر المختلفة من صور وتحف خزفية وأثاث وتماثيل إلى أقبية المتحف الأثرى ، وإلى أقبية كنيسة سان فرنسيسكو ، وهى وإن لم تنظم وتصنف فان كل قطعة منها تحمل تعريفها

أما مجموعة الدوق ألبا الشهيرة فقـد أصابها بعض التلف ، وقد هدم قصر الدوق ألبا المسمى قصر « ليريا » ، ولـكن أنقذت معظم محتوياته ونقلت مجموعة الصور إلى بلنسية ، وكذلك الأوانى الذهبية والفضية ، والبسط الثمينة . أما المكتبة فقد أنقذت أيضاً ونقلت إلى دار البلدية ، وكذلك نقل إليها عدة من قطع الأثاث التى أمكن إنقاذها

وأما مجموعة طليطلة فليس يعرف مصـيرها ؛ وقد نقلت الحكومة بعضها مما كان فى الـكنيسة الكبرى قبل إخلائها ، ولـكنها تركت الباقى ومنها صور جريكو وإنجيل سان لويس الشهير وغيرها ، ولا يعرف ماذا أصاب هذه الذخائر بعد استيلاء الثوار عليها

صور بالفرنسية من الحياة المصرية الشعبية

من الآثار التى أخرجتها أخيراً بالفرنسية أقلام مصرية كتاب للسيدة قوت القلوب هانم الدمرداشية عنوانه « الحريم » Harem ، وقد أصدرته دار النشر الفرنسية « جايمار » ضمن المجموعة التي يشرف على إصدارها الـكاتب الـكبير بول موران ؛ ومهد له بول موران نفسه بمقدمة جميلة نوه فيها بمـا يحتويه الـكتاب من صور ساحرة تطبعها البساطة ، وتمثل فى ألوان

زاهية طرفاً من الحياة المصرية في المجتمعات الشعبية ؛ ويقول لنا بول موران فى خاتمة كلمته إن هذه الصور التى استخرجت من روائع مصر المضطرمة تبعث إلى النفس متاعاً وحرارة وتقترب منا ، وتلمح فيها من خلال النسمات الساحرة أن شمسها هى شمسنا : شمس البحر الأبيض المتوسط »

أما الصور التى يقدمها بول موران إلى قرائه فهى : شم النسيم . عقد الزواج . ليلة الحناء . ميلاد . طلاق . قهوة الهانم . ليلة من ليالى رمضان . العيد . ليلة فى القرافة . يوم الأضحى . العودة من الحج . سوق البطيخ . مقهى فى مصر القديمة . الذكر فى جامع سيدى المغربى . المدير فى القرية . . . وغيرها ؛ وهي صور مألوفة لنا نعرف جميعاً كيف تدور فى أوساطنا الشعبية ؛ ولكن الطريف هو أن هذه الصور تقدم إلينا بالفرنسية فى ألوان أخرى يرى فيها القارىء الغربى متاعاً خاصاً قد لاتسبغه عليها صورها الأصلية ؛ وتقدم إلينا المؤلفة هذه الصور المختارة من الحياة المصرية الشعبية بأسلوب بسيط ، ولكنه لاذع فى مواطن كثيرة ينم عن تمكنها من تفاصيل هذه الصور ، وتذوقها لروح هذه التقاليد الغريبة التى أخذت تختفى شيئاً فشيئاً من الحياة المصرية .

وإذا كان ثمة مايبعث إلى الأسف فهو أننا لم نوفق بعد إلى إخراج صور من حياتنا الشعبية باللغة العربية تنبو عن ذلك الابتذال الذى يقترن بتصويرها عادة ، وتنفث ذلك الروح اللاذع الذى يسبغه عليها الطابع الأجنبى

آراء جديدة فى التربية للكاتب ولز

عقد أخيراً فى انكلترا مؤتمر للتربية برياسة الكاتب الباحث الاجتماعى الشهير ه . ج . ولز ، بسط فيه آراءه في التربية ، وهى آراء طريفة خلاصتها أن المواد التى تدرس للنشء يمكن تقسيمها إلى قسمين : قسم يعمل لتكوين الذهن البشرى ، وقسم لتلقين المعارف . ويرى ولز أنه يجب أن يخصص للقسم الأول ثلاثة أرباع الوقت . ويحمل ولز على نظم التعليم الحاضرة ، وخصوصاً فى تعليم التاريخ والجغرافيا ، ويرى من السخف أن تحشد فى رؤوس التلاميذ أسماء الأنهار والجبال والمدن ، وقصص حب الملوك والملكات والمعارك الحربية السخيفة على النحو الذى تلق به . ومن رأيه أن تعليم التاريخ يجب أن يدور حول تاريخ النوع البشرى ، وما وفق اليه الذهن البشرى من الاختراعات العظيمة وتأثيراتها الاقتصادية والاجتماعية فى حياة المجتمع ؛ أما التاريخ القوى الذى يتخذ اليوم أداة لبث الدعايات المختلفة فيجب أن يكون قطعة من التاريخ العام . ومن العبث أن يحكم على الماضى لصالح الحاضر ، أو على الحاضر لصالح الماضي كما هو الشأن اليوم فى معظم الدراسات

ولآراء ولز فى تعليم التاريخ قيمة خاصة لأنه أستاذ هذه المادة وقد سبق أن عالجها فى فرص كثيرة ، وكتابه الشهير فى خلاصة تاريخ العالم يتأثر بهذا الاتجاه الجديد الذى يريد أن يسير فيه تعليم التاريخ

علم أوراق البردى

دارت فى مؤتمر أوراق البردى الدولى الذى عقد أخيراً فى اكسفورد مناقشة حول تعريف « علم البردى » (بابيرولوجى) فذكر العلامة السير كنيون أنه يشك فى وجود علم حقيق يمكن أن يطلق عليه هذا الاسم ، وأنه من الواجب أن نعترف بأنه لايوجد مثل هذا العلم ، أو أنه إذا وجد فهو علم محدود المدى . وعلم البردى هو العلم الذى يبحث فى جميع الكتابات التي تلقيناها على صفحات البردى ؛ والمبرر الوحيد لمعاملته كوحدة علمية خاصة هو أن النقوش التى تلقيناها تتعلق فى جميع الأحوال إما بزمن خاص أو موضوع خاص أو بهما معاً . ولقد تلقينا عن طريق البردى معلومات عن الانجيل والتوراة هى أقدم معلومات من نوعها؛ وقد ألقت ضياء على تاريخ الكتب المقدسة فى عصور مظلمة جداً ، وردت كثيراً من النصوص إلى أصولها ، وأثبتت أن الفساد لم يتطرق إلى النصوص أيام العصر البيزنطى فقط . كذلك تلقينا عن طريق البردى معلومات كثيرة عن الكتابات اليونانية ، وتلقينا عن طريقها معلومات نفيسة عن مصر الفرعونية خلال عصر يربى على ألف عام .

والسير كنيون هو أعظم العلماء الاخصائيين فى مباحث البردى ، وقد بدأ مباحثه فيها منذ نحو خمسين عاماً . ومؤتمر البردى المشار إليه هو الخامس من نوعه . وقد شهده مائة وخمسون عالماً من جميع الأنحاء .

من خطبة واصف غالى باشا الثانية فى عصبة الامم دفاعا عن فلسطين

« إنى أشترك من صميم فؤادي مع مندوب نروج فى الثناء على مهمة عصبة الأمم وعلى أعمال الدول المنتدبة فى مختلف البلدان الواقعة تحت الانتداب ، كما أنى أقدر الخدمات الجليلة التى يقدمها

الذكاء اليهودي للعالم فى جميع ميادين النشاط البشرى ، ولكنى لا أكتم أسفى لأن الخدم التى أداها العرب للحضارة عامة وللحضارة الأوربية بنوع خاص أهمل أمرها ولم ينوه بها التنويه الكافى »

« وأنا لا أريد أن أتوغل فى هذا البحث ولكنى أقول على سبيل التذكير إن أوربا فى القرون الوسطى لم تطلع على آثار اليونانيين إلا من التراجم العربية ، وإن الفلاسفة والشعراء العرب أثروا تأثيراً عظيما فى الفلسفة والشعر فى أوربا الجنوبية ، وإن تأثير الفروسية عند العرب فى أخلاق القرون الوسطى التي كانت جافية في أول الأمر ساعد على تهذيبها وتثقيفها وتجميلها »

استخدام اللغة العربية فى الإذاعة الدولية

من أخبار جنيف أن سكرتارية عصبة الأمم العامة ستدرس فى آخر الدورة كيفية استخدام اللغة العربية فى نشرات الاذاعة اللاسلكية التى تهم التعاون الفكرى ، وقد وافقت اللجنة بالاجماع على استخدام اللغة العربية ، على أن هناك حاجة للقول بأن الأموال المرصودة فى ميزانية السنة الحالية لا تساعد على نشرات الاذاعة اللاسلكية فى مدى كبير ، ولكن السكرتارية مصممة تصميما صادقاً على أن تبدأ فى تنفيذ القرار وستخصص مبلغاً لهذه الغاية . والبعض يأمل فى أن تعطى مصر إعانة مالية كبيرة للبدء فى الدعاية التامة .

والاذاعة باللغة العربية فرض أساسى على مصر لأنها أكبر وأغنى البلاد التى تتكلم هذه اللغة . ومع ذلك فمن العدل أن تشترك فى ذلك جميع البلدان التى يهمها الأمر بما تسمح به وسائلها المادية وواجب كذلك على البلدان الأوربية الكبيرة التى لها عدد كبير من الرعايا العرب ، كما أنه واجب على البلدان العربية الأخرى التى هى من أعضاء أو من غير أعضاء عصبة الأمم أن تساهم فى هذا العمل، فمسألة التعاون الفكرى متعلقة لا بالبلدان التى هى أعضاء في عصبة الامم ، بل بجميع البلدان

الى سيدى الأستاذ الزيات

أشكر لك رأيك فيما كتبت من مقالات عن فقيد الأدب العربى المرحوم مصطفى صادق الرافعى ، وأعتذر من عدم استطاعتى تقديم شىء لهذا العدد والعدد السابق ؛ وأنت أعلم بما علىّ من واجبات ثقال فى هذه الأيام تحول بينى وبين كثير مما أحب ، وأعد بأن أرسل الجزء التاسع من هذه المقالات للعدد الآتى ؛ وأرجو أن تتهيأ لى الظروف التى تعيننى على الاستمرار فى كتابة تاريخ الرافعى وفاء للرجل الذى وقف حياته للدفاع عن الاسلام والعربية ، فلما مات أوشك أن ينساه من المسلمين والعرب إلا قليل من أهل الوفاء . والسلام عليكم ورحمة الله ...

« شبرا » محمد سعيد العريان

وفاة الأستاذ كابيتان

توفى الأستاذ هنرى كابيتان العضو في المعهد الفرنسى والأستاذ فى كلية الحقوق بباريس ، والأستاذ كابيتان معروف لدى كثير من المصريين الذين تلقوا علومهم فى كلية الحقوق بباريس ، حيث كان الفقيد يدرس القانون المدنى منذ سنين طويلة . وقد توفى عن ٧٢ عاماً . وكان إلى جانب عضويته فى المعهد ، عضواً فى أكاديمية العلوم الأدبية والسياسية والمجلس الأعلى للمعارف ، كما كان يمثل فرنسا فى الهيئة الدولية لتوحيد القانون الخاص . وللفقيد مؤلفات قانونية كثيرة جلها خاص بالقانون المدنى ، وله فى « سبب الالتزام » نظرية معروفة .

وكان الأستاذ كابيتان رئيساً للجنة الامتحانات التى جاءت السنة الماضية لامتحان طلبة مدرسة الحقوق الفرنسية فى القاهرة وقد طلب من الأستاذ كابيتان حينذاك الاسراع بالعودة إلى باريس بسبب وفاة نجله .



رواية المصدور

تأليف الأستاذ كرم ملحم كرم

للسيد جورج سلستى

أطلّت القصة الحديثة على الأدب العربي مستحيرة الوضاءة مكتملة العناصر والتكوين، فهفت إليها الأبصار هفوها إلى الجمال المتألق الضاحى، وتعلقتها الأفكار تعلقها للجديد المستطرف الأخاذ، وتشرّبتها النفوس بلذة وشغف؛ ونفوس الأدباء أبداً ظمأى للخمرة العلوية يترع الفن بها أقداحهم فيعبّون منها ولا يرتوون

والقصة اليوم — وهي تتبوأ الذروة في الأدب — رسالة من رسالات الفكر النير يزفها هدى للناس فنان ملهم، ومشعل من مشاعل الثقافة الشاملة يحمله للورى عبقريٌ فذّ؛ رسالة تمشى بالناس نحو هدف من أهداف الانسانية الكبرى، ومشعل ينير لهم من خفايا نفوسهم ما يجهلون.

فلا غرو إذن — وللقصة هذا المقام الرفيع — إن رأينا أدباءنا يعالجون فنها الساحر على ضوء النظريات الحديثة، ويقدمونها للقراء نتاج ما وصلت إليه قرائحهم من قدرة على تفهم أسرار النفس البشرية الغامضة، واستطاعة على الابانة عن الشعور بالحق والحب والجمال.

والأستاذ كرم ملحم كرم استهوته القصة وهو أديب ناشئ طرير العود، وقد طلع على الناس بمجلته الروائية الأسبوعية « الف ليلة وليلة » وهو محرر في جريدة « الأحرار » فعرفنا به أول أديب فى قطر الشام وقف جهوده كلها فى سبيل الفن الروائى. وهو لا يزال منذ عشر سنوات خلت حتى اليوم يتحف الأدب بروايات شائقة جلها يمت إلى القصص العالى الرفيع، ولا سيما الموضوعة فقد بلغ الكثير منها فى الحوار والتحليل وسرد الوقائع شأواً بعيداً فى الجودة

و « المصدور » قصة إنسانية، وقائعها مستمدة من صميم الحياة، محورها الحب الشهيد وقطبها العاطفة المقهورة، تتلخص فى أن طالباً من أبناء الموسرين هام بحب قروية عذراء أهلها خدم فى أملاك أبيه فى ضواحى المدينة، وهامت هى به كذلك دون أن يأبها للهوة السحيقة التى تفصل بين مقاميهما. وعاهدها على الزواج مهما اعترضته العراقيل، وعاهدته على الوفاء حتى الموت

وهنا يبدأ النضال الشريف فى سبيل الحب الطاهر الوثيق بين القلبين الكبيرين، ومن هنا تبدأ الآلام النفسانية المرهقة التى لاتنتهى إلا بمأساة فاجعة

فأهل الحبيب المعمود لم يكادوا يدرون بما يتأجج فى فؤاده من هوى مبرّح لربيبة نعمتهم حتى ثارت ثائرتهم، وحتى راحوا ينهون فتاهم عن هذا الحب الأعمى الغرّار تارة باللطف والحسنى، وطوراً بالتهديد والوعيد، وحتى حالوا بينه وبين تردّده على أملاك أبيه فى « نهر الكلب » مسرح حبه ومرتع أمانيه

وأهل الفتاة الولهى ماعلموا بهوى ابنتهم لابن سيدهم ومولاهم حتى خشوا أن تحل بهم النكبات من جراء هذا الحب المتهور الطائش، ويطردهم أسيادهم من المزرعة التى صرفوا فيها سنى حياتهم الهانئة على مافيها من عناء ووصب، فزجروا الفتاة وعنفوها وزينوا لها حب أبناء القرى العفّ البرىء من المآثم، ونعوا عليها حب أبناء المدن المتقلب الأرعن الملىء بالجرائم، فما كانت لترعوى عن غيها فى رأيهم وضلالها

ورأى الأهل جميعاً أن يلجأوا إلى الحيلة والاكراه فأوهموا الفتاة أن ابن سيدها الذى تجرأت فرفعت إلى عليائه عينيها الخاطئتين قد تزوج ولم يعبأ بوعوده لها ولا بعهوده، وأرغموها على خطبة من لا ينبض بحبه فؤادها المولّه، فاسودت

فى نظرها الحياة ، وآثرت أن تترهب على أن تزف لغير الحبيب ففرت إلى الدير بعد أن وضعت بعض ثيابها على ضفة النهر فى يوم عاصف الأنواء لتوهم أهلها أنها انتحرت

وضللوا الفتى ، فقالوا له إن فتاته خطبت إلى فتى من بيئتها أليق بها منه وأنها ستتزوج فى العاجل بعد قليل ، وأنها سعيدة كل السعادة فى حبها الجديد لخطيبها الفلاح

وحتموا عليه أن يتزوج بالفتاة التى انتقوها له لينعم ، فرضخ لإرادتهم القاهرة وبنى بابنة بيت رفيع العماد ليشقى !

ولم يلبث أن عاف زوجته واجتوى منزله ، وراح ينفق ماله ويبذل شبابه بين الأقداح والغوانى لينسى حبه الشهيد البكر ، فهزل جسمه وانكفأ لونه من الإدمان فى الشراب والإسراف فى طلب الهوى الأثيم ؛ وما زال كذلك حتى عراه السقام ، وعشّش فى صدره السلّ الوبىء

فى مصح ظهر الباشق بلبنان التقى الحبيبان على غير ميعاد بعد طول البعاد لقاء مرًّا على حلاوته الظاهرة ، فتى ينفث رئتيه ، وراهبة نذرت نفسها لله تعتنى بالمرضى من عباده البائسين . فآسته بحنانها فى أيامه القلائل المعدودات ؛ وبين يديها الطاهرتين ، وعلى مرأى من الأبوين الجانيين ، فاضت روحه إلى باريها تشكو جور الآباء وجنايتهم على الأبناء

هذه هى القصة بظاهرها ، وهذا هو هيكلها ؛ أما روحها ، أما التحليل الدقيق لنفسيات أبطالها ، أما المواقف الغرامية العذرية ، وأما ما يتخللها من مفاجآت حادة عنيفة ولطيفة رفيقة معاً ، وأما السبك المتين والوصف الأنيق ، فهـذا ما ملأ به الأستاذ كرم مائتى صفحة تقرأها مندفعاً وأنت تودّ ألا تنتهى ؛ وهذا ما أودّ من القراء الكرام أن يستمتعوا بمطالعته مثلى ، وينعموا فى لذة قراءته كما نعمت ، فليس الخُبْر كالخَبَر ، ولا السماع كالنظر

***

قوام القصة اليوم المقدرة على سرد الحوادث فى حينها وعلى تحليل أبطالها تحليلاً نفسانياً متقناً وعلى الابانة عن هذين العنصرين الرئيسيين — السرد والتحليل — بالأسلوب الشائق الممتع ، واللغة الصحيحة الفصيحة من غير ركاكة ولا إسفاف

والأستاذ كرم لم تغب عنه هـذه الحقائق عند ما كتب « المصدور » فوضعها نصب عينيه فوُفّق بذلك إلى حدٍّ بعيد

وإن يكن من شىء آخذه عليه فى هذا الصَدد فهو صورة زوجة شفيق بطل القصة ؛ فقد جاءت مشوهة لا يرضى عنها الذوق الفنى .

فشفيق مال بعد زواجه القهرى إلى الدعارة والشراب يدفن فيهما إخفاقه وآلامه ، وهذه ثورة من ثورات النفس الجامحة ، ونزوة من نزوات اليأس القاتل التى تجتاح من كان مثل شفيق وفى حالته ، ولكن ما بال زوجته تنحدر إلى مثل هوته وهى التى لم ترغم على الزواج منه كما أرغم هو ؟ وما بالها تتمرغ فى مثل حمأته وقد بَنَت به بمطلق رضاها .

أما الأسلوب فى القصة فشائق جذاب ، ولغته متينة عالية وألفاظه عذبة منتقاة وليس فيها من الخطأ اللغوى إلا النزر اليسير وما كنا نرغب أن نتعرض لذكرها لولا ضننا بهذا السفر النفيس أن تعلق به أمثال هذه الهنات .

قال المؤلف: « حازت منها نظرة دميمة » وصوابها : دَمِعٌ أو دَمِعَةٌ يقال : امرأة دَمِعَةٌ ودَمِع بغير هاء إذا كانت غزيرة دمع العين ورجل دَميع .

« الحب البئيس » صوابها : البائس من بئس الرجل إذا نزل به عُدمٌ أو بلية يرم لها ؛ وأما البئيس فمن بؤس الرجل إذا اشتدت جرأته فان كان هذا مراده فلا غبار عليها .

« العيش المرير » صوابها : العيش المرّ .

« نواحها الفجيع » صوابها : الفجوع من صِيَغ المبالغة أى الكثير اللهفة والأسف أو فاجع اسم الفاعل .

« زوجها المجندل أمام الموقد » صوابها : المجدَّل بتشديد الدال ومعناها المصروع على الجدالة من جدّل الفارسُ قِرنَه أى رماه على الأرض الصُلْبة .

على أن أمثال هذه الهفوات اليسيرة لا تذهب برونق الكتاب ولا تنقص من قيمته . ويقيننا أن كرماً سيتداركها فى الطبعة التالية إن شاء الله .

جورج سلستى

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧ ﴾

5 me Année, No 222. — Lundi - 4 - 10 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العــدد ٢٢٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ رجب سنة ١٣٥٦ — ٤ أكتوبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العــدد

مقتضيات الحروب الحديثة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كانت الحرب فى الأزمنة القديمة لا تدور أرحاؤها إلا بين الجيوش : أى بين الجماعات المجمولة للقتال والمدربة عليه ولا عمل لها فى الحياة إلا هذا ؛ ومتى غلب جيش جيشاً وألحق به هزيمة تضعضعه وتمنع أن تكون له قدرة على الكر انتهى الأمر ووضعت الحرب أوزارها وسلم المغلوب للغالب بما تفرضه القوة الراجحة . ولكن الحال اختلفت فى عصرنا هذا وصارت الحرب صراعاً بين الأمم والشعوب لا بين الجيوش المحترفة وحدها ؛ وهذا بعض ما أفضى إليه التقدم الآلى فى النواحى المختلفة . فلم تعد الجيوش وحدها تكفى ، ولم يبق من الممكن الاجتزاء بها والتعويل عليها وحدها كما كان الحال فى العصور الغابرة ، بل صارت الحالة تدعو إلى اعداد الأمة كلها للحرب وتدريب كل فرد من أفرادها على فنونها وتهيئته لما تقتضيه حاجاتها ومطالبها ؛ وما نرى من عناية الدول المختلفة بأن ينشأ شبانها نشأة عسكرية من الصغر وتدريبهم على الحركات الحربية واستعمال أدوات القتال البرية والبحرية والجوية لتكون منهم للدولة ذخيرة تستمد منها وتعتمد عليها إذا وقعت الواقعة . وقد توسعت الدول فى هذا الاستعداد حتى

امتد الأمر إلى المرأة ، فالطالبات أيضاً لهن فرق يتعلمن هذه الحركات العسكرية ويحملن البنادق ويتدربن على تسديدها إلى الأهداف وعلى مشقات الحياة فى الخنادق فضلا عن واجبات التمريض والصناعات اللازمة للحرب مثل الذخيرة وما إلى ذلك ؛ وهو توسع فى الأهبة لا حيلة فيه ولا مفر منه إذا شاءت الأمة أن تأمن وتطمئن بعد أن صار من السهل أن يتخطى العدو الجيوش الراصدة له وأن يمطر القرى والمدن وابلاً من القنابل المخربة والغازات الفتاكة . وبعد أن أصبح كل شيء وكل مكان صالحاً لأن يكون غرضاً للعدو وميداناً للقتال

ولم يسع الأمم العربية والشرقية إلا أن تحتذى هذا المثال ، وإلا أن تنسج على ذلك المنوال . فى تركيا تتدرب الفتيات كما يتدرب الفتيان على أساليب الحرب وآلاتها بلا فرق . وفى العراق أدخل التعليم العسكرى فى المدارس الثانوية ، فكل طالب فيها يتلقى هذا التعليم كما يتلقى غيره من العلوم والمعارف الدينية فى الساحات المجعولة لذلك ؛ وقد سميت فرق الطلبة : « فرق الفتوة » . وكنا قد شرعنا فى مثل ذلك فى مصر ولكن على غير نهج مقرر أو خطة مرسومة معروفة الوسائل والغايات ؛ وذلك أن الجامعة رأت فى العام الماضى أن تعنى بالتربية الرياضية وألبست الطلبة أردية خاصة واستقدمت لتدريبهم رجالاً من رجال الجندية ، ورغبت فى تدريبهم على استعمال البنادق فاستأذنت أولى الأمر ، وقيل إنهم أذنوا ، ولكنا لم نر أثراً لهذا الإذن ، وكان ذلك ختام ما بدأته الجامعة

أما فى هذا العام فإن المرجو والمنتظر أن يكون هذا الأمر جدا ، أو هو ينبغي أن يكون كذلك . وقد طلبت البعثة العسكرية البريطانية التى جيء بها لتدريب الجيش المصرى إدخال التعليم العسكرى فى المدارس الثانوية وفى الجامعة على الأخص . ولا غرابة فى هذا الطلب أو الاقتراح ، فإن البعثة تدرك أدق إدراك مايقتضيه التطور الحديث فى الحرب ومطالبها ، فإن الجيوش لا تكفى ولا غناء لها — مهما بلغ من ضخامتها ووفاء عدتها ووفرة أسلحتها — ولا مهرب من أن تكون الأمة كلها جيشاً عند الحاجة بعد أن انتفى الفرق من حيث التعرض لحملات العدو بين الذين يكونون فى الصفوف الأولى من خطوط القتال والذين يكونون فى بيوتهم أو قراهم فى أقصى طرف من البلاد

ولا شك أن الحرب بلاء ونقمة ، وأن الرقى الآلى الحديث قد جعلها آفة ماحقة ، ولكن الرجاء فى السلامة من هذا البلاء لا يكون بالاكتفاء بالانحاء عليها ، وبسط اللسان فيها ، والقول بأنها شر مستطير وخراب شامل ؛ وإنما يكون الرجاء فى أخذ الأهبة ، واستيفاء العدة ؛ ولا سيما إذا كانت البلاد مكشوفة كبلادنا ومطموعاً فيها ومهددة بالغزو فى أية لحظة تستعر فيها نار الحرب كما نحن مهددون

على أن التدريب العسكري أو الرياضى — إذا آثرت هذا اللفظ الذى لا يزعج — حسن فى ذاته ومحمود ، بغض النظر عن الأغراض الحربية ؛ ويكفى أنه يقوم الأجسام ، ويصلح الأبدان ، ويهذب النفس ويقويها ، ويجعل المرء على العموم أكفأ وأقدر على القيام بفرائضها والاضطلاع بتكاليفها

على أنا أمة مهددة بأن تصبح بلادها أوسع ميادين الحرب وأهولها إذا شاءت المقادير أن تشب نارها بين دول الغرب ، فلا حاجة بنا إلى قول شيء فى فضل التربية الرياضية ومزيتها وقيمتها فقد صار الأمر لامعدى عنه بحكم الظروف والأحوال لا بالاختيار والرأى والهوى . وهذه الأحوال تقضى علينا بأن نختار أحد أمرين : الأول أن نوطن أنفسنا على أن تأكلنا أول دولة تطمع فينا وتتاح لها فرصة العدوان علينا ، فاذا آثرنا هذا المصير الزرى فليس علينا حينئذ إلا أن نقعد منتظرين من يجيء ليستولى علينا ؛ والثانى نوطن أنفسنا على الذود الواجب عن حقيقتنا والدفاع عن حريتنا واستقلالنا ورد كل عدوان عليهما ، فاذا كان هذا هكذا فالأمر بين ، وعلينا إذن أن نعد العدة لهذا الدفاع وأن نتخذ له كل أهبة يفرضها التطور الحديث فى الحرب ووسائلها وأساليبها وآلاتها ؛ ولابد حينئذ من تهيئة الأمة لمطالب هذه الحرب المخوفة على نحو يكفل للدولة الانتفاع التام بقوى الرجال والنساء فيها جميعا ، فللنساء مايستطعن أن يحسن من الأعمال ، ولا خفاء بهذه فانها معروفة ، وعلى الرجال أن يكون كل واحد منهم مستعداً لحمل السلاح والسير إلى حيث تحتاج إليه الدولة لعمل من أعمال الدفاع القوى ؛ ولا يتسنى هذا إلا إذا دربنا الفتيان من الآن فى المدارس والجامعة على إتقان ما عسى أن يطالبوا به إذا دعاهم داعى الوطن

وقد يتوهم البعض أن هذه الدعوة التى أرسلها لا تخلو من إسراف وشطط ومبالغة في تصور الأخطار وتجسيمها والتهويل بها ، ولكني أعتقد أن الأمر على خلاف ذلك وأن الحال على نقيضه

الفيلسوف الحاكم

للأستاذ عباس محمود العقاد

شهدنا بعد الحرب عجباً من عجب السياسة والرآسة لم يشهده جيل واحد من تاريخ بنى الإنسان

شهدنا موسيقاراً على رأس دولة ، وفيلسوفاً على رأس دولة أخرى ، وهو قبل ذلك ابن حوذى وتلميذ حداد ، ونقاشين وأفاقين على رءوس دول أخرى يجلسون على عروش القياصرة والخواقين ، ويسوسون شعوباً كبيرة بلغ بعضها الذروة من الحضارة والنظام

أحب هؤلاء جميعاً وأولاهم بعطف النفس الانسانية فيما نظن هو الفيلسوف الحاكم « مازاريك » الذى قام على جمهورية التشك والسلواق بعد الحرب العظمى ، وقضى نحبه في الشهر الغابر وهو فى السابعة والثمانين

قرأت له قبل أن أسمع الشيء الكثير عن سيرته فى الجهاد الوطنى وعن مساعيه فى السياسة الدولية : قرأت له كتابه الحافل عن « روح الروسيا » فاكبرت منه اطلاعاً واسعاً يخيل إليك أن صاحبه لن يفرغ معه لعمل من الأعمال الجسام . وخلاصة ما يقال فى الكتاب أنه لم يدع فيلسوفاً واحداً من الأقدمين أو المحدثين الا ألم برأيه وتعقب الصلات الفكرية والاجتماعية بينه وبين عقول الدعاة البارزين من فحول الروسيين

ووقعت لى بعد هذا الكتاب شذور من تواليفه الكثيرة يكفى لبيان نطاقها الواسع وموضوعاتها المختلفة أنها تناولت التنويم المغناطيسى كما تناولت فلسفة باسكال وهيوم ، وتناولت أدب الصقالبة كما تناولت الثورة العالمية ، وصدرت فى ذلك كله عن صدر رحب برىء من العصبية والضغينة وعن ذهن شامل مفتح المنافذ على شتى الأنحاء

فى تاريخ هـذا الرجل عبر لا تنتهى لمن شاء أن يتأمل فى أخلاق الناس وفى موازين العدل والانصاف بين الأمم ، وفى ضعف الانسان ولو كان من الحكماء وكان من الحاكمين

كنت أقرأ الثناء عليه وأقرأ الزراية على « روجر كازمنت » الشهيد الإرلندي فى وقت واحد

وكنت أقرأ الثناء والإزراء على عمل واحد فى وقت واحد وصحافة واحدة ، فأعجب للمقول وأعجب للأهواء ، وأعجب لمن خطر لهم أن يقولوا مرة من المرات ولو من قبيل التجوز والمزاح : كل شىء بالعقل فى هذه الدنيا ! ! وما فى هذه الدنيا شىء إلا وللعقل فيه حيرة ، وللضلال فيه جانب مقرون بجانب الهداية

هرب مازاريك من بلاده واتفق مع الحلفاء على تأليف جيش من أبناء وطنه الأسرى والمبعدين ، ونجح فكان من الأبطال وأقام فى قصور هابسبرج ، ومات بين التعظيم والمحبة والإطراء

وصنع « روجر كازمنت » ، ما صنع مازاريك فهرب من بلاده واتفق مع الألمان على تأليف جيش من أبناء وطنه الأسرى والمبعدين ، وفشل فكان من الخونة المجرمين ، وسيق إلى القبر وهو ينظر إلى الشمس السافرة ويهتف : ما أجمل هـذا الصباح ! ولكنه كان صباحه الأخير

والصحف البريطانية يومذاك تذكر هذا وتذكر ذاك ، فأما مازاريك فبطل كريم ، وأما كازمنت فخائن أثيم . ويتبع ذلك مايتبع الإخفاق والخزى من فرية المفترى ، وأكذوبة الكاذب ، واجتراء اللئيم

* * *

وأعني بذلك أننا أسرفنا فى الاطمئنان وبالغنا فى الاخلاد إلى دواعى الأمن والثقة والاستراحة إلى انتفاء المخاوف ؛ وقد آن لنا جداً أن ندير عيوننا فيما حولنا ، وأن نتدبر دلالة مانرى ، وأن نمد بصرنا إلى أبعد من يومنا الحاضر . والمثل يقول : « من مأمنه يؤتى الحذر » فكيف بالذى لا يحذر شيئاً ، ولا يتقى أمراً ؟ وهب أنه لا مطمع فينا فان خلو بلادنا من وسائل الدفاع الكافى ، وضآلة عدتنا يغريان بنا الطامعين . وما زال الضعف إغراء كافياً للقوى بالوثب . ولنحن غير أهل للاستقلال إذا لم نحسن الحرص عليه والضن به ولم نعد العدة لطول الذود عنه والكفاح دونه . وقد يجىء زمن تبطل فيه الحروب وتعيش فيه الأمم إخواناً متآزرين متعاونين ؛ غير أنه إلى أن يجيء هذا الوقت السعيد لا يسع أمة تعرف لحقها فى الحياة قيمته وتدرك ما تقتضيه المحافظة عليه إلا أن تستعد للحرب دونه . وعسير جداً أن تحيا أمة عزلاء فى أمان من المخاوف بين أمم مدججة شاكية فى البر والبحر والهواء

ابراهيم عبد القادر المازنى

كان مازاريك في صباه عوناً للمستضعفين ولو كانوا مبغضين منبوذين ، وكان نصيراً للحق ولو كان الباطل أدنى منه إلى الشهرة والاعجاب . فدافع عن اليهود فى بلاد لايطاق فيها اسم أبناء إسرائيل ، وزيف الأسانيد الموروثة التى يفخر بها أبناء قومه ويعتدونها من تراث الوطن الحرام المصنون به على النقد والتشكيك ، فكان أبوه أول من صدق فيه تهمة القادحين وذهب إليه يستأديه بعض المال الذى قبضه من مصارف اليهود ، وكان الغلاة من دعاة الوطنية في بلاده أول من تبرأ منه وخاض فى عرضه حتى قال قائلهم : « إن عاراً على وطنه أن يكون بين نسائه امرأة حملت فى بطنها مازاريك »

ودارت الأيام دورتها فاذا بهذا العار هو عنوان وطنه ، وهو القائل باسمه والكاتب باسمه والوكيل الذى اجتمع وكلاء بلاده بعد الحرب العظمى يعلنون على الملأ الأوربى أن كل ماوقعه مازاريك فى دار الهجرة والاغتراب هو صك نافذ على البلاد تدين به وترعاه

* * *

وجرى حديث مستفيض بين الحاكم الفيلسوف وبين المؤرخ المشهور أميل لدفج استغرق أياماً ، وجمعه لدفج في كتاب جاوزت صفحاته ثلاثمائة صفحة ، واختار له عنواناً : « حامى الديمقراطية . أو مازاريك يتكلم » .

من قرأ هذا الكتاب سمع أفلاطون وأرسطو يتكلمان فى العصر الحديث ؛ غير أن الايمان بالديمقراطية فيه أكبر من إيمان صاحب المدينة الفاضلة وصاحب السياسة المدنية ، لأن الحاكم الفيلسوف لايعدل بالحرية الفردية نعمة من نعم الأرض ولا نعم السماء ؛ وينعى على كارل ماركس كما ينعي على موسوليني انهما يطويان الفرد فى الحكومة ، ويضحيان بالواحد على مذبح الجملة ؛ ويسأله لدفج أيهما أحق لديه بالتقديم والإيثار : السلطان أو الحرية ، وإرادة الحكومة أو إرادة الأفراد ؟ فيقول : « ليس فى وسعى أن أعتقد أن ضمير الفرد مطوى فى ضمير اجتماعى واحد . إذ ليس فى الدنيا من شىء محقق غير الضمائر الفردية . وليس أمام السياسة إلا أفراد اجتمعوا على هذا النحو ليتألف منهم مجتمع واحد يكون على ضروب شتى ومنها الفاشية . أما أنا — وأنا من الفرديين — فليس يسمنى أن أسيغ فكرة الادماج أو إلغاء الأفراد ، وأن تكون الحكومة أو الأمة أو الشعب ممثلة فى شخص واحد . ولا أنسى أن هناك علماء اجتماعيين ودعاة سياسيين يقبلون مايسمونه ضمير المجتمع وينكرون ضمائر الأفراد متفرقين ، ولكنها فكرة لا يقرها العلم ، ومصدرها النزعة الأرستقراطية فى السياسة ... »

* * *

وودت لو أن « مازاريك » حين مات كنت محتفظاً له بتلك الصورة التى تناسقت وتلاحقت من جهاد الشباب ومن ثورته فى الكهولة ، ومن بحوثه ومصنفاته ، ومن رسالة الديمقراطية التى قام بها على سرير الدولة كما قام بها من قبل على منصة التعليم وعلى منبر الدعاية

ولكن الفيلسوف الذى يستبق فى الحكم صورة أفلاطون أو صورة « السياسة الغدرية » إن هو إلا أسطورة من أساطير الخيال ، نتوهمها بالنظر ونترسمها بالأمل ، ولا نلمحها بعين الواقع ولو أغضينا عن كثير

قبل أن يقضى الموت قضاءه فى الحاكم الحكيم بأشهر معدودات وقع لى كتاب عن أوربا الوسطى للكاتب الانجليزي هنرى بوتسى أسماه « اليد السوداء على أوربا » أحصى فيه مظالم الشعوب الصغيرة التى ضمتها معاهدة فرساى إلى حكومات لاتحبهم ولا يحبونها ، ومنها شعب السلواق المضمومين إلى حكومة « مازاريك » رسول الديمقراطية ونصير كل شعب مظلوم أيام كان الظلم نازلا بتلك الشعوب من آل هابسبرج !

وكان مازاريك قد عاقد وكلاء السلواق المقيمين بالولايات المتحدة في السادس والعشرين من شهر مايو سنة ١٩١٥ أن تكون حكومتهم مستقلة فى داخل الدولة على مثال الولايات المتحدة الأميركية ، وأن يكون لهم مجلسهم النيابي ، ومحاكمهم التى يضعون لها شرائعها ، ولغتهم فى التعليم والادارة والحياة العامة

فلما جاء يوم الانجاز وقامت الدولة التى مهد لها أولئك الوكلاء إذا بأرضهم مستعمرة مملوكة ، وإذا بهم أتباع مسخرون ، وإذا بالعقد المبرم قصاصة مهملة ، وإذا بالحاكم الحكيم يتحلل من عقده فيلجأ إلى حيلة لم يلجأ إليها عاهل من عواهل هابسبرج ولامتحذلق عندنا من صناع الفتاوي وطلاب الحيل الشرعية ، فيقول لوكلاء الشعب المهضوم إن العقد إنما أبرم فى يوم بطالة رسمية عند الأمة الأميركية ، وذلك فى شرع البلاد التى أبرم فيها مبطل لشروطه ناقض لفحواه !

ويلى ذلك قصة ألمية من قصص المظالم والدعايات الكاذبة ،

بحث فيها الأصوات وذهبت فيها صرخات المغلوبين على آذان عصبة الأمم كما تذهب زمجرة البحر الصاخب بين أجواز الفضاء

* * *

سيرة الرجل عبرة لا تنقضى ودروس لا تنفد . أولها : أن الفيلسوف لن يسلم من لوثة الحكم والسياسة ولو أضمر الخير وأسلف الجهاد الطويل فى قضايا المظالم والشكايا

وثانيها : أن الديمقراطية لا تسلم فى وطن تختلف أجناسه ولغاته وأديانه وطبقات الحضارة فيه إلا على أساس « الولايات المتحدة » التى يستقل فيها كل فريق بالحكم والتشريع

وثالثها : أن أوربا الوسطى لا تزال كما كانت قبل الحرب العظمى غيلاً تصطرع فيه ضوارى الأحقاد ويوشك أن يندفع بالعالم مرة أخرى إلى حرب لا تؤمن لها عاقبة

وإننا على ما انتاب الديمقراطية من خيبة ، وما تعاورها من نقض وتقويض ، لا نزال على إيمان وثيق بها أنها هى كهف السلام ومعقل بنى الانسان ، ومآل الحكم فى المستقبل البعيد إن لم يعجل لها النصر فى مستقبل قريب

فالدول الديمقراطية لا تبغي الحرب كما تبغيها الدول الدكتاتورية ، وبريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة لا يخشى منها على سلام العالم كما يخشى من إيطاليا وألمانيا واليابان والجمهوريات الروسية

ولقد يقال إن بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة إنما تسالم الدول الأخريات لأنها شبعت من المستعمرات فلا حاجة بها إلى المشاكسة ولا إلى اقتحام المشكلات ، لكنه اعتراض وجيه فى ظاهره غير وجيه فى لبابه . إذ أن المسالمة والاكتفاء شأن جميع الدول الديمقراطية ولو لم تكن لها مستعمرات ولا أسواق مملوكة فى بلاد المستضعفين ؛ وهذه الدنمرك والسويد والنرويج وسويسرة لا تملك أرضاً وهى من اليسر والرواج فى حال يحسدها عليه المالكون ؛ وربما خلت من الجند والسلاح فليس بها إلا قليل من الشرطة وما يحتاجون إليه من أداة

إنما الحقيقة أن الدكتاتورية والحرب قرينتان لا يفترقان ، لأن الدكتاتورية لا تقوم إلا على عسكرية ، والعسكرية لا تستقر طويلا بغير قتال ، ولا أمان للعالم كله إلا باتجاه سريع إلى الديمقراطية يقصيه من زبانية الاستبداد سواء كانوا من أهل اليمين أو من أهل الشمال

عباس محمود العقاد

الفنادق والمقاهي التاريخية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كما أن الآثار والأطلال والذكريات الباقية تستمد جلالها من الحوادث والمناسبات التاريخية التى ارتبطت بقيامها ، فكذلك تستمد جلالها من الزمن ؛ وقد يكون الزمن كل شيء فيما تتشح به الأطلال الدوارس أحياناً من روعة الخلود ؛ وأقدم الهياكل والآثار هي بلا ريب أعرقها من هذه الناحية ؛ فالقديم مهما كانت ضآلته من الناحية التاريخية أو الفنية يبعث إلى النفس أثراً خاصا ويحملها إلى تلك العصور الذاهبة الذى يرجع إليها ويرتبط بها

فما بالك إذا كان هذا الأثر أو الصرح القديم لا يزال كسابق عهده يقوم بمهمته التى أنشئ لها منذ الأحقاب المتعاقبة ، ويمتلئ حياة وبهجة ، ويساير العصر ، ويربط الحاضر بالماضى بأوثق الصلات ؟

لسنا نريد أن نحدثك فى هذا المقال عن معاهد أو آثار تاريخية من هياكل أو صروح أو معاهد أو غيرها مما اصطلح على اعتباره آثاراً تاريخية تمتاز بقيمتها الفنية وبالمناسبات العظيمة التى أنشئت من أجلها ؛ ولكنا نريد أن نحدثك عن نوع آخر من هذه المنشآت التى قامت دون مناسبة تاريخية خاصة لتقوم بمهمة من مهام الحياة العادية ، ثم استطاعت أن تغالب صروف الزمن ، وأن تحمل رسالتها المتواضعة خلال أحقاب وأحقاب ، وأن تبقى إلى اليوم قائمة بنفس مهمتها ، وأن تكتسب بذلك جلال القديم وروعته

نريد بذلك الفنادق والمقاهى التاريخية

إنه لمن الشائق حقا أن تنزل فى فندق ما ، أو تجلس فى مقهى أو مطعم ما ، فيقال لك إن هذا الفندق أو المطعم أو المقهى يرجع قيامه إلى أربعة قرون أو خمسة ، وإنه لا يزال كما نشأ باسمه وأوضاعه القائمة لم يتغير منه شيء إلا ما اقتضاه الزمن من أعمال الصيانة ، وإن كثيراً من الشخصيات التاريخية العظيمة قد مرت به قبلك ، ونزلت حيث تنزل أو جلست حيث تجلس . إن فى ذلك ما يذكى الخيال ويبعث إلى النفس جلالا خاصا هو جلال هذه الأحقاب الطويلة التى مرت بهذه النشأة المتواضعة ، وجلال تلك

الشخصيات التاريخية العظيمة التى ما زالت ذكرياتها وأشباحها تطوف بالمكان وتسبغ عليه من روعتها ما لم يسبغه التاريخ

ولقد آنست هذه المشاعر فى كثير من المنشآت الاجتماعية التاريخية التى أتيحت لي زيارتها خلال تجوالى فى العواصم الأوربية وآنستها هذا العام بنوع خاص خلال رحلة قمت بها فى بلاد التيرول النمسوية : فذكرت أننا فى مصر لا نعرف اليوم أمثال هذه المنشآت ، ليس فقط لأن أحداث الزمن لم تبق منها على شيء ، بل لأننا أيضاً فقدنا فى عصور الانحطاط خلة الاستمرار ، فلا نعرف فى مصر منشأة تجارية أو اجتماعية أو فندقاً أو مقهى أو غيرها من المنشآت المماثلة تخطت قرناً محافظة على قديمها ، متصلة بحديثها ، وهو ما يعتبر من الأمور العادية فى العواصم الأوربية حيث يرجع كثير من هذه المنشآت إلى أحقاب وقرون . ولقد عرفنا هذه المنشآت فى العصور الوسطى ، فكان للقاهرة فنادق ومقاهٍ ، تخطت دولا وعصوراً وهى تقوم بمهمتها الاجتماعية ؛ وإنه ليحضرني الآن منها مثلٌ هو فندق مسرور أو خان «مسرور» الذي يحدثنا عنه المقريزى فى غير موضع ، والذى لبث عصوراً مهبط الواردين إلى القاهرة من كل صوب يتناقل السياح اسمه فى جميع الأقطار الاسلامية ، والذى تذكره قصص ألف ليلة وليلة فى مواضع مختلفة ترجع إلى عصور مختلفة كأنه علم على القاهرة ، وكانت القاهرة أيام السلاطين تموج بأمثال هذه المنشآت المعمرة من ربط وفنادق وخانات ووكالات شهيرة دثر معظمها أيام العصر التركى . وفى خطط المقريزى بيانات شائقة عن هذه المنشآت التى لعبت مدى عصور دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية المصرية .

أما اليوم فان القاهرة التى تغص بالآثار والصروح التاريخية العامة لا تعرف شيئاً من هذه المنشآت الخاصة التى يسبغ عليها القديم جلاله ، والتى تساير الحياة الاجتماعية فى عصورها ومراحلها المتعاقبة

* * *

مما يلفت نظر السائح فى مدينة أنزبروك عاصمة التيرول فندق « النسر الذهبي » Goldene Adler ، وهو صرح متواضع يقوم على صف من الحنايا المعقودة على الطراز القوطي ؛ ولكن هذا الصرح المتواضع يقوم حيث هو ، ويؤدى نفس مهمته في إيواء السياح وإطعامهم منذ نحو خمسمائة عام ، وفى مدينة أنزبروك القديمة Alte Stadt التى تمتاز بدروبها الضيقة وأبنيتها القوطية العتيقة ، عدة من هذه الفنادق والمطاعم القديمة التى طوت أجيالاً عديدة من حياتها ؛ ولكن « النسر الذهبي » يمتاز عنها جميعاً بتاريخه المجيد ؛ فقد حفلت غرفه الضيقة وأبهاؤه المنخفضة التى لم يغير تعاقب الزمن شيئاً من أوضاعها بكثير من الملوك والعظماء فى مختلف العصور ؛ وقد وضعت على بابه لوحتان من الرخام نقشت عليهما أسماء هؤلاء الملوك والعظماء وتواريخ نزولهم فيه ؛ ولفت نظرنا بين هذا الثبت بنوع خاص اسم أمير تونس حيث نزل فى فندق النسر الذهبي مع حاشيته فى سنة ١٥٤٠م ، واسم يوهان فولفجانج فون جيته شاعر ألمانيا الأكبر حيث نزل فيه سنة ١٧٩٨م ، وأسماء عدة أخري من ملوك أوربا وأمرائها نزلوا فيه في القرن السادس عشر أو السابع عشر أو الثامن عشر ؛ وإن الانسان ليتلو هذا الثبت التاريخى الحافل متأثراً ، وهو يرجع بذهنه إلى تلك التواريخ والعصور البعيدة فيأخذه شعور من الإجلال والروع لهذا القديم التالد الذى ما زال يمتلئ حياة ورغبة فى مسايرة الزمن . ولقد كان مقام جيته فى فندق « النسر الذهبي » حادثاً ذا أهمية خاصة خلدت ذكراه إلى يومنا باقامة مطعم باسم جيته إلى جانب الفندق ما زال مقصد الواردين من كل صوب ، يجذبهم اسم الشاعر وذكراه قبل أن تجذبهم الأطعمة الشهية التى يتناولونها ، وروح الشاعر ترفرف عليهم

وتوجد بالمدينة أيضاً عدة منشآت أخرى من فنادق ومطاعم وأبهاء للنبيذ Weinstude يرجع معظمها إلى قرنين أو ثلاثة قرون ومنها بهو النبيذ الشهير « أوتوبرج » الذى يرجع قيامه إلى نحو قرنين ، ولا زال حيث هو يشرف على نهر « إن » ويقوم بنفس مهمته فى استقبال الآكلين والشاربين

وفى العاصمة النمسوية (ڤينا) جملة كبيرة من هذه الفنادق والمقاهى التاريخية التى قطعت قروناً من أعمارها ، وشهدت عصور الامبراطورية الزاهرة ، ولم تؤثر فى حياتها أحداث الزمن ، ولا زالت تقوم فى جنبات العاصمة النمسوية تسطع بالليل كأنها قطع من النور ؛ وهى تزهو جميعاً بماضيها كما تزهو بحاضرها . وقد يضيق بنا المقام إذا حاولنا هنا تعداد الأمثلة ، وربما أتيحت لنا بعد فرصة

أخرى للتحدث عن هذه المقاهى الشهيرة التى تلعب أكبر دور فى الحياة الاجتماعية النمسوية، ولكنا نذكر سبيل على التمثيل مثلين يلفتان النظر بحق : أولهما مطعم « لنده » Linde الشهير الذي يقوم حيث هو منذ أكثر من خمسمائة عام في شارع « البرج الأحمر » ، (روتنتوم) والذى شهد حصار الترك الأول للعاصمة النمسوية سنة ١٥٧٠ م ، واحتفل منذ حين بمرور خمسمائة عام على قيامه ، ومن الشائق أن ترى تاريخ إنشائه منقوشاً على ما يقدم إليك من آنية الطعام ، فيذكرك دائماً بعمره المديد وماضيه الحافل ؛ والثانى مثل « منزل الطرب » Lusthaus الشهير فى حى براتر ، وقد أنشىء في أوائل القرن السادس عشر ، ولا يزال يقوم حيث هو ؛ وهو اليوم مطعم ومرقص ، ولكنه كان من قبل منزل راحة ورياضة ملكيا ؛ وقد بدأ حياته الجديدة من نحو قرن وكان خلال القرن الماضي مسرحاً لعدة من الحوادث الاجتماعية الشهيرة ، وكان بالأخص منتدى محبوباً للأرشيدوق رودلف فون هبسبرج ابن الامبراطور فرانز يوسف وولى عهده ، يقصده مع صحبه لقضاء السهرات المرحة ، ولا زالت ذكريات هذا الأمير المنكود الذى زهق فى ريعان شبابه في ظروف غامضة ، ماثلة في هذا البهو الأنيق تطوف بزائريه ، وتذكرهم بالمأساة الشهيرة التى اقترنت بمصرعه فى يناير سنة ١٨٨٩ م

وفي معظم العواصم الأوربية نجد أمثال هذه المنشآت تذكر السائح المتجول بالمناسبات والعصور التى قامت فيها ، وتقدم إليه طائفة من الذكريات السابقة التى يلذ استعراضها وتأملها

* * *

وهــذه المنشآت الاجتماعية القديمة فضلا عن كونها تزين العواصم الجليلة ، تلعب فى الواقع دوراً عظيما فى الحياة الاجتماعية الخارجية ؛ وكثير منها يعتبر بحق نوعا من الآثار القيمة التى تجب المحافظة عليها لا من الوجهة الأثرية أو الفنية لأن معظمها يتطور ويتجدد من هذه الناحية مسايراً للعصر وللحياة ، ولكن حرصا على قديمها وعلى تراثها من الذكريات القديمة التى امتزجت بحياة المدينة وحياة الشعب . ولا زلنا نذكر بهذه المناسبة تلك الضجة التى قامت منذ أعوام فى الصحف الفرنسية بمناسبة هدم البناء القديم الذى كان يشغله الملهى الباريزى الشهير المسمى « بالطاحونة الحمراء » (مولان روج) عند ما أريد تجديد الشارع الذي يقوم فيه فقد ثارت الصحف يومئذ لهذا الإجراء وعز عليها أن يختفى هذا الملهى الشهير الذى امتزجت ذكرياته الساحرة بالحياة الباريزية الليلية حيناً من الدهر ، وأصبح من أشهر المنتديات الاجتماعية التى تجذب كل زائر لباريس

وفى معظم الأحيان تقترن أسماء هذه المنشآت الاجتماعية القديمة بأسماء كثير من الشخصيات التاريخية ، فنجد مقهى أو منتدى معيناً يؤمه كتاب العصر وشعراؤه ، وفى هذا المقهى يجتمعون ويتسامرون ، ويكتبون وينظمون ، وفيه تتفتح مواهب الكثير منهم ، وفيه يتألق نجم بعضهم وتسبغ أسماؤهم فيما بعد على المكان كثيراً من رنينها وشهرتها . فمثلا نجد اسم « المقهى الانكليزى » (كافيه أنجليه) الذى سطع فى باريس فى أواخر القرن الماضى يقترن بأسماء كثير من أعلام السياسة والتفكير والأدب فى هذه الفترة ، وفيه بزغ مجد الكثير منهم

والخلاصة أن الفنادق والمقاهى التاريخية تستحق أن تؤرخ كما تؤرخ الهياكل والصروح الأثرية ، وإذا كانت الهياكل والصروح العظيمة تجد دائماً من يتصدى لدراستها وتاريخها من النواحى الأثرية والفنية ، فان الفنادق والمقاهى تستحق أن تدرس من وجوه أخرى تمت بأكبر الصلات إلى تاريخ المجتمعات التى تقوم فيها ، وتاريخ الأخلاق والعادات الشعبية ، وهى وجوه لا تخفى أهميتها . ولقد قرأت منذ أعوام فى إحدى الصحف الفرنسية عدة مقالات شائقة لأحد مشاهير الكتاب « حياة مقهى باريزى عظيم » فأعجبت بطرافتها وتلاوتها ووددت لو أننا نستطيع أن نقدم إلى قرائنا مثل هذه الصور الاجتماعية الساحرة . ورحم الله مؤرخنا الكبير تقى الدين المقريزى إذ فطن منذ خمسة قرون إلى أهمية هذه النواحى الاجتماعية في حياة الأمصار العظيمة فأنفق أعواماً طويلة من حياته فى دراسة الأحياء والدروب والصروح والمعاهد والمنتديات الاجتماعية ، وقدم إلينا فى « خططه » مجموعة من الصور الاجتماعية والشعبية لمدينة القاهرة حتى عصره ولم ينس الفنادق والمقاهى التاريخية

(بادن فينا) فى منتصف سبتمبر — **محمد عبد الله عنان**

الأزهر وطريق إصلاحه

ربط حاضر الأمة بماضيها

للدكتور محمد البهى قرقر

ليست فكرة إصلاح هذا المعهد العظيم حديثة النشأة ؛ وليست كل محاولة لإصلاحه كانت ناجحة ؛ وليس كل من قام بأمر الاصلاح فيه كان موفقاً . ولا أريد هنا أن أسرد الأدوار التى مر بها الإصلاح ، وعدد الخطوات التى أخفق فيها المسعى ، والأخرى التى كان له فيها بعض النجاح ؛ إذ كل باحث فى أمره يوقن أن الخطوة الأولى التى كانت موفقة فيه هي التى خطاها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وأنه هو الذى يعتبر أول مصلح كانت له فكرة ، وبجانبها شخصية ذات إرادة مستقلة ، وبسببه حافظ الأزهر على حياته ، وإن كانت حياة الهرم الذى تعوزه زيارة الطبيب الحاذق من وقت إلى آخر . وبالرغم من وهن هذه الحياة كان ما قام به الإمام هو دور المصلح وداعية البطولة فى زمنه

استمر الأزهر بعد ذلك فى حياته التى يحس فيها بضعف ، تارة يشتد إذا لم يجد فى طبيبه صفة المهارة — وكثيراً ما كان ذلك — وطوراً يخف إذا واتاه القدر بمن يواسيه أكثر ممن يطببه . تغيرت فيه عدة مناهج واستبدلت نظم بأخرى باسم الإصلاح ؛ ومع ذلك لم يتم إصلاح أو لم يتكون أساسه ، لأن الإصلاح الذى يجب أن يكون ، وبعبارة أخرى الذى يحمل عليه قانون الوجود الحالى المبنى على تنازع البقاء وحياة الأصلح ليس علاجاً مؤقتاً وإنما هو إيجاد حياة من نوع آخر ، حياة فتوة لها قوة ممانعة ومقاومة وقوة كفاح وهجوم . ظل أمره كذلك حتى هيأ القدر له ؛ وشاء أن يكون تلميذ الإمام ، رجلا [1] من أولئك الذين لهم عقول مستقلة بعيدة المدى فى التفكير ، ولها قوة إرادة فى التنفيذ فى صمت ورزانة . فأول خطوة ضرورية رآها للإصلاح أنه عمل على إشعار الأمة بالأزهر وإتصال الأزهر بالأمة ، فحياته إذن يجب أن تكون من نوع حياة الأمة ، ومصر أمة ناشئة فتية

أيدت هذا العمل عقلية [2] أخرى من هذا الطراز — وعقول

(١) فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى (٢) دولة على ماهر باشا

الإصلاح دائماً متفقة متجانسة — ولكنها أشعرت الأمة هذه المرة بصورة أخرى هي أن لا غنى للأمة المصرية ولا للعالم الاسلامى عن الأزهر . ولكن كيف يؤدى رسالته الوطنية والعالمية فى القرن العشرين ؟

تنبهت الأذهان وعنى الكتاب والباحثون فى الشئون الاجتماعية والعلمية بهذا الموضوع ودونوا لهم آراء فى ذلك وآسف أنى لم أطلع عليها . وقد يجوز أن يكون هؤلاء قد عالجوا الموضوع من نواح عدة ، وأظهروا رغباتهم الاصلاحية لهذا المعهد التاريخى الكبير فى صور يرون فيها مهمته فى العصر الحديث . ربما يكون بعضهم قد تناول مثلا تحديده كمدرسة عالية لفئة خاصة من الأمة يجب عليها قبل الالتحاق بها إستيفاء شروط مخصوصة ودراسة إعدادية على نمط خاص أو غير ذلك من التنظيم والمناهج

ولا أريد أن أبحث الآن : كيف يكون الأزهر معهداً نظامياً كمعاهد الحكومة العالية ، لأنى لا أبغي أن يكون الأزهر على هذا النمط الآلى ، وإنما أريد أن أبحث : كيف يتحول الأزهر إلى جامعة علمية حديثة مع الاحتفاظ بصبغته الماضية التى خولت له أن يكون هو المدرسة الوطنية الوحيدة في مصر فى الوقت الحاضر بحكم اعتمادها على ثقافة الأمة الموروثة ، والتى منحته صفة روحية باعتبار أنه المكان الأول فى العالم الإسلامى للعناية بالدين ونشره ، ثم كيف يكون الطريق العملى لذلك ، إذ كثيراً ما كتب دعاة الاصلاح وكثيراً ما حاول القائمون بأمره أن يصلحوه ، ولكنها كانت كتابة يغلب عليها الخيال ، ومحاولة كان أساسها تقليد نظم مدارس أخرى : مدارس وزارة المعارف التى هى فى نفسها أيضاً بناء مرقع روعى فيه تقليد رسوم متباينة ؛ وهذه المحاولة كادت تخرجه عن الغرض الذى يجب أن يكون له الأزهر والذى كان له منذ قرون مضت

وغاية الأزهر (أولا) تهذيبية علمية وطنية ، لأنه يقوم بتربية جزء عظيم من أبناء الأمة وُبعدّه فوق ذلك لتولى عدة مصالح فى الشعب ، لايمكن تعويضه فيها ، لها قيمتها فى إصلاح [1] نواحيه الخلقية والاجتماعية ، وبالأخص في رعاية الأسرة التى هي الدعامة الأولى فى بناء الأمة . و (ثانياً) دينية عالية لأنه المرجع الأول لحل المسائل الدينية التى لها ارتباط وثيق بالشئون الاجتماعية

(١) التهذيب المدرسى ، التهذيب الشعبي بوساطة الوعظ ، ثم رعاية المحكمة الشرعية للأسرة ومحافظتها على كيانها

والاقتصادية لأمم العالم الاسلامي والتي يتوقف تقدم تلك الأمم أو تأخرها بنسبة كبيرة على فهم الروح الدينية (الفقهية) أو عدم فهمها لهذه المسائل الحيوية

ومن يفكر أو يحاول أن يحمل غيره على أن يعتقد أن غاية الأزهر روحية بالمعنى الكنسي، فمبعث تفكيره هذا التقليد السلبي الذى طغى على النواحي العقلية في مصر الحديثة، ومنشأ محاولته جهل أو تجاهل بالتاريخ أو سوء فهم للاسلام وللأزهر ولأثره فى تكوين النهضة الوطنية، أو هو نفسه لايقيس الوطنية إلا بمقياس العاطفة، وما كانت العاطفة فى يوم من الأيام إحدى الدعامات فى بناء راسخ!

ولكن الأزهر الآن يؤدى مهمته كما كان يؤديها فى الغابر من تلقين ما للماضى من ثقافة؛ وربما يُدَّعى أن هذا التلقين وحده لا يُعد الناشئة للكفاح في الحاضر ولا يقرب فهم المسائل الدينية والاجتماعية من ضوء الواقع الحالى، فذلك التلقين لايفى لهذا بالغاية من وجود الأزهر، لأنه أداء جزء من مهمة يجب أن يتصل به توآ أداء البقية وهى ربط الحاضر بالماضي. وهذا هو الطريق العملي، فيما أظن، لتحقيق غاية الأزهر التهذيبية والدينية

ربط الحاضر بالماضى ليس معناه ضم ثقافة أجنبية جديدة على حدة إلى ثقافة الماضى، وإضافة علوم حديثة مستقلة إلى ما كان للأمة فى الأزمان الغابرة، وإنما هو السير فى البحث العلمي على أثاث الثقافة الموروثة، ولكن فى ضوء مقتضيات العصر الحاضر. وهذا السير يتطلب التخصص فى العلوم المختلفة ولكن فى موضوعات الفن الواحد. فمثلا في الفقه يجب أن يكون هناك أساتذة فنيون فى موضوعاته مزودون بثقافة أخرى لها ارتباط وثيق بالموضوع المتخصص فيه. فيجب أن نرى أساتذة فى *الفقه الجنائى*، وهو يشمل على سبيل التقريب: الديات وفرض مبدأ التعويض المالى. التعزير بالحبس. القصاص. إعفاء الوالى من إقامة الحد إذا رأى المصلحة العامة في ذلك ... وأساتذة فى *الفقه المدنى والتجارى*، وهو يشمل على سبيل التقريب: عقود البيع، نظرية الربا وربط الفائدة. الرهن. الايجارة، الشفعة. عقود الشركات المختلفة. مبدأ الضمان والكفالة. الهبة. الوصية ... وأساتذة فى *فقه الاحوال الشخصية*، وهو يشمل على سبيل التقريب: عقد النكاح، حقوق الأسرة. النفقة، الارث، نظرية إثبات النسب والتبنى وعلاقة ذلك بالمجتمع وتكوين الأسرة. نظرية الحضانة الفردية وارتباطها [1] بنظرية قيام الدولة بالعناية بالأطفال إجبارياً لشقاق فى العائلة أو طروء جنون على أحد الزوجين أو ما شا كل ذلك ... وأساتذة فى *الفقه الادارى والسياسى*، وهو يشمل على سبيل التقريب: معاملة الأجانب ونظرية الأقلية فى اعتبارها هيئة منعزلة لها احترام عاداتها مالم تخل بنظام الأكثرية وعليها ضريبة (الجزية) للقيام برعايتها وحفظ مصالحها. مبدأ الجهاد. قوانين الأسر والعتق. مبدأ الشورى فى نظام الحكم الداخلي. مبدأ التفويض للوالى. الاستقلال فى السياسة الخارجية (نحو العدو مثلاً) وإعلان الحرب

وفى الفلسفة والأخلاق يجب أن يكون هناك أيضاً فنيون فى موضوعاتها المختلفة على هذا النمط، فإخصائيون فى *فلسفة الاسلام*، وتشمل على سبيل التقريب: محافظة الاسلام على وحدة الأمة والرغبة فى عدم تصدعها. نظرية الايمان بوحدة الخالق. تفضيل صلاة الجماعة. ضرورة الاجتماع كل أسبوع فى مكان واحد لا فرق بين غني وفقير ورفيع ووضيع لتجديد عهد الأخاء وهو الغرض من صلاة الجمعة. ضرورة اجتماع أغنياء مسلمي العالم فى أول مكان للدعوة الاسلامية كل عام لتذكر عهد النشأة والاستمرار فى التمسك بالعقيدة والعمل على نشرها، وهو الغرض من الحج. العمل على إشعار ذوي النفوذ المالى بوجوب العطف على الفقراء إبقاء لما لهم فى أيديهم وقمعاً لثورة نفسية بين الطبقات المعدمة ربما تتبعها ثورة أخرى اجتماعية (بلشفية) تقلب نظام الحكم فى الأمة وتنزع رؤوس الأموال من أيدى أصحابها.. وهو الغرض من الزكاة. واخصائيون فى *الفلسفة الاسلامية*، وتشمل على سبيل التقريب: لا حكاية ما قال ابن سينا وتبعية

(١) هو نظام حكومى فى ألمانيا وفى بعض بلدان أوربا يعرف هنا باسم «Soziale Fürsorge» وغايته وقاية الطفل فى الصغر من تأثر نفسه بالشقاق الحاصل فى العائلة أو من أى خلل آخر يطرأ فى بنائها ويكون من ورائه تحوير سلوكه الشخصى لشقائه هو أو شقاء المجتمع الذى هو فيه بسببه فهو تدبير حكومى للوقاية من أمراض اجتماعية

ابن رشد لأرسطوطاليس وأمثال ذلك مما ينقل فحسب ، وإنما قبل كل شيء بيان منزلة الفلسفة الإغريقية ، وهي الفلسفة الإلهية وعلاقتها بعلم «التوحيد» الاسلامى ، ثم مقدار نصيب الاسلام من هذا العلم . ثم بيان مساهمة العلماء الاسلاميين ومساهمة الثقافة الاسلامية فى خلق فلسفة إسلامية وتكييفها ... وإخصائيون فى *أخلاق الاسلام والأخلاق الاسلامية* : وتشمل على سبيل التقريب : المبادىء الخلقية التى جاء بها الاسلام . مقارنة ذلك بالنظريات الأخلاقية الاسلامية التى اشتغل بها علماء الاسلام والتى قد لا يمت[١] بعض مبادئها إليه بصلة إيجابية . مقارنة ذلك أيضاً بالنظريات الخلقية الحديثة . دراسة المبدأ الخلقي ونظرية اعتباره المطلق أو المقيد ...

وهذا التخصص ليس تبويباً جديداً أى صورياً فحسب ، وإنما هو أبحاث علمية مستقلة يجب على من يقوم بها دراسة ما يشبهها فى الثقافات الأخرى حتى يتكون مبدأ المقارنة والاستنتاج ، ثم يتبعه مبدأ التطبيق العملى ، وهما من عوامل التقدم فى البحث العلمى ، لأن حكاية ما قيل فقط لا يسمى بحثاً فضلا عن وصفه بالعلمى . فأستاذ الفقه الجنائى مثلاً يجب أن يدرس علم النفس الجنائى : Kriminal psychologie ، الذى هو مختص ببحث أنواع الإجرام النفسى ، ثم بحث التشريع الجنائى الحديث وكيفية بنائه على التجارب النفسية بوساطة هذا العلم . وأستاذ الفقه المدنى والتجارى عليه أن يلم بالنظم الاقتصادية الحديثة . وأستاذ الفقه السياسي ينبغى أن يلم بالتاريخ الاقتصادى والسياسي وبفلسفة[٢] الحرب وفلسفة مبدأ حكم الأقليات

وبواسطة هذا يتسنى لهؤلاء الأساتذة لا بيان مزايا الدين الإسلامى فحسب فى هذه الموضوعات مثلاً ، بل حمل الأمم الإسلامية على الاعتماد في تشريعها الحديث فى كل أنواعه على مبادىء الفقه الإسلامى ، ثم فى الوقت نفسه ردّ حملات العلماء الأجانب على الإسلام التى سببها الجهل أو الرغبة فى إبعاد المسلمين عن اتباع دينهم باسم « خدمة العلم » و « حرية البحث » حتى يدب فيهم ضعف الشقاق ، بين المصمم على اتباعه وبين الواهم فى التخلى عنه ، بين « الرجعى » و « المجدد » وبين « القديم » و « الحديث » . وما خدمة العلم هنا إلا الرغبة في السيادة واستمرار سيطرة « الحضارة الأوربية » على الشرق الإسلامى

وعلى هذا النمط فى التخصص يسير الأمر فى العلوم الأخرى . وبخاصة تجب مراعاة هذه القاعدة بدقة في قسم الوعظ والإرشاد . ففضلا عن أن تتبع فيه دراسة أساليب التبشير الحديث يلزم دراسة نفسيات الشعوب الاسلامية المختلفة وعاداتها ولغاتها . وبناء على هذه الدراسة الأخيرة ينشأ التخصص والتوزيع ، فيجعل : قسم للوعظ والارشاد للشعب المصرى : فالنوع العَمَلى منه : يتولى قبل كل شيء بحث نفسية المجرمين ونوع الاجرام الذى يرتكب بكثرة بمساعدة الاحصائيات الرسمية لذلك ، ثم دراسة أسلوب الوعظ الذى يمكن أن يؤثر فى مثل هذه النفسية ويحملها على الاقلاع أو التقليل من هذا الاجرام ...

والنوع الثقافى الآخر : يتولى الإعداد لتهذيب شعبى مبنى على البساطة ، وكيفية الخطابة فى المساجد ، وإعطاء دروس للشعب فيما هو فى حاجة إليه من الثقافة الخلقية والواجبات الفردية والجمعية

ويجعل قسم للوعظ والدعاية : لشعوب الشرق الأدنى

» » » : لسكان الشرق الأقصى والهند وجاوة

» » » : لشعوب البلقان

» » » : لسكان السودان والحبشة وجنوب أفريقيا

» » » : لسكان أمريكا الجنوبية

وفى كل قسم من هذه الأقسام تدرس فضلاً عن لغة الشعب ، القواعد الخلقية التى يسير عليها ، والمذهب الفقهى السائد فيه . وبناء على هذه الدراسة تحدد موضوعات الوعظ الدينى التى تجب دراستها فى كل قسم ، لأن الغاية من الوعظ هى حمل الشعب بطريق التأثير فى نفسه على اتباع قواعد خلقية معينة يقتضيها النظام العام لحفظ وحدة الأمة وبغية سعادتها . والغاية وإن كانت واحدة فإن الطرق إليها مختلفة لضرورة اختلاف النفسيات التى

(١) فبعض مبادىء الأخلاق التى توصف بالاسلامية وبالأخص الصوفية والتى عنى بها علماء القرن الرابع الهجرى هي مبادىء مدرسة الأسكندرية ، المدرسة الأفلاطونية الحديثة التي تأثرت بالأخلاق الدينية اليهودية ثم المسيحية

(٢) للأستاذ الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel فى هذا الموضوع نظريات فلسفية عظيمة الشأن ، هى أساس فلسفة هذا النوع فى أوربا على العموم

تخضع فى تكونها إلى الوراثة والتربية الأولى والمجتمع فيما بعد ، وهذه العوامل ليست متشابهة فى كل أمة

هذا فضلا عن أن دراسة نفسيات هذه الشعوب وثقافتهم هى فى نفسها دراسة إسلاميــة يرجى من ورائها تعارف الأمم الإسلامية وتزايد الرابطة بينها

وبهذه الأهمية أصبحت دراسة علم النفس التجريبي اليوم ، ومن خصائصــه وصف النفسيات المختلفــة للأفراد والأمم ، العامل الأول فى السيطرة على النفوس إما لغرض إصلاحها أو بغية استعمارها . ولم يعن الأوربيون بدراسة النفس الشرقية على ضوء التجارب والسلوك الشخصى وكذا بقية الأمم الضعيفة وإنشاء المعاهد [1] المختلفة لدرس ثقافاتهم وأديانهم ولغاتهم حباً أفلاطونيا فى العلم وغراماً خيالياً بالبحث ، وإنما عنوا بها رغبة فى السيطرة والإستعمار العسكرى أو التجارى

وإذا كان التخصص فى الموضوعات الفنيــة يحتاج إلى الاتصال بالأوساط العلمية الأخرى ، الأجنبية عن الأزهر ، فإن التخصص فى أقسام الوعظ أشد احتياجاً إلى الاتصــال بالشعوب الاسلامية المنتشرة فى بقاع الأرض ودراسة أحوالها النفسية والشعبية لبناء الوعظ على أساس متين تكون من ورائه الفائدة محققة ، وتتقوى بذلك رابطة مصر العلمية والأدبية بالأمم الإسلامية الأخرى ، وهى رابطة يجب أن تحافظ عليها لأنها سبب عظمة مصر فيما بينها وتعلق تلك الشعوب بها

وبهذا يكون للأزهر صلة حية بالشعب إذ يصبح المدرسة العالية لثقافة وطنية مؤدية لمقتضيات العصر الحاضر ، ومعهد البحث للتشريع الوطنى الحديث ؛ وفى الوقت نفسه يقوم برسالته الروحية فى بقية العالم الاسلامي ، ومن ورائها يؤدى رسالة مصر الأدبية فى الخارج . وماهذه المنزلة العالية التى تتمتع بها مصر اليوم فى الشرق إلا لهذه الصلة الروحية واعتقاد أن مصر تملك أكبر مكان للدراسات الاسلامية كما تملك مكة المكرمة أول مكان للدعوة إلى الاسلام . ولولا الأزهر لما نالت مصر تلك المنزلة بين الأمم الشرقية ، فهى تمثل سياسياً تقريباً فى كل بلدان العالم الأخرى التي لاتتصل بالاسلام اتصال تدين ، وتنفق على ذلك مبالغ جسيمة ، ومع هذا فمصر الحديثة صاحبة النهضة التى لاتقل شأناً عن نهضة كثير من بلدان أوربا الجنوبية والشرقية مازالت هنا فى أوربا هى مصر الافريقية

إن الأزهر قارب أن يبلغ ألف سنة ، وتلك مفخرة لم تصل إليها إحدى الجامعات العالمية بعد ، والعالم يريد أن يرى رؤية محسوسة مبلغ التطور الذى وصل إليه والذى هو مقياس نهضة مصر العلمية الوطنية ، لا التقليدية ، ويعرف أى القواعد يسير عليها فى بحثه ، وأية نظرية يأخذ بها فى تأدية رسالته ، بعد ما وقف بالبحث عند طريقة [1] القرون الوسطى زمناً طويلا وبعد ما كان فى حيرة من أمر رسالته ، حيرة سببها عدم معرفته بها

إن مصر اليوم والعالم الاسلامى يشهد بما لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى من عمل جدى ملموس فى إصلاح هذه الجامعة العالمية ويعترف بقدرته على إتمامه اعترافاً مرجعه الاقتناع بأن له شخصية مصلح في التاريخ الحديث ، وما أقل وجودها في العالم وأندرها فى مصر وأشــدها ندرة فى الأزهر . كل يعقد عليه أملاً كبيراً ، أمل البناء والتشييد فى الاصلاح . كل يرتقب ثورة فكرية ، وانقلاباً إصلاحياً له حدثه التاريخى ؛ فالوقت تأخر ، والحاجة ماسة ، والعقول متهيئة لهذا الانقلاب ، والنفوس ملت هذه التعديلات الصورية

مولاى المراغى : إذا كان المصلح الأول والوحيد قبلك وهو الأستاذ الامام ، قد حافظ على حياة الأزهر فحسب ، ولم يتركه لك فتياً بل سلمه إليك كهلا يعانى ألم الضعف ، فإن ذلك ما أمكنه وأمكن زمنه معه أن يؤديه للأمة والتاريخ ؛ ولــكنك أنت فى زمن توفرت فيه وسائل الاصلاح وانبثقت روح الشباب والتجدد فى كل شىء ، فمهمتك من هذا النوع ، ولها حباك القدر بتلك الشخصية ، وبتأديتها ستكون موضوعاً للتاريخ والبحث

محمد البهى قرقر
دكتور فى الفلسفة وعلم النفس
وعضو بعثة الامام الشيخ محمد عبده

(1) فى ألمانيا يوجد فى كل جامعة من جامعاتها وهى ١٧ جامعة عدة معاهد مختلفة لهذا النوع من الدراسة كمعهد ثقافة الشرق الأدنى ، المعهد الصينى ، المعهد الأفريقي ، معهد سكان جزر الملايا وجاوة ، معهد درس ثقافة أوربا الشرقية وبلاد البلقان ... وكان يطلق عليها فيما قبل معاهد الاستعمار

(1) تلك الطريقة هى تكرار رواية المنقول ، الجدل فى الصور والألفاظ ، قصر التهذيب على الناحية العقلية . شحذ الذهن وقلة الاهتمام بالناحية النفسية الأخلاقية وانعدامه بالنسبة للناحية الجسمية التي أثبت علم النفس التجربى اليوم مدى ارتباطها بالجانب العقلى والنفسى وأثر تربيتها فى تكوينهما تكويناً إيجابياً

صاحب النحلة السنانية

رسالته ، دهاؤه ، بيانه

لأستاذ جليل

ذكر العلامة الأستاذ محمد كرد علي في مقاله المحقَّق : (ابن العديم وتآليفه) في (الرسـالة) الغراء — الجزء ٢٢٠ في ١٤ رجب ٥٦ — سنانا الاسماعيلي (صاحب النحلة السنانيـة أو الحشيشية [1]) وروى أبياتاً من شعره ، وأشار إلى رسالته إلى السلطان صلاح الدين . وقـد رأيت أن أنشر تلك الرسالة الأنيقة لنفاستها ، وقد نقلت — كما قال ابن خلـكان — من خط (القاضي الفاضل) وما قولك في شيء يعجب عبد الرحيم البيساني فينسخه بنفسه ؟ ثم أوردُ ما أملاه صاحب (شذرات الذهب) من أنباء سنان هذا وفيه حديث عجيب في الـكيد أو الدهاء مابلغ دهاة منا كير مبلغه ، ولا سمع السامعون شبهه . ثم أروى (بياناً) لسنان إلى جماعته لجلالة قيمته في تاريخ النحل وقـد عثر عليه العرباني [2] (م . ستان جوارد) ونقله إلى الفرنسية . و(البيان) يبين لنا أن (أبا الحسن راشد الدين) قد ادعى دعوى الجماعة في الألوهية أو حاولها ، ولم يشأ أن يحتكرها في القاهرة محتكرون ، ويستبد بها فاطميون — كما يقولون — أو عبيديون ، وهو قد عرف من (أسرار الدعوة ...) ما عرفوه ... وما حل في مصر حل مثله في الشام ...

* * *

الرسالة

يا للرجال لأمر هال مُفظِعهُ … ما مر قط على سمعي توقّعهُ
قام الحمام إلى البازي يهدده … وكشّرت لأسود الغاب أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى بأصبعه … يكفيه ماقد تلاقى منه أصبعه
ياذا الذي بقراع السيف هددني … لاقام مصرع جنبي حين تصرعه

(١) في (كتاب الروضتين) : « وكاتبوا سنانا صاحب الحشيشية » والسنانية أو الحشيشية فرقة من الاسماعيلية والاختلاف بينهما قليل كما قال ستان جوارد

(٢) العرباني : عارف العربية من العجم

إنا منحناك عمرا كي تعيش به … فإن رضيت وإلا سوف ننزعه [1]

وقفنا على تفاصيله وجمله ، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله ، فيالله لِلعجب من ذبابة تطن في أذن فيل ، وبعوضة تعد في التماثيل . ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم وما كان لهم من ناصرين . أوَ لِلحق تُدحضون [2] . وللباطل تنصرون «وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ مُنقلَبٍ ينقلبون » . وأما ماصدر من قولك في قطع راسي ، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي ، فتلك أمانيّ كاذبة ، وخيالات غير صائبة ، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض ، كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض . كم بين قوي وضعيف ، ودني وشريف ! وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات ، وعدلنا عن البواطن والمعقولات ، فلنا أسوة برسول الله في قوله : ما أوذي نبي كما أوذيت . ولقد علمتم ماجرى على عترته ، وأهل بيته وشيعته ، والحال ما حال ، والأمر ما زال ، ولله الحمد في الأولى والآخرة ، إذ نحن مظلومون لا ظالمون ، ومغصوبون لا غاصبون « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » ولقد علمتم ظاهر حالنا ، وكيفية رجالنا ، وما يتمنونه من الفوت [3] ، ويتقربون به إلى حياض الموت . قل « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوْه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » وفي أمثال العامة السائرة : (أوَ للبط ، تهددين بالشط) فهيء للبلايا جلباباً ، وتدرع للرزايا أثواباً ، فلأظهرنّ عليك منك ، ولأفنينهم فيك عنك ... فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه [4] ، والجادع مارن [5] أنفه بكفه « وما ذلك على الله بعزيز » فاذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد ، واقرأ أول (النحل [6]) وآخر (صاد [7])

(١) قلت : لم تستمر هذه المنحة ... وقد حاولت الجماعة غير مرة اغتيال (بطل المسلمين) « والله يعصمك من الناس »

وإلا سوف الخ : القول عند بعضهم : وإلا فسوف ، وحذف الفاء مختص بالضرورة وفي (إعراب القرآن) : (إن ترك خيراً) لجوابه عند الأخفش (الوصية) واحتج بقوله (من يفعل الحسنات الله يشكره قلت : إن صح مذهب الأخفش فالحجة قول (الكتاب) المعجز لا قول الشاعر ...

(٢) دحضت الحجة : بطلت ، وأدحضها : أبطلها (٣) فوت الحياة

(٤) من المثل وأصله : (حتفها تحمل ضأن بأظلافها) ومن شعرهم :
وكانت كعنز السوء قامت بظلفها … إلى مدية تحت الثرى تستثيرها

(٥) مارن الأنف طرفه والقول من مقدمة المقامات

(٦) أتى أمر الله فلا تستعجلوه (٧) ولتعلمن نبأه بعد حين

الخبر

وفى سنة (٥٨٨) توفى راشد الدين أبو الحسن سنان بن سلمان مقدم الاسماعيلية ، وصاحب الدعوة بقلاع الشام . وأصله من البصرة ، قدم إلى الشام فى أيام نور الدين ، وأقام فى القلاع ثلاثين سنة ، وجرت له مع السلطان صلاح الدين وقائع وقصص ، ولم يعط طاعة قط ، وعزم السلطان على قصده بعد صلح الفرنج ، وكان (سنان) قد قرأ كتب الفلسفة والجدل

قال المنتجب : أرسلنى السلطان إلى سنان مقدم الاسماعيلية ومعي القطب النيسابورى ، وأرسل معنا (تخويفاً وتهديداً) فلم يجبه بل كتب على طرة كتاب السلطان : (الأبيات فى الرسالة المتقدمة) ثم كتب بعد الأبيات خطبة بليغة (هي تلك الرسالة) مضمونها عدم الخوف والطاعة ، فلما يئس صلاح الدين منه جنح إلى صلحه ، ودخل فى مرضاته

قال اليونينى فى تاريخه : إن سناناً سير رسولا وأمره ألاّ يؤدى رسالته إلا خلوة ، ففتشه السلطان صلاح الدين فلم يجد معه ما يخافه فأخلى له المجلس إلا نفراً يسيراً فامتنع من أداء الرسالة حتى يخرجوا فخرجوا كلهم غير مملوكين صغيرين فقال : هات رسالتك ، فقال : أمرت ألاّ أقولها إلا فى خلوة فقال : هذان ما يخرجان

قال : ولِمَ ؟

قال : لأنهما مثل أولادى

فالتفت الرسول إليهما وقال : إذا أمرتكما عن مخدومى بقتل هذا السلطان تقتلانه ؟

قالا : نعم ، وجذبا سيفيهما . فبهت السلطان ، وخرج الرسول وأخذهما معه فجنح صلاح الدين إلى الصلح وصالحه . ودخل فى مرضاته

***

البيان

« بسم الله الرحمن الرحيم : فصل من اللفظ الشريف للمولى راشد الدين عليه السلام ، وهو أفضل البيان تقوتى [1] بربى لا إله إلا هو العلى العظيم . أيها الرفقاء ، غبنا عنكم غيبتين : غيبة تمكين وغيبة تكوين ؛ واحتجبنا عن أرض معرفتكم ، فضجت الأرض ، وتقلقلت السموات ، وقالت : يا بارى البرايا الغفور ، فظهرت بآدم ، وكانت الدعوة حواء ، فحوينا على قلوب المؤمنين الذين ضجت أرض قلوبهم شوقاً إلينا ، فنظرنا فى سماء نفوسهم رحمة منا ، فمضى دور آدم ودعوته ، ونفذت رحمة منا فى الخلائق حجته . ثم ظهرت بدور نوح ففرقت الخلائق فى دعوتى ، فنجا بدعوتى ولطفى من آمن بمعرفتى ، وهلك من الخلائق من أنكر حجتى . ثم ظهرت فى دور إبراهيم على ثلاث مقالات : كوكب وقمر وشمس فخرقت السفينة ، وقتلت الغلام ، وأقمت الجدار جدار الدعوة فنجا بلطفي ورحمتى من آمن بدعوتى ؛ وخاطبت موسى بخطاب ظاهر غير محجوب للسائل هرون ، ثم ظهرت بالسيد المسيح فمسحت بيدى الكريمة عن أولادى الذنوب فأول تلميذ قام بين يدى يوحنا المعمدانى ، وكنت بالظاهر شمعون ، ثم ظهرت بعلى الزمان وسترت بمحمد ، وكان المتكلم عن معرفتى سلمان ، ثم ذرّ أبو الذر الحقيقي فى أولاد الدعوة القديمة بقيام قائم القيامة حاضراً موجوداً فما تمّ لكم الدين حتى ظهرت عليكم براشد الدين فعرفنى من عرفنى وأنكرني من أنكرنى ، وأنا صاحب الكون ما خلت الدار من أفراخ القدم . أنا الشاهد والناظر ، ولى الرحمة فى الأول والآخر ، فلا يغرنكم تقلب الصور ؛ تقولون فلان مضى وفلان أتى ، أقول لكم أن تجعلوا الوجوه كلها وجها واحداً ، ما يكون فى الوجود حاضراً موجوداً صاحب الوجود ؛ لا تخرجوا عن أمر ولى عهدكم من عربها وعجمها وتركها ورومها فأنا المدبر ، ولى الأمر والارادة . فمن عرفنى باطناً قد تمسك بالحق ، ولا تكمل معرفتى بغير ما أقول . عبدى أطعنى واعرفنى حق معرفتى أجعلك مثلى حياً لا تموت وغنياً لا تفتقر ، وعزيزاً لا تذل . اسمعوا وادعوا تنتفعوا . أنا الحاضر وأنتم الحاضرون بحضرتى . أنا القريب الذى لا أغيب ، فإن عذبتكم فبعدلى ، وإن عفوت عنكم فبكرمى وفضلى ، أنا صاحب الرحمة وولى الغفر والحق المبين ، والحمد لله رب العالمين ، وهذا بيان »

هذا بيان راشد الدين وقد أنشر أمثاله من رسائل العبيديين بعد حين

(قارىء)

(١) قد يكون الأصل قوتى أو تقوى بالاضافة إلى ياء المتكلم أو أنها من لغة الجماعة

الأزهريون والخدمة العسكرية

للدكتور محمد عبد الله ماضى

فى الأيام الأخيرة قامت ضجة حول ما أشيع من عزم وزارة الحربية المصرية على وضع تشريع يقضى بتجنيد حملة القرآن الشريف، وطلبة العلم بالمعاهد الدينية، حتى أن بعض الهيئات المحترمة قررت استنكار هذا الأمر، ورأت فيه مالا يتناسب وحرمة الدين، وما يتنافى مع تكريم أهله. ولعل لأصحاب هذا الرأي بعض العذر، ولعل لديهم من القرائن البعيدة عن جوهر الموضوع ما حملهم على الاستنكار، وجعلهم يرون فى مثل هذا التشريع مساساً بكرامة الدين وأهله؛ ولكنى أريد هنا أن أحاول معالجة موضوع التجنيد العام فى ذاته، وأن أبين رأى الإسلام فيه

ولابد لنا أن نعرف أولا أن غريزة الكفاح من الغرائز البشرية ذات الأثر الفعال فى حياة الأفراد، وفى نظام الجماعات وتكوينها؛ ولقد كان هذا الأثر واضحاً فى كل العصور، وفى جميع تطورات الجماعة من البسيطة الهمجية إلى الراقية المتحضرة. فالكفاح الدائم بين الأفراد والجماعات من سنن الطبيعة وقوانينها ما دامت الطبيعة وما عاش الإنسان؛ وهو الوسيلة لبقاء الأصلح، وفناء العاجز الضعيف؛ وهو إذاً سبيل الحياة الدائمة المتواصلة، كما يقول نوفيكوف (Novikov) وبقية أصحاب نظرية الكفاح من علماء الاجتماع

والحرب نوع من أنواع الكفاح القاسية التي نراها لا تزال تتكرر فى مختلف العصور بالرغم من بغض الناس لها، وبالرغم مما تجره وراءها من ويلات. وإن الدعوة إلى السلام الدائم بين جماعات الشعوب أمر محمود، ولكنه لا يغير من الواقع شيئاً، وحلم لذيذ لم نر إلى الآن أن الوقائع التاريخية والحوادث الاجتماعية تساعد على تحقيقه. ففي الحوادث التي وقعت فى السنوات الأخيرة بين الشعوب المنتسبة إلى عصبة الأمم — حصن الدعوة إلى السلام الدائم — وفيما تكرر ويتكرر من اعتداء قويهم على الضعيف منهم ما يبين لنا أن دعاة السلم لم يتعدوا في دعوتهم حدود القول، ولم يأتوا بشيء عملي لتحقيق ما يدعون إليه

فلا غرابة إذن إذا كنا نرى الأمم القوية في كل العصور تنادى بالسلام وهي تستعد للحرب؛ أما الشعوب الضعيفة فإنها تتخدر أعصابها بالدعاية إلى السلم، وتصم آذانها عن نداء الواجب صيحة السلام التي يرسلها القوى المدجج بالسلاح معمياً، حتى لا تزال هذه الأمم الضعيفة فى عمى عن الحقائق، فريسة له، عاجزة عن الدفاع عن نفسها أمام هجماته، وميداناً لتحقيق مطامعه. والشعوب الحية العزيزة، التى تشعر بالكرامة، وتأبى الضيم والمذلة على استعداد دائم للدفاع عن نفسها، ورد اعتداء المعتدى، فهي تأخذ أفرادها بالمران على الأعمال الحربية، تقوى أجسامهم، وتربى العزة فى نفوسهم، وتحبب إليهم التضحية بالنفس والنفيس في سبيل دفع الاعتداء عن أمتهم، ورد المهانة وسلامة الكرامة، والاحتفاظ بالحرية. فالروح العسكرية، وتربية الشعب تربية عسكرية أمر لابد منه لكل أمة تريد أن تعيش مرفوعة الرأس، عزيزة الجانب بين الأمم؛ أمر لابد منه لإشعار أفراد الشعب بمعنى العزة والكرامة، وحتى يؤمنوا بأن الموت العزيز خير من الحياة الذليلة

هكذا صنعت وتصنع الأمم الحية الكريمة، وهكذا كان شأن الأمة الاسلامية فى مبدئها، وفى العصر الذي كان المسلمون يعملون فيه بتعاليم الإسلام الصحيحة قبل أن تختلط بالمبادىء الدخيلة التي أعطيت صبغة الإسلام وهى ليست منه فى شيء. فكما تأمر مبادىء الإسلام بتعليم النشء وتثقيفه، فهى تأمر أيضاً بأخذه بأنواع الرياضة، وتدريبه على فنون الحرب. وقد جاء في الحديث الشريف [1] « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمى » وفى التعليق على حديث « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمى. إلا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى » يقول صاحب نيل الأوطار: وكرر ذلك للترغيب فى تعلمه (الرمى) وإعداد آلاته؛ وفيه دليل على مشروعية الاشتغال بتعليم آلات الجهاد، والتمرن فيها، والعناية فى إعدادها، ليتمرن بذلك على الجهاد ويتدرب فيه، ويروض أعضاءه

وليكن لنا فى رسول الله أسوة حسنة، وهو المثل الأعلى

---

(١) نيل الأوطار طبعة منير الدمشقى ج ٢ ص ٢٤٧ — ٢٤٨

للرجولة الكاملة ، فلقد ساهم عليه السلام بنفسه فى كثير من أنواع الرياضة ، والتمرينات الحربية ، فسابق فى العدو ، ورمي ، وصارع ؛ ولقد شاهد اللعب بالحراب ، واشترك فى سباق الخيل. كان يفعل كل هذا ، ويأمر به ، ويشجع عليه أفراد أمته ، حتى النساء منهم ، فلقد كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها جريا على الأقدام ، فمرة تسبقه ومرة يسبقها . أرأيت كيف أن هذا لا ينافى الوقار والشرف والعلم والفضل وعلو السن ؟ ! هذا هو حكم الاسلام فى الرياضة البدنية ؛ وهذا هو حكم الإسلام فى الخدمة العسكرية ، وتعليم أفراد الأمة فنون الحرب ، وأخذهم بآداب الجندية

ولم تزل الشعوب الاسلامية قوية عزيزة الجانب حتى أخذت روح الجندية تضعف فى نفوس أفرادها ، وأخذ استعدادهم للدفاع عن حماهم يضعف ويقل ؛ فأخذ العدو يهاجمهم بما لا حول لهم به ولا قوة ، حتى وصلت بهم الحال إلى ما هم عليه من الضعف ، وحتى استعبدهم الغير ؛ وما فتئت الدول المستعمرة فى العصور الأخيرة تعمل على قتل روح الجندية ، روح القوة والرجولة فى الأمم الاسلامية المغلوبة على أمرها ، لتطول مدة حكمها لها ، ولتأمن جانبهم فى الدفاع عن أنفسهم . عملت على هذا ، ووضعت لتنفيذه خططاً مدبرة محكمة ، كان من أشدها خطراً عندنا فى مصر قانون البدل والإعفاء من الخدمة العسكرية ؛ إذ ظن المعفون خطأً أن فى ذلك ميزة لهم وشرفاً اكتسبوه ؛ وكانت نتيجة هذا الإجراء الدبر أن انحصرت الخدمة العسكرية فى أفراد الطبقة الفقيرة الجاهلة من الشعب ؛ وعومل هؤلاء أثناء تأدية الخدمة من رؤسائهم معاملة إذلال وقهر ، غرست فى نفوسهم البغض لما هم فيه ، وقتلت فيهم الروح المعنوية التى لا بد منها لانتصار الجنود إذا اشتدت الخطوب ، ووقع القتال ؛ هذه الروح المعنوية التى جعلت العشرين من جند النبي وأصحابه يغلبون مائتين ، والمائة يغلبون ألفين

هذه العوامل وغيرها ولدت فى نفوس الشعب عندنا بغض الخدمة العسكرية وتحقيرها ، حينما تفخر الشعوب الحية بها وتعتز ؛ وبهذا فقد شبابنا كثيراً من معانى القوة والرجولة . ومن عجائب الدهر أن تجعل الخدمة العسكرية عقوبة للطالب الأزهرى يعاقب بها إذا رأى ولاة الأمور خروجه على النظام ، وقرروا إنزال العقاب به ؛ فهم حينئذ يمحون اسمه من سجلات الطلبة الأزهريين ويبلغون الجهات المختصة لتحرمه من امتياز الإعفاء من الخدمة ، وتعاقبه فتجعله يؤدي الخدمة العسكرية — كما وقع ذلك فى بعض عصور الأزهر الغابرة —

ألا إن هذا عكس للحقائق ، ووضع للأمور فى غير نصابها ؛ هذه الروح يجب أن تزول ، وأن يحل محلها روح الشعور بأن الجندية شرف لا عقوبة

الواجب على أولى الأمر بعد أن حصلنا على معاهدة الاستقلال ، وأطلقت يدنا من عقالها فى كثير من الشئون أن يصلحوا ما أفسده الدهر من أمر الخدمة العسكرية فى بلادنا . وإذا أردنا أن يسلم لنا شرفنا فلنعمل على تربية روح العزة والكرامة ، ولتتعهد روح الرجولة بما ينميها فى نفوس الأفراد ، فيجب أن تكون الخدمة العسكرية عامة اجبارية على كل من يصلح لها من أبناء الشعب بلا تفريق بين طبقة وطبقة ، وبغير تمييز بين أهل حرفة دون حرفة ، ليشعر أبناء الشعب جميعاً بالأخوة والمساواة ، وليدخلوا جميعاً مدرسة الرجولة

وعلى جميع طبقات الأمة أن ينادوا بهذا ، ويطالبوا ولاة الأمور بتنفيذه ؛ وعلى حملة القرآن الشريف ، والأزهريين منهم خاصة — من أصحاب الامتياز المزعوم — أن يطالبوا أولى الأمر مع المطالبين ، بل فى مقدمتهم بالتجنيد الإجبارى العام ، فانهم أبناء الأمة ، وعليهم أن يشتركوا فى إعداد أنفسهم للدفاع عنها إذا دعا الداعى . ولهم أن يفخروا بشرف الانخراط فى سلك الجندية ؛ فلقد حان الوقت ليخرج الأزهريون من عزلتهم ، وليأخذوا أنفسهم بتعاليم الإسلام الصحيحة ، وينفوا مازيف عليهم منها

فليس من الإسلام أن حملة القرآن الشريف ، وطلبة الأزهر يعفون من خدمة العسكرية ، فالاسلام دين الرجولة يمقت كل ما يمت إلى التخنث بصلة ؛ وليس من الإسلام هذا الوقار المزعوم الذى يتخيله العامة عندنا فى المشية المتثاقلة المتشدة البعيدة عن النشاط وخفة الحركة ، فلقد كان النبي عليه السلام يسير ملقياً جسمه إلى الأمام مسرع الخطو ثابته ا ه

محمد عبد الله ماضى
دكتور فى التاريخ والاجتماع
وعضو بعثة تخليد ذكرى الشيخ محمد عبده بألمانيا

في تاريخ الأدب العربي

كليلة ودمنة

للأستاذ عبد الله محمود اسماعيل

لست أزعم أن أدلة هذا البحث – على قوتها – مما لا يستطاع نقضه أو إضعافه. ولست أزعم أن موضوع البحث مما لم يسبق لبعض الأقلام تناوله. ولكن الذى أستطيع زعمه أن أكثر ما سأعتمد عليه فى تدعيم وجهتى طريف مبتكر لا يشينه سطو ولا تعكره إغارة

وقد يكون مرجع الفضل فى إثارة هذا البحث إلى رسالة صغيرة كتبها عن ابن المقفع الزميل « الأستاذ محمد قايل » ذهب فيها مذهب بعض المستشرقين من القول بأن نسبة كتاب كليلة ودمنة إلى غير عبد الله بن المقفع يعوزها الدليل القوى، وأن الكتاب فى مجموعه لا يخرج عن حكايات وضعها ابن المقفع أو نقلها عن الآداب الدخيلة [1]. يريد بذلك ألا يجعل للكتاب أصلا فى الفارسية أو الهندية بهذا الاسم، وهو يؤيد اختياره هذا بما يلمس فى الكتاب من بلاغة عبارة، وقوة أداء، وخلو من المسحة الدخيلة، مما لا يتهيأ لكتاب مترجم حرص فيه على الأمانة؛ وبأن مؤرخى الهنود وعلماء أوربا يجهلون كتاباً بهذا العنوان والتبويب في الهندية، كما يجهلون شخصى « بيدبا » و « دبشليم » وكلا الدليلين ساقط، لأن هذه القوة البلاغية فى الترجمة، وسبك الألفاظ وفق أرجح أساليب العربية ليس مما يستغرب من ابن المقفع وقد « كان فى نهاية الفصاحة والبلاغة مضطلعاً باللغتين — العربية والفارسية — فصيحاً بهما [2] »

وما لنا نذهب بعيداً وفى المكتبة العربية الآن كتب مترجمة عن الفرنسية والانجليزية والألمانية أتت، على الرغم من سحر بيانها وشريف أسلوبها، أمينة على الأصل، حريصة على روح المؤلف، وهذه قصة البائسين لحافظ بك. ورفائيل وفرتر للأستاذ الزيات، فقد جاءت مع الأصل كالحسناء وخيالها فى المرآة. وتلك حالة لا يجد

(١) ابن المقفع لقايل ص ٥٠
(٢) الفهرس لابن النديم ص ١٧٢، طبعة المكتبة التجارية

فيها المترجم كبير عناء متى كان متمكناً من لغة المنقول عنه والمنقول إليه، خبيراً بآدابهما، وطرائق الحسن فيهما. كما كان الشأن مع ابن المقفع

على أننى لا أرى هناك ما يحمل على التمسك بالحرفية والأمانة فى ترجمة مثل كتاب كليلة ودمنة، فليس هو بالكتاب العلمى الخطير، ولا القصة الفنية التى يذهب التصرف فيها شيئاً من جمالها وروعتها، وهو فى النهاية لا يعدو أن يكون كتاب تخريف وسمر للخواص وأرباب البيان على الرغم من هذه الطنطنة التى ملأت صدر الكتاب. ولا شك أن ابن المقفع كان يفهم هذا فأباح لنفسه بعض التصرف فى الأصل فرفع بذلك عن قلمه كثيراً من الحرج والتهيب

أما ما يقال عن جهل مؤرخى الهنود وعلماء أوربا بدبشليم وبيدبا، وبكتاب له هذا الاسم والتبويب فى اللسان الهندى، فلا يمكن أن يتخذ منه دليل قاطع على وضع ابن المقفع للكتاب، فان صلاحيته للقول بهذا أضعف من صلاحيته للقول بأن الفرس هم وضعة الكتاب، فقد نقل هذا الرأى أحد مؤرخى القرن الرابع الهجري؛ قال محمد بن اسحاق النديم: « فأما كتاب كليلة ودمنة فقد اختلف فى أمره، فقيل عملته الهند، وقيل عملته ملوك الأسكانية [1] ونحلته الهند، وقيل عملته الفرس ونحلته الهند، وقال قوم إن الذى عمله بزرجمهر الحكيم [2] » الفارسى. على حين لم أعثر فى الكثير الذى قرأته من المراجع القديمة على من يصرح بأن ابن المقفع هو واضع الكتاب

وإن هذا التأييد التاريخى للقول الثانى مع ما ذكروا من أن المراجع الهندية والأوربية تجهل وجود كتاب كليلة ودمنة فى السنسكريتية، كما تجهل وجود ملك يسمى دبشليم ليجعلني أميل إلى الأخذ به وترجيحه على ما سواه. ولن يضعف منه تأريخ المسعودى لدبشليم الملك ضمن من ذكر من ملوك الهند الأقدمين وقوله إنه الواضع لكتاب كليلة ودمنة، فإن جل ما كتبه عن هذه العصور القديمة لا يخرج عن دائرة الجمع الذي لا يقوم على أساس صحيح من التحقيق والتحرى، ويكفي لصدك عن التعويل

(١) الأسكانية: الطائفة الثانية من ملوك الفرس الأوائل من أفريدون إلى دارا بن دارا. مروج الذهب أول ص ١٢٩ مطبعة عبد الرحمن محمد
(٢) الفهرس ص ٤٢٣

على ما كتب أن تعرف أنه جعل ملك « دستلم » أو « دبشليم » مائة وعشرين سنة (١) ؛ وأن ما ذكره بعد ذلك عنه وعن «فور» سابقه لا يتجاوز ما ذكر فى مقدمات كليلة ودمنة ؛ الأمر الذى يحملنا على الظن بأن المسعودى ما عرف هذين الاسمين إلا عن طريق هذا الكتاب

وليس يبعيد على الفرس وضع كتاب كليلة ودمنة وإلباسه هذا الثوب الهندى ، فهم جيران الهنود وإخوانهم فى جنسيتهم الآرية ، يشركونهم فى ذكائهم وتمقلهم وخيالهم « وهم أول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن ، وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان (٢) »

ولا محل للاعتراض هنا بأن الكتاب لو كان من عمل الفرس لتضمن شيئاً من المجوسية والمذاهب الفارسية الأخرى ؛ لأنه لم يوضع لتدوين عقيدة أو إذاعة مذهب دينى خاص ؛ وهذا كتاب « مزدك » الذى نقله عن الفارسية ابن المقفع وأبان بن عبد الحميد ، « فإن أول ما يتبادر إلى الذهن أن الكتاب يبحث عن مذهب مزدك ، ولكن الأستاذ «براون» ذكر فى كتابه « تاريخ آداب الفرس » نقلا عن « نولدكى » : أنه كتاب أدب وضع للتسلية ، ويعد فى مصاف كتاب كليلة ودمنة ولا تضر قراءته مسلما (٣) »

على أننا لو سلمنا باحتواء الأصل على شيء من هذه المذاهب الفارسية ، فإننا نرجع نقاء الترجمة العربية منها إلى ما ذكرنا من تصرف ابن المقفع ، ولعل الذى حمله على هذه التصفية عقيدته الاسلامية الجديدة أو خوفه من تشكك المنصور فيه إن سمحنا لأنفسنا بالطعن فى صدق إسلامه

وإن مما يكاد يحملنا على الجزم بأن ابن المقفع ناقل لكليلة ودمنة لا واضع له ما ذكره صاحب الفهرس من أن جماعة من النقلة عن اللسان الفارسى — وفيهم من عاصر ابن المقفع أو قرب وقته — قاموا بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية . قال العلامة جورجى زيدان : « يظهر أن بعض الأدباء حسد ابن المقفع على شهرة الكتاب فأعادوا نقله ، واشتغل بعضهم بنظمه ، وتصدى آخرون لمعارضته (٤) » . ولا غير هذا يفسر لنا سر الاختلاف الذى ذكره

(١) مروج الذهب أول ص ٤٨
(٢) الفهرس ص ٤٢٢
(٣) ابن المقفع لخليل مردم بك ص ٦١
(٤) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٣١

ابن النديم فى عدد أبواب الكتاب ، فقد قال : « هو سبعة عشر باباً ، وقيل ثمانية عشر ، ورأيت أنا فى نسخة زيادة بابين (١) »

وكان أقدم من نقل الكتاب إلى العربية نظماً أبو سهل الفضل بن نوبخت الفارسى من خدم المنصور ومن العاملين فى خزانة الحكمة لهارون الرشيد « وقد كان معوله فى علمه على كتب الفرس (٢) » ثم عبد الله بن هلال الأهوازى ، نقله ليحيى بن خالد البرمكى فى خلافة المهدى سنة ١٦٥ هجرية ، ثم أبان بن عبد الحميد اللاحقى ، قال محمد بن اسحق « وقد نقل من كتب الفرس وغيرها ما أنا ذاكره : كتاب كليلة ودمنة ، كتاب السندباد ، كتاب مزدك (٣) ... » وقد كان أبان هذا « صديقاً للبرامكة ، متصلا بهم أشد اتصال ... وكان أديبهم الرسمى » ومن المختصين بالرشيد . ويظهر أن نقله الشعرى — على جدته — كان على جانب من الجودة فقد « أعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار ، ولم يعطه جعفر شيئاً وقال : ألا يكفيك أن أحفظه فأكون راويتك (٤) ؟! »

ولو قدرت الحياة لهذه التراجم الأخرى أو لبعضها لقطعت الشك باليقين ، ولوضعت بين أيدينا الدليل المادي على أن موقف ابن المقفع من الكتاب لم يكن إلا موقف المترجم البليغ والمهذب البصير ؛ أما وقد نالها من عوادى الزمان وتقلب الأحداث ما أودعها عالم الفناء فليس لنا إلا الاعتماد على دراسة ما بقى مما كتبه عنها الثقات من رجال الأدب والتاريخ ، وما اقتبسته كتبهم عن بعض هذه التراجم ، وفى هذا وذاك كثير من الغناء والعزاء

ولئن ذكرنا بالفضل صاحب الفهرس لما أفادنا فى هذا المقام فلا يسعنا إلا أن نذكر بمزيد الاعجاب فضل ابراهيم الصولى ، فقد نقل لنا في كتابه الأوراق (٥) ستة وسبعين بيتاً من ترجمة أبان النظمية ، ولولاه ما بقى لنا منها إلا الأبيات الأربعة التى ذكرها أبو الفرج (٦) وهى لا تغنى فى البحث شيئاً

(١) الفهرس ص ٤٢٤
(٢) الفهرس ص ٣٨٢
(٣) الفهرس ص ٢٣٢
(٤) بتصرف عن عصر المأمون أول ص ٤٠٩ وثان ص ٣١٧
(٥) طبع منه قسمان يبدأ أولهما بترجمة أبان وتجد بها الأبيات المذكورة . ومخطوطه بدار الكتب تحت رقم ٥٩٤ تاريخ
(٦) الأغانى ج ٢٠ ص ٧٣

وفى هذه الطائفة التى ذكرها الصولى من المنظومة دليل آخر على أن أبان استقى من مصدر فارسى ، وأنه لم يعتمد على نسخة ابن المقفع ، إذ لم يقع له من عباراتها إلا ما جاء وليد المصادفة أو الاستعانة وهو نادر ، كما يلاحظ على منظومته قلة تداخل حكاياتها والاقتصاد فى سوق الحكم ، وربما ذكر الشىء فى غير الباب الذي وضعه فيه ابن المقفع

ابتدأ أبان نظمه بالبيت المعروف : —

هـذا كتاب كذب ومحنة وهو الذى يدعى كليـله دمنة

ثم ذكر فى الأبيات الأربعة التى تليه أن الكتاب من عمل الهند ، وصفوا فيه الآداب على ألسنة البهائم ، ليشتهى السخفاء هزله ، وليعرف الحكماء فضله : —

وهو على ذاك يسيرُ الحفظِ لَذٌّ على اللسان عنـد اللفظ

ثم أتى الصولى بعد ذلك باثنين وعشرين بيتاً يبدو أنها ليست من هذا التمهيد الذى وضعه أبان ؛ وإنما هى من باب برزويه تبدأ عند مناجاة هذا الحكيم نفسه بقوله : « يانفس[1] أما تعرفين نفعك من ضرك ؟ ! ألا تنتهين عن تمنى ما لا يناله أحد إلا قل انتفاعه ... » وفيها يحدث نفسه بأن الدنيا بما لنا فيها من أحباء وأصدقاء كثيرة الآلام ، وأنه لا ينبغى للانسان أن يعرض نفسه للهلاك فى سبيل جمع ما يرضى به أهله ومحبيه ؛ وأن فى النسك وترك الدنيا لمن يشقى بها النجاة من الشرور . وختم أبان الأبيات بالاقرار بالوحدانية وأنه مرتهن بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ؛ ثم اقتبس الصولي من باب الأسد والثور تسعة وأربعين بيتاً فى مواطن مختلفة من الباب ذكر فيها طرفاً من الحديث الذى دار بين كليلة ودمنة حول التقرب من الملك ثم كيد دمنة للثور عند الأسد ؛ ثم تحدث عن المال وما فيه من عز وجمال ، وامتدح العقل ومشورة غير أهل التهمة

ولكى يتضح بعد المنظومة عن ترجمة ابن المقفع نلفت النظر إلى أن حديث المال الذى ذكره أبان فى باب الأسد والثور جعله عبد الله فى باب الحمامة المطوقة . وإليك الأبيات التى ذكرها فى هذا الموضوع لتتحقق بعد الموازنة من صدق ما ارتأينا من المباينة بين الترجمتين :

(١) كليلة ودمنة . ترجمة ابن المقفع ص ٧٦ طبعة وزارة المعارف الخامسة عشرة

الأهل والإخوان والأعوان عند ذوى الأموال حيث كانوا
والمال هادى الرأى والمروّه وهو على كل الأمور قوه
والمال فيه العز والجمال والذل حيث لا يكون المال
وربما دعا الفقيرَ فقرُه إلى التى يُحبط فيها أجرُه
فيخسر الدين كما كان خسر دنياه والخسران ما لا ينجبر
وليس من شىء يكون مدحا لذى الغنى إلا يكون بَرْحا
على الفقير ويكون ذما كذاك يدعى وبه يسمى
فإن يكن نجداً يقولوا أهوج كذاك عند الحرب لا يعرج
وهو إذا كان جواداً سيّداً سُمى للفقر مُضيعاً مفسدا
أو يك ذا حلم يُقل ضعيف أو يك بساماً يُقل سخيف

***

وقد يظن كثير من الأدباء أن ابن المقفع عرف كيف يخلد اسمه باختياره ترجمة كتاب كليلة ودمنة أو ادعائه ذلك ؛ ولكن الذي لا يتطرق إليه الاحتمال عندى أن كتاب كليلة ودمنة إنما كتب له الخلود ، وبقى على توالى الأحداث والأيام لأن عبد الله ابن المقفع تصدى لترجمته فألبسه هذا الثوب الرائق من بلاغته وتهذيبه ومعرفته . ولقد يدهش أصحاب ذلك الظن إذا قلنا لهم إن الكتاب لم يكن له فى الفارسية من الخطر ما صار له بعد نقله إلى العربية على يد ابن المقفع ، ولكن دهشهم سيتبدد متى عرفوا أن الفرس أنفسهم حينما رأوا الكتاب فى صورته الجديدة المنسجمة استولى عليهم الإعجاب ، وأخذوا ببلاغته فنقلوه إلى الفارسية مرة أخرى ، وأهملوا أصوله التى بين أيديهم فأذهبها النسيان ؛ حتى لقد ذكر ابن النديم أنهم نقلوه « إلى اللغة الفارسية بالعربية[1] » ليتمكن من يتكلم الفارسية ولا يكتبها من قراءته بالحروف العربية التى سرى استعمالها بينهم

وإنى لأسائل نفسى الآن عن المصير الذى كان ينتهي إليه كليلة ودمنة لو لم يكن عبد الله بن المقفع ضمن من ترجموه !! إنه ولا شك مصير مظلم ؛ أو قل هو المصير الذى انتهت إليه التراجم والنقول الأخرى

(أسيوط) عبد الله محمود اسماعيل

(١) الفهرس ص ٢٤ :

محمد بن جعفر الـكتاني

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

للأستاذ محمد المنتصر الكتاني

تتمة ما نشر فى العدد المـاضى

وكان أسلافه يعرفون قديماً بعدة ألقاب : بالكتانيين وأمراء الناس والزواويين وشرفاء عقبة ابن صوال، وحديثاً بالكتانيين فقط

فأما شهرتهم باللقبين الأولين : فنسبة إلى جدهم الأول أمير الناس الكتانى يحيى بن عمران الذى يعده المؤرخون أول ملك مغربى استعمل فى معسكراته خيام الكتان فنسبوه إليهـا ، وما كانت تعرف قبله غير خيام الصوف والشعر ، وأول ملك بويع باسم أمير الناس ، فلزم بنيه لقبه الأول إلى اليوم ، وورثوا عنه الثانى ردحاً من الزمن

ذكر هذا القاضى بن الحاج فى كتابيه نظم الدر والأشراف ، والشريف المدغرى فى الدرة ، وأبو زيد السيوطى المكناسى ووالده أبو بكر في كتابيهما في الأنساب

وأما شهرتهم باللقب الثالث : فنسبة إلى زواوة وهى قبائل بربرية كبيرة مواطنها فى الجزائر « بنواحى بجاية ما بين مواطن كتامة وصنهاجة ، أوطنوا عنها جبالاً شاهقة متوعرة ، تنذعر منها الأبصار ، ويضل فى غمرها السالك [1] » فر إليها الكتانى يحيى حين تغلب السفاح بن أبى العافية على ملك أسلافه فنصبوه ملكا عليهم وتدبرها بنوه من بعده قرنين كاملين وثلاثين سنة تزيد قليلاً أو تنقص قليلا

ذكرهم بهذا اللقب ابن عمرو العبدى فى كتابه الكوكب السانى فى النسب الكتانى

وأما شهرتهم باللقب الرابع فنسبة إلى حى معروف من أحياء فاس يعرف بعقبة بن صوال ، كان نزولهم به أول ما رجعوا من مكناس فى آخر القرن التاسع

عرفهم به القاضى بن الحاج فى الأشراف وعلى هذا اللقب وضع فيهم كتابه الشهير « نظم الدر واللآل فى شرفاء آل عقبة ابن صوال » وبه ذكرهم أيضاً الشريف القادرى في الدر السنى

ولا يعرف اليوم أحدهم بلقب من تلك الألقاب الثلاثة — أمراء الناس ، الزواويين ، شرفاء عقبة بن صوال — التى أصبحت تاريخية وفى بطون الكتب ليس غير ، ولا أدري إذا كانت بعض الأسر بالجزائر أو غيرها من الأقطار التى أقاموا بها لا تزال تحمل أحد هذه الألقاب

واللقب الأول والأخير هو (الكتانى) فقط الذي بقى علماً لآبائه من القرن الرابع إلى الآن

ولعل من العبث أن أعيد القول فأذكر أنه تقدم فى السلافة أئمة أعلام شاركوا فى توريث التراث المحمدى ، فهدوا وعلموا وهذبوا وألفوا ، وفى الخزائن العامة والخاصة الدليل الناطق ، وقد بلغ ما عده بعضهم من مؤلفاتهم فيها المئين [1] وكتب المؤرخين طافحة بتراجمهم

ومن منهم لا يعرف (على بن موسى [2]) و (عبد الواحد بن عمر [3]) وولده (أحمد [4]) و (محمد بن أحمد بن على [5]) و (محمد بن عبد الوهاب [6]) و (المأمون بن عمر [7]) و (إدريس بن

(١) العبر ج ٦ ص ١٢٨

(١) انظر معجم تأليف رجال المغرب الأقصى لصديقنا الأستاذ عبد السلام ابن سودة

(٢) على — من كبار علماء القرن الثامن توفى بمكناس ترجمه أبو زيد السيوطى المكناسى فى عقد اللآلى والعلامة المؤرخ النقيب ابن زيدان فى تاريخ مكناس ج ٥ ص ٤٥١

(٣) عبد الواحد — تخرج على الشيخ الامام التاودى ابن سودة ومن مشايخه العلامة جوس كان مع اشتغاله بالعلم يتجر ويمارس الفلاحة ولاه المرحوم سيد قومه السلطان محمد بن عبد الله نظارة أوقاف الضعفاء « بسيدى فرج » بالاشتراك مع بعض الأشراف فحمدت ولايته . هذا ومن بعده كلهم توفوا بفاس (٠٠ — ١٢٠٣) الرياض الربانية — النبذة — السلوة ج ٢ ص ٢٥٣

(٤) ابن عبد الواحد — أخذ عن الشيخ التاودى ابن سودة ولازمه ، يعد من مؤرخى العائلة فقد اعتنى بتاريخها اعتناء كبيراً وله فى ذلك « كتابات وتقاييد » (٠٠ — ١٢٤٤) المصدر نفسه والسلوة ج ٢ ص ٢٥٣

(٥) ابن أحمد — من رجال القرن الثانى عشر ، عالم فقيه مؤرخ ثقة ، من أساتذته شيخ الشيوخ عبد القادر الفاسى وولداه وهو صاحب الكتابين المعروفين « نصرة العترة الطاهرة من أبناء على وفطمة » و « التنبيه من الغلط والتلبيس فى بيان أولاد الامام محمد بن إدريس » لا أعرف مدفنه ولا سنة وفاته — نظم الدر — النبذة

(٦) ابن عبد الوهاب — من أعيان القرن الثانى عشر ، عالم فقيه مدرس ترجمه ابن يخلف الأندلسى فى سلوة المحبين والامام فى النبذة

(٧) المأمون — علم فقيه مؤرخ أديب شاعر ، درس بجامع القرويين زمناً وهو صاحب الكتابين « هداية الضال من القيل والقال » و « النغم الصيب »

الطائع[1] ومَن من المغاربة يجهل (جعفر بن إدريس[2]) وأولاده الأربعة صاحب الترجمة ؛ و (أحمد[3]) و (عبـد الرحمن[4]) و (عبد العزيز[5]) و (عبد الـكبير بن محمد[6]) وولده (الشهيد

في مناقب مولاى الطيب » انقطع عن الناس وتزهد (٠٠ — ١٣١٠) الدرر البهية جـ ٢ ص ١٢٢ — النبذة — المرشـد — مقدمة التراتيب الادارية ص ٢٤

(١) إدريس — هو جد صاحب الترجمة من مشايخه الأئمة الشريف عبد السلام الأزمى ومحمد بن عبد الرحمن الحجرتى والشريف محمد الحراق التطوانى قاتل السيانيا بضاحية تطوان فى جيش المرحوم السلطان محمد بن عبد الرحمن العلوى وأبلى بلاء حسناً إلى أن أسره العدو ، ثم فك أسره بعد وكان ذلك فى وقت لم يعهد فيه اشتراك الذوات وأبناء العائلات كأجناد فى الجيوش (٠٠ — ١٢٨١) نظم الدر . الرياض الريانية . النبذة . السلوة جـ ٢ ص ١٩٤ . الدرر البهية جـ ٢ ص ١١٩ . طبقات المالكين للقاضي ابن مخلوف . جـ ١ ص ٤٠٢

(٢) جعفر — يلقب بالصادق علم كبير وإمام شهير أجمع من ترجمه على أنه من أكبر علماء المغرب — ولا أعد مبالغاً إذا قلت إن « من » هنا مقحمة — فى كل الفنون المعروفة في عصره وكان مرجوعاً إليه فى اتقانها وضبطها وحل مشكلاتها ، يعتمده الملوك فى فصل القضايا المزمنة ، ويجد فيه جميع القضاة عند المعضلات أتقى هاد وأعلم دليل ، كانوا يشبهونه بمالك بن أنس فى النظريات ويعدونه وارث مالك بن دينار فى « السنن المحمدية » له من المؤلفات فى مختلف الفنون ما يقارب المائة ، طبع منها كثير ولما مات صلى عليه أهل مكة فى الحرم صلاة الغائب ولم يكن بها أحد من أهله (١٢٦٥ تقريباً — ١٣٢٣) . النبـذة . الدرر البهية ج ٢ ص ١٢٠ فهرس الفهارس ج ١ ص ١٣١ . طبقات المالـكية للقاضي بن مخلوف جـ ١ ص ٤٣٣ . معجم شيوخ القاضي عبد الحفيظ الفاسي جـ ١ ص ١٧٣ . الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامى لمندوب المعارف محمد الحجوي جـ ٤ ص ١٤١

(٣) أحمد — أحد الأئمة المشار إليهم علماً وديناً وزهداً وورعاً من أظهر صفاته الصـلابة فى الحق والجهر به على أى حال ، والحب فى الله والبغض فى الله كانوا يشبهونه برجال السلف الصالح مؤلفاته تبلغ الثمانين في الحديث والفقه والتصوف والكلام والذات النبوية وغير ذلك (١٢٩١ — ١٣٤٠) النبذة . الشكل البديع

(٤) عبد الرحمن — إمام محدث وعلامة متفنن ، وكان هذا شاعراً فحلاً جمع إلى سمو المعنى عذوبة فى اللفظ ورصانة فى التعبير ، وكاتباً مترسلاً من الطبقة الأولى جودة وبلاغة وكان على جلال علمه ووقاره ذا روح شاعرة محبوبة ، اللطف والظرف بعض صفاتها له مؤلفات كثيرة طبع بعضها ، وشعر كثير لم يجمع بعد ورسائل أدبية تخرج فى مجلد (١٢٩٧ — ١٣٣٤) المصدر نفسه ، وفى العزم نشر بعض شعره فى رسالتهم «رسالة العرب ؟!»

(٥) عبد العزيز — قال عنه أخوه فى النبذة : تفقه ونجب وللافادة جلس وانتصب . وكان فقيهاً عالماً نبيهاً ذا حياء وحشمة ووقار وصمت وسمت ونخار وأدب وهمة علية ونفس عزيزة أبية . له عدة مؤلفات (١٢٩٤ — ١٣٢٥)

(٦) عبد الـكبير بن محمد — عالم صوفى مسند اتفق من ترجمه على أنه من خيرة أهل عصره صلاحاً وزهداً وعبادة وحسن أخلاق ما اغتاب أحداً قط ولم يغتب — غالباً — فى مجلسه أحداً حتى ألد أعدائه (؟ !) له بضع مؤلفات (١٢٦٨ — ١٣٣٣) النبذة . فهرس الفهارس جـ ٢ ص ١٣٩ معجم شيوخ القاضى الفاسى جـ ٢ ص ٧٤

محمد[1]) و (عبد الـكبير بن هاشم[2]) و (الطاهر بن حسن[3]) و (عبد الحفيظ بن محمد[4]) رحمة الله عليهم أجمعين

اشتهر بلقب « الـكتانى » قديماً خلق كثير في الأندلس والمغارب الثلاثة وبغداد ودمشق لايمت واحد منهم لأسلاف الامام بصلة ، فيهم الوالى الأمير والمحدث والفقيه والطبيب والأديب وو ... وقدوقفت على تراجمهم عند عياض فى المدارك والخطيب فى تاريخ بغداد والسمعانى فى أنسابه وابن الجزرى فى طبقات القراء والذهبى فى التذكرة وتاريخ الدول والميزان والضوء اللامع والحافظ فى اللسان والدرر الـكامنة وابن عثمان النابلسى فى مختصر طبقات الحنابلة وابن القاضى فى الجذوة والقادرى فى النشر وابن جعفر (المترجم) فى السلوة

وقد عنى بتاريخ أسلافه جمهرة من المؤرخين قديماً وحديثاً وأولهم — فيما أعلم — أبو عبيد البكري صاحب المسالك الذى

(١) الشهيد — الامام المعذب فى الله ؟ العلامة الـكبير شيخ التصوف وترجمانه مؤسس الطريقه الـكتانية وبانى زواياها فى مدن المغرب وبواديه ومعتنقوا طريقتـه يقدسـونه ويعتقدونه اعتقاداً عظيما وعـددهم يتجاوز المليون ، كان مفرط الجمال جداً ولو أن صواحب يوسف رأينه لقطعن النياط بدل الأيدى ، كان كما وصفوا نصر بن حجاج — طريد عمر لجماله — إذا بدا لا تبقى محجبة ولا مخدرة ولا راهبـة ! إلا اشرأبت بعنقها من الشرفات والمنازل لتراه ومن أجل ذلك كان لا يظهر للملأ إلا ملثماً ، قتله السلطان عبد الحفيظ ظلماً بعد ما أذاقه من العذاب ألواناً حتى استشهد وهو تحت السياط بتهمة الانتقاض عليه وطلب الملك لنفسه والقصة طويلة معقدة ؟ ومن يرد استعراض هولها فليستحضر مصيبة كربلاء فهى هى لا تخالفها إلا فى التاريخ ، له مؤلفات كثيرة طبع بعضها (١٢٩٠ — ١٣٢٧) النبذة . معجم شيوخ القاضى الفاسي ج ١ ص ٤٤ وقد اطلعت على كتاب فى مجلد ضخم خاص بحياة هذا الشهيد لشيخنا العلامة محمد بن أحمد ابن الحاج

(٢) ابن هاشم — العلامة الموثق الماهر الحيسوبى إمام نـابى مدينة فاس قال عنه فى النبذة : هو الآن زعيم الشعبة الـكتانية وإليه يرجع فى معرفة أصولها وفروعها . عمر طويلاً له بضع مؤلفات أشهرها « الشكل البديع فى النسب الرفيع » فى مجلدين أرخ فيه لعائلات الأشراف بفاس و « زهر الآس فى بيوتات فاس » فى أربع مجلدات تكلم فيه على أولية جميع البيوتات الفاسية ما عدا الأشراف ، وكلاهما يدل على سعة اطلاعه وإتقانه فى هـذا الباب (٠٠ — ١٣٥٠)

(٣) الطاهر — قال عنه فى النبذة : هو الفقيه العلامة المرتدى برداء الحياء والفضل والـكرامة من أهل العلم والتقوى والديانة والمروءة والعفاف والصيانة . ألف في كثير من الفنون ، وتصانيفه تربو على الستين لم يطبع منها غير كتاب واحد فى اقتران كلمتى الشهادة (٠٠ — ١٣٤٧)

(٤) عبد الحفيظ — عالم شاعر أديب بينه وبين العلامة الوزير عبد الله الفاسي مساجلات معروفة ، تخرج فى الأدب على العلامة الأديب الـكبير أحمد ابن المواز (٠٠ — ١٣٤٥)

يعد كالمعاصر للملك الكتاني يحيي بن عمران إذ أبو عبيد مات[١] فى آخر القرن الخامس والكتاني مات فى آخر القرن الرابع

وهأنذا مورد طائفة من الكتب التى فيها تاريخ أسلافه بعضها خاص بهم والبعض الآخر مذكورون فيها ضمن باقى الأسر المغربية عرفت من القسم الثانى « المسالك والممالك » لأبي عبيد و « تاريخ الأدارسة » للبرنسى و « أنيس الأنيس » لا أعرف مؤلفه « وكتاباً » للأزوارقانى و « مختصر البيان فى نسب آل عدنان » للشيخ الامام المقرىء أبي العباس احمد بن محمد بن عبد الله بن جزى الكلبي و « معدن الأنوار فى التعريف بأولاد النبي المختار » للشيخ الامام أبى العباس احمد بن محمد بن عبد الله القرى التلمساني و « ابتهاج القلوب بخبر أبي المحاسن وشيخه المجذوب » للشيخ الامام عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي وهما نسختان : قديمة وقعله فيها خلط كثيرأجمع على نقدها وتزييفها نطقاً وكتابة كل من وقف عليها من المؤرخين والنسابين — وفيهم أخوه شيخ الجماعة محمد وجماعة من آل بيته — وجديدة نقحها واستدرك فيها على نفسه ، وبتجديد المؤلف لهذا الكتاب بنفس العنوان الأول معناه عنده التنبيه على عدم اعتماد النسخة القديمة خصوصاً وقد زاد فى الجديدة أشياء لم تكن فى الأولى وحذف منها ما تعثر فيه قلمه من الاخطاء ، وكلا النسختين فى متناول اليد ... و « درة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان فى الإعلام بغرر الأنساب وذكر بعض الأشراف ذوى الأحساب » للامام الكبير محمد بن محمد بن محمد الدلاني البكرى و « شرحها » للعلامة المشارك محمد بن احمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي و « الدر السني فى بعض من بفاس من أهل النسب الحسنى » للعلامة الكبير الشريف عبد السلام بن الطيب القادرى و «التنبيه من الغلط والتلبيس فى بيان أولاد الامام محمد بن ادريس » للفقيه العالم المؤرخ الشريف محمد بن احمد بن على الكتانى ، وكتاباً فى « الأنساب » للشيخ الامام أبي بكر بن محمد السيوطى المكناسى ، وكتاباً آخر فى « الأنساب » أيضاً لولده الامام النسابة أبى زيد السيوطى و « عقد اللآلى المستضيئة النورانية لنفي ظلام التلبيس فى سلالة مولانا إدريس بن إدريس » له أيضاً ، وكتاباً فيه الجواب على أسئلة تتعلق بالسبطين » للشاعر الكاتب احمد بن عبد القادر القادرى و « الروضة المقصودة والحلل الممدودة فى مآثر بنى سودة » و « السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر من أعقاب الشيخ عبد القادر » كلاهما للأديب الكبير العلامة الشريف سليمان بن محمد الحوات و « سلوك الطريق الوارية فى الشيخ والمريد والزاوية » للصوفى الواعظ الكبير الشريف محمد بن على المنالى الزبادى و « تحفة الحادى المطرب فى رفع نسب شرفاء المغرب » للمؤرخ الأديب الشهير أبى القاسم بن احمد بن على بن ابراهيم الزيانى و « الدرة[١] الفائقة فى أبناء على وفاطمة » للعلامة الشريف الزكي بن محمد المدغرى و « الإشراف على بعض من بفاس من مشاهير الأشراف » للعلامة المؤرخ القاضى محمد الطالب بن حمدون بن الحاج و « الدرر البهية والجواهر النبوية » للعلامة النسابة الشريف ادريس بن أحمد الفضيلى

وأما الكتب الموضوعة فيهم خاصة فعرفت منها « الكوكب السانى فى النسب الكتاني » للفقيه العالم المدرس مبارك بن عمر العبدي الأسفى و « نظم الدر واللآل في شرفاء عقبة ابن صوال » للقاضى ابن الحاج صاحب كتاب الاشراف المتقدم ذكره ، وشرفاء عقبة هو اللقب الذى كان يعرف به أسلاف الامام في القرن العاشر كما ذكرت قريباً و « الروضة المنيفة فى النسبة الكتانية الشريفة » لقاضى حدكورت الحالي العلامة المؤرخ عبدالحفيظ الفاسى و « الرياض الربانية فى الشعبة الكتانية » لوالد المترجم شيخ الاسلام الشريف جعفر الصادق و « النبذة اليسيرة النافعة التى هي لاستار جملة من أحوال الشعبة الكتانية رافعة » للامام المترجم و « الجوهر النفيس فى النسب الكتانى » لأخى المترجم العلامة الكبير الشريف عبد الرحمن و « منتهى الأمانى فى التعريف بالنسب الكتانى » و « الجوهر المكنون فى ذكر فرع[٢] الحلبي المصون » كلاهما للعلامة الشريف طاهر بن حسن الكتانى و « المظاهر السامية فى النسبة الشريفة الكتانية » لصاحب التراتيب الادارية[٣]

---

(١) في الصلة لابن بشكوال أنه توفى سنة ٤٨٧ ونقله ابن أبى أصيبعة والصفدى والسيوطى وغيرهم . وفى بغية الملتمس أنه توفى سنة ٤٩٦ قال الأستاذ عبد العزيز الميمنى في مقدمة شرح أبى عبيد على أمالى القالى ولا غرو أن الضبي أو ناسخ كتابه قد وهم

(١) قد نسب هذا الكتاب لغير هذا المؤلف راجع مصادر السلوة

(٢) مرجع عائلة الامام اليوم إلى فرعين : الطيبيين والحسيين — والمترجم من الفرع الثانى — وهذا الكتاب خاص بهذا الفرع

(٣) هو العلامة الشريف عبد الحى الكتانى

هذا مجمل تاريخ أسلافه فى المغربين — الأقصى والأوسط — وبهذا فقط اعتنى مؤرخو المغرب وكنت أحسب كثيرى أن سلفه لم يرحلوا إلى الشرق قديماً وبالحري أن يكون لهم فيه ذكر أو تاريخ حتى كشف « الغيب » عن خطئى وتقصير جميع مؤرخينا إذ ثبت أن لهم بالشرق الأقصى — جاوى — تاريخاً خالداً ومجداً لا يبيد

لـما رجع الأستاذ الهاشمي التونسي من رحلته الطويلة لبلاد جاوى مر فى طريقه على مصر فاستقبله الصحافي السيد محيي الدين رضا مندوباً عن جريدة المقطم ليسأله عن حالة جاوى العامة ، فأجابه الرحالة التونسي بحديث مسهب نشرته المقطم فى عدديها الصادرين فى ١٣ و ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٩ ونقلته عنها مجلة الدهناء الجاوية التى تصدر بمدينـة سورابايا فى عدديها (١٩ و ٢٠) من السنة نفسها الموافق لربيع الثانى سنة ١٣٤٨ . أقتطف من هذا الحديث ما يتعلق ببحثي ، قال الأستاذ الهاشمي :

« ... دينهم — الجاويين — الاسلام اعتنقوه فى أواخر المائة الثامنة من الهجرة وأوائل القرن التاسع على يد طائفة من رجالات المغاربة من أسرة الـكتانى الموجودة إلى اليوم فى مراكش حسبما هو مكتوب ومنقوش على المشاهد وألواح المرمر التي فوق قبور أولئك الدعاة والتى لا تزال ماثلة واضحة القراءة بخطوط بديعة ، وهذه القبور تعرف حتى الآن بين عامة الجاويين بقبور المغاربة فى مدينة « نبتام » فى أقصى الجزيرة الغربى ومدينة « سورابايا » فى أقصى الجزيرة الشرقي ومدن « الطوبان » و « شربون » و « سومدانج » و « دماك » فى قلب الجزيرة الجاوية ومن يراجع تاريخ سديو الفرنسى ير فى الفصل المعقود لتقدم العرب فى الملاحة كيف أن عرب الأندلس والمغرب أول من اجتاز جزائر الخالدات إلى خليج غينيا ورأس الرجاء الصالح متوجهين رأساً إلى أقصى الشرق من طريق أقصى الغرب

وحين كنت بالأزهر الشريف سنة ١٣٥٣ سألت عن هؤلاء المغاربة الدعاة الطلبة الجاويين — وهم كثير بالأزهر — فأجابونى بمـا معناه : من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفانى فى جاوى كلهم يعرفون أن الـكتانيين المغاربة هم من هدى الله للاسلام على يدهم خمسين مليونا من القطر الجاوى ، وهذه أضرحتهم الفخمة فى مختلف مدن بلادنا لا تزال ناطقة بذلك ما دامت جاوى جزءاً من أجزاء المعمور »

ولما كنت لا أعتبر تاريخ دخول الاسلام لجاوى رابطة عائلية فحسب بل أعتبره صلة متينة بين جاوى والمغرب

ولما كنت لا أعرف سوى ما قصه عليه الأستاذ الهاشمى وأيده لى الطلبة الجاويون بالأزهر

ولما كنت فى شك مما نشر فى المقطم حيث تتبعت كل ما كتبه زعيمنا الاسلامى العلامة شكيب أرسلان فى تعاليقه على حاضر العالم الاسلامى فلم يذكر كون الدعاة الناشرين للاسلام بجاوى هم من آل الـكتانى ، على أنه صرح بأنهم مغاربة ، وتركني أشك فى هذا ما أعتقده فيه من الاطلاع الواسع الذى « أعدم نظيره » فى هذا العصر على الدقيق والجليل من أحوال الأقطار الاسلامية النائية ويكفي للتدليل على ما أقول تعاليقه الرنانة فوائد وعلوماً على « حاضر العالم الاسلامى » فضلا عن عشرات المؤلفات التى يتحف بها العالم الاسلامى بين حين وآخر وكلها مشهورة بل محفوظة عن « ظهر قلب » فأنا أرجو من سمو الأمير وحضرة الرحالة التونسى وسماحة العلامة الـكبير مؤرخ جاوى الحبيب محمد ابن عبد الرحمن ابن شهاب العلوى الحضرمى ومن كل من له خبرة واطلاع على الموضوع أن يفيدونا ــ مشكورين مأجورين ــ عن وقت دخول هؤلاء المغاربة الـكتانيين إلى جاوى ، وعن أسمائهم وتراجمهم وما سبب رحلتهم هذه الطويلة — من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق — وهل تركوا عقباً بها ، وبماذا يعرف اليوم مع ذكر المصادر بأى لغة كانت المطبوع منها والمخطوط

محمد المنتصر الـكتانى

شد الرحال إلى الجبال

للأستاذ عز الدين التنوخي

وأخيراً عاد الأمير شكيب أرسلان من جُـنَبرة[١] إلى لبنان ؛ وبعد أن قرت عين المسافر بالاياب ، وألقى عصاه بين أهله والأحباب ، حركني وصديقي الشيخ محمد بهجة البيطار شوق مبرح إلى زيارة أمير البيان في رحابه ، فشددنا الرحال إلى الجبال ، أو بالحرى أدرنا العجلات نحو الهضبات ؛ وأحب أن يرافقنا فى السيارة لهذه الزيارة : الشيخ بهجة الأثرى البغدادىّ والشيخ ياسين الدّواف النجدىّ والشيخ على الطنطاوى الدمشقىّ الذى لا يجهله قرّاء الرسالة . وما زالت سيارتنا بسم الله مجراها ومرساها تصعد فى الجبال تارة وتصوّب فى بطون الأودية أخرى حتى بلغنا العشية عين صوفر عرين الأمير ، فعلمنا أنه فى كورة الشوف يردّ الزيارة لوفود القرى التى استقبلته يوم رجوعه إلى ربوعه ، وكان علينا أن نكتب إليه بزيارتنا من دمشق ، فذلك الاهمال أو النسيان ، قد دهانا بهذا الاخفاق أو الحرمان ، ولم يخفف شيئاً من حسرتنا إلا علمنا بأن أمير البيان سيهبط النوطة بعد أيام قليلة ، ولذا عوّلنا على العودة إلى الفيحاء من طريق الفالوغة وفيها خليل لنا مصطاف يقال له إبراهيم[٢] ، ولما هبطنا بالسيارة واديه ، وحللنا ناديه ، ونلنا قسطنا من الراحة وحظنا من الراح[٣] نهضنا لامتطاء سيارتنا فأقسم علينا : لا رحيل لكم اليوم ولا براح ، فلم نجد بداً من النزول عليه مكرهين ومكرمين

وغداةَ غدٍ صعدنا إلى « عين الصحة » المعدنية فى جبل الفالوغة والتى تعلو سطح البحر بنحو ١٥٠٠ متر ، وقد اشتهرت بأنها للرمل حطوم ، وللأطعمة هضوم ، اشتهار « عين بُـقين » فى وادى الزبدانى من مصايف دمشق . وأخبرنى الكيماوىّ الثقة الذى حلل الماءين أن ماء بقين أخف مياه الشام فى الثقل ، وأشفاها لآلام الكلى والعلل ؛ وإنما سميت بعين بقين لأن المريض إذا عبّ منها عبتين ، أو شرب كما يقول العامة بُـقَّين ، هضم الطعام وشفى الكليتين

وإلى جانب عين الصحة مقهى صغير تناولنا فيه صبوحنا من صهباء المـاء والخبز المرقوق واللبن الخاثر والبيض المسلوق ؛ وقد شاركنا فى رحلة الصباح هذه وفى الاصطباح صديقان كريمان : القاضى خليل رفعة[١] والصوفى شمس الدين ، وتخلف فى الفالوغة السيد ابراهيم معتذراً وقد خشي أن يبهره الصعود ، فاغتاظ رفاقه لتخلفه هذا لأن شرط المرافقة الموافقة ، وأغرونى بهجوه فقلت لهم على العين ، هذين البيتين ، ومسحة الارتجال بادية عليهما :

إذا لم تزر فالوغة ورياضها ... ولم تشهد الجنات حولك ألفافا
وإن أنت لم تصعدْ إلى عين صحةٍ ... ولم تروَ منها لم تكُ الدهر مصطافا

وعلى يسار المقهى خيام أربعة من الطيارين الفرنسيين مع أزواجهم وأطفالهم ، وبذلة أحدهم تتألف من سرويل قصير أزرق وقميص شفاف أبيض ، والنحور والصـدور والظهور حواسر ، والأفخاذ والسوق والاقدام ظواهر ؛ وهؤلاء الرفاق يأتون من مطار رياق للاستشفاء بالماء والهواء ، فيقضون فى الأسبوع يوما كاملا فى مثل خيام الكشافة ويعيشون فيها عيشة الكشافة ومعهم جميع أدوات المطبخ فلا يحتاجون فى ملهى الأطعمة إلى شيء غير ماء العين . ولعل الارتياض على الحيـاة الكشفية فى الصغر قد ذلل لهم فى الكبر صعابها وألان لهم رقابها وجعلهم يبتغون لها الوسائل والأسباب

وفى نحو الثامنة من الصباح وقفت على العين سيارة ترفع علماً فرنسيا صغيراً يدل على أن ركابها من المفوضية الفرنسية ببيروت وفتح الباب فنزل منها أبوان شيخان وأطفال ثلاثة يحمل كل منهم عصاً ذات زج كالمزراق ، وعلى ظهره حقيبة الجند ، وعلى رأسه قبعة كبيرة تحاكي مظلات اليمن والجزائر ، وفى رجله حذاء صفيق الجلد نائىء المسامير يذكرنا بمداس الأصمعي الذى قال فيه : « نعم قناع القدرى هذا »

والتفت إلىّ رب المقهى قائلاً : هذان الجدّان هما المسـيو بريال Beriel وزوجه ، وهؤلاء الثلاثة الأولاد أحفاده ؛ يأتى بهم فى الأسبوع مرة ليصعد إلى قمة الجبل ، ويترك على العين سيارته

(١) كذا كان يسميها آباؤنا ، وهى اليوم (جنيف) مقر عصبة الأمم
(٢) السيوفى من قضاة دمشق العادلين
(٣) أى القهوة وهى راح العربى

(١) نائب دمشق العام ومن أنصار العدل فيها ، والصوفى شيخ التكية المولوية بدمشق

وهو يرتاض بذلك وزوجه العجوز التي جاوزت الستين ، ويروض أحفاده على حياة الجنود ، والغربيون يعودون أطفالهم صغاراً ما يضطرون إليه كباراً ، مجارين في ذلك غرائز الطبيعة ؛ لأنا نشاهد الأولاد يركبون العصىّ استعداداً لركوب الجياد ، ونرى البنات يكثرن الوقوف أمام المرآة تعوداً لما يعملنه وهنّ أمهات

إن حياتنا الشرقية ركود وكسل ، والحياة الغربية حياة نشاط وعمل ؛ فالجماعة منا إذا خرجوا إلى ظاهر المدينة للتنزه جلسوا على ضفة بردى أو النيل أو الفرات ، وأخذ بعضهم يغلي شراب الجاه[1] ، وشرع الآخرون في الحديث أو الغناء ، وإلى جانبهم مضطجعون ، أو على الآرائك متكئون ؛ وإذا خرجت رفقة من الأوربيين إلى التنزه أخذوا في الارتياض بأنواع الرياضات والألعاب ، فهذا يلاكم وذا يصارع ، وهذا عدّاء وذلك وثاب ، وهذان فريقان يجرّان الحبل ، أو يتقاذفان الكرة بالراحة[2] أو القدم ؛ فالتنزه في عرفنا للطعام والشراب أو الاضطجاع أو السماع ؛ وفي عرف الغربي للعدو والوثب والصراع ، والحركة يراها بركة ، والتواني والسكون هلكة

ثم التقينا على العين بإخوان لنا من رجال العراق ، فتجاذبنا أطراف الأحاديث إلى أن تحدثنا عن الانقلاب العراقي الأخير فحمدنا الله على حدوثه ، ولم يستشر فساد أو تعم فتنة ، وعلى إرساله لإنقاذ الموقف الخطير ذلك الرجل الاداريّ الحكيم ، والجندي العربي الصميم « السيد جميل المدفعي » الذي قضى حياته في الدفاع عن حوزة العروبة ، والذي أجمعت الكلمة لسلامة دواعي صدره على الثناء عليه وعلى محبته ، والاعتصام في هذا المأزق الضيق بعروته، ثم ودّعنا إخواننا بعد أن تزودنا من شرب الماء عبا ، ونزلنا راجعين إلى حمّانا ونحن نمتع العيون بسواحر المناظر من وادي حمّانا الذي غنى باسمه من قبلنا لامرتين ، وكان منظر الصنوبر الأخضر على الجبال أروع هاتيك المناظر وأبدعها وأشدها للعين بهراً وللقلب سحراً ، فقد جعل كل من أصحابي يترنم ببعض الأغنيات ، وجعلني أرتجل الشعر مغنياً بهذه الأبيات :

أوادي حمّانا سقيت وأخصبت ... رُباكِ مغاني الحسن والحسناتِ
شهدتُ لقد شاهدت فيكَ صنوبراً ... يبدّد ما في القلبِ من حسراتِ
وخلت الغواني في الجبال حواملاً ... مِظلاّتِهن الخضر والنضراتِ
وسربَ نعام أبصر السيل هادراً ... فأسندَ مرتاعاً إلى الهضباتِ
هل المسكُ من هاماتك الخضر فائحٌ ... أم المسك من غاداتك العطِراتِ
لَطبتَ أيا وادي الصنوبر وادياً ... وباركَكَنّ الله من شجراتِ!

« دمشق » عز الدين التنوخي

(١) وهو الشاي كما ذكره الامام البيروتي في كتاب الصيدنة

(٢) أي التنس ، والراحة أخذها الانكليز من العربية فقالوا racket (أنظر معجم دبستر الكبير)

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

أعمق الساعات صمتاً

ماذا جرى لي يا صحابي ؟ لقد سادني الاضطراب فأضعت هداي وأراني مندفعاً بالرغم مني إلى الرحيل والابتعاد عنكم وآسفاه أجل ، على زارا أن يعود إلى عزلته ، غير أن الدب يرجع إلى مغارته كئيباً حزيناً . ماذا جرى لي ومن ترى يضطرني إلى الرحيل ؟

إنها (هي) مولاتي الغاضبة ، لقد كلمتني فأعلنت لي إرادتها وما كنت ذكرت لكم اسمها حتى اليوم ، هي أعمق ساعاتي صمتاً وهي نفسها مولاتي القاهرة ، كلمتني أمس

وسأقص عليكم ما جرى فلا أخفي عنكم شيئاً كيلا يقسو قلبكم علي وأنا أفاجئكم برحيلي عنكم

أتعلمون ماهي خشية من يستسلم للكرى ؟ إنه الذعر يستولي على الانسان من رأسه إلى أخمص قدميه ، لأن أحلامه لا تبتدئ ما لم تنسحب الأرض من تحته

إنني أضرب لكم أمثالا ، فاصغوا إلي :

أمس عند أعمق الساعات صمتاً خلت الأرض من تحتي وبدأت أحلامي

وكان العقرب يدب على ساعة حياتي في خفقانها ، وما كنت سمعت من قبل مثل هذا السكوت يسود حولي ويروع قلبي

وسمعتها (هي) تقول لي ، ولا صوت لها : إنك تعرف هذا يازارا فصحت مذعوراً عند سماعي هذه النجوى وتصاعد الدم إلى رأسي

فعادت هي تقول ، ولا صوت لها : أنت تعرف هذا يا زارا ولكنك لا تعلنه .

فانتفضت وأجبت بلهجة التحدّي : — أجل إنني أعرف هذا ولكنني لا أريد أن أعلن ما أعرف

فقالت (هي) ولا صوت لها : أصحيح أنك لا تريد ؟ لا تخف نفسك وراء هذا التحدّي يا زارا

فأخذت أبكي وأرتعش كالطفل قائلا : ويلاه ، أريد أن أصرح ، ولكن هل ذلك بامكاني ؟ أعفني من هذه المهمة لأنها تفوق طاقتي

فقالت، ولا صوت لها : وما أهميتك أنت يازارا قل كلمتك وتحطم

فقلت : أهي كلمتي ما يهم ، فمن أكون أنا ؟ إنني أنتظر من هو أجدر مني باعلانها وما أنا أهل لأصطدم بالمنتظر فأتحطم عليه

فقالت ، ولا صوت لها : وما أهميتك أنت ما دمت لم تصل بعد إلى ما أريده من الاتضاع ؟ وما أقسى ما يتشح به الاتضاع ، وما أصلب جلده .

فقلت : لقد تحمل جلد اتضاعي كثيراً ؛ فأنا ساكن عند قاعدة ارتفاعي ولم يدلني أحد بعد على ذراه العاليات ، ولكنني تمكنت من سبر أغواري ومعرفتها .

فقالت ، ولا صوت لها : أي زارا ، وأنت المعدّ لنقل الجبال من مكان إلى مكان . أفما بوسعك أن تنقل أغوارك ومهاويك أيضاً ؟

فقلت : لم تنقل كلمتي الجبال بعد ، فإن ما قلته لم يبلغ حتى آذان الناس ، لقد أتيت إلى العالم غير أنني لم أتصل به بعد .

فقالت ، ولا صوت لها : وما يدريك ..؟ إن الندى يتساقط على العشب في أشد أوقات الليل سكوتاً .

فأجبت : لقد هزأ الناس بي عند ما اكتشفت طريقي ومشيت عليها ، والحق أن رجليّ كانتا ترتجفان إذ ذاك ، فقال لي الناس : لقد ضللت سبيلك يا زارا ، بل أصبحت لا تعرف أن تنقل خطاك

فقالت ، ولا صوت لها : وأية أهمية لسخريتهم ؟ لقد تخلصت من الطاعة يا زارا فوجب عليك أن تأمر الآن . أفلا تعلم أن من يحتاج الجميع إليه بأكثر من احتياجهم إلى أي شيء إنما هو من يقضي في عظائم الأمور ؟

إن القيام بالكبائر صعب ، وأصعب من هذا أن يأمر الانسان بها . إن ذنبك الذي لا يغتفر هو أنك ذو سلطان ولا تريد أن تحكم

قلت : ليس لي صوت الأسد لأصدر أوامري

فقالت — كأنها تهمس همسا — : لا يثير العاصفة إلا الكلمات التي لا صوت لها ؛ إن من يدير العالم إنما هي الأفكار التي تنتشر كأنها محمولة على أجنحة الحمام . عليك أن تسير يا زارا كأنك شبح لما سيكون يوماً في آتي الزمان ؛ وهكذا تندفع في سبيلك إلى الأمام وأنت تتولى الحكم

فقلت : إن الخجل يتولاني

فعادت تقول ، ولا صوت لها : عليك أن تعود طفلا فيذهب خجلك عنك ؛ إن غرور الشباب لما يزل مستولياً عليك لأنك بلغت الشباب متأخراً ، ولكن على من يريد الرجوع إلى طفولته أن يتغلب على شبيبته

واستغرقت في تفكيري وأنا أرتجف ، ثم عدت إلى تكرار كلمتي الأولى قائلاً : لا أريد . وعندئذ ارتفع حولي صوت قهقهة مزقت قلبي وصدعت أحشائي

وقالت (هي) للمرة الأخيرة : أي زارا ، إن أثمارك ناضجة ، غير أنك لم تنضج أنت لأثمارك ، فعليك إذن أن تعود إلى العزلة لتزيد في قساوتك ليناً

وعاد الضحك يتعالى ، فشعرت أنها انصرفت عني (هي) وعاد الصمت يسود بأعمق مما كان حولي ، أما أنا فبقيت منطرحاً على الأرض سابحاً في عرقي

والآن ، وقد أعلنت لكم كل شيء أيها الصحاب، فهأنذا أعود إلى عزلتي وما أخفيت عنكم شيئاً . أرحل عنكم بعد أن علمتم أن تعرفوا من هو أشد الناس تكتماً ومن يريد أن يكون كتوماً

واأسفاه ، أيها الصحاب ، إن لدي ما أقوله لكم أيضاً ، ولدي ما أبذله ، فلماذا لا أبذله الآن ؟ ألعلني أصبحت شحيحاً ؟

وما نطق زارا بهذا حتى أرهقه سلطان حزنه لاضطراره إلى الرحيل ، فبكى منتحباً وما تمكن أحد من تعزيته ، ومع هذا ما أرخى الليل سدوله حتى ذهب زارا وحده تحت جنح الظلام متخلياً عن صحبه

(يتبع) فليكس فارس

خواطر

فى الموت والخـــلود

للأديب عبد الوهاب الأمين

لى صديق لايخشى الموت لأنه لايفكر فيه ، ولهذا الصديق فلسفة رائقة فى الاطمئنان ، تعجبنى لأننى لا أعتقد بها ؛ وقد حاولت أن أحاوره فيها فرأيت أنه يحتمى بالعقل ويجعله مدار التفكير ، ولا يقيم وزناً لعاطفة الخوف من الموت أو الجزع من لقائه ، فهو مطمئن أولاً ، ومعتقد بتفاهة الموت ثانياً ؛ وقد اختلط هذا الاطمئنان بذلك الاعتقاد فتشكل منهما شعور جديد ، فكأن صاحبي هذا لايفكر بعقله بل يفكر بعاطفته

يقول صاحبي :

« إن الموت خاتمة طبيعية محتومة لحياة الانسان ، فالتفكير فيه عبث لاطائل تحته ، مادام أن التفكير ، مهما طال وعمق ، لايغير تلك النتيجة المحتومة ، حتى ولو صدقت ادعاءات بعض المشتغلين بالعلم من أمر إطالة العمر ، أو تجديد الشباب ، فان هذين لايعنيان الخلود . فلو فرض أن إعادة الشباب كما يصورها الدكتور « فرونوف » صحيحة ومؤكدة علمياً ، فان من الصحيح والمؤكد كذلك ، أن نهاية هذه الحياة ، مهما طالت ، هى الموت ؛ والتفكير فى الموت مهما كانت كيفيته ، سخيف لاطائل تحته

« هذا لو كان التفكير في الموت فى حد ذاته لايؤثر تأثيراً سيئاً فى أعصاب الانسان ، أما وأنه يورث السوداء ، ويسيء إلى الأعصاب ، بل ينهكها ، ويضع غشاوة بين ناظرى الانسان وبين مناظر الحياة ، فأحرى بالعاقل ألا يشترى بسعادة الاطمئنان والغفلة قلق التخوف وانتظار الشر ، وأن يستمتع بالحياة كما تأتيه لا أن يضع فى كأسها سم التخوف والتفكير فى الموت »

فاعترضت قائلاً :

« إن التفكير في الموت سخيف كما تقول ، ولكن الانسان يفكر في الموت بالرغم منه ، وهو لو وجد سبيلا إلى النسيان والغفلة عنه لما تردد فى ذلك ، ولكنى أجدنى فى بعض الأحايين ترهقني أخيلة الموت وأنا على أتم ما أكون صحة وراحة بال ، ولا يكون تفكيري هذا بإرادة منى ، فإنى لا أرغب أن أشوب حالة الراحة التى أنا فيها بقلق غير مرغوب »

فقال :

« إن هذا الوهم الذى تمكن منك بسيط ، فأنت تعتقد حين يرد ذكر الموت على خاطرك أن ذكره لايرتفع من وهمك ، وتتصور العجز ، ومن تصور حالة من الأحوال النفسية واعتقد أنه فيها ، فهو فيها لامحالة ؛ وكذلك من يتصور أنه مريض اعتقاداً جازماً ، فانه يمرض »

قلت : فما الحل إذن ؟

فقال :

« إن أبسط الوسائل للتخلص من هـذه الأحوال النفسية هو الرجوع إلى « العقل » . فلو فكر المرء واستعمل عقله استعمالا صحيحاً في هذه القضية ، فإن الرهبة والجزع من الموت لا يزولان منه فحسب ، بل يرى فيهما مثالاً من أمثلة السخف تدعو إلى الرثاء .

« إن الخوف من الموت بالطبع يستلزم وجود الألم . أى أن الانسان لا يخشى الموت إلا لأنه يتصور أن فيه ألماً جسمياً أو روحياً ؛ وقليل من التروى يؤدي إلى سخافة هذا الرأي ، فإن حالة الموت لا تكون إلا إذا انتفت الحياة الشاعرة ، أو القدرة على إدراك الألم فى الإنسان . أى أن الانسان لايموت إلا وهو مائت ، ولا يشعر بألم الموت لأنه لا يشعر بالألم إلا الجسم الحى . وما دام الجسم حياً فهو غير ميت طبعاً ، وإذا مات فإنه لا يشعر ، وفى كلتا الحالتين ليس هناك ألم ولا موضوع للألم يخشاه الإنسان

« هذا إذا كان أساس الخوف هو تصور وجود الألم ، أما إذا كان أساسه الفزع من فقدان الحياة ، فإن الأمر أدعى إلى الرثاء ! فإن الذى يخشى أن يفقد شيئاً يحبه أحرى به أن لايفكر فى فقدانه ، فالتفكير فى ذلك مدعاة إلى تشويه حسن ذلك

الشيء ، وهؤلاء السوداويون الذين يدعون حب الحيـاة وهم يفكرون دوماً أن هذه الحياة زائلة وأنهم فاقدوها لامحالة مخطئون ولا شك ، وأحرى بالمرء أن يعيش كما جاء إلى الدنيا ، فلا يسأل ولا يضع موضوعاً للتساآل أمام عينيه ، فإنه سيموت قبل أن يصل إلى جواب »

***

وقد جرني التفكير فيما يجرى فى هذا السبيل إلى التفكير في « الخلود » ضـد الموت وعدوه ، فالمرء بطبيعة الحال يخشى الموت ولا يرغب فيه ، وهو بذلك كأنه يريد الخلود ، فما هو الخلود يا ترى ؟ وكيف يرى الحياة مخلوق خالد ، لو أمكن تصوره ؟

وقد قرأت كثيراً فى كتب الأدب عن الفكرة التى تمثل للأديب في صدد الخلود ، والحياة الخالدة و « الفردوس » ولـكنى لا أكتم القاريء أننى لم أستطع أن أرضى شعورى الفنى بلذة الحياة الخالدة ، فضلاً عن أنى لا أستطيع أن أفهم كيف تكون هناك « حياة » فى « خلود » ! كما أن من المعلوم أيضاً أن الخلود لم يجد من الأدباء على وجه العموم التفاتاً جدياً بل كان فى أكثر كتابات الـكاتبين الرمزيين والخياليين فقط ؛ ولعل الأستاذ المازنى أشد أدباء العربية سخرية بالخلود وبالأدب الخالد .

وما دمنا فى حديث الخلود فى الأدب فما هو ياترى المقصود به ؟ وأى أدب خلد أو سيخلد ؟ وهل فى وسع المرء أن يتصور للخلود عمرا ؟

لا ريب أن تاريخ الأدب لا يتعدى بضع مئات من السنين ، وأرجو ألا يسارع القاريء فيذكر لي أوراق البردى وشعراء الفراعنة فهذه الآثار لم تخلد — إن صح أنها خلدت — لأنها من الأدب بل لأنها من التاريخ ... فما قيمة مئات السنين هذه في عمر الدنيا ؟ وهل هذه المئات من السنين هي المفهوم من معنى « الخلود » فى الأدب ؟ إن كان ذلك فما أشد بؤس الأدب وما أحوجه إلى إلى خلود أطول عمراً !

هذا فى الأدب ، أما فى حياة الفرد فالرزء أعم كما أسلفنا ، وبالرغم من أن جميع البشر يتمنون الخلود فإنه ليس أبرد منه وأخلى من السعادة الموموقة . وأمامى قطعة من شعر العقاد لعله لم يقلها فى هذا المعنى ، ولـكنه يستفاد منها وهي :

لو علمنـا حظنا من يومنا ... ما بكى الصبية فى غض السنين
أى كنز قد سفكناه على ... حسرات تضحك القلب الحزين!
حجبت عنا مزايا عمـــرنا ... فبكى من هو بالصفو قمين
وقضينا العمر لاندرى بمـا ... بين أيدينا وندرى ما يبين
نجهل الورد فنرميـه ولا ... يجهل الشوكَ الفتى وهو طمين
أترانا لو علمنـا حظنـا ... من غد نقنع بالحظ الرهين ؟
أم ترانا نحمد الخطب إذا ... حان علماً بالذى سوف يحين ؟
إن شكونا قيل لاتشكوا فقد ... أنصفتكم هذه الدنيا الخؤون
لو درى الطفل بما سوف يرى ... شقى الطفل بما سوف يكون

والمـازنى يقول فى أحد كتبه ما مؤداه : تعساً للجيل الذى يكون فى حاجة إلى أدبنا هذا . وهو يقولها في سخرية ، فلعله لايقصد أن يقتصر على السخرية فقط فإن فى هذه الـكلمة معنى حقيقياً عظيم الأهمية

« بغداد » عبد الوهاب الأمين

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٣١ — وأما بذل بقول فمحال

فى (محاضرات الأدباء) : كان محمد بن بشير ولى فارس فأتاه شاعر فمدحه فقال : أحسنت ! وأقبل على كاتبه وقال : أعطه عشرة آلاف درهم . ففرح الشاعر ، فقال : أراك قد طار بك الفرح بما أمرت لك . يا غلام ، اجعلها عشرين ألفاً . فلما خرج قال الكاتب : جعلت فداك ! هذا كان يرضيه اليسير ، فكيف أمرت له بهذا المال ؟ ! فقال : ويحك : أوتريد أن تعطيه ذلك ؟ إنما قال لنا كذبا سرّنا ، وقلنا له كذبا سرّه (١) ، فما معنى بَذْل المال ؟ أما قول بقول فنعم ، وأما بذل بقول فمحال

٢٣٢ — فتركتها للناس لا لله

أبو جعفر القرطبي :

وأبي المدامة ما أريدُ بشربهـــا
صلَفَ الرقيع ولا انهماك اللاهى (٢)

لم يبق من عصر الشباب وطيبه ... شيء كعهدى لم يحل إلاهى
إن كنت أشربها لغير وفائها ... فتركتها للناس لا لله (٣)

٢٣٣ — راقه باعتداله وهندسته

فى (أدب الكتاب) للصولي : كتب سليمان بن وهب كتاباً إلى ملك الروم فى أيام المعتمد (العباسى) فقال : ما رأيتُ للعرب شيئاً أحسن من هـذا الشكل ، وما أحسدهم على شيء حسدى إياهم عليه

وإنما راقه باعتداله وهندسته وحسن موقعه ومراتبه

(١) مما يروى :

ألم تر أنى أزور لوزير ... فأمدحه ثم أستغفر
فأثنى عليه ويثنى على ... وكل بصاحبه يسخر

(٢) وأبي ؛ الواو للقسم

(٣) إن كنت : أى والله لئن كنت ، حذف القسم ولامه الموطئة أو المؤذنة ، وربط جواب الشرط بالفاء فى (فتركتها) مرجحاً على القسم وهذا قليل كما بينت ذلك من قبل

٢٣٤ — وهذا أيضاً مما يكتب

كان أبو حاتم السجستانى يكتب عن الأصمعى كل شيء يلفظ به من فوائد العلم حتى قال فيه : أنت شبيه الحَفَـظَة (١) تكتب لغط اللفَـظَة . فقال أبو حاتم : وهذا أيضاً مما يكتب

٢٣٥ — الحجاج الكهاكه

في (الفائق) للزمخشرى : الحجاج (٢) كان قصيراً أصعر (٣) كُها كِهاً (٤) : هو الذى إذا نظرت إليه كأنه يضحك وليس بضاحك ، من الكهكهة (٥)

٢٣٦ — فاجتمع له العمى من جهتين

ابن الأثير فى كتابه (المثل السائر) : بلغنى عن أبى العلاء ابن سليمان المعرى أنه كان يتعصب لأبى الطيب حتى أنه كان يسميه الشاعر ، ويسمى غيره من الشعراء باسمه ، وكان يقول : ليس فى شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو فى معناها فيجيء حسناً مثلها . فياليت شعرى أما وقف على هذا البيت :

فلا يبرم الأمر الذى هو حالل ... ولا يحلل الأمر الذى هو يبرم

فلفظة حالل نافرة عن موضعها وكانت له مندوحة عنها لأنه لو استعمل لفظة (ناقض) لجاءت اللفظة قارة فى مكانها . لكن الهوى — كما يقال — أعمى . وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة وأعماها عصبية . فاجتمع له العمى من جهتين (٦) ...

(١) الملائكة الحافظين للأعمال : الكرام الكاتبون

(٢) سمي عبد الملك ابنا له الحجاج لحبه الحجاج بن يوسف وقال فيه :

سميته الحجاج بالحجاج ... الناصح المكاشف المداجى
المداجى : الساسى ...

(٣) فى النهاية واللسان : اصعر (بالعين) والصعر ميل فى العنق وانقلاب فى الوجه

(٤) فى اللسان والتاج أيضاً : كهاكهة

(٥) فى النهاية : من الكهكهة : من القهقهة

(٦) جاء هذا الكلام فى بحث المنافرة بين الألفاظ فى السبك ، ومما أورده أيضاً : أنشد بعض الأدباء بيتاً لدعبل وهو :

شفيعك فاشكر فى الحوائج إنه ... يصونك من مكروهها وهو يخلق

فقلت : له عجز هذا البيت حسن ، وأما صدره فقبيح لأن سبكه قلق نافر ، وتلك الفاء التى في قوله : (شفيعك فاشكر) كأنها ركبة البعير ، وهى فى زيادتها كزيادة الكدش

٢٣٧ — لصحت بهذا البيت

فى (الكنز المدفون) : روى عن الشيخ العارف بالله أبى العباس السيارى [١] أنه قال : لو صحت صلاة بغير قرآن لصحت بهذا البيت [٢] :

أتمنى على الزمان محالا   أن ترى مقلتاىَ طلعة حرِّ

٢٣٨ — بأنامل الحور على النور

قال جحظة في أماليه : حدثنى أبو حرملة قال : قال على بن عبيدة الريحانى : حضرنى ثلاثة تلاميذ لى فجرى لى كلام حسن فقال أحدهم : حقُّ هذا الكلام أن يكتب بالغوالى [٣] على خدود الغوانى.

وقال الآخر : بل حقه أن يكتب بقلم الشكر فى ورق النعم

وقال الآخر : بل حقه أن يكتب بأنامل الحور على النور

٢٣٩ — وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم

قال الحريرى فى كتابه توشيح البيان : كان أحمد بن المعذل [٤] يجد [٥] بأخيه عبد الصمد وجداً عظيما ، على تباين طريقهما ؛ لأن أحمد كان صواماً قواماً ، وكان عبد الصمد سكيراً خموريا [٦] وكانا يسكنان فى دار واحدة ينزل احمد فى غرفة أعلاها وعبد الصمد فى أسفلها ، فدعا عبد الصمد ليلة جماعة من ندمائه ، وأخذوا فى القصف [٧] والعزف حتى منعوا أحمد الوِرد [٨] ، ونقضوا عليه التهجد ، فاطلع عليهم وقال : « أفأمن الذين مكروا السَّيئاتِ أن يخسف الله بهم الأرض »

فرفع عبد الصمد [٩] رأسه وقال : « وما كانَ الله ليعذِّبهم وأنتَ فيهم »

(١) القاسم بن القسم الزاهد المحدث شيخ أهل مرو ، وفاته سنة ٣٤٢

(٢) لعلى بن محمد البديهى وقبله :

مر من كنت أصطفيه وللدهـــر صروف تشوب حلواً بمر

(٣) جمع الغالية : نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن (النهاية) قال الراغب : أول من سمى الغالية معاوية ، وذلك أن عبد الله بن جعفر اتخذها وأهداها اليه فسأله عن كلفتها فأخبره فقال : هي غالية

(٤) بالذال لا بالدال (٥) وجدبه : أحبه (٦) مولدة وهى كثيرة

(٧) الجلبة والاعلان باللهو (اللسان)

(٨) الورد : الوظيفة من قرءاة ونحو ذلك

(٩) من كلام عبد الصمد :

أرى النـاس أحدوثة   فكونى حديثاً حسن
إذا وطـنى رابنى   فـكل بلاد وطن

وكان عبد الصمد شاعر البصرة وظريفها كما قال الثعالبي

٢٤٠ — جمال ، جلال ، كمال

قال أحد العلماء : تجلّى الله على المسجد الأقصى بالجمال ، وعلى المسجد الحرام بالجلال ، وعلى مسجد الرسول بالكمال فذلك يوقف [١] النواظر ، وذاك يملأ الخواطر ، وهذا يفتح البصائر

٢٤١ — وتسكينها حركات الطرب

فى (المُغرب فى حلى المَغرب) : قال أمين الدين بن أبى الوفاء شاعر الفسطاط فى مغن مبدع :

تنبَّا محمدُ فى فنّه   وآيته أن شدا أو ضربْ [٢]
بقـــولِ أعاجم أوتاره   أقاولُ تخرس فصْح العربْ [٣]
فتحريكُها سكنات الأسى   وتسكينُها حركات الطربْ

٢٤٢ — رأينا العفو من ثمر الذنوب

فى (خاص الخاص) : كان الصاحب إذا أنشد بيت السلامي [٤] :

تبسّطنا على الآثام لما   رأينا العفو من ثمر الذنوب

يقول : هذا (والله) معنى قد كان يدور فى خاطر الناس فيحومون حوله ويرفرفون عليه ولا يتوصلون إليه على قرب مأخذه ، حتى جاء السلامى فأفصح عنه ، وأحسن ماشاء ، ولم يدر مارمى به

٢٤٣ — بيضاء وخضراء وسوداء

يونس النحوى [٥] : الأيدى ثلاث : يد بيضاء ، ويد خضراء ، ويد سوداء . فاليد البيضاء هى الابتداء بالمعروف ، واليد الخضراء هى المكافأة على المعروف ، واليد السوداء هى المن بالمعروف

٢٤٤ — . . وامش بها حيث شئت

سأل رجل أحد الأئمة : إذا شيعنا جنازة [٦] فقدامها أفضل أن نمشى أم خلفها ؟

فقال : اجهدْ ألا تكونَ عليها وامش حيث شئت ...

(١) أوقف : قيل إنها غير مسموعة وقيل غير فصيحة . وذكروا عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : لو مررت برجل واقف فقلت له : ما أوقفك ههنا ، لرأيته حسناً

(٢) منع الاسم للوزن

(٣) أقاول : هى أقاويل لـكنه لعب بها ، وهم الشعراء . (فصح) جمع فصيح ، بضمتين وسكن للوزن

(٤) نسبة إلى مدينة السلام : بغداد

(٥) يونس بن حبيب روى سيبويه عنه كثيراً

(٦) لفظة نبطية بكسر الجيم وفتحها ، وللغويين كلام كثير فيها

البعـــاد

للأستاذ فخرى أبو السعود

آه ما أعذبَ البِعادَ و إن أز   رَى عليه مِن قبلِنا العاشقونا
إنني أشتهى البعاد زمانا   مثلما أشتهى التواصل حينا
لا أُحبُّ اللقاء عهـداً مقيما   مستمراً به تُقضِّى السنونا
ما ألَذَّ الهوى لقـاً ووداعاً   وكتاباً أدَّى التحايا أمينا
إن هذا البعادَ يُذكى بىَ الحـــبَّ ويُحْيِي ولائى المكنونا
فأُفدِّيكِ فى النوى بحياتي   حيثما تُصبحين أو تُمسينا
وأحيِّيك كلما ذكَّرتنيـــك رياضٌ رفَّتْ علينا غصونا
وأرى أن ودَّنا يعبر السهـــلَ ويَرْقَى الربى ويطوى الحزونا
إن هذا البعاد يبعث بى الأشْـــواقَ حرَّى و يستجيش الحنينا
ويُعيد العذابَ مِن ذكرياتى   وقديماً من عهـدنا ودفينا
ويثير المنى بنفسى ولن ألْـــقَى بأسمى المنى سواكِ قمينا
أتمنى اللقا بيوم لنـا أر   جِعُ فيه إليك أو ترجعينا
أتمنى اللقـا وفيكِ وفاءٌ   باتَ عندى بأن تبرِّي ضَمينا
حبُّنا مِن صِفاتِهِ أنه برٌّ   وثيق الذمام يعلو الظنونا
وأحَبُّ الأيام عندىَ ماأرْ   قُبُ فيـه لقاءكِ الميمونا
أُنفِقُ العمرَ مسرفاً فإذا أقـــبلَ يومُ اللقاء كنتُ ضنينا
كلَّ حين لنـا لقاءٌ سعيدٌ   ووداعٌ أطوِى عليه شجونا
وتزيدين فى البعاد جمالا   ورواء وبهجـة وفتونا
وتزيدين فى الشمائل إينا   ساً وعطفاً كما أُحبُّ ولينا
وتزيدين كلَّ حينٍ سمواً   وعلواً فاتَ الذرى والقنونا
أنتِ كنزٌ من المحاسنِ أُخفيـــه نفيساً عن ناظرىَّ ثمينا
كى أراه إنْ عُدتُ أبغيه قدْ زا   دَ جمالاً يسبي النهى والعيونا
كلَّ يوم أُجدِّد الحبَّ بالبُعـــد وأُحْيِي منه فنوناً فنونا
فكأنى عشقتُ أُنفاً وما زلـــتُ الفتى الوافىَ الذى تعرفينا
ماأحبَّ الهوى أفتقاداً ووِجدا   ناً وقرباً حينا و بعداً شطونا

فخرى أبو السعود

فريسة البغاء

للأستاذ ضياء الدين الدخيلى

شلت يد قادتكِ للهاوية   وانتبذت جهلاً سواء السبيل
ورغبـة جياشة عاتيـة   عمت فأغرتكِ بمرعى وبيل

***

جنـايةَ المجتمع الفاشـل   كُسِفتِ فى حمأة آثام
طويتِ دون لذة العاجل   تاريخ أجيـال وأقوام

***

للشهوة العمياء أسلمت لم   ترعى نواميس صلاح العباد
فعدت من خزى بإكليل ذم   شعار موت النفس نهب الفساد

***

يا أم ضيعتِ وكنتِ الحنون   لو راعت الأمة آمالها
قد عاقبتها بالضياع السنون   إذ وأدت بالشر أشبالها

***

أمسيت فينا شبحاً للفناء   وكنت للنوع ضمان الخلود
صلتِ عليـه بجرائيم داء   كم هدمت آلامه من وجود

النجف الاشرف — العراق   ضياء الدين الدخيلى



الفن الهنـــدى

للدكتور أحمد موسى

مقدمة

كان لما كتبناه على صفحات « الرسالة » من الأثر ماشجعنا على مواصلة البحث والتحرير فى موضوع ظننا لأول وهلة أنه ليس من الموضوعات التى يقبل القراء على قراءتها إقبالهم على غيرها ، وقد وصلتنا رسائل عدة ، استفهم كاتبوها مرة عن بعض التفاصيل وأخرى امتدحوا فيها خطتنا فى الدرس والبحث ، وثالثة يطالبوننا بأن نكثر من الكتابة عن الفن الشرق على وجه الخصوص .

ولما كان تاريخ الفن لايعنى بفن بعينه دون سواه ، ولما كانت رغبتنا هى العمل على إيجاد ثقافة فنية أقرب إلى الكمال ، وغايتنا هى الوصول إلى ما يسمو بذوق القارئ ، فيستطيع تقدير الجمال والتعرف على ناحية فذة فى تاريخ الحضارة الانسانية كلها ، وجدنا أننا نستطيع الآن أن نبدأ بدرس الفن الهندى — وهو فن شرقى — لاسيما وقد فسرنا مميزات الفن المصري ، وأوضحنا فى شئ من الاسهاب آثار أكروپوليس أثينا ، وآثار بابل وآشور كما تناولنا بالبحث بعض أقطاب الفن أمثال روبنز ورمبراندت وجويا وليونارد و وميكيلانجلو ورفايللو دون عناية بترتيب زمني أو مدرسى وقصدنا بذلك تبسيط الدرس

على أن درس الفن الهندى يكاد يكون من الدراسات المعقدة ولا سيما أن معرفتنا بتفاصيل العقائد الدينية فى تلك البلاد تكاد تقرب من المعرفة الاجمالية ، كما أن المعالم الأولى للفن الهندى مفقودة تماماً بالنظر إلى أن المشيدات الفنية أقيمت كلها من الخشب فى أول الأمر فتلاشت معالمها بمضى القرون وأصبحنا أمام آثار حجرية بدأت بعد الوصول بالفن الهندى إلى درجة عظيمة تستحيل معها معرفة المرحلة الابتدائية لهـذا الفن ؛ كل هذا إلى أن الهند محاطة من الشرق والجنوب والغرب بالمياه ، ومن الشمال بجبال عظيمة ، جعل الفن الهندى قائماً بذاته لا تجد له نظيراً بين الفنون الأخرى من الوجهــة العامة . نعم يرى الدارس المدقق أوجه الشبه بينه وبين الفنون الأسيوية ، ولكننا هنا لا نتعمق فى البحث والاستقصاء ، وكل ما نريده هو الإحاطة الإجمالية ، وفهم أبرز المميزات للفن الهندي ، والوقوف على مدى ما وصل إليه الفنان فى هذا المجال

وخير وسيلة وأبسطها لهذه الغاية هي تقسيم الفن الهنـدى إلى ثلاث مراحل : الأولى مرحلة البراهمة التى استمر أثر حضارتها إلى حوالي سنة ٢٥٠ ق . م . والثانية مرحلة البوذيين التى بدأت عند ما نادى بوذا بمذهبه فى القرن السادس قبل الميلاد ، وظلت حتى كان المذهب البوذى هو الدين الرسمى للبلاد بواسطة الملك أسوكا حوالى سنة ٢٫٥٠ ق . م . أما المرحلة الثالثة فهى المرحلة البراهمية الجديدة التى بدأت عند إدماج المذهب البوذى فى المذهب البراهيمى صاحب الغلبة فى القرن السابع بعد الميلاد . وقد بلغ الفن الذروة فيما بين القرن الثامن والثاني عشر بعد الميلاد ، وبعدئذ دخل الاسلام بسطوته إلى تلك البلاد من القرن الثانى عشر

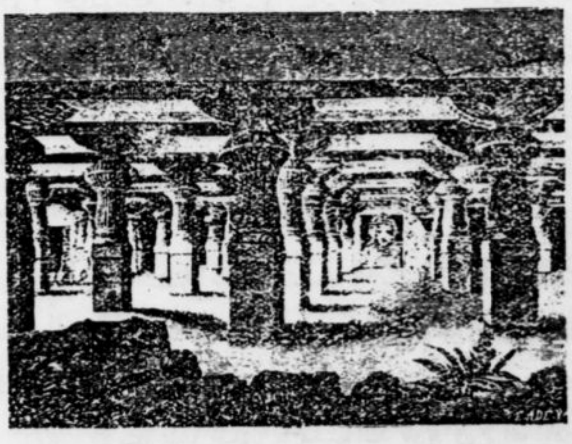
وبدأ الفن الهندي بمعناه الكامل فى المرحلة البوذية حيث توجد أقدم الآثار الجديرة بالتسجيل والدرس والتى يرجع عهدها إلى عصر الملك أسوكا

وخير الأمثلة عليها المبانى بأعمدتها التذكارية فى « الله أباد » و« دهلى » وغيرهما، وفيها كلها أقيمت هذه العمائر لتسجيل النصر لبوذا وطراز الأعمدة التذكارية يتلخص فى أنها أقيمت على قواعد

مستديرة الشكل تحمل تيجاناً على هيئة زهرة اللوتس وعليها الأسد رمزاً لبوذا

هـذا إلى جانب بناء مجموعات من الأعمدة التذكارية على قواعد مستديرة الشكل تحمل مبانى صامتة من الحجر المحروق ، وقد أخذ شكلها التكوينى هيئة القباب ، وإلى جانبها خصصت غرفة صغيرة لدفن الأجسام المقدسة ، أحيطت جميعها بسور عال ذى بوابة كبيرة من الخشب . وأقدم أنموذج لهذا النمط البناء المسمى ستوپا سانتشى ، يرجع تاريخه إلى عصر أسوكا ، وقد بلغ ارتفاعه سبعة عشر متراً ، وبه أربع بوابات ذات نقوش وزخارف بديعة .

هذا إلى جانب المعابد المنحوتة فى الصخر والتى يتمثل فيها الفن الهندى البوذى تمثيلاً جيداً ، نحتها وهيأها البوذيون ، وكانت النمط الذى سار عليه البراهميون فيما بعد . فأنشأوا المعبد على هيئة مربع قسموه بواسطة الأعمدة إلى ثلاثة أجنحة (أشبه بالكنائس بازيليكا) فكان الجناح الضيق منتهياً بفتحة كقبلة صغيرة على هيئة نصف دائرة وضع



١ — جروتا إلفانتا ، منحوت فى الصخر

فيها تمثال بوذا أو صورته . أما الحوائط فكانت كلها مزخرفة

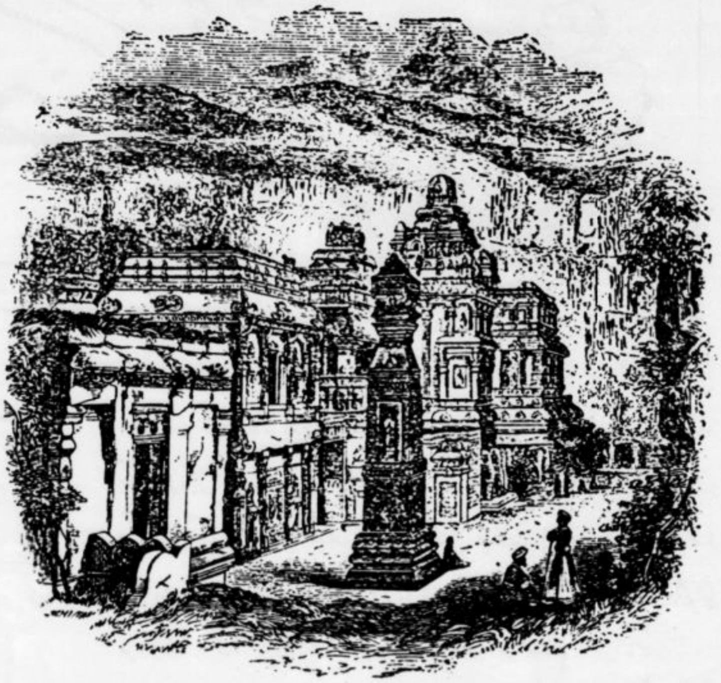


٢ — مقابر ميرا ، صخرية

ومنقوشة ، وإلى جوار هذا المربع غرف كثيرة وطرق ومسالك وردهات . كل هذا منحوت فى الصخر مما يثير الاعجاب حقاً ، كتلك التى نحتها المصريون فى الصخر أيضاً (راجع الرسالة — الفن المصرى ؛ العمارة المصرية)

أما المدخل العام فكانت واجهته جميلة التكوين ، تأخذ بلب الناظر إليها لما فيها من مظاهر العناية الفائقة والدقة المتناهية ، هذا إلى جانب التماثيل والمنحوتات التى لا تقل قيمة فنية عن بقية البناء .

أما الدعامات والأكتاف الساندة فكانت مختلفة التكوين سائرة على غير قاعدة هندسية فنية ثابتة . والناظر إليها يرى أنها



٣ — جروتا كايلاسا

تشبه في بعض أجزائها تلك التي عملت على الطراز الباروكي في أوربا لولا ماغلب على حلياتها من الخيال الشرقي

وكانت الأعمدة حيناً مضلعة ، وقد بلغت أضلاع بعضها أحياناً الستة عشر ضلعاً ؛ وكانت التيجان أعلاها مربعة الشكل أو على قطعة حجرية ذات ثمانيـة أضلاع أو مربعة الشكل أيضاً . وكانت حيناً آخر مستديرة تسير على طولها قنوات رفيعة وتيجانها مستديرة مرة ، وعلى هيئة كرة منبعجة مرة أخرى



٤ — پاجودا مهملجاپور

وأهم وأبرز نماذج لهذه الأنماط المعمارية تنحصر في حدود الهند الشمالية الغربية بالقرب من بمباى وكارلى وأدشونتا وبهايا وإيلورا ؛ وأقدم هذه كلها يرجع تاريخه إلى سـنة ١٥٠ ق . م ، وأعظمها وأشهرها وأجملها أقيمت في وقت الانتقـال من الديانة البوذية إلى البراهمية بين سنة ٥٠٠ وسنة ٨٠٠ بعد المسيح

وتعد معابد إيلورا الصخرية على الخصوص من عجائب العمارة الهندية وتشمل الطرازين البوذى والبراهمى معاً ، وبعض هذه المعابد على سفح الجبل الجرانيتى ، وبعضها الآخر منحوت فيه من الداخل وكلها تقرب من ثلاثين معبداً وديرا

(له بقية) احمد موسى



من أساطير الإغريق

(القصة الخالدة التي أوحت إلى شاكسبير روميو وجوليت)

التوت الأبيض والتوت الأحمر

أو (بيرام وتسبيه)

للأستاذ دريني خشبة

كان أجمل شباب بابل ، وكانت أجمل حسانها

كان فتنة فى فتنة ، فى جسم قوى ، وقلب حمي ، وخلق حي ، وقوام مفتول ، ونفس حلوة ساكنة سجواء[1] ... وكانت قسيمة وسيمة ، خفية لطيفة ، غضة كالورد عطرية كأنفاس البنفسج ؛ تفتر عن فم خمرى شتيت ، وترنو بعينين دعجاوين نجلاوين ؛ وترسل شعرها الْمُغْدَوْدِنَ[2] على ظهرها العاجىّ تارة ، وصدرها المرمرىّ أخرى ، يداعبه النسيم ، وتقبّله الآلهة ، وتنتظم فيه حبّات القلوب

وكان بيتاهما متلاصقين ، فكان يراها وكانت تراه ، وكان يلقاها وكانت تلقاه ؛ وكانا يتلاعبان فى الصغر ، طفلين كالملائكة ثم شبا ، فكانا ينفران إلى الخلاء والأدغال ، ويلتقيان عند النبع القريب ، ويتسلق بيرام أشجار التوت الأبيض — ولم يكن التوت الأحمر قد عرف بعد — فيهز أغصانها وأفنانها . ويساقط الثمر الشهى اللذيذ على سندس العشب ، رطباً جنياً ... فتأ كل تسبيه ، وتقر به عيناً ! !

ثم ترعرعا أيضاً ؛ ودبت الحياة الحلوة الجميلة ، حارّة متدفقة زاخرة ، فى قلبيهما الصغيرين ؛ وأخذ الفؤادان الصغيران يشبان إلى الأعين السعيدة النقية الطاهرة ، يرى كل إلى صاحبه ، ويتزوّد كل من جمال أخيه زاد الهوى وذخيرة الحب ، للأيام المقبلات

(١) ساكنة (٢) المغدودن : الناعم الطويل

ولم يعرفا أنه الحب ، ذاك الذى يخفق فى صدريهما أول الأمر ولكنهما عرفاه ، وعرفاه معرفة كلها شجو وكلها حنين حين ألح عليهما وحين كانا يفترقان أشوق ما يكونان إلى لقاء ، وأصبى ما يكونان إلى اجتماع ... ثم عرفا كيف يتشاكيان وكيف يتباكيان وكيف يكون الليل جحيما حينما يقبل فيفصل بينهما بظلامه ، ويجمع بين روحيهما بسهده ودموعه وطويل أنينه ، وكيف يكون فردوساً خالداً حينما يجمع بينهما فى يقظة أو منام

ولم يقو بيرام على عذاب البعد ، فاتفق وتسبيه على أن يكلم أباه ليكلم أباها فى الخطبة ، ولكن الوالد أبى واستكبر ، ورفض أن تكون هذه الفتاة التى هى مطمح أبصار شبان المدينة زوجة لولده ، وكذلك أبى والد الفتــاة ؛ ثم شجر الخلاف واتسع ، وكثرت شياطينه ، وأحيا عداوات قديمة ، فتدابر القوم وتناكروا ولكن ما فى قلبى الحبيبين ظل على ما كان عليه ؛ بل ألهب البعد الذى جرّت إليه الخصومة أوار حبهما ، فازدادا هياماً ، وذابا غراماً ، وكانت عداوة أهليهما عليهما برداً وسلاماً

ولم يعد يفكر إلا فيها ، ولم تعد تفكر إلا فيه ، وراح ينظم الشعر يتغنى به برحاءه ، ويرسل موسيقاه يكلم بها السماء عسى أن ترق له آلهتها فترحمه مما يقاسى ... وراحت هى تبكى وتتكلم بلغة الدموع إلى نفسها الملتاعة ، وترسل آهاتها فى صميم الليل تتردد بين النجوم الخفاقة السكامى تتوسل إلى أرباب الرحمة والحب أن تدرك بلطفها ضعف الحبيبين المظلومين

وتصدعت السماء ، وانهمرت شآبيب الرحمة ، وانهل فيض الحنان ، وأمرت الآلهة فزلزلت الأرض زلزالها ... وكانت الغرفة التى ينام فيها بيرام ملاصقة للغرفة التي تنام فيها حبيبته تسبيه ، وكان يفصلهما جدار مشترك بين المنزلين المختصمين ، فأحدث الزلزال في هــذا الجدار صدعاً صغيراً كالشعرة ، فوصل هواء الغرفتين ، وحمل كلام الحبيبين ، وأخذت موسيقى بيرام وغناؤه

ينسابان إلى غرفة تسبيه ، وأخذ بكاء تسبيه وآهاتها تنساب فى غرفة پيرام ؛ وأخذت النجوى الحلوة ، والشكوى الجميلة ، وغزل الكلام ، وحنين القلوب ، يتنقل فى بروج هذا الشق كأنها كواكب السعد تحدوها الآهات الملتهبة ، وتذهب بها القبلات الحارة ، ترف بأجنحة من أثير من فم إلى فم …

— تسبيه ، تسبيه !

— من ؟ من يناديني ؟

— تسبيه ، هو أنا ، أنا پيرام !

— من أين تتكلم ؟

— من هنا … ألم تشعرى بالزلزلة ؟

— آه ! شعرت بها فى العشاء الآخرة ليلة أمس

— إنها أحدثت فى الحائط الذى يفصل بيننا شقا … وأنا أكلمك منه

— پيرام !

— تسبيه !

— إذن لقد رثت الآلهة لحالنا !

— واستجابت دعاءنا يا تسبيه ، لقد حركتها موسيقاى !

— إذن كنت تعزف وتتغني ، بينما كنت أبكى وأئن وأذوى !

— لا ! ولكنى كنت أسكب نفسى دموعاً على أوتار القيثار !

— يالقسوة هذا الجدار يا پيرام ! إنه يفصل بيننا بشدة !

— هو على كل أرحم بنا من أبوينا … أليس قد انفرج ليصل حديثنا ؟

— نشكره ، إن من الصخر لما يتفجر منه الماء !

— نشكره جداً يا تسبيه … وأشكره أنا خاصة لأنه فرج عن قلبي بالتحدث إليك

— پيرام !

— حياتى !

— هل الجنة أجمل من سجننا هذا ؟

— إنه أجمل من أنضر الجنان يا تسبيه !

— وهذا الظلام ! أليس هو أضوأ من سنا الضحى ؟

— لأننا نتحدث فيه يا أختاه !

— أحب أن أسمع موسيقاك يا پيرام تتدفق فى روحى خلال هذا الجدار

— ليس أحب إلىّ من ذلك يا تسبيه

— أنا لم أسمعك تغنى مذ تناكر أهلونا

— سأفعل إن وددت !

— وماذا عساك تغنى ؟

— كل أغنياتي التى ترنمت بها فيك ؟

— ألا تغنى شيئاً آخر ؟

— للآلهة ! لأنها أنعمت علىّ بحبك !

* * *

وهكذا كانت أحاديث الحبيبين المعذبين كلما جنّهما الليل ، وضمها غاشى الظلام ؛ أحاديث كأوشية الروض ، وأفواف الزهر ونجوى البلابل ، ممزوجة بعبرة أو عبرتين يريقانهما على جفاء الأهل ، ولدد الطباع ، وقسوة الأيام

ولم يحتملا هذه الحال طويلاً ، فلقد شفهما الهوى ، وأنحلتهما الصبابة ، وفعل الحب فى قلبيهما الضعيفين أفاعيله . ففى ليلة سافرة البدر ، ساجية النسيم ، صمتت فيها الطبيعة ، وتكلم القمر ، دار بين العاشقين الحديث الآتى :

— تسبيه ؟ !

— پيرام !

— أوشك القمر أن يكون بدراً ياحبيبتى !

— إنه جميل الليلة ، وحبذا لو ظل جميلاً الليالى المقبلة …

— إن القمر جميل دائماً … أليس هو ابتسامة هذه الدنيا فى ليالى العاشقين ؟

— لكنه صامت أبداً … إنه أبكم لا يبى !

— سو … لا تقولى ذلك يا تسبيه … قد تسمعك ديانا فتغضب !

— هل يتكلم ؟ هل يفهم ؟

— أما أنه يتكلم فحق … لكنه لايتكلم بلسان كلساننا … إنه يتكلم بلسان من فضة ياتسبيه ، لسان له رنين حلو فى أعماق الروح … ثم هو يفهم آلام المحبين لأنها تصعد إليه مع آهاتهم …

— خيال شاعر وفلسفته !

— بل هو الحق ياحبيبتى ! لقد كان يكلمنى و كنت أكلمه . وكان يفهمنى و كنت أفهمه ، كان يكلمنى بآراده (١) وأضوائه ،

(١) أشعته

وهى لسان صامت ولكنه بليغ لَسِن ، وكنت أكلمه بوجدانى مرة ، وموسيقاى أخرى ، فكان يضحك فى الأولى ، ويرقص فى الثانية ... تسبيه !

— ماذا بابيرام ؟

— أتمنى لو غمرتنا أشعة القمر غداً ، فى هذا السهل المنبسط

— غداً ؟ وكيف ؟

— ولم لا ؟ ألا ترغبين ؟

— وكيف أرفض ؟ أنا أتمنى ذلك

— إذن سنلتقى !

— وكيف أفعل بابيرام ؟

— تنسرقين إذا نام أهلك ... لن يشعر بك أحد

— وأين نلتقى ؟

— عند مقبرة نينوس

— ... ؟ ...

— ألا تعرفينها ؟

— مكان رهيب !

— لكنه جميل رائع ! سنجلس ثمة بين يدىْ القمر ونتحدث ، ونشفى أنفسنا مما نجد !

— وتعزف وتغنى ؟

— وقد نبكى !

— ... ؟ ...

— اتفقنا ! أليس كذلك ؟

— اتفقنا

— إذن أنتظرك ، إذا لم أجدك هناك ، عند النبع القريب . تحت التوتة البيضاء ! وكذلك تفعلين

— أفعل ماذا ؟

— تنتظريننى ثمة إذا سبقتنى !

— ترى ما ذا تبتغى ديانا منى ؟

— لا شىء ... لا شىء ...

***

ما كان أجلها ليلة سطع فى حواشيها القمر ، ودحرج لآلئه على مياه النبع ، ودغدغ (١) بأضوائه العشب وأفنان الشجر فتبسمت وتضاحكت ، ونشر فى أجوائها بخوره المصاعد من مجامر الورد ، ومداهن البنفسج ، احتفاء بمقدم تسبيه ! يا لجمال الطبيعة ! لقد كان كل ما فيها موسيقى صامتة تنشر أحلى النغم حوالى هذه الحبيبة التى انسرقت تحت أسدال الظلام تمشى كالقطاة وترسل من فوق رأسها خماراً رقيقاً كسحابة الصيف تستر ما وراءها وليست شيئاً ! لقد كانت تتوجس فى نفسها خيفة وهى تدب فى سكون الليل ، كما يسرى الحلم الجميل فى خلد النائم

وذهبت تطوى الطريق وفى رأسها ألف فكرة عن هذه المجازفة ؛ وبلغت مقبرة نينوس آخر الأمر ، ولكنها لم تجد حبيبها عندها . ترى ؟ ماذا عوقه ؟ لقد كان رخام المقبرة نظيفاً ناصعاً ، ولقد كان شبح الفناء جاثماً فوقها يلمع فى ضوء القمر ، كأنه يتلاعب بالسنين والأحقاب ، وكأنه يسخر من كل شىء فوق الأرض ! وبدا للفتاة الضعيفة كأنه يرقص كالسكران فوق الشاخص الرخامى ، ولكنها أخذت تصرف عن عينيها رؤى عفاريت الليل ، وتصاوير الوهم المريض ؛ ثم سخرت من خوفها وذكرت التوتة البيضاء ، والنبع الذى عندها ، فارتدت إليهما لتجلس ثمة ، ترتقب زورة الحبيب

وجلست عند جذع التوتة ، وجعلت تحدج الثمر الأبيض ، وتشتهى لو سقط منه شىء تأكله حتى يحضر بيرام ... ثم سمعت دبيباً يقترب ، فلم تشك أن بيرام قد أقبل ، ونبض قلبها بشدة وانذرفت من عينيها عبرة لم تفكر هذه اللحظة أن تذرفها ... ثم أبطأ الدبيب ... ووثبت تسبيه تمد عينيها الثاقبتين فى أرجاء الدنيا الصامتة الرهيبة ، ولكنها لم تر شيئاً ، وعادت عفاريت الليل ترقص فى وهمها ، ولكنها لم تبال ، وجعلت تجاهد نفسها مجاهدة لينة مرة ، عنيفة مرة أخرى ، وهى فى هذا وذاك تفكر فى حبيبها بيرام ، وتضرب فى تأخره أخماساً لأسداس ... ثم ذعرت الفتاة ذعراً كبيراً ، وساخت الأرض تحت قدميها المرتجفتين أو كأن قد ... ذلك أنها لمحت شبح لبؤة تخرج من دغل قريب فجأة ثم تيمم شطر النبع الذى تعرش من فوقه التوتة . ماذا ؟ إنها لبؤة ضارية أقبلت ترتوى من ظمأ ملح وجواد (١) شديد ... وهى تتبهنس (٢) مع ذلك كأنها عروس ولكن من الجن

وأطلقت الفتاة ساقيها للريح ، ولم تحفل بها اللبؤة ، لأنها قد افترست فريسة قبل ساعة ونهشتها ، وهذا فمها ملوث بالدم الغريض الدافىء ...

(١) الدغدغة . الزغزغة .

(١) الظمأ (٢) تتبختر

لم تصنع اللبؤة شيئاً ، إلا أنهـا رأت الخمار الأبيض الذى كانت تسبيه ملتفعة به ، ملقى على الأرض ، فعاثت فيه ، وكأنما أرادت أن تمسح فمها به ، فلوثته بالدم ، ثم هممت نحو النبع فارتوت على مهل ، وعادت أدراجها نحو الدغل الذى تركت فيه فريستها لتأتي على بقاياها

أما الفتاة فقد ظلت تجرى حتى بلغت شجرة ضخمة وجدت فى أصلها فراغاً فاختبأت فيه ، وراحت تلهث من الذعر والتعب ، وتتمنى ألا ترتد اللبؤة إليها ... وقد أيقنت أن ديانا ، إلهة القمر ، قد سمعتها حين عابت على البـدر عيه وبكمه ، فساقت إليها هذا الوحش فى هذا الليل

* * *

ولم يمض طويل على تلك الأحداث حتى أقبل بيرام وفى نفسه لهفة ، وبقلبه قلق ، فقصد إلى مقبرة نينوس فلم يجد عند هاشيئاً ؛ ووقف قليلا يبحث عن تسبيه فى كل شيء ! فى شجيرات الورد وفسائل الزنبق ، وفى العشب الخائف المذعور حول المقبرة ؛ وتولاه طائف من الوجد والذهول فراح يبحث فى السحابة الرقيقة البيضاء التى انتشرت على وجه القمر فى هـذه اللحظة ، مشبهة خمار تسبيه على وجهها الرقيق الناحل ... ثم ذكر ميماده عند النبع القريب تحت التوتة البيضاء ، فانثنى ميمما شطرها ...

« يا للهول ! ويا للفزع الأكبر ! ! ما هـذا ؟ خمار حريرى أبيض ؟ لمن هذا الخمار يا ترى ؟ أواه ! إنه خمارها لاريب ! لقد شهدتها تلتفع به مراراً ! يا أرباب السماء ! ما هذا الدم ؟ واأسفاه عليك يا تسبيه ! لقـد قتلتك الوحوش فلن أراك بعد اليوم ! أنا السبب يا حبيبتى ! لقد جررت عليك هذا باقتراحى الضال ! ألا ليت أمي لم تلدنى ! أى وحش ضار اغتذى بك يا تسبيه ؟ أيها القمر القبيح الأبكم لم أغريتنا بهذا اللقاء ؟ أنت تتستر الآن حياء وخجلا من فعلتك التى فعلت ، وكنت بالأمس سافراً متبرجا ! أغرب أيهـا الأصفر كصفرة الموت فلا جمال فيك ! رد على موسيقاى وأغانى فأنت جِبس[1] لئيم لا تستأهل منها شيئاً ! هات كل ما عندك لى هات ! هات دموعى وأشجانى وآهاتى ! هات سهدي وعبادتى ومناجاتي ! قتلت تسبيه تحت سمعك وبصرك ما أقساك يا صاحب الليالى المواضى ! أوْه ... ولكن ... لا ... أنا الذى قتلتها ، لاذنب لك يا قمر ... إنى أستغفرك ؛ أبق كل ذكرياتي عندك ، فلا آمن عليها إلا أنت ! أما أنا ... فهلم ياحسام أسكن هنا ... فى حبة القلب .... إرْوَ من هـذا الدم الدافئ فلا أمل لصاحبك فى الحياة بعد اليوم ... »

وألقى الفتى المسكين نظرة على كل شىء حوله ، لاحرصاً على الحياة المرة ؛ ولكن لينظر إلى كل ما نظرت إليه تسبيه قبل أن يأكلها الوحش ، وليتزود من الأثر الذى تركته فى الوجود عيناها الحزينتان المفزوعتان ...

ثم أغمد سيفه في صدره ... وسقط يتجرع سكرة الموت !

* * *

وهدأ روع تسبيه ، فبرزت من مكمنها في أصل الدوحة ، لترى من أين كان يتردد فى أذنيها هذا النداء الحبيب . وكان شبح اللبؤة مازال يتمثل لها فيفزعها فى الفينة بعد الفينة ، ولكنها كانت تسير بخطى وئيدة ، لأنها ماشكّت مطلقاً فى أن النداء لحبيبها ، ولأن الصوت الفضى الذى كان يمتزج بأضواء القمر فيغمر أذنيها وقلبها ، كان مازال يداعب أذنيها الصغيرتين ... ثم بدا لها أن تحث الخطى حتى تنبه بيرام إلى وجود لبؤة فى هذا السهل الجميل جعلته كالفلاة ... فأسرعت ، وأسرعت ! !

— من هذا المستلقى على حفافى النبع ؟ هو من غير شك !

ثم أسرعت أكثر من ذى قبل

— بيرام ؟ ! ماهذا ؟ السيف في صدرك ؟ لِمَهْ ؟ حبيبي ! رد على ! كلم تسبيه ! ها أنا ذى! لم قتلت نفسك يابيرام ؟ آه ! هذا الخمار الأبيض ! وَىْ ! إنه ملوث بالدم ؟ عاثت فيه اللبؤة الملعونة !

— تس ... بيه !

وأرسل القتيل هذا الاسم المحبب وحشرجة الموت تعتلج فى صدره ، ثم فتح عينيـه قليلاً فرأى فتاته تبكي فوق رأسه ، فتبسم ... ثم مات !

— بيرام ! لا ! لا تمت ! لا بد أن تعيش من أجلى !

ولـكنه مات برغم هذه الأمانى

— إذن أنا التى قلتك يا حبيبى ؟ إشهدى يا توتتنا البيضاء ! ثم رفعت بصرها إلى فوق ، ولـكنها بدلاً من أن ترى الثمر الشهى الأبيض ، رأت ثمراً أحمر يقطر دماً قانيا

— أوه ! رويت من دمه أيتها الشجرة فضرجت ثمرك من

(١) بكسر الجيم الثقيل الروح والجبان واللئيم



أسطورة الاطلانطس

هل كانت الاطلانطس التى مازالت مستقى خصباً لأقلام القصصيين حقيقة قارة أو منطقة مفقودة ؟ لقد ظهرت فى العصر الأخير عدة قصص رنانة عن خرافة «الاطلانطس» وكان آخرها رواية لبيير برتران عضو الأكاديمية الفرنسية . ولكن «الاطلانطس» ماتزال خرافة يكتنفها الغموض المطبق . وقد حاول كاتب انجليزى هو جيمس براموبل أخيراً أن يدرس قصة « الاطلانطس » دراسة تاريخية علمية ، فوضع عنها كتاباً سماه « الاطلانطس المفقودة » Lost Atlantis ، جمع فيه كل ما ورد فى الروايات القديمة والحديثة وفى التقاليد المأثورة ، وفى الشعر والقصص عن هذه الأسطورة ، وفى رأيه أن هذه (الاطلانطس) لابد أن تعنى شيئاً ولو أن ما يحيط بها من الغموض يحول دون معرفة الحقيقة ، وأن هذه القارة ربما كانت على الأغلب جزائر « آزورس » فى عصر غابر جداً قد يرجع إلى عشرة آلاف عام قبل المسيح . والواقع أن الأسطورة تثير في الانسان الجانب الشعري قبل أن تثير فيه الناحية العلمية ؛ وإذا كانت جزائر « الآزورس » يمكن أن تكون فرضاً أول للقارة المفقودة ، فكذلك يمكن أن تكون قادس وقرطاجنة ؛ وهنا لك غير ذلك فروض كثيرة ذهب إليها مختلف الباحثين . وأما الحوادث التى ترتبط بهذه الأسطورة فلا حصر لها ، وهى قد ترجع إلى عصر الاهرام أو عصر أفلاطون ، وأفلاطون ممن تحدثوا عن « الاطلانطس » ؛ بيد أن مستر براموبل يرى رواية أفلاطون خارقة مستحيلة إذ يقول إن « الأطلانطس » أو القارة الوسطى قد اختفت فى الماء فى يوم واحد ، لأن العوامل الجيولوجية لاتحدث أثرها بمثل هذه السرعة الخارقة ؛ ومن جهة أخرى فإن أسطورة « الأطلانطس » ليست فى ذاتها أكثر إغراقاً من أساطير تاريخية أخرى لها مكانة فى التاريخ ، كحصار طروادة وقصة هيلين التي خلدها هوميروس فى الإلياذة ؛ وقصة ملكة سبأ التى شغلت الباحثين والرواد فى الأعوام الأخيرة وأمثالها من الروايات المغرقة التى تبدو مع ذلك ذات مسحة تاريخية هي من نوع أسطورة الاطلانطس ، ولو أنها من الناحية الزمنية ترجع إلى عصور أكثر ظلاماً وغموضاً ، وعلى أى حال فإن كتاب « الاطلانطس المفقودة » يقدم إلينا مجموعة من الروايات والفروض الشائعة التى تتعلق بهذه الأسطورة منذ فجر التاريخ إلى عصرنا

حبنا وسعادتنا ؟ ! يا للقسوة ! تعالوا يا أهل ! تعالوا أيها القساة ! تنشوا عن الرحمة فى قلوبكم المتحجرة واذرفوا دموعكم علينا ... إحذروا أن تفرقوا بعد اليوم بيننا ، فقد ربطت بين جسومنا المنايا ... لقد أبيتم أن نجتمع فى الحياة فلا تفرقوا بيننا بعد الموت... وداعاً أيها القمر ... وداعاً فقد ظلمناك ! »

ثم جذبت السيف من صدر حبيبها وأغمدته فى صدرها بعد أن قبلت بيرام الميت قبلة الوداع ... وسقطت تتخبط فى دمائها جانبه ... ثم عالجت سكرات المنون فوضعت رأسها الجميل ، وشعرها المغدودن فوق صدره ... ولفظت ثمة آخر أنفاسها

وأقبل أهلوها فى الصباح فبكوا كثيراً ، واستغفروا لذنوبهم ، ثم أقاموا للحبيبين قبراً واحداً من الرخام الناصع عند حفافي النبع ... تحت التوتة الحمراء !

دريني خشبة

مر ، مرير ، ممر

نقد السيد جورج سلستى فى (الرسالة) لفظة (المرير) فى (رواية الصدور) وقد كان العلامة الشيخ ابراهيم اليازجى قد أنكر هذه الكلمة فى مجلته (الضياء) كما أنكر الفاظاً عربية صحيحة غيرها . والشيخ ابراهيم والسيد جورج كلاهما مخطىء فى نقد تلك اللفظة ،فالمرير مثل المر والمر ؛وهى فى كتب اللغة وكلام العرب ورسائل البلغاء ، قال (أساس البلاغة) للامام الزمخشرى: « وشىء مر ومرير وممر » قال :

إنى إذا حذرتنى حذور حلو ، على حلاوتى مرير
ذو حدة ، فى حدتى وقور

وفى (نهج البلاغة) — وصوّاغه من أئمة الفصاحة والبلاغة : « وإن كان ذا مشقة شديدة ومذاقة مريرة »

فقل: المر، أو المرير ، أو الممر، إذا اقتضت ذلك حال، ولكل مقام لفظ ومقال ...

(الاسكندرية) ***

أوراق البردى ونصوص التوراة

ظفر المنقبون فى العصر الأخير بكثير من أوراق البردى التى تتضمن نصوصاً من التوراة فى عصور مختلفة ، ووجدت معظم هذه النصوص الأثرية ضمن أوراق البردى المصرية ؛ وقد استطاع المستر شستربيتى المثرى الانكليزى المعروف فى مصر بأنه من أكبر هواة الآثار أن يحرز عدة من أوراق البردى الهامة التى تلقى ضوءاً على نصوص التوراة الأولى ؛ ووصفت هذه الوثائق أخيراً وترجمت نصوصها فى كتاب بقلم العلامة الأثرى الانكليزى السير فردريك كينون ، وعددها اثنتا عشرة وثيقة متباعدة تكوّن قسما من نسخة من التوراة كتبت فى القرن الثالث الميلادى . وهذه التوراة كما يصفها السير كينون كانت مجموعة واحدة تحتوى على ستة وخمسين صفحة من البردى لصقت معاً ونظمت فى ملف ؛ وقد استطاع السير كينون أن يقرر بالاعتماد على هذه الوثائق كثيراً من الحقائق التاريخية التى تتعلق بتطور النصوص ونتائجها ؛ وأهم هذه الحقائق هو أن نص التوراة كما ورد في كتاب « إيسيا » ليس هو أصح النصوص التى انتهت الينا . وهنالك بضع وثائق أخرى ترجع إلى القرن الرابع الميلادى وكلها مما يعاون فى تتبع النصوص وتحقيقها

الرئيس مازاريك والحركة الفكرية

فقدت الحركة الفكرية فى أوربا الوسطى بوفاة الدكتور مازاريك محرر تشيكوسلوفاكيا ورئيسها السابق ركنا من أهم أركانها . ذلك أن الرئيس الراحل لم يكن وطنياً وسياسياً عظيما فقط بل كان أيضاً مفكراً وكاتباً مبرزاً ، وقد درس الفلسفة واشتغل فى شبابه بالتدريس وكان مدى أعوام طويلة أستاذاً للفلسفة فى جامعة براج ؛ وله رسائل وبحوث فلسفية قيمة . كذلك اشتغل الرئيس مازاريك بالصحافة والأدب ، وله عدة آثار أدبية ونقدية لها مكانة فى أدب أوربا الوسطى ، وكان الرئيس مازاريك أيضاً من أعظم هواة الكتب ، وقد جمع أثناء حياته مكتبة عظيمة كانت كعبة الزوار من كل صوب ، وقد تركها لأمته

رحلة فى بلاد التركستان

لا تزال التركستان الصينية من المناطق التى يجهل العالم الخارجى الكثير من أحوالها ؛ وقد وقعت فى الأعوام الأخيرة بهذه البلاد النائية عدة أحداث وتطورات سياسية هامة لفتت إليها الأنظار ، وزارتها عدة بعوث أوربية لتكشف ما هنالك من الحوادث والظروف ، ولتدرسها من الوجهة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ، وكان من هذه البعثات بعثة أوفدتها الحكومة الانكليزية إلى مدينة أورمش فى أعماق التركستان سنة ١٩٣٥ لتعقد الصلات السياسية والتجارية بين انكلترا والحكومة الجديدة ؛ وكانت هذه البعثة برياسة السير أريك تيشمان ، يعاونه ثلاثة من المغول واثنان من الصينيين ؛ وسافرت البعثة من بكين فى سيارتين كبيرتين تتقدمهما قافلة من الجمال تحمل البنزين والمؤن ؛ واخترقت البعثة صحراء جوبى الشاسعة مدى ألف وخمسمائة ميل إلى أورمشى ؛ ثم سارت منها إلى مدينة كشغر عاصمة التركستان الصينية فقطعت بذلك نحو ألفين وخمسمائة ميل فى أربعين يوماً . وقد دون السير تيشمان رحلته ودراساته لهذه الأقطار المجهولة فى كتاب ظهر أخيراً عنوانه « الرحلة إلى تركستان » joxrney To Twrkestan ومرض السير تيشمان مدى حين فى كشغر ، ولكنه استطاع أن يتم مهمته، وأن يخترق بعد ذلك صحراء البامير المروعة على ظهر مهر ، ومنها انحدر نحو حدود الهند

الشمالية الغربية ، ثم عاد إلى الصين عن طريق الهند

ويقدم إلينا السير تيتمان فى كتابه خلاصة قيمة عن تاريخ التركستان الصينية ، وعن أحوالها وظروفها الحالية ؛ ويفيض في وصف الفيافي الشاسعة والجبال الشامخة التي شاهدها ، وفى وصف الأجناس البشرية التى لقيها فى طريقه ، ولغاتها ومعتقداتها وأساليب حياتها

فى دار المحفوظات النمسوية

يتردد صديقنا الأستاذ عنان الذى يقضى الآن أجازته فى فينا على دار المحفوظات النمسوية ليدرس الملفات الخاصة بحياة ولى العهد السابق رودلف فون هبسبرج وبمصرعه المؤسى فى حادثة مايرلنج الشهيرة ، وقد كانت هذه الملفات السرية التى تحتوى على كثير من الوثائق المخطوطة محفوظة فى قصر (البورج) ولم يتح لإنسان أن يطلع عليها إلا بعد الحرب الكبرى حيث نقلت المحفوظات الامبراطورية إلى محفوظات الدولة ؛ وبين هذه الوثائق مذكرة خطية مستفيضة عن مصرع الأمير رودلف فى قصر مايرلنج مكتوبة بقلم كبير حاشيته الكونت فون هويوش وفيها يفصل الظروف والعوامل النفسية والاجتماعية التى دفعت بالأمير إلى الانتحار . وينوى الأستاذ عنان بعد دراسة هذه الملفات أن يضع مؤلفاً عن مأساة مايرلنج الشهيرة مستقى من أوثق المصادر والمراجع

بعثة ثقافية مصرية إلى فرنسا

وجهت الحكومة الفرنسية الدعوة إلى الحكومة المصرية لايفاد ثلاثة من خريجي كلية الآداب واثنين من خريجى كلية الحقوق لزيارة فرنسا والإقامة بها عاماً دراسيًّا كاملا

وقد خصصت جمعية أصدقاء الشرق لكل مبعوث مصرى من الذين تقرر الجامعة إيفادهم عشرة آلاف فرنك طول مدة الإقامة على أن تتكفل أيضاً بنفقات الانتقال على البواخر الفرنسية والسكك الحديدية المصرية والفرنسية

وقد تلقت وزارة المعارف أمس الأول كتاباً من قنصل فرنسا يطلب إليها فيه دعوة المبعوثين لمقابلته والتعرف إليهم .

ونذكر فى هذا الصدد أن جمعية أصدقاء الشرق بباريس لم تضع للبعثة برنامجا وإن كان المفهوم أن الدعوة مقصود بها توطيد صلات الصداقة وإيجاد علاقات أدبية وثيقة بين الشعبين المصرى والفرنسى عن طريق إيفاد مثل تلك البعثات ؛ وقد وقع اختيار الجامعة على أعضاء البعثة وسيغادرون مصر فى هذا الشهر

الحياة الطبيعية للانسان ١٥٠ سنة

وصل الأستاذ « لازارف » مدير معهد البيولوجيا فى روسيا — بعد سنوات متواصلة من البحث — إلى أن العمر الطبيعى للانسان ينبغى أن يكون ١٥٠ سنة وأن السبب الوحيد لعدم مقدرة الجيل الحاضر على الوصول إلى هذه السن هو عدم الاهتداء إلى سر التغلب على عملية التفكك فى الجسم الانسانى . ويعتقد الأستاذ أن الانسان يصل إلى عنفوان قوته فى سن العشرين وبعد ذلك تبتدىء عملية التفكك وأنه سوف لا يمضى وقت طويل حتى يتمكن العلم من وقف هذه العملية وبذلك يتمكن الجزء الأعظم من سكان العالم من التعمير مائة وخمسين سنة . وربما استخدمت فى ذلك مجهزات كيميائية أو أشعة خاصة يستطيع بها المخ أن يحتفظ بقوة وظيفته . ويستدل الأستاذ على تأثير هذا فى بعض الأمراض التى كانت تعتبر عضالة منذ خمسين سنة وقد أصبحت الآن سهلة الشفاء

تعيين سكرتير لجمعية مارك توين فى مصر

اختارت جمعية مارك توين الدولية مستر جون هوجورف ليكون سكرتيراً لها فى مصر

وهذه الجمعية مؤلفة على نمط أندية شكسبير ، وتتجه أغراضها إلى نشر كتابات مارك توين وتشجيع الملكات الأدبية من أية جنسية كانت ، ولها فروع فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والأمبراطورية البريطانية وفرنسا وإيطاليا وألمانيا واليابان وغيرها من البلاد . ويؤيد جمهورها كثيرون من أقطاب العالم بينهم السنيور موسولينى ومستر هوفر ، وايرل بلدوين ، ومستر رامسى ماكدونالد ، والجنرال سمطس ؛ ومن أعضائها ستيفن كيلوك ، وأوجينى أونيل ، وجيوفانى بابينى ، وويلز وأندريه موروا

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧ ﴾

5 me Année, No 223.

Lundi - 11 - 10 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العــــدد ٢٢٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ شعبان سنة ١٣٥٦ — ١١ أكتوبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العــدد

فلسطــــين
والسياسة الانجليزية الجديدة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

آثرت الحكومة البريطانية أن تغلط فى فلسطين غلطتها فى مصر ، فاعتقلت رجال اللجنة العربية العليا ، وحملتهم فى بارجة حربية تمضى بهم الآن إلى سيشيل . وهذا عين ما صنعته فى مصر لما ضاقت بالحركة الوطنية فيها ذرعاً ، وتوهمت أنها إذا قبضت على رجال الوفد سهل عليها بعد ذلك أن تكفل الراحة لنفسها ، والاطمئنان على تحقيق غاياتها فى مصر . فذهب الزعماء إلى سيشيل وبقوا فيها ماشاءت السياسة البريطانية ، فلم تخمد الحركة الوطنية ، ولم يعدل المصريون عن مطالبتهم بالاستقلال ، ولم يكفوا عن السعي لاسترداد حريتهم القومية ، ولم ترجح كفة المعتدلين بعد أن أقصى الذين كانت تسميهم المتطرفين ، وانتهى الأمر بالافراج عن المعتقلين واطلاق سراحهم وعودتهم إلى وطنهم ، ثم لم تجد السياسة البريطانية بدأ من الرجوع إلى هؤلاء المتطرفين وغيرهم من زعماء البلاد للاتفاق معهم على حل تستقر به العلاقات بين البلدين على حدود معقولة معروفة

والذى فعلته السياسة البريطانية فى مصر وأخفقت فيه ، ولم تجد منه جدوى ، تفعله الآن فى فلسطين ، وما نظن بها إلا أنها ستخفق هناك أيضاً . فان رجال اللجنة العربية العليا ليسوا رجال تهييج ، ولا هم الذين يحرضون على أعمال الارهاب أو الاغتيال التى أثارت ثائرة البريطانيين ، وأغرتهم بهذا العنف الذى تأخذ به زعماء العرب الآن ، وإنما هم رجال سياسة يطالبون بحق بلادهم ويدافعون عنـه ، ويسعون للفوز به بالطرق المشروعة . ومن غرائب التفكير المقلوب أن الصحف البريطانية تقول فى تعليقها على هـذا الاعتقال والنفي إن القبض على المتطرفين خليق أن يفسح المجال لغيرهم من المعتدلين ، ويشجعهم على الظهور والمعالنة بآرائهم التى كانوا يخافون الجهر بها . وتنسى هذه الصحف أن الأمر ليس أمر اعتدال وتطرف ، وإنما هو أمر حق للبلاد يطلبه الجميع بلا فرق ، ويجمعون عليه بلا تفاوت أو شذوذ أو اختلاف . ومن البعيد جداً أن يجرؤ أحد على التقدم باسم الاعتدال والمعتدلين بعد أن نكلت الحكومة البريطانية برجال اللجنة العربية العليا . وأخلق بكل عربي من أهل فلسطين أن يستنكر هذا العنف الذى لا مسوغ له ، وذاك الظلم الذى ينزل برجال اللجنة العربية . والمعقول أن يمتنع العرب — متطرفوهم والمعتدلون منهم إذا صح أنهم فريقان — عن التقدم إلى الانجليز لمفاوضة أو مباحثة قبل أن يرفع الظلم عن اخوانهم . وإذا صح أن فى فلسطين اعتدالا وتطرفاً وأن المعتدلين كانوا يخشون الظهور بآرائهم الحقيقية أمام المتطرفين — وهو ما لا نعتقد أنه صحيح — فالبداهة تقول إن هؤلاء حقيقون أن يخشوا الظهور الآن بعد الذى كان من الاعتقال والنفي حتى لا يتهموا بالتواطؤ مع البريطانيين على إقصاء رجال اللجنة العربية عن الميدان

فالذى فعلته الحكومة البريطانية لا خير فيه ولا جدوى منه ؛ وكل ما هو خليق أن يثمره هو أن يوقع فى روع العرب أن بريطانيا ممالئة للصهيونية ، ومناوئة للعرب ؛ وأنها تلجأ الآن إلى وسائل الضغط والعنف والتخويف والإرهاب بعـد أن أعيتها الأساليب السياسية . وإلا فلماذا تختص بريطانيا العرب بهذا العنف وتخاشنهم على حين تسالم الصهيونيين وتحاسنهم ؟ وإذا كانت حوادث الاغتيال التى وقعت هي التى استوجبت اللجوء إلى هذه الأساليب العنيفة ، فقد كان يحسن بالحكومة البريطانية أن تذكر أن الذين اغتيلوا كان أكثرهم من العرب ، وأن ممن وقع الاعتداء عليهم بعض زعماء العرب أنفسهم ، وأن هناك اغتيالات وقعت من الصهيونيين أيضاً ، وهذا مالا شك فيه . فلماذا تأخذ العرب وحدهم بذلك وتدع الصهيونيين ؟ على أن زعماء العرب لم يكفوا قط عن دعوة الشعب إلى التزام السكينة والهدوء وضبط النفس والمحافظة على اتزان الأعصاب حتى فى أعصب الأوقات ، لأنه ليس ممـا يساعد على تحقيق غاية العرب ويكفل للزعماء الفوز بالحصول على ما ينشدون من الحرية ومن المحافظة على حقوق البلاد أن يقع اضطراب يمكن أن يستغله خصوم القضية العربية وأنصار الوطن القومي والصهيونية . فحوادث الاغتيال التى وقعت هي فى الحقيقة معاكسة لمساعى العرب وإساءة إليهم ؛ ولو وسع زعماء العرب أن يقطعوا دابرها لفعلوا ولمـا ترددوا ، ولكنهم ليسوا الحكومة ، وليس أمر الأمن والنظام إليهم ، ولا فى أيديهم زمامه ؛ فمن أشد الظلم وأصرخه أن يؤخذوا بما يشكون هم منه ، ويرون فيه إحباطاً لسعيهم ومناوأة لهم

ومن الواضح أن هذا مظهر اضطراب شديد فى السياسة البريطانية ، فقد كان المفهوم من موقف ممثليها فى عصبة الأمم أنها لم تعد ترى فى مشروع التقسيم حلاً مقبولاً لمسألة فلسطين ، وأنها ستعيد النظر فى الأمر ؛ بل لقد صرحت أنها تنوي أن تبعث إلى فلسطين بلجنة أخرى تتناول الموضوع بالدرس والبحث من جديد ، وتفاوض رجال العرب وزعماءهم وممثلى الصهيونية لعلها تهتدى إلى حل آخر يكون أكفل بإرضاء الفريقين . وكان المفهوم أيضاً أنها بهذا تفسح لنفسها فى الوقت وترجئ الحل إلى أن يتيسر ؛ ولا يتفق هذا وسلوكها العنيف ، فإن الذى يريد المفاوضة والتفاهم لا يلجأ إلى الشدة والضرب على الأيدى والتحبيس . ومن عساها تفاوض أو مع من ترجو أن تتفاهم إذا كانت تشرد الزعماء فى نواحى الأرض وتقصيهم ؟ أتفاوض العامة أو من يا ترى ؟ وما هي الجدوى على كل حال من هذه السياسة العنيفة ؟ سؤال نلقيه ونحن نتعجب ، فإن اعتقال رجال اللجنة العربية لا ينفع أحداً من الانجليز أو الصهيونيين ، لأن هؤلاء الرجال إنما يمثلون رأى الأمة ويتكلمون باسمها ، والانجليز يشاؤون أن يشكوا فى ذلك ،

وأن يزعموا أن هناك معتدلين مستعدين للظهور والتقدم متى خلا المجال من هؤلاء المتطرفين الإرهابيين . وسيرى الانجليز أنهم فى هذا مخطئون كخطئهم فى اعتقال زعماء المصريين مرتين ونفيهم أولا إلى مالطة ثم إلى جزيرة سيشيل . وسيتبين الانجليز أنهم أوغروا صدور العرب بلا موجب ومن غير عوض ، وحملوا العرب فى كل مكان على إساءة الظن بالسياسة البريطانية بعد أن كان العرب يعتقدون أن بريطانيا حليفة طبيعية لهم ، وأنها أولى بصداقتهم ومحالفتهم . ولا ندرى ماذا تكسب بريطانيا من إسخاط العرب وإيغار صدورهم ؛ ولكننا ندرى أن يأسهم من صداقتها ومن إمكان التفاهم معها بالعدل والإنصاف قد يدفعهم إلى ما تكره بريطانيا ويحملهم على النظر فى أمرهم من ناحية جديدة ، وعلى طلب حقهم بوسائل جديدة . فإذا كان فى هذا مكسب للسياسة البريطانية فإنه ينقصنا أن نعرفه . ولن يكون العرب إلا معذورين إذا التمسوا حقهم من طريق آخر غير طريق الاعتماد على روح العدل والإنصاف عند بريطانيا

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى التاريخ السياسى

حوادث الشرق الأقصى
والحرب بين الصين واليابان
بقلم باحث دبلوماسى كبير

تضطرم الحرب فى الشرق الأقصى بين الصين واليابان منذ ثلاثة أشهر ؛ وهى حرب غير رسمية ، بدأت لأسباب تافهة ، واتسع نطاقها بسرعة ، وأضحت خطراً حقيقياً على السلام . ومن المحقق أنها لم تكن لتنشب لو لم ترد اليابان نشوبها . وأن اليابان تشهرها على الصين وفقاً لخطة مقررة ، وتحقيقاً لغايات بعيدة المدى ؛ وهى ليست فى الواقع إلا خطوة جديدة فى سبيل تنفيذ السياسة التى رسمتها اليابان لبسط نفوذها على الصين واستعمار مناطقها الغنية تباعاً ؛ وقد بدأت هذه السياسة منذ سنة ١٩٣١ حينما غزت اليابان ولاية منشوريا بحجة المحافظة على مصالحها وأرواح رعاياها من فوضى الإدارة الصينية ، وانتهت بفتح هذه الولاية واقتطاعها من الصين ، وإقامة حكومة صورية فيها تخضع لرأيها وتأتمر بأوامرها ؛ وكان فتح اليابان لمنشوريا اعتداء صريحاً على الأراضى الصينية تؤيده القوة الغاشمة وحدها ؛ ولكن اليابان لم تحفل بما أثاره الاعتداء يومئذ لدى الدول العظمى من ضروب الاحتجاج والتوجس ، ولم تحفل بنوع خاص بتدخل عصبة الأمم ولا بما اتخذته ضدها من قرارات تقرر مسئوليتها وعدوانها ، بل قابلت هذا التدخل بالانسحاب من العصبة ، ومضت فى تنفيذ خطتها بجرأة لامثيل لها . ولم تكتف بفتح ولاية منشوريا والاستيلاء عليها ، بل حاولت أن ترغم الصين على الاعتراف بهذا الفتح ، فبعثت جيوشها إلى الأقاليم المجاورة لتقضى على كل مقاومة صينية ، وغزت ثغر شنغهاى لكى تهدد حكومة نانكين الوطنية وتحملها على الخضوع لمطالبها ؛ ولكن الحكومة الوطنية قابلت القوة بمثلها ، واستطاعت أن ترد القوات اليابانية عن ثغر شنغهاى بعد معارك طاحنة ، ووقفت الأمور يومئذ عند هذا الحد وقنعت اليابان مؤقتاً بغنيمتها الأولى

ومن ذلك الحين واليابان تفصح بين آونة وأخرى عن خططها ونياتها نحو الصين بأعمال وأقوال لاتترك مجالاً للشك فى مقاصدها الحقيقية ؛ فهى لم تكد تستقر فى منشوريا حتى عادت تهدد الأقاليم الصينية الشمالية فى منطقتى شاهار وجيهول ، وتغير عليها من آن لآخر لمختلف الأعذار والحجج . ولما كانت الحكومة الصينية الوطنية فى ظروف لا تمكنها من إرسال جيوشها إلى تلك الأقاليم النائية ، فقد تركت أمر المقاومة للجيوش المحلية ؛ ولكن الجيوش المحلية قاصرة الأهبة والعدد ، ولا يضمن ولاؤها دائماً ؛ ومن ثم استطاعت اليابان بتفوقها الحربى أن تبسط على منطقة شاسعة من الأقاليم الشمالية شبه حماية عسكرية . كل ذلك وحكومة نانكين الوطنية تستغيث بعصبة الأمم وبالدول العظمى التى ضمنت بمعاهدة « الدول التسع » استقلال الصين وسلامة أراضيها ، فلا تجد مغيثاً غير الاحتجاج والتصريحات العقيمة ؛ واليابان فيما بين ذلك تتوغل تباعاً فى أراضيها لاتلوى على شيء

ومنذ عامين طلعت اليابان على الدول بتصريح جديد فى غاية الخطورة ، خلاصته أن اليابان لا تطيق بعدُ أى تدخل جديد من الدول الغربية فى شئون الصين ، وأنها تعتبر أي محاولة جديدة من جانب الدول الغربية لتوسيع نفوذها أو مناطق امتيازها فى الصين عملاً غير ودى بالنسبة إليها . ولم تقصد اليابان بهذا التصريح الذى صيغ على مثال تصريح منرو الأمريكي أن تعلن عطفها على الصين أو تضامنها معها ضد عدوان الدول الغربية ، كما قصدت السياسة الامريكية باعتناق مبدأ الرئيس منرو وطبقته منذ نحو قرن بهذا المعنى بالنسبة للدول الامريكية ، ولكنها قصدت غاية أخرى أبعد مدى ، وهى أن تجعل من الصين ميداناً لنشاطها الاستعمارى دون الدول الأخرى ، وأن تستأثر وحدها بتوسيع نفوذها السياسى والاقتصادى فى مناطقها الغنية ، وأن تقتطع من أراضيها ما استطاعت كما فعلت بالنسبة لكوريا ومنشوريا . وعلى هذا الأساس الغريب أرادت اليابان أن تفهم فكرة الجامعة الأسيوية وأن تطبقها ، فهي ترى أنها أحق الأمم باستعمار الصين ، وأنه إذا كانت الصين لا تستطيع أن تنظم شئونها وتجمع كلمتها ولا أن تدافع عن نفسها الاستعمار الغربى ، فان اليابان تأخذ على نفسها تلك المهمة بوضع الصين تحت نفوذها وحمايتها ، وبذلك يمكن في نظر اليابان أن تحقق فكرة الجامعة الأسيوية ومبدأ آسيا للأسيويين . وقد كان لهذا التصريح وقع عميق فى أوربا وأمريكا ، ولكنه مر كما تمر باقى الحوادث فى الشرق الأقصى أمام نظر الدول وسمعها ولم يثر سوى الاحتجاجات الدبلوماسية العادية . ذلك أن أوربا مشغولة بمشاكلها الخاصة ، والدول العظمى متخاصمة مفرقة الكلمة ، ولم يعد للجبهة الأوربية القديمة قيمة دبلوماسية ذات شأن ؛ واليابان تعرف هذه الظروف وتستغلها ، وتعرف أن سياسة المفاجأة والأمر الواقع في الشرق الأقصى لا يمكن أن تلقى فى مثل هذه الظروف من أوربا الممزقة المشغولة بخصوماتها وخلافاتها الخاصة مقاومة يعتد بها

وعلى هذا المنوال قامت اليابان فى العام الماضى بحركتها لفصل الصين الشمالية عن الصين الجنوبية ، وحاولت بالقوة القاهرة أن تملى إرادتها على زعماء الشمال وعلى حكومة نانكين وأن تفرض على الولايات الشمالية نوعاً من الحكم المستقل يكون تحت إشراف السلطات العسكرية اليابانية ، وقرنت الوعيد بالعمل فغزت الأقاليم الشمالية وهددت بكين العاصمة القديمة ، ووجهت بلاغاً نهائياً إلى الحكومة الوطنية ؛ بيد أن الحكومة الوطنية أبت أن تذعن للوعيد ؛ ولكنها اضطرت أن تترك الشمال لمصيره ، واستطاعت اليابان أن تحقق مشروعها بإرغام زعماء الشمال على إنشاء إدارة مستقلة عن حكومة نانكين

ولم تمض على هذه الحركة التى تفصح عما وراءها بضعة أشهر حتى شهرت اليابان على الصين تلك الحرب الجديدة التى يتسع نطاقها يوماً عن يوم ، والتى شملت الشمال والجنوب ، والبر والبحر والهواء ؛ وانتحلت اليابان لإثارتها عذراً تافها هو أن حامية بكين أطلقت النار على جنود يابانية كانت تقوم بمناورات فى البقعة المجاورة وظهر فيما بعد أن جنود الحامية اعتقدوا خطأ أن اليابانيين ينظمون على الحامية هجوماً حقيقياً . ولو كانت اليابان تعمل عن حسن نية وتقصد الانتصاف لجنودها فقط لاكتفت بالاجراءات الدبلوماسية التى تتخذ فى مثل هذه الأحوال من طلب الاعتذار والتعويض ؛ ولكن اليابان ، وهي تعمل وفقاً لخطة استعمارية مرسومة ، اتخذت هذا الظرف ذريعة للقيام بحركة جدية واسعة النطاق لتحقيق خطتها ، فوجهت إلى الحكومة الوطنية إنذاراً نهائياً بقبول مطالبها الخاصة بفصل الأقاليم الشمالية ، وغزت جنودها فى الحال إقليم شاهار ، وبعثت جيشاً وأسطولاً إلى شنغهاى أعظم الثغور الصينية ، ونفذت قواتها البحرية إلى النهر الأصفر (ينج تسى) متجهة إلى نانكين عاصمة الصين الوطنية ، وضربت الحصار البحرى على جميع شواطىء الصين ، ونظمت على المواصم الصينية الآهلة مثل كنتون ونانكين وبكين عدة غارات جوية فتكت بالسكان الآمنين ، وما زالت الجيوش اليابانية تتدفق على الصين من الشمال والجنوب ، ونطاق الحرب يتسع بسرعة مروعة . أما الحكومة الصينية الوطنية فقد رفضت منذ البداية كل المطالب اليابانية وأعلنت عزمها الثابت على مقاومة الاعتداء بكل قوتها ؛ وأعلن الماريشال تشانج كايشك رئيس الحكومة الوطنية وقائد جيوشها أن الصين سوف تقاوم حتى يجلو آخر ياباني عن الأراضى الصينية . وهكذا اضطرمت الحرب فى الصين بين الجيوش اليابانية المغيرة وبين الجيوش الصينية المدافعة ، ومع أنها لم تعلن بعد بصفة

رسمية ، فإنها تكاد تشمل اليوم كل المناطق الهامة فى الشمال والجنوب

ويتلخص الموقف الآن فيما يأتى: غزت الجنود اليابانية شاهار وزحفت على شانس شمالاً ؛ ونفذت إلى شانتهاى والنهر الأصفر جنوباً ، وهذه هى أهم ساحات القتال لأن فيها تقع معظم مناطق الدول الممتازة مثل بريطانيا العظمى وفرنسا وأمريكا . وتجد اليابان مصاعب جمة فى التقدم فى هذا الاتجاه نحو نانكين عاصمة الصين الوطنية ، لأن الدول تأبى اخلاء مناطق امتيازها وتنذر اليابان بسوء العاقبة إذا وقع الاعتداء عليها . وقد ارتكبت الجنود اليابانية أكثر من حادث أثار احتجاج الدول مثل إلقائها القنابل على سيارة السفير البريطانى وجرحه . وتشتد المقاومة الصينية فى هذه المنطقة بنوع خاص لأنها مركز الحكومة الوطنية ومجمع قواتها . وقد كانت اليابان تؤمل أن تحرز نصراً سريعاً يرغم الصين على قبول مطالبها ؛ ولكنها ما زالت بعد ثلاثة أشهر من القتال حيث بدأت ، ولم تذعن الصين ولم يهن عزمها ؛ وقد اضطرت اليابان إزاء ذلك أن تعلن أنها ستمضى فى الحرب إلى النهاية ؛ وألقى البرنس كونوى رئيس الحكومة اليابانية تصريحات رسمية حدد فيها أغراض اليابان من الحرب بما يفيد أن اليابان ترمى إلى تحطيم الجيوش الصينية الوطنية وحزب الكومنتاج (الحزب الوطني) لأنها هى التى تثير روح الخصومة والمقاومة ضد اليابان ، وأن اليابان على استعداد لمهادنة حكومة صينية جديدة تقبل التعاون معها ؛ فاذا لم تقبل الصين هذا التعاون السلمى فان اليابان على أهبة لحرب طويلة الأمد . والمفهوم من هذه التصريحات أن اليابان تؤمل أن تفضى هزيمة الجيوش الوطنية إلى قيام حكومة صينية جديدة مستعدة لقبول مطالب اليابان فى استقلال الصين الشمالية والاعتراف بحكومة منشوكيو (منشوريا) ، ومنح اليابان امتيازات اقتصادية كبيرة ، وقبول المستشارين اليابانيين فى معظم الادارات الهامة ؛ أو هى تؤمل بعبارة أخرى قيام حكومة تخضع لوحيها ورأيها وسلطانها

ولكن تطور الحوادث لايؤيد هذه الآمال ، بل لقد أفضى اعتداء اليابان بالعكس إلى نتائج هامة لم يكن يتوقعها اليابان ؛ فان الخطر على كيان الصين القومية أثار فى الصين روحاً جديداً ، وجمع كلمة الزعماء والقادة المحليين ، فانضموا جميعاً إلى الحكومة الوطنية فى مقاومة الغزو اليابانى ، ومن أسطع الأمثلة على ذلك أن الحزب الشيوعى الذي كان أخطر منافس للحكومة الوطنية ، أعلن انحلاله ووضع قواته العسكرية تحت تصرف الحكومة الوطنية ؛ وهكذا تلقى اليابان أمامها بدلاً من الصين الممزقة المتخاصمة جبهة موحدة تجمع على الكفاح والقاومة ؛ وهكذا يثير الخطر الخارجى ضرام الوطنية الصينية مرة أخرى بعد مافترت فى الأعوام الأخيرة ، ويمد الصين بقوى معنوية عظيمة فى هذا الصراع الذي يقصد به تمزيق وحدتها والقضاء على كيانها القومي . وسيكون الفصل فى هذا الصراع للقوة المادية قبل كل شيء ، ولكن لاريب أن اليابان تزج بنفسها فى مغامرة عظيمة خطيرة العواقب ، وهي قد تحرز اليوم بتفوقها الحربى بعض الانتصارات العاجلة ، ولكن الصين قطر بل قارة عظيمة مترامية الأطراف ، ذات موارد هائلة ، وكلما طالت الحرب ثقل عبئها على اليابان وعلى مواردها المحدودة ؛ هذا إلى أن الصين الوطنية قد اكتسبت فى الحروب الأهلية المتوالية خبرة عسكرية لابأس بها ؛ وسوف نرى فى المستقبل القريب ماذا تسفر عنه هذه الحرب الاستعمارية التى لاسند لها من الحق أو العدالة أو القانون

(***)

ياقـــوت

للأستاذ محمد كرد علي

كان مولد ياقوت عبد الله شهاب الدين في بلاد الروم سنة ٥٧٤ وأخذ أسيراً وهو صبي فقيل له الرومي ، واشتراه في بغداد تاجر يعرف بعسكر الحموي فنسب إليه فقيل له ياقوت الحموي أيضاً . ونشأ نشأة إسلامية فجعله سيده في الكتاب يتعلم ما يستفيد هو منه في ضبط متاجره ، وقرأ شيئاً من النحو واللغة ، وشغله مولاه بالأسفار ثم أعتقه في سنة ٥٩٦ ، فاشتغل بالنسخ بالأجرة ، وحصل بالمطالعة فوائد، وعاد مولاه فأعطاه شيئاً وسفره إلى كيش و عُمَان؛ ولما عاد ياقوت من سفرته كان مولاه قد مات ، فأعطى أولاد مولاه وزوجته ما أرضاهم به ، وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً ، وسهل عليه بتجارته أن يطوف الشام والعراق والجزيرة وخراسان ، واستوطن مرو ودخل خُوارَزمْ وغيرها ، أو كما قال عن نفسه إنه جاب البلاد ما بين جيحون والنيل . وأقام مدة في حلب عند الصاحب الأكرم القفطي المصري وزير حلب ، وأهدى اليه كتاب معجم البلدان ، وفي حلب مات سنة ٦٢٦ هـ

لقي ياقوت في حياته هناء وشقاء ، شهد وقائع التتر في خراسان ، ووصف ما فعلوه في بلاد الاسلام ، وانهزم منهم لا يلوي على شيء ، وفقد ثروته حتى عد من المفلوكين . وكان مرة في دمشق فناظر بعض من يتعصب لعلي بن أبي طالب ، وجرى بينهما كلام ، فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه فسلم منهم ، وخرج من دمشق منهزماً إلى حلب . وقال عن نفسه إنه كان قدم نيسابور في سنة ٦١٣ وهي مدينة الشاذياخ فاستطابها ، وصادف بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته ، واشترى بها جارية تركية ما رأى أن الله تعالى خلق أحسن منها خَلقاً و خُلقاً ، وصادفت من نفسه محلاً كريماً ، ثم أبطرته النعمة فاحتج بضيق اليد فباعها فامتنع عليه القرار ، وجانب المأكول والمشروب حتى أشرفت نفسه على البوار ، فأشار عليه بعض النصحاء باسترجاعها فعمد لذلك ، واجتهد بكل ما أمكن ، فلم يكن إلى ذلك سبيل ، لأن الذي اشتراها كان متمولاً ، وصادفت من قلبه أضعاف ما صادفت منه ، وكان لها إليه ميل يضاعف ميله إليها ، فخاطبت مولاها في ردها على ياقوت بما أوجبت به على نفسها عقوبته ، فقال في ذلك قصيدة منها :

أئِنُّ ومن أهواه يسمع أنتي ... ويدعو غرامي وجده فيجيب
وأبكي فيبكي مسعداً لي فيلتقي ... شهيق وأنفاس له ونحيب

ومن جملة ما ألف ياقوت من الكتب ثلاثة مطبوعة ، أولها « معجم البلدان » وثانيها « المشترك وضعاً والمختلف صقعاً » وثالثها « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » أو طبقات الأدباء . رتب معجم البلدان على حروف المعجم ، وذكر فيه أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان ، والقرى والمحال والأوكان والبحار والأنهار والغدران والأصنام والأوثان مضبوطة بالشكل . واعتمد في تأليفه على من كتب قبله في الجغرافيا من العرب ، وعلى اللغويين ودواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب ، والتقط من أفواه الرواة وتفاريق الكتب ، وما شاهده في أسفاره وحققه بنفسه من أسماء البلدان ما عظمت به فائدته . وفي كل ما كتب ظهرت إجادته وما ينقله عن غيره قد يكون فيه نظر ، ويتبرأ هو من عهدته . فقد قال مثلاً في مدينة الصفر : ولها قصة بعيدة من الصحة لمفارقتها العادة ، وأنا بريء من عهدتها ، إنما أكتب ما وجدته في الكتب المشهورة التي دونها العقلاء . وقال فيما نقل عن الصين : هذا شيء من أخبار الصين الأقصى ذكرته كما وجدته لا أضمن صحته ، فإن كان صحيحاً فقد ظفرت بالغرض وإن كان كذباً فتعرف ما تقوله الناس ، فإن هذه بلاد شاسعة ما رأينا من مضى إليها فأوغل فيها وإنما يقصد التجار أطرافها . فكأن ياقوت بما ينقل من الأوهام والخرافات إلى جانب الحقائق الثابتة يريد ألا يخلي كتابه من كل أطروفة ولو كانت سخيفة ليستفيد منه الجاهل ، ويتفكه به العالم ، ويتعلم المتعلم الأديب ، ويقتبس الباحث . وتوسع خاصة في الكلام على المدن التي أنشأتها العرب وحرص على الإلمام بأخبار فتوح البلاد وحاصلاتها وأموالها وعمرانها وعادياتها ومصانعها وأخلاق أهلها ، وما وقع فيها من الوقائع التاريخية المهمة وما قيل فيها من الأشعار البديعة ، فأمتع قارئه بكل مفيد ، بحسب ما وصل إليه علمه وعلم جيله ، أو قرأه في كتاب ، أو استقراه بنفسه ونقله عن الثقات . وهذا القسم جماع مافي معجمه مما أدركه في عصره ، أو اقتبسه من

الأصول المتقنة فى خزائن مرو ، قال : وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد وأ كثر ، وبغير رهن تكون قيمتها مائتى دينار . وما كان يفارق مرو لولا ماعرا من ورود التتر إلى تلك البلاد ، وما كان لهم من الأثر القبيح في خرابها . ويتألف من الأبيات والقصائد التي استشهد بها ياقوت فى معجم البلدان ديوان جميل ، يحوي كل ما يفيد من رائق الشعر ، وكذلك من عجائب البلدان الخليقة وأخلاق الناس ، ودرجة الرفاهية والثروة فى عصره ، وأفاض فى كلامه على البلدان بذكر من خرج منها أو نسب إليها من الأعيان ، ولا سيما رجال الحديث . وكتابه خاص ببلاد الاسلام والشرق وذكر بعض أسماء المدن فى بلاد الافرنج وهو يتحفظ فيما ينقل عن حال البلاد الأخرى . ومما قال فى الروم : « وفي أخبار بلاد الروم أسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها فليعذر الناظر فى كتابي هذا ، ومن كان عنده أهلية ومعرفة ، وقتل شيئاً منها عليّ ، فقد أذنت له في إصلاحه مأجوراً »

أما كتاب « المشترك وضعاً والمفترق صقعاً » فقد انتزعه بنفسه من معجم البلدان ، واقتصر فيه على ما اتفق من أسماء البقاع لفظاً وخطا ، ووافق شكلاً ونقطا ، واقترن مكاناً ومحلاً ، توفيراً لوقت المطالع الذى يحب السرعة فى تلقف الفوائد ، وبعداً به عما ذكره فى معجمه الكبير من الاشتقاق والشواهد والنكت والفوائد والأخبار والأشعار . ودعا ياقوت على من يختصر بعده كتابه معجم البلدان ، وما خلا مع هذا من بضعة مؤلفين حاولوا ذلك وفيهم صفي الدين عبدالمؤمن سمى مؤلفه « مراصد الاطلاع » قال ياقوت فى الكلام على اختصار كتابه : اعلم أن المختصر لكتاب كمن أقدم على خلق سوىّ فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين أبتر الرجلين ، أعمى العينين ، أصلم الأذنين ، أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلاً ، أو كالذى سلب الكمي سلاحه فتركه أعزل راجلاً . وقد حكي عن الجاحظ أنه صنف كتاباً وبوبه أبواباً ، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء ، فأحضره وقال له : يا هذا إن المصنف كالمصور ، وإنى قد صنفت فى تصنيفى صورة كانت لها عينان فعورتهما ، أعمى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلمتهما ، صلم الله أذنيك ، وكان لها يدان فقطعتهما ، قطع الله يديك ، حتى عدّ أعضاء الصورة . فاعتذر إليه الرجل بجهله هذا المقدار ، وتاب إليه عن المعاودة إلى مثله

بقى أن نطلق القول في كتاب ياقوت الثالث وهو (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) وقد جمع فيه ما وقع إليه من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوط المنسوبة وكل من صنف فى الأدب تصنيفاً ، مثبتاً وفياتهم ومواليدهم وتصانيفهم وأخبارهم وأنسابهم وأشعارهم . قال : فأما من لقيته أو لقيت من لقيه ، فأورد لك من أخباره وحقائق أموره مالا أترك لك بعده تشوقاً إلى شيء من خبره . وقال إنه جمع للبصريين والكوفيين والبغداديين والخراسانيين والحجازيين واليمنيين والمصريين والشاميين والمغربيين وغيرهم على اختلاف البلدان ، وذلك على حروف المعجم أيضاً . وقال فى الاعتذار عن نفسه ، وعمن يقول له إن الاشتغال بأمر الدين أهم : « إن هذه أخبار قوم عنهم أخذ القرآن والحديث ، وبصناعتهم تنال الإمارة ويستقيم أمر السلطان والوزارة وبعلمهم يتم الاسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام » وإن كتابه هو علم الملوك والوزراء والكبراء يجعلونه ربيعاً لقلوبهم ، ونزهة لنفوسهم .

وارشاد الأريب من أوسع كتب التراجم ؛ وقد لا تتعادل التراجم فيه ، فيكتب فى الرجل العشرين والثلاثين صفحة حتى لم يبق زيادة لمستزيد ؛ وقد يكتب في العظيم أيضاً أسطراً معدودة وخصوصاً فى أواخر الكتاب حتى ليظن من لم يقف على ترجمة المترجم به أنه من المغمورين . وما أدرى إن كان أتى ذلك من المؤلف أم من النساخ والناشرين . وعلى كل فارشاد الأريب أو الجزء الذى طبع منه كنز ثمين للأدب ، ومنجم فيه الركاز والذهب ، فرائد يلتقطها صاحبها ولا سيما وأن ياقوت نقل من كتب جليلة ضاع بعضها على نحو ما نقل من كتب مرو وقال إن أكثر فوائد معجم البلدان منقول من خزائنها

وقال فى كتابه إرشاد الأريب أيضاً : وربما قال بعضهم إنه تصنيف رومىّ مملوك ، وما عسى أن يأتى به ؟ إن القوم لا ينظرون ماقيل إنما يسألون عمن قال . ولو عاش ياقوت ورأى بعد أكثر من سبعة قرون كتابيه معجم الأدباء ومعجم البلدان اللذين لا يستغنى عنهما باحث ولا أديب وأنهما من الكتب الأمهات التى حوت كل طريف مفيد تزيد على القرون حسناً وتبين حاجة الناس إليها ، لاغتبط وعرف أن ما كان يقوله الناس فيه ، قالوه فى أمثاله فى كل عصر ثم ذهب لغط المتقولين والطاعنين وثبت علم العالمين والمتأدبين والباحثين .

محمد كرد على

إلى لبنــــان

صــور وخواطــر

للأستاذ على الطنطاوى

لقينى الأستاذ عز الدين التنوخى ، وكنت قادماً من سفر . فقال لى : هلمّ !

قلت : إلى أين ؟

قال : إلى الجبـل نزور أمير البيان ، ورجل الاسلام شكيب أرسلان

قلت : ما أعدل والله بزيارته شيئاً ؛ ولـكنى آت من سفر ولم أبلغ دارى

قال : اطمئن فان الدار في محلها لم تطر ، وما عليك أن تراها غداً ؟

قلت : ما على من شيء ، وسرت معه . ولم أعد أرى السفر شيئاً ، لأنى أصبحت فى هذه السنين الأواخر كذلك الذى كان (موكلاً بفضاء الله يذرعه) فلا أكاد ألقي عصا التسيار وأحط الرحال من سفر ، حتى أتهيأ لآخر . اطوّف ما اطوّف ، ثم آوى إلى هذه الغرفة الصغيرة أجلس بين ركام الـكتب أحسب ما كسبت من هذا العناء الطويل ، فلا أجدنى كسبت إلا صوراً فى الذاكرة أضمها إلى صور ، وذكرى فى النفس أجمعها بذكرى ، وصفحة فى دفترى أضيفها إلى صفحة أسعد بتدوينها ، وأمرّ بقائها ، وإن كنت لا أدوّن إلا الأقل مما أراه وأشعر به ، ولا أذكر إلا التافه مما يمر بى . وإن كنت أعلم أن صور الذاكرة إلى امحاء ، وذكريات النفس إلى ضياع ، وقصص الدفتر إلى السكين والنار لا يزهدنى ذلك بها ، ولا يصرفنى عنها ، لعلمي أن الحياة نفسها ستموت ، والوجود سيعدم ، ولا يبق فى الوجود إلا الموجد

***

وكنا خمسة فى السيارة : الأستاذ التنوخى ، وأنا ، والأستاذ الشيخ بهجة البيطار ، والأستاذ الشيخ بهجة الأثرى ، والشيخ ياسين الرداف معتمد المملـكة السعودية فى دمشق سابقاً ...

خرجنا من دمشق مع الغروب ... وكان اليوم جمعة ، وكانت ليلة قمراء ، فسالت الطرق بالدمشقيين على عادتهم فى مثل هذه الليالى فامتلأت جوانب بردى ، والمرجة الخضراء ، والربوة ، ووادى الشاذروان أجمل أودية الدنيا وأحلاها — بخير الفتيان ، وأجمل الفتيات ، وأحلى الأطفال ؛ فلم يكن أمتع للعين ، ولا أشهى للقلب ، من ذلك المشهد . فسرنا فى هذا العالم الساحر ، مترفقين متمهلين ، لأننا لا نمشى فى طريق وإنما نمشي فى بحر من العيون والقلوب والمفاتن جمع كل جميل بارع أخاذ ، حتى بلغنا دمّر :

والحور فى دمّر أو حول هامتهـا
حور تكشف عن ساق وولدان (١)

فوقفنا نمتع الأنظار بحوْرِها وحورها ، وشموسها وبدورها ؛ وأنت مهما عرفت دمشق لا تزال ترى فيها أبداً جمالا تجهله ولا تعرفه ، ففى كل يوم جمال جديد ، وفى كل مكان فتنة جديدة ، فلا تدرى أين تقف ، وماذا تنظر ، وأيا تفضل ؟ أوادي الشاذروان أم جنائن الغوطة ، أم جبال بلودان ، أم العين الخضراء ، أم سهول الزبدانى ، أم العيون التى لا يحصيها عدد ؟ ...

سقى الله ما تحوى دمشق وحياها   فما أطيب اللذات فيها وأهناها
نزلنا بها واستوقفتنا محاسن   يحنّ إليها كل قلب ويهواها
لبسنا بها عيشاً رقيقاً رداؤه   ونلنا بها من صفوة اللهو أعلاها
سلام على تلك المعاهـد إنها   محط صبابات النفوس ومثواها
رعى الله أياماً تقضت بقربهـا   فما كان أحلاها لديها وأمراها (٢)

***

خلينا الهامة وجرايا بلدة ابن واسانة (٣) والوادى كله عن أيماننا ، وأسندنا إلى الجبل نستقبل الصحراء إلى ميسلون بلاط شهدائنا ، ومشهد أبطالنا ، ومبدأ تاريخنا الحديث ، ومثوى الأسد الرابض يوسف العَظَمة ، الذى وقف هو وأشبال دمشق العزل الأقلاء فى وجه ثانى دولة قوية ظافرة ، فما ضعفوا ولا استكانوا

(١) شوقى رحمه الله

(٢) ابن النقار

(٣) ولابن واسانة هذا قصيدة طويلة جداً ، من أعجب الشعر القصصى الواصفى يصف فيها جماعة دعاهم إلى قريته ففعلوا معه الأفاعيل ، وهى قصيدة نادر مثالها تلقاها فى يتيمة الدهر للثعالبي (ج ١ ص ٣٠٠) المطبعة المصرية

ولا جبنوا ؛ وما زالوا يقاتلون ويدافعون عن العرين ثابتين مانبتت الروح فى أجسامهم ، حتى أعجزهم أن يعيشوا أشرافاً فماتوا أشرافا ؛ فكان موتهم حياة لهذه الأمة التي حفظت العهد وحملت الأمانة ؛ وكانت قبورهم مناراً أحمر فى طريق هذا الشعب المجاهد المستميت لن يقف أو يتباطأ حتى يأخذ (الكل) الذى (أعطى) الآن (بعضاً) منه ، ولن ينام حتى يرى هذه الصحراء قد آضت جنات ألفافا ، تحمل الزهر الذى لا يسقى إلا بالماء الأحمر الملتهب تحمل أزهار الحرية

سيبقى هذا اللحد لتمر عليه الأجيال الآتية ، الأجيال الحرة العزيزة ، فتذكر جهاد أسلافنا ، وتعرف الثمن الذى دفعوه ، ولتعلم أن القوة إن غلبت الحق حيناً ، فان الحق يصنع القوة التى يغلب بها دائماً

سأذكر ما حييت جدار قبر ... بظاهر جلق ركب الرمالا
مقيم ما أقامت ميسلون ... يذكر مصرع الأسد الشبالا
تغيب عظمة العظمات فيه ... وأول سيد لقى النبالا
مشى ومشت فيالق من فرنسا ... تجر مطارف الظفر اختيالا
أقام نهاره يلقى ويلقى ... فلما زال قرص الشمس زالا
فكفن بالصوارم والعوالى ... ووسد حيث حال وحيث صالا
إذا مرت به الأجيال تترى ... سمعت لها أزيزاً وابتهالا (١)

***

ثم أخذت السيارة تصعد بنا فى مسالك ملتوية مستديرة تزيغ الأبصار من استدارتها وعلوها ، حتى إذا ظننا أننا بلغنا قنة الجبل تكشفت لنا قنن فاذا نحن لا نزال فى الحضيض ، وما فتئنا نعلو ونتسلق وندور حتى حاذينا (بلودان) درة المصايف الشامية ، وبدا لنا فندقها الفخم الضخم أكبر فندق فى سورية كلها (إى ولبنان) الذى بنته الحكومة لتملأ الخزانة مالاً والجيوب ذهباً فملأ النفوس فساداً ، والأخلاق انحطاطاً ؛ لما أنشأوا فيه من بلايا وطامات زعموها حضارة ورقيا ، ورأيناها الموت الأحمر والبلاء الأزرق فكنا حين نبيع الأخلاق بالمال كمن يطرد ابنه من بيته ويربى فيه ذئبا ...

ثم عدنا نهبط ، وهذه سنة الحياة : « ماطار طير وارتفع إلا كما طار وقع » ولا علا رجل إلا هبط ، إلا رجلاً علا بعلمه وبأخلاقه ومواهبه ، فذاك الذى لا يهبط أبداً بل يزداد رفعة ، لأن علمه لن ينسى ، وأخلاقه لن تذهب ، ومواهبه لن تضيع ، أما من علا على قوائم الكراسى وأعناق الشعب ، فأحر به أن يسقط مهما استمر علوّه وطال بقاؤه

أقول : إننا مازلنا نهبط حتى انتهينا إلى مهل البقاع الخصب الأفيح الجميل ، الذى يفصل لبناننا (الشرق) الأجرد المهيب الرهيب الذى ادرّع المهابة ، واتشح بوشاح الخلود ، ولاحت عليه سمات الجلال ، والجد والوقار ، ولبنانهم (الغربى) المرح الفرح الأخضر الجميل ، الذى اتزر بالسحر ، وارتدى رداء الشعر ، وكلاهما أخّاذ فاتن ، ولكن الأول جليل والثانى جميل ، والجنات الخالدات والفراديس الباقيات ، في دمشق على سفح لبنان الشرقي ... قال شوقى :

نبئت لبنان جنات الخلود وما ... نبئت أن طريق الخلد لبنان

وأنت حين يحتويك لبنان الغربي تحسّ بجماله وروعته ولكنك تشعر أنك أنت له ، وأنك جزء منه ، ولكنك تحس حين تكون في لبناننا أنه هولك ، وأنه جزء منك ، وشتان بين ماتكون أنت فى قلبه ، وما يكون هو فى قلبك ، وأنت حين تكون فى لبنان الغربى تجد يد الانسان لم تبق من جمال الطبيعة إلا قليلاً ، وتجد ماتجد أكثره فى المدن الكبرى ، ولكنك حين تكون فى لبنان الشرق تجد الطبيعة الحلوة الفاتنة التي لم تبدلها يد الانسان ، وإنما احاطتها باطار يحفظها ويظهر جمالها

وقد زعموا الجبلين جبلاً واحداً ، صدعته حوادث أرضيه (جيولوجية) من زمن قديم ، لا أدرى متى كان لأنى لم أدركه ولا أدركه أبي ، أعنى آدم عليه السلام الذى توفى فى الأمس القريب . وعلى ذكر آدم ... أليس من العار علينا أن نقيم حفلات الذكرى والتكريم لفلان وفلان ممن خدموا البشرية وننسى هذا الرجل العظيم الذى كان له أكبر الأثر فى خدمة البشر ؛ ولم لايفكر الناس فى إقامة حفلة تذكارية كبيرة لهذا الرجل ، يشترك فيها عارفو فضله ، ومن (بقى) حقيقة من نسله ؟

***

قلت : إن الجبلين كانا جبلاً واحداً ، والأمتين فيها أمة

(١) شوقى رحمه الله

واحدة ، ولـكنك واجد فى هذه المسافة التى لاتتجاوز الساعتين جمهوريتين مختلفتين ، وعَـلَمين متباينين ، وحدوداً لحدود الـمـانيا وفرنسا ...

ألقاب مملكة ... ...

وسبحان خالق الهر ، وخالق الأسد ، وخالق كل شيء !

* * *

وأنخنا رواحلنا (أعنى وقفنا سيارتنا ، ولم يكن معنا رواحل ولا رحال) فى شتورة ، عروس السهل ، نستريح فيها قليلاً قبل أن نتسلق بالسيارة الجبل الذى لاتبلغ الطير ذراه ، ونصبح فى نصف طريق السماء . وإذا أنت شئت أن تتصوّر مبلغ مانعلو ، فتصوّر شارعاً طوله قرابة كيلين اثنين ، قد وقف على رأسه ، وكنت أنت فوقه تطلّ على الدنيا من عل ...

علونا فى جبال شجراء ضاحكة ، نجتاز القرى المتناثرة على السفوح والذرى ونرى الينابيع تتدفق من أعالي الصخور ، وتسيل فى بطون الأودية حالة سكرى . وما زلنا فى علو ولفّ ودوران ، حتى بلغنا ظهر البيدر حيث صرنا فوق السحاب ، لا على المجاز أو المبالغة كما يقول الشعراء ، بل على الحقيقة التى يشاهدها الناس كلهم فقد كان السحاب يمسّ الذرى التى تحتنا ويلفح وجوهنا ويحجب عنا السهل والسفوح ، وكنا نعلو عليه أحياناً فلا يبلغنا ولا يمسنا ، ونراه يمر من تحتنا ، أشبه شيء بالغبار الأبيض تحمله الريح . حتى درنا تلك الدورة الـكبيرة ، وأشرفنا على وادي (صوفر — حمانا) العظيم أوسع أودية لبنان وأجملها وقد ازدهى بالصنوبر وانتثرت على سفوحه عشرات القرى ولاحت مبانيها العظيمة وقصورها الشمّ

والروابى توسدت راحة السحـــب ونامت على وشاح مرقق
والذرى البيض فى العلاء نسور حومت تكشف الخفي المغلق
نشرت في الفضاء أجنحها الزهـــر فأسنى بها الوجود وأشرق
والقرى غاغلت بأخبية الغيـــب وضاعت بين الغمام المنمق
والينابيع ضاحكات من الزهـــو ترامى فيها السنا وتألق
وتراءى البحر البعيد كحـلم مبهم راجف الخيال ملفق
سرقته السماء فى الأفق النا ئى فمن أبصر الخضمات تسرق[1]

* * *

تمر على الانسان ساعات بل لحظات ينسى فيها هذا العالم المادى ، وهذه الحياة القصيرة الناقصة ، ويحس كأنه يعيش بنفسه حياة أكمل وأجمل . تخالط نفسه مشاعر لا عهد له بها ، ولا يقدر على وصفها ، وتغمر قلبه لذة لا يعرف أى شيء هى ، فيشعر أنه انتقل إلى عالم سحرى جنى عجيب ، كهذه اللحظات التى تمر علينا فى غمرة التأمل النفسى ، أو فى هزة الموسيقى ، أو فى نشوة الحب ، أو حين الاستغراق فى العبادة والمناجاة ...

هذه هي المحظات التى تمرّ عليك حين تشرف على وادى (صوفر — حمانا) أو تجلس فى الشاغور ، أو تصعد إلى عين الصحة فى فالوغا ...

لست أريد الدعاية للبنان ، وما لبنان فى حاجة إلى دعاية ، وما فى لبنان سرير فى فندق ، أو غرفة في دار إلا وقد امتلأت حتى أننا لم نجد فى صوفر وقد وصلناها ليلا مكاناً نبيت فيه ، وكلما دخلنا فندقاً خرجنا منه بخفى صاحبنا حنين الاسكاف ... حتى قادنا المطاف إلى فندق لطيف معتزل ، قاعد فى منتصف الطريق بين صوفر ويحمدون ، ولم يكن بعده فندق نأوى إليه . فتعلقنا بصاحبه ، وتوسلنا إليه وأطمعناه حتى رضى أن يعد لنا مكاناً فى الردهة (الصالون) فقبلنا ، ووضعت لنا سرُرُ صغار كسرر الجند وطلبة المدارس الداخلية جاء بها من بيته ، فحمدنا الله عليها

* * *

ولـما دخلنا الأوتيل : عمامتان عاليتان على رأسى البهجتين : بهجة العراق وبهجة الشام ، وعقال نجدى فخم على هامة أمير من أمراء نجد ، ونحن الاثنان (المطربشان) الأستاذ عز الدين وأنا ، تعلقت بنا الأنظار ودارت حولنا الأبصار ، وحفّ بنـا شباب يسلمون علينا . فقلنا : وعليكم السلام يا إخواننا ... فما راعنا إلا أنهم ضحكوا وضحك الحاضرون ...

فقلت لأحدهم : من فضلك قل لى ، لماذا تضحك ؟

هل تجد فى هيئتي ما يضحك ياسيدى ؟

فازداد الخبيث ضحكا ، فهممت به . فوثب الحاضرون وقالوا : يا للعجب : أتضرب فتاة ؟

قلت : وافضيحتاه ! فتيات بسراويل (بنطالونات) وحلل (بذلات) ؟ وأين الشعر وأين اللحم ؟

(١) أنور العطار

قالوا : أنت فى لبنان

قلت : عفواً ، لقد حسبت أنى فى لبنان[1]

وفررنا ونحن مستحيون . نحاول ألا نعيدها كرّة أخرى ولما خرجت فى الليل لمحت فى طريق واحدة من هؤلاء النسوة فحيتنى ، فقلت لها : مساء الخير يا مدموازيل

فقالت : مادموازيل إيه ياوقح ؟

قلت فى نفسى إنها متزوجة وقد ساءها أن دعوتها بالمدموازيل (الآنسة) وأسرعت فتداركت الخطأ وقلت : بردون مدام

قالت : مدام فى عينك قليل الأدب ، بأى حق تمزح مع أنا (فلان) المحامى

قلت : بردون ، بردون

ووليت هارباً ، فذهبت إلى صاحب الأوتيل فرجوته أن يعمل لنا طريقة للتفريق بين الرجل والمرأة ، فدهش منى ووجم لحظة ؛ ثم قدر أنى أمزح فانطلق ضاحكا

قلت : إنى لا أمزح ، ولكنى أقول الجدّ وقصصت عليه القصة ...

قال : وماذا نعمل ؟

قلت : لوحات صغيرة مثلا من النحاس ، كالتى توضع على السيارات لبيان رقمها ، أو على الدراجات ... يكتب عليها رجل . امرأة . تعلق فى الصدر تحت الثدى الأيسر أو تتخذ حلية من الذهب أو الفضة عليها صورة ديك مثلا أو دجاجة ، أو ... أو شاة أو خروف ، أو شىء آخر من علامات التذكير والتأنيث ...

فراقه اقتراحى وقبله على أنه نكتة ، ولكنه لم يفكر بالعمل به لأنه لم يجد حاجة إلى هذا التفريق ما دام المذهب الجديد يقول بمساواة الجنسين ؟

***

ولم نطل الاقامة فى صوفر ، لأننا لم نجد الأمير شكيب فعدنا أدراجنا إلى دمشق

(دمشق) **على الطنطاوى**

(١) عنيت لبنان الشرقي العربى وعنوا لبنان الغربى (المستعرب)

الأدباء المحـــترفون

للأستاذ مصطفى جواد

الأدب فى كل أمة غذاء النفوس الصافية من كدر المادية المُبْرَأة من أمراض الطمع والجشع ، السالة من إسار المكايد والخدائع ؛ والأدباء فى كل شعب هم الطبقة الرفيعة فى المراتب البشرية ، المحلقة فى سماء الصفاء بأجنحة لطف أرق من الهواء . والمادية لا تؤمن بدين الأدب ولا عطف لها على البشرية ولا رحمة ، فالأديب نورانىّ والمادة بهيمية ترجع بالانسان إلى عصور كان ينازع فيها الوحوش فرائسها ، ويعد الشبع والرى من الدنيا نفائسها ؛ وكلما رقى العقل فى الصناعات انخفضت العاطفة واستبدت المادية واستحكمت الوحشية ، فلولا الأدباء بين الناس كالنجوم الزهر[1] فى السماء الدنيا لبدا ليل المادية أشد ظلاماً وأهول منظراً . ولعله سيأتى زمان يتخفى فيه الأدباء كما كان الأنبياء يتستّرون من الناس في أول الاستنباء ، ورأس المحنة وأيام الدعوة ، خشية الاستهزاء والازراء والتعذيب والتقتيل ، وإذن لا يعصم الأدباء يوم ذاك من ضربة المادية الآشبه جمهورية أفلاطون وإلا مثل المدينة الفاضلة التى أفكر فيها فيلسوف فاراب . أما مافعله الشيوعيون لأدباء الشيوع فى روسيا منْ قصرهم فى قريةٍ نزهةٍ وامدادهم بضرورى المادة ليستهتروا بالاستشاعة ويدعوا إلى التشارك فهو أخلق بالأدب المبتذل والشعور المنتحل والعواطف المعطوفة والنفوس المأسورة والانفعالات المكبوتة ، فما أغنى الشيوعيين عما فعلوا وما كان أحرى الأدباء بالإباء على هذا الازدراء ! وكلما علت المادة امتاز الأدباء عن أهل المادة وعبدة الحيوانية ، فيعيشون منفردين معتزلين كالمتصوفة فى الربط الهادئة إلا من تسبيح وتحميد ، وكالرهبان فى الأديار الواجمة إلا من تكفير وارتسام ، يزرعون فيحصدون ويغرسون فيجتنون ، لا تجارة تلهيهم ولا تكالب يقسيهم ولا انخداع يؤذيهم ، فهم حينذاك صفوة

(١) الزهر جمع أزهر وزهراء ، ولا يجوز أن يقال « النجوم الزهراء » لأنه لم ينطق به فصحاء الأمة ولا أثبتته قواعد لغتها ، وإن جاء فى الشعر قافية فهو من كبائر الضرائر

الصفوة ، وأيتام الانسانية وملائكة البشر ، يضيع أحدهم بين الناس كما يضيع الملك إذا هبط بين البشر ، بل هو أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، فويل لأهل الأدب من شر قد اقترب .

الأدب عدوّ المادة ، والمادة غائلة الأدب . وأعنى بالأدب فى كل ما أسلفت من القول « مولدات العواطف ونتائج العقول من وصف حزن وأسباب حزنه، ونعت فرح وأسباب فرحه، مزخرفاً ببدائع الكون ، أو مطلياً ببهرجه وغلوائه ، ممهداً له بوصف الجمال وذكر القبح وتبيان حسن الخلق أو سوئه والتصريح بالمدح والقدح ، فيكون ذلك للأدب كالحلى للعروس أو كالحطب للنار » وحد هذا الأدب « حركة العواطف واشتغال العقل والتأسيس على الحقيقة والخيال » فهو — كما قدمنا — غذاء النفوس البشرية الرائقة وحبيب الانسانية وربيب الحقيقة والامكان ؛ فالمحترف بحرفة المادة لايقدر على دخول جنة الأدب ؛ والأديب لايستطيع الخروج إلى جهنم المادة وما أعفه عن ذاك . فكيف يبلغ امرؤ أن يتردد بين الجنة والنار ويجمع بين السلم والحرب ؟! وإذا ما رأينا واحداً قد ألم بالبرزخ تنفح إليه نسمات جنة الأدب من أمام ، وتلفحه شرارات المادة من وراء ، فهو لا أديب ولا مادى بل صاحب اختيار فى الاختبار ، ثم يصير إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار ، فلذلك ومن ذلك قل الأدباء المحترفون لجمع المادة واحتجان البيضاء والصفراء ؛ وإنما سميناهم أدباء على سبيل أدب القدماء ؛ وهم فى رأينا « برزخيون » وصلهم الأدب كوصوله لمن قال « وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل » وماتوا وهم فى عهد الاختبار والفتن والمحنة .

ومن الأدباء من يضطره الزمان إلى الاحتراف فيستدفع الحرفة ضنك الزمان ، ولو ترك ونفسه وأنجى من ذل الحاجة ما لجأ إلى الحرفة ولا قاربها . ومن الأدباء المحترفين أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر بن مأمون الخبزأرزى ، نسبة إلى حرفته «خبز الأرز» فقد كان هذا أميّـا لا يتهجى ولا يكتب ، وكان يخبز الأرز بمربد البصرة فى دكان له ، وينشد الناس أشعاراً مقصورة على الغزل ، والناس يزدحمون عليه ، ويطربون باستماع شعره ، ويتعجبون من حاله وأمره ؛ وكان أبو الحسين محمد بن محمد المعروف بابن لنكك البصرى الشاعر المشهور — مع علو قدره عند البصريين — ينتاب دكانه ليسمع شعره ، وقد اعتنى به وجمع له ديوانا ؛ وذكره الثعالبى فى اليتيمة ، والخطيب فى تاريخ بغداد ، وياقوت الحموى فى معجم الأدباء ، وابن خلكان فى الوفيات . قال ياقوت : « وكان ممن يفضلون الذكور على الإناث ، فكان أحداث البصرة يلتفون حوله ، ويتنافسون بميله إليهم ، ويحفظون شعره لسهولته ورقته [1] » وقد نزل نصر هـذا بغداد وأقام بها دهراً طويلاً وقرئ عليه ديوانه فيهـا . حدّث الخطيب بسنده إلى أبى محمد عبد الله بن محمد الأكفانى البصرى ، قال : خرجت مع عمي أبى عبد الله الأكفانى الشاعر وأبى الحسين ابن لنكك وأبى عبدالله المضجع وأبى الحسن السماك [2] فى بطالة عيـد ، وأنا يومئـذ صبى أصحبهم ، فمشوا حتى انتهوا إلى نصر بن أحمد الخبزأرزي وهو جالس يخبز على طابقه ، فجلست الجماعة عنده يهنئونه بالعيد ويتعرفون خبره ، وهو يوقد السعف تحت الطابق ، فزاد فى الوقود فدخّـنهم ، فنهضت الجماعة عند تزايد الدخان ؛ فقال نصر ابن أحمد لأبى الحسين بن لنكك : متى أراك يا أبا الحسين ؟ فقال له أبو الحسين : إذا اتسخت ثيابى ؛ وكانت ثيابه يومئذ جُـدَداً على أنقى ما يكون من البياض للتجمل بها فى العيد ؛ فمشينا فى سكة بنى سمرة حتى انتهينا إلى دار أبى أحمد بن المثنى ، فجلس أبو الحسين ابن لنكك وقال : يا أصحابنا ، إن نصراً لا يخلى هذا المجلس الذى مضى لنا معه من شيء يقوله فيه ، ونحب أن نبدأه قبل أن يبدأنا واستدعى دواة وكتب :

لنصر في فؤادى فرط حب أنيف به على كل الصحاب
أتينــاه فبخرنا بخوراً من السعف المدخن للثياب
فقمت مبادراً وظننت نصراً أراد بذاك طردى أو ذهابي
فقال : متى أراك أبا حسين فقلت له : إذا اتسخت ثيابى

وأنفذ الأبيات إلى نصر فأملى جوابها فقرأناه فاذا هو قد أجاب :

منحت أبا الحسين صميم ودى فداعبنى بألفاظ عــذاب
أتى وثيابه كقتير شيبٍ فعدن له كريعان الشباب
ظننتُ جلوسه عندي لعرس فجئت له بتمسيك الثيــاب
فقلت متى أراك أبا حسين فجاوبنى : إذا اتسخت ثيابى

(١) معجم الأدباء (٧ : ٢٠٨)

(٢) وردت فى تاريخ الخطيب « السباك » والصواب ما فى الوفيات وهو ما ذكرناه

فان كان التقزز فيه خير فَلِمْ يكنى الوصى أبا تراب (١)

وحكى الخالديّان الشهيران فى كتاب الهدايا والتحف أن الخبز أرزى نصر بن احمد هذا أهدى إلى ابن يزداد والى البصرة فصاً وكتب معه :

أهديتُ ما لو أن أضعافه مطرح عنـــدك ما بانا
كمثل بلقيس التى لم يبن إهداؤها عند ســليمانا
هذا امتحان لك إن ترضهُ بان لنا أنك ترضانا (٢)

قال ابن خلكان « وأخبار نصر ونوادره كثيرة وتوفى فى سنة سبع عشرة وثلثمائة . وتاريخ وفاته فيه نظر ، لأنه (٣) ذكر فى تاريخه أن احمد بن منصور النوشرى المذكور سمع منه سنة خمس وعشرين وثلاثمائة (٤) » قال الخطيب : « روى عنه مقطعات من شعره المعافى بن زكريا الجريرى وأحمد بن منصور النوشرى وأبو الحسن بن الجندي وأحمد بن محمد العباس الأخباري وغيرهم ؛ وذكر النوشرى أنه سمع منه ببغداد بباب خراسان فى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة (٥) » والصحيح أن وفاته كانت فى سنة ٣٢٧ كما ورد في معجم الأدباء (٦) ، ومما أورده له ابن خلكان :

خليلي هل أبصرتما أو سمعتما بأكرم من مولى تمشى إلى عبد ؟
أتى زائراً من غير وعد وقال لي : أجلك عن تعليق قلبك بالوعد
فما زال نجم الوصل بينى وبينه يدور بأفلاك السعادة والسعد
فطوراً على تقبيل نرجس ناظرٍ وطوراً على تعضيض تفاحة الخد

* * *

ألم يكفني ما نالني من هواكم إلى أن طفقتم بين لاهٍ وضاحكِ
شماتتكم بى فوق ما قد أصابنى ومابي دخول النار فى طرّ مالكِ

* * *

كم أناس وفوا لنا حين غابوا وأناس جفوا وهم حضّارُ
عرضوا ثم أعرضوا واستمالوا ثم مالوا وجاوروا ثم جاروا
لاتلمهم على التجنى فلو لم يتجنوا لم يحسن الاعتذارُ

* * *

بات الحبيب منادمي والسكر يصبغ وجنتيه
ثم اغتدى وقد ابتدا صنع الخمار بمقلتيه

وهبت له عينى الكرى وتعرضت نظراً إليــه
شكراً لإحسان الزما ن كما يساعدنى عليــه

* * *

كم أقاسى لديك قالاً وقيــلا وعدات تترى ومطلاً طويلا ؟
جمعة تنقضى وشهر يوَلّى وأمانيك بكرة وأصيلا
إن يفتنى منك الجميل من الفعـــل تعاطيتُ عنك صبراً جميلا
والهوى يستزيد حالاً فحالاً وكذا ينسلى قليلاً قليلاً
ويكَ لاتأمننْ صروف الليالى إنهـا تترك العزيز ذليلا
فكأني بحسن وجهك قد صا حت به اللحية : الرحيلَ الرحيلا
فتبدلت حين بُدّلت بالنو ر ظلاماً وساء ذاك بديلا
فكأن لم تكن قضيباً رطيباً وكأن لم تكن كثيباً مهيلا
عندها يشمت الذى لم تصله ويكون الذى وصلتَ خليلا

* * *

رأيتُ الهلال ووجه الحبيب فكانا هلالين عنــد النظر
فلم أدر من حيرتى فيهما هلال الدجى من هلال البشر
ولولا التورّد فى الوجنتين وما راعنى من سواد الشعر
لكنتُ أظن الهلال الحبيبَ وكنتُ أظن الحبيبَ القمر
وذاك يغيبُ وذا حاضر وما من يغيبُ كما من حضر

ومما ذكره له ياقوت الحموى :

شاقني الأهل لم تشقنى الديار والهوى صائر إلى حيث صاروا
جيرة فرقتهم غربة البيـــن وبين القلوب ذاك الجوارُ
كم أناس رعوا لنا حين غابوا ... ...

إلى آخر الأبيات المتقدّم ذكرها منقولة عن الوفيات

* * *

فلا تمنَّ بتلفيق تكلّفهُ لصورةٍ حسنها الأصلى يكفيها
إن الدنانير لاتجلى وإن عتقت ولا تزاد على الحسن الذى فيها

وأورد له الخطيب :

بأبى أنتَ من مَلولٍ ألوف رُضتنى بالأمان والتخويفِ
حار عقلى فى حكمك الجائر العد ل وفى خلقك الجليل اللطيف
أنتَ بالخصر والمؤزّر تحكى قوّة الشوق بالفؤاد الضعيفِ
ليس عن خبرة وصفتك لكن حركات دلّت على الموصوف
لك وجه كأنه البدر فى التّمـ ـم عليه تطرّق من كسوف

وأغرب مافى حياة هذا الرجل المشهور بمزاورة اللذات وملابسة الشهوات وقوفه موقف الحكيم المتنصح والعفيف المتنطس فتسمع منه قوله :

(١) تاريخ الخطيب « ١٣ : ٢٩٨ — ٩ » ووفيات الأعيان « ٢ : ٢٨٢ » (٢) الوفيات « ٢ : ٢٨٤ » (٣) أى الخطيب كما سترى
(٤) الوفيات « ٢ : ٢٨٥ » (٥) تاريخ الخطيب « ١٣ : ٢٩٧ »
(٦) معجم الأدباء « ٧ : ٢٠٨ »

كم شهوة مستقرّة فرحاً ... قد انجلت عن حلول آفاتِ
وكم جهول تراه مشترياً ... سرور وقتٍ بغم أوقات
كم شهوات سلبن صاحبها ... ثوب الديانات والمروءات

وقد جمع جملة من الحكم وأشتاتاً من الأخلاق وركاماً من التجارب فى قوله :

لسان الفتى خنق الفتى حين يجهل ... وكل امرىء ما بين فكيه مقتل
إذا ما لسان المرء أكثر هذره ... فذاك لسان بالبلاء موكل (١)
وكم فاتحٍ أبواب شر لنفسه ... إذا لم يكن قُفل على فيه مُقفل
كذا من رمى يوماً شرارات لفظه ... تلقته نيران الجوابات تشعَل
ومن لم يُقيّد لفظه متجمّلاً ... سيطلق فيه كل ماليسَ يجمل
ومن لم يكن فى فيـه ماء صيانةٍ ... فمن وجهه غصن المهابة يذبلُ
فلا تحسبنّ الفضل فى الحلم وحده ... بل الجهل فى بعض الأحايين أفضل
ومن ينتصرْ ممن بغى فهو ما بغى ... وشرّ المسيئين الذى هو أوّلُ
وقد أوجب الله القصاص بعدله ... ولله حكم فى العقوبات منزلُ
فان كان قولٌ قد أصابَ مقاتلاً ... فان جواب القول أدهى وأقتل
وقد قيل فى حفظ اللسان وخزنه ... مسائل من كل الفضائل أكملُ
ومن لم تقرّ به سلامةُ غيبهِ ... فقربانُه فى الوجه لا يتقبّل
ومن يتخذ سوء التخلف عادةً ... فليس لديه فى عتاب مُعوّلُ
ومن كثرت منه الوقيعة طالباً ... بها عزّةً فهو المهين المذلّلُ
وعدلٌ مكافاة المسىء بفعله ... فماذا على من فى القضية يعدل
ولا فضل فى الحسنى إلى من يحسنها ... بلى عند من يزكو لديه التفضل
ومن جعل التعريض محصول مزحه ... فذاك على المقتِ المصرّح يحصلُ
ومن أمِن الآفات عجباً برأيه ... أحاطت به الآفات من حيث يجهل
أعلمكم ما علمتنى تجاربى ... وقد قال قبلى قائل متمثّل :
إذا قلت قولاً كنت رهن جوابه ... فحاذر جواب السوء إن كنت تعقل
إذا شئت أن تحيا سعيداً مسلماً ... فدبّر وميّز ما تقول وتفعل (٢)

وذكر له الخطيب أبياتاً ثلاثة تدل على ارتباكه فى الهوى وهى :

ما جفانى من كان لى أنساً ... أنست شوقاً ببعض أسبابهْ
كمثل يعقوب بعد يوسف إذ حنّ ... إلى شمّ بعض أثوابهْ
دخلتُ باب الهوى ولى بصرٌ ... وفى خروجى عميتُ عن بابهْ

« بغداد » مصطفى جواد

(١) ذكر له هذا البيت وآخر بيت فى القصيدة ياقوت الحموى فى معجم الأدباء
(٢) تاريخ الخطيب « ١٣ : ٢٩٧ — ٨ »

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٤ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي

لم يكد حكم أسرة « تشو » ينتهى حوالى القرن السابع قبل المسيح حتى هوت بلاد الصين فى أعمق أنواع الفوضى والاضطراب ، وظلت ترزح تحت نير هـذا التدهور السياسي والاقتصادى والأخلاقي نحو خمسة قرون . فلما ضيقت هذه الأزمة الاجتماعية الخناق وأحكمت الضغط ، كان من الطبيعى أن تنفجر العقول الجبارة بعد أن استاءت الضمائر النبيلة ؛ وكان من الطبيعى كذلك أن يحدث هذا الاستياء وذلك الانفجار آثاراً بارزة فى الحياة الاجتماعية عامة ، وفى الحياة العقلية بنوع خاص ، وهذا هو الذى كان ، إذ لم يكد ينتهى الثلث الأول من القرن السادس حتى كان كوكب تلك الشخصية البارزة الممتازة وهى شخصية « لاهو — تسيه » قد سطع فى سماء الصين سطوعاً أعقبه انفجار ينبوع عبقرية أخرى فاقت الأولى عمقاً وسمواً ، وتكاتفت وإياها على رفع الفلسفة الصينية إلى صفوف منتجات الأمم الراقية ، تلك هي عبقرية « كونفيشيوس »

عرف « كونفيشيوس » « لاهو — تسيه » ولكنه لم يكن معه على وفاق فى الآراء الفلسفية ، بل كان وإياه على طرفى نقيض فى أهم النظريات ، إذ لم يكد « كونفيشيوس » ينضج ويعلن مذهبه حتى لاحظ الناس أن بين المذهبين خلافاً جوهرياً فى القواعد الأساسية ؛ ولم يكن هذا الخلاف حول عقيدة دينية أو رأى نظرى ، وإنما كان فى الفلسفة العملية ، لأنه نشأ من سؤال هام دعت إليه الحالة الاجتماعية فى بلاد الصين ، وهو : « ما هي الوسيلة الناجعة لإنقاذ البلاد من هذا التدهور ؟ »

بينما كان « لاهو — تسيه » يرى أن التنسك والزهادة واحتقار الحياة العملية هى الوسيلة لهذا الانقاذ المفتقد ، كان

« كونفيشيوس » يعلن أن الوسيلة الوحيدة لهذه النجاة هى العناية الفائقة بتنظيم الحياة العملية على أساس الخير الأخلاقي الذي ينتهى حتما إلى الصلاح الاجتماعى ، وصرح أن الاهتمام بالعمران المنظم والقضاء على الرذائل التي تنخر في بناء صرحه هما وحدهما الكفيلان باعادة الرفهنية والهدوء إلى الدولة ، وقد كان من المفهوم بعد تأسيس هذا الخلاف أن يتسع البون بين هذين المذهبين فى أكثر نظرياتهما الهامة ، وهذا هو الذي حدث بالفعل

غير أنه ينبغي لنا أن نشير إلى أن محاولة حل هذه المشكلة ليست من مستحدثات هذين الفيلسوفين ، وإنما هى محاولة قديمة ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ؛ غاية ما هنالك أن ذلك الخلاف كان فى الماضى نظرياً فحسب ، لأن البلاد لم تكن قد هوت بعد فى هذا التدهور ، أما فى هـذا العصر فقد أضحت هذه المشكلة عملية يجب الاعتناء بها

الآن وبعد أن ألمنا إلى هذين الفيلسوفين هذه الالماعة العاجلة نريد أن نتناولهما فى شىء من التفصيل بادئين بأولهما

***

لاهو — تسيه

حياته

ليست هذه الكلمة اسمه ولا اسم أسرته ، وإنما معناها : « الأستاذ القديم » أو « العالم القديم » أو « الحكيم القديم » ؛ أما اسمه الحقيق ، فهو « بى — يانج » ، واسم أسرته « لى » وقد دعاه الناس بعد موته : « تان » ، وهو لقب مشرف كان الصينيون يطلقونه على الحكماء بعد موتهم

ولد هذا الحكيم فى سنة ٦٠٤ قبل المسيح فى قرية « كيو — جين » بمملكة « تشو » التى هى الآن فى مقاطعة « أونان » وكل ما يعرفه التاريخ الصحيح عن حياته هو ما يحدثنا به « سى — ما — تسيان » أقدم مؤرخ صينى من أنه أمضى الأكثرية الغالبة من حياته فى « تشو » . وفى أواخر حياته عين مديراً لدار المحفوظات الملكية ، ولكن أحداً لا يعرف ما هى الوظائف التى شغلها هذا الحكيم قبل هـذه الادارة ولا كم سنة قضاها فيها ، وإنما روى لنا هذا المؤرخ أنه حينما تقدمت به السن اعتزل الخدمة فى الحكومة ، وانسحب إلى وادى « هان — كو » حيث اعتزل الناس جميعاً وظل فيه عاكفاً على تأملاته الفلسفية أمنا لمبادئه الأخلاقية . وفى أثناء هذه العزلة جاءه « ين — سى » وهو أحد أخصاء تلاميذه الأوفياء وألح عليه قائلا : « من حيث إنك أردت أن تدفن نفسك فى هذه العزلة الموحشة ، فأنا أتوسل إليك أن تؤلف كتاباً لتؤدبنى به » فلم يسع هذا الحكيم بازاء ذلك الرجاء الملح إلا أن يجيب تلميذه إلى سؤله ، فألف كتاب « تاو — تى — كينج » وعلى أثر فراغه من كتابته غادر ذلك الوادي الذى عرفه الناس فيه وانسحب إلى حيث لم يره بعد ذلك أحد

وقد حدثنا « سى — ما — تسيان » أيضاً أنه أعقب بعده ابناً يسمى « تسونج » صار بعد أبيه من عظماء الدولة ؛ وكان قائداً كبيراً من قواد جيوشها ، وأن مشاهير رجال المملكة الذين لعبوا أهم الأدوار السياسية والاجتماعية فيها كانوا من ذريته

أما الأساطير الشعبية فقد أحاطت هذا الحكيم بغابة كثيفة من الروايات والحوادث التى ثبتت الاستحالة الزمنية فى بعضها ، وتحقق الاستبعاد فى بعضها الآخر ، كما أنه قد غلبت الحقيقة على البعض الثالث . فمن هذه الأساطير ما يحدثنا عن تلك المقابلة الهامة التى حدثت فى سنة ٥٢٥ قبل المسيح بين « لاهو — تسيه » و« كونفيشيوس » ومادار فيها من محاورات بين الحكيم الشيخ الهادئ الواثق مما يقول ، وبين العبقرى الشاب التحمس المفعم بالآمال العذبة فى المستقبل المنير

تحدثنا هذه الأسطورة أن الشيخ أعلن فى حديثه أن إصلاح الحياة الاجتماعية بوساطة النشاط العملى مستحيل ، وأنه لا يتيسر إلا بوساطة التنسك والزهادة والاعتزال ، وأنه لم يقل بهذا الرأى إلا بعد تجارب طويلة استغرقت سبعين سنة ، وأن « كونفيشيوس » حينما سمع من الحكيم الشيخ هذا الرأى ، لم يتردد فى الحكم عليه بأنه خاطئ باطل ، وبأن نتيجتـه هي الخمول واليأس ؛ ثم سأله قائلا : « إذا كان واجب كل فرد من أفراد الدولة أن ينسحب فى كهف من الكهوف ، فمن ذا الذى يعمر المدن ، ويفلح الأرض وينشئ الصناعات ، ويديم النوع البشرى على سطح الأرض ؟ وإذا كان هذا الاعتزال من واجب الحكماء فحسب ، فمن ذا الذى سيربى الانسان ويؤدبه ويصون الفضيلة والأخلاق ؟ »

وتحدثنا هذه الأسطورة أيضاً أن المقابلة بين هذين الحكيمين كانت من أجل هـذا الخلاف فاترة ، وأن سوء التفاهم قد ساد بينهما على أثر هذه المحاورة . ويعلق أحد « المستصينيين » على هذا النبأ بقوله : « ما دام قد ثبت تاريخياً أن « لاهو — تسيه » كان

مديراً لدار المحفوظات فى مدينة « لو » فى نفس التاريخ الذي زار فيه « كونفيشيوس » هذه العاصمة ، بل إنه قد ثبت أنه زار دار المحفوظات نفسها وطلب الاطلاع على بعض ما فيها من وثائق قديمة كانت دراسته فى حاجة إليها ، أفليست هذه الظروف كلها تدعونا إلى تصديق هذه الأسطورة لا سيما إذا كان ما حدثتنا عنه من خلاف صحيحاً صحة علمية ؟ »

ومن هذه الأساطير أيضاً ما يروى لنا أن « لاهو — تسيه » بعد أن اعتزل الخدمة ارتحل إلى بلاد الهند وأخذ ينشر تعاليمه هناك ، وقد تلاقى مع « بوذا » فتتلمذ هذا الأخير عليه ، وتلقى عنه تلك المعارف الصينية القيمة التى كانت فيما بعد أساساً لمذهبه

ويستبعد الأستاذ « زانكير » صحة هذه الأسطورة ، لأن « بوذا » لم يولد إلا بعد هذا الحكيم بمائة وخمسة وعشرين عاما ؛ وإذا صح سفره إلى الهند ، فلا يمكن أن يصح لقاؤه مع شخص بقى على مولده خمس وأربعون سنة ، فضلا عن نشأته واستعداده لتلقى العلم ؛ فإذا أضفنا إلى هذا أن حكيمنا لم يعتزل الخدمة إلا بعد بلوغه سن الثمانين استطعنا فى سهولة أن نجزم باستبعاد صحة هذه الأسطورة

هناك أسطورة ثالثة تنبئنا بأن هذا الحكيم قد كتب ألف كتاب ، منها تسعمائة وثلاثون فى شرح فن الحياة العملية والأخلاق والسلوك والمعاملات الإنسانية ، والسبعون كتاباً الباقية فى السحر ، وعلى الأخص في صنع التمائم التى يجلب حملها السعادة للأحياء

لا ريب أن هذه الأسطورة لا تقل عن سابقتها بطلانا ، لأن هذا الحكيم لم يثبت عنه أنه كتب غير كتاب « تاو — تى — كينج » الذى أشرنا إليه آنفا ، والذى خصصه لتسجيل مذهبه الفلسفى . بل إن النقاد المحدثين يجزمون بأن هذا الكتاب على حالته الراهنة ليس من تأليف « لاهو — تسيه » وإنما هو مجموعة من آرائه وحكمه مضافاً إليها آراء وحكم لبعض القدماء الذين سبقوا عصر هذا الحكيم ، ويرجحون أن هذا الكتاب قد كتب بعدة أقلام مختلفة ، بعضها لتلاميذ هذا الحكيم ، والآخر لبعض المتمذهبين بمذهبه

مذهبه

اختلف الباحثون المحدثون فى المذهب النظرى لهذا الحكيم اختلافات شتى جعلت اليقين عسيراً على كل من يحاول الحكم على هذه الفلسفة « اللاهو — تسية » والسبب فى وقوع كل هذه الاختلافات بين العلماء هو صعوبة معنى كلمة « تاو » التى اتخذها هذا الحكيم عنواناً لكتابه ؛ ولكن ليس معنى هذا أن تلك الكلمة كانت فى الأصل غامضة أو عويصة ؛ كلا ، فقد مرت بنا فى عصر ما قبل التاريخ وعرفنا أن معناها إما « الصراط السوي » وإما « واجب الانسان » أو « الفضيلة العليا » أو « الغاية المثلى » ولكن الصعوبة حدثت من المعنى الجديد الذي أسبغه حكيمنا على هذه الكلمة حين اختارها عنواناً لكتابه الفلسفى ولم يصرح فى تحديده بكلمة قاطعة ؛ بل ترك الباحثين يستنتجون هذا المعنى الحديث من المشاكل التى درست فى هذا الكتاب ؛ فلما عالج العلماء الأوربيون هذا البحث ذهب كل منهم مذهباً يناقض مذهب الآخر ؛ بل إن بعضهم ألقى سلاحه بإزاء هذا العنوان وانسحب من الميدان ؛ ومن هذا القسم الأخير المسيو « دينيس سورا » الذى أعلن أن هذه الكلمة غير مفهومة . وإذاً فالمذهب النظرى لهذا الحكيم غير مفهوم . أما الأستاذ « زانكير » فقد أفاض فى شرح هذه الكلمة وتعقب مراميها المختلفة تعقباً يروى غلة الباحث الشغوف . وخلاصة ما قاله في هذا الشأن أن هذه الكلمة تحمل من المعاني ما لا يمكن أن يؤدى بلفظة أوربية . ولهذا يكون خاطئاً كل من حاول ترجمتها بكلمة واحدة من لغاتنا الحديثة ، بل الوجب ترجمتها بجملة طويلة أو بعدة كلمات ، فمن معانيها مثلا : الروح الأزلى الأبدى المشتمل على جميع القوى الحيوية ، والكائن النقى ، والجوهر الأساسى لكل موجود ، والحياة الحقة لكل كائن ، والمدبر العام للكون كله ، وفوق ذلك كله فهذه الكلمة قد احتفظت بمعانيها القديمة التى كانت لها فى عصر ما قبل التاريخ ، وهى : الصراط السوى ، والفضيلة ، والواجب ، والغاية ، والتطور ، ولكن ينبغي أن نعلم أن هذا التطور ليس إلا أثراً ظاهراً لهذه القوة ، أما هى نفسها فثابتة لا تتغير

وأكثر من هذا أن « لاهو — تسيه » يصرح بأن « تاو » هو الـ « فى ذاته » ، بل هو الكائن الغير القابل لِمُدْرَكيَّة العقل البشرى ، لأن أي كائن متى حصره التفكير الانسانى ووضع له اسماً مُحَدَّداً ، فقد فَقَدَ نقاءه ولا نهائيته

ولا شك أن من يلقى نظرة عاجلة على المدرسة الأفلاطونية الحديثة ويستعرض ما قاله « أفلوطين » عن الاله يجد الشبه عظيماً بينه وبين هذا الرأى

« يتبع »

محمد غلاب

الفروسة والتربيـــة

للسيد جريس للقسوس

كلمة تمهيدية

يعاني العالم مشقة كبيرة في التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ؛ وما عرف التاريخ منذ بدئه حرباً أشـد هولاً من هذا النزاع بين الفرد والمجموع برغم محاولة الفلاسفة وعلماء الاجتماع ورسل الأديان التوفيق بينهما . إذْ تؤثر الجماعة المحافظة ، وتكره كلَّ ظاهرة يرجى من ورائها انتقاض كيانها وهدم صرح نظمها وتقاليدها . بيد أنه قد ينهض أحياناً فردٌ يشهر عليها حرباً عواناً فيصطدمان ، فإن كتب له الخلود انتصر عليها ، وإلا طمس أثره وراح ضحية شذوذه

ولقد برهن التاريخ أن الحق في أغلب الأحيان للقوة ، لذا ترى أن عدد أسماء العظماء في التاريخ قليل جداً إذا ما قيس بعدد من خضع لأحكام الجماعة وسلطتها ، وتمشى بموجب تقاليدها ونظمها . والعظيم بحق هو من فاضل الجماعة وغلبها ، وتمكن من أن يسيرها حسبما يراه صالحاً

أما في العصور الوسطى فقد كانت للجماعة السلطة التامة على الفرد ، دينياً وعلمياً واجتماعياً . فهناك الـكنيسة تستأثر بالسلطة الدينية ، وترى أن ما تسنه للفرد على الأرض من شرائع وقوانين يُسنُّ في السماء ، وتتسلح ضده بمحاكم التفتيش والقطع والتأديب، وتتذرع بكل سلطة زمنية فوق الدينية لتقى حقها الذي هو حق الجماعة ، وتحارب الزنادقة وهم — في رأيها — من شذّوا عن مبادئها وخالفوا أحكامها . ويلحق الـكنيسة نظام الرهبنـة Monasticism ، وقد حل هذا النظام محل معاهد التربية في نشره الفضيلة ، وتعززه ناحية من نواحي الرسالة النصرانية . وهنالك الطريقة الزهدية Mysticism التي دعت إلى الزهد وعيشة التقشف والاتصال بروح الله في الحياة الدنيا ، فسيطرت بذلك على فكر الفرد وحياته الروحية وقيدتهما مدة ليست قصيرة

أما الطريقة المدرسية Scholasticism فقد هيمنت على عقل الفرد ، ووضعت له قواعد وحدوداً ثابتة ، ليس له أن يتعداها أو يشذ عنها في حياته الفكرية . أما الاجتماع والسياسة فمهدهما الفروسة Chivalry وفعله — كما سترى — لم يختلف كثيراً عن فعل غيره من الأنظمة والمعاهد التي ذكرناها

كل هذه الأنظمة تعاونت وتضافرت على صيانة الحضارة في العصور الوسطى وخاصة المظلمة منها ، لـكنها كانت تتوخى دائماً إعلاء كلمة الجماعة وإخفات صوت الفرد ، فحالت بذلك دون تقدم الحضارة تقدماً حثيثاً ، إذ كلما حاولت سفينة الحضارة الاقلاع ، ألقت الجماعة مرساتها لتوقفها وتعيقها عن السير المطرد . والصراع بين الفرد والمجموع قائم على هـذا الأساس . فالفرد يبتغي رفع المرساة وتحطيمها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، بينا الجماعة تريد خلاف ذلك . ومهمة التربية والتعليم في كل عصر ومكان — كما بينا — التوفيق بينهما ، وإصلاحهما إصلاحاً يكفل معه تقـدم الحضارة . وسنتناول في هـذا المقال نظام الفروسة ونرى كيف كان مرساة للنظم والمبادئ الاجتماعية والأخلاقية ، وما كان فضله على التربية خصوصاً

الفروسة ، طبيعتها ، نشأتها

الفروسة في أكمل وضع لها : نظام أو معهد اجتماعي لا ديني (من حيث نشأته) ، ذو مبادئ ، ومثل اجتماعية وأخلاقية عالية قائمة على قواعد وتقاليد رسمية راسخة . ومن شروط الانتظام في هـذا السلك أن يكون المرء حر المولد ، شريف المنبت ، (أو يكون قد نال النبل من أحد الملوك) ، يملك ضيعة ، ويستطيع أن يعول نفراً من الضعفاء . ولم تمنح العضوية إلا لمن زاد عمره على الحادية والعشرين ، اللهم إلا في آخر عهد هـذا النظام ، فقد كانت تمنح لأبناء العائلات المالـكة الذين لم يبلغوا ، أو تجاوزوا السن القانونية لنيل هذه العضوية . وكان لا بد لـكل طالب من أن يقضي مدة معينة يجوز في خلالها بعض الامتحانات والمراسيم ، ويتقن العلوم والفنون ، ويتحلى بالسجايا التي يقتضيها شرف هذه المهنة . وقد اقتصرت العائلات النبيلة على هذا النوع من التربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، خصوصاً مع عدم توفر العلوم فيه كما سترى

كانت مبادئ الفروسة ومثلها العليا خليطاً مما ورثته عن النصرانية والحضارة الرومانية ، واحتفظت به من عادات قبائل البربر الجرمانية وطباعها . وكان للفروسة صبغة عسكرية فى القرون التى تلت سقوط الدولة الرومانية حتى القرن التاسع والعاشر للميلاد ، فكل ملك أو بارون أو لورد أو نبيل ، سافر أو ناضل على ظهر جواد ، وكان له أتباع وحشم عُدَّ فارساً : فالفروسة والإقطاع هما في الحقيقة توأمان من حيث نشأتهما وشيوعهما . ولقد ازدهر نظام الفروسة واستكمل نموه منذ الغزوات الصليبية الأولى فى القرن الحادى عشر للميلاد ، وما فتئ ينمو ويشتهر حتى أوائل القرن السادس عشر . فكان المعهد التربيوى الوحيد خلال تلك القرون لعائلات النبيلة والمالكة ، حتى جاء عصر النهضة Renaissance بمدارسه العالية ، فحلت هذه محل الفروسة وغيرها من المعاهد والطرائق التى سبق الإيماء إليها

مبادئها وصفاتها

لعهد ليس بالبعيد كانت هناك مبادىء وصفات تؤهل الفرد لاكتساب لقب « جنتلمان » Gentleman ، تلك التى إذا ما حازها عُدَّ فارساً . من هذه المبادىء والسجايا الشجاعة والأنفة واحترام النفس والانتصاف للشرف واللطف والرقة فى المعاملة ونكران الذات وطلب الشهرة عن طريق الحرب ، وغير هذه من الصفات الخشنة كالشراسة والقسوة والغضب إلى حد الجنون ، والتبهرج والإسراف والرغبة فى الحياة العسكرية العنيفة الجافة ، والإيمان القويم بالله . وكما أن للرهبنة فضلاً على الناحية الدينية من علمى التربية والأخلاق ، فللفروسة فضل على الناحية اللادينية منها . إذ رفعت من شأن فكرة الخدمة Service والرأفة لدى قوم غلاظ الطباع ، وذلك بأن فرضت عليهم شروطاً وقواعد لابد لهم من مراعاتها مدة انضوائهم تحت لواء الفروسة . ولو أنعمنا النظر قليلاً فى هذه الفكرة لألفينا أنه حينما وُجدت الطاعة والخدمة ، وجد معها الاستعباد والقسوة . فإذا كان تشجيع الطاعة والخدمة من حسنات الفروسة ، فتعزيز الاستعباد والإذلال هو من سيئاتها

ولم تكن الفروسة فى الواقع إلا خادمة للرسالة النصرانية ، فقد ولدت فى معهد الكنيسة ، ثم نشأت وانتشرت تبشر بمبادئها ، وتنشر النصرانية بين برابرة الجرمان . وحينما تحولت الكنيسة إلى السلطة الزمنية تستنجدها وتستفزعها لمهاجمة المسلمين فى عقر دارهم ، كانت الفروسة أول من لبى نداءها . وقد كان لاتصال الفروسة بالكنيسة أثر مسلموس فى خلق الفارس ، فكان لابد له ، إذا نشد الكمال ، من أن يتوخى مبدأ الاعتدال فى حياته وأن يستسلم لأسياده وينقاد إليهم إنقياد الأعمى ، ويتضع لمن هم دونه رتبة ، ويشفق على الضعفاء والفقراء ويحسن إليهم ، وأخيراً أن يجل الجنس اللطيف كل الإجلال

ويجازي من نكث هذه الشروط بأن يطلب للبراز مع غيره مبارزة قد تؤول إلى هلاكه . بذا وبغيره من الوسائل السلبية والإيجابية ، وبالمزاولة الطويلة ثبت نظام الفروسة ورسخت قواعده ومبادئه رسوخاً متيناً ، وانتشر انتشاراً عمّ مختلف طبقات المجتمع البشرى فى أوروبا حقبة طويلة من الزمن .

ومن الصفات التي لم يكن يقتضى اكتسابها تعليماً خاصاً ومجهوداً كبيراً الشجاعة والإقدام ؛ بيد أن ما رافقهما من التمرن على حمل السلاح واستعماله ، والتفنن فى ركوب الخيل ، أمور يتلقاها الفرد فى سلك الفروسة . وما يصدق على الشجاعة يصدق على الشهامة Gallantry واحترام السيدات ، فإن ذلك لم يكن يقتضي تعليماً رسمياً . على أنه لابد لاكتساب كل سجية مطبوعة بطابع الفروسة الخاص من وقت طويل وعناء كبير لدقتها وتعقدها . وفيما يلى نبذة للمؤرخ « كورنش » تبين باختصار مبادئ الفروسة وأثرها فى حياة الفرد والمجموع يقول :

« لقد علمت الفروسة العالم واجب الخدمة الطوعية الشريفة ورفعت من شأن الشجاعة ، والخضوع لأحكام السلطة ، ووقفت قوتها العسكرية على خدمة الدين ، وشجعت السخاء والإحسان والإيمان القويم ونكران الذات والشهامة ؛ وفوق كل هذا إجلال السيدات . ومع أن للفروسة فضلا كبيراً على علمى التربية والأخلاق فمثالبها شتى ، لأنها كانت تشجع بعض الرذائل كالغرور وحب القتال وازدراء الرعاع والتهتك والخلاعة . ولا مراء فى أن هذا المعهد — على ماله من مناقب ومثالب — كان ملائما لروح العصر والبيئة اللذين نشأت فيهما . »

نظامها ومنهاجها

للتربية فى هذا النظام ثلاث مراحل ، تبتدئ أولاها من السنة السابعة وتنتهى بالرابعة عشرة ، ويسمى الفتى في هـذا العهد بالوصيف Page ؛ وتبتدئ المرحلة الثانية من السنة الخامسة عشرة وتنتهى بالحادية والعشرين ، ويطلق على الفتى فى هذه السن لقب «الرفيق» Squire ؛ أما المرحلة الثالثة والأخيرة فتبتدي من السنة الحادية والعشرين ، وفيها يعرف الفتى بالفارس Knight

كان يجرى التعليم والتمرين فى معهد بلاط أحـد الملوك Court School ، أو قلعة أحد النبلاء . فى قلاع النبلاء يجرى التعليم الخاص بالطبقة التى هى دون النبلاء . أما النبلاء فيبعثون أولادهم إلى بلاط الملك حيث يخدمون فى حاشيته ؛ وفي كثير من الأحيان يمارس أبناء الملوك الخدمة فى قصور آبائهم كسائر أبناء النبلاء ، ولم يجر التعليم فى بيوت العامة لندرة وسائله ، وقلة معدات التمرين فيه ؛ لهذا كانت دور النبلاء وقلاعهم وقصور الملوك مزدانة بالفتيان والفتيات طيلة سنى التعليم والتمرين . ولقد كان للفتيات كما للفتيان حق ونصيب من التربية في هذا المعهد ، فقد كان فى عصر الإقطاع شريعة (١) تقضي بأن يرث النبيل ضياع آباء الفتيان والفتيات الذين هم في خدمة النبيل ، وتخوله حق السلطة على أولئك الفتيان والفتيات والتصرف بهم كما يشاء قبل أن يدركوا سن الحادية والعشرين . فأدى هذا الحق ، أعنى التحكم فى أولاد الميت وبناته إلى تزويجهم حسبما يراه النبيل صالحاً ، بهذا كان التزاوج بين الفتيان والفتيات شائعاً جـداً فى قلاع النبلاء ، وخصوصاً فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد . وطبيعى أن يقوم النبيل بكل ما تتطلبه معيشة هؤلاء الفتيان والفتيات ماداموا قاصرين وعاجزين عن القيام بذلك من تلقاء أنفسهم

أما الفتيات فقد كُنَّ يتلقين العلوم والفنون المنزلية من خياطة ونسج وموسيقى وغناء ثم الفرنسية وبعض اللاتينية . وكانت تعلم هذه العلوم فى مدارس الأديرة ؛ من هذه فى انكلترا دير « دارتفورد » Dartford فى كنت ، وقـد اختص بينات العائلة المالكة ، ودير « كارو » Carow قرب نوردش وكان خاصاً ببنات الطبقة النبيلة ، ومدرسة دير سان مارى فى ونشستر Winchester وغيرها . وبعد أن تتم الفتاة تحصيلها فى هـذه المدارس تعود إلى قلعة النبيل المتولى أمرها ، حيث تكتسب صفات الفروسة ، وتجالس الفتيان فى « الصالون » حتى تصل إلى اختيار زوجها منهم . وغالباً مادفعت هذه العادة الكثيرين إلى أن يبعثوا بناتهم وأبناءهم إلى هذه القلاع ، ليلتحقوا فى خدمة النبيل ظاهراً ، وينشدوا التزوج باطناً . فالتزوج هو فى الحقيقة غاية ما كانت ترمي إليه تربية الفروسة في هذه المرحلة ، لأن من كان خليقاً بالزواج عن هـذه الطريق كان جديراً بنيل شرف الفروسة

نعود الآن إلى الوصيف لنرى كيف يتدرَّج فى مراحل هذه التربيـة حتى يصبح فارساً . ينشأ الوصيف والوصيفة مع نساء حاشية النبيل حتى السنة السابعة ، وفى خلال هذه المدة يكون الوصيف قد ألف ركوب الخيـل ، وتعلم هو والوصيفة القراءة والكتابة وبعض مبادىء العلوم البسيطة التى تقتضيها الخدمة المنزلية . وكلما تقدم الوصيف فى السن ، تعقدت العلوم التى يتلقاها وصعبت . فحينما يصل سن السابعة يشرع فى تعلم فنون الصيد واللعب بالسيف والترس ورمى القرص والرمح . وليست هذه الفنون سهلة المنال كما يظهر ؛ ففن الصيد مثلا يتطلب إلماماً بقوانين الغاب Forest Laws ، وهو ينقسم إلى قسمين : —

(١) صيد الغزال وما كان من فصيلته وعلى شاكلته Fenery

(٢) والبيزرة ؛ وهذا القسم ضرب معقـد من ضروب الصيد يقتضى معرفة بأنواع الطيور وكيفية إقاتها وتدريبها على الصيد . وعدا هـذا يتعلم الوصيف أصول المصارعة والملاكمة والجرى وركوب الخيل واللعب بالسيف والرمح ومبارزة الدببة والجواميس . كان الوصيف مشغوفاً بهذه الفنون العملية كل الشغف ، لأنها كانت ذات أثر مباشر فى حياته ؛ لهذا لم يُعن كثيراً بتعلم القراءة والكتابة والموسيقى . بيد أن إعراضه عن هذه العلوم النظرية إلى غيرها لايعنى عدم اهتمام مدارس الفروسة بها ، فقد كان للوصيف فرصة سانحة ليتعلم فيها العزف على بعض الآلات الموسيقية والتدرب على الغناء . وقد تخرج فى هـذا المعهد المنشدون الكثيرون Minstrels الذين كانوا يرحلون من بلد إلى آخر ، ويحلون حيث غواة الموسيقى وعشاق الفن . ولقد عنيت

(١) راجع دائرة معارف التربية لمونرو تحت مادة Chivalric Education

بعض العائلات المتدينة بتعليم الموسيقى والنشيد الديني ، فكان منها مدارس خاصة ، عدا نظام الفروسة

كان الوصيف يصرف أويقات فراغه فى الخدمة المنزلية ، ومشتركاً فى حياة النبيل العائلية ؛ فتراه يرافق سيدته « زوجة النبيل » أنى ذهبت ، ويقوم بخدمتها المنزلية بكل طاعة وإذعان . ومن الخدمات البسيطة التى اختص بها تجفيف عرق سيدته ، وذب الذباب عنها ساعة نومها بمروحة لا تكاد تفارق يده طيلة أشهر القيظ

وما يكاد الوصيف يشب ويصبح « رفيقاً » Squire حتى يشرع فى تعلم فنون جديدة كفن المناداة Heraldy ، وهو فن معقد يقتضى إتقانه عناية ومجهوداً كبيرين ، و « تقطيع اللحم » وهذا أيضاً فن قائم بذاته ، وقد أهمل وتنوسى على مرور الزمن . وأهم واجباته المنزلية فى هذا العهد تحضير الموائد ، فهو الذى يقطع اللحم — كما قلنا — ويتناول صحون الأطعمة وكؤوس الخمر من الوصفاء ، ويوزعها على الضيوف . وعلى الرفيق أن يُعدّ فراش النبيل ، وأن يتولى سياسة حصانه ، وأن يقوم بتعبئة البنادق وصقلها وتنظيفها . وعليه أن يرافق سيده فى سفراته الطويلة ، ويتولى رعايته وحراسته فى الليل ، فلا يغمض له جفن مادام سيده نائماً . وعلى « الرفيق » أن يلقن الوصيف كل ما تقتضيه الخدمة المنزلية ، وتتطلبه الحياة العملية كركوب الخيل ، وتعلم اللغات الألمانية والانكليزية وبعض اللاتينية (أما الوصيفات فالفرنسية) ، والعزف على الناى والقانون ، والرقص والغناء ولعبة الشطرنج ، ومبادئ الفروسة وقوانينها . ومن الكتب التى كانوا يعتمدونها فى تعلم مبادئ الفروسة وصفاتها فى انكلترا خصوصاً كتاب « سلوك الغلام على المائدة » لقروستست « Bishop Grosseteste's Stans Puer ad Mensam »

وعلى « الرفيق» أن يرافق زوجة النبيل فى روحاتها وجيئاتها وأن يلاعبها الشطرنج ويراقصها ويعزف ويغنى لها . أما علاقته معها فعفيفة غاية العفة ، بريئة غاية البراءة ، قلما تؤدى إلى الفعل المنكر ، لأنه بمرافقته إياها وإذعانه لها يكتسب صفة من أسمى صفات الفروسة وأنبلها ، ألا وهى إجلال الجنس اللطيف وإيناسه . وكان يتجلى هذا الشعور فى المرحلة الأخيرة من مراحل الفروسة وخصوصاً فى أوان المبارزة . فعندما تعقد حفلات المبارزة تهرع إليها أجمل الفتيات وأنبلهن ؛ وقد تستغرق الحفلة الواحدة ثلاثة أيام أو أكثر . وللمبارز إذا انتصر على خصمه أن يجرده من سلاحه وجواده ، وأن يمر بالفتيات ، فيتمهدهن بنظره حتى يقع بصره على إحداهن ، فيختارها لتسمى ملكة الحب والجمال « Queen of Love and Beauty » فتتوج بإكليل وتشرف على بقية الحفلات بينا السيدات يحطن بها من كل جانب ، راغبات فى التقرّب منها تشرفاً

وللكنيسة أثر ملموس فى حياة الفارس ، فتراها إذا ما قارب السنة الحادية والعشرين من عمره ، سيطرتْ عليه ، ووجهت حياته السلمية والحربية إلى ما فيه خيرها ونفعها . فتعرض له بعض المراسيم والامتحانات الدينية المعقّدة التى لا بد له من اجتيازها . أهم هذه ما يجىء فى الحفلة النهائية التى يصبح فيها « الرفيق » فارساً ؛ وتستغرق هذه الحفلة أحياناً عدة أسابيع ، فيصرف بضعة أيام فى الصوم وليلة فى إحدى الكنائس القديمة المظلمة ، مسترسلا فى التأمل والتفكير ، ثم يستحمّ ، ويعترف عند أحد الكهنة ، وبعد ذلك تعقد الحفلة النهائية ، ويترأسها أحد الكهنة ، وفيها يخلع عليه الكاهن ثوباً أبيض رمز الطهر والنقاوة ، وآخر أحمر إشارة إلى ماسيسفكه من الدم فى الدفاع عن مبدئه ودينه ، وسُترة سوداء قصيرة تذكرة بشبح الموت الذي سيلقاه دون خوف أو وجل ؛ ثمّ يصغى إلى عظة بليغة يلقيها الكاهن عن حياة الفروسة . وفى النهاية يقسم الفارس يمين الفروسة الرسمى وخلاصته : « أن يذود عن الكنيسة ، ويكافح الأشرار ، ويحترم رجال الدين ، ويجل الجنس اللطيف ، ويصون الضعفاء ، ويحسن إلى الفقراء ، وألا يحجم عن سفك دمه فى الدفاع عن بنى دينه وجنسه » . ثم ينادَى فارساً باسم الله ، والقديس جورج ، والقديس ميخائيل ، ويناوَل السيف والمهماز ويُلطم على وجهه لطمة خفيفة رمزاً إلى آخر إساءة يستطيع أن يصفح عنها ، وإلى حياة العنف والجهاد التى سيحياها

ويقضى الفارس السنين العشر الأولى التى تسبق السنّ القانونية للالتحاق بالفروسة فى الدرس المتواصل ، والاستعداد الدائم لهذه الحفلة التي تعد أكبر حادث فى حياته . ولقد ورد فى

رسالة كتبها جيلس دى روم « Giles de Romme » لتلميذه الملك هنرى دى جاند « Henry de Gand or Ganchy » فى صغره بعض الموضوعات والدروس التى يتعلمها « الرفيق » والصفات التى لا مناص له من اكتسابها لكى يكون فارساً، منها الإحسان والشجاعة والاعتدال ؛ والقسم الأخير من الجزء الثانى من هذه الرسالة يتناول ذكر واجبات « الرفيق » نحو الكنيسة . أما الفصل السابع فيقتصر على الموضوعات العلمية كتعلم اللاتينية والالمام بالفلسفة، وعلم البيان Rhetoric وهذا خاص بأبناء الأمراء والملوك ، وعلم الحساب الذى لا بد منه لإتقان الموسيقى ، وتعلم الهندسة التي لا غنى لطالب علم الفلك عنها . كل هذه العلوم خاصة بأبناء الطبقة الوسطى Gentry . وهناك عدا الفنون السبعة المعروفة فنون وعلوم أخري لا بد للطالب من تعلمها وهى :

(١) العلوم الطبيعية لأنها تتعلق بطبيعة الأشياء

(٢) علم ما فوق الطبيعة لأنه يبحث عن الله وملائكته

(٣) علم اللاهوت

(٤) علم الأخلاق لأنه يعلم الفرد ضبط نفسه

(٥) علم السياسة لأنه يعلم إدارة المدن والممالك

وشعار الفارس فى حياته — كما رأيت — الدين والحب والحرب ، فهو الخادم الأمين المطيع للكنيسة ولسيدته التى تمثل الجنس اللطيف كله ، ولسيده الذى يمثل الملوك والنبلاء

وترى مما تقدم أن الفروسة لعبت دوراً باهراً فى تاريخ التربية خصوصاً والحياة الاجتماعية عموماً ، وأن منهاجها لا يقل عن منهاج الجامعات والمدارس الابتدائية Grammer Scools فى القرن الثالث عشر للميلاد خصوصاً ؛ وأثره فى أدب الإفرنج لا يقل عن أثره في التربية والاجتماع والسياسة . فقد أصبح مستقى فياضاً لآدابهم ، وعلى الفروسة تدور بعض القصص الرائعة والقصائد الحماسية والأناشيد الشائقة ؛ وحسبنا في هذا المقام أن نذكر أن الرجوع إلى العصور الوسطى عموماً والفروسية خصوصاً لاختيار الموضوعات الأدبية كان من أكبر خواص ومظاهر العصر الابتداعى Romantic Age فى الأدب الانكليزى فى القرن التاسع عشر . وأثر هذا ظاهر فى بعض قصص سر ولتر سكوت وخاصة « إيفنهو » Ivanhoe « وتلسمان » Talisman « والأبوت » The Abbot

وفى إحدى قصص وليم تاكرى William Thackery الرائعة أعنى « هنري إزموند » Henry Esmond وفى غير ذلك العصر من عصور الأدب الانكليزى كعصر الياصابات مثلا وخصوصاً فى بعض ملاهى شكسبير مثل « جعجعة ولا طحن » Much Ado About No thing و « رجلا فيرونا » Two Gentlemen of Verona « وكما تشاء » As you Like it

والمقام يضيق عن التوسع في هذه الناحية ، فعسى أن يقوم من بين الأدباء من يجد في نفســه الكفاية للبحث فى علاقة الفروسة بكل من الأدب والسياسة وفضلها وتأثيرها عليهما .

جبرئيل القسوس
الجامعة الأمريكية : بيروت

* * *

مصادر هذه الرسالة

1. Monroe's Hist. of Education
2. Monroe's Cyclopedia of Education: (Chivalric edncation)
3. Cyclopedia of Social Sciences: (Chivalry in Europe)
4. Encyclopedia Britanica: (Knighthood)
5. Cubberly's Hist. of Education
6. مقالة الأستاذ عبد الله عنان عن « الفروسة » فى « أحسن ما كتبت » ص ٢٥

أبحاث تاريخية جديدة

الإسلام في غرب أفريقية

مدى انتشاره في تلك الأقاليم ومبلغ أثره في الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تقدمة

بدأ الإسلام في شبه جزيرة العرب ... ومنها انتشر سريعاً في مختلف أنحاء العالم فوصل إلى الصين شرقاً امتد إلى الأندلس والمحيط الأطلسي غربا . وأينما وصل الإسلام نشأت حضارة إسلامية جديدة أخذت عناصرها من حضارة الإقليم الهرمة المحطمة ومن حضارة الدين الجديد وتعاليمه... ثم استقرت هـذه الحضارات، كل حضارة في إقليمها الخاص بها ... وظهرت لها بمرور الزمن مميزات خاصة ... ولـكن هذه الحضارات كانت تتصف بصفات مشتركة تجتمع فيها عند نقطة واحدة تميزها جميعاً... تلك هي أنها حضارات إسلامية

وفي كل بلد من هذه البلاد الإسلامية وجدت معاهد للعلم ونشأ العلماء في كل فن ... ونبغوا ... ورحلوا ... ونشروا دينهم ... وكتبوا الـكتب تتحدث عن كل علم وفن ... وتصف كل قطر عرفوه أو رحلوا إليه أو نقلوا إليه دينهم ...

وكانت بلاد المغرب إحدى تلك الأقاليم التي انتشر فيها الإسلام وإحدى تلك الأقاليم التي نشرت الإسلام في طول الصحراء وعرضها حتى وصل إلى حدود الـكمرون جنوباً وإلى شاطئ المحيط الأطلسي غرباً ... وقد تحدث المؤرخون الإسلاميون عن هذه الجهات في كتبهم ورحلاتهم ...

فأبو عبيد البكري الأندلسي وابن فياض الأندلسي وابن خرداذبة كلهم يتحدثون عنها وعن حدودها فيقولون : « فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومي مدينة أنطابلس المعروفة ببرقة ، وآخرها مما على ساحل البحر الأعظم مدينة طنجة ، وطنجة هذه آخر بلاد المغرب المحقق وما بعدها من البلاد فإنما هو في الجنوب إلى أن يأتي بلاد الحبشة والهند ... »

أما ابن بطوطة فقد جاب الصحراء المسلمة واتصل بقبائلها وملوكها ووصل حتى بلدة كارسخو بين نهري النيجر والسنغال .

وابن بطوطة رحالة عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وقد طاف في معظم الجهات الإسلامية المعروفة في ذلك الحين ومنها غرب أفريقية ؛ وقد أحببت أن أنقل عنـه أخبار انتقاله باختصار لتكون دليلاً مادياً على وصول الإسلام لتلك الجهات وإن كان الرجل يخلط خلطا غريباً بين نهري النيل والنيجر ، ولـكن له في الواقع عذره لجهل العالم كله في ذلك العصر بأواسط أفريقية ومنابع أنهارها . يقول ابن بطوطة :

« ثم سرنا من زاغري فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخو ؛ والنيل ينحدر منها إلى كابرة ، ثم إلى زاغة ؛ ولـكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي ... وأهل زاغة قدماء في الإسلام ولهم ديانة وطلب للعلم ؛ ثم ينحدر النيل إلى تنبكتو ، ثم إلى كوكو ، ثم إلى بلدة مولى من بلاد الليميين — وهي آخر عمالة مالي — ثم إلى يوفي ، وهي من أكبر بلاد السودان ، وسلطانها من أعظم سلاطينهم ؛ ثم ينحدر إلى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ؛ ثم إلى دنقلة ، وهي أكبر بلادهم وسلطانها يدعى بابن كنز الدين أسلم أيام الملك الناصر ؛ ثم ينحدر إلى جنادل ، وهي آخر عمالة بالسودان ، وأول عمالة أسوان من صعيد مصر »

« ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صنمرة ، ثم رحلنا إلى بلدة ميمة فنزلنا منها على آبار بخارجها ، ثم سافرنا منها إلى مدينة تنبكتو ، ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة ، ثم سرت إلى مدينة كوكو وهي مدينة كبيرة على النيل ؛ ثم سافرت منها إلى تكدا ، ووصلنا إلى كاهر من بلاد السلطان التكركري ؛ ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في برية لا عمارة فيها إلا أن بها الماء ، ووصلنا إلى الموضع الذي يفرق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق توات ، وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا إلى هكار وهم طائفة من البربر ملثمون ، وسرنا من بلاد هكار شهرا ، ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر ، ثم وصلنا إلى بودا وهي من أكبر قرى توات ، وأقمنا ببودا أياماً ثم سافرنا في قافلة ، ووصلنا في أواسط ذي القعدة إلى مدينة سجلماسة ... الخ[1] »

---

(١) رحلة ابن بطوطة — طبعة وزارة المعارف سنة ١٩٣٣ ص٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣

وهو إذ يتحدث عن معدن النحاس ص ٣٢٠ يقول «ويحملون النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار — وإلى زغاى — وإلى بلاد برنو وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكدا وأهلها مسلمون ولهم ملك اسمه ادريس ...»

من هذا نستبين بكل وضوح أن أقصى ما وصل إليه ابن بطوطة غرباً هو مدينة «كارسخو» وهو فى كل تلك المنطقة التى طاف بها يذكر لنا أنه كان ينزل بسلطان الولاية المسلم فيرحب به ويجمعه بقضاة الولاية وعلمائها . غير أن ابن بطوطة لم يصل إلى شاطىء المحيط من جهة الغرب فى حين أن الاسلام كان منتشراً فى غانة في ذلك الحين كما سنرى من قول ابن خلدون المعاصر لابن بطوطة فى كتابه «المغرب فى تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب» وهو يبدأ بتحديد بلاد المغرب وغرب أفريقية على عهده، وقوله في ذلك ثقة لأنه نشأ فى تونس وتنقل فى معظم بلاد المغرب كتلمسان وبسكرة وبجاية وغيرها . واتصل بالحكام فى كل تلك الأقاليم ، وله كتابه الشهور (العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر)

حدود المغرب كما جاءت فى كتاب «المغرب» لابن خلدون

« إن المغرب قطر واحد متميز الأقطار ، فحده من جهة الغرب البحر المحيط ، وعليه كثير من مدنه مثل طنجة وسلا وأذفو وأنفى وأسفى ، وهى كلها من مساكن البربر وحواضرهم ؛ وأما حده من جهة الشمال فالبحر الرومى المتفرع من هذا البحر المحيط يخرج فى خليج متضايق ما بين طنجة من بلاد المغرب وطريف من بلاد الأندلس ؛ وأما حده من جهة القبلة والجنوب فالرمال المستهيلة الماثلة حجزا بين بلاد السودان وبلاد البربر ، ويعرف عند البادية بالعرق ، وهذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدىء من البحر المحيط وذاهب فى جهة الشرق على سمت واحد إلى أن يعترضه النيل الهابط من الجنوب إلى مصر فهنالك ينقطع ؛ وأما حده من جهة الشرق فيختص بطرابلس وما وراءها إلى جهة المغرب مثل أفريقية والزاب والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والسوس الأدنى والأقصى . هذا هو المغرب فى العرف لهذا العهد وهو الذى كان فى القديم ديار البربر ومواطنهم [1] »

(١) (المغرب فى تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب) لابن خلدون . طبعة لايدن سنة ١٨٤٨ . ص ١١٨ وما بعدها

ومن هذا نرى أن ابن خلدون فى وصفه للبلاد أدق بكثير من غيره من كتاب العرب ؛ وتبدو لنا دقته من وصفه لتفرع بحر الروم من البحر المحيط ، وتبدو لنا دقته بوضوح بعد هذا بقليل عند ما يتتبع العرق حتى يصل إلى النيل . وسيبدو لنا ابن خلدون أكثر دقة عند كلامه عن شعوب البربر ، وقد أردت أن أبدأ بوصف جونستون لهذه الشعوب ثم أتبعه بوصف ابن خلدون ؛ وسنرى بعد قراءة الوصفين أن ابن خلدون على تقدم عصره كان أجمل وصفاً وأدق تعبيراً من جونستون . ولا غرو فابن خلدون ابن تلك الفيافى والبلاد . وسنأتى الآن بتقسيم جونستون لجماعات البربر : فى أوائل القرن السابع كان الجنس الليبي أو بربر شمال أفريقية الذين كانوا يسكنون كل المنطقة الواقعة بين الحدود الغربية لمصر (بعد واحة سيوة) شرقاً وساحل مراكش غرباً ينقسمون إلى : —

(١) البربر الشرقيون أو الليبيون (لواتا Luota وهوارة Huore وأوريغا Aurjgha ونفوسة Nefuse) ويسكنون قيرينيقا وطرابلس وتونس وجزءاً من شرق الجزائر

(٢) البربر الغربيون أو صنهاجة Senhaga وكانوا يشغلون سواحل الجزائر وغربيها وكل مراكش حتى يصلوا إلى حدود الصحراء جنوباً

(٣) زناتة Zeneta وهم أقتم لوناً وقد انحدروا من Getulians وقد يتصلون فى الأصل بالغولا الذين سكنوا فى القرن السابع أجزاء كانت تقل أو تكثر من الإقليم الصحراوي جنوب الجزائر وتونس ومراكش ومن زناتة انحدر البربر المزاب Mzab Berbers الحديثون وقبائل الورجلى Wargli People وبنو مرين Beni Merin الذين أسسوا أسرة حكمت البربر فيما بعد

وقد دُفع كثير من زناتة السود إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط فى فترات مختلفة ، كما أن كثيرين من البربر الشرقيين أو الليبيين قد دفعوا إلى قلب الصحراء تحت تأثير العرب الفاتحين ومنهم نشأت مزقة الطوارق فيما بعد . وكذلك هاجر كثيرون من البربر الغربيين أو الصنهاجيين فى القرن السابع إلى الصحراء جنوباً واستقروا شمال نيجريا وشمال حدود السنغال فليس هناك من شك أن كلمة زناجا Zenaga (اسم قبيلة من قبائل

البربر) قد أخذت من صنهاجة ثم حرّف البرتغاليون زناجا فيما بعد فأصبحت « سنغال » (١)

وفى القرن السابع كذلك كانت هناك علاقات تجارية بين زنوج الجارامنت Negroid Garamantes وبين جنوب وشرق ليبيا ووصلت هذه العلاقات حتى كانم وبحيرة شاد ودارفور وكردفان ، فكانت هذه الطرق أكبر مسهل للعرب فى فتوحهم المستقبلة للسودان وبلاد المغرب

هذا ملخص تقسيم جونستون لهـذه القبائل . ولنر الآن ماذا يقول ابن خلدون فى وصفها قال : « هذه الأمم السودان من الآدميين هم أهل الإقليم الثانى وما وراءه إلى آخر الأول ، بل وإلى آخر المعمور متصلون ما بين المغرب والمشرق يجاورون بلاد البربر بالمغرب وافريقية وبلاد اليمن والحجاز بالوسط ، والبصرة وما وراءها من بلاد الهند بالمشرق ؛ وهم أصناف وشعوب وقبائل أشهرهم بالمشرق الزنج والحبشة والنوبة ، وأما أهل المغرب فنحن ذاكروهم ، وأما نسبهم فإلى حام بن نوح »

« وعد ابن سعيد من قبائلهم وأممهم تسع عشرة أمة فنهم بالمشرق الزنج على بحر الهند ولهم مدينة منبسة وهم مجوس ويليهم بربرا ، والإسلام لهذا العهد فاش فيهم ولهم مدينة مقدشوا على البحر الهندى يعمرها تجار المسلمين ، ومن غربيهم وجنوبهم الدمادم وهم حفاة عراة ؛ ويليهم الحبشة وهم أعظم أمم السودان وهم مجاورون لليمن على شاطىء البحر الغربى منه ؛ ويليهم البجا وهم نصارى ومسلمون ولهم جزيرة مدينة دنقلة غرب النيل وأكثرهم نصارى ؛ ويليهم زغاوة وهم مسلمون ومن شعوبهم تاجرة ؛ ويليهم كانم وهم خلق عظيم والإسلام غالب عليهم ومدينتهم حيمى ولهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فتران ؛ ويليهم عن غربيهم كوكو وبعدهم نقارة والتكرور ولمى وغنم وجابي وكوري وانكرار ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانة فى الغرب »

« ولما فتحت أفريقية المغرب دخل التجار بلاد المغرب منهم فلم يجدوا فيها أعظم من ملك غانة . كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب الغرب وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك ، وكانت تجاورهم من جانب الشرق أمة أخرى فيما زعم الناقلون تعرف بصوصو . ثم بعدها أمة أخرى تعرف بمالى . ثم بعدها أمة أخرى تعرف بكوكو ويقال لها كاغو . ثم بعدها أمة أخرى تعرف بالتكرور. ثم إن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلى بلاد البربر واعتزوا على السودان واستباحوا حماهم وبلادهم واقتضوا منهم الأتاوات والجزى ، وحملوا كثيراً منهم على الاسلام فدانوا به ؛ ثم اضمحل ملك أصحاب غانة وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أهل السودان واستعبدوهم وأصاروهم فى جملتهم . ثم إن أهل مالى كثروا أمم السودان فى نواحيهم تلك واستطالوا على الأقاليم فتغلبوا على صوصو وملكوا جميع ما بأيديهم من ملكهم القديم ، وملك أهل غانة إلى البحر المحيط من ناحية الغرب وكانوا مسلمين يذكرون أن أول من أسلم منهم ملك اسمه « برمندانة » . ثم يذكر ابن خلدون بعد ذلك من تولى الحكم بعد هذا الملك حتى يصل إلى الملك ساكوره (سبكرة) فيقول عنه : « وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم وافتتح بلاد كوكو وأصارها فى ملكة أهل مالى فاتصل ملكهم من البحر المحيط وغانة بالمغرب إلى بلاد التكرور فى المشرق ، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وأفريقية ... الخ »

هذا هو كلام ابن خلدون وقد تعمدت أن أنقله فى هـذه السطور الكثيرة لأنه قد شرح ما ألم به ابن بطوطة وما أجمله جونستون ، فمن كلام ابن خلدون نستطيع أن نفهم بوضوح أى القبائل كانت تسكن فى كل تلك الأقاليم ، ونستطيع أن نفهم بوضوح أى هذه القبائل كانت تدين بالإسلام وإلى أى حد وصل الإسلام ؛ ولكن ابن خلدون عاش فى أوائل القرن الرابع عشر كما قلنا وهو إذ يتحدث عن هـذه الديار يتحدث عنها كديار إسلامية انتقل إليها الإسلام من مختلف الجهات واستقر بها وأثر فى أهلها ، ولكننا قد نتساءل بعد هذا : كيف دخل الإسلام إلى تلك الجهات وكيف اقتحم على أولئك الزنوج غاباتهم وأحراجهم وبيوتهم ومدنهم ؟ وكيف أثر فى الأهلين وفى عاداتهم وأخلاقهم ؟ هذا ما سنتناوله الآن بالبحث

(يتبع)

جمال الدين محمد الشيال

(١) جونستون — استعمار افريقيا — كامبروج سنة ١٩١٣ ص ٥٤

الهيكل

لشاعر الحب والجمال «لامارتين»

ترجمة السيد عارف قياسة

« مهداة إلى أستاذنا الزيات اعترافاً بما لترجمته من فضل على المترجمين » (عارف)

(ولج الشاعر ذات مساء بيعة قرية ، فاذا ضوء خافق ينير ظلمتها ، وإذا نفسه الطاهرة تجيش بالخواطر ، وإذا قلبه الخاشع يفيض بالشعر ، وإذا هو يخرج من البيعة ويمتشق يراعته .ويسجل هذه القصيدة فى صفحة الخلود) :

* * *

ما أحيلاه حين يصعد كوكب الشفق إلى القبة الزرقاء ، وقد سبق محفة الليل الهادئة الوادعة ، وحين يتنازع النور والظلام عرش الغبراء . ما أحيلاه إذا ماضرب فى أعماق الوادى ، والقلب عامر بالتقوى ، زاخر بالورع ، مولياً وجهه شطر الهيكل القروى حيث تخلع الطبيعة على أروقته الساذجة ثوباً من الأشنة ، وحيث تزال الحجب وتكشف الأغطية ، وحيث تتحدث السماء إلى قلوب طفحت بالتقوى

* * *

تحية أيتها الغابة المقدسة ! تحية يا أيها الحقل الذى رفرف الحِمام فوقه ، يا حارس أجداث القرية ! إنى لأبارك أرماسك المتواضعة فى غدوي ورواحى . ويح الأولى مشوا على رفات العباد اختيالا ! جثوت على ركبتى أمام قبورهم إجلالا وقد رنت أقدامى فى صخرة الهيكل . الليل ساج داج ، والضوء خافت مرتعش فى المحراب ، ينبعث من سراج وهاج ، تألق قرب (المذابح) المقدسة ، سراج يتلألأ حين يبسط الكرى أجنحته على الكون رمز الإحسان الساهر ، ماسحِ مدامع البؤساء ، وجامع آهات الأشقياء

* * *

دلفت إلى الهيكل ، فلم يرن فى أذنى غير اهتزاز فِنائه تحت وقع أقدامى الموزونة . أيتها الجدران المباركة ! أيتها المذابح المقدسة ! إنى لفريد وحيد ، وإن نفسى لتود لو سكبت أمامكن آلامها الممضة ، وغرامها المضنى ، وأودعت السماء كلمات خفية ، ستدرك كنهها هى وحدها ، وستسمعها أنتن وحدكن

* * *

ولكن لِمَ أزهف إلى تلك المذابح غير هياب ولا وجِل ؟ أى ربى العظيم ! إنى لأجرؤ أن أحمل فى هذا الهيكل الخاشع قلباً يرمضه الألم ، ويضنيه الغرام . رحماك ربى ! إني لأحس بالرعدة تسرى فى كيانى ! إغفر ما اجترحت فى بيتك من خطايا وآثام . كلا ! إن نار الجوى التى تلتهمني لا تصبغ وجهى بحمرة الإثم . الحب طاهر ما أذكت الفضيلة لظاه ، نقى نقاوة من أخلصت لها الوداد . إن غرامى ليلذع قلبي ولكن بجذوة مقدسة ، فالصبر يشرفه ، والشقاء ينقيه ويطهره

* * *

لقد ذكرته إلى الغبراء ، وإلى الطبيعة الحسناء ؛ ذكرته أمام مذابحك المقدسة فى غير وجل ولا إشفاق ، وإنى لأجرؤ على ذكره أمام عظمتك أيها الرب القدير ! أجل ! لقد تمتمت شفاهى باسم « إلفير Elvire » برغم ماقذفه هيكله من الروع فى فؤادى . إن ذلك الاسم الحبيب الذى تعيده الأجداث إلى الأجداث ، وتهمس به الأموات فى آذان الأموات ، ليكدر سكون المقبرة الرهيب كما يكدره شق زفر آهة معولة

* * *

تحية أيتها الرموس المقرورة ! تحية أيتها المنازل المقدسة ! لقد أعاد صدى الليل سويعاتنا السعيدة وأويقاتنا الحبيبة حين أذريت دمعي أمامكن . شاهدت السماء مدامعى المسفوحة فقرت عيني وطابت نفسى

لعل « إلفير » التى تساهر وحيدة صورتى الحبيبة ، تدلف فى تلك اللحظة إلى معبد داج ، مخضلة العينين بالدموع ، وتجثو أمام المذابح القفرة تودع آلامها وأشجانها كما أودعت آلامى وأشجانى

حماة « سوريا » عارف قياسة

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٤٥ — مكشوف الرأس

في (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلي : في سنة (٤٥٦) توفي عبد الواحد بن علي بن برهان العُكبري النحوي صاحب التصانيف ، قال الخطيب : كان مطلعاً بعلوم كثيرة منها النحو واللغة والنسب وأيام العرب ، وله أنس شديد بعلم الحديث . وقال ابن ما كولا (١) : سمع من ابن بطة ، وذهب بموته علم العربية من بغداد ؛ وكان أحد من يعرف الأنساب ولم أر مثله ؛ وكان فقيها حنفياً ، أخذ علم الكلام عن أبي الحسين البصري وتقدم فيه . وقال ابن الأثير : له اختيار في الفقه ، وكان يمشي في الأسواق مكشوف الرأس (٢)

٢٤٦ — عن ابن الرومي عن النرجس ..

ابن الرومي :

أرى حسن هذا النرجس الغضّ مخبراً
عن الله أن ليس النبيذ محرما

٢٤٧ — وكتم قبله سراً يموت في ضلوع كاتم

مهيار :

ما برحت مظلمة دنيا كم ... حتى أضاء كوكب في هاشم
نبلتم به وكتمتم قبله ... سراً يموت في ضلوع كاتم (٣)

٢٤٨ — نوارة لا تحتمل أن تحك بين الأكف

سئل أبو العباس بن البناء ، وكان رجلا صالحا ، في قوله تعالى : (قالوا إن هذان لساحران (١)) لِمَ لَمْ تعمل إن في هذان ؟

فقال : لما لم يؤثر القول في المقول، لم يؤثر العامل في المعمول

فقال له : يا سيدي ، هذا لا ينهض جواباً فإنه لا يلزم من بطلان قولهم بطلان عمل إن

فقال له : إن هذا الجواب نوّارة لا تحتمل أن تحك بين الأكف

٢٤٩ — رفه

في (اليتيمة) : كان سيف الدولة قلما ينشط لمجلس الأنس لاشتغاله عنه بتدبير الجيوش ، وملابسة الخطوب ، وممارسة الحروب . فوافت حضرته إحدى المحسنات من قيان بغداد ، فتاقت نفس أبي فراس إلى سماعها ، ولم ير أن يبدأ باستدعائها قبل سيف الدولة ، فكتب إليه يحثه على استحضارها :

محلك الجوزاء أو أرفع ... وصدرك الدهناء أو أوسع (٢)
وقلبك الرحب الذي لم يزل ... للجدّ والهزل به موضع
رفّه بقرع العود سمعاً غدا ... قرع العوالي جُلّ ما يسمع

فبلغت الأبيات المهلبي الوزير فأمر القيان بحفظها وتلحينها ، وصار لا يشرب إلا عليها

٢٥٠ — كيف يصبح ؟ كيف يمسي ؟

عبيد الله بن العباس الربيعي :

ياشادناً رام إذ مرّ ... في السعانين قتلى (٣)
تقول لي : كيف أصبحت ؟ ... وكيف يصبح مثلي ؟!

البديع الهمذاني :

ياسائلي ، كيف تمسي ؟ ... أخو الهوى كيف يمسي ؟!

٢٥١ — الصلاة رحمة

في (كتاب أخبار النساء) لابن قيم الجوزية : قال بعضهم :

---

(١) على بن هبة الله من نسل أبي دلف وله (الإكمال) وعليه اعتماد المحدثين كما قال ابن خلكان

(٢) وممن كانوا يمشون مكشوفي الرءوس : الشيخ زين الدين عبد القادر الدشطوطي (نسبة إلى دشطوط من قرى الصعيد وفاته ٩٢٥) وعبد العال المصري (وفاته ٩٣١) وابراهيم المصري المشهور بأبي لحاف (وفاته ٩٤٠)

(٣) وفي رواية وهي التي في الديوان المطبوع (بنتم به وكنتم من قبله) بنتم ظهرتم ، وبعد البيت :

حللتم بهديه ويمنه ... بعد الوهاد في ذرى العواصم
تخفق راياتكم منصورة ... إذا ادرعتم باسمه في جاحم

---

(١) قرأ أبو عمرو : إن هذين لساحران ، وابن كثير وحفص إن هذان لساحران (واللام هي الفارقة) وأبي : إن ذان إلا ساحران . وهناك غيرها منها إن هذان لساحران وفي (اعراب القرآن) تبيين كل ذلك . في شرح الكافية : قد جاء ذان وتان واللذان واللتان في الأحوال الثلاثة

(٢) الجوزاء : برج في السماء سميت لأنها معترضة في جوز السماء أي وسطها (التاج) الدهناء : الفلاة ، موضع لتميم بنجد مسيرة ثلاثة أيام لا ماء فيه ، يمد ويقصر في الشعر (التاج)

(٣) السعانين : عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع يخرجون فيه بصلبانهم (القاموس) وهو : يوم السباسب في شعر النابغة :

« يحيون بالريحان يوم السباسب »

سمعت يحيى بن سفيان يقول : رأيت بمصر جارية بيعت بألف دينار فما رأيت وجهاً قط أحسن من وجهها صلى الله عليها !

فقلت له : يا أبا زكريا ، مثلك يقول هذا مع ورعك وفقهك ؟.

فقال : وما تنكر على من ذلك ؟ ! صلى الله عليها وعلى كل مليح ! يا ابن أخي ، الصلاة رحمة

٢٥٢ — يحترس بها من الغيلان

في (الموشح) للمرزباني : قال احمد بن عبيد الله مما أُنكر على أبي العتاهية قوله لما ترفق في نسيبه بعُتبة :

إني أعوذ من التي شعفت منى الفؤاد - بآية الكرسي (١)

وآيةُ الكرسي يهرُب منها الشياطين ، ويُحترس بها من الغيلان — كما روى عن ابن مسعود في ذلك — وأبو العتاهية مع رقة طبعه ، وقرب متناوله ، وسهولة نظم المنثور عليه ، وسرعته إلى مايعجز المتأنىَ بلوغُه — لايخلو من الخطأ الفاحش والقول السخيف

٢٥٣ — لأن العناية من ثم

قال أبو بكر بن العربي في رحلته : كان بمدينة السلام إمام من الصوفية يعرف بابن عطاء ، فتكلم يوماً على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه . فقام رجل من آخر مجلسه — وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة — فقال : يا شيخ ، ياسيدنا ، فإذن يوسف همّ وما تمّ

فقال : نعم لأن العناية من ثمّ

فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم ، وفطنة العامي في سؤاله ، والعالم في اختصاره واستيفائه

٢٥٤ — ما زعزعتك

روى أن رجلا مر بيشار وهو مستلق على قفاه في دهليزه كأنه فيل (٢) ! فقال يا أبا معاذ إنك تقول :

إنّ في بردىَ جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدمْ

وإنك لو أرسل الله الريح التي أهلكت عاداً عليك مازعزعتك

(١) شعف الحب فؤاده : علا وغلب عليه (الأساس)

(٢) في (الأغاني) : قالت امرأة لبشار ما أدرى لم يهابك الناس مع قبح وجهك ، فقال لها : ليس من حسنه يهاب الأسد

٢٥٥ — فإنها قد مثلت في الضمير

ضرير :

وغادة قالت لأترابها : يا قوم ، ما أعجب هذا الضرير !

أيعشق الإنسان ما لا يرى ؟ فقلت - والسمع بعيني غزير - :

إن لم تكن عيني رأت شخصها فإنها قد مثلت في الضمير !

٢٥٦ — لو رآه ابن ليون لاختصره

كان ابن ليون التجيبي — وهو من شيوخ لسان الدين بن الخطيب — مولعاً باختصار الكتب ، وتآليفه تزيد على المائة

ومما حكي عن بعض كبراء المغرب أنه رأى رجلا طوّالا (١) فقال لمن حضر : (لورآه ابن ليون لاختصره) إشارة إلى كثرة اختصاره للكتب

٢٥٧ — فلا يزال عليه أو به طرب

مما يستحسن في وصف العود قول ابن القاضي :

جاءت بعود تُناغيه ويسعدها فانظر بدائع ماخصت به الشجر

غنت على عودها الأطيار مفصحة غضاً فلما ذوى غنى به البشر

فلا يزال عليه أو به طربٌ يَهيجه الأعجمان : الطير والوتر

٢٥٨ — وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم

في رسالة (أخلاق الكتاب) للجاحظ : حدثني عمر بن سيف أنه حضر مجلس أبي عباد ثابت بن يحيي يوماً في منزله وعنده جماعة من الكتاب فذكر ماهم عليه من ملائم (٢) الأخلاق ، ووصف تقاطعهم عند الاحتياج ، وعدم تعاطفهم عند الاختلال فقال :

معاشرَ الكتاب ، لا أعلم أهل صناعة أملأ لقلوب العامة منكم ، ولا النعم على قوم أظهر منها عليكم . ثم إنكم في غاية التقاطع عند الاحتياج ، وفي ذروة الزهد في التعاطف عند الاختلال . وانه ليبلغني أن رجلاً من القصابين يكون في سوقه ، فيتلف مافي يديه ، فيخلي له القصابون سوقهم يومه ويجعلون له أرباحهم فيكون بربحها منفرداً ، وبالبيع منفرداً ، فيسدون بذلك خلته ، ويجبرون منه كسره

(١) الطوال : بالتشديد المفرط الطول وجمعه طوالون ، لا يكسر إنما يجمع جمع السلامة

(٢) الملائمة : اللؤم

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

المسافر :

وكان قد انتصف الليل عند ما توجه زارا إلى أكمة الجزيرة وهو يجد فى السير ليبلغ الشاطئ الآخر عند بزوغ الفجر إذ كان يقصد الابحار من هذه الجهة حيث ترسو بعض المراكب لتقل طلاب الهاجرة من الجزر السعيدة

وتذكر زارا الرحلات التى قام بها منفرداً منـذ صباه فرت بمخيلته رسوم الجبال والتلال والذرى التى تسلقها فى حياته فقال : «ما أنا إلا رحالة ومتسلق مرتفعات وما تستهوينى منبسطات الأرض ولا يستقر بى مقام . ومهما قُدّر على ومهما وقع لي فلا تعـدو الحوادث أن تكون فى نظرى رحلة واعتلاء . فما لى أن أرى من الآفاق إلا ما انطبع منها فى نفسى . ولقد مضى الزمن الذى كان لى فيه أن أتوقع الحوادث من خطرات الحظ . وهل لى أن أنال من الدهر شيئاً لم يستقر فى نفسي من قبل ؟

إن كل ما يطرأ علىّ بعد الآن إنمـا هو ذاتي العائدة تكراراً بعد انفراطها وتمازجها في الأشياء وتصاريف الزمان . غير أننى أصبحت الآن على مدرج آخر الذرى أمام أصعب مسلك ما اقتحمت مثله فى حياتى ، فأنا أبدأ الآن أشد رحلاتى عناء وأروعها وحشة

وأنىّ لمثلى أن يتجنب مثل هـذه الساعة التى تهتف قائلة : إنك على مبدأ طريق المجد حيث تتداخل الذرى فى المهاوى . أنت تسير على هذه الطريق وكنت تراها قبلاً آخر ما تقتحم من أخطار فأصبحت لديك آخر ملجأ تهرع إليه

إنك تسير على طريق المجد فعليك أن تتذرع بالحزم الأوفى لتقطع بنفسك خط الرجوع على نفسك

إنك تسير على طريق المجد، فأنت منفرد عليها لا يزحمك أحد من ورائك ، وقد محت أقدامك آثار خطاك على ما وراءك من المسالك ، ولاحت كلمة المستحيل بعينيك على آفاق هذه الطريق

ولا بد لك إذا ما خلت المدارج تحت أقدامك أن تتسلق قمة رأسك إذ لا سبيل لك للاعتلاء إلا إذا اتجهت إليه وإلى ما وراءه وأنت تدوس على قلبك ، وهكذا سيشفيك ما كان يحلو لديك

إن من أفرط فى ادخار جهوده لا يلبث حتى يُبتلى بالخمول ، تبارك كل جهد يشـد العزم ، فلا خير فى أرض تدر اللبن والعسل ؛ ومن يطمح إلى الاحاطة بأمور كثيرة فليتدرب على إرسال أبصاره إلى ما وراء حدود ذاته . وعلى كل متسلق للذرى أن يتعزز بمثل هذا الحزم إذ لا يسع من يتحرى الأمور متجسساً بفضوله إلا الوقوف عند أسهل الأفكار مثالا . وأنت يا زارا تطمح إلى الاحاطة بالعلل وإلى نفوذ خفايا الأمور ، فعليك أن تحلق فوق ذاتك فتجتازها متعالياً حتى ترى ما فيك من كواكب متصاغرة فى كل أفق دون أفقك الرفيع

أجل إن ذروتى إنما هى حيث أقف ناظراً إلى الأعماق فأرى فيها ذاتى وكواكبها ، تلك هى آخر هضبة أطمح إلى بلوغ قمتها »

بهذا كان يناجى زارا نفسه وهو يصعد المرتفع معللا بالتعاليم الصارمة ما فى قلبه من جراح

وعند ما بلغ الذروة انبسط البحر أمام ناظريه فوقف مبهوتاً واستغرق فى صمت طويل ، وكانت السماء لا تزال تتألق بالنجوم والهواء يهب بارداً على الأكمة

وهتف زارا حزيناً : «لقد تبينت ما قُدّر علىّ ، وهأنذا مستعد للاقدام فهذه آخر عزلة أقتحمها

سأنحدر إليك أيها البحر المظلم المنبسط عند أقدامى ، أنت الليالى المفعمة بالأحزان ، أنت القضاء والقدر أيها الخضم البعيد

إننى أقصد أرفع جبالى مقتحما أبعد أسفارى فعلىّ إذاً أن أهبط إلى مهاوٍ أبعد فى أغوارها من كل ذروة رقيتها حتى الآن علىّ أن أذهب من الأسى إلى أغوار ما رسبت فى مثلها من

قبل فأصل إلى قرارة مافى الأحزان من ظلمات . ذلك ماقدر عليّ فأنا على أهبة لاقتحامه

لقد تساءلت فيما مضى عن منشأ الجبال فعرفت أخيراً أنها نهدت من البحار كما تشهد صخورها وجروف ذرواتها ، فما يبلغ الأعلى مقامه إلا لانطلاقه من المقام الأدنى »

هكذا تكلم زارا وهو ماثل على قمة الجبل تدور به لفحات الصقيع ، ولكنه ما بلغ الشاطىء ووقف بين نتوءات صخوره حتى حل عليه التعب وتزايدت أشواقه فقال :

« إن البحر هاجع أيضاً فعينه الوسنى تحدجنى بلفتات غريبة وأنفاسه الحرى تهب علي . إنه مستغرق فى أحلامه يتقلب مضطرباً على جافيات مسانده . إننى أستمع لهديره كأنه يئن بتذكارات مفجعات ، وقد يكون هذا الهدير نذيراً بالشؤم فى آتى الزمان

إننى أشاطرك الأسى أيها الذى المظلم الوسيع ، فأنا بسببك ناقم على نفسى أتمنى لو طالت يدى فأنقذك من أصفاد أحلامك »

وانتبه زارا فإذا هو يضحك ساخراً من ذاته فتمرمر وتساءل عما إذا كان سيبلغ به حماسه إلى اطلاق انشاده لتعزية البحار ، وعما إذا كان سيستمر مضعضعاً فى سكرة غرامه واستسلامه فقال : «لقد عرفتك فى كل زمان يازارا تقتحم الأمور الخطيرة بلا كلفة وبلا مبالاة ، وقد رأيتك طوال حياتك تدغدغ الوحوش المفترسة فكان يكفيك منها أن تهتاج حبك بأنفاسها الحرى وبنعومة مخالبها لتجتذبك إليها

ليس من خطر أعظم من الحب يحدق بالمستغرق فى عزلته فإن المنفرد يحب كل شىء يتنسم فيه الحياة ؛ وما أعجب جنونى بالحب وتساهلى فيه »

هكذا تكلم زارا وقد عاد إلى الهزء بنفسه ؛ غير أنه تذكر من هجر من خلانه تخيل اليه أنه يسىء إليهم بتفكيره فيهم ، فنقم على نفسه وانقلب من ضحكه إلى البكاء فسالت دموعه مريرة يتمازج فيها الغضب والشوق

فليكس فارس

العلويون والتقمص

فى أوقات مختلفة ، لكتاب مختلفين ، نشرت (الرسالة) مجلة الأدب الراق والفن الرائع ، بعض الآراء عن بعض المعتقدات والمذاهب المتفرعة عن الإسلام

بحثها الأستاذ عنان على سبيل التاريخ ، وغيره على ضوء المعلومات الحديثة والاختبارات الشخصية

وقد أجمع الكتاب والناس على أن الدروز يؤمنون بالتقمص ؛ وقد كان إجماعهم فى هذه المرة صادقا لايلوثه شك . أما أنا فأقول إن العلويين « النصيرية » يؤمنون بالتقمص كإخوانهم الدروز . ولست أطلع بهذا النبأ طلوع من يجهل ، فلقد تحريت هذا الاعتقاد بنفسى بين إخواننا فألفيته موجوداً مستساغاً لا شك فيه ولا غبار عليه . وللعلويين فى اعتقادهم هذا حكايات جميلة ، ونكت حلوة لا بأس إذا نقلنا « للرسالة » شيئاً منها

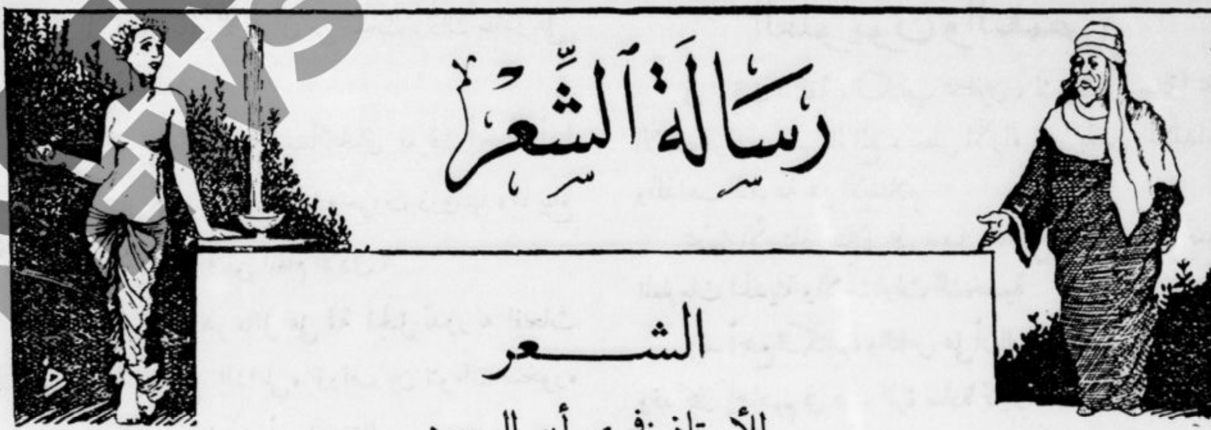
قال لى أحدهم : ألا تعتقد يا أخى بالتقمص وقد أوجسنا من دلائله ما حملنا على الإيمان به أشد الإيمان وأقواه ؟ قلت : ما هذه الدلائل ؟ قال : اسمع ، ولدٌ فى قرية (كذا) يقصد امرأة مات زوجها عنها ويدعى أنه تحول إليه ، يذكرها بعهود الصبا ، وبأيام قضاها وإياها ، ويحدثها بأسرارهما الزوجية السالفة ، فتدهش لهذا وتعجب وتهبه من مالها الكثير وتؤمن أنه رجلها الراحل . قلت : هذا لا يكفينى . قال : إن كان لا بد فدونك :

لاشك أنك تعرف فى القرية الأجير (فلانا) وقد تدرك احترام معلمه له ، وقد ترى حب أم معلمه له الحب الجم ، وحياءها منه الحياء الكثير ، ولا بد أنك لحظت فى كفه آثار طلق نارى يظهر لك عتيقاً . قلت : وما تعنى بهذا ؟ قال :

أما الأجير فإنه أب المعلم ، وزوج لأمه ، وهو يماتنها لتزوجها بعد وفاته ، إنه أكد أبوته العتيقة بآثار الطلق وبحوادث وأعمال صدقها بعض قدماء القرية ، وقد جرت بينهم وبين الراحل أمثالها ، ولو علمت أنه أتى عالم النور يوم مات أبو معلمه لصدقت بعض الشىء مما أقول

ذاك ما روى الرجل أثبته للتأكد من إيمانه بهذا المذهب ، وهذا ما حدث لى معه . وقد روى بعضهم أن اعتناق التقمص إنما يثير عدم مبالاة بالحياة ؛ وقد رأينا من العلويين الشيوخ شيئاً من هذا ، وقد رأينا من بعضهم شجاعة ربما كان من جملة بواعثها — غير طبيعتهم الجبلية فى سوريا — اعتقادهم بمذهب التقمص .

حماة « سوريا » **محسن شيشكلى**



الشعر

للأستاذ فخرى أبو السعود

ألا يا صدى للنفس قد بات حاكيا … تترجم عنها شجوها والأمانيا

تبوح بذكراها وتحكى شعورها … وتروى رؤاها صادقاً والمعانيا

وتكشف من أسرارها كل مبهم … خبيراً بأغوار السريرة داريا

لأنت نديم النفس فى صبواتها … وإنْ عنّ خطب كنت أنت المواسيا

لها منك فى الأشجان يا شعر مفزَعٌ … تُدافِعُ عنها اليأسَ بالبِشْرِ ماحيا

وأنت قرين البأس والجد والعلى … وكم تلهِم العليا وتوحِى التساميا

وما أنت ألفاظٌ تُصاغ لباقةً … ولكنْ شعورُ النفس قد فاض طاميا

مَعِينٌ بنفْس المرء يجرى ترقرُقاً … إذا حَسِبته غيضَ جرجرَ داويا

أهابَ به من حادث الدهر نازلٌ … فأقبلَ دفّاقاً يلبّى المناديا

وما كنت يوماً ناظمَ الشعرِ إنما … غدوتُ له فى صفحة الكون تاليا

أقلّب من ديوان ذا الكون صفحةً … تلى صفحةً أتلوه للناس راويا

صحائفُ ما تَبْلَى على الدهر جِدّةً … وكم بات تالوها عظاماً بواليا

صحائف حُسْنٍ قد عبدتُ صفاتِه … وصورتُ منه فى القصيد مَجَانيا

وأودعته آمالَ أمسِ وهمَّه … وأيامَ حسْنٍ قد مضت ولياليا

إذا رحتُ أتلوها خططتُ رأيتُنى … كأنّىَ أحيا ذلك العهد ثانيا

وما العيش إلا أنْ تَرَى فتنة الورى … وتودِعها من بعد ذاك القوافيا

فلا عشتُ إلا ناظراً متمليّاً … أُهذِّبُ شعراً يَعرِضُ الكونَ حاليا

يصوّر حسنَ الأفق بالشمس سافراً … ويرسم سحر البدر يغشَى الدياجيا

وأقدامَ طودٍ حفَّها الموجُ غاسلاً … وهاماتِ هضبٍ لفَّها الغيم كاسيا

ويحكى ائتلاف النور والظل والشذا … ويحكى خُفوقَ الغصن بالغيث ناديا

ويحكى خرير النهر يجرى مُسَلْسَلاً … وألحان طير بات فى الغصن شاديا

أميرُ الفُنُونِ الشعرُ جمّع شملها … وأترعَ منهنّ النفوس الصواديا

رَوَى كلَّ عينٍ ناقشاً ومصوراً … وكلَّ سَماعٍ شادياً ومناجيا

وفيه مجالٌ للخيال وملعب … به الفكرُ يدنى كلَّ ما كان نائيا

ويمضى مع الأحلام فى كل مذهب … وترْمِى به شتى الطيوف المراميا

ويخلق منها عالَماً بعد عالَم … مليئاً بأسباب المسرات حاليا

ويدفعه حبُّ البعيدِ فينثنى … مع الريح يمضي أو إلى النجم راقيا

ويَصْدَعَ أنيارَ الثرى وقيودَه … ويمرَح فى طلق السموات ساريا

ويمعن فى ماضى الزمان مُجوّلاً … ويسبُر محجوباً من الغيب آتيا

ويجمع أطراف الحياة وتلتقى … على وِرْدِهِ الأجيالُ شتى تواليا

فخرى أبو السعود

من الشعر الرمزي

تعالي . . . !

للأديب محمود السيد شعبان

تعالَيْ نشرب الكأس الَّـ (م) تِي عتقَهَا الرَّبُّ . . . !
وأحْلاها لِـكَيْ يصبو إليهـا الثَّغرُ والقلبْ
كُؤُوس لَمْ تحرِّمْها ديانات ولا رُسْـــلُ !
إذَا طَاشَ الحِجا يوماً ففيها اللُّبُّ والعقلُ ! !
وفيها السِّحْرُ والإلها مُ والنَّشْوَةُ والحُبُّ !
تعـالَيْ ! . . . مالنا نشقى وفى إمكانِنا الوَصْلُ ؟

***

خَيالٌ أنتِ فى فكري أُحيِّي فيـهِ أحـلامِي . .
تعالَيْ ! لا يُرَوِّعْك الْـ أسَى يا بِنْتَ أوْهامى !
عشقتُ السِّحْرَ والأحـلا مَ والدنيـا التي فيكِ ! !
وما زال الهوَى بالشِّعــرِ والألحان يَبْنِيكِ !
تعالَيْ ! إنَّنِي صَدْيَا نُ فى بيْدَاء أيَّامي
وثغرِي ظامئٌ ياليْــــتَنِي أرْوِيهِ مِنْ فِيكِ ! !

***

تعالَيْ أدفئِي صـــدرِي وما يحوِي بأنفاسِكْ !
تعـالَيْ زاوِجِي ما بيْـــنَ إحساسى وإحساسِكْ
تعـالَيْ يا ابْنَـةَ الآما لِ نقْضِ العمرَ لاهِيناَ !!
وهيَّا ننفُضِ الأشجا نَ يوماً مِن أيادينا
وَصُبِّي النورَ فى كأْسِي وصُبِّي الوَجْدَ فى كأسِكْ !
وَبُثِّي رائعَ الأحـــلا مِ حِيناً فى أمَانِينَا . . .

***

تعـالَيْ ! رافِقِي ذَاتِي تعالَيْ ! غازِلِي حِسِّي . . . !
تعالَيْ ! أَسْقِكِ الأسْرا رَ مِن دَنِّي ومِن كأْسِي !
فما فى الوَحْدَةِ الخرْسا ءِ ما تهْوَاهُ ألحاني
وهذا الصَّمْتُ لا يرضا هُ لِي حُبِّي وتحْنانِي
أُرِيدُكِ كَيْ أُجاهِدَ فِيــكِ عَن طوْعِي هوى نفْسِي!
فما لَكِ لا تُلَبِّينِي إذَا ما الطُّهْرُ لبَّانِي ؟ !

***

تعالَيْ ! بَدِّدِي شجْوِي تعالَيْ ! جدِّدِي قلبِي
فما يهْنيكِ أنْ أحيا على الدنيا بِلا حُبِّ !
وأنْ تبقَى معى نفْسِى بِلا إنْسٍ يُوافِيها !
وتحيا ما ترى في النا سِ إنساناً يواسِيها !
دعينِي بالهوَى أشـدو إلى أنْ يَنْقَضِى نَحْبِى . . .
لأمضِي غيرَ محزونٍ على الدنيا وما فيها ! !

***

أرادَ الحسْنُ يا قلبى لنا أنْ نعشَقَ الدنيَا !
وشاءَ اللهُ إذْ أوْحى إلينا الشوقَ أن نحيا ! !
أخذْنَا الحبَّ والنجوَى عن الأطيار تلَقِيناَ . . .
وتامَتْنَا رُؤَى الدنيـا فكاد القبحُ يُصْبِينَا ! !
فؤادِي ! قد طوَى هذا الْـ ـهوى عنَّا الأسَى طَيَّا
فأنشدْ رُوحِيَ السَّكْرى نشـيداً للمُحِبِّينا ! !



الفن الهندى

للدكتور احمد موسى

العمارة

— ٢ —

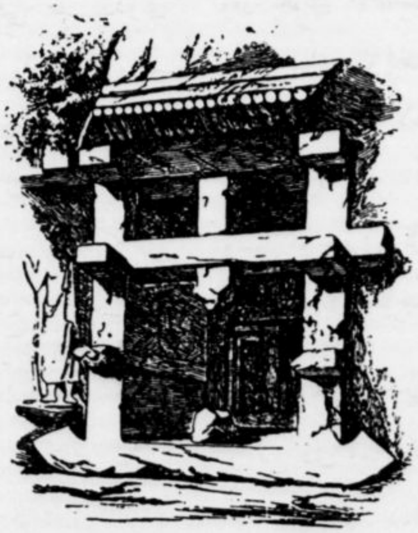
قلنا إن من أهم النماذج الفذة للعمارة الهندية مجموعة معابد إيلورا الصخرية ، لأنها شاملة لكلا الطرازين البوذى والبراهمى ومبنية على سفح الجبل الجرانيتى ؛ فضلاً عن كونها جميلة التكوين رائعة النقوش والزخارف . وأهم هذه المجموعة مما يمكننا تناوله بشىء من التنويه هنا معبد كايلاسا الذى نحت فى الصخر ثم فصل منه فأصبح كأنه قائم بذاته ، ويبلغ ارتفاعه ثلاثين مترا ، وصحنه مقسم إلى خمسة أجنحة فصلت عن بعضها بقوائم ، وحوائطه الخارجية مليئة بالمنحوتات التمثيلية بلغت كلها غاية الدقة ؛ وعلى المدخل يوجد فيلان كبيران على اليمين واليسار ؛ وهذا يذكرنا مع الفارق بما كنا نراه على مدخل المعابد المصرية كالمسلتين اللتين اعتاد المصريون إقامتهما عند مداخل معظم معابدهم

وأعقب ذلك اتجاه الفن البنائى الهندى اتجاهاً جديداً فى مرحلة أسماها مؤرخو الفن المرحلة البراهمية الحديثة ، وأهم معابدها التى ساروا فى تشييدها على نمط الطراز البوذي ، لا من النحت فى الصخر فقط ، بل أيضاً من حيث الوضع التكويني والإنشائى بالذات ، فضلاً عن تشييدهم المعابد قائمة بنفسها . أما من حيث الطراز الفنى فقد اختلف الإجراء والاتجاه فى شمال الهند عنه فى جنوبها ، وهذا مقبول بالنظر إلى بعد الشقة بين الشمال والجنوب

وكانت صفة معابد الشمال أنها أقيمت مكعبة الشكل في مجموعها التكوينى ، قد توسطها صحن مربع أو ما يقرب من هذا الشكل وتعلوه قبة مربعة الجوانب السفلى الملاصقة للحوائط ومنتهى آخرها بالتقاء الخطوط الزاوية ، فكانت بذلك أشبه بهرم مقوس الأضلاع

وقبل الوصول إلى الصحن وبالقرب من المدخل عملت ردهة تؤدى إليه على نفس الطراز . أما المظهر الخارجى العام للمعبد فكان كثير التعاريج والأضلاع المتشعبة وواجهاته مغطاة بالتماثيل وكلها من الحجر الرملى . ويوجد كثير من طراز هذه المعابد فى مقاطعة أوريسا فى الشمال الشرقى

وقد توسعوا فى التصميم الكلى للمعبد بإضافة مبان ملحقة به ، لها قباب ينطبق عليها الوصف السابق ؛ وأقيمت المعابد على هذا النحو فى مقاطعة راجا أو راجبوتانا



١ — مقبرة ميرا الصخرية

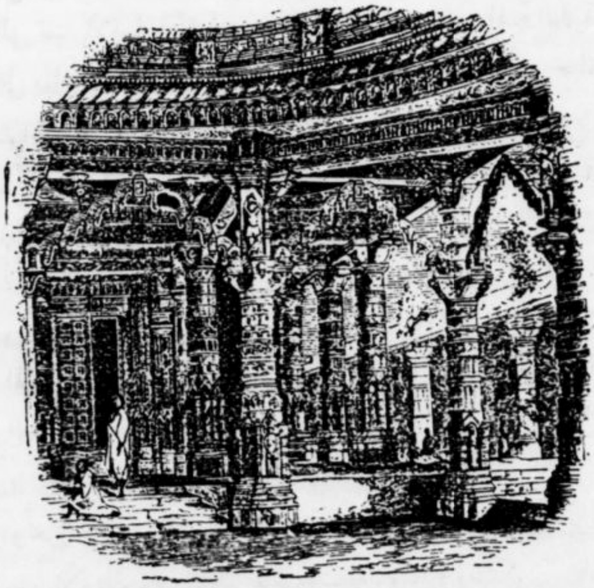
وخير الأمثلة التى يمكننى أن أسوقها مما يستحق الإعجاب

كثيراً معابد كاچوراو وتبلغ الأربعين عدًّا معظمها راجع إلى القرن العاشر بعد المسيح ، وهى تعتبر بحق المثل الفنية للعمارة الهندية إجمالا ، وتبلغ مساحة المعبد الواحد مساحة كتدرائية مسيحية ، ولم يتركوا أى معبد دون شحنه بالزخارف والمنحوتات على واجهاته وبداخله



٢ — داجوب توبارامايا

وتعتبر مجموعة معابد دچانيا (طريقة دينية معينة) من الدرجة الأولى فى الفن الهندى . منها معبدان قائمان على قمة جبل أبو (ش ٣) يرجع تاريخهما إلى القرنين الحادى عشر والثانى عشر وهما مبنيان من الرخام الأبيض الناصع ، ويحيط بالصحن ستون حقلا حملت سقفها على أعمدة عديدة رائعة



٣ — معبد فيمالاساه على جبل أبو

أما المعابد الجنوبية فأبرزها دون نزاع مجموعة أسموها الپاجودا وهي عبارة عن مجموعة مبان متجاورة أحيطت بأربعة حوائط من جهاتها الأربع ، وفى واحدة منها وجد المدخل (جوپورا) بتكوين ذى طراز أنموذجي للفن الهندى أسفله بناء مربع وأعلاه سقف على هيئة هرم مدرج ناقص ، أى أن قاعدته العليا مسطحة وقد بلغت درجاته الخمس عشرة . وفى داخل البناء ردهات وصالات ذات أعمدة خصص بعضها للحجاج (تشولترى) ، ولم يختلف المكان المقدس (ڤيمينا) فى شكله الكلى عن النمط الذى ساروا عليه فى إنشاء المدخل إلا أنه مربع الأرضية

وعلى ذلك تميزت المعابد الجنوبية عن الشمالية بهرمها المدرج وصالاتها وردهاتها ذات الأعمدة ومبانيها التى عملت من الآجر .



٤ — معبد بورو بودر

ولعلنا نسجل هنا أهم ما أقيم فى المرحلة الزمنية المنحصرة بين القرن العاشر والقرن السابع عشر من روائع هذا الطراز ، فپاجودا تانجورا بمدخلها البالغ طوله ٦١ متراً وپاجودا سرينينجام وطول واجهتها كيلو متر تقريباً ، وپاجودا شيللا بروم ومادورا كل هذه تجل عن الوصف ، ولا تدع مجالا للشك بأن الفن الهندى — وإن كان الدرس المفصل به عسيراً بالنظر إلى الأطراف النائية لهذه البلاد — من أهم الفنون الشرقية التى يجب علينا العناية بها وإلفات النظر إلى ما فيها من جمال وروعة

احمد موسى



ترجمة جديدة لجان جاك روسو

كتبت حياة جان جاك روسو فيلسوف النفس والطبيعة مراراً وتكراراً ؛ وحتى لم تحرم العربية من ترجمة لروسو وتحليل لنظرياته وكتبه بقلم الدكتور هيكل بك ، ولكن الباحث فى حياة روسو يجد فيها دائما من الجديد والطريف ما يشجع على استعراضها وتصورها . وقد صدر أخيراً بالألمانية كتاب جديد عن حياة روسو عنوانه « الأحلام والدموع » Träume und Traenen بقلم الكاتب النمسوى هانز يوليوس ڤيلى H. J. Wille تناول فيه حياة المفكر من ناحية جديدة هى ناحية العاطفة والمشاعر ؛ وربما كانت هذه الناحية من حياة روسو هى أخصب وأدق ناحية فى شخصية ذلك الذى أراد أن يصوغ الحياة طبقا للعاطفة والمشاعر الانسانية . والواقع أنك إذا حاولت أن تحكم على شخصية روسو من أعماله وحوادث حياته فقط ، فان مثل هذا الحكم لا يمكن أن يتفق مع خلال هذه العبقرية العظيمة ، بل يتنافى مع كل ما فيها من الاضطرام والسمو ؛ وإذا كان روسو هو ذلك الروح المضطرم الذى يرتفع بالفكرة الانسانية إلى أسمى مواطنها ، وإذا كان هو مؤسس المذهب « الرومانتيكي » وإذا كان قد نفذ بتأثيره الساحر إلى عبقريات مثل جيته وشلر ، فإن فى جوانب حياته الخاصة ما يلقى حجابا على عبقريته وسمو خلاله ، فهو ، وهو الذهن الحر ، يأبى مدى ثلاثة وعشرين عاماً أن يسبغ على شريكة حياته وأخلص النساء إليه — تيريز ليفاسير — شرف الزوجية ، ويقول لنا إنه تزوجها دون رغبة ودون إرادة ؛ وهو المؤسس لمذهب جديد من التربية ، يرغم زوجته على أن تبعث بأولادها الخمسة إلى ملجأ اللقطاء ؛ وهو رجل النفس والعاطفة يطأ بقدميه أقدس وأعمق عواطف زوجه ، وهو فى جميع أعماله وتصرفاته ينم عن أثرة عميقة لا تتفق فى شىء مع النظريات الانسانية والأخلاقية السامية التى يبشر بها فى كتبه ؛ على أن مواطن الضعف الشخصى والشهوات الشخصية لا يمكن أن تكون مقياساً للحكم على عبقرية ما من نواحيها العامة ، وقد كان روسو عبقرية لا شك فى عظمتها ، فيجب أن يحكم عليه من هذه الناحية العامة ليس غير

هذه الصور كلها يقدمها الينا يوليوس ڤيلى بقوة وإفاضة ، ويقف بنا طويلا عند حياة تيريز وشخصيتها الساذجة ، إلى جانب حياة المفكر الأثرية ، وهو يرى فى تيريز شخصية انسانية تحمل على الاحترام والعطف ، ويرى أنها كانت مثالاً للتضحية . وهو على العموم يصور لنا روسو رجل النفس والعاطفة قبل كل شيء

على مثال نوبل

رفع ألفرد نوبل المثرى العظيم ، بهبته الطائلة التى رصدت جوائز لأقطاب التفكير والسلام فى أنحاء العالم ، اسم أمته — السويد — إلى السماكين ؛ وفى كل عام توزع جوائز نوبل العظيمة إلى مستحقيها بين آيات التقدير والاعجاب لمحسن العظيم . واليوم يتقدم مثر سويدى آخر هو المالى الكبير اكسل فنرجرين ، ويوقف من ثروته الطائلة مبلغ ثلاثين مليوناً من الكرونات على الأعمال والمباحث العلمية ، والجهود العقلية التى تفيد الانسانية كلها بوجه عام . وقد نظمت هذه الهبة العلمية على مثل هبة كارينجى المشهورة ، وسيبدأ تنفيذ مافيها فى حياة الواهب على يد مجلس مؤلف من الواهب وزوجته وخمسة آخرين من بين رجالات السويد المشهورين . وقد استطاع المحسن الجديد أن يحرز ثروته الطائلة كسلفه العظيم نوبل من بعض المخترعات الصناعية . وهو يعنى عناية خاصة بالمشاريع العلمية والفكرية ؛ وقد اشترى أخيراً الجريدة السويدية المشهورة « نيا دا جلجت الهاندا » ، ووقفها للدعوة إلى التفكير المستقل وإلى معاونة الحركة الفكرية وتشجيعها

وهكذا تنافس السويد أمريكا فى رصد الهبات العلمية ، وتحرز من هذه الناحية ظفراً بعد ظفر ؛ وسيكون لهبة فنرجرين من الأثر المعنوى العظيم ما للهبة سلفه نوبل ؛ وستكون دعامة جديدة فى صرح التقدم العلمى والانسانى

احياء النحو لابراهيم مصطفى

جاء فى مجلة الآداب الشرقية التى تصدر بالألمـانية عن هذا الـكتاب بقلم طاهر خميرى ما يأتى: —

الـكتاب يقتصر على معالجة إعراب الاسم فى العربية جاعلاً هدفه إبدال القواعد الـكثيرة المبنية على نظرية العامل بأخرى أقل منها عدداً وتقوم على أساس من طبيعة اللغة (ص ١٩٥)

والمؤلف إذا أغضينا عن استثناء واحد (ص ٤٣) يستعين بمصادر عربية فقط

وأساس الفكرة أن الضمة علم المسند إليه والـكسرة علم الاضافة بينما الفتحة لاتدل على شيء بل الحركة الخفيفة التى تهرع إليها اللغة مادام الأمر لايدور حول إسناد أو إضافة (ص ٥٠). أما تفاصيل هذه النظرية فيناقشها المؤلف فى صورة واضحة ملزمة وإن لم تكن كل أجزائها فى نسق واحد من الاقناع

فالمؤلف مثلا — على حق كل الحق إذ يتخذ من إغفال علامة النصب فى كل من جمع المذكر والمؤنث السالمين (ص١١١) مؤيداً لنظريته السالفة وإن كان الطريق مفتوحاً أمام احتمالات أخرى؛ ولـكن ليس كذلك حكمه بأن اسم إن كان ينبغى له حقاً أن يرفع لولا أن النحاة ضلوا فى هذه النقطة (ص ٦٤)، هذا الحكم الذى يبنيه على مستثنيات قليلة يحوم حولها الريب وعلى نظائر لاصلة لها بما نحن فيه

كذلك كان المنتظر أن كل بحث حول علامة النصب يتخذ له من المفعول به نقطة ارتكاز ولـكن مما يلفت النظر أن المؤلف أعرض عن ذلك إعراضاً تاماً

ومما يدعو إلى السرور أن باب الاجتهاد فى النحو العربى قد فتح أخيراً على يد مؤلف عكف على موضوعه سبع سنين صدق فيها الاعتكاف (أنظر المقدمة) يحدوه الأمل فى أن يشيد بناء النحو العربى من جديد، ولهذا لايسعنا إلا أن نتجه إليه شاكرين هذا ولما كان المؤلف يعتزم إخراج جزء آخر فى الفعل وقد أكد هذا العزم فصرح بأن عنده مبادئه وتخطيطاته كاملة، كان لنا ألا نسد الطريق أمام كلمة أخيرة

وإنه لمن الضرورى الذى لامفر منه فى عمل من هذا القبيل ألا يغفل عن متابعة الخطوات الأخيرة فى مباحث علم اللغة العام فان هذا — مثلا — كان حرياً بلا شك أن يحفظ من زلل كثير فى استنباط نتائج قد يؤدى إليها كون تغير المعنى بمساعدة الحركات من خصائص اللغة العربية (ص ٤٥) اهـ

عقد مؤتمر عالمى فى القاهرة للبحث فى مسائل الشريعة الاسلامية

كانت الجامعة الأزهرية قد اشتركت فى مؤتمر تاريخ الأديان الذى عقد أخيراً فى مدينة لاهاى، وقد رفع المندوبون الأزهريون إلى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر تقريراً ضافياً ضمنوه المناقشات والقرارات التى اتخذها المؤتمرون فيما يتعلق بالبحوث الاسلامية التى تقدمت إلى المؤتمر

وقد عنى فضيلة الأستاذ الأكبر بدراسة هـذا التقرير، واجتمع مراراً بحضرات المندوبين الأزهريين وكان معهم الأستاذ عبد الرازق السنهوري بك عميد كلية الحقوق ومندوب الجامعة المصرية في هذا المؤتمر. وعلى أثر هـذه الاجتماعات اتصل فضيلة الأستاذ الأكبر بالدوائر الرسمية المختصة وتحدث معها فيما كسبت من النتائج العملية فى هـذا المؤتمر وما أفادته الجامعتان المصرية والأزهرية من الاشتراك فيه.

وقد علمنا أن الآراء انتهت إلى أن فى الشريعة الإسلامية من مسائل التشريع الجنائى والمدنى والتجارى ما يصح أن يؤلف قواعد ذات صبغة قانونية يمكن الأخذ بها فى مختلف التشريعات الحديثة كالوقف والوصية والميراث وشروط البيع والشراء والإيجار إلى غير ذلك من مختلف المسائل الشرعية ذات الصفة العامة

ثم روي أن كثيراً من التشريعات الحديثة اقتبست أحكام بعض هذه المسائل وجعلتها جزءاً من القانون العام، وأن من الإنصاف أن نسمع آراء علماء القانون فى هذه المسائل حتى يمكن تمحيصها وتكون ملائمة لروح هذا العصر

لذلك استقرت الآراء على عقد مؤتمر عام فى مدينة القاهرة يدعى إليه مندوبو الجامعات والهيئات العلمية فى العالم لتعرض عليه هذه المسائل للبحث فيها ولتقرير صلاحيتها لتكون أساساً ومصدراً فى التشريع الحديث

وقد تقرر أن تقوم مشيخة الأزهر بالاشتراك مع الجامعة المصرية بالدعوة إلى هذا المؤتمر، وجرت بحوث في كيفية تأليف اللجنة التحضيرية التى تبحث هذا الموضوع وتحدد الموضوعات الاسلامية التي تعرض على المؤتمر وتعين الزمان والمكان لانعقاده. وقد انتهت هـذه البحوث إلى أن تؤلف هذه اللجنة من بعض علماء الأزهر وبعض رجال القضاء الشرعى ورجال القانون وستنتظم هذه لدعوة جميع البلدان الاسلامية

تعديل التقويم الغريغورى

طلبت سكرتيرية لجنة المواصلات فى عصبة الأمم إلى الحكومة المصرية موافاتها برأيها فيما يتعلق بالتقويم الغريغورى واقتراح تعديله

وقد رأت وزارة المعارف أن تساهم فى هذا الأمر مساهمة جدية فأحيل الموضوع إلى أحد كبار موظفيها البرزين فى المسائل التاريخية لبحثه ووضع تقرير عنه

ونذكر فى هذا المقام أن فى أوربا وأمريكا هيئتين علميتين تسعيان لتعديل التقويم الجريجورى وتبذلان الجهد لدى لجنة المواصلات والمرور بالعصبة لتحقيق أغراضهما وغاياتهما . وقد رأت هذه اللجنة أن الموضوع خطير لاتصاله بحياة الشعوب والأفراد جميعاً ، فوجهت الدعوة إلى الأمم الممثلة فى العصبة وغير الممثلة ، فتألفت من مختلف الممالك والأقطار هيئات محلية ولجان أهلية لدراسة هذا الموضوع واقتراح الوسائل التى يمكن أن ينفذ بمقتضاها ؛ حتى إذا ما استجمعت اللجنة الآراء والمقترحات فى أنحاء العالم ، تقدمت إلى العصبة لدراسة الموضوع جملة فى اجتماعها

وقد لخصت لجنة المواصلات الفكرتين الأوليين اللتين تشير بهما هاتان الهيئتان العلميتان فى أوربا وأمريكا

فالاقتراح الأول يرمى إلى جعل عدد شهور السنة ١٢ شهراً ويوماً واحداً فى السنين البسيطة ويومين فى السنين الكبيسة . وأن يسمى اليوم الأول « يوم السنة » ويكون عقب شهر ديسمبر ، ثم يسمى اليوم الثانى « اليوم الكبيس » ويكون عقب شهر يونيو

ومن خصائص هذا الاقتراح أن يجعل الشهر ٣١ يوماً ليناير وابريل ويوليو واكتوبر ، و٣٠ يوماً فى الشهور الأخرى . وبذلك يكون مجموع شهور السنة الاثنى عشر هو ٣٦٤ يوماً . ومن مزاياه أيضاً أن تبدأ السنة دائماً بيوم « أحد » وأن تبدأ شهور يناير وابريل ويوليو واكتوبر بيوم « الأحد » ، وشهور فبراير ومايو وأغسطس ونوفمبر دائماً بيوم « أربعاء » ، وشهور مارس ويونيو وسبتمبر وديسمبر بيوم « جمعة »

أما الاقتراح الثانى فيرمى إلى جعل السنة ١٣ شهراً وأن يكون عدد أيام الشهر ٢٨ يوماً ، على أن يضم إليها يوم واحد فى السنين البسيطة وفق الاقتراح المتقدم . أما الشهر الثالث عشر فيكون موقعه عقب شهر يونيو ويسمى « الشهر الوحيد »

ومن مزايا هذا الاقتراح أن يجعل الشهور متساوية فى عدد الأيام والأسابيع وأن يجعلها جميعاً مبتدئة بيوم واحد هو يوم « الأحد » . ويذهب أصحاب هذا الاقتراح إلى أن فوائده كثيرة متعددة من النواحى الزراعية والمالية والاقتصادية والحسابية والتعليمية وهى تلخص فيما يلى :

١ — جعل كل شهور السنة متساوية الأيام ، ويجعل الأيام ثابتة لا تتغير ، وبهذا يمكن معرفة تاريخ أى يوم إذا عرف موضعه فى أى أسبوع من أسابيع الشهر ، وكذلك يمكن معرفة اسم اليوم إذا عرف تاريخه

٢ — توحيد الأيام ، فيسهل تنظيم الأعمال الخاصة والعامة ، كصرف الأجور ومعرفة أيام الأسواق والمواسم والأعياد والأجازات وافتتاح الدراسة وانتهاؤها . الخ

٣ — تقسيم الشهر إلى أربعة أسابيع متساوية ، فيسهل تطابق الحسابات الأسبوعية والحسابات الشهرية ، ويرتفع الخطأ الذي ينشأ عادة من اختلاف الشهر وأسابيعه

٤ — تسهيل مقارنة الايراد والمنصرف فى كل شهر فى الشئون التجارية والمالية والمنزلية

٥ — لما كانت أجزاء الأسابيع تلغى وفق هذا النظام ، فإنه يسهل وضع الاحصاءات ، إذ يعطى مقياساً ثابتاً لإيرادات الحكومة وصادراتها ووارداتها

هذا هو تلخيص الاقتراحين . وستبدأ الوزارة فى دراستهما ولما كان هذا الموضوع لا يعني الحكومات وحدها ، بل يتصل بحياة الهيئات والجماعات والأفراد فإن الوزارة ترحب بكل ما يبدى من الرأى فى هذا الموضوع

الى صديقى الأستاذ على الطنطاوى

تتعب نفسك ياصديقى وتتعب المنطق معك إذا حاولت أن تجادل من يفهم أن ماينشر فى (الرسالة) بغير إمضاء يجب أن يكون لرئيس تحريرها ، ثم يعين الاسم على هذا الفهم ، ويقيم المناقشة علي هذا الأساس . ومن بدائه الصحافة كما تعلم أن ماينشر فى الصحيفة من غير إمضاء إنما ينسب إليها لا إلى شخص بعينه ؛ ورئيس التحرير مسئول ، ولكن مسئوليته ليس معناها فى اللغة ولا فى الاصطلاح أنه يكتب مالا يمضيه غيره . فأعف قلمك ياصديقى من مثل هذا الجدل ، وأجره بما عودت قراءك المعجبين بك من مُلهَمات الحق والخير والجمال

الزيات



من أساطير الإغريق

يوم قيـــامة ...

أو طيش فيتون

للأستاذ دريني خشبة

عاد الفتى الساذج فيتون إلى أمه الحسناء الهيفاء كليمين ، بعينين مغرورقتين ، ونفس مكلومة ، وفؤاد خافق متصدع ، فجرى بينهما هذا الحديث :

— مالك يا حبيبي ! لماذا تبكي ؟

— ... ؟ ...

— لا . لا ... فيتون يبكي ؟ هذا عجيب ! أيكون أبوك أبوللو وتبكي ؟!

— أبوللو أبي ؟ كذب ، كذب !

— كذب ؟ وكيف يافيتون ! أمك كذابة ؟

— لا . لا . عفواً يا أماه ! أنت لا تكذبين ، ولكن ربما يكون كلامك سخرية بي !

— ولم أسخر بك يا بني ؟

— الأولاد في المدرسة يغمزونني في أبي ، وكلما حلفت لهم أن أبي أبوللو ضحكوا !

— دعهم يضحكوا يافيتون . ماذا يضيرك ؟

— يضيرني أنني لم يعد لي وجه أريق ماءه بينهم ، لا بد إذا كان أبوللو أبي أن ألقاه

— تلقى أبوللو ؟

— ولم لا ؟ أليس كل الأبناء يلقون آباءهم ؟ فلم لا ألقى أبي ؟ أأنا بدع من الناس ؟

— لست بدعا ، ولكن أبوللو في بلاد بعيدة ... إنه في الهند !

— ولم لا أذهب إلى الهند لأرى أبي ؟ صفي لي الطريق بحق الآلهة عليك يا أماه

— إذهب إلى الأرض التي تشرق من أفقها ذُكاء . فهناك ترى أباك

وذهب إلى الهند التي تقع في مشرق الشمس مباشرة ؛ وكان عند شاطئ المحيط قصر باذخ منيف ، لا يبلغ البصر مداه ، ولا يدرك الطرف أوله ولا آخره ... وكان مع ذاك قائماً على عماد رفيعة من ذهب ركبت فيها ماسات كبيرة ذات سناء وذات لألاء . وكان سقفه العظيم المطعم بالعاج المصقول يلمع ، ويكاد سناه يذهب بالأبصار ؛ أما أبوابه فصيغت من الفضة الخالصة ونقشت فيها أبهى الرسوم ؛ وافتنّ ڤلكان فصور فوق الجدران بالرسم البارز الأرض والبحر والسماء بما فيها من قُطّان ؛ فأقام في الأرض غابها وأدغالها ومدنها وأنهارها وجبالها ووديانها ... حتى آلهتها . وأبرز في البحر عرائسه المائسات الفاتنات ، فجعل منهن سابحات يتواثبن فوق الموج ، وجالسات على النؤي يمشطن شعورهن الداكنة التي تحكي خضرة البحر ، وراكبات على ظهور السمك وحيوان الماء يتلاعبن ويتضاحكن ... وجعلهن ذوات صور متشابهات وغير متشابهات ، دليلاً على حذقه وجليل قدرته ؛ وجعل فوق هذا كله صورة السماء بكل بروجها الاثني عشر ، بحيث جعل منها ستة إلى اليمين ، ومثلها إلى اليسار ... خَلَقَ ڤلكان ، ومن أحسن من ڤلكان خلقا (1) ؟!

وهكذا كان قصر الشمس آية من آيات الفن عجبا ، ومع هذه الأبهة البالغة والعظمة الأخاذة ، فقد تقدم فيتون غير هياب ، ودخل في غير وجل ، وكان يلمح اللمحة من الرسوم الجميلة والتصاوير الساحرة ، ثم يسلك في سبيله قدما حتى كان في البهو الأعظم الذي يستوي في صدره أبوه ، على عرش ممرد ناصع ، تنعكس منه أضواء لامعة خاطفة ، تبهر النظر ، وتُخَشّي الأبصار . وسار الفتى مسافة قليلة ، ثم وقف مكانه عَشِيًّا من شدة الخطف

(1) ليذكر القارئ أن القصة أسطورة

والإيماض ، ولم يدر أيان يذهب ؛ وكان أبوه متشحاً بوشاح فضفاض أرجواني ، وعن يمينه وعن يساره وقفت الأيام والشهور والسنون ، ثم الساعات في صفوف منظومة متلاحقة ؛ ثم وقف الربيع — وتمثله هنا امرأة — وفوق رأسه إكليل جميل من الغار والزهر ؛ ومن بعده وقف الصيف . وقد نضا جيب قميصه عن صدره ، وقبض على حزمة من سنابل القمح الناضجة بيمينه ؛ ثم همّ الخريف متهالكاً على نفسه ، وعلى قدميه أثارات من عصير العنب ... أما الشتاء ، فقد بدأ شيخاً وقوراً جلل الشيب رأسه ، وتراكم الثلج والبرد على شعره الناصع

وقد لمح أبوللو ولده فيتون حيث سمر مكانه ، وقد خطفت الأضواء بصره ، وأخذه المنظر العجب الذي سحره عن نفسه ، فهتف به ويباركه ويقول :

— فيتون ! فيم قدمت يا بني ! لأمر ذي بال ، ليس من ذاك بد ؟

— أوه ! يا نور السموات والأرض يا فوبوس[1] ! يا أبي إن أذنت لي أن أناديك بهذا النداء ! إن كنت حقاً ابنك فزودني ببرهان أقدمه للناس حين أقول إني أنا ابن أبوللو

— برهان ؟

— أجل ، هب لي من لدنك برهاناً يثبت أبوتك لي ، فلقد استهزأ بي التلاميذ ، وفضحوني في بنوتي لك . لا بد من دليل ، هل تسمع ؟ لا بد من دليل !

— لا عليك يا بني ! لك ما أردت . على أنه كان ينبغي أن تصدق كل ما قالت لك أمك ؛ وأنا من جهتي لست أنكرك ، فأنت ابني وأنا والدك ، والآن سل ما شئت فاني مانحك أيا ما تريد

— صحيح يا أبي ؟

— أولا تصدق ما أقول ؟

— بلى ، ولكن ليطمئن قلبي !

— صحيح يا بني ، وأقسم لك بهذه البحيرة المقدسة التي يحلف بها الآلهة

فيتلفت فيتون حوله ليرى البحيرة ، ولكنه لا يجد لها أثراً

— وأين هي تلك البحيرة يا أبتاه !

— ولد ظريف يا فيتون ! أنا ما رأيتها قط ، ولكنا نحلف بها في كل أمر جلل يا بني !

— إذن هب لي أن أسوق محفة الشمس يوماً واحداً بدلاً منك

— وي ! فيتون ! أي طلب هذا ؟

— لا بد !

— محال يا ولدي ! أنت حدث ، ثم أنت بشري من بني الموتى ! سل ملء الأرض ذهباً أمنحك ما تريد !

— كلا ، كلا ... لا بد أن أسوق محفة الشمس من المشرق إلى المغرب ليراني سفهاء التلاميذ ، وليتأكدوا أنني ابن أبوللو !!

— إنها ستحرقك وتحرق التلاميذ إخوانك قبل أن يروك !

— لا ... لن تحرقني ، أنت قادر على أن تجعلني أحتمل كل شيء ! ألست إلهاً ! [illegible]

— بلى ، ولكن ...

— لكن ماذا ؟ لا بد ، لا بد ، محال أن أسألك شيئاً آخر !

— يا بني إن هذا ليس في طوقك ، إنك ضعيف صغير ، والعمل الذي تطلب أن تتولاه شاق حتى على الآلهة ، إني أقوم به والرعب يملأ قلبي ، وأنا من أنا يا فيتون ... إن سيد الأولب نفسه ، الإله الأكبر ، جوف ، جل سناؤه ، وتقدست أسماؤه ، لا يستطيع أن يسوق عربتي الملتهبة ذات اللظى يوماً أو بعض يوم ، فما بالك أنت ؟ إن الثلث الأول من الطريق صعب المرتقى لأنه يميل قليلا قليلا قليلا عن خط العمود ؛ وخيلي ترقى مزالقه[1] في صعوبة ليس بعدها صعوبة ؛ والثلث الثاني عال شديد العلو ، لأنه يرتفع فوق قمة العالم ، حتى لأجزع أنا نفسي من أن أنظر إلى أسفل تقية للدوار يأخذ في رأسي[2] حين أرى إلى البحر المتمرد والبطاح الشاسعة والجبال الشم تزدلف من تحتي ؛ أما الثلث الأخير فحدور شاق كمهاوي الجبل إذا وقفت عليه فوق شعفته[3] ، ولذا فهو يقتضي الحذر وحصر البصر ؛ حتى إن تاتيز الواقف في نهايته ليتلقاني ، يرتعد من الخوف علي ، والرثاء لي ، خشية أن أتردى في هاوية اللانهاية . هذا ، ولا تنس السماء التي تجري فوقي لستقر لها ، بكل ما فيها من كواكب وأجرام ، فاذا غفلت لحظة ، أو أخطأت قيادة العربة ، جرفتني في دروتها إلى حيث لا أعلم أين تذهب أو تستقر بي . ثم تدبر معي قليلا يا فيتون ، إذا أنا سمحت لك بقيادة العربة ، فاذا يصيبك من الهلع حين تنظر إلى السفل فترى الأرض تلف ، والسباع تهمهم في الأدغال ، والناس يكظون المدن ، والآلهة تطل من قصور الأثير ، والأشباح تسرى حواليك كالسمادير ؟ ماذا من

(١) أحد أسماء أبولو

(١) المزالف : المراقي (٢) هذه عبارة القاموس (٣) قنه

الروع يعتريك يا ولدى ؟ هل تستطيع أن تكبح جماح الخيل أو حتى تملك ألاّ يفلت العنان منك ؟ إنك ستمر بين قرنى الثور أمام الحوت ، وعلى مقربة من فكي العقرب وذراعى السرطان .. يا بنى ! هل تستطيع أن تقود الخيل التى تنفث اللهب من مناخرها وأفواهها وسط هذه الدُّنى الدائبة ؟ اختر لنفسك يا بنى ولا تجعل الناس يقولون أهلكه أبوه »

وتشبث فيتون وركب رأسه ، ولم يشأ أن ينكل قيد شعرة ؛ فلم يسع أبوللو إلا أن ينطلق به حيث عربة الشمس ! العربة العظيمة المطهمة ، المصنوعة كلها من الذهب الخالص ، وقليل من الفضة المزركشة باللآلىء والجوهر ، وأحجار الماس التى تعكس أشعة الشمس جميعاً فتضاعف أضواءها ، وتزيد كثيراً فى لألائها

وتقدمت ربة الفجر ففتحت أبواب المشرق ، ونضرت بالورد طريق أبوللو ؟ ثم أخذت النجوم تثب كالحمائم قِبَـلَ المغرب وفى أثرها نجمة الصبح فريدة كأنها الورقاء

وتلفّت أبوللو إلى الساعات المنتشرة عن جانبيه ، فأمرهن أن يسرجن الخيل ، فأطعن ، وقصدن إلى الإسطبل الكبير حيث وجدن الخيل قد التهمت كفايتها من العلف المقدس ، فوضعن فى أفواهها اللجم ، وأسرجنها بكامل عدتها

وتناول أبوللو وجه ولده فنضحه بطيوب إلهية ، وضمخه بدهن كريم ، ثم قطر فى عينيه قطرات من ماء أولب ، كي يقوى الفتى على تحمل الحرارة الفائقة ، والصبر لضوء الشمس القوى ؛ ثم وضع على رأسه الصغير هالة النور الربانية ، وأشار إليه فاستوى على العربة العظمى التى تجر الشمس ، فتنير أقطار السموات والأرض ، وقال يوصيه :

— « أى بنى : ها قد استويت على عربة أبيك التى ما قادها من قبل أحد غيره ، ولا يقدر عليها أحد سواه ! أى بنى فاشدد إليك أعنة الخيل ، وتجنب أن تلهبها بهذا السوط ، فهى قد مرنت على الطريق وهي لا تبطيء حتى تحتاج إلى أن تساط . أى بنى ولا تنحرف عن شمالك أبدا ، وظل منتهجاً سبيل الاستواء الذى هو الدائرة الوسطى من الدوائر الخمس ؛ واحذر أن تعلو إلى الدائرة العليا أو أن تسفل إلى الدائرة السفلى ؛ وسترى آثار رحلاتى من قبل ، فسر على دربها تصل إن شاء الله . أي بنى ولا ترتق معارج السموات فتصيب مساكن الآلهة ، ولا تهو قريباً من الأرض فتجعل كل ما فيها هشيما جُرُزاً ، بل خذ الطريق الوسطى أبداً ، فإن خير الأمور أوساطها ... فإذا أفلتت الأزمة من يديك ، فظل حيث أنت ، ولا تذهب مذاهب شتى فى رُحب السماء . وسأتولى أنا بعد ذلك إنارة الأرض والسموات . أى بنى وما دمت قد اخترت لنفسك برغمي ، فلا أقل من أن تعى نصيحتى والسلام عليك »

ورد فيتون على أبيه السلام ... وانطلق من أبواب المشرق وطفقت الخيل الصافنات تنفث اللظى فتموه السحب بالذهب ، وتسابق أنفاس النسيم التى تهب هي الأخرى رخاء من أبواب المشرق

وعجبت الخيل بعد شوط قصير من هذا الحمل الخفيف الذى لا عهد لها به ؛ وعجبت أكثر حين أحست بالعربة تتأرجح خلفها كالزورق الذى له ليس له صُبرَة[1] تثبت به فى مهب الأعاصير

وجمحت الخيل ... وانطلقت فى غير طريقها المعهود ... ولأول مرة ارتفعت حتى كادت تلتمس النيرين الأكبر والأصغر . فثار ثائرهم من لفح الحر ؛ ولأول مرة كذلك تحرك الثعبان المنحوى فوق نجم الشمال حين أحس الدفء فنفث سمه الذعاف ، وفرت من طريقه الكواكب ... ونظر فيتون تحته ، فرأى الأرض تلف كالخذروف فريع قلبه ، وزلزلت نفسه ، وسقطت من يديه أعنة الخيل فجرت به فى السفل حتى اقتربت من الأرض ... ونظر وراءه .. فرأى أنه لم يقطع من الثلث الأول إلا أقله ؛ ثم نظر أمامه فوجد أكثر الطريق وأوعره ، فزادت حيرته ، وأسقط فى يديه ، وترك كل شىء للقضاء والقدر ... وضاعف ربكته نسيانه أسماء الجياد ... وحدث أن ارتفعت هذه فجأة ، حتى كانت قاب قوسين من فكي العقرب ، ذلك الهولة المخيف الذى أوشك يبتلع العربة بمن فيها .. وشدهت ديانا ربة القمر حين رأت عربة أخيها تتخبط فى الآفاق ، وتصطدم بالكواكب ، فتحدث الشهب ، وتحرق العوالم السماوية : « ترى ماذا أصاب أبوللو ؟ مسكين ! لابد أنه نام . على كل حال سيستيقظ ! » ولكن العربة هبطت فجأة حتى صارت فى سماء الأرض ، وحتى صارت الأرض منها على مدى رمية سهم ... فما هي إلا لحظات حتى شبت الحرائق فى كل الأرجاء ... ها هي ذى الغابات العظيمة تشتعل ... وها هى ذى ألسن النيران ترقص فى كل فج ... وها هى ذى الوحوش تجري هنا وهناك ثم تسقط فى كل البقاع ... والمدن ! المدن العامرة الآهلة ... إنها تحترق بمن فيها من شيوخ ضعفاء ونساء وولدان ... أما الشباب ! فوا أسفاه على

(١) الصبرة والصابرة : الحجر الذى يضعه الملاح فى قعر زورقه حتى لا يميل فيغرق ، ويسميه العوام (الصابورة)

الشباب ! إنهم يجرون كالجان إلى البحار والمحيطات والأنهار والينابيع ! وهاهم أولاء يقذفون بنفوسهم فيها ... ولكن ! واأسفاه ! إن مياه البحار والمحيطات والأنهار والينابيع تغلي وتفور ، ويعب عبابها بالحمم ، فالشباب يستجيرون فيها من الرمضاء بالنار ! لقد بادت أمم بتمامها ، واختبأت أمم في النيران والكهوف وشقوق الأرض والجبال ... أما الطيور فقد خربت أوكارها ووكناتها ، ولم يسلم منها إلا مالاذ بأفحوص أو أدحى [1] ... ومسكينات عرائس البحار ! لقد شحبت ألوانهن ، وذوى جمالهن وغصن في الأعماق مع السمك يلتمسن الماء البارد ، ولجأت أسراب منهن إلى البحار الجنوبية ، وآثرن أن يعاشرن البنجوين ! ... أما قمم الجبال العالية التي ظلت منذ الأزل مجللة بركام الثلج ، فقد خلت حللها الناصعة ، وحلت عمائمها المخملية ، وصارت تلتهب ... فهذه طوروس الشماء ، وتلك القوقاز العاتية ، وهاتيك الألب المزهوة ... كلها تلتهب ... كلها تقذف بالحمم ... حتى أولمب مثوي الآلهة ، لقد غدا كومة عالية جداً من النار .

ولقد كانت الصحراء اللوبية فراديس يانعة ولكن فيتون المجنون حولها إلى رمال وكثبان ، ولولا أن أدخل النيل رأسه في كثيب مهيل منها لجف ماؤه ، وتبخر في السماء كله ، ليجري في كوكب آخر ! وهكذا فعل الفرات وأخوه ، وكذلك صنع الكنج والسند ... فشكراً لكل الأنهار التي ضنت بنفسها من أجل سعادة البقية الباقية من النوع البشري !

يالهُ يوم قيامة ؟! لقد ضجت الآلهة في الأرض ، وكلما حاول نبتيون الجبار إله البحار أن يخرج رأسه من اليم ليجأر بالشكوى إلى أخيه كبير الآلهة ، خاف وذعر أن تحرقه الشمس الهوجاء التي يسوق عربتها فيتون ... ولولا أن جازفت أمنا الأرض فبرزت من المحيطات وهتفت بجوف العظيم ، لأصاب من بقي العذاب الأليم ... لقد قالت له : « ياجوف العلي ! يارب الأرباب ! إصغ إلي ، واستجب لدعائي ! ماهذا الذي نامت عيناك عنه فذهب بزرعي وضرعي ؟ أهذا جزاء خصوبتي وما تهب عبادك من حب وأب وعنب وقضب وحدائق غلب ؟ أهكذا تكون عاقبة إخلاصي في مكافأة عبادك الذين يقيمون لك الهيا كل ويبنون باسمك الصوامع والمعابد ؟ ماذا من القرابين يارب الأرباب يُذبح باسمك بعد أن يهلك كل ماعليّ من قطعان وأسراب ورعال ؟ ثم هذه العوالم التي ما أنشأتها إلا بعد عناء وجهد ! كيف تدع هذه الشمس الرعناء تأتي عليها جميعاً ، وتصير كل شيء في ملكك إلى هيولي ؟ استيقظ ياجوف واستمع ، وأدركنا بلطفك هذه الساعة التي نحن فيها أشد ما نكون في حاجة إليك . آمين ! »

* * *

وهب جوف من سباته العميق على جؤار ربة الأرض ؛ وأبصر فرأى ماحل بالعالم الجميل من تدمير ووبال ... فألم وتصدع ... ونظر إلى عربة الشمس ينتفض فوقها غلام يافع عرف فيما بعد أنه فيتون بن أبوللو فهاج وماج ، وأخذ صاعقة من أكبر صواعقه وأقتلها ، ثم أحكم تسديدها إلى الراكب المجنون .. وأرسلها تقصف وتعزف ... وتهز الأفلاك ... فأصماه وأرداه !!

وسقط الغلام الأحيمق من عُلوِ العالم يتقلب في نهر إريدانوس المتدفق في سهول إيطاليا ... حيث مات ... واستراحت الدنيا كلها منه ! وعادت الشمس إلى ربها ... أبوللو المسكين ... فهو يجرى بها إلى اليوم لمستقر لها !!

أما كليمين البائسة ، فهي إلى اليوم تبكي ولدها ... وقد بكته معها أخواتها ، وكن في كل صباح يذهبن إلى النهر الذي سقط فيه فيسكبن دموعهن ، حتى رثت لهن الآلهة ، فسحرتهن إلى أيكات ثلاث من شجر الحور ، فهن حانيات على النهر منذ ذلك اليوم حنو المرضعات على الفطيم

وكلما سكبن دموعهن حارت إلى كهرمان كريم

وحزن سيكنوس ، صديق فيتون ، على خدن صباه ، فجمع رفاته وبنى لها قبراً من الرخام تظله الشجرات

دريني خشبة

استدراك

جاء في مقال « كليلة ودمنة » المنشور بالعدد الماضي من « الرسالة » صفحة ١٦١٧ « فلا يسعنا إلا أن نذكر بمزيد الإعجاب فضل إبراهيم الصولى » والصواب « أبي بكر الصولى »

---

(١) الأفحوص عش في الأرض ، والأدحى بيت النعام

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧

5 me Année, No 224. | Lundi - 18 - 10 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ٢٢٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ شعبان سنة ١٣٥٦ — ١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الحـــرب

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كان الذى يقول — قبل بضع سنوات — إن الحرب واقعة وأن العالم مقذوف به فى جحيمها لامحالة ، يعد من المنجمين الذين يُقرأ كلامهم للتسلية ولا يُحمل على محمل واحد من محامل الجد ؛ أما الآن فإن الحرب على كل لسان وفى كل ذهن وإن كانت كل دولة تقول وتؤكد إنها لاتريدها ولا تسعى لها وأنها تحاول أن تتقيها جهدها . والحق أن المرء لايكاد يصدق أن دولة ما — مهما بلغ من وفاء عدتها — تُقدم على إضرام نار الحرب فى الدنيا وتعرض المدنية للبوار ، وكيان العالم للتقوض والانهيار . وهى شرارة واحدة تطير فإذا الدنيا كلها براكين تقذف بالحمم فقد مضى الزمن الذي كان يسع أمتين فيه أن تقتتلا ما شاءتا ، وبقية الأمم وادعة ساكنة وآمنة مطمئنة لاتكاد تُعنى بما يجرى فى ساحة الحرب ، وصرنا إلى زمن كل مايحدث فيه له رجعه وصداه فى كل زاوية وركن من هذه المعمورة . ولا أمل فى هجوم مختلس وزحف سريع فاذا النصر قد خرجت به أمة والهزيمة قد باءت بها أخرى . ولم تعد الحرب قتالاً بين جيش وجيش بمعزل عن

الأمم والشعوب بل أصبحت تدور بين الأمم نفسها بكل ما تمت من وسائل التدمير والتخريب ومعدات الدفع والتوقى ، وليس الذى يصيب غير المحاربين من البلاء والنكبات والتقتيل دون الذي يصيب الذين هم فى الصفوف . ولا فرق فى الحقيقة — أو لم يبق ثم فرق — بين مجند يحمل سلاحه ويسير إلى حيث يؤمر ، وآخر يقيم فى بيته بين أهله وأبنائه ويذهب إلى عمله الذى يكسب منه رزقه ؛ وقد يكون الجندى أحسن حالاً لأنه يجد على الأقل من يعنى بتدبير وسائل الوقاية له وتوفير الطعام والشراب وتمكينه من الراحة على قدر المستطاع ، أما أهل المدن والقرى من شيوخ ونساء وأطفال وغير هؤلاء وأولئك ممن لا يؤخذون للحرب فيُفاجأون فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار بالتخريب والتدمير والتقتيل من غير أن تكون لهم أمثال الوسائل المتوفرة للجندى الذى فى الصف للدفاع والهجوم ومقابلة كل طارىء بما يستدعيه

نقول إن المرء يصعب عليه أن يصدق أن دولة تجازف بالإقدام على الحرب واحتمال تبعة إضرامها فى العالم لأن أهوالها أفظع من أن تسمح بهذا التصديق ، ولأن النصر فيها كالهزيمة من حيث الخراب الذى يحل بالفريقين المحتربين ، ولأنها لا بد أن تطول حتى تستنزف القوى جميعاً بعد أن أصبحت جهاداً بين شعوب لا مجرد اعتراك بين جيوش ؛ حتى النساء صرن يجندن أو يدربن على أعمال الجنود ، أو يستخدمن على الأقل فى المصانع والمستشفيات من ثابتة ومتنقلة وفى سوق السيارات وغير ذلك مما يسهل أن يقمن به وهن بعيدات عن الصفوف الأولى للمحاربين

ولكن الأمم على الرغم من هول الحرب تبدو ماضية إليها بسرعة ، ولا تكاد تلوح بارقة من الأمل فى اتقائها واجتناب كارثتها الشنيعة ، فكل دولة تكدس السلاح والذخيرة وتحث المصانع على العمل المتواصل ، وكل مجهود موجه إلى استيفاء الأهبة فى كل باب ولكل احتمال . والشعور بالاستعداد — أي بالقوة — يغري بالتهور كما يمكن أن يصد عنه ، فالذين يقولون إن أحسن وسيلة لمنع الحرب هي الاستعداد لها مصيبون ومخطئون فى آن معا . فما من شك فى أن علم الدولة التى تحدثها نفسها بالحرب أن غيرها مثلها استعداداً لمقابلة الشر بمثله ، خليق أن يمنعها على التردد الطويل والحساب الدقيق للعواقب ، ومتى بدأ الحساب فالإحجام مرجح لأن المفاجأة الحاسمة مستحيلة فى هذا الزمان ، وعند كل أمة من الرجال والعقول والمواهب مثل ما عند الأخرى — ونعني أمم الغرب على الأقل — وكل دولة تستطيع أن تستدرك ما يظهر لها من النقص بسرعة كافية . وقد جرب العالم هذا فى الحرب الكبرى، ومعلوم أن ألمانيا فاجأت الحلفاء يومئذ بالغازات الخانقة فما لبث الحلفاء أن اتخذوا الكمائم ثم ما عتموا أن اهتدوا إلى صنع الغازات فصاروا يرسلونها على الألمان كما كان يرسلها الألمان عليهم . واحتاجت بريطانيا إلى بعض المواد التى لا غنى عنها لصنع الذخائر — وكانت قد أصبحت منقطعة أو عزيزة المنال — فاحتثت همم علمائها فهداهم البحث والتجريب إلى ما يحل محل هذه المواد ويغني غناءها وهكذا . ولا شك أن كل أمة تعول على سلاح لديها أكثر مما تعول على سواه ولكنها لا تستطيع أن ترجو طول الانفراد به وبمزيته بعد أن تلح به على أعدائها فى الحرب

غير أن وفاء العدة يغرى من ناحية أخرى بالغطرسة ومحاولة التحكم، ومتى صارت الأمم كلها شاكية مستعدة فأخلق بذلك أن يجعلها أضيق صدراً عن احتمال الغطرسة والشموخ . والأعصاب تتلف فى مثل هذه الأحوال . وقد يكون تلف الأعصاب أجلب للحرب من أى سبب أو باعث آخر ؛ ولهذا ترى أنصار السلم ينصحون بالسكينة واتزان الأعصاب وضبط النفس والحرص على ذلك مهما بلغ قوة الشعور بالاستفزاز

وأسوأ ما فى الحالة أن الحرب تدور رحاها شيئاً فشيئاً وفى مكان بعد مكان حتى ليخشى أن تنتشر وتعم الدنيا ؛ ونارها توقد بلا إعلان . في إسبانيا لا تدور الحرب بين فئتين من الأمة وإنما هي بين دول شتى فى الحقيقة لكل منها مأربها وغايتها وسلاحها الذى تجربه وتختبر فعله وغناءه . وفى الصين قامت الحرب بلا انذار أو إعلان وقد تضطر دولة أو دول أخرى غير الفريقين المتحاربين أن تخوضها معهما فتتسع الدائرة ويعظم الخطب ولا يؤمن اندلاع النار فى قارات أخرى . فاذا ظل هذا يحدث فى رقعة بعد رقعة من الأرض فماذا يكون المصير ؟ وحيال هذه الحالة لا ندرى كيف يسع إنساناً أن يطمئن إلى استقرار السلم وإمكان تفادى الحرب ؟ إن كل ما يسعى له أنصار السلم والمشفقون على العالم

وحضارته هو أن يحصروا هذه الحروب فى مناطقها حتى لا تعدوها أو تمتد إلى سواها كما يفعل رجال المطافئ حين يرون النار قد شبت فى بيت أو مصنع . وليس هذا من التشبيه أو التمثيل فانها النار هنا وههنا بلا فرق أو تفاوت سوى أن نار الحريق أهون من تلك التي يؤججها التدبير المحكم

ومن العسير أن يتكهن المرء بشيء فقد صار العالم يعيش يوماً فيوماً فاذا مضى يوم ولم تتفاقم فيه أزمة ولم يستفحل فيه خلاف حمد الله وشكره ورجا أن يجيء الغد بما يفرج الكرب أو يرجئه أو يلطفه على الأقل .

ابراهيم عبد القادر المازنى

كلبى « بيجو »

للأستاذ عباس محمود العقاد

أنا أكتب هذا المقال عن « بيجو » وهو ينظر إلىّ ، ثم يذهب ويعود ليطل مرة أخرى ولا يدرى أننى أكتب عنه وأشيد بذكره ؛ وكل ما يدرى أننى جالس فى هذا المكان الملعون الذى يجب كل مكان فى البيت غيره ، وهو كرسى المكتب !

فنى كل مكان فى البيت يرانى مستعداً لملاعبته واستجابة نظراته، والتفرج على فنونه وألاعيبه وقفزاته ، أو يرانى مستعداً للإشارة إليه واستدعائه فإذا هو واثب وثبة واحدة إلى حيث يستوى على مكانه بجانبى ، ويغرينى بملاطفته ومجاملته أن أبذل له الملاطفة والمجاملة وأحييه بعبارات التودد والمجاملة

ينتظر منى ذلك فى كل مكان إلا كرسى المكتب ... فإذا جلست إليه لأكتب أو لأقرأ فهو حائر لا يدرى ما يصنع : يدنو من الكرسى إلى مسافة قصيرة ، ثم يرفع رأسه وينظر ، ثم يعيد النظر كرة أخرى ، ولعله يسائل نفسه : ما بال صاحبى لا ينادينى ولا يجيبنى ؟ وما بال عينيه تتجهان أمامه وقلما تتجهان ناحيتى ؟ فإذا طال عليه التساؤل والترقب رجع أدراجه وغاب هنيهة ثم عاد إلى المكتب يترقب كلمة النداء ، أو نظرة الاستدعاء ، أو لمسة التربيت والاحتفاء ؛ ولا يزال كذلك حتى ييأس ويسأم فيولى وجهه شطر ألعوبة يتلهى بها ، أو شغلة أخرى من الشواغل البديعة التى يفرضها على نفسه ولا يفرضها أحد عليه ، وأولها حراسة الباب والعواء على من يصعدون السلم أو يهبطونه !

وقد تبعنى اليوم إلى المكتب ونظر إلىّ قليلاً ثم غادر المكان الملعون يائساً عابساً دون أن يلح فى الانتظار والمناورة ، لأنه تعلم بالمرانة الطويلة أن الانتظار فى هذا المكان لا يفيد ، وأن الكلب العاقل الرشيد هو الذى يغادر مكان الكتب والأوراق بغير تدبر ولا تأمل ولا إطالة . والحق معه حتى فى آراء الأناسىّ العقلاء الراشدين !

وقد أردت اليوم أن أدهشه وأخلف عادته فرفعت رأسى من الورق فى بعض جيئاته وصحت به منادياً : بيجو ! بيجو ! تعال ... إن كتابتى اليوم تمنيك . ألا تريد أن تقرأ ما كتبت ؟ فوجم ولم يكد يصدق أذنيه . وتردد لحظة ، ثم قفز إلى الكرسى فالمكتب حيث الورق الذى أخط عليه هذا المقال ... كأنه يريد حقاً أن يقرأه ويستطلع ما فيه ، وكأنه لا يفضل بالعقل والرشد أولئك الآدميين الذين يعنيهم ما يكتب عنهم الكاتبون كما ظننته لأول وهلة ! ولكنه ما لبث أن أخافنى من أسلوبه فى القراءة والمطالعة ، لأنه هو والتمزيق فى عرفه شيء واحد . وهل هو بدع فى أسلوبه.وهذا شأن كثير من الآدميين الذين أكتب عنهم ؟ فنحيته برفق وحملته إلى الباب وأرسلته فى الدهليز ، وعدت إلى المكتب فأقفلته ولا أزال أسمع نباحه يلاحقنى بلهجات تتراوح بين الاستغراب والشكاية والسباب !

ويجب أن أعترف للقراء بأن كلبى « بيجو » ليس بكلبي على التحقيق ، ولكنه كلبى فى شريعة الدعوى والاغتصاب ، أو هو كلب صديقى العزيز « فيق » الذى لم يجاوز السنتين إلا منذ شهرين ، ولا إخاله إلا مطالبى به قريباً بعد أن زال الموجب لاقصائه وهو انحراف صحته فى موعد التسنين ، وفيما أصابه على أثر ذلك في مصاب أنقذه الله من خطره الشديد

والأصل فى المصائب أن تجمع بين الأصدقاء لا أن تفرق بينهما كما افترق فيق وصديقه بيجو ... ولكن اللوم فى هذا الافتراق على صداقة بيجو دون غيرها — أى على إفراطه فى

الصداقة لا على تقصيره فيها — فمعاذ الله أن يتهم كلب بخيانة الأصدقاء

كان بيجو يرى « فيني » على سريره سا كناً من التعب والاعياء فلا يحسب أن شيئاً تغير بينه وبين مولاه ، ويقفز إلى السرير ليعرض خدماته التى لا يكل عنها ولا يتوانى فيها ، وهى المواثبة والملاعبة واصطناع العض والمصارعة ، ومولاه فى شاغل عن ذلك ولـكنه هو لن يقبل العذر ولن يعرف شاغلاً أهم من تلك الخدمات المرفوضات

وإذا أقبل الطبيب وصرخ « فيني » من مقاربته وجسه وفحصه كما يصرخ جميع الأطفال من جميع الأطباء فما هى إلا لمحة كأسرع ما يكون لمح البصر وإذا بأنياب « بيجو » توشك أن تنغرس فى ساق الطبيب الذى يعتدى على مولاه بما يبكيه !

أما إذا ربطوه اتقاء لهذه المفاجآت فلا راحة ولا قرار فى البيت كله ، لا لمولاه العزيز ولا للنائمين حوله أو الساهرين عليه

لهذا عوقب « بيجو » على إفراط صداقته بالنفى من جوار مولاه فى أثناء توعكه وانحراف مزاجه ، ورضيت أنا أن أتولى مؤاساته وحراسته أيام منفاه ، حتى تنجلى الغاشية فيعود إلى مأواه

وما انقضت فترة وجيزة حتى أصبح « بيجو » شخصية من شخصيات البيت المعدودة ، وحتى فرض على نفسه واجبات وأعمالاً لم يفرضها أحد عليه ، ولـكنه يغضب ويتذمر إذا أنت قاطعته فيها أو عوقته عنها ، كأنك تحسبه مخلوقاً عاطلاً لا يصلح لعمل ولا يؤتمن على واجب ...

عرف الفرق بين جرس التليفون وجرس الباب ، فلا يدق هذا أو ذاك إلا أسرع إلى الاجابة ، وغضب من الخادم كلما سبقه إلى غرضه فتظاهر بعضه والوثوب عليه . ومن عجائب ذكائه أنه إذا سمع جرس الباب أسرع إلى الباب ولم يفعل كما تعود أن يفعل حين يسمع جرس التليفون . مع أن جرس الباب يدق فى المطبخ حيث يكون الخادم ولا يدق فى المكان الذى يجرى إليه . ولعله عرف أن فتح الباب هو المقصود بدق الجرس فى المطبخ كلما جرى الخادم لفتحه على إثر سماع دقاته ، ولـكن تفريقه بين الجرسين براعة تشهد له بالقدرة على مزاولة الأعمال والواجبات

ومن الأعمال والواجبات التى فرضها على نفسه ولم يفرضها عليه أحد أنه لايدع إنساناً ولا حيواناً يصعد السلم إلا أدركه بنباح الاحتجاج من وراء الباب فيعدو أمامى ويعود إلىّ ولا يزال يرقص ويتوثب حتى أجزيه على استقباله بالتحية الواجبة والتربيت المحبب إليه

ألأجل الطعام يهش لى « بيجو » هـذه الهشاشة ويرعانى هذه الرعاية ؟ أنا أود من الباحثين فى طبائع الحيوان أن يراجعوا ملاحظاتهم وأحكامهم فى أسباب التآلف والمودة بين الحيوان والإنسان ، فان إطعام الكلب ولا شك سبب من أسباب وفائه وتعلقه بأصحابه ، ولـكن لاشك أيضاً فى أن الـكلاب تفهم للمودة أسباباً غير الإطعام وتدرك معنى من معانى الصلة النفسية ليس مما يرتبط بالمنافع ؛ وأوضح دليل على ذلك أن « بيجو » يعتبر نفسه تابعاً لمولاه « فينى » ولا يعتبر نفسه تابعاً لأبيه أو خادم أبيه ، وكلاهما يطعمه ويلاطفه ويسقيه . أما «فينى» فهو لا يطعمه ولا يسقيه ولا يتورع عن خطف طعامه إذا ساغ فى مذاقه ، وقد يتبرم به فيضربه أو يقبض على لسانه أو يضع أصبعه فى عينه ، وبيجو فى كل ذلك لايقابل الأذى بمثله ولا يفتأ متعلقاً بالطفل أشد من تعلقه بآله وذويه

فلما زارنى « فينى » مع أبيه بعد شفائه ونجاته من خطره كان المعقول المنظور أن يخف « بيجو » إلى الأب الـكبير الذى يعنى بإطعامه وإيوائه ، ويشمله بمودته وحبائه ، ولـكنه التفت أول ما التفت إلى « فينى » العزيز دون غيره ، وتهافت عليه يعانقه ويلحس وجهه بلسانه ويئن أنيناً من فرط حنينه وفرحه ؛ وجهدنا جهداً شديداً فى التنحية بينه وبين مولاه الصغير لفرط ما أرهقه بتحياته ومجاملاته ، وكنا سبعة منا أستاذ فى علم الزراعة والحيوان ، وأخ له أديب جم الاطلاع ، وصديق مهذب من أدباء الموظفين ، وسيدة انجليزية وابنها اليافع ، ووالد فينى وكاتب هذه السطور ، فأتعبنا الـكلب الأمين الودود جد التعب ونحن نبعده من هنا فيرجع من هناك على حال من اللهفة والاشتياق تجلب الدمع إلى الآماق . فماذا بين بيجو ومولاه فينى من البر والمجازاة غير الصلة النفسية التى لاشأن لها بالطعام والشراب ؟ ولماذا يحسب

نفسه تابعاً للطفل ولا يحسب نفسه تابعاً لأبيه ؟ إنه لايفقه أنهم أهدوه إلى فيني الصغير ليكون لعبته وحارسه وعشيره ، ولكنه قد يفقه أنه نده وقرينه بواشجة الطفولة والملاعبة الصبيانية ، وهى على كل حال واشجة غير وشائج المنافع والطعام والشراب

ويشبه هـذا فى الدلالة على إدراك الخلائق العجماء للصلات النفسية أن « بيجو » لايطيق « الطاهى » احمد حمزة ولا يرتاح إلى رؤيته ولا يسمع النـداء على اسمه حتى يحسبه تهديداً له بالعقوبة والإقصاء ، وهو مع هذا يألف فراش المنزل « محمداً » ويهش له ويستريح إلى مصاحبته فى المنزل وفى الطريق ... فلم كانت هذه التفرقة عنده بين هذا وذاك ؟ ؟ كلاهما يقدم له الطعام ، ويزيد صديقه « محمد » بتجريعه الدواء الذى يتعاطاه لعلاج السعال أحياناً وهو يمقته وينفر منه أشد النفور . غير أن الطاهى « احمد حمزة » يتحاشى « بيجو » خوفاً من النجاسة فيشعر « بيجو » بجفائه ويلقاه بمثله ، ويحتمل التجريع والغصص من زميله لأنه يحتفي به ويأنس إليه

من إدراكه « للمعانى » الفكرية أنك إذا لمسته بالعصا وهو غافل عن رؤيتها فهو لا يبالى ولا يحفل ولا يحسبك غاضباً أو قاصداً لعقابه ، ولـكنه إذا التفت إليك ورأى أن العصا هى عصا التأديب التى تخوفه بها ظهر عليه الرعب ، أو ظهر عليه الأسف والتوسل ، كأنه يقرن بالعقاب معنى غير معنى الضرب وألمه ، وهو استياء سيده وإعداده له عدة العقاب

* * *

والخلاصة أن « بيجو » مخلوق مفيد ومخلوق أنيس ، وهو أفيد ما يكون فى المكتبة التى يبغضها ويستثقل ظلها ، لأننى استفدت على يديه فوائد جليلة وأنا أقرأ بعض الـكتب الحديثة فى علم النفس وعلم الاجتماع

يقول علم النفس إن التعاطف فى التربية والتعليم أنفع وأنجع من تبادل الأفكار ؛ وبيجو يؤكد لي ذلك ، لأننى أرى منه أن الـكلاب أسرع تعلماً من القردة ، وهى أرفع فى مرتبة التكوين والادراك ؛ وإنما فاقت الـكلاب القردة بسرعة التعلم لأنها عاشرت الانسان طويلا فاتصلت بينه وبينها العاطفة وإن لم يتقارب بينه وبينها تركيب الأعصاب والدماغ

ويقول علماء الاجتماع من أنصار « الفاشية » إن الغرائز لا تتبدل ، وإن الحرب والعدوان غريزة الانسان ، فلا فائدة لوعظ الواعظين بالسلام ، ونصح الناصحين بالأخاء والعدل والمساواة . وبيجو يدحض ذلك أيما ادحاض ، لأنه قد تحدر من سلالة الذئاب فما زالت به التربية والمصانعة حتى أصبح حارس الأطفال والحملان ، وقد كان قبل ذلك آفة كل طفل من بنى الانسان ، وكل صغير أو كبير من أبناء الضأن

ويعد « بيجو » بحق من أحسن الشراح للعالم الروسى العظيم « بافلوف » صاحب التجارب المشهورة فى اخوان بيجو من الـكلاب الروسية ... فانه جرب أن الـكلب يسيل لعابه إذا شاهد الطعام ، فقرن بين تحضير الطعام له ودق الجرس على مقربة منه ، فإذا بفمه يتحلب كذلك كلما دق الجرس ولو لم تصحبه رؤية طعام ؛ فبنى على ذلك مذهبـه فى مقارنات العواطف ومصاحبات الشعور وظواهره الجسدية . وجاء علماء النفس والتربية فاستفادوا من ذلك فوائد شتى فى علاج الخوف والجشع والعادات الذميمة التي يصعب علاجها فى بعض الأطفال ، فجعلوا يقرنون الشيء المخيف بالشيء المحبوب ليعودوا الطفل أن يسكن إليه ولا يخشاه ، ويقرنون الشيء المرذول الذى يحبه الطفل بالشيء المزعج الذى يصده عنه وينفره من إتيانه ، ليقلع عن ذميم الخلال بداهة وعفواً بغير أمر ولا إلحاح

بيجو خير مفسر لهذا المذهب النافع الذى كان الفضل الأول فيه لواحد من أبناء جنسه ، فقد عهدته فى منزله الأول وليس أبغض إليه من السلسلة والطوق ، لأنهم كانوا يقيدونه بهما فى حديقة الدار كلما أضجرهم بعبثه وفضوله . فلما جاء عندى وليس للمنزل حديقة واسعة أطلقه فيها أصبحت السلسلة والطوق من أحب الأشياء إليه وأدعاها إلى طربه وابتهاجه ، لأنه تعود كلما ربط بالسلسلة والطوق أن يخرج مع الخادم لغشيان الطريق وقضاء ساعته المنذورة للمرح والرياضة فى الخلاء :

ولبيجو فنون أخرى يشارك فى تفسيرها وتفهيمها ، وفضائل شتى يتبرع بهداياها ومزاياها ، وإن فى بعض هذا لما هو حسبنا من تقدير للأستاذ بيجو والصديق بيجو والزائر الـكريم بيجو ... الذى نخشى أن نسطو عليه ، لفرط مانستفيد منه ونأنس إليه

عباس محمود العقاد

فى أى عصر تعيش مصر؟

للدكتور محمد البهى قرقر

لكل عصر من عصور التاريخ التى حصل فيها انقلاب تطورى للشعوب والعقل الانسانى على العموم، طابع خاص يتميز به عن غيره. ومن أهم تلك العصور التى كان لها حدث تاريخى عظيم فى ذلك الانقلاب وخصوصاً فى نشأة الدول وتطور النظم الحكومية عصر القرون الوسطى والعصر الحديث.

فالاستبداد أى قيام طائفة بعينها بالحكم فى الرعية وادعاؤها أنها وحدها هى التى تصلح للحكومة والمختارة للسيادة - ظاهرة من الظواهر التى تكوّن طابع عصر القرون الوسطى. فهذه الطائفة كانت ممثلة فى رجال الكنيسة، وكان مصدر اختيارها على حسب زعمها هو الله، وحكومتها تعرف فى التاريخ السياسى بالـ Hierarchie

وهناك ظاهرة أخرى لا تقل عن سابقتها شأناً فى تكوين هذا الطابع، وهى ظاهرة التمسك بالنصوص القانونية والجمود فى تنفيذها ولو كان فى ذلك التضحية بالمصالح الحيوية للرعية وعدم التمشى مع ما تتطلبه العدالة العامة التى هى الغرض المقصود من أى قانون وضعى أو مصبوغ بالصبغة الدينية، وهذه الظاهرة تعرف فى تاريخ التطور العقلى بالـ Dogmatismus

وكون تلك النصوص فى هذا الوقت كانت لها صبغة دينية لا يغير من قيمة هذه الظاهرة ولا من كنهها وهى التمسك بالنصوص القانونية من حيث هى نصوص. كما أن كون الطائفة الحاكمة كانت من القساوسة وأرباب الكنيسة لا يبدل من حقيقة الظاهرة الأولى وهى أن الحكم كان استبدادياً، إذ اتصاف الطائفة التى حكمت والنصوص القانونية التى سادت فى هذا العصر بالوصف الدينى لا يدل إلا على مصدر حكم السلطة التنفيذية، وإلا على مصدر التشريع، كما أن الوصف بالديمقراطية فى العصر الحديث لا يعين أكثر من أن مصدر الأمرين جميعاً هو الأمة. أما كون القانون فى ذاته أو الحكومة فى نفسها عادلة أو غير عادلة فليس بضرورى أن يكون مرتبطاً ارتباطاً تاماً بالمصدر، وإنما هو شىء آخر سبيل معرفته الناحية العملية فى الحياة الانسانية، وكونه طبق مصالح الأغلبية من الرعية أو ليس على وفقها. فقد يكون مصدر الحكم جَمْعياً، وهو الأمة مثلا فى الحكم الديمقراطى والذى هو مظنة العدل، ومع ذلك لا يكون طبق مصلحة السواد الأعظم من الشعب؛ وقد يكون فرديا كما فى الحكومة الاستبدادية والتى هى مظنة الجور، وبالرغم من هذا يكون وفق ماتتطلبه المصلحة العامة فى الأمة، إذ الواقع أنه فى الحكم الديمقراطى قد لا تمثل الحكومة فى أسلوب الحكم رأى الأكثرية وإنما تمثل قوة الزعيم الشخصية التى تمكنه من الاستيلاء على نفوس الأغلبية، أو الضعف النفسى للأغلبية الذى يجعل قيادها سهلا والتحكم فيها أمراً هيناً

وسواء اعتمدت تلك الطائفة حقاً فى حكومتها وفى تعلقها بالنصوص القانونية على المبادىء الصحيحة للدين المسيحي أم على تعاليم الكنيسة [1] أي تعاليم تلك الهيئة التى تمكنت باسم الدين وهو هو دائما الوسيلة القوية فى تملك الشعور الإنسانى، من سيادة ارستقراطية دامت مدة طويلة، سواء أكان هذا أو ذاك فذلك بحث آخر خارج عما أريده هنا.

وهناك أيضاً ظاهرة ثالثة كانت أيضاً من مكوّنات طابع عصر القرون الوسطى، وهى اتجاه التعليم نحو الناحية الدولية International وغايته التى كانت تقصد إلى الانسانية المحضة Homanität. وربما نشأت هذه الظاهرة من تلون الحكم والنصوص القانونية بلون دينى فى ذلك الوقت، لأن الدين لا يعرف جنساً من البشر بعينه ولا يقصد إلى تهذيب أمة لكونها أمة مخصوصة، وإنما لكونها جماعة إنسانية، ولعلها كانت نتيجة لرغبة تحقيق الفكرة الامبراطورية للكنيسة. وتحقيق مثل هذه الفكرة يتأثر تأثراً سلبياً بالدعاية لمبدأ التعليم القومى

فالأمة الانكليزية مثلاً فى العصر الحديث — وكذا كل أمة لها سياسة استعمارية عالية — تعلم [2] الناشئة فيها سياسة الحكم الامبراطورى والعمل لأداء «رسالة» إنجلترا فى الامبراطورية

---

(١) يؤيد هذا الرأى الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel فى كتابه فلسفة التاريخ صفحة ٤٠٧ — ٤٢٨ طبعة Reklem فى ليبنج Plilosoplie den Leschichte

(٢) للاستاذ Von Weise العالم الألمانى تقرير عن حالة التعليم فى انجلترا نشرته إحدي جرائد ألمانيا الكبرى Femdenllatt في الأعداد التى صدرت من تاريخ ١٢ يونية ١٩٣٧ — ١٧ منه تحت عنوان:

Eryiehmg zur Lady, Erzielung zum Jentleman

وخلاصة التقرير أن انجلترا تعتبر أشد الأمم تعصبا فى التربية القومية والنزعة الجنسية.

الانكليزية على يد رجال الشعب الانكليزى وحدهم ، وهى تربية قومية محضة ، ولكنها فى الوقت نفسه تعلن خارج بلادها وفى حدود امبراطوريتها تأييد التعليم للدولى وأن الغاية منه بلوغ الكمال فى الانسانية ، لأن ذلك من الوسائل السلمية لضمان بقاء الاستعمار وضغط الشعور القومي فى البلاد الخاضعة لها من طريق ظاهرة المحبة والاخلاص

أما القانون الخلقي لهذا العصر فكان العمل للسلام الانساني والاعتراف لكل من القوى والضعيف والمفكر والأبله وغير هؤلاء من نوعى الانسان بالتمتع بالحياة كاملة على حد سواء . وربما كان ذلك نظريا فقط لأن حوادث التعذيب التى تنسب إلى الجهة العليا يومئذ أى إلى الكنيسة ضد العلماء يصح أن تكون دليلاً على أن السلام الذى كان يعترف به كمبدأ خلقى كان يقصد به عدم إثارة أي نزاع ضد الطائفة الحاكمة وهى الطائفة المنتخبة من الله والموكلة بأمره فى الخلق

وهكذا اليوم مثلاً دعوة السلام التى تُقرر كمبدأ سياسي دولى والتى تذيعها جمعية عصبة الأمم فى كل يوم وكل مناسبة ليست إلا أمراً نظريا يقصد منه ترك القوى يتمتع بسيادته على الأمم الضعيفة فى أكبر قسط من الراحة وهناءة البال دون أن تزعجه مطالبها القومية ورغبتها في الاستقلال بالسيادة

والعصر الحاضر يتمتع بطابع مخصوص تنم عنه جملة ظواهر تكاد تكون على الضد من الظواهر السابقة

فالديمقراطية ، أى كون الشعب هو الذي يباشر حكم نفسه بالأسلوب الذى يختاره : بالأسلوب البرلمانى أو الشيوعى أو الفاشستى تكوّن جزءاً كبيراً من هذا الطابع

كذلك سياسة الواقع Politik der Realitīt ومراعاة المصالح القومية nationale Interense ظاهرة أخرى لهذا العصر . وقد تكون هي وحدها محور المشاكل الدولية اليوم ، والسبب الرئيسى فى شل عصبة الأمم وإظهارها بالمظهر الخيالى الذى يتضاءل أمام الحقيقة ، فضلا عن أنها منذ خلقت لم تكن إلا حلماً لذيذاً للأمم الضعيفة ، وستاراً ولكنه شفاف ، يكشف دائماً عن مقاصد القوى وسياسته ذات الوجهين

ولعل من سياسة الواقع واتباعها رفض نظرية التعليم الدولى وبناءه على الأسس القومية وتوجيهه نحو الصالح الوطنى ، واستبدال الغرض «الوطنى» بالآخر الانسانى . وهذه ظاهرة أخرى توضح طابع هذا العصر

أما قاعدته الخلقية فهى تحقيق مبدأ تنازع البقاء والاعتراف بأن الصالح للحياة هو القوى والأصلح المنتج . ولعل الايمان بهذه القضية الخلقية نتيجة للشعور الوطنى الذى ساد الأمم والدويلات ، وتمكن من نفوس الجماعات البشرية المختلفة فى الجنس والعادات واللغة . فإحساس كل أمة بوجوب استقلالها وخضوعها لسيادتها الذاتية فحسب أذكى قوة النضال فيها وحفظها من التوزع داخل الأمة فى مكافحة الأحزاب السياسية الوطنية بعضها بعضاً ثم صوبها نحو الخارج : أي أن كل أمة وجهت قوة الكفاح نحو الأمم الأخرى دفعاً لما عساه أن يحدث من خطر يذهب بسيادتها الذاتية . ومن النتائج الضرورية للكفاح بقاء القوى واستمرار تمتعه بالحياة . وهو حادث طبيعى ؛ غير أنه أخذ فى العصر الحديث صفة خلقية[1] ونال استحساناً عقلياً وتأييداً عملياً ، وهذا هو الذى جعل تلك القضية الخلقية من مميزات هذا العصر

أما الدعوة إلى السلام العالمي الذى ينادى به نظام جنيف ، والذى ربما يتنافى فى الظاهر مع إقرار مبدأ تنازع البقاء إقراراً خلقيا ، فهى دعوة مدخولة وأقرب إلى الخديعة منها إلى نداء إنسانى عام يرجى من ورائه سعادة الجماعة البشرية ، لأن القائم بها يفهم من السلام العالمي ترك النائم في أحلامه واستسلام الضعيف لضعفه واستمرار المستعمر فى إذلاله ، بينما هو يمثل لديهم جميعاً دور الحكم الذى اختير للفصل من خالق العالم

تلك مظاهر العصرين ومنها يتكوّن طابعهما . فإذا نظرنا الآن إلى مصر ، إلى مركز النص القانونى وقيمته فيها ، وإلى نظامها الحكومى ، وإلى المبدأ الخلقى للسياسة العملية فيها ، وأخيراً إلى مبدأ التعليم واتجاهه ، إذا نظرنا إلى كل هذا فهل يمكننا أن نظفر بحكم قطعي على طابع الحياة فيها ؟ وهل يتهيأ لنا بصفة حاسمة أن نقول إن مصر تعيش فى وقتنا الحاضر ، أو فى عصر القرون الوسطى ، أو أنها لا تعيش فى كليهما ؟ وإذن فى أى عصر تعيش هي ؟

لنسترجع هذه الظواهر واحدة واحدة ونستعرضها فى مصر حتى يكون الحكم نتيجة صحيحة لمقدماته

(١) رأى الفيلسوف نيتشه فى كتابه Wille zur Nacht

أليست الـ Dogma والمبالغة في تقديس القانون من حيث هو « نص » قنوني فقط هي التي تحمل على أن يقوم برياسة الوظائف الفنية الكبرى التي تحتاج إلى تخصص وخبرة تامة في الفن كوظائف الصحة والتجارة والاقتصاد والمعارف ... — رجالٌ كل مؤهلاتهم أنهم درسوا القانون الجنائي أو القانون المدني أو الدولي مثلاً ؟ أليس شأن هؤلاء كشأن القساوسة في العصور الوسطى الذين ولوا الوظائف المدنية الفنيــة وليس لهم مؤهلات إلا أنهم من رجال الكنيسة ومدرسة القانون الديني ؟

لماذا هذا الظلم وهذا الاجحاف الذي يصيب الفلاح سنوات وسنوات بسبب قانون تحريم تعديل ضريبة الأطيان قبل مضي ثلاثين سنة على وضعها أو تعديلها ؟ أهذا شيء آخر غير التمسك بالنص القانوني وإن ذهبت مصالح الشعب الحيوية ضحية ونُفِّذ الظلم في صورة « مشروعة » ، في صورة قنون ؟

لماذا تُترك « العقبة [١] القانونية » تتحكم في إنجاز مشروع مجلس المعارف الأعلى وهو المجلس الفني في أمور التعليم وفي سياسة البلد الثقافية سنوات عدة ولو سادت مع ذلك الفوضى في تعديل برامج التعليم وذهب وقت الرئيس ، الرجل « القانوني » الذي يجب أن يكون وقته خالصاً لصالح الأمة في دراسة تكميلية فنية شخصية أي دراسة شئون التربية التي لاتغنيه عنها شيئاً دراسته القانونية ؟ أهذا أمر آخر غير التمسك بالنصوص القانونية من حيث هي نصوص فقط ؟

لماذا يضحى بالكفايات الشخصية في العمل الحكومي ؟ ولماذا يسود هـذا القانون البيروقراطي قانون الوظائف الأوتوماتيك الذي يجعل المكافأة بالعلاوات على مدة الخدمة لا على نوعها ؟ وربما يقال إنه قانون عادل لأنه يحرم طريق الاستثناء ! ولكن لم لا تكون قاعدة الاستثناء هي الكفاية بدل المحسوبية ؟ ولم لا تجعل الجدارة الشخصية مع مراعاة الأقدمية بعض المراعاة مبدأ للترقية المادية ؟ أمن عدل القانون أن يحرم على الناس استخدام مواهبهم الشخصية في المصالح العامة ؟ أمن عدله أيضاً أن يكونّن من جماعات الانسان آلات أوتوماتيكية ، أومن عدله أن يشجع الكسل ويعترف له باستحسان شرعي ؟ أم ذلك كله هو التمسك بنص القانون من حيث هو نص فحسب ؟

لماذا يقدم رجل [١] إداري — وكذا كل رجل صاحب نبوغ خاص يحمله دائما على استقلاله في تفكيره ويهيء له نضوجاً خاصاً في قوة التميز بين العمل للمصلحة والطاعة « للنص » القانوني — من كبار رجالات مصر المصلحين الذين هم ثروة الأمة وذخيرتها إلى المحاكمة أمام هيئة عليا بحجة أنه نفذ إصلاحاً قبل تسلمه الرد بالموافقة من الوزارة المسئولة ؟ أيقدم مصلح للمحاكمة لأنه حول مستنقعاً كبيراً كاد يقضي على سكان عاصمة إقليم من أهم أقاليم الوجه البحري إلى متنزه عام وشيد عليه معهداً للثقافة العقلية : مكتبة البلدية بدمنهور ، ودارا أخرى لتلك الغاية على طراز آخر : سينما البلدية ، وملعباً رياضياً لتقوية أجسام الشبيبة ومساعدتها على التمتع بالصحة في الشباب والشيخوخة ، كل ذلك في زمن وجيز وبإرادة نافذة ؟ أيقدم للمحاكمة لأنه عطف على الفلاح واعترف بنصيبه في الحياة وباشتراكه في معنى الإنسانية وبمركزه في الانتاج الاقتصادي لمصر فاستعمل معه أسلوب اللين في تحصيل الضرائب التي يدفعها للموظف الحاكم وفي الواقع لخادمه الذي يجب أن يكون تحت تصرفه ولمصلحته في كل لحظة وبكل عناية ؟

ما ذنبه إذا كانت الجبهة العليا الحاكمة تجري في تنفيذها للمشروعات على أسلوب بيروقراطي وتتمسك « بنص » قانوني كم ذهبت مصالح حيوية ضحية له . وكم دام إنجاز بعض المشروعات الهامة سنوات طويلة وقد كان لا يستغرق أكثر من أشهر معدودة لو فهمت الروح القانونية . أليست فكرة معاقبة رجال الإصلاح على هذا النحو هي فكرة الكنيسة في القرون الوسطى ضد من كان يريد أن يحكم عقله مرة ما في فهم النصوص القانونية ؟

هل يفهم الانسان شيئاً آخر سوى تحكم النص القانوني وحده إذا عرف أن أحد الكنستبلات الالطين في بوليس الأسكندرية أعيد للخدمة ثانية بعد عزله وفقاً لنص المعاهدة ، لأنه تجنس بالجنسية المصرية ؟ إنني أعرف رجلين من الأرمن هنا في هامبورج تجنسا بالجنسية المصرية . أنا لم أدهش من شعور أحدهما يوم قابلني في سنة ١٩٣٥ في وقت اشتدت فيه حركة الطلبة بالقاهرة للحصول على غرض شريف : للحصول على دستور سنة ١٩٢٣ . إنه لم

---

(١) تحت هذا العنوان نشرت جريدة الاهرام في أحد أعدادها في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٧ أن سبب التأخير في انجاز مشروع مجلس المعارف الأعلى هو عقبــة تتلخص في أن مجلس الشيوخ وافق في سنة ١٩٢٣ على المشروع بينما مجلس النواب لم يوافق عليه للآن . وتنفيذ أي قانون مرهون بتصديق المجلسين معاً

(١) صاحب السعادة الاستاذ عبد السلام الشاذلي باشا

يستح أن يجرح عاطفتي الوطنية إذ يفاجئني بقوله : ماذا يقصد هؤلاء الطلاب أولاد العرب من حركتهم هذه ؟ ألا يستحون من مطالبة بريطانيا بالتخلي عن حكم مصر ؟ ألم يفهموا للآن أنها تمدنهم وتحد من همجيتهم ؟ لم أدهش حقاً لهذا لأني أعلم أن تجنسه بالجنسية المصرية لا يمكن أن يكيف شعوره بكيفية مصرية مهما حاول ذلك ، كما لم أدهش منه يوم قابلني هو بعينه في شهر يونيه الماضي وجعل يردد لي حبه وتعلقه بمصر وفخره أنه يحمل على صدره العلم المصري ، لأني أعلم أيضاً أنه يستتر وراء هذا العلم من مطاردة بعض أفراد النازى هنا له ، لأن سحنته يهودية ولأنه هو وأخاه من التجار الأجانب الذين هم تحت مراقبة البوليس لسوء سمعتهم الأخلاقية واتباع حيل اليهود الدنيئة في كسب الربح

ولو سوّغ التجنس بالجنسية المصرية لهذا المالطي حقوقاً أخرى سياسية لما كان ينبغي أن يجيز له مباشرة عمل متصل بنظام الأمة الداخلي ، ولكنه « النص » القانوني الذي لا يفرق بين مصري ومتمصر له من الطبائع النفسية وطرق التفكير ما يبعده أشد البعد عن طبيعة المصري أو العربي المتمصر مثلا ؛ والسلوك العملي للانسان خاضع لطبائعه النفسية ونوع تفكيره

وغير هذا من الحوادث كثير . فاذا ذهب من يريد الاسلام عن اقتناع لا عن محاولة وإكراه إلى قنصلية مصرية في الخارج ليسجل إسلامه فيها كهيئة رسمية تمثل أمة إسلامية تحتل المكان الأول بين أمم العالم الاسلامي لم يصل إلى غايته ، لأن نص القانون المصري يحرم ذلك تجنباً لإشكال دولي بينما يبيح أعمال التبشير الإكراهية في مصر المسلمة التي يقول عنها الأستاذ المراغي إنها سرقة أرواح واغتصاب نفوس عملاً بحرية الأديان . ولكنه النص القانوني

بجانب هذه الظاهرة : ظاهرة التمسك بالنص القانوني التي هي إحدى ظواهر عصر القرون الوسطى ، نجد ظاهرة أخرى من ظواهر العصر الحاضر وهي الظاهرة البرلمانية التي لا تبيح استبداد الفرد أو الطائفة الارستقراطية بالحكم . ولكن بالرغم من وجود هذا النظام الشكلي فان أهم مكوّنات طابع العصر الحاضر لا يجدها الباحث إذا فتش عنها في مصر الحديثة

فالسياسة العملية السائدة اليوم في مصر ليست سياسة الواقع ومراعاة الصالح الوطني ؛ وغاية التعليم ليست قومية وطنية بل دولية بكل معانيها ، إذ أعز أماني مصر الحديثة خدمة « الانسانية » والعمل على تلاشي الفوارق الطبيعية قبل تكوين أمة مصرية يشعر كل فرد من أفرادها بأن عليه واجباً نحو نفسه ونحو وطنه . كما أن النظرية الخلقية التي تلقى استحساناً عند الطبقة الحاكمة والتي تشبعت بها نفوسهم هي تأييد السلام العالمي الموهوم ، والعمل لقضية السلام ، والافتخار بالاشتراك في جمعية المحافظة على السلام الدولية التي قضى عليها بالموت منذ خلقت

فأنا لا أدري إذا كانت مصر تعيش في القرون الوسطى لهذا المظهر السائد اليوم : مظهر التمسك بالنصوص القانونية ولو كان فيه التضحية بالمصالح الحيوية وعدم تحقيق معنى العدالة . ولكن المظهر البرلماني يحول دون الحكم بذلك ، لأن مظهر السلطة في ذلك الوقت كان استبدادياً قاصراً على الطبقة المختارة من الله

أم أنها تعيش في العصر الحاضر لوجود هذا المظهر الشعبي ؟ ولكن سياستها ليست سياسة الواقع ومراعاة المصالح القومية كما أن أسلوبها في التعليم هو الأسلوب الدولي ، وقاعدتها الخلقية ليست إقرار مبدأ تنازع البقاء

أم أنها تعيش في كلا العصرين ؟ ولكن محال على أمة فتية رشيدة تسير في طريق التطور الطبيعي أن تجمع حكومتها بين الأضداد . وإذن لابد أن تكون ظواهر أحد الطابعين خادعة

وأغلب ظني أن مصر لم تدخل بعد في العصر الحاضر صاحب الطابع الوطني ؛ ولكنها تقطع الآن الفترة السابقة له ، وهي فترة مملوءة بالأخطار الجسيمة التي تمس حيوية الشعب ، فترة الحرية الكاذبة التي تطغى على كل ناحية من النواحي العقلية والخلقية وتتجاوز الحدود الطبيعية ، فترة الرغبة في التخلص مما يسمى « قديماً » ـ وخير الوطن في التمسك به ـ والنزوع إلى الجديد المبهم غير المحدود الذي تلوكه الألسن ولا تفهمه عامة الشعب بل وكثير من خواصها ـ وهو لهذا خطر ـ فترة التحرر Liberalismus

فإذا قوى في الأمة شعور التمسك بالوطن وبالقديم ؛ وقوى الشعور بالمحافظة على ما كان للأمة والاعتزاز به في أية ناحية ، كان ذلك ابتداء الحياة في العصر الحاضر

محمد البهي قرقر
دكتور في الفلسفة وعلم النفس
وعضو بعثة الأستاذ محمد عبده

في تاريخ الجمعيات السرية

١ـ طائفة سرية عجيبة

تعيش في عصر المدنية بأساليب همجية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قامت الجميات والطوائف السرية فى جميع العصور والمجتمعات وتنوعت مبادئها وغاياتها الدينية والسياسية والاجتماعية ، ولعبت مختلف الأدوار فى تكوين الآراء والعقائد ، وذهبت فى الغلو والإغراق كل مذهب ، وتركت آثارها فى جميع الأمم والمجتمعات التى قامت بها

ولكن التاريخ لم يسجل فى صفحاته السرية الحافلة سيرة أغرب وأروع من سيرة جماعة سرية من البشر الهائمين اصطلحوا على التوسل لتحقيق مبادئهم الروحية المزعومة بتشويه الانسان وتعطيل مهمته الاجتماعية بطريقة بربرية اعتبرت فى جميع الأمم والعصور وحشية مثيرة تطاردها الأمم المتمدينة بمنتهى الشدة والصرامة . تلك هى « طائفة المجبوبين » (سكوبتسى) Skoptsy السرية التى قامت فى روسيا فى أواسط القرن الثامن عشر ، ولا تزال قائمة حتى اليوم ، والتى تعتبر الجب وسيلة النقاء من الدنس وطريق الخلاص الأبدى من آثام هذه الدنيا

ولقد عرف التاريخ منذ أقدم العصور أمثلة من هذا النوع اعتبرت فيها هذه الوسيلة الهمجية ضرباً من التضحية السامية التى ترتفع بصاحبها إلى مراتب التقديس ، وظهرت بين بعض طوائف الرهبان فى أوائل عصور النصرانية ، وذاعت حيناً بين رهبان الكنيسة الشرقية ، ولكنها كانت دائماً مثار الإنكار من الناحيتين الدينية والإنسانية

وعرفت معظم العصور والأمم طوائف الخصيان والمجبوبين من العبيد والخدم ، وعرفتها المجتمعات الحديثة حتى أواخر القرن الماضى ، ولكن طوائف الخصيان كانت تحشد دائماً من الرقيق بسائر أنواعه ؛ وكان نظام المجتمع منذ فجر التاريخ قائماً على التفرقة بين طوائف المجتمع ، وكان الرق مشروعاً فى هاتيك العصور ، وكان الرقيق متاعاً مباحاً تجرى عليه سائر التصرفات ، وكان الخصى أو الجب وسيلة بربرية لإعداد طوائف من الحشم تمتاز بصفات خاصة تؤهلها لخدمة القصور والبيئات الرفيعة ؛ وقد استطاعت طوائف الخصيان أن تشق طريقها إلى السلطة والنفوذ في مواطن كثيرة ؛ ولكنها كانت تعتبر دائماً من الناحية الاجتماعية من الطبقات الدنيا ، وكان ينظر إليها دائماً فى كثير من الرثاء والاشفاق لأنها تعاني حالة اجتماعية منافية للأوضاع الإنسانية الطبيعية

ولكن المجتمعات المتمدنة تنكر اليوم الرق وتعتبره ضرباً من ضروب الهمجية الذاهبة . وتعتبر القوانين المحدثة الخصى أو الجب من أشنع الجرائم التى يمكن أن تقع على إنسان ، وتعاقب مرتكب هذه الجريمة الشائنة بأقسى العقوبات ، بل تعاقبه بالاعدام كالقاتل العمد سواء بسواء

ومع ذلك ففى قلب أوربا المتمدينة تقوم إلى اليوم تلك الطائفة السرية العجيبة طائفة « سكوبتسى » Skoptsy وشعارها تلك الجريمة المثيرة جريمة الخصى أو الجب كوسيلة إلى السعادة الروحية والخلاص الأبدى

***

وترجع الرواية قيام هذه الطائفة السرية إلى أواخر القرن السابع عشر على يد فلاح يدعى دانيلو فليبوف ؛ ولكنها عرفت يومئذ بجماعة « أهل الله » ، وتزعم الرواية أن دانيلو هذا ألقى ذات يوم جميع الكتب المقدسة فى نهر « الفولجا » وقال إنه لا يوجد كتاب يحقق سلام الروح الأبدى سوى الروح القدس ذاته ؛ ثم صعد إلى الجبل مع نفر من أنصاره ، فنزلت عليه سحابة من النور ، ونفذ إليه الروح القدس ؛ وزعم أنصاره أن الاله قد مثل فى شخصه على مثل ما يزعم الدروز بالنسبة لشخص الحاكم بأمر الله

وتتلخص تعاليم فليبوف فيما يأتى : إن الاله الذى بشرت به الأنبياء نزل إلى الأرض لينقذ أرواح البشر ؛ وليس ثمة من إله غيره ، ولا تعاليم غير تعاليمه ؛ وعلى المؤمنين أن يطيعوه ، وألا يشربوا الخمر ، وألا يرتكبوا الزنا ، وألا يتزوجوا ؛ وعلى من تزوج ألا يقرب زوجته ؛ وعليهم ألا يسرقوا ، وأن يحتفظوا بسر تعاليمه ، وأن يحب بعضهم بعضاً ، وأن يؤمنوا بالروح القدس .

وتبنى فليبوف بعد ذلك فلاحاً آخر يدعى سوسلوف وزعم أنه هو ابنه المسيح ، واختار سوسلوف له اثنى عشر رسولا ، وتوفى سنة ١٧١٤ ، ودفن فى أحد الأديار

وبعد وفاة سوسلوف تمثلت روح المسيح على زعمهم فى شخص لوبكين وهو جندى من فرقة الاسترلتزي ؛ وعلى يديه انتشر مذهب الطائفة فى كثير من الأديار بين الرجال والنساء معاً . ولما استفحل أمره قبض عليه وأعدم سنة ١٧٣٢ وأخرجت جثته فيما بعد وذر رفاته في الهواء ؛ وقبض على كثيرين من أشياعه وحوكموا بتهمة المروق والكفر ونفى كثيرون منهم إلى سيبريا ؛ ولكن هذه المطاردة لم تخمد من حماسة أولئك الكفرة المتعصبين فاستمروا يبثون مبادئهم فى الخفاء ، ويتعاقب في زعامتهم مسيح بعد آخر ؛ وكانوا يقيمون شعائرهم سراً فى جوف الليل فى بعض الضياع أو الأنحاء المهجورة ، وفى أواخر القرن الثامن عشر تطورت مبادىء الطائفة وتوسع بعض دعاتها فى تفسير تعاليم فليبوف ، وقال إن الزواج المحظور هو الزواج الكنسى فقط وأن « الأخ » يستطيع أن يتصل بأخته اتصالاً روحياً ؛ ولم يلبث أن ذاع بينهم الاختلاط الجنسى الحر ، وكان هذا الاختلاط يتخذ أحياناً صوراً مثيرة ، فتعقد جماعاتهم بالليل ، وتنتهى شعائرهم المزعومة بمناظر مروعة من الفجور والفسق

وكانت هذه نقطة التحول فى مبادىء طائفة « أهل الله » : ذلك أن فريقاً من المؤمنين رأى فى هذه الحياة الجنسية الشائنة خروجا على تعاليم فليبوف التى تحتم التزام الفضيلة والعفة ، ورأو فى « الجب » خير وسيلة للتخلص من الشهوات والموبقات الآثمة ؛ ومن هنا ظهرت طائفة « المجبوبين » (السرية سكوبتسى) واكتشفت السلطات الضحايا الأولى لهذه الدعوة البربرية فى سنة ١٧٧٢ فى مقاطعة أورمل ؛ وظهر من التحقيق الذى أمرت الامبراطورة كاترين بإجرائه أن الدعاة يزعمون أنهم يرسمون للبشر طريق الخلاص الأبدي ، وأنه يجب على المؤمن ألا يذوق الخمر ، وألا يعاشر النساء ، ويجب على الفتيان والفتيات ألا يتزوجوا ، كما يجب على المتزوجين أن يضربوا عن الاتصال الجنسى ؛ وظهر أيضاً أن الدعاة استطاعوا أن يؤثروا على كثيرين من الفلاحين ، وأن يحملوهم على قبول الخصى أو الجب المطبق تحقيقاً للعفة والسعادة الأبدية . ولم تستطع السلطات يومئذ أن تظفر بزعيم الطائفة الحقيقى ؛ ولكن ظهر فيما بعد أنه فلاح يدعى سلفانوف ، وهو فتى فى الثلاثين من عمره ، هادىء المزاج ، كثير التأمل والهيام ، عارف بالقراءة والكتابة وهو ما كان يندر فى ذلك العصر ؛ وكان يبشر بدعوته بعبارات صوفية غامضة ؛ وكان من زعماء « أهل الله » ولكن راعه ما رآه من ذيوع الفسق بين المؤمنين ، فبدأ دعوته ضد « السحر » النسوى أصل كل بلاء وإثم ، وأخذ يدعو إلى « النقاء المطلق » ؛ وهذا النقاء لايتحقق فى رأيه إلا بمجانبة كل بواعث الضعف ولا سيما الاغراء الجنسى ، والكبرياء ، والأنانية ؛ ولا سبيل إلى تحقيق هذا المثل الأعلى إلا « بقتل الجبة » أو بعبارة أخرى إعدام الأعضاء الجنسية والتخلص من آثامها

« هكذا نشأت طائفة « المجبوبين » (سكوبتسى) ، واستطاع سلفانوف أن يحشد حوله جماعة من التلاميذ والأشياع معظمهم من الفلاحين البسطاء ؛ ولم تكتشف السلطات أمره إلا فى سنة ١٧٧٥ إذ قبض عليه وجلد وعذب مراراً ، ثم نفى إلى سيبريا ، وقبض على كثيرين من أشياعه المجبوبين ، وجلدوا ، وحكم عليهم بمختلف العقوبات

ولكن الدعوة البربرية لم تخمد مع ذلك ، فحملها تلاميذ سلفانوف ورفعوه إلى مرتبة التقديس وأسموه « بالمنقذ » وجاوزت الدعوة طبقة الفلاحين إلى الطبقات الأخرى ، فانتظم فى سلك الطائفة جند وتجار وغيرهم خضعوا جميعاً لهذا التشويه الهمجي ؛ وزعموا أخيراً أن سلفانوف هو الانسان الوحيد الذى مثلت فيه روح المسيح ، وأنه سيعود قريباً . أما سلفانوف فلبث يرسف فى منفاه فى أركوتسك زهاء عشرين عاماً ، ثم استطاع الفرار أخيراً ولم تهتد السلطات إلى أثره

وفي العام الثانى ظهر فى قرية بيخوفو على مقربة من موسكو شخص يرتدى أسمالاً بالية ، وقد حزم بطنه بسلاسل من الحديد وبدت عليه آثار السقم والورع ؛ فالتف حوله بعض الفلاحين ، وكان يصلى بينهم بلغة مجهولة ؛ ولم يمض سوى قليل حتى ظهرت معجزاته إذ استطاع أن يشفى امرأة مريضة ، وأن يحول الخمر إلى ماء ؛ وفى ذات يوم أخذ يتكلم بالروسية وزعم أنه القيصر

« بطرس فيدروفتش » ولم يكن هذا الدعى سوى سلفانوف نفسه ، رأى فى حوادث البلاط الروسى يومئذ منفذاً جديداً لدعوته ؛ والقيصر بطرس فيدروفتش أو بطرس الثالث هو زوج الامبراطورة كاترين ، وقد توفي سنة ١٧٦٢ فى ظروف مؤسية غامضة ، واتهمت زوجه بتدبير مصرعه لأنهما كانا على خلاف دائم ؛ وكان القيصر مصاباً بالضعف الجنسى ، وكانت زوجه تبغضه وبيغضها لفجورها ؛ ولكنه كان محبوباً من بعض طوائف الشعب لنزعته الحرة وخلاله الرقيقة ، وكان من مآثره التى زادت فى حبه أن أفرج عن آلاف عديدة من المنفيين لأسباب دينية ؛ فلما توفى على هذا النحو الغامض ذاعت حول وفاته أقاويل وروايات كثيرة ، وزعم كثيرون أنه لا يزال على قيد الحياة ، وقام أكثر من دعى ينادى بأنه القيصر بطرس ، ومن أشهر هؤلاء بوجاتشيف زعيم القوزاق الذى أثار الثورة حيناً فى مقاطعة الأورال ، ثم هزم وأعدم . واتخذت هذه الأسطورة على يد سلفانوف وأشياعه صبغة جديدة ، خلاصتها أن المسيح تمثل لآخر مرة فى شخص القيصر بطرس الثالث ، وأن أمه العذراء اليزابيث ولدته بمعجزة ثم تخلت عن العرش لوصيفة لها تشبهها كل الشبه ، وذهبت لتعيش بين « أهل الله » فى مقاطعة أوريل باسم الفلاحة آكولينا إيفانوفا . ولما كبر بطرس وزوج بالامبراطورة كاترين اكتشفت زوجه أن به عنة فاعتزمت قتله والاستيلاء على العرش من بعده ؛ ولكن بطرس علم بأمر هذه المؤامرة ، فترك العرش وغادر بطرسبرج « لكى يقاسى مع أهل الله » وقتل مكانه مجبوب يشبهه كل الشبه ؛ واختفى القيصر حيناً ثم قبض عليه ، وعذب كما عذب المسيح ، ونفى مدى عشرين عاماً فى مكان سحيق ، ولكنه استطاع أن يفر ، وأن يعود متشحاً بكل مجده وعلاه

تلك هى الأسطورة التى مزجها سلفانوف بشخصه ، وحاول أن يستغلها من الناحيتين السياسية والدينية ؛ ولكنه لم يلبث أن وقع فى يد السلطات مرة أخرى ، فقبض عليه فى موسكو سنة ١٧٩٧ ، وزج إلى دار المجانين فى بطرسبرج ؛ وأراد القيصر بول الأول (وهو ابن القيصر بطرس الثالث وكاترين) أن يرى ذلك الدعى الذى يزعم أنه أبوه ، فاستدعى سلفانوف إليه ، وجرت بينهما محادثة تنبأ فيها سلفانوف للقيصر بموت سريع عنيف . ولبث الدعى في سجنه طيلة حكم بول الأول ؛ وقبض أيضاً على تلميذه ورسوله « شيلوف » وسجن حتى موته وغدا قبره مزارا يحج إليه المجبوبون من سائر الأنحاء

وفي عهد القيصر اسكندر الأول تنفست طائفة المجبوبين الصعداء ، لأن القيصر الجديد كان ذهناً حراً فى معنى من المعانى؛ وفى عهده صدرت عدة مراسيم تحريرية ، ومنها مرسوم بالكف عن مطاردة المجبوبين « لأنهم بفعلهم الذميم قد عاقبوا أنفسهم بأنفسهم عقاباً كافياً » وعلى ذلك أطلق سراح المعتقلين منهم ، وانتدبت لجنة خاصة لبحث جميع المسائل المتعلقة بالطائفة ، وأفرج أخيراً عن سلفانوف بتدخل سيد بولوني من ذوي النفوذ يدعى الكسي اليانسكي ، وكان من المتصوفين الهائمين ، فاعتنق مبادىء الطائفة وكان أول أعضائها من خاصة المثقفين ، وقد لعب فيما بعد دوراً عظيما فى تطورها وتقدمها

وسنرى فيما يلي كيف عاشت هذه الطائفة السرية العجيبة خلال القرن القرن التاسع عشر عصر العلم والنور ، وكيف أنها لا تزال قائمة حتى يومنا فى ظل النظام البلشفي ، وفى قلب أوربا المتمدينة (١)

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان

فينا فى أوائل اكتوبر

(١) انتفعنا فى هذا الفصل بالبحث المستفيض الذى كتبه المؤرخ فولكوف عن طائفة « سكوبتسى » وبما كتبه سخوملين فى مؤلفه بالفرنسية عن القضايا الروسية الشهيرة

الدمـــام

Le bâton de rouge

لأستاذ جليل

اللعَس سواد مستحسن يعلو شفة المرأة أو سواد فى حمرة قال (التاج) : لعس كفرح لعسا ، والنعت ألعس وهي لعساء من فتية ونسوة لُعس : فى شفاههم — وشفاههن — سواد

وفى اللُّعْس جمع اللعساء يقول الزمخشري : « إذا رأيتَ أبكاراً لُعْساً ، وعجائز قُعْساً[1] فقل : لعاً[2] وتعسا !!» قل:لعاً للأبكار اللعس ، وتعساً للعجائز القعس

نعم ما يوصينا به إمام عظيم فى اللغة والأدب ونحلة المعتزلة ! الحق أنّ شيخنا الزمخشري لا يستحى ...

فاللعَس هو صِبْغ الله ، صباغ الله ، « صِبْـغَة الله ، ومن أحسنُ من الله صبغة ؟ »

ومن هوى كل من ليست مُموّهةً
تركتُ لون مشيبي غير مخضوب[3]

وإذا أحب محب أن يرشف ريق رَشوف[4] أو يَرُفَ شفتيها[5] أو يترضبها[6] فإنه يرجع بخير ، إذْ ما فى صبغة الله إلا الطهر . وإن سمى حاسد أو عذول هـذا الرضاب بغير اسمه فقال : هذا بُصاق ! فليس ثمة ضير .

تقول : هذا مجاج النحل تمدحه
وإن ذممت تقل : قيءُ الزنابير[7]

(١) القعس : نقيض الحدب

(٢) لعا : دعاء للعاثر بالسلامة

(٣) المتنبي

(٤) يرشف : بضم الشين وكسرها . الرشوف : المرأة الطيبة الفم يصلح لأن يرتشف

(٥) يرفهما : يرشفهما

(٦) ترضب المرأة : ترشف رضابها

(٧) فى (الوفيات) : أبو اسحق العراقي : أنشدنا شيخنا ابن الخل و لم يسم قائلا :

فى زخرف القول تزيين لباطله
والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول هـذا مجاج النحل تمدحه
وإن ذممت تقل قيءُ الزنابير
مدحا وذما وماجاوزت وصفهما
حسن البيان يرى الظلماء كالنور

وقد رفضت الترقشات[1] المتقيّنات[2] المتنمّصات[3] المتّشمات[4] تلك الصبغة ، صبغة الله ، وركضن إلى صبغة العطار والصيدلانى فكان تبديلُ خلق الله وتصويره . وجاء من ذلك — من تلك الدواهى — هذا الوشم فى الجسم واليد والوجه واللثة والشفة . وقد « لعن الله الواشمة والمستوشمة » كما « لعن الله النامصة والمتنمصة » لكن الخبيثات ما يبالين لعناً ولا ذما ، ولا يحسبن للأخرى حسابا

كان وشم الشفاه فى القديم ، وجاءت اليوم هذه (الحمرة) فيها ، هـذا (الموت الأحمر[5]) وأمسى (التحمير) دين كل شابّة وتابّة[6] ...

وكأن أولئك الحور[7] العين الحسان الكواعب وهنّ مقلات مدلاّت بجمالهن ، ذوات أُبهة ، مزدهيات — فكأنهن والذات فى دماء صرعاهن ، صرعى عيونهن !

وكأنّ شفة الرجل بعد تلك الرّشفات خَطْمٌ[8] ضار فى الفلا مفترس

إنه لما عمّت وطمّت هذه البلية التى « ليس لها من دون كاشفة[9] » وكنا من خدام هذه اللغة رأينا أن يوضع لها لفظة فكانت كلمة (الدّمام[10]) المسماة فى الفرنسية Le bâton de rouge فتقول — يازِر النساء وطِلْبها[11] إن شئت أن تقول —

(١) ترقشت : تزينت

(٢) التقين : التزين بألوان الزينة

(٣) النامصة التى تنتف الشعر من وجهها والمتنمصة التي تأمر من يفعل بها ذلك (النهاية) والمنماص : المنقاش

(٤) المتشمة : طالبة الوشم ، أصلها موتشمة مثل المتصل أصله الموتصل (اللسان)

(٥) الموت الأحمر : الموت قتلا ، والأغبر الموت جوعا ، والأسود الموت خنقاً وغرقاً ، والأبيض الفجاءة

(٦) تابة : عجوز

(٧) الحور مفردها : حوراء ، وقد قال المولدون : حورية

(٨) الخطم من السبع بمنزلة الجحفلة من الفرس ، بمنزلة الشفة من الانسان

(٩) ليس لها نفس كاشفة أي قدرة على كشفها إذا وقعت ، وقيل : كاشفة مصدر بمعنى الكشف كعافية (الكشاف)

(١٠) للدمام معان ، جلها قل استعماله ، ومنها الحمرة التى تحمر بها النساء وجوههن ، وحسبها هذه الكلمة ، والدمام ظهيرها فى التحمير كما أنه منها

(١١) طب نساء أى يطلبهن جمعه أطلاب

بين العلم والأدب

للأستاذ عبد الكريم الناصرى

قرأتُ فى العدد (٢١٩) من « الرسالة » الغراء مقالة للأستاذ على الطنطاوى يقارن فيها بين العلم والأدب ، ويفاضل بينهما ، ويقضى في أمرهما ؛ فوجدته « لم يدع مذمّة إلا ألحقها » بالعلم ، « ولم يترك مزيّة إلا نحاها » الأدب ، كأنما « الأمر قد انتهى والقضية قد فصلت » وحكم للأدب على العلم « فلم أدر متى كانت هذه المنافرة ، وأين كانت هذه المفاخرة ، ومن هو الذى جلس فى منصة القضاء ، ومن الذى زعم أنه وكيل العلم حتى أخزاه الله على يديه ، وأذله به ؟ »

رأيتُ فى قهوة أو ملهى أو معهر (Café Chanlant) فى (شارع عماد الدين)

شارع عماد الدين ! هذا شارع هاري الدين ، هائر الدين ، موهى الدين ...

فتقول : رأيت فتاة مثل الدُّمية أو رأيت دمية[1] ، أمامها قشوتها أو عتيدتها[2] ، وهي تدُمّ شفتها بالدمام ، وهو دمى فى الشفة !

ليس دمى فى جيدها ؛ إن دمى فى الشفة ! !

دُمك أنت — زيرَ الغوانى — لادمى فإنه
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدى
شيئاً تتيمه عين ولا جيد[3]

« ﻫ »

---

(١) الصورة المنقشة من العاج ونحوه. ويقال لمرأة الدمية يكنى عن المرأة بها . عربية (اللسان)

(٢) تقول : إذا فتحت قشوتها نفحت نشوتها وهي طبل المرأة الذى فيه طيبها وأدهانها وهى من خوص تتخذ فيها مواضع للقوارير بحواجز بينها (الأساس) العتيدة طبل العرائس اعتدت لما تحتاج إليه العروس من طيب وبخور ومشط وغيره (اللسان) قلت : نشر العلامة الأستاذ المغربى فى مجلة المجمع العلمى العربى)مقالة ذكر فيها ألفاظا للمسماة بالفرنسية (Sac-à-main) منها هاتان الكلمتان وعما لها ، والفضل له

(٣) المتنبي

والذى لاحظته على الأستاذ وعجبت له أنه يتوسع فى مفهوم الأدب توسعاً كثيراً ، بينا يبخل بذلك على العلم ويضيّق معناه كل التضييق ؛ فهو يقول : « إن الأدب ضرورى للبشر ضرورة الهواء » « لأن البشرية لم تعش ساعة واحدة من غير أدب » ولكنها « عاشت قروناً طويلة من غير علم ، وما هو إلا طفل ولد أمس ولا يزال يحبو حبواً » ... وذلك لأن الأدب بمعناه الواسع يشمل « كلّ ما كان وصفاً للجمال وتعبيراً عنه » فكلٌّ « من يعنى بالجمال ويتذوقه ، بل كل من يذكر الماضى ويحلم بالمستقبل ويحس باللذة والألم واليأس والأمل يكون أديباً ، ويكون الأدب — بهذا المعنى — مرادفاً للانسانية ، فمن لم يكن أديباً لم يكن إنساناً » ... أما العلم فهو هذا العلم المنظم الطرائق المقرر الأصول ، هذا العلم الذى وُلِدَ أمس ، علم نيوتن وداروِن وإينشتين !!

كلا يا سيدى ، ما هكذا تقام الموازنات ، ولا هكذا تعقد المفاضلات . فإذا كنت قد توسعت فى معنى الأدب كل هذا التوسع ، حتى جعلته مجرد الإحساس والشعور ، فمن العدل والإنصاف أن تتوسع فى معنى العلم أيضاً ، فتجعله مجرد التفكير والمحاكمة العقلية ، فبغير ذلك لا تكون لموزاناتك ولا لمفاضلتك قيمة أو معنى ، لأن الأصل في المقارنة بين شيئين أن يكون أساسهما مشتركا ...

فالعلم بمعناه الواسع قديمٌ قِدَم العقل ، لا « طفل وِلدَ أمس » والمحاكمة العقلية — أى العلم — هى الفارق بيننا وبين العجماوات ، فيكون العلم — بهذا المعنى — مرادفاً للانسانية ، فمن لم يكن عالماً لم يكن إنساناً ... أليس كذلك ؟

« إن أول كلمة قالها الرجل الأول للمرأة الأولى » كما يقول الكاتب : « كلمة الحب ، لمكان الغريزة من نفسه » ...

وهذا صحيح ، فان الأدب — فى أعمق معانيه وأصدقها — تعبير عن الغرائز الحيوانية والبشرية ؛ وقد بدأ الأدب منذ قال « الأديب الأول » ما قال « للأديبة الأولى » وكان من نتيجة اشتغالها بالأدب واهتمامهما به ، أن أُخرجا ممّا كانا فيه ، وهبطا إلى هذه الدنيا — مما يدل على أن شؤم الأدب على أصحابه بدأ منذ ذلك العهد — ثم استمر بعدهما القتل والتخريب واتباع الغرائز

وإطاعة الشهوات ، واستمر الأدب يصور ذلك كله ، ويعبر عنه وينبه إليه ، ويقويه فى الأذهان ، ويحييه فى النفوس ، ولولا العلم والعقل ، وسنه القوانين والأنظمة للجماعات ، ووقْفه الأفراد عند حدهم ، وحدّه من شرّتهم ، لعم البلاء وعظم الخطب ، ولفسدت الأرض ومن عليها !

يقول الأستاذ على : « إن أكثر البشر استغنوا عن العلم ولم يفكروا تفكيراً علمياً » بينما « لم يستغن أحد عن الأدب ولم يعش إلا به »

وهو في هذا القول أيضاً يقصد بالأدب المعنى الواسع الذى وضعه له ، ويقصد بالعلم المعنى الضيّق الذى ارتضاه له ... ولقد بيّنا خطأ هذا القول ، وبيّنا أن « الفصيلة البشرية » تتميّز بالمحاكة العقلية عن بقية الحيوانات ، وأن من غير الممكن أن نتصور إنساناً بغيرها ، أى بغير علم

فاذا أردنا أن نجدّ ، أى نقصد بالعلم والأدب معنيهما العاديين ، وجدنا أن كثيراً جداً من الناس يستغنون عن الأدب ، وليس لديهم خيال الأدباء ، ولا سموُّ مشاعرهم ومُثلهم ، بينما نجد سوادهم الأعظم لايستغنون عن العلم ، ونتائجه ، من وسائل المواصلات ، إلى وسائل التسلية والترويح عن النفس ، إلى غير ذلك مما لا يعدّ ولا يحصر ؛ كما أننا نجد هذا السواد الأعظم يفكرون تفكيراً علمياً . أجل ، يفكرون كما يفكر ميليكان وجيمس جينس واينشتين ... فان منطق العامة ومنطق العلماء واحد فى « النوع » وإنما الاختلاف فى « الدرجة » . وهـذه الحقيقة تخفى على الـكثيرين ، وإن كانت من بسائط علم المنطق الحديث ، بل إن منطق العلماء موجود عند البشر جميعاً ، لأن « الاستقراء » و « الاستنتاج » هما الميزان اللتان تميزان العقل البشرى عن سائر الحيوانات . والغسّالة ، كما يقول هكسلى ، تستخدم فى اكتشاف أن البقعة التى على الثوب هي بقعة حبر ، عين المنطق الذى استخدم فى اكتشاف السيار نبتيون

أما سؤال الـكاتب : « هل بلغ أحداً أن أديباً نظر فى معادلة جبرية ، أو قانون من قوانين الفيزياء ، أو أحس الحاجة إلى النظر فيها ؟ » فانه غريب حقاً . وما كنت أنتظره مطلقاً من الأستاذ الطنطاوى ... فهل بَلَغك يا أخى أن بول فاليرى ، أمير شعراء فرنسا ، كان عالماً رياضياً قبل أن يكون شاعراً ، وأن جوتيه ، أعظم شعراء الدنيا بعد شكسبير ، كان عالماً بيولوجياً قبل أن يكون شاعراً ، وأن هـ . ج . ولز ، عميد أدباء الانجليز ، كان أستاذاً فى الجيولوجيا ، وأن اشتغاله بهذا العلم لايزال إلى اليوم يطبع أدبه وتكهناته وتنبؤاته ؟؟ وماذا تريد بعد هؤلاء الجبابرة من أمثلة ؟؟

الأدب لايستطيع بحال من الأحوال أن يستقلّ عن العلم ؛ والقول باستقلاله خطأ شائع يجب تصحيحه ...

يقول الشاعر العظيم وردزورث : « إن الأشياء التي يستطيع الشاعر أن يستمدّ منها ويستوحيها موجودة في كل مكان » وإن « عيني الانسان وسائر حواسه وإن كانت ولا ريب خير مرشد له وهاد ، فانه يسير فى كل طريق ويتبع كل جو يستفز مشاعره ويستثير أخيلته ، ويستطيع أن يحرك فيه أجنحته »(1)

ويقول وليم هنرى هَدْسن المحاضر السابق بجامعة لندن :

« نستطيع أن نقول إن الشاعر العظيم حقاً هو مفكر عظيم فى الوقت نفسه . وهو لذلك لا بد أن يهتم ، ويتأثر باكتشافات العِلْم المتفرقة وبقضاياه ومساجلاته ، أو على الأقل بالحركات الفكرية التى تثيرها هذه . إن معارف العصر الجديدة ، وكل ما تُحدثه من التغييرات فى معتقدات الناس الموروثة وآرائهم التقليدية فى النظام الـكونى وعلاقاتهم به ، وكل ما تقدمه لهم وتضعه أمامهم من المشاكل والمسائل ، لا محالة تسحره جوانبها العاطفية والروحية سحراً لا يقاوم(2) ؛ ثم إن ما يتراءى وراءها من خير للبشرية ومطامحها وآمالها أو من شرور ، لا بد أن يسترعى التفاته ويستدعى اهتمامه . وعلى فرض أنه لا يتخذها موضوعات تأمّل له مباشر ، فانها تدخل إلى شعره من مسالك خفية لا تعد

---

(1) Preface to Second edition of Lyrical Ballads

(٢) ذلك بأن الشاعر — وهو هنا يمثل الأدب الخالص — لايطلب منه أن يتحدث عن الجوانب الموضوعية من الحقائق ، لأن ذلك من شأن العلم . وإنما المطلوب منه أن يتحدث عن الناحية العاطفية والروحية منها . وقد جمع العلم عدداً هائلا من الحقائق ، يستطيع كل شاعر وأديب أن يستلهمها . فهى معين لاينضب . ولـكن أكثر الادباء لايعلمون !

(2) Hudson, An Introduction to the Study of Literature, Shas . III . PP . 112 - 113 .

ولا تحصى ، فتلونه بلونها وتطبعه بطابعها ، كما تدخل فى تفكير عصره الجارى فتلونه بلونها وتطبعه بطابعها إذن فبعيد كل البعد عن الحق أن الشاعر لا صلة له بالعلم ومعارفه ، بل هو على الضد من ذلك ، لا يستطيع مطلقاً أن يتجاهل نتائجها الكبيرة تجاهلا تاماً ، وإذا كان من ذوى العقول الفلسفية فانه يجد الاطلاع عليها ومحاربتها فيما يتصل منها بكل مسألة ومصلحة تعود إلى حياة الانسان العليا واجباً عليه وفرضاً » ... « إن استنباط العواطف والأحاسيس من المعرفة العلمية Emotionalisation of Knowledge) — عملية بطيئة حتما ؛ ولكن من مقاييس عظمة الشاعر كمفكر أن يقدر على أن يرى إمكان هذا الاستنباط وعلى أن يساعد — بادراكه المعانى الروحية للحقائق العلمية — على تتميمها وتكميلها [٢] »

***

ويدع الكاتب تفريقه « الفلسفي » ، ويفاضل بين العلم والأدب من الناحية النفسية . فيقول : « إننا نعلم أن العلم يبحث عن الحقيقة فهو يستند إلى العقل ، أما الأدب فيتكىء على الخيال؛ ثم ينظر فى العقل والخيال : أيهما أعم فى البشر وأظهر ؟ .. فيرى أنه الخيال « من غير شك » بل إن هذا الخيال ليمتد إلى صميم الحياة العلمية ، فالعلم إذن « مدين للخيال أى للأدب »

ولكن من المبادىء الأولية فى الأدب أن « التفكير »عنصر من عناصره الرئيسية الأربعة . فالأدب إذن يستند إلى العقل أيضاً . ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم أن مسرحية (أهل الكهف) كلها خيال ؟ ! !

فاذا كان العلم مديناً للخيال أى للأدب ، فالأدب مدين للعقل أى للعلم . والنتيجة أن ليس هناك تفاضل ، ولا دائن ومدين ... أليس كذلك ؟ !

أما أن الخيال أعم فى البشر من العقل وأظهر ، فغير صحيح والأدلة والأمثلة التى جاء بها الأستاذ لا تثبت أن من الناس مَنْ يملكون خيالا ولا يملكون عقلاً ، ليقال إن الخيال أعمّ من العقل ، ولا أثبتت أن الذين يملكون خيالاً واسعاً أكثر من الذين يملكون عقلاً قوياً ، ليقال إن الخيال أبرز فى البشرية وأظهر

نعم « ليس فى الناس من لا يقدر على استعمال الخيال » . ولكن ليس فى الناس من لا يقدر على استعمال العقل ، وإذا كانت عقول بعض الناس « محدودة القوى » ومحا كماتهم العقلية ضعيفة ، فان خيال الكثيرين محدود القوى ضيق المجال أيضاً .

وإذا لم يكن فى الناس من يعجز عن « تخيّل حرارة النار وامتداد ألسنة اللهب » فليس فيهم مَنْ لا يدرك أن اقتحام اللهب ، والدخول فى وسط النار ، يحرق جسمه ويقضى عليه ! وقولك إن كثيراً من الناس « لايقدرون على استعمال العقل على وجهه » لا معنى له ، لأن جميع الناس يستطيعون أن يستقروا ويستنتجوا ، وإنما الاختلاف كما سبق القول فى الدرجة والمقدار

ولا أريد ههنا أن أبحث عن الصلة بين « العقل » والخيال ؛ لأن المقام لا يتسع لذلك ، ولأني أريد أن أساير الأستاذ فى فروضه ونظرياته حتى يكون الردّ ... أوجز . ولكن لا مانع من أن أسأله هذا السؤال: ما السر فى قلة أدب القصص والخيال Fiction فى الشرق عامة بالقياس إلى أدب المقالة والتفكير ؟

***

ثم يقول الأستاذ على : « أنا إلى هنا في القول بأن الحقيقة فى صف العلم والجمال مع الأدب » « والواقع غير ذاك . ذلك أن العلم فى تبدل مستمر وتغير دائم » . « في حين أن الأدب باق فى منزلته، ثابت فى مكانته » « ولا يعتريه تغيير ولا تبديل » . فأين هى الحقيقه؟ وأي الشيئين هو الثابت ؟ وأيهما المتحول ؟

كلا هذين الرأيين مخطئان ، ولننظر أولا فى الرأى الثانى :

فالأدب متغير متبدل دائماً . لأن الأدب يصدر عن الشخصية ويخاطب الشخصية ، وبما أن شخصيات الناس تختلف ، فكل شخص يفهم من قصيدة بعينها ما لا يفهمه شخص آخر ؛ ومعنى ذلك أن الحقائق العاطفية والمعانى الروحية التى أراد الشاعر أن يوصلها إلى نفس القارىء قد ضاعت وزالت ، وبتعبير أدق ، قد تحولت إلى ملايين من الحقائق والمعانى . وهذا هو السبب فى اختلاف النقاد على الأثر الأدبى الواحد . بل إن الشاعر نفسه قد يعجز بعد مضى زمن قصير أو طويل عن استعادة معانيه العاطفية التى أودعها قصيدته . وإلى جانب هذه المعانى المتبدلة المتحولة نجد ما يحتويه « الكتاب العلمى الذى ألف منذ خمسين سنة » هي

نفس حقائق الطبيعة ، والذى لا « نقبله » منه اليوم هو نظرياته (كما سترى بعد قليل) .

فإن قلت : إن المهم ههنا أنى أقرأ اليوم الديوان الذي نظم منذ ألف سنة ولا أقبل الكتاب العلمى الذى كتب منذ خمسين سنة لأن ما فى الأول من صفات القوة والجمال وسمو الموضوع هو الذى يبقيه ويخلده . كما أن نسخ النظريات و « القوانين » الجديدة لتلك التى سبقتها هو الذى يدعونى لرفض الثانى . قلت : هذه النظرة إلى بقاء الأدب أقبلها على تعارضها مع الحقيقة التى ذكرتها عن تغيره ، لأن غايتى من هذا المقال أن أدفع التهم التى ألصقتها بالعلم لا أن أبحث فى الأدب أو أفاضل بينه وبين العلم فلننظر الآن فى تغير العلم الدائم ، والكتاب الذى « لا يقبله طالب ثانوى » ...

يتلخص عمل العلم فى أنه يجمع مقداراً من الحقائق ، ثم يحاول أن يضع لها قاعدة عامة تربطها وتفسرها جميعاً ، على أن تنطبق على كل ما يكشف من الحقائق بعد وضعها . فإذا اكتشفت حقيقة أو أكثر لا تتفق معها عدل عنها إلى قاعدة أخرى ، أعم وأشمل. وهكذا « يتدرج » العلم من قاعدة إلى قاعدة أوسع ، أى تنطوي على حقائق أكثر . إن العلم لا يرى في هذه القواعد والنظريات والقوانين أكثر من « فروض » . ولكن بهذه الفروض وحدها يستطيع أن يكشف الحقائق ، لأن كل فرض ينبه إلى حقائق جديدة ، ولأن العلماء حين يضعون فرضاً لا يكتفون به ولا يسكنون إليه ، بل يجدون في البحث والملاحظة والاستقراء وابتكار الآلات واستنباط الوسائل التى تعينهم على الوصول إلى بيانات أوفى ، وحقائق أكثر . وهذه تقابل مع الفرض الموضوع ، فان تعارضت معه وضع فرض أشمل . إذن فوضع فرض جديد معناه كشف حقائق طبيعية جديدة — لا تغير فى الحقائق السابقة — ومعناه أيضاً « تقدم » — لا تغير — من فرض إلى آخر أشمل .

ومن ذلك نستطيع أن نستنتج بسهولة أن الطالب الثانوى لا يرفض الكتاب الذى ألف منذ خمسين سنة ، بل يقبله ، ويقرؤه ، ولكن النسخة التى بين يديه هى طبعة جديدة من ذلك الكتاب منقحة وموسعة ...

وزيادة فى توضيح المسألة أدع السر جيمس جينس يردُّ على الأستاذ الطنطاوى :

« إن الغرض العام للعلم هو أن يسير إلى مثل هذه النظريات ويصل إليها . ولا نستطيع مطلقاً أن نعتبر نظريةً ما نهائية أو حقيقةً مطلقة ، إذ من المحتمل أن تظهر حقيقة جديدة ترغمنا على ترك هذه النظرية ؛ وقد يحدث ذلك للنظرية النسبية ولو أنه بعيد الاحتمال ، وإذا ماحدث ذلك برغم استبعاده فان الوقت الذى أنفق في تكوينها لم يضع سدى ، بل سيكون تدرجاً إلى نظرية أوسع وأكمل ، تتفق مع عدد أكبر من الظواهر الطبيعية . من ذلك يظهر العلم للرجل العادى متغيراً دائم التغير دائراً حول نفسه مخالفاً لنظرياته الأولى ، ولكن العالِمَ يراه دائم التقدم ، يرقى من نظرية إلى أخرى ، تحظى كل نظريةٍ منها باتفاقها مع حقائق تزيد على التى أزاحتها ، ورائده الوصول إلى هدفه الأسمى وهو النظرية التى تفسر ظواهر الطبيعة كاملة » (١)

* * *

ثم ينظر الأستاذ فى نتائج العلم ويسأل : ماهى فائدة هذا العلم ؟ وماذا نفع البشرية ؟

يريد أن يقول : ماهى فائدة هذا العقل ؟ والجواب على ذلك سهل ميسور . فالعقل لم يوجد إلا ليستخدمه الانسان فى الدفاع عن نفسه ، والتغلب على أعدائه من الحيوان ، وفى حفظ بقائه ، وفى الرقىّ بحياته وتوفير أسباب سعادته بعد ذلك ؛ ولولا هذه الغاية لما وجد أصلاً ... ولقد جرب العقل الفلسفة فوجدها عاجزة كل العجز عن إبلاغه هذه الغاية ، لأن الفلسفة كما لا يخفى عليك كلام فى كلام ؛ والكلام لا يستطيع أن يقتل حشرة ، أو يهلك مكروباً ، أو يصنع طيارة . لذلك تركها وأساليبها و « قِيَمها » وخرافاتها ، وسلك هذا المهيع السوىّ ، والطريق الواضح ، طريق العلم ... فلم يلبث حتى رأى نتائجه المحسوسة الباهرة ... فالعلم إذن آخر مظهر من مظاهر الرقي العقلى ، وآخر اتجاه اتجه إليه العقل . وليس من البعيد جداً أن يتفق العلم والفلسفة والدين على أية صورة من الصور ، ولكن دوره سيظل هو هو لا يتغير ولا يتبدل

---

(١) من مقالة للسرجينس نشرت ترجمتها فى العدد ١٨٥ من الرسالة تحت عنوان (بناء العلم)

ودوره هذا لا يقتصر على تخليص البشرية من جميع أعدائها ولا على إسعادها ماديًّا ، فحسب ، بل هو يشتمل على إسعادها فكريًّا ، وتلك هي غايته العليا

* * *

تقول : « إن الاختراعات ليست خيراً كلها ، وليست نفعاً للبشرية مطلقاً » وهذا صحيح ، أو هو صحيح إلى حد ما ؛ والمفهوم منه أن أكثر الاختراعات خير ، وإن لم تكن كلها خيراً ؛ ولكنك لا تلبث حتى تنقضه بهذا التقرير « الحسابي » الحاسم ، وهو أن العلم « شره بخيره والنتيجة صفر » ... صفر !!

وتقول : إن العلم « سهّل المواصلات وهوّنها ، فقرّب البعيد ، وأراح المسافر ، ووفر عليه صحته ووقته ، ولكن هل أسعد ذلك البشرية ؟ »

بالطبع . والأدلة موجودة في السؤال . ولكنك ترى غير هذا الرأي ، وتجيب جواباً لا صلة له ألبتة بالسؤال . فوسائل المواصلات الحديثة لم تسعد البشرية ، ولماذا ؟ لأننا لم نعد نتحمل آلام المسافات الطويلة ، أو نتعرض لمخاوفها ، فخسرنا الصور والشاعر « وصرنا نقطع طريقنا إلى القبر عدواً ونحن مغمضو عيوننا ... لم نر من لجة الحياة إلا سطحها الساكن البراق ! » ... وهذا بالطبع دليل ساطع قاطع على أن وسائل المواصلات الحديثة لم « تسعد » البشرية ... صحيح ! !

ثم تقول إن العلم تغلب على كثير من الأمراض ، ولكنه هو الذي جاء بها ، جاءت بها الحضارة ، (وهذه فكرة خاطئة عن صلة العلم بالحضارة ، وليس هذا موضع بحثها) فهو لا يزال مديناً .. تقول هذا ناسياً ناحية مهمة ، وهو أن الحكم على العلم وموقفه من الأمراض لا ينبغي أن يبنى على وضعه الحاضر فقط ؛ فإذا كان العلم قد تغلب في هذه المدة القصيرة على كثير من الأمراض واكتشف جراثيمها ، وصنع السموم المضادة لها ، فإنه سيتغلب عليها جميعاً ، ويفني الجراثيم عن آخرها ، وكذلك يقضي على عدو آخر فظيع للبشرية ، وهو الحشرات ؛ وعندئذ تستريح البشرية وتسير قدماً إلى الأمام — وفي النجاح الذي أحرزه إلى اليوم خير مؤيِّد لما أقول ...

* * *

إن هؤلاء البدو الذين يرفع من حياتهم الأستاذ على سيتحضرون حتماً ؛ لأن التحضر يجرى بحكم قانون طبيعي قاهر . وهؤلاء البدو ليسوا سعداء ، كما يظن ، لأنه لا يمكن أن يكون سعيداً من يفترس أخاه لقبضة من العشب ، أو جرعة من الماء . ونحن يجب أن ننظر إلى فتوحات العرب نظرة اقتصادية قبل كل شيء ...

ثم إن هناك فرقاً بين سعادة وسعادة . وسعادة اينشتين حين يقع على حقيقة جديدة ، ليست هي سعادة زنوج أفريقيا ، أو بدو نجد ، لأن سعادة الانسانية الراقية أعلى من سعادة الانسانية المنحطة . وهـذا الفرق يشبه تماماً الفرق بين الرواية البوليسية السخيفة وبين « هاملت » . وبين « اللذة » التي يحصل عليها القارئ العامي من قراءة الأولى ، وبين « اللذة » التي يحصل عليها المثقف من قراءة الثانية . فلننظر إلى طبيعة اللذة والسعادة قبل كل شيء .

عبد الكريم الناصري

الفلسفة الشرقيــــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٥ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي — « لاهو — تسيه »

فلسفته العملية

يغالي بعض الباحثين حين يصف « لاهو — تسيه » بأنه ميتافيزيكي فحسب ولا شأن له بالفلسفة العملية أو الأخلاق كما يصف « كونفيشيوس » بأنه عملى لا يأبه للميتافيزيكا ، وإنما الحقيقة أن لكل منهما رأياً فيما فى الأخلاق ، وهـذا طبيعى ، لأنهما اغترفا من منبع واحد ، وهو فلسفة عصر ماقبل التاريخ ، ولـكن الخلاف قد دب بينهما حول الوسيلة التي توصل إلى الخير والـكمال ، فبينما كان « لاهو — تسيه » يرى أنهـا التنسك واحتقار المادة وإهمال الحياة العملية وعدم الإكثار من القوانين ، ويرى أن عصر الأباطرة الذين شرعوا القوانين واللوائح كان عصر تدهور وانحلال تلا العصر الذهبي الذي كان الملوك فيه لايعرفون القوانين ولايهتمون بالعقاب ، كان « كونفيشيوس » على العكس من ذلك يرى أن العصر الذهبي هو عصر أولئك الملوك الذين قننوا القوانين ووضعوا القواعد التشريعية ، ولهذا كان يتخذهم نماذج يسير على منوالهم . وإذن ، فلاثنان أخلاقيان يريدان الـكمال والسعادة للأمة ، وإنما يختلفان فى الوسيلة فحسب ، وقد شرح « لاهو — تسيه » رأيه فى الأخلاق العملية فقال مانصه : « بقدر ما يكثر الملك من القوانين واللوائح ، يهوى الشعب فى البأساء ؛ وبقدر مايكون لدى الشعب من وسائل للغنى والرفهنية، تـكون حالة الأسرة والوطن رديئة ؛ وبقدر ما تتضاعف الأوامر الشديدة يكون عدد اللصوص والمجرمين فى نمو وتضاعف [1] » وعلى الجملة ، كان المثل الأعلى من الملوك فى رأيه هو الملك الذي يجهل رعيته الوجود جهلاً تاما

(١) راجع « تاو — تى — كينج » فصل ٥٧

وعنده أن المعرفة الظاهرية رديئة ، لأنها لا توصل إلا إلى حقائق نسبية ، ومن حيث إن الغاية المقصودة هى الحقيقة المطلقة فى ذاتها ، فينبغى ألا نشتغل إلا بما يوصل إلى هذه الحقيقة ، ولا يوصل إليها إلا الاتحاد التام ، والامتزاج الـكامل بـ « تاو » ولا يتيسر هـذا الامتزاج بالتربية ولا بالتثقيف الظاهرى ، كلا ، فهاتان الوسيلتان معدومتا الفائدة ، وإنما هو يتحقق بالعزلة التامة ولذلك فالقديسون الذين يريدون الاتصال بـ « تاو » واتباع الصراط السوى ، يجب عليهم أن ينبذوا كل ثقافة وينسحبوا إلى مكان مقفر ويعيشوا كما كان أهل العصور الغابرة يعيشون ممتزجين بالقوة غير المرئية ، وهو يصف هـذه الحالة فيقول : يكون خائفاً كمن يخترق سيلا فى الشتاء ، متردداً كمن يخشى أن يراه جيرانه ، جدياً كأجنبي فى محضر مضيفه ، بارداً كالثلج حين يتحلل ، جافا كالخشب الخام ، فارغا كالوادى [1] » وفى العموم أن المثل الأعلى للخيرية فى رأى هذا الفيلسوف هو الطفل الذى يولد على الفطرة بريئا نقيا ، وأن الوسائل التى توصل إلى الـكمال هى : الحياء والضعف والبساطة و « الؤووى » ومعناه العزلة والتخلى عن كل عمل ، وسلوك الصراط السوى

غير أن هذا كله ليس معناه أن « لاهو — تسيه » قد أمر بإهمال المسئولية الاجتماعية ، كلا ، بل هو قد حض بالعكس على العناية بالجمعية البشرية وأعلن أن الأنانية وإهمال خدمة العمران من الرذائل الـكبرى وقد سبقت تعاليمه الآمرة بالغيرية والمحبة العامة تعاليم المسيحية بنحو ستة قرون ، ولم يكن تبشير « لاهو — تسيه » بحب الغير ناشئاً عن عاطفة ، وإنما كان منبثقاً من منبع الواجب والالتزام اللذين كانا يملـكان عليه تفكيره وحواسه

وعنده أن القديس هو الذى يحكم الشعب ويسوسه ، ولـكن لا بالقوة والقسوة ، بل بالمثل الأعلى الذى يقدمه مثبتاً به أنه فوق الطبيعة، وأنه لايحكم شعبه بالقوانين والعقوبات ، ولايخضع الشعوب الأخرى بالحروب ، وإنما يعامل الجميع ببساطة الطفل وطهارته ؛ هذا هو وحده الأمير الذى تنتظره الصين وتعول عليه فى محنتها

أحسب أنك ترى بعد كل هذا معى ومع الأستاذ « زانكير » أن « لاهو — تسيه » كان فيلسوفاً لا تنزل به عبقريته إلى ما هو أدنى من صفوف أفلاطون والقديس « أوجوستان » و « كانت » وأنه إذا كان قد أخفق أو ضل السبيل فى بعض

(١) انظر الكتاب المذكور فصل ١٥

أفكاره ، فان التبعة فى ذلك واقعة على التدهور الذي كان ميزة عصره وخاصيته ، وإذا لم يكن مذهبه قد أزهر فيما بعد كما أزهرت مذاهب الإغريق ، فان لذلك سببين : الأول أنه لم ينشىء فى حياته مدرسة لنشر فلسفته ، والسبب الثانى أن الطبيعة الصينية لم تكن تتلاءم مع تعاليمه المغالية فى التنسك والسلبية ، ولهذا لم تكد فلسفته تعرف فى أوروبا حتى أزهرت فى البيئات الاشراقية إزهاراً لم تعرف له نظيراً فى منبتها الأصلى

« التاوإيسم » أو « اللاهو — تسيه »

بعد أن توفى « لاهو — تسيه » نشأ من ميتافيزيكيته مذهبان : « التاوإيسم » الفلسفي و « التاوإيسم الدينى » ، وكلاهما نشأ من « تاو » وهو عنوان كتابه الذى أشرنا إليه . فأما « التاوايسم » الفلسفى فقد انقسم فيه تلاميذ الحكيم إلى عدة أقسام ، فبعضهم تخصص فى دراسة المعرفة وما يمكن أن يحصله الإنسان منها ، وهل هذا التحصّل مفيد أو غير مفيد . والبعض الآخر قصر بحثه على دراسة الظواهر الطبيعية وما تحتويه من أسرار . ولكن لما كان الجميع متأثرين برأي أستاذهم الذى أسلفناه ، وهوالقائل بأن « التاو » غير قابل للمدْركية البشرية ، فقد كان من الطبيعي أن يعلنوا أن العقل الانسانى قاصر عن إدراك « المطلق » وبالتالي هو قاصر عن إدراك بعض الحقائق الموجودة

هناك فريق ثالث من تلاميذ هذا الحكيم لما يئسوا من إدراك العقل البشرى لكنه « التاو » لم يجدوا بداً من أن يعلنوا أن مالم يُدْرَك بالعقل ، يدرك بوساطة السحر ؛ وهنا نشأ مذهب « التاو إيسم » الدينى وهو مزيج من قواعد سحرية ، وتعاليم تصوفية . ولما كان هذا القسم الأخير لا يعنينا كثيراً فى دراستنا الحاضرة فقد آثرنا أن نقصر إشارتنا هنا على « التاوإيسم » الفلسفي

من أشهر أولئك التلاميذ الذين أحيوا مذهب أستاذهم بعد موته وواصلوا سلسلة بحوثه هو « ين — مى » الذى سار على ضوء تعاليم أستاذه فكتب بحوثاً قيمة حول نظرية المعرفة ونقد العقل البشرى وأبان قصوره عن إدراك « المطلق » ومن مشاهير هؤلاء التلاميذ أيضاً « لين — تسيه » الذى كان من أعلام عصره الأجلاء والذي كتب بحوثاً هامة حول كثير من المشاكل الفلسفية ، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن ما عثر عليه من مؤلفاته وجد مشوهاً متناقضاً مما يدل على أن بعض الأيدى قد عبثت به وقد عاش هذا الحكيم فى القرن الخامس قبل المسيح

هناك حكيم آخر من أولئك التلاميذ ، وهو : « تشوانج — تسيه » الذى عاش في النصف الثانى من القرن الرابع قبل المسيح وعاصر « مانسيوس » الذى سنتناوله بعد أستاذه « كونفشيوس »

يروى لنا المؤرخون أن هذا الحكيم شغل فى مطلع شبابه مركزاً سياسياً هاماً ، ولكنه لم يكد ينضج حتى عاف السياسة واعتزل الخدمة وقصر حياته على البحث والتأليف ، وفى أثناء ذلك بلغت كفايته مسمع الملك ، فبعث إليه رسوله بهدية عظيمة وطلب إليه أن يقبل منصب وزير فى الدولة ، فلما عرض عليه الرسول ذلك أجابه بقوله : إن هذا المبلغ عظيم إذا قيس إلى حالتي وإن منصب الوزير منصب محسود ، ولكن ألم تر فى حياتك أن الثور الذى خصص للذبح فى أحد المعابد ثم أخذوا يطعمونه حتى سمن ثم أحاطوا جسمه قبل ذهابه إلى الذبح بالحلى والجوهرات ليكون منظره جميلا ، ألم تر أن هذا الثور ساعة دخوله إلى المعبد يتمنىَ أن لو كان خنزيراً صغيراً حتى ينجو من الذبح ، ولكن هذا التمني لايجديه فتيلا ؟ إذهب إذن من هنا ولا تهنى بمحضرك فأنا أفضل أن أنام في قناة حمئة مليئة بالأوحال على أن أذعن لتقاليد البلاط والتزاماته

ويحدثوننا كذلك أن هذا الافراط فى التمسك بالكرامة والمحافظة على حرية الرأى قد جر عليه حياة مليئة بالصعوبات والأشواك ، ولكنها مليئة كذلك بالاحترام والاجلال إلى حد أن روت لنا إحدى الأساطير أن أخرى زوجاته كانت من الأسرة المالكة

مؤلفاته ومذهبه

روى التاريخ أن هذا الحكيم قد كتب ثلاثة وثلاثين كتاباً وأن هذه الكتب كلها قد جمعت تحت عنوان واحد وهو : « المناهج الحقيقية لزهور بلاد الجنوب » ولكن المدققين من المؤرخين يرون أنه لم يثبت له شخصياً إلا نحو عشرة كتب كتبها بخطه ؛ أما الباقى فهو مجموعة مكونة من آرائه وآثاره مع شروح وتعاليق تلاميذه

أما مذهبه فيمكن أن يدرس من ثلاث نواح : الناحية الأولى النظرية ؛ وفيها لم يكن يختلف عن أستاذه « لاهو — تسيه » فى شىء ، إذ هو يرى معه أن العقلية البشرية قصرة عن إدراك « التاو » بواسطة المعرفة الثقافية التى لا تتناول إلا الحقائق النسبية

أما « المطلق » فهو لا يعرف إلا عن طريق الانفعال النفسانى ، وإن كل محاولة لمعرفة هذا « المطلق » عن طريق التفكير المنطقى آيلة ضرورة إلى الفشل المحقق بعد أن تقود صاحبها إلى صحراء قاحلة من السفسطة والضلال ، لأن المنطق لا يصل إلى نتائجه إلا بالتحليل؛ ولو أصبح تحليل « المطلق » ممكناً ، لخرج عن كونه « مطلقا »

أما الناحية العلمية من مذهبه : فهى وإن كانت مؤسسة على الأصول الجوهرية من آراء « لاهو — تسيه » إلا أنها تطورت عن المذهب القديم كثيراً . ولإيضاح هذه الناحية العملية أجرى فيلسوفنا الشاعر محاورة بين روح السحاب وبين الضباب ، ثم بسط مذهبه على لسان الضباب فقال : « صير قلبك حازماً وتجنب كل تدخل فى أى شىء ؛ أى الزم الـ « وو — وى » أو « اللاعمل » ودع الأشياء تتطور حسب ناموسها الطبيعى ، ولا تأبه لجسمك وأغلق عينيك وأذنيك ، وانس كل ما يربطك بالعالم الخارجى ، وامتزج بالمبدأ الأول . فك وثاق قلبك ، ومد روحك ؛ وعد إلى عالم « اللاإدراك » فإذا تحقق ذلك رجع كل كائن إلى الصدر المبدئى العام ، وعاد كل شىء إلى مَنشئِه دون علم منه بهذه العودة واجتمع كل موجود ، وتوحد الجميع كما كانت الحال فى البدء ، ولم يصبح كل كائن مريداً ولا قادراً عن البعد عن هذه الوحدة المطلقة الأبدية »

ويعلق أحد المستصينين على هذا بقوله : ينبغى ألا يتسرب إلى الأذهان أن تنسك « شوانج — تسيه » كان نوعاً من الحرمان والرهبنة على نحو ما هو موجود فى الديانات الهندية والمسيحية ، كلا ، فالحكيم فى رأيه لا يستحق هذا الاسم إلا إذا ترفع عن جميع الآلام وتخلص منها وأخضعها لإرادته . أما متنسكو تلك الديانات فهم تحت الآلام لا فوقها ، وهذا فرق عظيم يجب أن يعنى به الباحثون

بهذا الفيلسوف تنتهى أرقى الحركات العقلية حول « التاو إيسم » الفلسفى بعد أن أزهرت إبان القرنين : الخامس والرابع قبل المسيح إزهاراً ساعد عليه تعطش الشعب إلى السعادة والهدوء فى وسط معمعان هذا التدهور السياسى والعمرانى الذي أشرنا إليه آنفا هذا ، وسندرس ما عرض له « التاو إيسم » من تطورات فى العصور التاريخية التى تلت هذا العصر ، ولكن بعد أن ننتهى من دراسة أعلام المذهب الآخر وهم : « كونفيشيوس » وأشياعه

(يتبع) **محمد غلاب**

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٩ —

« قطعتنى زحمة العمل أسبوعين عن مواصلة الكتابة وقامت بينى وبين الواجب ؛ ثم ألح عليّ المرض أسبوعين يغدو ويروح بين الليل والنهار ، فلا أهم أن أشرع القلم لأستأنف حديثى حتى يقطعنى الاعياء ويقعد بى العجز . فما كان من صمتى فى الأسابيع الأربعة الماضية فهو من ذاك ، ولعله عذر يبلغ بى عند الأصدقاء الذين ظنوا بى ماظنوا لهذا الصمت الطويل فأوسعونى فى رسائلهم عتباً وملامة ، فكان عتابهم آية من آيات الود الصافى وحسن الاخاء »

الرافعى فى سنوات الحرب

كان الرافعى — رحمه الله — شاعر النفس ، مرهف الحس ، رقيق القلب ، قوى العاطفة : يرى المنظر الأليم فتنفعل به نفسه ويتحرك خاطره ويتفطر قلبه ؛ وتقص عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكى له أن تلمح فى عينيه بريق الدمع يحبسه الحياء . ولقد كان الرافعى يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيراً من المآسى الفاجعة يسأله أصحابها الرأى أو المعونة ، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاماً مكتوباً ، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها فما تبرح ذا كرته من بعد إلا مع الزمن الطويل

ولقد وقعت الحرب واستعرت نارها فى الميادين البعيدة لا يبلغ إلينا منها نار ولا دخان ولا يراق دم ، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء ، فما كان ضحاياها فى مصر بالجوع والمتربة أقل عديداً من ضحاياها هناك فى الميدان ... كيف كان يعيش العامل المسكين فى تلك الأيام ؟ رباه ! إننى ما أزال أذكر يوم أرسلنى والدى — وأنا غلام بعد — أستدعى النجار لعمل عندنا فوجدته جالساً فى أهله يأكلون : كانوا ستة قد تحلقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فتات الخبز إدامه الماء ، تتسابق

أيديهم إليه فى نهم كأنما يخشى كل واحد أن تعود يده إلى القصعة بعد الأوان فلا يجد اللقمة الثانية ... !

هكذا كان يعيش نصف الشعب فى تلك الأيام السود مما فعل القحط والغلاء ، لأن أقوات الشعب قد حُملت إلى الميدان لتخزن في دار المؤن وقتاً ما ، لتقذفها من بَعد قنابل المحاربين وتذروها رماداً فى الهواء ... !

ونظر الرافعى حواليه فارتد إليه البصر حسيراً مما يرى ويسمع ، فاحتبس الدم فى عينيه ولكن قلبه ظل يتحدث بمعانيه

ومضى عام وعام والحرب ما تزال مستعرة ، والبؤس تتعدد ألوانه ، وتتشكل صوره ، وتحشد آثاره ؛ والرافعى دائم الحديث إلى نفسه وهو يحمل من هم الشعب في قلبه الكبير ، حتى امتلأ الإناء يوماً ففاض ...

* * *

فى بعض اللحظات التى تفيض فيها النفس بالألم ، يحس الإنسان كأنه شىء له فى نظام الكون إرادة وتدبير ، وأن من حقه أن يقول للمقدور : لماذا أنت فى طريقى ...؟ فتراه فى بعض نجواه يتساءل : ربّ ، لِمَ كتبت علىّ هذا .. ؟ لماذا حكمت بذلك ..؟ لماذا قدّرت وقضيت ..؟ ما حكمتك فيما كان ..؟ ألم يكن خيراً لو كان ما لم يكن ... ..؟ ثم يثوب إلى نفسه ويفىء إلى الحق ، فيعود معتذراً يقول : رب ، لقد ظهر حكمك ، ودقت حكمتك فمغفرة وعفواً ... !

وتظل حكمة الله مطوية فى ظلمات الغيب ، لا يتنورها إلا من غمره شعاع الإيمان وسطع فى قلبه نور الحكمة ، أما الذين تعبدتهم شهوات أنفسهم فهم أبداً فى حيرة وضلال

فى لحظة من تلك اللحظات أغمض الرافعى عينيه وراح يفكر ، وفى رأسه خواطر يموج بعضها فى بعض ؛ ثم فاءت نفسه ، فرفع رأسه وهو يقول : « ربّ ، ما أدق حكمتك وأعظم تدبيرك..! » وأفاض الله عليه ورفع عن عينيه الغطاء ...

وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضاً ، ويسرق بعضهم أقوات بعض ، ويتزاحمون على الحياة فيسارعون إلى الموت ؛ فدمعت عيناه ولكنه كان يبتسم ، وعاد يقول : « حكيم أنت يا رب ! ليتهم وليتنى ...ليتهم يعلمون شيئاً من حكمة الله فى شىء من أغلاط الناس ! ... كل شىء فى هذا الكون العظيم يجرى على قَدَرٍ منك وتدبير حكيم ! »

ثم شرع يؤلف كتابه المساكين

كتاب المساكين

أخرج الرافعى كتابه هذا فى سنة ١٩١٧ ، وهو الكتاب الرابع مما ألف الرافعي فى المنثور ، وثانى ما ألف فى الأدب الإنشائى ، ويعرّف به الرافعي فى الصفحة الأولى منه فيقول : هو كتاب « أردتُ به بيان شيء من حكمة الله فى شيء من أغلاط الناس »

وقدم له بمقدمة بليغة فى معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنسانى يقول فيها :

« هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مَرْقعةً جديدة ... فقد والله بليت أثواب هذا الفقر وإنها لتنسدل على أركانه مزقاً متهدّلة يمشى بعضها فى بعض ، وإنه ليلْفِقُها بخيوط من الدمع ويمسكها برُقع من الأكباد ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل وأمل إلى خيبة وخيبة إلى هم ؛ وأقبحُ من الفقر ألا يظهر الفقر كاسياً أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى الأولين ... »

والكتاب فصول شتى ، ليس له وحدة ترتبط بين أجزائه ، إلا أنه صور من آلام الانسانية كثيرة الألوان متعددة الظلال ، تلتقى عندها أنة المريض ، وزفرة العاشق ، ودمعة الجائع ، وصرخة اللهفان المستغيث ؛ فهنا صورة (الشيخ على) الرجل الذى يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس لأنه يعيش بنعمة الرضى ، وإلى جانبه قصة الغنى الشيخ الذى حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملك المال ، وهذه صاحبته الحسناء الصغيرة التى انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع فوهب لها المال ولكنه سلبها نعمة الشعور بالحياة ، وهذه ، وهذه ... من صور المساكين الذين يعيشون يحتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع

وأول أمر الرافعي فى تأليف كتاب المساكين أنه كان فى زيارة أصهاره فى (منية جناح) فلقى هناك الشيخ على ، والشيخ

على هذا رجل يعيش وحده ليس له جيب يمسك درهما ، ولا جسد يمسك ثوباً ، ولا دار تؤيه ، ولا حقل يغل عليه ؛ يجوع فيهبط على أول دار تلقاه يتناول ما يمسك رمقه ، ويدركه النوم فيتوسد ذراعه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق ، رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس ، وآمال الحياة ، ولقيه الرافعي واستمع إلى خبره فعرف من فلسفته فلسفة الحياة ، ووجد عنده الحل لكل ما في نفسه من مشكلات ، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ علي الفيلسوف الصامت في الرافعي الأديب ، واجتمعت له مادة الكتاب في مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة

ويصف الرافعي الشيخ علي فيقول :

« ... هو حليم لنفسه غضوب لنفسه، وكذلك هو في الخفة والوقار، والضحك والعبوس، والزهو والانقباض ،وفي كل ضدين منهما لذة وألم ؛ كأنه جزيرة قائمة في بحر لا يحيط بها إلا الماء فلا صلة بينهما في المادة وإن كانت هي فيه ؛ فالناس كما هم وهو كما هو يرونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى ، ويرى نفسه من دهره أقوى من يصيب بأذى ؛ ويتماشونه رأفة ورحمة ، ويتحاماهم أنفة واستغناء ؛ ثم إن مسه الأذى من رقيع أو سقيط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه فيألم وكان ألمه مرض طبيعي ، ولا فرق عنده في هذه الحال بين أن يمغص بطنه بالداء أو يمغص ظهره بالعصا ... ! وهو والدنيا خصمان في ميدان الحياة غير أن أمرهما مختلف جداً فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها ، وقهرها هو لأنها لم تظفر به ...

« ... وهو رجل سدت في وجهه منافذ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء ، فكأنه في الأرض بطل خيالي يرينا من نفسه إحدي خرافات الحياة ، ولكنه مع ذلك يكاد يخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التي لا تغذوها مادة الأرض ولا مادة الجسم ، فهي تزدري كل ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف وكل ما ردت عليك الغبطة من بسطة في الجسم أو سعة في المال أو فضل في المنزلة ؛ وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف ...

« ... فهو أجهل الناس في الدنيا وأجهل الناس بالدنيا ... وأنت إذا سطعت له بالجوهرة الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حصاة جميلة تتألق ، وإن هولت عليه بألوان الخز والديباج حسبك مائقا لم تر قط نضارة البرسيم وألوان الربيع ... »

هذا هو الشيخ علي الذي أوحى إلى الرافعي كتاب المساكين ونسب إليه القول فيه وردَّه إلى إلهامه ، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الناضج

ولقد فرغ الرافعي من كتاب المساكين في سنة ١٩١٧ ؛ وفرغ الشيخ علي من دنياه بعد ذلك بقليل ، ولكن روحه ظلت تعمل في نفس الرافعي وتملي عليه وتلهمه الرأي إلى آخر أيامه بعد ذلك بعشرين سنة ؛ والواقع أن الرافعي كان يؤمن بفلسفة التسليم والرضى فيما لا طاقة له به ، إيماناً كان مادة حياته ونظام عمله ، ويمانه ذاك هو الذي كان يفيض عليه أمارات المرح والسرور حتى في أعصب أوقاته وأحرج ساعاته ، فكنت لا تراه إلا مبتسماً أبداً أو ضاحكاً ضحكة السخرية والاستسلام

***

كتاب المساكين الذي يقول عنه المرحوم أحمد زكي باشا :

« لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير ، وهيجو كما للفرنسيين هيجو ، وجوته كما للألمان جوته »

هو كتاب اجتمع على إخراجه سيان : أهوال الحرب التي حطّت على مصر بالجوع والقحط والغلاء ، والشيخ علي الجناجي

« شبرا » **محمد سعيد العريان**

أبحاث تاريخية جديدة

الاسلام في غرب أفريقية

مدى انتشاره فى تلك الأقاليم ومبلغ أثره فى الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تابع ما نشر فى العدد الماضي

كيف عم الاسلام غرب أفريقيا

١ — فى المدة التى بين سنتى ٦٤٠و٦٤٢ تم لعمرو بن العاص فتح مصر . ومنها استطاع عبد الله بن أبى سرح وعبد الله بن الزبير فيما بعد فتح طرابلس وتونس والجزائر

٢ — وفى سنة ٦٦١ كانت واقعة صفين المشهورة وانشق بعدها قوم على على بن أبى طالب فسموا بالخوارج . وقد هاجرت فئة منهم إلى شمال أفريقية ونزلوا بشواطئ تونس ، وقد استمرت بقاياهم حتى قبيل الحرب العظمى فى جزيرة جربا Jerba . وهناك انتشرت آراؤهم . ومن هذه الجزائر انتقلت هذه الآراء إلى شمال أفريقية حتى ساحل مراكش الأطلسى ؛ وبعد سنة ٧٢٠ أصبحت الخارجية مذهب الأهلين من البربر

٣ — وفى سنة ٦٦٩ استقر حكم العرب فى شمال أفريقية ، وعين عقبة بن نافع حاكما على أفريقية (تونس الحالية) ؛ وفى سنة ٦٧٣ أنشئت القيروان لتكون حاضرة لحكم المسلمين . وفى سنة ٦٨١ تقدم عقبة نحو الغرب بجيشه حتى وصل إلى المحيط الأطلسى

٤ — وبعد سنة ٧٩٥ تولى حكم أفريقية موسى بن نصير وتقدم فى فتوحه حتى استولى على مراكش إلا مدينة سبتة Septa وهناك لم يجد العرب صعوبة فى نشر الاسلام دين الفطرة . وتمكن موسى من فتح الأندلس بعد ذلك على يد قائده البربرى طارق بن زياد

٥ — وتولى حكم أفريقية بعد هذا الأدارسة ثم الأغالبة وتبعهم أسرات أخر حتى أتى الفاطميون فورثوا الحكم وأغاروا على مصر واستقلوا بها باسطين نفوذهم على أفريقية وصقلية

٦ — وفى المدة التى بين القرن السابع ومنتصف القرن الحادى عشر كان العنصر العربى فى شمال أفريقية أقلية يمثلون فى آلاف من الجنود والحكام ورجال الدين . ولكنهم استطاعوا بمرور الزمن أن يفرضوا دينهم ولغتهم وحكمهم على ملايين من البربر

٧ — وحوالى سنة ١٠٤٥ نزل بالشاطئ الأيمن للنيل قبائل بنى هلال وبنى سليم آتين من أواسط بلاد العرب وابتدأوا يعملون على إثارة الشغب فى مصر العليا ؛ ولكى يتخلص منهم حكام مصر الضعفاء فى ذلك الحين حرضوهم على أن يغزوا شمال غرب أفريقية ، فعبر الصحراء منهم ما يقرب من المائتى أو الثلاثمائة محارب حتى وصلوا إلى حدود تونس وطرابلس واستقروا هناك

٨ — وبعد مدة يسيرة رحل إلى مصر قبائل أخرى من شبه جزيرة العرب ووصلوا إلى النيل الأوسط . وعلى النيل الأزرق (فى سنار) أنشأوا امبراطورية الفنج Fung العظيمة التى استقرت من القرن الرابع حتى القرن التاسع عشر . ومن النيل الأعلى قاد هؤلاء الأقوام حملات كثيرة متتالية نحو وسط وغرب أفريقية . ومن نسل هؤلاء تكونت قبائل لا زالت تعيش حتى اليوم حول بحيرة شادو فى دارفور وواداي وشمال السنغال ونهر النيجر

٩ — وفى القرن الحادى عشر أيضاً نشأت فرقة المرابطين . وعلى أيديهم اعتنق سكان سينيغمبيا Senegambia ونيجريا الاسلام

١٠ — وتلت دولة المرابطين دول كثيرة كدول الموحدين والحفصيين وغيرهم ، وكانت كل دولة تبدأ حكمها بنشر مذهبها الدينى ، وبالتالي كانت تدفع كثيراً من البربر أثناء نشر دعوتها إلى اعتناق الاسلام

١١ — وفى عهد الملك السعدى السادس «المنصور الذهبي» وصلت مراكش إلى أقصى قوتها ، وشملت مملكة نيجرية واسعة

١٢ — وفي نهاية القرن الخامس عشر قامت فى مصر العليا وغرب السودان أسرة مسلمة زنجية . وتولى أحد هؤلاء الزنوج الحكم ، واتخذ تمبكتو حاضرة لملكه . ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه المدينة مركزاً علمياً وتجارياً لغرب ووسط أفريقية . ولقد أثرى حفيد هذا الملك «إسحاق بن سوكيا» Ishak bin Sokya وزادت قوته وبدأ النزاع بينه وبين الامبراطور المورى moorish

أبى العباس المنصور . وتمكن الجيش المورى بقيادة جودر باشا Juder Basha من هزيمة إسحاق والاستيلاء على تمبكتو . وأتى بعد جودر قائد آخر أكثر شجاعة وإقداماً منه وهو «محمود باشا» فأتم الفتح المورى للسودان حتى وصل إلى بورنو Bornu وسنيغمبيا . ولم تتضاءل قوة الموريين إلا في القرن الثامن عشر بعد قيام النولا وهجوم الطوارق

ويقول جونستون : « ولربما كانت مراكش تستطيع أن تغزو شمال أفريقية وتحكمه فى القرن السادس عشر — لولا أن وصلها الترك ... » (1) — ونحن لا نستطيع أن نقر جونستون على هذا القول ... إلا إذا كانت الحكومة القائمة فى مراكش حينذاك قوية تستطيع أن ترد اعتداء الغرب عنها ... ولكن الحقيقة أن الحكومة فى كل بلاد المغرب فى ذلك الوقت كانت ضعيفة أمام نشاط ممالك غرب أوروبا وخاصة أسبانيا — فإنها بعد أن قضت على دولة الإسلام فيها سعت وراءه تطارده فى شمال أفريقية وغربها ... وجونستون نفسه يقول : « ولما استنجد أهل الجزائر وتونس بقراصنة الترك ضد اعتداءات مسيحي اسبانيا في القرن السادس عشر — انتهز سلطان الترك الفرصة وأنشأ مناطق تركية في الجزائر سنة ١٥١٧ وفى تونس سنة ١٥٧٣ وفى طرابلس سنة ١٥٥١ ... »

فمن هذا القول نرى أن ثورة الغضب المسيحى فى اسبانيا على المسلمين لم تكن قد هدأت ؛ بل إننا لنحسها بين ثنايا كلمات جونستون قوية ملتهبة دفعت أهل المغرب للاستنجاد بالترك ورضوا بنجدة القراصنة منهم . وحقيقة أن الترك الذين نزلوا بشمال أفريقية كانوا قراصنة لم يتعدوا الشاطىء إلى الداخل ، ولم يضموا إليهم أراضى وملكا جديداً بل اكتفوا بمهنتهم القرصنة وسلب سفن المسيحيين . ولو أنهم حاولوا ملكاً فى الجنوب لاستطاعوه ، ولغدت أفريقية الشمالية كلها مسلمة اسلاماً حقاً متصلاً بالعالم الخارجى الآن ، ولكنهم على كل حال حموا شمال أفريقية من الغرب الساحق الماحق هذه المدة الطويلة . وها نحن أولاء نسمع كل يوم عن اضطهاد الطليان والفرنسيين والاسبان للمسلمين فى طرابلس وتونس والجزائر ، ومع هذا فإن الإسلام في ذلك الحين لم تقف موجة انتشاره ، بل كان مجرد الجوار أو الاتصال بين المسلمين والوثنيين فى جميع قبائل السودان حتى حدود الكمرون — كان مجرد الاتصال كافياً لنشر الإسلام فى تلك الجهات كما سنرى بعد

لم تخضع مراكش كجاراتها للحكم التركي ولكنها تأثرت بنواح تركية مختلفة ، فقد أخذت عن الترك نظام الملبس ونظام تعبئة الجيوش ولقب الباشا وغير ذلك من الأمور ، ولكن مراكش بقيت مستقلة ، بل لقد أعلن حاكمها المنصور نفسه خليفة سنة ١٥٣٨ بعد انتصاره على البرتغال وبعد أن رأى الخلافة العباسية تنقرض من مصر ، وتنتقل إلى تركية

غير أننا سنرى أن نوع الحكم لم يكن له من التأثير قدر ما كان للثقافة الاسلامية العربية ، فمهما انتقل الحكم إلى أيدى الترك أو الإغريق أو السلاف أو الزنوج المستعربين فإن الأثر الإسلامى والثقافة الإسلامية امتدت حتى شملت كل شمال أفريقية والصومال وسناو ونوبيا وكردفان ودارفور ووادای وبورنو وأراضي الحوصا والصحراء ومعظم سينغمبيا وآفاقاً متسعة داخل حدود النيجر وعلى طول شواطىء الفلتا Uollta الأعلى كما اعتنق أهالى كل تلك الجهات الدين الجديد : دين الإسلام

جهات نجهلها

ولقد كنت أحس عند قراءتى عن هذه المناطق لذة غريبة فلقد كنت أكشف لنفسى الأستار عن آفاق واسعة شاسعة من العالم الإسلامى يجهلها معظم المصريين وتجهلها برامج تعليم التاريخ في مدارسنا المصرية ، ولكننا بعد هذا التمهيد نستطيع أن نصور الحالة التى كان عليها كل شمال أفريقية فى هذه الكلمات :

كانت موجة التأثير الإسلامى تتسع طوال العصور الوسطى فتشمل كل يوم آفاقا جديدة من شمال أفريقية ، وامتدت الموجة فشملت بعض العصور الحديثة ؛ ولكن أوسع حلقة من حلقات هذه الموجة وآخرها تلاشت بانتهاء القرن التاسع عشر ، وبتلاشيها تركت البربر المستعربين يحكمون شمال وشمال غرب أفريقية ، والترك المسلمين يحكمون شمال شرق أفريقية ، والزنوج المستعربين يحكمون النيجر والسودان الأوسط ، وبعض العرب يحكمون النيل الأعلى وساحل نوبيا ، وعرب عمان واليمن وحضرموت يحكمون ساحل أفريقية الشرقى . وامتد نفوذهم إلى الداخل حتى وصل إلى إقليم البحيرات والكنغو الأعلى

(1) الكتاب السالف الذكر ص ٦٩

ولنتحدث الآن عن أثر الإسلام فى بعض هذه الولايات كمثل للولايات الأخرى ؛ وليكن حديثنا عن نيجريا والسودان الأوسط

حضارة جديدة

كان لدخول الاسلام فى أفريقية تأثير هام على سكانها وخاصة فى السودان الغربى . ولم يقتصر تأثير الاسلام على التغيير الواضح الذى أحدثه فى الأهلين من الناحية البشرية ، بل لقد حمل معه إلى هؤلاء الأقوام حضارة جديدة منحت الأجناس الزنجية أخلاقاً وثقافة لازالت تميزهم فى حياتهم السياسية ونظمهم الاجتماعية . ولقد رأينا كيف أن كثيراً من الهجرات القبلية العديدة خلال ألف السنة الأخيرة حدثت تحت ضغط الاسلام ضغطاً مباشراً أو غير مباشر ؛ بل إننا لنرى أن ثورة الفولانى السياسية فى القرن التاسع عشر ودخول الكانمبو Kanembo إلى بورنو كان تحت تأثير الاسلام . ولقد كان للاسلام كذلك تأثير عميق فى لغات نيجريا الرئيسية ، فمعظمها تحوى كثيراً من الألفاظ العربية التى لاتزال تستعمل حتى اليوم

***

والاسلام الآن دين السواد الأعظم من سكان أرض حوصا Hausa Laud وبورنو Bornu بل لقد نفذ الاسلام إلى كثير من القبائل الوثنية التى لم يصلها التبشير المسيحى بعد ، وكما أن الاسلام دخل فى هذه الجهات من الشمال فان الشمال أشدها وأكملها إسلاماً — وإن كان الاسلام فى نوبيلاند Nupeland ويوروبالاند Yorubaland له نصيب كبير من القوة والانتشار ومع هذا فهناك مساحات شاسعة لم يدخلها الاسلام بعد

ونحن لانعرف إلا قليلاً عن حالة المسلمين خلال القرون السابقة لجهاد الفولانى . ولو أننا وثقنا بأقوال ليو الأفريقى Leo Africanus فإن أهالى كاتسينا Katsina وكانو Kano كانوا برابرة نصف عراة فى منتصف القرن السادس عشر . وعلى الجملة فالحوصا قد يكونون أيسر قيادة وأسرع تأثراً بالدعوات الدينية من غيرهم . وفى سنة ١٨٠٤ وضع الشيهو عثمان Shehu Osman (قد تكون شاه أو شيخ ثم حرفت) لبلاط جوبير Gobir نظاماً هو خير قليلاً من النظام الوثنى ، وقد بقى الأهون يصلون للموتى ويمجدون الأولياء الراحلين ويسمحون لنسائهم بالخروج سافرات . ولقد لاحظ « أولدفيلد Oldfield » فى رابا Rabba أن ابنة عثمان زايكى Osman Zaiki حاكم نوبيلاند الفولانى تحمل فى يديها زجاجات برتغالية مملوءة بالمشروبات الروحية ، فشرب الخمر وعقيدة الخلود لازلا سائدين

ولا زالت بعض الطقوس الوثنية تقام عند تولية الأمير العرش ؛ ورؤساء « اكوين Akuain » المسلمون فى هارداوا Hardaua عند انتخابهم يقدمون فروض الطاعة للشجرة المقدسة

والقرآن لديهم هو الكتاب المقدس ؛ بل إنهم ليستشفون بشرب الحبر الذى كتبت به آيات القرآن . وهم مازالوا يعتقدون فى السحر والتعاويذ ، ولكنهم يتقون شر السحر بالآيات القرآنية والأحجبة يحيطون بها رقابهم وأذرعتهم وأوساطهم

والمسلمون فى تلك الأقاليم عند بناء منازلهم يدخنون الطلاسم لتقيهم شر الأرواح الخبيثة

من هذا كله نرى أن الاسلام من الناحية الروحية لم يستطع تماماً استئصال شأفة الوثنية أو إزالة خرافاتها لانقطاع الصلة وبعد الشقة بينه فى تلك الجهات وبين ديار الاسلام القوى الحق . ولكن الاسلام من الناحيتين السياسية والاقتصادية بادى الأثر فى هؤلاء الأقوام . لقد حمل الحضارة إلى هذه القبائل المتبربرة ، ودعا جماعات الوثنيين المبعثرة إلى وحدات مرتبطة ، وسهل التجارة بين هذه المناطق وبين العالم الخارجى ، وبذلك استيقظت الغرائز التجارية الكامنة فى نفوس الحوصا Hausa والنوبى Nupe والياروبا Yaroba والبري برى Beri Beri . ؛ وحملهم على الظهور بمظهر لائق ، ورفع مستوى معيشتهم بأن خلق لهم جواً اجتماعياً راقياً ؛ وبث فى نفوس المسلمين الشعور بالعزة واحترام النفس والغير . فتفوق المسلمين فى تلك الجهات على غيرهم من الناحيتين الثقافية والسياسية يرجع إلى تعاليم دينهم ؛ فنحن لا ننسى أن الاسلام حمل إليهم فن القراءة والكتابة ...

والآن أصبح زنجى السودان بعد أن حرم عليه الاسلام شرب الخمر وأكل لحوم البشر وسفك الدماء رفيقاً لسكان العالم المتحضر

(البقية فى العدد القادم)

جمال الدين محمد الشيال

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٥٩ — فافشر ماشئت

فى (الغيث المسجم) للصفدى : حكي أن بعض الوعاظ كان على منبره يتكلم فى المحبة وأمور العشق وأحواله ، ومد أطناب الإطناب (٢) في ذلك فقام إليه بعض الجماعة وقال :

بعيشك هل ضممتَ إليك ليلى قبيل الصبح أو قبّلتَ فاها
وهل رفّت إليك فروعُ ليلى رفيفَ الأقحوانة فى نداها (٣)

فقال الواعظ : لا والله

فقال له : فافشر (٤) ماشئت ...

٢٦٠ — تغزل برجليها

قال ابن الجوزى فى الشذور : قال ثابت بن سنان المؤرخ : رأيت فى بغداد امرأة بلا ذراعين ولا عضدين ، ولها كفان بأصابع معلقات فى رأس كتفيها لاتعمل بهما شيئاً ، وكانت تعمل أعمال اليدين برجليها ، ورأيتها تغزل برجليها ، وتمد الطاقة (٥) وتسويها

٢٦١ — وإنه لمفوه

كن للمكاره بالعزاء مُقَنَّعاً فلعلّ يوماً لاترى ماتكرهُ (٦)
فلربما استتر الفتى فتنافست فيـه العيون وإنه لمموَّهُ
ولربما خزن الكريم لسانه حذرَ الجواب وإنه لمفوَّهُ
ولربما ابتسم الكريم من الأسى وفؤاده من حرِّه يتأوَّهُ

٢٦٢ — ألله ، ألله

قيل لصوفي : لم تقول : ألله ، ألله ، ولا تقول : لا إله إلا الله ؟

فقال : نفيُ العيب حيث يستحيل العيب — عيب

٢٦٣ — بين امامين

قال الحريرى : قد غلط الأصمعى فى تصغير (مختار) غلطاً أودع بطون الأوراق ، وتناقلته الرواة فى الآفاق ؛ وذاك أن أبا عمر الجرمي حين شخص إلى بغداد ثقل موضعه على الأصمعي إشفاقاً من أن يصرف وجوه أهلها عنه ، وتصير السوق له ، فأعمل الفكر فيما يغض منه فلم يرَ إلا أن يرهقه فيما يسأله عنه ، فأتاه فى حلقته ، وقال له : كيف تنشد قول الشاعر :

قد كن يخبأن الوجوه تسترا فاليوم حين بدأن للنظار (١)

أو حين (بدين) ؟ فقال له : (بدأن) قال: أخطأت ، فقال (بدين) قال : غلطت ، إنما هو حين (بدون) أى ظهرن ؛ فأسرها أبو عمر فى نفسه وفطن لما قصده ، واستأنى به إلى أن تصدر الأصمعى فى حلقته ، واحتف الجمع به ، فوقف به وقال له : كيف تقول فى تصغير (مختار) فقال : (مخيتير) (٢) قال : أنفت لك من هذا القول ! أما تعلم أن اشتقاقه من الخير وأن التاء فيه زائدة ؟ ولم يزل يندد بغلطه ويشنع به إلى أن انفض الناس من حوله

٢٦٤ — الا الماء

سئل جحظة البرمكى عن دعوة حضرها فقال : كان كل شىء بارداً فيها إلا الماء

٢٦٥ — خذه عنى

فى (الأغانى) : ولِيَ قضاء مكة الأوقص المخزومي فما رأى الناس مثله فى عفافه ونبله ، فانه لنائم ليلة فى جناح له إذ مر به سكران يتغنى :

(١) الطنب : بضم الطاء والنون وسكون النون حبل طويل يشد به البيت : الخباء

(٢) الاطناب : المبالغة فى مدح أو ذم

(٣) رف : اهتز نضارة وتلؤلؤاً (الفرع) الشعر التام . ورواية الأغانى : قرون ! والشعر للمجنون . وهناك هذه (الرواية) : مر المجنون بزوج ليلى وهو جالس يصطلى فى يوم شات فوقف عليه ثم أنشأ يقول : (بربك البيتين) فقال : اللهم إذ حلفتنى فنعم ، فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من الجمر فما فارقهما حتى سقط مغشياً عليه ، وسقط الجمر مع لحم راحتيه ، وعض على شفته فقطعها ...

(٤) الفشار والتفشير (أيضاً) فى كلام الأدباء وكتبهم كثير

(٥) طاقة الشعر أو الخيوط

(٦) مقنعا : مستمسكا ، من تقنع البطل بسلاحه : رجل مقنع مغطى بالسلاح (التاج) عن الأصمعى : حلف بعضهم بالطلاق الثلاث إن كانت العرب قالت أحكم من هذه الأبيات

(١) من أبيات فى (الحماسة) للربيع بن زياد فى رثاء مالك بن زهير العبسي وهناك : حين برزن للنظار

(٢) فى كتاب سيبويه : فاذا حقرت (مختارا) قلت مخير وإن شئت قلت : مخيير لأنك لو كسرته للجمع قلت : مخاير ومخايير

عوجى علينا ربة الهودج [(١)]

فأشرف عليه فقال: يا هذا، شربت حراما، وأيقظت نياما، وغنيت خطأ! خذه عنى! فأصلحه وانصرف

٢٦٦ — ردوها على

فى (الغرر الواضحة) أُرْتِجَ على الحجاج في صلاته فلم يجسر أحد أن يهديه لما ضل عنه، فتلا قوله تعالى «رُدُّوها عليَّ» فردت عليه. فلله دره! ما أحسن ما أجال فكره حتى أدرك به الفهم العازب، ولم تبطل صلاته بكلامه. قيل للحسن (البصرى): أتى رجل صاحباً له في منزل، وكان يصلى فقال: أدخل؟ فقال في صلاته «أدخلوها بسلام آمنين» فقال الحسن: لا بأس

٢٦٧ — زلق وقع فى الطين

فى (صيد الخاطر) لابن الجوزى: مازال المتيقظون يأخذون الاشارة من مثل هذا [(٢)] حتى كانوا يأخذونها من هذا الذي تقوله العامة ويلقبونه بـ (كان وكان) فرأيت بخط ابن عقيل عن بعض مشايخه الكبار أنه سمع امرأة تنشد:

غسلت له طول الليل فركت له طول النهار
خرج يعاين غيرى زلق وقع فى الطين

فأخذ من ذلك إشارة معناها: يا عبدى إني حسنت خلقك وأصلحت شأنك، وقومت بنيتك، فأقبلت على غيري فانظر عواقب خلافك لى. وقال ابن عقيل: وسمعت امرأة تقول من هذا (الكان والكان) وكان كلمة بقيت فى قلبها مدة:

كم كنت بالله أقل لك لذا التوانى غائلة
وللقبيح خميرة تبين بعد قليل

قال ابن عقيل: فما أوقعه من تخجيل على إهمالنا لأمور غدا تبين خمائرها!

٢٦٨ — المتنبي الأول

فى (المختلف والمؤتلف) للآمدى: كان الأخطل الضبعى شاعراً، وادعى النبوة، وكان يقول: لمضر صدرُ النبوة ولنا عجزها. فأخذه عمر بن هبيرة فقال ألست القائل:

لنا شطر هذا الأمر قسمة عادل متى جعل الله الرسالة تُرتَّبا [(١)]

قال: وأنا القائل:

ومن عجب الأيام أنك حاكم على، وأنى فى يديك قصير [(٢)]

قال: أنشدنى شعرك فى الدجال [(٣)]. قال: اغرب ويلك! فأمر به فضربت عنقه

٢٦٩ — فرجت وكان يظنها لا تفرج

فى (الغرر والدرر): أمالى أبى القاسم المرتضى: روي الصولى أن منشداً أنشد ابرهيم بن العباس وهو فى مجلسه فى ديوان الضياع:

ربما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال [(٤)]

قال: فنكت بقلمه ثم قال:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرْعاً، وعند الله منها مخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج [(٥)]

فعجب من جودة بديهته

٢٧٠ — وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

فى (مؤنس الوحدة) لابن الأثير:

أهدى إلى سيف الدولة صدقة بن منصور بن مزيد كتاب ففتحه لينظر فيه، فوقعت عينه منه على هجاء بنى أسد فأطبقه ثم قال:

وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

اصلاح

فى النقلة (٢٥٠) فى البيت الثانى: (وكيف) والصواب: (كيف)

---

(١) أى راتبة فى واحد. في اللسان والتاج: أمر ترتب على تفعل (بضم التاء وفتح العين) أى ثابت. وتاء ترتب الأولى زائدة

(٢) محبوس

(٣) مسيلمة وفيه يقول الأخطل الضبعي:

لهفاً عليك أبا ثمامة لهفاً على ركنى شمامه
كم آية لك فيهم كالبرق يلمع فى غمامه!

والأحنف يقول فيه: ليس بنبي صادق ولا متنبئ حاذق

(٤) فرجة: كشفة، خلاص. وهى مثلثة كما فى التهذيب وفى اللسان والتاج وغيرهما بالفتح فى الأمر، وبالضم فى الحائط ونحوه. والبيت منسوب إلى كثيرين منهم أمية بن الصلت

(٥) المخرج فى ابن خلكان والبغدادى. (كملت) تمت. وفي ابن خلكان ضاقت، وفى هذا يقال: إنه ما ردد هذين البيتين من نزلت به نازلة إلا فرج الله تعالى عنه

---

(١) للعرجى، والعجز: إنك إلا تفعلى تحرجى

(٢) أى من شعر أوقول يسمعونه فينتفعون به

غنى ...؟! (١)

للأستاذ سيد قطب

غنية أنت بالتعبير قد ذخرت   أطواء نفسك منه زاد أحقاب
وهبتني منه أشتاتاً منوعة   وزدتني منه في جود وإسهاب
في كل جارحة عنوان ملحمة   من الحديث، وسر جد جذاب
تقص تاريخها في فن راوية   منسق النبر ذي لحن وإطراب
وإن تاريخها أقصوصة جمعت   تجارب الكون في أحلام أرباب
تجارب الكون في سحر وفي فتن
من نضرة الروض أو من وحشة الغاب
ومن سناء الدراري في تألقها
ورهبة الكون في جنح الدجى الخابي
ومن غموض الصحاري في مجاهلها
والعيلم الرحب يطغى جد صخاب
ومن صيال الضواري في تقحمها   ومن أغاريد أطيار وتنعاب
وفرحة الظافر النشوان خافقة   تختال معجبة في خطو وثاب

***

هذا حديثك بينا أنت صامتة   وعيته كله في صمت محراب
فهل بلغت مدى ما أنت زاخرة   من التجارب في خلق وإنجاب؟
لا. لا وحقك لم أبلغ سوى طرف   من الحديث على وفر وإطناب
وخلف ذلك كنز كله طرف   يزيد مذخوره في كف وهاب
وإن عندك ما تعطينه أبداً   للسائلين بإفصاح وإعراب

***

العين. ماذا تقص العين من خبر   مسلسل في حنايا النفس منساب؟
وما الذي أبدعت للفن إذ همست   للأمنيات فلبت بضع أسراب؟
وأفصحت عن حنين كامن وهوى
يسري الهوينى شفوفاً بين أهداب؟

***

والثغر. ماذا يبث الثغر من قبل
في صمته العذب، بل في سحره السابي
وإن فيه لقبلات قد ارتسمت   من بعد ما نضجت، للآثم الصابي

***

والجسم. ماذا يقول الجسم قد خفقت
فيه الحياة، وتاهت تيه غلاب؟
يقول ما تعجز الدنيا برمتها   عن أن تقول بتصوير وإعراب

***

خلاصة أنت من فن الحياة حوت   جميع ما تبدع الدنيا لإعجاب
غنية أنت بالتعبير قد ذخرت   أطواء نفسك منه زاد أحقاب

(حلوان)   سيد قطب

(١) من ديوان «أصداء الزمن» يصدر أول ديسمبر

يأس

للسيد جورج سلستي

يا حبيب الفؤاد أسرفت في الصد   وإني من غير صد أذوب!
وتجنيت يا حبيبي ومن غير تجن تكاد روحي تزهق!
شف جسمي النوى فبت ولي جسم بخيط من الدماء معلق!
فترفق فدتك روحي فمالي   بين كل الورى سواك حبيب!

***

يا حبيبي أحس من ألم البعد وشجو النوى بقلبي يبكي
وبصدري المكبوت أرمضه الحب   فأدمى منه الحنايا الحرارا
وبرأسي كأنما سورة اليأس أطاحت بلبه فاستطارا
يا لقلبي الباكي وصدري المدمى   من حبيب قضى بهجري وتركي!

***

إيه يا هاجري جراحي تناديك وقلبي اللهيف يهفو إليكا!
كل ما بي يدعوك فارجع بحق الوفا إلي قبل وفاتي (١)
عد ولو ساعة أمتع عيني   بضاحي مرآك قبل مماتي
ذاك حسبي من الحياة ودعني   بعد هذا أموت بين يديكا!

جورج سلستي

(١) كذا

من طرف أهل الحرف

ذكرتني مقالة الأديب البحاثة الأستاذ مصطفى جواد البغدادى (الأدباء المحترفون) وما رواه فيها من سيرة (الخبزأرزى) وشعره بإخوان له فى الأدب والحرفة ، فرأيت أن أملى بعض طرائفهم مضافاً إلى تلك المقالة البغدادية فى (الرسالة الغراء) :

قال على بن ظافر : كان الوزير أبو بكر بن عمار كثير التطلب لما يصدر عن أرباب المهن من الأدب الحسن فبلغه خبر (ابن جامع الصباغ) فمر على حانوته وهو آخذ فى صناعة صباغته ، والنيل قد جر على يديه ذيلا ، وأعاد نهارهما ليلا ، فأراد أن يعلم سرعة خاطره، فأخرج زنده ويده بيضاء من غير سوء وأشار إلى يده وقال:

كم بين زند وزند ؟

فقال ابن جابر :

ما بين وصل وصد

فعجب من حسن ارتجاله . ودخل ابن عمار هذا سَرَقُسْطة فبلغه خبر يحيي القصاب السرقسطيّ ، فمر عليه ولحم خرفانه بين يديه ، فأشار ابن عمار إلى اللحم وقال :

لحم سباط الخرفان مهزول

فقال يحيي :

يقول للمفلسين : مَهْ ، زولوا

وكان يحيي السرقسطى ترك مهنته مدة ثم عاد إليها فكتب إليه الوزير أبو الفضل بن حسداى :

تركتَ الشعر من عدم الاصابه ... وملت إلى الجزارة والقصابه

فأجابه يحيي :

تعيب عليّ .ألوف القصابه ... ومن لم يدر قدر الشئ عابه[1]
ولو أحكمت منها بعض فن ... لما استبدلت منها ذى الحجابه[2]
وإنك لو طلعت عليّ يوماً ... وحولى من بنى كلب عصابه
لهالك ما رأيت وقلت هذا ... هزبر صيّر الأوضام غابه
فتكنا فى بنى العترى فتكا ... أقر الذعر فيهم والمهابه
ولم نقلع عن الثورىّ حتى ... مزجنا بالدم القانى لعابه
ومن يعتز منهم بامتناع ... فإن إلى صوارمنا إيابه[3]
ويبرز واحد منا لألف ... فيغلبهم وتلك من الغرابه

وحقك ما تركت الشعر حتى ... رأيت البخل قد أوصى صحابه
وحتى زرت مشتاقاً حميمى ... فأبدى لى التجهم والكآبه
وظن زيارتي لطلاب شىء ... فأقصاني وغلّظ لى حجابه

وكان مظفر الذهبي مصوراً ؛ ومن قوله :

كلفت بتصوير الدُّمى فى شبيبتى ... وأتقنتها إتقان حر مهذب
وحاولت عنها رجعة ومدحتكم ... فلم أخل من تزويق زور مكذب

وكان نجم الدين يعقوب بن صابر منجنيقياً ؛ ومن شعره :

كلفت بعلم المنجنيق ورميه ... لهدم الصياصى وافتتاح المرابط
وعدت إلى نظم القريض لشقوتى ... فلم أخل فى الحالين من قصد حائط

قال ابن خلكان : كان ابن صابر المنجنيق جندياً فى ابتداء أمره ، مقدماً على المنجنيقيين ببغداد ، ولم يزل مغرًى بآداب السيف وصناعة السلاح والرياضة ، ولم يلحقه أحد من أهل زمانه فى فهمه لذلك ، وصنف كتاباً سماه (عمدة السالك فى سياسة الممالك) يتضمن أحوال الحروب وتعبئتها وفتح الثغور وبناء المعاقل ، وأحوال الفروسية والهندسة والمصابرة على الحصاز ، والقلاع والرياضة الميدانية ، والحيل الحربية الخ ؛ وكان شريف النفس متواضعاً ، وهو شاعر مجيد ذو معان مبتكرة ، وجمع من شعره كتاباً سماه (مغانى المعاني) وكانت له منزلة لطيفة عند الامام الناصر ، توفى سنة ٦٢٦ . ولابن صابر :

قالوا بياض الشيب نور ساطع ... يكسو الوجوه مهابة وضياء
حتى سرَت وخطاته فى مفرقي ... فوددت ألاّ أفقدَ الظلماء
وعدلت أستبق الشباب تعللا ... بخضابها فصبغتها سوداء
لو أن لحية من يشيب صحيفة ... لمعاده ما اختارها بيضاء

ومن الأدباء المحترفين السراج الوراق وأبو الحسين الجزار ونصير الدين الحمامى . قال ابن حجة فى (خزانته) : «وتعاصر السراج هو وأبو الحسين الجزار والنصير الحمامى وتطارحوا كثيراً وساعدتهم صنائعهم وألقابهم فى نظم التورية» ومن قول السراج الوراق :

ياخجلتى وصحائفى سود غدت ... وصحائف الأبرار فى إشراق
وموبِّخ لى فى القيامة قال لى : ... أكذا تكون صحائف الوراق ؟!

وقال الجزار :

كيف لا أشكر الجزارة ماعشت حفاظاً وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وكتب إليه نصير الدين الحمامي :

ومذ لزمت الحمام صرت به ... خلا يدارى من لا يداريه

---

(١) تعيب على الخ : أراد تنعى عليّ
(٢) الحجابة فى الاندلس بمنزلة الوزارة (٣) يغتر فى رواية



من أساطير الاغريق

مصرع بروكريس

للأستاذ دريني خشبه

رأته أورورا حينما كان الصبح يتنفس أنفاسه الندية العطرية يثب فوق الجبال ويصيد الوحوش بين الأدغال، فهامت به، ووقفت تعبده، وتروى من جماله، وتسق نفسها الصادية أبداً إلى كل ريان مفتان ... وحاولت أن تكلمه فشاح بوجهه، وتصدت له فأعرض عنها، ثم انطلق فى أثر ظبي فلم يزل به حتى أرداه وانحنى يحمله ... ولكنه وجد مكانه أورورا ...! وجدها متجردة تمرّغ جمالها تحت قدميه، فنفر نفرة جرح بها كبرياء ربة الفجر الوردية، وجعلها ترمقه بعيني أفعي، تودلو تنفث في صدره سمها فترديه

« أنا أورورا، ربة الفجر والندى، حبيبة الزنبق والبنفسج والورد، لا أروق هذا الأنسىّ المخلوق من تراب !! وحق أبي لآسرنه ولأسجننه، ولأجعلنه يتلوى تحت قدمى، ويبكى من أجل قبلة أمن بها عليه ! »

وأرسلت رُقية من رُقاها الساحرة فنشرت الظلام على عينيه والنسيان في قلبه، وبات لا يملك لنفسه حلاً ولا عقداً ... ثم حملته إلى كِناسها (١) فى شعاف الأولمب، وحبسته ثمة، وأذهبت عنه طائف السحر فأدرك ووعى، وهب مذعوراً، ثم غرق فى شيء كالحلم لما رأى العماد من ذهب، والطنافس من عجب، والكأس حفها الحبب، والنّدامى والطرب، وكل راقصة كالخيال يراقصها أمرد كالطيف، فتميل وتختال، ويتأوّد كالسيف ... وأورورا مع هذا وذاك تدل وتتبرج، وتفوح وتتأرج، كأنها ربيع بأكمله، زخرف الدنيا بالزهر، ووشاها بالروض، وابتعث فيها المرح والحياة

— أين أنت إذن ؟ سيفال ! أين أنت ؟

— أين أنا ؟

— ألا تعرف ؟ هذه غُرُفات الأولمب !

— الأولمب ؟ !

— أجل ... أولمب أربابك

— محال ! لن يكون الأولمب هكذا !

— وله ؟

— لأن الأولمب مأوى الصالحين ! أليس الآلهة أجدر منا بالتقوى ؟ ما هذا ؟ أخمر ورقص وطرب ... وفسق فى الأولمب ؟ لا ... ليس هذا الأولمب ... لن يكون الأولمب هكذا ! !

— بل هو الأولمب يا سيفال ! وليس ما ترى هنا إلا قليلا

(١) الكناس بالكسر بيت الظبي

أعرف حر الأشيا وباردها ... وآخذ الماء من مجاريه

فأجابه أبو الحسين الجزار :

حسنُ التأني مما يعين على ... رزق الفتى والحظوظ تختلف (١)

والعبد مذ صار فى جزارته ... يعرف من أين تؤكل الكتف

وفى (كتاب المغرب في حلى المغرب) : حضر الجزار بين يدى الصاحب الكبير كمال الدين بن أبي جرادة مودعاً وقد أزف رحيل الصاحب عن مصر سنة (٦٤٥) فاتفق أن وجه سلطان مصر شيئاً من التمر الذى يصل من أعلى الصعيد فى المركب المبشر بزيادة النيل على وجه البرَكة، فأمر الصاحب أن يقدم فأكل الجزار فى جملتهم، وقال فى ذلك ارتجالاً فأتى بأبدع تورية.

أطعمتنا التمر الذى ... للبركات قد حوى

لله ما أطيبه ! ... لو لم تشبه بالنوى

« الاسكندرية » (***)

(١) تأنى للأمر : ترفق له

مما هناك ! هل ترى ڤينوس ؟ ألم تصل لها ؟ أنظر من هذه الكوة فهي تطل على حديقتها !

— وأنا ما شأني ؟ أريد أن أذهب !

— تذهب ؟ تذهب إلى أين يا سيفال ؟ لن تبرح عاكفاً على الفو الذي ترى !

— لا ، لن يقوي الأولب كله على قهرى !

— ها . ها ... مضحك ... أنت مضحك يا سيفال ! كل الأولب ؟

— أؤكد لك !

— ولِمَهْ ؟

— لأنى أحب زوجتى وأقدسها ... إنها جميلة جدا

— أجمل من أورورا ؟ ! أليس كذلك ؟

— أجمل من أورورا لدى كل من ينظر بعيني زوج أمين مخلص !

— أنت عنيد يا سيفال ! إنك تزدريني !

— بل أنا أنتصر للفضيلة التى كان ينبغي أن تتنزل علينا من الأولب ! من جاء بى هنا ؟

— أنا ...

— ولماذا ؟

— أنت تعرف !

— لا أعرف شيئاً ... والذى أعرفه لايليق بشرف ربة ! أرجو أن تطلقي سراحى !

— إذن أنت تفضل عليّ زوجتك ! أهي أجمل مني ؟ ألا تزال تعتقد هذا يا سيفال ؟

— أنا أفضل زوجتى لأنها لم تتلوث ... ولا زلت أقول إنها أجمل منك لأنني أنظر إليها بعينيّ لا بعينيك !

— زوجتك أجمل من ربة الفجر الوردية ؟

— أجمل من ربات الأولب جميعاً ، إلا من تجملن بمثل روحها ، ولست منهن !

— أيها التعس !

— ولم أكون تعساً وأنا أسعد الناس بزوجتي بروكريس !

— بروكريس ! ها ! عرفتها ! إحدى وصيفات ديانا ! حقيرة مثلك ! أغرب من وجهى أيها القذر ! إذهب ! إذهب إلى زوجتك بروكريس التى تفضلها على أورورا ؛ ستتمنى يوماً أنك لم تعرفها ، وأنها لم تكن زوجتك ... إذهب ... إذهب ! »

***

وبلغ بيته وهو يلهث من التعب ، ويرتجف مما ألم به ، فلقيته زوجته الجميلة الحسّان بابتسامة شفت صدره ، وقبلة ذات حميّا أذهبت بعض ما وجد ... إلا أنه كان ينتفض آنة بعد آنة ، ويعود فيبتسم ، ثم تغرورق عيناه بدموع نقية كاللؤلؤ كلما نظر إلى زوجته ، حتى هجس وسواس فى قلب بروكريس فقالت له :

— ماذا يا سيفال ؟ أتخفى عنى ذات صدرك ؟

— كلا ، ولكنها أورورا ...

— ماذا ؟ ماذا صنعت بك ربة الفجر ؟

كانت تحاول أن تسحرني عنك ... أو ... تشركني فيك على الأقل ؟ !

— ... ؟ ...

ولكنها فشلت ... لقد أذللت كبرياءها

— وهل استطعت ؟ إنها جميلة وصناع ، ولها فى الغزل الصارخ أساليب خارقة يا سيفال ...

— لقد قهرتها وأساليبها ... إن قطرة من معين إخلاص تطفئ لظى جحيم يا بروكريس !

— لاريب يا حبيبي ... أنا أمزح فقط ... سيفال ، عندى لك مفاجأة طيبة

— مفاجأة ! أية مفاجأة يا بروكريس ؟

— تعال ... افتح هذه الغرفة

— أوه ! ماهذا ... كلب عظيم ، من أين يا بروكريس ؟ إنه سينفعنى كثيراً فى صيدى

— ومفاجأة أخرى أعظم ! أنظر فى ركن الغرفة !

— هه ! حربة ! لم أر قط مثل هذه الحربة ! إنها ليست من صنع بشر ! آه ! إنها من صنع ڤلكان لاشك ! البشر لايجيدون أن يصنعوا مثل هذه !

— إحزر إذن ممن الهديتان ؟

— من الملك !

— وأنى لي أن يهدى الملك إليّ ؟

— ممن إذن ؟

— إحزر !

— لا أدري !

— إنهما من ديانا يا سيفال : أهدتهما إلى هذا الصباح !

— من ديانا ؟ آه ! لقد ذكرت ذلك أورورا ماذا ذكرت لك أورورا ؟

— أنك كنت إحدى وصيفاتها !

— وأي ضير عليَّ أو عليك في هذا ؟ أليست هي إحدى تابعات أبوللو ؟ لقد كانت وما تزال تتمنى أن لو كانت إحدى وصيفات ربة القمر !

— لا ضير ، لا ضير يا بروكريس

— إني أهب لك ما أهدت ديانا إلى !

— أشكرك !

— الكلب لا تسبقه الريح ، والحربة لا تخطئ الغرض

***

وظل سيفال يعود أصيل كل يوم إلى زوجته مثقلاً بشتى أنواع الصيد ؛ وأحب كلبه وحربته حباً لا يعدله إلا حبه بروكريس

واشتهر أمر الكلب في الإقليم كله ، وذاع صيته ، حتى لقد أخطأ بعض افراد الشعب في حق بعض الآلهة ، فسلط عليهم ثعلباً سِلْقاً[1] لم يستطيعوا مكافحته ، ولم تقو كلابهم له على طراد ، فاجتاح ماشيتهم ، وأتى على دجاجهم ، وعاث في حقولهم ، ونفش في زروعهم ؛ ولم يدروا كيف خلاصهم منه ، حتى سمعوا بكلب سيفال فرجوه فيه ، كيما يطلقه في أثر الثعلب فيريحهم من شره ...

وانطلق ليلاب — وهذا هو اسم الكلب — وراء الثعلب ، كما يمرق السهم عن القوس ، أو كما تمرق النظرة الخاطفة عن العين النجلاء ؛ وما انفك يحاوره ويداوره ، وينبح به فيزلزله ، حتى همَّ أن يفتك به ويمزقه إرباً ... ولكن حدث أن كانت الآلهة تطلع من ظلال الاولب ، تتفرج بهذا الطراد ، وتشرح صدورها بمرآه ، فالتفت بعضها إلى بعض ، وعز عليها أن يقتل كلب إلهى ثعلباً إلهيًّا أمام الملأ من الناس ، فقضوا لتوهم أن ينقلب الاثنان فيكونا تمثالين من المرمر الناصع ، فهما كذلك إلى اليوم ! !

وأسف سيفال على كلبه ، وانقلب على عقبيه غضبان صعقا ... ولم يزل في كل يوم ، وفي مثل تلك الساعة التي حاقت بكلبه العزيز هذه النازلة ، يتوجه إليه ، ويقف قليلاً عنده ، حانًّا لذكراه ، آنًّا على ما حل به ، ثم ينطلق بعد ، وفي يده رمح ديانا ، فيصيد الظباء وليس معه ليلاب

وانطلق مرة في إثر ظبي فأنهك قواه ، ونال منه الإعياء ، وانسدح على العشب الأخضر في فيء دوحة باسقة ، ثم راح يتخلج[2] من شدة التعب ؛ وكان الوقت ظهراً ، وكان القيظ قد أجج الدنيا حوله ، فتفصد[1] العرق من جسمه المنهوك ، وتراخت عضلاته ووهنت روحه ، وأنشأ يردد كلاماً كالأغنية يرسله هكذا :

أين أنت يا نسمة ؟ يا ابنة الربيع اللعوب
يا منعشة الروح المتعبة ، أين أنت ؟
هلمى يا نسْمة ، هلمى إلى سيفال ،
فهو مشوق إليك ، يرجو لو تنفسين عنه ؛
هلمى يا نسمة ففرجى عن سيفال المضنى ،
وهبى على رأسه الملتهب ، وصدره المكروب ؛
لقد كنت يا نسمة ، يا أحلى قُبَل الحياة ،
تداعبين جبينى ، وتنعشين نفسى ،
فماذا حال بينك وبينى ، يا نسمة الربيع ،
وساقية الحب ، ورسول المحبين ...

وكانت أورورا ما تفتأ تتعقب سيفال في كل فج ، وترقبه في كل حنيّة ؛ وكانت تقف في صورة بابل فوق رأسه ، مختبئة في أفنان الدوحة التي نام في ظلها ؛ فلما سمعته يتغنى غناءه ، ضحكت واستبشرت ، وانتهزتها فرصة نادرة للايقاع بينه وبين زوجته ، وانطلقت من فورها إلى بروكريس ، حيث تكشّفت لها في صورة إحدى صويحباتها :

— بروكريس !

— مرحباً بأعز الحبيبات ، ماذا جاء بك في هذا القيظ ؟

— نبأ أسود ما كنت أوثر أن أحضر إليك به !

— نبأ اسود ؟ يا للهول ! ماذا ؟

— أرجو ألا أثير سخطك على ...

— كلا ... كلا ... عجّلى أرجوك !

— سيفال !

— ماله ؟

— أتذكرين يوم رويتِ لى ما كان من أمره مع أورورا ؟

— لم أنس ! ولكن مال سيفال ؟

— يبدو لى أنى لم أكن مصيبة في تبرئته ! لقد نفيت شكوكك فيم ذهبت إليه من الميل إلى ربة الفجر ، وقلاه لك لما عرف أنك كنت وصيفة ديانا !

— وماذا حدث بربك ؟

— إنه يحب فتاةً اخري اسمها نَسْمة ! إنه مولع بها أشد الولوع !

---

(١) السلق : الذئب واستعمل هنا صفة

(٢) يشكو من التعب ويضطرب

(١) جرى وتصبب

— لا أصدق !

— لا تصدقين ؟ وهل أنا كاذبة ؟

— وكيف عرفتِ ؟ هل أوحىَ إليك ؟

— بل سمعته يهتف باسمها ، ويشدو بحبها ، ويتغنى أحر الغناء !

— لا أصدق ، لا أصدق ، سيفال لا يحب واحدةً سواى !

— هل لك فى أن تسمعي غِناءه بأذنيك ياصديقتى !

— وأين هو ؟

— قريب من الدَّغل الذى عند النبع ... سأحضر لك حصاناً صافناً

وغابت أورورا ، ولم تلبث طويلاً ، بل عادت بعد هنيهة ومعها حصانان مطهمان ، ركبتاهما وأسرعتا إلى الدغل ... وكان فؤاد بروكريس يخفق كالعاصفة ، وكان وجهها قد شحب وامتقع حتى صار كالليمونة ، وكانت ألف فكرة تزحم رأسها وتثور فيه كالبركان ، وكانت ما تنفك تحدث نفسها بالهواجس فتقول : « نسمة ؟ ترى ما نسمة هذه ؟ عروس من عرائس البحر ؟ أم غادة من غيد السوق ؟ أم ربة كأورورا من ربات الأولمب ؟ أهى جميلة ؟ أهي أجمل منى ؟ ألها عينان كعيني ؟ ألها روح تستطيع أن تمتزج بروح سيفال بقدر ما امتزجت به روحى ؟ أهكذا ياسيفال ؟ لقد غلبت اليقين على الشك يوم أن ذكرت لى أمر أورورا معك ، فلم تعد الشكوك لتفترسنى ؟ يا ترى ؟ ألست تعود إلىّ أصيل هذا اليوم مثقلاً بصيدك كسابق دأبك ؟ حنانيك يا آلهة السماء ! » فكانت زفراتها لا تخفى على أورورا ، فكانت هذه تسليها وتواسيها

واقتربا من الدوحة التي نام تحتها سيفال وراح يغنى ... وأشارت أورورا إلى الزوجة البائسة فاختبأت فى الحشائش الطويلة القريبة من سيفال ، بعد أن تركت جوادها بعيداً من المكان ... وهناك أنصتت بكل سمعها وقلبها ، فسمعت زوجها ما يزال يتغنى باسم نسمة ويقول :

يا نسمة إلامَ أهتف بك يا نسمة !
يا نسمة يا أحب شيء فى هذا الحرور !
تعالى قبّلى خدّىّ ووجنتىّ وجبينى !
كم أنا مشتاق إلى نسمة يا سماء !
فابعثيها رَخيةً ندية ، عليلةً بليلة !
تنعش فؤادى وتثلجُ برفيفها صدرى

وكان ماخافت بروكريس أن يكون : فها هو ذا سيفال يهتف باسم حبيبته نسمة ويتغنى ، ويتمنى لو جاءته تقبل خديه ووجنتيه ؛ وهاهو ذا يضرع إلى السماء أن ترسلها إليه رخيةً نديةً تشرح الصدر وتثلج الفؤاد ... فماذا بعد هذا ؟ وأى برهان وقد سمعت الأذنان ؟ « إذن ، لقد كذب علىّ فى الأولى ، ولن يكذب علىّ فى الثانية ... إذن لقد صبا فؤاده إلى أورورا ، وما زال فؤاده يصبو إلى الغانيات من كل جنس وفى كل فج ... آه للنساء الضعيفات من الرجال الأقوياء ... ويلى عليك ياسيفال ... ويلى عليك وألف ويل !

وعاثت الوساوس فى صدرها ، وانقلبت أضواء الظهر الساطعة ظلاماً داجياً في عينيها الحزينتين ، فأرسلت آهةً عميقةً قطعت بها على سيفال غناءه ، فهب الفتى مذهولاً مروّعاً ، وحسب أن وحشاً يتربص به فى الحشيش ، فجمع قوته ، وتناول حربته — حربة ديانا التي لا تخطىء — وأطلقها إلى المكان الذى صدرت منه الهمهمة ، وذهبت الحربة لتستقر فى صدر بروكريس!! وا أسفاه !

لقد جرى سيفال ليرى هذا الصيد الجديد ، فماذا رأى ؟

— بروكريس ؟ ؟ يا للهول ؟ أهو أنت ؟

— ... ؟ ...

— وماذا جاء بك الساعة يا حبيبتي ؟

— لا ... شيء ... فقط ... لا تتزوج ... نسمة ، من بعدي!

— نسمة؟ أوه ! إنها لا شيء ... لقد كان الجو متأججا من الحر يا حبيبتى ... وكنت أتمنى أن تهب علىَّ نسمة من الريح تروح على ! ...

— أحق ... هذا ؟ ...

— هذا هو الحق وحبك يا بروكريس

— إذن ... سلام ... عليك

— بروكريس ! بروكريس ! لا ! لا تغمضى عينيك دونى ؟ إفتحيها لسيفال !

* * *

ولكنها ماتت ... وماتت بيد زوجها وحبيبها الأمين الوفى! وودعت الحياة وليس فى قلبها أثارة واحدة من الشك فى حبه وإخلاصه ...

وأرسل الفتى أنينه في الآفاق ، ورفع وجهه ليقلبه فى السماء بالشكوى ، ولكنه رأى ... أورورا .. واقفة تبتسم وتضحك.. فجن جنونه ... وانطلق هائماً على وجهه ، لا يلوى على شىء ، ولا ترقأ له دموع ... حتى مات !

دريني خشبة



حادث عظيم في الصحافة البريطانية

وقع في يوم أول أكتوبر الجارى حادث عظيم فى الصحافة الانكليزية بل فى الصحافة العالمية بأسرها ، فقد اختفت جريدة « المورنن بوست » أقدم الصحف اليومية الانكليزية ، وفقدت كيانها المستقل لتندمج في منافستها القوية جريدة « الديلي تلغراف » . ومنذ أول أكتوبر تصدر الديلى تلغراف باسمها الجديد وهو « الديلى تلغراف والمورنن بوست » ونستطيع أن نقدر أهمية هذا الحادث الصحفى متى علمنا أن « المورنن بوست » قطعت إلى اليوم مائة وخمسة وستين عاماً من حياتها المستقلة ، وأنها لبثت مدى حياتها الطويلة دائماً من أعظم الصحف البريطانية وأقواها نفوذاً .

وقد انشئت المورنن بوست فى سنة ١٧٧٢ ، واستمرت تصدر بانتظام حتى اليوم وكانت نزعتها دائماً دستورية محافظة ، ولكنها كانت تصطبغ دائماً بنزعة استعمارية وامبراطورية عميقة ، وكانت دائماً أشد الصحف البريطانية معارضة للسياسة التحريرية ، ومن ثم فقد كانت أشدها خصومة لسياسة الحكم الذاتى سواء فى ارلنده أو الهند كما كانت من أشدها خصومة للحركة الوطنية المصرية وللمعاهدة المصرية الانكليزية . أما جريدة « الديلى تلغراف » منافستها القديمة ووراثتها اليوم فقد أنشئت في يونيه سنة ١٨٥٥ ، على يد أسرة لادسون الشهيرة ، واستمرت تحت إشرافها وإدارتها حتى سنة ١٩٢٨ إذ انتقلت ملكيتها من اللورد برنهام آخر أصحابها من أسرة لادسوف إلى اللورد كامروز صاحبها الحالى .

وكانت الديلى تلغراف أول جريدة انكليزية بيعت بينس واحد (أربعة مليمات) وهو ما اعتبر يومئذ مغامرة صحفية جريئة لأن الصحف كانت تباع يومئذ بأربعة إلى خمسة بنسات ، وكان صدورها فى أربع صفحات فقط . أما اليوم فهي تصدر فى اثنتين وثلاثين صفحة من القطع الكبير وتباع أيضاً بينس واحد

ونشأت « الديلي تلغراف » حرة في نزعتها السياسية ، وكانت تناصر سياسة جلادستون فى أواخر القرن الماضى ، ولكنها تطورت فى اتجاهها السياسي شيئاً فشيئاً حتى غدت محافظة اتحادية وأخذت تشاطر منافستها القديمة نزعتها الاستعمارية ، ولكن بأسلوب أكثر اعتدالاً وأقل تطرفاً ، وجمعت الديلى تلغراف أقطاب الكتاب فى أواخر العهد الفكتورى ، وتألق فيها نجم طائفة كبيرة من أعاظم الصحفيين ؛ وتولت الانفاق على بعثة استانلى الاكتشافية سنة ١٨٧٤ — ٧٧ . ومن أشهر مواقفها الصحفية حديث نشر للقيصر سنة ١٩٠٨ ولهلم الثانى ، فكان له أعظم صدى ، وكاد يزعزع عروش آل هو هنزلرن ، وكان من نتائجه أن استقال البرنس فون بيلوف رئيس الحكومة الألمانية .

والديلى تلغراف اليوم من أكبر الصحف الانكليزية حجماً ، وأعظمها نفوذاً ، وأوسعها انتشاراً ؛ وقد كانت تطبع حتى سنة ١٩٢٨ ، أعنى أيام أن كانت فى حوزة اللورد برنهام ٨٤ ألفاً ، ولكنها مذ خفضت ثمنها ثانية إلى بنس واحد فى سنة ١٩٣٠ ، ارتفع عدد المطبوع منها إلى ٥٣٢ ألفاً وهو رقم انتشارها اليوم

وقد صدرت الديلى تلغراف عددها الأول فى عهدها الجديد بعد أن ضمت إليها منافستها القديمة بكلمة مؤثرة قالت فيها إنها ترحب بقرائها الجدد قراء المورنن بوست القدماء ، وأنه إذا كان اختفاء المورنن بوست تلك الجريدة الدستورية القوية يعتبر محنة قومية ، فان القراء يستطيعون بعطفهم ومؤازرتهم أن يخففوا وقعها ، وانها باحتفاظها باسم منافستها القديمة إلى جانب اسمها تدلل على ولائها للقضية المشتركة التى دافعتا وما زالتا تدافعان عنها . وأعلنت فى مقال آخر ، سردت فيه تاريخ الجريدتين ، أنها سوف تحافظ أبداً على مبادىء الولاء والحرية والتسامح التى سارت عليها حتى اليوم ، وستكون أبداً عند حسن ظن قرائها وأصدقائها

الكتاب المصريون باللغة الفرنسية

اهتمت الصحافة الفرنسية بالمجموعة التي نشرها المسيو روبربلوم من نفثات أقلام الكتاب المصريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية، وبكتاب « عودة الروح » الذى وضعه الأستاذ توفيق الحكيم، ونقله إلى الفرنسية المسيو موريك برن . فقد نشرت جريدة « البتى باريزيان » فى القسم الأدبى مقالا للمسيو جان فينيو الرئيس السابق لجمعية الأدباء تحدث فيها عن كتاب مصر وآثارهم فى الفرنسية ووجوب معرفة أسمائهم ومؤلفاتهم باللغة الفرنسية ليطلع عليها القراء فى فرنسا ، وليأخذ هؤلاء المؤلفون مكانتهم فى أسرة الفكر الكبيرة ، وقد خص المسيو جان فينيو كتاب « عودة الروح » للأستاذ توفيق الحكيم بقسم من بحثه إذ قال :

« إن هذا الكتاب الحى الطريف موضوع باللغة العربية كما أن كتاب فينبير موضوع باللغة العبرية . وقد نقله إلى الفرنسية موريك برن ، وهو من أفضل ممثلى الثقافة الفرنسية فى القاهرة . وقد غير عنوان الكتاب بالفرنسية واستبدله بعنوان « رواية نهضة مصر » وهنا وجه لمناقشته فى هذا الاستبدال لأن القسم الاجتماعى بل القسم الأدبى والسياسى لايتألف منهما الكتاب كله . فالمؤلف يستهل كتابه بنكات مسلية عن حياة الطبقة الوسطى فى القاهرة — وهى حياة بسيطة ضيقة يعنى أصحابها بأمور تافهة — وهم يقولون إن الشرقيين يقفون عند الأمور السطحية الخفيفة ولكن يوجد ثمة عدة حوادث وقعت للشاب محسن المتيم بحب جارته سنية الحسناء ، وقد كان يجب أن يراعى جانب الايجاز فى الكلام عن هذا الموضوع . ثم إن الحادثين اللذين يطلق هذا التمهيد لسانه فى الكلام عنهما منصرفاً عن تتمة تصريحاته الغرامية — يستطاع الاستغناء عنهما

وبما أن الموضوع يدور على « عودة الروح » فقد كان يجب أن يبين المؤلف كيف فقدت تلك الروح . وهذه النقطة مصروف النظر عنها ، ومهما يكن من الأمر فان القسم الثاني من الكتاب وحوادثه تجرى فى إحدى ضواحى القاهرة فى منزل والدى محسن يظهر لنا أنه أفضل قسم فى الرواية ، وفيه وصف لوالدى محسن اللذين كانا من أصحاب الأطيان الموسرين ، بيد أنهما كانا أنانيين يعاملان الفلاح بقسوة

ولدينا محاورة بين موظف بريطانى وعالم فرنسى تبين لنا الأمانى الطامحة التى يمتاز بها هذا الجنس من البشر . فنحن نقرأ فى الكتاب بعض عبارات تقتضى التأمل كالحديث الذى دار فى القطار الذى سافر به محسن إلى أطيان والده ، فان أحد المسافرين وهو مصري الجنسية قال فى عرض كلامه عن البلدان الأوربية « هذه بلدان خالية من الأخاء خلافاً لبلادنا حيث نرى الأقباط والمسلمين إخواناً »

وهذا الكلام موضوع نظر يبعث على التساؤل بعد مطالعة « مجموعة الكتاب المصريين باللغة الفرنسية » ورواية توفيق الحكيم عن الأفكار الأدبية الكبيرة ، وعما إذا لم يكن الهدف الاسمى الدينى آخذاً فى الانحطاط عن مستواه الأصلى فى العالم ، على أن الانسان لايسعه إلا إبداء الدهش من رؤية فضائل الدين الاسلامى القديمة مفقودة من هذه الكتب المختلفة وعدم اهتمام المؤلفين بها . ولم تنفرد أوربا بافتقارها إلى الحب الحقيقي وهو دون سواه قادر على تجديد شباب الأمم والنفوس »

وقد كتبت السيدة تريز هربان مقالا عن رواية « عودة الروح » نشرته فى جريدة « ليجور » وإليك بعض ما جاء فيه :

« إن مصر تظل فى نظرنا أرض الماضى وهى ترتبط بحكايات النيل وأسرار الأهرام ولا نزال نسترشد بفنها وديانتها مدة طويلة وربما ظللنا مدة طويلة أيضاً صارفين النظر عن الاهتمام بحاضرها

« ولا نجد مندوحة عن الاعتراف بالجميل للكاتب العربي توفيق الحكيم وموريك برن مترجم روايته لكشفهما أسرار مصر الأخرى ، أى مصر الفلاحين ، والطبقة المتوسطة القيمة فى ظلال الرموس المصممة على البقاء فى الحياة »

الحياة فى القطب الشمالى

يفيد التقرير الأخير الذى أرسله الرفيق « بابانين » رئيس البعثة القطبية العلمية السوفياتية أن هذه البعثة دهشت عند مارأت بعض الحيوانات والطيور الحية فى المحيط المتجمد الشمالى

وقد كتب الرفيق « بابانين » من محطة القطب الشمالى يقول إنه يستفاد « اعتماداً على رواية « نانسن » أن كثيراً من الخبراء يشيرون إلى أن المحيط المتجمد الشمالى خال من الاحياء ، على أننا قد شهدنا ظاهرة فى غاية الأهمية ، ذلك أننا سمعنا فى اليوم الذى وصلنا فيه إلى القطب زقزقة طائر ، تخيل إلينا فى الحال أنه قد جىء به على إحدى الطيارات . على أنه ظهرت هنا بعد ذلك طيور أخرى من أنواع مختلفة

وكان الرفيق شيرشوف (العالم الثانى الذي يرافق البعثة) يجد دائماً كميات كبيرة من متباين أنواع السمك فى مختلف الأعماق »

سرقة لوحة زيتية قيمة من متحف ليبزج

سرقت فى صباح يوم ١٠ أكتوبر الجارى من متحف ليبزج لوحة زيتية للرسام الألمانى لوكاس مولر المعروف باسم لوكاس كراناخ

وتمثل اللوحة المسروقة رسماً فضياً لموسى الكليم وفى يده الألواح التى كتبت عليها الشريعة اليهودية ، وظهر فى مؤخر الصورة الشعب اليهودى

وقد رسمت هذه اللوحة منذ حوالى ٤٠٠ سنة ، وكانت تعد من أثمن اللوحات الموجودة بمتحف ليبزج وتقدر قيمتها بخمسة وعشرين ألف مارك تقريباً

والذى تهمنا معرفته هو أن لوكاس كراناخ هذا فنان ألمانى أصيل ولد سنة ١٤٧٢ بكراناخ فى أوبر فرانكين ، وكان مصوراً خاصاً لقصر الأمير فريدريش العاقل بڤيتيمبرج ، واشتغل بكثير من الأعمال كالصيدلة وبيع الكتب إلى جانب اشتغاله بالفن ، وكان له مصور كبير للتصوير

وقد اختير عمدة لبلدة ڤيتيمبرج المذكورة سنة ١٥٣٧ وكان صديقاً حميماً لمارتن لوثر صاحب المذهب الدينى المعروف ، ومات سنة ١٥٥٣ فى نفس البلدة

وكان كراناخ أهم أستاذ فى الفن الألمانى فى كل منطقة سكسونيا دون نزاع ، وقد غلب على فنه فى أول أمره طابع الدقة والقوة فى إبراز المميزات الشخصية واستمر كذلك حتى سنة ١٥٢٠ إلا أنه بعدئذ تهاون بعض الشىء فى إخراج قطعه فجاءت ناعمة وأقل قوة مما سبقها

والدارس للوحاته يلاحظ أنه كان ميالاً إلى الوجوه المربعة وكثيراً ما جعل سيقان النساء أطول من القدر المناسب

ويعتبر كراناخ مصوراً ألمانياً شعبياً متبسطاً فى اختيار مواقفه تخير ألوانه من تلك التى تميل إلى المرح والبهجة

وله عدة لوحات كثيرة بالزيت وبالقلم الرصاص وبالحفر على الخشب محفوظ معظمها فى ألمانيا وقليل منها فى ڤينا وفلورنسا وغيرها

والعبرة هنا هى أن الزمان لم يمنح مصر بعد فناناً يستطيع تاريخ الفن أن يسجل اسمه من حيث الاتجاه الجديد أو الابتكار أو المقدرة الفذه ؛ ذلك لأننا قوم نسجل لأنفسنا بأنفسنا النبوغ والعبقرية دون حاجة إلى تسجيل التاريخ

ا . م

المستشرقون والإسلام

علمنا أن الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حسن رئيس الوفد الذى قام بتمثيل الأزهر فى مؤتمر تاريخ الأديان قد رفع إلى فضيلة الأستاذ الأكبر مذكرة تتضمن أسماء الكتب العلمية التى وضعها المستشرقون فى مختلف المسائل الإسلامية ، وجاء بعضها محرفاً وبعضها لا يفيد حكمة الشارع ، ثم بولغ فى تحريف مدلولاتها ومعانيها على نحو يتعذر معه فهم أحكام الإسلام على وجهها الصحيح

وقد أشار الأستاذ فى مذكرته إلى أن هذه الكتب تدرس فى بعض الجامعات العلمية على أنها صورة صحيحة لما جاء فى الشريعة الإسلامية من أحكام وقواعد ، وبما أن مؤتمر الشريعة الاسلامية — الذى رؤى أن يعقد فى القاهرة — سيتناول بالبحث هذه المسائل ، فمن الواجب أن ندرس هذه الكتب دراسة كاملة لتقول مشيخة الأزهر فيها كلمتها فى هذا المؤتمر

وقد وافق فضيلة الأستاذ الأكبر على هذا وأصدر أمراً إلى إدارة المعاهد الدينية بأن تطلب إلى المكتبات الشهيرة فى انجلترا وفرنسا وألمانيا لتبعث إلى المشيخة بهذه الكتب التى ذكرت فى قائمة خاصة وستؤلف لجنتان إحداهما من كبار رجال القانون وبعض المتضلعين فى اللغات الأجنبية لتطلع على هذه الكتب ولتنقل ماجاء فيها خاصاً بالمسائل الإسلامية إلى اللغة العربية . والثانية من كبار علماء الأزهر لتقوم بوضع الأحكام الصحيحة لهذه المسائل على أن تعد بياناً يشمل جميع الأخطاء التى جاءت فى هذه الكتب ليلقى فى المؤتمر باسم مشيخة الأزهر

فى المجمع اللغوى

وضعت مذكرة لعرضها على صاحب المعالي وزير المعارف بتحديد موعد افتتاح المجمع اللغوي فى دورته الخامسة

وقد تم طبع مجلة المجمع فى دورته الثالثة وستوزع قريباً وبدىء بطبع مجلة الدورة الرابعة الماضية . وسيجرى المجمع في دورته الجديدة على نظامه العادى ، نظراً لتأخر صدور القانون الجديد الخاص بالمجمع ؛ وكان مجلس النواب قد أقر هذا القانون فى دورته الماضية ولكن مجلس الشيوخ أرجأ التصديق عليه إلى الدورة الجديدة

كليات المقاصد والكلية الشرعية

كتب إلينا أستاذ فاضل من أساتذتها يقول :

زار سعادة العشماوى بك وكيل وزارة المعارف المصرية كليات المقاصد والكلية الشرعية التي أنشأها سماحة الأستاذ الكبير مفتى لبنان لتعد الطلاب للدراسة العالية فى الأزهر الشريف ، ولتنشىء الجيل الجديد الذي يجمع بين الثقافة الاسلامية والثقافة الحديثة ، فسرّ منها سروراً عظيما ، وزار قاعاتها ومكتبتها ، وحضر درساً فى الأدب العربي للأستاذ على الطنطاوى ودرساً للأستاذ الشيخ محمد الصاعوق . فكان إعجابه شديداً ، وأعلن أنه على استعداد لقبول اثنين من طلاب الكلية فى دار العلوم العليا فى مصر بلا امتحان ، فكان ذلك مكرمة عظيمة لسعادته تشكرها له الكلية خالص الشكر ، وترجو أن يرى آثارها الطيبة فى تقدم الكلية وازدهارها ، وتوثيق الصلات بين مصر والأقطار الشقيقة فى أقرب وقت ، ونأمل من الرسالة (المجلة العربية الكبرى) أن تبلغه هذا الشكر على صفحاتها

جمعية فرنسية إسلامية فى باريس

ألفت أخيراً جمعية فرنسية إسلامية فى باريس غايتها تعزيز الصداقة وتنمية العلاقات الفرنسية الاسلامية على قاعدة المساواة بين جميع أعضائها والتعلق المتين باحترام العقائد والآراء والابتعاد عن التبشير

وستتخذ هذه الجمعية مكتباً لها على مقربة من الجامع فتجعله مركز صداقة وتربية وتعاون . وسيؤلف هذا المكتب من : قاعات درس لعمال شمال أفريقيا الموجودين فى منطقة باريس ، ومكتبة تحتوى على مؤلفات فرنسية وعربية ، وغرفة للمطالعة مجهزة بكتب عديدة عربية وفرنسية وقاعات للمحاضرات وعرض الأشرطة السينمائية

وهذا النادى سيعد لأن يصبح مركز ثقافة فرنسوية وعربية وستنشر فائدته فى فرنسا وأفريقيا الشمالية والشرق القريب بفضل العلماء والأدباء والفنانين والفلاسفة العرب والفرنسيين الذين سيترددون عليه

ذكرى مؤرخ كبير

احتفل أخيراً فى مدينة فالنسيين بفرنسا بذكرى المؤرخ الفرنسي الشهير « فراوسار » لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده إذ أنه ولد على أرجح الروايات سنة ١٣٣٧ ، وقد اتخذ الاحتفال أهمية خاصة ، لأن فراوسار يعتبر فى الواقع عميد المؤرخين الفرنسيين فى التاريخ الفرنسي فهو أول من كتب التاريخ فى فرنسا بروح جديد ، وأول من فهم أن التاريخ شيء أكثر من القصة والرواية ، وقد كان التاريخ حتى عصر فراوسار يكاد يمتزج بالقصة والأسطورة دائماً ، وكان لا يزال خاضعاً لوحى الكنيسة ، وكان المؤرخون هم الرهبان غالباً ، فكان التاريخ مزيجاً من الروايات التي يصوغها رجال الدين حسبما تملى أهواء الكنيسة ، وكانت الملوكية والشعب والحروب والحوادث جميعاً ينظر إليها من هذه الناحية ، ويحكم عليها طبقاً لهذه الروح ، ولكن فراوسار استطاع أن يتحرر من هـذه الروح وأن يكتب التاريخ على أنه سجل الحوادث الجارية . وقد دون حوادث عصره فى كتاب شهير يعتبر من هذه الناحية ذا قيمة تاريخية خاصة ، وهو تاريخ فرنسا وانكلترا وعلائقهما فى عصره ؛ ويعرف هذا المؤلف عادة « بتاريخ فراوسار » ، ويعتبر أنه أول مؤلف فرنسي وضع نهج التاريخ الحديث ومهد لتطوره كرواية حرة للحوادث والشئون

ونستطيع أن نقارن فراوسار من هذه الناحية بمؤرخنا العظيم ابن خلدون ، فكلاهما عاش فى نفس العصر ، وكلاهما استطاع قبل غيره أن يفهم روح التاريخ الحقة ، وأن ينظر إليه من ناحية جديدة ، وأن يعامله باعتبار أنه أكثر من قصة ورواية تخضع لتأثير العوامل الدينية أو السياسية ، ولكن ابن خلدون كان بلا ريب أوسع آفاقاً من فراوسار ؛ ولم يرتفع فراوسار أو غيره من المعاصرين إلى تلك الآفاق الرفيعة التي سما إليها ابن خلدون ، والتي جعلت منه أول فيلسوف اجتماعى ، وأول مؤسس لفلسفة التاريخ وأصول الاجتماع

فى نادى القلم العراقى

اجتمع نادى القلم العراقى مساء اليوم الثاني من هـذا الشهر فى دار أحد أعضائه السيد توفيق وهبي وتلا السكرتير رسالة وردت من نادي القلم الانكليزى يطلب فيها ترشيح أحد كبار أدباء العراق لتعيينه عضو شرف أسوة بالأمم الممثلة فيه

فقرر المجتمعون ترشيح معالى الأستاذ الشيخ محمد رضا الشبيبى رئيس نادى القلم العراقى ووزير المعارف لهذه العضوية الفخرية

وقد ألقى فى هذا الاجتماع الدكتور متى عقراوى فصولا من رسالة حول التعليم الاجباري فكانت مدار مناقشات دقيقة



يوميات نائب فى الارياف

للأستاذ توفيق الحكيم

محاورات أفلاطون

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محفوظ

للأستاذ محمود الخفيف

تفضل الأستاذ الحكيم فأهدى إلىّ كتابه « يوميات نائب فى الأرياف » وكنت قد قرأته فصولا فى مجلة الرواية ؛ بيد أني عدت فتلوته وقد انتظمه مجلد واحد فألفيتنى أكثر استمتاعاً به وأكبر محبة له ولصاحبه

المؤلف الفاضل غنى بشهرته عن التعريف ، عرفه جمهور القراء وأحبوه فى « أهل الكهف » ووثقوا من مواهبه الفنية في تلك القصة الرائعة وفى أختها « شهر زاد » وزادتهم مؤلفاته بعد ذلك معرفة به ، وازتياحاً إلى فنه ، وابتهاجاً بتوفيقه . والحق عندى أن توفيق الحكيم قد صار فى « القصة المصرية » أحد أعلامها الأفذاذ ، بل لقد خطا بها وهى بعد فى طفولتها خطوات سريعة وثيقة حتى لقد غدا فى هذه الناحية « كعبد الوهاب » فى الموسيقى وكالمرحوم « مختار » فى فن النحت ، وحق لمصر أن تفخر به كما تفخر بهما . ولست أعنى بالإشارة إلى « القصة المصرية » تبرزه فيها وحدها فلقد كتب له النجاح فى ذلك الفن فى أوسع حدوده ورأيناه موهوباً كما يقول أهل الفن كما رأيناه يجمع إلى موهبته ثقافة من الطراز الأول . والقصصى يخلق أولا وفيه القصة : فى نفسه أسلوبها وروحها ، وفى رأسه الميل الشديد إلى صوغها واعلانها . وقل مثل هذا عن كل ذى فن

والكتاب الذى أحدثك عنه ضرب من القصة إذا تجاوزنا عن أصولها المصطلح عليها فهو كما ترى اسمه « يوميات » . غير أن الأستاذ قد ألبسه ثوب القصة فى مهارة عجيبة تعد فى ذاتها ناحية من نواحى نبوغه فى هذا الفن . فقد جعل من « ريم » ومن حادثة مقتل « قمر الدولة » سلكا ينتظم أجزاءها ويتسلط على القاريء من أول الكتاب إلى آخره ؛ ويمكنك أن تعتبرها نوعاً من القصص « الاصلاحى » على نحو ما كان يجرى عليه دكنز فى فنه وما كان يتوخاه منه ، وهنا نرى من الأستاذ الحكيم مسلكا جديداً فى القصص لم ينزل به عن مستواه في مسلكه السالف فى أهل الكهف وشهر زاد ، تلك الناحيــة الفلسفية التى حلّق بها فى أفق عال فسيح . أجل رأينا في هـذا الكتاب من مستلزمات الفن ومن آياته ما يعجب ويطرب ! رأينا أولاً عنصر التشويق كما تجلى فى خلق حادثة القتل ثم إخفاء القاتل والبحث عنه ، وكما يتجلى فى شكل أدق وأجمل من ذلك الوصف الشعرى الجميل الفائق لتلك الفتاة الريفية « ريم » ذلك الوصف الذى عطف عليها القلوب ، وجذب إليها النفوس ، وأكسب القصة مسحة من الجمال السامى كانت تظهر فيه نظرات الأستاذ الفلسفية ؛ ورأينا كذلك فى القصة عنصر الفكاهة ناضجاً حلواً تسيغه الأفئدة وتعلق به ، كما رأينا دقة الوصف وشموله فى غير التواء أو تعقيد ؛ ورأينا خبرة الأستاذ بالوسط الذى يكتب عنه تلك الخبرة المدهشة التى لم يدق عنها معرفة العبارات المحلية التى كان يجريها على ألسنة أشخاصه على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم وفصائلهم . هـذا إلى وصف الأشخاص أنفسهم حتى لكأنك تراهم وتستمع إليهم . وها أنذا أحد أبناء الريف أشهد ما وجدت في وصفه شذوذاً ولا لمحت فيه مسحة من خيال . ورأينا فى القصة إلى جانب ذلك كله النقد الصحيح الذى يرضيك ؛ نعم قد يحسب بعض القراء ممن لم يروا مثل هؤلاء الأشخاص الذين وصفهم الأستاذ ، كالقاضى الأهلى والقاضى الشرعى مثلاً أن عنصر

« الكاريكاتير » زائد فى بعض أوصافه ، ولكن الذين رأوا فى الحياة مثل هؤلاء شهدوا له بالصدق ، وأعجبوا بطريقته وطلبوا منها المزيد فوق هذا كله أو قل بهذا كله تحققت للكتاب ناحية فريدة وهو أنه سجل لمصر من عصورنا ، فيه كثير من ألوان حياتنا فى بيئة من بيئتنا ، سوف تقرأه الأجيال المقبلة وترى فيه من نواحى اللذة ما يحببه إليها ويكسبه بذلك طول الحياة . ولن أفرغ من هذه العجالة دون أن أطلب ملحاً من الأستاذ الحكيم أن يجرى قلمه على هـذا النحو فى نواحى حياتنا الأخرى فيرينا يومياته فى بيئة الموظفين مثلاً فى « الدواوين » أو فى غيرها من الجهات فما أحوجنا إلى هذا النوع من القصص يجرى به قلم فنان

***

أنتقل بالقارئ بعـد ذلك إلى الكتاب الثانى « محاورات أفلاطون » وقد اضطلع بنقله إلى العربية الأستاذ زكي نجيب محمود ونشرته لجنتنا المباركة الناهضة « لجنة التأليف والترجمة والنشر »

عمل الأستاذ زكى كما ترى عمل المعرب ، وقد يحسب البعض أن التعريب أمر هين لا يكلف صاحبه عناء ، ولا يكشف عن مقدرة أدبية ؛ ولكن الذين مارسوا هذا العمل والذين يقدرون الأمور حق قدرها ، يعرفون أنه من أشق الأعمال ومن أقطعها حجة فى معرض التدليل على المقدرة والكفاية الثقافية ؛ وحسبك أن تذكر ما بين اللغات من تباين وتفاوت فى الأساليب والتراكيب والاصطلاحات والمجازات وغيرها من ضروب التعبير ، وأن تذكر ما تفتقر إليه اللغة العربية من الألفاظ التى تقابل ما استحدث من الألفاظ العلمية فى اللغات التي تنقل عنها ، لتعلم مقدار الجهد الذى يعانيه المعرب

وفوق ذلك فهناك ما هو أهم من اللغة فى ذاتها ؛ هناك أصول الترجمة الصحيحة وما تتطلب من شروط ، وأهمها فى رأيي الإلمام التام لا باللغتين فحسب ، فذلك قد يتوفر للكثيرين ، ولكن الإلمام التام بالفن الذى يترجم . وعندى أن الذى يتعرض لترجمة فن من الفنون لا يفهمه حق الفهم ، إنما يكون كسالك الصحراء أضلته دروبها أو ذهب بلبه فضاؤها الشاسع وقد جهل صواها ، وتاه عن مبدئها ومنتهاها . أما الذى يترجم عن فهم وخبرة ووثوق من الموضوع فإنه كالربان الماهر عرف وجهته واتخذ إليها سبيله ؛ نعم يكون لفاهم الموضوع من فهمه هذا ما يعينه على التعبير الصحيح ، وما يجعل اللغة ذاتها طيعة فى يده مواتية له فلا يتعثر ولا يقف ولا تظهر فى عمله الركة ولا يشوبه الإبهام والتناقض والاضطراب

والأستاذ زكي كما عرفته من قرب وكما عاشرته وصاحبته فيلسوف بطبعه ، لا ترى الفلسفة فيه أثراً من آثار الثقافة فحسب ، بل هى مظهر من مظاهر الطبع قبل هذا . تحدثه فى أى أمر فيفلسفه ، إن صح هذا التعبير ؛ لذلك كان شغفه بالفلسفة ومسائلها نتيجة ميل ذاتى ، وذلك لعمرى سبيل العلم الصحيح . والذين لا يعرفونه إلا فيما كتب يشهدون له بطول الباع فى هذه الناحية . وهل نسينا فصوله الممتعة فى الرسالة ؟ وهل نسينا كتابيه اللذين اشترك فى وضعهما مع الأستاذ العلامة أحمد أمين وهما « قصة الفلسفة اليونانية » و « قصة الفلسفة الحديثة » ؟

إذا عرفت هذا عن زكي ، وعرفت معه أنه متين فى لغته ، ضليع في الانجليزية ، أدركت مقدار نجاحه فى ترجمة هذا الكتاب الذي أحدثك عنه . الحق أنى معجب بهذه الترجمة ، محتكم فيما أقول إلى الذين قرأوا الكتاب فصولاً متتابعة فى الرسالة قبل أن يجمع فى سفر . ذلك أنى أخشى أن يحمل البعض كلامي على المجاملة لما بينى وبين زكي من صداقة . وإذا كانت عين الرضى عن كل عيب كليلة ، فتلك العين من ناحية أخرى ترى من المحاسن ما يخفى على غيرها وما يدق على أي عين سواها على أني لو وجدت فى تلك الترجمة عيباً ما ترددت فى ذكره بل وفى ابرازه

هذا عن الترجمة ، أما عن الكتاب فى ذاته فهو من تلك الكتب التى يعد نقلها إلى لغة معينة خدمة جليلة لتلك اللغة هذا لأنه من كتب الثقافة العالية التى أحدثت أثراً كبيراً فى النهضات الفكرية للأمم التى ترجمته . وحسبك أن ترى سقراط كما يصوره تلميذه أفلاطون فى ذلك الحوار ، وأن ترى طرفاً من فلسفته فى الأخلاق والحياة الانسانية ، وأن ترى أسلوبه فى التفكير وتلمُّس أوجه الصواب فيما يطرق من مسائل ، وأن ترى خلقه القويم وتحس عظمة روحه وقوة نفسه ؛ ونقل ذلك الكتاب إلى لغتنا بالذات مكمل لناحية من نواحى النقص من ثقافتنا ولذلك فهو مظهر من مظاهر نهضتنا الفكرية الحديثة

الخفيف

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾

5 me Année, No. 225

Lundi - 25 - 10 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر المالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العــدد ٢٢٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ شعبان سنة ١٣٥٦ — ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العــدد

أى زمان هذا ؟ !

فرغ الشيخ منصور من قراءة « الأهرام » ثم ألقاها من يده الراعشة على الوسادة وقال بلهجة الساخط القانط : « أى زمان هذا ؟ » هل أتى أمر الله وقامت القيامة ؟

وكنا خليناه لنفسه ساعة شغلها بالنظر فى الجريدة ، وشغلناها فى شأن من شؤونه . فلما تحرك هذه الحركة العصبية ، وقال هذه الجملة التعجبية ، أقبلنا عليه نستفهمه الأمر ونناقله الحديث. والشيخ منصور هـذا فقيه نابهٌ من فقهاء الأزهر القديم ، قضى عمريه [1] فى خدمة الدين وعلومه وهو على الحال القروية الأولى من بساطة الطعام والمنام والملبس ، فلم يشك داء ولم يشرب دواء قط !

أولاده مثقفون مترفون ، يشغلون المناصب الرفيعة ويسكنون المنازل الأنيقة وينعمون بمتع الحضارة ؛ ولكنه لايزال هو وزوجه الشيخة يعيشان فى دارهما العتيقة فى حى الباطنية على النمط الأول : يأتدمان بالفول ، ويتفكهان بالتمر ، ويستصبحان بالزيت . ولا يخرجان — إن خرجا — إلا لصلة

(١) العمران ثمانون سنة

رحم أو لزيارة ضريح . والشيخ لاينفك يحمد الله على أنه لم يركب سيارة ، ولم يغش قهوة ، ولم يشهد حفلة ، ولم يتعلق بشئ من أسباب الدنيا إلا بما لابد منه لسلامة البدن والدين ؛ فلولا أنه يقرأ الصحيفة كل صباح ، ويسمر مع نفر من تلاميذه كل مساء ، لكان بينه و بين هذا العالم المتغير « كمال الانقطاع » . وهو اليوم يدخل فى حدود التسعين من سنيه قطيعَ القيام قعيدَ الغرفة ، إلا أنه سليم الحواس شاهد اللب ؛ ويرى أن الفضل فيما يتمتع به من طول العمر ونقاء الجسم وفراغ البال ، إنما يرجع إلى الإيمان بحكمة الله والرضى بقسمة القدر . وبلغه أن قوماً من العلماء يسكنون فى أحياء الأغنياء ، ويستطيلون على الناس بالجاه والثراء ، وأن أحدهم بلغ من ترفه وسرفه أن اشترى ثلاجة بعشرة جنيهات ، فاستهال الخبر ، وتعاظم الأمر ، ثم بكى وقال : ياحسرتا على الدين والعلم ! إن العالم إذا امتلأت عينه من الدنيا ، فرغ قلبه من الدين !

سأله أحدنا : ماذا قرأت يا مولانا في الجريدة فأنكرته على الزمان ؟ فأجاب بلهجته تلك :

« حرب داخلية فى الغرب ، وحرب خارجية فى الشرق ، وحرب عالمية تترقب فى البحر ، وتتوثب فى البر ، وتتنزى على ألسنة الساسة المساعير من أبناء المدنية وربائب الحضارة ؛ ثم سقوط الفرنك فى سورية ، وحبوط السياسة فى فلسطين ، وهبوط القطن فى مصر ، وقنوط الناس فى كل مكان من صلاح الحال وانفراج الأزمة ؛ ثم وباء الدنج الذى يؤازر الملاريا والأنفلونزا على خمود الحياة وشل الحركة . لقد كنا لا نرى الموت إلا حيث تكون الشيخوخة الفانية ، ولا نسمع بالمرض إلا قُبيل الموت المرغوب ، ولا نعرف من الأطباء إلا طبيب المركز يوم يزور القرية كل أربع سنوات ، فيأمر بتسوية التلال ، وكنس الأزقة ، ورش الحيطان الخارجية بالجص : وكانت النفوس راضية مطمئنة تسبح فى فيض من نعيم السلام والدعة ، لا يُرمضها حقد على إنسان ، ولا يقلقها حرص على شئ ؛ وكان الناس لا يعلمون عن أوزار الحرب إلا ما يتسقطون من أنبائها الحين بعد الحين بين العثمانيين والمسكوف ؛ وكانت السلامة أدوم ، والأعمار أطول ، والأرزاق أيسر ، ورحمة الله أقرب ، وأمة الرسول بخير

أما اليوم فكأنما أصاب الناسَ سُعار من الجحيم فلا يبرحون بين عمل دائب ، وهم ناصب ، وطمع شره ، وتنافس دنئ ، وعداوة راصدة . ثم فشا الطب ففشا المرض ، وانتشر العلم فانتشرت الجريمة ، وفاض الخير وغاضت البركة ، واستبحرت المدنية المادية فخفَتَ بين ضجيجها الآلى صوت الضمير ، وهلك فى عبابها المزبد سلام النفس . وكان الظن بالمدنية والعلم أن ينزعا من نفوس بنى الإنسان غرائز الحيوان ، ويهيئا لهم حياة الجنة التى حرمتهم إياها رذيلة الطمع . فهل رُفع الإيمان من الأرض حتى عم الناس هذا البلاء ، وأصاب العلماء منه ما أصاب الجهلاء ؟

فقلت له ياشيخنا ! كان عدد الناس فى صدر أيامك قليلاً ، وخير الله بالنسبة إليهم كثيراً ؛ فكانت الحياة وادعة ، والنفوس قانعة ، والجوارح عَفّة ، والجوانح سليمة . و براءة الصدور من الحسد تصل قطيعة القلوب بالألفة ، و ترفه لغوب العيش بالمعونة ؛ وخلو البال من الهم يدفع المرض عن الجسم ، ويصد الرذيلة عن الروح . فلما جاءت المدنية الكاذبة وفرت وسائل الصحة ، ومدت أسباب الأمن ، فزاد النسل أضعافاً مضاعفة ، وكثرت الحاجات كثرة فاحشة ، فتزاحم الناس على موارد الرزق ، وتكالبوا على مواد العيش ؛ ثم أيأستهم هذه المدنية من عزاء الدين ، وشككتهم فى ثواب الله ، وأرابتهم فى غَناء الخُلق ، فعادوا فى حضارتهم الزاخرة بعجائب العلم كأوابد الوحش ، لا يقودهم إلا غريزة الحى ، ولا يحكمهم إلا قانون الحياة . والله وحده يعلم كيف المصير

فقال الشيخ منصور فى تسليم المصدق واستسلام المؤمن :

« الأمر لله يا بنى ! لا يقع فى ملكه إلا ما يريد . نسأله تعالى أن يبقينا فيكم على سلامة ، ويخرجنا من دنياكم على خير »

احمد حسن الزيات

الحظ المعـــاكس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

الذين يعتقدون أنهم مضطهدون فى الحياة وأن كل من فى الدنيا وما فيها من ناس وأشياء يناوئهم ويكيد لهم ويناصبهم معذورون، وإن كان الأطباء يقولون إن هذا مرض؛ فقد تتوالى المصادفة على وتيرة واحدة لا تختلف أو تتنوع حتى يكبر فى وهم المرء أن هناك عمداً، فيروح يعذر ابن الرومى الذى حكوا أنه كان إذا رأى النوى مبعثراً أمام باب البيت يرتد داخلاً ويقعد عن التصرف فى يومه ذاك إيثاراً لطلب السلامة مما يتوهم أنه لا محالة ملاقيه من السوء والشر

حدث يوماً أنى بكرت فى القيام من النوم ليتيسر لي أن أكتب ما ينبغى أن أكتبه فى ذلك اليوم، ثم أخرج لقضاء عدة حاجات لا سبيل إلى إرجاء واحدة منهـا. فأما الكتابة فاستحالت لأن الآلة الكاتبة تعطلت لعلة لم أستطع أن أهتدى اليها، ولأنى لم أجد فى البيت كله لا حبراً ولا قلماً ولا شيئاً مما يستطيع المرء أن يكتب به، فابتسمت — فما بقيت لى حيلة — وقلت: «صدق المثل ... باب النجار مخلع» وحدثت نفسى أن هذا يفسح الوقت لقضاء الحاجات الأخرى، فارتديت ثيابى وخرجت من الشقة متوكلاً على الله، فلم أكد أضع رجلي على الدرج حتى زلت قدمى، فنهضت متوجعاً على يدى ورجلي فقد هاضنى الاصطدام بالدرجات وحدثت نفسى أن ساق على الأقل لا ينقصها هـذا الرض الجديد، ثم نفضت التراب عن ثيابى — بحكم العادة فان السلم نظيف — ومضيت متحاملاً على نفسى إلى «الجراج» ولكن السيارة أبت كل الاباء أن يدور محركها. ولست حديث عهد بالسيارات ولا أعرفني عجزت عن علاج حرانها إذا كان لأسباب عارضة، ولكن الأمر استعصى على فى ذلك الصباح حتى كدت أجن، فتركتها واستأجرت سيارة وفى ظنى أنها أسرع من الترام وما إليه، فلم نكد نقطع كيلو واحداً من الطريق حتى عرض للسائق راكب دراجة خرج فجأة من زقق، فأراد السائق أن يتقى أن يدوسه ويزهق روحه فاصطدم بحافة الرصيف وكاد يقتلني أنا أو يحطمني على الأقل. فنقدت الرجل ما استحق من الأجر وقلت: الترام أسلم وكنا عند محطته، فوقفت ثلث ساعة أنتظره وهو لا يجيء لسبب لا أدريه؛ وأنا أحتمل المشى مهما طال، ولكنى لا أحتمل الوقوف خمس دقائق، فأحسست أن بدنى قد تضعضع وأن ساقيّ أصبحتا لا تقويان على حملى، وإن كنت دقيقاً خفيفاً — وزناً لا دماً — ورأيت مركبة خيل مقبلة فأسرعت إليها وركبتها، والقارىء أعرف بمركبات الخيل، وأكبر الظن أنه رأى كيف ينام الجواد وهو يوهمك أنه يجر المركبة ... ما علينا ... سرنا دقائق بسرعة كيلو وربع في الساعة وإذا بالترام الذى نفد صبرى وتهدم جسدى وأنا أنتظره يدركنا ويمر بنا كالبرق الخاطف ويتركنى أتحسر على العجلة التى صدق من قال إنها من الشيطان لعنه الله. وأوجز فأقول إن كل باب طرقته فى ذلك اليوم الأسود ألفيته مسدوداً، وإن كل رجل أردت أن ألقاه وجدته مسافراً أو مريضاً، فأقصرت خوفاً على الباقين الذين كنت أريد أن أقابلهم أن يدركهم الموت. ولا شك أن ابن الرومى كثرت تجربته لأمثال هذه المصادفات فصار يؤثر اختصار الأمر والنكوص من البداية اتقاء لمانات الخيبة التى مل تكررها ولم يكن يجد فيها لذة وله العذر

وأذكر أنه كان معنا فى المدرسة الابتدائية تلميذ مجد مجتهد وذكى بارع، وكان حرياً بالنجاح والسبق فى أى امتحان، ولم يكن لأحد منا أمل فى مزاحمته، ولكنه كان قبل كل امتحان يصاب بمرض يقعده عن أداء الامتحان. وكنا نحن على نقيضه لا نصاب بمرض حتى ولا بزكام خفيف، وكان يتفق أن ينذرنا المدرس أنه مختبرنا غداً مثلا فى الجغرافيا فتهبط قلوبنا إلى أحذيتنا، فقد كانت الجغرافيا أثقل ما نتلقاه من المعارف والعلوم فى المدارس الابتدائية لأنها كانت عبارة عن أسماء خلجان وأنهار وجبال ورؤوس وبلدان ليس إلا؛ وكان حفظ هذه الأسماء التى لا آخر لها يسود نور الضحى فى عيوننا، ولا أعلم ماذا كان يفعل سواى، ولكنى أعرف أنى كنت أنشد المرض بكل وسيلة أعرفها فأروح أقف ساعة وساعتين فى تيارات الهواء، وأصب الماء البارد على رأسى فى الشتاء وأتركه مبلولا للهواء وفى مرجوى أن أزكم أو أحم فلا يحدث من ذلك شىء، وأضطر إلى الذهاب إلى المدرسة فما بى بأس يصلح أن يكون مسوغاً للتخلف وأعانى

الاختبار الذى أنذرنا به ، وألقى جزاء العجز عن الحفظ ، وتمضى الأيام وأنا صحيح معافى ، وإذا بأحد المدرسين يبشرنا أنه سيذهب بنا إلى حديقة الحيوانات فى يوم كذا فنفرح ونعد طعامنا ونمنى النفس بيوم جميل نلعب فيه وننط ونمتع العين بمنظر القرود والفيل ذى الخرطوم — أبو زلومة كما نسميه — والأسود . ويصبح الصباح الذى أحلم به فأهم بأن أرفع رأسى عن الوسادة فاذا به أثقل من حجر الطاحون ، فأستغرب وأتحسسه فلا أجده مشدوداً إلى شىء ، فأسأل أمى فتقبل على وتجسنى ثم تقول : « أنت سخن .. لا بد من شربة حالاً » فأصيح : « ولكن كيف أذهب إلى جنينة الحيوانات إذا شربت شربة ؟ » فتقول : « جنينة الحيوانات ؟ إنت مجنون ؟ نم نم ... لا جنينة الحيوانات ولا غيرها ... » فأتحسر وأقول لنفسى : « بقى يا رب تشفينى يوم امتحان الجغرافيا وتمرضنى يوم جنينة الحيوانات ؟ الأمر لله » وأرقد وتجىء الشربة فأتجرعها بكرهى ، وبعد ساعتين اثنتين تهبط درجة الحرارة إلى الحد الطبيعى

ومن غرائب الدنيا أن فيها متزوجين يسخطون على نسائهم ولا يريدونهن — ولا يدرى أحد لماذا تزوجوهن إذن — ورجالا يطلبون الزواج ولا يجدون النساء الموافقات ، وفقراء لا يكادون يجدون الكفاف ولهم من البنين تسعة أو عشرة أصحاء يأكلون الزلط كالنعامة ؛ وأغنياء يسر الله لهم الرزق وأدر عليهم أخلاف الثروة يشتهى الواحد منهم أن تكون له طفلة واحدة ولو كانت عوراء أو كسيحة . وترى بنات دميمات ثقيلات الدم والروح يتزاحم الشبان عليهن ويطرحون أنفسهم تحت أقدامهن وهن لا يردنهم ولا يشجعنهم ويرفضن أن يكن زوجات لهم وإن كانوا صالحين وأحوالهم حسنة وسيرهم مرضية . وترى بنات جميلات رشيقات ممشوقات يفتن العابد بالحسن والظرف وحلاوة الطبع وطيب الحديث وبراعة الذكاء ، ولكنهن مسكينات لا يرعب فيهن أحد ولا يباليهن مخلوق ولا يحلم بوجودهن لا شاب ولا كهل . قالت لى مرة واحدة من هؤلاء الجميلات المسكينات — أعنى المنبوذات — إن أغلب ظنها أن العنس هو كل حظها من الدنيا . فتألمت وقلت لها : « يا شيخة حرام عليك ... أهذا كلام تقوله شابة فى العشرين من عمرها ؟ » قالت : « هذا اعتقادى ... وأى شىء هناك يغرى بالأمل ؟ .. إن الناس يطلبون المال » قلت :

« مالك جمالك وعقلك وحسن تدبيرك وأخلاقك الطيبة » قالت : « أشكرك ولكنك لن تستطيع أن تحيي أملاً مات ... إنى أدرى منك ... » فتذكرت فتاة هى مثال مجسد للدمامة وثقل الدم وقلة العقل فقلت : « إذا كانت فلانة قد وفقها الله إلى زوج صالح كريم ... » فقاطعتنى وقالت : « هــذا هو الذى يحدث دائماً ... أليس حظ فلانة هذه مدهشاً ؟ من كان يتصور ؟ اللهم لا اعتراض ... » قلت : « إنك ما زلت صغيرة فاصبرى » قالت : « بالطبع ... ثم إنه لا حيلة لى إلا الصبر ولكنه لا يسعنى إلا أن أرى وأتعجب ... هل تعرف إن كل من زارتنا خاطبة — وإن كانت لم تصرح ببواعث الزيارة — ذهبت ولم تعد ؟ .. وليس هذا فقط بل سمعنا من معارفنا أن هؤلاء الزائرات الخاطبات عبنني بكيت وكيت (وذكرت لى عيوباً ليس فيها شىء منها) وإن كل حديث جرى مع أبى فى أمر زواجى انتهى بالانقطاع بلا سبب نعرفه » فلم يسعنى إلا أن أرثى لها . فليس كل ما تعانيه إبطاء الحظ عليها بل شر من ذلك الإيلام الذى تحدثه صدمة الخيبة كلما نشأ الأمل . وقد كان من أثر ذلك أنها صارت تجنح إلى التمرد أحياناً على المجتمع وعلى حالاته وما يكون بين الناس فيه ؛ فلولا أن لها من عقلها وحسن تربيتها وازعاً قوياً ...

وقالت لى مرة وأنا ماض بها إلى بيت خالة لها : « شف ... أنا لا أخرج قط إلا مع أبي أو أخى أو معك أحياناً .. ولكنى واثقة أن الناس يعرفون وجهى ولا يعرفون صلتك بنا سيروننى اليوم وواثقة أيضاً أنهم سيعتقدون أنك ... أنك ... غريب ... وأنى خارجة معك للنزهة أو ... وأنى بالاختصار بنت فاسدة الأخلاق ... وواثقة فوق هذا أنهم سيمنون بأن يذيعوا هذا عنى كأن لهم ثأراً عندى ... فما رأيك ؟ »

فقلت لأخفف عنها : « المصيبة واحدة ... أنا أيضاً رجل تقى ورع أخاف الله وأتقيه ولي زوجة وأولاد ؛ وأنا واثق أن ناساً يعرفوننى ولا يعرفونك سيروننا فيقول كل منهم فى سره لصاحبه : شف ... شف ... أما إن معه لبنتاً !!! يا ابن الـ ... »

فضحكت فقالت : « هذا أحسن ... ليس فى وسعنا أن نصلح الكون إذا صح أن به حاجة إلى الاصلاح ، ولكن فى وسعنا دائماً أن نتلقى ما يجىء به الحياة بابتسامة حلوة كابتسامتك وإن لم يرزق كل إنسان مثل هذا الفم الجميل »

وهكذا الدنيا دائماً ...

ابراهيم عبد القادر المازنى

في تاريخ الجمعيات السرية

طائفة سرية عجيبة

تعيش في عصر المدنية بأساليب همجية

تتمـة البحث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان عهد القيصر اسكندر الأول أصلح عهـد لنمو الحركات الروحية السرية في روسيا . ففيه أنشئت في بطرسبرج عدة محافل سرية لمزاولة الشعائر والتجارب الروحية ، وكان قوام هذه الحركة عدة من سيدات الطبقة العليا مثـل البارونة بكشفدن ومدام تاتاريبوفا . وكان الأكابر والخاصة يشهدون هذه الحفلات الروحية التي اشتقت رسومها وشعائرها من رسوم بعض الجمعيات السرية الوثنية قبل جمعية « أهل الله » وطائفة « سكوبتسي » ذاتها ؛ ووقع القيصر نفسه تحت تأثير البارونة فون كرودنر الشهيرة ، وهي سيدة اشتهرت يومئذ بنزعتها الصوفية والروحية وكان لهـا أكبر الأثر في توجيه سياسة القيصر ، وفي سير الحوادث والشئون ؛ وكان القيصر يعتقد أن مؤازرة هذه الحركات الروحية هي خير وسيلة لمكافحة حركة البناء الحر (الماسونية) والجمعيات السرية الأخرى التي كانت منها طائفة « سكوبتسي » ، ولكن طائفة « سكوبتسي » أو طائفة المجبوبين لقيت في عهد اسكندر الأول كما قدمنا فترة صالحة للنمو ، واستطاعت بما خول لها من الحرية والتسامح أن تلم شعثها ، وأن تنشط لإذاعة مبادئها ، واستطاعت بالأخص أن تنفذ إلى الطبقات المستنيرة التي لم تصل إليها من قبل . وغدا سليفانوف في شيخوخته كأنه ملك غير متوج تحج إليه الوفود من كل صوب ، وتنهال عليه العطايا والمنح ؛ وكثرت أموال الطائفة ، واشتد نفوذها ، وقدم اليانسكي وهو زعيم الطائفة الفكرى إلى كبير الوزراء رسالة وضمها عن مبادىء الطائفة ومثلها ، وفيها يبرر إجراء « الجب » بحرارة ، ويقترح على القيصر مشروعا للاصلاح السياسي تنقل بمقتضاه السلطة الفعلية إلى طائفة « المجبوبين » ، ويبقى القيصر رئيس الدولة بالاسم تحت زعامة سليفانوف الروحية ؛ فأثارت هذه الجرأة اهتمام القيصر وحكومته بأمر المجبوبين مرة أخرى ، وقبض على اليانسكي ، وسجن في أحد الأديار . أما سليفانوف فقـد ترك حراً نظراً لشيخوخته وضعفه ، بعد أن وعد بالكف عن الدعوة إلى الجب والاقتصار على الدعاية الروحية

على أنه لم يف بهذا الوعد ، بل استمرت الدعوة الهمجية وذاعت بين طبقات كثيرة ، واعتنقها عـدد من الأغنياء وذوى النفوذ ، وبلغ عدد المجبوبين في هذه الفترة آلافا كثيرة . وانتظم في سلك الطائفة يومئذ وصيف سابق للامبراطور بطرس الثالث (فيدوروفتش) يدعى كوبليف ، وأخذ يؤكد أن سليفانوف إنما هو القيصر بطرس بلا مراء ، وأن القيصر اسكندر يعرف جيداً أن جده يعيش بين المجبوبين منذ عهد بعيد ؛ وأسبغ سليفانوف على هذا الداعية لقب « النبي » ؛ وهكذا أصبح سليفانوف يزعم أنه المسيح وأنه القيصر معاً

واكتشف حاكم بطرسبرج الكونت ملورادفتش أن ابنى أخيه قد وقعا في شرك « المجبوبين » وأن أحدهما قد كابد بالفعل عملية الجب فثار سخطا ؛ وضاقت حكومة القيصر ذرعاً بهـذا الاجتراء المجرم الذى لم تنج منه حتى طبقة النبلاء ، فانتدبت في سنة ١٨٢٠ لجنة سرية للتحقيق . وبعد البحث قر قرارها على اعتقال سليفانوف . وفي الحال اعتقل الداعية ، ولكن في رعاية ورفق ، وألقي في دير سوزدال ؛ فارتاع أنصاره ، وحاولوا السعي لإطلاق سراحه ، ولكن الحكومة كانت هذه المرة جادة ثابتة العزم . ولما رأى الزعماء أن السلطات تتربص بهم وترقب حركاتهم عمدوا إلى أساليب السرية القديمة ، وأخذوا يعملون في الخفاء ، ويتظاهرون بأنهم من أخلص أنصار الكنيسة ، ولكن السلطات قبضت على معظم زعماء الطائفـة وزجتهم في مختلف الأديار والقلاع . وتوفى سليفانوف في معتقله سنة ١٨٣٢ ؛ ولكن « المؤمنين » يعتقدون إلى اليوم أنه حى ، وأنه سيعود ليتولى السلطات في روسيا ويقيم يوم الحساب على نحو ما يعتقد الدروز في عودة الحاكم بأمر الله

ولم يخمد نشاط هـذه الطائفة السرية العجيبة خلال القرن التاسع عشر ، بل لبثت دعوتها تتسرب إلى جميع الطبقات ؛ ونفذت الدعوة إلى الجيش بكثرة ، وا كتشفت السلطات مئات من « المجبوبين » فى كرونستات وفى القوقاز ، وأمر القيصر أن تؤلف من هؤلاء الخصيان فرقة خاصة فى الجيش . وفى سنة ١٨٤٢ قدم جند هذه الفرقة إلى القيادة بلاغاً قالوا فيه إنهم لا يعترفون بالقيصر ، وإن القيصر الحقيقى هو بطرس الثالث الذى اعتقل فى سوزدال وأعلنت وفاته كذباً ، فقبض على زعماء الفرقة ونفوا إلى سيبيريا

وتوالت محاكمات دعاة « السكوبتسى » خلال القرن التاسع عشر ، وأدمجت فى قانون العقوبات الروسى العقوبات الآتية : وهي أن يعاقب الشخص الذى يقوم بتشويه نفسه بالنفي إلى سيبيريا ؛ ويعاقب الذى يقوم بتشويه (بخصى) شخص آخر بستة أعوام فى الأشغال الشاقة ؛ ويعاقب الدعاة بالنفي إلى سيبيريا ؛ ويعاقب الشخص الذي يقوم بإيواء الدعاة فى منزله عقاب مرتكبي جريمة التشويه .

ومن أشهر قضايا « المجبوبين » فى هذه الفترة ، محاكمة وقعت سنة ١٨٦٩ أمام محكمة جنايات تمبوف ، وفيها حكم بالنفى على مكسيم بلوتنزين ، وهو تاجر غنى كان يأوى فى منزله تسع نساء مشوهات ؛ ذلك أن هذه الطائفة البربرية كانت تجتذب إليها النساء أيضاً ، وكان تشويه النساء يجرى بقطع أجزاء من الثديين أو بانتزاعهما ، وكذلك بتشويه أعضاء أخرى ؛ وكان يخرج من هؤلاء النسوة المشوهات بين آونة وأخرى « مريم » تزعم أنها أم المسيح المزعوم . وكان بلوتنزين من أكابر الدعاة ، وكان يعتبر من « أنبياء » الطائفة وله نفوذ عظيم فى الولاية كلها . وفي سنة ١٨٧٦ ، كانت محاكمة رنانة أخرى أمام محكمة جنايات مليتوبول ، وفيها ظهر أمام القضاة مائة وستة وثلاثون مجبوباً حكم على معظمهم بالنفى . وكانت هذه المحاكمة الشهيرة خاتمة حركة سرية واسعة النطاق تعدت حدود روسيا إلى رومانيا ، وذهب ضحيتها مئات من الفلاحين والعمال . وكان الدعاة قد أخذوا إزاء اشتداد المطاردة فى روسيا يتسربون إلى رومانيا وهنالك أسسوا لهم « محافل » سرية فى ياسى وجلاتز ؛ وظهر فى جلاتز بين الدعاة شخص يدعى ليسين وهو روسى من موسكو ، وكان يمتاز بنوع من الهيام الصوفى ، فالتف المؤمنون حوله ولقبوه « بالمنقذ » وزعموا أنه القيصر بطرس الثالث . وصرح ليسين لأنصاره أنه أعظم من المسيح ، لأنه أتى لأجل المجد وليس كالمسيح لأجل المعاناة ، وأسبغ صفة الأنبياء والحواريين على عدة من أنصاره ؛ وذاعت الدعوة الجـديدة فى رومانيا بسرعة ، وهرع الخصيان من كل صوب لتحية المسيح الجديد ؛ وبعث ليسين رسله يبشرون بقيامه ؛ ثم سار بنفسه فى حفل من أنصاره إلى بطرسبرج ليقدم نفسه إلى « القيصر الظاهر » ؛ ولـكنه اعتقل مع زملائه فى الطريق ؛ وقمت السلطات بتحقيق واسع النطاق فى أمر المجبوبين استغرق أربعة أعوام ، وقدم إلى محكمة مليتوبول مائة وستة وثلاثون متهماً ، وكان جلهم من الفلاحين ومعظمهم شبان ومنهم شيوخ قلائل وأحداث لم يجاوزوا الخامسة عشرة ؛ وكانت فى الواقع أشهر محاكمات هذه الطائفة السرية المدهشة

واعترف بعض « الأنبياء » المتهمين أثناء المحاكمة بكثير من أسرار الطائفة وإجراءاتها ورسومها الوثنية ؛ ولـكن ليسين « المسيح والقيصر » صرح أمام قضاته بأنه غير مذنب ، وأن المؤمنين قد اختاروه وفقاً للنبوءات المقدسة ، وأن رسل الطائفة يبشرون بالمسيح الجـديد وفقاً لتعاليم الانجيل ، وأنه لا يزال على عقيدته مخلصاً لمبادئه ورسالته ، وأنه منذ شبابه يبحث عن السلام والحقيقة فلم يجدها إلا لدى طائفة « سكوبتسى » ؛ وألقى آخرون من الدعاة تصريحات روحية وفلسفية ، وأشادوا بنقاء المثل التى ينشدها المجبوبون ؛ وقضت المحكمة في النهاية على ليسين بالأشغال الشاقة ستة أعوام ، وقضت على آخرين من الأنبياء بالأشغال الشاقة لمدد مختلفة ، وقضت على معظم المتهمين الآخرين بالنفى إلى سيبيريا

وفى أوائل هذا القرن بعد ثورة سنة ١٩٠٥ سمح « للمجبوبين » أن يختاروا مكان إقامتهم ، فهرع كثير منهم إلى روسيا ؛ وقدر عدد المنتمين إلى الطائفة يومئذ فى روسيا بخمسة عشر ألفا ، وجرت بعد ذلك عدة محاكمات أخرى اتهم فيهـا الدعاة بالتحريض على « الجب » وقضى على مئات منهم بالسجن والنفي

* * *

وفى ظل النظام البلشفى استطاعت الطائفة أن تجوز العاصفة

بسلام بالرغم مما لحق زعماءها الأغنياء من فقد ثرواتهم وأملاكهم الواسعة ؛ ورأى الدعاة أن يسايروا النظام الجديد اجتناباً للمطاردة وقام منهم داعية يدعى ارما كوف ، فوجه إلى جميع « المؤمنين » خطاباً مفتوحاً يناشدهم فيه أن يجانبوا الغنى والكبرياء والشح ، وأن يعودوا إلى الحياة الأخوية الساذجة التي دعا إليها سليفانوف ، واقترح أن ينتظم أبناء الطائفة في جماعات روحية مشتركة ، ووضع للطائفة نظاماً تعاونياً جديداً على أساس الشيوع ؛ وحمل ارما كوف على الاختلاط الجنسي ، ووصفه بأنه أعظم عقبة تحول دون تحقيق الصفوة الانسانية لمبادئ الحياة الرفيعة ؛ وتبعه داعية آخر يدعى منشنين ، وأذاع في سنة ١٩٢٨ رسالة قال فيها إن مصائب الانسانية كلها ، وجميع المنازعات والجرائم والحروب ، هي نتيجة الغريزة الجنسية ؛ ثم يقول ما يأتي : « ما الذي يدفع إنساناً إلى الاختلاس والجريمة ؟ هي الغريزة الجنسية . وفي كل مكان نرى عيادات الأمراض السرية ، وفي كل يوم تقع آلاف من حوادث الاجهاض وقتل المواليد ؛ ولقد كان العالم وما يزال غاصاً بالبغاء والبغايا ، وكل ذلك يرجع إلى فعل الأعضاء الجنسية » ويقترح منشنين كعلاج لهذه المحنة الانسانية أن يعاني الرجال عملية « الجب » في سن النضج ، ويقول إن ذلك لا يضير الانسانية في شيء

وفي سنة ١٩٢٩ اكتشفت السلطات السوفيتية محافل سرية للمجبوبين في موسكو ولننجراد ، وظهر من التحقيق أن الدعاة يرتكبون جريمة التشويه ، ويبشرون في اجتماعاتهم السرية باقتراب حكم القيصر بطرس الثالث ؛ فقبض على كثيرين من الزعماء والدعاة ، وحوكموا أمام المحكمة الثورية ، وقضى على كثير منهم بالسجن « لأنهم يذيعون خرافة دينية تقترن بها فائدة مادية ، ولأنهم ارتكبوا جرائم الضرب والجرح » . ووقعت في سنة ١٩٣٠ محاكمة رنانة أخرى في لننجراد حيث قبض على كثيرين من أعضاء الطائفة وبينهم عدة من أكابر الأغنياء السابقين ، وعدة من العاملات ؛ فقضت المحكمة على الزعماء بالسجن ، ولكنها قضت ببراءة الضحايا من العمال والعاملات . وظهر من التحقيق أن الطائفة تعمل بنشاط في جميع أنحاء روسيا ، وأنها تبذل كل الوسائل وكل صنوف الإغراء لاجتذاب الأنصار ، وأنها لا تحجم عن ارتكاب صنوف الافساد والوعيد والعنف لتحقيق غايتها ؛ وأنها تستظل في دعايتها ببعض نصوص الانجيل والتوراة ، وتعمد إلى خصي الأطفال وبذل العطايا للفقراء الذين يرتضون التشويه ، واستخدام اليتامى ثم تشويههم بعد ذلك . وتجري عملية التشويه دون رسوم معينة بل تجري حيثما أمكن ؛ ويأخذ الداعي على الضحية دائماً عهداً وثيقاً بالكتمان . وظهر أيضاً أن الدعاة يجتمعون تحت جنح الظلام في مصلى خفي يقام فيه حاجز بين الرجال والنساء ، ويرتدي « المؤمنون » ثياباً بيضاء ويحملون الشموع المنيرة ، ويتلون صلوات من تأليف رسلهم ودعاتهم ، ويتمايلون أثناء الصلاة في حركات عنيفة تبلغ أحياناً درجة الهيام

* * *

وهكذا نرى أن هذه الطائفة السرية التي قامت منذ القرن السابع عشر على مبادىء وثنية ، وأساطير روحية سخيفة ، والتي تتوسل إلى تحقيق مثلها بأشنع الأساليب البربرية ، لا تزال تقوم إلى اليوم في قلب أوربا ، وفي قلب روسيا السوفيتية التي يغمرها جو من الالحاد والانكار لم تعرفه من قبل أمة من الأمم . على أن قيام هذه الطائفة الهمجية في قلب روسيا بالذات أمر يمكن فهمه وتفسيره ، ففي قفار روسيا النائية توجد مجتمعات من الفلاحين يسحقها الجهل والفقر ، وتنحدر في سذاجتها إلى مستوى يدنو من الهمجية ، وفي هذه المجتمعات الساذجة المتأخرة تفشو الخرافات والأساطير الدينية بصور مروعة تذكرنا بأساطير الوثنية الأولى ؛ وفيها بالذات استطاع الدعاة أن يحشدوا ضحاياهم . بيد أننا قد رأينا أن دعوة المجبوبين قد وصلت في العصر الأخير إلى طبقة المثقفين والنبلاء . وأعجب من ذلك أن تقوم مثل هذه الطائفة إلى اليوم تبشر بمبادئها ورسومها الهمجية . ولكن روسيا بلد العجائب ؛ ومن الصعب أن نتصورها قطعة من أوربا المتمدنة ، وقد كانت وما تزال اليوم مسرحا لأغرب الدعوات والمذاهب والأساطير

« فينا في أوائل اكتوبر » محمد عبد الله عنان

التشريع والقضـــاء

فى العهد الفرعوني

للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

— ١ —

قبل أن نتكلم عن تاريخ القضاء في مصر ، ينبغي ان نمهد بكلمة عامة تتناول حالة المصريين في عصورهم الأولى قبل أن تنشأ فكرة القانون بينهم وقبل أن يخضع نظامهم لقواعد معينة مرتكزة على قوة الدولة تحدد سلوكهم وتنظم ما بينهم وبين غيرهم من علاقات

تدل الآثار المصرية على أن النوع الانساني قطن مصر منذ أزمان عهيدة ، وأثبت أكثر الباحثين في تاريخ الأجناس البشرية أن هذا النوع الانساني عند ما استوطن وادى النيل أخذ في استثمار أرضه ، فظهرت الأسرة تبعاً لثبات المعيشة واستقرارها وأصبحت النواة الاجتماعية الأولى للمجتمع المصري . وكانت الأم في الزمن الغابر هى قطب دائرة الأسرة إذ لم يعرف الطفل إلا والدته ؛ ثم ظهر الأب وأصبح له السلطة العليا عليها تخضع له جميع أفراد أسرته من زوج وولد ونزيل ورقيق

قامت إذن الحياة الاجتماعية الأولى عند قدماء المصريين كما قامت عند غيرهم من الأمم القديمة على جماعة الأسرة ؛ ذلك بأن الانسان مدنى بطبعه ليس فى قدرته أن يظل منعزلاً عمن حوله ، فهو محتاج دائما إلى مساعدة غيره له فى كل أطوار حياته

فالأسرة إذن هى أول خلية اجتماعية وجدت فى الجنس البشرى؛ وهذه الوحدة الاجتماعية الأولى اشتملت على جمع من الأفراد ربطتهم عاطفة القرابة وجمعتهم صلة الدم ، وكانوا يخضعون خضوعاً تاماً فى أموالهم وأرواحهم لرجل فيهم هو أب الأسرة أو جدها ؛ فكان هذا الرئيس هو الذى يوفى بعهودها ويطالب بحقوقها ويقضى بين أفرادها ، وكانت كلمته فيهم بمثابة فرض يطيعه أفراد أسرته ولو كان ظالماً ؛ وكان أفراد الأسرة متضامنين يحافظون على أموال أسرتهم وحقوقها ويحمون أفرادها ويتحملون أعمال كل فرد فيها ، فعلى كل منهم تقع مسئولية أخيه ونتيجة جرمه ، لأنهم متضامنون فى الشر والخير معاً ، فلكل منهم أن يطالب بحق أخيه، وعلى كل منهم أن يأخذ بثأر أخيه

ثم اتسعت دائرة الأسرة على مر الأيام تبعاً لازدياد النسل حتى أصبحت عشيرة تتكون من عدة أسر ترجع إلى أصل واحد وتدين بعقيدة دينية واحدة ؛ ثم اتسعت دائرة العشيرة فتحولت إلى قبيلة تتكون من مجموعة من العشائر تضم جماً من الأفراد تربطهم رابطة القرابة أو المصاهرة أو المصادقة أو الضرورة للتعاون على اتقاء الأخطار ؛ ثم توطنت القبيلة فى الاقليم ، وكانت مصر مكونة من عدة أقاليم كثيراً ما كانت تتحارب ، فيتغلب إقليم على آخر ويضمه إليه . وقد أدت هذه الحروب إلى تكوين مملكتين عظيمتين إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب ، إلى أن وحدهما « مينا » أو « ميناوس » أو « مصرايم » أول ملوك مصر بجعلهما مملكة واحدة تخضع لسلطانه سنة ٣٤٠٠ ق . م فكان بذلك أول مؤسس لأسر الفراعنة . لذا قال «أرسطو» فى الكتاب الأول من السياسة : إن الأسرة هى مصدر الدولة وأساسها الذي تقوم عليه

وإذ اتضح لنا أن الأسرة هي أول جماعة فطرية وجب علينا أن نبين كيف كانت تلك الخلية الأولى من الوجهة القانونية وعلى أى قاعدة حددت صلاتها وعلاقاتها بين أفرادها من جهة ، وبين الجماعات الأخرى من جهة ثانية

كانت سلطة رب الأسرة أو رئيس العشيرة أو شيخ القبيلة مطلقة ، يقضى بين أفرادها بما يشاء لا ينازعه فى قضائه منازع ؛ وتمتد سلطته إلى أموالهم امتدادها إلى أرواحهم . وكان يدير شئونها الداخلية ويتولى أمورها الخارجية أمام الجماعات الأخرى وفقاً للتقاليد والعادات ، فكانت كلمته قانون الأسرة بين أفرادها كما كانت القوة هى القانون الذى يحكم صلاتها مع الجماعات الأخرى ؛ فهى التى كانت تفض كل نزاع مهما كان نوعه ، سواء أ كان هذا النزاع مدنياً أم جنائياً ، فمن كتب له النصر وتمت له الغلبة كان الحق والعدل فى جانبه . فكانت القوة تحمى الحق بل كانت تخلقه وتوجده ؛ فمن كان قوياً استطاع أن يحصل على كل حقه ، ومن كان ضعيفاً

فات عليه من حقه على نسبة ضعفه ؛ وكان الانتقام الفردى هو طريق عقاب الجانى أو الجناة ، وكان للمجنى عليه أو لأى فرد فى أسرته أن يقضى رغبة الانتقام التي تجول فى صدره فيختار من طرق العقاب ما يزيل به حقده على كل مرتكب للجريمة . وقد يقوم أفراد أسرة المجنى عليــه بمهاجمة أفراد أسرة الجانى لتضامنهم فى الأخذ بالثأر ، ولاعتقادهم بأن جرم الدم لايمحوه إلا الدم إذ لم يكن هناك من قوانين وقواعد تنظم استعمال ذلك الحق كما لم يكن هناك من سلطات عليا تحدد العقوبة وتشرف على تنفيذها

كان الأخذ بالثأر إذن حقاً وواجباً معاً ؛ وكثيراً ما كان عبئاً ثقيلاً يقع على أفراد أسرة الجانى فتختار أهون الشرين وذلك بتسليم الجانى إلى أصحاب الدم ، وبذلك تتخلى عن المعتدى إما خوفاً من الهزيمة وإما اجتناباً للحرب ورغبة فى حقن الدماء . وقد تكتفى أسرة المجنى عليه إذا وجدت نفسها أمام خصم قوى بالصلح تلقاء تعويض أو فدية تؤخذ من الجانى حتى تغض النظر عن طلب الثأر ، وبذلك نشأت فكرة شراء الجريمة بالمال ، وسمى ذلك بالدية أو بدل الصلح على الجريمة ؛ فكان القاتل ينجو من العقاب إذا أفلح في الصلح مع أهل القتيل . ولم يكن المال الواجب دفعه ثمناً للصلح متساوياً فى جميع الجرائم المتعددة من حيث الجسامة ، بل اختلف كثرة وقلة بحسب مركز الجانى والمجنى عليه معاً رفعة وضعة وبحسب مركز أسرتيهما وبحسب الاهانة التى لحقت الأسرة المعتــدى عليها . بسبب الجريمة قامت العدالة إذن وتأسست على المصلحة المــادية المؤيدة بالقوة والمعززة بها ؛ وشاع نظام المبارزة الذى هو التجاء صريح إلى حكم القوة لفض نزاع مدنى أو جنائى ، فكان المنتصر هو صاحب الحق ؛ وأصبحت المبارزة وسيلة قضائية أخرى لفض النزاع بين المتخاصمين

ثم خطا المجتمع المصرى القديم خطوة أخرى إلى الأمام تبعد بعض الشئ عن حالة الوحشية السابقة ، فركن إلى مهارة الخصمين لفض النزاع ، فشرع مثلاً مساجلات غنائيــة بين الخصمين يكون المنتصر فيها صاحب الحق ، أو ترك ذلك إلى المصادفة كإلقاء الخصمين مكتوفى اليدين أو الرجلين أو هما معاً فى الماء ، ومن أشرف منهما على الغرق كان هو مقترف الذنب ؛ أو يكوى به اللسان أو أى عضو آخر فى الجسم بحديد محمى ، ومن يمتنع منهما كان امتناعه دليلاً على أنه المذنب ، إلى غير ذلك . وكانوا يلجأون إلى هذه الوسائل وأشباهها فى تعرف الحق لاعتقادهم أن الله لا يخذل صاحب الحق أبداً

ثم تدرجوا فى الرقى فاختاروا « وسيطا » يفصل فى النزاع بحكمته بينهم ، وانتهى التدرج إلى قبولهم « حكما » يفصل فى منازعاتهم ، فحل « الحكم » محل « الوسيط » وبذلك أقبل الناس إلى شيوخ العشائر وإلى رؤسائها وإلى رئيس القبيلة وإلى كل شخص عرف بأصالة الرأى وصحة الحكم ليفصلوا فيما شجر بينهم من نزاع ، فكان قضاء مضطرباً غير ثابت لأنه لم يصدر عن قانون مسنون يحدد بقواعده ، ولا يستند إلى سلطة عليا تتولاه وتؤيد أحكامه ولو بالقوة عند الاقتضاء ، لأنهم كانوا غير ملزمين بالالتجاء إلى هذا « الحكم » ولا مجبرين على اتباع قراراته ، بل لم يكن هو نفسه مجبراً على الفصل بين من يحتكمون إليه ؛ وكانت القوة هي الملاذ الأخير يلجأ إليه من لم يرض بنتيجة التحكيم لفض النزاع . ثم خطت الأمة المصرية بعد ذلك خطوات سريعة إلى الرقى إذ أحلت النظام القضائى محل الطرق السابقة وحتمت الالتجاء إلى المحاكم لتفصل فى النزاع وفق قانون معين مسنون

نشوء فكرة القانون عند قدماء المصريين

لما كان الانسان محتاجاً إلى زاجر يزجره أو رادع يردعه فقد أحس منذ القدم وجوب وضع القواعد والقوانين التى تحدد له مدى سلوكه ونشاطه وتحفظ له حقوقه وتقى الناس اعتداءه ؛ لهذا وجب أن نتكلم عن المظاهر الأولى التى برزت فيها فكرة القانون فى المجتمع المصرى القــديم وكيف استقل وتباعد عن المصلحة المادية المعززة بالقوة

لما نشأت المدينة كوحدة سياسية وتكونت من جماعات هذبتها العقائد الدينية وثنية كانت أم سماوية ، وخضعت تلك الجماعات لسلطة رئيس الإقليم أميراً كان أو ملكا ، نشأت عندئذ فكرة القانون مستقلة عن القوة

كان قدماء المصريين يعتقدون أن المعبودة « ما » أو « معت » هى إلـه العدل والحق ؛ لذا وضعوا على تاجها ريشة نعامة ، وكانت تدل عندهم على العدل . وكانوا يقولون إن « توت » أو « طهت »

أو « تحوت » المعروف عند اليونان باسم « هرمس » نزل إلى الأرض ووضع لسكان وادى النيل القدماء القواعد الأساسية للقوانين المدنية والجنائية فاعتبروه رب القوانين وإلـه كل المعارف؛ وكانوا يقولون عنه إنه أول مشرع مصرى يحتذى وينسج على منواله . ويزعمون أنه ترك كتباً قيمة فى التشريع وفى نظم القضاء، ولـكننا لم نهتد إلى شىء من تلك الـكتب . وكانوا يعتقدون أن للعدالة إلـهاً يوحى بالحكم لمن يرفع إليه النزاع من الـكهنة أو السحرة . وكان من نتيجة اعتقادهم أن قوانينهم منزلة عليهم من السماء وأنها صادرة بوحى الآلهة ومشورتهم أن صبغ القضاء عندهم بالصبغة الدينية التى أكسبته الاجلال والوقار . ثم تكونت بمضى الزمن وتكرر الحوادث والنازعات المماثلة أو المتشابهة وصدور أحكام مصدرها الالهام – عادات مرجعها الالهام ليس لها صفة إلزامية ، وإنما تستمد قوتها من صفتها الدينية ومصدرها الالـهى المنسوبة إليه ؛ ثم تولى القضاء حفظ هذه العادات والتقاليد القانونية ومفسريها من زعماء الـكهنة أو الأشراف (إما لضعف السلطة الملـكية وإما لاتساع المملـكة وعجز الملك عن القيام بالقضاء بين أفرادها) واحتكروا معرفتها وساعدهم على الاستئثار بمعرفة هذه القوانين جهل العامة من المصريين ، فأصبحوا يفسرونها بحسب ما تمليه عليهم شهواتهم ويطبقونها بحسب ما يكون فيه منافعهم ويؤولونها بما يؤيد استمرار سلطتهم واتساع نفوذهم ؛ ويسمى هـذا العصر بعصر التقاليد غير المدونة . ولما كثر ظلمهم لعامة الشعب المصرى وظهر للشعب سوء نيتهم قلبوا لهم ظهر المجن وطالبوا بتدوين هذه العادات وتلك التقاليد فى نصوص تنشر على الناس جميعاً حتى يعرف كل شخص فى الأمة حقوقه وواجباته ؛ وبذلك بدأت مرحلة تدوين القانون . وقد جمعت تلك القواعد العرفية فى نصوص كتبت فى ألواح من الفخار أو الخشب أو البرنز وباشرت الحكومة إصدارها ونشرها فى الناس

ولقد كانت القوانين المصرية فى دورها الأول ذات صبغة دينية ، وكانت تميل إلى الانصاف والعدل كما كانت مشربة بمكارم الأخلاق فأصبحت بذلك قريبة إلى المثل الأعلى للحق ؛ ثم تشبعت بعد ذلك بالمسحة المدنية وبخاصة عند ما ضعف نفوذ الـكهنة بمصر

ويرجع ظهور التشريع بمصر إلى القرن الخمسين ق . م إذ فى هذا القرن تعلم المصريون الـكتابة عند ما وضع لهم « تحوت » إلـه القانون ما وضع من قوانين ثم جمعها لهم سنة ٤٢٤١ ق . م وعلى مر السنين بعثرت تلك القوانين فجاء الملك « بوخوريس » مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين (٧١٨—٧١٢ ق . م) وجمعها ثم عدلها ووضعها فى مجموعة واحدة نظم بها المعاملات المدنية والأحوال الشخصية وبذلك سميت بمجموعة بوخوريس عند المصريين وبقانون العقود عند الاغريق فيما بعد ذلك

وقد عمل في مصر بمجموعة قوانين بوخوريس هذه بعد أن امتدت إليها يد التنقيح أكثر من مرة فى العهد الفرعونى وطبقت على المصريين أيام حكم الاغريق والرومان لمصر حتى سنة ٢١٢م حيث أصدر الإمبراطور الرومانى كراكلا (٢١١—٢١٧م) قانوناً منح به الرعوية الرومانية لسكان الأمبراطورية الرومانية وكانت مصر جزءاً منها، وبذلك طبقت فى مصر القوانين الرومانية

« يتبع »

عطية مصطفى مشرفة
بكالوريوس فى الآداب فى التاريخ
ودرجة ليسانس فى الحقوق

الاجتهاد لا يزكو مع الفوضى

للأستاذ علي الزين

— ١ —

لقد اتفق لى منذ سنين خلت أن ضمنى مجلس فى إحدى القرى مع بعض العلماء المجتهدين — بعرف أنفسهم — وكان فيمن حضر هذا المجلس ضابط فلسطينى من إخواننا أهل السنة. وما إن استقر المقام بالجميع حتى تنحنح فضيلة العالم وانطلق يتحدى فى كلامه مواضع الخلاف بين أهل السنة والشيعة بكل ما فى نبراته من اعتداد بأحقية الشيعة، وبكل ما فى قلبه من حرص على توجيه الأنظار نحوه، وبكل ما فى لهجته من عنجهية ونبو عما تقتضيه اللياقة من الاحتفاء بالضيف الفلسطينى ومراعاة عواطفه كمسلم سنى أو كرجل قانون لا رجل دين يحسن الجدل ويستسيغه فى مثل هذه الموضوعات: وكان بيت القصيد فى حديث مولانا الاجتهاد وخطره — من حيث الإباحة والحظر، وأثر ذلك إيجاباً وسلباً فى الدين والعلم والعقل أيضاً، ثم كيف أن الشيعة — دون غيرهم من الفرق الاسلامية — استقلوا بهذا الفضل وفاقاً للأحاديث النبوية، وطبقاً للمأثور من أقوال العلماء والحكماء والمؤرخين، وما إلى ذلك من شواهد على فضل الاجتهاد وفوائده. كل ذلك جرى والضابط الفلسطينى واجم تحاشياً لهذا المجتمع الشيعى وتهيباً من هذا العالم الأرستقراطى الذى لم يترك مجالا لغيره فى الكلام، أو جهلاً بالموضوع، أو استخفافاً بالتحدث عنه لغير مناسبة لا أدرى؛ غير أن هذا الحديث أثار حفيظتى من العالم لا لشىء سوى أن يتملق العامة بالانتصار لمذهبهم أمام رجل سنى، كما استفز عواطفى هذا الوجوم من رجل غريب بروحه وميوله عن المجلس قد فوجىء بما لم يكن يترقبه ويألفه من حديث، فاندفعت للاعتراض بما أوحته إلى هذه الحال من خواطر وأفكار يمكن أن يفترضها ويقدرها الشيعى وغير الشيعى من المسلمين إذا اضطره الأمر إلى أن يتجرد من عصبيته، وأهاب به المقام للتمسك بكل ما يمكن أن يقال فى تحرير موضع النزاع. ولكن مكان مثل هذا العالم فى مثل هذا المجلس من العامة لم يدع سبيلاً إلى إتمام كلامى وتوضيح مرادى، بل اضطرنى كما اضطر غيرى إلى السكوت والإصغاء لو كان فى الامكان أن يسكت الفكر العنيد، أو يرتاح الضمير الحر بدون أن يفضى بمكنونه ويفرغ سورته فى قالب من اللفظ وسمط من البيان، فرحت أرفه عن النفس بعد الانصراف عن هذا المجلس بتسجيل تلك الخواطر وكتابة هذا المقال؛ بيد أنه لم يكن لى من الشجاعة الأدبية أو من الاعتداد بما كنت أكتبه آنئذٍ ما يجرئنى على النشر، فطويت المقال فيما طويت من الأبحاث وجعلت مع الأيام أرقب المناسبات والفرص التى تهيىء لى نشره إلى أن قامت الرسالة الغراء تعالج هذا الموضوع — موضوع الاجتهاد — وتشجيع الأقلام على تمحيصه بحثاً وتفكيراً، فحولت وجهى نحوها معتداً بإنصاف الأستاذ الكبير — صاحب الرسالة — وعطفه على مثل هذه الموضوعات التى تتوالى على صفحات مجلته، وإن كنت قد خالفت أولئك الباحثين فى لهجتى ومنحاى، اعتقاداً منى بأن المجاملة والمداورة والتملق فى مثل هذا المقام لا تسمن ولا تغنى، بل هى إلى إغراء المتعنتين بتعنتهم وجمودهم أقرب منها إلى تأييد المخلصين والأخذ بيدهم إلى مكامن الداء ومواضع العلة، وهى كذلك إلى التلبيس والإبهام أقرب منها إلى الصراحة والجهر بالحق الذى يجب أن يقال فى محاربة العرف الزائف ومعالجة الأهواء المريضة، وتقويم الأفكار المستعبدة، من حيث لا يغنى التردد والخوف عن الثقة بالنفس والإقدام بالقول والعمل شيئاً

— ٢ —

لا جرم أنه كان فى إقفال باب الاجتهاد بعض التقييد للحرية والاستقلال فى الرأى، وبعض الحجر على العقل والفكر والمنطق أن تجرى مجراها الطبيعى الذى أعدته الشريعة السمحاء وهيأته طبيعة الحياة الحرة: ولا جرم أنه كان فى فتحه على مصراعيه تعزيز للعلم وتحرير للفكر والمنطق، وتنزيه للاسلام — دين الفطرة — عن الجمود والضيق لو قد انتهى بنا الأمر إلى ما كان يجب من الانطلاق مع نتائج التحرير العلمى والفكرى، وجعل الدين — بذلك — مآلا للمحبة وغاية للاتحاد وتفسيراً للحياة من سائر الوجوه والنواحى تفسيراً يقره منطق الحياة الحكيم، وتكبره الفطرة الانسانية الحرة

أما والنتيجة ليست — بجميع ذيولها — كما يظن ويفترض لا أحسب أنه كان فى فتح باب الاجتهاد على هذا النحو من الاضطراب والفوضى التى نجدها عند علمائنا اليوم — خدمة للعقل والدين أكثر مما كان فى سده وإقفاله عند غيرهم

... فها نحن أولاء معشر الشيعة الإمامية ممن استمروا على القول بالاجتهاد وخطوا على ضوئه خطوات واسعة فى العلوم الدينية والإسلامية وتأنقوا ما شاء لهم التأنق فى علوم الكلام، والحديث، والتفسير، والفقه، والأصول، وإنهم لتأنقهم وتوسعهم فى هذا الأخير قد أحالوه إلى مزيج من الفلسفة والنظريات الغريبة وأوشكوا أن يخرجوا ببعض مباحثه عن حدود المعتقدات الشيعية كما هو الشأن فى بحث (اتحاد الطلب والإرادة) على ما قرره صاحب الكفاية — ها نحن أولاء قد استحال عندنا الاجتهاد أو كاد أن يستحيل — بتشعب أفكار الباحثين وتعسفهم فى التفكير والتخييل وتسامحهم فى النتائج إلى نوع من الافتراضات والوساوس والشكوك، يستطيع معها ضعاف الوجدان والعقيدة من ذوى الأهواء والمآرب الشخصية أن يستنبطوا لكل مأرب حكما، وأن يخلقوا لكل عسف عذراً، وأن يمهدوا لكل شذوذ فى القول والفعل قياساً وشكلا، يدرأ عنهم التهم، ويحتفظ لهم بثقة الجمهور، ويشحذ لهم من منطق الدين شركا للصيد وسلاحاً للنقمة، من حيث لا يستطيع ـ مع هذه الوساوس والشكوك ـ من يحتاط لدينه ووجدانه أن يجزم بحكم من الأحكام الفرعية إلا فيما شذ وندر من الأحكام التى لا تتسع للتأويل والافتراض والجدل

ذلك إذا كان الذين يتخصصون بتلك العلوم الدينية من ذوى الكفايات والمواهب السامية، فكيف بنا إذا كانوا من البله والحمقى الذين من شأنهم أن يكونوا عرضة للتلبيس ومظنة للأوهام وأرجوحة للأهواء السياسية والمنبهات العصبية، أو الذين لا يتعلمون هذه العلوم فى الغالب إلا احتفاظاً بتقاليد آبائهم وإلا ذريعة للرزق والاكتساب؟

أفترى أن الأمة أو أن الدين — بمثل ذلك — يمكن أن ينتهى إلى غاية أو يستقر على رأى؟ أم هل يمكن مع هذه الحال أن تكون النتيجة إلى غير ما نحن عليه اليوم من فوضى الاجتهاد وإطلاق العنان لكل طامح ولكل معتوه يسول له غروره وجشعه أن يستغل هذا الاسم ويدنس روحانيته بما يوسوسه له الهوى وحب الذات من فتاوَى وأحكام وبدع يرسلها إرسال المسلَّمات، ويصرفها تصريف المطمئن إلى صوابه، وكفايته، وإخلاصه؟ أم هل يمكن أن تؤول بنا الحال إلى غير ما منينا به فى جبل عامل من تنابذ العلماء، وتجريح بعضهم بعضا ومحاولة كل منهم أن يذهب إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر فى تحريمه وتحليله وتقريبه وتبعيده؟

أم هل لنا مع كل هذا — ومع تيقننا من أن الدين الإسلامى إنما وجد لخير الإنسان وصالحه وتوجيهه نحو المثل العليا التى توحد بين أفراده وشعوبه وتجعلهم إخواناً فى السراء والضراء — أن نقول إن فتح باب الاجتهاد عندنا كان أجدى على الدين من سده واقفاله عند اخواننا السنية؟ هيهات هيهات! ولو أن الذين أوصدوا باب الاجتهاد لم يتأثروا بعوامل زمنية واعتبارات سياسية بأن انقطعوا فيما وقفوا عنده واختاروه من المذاهب، لما كان أكثر انطباقاً على جوهر الكتاب والسنة وأقرب ملائمة لمنطق الحياة الاجتماعية والعقلية، وأشد اتساقاً مع دواعى الاحتياط والحزم واختلاف الأيام والظروف، وتطور الحاجات ... لكان إقفاله على ذلك النحو من الإحكام والاعتدال — فى تلك الأيام العصيبة والظروف الحرجة — أجدى على الإسلام من فتحه على هذا الشكل من الفوضى والتسامح والاسترسال مع كل شذوذ وتعسف وادعاء شخصى، وأضمن لمنعته واتحاد كلمته، واتساق سلطانه

هذا وإن الأمر الذى ما انفك يقلق بال كل أريب وريب خاطر كل مفكر — وللاجتهاد حكمته البالغة ومزيته العظمى فى ترويض الأصول العلمية وتصريف الأحكام على ما توجبه ضرورات الحياة ويقتضيه تطور أحوالها واختلاف دواعيها وجعل الدين (بذلك) يتسع لأبعد مدى فى تطورها وتقدمها — تخولنا نحن الشيعة حملة لواء الاجتهاد وتخلفنا فى ميادين الحياة على اختلاف أنواعها وفروعها، دون بقية الفرق الإسلامية التى حُلئت عن نعمة الاجتهاد ولم ترزق مرونة منطقه ورحابة صدره تخلفاً لم ينفع معه استقلال إيران الشيعية في السلطان ونزولها على آراء المجتهدين وامتثالها لإرادتهم فى كل شأن من شؤونها وفي كل طور من أطوارها، طول هذه الحقبة الغابرة من الدهر

ثم جمود أكثر أولئك المجتهدين منا وتحرجهم تحرجاً يغرى الناس بالجمود والتقليد، ويميت فيهم حياة العزة والطموح، كأنما

أوتوا منطق الاجتهاد ليحاربوا كل جديد فى الحياة ، ويطاردوا كل مصلح ، ويفرضوا على الناس حياة الاتكال الراتبة ، وعيش الاعتزال المبتور ، أو ليختصروا هذه الشريعة الكونية ويضيقوا هذه السهلة السمحاء ، ولا يوجهوا كبير عنايتهم وجهودهم لغير هذه الفوارق والتقاليد المذهبية التى أوشكت أن تكون — بحكم ذلك الخلاف والتعصب الاسلامي العام — بمنزلة الأصل للكتاب والسنة ، يؤول ما التبس منهما واختلف على حسب المألوف والمعتبر من ذلك لدى كل فرقة من فرق الإسلام

— ٣ —

ثم ما الاجتهاد إن لم يكن فى جملته ومآله عبارة عن استقلال الفقيه فى تفسير الكتاب والسنة ، واستنباط الأحكام الشرعية من ذلك لكل واقعة من وقائع الحياة قديمها وحديثها على حسب المنطوق والمفهوم ، وعلى مقتضى العموم والخصوص ، والاطلاق والتقييد ، وما إلى ذلك مما توضحه القرائن ويقره الذوق والمنطق (١) ؟

وهو بهذا المعنى محدود النطاق ليس لعقل المجتهد باصطلاحنا ولا لخياله أن يتجاوز به ماوراء الجمل والألفاظ فى الكتاب والسنة ، فإنه على فرض أن تنص القرائن الحالية والمقالية — وفرض المحال — ليس بمحال — على معنى من معانى الكتاب والسنة لا يساعد على استخراج الحكم الذى يقتنع به العقل ويستسيغه الذوق ويتفق مع ماجريات الحياة ، لايستطيع المجتهد أن يتجاوز النص فى حكمه ويراعى مقتضى العقل المجرد ، والذوق السليم ، لتتحلل من إطلاق القول « أنه كان فى سد باب الاجتهاد حجراً عاماً على العقل »

ثم ما يدرينا فى أن يكون همُّ من أوصدوا هـذا الباب آن ذلك بعد أن انضحت عندهم أكثر أحكام الفقه وقضاياه واطمأنوا إلى تحرير نصوصه وأدلته :

أولاً — الاحتياط من أن تتعدد المذاهب الاسلامية إلى غير نهاية وأن يكثر الخلاف ويستحكم حتى تتفرق الكلمة ويتمكن الدخلاء والدساسون من الكيد للاسلام ، فتنحل قواه ، وتلتبس حكمته ، ويضطرب قصده ، وتنعكس الآية « إنما المؤمنون إخوة »

ثانياً — تحرير الفكر وتوجيهه إلى باقى النواحى العلمية والفكرية التى استقبلها الاسلام فى أوج نهضته وازدهار مدنيته وحضارته — باعتقاد أن مجاهل الحياة المتشعبة وحاجات الانسان المتعددة المتنوعة أبعد مدًى وأوسع نطاقاً من أن تنحصر أو تتضح أو تحد بما ينطوى عليه الفقه والأصول من أحكام وقواعد ليقتصر البحث عليها كما كانت الحال إذ ذاك

هذا وإذا كان الاجتهاد فى الفقه لا يعدو فى جملته ومآله أن يكون من قبيل الاجتهاد في تفسير الجمل والمفردات اللغوية والتمييز بين الحقيق وبين المجاز ، والمنقول ، والمشترك منها ، بعد البحث عن تاريخ نشأتها ، وعما كان يلابسها آن ذلك من قرائن حالية ومقالية وما كان يتصل بها ويكتنفها من عوامل الاجتماع والسياسة ومن خصائص الزمان والمكان ، ثم عما رافق تطورها وتنقلها فى الأيام ، والجماعات ، والأشخاص ، من تحوير وتغيير . وكما أنهم هنا قد اختلفوا بين القول بإباحة التفسير بالرأى وبين القول بعدمه ، وترددوا بين القول بجواز الاشتقاق والتصريف ، والوضع للمستحدثات من المعانى وبين القول بعدمه . ثم انتهى بهم الخلاف والتردد إلى عدم الاطمئنان للفرد مهما كان شأنه ، وإلى الاتفاق على تأليف مجمع من العلماء الاختصاصيين يوكل إلى مجموعه التصرف فيما يتفقون عليه من رأى

فلماذا لايكون واقع الأمر هناك — في الفقه — كذلك ؟ ولماذا لاننتهي بعد هذا النزاع الطويل العريض الذى أحكمه ووسعه استئثار الفرد وتمادى الفوضى إلى ما قد انتهى إليه علماء اللغة من تأليف مجمع من علماء الدين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ثم إنشاء (مجلة) لتحرير البحث فى مواضع النزاع بينهم وتعميم مايقرره منطق العلم والدين ، والحياة الحرة ، ويفرضه التجرد لمحض الحق والخير ؟

وعلى فرض أن تصطدم هذه الوسائل — فى أول الأمر — بما قد فطر عليه الجمهور من جمود فى الطبع ، واحترام للشائع من أوضاع وتقاليد ، والتمسك بالمألوف من عرف ورواية ، أو أن تحدث هذه الابحاث رد فعل فى الأوساط الاسلامية كما هو الشأن فى كل فكرة جديدة — علمية كانت أو دينية — لاتنسجم

(١) وهنا أستميح العذر من سادتى الأصوليين إذا تجوزت فى تعريف الاجتهاد ولم ألتزم بنص عبارتهم أو أراعى المعنى اللغوى — اعتقاداً منى — بأن بذل الوسع فى تحصيل الحكم إذا لم يخرج بصاحبه عن طور التقليد ويكون له رأيا خاصاً بالمسئلة لايحقق له صفة الاجتهاد بالمعنى المراد

ثم اعتقاداً بأن بقية الأدلة التفصيلية هى فرع عن الكتاب والسنة خلقتها الحاجة إلى النص القطعى فى بعض الفروع والاعتبارات أو إلى تحديد مفاد النص ومداه سعة وضيقا ولذلك كانت مهملة مع وجوده ووضوحه لاشأن لها ولا أثر .

مع الشائع والمألوف من عادة وقول — إنه على فرض أن يكون ذلك كله فى أول الأمر ، فلا بدّ لهذه الوسائل فى النهاية من أن تقوى وتسلس لنتائجها الأفكار والعقول وتراض على مقرراتها الأذواق والنفوس من عامة المسلمين وخاصتهم ولا سيما إذا استمرت معها عواطف المصلحين وحججهم الدامغة وتضافرت على تأييدها وتقريرها فى المجتمع الاسلامى الحياة فى تطورها والثقافة فى تقدمها ، وإلا فالاتكال على المصادفات أو ما يشبه الاتكال عليها — فى الإصلاح والتأليف — عجز وقنوط لا يقتنع به المصلح المعتد بصواب مبادئه ، وسداد خططه ، وسمو غايته ، ولا يليق بالأمم المتفائلة الطامحة

أجل ! ماذا يمنع حماة الدين وقادة الفكر فى العالم الاسلامى أن يؤلفوا لجنة دائمة أو لجاناً من العلماء الاختصاصيين الذين عرفوا بمرونة الرأى وسمو الفطرة وسلامة الذوق ، وهيأت لهم الظروف أن يضيفوا إلى ثقافتهم الدينية ثقافة اجتماعية عالية تشعرهم بواجبات الحياة وواجبات الدين ، وتمكنهم من التوفيق بين ما التبس أو تفاوت من نواميسهما — يوكل إلى هذه اللجنة تسوية الخلاف القائم بين المذاهب الاسلامية وتحرير النصوص والأدلة على ضوء العلم وسداد المنطق النزيه ، وتعديل الأحكام والنواميس وتقريرها على وجه تذوب فيه النعرات والفوارق ، ويستقيم القصد والغاية ، ويستمر العمل والسير على المنهج القويم اللاحب

وهل ذلك بعزيز على همم المخلصين من القادة إذ هم احترسوا فى أخذ النصوص والأدلة والأحكام ، مما جره عليها عادي الزمن وتصادم العصبيات وتزاحم المذاهب السياسية والدينية وتنازع الأهواء الشخصية والحزبية ، من تلبيس ، واختلاق ، وتصحيف وادغام

ثم راعوا فى تفسيرها وتوجيهها ، تجدد الحياة واتساع أفقها وتطور مقتضياتها ، وتشعب ضرورياتها وكمالياتها عما كانت عليه فى صدر الاسلام وعهد أئمته الأول

فانه لم يبق فى إمكان الفرد أن يقوم بمثل هذه المهام — مهام الاجتهاد — كما ينبغى ويجب حتى فى الطائفة الواحدة من طوائف المسلمين ، لأن الدين بالنظر لتوسع أبحاثه وتشعب فروعه ، ولأن الحياة بالنظر لتعقدها وتطورها المستمر ، قد أصبحا أكبر من أن يستقصى حقائقهما ويستكنه أسرارهما ويطابق بين داعيهما فرد مهما كان ، ليوكل إليه بمثل هذه المهام الشاقة ولأن الفرد مهما كانت عبقريته ومهما كانت جهوده لا يمكنه أن يكون منزهاً عن الخطأ معصوماً من الزيغ حرياً بأن يستقل بجهود أمة وتراث أجيال ، ويتصرف بمقدرات الأفكار والعواطف الدينية

— ٤ —

ولكن مثل هذا العمل الانسانى الخطير لا أحسبه يتم على وجهه الأكمل ويكون له أثره الفعال فى جميع الأوساط الاسلامية إذا لم تتحفز (النجف) ويهيب بها داعى النهضة إلى أن تجارى (الأزهر) وتتلافى هذه الفوضى السائدة فى مدارسها وفى كتبها الدراسية وفي أساتذتها وتلامذتها ، ثم فى الاجتهاد والتقليد أيضاً بالعمل على تنظيم تلك المدارس ومراقبة الأساتذة والتلامذة والكتب الدراسية فيها ، وإعداد اللجان الاختصاصية لتعديل برامج التعليم وتوسيع هذه البرامج ، ثم تحوير الكتب الدراسية أو تغييرها وترتيبها على حسب عقلية التلامذة وعلى حسب مراتبهم العلمية ، لتتضح بذلك السبل أمام الطالب وتقرب النتائج ويتوفر عليه من الوقت والنفقة ما يزيد فى نشاطه وطموحه إلى أن يتثقف ثقافة عالية تيسر له بعد الاختصاص بما يختص به من علوم الدين أن يتذوق الدين وأن يتذوق الحياة بدون مشقة ، وأن يتفهمهما ويؤدى فرائضهما على الوجه الصحيح الأكمل لكي يتهيأ للنجف نفسها من وراء ذلك كله أن تتفاهم مع الأزهر ، وتجعل للاجتهاد — بالتعاون معه — المحل المرموق والأثر البالغ فى نفوس المسلمين وعقائدهم وآدابهم

ثم لكى يتسنى للمعهدين الخالدين ويروق لهما على هدى الاجتهاد وبركة الائتلاف أن ينزلا عن بعض التقاليد ، وينظرا للدين وللحياة نظراً مجرداً يرتفع بالدين عن كل هذه الحواشى العفنة البالية ، ويسمو بالإنسانية عن كل هذه الفصول التى تثير الريب وتشعب الظنون ، وتوسع الخرق بين الأخوين ، نظراً حكيما ملؤه الاخلاص والسمو ، يخطو بالإسلام والإنسانية خطوته الأبدية الكبرى إلى الأمام ، إلى الاتحاد ، إلى السعادة الأبدية والحياة الخالدة

وإلا فإذا دامت النجف على ما نمهدها من الأوضاع المدرسية فمسافة الخلف بعيدة بين المعهدين بعد الفوضى عن النظام ، والبداوة عن الحضارة ، لا يمكن أن تغنى فيها الأقوال والمجاملات عن العمل والإخلاص شيئاً

(النبطية — جبل عامل) على الزين

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٠ —

الرافعي شاعر الأناشيد

ولع الرافعي منذ نشأته في الشعر بالأناشيد الوطنية والأغاني الشعبية ، يفتنّ في نظمها ، ويبدع في أوزانها وأساليبها ؛ ففي سنة ١٩٠٣ أخرج في الجزء الأول من ديوانه بضع قصائد وطنية ، تفيض عاطفة وتشتعل حماسة ؛ واشتهر من بينها قطعته (الوطن) التي يقول في مطلعها :

بلادي هواها في لساني وفي دمي يمجّدها قلبي ويدعو لها فمي

وذاعت على ألسنة تلاميذ المدارس ، يحملهم المعلمون على استظهارها في دروس المحفوظات إلى يومنا هذا ، كما اشتهر كثير من قصائده الوطنية وأغانيه الشعبية . وجاء في هامش ديوانه بعد تمام هـذه المقطوعات : « قد تمت القطع التي نظمت للنشء من تلامذة المدارس ، وقال ناظمها : إنه إذا وجد الناس أقبلوا عليها أقبل هو على نظم غيرها مما هو أرق ، غير مبال بوعورة هـذا المسلك الذي لم يسلكه قبله أحـد . فها نحن أولاء ننتظر من الصحفيين وشبان العصر أن يأخذوا بيده في هذا المشروع ، حتى لا يغيض ما بقي في ذلك الينبوع ... (١) »

ثم دأب على نظم أمثال هذه الأغاني ، ينشر منها طرفة رائعة في كل جزء من ديوانه ، فنشر نشيد الفلاحة المصرية ، وأرجوحة سامي ، وغيرها ، وأذاع في الصحف كثيراً مما نظم من « أغاني الشعب »

وإنك لترى الرافعي في هذه الأغاني والأناشيد ، له طابع وروح غير ما تعرف له في سائر شعره ، فتؤمن غـير مضلل أن الرافعي هبة الزمان للعربية لتزيد فيها هـذا الفن الشعري البديع الذي تقطعت أنفاس شعراء العربية دونه منذ أنشد شاعرهم في الزمان البعيد : « نحن بنو الموت إذا الموت نزلْ ... » ثم لم يقل أحد من بعده شعراً يترنم به في الحرب ، أو يدعو إلى الجهاد ، أو يستنفر إلى المعركة ، حتى أنشد الرافعي ...

ويقيني أن اسم الرافعي إذا كتب له الخلود بين أسماء الشعراء في العربية ، فلن يكون خلوده وذكره لأنه ناظم ديوان الرافعي ، أو ديوان النظرات ، أو المدائح الملكية في المغفور له الملك فؤاد ، أو قصائد الحب والغرام بفلانة وفلانة من حبائبه الكثيرات ، ولكنه سيخلد ويذكر لأنه شاعر الأناشيد ...

* * *

ونهضت الأمة نهضتها الرائعة في سنة ١٩١٩، ودوّي صوت الشعب هاتفاً : إلى المجد إلى المجد ، إلى الموت أو الحرية ؛ وصاح صائح الجهاد يدعو كل نفس من داخلها ، فإذا الأمة صوت واحد، على رأي واحد إلى هدف واحد ؛ وإذا مظهر رائع من مظاهر الإيمان بحق الموجود في وجوده يتمثل في كل مصري ، ويستعلن على كل لسان في مصر

واجتمع رأي طائفة من رجالات مصر على أن يكون لهذه النهضة نشيد يعبر عن أمانيها وغايتها ، ويكون أغنية كل مصري ، تجتمع عندها خواطر نفسه ، وخلجات فكره ، وهمسات قلبه ؛ فيكون صوتها من صوته ، ولحنها من أحلامه ، وبيانها من معاني نفسه

وتلفّت النـاس يفتشون عن ذلك الشاعر الموهوب الذي يؤملون أن تتحدث الأمة بلسانه وتهتف بشعره . وأعلنت لجنة النشيد عن جائزة وضربت أجلا ...

وتبارى الشعراء في الافتنان والاجادة ، وتقدم كل شاعر ببضاعته ، وتقدم الرافعي فيمن تقدم ؛ ولكن اثنين لهما مكانهما وخطرهما بين شعراء العصر لم يتقدما بشيء إلى لجنـة النشيد : هما شوقي أمير الشعراء ، وحافظ شاعر النيل . أما حافظ فلأنه من المحكمين في اختيار النشيد ، وأما شوقي ... من يدري ؟

وكان على رأس لجنة النشيد الوزير العالم الأديب ، الأستاذ جعفر ولي باشا ، فكأنما عز عليه أن ينتهي الأجل المضروب فيتقدم الرافعي ، ويتقدم الهراوي ، ويتقدم عبد الرحمن صدقي ،

(١) شرح الرافعي الأجزاء الثلاثة من ديوانه ، ولكنه لسبب ما ، نسب الشرح إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعي ، ولعلّ هذا من الدعاية التي كان يدعوها لنفسه في أول عهده بالشعر ؛ ومن هذا يرى القارىء حديث الرافعي عن نفسه في هذه العبارة بضمير الغائب ، على أنها من قوله هو نفسه

ويتقدم غير هؤلاء ممن يقول الشعر ، وممن لا يحسن إلا أن يزن فاعلاتن ومفعولاتن على كلام ، ولا يتقدم شوقي وحافظ

ونسأت اللجنة الأجل المضروب ، وسعى الساعون إلى الشاعرين الكبيرين ليحملوهما على الاشتراك فى المباراة ؛ فأما حافظ فأصر وأبى ، وأما شوقي ... يرحمه الله ، لقد كان حريصاً على أن يقول الناس فى كل مناسبة : لقد قال شوقي ... ولكن ماذا يقول ذلك اليوم ؟

وكان لشوقي نشيد ، أنشأه منذ عهد لتفتتح به (فرقة عكاشة) موسمها التمثيلي ؛ فماذا عليه لو تقدم بهذا النشيد القديم إلى لجنة المباراة ؟ وتقدم شوقي إلى اللجنة بنشيده المشهور :

بنى مصرٍ مكانكمو تهيَّا فهيا مهِّدوا للمجد هيَّا

وتساءل الأدباء بينهم : لماذا مدّت اللجنة الأجل المضروب ؟ فلم يلبثوا أن جاءهم الجواب الصريح ؛ فعرفوا أن اللجنة لم تفعلها إلا حرصاً على أن يكون النشيد المختار من نظم شوقي ...

عندئذ نجمت ثورة أدبية حامية ، وتمرد الأدباء على اللجنة وحكم اللجنة ، وهل كان لهم أن يطمئنوا إلى عدالتها وقد ذاع الحكم قبل موعد الفصل فى القضية ؟

وكان الرافعي على رأس الثائرين ، فأنشأ بضع مقالات فى (الأخبار) ، وللأخبار يومئذ مذهبها السياسى وكاتبها الأول هو المرحوم أمين بك الرافعي ؛ فسحب الرافعي نشيده من اللجنة قبل أن يسمع الحكم فيه ، وراح يعلنها ثورة صاخبة على اللجنة وأعضاء اللجنة ، وعلى شوقي وأنصار شوقي ، وقال فى نشيده ما يقال وما لا يقال ، وتابعه جمهرة من الأدباء ؛ فكتب المازنى والعقاد فى (الديوان) ، وكتب غير المازنى والعقاد ؛ وشوقي رحمه الله رجل كان على فضله ومكانته وعلى منزلتـه فى الشعر ، ضيق الصدر بالنقد والناقدين ؛ فمن هذا كان بينه وبين الرافعي شيء من يومئذ ، إن لم يكن من قبل يوم نشر الرافعي مقاله فى (الثريا) عن شعراء العصر فى سنة ١٩٠٥ ؛ فما التقيا من بعد حتى لقيا الله ؛ على أن أحداً من أدباء العربية لم ينصف شوقي بعد موته ولم يكتب عنه مثل ما كتب الرافعي عن شوقي فى مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وهو نموذج من الأدب الوصفي أحسبه نادر المثال فيما يكتب الكتاب عن الأدباء المعاصرين

***

ومضت لجنة المباراة فى طريقها غير آبهة لما يقال ، ومضى الرافعي فى ثورته ؛ ثم لم يلبث أن جمع لجنة غير اللجنة ، من أصدقائه وصفوته والآخذين عنه ، لتنظر فى نشيد الرافعي وحده

وأصدرت اللجنة الأصيلة حكمها ، فكان الفائز الأول هو شوقي ، وفاز من بعده الهراوى وعبد الرحمن صدقى ، وأعلنت اللجنة الأخرى أن نشيد الرافعي هو النشيد القومي المصرى ... وسبّقت بين المغنين جائزة ، ليصنعوا لحناً لنشيد الرافعي :

إلى العلا ، إلى العلا ، بنى الوطن إلى العلا ، كلُّ فتاةٍ وفتًى

وفاز الموسيقار الكبير الأستاذ منصور عوض بالسبق إلى اللحن والجائزة !

ليس من همى هنا أن أوازن بين نشيدي شوقي والرافعي ؛ فقد مات نشيد الرافعي (إلى العلا ...) بعد ماسبقه نشيد شوقي إلى الموت بعشر سنوات ، ولم تُجْدِ كل المحاولات فى بعثه ونشره ... وإن كان لى أن أقول شيئاً هنا فى الفرق بين النشيدين فهو أن أصف كيف كان استقبال الناس لنشيد الرافعي واحتفاؤهم به فى كل مكان ، وكيف كان نشيد شوقي

لقـد سمعت نشيد الرافعي أول ما سمعته فى حفل رسمي أقيم لإذاعته بطنطا فى سنة ١٩٢١ أو ١٩٢٢ بمسرح البلدية ؛ فما أحسب أنى رأيت نشيداً احتفل له الناس ما احتفلوا لنشيد الرافعي يومئذ ؛ فإذا كان قد مات بعد ذلك بسنين وجر عليه النسيانُ أذيالَه ، فما أظن ذلك كان لضعف فيه أو نقص يعيبه ، ولكننا نعيش فى شعب أكبر فضائله أن ينسى ... وعند الله الجزاء ... !

***

اسلمى يا مصر

وتطورت الفكرة الوطنية فتمثلت بشرا فى سعد زغلول ؛ فهو المصرى الذى لو أرادوا أن يمثلوا ذلك الشعب العريق إنساناً تراه العين لما وجدوا إلا صورته ، ولو سألوا : من الرجل الذى يقول أنا الأمةُ صادقاً غير محتال لما وجدوا غيره ...

وتطورت فكرة النشيد القومى عند الرافعي فرأى رؤياه فى منامه ، فلما أصبح ألف نشيده « اسلمى يا مصر » وما كان هم الرافعي عند ما ألفه أن يجعله نشيداً قومياً ؛ إنما قصد إلى أن يجعله بياناً رمزياً على لسان سعد ، أو كما يقول الرافعي فى خطابه إلى سعد فى جبل طارق :

« وما أردت بإظهار نشيدك إلا أن تظهر فى كل فرد من الأمة على قدر استعداده ، ويبقى اسمك الجليل مع كل مصري على الدهر ليكون مصدراً من مصادر إمداده

« ويقولون إنه نشيد يقربك من الأجيال الآتية ، وأنا أقول إنهم هم يتقربون به إليك ، ويجدون منه الوسيلة لتقبيل اسمك المحبوب إذ لا يستطيعون مثلنا تقبيل يديك ، ويعلمون فى كل زمن من شرح هـذا الاسم الكبير أنه الرجل الذى خط قلم الأزل كتاب نهضته الكريمة ، واختاره الله للأمة كما اختار الأنبياء إلا أنه نبي الفكر والعزيمة ... »

قلت : إن الرافعى لم يكن يعنى بإنشاء نشيده «اسلمى يامصر» أن يجعله نشيداً قومياً ، فإنه لمطمئن إلى أن نشيده « إلى العلا.. » ماض في طريقه إلى هذا الهدف ؛ إنما كان يعنى أن يضع فى هذا النشيد صوتَ سعد كما تصورت حقيقتُه فى نفسه ؛ لكن نشيده ما كاد ينشر ويذاع ، حتى أبدت البلاد رأيها ؛ فقام الطلبة والأدباء والفنانون يدعون دعوتهم إلى اتخاذه نشيداً قومياً لتجعل صوتَ سعد فى هـذا النشيد صوتَ البلاد ، ولتتخذ ما فيه من معانى المجد شعاراً لكل مصرى ، أن كان صوت سعد يومئذ هو صوت كل مصري

وتألفت اللجان فى مختلف البلاد لإعلانه وإذاعته ، وتسابق الملحنون إلى ضبط نغمته ورسم لحنه ؛ فكان أسبقهم إلى ذلك الموسيقار منصور عوض ، والموسيقار صفر على ؛ واللحن الأول أدق اللحنين وأوفاهما بالغاية ؛ ولكن اللحن الثانى أذيع وأعم ، وبه تنشده فرق الكشافة المصرية بعد إذ صار نشيدها الرسمى

النشيد القومي فى سنة ١٩٣٦

ونجحت الدعوة نجاحها المؤمل ، فصار نشيد «اسلمى يامصر» هو نشيد مصر القومى من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٣٦ حين أعلنت الحكومة عن المباراة العامة لتأليف نشيد قومي يهتف به الشعب وتعترف به الحكومة

فى هذه الفترة كان الرافعى على نية إنشاء نشيد وطنى جديد، إجابة لرغبة تقدم بها إليه شبان الوفد ؛ فما أذاعت الحكومة بيانها عن المباراة حتى تقدم بنشيده الجديد :

حماةَ الحمى ، يا حماة الحمى   هلمُّوا ، هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت فى العروق الدما   نموت ، نموت ، ويحيا الوطن

كما تقدم بنشيده الآخر : « اسلمي يا مصر » ؛ ولأمر ما استبعدت لجنة المباراة النشيد الثانى ، ومنحته الجائزة الثانية على النشيد الأول . وما أريد أن أعرض لرأى اللجنة وحكمها فى هذا النشيد الجديد ، فذلك باب من النقد الأدبى ليس من قصدى التعرض له فى هذا المقال ؛ فان للتاريخ الأدبى حكمه فى هذا الشأن ، يوم تُنسى الأحقاد وتَمحى العداوات

* * *

ليس ما ذكرت هو جهد الرافعى فى الأناشيد ، وليس بهذا وحده يستحق أن نخلع عليه هذا اللقب الذى لا أرى غيره من شعراء العربية جديراً به ؛ فما أستطيع أن أحصي كل ما أنشأ الرافعى فى هذا الباب ، وحسبي أن أذكّر بنشيده الخالد الذى أنشأه فى سنة ١٩٢٧ ليكون شعار (الشبان المسلمين) ، فهنا ، في هذا النشيد ، يُعرف الرافعى الشاعر المسلم المجاهد الذي وقف قلمه وبيانه على خدمة المسلمين والعرب

أما « نشيد الملك » ، و « نشيد بنت النيل » ، و « نشيد الطلبة » الذى أنشأه ليكون به هتاف تلاميذ المدرسة الثانوية بطنطا — فذلك فن من البيان له فصل بعنوانه فى تاريخ الأدب العربى

البحر المنفجر

فى أناشيد الرافعى عامة ، تعرف له طابعا وروحاً ونغمة هى سرّ نجاحه فيما ألف من أناشيد ، ويميل فى أناشيده الوطنية خاصة إلى إبراز معنى القوة فى سبك اللفظ ولحن القول ؛ ولو أنك سمعته مرة وهو فى خلوته الشعرية يحاول شيئاً من هذه الأناشيد لسمعت لحناً له رنين يشترك فيه صوت الرافعى ، ونقر أصابعه على المكتب وخفق نعله على أرض المكان ؛ وعلى أن الرافعى كان أصم لا يسمع قصف الدافع ، فإنه كان لا يستوي له النظم إلا فى مثل هذه الحال . واسألوا صديقنا الأستاذ مصطفى درويش المحقق بوزارة المعارف : ماذا رأى وماذا سمع يوم صحب الرافعى من طنطا إلى القاهرة وكان يؤلف فى القطار نشيده « حماة الحمى ... » ؟

واسألوا الآنسة مارى قدسى معلمة الموسيقى بوزارة المعارف تحدثكم عن خبر الرافعى يوم جلس إليها وهى تعالج تلحين نشيده « بنت النيل » ويوم جلست إليه تعزف له على البيانة لحنها لنشيد « اسلمى يا مصر » وهو يسمعها بعينيه تتبعان أصابعها على المعزف وهو ينقر على الأرض بعصاه ورجليه، وينفخ شدقيه وفى أذنيه وقر ثقيل ... !

هذه النغمة التى كانت تتمثل للرافعى فى سمعه الباطن وهو يعالج نشيداً من الأناشيد، كان لها أثرها الفني فى عمله، وهى هى التي كانت تشعره أحياناً بالعجز عن أن يجد فى موازين الشعر العربى النغمة التى كان يريدها في أناشيده .كطبل الحرب ؛ فلما هم أن يضع نشيد الطلبة :

مَجْدًا مَجْدًا مَدْرَستى مدرستى مَجْدًا مَجْدًا

عن علمى عن تربيتى مدرستى حَمْداً حمــداً

لم يجد له نغمة تلائمه فيما يعرف من بحور الشعر ، فاخترع له هذا الميزان الذى يزنه به قارئه ، وسماه : « طبل الحرب » ولـكن صاحب المقطم أشار عليه أن يسميه : « البحر المنفجر » وتفعيلاته « فَعْلُ ، فَعْلُ ، فُو » مكررة فى كل شطر ، مع بعض علل فى الميزان يمكن إدراكها بالموازنة بين الشعر وتفعيلاته

***

هذا هو الرافعي شاعر الأناشيد ، وهذا جهده وما بلغ ؛ وقد كان على نية إصدار ديوان من شعره سماه : « أغانى الشعب » جمع فيه ما أنشأ من الأناشيد الوطنية ، وأغانى الجماعات والطوائف لولا أن عاجلته المنية . فلو أن أدباء العربية ذكروا يوماً أن عليهم واجباً لإمام من أئمة الأدب العربى كان يعيش فى هذا العصر فاجتمعوا على العناية بآثاره وإتمام رسالته الأدبية ، لأخرجوا لقراء العربية ذخراً من الأدب العربى والبيان الرفيع لا يقدر على إنشاء مثله جيل كامل من مثل أدباء هذا الزمان ... !

ورحم الله جماعة تألفت منذ بضعة أشهر لتأبين الرافعى فى شهر اكتوبر ، وأوشك شهر اكتوبر أن ينتهي وما استطاعت الجماعة أن تثبت أن فيها حياة ... !

رحمك الله يا مصطفى ، وفى ذمة الله ما جاهدت لهــذه الأمة التى لا تعرف الجميل !

« شبرا » محمد سعيد العريان

الـكميت بن زيد

شاعر العصر المروانى

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

تمهيد

فى الأدب اجتهاد لم يغلق بابه كما أغلق فى الفقه وغيره من علومنا الشرعية ، وقد كان لامتياز الأدب بهذا على غيره من العلوم أثر كبير فى ازدهاره فى هذا العصر ، وفى وصوله إلى ما لم يصل إليه فى عصر من العصور السابقة ، وهو فى هذه النهضة المباركة شغل الطالب فى معهده ، والتلميذ فى مدرسته ، بل شغل الناس جميعاً على اختلاف أنواعهم ومذاهبهم . ولو أن غير الأدب من العلوم كان له حظه من فتح باب الاجتهاد لم يصر إلى هذا الجمود الذى صرف الناس عنه ، وجعلهم يكرهون النظر فيه ، ويخشون ما يصيبهم من العنت إذا خرجوا عن مألوفه

وللنفس حاجات فى هذا الاجتهاد المغلق تجعلها تحن إليه الفينة بعد الفينة ، فإذا خشيت العنت أو أصابها فيه شيء من العنت عدلت عنه إلى غيره حباً فى المسالمة ، أو يأساً من حال الناس فى هذه الناحية ؛ ولا تجد مثل الأدب فى رحابة صدره للاجتهاد ، وعدم ضيق أهله بأثر الاجتهاد فيه ، فتلج بابه ، وتسلى عنها به ما يصيبها من أذى الناس وجحودهم لفضل المخلصين العاملين فيهم

وهأنذا الآن بصدد الكتابة عن الـكميت بن زيد الأسدى ، وبصدد التنويه بالفتح الجديد الذى فتحه فى الأدب العربى بهاشمياته ، لأرفعه بها إلى درجة الزعامة على شعراء عصره « عصر بنى مروان » ولا بعد جريرا والفرزدق والأخطل عن هــذه الدرجة التى اتفق الناس على منحها لهم ، ولا علىّ من مخالفة الناس فيما ذهبوا إليه فى زعامة الشعراء فى هذا العصر ، فليس فى الأدب كفر ولا إلحاد ولا غيرهما مما يرمى به الباحثون جزافاً في هذه الأيام

ونحن إذا بحثنا فى هذه الزعامة الشعرية التى عرفها الناس لجرير والفرزدق والأخطل نجد أن ملوك بنى مروان هم الذين روجوا لهذه الزعامة ، وهم الذين شغلوا الناس بهؤلاء الشعراء

عن الكميت وغيره ممن يخالف سياستهم ، ويناوىء بشعره ملكهم ، ويناصر به غيرهم من منافسيهم ، وقد مضى عهد بنى مروان ومضت بعده عهود وعهود ، وكان لحب التقليد الذى منى به الاسلام والمسلمون أثره فى بقاء الناس على هذه الزعامة الشعرية

وإنما روج ملوك بنى مروان لجرير والفرزدق والأخطل لأنهم وجدوا فى شعرهم انحرافاً عن الجادة التى يجب أن يكون الشعر عليها ، ووجدوا فيه ما يخدم مآربهم فى حكم الأمة الإسلامية حكما مطلقاً لايقيدهم فيه قانون سماوى أو وضعى ، وفى الاستئثار لأنفسهم وأنصارهم بأموال هذه الأمة وخيراتها ، يصرفونها فى اقتناء القيان ، وشراء الجوار الحسان ، وإشباع شهواتهم فى هذه الحياة ، والقضاء على روح المقاومة للظلم في الأمة حتى تخضع لهم ، وتستكين لحكمهم ؛ ولا نستثنى منهم فى ذلك إلا الملك الصالح عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فقد سار فى حكمه القصير على خلاف سيرتهم ، وأشاح بوجهه عن أولئك الشعراء الذين كانوا يروجون لهم

ولم يكن مثل جرير والفرزدق والأخطل فى ذلك إلا كمثل من يعيش منا الآن بعقول القرون الماضية ، ولا يتأثر عقله بشىء من العصر الذي يعيش فيه ، فهكذا كان أولئك الشعراء يعيشون بعد الإسلام بعقول الشعراء الذين لم يدركوا عهده ، ولم تعمل فى نفوسهم رسالته ، ولم تؤثر فى قلوبهم هدايته ، ولم يهذبهم تقويمه وإصلاحه ، فاستعملوا شعرهم فى خدمة أغراضهم وقضاء مآربهم ، وتملقوا به ملوك بنى مروان طمعاً فى أموالهم ودنياهم ، ولم ينظروا فيه إلى الأمة وما تطلبه من الشعر الذي يوقظها من غفلتها ، وينهض بها من كبوتها ، ويحارب عوامل الفناء التى تعمل عملها فيها ، بل ساعدوا خصومها عليها ، وعملوا بشعرهم على تفريق كلمتها ، والرجوع بها إلى حالة الجاهلية ، فكان شعراً رجعياً جامداً بغيضاً ، لاتسري فيه روح الحياة ، ولا يصح أن يكون صاحبه به زعيما فى الشعراء

فإذا نظرت فى شعر الكميت بن زيد وجدته يمثل لك عصر بنى مروان تمثيلاً صادقاً ، لا أثر فيه للخداع والغش ، ولا يشوهه الحرص الممقوت على الصلات والجوائز ، وخيل إليك أنك تعيش فى عصر بني مروان مع الذين عاشوا فيه ، وأن ظلمهم وإفسادهم حاق بك كما حاق بهم ، فأخذ قلبك يضطرب بالحقد عليهم ، وأخذت نفسك تضطرم بالثورة على ملكهم ، وتنشد ملكا آخر يسود فيه العدل ، وينتصر الحق على الباطل ، وتنهض به الأمة ، وينتظم لها أمر دينها ودنياها

فهو شعر حى ناهض يدعو إلى الحياة والنهوض ؛ أما شعر جرير والفرزدق والأخطل فهو شعر ميت جامد يدعو إلى الموت والجمود ، ولم يكن الخضوع لزعامة هذا الشعر إلا أثراً من آثار الروح الشيطانية المستولية على النفوس منذ فقد فى المسلمين الحكم الصالح ، وأخذوا يعيشون عيشة آثمة جاهلية ، يضيع فيها الحق ، وينتصر عليه الباطل ، وتنشر فيها أعلام الشر ، وتطوى أعلام الخير ، فأظلمت العقول ، والتبست عليها الأمور ، فصارت ترى الباطل حقاً ، والشر خيراً ، والاثم طاعة وبراً ، وجمدت على هذا بطول الزمن حتى صارت حالها تدعو إلى اليأس فى إصلاحها ، وإزالة هذه الغشاوة عنها

على أنى فيما أراه من زعامة الكميت على شعراء عصره أذهب فى هذا مذهب بعض العلماء والشعراء كانوا يتعصبون له ويقدمونه فى الشعر على غيره من الشعراء جميعاً . قال أبو الفرج الأصبهانى : أخبرنى محمد بن القاسم الأنباري ، قال حدثنى أبى ، قال حدثنا الحسن بن عبد الرحمن الربعى ، قال حدثنا أحمد بن بكير الأسدى ، قال حدثنا أحمد بن أنس السلامي الأسدى ، قال سئل معاذ الهراء : من أشعر الناس ؟ قال : أمن الجاهليين أم من الإسلاميين ؟ قالوا : بل من الجاهليين ، قال : امرؤ القيس وزهير وعبيد بن الأبرص . قالوا : فمن الإسلاميين ؟ قال : الفرزدق وجرير والأخطل والراعى . قال فقيل له : يا أبا محمد ما رأيناك ذكرت الكميت فيمن ذكرت ؟ قال : ذاك أشعر الأولين والآخرين

وقال أبو الفرج أيضاً : أخبرنى الحسن بن على الخفاف ، قال حدثنا الحسن بن عليل العنزى ، قال حدثنى احمد بن بكير ، قال حدثنى محمد بن أنس الأسدى السلامى ، قال حدثنى محمد بن سهل راوية الكميت قال : جاء الكميت إلى الفرزدق لما قدم الكوفة فقال له : إنى قد قلت شيئاً فاسمعه منى يا أبا فراس ، قال : هاته ، فأنشده قوله :

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيض أَطْرَبُ
ولا لعِباً مني وذو الشوق يلعبُ
ولكن إلى أهل الفضائل والتُّقَى
وخير بني حوَّاء والخير يُطْلَبُ

فقال له: قد طربت إلى شيء ما طرب إليه أحد قبلك، فأما نحن فما نطرب ولا طرب من كان قبلنا إلا ماتركت أنت الطرب إليه

وفى رواية أخرى عن محمد بن على النوفلى، قال سمعت أبي يقول: لما قال الكميت بن زيد الشعر كان أول ماقال الهاشميات فسترها ثم أتى الفرزدق بن غالب فقال له: يا أبا فراس إنك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدى، قال له: صدقت، أنت ابن أخى، فما حاجتك؟ قال: نفث على لسانى فقلت شعراً فأحببت أن أعرضه عليك، فإن كان حسناً أمرتنى بإذاعته، وإن كان قبيحاً أمرتنى بستره، وكنت أولى من ستره على. فقال له الفرزدق: أما عقلك فحسن، وإني لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك، فأنشدني ماقلت، فأنشده:

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيض أَطْرَبُ

قال فقال لى: فيم تطرب يا ابن أخى؟ فقال:

ولا لعباً منى وذو الشوق يلعب

فقال: بلى يا ابن أخى فالعب فإنك فى أوان اللعب، فقال:

ولم يُلهني دارٌ ولا رسم منزل ... ولم يتطرَّبني بنانٌ مُخضَّبُ

فقال: ما يطربك يا ابن أخى؟ فقال:

ولا السانحات البارحات عشية ... أمر سليم القرن أم مر أغضب

فقال: أجل لا تتطير، فقال:

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى ... وخير بنى حوَّاء والخير يطلبُ

فقال: ومن هؤلاء ويحك؟ فقال:

إلى النَّفر البيض الذين بحبِّهمْ ... إلى الله فيما نابنى أتقرَّبُ

قال: أرحنى ويحك من هؤلاء؟ قال:

بني هاشم رهط النبيِّ فإنني ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ
خفضتُ لهم مني جناحى مودَّةً ... إلى كَنَفٍ عطفاه أهل ومرحبُ
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... مُحباً على أنى أُذَمُّ وأغضبُ
وأُرْمَى وأَرْمِي بالعداوة أهلَها ... وإنى لأُوذَى فيهم وأُؤَنبُ

فقال له الفرزدق: يا ابن أخى أذع ثم أذع، فأنت والله أشعر من مضى، وأشعر من بقى

وهذه الهاشميات من الدرر اللوامع فى سماء الشعر العربى، وبها يسمو شعر الكميت على غيره من الشعر، وقد أجاد فيها فى مدح بنى هاشم والدعاية لهم، وتصوير حكم بنى مروان تصويراً شنيعاً ينفر الناس منه، ويدعوهم إلى الثورة عليه، حتى هيأ النفوس إلى تلك الثورة التى قام بها بعده أبو مسلم الخراسانى، فقضى على حكم المروانيين، وأقام بعده حكم العباسيين الهاشميين

ولا شك أن الشعر الذى يبلغ به صاحبه هذه المنزلة العالية ويستطيع به أن يقيم دولة ويقعد دولة، هو الشعر الذى يستحق به صاحبه الزعامة على شعراء عصره، لا ذلك الشعر الذي لا يعد وأمره أن يكون ألفاظاً جوفاء لا طائل تحتها، ولا ثمرة فى هذه الحياة لها

وقد شهد الفرزدق شهادة أخرى لهذه القصائد، فقيل له: أحسن الكميت فى مدائحه فى تلك الهاشميات، فقال: وجد آجراً وجصاً فبنى

عبد المتعال الصعيدى

دراسات فى الأدب الانكليزى

جون ملتون

للأستاذ خليل جمعه الطوال

تمهيد

لقد كانت انكلترا قبل الحكم الأليزبثي غارقة فى بحر خضم من الحروب الدينية والمنازعات المذهبية ، وكان أدباؤها منقسمين إلى عديد البطانات السياسية المتضادة التى كانت لا تفتأ تتناحر فيما بينها على اجتذاب حبل الرأى فى الأمة ، ومقاليد الأمور فى الحكومة ، والمراكز الملحوظة فى السيادة ، وصرفتهم هذه الحروب الدينية السياسية عن طبيعتهم ، واجتاحتهم إلى ميادينها الدامية ، كما يجتاح السيل الأتىُّ قطعة من الخشب ، أو قصبة من القش . فلا عجب إذا تضيفت شمس الشعر — فى انكلترا — للمغيب ، ولا عجب أيضاً إذا تعطلت فى الناس أخيلتهم التوثبة ، ومشاعرهم الشبوبة ، وصدورهم المليئة بالأحاسيس الوثابة ، والعواطف الجياشة ، إذ ليس فى البيئة السياسية ثمة ما يغذى هذه الأمور ، أو يثير أسبابها ويوقد جذوتها

وما هو الا أن اعتلت اليصابات سدة العرش ، وتسنمت عاليها وتقلدت بيدها الحديدية زمام المملكة وأعنتها ، حتى سارت فى خطتها على المبادئ القويمة اللاحزبية ، فأباحت الناس على مختلف طبقاتهم ومللهم الحرية المطلقة في معتقداتهم ، فخمد بذلك روح التناحر المذهبي — ولو إلى حين — وانفرط عقد هذه البطانات السياسية المتضادة ، إذ قطع التسامح الدينى الذي أوجدته اليصابات أسباب تضادها ، فاستيقظت مشاعر الشعراء وعواطفهم على هدوء ريح هذا التعصب المذهبي المقوت ، وأخذت أخيلتهم التوثبة تتحرر من أصفادها وقيودها التى كبلتها بها البيئة السياسية مدة من الزمن ليست بالقصيرة . وقد ساعد على هذه النهضة المباركة ذوق الملكة الأدبى ، إذ استدنت الأدباء إلى قصرها وقربت الشعراء من بلاطها ، فكان عملها هذا وتشجيعها للأدباء بمثابة التعويض العادل للآداب عما خسرته تحت نقع تلك الحروب المذهبية — السالفة الذكر — التى خلقها تكالب الكاثوليك والبروتستنت على السيادة

وما هى إلا فترة من الزمن حتى توفيت اليصابات ، فأخذ الأدباء عامة ، والشعراء خاصة ، ينحتون سبلهم الوعرة فى صخر السياسة الأصم بكل عناء وجهد ، إذ كان موتها كالريح الهادئة أذكت سعير تلك النار المذهبية الخامدة ، فعادت النفوس إلى شنشنتها القديمة من التخاذل والانقسام الدينى . والتف الأدباء ثانية ، كل حول بطانة خاصة ، يناصرها فى الجهر والخفاء ، ويذود عنها بلسانه وقلمه ، وإذ كان الدين علة هذا الانقسام وسبب تحزب هذه الأحزاب ، فقد كان نتاج الأدباء إذ ذاك ، متسما بالميزات الدينية ، والمظاهر الحزبية . وخير من نلتمس هاتين الظاهرتين بوضوح وجلاء فى آثاره « جون ملتون » وهو الذى سنعرض لدراسته فى هذه الكلمة العجلى

شخصيته وحياته

لملتون شخصية فذة محاطة بستر كثيف من الغموض والابهام ، ليس من الهين علينا خرقه ؛ يدل على ذلك : تشعب الأحكام فيه ، وتباين وجهات النظر إليه ، وتناصر الآراء عليه . فبينا نرى المعجبين بسمو شخصيته ، والمفتونين بسحر شاعريته ، يوغلون فى تقديسه وتبجيله ، ويبوؤونه وشكسبير سناما واحد من الشهرة والعظمة ولا يرون « لفردوسه » فى الشعر مثيلاً إلا بالرجوع إلى الإلياذة والأوذيسة — إذ بالكثيرين من خصومه يجردونه من جميع مواهب الشاعرية السامية ، ويجهدون الفكر فى تسقط سقطاته ، وتقصي هفواته ، والاحاطة بكل ما من شأنه ان ينتقص من شاعريته وينال من شخصيته . أما الفريق الأول فزعيمهم « وليم هزلت » ، وأما الفريق الثانى فعلى رأسهم « جونسون » ؛ ولا تظهر الحقيقة بين حالتى الاغراق فى الاعجاب ، والتحذلق فى التعرض إلا مجسمة مكبرة ، ومشوهة ملفقة ، فلا عجب إذا قلنا إن ملتون كان ولم يزل غامض الشخصية ، مكتوم الطوية . ونحن إذ نعرض له بمثل هذه الكلمة العجلى ، فلسنا ندعى أن فيها فصل الخطاب الذي لا يرد ، ولا التوفيق بين مختلف هذه الأقوال المتبلبلة والأحكام المتشعبة ، وإنما نريد توجيه اهتمام الناقدين ، وجهود الباحثين إليه ، وعرض

مختلف المقالات فيه ، تاركين — ما أمكن — للقارىء الكريم الحرية في إمازة غثها من سمينها

***

ولد ملتون في « برودستريت » بلندن ، وكان والده كاتباً ؛ وإذ كان من أهل اليسر والرخاء فقد كان شديد الرغبة في تعليمه تعليماً جامعياً عالياً . ولقد كانت طفولته النادرة تنبىء بما سيكون له من المجد المخبوء في جوف المستقبل ، وليس أدل على طموحه وعبقريته وتحفزه للوثوب إلى قمة المجد من تلك المقطوعات الشعرية الجيلة التي نظمها وهو لايزال بعد في ربيع صباه ، تائهاً بكبرياء فتونه

كان ملتون طويل القامة ، ساهمَ الوجه ، شتيت الثغر ، أبلج الحاجبين ، ذا عينين نجلاوين ، أشمّ الأنف . سخامي الشعر رجلَه ، مليح الفم ، معتدل الأعضاء ، وكان (كما روى عنه) بارع الجمال ، تعشق منظره العين ، وترتاح لحديثه النفس ، وهو — إلى جانب ذلك كله ، مزهوّ بنفسه معجب بخلقه ، ومعتد بذكائه ، تشهد بذلك آثاره العديدة ، وآساليبه الشعرية المستعصية ؛ وما أسلوب الشاعر في قصيدته إلا صورة لطبعه ، ومرآة لأخلاقه

مكث ملتون في بيت والده في « هارتون » حتى منتصف العقد الثاني من عمره ، حيث عاش تحت كنفه عيشة مترفة رخية ، لا ترنق صفوها الأكدار والأحزان ، ولا تعبث بهنائها الهموم والأشجان ، فشب محباً للحرية ، وما من شيء يضعُ في جذوة نفسه المتوقدة ، أو يقل من شباة عزيمته المتحفزة ، وإذ ليس من شاغل يشغله بأمور عيشه ، فقد كان منصرفاً إلى افتعال الشعر والعبث به ، وإلى احتذاء أساليب أفذاذ الشعراء في القريض . وفي عام ١٦٢٤ أدخله والده مدرسة University of christ في كمبردج ، فأقبل على الدرس لا يلوى عنه إلا حين يجهده الفكر ، فنال بذلك استحسان معلميه ومديح عارفيه ، إذ بزّ جميع أقرانه ، واشتهر بين سائر لداته بذكائه اللامع ، وفطنته المتوقدة . وفي عام ١٦٣٢ أنهى علومه الجامعية ونال درجة M.A السامية فغادر كمبردج راجعاً إلى بيته في هارتون ، حيث أكب على مطالعة الآداب الكلاسيكية مدة خمس سنوات تمكن في خلالها من الاحاطة بجميع ما فيها من رائع النثر وجيد الشعر . أما اللغة الانكليزية ، فقد بلغ اطلاعه عليها حدّ الاحاطة بجميع أوابدها المستعصية . وليس أدل على ذلك من مطالعة ملحمته الشهيرة المعروفة « بالفردوس المفقود » إذ تحتاج في كل صفحة إلى الاستعانة بالمعجم عشرات المرات

وبعد أن قضى في هارتون خمس سنوات في الجد والمطالعة ، أخذ يطوف في أنحاء أوربا ، ويتنقل بين مدنها العامرة وعواصمها الزاهرة ، فتلقحت بذلك عبقريته بعناصر أدبية جديدة ، وتجلت مواهبه عن جرائيم شعرية سامية ، لطفت من عرام نفسه ، وليّنت شيئاً من حرونة طبعه ، وزادت في قيمة إنتاجه . ففي عام ١٦٣٨ ذهب إلى إيطالية ، وكانت إذ ذاك كعبة الأدب ، ومثابة الفنّ ، وقبلةَ الشعراء والمتأدبين ، يحجون إليها في كل عام ليردوا شرعة آدابها الرائعة ، وليروّحوا عن أنفسهم من عنائها ، وذلك بالتمتع بسمائها الصافية ، وأشجارها الباسقة ، ومناظرها المتناسقة . وقد زار من مدن إيطالية فلورنسة ، واجتمع فيها غير مرة بأعظم علمائها وهو غاليلو ، ومنها عرج على رومة وهي العاصمة ، والمثابة العزيزة لسائر أنواع الفن ؛ ثم سار منها إلى نابولي ، وهناك قرع سمعه نبأ الحروب الداخلية التي شبت في انكلترا عن اصطدام حق الملوك الالهي برغبة الشعب الملحة في الحصول على حقوقهم كاملة غير منقوصة ، ولهذا فانه لم يُتمّ رحلته بل رجع إلى وطنه وهو يقول : إنه لمن المزرى بالرجل أن ينشد الراحة في السفر ، بينما مواطنوه يجالدون في سبيل حريتهم

ملتون والسياسة

وبرجوع ملتون من رحلته تبتدئُ حياته السياسية ، وهي دور مليء بالجهود الجبارة والأحداث الخطيرة ؛ ولئن كان إذ ذاك مأخوذاً بنزق الشباب وتهور العاطفة إلا أنه أظهر في ميدان السياسة من الحنكة والدهاء والمرونة الدبلوماسية ما لا طاقة على مثله إلا لذوى النبوغ والعبقرية . كان حبل السياسة إذ ذاك مضطرباً بين حق الملوك الألهي وبين ديمقراطية الشعب ؛ وأحياناً بين البروتستنتية المصلحة ، والكاثوليكية البالغة في المحافظة على تقاليدها — ولو بليت — وكان ملتون خصمَ الملكية اللدود ، وعدوّ البابوية الأزرق ، فلا عجب إذا انهال عليهما بكثير من الامتهان والزراية ، أو تسقط لهما كلّ ما من شأنه أن يحطّ من جلالهما أو ينال من عظمتهما

لقد ناهض الملكية كثيراً ، وقاومها مقاومة غماء الجبين ، حتى أنه لم يدع سانحة تمرُّ إلا اهتبلها منددا بعيوبها ومثالبها ،

شاهراً ظلمها ومساوئها ؛ كما ناصر الطهريين كثيراً في تقويض دعائم الكاثوليكية . والطهريون فى ثورتهم على الكاثوليكية ومن ورائها الملكية ، أشبه ما يكونون في التاريخ العربي بالخوارج فى ثورتهم على العلويين أولا والأمويين ثانياً ؛ ووجه الشبه بينهما اختلاط الدين بالسياسة فى مبادئهما . وما مبادئ الطهريين التى هبوا متشمرين للنضال السياسى فى تحقيقهـا ، إلا صورة من المبادئ الوهابية فى جزيرة العرب . ولقد كانت الدعوة الطهرية فى بادئ أمرها دينيـة محضة ، أي كدعوة الخوارج إبان خروجهم على عليّ ، ولـكنها — كمثيلتها — لم تلبث أمام أرستقراطية الملوك أن تنكرت لهم ، واصطبغت مجالدتهم بالصبغة السياسية ، فقد ناهض الطهريون الملوك مناهضة عنيفة ، وأنـكروا عليهم حقهم الآلهي فى السيادة والسلطة ، وانتزعوا لفظه من أفواههم بعد أن كانوا يتشدقون بمضغه تشدق من يمضغ لقمة دسمة . وما انتصار النظام الدستورى فى انكلترا وانهيار دعائم الملكيـة إلا رمزاً لانتصار المبادئ الديمقراطيـة على الأرستقراطية ، بل صورة لانتصار الطهريين على جميع منافسيهم ، ذلك الانتصار الذى أملى على ملتون ملحمته الشهيرة المعروفة بالفردوس المفقود ، وهي صورة حية لما كان عليه الدين إذ ذاك من التبلبل والإنقسام ، تطلعنا على مدى ما وصل إليه الطهريون فى جهادهم لتدعيم أسس حرية الشعب الدينيه والسياسية تلك الحرية التى أنجبت أمثال دن ، وبنيان ، وملتون

ومن كتابات ملتون السياسية رسالتـه المعروفة : بـ Tenure of King and Magistrates وقد كتبها عام ١٦٤٩ دفاعاً عن إعدام الملك — ذلك الإعدام الشنيع الذى صوره فيما بعد بصورة ترتعد منها الفرائص وتقشعر لها الأبدان فى كراسته المعروفة بـ Eikon Basilike

وإذ كان ملتون ظهيراً لـكرمويل ومساعداً له ضد الملكـية الظالمة ، فقد عينه هذا بعـد تسنمه سدة الحـكم بعدة وجيزة — أى عام ١٦٤٩ — ترجماناً له فى قسم السكرتارية اللاتينية ، وكان عمله ترجمة جميع الدواوين والرسائل إلى اللغـة اللاتينية ، إذ كانت اللاتينية إذ ذاك هى اللغة السياسية الوحيدة المتفق عليها بين جميع دول أوربا

« يتبع » **خليل جمعه الطوال**

أبحاث تاريخية جديدة

الاسلام فى غرب أفريقية

مدى انتشاره فى تلك الأقاليم ومبلغ أثره فى الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تتمـــة

ولقد حمل إليهم الإسلام أيضاً نظام الحكم الديموقراطى . ذلك أن نظام الادارة فى الاسـلام نظام ديموقراطى — لا فارق بين رجال الدين وعامة الشعب — فرئيس المقاطعة هناك هو الليمان Liman (ويبدو لى أنها محرفة عن لفظة الامام العربية) ويختار من بين أفراد الشعب ، وكل الصفات التى يراعيها الناس أثناء انتخابه هى أن يكون على خلق طيب وأن يكون ملما بالقرآن إلماماً لا بأس به . ومن وظيفته أن يؤم الناس فى الصلاة . وليس هناك نظام مركزى يوحد بين هؤلاء الليمانز Limans ، فكل منهم مستقل فى إدارته . ويزود الليمان هو والمالم Malam (وأرجح أن أصلها معلم ، فوظيفته تعليم الناس ولا بد أن يكون على علم ولو قليلاً بالقرآن) بمـا يقدمه الناس لهم من عطايا عن طيبة خاطر . ومهمة هؤلاء المعلمين Malams تعليم الصغار ؛ غير أن أكثر اعتمادهم فى الـكسب على التمائم التى يقدمونها للناس . والمعلمون كذلك أطباء يستخرجون الأدوية من جذوع الشجر وأوراقه . ومعظمهم طفيليون على المجتمع ، بل إن بعضهم يستخدم تلامذته لسؤال الناس . وكثير منهم ممن ذهبوا إلى مكة وحجوا البيت الحرام يشاع تقديسهم ؛ وهم يستغلون هـذه الاشاعات الخيالية طول المدة الباقية من حياتهم . ولـكننا برغم هـذا لا نعدم أن نجد بين هؤلاء المعلمين من يحيا حياة كلها تقوى وورع وسعى لنشر العلم . وفى معظم الولايات الاسلامية تقام الصلاة كل يوم كما يحتفل المسلمون بعيدى الفطر والأضحى إذ يسمونهما (Karamin Salla & Baban Salla) أى العيد الأصغر والعيد الأكبر

المذاهب الدينية

ويعتبر سلطان سكوتو Sokoto الرئيس الروحي لجميع مسلمي السودان الأوسط حيث يسمونه Sarkin Musulmi ولقد امتد نفوذه في أوائل هذا القرن حتى شمل تمبكتو غرباً وأجادز Agades شمالاً (ولكن هذا النفوذ لم يشمل بورنو حيث يتمتع الشيهو بمركز ديني يضاهي مركز سلطان سكوتو) وهناك مذاهب دينية مختلفة تعمل على تقدم الاسلام ونشره ، أهمها مذاهب القادرية والتيجانية والسنوسية . وللمذهبين الأولين أتباع كثيرون في مختلف أنحاء نيجريا ، وخاصة مذهب التيجانية الذي أسسه أحد أساتذة بلاد المغرب واسمه « سيدى أحمد التيجانى » وكثير من ثورات السودان المحلية يرجع لتأثير هذا المذهب في السودانيين . أما مذهب السنوسية فلم يتعمق إلى الجنوب كثيرا ؛ لقد بلغت دعوته شمال نيجريا وله بعض الأتباع في سكوتو وبورنو . وليس هناك ما يميز أتباع هذه المذاهب عن بقية المسلمين سوى رغبتهم وسعيهم للتطهر ، وسوى حلقات الذكر التي يقيمونها في الحين بعد الحين (وإن كانوا لا يفهمون معنى ما يقولون أثناء الذكر كما يقول Meek)

والمساجد منتشرة في كل مدن الاسلام ، أما في القرى فالمسجد قطعة من الأرض مسورة بحاجز من الخشب

الاسلام ينتشر وإن كان المسلمون لا يبشرون به

لا يوجد بين المسلمين الآن إرساليات تبشيرية تعمل لنشر الاسلام ، ولكن الاسلام ينتشر عفواً بين تلك الجماعات دون بذل مجهود . والجهاد عند المسلمين واجب لنشر دينهم بين الوثنيين ولكننا لو عرفنا أن الجانب الأعظم من دخل الفولاني يعتمد على تجارة الرقيق بدا لنا السبب في عدم اهتمام هؤلاء كثيراً بالتبشير لدينهم بين الوثنيين

ومع هذا فقد كانت هناك إرساليات تبشيرية هامة في أوائل حكم الفولانى. فان لاندر Lander يحدثنا أنه قابل في Island village of the niger معلمين من الفولانى Fulani Malams أرسلهم أمير نوبى Nupe لينشروا تعاليم الاسلام بين السكان الوثنيين

غير أن الاسلام لم ينتشر في تلك الجهات نتيجة سعي الارساليات قدر ما انتشر نتيجة جذب ثقافة المسلم العالية لجيرانه الوثنيين . والآن بعد سهولة المواصلات أصبح المسلمون أكثر اتصالاً بالوثنيين ، وكانت نتيجة هذا أن الوثني الذي يتعدى منطقة إقامته يرى أن من الصالح أن يعتنق الاسلام ، وأن يتبع المسلمين في أسلوب حياتهم ، لأنه سريعاً ما يدرك ضيق دينه إذا قارنه بعالمية الاسلام ؛ وهو إلى هذا كله لا يجد صعوبة في انتقاله من الوثنية إلى الاسلام ، فهو بالمباشرة يستطيع بسرعة أن يستسيغ نظم الدين الجديد . والوثني كذلك يرى أن المسلم متسامح وأنه يعيش في منزل أنظف من منزله ويرتدي ملابس خيراً من ملابسه ، وله بالعالم معرفة أوسع من معرفته . فلا غرو بعد هذا إن فضل الوثني الاسلام فاعتنقه . والوثني عند ما يسلم يغسل جسمه كله ثم يعلن إسلامه في المسجد

نظم التعليم في تلك الجهات

وهناك مدرسة في كل بلدة من بلاد الاسلام يديرها معلم من الأهلين ، ويرسل إليها الأطفال في سن مبكرة غالباً بين الثالثة والرابعة ، يرسلهم آباؤهم إلى هذه المدرسة فراراً من الجهد الذي يبذلونه لرعايتهم . ومن هؤلاء المعلمين من يمارس التجارة إلى جانب مهنة التعليم . أما الأطفال فهم يستمعون إلى دروسهم في العادة ساعة في الصباح وساعة في المساء ، وهؤلاء الأقوام لا يهملون تعليم بناتهم . ويتلقى التلاميذ دروسهم عادة قبل شروق الشمس وبعد غروبها حتى يستطيع الصبية منهم خدمة الحقول أثناء النهار

وأول ما يتعلم الأطفال الصلاة ، ثم يعلمون كيف يقرأون القرآن ، ثم يتلقون بعض الواجبات الدينية كشروط الوضوء وطرق الاغتسال وغيرها . والأطفال يقرأون العربية جميعاً وراء معلمهم بصوت مرتفع منغم . وإذا تقدم الأطفال في السن وكبروا علموا شيئاً من تفسير القرآن ؛ غير أن نظم التعليم العامة عندهم تسير على نهج آلي . فمعظم الأولاد يحفظون القرآن كله أو بعضه ، وهم لا يفقهون له معنى . بل إن أكثر المعلمين هناك ثقافة لا يعرف شيئاً عن التطور الفكري الذي يسود العالم الاسلامي اليوم . وإن كان هناك نفر من النيجريين على درجة كبيرة من العلم والثقافة فمنهم شيهو دان فوديو Shehn Dan Fodio وقد ألف كتاباً في اللاهوت وابنه بلو Belo وهو نحوي ومؤرخ مشهور وغيرهم كثيرون . ولا يتقاضى المعلمون مرتبات غير الهدايا التي تقدم إليهم . وعند ما يتم الولد دراسته يأخذ المعلم من أهله حملاً أو عنزة ومع هذا فإن ٣٪ من المسلمين فقط هم الذين يقرأون ويكتبون

فضل الاسلام فى توحيد هذه القبائل المبعثرة

يبدو لنا بعد هذا بوضوح كيف أن نظم الاسلام الاجتماعية والسياسية توافق الزنوج كل الموافقة خصوصاً وإن زنوج السودان يسود بينهم الدم الحامى أو دم البحر الأبيض المتوسط . فالاسلام إذ يفرض على هؤلاء الناس الختان ويبيح لهم تعدد الزوجات ويمنعهم عن أطعمة خاصة ويحرضهم على أن يكونوا أحرارا ، لا يطلب منهم المستحيل ، بل إن Meek يقول « إن الاسلام إذ يفرض على الزنوج عبادة الله لا يفرض عليهم جديداً فإن Animistic people فى نيجريا يعتبرون إله السماء هو المسيطر والمنظم للعالم »

وبعد هذا فإنا لا ننسى كيف حمل الاسلام إلى هؤلاء الأقوام الشعور بضرورة الوحدة ، فلقد جمعهم بعد تفرقة . والفضل كل الفضل للاسلام إذ كون من تلك القبائل المبعثرة وحدات متحدة قوية ؛ بل إن ميك يعترف بالفضل للاسلام إذ وحد هؤلاء الناس حتى استطاع الانكليز أن يحكموهم هذا الحكم غير المباشر . وإن كان المسلمون فى تلك الجهات هم الذين يتولون أمورها ولهم قيادة الرأى العام فيها

***

لقد رأينا كيف اتسعت موجة الاسلام واتسعت حتى تلاشت فى القرن التاسع عشر وابتدأت حركة الاستعمار ووجد المستعمرون أن مصدر الصعاب التي قامت فى طريقهم هو الاسلام والخلاف الدينى بينهم وبين أهالي الجهات المستعمرة . ولذلك فهم يبذلون الآن جهدهم لنشر المسيحية حيثما حلوا . وهم يجذبون الناس إليهم بمختلف الوسائل التى تحمل طابع الانسانية ، فهم ينشئون المستشفيات والمدارس ودور اللهو والكنائس وغيرها . ثم هم يجتهدون أخيراً أن يحولوا بين مسلمى السودان وزنوجهم لينشروا بينهم المسيحية . ولكن واجب المسلمين الآن أن يلقوا بالدعوة من جديد حتى تبتدئ الموجة ثانية وتتسع . . وتتسع حتى تصل إلى هؤلاء الأقوام فتحسن من تعليمهم وتعمل على تقوية إيمانهم . ولا أحسب أن هناك قطراً يصلح لهذه المهمة غير مصر ؛ ولا أحسب أن معهداً فى مصر يصلح لهذه المهمة غير الأزهر ، ورجال الأزهر . فهل يفكر القوم في هذا ؟!

جمال الدين محمد الشيال

المراجع

1 — Keane: North Africa
2 — Hogben: The Muhammedan Emirates of Nigeria Oxford 1930.
3 — H. H. Johnston; The Colonization of Africa Cambridge 1913
4 — Meek: Northern Nigeria v. II

١ — ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار المغرب . طبعة لايدن سنة ١٨٤٨
٢ — ابن خلدون : المغرب فى تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب طبعة لايدن ١٨٤٧
٣ — المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب طبعة لايدن سنة ١٨٤٧
٤ — ابن بطوطة : رحلته المسماة « تحفة النظار ... الخ »

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٧١ — فإن لم ينتهوا راجعت ديني

كان أبو المطراب من لصوص الحجاز فتاب فظُلم فقال :

ظلمتُ الناس فاعترفوا بظلمي   فتبت ، فأزمعوا أن يظلموني
فلست بصابر إلا قليــــلاً   فإن لم ينتهوا راجعت ديني

٢٧٢ — الشاهد عند الحاجة

قال أبو العيناء : ما رأيت قط أحسن شاهداً عند حاجة من ابن عائشة . قلت له يوماً : كان أبو عمرو المخزومي يصلك ثم جفاك ، فقال :

فان تنأ عنا لا تضِرْنا ، وإن تعـد
تجدنا على العهد الذي كنت تعلم (١)

٢٧٣ — ما زلت تخفى الصدقات

مرّ الفرزدق (٢) بالحكم بن المنذر بن الجارود فاستسقاه ماء ، فقال : هلا لبناً يا أبا فراس ؟ قال : ذاك إليك . فملأ له عُساً (٣) من خمر ، وأمر فحلبت عليه لقحة (٤) فصعدت الرغوة فوق الشراب وأتاه به فشربه حتى صك بالعس جبهته ، وانتفخت أوداجه ، واحمرت عيناه ، فمسح سِباله وقال : جزاك الله خيراً ! فإنك ما زلت تخفى الصدقات ، ونعمّا هي (٥)

٢٧٤ — وهذا ينتسب عرضا

سئل رجل عن نسبه فقال : أنا ابن أخت فلان . فقال

(١) لجرير بن خرقاء العجلى
(٢) معرب (برازده) الرغيف يسقط في التنور أو فتات الخبز ، وهو لقبه واسمه همام
(٣) العس : القدح الضخم يروى الثلاثة والأربعة والعدة
(٤) اللقحة : الناقة الحلوب . بكسر اللام وفتحها
(٥) اقتبس الخبيث عابثاً ، والآية الكريمة : (إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير)

أعرابى : الناس ينتسبون طولاً ، وهذا ينتسب عرضاً (١)

٢٧٥ — بل يزوج

كان ذئب ينتاب بعض القرى ويعيث فيها ، فترصده أهلها حتى صادوه وتشاوروا فى تعذيبه . فقال بعضهم : تُقطع يداه ورجلاه ، وتدق أسنانه ، ويخلع لسانه . وقال بعضهم : بل يصلب ويرشق بالنبال . وقال بعضهم : بل توقد نار عظيمة ويلقى فيها . وقال بعض المتحنين بنسائه : لا ، بل يزوج . وكفى بالتزويج تعذيبا ! وفى هذه القصة يقول الشاعر :

رب ذئب أخــذوه   وتمـارَوا فى عقابهْ
ثم قالوا : زوِّجــوه   وذروه فى عـذابهْ

٢٧٦ — فأما البخارى وكافر لما سمعناه

قال ابن العماد الحنبلى : كان عبد السلام (٢) بن عبد الوهاب ابن عبد القادر الكيلانى — ويلقب بالدكن — أديباً كيساً مطبوعاً عارفاً بالمنطق والفلسفة والتنجيم وغير ذلك من العلوم الردية ! وبسبب ذلك نسب إلى عقيدة الأوائل

(١) ابراهيم الحجارى :

سألته عن أبيــه   فقال : خالى فلان
فانظر عجائب ما قد   أتت به الأزمات

(٢) ولد سنة ٥٤٨ وتوفى سـنة (٦١١) في شذرات الذهب : كان عبد السلام حنبلياً وولى عدة ولايات ، وقد جرت عليه محنة فى أيام الوزير (ابن يونس) فانه كبس دار عبد السلام هذا ، وأخرج منها كتباً من كتب الفلاسفة ورسائل إخوان الصفاء وكتباً من كتب السحر والنيرنجيات وعبادة النجوم ، واستدعى ابن يونس العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان ، وقرئ فى بعضها مخاطبة زحل يقول : أيها الكوكب المضئ المنير ، أنت تدبر الأفلاك ، وتحيي وتميت ، وأنت الهناء . وفي حق المريخ من هذا الجنس ، وعبد السلام حاضر . فقال ابن يونس : هذا خطك ؟ قال : نعم . قال : لم كتبته ؟ قال : لأرد على قائله . فأمر باحراق كتبه . فجلس قاضى القضاة والعلماء وابن الجوزى معهم على سطح مسجد مجاور لجامع الخليفة يوم الجمعة وأضرموا ناراً عظيمة تحت المسجد ، وخرج الناس من الجامع فوقفوا على طبقاتهم ، والكتب على سطح المسجد ، وقام أبو بكر بن المارستانية فجعل يقرأ كتاباً كتاباً من مخاطبات الكواكب ونحوها ، ويقول : العنوا من كتبه ومن يعتقده — وعبد السلام حاضر — فتصيح العوام باللعن ، وقد تعدى اللعن إلى الشيخ عبد القادر بل إلى الامام أحمد ، وظهرت الأحقاد ، ثم حكم القاضى بتفسيق عبد السلام ، ورمي طيلسانه ، وأخرجت مدرسة جده من يده ويد أبيه عبد الوهاب ، وفوضت إلى ابن الجوزي . ولما قبض على ابن يونس ردت مدرسة الشيخ عبد القادر إلى ولده عبد الوهاب ، ورد ما بقى من كتب عبد السلام التى أحرق بعضها

رأى عليه والده يوماً ثوباً بخاريا — وكان عبد الوهاب كثير المجون والداعبة — فقال : والله هذا عجب ! ما زلنا نسمع (البخارى ومسلم) فأما (البخارى وكافر) فما سمعناه !

٢٧٧ — كفيتنا مؤونة مراجعته . . .

كتب القاضى أبو يوسف كتاباً وعن يمينه انسان يلاحظ ما يكتبه ، ففطن له أبو يوسف ، فلما فرغ من الكتابة التفت إليه وقال : هل وقفت على شيء من خطأ ؟

فقال : لا والله ولا حرف واحد

فقال له أبو يوسف : جزيت خيراً حيث [1] كفيتنا مؤونة مراجعته . ثم أنشد :

كأنه من سوء تأديبه أُسلِمَ فى كُتَّاب سوء الأدب [2]

٢٧٨ — فانظر الى حجر صلد يكلمنا

قال أبو عامر البريانى فى الصنم الذي بشاطبة :

بقيةٌ من بقايا الروم معجبة
أبدى الثبات بها من علمهم علما [3]

لم أدرما أضمروا فيه ، سوى أمم تتابعت بعد سموه لنا صنما
كالبرد الفرد ، ما أخطا مشبهه حقاً لقد برد الأيام والأمما !
كأنه واعظ طال الوقوف به مما يحدث عن عاد وعن إرما [4]
فانظر إلى حجر صلد يكلمنا أسمى وأوعظ من قُسٍّ لمن فهما

(١) حيث للمكان (وللزمان عند الأخفش) وهى هنا للتعليل واستعمالها بهذا المعنى فى كلام المولدين كثير فى فاتحة المفصل : « ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه فى عجم خلقه ولكن فى عربه لايبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج » وفى (الكشاف) وغيره مثل ذلك

(٢) البيت في (كتاب الأوراق) هو لاحمد بن يوسف من وزراء المأمون . (الكتاب) جمع كاتب فأطلق على محله مجازاً للمجاورة (التاج) وعند المبرد : المكتب موضع الكتاب . وخطأ من جعل الموضع الكتاب وابن الأعرابى يقول : يقال لصبيان المكتب الفرقان أيضاً وفى (التاج) نقل شيخنا عن الشهاب فى شرح الشفاء أن الكتاب للمكتب وارد فى كلامهم . ولأبى العيناء ويروى لابن عروس الشيرازى :

تباً لدهر قد أتى بعجاب ومحا فنون العلم والآداب
وأتى بكتاب لو انبسطت يدى فيهم رددتهم إلى الكتاب !

(٣) معجبة : بكسر الباء : حسنة جداً ، أو حاملة على التعجب . وبفتحها ذات عجب : زهو كبر

(٤) يقصد بعاد وارام أقدمين ، ماضين

٢٧٩ — وأنتم كدود الخل

فى (إرشاد الأريب) لياقوت : حدث الرئيس أبو الحسن هلال قال : قلت لجدى أبى إسحق (الصابى) — تجاوز الله عنه — وهو يشكو زمانه : ياسيدى ، مانحن بحمد الله تعالى إلا فى خير وعافية ونعمة كافية . فما هذه الشكوى التى تواصلها ، ويضيق صدرك بها ، ويتنغص عيشك معها ؟ فضحك وقال : يا بنى ، نحن كدود العسل قد نقلنا منه إلى الخل فلهذا نحس بحموضته ، ونأسى ونحزن على ما كنا فيه من العسل ولذته . وأنتم كدود الخل ماذقتم حلاوة غيره ، ولا رأيتم طلاوة [1] ضده

٢٨٠ — با ابن تيار بايد اندكى شادى

فى (عيون الأخبار) : قال على بن هشام : كان عندنا بمرو قاص يقص فيبكينا ، ثم يخرج بعد ذلك طنبوراً صغيراً من كمه فيضرب به ويغنى ويقول :

با إبن تيار بايَدْ أندكى شادي

معناه : ينبنى مع هذا الغم قليل فرح

٢٨١ — ولكن بدموعى ! ! !

نَوْرَزَ الناس ونورزتُ ولكن بدموعى [2] ! وذكت نارهمُ والنار ما بين ضلوعى !

٢٨٢ — قبل أن يبادرنى بالعقوق

تزوج أعرابى على كبر سنه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أبادره باليتم قبل أن يبادرني بالعقوق ...

(١) طلاوة : مثلثة ، حسن بهجة

(٢) نورز : من النيروز والنوروز أيضاً ، وهو أعظم أعياد الفرس . وكانت عادة عوامهم فيه رفع النار فى ليلته ورش النار في صبيحته ، وفى ذلك يقول المعوج :

كيف ابتهاجك بالنيروز يا سكنى وكل ما فيه يحكينى وأحكيه
فناره كلهيب النار فى كبدى وماؤه كتوالى عبرتى فيه

ومعنى نيروز يوم جديد . حكى أنه قدم إلى على (رضى الله عنه) شئ من الحلوى فسأل عنه . فقالوا : للنيروز . فقال : نيروزنا كل يوم .. وفى المهرجان قال : مهرجونا كل يوم . وفيه استعمال الفعل من الالفاظ الاعجمية ؛ وهو من قوة الفصاحة ، وطلاقة اللسان ، والقدرة على الكلام (نهاية الارب ، اللسان ، التاج)

قطعتان من روائع أدب الغرب

١ — حنين إلى الوطن

للشاعر الناثر : شاتوبريان

ما أكثر ما تكن جوانحي من ذكريات عذاب
عن البلد الجميل الذي فوق أرضه ولدت ، وتحت سمائه ترعرعت !
أختاه ، ما أجمل تلك الأيام التي أنفقناها في فرنسا !
دمت يا بلادي محطاً لغرامي ومنية لفؤادي !

***

هل تذكرين يا حبيبتاه أمنا الرءوم
حين كانت تضمنا إلى صدرها الحنون
باسمة الثغر ، متهللة الوجه بقرب موقد كوخنا
وحين كنا نلثم معاً شعرها الأبيض الجميل
هل تذكرين ؟

***

هل تذكرين يا أختاه ذلك القصر الباذخ
وقد خوّض في النهر بقدميه
وذلك البرج القديم ، المسرف في القدم
حيث يقرع الناقوس مؤذناً بانبلاج الصبح وعودة النهار
هل تذكرين ؟

***

هل تذكرين تلك البحيرة السجواء
وقد داعبها السنونو بأجنحته الخفيفة السوداء
والقصب المياس وقد طأطأت هامه الرياح النكباء
ومليكة النهار الفتانة ، وقد احتضرت فوق ثبج الماء
هل تذكرين ؟

***

هل تذكرين صديقتي «هيلانه» ، رفيقة الحياة الحنون
هل تذكرينها في الغابة حين كانت — وهي تقتطف الزهرة البديعة
تسند صدرها الجياش إلى صدري
وتضم قلبها الخفاق إلى قلبي
هل تذكرين ؟

***

أواه ! من ذا الذي يعيد إليّ « هيلانه »
وطودي وتلك السنديانه ؟
ذكرياتهم هي التي ترمض أحشائي بالألم
آناء الليل وأطراف النهار
دمت يا بلادي محطاً لغرامي ومنية لفؤادي

***

٢ — الفراشة Le Papillon

للامارتين

تولد حين يذر قرن الربيع ، وتقضى لما يرفرف الموت فوق أكمام الورد :
تسبح وقد امتطت جناح النسيم ، في سماء صافية الأديم
وتتأرجح على أكمام أزاهير لا تكاد تتفتح
فيسكرها عَرْف نفاح ، ونور لماح ، وزرقة بهيجة
تنفض الغبار عن جناحيها والميلاد حديث
وتطير صاعدة إلى السموات العلى خفيفة كالنسيم
تلك حياة الفراشة المشرقة
إنها لتحكي الرغبة : تمس كل شيء ولا تقع أبداً على شيء
ثم تعود أخيراً إلى السماء تنشد اللذة الفقيدة

حماة « سوريا » — عارف قباني

احياء النحو

أهدى الأستاذ ابراهيم مصطفى أستاذ اللغة العربية بالجامعة المصرية كتابه النفيس «إحياء النحو» إلى صديقه الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين ، فأجابه الأستاذ على هديته الثمينة بهذه الأبيات :

لَوْ كانَ عصرُكَ المواهبِ مُنْصِفا ... لدعاكَ حقًّا «سيبويهِ مصطفى»
أحْيَيْتَ للفصْحَى لِساناً مُرْهَفاً ... سَلَّتْ عليه الأعْجَمِيَّةُ مُرْهَفَا
لَوْ عاصرَ الدُّؤلِيُّ فضْلَكَ لَمْ يكنْ ... لِلنَّحْوِ غيرُكَ وَاضِعاً ومُصَرِّفَا
شَرُفَتْ بِكَ العَرَبُ الكِرَامُ وَإِنَّها
لَجَدِيرَةٌ بك أن تتيهَ وتَشْرُفَا
أَلْقَتْ وَدِيعَتَها إليك فَصُنْتَها ... لا وَانِياً عنها ولا مُتَكلِّفَا
للهِ سِفرٌ أنت ناسِجُ وَشْيِهِ ... أَزْرَى بما نَسَجَ الرَّبِيعُ مُفَوَّفَا
كَمْ مَذْهَبٍ في النَّحْوِ عادى مذهباً
تَجْرَى بيَانُكَ في العُدَاةِ مُؤَلِّفَا
وَتَنَكَّرَتْ سبل الهدَى فيه إلى ... أَنْ لاحَ نُورُ حِجاكَ فيهِ مُعَرِّفَا

أحمد الزين



من أساطير الاغريق

بومـــــونا

للأستاذ دريني خشبة

عروس من عرائس الغاب يترقرق الجمال فى إهابها الوردى وتلتمع فى فمها الرقيق الخمرى ثنايا من اللؤلؤ الرطب ، وتبسم ... فتثور من عينيها وشفتيها أسراب من النحل فى قلوب العاشقين ، تلسعهم ، وتسقيهم رحيقاً ! !

هى بدع من عرائس الغاب ؛ فهى لاتغشى الأنهار تتلاعب فى طيات أمواجها ؛ وهى لاتحب البحر لا هادئاً ولا متمرداً ؛ وهى تكره الغابة لأنها تعج بالأفاعى والوحوش ، ومنظر هذه حين يساور أحدها الآخر يبعث فى نفسها اشمئزازاً ، ويثير فيها غضباً على الطبيعة الظالمة التى جعلت الضعيف فريسة للقوى يذله ويقتله ... ثم يأكله

لذلك أولعت بومونا بالحقول الساكنة الهادئة ، إلا من نشاط الحياة يسرى فيها فتهتز وتربو ، ثم تكتسي بالسندس ، وتنضر بالزهر ، وتطن بموسيقى اليعاسيب ... وأولعت كذلك بالحدائق .. وقد غرست حديقتها على عُدْوَة النهر ، وسَوَّجَتْ عليها بسياج من شوك ، ثم جعلت لها بوابة جميلة عرشت فوقها عساليج الشبر والياسمين ... وكانت تقضي فى جُنينتها أكثر وقتها ، ولو استطاعت لم تبرحها قط ، لأن الزنبق الغض ، والنسرين الجميل ، وأكمام الورد ، وهالات البنفسج ، ونضرة الشقائق ، وأرج التفاح ، وعبق الرياحين ، وشذى أزهار الخوخ العقيقية ، وابتسامات الأقاح ، ولآلىء الندى المبعثرة فوق العشب ... كل هذا كان أحب إلى قلبها الخلى ، ونفسها العزوف ، من هؤلاء الناس ، والآلهة ، وأنصاف الآلهة ، الذين كانوا يتنظرون أوبتها فى المساء إلى دارها ، فيقفون فى طريقها ، ليفوز من يفوز منهم بنظرة أو خطفة أو لمحة ، يعود بعدها إلى منزله مصدع القلب ، حائر الروح ، خفق الأحشاء موهون القوى !

وكأين من قائل لآخر :

— أرأيت بومونا هذا المساء يا صاح ؟

— الحسَّان الفتان ! أجل والله ... رأيتها ، وأورثتني ألف حسرة يا صديقى !

— أوَ مشغوف أنت بها حبا ؟

— ومنذ الذى لم تشغفه بومونا حبا ، وقد تبلت قلوب الآلهة؟

— إنى أغار من كلماتك أيها الصديق ... فاقصر !

— وأنا أغار من غيرتك ، فاذهب لطيتك ! !

ويكاد أحدهما يحرق صاحبه بالشرر الذي ينقدح من أغوار قلبه ... عن طريق عينيه ... ثم يمضى كل فى سبيله . وهكذا تمادى الناس فى بومونا ، وهكذا تنافس الجميع في حبها حتى الآلهة فلقد رآها أبوللو وجن بها جنوناً ، ولقيها مارس وفتن بها فتوناً ... ولكن العروس كانت لاهية عن الجميع ، لايتفتح قلبها لحب ولا يرق قلبها لشكاة المغرم الصب ؛ وكل ما كان يصبيها ، ويشغل بالها ، هو هذا الفردوس الحبيب ، الذى لايضايقها بكلمات الغزل ، ولا يضجرها بالأنظار الجائعة ؛ بل يحييها دائماً بالابتسامات البريئة وبالرَّوْح والشذى

غير أن واحداً من عشاق بومونا كان يعدل لاحبه لها حب ، ولا يسمو إلى افتتانه بها افتتان ... فتى لمحها مرة تطوى الطريق قبيل الشروق إلى حديقتها ، فوجده منجذباً إليها ، مجنوناً بها ، فتبعها ، وجعل يقلب عينيه فى مفاتن شعرها المهدل فوق ظهرها وكتفيها ، حتى ليكاد يقبل العقبين الرائعتين ، اللتين أخذتا تعلوان وتهبطان على ثرى الطريق ، كأنهما ختم الطبيعة فى صك البكور

أو زهرتان من اللوتس ، ترشفان سلافة الندى ... وكان جسمها الرخص يتأود كالخيزران ، وساقاها الناصعتان المرمريتان تضيئان في غبشة الصبح ، فتضرمان فى قلب ڤرتمنوس نيران الحب ، وتزلزلانه زلزالاً عظيما

وعرف الفتى ميعادها ، فكان يصحو مع الفجر ، ويهرع إلى الطريق ، ويلبث يعد الدقائق والثوانى كأنها ساعات بل أيام بل دهور وآباد ... حتى إذا أقبلت ، شعر بقلبه يخفق ، وأعصابه تذوب ، وأحس كأنه خفّ على الأرض ، وغدا طيفاً يوشك أن يسرى مع نسيم الصباح الذى تنشقه پومونا ... له الله ! لكم منّى نفسه بقبلةٍ يطبعها على هذا الفم الشتيت تُذهب حرَّ قلبه وتشفى صَدَى روحه الظامئة المتعطشة ، ولكنه كان يعود أدراجه كل صباح بعد أن يتأثر سالبة به ، ولا لب له ، ولا قلب معه ، ولا مداوى لجراحات فؤاده إلا دموعه يسكبها عبرة فى إثر عبرة ، وإلا آهاته يرسلها من أعماقه فتزيد فؤاده جراحا !

***

وذوى ڤرتمنوس وذبل شبابه ، وشفّه الهم وأضوى جسمه الفكر ، واستسلم لبكاء طويل يتعلل به ، وغناء يشبه العويل ، يرسله فى نبرات تشبه الأنين ، يضمنه بثه ، وينظمه شكواه ، ويلف فيه بقايا فؤاده المعذب ، ويودعه النُّطف الأخيرة من روحه الحيرانة ، ويذهب به فى الليلة المقمرة فتجتمع حوله الوحوش ، وتسكر بموجع أنغامه الهوام ، ويرقص من فوقه الشجر ... ثم يبكى كل هؤلاء له ... ويعود من حيث أتى !

ولقيته مرة ڤينوس فرقت له ، ورثت لحاله ، وراعها أن يلاقى محب كل هذا العذاب ، فى هوى عروس غاب ، فجلست إليه تسامره وترفه عنه

— أهكذا يقتل الناس الحب يا ڤرتمنوس ؟

— إي وحقك يا ربة ! لقد نال منى هواها ، ولم أعد أفكر فى أحد سواها !

— مسكين ! وهل كلمتها قط ؟

— مرة واحدة اجترأت أن أهتف باسمها ، ولكنها أشاحت وأعرضت عنى

— وفيم تطمع إذن ؟

— أطمع فى رضائها ، وأطمع بعد ذلك فى العيش فى ظل حبها

— وإذا لم ترض ؟

— سأعيش لحبها وآلامى ! ولكن ؟

— ولكن ما ذا يا ڤرتمنوس ؟

— ألا تساعدينى يا ربة الجمال ؟ ألا تتفضلين فترققى قلبها علىّ ؟

— عندى فكرة !

— أضرع إليك يا ربة !

— سأمنحك قدرة التشكل ، وتستطيع أن تبدو فى أى صورة شئت

وانحنت ربة الحب والجمال فتناولت من ماء الغدير قطرات ، ثم نفثت فيهن وتمتمت بكلمات سحرية ، ونظرت إلى الفتى فى ظرف ودل ، ونثرت الماء فى وجهه

— والآن ، فكر فى أي صورة تنقلب إليها

وأخذ ڤرتمنوس يتقلب فى صور شتى ... وكلما حاول أن يرتد إلى صورته الأولى لم يستطع ، فتضاحكت ڤينوس وقالت له :

— فكر أيضاً فى صورتك الأصلية قليلا ...

وسرعان أن عاد إليها ... ثم ودعته ربة الجمال والحب وهي تقول له :

— تستطيع الآن أن تلقى پومونا ، وسأرى ما يسوقك إليه ذكاؤك ! ورفت ڤينوس فكانت فى سماء الأولمب !

***

واستطاع ڤرتمنوس أن يدخل حديقة حبيبته في أى لحظة شاء . وكان يدخلها فى صورة بلبل غرد ، ما يزال يغنى ويهتف حتى يلفت إليه أنظار پومونا وأسماعها ؛ وكان يتبعها أينما ذهبت فيقف على أقرب شجرة ، ثم يرسل أغانى الحب وأغاريد الغرام ، فتنسكب فى أذني عروس الغاب ، فتقف لتسمع لحظة ، ثم تأخذ فى عملها كأنها لم تسمع شيئا ... فيتضايق الفتى ، ويطير أسوان أسفا ...

واستمر على هذه الحال أشهراً ، وكل يوم يمر يزداد بالعروس هياماً ، ويفنى فيها حباً ، حتى خيف عليه من المرض ؛ وأحس هو أن ريب المنون يسرى فى عظامه ، وبرد اليأس يوشك أن يقف نبضات قلبه ؛ ثم بدا له آخر الأمر أن يزور حبيبته فى صورة أخرى تختلف عن تلك الصور البلبلية التى اعتاد أن تراه فيها ، ثم عول هذه المرة — إذا لم يفز بحبيبته پومونا — على أن ينتحر تحت قدميها فى صورة البلبل الحزين :

رأى أن يزورها فى صورة عجوز شمطاء : ولم لا ؟ أليس عجائز النساء أقدر على إيلاف قلوب العذارى من كل أحد غيرهن ؟

أليس لهن حديث طلي يتصل من حيث ينقطع ، ويشتق عن كل خرافة حلوة وكلمة طيبة ، وبأسلوب ظريف يشبه (تنميل) الخمر فى أطراف السكارى ؟!

وقف ڤرتمنوس فى ظل أيكة باسقة نامية فى منعرج قريب من حديقة پومونا ، ثم طفق يفكر فى صورة عجوز طيبة القلب ، سمحة الملامح ، وراح يتخيل شعرها الأشمط[1] وذوائبها الخلس[2] وغدائرها الزُّعر[3] ، ويديها عاريَتي الأشاجع[4] ، وعينيها الغائرتين ، وجبينها المجعد ، ووجهها المعروق[5] ... فكان له كل ذلك ، ثم كانت له هيبة ووقار وأَسْر ، فى سكينة ودعةٍ وحسن سمت ... وأضفى عليه حِبَرة سوداء فضفاضة ، وجعل فى قدميه خفين هَرِمتين ، وفى يده عكازاً مقوساً ما أشبهه بصولجان الموت !

ثم جعل يدب فى هيئته تلك ، حتى كان لدى باب الحديقة فطرقه ؛ وكانت پومونا تقطف الزهر وتصنع منه باقات تقدمها لصويحباتها عرائس الغاب فى مثل ذلك اليوم من كل أسبوع ... فلما لمحت العجوز تتهالك على نفسها بباب حديقتها ، أسرعت إليها وحيتها أحسن تحية وألطفها ، ثم فتحت لها وأدخلتها ، وكانت الخبيثة — أو كان الخبيث — تبالغ فى إظهار الضعف وتعمُّل الإعياء ، فكانت پومونا تسندها من هنا ، وتشد أزرها من هناك ... حتى وصلتا آخر الأمر إلى ظُلّة وارفة ذات أفياء ، يعرش فوقها كرم نضير تدلى جناه الحلو الناضج ، يغازل العيون والأحشاء ؛ وأشارت العروس إلى العجوز كي تجلس على إحدى الأرائك التي صُفّت عليها الوسائد والحُسْبانات[6] ففعلت ، ولكن ... ؟ بعد أن أخذت بفَوْدَيْ پومونا ... وطبعت على ثغرها القبلة الأولى الحارة ... قبلة الأماني والأحلام ؛ !

لقد شُدهت پومونا من أسر هذه القبلة ، لأنها لم تكن من تلك القُبَل الفاترة الباردة التي تخرج من شفاه العجائز كزمهرير الشتاء ، بل كانت قبلةً ناعمةً فيها خمر ولها حُمَيّا ، وفيها شعر وموسيقى ، وفيها روح وامقة صادية كانت تتردد على شفتي العجوز كأنما حاولت أن تلتقي فى صدر الفتاة بكل أسرارها ؛ !

ولو لا أنها كانت عجوزاً حَيْزَبُوناً لعَشِقتها پومونا ...

* * *

وو ثبت الفتاة فقطفت عِزْقاً[1] من العنب وقدمته للضيفة العجوز ... ولكنها بدلاً من أن تجدها تهش للثمر الجني الشهي وجدتها غائبة عن رشدها ... أو ... كالمغشى عليها ! ترى ! ماذا أصاب أخانا ڤرتمنوس المختبئ فى جلد هذه العجوز ؟! آه ! مسكين ! إنه لم يكد يفيق من سحر القبلة ، حتى رفع بصره إلى پومونا ، فشهد العجب العاجب ، والجمال النادر ، والحسن الباهر ، والرونق والبهاء والرواء !! لقد شهد الساقين الجميلتين والقدمين الصغيرتين وشهد الركبتين الرائعتين الملتفتين ... وقليلاً من الفخذين اللجينيتين ... فاستطير لبه ، وصبا قلبه ، وشردت أفكاره ، وغشى عليه ؟ !

ولما أفاق — أو أفاقت العجوز — سألتها ماذا أصابها ، فشكت وطأة السنين وضعف البدن ، وتهافت أعضائها من الكبر ؛ ثم شكرت لها عِزْق العنب ، وأخذت فى أكل حباته ، وهى تخالس العروس النظرات ... ثم نظرت إلى الكرم العارش فوقهما ، وأرسلت من أعماقها آهة طويلة حامية ، ثم قالت تحدث الفتاة :

— أرأيت يا حبيبتي (!) لو نما هذا الكرم على الأرض من غير أن يحمله هذا العريش ، هل كان يؤتى أكله ، ويحلو عنبه كما هو حلو هكذا ؟

— كلا يا أماه ! هذا شيء بدهي !

— تعنين أن الكرم لا يستغني عن هذا العريش ! ؟

— طبعاً !

— ولا غناء للعريش من غير كرم !

— لا يكون منظره جميلا رائعاً كما يكون ومن فوقه الكرم !

— عجباً لكن والله يا عذارى !! تعرفن ذلك ، ولا تفكرن فى عطلكن !!

— أو عاطل أنا يا أماه ؟ ماذا تقولين !

— عفواً يا ابنتي ... فإن لك ألف حلية من جمالك الذى لا جمال مثله ... إنما قصدت أنكن تزهدن دائماً فى أن يكون لكن أزواج كما لهذا الكرم عريش ... لا سيما أنت يا صغيرتي پومونا إنى أعرف أن كل شباب المدينة مولعون بك ، وكل أمراء النواحي متيمون فى هواك ؛ وأعرف أيضاً أن منهم من يتعذب بالليل ، ويذل بالنهار ، لأنك ترفضين أن تمنحيه نظرة حين يلقاك فى الطريق ، وقد وقف لهذا اللقاء ساعات وساعات ... بل أعلم

---

(١) بياض الشعر يختلط بسواده ويزيد عليه

(٢) يعني أشمط واحدتها خلساء وخليس

(٣) جمع زعراء أى قليلة الشعر جداً (٤) بدت عروقهما

(٥) قبيل المجعد (٦) الوسائد

(١) عنقوداً

يا أجمل عرائس الغاب أنك قد بززت هيلين الهيفاء، وبنلوپ اللعوب في كثرة العشاق الذين يعبدون جمالك، وتجبت قلوبهم لحسنك، وتتصدع صدورهم من هول ما تهجرين وتصدين. ماذا؟ لم يا بُنيَّتي لا تختارين لنفسك من بينهم كفءًا يقاسمك هذه الحياة وتقاسمينه، ويشركك في هذه الحديقة الفيحاء وتشركينه، ويبسم لك وتبسمين، ويواسيك وتواسين؟ ما غايتك من هذه الوحدة، وأنت بها في منفى، ولو أينعت حولك ألف ألف بنفسجة، ومثلها من الورود والرياحين؟ وهذا الفتى المسكين الذي اسمه... أسمه... أسمه ماذا؟ آه! ڤرتمنوس! ذكرت أني سمعت أنه يحبك حباً أورثه السهد، وأولاه الضنى، حتى لم يبق منـه هواك إلا حشاشة تترقرق دموعاً في عينيه، وتتأجج نيراناً في صدره... لم لا ترحمينه يا پومونا؟ لم لا ترثين له يا أجمل عرائس الغاب؟ إنه ليس إلٰهاً ولا نصف إلٰه، ولكنه خليق بحبك جدير بأن تكوني له من دون العالمين، لأنه مغرم بك أكثر من كل عشاقك؛ وهو ليس كجميع العشاق، لأنه لم يحببك إلا عن بصر بك، وتقدير لحسنك، ولأن عشاق هذا الزمان مفاليك لا ألباب لهم، فهم ينظرون النظرة فتهيج شياطين الهوى في صدورهم، ثم ينظرون النظرة إلى حسناء أخرى فتنجذب شياطينهم إليها، فإذا لقيتهم ثالثة لم تأب تلك الشياطين أن تتصرع تحت قدميها... أما ڤرتمنوس، فقد أحبك ولم يشرك حسناء في هواك، لأنه لا يرى لك في قلبه شريكة تسمو إلى إخمصيك... إرحميه يا پومونا، اعطفي عليه، وانظريه كأنه يتوسل إليك بلساني، ويشكو لك بثه بعيني (!)... ألا تخافين أن تقتص له ڤينوس منك؟ ألا تعلمين أنها تثأر للعشاق من كل حبيبة قاسية القلب؟ ألم تعرفي ماصنعت بالقاسية أَنَاجْزَرْتيه؟

— ومن أناجْزَرْتيه يا أماه؟ وما قصتها؟

— ألا تعرفينها؟ ولا تعرفين مأساة الفتى إيفيس؟

— وما مأساة إيفيس؟ قصيها علي بالله عليك!

«لقد كان إيفيس فتى جميل المحيا وضاء الجبين، ولكنه كان من صميم الشعب؛ وكانت أَنَاجْزرتيه من بنات الأعيان الموسرين... وكانت بينهما من أجل ذلك هوة سحيقة لم تمنع إيفيس من حب الفتاة لدرجة الجنون. وكان كلما لقيها غشيه من الغرام ما لو حمله جبل لناء به، ولكن الفتاة كانت تعرض عنه وتَزْوَرّ، وتطوي الطريق عجلاتها إلى قصرها الباذخ المنيف ذي الشرفات... وكان الفتى يتبعها بقلب وامق متصدع ولكنها كانت تدخل من باب الحديقة الحديدي ثم توصده من دونه، فيقف ثمة يتزود منها نظرات الموجع اللهفان من خلل القضبان، ثم يذرف دموعه، وينثني إلى داره، وليس في قلبه إلا حبها مع ذاك، ولا في عينيه الباكيتين إلا صورتها! وطالما كان يهب من نومه في جنح الليل فيطوي الطريق مُفزَّعاً، حتى إذا كان لدى البوابة الحديدية وقف عندها، وعانق قضبانها، وبكى ماشاءت الآلهة، وتغنى آلامه وغرامه، ثم ارتد وقد تضاعف وجده، وازدادت صبوته... وكم ذا رأته أناجزرتيه فكانت تحقره وتسخر منه، بل كانت لا تعفيه من كلمة قارصة، أو غمزة تهكم واستهزاء، ولم يشفع لديها ما قاله مرة لمرضعها العجوز وما بث من شكاة؛ بل زادها ذلك قسوة وعناداً... ولما جد به الجد، ولم يكن بد مما ليس منه بد، ذهب إليها في ضحوة ضاحكة من ضحوات الربيع، ثم تعلق بالبوابة، وكانت حبيبته ترتع وتلعب في حديقة القصر، فهتف بها وقال: «أيتها القاسية أناجزرتيه إسمعي! لقد قهرت قلبي وغزوت نفسي وتم لك النصر! فهنيئاً لك! تَغَنَّيْ أناشيد الفرح واللذة الصارمة لأنك قتلت إيفيس! إعقدي فوق هامتك إكليل الغار لأنك أذللت قلبه العزيز، ومرغت في التراب روحه العالية... ولكن اصغي إلي يا متحجرة القلب... لقد عولت على أن أشرب كأس المنون، ولكني آثرت أن أشربها أمامك إن لم يكن بين يديك، لتتلذذ عيناك بهذا المنظر الوجع الأخير، وليبتهج قلبك بآخر صورة من صور انتصاراتك علي... بيد أني أهتف بك يا آلهة السموات أن تثأري لي، وأن تجعلي لي ذكراً في قصص المحبين يتناقله الخلف عن السلف، ويتذاكره الناس في طويل العصور والآباد...» وكانت السماء كلها تصغي لما يقول إفيس فلبّت واستجابت... وكان قد ربط حبل مشنقته في قضبان البوابة، وجعل أنشوطتها في عنقه؛ فلما انتهى من مقالته ألقى بنفسه... وقبضت روحه! ولم تتحرك أناجزرتيه مع ذاك، بل أرسلت خدمها الذين نقلوا الجثة إلى أم الفتى وهم يبكون ويضجون... وصرخت الأم المفجوعة وولولت على وحيدها، ثم حمل الجثمان في إران (١) إلى المقابر، ومر الموكب الحزين من الشارع الذي فيه قصر الفتاة القاسية،

(١) نعش

فصعدت لتنظر إليه ، ولكنها ما كادت ترى إلى الجثة مسجاة فى النعش حتى تثلجت عيناها ، ثم استحالتا إلى رخام بارد ... وروعت لما أصابها ، وأرادت أن ترجع قليلاً ، ولكنها لم تستطع لأن الرخام سرى فى قدميها أيضاً ... ثم فى ساقيها ... ثم فى ذراعيها ... ثم فى جميع جسمها ... أما قلبها ، فقد كان رخاماً منذ زمن بعيد ... وكذلك تحولت أناجزرتيه إلى تمثال مازال محفوظاً فى متحف ڤينوس بسلاميس ... عظة وذكرى ... »

وكأنما عملت القصة عملها فى نفس پومونا ... فانذرفت من عينيها الحزينتين عبرتان حارّتان ... ونظرت لترى إلى العجوز ... ولكن ... لقد كان ڤرتمنوس العاشق الحزين الجميل القوى يجلس مكانها ، ويأخذ برأس الفتاة على صدره ... فقالت له :

— من أنت أيها الفتى ؟

— أنا ...

وانفجر فى بكاء شديد وقال :

— حبيبك ڤرتمنوس يا پومونا ...

فقالت : أهو أنت ؟!

وتبادلا قبلات أشهى من الشهد ، وأشد أسراً من الخمر ...

دريني خشبة



معرض عظيم للحضارة الرومانية

احتفل أخيراً فى رومة بافتتاح معرض عظيم إحياء لذكرى الامبراطور أوغسطوس (أوكتافيوس) منشئ الامبراطورية الرومانية ، وذلك لمناسبة انقضاء ألفى عام على وفاته ، وسيبقى المعرض مفتوحاً مدى عام كامل ؛ وقد جمعت جميع الآثار والتحف الفنية المتعلقة بالامبراطور أوغسطوس وعصره وأصلحت ، وأقيمت فى مواقع مناسبة ، وساهمت فى ذلك العمل العلمى الجليل جميع المتاحف الايطالية ، ومعظم المتاحف الخارجية التى تحتفظ بآثار من عصر أوغسطوس ، وفى مقدمتها المتحف البريطانى ؛ وأصلح أثر أوغسطوس العظيم في رومة وهو « الأوغسطيو » أو قبر أوغسطوس الذى يضم رفاته ورفات زوجه وأخته وبعض خلفائه ، وغدا أعظم مناظر هذا المعرض . وقد استغرق العمل لإعداد هذا المعرض العظيم خمسة أعوام ، وأشرف على تنظيمه من الناحية العلمية العلامة الأثرى الأستاذ جليو جليولي ، وبذل جهوداً عظيمة ليحقق أمنية « الدوتشى » فى أن يكون المعرض صورة عظيمة خالدة من الحضارة الرومانية ؛ وقسم المعرض إلى خمسين قسماً ، وجمع فيه نحو ثلاثة آلاف تمثال وصورة ونقش من آثار العصر ، ومائتى نموذج تمثل الأثاث الرومانى ، ومجموعات كثيرة من الأنواط والنقود الرومانية ؛ والمقصود أن تقدم هذه الأقسام المختلفة صورة بارزة من الحياة الرومانية فى مختلف نواحيها ، من الأسرة والحياة الخاصة إلى الدولة والحياة العامة ، والجيش والبحرية والتجارة والصناعة والزراعة والعلوم والفنون . وقد أقيم نموذج كامل لمنزل رومانى فى هذا العصر ، مؤثث بنماذج من أثاث العصر وحفل القسم الحربى بنماذج من السلاح والعدد المعاصرة ؛ وأفرد قسم خاص للدين جمعت فيه تماثيل الآلهة الرومانية ، وآلهة الأمم التى كانت خاضعة للدولة الرومانية ؛ وللنصرانية قسم خاص بها جمعت به نماذج وتماثيل تمثل حياة المسيح والرسل والشهداء حتى عصر قسطنطين ، هذا وستلقى خلال العام الذى يقوم فيه المعرض سلسلة قيمة من المحاضرات العلميــة والأثرية عن الامبراطورية الرومانية وعصر أوغسطوس والحضارة الرومانية ، ويشترك فى إلقائها أعظم الأساتذة الايطاليين

ولما كانت إيطاليا الفاشية تضطرم اليوم بروح امبراطورية فهى تريد أن تحيى مناظر رومة الامبراطورية ؛ وقد عمل السنيور موسولينى كثيراً فى هذا السبيل ، وبذل عناية خاصة لتجميل رومة ، وإقامة الأبنية الجديدة الضخمة . وشق الشوارع العظيمة وإصلاح الآثار والهياكل والقناطر الرومانية القديمة ، وإعادة كثير

من الأسماء اللاتينية ؛ وشجع السنيور موسوليني أيضاً كل الأبحاث الأثرية والعلمية المتعلقة برومة القديمة وحضارتها ، وظهرت فى هذا الباب فى الأعوام الأخيرة كتب ومباحث قيمة وقد كان عصر الامبراطور أوغسطوس أعظم عصور رومة ، وكانت رومة فى عصره حاضرة العالم السياسية والفكرية . وكانت ملاذ العلوم والآداب ، فلا غرو أن تتخذ إيطاليا الفاشية عصره رمزاً للمعظمة الرومانية وأن تعمل لإحياء ذكراه بكل ما وسعت من حماسة وتكريم

ضوء جديد على تطور الأجناس

اشتهر العلامة الإنكليزي السير جيمس فرازر منذ ربع قرن بمباحثه ونظرياته عن تطور الأجناس البشرية . وله مؤلف جليل شهير في هذا الفن عنوانه Totemism and Exogamy ؛ ولكن نظريات الأجناس البشرية تطورت فى العصر الأخير تطوراً عظيماً ، واستطاع السير فرازر أن يخرج من دراساته ومباحثه المختلفة فى هذا الميدان بنظريات جديدة يضمها اليوم مؤلفاً جديداً تحت عنوان Totemica وهذا المؤلف الجديد يعتبر فى بابه مجهوداً بديعاً سواء من حيث الوضوح فى عرض الآراء والنظريات ، ومن حيث الدقة العلمية والفنية . وللسير فرازر ثلاث نظريات شهيرة فى تطور الأنواع البشرية ومؤثراتها تتلخص فيما يأتى : الأولى نظرية الروح الخارجية ، والثانية نظرية الرسوم السحرية التى تجرى لزيادة محصول الغذاء ، والثالثة نظرية التجاذب غير الزوجى لانتاج النوع البشرى . والسير فرازر يلقى ضوءاً جديداً على هذه النظريات ، وعلى تفاعلها فى تطور الأجناس ، وهو لا يزال على رأيه القديم من أن الانسان الأول كان يعمل عامداً لاجتناب مساوىء الازدواج وأن الإنسان المتوحش له آراء معينة فى ضرورة الزواج ، ويلجأ السير فرازر فى التدليل على نظرياته إلى العوامل الجغرافية ، ويقول لنا إن الشعوب المتجاورة تمكن المقارنة بينها ، ويمكن تقدير الظروف التى أثرت فيها نظم كل فى الآخر . وهو لا يسلم بالرأى الحديث القائل بأن التفاعل الثقافى بين الأمم أشد تأثيراً فى تطورها من الاختراع المستقل . ومن رأيه أنه مع التسليم بأهمية الصفات الفردية أو صفات الجماعات ، ومع التسليم بأن الإنسان يستطيع الاضطلاع بمقدار من الاختراع المستقل ، فإن الأمم مدينة فى تطورها على الأغلب إلى عامل التقليد ؛ ولنا فى اللغات القومية المختلفة أكبر شاهد على ذلك

ويرى العلامة فرازر في أوستراليا أصلح معهد لدراسة التطورات البشرية ، ففي هذه القارة الساذجة لا تزال تمثل عادات الإنسان الأول والعصر الحجرى ، وهى العادات التى عرفتها أوربا وعرفها العالم قبل فجر التاريخ ؛ كذلك فى جزر المحيط والهند وأفريقية وأمريكا لا تزال تمثل آثار بارزة من ذلك العهد الذى هو أول عهد لتطور النوع الإنسانى

تمثال لبلزاك

لم يحظ الكاتب الأشهر أونوريه دى بلزاك كمعظم الكتاب الأعلام من معاصرين ولاحقين بتمثال يخلد ذكره فى باريس ، تلك العاصمة العظيمة التى أحبها وخلد حياتها الاجتماعية فى أوائل القرن الماضى فى كتبه ورواياته . وكان المثال رودان قد تقدم منذ سنة ١٨٩٨ بنموذج برونزى لتمثال لبلزاك ولكنه رفض يومئذ . وأثار رفضه جدلاً عظيما فى الصحف والدوائر الأدبية ، ومنذ العام الماضى تألفت فى باريس جمعية كبيرة تضم نحو خمسمائة من أقطاب الآداب والعلوم والفنون لتقوم ببذل المساعى اللازمة لاقامة تمثال لبلزاك من أصل نموذج رودان ، وبالفعل استطاعت أن تحصل على موافقة مجلس بلدية مدينة باريس على أن تعين بذاتها ميداناً يصلح لاقامة تمثال الكاتب الكبير ، ثم اقترحت أن يكون هذا الميدان هو شارعى ملتقى مونبارناس وراسباي وهما فى أعظم شوارع باريس . وسيعرض نموذج رودان أولا فى بهو الفنون الجميلة ، ثم يصنع تمثال بلزاك على نمطه ، ويقام بعدئذ فى الميدان المذكور ، وبذلك يحظى بلزاك بتمثاله بعد مضى أكثر من ثمانين عاماً على وفاته ، وتزدان العاصمة الكبيرة بتمثال كاتبها العظيم

أفريقية مستودع الماس

كان المعروف حتى الآن أن إقليم الترنسفال وناتال فى جنوب أفريقية يضم أعظم مناجم للماس فى العالم ، ولكن المباحث الأخيرة دلت على أن مستعمرة « سيراليونى » البريطانية فى غرب أفريقية قد تصبح فى المستقبل القريب مورداً من أعظم موارد الماس فى العالم . ففى سنة ١٩٣٠ عثر المستر بوليت أحد مندوبى القسم

الجيولوجى على قطعة كبيرة من الماس فى إحدى بقاع المستعمرة ؛ فاهتم المعهد الإمبراطورى بالأمر ، وأجريت فى هذه البقعة مباحث فنيـة أسفرت عن نجاح مدهش إذ بلغ المستخرج من الماس من هذا المنجم الجديد فى سنة ١٩٣٦ أكثر من نصف مليون جنيه . والنجم الآن فى يد إحدى شركات الماس الكبيرة تستغله طبقاً للامتياز الممنوح لها فى مساحة تقدر بنحو أربعة آلاف ميل فى شرق سيراليونى .

ويقول مستر بوليت مكتشف المنجم إن أصناف الماس التى استخرجت تضم جميع الأنواع المعروفة من الأنواع الرديئة إلى أثمن وأبدع الأنواع ، وقد استخرج المنقبون ذات مرة من ياردة مربعة فقط نحو مائتين وخمسين قيراطاً من الماس ، وهي نسبة مدهشة . وتزن القطع المستخرجة عادة من ١٢ قيراطا إلى ١٤٤ قيراطا ، وقد وقع المنقبون ذات مرة على قطعة زنتها ٧٨ قيراطا من أفخر أنواع الجواهر وبلغت قيمتها نحو خمسة آلاف جنيه . والمنظور أن يكون لهذه المناجم الجديدة فى المستقبل القريب شأن عظيم فى انتاج الماس ، وربما غدت مثل مناجم الترنسفال موردا من أعظم موارد الماس فى العالم .

ذريعة وباريكاد Barricade

الذريعة لغةً الوسيلة . يقال فلان ذريعتى بمعنى وسيلتى . والذريعة أيضاً عند العرب الناقة التى كانوا يختفون وراء جنبها لصيد الحيوانات المفترسة . كان الصياد يعين الموضع الذى ربما تأتى منه الفريسة ، فينيخ ناقته فى مكان قصىّ ويختفى وراء جنبها حتى تأتى وتهجم على الناقة . فإذا دنت منها صوّب الصياد نبلته إليها فيصيبها

فاختفاء الصياد وراء جنب الناقة للوقاية من هجوم الوحش وانتظاره إياه فى شىء من الأمن ومحاربته عن بعد ، ثم هجوم الحيوان الوحشى على الناقة وتعرضه للخطر الكامن وراءها وهى رابضة ، ينبهنا إلى حيلة من حيل الإفرنج فى حروبهم الداخلية إذ يسدون الطرق بأكداس من أثاث بيوتهم كموائد ومقاعد تحول بين ناصبى الحيلة وبنادق أعدائهم فيطلقون على تلك الأكداس الواقية لفظة « بَرِّكَادْ » Barricades ؛ وإقامة الأكداس لها عبارة مشهورة وهى dresser des barricades

فهل من الجائز ترجمة اللفظة الفرنسية « بركاد » بلفظة « ذريعة » وعبارة dresser des barricades بعبارة « نصبوا الذرائع ؟ »

فإلى أرباب اللغة وحماتها أوجه هذا السؤال راجياً الجواب عنه على صفحات الرسالة الغراء ولهم جزيل الشكر

أحمد العربى

طالب بكلية الآداب بباريس

الصلات الثقافية بين مصر وجاراتها الشرقية

دأبت وزارة المعارف المصرية فى السنوات الأخيرة على تقديم المساعدة إلى جاراتنا الشرقية ، رغبة فى توسيع الثقافة المصرية

وقد عاونت وزارة المعارف المدارس الحجازية فى العام الدراسى الماضى ، إذ مدت بعض مدارسها بمدرسين مصريين أكفاء على نفقتها الخاصة

وقد تلقت الوزارة نبأ من جدة جاء فيه أن إحدى المدارس الأهلية تلاقى ضيقاً مالياً ، وأن بها مدرسين مصريين يقومان منذ أمد غير قريب بالتدريس فيها وأن المدرسة تطلب إلى وزارة المعارف المساهمة فى دفع نصيب من مرتبيهما

وقد أصدر معالى وزير المعارف قراراً باعانة هذين المدرسين رغبة من الوزارة فى السير على خطتها المرسومة

تصويب

جاء فى قطعة (الدمام) فى العدد (٢٢٤) فى الصفحة (١٦٩٤) فى السطر (١٩) : « زير الغوانى » بفتحة على الياء ، وهذا تطبيع ، وفى مثل هذه الكلمة (الغوانى) تقدر الحركة فى حالتى الرفع والجر ، وتظهر فى حالة النصب ، وهي هنا مجرورة بالاضافة

(ه)



أخبار أبي تمام للصولى

لأستاذ جليل

حبيب الطائى ، أو أبو تمام ، أو أبو التمام[(١)] ، أو ملك القريض الأول — والملك الثانى هو المتنبي ، والبحترى نائب ملك ثم أمراء (كبار وصغار) ووزراء ، والمعرى شيخ إسلام ، وابن الرومى إمام (خليفة) خوارج ، وقواد وعمال ولايات (ولاة) ورعايا وجنود وقديديون[(٢)] ، ولا ملك ثالث فى المملكة — حبيب هذا شاعر عبقرى أيّ شاعر ، ومنزلته هي منزلته ، وشعره هو شعره ، فما تقريظ أو تفخيم بنافعه ، ولا تعييب بضارّه؛ إنه الشاعر ذو العبقرية والإبداع ، وإنه فى سماء القريض الشمس ذات الضياء الباهر والإشعاع ؛ وقد كان الشعر قبل أبى تمام تجربةً وتمريناً ، ومقدمةً وتمهيداً ؛ وكان كلاماً ، ثم جاء ابن أوس وابن الحسين فقالا — وغيرهما مثلهما لا يقول — : « لأبى تمام استخراجات لطيفة ، ومعان طريفة لا يقول مثلها البحترى[(٣)] » « نحسن أن نقول ولكن مثل هذا — مثل قول المتنبي — لا نقول[(٤)] »

وإن الباعث اليوم على هـذا القول هو كتاب فى أخبار (الحبيب) ظهر ، وهو كتاب : « أخبار أبى تمام » تأليف أبى بكر محمد بن يحيي الصولى

وكتاب يصنفه إمام الأدباء وسيد الظرفاء أبو بكر الصولى طرفة تحفة دونها كل طرفة . وقد أبى الله أن يضام هذا الكتاب (كما ضيم من قبلُ ديوانُ هذا الشاعر بتلك الطبعات المخزيات المحرفات ...) فسخر له أدباء مهذبين مثقفين ثلاثة ، وهم (خليل محمود عساكر ، ومحمد عبده عزام ، ونظير الاسلام الهندى) — أبٌ وابنٌ وروحٌ قُدُسٌ كما تقول النصارى — فحققوه أبلغ تحقيق راجعين فى كل مشكلة إلى الأساتذة الأجلاء : (الأستاذ أحمد أمين ، والدكتور طه حسين ، والأستاذ أمين الخولى ، والدكتور كراوس ، والأستاذ ابراهيم مصطفى) وطبعته (لجنة التأليف والترجمة والنشر) فى مصر أكمل طبع ، واختارت له الكاغد الجيد

طالعت هذا الكتاب فألفيت الصولي قد سطر فيه من أخبار أبى تمام مالم نره فى تصنيف من كتب الأدب قبله ، وروى أقوالا لأئمة كبار فى هذا الشاعر لم يطرفنا إياها غيره ،وهي تعالن معالنة بعبقرية (الطائى الأكبر) وعلو منزلته . « قال عمارة بن عقيل : لقد عصفت رائية[(١)] طائيكم هذا بكل شعر فى لحنها . لله دره ! لقد وجد ما أضلته الشعراء حتى كأنه كان مخبوءاً له » . و « قال الحسن بن وهب : وأما الشعر فلا أعرف مع كثرة مدحى له وشغفي به فى قديمه ولا فى حديثه — أحسن من قول أبى تمام فى المعتصم بالله ، ولا أبدع معانىَ ، ولا أكمل مدحاً ، ولا أعذب لفظاً ؛ ثم أنشد (البائية العبقرية) ثم قال : هل وقع فى لفظة من هذا الشعر خلل ؟ كان يمر للقدماء بيتان يستحسنان فى قصيدة فيجلون بذلك ، وهذا كله بديع جيد[(٢)] » والقصيدة واحد وسبعون بيتاً . وأما رسالة الصولى إلى مزاحم بن فاتك فى أول الكتاب فهي كتاب وحدها ، على حدة . وقد أملتها البلاغة

(١) محمد بن يزيد المبرد قال: ما سمعت الحسن بن رجاء ذكر قط أبا تمام إلا قال : ذاك أبو التمام ، وما رأيت أعلم بكل شىء منه (أخبار أبى تمام) للصولى

(٢) القديديون : تباع العساكر من الصناع (الأساس)

(٣) (أخبار أبى تمام) للصولى ، والقول لصاحب الكامل : المبرد

(٤) ابن نباتة السعدى فى (شرح التبيان) للعكبرى

(١) يعنى التى مطلعها :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار !

وهذه الجملة فى خبر فى (أخبار أبى تمام) وقد روى مثله (الأغانى) ورواية الصولى فى كتابه أجمل وأتم

(٢) (أخبار أبى تمام)

الصولية الطلَّة المذبة العربية ، وفيها العلم والتَّصَفة

* * *

وفى (أخبار أبي تمام) أشياء هينة الخطب أذكرها ليهتم بها فى الطبعة الثانية بعد مدة قريبة إن شاء الله :

فنى الصفحة (٥٦) فى السطر (٥) : « خفت إعراضك »

وفى الحاشية : « فى الأصل : خفت غرضك ، ولعل الصواب ما أثبتناه » قلت : الأصل (غرضك) هو الصحيح ، والغرض الملل والضجر ، وجملة (كرهت إملالك) بعدها — تحقّ ذلك . والصولى لم يخف إعراض صاحبه لكنه خاف — إذ طوّل كما حسب — ضجره ، والغرض الضجر

وفى الصفحة (٨٩) السطر (٨) « وأرعف كلَّ ذى قلم خيانته » فهل أزعف هى أزعف (بالزاى) أو أزعفت أى أهلكت قتلت قتلاً سريعاً ؟

وفى الصفحات (٢١٨) (٢٢٣) (٢٤٤) : « كالمعائب ، من معائب ، المخائل » بالهمز ، وهى بالياء فى المعايب والمخايل ، والقاعدة الصرفية معروفة

وفى الصفحة (١٢٣) فى السطر (١٢)

وفوّارة ثأرهـــا فى السما ء فليست تقصر عن ثارها[1]

جاءت الهمزة فى أول عجز البيت وهي من ملك الصدر فى عروضه (في السماء) والبحر من المتقارب والقبض فى عروضه كثير بل هو عند بعضهم أحسن من التمام

وفى الصفحة (١٥٠) :

سقى عهدَ الحمى سَبَـلُ[2] العهادِ وروَّض حاضر منـه وبادى

كتبت (رَوَّض) بالبناء لما سُمى فاعله وهى بالبناء لما لم يُسمَّ فاعله . ولو أراد أبو تمام الأول لقال : (أروض) وروّض الغيث الأرض : جعلها روضة ، وأروضت الأرض ألبسها النبات ، أو كثرت رياضها

وفى الصفحة (٢١٧)

نجيان شـــاء الله ألاّ يطلعا إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا

جاءت (يأفلا) بالهمز وهي فى البيت مخففة لأن الألف ألف التأسيس

(١) ثارها : بلا همز (٢) السبل (بالباء) : المطر المسبل (الهاطل)

وفى الصفحة (٢٣٠)

فلعل عينك أن تعين بمائها والدمع منه خاذل ومواسي

رويت (مواسي) بالواو ، وواساه لغة ضعيفة أو رديئة كما فى (الصحاح والتاج) لآساه

وفى الصفحة (٢٣٥)

« عربى عربى اجاىِّ ماترام » اجاى بهذه الصورة : أجئى — أقعـد وان لم تكن للهمزة قاعدة نحوية مضبوطة مجمع عليها حتى اليوم

وفى الصفحة (٢٣٨) السطر (٩) :

« هيَّجتَ منى شاعراً أرَبَّا » وفى الحاشية : « أرب : أقام بالمكان أو زاد » قلت: ليس للأرب قبلة (جهة صحة) يتوجه إليها معنى ، فهى (الأزبّ) بالزاى أى المنكر الداهى ، والأزب من أسماء الشياطين كما فى (التاج) وأصل الأزب الكثير الشعر وكذلك أصل الزباء وهى من الدواهى الشديدة ، ومثلها الشعراء وفى (مجمع الأمثال) : جاء بالشعراء والزباء أى بالداهية الدهياء

هذه هى الأشياء القليلة فى الكتاب وهو (٣٤٠) صفحة . وإذا عرفت أن هناك مصنفاً ضبطه أديب مشهور ، له صيت ، وطبعته مطبعة ، فصادف[1] فيه ناقده قرابة ألف غلطة ـ أعوذ بالله من ذلك !! — تجلت لك فضيلة هذا الكتاب : أخبار أبى تمام أو أبى التمَّام والسلام

(قارئ)

(١) صادف : وجد ، وقد صادف أستاذ لفظة صادف بمعنى وجد فى كلام قائل نخطأه ... لا (صدفة) فى العربية لكن فيها المصادفة



النحو والنحاة

بين الأزهر والجامعة

للأستاذ محمد عرفة

كتاب ألفه الأستاذ محمد عرفة المدرس بكلية اللغة العربية فى مناقشة كتاب « إحياء النحو » للأستاذ ابراهيم مصطفى المدرس بكلية الآداب . وقد بحث الكتاب فيما أشكل من مسائل النحو وأبهم من علله وأسبابه

وقد أراد مؤلفه أن ينشر منه فصل معانى الاعراب بمناسبة ما دار فى الرسالة من جدل حول معانى الاعراب

معانى الاعراب

يرى مؤلف « إحياء النحو » أن بينه وبين من تقدمه من النحاة خلافاً فى حركات الاعراب ؛ فهم يرون أن هذه الحركات اجتلبها العامل وليست تدل على شىء من المعانى ؛ فالاعراب حكم لفظى خالص يتبع لفظ العامل وأثره ، وليس فى علاماته إشارة إلى معنى ولا أثر لها فى تصوير المفهوم

أما هو فيرى أن حركات الاعراب دالة على معان ، وأنه قد استكشف أصلاً عظيماً وهو أن من أصول العربية الدلالة بالحركات على المعانى وأنه رأى أن الضمة علم الاسناد وأن الكسرة علم الاضافة ، وأما الفتحة فهى الحركة الخفيفة عند العرب يلجأون إليها إذا لم تكن بهم حاجة إلى أن يبينوا أن الكلمة مسند إليها أو مضافة . أنظر كتاب إحياء النحو ص ٢٢ و٤١ و٤٨ و١٩٤

ترى المؤلف قد وضح طريقه وهو أن المتقدمين جعلوا الاعراب حكما لفظياً ، وأن علاماته لا تدل على معنى ، وأنه قد هدى إلى معان لعلامات الاعراب خفيت على النحويين . وهذا عمل جليل وابتكار وإبداع لو تم له

ومشايعة المؤلف على هذا الرأى ظلم عظيم للنحاة المتقدمين منهم والمتأخرين ؛ وإن من غمط النحاة حقهم ، ومن ظلم تاريخ النحو أن ننسب إلى النحاة أنهم كانوا يرون أن علامات الإعراب لا تدل على معنى ولا تؤثر فى تصوير المفهوم . وإننا إذا شايعنا المؤلف على هذه الفكرة رأى سكان الأقطار العربية ومن يأتون بعدنا أننا لم نفهم النحو ، وأن مصر تدرس النحو وتقرأه فى كتب المتقدمين والمتأخرين ولا تفهم أقوالهم الواضحة فتعزو إليهم ما لم يقولوه

وأنا أبادر إلى بيان رأى النحاة فى علامات الإعراب وأقرر أنهم جميعاً — لا مستثنياً أحداً — يرون أن الحركات علامات على معان تركيبية ؛ وأنهم قرروا أن الضمة علم الفاعلية ، وأن الفتحة علم المفعولية ، وأن الجر علم الاضافة ، وأنه لا فرق بين ما ذهب إليه الأستاذ من أن الحركات أعلام على معان ، وما ذهب إليه النحاة . وأنا أؤكد للأستاذ المؤلف أنه ما من نحوى واحد ذهب إلى أن الإعراب حكم لفظى خالص وليس فى علاماته إشارة إلى معنى ولا أثر فى تصوير المفهوم ، وإنى أتحدى — وأنا أقصد ما أقول — من يخالفنى أن يقيم الدليل على ما يقول

إن علماء النحو جميعاً يرون أن الحركات دوال على معان وقد صرحوا به تصريحاً جلياً

أليسوا قد ذكروا فى سبب وضع النحو أن أبا الأسود الدؤلى سمع قارئاً يقرأ (إن الله برىء من المشركين ورسوله) بالجر فقال : معاذ الله أن يكون بريئاً من رسوله . اقرأ (إن الله برىء من المشركين ورسوله) بالرفع ؛ فالكلام واحد ولم يتغير فيه إلا حركة اللام ، فإذا حركت بالجر أدى إلى كفر ، وإذا حركت بالرفع أدى إلى معنى مستقيم لا كفر فيه . فهل كانوا يروون ذلك وهم يرون أن حركات الإعراب لا تدل على معنى ولا أثر فيها لتصوير المفهوم ؟

أليسوا يذكرون أن أبا الأسود سألته ابنته : ما أحسن السماء يا أبت (برفع أحسن وجر السماء) فقال : نجومها . فقالت : لاأريد هذا أنا أتعجب من حسنها . فقال : ماهكذا تقولين ، قولى ما أحسن السماء (بفتح أحسن ونصب السماء) هل كانوا يحكون هـذا ويتداولونه فى كتبهم وهم يرون أن الحركات لا تدل على معنى فى لغة العرب ؟

أليسوا قـد عرفوا العامل بأنه ما به يتقوم المعنى المقتضى للاعراب ؟ أليس ما حكوه من قول ابن مالك :

ورفع مفعول به لا يلتبس ونصب فضلة أجز ولاتقس

كان كافياً لأن ينبـه المؤلف إلى أنهم يعتقدون أن علامات الاعراب دوال على المعانى ؟ فأبيت معناه أن الرفع علامة الفاعلية والنصب علامة المفعولية ؛ فان كان هناك موضع تميز فيه الفاعل عن المفعول بغير العلامة فأعط كل واحد منهما علامة الآخر ما دام لايلتبس ككسر الزجاجُ الحجرَ فانه معلوم هنا الـكاسر من المكسور . أليسوا قد ذكروا أن الأصل فى الأسماء الاعراب وعللوا ذلك بأنها هي التى تتعاور عليها المعاني المقتضية للاعراب كالفاعلية والمفعولية الخ ؟ أليسوا عند تفسير القرآن أو الشعر يعربونه أولاً ثم ينزلون المعنى على حسب هذا الاعراب ويعربونه إعراباً آخر فينتظم نظاماً آخر ثم ينزلون المعنى على حسب هذا النظم ؟

وذلك كقوله « إنما يخشى الله من عباده العلماء » بالنصب . والمعنى عليه أن الذين يخشون الله هم العلماء ، وعلى القراءة التى ترفع لفظ الجلالة وتنصب العلماء يكون المعنى لا يخشى الله أحداً إلا العلماء

إن النحو كله مبنى على أن حركات الاعراب دوال على معان تركيبية مقصودة من الـكلام ، ومن لم يفهم هذا الأصل لم يقدر أن يفهم علم النحو ولا آراء المفسرين ولا آراء علماء العربية فى تفسير الشواهد والقصائد من الشعر

فاذا لم يقنعك هذا دليلاً على أن علماء النحو يعتقدون أن علامات الاعراب دوال على معان ، فسنأخذ فى بيان أصرح ، وسننقل لك من كلامهم ما هو أوضح

قال الخضرى فى حاشيته على ابن عقيل فى ص ٣٠ فى بحث المعرب والمبنى : « وإنما أعرب المضارع لشبهه الاسم فى أن كلا منهما يتوارد عليه معان تركيبية لولا الاعراب لا تلبست . فمتواردة على الاسم كالفاعلية والمفعولية والاضافة فى ما أحسن زيداً ، وعلى الفعل كالنهى عن كلا الفعلين أو عن أولهما فقط أو عن مصاحبتهما فى نحو لا تعن بالجفا وتمدح عمراً . ولما كان الاسم لا يغنى عنه في إفادة معانيه غيره كان الاعراب أصلا فيه بخلاف المضارع يغنى عنه وضع اسم مكانه كأن يقال في النهى عن كليهما ومدح عمرو وعن الأول فقط ، ولك مدح عمرو ، وعن المصاحبة مادحاً عمرا . فكان اعرابه فرعاً بطريق الحمل على الاسم . هذا ما اختاره فى التسهيل »

وقال ابن يعيش فى شرح المفصل للزمخشرى فى ص ٧٢ من الجزء الأول :

« والاعراب الابانة عن المعانى باختلاف أواخر الكلم لتعاقب العوامل فى أولها . ألا ترى أنك لو قلت ضرب زيدْ عمرْو بالسكون من غير إعراب لم يعلم الفاعل من المفعول ؟ ولو اقتصر فى البيان على حفظ المرتبة فيعلم الفاعل بتقدمه والمفعول بتأخره لضاق المذهب ولم يوجد من الاتساع بالتقديم والتأخير ما يوجد بوجود الاعراب . ألا ترى أنك تقول ضرب زيد عمرا ، وأكرم أخاك أبوك ، فيعلم الفاعل برفعه والمفعول بنصبه سواء تقدم أو تأخر

فإن قيل فأنت تقول ضرب هذا هذا ، وأكرم عيسى موسى وتقتصر في البيان على المرتبة ، قلت هذا شيء قادت إليه الضرورة هنا لتعذر ظهور الاعراب فيهما . ولو ظهر الاعراب فيهما أو في أحدهما ، أو وجدت قرينة معنوية أو لفظية جاز الاتساع بالتقديم والتأخير »

وقال الزمخشرى فى المفصل ص ٧١

« القول فى وجوه إعراب الأسماء »

« هى الرفع والنصب والجر وكل واحد منها علم على معنى ؛ فالرفع علم الفاعلية ، والفاعل واحد ليس إلا : وأما المبتدأ وخبره وخبر إن وأخواتها ، ولا التى لنفى الجنس ، واسم ما ولا المشبهتين بليس فملحقات بالفاعل على سبيل التشبيه والتقريب ، وكذلك النصب علم المفعولية ، والمفعول خمسة أضرب : المفعول المطلق والمفعول به والمفعول فيه والمفعول معه والمفعول له . والحال والتمييز

والمستثنى المنصوب والخبر فى باب كان ، والاسم فى باب إن والمنصوب بلا التى لنفى الجنس وخبر ما ، ولا المشبهتين بليس ملحقات بالمفعول

والجر علم الاضافة ، وأما التوابع فهى فى رفعها ونصبها وجرها داخلة تحت أحكام المتبوعات ، ينصب عمل العامل على القبيلين انصبابة واحدة »

وقال ابن يعيش فى شرحه ص ٧٢ :

« وجوه الاعراب . يريد بها أنواع إعراب الأسماء التى هى الرفع والنصب والجر ، لأنه لما كانت معانى المسمى مختلفة : تارة تكون فاعلة وتارة تكون مفعولة وتارة تكون مضافاً إليها كان الاعراب المضاف إليه مختلفاً ليكون الدليل على حسب المدلول عليه .. وقوله (وكل واحد منها علم على معنى) يريد الرفع والنصب والجر كل واحد منها علَمٌ على معنى من معانى الاسم التى هى الفاعلية والمفعولية والإضافة. ولولا إرادة جعل كل واحد منها علماً على معنى من هذه المعانى لم تكن حاجة إلى كثرتها وتعددها ؛ ثم قال فالرفع علم الفاعلية فقدم الكلام على الفاعل من بين المرفوعات لا سيما المبتدأ لمشاركته فى الإخبار عنه ، وذلك لأن الفاعل يظهر برفعه فائدة دخول الاعراب الكلام من حيث كان تكلف زيادة الاعراب إنما احتمل للفرق بين المعانى التى لولاها وقع لبس ؛ فالرفع إنما هو للفرق بين الفاعل والمفعول الذى يجوز أن يكون كل واحد منهما فاعلاً أو مفعولاً »

كلام الأستاذ إبراهيم مصطفى صريح في أن النحاة جعلوا الاعراب حكما لفظياً خالصاً ، ولم يروا في علاماته إشارة إلى معنى ولا أثراً فى تصوير المفهوم . وكلام النحاة صريح لا لبس فيه أيضاً فى أن الاعراب حكم معنوى وأنهم يرون أن الحركات دوال على معان وبينوا كل معنى ، وكل حركة تدل عليه ، والنحو كله مبني على ذلك لا يمكن أن نفهم قواعدهم ، ولا أن نفهم اللغة العربية إلا على ذلك ، وهو من الوضوح بحيث لا يخفى على مبتدئ فى تعلم النحو بله الدارسين له والمتخصصين فيه

ليت شعري ، ماذا نفهم فى هذا الموقف المحير ، موقف الأستاذ من نصوص المتقدمين فى هذه المسألة ؟ أنفهم أنه فاته وجه الصواب فيها ، وهو من وقف حياته على دراسة النحو ، ووقف سبع سنين من عمره فى بحث هذه المسائل ؟

أم أفهم أن المؤلف لم يخف عليه وجه الصواب فى هذه المسألة عند النحويين ولكنه نَفِسَهُ عليهم وأغرم بالتجديد ، فحرمهم علمهم وتجاهل هذه النصوص التى تتكرر فى كل كتاب

إنني حاولت نفسى على فهم ذلك ، ولكن منعنى أن الأستاذ ابراهيم حجة ثبت وهو كما يقول الدكتور طه حسين فى المقدمة (له أمانة فى الرأى والنقل جميعاً)

على أن هذا البحث الشخصى لا يعنينا فسواء علينا أكان هذا أم ذاك ، إنما الذى يعنينا هو أن ننصف شيوخ العربية وقد كاد يظلمهم بعض من تربوا فى حجورهم وتثقفوا على أيديهم ، وأن نُنير تاريخ علم العربية . فإن كنت قد بلغت بعض ذلك فجدود ساعفت ؛ وبحسبى أن أؤدى فى هذا الكتاب ديناً فى عنق لقوم راحوا وخلفوا هذه الثروة العلمية فى النحو والصرف واللغة والبلاغة

جمال ذى الأرض كانوا في الحياة ، وهم
بعد الممات جمال الكتب والسير

محمد عرفة

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

5 me Année, No. 226

Lundi - 1 - 11 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٢٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ شعبان سنة ١٣٥٦ — أول نوفمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الخريف فى الريف

دعنا الآن من القاهرة ! فبشرُها الباسم قد استسرَّ فى قطوب الطبيعة ، وشجرها الوارف قد اقشعر من رياح الخريف ، وهدوؤها الشاعر قد غاب فى صخب الفتنة ؛ وكأنما خفقت فى جوها المستنير الصفو أبابيلُ سودٌ من طيور الليل !

دعنا الآن من القاهرة ! فقد أصيب عِلْمها بداء السياسة ، ونُكب رأيها بتدليس الهوى ، وامتُحن خُلقها بشهوة المنفعة ؛ وكأنما فرغ القادة من جهاد الأجنبى ليشوي بعضهم بعضا فى حريق الوطن !

دعنا الآن من القاهرة ! وتعال نرفه عن حواسنا وأعصابنا فى سكون الريف الآمن ، وفى كنف الفلاح المؤمن ، حيث الهوى جميع ، والخريف ربيع ، والطبيعة الكهلة رُواء وغناء وسحر !

يقول (هوجو) : « إن الخريف هو الربيع انبعث من القبر ناسياً حُلاه وحُلله » . ولكن الخريف المصرى فى الريف هو الربيع الحق فى نضرته وزينته وعطره ؛ فبينا ترى الحقول المتصلة فى بياض الدمقس (١) أو صفرة النضار ، يجردها سبتمبر من القطن

(١) الدمقس الحرير الأبيض

فهرس العـــدد

الحريري الأشوك والرز العسجدي الهائج ، إذا بها فى خضرة السندس أو زرقة اللازورد يكسوها أكتوبر أعواد الذرة اللفاء وقصب السكر الوريق ونبات البرسيم المؤزر ؛ فأينما أدرتَ بصرك لا تجد إلا رياضاً شجراء من شراب وحب ، ومروجاً فيحاء من زهور وكلأ . ثم ترى النيل فى أعقاب فيضانه كذوب التبر ينساب هادراً فى الترع والقنوات، فيجعل من ضفاف الجداول، وحفافى الطرق، وحواشى الغيطان، سلاسل زبرجدية من الريحان والعشب . وتنزل على الفلاح المكدود سكينة الرضى والأمل ، فينقلب شاعراً يتهادى فى ظلال الذرة الخفاقة على مدرجة الطريق المخضوضر، وفكره مستغرق فى الله الذى يضع البركة فى غيطه ، أو فى المرة التى تجلب السعادة إلى بيته

ها هو ذا بعد صيفه الجديب المجهد ، يستنشى نسيم الراحة بين أولاده على مصطبة الدار ، أو بين بهائمه على رأس الحقل ، ويتربص بقطنه المخزون الثمنَ الربيح ، ليقضى دينه فيستريح ، ويزوج ابنه فيفرح ، ثم يكسو عوارى الأبدان (بالدبلان) و(الشيت) ، ويمحو مرارة الأفواه بالرمان والبلح ؛ وترى القرية بذكورها وإناثها تعيش من فسحة هذا الأمل، ودعة هذه الحياة، وبهجة هذه الحقول ، فى فيض من الرخاء والغبطة لا يسممه كيد ، ولا تكدره منافسة

خريف الريف وربيعه يتفقان فى الخصوبة والبهجة ، ويختلفان فى الحيوية والطبيعة . فبينا تجد ربيع ابريل ومايو موّاراً بالحياة ، فواراً بالعاطفة ، هداراً بالهتاف ، يجعل من كل حى حركة لا تنى ورغبة لا تخمد ، اذ تجد ربيعا أكتوبر ونوفمبر ساجى النهار ، سجسج الظل ، ساكن الطائر ، ينفض على كل امرىء دعة الطمأنينة ، وسكون التأمل ، وروعة العبادة . فالمشية وئيدة الخطوات ، والوقفة بعيدة النظرات ، والجلسة طويلة الصمت . والشبان والشواب يتبادلون التحايا بغمز العيون وافترار الشفاه . كأنما هم وهنّ نشاوى من رحيق عجيب يعقد الألسن ، ولكنه ينعش الروح ، ويوقظ القلب ، ويبسط المشاعر !

أى جمال أملك للنواظر والخواطر من جمال السماء الريفية وقد زينتها رياح الخريف بقزعات (١) من الغيم الرقيق كأنها القطعان البيض ترتعى في المروج الخضر؟ هذه السماء بألوانها السحرية المختلفة التى تتعاقب عليها بتعاقب الساعات، تنطبق على أرض كرقعة الفردوس لا ترى فيها خلاء، ولا عراء ولا وحشة، ولا تسمع فيها لغواً ولا تأثيما إلا هتفات الطير الحائمة على أعذاق النخل اليانعة وسنابل الذرة النضيدة ، وإلا شَدَوات الرعاة قد كوموا الحشيش أمام الماشية وتحلقوا حول النار المشبوبة يشوون عليها الأمطار (١) والسمك ، ثم يأكلون ويغنون فى لذة وبهجة

* * *

عهدُنا بالريف فى أيام الخريف أن يكون بنجوة من الهم وسلامة من الكآبة . فالأهراء طافحة بالحب ، والمخازن مفعمة بالقطن ، والغيطان كاسية بالزرع ، والجيوب غنية بالمال ، والنفوس رخية بالرجاء ؛ ولكن ما بال فتيان القرية وفتياتها على غير ما نعهد : يمشون ساهمين ، ويقفون واجمين ، كأنما غاب عن كل عين حبيب ، ومات فى كل نفس أمل ؟

ألا تراهم يا حسن يدافعون الأسى عن وجوههم بيسمات مكذوبة لا تخدع النظر عن الكمد الباطن ؟

— ما ذا يصنعون يا صديق والدائن يقتضي (القسط) ، والصراف يطلب (المال) ، والمالك يريد (الإيجار) ، والأسرة تبتغى (الكسوة) ، والقطن وهو سداد هذا العوز كله يصبح عقدة المشكلة وغَلَق الأزمة ؟ فثمنه البخس لا يفى بأكلاف زرعه ، بَلْهَ ما يُحمل عليه من الأسباب ، ويُناط به من المنى

هم أولاء بنوهم وبناتهم كانت أحاديث أحلامهم أن يتزوجوا فى هذا العام الذى يتزوج فيه مليكهم المحبوب ، تفاؤلاً بطالعه وتيمناً بجده ، فرد هذا الكساد المؤنس أحلامهم أضغاثاً وأطماعهم وساوس . فكيف تطمع مع ذلك أن ترى البسمة التى تعهد . وتسمع الأغنية التى تحب ؟

فقلت له والأسف يغلب على صوتى وكلامي : مهما يكن من الأمر فإن خريفكم أجمل من ربيع الشعراء ، وعبوسكم أنبل من بشر الكبراء ، وغيمكم أفضل من صفو القاهرة

احمد حسن الزيات

(١) القزعات : قطع من السحاب متفرقة صغار

(١) الأمطار جمع مطر بضم الميم وهو (كوز) الذرة

فلسفــــة الأسماء

للأستاذ عباس محمود العقاد

أقام السير رونالد ستورز طويلاً فى القاهرة ، واشترك فى كثير من حوادث مصر والشرق الأدنى قبل الحرب العظمى وبعدها ، وأعطى نفسه نصيباً وافياً من المتعة بالأدب والفنون ولا سيما الموسيقى والتصوير إلى جانب اشتغاله بالسياسة خافيها وظاهرها . وقد لقيته مرة أيام البحث فى تحويل « الأوقاف » من ديوان إلى نظارة ، وكان يومئذ « سكرتيراً شرقياً » لدار الوكالة البريطانية ، فبدأنا الكلام بروايات برناردشو والنقد الانجليزى الحديث ، ثم استطردنا إلى أعمال الاحتلال والادارة الوطنية فقال : أظن أن ديوان الأوقاف مختل لأنه المصلحة الوحيدة التى ليس عليها رقابة أجنبية ! ولا أدرى أكانت هفوة لسان منه أم كانت سبراً لغورى واختباراً لمقدار ما يستبيحه من الأقوال والآراء على مسمع منى فى صدد الأوقاف وتحويلها إلى رقابة الحكومة . فقلت له : إن المجلس البلدى الاسكندرى أعظم اختلالا من ديوان الأوقاف وهو مملوء بالرقابة الأجنبية . فاستدرك كلامه الأول وأخذنا فى حديث آخر ، وانصرفت وهو يقول بعد انصرافي للأستاذ حسين روحى الذى كان واسطة التعارف بينه وبينى : « صاحبك لايزال فى بداية الشباب »

ولم أره بعد ذلك ، ولكنى سمعت بمشروعاته الكثيرة ومنها ماحدثنى به فى تلك الزيارة ، كإحياء صحيفة « المؤيد » وإنشاء بعض الصلات الأدبية والفكرية بين الغرب والشرق على أيدى المثقفين من الأوربيين والمصريين . ثم وصل إلينا فى هذا الشهر كتابه الذى أسماه « تشريقات » أو مشرقيات ، وضمنه تاريخ حياته فى مصر وفلسطين وقبرس وبلاد العرب وغيرها من الأقطار الشرقية القريبة ، فاذا هو كتاب حافل بالملاحظات واللمحات كما ينتظر من تعليقات رجل سياسى فنان حسن المراقبة للناس والمتابعة للحوادث والأحوال . ولقد أخطأ فى بعض هذه الملاحظات واللمحات خطأ ربما ساقه إليه حب الزخرفة والتنميق .

ولعلنا نعود إلى بيان بعضه فى مقال آخر ، ولكنى أردت فى هذا المقال أن أقف عند ملاحظة لاحظها على أسماء الخدم والخصيان فى قصر الأميرة نازلى وغيره من القصور ، وهي أنها محصورة فى محاكاة الجواهر والرياحين قلما تخرج عنها ، لأننى عنيت بهذه الأسماء فى بعض الأوقات ودار البحث فيها بينى وبين أناس من المشتغلين بعلم النفس فى المدارس المصرية العليا ، فعللوها تعليلا يخالف ما اعتقدت ولا يوافق المتواتر عن تاريخ الزنوج والعبيد

كنا فى إحدى المكتبات العامة فدخل إليها خادم زنجى له اسم من أسماء الجواهر ، فقال أستاذ واقف معنا : ألا ترون « مركب النقص يفعل فعله فى أسماء هؤلاء الخدم ؟ إنهم يشعرون بما لهم من بخس القيمة فيعوضونها بنفاسة الأسماء ! »

وكان هذا التعليل يستقيم على ذلك الوجه لو أن الخدم الزنوج يختارون الأسماء لأنفسهم ولا يختارها لهم النخاسون والسادة الذين يشترونهم ، ولكن الواقع أنهم يسمون بغير علم منهم ، وعلى غير معرفة باللغة العربية ولا بأسماء الجواهر والرياحين فيها أو فى غيرها

وإنما الحقيقة على ما يبدو لى أن رغبة السادة هى الملحوظة فى التسمية لا رغبة العبيد والخدم المبيعين ، ولهذا يقصرون تسمية العبيد على نوع من أربعة أنواع بين الأسماء : المقتنيات النفيسة وما شابهها من الرياحين الجميلة ، أو ألفاظ التفاؤل ، أو الشهور والأيام التى تم فيها الشراء أو تمت فيها الولادة ، وإلا فكلمة عبد مضافاً إليها اسم من أسماء الله الحسنى كعبد الله وعبد الكريم وعبد الباسط وما يشعر بالتفاؤل والدعاء خاصة

فالخصيان والعبيد يسمون بجوهر وفيروز ومرجان وياقوت ولؤلؤ وألماس كأنهم قنية نفيسة يباهى بها صاحبها ؛ ويلحق بهذا تسميتهم بريحان وكافور ونرجس كأنهم من أدوات التجمل والزينة في البيوت

فإن لم يكن هذا فهم يسمون بما يدل على التفاؤل والاستبشار بالخير بعد شرائهم ، فيدعونهم بسعيد وبخيت وسرور وفرحات وقدم خير وخوش قدم وما إلى ذلك من ألفاظ التمنى والرجاء ؛ والملحوظ فى ذلك هم المالكون كما أسلفنا لا العبيد والجوارى

فان لم يكن هذا ولا ذاك فأسماء العبيد تكثر فيها أسماء الأيام والشهور والمواسم مثل خميس وجمعة وشعبان ورمضان ومحرم وعيد وربيع ، لأن مالكيهم حين يشترونهم لا يعرفون لهم سمة يسمونهم بها غير اسم اليوم أو الشهر الذى كان فيه الشراء

عنيت باستقصاء هذه الأسماء ودلالاتها فى بلدي أسوان حيث تعيش جمهرة من الزنوج السود ، وحيث يندر بيت لا يكون فيه عبد أو جارية من بقايا أيام الدراويش

ثم التفت إلى الأسوانيين أنفسهم فتبين لى من أسمائهم وحدها أن البلدة « عصبة أمم » عجيبة يلتقى فيها أناس ترجع أصولهم إلى جميع القارات ما عدا القارة الأمريكية ، فمنهم من هو فى أصله تركي أو كردى أو من فارس وأعلى العراق . ومنهم من هو عربى أو مغربى أو حبشى ، ومنهم من هو مجرى أو بشناقي أو من أهل البلقان ، وبعضهم لا يذكرون هذه الأصول وإن دلت عليها حروف وإضافات فى الألقاب

على أننى لم أكن أحفل بالدلالات الجغرافية والتاريخية كما كنت أحفل بالدلالات النفسية والاجتماعية ، فى هذه دليل أمتع من كل دليل على قرابة الإنسان وتشابه العقائد والخوالج بين البشر وإن باعدت بينهم البحار والصحارى وآماد الدهور

كنت أعجب لأناس يدعون بأسماء الكلاب والحشرات ، وأحسب أنها ألقاب تحقير أطلقها عليهم الأعداء أو المتهكمون الماجنون ثم غلبت عليهم فعرفوا بها بدلا من أسمائهم ، ولكنى علمت أن أسماء الكلاب والحشرات هى أسماؤهم التى دعاهم بها آباؤهم وأمهاتهم ، وأن الآباء والأمهات قصدوا إلى ذلك قصداً ليعيش لهم أولئك الأبناء ، كأنما يحقرونهم ويشبهونهم بالحيوان الأعجم والحشرة الهينة لتزهد فيهم الموت ويأنف من أخذهم إليه!

والعجيب أن هذه العقيدة كانت سارية فى يونان القديمة ومصر القديمة والشرق القديم ، ولا تزال سارية حتى اليوم في بعض القبائل الأفريقية التى تؤمن بالأرواح الشريرة وتخاف منها على أطفالها وصغارها ، وتحصنهم منها بمحصنات شتى إحداها حقارة الأسماء أو بشاعتها . ولا شك أن اسم « معاوية » مثلا وهى الكلبة التى تعاوى الكلاب يمت بصلة إلى هذه العقيدة ، كما يمت إليها اسم هريرة وما إليه

ولحقارة الأسماء وبشاعتها سبب آخر غير تزهيد الأرواح الشريرة فيها ، وذاك هو التخويف بها أو احترام « الطواطم » المعبودة حيث كان الأقدمون يتبركون بها ويعتقدون أن أسلافهم من سلالتها

ففي القبائل المقاتلة التي تعيش على الغارة ولا تزال فى خوف من الاغارة عليها يسمى الرجل بما يكره الأعداء ، وترى بينهم من يدعونه ذئباً أو أسداً أو حنظلة أو جمرة أو حرباً وما إلى ذلك من المخوفات والمنفرات

وفى القبائل التى تؤمن أو كانت تؤمن « بالطواطم » يسمى الرجل كلباً أو ثعلباً أو صقراً أو نسراً كما يتفق من أصول الطواطم القديمة الباقية بعناوينها وان نسيها أبناء القبيلة

ويقول السائحون بين القبائل التى على الفطرة إنهم يكرهون البوح بأسمائهم ويسترييون بمن يسألهم عنها ، لاعتقادهم أن الاسم جزء من الانسان من عرفه استطاع أن يسلط على صاحبه أرواح الشر والمرض واتخذه هدفاً يقذف عليه المتاعب والملمات . ونحن المتحضرين المحدثين نحسب اننا بعيدون مترفعون عن هذه الطبقة المسفة من طبقات العقول الآدمية ، حتى نسمع « سحاراً » يسأل عن اسم المقصود بالسحر واسم أمه فنعلم أن المسافة بيننا وبين الفطريين أقرب مما نتوهم ، ولا سيما فى سراديب الظلام التى يهبط إليها من يهبطون ساعة الفزع أو ساعة الضغينة

ولا ريب أن حياة الأمة بين ماضيها وحاضرها تتمثل كثيراً فى أسماء أبنائها ؛ فنعلم أن الأقوام التى تنحصر أسماؤها فى الظواهر الطبيعية سماوية كانت أو أرضية إنما هى أقوام فطرية لم تدرك من العلامات غير هذه الظواهر لتميز الرجال والنساء ، وأن الأقوام التي تظهر فيها أسماء الصناعات كالنجار والحداد والقصاب والزيات والعطار والعقاد قد تقدمت أشواطاً في الحضارة ، وأن الأقوام التى تظهر فيها العناوين الاجتماعية قد عرفت بذخ الملك وألقاب التشريف ومراتب الطبقات ، وأن الأقوام التى يذكر فيها الحرب والبطش والعداء قد درجت على الغزو ورعاية الماشية ، والتي يذكر فيها الهدى والرشد والصلاح

وأوصاف الفضائل قد أخذت بقسط من الدين وفلسفة الاخاء، وقس على ذلك ماتنم عليه معانى الأسماء وتراكيبها

بل ربما استطلعنا تاريخ الأمة السياسى من بعض الأسماء . فاسم « تفيدة » فى مصر يدل على أن المصريين كانوا زمناً من الأزمان يتشبهون بالترك تشبه المحكومين بالحاكمين ، إذ الاسم فى أصله عربى صحفه الترك من « توحيدة » لأنهم ينطقون الواو فاء ولا ينطقون الحاء ، فأصبح تفيدة ونقلناه نحن عنهم نقل المحاكاة

بل ربما عرفت الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها الرجل من دلالة اسمه واسم أبيه ، فالأغنياء مثلاً قلما يسمون أبناءهم بعبد الغنى أو عبد الرزاق ، والمثقفون قلما يسمون أبناءهم بالأسماء المنسوبة إلى أماكن وبلاد إلا لمناسبة مفهومة ، فالرجل المثقف لا يسمى ابنه « حجازى » أو « حبشى » وهو لم يولد فى الحجاز أو الحبشة أو فى موسم حج وعلاقة حبشية ، ولا يسمي ابنه « مرسى » وهو لم يولد فى مرسية ولا فى مكان إلى جوار المرسى أبى العباس وما شابه ذلك من المناسبات

وربما ألمت بقبس من تاريخ الأسرة وتكوين ذريتها إذا سمعت اسم رجل أو امرأة منها ... فإذا سمعت فى الصعيد باسم « قنعنا » فاعلم أنه اسم بنت لها أخوات ثلاث أو أربع ، ويغلب أن تسمى إحداهن « رضينا » والأخرى « حمدنا » وهكذا مما يشف عن الغيظ وعن الخوف مع ذلك من التمرد والشكاية

ونحن نعرف أسماء كثيرة تكذب مسمياتها : حسن وهو دميم ، وبدر وهومظلم ، وعزيز وهوذليل ، وصادق وهو كاذب ، وسليم وهو شديد الإيذاء ، ولكنى لا أعرف اسماً يكذب مسماه أدل على المجون والظرف من اسم « قبيحة » جارية الخليفة « المتوكل » وقد كانت أشهر جواريه بالصباحة وروعة الجمال ؛ ولخير ألف مرة أن يفاجأ الإنسان هذه المفاجأة من أن يترقب الحسن فيخيب رجاؤه بمرأى قبيح ومخبر لئيم . ومن سمع اسم « قبيحة » قنع بجمال يسير ليرضى ويبتهج ، أما من سمع اسم « جميلة » فهو يحسب أنه مغبون مخدوع إن لم ير هذه الجميلة فى الذروة العليا من الجمال

إن فلسفة الأسماء بحث ليست له نهاية ، وفيما تقدم نموذج لمن يشوقه أن يسترسل فيه

عباس محمود العقاد

المحفوظات التاريخية المصرية

متى تنظم بطريقة علمية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عرضت لى منذ بضعة أعوام فرصة لزيارة دار المحفوظات المصرية بالقلعة ، ولست أذكر الآن من زيارتى سوى ممرات حجرية ضيقة تفضى إلى غرفة عتيقة شاسعة قد طرحت فيها الأوراق الصفراء أكداساً على الأرض ، وغصت جنباتها وزواياها بحزم متناثرة من الوثائق القديمة ؛ ولم يكن يومئذ بالدار سجلات أو فهارس منظمة ، ولم تكن تعرف محتوياتها بالضبط ولم تلفت محتوياتها حتى اليوم أنظار الباحثين

وفى أواخر هذا الصيف زرت دار المحفوظات النمسوية بمدينة فينا ، وترددت عليها مراراً لمراجعة بعض اللفات والوثائق التى تتعلق ببعض مباحثى فدهشت لما رأيت من دقة التنظيم وحسن التنسيق وسهولة البحث والمراجعة ، وشهدت كيف يستطيع الباحث أن يعمل فى جو من النظام والترتيب ، وكيف يتاح له أن يظفر فى الحال بما يطمح إلى مراجعته من الوثائق واللفات ، منسقة مصنفة طبق الموضوعات والتواريخ ، مدونة فى سجلات دقيقة تدل في الحال على مافيها ، وترشد الباحث إلى غايته بأيسر أمر

وقصدت أيضاً إلى دار مجموعة الصور التاريخية النمسوية — وهى من أعظم المجموعات العالمية فى نوعها — لأشاهد صوراً لبعض الشخصيات التاريخية ، ولأستأذن فى نقلها ، فقدمت إلىّ الصور المطلوبة فى دقائق معدودة ، واخترت فى الحال للنقل منها ما شئت ؛ ذلك لأن هذه المجموعة الحافلة قد نظمت بمنتهى الدقة ورصدت محتوياتها مرتبة وفق العصور والتواريخ والأسماء ، ويكفى أن يلقى الموظف المختص على السجل المبين نظرة ليعرف فى الحال إن كانت الصور المرغوبة ضمن المجموعة ، وليستخرجها فى الحال من مكانها

أعجبت بهذا النظام الدقيق الذى يوفر على الباحث كثيراً من

الوقت والعناء ، وذكرت في كثير من الأسف ما انطبع فى ذاكرتى من مناظر دار المحفوظات المصرية ، وكيف أن هذه الدار التى تغص جنباتها العتيقة بكثير من وثائق التاريخ المصرى فى مختلف عصوره — ولا سيما العصر التركى وعصر محمد على — لا زالت بحالتها الساذجة ، وأكداسها المختلة المجهولة مغلقة على البحث والتحقيق

إن لدور المحفوظات مهمة من أجل المهام التاريخية والعلمية فهى مستودع الماضى وسجلاته ومستودع وثائقه السياسية والدينية والاجتماعية ؛ وهـذه السجلات والوثائق هى أهم مصادر المؤرخ والمحقق ، وهي أصدق الدلائل على أحوال عصرها لأنها تصطبغ غالباً بالصبغة الرسمية ، ومنها الوثائق الملوكية والإدارية والعسكرية ومنها الوثائق والمعاهدات الدولية المختلفة ؛ ثم هناك الوثائق السرية التى لم تعرف فى عصرها ، وهى أنفس ما فى دور المحفوظات ، تتلقاها من مكامنها فى عصر متأخر أو تحتفظ بسريتها فترة من الزمن حتى يختتم العصر الذى صدرت فيه ويختتم آثاره ؛ وتقدر هذه الفترة عادة بخمسين عاماً ، تعرض بعدها هذه الوثائق لأنظار البحث والتحقيق ؛ وفى دور المحفوظات الأوربية كنوز من الوثائق المختلفة الملوكية والإدارية والدولية التى ترجع أحياناً إلى عصور متأخرة ، والتى تلقى أعظم ضوء على تواريخ الأمم الأوربية وعلائقها فى مختلف العصور

ولنا فى دار المحفوظات النمسوية التى حظينا بالتردد عليها ووقفنا على بعض محتوياتها ونظمها خير مثل لما يمكن أن تؤديه المحفوظات المنظمة من خدمات جليلة للبحث والتحقيق ؛ فهذه الدار التى ترجع تأسيسها إلى نحو قرنين ، والتى تشكل الآن جناحاً كبيراً من دار وزارة الخارجية ، تعتبر من أهم مصادر البحث والتحقيق فى شئون التاريخ الأوربى منذ القرن الرابع عشر ؛ ويطلق على الدار اسم « محفوظات الأسرة والبلاط والدولة » Das Haus, Hof - ung Staatsarchiv دلالة على صفتها الشاملة، فهى مستودع محفوظات الأسرة أعنى أسرة آل هبسبرج ، ومحفوظات البلاط ، ومحفوظات الحكومة والدولة ، وبها مجموعات هامة من الوثائق الملوكية والسياسية والإدارية والدولية ، وبها على الأخص طائفة كبيرة من الوثائق السرية التى تتعلق بأعمال المجلس السرى أو مجلس البلاط الخاص ، وقد نظمت محتوياتها فى مراحل متعاقبة تشمل جميع عصور التاريخ النمسوى والتاريخ الأوربى العام حتى سقوط الإمبراطورية النمسوية فى سنة ١٩١٨ ، ويرجع أقدم أقسامها إلى عصر القيصر فرديناند الأول فى أوائل القرن السادس عشر ، وتشمل الوثائق السياسية والدينية والادارية والعسكرية عصور التاريخ الإمبراطورى حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى سنة ١٨٠٦ ؛ وأهم أقسامها بلا ريب هو مجموعة وثائق مجلس الدولة السرى ومجلس البلاط الخاص ، والمجلس الاستشارى ، وهى الهيئات الثلاث التي كانت تشرف منذ أواخر القرن السادس عشر على شئون الإمبراطورية ، وتحدث بأعمالها وسياستها أعظم الأثر فى مجرى السياسة الأوربية ، وفى هذا القسم طائفة كبيرة من وثائق التاريخ الأوربى العام ، وبه على الأخص مجموعة نفيسة من وثائق عصر الوزيرين الشهيرين كاونتز وزير الإمبراطورة ماريا تيريزيا ، وقرينه ماترنيخ أعظم شخصية سياسية فى التاريخ الأوربى فى أوائل القرن التاسع عشر ؛ ثم هنالك قسم المحفوظات السياسية ، وهو يحتوى على مجموعة عظيمة من الوثائق التى تتعلق بالسياسة الداخلية والسياسة الخارجية ، والمراسيم والبروتوكولات المختلفة ، والمعاهدات والاتفاقات والمكاتبات الدولية ، ولا سيما خلال القرن التاسع عشر ، ووثائق الحكومة القيصرية منذ عصر ماريا تيريزيا حتى سقوط الإمبراطورية فى سنة ١٩١٨ ؛ ثم قسم الوثائق الدستورية ، وهو يضم مجموعات مختلفة من أوراق المجالس الإمبراطورية والمحلية حتى العصر الأخير . ولوثائق الأسرة ، أعنى أسرة آل هبسبورج قسم خاص يضم كثيراً من الوثائق والأوامر والتقارير الخاصة بالقياصرة وأعضاء الأسرة بوجه عام ؛ وكذلك للبلاط قسم خاص يضم الوثائق المتعلقة به وبهيئاته المختلفة ؛ وأخيراً يوجد ثمة قسم خاص للوثائق والمجموعات العلمية والتاريخية التي يهبها كبار العلماء والهواة إلى دار المحفوظات

وقد أفردت دار المحفوظات النمسوية معرضاً خاصاً لطائفة من التحف والوثائق التاريخية النادرة ، يضم عدة مخطوطات لاتينية وقوطية قديمة ، وقرارات امبراطورية ترجع إلى عصور متأخرة وعدة معاهدات ومكاتبات تاريخية شهيرة رأينا من بينها مكاتبة

طويلة من السلطان سليمان خان إلى القيصر ، يلقب فيها « بسلطان سلاطين الشرق والغرب ، صاحب ممالك روم وعجم وعرب ..الخ » وصورة معاهدة تركية تسوية عقدت سنة ١١٨٩هـ بشأن تنظيم الحدود بين الدولتين ، ومعاهدة أخرى صادرة من السلطان عبد المجيد خان ، وقرارات مؤتمر ڤينا الشهيرة الذى نظمت فيه حدود الدول الأوربية وأحوالها عقب سقوط نابوليون وعليها توقيعات أعضاء المؤتمر ، وغير ذلك من التحف والوثائق التاريخية النادرة .

***

ولنعد بعد ذلك إلى دار المحفوظات المصرية فنقول إنه من أشد بواعث الأسف أن تبقى هـذه الدار على حالها من الخلل والفوضى ، وأن تبقى بذلك مغلقة دون البحث والتحقيق ، وإذا كانت محتويات هذه الدار لم تعرف بعد بطريق الحصر الدقيق ؛ فانه لاريب أن هذه الأكداس المبعثرة من الأوراق والوثائق التى تغص بها أركانها وجنباتها ، تضم كثيراً من الوثائق التاريخية والسياسية والادارية الهامة ولا سيما فى أواخر العصر التركى وعصر محمد على ؛ وإنا لنذكر بهذه المناسبة أن المغفور له الملك فؤاد الأول كان قد اهتم بأمر هذه المجموعة منذ أعوام ، وندب لها بعض الموظفين الذين يعرفون التركية لنقل ما فيها من الوثائق التركية إلى العربية ، ولسنا نعرف ماذا تم فى أمرها بعد ، وهل حققت أمنية الملك الراحل على نحو مرضى ، وهل بدأ القائمون بأمر هذه الدار بتنظيمها وحصر ما فيها في سجلات منظمة تدل على مافيها ؛ ذلك أن الوقت قد حان لأن يكون لنا دار محفوظات منظمة على أمثال دور المحفوظات الحديثة ، تصنف محتوياتها بأسلوب علمى طبق العصور والموضوعات ، وتحمل إليها أشتات الوثائق والأوراق القديمة المبعثرة فى مختلف المصالح والجهات ، وتعرض محتوياتها لأنظار الباحثين والمحققين ، تمدهم بمواد وحقائق جديدة تؤيدها الأدلة والوثائق التى لا ريب فى صحتها

ونحن نعرف أن دار الكتب المصرية تضم طائفة كبيرة من أوراق البردى ومن الوثائق التاريخية ، ومنها أعلام شرعية وحجج أوقاف ومراسيم إدارية قديمة وغيرها ، وقد عهدت دار الكتب أخيراً إلى أحد العلماء الأجانب بتنظيم مجموعتها من أوراق البردى وتنظيمها وتصنيفها فى كتاب خاص ؛ وأما الوثائق الأخرى فهى مبعثرة فى فهارسها لا تجمعها رابطة ما ؛ كذلك يوجد فى محفوظات وزارة الأوقاف ، والمحكمة الشرعية العليا ، وبعض المصالح الحكومية الأخرى أوراق ووثائق تاريخية قديمة في غاية الأهمية ، وهذه كلها مهملة تبلى فى ظلمات الأروقة الرطبة ، ولا يكاد ينتفع أحد بمراجعتها إلا فى ظروف شخصية نادرة . فمن الواجب أن تجمع هذه الأشتات كلها في دار محفوظات عامة تكون مرجع البحث العام ؛ ومن المحقق أننا سنظفر من ذلك بتراث جليل ، لا يقل فى أهميته ونفاسته من الناحية القومية عما تحتفظ به دور المحفوظات العامة فى الأمم الأخرى

لقد نشأت دار الكتب المصرية فى ظروف متواضعة ، وبدأت بثروة أدبية قليلة حملت إليها من بعض المساجد والمجموعات الخاصة ؛ وهاهى ذى اليوم ولما يمض على إنشائها نحو نصف قرن تغص بتراثها الزاخر من مخطوط ومطبوع ، وتتبوأ مكانة بين دور الكتب العالمية ؛ فلنبـدأ بإنشاء دار محفوظات مصرية منظمة تقوم إلى جانب دار الكتب ، وتعاون البحث والتحقيق من جانبها ، وتمد المؤرخ المصرى بمادة جديدة نفيسة . ونحن على يقين من أنه لن تمضى فترة يسيرة حتى تغدو دار المحفوظات المصرية ، كما غدت دار الكتب ، مقصد العلماء والباحثين من جميع الأنحاء

(الباخرة كوثر في ٢٤ اكتوبر) **محمد عبد الله عنان**

الوحـــــدة

للدكتور ابراهيم مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

شبح يهولنا اسمه، ويزعجنا رسمه؛ مع أنا لو عرفناه لألفناه، ولو خبرناه لتعشقناه؛ ووحشة نفر منها فرارنا من الخطر الداهم، أو العدو المهاجم، ولو ثبتنا لها فى صبر وجلد لكسبنا المعركة وأصبحنا بوحدتنا سعداء؛ وعزلة قد يضيق لها الصدر، وتنقبض النفس، ولكنها عادة لا يمكن أن تكتسب إلا بشئ من الدربة والمران؛ ورياضة لا تخلو من مجهود أو عناء. وكيف لا تكون مجهدة وهى تقف حجر عثرة في سبيل بعض الغرائز الكامنة، وتحرم الفرد من لذائذ المجتمع ومغرياته الخادعة، فتحول دون غريزة حب الاجتماع وسد حاجتها، وتعارض صلات القرابة والمودة فى امتدادها وانبساطها؛ بيد أنها فى كل هذه أشبه ما يكون بالدواء الممض يتعاطاه المريض لما يرجوه بعده من برء وشفاء

حقاً إن الوحدة طب للنفوس وعلاج للأرواح، نستطب بها من ويلات المجتمع وآلامه، فتقينا ولو زمناً لهيب الحقد والحسد وسموم القيل والقال، وتبعدنا ولو إلى حين عن مظاهر الشره والجشع وظلم الانسان لأخيه الانسان، فلا تقع العين على وجوه شاكية، ولا تسمع الأذن أصواتاً باكية، ولا يقر اللسان مكيدة، ولا تقاسم اليد فى جريمة، ولا تسعى القدم إلى خطيئة. وقديماً قالوا تشفي الوحدة من المجتمع بقدر ما يشفى المجتمع من الوحدة. وبالوحدة نداوى كذلك أمراض القلب والروح ونعالج أنفسنا بأنفسنا، فنخرج من زمرة الأهل والاخوان وتيار الحياة الهائج المائج إلى حيث السكون والتأمل، ونبدد تلك السحب الكثيفة التى نسجتها الجمعية حولنا، والأضواء البراقة التى تعشى لها أبصارنا لنرى بعين الحقيقة والاعتبار. ولم تكن الوحدة عبادة إلا لأنها توبة وندم وتهذيب وتطهير

وقد عرفت لها الأديان هذه المنزلة فدعت إلى الخلوة والاعتكاف الذى لا يراد به مجرد أوراد تتلى أو أناشيد يترنم بها، بل يُقصد أن تُعرض صفحة الحياة على بساط البحث وتعقد محكمة الضمير فى جو هادئ ساكن وتقضى بقضائها العادل إن بالبراءة أو الاتهام. وما أحوجنا إلى هذه الرقابة وهذا الحساب الدقيق دون انقطاع! ولكن جد الحياة ولهوها وحلاوة العيش ومرارته تصدفنا عن ذلك وتلقى بنا فى بحر لجى لا سكون فيه ولا اطمئنان. ونحن فوق هذا مولعون بستر هفواتنا وتغطية زلاتنا، نسترها على الناس وعلى أنفسنا، ونتجاهلها وكل الأدلة قائمة عليها: مغالطة مدهشة وصلف كاذب وغرور غريب. وإنك لترى الفرد يأتي أمراً يأباه العرف وينكره الدين، فيسارع إلى أن يعد نفسه فى صف المحافظين على التقاليد والتدينين طمعاً فى أن ننسى فعلته وتخفى خطيئته. وقد نفهم هذا التصنع إن أراد أن يرضى به من حوله؛ فأما أن يخدع به نفسه فتلك حماقة حمقاء وغفلة عمياء؛ وما منا من أحد إلا لاحظ أنه إذا حاسب نفسه على ذنب ارتكبته، أو إثم اقترفته، عز عليها هـذا الحساب، وقد تأبى وتستكبر وتشرد وتجمح. وكثيراً ما تفر إلى المجتمع لتنزوى فى ركن من أركانه وتضل فى منعرجاته وعطفاته. والجناة والمجرمون أنفر الناس من العزلة والوحدة وأرغبهم فى الجلبة والضوضاء التى تخدر أعصابهم فلا يحسون ولا يشعرون. فلم يكن بد من أن تستثيرنا التعاليم السماوية إلى الخروج من هذا التجاهل المزرى والتنكر المرذول

والتصوف وهو فلسفة الوحدة يرى أن علاج الروح لا يتم إلا إن شخص الإنسان أدواءه بنفسه، ووقف على عيوبه مباشرة وبدون واسطة، ثم تعهدها بالتقويم والإصلاح. ويعتقد أن المرء أقدر على هذا التقويم إذا خلا إلى نفسه وخلص من شواغله؛ فإنه يلتقى بحسناته وسيئاته وجها لوجه، ولا يجرؤ على المبالغة فى الأولى ولا على إنكار الأخرى. وإذا صح أن الطبيب هو الذى يقود المريض نحو طريق البرء والعافية، فلا شك أن المريض هو الذي يقطع هذا الطريق بقدميه. على أنه لا يكاد يوجد طبيب

يستطيع أن يتكهن بعلة قبل أن يعرف ظروفها ومكوناتها ، ولا أن يصف دواء قبل أن يقف على حقيقة الشكوى وموضع الألم . فإذا أضحى العليل آسيا كان أعرف الناس بعلته وأقدرهم على علاجها . لهذا تعشق الصوفية الوحدة ، وحببت إليهم الخلوة التي يستطبون فيها من آلامهم ويداوون أمراض نفوسهم . حقاً إنهم ينشدون وراء الفراق تلاقياً ، ويأملون بعد الهجر وصلا ، ويرجون في الوحشة أنساً ، ولكنهم لن يصلوا إلا عن هذا الطريق الوعر والمسلك الصعب . فالوحدة وسيلة لتهذيب النفوس والأرواح وسلم الوصول إلى الغبطة والسعادة

وليس أثرها مقصوراً على الروح فحسب ، بل يتعداها إلى العقل . ففيها تنضج الأفكار وتختمر الآراء وتتمحص الحقائق ؛ وفوق سطحها الهادئ تتفجر ينابيع الحكمة ، ومن سمائها الصافية تتنزل آيات النور والمعرفة . فلولاها ما نعمنا بكثير من الأدب الرائع والخيال العذب والشعر الرقيق ؛ وفي غير جوها لا يستطيع أن يتوفر عالم على فرض يحققه ، أو فيلسوف على نظرية يناقشها ويحللها ؛ وبدونها لا يجد السبيل مصلح إلى وضع نظمه السديدة ومبادئه القويمة . وإذا تتبعنا تاريخ الأنبياء والعظماء والقادة والمصلحين والفلاسفة والمفكرين وجدنا أن أشدهم تعلقاً بالمجتمع وشئونه أرغبهم في ساعات خلوة يدبر فيها ما اضطلع به من مهام جسام . ولئن كانت الجمعية تمدهم بقدر كبير من الغذاء العقلي فهم في مسيس الحاجة إلى ساعات فراغ يمثلون فيها هذا الغذاء ، ويتعهدون هذه البذور لتخرج للناس أينع الثمرات . ففي ردهات الأكاديمية ومتنزهات الليسيه أخرج أفلاطون وأرسطو أكمل وأتم فلسفة عرفت في التاريخ القديم . وفي غار حراء أعد « محمد » صلى الله عليه وسلم نفسه لقبول الوحي الإلهي والتعاليم السماوية . ولو لا خلوات العلماء اليوم المستمرة وعزلتهم في تجاربهم الدائمة ما خطا العلم خطوة واحدة إلى الأمام . وها هو ذا بعض الساسة المعاصرين يحتذي حذوهم ، ويسير على سننهم ؛ فإذا ما حز به أمر لجأ إلى نفسه فاستفتاها في غير جلبة ولا ضوضاء . ففي الخلوة صفاء عز أن يتوفر في المجتمع ؛ وفيها ضياء إن مرت به سحب حياتنا الصاخبة خسفته . وفي العزلة تفكير وروية ونظر وتأمل لعل جيلنا الحاضر الذي انغمس في بحار المادية أحوج ما يكون إليها

هذه هي الوحدة في أثرها الروحي والفكري والأخلاق والعقلي . وهنا نتساءل : هل نحن نقدرها قدرها ونتعلق بأهدابها ؟ وهل يعنى الكثيرون منا بلحظات فراغ يطمئنون فيها إلى أنفسهم ويركنون إلى أشخاصهم ؟ وهل عوائدنا وتقاليدنا تحترم ساعات الوحدة والانفراد ؟ لا أظن ؛ فإن المقاهي والأندية تأكل نصف أعمارنا أو يزيد ، وبيوتنا مبغضة إلينا كل البغض فلا نقصدها إلا للنوم أو الطعام أو الشراب . وقد يصل الأمر بالطالب أن يذاكر دروسه على قارعة الطريق ، وبالأستاذ أن يحضر أعماله في مجتمع الإخوان ، وبالقاضي أن يدرس قضاياه في ناد عام . وكأننا نأبى إلا أن نفكر جهرة كما أن نتكلم جهرة ، وأن نشترك في كل شيء لأننا لا نحسن الاستقلال بشيء ، وإذا ما شاء أفراد أن ينظموا أوقاتهم ويخلصوا إلى أنفسهم ولو ساعة أو ساعتين كل يوم عدا عليهم الزوار فقصدوهم على غير موعد ، وأطالوا مكثهم لديهم . وبذا أصبحنا لا يشعر واحد منا أن وقته ملكه بحال

ابراهيم مدكور
كلية الآداب

التشريع والقضــاء

فى العهد الفرعوني

للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

— ٢ —

أثر القانون الحمورابى فى قانونهم القديم

يعتبر القانون الحمورابى منبعاً استقى منه القانون المصرى القديم بعض مواده ، فالشريعة البابلية من أقدم شرائع العالم وهى أقدم من شريعة موسى بل تتقدمها بعدة قرون . وقد عرفت تلك الشريعة باسم شريعة حمورابى نسبة إلى الملك « حمورابى » سادس ملوك بابل الذى عاش حوالى سنة ألفين ق . م

ويقول المؤرخون بأن الملك « حمورابى » بعد أن دون عادات بلاده وضعها فى مواد شملت المسائل التجارية والمدنية والجنائية ، وأنها كانت فى مستوى أرقى مما كانت عليه قوانين البلاد الأخرى ، فكان مما نصت عليه « الوراثة » فجعلت مال المتوفى ينتقل بأكمله إلى ورثته ، وبذلك وضعت للشرائع الأخرى الحجر الأساسى لكيفية انتقال الحقوق إلى الغير ، وجعلت للموهوب له ملكية ماوهبه إليه الواهب . ويكفى الشريعة الحمورابية فخراً أن الشرائع السماوية جاءت ببعض المبادىء التشريعية الموجودة إذ ذاك فيها ، فقد جمل حمورابى بعض مواد شريعته وفق قوله تعالى : « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » فالله تعالى قد كتب على المسلمين القصاص فى القتل والجروح كما كتبه على بنى اسرائيل من قبل ، فقال تعالى : « النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص » فقد كانت شريعته تنص على أنه « إذا سمل أحدهم عين حر تسمل عينه ، وإذا كسر أحدهم عضو حر يكسر له عضو ، وإذا خلع أحدهم سن رجل من طبقته تخلع سنه »

ومما هو جدير بالذكر أن حمورابى فصل السلطة التنفيذية عن السلطة القضائية وعهد بالقضاء إلى من يتخرج فى مدرسة التشريع فى بابل

ولما ساءت الحالة السياسية فى بابل بعد موت ملكيهم « حمورابى » واشتدت المظالم وعمت الفوضى البلاد ، هجرها كثير من العلماء نفوراً من الضيم واستوطنوا بعض الممالك الأخرى ثم نشروا ثقافتهم وتشريعهم وعلمهم بتلك الممالك ؛ وكان حظ مصر من تلك الشريعة الحورابية وفيراً ، إذ استوطن بعضهم البلاد المصرية ونشروا فيها حضارتهم البابلية ، ثم ضرب المصريون بسهم وافر فى التشريع وأدخلوا فى تشريعهم تعديلات جمة وافقت روح عصرهم ، وبذلك بذوا أساتذتهم الحورابيين وعلوا بالتشريع المصرى علواً كبيراً ، وخصوصاً عند ما أنشأوا مدارس التشريع فى طيبة وغيرها لتغذى القضاء بنوابغ المشترعين

أثر القانون المصرى القديم فى القانونين الاغريقى والرومانى

تدل الاستكشافات الأثرية والمباحث العلمية الحديثة على أن اليونان والرومان يدينون لمصر بكثير من المبادئ القانونية ؛ فمنذ أوائل العصر التاريخى هبط مصر ، بفضل الصلات البحرية والتجارية ، بعض علماء اليونان مثل فيثاغورس وهيرودتس الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ودرسوا نظمها وقوانينها . كذلك حضر إلى مصر عام ٥٥٩ ق . م المشرع الاغريقى صولون ، فلما عاد إلى بلاده أدخل فى تشريعها مااقتبسه من مجموعة قوانين بوخوريس وأدمجه في قانون صولون الذى وضع فى أثينا فى مبدأ القرن السادس ق . م . ومما أخذه المشرع صولون من قانون بوخوريس مبدأ أن الدين لايجوز حبسه ، لأن التنفيذ يجب ألا يتعدى مال المدين ويتجاوزه إلى شخصه . وقد أخذ صولون من قانون أمازيس أحد ملوك الأسرة السادسة بعد العشرين فكرة معاقبة كل متعطل ومن مالت نفسه إلى الراحة وعدم العمل فيما يدر عليه من المال الحلال مايسد به رمقه وحاجات أسرته

كذلك اقتبس الرومان الكثير من القوانين المصرية وأدمجوها فى قانون الألواح الاثنى عشر الذى وضع فى روما فى منتصف القرن الخامس ق . م فقد أثبت العالم الفرنسى الأستاذ ريفيو وهو ممن وقفوا حياتهم على دراسة القوانين عند الأمم القديمة أن

القوانين الرومانية ترجع إلى القوانين التي وضعها قدماء المصريين، إذ أن قانون الألواح الاثنى عشر الذى هو أساس القوانين الرومانية مستق من القوانين المصرية وانه لايتيسر معرفة كنه القوانين الرومانية ولا سيما المدنية منها إلا إذا فهم الانسان أصولها التي وضعها قدماء المصريين فقد قال الأستاذ ريفيو ماتعريبه « إن المبادئ القانونية البحتة التي نص عليها قانون الألواح الاثنى عشر مأخوذة من القوانين التي وضعها قدماء المصريين » وعند ماهبط رسل روما بلاد اليونان لتحضير قانون الاثنى عشر لوحاً أخذوا كثيراً من قانون صولون اليوناني الذى وضع فى أثينا فى أوائل القرن السادس ق . م . وقد نقل الرومان عن القوانين المصرية طريقة التعاقد الشفاهية التي كانت تتم عند المصريين فى جميع عقودهم بقسم أى صنك Sanach يصدر من التعهد للمتعهد له بأنه سيؤدى إليه ما اتفقا على أدائه ، وقد أطلق الرومان على هذا الشكل من التعاقد Sponsio فيوجه المتعهد له للمتعهد القسم بقوله أتقسم Spondes - ne فيجيب المتعهد أقسم Spondes وكانت تشبه طريقة التعاقد هذه مايسمى عند الرومان بالـ Mancipation

كذلك أخذ الرومان عن المصريين طريقة تحرير العبيد بواسطة محاكم دينية أعدت خصيصاً لذلك ، كما شرع « أمازيس » طريقة الإشهاد بالميزان فى كافة العقود الناقلة للملكية ولا سيما في البيع والتبنى ، وهى الطريقة التي نقلها الرومان فى تشريع الألواح الإثنى عشر . لذا يمكننا أن نقول بحق إن القانون الرومانى قد أخذ أيضاً مبادئ كثيرة عن القوانين المصرية فى مختلف العصور بعد صبغها بصبغة رومانية . ولا غرو فقد بلغت القوانين المصرية إذ ذاك من الرقي ما جعل ديودورس الصقلي — وهو مؤرخ يونانى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد — يقول عنها : « إنها كانت جديرة بالإعجاب وأعجب بها العالم فعلا »

القضاء عند قدماء المصريين

تبعاً لسنة التقدم الاجتماعى وتنوع الصلات الاجتماعية والاقتصادية وتهذيب الأفكار والنفوس شعر قدماء المصريين منذ القدم بحاجتهم لقاض يفصل فى خصوماتهم ويحمل في يده ميزان العدل فيقر الحقوق فى نصابها ويرفع الظلم ويدفع الأذى ويستخلص حق الضعيف من القوى ؛ غير أن النظام القضائى فى العهد الفرعونى يشوبه بعض الغموض لسببين : أولهما قدم عهده ، وثانيهما قلة المصادر التي كتبت عنه ؛ غير أنه مما لاجدال فيه أنه كان للملك كل السلطة العمومية إدارية وقضائية ، بل كانوا يؤلهونه ويقدسونه ويحترمونه احترام العبد للسيد ، ويعبدونه فى حياته ومن بعد مماته ، ويسمونه بأسماء الآلهة ، فهو المحيى الدائم ، وهو الإلـه الرحيم ، أو الإلـه الأعظم ، إلى غير ذلك

كان هذا الفرعون إذن خليفة الإلـه وظل الله في أرضه ؛ فهو رئيس الديانة وحامى الدين والمدافع عن الوطن وأراضيه ، وهو السيد الآمر الناهى فى جميع مرافق البلاد ، فهو رئيس الدولة ومصدر جميع سلطاتها وكان يستمدها من الآلهة رأساً

كان الملك يباشر القضاء إما بنفسه وإما بواسطة موظفيه الدينيين أو المدنيين . ولم يكن هؤلاء القضاة منقطعين لأعمالهم القضائية ، بل كان بعضهم من الكهنة وبعضهم من كبار العلماء يختارهم الملك للقضاء مضافاً ذلك إلى وظائفهم . وكان الملك الرأى الأعلى فى القضاء بالرغم من أنه كان يسمح لغيره بالفصل فيه . وكان لأي فرد من رعايا الملك أن يطلب الإنصاف منه إذا ظلم ؛ فيعيد الملك النظر فى القضية ويفصل فيها بنفسه . وكان للملك الحق المطلق فى النظر والفصل فى القضايا ؛ وله أن يستعمله بنفسه أو ينيب غيره فيه بناء على التماس يرفع اليه من المتظلمين عن حكم اعتبروه جائراً وقد فصل فيه غيره . وكانت هذه الحالة الأخيرة هى الشائعة ، فكان الملك لا يجلس للقضاء فى الأكثر إلا إذا اشتكى أحد رعاياه من الحكم الصادر عليه وطلب منه التدخل

كانت مصر مقسمة إلى عدة أقاليم يدير شؤون كل منها رئيس هو حاكم الإقليم ونائب الملك فيه ؛ وكانت له كل السلطة العمومية من إدارية وقضائية على جميع أنحاء إقليمه . وكان إذا جلس للقضاء وجب عليه أن يشرك معه مجلساً مكوناً من قضاة يعينهم الملك ؛ وكان لهذا المجلس بعض المدونين . وانقسم كل إقليم إلى مراكز عدة ، وانقسم كل مركز إلى عدد من المدن والقرى تكوّن جملة نواح ؛ وكان في كل ناحية محكمة يختار قضاتها من أهلها وتنظر فى القضايا البسيطة ، وكانت أحكامها قابلة للنظر فيها من

المحكمة العليا التى كان مقرها عاصمة القطر، فلم تكن السلطة التنفيذية إذن مستقلة عن السلطة القضائية، فالوزير الأكبر كان رئيس الحكومة، وهو فى ذات الوقت رئيس المحكمة العليا وله سلطة القضاء فى المملكة. كذلك كان حكام الأقاليم رؤساء لمحاكمها. وكان الحكم يصدر متوجاً باسم الملك؛ وكان يطلق على القضاة لقب «ساب» Sab. وكانت وظيفة القاضى يرمز لها بالهيروغليفية بصورة ابن آوى. وكان القضاة يؤدون قسماً يلزمهم الطاعة لجميع أوامره متى كانت عادلة. وكانت القوانين تسجل فى دار العدل ويعتبر تسجيلها فى هذه الدار بمثابة نشر لها، إذ بمجرد تسجيلها تسرى على أهل البلاد. أما المراسيم فكانوا لا يسجلونها فى دار العدل، بل كانت تنفذ بمجرد ختمها بخاتم الدولة

كان القضاة فى زمن الفراعنة من القسس المتخرجين فى مدارس التشريع فى معابد منفيس وطيبة وآن (أو عين شمس) وكانت المحكمة الكبرى بمدينة طيبة تؤلف من ثلاثين قاضياً يختارون من فطاحل الكهنة المتضلعين فى المسائل القانونية، بنسبة عشرة عن كل مدينة من تلك المدن الثلاث، وأعطيت الرياسة لأكبرهم سناً، كما منح الرئيس مرتباً أكبر من بقية إخوانه القضاة. وكان على معبد المدينة الذى ينتخب الرئيس منه أن يرسل إلى المحكمة بقاض آخر حتى يصير عدد القضاة فى المحكمة بما فيهم الرئيس واحداً وثلاثين قاضياً. وكان رئيس المحكمة الكبرى إذا جلس للحكم بين الناس يضع فى عنقه سلسلة ذهبية معلقاً بطرفها حجر كريم على شكل تمثال إلـه العدل «ما» أو «معت»؛ وكان يدير هذا التمثال على الأعضاء عندما يدلى كل برأيه، فإذا تم ذلك نطق الرئيس بالحكم. وكانت توضع على منصة القضاء أثناء انعقاد الجلسات ثمانية مجلدات ضخام تحوى كل القوانين المصرية القديمة

وكانوا ينتخبون قضاتهم ممن وسعت تجاربهم وعظمت معلوماتهم الدينية والدنيوية وكثرت ثقافتهم العلمية، وكانت أحكامهم محترمة ونافذة. أما مرتبات القضاة فكانت تصرف لهم من خزينة الملك وقد كثرت أنواع المحاكم عندهم بحسب اختصاصها فوجدت المحاكم الأسرية أو المنزلية التى كانت لا تتناول إلا المسائل البسيطة، وكان قاضيها رئيس الأسرة الذى خول السلطة التأديبية على جميع أفرادها.

وكما وجدت المحاكم المدنية عند قدماء المصريين ذات الدرجات الثلاث: جزئية بالقرى والمدن، وابتدائية بعواصم الأقاليم، واستئنافية بعاصمة الدولة، كذلك وجدت المحاكم العسكرية والقضاء الإدارى الذى كان يصل بين الأفراد والجهة الإدارية كالمنازعات التى تقع بين دافعى الضرائب وبين الموظفين المكلفين بجبايتها. كذلك وجد القضاء الجنائى بنوعيه العادى الذى يفصل فى قضايا الأفراد، وغير العادى الذى ينظر فى الجرائم التى تمس الملك أو الدولة بصفة عامة؛ وكانت تتولاه المحكمة الخاصة، وكان يدخل ضمن تشكيلها نفر من رجال الجيش. وكان القضاء الجنائى العادي على درجتين: الدرجة الأولى محكمة المدينـة أو محكمة الإقليم وتستأنف أحكامها أمام الملك أو مجلس الملك الخاص كما وجدت محاكم دينيـة لتحرير العبيد منذ الأسرة الحادية والعشرين، فكان إذا ظلم السيد عبداً له لجأ العبد لمعبد من المعابد واحتمى بتمثال أحد الآلهة، فإذا اقتنع كهنة المعبد بظلامته قضوا بجعله من حيث الشكل عبداً للإلـه الذى احتمى به، وبذلك تزول سلطة السيد عنه ويصبح حراً. وسمح لكل مصري حر ظلمه أحد الحكام أو جهة إدارية أن يلجأ إلى إلـه يحميه من هذا الظلم

«يتبع» عطية مصطفى مشرفة

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليليــة

للدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٦ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي — كونفيشيوس

حياته

ليست كلمة « كونفيشيوس » هي الاسم الصيني الصحيح لهذا الحكيم ، وإنما هو تركيب « لتَنَهُ » الأوربيون كما اقتضت طبيعة لغاتهم إذ أصلها « كونج فوتسيه » . فأما « كونج » فهو اسم الأسرة ، وأما « فووتسيه » فمعناها الأستاذ المبجل

ولد هـذا الحكيم فى مدينة « تسيئو » سنة ٥٥١ قبل المسيح من إحدى الأسر الملكية الماجدة التي أثبت تاريخ دوحات الأسر العريقة أنها تصعد إلى عهد أسرة « تشو » فى القرن الحادى عشر قبل المسيح ، وأن رئيس هذه الأسرة في ذلك العهد الغابر الذى سبق مولد « كونفيشيوس » بأكثر من خمسة قرون كان يدعى دوق « دى سونج »

تزوج « شوليانج — هي » والد حكيمنا للمرة الأولى وعاش مع زوجته زمناً طويلا دون أن يرزق بولد ، وكان إذ ذاك حاكما على مدينة « تسيئو » فلما بلغ من العمر سبعين سنة تزوج مرة ثانية فرزق هذا الحكيم الذى منت به السماء على الصين ، ليحفظ تراثها الغابر ، ويبعث مجدها الداثر ، ويسطع فى سماء مستقبلها سطوعاً يسجل اسمها بين أسماء الأمم الخالدة ؛ ولـكنه لم يكد يبلغ العام الثالث حتى توفى والده وترك الأسرة فى حالة من الضنك يرثى لها ، بيد أن مجد الأسرة وسمعتها الأدبية ساعداها على تربية هذا الطفل وتثقيفه كما يتثقف أبناء طبقتها من الأثرياء ، وقد كونت هذه التربية العالية « كونفيشيوس » تكويناً قيما كان أساس تلك الفلسفة الباهرة

لا يعرف التاريخ عن حياته الخاصة أكثر من أنه تزوج فى التاسعة عشرة من عمره ، وأنه لم يكن موفقاً فى زواجه ، ففارق زوجته بعد بضعة أعوام من تاريخ الزواج ، ولـكنه أعقب منها غلاماً وفتاة زوجها فيما بعد لأحد تلاميذه الأوفياء ، وأنه بعد زواجه بزمن يسير عين مراقباً فى إحدى إدارات الزراعة فكان هذا التعيين ثقيلاً على نفسه ، لأنه كان يراه من ناحية غير متناسب مع سمو مكانته ، وكان من ناحية ثانية متنافياً مع مواهبه وثقافته ، ولـكن ضرورة البأساء قد ألجأته إلى قبوله فقبله على مضض ؛ ثم ظل يتحرق إلى مهنة التعليم التى كان يعتقد أنه خلق لأجلها ، فلما حيل بينه وبينها أخذ يقوم بها فى أسرته ، وأخيراً عين أستاذاً فى مدينة « لُو » حيث كرس مجهوداته كلها للعلم والتعليم والبحث وراء الحقيقة ، ونشر الفضائل الأخلاقية . وكان منزله أرقى ناد فى المدينة يجتمع فيه أجل الشبان المهذبين الراغبين فى العلم والأخلاق والتقدم الاجتماعى ؛ وكان جميع المهذبين من شيوخ وشبان مفتونين بما حواه رأس هذا الحـكيم الشاب من معارف سامية . وفى الحق أن رأيه كان موسوعة لعلوم عصره وفنون زمنه . وإليك مايصف به نفسه فى كتاب « لون — يو » :

« فى الخامسة عشرة كنت أفرغ كل عنايتى فى الدراسة ، وفى الثلاثين كنت أسير بخطى أكيدة وحازمة فوق صراط الفضيلة ، وفى الأربعين لم يكن لدى أي ريب ، وفى الخمسين كنت أحيط علماً بناموس السماء ، وفى الستين كنت أفهم كل ما تسمعه أذنى ، وفى السبعين كانت كل زغبات قلبى متجهة إلى عدم مخالفة أية قاعدة أخلاقية [1] »

فى سنة ٥٢٥ قبل المسيح ارتحل إلى « لو » مدينة « لاهو — تسيه » ليكمل معارفه بالاطلاع على محفوظات الدار الملكية كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ؛ وبعد أن أقام بهذه المدينة سنة عاد إلى بلده . وفى سنة ٥١٦ شبت حرب أهلية بين كبار الملاك فى مقاطعته ، فغادرها إلى مقاطعة أخرى ، فاستقبله رئيسها أعظم استقبال ، وأخذ يستنصحه فى كثير من نواحى الحياة ، ولـكنه لم يتبع نصائحه في حياته العملية ، فلما قدم إليه المال رفضه الحـكيم قائلا :

« إن الرجل الفاضل لا يتسلم من المال إلا بقدر ما يقوم به من الأعمال ، وإنى قدمت إلى الأمير نصائح فلم يعمل بها ، فإذا حسب بعد ذلك أننى سأقبل ماله فهو بعيد عن فهمى

(١) راجع الفصل الثانى من كتاب « لون — يو »

وبعد إقامته خمسة عشر عاماً فى هذه المقاطعة عاد إلى بلاده ، وكانت المياه فيها قد رجعت إلى مجاريها ، وهناك عين مديراً أعلى لمدينة « تشونج — تو » فمكنه هذا التعيين الجديد من أن يخرج مبادئه إلى حيز العمل وأن يحقق أفكاره العمرانية الراقية . وإذا صدقنا ما يقوله أحد معاصريه المؤرخين ، جزمنا بأن عصره كان عصر إعجاز فى النجاح الإداري . فالرقى الذى ظهر فى تلك المدينة والسلوك الأخلاقي الذى استحدث فيها جعلا أمراء المدن الأخرى يتخذونها نموذجاً لمدنهم ، بل إن دوق مدينة « لو » سأل « كونفيشيوس » عما إذا كان من الممكن تطبيق قواعد إدارته على جميع مدن الدولة ، فلما أجاب بالإيجاب عينه الدوق نائباً للسكرتير العام للدولة ثم وزيراً للحقانية فلم يكد يتولاها حتى انقطعت جميع الجرائم وتعطل تطبيق قانون العقوبات تعطيلا تاماً ، لأنه لم يعد فى الدولة جانون يطبق عليهم

لاريب أن فى هذا شيئاً من المبالغة ، ولكن الذى لاشك فيه هو أن البلاد قد قطعت فى عهد إدارة « كونفيشيوس » شوطاً بعيداً فى التقدم الأخلاقي والعمرانى والسياسى ، وأن هذا الحكيم قد أعاد إليها صورة العصر الذهبي وأشعرها من جديد بالرخاء والسعادة . وبمعاونة صديقيه « تسيه لو » و « تسيه يو » اللذين كانا يشغلان وظيفتين عاليتين من وظائف الدولة قد تمكن من تقوية سلطة الأمراء وإضعاف قوة الأسر المتمردة فاستتب الأمن وسادت السكينة فى البلاد

غير أن هذه النعمة لم تدم طويلا ، إذ لم يكد حكيمنا يصل إلى أوج الشهرة الحقة حتى حسده جماعة من معاصريه وهيأوا للدوق أسباب اللذة ؛ فلما أفرط فيها أصم أذنيه عن سماع نصائح « كونفيشيوس » فهدده هذا بالاستعفاء إن لم يستقم ويُعْنَ بمرافق الدولة . فلما أصر الدوق على عناده لم يسع الحكيم إلا اعتزال الخدمة ، وقد فعل ، فاستقال فى سنة ٤٩٦

ومنذ هذا التاريخ أخذ « كونفيشيوس » يرتحل من بلد إلى بلد حتى آخر حياته دون أن يقيم فى بلد أكثر من ثلاثة أعوام ، وكان يستقبل فى كل مكان بالإجلال والإعظام ، ولكن لم يتبع نصيحته أي ملك ، بل كثيراً ما تعرضت حياته للخطر ، وكان قلبه من أجل ذلك مفعما بالمرارة والحزن في جميع أسفاره التى كان لا يرافقه فيها إلا تلاميذه المخلصون والتى أذاقته من التشاؤم واليأس ما دفعه يوماً إلى أن يسائل نفسه قائلا : « هل أنا إذن ، بقطينة مرة لا يستطيع أحد من بنى الإنسان أن يذوقها »

بعد أن أنهكته هذه الأسفار المختلفة ألقى عصا التسيار فى مدينة « لو » وكانت سنه إذ ذاك تسعة وستين عاماً فاستقبله دوقها الجديد بكل ترحاب وإجلال ، ولكنه نهج نهج أسلافه فلم يتبع نصائح الحكيم فى أي شأن من شؤون الدولة ، فلم يكن ذلك جديداً على نفس « كونفيشيوس » ولكن الذي حطم قلبه فى هذه الشيخوخة هو أنه رأى بعينيه الفانيتين موت ابنه الوحيد وتلميذيه المختارين « هُوِى » و « تسيه — لو » . فلما حلت به هذه الكارثة أحالت الدنيا فى نظره ظلاماً ، ولكنها لم تقعده عن واجبه فى الحياة ، فكرس الشهور الأخيرة من حياته لجمع ونسخ الكتب القديمة المقدسة التى أشرنا إليها فى حديثنا عن مصادر الفلسفة الصينية

وأخيراً هوى هذا الكوكب فى اليوم الحادى عشر من الشهر الرابع من سنة ٤٧٨ قبل المسيح بعد مرض لم يدم إلا أحد عشر يوما

كونفيشيوس وجد حقاً

كتب أحد المؤلفين الانجليز وهو : « هـ . ج . ألين » كتاباً سخيفاً بعنوان « كونفيشيوس أسطورة » عانى فيه عَرَقَ القِربة كما يقول العرب لإنكار « كونفيشيوس » ومحاولة تصويره فى صورة الأساطير الخيالية . ولست أحب أن أرد على هذا العالم الانجليزى بأحسن من تعليق الأستاذ « زانكير » الذى أقتطف منه ما يلى : « فى ذلك العصر المحزن أى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الذى كان الناس يظنون فيه أن العلم ينحصر فى الإنكار والشك فى الحوادث والشخصيات التاريخية الثابتة ، فأنكروا « لاهو — تسيه » و « بوذا » والمسيح . فى ذلك العصر الأسيف هب إنجليزى خامل ، بنية إنشاء الضجيج حول اسمه الذى لولا هذا الإنكار لما ذكره أحد ، فزعم أن « كونفيشيوس » أسطورة من الأساطير ، ولكن إذا كان ينبغي لنا أن نشك فى وجود حكيم « تو » فلست أدرى لماذا نحن نؤمن بوجود « سقراط » و « يوليوس قيصر » و « شارلمان » بل ، ولكى لا ننسى الانجليز فى ردنا نقول لهذا الزاعم أيضاً : وكذلك يجب أن نؤمن بوجود « غليوم الفاتح » (١) ، وأظن

(١) دوق فرنسى فتح انجلترا وتملك عليها فى سنة ١٠٦٦ وقد ذكره العالم « زانكير » ليهين به ذلك الأنجليزى المتعالم .

أنه ليس لدينا من الأسباب ما يحملنا على إنكار واحد من هؤلاء

ولكن لحسن الحظ قد بدأ العقلاء يعدلون عن النظر إلى هذا النوع من العلم نظرة جدية

أما الذى لا يقبل الريبة بحال : فهو أن « كونفيشيوس » — بالرغم من قلة مصادرنا العلمية عنه — قد وجد وجوداً حقيقياً لأن تلاميذه ومعاصريه قد أعطونا عنه صوراً مادية وأخلاقية أمينة

أخلاق الشخصية

إن أهم ما اشتهر به هذا الحكيم من أخلاق سامية هو الهدوء الذى لا حد له ؛ إذ حدثنا تلاميذه أنه لا الظلم المروع ، ولا الألم المبرح ، ولا الخطر المميت ، كانت تهزه أو تحدث فى نفسه أقل اضطراب . ومن هذه الأخلاق أيضاً ما يروونه لنا عن وداعته الفائقة ، وتواضعه المنقطع النظير الذى يصفه لنا هو شخصياً فيقول : « كيف أستطيع أن أشبه نفسى بالحكيم أو بالرجل الذى يعمل للفضيلة ؟ ! إن كل ما أستطيع أن أقوله عن نفسى : هو أننى أقهرها على محاولة مساواتهما بدون ملل ، وعلى تعليم الآخرين دون انفكاك »

ومع ذلك فقد كان عنده ثقة عظيمة فى نفسه وفي رسالته الأخلاقية ، غير أنه كما أن تواضعه لم يهنه أمام من هم أقوى منه ، كذلك ثقته بنفسه لم تدفعه إلى الكبرياء على من هم دونه

ومن محامده الجليلة أنه لم يسمح يوماً لعاطفتـه أن تتعدى حدودها المرسومة لها فى أى ناحية من نواحى حياته العلمية أو العقلية حتى قيل عنه : إن التفكير العاطفى لم يجد له مكاناً قط بين تعقلاته . وقد كان هذا القول حقاً إذ أنه حين سأله تلاميذه عن رأيه فى حكمة « لاهو — تسيه » القائلة : « أحبوا أعداءكم كما تحبون أصدقاءكم » أجاب بقوله : « إذا أحببتم أعداءكم ، وكافأتم بغضهم إياكم بحب من جانبكم ، فبماذا إذاً تكافئون حب أصدقائكم ؟ كلا ، بل أجيبوا على البغض بالعدل وعلى الحب بالحب »

ولكن ليس معنى هـذا أنه كان جافاً محروماً كل عاطفة نبيلة ، كلا ، لأنه كان يحمل بين جنبيه قلباً يفيض بالعطف على أصدقائه وتلاميذه ، وبالحب الحار لوطنه ، وبالإشفاق القوى على الضعفاء

(يتبع) محمد غلاب

رؤيا « مرزا »

للكاتب الانجليزى أديسون

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

قال أديسون :

قد اتفق لي حينما كنت فى تلك المدينة العظيمة ، مدينة القاهرة ، أن اشتريت بثمن بخس بعض المخطوطات الشرقيـة القديمة التي ما زلت محتفظاً بها

وبين تلك المخطوطات التى صادفتها مجموعة تسمى « رؤى مرزا » قرأتها فى سرور عظيم ثم عولت على تقديمها إلى القراء إذ لا أجد لدى غيرها أسرى به عن نفوسهم ؛ وسأبدأ بأولى تلك الرؤى وهأنذا أترجمها كلمة كلمة فيما يأتى :

فى اليوم الخامس لظهور القمر ذلك اليوم الذي كنت أقدسه جرياً على عادة جدودى ارتقيت تلال بغداد العالية بعد أن أديت فرائض الصباح ، لأقضى هنالك بقية اليوم في التأمل والصلاة

وبينما كنت أنعم هناك بالهواء الطلق على قمم الجبال ، إذ وجدت نفسى غارقاً فى تأمل عميق حول حياة الانسان وما يكتنفها من غرور ، وإذ كنت أنتقل من فكرة إلى فكرة فقد ناجيت نفسى قائلاً : « حقاً إن الانسان خيال ، وإن حياته حلم » . وبينا أنا كذلك أعمل الفكر ، إذ أخذت عيناى رجلاً فى زى الرعاة على رأس صخرة تقع غير بعيد منى ، وكانت فى يده آلة موسيقية ، فلما رآنى أنظر إليه رفعها إلى شفتيه وجعل ينفخ فيها ألحانه ؛ وكان صوت تلك الآلة فائق الجمال كما كانت تنبعث منها طائفة من النغمات الرخيمة لم يسبق أن صادفت مثلها رونقاً وطرباً . ولعمرى لقـد صورت لى تلك الألحان هاتيك الأنغام السماوية العذبة التى تقابل بها أرواح الصالحين حينما تصعد إلى الجنة ، هنالك حيث تذهب عنها آثار آلامها الأخيرة وحيث تتأهب لمـا أعد لها من النعيم فى ذلك المكان السعيد . وسرعان ما اهتز قلبي فى انتشاء عجيب

وكثيراً ما أخبرت من قبل أن الصخرة القريبة مني مسكن جنى، وأن كثيراً ممن مروا بها قد سمعوا تلك الألحان الموسيقية، ولكنى لم أسمع قبل اليوم أن ذلك الموسيقار يظهر للأعين

ولقد أنعش ذهنى بأنغامه العذبة وهيأ فكرى لسماع محاورته وأنا أنظر إليه نظرة الحائر، فلما استوثق منى أشار إلى أن أسير إلى حيث يجلس. ولقد اقتربت منه باحترام يليق بطبيعته العلوية، ولما كان قد تملك قلبي بأناشيده الحلوة فقد ألقيت بنفسى على قدميه وعيناى تذرفان الدمع

فنظر إليّ الجني نظرة عطف وحنان سرعان ما جعلته أليفاً إلى نفسى، وسرعان ما بددت تلك المخاوف التى ساورتنى وأنا أدنو منه، ومد يده فرفعني عن الأرض وتناول يدى قائلاً: «مرزا! لقد سمعتك وأنت تناجى نفسك فاتبعنى»

واقتادنى إلى أعلى صخرة بين تلك الصخور ثم وضعنى فوق أعلى قمها وقال:

— «ول وجهك نحو الشرق وأخبرنى ماذا ترى هنالك؟»

قلت: «إني أرى وادياً مترامى الأطراف يخترقه مجرى هائل من الماء»

قال: «إن الوادى الذى تراه هو «وادي الشقاء»، وإن المجرى الذي يخترقه هو جزء من ذلك المجرى العظيم «مجرى الأبدية»

فقلت وما السبب فى أن هذا الجزء من المجرى يخرج فى أوله من خلال ضباب كثيف ثم ينتهى عند آخره إلى ضباب كثيف؟

قال «إن ذلك الجزء الذي ترى هو قسم من الأبدية تعبرون عنه بالوقت وتقيسونه بالشمس، وهو يمثل الحياة من أولها إلى منتهاها»

ثم قال: «أنظر إلى هذا البحر الذى تكتنف الظلمة طرفيه وحدثنى عما ترى فيه»

قلت: «إنى أرى قنطرة كبيرة فى هذا الخضم»

قال: «إن هذه القنطرة ليست إلا الحياة الدنيا، فانظر إليها بإمعان»

نظرت فرأيتها مكونة من ثلاث حلقات تكون فى مجموعها عشر أقواس؛ ثم شاهدت إلى جانبها عدداً من الأقواس المحطمة يصل بها الفرد إلى ما يقرب من المائة، وبينما كنت أعد هذه الأقواس أخبرنى الجنى أنها كانت فى أول أمرها تبلغ الألف عدداً، ولكن فيضاناً هائلا قد اكتسح معظمها وترك القنطرة على تلك الحالة المتهدمة التى كنت أراها

قال الجنى: «أخبرنى ما ذا ترى فوق تلك القنطرة؟»

قلت: «إنى أرى جموعاً من الناس تسير فوقها وأرى الضباب يكتنف نهايتها»، ولكنى لما أمعنت النظر قليلا شاهدت بعض الناس يسقطون من أعلى القنطرة إلى العباب المتلاطم تحتها

وازداد إمعانى فرأيت عدداً من «الأبواب المسحورة» أو الفخاخ كان لا يلبث المار إذا مسها بقدمه أن يهوى من خلالها إلى اليم ويذهب إلى غير رجعة. وكانت تكثر هذه الفخاخ عند أول القنطرة؛ وكان كثير من الناس لا يكادون يظهرون من تحت الضباب حتى رأيتهم يسقطون من خلالها إلى البحر؛ غير أنها كانت تقل تدريجياً نحو الوسط، ولكن لتعود إلى كثرتها عند نهاية الأقواس السليمة

ولقد شاهدت بعض الناس يسيرون سير المقيد الموثق فوق الأقواس المتهدمة، ولكنهم كانوا قليلين، وما لبثوا أن رأيتهم يسقطون الواحد تلو الآخر بعد أن أخذ منهم التعب، وبلغ من نفوسهم الجهد من جراء هذا السفر الطويل

وقضيت وقتاً غير قصير أتأمل فى هـذا البناء العجيب وما يحوى من مختلف الأشياء. وتالله لقد بلغ من نفسى أن أرى بعض الناس يسقطون وهم فى لحظات سرورهم وفترات انتشائهم، وكانوا يتعلقون بكل ماقرب منهم علهم ينجون من هذا السقوط؛ وكنت أرى غيرهم يهوون فى هذا القرار السحيق بينما كانوا يرفعون أبصارهم نحو السماء فى تأمل وتفكير

ورأيت غير هؤلاء جماعة كانوا يلهون سعياً وراء الحصول على بعض الفقاقيع الزاهية التى كانت تخلب ألبابهم، وبينما هم يحسبون أنهم على قاب قوسين منها، كانوا يهوون فى هذا الخضم الزاخر

وتبينت من خلال هذا العباء قوماً يحملون فى أيديهم نوعامن السيوف البواتر، بينما كان يحمل غيرهم بعض القاذورات وهم يدفعون بها المارة فيمرون على تلك الفخاخ التى لم تكن فى طريقهم

فاذا هم فيها يغرقون. ولما رآني الجنى أتأمل فى هذه المناظر المحزنة قال « دع عنك هذا فقد أطلت النظر إليه »

ثم قال: « حول نظرك عن القنطرة وانظر هل ترى شيئاً غيره لانستطيع أن تفهمه ؟ »

قلت: « إني أرى جماعة من الطير تحوم باستمرار حول القنطرة ثم تعود فتسقط فوقها من حين إلي حين. أرى عدداً من النسور والعقبان والغربان وأرى أشكالاً عجيبة وطيوراً مزعجة أجسامها آدمية نسوية ولها أجنحة مخيفة، وأرى طائفة من الغلمان ذوى أجنحة يتجمعون فى تزاحم حول الأقواس الوسطى »

قال الجنى: « إن ماتراه إنما يمثل الحسد والطمع والوساوس والأوهام واليأس والحب وغيرها من الهموم والعواطف التى تحيط بحياة الإنسان »

وهنا تنهدت تنهداً عميقاً وقلت: « وا أسفاه! إنما خلق الانسان عبثاً، فهو فريسة للشقاء والفناء يذوق العذاب فى حياته ثم لايلبث أن يبتلعه الموت »

وتالله لقد أشفق على الجني إذ سمعنى أنطق بهذا وأمرنى أن أحول بصرى عن هذا المنظر الذي يثير الشجن وخاطبنى قائلا: « كفى نظراً إلى الانسان فى حياته الأولى إذ يأخذ أهبته إلى حياة الخلود وانظر إلى هذا الضباب الذى يحمل إليه الموج هؤلاء الذين يسقطون فى اليم »

فحولت نظرى كما أمرت، ولست أدرى هل زاد ذلك الجنى قوة إبصارى أم هل أزال بسحره جزءاً من ذلك الضباب الذى كان أكثف من أن تخترقه العين، فقد رأيت الوادى وقد فتح من نهايته وتكشف عن محيط واسع تتوسطه صخرة فتقسمه قسمين متساويين؛ ولقد تجمعت السحب فوق أحد هذين القسمين فلم أر فيه شيئاً، ولكنى رأيت فى الآخر محيطاً واسعاً تتناثر فيه طائفة من الجزر لا عداد لها؛ وكان سطح تلك الجزر مغطى بأشجار الفواكه والزهور تتخللها غدران صغيرة عديدة، واستطعت أن أرى أناساً يلبسون فخم الثياب وتكلل هاماتهم الزهور وهم يمشون بين الأشجار أو يجلسون حول النافورات أو يضطجعون على سرر من الزهر، واستطعت أيضاً أن أسمع ترنم الطيور الشادية وخرير المياه المتدفقة مختلطة بأصوات الناس وأنغام الموسيقى

ولشد ما أبهج نفسى أن رأيت ذلك المنظر الرائع وتمنيت لو أتيح لى جناحا نسر فأطير إلى هذا المكان السعيد، ولكن الجنى أفهمنى أن لاسبيل إليه إلا سبيل الموت؛ ثم خاطبنى قائلاً « إن الجزر الخضراء التى تراها أمامك والتى تغطى سطح البحر على مد البصر أكثر عدداً من الرمال التى تغطى شاطىء ذلك البحر، ويوجد وراء هذه الجزر التى تراها أعداد أخرى لا يصل إليها نظرك ولا يمكن أن يتسع لها خيالك، وتلك هى مساكن الصالحين بعد الموت، وهم يحلون بها كل حسب درجة صلاحه، وفيها من ألوان النعيم ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. أو ليست تلك الجنان يا مرزا جديرة بأن يسعى الإنسان إليها؟ وهل تكون الحياة شقية إذا كانت وسيلة إلى تلك الغاية السعيدة؟ وهل تخشى الموت الذى يذهب بك إلى مثل هذا النعيم المقيم؟ كلا لا تحسبن الإنسان قد خلق عبثاً. وكيف يخلق عبثاً من أعدت له هذه السعادة فى تلك الحياة البهيجة؟ »

وهنا خاطبت الجني قائلاً: « هل لك أن تطلعنى على ما تحت هاتيك السحب التي تحجب القسم الآخر من الأسرار؟ ولما لم أتلق جواباً عن سؤالى درت برأسى لأخاطب الجنى مرة أخرى، ولكنى لم أجد أحداً بجوارى، فتلفت ثانية نحو المنظر الذى كنت أراه أمامى ولكنى لم أجد فى مكان الموج الزاخر والقنطرة ذات الأقواس والجنان الخضراء سوى وادى بغداد المستطيل وقد وقفت الثيران والأغنام والإبل ترعى العشب على جانبيه.

محمود الخفيف

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

أبو الفرج الببغاء أديب سامق البناء أدبه ، فله الشعر العذب الرقيق ، والنثر الحلو الرشيق . إذا أنشدت شعره كنت كمن يسرح طرفه فى حديقة فينانة أريضة ، غانية بمختلف الأزهار ، ساحرة بموسيقا الأطيار ، قد انتظمت أسماطاً وقلائد ، وضمت أوساطاً وخرائد ؛ تجيل فيها بصرك فلا تدري أى شعابها تسلك ؛ فوصفه يهدى إليك صورة أروع من الصوَر ، ويعرض عليك الحقيقة مرصعة بالخيال ، والخيال موشى بجمال الحقيقة ؛ ومدحه فرائد يطول بها جيد الممدوح ، ولآلئ ليس لها مثال ، بل هى مضرب الأمثال . فمن ذلك الذى يوصف بمثل قوله :

يا عارضاً لم أشم مذ كنت بارقه … إلا رويت بغيث منه هطَّال
رويدَ جودك قد ضاقت به هممي … وردَّ عنى برغم الدهر إقلالى
لم يبق لى أمل أرجو نداك به … دهرى لأنك قد أفنيت آمالى

من هذا الذى يبلغ نداه أن يرغم الدهر ويفنى الأمل ؟ ولا يطاول الجوزاء فيطولها ، ويسامي السماء فيسمو عليها ، وخمرياته وتشبيباته وتشبيهاته فعلها فى الرءوس دونه معتق الدام ، وأثرها فى النفوس أنكأ من أثر الحسام ، فكل شعره يبهر من يراه ويسحر من ينظر فيه ، فهو أزاهير من الجمال ، وطاقات من الحسن والروعة تحير الألباب وتخلب الأبصار . وإنه لما يشق على النفس الشاعرة أن ينفرط عقد لايجيد تنظيمه غير راسمه ، أو ينتكث نظم لايحسن تنضيده سوى ناظمه ، فلا محيص حينئذ من أحد أمرين كلاهما محبب إلى النفس مرهف للحس ؛ إما أن تستوعب ذاكرتك ما قرأت فتلتهمه روحك بعد أن انتهبه بصرك ، وإما أن ترسمه فى مخيلتك ليرقى برسمه خيالك وترق بصوره آثارك

نسبه : ينتسب أبو الفرج إلى قبيلة عريقة فى عربيتها لا تفرعها قبيلة شرفا وخيما هى قبيلة بنى مخزوم ؛ وولد بنصيبين فى أوائل القرن الهجرى الرابع ، ولم أعثر على مصدر يحقق لى سنة مولده .

ترجم له الخطيب البغدادى فى الجزء الحادى عشر من تاريخ بغداد فقال عنه : (عبدالواحد بن نصر بن محمد أبو الفرج المخزومي الحنظُبي الشاعر المعروف بالببغاء . كان شاعراً مجوداً وكاتباً مترسلا ، مليح الألفاظ جيد المعانى حسن القول فى المديح والغزل والتشبيه والأوصاف)

وترجم له أبو منصور عبد الملك الثعالبى فى الجزء الأول من كتابه يتيمة الدهر فقال : (هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومى من أهل نصيبين نجم الآفاق ، وشامة الشام والعراق ، وظرف الظرف ، وينبوع اللطف ، وأحد أفراد الدهر فى النظم والنثر ، له كلام بل مدام بل نظام من الياقوت بل حب الغمام ...) إلى آخر مانعته به من أوصاف

أما سبب تلقيبه بالببغاء فلثغة كانت مدار أحاديث طريفة ومحاورات ظريفة بينه وبين صديقه أبي إسحق الصابي نورد بعضها لأن فى قصصها متعه ولذة . رُوى أن كلاً من أبى الفرج الببغاء وأبى إسحق الصابي كان يشتاق رؤية صاحبه ويتلهف على اللقاء به ويتمنى أن يجتمع به بأى ثمن ؛ وكانا يتكاتبان دون تلاق فتعارفت رسائلهما قبل تعارف شخصيهما . واتفق أن قدم أبو الفرج بغداد ، فكان أول مايهمه أن يبحث عن صديقه فإذا هو معتقل ، فزاره فى محبسه ولم يُثنِّ زيارته ، فعتب عليه الصابى بقصيدة منها :

أبا الفرج اسلم وابق وانعم ولا تزل
يزيدك صرف الدهر حظًّا إذا نقص
مضى زمن تستام وصلى غالياً … فأرخصته والبيع غال ومرتخص
وآنستنى فى محبسى بزيارة
شفت كمداً من صاحب لك قد خلص
ولكنها كانت كخسوة طائر
فواقاً كما يستفرص السارق الفرص
وأحسبك استوحشت من ضيق محبس
وأوجست خوفاً من تذكرك القفص

فأجابه الببغاء دون ريث مع رسوله :

أياماجداً مذ يمم المجد ما نكص … وبدر تمام مذ تكامل ما نقص
تقنصت بالألطاف شكرى ولم أكن
علمت بأن الحرَّ بالبرد يقتنص
وصادفت أدنى فرصة فانتهزتها … بلقياك إذ بالحزم تنتهز الفرص
فإن كنت بالبَبغاء قدماً ملقبا … فكم لقب بالجور لا العدل مخترص
وبعد فما أخشى تقنص جارح … وقلبك لى وكور رأيك لى قفص

فأنهى الحديث إلى عضد الدولة غريم الصابى فأعجب به وكان سبباً من أسباب العفو عن الصابي وإطلاقه ، فرأى أن يكون أول ما ينشده وصف الببغاء وذكرُ محاسنه والتلميح بفضل أبي الفرج وذكائه فأرسل أرجوزة منها :

ألفتها صبيحة مليحه ... ناطقة باللغة الفصيحه
عدت من الأطيار واللسانُ ... يوهمنى بأنها إنسان

ومنها وهو آخرها :

تلك التى قلبي بها مشغوف ... كنيت عنها واسمها معروف
نشرك فيها شاعر الزمان ... والكاتب المعروف بالبيان
وذاك عبد الواحد بن نصر ... تقيه نفسى عاديات الدهر

فأجاب أبو الفرج بأرجوزة منها :

من منصفى من حكم الكتاب ؟ ... شمس العلوم قمر الآداب
أضحي لأوصاف الكلام محرزاً ... وسام أن يلحق لما برزا
وهل يجارى السابق المقصر ؟ ... أم هل يساوى المدرك المعذر ؟

ومنها بعد أن أطال فى وصف الببغاء :

لو لم تكن لى لقباً لم أختصر ... لكن خشيت أن يقال منتصر
وإنما تنعت باستحقاق ... لوصفها حذق أبي إسحاق
شرفها وزاد فى تشريفها ... بحكم أبدع في تفويفها
فكيف أجزى بالثناء المنتخب ... من صرّف المدح إلى اسمى واللقب

ومن أبدع ما مدح به اللثغ ما كتبه الصابى إلى أبي الفرج :

أبا الفرج استحققت نعتا لأجله ... تسميت من بين الخلائق بَيّنا
بياناً منيراً كاللجين مضمنا ... نضاراً من المعنى أذيبا وأفرغا
فلولا امرئ القيس انتدبت مجاريا ... كبا أو لقس فى فصاحته صغا

ومنها :

وما هجنت منك المحاسن لثغة ... وليس سوى الانسان تلقاه ألثغا
أتعرفها فيما تقدم خاليا ... بعير إذا ما صاح أو جمل رغا
فيالك حرفاً زدت فضلاً بنقصه ... فأصبحت منه بالكمال مسوغا

وبعد فلنترك حديث اسم أبي الفرج ولقبه ، ولنتحدث عن حياته الأدبية لنصل منها إلى دراسة شعره ونثره

اتصل أبو الببغاء فتى بأمير حلب سيف الدولة على بن حمدان وهو حينذاك حلبة آمال الأدباء وكعبة رجاء الشعراء ، يملأ أفواههم بالنضار ، فيملئون أرجاء ملكه بروائع الأشعار ، ويرفع أقدارهم بمنحه ، فيرفعون عقائرهم بمدحه ، وليس ذلك من مثله بمستغرب ، فان صلته بهم وشيجة فهو أديب مجيد وشاعر رقيق تهزه الأريحية وتتملكه موسيقا الشعر ، فيسح عليهم وسميه وتهمى ديمه ،ولأنه رأى أن يتشبه بعظماء الخلفاء ممن قربوا الشعراء وأدنوا مجالس الأدباء والعلماء كعبد الملك والرشيد والمأمون فغمرهم بلجينه ليروى منبت عزهم ومعين شعرهم ومهبط وحيهم وسماء فيضهم ، ولأن دولة الأدب سناد قوى لدولة السياسة وعماد حصين لرجالها يذيعون حسناتها ويذودون عن رجالاتها ، فجمع حوله من فحول الشعراء من لم يجتمع مثله لأمير أو خليفة قبله ؛ فالمتنبي وأبو فراس الحمدانى ، والصابى والموصلى والببغاء والوأواء وغير أولئك وهؤلاء جعلهم فى حياطته ينشدون محامده ويدبجون مدائحه ، ولا يعرف تاريخ الأدب ممدحاً مدح بعشرة آلاف بيت من عيون الشعر سوى سيف الدولة . قال الثعالبى فى يتيمته فى ترجمة سيف الدولة :

(كان كل من أبي محمد عبد الله بن محمد القاضى الكاتب ، وأبى الحسن على بن محمد الشمشاطى قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت)

ولأن سيف الدولة كان أرفع أمراء الدولة قدراً وأوسعهم مُلكاً وأقواهم سلطاناً هرع إليه الشعراء وكان زعيمهم من يصل سببه بأسبابه

لذلك ولغيره سار أبو الفرج فى ركابه فعاش طوال عمره وفياً له ولابنه من بعده ، فمدائحه فيض قلبه ونبعة حبه لا رغبة فى ولاية ، ولا خوفاً من وشاية ، ومتى كان الشعر باعثه الشعور ومصدره الوجدان ، بلغ أقصى الجودة والإحسان ؛ ولا شك أن اللهى تفتح اللهاة . قيل إن سيف الدولة ضرب دنانير للصلاة عليها اسمه ورسمه وأمر عقب ضربها بعشرة منها لأبي الفرج فانطلق منشداً :

نحن بجود الأمير فى حرم ... نرتع بين الشعور والنعم
أبدع من هذه الدنانير لم ... يجر قديماً فى خاطر الكرم
فقد غدت باسمه وصورته ... في دهرنا عوذة من العدم

فزاده عشرة أخرى ، فهو لهذا قمين بالوفاء له لم يتغير عن وده فى قربه أو بعده ، ولكن هذا لم يمنعه أن يمدح غيره من لداته لا من عداته ، ولعل هذا يرسل إلينا قبساً من أخلاقه وسيكشف لنا ما سنقدمه من شعره ونثره عن خلال كريمة وموعدنا بدراسة نثره وشعره عدد تال

« المعادى » **عبد العظيم على قناوى**

من وحي الشجرة الضالة

على طريقة الشعر المنثور

للأستاذ خليل هنداوى

— ١ —

ما تقول الشجرة ...

من هو هذا الضال الذي ملأ سكينتى نداؤه ؟

وما عسى يفعل الضال فى ظلالى ؟

أيبتنى منى هداه ؟

و كيف يجد هداه من لا ينطوى قلبه على هدى ؟

أنا لست ضالة وإن رأيتنى فى وحدتى ووحشتى :

أنا لست صامتة وإن لم تسمع لسانى !

أنا لم أعتزل رفيقاتى ولو شئت الاعتزال لما استطعت !

وكل مابى من جذور يتصل بجذورهن تحت الأرض الصامتة ،

وكل ما يجرى فى عروقهن من دم الأرض يجرى فى عروق!

— ٢ —

لا تحدثنى عن الاعتزال !

إن التفكير فى الاعتزال هو مرض الحياة !

نحن هنا فى دائرة الوجود الشاملة يتصل بعضنا ببعض !

أيستطيع عالم من هذه العوالم المختلفة أن يحيا منعزلا !

نحن على ضلال ما ظللنا نطلب الاعتزال !

— ٣ —

ألا أين هذه النار التى ستضرمنا ؟

ألا حبذا النار !

لأنها عنصر موحد ... لا يترك وراءه إلا الرماد !

ينبغى لنا أن نحول رماداً حتى نشعر بالاتصال !

— ٤ —

لست ضالاً إلا حين تعتقد أنك جئتنى منفصلا !

وأنت ترى أن كل جذورك متعلقة بجذور الأرض

وأن خيالك متمنطق بجميع آفاق السماء !

أأنت قادر على بتر جذورك وقطع خيالك

ومن أمامك ومن ورائك سلسلة حلقاتها لا تتناهى !

— ٥ —

إن فى جسدى جزءاً منك

وفى جسدك جزءاً منى ...

ونحن لا ندرك هذه الأجزاء الغريبة فينا حتى نقدر على اقتلاعها ، لأنها أجزاء تآخت مع أجزائنا

— ٦ —

لم تخلق الحياة جزءاً يستطيع أن يحيا منفصلا !

حتى الأموات الذين أكلوا دوراتهم يبقى اتصالهم بأرواحنا!

وهل يستطيع الأحياء أن يعيشوا بغير أموات ؟

إنهم فى يقظاتهم يمشون وراء خواطرهم وأفكارهم !

وهم فى أحلامهم يعيشون فى جزائرهم النائية ...

أن إبادة الحياة لبعضها الموجود ثم تكريرها لبعضها المفقود هما سواء فى معنى الاتصال ! ...

قل معى كما أقول ...

لتدخل كل الأكوان فى روحى فإنها واسعة جداً !

ولتتزاحم كل الآفاق فى عينى فإنها لا تضيق ...

وليتمثل لى الفناء كاشراً عن أنيابه فلن يروعنى

لأننى جزء هائم من أجزاء الحياة الثابتة التى لا تقدر الحياة نفسها على هضمى ...

هى تحملنى تائهة من مكان إلى مكان !! إلى التربة التى أنجم فيها جديداً لأناجى فيها كل الأكوان

— ٨ —

قل للحياة ...

اصنعى بى ما تريدين ! فأنا حياة مثلك !

واجعلينى إذا شئت رماداً لغذاء الزهور المتفتحة ... إننى سأغذيها بقلبى !

لأن هذه الزهور المتفتحة تدرى مثلى أنها تأكل رماد زهور كانت تحيا مثلها ...

ليس سر الحياة فى الذرة أن تشعر بأنها حبة !

إن سر الحياة فى كل ذرة أن تؤدي الغاية من حياتها ثم تمضى لتأتى الذرة الثانية التى نشأت فى حضنها ...

أنت من حياتك تمثل كل يوم هاتين الذرتين ، فمثلهما على وجههما الأسمى الذي تنشده الحياة

خليل هنداوى

الحرف العربى والافرنجى

لأستاذ جليل

قرأت فى (الرسالة الغراء) قطعة (الدمام) التى فيها شرح اللعس ... ووصية الزمخشرى ... — ولن نعمل بها — بلن الاعتزالية — إن شاء الله — فلما وصلت إلى « شارع عماد الدين ، هذا شارع موهي الدين » كركرت (١) وقهقهت ، وقلت فى نفسى : لو ماشت جماعة من العرب أصحابنا الكماليين فى اتخاذ تلك الحروف المسماة باللاطينية (٢) لأمسى محيي الدين Mouhiddin موهى الدين وتذكرت حديثاً طريفاً أحببت أن أقصه على قراء الرسالة :

فى الاسكندرية رجل تركي يكتب بالعربى ، والدجاج يخطب أيضاً ويكتب ... وهو مولع بحرية القول ، والحرية — يا أخا العرب — من غرائز هذا الجيل (٣) (الترك) منذ القديم ... وقد عرفت مصر حرية القوم المعرفة البليغة المتقنة ...

ولاقانى هـذا الرجل ذات يوم وعلق يطنب فى تقريظ الكماليين ، وفى تجديدهم ، وفى هذه الحروف التى استبدلوها بالقديمة ، فقلت له : يا شيخ ، اسمع : أما ذلك العظيم فان اجلالى إياه ينسف هرفك به . ووالله ماذكرته فى وقت إلا تذكرت أبيات حفص بن الأحنف الكنانى فى ربيعة بن مُكَدَّم :

لا يبعدَنّ ربيعةُ بنُ مكدّم وسقى الغوادى قبرَه بذَنوب (٤)
نفرتْ قلوصى من حجارة حَرّةٍ
بُنيت على طَلْق اليدين وهوب (٥)
لا تنفرى (يا ناق) منه فانه شِرّيب خمرٍ مِسعرٌ لحروب (٦)
لولا السفار وبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمهٍ
لتركتها تحبو على العرقوب (٧)

فالرجل فوق ما فى نفسك ، وهو بطل من أبطال هذا الزمان ؛ وأما ذلك التجديد فليس لليوم أن يقضي فيه قضاءه ، وللغد الحكم فتنظر أأحسن القوم أم أساءوا . وأما تلك الحروف الإفرنجية فما عمل الكماليون شيئاً ، كانوا يكتبون من اليمين ، فصاروا يكتبون من الشمال

قال : لم أفهم

قلت : الحرف العربى هو الحرف الإفرنجى نفسه ، والحرف الأفرنجى هو الحرف العربى عينه (وأنفه)

قال : زدنى إيضاحاً

قلت : هات نُتفة ورقة ، رَ ، أنظر ، تكتب اللام من اليمين بالعربى هكذا (ل) وتكتبها بالإفرنجى من الشمال هكذا (L) ، وتكتب النون العربية بهذه الصورة (ن) والإفرنجية بهـذه الصورة (N) بسبب رقمك إياها من جهة الشمال ، والجيم العربية هى هذه (ج) ، والجيم الأفرنجية هى هذه (G) ، وهذه سيننا (س) وهذه سين الفرنج (S) . وقس على ماذكر ما لم يذكر . وللجهة (جهة اليمين أو الشمال) أثر فيما تخاله اختلافاً ، فالحروف واحدة غير أن الحضارة العربية — التى مدّنت أوربة كما يقول الإفرنج (١) — قد نقحت الحرف العربى وحسنته ؛ فالاختلاف الظاهر هو من حرف تقدم وارتقى وهُذّب ، ومن حرف وقف . ولو استبدل مثلُ الصينى بحرفه الحرف العربى أو اللاطينى لكان له عذر مقبول ، ولكن قومك قل لهم : « أتستبدلون الذى هوَ أدنى بالذى هو خير ؟ ! »

ولما ندب الكماليون ذلك العالم الأوربي منذ بضع سنين ليفتش المدارس العالية فى اصطنبول ، وشاهد من تقهقرها بتغيير الحروف ماهاله ، نصح للترك أن يعودوا سريعاً إلى الحروف العربية

فلما أوريت (٢) صاحبنا التركى الذى يكتب بالعربي حراً ما أوريته ، وأنبأته بحديث العالم الغربى وجم وجوما « فبُهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين »

« الاسكندرية »

(***)

(١) قرقر الضاحك وكركر (الاساس)

(٢) هذه كتابة العرب وعلمائهم واليوم يقولون : اللاتينى

(٣) عنده من الناس أجيال أى أصناف : جيل من الترك وجيل من الخزر (الاساس)

(٤) استعار الذنوب للغيث وإنما أصله فى الدلو المملوءة ماءاً والمقاربة للملء (التبريزى)

(٥) الحرة : أرض ذات حجارة سود

(٦) المسعر الذى كأنه آلة فى إيقاد الحروب (التبريزى) يا ناق : مرخمة فالفتح على لغة من ينتظر والضم على لغة من لا ينتظر

(٧) الخرق : الارض الواسعة

(١) قال لوبون فى كتابه مدنية العرب :
Au point de vue intellectuel et moral ils ont civilisé l' Europe
(الصفحة ٦٧٧)

(٢) قال الزمخشري : سمعتهم يقولون : أورنيه بمعنى أرنيه ، من الورى أى أبرزه لى ، وذكر فى (الكشاف) أنه قرئ . سأوريكم

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١١ —

١ — « إن المرأة للشاعر كحواء لآدم . هي وحدها تعطيه بحبها جديداً لم يكن فيه ؛ وكل شرها أنها تتخطى به السموات نازلا ... »

٢ — « إن النابغة في الادب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق ... »

٣ — « ... إن ملكة الفلسفة في الشاعر من ملكة الحب ؛ وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في علم الكلام بإبهامها وثرثرتها ... » (الرافعي)

الرافعي يعشق ...!

أ تراني أستطيع الحديث عن الرافعي العاشق فأوفّق القول وأبلغ الغاية ... ؟

وهل يكون لي أن أدعى أنني أكتب في هذه الصفحات تاريخ الرافعي إذا أنا لم أعرض لحديث الرافعي العاشق ... ؟

وهل خلتْ فترة في حياة الرافعي من الحب ؟

ذلك الرجل الذي لا يتخيله أكثر من لم يره إلا شيخاً معتجر العمامة مطلق العذبة مسترسل اللحية مما قرأوا له من بحوث في الدين وآراء في التصوف وحرص على تراث السلف وفطنة في فهم القرآن مما لا يدركه إلا الشيوخ بل مما لا يدركه الشيوخ ...

هذا الذي يكتب إعجاز القرآن وأسرار الإعجاز ، والبلاغة النبوية ؛ ويصف عصر النبوة ومجالس الأئمة وكأنه يعيش في زمانهم وينقل من حديثهم ...

هذا الذي كانت تتصل روحه فيما يكتب – من وراء القرون – بروح الغزالي ، والحسن البصري ، وسعيد ابن المسيّب ؛ فما تشك أن كلامه من كلامهم وحديثه من إلهام أنفسهم ...

هذا الذي تقرأ له فتحسبه رجلاً من التاريخ قد فر من ماضيه البعيد وطوى الزمان القهقري ليعيش في هذا العصر ويصلَ حياة جديدة بحياة كان يحياها منذ ألف سنة أو يزيد في عصر بعيد ...

... هذا الرجل كان عاشقا غلبه الحب على نفسه وما غلبه على دينه وخلقه ...!

إن الحديث عن حب الرافعي لحديث طويل ؛ فما هي حادثة أرويها وأفرغ منها ، وحبيبةٌ واحدة أصفها وأتحدث عنها ؛ ولكنها حوادث وحبيبات ، وعمر طويل بين العشرين والسابعة والخمسين ، لم يشرق فيه صباح ولم يجنّ مساء إلا وللرافعي جديدٌ في الحب ؛ بين غضب ورضى ، ووصل وهجر ، وسلام وخصام ، وعتب ودلال ، وحبيب إلى وداع وحبيب إلى لقاء ... وشابَ الرافعي وما شاب قلبه ، وظل وهو يدب إلى الستين كأنه شاب في العشرين ... ومات وعلى مكتبه رسالة ودادٍ من صديقة بينها وبينه جواز سفر وباخرة وقطار ، وكان في الرسالة موعد إلى لقاء ...!

* * *

وقلت للأستاذ الزيات مرة وبين الرافعي وبين أجله عام : هل لك في موضوع طريف عن الرافعي أنشره لقراء الرسالة ؟ إن للرافعي في الحب لحديثاً يلذ ويفيد ...

قال : ومن لي بهذا ؟

قلت : أنا لك

قال : ولكنه حديث يُغضب الرافعي !

قلت : وعليّ أنا أن يرضى ...

وذهبت إلى الرافعي فأفضيت إليه بعزمي . قال : أو تفعلها ؟ أفكان لهذا مجلسُك مني كل مساء تسترق السرّ لتدخره إلى يوم تنشره فيه على الناس بثمن ...؟

قلت : لو أنه كان سراً لم يعلمه غيري ما عقدت العزم على شئ ولكنك ياسيدى ...

وما كان للرافعي سر يستطيع أن يطويه بين جوانحه يوماً وبعض يوم ، فكأنما أذكرُته ما كان ناسياً ؛ فعاد يقول : وماذا تريد أن تقول في حديثك عن حبي ؟

قلت : حديثاً لو همّ غيري أن يجعل منه مقالاً لقرائه لما كان الرافعي هو الرافعي عند من يقرؤه ، ولكن أحسبني أنا

وحدي الذى أستطيع أن أقول إن الرافعى كان يحب فما أغيّر شيئاً من صورة الرافعى كما هو فى نفسه وكما هو عند من يعرفه ... إنني أنا وحدى الذى أعرف الحادثة وجوَّها وملابساتها وما كان فى نفسك منها ؛ ولعلى يوم عرفتُ كنت أسمع نبضات قلبك وخلجات وجدانك ومرمى أملك وما كانت غايتك فى الحب ومداك . أما غيرى فهل تراه يعرف إلا الحادثة ؟ وحسبه أن يقول : إن الرافعي يحب ... ثم تكون الفضيحة التى تخشاها وأنت منها طاهر الإزار ...

واستمع الرافعى إلى حديثي ثم أطرق هنيَّة وعاد يسألنى : وهل أقرأ ما تُعِدّه قبل أن تنشره ، أو يكون يومك كأمسك؟ (١)

قلت : لك ماتريد

قال : أنت وشأنك !

***

وأجمعت أمرى ، وأعددت فكرى ، وتهيأت للكتابة ، ثم شغلتنى العناية بطبع (وحى القلم) وتصحيح تجاربه عن الوفاء بما وعدت ... ومات الرافعى !

فإن يكن فى الحديث عن (الرافعي العاشق) حرج فلا علىَّ فقد استأذنته فأذن ، وما أكتب الآن إلا مستمداً من روحه ، راوياً من بيانه ، ولدىَّ شهودى من كتبه ورسائله ، وما يعرفه أصدقاؤه وصفوته . وإذا كان الرافعي قد خفت صوته إلى الأبد فلا سبيل إلى أن أسمع رأيه فيما أكتب عن تاريخ قلبه ، فإنى لمؤمن شديد الإيمان بأننى ما أزال فى رضاه ومنزلتى عنده وإن كان بيننا هذا البرزخ الذي لا أعرف متي أجتازه إليه فأسمع من حديثه ويسمع من حديثي !

الحب عند الرافعى

وهل فى الحب عار أو مذمة ؟

هذا سؤال يجب أن يكون جوابه إلى جانبه قبل أن أمضى فى هذا الحديث ...

أما الحب الذى أعنيه — وكان يعنيه الرافعي — فشىء غير الحب الذى يدل عليه مدلول هذه الكلمة عند أبناء هذا الجيل ...

إن الحب عند الناس هو حيلة الحياة لإيجاد النوع ؛ ولكنه عند الرافعى هو حيلة النفس إلى السموّ والإشراق والوصول إلى الشاطئ المجهول ؛ هو نافذة تطل منها البشرية إلى غاياتها العليا ، وأهدافها البعيدة ، وآمالها فى الإنسانيـة السامية ؛ هو مفتاح الروح إلي عالم غير منظور تتنوَّر فيه الأفقَ المنيرَ فى جانب من النفس الإنسانية ؛ هو نبوَّة على قدر أنبيائها : فيها الوحى والالهام ، وفيها الإسراء إلى الملأ الأعلى على جناحَى ملك جميل ... هو مادة الشعر وجلاء الخاطر وصقال النفس وينبوع الرحمة وأداة البيان

كذلك كان الحب عند الرافعي ، ولذلك كان يحب ... وسعى إلى الحب أول ما سعى على رجليه ، منطلقاً بإرادته ليبحث فى الحب عن ينبوع الشعر ، فلما بلغ أغلق الباب من دونه فظل يرسف فى أغلاله سنين لا يستطيع الفكاك من أسر الحب ؛ وكانت (عصفورة) أول من فتح لها قلبه فسيطرت عليه وغلبته على نفسه ؛ وكانت سنه يومئذ إحدى وعشرين ...

وبلغ الرافعي بعصفورة إلى غايته ، واشتهر (شاعرُ الحسن) وترنم العشَّاقُ بشعره وما بلغت عصفورة إلى غايتها . ثم مضى كل منهما إلى طريق . وأُتمّ الرافعي طبع ديوانه . وكما ينتهى الحب الذى هو حيلة الحياة لإيجاد النوع إلى الزواج أو إلى الغاية الأخري ثم يبدأ في تاريخ جديد — كذلك انتهى حب الرافعي وعصفورة وأنجب ثمرته الشعرية ، ثم كان تاريخ جديد ...

وعلى مثال هذا الحب كم كانت له حبيبات وكم أنجبت ثمرات ؛ وإنه ليخيل إلىَّ أن الرافعي كان كلما أحسَّ حاجةً إلى الحب راح يفتش عن (واحدة) يقول لهـا : تعالى نتحابَّ لأن فى نفسى شعراً أريد أن أنظمه أو رسالة فى الحب أريد أن أكتبها ... ! ولقد سمعته مرة يقولها لإحداهن ... وسمعت إحداهن مرة تقول له : متى أرانى فى مجلسك مرة لتكتب عنى رسالة فى « ورقة ورد » ؟

---

(١) يشير الرافعى بهذا إلى حديثى عنه فى الرسالة صيف سنة ١٩٣٥ ، وكان الأستاذ الزيات قد طلب إلى أن أكتب شيئاً مما أعرف عن الرافعى يعرّفه إلى قراء الرسالة ، فصدعت بأمره وكتبت حديثاً فى ثلاث مقالات لم يعلم بها الرافعي ولم يقرأها إلا منشورة ، فغضب غضبة هادئة كبعض غضبه ، وكتب إلى الأستاذ الزيات يعتب عليه أن يشجعنى على ذلك (العقوق) وأن ينشر لى هذه (التخليطات الظريفة) من غير أن أرجع إليه ليصحح بعض معلوماتى

على أن الرافعى كان له إحساس عجيب فى مجالس النساء ، وكان لهن عليه سلطان وله سحر وفتنة . وهو فى هذه المجالس فكِه مداعب رائق النكتة لا تملك السيدة الرَّزَانُ فى مجلسه إلا أن تخرج عن وقارها ؛ وكانت هذه أداته فى استمالتهن حين يلتمس الوحى أو يجد الحاجة إلى أن يقرأ شعراً في عينٍ ساحرة . فإذا استوى له ما أراد عاد إلى مكتبه لينشىء وينظم وتنتهي قصة حب

وكان يسمى كل جميلة (شاعرة) لأنها هى تمنحه الشعر ، و (الشواعر) عنده طبقات ، على مقدار ما يمتّن فيه من الشاعرية ويرهفن من إحساسه ؛ ففلانة شاعرة كالمتنبى ، وهذه كالبحترى ، وتلك بنت الرومى ، ورابعة بشار بن برد ، وخامسة عبدالله عفيفى أو شاعر الرعاع ... !

وحين يجلس فى شرفة قهوة (لمنوس) بطنطا وتمر به الجميلات فى رياضتهن أو فى حاجتهن ، تسمع ثبتاً حافلاً بأسماء الشعراء يبدأ من مهلهل بن ربيعة وينتهى بفلان الذى يؤمل أن يكون أمير الشعراء بعد أن يموت كل الشعراء ... !

هذه لمحات أذكرها على غير صلتها بالموضوع لأنها تشير إلى بعض عناصره ؛ على أننى وقد بلغت هذا القدر من الحديث لم أبدأ القول بعدُ عن حب الرافعى الذي حاولتُ هذا المقال لأتحدث عنه

إنها حادثة وقعت فى تاريخ الرافعي وسنه ثلاث وأربعون سنة فأنشأته خلقاً جديداً ، كانت دعابة من مثل ما قدَّمتُ فأوشكت أن تكون علة ، فلما اختار الله له أنقذه بكبريائه من دائه ، ولكنه خلّف فى قلبه جرحاً يَدمَى ، ولكنها كانت بركة في الأدب وثروة في العربية

من تكون هذه الشاعرة التى غلبته على إرادته فغلبها بكبريائه ؟ ماشأنها وما خبرها ؟ هذا موضوع حديثى فى العدد القادم

محمد سعيد العريان

العـــدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

دراسات فى الأدب الانكليزى

جون ملتون

للأستاذ خليل جمعة الطوال

تابع ما نشر فى العدد الماضى

على أن كرمويل ما لبث أن توفى ، فكان موته زلزالاً عنيفاً قوض دعائم ذلك الدستور الذى شاد بيده الحديدة بنيانه ؛ وزاد فى الطين بلة ضعف خلفائه السياسى ، فعادت الملكية إلى مكانتها السابقة ، وكان طَبَعِيًّا أن تنتقم من البرلمانيين، وتثأر منهم لعرشها المغصوب وعزها المسلوب . أما ملتون فقد أدرك ما للملكيين عنده من الثأر الجسيم ، وذلك لما نالهم منه من الطعن والامتهان والزراية ، فأوجس خيفة من شرهم وانتقامهم ، فتوارى عن عيونهم مدة من الزمن تجنباً لكيدهم ؛ إلا أن هؤلاء بثوا وراءه العيون والأرصاد ، فتمكنوا من القبض عليه ، وزجوه فى غياهب السجن وغرموه غرامات مالية فادحة ؛ ثم سيق للمحاكمة ، وقد كاد يحكم عليه بالإعدام لو لم يدافع عنه أمام المحكمة أشهر رجال المحاماة فى ذلك العصر

وفى عام ١٦٦٢ م اعتزل ملتون السياسة ، إذ فقد بصره وأصبح غير قادر على الاتصال الفعلى بالهيئة البشرية الاجتماعية ، والاشراف على أحداثها السياسية والدينية والاجتماعية ، فقصر وقته لذلك على الدرس والاجتهاد ، وأكب على التأليف حتى نبه صيته فى جميع الأوساط الأدبية كشاعر فذٍّ وكاتب بليغ ، ومع اعتزال ملتون الفعلى للأمور السياسية فقد ظل يهز الرأى العام بكتاباته وشخصيته الفينة بعد الأخرى ، وهو وفيذ وحدته ، ووحيد عزلته . وما هى إلا ثلاث سنوات قضاها فى عقر بيته منعزلا عن المجتمع حتى أخرج للعالم ملحمته الشهيرة المعروفة بالفردوس المفقود وهي أعظم سفر أدبى فى سجل الأدب الانكليزى ؛ وقد لانجد لها حتى اليوم مثيلاً إلا بالرجوع إلى الملاحم العالمية السبع (١)

(١) هذه هى الملاحم العالمية الثمانية كما عدها الأستاذ W. H. Stephenes

(1) Ilisd (2) Odyssey (3) Aeneid
(4) Niebelungen (5) Lied (6) Divine comedy
(7) Jerusalem Delivred (8) Paradise last

الفردوس المفقود

لقد أجمعت الآراء على أن ملحمةَ الفردوسِ المفقودِ في الأدب الانكليزي كالألياذة فى الأدب اليونانى والكوميديا الالهية فى الأدب الايطالي ، وأنها فى شهرتها الواسعة هى الثالثة لهاتين اللحمتين العالميتين . ولئن وجد فيها بعض المتحذلقين من نقدة الأدب مجساً لمشارطهم ومغمزاً لمباضعهم ، إلا أن ذلك لا يمنع الأديب المنصف من أن يرى فيها للأدب الانكليزى تعويضاً عادلاً لركوده وتغلب الموجة السياسية عليه فى عهد الإحياء (New Birth)

لم ينظم ملتون هذه الملحمة الشهورة دفعة واحدة ، ومن المؤكد أنه ابتدأ نظمها بعد أن اعتزل السياسة ، وبعد أن فقد بصره . ولقد أملى أبياتها على أكثر من كاتب واحد ، يدل على ذلك نسخها الخطية الأصلية التى لا تزال محفوظة فى مكتبة « كلية ترنتى » فى « كمبردج » . وقد طبعت لأول مرة عام ١٦٦٧ فى عشرة أجزاء ، ثم نقحت وزيد عليها جزءان آخران ، وطبعت للمرة الثانية فى اثنى عشر جزءاً وذلك عام ١٦٧٤ . أما موضوعها فقد استمده من الكتاب المقدس ، وأوحى إليه بمادتها الجزلة ذلك النزاع الخطير الذى قام في إنكلترا من اصطدام المبادئ الديمقراطية التى ترمى إلى رفع لواء حرية الشعب الدينية والسياسية بالمبادئ الملكية الأرستقراطية التى غايتها جعل شئون الأمة وحريتها فى أيدى الملوك كالآلة الصماء يديرونها فى لهوهم وعبثهم أنى شاءت لهم أنانيتهم وكيفما رغبت أهواؤهم . وإذ كان لا بدّ للأدب الحى من أن يصور المجتمع فى سلمه وحربه ، ويجارى الزمن فى تقلبه وتطوره ، فقد صور ملتون ذلك النزاع الخطير الذى خاض غماره فى ملحمته هذه تصويراً دقيقاً لا مزيد عليه

لقد كان الدين إذ ذاك مشتجر الأراء ، ومصطرع البطانات ، ومحور الخلاف بينها ؛ وكان لا بد لمن أراد أن يكون مبرزاً فى هذا الميدان الديني من أن يكون ملماً بجميع النصوص الدينية ، ولذلك أقبل الأدباء على الكتاب المقدس يتدارسونه وعلى الانجيل يتدبرونه ، طمعاً فى الشهرة والفوز ؛ وقد كان ملتون أبعدهم فى ذلك غوراً وأكثرهم فى الدرس مطالعة واجتهاداً يحفزه عليه سُعاره للشهرة ، وحبه للجاه ، وطموحه للسمو والمجد ؛ ناهيك بتوقد فطنته ، وطاعة ذهنه ، وتوثب شاعريته ، ولذا فلا عجب إذا رشحت دراساته للدين ، وتغلغله فى ثناياها بمثل ملحمة « الفردوس المفقود » التى اختلف الأدباء على تقديرها ، وانقسموا إزاء تمجيدها شأن انقسامهم إزاء كل أمر خطير ، إذ كانوا في ذلك بين منتقص ذى هوى لم يسلم من الغلو والاسراف ، ومطنب فى المديح لم يسلم من التحذلق والإغراق ؛ وليس أدل على هذا من هذه الفقرات الموجزة التى نثبتها فيما يلى بإسنادها إلى أصحابها تاركين للقارئ حريته فى تمييز غَثِّها من سمينها

رأى جونسون

لقد مهد جونسون لرأيه فى ملتون بما قرره « بوصو » عن الشاعر المجيد إذ يقول : « الشاعر الفذ المجيد هو الذى ينظم قصيدته وينشرها لغاية سامية ينشدها ومثل عليا يتطلبها ، وتكون الحقيقة فيها هى بيت القصيد بل أسها الذى تقوم عليه ؛ وما الخيال بجانبها إلا أداة طيعة يمهد بتلفيقه سُبُلَ الوصول إلى غايته المنشودة ومُثُله العليا المقصودة » ، ثم جعل من هذه الفقرة الموجزة دستوراً للنقد ومحكا للشعر يعرف بها غَثُّ القصائد من سمينها — ولو إلى حد — وأخيراً قال : لقد ألف ملتون ملحمة الفردوس المفقود ليمهد للدين سُبُله الوعرة التى ضلت فيها عديد البطانات وليدحرج من هذه السبل تلك الصخرة الناشزة التى تحطمت عليها مختلف العقائد ، وتنكرت أمامها أكثر الحقائق ؛ ولعله لم يكن له من غاية أخرى سوى نظم الحقائق الدينية ، ونقلها إلى الغير عن طريق القلب لا العقل ، وبصورة لا أثر فيها ألبتة لالتواء اللاهوت وإبهامه ، ولتعسفِ المنطقِ واحتمال تأويلاته ، ولكنه لم يوفق إلى ذلك ، إذ جمح به الخيال حتى أخرجه عن دائرة الحقيقة ، وشردت به الشاعرية المتوثبة حتى أبعدته عن منطقة المعقولات ؛ فجميع أغراضه متنكرة كأنها لغز غامض ، وتعابيره ملتوية كأنه يقول شيئاً ويريد غيره ، وصوره شائهة حتى لكأنها من تلفيق الخيال المحض الذى لا حقيقة له فى الوجود . وبالجملة فإنه ليس فيها من أثر لما يريد خلا ما كان من بعض القوافي المقوتة المصطنعة ، والألفاظ المزركشة الآبدة ، والتعابير المستعصية الغامضة ، التى ينبو عنها الطبع وينشز منها الذوق

رأى ماكولى

الفرق بين أشعار ملتون ودانتى كالفرق بين الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة التصويرية المكسيكية ؛ فبينا يصور الثانى إحساساته صورة لفظية كاملة ، وينفض عليك عواطفه كما جاشت فى صدره واعتلجت فى قلبه ، إذ بالأول لا يزيد فى وصفه على الإشارة الغامضة ، ولا في تصويره عن الصورة المبهمة للشيء — أى المسودة — ذلك يصف الأشياء بجزئياتها ، وهذا يحيطها بستر كثيف من التورية البعيدة ، والاستعارة الدقيقة ، التى لا تظهر معها إلا بعد إعمال الفكر وكد الخاطر . وأكاد أجزم جزم اليقين أن ليس بين الأدباء من قرأ ملحمة الفردوس المفقود فعلقت شحنتها بشغاف قلبه ، أو هزت نبراتها وتراً من أوتار حسه. وعندى أنها ليست فى الشعر إلا كالأحاجى فى اللغة ، ولولا ثوب الشهرة الفضفاض الذى يضفيه الأدباء على ملتون فى غير استحقاق لكانت ملحمته هذه صفراً على هامش الأدب ؟؟!

رأى هزلت

لقد كان شكسبير يعنى بنقد المجتمع وسوءاته أكثر من اعتنائه بنقد الديانات وطوائفها ، وكان أيضاً ينظم الشعر بدافع الفطرة الشعرية الكامنة في نفسه لا بحافز الشهرة الذاتية ، ولهذا كان مغايراً لملتون كل المغايرة ؛ وذلك لأن ملتون كان مصاباً بسعار الشهرة ، وشديد التمسك والتعصب لمبادئه الطهرية الدينية . لقد كان كلاهما شاعراً فذاً ، إلا أنه بينا يَسيرُ الأول — شكسبير — وراء خياله وعاطفته ، إذ بالثانى — ملتون — يُسيِّرُ خياله وعاطفته وفق إرادته ؛ فعاطفة الأول هي التى تدفعه إلى قرض الشعر ، بينا إرادة الثانى هى التى تستكره خياله على النظم ؛ ذاك تتسم أشعاره بعفو الخاطر وبداهة الفطرة وتوقد العاطفة ، وهذا تتسم قصائده بجهد الفكر ، وغزارة المعرفة ، ومسحة العقل ، وتصنع الخيال ، وبرود العاطفة ؛ ذاك تتسم أشعاره بحرارة القلب الملتهبة ، وهذا بغزارة العقل الرائعة

لقد كان ملتون محباً للوحدة ، على حين كان شكسبير مغرماً بالمجتمعات الزحمة ، ولذا فبينا يصور الأول — على العموم — نفسه بأشعاره ، إذ بأشعار الثانى صورة جلية لمحيطه ، ومرآة مجلوة تنعكس عنها مرئيات بيئته . كان ملتون مشغوفاً بالدرس والمطالعة ، بينا كان شكسبير لا يجد اللذة والراحة إلا في مطاوي الطبيعة ومناجاة أسرارها ومحاكاة مرئياتها . ذاك — أى ملتون — يمثل بأشعاره قوة العقل وسلطان الإرادة ، وهذا يمثل حرارة العاطفة وسلطان القلب

على أنه ليس فى هذا ما يمنعنا من أن ننظر إلى ملحمة الفردوس المفقود نظرنا إلى الإلياذة والأوديسة — أو القدس المحررة — لتاجور ؛ ذلك لأنها وإن كانت تتسم بقوة العقل وجبروته إلا أنَّ فيها من حرارة العاطفة ما يهتاج له القلب ، ويعتلج له الصدر . ولئن دقتْ تعابيره ، والتوتْ أغراضه ، وسما أسلوبه فى بعض المواضع ، فما ذاك إلا لسمو الفكرة التى يصورها ودقة التعبير عنها ولأنه يخاطب بأشعاره الخاصة لا العامة

لم يتقيد ملتون فى ملحمته « الفردوس المفقود » بالتزام قافية واحدة ، وليس ذلك لعجزه وضعفه ، فقد كانت القوافى أطوع لخاطره من بنانه ، كيف لا وهو أعلم بأوابد اللغة وشواردها ؟ ولكن لأنه رأى فى القافية قيداً للعاطفة يجب التحرر منه

(البقية فى العدد القادم) **خليل جمعة الطوال**

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٨٣ — الله والنبي والعيد العربي

في رسالة لأبي الفضل احمد بن الحسين الهمذاني (بديع الزمان) (١):

إن عيد الوَقود لَعيدُ إفك، وإن شعارَ النار لشعار شرك. وما أنزل الله بالسذق (٢) سلطاناً، ولا شرّف نيروزاً ولا مِهرجاناً (٣). وإنما جعل الله (تعالى) النار تذكرة ومتاعاً (٤)، ولم يضرب لها عيداً، ولم يجعلنا لها عبيداً. الله والنبيّ، والعيد العربيّ، والتكبير الجهير، وتلك الجماهير، والملائكة بعد ذلك ظهير، والرحمةُ صوباً (٥) وصبّا، والبركات فيضاً وفضاً (٦)، والموسم الطاهر من لغو الحديث. هذا هو العيد، وذلك هو الضلال البعيد...

٢٨٤ — ... والوجوه قباح

الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن:

لايوحشنّك أنهم ما ارتاحو ... مما جلاه عليهم المُداحُ

فهمُ كقوم عُلّقت بإزائهم ... بيضُ المرائي والوجوه قباحُ (٧)

(١) كتبها إلى الشيخ الرئيس أبي عامر في معنى السذق

(٢) السذق: ليلة الوقود يقال فارسيته سذه. في نهاية الأرب: وهم يوقدون النار بسائر الأدهان، ويزيدون في الولوع بها حتى إنهم يلقون فيها سائر الحيوانات

(٣) في (الألفاظ الفارسية المعربة): عيد الفرس من (مهر) المحبة و (كان) — فوق الكاف ثلاث نقط — المتصلة. وفي (المصباح) معناها محبة الروح. في (نهاية الأرب) وقوعه في (٢٦) من تشرين الأول من شهور السريان. وكان مذهب الفرس فيه أن يدهن ملوكهم بدهن البان وكذلك عوامهم الخ

(٤) في (الكتاب) الكريم: «أفرأيتم النار التي تورون؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين» أقوي: افتقر

(٥) مصدر محذوف الفعل وجوبا وجملة المحذوف خبر المبتدأ (الرحمة)

(٦) من فض الماء: سال: وفض لازم متعد

(٧) قال صاحب دمية القصر: هذا معنى لم يأت بمثله فكر، وعندي — والضمان علي — أنه بكر. (المرائي) جمع المرآة قالوا: الكثير للجمع مرايا. والأزهري يقول: من حول الهمزة قال: مرايا. وقد نقد الحريري هذا الجمع، ورد الخفاجي قوله. يقال: ترائى في المرآة وترأى (بالتشديد) وفي الحديث: لا يترأى أحدكم في الماء وزنه يتفعل حكاه سيبويه

٢٨٥ — إذن تستوي

سمع بعض الحكماء رجلاً يقول:

قلب الله الدنيا!

فقال: إذن تستوي لأنها مقلوبة

٢٨٦ — رسالة...

قال صاحب البدائع: خرج المعتصم بن صُمادح صاحب المَرِيّة يوماً إلى بعض متنزهاته فحلّ بروضة قد سفرت عن وجهها البهيج، وتنفست عن مسكها الأريج، وماست معاطف (١) أغصانها، وتكلّلت بلؤلؤ الطلّ أجياد قضبانها. فتشوّف إلى الوزير أبي طالب بن غانم أحد كبراء دولته فكتب إليه بديهاً بورقة كُرُنب (٢) بعود من شجرة:

أقبِلْ أبا طالب إلينا ... واسقط سقوط الندى علينا (٣)

٢٨٧ — لئيم العطاس

في (كامل) المبرد: يروى أن عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس — أتته وفود من الروم، وقام السِّماطان (٤) فأتي برجل منهم، وعطس أحد مَن في السماطين، فأخفى عطسته فقال له عبد الملك لما انقضى أمر الوفد: هلاّ — إذ كنت لئيم العطاس (٥) — أتبعت عطستك صيحة حتى تخلع بها قلب العِلج (٦)

(١) المعاطف: الأردية، المعطف: الرداء

(٢) الكرنب: بضم الكاف والراء وفتحهما السلق أو نوع منه أحلى وأغض من القنبيط

(٣) ولوضاح اليمن:

فاسقط علينا كسقوط الندى ... ليلة لا ناه ولا زاجر

وفي قلائد العقيان: أن المتوكل على الله (صاحب بطليوس) مر في بعض أيامه بروض مفتر المباسم، معطر الرياح النواسم، وأزاهيره تتيه على الكواكب، وتختال في خلع الغمائم السواكب. فلما حصل من أنسه في وسط المدى، عمد إلى ورقة كرنب قد بللها الندى. وكتب فيها بطرف غصن يستدعي الوزير أبا طالب بن غانم: أقبل أبا طالب، البيت وبعده

فنحن عقد بغير وسطى ... ما لم تكن حاضراً لدينا

(٤) قام القوم حوله سماطين أي صفين وكل صف من الرجال سماط (اللسان)

(٥) في رواية للجاحظ: هلا إذ كنت ضيق المنخر، كز الخيشوم

(٦) العلج الرجل من كفار العجم، والقوى الضخم منهم جمعه علوج وأعلاج (التاج) وهناك جمع آخر. ولمحمد بن ذؤيب في الرشيد:

جهير الكلام، جهير العطاس ... جهير الرواء، جهير النغم

ويخطو (على الأين) خطو الظليم ... ويعلو الرجال بخلق عمم

على الأين: مع الاعياء. عمم: جسيم

٢٨٨ — سرقت حمرة الخدود الملاح

ابن الزقاق الأندلسي :

ورياض من الشقائق أضحت   يتهادى بهـــا نسيم الرياح
زرتهـــا والغمام يلطم منها   زَهرات تفوق لون الراح
قلت : ما ذنبها ؟ فقال مجيباً :   سرقت حمرة خدود اللاح !

٢٨٩ — ليس الهوى بالاختيار

فى (نهاية الأرب) : قال رجل من أهل المدينة كان أديباً ظريفاً طلاباً للأدب والملح : كنت يوماً فى مجلس رجل من قريش ، ومعنا قينة ظريفة حسنة الصورة ، ومعنا فتى من أقبح ما رأته العين ، والقينة مقبلة عليه بحديثها وغنائها . فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا فتى من أحسن الناس وجهاً فأقبل عليّ صاحب البيت فقال : إن فى أمر هذين لعجباً ، قلت : وما ذاك ؟ قال : هذه الجارية تحب هذا (يعنى القبيح الوجه) وليس لها فى قلبه محبة ، وهذا الحسن الوجه يجدها وليس له فى قلبها محبة . قال المدنى : فقلت لها : تختارين هذا وهو أقبح من ذنوب المصرين ، على هذا الذى هو أحسن من توبة التائبين ! فقالت لى : ليس الهوى بالاختيار ، ثم أنشأت تغنى وتقول :

فلم تـلُمِ المحبَّ على هواه   فـكلُّ متيمٍ كلفٍ عميدِ[1]
يظنّ حبيبَـه حسناً جميلاً   وإن كان الحبيب من القرود !

٢٩٠ — رحمة الله عليه

(فى سيرة عمر بن عبد العزيز) لابن الجوزى : قال ابراهيم ابن هشام بن يحيى بن يحيى الغنانى : حدثنى أبى عن جدى قال : كنت عند هشام بن عبد الملك جالساً ، فأتاه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة[2] فأقرّها الوليد وسليمان حتى إذا استُخلف عمر (رحمه الله) نزعها . فقال له هشام : أعدْ مقالتك ، فقال : يا أمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان ، حتى إذا استخلف عمر (رحمه الله) نزعها . فقال : (والله) إن فيك لعجبا ! إنك تذكر من

(١) خبر المبتدأ (كل) فى أول البيت الثانى : يظن

(٢) أقطعه قطيعة أي طائفة من أرض الخراج والاقطاع يكون تمليكا وغير تمليك ، والقطائع إنما تجوز فى عفو البلاد التى لا ملك لأحد فيها ولا عمارة (اللسان)

أقطع جدك القطيعة ومن أقرها فلا تترحم عليه[1] ، وإنا قد أمضينا ماصنع عمر[2] رحمة الله عليه ...

٢٩١ — الورد والياسمين

قال هبة الله محمد النصيبي : كنت فى زمن الربيع والورد فى دارى بنصيبين[3] ، وقد أحضر من بستانى من الورد والياسمين شيء كثير ، وعملت — على سبيل الولع — دائرة من الورد تقابلها دائرة من الياسمين فاتفق أن دخل على المهذب والحسن ابن البرقميدى الشاعران فقلت لهما : اعملا فى هاتين الدائرتين . ففكرا ساعة ثم قال المهذب :

ياحسنـها دائرةً   من ياسمين مشرق
والورد قد قابلها   فى حلة من شفق
كعاشق وحبّـه   تغامزا بالحدق[4]
فاحمرّ ذا من خجل   واصفر ذا من فرق

فقلت للحسن : هات ، فقال : سبقنى المهذب إلى مالمحته فى هذا المعنى وهو قولى :

يا حسنها دائرة   من ياسمين كالحلى
والورد قد قابلها   فى حلة من خجل
كعاشق وحبه   تغامزا بالمقـــل
فاحمر ذا من خجل   واصفر ذا من وجل

فعجبت من اتفاقهما فى سرعة الاتحاد ، والمبادرة إلى حكاية الحال !

٢٩٢ — أخاف ألا أموت فى أوله

قيل لخالد بن صفوان : مالك لاتنفق ؟ فإن مالك عريض
قال : الدهر أعرض منه
قيل : كأنك تؤمل أن تعيش الدهر كله
قال : لا ، ولـكن أخاف ألاّ أموت فى أوله

(١) ترحم عليه ورحم عليه ترحيما سواء . والصاغانى يقول : الأولى لحن ، والمجد فى القاموس يقول رحم هى الفصحى ...

(٢) من قضائه العدل ما ذكره زياد بن أنعم قال : (أتى إليـه بسارق فشكا إليه الحاجة فعذره وأمر له بنحو عشرة دراهم) فليفـكر فى حكومة عمر المفـكرون

(٣) من العرب من يجعلها بمنزلة الجمع فيعربها فى الرفع بالواو الخ والأكثر يجعلونها بمنزلة ما لا ينصرف والنسبة إليها نصيبي ونصيبينى ، مدينة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام (يا قوت)

(٤) (الحب) بكسر الحاء ، هنا : المحبوب

الغنى والفقـــير

للكاتب الفرنسي «لابرويير»

بقلم الأديب يوسف جوهر

جيتون لامع البشرة ، طلق المحيا ، ممتلىء الخدين ، عينه حادة مقتحمة ، ومنكباه عريضان ، وصدره منصوب ومشيته مزهوة مختالة ، يتكلم باعتداد ، ويستعيد من يحدثه ، ثم لا يكاد يسيغ مايفضى به إليه . يخرج منديلاً ضخما ويفرغ أنفه فى جلبة شديدة ، يبصق بعيداً ، ويعطس عالياً جداً ؛ ينام فى الليـل وينام فى النهار ، ويغط فى المجتمعات ؛ يشغل من المائدة وفى المجالس مكاناً أ كثر من غيره ؛ يكون وسط زملائه عند ما يتنزهون ، يقف فيقفون ، يستأنف السير فيسيرون ؛ يقاطع ويخطّىء من يتكلمون ولا أحد يقاطعه ، ويصاخ السمع لحديثه مهما أطال الكلام ؛ كل الناس من وجهة نظره ، والجميع يصادقون على مايرويه ؛ إذا جلس تراه قد استلقى فى كرسيه ووضع ساقيه الواحدة على الأخرى ، وقد عقد جبينه وخفض قبعته على عينه حتى لايرى أحداً ، أو يجذبها عن جبهته ليُرى كيف تكتسى بالعتوّ والصلف . هو مهذار ضحوك سريع الضجر ، معتدّ بنفسه غضوب ، جرىء على المعتقدات ، سياسي . وهو كتوم لمشاكل الساعة ؛ وهو يعتقد فى نفسه العبقرية وقوة العقل . ذلك لأنه غنى...

***

لفيدون عينان غائرتان ، ولون محترق ، وأعضاء يابسة ، ووجه نحيل ؛ ينام قليلا ، ونومه خفيف جداً . هو مهموم مشدوه كأنه صاحب ذهن بليد ، فهو ينسى أن يقول ما يعرف أو يتحدث عن الحوادث التى يعلم ، فإذا ما جازف أحياناً روى بركاكة . يعتقد أنه يثقل على من يتحدث إليـه ، ويتكلم باقتضاب وتهيب . يذهل عن الاصغاء فلا يناقش ؛ يصفق ويبتسم لما يحدث به الآخرون ؛ يجري ليؤدى لهم خدمات صغيرة ، هو مجار متملق مطيع ، هو كتوم لشئونهم حيّ ، يمشى برفق وقلق كأنه يخشى أن يطأ الأرض ؛ يسير وقد خفض عينيه لايجسر على رفعهما فى وجوه المـارة ، ليس له بطانة لتستمع ؛ يجلس خلف من يتحدث ؛ يزن فى نفسه مايقال ويتراجع إذا مارمقه أحد ؛ هو لايشغل مكاناً ولا يملأ مقعداً ؛ يسير وقد زوى كتفيه وأمال قبعته على عينه كي لايراه أحد ؛ يختبىء ويتوارى خلف معطفه ، تختفى عن عينه الطرقات والأروقة إذا ما ازدحمت بالناس لأنه لايجد وسيلة للمرور من غير أن يُعترض ، والانسلال من غير أن يُرى ، إذا مادعاه أحد للجلوس جلس على حافة المقعد ؛ يتكلم خفيضاً فى المناقشة ويتلعثم ، غير أنه صريح فيما يختص بالشئون العامة ، ناقم على الظروف ؛ له فكرة غير متطرفة عن الوزراء والوزارة . هو لايفتح فمه إلا ليجيب ؛ يسعل ويفرغ أنفه مستتراً بقبعته ؛ يبصق فيكاد يلوث نفسه ، ينتظر حتى يصير منفرداً ليعطس ، فإذا ما اضطر عطس فى غفلة من الجماعة ، وهو لايساوى فى نظر الناس لا تحية ولا ترحيباً . ذلك لأنه فقير...

يوسف جوهر

عبادة جديدة ؟! (١)

للأستاذ سيد قطب

لك ياجمال عبادتى … لك أنت وحدك ياجمال
تُعصى تعاليمُ الطغا … ة ، أو الهداة على ضلال
ويخالَف التشريع جهـــراً ، أو خفاء فى احتيال
ويجانَبُ الأديانُ أو … تُنسى وتهجرُ عن ملال
وأراك وحدك ياجمال … تأبى الخضوعَ والاحتفال
والحبَّ والإيمانَ من … كل الأنام بكل حال !

***

المال معبود الحيا … ة المستذل قوى الرجال
هو بعض قربان النفو … س إلى مقامك فى ابتهال
وأرى الألوهة فيك تو … حى بالعبادة فى جلال
ما أنت إلا مظهر … منها تُوشّيه الظلال
فإذا عبدتك لم أكن … ياحسن من أهل الضلال
بل كنت محمود العقيـــدة فى الحقيقة والخيال
أعنو لمن تعنو له … كل النفوس بلا مثال
متفرقاً فى الكون فى … شتى المرائي والخلال
فإذا تركز ها هنا … بَطَلَ التمحل والجدال !

(١) من ديوان « أصداء الزمن » يصدر أول ديسمبر



رسالة الشعر



القطة

للأستاذ فخرى أبو السعود

بادلتها الوداد من زمان ... كأكرم الأصحاب والخلان
تهش لى حين تراني بشراً ... وتعقص الذيل وتحنى الظهرا
تمسح بى فراءها الصقيلا ... ترتقب التربيت والتدليلا
لها فراء ناعم كثيفُ ... مهدَّل مرجَّل نظيف
تخطر فيه خطرة الثرىّ ... فى خير ثوبٍ مونق عصرى
مجدَّدُ اللمعة والرواء ... تلبسه فى الصيف والشتاء
تغسله بِطَرَفِ اللسانِ ... أجملْ بذيّاك اللسان القانى
وقد بدا من فمها الأنيقِ ... بين ثنايا الدر والعقيق
ثيابُنا والفرشُ والوسادُ ... أو حِجْرُ مَن شاءتْ لها مِهادُ
تنام فى الظهر وكلّ آنِ ... وتسهد الليل بلا أشجان
تجوس فى الدار وفى الحديقهْ ... تطلب فأراً تبتغى تمزيقهْ
تحْمَرُّ عيناها وتخضرّانِ ... كما بدا فى الليل كوكبان
أنيقة السكون والحراكِ ... رشيقة الوثاب والعراك
ما اهْتَزَّ شيء دون ناظرَيْها ... إلاّ أصابتْه بمخلبَيْها
مِن كُرَةٍ أمامها تَمُرُّ ... أو ذيل ثوبٍ حولها يُجَرُّ
أو أنْمُلِى فى الطرس أو أهدابى ... أو شَفَتى تهتَزُّ فى الخطاب
ياحُسْنَها حيثُ مَضَتْ مِن تُحفَهْ ... إن جَثَمَتْ فى البهو أوْ فى الشُّرْفَه
تدلف من دوح إلى خميلَهْ ... كنَمِرٍ يمشى إليك غِيلَهْ
وآنَةً تزحف كالأفاعى ... وآنة تهجم كالسباع
مُكْرَمَةٌ حيث مضت أميرهْ ... عزيزة ما بيننا أثيره
سعيدة بعيشها راضيَهْ ... مُدِلَّة بنفسها آبيه
لها وداد بيننا أكيدُ ... يحمله الكبير والوليد
أحببتُ فيها صورة من نفسى ... وكلّ مخلوق وكلّ جنسِ
يُنبئُ عن ودى وعن وفائى ... نَظْمِىَ فيها الشِّعْرَ وَاحتفائى

فخرى أبو السعود

ذكريات الهوى

للسيد جورج سلستى

يا نفسُ خلّى ذكريات الهوى
وانسى فكم أشقَتْكِ ذكرى الغرامْ !
ذادتْ عن الأجفانِ طيبَ الكرى
وحرمتْها من لذيذِ المنامْ
وسربلتْ جسمي بثوبِ الضنى ... وألبستْنى حلّةً من سقام
وأنزلتْ بى ذكرياتُ الهوى ... شتى الرزايا والخطوبَ الجِسام
كأننى أصبحت مُسْتودعاً ... للهمّ والأحزان دون الأنام

* * *

لا تذكري يا نفسُ ماقد مضى ... وأسلى فقد يقضى عليكِ الحنينْ
وصلتِ أطرافَ الضحى بالدجى ... من وَلَهٍ حتى متى تسهرين ؟
صدّعتِ بالآهات هدْءَ الدجى ... وشقّ صمتَ الليل منكِ الأنين
ورحتِ لما اشتدّ فيكِ الظما ... ترتشفين الدمعَ لا ترتوين
أصبحتِ بين الناسِ أُمثولةً ... وبتِّ فيهم عِبرةَ العاشقينْ

* * *

أغرقتِ فى التذكارِ يا مهجتي ... وشقوةُ الانسانِ تذكارُه
فعصَفَتْ بى عاصفاتُ الشقا ... وصوّح اللذاتِ إعصارُهُ

وكلٌّ من داوى الأسى بالأسى أربتْ وزادتْ فيه أكدارُهُ
وذكرياتُ الحبِّ بحرٌ طما يجتاحُ نفسَ الصبِّ تيّارُه
والحبّ نارٌ أججتْ فى الحشا وكم فتى أودتْ به نارُهُ

***

ربّاهُ حظِّى كالدجى فاحمٌ محلولكٌ ما فيه غيرُ السوادْ !
أنّى مشتْ منّى الخطى لا أرى على سبيلي غيرَ شوكِ القتادْ
قد عِيلَ صبرى يا إلهَ السما وبلغَ السيلُ الزُبى (1) والنجادْ
أغلق كوى التذكار فى خاطرى وانزعْ شعورى واجعلنّى جماد
إحساسىَ الجاني على عيشتى والشاعرُ الحسّاسُ أشقى العباد

جورج سلستى

ليتنى

للأديب محمود السيد شعبان

أظلَمَ الكونُ فمَنْ فيهِ نيامْ غيرَ قلبٍ فى دُجى اللَّيل يَسيحْ!
هتفَ النجمُ بِهِ : يا ابنَ الظلامْ ما الذى تهوَى مِنَ الليلِ القبيحْ؟!
قالَ : أهوَى وَحْشَتَهْ !
قال : أهوى ظُلْمَتَهْ !

قال : أهوى فيه أطيافَ الهمومْ وأنينَ العاشقِ الباكى الحزينْ
وأناجى البدرَ فيهِ والنجومْ مُنْشِداً وحدى نشيدَ العاشقِينْ
ساهداً أحرُسُ حبّي !
ساهراً أعبُدُ ربّى !

إيهِ يا ليلَ الأمانى والحنينْ دَعْ فؤادِى فيكَ يحيا بالمُنَى !
إنّنى يا ليلُ مِنْ ماء وطِينْ ليتني كنتُ شُعاعاً مِن سَنا !
ساطعاً يهدى الأناما !
لامعاً يمحُو الظلاما !

ليتنى كنتُ على خدٍّ أسيلْ دَمْعَةً يشرَبُ مِنها وَرْدُهُ !
دمعة تجرى على خدٍّ جميلْ قدْ حَلالِى وصفَا لِي وِرْدُهُ
حيثُ لا أخْشَى رقيباً
أوْ بعيداً أو قريباً !

ليتني ضَمَّةُ معمُودٍ صَرِيعْ قد تلاقَى بعد هجرٍ بحبيبِهْ !
يَخفُقُ القلبُ لها بيْنَ الضلوعْ كذبالٍ يتلوَّى فى لهيبِهْ ! !
ليتنى كنتُ عِناقاً !
أو صُدوراً تتلاقَى !

ليتنى قُبلةُ ظمآنٍ على شفتَى حسناءَ يهواها فؤادُهْ !
قبلة طابَتْ ولذّتْ منهلَا هي خمر العاشقِ المُضنَى وزادُهْ !
هى كأسٌ مِن عقيقِ !
ملأوها بالرّحيقِ ! !

ليتنى آهةُ محزُونٍ كئيبْ ! ليتني أنّةُ مظلومٍ ينوحْ !
إنّنى أهوَى البكا أهوَى النحيبْ إنَّ قلبى بِدُموعى يستريحْ !
فدعُونى يا رفاقى . . .
فالبكا حُلْوُ المذاقِ ! !

ليتني قَطْرَةُ ماء فوقَ زَهْرَهْ فى رياضٍ باسمات لِلنّدَى !
إنَّ طَلَّ الفجر ما أعْجَبَ أمْرَهْ يَمْلأُ النفسَ جلالاً وهُدَى !
جلَّ بارِيهِ تعالَى
ملأَ الدُّنيا جمالاَ

ليتنى كنتُ فَراشاً هائماً جالَ فى الروضِ فحيّاهُ العبيرْ !
أقطعُ العيشَ وحيداً حائماً بيْنَ روضٍ وسماءٍ وغديرْ ! !
ذاكراً حُلْوَ الأمانِى
ناسياً مُرَّ الزّمَانِ !

ليتنى سَجْدَةُ شيْخٍ فى صَلاتِهْ يعبدُ اللهَ الذى يرْهبُ بأسَهْ
ليتنى زَفْرَةُ ميْتٍ فى مَماتِهْ حطَّمَ الدّهرُ ويا لَلْهَوْلِ كأْسَهْ !
إنّنا أهلُ التراب
قد خُلقنا لِلعذاب !

ذاكَ ما أهواه مِن دُنيا الشُّرورْ ذاك ما أرْضاهُ مِنْ دار الفناءْ
عالَمٌ كادَ على الناسِ يثُورْ مُذْ طغَوْا فِيهِ ولجُّوا فى العداءْ
هلْ لِنفسِى مِنْ مُؤَسٍّ
قبْلَ أنْ تأفلَ شمسى؟!

(الاسكندرية) محمود السيد شعبان

---

(1) جمع زبية وهى الرابية لا يعلوها ماء . « وبلغ السيل الزبى » مثل يضرب للأمر إذا اشتد وبلغ الغاية



من أساطير الإغريق

١ ــ خرافة جاسون

للأستاذ دريني خشبة

غلب بلياس الظالم أخاه إيسون على مُلْكِ تساليا ، فهام الملك على وجهه فى أقصى الأرض ، وهامت معه زوجته الملكة الصالحة آلسيميديه ، وطفلهما الوحيد اليانع جاسون ... وعرجا فى تطوافهم بأستاذ أخيل العظيم شيرون ، فدفعا إليه بالطفل يهذبه ويؤدبه ، ويُنشئه على الفروسية ومكارم الأخلاق ؛ ورجَواه أن يكتم سرهما عنه حتى يشب ويترعرع ، ويبلغ أشده ، فيثير فى صدره الحمية ، ويرسله ليثأر لأبويه ، وليستخلص العرش من غاصبه . وأخلص شيرون فى تربية جاسون الاخلاص كله ، وكان يردفه خلفه ليعلمه الرماية ، وهو شرف عظيم لم ينله من تلاميذه غير أخيل الخالد ، وغير جاسون ... ثم مرت الأيام ، وشب الفتى على غرار أستاذه ، فلم يكن فى الدنيا بأسرها أحملُ منه لسيف ، ولا أرمى لسهم ، ولا أرجح فى تفكير ، ولا أوفر فى حظ من جمال وكمال . ووقفه شيرون على سر أبويه ، وما كان من اغتصاب عمه بلياس عرش والده ؛ فثار ثائر الغلام ، وازّلزل قلبه ، وضرب برجله يود لو يخرق الأرض فيكون عند الظالم ، فيذرو عظامه فى الريح !

ووعظه شيرون ، وأوصاه بالصبر وطول الأناة وإعمال الروية وحذره أن يعيث فسادا فى الأرض ، ونصحه أن يكون رحيما بالضعفاء ، وألا يألو جهداً فى مساعدة من يطلب منه المساعدة ، وألا يكون عداؤه لعمه سبباً فى عدائه لجميع الناس ... وأعطاه الفتى موثقه ، ثم اخترط سيفه ، وربط على قدميه وساقيه نعليه الذهبيتين ، وودع أستاذه وحياه أحسن تحية ، وانطلق يذرع الرحب إلى يولكوس ، حاضرة تساليا

ولقي فى طريقه سيلا زاخر العباب ، فوقف حياله ينظر ويفكر ، ويدبر لنفسه خطة يعبره بها . وكان السيل جياشاً ينحدر من شعاف الجبل القريب ، فيجرف فى سبيله الجلاميد والنُّؤْى ، وتظل تتدحرج ويضرب بعضها بعضاً فتنسحق وتتفتت ، فراعه أن ينزلق وسطها ، ويكون مصيره مصير جلمود منها ... وفيما هو يعمل فكره ، وفيما هو يتلفت يمنة ويسرة ، إذا به يرى عجوزاً تابَّةً تدب على عكاز غليظ ، مقبلة نحوه ، مادة ذراعها المعروقة مستغيثة لَهْفى : « بُنى ! بُنى ! انتظر أرجوك ! انتظر يا ولدي ! ! » من هذه ؟ لا يدرى جاسون . بيد أنه انتظر حتى أقبلت العجوز وسألها عن شأنها ، فتوسلت إليه أن يحملها على ظهره ليعبر بها مجرى السيل ! ووجم جاسون قليلاً ، لكنه ذكر وصاة شيرون أستاذه ، فتبسم ، وانحنى للمرأة فاحتملها على كاهله القوى العتيد ، ثم رجاها أن تدفع إليه بمكأزها يتوكأ عليه ففعلت ، وتقدم بخطى وئيدة ، ولكنها أكيدة ، إلى مجرى السيل لا يفكر فى نؤيه وجلاميده ، ولا جيشانه واصطخابه ، بل يفكر فى أنه يجب أن يؤدي يداً لهذه العجوز التى استغاثت به ... وعبر مجري السيل ، وبلغ عُدْوته الأخرى بعد عناء وجهد ، ووضع على الرمال اللينة المتطامنة حمله ... ولكن ... يا عجبا ! ! أين هى المرأة العجوز الحيزبون ؟ أين الكومة من الجلد المتهافت ، والعظام النخرة ، التى كانت ترهق كاهله ؟ لقد ذهبت ، ووقف مكانها شباب رائع ، وجمال فتان ، وغادة حُسّان مفتان ! !

— يا للآلهة ! من أنت بحق السماء يا ربة ؟

— أنا ؟ ... ألا ترى إلى هذا الطاووس المزهو بذيله وألوانه أيها العبد الصالح ؟

— أوه ؟ ! أو أنت جونو [1] ؟

وسجد جاسون بين يدى الربة ، سيدة الأولب ، ثم أذنت له أن ينهض ، وأخذت برأسه فباركته ، وسألها أن تهبه رعايتها في حله وترحاله فوعدت ، ثم رفت فى أثير السماء التي تفتحت لها أبواباً ، وغابت عن بصر جاسون !

ووقف الفتى لحظة مبهوراً مشدوهاً ثم انطلق فى طريقه ... وراعه بعد مرحلة طويلة أن يرى إلى قدميه فلا يجد إلا نعلاً واحدة فى إحداهما ... أما الأخرى ، فقد ذكر أن السيل انتزعها من قدمه واحتملها ، وهو لا يستطيع استعادتها ، لأن حمله كان يرهقه !

ثم بلغ يولكوس

ورأى جمعاً حاشداً حول ملكها بلياس ، الذى وقف ينحر الذبائح ، ويقرب القرابين للآلهة ، ويفرق حواياها [2] فى الفقراء ! فدافع الناس ، وشق طريقه إلى الهيكل حيث وقف الملك ، ثم سار إلى عمه قُدُماً ، حتى كان قبالة المذبح ... وما كادت عين صاحب العرش — أو غاصبه — تقع على الفتى الذى يلبس نعلاً واحدة حتى شحب لونه ، وغاضت الدماء الوردية من خديه ، وأخذ قلبه يخفق ويضطرب اضطراباً شديداً ... ذلك لأنه ذكر تلك النبوءة التى تنبأ له بها أحد سحرائه ، والتى حذرته من الشاب الذى يقبل من بلاد بعيدة لابساً نعلاً ذهبيةً واحدةً فى إحدى قدميه فى حين يكون هو مشغولاً بتقريب القرابين للآلهة !! إن هذا الشاب يقتله !!

وأمر حراسه بالقبض على الفتى وإحضاره إلى غرفة العرش فجىء به إليها ، ولم ينتظر جاسون حتى يبدأه عمه بالكلام ، بل وقف أمامه جباراً يغلى الدم فى عروقه ، وطلب إليه أن يعتزل الملك ، ويخلع التاج ، ويعطى الصولجان صاحبه ، وأن يعيد الحق إلى نصابه ... « لأنك انتهزت ضعف أبى الذى أوهن منه عظامه ، واشتعل رأسه شيباً . فعَتَوْت عليه ، وألبت عليه الأوشاب من مرتزقة الجند ، ورعاع الشحاذين والأفاقين ، فلبست تاجاً ليس لك ، واستويت على عرش تزعزعه الجريمة من تحتك ، ثم حاولت أن ترشو الآلهة وتخدع السماء بالأضحيات والقرابين ، ولكنك لا تخدع إلا نفسك فالتمس لها السلامة من موت يبغتك ، ومغبة وبال يحيط بك ... »

وكان بلياس يسمع هذه الكلمات الثائرة كأنها سهام تملأ أذنيه ، ومنايا تطير حول قلبه ... بيدأنه استعد لها بالمكر ، وتهيأ لصيدها بالخدعة ، فتبسم لابن أخيه وقال : « ماذا تقول ياجاسون؟ أتحسبنى يابنى قد سلبت أباك عرشه ، وغلبته على صولجانه ؟ ؟ كلا والله يا بُنىّ كلا ... ولكن ... ليسكن طائرك قبل كل شىء ... فلقد دعوت نفراً من (رعاياك !) لوليمة إلهية ، وقد أقبلوا من كل فج ، وهم ينتظروننا الآن ، وليس من حسن الرعاية ولا من مروءة الملوك أن يستأنوا عن مواعيدهم ، فهلم تلقهم يا جاسون ، وترحب بهم ، فاذا فرغنا وفرغوا من طعامهم ، عدنا سوية لنبحث هـذا الأمر الذى أهمك وأقلقك ، وملأ فؤادك بالوساوس والأراجيف ؛ وسترى أن الذى أنبأك هذا النبأ زخرفه عليك ، وشوه حقيقته فى نفسك ، بدليل هذه النيران التى تنقذف كلمات من فمك !! تعال ... مرحباً بابن أخى جاسون ! لشد ما أنا مشتاق إليك يا حبيبى ! »

ثم قبله فى جبينه قبلة صفراء قاتلة ، أفتك من قبل التماسيح ؛ وانطلقا إلى البهو الكبير ، حيث صُفّت الأخاوين [1] الحافلة بأشهى الآكال وأطيب الأشربات ، وحيث جلس المدعوون إليها صفوفاً صفوفاً وألوفاً وألوفاً ...

وجلس جاسون فأكل وشرب ، ثم أخذت الموسيقى تعزف فتشرح الصدور الحرجة ، وتشفى النفوس من كل حرد ؛ واعتلى المنصة التى أقيمت فى صدر الحفل جماعة من المنشدين ورواة القصص ، شرعوا يسردون قصصهم ، ويتناشدون أشعارهم ، ويروون من أنباء الأبطال مايأسر القلوب ويسحر الألباب ، حتى أن جاسون نفسه كان يصغى إليهم وكأنه يتلقى وحياً من السماء يتنزل على قلبه ، ويدعوه إلى فعال الفتية الأبطال

قال أحد المنشدين : « واسمعو أيها الناس حكاية الملك الذى صبا قلبه إلى امرأة غلبت فؤاده وسحرته بجمالها عن زوجته وأم طفليه ، فبنى عليها [2] ، ولم يبال أن ينقض ركن الأسرة وينهار

---

(١) عودنا القراء فى أساطيرنا السابقة أن نسميها باسمها اليونانى (حيرا) وهذا هو اسمها اللاتينى

(٢) حشاياها

(١) إخوان لغة فى خوان الذى جمعه خون وفي القلة أخونة

(٢) تزوجها

عمادها ... ذلك هو أثماس أحد ملوك تساليا فى الزمان القديم . ولقد فزعت الملكة البائسة وخشيت أن يصيب طفليها مكر ضرتها فاعتزمت أن ترسلهما إلى ملك كولخيس ليكونا بنجوة من إينو الخبيثة ... وفيما هى واجمة تفكر فى ذلك إذا هرمز الأمين يتنزل من السماء فيسألها وتجيبه :

— نيفيل أيتها العزيزة ؟ فيم تفكرين حزينة هكذا ؟

— هرمز ؟ تباركت يا رسول السماء ! أفكر فى ولدى هذين وما عسى أن يصيبهما من مكر إينو ...

— لا عليك ياحبيبة الآلهة ، إننى مساعدك ، كفكفى دموعك !

— شكراً يا إله الرحمة ، سأسبح لك ما حييت !

— وأين تحسبينهما يكونان فى سلام وأمن يانيفيل ؟

— لا يكون ذلك إلا عند ملك كولخيس ، ولا أدري كيف أرسلهما إليه ؟!

— لا أهون من هذا ، فانتظرى طرفة عين !

ومضى الإله فغاب برهة ، ثم رجع ومعه كبش عظيم ذو فروة ذهبية وقرنين وحوافر من خالص الإبريز ، فقدمه إلى الملكة المحزونة ليركبه طفلاها ، ولينقلهما إلى ملك كولخيس ؛ وسجدت الملكة شكراً لهرمز ، ثم ودعت طفلها فركسوس ، وابنتها هِـلّه ، وطبعت فوق جبينهما وخدودها ألف ألف قبلة ، وودعت لها ؛ ثم انطلق الكبش فى الأثير يطويه بين بكائها الطويل وآهاتها التى لا تنتهى ... وطفق الكبش يعرج فى السماء ، ويخطف فوق الممالك ، حتى كان فوق بحر صاخب مضطرب ، تقلبت أمواجه ، وتناوحت زوابعه ، فنظرت الفتاة المسكينة هـلّه تحتها لترى ما هنالك ، ولكنها فزعت فزعاً شديداً حينما رأت سراطين البحر وحلازينه تقتل وتحترب ويأكل بعضها بعضاً ، فارتجفت رجفة هائلة ، وانفلت صوف الفروة من قبضتها فسقطت من عَل وجعلت تهوى حتى تردّت فى البحر وابتلعتها أمواجه ... ومنذ ذلك الوقت ، وهذا المكان يعرف من أجل ذلك باسم (الهلسبنت(١)) نسبة إلى الفتاة البائسة هـلّه ! ومضى الكبش يستبق الريح ، ويطوى العوالم ، حتى وصل إلى مملكة كولخيس ، فهبط قليلاً قليلاً ، حتى إذا كان على الأرض نزل الفتى فركسوس فصلى للآلهة ، وذرف الدمع على أخته ، وسلم على الملك الذى هش له وبش ، وأحسن لُقياه وأكرم مثواه ، ثم شحذ سكينه وتل الكبش لجبينه ، وكبر وسبح باسم جوف ، وبأسماء آلهة السماء وجزر الحيوان قرباناً لهم جميعاً ... وسلخ الجلدة الذهبية وقدمها هدية للملك الذى فرح بها فرحاً شديد ، ولأنها كانت تعدل كل ما فى كنوز الملوك من ذهب ... وقد ربطها الملك فى سنديانة باسقة ، ووكل بها تِنّيناً هائلاً ليحرسها وليسهر عليها من كل سارق رجيم ... ومنذ ذلك اليوم والفروة التى تعدل ألف كنز معلقة لا تمتد إليها يد ، ولا يجسر أحد أن يقترب منها وإلا جازف بنفسه فأصبح لقمة سائغة للتنين ... »

ولحظ بلياس كيف زاغت عينا جاسون عندما سكت المنشد، فانتهز الفرصة ، وانطلق يغريه بالاستيلاء على الفروة الذهبية ، ليكون بها أعز الملوك وأضخمهم غنى ، وأوفرهم ثراء ؛ ثم ليخلد اسمه بين أسماء الأبطال الذين دوخوا الممالك ، وأتوا من الفعال ماجعلهم أنشودة المجد فى فم الزمان ... « ولم لا ياابن أخى؟ لقد علمت أن أستاذك الذى نشأك ، وهذبك وأدبك ، هو شيرونُ السنتور الأكبر ، أستاذ أخيل العظيم ؛ وقد خلد أخيل اسمه على أسوار طروادة ، وأعلى ذكره فى جميع الأنام ، فلم لا تذهب إلى كولخيس لتحصل على الفروة الذهبية إما سَلْما وإما حربا ، وأنت من أنت فى أبطال الوغى ، وصناديد الحروب ؟ ألست أرمى الناس لسهم ، وأضربهم بسيف ، وأحذقهم طعاناً برماح ؟ إنها فرصة المجد لمن يبتغى المجد يا جاسون ، فلا تضعها ! لاتقل « بل حسبي أن أحكم الناس » فالناس يعشقون أشجع الناس ... » وهكذا طفق بلياس المخادع يزخرف للفتى ، حتى هاج فى صدره الشاب نائم المنى وأبعد الآمال ... فرضي جاسون بالاضطلاع بهذه المجازفة ، وظن أنها من اليسر بحيث لا تستعصى على شجاعته . بيد أنه عندما خلا إلى نفسه ، وراح يفكر فى الوسيلة التى يبلغ بها مناه ، بدت له حقائق أسقطت فى يده ، وجعلته يتخاذل ، ويندم على الوعد الذى وعد عمه ؛ غير أنه ذكر ما قال له أستاذه شيرون من ضرورة احترام الوعد ، وربطه بالشرف ، فصمم على السفر إلى كولخيس وجلس يفكر فوق عدوة النهر ، وكانت سمادير اليأس تملأ بظلماتها عينيه ، فلم يهتد إلى الوسيلة ! ! ... وانطلق إلى غرفته

(١) هو الدردنيل



قضية صحفية خطيرة

قرأنا في البريد الإنكليزي الأخير تفاصيل قضية أدبية خطيرة ظهرت فيها شدة القانون الانكليزي على اللغة القاذفة وأساليب الجدل المستهجنة ؛ فقد نشرت جريدة « أكشن » Action وهي جريدة حديثة تناصر المبادىء الفاشية مقالاً حملت فيه بشدة على جريدة « الديلي تلغراف » الشهيرة ، فنسبت إليها أنها واقعة تحت نفوذ جماعة من الماليين والدوليين ، وأنها تعمل لخراب البلاد والإمبراطورية البريطانية وتمكين نفوذ العصبة الدولية من ناصية السياسة البريطانية ؛ وتناولت في مطاعنها اللورد كروز صاحب الديلي تلغراف ، فذكرت أنه ينتمي إلى أصل يهودي ، وأنه بهذه الصفة يخصص جريدته لمناصرة اليهودية الدولية والمالية العليا . فرفعت الديلي تلغراف وصاحبها الأمر إلى القضاء وطلبا تعويضاً ضخماً عن هذا القذف المزدوج . وللصحافة الإنكليزية تقاليد سامية في الأساليب الكتابية وفي المناقشات الحزبية تجعل مثل هذه المطاعن خارجة عن كل ما تبرره الخصومة السياسية من صنوف الجدل . والقانون الإنكليزي صارم جداً في مثل هذه المواطن التي تساق فيها الأقلام إلى القذف المثير ؛ ومن ثم فقد حكم القضاء للورد كروز والجريدة الديلي تلغراف بتعويض قدره عشرون ألفاً من الجنيهات على الجريدة الفاشية وأصحابها وناشريها ، من ذلك مبلغ ١٢٫٥٠٠ جنيه للورد كروز نفسه ، والباقي لشركة جريدة الديلي تلغراف . وقد كان لهذه القضية الأدبية وتطوراتها صدى عميق في جميع دوائر الصحافة والأدب

والذين يقرأون الصحف الإنكليزية يعجبون حقاً بأساليبها الرفيعة في المناقشات الحزبية وجميع ضروب الجدل الأخرى ، ويقدرون ما تمتاز به من الأدب الجم والتعفف عن المطاعن

فقضى فيها ليلة ليلاء مثقلة بالهم والفكر ... ثم انبلج الصبح ، فانطلق إلى هيكل جونو عند دودونا ...

— جونو ... جونو ... لقد كدت أنسى جونو ... يجب أن أصلي لجونو ، فقد وعدتني أن تدركني بغوثها كلما حزبني أمر ... لقد حملتها على كتفي هذين في صورة عجوز شمطاء ! وهي ستحمل عني هذه المرة ! »

ووقف بجانب المذبح يرجو ويتوسل ويصلي ؛ وكانت سنديانة هائلة — هي الناطقة بنبوءات جونو — نامية وراء المذبح ، فسمعها جاسون تهتف باسمه وتقول :

— لبيك أيها الفتى لبيك ! لبيك وسَعْدَيْك يا جاسون ! يا حبيب جونو لبيك ! كفكف غوارب دمعك فسترعاك الربة وتحفظك ... تعال ! اصعد فوق ! اقطع أحد أغصاني واصنع منه عصاً ، واجعل لها رأساً على هيئة السفينة التي تحملك إلى كولخيس وسمّها آرجس [1] لك ، وذلك بإشراف مينرفا ... ولتكن العصا معك دائماً ، ولكن لا تنقلها من السفينة فهي حارستها ، وكلما ألم بك خطب أو حزبك أمر ، فارجع إليها فهي تكلمك وتشير عليك ... » وسكتت السنديانة ، وصنع جاسون العصا ، وذهب عند سيف البحر ليرى عمال آرجس ، بإشراف مينرفا ، قد فرغوا من السفينة الهائلة وأنزلوها الماء . ففرح واستبشر ، وسماها (آرجو) نسبة إلى صانعها ثم أعلن عن حاجته إلى نفر من شجعان هيلاس ، يقاسمونه مجازفته ، فاجتمع إليه عدد غير قليل ، منهم هرقل الجبار وكاستور وأدمتوس وتيزيوس وأرفيوس وبولكس ويليوس ... وأعدوا ميرتهم ، واستكثروا من ذخيرتهم ، ثم همت الفلك ، واحتواها الماء

« البقية في العدد الآتي »

دريني خشبة

(١) حيوان رائع من أتباع جونو

الشخصية المحضة ؛ فالصحافة الانكليزية مثل أعلى فى هذه الناحية ، ومن ثم كانت صرامة القضاء الانكليزى فى الحكم على كل ما يعتبر خروجاً على هذا المبدأ السامى

أرقام عن معرض باريس

نشرت الصحف الفرنسية أخيراً بعض إحصاءات عن معرض باريس تبين سير الأحوال السياحية التى ترتبت على قيام المعرض ؛ فمن ذلك أن عدد الذين استفادوا من التذاكر المخفضة لزيارة المعرض بلغ حتى شهر سبتمبر سبعة ملايين ، وزار المعرض فى يوم واحد من أيام سبتمبر نحو أربعمائة ألف زائر ، فكان هذا رقماً قياسياً لم يسبق تسجيله فى أى معرض دولى سابق ؛ وزار قصر اللوفر حتى سبتمبر ٧٥٩ ألفاً ، وزار قصر فرساي مليون و٧٤٤ ألفاً فى حين أن زوار فرساى فى مثل هذا الفصل لا يزيدون عادة على ربع مليون ؛ وصعد إلى سطح قوس النصر فى هذا الفصل مليون و٧٥٠ ألفاً فى حين أن هذا العدد لم يبلغ فى مثل هذه المدة فى العام الماضى أكثر من ٣٦٩ ألفاً ؛ وزادت نسب السفر فى خطوط الملاحة المفضية إلى الثغور الفرنسية من ١٩ إلى ٢٢٧ فى المائة حسب الخطوط ، وزادت النسبة فى خطوط البحر الأبيض وحدها ٦٦ فى المائة ؛ واستهلكت باريس فى شهرى يوليه وأغسطس نحو مليون ونصف كيلو من اللحم ؛ وزادت إيرادات المسارح البارزية منذ افتتاح المعرض أربعين مليون فرنك ، وهى زيادة لم تعرفها من قبل قط

على أن معظم الخبراء يرون هذه الأرقام بعيدة عن تحقيق ما كان معقوداً على قيام المعرض من الآمال ؛ فقد كانوا يقدرون مثلاً أن يزور المعرض منذ افتتاحه حتى شهر أكتوبر عشرون مليوناً ، والآن لا يمكن أن يبلغ عدد الزائرين أكثر من نصف هذا العدد ؛ وكان المظنون أن تكاليف المعرض يمكن تحقيقها فى المدة التى تقررت لافتتاحه أى حتى آخر نوفبر ، ولكن إدارة المعرض منيت فى ذلك الأمل بصدمة عنيفة ؛ ولذلك يرجح أن تقرر الحكومة الفرنسية امتداد المعرض خلال العام القادم . ويقال إنها قد بدأت فعلاً بمفاوضة الدول الكبرى للموافقة على إبقاء معروضاتها ، والمنتظر أن يتم التفاهم على ذلك فى المستقبل القريب ، ثم تذيع الحكومة الفرنسية قرار الامتداد قبل نهاية شهر نوفبر الآتى

كتاب جديد عن كرومويل

يعتبر الانكليز أن الطاغية الوحيد الذى تولى الحكم فى تاريخ انكلترا هو أوليفر كرومويل زعيم الثورة الانكليزية الدستورية التى انتهت باعدام الملك شارل الأول ؛ وقد صدر أخيراً كتاب عن حياة كرومويل وأعماله بقلم المؤرخ الانكليزى موريس آشلى عنوانه « أوليفر كرومويل ، الطاغية المحافظ » O. Cromwell the Conservatiwe Dictator ؛ وقد كان حرياً بمؤلف مثل هذا الكتاب أن يتأثر فى تصوره للطاغية الانكليزى بروح الطغيان المعاصر ، وأن يحاول المقارنة بينه وبين الطغاة المعاصرين من حيث الغايات والأساليب . ولكن الأستاذ آشلى لم يحاول هذه المقارنة ، ذلك لأنه يعتبر كرومويل بعيداً عن هذا الجو ، ويعتبره طاغية محافظاً بالغريزة ، يؤيد سلطانه بهيبته وماضيه . ويعرض لنا الأستاذ آشلى تاريخ كرومويل باسهاب ، ولا سيما فى الفترة القصيرة التى تلت إعدام الملك شارل الأول ، ويحلل أساليبه فى الحكم وسياسته الخارجية والمالية والدينية والاجتماعية بدقة وبروح من الانصاف المدهش ؛ ويقول لنا إن كرومويل كان إدارياً بعيد النظر لم تذهب روعة الطغيان بحسن تقديره ولم تؤثر فى وسائله ؛ وإذا كان كرومويل لم يبد كل ما كان يريد من التسامح الدينى فذلك لأنه غلب على أمره فى هذه الناحية فقط ، ولم يستطع أن يحتفظ بكامل حريته . ولقد كان كرومويل فى الوقت نفسه دستورياً يدعو البرلمان ويحافظ على سلطانه ، ولكن الجيش كان هنالك يملى إرادته . ويؤيد الأستاذ آشلى نظريته فى أن كرومويل كان محافظاً بكثير من أقوال كرومويل فى خطبه ورسائله ، ويقول لنا إن كرومويل كان يواجه جميع المسائل بنفس الروح التى يواجه به المسائل العسكرية ؛ فاذا كان النظام الذى شاده كرومويل لم يعمل طويلاً بل انهار عند موته ، فذلك لأنه لم يكن متفقاً مع روح التقاليد الانكليزية ، ولكنه مع ذلك كان نظاماً جديراً بالتقدير والاحترام

وقد لقى كتاب الأستاذ آشلى كثيراً من التقدير فى دوائر النقد والتاريخ ، واعتبر من أحسن الكتب التى صدرت فى هذا الموضوع

مترسة BARRICADE

اطلعت على سؤال الأديب المهذب السيد (احمد العربي) — لله هذا الاسم ! — وهذا ما أقوله :

التفسير الحق للذريعة هو ما جاء في (لسان العرب) :

«الذريعة مثل الدريئة جمل يُختل به الصيد ، يمشى الصياد إلى جنبه فيستتر به ، ويرمى الصيد إذا أمكنه ، وذلك الجمل يسير أولا مع الوحش حتى يألفه ؛ والذريعة السبب إلى الشيء وأصله من ذلك الجمل » وفي (الأساس) : « ومن المجاز : فلان ذريعتي إلى فلان ، وقد تذرعت به إليه »

فـ (الذريعة) هي ذريعة ختل لرمي الصيد ، لا طريقة وقاية من شر أو كيد . فلن تلاقى — وذلك معناها — الكلمة الفرنسية Barricade

وهناك كلمة قيلت لها منذ مدة طويلة وهي (المترسة) ولم يجد الناقلون ما يضارعها ، دع عنك ما يفضلها ، وأنا لا أنفر منها ، ففي (المخصص والمصباح والقاموس) : « كلما تترست به فهو مترسة لك » وفي شرح القاموس « ضبطه بكسر الميم »

فهذه العربية لتلك الفرنجية ، و (تترسوا بالمتارس) للجملة الفرنسية Dresser des Barricades ولكل حرب عدة وعدد ، ولكل قتال مترسة ومتارس

الاسكندرية (***)

جهود الفنانين فى مصر الحديثة

يسر لجنة تخليد عظماء مصر بجمعية هواة الفنون الجميلة بالأسكندرية أن تعلن أنها تستعد بعونه تعالى لإخراج مطبوع ضخم يضم بين دفتيه أشهر آثار الفنانين المعاصرين فى مصر الحديثة مع فذلكات خاصة عن تواريخهم ومجهوداتهم الفنيـة وكلمات تفسر أعمالهم وتنقدها ومقدمة مع بيان موجز عن أثر الفنان المصرى القديم بقلم عظيم قدير

واللجنة ترجو من حضرات الهواة والفنانين أن يعاونوها فى تحقيق مهمتها الفنية الجليلة

ولزيادة العلم عن المشروع يُرجع إلى مدير الجمعيـة الأستاذ حسن كامل شارع الوراق رقم ١٣ بميدان المحطة

جائزة نوبل للسلام

تبحث الآن اللجنة المختصة بجامعة ستوكهلم فى ترشيح من يصلح للحصول على جائزة نوبل للسلام هذا العام . وجائزة السلام قدرها نحو عشرة آلاف جنيه تمنح كل عام لإحدى الشخصيات التى خدمت السلام فى أى ناحية من النواحى . وقد ظفر بها من قبل عدة من أقطاب السياسة العالمية مثل ارستيد بريان رئيس الوزارة الفرنسية الأسبق ، والدكتور شتريزن وزير الخارجية الألمانية السابق ؛ وظفر بها عدة من الكتاب السلميين مثل السير نورمان انجيل الكاتب الانكليزى ، والهرفون أوسيتسكى الكاتب الألماني، وقد ظفر بها في العام الماضى ، وكانت لذلك ضجة فى ألمانيا انتهت بتحريم الحكومة الألمانية ترشيح أحد من رعاياها لنيل جوائز نوبل . وفى هذا العام يرشحون عدة فى مقدمتهم الزعيم الهندى الكبير مهاتما غاندي ، واللورد بادن باول مؤسس حركة الكشافة الدولية ، والكاتب النمسوى ريخارد كودن هوف ، وغيرهم ممن برزوا فى خدمة السلام بجهودهم وأقلامهم ودعاياتهم ؛ وربما كان غاندي هو الذى تختاره اللجنة من بين المرشحين

برنارد شو والمسرح القومى

من الغريب حقاً أن تبقى انكلترا حتى اليوم بلا مسرح قومى . وقد وجه برنارد شو الكاتب المسرحى الطائر الصيت بهذه المناسبة إلى الأمة الانكليزية كلمة لاذعة نعى فيها هـذا النقص البارز فى حياتها الفنية والثقافية . ومما قاله : إن الأمة الانكليزية لا تشترك فى الاعتماد الخاص بانشاء المسرح القومى لأنها ترغب عن مثل هذه المؤسسة ، ولا بد من أن يفرض إنشاؤها فرضاً على شعب لم يتحرر تماماً من الهمجية ، ولا يزال يعتقد أن الفنون الجميلة إنما هي مظاهر للخلاعة ، وأن باب المسرح هو أحد أبواب جهنم ، وليس فى ذلك شىء جديد أو غريب ؛ فمن الحقائق التاريخية المعروفة أن المعاهد الثقافية يجب أن تفرض على الشعب بواسطة الحكومات أو الأفراد المستنيرين الذين يعلمون أن مثل هذه المعاهد ليست ترفاً ولا لهواً ، بل هي على العكس من ضرورات الحياة المتمدنة . ولو أن المعاهد الأوربية العلمية ترك إنشاؤها لرغبة الجمهور وأهوائه فى العطاء والمن لماتت جميعاً في مهدها ،

ولكانت أوربا اليوم أكثر همجية مما هى عليه . ثم إن المسرح القومى إذا وجد لا يستطيع أن يعيش وحده ، ولا بد له من مديرين وممثلين أكفاء وكتاب مسرحيات بارعين ، ويتوقف وجود هؤلاء على مقدرته على الدفع والتعويض

هكذا يخاطب الكاتب المسرحى الكبير أمته بأسلوبه الفكه اللاذع ويوجه إليها قوارص الكلم لأنها لم تبد حماسة فى مشروع إنشاء المسرح القومى . وإذا كنا فى مصر نشعر بأشد الحاجة إلى مثل هذا المشروع الثقافى العظيم ، فانه من المحقق أنه لا يمكن أن يقام بالا كتتاب العام ؛ ولا بد أن تنهض به حكومة مستنيرة تقدر أثر الفن والثقافة المسرحية فى ترقية أذواق الشعب ومداركه

تاريخ غانية شهيرة

قد تستحق غانية شهيرة أن تترجم وتؤرخ كما يؤرخ ملك أو قائد أو مفكر عظيم ؛ فقد لعب الغواني دورهن فى التاريخ ، وكان بينهن طائفة شهيرة استطاعت أن تؤثر فى مصاير العروش والأمم ؛ ويكفي أن نذكر فى هذا الوطن أسماء مثل بومبادور ، ودوبارى . وكان عصر لويس الرابع عشر بالأخص عصر الغانيات الشهيرات ، ومن هؤلاء امرأة اشتهرت بجمالها وذكائها ونفوذها الاجتماعى ، هى نينون دى لانكلو ؛ وقد ترجم هذه الغانية الشهيرة من قبل غير كاتب ، وظهر أخيراً تاريخ جديد لها بقلم مسيو جان جودال J. Goudal بعنوان « نينون دى لانكلو ، غانية عظيمة فى عصر لويس الرابع عشر » Ninon de Lanclos, une grande Courtisane au Siècle de Louis XIV ؛ وتاريخ نينون هو فى الواقع رواية غرامية اجتماعية ساحرة ، تمتاز بكثير من الأناقة والظرف ، ولكنها تتكشف أيضاً عن مواطن مريبة كثيرة ؛ فقد اتهمت نينون من أهل عصرها بأنها كانت ساحرة تزاول السحر الأسود ، وتتعاقد مع الشيطان للاحتفاظ طويلا بجمالها . واتهمت أيضاً بأنها تسببت فى موت ولدها الشفاليه دى فلييه ، وأنها جلبت الشؤم والنحس على كثيرين من أصدقائها ؛ ولكن نينون كانت مع ذلك نجما ساطعاً في مجتمعها ، وكانت صديقة لأعلام عصرها مثل موليير ولافونتين ، وكان لها بهو رائع يختلف إليه عظماء العصر وأمراؤه . وكانت نينون ابنة جندى وموسيقى مغامر وأم ورعة ، فاستقت خلالها من الناحيتين ، وتلقت تربيتها الأولى فى الدير ، ولكنها فرت منه فيما بعد ؛ وكان مولدها سنة ١٦٢٠ ، وتوفيت سنة ١٧٠٥ ، وعرفت فولتير فتى حدثاً ، ونفحته بعطية يشترى بها كتباً ؛ وكانت فى عصرها ملتقى الوصل بين التيارات المتضاربة ؛ من الخلاعة إلى السياسة والفلسفة ، وكانت من أعلام الفكر الحر ، وكانت أديبة رفيعة الثقافة كما كانت غانية ماجنة ساحرة ، وكان لها أثر عظيم فى صوغ الخلال النسوية فى عصرها

تلك هى الشخصية التى يتناولها جان جودال في كتابه ؛ وهو يقص علينا حياة نينون بأسلوب شائق يستمد سحره وقوته من حياة نينون نفسها ، ومن الألوان المختلفة التى اتشحت بها خلال حياتها الطويلة الحافلة



ابن المقفع

تأليف الأديب عبد اللطيف حمزة

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

الوجه فى إفراد شاعر أو كاتب من الماضين بالتأليف هو — كما يقول الرافعى رحمه الله — أن تصنع كأنك تعيده إلى الدنيا فى كتاب وكان إنسانا، وترجمه درساً وكان عمراً، وترده حكاية وكان عملا، وتنقله بزمنه إلى زمنك، وتعرضه بقومه على قومك حتى كأنه بعد أن خلقه الله خلقة إيجاد، يخلقه العقل خلقة تفكير.

وهذا كتاب « ابن المقفع » قد وضعه الأديب عبد اللطيف حمزة، وحاول فيه هذه المحاولة، واجتهد فى إدراك تلك الغاية، فأخذ كاتب العربية بالقول من جميع جهاته، وتناوله من كل ناحية يمكن أو تصح أن تلابسه، وكان أن جرى فى ذلك على مذهب الناقد الفرنسى المشهور « تين » الذى يرى أن الكاتب صنيعة لعوامل ثلاثة: « الجنس، والبيئة، والزمان » ولذلك فقد تكلم عن شعب ابن المقفع وعصره كلاماً مستفيضاً شاملا، ثم تناوله من جهة شخصيته فتكلم عن حياته ولونه السياسي ومصرعه وأخلاقه ومكانته ونظرته إلى المثل الأعلى وزندقته وما قيل فيها، ثم انتقل إلى الكلام عنه فى فنه وعبقريته، وعرض له مصلحاً اجتماعياً وكاتباً له أسلوبه وطريقته، واهتم بتحقيق آثاره وخص بعضها بالتحليل والدرس، وأطال القول خاصة في كليلة ودمنة، ثم ختم كتابه بالقول فى الأثر الأدبى لابن المقفع، أثره فى الشعراء وأثره فى الكتاب، وأثره فى القصة، وأثره فى العقل الشرقى بوجه عام

فالأديب الفاضل قد توسع للموضوع حق التوسع، ودخل عليه من كل ناحية يمكن أن تتصل بابن المقفع، وهو فى كل ناحية للقول يعنى كثيراً بأن يستعرض آراء السابقين فى الرجل فيناقشها مناقشة حادة عنيفة، ينتهى من ورائها إلى نقض ما يراه جديراً بالنقض، وإلى تأييد ما يراه حقيقاً بالتأييد، ثم يتقدم برأيه الشخصى محاولا أن يحتج له ما وسعته الحجة، وأن يتلمس له ما يمكن أن يكون هناك من دليل، ولست أزعم لك أني معه فى كل ما انتهى إليه من الرأى، ولكنى — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — قد أخالفه في بعض ما ذهب إليه من النتائج، وقد أخالفه فى طريقة عرض بعض الفصول والأبواب، وقد أخالفه فى تعميم الحكم أحياناً حين يحسن التخصيص (١) — بل إنى لأراه قد يفرض الرأى فى بعض الأحيان فرضاً ولو لم يقم عليه شبه دليل. ومثال ذلك ما نقله عن أستاذه طه حسين (ص ٣١) من « أن صلة ما لابد موجودة بين أشعار صالح بن عبد القدوس وأبى العتاهية، وبين شاعر يونانى قديم هو آبيدوس عرف بفن من فنون الشعر اليونانى هو فن الشعر التعليمى؛ ثم قال: « وعندى أن ليس هناك ما يمنع العباسيين من أن يتصلوا (كذا) بهذا الفن من فنون الشعر الذى لا يتعارض والدين، ولكنى لا أعلم كيف تسنى لهم هذا الاتصال وليس فى المصادر العربية ما يدلنا على ترجمة لهذا الفن الشعرى ولا لغيره من الفنون الشعرية عند اليونانيين ».

والواقع أن الدكتور طه قد ألقى رأيه فرضاً من غير دليل، وهو رجل يدرس الأدب بالفرض والتخمين؛ ولا شك أن الأديب حمزة قد تورط إذ أخذ برأى أستاذه هذا وتابعه على مذهب « ليس ما يمنع (٢) » وإنى لأعجب كيف يقول: إن صلة ما لا بد موجودة بين شاعرى العربية والشاعر اليونانى، مع أنه « لا يعلم كيف

(١) مقدمة الكتاب للأستاذ أحمد أمين

(٢) كانت « ليس ما يمنع » هذه من أدلة الدكتور فى كتابه الشعر الجاهلى فتنادر عليه به الناقدون وكانت فى قلم الرافعى سخرية وتهكما

تسنى لهم هذا الاتصال وليس فى المصادر العربية ما يدلنا عليه »

هذا ولقد تورط حضرته مرة أخرى فى مطاوعة أستاذه ، إذ رأى (ص ٨٠) أن السبب الوحيد أو من الأسباب فى قتل ابن المقفع « رسالة كتبها توشك أن تكون برنامج ثورة موجهة إلى المنصور وهى رسالة الصحابة » قال : « وفى هذه الرسالة نجد تشريعاً جديداً من عمل الكاتب يقترحه على الخليفة ليعمل به فى أمور شتى كان أهمها أمر القضاء » والذي نراه أن رسالة الصحابة على ما ينطق به موضوعها ليست برنامج ثورة ، ولكنها فى الواقع برنامج إصلاح رفعه الكاتب إلى الخليفة ، لأن فيه توطيداً لملكه ، وتقوية لنفوذه ؛ وكأنى بالكاتب قد كتب هذه الرسالة يريد بها المثوبة عند الخليفة . والواقع أن الأديب حمزة قد أبعد كثيراً فى فى تلمس الأسباب التى أودت بحياة ابن المقفع وانتهت به إلى تلك النهاية الأليمة ؛ مع أن السبب ظاهر واضح ... وهل قتل الرجل غير « السياسة » قاتلها الله ؟! تلك التى طالما طاحت برقاب وهوت برؤوس ، كمثل ما صنعت بعبد الحميد الكاتب وببشار بن برد وغيرهم من الكتاب والشعراء

وثمة أحكام نخالف المؤلف فى الأخذ بها ، فأنا مثلاً لست معه فى تصحيح تلك الرواية التى نقلها عن إسلام ابن المقفع (ص ٥٦) ولا فى تلك التى أثبتها عن معارضته للقرآن ، كما إنى لست معه فى أن ابن المقفع « أوذى فى سبيل حرية الفكر » وأنه كان « عدواً للعرب يسخر منهم » وأنه كان « زنديقاً ملحداً » إلى غير ذلك من الأحكام التى يتلمسها المستشرقون للرجل بالحق والباطل . ولقد كان فى تقديرى أن أناقش الأديب حمزة الرأى لو لا أنى رأيت المجال محدوداً ، وأنى لست بصدد الكلام على ابن المقفع ، ولكنى بصدد القول فى « كتاب » ...

بقى القول فى أسلوب الكتاب وهي ناحيـة مهمة فى تقدير الأثر الأدبى وتعيين قيمتـه ؛ ولست متجنياً على الأديب الفاضل إذا تنقصت أسلوبه فى بعض نواحيه ، فهو ينهج نهج أستاذه الدكتور طه فى تكرير اللفظ ، ومرادفة الجمل ، والإكثار من الحشو والاعتراض ، ولكنه لا يحكم ذلك ولا يجوّده ، وربما تهافت إلى حد لا يطيقه الذوق ، كأن يقول : « وهذا وهذا وهذا عدا الكتب الأخرى » وكأن يقول : « ويذهب به ما ذهب بنفوذ الاعراب وتقاليد الاعراب وعقول الاعراب » وأكثر من هذا فقد يهضم حق اللغة كأن يقول : « وقد كان القدماء يخشون من وضع الكتب ... ولعلنا نخنى كذلك من وضع الكتب » وكأن يقول : « ثمناً غالياً وغالياً بأكثر مما يتصور الناس » وكأن يقول : « ولعل كتاب الأدب الكبير يكون أصدق مثال لما نقول » و(كان) لا تنقاس زيادتها إلا بين ما وفعل التعجب ولا تكون إلا بلفظ الماضى . وما أريد أن أتقصى وإنما أريد أن أنبه الأديب الفاضل لعله يتلافى هذه الهنوات وأمثالها فى الطبعة القادمة إن شاء الله ، خصوصاً وهو ربيب قسم اللغة العربية فى كلية الآداب ؛ ثم هو يزعم أنه يتصوف تصوفاً علمياً وأدبياً فيعكف على العلم والأدب آصائل النهار وناشىء الأسحار ، وما يليق « بمتصوف » الأدب أن يكون أسلوبه فى شىء من التهافت وضعف التأليف ؛ وما يليق به أن يفنى فى غيره ، وإنما الواجب أن يكون له طريقته ونهجه ، فان الفناء فى شخصية أخرى «فناء»

على أن الأديب حمزة والحمد لله ليس من المكابرين فى قيمة الأسلوب فهو يرى أن « من حق الأسلوب أن يجود وليس كاتب ولا عالم ولا مؤرخ إلا ويجب (؟) أن يصرف فى العناية أقصى ما يستطاع » ولكنه يعتذر عن نفسه بأن « الوقت لم يتسع للتجويد فى الأسلوب » وأنا لا أدرى ما الذي ضيق عليه الوقت ، وما الذى حمله على إخراج كتابه قبل أن يستكمله تجويداً وتحريراً كأنه لم يعلم أن المرء ما يزال فى فسحة من عقله حتى يؤلف كتاباً ... وكأنه لم يعلم أن الناقد لا يقدر الأثر الأدبى إلا من حيث هو هو فى مادته ، وليس مما يعنيه مراعاة المسافة والزمن ، ولقد سألت صديقنا الأستاذ الزين الشاعر مرة فقلت له : أراك تتنطس فى حوك شعرك حتى لتقضى فى ذلك الوقت الطويل. فقال: نعم ! لأنى لا أريد أن أفوّت ثلمة يتقحم منها الناقد . وإن القارىء ليقرأ وهو مطمئن ، فليكتب الكاتب وهو أكثر اطمئناناً

أما بعد ، فأنا مقدر للأديب حمزة ما صرف من جهـد فى البحث والاطلاع وإخراج هذا الأثر النافع ، ولعل كتابه — على ما أعرف — هو أوفى بحث خرج عن ابن المقفع للآن ، وإنى لأرجو له أبحاثاً أوفى وأتم ، وأشمل وأعم ، فتكون كالإعجاز بعد الارهاص ؟

محمد فهمى عبد اللطيف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧